3me Année, No. 101.

Lundi-10-6-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٠ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

ذكرى المـــولد

ذكرى مولد الرسول هى ذكرى قيامة الروح وولادة الحرية ونشور الخُلُق ؛ فكأن مولده كان البعث الأول الذى طهر النفس وعمّر الدنيا وقرر الحق للانسان ، كما أن البعث الأخير سيخلص الروح ويبتدئ الآخرة ويعلن الملك لله

كان العالم يومئذ يضطرب فى رق المادة ، وعبودية الشهوة ، وسلطان القوة ، فلم يكن للمثل الأعلى وجود فى ذهنه ، ولا للغرض النبيل أثر فى سعيه ، ولا للشعور الانسانى مجرى فى حسه ، ولا للسمو الالهى معنى فى نفسه ؛ إنما كان حيوانياً شهوته الغلَب ، مادياً غايته اللذة ، أنانياً شريعته الهوى ؛ ثم أسرف فى البهيمية حتى جعل كل أنثى مباحة لكل ذكر ، وفى المادية حتى اتخذ إلٰهه من خشب أو حجر ، وفى الأنانية حتى قتل أولاده خشية الإملاق والضرر . فلما أتى النبى العربى فتح فى غارحراء ، باباً إلى السماء ، تنزّلت منه الملائكة والروح على هذا الهيكل المنحل والجسد المعتل ، فنفخت فيه سر الحياة ومعنى الخلود وحقيقة الله . وحينئذ شعر سليل الأرض أن له أسباباً إلى السموات رَثّت على

طولِ غفلته ، وأن له حياة خيراً من هذه الحياة استسرَّ علمها فى جهالته ؛ فتشوف إلى الأفق البعيـد ، واستشرف إلى السمت العالى ، وأرسل نظره وراء النظر النبوىّ من فوق الجبل ، فى صمت حِراء المفكر ، وفى سكون الوادى الملهـم ، وفى غيابة الفضاء الرهيب ، يفكر فى الملكوت الدائم ، ويسبح للجلال القائم ، ويفنى فى الوجود المطلق

كانت العقيدة قبل محمد أن تموت الروح أو يموت الجسم ، وأن يحكم الله أو يحكم الانسان ، وأن يظهر الدِّين أو تظهر الدنيا ، أما تقرير الصلة بين المعنى والذات ، و بين المصباح والمشكاة ، و بين الحياة الأولى والحيـاة الأخرى ، و بين الإرادة السفلى والإرادة العليا ، فذلك هو القصد الإلٰهى من رسالة محمد ، والتنفيذ المحمدى لإرادة الله

* * *

وكان العالم قبل يوم محمد يرسف فى عبودية عقليـة تقتل التفكير ، وعبودية جسمية تعقل التصرف ؛ فلم يكن للأسرة نظام ، ولا للقبيلة قانون ، ولا للأمة دستور ، ولا للعقيدة شريعة ؛ إنمـا هو طغيان عاسف يتحكم فى الفرد ويسـيطر على الجماعة : فالأب يملك على بنيه الموت والحياة بحكم الطبيعة ، والشيخ يفرض على عشيرته الأمر والنهى بمقتضى العرف ، والملك يخضع نفوس الشعب باسم الدِّين ، والكاهن ينسخ عقول الناس بقوة الجهل ، والناس أجمعون عدا هؤلاء الأربعة أتباعٌ وأوزاعٌ وهَمَل

فلما بُعث الرسول الكريم رحمة للعالمين بعث الحرية من قبرها ، وأطلق العقول من أسرها ، وجعل التنافس فى الخير ، والتعاون على البر ، والتفاضل بالتقوى ، ثم وصل بين القلوب بالمؤاخاة ، وعدل بين الحقوق بالمساواة ، ودخل بين النفوس بالمحبة ، حتى شعر الضعيف أن جند الله قوته ، والفقيرُ أن بيت المال ثروته ، والوحيدُ أن المؤمنين جميعاً إخوته ؛ ثم محا الفروق بين أجناس الإنسان ، وأزال الحدود بين مختلف الأوطان ، فأصبحت الأرض كلها وطناً مشاعاً ، والعالم كله أسرة متحدة ، لا يهيمن على ءلائقها إلا الحب ، ولا يقوم على مرافقها إلا الانصاف ، وليس فيها بين المرء وخليفته حجاب ، ولا بين العبد وربه واسطة

يا رعى الله ذكراك المقدسة يا غار (ثور) ! لقد كنت مبعث الحرية ، كما كان غار (حراء) مبعث الروح ! فأنت فى جبل الخلاص وهو فى جبل التجلى ! !

* * *

وكان العالم قبـل مولد محمد يعانى تفكك الخلق وتحلل الرجولة وتقلب الأثرة وتحكم السفاهة ؛ فسطوة اليد تسرف على العدل ، وعصبية الدم تبغى على الحق ، وسلطان المـال يجنى على الانسانية ، وسَورة الترف تعتدى على المروءة ؛ فالتجارة بخس وتطفيف ، والعهود نقض وتسويف ، والناس يعيشون عيش الوحش ، تنافر وتدابر واحتيال واغتيال وشهوة !! فلما ظهر البطل العظيم والإنسان الـكامل كانت شمائله وأفعاله رسالة أخرى فى الخلق : كان تطبيقاً لقوانين الدين بالمثل ، وتعليما لآداب النفس بالعمل ، وتنظيما لغرائز الحياة بالقدوة ؛ ثم فعلت شخصيته ودعوته فى نفوس رويت بالدماء ، ونغلت بالعداء ، وعاشت على الفرقة ، فألّفهم على المودة ، وجمعهم على الوحدة ، ثم جعل لهم من كتاب الله نوراً ، ومن سنته دستوراً ، ورمى بهم فساد الدنيا فأصلحوا الأرض ، ومدنوا العالم ، وهذبوا الناس

* * *

ذلك ما تلقيه ذكرى مولد الرسول فى رَوْع المؤمن العَقُول الذاكر ! فليت شعرى ماذا يجد فى نفسه وفى قومه من روح محمد وحرية محمد وخلق محمد ! ألسنا نعيش اليوم صوراً كقطع الشطرنج ، وأتباعاً كعبيد الأرض ، وهمجاً كهمج الجاهليـة ؟ وهل كان ذلك يكون لو أننا اتخذنا من أحكام الله منهاجاً ، ومن كلام رسوله علاجاً ، ومن حياة السابقين الأولين قدوة ؟

إن ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الإنسانية من أسر الأوهام ، وطغيان الحكام ، وسلطان الجهالة ؛ فما أجدَرَ القلوب الواعية الحرة على اختـلاف منازعها ومشارعها أن تخشع اجلالا لذكرى رسول التوحيد والوحدة ، ونبى الحرية والديمقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !

احمد حسن الزيات

ورقـــة ورد

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وضعنا كتابنا (أوراق الورد) فى نوع من الترسل لم يكن منه شىء فى الأدب العربى على الطريقة التى كتبناه بها فى المعانى التى أفردناه لها ، وهو رسائل غرامية تطارحها شاعر فيلسوف وشاعرة فيلسوفة على ما بيناه فى مقدمة الكتاب . وكانت قد ضاعت (ورقة ورد) ، وهى رسالة كتبها ذلك العاشق إلى صديق له ، يصف من أمره وأمر صاحبته ، ويصور له فيها سحر الحب كما لمسه وكما تركه . وقد عثرنا عليها بعد طبع الكتاب فرأينا ألا تنفرد بها ، وهى هذه : »

. . . كانت لها نفسٌ شاعرة ، من هذه النفوس العجيبة التى تأخذ الضدَّين بمعنىً واحدٍ أحياناً ؛ فيَسُرُّها مرةً أن تُحزِنَها وتستدعى غضبها ، ويُحزِنُها مرةً أن تَسُرَّها وتبلغَ رضاها ، كأنْ ليس فى السرور ولا فى الحزن مَعانٍ من الأشياء ولكنْ من نفسها ومشيئتِها

وكان خيالُها مشبوباً ، يُلْقِى فى كلِّ شىءٍ لمَعانَ النور وانطفاءَه ؛ فالدنيا فى خيالها كالسماء التى ألْبسها الليلُ ، مُلِئت بأشيائها مبعثرةً مضيئةً خافتةً كالنجوم

ولها شعورٌ دقيق ، يجعلُها أحياناً من بلاغة حِسِّها وإرهافه كأن فيها أكثرَ من عقلها ؛ ويجعلها فى بعض الأحيان من دِقةِ هذا الحسِّ واهتياجه كأنها بغير عقل

وهى ترى أسمى الفكرِ فى بعض أحوالها ألاّ يكونَ لها فكر ألبتة ؛ فتتركُ من أمورها أشياءَ للمصادفة ، كأنها واثقةٌ أن الحظَّ بعضُ عشاقها . على أن لها ثلاثةَ أنواع من الذكاء ، فى عقلها وروحها وجسمها : فالذكاءُ فى عقلها فهم ، وفى روحها فِتنة ، وفى جسمها . . . خلاعة

وكنتُ أراها مَرِحةً مستطارة مما تطربُ وتتفاءل ، حتى لأحسبُها تودّ أن يخرجَ الكونُ من قوانينه ويطيش . . . ؛ ثم أراها بعدُ مُتضوِّرةً مهمومة تحزَنُ وتتشاءم ، حتى لأظنها ستزيد الكونَ همّاً ليس فيه !

وكانت على كل أحوالها المتنافرة — جميلةً ظريفة ، قد تمّت لها الصورةُ التى تخلق الحب ، والأسرارُ التى تبعث الفتنة ، والسحرُ الذى يُميِّز روحها بشخصيتها الفاتنة كما تتميَّز هى بوجهها الفاتن

* * *

وكان حبى إياها حريقاً من الحب . فمَثِّلْ لعينيك جسماً تناولَ جلدَه مسٌّ من لهَب ، فتسلَّع هذا الجلدُ هنا وهناك من سلْخ النار ، وظهر فيه من آثار الحروق لهبٌ يابسٌ أحمرُ كأنه عروق من الجمر انتشرت فى هذا الجسم . إنك إن تمثلتَ هذا الوصفَ ثم نقلْتَه من الجلد إلى الدم — كان هو حريقَ ذلك الحبِّ فى دمى !

والحبُّ — إن كان حباً -- لم يكن إلا عذاباً ؛ فما هو إلا تقديمُ البرهان من العاشق على قوّةِ فعل الحقيقة التى فى المعشوق ، ليس حالٌ منه فى عذابه ، إلا وهى دليل على شىء منها فى جبروتها

ولقد أيقنتُ أن الغرامَ إنما هو جنونُ شخصيةِ المحب بشخصية محبوبه ، فيسقط العالمُ وأحكامُه ومذاهبُه مما بين الشخصيتين ، وينتفى الواقع الذى يجرى الناسُ عليه ، وتعودُ الحقائق لا تأتى من شىء فى هذه الدنيا إلا بعد أن تمرّ على المحبوب لتجىء منه ، ويُصبح هذا الكونُ المظيم كأنه إطارٌ فى عين مجنون لا يحملُ شيئاً إلا الصورة التى جُنّ بها !

وتالله لكأنّ قانونَ الطبيعة يقضى ألاّ تحب المرأةُ رجلاً يسمى رجلاً ، وألا تكون جديرةً بحبها ، إلا إذا جرت بينهما أهوالٌ من الغرام تتركها معه كأنها مأخوذةٌ فى الحرب . . . تلك الأهوال يُمثلها الحيوانُ المتوحِّش عملاً جسمياً بالقتال على الأنثى ، ثم ترقُّ فى الانسانِ المتحضر فيمثلُها عملاً قلبياً بالحبّ

* * *

أحببتُها جُهْدَ الهوى حتى لا مَزيدَ فيه ولا مطمعَ فى مزيد ، ولكن أسرارَ فتنتها استمرّت تتجدّدُ فتدفعنى أن يكون حبى أشدَّ من هذا ؛ ولا أعرف كيف يمكنُ فى الحبِّ أشدّ من هذا ؟

ولقد كنتُ فى استغاثتى بها من الحب كالذى رأى نفسَه فى طريق السَّيل ففرَّ إلى ربوة عالية فى رأسها عقلٌ لهذا السَّيل الأحمق ، أو كالذى فاجأه البركانُ بجنونه وغلظته فهرب فى رقةِ الماء وحِلمه ؛ ولا سيلَ ولا بركانَ إلا حُرقتى بالهوى وارتماضى من الحبّ

أما والله إنه ليس العاشقُ هو العاشق ، ولـكن هى الطبيعة ، هى الطبيعةُ فى العاشق

هى الطبيعةُ ، بجبروتها ، وعسفها ، وتعنتها . إذا استراح الناسُ جميعاً قالت للعاشق : إلا أنت . . . !

إذا عقلَ الناسُ جميعاً قالت فى العاشق : إلا هذا . . . !

إذا برأتْ جِراحُ الحياةِ كلُّها قالت: إلا جرحَ الحبّ . . . !

إذا تشابهتِ الهمومُ كالدّمعةِ والدمعة ، قالت : إلاّ همّ العشق . . . . !

إذا تغيّر الناسُ فى الحالة بعد الحالة ، قالت فى الحبيب : إلاّ هو . . . . !

إذا انكشف سرُّ كلّ شىء ، قالت : إلا المشوق ؛ إلا هذا المحجّب بأسرار القلب . . . . !

* * *

ولما رأيتها أوّل مرةٍ ولَمسنى الحبُّ لمسةَ ساحر ، جلستُ إليها أتأمّلها وأحتسى من جمالها ذلك الضياءَ المُسْكِرَ الذى تُعَرْبِدُ له الروحُ عربدةً كلها وقارٌ ظاهر ... فرأيتنى يومئذٍ فى حالة كغَشْية الوحى ، فوقها الآدميّةُ ساكنة ، وتحتها تيّارُ الملائكة يَعُبُّ ويجرى

وكنتُ أُلقّى خواطرَ كثيرة ، جعلَتْ كلُّ شىءٍ منها ومما حولها يتكلم فى نفسى ، كأن الحياة قد فاضتْ وازدحمت فى ذلك الموضع الذى تجلس فيه ، فما شىءٌ يمرُّ به إلاّ مسّتْه بجملته حيّاً يرتعش ، حتى الكلمات

وشَعرتُ أوّلَ ما شعرْتُ أن الهواء الذى تتنفّسُ فيه يرقُّ رقّةً نسيمِ السَّحَر ، كأنما انخدع بها فحَسِبَ وجهَها نورَ الفجر !

وأحسستُ فى المكان قوّةً عجيبةً فى قدرتها على الجذب ، جعلتنى مُبَعْثَراً حولَ هذه الفتّانة . كأنها محدودةٌ بى من كلّ جهة

وخُيّل إلىّ أن النواميس الطبيعية قد اختلّت فى جسمى إما بزيادةٍ وإما بنقص ؛ فأنا لذلك أعْظُمُ أمامَهـا مرةً ، وأصغُر مرة

وظننتُ أن هذه الجميلة إنْ هى إلا صورةٌ من الوجود النسائىّ الشاذّ ، وقع فيها تنقيحٌ إلـهى لتُظهر للدنيا كيف كان جمالُ حوّاء فى الجنة

ورأيتُ هذا الحُسْنَ الفاتنَ يُشْعِرُنى بأنه فوق الحسن ، لأنه فيها هى ، وأنه فوق الجمالِ والنَّضرةِ والمرَح ، لأن الله وَضَعه فى هذا السرورِ الحىّ المخلوقِ امرأة

والتمست فى محاسنها عيباً ، فبعد الجهد قلتُ مع الشاعر :

« إذا عِبْتُها شبّهتها البدرَ طالعاً . . . ! »

* * *

ورأيتها تضحكُ الضّحِكَ المُسْتَحى ؛ فيخرج من فمها الجميل كأنما هو شاعرٌ أنه تجرأ على قانون . . . .

وتَبْسم ابتسامات تقول كلٌّ منها للجالسين : انظروها ! انظروها . . . !

ويَغْمُرُها ضَحِكُ العين والوجهِ والفمِ ، وضحكُ الجسمِ أيضاً باهتزازهِ وتَرَجْرُجِه فى حركاتٍ كأنما يَبسم بعضها ويُقَهْقِه بعضها . . .

وتُلقى نظراتٍ جعل الله معها ذلك الاغضاءَ وذلك الحياء ، ليضعَ شيئاً من الوقاية فى هذه القوّةِ النّسويّة ، قوّةِ تدمير القلب

وهى على ذلك متساميةٌ فى جمالها حتى لايتكلمَ جسمُها فى وساوس النفس كلامَ اللحم والدم ؛ وكأنه جسمٌ ملائكىّ ليس له إلا الجلالُ طوعاً أو كرهاً

جسم كالمعبد ، لا يَعرف مَن جاءه أنه جاءه إلا ليبتهلَ ويخشع

وتُطالِعُك من حيث تأملتَ فكرةُ الحياةِ المنسجمةِ على هذا الجسم ، تطلبُ منك الفهمَ وهى لا تُفهَم أبداً ؛ أىْ تريد الفهمَ الذى لاينتهى ؛ أىْ تطلب الحبّ الذى لاينقطع

وهى أبداً فى زينة حسنها كأنها عروسٌ فى معرِض جلْوتها ؛ غير أن للعروس ساعةً ، ولها هى كلُّ ساعة

* * *

أما طَرفها فيكاد يصيح تحت النظرات : أنا خائف ، أنا خائف !

ووجهها تتغالبُ عليه الرزانة والخِفّة ، لتقرأ فيه العينُ عقلَها وقلبَها

وهى مِثلُ الشعر ، تُطرِبُ القلبَ بالألم الذى يوجدُ فى بعض السرور ، وبالسرور الذى يُحَسُّ فى بعض الألم

وهى مِثلُ الخمر ، تحسبُ الشيطانَ مُتَرقرِقاً فيها بكل إغرائه !

في الجبانة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قالت لي أمي — رحمها الله — مرة :

« ألا تنوى أن تزور أباك في هذا الموسم ؟ »

وكنا قد أوشكنا أن ندخل في رجب ، وكانت حريصة على زيارة موتاها في كل موسم ، بل في كل خميس وجمعة ، لا تهمل منهم أحداً ، فتطوف بهم جميعاً وتقرأ لهم الفواتح ، ولا تأكل فاكهة جديدة حتى « تفرّق » منها على قبورهم ، وكان ذلك يثقل عليّ ، ولكني كنت أكِلها إلى رأيها فيه ، إيثاراً لمرضاتها

فقلت — بلهجة من ضاق صدره — : « كيف أزوره وهو ميت وأنا حيٌّ ، وهو تحت الأرض وأنا فوقها ، فلا يسمع مني ولا يراني ولا يحسني ؟ »

فقالت : « إني أراك مغتراً بالحياة ومعتزاً بها ، ولا أستحسن لك هذا » ولم تزد ، فأقصرتُ أنا أيضاً وقد شعرت أني آلمتها بسخافتي وحماقتي ، وكرت الأيام ، فما يقف الدهر ، وماتت — كما يموت كل حي — فكان أوجع لي من موتها أنها ذهبت وهي موقنة أني لن أزور قبرها ، وكأنما أردت أن أغالط نفسي فيما تحسه من الوخز والندم ، فجعلت أزورها من حين إلى حين ، ولكني كنت أتسلل كاللص ، وأتخير أوقاتاً غير أوقات الزيارة المألوفة ، فلا يعلم بذلك أحد ، ولا يراني مخلوق ، ثم كففت لأني أنكرت هذا كله من نفسي ، وكبر عليّ أن أذهب إلى المقابر على رجليّ ، وقلت لنفسي : « إذا كان المراد بالزيارة الذكر ، فانها به أبداً بين العين والقلب ، وإذا كان صحيحاً ما يقال من أن الميت يموت مرة أخرى كلما نسيه واحد من الأحياء ، فاني لن أجني ميتة جديدة على أمي ما دمت حيا »

ولم يفتر ندمي مع ذلك ، فظل دائراً في نفسي ، فتشددت ، وحملت نفسي على مكروهها ، ومضيت إلى قبرها في ليلة سوداء — أعني مظلمة — وفتحت الباب ودخلت المقبرة وقلت « السلام عليكم » كأنما أردت أن أونس نفسي بصوتي في هذه الوحشة ، فما راعني إلا صوت يقول : « وعليكم السلام ! من تراك تكون ؟ »

فذعرت ، وهممت بالجرى ، ولكني استحييت ، فما يمكن أن يرد السلامَ غيرُ حيٍّ ، ولعله مسكين أوى إلى هذا المكان الموحش من الفاقة ، وما أكثر من رأيتهم يفعلون ذلك ! فما خوفي من رجل يقول : « وعليكم السلام » ؟؟ ولو كان امرأ سوء لاستخفى ، فتشجعت وأدرت عيني في المكان فلم تأخذ شيئاً في هذا السواد ، فقلت :

« من عساك تكون أنت يا صاحبي ؟ »

فقال الصوت : « وما سؤالك هذا ؟ لن تعرفني على كل حال . فاني قديم — قديم ، ولكن تعال ساعدني واحتقب شكري »

فدنوت منه — أعني من مصدر الصوت — وسألت : « على أي شيء تريد أن أساعدك ؟ »

قال : « على حمل هذا الحجر — فقد وهن عظمي جداً »

قلت : « ولماذا تريد أن تحمله ؟ دعه حيث هو ، فانه من حجارة المقبرة وليس لأحد أن يزحزحها عن مكانها أو ينقلها »

قال : « انك معذور »

قلت : « كيف ؟ ماذا تعني ؟ »

وكلما تناولت أمامي شيئاً أو صنعت شيئاً خلقت معه شيئاً ؛ أشياؤها لا تزيد بها الطبيعة ، ولكن تزيد بها النفس

فيا كَبِداً طارت صُدُوعاً من الأسى . . . !

***

ورأيتُني يومئذ في حالة كغَشْيَةِ الوحي ، فوقها الآدميةُ ساكنة ، وتحتها تيَّارُ الملائكةِ يَعُبُّ ويجري

***

يا سِحْرَ الحب ! تركتني أرى وجهها من بَعدُ هو الوجهَ الذي تضحكُ به الدنيا وتعبسُ وتَتَغيظ وتَتَحامق أيضاً . . .

وجعلتَني أرى تلك الابتسامةَ الجميلة هي أقوى حكومةٍ في الأرض . . . . !

وجعلتني يا سحر الحب ؛ وجعلتني يا سحر الحب مجنوناً . . . !

(طبق الأصل) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

قال : « هذا قبرى . وهـــذا من صُواه – عليه اسمى مكتوباً . . . تستطيع أن تقرأه إذا شئت »

فـكان من دواعى عجبى بعد ذلك انى لم أذعر ولم أولّ هارباً ، بل أقبلت عليه أسأله وأستخبره فقال :

« لقد هجرنا جميعاً هذه المقبرة المهملة – لم يبق لنا فيها مقام . وكيف المقام فى قبور متهدمة ؟ ! لقد كانت جديدة حسنة البناء يوم جئنا ، وكان أهلنا – الباقون منا على قيد الحياة – يعنون بها ويرشون أرضها بالماء ويحملون إليها الزهر والرياحين ، فـكان نشرها يفوح ويتضوع ، فاذا جن الليل خرجنا من القبور مسرورين وأقبلنا عليها نشمها وننعم بشذاها ، وكان القراء يتلون على أجداثنا القرآن فيندى على قلوبنا وترف له نفوسنا ونحس أن عظامنا قد طريت . أما الآن . . . ! ؟ لا يا صاحبى ، لم تعد هذه المقبرة صالحة للاقامة ! وقد هجرناها ، وجمع كل منا كفنه وحمل من له حجر حجره ، ورحلنا ، وكيف كان يسعنا غير ذلك ؟ انها لم تعد جبانة . . . . هـذه هى مساكن الأحياء أراها من مكانى هنا . . . فهل هذه مقبرة ؟ لقد زحف الناس ببنائهم وغزوا أرضنا وجاروا علينا ، وجاورونا ، فبالله كيف نطيق جوارهم ؟ كيف نحتمل لغطهم وضجاتهم التى لا تنتهى ؟ ماعسى صبرنا على حركاتهم التى لا يعقبها سكون ؟ ؟ لـكأنا ما متنا ولا استرحنا إذن ! ؟ وأقول لك الحق لقد بدأنا نأسف على أنّا متنا . . . لا يا صاحبى ، لم تبق هذه الأرض للموتى ، ولم يعد ثم مفر من الرحيل عنها . . . لقد تعبنا جداً هنا واضطررنا إلى مالم يكن لنا فى حساب . ومن لطف الله بنا أن هـذه البلاد قليلة المطر ، ومع ذلك كنا إذا أمطرت ينفذ إلينا الماء من سوء حال القبور ، وتبتل أكفاننا فنضطر إلى الخروج وننشرها بين أيدينا أو على هـذا السور حتى تجف وتعود صالحة للبس . وعلى ذكر ذلك أقول إنى لا أدرى ماذا جرى للدنيا ؟ لقد كانت حفيدة لى مدفونة هنا ، وكان عليها كفن من الحرير الغالى ، فسرقه لص ! تصور هـذا ؟ ولا أعلم هل سرقه واحـد من الأحياء ، أو نفقلتها ميتة أخرى وسرقته ؟ فان كان السارق من الموتى فلابد أن يكون من جيراننا فما فى أسرتنا هذا السوء . وقد شـكت إلى ماصارت إليه من العرى ، فلم أدر أول الأمر ماذا أصنع ؟ وكيف أكسوها ؟ وخطر لى أن أنتظر حتى يجيئنا ميت جديد ، أو يموت ابنها فآخذ من كفنه لها ، فان الميت الجديد يلف فى أكثر مما يحتاج إليه ، ولـكنه لم يمت مع الأسف ، فلم أجد حيلة إلا أن أجملها دقة بدقة ، والبادى أظلم ، فذهبت أرتاد هـذه الجبانة حتى رأيت كفناً من الحرير لا أشك فى أنه الـكفن المسروق ، فجئتها بشق منه وتركت شقاً »

وضحك – أعنى أنه أخرج صوتاً سألته عنه لأنى حسبته كلاماً فقال إنه كان يضحك ، فسرت فى بدنى رعدة ، واستأذنته فى الانصراف

فقال : « ألا تعيننى ؟ إن الحجر ثقيل ، وأنا هرم ، وقد فتر نشاطى من طول الرقاد »

فتناولت الحجر من ناحيـة ، وتناوله من طرفه الآخر ، ووضعناه معاً على ظهره ، وذهب يخطو ، وكانت عظامه تقرقع وهو يمشى ، فلما بلغ الباب سألته :

« ألم يبق هنا أحد منكم ؟ »

قال : « لا . . ماذا نصنع هنا ؟ كلا . ليبن فوقها الأحياء إذا شاءوا »

قلت : « وأين ذهبتم ، فقد نحب أن نزوركم »

قال : « أين ذهبنا ؟ وأين تنتظر أن نذهب ؟ انتشرنا فى فضاء الله ، فان أرضه مازالت واسعة ، ولن نعدم فيها منأى عن مساكن الأحياء . . . وعلى ذكر ذلك أسألك : ألستم تموتون فى هذه الأيام ؟ »

قلت : « ياله من سؤال ؟ كيف لا نموت ؟ »

قال : لماذا إذن هذا الزحف علينا كأن الدنيا تضيق بكم وكأنكم تزيدون ولا تنقصون ؟ لماذا لا يكفيكم ما كان يكفينا ؟ كل الجبانات المشهورة صارت أحياء عامرة بالسكان فكيف هذا ؟ »

فسألته : « وجلا عنها الموتى ؟ »

قال : « بالطبع ! وهل يمكن أن يحتملوا الناس ؟ إذن لماذا ماتوا ؟ »

قلت : « هل تفزعكم الحياة الى هذا الحد ؟ »

قال : « كما يفزعكم الموت – كلا . لا يطيق الحياة من نجا منها . . . والآن عم مساء يا صاحبى ! هل لك فى مرافقتى ؟ لا ؟ لا بأس ! لا بأس ! كل شىء مرهون بوقته . . . »

فلم أطق أكثر من ذلك ، وخرجت من الجبانة أعدو . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

٣ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الإحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وينكر بعض الباحثين المحدثين هـذه الروايات المثيرة ، ولا يرون فيها سوى حديث خرافة أو على الأقل أحاديث مغرقة لا تؤيدها أدلة مقنعة ؛ ويستبعدون بالأخص أن تمثل لوكريسيا بورجيا فى مثل هذه الحفلات العاصفة الشائنة الى جانب أبيها وأخيها

ولـكن الرأى الغالب يميل إلى الاتهام ؛ ويرى فى أقوال بوركارت ما يؤيد تهمة مخزية أخرى تنسب الى لوكريسيا هى عشرة المحرم التى أشرنا اليها ؛ والتى تزعم أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة إخوتها

وإليك واقعة خطيرة يستشهد بها الاتهام . فى أول سبتمبر سـنة ١٥٠١ ، أصدر البابا اسكندر السادس مرسومين مازالا يحفظان حتى اليوم فى محفوظات مودينا ؛ فى أولهما يعلن البابا بأن ابنه شيزارى قد رزق غلاماً غير شرعى يدعى چوڤانى فى نحو الثالثة من عمره ، وأنه يبرئه من عيب هذا الولد غير الشرعى ، ويباركه ويعتبره ابناً شرعياً لولده شيزارى ، يتمتع بكل حقوق الوراثة الشرعية ، وينعم عليه بلقب دوق نيبى ؛ وفى المرسوم الثانى يقرر البابا ، أنه وإن كان يبرئ هـذا الغلام ويرفعه الى مرتبة الولد الشرعى ، فانه يقرر بأن عيب هـذا الولد لا يرجع الى ولده شيزارى بل يرجع إليه هو (أى البابا) وسـيدة حرة (من قيود الزواج) ، وإن كل ما يؤول اليه من الحقوق والمزايا طبقاً للمرسوم السابق يؤول اليه أيضاً بصـفته ولد البابا وليس ولد ولده شيزارى ؛ أو بعبارة أخرى يعترف البابا فى هذا المرسوم بأن هذا الطفل هو ولده وثمرة غرامه

فمن هى أم هذا الطفل « الرومانى » ؟ ومن هى هذه السيدة الحرة ، حظية البابا أو حظية ولده شيزارى أو حظيتهما معاً ؟

يقول المؤرخ الـكبير اميل جبهارت فى الرد على ذلك : إن مولد هذا الغلام الرومانى « چوڤانى » الذى تولت لوكريـسيا فيما بعد ، حين غدت دوقة فيرارا تربيته ، باعتباره أخيها ، هو أشد مافى حياة اسكندر السادس وحياة شيزارى غموضاً وإيلاما .

والواقع أن لوكريسيا قد وضعت فى سنة ١٤٩٨ ولدا يتفق مولده بالضبط مع تفاصيل المرسومين البابويين ، وتوجد مراسيم أخرى فى محفوظات الڤاتيكان تنسب هـذا الولد الى شيزارى . يقول جبهارت ، فهذا الاعتراف المزدوج بالابوة ، وهذا التناقض ، مما يسمح لنا بالاشارة الى عناصر هذه المسألة المحزنة دون أن نحاول بسطها

وبعبارة أخرى يرى جبهارت أن هذا الغلام هو ولد اسكندر السادس من ابنته لوكريسيا ، أو ولد شيزارى من أخته ؛ وأن ما كان ينسـبه چان سفورزا الى زوجته عنـدئذ من أنها كانت خليلة أبيها ، خليلة أخيها ، إنما هو حق صراح

بيد أن العلامة فونك برنتانو يعترض على هـذا الايضاح بشدة ، ويقول إن بوركارت الذى يعنى فى مذكراته بكل ما يتصل بالفضائح البابوية وبالأخص بفضائح لوكريسيا لا يشير الى مولد هذا الغلام بشىء ؛ وليس معقولا أن تعنى لوكريسيا بتربية غلام غير شرعى ينسب إليها فى بلاط زوجها دوق فيرارا ، وهو أمير رفيع الخلال والـكرامة ؛ وكيف تفعل ذلك ، وقد تركت ولدها الشرعى رودريجو لعناية جده ؟ ويرى هذا العلامة أن مصدر الشنائع كلها هم سفراء البندقية لدى الڤاتيكان ، وقد كانت مهمتهم الحقيقية أن يشهروا باسكندر السادس وأسرته وكل ما يتصل بها[1]

ويرى بعض الرواة المعاصرين أن هذا الغلام إنما هو ولد البابا من خليلته چوليا فارنيسى ؛ ويرى آخرون أنه ولد لوكريسيا من وصيف البابا المدعو بيروتو ، وقد عاقبه البابا بأن زجه الى ظلام السجن

وعلى أى حال ، فان فى هذه الروايات والشواهد كلها ، مايسبغ أشد الريب على خلال لوكريسيا بورجيا ؛ تلك الفتاة الطروب الفاتنة ، التى كانت تخوض بلا انقطاع حياة فياضة بالفتنة والغواية ، والتى كان جمالها الساحر يثير حولها ضراماً من الشهوات الخطرة ؛ وما يسبغ أشد الريب على علائقها بأبيها الحبر الفاسق الذى يسحق تحت قدميـه كل مبادئ الأخلاق والحشمة ،

(١) برنتانو فى كتابه السالف الذكر ص ٩٢ وما بعدها

وأخيها الطاغية الذى كانت الجريمة وسيلته الوحيدة الى كل غاية

* ** *

ننتقل الآن الى صفحة جديدة فى حياة لوكريسيا بورجيا

لم يكد يزهق زوجها الثانى الفونسو دى بيزيليا ، حتى وضع مشروع جديد بزواجها . وكان المرشح هذه المرة الفونسو ديستى ولد دوق فيرارا وولى عهده ؛ وكان الترشيح لنفس البواعث السياسية التى مازالت تملى على اسكندر السادس وشيزارى تلك المشاريع الزوجية المتعاقبة . وقد تردد الدوق وولده فى قبول هذه المصاهرة بادئ بدء لما يعلمانه من غدر البابا وولده ، وما توصم به لوكريسيا من شنيع التهم ؛ ولكن سفراء فيرارا قدموا عن لوكريسيا تقارير حسنة وصفت فيها بالحشمة والتواضع والتحفظ وبأنها ضحوك يغلب عليها المرح . وتمت الصفقة على أن يدفع البابا لابنته مهراً قدره أربعون ألف دوقة ، وأن يتنازل لدوق فيرارا عن بعض الحصون والجهات ، وأن يخفض إتاوته للكنيسة الى أدنى حد . وتم العقد فى فيرارا فى أول سبتمبر سنة ١٥٠١ ؛ وفى اليوم الخامس احتفل البابا باشهار زواج ابنته فى كنيسة القديس بطرس احتفالاً شائقاً

وفى أواخر ديسمبر قدم وفد حافل من أمراء فيرارا وأعيانها وعلى رأسه فرديناند ديستى أخو الزوج لينوب عنه فى استقدام زوجه ، وشهدت رومة مدى أيام سلسلة من الحفلات والمآدب الباذخة والليالى الساطعة المرحة ؛ وفى السادس من يناير (سنة ١٥٠٢) أجريت مراسيم الوداع ؛ وغادرت لوكريسيا رومة فى ركب فخم من الأمراء والفرسان إلى وطنها الجديد فيرارا فوصلت اليها فى الثانى من فبراير بعد رحلة باهرة ، واستقبلت بأعظم مظاهر الفخامة والتكريم

وكان مقامها الجديد فى قصر قاتم موحش لا يتناسب مع مقامها الفخم فى رومة ، ولكنها اعتادت حياتها الجديدة بسرعة ، وعاشت فى هدوء وبساطة ، ولم تفقد شيئاً من مرحها وبهجتها ؛ وكان هذا المرح الفياض يسحر أهل فيرارا ويجذبهم اليها ، وكان زوجها الفونسو ديستى فتى متين الخلق والخلال ، كثير الخطورة والجد ، يؤثر الاهتمام بالشئون الحربية ، ولكن رقيق الشمائل وافر الثقافة ، يعشق الفن ويحميه ؛ وكانت لوكريسيا تعيش معه فى وفاق ، يحيط بها حب الأسرة الجديدة واحترامها

بيد أن هذه الحياة الهادئة كانت تكدرها عن بعد مشاريع شيزارى وأعماله ؛ وكان شيزارى يومئذ يخترق أواسط إيطاليا بجيشه ، ويمزق العدو والصديق معاً ، ويحاول بتلك الوسائل الدموية الغادرة ، التى أثارت إعجاب مكيافيللى وجعلته يعتبر شيزارى مثله الأعلى للأمير البارع — أن ينشئ مملكة رومانية كبرى ؛ وكانت لوكريسيا تقاسى فى عزلتها من التبعة المعنوية التى تلحقها من جراء هذه المشاريع والأعمال المثيرة

ثم نزل بها مصاب فادح ، ذلك أن ولدها رودريجو الذى كان يربى فى نابل فى أسرة أبيه ، توفى فى الثالثة من عمره (أغسطس سنة ١٥٠٢) فحزنت عليه أيما حزن ، وأثر الحزن فى هيكلها الدقيق ، فلزمت فراشها مدى حين وجداً وأسى ؛ ولكنها لقيت من عطف زوجها ووفائه فى محنتها ماخفف لوعة وجدها وعاونها على استكمال صحتها

وهنا يحمل بعض المؤرخين على لوكريسيا ، ويتهمونها بالقسوة والنذالة لأنها لم تعن بتربية ولدها بنفسها فى حين أنها عنيت بتربية « الطفل الرومانى » الذى أشرنا إلى قصته

وكانت لوكريسيا فى تلك الفترة تعنى بالقراءة ؛ ولم تلق فى فيرارا شيئاً من تلك الحفلات المرحة التى كانت كل حياتها فى الفاتيكان ، بيد أنها كانت قد عافت هذه الحياة الصاخبة ، وارتاحت إلى حياة العزلة والسكينة

ولم يمض عام آخر حتى فقدت لوكريسيا أباها اسكندر السادس ؛ وكانت وفاته فى ١٨ أغسطس سنة ١٥٠٣ فى سن الثالثة والسبعين

ويصف لنا المؤرخ جيشاردينو وقع وفاته فى رومة فيما يأتى :

« هرعت رومة بأسرها ، وقد غمرها فرح لا يوصف ، إلى كنيسة القديس بطرس ، تتأمل ذلك الميت ؛ ذلك الشيطان الذى يضطرم طمعاً ويفيض غدراً ؛ ذلك الذى سممت قسوته الوحشية ، وفجوره المروع ، وجشعه ، وجرأته المثيرة فى ادارة الشؤون المدنية والدينية ، جو العالم كله »

ووقع النبأ كالصاعقة على لوكريسيا . ذلك أنها كانت تحب

أباها رغم كل رذائله وآثامه ، حباً جما ؛ وكانت تشعر بأن هـذا الحنان الفياض الذى كان يغدقه عليها دائماً ، هو ملاذ حياتها وعزها ، فغمرها الحزن مدى حين . ولـكن زوجها وأسرته استقبلا النبأ بارتياح ؛ ولم تر لوكريسيا أباها منذ غادرت رومة عقب زواجها ، لأن زوجها كان يأبى دائماً أن تزور رومة أو يزورها أبوها فى فيرارا

وقد كانت وفاة اسكندر السادس خاتمة ذلك السلطان الذى تبوأه آل بورجيا فى إيطاليا مدى ثلاثة عشر عاماً ، وكان نـكبة حقة لولده شيزارى . ذلك أن مشاريعه انهارت فى الغداة كما ينهار قصر أسس على الرمال بعد أن فقد ذلك العضد القوى الذى كان مصدر كل قوته وبطشه ؛ فالتجأ إلى جونزالفو دى كردوفا قائد الجيوش الاسبانية فى نابل ، ولـكنه اعتقله وسلمه إلى ملك اسبانيا فرديناند الـكاثوليكى ؛ فزجه إلى السجن معتزماً أن يحاكمه على جرائمه التى أصابت كثيراً من أفراد أسرته ؛ ولـكن شيزارى استطاع أن يفر من سجنه بعـد خطوب جمة ، وأن يلتجئ إلى حميه ملك نافار ؛ وهنالك جرح فى إحدى المعارك ، وتوفى فى سـنة ١٥٠٧ ؛ واختتمت بذلك حياته المدهشة التى اتخذها الفيلسوف ماكيافيللى مادة لشرح كثير من آرائه فى خلال « الأمير » الأمثل

***

فى يناير سنة ١٥٠٥ توفى هرقل ديستى دوق فيرارا ، فخلفه ابنه الفونسو فى الحكم ، وغدت لوكريسيا بورجيا دوقة فيرارا

وكانت فيرارا تجمع فى ذلك العهد طائفة من أكابر الـكتاب والشعراء والفنانين يظلهم الدوق برعايته ، أسوة بباقى القصور والعواصم الايطالية الزاهرة ؛ وكان ذلك السحر الذى تنفثه لوكريسيا أينما حلت يجذب إليها هـذه الصفوة ، فتجتمع حولها فى ذلك البلاط الزاهر ؛ وتشملهم الدوقة المستنيرة النابهة بعطفها وحمايتها

وكان من هؤلاء الشاعر الشيخ شتروتسى وولده هرقل شتروتسى وهو شاعر أيضاً ، وانتونيو تبالديو ، وكالـكانينى ؛ ونيكوليو كوربجيو وهو من أعظم شعراء العصر ؛ وجاكوبو كافيشيو أسقف فيرارا ، وهو كاتب قاص ؛ ثم الشاعرين الفتيين لاريوستى وبيترو بمبو

وكانت هـذه الصفوة المفكره تتغنى بسحر الدوقة الحسناء وتشيد بخلالها ومواهبها فى نثرها وشعرها ؛ وتهدى إليها كتبها وقصائدها . ومما يذكر أن شتروتسى الشيخ وصفها فى بعض قصائده بأنها « مجمع عجائب الأرض والسماء كلها ، وليس يوجد لها نظير فى العالم كله »

وكانت لوكريسيا تبادلهم القريض أحياناً ، وتنظم باللاتينية قصائد ساحرة ، فتذكى بذلك إعجابهم وهممهم

بيد أن هذا الجو الأدبى الزاهر كانت تكدره سحب الريب والظنون ، وكان أشـد أولئك الشعراء تأثراً بسحر لوكريسيا بيترو بمبو ؛ وكان بمبو من سادة البندقيـة ، فتى جميلا ، بديع الخـلال والمواهب ، بارعاً فى التاريخ والشعر ، وكان من شعراء بلاط فيرارا ، ومن أخصاء الدوق ، يضطرم نحو الدوقة الحسناء إعجاباً وحباً ؛ وكان يوجه اليها كثيراً من الرسـائل والقصائد فى مختلف المناسبات ؛ ومن ذلك تلك القصيدة التى نظمها باللاتينية للاشادة بمعبودته

إلى لوكريسيا بورجيا

« أيتها الحسناء ، أنت أجمل من أوربا ، أنت ابنة ملك آجنور ، ولست مثل هيلانة الاسـبارطية التى اختطفها باريس التروادى ، تسمحين لجمالك أن يطغى على عبقريتك . وإذا فات الشعر بالايطالية فأنت ابنة الأرض الايطالية ، وإذا تناولت القلم لتكتبى القريض بنفسك ، فانه لقريض يجدر بوحى الشاعر ؛ وإذا راق لك أن تهزى أوتار القيثارة ، فان أمواج نهر بو ترتجف فى مجراها سحراً من غنائك ، وإذا راق لك أن تستسلمى الى الرقص بقدمك الطائر ، فآه ! إنى لأخشى أن تلفتى نظر إلـه ما ، فيأتى لاختطافك من قصرك ، ويحملك الى السماء ، ويجعل منك أيتها الحسناء الرائعة ، إلـهة كوكب جديد »

كان بمبو يشعر نحو لوكريسيا بأكثر من الاعجاب والحب ، كان يشعر نحوها بهيام مبرح ؛ وكان هذا الهيام يبدو فى قصائده ورسائله مع شىء من التحفظ تمليه عليه الظروف واتقاء الريب . ذلك أن الفونسو ديستى كان أميراً صارماً عنيف الأهواء ، وكان يحب زوجه ، وإن لم تكن كل شىء فى حياته الغرامية ؛ وكان

يحيط الدوقة بسياج منيع من غيرته وصرامته ، ويرد المواطف المتوثبة الى سحرها وجمالها فى مهادها

بيد أن الروايات المعاصرة تقول إن لوكريسيا كانت تقابل حب بمبو بمثله ، وأن علائقهما الغرامية اتصلت مدى حين أثناء اقامة الشاعر فى فيرارا حتى سـنة ١٥٠٦ ؛ وقد كان طبيعياً أن يتفتح قلب لوكريسيا فى مثل هذه الظروف ؛ فقد كان الفونسو ديستى مشغولاً عن حب زوجه بمشاريعه السياسية والعسكرية ، وكانت لوكريسيا تتأثر بجمال الشاعر ورقة شمائله وفيض هيامه ؛ وكانت تبادله الرسـائل ؛ ومازالت رسالة منها تحفظ فى مكتبة امبرواز بميلان ومعها خصلة من شعرها ، ذلك الشعر الذهبى الأشقر الذى كان يبث من حولها النور والسحر . وقد كانت نفحة الوداع . ذلك أن بمبو رأى أن يغادر فيرارا فجأة (سنة ١٥٠٦) بعد أن أقام بها ثلاثة أعوام ؛ وقد كان ذهابه نوعاً من الفرار ، ولعله كان اتقاء لريب الدوق وبطشه ، وربما رأى المحبان أن الفراق خير وسيلة للسلامة من عواقب غرام خطر

وقد لبث بمبو يكاتب معبودة قلبه من أوربينو مقامه الجديد حتى وفاتها فى سنة ١٥١٩ . وهناك من يرى أن علائق لوكريسيا بالشاعر لم تتعد الصداقة الحميمة ، وأن هيامه بها لم يكن سوى نوع من عبادة الجمال والحب الفلسفى

ولاريب أن بمبو كان فتى حريصاً فطناً حين خشى نقمة الدوق . ذلك أن زميله الشاعر الفتى شتروتسى وجد ذات يوم قتيلاً مخضباً بدمائه (يونيه سنة ١٥٠٨) . وطارت الاشاعة فى الحال بأنه ذهب ضحية لغيرة الدوق وبطشه ، ذلك أنه كان يهيم بالدوقة ، ويشيد بجمالها فى شعره دون تحفظ . ولـكن رواية أخرى تقول إن لوكريسيا لم يكن لها فى تلك المأساة شأن ، وأن الدوق كان يهوى فتاة حسناء هى بربارة توريللى ، وقد تزوجت من شتروتسى ، فقرر الدوق موته لـكى يزيله من طريق هواه

وعلى أى حال فان الرواية تقرن اسم لوكريسيا بكثير من مآسى الحب الخفية التى وقعت يومئذ ببلاط فيرارا ؟

للبحث بقية

محمد عبد الله عنان
المحامى

استدراك وتصويب

قرأت فى العـدد ٩٩ من « الرسالة الغراء » مقال الأستاذ المغربى (بين الفقه الاسـلامى والرومانى) فرأيته تلطف فى الرد على الخواجه ميشيل عند قوله :

« إن أبا حنيفة لم يعترف إلا بسبعة عشر حديثاً » وهى غلطة ظاهرة لا يسوغ لأحد أن يغتر بها ، لأن روايات أبى حنيفة على تشدده فى شروط الصحة لم تـكن سبعة عشر حديثاً فحسب ، بل أحاديثه فى سبعة عشر جزءاً يسمى كل منها بمسند أبى حنيفة ، وقد خرجها جماعة من الحفاظ بأسانيدهم إلى الامام ما بين مقل منهم ومكثر حسبما بلغ إليهم من الأحاديث التى يروبها ، وليس بين تلك الأجزاء جزء أصغر من سنن الامام الشافعى رواية الطحاوى ولا من مسند الشافعى رواية أبى العباس الأصم اللذين عليهما مدار أحاديث الامام الشافعى . وقد عنى أهل العلم بتلك المسانيد جمعاً وتلخيصاً وتخريجاً وقراءة وسماعاً ورواية ؛ فهذا الشيخ محدث الديار المصرية الحافظ محمد بن يوسف الصالحى صاحب الـكتب الجليلة فى السير وغيرها يروى تلك المسانيد السبعة عشر عن مشايخه ما بين قراءة وسماع ومشافهة وكتابة بأسانيدهم إلى مخرجيها ، وذلك فى كتابه (عقد الجمان) . وكذا يرويها بطرق كثيرة محدث الديار الشامية الحافظ شمس الدين بن طولون فى (الفهرست الأوسط) عن شيوخه سماعاً وقراءة ومشافهة وكتابة بأسانيدهم كذلك إلى مخرجيها ، وذانك الحافظان هما زينا القطرين فى القرن العاشر الهجرى ، وكذلك حملة الرواية إلى قرننا هذا ممن لهم عناية بالسنة . وما تلك المسانيد والـكتب ببعيدة عن متناول أهل العلم ، بل بعضها مطبوع فى الهند . . . إلى غير ذلك مما تراه مفصلا فى (شروط الأئمة الخمسة للحازمى المطبوع سنة ١٣٤٦)

أبو أسامة

هرافليوس فى المعبد

البطـــــل

للأستاذ معروف الارناءوط

كاتب « سيد قريش » وصاحب « فتى العرب »

تتمة المنشور فى العدد الماضى

كان معبـد القديسة هيلانة غارقاً فى الصمت ، فليس فى نواحيه أثر من صلاة ، ولا تنير محارمه ومناسكه هـذه الشموع الـكثيرة التى تنير أروقة كنيسة القبر المقدس ؛ وقد جفاه المرتلون والعازفون ، فما يسمع هراقليوس فى عزلته صوتاً يحرك فى نفسه شعور التقى والورع ، بل ليس فى هذا الرمس الذى انحدر اليه ، قسيسٌ يطمئن الى لباسه أو يستريح الى إرشاده ونصحه ، ولو كان هنالك تقىٌّ لخف اليـه وسأله أن يترع نفسه بالعزاء الذى يحبه ويشتاقه

ثم عاف هراقليوس الهيكل وأقبـل على الجُدُر يتجسسها ويتفحصها ويستند اليها ، وهو يحاول الخروج من المعبد ؛ وإنه ليمشى فى لين ورفق حذر السقوط إذ صافحت عيناه نَزْلةً أخرى صورة ذلك الأعمى ، فوقف ينظر اليها على ذلك النور الضعيف الذى يرسله القمر من صدوعٍ فى القبة الفيحاء ، فلما حدّقَ اليه ارتد به الخاطر فى خفة الوميض الى حياة « موريس » التعس الذى سَوّغ الظالم « فوكاس » قتـله مع بنيه فى ليلةٍ من ليالى الخريف الحافزة . وقد كان « موريس » قيصر الرومان وسـيد هذه الدنيا طولا وعرضاً ، فألّب « فوكاس » عليـه الغوغاء وهاجه وهو نائم فى قصره ، ففر الى جزيرة « انتيغون » على الساحل الهادئ فى بحر « مرمرا » ولحق به بنوه وصحبه ، فما تريّث الطاغية « فوكاس » فى اللحاق به حتى أدركه وقتله شر قتلة بعـد أن غمس يده فى دماء بنيه الخمسة ، ولم يفلت من هذا الموت الـكريه غير فتى صغير اسمه : « كريستيا » ، وغير فتاة صغـــيرة اسمها : « سافو » ومعهما تلك الأمبراطورة التعسة « تيوفانو » ، ثم ثار الشعب على « فوكاس » الذى لبس التاج ،

وكان « هرقليوس » زعيم هـذه الثورة وبطلها ، وكان شعاره وشعار الثائرين الذين صحبوه الى قصر الطاغية اسم الصغير : « كريستيا » ، وكان ينبغى لهراقليوس بعد ظفره بالقاتل السفاح أن يضع على رأس الفتى تاج أبيه . فما فعل إرضاءً لمطامعه ونزواته ، ثم كان من أمر « كريستيا » أن توارى عن الناس خشـية أن يفتك به أنصار هرقليوس ، وطويت الأحاديث عنه وما عاد رفاق أبيه يذكرون من أمره وأمر أخته وأمه شيئاً !

لقد كانت خيالةُ الفتى الأعمى فى الصورة الماثلة تشبه خيالة كريستيا ، فهتف هرقليوس وهو ينظر اليها : « كريستيا ! كريستيا ! » ثم وضع يده على عينيـه كأنما هو يحاذر ألا ينظر الى الصورة نَزْلةً أخرى ، ولـكن الذكريات المؤلمة التى تعاورت نفسه فى المعبد المقدس ، ظلت على عُنفوانِها وعنفِها ، فما كان يستطيع أن يُفلت منها ، ثم زحمته هذه الذكرُ الطاغية وانقلبت به الى تلك الليلة الصاردة التى ابتعث فيها بعض رجاله على الذهاب الى « نيكوميديا » تحت الوَدْقِ المنهمر ، فذهبوا وبعـد قليلٍ عادوا ومعهم فتاة حسناء أحبها قيصر حتى شغفه حبها ، ثم جاءوا بضحيتهم الى القصر وألقوْا بها الى سرير فى غرفة ينام فيها هراقليوس وعلى حوائطها صور الصالحين والرسل !

لقـد ناشدته تلك الفتاةُ انتصاراتِه لعله يستبقى عفافها فلا يدنّسه ، فلما لم تنجح فى استمالته أو مضت بيـدها الى صور الصالحين والرسل ، وسألته بحقّ هؤلاء ألا يعبث بطهارة فتاة يتيمة كان أبوها من أحسن المنافحين الذائدين عن حياض النصرانية ، فما أمالته ذكريات انتصاراته عن أهوائه ، ولا ثنته صور الصالحين والرسل عن منازعه ، فراح يحتبس الفتاة العانية بين ذراعيه المشبوبتين غير ذاكر فضل أبيها النبيغ البطل فى تأثيل انتصاراته وتوثيق غاراته !

اسم هذه الفتاة « بليتزا » واسم أبيها الفطريف « تيوفان » ، ذكر هراقليوس هذا كله فيئس وابتأس وترجف ورعد ، ورأى إلى كوارث حياته كأنها تجتمع فى حضيض البيعة الصغيرة ، فأدرك وهو الذكى الألمى لماذا لم تستقبله الأماكن الطاهرة بمثل تلك الحماسة البالغة التى لقيها فى معابد الوثنية ، فصاح صيحة ألمية وخرج على شفتيه اسم « بليتزا » ، فردد هذا الاسم فضاء المعبد الساكن !

وراح الرجل الذى دخل بيت المقـدس فى حاشية من بطارق

الجيش وبطاريق الكنيسة يغمس يده فى صدره ، فيمزق ثوبه القيصرى ويرمى بدرره وذهبه الى حضيض المعبد ، وشفتاه تتحركان بذلك الاسم الذى ما كان يفكر فيه قبل هذه الليلة :

بليتزا ، بليتزا !

كان هذا الاسم أول ألحان هراقليوس فى الأماكن الطاهرة ، ولكن هذا اللحن الشجىّ لم يلبث أن استحال إلى نواح مذيب ، فجعل الرجل المنتصر على الوثنية ينشج ويده تتجسس العمدَ الرخامية ، ثم جلس على الأرض ووارى عينيه حتى لا يرى الى هذه الصور !

ولما فتح عينيه وردد نظراته فى الجدار القائم إلى يساره أخذته صورة جديدة لم ينظر اليها من قبل حَدَّق فيها على زهده فى الصور وابتعثته هواجسه الثائرة على الوقوف حيالها وفمه لا يزال نَدِياً بذلك الاسم الذى ألقى به إلى جوف الكنيسة الكبرى ثم ترعد وترجف وانفلت من صدره صياح أليم وارتد القهقرى مسفوعاً عانياً ، وأخذت الصورة التى أبصرها قائمة إلى يساره تتحرك وتهتز . ثم جفت الجدار ومشى ناسها فى صف واحد إلى ناحية هراقليوس ، فكان كلما تراجع أمام أشباحها أخذته هذه الأشباح أخذ عزيز مقتدر ومنعته أن يشق طريقه !

فأى صورة هذه ؟ وكيف قدر لأشباحها أن تترك مكانها على الحائط لتمشى فى حضيض المعبد كما يمشى الناس ، وتنظر بعيون فيها من وميض الحياة وإشراقها ما فى عيون الأحياء من وميض وإشراق !

ولما أوشكت هذه الطيوف الخرساء أن تزحمه حدق فيها عن كثب فاذا هى أربعة أشباح أحدها مشوه الخلقة ، محمرّ الصدر ، تضطرب فى وجهه عينان غائرتان وإلى جانب هذا الشبح ثلاث نساء ، فيهن امرأة عمياء على وجهها الصبيح شىء كثير من النعماء ، وكانت العمياء تلبس السواد ، وقد سدرت شعرها الأشقر على كتفيها وراحت تستند إلى ذراعى فتاة ما تزال حديثة عهد بالحياة ، فما قدر هراقليوس أن يتعرف إلى خيال المرأة الثالثة ، فصدف عنه وتهافت على العمياء ينظر اليها فى خوف وإشفاق ، وأخذ فمه يردد اسم « بليتزا » بينما ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة إلى الحوائط والجدر ، وبينما ملابس الأشباح قد حاكت فى حمرتها وصفرتها وزرقتها ألوان الفسيفساء التى أخذت تخطف على العمد والأقواس والقناطر ، ولقد خيل إلى هراقليوس أن الصورة التى خرجت من الحائط الشمالى ما عادت تمعن فى اللحاق به فسخر من هذا الجنون الذى تولاه ، وتضاحك حتى لقد سرى ضحكه إلى أنحاء المعبد وأدرك أن قيصر الرومان قد أفرط فى مخاوفه ، وما ينبغى له أن يفرق من صورة تراءت له على الرخام ، ولما اطمأنت نفسه جعل ينظر إلى يده فاذا عليها ذلك الدم الذى تسايل من جبينه ، وللمرة الأولى أخذته عزة الزعيم الغطريف ، فأزرى بالشعور الذى رافقه فى مطافه ، وهو شعور يشعر به الدهماء ، ولا يشعر به الزعيم تحت اللواء

وفيم هذا الخوف ؟ ولماذا تميد نفسه لذكريات الماضى ، وليس فى هذه الذكريات ما تنكره السلائق والشيم ؟ نعم ، لقد أَحبّ فى مواضى أيامه امرأة اسمها « بليتزا » ، وأحب القياصرة من قبل نساءً من الشعب ، ثم ماتوا ، ولم تقرضْ نفوسهم المخاوف ، وحيث قد أحبّ هراقليوس فتاة من بنات الشعب فأولى له أن يطمئن إلى هذا الحب ثم أولى له أن يطمئن إلى غده ، لأن « بليتزا » التى أحبّ صارت فى الغابرين .

ولما رَفعَ رأسهُ شامخاً مستكبراً ، وأنحى ناحية الباب يريد الافلات من هذه الهوّة الراعبة ، لحق به الأشباح فى صف واحد ، فما حفل بهذا المشهد ، وخُيل إليه أن اهتزاز الصورة ما كان غير وليد تصوراته وسبحه ، ولكن المرأة العُمياء أدركته عند الباب وهتفت باسمه « هراقليوس ! »

وفى هذه الفينة لم تفته الحقيقة الراعبة فمضض يده من جزع وإشفاق وسرى جَرْسُ العمياء إلى نفسه كالصليل ، فتلفت فاذا التى تصورها خيالا تقبض على يده فتناديه : هراقليوس ! هراقليوس ! انظر إلى وجهى ملياً وقل لى ماذا رأيت عليه ؟

وأخذت « بليتزا » تجذبه إلى ناحيتها فشعر بحرارة أنفاسها ووقف ينظر إليها مبهوتاً حائراً ثم أطبق عينيه كأنما هو يريد ألا يرى إلى صورتها الشجية ، وظلت « بليتزا » تستجيشه وتحركه وتذكره الماضى حتى أفاق وفتح عينيه على الصورة الجاهمة صائحاً :

— بليتزا ! بليتزا ! قالت :

— نعم بليتزا ، تلك الفتاة التى جئت بها من حجرتها فى

« نيكوميديا » إلى حجرتك فى القصر ورحت بها إلى مسربك ، فتوسلت إليك ألا تعبث بعفافها عن كثب من صور الصالحين والقديسين والرسل ! نعم أنا بليتزا ، ولست خيالا كما توهمت ، فاذا كنت لا تزال فى ريب من أمرى ، فهاك يدى فجسها ، ودونك صدرى فاستمع إلى وجيبه ، وقل بعد ذلك إذا كنت لا تزال تحلم أم أنك تؤمن بهذا الذى ترى !

لقد كان البرد الشديد ، وهذا الخوف الذى تولاه ، وذكريات الماضى التى تجددت فى نفسه ، وانبعاث بليتزا فى المكان النابى الملىء بأوجاع النصرانية وآلامها ، وهذه الأشباح التى رافقته فى مطافه ، كان هذا كله مثار أحزان جديدة فى نفسه ، فما عاد يستطيع أن يجنب عينيه النظر إلى رفاق بليتزا ، فرأى إلى « نفتالى » ثم إلى « بنيامينا » ثم إلى « مارية » ! وفتح فمه ليتكلم فما خرج لسانه على شفتيه ، فأومض بيديه كأنه يريد أن يسأل المرأة العامدة عن رفاقها ففطنت الى أمره وقالت له :

ـ هذه الصغيرة التى ترى هى ابنتى وقد أسميتها « مارية » تحبباً الى مريم والدة السيد المسيح ، ولقد تسألنى عن أبيها ، ألا فاعلم يا مولاى أن أباها هو هذا الرجل الذى سالت نفسه على حوائط الكنيسة فى هذه الليلة القمراء ! واسمه هراقليوس ومكانه فى قصر «الشالسيه» عند شاطئ البحر الأزرق فى القسطنطينية !

فانطلق لسانه ساعة رنّ فى سمعه اسم مارية وانثنى صائحاً :

ـ ابنتى ! ابنتى ! فقالت العمياء :

ـ ابنتك وابنتى معاً ! . . . فقال :

ـ وهذا ؟ فصاحت العمياء :

تقدّم أيها السيد نفتالى وقل له أىّ رجل أنت ، واحسر له عن أمر هذه الفتاة التى هى ابنتك ، فتقدم ذو القروح من قيصر وكشف عن صدره صائحاً :

لمالك أيها المولى الذى تفيّأ أعلام الحرب ، واستمع لأناشيد النصر من شواطئ أفريقية الى شواطئ البحر الزاخر فى بيزنطية ، لم تنس ذلك الرجل السرى الذى كان يجوب شطآن البحر الأحمر باسمك ، ثم يفئ الى دار ملكك وقد ملأ سفنه بطيوب الهند ونفائس عدن

كان الناس يعيدون ذكرى ليلة الميلاد ، وكنت فى جملة الذين أمالهم التقى والورع الى الصلاة ، وكان الناس يرون فى « نفتالى » وذلكم هو اسمى البغيض الكريه ، سيّد بلاد الجليل فى ثرائه وترفه ، فحسدنى الجميع ، وأخذتهم الغيرة من ذيوع أمرى ، فلما صليت مع المصلين راحت عيناى تنظران الى صورة للسيد الناصرى ، فألقيت إليها بنجوى القلب ، وسألت الرجل الذى طربت جبال الجليل لصوته أن يباركنى ، ثم رجعت الى منزلى لأمضى ليلة العيد حيال طفلتى وامرأتى ، وفى الصباح أحاط الجند بمنزلى وتبارى الناس فى سبى ولعنى ، ثم خرج بى الجند الى الميادين ، وقرئ على أمر قيصر باحراقى ، لأننى نظرت فى صلاتى الى صورة السيد ، ولأن هذه الصورة وجدت مطروحة على أديم المعبد ، ثم استبدل قيصر التحريق بالتغريب ، وألقى بى رجاله فى القفرة النائية بجوار البحر الميت ، وماتت امرأتى من الألم والغمّ ، وعاشت ابنتى عيشة لا تشرّف حياتها ! . . . هذا هو كل أمرى فما أظنك نسيت نفتالى ، ولا أراك نسيت « بنيامينا » ابنته التعسة

لقد جئت هذا المكان الطاهر من مكانى السحيق البعيد ، لأرى اليك وأسمعك دعاء وعيته وحفظته ، ثم علمته ابنتى لتجهر به أمام السيد الذى رد الى المحزونين والماحلين ما هم فى حاجة اليه من شباب وعافية ، وطلاقة وبشر . انظر يا مولاى الى ابنتى ! لقد كانت فى عفافها ونقائها كهذه الصورة التى تمثل السيّد فى طفولته ، فعبث بها رجالك ، هؤلاء الذين جابوا العالم كله باسم النصرانية ، فلما رجعوا الى مهدها رجعت اليهم سلائق الوثنية فقتلوا البرىء واضطهدوا البريئات !

ولما سكَتَ « نفتالى » ، قالت « بليتزا » : « لقد حرمنى الألم والنفى والسهد ضياء عينىّ فما نعمت بالنظر إلى محيّا الطفلة التى انبثقت من دمى ، وعشت فى « عين كارم » عيشة راعبة لا تليق بمن كانت ابنةً لتيوفان البطل ! وكانت آلامى تنمو بجانب نموّ ابنتى حتى كرهت الحياة وملأت مقامى بين الأحياء . ولكن صوت الطفلة التى أحببت جنبنى موتاً ما كنت أجد فى غيره راحةً لنفسى ، ثم نذرت لأمضين إلى المسيح فى مهده فأسمعه بثى ، فاذا لم يسمع انطلقت إلى لحده وأيقظت رفاته

وكنت عالمةً بوصولك الوشيك إلى الشام فرجعت أسأل عنك فاذا قيل لى إنك بلغت فى زحفك شواطئ الفرات ، حلّق وهمى فى فضاء النهر الزّاخر ، وطفت هواجسى ، فلعنتك وأسرفت

فى اللمن ، وإذا قيل لى إن قيصر وطىء البوادى سرب خيالى على الرمال وقذف فى البغض والحقد وانى لأقسم لك أن بغضى فى احتدامه وثورته مقتبسٌ من سموم الرياح الهوج ساعة ترتمى على الرمل فتذروه فى كلّ فضاء ! فاذا قيل لى إنك نزلت فى منازل عدوك عنـد الدن الوارفة الظلّ نزل بى شمورى حيث أنت ورفعت صوتى لأمنعك من غناء جندك الظافر ، وهكذا كنت أتبع ظلك وأترسم خطوك وأنا فى القرية المتواضعة فألحق بك إلى الأنهار والرمال وإلى المدن حتى أطلّ شبحك على المدينة المقدّسة وسمعت عزيف أبواقك ولم يفتنى صليل سلاحك فخفوت مكانى فى « عين كارم » وجئت « بيت لحم » فدعوت عليك ورافقت موكبك إلى كنيسة « القبر المقدّس » ، ومازلت أرقب خطوك حتى خلت الـكنيسة من المصلّين والزائرين ، وحتى رأيتك تنحدر إلى محراب القديسة هيلانة فسبقتك إليـه ووقفت مع رفاق فى الألم والعذاب أنظر بعينيْ قلبى إلى نفسك السائلة على الحوائط والجدر ! هراقليوس ! هراقليوس ! كيف أنت ؟ كأننا لم نفترق وكأن الأيام لم تفصل بينى وبينك وكأن تلك الحجرة التى ازدانت بتصاوير الصالحين والرُسُل ، مازالت تحتوينا معاً ! ولـكن مصاير الناس تعاورها الحذف والتبديل فقد كنت لسنين خَلَتْ ذلك الرجل المزهوّ بانتصاراته ، وكانت « بليتزا » التى فزعت إلى الناصرىّ فى الليلة الليلاء تنظر فى كثير من الزهو إلى مصرع ذكائك ! . . هراقليوس ! ناشدتك الله أن تقول لى كيف أنت ؟

***

لم يكن فى ميسور هراقليوس أن يرفع عينيه الى هذه الأطياف فلقد برّح الرعب به تبريحاً أليماً ، وأعمى يأسه وشجونه خيال بليتزا ، وخيال ابنتها واستجاش جواه ذلك الصدر القريح الذى حسر نفتالى عنه ، فتقاصر وتصاغر وراح جاثياً على قدمىْ العمياء مستغفراً تائباً ، فسمعت مارية ابنته صلاته الهامسة ، فدلفت اليه وقالت : أبى ! أبى ! فما سمع نداءها الرقيق الشجى ، بل ظل يتخافت بصوته ، بينما كان نفتالى وبنيامينا يصلّيان فى زاوية المعبد صلاةً لم يخالطها كثير أو يسير من البغض ، وبينا مارية الصغيرة تنظر الى أبيها الدميع بعينين رحيمتين ريّتين

وكان ضياء القمر لا يزال يتسرب من صدوع فى القبة الى أرض المحراب ، فينير الصور التى على الحوائط والجدر . ثم ينثر أشعته الخفيفـة على وجوه الأربعة الذين أتموا نذورهم فى الليـلة الرهيبة التى أرادها هراقليوس خاتمة صومه وحجّه !

رَزَحَ قيصر تحت وقر هـــذه الصور القاتمة ، فأغمى على الحجارة ، وسبحت نفسه فى عالمٍ قصىٍّ بعيـدٍ ، فلما استوثق نفتالى من إغفاءته تلفت الى بليتزا وقال لها : « لنذهب ياسيدتى قبل أن يستفيق ، فلقد قضينا نذورنا ولم يبق لنا ما نعمله فى الأماكن الطاهرة ! فقالت بليتزا : « أترجع الى البحر الميت أيها السيد نفتالى ، قال : نعم سأرجع الى منفاى مع ابنتى ، قالت : فاذا أبصرك الحرس فماذا تقول ؟ فقال : لن يبصرنا الحرس ياسيدتى ، لأننا سنخرج من بابٍ خفىّ ، وما أكثر الأبواب الخفية فى هذه المحاريب ! فقالت : افعل ما تريد فعـله حماك الله ورعاك ! ثم نظرت الى هراقليوس النائم نظرةً راثية وألقت بنفسها بين ذراعىْ ابنتها هامسة : لقد عفوت ! . . . » فبرقت أسارير الصغيرة من الفرح وقالت :

ـ إن الله قد عفا يا أُماه !

ولم يشأ نفتالى أن يكون فى معزلٍ عن هذه الرحمة التى خالجت قلبى الأمّ والبنت ، فأخذ بذراع ابنته وقال لبليتزا :

ـ لقد عفوتُ ياسيدتى وعفت ابنتى !

وفى خفة البرق صعد الأربعة سُلّم المحراب فاستقبلتهم جميعاً سُدْفَةٌ فاحمة تغشى الـكنيسة الـكبرى !

دمشق　　　　معروف الارناؤط

تطور الحبشـــة

للكاتب مطلع

الحبشة بلد المتناقضات إلى أقصى حد ، فهى تجمع بين مناخ المنطقة الاستوائية ومناخ جبال الألب ، وبين الخشونة والرقة ؛ وهى أفريقية الموقع ، ولكنها وليدة التقاليد العريقة التى تعاونت على إيجاد أوربا . والامبراطور يحمل فوق رأسه تاج سليمان ويحكم أقواماً حربيين يعيدون ذكرى رجال الأقطاع فى العصور الوسطى ، وفوق ذلك كانت الحبشة موطن قبائل الجالا أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية ، كما أنها غزت مصر قبل المسيح بثمانية قرون

ولقد ساعد اختلاف الجو وتراوُح ارتفاع الأرض عن سطح البحر بين ٩٠٠ و ٤٠٠٠ متر على اختلاف الأجناس . ولعل هذا الاختلاف فى الأجناس كان السبب فى اطلاق العرب على هذه البلاد لفظ الحبشة ، ويعنون به (تعدد الأقوام) ، فان الواقع أنك تجد كل أنواع الأجناس البشرية فوق هذه الهضبة العالية المنفصلة عن العالم بأسوار شامخة وصحار سحيقة . والأحباش يتكونون فى الأصل من قبائل الجالا والصومال ، ثم كان نتيجة اكتظاظ القصور بالجوارى السود أن نشأ جنس ضارب إلى السواد . أما قبائل الوالوس فهم يهود يدعون أنهم من نسل أصحاب ملكة سبأ ومن التجار الذين كانوا يتاجرون أيام سليمان . وكل هؤلاء الأقوام يتكلمون لغات مختلفة تقرب من ستين لغة فصيحة ومائتى لغة دارجة . على أن أكثر اللغات تداولاً هى اللغة الأمهاريكية وهى لغة اليهود الأولى بعد اللغة العربية ، واللغة التيجرية [(١)] المساة (لغة المسيحيين) ، أما اللغة الجيزية فهى اللغة الأدبية التى ترجمت إليها التوراة . على أن من يحسنها من أبناء الشعب لا يتعدى عدداً يسيراً . ويجب أن نفهم من هذا الاختلاف الظاهر تاريخ هذه الأمة التى استطاعت حتى الآن أن تحافظ على استقلالها بفضل استعدادها الحربى والمنافسات القائمة بين أعدائها

إن الأحباش على رغم اختلافهم يشتركون جميعاً فى الاستعداد الحربى الذى هم مدينون به لطبيعة بلادهم . فالجبل يخلق أجناساً أقوياء البنية ، ولقد روى مسيو مونفريد أنه كثيراً ما أرسل سعاة يحملون رسائل الى دير داؤوا حيث كان يسكن تشرشر ، وكانت المسافة ثمانين كيلو متراً خلال الجبل والوديان المحرقة (فكان الرجل يرحل عند الصباح حاملاً خطابه فى عصا مشقوقة ، ويعود بالجواب فى مساء اليوم التالى ، فكأنه قطع مسافة ١٦٠ كيلو متراً فى ست وثلاثين ساعة . وفى المرة الأولى كنت عظيم الدهشة والحيرة ، إذ بينما كنت أنتظر من الرجل أن يلهث أمامى من الأعياء إذا بى أراه بعد ساعة يشترك فى الرقص دون أن تظهر عليه دلائل التعب . ومما يبعث على العجب أن أولئك الرجال يقومون بهذه الرحلات الشاقة وطعامهم حفنة من القمح وسيقان من الذرة يقتلمونها أثناء الطريق ويأكلونها أثناء جريهم ، أما نساء بعض الأقاليم فهن يقطعن كل يومين مسافة ٣٥ أو ٤٠ كيلو متراً تقريباً حاملات على ظهورهن حملا يبلغ خمسين كيلو ، وذلك لقاء ثمانية أو عشرة قروش ، أو ما يعادل فرنكين وخمسين سنتيما تقريباً ، وعندما يعرض عليهن فى منتصف الطريق شراء ما يحملن بالثمن الذى سيبعن به فى دير الداؤوا يرفضن خشية أن يفقدن بذلك نصف قرش . وأولئك التاجرات اللواتى لا يتبعن هن اللواتى يصحبن الجنود فى غزواتهم ، فالجيش تمده ذخيرة من النساء فيسهلن له أكلاف الحياة الضرورية ، ويحملن أدوات المنازل المتنقلة . وحالة الجيش المعنوية تكون دائماً على جانب عظيم من القوة ، والجندى لا يعرف نظام المعسكرات ، وهو يحيا حياة كاملة الحرية ، فينزل فى أى مكان كأنه فى داره الخاصة ؛ والانجليز والطليان يعرفون بالتجربة القيمة الحربية للشعب الحبشى : يعرفها الانجليز منذ الاستيلاء على مجدلة واخلائها عام ١٨٦٨ ، ويعرفها الطليان منذ هزيمتهم فى دوجالى عام ١٨٨٧ ، وفى عدوه عام ١٨٩٦)

وعواطف هذا الشعب من نوع شجاعته أثناء العمل وأثناء القتال ، وهى ترجع الى تمسكه الشديد بالعوائد والمعتقدات ، وقد دخلت البلادَ مع الديانة المسيحية منذ القرن الرابع . ويُروى أن القس فيليب الذى كان من أوائل المبشرين المسيحيين هو الذى نصَّر رئيس خدم أميرة حبشية (ففتح بذلك فى الحبشة السبيل للديانة المسيحية) . ومن المعلوم أن القرن الخامس كان شديد الاضطراب بسبب المسائل الدينية ، إذ قامت المناقشات حول

(١) نسبة الى ولاية تيجرى

مريم إن كانت أمّ الله أو أمّ المسيح فقط . كما أن مجلس إفيز الدينى طرد نسطورياس الذى دامت هرطقته وانتشرت حتى يومنا هذا . وفى نفس ذلك الوقت أعلنت عدة مجالس دينية على التوالى إيمانها أو إنكارها لطبيعة السيد المسيح الواحدة أو المزدوجة . وقد أعلن مجلس الـ ٤٥١ عداوته لفكرة طبيعة السيد المسيح الواحدة ، واستند الملعنون فى قرارهم إلى الكنيسة المسيحية فى مصر التى استطاعت خلال القرون أن تحافظ على استقلالها تحت اسم الكنيسة القبطية . والعلاقات بين مصر والحبشة ترجع إلى زمن بعيد مما كان سبباً فى أن تصبح الكنيسة الحبشية فرعاً من الكنيسة القبطية فى مصر ، فرئيس الكنيسة المسيحية فى الحبشة الملقب بالأب (أب السلام) إنما يعينه بطريق الاسكندرية الذى يقيم فى القاهرة ؛ ولقد فشلت محاولة البابوية ضم كنيسة الحبشة إليها . وقد تمكن البرتغاليون فى أوائل القرن السادس عشر أثناء كفاحهم مع المسلمين فى سبيل السيادة على طريق الهند من ارسال بعثة كاثوليكية ، ولكن سيطرة الجزويت لم تدم ، واستعادت الكنيسة القبطية فى الحبشة علاقاتها مع بطريق الاسكندرية عام ١٦٣٣ . على أن حوادث جديدة قامت فدلت على أن السياسة لا تترك مطلقاً الفرصة لاستغلال العواطف الدينية مما أحدث تغييراً فى أفكار البلاد الحبشية . إذ فى ٢ يونيو من عام ١٩٢٩ استطاع أخيراً بطريق الاسكندرية بعد أجازة دامت ثلاثين شهراً أن يرسم الأب كيرول سيداروس ، وكان عليه فى الوقت نفسه بالرغم منه أن يرسم خمسة أساقفة حبشيين ، فكان فى هذا الحادث الذى لم يسبق له مثيل تحديد لتقدم الاتجاه القومى فى الحبشة ، فتوترت العلاقات بين النجاشى والبطريق ، وكان الدليل على ذلك تلك الرحلة التى قام بها الأب الى الاسكندرية فى مارس من عام ١٩٣١ . وقيل يومئذ إنها لتمضية مدة النقاهة بعد الابلال من مرضه . وهناك حادث آخر عظيم الخطر هو زيادة نفوذ الفاتيكان ، فقد قامت محاولات منذ سنين طويلة لفصل أرتريا عن الكنيسة القبطية الحبشية . وبطريق الاسكندرية يواصل رسم القسس فى هذه البلاد ، على الرغم من أن قسس أرتريا يستمدون الأوامر الدينية من رومة لا من أديس أبابا . ولا شك أن الدعاية الدينية تصحب التقدم الاقتصادى وتقويه

وللقسس حق التزوج مرة واحدة . وهم على العموم على جانب عظيم من الجهل . ومعلوماتهم لا تكاد تتعدى أمور العبادة ، وللقسيسين والرهبان سلطان عظيم على الجماهير الجاهلة التى كان يحتم عليها سلطانها المدنى الذى نالته منذ القرن الثالث عشر الدفاعَ عن حقوقها ومصالحها . ولقد أصبح رئيس الأديرة الأكبر – وكانت مهمته فى البداية التفتيش على الأديرة – الرئيس الحكومى للأب والكنيسة . والأب يكون دائماً أجنبياً يعينه بطريق الاسكندرية ، ورئيس الأديرة الأكبر يكون دائماً حبشياً تعينه السلطة المدنية . وسلطان رجال الدين شديد النفوذ عظيم القوة ، حتى أنهم يمتلكون جزءاً كبيراً من الأرض المزروعة وقرى بأكملها ، وعلى حسب العرف الجارى فى البلاد ينال المالك خمس محصول الأرض ، ومن ذلك يستطيع المرء أن يتصور المعارضة التى يصادفها مشروع يرمى إلى تغيير نظام مضت عليه أجيال طويلة . وكل حياة الأحباش تقوم على الايمان بالمعجزات وتقديس القديسين والملائكة وعلى الفرائض الدينية : كالاعتراف بالخطايا والصيام القاسى والغفران ، والحج الى بيت المقدس واجب يُكفِّر عن الذنوب . وقد أخذت الديانتان المسيحية والوثنية يؤثر تدريجياً بعضهما فى بعض ، فديانة قبائل الجالا الأفريقية الأصل قد تأثرت بالمسيحية . ومع ذلك فقد تأثرت أيضاً الديانة المسيحية القبطية بالخرافات والسحر ، وقد امتزج الايمان بآله ابراهيم والمسيح بضروب الايمان التى كانت شائعة قبل التاريخ ، كتعظيم الماء والأمواج والغابات والأشجار المقدسة والشمس ، وفى الوقت الحاضر يتقدم الدين الاسلامى فى الحبشة كما يتقدم فى كثير من البلاد الأفريقية

وهكذا نرى الحبشة تبدو حكومة من حكومات القرون الوسطى التى كان يحكمها الكهنة نيابة عن الله . فهناك لا يمكن أن يحدث شىء لا يريده رجال الدين ، والحاكم الذى يأمل فى السلطة العليا يجب أن يتأكد قبلا من تأييدهم ومعونتهم . على أن الدهماء ورجال الدين الجهلاء يستفيدون من تلك المدنية القديمة التى يمكن أن يقال إنها بدائية وفى نفس الوقت مهذبة . فمبدأ الصدقة المسيحية قد تغلغل فى أعماق الغشاء الكثيف الذى يغشى القلوب . حتى أن فضيلة إعطاء الصدقات التى كانت واجباً

أضحت غريزة. وهذه المدنية الدينية القديمة تنتج رجالاً أكفاء. ولقد روى مسيو دو مونفريد فقال: (عندما بلغنا قمة الهضـبة قدم إلينا رجل حبشي تغطي رأسه عمامة بيضاء كالتي يلبسها الرهبان. كان وجهه دقيق التقاطيع عليه مخايل المهابة والهدوء. وكان هذا الوجه طويلاً مسنوناً تطفر منـه نظرة تائهة شاردة. وقد تناول يدي بحركة لا شعورية كأنه أحد أصدقائي. لقد كان ذلك الرجل هو الراهب حنا ممثـل الكنيسة والحارس للأمير المخلوع. وكانت عباءته من الكتان الغليظ، وكان عاري القدمين، لكن يده كانت ناعمة رقيقة. وكان يتكلم بصوت منخفض لكنه مؤثر. ونظراً لأني أعرف الى أي حد يتمتع رجال الدين الأحباش بقوة تختفي وراء ما للأباطرة من مظهر السلطان، فقـد دهشت دهشة عظيمة لذلك المظهر المتواضع الذي يبدو به ذلك الرجل الضئيل ذو العمامة البيضاء المصنوعة من القطن. ولم يكن يتبعه حاشية ولا حرس خاص، إذ لم يكن في حاجة لذلك، لأنه أينما ذهب انحنى أمامه كل من صادفه مظهرا الاجلال والاحترام. وجاء في ذلك الوقت دِدْجاز جوبّانا يرى الأعمال الجارية. وكان راكباً بغلته السوداء الموشاة بالفضة، وكان يحف من حوله خمسون جندياً، وهو رافع بندقيته على كتفه. حقاً لقد كان منظره رهيباً وهو ينظر نظرة النسر ملتحفاً بردائه الرمادي. ها قد اجتمع الراهب وقائد الحرب. وقد يقول قائل: قد اجتمع عدوان في مكان واحد. على أن رجل الكنيسة هو أعظم الأثنين رهبـة وأشدهما خطراً. وهو نفسه يشعر بذلك، فكان يبتسم ابتسامة هادئة. ومستقبل الحبشة يقف على هـذين الرجلين، وشقاؤها يرجع الى أن كلاً منهما يستخدم الآخر ويستعين به. فرجل الحرب يستعين برجل الدين على الاستيلاء على عرش ملك الملوك، ورجل الدين يسـتعين برجل الحرب على الاحتفاظ بسيطرته على النفوس وبثروته العقارية. على أن وحدة البلاد المعنوية أثناء ذلك تتفكك. والأجنبي رابض أمام جميع أبواب البلاد

وتاريخ الحبشة السياسي يكاد ينحصر في حروب دائمة بين كبار رجال الأقطاع في سبيل الفوز بتاج سليمان. وفي اللحظة التي تقاسمت فيها أوربا القارة الأفريقية، وجدت الحبشة في مينليك الرجل الذي استطاع صد أول هجمة على البلاد. ولقد عرف ذلك الأمبراطور العظيم كيف يفرض سلطته على الجميع بفضل نشاطه الحربي وحنكته السياسية. وكان أول همه تأييد سلطته في الداخل وإغلاق أبواب البلاد في وجه الغزاة. على أنه وقف عنـد ذلك الأمر ولم يتعده. إذ كان من الواجب الاستفادة من الانتصار المزدوج لينظم البلاد على الطرق الحديثة في الانتاج والتبادل. ولكن الأمبراطور العظيم لم يستطع أو لم يرد ذلك. وقد يكون الموت عاجله قبـل أن يتم ما أراد. ولقد حدثت قريباً حوادث عدة تبين أن النجاشي ليست له على بعض الأقاليم البعيدة إلا سلطة اسمية، وأن هناك كثيراً ممن يدعون الحق في عرش ملك الملوك. ويقال إن النجاشي يفهم تماماً حقيقة الموقف ويعرف ما يجب أن يفعله. على أن هناك عقبات تقف في طريقه، ذلك أن من الواجب اليوم أن يبـذل جزءاً من قواه في سبيل المحافظة على سلطته، وأن يطلب مساعدة كل أولئك الذين يشلون حركته في كل مشروع اصلاحي، وذلك في الساعة التي تُهَدَّد فيها مملكته بغزوة استعمارية جديدة. ومنذ عصر مينليك، أي منذ خمسين عاماً، تغيرت في العالم وفي الحبشة نفسها أمور كثيرة. فدخلت افريقيا كلها في تيارات التجارة العالمية الكبرى، وصحب ذلك كل ما يلزم من الضرورات والآراء الجديدة. فالسيارات والطيارات زادت في طرق المواصلات، ولم تعـد هناك قوة إنسانية تستطيع أن تطيل تلك العزلة التي ملـكت الحبشة عدة قرون، إذ كان لزاماً عليها أن تستعد لتأخذ مكانها بين سائر الشعوب. وكل ما في المسألة هو معرفة ما إذا كانت تستطيع ذلك بمفردها مستعينة بوسائلها الخاصة، أم هي — نظراً لشدة شبهها بمراكش — في حاجة إلى دولة تحميها

إن استقلال كل دولة من الدول يقف من جهة على الدولة نفسها، ومن جهة أخرى على الدول المجاورة. ولقد كان لمينليك الحظ في استطاعته الاستفادة من المنافسات الاستعمارية في الوقت الذي كان يوجد فيه كثير من الأراضي الافريقية القابلة للاستعمار. والآن انتهى التقسيم. وبدلا من البحث في هـــذه لم يبق إلا الابتداء في استغلال الحبشة. ويضاف إلى ما سبق أن المنافسات على هـذه البلاد يلوح عليهـا الهدوء، وأن الاتفاق بين الدول

المتنافسة محتمل الوقوع . ومن هنا يعظم الخطر على الحبشة

وهذا الخطر الأجنبي يجعل المهمة الواجب القيام بها فيما يتعلق بالسياسة الداخلية تفوق قدرة رجل فرد مهما كان نابغاً . إن من الواجب إزالة الفوارق القائمة بين المدنية البدائية الدينية الساذجة والمدنية الغربية المادية . والواقع أن الحياة في الحبشة قد تطورت ، إذ من العسير أن يعيش شعب بأكمله عيشة الزهد والتقشف . ومن المحال إقامة روابط طبيعية دائمة بين الأفراد والجماعات من غير وجود مبادئ مشتركة بين الجميع . من الحق أن المدنية الغربية تتضمن كثيراً من الرياء ، فالرق على شكله الذي نراه في الحبشة ليس أفظع من العمل الذليل في الصناعة الكبرى ، إلا أن في الحبشة نظماً معينة هي تراث الماضي العتيق يجب أن تختفي من الوجود . وسواء دخلت الحبشة عصبة الأمم أم لا فهي لا تستطيع في العالم الحديث الابقاء على قانون التعذيب وعلى السطو والنهب والرق . على أن المرء يتساءل : على أية قوة منظمة يستطيع أن يستند ملك عظيم للقيام على خير ما يرام بالاصلاحات الضرورية إذا كان السكان لا يشعرون بالحاجة إليها قبله ؟ إن رجال الطبقات العليا الذين يملكون الأرض والسلطة لا يرغبون في تغيير يظنون أنه سيفقدهم كل شيء ولا يربحهم شيئاً . ذلك أنهم لا يطلبون إلا أن تزيد ثروتهم يوماً بعد يوم . وليس عند الطبقات العاملة في مختلف الأقاليم فكرة ما عن إمكان تحسين حالهم . واستغلال القوى للضعيف كأنه قانون طبيعي لا يجب أمامه إلا الاستسلام والخضوع . أما رجال الدين والرهبان وهم أصحاب السلطة العليا فأية مصلحة سيجنونها من نظام جديد ؟ بقيت الشبيبة المتعلمة القليلة العدد التي تطلب العلم في جامعات أوروبا وأمريكا ، إنها تعود إلى بلادها خشنة الطباع كارهة للأجانب . على أن الفكرة القومية وحدها لا تكفي ، إذ يجب أن تستخدم هذه الفكرة في تحقيق أمر من الأمور أو مبدأ من المبادئ . على أن المظنون أن استخدام هذه الفكرة في سبيل خدمة الحبشة سيكون أقل من استخدامها في سبيل الاحتفاظ بالحالة الراهنة من اقتصادية واجتماعية ودينية . وأمام هذه الحالة ، فان حدوث حرب ولو انتصرت فيها الحبشة ، سوف لا ينتج إلا نصراً مؤقتاً . ليس في الحبشة فلاح واحد يقارن بين ما يحدث في أسواق بلاده وطرقاتها وبين الحالة التي يستطيع أن يراها وراء الحدود . أما حال العقيدة الدينية فمن المحقق أن الكنيسة القبطية في مصر تسودها الآراء الحديثة ، وأن المعتقدات القديمة تفنى شيئاً فشيئاً تحت تيارات العقل المستنير . ومن المحتمل أن هذه التيارات والاتجاهات ستظهر أخيراً عند مسيحيي الحبشة نظراً لموقع البلاد الجغرافي

(لوا)

ترجمة ع . ك

الأدب العربي في المغرب

أبو العباس أحمد المقَّرى

١٠٤١ هـ - ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرايبى

- ١ -

إننا نشاهد ، بملء الأسف ، كثرةً مفكرةً من شباب المغرب ورجاله ، يساور نفوسهم ضعف الثقة وارتياب مؤلم فى ماضيهم القومى وتراثهم الجليل . فنجدهم لذلك يتأففون ويضجرون كلما عرضت عليهم صورة من ذلك الماضى الزاهر ، ويكيلون للمغرب والمغاربة عواصف من النقد اللاذع والسخط الشديد.

ولعل منشأ ذلك ، فيما نرى ، هو الجهل بما للمغرب فى عصوره الغابرة من روعة وسمو يفوقان كثيراً ما يتخيله أولئك فى تاريخ المغرب.

ولو أنهم عمدوا إلى الوقوف على بعض من تلك الآثار الجليلة ، واستعراض النماذج المتناثرة فى ثنايا الكتب ، لوجدوا فى سجل المغرب من الصور الطريفة الرائعة ما يكون غذاء لروحهم المجدبة ، ورياً لنفوسهم الظمأى !

ولعلهم إن فعلوا فتذوقوا من ذلك الجمال الحى الخالد ، ونهلوا من تلك المتع اللذيذة ، فسوف يجدون فيه المرهم الشافى لنفوسهم المريضة بداء اليأس ، ويستبدلون بتشاؤمهم القاتل تفاؤلاً

- ٢ -

وها نحن أولاء نجلّى لهم اليوم صورة حية من ذلك التراث المجيد ، وننتزع لهم من بين الصور الكثيرة مثلاً سامياً لنهضة الأدب العربى فى المغرب فى القرن الحادى عشر :

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقَّرى [١] التلمسانى المالكى الأديب الكبير ، الشاعر المؤرخ ، ولد فى تلمسان ، ونشأ بها فى بيت علم وأدب ، وثقف كثيراً من الفنون على عمه أبى عثمان [٢] سعيد المقرى الأديب العالم الشهير ، وأتقن اللغة العربية وآدابها ، وبرع فى معرفة أخبار العرب وأنسابها .

(١) نسبة إلى مقر بفتح الميم والقاف المشددة : قرية من قرى تلمسان
(٢) اليواقيت الثمينة

وكان له ميل شديد واطلاع واسع على الآداب العربية وتاريخها فى مختلف العصور ، وأولع من لدن نشأته بالمطالعة والتنقيب عن أحوال الدول الاسلامية ، واستظهار آثارها ، وبصفة خاصة ما كان متعلقاً منها بدولة العرب فى الأندلس ، والوقوف على سر عظمتها ، وتطورها بين صعود ونزول ، وكيف عبثت يد الزمان بتلكم الآثار الحافلة التى خلدها العرب فى أروبا

شب الفتى ، خصب الفكر ، متقد الذهن ، واسع الذاكرة . يتقلب فى فنون من الحديث ، ويحلق فى جو رائع من الخيال . يتنقل بين قصور قرطبة ومغانيها ، ويقلب نظره الحائر فى بدائع الحمراء ومجاليها ، ثم يعود فيسترحم القدر إشفاقاً على مجالس أدبها الممتعة ونواديها

وقد حدثته نفسه الطموح إلى مشاهدة آثار الفن الأندلسى الجميل بالذهاب إلى « فاس » وريثة الحضارة الأندلسية ، ورؤية هذه الآثار عن كثب ، إذ هى صورة مصغرة من الحياة الأندلسية ، بما فيها من مبان وآثار ، ومجالس علمية وأدبية تضم أئمة الأدب وفطاحل العلم . فقصد فاس سنة ١٠٠٩ وملأ بها وطابه ، وأخذ عن جلة العلماء كالشيخ القطار ، وابن أبى النعيم ، وأحمد بابا السودانى التمبكتى وغيرهم ؛ وأقام بفاس ميمون الحظ بين مظاهر الاجلال والاحترام إلى أن صار مفتى فاس وخطيب « جامعة القرويين » ؛ ثم رحل إلى مصر والشام ، وتردد على الحجاز كثيراً ، وألف بالقاهرة كتابه « نفح الطيب » . وله مطارحات ومساجلات مع أدباء مصر والشام

- ٣ -

آثاره الأدبية : أبو العباس المقرى متشعب النواحى كثير الباحث لمن شاء دراسته . له آثار قيمة فى الفقه والكلام والأدب والتاريخ ، وشعر متناثر فى ثنايا كتابيه الجليلين : « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب [١] » و « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض »

وقد قصرنا هذا البحث على الناحية الأدبية ، إذ كانت هى البارزة فى حياته ، فهو « حافظ المغرب وجاحظ البيان [٢] » شاعر

(١) فى أربعة مجلدات ضخام طبع مرتين وفيه نقص كثير عن النسخ المخطوطة نرجو تداركه عند إعادة طبعه . وأزهار الرياض فى أربعة مجلدات أيضاً ، طبع الجزء الأول منه (٢) خلاصة الأثر ج ١ ص ٣٠٣

رقيق العاطفة ، يصطبغ شعره بلون الأدب الأندلسى فى الرقة والجزالة ، والسهولة والامتناع

ولابدع ، إذا وجدنا ذلك الطابع بارزاً فى آثاره الأدبية ، فقد رأيناه كلفاً بالفن الأندلسى وآثار العرب فى الأندلس منذ النشأة إلى حد التوهم أنه كان يعيش فى ذلك الوسط الخصب المشبوب العاطفة

وقد قال فى أكثر أغراض الشعر : فى الغزل ، والشوق ، والمدح ، والوصف ، والحكم ، والعتاب ، والذكرى المؤلمة ، والقصص الشعرى

وإذ كان الشطر المهم من حياته قد أمضاه فى الشرق بعيداً عن الأهل والوطن ، نائياً عن معاهد الصبى ومسارح الطفولة الأولى التى لم يبق فى ذهنه منها إلا الذكريات المرة الممضة ، فنستطيع أن نكشف كيف كان الشوق والحنين أبرز صفة فى شعره ؛ ولنسق لك مثلاً من ذلك . فمن قوله وهو فى الشام يتشوق إلى بلاد المغرب :

كساها الحيا بُرد الشباب فإنها ... بلاد بها عق الشباب تمائمى
ذكرت بها عهد الصبى فكأنما ... قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالى لا ألوى على رشد ناصح ... عنانى ، ولا أثنيه عن غى لائم
أنال مهادى من عيون نواعس ... وأجنى مرادى من غصون نواعم
وليل لنا بالسد بين معاطف ... من النهر ينساب انسياب الأراقم
تمر الينا ، ثم عنا ، كأنها ... حواسد تمشى بيننا بالنمائم
وبتنا ، ولا واش نخاف كأنما ... حللنا مكان السر من صدر كاتم

واسمعه يقول :

شربت حميا البين صرفاً وطالما ... جلوت محيا الوصل وهو وسيم
فميعاد دمعى أن تنوح حمامة ... وميقات شوقى أن يهب نسيم

ويثور كامن عواطفه كلما سمع ترجيع حمامة بصوتها الشجى ، فيصف لك حاله عند سماعها بهذه القطعة الرقيقة :

رُب ورقاء فى الدياجى تنادى ... إلفها فى غصونها الميادة
فتــثير الهوى بلحن عجيب ... يشهد السمع أنها عواده (١)
كلما رجعت توجعت حزناً ... فكأنا فى وجدنا نتباده (٢)

ثم يحاول أن يطفىء غلة ذلك الشوق المضنى بالصبر ، ويتخذه شعاراً وسلوة ، فيسير على سنن غيره من الشعراء ، ولكنه يخفق إذ يجد أن الصبر معناه إلهاب نار الشوق :

وانى لأدرى أن فى الصبر راحة ... ولكن انفاقى على الصبر من عمرى
فلا تُطفِ نار الشوق بالشوق طالباً ... سلواً ، فان الجمر يسعر بالجمر

ويعاوده الأمل فى أن يلمس غرة من الدهر ، فيلتقى بعد طول البين ، ويجتمع بعد أليم الفراق

فنلتقى ، وعوادى الدهر غافلة ... عما نروم ، وعقد البين محلول
والدار آنسة والشمل مجتمع ... والطير صادحة والروض مطلول

ولو أنا ذهبنا فى هذا الباب نقتطف قطماً من زهراته المتناثرة ، لاقتضى ذلك منا وقتاً أوسع مما افترضناه لهذا البحث من الايجاز

وفى الوصف نجتزىء بهذه القطعة :

ورياض تختال منها غصون ... فى برود من زهرها وعقود
فكأن الأدواح فيها غوان ... تتبارى زهوا بحسن القدود
وكأن الأطيار فيها قيانٌ ... تتغنى فى كل عود بعود !
وكأن الأزهار فى حومة الرو ... ض سيوف تُسَلُّ تحت بنود

ويبهره ما يرى فى جنة الدنيا « دمشق » ضريبة الأندلس والمغرب فى بساتينها ، وأنهارها ، وجداولها ، فتعاوده الذكرى ويقول :

ذكرتنى الورقاء أيام أنس ... سالفات فبت أذرى الدموعا
ووصلت السهاد شوقا لحبى ... وغراما ، وقد هجرت الهجوعا
كيف يخلو قلبى من الذكر يوما ... وعلى حبهم حنيت الضلوعا ؟
كلما أولع العذول بعتبى ... فى هواهم ، يزداد قلبى ولوعا !

ثم يقول فى وصفها :

محاسن الشام أجلى ... من أن تحاط بحد
لولا حمى الشرع قلنا ... ولم نقف عند حد :
كأنها معجزات ... مقرونة بالتحدى

ويقول :

قال لى ما تقول فى الشام حبر ... كلما لاح بارق الحسن شامه ؟ (١)
قلت ماذا أقول فى وصف قطر ... هو فى وجنة المحاسن شامه ! (٢)

(البقية فى العدد القادم)

عبد الهادى الشرايبى

---

(١) عواده : توقع على العود ، ملحنة أغرودتها
(٢) بادهه : فاجأه يريد أن نتبارى فى إظهار الوجد

(١) شامه : نظره (٢) الشامة : الخال ، نقطة سوداء تكون فى الوجنة أو فى الجبين ، تزيد جماله سحراً

النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

وجهت احدى المجلات الكبيرة فى مصر إلى بعض الكتاب هذا السؤال : « إلى أى حدّ يجب الاقتداء بتركيا فى نواحى نهضتها الأخيرة » ، فحفزنى هذا إلى الكتابة فى موضوع تجنبته زمناً طويلاً ، لا استهانة به فهو جد خطير ، ولكن اشفاقاً مما يثور بالنفس حين تعالجه

— ١ —

الترك العثمانيون اخوان لنا ، نشأنا على حبهم ، ومنحناهم قلوبنا فتمكن بها ولاؤهم ، وشببنا نعدّهم علَم المسلمين الخفّاق فى زمن تنكست فيه أعلامهم ، وجيشَهم المجاهد على حين تفرقت الأجناد ، وتخاذلت الأعضاد . كنا نعد مفاخرهم مفاخرنا ، ومثالبهم مثالبنا ، ونرى صلاحهم صلاحنا ، وفسادهم فسادنا ، ونفرح كلما فرحوا ، ونبتئس كلما ابتأسوا . وكلما نزلت بهم نازلة نصرناهم جهد العاجز بألسنتنا وأموالنا وبأيدينا وُسعَ الأيدى المغلولة ، والأعضاد المغلوبة . ولا يزال التاريخ الحديث يدوّى بحادثات المدرعة (حميدية) ، وحروب طرابلس والبلقان ، وقدوم الطيارين العثمانيين إلى مصر ، وغير هذا مما يشهد بالحب الصادق ، والمودة المخلصة

ولقد نشأت على هذا الحب ، لا يطربنى إلا ما أطرب الترك ، ولا يسوؤنى إلا ما ساءهم ؛ وفيهم تعلمت الشعر فشدوت به فى حروب طرابلس والبلقان ، وكتبت فى الحرب الأخيرة أعطف عليهم القلوب ، وأستحث الهمم على الامداد بالمال . ولست أمنّ عليهم بذلك فقد كان فرضاً علىّ وعلى غيرى

ولما قذف جنود الترك الأمجاد بجيش اليونان فى البحر كاد الناس فى مصر وغير مصر يجن جنونهم فرحاً وزهواً

— ٢ —

ثم وقعت هذه الواقعات التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، فخابت من الناس الظنون ، وتحطمت الآمال ، وتصدعت القلوب ، ووقفوا وقفة من أصيبت آماله فى أخ صميم أو صديق حميم ، يراه قد ركب رأسه ، واشتط فى هواه ، يقطع أواصر الأخوة ، ويصرم حبال المودة ، لا يستطيع أن يغضى عن سيئاته وهى وخيمة العواقب ، ولا تطيب نفسه أن يسمَّع به ويذيع عيوبه على مسمع من الأعداء

قومى همُ قتلوا أميم أخى ... فاذا رميت يصيبنى سهمى

فوقف يلومه حيناً ، ويجادل عنه حيناً ، ويردّ مقالة الخصماء ، ويحذر شماتة الأعداء ، ويلتمس له المعاذير ، ويتربص به الافاقة من غيّه ، والاياب الى رشده ، ويدعو الله أن يلهمه السداد ، ويهديه سبيل الرشاد . وها نحن أولاء ندعو ونرجو وننتظر

— ٣ —

وبعد فما هذه الأحداث التى تسمى « النهضة التركية الأخيرة » ؟ نستعرض الحادثات لنرى ماهى :

فأما ذود الترك عن حياضهم ، ودفعهم عن استقلالهم ، وإيثارهم الموت الحرّ على العيش الذليل فشنشنة أعرفها من أخزم ، عرف الترك بها فى كل زمان ، وامتازوا بها فى كل ميدان ، وكان لسلفهم فيها غرر مشهورة ، وأعمال مأثورة ، يدوّى بها التاريخ ويشهد بها العدوّ والصديق . فلا ينبغى أن يعد هذا من « النهضة الأخيرة » . فقد كان السلف فيه خيراً من الخلف . كان ميدانهم أوسع ، وعدوّهم أكثر ، وخطبهم أفدح ، وعبئهم أثقل . وتلك على كل حال ، محامد ينبغى أن تتقيلها الأمم ، ويتنافس فيها أولو الهمم

وأما عكوف الحكومة التركية الحديثة على إصلاح البقعة التى أبقتها الأحداث فى أيديها ، وتركتها النوائب من الميراث العظيم — عكوفهم على الاصلاح والتعمير والتنظيم فأمر محمود ، وسعى مشكور ، وفرض تأخّر عن وقته ، إذ حالت دونه الخطوب الكارثة ، والمصائب المتوالية ؛ وهم فى هذا الاصلاح ليسوا مبتدعين ولا سابقين ، فهم يحتذون على مثال الأمم التى سبقتهم فى الغرب والشرق . هم فى ذلك مأمومون لا أئمة ، ومقتدون لا قدوة . والأئمة فى ذلك أمم أوربا ، عنها أخذوا وبها اقتدوا . وعملهم فى هذا التقليد ، عمل حميد . والله يهيئ لهم فى ذلك رشدا ، ويهديهم الى الخير أبدا

— ٤ —

وبعد ذلك أمور نجمل الكلام فيها واحدة واحدة ، ثم نلقى عليها نظرة جامعة لنتبين أين مبدؤها ومنتهاها ، ومصدرها وموردها ، ونرى مكانها من الاختراع أو المحاكاة ، وسنعترف لهم فى هذا بحسناتهم ، ونأخذ عليهم سيئاتهم ، أخذ الصديق الناصح لا العدوّ الشامت ، آملين أن يزدادوا من الاحسان ، وينزعوا عن الاساءة

ونحن إذا خاصمنا القوم فى هذه الأمور فليس خصمنا الأمة التركية جميعها بل الحكومة التركية ، يشاركنا فى رأينا كثير من رجالات الترك الذين حملت كواهلهم أعباء الحرب الأخيرة ، ومهدت أعضادهم لهذا النصر المجيد ، ويشاركنا كثير من العلماء وأولى الرأى ، وكثير من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا

ونبدأ بمسألة الخلافة ، إذ جعلوها فاتحة هذه الأمور ، ومفتاح هذه النهضة ، قانعين بالقول الموجز واللمحة الدالة فى هذا الموضوع الواسع :

مهما يقل القائلون فى صحة الخلافة العثمانية وفسادها ، وجدواها وضررها ، ومهما يفتن المجادلون فى تبيان ماجلبت على الدولة من مصائب ، ورمتها به من عداوة أوربا ، فلا ريب عندى أن الخلافة ما أضرت بالدولة العثمانيــة قط بل نفعتها أحياناً .

ما حاربت أوربا العثمانيين بما كانوا دولة الخـلافة ، بل بأنهم دولة مسلمة شرقية . وقد ثارت الحروب منـذ نشأت الدولة قبل أن يلقب الخليفة العباسى فى مصر بايزيد الأول بلقب « سلطان الروم » ، وقبل أن يفتح السلطان سليم مصر ويحمل إلى استانبول الخليفة المتوكل على الله . ولم يكن مكان الترك فى الخلافة الاسـلامية واضحاً فى معظم أطوار حروبهم ، بل اسـتقرت لهم الخلافة عند المسلمين ودول أوربا أثناء هذا الجلاد المديد ، والحروب المتوالية ، إذ اعترف المسلمون أن رأسهم هو هذه الدولة القوية المجاهدة ، واعترف الأوربيون فى العصور الأخيرة أن للترك أن يتكلموا عن المسلمين كما يتكلم الروس عن المسيحيين . فلم تـكن الحروب نتيجة الخلافة ، بل كانت الخلافة نتيجة الحروب ، وهى على هذا لم تـكن واضحة ولا ادعاها العثمانيون صراحة إلا فى العصور الأخيرة . . . لو أن أوربا شنّت على الدولة العثمانية غاراتها من أجل الخلافة فلماذا قضت على الدولة التيمورية فى الهند ، ودولة الأشراف السعديين فى المغرب وغيرها ؟ ووالت غاراتها على المسلمين فى الشرق والغرب

والحق أن انتحال الخلافة نفع الدولة العثمانية حين ضعفها ، وكساها هيبة وجلالاً فى الشرق والغرب ؛ وقد أدرك ذلك السلطان عبد الحميد فاجتهد أن يمكن هـــذه الخلافة فى نفوس المسلمين كافة ليرهب بهم أوربا

وإن يكن المسلمون قصروا فى الدفع عن الدولة ، وامدادها بالمال والجند ، فماذا عسى أن تستطيع الأمم المغلوبة على أمرها ، الذليلة فى أسر أعدائها . وقد خاف الأوربيون أثناء الحرب الكبرى أن يلقوا الدولة برعاياهم المسلمين فاحتالوا لذلك حيلاً شتى : كان الفرنسيون يأخذون جنود أفريقية يوهمونهم أنهم سيدافعون عن الخلافة والاسلام ، ولم يستطع الانكليز ، بعـد تمرّد الرديف المصرى وإبائه أن يحارب الترك ، أن يرسلوا إلى القتال جندياً من المصريين ، فاحتالوا عليهم وأخذوهم عمالاً وراء الجيش . وقد تطوع كثير من المسلمين لنصرة الدولة فى الحرب والسياسة ، ولو كان أمر المسلمين بأيديهم لـكان لهم موقف آخر . وقد سمعنا من كبار الساسة الترك وغيرهم أن انكلترا أشفقت من أن تقف بجانب اليونان جهرة ، وتنصرهم بكل قواها فى الحرب الأخيرة ، حين ثار مسلمو الهند وطلبوا منها الابقاء على دولة الخلافة ، وأن هؤلاء المسلمين على ضعفهم عاونوا على انقاذ البقية الباقية من الدولة العثمانية . ولا ننس معاونة أمثال السيد السنوسى وطوائفه فى الأناضول وكردستان لتأليب الناس وإثارتهم للجهاد . وقد رأيت بعينى صورة الغازى مصطفى كمال باشا فى قلنسوة سنوسـية أهداها إليه السيد أحمد فلبسها تبركاً

ثم هذه الخلافة العثمانية على وهنها وغموضها كانت فى هذا الزمن العصيب علماً ينظر إليه المسلمون ان لم ينحازوا إليـه ، وتنضوى إليه آمالهم ان لم تنله أيديهم ، وتعتز به نفوسهم وترى فى خفقانه ذكرى الماضى العظيم ، وتباشير المستقبل العزيز

ولقد كان إلغاء الخلافة فى هذه الخطوب المكفهرة كحلّ رباط حزمة من القصب فى ريح عاصف بلغت من المسلمين أسوأ مبلغ ، وبلّغت أعداءهم أبعد غاية . لا ينكر هذا إلا جاهل بطبائع الأمم أو غبىّ عن تاريخ المسلمين . وأحسب أن الانكليز ــ مثلاً ــ كان يهون عليهم أن يبذلوا ملايين الجنيهات ليبلغوا الغاية التى بلغهم إياها الكماليون بغير بذل ولا كدّ

ولا ريب أن الترك حين دفعتهم نشوة الظفر على اليونان إلى إلغاء خلافة الاسلام قد أخروا دولتهم من صف الدول العظيمة إلى صف الدول الصغيرة ، فهم اليوم فى صف دول البلقان . وإن دول العالم العظيمة كانت تتمنى أن تشترى مكانة الترك بين المسلمين بالجهد الطويل ، والمال الوفير ، طيبة نفوسهم بما بذلوا ومانالوا

يقال إن للثورة آثارها ، وللمحنة أعذارها ، وما كان إلغاء الخلافة ضرورة اقتضاها الاصلاح ، ولـكن إفراطاً أدّت اليه الثورة . ونحن نقول مهما يكن السبب فذلك شرّ أصاب المسلمين لا محالة ، وإن عجز عن إدراكه الثائرون فى غبار الثورة ، فقد أدركه

١٥ - قصـــة المكروب
كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وصل الفائت : ذهب بستور إلى شرقى فرنسا يبحث فساد الخمور فأصلحها ، ثم ذهب إلى أواسط فرنسا على نداء الخلائين واستغاثتهم فأصلح ما فسد من صناعة الخل . وما كاد يستقر فى معمله بباريس حتى جاء القدر يدق بابه ، جاءه أستاذه القديم « دوماس » يتطبب لدود القز المريض فى جنوب فرنسا

— ٦ —

فأجابه دوماس : « إن أقليم الحرير فى الجنوب هو مسقط رأسى ، وقد حضرت توّاً من هناك . وقد رأيت ، ويا هول ما رأيت ! رأيت بلدى المسكين ، قريتى « ألياس » المنكودة ، تلك البلاد التى كانت ثرية بالأمس ، زاهية بشجر التوت حتى أسموه الشجر الذهبى ، تلك البلاد أصبحت عراء بلقعا ، وتلك المِراص الخضر أصبحت غبراء ذابلة ، وأهلها وهم أهلى أصبحوا لا يجدون القوت » . وكان صوت الشيخ فيه حزن وضيق حتى كاد يتندّى بالدمع

وكان بستور يقدّر نفسه ويضعها فوق الرجال ، وكان قليل التقدير للغير ، إلا أنه حفظ فى قلبه إجلالاً خاصاً لدوماس . واعتزم أن يبذل المعونة لهذا الأستاذ الشيخ الحزين . ولكن كيف ؟ فبستور فى هذا الوقت لم يكن يستطيع على الأرجح أن يميز دود القز من دود الأرض . بل لقد حدث بعد ذلك الوقت أنهم أعطوه شرنقة حرير فرفعها إلى أذنه وهزها وصاح : « ما هذا ! كأن داخلها شىء ! » . جهلٌ مُطبق بالشرانق والدود

وكَرِه بستور السفر إلى جنوب فرنسا ليفحص مرض هذا الدود ، لأنه كَرِه أن يَخيب ، والخيبة كانت أبغض الأشياء إلى نفسه . ولكن الجميل فيه أنه برغم كبريائه ، وبرغم اعتداده المرذول بنفسه ، استبقى من صباه حبَّ الطفل واحترامَه لمعلمه القديم . فقال لدوماس : « أنا ذا طوع يديك ، فمرنى بالذى تريد ، وارْمِ بى حيث شئت من الأرض »

وحزم أدواته ومكرسكوباته ، وحزم ثلاثة أعوان نشيطين من خلصائه ومريديه ، وحزم كذلك أولاده ، ومدام بستور — تلك المرأة الصبور التى لم تكن تشكو أبداً — وسافر بهذه الحمولة كلها إلى حيث الوباء يفتك بالملايين من دود القز ، ويفقر الألوف من الخلق فى جنوب فرنسا . وبلغ « أليسَ » فأخذ يتعلم هناك أن دودة الحرير إن هى إلا دودة كالديدان تغزل حول نفسها ثوباً من الحرير يُعرف بالشرنقة ، وأنها تتحول إلى يرقة داخل الشرنقة ، ثم إلى فراشة ترفض ثوبها الحريرى فتخرج عنه فتتسلق الشجر وتبيض البيض ، وهذا يتفقّس فى الربيع التالى عن جيل جديد من دود جديد . واستاء رعاة الدود من جهله الفاضح . وذكروا له أن المرض الذى يصيب دودهم يُعرف بالندوة ، وأنه يتراءى على الدود فى صورة بقع صغيرة سوداء كالفلفل . ووجد بستور هناك مئات من النظريات تدّعى كلها تفسير هذا المرض ، ولم يجد من الحقائق الثابتة غير اثنتين ، أولاهما تلك البقع السوداء التى تظهر بظهور المرض ، وثانيتهما كُريّات صغيرة تتكوّن داخل الدودة ، صَغُرت حتى لا تُرى إلا بالمجهر

وقبل أن يستقر فى مهبطه الجديد ، وقبل أن تستقر أسرته فى بيتها الجديد ، كشف عن مجهره وأخذ يحدق فى باطن هذا الدود المريض ، ولاسيما فى تلك الكُريّات ، وخرج سريعا على أن هذه الكريات عرض ثابت من أعراض الداء . وبعد خمسة عشر يوما من حلوله بـ « ألياس » دعا اليه أعضاء اللجنة الزراعية وقال لهم : « عندما يحين أوان اللقاح ، ضعوا كل انثى وذكر وحدهما ، ثم اتركوهما لينسِلا وتبيض الأنثى ، فاذا خرج البيض فافتحوا

البعيدون يقيناً ، وبكوا من أجله طويلاً . على أن عمل الكماليين من بعد دل على أن إلغاء الخلافة لم يكن نزوة ثورة ، بل كان الحلقة الأولى فى سلسلة مصنوعة ، والخطوة الأولى فى خطة موضوعة . ويعتذر بعض المعتذرين بأنه كان لابد للنهضة الأخيرة من جمهورية ، وكان لابد للجمهورية من إلغاء الخلافة ، وهذا عذر أشبه بالذنب . ويعتذر آخرون بأن الصلة بين الروس والترك وحاجة هؤلاء الى معونة أولئك اضطرتهم الى إلغاء الخلافة ، فهل يرضى الكماليون أن يعدّ عملهم فى الخلافة وما بعدها خطة أملاها الروس عليهم ؟ ما أحسبهم يرضون من أصدقائهم أن يقفوهم هذا الموقف ليدافعوا عنهم : وهذا بعدُ لا يخفف المصيبة التى أصابت المسلمين بالغاء الخلافة

— له بقيـــة — عبد الوهاب عزام

بطنيهما وأخرجوا من تحت الجلد شيئا من شحمه ، وانظروا اليه بالمجهر ، فاذا هو خلا من تلك الكريات فاعلموا أن هذا الزوج من الدود سليم ، وأن بيضه سيُفرخ فى الربيع المقبل دودا سليما

ونظر الريفيون الى المكرسكوب وهو يلمع وقالوا : « نحن الزراع لانعرف كيف نعالج مكَنة كهذه » . وكان فى قلوبهم ارتياب وكان فيها قلة إيمان بهذه البدعة الجديدة ، فعندئذ تراجع عنهم بستور العالم ، وتقدم اليهم بستور الداهية الخبير بأهواء الرجال ، فقال لهم : « حسبكم ! حسبكم ! واخفتوا أصواتكم حتى لا يتناقل الناس هذه الفضيحة عنكم ! كيف تعجزون يا رجالاً ضخاماً عن استخدام المكرسكوب وعندى فى معملى بنت لا يتجاوز عمرها ثمانى سنوات تعالجه فى لباقة ، وتكشف هذه الكُريات فى سهولة ؟! » . وقرّرت اللجنة شراء مكرسكوبات وانصرفوا يعملون بنصائحه

وذهب بستور يبذل من نفسه لحركة لا تعرف السكون ، فطاف بالمناطق المصابة بالداء يلقى المحاضرات ، ويسأل الأسئلة ، ويعلّم الفلاحين استخدام المجاهر . ثم يعود فى رَجعة الطرف إلى معمله يوجه مساعديه ويزوّدهم بالنصائح فى تجارب لم يستطع هو اجراءها حتى ولا ملاحظتها . ثم يملى فى المساء على مدام بستور أجوبة كتابات وخطباً ومقالات ، ولا يَطلع الصباح حتى تراه عاد إلى مناطق الوباء يروّح عن الزراع البائسين ، ويخطُبهم ويبشر فيهم بالفرج القريب

ولكن عاد الربيع بغير الفرج والبشرى . وجاء الوقت الذى يبدأ الدود يصعد فيه إلى أفرع التوت لينسج عليها الشرانق فعجز عن الصعود . وقعت الواقعة وخابت الآمال وأُنفقت الجهود فى غير طائل ! أنفق هؤلاء القوم الطيبون أيامهم على المكرسكوب حتى نال الكلال من عيونهم وأوجع ظهورهم ، يطلبون الفَراش السالم الصحيح ليُخرج لهم البيضَ الخالى من تلك الكُريّات اللعينة ، فلما حصلوا على هذا البيض السليم ، أو الذى حسبوه سليما ، فرّخ فخرج منه دود سقيم ، قلّ نماؤه ، وضعفت شهيّته فقل طعامه ، وذهب نشاطه ، فأخذ يدور حول عيدان التوت عاجزاً عن تسلق أطرافها ، زاهداً فى الحياة وفى أطوارها ، غير آبهٍ لهوى الغوانى الحسان فى مفوّفات الخزّ وجوارب الحرير

وارحمتاه لبستور فى تلك الخيبة : جمع المسكين كل همه لتخليص صناعة الخزّ مما دهاها ، فسار ودار وخطب ، ولم يُبق لنفسه وقتاً يَقْبَع فيه فى معمله هادئاً ساكناً يتعرف كنه الداء الذى أصاب الدود . أغراه المجد تخدعه عن العلم ، وأغواه الصيت فصرفه عن الحقيقة ، والحقيقة لا يفوز بها إلا ساخر بالمجد ، عازف عن الصيت ، صبور على العمل ، جلْدٌ على التجربة المسئمة الطويلة

ودفع اليأس بعض أصحاب الدود إلى السخرية به والضحك منه ، ودفع بعضهم إلى السخط عليه والنيل منه . واسود بياض أمامه ، وطلب الخلاص فى العمل فزاد انهماكا فيه ، ولكنه كان الغريقَ ينهمك فى العوم يرجو النجاة ويبغى الساحل ، ثم يقف هنيهة بعد إجهاد ليحسّ الأرض عله يجد قراراً فلا يجد قراراً :

واختلط عليه أمر هذا الدود ، فقد كان يقع أحياناً على نسائل تسرع فى تسلقها عيدان التوت وتأخذ فى نسج شرانق جميلة فيأخذ منها أفراداً للتشريح وينظرها تحت المجهر فيجدها مليئة بتلك الكريات التى كان يحسبها دليل الداء . وأحياناً أخرى كان يقع على نسائل أخرى من الدود سقيمة لا تكاد تهم بالصعود إلى أفرع التوت ، حتى يعتريها إسهال غازىّ ثم تنضمر فتموت ، فهذه أخذ منها أفراداً للتشريح ونظرها تحت المجهر فلم يجد فيها من تلك الكُريّات شيئاً . فأخذ بستور يتشكك فى اعتبار هذه الكُريّات عرضاً من أعراض الوباء . وزاد الطين بلة والحالة سوءً أن دخات الفئران إلى دوده الذى كان يُجرى عليه تجاربه فاستطعمته فالتهمته ، وأخذ أعوانه الثلاثة الساكين «ديكو» و « مايُـو » و « جرنيه » يسهرون الليل بالتناوب على حراسة الدود واصطياد الفئران . وقد يطلع الصباح فلا يكاد ينصرف كلٌّ إلى عمله ، حتى تظهر السحب فى الغرب قاتمة ، فيترك كلٌّ عمله ويهرول إلى شجر التوت يغطيه من المطر . وكنت ترى مدام بستور فى أعقابهم والأطفالَ فى أعقابها . وبستور المتعب المجهود كان لا يستقر فى الامساء فى كرسيه الكبير المريح حتى يأخذ فى إجابة رعاة الدود المناكيد الذين خسروا كل شىء باتباعهم طريقته فى تصنيف البيض

ومضت أشهر طويلة ثقيلة على هذه الحال . جاءته بعدها غريزته تحضه على التجريب ، والقَدَرُ يمهد له سبيل الخلاص ، قال لنفسه : « أنا على الأقل نجحت فى الحصول على بعض نسائل من الدود صحيحة سليمة ، فاذا أنا غذيتها على ورق التوت بعد تلويثه بافرازات الدود المريض ، فهل ياترى تموت هذه النسائل السليمة أم تمرض وتذهب ؟ ! » . وفعل هذا فماتت النسائل يقينا . ولكن غاظه أن التجربة لم تأت بكل الذى حسبه ، فبدل

مراجعات

١

السكر والمِبْرَت

كتب الأستاذ عبد الوهاب حمودة فى العدد (١٠٠) من (الرسالة) كلمة طيبة حقاً عن الجزء الثانى من « ضحى الاسلام » للأستاذ أحمد أمين . ثم أعترض على عبارة وردت فى الكتاب . وقد استغلق على فهم الاعتراض فأحببت أن أناقش فيه الأستاذ عبد الوهاب ، عله يجلو لنا وجه الصواب

قال : « ذكر الأستاذ ـ أحمد أمين ـ فى ص ٢٤٥ أن من نتائج الاختلاف بين القبائل كثرة المترادفات فى اللغة العربية ، ثم ساق مثلاً لذلك فقال إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن ؛ ولى على هذا اعتراضان : الاعتراض الأول أن لفظ السكر ليس بعربى ، بل هو تعريب للفظ شكر الفارسية ، وهى قريبة جداً من لفظها فى اللغة الانجليزية Sugar . راجع . . . . والاعتراض الثانى هو أننى .... الخ » وهذا الثانى ليس فى موضوع المناقشة

ولقد رأيت أن الأستاذ أحمد أمين لم يقل أن كلمة سكر عربية ، ولا يمكن أن يفوته أنها معربة ، ولاسيما وقد سردها فى الكلمات التى أخذها العرب الفاتحون من الفرس فى ص ٢٤٨ من الجزء الثانى من « ضحى الاسلام »

لهذا لم أخرج اعتراض الأستاذ عبد الوهاب إلا على وجه أنه ينكر الترادف فى اللغة العربيـة بين لفظين احدهما معرب والآخر عربى

وقبل الافاضة فى هذا البحث أرى أن أضع أمام القارئ نص العبارة التى وردت فى « ضحى الاسلام » ، والتى وجه اليها الاعتراض لنكون على بينة فى فهمها وفهم الاعتراض . وهاهى ذى : « وكان هذا الاختلاف أيضاً أهم الأسباب فى كثرة المترادفات فى اللغة العربية ، فاحدى القبائل تضع اسما لشىء ، وتضع قبيلة أخرى اسما آخر ، وقد وردت أدلة على ذلك فقالوا : ـ مثلا ـ إن السكر اسمه المِـبْرَتْ بلغة اليمن . . . . . ولهذا كثرت المترادفات كثرة غريبة ، فقالوا إن للعسل ثمانين اسما و . . . الخ » . وعبارة الأستاذ أحمد أمين على هذا الوضع لا تفيد أن السكر لفظ من وضع إحدى القبائل ، إنما هى تفيد أن المِبرَت من وضع أهل اليمن ، وأن المبرت والسكر قد أصبحا مترادفين . والترادف على ما عرفه الامام فخر الدين هو الألفاظ المفردة الدالة على شىء واحد باعتبار واحد ، كذا فى الجزء الأول من المزهر للسيوطى ص ٢٣٨ . وهذا ينطبق على سكر ومبرت ، فلا خلاف فى أن كلمة سكر وإن كانت معربة قد اندمجت فى العربية واستقرت بين ألفاظها وجرت فى كلام فصحاء العرب «وأصبحت ذات حق بمضى مدة طويلة عليها تجرى على أسلات الأقلام ، وتجىء فى أفصح الكلام ، وقد عربها العرب فجرت مع الألفاظ العربية فى عنان »

هكذا يقول الأستاذ الجارم فى ص ٣٢٦ من مجلة المجمع اللغوى الملكى . وقد ذكر عدة ألفاظ من هذا القبيل من بينها سكر ومبرت . وإن كان الأســـتاذ الجارم قد عبر عن هذا بأنه ترادف متوهم فقال : « وهناك أسباب دعت الى توهم الترادف : منها دخول كلمات فى العربية من لغات أخرى . . . . . الخ » إلا أنه عد هذا التوهم من مذهب المتشددين ثم استدرك بما يفيد جواز الترادف فقال : « نعم إن المتشدد لا يعد هذه الكلمات من المترادفات لاختلاف اللغة ، ولكن ما الحيلة وقد شاع استعمالها وأصبحت ذات حق بمضى المدة الطويلة . . . الخ » العبارة التى اقتبسناها . وهناك دليل آخر على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر معرب نجده فى كلام الأستاذ الجارم الذى استند اليه الأستاذ عبد الوهاب فى اعتراضه . بل هو دليل على صحة اطلاق الترادف بين لفظين احدهما عربى والآخر أعجمى خالص . ذلك قوله فى ص ٣١٤ من مجلة المجمع : « والمثل الذى نختاره لذلك هو ما أورده السيوطى فى المزهر للعسل من الأسماء ؛

أن يتغطى الدود بنقط كالفلفل سوداء ويموت بطيئا فى خمسة وعشرين يوما كما يفعل الدود المريض بهذا الوباء ، إذا به يتقوس وينضمر ويقضى فى اثنتين وسبعين ساعة . واغتم بستور وناله اليأس فأوقف التجربة ، وخاف عليه إخوانه الخلصاء مما هو فيه ، وودوا لو أنه يعيد هذه التجربة مرة أخرى

(يتبع) أحمد زكى

وقد وردت على أنها من باب الترادف . . . فمن مرادف العسل الدَّسْتِفْشارُ ـ والمستفشار . وهو العسل الذى لم تمسه النار ؛ وليست واحدة منهما عربية . . . . الى أن قال ... ونستطيع مما سقناه من مرادفات العسل أن نقيس عليه غيره » . فلعل الأستاذ عبد الوهاب يرى بعد هذا جواز إطلاق الترادف بين لفظين فى لغة أحدهما عربى والآخر أعجمى أو على الأقل معرب وللفظ السكر بين المعربات مكان وطيد فى العربية

اليوزباشى أحمد الطاهر

٢

التربية الخلقية والاجتماعية

فى المدرسة

الى الاستاذ فخرى ابو السعود

قرأت ياسيدى مقالك الذى دبجه يراعك تحت هذا العنوان فى عدد « الرسالة » السابق ، فخطر لى أن أعلق عليه هذا التعليق

كلنا متفق على أن الأخلاق فى مدارسنا ليست مما يشرف ولا ينبئ بخير . ولكن الشيء الذى بلبل بالى وشرد خيالى هو طبكم لهذا الداء : هو نصحكم بفصل طبقات الناس فى المدرسة ، حتى تستقيم أخلاق الطلبة فيها ، إذ تقولون فى وصف الداء « قبولها — أى المدرسة — الطلاب من جميع الطبقات ووضعها أبناء الطبقة المحترمة بجانب أبناء الطبقة الوضيعة فى المدرسة الواحدة بلا تمييز » ثم قولكم فى مكان آخر تصفون الدواء (فيجب أن تراعى طبقة الطالب الاجتماعية قبل أن يقبل فى المدرسة ، وأن يكون لهذا شأن فى توزيع الطلاب على المدرسة بل الفصول وتخصيص مدارس فى البلدان المختلفة لأبناء الطبقات الممتازة والأسر الطيبة)

أين ياسيدى هذه الطبقات الاجتماعية التى تعنيها ؟ وعلى أى قاعدة نقسمها ؟ أفنتراجع إلى القرون الوسطى نستلهمها هذا التقسيم فنضع فواصل ومتاريس بين الأشراف والعامة ؟ وإن كان ذلك ياسيدى ، فأين طبقة الأشراف هذه أو الطبقة المحترمة كما تسميها ؟ وأين طبقة العامة أو الطبقة الوضيعة فى رأيك ؟ كيف نعرفها ؟ وبم نميز إحداها من الأخرى ؟

أجل أجبتم ياسيدى عن هذا السؤال فقلتم : « الطبقات المحترمة التى تستطيع دفع المصروفات العالية »

إذن ياسيدى كل غنى فى هذا البلد شريف عالى المكانة سامى الأخلاق ، لا يجوز أن يجلس فى معهد علمى إلى جانب الفقير الذى يجب أن يكون من (طبقة وضيعة فاسدة تعم فيها رذائل الكذب والغش والقحة وجرأة اللسان)

إذن كل من يستطيع أن يدفع مصروفات عالية يعد من طبقة الأشراف ، وكل من يقصر عن ذلك يعد من الطبقة الوضيعة

فأين شرف أكثر الأغنياء فى مصر ياأستاذ ، ومن الذى يعترف بذلك الشرف ؟ أمن الشرف هذه الفضائح الخلقية التى تنشر عن بعضهم كل يوم ؟ أمن الشرف هذه الفضائح المستورة بين جدران « الفيلات » التى لايسكنها إلا الأغنياء ، وفى قيعان « الصالات » التى لا يؤمها إلا الأغنياء ؟

ما رأيك يا سيدى فى أننى ما رأيت أفسد أخلاقا ممن (يستطيع دفع المصروفات العالية) ، وممن يستطيع أن يخرج لك من بطانة ثوبه من المال ما يسيل اللعاب ويغرى الأفئدة ، ومن يعلن فى صوت كالرعد أنه اغتنى غناء لا يجاريه فى غناه أحد . . ثم مارأيك فى أن أغلب من (لايستطيع أن يدفع مصروفات عالية) ومن يطرد من المدرسة كل يوم لعجزه عنها هو المثل الكامل للخلق الكامل . . . ؟

ثم أراك ياسيدى تشبهنا فى ذلك بالانجليز . . . ولست بالطبع فى درايتكم حتى أتحدث عن انجلترا حديث عارف ، ولكن ترامى إلى علمى أن الانجليزى كلما زاد غناه عظم خلقه ، والأمر هنا على النقيض ، فالارتفاع هناك بالخلق ، والارتفاع هنا بالمال ، حقيقة مرة ولكن لا شك فيها

ولكم أود مع ذلك ياسيدى لو تفصل طبقات الطلاب فى المدرسة على هذه القاعدة قاعدة الجاه والغنى حتى يتسنى لكل فقير مؤدب أن يحتفظ بأدبه ويستقيم على خلقه

زكى شنوده جندى

ذكرى سيد الوجود

محمـــد

للأديب محمد البزم

نبيٌّ حبا عدنان فضلاً وسُؤدداً فعمَّتْ جميع العالَمين مواهبُهْ
أخو هِمَمٍ لا يُدرِكُ الدهرُ شأْوَها ويجهلُها أعداؤُهُ وأقارِبُهْ
رأى الـكَوْنَ في تيهٍ من الجهلِ أسفعٍ
تَشُقُّ عُبَـابَ الداجياتِ مراكِبُـهْ
فأطلعَ في آفاقِهِ فرْقَدَ الهـدى
إلى أن أصاب الحقَّ في الليلِ حاطِبُهْ
وَقِيدت له الدنيا مَقادةَ طائعٍ ذَلولٍ فكانت في سواها مآرِبُهْ

***

مُحَمَّدُ إني عن مَديحِكَ عاجِزٌ وشأْوُ بياني دونَ ما أنا طالِبُهْ
أتيتَ وقد شاخَ الزمانُ فَرَدَّهُ نداكَ فتيًّا بعد ما ازْبَدَّ حالِبُهْ
سطعتَ وليلُ الغيِّ مُلْقٍ جِرانَهُ على الكونِ تَهْمي بالرزايا سحائبُهْ
بواتيكَ وَحْيٌ لا يُرام ومنطقٌ بوادِرُهُ محمودةٌ وعواقبُـهْ
فجِئْتَ بقُرآنٍ حوى كلَّ حِكْمَةٍ
أنارتْ دياجي الكائناتِ كواكبُهْ
يُنَصُّ فتُضْمي الظالمينَ حُدُودُهُ وَيُتْلَى فتَرْدِي المارقينَ ثَوَاقِبُهْ
وَقَوَّمْتَ من زيغِ الأعاريبِ فاستَوَوْا
على مَنْهَجٍ لِلعَدْلِ يَأمَنُ راكِبُهْ
وَرُضْتَ جِماحَ المُستَبِدِّينَ راكباً
من الحقِّ متْناً يُوضِحُ السمْتَ لاحِبُهْ
تلطفتَ بالغاوِي فطَوْراً تُلِينُهُ وحيناً تُصاديهِ وآناً تُغالبُهْ
جَلَوْتَ عَمَاياتِ القلوبِ فأبصَرَتْ
وزِيحَتْ عنِ اللُّبِّ السليمِ غَياهِبُهْ
ودافعْتَ عن ذاتِ الإلهِ بِعزْمَةٍ متى رامتِ الجبَّارَ صاحتْ نوادِبُهْ
وأوصيتَ خيراً بالـكنائسِ مانعاً
ذَوِيها ، وجيشُ الحقِّ تمضي قَوَاضِبُهْ
صَقَلْتَ حواشي الدهرِ فانصاعَ طَيِّعاً
وأذْعَنَ لا تَسْرِي بِشَرٍّ عقارِبُهْ
وَقَلَّمتَ أظْفَارَ الزمانِ فأعرَضَتْ
عن الضارِعِ المسكينِ تَنْأَى مصائبُهْ

***

وذي أشَرٍ أنعمتَ بالخيرِ قلبَهُ وقد أنعمتْ بالشرِّ قبلاً تَرائبُهْ
وذي دُرْبَةٍ رازَ الزمانَ تَرَكْتَهُ
كَذِي الجهلِ ما أجدَتْ عليه تجارِبُهْ
وَغَضْبَةِ حقٍّ في عُلَى العُرْبِ غادرتْ
عدوَّ بني عدنانَ سُفْلا مراتِبُهْ
وفَيْلَقِ ظُلمٍ سارَ كالبحرِ زاخراً يَجُرُّ بهِ ذَيلَ الغوايةِ ساحِبُهْ
بعثتَ به جيشاً من الرُّعْبِ فارْعَوَى
تضيقُ بهِ أجْوَاؤُهُ وسباسِبُهْ
يخِفُّ إليك الدارعونَ مخافَةً وقد أمِنَتْ أطفالُهُ وكواعِبُهْ
يحوطُكَ من عُليا قُرَيْشٍ عصابةٌ لها الفلَكُ الدوَّارُ تعنو ذوائبُهْ
جَرَرْتَ بهم ما بين شرْقٍ ومغربٍ
كتائبَ عزمٍ نائياتٍ رغائبُهْ
إذا مرَّ منهُمْ موكِبٌ لاحَ موكِبٌ
تمُجُّ زُعافَ الموتِ صِرْفاً مَقانِبُهْ
بكلِّ فتًى ماضِي العَزائمِ لَهْذَمٍ إذا اعتزَّ شأنُ العُرْبِ يعتزُّ جانبُهْ
يرُومونَ مجْداً لا تني عزَماتُهُمْ عن المجدِ حتى يدرِكَ المجدَ خاطِبُهْ
دفعتَ بهم في وَجهِ كلِّ عظيمةٍ فخاضوا إليها الموتَ دُهْماً مسارِبُهْ
فأسْأَرْتَ للأقْوامِ في كلِ وِجهَةٍ جَدًى لم تَشُبْهُ بالأذاةِ شَوائبُهْ
وغادرْتَ للإسلامِ صَرْحاً مُمَرَّدًا تُناطِحُ أعنانَ السَّماءِ مناكِبُهْ
فلا زَالَ مِنْ فُرْقانِكَ البِرُّ للوَرَى مناهِلُ هُدًى صافياتٍ مشارِبُهْ

دمشق **محمد البزم**

تأبين الكاظمى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

صدق النعىُ ومات عبد المحسن   يا شعر أبّنه و يا نفس احزنى
يا شعر أنت ومحسنٌ قد كنتما   عمراً رفيقىْ غربةٍ وتوطّن
قد عشتما فى كل منزلة معا   كالفرقدين اللامعين وأحسن
أو زهرتين ولا أرانى داريا   أشغفتُ بالنسرين أم بالسوسن
حتى احتوته يدُ المنايا بغتة   بمخالبٍ معقوفةٍ كالمحجن
لمن الزعامة فى القريض ومن لها   بعد الخفىّ الشاعر المتفنّن
ملأت قصائدُه القلوبَ حماسةً   من بعد ما شغلت جميع الألسن
شعرٌ يكاد يسيل منه لفظُه   مثل الندى من رقةٍ فيهزّنى
شعـرٌ إليـه بفعل مغناطيسه
في السمع تنجذب القلوب وتنحنى
العبقريةُ فيه مُعتَرَفٌ بها   من ذا يسىء ظنونه فى المحسن ؟
شيخ القريض قضى فكان عليه لى
حزنٌ بعيـدٌ غورُه قد مضّنى
فى كل قطر أبّنته عصبةٌ   ما كلُ من لاقى الردى بمؤبّن
بكت العروبة فى الجزيرة محسنا   ماموتُ شاعرها الكبير بهيّن
فقـدت فأوجع قلبها فقدانُها   منه فتًى شهماً كريم المعدن
مات الذى كانت به معتزّةً   يا رب إن الخطب جلّ فهوّن
قد كان فى كل المواقف واثقاً   بالنفس شأن الشاعر المتمكن
دفنوه فى ملحودة وخيالُه   فى أعينى فكأنه لم يُدفن
ما كان للآداب إلّا روضةً   ما شئتَ من زهرٍ حوته تجتنى

* * *

مَن للغريب قضى وكان مولّيا   للطرف عند الموت شطرَ الموطن
قد ودّ لو أن المنيّــة أمهلت   وإليه عيدَ به قريرَ الأعين
لـكنها قد أعجلتـه بضربةٍ   من كفها فى وثبةٍ من مكمن
الشــعرُ أسمع شاجياً خفقانَه   فـكأنه أنّات قلبٍ مُثخَن
ياشعر أنت من الفجيعة مؤلَمٌ   وأرى الأسى بجبينك المتغضّن
بينى و بينك فى الحياة وشيجةٌ   وجميعُ ما هو محزنٌ لك محزنى
يا شعر بعد الناثرين دموعَهم   إن كان عندك ماتبثّ فبيّن
ما أكبر الأخلاقَ فى نفس امرىء
إن خاشنته الناسُ لم يخشوشن

* * *

قد عاش عيشاً والحياةُ مُلحّةٌ   ما كان بالمغْنى ولا بالمسمن
من ديدن الشرق احتقار ذوى النهى
والشرق ليس مُغيّراً للديدن
الكاظمىّ قد اعتنى ببلاده   وبلاده بحياته لم تعتن
لو كان يحظى فى العراق ببلغةٍ   ماسار يقصد مصرَ عبدالمحسن
بلدٌ به بخلاف ما فى غيره   شبع الدخيلُ وأسغب ابن الموطن

* * *

للمرء فى الأرض الفضاء مساكنٌ   أنّى مضى والقبرُ آخر مسكن
والموت فوق جنادل وصفائحٍ   كالموت حُمّ على فراشٍ ليّن
لاتسألونى عن مصير مَن انطووا   أنا بالعواقب لستُ بالمتكهّن
قالوا وراء الموت أهوالٌ ولم   أحفل بما قالوا ولم أتيقّن
ولعل هذا الموت مبدأ رحلةٍ   للروح خالدةً وراء الأزمن
تبنى الحياة لها الصروحَ من المنى   والموت يهدم كلّ ماهى تبتنى
فى الكون هذا كلُ شىء ممكنٌ   إلا البقاء فذاك ليس بممكن
وكأننا صور الخيال لبرهـةٍ   نبدو ونخفى عن شعاع الأعين
الكون عن ماضيه لم أك راضيا   والكون عن آتيه لستُ بمأمن
فرحٌ بجانبه همومٌ جمـةٌ   هـذا منيحةُ دهرك المتلوّن
لابد من موتٍ لمن هو عائشٌ   فاشجُع إذا قابلتَه أو فاجبن
إن المنون لرابضٌ مُتحيّنٌ   ماذا مرادُ الرابض المتحيّن

* * *

أرَبابُ إن الحزن يقتل أهلَه   أرَبابُ يا ابنة محسنٍ لا تحزنى
أرباب صبراً فالحياة فريسة   والموت ذئبٌ إن سطا لاينثنى
يا بلبل الشعراء مالك صامتاً   من بعد تغريد بشعرك مُشجن
قد سرتَ قبلى للردى متعجّلا   ولعلّنى بك لاحق ولعلّنى

(بغداد)   جميل صدقى الزهاوى

أبو الطيب المتنبي

للأستاذ معروف الرصافى

كان أبو الطيب امرأ قوَلَهْ　　يبتكر الشعر مذكياً شُعَله
صاحب نفس كبيرة شرفت　　فشرَّفت حله ومرتحله
كان هو الشاعر الذى انتشرت　　أشـعاره فى البلاد منتقله
أوجد للشعر دولة عظمت　　به فعزت من غيره دُوَله
من كل معنى أغر مؤتلق　　فى لفظه كالعروس فى الحجَله
وربمـا رق لفظه فبدت　　فى شعره كل كِلْمةٍ ثمله
وربمـا لم تَبن مقاصـــده　　لأنهـا فيه غير مبتـــذله

فسائلن عن قريضه حلبا　　كم قطفت منه زهرة خَضِله
خلد ذكرا لسيف دولتها　　أيام وشًى بمـــدحه خلله
فاعجب لسيف لم تَبْل جدته　　وشاعر بالمديح قد صـــقله

لو حاز موسى مضاء عزمته　　ما تاه فى التيه عندما دخله
وهو الذى اجتازه بِيَعْمُـلَةٍ　　تحمل منـــه الهمام لا الثُّكَلَه
قد بات كافور من جراءتها　　على الموامى بمهجة وجله
إذ أعجزته بالسير عن طلب　　لا خيـــله تخشى ولا إبله
فسل به النيل يوم ناقتُــه　　تغمرت منــه وانتحت جبله
كيف أتى مصر كالعقاب لكى　　يبلغ فيها بشـــعره أمله
وكيف أحيا بالمدح أسودها　　ثم وشـيكا بهجوه قتــله

فى شعره حكمة مهـذبة　　وروعـة بالذكاء مشتعله
ونغمة بالشعور صادحـة　　وصنعة بالفنون متصـله
قدرته فى البيان واسعة　　يتيه فيها السؤال والسَّأله
إذا المعانى بذهنه ازدحمت　　ما ربكت فى انتقائها حيـله
كم شاعر قد قفا له أثرا　　وناقد راح يبتغى زلله
فأخفقوا عاجزين عن درَك　　لبعض ما كُلُّهُ تيسر له

قل لابن عباد أى منقصـة　　من أجلها كنت مكثراً عذَله
أطبعُه بالذكاء متقـــداً　　أم نفسه بالاباء مشتمله
أم شعره والعصور ما برحت　　تسعى بكل استجادة قِبَلـه
لكنما رمت من مدائحـه　　مالم تكن سالكا له سبله
طَمَاعة منك غير واعية　　وهى لعمرى حماقة وبَلَهْ

أكبر من أكبر القريض به　　وأكبر القاتلين من قتله
يا قاتليـه لو تعلمون به　　إذن قتلتم نفوسكم بدله
لكنكم تجهلون رتبتـه　　ماذا فعلتم يا أجهـل الجهله
قتلتم الشعر والاجادة والأ (م) بداع فيـه يا ألأم القتـــله
لستم بذا القتل من بنى أسد　　بل انتموَ فيـه من بنى ورَله

لم يزل الدهر بعد مقتله　　يضرب فى الشعر للورى مثله
كان له عند كل بادهة　　بدائع فى القريض مرتجـله
يصطاد فى الشعر كل شاردة　　من القوافى بفطنة عَجِله
فلا تقسـه بغيره أدبا　　وهل تقاس المعطار بالتفله

كم شاعر يدعى وليس له　　من شعره غير منطق الحجله
إن أنت أنشدت شعره هزؤا　　رجعت منه كآكل البصله
ورب شعر إذا لفظت به　　من هجنة فيه تأنف السـبله
الشعر معنى ألفاظه حسنت　　فنسقت فى بلاغة جمله
وكلما قصرت قوالبـــــه　　عن حسن معناه أوسعت خلله
حسن المعانى بلفظها شوه　　كحسن حسـناء ثوبها سمله

من ذاق فى الشعر طعم معجزه　　فاحمد الشاعر الذى أكله
أى مقام هيجاؤه احتدمت　　بالشعر يوماً ولم يكن بطله
كان عزيزاً يأبى الهوان فما　　قر عليـه يوماً ولا قبله

معروف الرصافى

القصص

من أساطير الإغريق

هِيرو ولِياندَرْ

المأساة الغرامية المؤلمة

للأستاذ دريني خشبة

أرسلوها الى الدير ، طفلةً بريئةَ النفس ، طاهرةَ القلب ، بَسَّامةَ الثغر ، وضَّاحةَ الجبين ؛ كما وضعت إبهاماً فى فمها تمصه ، تمثلت فيها سذاجة الطفولة وجمالها ودَعَتُها

ونَذَروها لڤينوس ، فكانت ربة الحب تتسرق فى القمراء الصافية لترعى طفلتها ، ولتنفُثَ فيها من رُقى السحر ما تُمدُّها به لمستقبل غرامى ملىء . وكان الكهنة يتفرسون فى شفتىْ هذه الوديعة الصغيرة ألغازاً لا يدركون لها كنها ، وأسراراً لا يفقهون لها معنى ، إلا كُنْه الصبابة الحمراء تنثال فوق الثنايا الأربع البراقة ، وإلا معنى القُبَلِ الناضجة يختلسونها كلما افترَّتا عن ابتسامة ، أو انفرجتا لِدَغدغةٍ أو تحميش

وشبت هيرو

وتفتح الورد فى خديها الناعمين ، واستيقظ النرجس فى عينيها الناعستين ، وضحكت ڤينوس فى شفتيها الحمراوين ، ونبت الخَمَلُ الحريرى يُطَرِّىْ صباها الغض ، وشبابها الفينان !

وعُيِّنتْ راهبةً لڤينوس فى سِيستوس ، المدينة الخالدة ، التى تربض على شاطئ الهلسبنت (١) الأوربى ، قبالة أبيدوس ، مدينة الأحلام ، على الشاطئ الأسيوى

ولبثت الراهبة الرائعة تؤدى الطقوس والشعائر الدينية لربة الجمال والحب ، فى برجٍ مشيدٍ مشرف على البحر فى قصر أبيها ، ولبثت الشهرة تذيع محاسنها فى المدينة الكبيرة ، والصيت الرنان يتحدث عن جمالها بين الأهلين كما يتحدث الشذى عن وردِه ، والأرَج عن رنده ، حتى أصبح اسمها أغنية كل فم ، وهُتافَ كل لسان

وسمع لِيانْدَرْ ، فتى أبيدوس وأشجع شبابها ، والذائد عنها فى كل حومة ، بهيرو الراهبة ، فعجب أن تكون حقيقةً كما يصفها الناس ، وحسب أن المبالغة هى التى نفخت فى شهرة هيرو ، فلم يهتم لما سمع عن مفاتنها ، وصرف ذهنه الشاب الفتىَّ عن هذه الطوبى التى سلبت ألباب الفتيان ، وغدت حلماً ذهبياً لكل مدله ولهان

ولكنه كان يزداد تذكراً للفتاة كلما بالغ فى نسيانها أو تناسيها ، وإذا صح أن الأذن تعشق قبل العين أحياناً ، فلقد كانت أذن لياندر عاشقةً وامقة ، وما برحت تلح على قلب صاحبها بالعشق والمقة ، وما برح يعرض عنها ولا يصغى لها ، حتى أُعلن فى سيستوس عن حفل ضخم يقام فى هيكلها تكريماً لڤينوس وتقديساً ، وأن الشباب من الجنسين مدعوون للمشاركة فى الاحتفال بربة الجمال والحب ، وليس أولى من الشباب بتكريم الجمال والحب !

وترامى خبر الاحتفال حتى بلغ الشاطئْ الأسيوى فى أبيدوس وحتى سمع به لياندر ، فابتسم ، وشعر فى سويدائه بأول قبس من نار الحب ، فألهب إحساسه وأشعل قلبه ، وملأ أضالعه شوقاً الى هيرو وتحناناً

واعتزم المشاركة فى الاحتفال ، لا تقديساً لڤينوس ، ولكن لينظر الى الراهبة الحبيبة التى ملأت خياله ، وأصبحت مثله الأعلى الذى ينجذب دائماً إليه ، مدفوعاً بالقوة الخفية الخارقة ، خاضعاً للسحر المطوى العميق

وإذْ كان اليوم المنشود ، ارتدى الفتى أبهى ملابسه ، وانطلق يحدث نفسه أمانى الحب ، ويتغنى أغرودة الجمال ، وظل يحلم فى طريقه الى سيستوس بهذا الأمل اللمَّاح ، الذى يشبه

(١) الهلسبنت هو بوغاز الدردنيل المعروف

في تحجبه في ثنايا المستقبل ، قمر ليـلةٍ مكفهرة قمطرير ، ما يفتأ يتخايل في تضاعيف السحب !

وعبر الهلسپنت في زورق أبيض جميل ، تمخر ما بين العـدوتين في ساعةٍ كانت في فؤاد العاشق المشتاق أطول من أحقاب وأحقاب !

وقصد الى الهيكل ، وطفق يدافع الجماعات ، ويزاحم الجماهير ، حتى كان بين يدي هيرو

وكانت باقات الورد تتناثر من هنا وهناك تحت قدمي الراهبة الصغيرة التي استوت على منصة ترتفع قليلاً عن مقاعد المدعوين ، مشرقة مُونقة ، كأنها زنبقة ، ملتفعة بُردها الحريري الأبيض ، متكئةً بذراعها اللدنة الجميلة على سنادة المنصة ، مقابلةً عينيها الدعجاوين في الجماهير المتكبكبة حولها تلتمس البركات . . .

وكانت ڤينوس قد أقبلت من مملكة الأولمب تشهد المهرجان الحاشد ، وتُشبع خُيلاءها باستملاء الشباب الهاتف باسمها ، المترنم بعبادتها ؛ وكان معها أبناؤها الغُر الميامين ، وفيهم كيوپيد



ڤينوس وكيوپيد وعطارد

وهرمونيا ، فاختبأوا في أبراج الهيكل ، ولبثوا ينظرون إلى الملأ ويعجبون

وأرسلت ڤينوس عينها الفاحصة في الملأ ، فرأت لياندر العاشق يرنو الى هيرو الراهبة ، وتكاد عيناه تلتهمانها التهاما ؛ ولاحظت أن هيرو منصرفة عن الفتى المسكين لا تكاد تعيره نظرة ، ولا تمنحه التفاتة ، وهو مع ذلك مشرئب اليها ، ينظر نظراتٍ كلها عبادة ، وعيناه مغرورقتان بدموع تكاد تنهمر

وتحرك حنان الحب في فؤاد ربة الحب ، وأقسمت لتعاونن في هذا المشروع الغرامي العظيم ! !

وذلك أن ڤينوس لم تكن تجيد الحب لنفسها فقط ، بل كان يثلجها ويملؤها غبطةً أن ترى إلى عبرات المحبين ، وتسمع إلى رنين القُبل في شفاه العاشقين ؛ فأشارت إلى ولدها كيوپيد — رب الحب ، وصاحب السهام الذهبية والقوس ذات الوتر المُرد — فأقبل عندها ، وألقت إليه أوامرها . . .

فوتر كيوپيد قوسه ، وتخيّر واحداً من سهامه ، وانتهز فرصةً من هيرو كان نظرها متجهاً فيها إلى لياندر ، وأرسل إلى قلبها السهم الذي يحمل رسالة الحب ، فدخله غير مستأذن ، وملأه لوعةً وصبابة . . . وجُنّت للحظتها بالفتى . . .

وتخير كيوپيد سهماً آخر ، وأرسله هديةً حارةً ، دامية ، إلى فؤاد لياندر . وما كاد يستقر فيه ، حتى أحس الفتى أنه لم يغد واحداً من هذه الأجسام الفانية الهالكة بعد ، بل هو قد صار طيفاً نورانياً ؛ وأحس مع ذلك بحب غامرٍ لم يكن له به عهد من قبل ، جعله يفنى فناءً تاماً في هيرو الراهبة ، التي نظر فألفاها تلتهمه هي الأخرى بعينيها وقلبها التهاماً ! ! . . .

لله يا حب ما أجملك ، وما أبر ڤينوس بعبادك ! . . .

ودلف لياندر نحو المنصة ، وتمتم بكلماتٍ خافتةٍ ، (كأنما هي بَثُّ الورد للمطر !) يفهمها المحبون وحدهم ، حين يتكلمون بأطراف الشفاه والعيون ؛ فعلمت هيرو أن حبيبها يُقرئها حبه ، ويسرُّها هيامه ، ويرجو منها أن تمنحه ميعاداً يلقاها فيه على حدة ، ويعبدها خلاله على انفراد

وارتبكت هيرو ، وتصارع في نفسها الخوف والحب ؛ الخوف من أن يلحظ أحد أن راهبة ڤينوس تصبو ، وبذلك يهوى احترامها إلى حضيض السخرية ، والحب الذي تكتمه في صميمها للياندر ، والذي أثاره فيها سهم كيوپيد ، ولم تر إلا أن

تهجر العاشق الملح لينصرف ، ولكنه ما يزداد إلا تعلقاً بها ، وتشبثاً بما طلب اليها ، ورجاها فيه ، وتكون هيرو قد بلغت حالةً بين الهيام والاشفاق لا تحتمل ، فتهمس اليه أن ينتظر حتى ينصرف الناس ؛ فاذا انصرفوا ، خلت إليه ، وحدثته حديثاً موشى بالورد ، مبللاً بدموع الحب ، يختلط فيه أنين الآهات برنين الموسيقى . وتذكر له أن اتصالها سيظل حباً فى حب ، وبكاءً فى بكاء ، ولوعةً فى إثر لوعة ، وزورة مختلسة تعقبها زورة مختلسة : « لأنى راهبة كما تعلم ، وأنا خادمة هذا الهيكل الفينوسى المقدس ، وسأظل عذراء أبد الدهر ، فلن ينتهى حبنا إلى هذا الزواج الذى أوثره وأشتهاه . فاذا كان الغسق يا حبيبى ، وتألق النجم فى كبد السماء يردد أنّاتنا ، فاقصد إلى شاطىء البحر عند أبيدوس ، واخلع ملابسك ، ثم خض عباب الهلسبنت حين أعطيك إشارةً من مصباحى ، حيث أكون فى برج قصرنا المشرف على البحر عند أقصى حدود سيستوس . فاذا وصلت ، وستصل سالماً فى رعاية ڤينوس ، فهلم إلىّ فى البرج نلتذ آلام الحب ، ونتغنّ أشجان الهوى ، واضعة رأسى على صدرك أو واضعاً رأسك على صدرى ، شاكين إلى الآلهة ما بنا من برح ، حتى يطلع الفجر فنفترق ، وتعود أدراجك إلى الشاطىء الأسيوى سابحاً ، فاذا كان غد ، عدتَ إلىّ لأفنى فيك وأغمرك بالقبل ، ولأقرأ فى نفسك ، وتقرأ فى نفسى ، كتاب الحب وآى الطهر ... وبوركت ڤينوس ! »

ولقد آثرت هيرو خطة الحذر فى صلتها الغرامية بلياندر ، لأن شطئان الهلسبنت كانت حرماً على السفائن والزوارق وسائر الجوارى بعد ساعة من غروب الشمس ، فلو قد ركب زورقاً وعبر به البوغاز ، لعرّض نفسه لأخطار جسام من بينها عقوبة الاعدام دون محاكمة ! لذلك لم يكن بد من أن يقطع البحر سابحاً كما رسمت له هيرو

« معبودتى ! سأخوض العبـاب فى سبيلك »
« وأطوى بحار الجحيم لو أنها تحجزنى عنك »
« فلا الموج جياشاً باللهب ، ولا الأعماق تقذف بالحمم »
« ولا الفزع الأكبر فى الأرض أو فى السماء ؛ لاهذا ولا »
« ذاك يحول دون لقائنا يا معبودتى ! (١) »

***

فلما كان غد ، وتوارت الشمس بالحجاب ، وأقبل ليل العاشقين بشكواه ونجواه ، يمم لياندر شطر البحر ، ووقف فوق رمال الشاطىء كأنه يمدُّها ، ولبث يرقب البرج على العُدْوة الأخرى ، وفى قلبه أمل مضطرب ، وفى نفسه قلق مستمر ، وملء يديه مُنى تملأ العالم بأسره !

وظل يذرع الشاطىء جيئة وذهوباً ، وهو حين يروح أو حين ينثنى ، يحملق فى البرج المشيد لا تريم عيناه عنه . وكانت الرياح تدمدم فى جنبات الآكام الممتدة على الساحلين ، والموج يزخر فى غيران طوروس الشامخة ، والبحر يقذف مراطينه على الكثبان البعيدة النائية ، والسحب تتجمع وتتفرق كأنها موج الظلماء فى خضم السماء . . .

وفجأة لمح لياندر بصيص النور فى كُوَى البرج الشاهق ، فانفلت من ثيابه كأن الشعاعة تجذبه ، ولم يعنه أن يمزّق هذا الكم ويشق ذاك الجيب ، ولم يبال أن يقذف بالقميص هنا وبالبرد هناك ؛ ثم ينقذف فى الماء ويأخذ فى سباحته ، ترفعه موجة حتى ليحسب أنه يمسك النجم ويلمس السماء ، وتخفضه موجة حتى ليخال البحر ينشطر بحرين ، وهو فى أعماق القرار يؤانس التريتون ، ويجالس الأوسيانيد(١) ! !

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . . .

ومابرح يصارع البحر والبحر يصرعه ، ومابرح يتقدم الى أمام ويسحبه التيار الى وراء ، وكلما خانته قواه نظر الى البرج يتزود من بدره قوة ، ومن القبل الحارة التى تنتظره ثمة دفئاً ونشاطاً مجدداً !

وبلغ الشاطىء . . .

ووجد هيرو تنتظره كأنه الأمل المرتقب ، والمُنْية المرتجاة ، فهرعت اليه واستقرت فى حضنه ، ولبثت تتسمّع الى دقات قلبه الواجف الذى يخفق لأول مرة بموسيقى الحب ! . . . .

« وامتد فم الفراشة المرتجف ، يرشف رحيق القبلة الأولى من الثغر الحبيب الذى تفتحت عنه جلنارة الحب(٢) »

وتمزقت السحب وتكشفت السماء ، وأطلت النجوم ترنو إلى العاشقين المدلهين يتباثان ويتشاكيان ، ويأخذان فى لذة الهوى الطاهر ، ونعيم الحب البرىء . . . . .

وكانت ڤينوس تنظر من علياء الأولمب وتلهو . . .

ونَسَمت فى الأفق الشرقى أنفاس الفجر ، فنهض الحبيبان

(١) من أدوين أرنولد

(١) التريتون فتيات البحر ، والأوسيانيد عرائس المحيطات (العدد السابق)
(٢) من لورد بيرون

يودع أحدهما الآخر ، ويتزودان للنهار الطويل من زاد الهوى نظرات وقبلات ! !

وفصل لياندر ، وأطلت هيرو من الـكوَّة الصغيرة تنظر إليه وهو يداعب الموج والموج يداعبه ، والزبد يلبسه ويخلعه . . وڤينوس تنظر وتلهو . . .

* * *

وأشرقت الشمس وتوارت ، وأقبل الليل وتنفس الفجر ؛ وعصفت الريح أو هبت رُخاءً ، والتمعت الشعلة تضيء للعاشق ظلمات العباب . . . واطمأن البحر إلى صاحبه حتى خاله أيسر عليه من ظهر الأرض ، فـكان يطويه إلى مُنية نفسه وهُوِيَّة قلبه فى كل موعد منتظر ، ثم يؤوب على متنه حين ينصدع عمود الظلماء ، وكأنه يمتطى من ظهور الموج الصافنات الجياد . . .

وكان فجراً شاتياً يكاد سنا برقه يخطف الأبصار ، وزمزمة رعوده تهد جوانب الأفق ، وكان البحر يتقلب ويرتعد كأنه زلزلة تأخذه من أعماقه ، فأوجست هيرو خيفة على حبيبها ، وتعلقت به ، وراحت تغمره بالقبل متوسلة ضارعة ، ترجو منه أن يبقى بجانبها ولا يجازف بحياته فى هذا اليم المصطخب ، وهى تدبر له مخبأ يأويه ذلك اليوم ، حتى تسكن العاصفة ، وينام الماء . . .

وثارت النخوة فى نفس لياندر ، وشاعت الـكبرياء فى جسمه القوى المفتول ، وأنف أن يجبن أمام الطبيعة الساخطة الغضبى ، فطمأن هيرو واحتملها كالحمامة فى يديه الجبارتين ، وطبع على شفتيها المرتعشتين قبلة تجمعت فيها روحه كلها ؛ ثم انفتل من بين ذراعيها الضعيفتين ، وهرع إلى البحر نخوض فيه ، ملتفتاً بين برهة وأخرى محيياً البدر الصغير المشرف عليه من الشاطئ . .

وڤينوس البارة تنظر من الأولمب وتلهو . . . .

وأحس فى منتصف الطريق برعشة وإعياء ، ولـكنه كان يهتف باسم هيرو مرة ، وباسم ڤينوس أخرى ، فتنشط الثمالات القليلة الباقية من قوته الفانية . . . . ورثت لحاله ربة الحب ، فنفخت فى ذراعيه المجهودتين حتى وصل إلى شـاطئ ابيدوس مهدوداً محطماً . . . وتهالك على نفسه ، فوصل الى منزله ، وأوى إلى فراشه ليحلم بالموت المحقق الذى نجا منه منذ ساعة . . .

* * *

وغابت الشمس ؛ ولـكن العاصفة ما برحت تزداد شـدة وعنفواناً ، والبرق ما فتئ يطوى السماء ، وكان كل شئ ينذر لياندر بسوء المنقلب ؛ ومع ذلك فقد نهض غير مستيئس ، وقصد إلى الهاسبنت فوقف بشاطئه يبتسم للأهوال التى يضطرب بها بطنه ، ثم لمح الضوء ينبعث من كُوَى الـكوخ . . . فخلع ملابسه ، وبدأ رحلته . . . .

وكانت ڤينوس لا تنظر ولا تلهو . . .

لأنها كانت عند حبيبها أدونيس [(١)] الراعى الجميل تستمتع به ، بعد إذ فضحها أبوللو فى حبيبها مارس [(٢)]

ولم يَسْلُ لياندر من البحر مابلا هذه الليلة . . . فلقد كان الموج كأنه ألواح من الثلج تتكسر على ظهر الفتى المسكين ، وتصدع ذراعيه ، وترتطم برأسه . . .

ولقد كان الماء هذه الليلة كأن شيئاً من الصَّبر قد ذاب فيه ؛ بعد إذ كانت ملوحته تستحيل شهداً فى فمه ، وعسلاً مصفى !

ولقد كان البَرَد يَنهَلُّ من الـحب القاتمة ، والصقيع يَسَّاقط كَنَدَف القطن الأبيض ، فيعلق بشعر لياندر ، وينسج فوقه قلنسوة ـ ولا نقول تاجاً ؟ . . ـ من برودة الموت . . .

وجاهد العاشق . . .

وسبَّح باسم هيرو بين موج كالجبال ، وليل كله ظلمات ... وا أسفاه ! !

لقد نظر المسكين إلى البرج يتزود من نوره ، ولـكنه لم يَرَ الشعاعة تتألق كما عَوَّدَته . . .

لقد أطفأتها الرياح الهوج فأطفأت فى قلبه بصيص الأمل . . واستولى عليه خور الفجر السابق ، ودهاه القنوط فى عضلاته ، فيئس منها جميعاً . . . وضاعف النـكبة شرقه بالماء حين أراد أن يهتف باسم هيرو . . .

فغاص ! . . .

ولفظه اليم جثةً هامدة . . . ثم ابتلعه ثم لفظه . . .

ثم انتصف الليل ، وهيرو المشوقة حاملةٌ مصباحَها الخافتَ ، بعد إذْ أشعلته ثانية ، ولـكن الساعات تمضى . . . ولا يصل لياندر . . .

وتنفس الصبح ، فسارعت الراهبـة الهيمانة إلى البحر ، وحملقت فى الماء . . . . فأبصرت الجثة الحبيبة ترتطم بأصل البرج ، كأنه حنين الجسم إلى أحلام الروح . . .

وصعقت هيرو . . .

(البقية فى أسفل الصفحة التالية)

(١) سننشر أسطورته قريباً (٢) العدد السابق

من الأدب الايطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة اليوزباشى الاديب احمد الطاهر

٢

قصة حب

سيمون وأيفيجينا

قال : سمعت من القصص شيئاً كثيراً وكان أحبها إلى نفسى قصة الحب التى ستسمعون . هى قصة تريكم ما للحب من قوة وبأس بالغين الغاية فى العجب ، موفيين على النهاية فى الغرابة

كان يسكن جزيرة قبرس فى الزمن الخالى رجل عظيم القدر بين الرجال ، واسع الثراء بين أصحاب المال ، وكان اسمه « استيبوس » ؛ غير أن الرجل لم يكن مكتمل الحظ من السعادة ، فقد كان له ابن طويل القامة وسيم الطلعة ، ولكنه ضعيف الادراك سقيم الفهم مطبق الغباء . ولم يكن فى وسع أبرع الأساتذة والمهذبين أن يوقظوا غفلته ، أو يصقلوا طبيعته ، أو يهذبوا غلظته ، فلم يجد الوالد بداً من أن يقصى هـذا الفتى المنكود عن مرآه ، ويبعده عن موطنه . فأرسله إلى منزل له فى الريف يعيش فيه بين الاتباع والعبيد . ولقد كان الفتى أميل إلى طباع أولئك وأقرب : ففيه خشونتهم وجفاؤهم وغلظة طباعهم

— كان الفتى يوماً يمشى فى المزرعة وقد أسند عصاه إلى كتفيه ، واعتمد على طرفيها بذراعيـه ، فالفى فتاة بارعة الجمال مستغرقة فى نوم عميق ، قد اطمأنت إلى الحشائش الخضراء فراشاً وثيراً ، ونام عند قدميها امرأتان وخادم . لم يكن لسيمون — وهذا اسم الفتى — عهد بوجوه النساء فاتكأ على عصاه ، وحدق ببصره فى وجه الفتاة ، أن كانت بارعة الجمال فى نومها ، ساحرة الحسن فى غمضها ، هاج مرآها من نفسه شعوراً وإحساساً لا عهد له بهما ولا بأقل منهما ، وكلما أمعن فى النظر ازداد هذا الشعور وأسرف عليه هذا الاحساس ، وإنهما ليغريانه باطالة الوقوف وانعام النظر فهو لا يريم ، وينفرج جفنا الفتاة عن عينين يقرأ فيهما هـذا الغبى فى طلاقة وسهولة معانى الجمال ، ومن معانيه الحلاوة والرفق والبشر . ثم هذا فمها الصـغير ينفرج عن كلمات يدرك الفتى الأبله ماصيغت فيه من جمال فى اللفظ وعذوبة فى الجرس :

— « لم ترمقنى هكذا ؟ أرجو أن تنصرف عنى . يفزعنى مرآك »

— قال الفتى : « لا أتنحى ، بل لا أستطيع »

ودار بينهما حوار انتهى عند الفتى فلم يغادرها حتى أبلغها دارها

ثم ارتد إلى أبيه وقد فهم اليوم معنى من أدق معانى الحياة ، ولم يكن قبل اليوم يفهم أن للحياة معنى . قال : « يا أبت إنى أود أن أحيا حياة الرجل المهذب ، ولقد برمت بحياة المتأبدين »

كان عجباً للوالد أن رأى ابنه يفكر ويصيب فى التفكير ، ويريد ويحسن الارادة ، ويتكلم ويجيد التعبير ، فى صوت رقيق ، ولفظ رفيق

وألبسه ثياباً تليق بقدر أسرته ومكانتها وبعث به إلى المعلمين والمهذبين فقضى بينهم أربعة أعوام كان الحب فيهاقوام تهذيبه وعنصره المستساغ ، فما أوفى الفتى على نهاية الأعوام الأربعة حتى كان أكمل فتيان الجزيرة أدباً وأحسنهم خلقاً

وخطب الفتاة إلى أبيها وكانت تدعى « ايفيجينا » ولـكن أباها اعتذر أن كانت الفتاة مخطوبة إلى الفتى « باسيموندا س » من أشرف أسر رودس وأعرقها مجداً وانهما على نجز الزفاف

وجم الفتى وضاق السكون فى عينيه . وأصرها فى نفسه ليصحرن للفتاة بحبه ، وليشهدنها على هذا الحب وفعله فى نفسه ، وليطلعنها على ما خلق الحب منه من خلق جديد ، وما يستشرف اليه من سعادة ترفعه إلى مقام الآلهة وعظمتهم إذا تم منها بالزواج ؛ . .

« إما أن تـكون الفتاة لى أو أكون من الهالـكين »

وسار إلى أترابه من الفتيان الأشراف الأوفياء وائتمر معهم على أن يصنعوا سـفينة قد استكملت عدتها من آلات الحرب

ودارت بها الأرض ، وانطفأت فى عينها مباهج الحياة بانطفاء أملها المشرق وبدرها البسام ! فألقت بنفسها فى الأعماق وما هى إلا لحظة ، حتى كان الحبيبان مُستَجَّيْن على سرير الماء مُلَفَّفين فى حرير الزبد ! ! (١)

دريني خشبة

---

(١) شغف لورد بيرون بهذه الأسطورة فنظمها ، وذهب بنفسه إلى الدردنيل فتمثل لياندر وعبر البوغاز ، وتمنى لو غرق مثله هناك . . . فلا يفوت القارىء الاطلاع على تحفة بيرون فى ديوانه

والقتال ، وتربص بها للسفينة التي تقل الفتاة إلى رودس مع زوجها باسيموندراس . فما أشرفت هذه عليها حتى رمى عليها مجذاباً ضمها إلى سفينته ، وكان أول من ألقى بنفسه بين أعدائه وساقهم إلى الحرب ورداً حتى ألقوا سلاحهم واستسلموا خاضعين . قال لهم الفتى : « ما قصدت اليكم أبغى سلابكم ولكن لأنال هذه الفتاة النبيلة التي أحبها حباً لا يعدله حب ولا يتطاول اليه محب . فان أسلمتموها إلىّ ألقيت اليكم السلم ، ومالى عليكم سبيل ، وإلا فلن تجدوا عن الهلاك محيصاً »

فتقدمت إليه الفتاة وفى مآقيها دموع . قال : « لا تبكى يا فتاتى ، فلقد ساقنى اليك حبى ومناكِ . ولن يعدل هذا الحب ما يسوقه اليك باسيموندراس من أعز ما يساق إلى الأزواج » . وفصلت عن وجه الفتاة ابتسامة شقت طريقها إلى قلب الفتى من بين الدموع . وأخذ بيدها إلى سفينته واتخذ سبيله فى البحر سَرَباً ، حتى أشرف على جزيرة كريت أن كان له فيها إخوان وخلان ، ولكن تنكرت له الأقدار ولم ينعم بهذا النصر طويلاً . فما أقبل الليل حتى أقبلت معه عاصفة نكباء ، ترسل حسباناً من السماء ، وطوحت بالسفينة بين شطى اليأس والرجاء ، حتى ألقت بها فى أحضان خليج صغير ينفرج عنه جزء من ساحل رودس على مرمى قوس من مستقر السفينة الرودسية ، وما كادوا يستقرون حتى قدم باسيموندراس فى فئة من أصحابه وفى أيديهم السلاح وهاجموا الفتى سيمون ومن معه وساقوهم أسرى إلى قاضى القضاة فى رودس

وحوكم الفتى على ما اقترف فحكم عليه قاضى القضاة بالسجن خالداً فيه أبداً وقيد إلى السجن ذليلاً حسيراً

هنا فتانا تبرح به الآلام ، وتمزق جلده الأغلال ، وهناك باسيموندراس غارق فى بحار الآمال ينعم بتحقيق المنى ، ويعد العدة لزفافه إلى ايفيجينا . ولنترك الخصمين الآن ، أحدهما يشقى بآلامه ، والآخر ينعم بآماله

وكان لباسيموندراس أخ أصغر منه اسمه «هرمسداس» وكان يعلل النفس بالزواج من فتاة موفورة الحظ من الجمال اسمها « كاسندرا » أغرم بحبها وأخذت بشغاف قلبه . وكان ينازعه فى الحب قاضى القضاة الذى قضى على فتى هذه القصة أن يسجن أبداً . ولقد حسب الاخوان أن سيتمان زفافهما إلى عروسيهما فى ليلة واحدة ، وأعدا العدة فى ثقة واطمئنان لهذا الغرض . ولكن قاضى القضاة لايهدأ له بال ، ولايزال يحتال للأمر من كل وجوهه وقد عقد العزم صادقاً على أن يحظى بالفتاة دون هذا الفتى «هرمسداس» . ولكن كيف السبيل ؟ أيختطفها ؟ وهو قاضى القضاة ؟ هذه عزة منصبه ، وهذا شرف مكانته ، يأبيان عليه هذه الفعلة النكراء ، أم يقهر فى نفسه سلطان الحب ويكظم الغيظ ويصبر على الكمد ؟ إن سلطان الحب لقوى ، وإن بأسه لشديد ، وإنه لغالب ، وانتهى به التفكير إلى حيث لم يعصمه الشرف المغلوب من سرف الهوى الغالب ، ومضى ينفذ عزمه باختطاف الفتاة

ولم يعوزه النصراء فى هذه الفعلة الهوجاء ، إذ ظهر سيمون مرة أخرى على مسرح القصة . وليس أيسر على القاضى من أن يصطنعه باخلاء سبيله وفك إساره لينال غرضه على ساعديه القويين فيختطف الفتاة ، وليس أحب من ذلك إلى نفس سيمون فهو سينال حريته المسلوبة — لاشك فى ذلك ولا مراء — وهو سينتقم لنفسه بنفسه من قرنه العنيد وخصمه الناجز بفجيعة أخيه فى محبوبته واختطافها من بين أحضانه

وجيء إلى قاضى القضاة بسيمون وأصدقائه فوضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، وزودهم بالسلاح وآلات الكفاح وأخفاهم فى مسكنه حتى يحين ساعة العمل

وأقبل يوم الزفاف : زفاف باسيموندراس إلى ايفيجينا وزفاف هرمسداس إلى كاسندرا وأقبلت معه ساعة الانتقام وإشباع الشهوة : انتقام سيمون من باسيموندراس خصمه ومزاحمه ، وإشباع شهوة قاضى القضاة من الفتك بهرمسداس مناوئه ومناجزه

وأحكم قاضى القضاة التدبير : فقسم أعوانه إلى فئات ثلاث : فئة اتخذت سبيلها إلى الشاطىء واجتسرت البحر بسفينة ، وثانية كمنت عند مسكن باسيموندراس ، وثالثة كانت تحت إمرة سيمون وقاضى القضاة اندفعت إلى مقصورتى العريسين الأخوين فقتلتهما واختطفت الفتاتين وولت بهما الفرار

وكانت الفتاتان تبكيان ، ولكنه كان بكاءً لايدل على الأسى ولا على الحسرة فعيونهما كانت تنم عن رغبة ورضى

وسار الجماعة منتصرين مهللين إلى كريت وتزوج قاضى القضاة بفتاته كاسندرا ، وتزوج سيمون بمحبوبته ايفيجينا ، وأقبل عليهم أصحابهم وأوفياؤهم يهنئون

وعاد سيمون بفتاته المحبوبة إلى قبرس ، وحمل قاضى القضاة فتاته إلى رودس ، وعاشوا فى نعيم ورخاء ، حتى أدركهم الفناء

« عن الانجليزية » **اليوزباشى أحمد الطاهر**

البريد الأدبي

نابغة عربي

المرحوم حسن كامل الصباح



فى أول يوم من هذا الشهر احتفل فى بيروت باستقبال جثمان الشاب العالم العربى النابغ حسن كامل الصباح ، وقد علقته المنون بمدينة مالون بالولايات المتحدة يوم ٣١ مارس سنة ١٩٣٥ فى حادث طيارة كان قد اشتراها ليرحل بها إلى البلاد العربية فكان فقده خسارة للعلم والاختراع وفجيعة للعرب الذين يرجون بمثل هذا النبوغ البارع أن يثبتوا للناس أن حيويتهم لا تزال فاعلة ، وأن خصائصهم لا تزال كاملة ، وأن مكانهم من المدنية الحديثة لا بد أن يشغلوه :

ولد الفقيد بالنبطية من جبل عامل فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٤ من أسرة تمت بنسبها لابن الصباح أمير الكويت ، وشب مولعاً بالحساب والشعر والفلك ، فدرس الجبر والهندسة بنفسه وهو فى اليفاعة من سنه . ثم دخل المدرسة السلطانية ببيروت ثم الجامعة الأمريكية بها ولم يتم دراسته فيها لأنه دخل الجندية ونقل إلى الآستانة فعمل فى قسم اللاسلكى تحت قيادة ضابط ألمانى درس عليه الألمانية ، وكان قد درس من قبل الفرنسية والانكليزية ، وظل يتابع دروس الرياضة فى تلك اللغات حتى انتهت الحرب فعاد إلى دمشق وعين معلماً للرياضيات فى المدرسة السلطانية ، وفى عام ١٩٢١ تولى تدريس الحساب فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، ثم بدا له أن يهاجر إلى الولايات المتحدة فالتحق بمؤسسة (ماساتشوستس) الفنية وهى من أرقى مدارس الهندسة فى العالم ، ثم انتقل إلى جامعة (النيويس) ، ثم خرج إلى الحياة العاملة فعين فى شركة الكهرباء العامة فى (سكسنكندى) نيويورك ، وهنالك أثمر نبوغه وأنتجت عبقريته ، فأخذ يدهش الفنيين بابتكاره وإبداعه ، فخصصت له الشركة مختبراً ومكتباً وجعلت تحت يده مهندسين يعملون بإرادته وإرشاده ، وتوالت عليه — حين دوى ذكر اختراعاته فى المقامات العلمية والشركات الكهربائية — شهادات العلماء وتهانى العظماء كرئيس المؤسسة الكهربائية فى بوسطون ، والأستاذ كاستلو فرانش أستاذ الكهرباء فى جامعة ميلان ، والأستاذ موريس لبلان العالم الفرنسى الكبير ، والمستر هوفر رئيس الولايات المتحدة السابق ؛ وسجلت شركة الكهرباء العامة جدول اختراعاته فى دائرة السجلات فى وشنطون ، وقد بلغ ما سجل منها ثلاثة وأربعون اختراعاً انفقت الشركة فى تسجيلها مائة ألف ريال ، وأنفقت على اختراع واحد من تلك الاختراعات ربع مليون ريال ، وهو اختراع فى التلفزة يحول أشعة الشمس إلى نار وقوة كهربائية ، وكان يطمع بهذا الاختراع أن يسخر أشعة الشمس المحرقة فى الصحراء العربية لانارة المدن والقرى ، وفى سبيل ذلك اشترى الطيارة التى كانت من أسباب وفاته

ومن اختراعاته المسجلة :

١ — طريقة لضبط القوة الصادرة من القوم الكهربائى رقم البانتت ١٦٦٩٥٠٢

٢ — حوافظ وضوابط لحماية القومات الكهربائية من الخط رقم الباتنت ١٧٧٦١٨٩

٣ — طريقة لمنع حدوث هزات عالية فى القوة الكهربائية فى القومات الزئبقية ١٨١٧٣١٢

٤ — ملتقط حديث لمنع حدوث انفجار كهربائى منعكس

محول للعزائم الكهربائية العظيمة رقم الباتنت ١٨٥٢٢٠٥

٥ — جهاز للتلفزة يحول أشعة الشمس لنار وقوة كهربائية هائلة ١٧٤٩٦٢

٦ — جهاز للتلفزة يستخدم الكهارب المنعكسة بفعل النور رقم الباتنت ١٦٩٤٦٦

٧ — جهاز للتلفزة يستخدم النور كضابط للتيار الكهربائي رقم الباتنت ١٧٠٦١٦٥ الخ . .

ومما ذكره مدير شركة جنرال الكتريك فى رسالته الى والد الفقيد الجملة الآتية :

« لقد برهن الأستاذ كامل الصباح اثناء خدمته لشركتنا على أنه من أعظم المفكرين الرياضيين فى البلاد الأمريكية ، وأن وفاته خسارة كبيرة لعالم الاختراع »

وقد صرح جهابذة الفن الكهربائى الذين كانوا يلقبونه باديسون الصغير أنه لو نسأ الله فى أجله لعد من أعظم المخترعين

كتاب عن ستالين

ستالين طاغية روسيا السوفيتية من أعظم وأغمض الشخصيات المعاصرة ، إن لم يكن أعظمها وأغمضها جميعاً ؛ فهو يمثل فى شخصه أمة عظيمة وجيلا بأسره ، ورسالة اجتماعية جديدة . وقد صدر أخيراً كتاب عن ستالين بقلم الكاتب الفرنسى هنرى باربيس ، وهنرى باربيس كاتب ثورى ، بل من زعماء كتاب الثورة الاشتراكية ، ومن أعرف الناس بشؤون روسيا السوفيتية وزعيمها ستالين ؛ وقد خلف ستالين منذ أكثر من عشرة أعوام لينين منشىء روسيا السوفيتية ، واستمر يقودها حتى ذلك الوقت ، ولكن شتان بين القائدين ، فان لينين ذهن غربى درس المركسية (الاشتراكية) كمبدأ وعقيدة ، وتلقاها فى أجواء غربية ؛ ولكن ستالين أسيوى محض ، فهو من بلاد الكرج ، ولم يعرف الثورة ولا الاشتراكية قبل الحرب ، ثم ان لينين ذهن المبادىء والمنطق ؛ ولكن ستالين ذهن عملى خشن فقد تلقى تراث لينين وعمل على حمايته واستمراره بحماسة ؛ ولكنه لم ير بدا من مسايرة الظروف ؛ فارتد الى النظم « البورجوازية » (غير الاشتراكية) يأخذ منها ما يروق له وما يعتقد أنه معين له على توطيد النظم القائمة . وقد كان ستالين فى حياة لينين يمثل الجانب العملى للتجربة الجديدة ، وكان لينين يعجب بآرائه العملية على رغم معارضتها لمبادئه ؛ ولما توفى لينين واستأثر ستالين بالأمر ثارت بينه وبين أقران لينين وحملة تراثه أمثال تروتسكى وزينوفييف وغيرهما معركة شديدة ؛ ولم يستطع ستالين أن يبطش بهؤلاء الخصوم الذين ينعون عليه سياسته العملية بادئ بدء ، ولكنه استطاع بعد عامين أو ثلاثة أن يضع يده عليهم ، وأن يشتتهم ، وأن يباعد بينهم وبين الثورة

ويصف لنا مسيو باربيس هذه المراحل فى كتابه ، ويدرس خلال شخصية ستالين تاريخ روسيا السوفيتية ، وأطوار الثورة الاشتراكية ؛ وهو يرى أن ستالين بعد لينين هو الشخصية التى تتمثل فيها روسيا السوفيتية ؛ ويذيل عنوان كتابه بهذه العبارة : « عالم جديد يدرس فى شخص رجل »

جائزة الرينصانص

اختتم موسم الجوائز الأدبية الكبرى فى فرنسا بتخصيص جائزة « الرينصانص » لمسيو فرنان فليريه الكاتب الشاعر النورماندى ؛ وفليريه من طبقة الكتاب والشعراء الكهول ، وأصله من نورماندى ، من ذلك الجيل الأدبى الخشن الذى يمتاز بقوة فى أدبه ؛ وقد ظهر قبل الحرب بكتاب اشترك فى وضعه مع الشاعر « الكولس » ولوى برسو ، عنوانه « جحيم المكتبة الوطنية » وفيه يدلل على اطلاع شاسع . بيد أنه مال إلى القريض بعد ذلك ، وأخرج عدة قصائد ومنظومات قوية ساذجة تدل على تأثره بروح وطنه . ثم عالج القصة بعد ذلك فكتب منها : « ثلاث أقاصيص تاريخية » ، « فى عصر الحبيب » ، « الملاذ الأخير » ، « جيم كليك » . بيد أن أعظم قصصه هى « قصة السعيدة راتون ، الفتاة الطروب » ، وهى قصة فتاة زلت ، صورت بقوة ومهارة . وعنى فرنان فليريه أيضاً بالمسرح ، وكتب له ؛ فاشترك مع (روجيه ألار) فى وضع «سلستين» و«مدرسة الأساتذة» ومع أمادو ليجا فى إخراج « كارافاكا ، فنان ومصور » ، وغيرها من القطع المسرحية ؛ واشترك أيضاً مع لوى برسو فى كتابة عدة قصص أخرى ؛ ونشر فى مجلة « مركير ده فرانس » عدة فصول وصور نقدية قوية ؛ وقد روعى فى منحه جائزة « الرينصانص » عمله الأدبى كله ، ولم يمنحوه إياها من أجل كتاب معين

الكتب

أبو بكر الصديق

تأليف الأستاذ على الطنطاوى

نشرته المكتبة العربية بدمشق فى ٣٦٠ صفحة من القطع المتوسط

الأستاذ على الطنطاوى ، أو الشيخ على الطنطاوى كما يحب أن يُدعى ، ثمرة ناضجة من ثمار الثقافة العربية الحديثة : ثقف علوم الدين وعلوم اللسان ثقافة محيطة ، ثم درس القانون دراسة فقهية عميقة ، وشارك فى إيقاظ النهضة الفكرية والدينية والاجتماعية فى سورية مشاركة منتجة ؛ فله فى قيادة الشباب محل ، وفى توجيه الآداب طريقة ، وفى سياسة الأصلاح مذهب ؛ وهو ونفر من صحابته يمثلون فى سورية الناهضة الحلقة الواصلة بين عقلية تنكر القديم ، وعقلية تنكر التجدد . وليس الأستاذ الطنطاوى مجهولاً لدى قراء الرسالة ، فهو يطالعهم الحين بعد الحين بالفصول الممتعة فى الأدب والتاريخ والقصص ، ينقلها عن فكر خصب ، واطلاع واسع ، ومنطق سليم ، وإيمان صادق ، وعاطفة نبيلة

رغب اليه أصحاب المكتبة العربية بدمشق أن يكتب تاريخ الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فتوفر على قراءة مائة كتاب فى موضوعه بين مطبوع ومخطوط أثبت أسماءها فى ثَبَت المصادر ، ثم جمع منها أخبار هذا البطل العربى ، وعارض بعض هذه الأخبار ببعض ، ثم جمع ما صح عنده من الروايات الكثيرة وجعلها كالحديث الواحد منبهاً إلى مصدر كل رواية ودرجة كل حديث . وتلك هى الطريقة السلفية التى تعتمد على الحشد والرواية ، أكثر مما تعتمد على التحليل والرأى ، فهى تعطيك أسباباً من غير حكم ، ومادة من غير صورة ، وقد ركب الأستاذ هذه الطريقة الوعرة على قصد وعلم ، فهو يقول : « وكان علىّ أن أسلك فى هذا الكتاب سبيل الدراسة التحليلية فأصف الحياة العقلية والاجتماعية والسياسية للعصر الذى عاش فيه أبو بكر رضى الله عنه والبيئة التى نشأ فيها ، وما كان لذلك من الأثر فيه ، وأدرس أخلاقه وسجاياه ، وأبحث العوامل التى عملت فى تكوينها ، وأبين أثر الاسلام فيها ، وأثرها فى التاريخ الاسلامى ، وما إلى ذلك من عناصر الدراسة التحليلية . ولكن « المكتبة العربية » ترى أن هذا الأسلوب لا يمثل إلا رأى صاحبه ، وأن الرأى قد يخطئ الحقيقة وقد يصيبها ، وهى لا تحب أن تخرج للناس (درساً) فيه الخطأ وفيه الصواب ، بل تاريخاً صحيح السند مضبوط الرواية . . . . . .

« وقد كرهت بادى الرأى هذا الأسلوب . . . فكيف أجوز أصعب الشقتين ، فأجمع المواد وأفحصها وأنقحها وأسبكها وأؤلف بينها ، ثم أثبتها فى الكتاب كما هى فيأتى « آخر . . . » فيأخذها هينة لينة ، فينشئ منها كتاباً تحليلياً تكون فاتحته انتقاصى وذمى بأنى لم أنشئ منها كتاباً تحليلياً . . .

« ثم بدا لى فقلت لا بأس ، فانه مهما يكن للأسلوب التحليلى من المزايا ، ومهما يكن للأسلوب العربى من العيوب (عند بعضهم) فان الصحة ليست فى غير الأسلوب العربى ، وليس لأمة من الأمم ما للأمة العربية من الضبط فى الرواية والتحقيق فيها والتثبت منها ؛ ولا يدرى أكثر من نعرف من الشبان من أمر هذه الرواية شيئاً ، بل انهم ليجهلونها مرة واحدة ، وينبزونها حماقة وجهلاً (بالكتب الصفراء) لما وضعوا فى نفوسهم من أن الخير لا يكون خيراً لذاته ، ولكن للطابع الغربى الذى يشترط أن يكون عليه . . . وأن الشر لا يكون شراً لذاته ، ولكن للسمة الشرقية التى يتسم بها . . . وذكرت أن اتباع الأسلوب العربى — على ما سينالنا من لوم على اتباعه — خير لشبابنا (وهم جمهرة القراء) وأجدى عليهم ، وانه فى طوق كثير من الشبان أن يكتبوا التاريخ التحليلى لأبى بكر إذا وجدوا الصحيح من أخباره مجموعاً فى كتاب

واحد ، ولكنه يعجز الكثير منهم أن يجمعوا هذه الروايات ويفحصوها ويرتبوها . . . »[1]

ولا ريب أن الأستاذ قد بلغ أقصى ما أراد فى الجهة التى اختارها أو اختارها له الناشر ، فقد استوعب كتابه كل ما اتصل بحياة الخليفة العظيم من الآيات والأحاديث والأخبار فى سياق مطرد وترتيب محكم وأسلوب جذاب . ولكن من يقرأ تصدير الكتاب[2] ويقف على أسلوب الكاتب فى حسن التعليل ، وصدق الوصف ، وبراعة العرض ، يتمنى لو أن الأستاذ كان قد وفق بين الطريقتين ، فيجمع بين المزيتين ، ويسلم من نقد القارئ المتعقب ، واستغلال الكاتب المجحود

الشاطئ المجهول

نظم الشاعر سيد قطب

للأستاذ محمود الخفيف

فى ذهنى ، عن شعراء الشباب عندنا فكرة عامة ، تزداد وضوحاً ، وأزداد بها تعلقاً كلما نشر أحدهم مجموعة شعره ، ولقد أتيح لى أن أقرأ عدداً من تلك المجموعات فى الأيام الأخيرة ، فزادتنى يقيناً بأن الشعر فى مصر يسير الآن لى غير قصد ، أو بعبارة أخرى لم تنشأ بعد عندنا فى الشعر « مدرسة » لها لونها ، ولها غايتها ، ولها سبلها المختلفة التى تنتهى بها الى تلك الغاية . وعلة ذلك أن شعراءنا إلا أقلهم مقلدون ، وقل أن تلمح لأحدهم أصالة أو تتبين له وجهة ، وكأنى بالشاب منهم يتناول القلم والورق ، ويجلس لينظم ، لا لأن قلبه يخفق بمعنى يريد أن يفصح عنه ، بل لأن شهوة النشر تملك زمامه ، والرغبة فى المحاكاة تصرفه فى ذلك عن الصواب ، فى نفسه بقية مما قرأ ولم يحسن فهمه من المسائل ، فهو يتطلع الى التجديد والغموض والرمز والبحث عن المجهول والتشاؤم ، وماسوى ذلك من معان يرددها دون أن يدرى كنهها أو المقصود منها ، وليت شعرى ، كيف نسمى انتاجا كهذا شعراً ؟ وهل كان الشعر إلا الاحساس القوى ثم الافصاح عنه فى صورة تلائم الفن وترضى الذوق ؟

وانك لتلتمس الدليل على ما أقول فى هذا الديوان المسمى بالشاطئ المجهول ، فانى على الرغم من عثورى فيه على بعض قطع أبهجتنى قراءتها ، قد عجزت تماماً عن استجلاء ما يريد الشاعر بما جاء فى قسمه الأول الذى من أجله سماه بهذا الاسم

بيد أنى أحب أن أبدأ الكلام عن هذا الديوان من الناحية الشكلية ، فقد استوقفتنى فيه ظاهرة أمضتنى بقدر ما تولانى منها الدهش ، ذلك أن الشاعر « سيد قطب » قد مهد لديوانه بمقدمة نقدية بقلم الناقد « سيد قطب » ، وراح فى هذه المقدمة يمتدح نفسه ، ويطنب فى هذا المدح فى صورة يعرونى لمجرد الاشارة اليها كثير من الخجل والحياء ! ففى الديوان نظريات علمية وفلسفية ، والشاعر ملم بها ، والشاعر متصل بالعوالم المجهولة ، تربط قواه الروحية بالوحدة الكونية الكبرى ، وللشاعر احساس متيقظ بالزمن ومروره ، ويملأ الشغف بكشف المجهول والحديث عن السر حيزاً كبيراً من ديوانه ، والشاعر فى هذا الديوان يقف موقف المصور فى كثير من القصائد ، وفى الديوان ظاهرة تستحق التسجيل ، ذلك أن لوناً من ألوان الموسيقى يتفشى فيه كله ، كذلك تبدو فى هذا الديوان صورة واضحة للتعبير الدقيق المصور للأفكار الى ماسوى ذلك مما أستحى لذكره من عبارات المدح والاطراء : وتالله لقد ترددت كثيراً أن أصدق أن الشاعر والناقد شخص واحد ، وأكتفى أن أقول له فى احترام : إن مثل هذا إن جاز فى شىء فهو لا يجوز فى الأدب وعلى الأخص فى الشعر

وبعد فهل رأيت فى الديوان ما يتفق مع هذه المقدمة ؟ الحق أنى إذا أردت الانصاف مضطر إلى أن أخالفه فى كثير مما قال بل فى معظمه ! فالجزء الأول من ديوانه المسمى « ظلال ورموز » عبارة عن سلسلة من الأفكار الغامضة يشملها جميعاً ذلك التعبير الذى شغف بتكراره الشاعر وهو « الوجوم الكئيب » فتلك الكآبة تخيم على معظم قصائده وعلى الأخص « الشعاع الخابى » و « خراب » و « فى الصحراء » حيث « يطل الليل كالشيخ الكئيب » و « فى خريف الحياة » ، و « غريب » . وليتنا نخرج بشىء من هذه الكآبة أو نتبين فيها شيئاً من فلسفة الحياة جديراً حقاً بهذا الاسم ، ولست أدرى لم اضطلع الشاعر هنا ببعض الموضوعات « كالانسان الأخير » و « الشاعر فى وادى الموت » ،

(١) مقدمة الكتاب (٢) نشرناه (بالرسالة) فى عدد سابق

وهو لم يخرج منها بطائل ، بله العجز عن التصور والتعبير فى مثل هذه المواقف الغريبة !

أما بقية ديوانه فيشتمل على بعض قصائد ريفية ، وقصائد غزلية ، وقصائد وطنية ، هى فى الجملة جيدة ، تحس أنها صادرة حقاً عن القلب ، فليس فيها من التكلف والتعمل والتقليد مثل ما فى سابقتها ؛ ولقد أعجبتنى بنوع خاص قصائده « توارد خواطر » و « سر انتصار الحياة » و « المعجزة » و « الليلات المبعوثة » وطربت لها كثيراً . ولو نظر الشاعر أو الناقد سيد قطب مرة نظرة حق لفهم السر فى نجاحه فى تلك القصائد التى يستحق من أجلها أطيب الثناء ، ولولا هنات فى بعض تعبيراته لعدت هذه من عيون الشعر

والشاعر فى قصائده الحديثة أقوى على التعبير وأسلس عبارة منه فى قصائده القديمة ، ولقد لاحظت عليه أنه كجمهرة شعراء الشباب مغرم ببعض الصور الغريبة ، لا يتحرج فى كثير من تعبيراته ، ولا يتوخى فيها البلاغة والسير على مألوف التشبيه والاستعارة ، وإلا فكيف يتفق مع الذوق مثل قوله « يدوى حوله صمت الفناء » والكون « مفقود القطين » و « الهول الواجم » و « الرعب الجاثم » و « الفناء الجاثم » و « ركام الفناء » و « شخوص الوهم » و « الحياء الوديع » و « الخشوع الوقور » و « العيلم المسجور » و « الصرخة المتلوية » و « الصمت فى ظل الوجوم » و « وقف الكون شاخصاً فى سكون » و « الذهول الشريد » و « القنوط العقيم » و « الدلال الشرود » و « الرشاد الرزين » و « الفتور الشغوف » وغير ذلك من الصور الذهنية الغريبة وهى مع الأسف كثيرة فى الديوان

هذا إلى أنه قليل العناية بانتقاء اللفظ وتجويد القوافى ، وأنا على يقين بأنى حين أصارحه بهذا أحسن اليه ؛ فواجبنا جميعاً أن نتضافر على رفع مستوى الشعر بعد أن نحدده ونتبين وجهته ، ولا سبيل لنا إلى ذلك إلا إذا توخينا الصراحة والصدق والاخلاص فى كل ما نقول

الخفيف

3 me Année, No. 102.

Lundi-17-6-1935

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ـــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ١٧ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صيف الأديب

زفرت جهنم زفرتها السنوية كما تزعم الأساطير ، فعقدت على وجهى (الوادى) غشاء من سَموم ودَخَن : فالطبيعة فى غلافها النارى مكبوتة ، والأرض من حُمَّاها الصالب مسبوتة ، والناس من إلحاح القيظ متبلّدون هامدون يقابلون لفحه بجَلَد المضطر . ويعالجون بَرْحه بصبر الشهيد ! ولكن الجَلَد نماع فهو عَرَق يتقطر ، والصبر يرفَضّ فهو بخار يتصعد ، وبين هذا التقطير وذاك التصعيد نفس تذوب ، وجسم يذبل ، وعزم ينسرق ، وفكر يضمحل : فليت شعرى ماذا عسى أن يعمل من اضطر إلى أن يعمل ؟ هذا مكتب الأديب الصحفى يشع الوهج كأتون الفرن ، وينفث الضيق كحجرة السجن ، ويبعث القلق كغرفة الانتظار : وهو مع ذلك مقضىّ عليه أن يفكّر ويعبّر ، ويرتب ويهذب ، ويقابل ويجادل ، حتى يهن عصبه ، وينقطع سببه . فيعود إلى منزله المعلق فى الجو الأغبر على زحمة الشارع وضوضاء العامة . يطلب الهدوء فلا يجده ، ويلتمس النوم فلا يناله !

ليس له وا أسفاه قصر يبسم بالنعيم ، وينسم بالعطر ، ويشرق

بالجمال ، ويموج بالزهر ، ويتعارّى بالماء ، ويتمطى فى الظل ، ويتبسط فى السعة ، ويسجو فى الخفض ، ويَغرق فى السكون ، ويضرب حواليه نطاقاً سحرياً من الأحلام واللذة ، فيعوذ به من وقدة الجو ، ويلوذ به من مشقة العمل

وليس له وا أسفاه مال يعبر عليه ثبج البحر ، ويَرِد به مدن الماء ، ويبلغ فوقه قرى الجبل ، فيسرّى عن نفسه بعض عناء العام وبلاء الأيام بما يرى من مفاتن الطبيعة على الربى ، ومجالى الفردوس فوق السهول ، ومباهج المدنية على الشواطئ

وليس له وا أسفاه ما للأديب الموظف من المؤتمرات العلمية ، والسياحات التعليمية ، يغشاها فى منازه أوربا ، أو خمائل لبنان ، فينال من زهرة الدنيا ومُتعة العيش على حساب الدولة وعلى حب العلم

* * *

الطالب يعود فى العطلة الى الريف ، والموظف الصغير يذهب فى الأجازة الى المصيف ، والموظف الكبير يجد من مرتبه فضلا يشترى به السياحة والراحة والبهجة ، والموظف الأكبر يُجشّم نفسه الكبرى (خدمة) للحكومة فى (الخارج) ، فيؤديها على أتمها نائماً فوق صدور الأمانى ، حالماً على هدهدة الأغانى ، هائماً وراء الخدمة المنشودة فى أودية الشعر والسحر ، ثم لا يكلف الخزينة العامرة إلا بضع مئات لمكافأته ، وبضع كلمات لشكره ؛ والكبراء الذين يعيشون علينا ، ولا ينتسبون إلينا ، يجمعون دم الفلاح الغالى فى حقاق من ذهب ، ويلفون لحمه اللذيذ فى حقائب من حرير ، ثم يرحلون بهما إلى أسواق ابليس ، فى (مونت كارلو) و (نيس) ، فيشترون بهما أبهة أشهر ، وعربدة أسابيع ، ومخازى عُمْر !

إذن لا يبقى لسعير الصيف إلا الطبقة التى تنسج لهؤلاء جميعاً بُرْد السعادة : طبقة العمل الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يجدى على أهله إلا قوت يوم بيوم : طبقة الموظف الأصغر ، والصانع المستذَل ، والعامل المستغَل ، والفلاح المهمَل ، والتاجر المدين ، والأديب المسكين ، فهم يعملون فى عطلة الناس — وأجرهم على الله — حتى لا تسكن الدنيا ، وحتى لا يقف الفلَك ! !

* * *

أنشأت الأمة مصايف لأطفال الفقراء ، وأعدت الدولة قطار (البحر) وقطار (النزهة) لانصاف الأغنياء ، فماذا أنشأت الأمة أو أعدت الدولة لمساكين الأدباء ؟ أليسوا رسل الحق والخير والجمال والمعرفة إلى من زهتهم السطوة فلجوا فى الباطل ، وأعمتهم الشهوة فتدفقوا فى الشر ، ولوثهم الطمع فاطمأنوا إلى القبح ، وركبهم الغرور فجنحوا للجهالة ؟ أليسوا أحرياء بأن تقيم لهم الحكومة (جبل البَرْناس) على بقعة من ضفاف النيل ، أو على رقعة من شواطئ البحر ، يستجمون عليه من الاعياء ، ويتصلون فيه بالسماء ، وينشدون الأمة من روائع الوحى أجمل مما أنشدته (الموز) التسع آلهات الآداب والفنون ، على قيثارة إله الشعر والبلاغة أبولون . . .

ولكن وَيدك يا أشعب ! ! إن الحكومة التى لا تشترك فى مجلة الضحى إلا بعد طلب ورجاء ، ولا تشترى نسخاً من كتاب الأديب إلا بعد أخذ وعطاء ، يشق عليها أن تقيم (جبل البرناس) ، على مثل هذا الأساس !

* * *

على أن الخيال عالم والحقيقة عالم آخر ، والأديب حريص على ألا يسبح فى عالمه غيره ، فلماذا يمد عينيه الرغيبتين الى عالم الناس ؟

إن فى ليالى القاهرة الساحرة الرخية لرضى للنفس الشاعرة : سماء كصفحة الأمل المشرق تتألق بالأنوار ، وفضاء كغيب الله يموج بالأفكار والأسرار ، ونسيم كأجنحة الأملاك يذهب عن الأجسام رهق النهار ، وجنات الجزيرة ، وخلوات الجيزة ، ومسرات الجسر ، ومسارح النيل ، تخلق فى الذهن الخصيب والشعور الفتان ، ما لا تخلقه جنات سويسرا ولا رياض لبنان !

احمد حسن الزيات

الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحبها وهو يُحدّثني من حديثها:

كانت فتاة متعلّمة حلوة المنظر، حلوة الكلام، رقيقة العاطفة، مرهفة الحس، في لسانها بيانٌ، ولوجهها بيانٌ غير الذي في لسانها تعرف فيه الكلام الذي لا تتكلم به . . .

ولها طبعٌ شديد الطرب للحياة، مسترسلٌ في مرحه خفيفٌ طيّاش، لو أثقلته بجبل لخفّ بالجبل؛ تحسبها دائماً سكرى تمايل من طربها، كأن أفكارها المرحة هي في رأسها أفكارٌ وفي دمها خمر . . . .

وكان هذا الطبع السكران شباباً وجمالاً وطرباً — يعمل عملين متناقضين، فهو دلالٌ متراجعٌ منهزم، وهو أيضاً جرأةٌ مندفعة متهجّمة. وهزيمة الدلال في المرأة إن هي إلا عملٌ حربيٌّ مضمرةٌ فيه الكرّة والهجوم؛ وكثيراً ما ترى فيها النظرة ذات المعنيين: نظرةٌ واحدةٌ تؤنّبك بها المرأة على جراءتك معها، وتعذلك بها أيضاً على أنك لست معها أجرأ مما أنت . . . !

***

قلت: ويحك يا هذا! أتعرف ما تقول؟

قال: فمن يعرف ما يقول إذا أنا لم أعرف؟ لقد أحببت خمس عشرة فتاة، بل هنّ أحببنني وفرّغن قلوبهن لي، ما اعتززت عليّ منهن واحدة، وقد ذهبن بي مذهباً ولكني ذهبت بهن خمسة عشر!

قلت: فلا ريب أنك تحمل الوسام الابليسيّ الأول من رتبة الجرة . . . . . فكيف استهام بك خمس عشرة فتاة، أجاهلاتٌ هنّ، أعمياواتٌ هنّ . . . ؟

قال: بل متعلمات مبصرات يرين ويدركن، ولا تخطئ واحدةٌ منهن في فهم أن رجلاً وامرأة قصة حب . . . .

وما خمس عشرة فتاة؟ وما عشرون وثلاثون من فتيات هذا الزمن البائر، الذي كسد فيه الزواج، ورقّ فيه الدين، والتهبت العاطفة، وكثرت فنون الاغراء، واصطلح فيه إبليس والعلم يعملان معاً . . ؛ وأطلقت الحرية للمرأة، وتوسعت المدارس فيما تقدّم للفتيات، وأظهرت من الحفاوة بهن أمراً مفرطاً حتى أخذن رُبع العلم . . . ؟

قلت: وثلاثة أرباع العلم الباقية؟

قال: يأخذنها من الروايات والسيما. علم المدارس، ما علم المدارس؟ إنهن لا يصنعن به شيئاً إلا شهاداتٍ هي مكافأة الحفظ وإجازة النسيان من بعد؛ أما علم السيما والروايات فيصنعن به تاريخهن.. وربّ منظر يشهده في السيما ألف فتاة بمرة واحدة، فاذا استقر في وعيهن وطافت به الخواطر والأحلام – سلبهن القرار والوقار فمثّلنه ألف مرة بألف طريقة في ألف حادثة!

يظنون أننا في زمن إزاحة العقبات النسائية واحدة بعد واحدة، من حرية المرأة وعلمها؛ أما أنا فأرى حرية المرأة وعلمها لا يوجدان إلا العقبات النسائية عقبةً بعد عقبة. وقد كان عيب الجاهلة المقصورة في دارها أن الرجل يحتال عليها، فصار عيب المتعلمة المفتوح لها الباب أنها هي تحتال على الرجل؛ فمرةً بابداع الحيلة عليه، ومرة بتلقينه الحيلة عليها. والغريب في أمر هذا العلم أنه هو الذي جعل الفتاة تبدأ الطريق المجهول بجهل . . . !

قلت: وما الطريق المجهول؟

قال: الطريق المجهول هو الرجل، وإطلاق الحرية للفتاة أطلق ثلاث حريات: حرية الفتاة، وحرية الحب؛ والأخرى حرية الزواج. ولما انطلق ثلاثتهن معاً تغيّر ثلاثتهن جميعاً إلى فسادٍ واختلال. أما الفتاة فكانت في الأكثر للزواج فعادت للزواج في الأقل، وفي الأكثر للهو والغزل؛ وكان لها في النفوس وقار الأم وحرمة الزوجة، فاجترأ عليها الشبان اجتراءهم على الخليعة والساقطة؛ وكانت مقصورةً لا تنال بعيبٍ ولا يتوجه عليها ذم، فمشت إلى عيوبها بقدميها، ومشت إليها العيوب بأقدام كثيرة . . . وكانت بجملتها امرأةً واحدة، فعادت مما ترى وتعرف وتكابد كأن جسمها امرأة، وقلبها امرأةٌ أخرى وأعصابها امرأةٌ ثالثة . . .

وأما الحب، فكان حباً تتعرّف به الرجولة إلى الأنوثة في

قيود وشروط ، فلما صار حراً بين الرجولة والأنوثة ، انقلب حيلة تفتريها إحداهما الأخرى ؛ ومتى صار الأمر إلى قانون الحيلة فقد خرج من قانون الشرف وعاد هذا الشرف نفسه وليس إلا كلمة يحتال بها

وأما الزواج ، فلما صار حراً جاء الفتاة بشبه الزوج لا بالزوج ، وضعفت منزلته وقل اتفاقه وطال ارتقاب الفتيات له ، فضعف أثره في النفس المؤنثة ؛ وكانت لفظتا الشاب والزوج شيئاً واحداً عند الفتاة وبمعنى واحد ، فأصبحتا كلمتين متميزتين ، في إحداهما القوة والكثرة والسهولة ، وفي الأخرى الضعف والقلة والتعذر ؛ فالكل شبان وقليل منهم الأزواج . وبهذا أصبح تأثير الشاب على الفتاة أقوى من تأثير الشرف ، وعاد يقنعها منه أخس براهينه ، لا بأنه هو مقنع ، ولكن بأنها هي مهيأة للاقتناع . . .

وفي تلك الأحوال لا يكون الرجل إلا مغفلا في رأي المرأة إذا هو أحبها ولم يكن محتالا حيلة مثله على مثلها ، ويظل في رأيها مغفلا حتى يخدعها ويستزلها ، فاذا فعل كان عندها نذلا لأنه فعل ، وهذه حرية رابعة في لغة المرأة الحرة والزواج الحر والحب الحر !

وانظر — بعيشك — ما فعلت الحرية بكلمة (التقاليد) ، وكيف أصبحت هذه الكلمة السامية من مبذوء الكلام ومكروهه حتى صارت غير طبيعية في هذه الحضارة ، ثم كيف أحالتها فجعلتها في هذا العصر أشهر كلمة في الألسنة يتهكم بها على الدين والشرف وقانون العرف الاجتماعي في خوف المعرة والدنيئة والتصاون من الرذائل والمبالاة بالفضائل ؛ فكل ذلك (تقاليد) ..وقد أخذت الفتيات المتعلمات هذه الكلمة بمعانيها تلك ، وأجرينها في اعتبارهن مكروهة وحشية ، وأضفن إليها من المعاني حواشي أخرى ، حتى ليكاد الأب والأم يكونان عند أكثر المتعلمات من « التقاليد » . . أهي كلمة أبدعتها الحرية ، أم أبدعها جهل العصر وحماقته وفجوره والحاده ؛ أهي كلمة تملقها الفتيات المتعلمات لأنها لغة من اللغة ، أم لأنها من لغة ما يحببن . . ؟

« تقاليد » ... ؟ فما هي المرأة بدون التقاليد ؟... إنها البلاد الجميلة بغير جيش، إنها الكنز المخبوء معرضاً لأعين اللصوص تحوطه الغفلة لا الرقابة . هب الناس جميعاً شرفاء متعففين ، فان معنى كلمة « كنز » متى تركت له الحرية وأغفل من تقاليد الحراسة ، أوجدت حريته هذه بنفسها معنى كلمة « لص » . .

* * *

قال صاحبنا : أما الفتاة المحررة من (التقاليد) . . كما عرفتها فهي هذه التي أقص عليك قصتها ، وهي التي جعلتني أعتقد أن لكل فتاة رشدين يثبت أحدهما بالسن و يثبت الآخر بالزواج . ولو أن عانساً ماتت في سن الخمسين أو الستين لوجب أن يقال : إنها ماتت نصف قاصر ! ولعل هذا من حكمة الشريعة في اعتبار المرأة نصف الرجل ، إذ تمام شرفها الاجتماعي أن يكون الرجل مضموماً إليها في نظام الاجتماع وقوانينه ؛ فالزوج على هذا هو تمام رشد الفتاة بالغة ما بلغت

وأساس المرأة في الطبيعة أساس بدني لا عقلي ، ومن هذا كانت هي المصنع الذي تصنع فيه الحياة ، وكانت دائماً ناقصة لا تتم إلا بالآخر الذي أساسه في الطبيعة شأن عقله وشأن قوته . .

واعتبر ذلك بالمرأة تدرس وتتعلم وتنبغ ، فلو أنك ذهبت تمدحها بوفور عقلها وذكائها ، وتقرظها بنبوغها وعبقريتها ، ثم رأتك لم تلق كلمة ولا إشارة ولا نظرة على جسمها ومحاسنها لتحول عندها كل مدحك ذماً وكل ثنائك سخرية ، فإن النبوغ هاهنا في أعصاب امرأة تريد أن تعرف مع أسرار الكون أسرار كونها هي ، هذا الكون البدني الفاتن ، أو الذي تزعمه هي فاتنا ، أو الذي لا ترضاه ولا ترضى أن تكون صاحبته ، إلا إذا وجدت من يزعم لها أنه كون فاتن بديع مزين بشمسه وقمره وطبيعته المتنضرة التي تجعل مسه مس ورق الزهر

مثل هذه إنما يكون الثناء عليها ثناء عندها حينما يكون أقله باللسان العلمي ولغته ، وأكثره بالنظر الفني ولغته . وهذا على أنها عالة الجنس ونابغته ، ودليل شذوذه العقلي ، والواحدة التي تجيء كالفلتة المفردة بين الملايين من النساء ؛ فكيف بمن دونها ، وكيف بالنساء فيما هن نساء به ؟

دع جماعة من العلماء يمتحنون هذا الذي بينت لك ، فيأتون

بامرأةٍ جميلة نابغةٍ ، فيضعونها بين رجال لا تسمعُ من جميعهم إلا : ما أعقلها ، ما أعقلها ، ما أعقلها ! ولا ترى فى عينىْ كلٍّ منهم من أنواع النظر وفنونه إلا نظرَ التلميذ لمعلمةٍ فى سن جدَّته .. فهذه لن تكون بعد قريب إلا فى حالة من اثنتين : إما أن يخرج عقلها من رأسها ، أو . . . أو تخرج فى وجهها لحية .... !

(ما أعقلها !) كلمةٌ حسنةٌ عند النساء لا يأبينها ولا يذممنها ، غير أن الكلمة البليغةَ العبقريةَ الساحرةَ هى عندهن كلمةٌ أخرى هى : (ما أجملها !) ، إن تلك تُشبه الخبزَ القَفارَ لا شىء معه على الخوان ، أما هـذه فهى المائدة مُزينة كاملة بطعامها وشرابها وأزهارها وفكاهتها وضحكها أيضاً

وكأن العقلَ الانسانىَّ قد غضب لمهانة كلمته وما عرَّها به النساء ، فأراد أن يثبت أنه عقلٌ فاستطاع بحيلته العجيبة أن يجعل لكلمة (ما أعقلها) كلَّ الشأن والخطر ، وكلَّ البلاغة والسحر عند ... عند الطفلة ... تفرح الطفلة أشدَّ الفرح ، إذا قيل : ما أعقلها ..!

***

فقلت لمحدِّثى : كأنك صادقٌ يا فتى ! لقد جلست أنا ذات يوم إلى امرأة أديبة لها ظَرفٌ وجمال ، وجاءت كبريائى فجلست معنا ... وكانت (التقاليد) كالحاشية لى ، فعلمت بعد أنها قالت لصاحبة لها : « لا أدرى كيف استطاع أن ينسى جسمى وأنا إلى جانبه أذكرُه أنى إلى جانبه ! لـكأنما كانت لقلبه أبوابٌ يفتح ما شاء منها ويُغلق »

قال محدِّثى : فهذا هـذا ؛ إن إحساسَ المرأة بالعالم وما فيه من حقائق الجمال والسرور ، إنما هو فى إحساسها بالرجل الذى اختارته لقلبها ، أو تهمُّ أن تختاره ، أو تودُّ أن تختاره ؛ ثم إحساسها بعد ذلك بالصُّوَر الأخرى من رجُلِها فى أولادها .

وحياةُ المرأة لا أسرار فيها ألبتة ، حتى إذا دخلها الرجل عرفت بذلك أن فيها أسراراً ، وتَبَيَّنَتْ أن هـذا الجسم الآخر هو فلسفةٌ عميقةٌ لجسمها وعقلِها

قال : وقد جلستُ مرةً مع صاحبة القصة ، وأنا مغضبٌ أو كالمغضَب .. ثم تلاحَيْنا وطال بيننا التلاحى ؛ فقالت لى : أنت بجانبى وأنا أسألُ : أين أنت ؟ فإنك لست كلُّك الذى بجانبى !

قال : ومذهبى فى الحب ، الكبرياءُ ، كما قلت أنت ، غير أنها الكبرياءُ التى تدرك المرأةُ منها أنى قوىّ لا أنى مُتكبِّر ؛ كبرياءُ الرجل إمَّا مَهيبٌ مَرِحٌ يملك أفراحَ قلبها ، وإما حزينٌ مَهيبٌ يملك أحزانَ هذا القلب .

إن المرأة لا تحبّ إلا رجلا يكون أولُ الحسن فيه حُسْنَ فهمِها له ، وأوّلُ القوّةِ فيه قوّة إعجابها به ، وأوّلُ الكبرياء فيه كبرياءَها هى بحبِّه وكبرياءَها بأنه رجل . هذا هو الذى يجتمع فيه للمرأة اثنان : إنسانها الظريف ، ووَحْشها الظريف !

***

قلت : لقد بعُدْنا عن القصة ، فما كان خبرُ صاحبتك تلك ؟

قال : كانت صاحبتى تلك تعلم أنى متزوّج ، ولكن إحدى صديقاتها أنبأتها بكبريائى فى الحب ، ووصفَتْنى لها صفة الاحساس لا وصفَ الكلام ؛ فكأنما تنبَّهتْ فيها طبيعةُ زَهْو الفتاة بأنها فتاة ، وغريزة افتتان الأنثى بأن تكون فاتنة ؛ فرأتْ فى إخضاعى لجمالها عملاً تعمله بجمالها .

ومتى كانت الفتاةُ مستخِفّةً « بالتقاليد » كهذه الأديبةِ المتعلّمة ـ رأت كلمةَ (الزوج) لفظاً على رجل كلفظ الحب عليه ، فهما سواءٌ عندها فى المعنى ، ولا يختلفان إلا فى (التقاليد)..

وعَرَضَتْ لى كما يعرضُ المصارعُ المصارعَ ؛ إذ كانت من الفتيات المغرورات اللواتى يحسَبْن أن فى قوّتهن العلميّة تياراً زاخراً لنهرنا الاجتماعىّ الراكد ، فتاة تخرَّجتْ فى مدرسة أو كلّية ، أو جاءت من أوربا بالعالميّة . . . أفتدرى أيةُ معجزةٍ مصريةٍ فى هذا تُباهى بها مصر ؟

إن المعجزة أن هذه الفتاة صارت مدرِّسة ، أو مفتِّشة ، أو ناظرة فى وزارة المعارف ؛ أو مؤلِّفة كتبٍ وروايات ، أو محرِّرة فى صحيفة من الصحف . ولا يَصْغُرَنَّ عندك شأنُ هذه المعجزة فهى والله معجزةٌ ما دام يتحقّق بها خروجُ الفتاة من حكم الطبيعة عليها وبقاؤها فى الاجتماع المصرىّ امرأةً بلا تأنيث ، أو انقلابُها فيه رجلا بلا تذكير ! وكيف لا يكون من المعجزات أنَّ تأليفَ رواية قد أغنى عن تأليف أُسرة ؛ وأن فتاةً تعيش

وتموت وما ولدت للأمّة إلا مقالات . . . ؟

فقلت : ياصاحبى ، دعْ هؤلاء وخذِ الآنَ فى حديث الطائشة الخارجة على التقاليد ، وقد قلتَ إنها عَرَضَتْ لك كما يعرض المصارعُ للمصارع

قال : عَرَضتْ لى تريد أن تصرّفنى كيف شاءت ، فنبوْتُ فى يدها ؛ فزادت إلى رغبتها إصرارَها على هذه الرغبة ، فالتويتُ عليها ؛ فزادت إليهما خشيةَ اليأس والخيبة ، فتعسّرْتُ معها ؛ فزادت إلى هذه كلّها ثورة كبريائها ، فلم أتسهّل ؛ فانتهت من كل ذلك بعد الرغبة الخيالية التى هى أول العبث والدلال ، إلى الرغبة الحقيقية التى هى أولُ الحب والهوى : رغبةِ تعذيبى بها لأنها متعذّبةٌ بى .

ثم ردتّها الطبيعةُ صاغرةً إلى حقائقها السلبيّة ، فاذا الكبرياءُ فيها إنما كانت خضوعاً يتراءى بالعصيان ، وإذا الرغبةُ فى تعذيب الرجل إنما كانت التماساً لأن تَنعمَ به ، وإذا الاصرار على إخضاع الرجل وإذلالِه إنما كان إصراراً على تجربته ودفعِه أن يستبدّ ويملك . وردتّها الطبيعة إلى هذه الحقيقة النّسوية الصريحة التى بُنيتِ المرأة عليها شاءتْ أم أبتْ ، وهى أن تعانى وتصبرَ على ما تعانى !

أما أنا فأحببتها حباً عقلياً ، وكان هذا يشتدُّ عليها ، لأنه إشفاقٌ لا حبّ ؛ وكانت إذا سألتْنى عن أمر ترتاب فيه قالت : أجبْنى بلسان الصدق لا بلسان الشفقة . وكانت تقول : إن فى عينيها بكاءً لا تستطيع أن تذيلهُ مع الدمع ، وسيقتلها هذا البكاءُ الذى لا يُبكَى ، وقد اتخذت لها فى دارها خلوةً سمتها : محرابَ الدمع ! قالت : لأنها تبكى فيها بكاءَ صلاةٍ وحبّ ، لا بكاءَ حب فقط !

ثم طاشتِ الطيْشةَ الكبرى . . . !

***

قلت : وما الطيشةُ الكبرى ؟

قال : إنها كتبتْ إلى هذه الرسالة :

« عزيزى رَغمَ أنفى » . . .

« لقد أذلّتنى بشيئين : أحدهما أنك لم تَذِلّ لى ، وجعلتنى على تعليمى أشدَّ جهلاً من الجاهلة . وقد نسيتَ أن المرأة المتعلّمة تعرفُ ثم تعرف مرتين ــ : تعرفُ كيف تخطىء إذا وجب أن تخطىء ، أما المعرفة الثانية فتوهمها أنتَ فكما فى قلتها لك . .

اعلمْ « ياعزيزى رغمَ أنفى » ، أنى إذا لم أكن عزيزتك رغم أنفك ، فسآتى ما يجعلك سلفاً ومَثَلا ، وستكتب الصحف عنك أوّلَ حادث يقع فى مصر عن أوّل رجل اختطفته فتاة !.

وبعد ، فقد أرسلتُ روحى تعانق روحك ، فهل تشعر بها ؟»

قال : فوَجمتُ ساعة وتَبينتْ لى خفتها ، وظهر لى سَفاهها وطيشها ، فأسرعتُ إليها لجئتها فأجدُها كالقاضى فى محكمته ، لا عقل له إلا عقلُ الحكمِ القانونىّ الذى لا يتغير ، ولا إنسانَ فيه إلا الانسانُ المقيد بمادة كذا إذا حدث كذا ، والمادة كذا حين يكون وصفُ الجرم كذا . . . !

فقلت لها : أهذا هو العلمُ الذى تعلّمتِه ؟ ألا يكون علمُ المرأة خليقاً أن يجعل صاحبتَه ذاتَ عقلين إذا كانت الجاهلةُ بعقل واحد ؟

قالت : العلم ؟

قلت : نَعم ، العلم

قالت : ياحبيبى ، إن هـذا العلم هو الذى وَضعَ المسدّس فى يد المرأةِ الأوربيّة لعاشقها ، أو معشوقها ! ثم أطرقت قليلاً وتنهدت وقالت : والعلم هو الذى جعل الفتاة هناك تتزوج بارشاد الرواية التى تقرؤها ، ولو انقلب الزواجُ رواية . . . والعلم هو الذى كشف حجابَ الفتاة عن وجهها ، ثم عاد فكشف حياء وجهها ، وأوجب عليها أن تُواجهَ حقائق الجنسِ الآخر وتعرفها معرفةً علميّة . . . . والعلم هو الذى جعل خطأ المرأة الجنسىّ مَعْفُواً عنه ما دام فى سبيل مواجهة الحقائق لا فى سبيل الهَرَب منها . . . والعلم هو الذى جعل المرأةَ مساويةً للرجل ، وأكّد لها أن واحداً وواحداً هما واحدٌ وكلاهما أوّل . . . . والعلم هو الذى عَرّى أجسامَ الرجال والنساء ببرهان أشعةِ الشمس . . . والعلم ياعزيزى هو العلم الذى محا من العالم لفظةَ أمس ، لا يعرفها وإن كانت فيها الأديانُ والتقاليد . . .

***

قال صاحبها : فقلتُ لها : كأن العلم إفسادٌ للمرأة ! وكأنه تعليمُ مَضَرَّاتها ونقائِصها ، لاتعليمُ فضائلِها ومحاسنها

قالت : لا ، ولكنَّ عقلَ المرأة هو عقلٌ أنثى دائماً ؛ ودائماً عقلٌ أنثى ؛ وفى رأسها دائماً جوُّ قلبِها ، وجوُّ قلبِها دائماً فى رأسها . فاذا لم تكن مدرستُها مُتَمِّمةً لدارها ومافى دارها ، تَمَّمَتْ فيها الشارعَ ومافى الشارع

العلم للمرأة ، ولكن بشرط أن يكون الأبُ وهيبةُ الأب أمراً مقرَّراً فى العلم ، والأخُ وطاعةُ الأخ حقيقةً من حقائق العلم ، والزوجُ وسيادةُ الزوج شيئاً ثابتاً فى العلم ، والاجتماع وزواجرُه الدينيةُ والاجتماعية قضايا لا يَنْسَخُها العلم . بهذا وحده يكون النساء فى كل أمة مصانعَ علميّةً للفضيلة والكمال والانسانية ، ويبدأ تاريخُ الطفل بأسباب الرجولة التامّة ، لأنه يبدأ من المرأة التامّة

أما بغير هذا الشرط فالمرأةُ الفلاّحةُ فى حجرها طفلٌ قذر ، هى خير للأمة من أكبر أديبةٍ تخرج ذُرِّيةً من الكتب . . .

انظر — « ياعزيزى رغم أنفى » -- هذه رسالة جاءتنى اليوم من صديقتى فلانة الأديبة الـ . . . فاسمع قولها :

« وأنا أعيشُ اليوم فى الجمال ، لأنى أعيش فى بعض خفايا الحبيب . . . »

« وفى الحياة موتٌ حلوٌ لذيذ ؛ عرفتُ ذلك حينما نسيتُ نفسى على صدره القوىّ ، وحينما نسيتُ على صدره القوىّ صدرى . . . . »

أسمعتَ ياعزيزى ؟ إن كنت لَمّا تَعْلَمْ أن هذا هو علم أكثر الفتيات المتعلمات حين يكسدُ الزواج ـ فاعلَمْهُ . ومتى عَمِىَ الشعبُ والحكومةُ هذا العمى ، فان حريةَ المرأة لاتكون أبداً إلا حريةَ الفكرةِ المحرَّمة !

* * *

قلت لصاحبنا : ثم ماذا ؟

قال : ثم هذا . . . ودسَّ يده فى جيبه فأخرج أوراقاً كَتَب فيها رواية صغيرة أسماها : (الطائشة) ؟

(للرواية فى العدد الآتى) (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

٤ ـ لوكريسيا بورجيا

صور من عصر الاحياء

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت لوكريسيا إلى جانب هذه الرعاية الأدبية التى تبذلها لأقطاب الشعر والأدب ، تعاون زوجها فى حكم ولايته معاونة قيمة ؛ وكانت تتولى ادارة الشئون العامة أثناء غيابه ، وتبدى فى تصريفها حزماً وبراعة

وكان زواجاً موفقاً فى البنين ، فقد رزقت لوكريسيا بغلامين احدهما فى سنة ١٥٠٨ ويدعى هرقل ، والثانى فى العام التالى ويدعى ابيوليت ، ورزقت بعد ذلك بعدة أعوام بابنة دعيت ألينور ، فغلام ثالث يدعى فرنشيسكو

وخاضت أيطاليا مدى حين حروباً أهلية طاحنة ، وحملت فيرارا قسطها من هذه المعارك ، وتقلبت فى صعاب وأزمات شديدة ، ولكن لوكريسيا كانت فى هذه الأعوام العصيبة مثال الثبات والجلد ، وكانت تعمل على تخفيف آلام الشعب ما استطاعت ، وكان الشعب يحبها ويعتبرها كالأم الرؤوم

وكانت لوكريسيا عندئذ فى عقدها الرابع ، أمّاً ناضجة ، وكأنما طوت كل مراحل هذه الحياة فتية ؛ وكانت قد اختتمت منذ بعيد هذا العهد الضاحك الذى كان قلبها يشع فيه مرحاً وغبطة ، واستقبلت عهداً جديداً تسوده الرزانة والخطورة ، ويسوده الزهد والترفع عن متاع هذه الحياة ، فكانت فى أعوامها الأخيرة فى فيرارا تذهب كل صباح الى « المعترف »

أجل ، كانت لوكريسيا تقترب بسرعة من الخاتمة المحتومة ، ففى ١٤ يونيه سنة ١٥١٩ وضعت لوكريسيا طفلة ميتة ، وكانت فى أشهر حملها الأخيرة تشكو آلاماً مبرحة ؛ وكان الوضع هو الضربة القاضية ، إذ اشتدت عليها الآلام والمرض ، وشعرت بقضائها يدنو ؛ فأملت فى يوم ٢٢ يونيه خطاباً وجهته الى البابا ليون العاشر ، وفيه تلتمس من البابا أن يباركها فى عبارات بليغة مؤثرة ؛ وبعد ذلك بيومين فقط ، كان القضاء المحتوم ،

وصمدت الى بارئها تلك الروح الوثابة الساطعة ، وأغلقت لوكريسيا بورجيا عينيها الساحرتين الى الأبد ، وقد أشرفت فقط على الأربعين من عمرها

***

هكذا كانت حياة تلك التى أثارت فى عصرها بشخصيتها الساحرة وحياتها الساطعة كثيراً من الحب والعطف ، والنقمة والروع ؛ ثم غدت سيرتها بعد ذلك على كر العصور مستقى لكثير من القصص الشائق المثير معاً

والآن ، وقد فرغنا من تتبع هذه الحياة فى أدوارها المختلفة ، نعود فنحاول أن نتلمس فيها مواطن الحقيقة والخيال

هل كانت لوكريسيا بورجيا تلك التى تصفها الرواية المعاصرة شيطاناً للرذيلة والاثم ؟ وهل كانت تلك البغى السافلة التى تتقلب بين أذرع أبيها وأخويها ؟ أم هل كانت ضحية اتهام شائن تمليه الخصومة والحقد ؟

إن هذه التهم الشائنة التى تنسبها الرواية والقصة الى لوكريسيا بورجيا ، والتى أشرنا إليها فيما تقدم ترجع الى الروايات المعاصرة ذاتها ، وهذا ما يسبغ عليها مسحة من القوة ؛ وقد رأينا كيف أن بوركارت مدير التشريفات البابوية يثبتها فى مذكراته كوقائع حقيقية ، وقد كان بوركارت بمركزه واتصاله المستمر باسكندر السادس وأفراد أسرته ، ممن يستطيعون الوقوف على الحقائق من مصادرها

وقد حذا حذو بوركارت عدة من المؤرخين والرواة المعاصرين مثل جويشارديني المؤرخ والسياسى البارع ، وقد كان من أعلام العصر ؛ فهو يردد فى كتابه « تاريخ إيطاليا » معظم التهم والآثام التى نسبت إلى لوكريسيا وإلى آلها

ومن أدلة الاتهام المعاصر أيضاً وثيقة خطيرة ، هى خطاب كتب فى سنة ١٥٠١ ، ووجهه كاتبه إلى سيلفيو سافيللى ، وهو أحد النبلاء الاقطاعيين الذين نزع اسكندر السادس أملاكهم ؛ وكان ذلك الحين يقيم فى بلاط أمبراطور ألمانيا مستجيراً به ؛ ولم يعرف كاتب الخطاب ، ولكن ذكر فى ختامه أنه حرر فى تارانتو فى المعسكر الملكى (الاسبانى)

وفى هذا الخطاب يعدد الكاتب آثام اسكندر السادس وآل بورجيا ، ويتحدث عن أطماعهم وجرائمهم السياسية والاجتماعية ، وعما يرتكبونه من صنوف العبث والفجور والتهتك ، وعن انتهاكهم لكل الحرمات الدينية والاجتماعية وسحقهم لكل مبادىء الحياء والحشمة ؛ ويتحدث بنوع خاص عن شيزارى بورجيا وجرائمه الدموية ، وعن لوكريسيا وعلائقها الأثيمة مع أبيها وأخويها ؛ وعن الحفلات الخليعة الشائنة التى يقيمها البابا وأبناؤه ، ويخص بالذكر حادثة الليلة العارية التى اجتمع فيها خمسون من غانيات رومة عراة أمام البابا وأولاده وارتكب فيها من صنوف الفحش المثير ما ارتكب وما أشرنا اليه فيما تقدم ؛ ويتحدث بوجه عام عن حالة المجتمع الرومانى فى ذلك الحين وما بثه اليه آل بورجيا من صنوف الفساد والاثم والروع ؛ كل ذلك فى إفاضة ومنطق قوى يدل على تمكن الكاتب من الشؤون التى يتناولها

وقد ترجم هذا الخطاب الذى يعرف بخطاب « سافيللى » إلى معظم اللغات الأوربية ونشر فى سنة ١٥٠٢ فى جميع العواصم ، وكان له وقع هائل فى إيطاليا ، وفى أوربا كلها ؛ وسجلته أيضاً جميع التواريخ والروايات المعاصرة

ويرى المؤرخ الألمانى جريجوروڤيوس فى كتابه « تاريخ رومة فى العصور الوسطى [1] » فى هذا الخطاب وثيقة حقيقية تمثل صورة رومة فى عصر آل بورجيا ، وأنه لا تفضلها وثيقة أخرى فى تصوير سياستهم الفاجرة ، وما بثوه من الروع فى المدينة على يد أعوانهم وجواسيسهم

وترى هذه التهم ماثلة لا فى الروايات المعاصرة فقط ، ولكن فى كثير من الكتب والرسائل السياسية المعاصرة ، وفى شعر بعض أكابر الشعراء المعاصرين

ومازالت سيرة آل بورجيا ، وسيرة لوكريسيا ، بما يتخللها من تلك الصور المروعة المثيرة ، حتى العصر الحديث مستقى القصص والشعر ؛ وقلما يخترع القصص أو الشعر فيها شيئاً لم تدونه الروايات المعاصرة ؛ ومع ذلك فان هذه القطع القصصية أو الشعرية تقوم على كثير من الوقائع المغرقة أو الخيالية المحضة ، التى لا يستطيع المؤرخ أن يقف بها

(1) Geschichte der Sratt Rome im Mittelalter

مثال ذلك ما كتبه اسكندر ديماعن « آل بورجيا » فى كتابه « الجرائم الشهيرة »[1] ، فقد تناول سيرة آل بورجيا ولوكريسيا فى فصل طويل فياض بالوقائع والصور المدهشة ، وقدم لنا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى ، وابنته لوكريسيا فى أروع الصور وأسفلها : طغمة من الأبالسة ، تسحق الحياة البشرية تحت أقدامها ، وتبث الدمار والموت فى أرجاء المدينة الخالدة ، بالسم والخنجر وكل وسيلة آثمة ؛ وقدم إلينا لوكريسيا فى صورة بغى سافلة ، تعاشر أباها وتعاشر أخويها ، وجمعاً كبيراً من الصحب والخلان

ووضع فكتور هوجو قطعته المسرحية الخالدة « لوكريسيا بورجيا »[2] فجاءت خلاصة من تلك الروايات المغرقة المعاصرة ، ولا بأس من أن نقدم خلاصتها ليرى القارئ كيف أن الشاعر لم يلحظ فى مادته إلا أن تكون مثار السحر والروع :

هى قطعة نثرية فى ثلاثة فصول ، خلاصتها أن عدة سفراء فتيان من فلورنس شهدوا فى مدينة البندقية (فينزيا) مرقصاً محجباً ، كانت تمثل فيه لوكريسيا بورجيا محجبة ؛ وكان معهم فتى يدعى جنارو ، وهو فتى مجهول النشأة لا يعرف له أماً ولا أباً . وجلس الفتية الفلرنسيون يتحدثون عن آل بورجيا ويرددون ماينداع عنهم من قصص القتل والآثام الشنيعة ؛ وجلس جنارو إلى جانبهم وقد أخذته سنة من النوم ؛ وبعد هنيهة قدمت امرأة محجبة ، وهوت على جنارو تقبله فاستيقظ من نومه . من هى ؟ هى لوكريسيا ، وهى أمه ، وهو ولدها الطبيعى ؛ ولم تستطع حين رؤيته أن تقاوم هـذه اللذة . ورفعت لوكريسيا قناعها لجنارو خاصة ؛ ولكن الفتية الفلرنسيين رأوها وعرفوها ، وظنوها خليلته ، واعتزموا زيارتها معه فى فيرارا مقامها . وظن زوجها (دوق فيرارا) ان جنارو صاحبها ، فأمر بالقبض عليه ، وأراد أن يرغم لوكريسيا على اعدامه بيديها بحجة أنه أهان اسم آل بورجيا وذلك بازالة بعض حروفه المنقوشة على شرفة القصر ؛ ونفذ الدوق مشروعه فعلاً ، فأرغم لوكريسيا على أن تضع السم فى كأس جنارو ، وأن تقدمه إليه . ولما شرب الفتى الكأس المسمومة ، تركهما الدوق ؛ فبادرت لوكريسيا إلى انقاذ جنارو ، وقدمت له الترياق ؛ فتردد الفتى لأنه كان يعتبرها أشد اجراماً من الدوق ، ولكنه شرب الترياق أخيراً ونجا من الموت

وأرادت لوكريسيا أن تنتقم من الفتيان الفلرنسيين الذين عرفوها وأذاعوا اسمها ، فاحتالت لدعوتهم إلى العشاء عند إحدى صاحباتها ، وبينما هم فى أرق لحظات المرح ، إذا بهم يسمعون أناشيد الحزن ، ومن ورائهم صف من الرهبان والنعوش ، فاعتقد الفتيان أنها مزحة مدبرة ، ولكنها كانت الحقيقة الرائعة ؛ ذلك أنهم تناولوا السم فى الطعام والشراب ، ولم يبق بينهم وبين الموت سوى لحظات ، ولكن شاء نكد الطالع أن يكون بينهم جنارو ! فتقدم إلى لوكريسيا يطالب نعشه ؛ فذهلت لوكريسيا ، وحاولت أن تبادر إلى إنقاذه ، ولكنه لم يقبل ، ولم يمهلها حتى أخرج خنجره ، وما كاد يطعنها حتى صاحت : « إنى أمك ! »

هذه هى خلاصة قطعة هوجو المسرحية الخالدة التى مازالت منذ نحو قرن تسحر ملايين النظارة ، وهى كما ترى قطعة من الخيال المغرق لم يراع الشاعر فيها شيئاً من التاريخ الحق

ومع ذلك فان ما كتبه اسكندر ديما وهوجو إنما هو انموذج فقط لمئات السير والقصص التى كتبت عن لوكريسيا بمختلف اللغات ، وكلها نماذج للخيال المغرق والقصص المثير

* * *

بيد أننا نرى فى عصرنا مؤرخاً بارعاً هو العلامة الفرنسى فرانز فونك برنتانو ، يحاول فى كتابه الذى أشرنا إليه من قبل أكثر من مرة[1] أن ينتزع شخصية لوكريسيا بورجيا من تلك الغمر المروعة التى أحاطت بسيرتها ، وأن يمحص تلك الروايات المغرقة التى امتزجت بحياتها ، وأن يرد كثيراً من التهم التى نسبت إليها

وفى رأى هذا المؤرخ البارع ، الذى يدعم عرضه فى معظم الأحيان بمنطق خلاب ، أن التاريخ قد ظلم لوكريسيا أشنع ظلم ، وأن هذه الفتاة التى صورتها الروايات المعاصرة بغياً فاجرة ، لم تكن سوى ضحية وأداة ذلول فى يد أبيها وأخيها ، وأنها كانت تدفع دفعاً إلى مشاطرة هذه الحياة المثيرة التى كانت تنتظم فى قصر الفاتيكان ، ولكنه يرد عنها تهم الفجور الشنيعة التى نسبت

(1) Les crimes célébres
(2) Lucrèce Borgia

(1) Lucrèce Borgia

إليها ؛ ولا سيما تهمة عشرة أبيها وأخيها ، ويرتاب فى أقوال بوركارت وغيره من الرواة المعاصرين ، ويرى أن هذه التهم ترجع فى الأصل إلى الحملة القاذفة التى شهرها جان سفورزا زوج لوكريسيا الأول عليها انتقاماً لفصله منها ، وإلى الحملات القاذفة التى دبرت أيضاً ضدها وضد آلها فى بلاط نابل على أثر مقتل زوجها الثانى الفونسو الأرجونى ، وهى حملات ظهر أثرها فى نظم الشعراء المعاصرين الذين يغذيهم بلاط نابل

ويصور لنا برنتانو لوكريسيا فتاة ناعمة وافرة السحر والرقة ، وافرة الذكاء والحزم ، ويصورها لنا فى فيرارا أميرة رفيعة الخلال تحمى الآداب والفنون ، ويكاد يصورها لنا فى أعوامها الأخيرة قديسة فياضة الورع والتقوى

وكتاب برنتانو قطعة بديعة من التدليل التاريخى ، وقد يدفع بدقة منطقه كثيراً من التهم التى نسبت إلى ابنة اسكندر السادس ؛ ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يهدم كثيراً من العناصر الأساسية التى تمثل فى هذا الاتهام

ومع أننا بالرغم من محاولة برنتانو البديعة ، ما زلنا نؤثر ناحية الاتهام فى سيرة لوكريسيا بورجيا ، فانا نميل مع برنتانو الى الاعتقاد بأن كثيراً من الاغراق والمبالغة يشوب تلك الصور المروعة الآثمة التى تركتها لنا سير العصر ، عن تلك الشخصية الباهرة المظلمة معاً ؟

(تم البحث) **محمد عبد الله عنان**
(النقل ممنوع) المحامى

التربية الخلقية والاجتماعية فى المدرسة

للأستاذ فخرى أبو السعود

فى كلمة سابقة بهذا العنوان ذكرت أن الوسيلة الوحيدة لتحقيق مدارسنا الغرض الأسمى من التربية — وهو التربية الخلقية الاجتماعية — هى خلق مجتمع راق فى المدرسة يساهم فيه الطالب ويكتسب فيه من محمود الصفات الخلقية ومقتضيات الحياة الاجتماعية مايخرجه إلى المجتمع عارفاً بمطالبه ، مزوداً بالمؤهلات التى تساعده على الأندماج فيه والنجاح فى معتركه

وأعود الآن إلى بيان مزايا هذا المجتمع الواجب خلقه فى المدرسة ، فمزاياه لاتقتصر على اختلاط الطلاب بعضهم ببعض لحميد الأغراض ، بل تشمل أيضاً اختلاطهم بالمعلمين ، وهو أمر لازم للتربية الصحيحة ؛ إذ من طبيعة الناشئين الاقتداء بمن هم أكبر منهم وأخبر ، ومن طبيعة المواهب الانسانية العقلية والخلقية ألا تنمو وتسمو إلا بتقليد أولئك الذين ينظر إليهم الناشىء نظرة إكبار ، ويُحسن فيهم الاعتقاد ، وتنزع نفسه إلى التشبه بهم

وهذا الاختلاط الجم المزايا بين الطلاب ومعلميهم سائد فى معاهد انجلترا من المدارس الصغيرة إلى الجامعات الكبيرة ، وأثره فى تربية الناشئة الانجليزية أعظم من أثر كل مايلقى فى حجرات الدراسة من معلومات ؛ فالمعلمون يعاملون طلابهم معاملة الزملاء الصغار أو الأقرباء الناشئين ، وبهذه الروح يناقشونهم فى أوقات الدراسة ، ويشاركونهم ألعابهم وحفلاتهم ، ويُكِنُّ المعلمون لطلابهم العطف ، ويكن الطلاب لمعلميهم الاحترام ، وتسود معاملة الفريقين البساطة التامة ، وأعْظِمْ بما لذلك من أثر فى تربية الرجولة والصراحة والاعتداد بالنفس بين الناشئين !

أما فى مدارسنا فالهوة بين المعلمين والطلاب سحيقة ، والنفرة شديدة : لايفهم المعلم من نفسية كل طالب شيئاً كثيراً ، ولايعطف إلا على النادر منهم ، ولايعلم الطلاب عن معلميهم غير ما يثرثره عليهم من معلومات لاتنتهى إلا بانتهاء السنة المدرسية ، ولايضمرون له حباً ولا ميلاً ، بل يستحكم العداء بين الفريقين

أحياناً إذا كان الطلاب ضعفاء فى مواد الدراسة ، أو كان المدرس شديداً ملتزماً للجد ، وقد استحال أن يسود بينهما الود الذى هو أجدر أن يسود بين المربى والمتربى ، فمن معلمينا من يأبى أن يهبط إلى التبسط مع طلابه ، ومنهم من يود لو فعل فيردُّه علمُه بما يجر إليه ذلك من فساد درسه ؛ إذ يندفع الطلاب وراء الهزل ويسيئون المسلك وينسون الدرس ، لأن ناشئتنا من الجهل بآداب الاجتماع بحيث لا يعلمون معنى القصد فى الأمور ، ولا يقنعون إذا تركوا وشأنهم بما دون الامعان فى العبث

ونتيجة هذه الحال السائدة فى مدارسنا أن معظم الطلاب — سواء متقدموهم فى العلوم ومتخلفوهم — يغادرون المدارس وهم مزيج من الخجل والتبجح والغرور والنفاق ، إذا انفرد أحدهم رأيته على جانب كبير من الخجل والعجز والحصَر ، وإذا اجتمعت فئة منهم ارتد خجلهم تبجحاً وحصرهم صخباً وعجزهم جرأة على الفساد ؛ وبينما تؤدى العلاقة بين المعلم والمتعلم فى انجلترا إلى صداقة مثمرة فى مستقبل الحياة تَنبَتُّ الصلة بين المعلم والطالب عندنا بانتهاء العام الدراسى ، حتى لقد يتقابل الاثنان فيتغاضى الطالب عن معلمه ، أو يخاطبه فى لهجة جريئة متطاولة ، وفى كلتا الحالين لا يأسى المرء إلا على ما بهذا المسلك من دلالة على فشل التربية وعبث المجهود المنفق فيها

والعلة فى هذا ترجع إلى نظام مدارسنا التى تجعل مَلْء الرؤوس بالمعلومات الغاية الكبرى بل الوحيدة من التعليم ، فتشغل كل أوقات المدرسة بها ، فيرى المدرس — المرهق ببرنامج حافل — وقته أضيق من أن يصرف جانباً منه فى مباسطة طلابه ومناقشتهم فى شتى الشؤون العامة التى تمتُّ إلى الحياة وتشغل بال كل ذى حظ من الانسانية ونصيب من الثقافة ، فتنقطع الصلة الانسانية بين المعلم والطالب ، ويترك الطلبة وأنفسهم يشبعون تلك الرغبة الفطرية فى التناقش وتبادل الأفكار بثرثرتهم فى أوقات الفراغ — وأوقات الدروس إن استطاعوا — ولما كانوا قد عدموا إرشاد المدرس بفكره الذى هو أرقى وشخصيته التى هى أقوى من شخصياتهم وأفكارهم فانهم يتجهون عادة إلى السفساف من الأمور ، ويألفون الثرثرة الفارغة التى لا نهاية لها ولا غاية ، ويختارون قدواتهم فى الحياة من خارج المدرسة آخذيها عن شخصيات قد لا تكون جديرة بالاعجاب أو محمودة التقليد

أما مخالطة الطلاب لمعلميهم فانها — فضلا عن صقلها لآداب المعاملة وحسن الذوق بينهم وعما تنميه فيهم من صفات الرجولة — تفتق أذهانهم وتسمو بهم إلى درجات من التفكير عالية ، وتلقى ضوءاً على مواهب كل منهم وميوله ، وتفسح أمامهم المطامع ، وتبعث فيهم شتى الغايات يجعلونها نصب أعينهم فى الحياة ، على حين لا تتجاوز مطامع الأكثرين منهم اليوم اجتياز الامتحان ونيل الشهادة

ولقد عُهد فى السنوات الأخيرة إلى المعلمين بمدارسنا بمراقبة الجمعيات المدرسية ، ولكن هذه الجمعيات أنشئت دون أن يفسح لها موضع من أوقات الطلاب والمدرسين المغلولى الأيدى فى المناهج الطويلة ، فلم تجتذب من الطلاب إلا القليلين ، وزهد فى رقابتها المدرسون لأنها جاءت زيادة على أعمالهم المتراكمة ، فلم تؤد تلك الجمعيات الأغراض المنشودة ، ولم تكن غير إرهاق على إرهاق ، وستظل كذلك ما لم تزحزح المواد الدراسية عن مكانها القدسى الذى تتبوأه فى مدارسنا

هذا ، وليس يطلب من المدرس أن يكون مثلاً أعلى فى الانسانية ، أو بحراً فى العلم ، أو نصف إله ، لكى يؤدى مهمته فى تربية الطلاب الخلقية والاجتماعية ، بل يكفى لينهج بهم النهج القويم أن يكون مستقيم السيرة متنور الذهن مخلصاً فى عمله ، وهذا هو الغالب بين مدرسينا ، وما يحتاج الأمر إلا إلى رفع عبء المواد الدراسية التى تثقل كواهل المعلمين والمتعلمين وتشغل كل أوقاتهم ، وإفساح المكان لمجتمع فى المدرسة يكون صورة صغيرة للمجتمع العام خارجها

إن إيجاد هذا المجتمع الحى الراقى بين جدران المدرسة هو الوسيلة الوحيدة لنجاح مهمتها ، وإعداد الناشئين فيها للمجتمع الأكبر خارجها ، وترقية ذلك المجتمع الخارجى جيلاً بعد جيل ، ولن تؤدى مدرسة مهمة التربية حتى يحيا الطلاب فيها حياة اجتماعية ، ولن يؤدى المعلم واجبه حتى يمنح الفرصة لمخالطة طلابه مخالطة الانسان المستنير للانسان المستنير ، ويحل هذا محل العلاقة الآلية الجافة القائمة بينهما اليوم ، وبهذه الحياة الاجتماعية المدرسية يؤدى المدرس وظيفته « الروحية » التى أشار إليها تقرير معالى وزير المعارف ؟

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

المنسوجات الاسلامية المصرية

ومعرض جوبلان بباريس

للدكتور زكى محمد حسن
الأمين العلمى لدار الآثار العربية

افتتح صاحب الفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية فى ١٧ من مايو معرضاً للمنسوجات الاسلامية المصرية أقامته متاحف جوبلان للقطع الأثرية التى بعثت بها إلى باريس دار الآثار العربيـة من مجموعتها النفسية ؛ وزاد المعرض نجاحاً أن صاحب الجلالة مولانا الملك كان قد تفضل فأذن لجناب المسيو (ڤييت) أن يأخذ لهذا المعرض سبع عشرة قطعة من المجموعة الملكية الفاخرة ، فأتيح للجمهور الباريسى أن يعجب ببدائع منتجات الفن الاسلامى ، وأن يرى من آيات صناعة النسج الاسلامية قطعاً منقطعة النظير

ويعرف القراء أن صناعة النسج كانت زاهرة على ضفاف النيل منذ العصور الأولى ، وأنها سارت فى سبيل التقدم بخطى واسعة ، حتى جاء العصر القبطى فتأثرت بتيارين من المؤثرات البيزنطية والساسانية

ثم فتح العرب مصر ، واعتمدوا فى أول الأمر على الصنَّاع والفنانين الوطنيين ، وأدى ذلك إلى خلق فن إسلامى جميل كان له ازدهار ، وكانت له حياة طويلة على عكس التعاون بين الرومان ورعاياهم ، ذلك التعاون الذى سار بالفن الهللنستى فى طريق السقوط والاضمحلال

وظهر فى صناعة النسج الاسلامية فى مصر تطور منتظم بدأ بالاستغناء شيئاً فشيئاً عن الرسوم الحيوانية والآدمية التى كان الكلف بها عظيماً فى العصر القبطى ، وأخذت الكتابة والزخرفة النباتية والهندسية تلعبان دوراً هاماً فى تزيين الأقمشة الاسلامية

على أن فن النسج لم يطبع فى مصر بطابع إسلامى ظاهر إلا ابتداء من العصر الفاطمى ، وفى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية كثير من القطع التى ترجع زخرفتها إلى عصر الانتقال من الطراز القبطى إلى الطراز الفاطمى ، والتى قد يصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية . أما القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة فان وجودها نادر ، وعلى عكس ذلك القطع التى ترجع إلى عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك

وصناعة النسج فى مصر الاسلامية كانت نوعين : صناعة ملكية فى مصانع حكومية تسمى طرازاً ، وصناعة أهلية عليها رقابة حكومية شديدة

أما المصانع الحكومية أو الطراز فان وجودها منذ العصر العباسى يثبته ما وصل إلينا من مصنوعاتها . والمعروف أنه كان هناك نوعان من هذه المصانع الحكومية : الأول طراز الخاصة ، وكان لا يُنتج إلا للخليفة ورجال بلاطه وخاصته ؛ والثانى طراز العامة ، وكان بالرغم من تبعيته لبيت مال الدولة يُنتج للتجارة العامة ، فضلاً عن انتاجه لبلاط الخليفة أو الأمير ان دعت الحال

ولفظ طراز مشتق من الفارسية « ترازيدن » بمعنى التطريز وعمل المدبّج ؛ وأصبح بعد ذلك يدل على الملابس الملكية وما يشبه « ملابس التشريفة » ، ولا سيما إذا كان يحليها شىء من التطريز أو أشرطة من الكتابة . وما لبث مدلول هذا اللفظ أن اتسع حتى انتهى فى العربية والفارسية إلى الدلالة على المصنع والمكان الذى تنسج فيه مثل هذه الأقمشة

واحتكار الحكومات لصناعة النسج قديم لسنا نعرف أوّليته ، ولسنا نستطيع أن نحدِّد تماماً أين بدأ نظام الطراز على النحو الذى نعرفه فى الفنون الاسلاميـة . فالعلماء مختلفون فى أصله ، فريق يذهب إلى أنه نشأ فى بيزنطة ، وفريق يظنه إيرانى الأصل ، كما يحسبه آخرون بابلياً أشورياً

على أن مصر عرفت فى عهد الفراعنة شيئاً من احتكار صناعة النسج ، فقد كانت المصانع ملحقة بالمعابد ، وكانت منتجاتها مشهورة فى الشرق الأدنى كله ، وكانت تدر على المعابد أرباحاً وافرة كان الفراعنة يستولون على جزء منها ويحتفظ كهنة المعابد بما يبقى

على أن نظام الطراز ما لبث أن انتشر فى كافة الأقطار الاسلامية ، كسورية والعراق وإيران وآسيا الصغرى ، وأسبانيا وجزيرة صقلية

وكان طراز الخاصة يعمل فى نسج الأقمشة اللازمة للخليفة

ولكبار رجال الدولة ؛ وحاجةُ الخلفاء والأمراء إلى الكثير من تلك الأقمشة ناشئة من العادة القديمة التي اتخذوها في الخلع على رجال حاشيتهم وعلى غيرهم من أفراد الرعية مكافأة لهم وإظهاراً لرضاهم عنهم

وفضلا عن ذلك كان الخلفاء والأمراء يتبارون في إرسال الكسوة السنوية إلى الكعبة الشريفة من المنسوجات النفيسة التي كانت تصنع عادة في طراز الخاصة بمصر

لذلك لم يكن غريباً أن يُعنى الخلفاء والأمراء بكتابة أسمائهم على هذه الأقمشة الثمينة بلحمة من الذهب أو الفضة أو الخطوط المتعددة الألوان تخليداً لذكراهم ووثيقة لمن خلعت عليه إظهاراً لرضاء الأمير ، أو علامة على تولى إحدى الوظائف الكبرى في الدولة

وكانت الكتابة على الأقمشة تشمل اسم الخليفة وألقابه وبعض عبارات الأدعية ؛ وكثيراً ما كان يذكر فيها اسم المدينة التي فيها الطراز ، واسم الوزير ، وصاحب الخراج ، وناظر الطراز ؛ ومثلُ ذلك ما كُتب على قطعة نُسجت للخليفة الأمين محفوظة الآن بدار الآثار العربية ونصه : « باسم الله بركة من الله لعبد الله الأمين محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مما أمر بصنعته في طراز العامة بمصر على يدى الفضل بن الربيع مولى أمير المؤمنين »

أما الصناعة الأهلية فكانت تُحمل ضرائب فادحة وتُعانى رقابة الحكومة في مراحلها المختلفة ، فكان لزاماً أن تختم الأقمشة بالخاتم الرسمي ، ولم يكن يتولى البيع أو التجارة إلا تجار تعينهم الحكومة ، وعليهم تقييد ما يبيعونه في سجلات رسمية ، كما كان لف الأقمشة وحزمها وربطها وشحنها يقوم به عمال حكوميون يتناول كل منهم ضريبة معينة

وقد لوحظ أن المراكز الرئيسية لصناعة النسج في مصر كانت في أكثر الأحيان الجهات التي يكثر فيها الأقباط ؛ وكان القطن والكتان ينسجان في البلاد المصرية المختلفة ولاسيما في الدلتا بتنيس والاسكندرية وشطا ودمياط ودابيق والفرما ، كما اشتهرت أيضاً بنسجها مدينة البهنسا

أما الأقمشة الحريرية فكانت تنسج في الاسكندرية وفي دابيق ؛ وكانت هناك أيضاً مصانع للنسج في مدينتي أخميم وأسيوط اللتين كانتا مركزين هامين لصناعة النسج في العصر القبطي ، وكانتا تصدران الى بيزنطة والى بابوات روما كثيرا من الأقمشة النفيسة التي كان يوهب جزء كبير منها الى الكنائس والأديرة

وأما الحرير الصافي فالظاهر أن المصانع المصرية لم تشتغل بنسجه قبل عصر المماليك

وقد كان متحف فكتوريا وألبرت بلندن ، والقسم الإسلامي من متاحف برلين ، يفتخران بامتلاكهما أكبر مجموعتين من الأقمشة الاسلامية النفيسة ، حتى كشفت دار الآثار العربية في السنين الأخيرة عدداً كبيراً جداً من القطع في المقبرة القديمة بين عين الصيرة والبساتين ، إذ كانت الجثث في المقبرة المذكورة ملفوفة في أقمشة على بعضها أسماء خلفاء عباسيين أو فاطميين ، وأصبحت دار الآثار العربية بعد هذه الاكتشافات أغنى متاحف العالم في الأقمشة الاسلامية ، كما كانت أغناها في الخشب وفي مشكاوات المساجد المموهة بالمينا

وأكبر الظن أن أكثر ما وجد في الحفريات المصرية من منسوجات قد صنع في مصر نفسها ؛ ولسنا نجهل أن الاتصال كان كبيراً بين سورية ومصر في العصور القديمة ، وأن هذا الاتصال لم يضعف في العصر الاسلامي إلا في فترات قصيرة ، وأن مقادير كبيرة من الزجاج المموه بالمينا ومن الأواني النحاسية المكفتة بالفضة نقلت إلى مصر ، وأنه من المحتمل أن يكون ذلك قد قدّر لبعض المنسوجات ؛ ولكن هذا الاستيراد لم يكن ليبلغ درجة تستحق الذكر ، لأن مصر نفسها كانت من أكبر المراكز لصناعة المنسوجات في الشرق الأدنى

وكذلك كانت صقلية خاضعة للخلفاء الفاطميين في شمال إفريقية ، ثم ضم الفاطميون إلى ملكهم مصر وسورية . وكانت صناعة النسج زاهرة في جزيرة صقلية حين حكمها العرب ، حتى لقد يصعب كثيراً التمييز بين الأقمشة المنسوجة في مصانعها والأقمشة المنسوجة في مصر وسورية . وإن صح ما ذكره المقريزي من أن ابنة المعز لدين الله تركت ثلاثين ألف قطعة من نسج صقلية فان ذلك يدل على كثرة ما كانت تنتجه المصانع الصقلية ، ويثبت أن مصر كانت تستورد منها بعض الأقمشة النفيسة ، ولكنا نستبعد أن تكون الواردات من الأقمشة الأجنبية إلى مصر قد بلغت شيئاً كثيراً

ومهما يكن من شيء فان تطور صناعة النسج المصرية كان بطيئاً فى القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، وظلت الزخارف والتقاليد الفنية القبطية غالبة فى العصر الاسلامى ، فترى قطعاً كثيرة من الصوف أو الكتان ذات زخارف متعددة الألوان أكثرها طيور أو حيوانات أو أشكال آدمية صغيرة فى جامات بيضية الشكل أو متعددة الأضلاع وفيها أشكال هندسية أوليـة وخطوط متقاطعة ودوائر متماسة ، وقد يكون على بعضها صور طيور متقابلة ، أو يولى كل منها الآخر ظهره ؛ وكل هذه القطع عليهامسحة قبطيةظاهرة ، وأكثرهامنسوج بطريق «التابسترى» Tapestry-weaving process التى لامجال هنا لشرح تفاصيلها الفنية

وتظهر الكتابة على المنسوجات فى القرن التاسع ، بل هى تظهر فى القرن الثامن ، وإن لم يكن لدينا من دليل يؤيد ذلك إلا القطعة المحفوظة بمتحف فكتوريا وألبرت والتى عليها اسم « مروان أمير المو . . . » وفى اعتقادنا أن المقصود هنا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية

وقد أحصى الأستاذ ڤييت ما نعرفه فى المتاحف والمجموعات الأثرية من قطع المنسوجات التى عليها أسماء الخلفاء العباسيين ، فوجد أن هناك واحدة باسم مروان ، وواحدة باسم هارون الرشيد ، وواحدة باسم الأمين ، واثنتين باسم المأمون ، وواحدة باسم الواثق ، واثنتين باسم المتوكل ، واثنتين باسم المستعين ، وواحدة باسم المعتز ، وواحدة باسم المهتدى ، وتسع عشرة قطعة باسم المعتمد ، وإحدى وعشرين للمعتضد ، وخمس عشرة للمكتفى ، وتسعاً وثمانين ومائة للمقتدر ، وإحدى عشرة للقاهر ، وأربعاً وخمسين للراضى ، وسبعاً وعشرين للمتقى ، وأربع قطع للمستكفى ، وخمساً وأربعين ومائة للمطيع

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسج . على أن هناك بعض أقمشة عليها زخارف طولونية ظاهرة على النحو الذى نعرفه فى زخارف الجامع الطولونى ، والأخشاب التى ترجع الى هذا العهد ؛ وأوضح ما تكون هـذه الزخارف على المنسوجات فى قطعة بمتحف برلين نشرها الدكتور كونل Dr. Kühnel وتذكر رسومها بما يسمونه الطراز الأول من زخارف سامرا ، وبالزخارف الجصية فى المنزل الذى كشف فى حفريات دار الآثار العربية منذ ثلاث سنين . وليست هذه القطعة فى حالة جيدة من الحفظ ، فان زخرفها قد سقطت فى بعض أجزائها ، ولكن من حسن الحظ أن متحف ليبزج يمتلك قطعة أخرى من القماش نفسـه ، زخرفها أحسن حفظاً ، وأكثر ظهوراً

وفى دار الآثار العربية قطع عليها رسوم شديدة الشبه بالزخارف الطولونية مما يجعلنا نرجح أنها ترجع إلى هذا العهد . وأجمل هذه القطع معروض الآن فى متحف جوبلان

وتشمل مجموعة دار الآثار العربيـة عدداً من قطع النسج بأسماء الأمراء الطولونيين . والمعروف أن الجزية التى كانت ترسلها مصر إلى الخليفة العباسى ، ثم الهدايا التى أرسلها ابن طولون إلى الخليفة المعتمد ، والتى أرسلها خمارويه من بعده إلى المعتضد ، كان فيها شيء كثير من المنسوجات النفيسة ؛ ومن هذه القطع واحدة باسم الخليفة المعتمد تاريخها سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) وتشبه قطعة أخرى باسم المعتمد أيضاً وجدتها البعثة الألمانية فى سامرا وهى محفوظة الآن بالقسم الاسلامى من متاحف برلين . وهناك قطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى بالله ، والأمير الطولونى هارون بن خمارويه تاريخها سـنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) وهى السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية

وظل الخلفاء العباسيون فى عهد الأخشيديين يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعيـة المعروفة ، بيد أن أسماء الوزراء لم تعد تظهر فى تلك الكتابات

أما فى عصر الدولة الفاطمية فقد عظم اهتمام الخلفاء بصناعة النسج ؛ ويروى المقريزى أن دار يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله نزار حوّلت بعده إلى مصنع للنسج ، وصارت تعرف باسم دار الديباج ، وأن وظيفة صاحب الطراز كان لا يتولاها إلا أعيان المستخدمين من أرباب العمائم والسيوف ، وكان تحت إمرته معاونون كثيرون ودار للضيافة تسمى « منظرة الغزالة » لا ينزل إلا فيهـا إذا ترك مقامه بدمياط أو بتنيس وقدم إلى القاهرة ، « فتجرى عليـه الضيافة كالغرباء الواردين على الدولة فيتمثل بين يدى الخليفة بعـد حمل الاسفاط المشدودة على تلك الكساوى العظيمة ويعرض جميع ما معه وهو ينبه على شيء فشيء . . . وله

فى بعض الأوقات التى لا يتسع له الانفصال نائب يصل عنه بذلك غير غريب منه ، ولا يمكن أن يكون إلا ولداً أو أخا فان الرتبة عظيمة . . » (خطط المقريزى جزء أول ص ٤٦٩ — ٧٠)

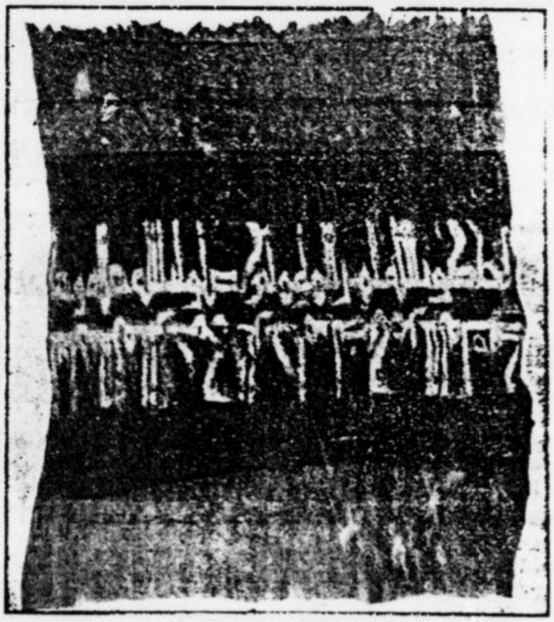
وقصارى القول أن نظام الطراز بلغ من الجودة والدقة فى العصر الفاطمى مبلغاً زاد كثيراً فى كمية منتجاته وفى نفاسة نوعها . وقد كانت هناك أصناف من الأقمشة الغالية المشغولة بالحرير لا تنسج إلا للخليفة نفسه ، ولكن أفراد الرعية كانوا يحصلون على قطع أخرى نفيسة جداً ، فكانت الجلابيب والأقمصة والعمائم والأحزمة تصنع من أقمشة غالية تزينها أشرطة مشغولة بالحرير ، أخذ حجمها فى الزيادة حتى صارت فى القرن الثانى عشر تغطى أكثر الأرضية الكتانية فى الأقمشة

وكثيراً ما أمر الخلفاء بصناعة منسوجات فاخرة لاهدائها إلى الأمراء والملوك الذين كانوا يخطبون ودهم أو تربطهم بهم علاقات الصداقة وحسن الجوار

وقد بدأت بشائر العصر الفاطمى تظهر فى صناعة المنسوجات الاسلامية فى القرن العاشر ، فأخذ الميل يزداد إلى الرقة فى الزخارف والابداع فى تنسيقها ، وسارت الألوان تزداد تدريجياً فى الهدوء والتناسق ، وأصبح فى الكتابة كثير من الرشاقة كما كبر حجم الحروف وصارت سيقانها تتصل ببعضها وينتهى كثير منها فى أعلاه بزخارف صغيرة على شكل وريقات شجر تقليدية

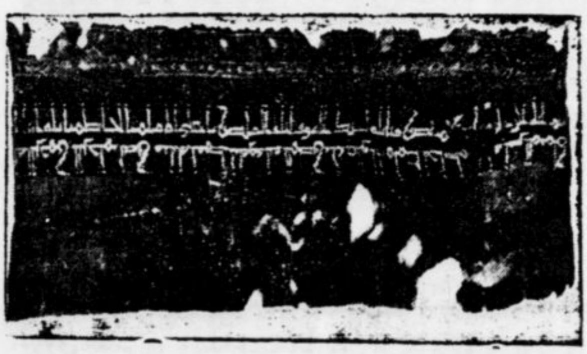
وقد زار ناصرى خسرو الرحالة الفارسى مصر حوالى سنة ١٠٤٠ ميلادية وأعجب بما ينسج فى تنيس من قصب ملون تصنع منه ثياب النساء ، وكذلك العمائم والقلنسوات وقال : إن مثل هذا القصب الجميل لا يصنع فى أى مكان آخر ، وإنه سمع أن أمير إقليم فارس من بلاد إيران أرسل عشرين ألف دينار إلى تنيس ليشترى بها ثوباً من النسج الملكى ، ولكن وكلاءه أقاموا فى مصر سنين عديدة دون أن يحصلوا على بغيتهم — وروى ناصرى خسرو أن مصانع تنيس كانت تنتج نوعاً من القماش يسمى البوقلمون يتغير لونه باختلاف ساعات النهار ويصدره المصريون إلى بلاد الشرق والمغرب

وفى المتاحف والمجموعات الأثرية كثير من الأقمشة بأسماء الخلفاء الفاطميين وخاصة العزيز والحاكم والظاهر والمستنصر . ولعل أبدعها قطعتان من مجموعة صاحب الجلالة مولانا الملك باسم الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله : الأولى من شاش أسود وعليها كتابة كوفية بحروف كبيرة فى سطرين متوازيين مقلوب أحدهما . ونص العلوى منهما : « بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد . . » والسفلى : « الحاكم بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعا . . . » وتحت الكتابة شريط من حرير أصفر فيه رسم أزرق مكرر لطائرين متقابلين (شكل ١)



شكل (١) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

والثانية من شاش أسود أيضاً وعليها كتابة نصها فى كل من السطرين : « الله الرحمن الرحيم نصر من الله لعبد الله ووليه المنصور أبى على الامام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين » وفوق



شكل (٢) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة من الشاش الأسود باسم الحاكم بأمر الله

الـكتابة شريط من حرير أصفر فيـه أيضاً رسم أزرق مكرر لطائرين ، انظر (شكل ٢)

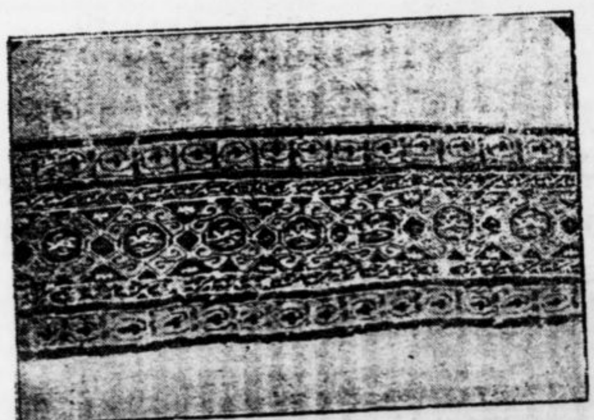
ومما يلفت النظر فى هاتين الطرفتين الملكيتين ما فى كتابتهما من الأخطاء بالرغم من إبداع صناعتهما

ومن أكثر المنسوجات الفاطمية ذيوعاً ثلاثة أنواع أقدمها قوامه أشرطة من الطيور أو الحيوانات وسط جامات بيضية الشكل قد يتداخل بعضها فى بعض

والنوع الثانى عظُم الشغف به فى القرن الحادى عشر ، وألوانه باهتة ، ويسود أرضيته لون ذهبى ، وتزينه أشرطة وجامات متداخلة قد يكثر عددها ، وفيها أيضاً رسوم حيوانات أو طيور تقليدية أو أشكال آدمية ، انظر (شكلى ٣و٤)



شكل (٣) [من مجموعة حضرة صاحب الجلالة الملك]
قطعة نسيج من العصر الفاطمى



شكل (٤) قطعة نسيج فاطمية من القرن الحادى عشر الميلادى
(مجموعة دار الآثار العربية)

والنوع الثالث يمثل القرن الثانى عشر ، ويسوده اللون الأزرق الغامق ، وتبدأ فيـه الحروف الـكوفيـة فى الاستدارة لتصبح حروفاً نسخية ، كما تظهر فى الزخارف الفروعُ النباتيـة والأرابسك والحروف النسخية التى لا تكوّن كلمات ذات معنى ومن العبارات التى يكثر ورودها على الأقمشة الفاطمية : « الملك لله » ، و « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إلـه إلا الله محمد رسول الله ، على ولى الله » ، و « نصر من الله » ، و « العز من الله »



شكل (٥) قطعة نسيج فاطمية من الـكتان ترجع إلى القرن الثانى عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وأما فى العصر الأيوبى فان الزخارف الحيوانية يقل استعمالها وتكثر الـكتابة النسخية المشغولة بالابرة ، وكذلك الأشكال الهندسية من مثلثات ومعينات ودوائر . وفى المنسوجات المعروضة بمتحف جوبلان من مجموعة جلالة الملك ومجموعة دار الآثار العربية قطع قد ترجع إلى العصر الأيوبى ، وإن كان الجزم بصحة ذلك ليس من الحـكمة ، لأن بين المنسوجات الأيوبية والمنسوجات التى صنعت فى آخر العصر الفاطمى شبهاً كبيراً يجعلُ من الصعب التمييز بينها

وفى عصر المماليك فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر قضى على نظام الطراز وضعفت بالقضاء عليه صناعة نسج الـكتان ، وأصبح الأمر يدور حول نسج الحرير وتطريزه ؛ وتأثرت الصـناعة بمنتجات الشرق الأقصى التى أدخلها عصر المغول فى العـالم الاسلامى . ولسنا نجهل شهرة الديباج الصينى الذى أشـاد ماركوبولو بوصفه فى رحلتـه المعروفة ، ووجد بعضه فى مصر ، كما وجدت أنواع أخرى من الديباج فيها تأثير الصناعة الصينية لدرجة يستحيل معها الجزم بأنها من نسج عمال مصريين ، ولاسيما إن تذكرنا ما نعرفه من المصادر التاريخية عن البعثات التى تبودلت بين الصين ومصر لتحمل ما خف حمله وغلا

ثمنه من المنسوجات الحريرية النفيسة

ونلاحظ أن الرسوم في النسج المطرز المملوكي تميل الى الاستدارة نظراً لأسباب فنية يطول شرحها ، وأهمها نوع الغرزة التي يسمونها Holbein stitch والتي أخذها الغرب بعد ذلك عن البلاد الاسلامية

وكثير من الأقمشة المملوكية المعروفة عليها أسماء بعض السلاطين المماليك وبعض عبارات الأدعية نحو : « عز لمولانا السلطان الناصر » ، أو « السلطان الملك الظفر العالم العامل العادل » ، أو « عز لمولانا السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون » أو « الشرف للأشرف »

وهناك شبه جلي بين زخارف هذه الأقمشة المملوكية وبين كثير من الزخارف التي نراها على قطع الخزف والنحاس التي ترجع إلى العهد نفسه ؛ كما أننا نرى في بعض الأقمشة المملوكية رسوماً تتكون من أشرطة قد تتعرج فتضم بينها جامات بيضية الشكل فيها صور طيور في مواقف مختلفة (شكلي ٦ ، ٧



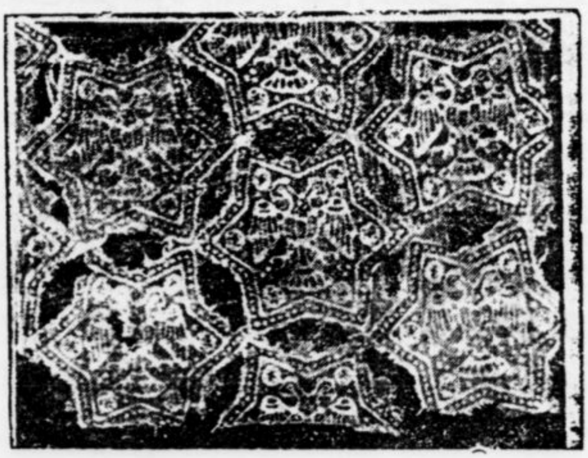
شكل (٦) قطعة نسيج من حرير ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي
(مجموعة دار الآثار العربية)

بقي أن نشير الى نوع من الأقمشة رسومه « مطبوعة » وليست منسوجة أو مشغولة في القماش نفسه ، وترجع تقاليد هذه الصناعة الى العصر القبطي ، ولكن الظاهر أنها أهملت في العصر الاسلامي حتى أواخر حكم الفاطميين حين عاد القوم الى استعمالها في الأقمشة الكتانية ، وكانت الزخارف المطبوعة ذات لون واحد حتى جاء العهد العثماني فظهرت زخارف مطبوعة ذات لونين . ومهما يكن من شيء فان صناعة هذه الأقمشة تشهد بدقة



شكل (٧) قطعة نسيج من حرير أخضر باسم السلطان الملك الناصر
القرن الرابع عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

فائقة ، وقد نقلها الغرب عن الشرق وانتشرت في أوربا ولاسيما في ألمانيا بحوض نهر الرين حيث يظهر تأثير الزخارف الشرقية في المنسوجات « المطبوعة » . وفي دار الآثار العربية بعض أقمشة اسلامية مطبوعة ، وفي اعتقادنا أنها من أحسن الأمثلة المعروفة (شكل ٨)



شكل (٨) قطعة من نسيج «مطبوع» ترجع إلى أواخر القرن الثالث عشر
(مجموعة دار الآثار العربية)

وهكذا يرى القارئ أن ما تفضل جلالة الملك باعارته وما بعثت به دار الآثار العربية الى جوبلان لتمثيل تطور صناعة النسج في مصر الاسلامية وسيلة جليلة لنشر الدعوة لمصر ، وتعريف الأجانب بفنونها الجميلة

زكي محمد حسن

فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

خطت الدراسات الاجتماعية فى الخمسين سنة الأخيرة خطوات فسيحة : فاتسعت سبلها ، وتعددت فروعها ، وتشعبت مناحيها ، واستطاعت أن تثبت أن لها — كسائر العلوم — موضوعاً محدوداً ، وطرقاً معينة ، ومبادئ ثابتة ، ولا تكاد توجد مادة برهنت على خصبها برهان هذه المادة ؛ كما لا يكاد يوجد علماء خلقوا فناً بأسره فى مدى قصير مثل علماء الاجتماع المحدثين . فان جملة ما كتبه أفلاطون وأرسطو فى العصور القديمة ، وما دونه المؤرخون وعلماء الجغرافيا فى القرون الوسطى لا يصح أن يسمى اجتماعاً بالمعنى الصحيح ، ولا يحوى آراء علميـة ناضجة [1] . ولا ننكر أن عصر النهضة ألقى شعاعاً من الضوء على العلوم الاجتماعية ولفت الباحثين إلى فلسفة التاريخ ومقارنة الشعوب بعضها ببعض ، وقد بدأ أثره الواضح فى القرن الثامن عشر إذ ظهرت مؤلفات مونتيسكييه وفولتير وروسو [2] . ثم جاءت الثورة الفرنسية التى قلبت النظم المألوفة رأساً على عقب واستبدلت بأساليب الحكم والسياسة العتيقة طرقاً مستحدثة ، فأنتجت بهذا ثورة أخرى فى الأفكار والآراء الاجتماعية كان من أبطالها سان سيمون وأوجست كونت [3] . بيـد أن تكوين علم الاجتماع فى شكله الحاضر يرجع إلى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . فمدرسة ميل وسبنسر فى انجلترة ، وفونت وفجنر فى ألمانيا ، ودركيم وليفى بريل فى فرنسا ، وأعمال السائحين والرحالة من انجليز وأمريكان وألمان أضافت إلى هذا العلم ثروة طائلة ، بل خلقته من عدم [4]

لم تقنع هذه المدارس بطريقة واحدة ، ولم تقف فى بحثها عند حد . فلجأ بعضها إلى التاريخ يشرح به ما غمض من أعمال الجمعية وأقوالها ، وإحساساتها ، وعقائدها . واتخذ بعضها من الأحصاء

(1) Hubert, Les sciences sociales.

(2) Id. Sociologie, p. 6,

(3) Maunier (R.), Introd. à la Sociologie, pp. 91 — 99.

(4) Külpe, Einleitung in die philosophie, 136 — 39.

والتعداد وسـيلة لتوضيح الظواهر الاجتماعية واستنتاج القوانين المسيطرة عليها . وأبت طائفة أخرى إلا أن تصعد بالاجتماع إلى مستوى العـلوم الواقعية sciences positives فبنته على المشاهدة والملاحظات الدقيقة . لذلك عمدت إلى دراسة الشعوب الهمجية المعاصرة وتتبع عوائدها وتقاليدها ، وتوصلت من ذلك الى نتائج سارة وشيقة للغاية [1] . ومن أهم من عنوا بهذه الطريقة اجتماعيان انجليزيان معاصران ، وهما فريزر وتيلور اللذان كتبا فى خصائص الشعوب مجموعة أبحاث قيمة

يضيق بنا المقام عن أن نترجم ترجمة كاملة لفريزر (Frazer) تلميذ جامعـة جاسجو ، وأستاذ الاجتماع فى ليڤربول وكمبردج ، وأحد رجال القانون والمحاماة فى لندن [2] . نشأ هذا العالم متشبعاً — ككل أتباع ميل وسبنسر — بفكرة أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين ثابتة ؛ وزاد على أساتذته أن هذه القوانين ممكنة الصوغ والتحديد إذا درست خصائص الشعوب المختلفة ، ولاسيما الهمجى منها . فعلى ضوء هذه الدراسـة الموازنة يمكننا أن نبين الأدوار المتتالية التى مرت بها فكرة من أفكار الجمعية ، وأن نقف على منشأ هذه الفـكرة وكيفية تطورها . وقد تخصص فريزر فى هذا النوع من البحث ، وتناوله من نواحٍ شتى فى أسلوب جذاب ، وعبارة عذبة ، وخيال رائع ، ومادة غزيرة تشهد باطلاع واسع وعمق كبير ؛ لهذا يعـد اليوم — فى حق — من أكبر العلماء البرزين فى خصائص الشعوب elhnographies [3] ويدور بحثه بوجه خاص حول الديانات فى رسومها وطقوسها لدى الشعوب القـديمة والحديثة ؛ وله فى ذلك مؤلفات عديدة أهمها : التوتيميسم Totemism ، والغصن الذهبي The golden Bough ذلك الـكتاب العظيم الذى ترجم كله أو أجزاء منه إلى الألمانية والفرنسية والايطالية [4] . وغنى عن البيان أن أبحاثاً كهذه تتصل اتصالا وثيقاً بالخرافة التى لبست ثوب الدين فى كثير من الجمعيات الانسانية

نستطيع أن نقول — دون أن نخشى أية معارضـة — إن

(1) Hubert, Sociologie, 130 — 35.

(2) Ensy. Brit., t. IX. — Larousse, XXes., t. 3.

(3) Ensy. Italiana, t. XVI. pp. 44 — 45.

(4) Der grosse Brockhaus, VI, 554.

فريزر أضحى أستاذاً غير منازع فى موضوع الخرافة ؛ درسه فى رغبة أكيدة فأجاد درسه ، وقلبه على وجوهه المديدة فلم يدع فيه مجالاً لمن جاء بعده . لم يعن بالخرافات المشهورة فحسب ، بل تعـداها إلى خرافات ثانوية مقصورة على بعض الشعوب ؛ فهو إلى جانب دراسته للسحر والشعوذة وصكوك الغفران وماأشبهها ، يعرض لبعض الأعمال الخرافية المتصلة بالطعام والشراب (١) . وبالجملة ليس ثمت كتاب من كتبه إلا وفيـه تحليل لخرافة من الخرافات وشرح لسلطانها على المجتمع . ولئن كان قد أعلن إعلاناً كافياً عن مضار الخرافة وسيئاتها ، فهو لم ينس نفعها وحسناتها ؛ ولا ريب فى أنه أول اجتماعى أبان فى وضوح أثر الخرافة الصالح فى الجمعيات الانسانية . وقد وضع فى هذا — فضلا عن أبحاث جزئية مختلفة — كتاباً مستقلاً سماه : محامى الشيطان . L'avocat du diable (٢) . ولهذا الـكتاب من اسمه نصيب كبير ؛ فان مؤلفه يبدو فيه المحامى المدره الذى يدافع عن الخرافة دفاع الأبطال ، ويبين مالها من يد فى تـكوين بعض الأسس الاجتماعية . فرجل الدفاع فى محا كم لندن يزج بنفسه فى محكمة الآراء والنظريات لينصر فـكرة أجمع الناس على شرها وذاقوا منها الأمرين ، مهمة شاقة ، وموقف دقيق للغاية ، وكيف لا وفريزر يشذ عن الرأى السائد ، ويخرج على المألوف المسلم به . غير أنه قد وفق الى حد كبير فيما حاوله ، ونهض بالخرافة من كبوتها ، وأثبت ما فيها من نواحى الخير . وما أبلغه حين يقول : « نحن مدفوعون الى اعتبار الخرافة خطأً فى ذاتها ، وشراً لاخير فيه ، وضرراً محقق النتائج . وفى الحق أنها أصل كثير من آلام هذا العالم ، فقد بددت ذخائر هائلة ، وضحت بأرواح لاحصر لها ، وأثارت حروباً شعواء ، وأوقعت الشحناء بين الأصدقاء ، وفرقت بين المرء وزوجه ، والأب وابنه ، مقطعة علاقاتهم بحراب حادة ، أو بما هو أضر منها ، وملأت السجون بالأبرياء ، والمستوصفات والملاجىء بالعجزة والمعتوهين ، وسحقت قلوباً عديدة ، وبلبلت نفوساً مطمئنة . ولما لم تقنع بايذاء الأحياء جاوزتهم إلى الأموات ، فهتكت سترهم ، ونبشت قبورهم ، وأوقعت بهم من العذاب والنكال ما أدمى قلوب الأبناء والأعقاب ؛ صنعت الخرافة كل ذلك وأكثر منه ، بيد أن فى مقدورنا أن نقدمها اليـكم فى صورة أليق ، وتحت ضوء أنسب . لاندعى أنا أهل للدفاع عن هذا « الشيطان » ، والظهور أمام هذا اللهيب الأزرق والغاز الخانق ، وإنما نحاول فقط أن نكوّن ما يصح أن يسميه الرجال السمحاء دفاعاً مقبولاً عن أكبر الخصوم شبهة ، سنعمل مستضيئين بأمثلة مختارة على البرهنة ، أو على الأقل ، على ترجيح هذه القضية . قامت طائفة من الأنظمة الاجتماعية الصالحة باعتراف الجميع أو أغلب الناس على أساس من الخرافة لدى بعض الشعوب وفى بعض مراحل التاريخ (١) »

تخير فريزر بين هذه الأنظمة أربعة من أهمها ، وهى الحـكومة ، والملـكية الشخصية ، والزواج ، واحترام الحيـاة الانسانية ؛ وبذل غاية الجهد فى إثبات أن الخرافة ساعدت على تـكوينها ودعمها مستعيناً فى كل ذلك بالواقع والتاريخ . فلاحظ فى دقة أن مهمة الحـكومة ذللت لدى كثير من القبائل الهمجية المعاصرة بسبب الرأى القائل إن الحكام ينتسبون إلى طبقات سامية ، وينعمون بسلطان سحرى خارق للعادة ؛ وإذ كانوا كذلك وجب على المحكومين أن يخضعوا لهم دون إبداء أية ملاحظة . فلدى سكان جزائر السود Mélanésie فى أفريقية يزعم الناس أن للرؤساء قوى غير طبيعية استمدوها من الملائـكة والجن المتصلة بهم اتصالا وثيقاً . وفى هذا سر نفوذهم ؛ فمتى ضعفت هذه العقيدة فقد الرئيس كثيراً من سلطانه (٢) . ويعتقدون كذلك أن الحاكم أو الوالى يستمر بعد موته فى سهره على رعاياه ، ويعاقبهم بالجدب والغرق والصواعق إن أخطأوا ولم يقدموا القرابين لجثته (٣) . ويعتبر الرؤساء السياسيون فى زيلندة الجديدة كآلهة أحياء مقدسـة فى مختلف أجزائها بحيث لا يستطيع أحد الاعتداء عليها ، وإذا قدر لمحارب أن يقتل أحد هؤلاء الرؤساء ، سارع إلى عينيه فاقتلعهما وابتلعهما ليأمن شر ما يحيط به من أرواح وقوى خفية ؛ ذلك لأنه يظن أن هذه القوى تسكن هذين

(1) Voir, The magic art and the enolution of kings, 1911.

(٢) نأسف لأنا لم نجد بين أيدينا أثناء كتابة هذه الـكلمة النسخة الأصلية الانجليزية لهـذا الـكتاب لنحيل عليها ؛ ولا يفوتنا أن نلاحظ أن ترجمته الفرنسية فى منتهى الجودة

(1) Frazer, L' avocat du diable, 1 — 2.

(2) Codrington, The Melanesians, 46.

(3) Frazer, op. cit., 9.

العضوين [1] ويقول بعض الأمراء الزبنديين : « لا تظن أني رجل وأني من هذا العالم الأرضي ، كلا فاني نزلت من السماء حيث يسكن آبائي الآلهة ، وسأعود اليهم يوماً [2] » . ويروون أنه بينما زبندية تتذوق خوخة جميلة انتزعتها من سلة محملها ، علمت أنها نبتت في مكان مقدس ، فأسقط في يديها وصاحت بالويل والثبور وأنها لابد هالكة لغضب الآلهة عليها وحكام ذلك المكان المقدس ؛ وما أصبح الصباح إلا وقبضت روحها [3] . ويعتقد سكان أفريقية الغربية أن حياتهم وأموالهم ملك لأمرائهم يتصرفون فيها كما يشاءون . وفي مقدور هؤلاء الأمراء أن يكسفوا الشمس ويخسفوا القمر وينزلوا المطر من السماء ؛ لذلك يلجأ الأهلون اليهم إن ضاقت بهم الحال أو أقفرت عليهم الأرض [4]

لم يقف أمر هـذه العقائد الخرافية عند القبائل البدوية الموجودة في أفريقية واستراليا وأمريكا ، فقد اعتنقها من قبل الشعوب المتحضرة القديمة . فقدماء المصريين كانوا يقدسون ملوكهم ويصعدون بهم إلى أصل سماوي ؛ وإذا نقصت حاصلاتهم أرجعوا ذلك إلى غضب المليك عليهم [5] . وفي قوانين مانو الهندية كتبت العبارة الآتية : « إن الملك بفضل سره الخارق للعادة ، نار وهواء ، وشمس وقمر [6] » . وكان اليونان في عهد هومير يعدون ملوكهم ورؤساءهم آلهة أو كالآلهة [7] . وما لنا نذهب بعيداً وفي التاريخ الحديث ما يؤيد بعض هذه الخرافات ؟ فقد كان عامة الانجليز يستشفون بملوكهم إلى عهد قريب ، فاذا لمس الملك مريضهم برىء لساعته ، واستمرت هـذه الخرافة إلى أخريات القرن الثامن عشر إذ كان يعالج روبير الصالح ، وأدوارد المعترف ، بعض المرضى بهذه الطريقة [8] . ونرى في فرنسا شيئاً من ذلك في فجر الثورة وبعدها بعشرات السنين ؛ فان لويس الخامس عشر ولويس السادس عشر وشارل العاشر لمسوا آلاف المرضى لشفائهم [1]

هـذه الأمثلة القليلة تكفي للبرهنة على أن عدداً من القبائل والشعوب نظروا إلى قادتهم ورؤسائهم وملوكهم نظرهم إلى موجودات ممتازة مزودة بقوى عظيمة ترغم الرعية على اتباعهم والتعلق بأهدابهم ، وإذاً فقد ساعدت الخرافة ، في بعض الشعوب وفي بعض الأزمنة ، على احترام الحكومة وخاصة الاستبدادية ؛ وفي هذا ما أعان على تثبيت دعائم النظام الجمعي بوجه عام

يتبع ابراهيم بيومي مدكور
دكتور في الآداب والفلسفة

(1) Taylor, New-Zealand and its inhabitants, 134,352.
(2) Thomson, The Story of New - Zealand, I, 95.
(3) Brown, New-Zealand, 76.
(4) Frazer, The magic art, I, 342.
(5) Ibid, I, 418— Tiele, History of the Egyptian religion 103.
(6) The Laws of Manu, VIII, 5 — 8.
(7) Homère, Odysseé, II, 235.
(8) Crawfurd, The King's Evil, 11.

(1) Ibid, 144.

أثر خطير

كنيسُ الصّــــالحيّة

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

دويّ في دمشق تلهج به الألسنة ويردّده الهواء بين الأحياء ، وصَدى الدهر يُثير من النفوس روائع الدهشة ، ويبعث فيها نوازع الاستطلاع ، ويُعين على تمكين ذلك من النفس التاريخُ بابتعاده ، والتخيل بامتداده ، مئات من السنين ، ومئات من الشعوب والقبائل والأجيال تمرُّ وتنطوى على كنيس الصالحية ما بين دير الزور وأبي كال ، وهو (منذ أُسس بنيانه سنة ٢٤٤ ب . م) لايزال قائماً بفارع جدرانه ، وماثلاً بروائع ألوانه ، يُعرب بلسان الزمن عما مرّ بالبشر من أيام هناء وبلاء ، مخبراً عن أمم زالت ، ودول دالت ، وأحوال حالت ، مما يمحص به أبناء العصر الحاضر حقائق الدهر الغابر ، فينقلب به ما كان حقيقة وهماً ، وما كان وهماً حقيقة

كنيس الصالحية ، وما أدراك ما كنيس الصالحية ، رأيت ألواحه الجبسية المقطوعة بالمنشار متفرقة ، وهى أوصاله بل أشلاؤه الممزقة ، فراعني — لعمر الحق — منظرها ، وأكبرت بعد التأمل الطويل مخبرها ، ثم تصورت هذا الكنيس الأثرى النفيس ، وقد التأمت بجوار السليمانية غداً أجزاؤه ، والتحمت بعد طول الشتات والبلى أشلاؤه ، فملك بتصوره القلب قبل الطرف ، وألهج اللسان باستحسان ما لا يحيط به الوصف البارع واللسان المبين : ذلك أن صور تلك الألواح لاينقصها لأتقانها إلا الأرواح المثيرة ، والقوى المجيرة ، فتغمزك بعيونها ، وترمز اليك بشفاهها ، وتحدثك بأفواهها عن جلية أحوالها ، وأخبار رجالها ونسائها وأطفالها ، ولو أنها استطاعت ذلك لأغنت المنقبين والمؤرخين عن كثير من التنقيب والاستقراء والانفاق المستمر الفادح ، والعناء المتواصل المنهك

أجل ، هذه الألواح لاينقصها إلا الأرواح ، فان لكل منها جهارة رائعة ، وشارة جميلة ، الى وجه سامٍ مسنون ، وأنف أقنى ، وعينين ناطقتين فى صورة انسان سبط القوام ، متناسب الأعضاء ، تلمح عليه دلائل القوة والفتوة ، وتلمع فى عينيه شواهد النبل والفضل

ففى لوح مستطيل منها ترى صورة موسى النبىّ بيده الألواح وهو بوجهه المخروط الصبيح ، يشبه السيد المسيح ، تحيط به هالة قاتمة اللون من شعر رأسه الفاحم ولحيته السوداء ، وكان لآلهة الاغريق لِحىً تزيد فى هيبة الوجوه ووقارها

وفى لوحٍ آخر تشاهد صورة السموءل وهو النبىّ (صموئيل) يمسح بالزيت رأس النبى داود الواقف بين إخوته الستة قابضاً بيمناه يُسراه كما يقبض المصلِّي إذا صلى

وفى لوح ثالث آخر صورة أحشويروش (الملك الأسد) ملك فارس وبابل وزوج إستير وقد استوى على عرشـه المخمّس الدرجات ، وعلى يساره الملكة إستير مُنقِـذة إسرائيل ، وهى على عرشها ؛ وعلى جانب كل عرش صورة أسد أو نسر من ذهب ، وعلى واجهة إحدى الدرجات قد نقش اسم الملك (أحشويروش) فاذا أراد الملك الصعود نحو عرشه وقف على الدرجة السفلى فترتفع به حتى تساوى الثانيـة التى فوقها ، فينتقل إليها فترتفعُ به إلى الثالثة ، والثالثة ترفعه إلى الرابعة ، وهذه إلى الخامسة ، فيستوى هنالك على عرشـه العظيم ، وبذلك يشبه هذا الدرج العجيب مصعدة (أسانسور) هذا العصر ؛ ويقال إن هذا العرش هو عرش سليمان مسلوباً من بيت المقدس ، إذ وجد فوقه لوح آخر يمثل سليمان الحـكيم على عرش لا يختلف بشىء عن العرش البابلى مما يرجح القول بنقله إلى بابل ، وعلى يسار هذا اللوح لوح آخر يمثّل ابن عم الملكة إستير وهو مردخاى ممتطياً صهوة جواد أشهب مطهم يقوده هامان الوزير قصاصاً له وانتقاماً

وهنالك لوحٌ آخر مؤلف من سبع قطع ، تمثل إلياس النبى مع أسباط إسرائيل ، وهو يدعو الله أن يحيى له ثلاثة من الموتى فيبعث الله لانماشهم أرواحاً ثلاثاً ، والروح منها ممثلة بشكل امرأة تطير بجناحيها ، وتهبط هذه الأرواح على أجسادها فتهبّ من رقادها ، وعلى رأس أحدهم يد بمعصمها ترفع الميت المنتشر من وفرة رأسه

ومن تلك الألواح ما يمثل موسى عليه السلام طفلاً تخرجه من اليم ابنة فرعون وقد ذهبت مع جواريها تغتسل في النيل فوجدته عائماً في سفط يتغلغل بين أوراق البردي ، وإلى جانبها جاريتان تحمل إحداهما صندوقة صغيرة تشتمل من أدوات الطيب على مالا غنى لمغتسل عنها ، وهي عادة مصرية قديمة

كانت كنائس اليهود قبل عهد هذا الكنيس لا تستوعب أكثر من ٤٥ مصلياً ، ولكن قاعة هذا الكنيس المستطيلة تستوعب ضعف هذا العدد ، أي نحو مائة من المصلين ، فقد كانت أبعادها (١٣٫٥ متراً طولاً في ٧٫٥ عرضاً في ٧٫٥ ارتفاعا)

ومما يدل على أبهة هذا الكنيس النفيس أن محرابه القائم في صدره قد كان يزهو بطنافس فارس الجميلة ، وتبصر على جانبه صورة شمعدان من الذهب ذي سبع شعب ، في كل شعبة منها شمعة تبدد بعض ظلام الكنيس ؟ وكانت مقاعد المصلين مُغَشَّاةً أيضاً بالطنافس كما استدل علماء الآثار على أن سماءه (سقفه) كانت مشيدة بالقرمد المزين المنقوش ، وكانت أرضه مفروشة أيضاً بنفائس الطنافس

هذا ولئن كانت الأمم تقاس برجالها ، والرجال توزن بأعمالها ، فقد حق علينا أن نختم هذه الكلمة بكلمة أخرى عادلة في شكر من كان سبباً لحفظ هذا الكنيس في بلادنا ولاعادة بنائه في دمشق غداً ، وهو صاحب المعالي وزير معارفنا الهمام السيد حسني البرازي ، فقد حاولت بعثة الحفر والتنقيب الأمريكية أن تستأثر به وتحرم من الانتفاع به تلك الأمة التي نُبِشَ من ترابها ، ليُنبئ عن عمرانها وأحوال أديانها وآدابها ، وكادت تفلح لولا جهاده الميمون وحسن مساعيه لدى المفوضية التي حققت بأخرةٍ أمنيته ، نخدم بذلك أجل خدمة بلاده وأمته : ذلك لأن هذا الكنيس المنقطع القرين لم تفتح العين على مثله بعد ، ولهذا يقدر بعض علماء الآثار ثمنه بأكثر من مليون جنيه ، ويعدونه استثناءً أثرياً لقواعد الكنائس اليهودية التي تحرم التصوير ، وما كانت صوره هذه المحرمة بعظيمة الخطورة لدارسي تاريخ الشريعة فحسب ، إذ هي لدارسي تاريخ الفن أعظم خطراً ، وأبلغ لعمري أثراً

دمشق

عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي العربي

١٦ ـ قصة المكروب
كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي
وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صلة حديثه

وذهب « جرنيه » إلى الشمال يدرس دود القز في مدينة ڤالنسين Valenciennes ، فكتب اليه بستور أن يعيد إجراء التجربة الفائتة . سأله هذا ولم يدرِ لِمَ سأله ، وكان جرنيه قد حصل على مجموعة طيبة من الدود السليم ، وكان يعتقد على الرغم من تشكك أستاذه أن تلك الكريات التي في باطن الدود ليست سوى أحياء تتطفل عليه فتقتله . فأخذ أربعين دودة سليمة وغذاها بأوراق من التوت لم يمسها أبداً دود مريض ، فخرج من هذه الأربعين سبع وعشرون دودة نسجت سبعاً وعشرين شرنقة . وخرج الفراش من الشرانق خِلْواً من الكريات ، فعندئذ عمد إلى فراشات مريضة فسحقها ولوّث بسحيقها أوراقاً من التوت ، وغذّى بهذه الأوراق دُوَيدات سليمة صغيرة ، عمرها يوم واحد ، فلم تلبث هذه الدُّوَيدات أن مرضت وهزلت وماتت موتة بطيئة . وتغطّى جلدها بالبقع السوداء ، وامتلأ جسمها بكريات الداء . وبعد هذا لوّث أوراقاً أخرى بسحيق الفَراش المريض وغذّى بها دوداً سليماً نامياً بالغاً كان على وشك أن ينسج الشرانق . فهذا الدود عاش حتى أتم نسج ثوبه الحريري ، ولكنه لما استحال إلى فراش خرج هذا الفراش وبجسمه الكُريات اللعينة ، وباض فكان البيض فاسداً . فسرّ « جرنيه » وثار ، وزاد سروره وزادت ثورته في الليالي التي أكب فيها على مكرسكوبه كلما رأى هذه الكريات تزيد في الدود كلما زاد انهياراً وقارب الفناء

وأسرع « جرنيه » الى بستور يصرخ له : « حُلّت المسألة ! فهذه الكُريّات حيّة ! إنها طفيليّات ، وهي التي تُمرِض الدود ! »

واستغرق بستور ستة أشهر ليقتنع بمقالة « جرنيه » . ولكنه

لما اقتنع وقع على العمل وقوعاً . وجمع أعضاء اللجنة مرة أخرى وخطب فيهم : « إن الـكُريات التي بالدود ليست عرضاً من أعراض الداء فحسب ، بل هي سببه ، وهذه الـكُريات حيّة ، وهي تتزايد ، وهي تسير في جسم الفراش المريض اغتصاباً حتى تعمّ نواحيه . وإنما كان خطؤنا الأول لأننا طلبنا هذه الـكريات في جزء صغير من جسم الفراش فنظرنا تحت جلد البطن وحده ، أما الآن فلا بد من سحق الفراش كله وفحصه من بعد ذلك ، فاذا نظرنا بالمجهر إلى سحيقه فلم نجد به تلك الـكُريات المجهريّة حكمنا بسلامته واتخذنا بيضه للتفريخ في الربيع المقبل »

وتفرق رجال اللجنة واتبعوا تعاليم بستور فنجحت التجربة ، ودار العام فأفرخ البيض دودا صحيحا قوياً نامياً أعطاهم غلّة من الحرير وافرة

استيقن بستور الآن أن هذه الـكريات الطفيلية سبب الداء وأنها لاتنشأ داخل الدود ، وإنما تأتيه من الخارج . فطاف في الريف يعلم الناس كيف يمنعون نسل الدود السليم من أن يمس أوراقاً مسها دود سقيم ، وبينما هو في هذا أصابه نزيف في المخ فكاد يموت . ولـكنه سمع أنهم أوقفوا بناء معمله الجديد اقتصادا وفي انتظار موته ، فأغضبه ذلك وأصر على أن يعيش . وشُلّ أحد نصفيه شللا لم يشف منه تماما في مستقبل أيامه ، ولـكنه قرأ كتاب الدكتور « سمايلز » في الاعتداد بالنفس ، فاعتزم اعتزاماً قوياً أن يعمل على الرغم من عجزه ؛ فبدل أن يرقد في فراشه ، أو يستشفي على البحر ، نهض في عسر على قدميه ، وحَجَل إلى القطار ، وسافر إلى جنوب فرنسا وهو يصيح غاضباً : « إن من الاجرام القعود عن تخليص الدود من الوباء ، بينا الـكثير من أربابه يطلبون القوت فلا يجدونه » فأُعجب به الفرنسيون وأكبروه إلانفراً قليلاً يحبون الأذى ؛ فهؤلاء قالوا : إنما هي صيحة قصد بها الدعاية لنفسه لا خير الناس

وقضى بستور ست سنوات يجاهد أدواء هذا الدود المسكين ، فانه لم ينته من علاج ندوته حتى ظهر به مرض جديد ، ولـكن بستور كان قد دَرِب على هذا النوع من البحث فـكشف عن مكروب الداء سريعاً ، وجاءه دوماس الشيخ يشكره وقد امتلأت عيناه بالدموع . وتحدث عمدة « ألياس » عن اقامة تمثال من الذهب لبستور العظيم

— ٧ —

وبلغت سنّه الخامسة والأربعين ، فأخذ يَنْعَم حيناً بالمجد الذى كسبه من تخليص صناعة الحرير مما حاق بها ، وذلك بعون الله وعون «جرنيه» . ثم رفع عينيه الى مجد أسمى ، وأمل أسنى ، وحُلُم مستحيل برّاق ، حُلُمٍ من تلك الأحلام التى ارتأتها نفسه الشاعرة ، حلم من تلك الأحلام المستحيلة التى قد لاتضن الأقدار بمض تحقيقها أحياناً ؛ نعم رفع عينه الفنّانة من أمراض الديدان إلى أحزان الانسان ، ونفخ في البوق نفخة داوية يبشر المرضى البائسين بقرب بلوغ دار الأمان ، قال : «إن في مقدور الانسان أن يمسح عن وجه الأرض كل الأدواء التى يسببها تطفل الأحياء عليه ، هذا على فرض أن نظرية النُشوء التلقائي نظرية باطلة ، وأنا واثق من بطلانها »

وجاء عام ١٨٧٠ بحصار باريس في ذلك الشتاء القارس ، فخرج عنها تاركا أعماله ، تاركا معامله ، وذهب الى قريته القديمة في جبال « الجورا » . ثم ذهب الى ميدان القتال يبحث بين الأشلاء عن جثة ابنه الصريع ، وقد كان جاويشا في الجيش الفرنسي . وعلى هذه الأرض ، وبين هذه الدماء ، نشأ فيه كره للألمان ولـكل شيء ألماني أخذ ينمو فيه ثم ينمو ويفيض حتى تشرب به كل عصب من أعصابه ، وبقي معه بقية حياته . واتخذ من أجل ذلك الوطنية صناعة . وأخذ يصرخ في الناس : « إن كل مؤلف من مؤلفاتي سيطالعكم عنوانه بكراهة پروسيا ، ويناشدكم الثأر والانتقام . » وبسخافة فاخرة بدأ بحثـه الأول بجمله للثأر والانتقام . واعترف أن بيرة فرنسا دون بيرة الألمان ، فنهض يبحث ليجمل بيرة فرنسا فوق بيرة الألمـان ، بل فوق بيرات الأمم جمعاء

وقام برحلات كثيرة واسعة المدى الى مخامر فرنسا الشهيرة ، وأخذ يُلقِي الأسئلة الى كل من يَلـْقَى فيها ، من رئيس الخمارين في معمله ، الى غسّال الأواني البسيط في مَغْسله . وذهب الى انجلترا فأسدى النصائح الى الرجال الفنّانين ذوي الوجوه الحمر الذين يَحذِقون صـنع النبيذ الانجليزي ، والى الخمارين الذين يخرجون تلك الجمات القدسية بمدينة بِرْتُن Burton . وحرّر مجهرَه الى الألوف من البيرات ، ورقب الخمائر وهي تتقسم وتصنع الـكحول . وكان يقع أحياناً فيها على هذا الحُبَيّ اللعين الذي وجده فيها أعواماً مضى وأثبت أنه سبب فسادها ، وكان ينصح

لأصحابها بتسخين البيرة لقتل هذه الحييَّات ، ويؤكد لهم أنهم لو فعلوا إذن لزادت بيرتهم جودة وطابت مذاقا ، وإذن لاستطاعوا تسفيرها مسافات بعيدة وهى صالحة . وكان يسأل أصحاب المخامر مالاً لمعمله ، ويذكر لهم أن ما يجودون به اليوم يعود عليهم بالنفع فى الغد أضعافاً مضاعفة . وبهذا المال قلب معمله بمدرسة النرمال إلى مصنع علمىّ صغير للبيرة ، لمعت فيه البراميل النحاسية الجميلة ، ووهجت الغلايات الصقيلة

وبدأ عملاً مجهداً متواصلاً ، ولكنه لم يلبث أن سئمه ، لأنه كان يكره طعم البيرة كما يكره رائحة الطُبَّاق . وزاده منه سأماً أنه وجد أن الباحث العالم فى البيرة لابد له من أن يكون ذوّاقاً حكيما لها . ووجد كذلك أن البيرة الجيدة تحتاج فى صناعتها إلى أمور أخرى غير منع المكروب من دخولها . وكان لعلم الفيزياء أستاذ يدعى برتان Bertin ، كاد يضحك من بستور لكراهته إياها . كان بستور كلما أراد مذاقها جمّد من أنفه الأفطس ، وغاص بشاربه فى كوزها الراغى ، وبلع فى عسر وكآبة ما تحتم بلعه من جرعاتها . كره البيرةَ مافسد منها وما طاب . أما صديقه الفيزيائى فكان يلعق شفتيه بعد شربها ويصفقهما ، ويتهلل وجهه بشرا وتمتلئ أساريره خبثاً وهو يضاحك بستور فيها ، لأنها بيرة ذاقها بستور فحكم عليها بالفساد . حتى لضحك منه مساعده الشاب ، ولكنه لم يجرؤ بالطبع أن يضحك فى وجهه . مسكين بستور ! كان بحاثاً قديراً ، ولم يكن فيه جمود ، ولم يكن فيه ركود ، وكان سريع التحوّل ، سريع التشكل للظروف ، سريع الألفة لكل جديد -- إلا البيرة . فحب البيرة كأنه يخلق ولا يكتسب . واللسان الذوّاق للبيرة تجود به الطبيعة على قليل من الناس ، كالأذن الموسيقية ليست متاعاً لكل أحد

ومع هذا فلست أنكر أن بستور أعان صناعة البيرة الفرنسية إعانة كبيرة ، وقد شهد بهذا الخمارون أنفسهم ، أما الذى أتشكك فيه فهو الذى يقول به أحبابه ومريدوه وعُبّاده من أنه رفع البيرة الفرنسية فجعلها نِدّ الألمانية . على أنى لا أنكر ذلك عليه ، ولكنى أود لو عُرضت هذه الدعوى على لجنة تحكيم من تلك اللجان العادلة الدولية الوقورة ، من تلك اللجان الذى كان بستور نفسه يقترح على الدنيا أن تلجأ اليها كلما أزمته خصومة لتقضى له أو لخصمائه اللاعبين . . .

(يتبع) أحمد زكى

٢٥ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الاستاذ زكى نجيب محمود

ـ كذلك كلما ازدادت البرودة على النار فاما أن تتراجع أو تفنى وإذ تكون النار تحت تأثير البرودة ، فلن يلبثا ناراً وبرودة ، كما كانت الحال من قبل

قال : هذا حق

ـ وفى بعض الحالات لا يكون اسم المثال (Idea) مقصوراً على المثال ، بل إن لكل شىء آخر حق المشاركة فى الاسم ، ما دام موجوداً فى صورة المثال ، من غير أن يكون هو المثال ، وسأسوق إليك مثلا لعلى أوضح هذا القول : أليس يطلق دائماً اسم الفردى على العدد الفردى ؟

ـ جد صحيح

ـ ولكن هل هذا وحده هو الشىء الذى يسمى بالفردى ؟ أليس ثمت أشياء أخرى لها أسماؤها الخاصة بها ، ويطلق عليها رغم ذلك اسم الضرورى ، لأنها وإن كانت ليست هى الفردية ذاتها ، غير أنها لا تخلو من الفردية قطعاً ؟ ـ هذا ما أريد أن أستجيب عنه ـ أليست الأعداد ، كرقم ثلاثة مثلاً ، من نوع الفردى : وهناك غير هذا كثير من الأمثلة : ألست تقول مثلاً إنه يجوز أن يدعى رقم الثلاثة باسمه الأصلى ، ثم يطلق عليه كذلك اسم الفردى ، وليس الفردى هو الثلاثة ذاتها ؟ وليس يقال هذا عن العدد ثلاثة فقط ، بل إنه جائز أيضاً على خمسة ، وعلى كل الأعداد المتعاقبة ـ كل منها فردى دون أن يكون هو الفردية ؛ وهكذا قل فى اثنين وأربعة وسائر سلسلة الأعداد المتعاقبة ، كل عدد زوجى دون أن يكون هو الزوجية . هل تسلم بهذا ؟

قال : نعم ، وهل إلى انكاره من سبيل ؟

ـ ألق بالك إذن إلى الغاية التى أنشدها ؛ ليست الأضداد المعنوية وحدها هى التى يطرد بعضها بعضاً ، بل كذلك الأشياء المجسدة التى وإن لم تكن متضادة فى ذاتها إلا أنها تحتوى أضداداً ؛

وأنا أزعم أن هذه الأشياء أيضاً ترفض المثال (idea) الذي يكون مضاداً لما تحتويه فى داخلها ، وهى إذا ما تقدم ذلك فاما أن تنسحب أو تفنى . خذ عدد ثلاثة مثلاً ، أليس يصبر على التلاشى أو أى شىء آخر ، أهون عليه من أن يتحول الى عدد زوجى مع بقائه ثلاثة ؟

فقال سيبيس : جد صحيح

قال : ومع ذلك فلا ريب فى أن العدد اثنين ليس مضاداً للعدد ثلاثة ؟

ـ انه لا يضاده

ـ إذن فليست المُثُل المتضادة وحدها هى التى يقاوم بعضها تَقدمَ بعض ، ولكن ثمت أشياء أخرى تقاوم كذلك اقتراب الأضداد ؟

ـ فقال : هذا جد صحيح

قال : هبنا نحاول تحديد ماهية هذه (الأشياء) إن أمكن ذلك

ـ لا ريب فى هذا

ـ أليست هذه يا سيبيس تُرغم الأشياء التى فى حوزتها على أن تتخذ شكل بعض الأضداد فضلا عن شكلها هى ؟

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى ، كما كنت أقول الآن تواً ، وما ليس بى حاجة لاعادته اليك ، إن الأشياء التى يملكها العدد ثلاثة ، لا يلزم فقط أن تكون ثلاثة فى عددها ، بل ينبغى كذلك أن تكون فردية

ـ جد صحيح

ـ ويستحيل على المثال المضاد أن يعتدى على هذه الفردية التى انطبع العددُ ثلاثة بطابعها ؟

ـ كلا

ـ وهو إنما استمد هذا الطابع من عنصر الفردى ؟

ـ نعم

ـ والزوجى والفردى ضدان ؟

ـ حقاً

ـ إذن فمثال العدد الزوجى لن يلحق بثلاثة أبداً ؟

ـ كلا

ـ وإذن فليس لثلاثة فى الزوجى من نصيب ؟

ـ كلا

ـ إذن فالثلاثى أو العدد ثلاثة غير زوجى

ـ جد صحيح

لأعُدْ إذن إلى ما زعمتُه من تمييز بين الطبائع التى ليست أضدادا وهى مع ذلك لا تقبل أضداداً : فكما فى هذا المثال : على الرغم من أن ثلاثة ليست مضادة للزوجى إلا أنها لا تقبل شيئاً من الزوجى أبداً ، ولكنها دائماً تعرض الضد فى الجانب الآخر أو كما أن اثنين لا تتقبل الفردى ، أو النارُ البرودة . ومن هذه الأمثلة (ومنها كثير غير هذا) ربما استطعت أن تصل إلى نتيجة عامة أنه ليست فقط الأضداد هى التى لا تتقبل أضداداً ، بل كذلك لا شىء مما يسوق الضد يقبل ضد ما يسوقه فيما يسيق اليه . واسمح لى هنا أن ألخص ما سبق من قول ـ فليس فى التكرار من ضرر ، لن يقبل العدد خمسة طبيعة الزوجى ، أكثر مما تقبل عشرة ، وهى ضعف الخمسة ، طبيعةَ الفردى ـ ولو أن الضعف ليس مضاداً للفردى تضاداً دقيقاً ، غير أنه يرفض الفردى إجمالاً . ولن تقبل كذلك أجزاءُ النسبة ٣ : ٢ فكرةَ الكل ، وكذلك أى كسر يكون فيه نصف ، لا بل والذى يكون فيه ثلث ، ولو أنها ليستْ مضادة الكل ، هل تسلم بذلك ؟

فقال : نعم انى متفق تماماً ، وذاهب معك الى ذلك

قال : أظننى الآن أستطيع أن أبدأ ثانياً ، وانى لأرجوكم أن تُدْلوا إلىّ عن هذا السؤال الذى أوشك أن ألقيه ، بجواب غير الجواب القديم المأمون ، وسأقدم لكم لما أريد مثالاً ، وعسى أن تجدوا أساساً آخر فيما قيل الساعة تواً يكون مأموناً كذلك ، أعنى أنه لو سألكم أحد : « ما هو الشىء الذى يجعل الجسم حاراً بحلوله فيه ؟ » فستجيبون أنه ليس الحرارة (وهذا ما أدعوه بالجواب المأمون)

ولكنه النار ، وهو جواب يفضل ذلك كثيراً ، ونحن الآن مهيأون للأدلاء به . أو لو سألكم أحد : « لماذا يعتل الجسد ؟ » فلن تقولوا من المرض بل من الحمى ، وفى مكان القول بأن الفردية هى سبب الأعداد الفردية ستقولون إن الجوهر الفرد هو سببها . وهكذا فى الأشياء بصفة عامة . أحسب أنك ستفهم ذلك فهماً جيداً بغير أن أسوق اليك أمثلة أخرى ؟

ـ فقال : نعم إنى أفهم ما تقول فهماً جيداً

(يتبع) زكى نجيب محمود

٥ ـ شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وكان أبو العتاهية فى عهد المهدى يلازم ابنه هارون ، وكان ابنه وولى عهده موسى الهادى يجـد على أبى العتاهية لملازمته أخاه ، فلما ولى الهادى بعد المهدى أراد أن يقصيه عن أخيه هارون فلم يطعه ، ثم أمره أن يخرج معه إلى الرى فأبى ذلك ، ولـكنه لم يلبث أن خافه وتهيب بطشه به ، وكانت الملوك فى عهده لا تحتمل مثل هذا النوع من المخالفة ، والاعتداد بالـكرامة النفسية ، والمحافظة على العهـــد فى حالتى الأمن والخوف ، فقال يستعطفه :

ألا شـافع عند الخليفة يشفع فيدفع عنا شر ما يُتَـوَقَّعُ
وإنى على عظم الرجاء لخائف كأنى على رأسى الأسنة تشرع
يرَوِّعنى موسى على غير عثرة ومالى أرى موسى من العفو أوسع
وما آمن يمسى ويصبح عائذاً بعفو أمير المؤمنين يرَوَّع

وإنك لترى أبا العتاهيـة لاينزل فى هذا الاستعطاف إلى الاستخذاء والخنوع ، ونسيان الـكرامة وعزة النفس ، فلا يقول فى ذلك ما قال النابغة الذُّبيانى قبله للنعمان بن المنذر :

فان أكُ مظلوماً فعبد ظلمتَه وإن تك ذا عتبى فمثلك يُعتِب

بل يقول له هذا القول : (يروعنى موسى على غير عثرة) ، فينصف نفسه فى هذا الموقف الذى يجحد فيه النفوس ، ولا يرى حقا للهادى فى ترويعه على غير ذنب جناه ، كما يرى النابغة للنعمان أن يظلمه لأنه عبده

وقد روى صاحب الأغانى بعد ذلك أنه ولد للهادى ولد فى أول يوم ولى الخلافة ، فدخل أبو العتاهية فأنشده :

أكثر موسى غيظَ حساده وزين الأرض بأولاده
وجاءنا من صلبه سـيد أصيدُ فى تقطيع أجداده
فاكتست الأرض به بهجة واستبشر المُلْكُ بميلاده
وابتسم المنبر عن فرحة علت بهـا ذروة أعواده
كأننى بعد قليـل به بين مواليـه وقواده
فى محفلٍ تخفق راياته قد طَبّق الأرض بأجناده

فأمر له الهادى بألف دينار ، وطيب كثير ، وكان ساخطاً عليه فرضى عنه

فاذا صحت هذه الرواية فلا بد أنه عاد فسخط عليه حين رآه لم ينقطع عن أخيه هارون ، وحين أمر أن يخرج معه الى الرى فأبى ذلك ، وبهذا تتفق هذه الرواية مع ما قبلها ، ولا تكون متنافية معها ، وإن كنا نستبعد أن يعنى مثل أبى العتاهية بتهنئة الهادى بذلك المولود فى ذلك اليوم ، ولا يعنى بتهنئته بهذا الملك الذى صار اليه فيه ، فلعل حادثة ذلك المولود كانت بعد يوم ولاية الهادى الملك ، وبعد رضاه عن أبى العتاهية

وقد عاد مع الهادى بعد رضاه عنه إلى مثل ما كان عليه فى عهد المهدى ، واتصلت فيه مدائحه ، واتصلت من الهادى له صـلاته وجوائزه . ومما مدحه به على مذهب أبى نواس فى بدء المديح بذكر الخمر ووصف محاسنها :

لهفى على الزمن القصير بين الخَوَرْنَقِ والسَّدير
إذ نحن فى غُرَفِ الجنا ن نعوم فى بحر السرور
فى فتيـــة ملكوا عِنا ن الدهر أمثال الصُّقُور
ما منهم إلا الجســو ر على الهوى غير الحَصور
يتعاورون مُدامَةً صهباءَ من حاب العصير
عذراءَ رباها شـما ع الشمس فى حرِّ الهجير
لم تَدْنُ من نار ولم يعلق بها وَضَرُ القُدور
ومُقَرْطَقٍ يمشى أما م القوم كالرشأ الغرير
بزجاجة تستخرج السـ ـر الدفين من الضمير
زهراء مثل الكوكب الدُّ رِّىِّ فى كف المدير
تدع الكريم وليس يد رى ما قَبيلٌ من دَبير
ومخَصراتٍ زرننا بعد الهدو من الخدور
ريّاً روادفهن يلـ بسن الخواتم فى الخصور
غُرُّ الوجوه محجبا ت قاصرات الطرف حور
متنعمات فى النعيـ ـم مضمخات بالعَبير
يرفلن فى حلل المحا سن والمجاسد والحرير
ما إن يرين الشمس إلا القرط من خَلَل الستور

وإلى أمين الله مهـ ... ربنا من الدهر العثور
وإليـــه أتعبنا المطا ... يا بالرّواح وبالبكور
صُعر الخدود كأنما ... جُنِّحن أجنحة النسور
متسربلات بالظلا ... م على السهولة والوعور
حتى وصـلن بنا إلى ... رب المدائن والقصـور
مازال قبـل فطامه ... فى سن مكتهل كبير

ثم انتهى عهد الهادى وحال أبى العتاهية معه مستقيمة كحاله مع المهدى ؛ فلما جاء عهد هارون الرشيد كان المظنون أن يكون حاله معه أكثر استقامة من حاله مع أبيه وأخيه ، لما سبق من ملازمته له ، وانقطاعه إليـه انقطاعاً كان يحسده الهادى عليه ، ولكن حاله فى هذا العهد جاءت على خلاف ما كان يقدر لها . وهنا تضطرب الروايات عن أبى العتاهية بقدر اضطراب أمره ، وتغير حاله

روى صاحب الأغانى أنه لما مات الهادى قال الرشيد لأبى العتاهية : قل شعراً فى الغزل ، فقال : لا أقول شعراً بعد موسى أبداً ، فحبسه وأمر إبرهيم الموصلى أن يغنى ، فقال : لا أغنى بعد موسى أبداً — وكان محسناً إليهما — فحبسه . فلما شخص إلى الرقة حفر لهما حفيرة واسعة وقطع بينهما بحائط ، وقال : كونا بهذا المكان لا تخرجا منه ، حتى تشعر أنت ، ويغنى هذا ، فصبرا على ذلك مدة حتى قال أبو العتاهية لابراهيم : إلى كم يا هذا نُلاَجُّ الخلفاء ؟ هلم أقل شعراً وتغنى فيه ، فقال أبو العتاهية :

بأبى من كان فى قلبى له ... مرة حبٌّ قليل فَسُرِقْ
يا بنى العباس فيكم ملك ... شُعَبُ الاحسان منه تفترق
إنما هارون خيرٌ كله ... مات كل الشر مذ يوم خلق

وغنى فيـه إبراهيم ، فدعا بهما الرشيد فأنشده أبو العتاهية وغناه إبراهيم ، فأعطى كل واحد منهما مائة ألف درهم ومائة ثوب

وروى مرة ثانية عن محمد بن أبى العتاهية قال : كان أبى لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر إلا فى طريق الحج ، وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم ، فلما قدم الرشيد الرقة لبس أبى الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة ، والقول فى الغزل وأمر الرشيد بحبسه ، فلم يزل يكتب إليه الشعر يستعطفه حتى كتب إليه :

وكلفتَنى ما حال بينى وبينه ... وقلت سأبغى ما تريد وما تهْوى
فلو كان لى قلبان كلفت واحدا ... هواكَ وكلفت الخلىَّ لما يهوى

وروى مرة ثالثة عن محمد بن أبى العتاهية قال : لبس أبو العتاهية كساء صوف ودُرّاعة ، وآلى على نفسه ألا يقول شعراً فى الغزل ، وأمر الرشيد بحبسه والتضييق عليه فقال :

يا ابن عم النبى سمعاً وطاعه ... قد خلعنا الـكساء والدُّرّاعه
ورجعنا إلى الصناعة لما ... كان سخط الامام ترك الصناعه

فلم يزل الرشيد متوانياً فى إخراجه إلى أن قال :

أما والله إن الظلم لومُ ... وما زال المسئ هو الظَّلوم
إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم
لأمر ما تصرفت الليالى ... وأمر ما توليت النجوم
تموت غداً وأنت قريرُ عين ... من الغفلات فى لجج تعوم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نَؤوم
سل الأيام عن أمم تقضت ... ستخبرك المعالم والرُّسوم
تروم الخلد فى دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم
ألا يا أيها الملك المرجىّ ... ليه نواهض الدنيا تحوم
أقلنى زلّةً لم أجر منها ... إلى لوم وما مثلى مَلوم
وخلِّصنى تُخلَّص يوم بعث ... إذا للناس بُرِّزَتِ الجحيم

وسنستوفى فيما يأتى ما بقى من هذه الروايات فى هذا الشأن الجديد الذى صار إليـه مع الرشيد ، ونعمل على التوفيق بينها ، ونرد هذه الحال الجديدة فى أبى العتاهية إلى أسبابها الحقيقية ؟

عبد المتعال الصعيدى

قبر الغريبة

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قالها على لسان أحدهم يخاطب
قبر حبيبته التي ماتت غريبة

قبرَ الغريبــة لا باكٍ ولا ناعِ   سوى محبٍّ له من حزنه داعِ

قبر الغريبة لا ماءٌ ولا زَهَرٌ   إلاّ دموعى وأشعارى وأسجاعى

والشعر من عنصر الديوم جوهرُه   فليس ينفكّ ذا ومضٍ وإشــعاع

ماتت وصورتها فى العين ماثلة   أخِلتِى لم تمت أم لستُ بالواعى

كأنها من شقوق القبر ناظرة   إلىّ نظرةَ مُلتاعٍ لملتاع

نزيلةَ القبر قولى : لستُ ميّتةً   وقد تنبهت أرنو بعد تهجاع

أم ليس ما أنا راءٍ فى حقيقته   سوى خيالٍ لمن أهواه خدّاع

فأنت ميّتة أودعتُها بيدى   قبراً و بالرغم عنى كان إيداعى

حزنى شديد وأوجاعى مبرّحة   ماذا يخفف أحزانى وأوجاعى؟

* * *

دع الدفينة تحت القاع راقدة   فالقاع ليس لما فيه بمضياع

تحفّ بالميت أشــياعٌ لتدفنه   أمّا الغريب فلا يحظى باشياع

ما كان حادث هـذا الموت فى بلدى   لغير قلبىَ فى صــــدرى بصدّاع

فى كل عمرىَ قد أحببتُ واحدة   وهذه ارتحلت فى آخر الساع

ألمعت للركب أستبقيه ملتمساً   فلم يردّ إلىّ الركبَ إلماعى

ما الأرض وهى لنا أمٌّ بمشفقة   فطالما أوقعت بى شرّ إيقاع

لم أكن هابطاً منها لأودية   ولم أكن لثناياها بطلاّع

ما كنت أحسب أن الدهر يفجعنى   بمن أحبَّ فؤادى شر افجاع

والدهر ما زال منّاعاً لنائله   عن بعضهم ولبعضٍ غير منّاع

كانت محاسنها اللائى فُتِنتُ بها   يملأن قلبى وأبصارى وأسماعى

كنت السعيد بماضٍ كان يجمعنا   معاً لو أن إليــه جاز إرجاعى

فى الحب تُسطاع أشياء وإن عسرت   إلاّ السلوّ فهــــــذا غير مسطاع

ما إن ذكرتكِ فى سرى وفى علنى   الاّ توثّب قلبى تحت أضلاعى

أحِسّ فى حين طرفى لايراكِ إلى   جنبى بوخزٍ كحرّ النار لذّاع

لهفى على أعين وقّادة طفِئت   بعاصفٍ هبّ يسفى الموتَ زعزاع

قد كنتِ يوم اجتماع الغيد مفردةً   ككوكبٍ فى سماء الحسن لمّاع

سمراء فاتنة العينين خالقُها   قد أبدع الحسنَ فيها أىّ إبداع

* * *

ماقيمة العيش فى معزولة شطنت   ما إن بها لنفوسٍ أوذيت راع

أتأذنين بدفنى إن هلكتُ إلى   جوار قبركِ فى جوفٍ من القاع

فنلتقى فى الثرى منا الجسومُ وإن   كنا ولا أحدٌ منا به واع

إن انتظارك فيه لا يطول فبى   تدنو إلى القبر أدوائى وأوجاعى

أما دنوّى من حتفى فيُفرحنى   كأنما أنا من نفسى له ساع

موتُ الحبيبة فى دنياى زهّدنى   فلستُ إلاّ إلى حَينى بنزّاع

بكِ التحاقى أكيدٌ لاارتياب به   فلا يضيركِ إبطائى و إسراعى

وسوف نسبح فى هذا الفضاء معاً   وقد نطوف بشمس ذات أتباع

لا يُفزعنّكِ بحرٌ للأثير طمى   وما هنالك من موجٍ ودفّاع

(بغداد)   **جميل صدقى الزهاوى**

نشــيد المجد

بقلم إلياس قنصل

— من ديوان « السهام » الذى يصدر قريباً —

إلى المجدسِرْ، واغنمِ أكاليل غاره   بهمّةِ جبارٍ له الخلد مأربُ

وكن قوةً يعنو الجلالُ لبأسها   ويسبقها من سؤدد الفضل موكب

وإن ناصبتْك الحربَ دنياكَ كلها   وحفّكَ من ليل الحوادث غيهب

فلا تشــكُ فالشكوى احتضارُ مخيّبٍ   ولن يســتحقّ النور شاكٍ مخيّبُ

بل استلّ من عالى إباكَ مهنّدا   تغلغل فيه من مضائك كهرب

وكافحْ به صرف الزمان وقل له   سأبعث فيك الرعب من حيث تهرب

ذكرى محمد

في عيد ميلاده

للأستاذ محمود غنيم

هو عيدُ ميلادِ ابنِ عبدِ منافِ   لا عيدُ مُخترعٍ ولا كشافِ
أكبرتُ قدرَك يا ابنَ عبدِ الله عن   تأليف أوزانٍ ونحتِ قوافِ
ما أنت إلا عيلمٌ لم يُكتشف   يَطغَى بلجّتـه على الوصّاف
بحرٌ خضمٌ غير أن جُمانه   ما زال سرًّا داخل الأصداف
لولاك لانقطع الزمان فلم تكن   حلقاتُه موصولةَ الأطراف
دجت القرونُ فقام دينُك حارساً   يحمى ذمار حضارةِ الأسلاف

* * *

هزَّ الوجودَ بكفِّه فى مهده   طفلٌ يتيمٌ من كنانةَ عاف
جادت به الفلواتُ أصفى طينةً   وطويةً من جوِّهنَّ الصّافى
وأشدَّ من هَضَباتِهِنَّ صلابةً   وأهبَّ من إعصارهن السّافى
فإذا الأكاسرُ خاضعون لحكمه   وإذا القياصرُ مرغمو الآناف
فتحت مبادئُه الحصونَ أمامَه   قبل الصوارم والقنَا الرعّاف
غزت القلوب بسحرها فكأنها   قد لامست منهنَّ كل شِغاف
أين الذى يغزو القلوبَ من الذى   يغزو الرقاب بحدّة الأسياف ؟
تلك المبادئُ – وهى شتى – جمعت   فى مبدأين : الحقِّ والإنصاف

* * *

آخَى ابنُ عبدِ الله بين معاشرٍ   يتناحرون تناحرَ الأخْيَاف
لانت قناتُهمو لدعوته وما   لانت قناتُهمو لغمزِ ثِقاف
ولقد يروض الأسدَ رائضُها ولا   يتغيّر الطبعُ الغليظُ الجافى
هذا هو الإعجازُ لا بحرٌ ولا   بدرٌ قد انشقّا إلى أنصاف
آىٌ من الذكر الحكيم أتى بها   فإذا القلوب تلين بعد جَفاف
ولو انَّ ألفَىْ دوحةٍ سجدا له   ما كان ذلك بالدليل الكافى
عجباً ! أجاء محمد بالسحر فى   آياته أم شابها بسلاف ؟
أم كان تنويماً خضوعهمو له   ما ذلك السر العويصُ الخافى ؟
أسرت قريشٌ مسلماً فى غزوة   فمضى بلا وجل إلى السيّاف
سألوه هل يرضيك أنك سالمٌ   ولك النبى فدًى من الإتلاف
فأجاب كلا لا سلمت من الردى   ويُصابَ أنفُ محمدٍ برعاف
أقسمتُ ما كان النبى محمدٌ   بمشَعْوِذٍ كلا ولا عرّاف
ليس النبى بساحرٍ يتلو الرُّقى   ويُخيف بالأشباح والأطياف
لكنه الإيمان من يظفرْ به   يَلْقَ المفاوزَ سهلةَ الأكْناف
لو آمن الجبلُ ارتقى فوق السُّهى   بقوادمٍ من ريشه وخواف
هذا الذى جعل النبىَّ ورهطَه   إن حاربوا انتصروا على الأضْعَاف
يزداد فى ساح الوغى إيمانُهم   فيقابلون الموت باستخفاف
يُسْتَضْعَفُون لقلّةً لكنهم   بوثوقهم فى الله غيرُ ضعاف
فإذا دُعُوا للحرب هبُّوا أو دُعُوا   للمال عفُّوا عنه أىَّ عفاف
قم سائل الأعرابَ أيةَ دولة   نهضوا بها حملاً على الأكتاف
بزّت أثينا فى الحضارة أمةٌ   لم تأوِ غيرَ مضاربٍ وفياف
شُغلوا بفلسفةٍ وعلم بعدما   شُغلوا بوصف منازل وأثاف
تخذوا القصور مساكناً وتسربلوا   بالخز لا الأوبار والأصواف
فإذا الجزيرة بعد جَدْب جنةٌ   ميّاسةٌ مهتزّةُ الأعطاف
يا رُبَّ أسطولٍ بنَوْهَ كأنه   بحرٌ خضمٌ فوق آخَرَ طاف
السُّوقةُ الأجلافُ قد حكموا الورى   أنْعم بحكمِ السوقة الأجلاف
ما شئت من عدل وتسوية ومن   شورى فيا لثلاثة الأحلاف
يا شرق يا مهدَ الشرائع رحمةً   لك ، ما لأهلك فيك كالأضياف ؟
يا شرق أنت لكل شمس مطلعٌ   ما بال أفقك حالك الأسْداف
أعْزِزْ علينا أن نراك تئنُّ من   تقييد أقدام وشدِّ كِتَاف
بدأت من الشرق الحضارةُ سيرها   أفما لرحلتها من استئناف ؟

محمود غنيم

وأورِ زناد الكدّ واخلقْ أشعّةً   من الحزمِ لا ينتابُها الدهرَ مغرب
وشقّ بها درباً إلى كل غايةٍ   سناها على عطر الثنا يتغلّب
وإن بتّ مهضومَ الحقوق ولم تثرْ   فلستَ بذى نفسٍ الى الله تُنسب
براها ، ورقّاها لتغدو على الثرى   خليفتَه – وهْو العزيز المغلّب –
وما الموت إلا الضعف والجبن والونى   وما العيش إلا نيل ما أنت ترغب
وما النفس إلاّ عزة وكرامة   يظلّهما من طارف النبل مذهبُ

عاصمة الارجنتين   الياس قنصل

القصص

من أساطير الإغريق

هرقل (١)

مولده . نشأته . قوته الخرافية . مجازفاته

للأستاذ دريني خشبة

كان قلب الإله الأكبر شيوعية في دولة الحب . . .

ولم يكن يقصر هواه على ربات الأولمب فحسب ، بل كان يفتتن بكل حسناء من بنات حواء ، وطالما وصل أسبابه بأسباب الغيد الأماليد من ظباء دار الفناء . . . هذه الحياة الدنيا . . .



تمثال هرقل في متحف نابلي

ولقد كانت زوجه حيرا تقعد له بالمرصاد ، لما تعرف من تصابيه ، ولقلة ثقتها فيه ، فلما علق الفتاة الفتّانة ، ألكمين ، إحدى أميرات هيلاس ، كان يبالغ في الحذر حتى لا تفجأه زوجه معها كما فجأته مع الحسناء يو من قبل (٢)

ونعم الحبيبان بحياة راضية ، ووضعت ألكمين طفلها العاتية الجبار هرقل ، وماكاد النبأ يذيع في دولة الأولمب حتى ثارت ثائرة حيرا وأسقط في يدها . . . لأنها لم تعد تستطيع أن تنتقم لكبريائها من منافستها في قلب زوجها (زيوس) تلك المنافسة التي ارتفعت إلى مرتبة الآلهة بعد إذ وضعت غلامها ابناً لسيد أرباب الأولمب

ولكنها ، وهي هي المجبولة على الشر دائماً ، آلت إلا أن ترد نور الحياة المتلألئ ظلاماً في عيني الأم ، وذلك بالفتك بوليدها المحبوب ، فأمرت حيتين رقطاوين من أبالستها أن تسعيا إلى مهد الطفل ، وأن تندسا فيه ، حتى إذا سنحت لهما فرصة أودتا بحياته ، وعادتا بأمارة منه تشهد على إنفاذ ما أمرتا به

وسعت الحيتان حتى استقرتا في المهاد الوثير ؛ وانتهزتا غفلة من الخدم فانقضتا على الفريسة الصغيرة ، وأوشكتا أن تظفرا بها . . .

ولكن هرقل الصغير الهادئ ، افتر عن ثغر شتيت مشرق ، وقبض بأصابعه الصغيرة الدودية على رأس كل من الحيتين ، وبضغطتين هائلتين حطم عظامهما جميعاً . وكان الخدم قد أقبلوا ، فلما شهدوا الأفعوانين صرخوا وأعولوا ، بيد أنهم بهتوا وطار الصواب من أدمغتهم حينما رأوا أن الوليد الصغير ، المنبطح على ظهره يضرب برجليه هاهنا وهاهنا ، قد قضى على الحيتين العظيمتين وألقاهما ضحيتين غير مباركتين على مذبح قوته الخرافية ! !

وقدمت ألكمين فضمت إلى صدرها الحنون طفلها الهائل ! فرحةً مستبشرة ، وطبعت على جبينه الضاحك قبلة حملت أسمى معاني الأمومة

وذهلت حيرا عندما سمعت بما صنع الغلام بشيطانيتها ، وأيقنت ألا سبيل إلى القضاء عليه ، ولكنها لم تيأس ، وأقسمت أن تنثر الشوك في مستقبله القريب ، وتبث العراقيل في حياته الجائية

(١) Hercules أو Heracles ويسميه بعضهم Alcides وعربه العرب هرقل

(٢) العدد ٩٥ من الرسالة

وشب هرقل ...

ونشّأه مؤدبه ، شيرون ، زعيم السنتور[1] ، تنشئة حربية حافلة ، ولقنه كل ما تحتاج إليه حياة الفرسان من تقشف واخشيشان ؛ فمهر هرقل فى زمن قصير فى استعمال الأسلحة بأنواعها ، ونبغ فى جميع صنوف الرياضة وألعاب الفروسية والقوى

وكان شيرون نفسه يعجب بهذا الجسم الحديدى ، يمسكه العضل البارز ، ويزينه السكيان المفتول ... وكان إذا أراد تدريبه على المصارعة وألعاب القوة ، آثر أن يشركه فى نزال مع الثيران والعجول ، والضخم ذى الأيد من بهيمة الأرض . وكان هرقل لا يخشى شيئاً من خصومه العجماوات ، بل كان يُقبل على مصارعتها بثغر بسام وقلب طروب ، فلا يدعها حتى يلقيها على الأرض معفرة بالتراب ! وخشيته الحيوانات جميعاً ، فكانت تجفل من طريقه كلما رأته مقبلاً نحوها ، لطول ما جربت من بطشه وشديد بلائه !

وكان الفتى كلما ازداد قوة ، وذاب الحديد فى عضلاته ، ازدادت حيرا تغيظاً ، وهاجت فى فؤادها الأحقاد !

ولم تعد تطيق صبراً على هذا الخصم العنيد ، ومادت بها الأرض ، وأصبحت كأن يعاسيب العداوة تطن فى رأسها تغريها بهرقل ، ومن يلوذ بهرقل ؛ فانطلقت إلى زوجها ولم تزل به حتى أصدر إرادة أولمبية تقضى أن يصبح هرقل خادماً لابن عمه ، النذل الخسيس : يوريذوس أمير أرجوس ، وأن يظل فى خدمته بضع سنين ...

وانتهى هرقل من تلمذته على شيرون ...

وانطلق يكابد الحياة كفن قاس ملىء بالرغائب ، مفعم بالمجازفات . فبينما كان يعبر طريقاً معروشاً بفروع السنديان ، بين غابتين عظيمتين ، إذا غانيتان جميلتان تعترضانه وتأخذان عليه سبيله ... فأشاح عنهما ، يحسبهما من المسكينات ملفوظات البغاء ، أو من أولئك اللائى يتخذن الفسوق حرفة قذرة إلى عيش وضيع . ولكن الفتاتين تشبثتا به ، وأبتا إلا أن يقف معهما هنيهة ، يتخير منهما واحدة تكون رائدته فى هذه الحياة ، تهديه وترشده وتأخذ بيده فى سبلها المتشعبة

وكانت إحدى الفتاتين ، (كاكيا) ، شيطان الإثم ، وإبليس الفجور فى هذه الأرض . فتقدمت اليه متبرجة متهتكة ، تغمز بهذا الطرف ، وتبسم بذاك الثغر ، وتهز ما سكن من الجيد ، وتمط ما اشرأب من العنق ، وتحسر عن الساقين ، وتكشف عن الذراعين ، ثم هى تقرقع بضحكات مخنثة تثير الاشتهاء فى نفس الشاب ، وتستولى بها على مشاعره : « أنا ، حبيبتك كاكيا ، أجمل غادات هيلاس ومفتحة الورود فى خدود العذارى ، أضع قلبى وجسمى بين قدميك يا هرقلى العزيز ، مطية إلى الفردوس التى تجد فيها ما شئت من نعيم وما تمنيت من لذة . . . فاتبعنى أجعل الدنيا كلها من حولك سعادة ، وأُسيِّر طريقك أنى ذهبت فى الحياة منضورة بالورد ، زاهرة بالرياحين . . . هلم إلىَّ نحى حياة كالحلم ، بعيدين من عناء العالم ، ناعمين عن شقاء الدنيا ، لا نفتح عينينا إلا على متعة ، ولا نرهف سمعينا إلا لموسيقى ، ولا نغلق قلبينا إلا على نعيم . . .

مالك ولشد ما اربداد وجه الحياة ياحبيبى هرقل ؟ إن الدنيا فرصة سانحة فانتهزها ، وإن العمر قصير فلا تلق به بخوراً فى نار البأساء ، وإن الأيام لتخب بنا دون أن نشعر بها ، فلم نحاول أن نلبسها بالجد فيها هذا اللبوس الأسود الحزين القاتم ؟ ولِمَ لا نرسلها فى وشى وأفواف ؟ لِمَ لا نستمع دائماً لما توحيه إلينا قلوبنا ونفوسنا مادامت الدنيا مخلوقة لها ؟

لِمَ تطرق هكذا ياحبيبى ؟ أمتعب أنت ؟ هاتِ رأسك إذن ، ودعه ملقى على صدرى الجميل الخصب . . . »

ولكن الفتى نفر نفرة بادية ، وأرسل نظرة فاحصة إلى (أريتيه) ، الفتاة الأخرى ، التى كانت تقف عن كثب ، مصغية إلى حديث كاكيا ، مشفقة على الشاب المسكين

أما أريتيه هذه فربة الفضيلة ، ونفحة السماء ، وهادية البشر ومنقذتهم من شرور كاكيا . . .

وسألها هرقل : « وأنت أيتها الفتاة ، بمَ تشيرين ؟ »

وقالت أريتيه ، وهى تكفكف عبرة غالية : « أنا ؟ لا أشير عليك بشىء أيها الصديق إلا بالحذر من هذه الغادة ! إنها توشك أن تضلك وترديك ! » .

---

(١) السنتور جبل خرافى نصفه نصف رجل والنصف الأسفل نصف حصان

فغيظت كاكيا وأخذها الحنَق ، وأجابت فى غلاظة ومخاشنة : « أضله وأرديه ؟ ها ها . . . وأنتِ أتسلكين به سبيل الفضيلة الذى زُرعت أرضـه قتاداً ، وبرزت فيها أنياب الذئاب ؟ اسمع ياهرقل ، اصغ إلى ياحبيبى ، دعك من هذه الفتاة المحتشمة . . إليك عنها . . . إنها تفطش حياتك لو تبعتها . . . »

وتبتسم أريتيه ابتسامة هادئة وتقول : « إن الآلهة ياهرقل قد زودتك بهذه القوة الكامنة فى بنيانك لغرض أسمى من جميع الأغراض الحيوانية ؛ وقد كان أجدى للخير العام أن تخلق نوراً ذا خوار من أن تودع كل هذا الحديد فى عضلاتك ، لو لم تكن قد أعدتك لفعال جسام لن يؤديها غيرك . أجل ! إن طريق لا ينمو بها إلا الشوك ، وإنها تدمى الأقدام وتجهـد السائرين ، ولن ترى فيها زهرة ولا ريحانة ، بل لن تسمع فيها عصفوراً يغنى ولا بلبلا يغرد ، وبالعكس ، قد تقتتل فيها مع السباع والضوارى والثعابين ، ولـكنك فى آخر كل نصر ، وعقبى كل ظفر ، ترى جنة من الرضى تحفك بالزهر ، وترقص بين يديك بالغوانى والقيان . أما هذه . . . أما ما تغريك به هذه الأنثى الهلوك ، ففيه حتفك ، فحذار . وليس أحب إليك ، كرجل ، كان له الشرف أن يكون ابن إلـه ، من أن تثبت للآلهة أنك جدير بما انتدبتك له »

وسكتت أريتيه ، ولـكن كاكيا لبثت تدل وتتيه وتتبرج ، تحاول الفوز بهذا القنص العزيز . . . غير أن نخوة الرجولة ثارت فى قلب هرقل ، فانتهر الغانية الغاوية وأغلظ لها ، ثم تقدم إلى أريتيه فتناول يدها الصغيرة الحلوة ، وطبع عليها قبلة تفيض وقاراً واحتراماً ، ثم قال لها بصوت متهدج خافت : « هلمى بنا يافتاة فلن أخشى فى سبيلك بأساً ولا رهقا »

وانطلقا . . . وغابا فى ظلام الغابة . . .

ولم يبرح هرقل مُعيناً للضعفاء ، مغيثاً للملهوفين ؛ إذا رأى مظلوماً انتصف له من ظالمه ، وإذا لقى جائعاً نزل له عن زاده ؛ ولم يبرح ينصر الفضيلة أنى سار ، ولم تبرح الفضيلة تمشى فى أثره أيان ولى ، حتى ضاقت الدنيا بحيرا ، ولم تعد تحتمل هذا الغار من المجد يكلل هامة خصمها العظيم ، ولا سيما بعـد أن اتصل بالملك كريون ، ملك طيبة ، وزواجه من ابنته الجميلة ميجارا

لقـد أحب هرقل زوجته حباً جماً . وأحبته هى كذلك وأخلصت له ، وكانا يذهبان إلى الغابة القريبة يتناجيان بنجوى الحب ، ويرشفان كؤوس الهوى ، ويعودان مع الأصيل فيسامران الملك الشيخ ، ويدبران معه أمور المملـكة

ثم مكرت حيرا مكرها ! . . .

لقد صممت على أن تسلب هرقل رشـده ، وتتركه يهيم فى الأرض ينطح برأسه الصخر كما يفعل الضـلال المجانين . فبينما كان غارقًا فى أحلام السعادة إلى جانب زوجته ، آمنين مطمئنين ، إذا حيرا الآثمة تندس فى ظلام المخدع ، وتنفث سحرها الفظيع فى أذنى هرقل ، وتمضى لشأنها ، فتختبىء فى الحديقة خلف دوحة كبيرة من دوح الشاهبلوط . . . وتنتظر ثمة ريثما يصحو الزوج المسكين ، فتشهد المأساة التى تتفزَّع من هولها الأرض وتميد الجبال ! . . .

وأشرقت الشمس !

واستيقظ هرقل ؛ ونهضت ميجارا ، ولـكن ناراً كانت تقـدح الشرر فى عينى البطل ! وزبداً حاراً كان ينقذف من فمه المخوف ! وأصواتاً كأصوات الشياطين كانت تدوى فى رأسـه الضخم . . .

والدم ! . . .

لقـد كان ينبثق من كل جارحة فى جسمه الأرجوانى ، فيصبغ اللحُفَ والأرائك ، ويسيل على أديم الغرفة المغطى بالدمقس !

وذُعرت ميجارا ، وصرخت صرخات راجفة تدعو أباها . .

ولـكن هرقل المسحور ينتفض انتفاضة تزلزل أركان القصر ، وينقض على زوجته التعسة كأنه ضبع : « تعالى ياخائنة ! أين كنت طيلة الليلة الفائتة ؟ آه ! أجل ! كنت تتمرغين بين ذراعى عشيقك الجبان ! الويل لكما ! شرف هرقل تلغ فيه الكلاب ! »

وبضغطة قوية من يديه الصارمتين ، على عنق الفتاة المنكودة يتركها جثـة هامدة ، قرباناً للموت فى عنفوان الصبى ، وضحية للردى فى ريعان الشباب . . .

وانطلق يصرخ فى ردهات القصر ، وهرول يزمجر فى حنيات الحديقة ، ثم أطلق ساقيه للريح . . .

وفى قنة جبـل تزمزم الأعاصير فى جنباته ، جلس هرقل المسكين ليثوب إليه رشده ، وليذكر أنه قتل زوجته المحبوبة فى

نوبة جنونية ، فينشج ويبكى ! . .

وتكون غمامة فوق رأسه تظله من وهج الشمس ، فتنشق عن إله كريم ، هو هرمز رسول السماء ، حمل إلى هرقل تلك الارادة الأولمبية القاسية ، التى أصدرها زيوس ، متأثراً بالحاح زوجته الآثمة حيرا ، والتى تقضى أن يظل هرقل فى خدمة ابن عمه يوريذوس اثنى عشر شهرا يصدع خلالها بما يؤمر !

— « لقد كان عليك أن تظل فى خدمته بضع سنين . . . ولكننا ألحفنا على رب الأرباب فقصر المدة ، واختزلها إلى ما ترى ! »

— « يختزلها أولا يختزلها ، لقد أصبحت الحياة سجناً بدون ميجارا ! »

— « عليك بالصبر ياصديق ، فقد تفيدك طاعة الآلهة ... »

— « الآلهة التى لا تحسن عملاً غير هذا العبث ! . . . »

— « صه صه . . . هلم إلى يوريذوس ، وستكون حراً بعد سنة واحدة . . . »

***

وجن جنون هرقل لهذا القضاء الأولمبى الأعمى ، وفر من هرمز فى مسارب المياه ، ولجأ إلى الوحوش يلتمس لديها الصبر الجميل والقلب الرحيم ؛ ولكنه عبثاً حاول الفرار مما كتبته السماء عليه ، وهنا ، بدت له صديقته ربة الفضيلة أريتيه ، فنصحته ، ولم تزل به حتى أقنعته بخدمة يوريذوس ، فذهب إليه كسير القلب مهيض الجناح ، كأن جبلاً من الهم والسخط مستقر على رأسه

وقال له يوريذوس : « وأخيراً وصلت إلى آخر الدرب يا هرقل ! . . . إن أمامك أموراً فأعد لها عدتك ، فما أحسب دموعك على ميجارا بمجدية عليك شيئاً ... ... »

وحدجه هرقل بنظرة يشتعل فيها الغضب وقال له : « أجل ؛ لقد وصلت آخر الدرب ... ولكن ليس لك شأن بدموع أذرفها من أجل ميجارا ... ألا فاذكر حاجتك التى أرسلتنى الآلهة لأقضيها لك ، وأقصر ! »

وضحك يوريذوس حتى كاد الرعد يخرج من بين شدقيه ، وقال : « حاجتى ! إن لى لحاجاتٍ ما أحسبك تستطيع قضاء واحدة منها . وكيف تصبر مثلاً على سَبُعِ نيميا الذى يقطع الطريق إلى غاباتها ذات الكنوز والأذخار ؟ »

وقال هرقل : « سبُع نيميا أو ألف سبعٍ كسبع نيميا ، عليك أن تكلفنى ولو يهدم السماء أفعلُ ماتكلفنى به ... والآن ، أإذا جئتك برأس هذا السبع أكون طليقاً ؟ »

— « تكون طليقاً ؟ إن أمامك اثنتىْ عشرة مسألة ، رأس سبع نيميا أولها وأيسرها ياهرقل ، فهلم إذن ، وسنرى ... »

(لها بقية) دريني خشبة

من الأدب الابطالى

الليالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة الأديب احمد الطاهر

٣

قصة صداقة

جيزيبوس و تيتوس

قالت فيلو مينا : « لقد سمعتم من بامفيلو قصة رائعة تظهركم على قوة الحب وأثره فى النفوس ؛ وأنا ذاكرة لكم قصة أخرى تكشف عن قوة الصداقة وفعلها فى الناس : وقعت حوادثها فى عهد او كتافيوس قيصر إذكان حاكما لروما

فصل من روما إلى اثينا شاب يدعى تيتوس ليدرس الفلسفة ، وهناك عرف شاباً اثينياً شريفاً اسمه جيزيبوس ، واتصلت بين الفتيين أسباب الصداقة والمحبة . ومضت سنون ثلاث تعمل على توثيق هذه الأسباب ، والفتيان لايفترقان فى مسكن أو مأكل أو درس

وقدر لجيزيبوس الاثينى أن أغرم بفتاة جميلة من بنات جنسه تدعى « سوفرونيا » ، وحببت اليه الفتاة ، وحبب الفتى اليها ، واتفق المحبان على الزواج

ورأى جيز يبوس قبل الزواج ببضعة أيام أن يصحب صديقه الرومانى تيتوس الى بيت الفتاة لزيارتها ، وهو يعهد فيه نبلاً فى الطبع ، وشرفاً فى النفس لاسبيل إلى الشك فيهما ، وما إن رأى تيتوس الفتاة حتى أقصده حبها بسهم مصيب ، واشتدت به تباريح الهوى ، فما يغمض له جفن ، ولايهنأ له طعام . وما زال الحب يلح عليه حتى أضناه ، ويسرف فى النيل منه حتى أضواه ، وأصبح الفتى سقيما عليلاً لايرجى شفاؤه ، ولا يرحم داؤه ، وساءت به الحال ، حتى أشفى على الزوال

وعز على صاحبه ما أصابه ، وذهبت به الظنون كل مذهب فى سبب علته ، وأخذ يسائله عن مصدر أحزانه ، ومبعث أشجانه ، والفتى لايستطيع جواباً بغير الدمع ينهمر من مآقيه ، والصمت لا يبرح على فيه ؛ ولما أسرف عليـــه صاحبه فى السؤال وألح ، قال : «ياصديق ، لقد أحسست بخستى ودناءتى ؛ فما أحسبنى بعد اليوم خليقاً بصداقتك ، وما أطمع منك إلا فى عفوك وصفحك ، أما عند الله فسيصيبنى بما أجرمت صغار وعذاب شديد ، وما يوم القصاص ببعيد . ولا أكتمك أن مبعث علتى ، ومصدر شقائى هو حبى لفتاتك سوفرونيا . أعترف لك بهذا الاثم الشنيع الذى قارفت رحضاً لسبّة الخيانة ، ومعرة الانكار ، واستعدادا لقضاء العادل الجبار »

وجم صاحبه لحظة ، واستولت عليه حيرة ، وتزاحمت عليه خواطر شتى : هذا وفاؤه لتيتوس يكبره ويقدسه ، ويذود عنه بعقله وحكمته ، وهذا حبه لسفرونيا يملك عواطفه ويتحكم فى شعوره ويملأ قلبه . فماذا يصنع ؟ وإلى أى العاملين يخضع ؟ ثم ليست هى الصداقة وحدها تتراءى له فيقع فى حيرة وتردد ، بل هو الصديق نفسه قد أشفى على الهلاك والتلف ، وتصرمت بينه وبين الحياة أسبابها . أطال جيز يبوس الصمت ، وأغرق فى التفكير ، ثم استقر ، ورضى ، وطابت نفسه أن ينزل عن سعادته فى الحب لينجو صديقه من الموت ، وتنجو صداقتهما من أن يعتورها كلل أو فتور

ومضت بضعة أيام ، وأقبلت سوفرونيا إلى منزل العريس ، وقد أعد العدة لليلة الزفاف . وما وافت ساعته حتى انسل إلى مقصورتها ، وأطفأ شموعها وقفل راجعاً إلى صديقه تيتوس فى حيرة لاقبل له بها ، وتزاحم عليه الخجل ، والحب ، والرغبة ، والأباء ، والوفاء : تتنازع هذه النفس المعذبة المحطمة وتتركها شعثاً لايرجى له اجتماع ، وتضطرب فى هذا القلب المتداعى حتى ليكاد ينفجر الصدر ، وتنقض الأضلاع . ولم يسعه إلا أن يرفض ما عرض عليه جيز يبوس ، وألح هذا الصديق الوفى فى قبول ما عرض ، حتى نزل تيتوس على ارادة صديقه وقبل رجاءه ، واسترق الخطى إلى مقصورة العروس ، فلما دنا منها تحت غلس الليل قال لها : « أتطيبين نفساً بزواجى ؟ » فحسبته الفتاة زوجها الموعود جيز يبوس ، وأجابت « بنعم » . فتناول خاتماً ثميناً

ووضعه فى أصبعها وقال لها شاكراً : « وسأكون زوجك »

ولما تنفس الصبح وافتضح التدبير أدركت سوفرونيا أن فى الأمر خدعة ودلساً . فتسللت من بيت عرسها وانصرفت إلى أمها وأبيها ، تشكو اليهما خدعة وقعت فيها ، وذاع الخبر فى أثينا ، وكان حديثاً تلوكه ألسنة الناس ساخطة على فعلة جيزيبوس وخديعته لفتاة انحدرت من أطهر الأصلاب وأعرق الأنساب ، ولكن لا مفر مما وقع ، ولا تبديل لحكم القضاء . ولم يجد والدا الفتاة حيلة فى هذه الكارثة المخزية إلا أن يسترا الفضيحة ويكتما العار . فطلبا إلى تيتوس أن يرحل بالفتاة إلى روما حيث لا يعلم الناس من أمرها شيئاً

وما كاد الفتى يفصل عن اثينا بزوجته حتى تحركت فى نفوس الملأ سورة الغضب والانتقام من جيزيبوس جزاءً بما فعل بهذه الأسرة الكريمة ، واشتدوا على الرجل ونكلوا به تنكيلاً ، وجردوه من كل ما يملك ، وشردوه من اثينا تشريدا أبدياً ، نخرج منها مذموماً مدحوراً

وركب نعليه إلى روما ، ومشى إليها مكباً على وجهه ، كاسف البال ، عليه من الثياب أسمال ، لا رفيق له إلا أحزانه وأشجانه ، تبطئ خطاه حيناً ، وتسرع أحياناً . ولقى فى سفره هذا عناءً ونصباً . وأشرف على المدينة فتلمس دار صديقه الذى لقى ما لقى فى سبيل الوفاء له والابقاء على صداقته فهداه السابلة إلى طريق اتخذ سمته فيه إلى قصر شامخ عليه مظاهر النعيم واليسار ، تجرى عليه من السعادة أنهار ، وإذا هو قصر صاحبه تيتوس . وتنسم أخباره فاذا هو فى نعمة سابغة ، وسطوة بالغة ، وإذا هو فى المدينة من ذوى السلطان والحول ، والقوة والطول ، لا يدفع له أمر ، ولا يرد له قول أن كان فى المقربين من أمير البلاد اكتافيوس قيصر من الخاصة الخلصاء . واختلس الفتى من أعين الحراس موقفاً إلى جوار الباب خفياً ، وأسند ظهره إلى الحائط وأطرق يفكر ملياً

وارحمتاه لهذا البائس المنكود ! يسبح فى بحار من الأحزان والآلام لو سلطت على هذا القصر لدكته على من فيه دكاً . ترى ما الذى يختلج فى هذا الصدر من لواعج الأسى؟ وما الذى يضطرب فى هذه النفس من شتى المشاعر ؟ . هـذا صديقه الذى نزل عن سعادته فى الدنيا لينعم بها دونه واتقى فى سبيل الوفاء له شر ما يلقى الناس من عنت الدهر ، وتجرد له من حطام الدنيا وما ملكت يداه ، وأفزع من وطنه شريداً طريداً لينعم بخفض العيش ويستقر فى مهاد النعمة . . أإذا خرج وراه ، يعطف عليه ويرق لمرآه ؟ أيذكر له سابق فضله ويسبغ عليه من فيئه ؟ وكيف السبيل إليه ، ودونه من الحراس والحجاب والأبواب ما يصد الناس عن الوصول إليه ولو كانوا من ذوى المكانة . فكيف به وهو على ما نعلم من الذلة والمهانة ؟

وبدت فى القصر حركة تدل على أن صاحب القصر قد آذن بالخروج ، فتحرك الفتى من موضعه ، واحتبست أنفاسه ، وخرجت من صدره نفثات ، ومن عينه عبرات ، ومر صاحب القصر به ولم يعن بشأنه ولم يلتفت إليه كأن لم يكن شيئاً موجوداً

وانصرف الفتى يتعثر فى أذيال الخيبة ويهيم فى الطرقات ، لا يقصد غاية ، ولا ينتهى إلى نهاية . كأنما وكل بسبل المدينة يذرعها ذرعاً . وأدركه الليل . وبسط عليه جناحين من سواد ، فأوى إلى كهف يتخذه اللصوص مثابة فألقى عنده عصا الترحال وأسند رأسه إلى الأرض يلتمس فيها راحة البدن ؛ وقد أيأسته راحة النفس ، وحاول أن يغمض عينيه ، ولم يجد النوم سبيلاً إليهما بين هذه العبرات الحارة المنهمرة انهماراً . ودخل إلى الكهف لصان يحملان أسلاباً ، ونزغ الشيطان بينهما فاختلفا فى قسمة الغنيمة فهم أحدهما وضرب الآخر فأرداه قتيلاً

تنفس الصبح وطاف بالكهف بعض العسس فألفوا القتيل مضرجاً بدمائه وفتى القصة راقداً إلى جواره . فاقتادوه إلى دار الشرطة والقضاء ليتبينوا منه الأمر

وهنا دفع اليأس فتانا لأن يلتمس مخرجاً من هذه الكوارث فألقى بنفسه إلى التهلكة وترامى فى أحضان الموت وقال : « أنا القاتل ! » وفى نفسه بارقة من الأمل ، ولكنه أمل فى الموت وفى أن يخرج من عناء الدنيا إلى راحة الأخرى

قال القاضى « ولقد حكمنا عليك بالاعدام صلباً » وكذلك كان يجزى القاتلون

وساقت الأقدار تيتوس ذا الحول والطول إلى ساحة القضاء ليزجى دفاعاً عن أحد الأبرياء ، فحانت منه نظرة إلى فتانا جيزيبوس

فأنكره ، ثم تأمله فتبينه وعرفه ، فساءته حاله وأشفق عليه وعقد العزم على أن يخرجه من بأسائه إلى نعيم ، وأن يبعث فى حواشى هذه النفس الحالكة شعاعاً من الأمل لا يخبو . ولم يكن من سبيل إلى هذه الغاية إلا أن يدحض اعتراف جيزبيوس باعتراف آخر ، فمثل أمام القاضى وقال : « مهلا أيها القاضى ! أنا القاتل ! وهذا الرجل برىء مما يدين به نفسه ! »

وقع القاضى فى حيرة يصعب الخلاص منها ، وأدرك تيتوس أن صديقه يسعى لاخراجه من فم الأسد الذى أقحم نفسه بين فكيه . وهو لا يريد الفرار من بؤس الحياة إلى الحياة ، وإنما وجد فى الموت منجاة من عذاب الحياة . وفصل جيزبيوس من مجلسه إلى القاضى ودفع صاحبه وقال : « لا ! بل أنا القاتل يا سيدى ولا توقع قصاصك إلا علىّ ! »

قال القاضى فى نفسه : « أكان الصلب شرفاً يتزاحم عليه هذان المأفونان ؟ » وفيما هما يتدافعان إلى الردى برز من بين النظارة لص هصور وقال : « لقد رأيت هذين الرجلين يدفع أحدهما الآخر عما وسعه من الجهد عن حياض الردى ، فما وجدت خيراً من أن أعترف لك ياسيدى القاضى بكل شىء فأريحك وأنقذ الرجلين وأريح نفسى . ما شأن تيتوس — وهو على ما علمتم من الشرف — وما سدة اللصوص يأوى اليها أو يتخذ اليها السبيل ؟ وهذا الرجل ذو الثوب الخلق كان حقاً فى احدى زوايا الكهف نائماً ، ودخلنا الكهف أنا وزميل لى ونزغ الشيطان بيننا فاختلفنا فى قسمة الأسلاب — واللصوص كما تعلمون تدب بينهم الشحناء لخير العدالة والقضاء ، ففضضت النزاع بأن سللت مديتى وأزهقت روح زميلى كما أسل اليوم لسانى لأنقذ روحى هذين السيدين »

هذا خصم ثالث يطالب بنصيبه فى الموت كاملا ، فما أشد حيرة القاضى ووجوم النظارة !

ورجع القاضى الى ملاذ القضاة ، وهو اوكتافيوس قيصر ، أمير البلاد ، ودفع اليه بثلاثة الرجال ، فألقى السمع الى حديثهم وعرف ما كان من أمر تيتوس وجيزيبوس منذ جمعت بينهما الصداقة ، وفرق بينهما الحب ، وجمعتهما الأقدار ، إلى أن مثلا فى مجلسه فقضى بحكمه العادل ببراءة الصديقين ، والعفو عن اللص المعترف اكراماً لهذه الصداقة واكباراً لنفسه الأبية

وخلا الصديقان أحدهما إلى الآخر فى قصر تيتوس ، ولما اطمأن بهما المجلس نزل تيتوس عن نصف ثروته إلى صديقه وزوجه من أخته وكانت فتاة بارعة الحسن نبيلة

وأقاموا جميعاً فى القصر ، وزادهم الله بسطة فى الرزق ، وسعة فى العيش ما ؟

« عن الانجليزية » يوزباشى أحمد الطاهر

البريد الأدبي

مكتبة لوى بارتو

منذ أيام قلائل بيعت فى باريس مكتبة لوى بارتو المؤرخ والسياسى الفرنسى الكبير الذى قتل فى أكتوبر الماضى إلى جانب الملك اسكندر السربى ؛ وكان بارتو من أعظم هواة الكتب والتحف الأدبية ، وقد قضى حياته وأنفق ثروته كلها فى اقتناء نفائس التحف والكتب الأدبية ، وجمع منها مكتبة عظيمة كانت من أشهر مكاتب فرنسا الخاصة . وقد أوصى بارتو بمكتبته النفيسة قبل وفاته إلى الأكاديمية الفرنسية التى كان عضواً فيها ؛ وقررت الأكاديمية أن تعرضها للبيع بالمزاد ؛ ووقع هذا البيع أخيراً ؛ وكانت أيام البيع من أيام باريس المشهودة لما لهذه المكتبة العظيمة من شهرة ذائعة . وكتبت جميع الصحف الفرنسية عن مكتبة بارتو وعن تبدد هذا التراث البديع الذى أنفق فيه المفكر الكبير حياة بأسرها . ومما احتوته هذه المكتبة الفريدة مجموعات نفيسة من الطبعات الأولى لأشهر الكتب الفرنسية منذ القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، ومنها مؤلفات لمونتانى ورونسار وبوالو وبوسويه وفنيلون وموليير وغيرهم ؛ ثم مجموعات نفيسة لبلزاك وبودلير ، وجوتييه وموسيه وسانت بيف وهوجو وغيرهم . ومن التحف رسائل بخط نابليون بونابارت وتوقيعه ، وكتب عديدة عليها شعار الامبراطور ، ونسخة خطية من معاهدة الصلح (فرساى) موقعاً عليها من لويد جورج وفوش وكليمنصو . وقد حققت مكتبة بارتو من البيع مئات الألوف من الفرنكات ؛ ومما يذكر أن نسخة من ديوان بودلير المشهور « فلير دى مال » بيعت بمبلغ سبعة وخمسين ألف فرنك ، بينما بيعت مخطوطات معاهدة فرساى بواحد وأربعين ألف فرنك ، وهكذا بددت مكتبة لوى بارتو بين أيدى الهواة ؛ وهذا مصير معظم المجموعات والذخائر الخاصة

السياحة على طريقة العصور الوسطى

تطورت وسائل الدرس والسياحة فى عصرنا ، واستطاع العلم أن يسخر البحر والهواء ، وغدا الطواف حول العالم أيسر الأمور . ولكن مازال يوجد من الرحل والباحثين فى عصرنا من يفضل الطواف على طريقة السائح الهروى وابن بطوطة وماركوبولو وغيرهم من أكابر الرحلة فى العصور الوسطى . فمنذ عامين فكر ضابطان بحريان فرنسيان هما الكبتن بيشوف وجوزيف ثاثبويه فى جوب بحار العالم فى قارب شراعى ؛ ونفذا مشروعهما الجرىء ، وقطعا إلى اليوم زهاء ستة آلاف ميل ، وغرقا أكثر من مرة ، وسلبهما اللصوص أكثر من مرة ، واعتقلا كجاسوسين وعاشا شهوراً طويلة على الحشائش والأسماك ، مما يذكرنا برحلات السندباد العجيبة

خرج هذان السائحان من ثغر تونجهاى فى الهند الصينية فى مركب شراعى ، وسارا شرقاً فى عرض المحيط الهادى إلى جزائر كارولين ، وهناك كسر قاربهما ، فعادا إلى الصين ، وجهزا سفينة شراعية أخرى ؛ وسارا فيها إلى جزيرة فرموزا اليابانية ، وهنالك سطا عليهما اللصوص فجرداهما من كل شىء حتى أوراقهما الشخصية ، ثم قبضت عليهما سلطات الجزيرة بتهمة التجسس ، وأبعدا من فورموزا . ولكنهما لم يعدلا عن مشروعهما ؛ فجهزا مركباً ثالثاً ، وخرجا من ثغر أموى ، واخترقا بحر تيمور قاصدين إلى جنوب استراليا ؛ وفى أثناء الطريق هاجمتهما كلاب البحر ، ومزقت العواصف شراع المركب ، فلبثا عشرة أيام تحت رحمة الموج لا يعرفان لهما مستقراً ، حتى لمحا فى عرض البحر سفينة نرويجية ، فأغاثتهما ، وأمدتهما بالمؤن ، وأصلحا الشراع ؛ واستمرا فى رحلتهما حتى وصلا إلى ثغر بروم فى استراليا الغربية ، ثم عبرا بوغاز توريس حتى بور مورسبى ، ووصلا إلى شواطئ جزائر بابوازى بعد رحلة مروعة ، وهنالك انكسر قاربهما مرة أخرى ؛ فعاشا فى تلك الأرض زهاء سبعة أشهر يأكلان قواقع البحر ويشربان ألبان جوز الهند ، ويدرسان أحوال هذه الجزر وأحوال أهلها المتوحشين ، ولما استطاعا أخيراً أن يصلحا قاربهما ، ارتدا إلى البحر كرة أخرى ؛ وجاسا خلال جزائر « أوشنيا » القاصية

التى اكتشفها الكبتن كوك ثم لقى حتفه فيها ، وفى عزمهما بعد طواف المحيط الهادى أن يرتدا إلى الجنوب ، ثم يعبرا المحيط غرباً إلى الاطلانطيق ، حيث يزمعان اختراقه إلى فرنسا . ولكن هل يستطيعان تنفيذ هذا المشروع الجرىء ؟

ذكرى الشاعر تاسونى

احتفل أخيراً فى مودينا بايطاليا بذكرى الشاعر الايطالى الكبير الساندرو تاسونى ، لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته ؛ وكان تاسونى من أكابر شعراء القرن السادس عشر ، ومن ذلك الجيل الذى تأثرت عبقريته بتراث عصر الأحياء ؛ وكان مولده بمدينة مودينا سنة ١٥٦٥ ، يوم ان كانت ماتزال امارة زاهرة ؛ وتلقى تاسونى تربية حسنة ، وظهر فى الشعر والحياة العامة شاباً ؛ واشتغل منذ سنة ١٥٩٩ سكرتيراً للكردينال اسكانيو كولونا من أقطاب الفاتيكان ، وقام وهو فى هذا المنصب ، بعدة مهام سياسية خطيرة ؛ واستمر فى منصبه حتى سنة ١٦٠٨ . ثم غادر رومة والتحق بخدمة دوق سافوا ، واشتغل هنالك أيضاً بالمهام السياسية ؛ ولكنه مع ذلك كان يطلق العنان لميوله الأدبية والشعرية ؛ ولم ينفك أثناء ذلك عن الكتابة والنظم ؛ ومن أشهر آثاره La Secchia Rapito أو « اغتصاب الدلو » وهى قصة شعرية من نوع الخيال المعروف ؛ ومجموعة مختلفة بعنوان Psnsieri Diversi « أفكار منوعة » وكتاب عن بترارك وشعره عنوانه « تأملات عن بترارك » Considerationi sopra it Petrarcha وله قطع ومجموعات أخرى شعرية ونثرية

تكريم مستشرق روسى

احتفل المستشرقون الروسيون فى ١٤ يونيو بتكريم المستشرق الروسى الأستاذ أغناطيوس كرتشكوفسكى لمرور ثلاثين عاماً قضاها فى خدمة اللغة العربية ، ألف فى أثنائها ما ينيف على ثلثمائة رسالة فى تاريخها وآدابها القديمة والحديثة ، وهو يشتغل الآن بنشر كتاب ابن المعتز مع شرحه والتعليق عليه باللغة الانكليزية ، وقد اشترك فى هذا التكريم المجمع العلمى العربى بدمشق بخطاب أرسله رئيسه ليتلى فيه

عيد ألفى لابن سينا

فى بريد سورية أن الجامعة السورية تفكر فى إقامة عيد ألفى لذكرى الطبيب العربى الكبير الرئيس ابن سينا

وقد فوضت إلى لجنة من أساتذة المعهد دراسة هذه الفكرة واعداد الوسائل اللازمة لجعل هذه الذكرى متناسبة مع جلال الخدمة العظيمة التى أداها الرئيس للطب

اللغة العربية فى جامعة لندن

روت جريدة البالستين بوست بالقدس أنه لمناسبة اليوبيل الفضى لجلالة ملك الانكليز فكر السر دنسن روس أن يؤسس لهذه الذكرى مقعداً جديداً مجانياً لتعليم اللغة العربية فى جامعة لندن وقد اختار السر دنسن روس اللغة العربية لهذه الذكرى لأن الامبراطورية البريطانية تضم تحت « جناحيها » أكبر عدد من الشعوب العربية ، والتكلمين باللغة العربية ولا تفوقها فى ذلك دولة أوربية أخرى

الكتب

أنظار فى كتاب «حياة محمد»

بقلم الأستاذ محمد على النجار

قرأت هذا الكتاب الجليل الغنى عن التقريظ ، فعن لى حين قراءته أنظار راجعة إلى ألفاظه وأخرى إلى معانيه ، فأحببت أن أدونها بادئاً بالأولى فى هذه العجالة ، وإنى أعلم أن معظمها آت من القائمين بالطبع ؛ غير أن حرصى على سلامة مافى الكتاب مع ما قدر له من هذه السيرورة والانتشار فى الأقطار بعثنى على ما فعلت ، وسأنبه بالرقم الأول على الصفحة وبالثانى على السطر منها ، والله الموفق للصواب

٣٣ : ٢١ كان الذين يعبرونها . . . قليلون . صوابه : قليلين

٣٥ : ١٣ صمدت لقسوة الزمان . يريد ثبتت ولم تنل منها عوادى الدهر وصروف الحدثان ، وقد تكرر استعمال الصَّمْد فى الكتاب بهذا المعنى وأرى أن هذا لا يكون إلا على ضرب من المجاز ، فان الصمد القصد ، ولم تذكر المعاجم من معانيه ما أراد المؤلف ، والتجوز فيه أن يعتبر الثابت على حوادث الدهر متعرضاً لها ، قاصداً مغالبتها ، استهانة وعدم مبالاة بها ، وأقرب نص لهذا المعنى قول مُعاذ بن عمرو بن الجموح فى قتل أبى جهل : فصمدت له حتى أمكنتنى منه غِرَّة ، فقد قال ابن الأثير فى النهاية : أى ثبت له (وفى التاج واللسان : وثبت له) وقصدته وانتظرت غفلته

٣٥ : ٣ تحوّروا اتجاهها الطبيعى . استعمل التحور فى التغيير ، وهو استعمال شائع ولكن لا يوجد هذا المعنى فيما وقفت عليه من المعاجم ، فالتحوير فيها الترجيع والتبييض وتحوير الخبزة تهيئتها لوضعها فى الجمر وكأن الأصل فى ذلك التبييض ففيه تحويل وتبديل فتوسع فيه وأطلق على مطلق التغيير

٥٦ : ١٧ قصى بن كلاب هو الجد الخامس للنبى (صلى الله عليه وسلم) : معروف أن قصياً هو الجد الرابع

٥٦ : ٢٠ دراجا . صوابه رِزاحا : تراجع سيرة ابن هشام والقاموس — ٧٦ : ١١ بحيرا (الراهب) ضبط بلفظ المصغر ، والصواب : فتح بائه وكسر حائه كما نص عليه فى المواهب

٩٣ : ١٤ فما هذه الكواكب إلا أفلاكا : تكرر مثل هذا وهو إعمال ما مع انتقاض النفى بالا ، والواجب فى هذه الحالة رفع الجزأين — ١٠٣ : ٧ عبيدة بن الجراح . ظاهر أن هذا خطأ مطبعى صوابه : أبو عبيدة ، وقد ورد على الصحة فيما بعد

١٠٤ : ٥ إساف منعه من الصرف ، ولا وجه فيما أعلم لذلك ، فالواجب كتابته إسافاً — ١٠٩ : ٦ فوقف باهتاً . يقول صاحب القاموس : هو مبهوت ، لا باهت ولا بهيت

١٠٩ : ١ ، ٢ لخير له أن يموت مؤمناً . . . على أن يخذله ؛ الصواب : من أن يخذله ، فان خيرا هنا أفعل تفضيل وهو إنما يقرن بمن ، وقد يكون وجه ما هنا أن يضمن خير معنى مفضَّل وهو بعيد — ١١٤ : ١٥ بنو عبدالمطلب . صوابه : بنو المطلب

١١٥ : ١٥ وإن كان هذا الذى يأتيك رأياً تراه . صوابه : رَئِيّاً كما فى السير ، وقد قال السهيلى الرئى فعيل بمعنى مفعول ، ولا يكون إلا من الجن — ١٢١ : ٢٠ نعيم بن عبدالله ؛ ضبط بفتح النون وصوابه ضم النون ، فانه نعيم النحام وقد ضبطه النووى فى التهذيب كما ذكرت — ١٣٦ : ٤ مبيعة . الظاهر ضبطها بفتح الياء على مَفْعَلة وقد ضبطها السهيلى بزنة معيشة

١٤٦ : شعاب الجبل . الذى فى السير أن الاحتماء كان فى شعب بنى هاشم ، والذى يظهر أنه كان محلة فى مكة وفى الزرقانى على المواهب أن الشعب كان لهاشم فقسمه عبد المطلب بين بنيه حين ضعف بصره — ١٤٧ : ١٢ أبى النجترى . صوابه : أبو البخترى ، وفى السطر ١٨ أبى البخترى

١٤٨ : ٣ يتصالح وقريشاً ، نصب قريشاً على أنه مفعول معه ومثل هذا لا يجيزه النحاة ، فالواجب يتصالح هو وقريش

١٥١ : ٢٠ تحديق ابنا ربيعة . صوابه : ابنى ربيعة

١٦٦ : ٨ عبد الله بن محمد . كأن هذا سبق قلم ، والأصل عبدالله بن أبى وهو ابن سلول — ١٦٦ : ١٢ إن نبياً مبموثاً الأظهر

مبعوث بالرفع كما فى السير ، فان الاخبار ببعثته مقصود

١٦٧ : ٣٠ وإن غشى . ضبط بفتح الغين والشين المثقلة ، والصواب كسر الشين ليكون على زنة ترضى

١٦٩ : ٨ مسلموه وخاذلوه . صوابه مسلميه وخاذليه

« : ٢٢ إنا بيننا . صوابه : إن بيننا — ١٧٠ : ٩ نهكة الأموال . ضبط بالتحريك والذى فى القاموس بسكون الهاء وإن كان يجوز فتحها بوجه عام — ١٧٦ : ١ برده . صوابه ببرده

١٧٨ : ٧ فاذا عبد الله بن أبى بكر من عنـدهما إلى مكة . بسقط هنا لفظ والأصل : فاذا عبد الله بن أبى بكر غدا من عندهما كما فى سيرة ابن هشام — ١٧٩ : ١٧ فقـد أقبل على قريش رجل . قضية هذا أن الاخبار كان لقريش وأن سراقة كان حاضراً بينهم والذى فى السير أن ذلك كان فى نادى بنى مدلج قوم سراقة

١٨٠ : ٢٠ فيه أن بريدة جاء يحييهما ، والذى فى الزرقانى نقلا عن البيهق أن بريدة جاء طامعاً فيا طمع فيه سراقة فانتهى الأمر باسلامه — ١٨١ : ٨ فبلغ نبأهما سعد . الصواب : فى الرسم نبؤهما إذ هو فاعل بلغ فهو مرفوع -- ١٩٦ : ١٩ نخياً . الذى فى المعاجم نخا — ١٩٧ : ٢٢ وهذا هو أقوى من هؤلاء . قد يكون الصواب فى هذا الأسلوب : وهاهو ذا أقوى من هؤلاء

٢٠٤ : ٧ مكان حجيجهم . الحجيج جمع الحاج ولا معنى له هنا فالأولى مكان حجهم — ٢١٤ : ٤ عمر بن الحضرمى . صوابه عمرو — ٢١٥ : ٤ الحكم بن كيثان . صوابه كيسان

٢١٨ : ٤ تهرق الدماء . صوابه تهريق الدماء

٢٢١ : ٣ كشد الجهنى : الذى فى الاصابة كسد

٢٢٢ : ١٦ أبا لهب . صوابه أبو لهب — ٢٢٣ : ٥ مرثد ابن مرثد . صوابه مرثد بن أبى مرثد — ٢٢٣ : ١٠ عرق الظبية . ضبط بفتح الظاء وفى القاموس : عرق الظبية بالضم

٢٢٤ : ٢ المقداد بن عمر . صوابه عمرو

٢٢٨ : ١٣ عُمَراه . الصواب عَمْراه

٢٤١ : ٧ العاص . صوابه أبو العاص

٢٥٢ : ١٣ على . صوابه عليًّا — ٢٥٥ : ٩ أبو كعب . صوابه أبى بن كعب وقد كان من كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام

٢٦٠ : ١٩ يخمش الناس . الرواية يحمس أو يحمش بالحاء المهملة فيهما وإن تبع المؤلف فى ذلك طبعة وستنفلد

٢٧٨ : ٨ أبا دجانة . صوابه أبو دجانة — ٢٨٣ : ٩ يسار قد يكون صوابه ميسرة وهو غلام خديجة عليها الرضوان

٢٨٨ : ١ ابنتا وزيريه . صوابه ابنتى وزيريه

٣٠٦ : ١٢ النضرى . ضبط بسكون الضاد والصواب فتحها إذ هو نسبة إلى النضير — ٣٣٥ : ١ أذن محمد فى الناس بالحج . الأولى التعبير فى هذا المقام بالعمرة فان الذى وقع الأحرام بالعمرة والعمرة قد تسمى الحج الأصغر ولـكن الحج إذا أطلق انصرف إلى مايقابلها — ٣٧٥ : ٢ هرقلا . صوابه هرقل لمنعه من الصرف

٣٧٧ : ٩ ثابت بن أرقم . صوابه أقرم وقد تبع المؤلف نسخة وستنفلد — ٣٨٦ : ١٢ إذْ . صوابه إذا

٣٨٦ : ٢٢ حكيم بن حكيم . صوابه حكيم بن حزام

٣٦٠ : ٢٠ سلام بنى مشكم . صوابه سلام بن مشكم

٣٦٣ : ١١ بازان . يكتب فى الـكتب العربية باذام

٣٨٧ : ١ عسكر . صوابه عسكرا — ٣٩٥ : ١٣ قبيساً . صوابه أبا قبيس — ٣٩٥ : ٢٢ جذيمة . ضبط بصيغة المصغر والصواب فتح الجيم وكسر الذال كما فى الزرقانى على المواهب

٤٠١ : ٣ بدأت محمد . صوابه بدأ محمد

٤٠٨ : ٢٢ فى العلالة . الرواية اللماعة . وهى فى الأصل نبات ناعم فى أول ما ينبت — ٤١٠ : أسيد والد عتاب ضبط مصغراً والصواب ضبطه كأمير — ٤١٤ : ١٥ أأتمره . كذا رسم وقد يكون الصواب آتمره على قاعدة الابدال

٤٢٤ . ٥ فيه أن زكاة العشر تدفع من الابل والأموال وإنما يدفع العشر عن بعض الزروع فأما الابل فلها مقادير محدودة فى الفقـه غير العشر — ٤٢٦ : ٢٣ ضبط فيها سلمة بفتح اللام والصواب كسرها وهم بطن من الأنصار

٤٣٦ : ٢٠ عمان . ضبط بتشديد الميم والذى فى الجنوب عمان على زنة غراب ، فأما عمّان بتشديد الميم فهى بالبلقاء بأطراف الشام — ٤٦٧ : ٢١ زيد . صوابه أسامة بن زيد كما فى السطر قبله

وإنى أختم كتابتى باعجابى بالـكتاب وتحيتى لمؤلفه العظيم ؟

محمد على النجار

---

3 me Année, No. 103.

Lundi-24-6-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — ٢٤ يونيو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

بين والد وولده

مثل من الشباب الصالح

عرفت منذ أيام فتى غَريض الشباب رقيق الإهاب وضىء الطلعة ؛ يتكلم فيشع عقله فى معانيه ، ويشيع ذكاؤه فى مراميه ، ويسيل شعوره على ألفاظه ؛ وهو لا يتكلم إلا عن العمل ، ولا يناقش إلا فى الواقع ، ولا يرمى إلا إلى غرض ؛ طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس ، ولا يحد غايته مطلب ؛ بعيد الهمة فلا يُضله شارد الخيال ، ولا يغره خادع الأمل ؛ رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ، ولا يفسد طموحه أثرة . نبت فى أكرم المنابت من إقليم الغربية ، فأبوه عميد أسرته ، وزعيم بلدته ، وسَرِىّ نابهٌ من سَراة إقليمه ؛ رباه فى مهد النعيم ، ونشَّأه فى ظلال الغنى ، وقلَّبه فى أحضان الترف ، فكان خليقاً أن يمسه الغباء وهو داء الغنى ، وأن يصيبه الخمول وهو بلية الترف ، ولكنه لقوة الطبع واستعداد الفطرة شب ذكى الفؤاد إلى درجة الحكمة ، مشبوب العزم إلى حد المغامرة ؛ يذهب بنفسه غالباً إلى الاعتداد الواثق ، ويميل بحيائه أحياناً إلى الجرأة المؤدبة ، وينظر إلى غاية الحياة

— وهو لا يزال فى بدايتها — نظر الكيّس اللبيب المجرب ، فيهاجم السياسيين من ناحية استخفافهم بالخلق ، والموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم فى الإنتاج على القديم الرث ، وفى العلاج على القدَر والمصادفة . على أنه أمام أبيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة ، فلا يفند له رأياً ، ولا يعصى له أمراً ، ولا يخالف له نصيحة

تخرج منذ أسبوع فى إحدى المدارس العالية ، وكان الثانى فى ترتيب الناجحين ، و إن شئت فقل الأول ، لأن الفرق بينه و بين سابقه لا يقدم لضآلته ولا يؤخر . فالوظيفة بحكم أوليته فى النجاح ومعونة أسرته بالنفوذ ، تنتظره فى كل مكان وتطلبه فى كل وزارة ، ولكنه زارنى منذ يومين فوجدته على غير عادته مشغول القلب منقبض الصدر مشترك الخاطر ، لا أثر عليه لنشوة الفوز ، ولا للذة الراحة ، ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخر الدبلوم أو فقير متقدم من غير وسيلة ! !

— مالك ساهمَ الوجه ، مكروب النفس يا فهمى ؟ هنيئاً لك الدبلوم والأولية ! فقال والأسى يبين فى صوته ولهجته : ليتنى لم أنل هذه الدبلوم ، ولم أحز خطر هذا السبق ؛ فلقد كان فى لذة المدارسة ، وشهوة المنافسة ، وترقب النجاح ، وانتظار الحرية ، رضًى لنفسى الطامحة ، وكفاية لقلبى الرغيب . أما الآن فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسى ، والوقت يطول حتى يمل روحى ، والأمل يضيق حتى يُظلم حياتى ! أريد أن أعمل فيمنعنى أبى ، لأنه يضن بصحتى على مخاطر الفلاحة ، و براحتى على متاعب الفلاحين ، و بسعادتى على هموم المسئولية

— إذن ماذا يريد لك أبوك ؟

— يريد لى الوظيفة ! والوظيفة سجن لنفسى الطليقة ، وتعطيل لملكاتى الموهوبة ، ومحو لمعارفى المكسوبة ، وقتل لآمالى الناشئة ، وتوجيه لميولى الطبيعية إلى الغرض الذى لا أحب والقصد الذى لا أريد

إن فى مزارعنا الواسعة مجالاً فسيحاً لنشاطى ، ومَراداً بعيداً لعلمى ، ومختبراً صالحاً لتجاربى ، ومغرساً كريماً لآمالى ، فأنا أوثر أن أحمل عبء العمل عن والدى ، وأستغل علمى وعملى فى تحقيق مقاصدى ، فأحافظ بالاستقلال الذاتى على خلقى وحريتى ، وأساهم بالعمل المنتج فى نفع أمتى و إسعاد أسرتى

ماذا تجدى علىّ الوظيفة ؟ عشرة جنيهات فى الشهر ؟ لقد كان أبى ينفق علىّ خمسة وعشرين وأنا طالب ، فكم جنيهاً ينفقها علىّ وأنا موظف ؟ إذن سينفق علىّ أضعاف مرتبى لأخدم غيره ، وأفارق بيته ، وأظل السنين الطوال موظفاً وضيع المكانة ، مسلوب الإرادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

إن شهادتى فى فن الزراعة ؛ والوظيفة الفنية كالوظيفة العلمية لا تصلح طريقاً إلى السلطان ، ولا وسيلة للجاه ، ولا أداة للثروة ؛ إنما الفن مجده فى استقلاله ، وخيره فى حريته . على أن وظائف الحكومة — بعد أن خفضوا أجرها ، وأخَسُّوا قدرها ، وحفوا طريقها بالمكاره ، وهددوا معاشها بالنقص ، وزعزعوا ضمانها بالكيد ، وروعوا أمنها بالسياسة — أصبحت مطلباً لقصار الآمال ، ومذهباً لصغار النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة . فأما الذى يجد فى نفسه شعور القدرة ، وفى بيته رأس المال ، وفى أرضه مكان العمل ، ثم يتشوف إلى قيد الوظيفة وذل التبعية ، فلا أدرى بم أعتذر له أمام النُّبل والرجولة ؟

فقلت له وأنا موزع النفس بين الاعجاب به والرثاء له والحدَبِ عليه : كلامك هذا يا بنى عنوان عقلك و برهان فضلك ودليل دعواك . وليت شعرى ما حجة أبيك الكريم أمام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح ! لعله من أولئك الذين يعتقدون أن الولد إذا دخل المدرسة ، ثم خرج بالشهادة ، ثم لم يوظف ، كان ما أنفقه خسارة لا تعوض ، وما تعلَّمه عبثاً لا يفيد !

فقال : كلا ! إن أبى من أرجح الناس عقلاً ، وأسدهم رأياً ، وأعلمهم بمزايا العمل الحر ، ولكنها التقاليد الموروثة ، والعواطف الغالبة ، وسأنتهى آخر الأمر على رغم هوایَ ومنایَ إلى رأيه . فقلت له إذن دعنى على الأقل أنقل عنك هذا الحديث ليكون خطاباً إلى أبيك ، ودرساً لإخوانك ، وموضوعاً للرسالة !

احمد حسن الزيات

الطائشـــة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

تتمـــة

وهذا محصّلُ رواية « الطائشة » نقلناه من خط الكاتب على مساقِ مادوّنه فى أوراقه ، وعلى سَرْدِهِ الذى قصّ به الخبر . وقد أعطانا من البرهان ما نطمئنُّ اليه أن هذه « الطائشةَ » هى من تأليف الحياة لا من تأليفه ، وأنه لم يخترع منها حادثةً ، ولم يأتفكْ حديثاً ، ولم يَزِدْها بفضيلة ، ولم ينقُصْها بمَعَرَّة ؛ وأشهدَ على قوله كُتُبَ صاحبته الأديبة المُستهترة التى لا تبالى ماقالت ولا ماقيل فيها . وهذه الكتبُ رسائلُ منها المُوجَزُ ومنها المستفيضُ ، وهى بجملتها تنزلُ من الرواية منزلةَ الشروح المُفَنَّنة ، وتنزلُ الروايةُ منها منزلةَ اللُّمع المقتضبة ؛ وكل ذلك يُشبه بعضُه بعضاً ، فكلٌّ ذلك بعضُه شاهدٌ على بعض

قال كاتب (الطائشة) :

كنتُ رجلاً غَزِلاً ولم أكن فاسقاً ، ولستُ كهؤلاء الشبّان الذين أُصيبوا فى إيمانهم بالله فأصيبوا فى إيمانهم بكل فضيلة ، وذهبوا يُحقّقون الدنيّةَ فحقّقوا كلَّ شىء إلا الدنية

ترى أحدَهم شريفاً يأنفُ أن يكون لصًّا وأن يسمى لصًّا ، ثم لا يعملُ إلا عملَ اللص فى استلاب العفاف وسرقةِ الفتيات من تاريخهن . وتراه نجْداً يستنكِفُ أن يكون فى أوصاف قاطع الطريق ، ثم لا يأبى إلا أن يقطعَ الطريق فى حياة العَذارى وشرفِ النساء

أكثرُ أولئك الشبان المتعلمين يَعرضون للفتَيات المتعلماتِ بوجوه مصقولة ، تحتملُ شيئين : الحب والصَّفع . . . ولكن أكثر هؤلاء المتعلمات يضعْنَ القُبلة فى مكان الصفعة ، إذ كان العلمُ قد حلَّلَ الغريزةَ التى فيهن فعادت بقايا لا تستَمسِك ، وبصَّرهنَّ بأشياءَ تزيد قوةَ الحياة فيهن خطَرا وتُوحي اليهنّ وحيها من حيث يشعُرْنَ ولا يشعرن ، وصوّر فى أوهامهنّ صُوَراً محتْ الصُّوَرَ التى كانت فى عقائدهن ، وأخرجهنّ من السّلْب الطبيعى الذى حماهنّ الله به ؛ فلهنّ العفةُ والحياءُ ولكن ليس لهن ذلك العقلُ الغَريزيُّ الذى يجىء من الحياء والعفة ؛ وكثيراتٌ منهن يخشَيْنَ العارَ ومَمَتَهُ الاجتماعيّة ولكن خَشيةَ فُقهاءِ الحِيَل الشرعية قد أرصَدوا لكل وجهٍ من التحريم وجهاً من التحليل ، فأصبح امتناعُ الإثم هو ألا تكونَ اليه حاجة . . . .

والعقلُ الذى به التفكيرُ يكون أحياناً غيرَ العقل الذى به العمل ؛ ففى بعض الجاهلات يكونُ عقلُ الحياء والعفة والشرف والدين – غريزةً كغرائز الوحْش ، هى الفكرة وهى العملُ جميعاً ، وهى أبداً الفكرةُ والعملُ جميعاً لا تتغير ولا تتبدّل ولا يقع فيها التنقيحُ الشعريُّ ولا الفلسفى . . . . وماغريزةُ الوحش إلا إيمانُه بمن خلقه وحْشاً ؛ وكذلك غريزة الشرف فى الأنثى هى عندى حقيقةُ إيمانها بمن خلقها أُنثى

وشرفُ المرأة رأسُ مالٍ للمرأة ، ومن ذلك كان له فى أوهام العلم اشتراكيةٌ بحَسَبِه تنظر فيه نظرَها وتَزيغُ زَيغَها وتقضى حكمها ، وأكثر من عرفتُ من المتعلمين والمتعلمات قد انتهوْا بطبيعتهم العلميةِ الى الرضى بهذه الاشتراكية ، والى التسامح فى كثير ، والى وضع الاعتذار فيما لا يقبلُ عُذراً ، ومن ها هنا كان بعضُ الجاهلات كالحِصْن المُغلَق فى قمّة الجبل الوَعْر ، وكان بعض المتعلمات دون الحِصن ، ودون القمّة ، ودون الجبل ، ؛ حتى تنزلَ الى السهْل فتراهنّ ثَمّه

لقد غفلَت الحكوماتُ عن معنى الدين وحقيقته ، فلو عرفت لعرفتْ أن الانسانيةَ لا تقوم إلا بالدين والعلم كليهما ؛ فان فى الرجل إنساناً عاماً ونوعاً خاصًّا مذكراً ، وفى المرأة إنسانٌ عامّ كذلك ونوع خاصّ مؤنث . والدين وحده هو الذى يُصلح النوع بتحقيق الفضيلة وتقرير الغاية الأخلاقية ، وهو الذى يُحاجزُ بين الغريزتين ، وهو الذى يضع القوة الروحية فى طبيعة المتعلم ؛ فان كانت طبيعةُ التعليم قويةً كانت الروحية زيادة فى القوة ، وإن كانت ضعيفةً كما هى الحالُ فى هذه المدنيّة لم تجمع على التعلم ضعفين يَبتَلى كلاهما الآخر ويزيده

* * *

فلانٌ وفلانٌ تعلّقا فتاتين جاهلةً ومتعلمة ؛ وكلتاهما قد صدّت صاحبَها وامتنعت منه ؛ فأما الجاهلةُ فيقول (فلانُها) إنها كالوحْش وإن صُدودَها ليس صدوداً حَسْبُ ، بل هو

نورةٌ من فضيلتها وإيمانها ، فيها المعنى الحربيُّ مجاهداً مُتحفِّزاً للقتل . . . .

وأما المتعلمةُ فيقول (فلانُها) إنها كـكل امرأة وإن صدودها نورةٌ ولكن من دلالها تُرضى بها أولَ ما تُرضى وآخرَ ما تُرضى كبرياءَ الجمال فيها لا الايمانَ ولا الفضيلة . فكأنها إيحاءٌ للطامع أن يزيدَ طمعاً أو يزيد احتيالاً

وفلانٌ هـذا يقول لى : إن ضُعَفاءَ الايمان من الشبان المتعلمين — وأكثرهم ضعفاءُ الايمان — لو حقَّقتَ أمرهم وَبَلَوْتَ سرائرَهم ، لتبيَّنتَ أنهم جميعاً لا يرون قلبَ الفتاة المتعلمة إلا كالدار الخالية كُتب عليها : (للايجار) . .

***

يقول كاتب « الطائشة » :

أما أنا فقد صحّ عندى أن سياسة أكثر المتعلمات هى سياسةُ فتح العين حَذَراً من الشبان جميعاً ؛ وإغماضِ العين لواحد فقط . . . .

وهذا الواحدُ هو البلاءُ كلُّه على الفتاة فانها بطبيعتها تتقيَّد ولا تنفصل إلا مُكْرَهَة ، وهو بطبيعته قيدُه لذته فيتصل وينفصل . غير أنها لابد لها من هذا الواحد ، ففكرها المتعلم يُوحى إليها بالحياة لا يجعلُ فى ذلك موضعاً للتنكير عندها ، والحياةُ نصفُ معانيها النفسية فى الصديق ؛ فالأنوثةُ بغيره مظلمةٌ فى حياتها راكدةٌ فى طباعها ثقيلةٌ على نفسها ما دام « الشماعُ » لا يلمسها . .

والدينُ يأبى أن يكون ذلك الصديقُ إلا الزوجَ فى شروطه وعهوده كيلا تتقيدَ المرأةُ إلا عن يتقيدُ بها ، والعلم لا يأبى أن يكون الصديقُ هو الحب ؛ والفنُّ يوجب أن يكون هو الحب ، وليس فى الحب شروطٌ ولا عهود إلا وسائلَ تُختَلَقُ لوقتها وأكثرها من الكذبِ والنفاقِ والخديعة . ولفظُ الحب نفسُه لصٌ لُغَوىٌّ خبيثٌ يَسرقُ المعانى التى ليست له ويُنفِقُ مما يسرق . وليس من امرأةٍ يختدعُها عاشقٌ إلا انكشف لها حبه كما ينكشف اللص

***

يقول كاتب « الطائشة » :

تلك فلسفةٌ لا بد منها فى التوطئةِ للكتابة عن (عزيزتى رغم أنفى) . ومَن كانت مثلها فى أفكارها واستدلالها وحُججها وطريقتها — كان خليقاً عن يكتب قصتها أن يجعل القصة من أولها مُسلَّحة . .

لقد تكارَهْتُ على بعض ما أرادت منى ما دام الحبُّ (رغم أنفى) ، وما دامت السياسةُ أن أُداريها وأتَّبعَ محبتها ؛ غير أنى صارحتُها بكلمةٍ شمسيةٍ تلمع تحت الشمس ؛ أنها الصداقةُ لا الحبُّ ، وأنما هو اللهوُ البرىء لا غيرُه ، وأن ذلك جُهدُ ما أنا قوىٌّ عليه وَفىٌّ به . قالت : فليكن ، ولكن صداقةٌ أعلى قليلاً من الصداقة . . . ولو من هـذا الحب المتكبر الذى لا يَصدُق كيلا يكذب . . . إن هـذا النوعَ من الحب يطيش بعقل المرأة ولكنه هو أول ما يَستهيمُها ويُعجبُها ويورثها التياعَ الحنين

***

كتبت لى : أنا لا أتألم فى هواك بالألم ، ولكن بأشياءَ منك أقلها الألم ، ولا أحزنُ بالحزن ، ولكن بهموم بعضها الحزن

إنك صنعتَ لى بكاءً ودموعاً وتنهدات ، وجعلت لى ظلاماً منك ونوراً منك ، يا نهارى وليلى . تُرى ما اسمُ هذا النوع من الصداقة ؟

اسمه الحب ؟ لا

اسمه الكبرياء ؟ لا

اسمه الحنان ؟ لا

اسمه حُبك أنت ، أنت أيها الغامضُ المتقلب . ألا ترى ألفاظى تبكى ، ألا تسمعُ قلبى يصرخ ، بأىِّ عدْلِك أو بأىِّ عدلِ الناسُ تريد أن أحيا فى عالم شمسُه باردة . . . . هذا قتل ، هذا قتل

فكتبتُ اليها : إن لم يكن هذا جنوناً إنه لقريبٌ منه

فردتْ على هذه الرسالة :

أتكاتبنى بأسلوب التلغراف . . . . لو أهديتَ الى عِقْداً من الزمرد حبَّاته بعدد هذه الكلمات لكنت بخيلاً ، فكيف وهى ألفاظ ؟ إنى لأبكى فى غَمْضَةٍ واحدة بدموعٍ أكثر عددا من كلماتك ، وهى دموعٌ من آلامى وأحزانى ؛ وتلك ألفاظٌ من لهوك وعَبَثك

ماكان ضرَّك لو كتبتَ لى ببضعة أسطر من تلغرافات

روتر ... مادمت تسخر مني ؟ أأنت الشباب وأنا الكهولة ، فليس لك بالطبيعة إلا الانصراف عني ، وليس لي بالطبيعة إلا الحنين إليك ؟

***

لا أدرى كيف أحببتها ولا كيف دعتني إليها نفسى ، ولكن الذى أعلمه أنى تخادعت لها وقلت إن المستحيل هو منع هذا الشر ، والممكن هو تخفيفه ؛ ثم أقبلت أرنى لها ، وأخفف عنها ، وأقبلت هى تضاعف لى مكرها وخديعتها ، وكان الأمر بيننا كما قالت : فى الحب والحرب لا يكون الهجوم هجوماً وفيه رفق أو تراجع

إن المرأة وحدها هى التى تعرف كيف تقاتل بالصبر والأناة ؛ ولا يشبهها فى ذلك إلا دهاة المستبدين

***

سألتنى أن أهدى إليها رسمى ؛ فاعتللت عليها بأن قلت لها : إن هذا الرسم سيكون تحت عينيك أنت رسم حبيب ، ولكنه تحت الأعين الأخرى سيكون رسم متهم

وظننتنى أبلغت فى الحجة وقطعتها عنى ؛ فجاءتنى من الغد بالرد المفحم ، جاءتنى باحدى صديقاتها لتظهر فى الرسم الى جانبى كأننى من ذوى قرابتها . . . . فيكون الرسم رسم صديقتها ، ويكون مهدًى منها لامنى ، وكأننى فيه حاشية جاءت من عمة أو خالة . . . .

وأصررت على الاباء ، ونافرتنى القول فى ذلك ، ترد على وأرد عليها ، وتغاضبنا وانكسرت حزناً وذهبت باكية ؛ ثم تسببت الى رضاى فرضيت

***

حدثتنى أن صديقتها فلانة استطاعت أن تستزير صاحبها فلاناً فى مخدعها فى دارها بين أهلها منتصف الليل . قلت وكيف كان ذلك ؟

قالت إنها تحمل شهادة . . . . وهى تلتمس عملاً وقد طال عليها ؛ فزعمت لذويها أنها عثرت فى كتاب كذا على رقية من رقى السحر ، فتريد أن تتعاطى تجربتها بعد نصف الليل إذا محق القمر ؛ وأنها ستطلق البخور وتبقى تحت ضبابته إلى الفجر تهمهم بالأسماء والكلمات

ثم إنها اتعدت وصاحبها ليوم وأجافت باب دارها ولم تغلقه ، وأطلقت البخور فى مجمر كبير أثار عاصفة من الدخان المعطر وجعل مخدعها كمخدع عروس من ملكات التاريخ القديم . وبقى صاحبها تحت الضبابة يهمهم وتهمهم . . ثم خرج فى أغباش السحر

هكذا قالت ؛ وما أدرى أهو خبر عن تلك الصديقة وفلانها أم هو اقتراح على أنا من « فلانة » لأكون لها عفريت الضبابة . . . ؟

***

لم يخف عليها أن لذعة حبها وقعت فى قلبى ، وأن صبرها قد غلب كبريائى ، وأن كثرة التلاقى بين رجل وامرأة يطمع أحدهما فى الآخر ـ لابد أن ينقل روايتهما إلى فصلها الثانى ، ويجعل فى التأليف شيئاً منتظراً بطبيعة السياق . . . . وإلحاح امرأة على رجل قد خلبها وجفا عن صلتها ، إنما هو تعرضها للتعقيد الذى فى طبيعته الانسانية . فان هى صابرته وأمعنت فقلما يدعها هذا التعقيد من حل لمعضلتها . وبمثل هذه العجيبة كان تعقيداً وكان غيرمفهوم ولا واضح ؛ وقد ينقلب فيه أشد البغض إلى أشد الحب وقد تعمل فيه حالة من حالات النفس مالا يعمل السحر . وكذلك يقع للرجل إذا أحب المرأة فنبت عن مودته فعرض للتعقيد الذى فى طبيعتها وأمعن وثبت

رأت الجمرة الأولى فى قلبى فاضرمت فيه الثانية حين جاءتنى اليوم بكتاب زعمت أن فلاناً أرسله إليها يطارحها الهوى ويبثها وله الحنين والتياع الحب

ويقول لها فى هذا الكتاب : أنا لم أشرب خمراً قط ولكنى لا أرانى أنظر إلى مفاتنك ومحاسنك إلا وفى عينى الخمر ، وفى عقلى السكر ، وفى قلبى العربدة . جملت لى نظرة سكير فيها نسيان الدنيا وما فى الدنيا ما عدا الزجاجة . . .

ويختمه بهذه العبارة :

آه لو استطعت أن أجعل كلامى فى نفسك ناعماً ، ساحراً ، مسكراً ، مثل كلام الشفة للشفة حين تقبلها . . .

عند هذا وقع الشىء المنتظَر فى الفصل الثانى من الرواية ، وختم هذا الفصلُ بأول قُبلة على شفتى (الممثلة)

* * *

قالت : هذه القبلة كانت (غَلطة مطبعية) ومضت تسميها كذلك واستمرت الطبعة تغلط . . . . وما علمتُ إلا من بَعْدُ أن ذلك الكتابَ الذى اسْتَوقدَتْ به غيرتى ، إنما كان من عملها ومكرها

* * *

وجاءتنى اليوم بآبدةٍ من أوابدها ، قالت :

أنت رَجعىٌّ محافظ على التقاليد . قلتُ لأنى أرى هــذه التقاليد كالصباح الذى يتكرر فى كل يوم وهو فى كل يوم ضياء ونور

قالت : أو كالمساء الذى يتكرر وهو فى كل يوم ظلامٌ وسواد

قلت : ليس هــذا إلىَّ ولا إليك ، بل الحكم فيه للنفع أو الضرر

قالت : بل هو إلى الحياة ، والحياة اليوم علمية أوربيــة ، والزمنُ حثيثٌ فى تقدمه ، وأصحابُ « التقاليد » جامدون فى موضعهم قد فاتهم الزمن ، ولذلك يسمونهم (متأخرين) . أما علمت أن الفضيلة قد أصبحت فى أوربا زيّاً قديماً فأخذ المِقَصُّ يعملُ فى تهذيبها ، يقطعُ من هنا ويَشُقُّ من هنا . . .

اسمع أيها « المتأخر » وتأمل هذا الرهان الأوربى العصرى

أخبرتنى صديقتى فلانة حاملة شهادة . . . . أنها كانت فى القطار بين الاسكندرية والقاهرة وكانت معها فتاة من جيرتها تحملُ الشهادة الابتدائية ؛ فجمعهما السفَر بشاب وَسيم ظريف يُشاركُ فى الأدب ، غير أنه رَجْعىٌّ (متأخر) . وصديقتى تعرفُ من كل شىء شيئاً ، وتأخذُ من كل فن بطَرَف ؛ فجرى الحديثُ بينهما مجراه ، وتركت الصديقةُ نفسها لدواعيها وانطلقت على سَجيَّتها الظريفة ، ووضعتْ فنَّ لسانها فى الكلام فجاءت فيه روحَ التقبيل

ولم تبلغ إلى القاهرة حتى كانت قد سحرت ذلك (المتأخر) ووقعت من نفسه ودفعته إلى الزمن الذى هو فيه . فلما همَّت بوداعه سألها : أين تذهبان ؟

فأغضت صاحبة الشهادة الابتدائية ، وأطرقت حياء ورأت فى السؤال تهمة وريبة ، فأنبتها الصديقةُ وأيقظتها من حيائها ، وقالت لها : ألا تزالين شرقية متأخرة . إن لم يسعدنا الحظ أن نكون لنا حريةُ المرأة الأوربية فى المجتمع وفى أنفسنا ؛ أفلا يسعنا أن تكون لنا هذه الحرية ولو فى أنفسنا ؟

ثم ردَّت على الشاب فأنبأته بمكانها وعنوانها ، فأطمعه ردُّها فسألها أن تتنزه معه فى بعض الحدائق ، فأبت صاحبته الابتدائية ولجت عمايتها الشرقيةُ المتأخرة ، ورأت فى ذلك مَسقطةً لها ، فلوَتْ إلى دارها وتركتهما إنساناً وإنساناً لا فتىً وفتاة ، وتنزَّها معاً ، وعرف الشابُّ الرجعىُّ الحبَّ والخمرَ التى هى تحيةُ الحب

ولم تستطع الفتاةُ الماكرة أن ترجعَ الى دارها وهى سكرى فأوتْ الى فندق ، وختمت روايتهما باعراضٍ من الشاب أجابت هى عليه بقولها : ألا زلت (متأخراً) . . . . . . ؟

قالت « الطائشة » :

نعم ياعزيزى (المتأخر) إن مذهب المرأة الحرة . . . . فى الفرق بين الزوج وغير الزوج ، أن الأولَ رجلٌ ثابتٌ ، والآخر رجل طارىءٌ . والثابتُ ثابتٌ معها بحقه هو ؛ والطارىءُ طارىءٌ عليها بحقها هى . . . . فان كانت حرة فلها حقها . . .

قال كاتب الطائشة : وهنا كاد الشيطان يرفع الستار عن فصل ثالث فى هذه الرواية ، رواية (الطائشة) . . .

* * *

نقول نحن : وإلى هنا ينتهى نصف الرواية ؛ أما النصف الآخر فيكاد يكون قصة أخرى اسمها : (الطائش والطائشة) ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

كيمياء الأفكار والعواطف

للأستاذ أحمد أمين

كان القدماء يفهمون من « الكيمياء » الأكسير المنشود ، الذى إذا عُثر عليه وأضيف الى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة ، تحت حرارة معينة ، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً

وليس يعنينا هنا أن نبين ما أنفق الناس من جهد فى الوصول إليه ، ولا ما أنفقوا من مال وزمان فى سبيل العثور عليه ، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الاسلامية من جدل فى امكان ذلك أو استحالته

إنما يعنينا هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعانى بعد أن كانت قاصرة على المادة ، فسمى « الغزالى » كتاباً من كتبه « كيمياء السعادة » يعنى بذلك الأكسير الروحى الذى إذا عثر عليه الانسان حظى بالسعادة

وقد استعملها ابن الرومى استعمالاً ظريفاً فى معنى قريب من هذا ، فقال يهجو أبا الصَّقْر

عَجِبَ الناسُ من أبى الصَّقْــــر إذولىَ ـ بعد الاجارة ـ الديوانا
إنَّ للجَدِّ كيمياءَ إذا مَا مَسَّ كلباً أحاله انســـانا
يفعل الله ما يشاءُ كما شـــاء متى شـــاء كائنا ما كانا

***

ثم سار الزمن الذى يغير كل شىء ، فغير ـ فيما غيره ـ مدلول كلمة « الكيمياء » وجعله قسيما للطبيعة ، فكما أن الطبيعة اختصت بدراسة الظواهر التى تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها ، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التى تغير جوهر الأشياء ، فاتسع مدلولها ، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه

والذى أريد أن ألفت اليه النظر فى مقالى أن هناك كيمياء فى الأفكار والعواطف تشبه تلك التى فى المادة ، إلا أنهـا أعقد منها ، وأصعب حلاً ، وأغمض اكتشافاً ـ وإلى الآن لم توضع كتب ـ على ما أعلم ـ فى كيمياء المعانى على كثرة ما وضع فى كيمياء المادة ـ وإن كانت كتب علم النفس أحياناً تمس هذا الموضوع مساً رفيقاً

***

فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لا عداد لها ، قد ينطبق عليها فى كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها ، ففى كيمياء المعانى ترشيح وتبخير وذوبان كالتى فى كيمياء المادة ، وفيها تبلور وتقطير ، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط ، وفيها أحماض وأملاح وقواعد ، وفيها جزيئات وذرات لها أوزان وكثافات ـ ولها رموز وقوانين أدق من رموز الكيمياء المادية وقوانينها ، ولها معادلات أصعب حلاً وأبعد منالاً

هل علمت ـ مثلا ـ أن الماء يتكون من غازى الأوكسيجين والأيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثانى باعتبار الحجم ـ فكذلك الشأن فى الأفكار والعواطف ، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما ، أو عاطفة من نوع ما ، ثم تسمع فكرة من محدث ، أو تقرأ فكرة فى كتاب ، وتكون فكرتك من وزن خاص ، والفكرة التى سمعتها أو قرأتها من وزن آخر ، فتتحد هاتان الفكرتان ، وتتولد منهما فكرة جديدة لاهى من النوع الأول وحده ، ولا من النوع الثانى وحده ، بل هى نوع خاص ، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسيجين والأيدروجين

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسيجين وثلثيها بالايدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دوياً هائلا ؟ كذلك الشأن فى العواطف ، فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص ، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجاراً هائلا ، وتحس ناراً تملأ نفسك . وتذكى حسك ؛ ـ أوليس الغضب يحمر وجه صاحبه وتنقدح عيناه ، ويحمله يقذف بالكلمات الحادة العنيفة ، ولا تهدأ ثائرته حتى ينتقم ـ ضرباً من ضروب هذا التفاعل الذى يشبه تفاعل الغازين ؟ أو ليست الحماسة تدفع الجندى ليرمى بنفسه فى خط النار ، ولا يقيم للحياة وزناً ، أثراً من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة ؟ أوليس الحب يذيب النفس ، ويرهف الحس ، ويملأ القلب أسى حيناً ، وفرحاً وغبطة حيناً إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادى ، والاتحاد الكيمياوى ؟

وكل ما ندرك من فرق بين التفاعل المادى والتفاعل الروحى أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها فنحلل أجزاءها بالكهرباء أو ما أشبهها ونقيس مقـدار العنصرين أو العناصر المتحدة، ونعرف مقدار كل منها، ونرصـد أثر التفاعل. أما فى الأفكار والعواطف فليس الأمر بهـذه السهولة، فلكل انسان آراؤه وعواطفه وهى تختلف فيما بينها كل الاختلاف، فى جوهرها، وفى قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم، فقد تلقى الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل انسان يخالف أثرها عنـد الباقين، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش، وقد يقرأ أحد كتاباً فيزعم أنه غيّر مجرى حياته، وقلب تفكيره رأساً على عقب، وألهمه من المعانى ما استحال بها انساناً آخر، وأحدث فى نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أى كتاب غيره، ويقرؤه انسان آخر فلا يشعر هـذا الشعور ولا قريباً منه ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعماً. وهـذا بعينه ما يحدث فى الأجسام، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل، وتقربه من ثلج فيذوب، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب. وأؤكد لك أن الرواية تعرض فى السينما أو تمثل فى المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر فى كل راء بمقدار لا يتفق تماماً وأثر الباقين، وأن تأثر الشاهدين متعدد بتعـدد رؤوسهم. ذلك بأن الرواية وإن كانت واحدة وممثلوها متحدين فان هناك عاملا آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف، وهو عواطف الرائى وآراؤه، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائماً باختلاف أحد الممزوجين المتفاعلين

إن أردت التوسع فى تطبيق هـذه النظرية وجدت القول ذا سعة، فالبائع الناجح فى المتجر ليس هو الذى يكثر الكلام أو يقل الكلام، وليس هو الخفيف الحركة، ولا هو المهندم الثياب، وإنما هو الذى يعرف شيئاً واحداً ويتقنه وهو «قانون التفاعل» ينظر إلى المشترى نظرة نافذة فيعلم نفسه، ويلم نواحيها، ويعرف المواضع الحساسة منه، ويعرف فى مهارة نقط التأثر عنده، ومقدار الأثر، ثم يستعمل فى العرض وفى الكلام ما يتفق وما درسه من نفس المشترى، وإذا بما يصدر من البائع مناسب لنفس المشترى ومنفعل معها على نحو خاص، وإذا الصفقة قد تمت فى سهولة ويسر، على حين أن زميله ومن بجواره لا يبيع مثل بيعه لأنه يخطىء فى فهم نفسية المشترى فيتفاعل تصرفه تفاعلا عكسياً مع نفسية المشترى، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الكراهية أو نوع من الغضاضـة ينتهى عادة بالاعراض عن الشراء، فان سألت كيف جهل هـذا وعلم ذاك، وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الدارس وفشل الجاهل؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم فى المدرسة وإنما يتعلم فى السوق، ويتعلمه من حسن استعداده الفطرى وغريزته الطبيعية، بل إن شئت طبقت هذه النظرية على كل ناجح وفاشل فى الحياة، فالمدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحى تلاميذه ويعرف ما يُلقى وما لا يلقى، وما يقال وما لا يقال، ويصدر منه ما يتفاعل وهـذه النفوس، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب، ورغبة فى المعلم، ورغبة فى علمه، ورغبة فيما يقول، وتأثر بما يشير اليه

وما الأسرة السعيدة؟ وما الأسرة الشقية؟ أليست السعيدة من عرفت فيها الزوجة نفسية زوجها والزوج نفسية زوجتـه وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر حتى ينتج هذا التفاعل تآلفاً، فاذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت. ونشأ تفاعل من جنس آخر نتج عنه البغض والكراهية والشقاق

الحق أن هذه كلها معادلات فى الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيمياوية التى تجرب فى المعمل، ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد فى دراسة هذه الكيمياء النفسية ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية، والخطأ فى النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة

وإذا أدرك الانسان هـذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفى والأديب، والمعلم والخطيب، والزعيم، فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سما ناقعاً، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعاً؟

أحمد أمين

٢ – النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

ويقول آخرون ان الترك احتفظوا بالخلافة ما استطاعت قوتهم ، ووسعت ثروتهم . فلما نكبتهم الأحداث بما نكبتهم ، وضاقت رقعة دولتهم ، عجزوا عن الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، والتمسك بهذه الأمانة العظيمة فتركوها كارهين

وجوابنا أن بعض زعماء الترك أشاروا بأن يدعى المسلمون الى مؤتمر عام ويقال لهم ها كم خلافتكم قد عجزنا عن حملها ، فتشاوروا بينكم ، وتبينوا أمركم ، وسنّوا للخلافة سنة تلائم زمانكم ، وتواتى أحوالكم . واتفق رجال الحكومة التركية على هـذا وأعلموا به عصمت باشا وهو فى لوزان . فلماذا نقض أولو الحول منهم ما أبرموه ، وسارعوا فنفضوا أيديهم من المسلمين وخلافتهم وآذنوهم أن لا أخوّة بيننا وبينكم ؟

المسلمون والتقليد

اذا نقدت أمة أمورها ، ونظرت فى أحوالها ، فنفذت الى بواطنها جهد النظر الثاقب ، والروية والفكر ، ثم هداها نظرها الى أن تستبدل سنة بسنة ، وحالاً بحال ، فتلك أمة رشيدة حميدة وان أخطأها الصواب – وقل أن يخطئها – لأنها بذلت جهد الانسان فى تبيّن الحق ، واجتهدت وسعها فى إيثار الرشد ، ولم تأل فى التريث والتمحيص والنقد المتثبت والنظر الصحيح

واذا أخذت أمة بأسباب التقليد ، وأغرمت بالمحاكاة ، كلما لاح لها لألاء من أمة عشت اليه ، وكلما سمعت نغمة قوم هامت بهـا ، فتلك أمة ضالة وان نقلت عن غيرها هدى ، مخطئة وان أخذت عن غيرها صواباً . ذلكم بأنها حقرت عقولها ، وأغمضت عيونها ، وأسلمت الى يد غيرها أزمّتها ؛ لم تنظر لنفسها فتأخذ وتدع ، ولم تختر بعقلها فتستحسن وتستقبح ، بل خبطت خبط عشواء ، وانطلقت كالحاطب فى الظلماء . هى فى ذلك قد أهدرت انسانيتها عـا ألغت ارادتهـا واختيارها . وان استمسكت فى ظاهرها بما أخذت من نظام ، واعتصمت فى رأى الهين بما نسخت عن غيرها من سنن ، فذلكم ظاهر ليس وراءه باطن ، ورُواء ليس وراءه حقيقة . تلكم أمة ممسوخة . وقد سمعنا أن أمماً مسخت فأنكرنا ، وقيل إنها مسخت قروداً فعجبنا ، ثم رأينا عمل بعض الناس فى هذا العصر فصدّقنا

قد ابتلى كثير من المسلمين فى هـذا العصر بداء التقليد ، وفشا فيهم خلق العبيد ، وحرموا النظرة النقّادة ، والعزيمة النفّاذة ، والهمة الخلاّقة . رأوا سلاحهم أضعف من سلاح أوربا ، وعلمهم أقل ، ونظامهم أوهن ، فجعلوا ذلك تعلّة الى نبذ ما عنـدهم من خلق ودين وحضارة لتتحلل النفس من تكاليف الانسانية ، وتنطلق فى بحبوحة هـذه المدنية . وزيّن لهم الهوى أن يقيسوا الدين والأخلاق على العلوم والصناعات ، فمضوا يرون كل شىء عندهم باطلا ، وكل شىء فى أوربا حقا ، فاستحسنوا أن ينبذوا كل ما عندهم ويأخذوا كل ما عند الأوربيين ، وخافوا أن يؤخـذ عليهم الاستمساك بدينهم وأخلاقهم ، فتنافسوا فى هجرها وتحقيرها ، فما يحافظون على رأى أو خلق إلا أن تأتيهم شهادة عليه من عالم أو كاتب أوربى ، بل هم مدينون لأهل أوربا بما عندهم من ظن حسن فى حضارة الاسلام وتاريخه ، ومن زين منهم داره بفُرش عربية فانما يسميها (أربسكا) ويحاكى فيها أهل أوربا وهلم جرا ، حتى الأزهريون وهم أبعد الناس عن أوربا آثروا أن يسموا الجامع الأزهر جامعة ليترجموا كلمة Université ، وسموا كل قسم من أقسامه كلية ليوافقوا كلمة College

وكم قلت وقال غـيرى إن المدنية الخلقية والدينية ليست كالمدنية الصناعية ، فالصناعات قائمة على عـلوم طبيعية لا تختلف فيها الأمم ، ولا يمتاز فيها الشرق من الغرب ؛ ليست مشتقة من نفس الانسان ، ولا صلة لها بقلبه ، فتستطيع أمة أن تأخذ عن غيرها علوم الطبيعة والكيمياء والحساب والفلك ونتائج هذه العلوم فى الصناعات دون أن تغير دينها أو تبدل أخـلاقها ؛ ويستطيع زنجى من السنغال أن يذهب إلى فرنسا فيتعلم الطيران أو يدخل فى زمرة الجند فيصير عما قليـل فى البصر بآلات الطائرات ، والدربة على نظام الجيش كالفرنسى ، ولـكنه

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلمة « خلعة سنوسية » فـكتبت قلعة سنوسية

لا يستطيع أن يغير أخلاقه وعاداته ويكون فرنسيا فى خمسين سنة ؛ والحضارة النفسية هى الانسانية حقاً ، والمدنية فى صميمها وهى مشتقة من نفوس الأمة تفسد بفسادها وتصلح بصلاحها

ذلكم ما ينبغى أن نفكر فيه ، ونتوفر على درسه ، فان الأمم لا تصلح على الفوضى ، ولا تسيّر بالأهواء والشهوات ؛ ذلكم ما يجب أن يعنى به أولو الرأى من المسلمين ليأخذوا بِحُجَز أممهم أن تتهافت فى هذا التقليد ، وتتردى فى هذه المهالك ؛ ذلكم ما يجب أن ينهض به الشعراء والكتاب ، ليضرموا فى النفوس الذليلة عزة تمنعها المحاكاة العمياء ، وكرامة تعصمها أن تسير كالعجماء . من لى فى المسلمين بعشرين رجلا من كبار النفوس عظماء الهمم ، البصيرين بالمدنية الحاضرة ، ظاهرها وباطنها ، العالمين بحضارة الاسلام جليّها وخفيها ، العارفين بأدواء الأمم وأدويتها ، لينيروا الطريق فى هذه الضلالات المظلمة ، والفتن المدلهمة ؟ من لى فيهم بعشرين رجلا كهذا العالم الكبير والشاعر المبدع الذى تنفخ أنفاسه الروح فى الأجسام الهامدة ، والأمل فى القلوب اليائسة ، الرجل المبارك محمد اقبال الذى انبعث صوته فى الشرق بالحياة والهدى والعزة والكرامة ، والطموح إلى العلياء ، والسمو بالنفس إلى أعلى درجاتها ، تلك النفس الكريمة التى تسيل فى شعرها حسرات ، وتتطاير فى كلماتها زفرات ، فما تزال تقدح قلبها لتبعث شرارة بعد أخرى تنير الطريق الحالكة ، وتشعل النفوس الخامدة ، ذلك الرجل الحر الذى وقف من حضارة أوربا وفلسفتها موقف الناقد البصير ، يكشف عن زيوفها ويبين عن بهرجها

كم رأينا فينا علماء وأدباء وشعراء ومتفلسفين ، ولكن أكثرهم لا يفكرون ولا ينطقون إلا بما سمعوا وما قرأوا ، وهم لا يسمعون ولا يقرأون الا عن أوربا . ليس فيهم رجل حرّ يفجر فى قلبه من الحياة ينبوعاً ، أو يضرم فيه من الغيرة ناراً ، ليلقى على كل قلب نضحة من هذا الماء ، وفى كل نفس جذوة من هذه النار ،

ايه يا ضُلال التقليد ! وعبّاد الأصنام فى القرن العشرين !

إن عند المسلمين كنوزاً سفت عليها أعاصير الزمان وقد فترت هممهم ، وانطفأت نار الغيرة فى نفوسهم ، فآثروا الدعة حتى يأتى أهل أوربا يدلونهم عليها ويستخرجونها لهم ! وإن عندهم لنفائس تنادى هممهم وعزائمهم ، ولكنهم يؤثرون أن يتلقوا عن أوربا أشياءها مهيّأة فى عُلب مذهّبة ! ومن ركن إلى الدعة ذلّ ، ومن آثر اليسير من الأمور وأشفق من لقاء المصاعب فهو حىّ أشبه بميت ؛ وإليكم مثلاً من مئات :

لنا شريعة جاء بها القرآن والسنة وعملت فيها قرائح المسلمين بحثاً واستنباطاً ثلاثة عشر قرناً . فما بقيت واقعة إنسانية إلا اشتق لها حكم يلائم الزمان والمكان ، فصارت هذه الشريعة جماع تجارب الأمم فى عصور مختلفة وبلاد كثيرة . فلما أراد المصريون أن ينظموا القضاء عجزوا عن النظر فى هذه الكنوز المدخرة ، وأشفقوا من الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ، فأجلسوا نفراً يترجمون لهم قانون نابليون ، فتهيأ لنا قانون مختصر مرتب مفصل ، وأصبحنا نجارى فرنسا فى نظامها ، فقد طوينا مسألة القرون فى أشهر قليلة . وماذا علينا بعد ذلك أن يكون هذا القانون فى دين الأمة نكراً ، وفى أخلاقها شذوذاً ، وفى أفكارها أعجوبة ، وفى جسمها شللاً ، وفى نفسها موتاً ؟ لا ضير فقد أخذنا قانون نابليون وناهيك بذلك فخراً وتمدناً . . .

لو أن فى المسلمين أناسىّ يستوحون عقولهم ويستفتون قلوبهم لخلقوا لأنفسهم نظاماً ، وشرعوا لأنفسهم من دينهم قانوناً ، لو أنهم أصحاب همم لسلطوا هممهم على الزمان فأسرته ، ثم صرّفته طوع المشيئة ، ورهن الارادة ، ولما لبثوا يتملقون بالعصر ومقتضياته والزمان وفرائضه ، فان الرجل الحر سيد الزمان والمكان يسخرهما ولا يذل لهما . أين العزائم التى تلقى الزمان بملء خطوبه هيبة ، وتردّ أحداثه بأشد منها صولة ؟ آمين ثم آمين . . .

* * *

ومما أخذ فيه المسلمون بتقليد أوربا غلوهم فى النعرات القومية ، والتكاثر بالمفاخر التاريخية ، واعتزاز كل فريق بمآثره الجاهلية ، كأنهم لم يكونوا على الأحداث أعواناً ، ولم يلبثوا أربعة عشر قرناً إخواناً ! ! قيل للمصريين : أنتم أبناء الفراعين فارجعوا الى حضارة المصريين القدماء ، واعبدوا العجل لتقوموا بذلك شهداء . وقيل لأهل الشام : وأنتم يابنى الفينيقيين تمسكوا بتاريخ الأقدمين ، وائتوا بآبائكم إن كنتم صادقين ! وقيل للفرس : يابنى الأكاسرة لقد فتح العرب بلادكم ، وأزالوا مُلككم ، وفرضوا دينهم عليكم

فانفضوا أيديكم من أخوتهم ، وردّوا اليهم دينهم ، وارجعوا الى زردشت وإن لم تعرفوه ، واقرأوا كتابه وإن لم تفهموه ، فالباطل الايرانى خير من الحق العربى ! وقيل للترك ! وأنتم يا سلالة جنكيز المقدس ، وعبدة الذئب الأطلس ، قد كانت لكم فى سيبريا حضارة ، ثم كانت لكم فى قره قروم دولة ، فارتدوا الى حضارتكم الأولى ، وانزعوا الى وثنياتكم القدامى ، ودعوا مجدكم فى الاسلام ، واكفروا بمآثره عليكم ، ومآثر آبائكم فى تاريخه

دعيت كل أمة الى جاهليتها ، فذهب المسلمون ينبشون القبور ليمتزوا بحجر قديم وعظم رميم ، ويفخروا بعلامة من حضارة ، أو أثارة من مدنيـة ، وغفلوا عن مجدهم فى الاسلام يرجف به المشرق والمغرب ، وتضيء به الشمس والقمر . وليس أمة اسلامية ذات مجد فى الجاهلية إلا مجدها فى الاسلام أبهى وأبهر ، وأعلى وأعظم ، ولكنها عصبيات الجاهلية ، والفتن الأوربية ، تركس الانسان فى بهيميّته ، وتردّه إلى وحشيته

* * *

بينا يجهد عقلاء المسلمين لايقاظهم من رقدتهم ، ويحرقون أنفسهم لاشعال الحياة فيهم ، إذا « النهضة التركية الأخيرة » فقلنا حياة فى المسلمين جديدة ، ويقظة لا تلبث أن تصير شاملة . قلنا أولئك إخواننا زعماء المسلمين ينفخون فى الصور ، ليبعثوهم من القبور ؛ لعل هذه النفوس الكبيرة تخلق أمة جديدة ، أو تخترع لنا سنّة رشيدة ، تصل عزة الماضى بمجد المستقبل وتذهب بذل الحاضر ؛ إن يخلقوا فالرجل الحر خلاق ، وإن يسبقوا فالكريم الى المعالى سباق — لا ريب أننا سنرى فيهم عمر بن الخطاب ، وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين الأيوبى ، وسليمان القانونى ، ولكن فى القرن العشرين يفتحون صدورهم لعلومه ، ويتوسلون بوسائله الى الغايات الشريفة والمثل العليا التى سعى إليها المسلمون من قبل . ثم نظرنا فاذا نفخة الصور ، لا تدعو إلى النشور ، وإذا الهمم العالية تسف ، والعزائم الماضية تهن ، وإذا حياة تجفل من نفسها وتعتز بغيرها ، وإذا نهضة من المحاكاة عليلة ، وخطة من التقليد ذليلة ، قصاراها : « اقطع كل ما يربطك بالاسلام وأممه ، وأحكم كل ما يصلك بأوربا وسننها »

فانظر ماذا صنعوا انفاذا لهذه الخطة :

(له بقية) عبد الوهاب عزام

١ ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

أتيحت لى فى الأعوام الأخيرة فرصة لدراسة شخصية بارزة تتبوأ مكانة رفيعة فى آداب مصر الاسلامية ، وفى الآداب العربية بوجه عام ، وتمثل وحدها مدرسة فكرية زاهرة ، وتمتد عبقريتها الشاملة الى عدة نواح وفنون مختلفة ، وما زال تراثها الى اليوم يكون مجموعة قوية حافلة فى تراث الأدب العربى والتفكير الاسلامى

أريد بتلك الشخصية ، شمس الدين السخاوى الذى تملأ شخصيته الحركة الأدبية المصرية زهاء نصف قرن

كان السخاوى إحدى هذه العبقريات الأدبية التى تفتحت بمصر فى القرن التاسع الهجرى (القرن الخامس عشر الميلادى) واختتمت بها مصر الاسلامية حياة أدبية باهرة سطعت مدى قرنين ؛ وكان ظهوره فى النصف الأخير من هـذا القرن ، حينما أخذت عوامل الانحلال تفت فى هذا الصرح الباذخ الذى شادته دول السلاطين بمصر ، وأخذت الحركة الأدبيـة التى كانت فى النصف الأول من القرن التاسع فى أوج عنفها وازدهارها ، تميل الى الضعف والسقم ، وتستبدل ألوانها القوية الساطعة بألوان سطحية باهتة ؛ فكان ظهور السخاوى وتلميذه ومنافسه السيوطى فى أواخر هذا القرن نفثة أخيرة من نفثات هذه الحركة القوية التى لم تلبث أن خبت بعد ذلك وانهارت أمام الفتح العثمانى

— ١ —

ومن حسن الطالع اننا نستطيع أن ندرس شخصية السخاوى على ضوء حسن ؛ فلدينا أولاً معظم آثاره نقرأ فيها خواص تفكيره وأدبه ؛ ولدينا ترجمته لنفسه وعدة أخرى من التراجم المعاصرة ، نتتبع فيها حوادث حياته وظروف تكوينه

ولد السخاوى ، كما يحدثنا فى ترجمته لنفسه ، بمدينة القاهرة ، بحارة بهاء الدين[1] ، فى ربيع الأول سنة ٨٣١ هـ (١٤٢٨ م)

(١) كان موقع هذه الحارة على مقربة من باب الفتوح ، وكانت من الأخطاط الجليلة فى ذلك العصر (المقريزى ج ٣ ص ١)

فى أسرة أصلها من بلدة سخا من أعمال الغربية ، واستقرت فى القاهرة قبل ذلك بجيلين . وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، شمس الدين أبو الخير السخاوى ؛ ولما بلغ الرابعة من عمره تحولت أسرته الى منزل جديد فى نفس الحى اشتراه أبوه ؛ وكان موقعه بجوار دار علامة العصر الحافظ ابن حجر العسقلانى (١) ؛ وكان لهذا الجوار أكبر أثر فى حياة السخاوى ، كما سنرى . وأنفق السخاوى بضعة أعوام فى المكتب وحفظ القرآن ؛ ثم أخذ يطوف بأشياخ العصر يتلقى عنهم مختلف العلوم والفنون ؛ ودرس النحو والعروض واللغة والفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والتفسير والمنطق ؛ وهنا يعدد لنا السخاوى ثبت أساتذته وما أخذه عن كل منهم ، وما درسه من مختلف الكتب (٢) ؛ وتجلت مواهبه ومقدرته بسرعة مدهشة ؛ وأجاز له الكثيرون من شيوخه ، بل أجازوا له الافتاء ولما يبلغ العشرين بعد

وقد كان ابن حجر فى مقدمة أساتذته ؛ وكان ذلك الجوار الذى رتبته ظروف الحياة مبعث هذه الصلة الوثيقة التى استمرت مدى الحياة بين الأستاذ وتلميذه ، والتى بثت غير بعيد الى نفس الفتى نوعاً من العبادة الروحية لهذا الذى كان يعتبر يومئذ إمام الأئمة وقطب العلماء والباحثين . والواقع أن ابن حجر كان يتبوأ يومئذ مركز الزعامة العلمية فى مصر الاسلامية ، وكان فى ذروة نضجه ومجده ، وقد انتهت اليه الرياسة فى معظم علوم العصر ، ولا سيما الحديث والشريعة . وكان بدء اتصال السخاوى بأستاذه فى سنة ٨٣٨ هـ ، أعنى وهو طفل لم يجاوز الثامنة ؛ وكان يذهب مع أبيه ليلاً إلى مجالس الشيخ فيستمع الى دروسه فى الحديث .

ويصف لنا السخاوى علاقته بأستاذه فى عبارات مؤثرة تنم عما كان لهذه العلاقة من عظيم الأثر فى تكوينه فيقول متحدثاً عن نفسه : « وقبل ذلك كله سمع مع والده ليلاً الكثير من الحديث على شيخه إمام الأئمة الشهاب ابن حجر ، فكان أول ما وقف عليه من ذلك فى سنة ثمان وثلاثين ، وأوقع الله فى قلبه محبته ،

(١) كانت دار ابن حجر تقع بالقرب من المدرسة المنكوتمرية داخل باب القنطرة بحارة بهاء الدين أيضاً (خطط المقريزى ج ٣ ص ٨٤ والتبر المسبوك للسخاوى ص ٢٣٣)

(٢) راجع ترجمة السخاوى لنفسه فى كتابه الضوء اللامع — نسخة دار الكتب الفتوغرافيــة (رقم ٦٧٥ تاريخ) المجلد الرابع القسم الأول ص ٦٧ — وهى المشار اليها فيما يلى

فلازم مجالسه ، وعادت عليه بركته فى هذا الشأن . وأقبل عليه بكليته اقبالاً يزيد على الوصف بحيث تقلل ما عداه . . . وداوم الملازمة لشيخه حتى حمل عنه علماً جماً ، واختص به كثيراً بحيث كان من أكثر الآخذين عنه ؛ وأعانه على ذلك قرب منزله منه ، فكان لا يفوته مما يقرأ عليه إلا النادر . . . وينفرد عن سائر الجماعة بأشياء . وعلم شدة حرصه على ذلك فكان يرسل خلفه أحياناً بعض خدمه لمنزله ؛ يأمره بالمجىء للقراءة » (١)

وهنا يفيض السخاوى فى ذكر الكتب والمتون التى قرأها ودرسها على شيخه ابن حجر ، سواء من تصنيفه أو تصنيف غيره ، ومعظمها فى الحديث ؛ ودرس عليه أيضاً التاريخ والتراجم ؛ ودرس فى الوقت نفسه على كثير من شيوخ العصر ؛ ويعدد لنا السخاوى كثيراً من شيوخه ويقول لنا انهم بلغوا أكثر من أربعمائة ؛ بيد أن ابن حجر كان دائماً إمامه وشيخه المفضل ، وقد أذن له غير بعيد فى الاقراء والافادة والتصنيف ؛ ويقول لنا السخاوى إنه لم ينفك عن ملازمة استاذه ، ولا عدل عنه بملازمة غيره من علماء الفنون خوفاً على نقده ، ولا ارتحل الى الأماكن النائية بل ولا حج إلا بعد وفاته ؛ لكنه حمل عن شيوخ مصر الواردين اليها كثيراً ، وفى الأوقات التى لا تعارض وأوقاته سيما حين اشتغاله بالقضاء وتوابعه » . وقد لبثت هذه العلاقة الوثيقة بين التلميذ وشيخه حتى توفى ابن حجر فى أواخر سنة ٨٥٢ هـ (٢)

وهنا تبدأ المرحلة الثانية فى حياة السخاوى ؛ وهى مرحلة درس وتحصيل أيضاً ولكن خارج مصر . وكان السخاوى يومئذ فى الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان رغم حداثته قد برز فى كثير من العلوم التى تلقاها ؛ وكان قد استأثر فى هذه الأعوام الطويلة التى قضاها إلى جانب ابن حجر بكثير من علمه ومعارفه ، وتأثر أعظم تأثير بأساليبه ومناهجه ؛ بل نستطيع أن نقول إن السخاوى كان بعد ابن حجر ، مستودع علمه وتراثه ؛ وكان أشد تلاميذه تمثيلاً لمدرسته ؛ بل كان بعد شيخه زعيم هذه المدرسة وأستاذها القوى يرفع لواءها ويحمل مناهجها حتى خاتمة القرن التاسع ؛ وقد أشار ابن حجر نفسه فى أواخر أيامه إلى

(١) الضوء اللامع — المجلد السابق ذكره ص ٦٨ — وكذلك التبر المسبوك ص ٢٣٢

(٢) الضوء اللامع . ترجمة السخاوى لنفسه فى المجلد المشار اليه — (ص ٦٩) — والتبر المسبوك (ص ٢٣٢ و ٢٣٣)

تلك الحقيقة ، وكثيراً ما وصف السخاوى بأنه « أمثل جماعته » أو « ممثل جماعته » [١]

وسافر السخاوى عقب وفاة استاذه إلى دمياط ودرس على شيوخها حيناً ؛ ثم سافر مع والدته بحرا إلى مكة ليؤدى فريضة الحج ؛ وانتهز هذه الفرصة فدرس على شيوخ مكة والمدينة ، وطاف بالبقاع والمشاهد المقدسة كلها ؛ ثم عاد إلى مصر ، وسافر إلى الاسكندرية وقرأ بها مدى حين ؛ وزار معظم عواصم الوجه البحرى وقرأ على شيوخها الأعلام جميعاً ، وحصل كثيراً من الفوائد والمعارف . ثم رأى أن يقوم برحلة إلى الشام ليزور معاهدها ، ويتعرف بشيوخها ؛ فسافر إلى فلسطين وطاف ببيت القدس والخليل ونابلس ؛ ثم قصد إلى الشام ، وزار دمشق وحمص وحماه ، ثم استقر حيناً فى حلب ؛ كل ذلك وهو يدرس ويقرأ على أعلام هذه العواصم ؛ ويقول لنا إنه « اجتمع له فى هذه الرحلة من الروايات بالسماع والقراءة ما يفوق الوصف » ؛ ويبدو من تعداده للكتب التى درسها وقرأها فى هذا الطواف ، أنه كان يعنى بدراسة الحديث والقراءة والنحو والفقه وعلوم البلاغة والتصوف . ولم يعين السخاوى لنا تواريخ تنقلاته فى هذه الرحلة ، ولكن الظاهر أنها استغرقت بضعة أعوام

ولما عاد السخاوى إلى مصر ، عكف على التدريس ، ولا سيما تدريس الحديث ، أحياناً بمنزله ، وأحياناً بخانقاه (معهد) الصوفية المعروف بسعيد السعداء ؛ وكذا انتدب فى أوقات مختلفة للتدريس فى أعظم مدارس القاهرة كدار الحديث الكاملية والصرغتمشية ، والظاهرية ، والبرقوقية ، والفاضلية وغيرها ؛ وذاع صيته واقبل عليه الطلاب من كل صوب . وفى سنة ٨٧٠ ﻫ سافر مع أسرته ــ وكان قد تزوج يومئذ ورزق بعض الأولاد كما يفهم ذلك من إشارته إلى مولد ولده أحمد [٢] ــ ومع والده وأكبر أخويه إلى الحج للمرة الثانية ؛ وصحبه أيضاً فى تلك الرحلة صديقه وأستاذه النجم بن فهد الهاشمى ــ وكان من أعلام العصر . ودرس بمكة مدى حين ، وقرأ بالمسجد الحرام بعض تصانيفه وتصانيف غيره . ولما عاد إلى القاهرة استأنف دروسه واملاءاته ؛ وتبوأ مركز الزعامة يومئذ فى علم الحديث ، وشغل فيه نفس المركز الذى كان يشغله فيه استاذه ابن حجر قبل ذلك بثلاثين عاماً

(١) راجع « الكواكب السائرة فى أعيان المائة العاشرة » (مخطوط دار الكتب) فى ترجمة السخاوى — وراجع شذرات الذهب (ج ٨ ص ١٥) (٢) الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٣

ثم حج السخاوى للمرة الثالثة فى سنة ٨٨٥ ﻫ ، وقضى بمكة عاماً فى التدريس والدرس ؛ ثم حج سنة ٨٧ وقضى ثمة حيناً فى الدرس والاقراء ؛ وحج للمرة الخامسة فى سنة ٩٢ ﻫ وقضى ثمة عاماً آخر فى الدرس والاقراء ؛ ثم حج فى سنة ٩٤ ، وقرأ الكثير من دروسه وتصانيفه ، وغدت مكة وطناً ثانياً له ؛ وكتب بها كثيراً من مؤلفاته كما سنرى

ولما عاد إلى القاهرة فى سنة ثمان وتسعين (٨٩٨ ﻫ) استقر بمنزله ، وأبى الدرس والأقراء فى المعاهد والحلقات العامة « ترفعاً عن مزاحمة الأدعياء » حسب قوله ، وترك الافتاء أيضاً واكتفى بالاقراء فى منزله لخاصة تلاميذه ؛ وكان السخاوى قد أشرف يومئذ على السبعين من عمره ، ولكنه استمر منكباً على الدرس والتأليف ؛ وكانت قد انتهت إليه الرياسة يومئذ فى معظم علوم عصره ، ولا سيما الحديث ، حتى قيل إنه فاق شيخه ابن حجر فى ميدانه ، وانتهى اليه فن الجرح والتعديل ، حتى قيل لم يبلغ أحد مكانته فيه منذ الحافظ الذهبى [١] ؛ وكانت شهرته قد تعدت حدود مصر منذ بعيد وذاعت فى أنحاء العالم الاسلامى ، ولاسيما فى الشام والحجاز حيث تلقى عليه مئات العلماء والطلاب ؛ ولبث السخاوى رغم مكانته العلمية الرفيعة ونفوذه القوى بعيداً عن ميدان السياسة ودسائس البلاط والمناصب الرسمية ؛ واقترح عليه صديقه الأمير يشبك الداوادار أن يقرأ التاريخ بمجلس السلطان الظاهر خشقدم [٢] فأبى ؛ ثم عرض عليه أن يتولى القضاء بعد ذلك ، فاعتذر وأشار بتعيين خصمه ومنافسه السيوطى رغم ما كان بينهما من الخصومات الأدبية الشهيرة [٣]

وأقام السخاوى حيناً فى القاهرة ؛ ثم سافر إلى مكة ليحج للمرة السابعة ؛ وعكف بعد أداء الفريضة على الاقراء والدرس ، وتردد حيناً بين مكة والمدينة ؛ ثم استقر أخيراً بالمدينة ؛ واستمر فى الاقراء بها حتى توفى فى ١٣ ذى القعدة سنة ٩٠٢ ﻫ (١٤٩٧ م) [٤] فى الحادية والسبعين من عمره

(للبحث بقية)

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان
المحامى

(١) شذرات الذهب ج ٨ ص ١٧

(٢) حكم من سنة ٨٦٥ — ٨٧٢ ﻫ

(٣) الضوء اللامع — المجلد المشار اليه — ص ٨٦ و ٨٧

(٤) هذه هى رواية صاحب الكواكب السائرة ؛ ولكن صاحب شذرات الذهب يضع وفاته بمكة فى ٢٨ شعبان سنة ٩٠٢ ﻫ (ج ٨ ص ١٧)

مكــــتبتى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

مكتبتى شىء عظيم جداً ـ ولست أعنى أنها كبيرة ضخمة ، وأن فى خزاناتى آلافاً مؤلفة من المطبوع والمخطوط . فما عندى مخطوط واحد ، ولا ولوع لى بجمع هذا الضرب من الكتب ، وما يمكن أن تبلغ كتبى الآلاف بعد أن احتجت أن أبيع منها مرات ، وإنى لمجنون بالكتب ، ولكن جنونى بما فيها لا بأشكالها وألوانها على رفوفها . وقد اعتدت الا أبالى أن يبقى الكتاب عندى بعد أن أقرأه أو أن يذهب ، ولم أكن كذلك ، ولكن المرء مما تعود . وعلى أنه سيان أن أحتفظ بالكتاب وأن أبيعه كما اشتريته ، أو أهبه ، فما الى الوصول اليه سبيل فى هذه الخزانات ، ولأهون علىّ أن أشترى منه نسخة أخرى من أن أهتدى الى موضعه وأعرف أين اختبأ . ومتى كان هذا هكذا ، فما حرصى على كتاب يحاورنى ويهرب منى وأنا أدور بعينى على الرفوف ؟؟

وليس أثقل على ، ولا أشق على نفسى من الاقامة فى بيت واحد زمناً طويلاً ، ولو وكل الأمر لاختيارى لاتخذت كل يوم بيتاً ، ولكن الكتب راضتنى على السكون وردتنى على مكروهى ، فأنا الآن كالقمد لا أكاد أتحول ، إلا أن أحمل على الانتقال حملاً ؛ ذلك أنى كلما سكنت بيتاً ، أروح أتخير للكتب أوسع الحجرات وأكثرها شمساً وهواء ، ثم أقول دعوا الصناديق والغرارات حتى أفتحها وأخرج ما فيها وأرتبه بنفسى ، فتترك شهوراً ، تنقلب الحجرة فى خلالها مزبلة ، فيتبرم أهلى ويلحون علىّ أن أفرغ الصناديق

فأقول : « لا بأس . موافق »

فتسألنى زوجتى : « ومتى تفعل ؟ »

فأعدها خيراً ، فتلح علىّ ، فأؤكد لها أنى فاعل ذلك غداً إن شاء الله

فتقول : « إن شاء الله معناها عندك أنك لن تفعل أبداً »

فأقول : « استغفرى الله يا امرأة ! إن شاء الله يعنى إن شاء الله ، أليس كذلك ؟ »

فتقول : « ولكنى أريد تنظيف الغرفة ! ألا ترى هذا التراب ؟ »

فأقول : « صحيح ! كثير »

لأنى أحب أن أقر بالحق وأكره المكابرة ، فتهمل الثناء على ذلك وتقول :

« وهذه الصراصير ؟ والفيران ؟ لا . لم يعد هذا بيتاً يُسكن »

فأقول : « ألا أقول لك وأريحك ؟ »

فتقبل علىّ مسرورة وتسألنى : « ماذا ؟ »

فأقول : « أفرغى أنت الصناديق ، ورصى الكتب على الرفوف ـ على أى ترتيب ـ وارفعى التراب ، واقتلى الصراصير ، وطاردى الفيران ـ وعلى الجملة ، نظفى الغرفة ـ هيه ؟ ما قولك ؟ »

فتوافق ، وأعود من عملى فألفى المكان نظيفاً ، فلا فيران ولا صراصير ولا تراب ، ولا صناديق ، ولكنى أحتاج أن أرجع الى كتاب ، فأفتح خزانة بعد أخرى وأنظر الى ما تكدس على رفوفها فأرتد يائساً وأصيح بزوجتى :

« يا امرأة ! أين وضعت ابن الرومى ؟ » مثلاً !

فتقول : « عندك بالطبع »

فأسألها : « أواثقة أنت أنك لم تضعيه فى المطبخ ؟ »

فتقول محتجة : « المطبخ ؟ كيف تقول هذا ؟ أهذا جزائى على تعبى ؟ »

فأقول : « معذرة ، ولكنى لا أراه هنا »

فتقول : « ابحث عنه »

فأبحث ـ أعنى أنى أروح أخرج من الخزانة صفاً بعد صف ، وأضع ما أخرج على الأرض هنا وههنا ، حتى تخور قواى ، وينفد صبرى ، ويهى جلدى ، وأنظر الى ما فرشت به الأرض فأجزع ، وأغافلها ـ أعنى زوجتى ـ وأتسلل خارجاً ، وأرد الباب ورائى حتى لا ترى شيئاً

وأعود فى الليل ، وفى ظنى أنها نائمة ، وفى عزمى أن أعيد الكتب الى الرفوف ، فأفتح الباب برفق ، فاذا الكتب قد وثبت بقدرة ربك ، وصفت نفسها على الرفوف ، وتزاحمت ، ودخل بعضها فى بعض ـ خوفاً من الفيران وَلا شك ! فأتنفس الصعداء وأفرك كفىّ ، وأقول : « الحمد لله ! يا ما أكرمك يارب ! » وإذا بزوجتى تقول : « وآخرتها معك ! ألا يمكن أن تعيد كتاباً إلى موضعه بعد إخراجه ؟ ألا بد أن ينشف ريق

كل يوم بسبب هذه الكتب ؟ شيء غريب والله ! كيف ومتى يمكن أن أفرغ للبيت إذا كانت هذه الغرفة هماً لا ينقضي ؟ »

وأحب مرة أخرى أن أقرأ في كتاب ، فأدخل الغرفة ، فتدخل ورائي بجرى ، وتتناول ذراعي وتشدني فأستغرب وأسألها « ماذا ؟ »

فتقول بحدة « ماذا أنت ؟ »

فيزيد عجبي وأقول : « ماذا أنا ؟ ألا تعرفين ماذا أنا ؟ سيدك ياستي ! »

فتقول وهي تجاهد أن تعبس ، والضحك يغالبها : « دع المزاح الآن ! ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فأقول « شيء جميل ! وكيف يعنيك هذا يا امرأة ؟ »

فتقول : « يعنيني مصير الغرفة — هذا ما يعنيني ياسيدي — ولست أنوي أن أدعك تقلبها مزبلة فقد ورمت كفاي من العمل فيها »

فأقول : « وماذا تصنع هذه العجوز ؟ تأكل وتشرب فقط وتقبض أجرها آخر الشهر ؟ وهذه الفتاة الخفيفة لماذا لا أراها تعمل شيئاً غير اللعب مع الأولاد ؟ وتلك الثالثة . . . أهو بيت أم دكان مخدم ؟ أريد أن أعرف هذا أولاً »

فتقول : « لا تحاور . إن الكتب لا يمسها غيري ، فاني أخاف عليها التمزيق . . »

فأشكرها ، فتقول : « العفو ! ولكني أخاف منك على الغرفة ، فاصنع معروفاً وارجع عنها »

فأسألها : ولكن كيف أرجع وأنا أريد كتاباً ؟ »

فتقول : « لا تتعبني . . . من فضلك . . . أرجوك »

فأشعر لها برقة وأقول : « يا امرأة ! هل استطعت قط أن أرفض لك رجاء ! ؟ »

وأتبعها ، وأنصرف عن الكتب والقراءة ، وأعزي نفسي بأني كنت سأنصرف لا محالة عن ذلك مرغماً ، فما أطمع أن أجد كتاباً أطلبه

من هنا صار المعقول أني إذا اشتهيت أن أقرأ كتاباً أو أردت أن أراجعه ، أن أشتريه ، وقد أشتريه ، وأضعه على المكتب إلى المساء ، فتراه زوجتي فتفتح خزانة وتدسه في صف ، وأعرف ما صنعت به ، فأشتري نسخة أخرى ، ومن أجل هذا أيضاً صار عندي من بعض الكتب ثلاث نسخ أو أكثر

وقال لي أخي مرة : « يحسن أن ترتب هذه الكتب »

قلت : « يا أخي ، كيف أصنع ؟ »

قال : « أجيئك ببطاقات ، تكتب فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فاذا طلبت كتاباً ، راجعت البطاقات ، فسهل عليك إخراجه »

قلت : « رأي سديد — هات البطاقات »

فجاءني ببضع مئات منها ، ودفع بها إلي ، فنظرت اليها وشكرته ثم قلت له :

« أما البطاقات فجاءت ، وأما الكتابة فيها فأحسبها تقتضي أن أخرج الكتب واحداً واحداً ، وأقيد أسماءها ، ثم . . . »

فصاحت زوجتي : « لا لا لا لا ! أرجو . . . أرجو ألا تفعل . . . »

فالتفت اليها وقلت : « يا امرأة ! كيف ترضين عن هذه الفوضى ؟ بل لا بد من الترتيب »

فقالت : « أنا واثقة أن الكتب لن ترتب . وكل ما يحصل هو أن تخرجها وتكومها على الأرض وتتركها ، فيغطيها التراب ، ويجتمع عليها الصراصير ، فأعود إلى نفض التراب وطرد الصراصير . . . لا ياسيدي ! لن أسمح بهذا أبداً ! »

فنظرت إلى أخي وقلت : « أتسمع ؟ إنها لا تسمح ! فما رأيك ؟ »

قال : « الحق معها . ولو كنت أنا مكانها . . . »

فلم أدعه يتم الجملة وصحت به : « أعوذ بالله ! »

فشكرني ، وقال « إنما أعني . . . »

فعدت إلى مقاطعته وقلت : « دع ما تعنيه ، من فضلك ، وحسبك أنك نغصت علي حياتي ! »

فدهش وقال : « كيف ؟ »

قلت : « سأرى وجهك بعد الآن كلما نظرت إلى امرأتي . . . أعوذ بالله . . . ياساتر يارب . لطفك اللهم ! »

وقد حرصت على البطاقات ، لأقيد فيها أسماء الكتب مرتبة على حروف المعجم ، فما من هذا مفر ، ولكن العقدة أن زوجتي تؤثر الترتيب الحالي ، وقد بلغ من رضاها عنه وخوفها عليه أن يضطرب أو يفسد ، أنها أخفت مفاتيح الخزانات لا أدري أين ؟ بارك الله فيها — أعني زوجتي لا الخزانات

ابراهيم عبد القادر المازني

ساعة فى البقيع *

للأستاذ على الطنطاوى

خرجنا اليه فى صُفرة الطَّفل ، وقد سكرت الريح ، وسجا المساء . وكان اليوم رَوْحاً ، فما تجاوزنا أزقة المدينة الضيقة الملتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل الذى أقاموه فى وجه مدينة الموت كيلا تبتلع مدينة الحياة ... حتى هبّت الرياح لواقح ، فأنشأت سحاباً ما لبث أن اكفهر وتطخطخ وعمّ السماء ، فأظلمت الأرض واسودّت ، وعادت كئيبة تملأ النفس غماً . وكنا قد بلغنا البقيع ، فرأيته موحشاً مظلماً رهيباً :

« قاتم الأعماق خاوى المخترق »

وشممت منه رائحة الموت ، فهيبت دخوله فى هذه الأمسية ، وأزمعت العودة ، ولكن صاحبي أصرّ علىّ وشجعنى ، ثم أخذ بيدى فاذا أنا وراء السور ، وإذا ساحة فسيحة ، ممتدة الجوانب ، مظلمة الأرجاء ، ساكنة سكون الموت ، ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت ، كأنما لم يسمح لبشر أن ينصب فى حرم الموت معالم الحياة ، أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء ... فأغمضت عينى ، وشددت على ذراع صاحبي ، وجعلت أدنو منه لما أجد من الوحشة وأحس من الجزع ، وما عهدتنى من قبل أعرف الخوف أو أدرى ما الجزع ، فسار بى يقودنى حتى هبط بى غوراً عميقاً ، حال بينى وبين الفضاء ، وحجب عنى السور الذى كنت أراه فآنس برؤيته ، وأذكر أنها لا تزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة . . . فلم أعد أرى شيئاً ، وامحت من خيالى كل صورة ، وطارت من راسى كل فكرة ، إلا فكرة الفناء ، وصورة الموت ، وأحسست وأنا أهبطه أنى هابط إلى القبر ! وخيل إلىّ أن أشباح الموتى ترقص من حولى ، وتدنو منى وتمسني وتهم بمناقى ، فتقف كل شعرة فى جسمى ، ويزداد قلبى خفقاناً ، وتتخاذل ركبتاى حتى أهم بالسقوط ، ويطنّ فى أذنى صوت رهيب مستطيل يلقى فى روعى أنه نشيد الفناء . . . . وكان كل ما يحفّ بى مخيفاً رائماً ، فالقبور ، والظلام الشامل ، والسكون العميق ، والسماء التى لا تطرف فيها من النجم عين ، والمكان الذى لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة ، وجلال الموت ، كل أولئك كان يخيفنى ، ويصب فى قلبى الوحشة والفزع . . . ثم صاحت بومة على سور المقبرة ... فاستمسكت بصاحبي وقلت : عد ويحك !

قال : كيف أعود وقد بدأت الزيارة . . . هذا قبر عثمان !

وكأن ذكر عثمان قد رجع إلىّ نفسى ، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر ، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صففت على وجه الأرض ، وفرشت من حولها رمال حمراء ناعمة ، كحوض أعدّ لتزرع فيه الورود ، فقلت :

— أتهزأ بى يا ...

قال : لا والله . ولكني أقول الحق . هذا قبر عثمان

قلت : يا لسخرية القدر ! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود ؟

قال : أى ورود ؟ كل القبور هكذا . . .

قلت : لعلك أخطأت القبر . اذهب فاقرأ اسمه

قال : قد طمست الأسماء ، فما عليه من اسم . ولكن ثق أنه هو . أعرفه من هذه الغضاة !

وأشار إلى غضاة قريبة منه لا أدرى كيف دخلت حرم الموت فأنست بها . وذكرنى الغضى دنيا مليئة بالصور ، مترعة بالحياة نفت عنى بعض ما أنافيه من الغربة والجزع ، فقلت :

— وكيف تعرف غيره من القبور ؟

قال : ما أعرف إلا قبور آل البيت ، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط علىّ ونسيته ، ولكن يعرفه إذا شئت (العم حَمَدْ) خادم المقبرة ، وبعض الشيوخ من أهل المدينة . . .

* * *

وانقطع الحديث فقد استشرى البرق وائتلق ، ورعدت السماء ، ثم هطلت بمطر بُعاق قشر وجه الأرض . وجعل فيها بُرَكاً وأنهاراً ، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوى إليه ، إلا هذه الغضاة وما تكاد تعصمنا . . . والمطر فى الحجاز أعجب شىء رأيته : فبينا الشمس طالعة ، والأرض مُتسعِّرة ، واليوم خَدِر عصب ، إذا السماء قد تلبدت بالغيوم ، ودوّت بالرعد ، والأمطار

---

* البقيع مقبرة أهل المدينة ، وقد كتب هذا الفصل فى المدينة المنورة ، وهو من فصول كتاب « الصحراء » الذى سيصدر قريباً فى وصف رحلة الوفد السورى إلى الحجاز

قد نزلت كأفواه القرب ، واليوم قد عاد قراً بارداً ، ثم لا تلبث حتى تنجلي السحب ، وتصحو السماء ، فتنظر فإذا الأرض قد بدلت غير الأرض ، وإذا السيول قد جرفت البيوت ، وخرّبت الطرق ، وطمست المعالم ، كما يطمس سطر سال عليه الماء ...

ولقـد ظنناها سحابة صيف ولـكنها لم تنقشع ، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتهطالاً ، ولم يزدد الرعد إلا قعقعةً وقصيفاً ، حتى كأن الدنيا مجنونة ، عاودتها نوبتها ، فهى تصرخ وتقفز وتمزق ثوبها بيدها ، وتشق حنجرتها بصراخها . . . بَيْدَ أنى لم أكن أحفل بالبرد ولا بالمطر ، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع ، ولم أكن أفكر إلا فى هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، وملـكوا العالم ، ثم ضنوا عليهم بقبر يعرف ، أو اسم يقرأ ، أفكر فى هؤلاء العظماء . . .

... كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصُّم حتى وطئوها ، كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها ، كم دانت لهم البادية المهلـكة حتى جابوها ، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون ، فيبلغوها رسالة الصحراء ، وينشروا فيها دين الصحراء !

لقد انتصروا على البادية المهلكة ، والشمس المحرقة ، والجوع القاتل ، والعطش المميت ، والعدو الجبار ، والجيش الجرّار ، ثم انتصر عليهم البقيع ، فإذا هم مستقرون فى أحشائه ، وإذا هم قد ناموا فيها إلى الأبد ، فلن يذهبوا إلى الحرم ليقيموا الصلاة ، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا الى الجهاد ، ولن يحملوا الراية الاسـلامية لينصبوها على أقصى العالم ، ولن تستقبلهم زوجاتهم وأولادهم إذا عادوا ظافرين ، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يبصرون صفحة القمر ، ولا يسيرون على وجه الأرض . . .

انتصرت أيها البقيع ؛ فما وفيت ولا أنصفت . . . جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ، ونشروا راية العدل على الأرض ، وأضاءوا طريق الهدى للناس ، ليستريحوا فى أرجائك ، وليناموا فى حماك ، فحرمتهم قبراً يعرف لهم ، وحجراً تكتب عليه أسماؤهم

ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء . فإن لهم من أسمائهم الـكبيرة ، غنية عن كل تبجيل وثناء [1] ، لـكنا نريد ألاّ تنسى هذه الأسماء

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هـذه القبور ، أفيرضيك أيها البقيع أن يأتى الجيل الجديد ، فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها ، فيقول : هاتوا المعول ، هاتوا الأحجار . . . ابنوا هنا ملعباً ! لا نجد فى المدينة خيراً من هـذه الساحة ، إنها لا تُترك أرض سـدى ! ثم بينماهم يتقاذفون الـكرة ، إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم . . .

أنسيت أيها البقيع أن كل مسلم يحسّ أنه يملك فى هؤلاء الأبطال ملـكاً ، وأن هـذا الرفات ليس من حقك وحدك ، ولـكنه حق لـكل مسلم ولد أو يولد إلى يوم القيامة . . . وأنك إن طمست هذه الأسماء ، حتى يجهلها المسلمون ، أسأت إلى كل المسلمين ؟

أنسيت أن أضيافك عظماء البشر ، أفتستحق المظمة هذا الاهمال الشائن ، وهذا النسيان المخزى ، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا فرنجة ولا انكليز ؟ ! أفيكون البانتيون لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع؟

إنه لم ينقص من مجدهم أنها لم تشيد لهم القبور ، ولم تنقش أسماؤهم على صفائح الحجر ، وحسبهم أنهم شيدوا مجداً وبنوا أمة وكتبوا تاريخاً ، فإذا نسى التاريخ أبطاله ومنشئيه ، فقِدْماً نسى التاريخ الأبطال ! وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجـد نابليون فاقتطفه ؟.. هل ذكر أولئك القصاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها ؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه ؟ .. ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ ؟

لا بأس أيها البقيع فان البطل الحق هو الذى لا يعرفه أحد !

* * *

وازداد الرعد قرْقرَة وهزيماً . وعقّ البرق وتكلّح ، وأغدَقت السماء وجادت ، وعصفت الريح وأعجّت [1] وجنت الدنيا جنونها ، فنظرت فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبق له من أثر ..! فقلت : اطبقى يا سماء ، وتشققى يا أرض ، وتصدعى يا جبال ... إن من ملـكوا العالم لا يجدون القبور ....

على الطنطاوى

(١) ولا نريد أن تقام لهم هذه المقامات التى ترتكب عندها أنواع المعاصى ويؤتى فيها النكر ، فنحن من أشد الناس إنكاراً لهذا

(١) تعمدنا اختيار هذه الألفاظ ليطابق الوصف الموصوف

القاضي النسوي

للأستاذ قدري حافظ طوقان

ما أكثر الذين لم يوفهم التاريخ حقهم من البحث والتنقيب وقد أحاط بهم الغموض والابهام وراحوا ضحية الاهمال فلا ترى لهم اسماً في الكتب التاريخية ولا ذكراً في معاجم الأعلام والعلماء! من هؤلاء الذين كاد يطغى عليهم النسيان أبو الحسن على أحمد النسوي، فهو من رياضيي القرن الخامس للهجرة من بلدة نسا بخراسان، لم يكتب عنه إلا ما لا يشفي غلة المنقب، وقد أهملته المصادر إهمالاً معيباً، وإذا اطلعت على تاريخ الرياضيات (لسمث) وجدت عنه نبذة لا تتجاوز عشر كلمات، وهي أن النسوي ألف في الحساب الهندي وشرح بعض المؤلفات لأرشميدس؛ وتجد أيضاً في كتاب آخر يبحث في الأرقام الهندية العربية تأليف سمث وكاربنسكي: أن النسوي من الذين استعملوا كلمة الهندي لتدل على الحساب في القرن الحادي عشر للميلاد. وأما كتاب الآثار الباقية فيقول عن النسوي إنه لم يتمكن من العثور على شيء عن حياته، ومع ذلك فقد استطاع أن يكتب عنه بصورة أوسع من غيره من المؤلفين معتمداً في ذلك على مقدمة كتاب للمقنع لصاحب الترجمة. ومن هذه الترجمة يفهم أن النسوي ينتسب لمجد الدولة بن فخر الدولة حاكم العراق الفارسي. ويقال إن مجد الدولة هذا طلب من النسوي أن يؤلف له كتاباً في اللغة الفارسية يبحث في الحساب الهندي على أن يكون موافقاً لديوان محاسبته يمكن الانتفاع منه، وقد كان ما أراد الحاكم وخرج الكتاب إلى الناس فانتفعوا منه وعنه أخذوا الشيء الكثير لمعاملاتهم؛ وقد اطلع شرف الدولة أمير بغـــداد على هذا الكتاب، ويظهر أنه رأى فيه فائدة وانتفاعاً فأمر النسوي بأن يؤلف له كتاباً باللغة العربيـة يكون على نمط الكتاب المذكور، وقد كان لشرف الدولة ما أراد؛ فأخرج النسوي كتاباً سماه (المقنع) وقد وُفق فيه كثيراً، فيقول عنه صالح ذكي: « إن المقنع هو نموذج حقيقي يدلنا على الرتبة التي بلغها الحساب الهندي في العراقين العربي والفارسي في أوائل القرن الحادي عشر للميلاد . . . » ولهذا الكتاب مقدمة ينتقد فيها الذين تقدموه من المؤلفين الرياضيين وينتقد فيها أيضاً معاصريه من واضعي كتب الحساب، وينحى باللائمة على كل هؤلاء، ويقول إنه وجد تشويشاً وتطويلاً في الكتب الحسابية التي وضعها الكندي والانطاكي، كما أنه وجد في مؤلفات على بن أبي نصر في الحساب تفصيلاً لا لزوم له، وأن هناك كتباً أخرى (في الحساب) للكلوازي فيها صعوبة وفيها التواء وفيها تعقيد لا تعود على القارئين بالفائدة المتوخاة. ويقول أيضاً إنه لا يريد أن يجعل بحوثه في كتابه تدور على موضوع واحد، وأنه لا يريد أيضاً أن يحذو حذو الدينوري الذي ألف كتاباً عنوانه يدل على أنه كتاب يتناول موضوعات الحساب المختلفة بينما هو في الحقيقة يتناول حساب النجوم فقط وليس فيه تعرض لأي فرع من فروع علم الحساب، وهذا (على رأيه) مالا يجب أن يكون؛ والنسوي لا يريد أيضاً أن يكون في كتابه هذا مثل كوشيار الجيلي الذي وضع كتاباً في الحساب تعب منه الايجاز وعنوانه لا يدل بحال من الأحوال على ما تضمنه من بحوث حسابية وأعمال رياضية

ولهذا كله (يقول النسوي): فقد رأى الضرورة تدعوه الى أن يخرج إلى الناس كتاباً يتجنب فيه الأغلاط التي وقع فيها غيره من ايجاز يجعل المادة صعبة غير واضحة، ومن اطناب يدخل إلى نفوس القارئين السأم والملل. وبالفعل أخرج للناس كتاباً كان فريداً في بابه جمع فيه أحسن ما في كتب المتقدمين والمعاصرين، وقد أضاف اليه كثيراً من نظرياته ومبتكراته، ووضع كل ذلك في قالب سهل المأخذ لا صعوبة فيه ولا تطويل، يمكن للطالب والتاجر والراصد ولكل من يريد الوقوف على أصول المعاملات المتنوعة في الأمور الحسابية أن يستفيد منه؛ ولقد جعل النسوي هذا الكتاب في أربع مقالات، تبحث الأولى في الأعمال الصحيحة، والثانية في الكسور، والثالثة في الأعمال الصحيحة مع الكسرية، والرابعة في حساب الدرج والدقائق. فالمقالة الأولى تتناول الموضوعات التالية: أشكال الأرقام وترقيم الأعداد، جمع الأعداد الصحيحة، ميزان جمع الأعداد الصحيحة، تضعيف الأعداد، طرح الأعداد الصحيحة، ميزان طرح الأعداد

الصحيحة ، تنصيف الأعداد الصحيحة وميزانها ، ضرب الأعداد الصحيحة وأنواعه ، ميزان ضرب الأعداد الصحيحة ، تقسيم الأعداد الصحيحة وأنواعه ، ميزان تقسيم الأعداد الصحيحة ، استخراج الجذر التربيعى للأعداد الصحيحة ، ميزان استخراج الجذر التربيعى للأعداد الصحيحة ، استخراج الجذر التكعيبى للأعداد الصحيحة وميزان استخراج الجذر التكعيبى للأعداد الصحيحة . وأما المقالة الثانية فتبحث فى الأبواب الآتية : ترقيم الكسور ، جمع الكسور ، طرح الكسور ، ضرب الكسور ، تقسيم الكسور ، استخراج الجذر التربيعى للكسور واستخراج الجذر التكعيبى للكسور . وتتناول المقالة الثالثة البحوث الآتية : الكسور المركبة وترقيمها ، جمع الكسور المركبة وطرحها وضربها وتقسيمها وكيفية استخراج الجذرين التربيعى والتكعيبى لها . وأما الرابعة فتتضمن ما يلى : أصول ترقيم الكسور الستينية وكيفية جمعها وطرحها وضربها وتقسيمها ، واستخراج الجذرين التربيعى والتكعيبى لها . ومن الاطلاع على محتويات هذا الكتاب يتبين للقارىء أن الكتاب قيم وفيه بحوث تفيد الناس على مختلف طبقاتهم فى متنوع معاملاتهم . ومما يدل على طول باع النسوى فى الرياضيات وعلو كعبه فيها اعتراف الطوسى بفضله وعلمه ، فقد كان يلقب النسوى بالأستاذ ، ولهذا اللقب أهميته عند الطوسى ، ولاسيما أنه من الذين يعرفون قيمة العلماء ومن الذين لايخلعون الألقاب على الناس بدون استحقاق ؛ ولاعجب فى أن يكون هو من المعجبين بالنسوى المقدرين لنبوغه وعبقريته ، فلقد استفاد كثيراً من كتاب (تفسير كتاب المأخوذات لأرشميدس) فى مؤلفه (المتوسطات) وهذا الكتاب أى(كتاب التفسير) من الكتب التى كان لها أهميتها الكبيرة فى تاريخ الرياضيات ، وقد ترجمها إلى العربية ثابت بن قرة . قال صاحب كشف الظنون فى أسامى الكتب والفنون : « مأخوذات أرشميدس مقالة ترجم منها ثابت بن قرة خمسة عشر شكلاً وقد أضافها المحدثون إلى جملة المتوسطات التى يلزم قراءتها فيما بين أقليدس والمجسطى . . . » وكان للنسوى تفسيرها وشرحها شرحاً دل على مقدرته وقوة عقله . . .

نابلس قدرى حافظ طوقان

عرائس المولد النبوى

فى الأدب الفرنسى

للأستاذ م . هداية

أليس غريباً هذا العنوان ؟ أو ليس فيه إشارة لطيفة إلى تقصير أدبائنا ؟

هنرى تويل أديب فرنسى أقام فى مصر ردحاً من الزمن حتى جعلها فى أشعاره وطنه الثانى . وقد هام بجمال مصر وتقاليدها ، وسجل كثيراً من أعيادها القومية والدينية ، ووصف كثيراً من شوارعها وجوامعها الأثرية أبرع وصف . وله ديوان مطبوع باسم «شرق وأدب» حوى الكثير من الأسرار الساحرة فى مصر ، أحس بها هو ولم نحس بها نحن !

ولست هنا فى صدد تعريف هذا الشاعر الناثر أو تحليله ، وإنما قصدت أن أنقل إلى قراء (الرسالة) جزءاً من قطعة له كتبها سنة ١٩٢٣ على إثر جولة جالها ليلاً بشارع الموسكى فى مولد سيدنا الحسين – قال:

« . . . وعلى جانبى الجامع كانت الأنوار المنبعثة من دكاكين الحلوى تشع فى الليل المتأخر فتجمل منه ظهراً . وكانت هذه الحوانيت متقاربة متلاصقة : اتصل بعضها ببعض اتصالاً لا تقطعه ثغرة ، حتى لاترى من مجموعها سوى نضد واحد ممتد . وقد غُطيت كلها بأنواع شتى من الحلوى : فمنها « الحمصية » وهى حلاوة رُصعت بالحمص ، و «السمسمية» وهى مثلها إلا أنها بالسمسم – وهذه كثيراً ما يتهافت عليها صغار التلاميذ فى الأيام العادية ، فيقبلون على شرائها من الباعة المتجولين كل يوم منجذبين اليها بلذاذة طعمها وبجمال النداءات ذات النغمة الساحرة التى يغنيها الباعة ، مع اللبن الملفوف حول خيوط رفيعة . . . ثم « الجوزية » وهى نوع تتلاشى أمامه « النوجا » الفرنسية وتحسدها عليه مدينة مونتلمار . . . يلى ذلك صفوف طويلة من « العرائس » تكاد تتشابك أذرعتها فتخالها فى مجموعها كأنها فى موكب !

عرائس جذابة ، عذارى من الحلوى ! أبكار توشك أن

تزف إلى عُرسها قد صبوها صباً من السكر المذاب ! وقد صبغوا لهن ... خدودهن الصغيرة بشيء من « الأحمر . . . » ، وكحلوا عيونهن بالكحل الشرقي الساحر ، ثم ألبسوهن فساتين ساذجة لونت بألوان زاهية من أصباغ اليمن . وأما الشعر فقد رُصِّع بأنواع براقة من الخرز الفضي الملون ، وحجاب رقيق من الشاش المهلهل النسج زين أيضاً بفتائل من القصب الوهاج ، وأشرطة من الورق المذهب ، قد أسدل بلباقة وكياسة على رأسها ، ثم تدلى بعضه إلى الأمام ليحجب عنك أيها المحب الشغوف وجهها الحلو الباسم ، فلن ترى جمال تقاطيعه إلا حين تكشف عنه بيدك – يوم الزفاف !

« كم حدثتني نفسي في هذه الساعة أن أحمل واحدة من هذه العرائس المصرية الصغيرة فأضمها إلى قلبي ، ثم أذهب بها هنالك ، في ركن منعزل ، نائياً عن أعين الناس ، بعيداً عن كل ضوضاء ، وفي هدوء وراحة نفس ، أسبل عيني ثم أضع شفتي على شفتيها الحمراوين فأتذوق منهما شيئاً . . ! »

***

هكذا الشاعر يخلق من كل شيء جمالا

وبينما أنا أمر ليلة المولد بهذه « العرائس » تذكرت خيال هذا الشاعر فوقفت سابحاً في أحلامي . . .

ولكن جدة تقتاد حفيدين لها قد دفعتني على غير قصد واقتحمت الزحام . وبعد مساومة ليست بالطويلة خرجت تحمل « سريراً » صغيراً زين بأستار هفهافة من القماش الملون بالأحمر والذهب والمفضض ، وأبت الطفلة إلا أن تحمل « عروستها » بنفسها ، وأما الطفل فقد حمل حصاناً أحمر عليه فارس . . .

هذا الثالوث المزاحم قد أخرجني من حلم ليدخلني في حلم آخر : الجدة تخور لأنها أنجزت تقليداً تعتبره مقدساً ، وهي مسرورة لأنها عاشت واشتركت في ذكرى الرسول للمرة السبعين

أما الطفلة فأي سرور يملأ قلبها ! انظر إليها وهي تجذب جدتها من ملاءتها لتسرع الخطى . . . فهي تريد أن تصل إلى البيت أسرع ما يمكن لترى أمها عروستها الجميلة وسريرها البديع ، وهي تريد أن تقابل صويحباتها زكية وتفيدة وإحسان لتقنعهن بأن عروستها أكبر .. وأنها تملك سريراً ..

وقد بلغ الثلاثة البيت ؛ فالجدة متذمرة لأنها لم تجد الدكاكين مزدانة بالثريات والبيارق الحمر والخضر والصفر مثل « زمان » .. ومحمود الصغير اقتنع مسافة الطريق بأن حصانه لا يستحق الاحتفاظ به طويلاً . . وأنه لا يحقق له أملاً واحداً من آماله : هل أستطيع أن أركبه وأضربه بالسوط ؟ .. إذن . . . وبقضمة واحدة طير رأس الفارس بأسنانه ! ثم ابتدأ في رأس الجواد . .

أما فاطمة فعروستها ستحيا عندها طول حياتها ، لأنها صورة منها ، ولأنها تمثل أحلامها الحلوة ، فهي قطعة من نفسها ! انظر إليها الآن وقد عادت فرحة بعد أن قابلت صويحباتها ، انظر إليها وقد جلست في انهماك ترتب السرير « لعروستها » استمع إليها الآن وهي تغني لها بصوتها العذب الحلو غير الفصيح أنشودة من أناشيد الزفاف !

انهض يا شاعري العزيز وتعال مسرعاً ، ثم انصت في جلال . تعال يا شاعري « فههنا سحر وجمال ! »

م . هداية

١٧ـ قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكى

وكيل كلية العلوم

بستور Pasteur

صـــلة حديثه

وأخذت حياة بستور تصير إلى غير ما عَهِد العلماء من حياةٍ قابعة قاسية. وأصبح يجرى تجاريبه ليجيب بها على ما قام حول نظريته الجرثوميّة من اعتراضات كثيرة، فكانت إجابات قوية مفحمة رنّانة دوت أصداؤها في الجماهير، لأنها أُجريت لتنقع غُلّة الجماهير أكثر مما تنقع غُلّة العلم الهادئ والبحث الرزين. ولكن على الرغم من استدراجه العلمَ إلى الأسواق وسحبه إلى غُمار العامة، كانت تجاريبه رائعة الصنع محذوقة الاجراء، وكانت كأقباس من نار مست خيالات الناس فألهبتها، وآمالهم فأحيتها

وجلب على نفسه خصومة صخابة أقامها بينه وبين رجلين فرنسيين طبيعيين Naturalists يدعى أحدهما إفريمى Fremy والآخر إتريكل Trecul، دارت حول الخمائر والطريقة التى بها تحيل عصير العنب خمرا. فأقرّ «إفريمى» بأن الخمائر لابد منها لهذه الاحالة، ولكنه ادّعى أن هذه الخمائر تنشأ من ذات نفسها فى باطن العنب، وقام فى الأكادمية يناقش هذه الدعوى فى جهالة فسخر أعضاؤها منه وضحكوا جميعاً، إلا بستور فكان من المحنقين

« إفريمى يقول إن هذه الخمائر تنشأ داخل العنب من ذات نفسها! إذن فلأصنع له تجربة تقطع لسانه». وأخذ بستور عدة قوارير مستديرة، ووضع فيها شيئاً من عصير العنب، ثم مط رقابها ولواها كأعناق الأوز، ثم أغلاها دقائق وتركها أياماً ثم أسابيع، فلم تظهر فى العصير فقاقيع، ولم يعله رغاء، ولم يختمر أصلا؛ ثم ذهب إلى كرمة فقطف منها بضع عنبات بلغت النضج ولم تَعدُه، وغسل ظاهرها بماء نقىّ بقلم من الشَّعر عقمه بالتسخين قبلا، وأخذ قطرات من ماء الغسول ونظرها تحت المجهر فوجد بها قليلا من كرّيّات الخمائر المعهودة. وعندئذ أخذ عشراً من تلك القبابات الملتوية الأعناق، وبمهارة فائقة لحم فى جانبها أنبوبة مستقيمة طويلة، ومن هذه الأنبوبة أسقط قطرات من ماء الغسول ذى الخمائر. ولما جاء القبابات بعد أيام وجدها جميعاً مرغيــة إلى عنقها رغوةً تضرب إلى الحمرة دليل اختمار طيب مرضى. وتبقى من ماء الغسول بقيــة، فأغلاها وأسقط قطرات منها فى عشر قبابات أخرى فلم يحدث فيها اختمار لأن الاغلاء قتل الخمائر

قال بستور: « الآن وقد أثبتُّ أن الخمائر توجد على ظاهر العنب، سأثبت لهذا الجاهل إفريمى بتجربة رائعة أن هذه الخمائر لا توجد فى باطن العنب »، وأخذ أنبوبة جوفاء رفيعة كان قد أسخنها فى النار ليقتل ماقد يكون علق بها من أحياء، ثم سدّ طرفها، وكان رفيعاً حاداً، فرفعــه برفق إلى داخل عنبة خارقاً جلدها، ثم كسر هذا الطرف داخلَ العنبة فاندفع بعض عصيرها فى الأنبوبة، وبمهارة ولباقة لا تبارى نقل هذا العصير إلى قبابة بها عصير عنب كان قد عُقم بالتسخين. ورجع اليها بعد أيام فما وقع بصره عليها حتى صاح: « لاحياة لأفريمى بعد اليوم، فعصير العنب بالقبابة لم يختمر، وبطن العنب خلو من الخمائر ». ثم استطرد فنطق بقضــية جامعة شاملة؛ قال: « إن المكروبات لا تنشأ من ذات نفسها فى بطون الأعناب وديدان الخز وأجسام الحيوانات الصحيحة، وهى لا توجد فى دم الحيوان ولا فى بوله. فان هى وجدت فى شىء من ذلك فانما دخلت اليه من الخارج » ولــكأنى بك تسمعه يتحدث إلى نفسه: « وستعلم الدنيا قريباً ماتؤدى اليه هذه التجربة البسيطة من إحداث معجزات بليغة »

— ٨ —

ولم يمض وقت طويل على هذا حتى ظهر أن أحلام بستور لم تــكن أضغاثاً، وأن ماخاله من انمحاء الأمراض على ظهر الأرض لم يكن أملاً جامحاً. فجاءه كتاب من الجرّاح الاسكتلندى « لستر » Lister يذكر فيه إعجابه الشــديد به وسروره الــكثير بأعماله، ويصف له فيه طريقة جديدة لفتح أجسام المرضى وإجراء العمليات الجراحية فى نجوة من ذلك الوباء الخفى الذى اعتاد أن يذهب فى المستشفيات بحياة ثمانية من كل عشرة من الرجال والنساء. كتب له لستر يقول: « فأنا أستميحك فى أن أشكرك

شكراً خالصاً إذ هديتني بأبحاثك المجيدة إلى الحق فى أمر هذه الجراثيم التى تسبب التعفن والفساد ، وأنرت لى السبيل إلى النظرية الوحيدة التى لا ينجح تعقيم إلا بها . وإذا أنت تحملت المشقة فزرتنا فى أدنبره فسوف لا تأسف على هذه الزيارة إن شاء الله ، لأنك سترى بعينك فى مستشفياتنا كثيراً من الخلق المساكين قد استفادوا استفادة كبرى من أعمالك »

ففرح بستور بهذا الخطاب فرح الطفل أنجز تركيبَ قاطرة فدار بها على إخوانه يريهم ما صنعت يداه . ولم يكتف بهذا بل نشر الكتاب بكل مديحه فى المجلات العلمية ، وزاد فنشره فى كتاب له عن البيرة ! ! ولم يشأ أن ينقضى هذا الحادث دون أن يلكُم إفريمى المسكين لكمة أخيرة ، وقد يحسب حاسبٌ أن تجارب بستور كان فيها لأفريمى لكمات مشبعمات كافيات . ولم ينل من إفريمى نيلته الأخيرة بذمه ، وإنما نالها بمدح نفسه وتمجيد تجاربه والثناء على نظرياته . قال : « إن محك النظريات مقدار إثمارها وكمية نفعها » . وصمت إفريمى فلم يحر جواباً

وشغل حديث المكروب أوروبا كلها ، وعلم بستور أنه هو الذى وجه أنظار الناس إلى المكروب وإلى خطورته فلم يعودوا ينظرون اليه نظرتهم إلى الأُلعبة الغريبة المسلية ، بل عرفوا مقدار نفعه لبنى الانسان واستيقنوا من ذلك ، وكانوا على وشك أن يعرفوا مقدار ضرره لبنى الانسان كذلك ، وكيف أنه على صغره يعيث فيهم تلصصاً واغتيالاً . وأولت فرنسا بستور شرفاً كبيراً إذ نصّبته أولَ رعاياها . وشرفته الأمم -- حتى بلاد الدنمارك أقام خمّاروها له التماثيل فى معاملهم وأثنوا عليه خيراً

ومات فجأة « كلود برنار » Claud Bernard ، فقام أصدقاء هذا الرجل الكبير بنشر مؤلف له لم يبلغ تمامه ، وكان مؤلفاً فى تخمر عصير العنب ، ختمه برنار بدحض نظرية بستور كلها وعزز دعواه بأسباب عدة ، وبلغ بستور الخبر فلم يصدق أذنيه . برنار يفعل هذه الفعلة ! برنار العظيم ، جليسه فى الأكاديميه ومطريه ومطرى أعماله دائماً ! برنار الذى سارقه الضحكات وبادله الغمزات وناقله الفكاهات فى أكاديمية الطب عن أولئك الأطباء ذوى الثياب الزرقاء ، والأزرار النحاسية الصفراء ، والأنوف الوارمة والرؤوس الجوفاء ، أولئك الأطباء الذين قاموا حجر عثرة فى سبيل دخول التجربة الصحيحة إلى الطب والتطبيب !

وأخذ بستور يتمتم لنفسه : « ناقضنى هؤلاء الأطباء الأغبياء ، وناهضنى أولئك الطبيعيون الحمق ، وكان فى هذا من السوء مافيه . ووازرنى العلماء ، ومجّد أعمالى الكبراء ، فما بال برنار يأتى اليوم بالذى أتاه . . ؟ »

ذُهل بستور ، ولكن لم يطل به الذهول . وقام يطلب أصولَ المؤلَّف والأوراق ذاتها التى خطها برنار بيده ، فأعطوه إياها . فقعد يجمع أشتات فكره لدراستها ، فوجد أن ما صنعه برنار لم يكن إلا مبادئ تجريبية ومحاولات تقريبية . وسرّه وأبهجه أن كشف أن أصدقاء برنار لم ينشروا ما كتبه بنصه كاملاً ، بل زادوا وحذفوا ، فأحكموا الحذف وحَذَقوا الزيادة ، كىْ يستقيم الكتاب ويصحّ لدى القارئين . وذات يوم قام فى الأكاديمية فعرّ أعضاءها ، وأساء الى رجالات فرنسا إذ أنحى باللوم اللاذع القبيح على أصدقاء برنار لتهجّمهم بنشر كتاب يجرؤ على التشكك فى نظرياته ، وإذ صرخ صرخات عنيفة مرذولة إلى برنار ، وبرنار فى قبره لا يستطيع دفعاً عن نفسه ، وعقّب على هذا بنشر رسالة فى نقد أبحاث صديقه القديم ، رسالة أعوزها الذوق السليم ، رسالة تتهم برنار — وهو رجل عالم من قمة رأسه إلى أخمصه — باقتباسه الخرافة من كثرة صحبته للأدباء الناابهين من أعضاء الأكاديمية ، رسالة تحاول أن تثبت أن برنار فى آخر أبحاثه كَلّ بصره فلم يعد يرى الأشياء ، وتهزأ به فتقول احتمالاً إن بصره طال طولاً لم يَعُدْ معه يرى الخمائر القريبة . وألحّ بستور فى هذا النقد حتى ترك العامة تحسب أن برنار أصابه خرف الشيخوخة فى آخر أيامه عندما كتب كتابه هذا . وفقد بستور الحس بالحسن والقبيح ، وفقد مقاييس اللياقات ، فأخذ فى ثورته يدق بقدميه على قبر برنار دقات ثقيلة كادت تُقلق جثته تحت التراب

وأخيراً ثاب إلى رشده ، وسلك فى رده على برنار السبيل التى يؤثرها كل عاقل على مقالة السوء ولغو الكلام . تلك سبيل التجربة . فأجرى تجارب غاية فى الابداع . وجرى على طريقة الأمريكيين إذا هم أرادوا بناء ناطحة من ناطحات سحابهم فى ستة أيام . فهرع إلى مخازن البيع فاشترى قطعاً من الزجاج

عظيمة ، وهرع إلى النجارين ، وطلب اليهم أن يصنعوا من هذا الزجاج بيوتاً كرابي النبات يَسهُل حملها ويُستطاع نقلها وتركيبها . وقام على أعوانه يستحثهم فى انجاز قبابات وتجهيز مكرسكوبات وتعقيم لفافات من القطن ، فنسوا الطعام وعزَّهم النوم . وفى وقت بالغ القصر جمع كل هذه الأشياء وسافر بها الى بيته العتيق فى جبال الجورا . ونفض يده فى أثناء ذلك من كل عمل ، وأشاح بوجهه عن كل اعتبار ، واتجه بكل نفسه قُدُماً الى اثبات أن نظريته فى التخمّر نظرية صحيحة

وما بلغ بلدته أربوا حتى ذهب إلى كَرْمته ، ولم يُضع وقتاً سُدى ، فقام على بيوت الزجاج التى جاء بها فنصبها على بعض أعنابه فحجبتها عن الهواء الخارج حجباً محكما . وأخذ يفكّر : « هذا الصيف قد تنصّف ، والعنب لايزال فِجاً ، وأنا أعرف أن العنب فى هذا الوقت لايحمل على جلده خمائر أصلاً » . وأراد أن يزيد وثوقاً من ذلك ، فلفّ بعض المناقيد فى بيوت الزجاج بلفافات القطن التى كان سخنها مساعدوه ليقتلوا ما علق بها من الأحياء . وأسرع فى العودة إلى باريس واصطبر بها على أحر من الجمر حتى ينضج العنب ، ونفد صبره يوماً فجاء أربوا وكله أمل أن يثبت أن برنار كان خاطئاً ، ولكنه وجد العنب لايزال فجاً فعاد خائباً . ونضج العنب أخيراً ، فأخذ يمتحن جلود العنب ببيوت الزجاج تحت المجهر ، فلم يجد عليها خميرة واحدة . وقام من على المجهر ثائراً ، فأخذ شيئاً من هذا العنب فعصره فى قبابات أجاد تسخينها لتعقيمها ، وتركها فلم تظهر فى عصيرها فقاعة للتخمّر واحدة . وعصر عنباً من كرمة خارج بيت الزجاج ، فهذا استحال عصيره الى خمر سريعاً . وماانتهى من هـذا حتى جمع بعض تلك المناقيد الطهور الخالصة من الخمائر ، واعتزم ليحملها الى الأكاديمية ويهدى كل عضو أحب عنقوداً ، ثم يتحداهم أجمعين أن يخرجوا من هذه المناقيد المصونة خمراً ... وقد أيقن أن هذا محال إلا إذا هم أدخلوا الخمائر اليها ... وأمّل من وراء كل هذا أن يثبت لهم أن برنار خانه الحظ فى الذى قال ، وركبوا القطار الى باريس ، وظلت مدام بستور السكينة فى جلستها الطويلة مستقيمة الظهر تحمل أمامها عناقيد العنب حذر أن تسقط لفائف القطن عنها

وجاء موعد انعقاد الأكاديمية ، فقام بستور يصف لرجالها كيف صان عنبه من الخمائر فلم تنلها . وصاح فيهم : « أليس عجيباً أن أرض كرمتى يوم بدأتُ تجاربى لم تكن بها حصوة إلا استطاعت أن تخمّر عصير العنب ! وما يصدق على كرمتى يصدق على كروم الدنيا الواسعة . ثم أليس عجيباً بعد هذا أن بيوت الزجاج التى نصبتها خلت أرضها من الخمائر فلم تستطع لعصير العنب تخميرا ! ثم أتدرون لماذا ؟ لأنى فى الوقت المناسب حجبت هذه الأرض عن الهواء بتلك البيوت من الزجاج ! ... »

وخرج من هذا إلى نبوءات عجيبة ، إلا أنها على غرابتها قد تحققت اليوم . نبوءات كالوحى ، وخيالات كالشعر ، تجملك تنسى خصومته القبيحة المرذولة التى أثارها على برنار . قال : « أفلا يجوز لنا بعد هذا أن نؤمن بيوم هو لا بد آتٍ يستطيع فيه الانسان أن يحمى نفسه من الوباء حماية أرض هذه الكرمة من خمائر الهواء » . وكانت الحمى الصفراء أصابت أُرْليانزة الجديدة New Orleans فتركت عامرها خراباً ، فقام يصوّر لهم تلك النازلة الفادحة تصوير فنان ماهر ، وصور لهم كذلك فعل الطاعون الأسود على شواطئ الفلجا ، فلما روعهم وقشعر أجسامهم ، ضرب نغمة جديدة سرت فيهم بالرجاء

وفى هذه الأثناء ، فى قرية صغيرة فى شرق ألمانيا كان طبيب بروسى صغير السن ، مدوّر الرأس ، حرونٌ ، آخذ فى ترسم الطريق الذى يؤدى به إلى نفس تلك النبوءات التى تنبأ بها بستور هذا الدكتور الشاب كان يسارق مرضاه الوقت ليفرغ لتجارب يجريها على الفئران ، وليستخرج طرائق فى معالجة المكروب يتعرف بها شخصية كل نوع فلا تختلط عليه أجناسها ، وليأتى بأمر لم يستطع بستور اتيانه على رغم حذقه وعلوّ كعبه

والآن ، فلندع بستور الى حين ، وانقف عند هذه المرحلة من حياته ، ولو أنها مرحلة ستأتى من بعدها تجارب قام بها بستور كانت من أروع ما قام به فى حياته ، ومناقشات أثارها كانت من أفكه المناقشات ؛ لندع ذلك لنعرج إلى روبرت كوخ Robert Koch لنرى كيف غزا دولة المكروب وقد كانت وقفاً على بستور سنين طوالا

(يتبع)

أحمد زكى

٢٦ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الاستاذ زكى نجيب محمود

ـ حدثنى إذن ماهو الشىء الذى يجعل الجسم حياً بحلوله فيه ؟

فأجاب : هو الروح

ـ أهذه هى الحال دائماً ؟

فقال : نعم ، بالطبع

ـ إذن فمهما يكن ما تملكه الروح ، فانها إذ تأتيه تحمل إليه الحياة ؟

ـ نعم ، يقيناً

ـ وهل ثمت ضد للحياة ؟

فقال : نعم هناك

ـ وما هو ذاك ؟

ـ الموت

ـ إذن فلن تقبل الروح أبداً ، كما اعترفنا ، ضد ذلك الذى تسوقه . ثم قال : والآن ، بماذا سمينا ذلك العنصر الذى يقاوم الزوجى ؟

ـ الفردى

ـ والعنصر الذى يقاوم الموسيقىّ أو العادل ؟

فقال : غير الموسيقىّ وغير العادل

ـ وبماذا نسمى ذلك العنصر الذى لا يقبل الموت

فقال : الخالد

ـ وهل تقبل الروح الموت ؟

ـ كلا

ـ إذن فالروح خالدة ؟

فقال : نعم

ـ أيحق لنا القول بأن ذلك قد ثبت بالدليل ؟

فأجاب : نعم يا سقراط ، لقد ثبت بأدلة كثيرة

ـ وإذا فرضنا أن الفردىّ لا يخضع للفناء ، أليس يلزم أن ثلاثة غير قابلة للفناء ؟

ـ طبعاً

ـ وإذا كان الشىء البارد غير قابل للفناء ، ثم جاء العنصر الدافىء يهاجم الثلج ، أفلا ينبغى للثلج أن يتراجع متماسكا متجمداً لأنه عندئذ يستحيل عليه أن يفنى كما كان يستحيل عليه أن يبقى مع قبوله للحرارة ؟

فقال : حقاً

ـ وكذلك لو كان العنصر الذى لا يبعث البرودة ، أى الدافىء ، مستعصياً على الفناء ، لما فنيت النار وما انطفأت حين تغير عليها البرودة ، ولكنها تنأى بغير أن تتأثر ؟

فقال : يقيناً

ـ ويمكن أن يقال هذا القول نفسه عن الخالد : لو كان الخالد مستعصياً كذلك على الفناء ، لاستحال فناء الروح حين يهاجمها الموت ، إذ يدل البرهان السابق على أن الروح لن تكون قط ميتة ، فلن تقبل الموت أكثر مما تقبل ثلاثةٌ أو العددُ الفردىُّ الزوجىَّ ، أو النار ، أو الحرارة التى فى النار ، البرودة ، ومع ذلك فرب أحد يقول : « ولكن على الرغم من أن الفردى لن يصير زوجياً حين يقترب الزوجىُّ منه ، فلماذا لا يجوز أن يفنى الفردى وأن يحل مكانه الزوجى ؟ » ونحن لا نستطيع أن نجيب من يتقدم بهذا الاعتراض بأن العنصر الفردى مستعص على الفناء لأن ذلك لم يعترف به بعد ، فلو قد اعترف بهذا لما أشكل علينا الزعم بأن العنصر الفردى والعدد ثلاثة يهمان بالرحيل حين يقترب الزوجى ، وهذا البرهان بعينه كان يصح عن النار وعن الحرارة وعن أى شىء آخر

ـ جد صحيح

ـ ويجوز هذا القول نفسه عن الخالد : لو كان الخالد مستعصياً كذلك على الفناء ، إذن لكانت الروح مستعصية على الفناء كالخالد سواء بسواء ، فان لم يكن ، وجب أن يقام برهان آخر على استحالة فنائها

فقال : ليس بنا من حاجة إلى برهان آخر ، إذ لو كان الخالد ـ وهو سرمدى ـ عرضة للفناء ، للزم ألا يستحيل الفناء على شىء

فأجاب سقراط : نعم ، فكل الناس مسلِّمون بأن الفناء مستحيل على الله وعلى صورة الحياة الروحية وعلى الخالد بصفة عامة

قال : نعم ، كل الناس بذلك مسلمون ـ هذا صحيح ، وأكثر من هذا ، فهم مجمعون ـ إن لم أكن مخطئاً ـ على أن الآلهة كالناس في ذلك

ـ وإذن فما دمنا قد رأينا أن الخالد لا يناله التخريب ، أفلا يلزم أن تكون الروح مستعصية على الفناء كذلك ـ ما دامت خالدة ؟

ـ بكل تأكيد

ـ إذن فحين يهاجم الموت انساناً ، فقد يتعرض الجزء الفاني منه للموت ، أما الخالد فينأى عن طريق الموت حيث يُحْفظ مصوناً سليما ؟

ـ حقاً

إذن يا سيبيس فالروح خالدة بغير شك ، وهي مستعصية على الفناء ، وستحيا أرواحنا حقاً في عالم آخر !

فقال سيبيس : إني مقتنع يا سقراط ، وليس لديّ بعد ذلك ما أعترض عليه . فان كان عند صديقي سمياس ، أو عند أحد سواه اعتراض آخر ، فيجمل به ألاّ يلتزم الصمت وأن يعلنه . اللهم إن كان لديه شيء يريد أن يدلي به ، أو كان يود لو أدلى به ، فلست أرى أن سيجود عليه الدهر بأنسب من هذه اللحظة ، حتى يجوز له أن يرجىٰ اليه الحديث

فأجاب سمياس : ولكن ليس عندي ما أقوله بعد ذلك ، بل لست أرى مجالاً للشك ، إلا ما ينشأ حتما عن ضخامة الموضوع وضعف الانسان ، فذلك مالم يسعني إلا أن أشعر به

فأجاب سقراط : نعم يا سمياس فقد أحسنت قولاً : أضف إلى ذلك أن المبادئ الأولى يجب أن تبسط للبحث الدقيق حتى وإن كانت تبدو يقيناً ، فاذا ما استوثقنا منها وثوقاً مرضياً ، استطعنا بعدئذ ، فيما أظن ، في شيء من الايمان المزعزع بالعقل البشري ، أن نتتبع مجرى البرهان ، فان ألفيناه واضحاً لم يكن بنا بعد ذلك حاجة لسؤال

فقال : ذلك صحيح

(يتبع) زكي نجيب محمود

أبو العباس أحمد المقَّرى

١٠٤١ هـ – ١٦٣١ م

بقلم عبد الهادى الشرابى

تتمة

هـذا ولا نثني عنان القلم دون أن نشير إلى تلك القصة الشعرية الاستعراضية لحوادث الدهر وأيام الأول ، وهى طويلة نجتزىء منها ببعض فقرات يقول فى فاتحتها :

سبحان من قسم الحظو ظ فلا عتاب ولا ملامه
أعمى وأعشى ثم ذو بصر ، وزرقاء اليمامه
ومسدد ، أو جائر أو حائر يشكو ظُلامه
لولا استقامة من هدا ه لما تبينت العلامه

***

... فالعيش فى الدنيا الدنيـــة غير مرجو الادامه
من أرضعته ثديها فى سرعة تبدى فطامه
من عز جانبه بها تنوى على الفور اهتضامه
وإذا نظرت فأين من منعته أو منحتْ مرامه
... أين الذين قلوبهم كانت بها ذات استهامه
أين الذين تفيئوا ظل السيادة والزعامه
أين الملوك ذوو الريا سة والسياسة والصرامه
... أم أين عنترة الشجـــاع وذو الجدا كعب بن مامه
والزاعمون بجهلهم أن القبور صدى وهامه[1]
والمكثرون من الجو ن إذا شكا الفكر اغتمامه
أين الغريض ومعبد أو أشعب وأبو دلامه
أين الألى هاموا بسعـــدى أو بُثينة أو أمامه
وبكوا لفرط جواهم والليل قد أرخى ظلامه
وتتبعوا آثار من عشقوا بنجد أو تهامه
وتململوا ، والشوق يغــــلب ، بالأراكة والبشامه

(١) يقول ذو الاصبع العدوانى :
ياعمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

... وسقاتها المتلاعبـــون بلب من أعطوه جامه
من كل أهيف يزدرى بالغصن إن يهزز قوامه
ذى غرة لألاؤها يمحو عن النادى ظلامه
فالشمس فى أزراره والبدر فى يده قلامه
يصمى القلوب إذا رمى عن قوس حاجبه سهامه
ويروق حسنا ان رنا ويفوق[1] آراما برامه[2]

ثم يشكو صروف الدهر وفجائعه بفخر الأدب « ذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب » :

راعت صروف الدهر دو لته ، وما راعت ذمامه
حتى ثوى إثر النوى فى حفرة نثرت عظامه[3]
من زارها فى أرض « فا س » أذهبت شجوا منامه
إذ نبهته لكل شمـــل شتت الموت التئامه
هذا لسان الدين أســكته وأسكنه رجامه
ومحا عبـــارته فمن حياه لم يردد سلامه
فكأنه ما أمسك الـ قلم المطاع ولا حسامه
وكأنه لم يعلُ متـ ـن مطهم بارى النعامه
وكأنه لم يرق غا رب الاعتزاز ولا سنامه

***

. . . مذ فارق الدنيا وقو م ض عن منازلها خيامه
أمسى بقـــبر مفرداً والترب قد جمعت عظامه
من بعـــد تثنية الوزا رة ، جاده صَوب الغمامه
لم يبق إلا ذكره كالزهر مفـــتر الكمامه

— ٤ —

وله فى الشعر المنثور رسائل بليغـــة ، ومساجلات أدبية رائقة ؛ ويكفى أن نلقى نظرة على كتابه الحافل « نفح الطيب » الذى هو سجل لألوان الأدب الأندلسى ، وديوان لأخبارهم وطرائفهم ، والذى تدين له العروبة والتاريخ والأدب والفن بأكبر الفضـل فى جمع أشتاتها ، ونظم متناثرها ، تخلد بعمله ذاك

(١) آرام : جمع ريم وهو الظبى
(٢) وامه : موضع بالبادية تكثر فيه الظباء
(٣) إذ بلغ من كيد أعدائه أن اقتحموا عليه السجن فخنقوه ثم وضعوه فى قبر وحرقوا جثته فصار طعاما للنار كما يقول عن نفسه متنبئا :
وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فها نحن قوت

صوراً حية من الحضارة الأندلسية ، ومدنيـة العرب فى أوربا « من مطالع فجرها حتى مغرب شمسها » ! . . .

وإليك ما يقول فى وصف البحر حين نزوحه عن مسقط رأسه الى ديار الشرق والحجاز :

« . . . ثم جد بنا السير فى البر أياماً ، ونأينا عن الأوطان التى أطنبنا فى الحديث حبالها وهياما ، وكنا عن تفاعيل فضلها نياما ، الى أن ركبنا البحر ، وحللنا منه بين السحر والنحر ، وشاهدنا من أهواله ، وتنافى أحواله ، مالا يعبر عنه ، ولا يبلغ له كنه . فكم استقبلتنا أمواجه بوجوه بواسر ، وطارت الينا من شراعه عقبان كواسر ، قد أزعجتها أكف الرياح من وكرها ، كما نبهت اللجج من سكرها ، فلم تبق شيئاً من قوتها ومكرها ، فسمعنا للجبال صفيرا ، وللرياح دوياً عظيما وزفيرا ، وتيقنا أنا لا نجد من ذلك إلا فضل الله مجيرا ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، وأيسنا من الحياة لصوت تلك العواصف والمياه ، فلا حيا الله ذلك الهول المزعج ولا بياه ، والموج يصفق لسماع أصوات الرياح فيطرب بل ويضطرب ، فكأنه من كأس الجنون يشرب أو شرب ، فيبتعد أو يقترب ، وفرقه تلتطم وتصطفق ، وتختلف ولاتكاد تتفق ، فتخال الجو يأخذ بنواصيها ، وتجذبها أيديه من قواصيها ، حتى كاد سطح الأرض يكشف من خلالها ، وعنان السحب يختطف فى استقلالها ، وقد أشرفت النفوس على التلف من خوفها واعتلالها ، وأذنت الأحوال بعد انتظامها باختلالها ، وساءت الظنون ، وتراءت فى صورها المنون .

. . . ونحن قعود ، كدود على عود ، ما بين فرادى وأزواج ، وقد نبت بنا من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، وتوهمنا أنه ليس فى الوجود ، أغوار ولا نجود ، إلا السماء والماء ، وذلك السفين ، ومن فى قبر جوفه دفين ، مع ترقب هجوم العدو ، فى الرواح والغدو ، لاجتيازه على عدة من بلاد العدو . . لا سيما مالطة الملعونة ، التى يتحقق من خلص من معرتها أنه أمد بتأييد إلـهى ومعونة . فقد اعترضت فى لهوات البحر الشامى شجا ، وقل من ركبه فأفلت من كيدها ونجا ، ... وتشتت أفكارنا فرقا ، وذبنا أسى وندما وفرقا ، إذ البحر وحده لا كمى يقارعه ، ولا قوى يصارعه ، ولا شكل يضارعه ؛ لا يؤمن على كل حال ، ولا يفرق بين عاطل وحال ، ولا بين أعزل وشاكى ، ومتباك وباكى ، فكيف وقد انضم اليه خوف العدو الغادر الخائن ، الى أن قضى الله بالنجاة وكل ما أراد فهو الكائن . » الى أن يقول :

« فترى الأنفاس تعثر فى زفرة الأشواق ، والأجسام قد زرت عليها من التعب الأطواق ، وتساوى فى السير نهار مشرق ، وليل مقمر أوداج . . ثم وصلنا بعد خوض بحار ، يدهش فيها الفكر ويحار ، وجَوب فياف مجاهل ، يضل فيها القطا عن المناهل ، الى « مصر » المحروسة فشفينا برؤيتها من الأوجاع ، وشاهدنا كثيراً من محاسنها التى تعجز عن وصفها القوافى والأسجاع ، وتمثلنا فى بدائعها التى لا تستوفيها ، بقول ابن ناهض فيها :

شاطئ مصر جنة	ما مثلها فى بـــلد
لا سيما مذ زخرفت	بنيلهـــــا المطرد
وللرياح فوقـــه	سوابغ من زرد
مسرودة ما مسها	داودهـا بمـبرد
سـائلة ، وهو بها	يرعد عارى الجسـد
والفلك كالأفلاك بيـ	ـن حادر ومصعد

— ٥ —

وبعد فلعل هذه الكلمة تكون حافزاً لأدباء العرب إلى دراسة هـذا الأديب الكبير والاهتمام بآثاره القيمة ، وتوفيتها حقها من البحث والاستنتاج ، ومن هاتيك الخدمة إعادة طبع كتابيه الكبيرين « نفح الطيب » و « أزهار الرياض » فى شكل يلائم قيمتهما الأدبية والتاريخية مع مراجعتهما على الأصول وتتميم النقص الذى بهما

(فاس)	عبد الهادى الشرايبى

أجـــد وأمزح

اندفاعات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

أنا ما برحت ولا أرانى أبرح ... بين الضلالة والهدى أترجّح
طوراً بإبليس الموسوس أقتدى ... طَرِباً وطوراً للإلٰه أُسبِّح
إنى أرى أن السلامة فى التُّقى ... لو كان شيطانى بذلك يسمح
ابليسُ يُغوينى فإن لم يهدنى ... ربى فإن به مصابى يفدح
وإذا استقرت فى الحياة عقيدة ... يوماً فبالبرهان لا تتزحزح
فى الشكّ وخزٌ واليقين قناعةٌ ... فانظر لأىّ المَسلكين ترُجّح
لم أطمئن إلى الحياة فإنها ... عبءٌ وتحت العبء ناسٌ ترزح
تبكى اليتامى ثم إنى لا أرى ... لدموعهم مذروفةً مَن يمسح
سأل القطيع المالكيه راعياً ... فأجيب هاك الذئب فهو الأصلح
إن كان فى ذكر الحقيقة جهرةً ... قبحٌ فكتمان الحقيقة أقبح
مَن لى بصبح أهتدى فى ضوئه ... فالليل داج والكواكب جُنّح

***

ما كل أقوالى بنات عقيدتى ... إنى لفى شعرى أجد وأمزح
وإذا ذممتُ فلا أذمّ سوى الذى ... يأتى من الأفعال ما أستقبح
إنا بعهدٍ للعروبة حاجةٌ ... فيه لإصلاح وأين المُصلح
لم يكتب الله البقاء بأرضه ... إلاّ لمن هو للوغى يتسلّح
أما الطبيعة فهى خرساء إذا ... ساءلتها عن أمرها لا تفصح

***

مازال هذا الكون سراً غامضاً ... ولعلّ ماهو غامضٌ يتوضّح
إن الحياة روايةٌ قد أحسنوا ... تمثيلها والأرضُ نعم المسرح
دهرى تربّانى ودهرى هدّنى ... أأذمّ دهرى أم لدهرى أمدح
ذهب الشبابُ مخلّفاً اغلاطَه ... ووددت لو أن المشيب يصحّح
عمرٌ بمختلف الحوادث حافلٌ ... وَلَّى فما للنفس فيه مَطمح
قد ذقتُ حلوَ العيش فيه ومرّه ... وخلت يدى حيناً وكانت تطفح
كم بائس يطوى سجلّ حياته ... يأساً كما يتطوّح المتطوّح
وأرى الكآبة للسرور ذريعةً ... من لا يلاقى غمّةً لا يفرح
قد كنتُ فى عهدٍ مضت أيّامُه ... أمسى على ضوء كأنى أُصبح
لم أمتدح عهد الشباب وطيبه ... حتى علتنى كبرةٌ لا تُمدَح
بقيت بنفسى فى الحياة لبانةٌ ... أدنو إليها وهى عنى تنزح

***

فى الصبح غرّدْ يا هزار فإنما ... قبل الصباح الوردُ لا يتفتّح
واشممه والثم ثغره قبل الضحى ... فالورد إن جاء الضحى يتصوّح
صاح الغراب على كراهة صوته ... فى الروض واختار الصُّموتَ الصيدح
ودّوا لو أنّى قد جنحتُ عن الهوى ... فى كبرتى لكننى لا أجنح
إن كنتُ شيخاً قد كبرتُ عن الصبى ... فالقلب لم يكبر وروحى تمرح
شُقّوا فؤادى وانزعوا منه الهوى ... ولعلّها عمليةٌ لا تنجح
إنى بأوطانى التى أحببتُها ... بالشعر للآتى البعيد ألَوِّح
يا حبذا لو أن زوحى بعد ما ... تلقى المنيّةَ فى المجرّة تسبح

(بغداد) **جميل صدقى الزهاوى**

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١١ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

— ٢ —

وهنالك علاقته مع المرأة تبدى ناحية من نواحى نفسه ، فقد زعم أناس أن نيتشه كان يذهب مع المرأة مذهب معلمه « شوبنهاور » كاره المرأة ، ويستشهدون على ذلك بقوله : « أيها الذاهب إلى المرأة ! لا تنس عصاك وسوطك » ولكن هذا الحكم يسهل نقضه على المدقق فى تعاليم نيتشه ، فالمرأة التى طمنها نيتشه فى الصميم هى المرأة المترجلة التى تريد أن تزاحم الرجل فى علمه وجهاده واقتصاده ، أما غير هذه المرأة فهو مقدر لها محترم لفضلها ، مقدس لمعنى المرأة فيها ؛ ولقد كان له منهن صديقات وصاحبات فضليات ، وهو — وإن لم يتذوق من امرأة ذلك الهوى العاصف والحب اللاعج فقد تذوق عطفها الرقيق وعاطفتها الخالصة . وقد ذكرت شقيقته فى مذكراتها « ان أخاها كان يجهل الحب العادى . . . وإنما كان همه الشاغل له التفتيش عن الحقيقة » . على أن هذا الفيلسوف السئم « المنطوى على نفسه » الذى لم يستسلم للأهواء المصطخبة والميول الملتهبة ، قد تذوق فى أيام نكبته من عطف المرأة ما لم ينعم بمثله إلا قليل . . . فهو صاحب مثل أعلى فى الحب كما كان فى الصداقة

وهنالك نشأته المدرسية فقد دلت على طبعه «الارستقراطى» الذى ينفر من كل شىء مبتذل شائع ، ولا يميل إلا إلى كل جميل لامع ، وطبعه هذا هو الذى حمله على اعتزال رفاقه الذين يدرسون معه ، وذوقه هذا الجانح إلى محبة الأشكال الجميلة هفا به إلى عشق الجمال القديم وحب العبقرية الفرنسية الغابرة والحاضرة . ونفوره هذا من السوقة والعامة جعله ينفر من المسيحية ، ويصفها ويصف أصحابها ورسلها وصفاً قاسياً ، ويكره كل المبادىء التى تبشر بها الديموقراطية والانسانية الاشتراكية . وكل تعاليمه الأخلاقية إنما تؤول إلى هذه الغاية : « هل هذه العاطفة شريفة أو غير شريفة ؟ » ولعل نيتشه كان يمثل نفسه الجبارة فى هذه الكلمة التى رددها « زرادشت » حين يقول :

(تسألوننى لماذا ؟ أنا لستُ ممن يُسألون حين يعملون لماذا ؟) وهذه صفة نفس لا تعتمد إلا على إرادتها ، تحتمل الألم وتصدمه ثم تهزمه ، وتقابل القدر وتملن سيادتها عليه

أطوار حياته

كان هوى نيتشه الراسخ فى صدره هو المثور على الحقيقة ، فلننظر أية طريق ركب اليها ، وما هى الدوافع التى هيمنت عليه ؟

كان نيتشه يمت بنسب قوى الى أسرة مغرقة فى دينها ، متشددة متعصبة ، مع ميل الى الدراسة العلمية ، قرن والده العلم الى الدين ؛ وما كان لنيتشه أن يبدل هذا السبيل الذى اختاره له والده واختارته طبيعته ، وقد عرفه أصدقاء حداثته مغالياً فى دينه وفى تقواه ، ولا عجب إذا أطلقوا عليه — وهو فى السادسة من عمره — اسم العابد الصغير ؛ حتى إذا ما أتم دراسته الأولى خرج الى الحياة وهو لا يزال يفكر فى ربه ، ولا يكفر بنعمته ، ولا يجحد وجوده . وما هى إلا أعوام كرت حتى أخذ يرتاب فى الدين الملاصق للعلم ، لأن ما فى الدين من إيمان لا يلائم فى رأيه ما فى العلم من حرية وانطلاق ! وهو عند ما يعمل على درس الطبيعة والتاريخ متوخياً الحقيقة من وراء دراساته يجد فى عمله هذا ما يسمح له بأن يكون طليقاً حراً لا يسترقه شىء . ومنذ ذلك الحين بدأ يطمع فى الحقيقة العلمية التى يقتنى أثرها فكره الضائع دون أن يفقد الله الساكن فى أحناء صدره . ولكن ناشد الحقيقة العلمية لا يتسنى له أن يوفق زمناً طويلاً بين حقيقته المنشودة وبين إيمانه الموروث . فهما حقيقتان متضادتان ، إذا تلاءمتا فى أول الطريق فنزاعهما حقيق فى وسطه ، وإذا توافقتا فى وسطه فالخلاف ناشب فى منتهاه . وها هو ذا نيتشه يفصل الآن بين هاتين الحقيقتين ، ويكتب عام ١٨٦٢ تجربة فلسفية على القدر والتاريخ ، يحدثنا أنه قاس بعقله « أوقيانوس الأفكار الواسع ، وهم بأن يجازف بنفسه فى بحر الشك ، ولكنه وجد أن مجازفة مثل روحه الضعيفة تجاربها ضرب من الجنون ، وهى لا تملك عدة ، ولا تحمل سلاحاً » ومنذ تلك اللحظة ألفى أن الديانة المسيحية مبنية على افتراضات وهمية . أما وجود الله والخلود والوحى فستبقى جميعها مسائل لا حل لها . (إننى جربت أن أكفر بكل هذا ، وما أيسر الهدم ! ولكن الهدم يستلزم البناء ... على أن الهدم والتخريب هما أصعب مما تتمثله عقولنا ، فنحن فى الحقيقة لا نعيش لأنفسنا ولا نملك أنفسنا وقفاً علينا . فهنالك أوهام الطفولة وأساطيرها تحتل مكاناً منا ، وهنالك تعاليم الآباء والمعلمين تؤثر فينا ، وكلها

عوامل مترابطة متلاحمة لا يسهل على العقل أن يخترق سياجها ، ولا يمكن للمنطق أن يقوم اعوجاجها

إن قوة العادة المتوارثة ، وتسامينا الى الكمال ، وانفصالنا عن العالم الحالى ، وحل كل عقد المجتمع ، والشك فى حقائق الوجود ، كلها نوازع تتنازعنا وتملك علينا إرادتنا ، والنكبات المفجعة ، والتجارب المؤلمة ، هى التى تسوق قلوبنا الى الايمان الذى ولد مع طفولتنا ، وصاحب حداثتنا)

وبعد ثلاثة أعوام ألفينا « نيتشه » يخطو خطوته الأخيرة ، ويعلن أن الانسان بين حالين لا ثالث لهما : فهو إما أن ينتخب الايمان وما فى الايمان من هدوء ووقار واستقرار ، وإما أن يمشى على طريق محفوفة بالأخطار : هى طريق الباحثين عن الحقيقة ، الذين لا يتخذون الهدوء والسكينة مأرباً لهم ، وإنما يجدون مأربهم فى نشدان الحقيقة . يمشى الباحث منهم وحده مضطرب النفس قلق الضمير ، ممزق القلب ، نحو ضالته المقصودة ، نحو ما يتجلى له من حق وجمال وخير ، وهو إذا غادر طريق الباحثين ورضى لنفسه ذلك الهدوء فقد قتل البطولة فى نفســه ، وحكم على رجولته بالموت

انفصل « نيتشه » عن المسيحية التى كان يؤمن بها قبل عهد الانفصال إيمانه بشىء رمزى قائم على قواعد رمزية ، شأن الحقائق السامية تكون رموزاً لحقائق أسمى منها وأعلى . وظل يدرك خطر العمل الذى أقدم عليه ، ويتكلم فى كل فصوله « عن موت الالــه » كأن موته — عنده — حادث عظيم فى تاريخ البشرية أو عمل نفذ اليوم أوله والأجيال الآتيــة ستتممه . ولــكن « نيتشه » أعدم هذا الالــه ليبعث إلــه الحقيقة . « هذا الألــه (الأدبى) ، قد مات ليعيش الألــه العلمى » وهكذا حمله حنينه الهاجع فى أحناء نفسه للدين إلى الايمان بالــه الحقيقة . وعند ما وجد نفسه يتنازعها إلــهان سلطانهما نافذ : الالــه الذى ورثه ، والالــه الذى لقيه ، رأى أن يضحى بالأول ويبقى على الثانى . وهذا الالــه هو الذى يسيطر وحده على كل تعاليم نيتشه ومبادئه ، ولم يعش مع إلــهه هــذا كما يعيش أولئك مع آلهتهم مستسلمين قانعين بما نزل على قلوبهم من برد اليقين ، فهو يهب عاملاً على تحطيم كل عمارة مشيدة على الايمان بذلك الالــه الأول ، وهو — الآن — لم يعد يؤمن بنظام الطبيعة ولا بجمالها ولا يميل إلى محاسنها ، ولم يعد يرى فى صفحات التاريخ ذلك القضاء الالــهى والنظام السماوى اللذين يقودان الانسانية إلى مراميها التى خلقت لها ، ولم يعد يستسلم لذلك القدر الذى يذهب بحياتنا مايشاء ، ولا لتلك الارادة الالــهية التى تود أن تهدينا إلى سبيل النجاة والسلام

بحث « نيتشه » جميع الأديان والشرائع منذ العصور الأولى والمذاهب التى نزلت لتخرج النــاس من الظلمات إلى النور . وبعــد أن شكك فى هــذه المذاهب وارتاب فى حقائقها وأغرق فى الانكار عاد إلى هذه الفكرة التى قالها جازماً ، وزعم أنه بهذه الفكرة حل مسألة الوجود : « ألا ان الآلهة جميعهم قد ماتوا ! والآن نريد أن يحيا الانسان الـكامل : السوبرمان » ، وهكذا أضاع نيتشه إلــهه ووجد نفسه

بحث الناقدون كثيراً فى فــكرة نيتشه التى كانت تتطور وتتبدل تبعاً لما يحيط بحياته . وهو قبل بلوغه هذا المرفأ خاض بحاراً كثيرة وجاز شواطئ كثيرة . وقد أدرك بذاته تطور ذاته فشبه نفسه بالأفعى التى تنسلخ من جلدها أو النسر الذى ينسل ريشه . والحياة ـ عنده ـ ليست بواجب يُلقى ولا بعمل يُفرض ولا بوهم يُحسب ، وإنما هى مادة شأنها شأن المواد التى تقع بين يدى الباحث . وكان ينظر نفسه كالمتنقل بدون انتهاء . همه النضال تهذبه انكساراته كما تهذبه انتصاراته ، أو كالقافز بين الصخور يكاد يذهب بنفسه ضحية على رؤوس الصخور الشاهقة . وهو ـ بلا كلل ولا فتور ـ يصعد من عالٍ إلى أعلى ، ومن قمة إلى قمة ، مبدلاً كل لحظة أفقه ، عازماً على ألا يقف أبداً ولا ينثنى أبداً . رداؤه الشجاعة والصرامة ، لا يروعه البرد ولا تخيفه الهاوية . ولا يجزع من العزلة التى يتنفس فيهــا ريح الثلج المنهمر . . . هو دائماً فى صعود وارتقاء . وهكذا يعتقد نيتشه الذى فهم الحياة أنها تفوق بعضها على بعض ؛ يعتقد أن التطور لا غنى عنه ، ولا بد منه لأنه مادة ضرورية فى تحول الحياة . يعتقد نيتشه ذلك ويدأب على أن يوفق بين حياته وإرادته مع هذا المثل الذى اعتقد به ، وقد كان توفيقاً كاملاً وكان تلاؤماً كاملاً ، وصارت مسألته فى الحياة هــذه المسألة : « ما عسى يكون عندى معنى الحياة إذا لم يكن إلــه ؟ » ويجيب على هذه المسألة بهذه الـكلمة : « إن اللاشخصية ليس لها قيمة على الأرض ولا فى السماء . إن الحب الأكبر هو جوهر ضرورى وجوده فى كل مسائل الوجود الـكبرى . وهــذا الحب وحده جدير بالأرواح القوية النشيطة ذات اليقين الراسخ . هنالك فرق كبير بين المفكر الذى يقابل مسائل الوجود بشخصيته ، يرى فيها قدره وفاقته كما يرى فيها سعادته ، وبين المفــكر الذى يتوجه إليها مجرداً عن شخصيته ،

القصص

من أساطير الاغريق

مجازفات هِرَقْــــل

للأستاذ دريني خشبة

١ — الى غابة نيميا

كانت الغابة تثير الرعب فى قلوب الجن ، وكانت الظلمات تضرب فى أنحائها فتجعلها تيهاً يعج بالأفاعى ، ويضج بالتنانين وكان ملكها الضرغامة يربض فى المغارة المفزعة ، المنشقة كالقبر فى أول الطريق المؤدى اليها ؛ وكان يخرج فى أول الليل فيصول فى القرى المجاورة ويجول ؛ وكان الأهلون التعساء يلقون من بطشه وشدة أذاه الشيء الكثير ؛ فلم يكن يبقى على دابة فى الأرض ، ولا إنسان فى الطريق . ينقض كالقضاء على فريسته فيجندلها ، ثم يحتملها إلى كهفه فيلتهم منها ، وينبذ الباقى لخدمه وعبيده الكثيرين من سائر السباع

ولم يكن كهذه الأسود الضئيلة التى يتحدث عنها السودان هذه الأيام ، بل كان أسداً فى جرم الفيل وقوته ، ورشاقة النمر وخفته ، وخبائة الثعلب وحيلته . . . يثور فينقدح الشرر من مقلتيه ، وتمور الأرض وتسجد الجبال بين يديه . وكانت له لبدة نسجتها له الآلهة من أشواك الجحيم ، وبطنتها بحمَّى المنية !

وكان زئيره يقصف كالرعد فيزلزل شعاف الجبل ؛ ويهز جوانب السماء ، ويهيج الجنون والفزع فى رؤوس الوحوش ، فترى إلى الغابة كأنها ترقص على فوهة بركان ! !

ولقى هرقل أصدقاءه فنصحوا له ألا يلقى هذا الأسد ، وأن يضنّ بشبابه . . . على أنيابه ؛ وعاء الحياة المتدفق فى بردتيه ، على جمر الغضى المتأجج فى حدقتيه . . .

ولكنه أبى !! وانطلق كالعاصفة إلى حيث يربض أبو أسامة ... وإنه لعلى خطوات من الكهف ، وإنه لينظر إلى السيف الذى كان إلى هذه اللحظة فى يمينه فلا يجده ! !

« أين ؟ أين سيفى ؟ . . . آه ! ها ها . . . لقد سرقته حيرا !! أرادت الخبيثة أن تجردنى من السلاح الذى أنازل به خصمى ! خاب فألك ياحيرا ! ! سأنازله بغير ما سلاح . . . سأحطمه . . . سأشد لسانه حتى أنتزعه من غلاصمه ... إلىّ ياسبع نيميا ... إلى يا ملك الغابة وسيد وحوشها ... الساعة ساعتك ... لا مفر لك يا أبا لبدة ! ... ... »

وطفق هرقل يرعد كالمجنون ؛ وكان سبع نيميا نائماً فاستيقظ على هذه الصيحات الداويات ، ووثب وثبة هائلة كان بها أمام هرقل ، وجهاً لوجه ...

وبدأت الزوبعة ...

والتقى الجبل بالجبل ، وتصارع الجباران ساعة ، لا هذا ينال من ذاك ، ولا ذاك يصل إلى وطر من هذا ... وأقبلت وحوش الغابة تشهد المعركة وتتعجب ... وغضب أبو أسامة ، وهاله ألا يقوى على رجل بمفرده يكاد يصرعه ...

وتعب هرقل ... ونال منه الجهد ، ورأى أن لا بد من آلة ،

لا يعرف أن يلمسها إلا بفكره البارد الغريب . إن هذا المفكر لا يستطيع أن يلمس شيئاً . وهب أن مسائل الوجود قد أمكن لمسها فلن يُقدر للضفادع أن تلمسها ولا للدجاج المسترخية أن تحسها . .

ونيتشه وجد فى المسألة الكبرى شقاءه وسعادته . وقد ناضلها بدون ضعف ولا هوادة ، ونازلها جسداً لجسد دون أن ينفذ إلى قلبه الوهن . حتى إذا أصابه الجنون وقضى على شعوره أعلن نشيد الانتصار . أو ليس هذا بعد ذلك كله قدراً جميلاً بين الأقدار ؟

(يتبع) خليل هنداوى

فدار دورةً اقترب بها من شجرة باسقة ، فانتزعها ، وألقى بجذعها فى شدق الأسد ، ثم أسرع فقبض على لسانه العظيم فانتزعه ، وانقذف الدم يتدفق من هنا وهناك ... وتسيل به أودية الأرض ! !

وكأن نشوة الظفر قد ضاعفت قوة هرقل ، فقبض على فكى الأسد ، وشد على الرأس الكبير فتحطمت عظام المخ ، وخر ملك الغابة يتقلب فى لجة من دمه الغزير !

وهمهمت الوحوش مشدوهة !

لقد قتل ملكها ... فلا خوف عليها بعد اليوم ! ستكون حرةً طليقة ، تجىء وتروح ، وتقتات لنفسها غير منتظرة ما كان ينبذه لها أبو أسامة ! !

ونظر هرقل ، فرأى سيفه وراء ظهره ! !

لقد جاءت به حيرا بعد إذ شهدت من جبروت البطل مابهرها وتناول السيف باسما ، ثم تقدم إلى الأسد فسلخ جلده الكبير ، وأبقى على اللبدة الهائلة ، وعاد أدراجه إلى يوريذوس ، ملتفعاً دثاره الغريب الذى كان إلى لحظة قريبة يضم جثمان ملك الغابة وسيد وحوشها

٢ — مع الأفعوان الهائل « هيدرا »

ولقى صديقه يولوس ، وتحدث عما كان من أمره مع سبع نيميا ، فأخذه العجب ، ونذر ليصحبن هرقل فى جميع مجازفاته .

ثم فصلا ، وما كادا يفعلان حتى قبلهما رسول الملك برسالة تأمر هرقل بالتوجه إلى مستنقعات ليرنا حيث الأفعوان الأرقم هيدرا : « ... فإذا لقيته ثمة فعليك به ، ولا تعودن إلا برأسه . فقد حدثنا من عرفه أنه لا يبقى على دابة ولا بهيمة ، ولا يعفى من القتل أحداً ... ونحن أرفق برعايانا من أن ندعهم فرائس لهذا الأفعوان ... »

وانطلقا ، حتى إذا كانا عند المستنقعات المترامية ، شهد هرقل حيواناً ضخم الجثة فظيع المنظر ، يتقلب فوق صفحة الماء المغطاة بزهرات اللوتس وأوراقه العريضة النامية . وأيقن أنه هيدرا ، فتناول قوسه الكبيرة ، وأرسل إلى الوحش سهماً يهيجه به ، ليخرج من الماء ، وليأخذ معه فى نزال وقتال ...

وتم له ما أراد . وخرج هيدرا الفظيع يقلب رؤوسه السبعة . ويقلب فى كل فم لساناً طوله ذراعان ، وبرزت أنيابه تنفث سمها الزعاف ، وأرسلت العيون الصغيرة البراقة شررها ، وشرع الفحيح المرعب يصم أذنى هرقل وأذنى صاحبه

وبدأت المعركة ...

وامتشق هرقل سيفه الكبير المرهف ، وبضربة قاضية أطاح رأساً من الرؤوس السبعة ...

ولكن ... يا للعجب ! ! لقد نبتت فى لحظات قليلة ، فى مكان الرأس المقطوع ، رؤوسٌ سبعةٌ أخرى ، أخذت تنمو بسرعة فائقة ، حتى أوشكت أن تساوى الرؤوس الكبيرة فى حجمها ...

وريع هرقل ، وهتف بصاحبه يولوس قائلاً : « أوقد النار يا صاح ، وأجج هذا الجذع فأكو به كل رأس يطيح ... إننى أخشى أن ينبت لهيدرا ألف رأس ! »



هرقل يقتل هيدرا (تصوير جيد)

ونفخ فى النار وأجج الجذع ؛ وأخذ كلما طاح رأس كوى مكانه بالنار

وحدث مالم يكن فى الحسبان ... لقد أرسلت حيرا سرطاناً بحرياً يعض قدمى هرقل وهو يحارب هيدرا ، تود بذلك لو تشغله فيستطيع الأفعوان الظفر بخصمها العنيد ...

ولكن هرقل تنبه للسرطان فوطئه ، وسحق عظامه سحقاً

وانتصر هرقل ...

وطفق يغمس سهامه فى دم الأفعوان ليسممها ، حتى إذا أصابت رَمِيَّةً لم تُفلتها من الموت . وعاد إلى يوريذوس ثملاً بخمرة النصر

٣ — ظبى سيرينيا

وأسقط فى يد يوريذوس حين رأى هرقل يختال فى بردة السبع وبنيه ، وفى قبضته القوية رؤوس هيدرا هامدة خامدة

وكان فى مقاطعة سيرينيا ظبى له قرنان من ذهب ، وأبطلان

من نحاس ، وساقان من معدن ليس له فيما نعرف من المعادن من ضريب . وكان الملوك إذا أرادوا إعجاز أحد من الناس ليقتلوه ، كلفوه باقتفاء ظبي سيرينيا وامساكه ؛ فان لم يفعل ، ولن يستطيع أحد أن يفعل ، لشدة عَدْو هذا الظبي ، كان جزاءه القتل . وقد أراد ملك أرجوس أن يُعجز هرقل هـذه المرة ، فأمره باقتفاء ظبي سيرينيا : « ... فان لم تعد الينا به ، فأنت أعلم بما ينتظرك من الموت الزؤام . . . . »

ولم يستطع هرقل أن يمسك الظبي ، لأنه كان يعدو كزوبعة ، فما تكاد حوافره تلمس الأرض إلا كما تلمس السماء كف سكران ، فلجأ إلى الحيلة ؛ واحتفر في طريق الحيوان حفرة عميقة غطاها بوشائج رقيقة من الثلج ، وطارد الظبي حتى ألجأه إلى الحفرة ، ووقع فيها ، فنزل اليه واحتمله ، ومضى به إلى الملك الغاشم

٤ — خنزير أرمنيا

ثم أمره بقتل خنزير برى مخرِّب ، كان يأوى إلى غابات أرمنيا ، ويقطع الطريق على القبائل الرُّحَّل ، ويقتل كل من تحدثه نفسه بمحاربته أو الوقوف معه في ميدان . وكان ذلك الخنزير لا يبالى شيئاً في الأرض أو في السماء ، وكانت بينه وبين قبائل السنتور مودة في الشر ، وتحالف على إيذاء الناس . فلما اشتبك هرقل وإياه في نزال تشيب من هوله الولدان ، وشعر الخنزير أنه مقضيٌّ عليه لامحالة ، خار خواراً عالياً يستنجد حلفاءه السنتور ، ولكنهم لم يصلوا إلى مكان المعركة إلا بعد أن أجهز هرقل على خنزيرهم العزيز ، فنشب قتال مروع بينهما ، وأخذ هرقل البطل يسدد سهامه التي كان قد غمسها في دم هيدرا ، إلى صدور أعدائه حتى كادوا يبيدون جميعاً . وأقبل شيرون — وهو كما علمنا مؤدب هرقل وأستاذه — ليحسم النزاع بين قبيله وبين تلميذه ، ولكن وا أسفاه ! لقد أصماه هرقل بسهم مسموم فأرداه وهو لا يعرفه ! فلما أدرك أنه أستاذه ، أقبل عليه ، وعنى به ، وجمع من الأعشاب الطبية ما حسب أنه ينقذ أستاذه من براثن الموت ، ولكن بلا جدوى ! ومات شيرون ، وأهوى عليه هرقل يقبله ، وفي عينيه دموع المحبة والاعزاز

وتعاون هرقل ومن بقى من السنتور فدفنوا القتلى ، ثم أقاموا قبراً مشيداً دفنوا فيه رفات شيرون ، ومضى كلٌّ لطِيَّته . .

٥ — زرائب أوجياس ملك إليس

كان الملك أوجياس ، ملك إليس ، يقتني عدداً عظيما من الماشية والخيل والغنم ، تزدحم في زرائب متجاورة مع آلاف من الخنازير مؤلفة . وكانت النظافة في هذه الزرائب مهملة اهمالاً تاماً ، حتى لكانت الروائح الخبيثة تنتشر منها فتصدم أنف عابر السبيل على فرسخ أو فرسخين ، وأنتن الروث فأحدث طاعوناً مروعاً أوشك أن يأتي على جميع الأهلين ، وقرر الأطباء أن لاسبيل إلى مقاومته إلا إذا عني بتنظيف زرائب الملك . . .

وعلم يوريذوس بما شغل بال صديقه ملك إليس ، فابتسم ابتسامة صفراء ، وقال لهرقل وهو يحدثه حديث السنتور : « إذن فعليك أن تتوجه إلى صديق أوجياس ، ملك إليس ، فتنظف زرائبه مما بها من خبث ، وتكون بذلك قد أديت خمساً من المسائل الاثنتي عشرة ، التي كتبتها عليك الآلهة »

وامتعض هرقل في أعماقه ، وعبس عبوسة كادت تنفجر بالسخط على هذا الملك الغبي ؛ ولكنه ذكر نصيحة اريتيه ، فصدع بالأمر ، وذهب من فوره إلى إليس ، ليرى كيف ينظف زرائب الملك . . .

وثمة ، رأى مجرى عظيما من الماء ، يتدفق من الجبل الشاهق إلى يمين الزرائب ، وينحدر انحداراً شديداً حتى ينتهي إلى البحر ؛ فبدا له أن يغير مجرى الماء ؛ بحيث ينصب في الزرائب نفسها ، فيكتسح الروث ، وينجو الناس من هذا الرهق الشديد وأنقذ هرقل مدينة الملك وثروته وحياة الأهلين !

وحاول ملك إليس أن يستبقيه ليجزيه ، ولكن هرقل أبى شاكراً ، وقصد إلى يوريذوس يتلقى أوامره

٦ — عجل مينوس

وكان نبتيون إله البحار قد أهدى عجلا جسداً لصديقه مينوس ملك كريد ، كي يقدمه قرباناً للآلهة في العيد الأكبر الذي يحتفل فيه بميلاد نبتيون ؛ ولكن العجل راق مينوس الملك فانتقى من عجوله أحسنها ، وضحّى به مكان هذا العجل الآلهي السمين ، واستبقى لنفسه هدية الآله

وغضب نبتيون ، وأقسم ليكونَنّ هـذا العجل نقمةً على

من الأدب الايطالى

الليـالى العشر

IL DECAMERON

ترجمة الأديب احمد الطاهر

٤

قصة زوجة صبور

جريزلدا

« النساء لا يقمن على العهـد ، ولا يثبتن على الولاء » ذلك ما يقوله الرجال وما يعتقدون . ولـكن هذه القصة التى سأذكر تنقض هذا الرأى وتدل على ولاء المرأة مع غلظة الرجل ، وثباتها مع جفوته ، وما أحسبكم إلا تشتهون سماع هذه القصة :

جالتيرى كان أميراً على دوقية سالوزو ، وكان من زعماء الرأى الظالم للمرأة ، لا يؤمن بوفائها ولايثق باخلاصها . وحال هذا الرأى بينه وبين الزواج ، فصد عنه ، وانصرف إلى صيد الوحش واقتناص الطير ، يجد فى ذلك ملهاة ولذة وسلوة . ولـكن رعية هذا الأمير كانت مشفقة على البلاد أن يموت أميرها وليس وراءه من يجلس على العرش ، وذهب مسعاهم فى حمله على الزواج أدراج الرياح ، واتخذوا له كل وسيلة فلم يزد إلا صداً ونفوراً

قال الملأ من قومه : « انا لنراك فى وحدة وسأم شـديد ، وهذه أجمل فتياتنا نقدمها اليك راضين ، وانا لأمرك لمنتظرون »

قال : « لوكانت بى إلى الزواج رغبة لاخترت شريكتى فى الحياة بنفسى ، لا أكلفكم فى ذلك عناء ولا نصبا ، وهذه الفتاة التى تقدمون إلى مهما يكن من شأنها فى اصالة الحسب ، وعزة النسب — أرفضها مع احترامى لقدرها ، واجلالى لشرفها ؛ وانى لأحذركم عاقبة ما يقع بى من حسرة ، وما أجد من غضاضة إذا حملتمونى كرهاً على أن أتخذ زوجة لى لا أرضاها ولا أبغى السبيل إليها » . وانصرف القوم خائبين نادمين

خرج هذا الأمير يوماً يدور حول قصره ، فأبصر احدى راعيات الغنم : فتاة بهية الطلعة ، ساحرة الجمال ، وكانت تحمل فى جرتها ماء إلى منزل أبيها ، فسألها : « ما اسمك أيتها الفتاة ؟ » قالت : « جريزلدا » ، قال : « إننى يافتاتى أبحث عن زوجة تشاطرنى النعيم ، فهل إذا اتخذتك زوجة لى تعملين على هناءتى ولا تعصين لى أمراً بالغاً ما يبلغ من الشدة دون أن يكون فى صدرك حرج مما تؤمرين ؟ » . قالت الفتاة : « نعم يامولاى »

وأرسل الأمير إلى المدينة رسولاً فأحضر للفتاة من الثياب أغلاها ومن الحلل أبهاها ؛ وعقد على ناصيتها تاجاً من الزهر ، وأركبها جواداً وسار بها إلى قصره ، وأقام للزفاف ليلة كانت غرة فى جبين الدهر ، ودرة فى تاج الليالى

وسكن الأمير إلى زوجه الصالحة فوجد فى طبعها الهدوء والسكينة ، وفى شمائلها العذوبة والطمأنينة ، وألفاها رفيعة الحاشية كريمة الأخلاق حتى لقد رأى نفسه فى الدنيا أكمل الناس سعادة وأعمهم توفيقاً . ولم يكن الشعب أقل سروراً بهذا الزواج . فقد تجلى حبهم وولاؤهم للأميرة واكبارهم لأخلاقها وصفاتها ودانوا لها بالمحبة وعقدوا لها القلوب على الولاء

ومضت الأشهر ثم وضعت الأميرة . ولـكن وضعتها أنثى !

وعادت إلى الأمير عقيدته العتيقة ، ولعبت برأسه الهواجس وركبه الشيطان فصد عن سواء السبيل وقال فى نفسه : « ما كان لهذه الفتاة أن تبغى عن سواء السبيل حولاً وهى فى نعمة سابغة

مينوس وقومه ، فسخّر عليه طائفاً من الجنون ، فطفق العجل يُخرّب ويُدمّر ، ويُقتّل الناس تقتيلا . . .

وعلم يوريذوس عما كان من مصيبة صديقه ملك كريد فى عجله ، فلما قدم هرقل أرسله ليقتل العجل ، أو على الأقل ليقيده فيرتفع عن الناس أذاه . . .

وأبحر هرقل ، ولقيه مينوس فَرِحاً متهللاً ، وذهب من فوره لينازل العجل ، فـكانت معممة وكانت حرب عوان !

لقـد كان هرقل يحمل العجل فيرفعه ، فيخبط به الأرض فتندك ، ومع ذلك ما استطاع أن يقتله ! وأخيراً اكتفى بأن صفّده بـسلاسل وأغلال ، وعاد أدراجه إلى أرجوس ، وودعته كريد كلها

(لها بقيـة) دريني خشبة

وهناء مقيم . فلو أنني أسأت إليها وبلوتها بشيء من الشدة والبأساء لبرزت طبيعتها الخبيثة وصدق رأيي في النساء »

واستدعاها إلى مجلسه . فلما مثلت بين يديه قال لها : « إن وضاعة أصلك وخسة منبتك كانتا سبباً لسخط الشعب واستيائه ، وزاد هذا السخط أنك وضعت أنثى لا تصلح لأن أستخلفها على العرش »

قالت الأميرة : « مولاى ! إنى أعلم خسة منبتى وإننى أقل من أحط أوزاع الناس شأناً . وما هذه المنزلة التى رفعتنى إليها إلا فضلٌ لا أستحقه ونعمة لم أكن أتسامى إلى التطلع إليها . فاتخذ معى فيما بينى وبينك من شأن ما يزكو بشرفك ويرضى نفسك غير آبه لاحساسى وشعورى ، فما أنا من المنزلة بحيث أشغل بال مولاى أو أستحق رعايته » وانصرفت الأميرة المبتئسة

وفيما هى مطرقة كاسفة البال إذ دخل عليها أحد وصفاء الأمير قال : « مولاتى : إننى بين أمرين أحلاهما مر : إما الموت ينزل بى لا راد له ولا دافع ، وإما أن آخذ منك ابنتك » وما كاد يتم رسالته حتى أدركت الأميرة أن الملك قد ساقه البغى إلى الأمر بقتل ابنتها . فنهضت إلى مهد الطفلة البريئة وقبلتها قبلة الوداع ، وأسلمتها إلى الرسول فى رفق وأسى والتياع ، وفى العينين عبرات ، وفى النفس حسرات ، ولكن الأمير بعث بالطفلة إلى بولونيا أن كان له فيها أقرباء يقومون على تربيتها وتنشئتها

ومضت سنون والأميرة تحمل بين جنبيها فؤاداً كليماً ونفساً تنزى ألماً ، ولكنها لا تظهر الأمير على ما تحمل ، ثم أدركت أنها أصبحت جفن سلاح [1] فتعزت بعض العزاء ، ثم وضعت غلاماً وحسبت أن الأمير ستهدأ ثورته ، وتذهب عنه حدته ، وقد وضعت له ذكراً يرث العرش من بعده

ولكنه استدعاها مرة أخرى ، وقال لها فى غلاظة وجفاء : « لقد أصبحت لا أطيق الصبر على ما ألقى بسببك من مذلة ومهانة يصبهما علىَّ الشعب صباً . فلقد أثار سخطهم والتبَرُّم على أن رأوا هذا العرش الذى أجلس عليه وأحكم بسلطانه سيؤول بعدى إلى غلام ينتسب إلى رعاة الأغنام أهون الناس شأناً وأقلهم مكاناً . ولقد تدبرت الأمر فلم أجد خيراً من أن أريح نفسى من هذا الغلام كما أرحتها من أخته » واقتطع الغلام من قلب أمه كما اقتطعت أخته من قبله

قالت الأميرة : « مولاى ! لك الأمر وعلى الطاعة . ولا أحبَّ إلى من أن تعمل مايشفى صدرك ، ويضع الهم عن نفسك ، ويحمل إليك السعادة بأوفى كيل ، فما أجد سعادتى إلا حيث تجدها ولا تطمئن نفسى إلا حيث ترضى ، وانكفأت إلى مقصورتها وقد بضع الهم من فؤادها بَضعة

وبعث الأمير بالغلام إلى حيث كانت أخته

وشاع فى الملأ أن الطفلين قد قتلا ، واضطربت النفوس بالحقد على هذا الأمير الطاغى الذى غالى فى الضلالة ، وتبسط فى الاثم ، والعدوان ، وأفعمت القلوب حباً وعطفاً على هذه الأميرة المنكودة التى صبرت حتى ملها الصبر ، وبالغت فى الرضا بالمذلة والهوان ، ووصل صدى النفوس والقلوب إلى سمع الأميرة فأنكرت على الشعب أن يثور على مولاه ، ودافعت عن مسلكه ما وسعها الجهد ، على أن هذا كله لم يكن ليحمل الأمير على الثقة بولائها ووفائها

وأربت سنو العِشرة بين الأمير وزوجه على الستة عشر عاماً وهى تصابر القضاء ، وتعانى البلاء . وبقدر ما أقامت على الصبر ، كان الأمير يمعن فى الغدر

ثم أراد أن يبلوها مرة أخرى :

قال لها : « أيتها المرأة : لقد عزمت على أن أتخذ لى زوجة غيرك ، وسأردك إلى أهلك الذين نشأت بينهم ، وإلى كوخك الذى درجت فيه ، لتعودى إلى ما كنت فيه من بؤس وفاقة . فما يزكو بمن كان فى مكانى من الشرف والعظمة أن تتسامى إلى الاقتران به فتاة وضيعة مثلك ، وإنى لواجد بين بنات الأشراف والنبلاء من تصلح لهذه المكانة العليا . »

قالت الأميرة وهى تكظم الغيظ وتحبس الدمع : « سمعاً وطاعة يامولاى طبت نفساً ورضيت الطلاق مخرجاً »

ثم جاء الوصفاء وجردوها من فاخر الثياب وسنى الحلل وألبسوها من الثياب رديما [1] قديماً وبعثوا بها إلى كوخ أبيها وأعلن الأمير أنه سيبنى بابنة أحد النبلاء

ثم بعث إلى جريزلدا زوجه المشردة مَنْ قال لها : « إن الأمير

(١) حاملا

(١) مرقعاً

على نحو الزفاف إلى عروسه النبيلة الجديدة ، وهو فى حاجة إلى فتاة تعد له مقاصير الزفاف والاستقبال ، وتقوم على شؤون الوليمة والاحتفال . ولم يجد من هو أبصر منك بهذه الغاية وأقدر على هذا الشأن لسابق خبرتك بالقصر وما فيه ، وهو يأمرك أن تعودى إلى القصر كخادم تعمل بضعة أيام تقوم فيها بما يحتاج اليه الزفاف من دعوة المدعوات ، فاذا انتهيت من هذا الأمر تعودين إلى كوخ أبيك كما كنتِ فيه . »

هـذه نصال تحز فى قلب الفتاة حزاً ، وتمزقه تمزيقاً ، وهى لا تستطيع للبلاء رداً ، ولا للأمر رفضاً . فسمعت وأطاعت وهى تكاد تنشق غيظاً وكمداً . ولم يكن هيناً عليها أن تنزل عن حب زوجها والوفاء له ، وقد هان عليها أن تنزل عن النعيم الذى كانت فيه ، والترف الذى تقلبت بين أعطافه وحواشيه

مضت إلى القصر فى خفة ونشاط وعليها ثيابها البالية ، وعملت مع الخدم فى تنظيف المقاصير وإعـدادها ، ثم خلت إلى نفسها وأعدت الدعوات لسيدات البلاد ليشهدن العرس العظيم

وأقبل يوم الزفاف فاستقبلت المدعوات فى ثيابها الخشنة ، وابتساماتها الناعمة !

ثم مد سماط العشاء وأقبل الأمير وزوجه الجديدة وكانت بارعة الحسن رائعة الجمال . وأقبل عليها الناس رجالاً ونساءً يقدمون اليه وإلى الزوجة ولاءهم وطاعتهم وإعجابهم ، وطوعت لهم الزلفى أن يهنئوه على ما وفق اليه من استبدال زوجه الجديدة بزوجه القديمة

ثم نادى الأمير زوجه القديمة جريزلدا وقال لها فى غير خجل ولا رعاية لا حساسها : « ماذا تقولين فى زوجى الجديدة ؟ »

قالت : « مولاى ! إنى لأشعر لها بالحب من أعماق قلبى . وأرجو أن يكون نصيبها من رجحان العقل وسعة الادراك بقدر نصيبها من الجمال . إذاً تتم السعادة لمولاى الذى أتوسل اليه بكل عزيز لديه ألا يكسر قلبها ، وألا يثلم فؤادها ، ولا يقرح كبدها ، ولا يجرح عزتها ، كما كان يفعل بزوجه القديمة . فهذه يامولاى فتاة صغيرة نبتت فى أعطاف النعمة ، ودرجت فى حواشى العز والترف ، وأما أنا فقد تعودت منذ نشأتى شظف العيش وقسوة الدهر ونـكد الحياة . »

قال الأمير وقد خلق الليلة خلقاً جديداً : « عفواً أيتها الفتاة وصفحاً جميلاً ، لقد بلوتك فى البأساء والضراء فما زادك بلائى إلا صبراً على البلاء ، واعتصاماً بالولاء ؛ ولقد كنت أحسب النساء لا يقمن على العهد ولا يدن بالصبر . وما صدفت عن هذا الرأى إلا بعد أن خبرتك فسلبتك سعادتك وهناءك : دعينى الليلة أرد اليك فى لحظة واحدة هذه السعادة التى حرمتك إياها مدى ستة عشر عاماً : هذه الفتاة التى أحببتها الليـلة والتى يحسبها الناس جميعاً زوجى الجديدة هى ابنتك وابنتى التى انتزعتها منك منـذ كانت فى المهد ، وهذا الواقف إلى جوارها هو ابننا الذى حرمتك اياه رضيعاً . أقبلى يازوجتى على ولديك وقبليهما ما وسعك الحب لهما . »

واستوت على الوجوه دهشة شادهة ، ووجوم يشبه البله !

ثم تقدم النساء إلى جريزلدا وقدنها إلى مقصورة فاخرة وألبسنها ثياباً لم يطل بينها وبينها العهد ، وجلسن يحدثنها فى إكبار لقدرها وإجلال لنفسها

وأقيمت فى القصر ليال غر ، وشمل الفرح والسرور كافة الشعب ، وطابت نفوس وقرت عيون

وبعث الأمير إلى والد جريزلدا وأتم نعمته عليه ، فاقطعه من القصر جناحاً يقيم فيه ، وعاش الأمير وزوجه الصبور ، ووالدها الطيب ، وولداه الطاهران فى سعادة ونعيم ، حتى فرق بينهم الدهر كما يفرق بين كل الأحياء ؟!

« عن الانجليزية » يوزباشى أحمد الطاهر

استدراك خطأ وقع فى القصة السابقة

فى السطر ٢٣ من النهر الأيسر من صفحة ٩٩٤ من « الرســالة » بعد قوله « وقفل راجعاً إلى صديقه تيتوس » سقطت عبارة وهى : « وهمس فى أذنه : قم وابن بالفتاة فهى زوجك . وقع تيتوس فى حيرة . . . الخ » ثم يستقيم الكلام

البريد الأدبي

كتاب فى تاريخ الاسلام : « فرسان الله »

أصدر الكاتبان الفرنسيان الأخوان جيروم وجان تارو كتاباً بعنوان « فرسان الله » Les Cavaliers d' Allah هو الجزء الأول من كتب ثلاثة يزمعان إصدارها تحت عنوان « ألف يوم ويوم فى تاريخ الاسلام » ؛ وسيكون عنوان الجزء الثانى « حبوب الرمانة » ، والثالث « الشعاع الأخضر » . وسيعنى الكاتبان فى هذه السلسلة بوصف أولئك الذين يسميانهم « فرسان الله » وهم المسلمون « أتباع محمد » ، أولئك الذين حملوا راية الاسلام « إلى بلاد الكفر النائية » ، وإلى « بحر الظلمات » (المحيط الأطلانطيق)

ويحتوى الجزء الأول « فرسان الله » على تاريخ موجز لمكة وقت أن ولد بها « محمد بن عبد الله » (صلعم) ، وموجز لتاريخ الدعوة الاسلامية والاسلام حتى قيام ملك الأدارسة بالمغرب الأقصى ؛ وقد أظهر الكاتبان على رغم هذا الايجاز ، قوة فى الوصف ، ولا سيما حين استعرضا الدولة الأموية ، ويتخذ هذا العرض صورة القصة . ولم يبرأ الكاتبان من ذلك التحامل الذى نراه ماثلاً فى كل تاريخ غربى يكتب عن نبى الاسلام

وللمؤلفين عناية خاصة بوصف نفسية الشعوب المغلوبة ولاسيما البربر ، وكيف غلب عليهم « ذوق الوثنية » أحقاباً

الأستاذ محمد عبد الله عنان

قرر مجلس الوزراء تعيين صديقنا الكاتب المؤرخ والصحفى البارع الأستاذ محمد عبد الله عنان للعمل فى قلم المطبوعات بعد اقراره على النظام الجديد . واختيار الأستاذ لهذا المنصب توفيق من الله يضمن اطراد الاصلاح والنجاح فى هذا القلم بعد أن أصبح اختصاصه يتناول الادارة والسياسة والصحافة والتاريخ . ويكاد الأستاذ عنان يكون بلغاته العربية والانجليزية والألمانية والفرنسية حركة متصلة للاطلاع والبحث والتأليف والتحرير ؛ فقد تخرج فى مدرسة الحقوق الملكية سنة ١٩١٨ ، واشتغل بالمحاماة حيناً من الدهر ، ثم عالج منذ سنة ١٩٢٤ التحرير فى الصحافة السياسية والأدبية ، وتوفر على دراسة التاريخ السياسى والمسائل الدولية ، وعكف فى أثناء ذلك على فقه التاريخ الاسلامى فى مصر واسبانيا ، فألف : ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى ؛ ومواقف حاسمة فى تاريخ الاسلام ، ومصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، وابن خلدون : حياته وتراثه الفكرى ، وتاريخ العرب فى اسبانيا ، وتاريخ الجمعيات السرية ، وتاريخ المؤامرات السياسية ؛ ذلك عدا المقالات القيمة والدراسات الممتعة فى التاريخ والسياسة والأدب التى نشرها فى (الرسالة) وفى غيرها من المجلات ؛ وكلها تنم عن صبر شديد ، وعقل سديد ، وفهم ذكى ، وثقافة شاملة . وانا لنرجو أن يجد الأستاذ فى عمله الجديد ما يساعده على المضى فى خطته ، ومواصلة هذا الجهاد المخلص فى نفع أمته

عيد الأكاديمية الفرنسية

فى يوم الاثنين ١٧ يونيه بدأ الاحتفال الرسمى الكبير بعيد الأكاديمية الفرنسية الثلثمائة ، وهو العيد الذى تقرر احياؤه منذ شهر يناير الماضى ، واستعدت الحكومة الفرنسية ، والأكاديمية وجميع الهيئات العلمية والأدبية لاحيائه بما يليق به من العظمة والفخامة . وقد افتتح هذا الاحتفال باقامة قداس رسمى فى كنيسة نوتردام عن روح الكردينال ريشليو وزير لويس الثالث عشر ومؤسس هذه الهيئة الأدبية الخالدة ؛ ثم اقيمت فى عصر ذلك اليوم حفلة رسمية شائقة حضرها رئيس الجمهورية ورجال الحكومة ، وأعضاء الأكاديمية ، ومائتا مندوب يمثلون مختلف الهيئات والمجامع العلمية فى أنحاء العالم ، (ومنهم رئيس مجمع اللغة العربية الملكى ممثلا له) ؛ وألقيت الخطب الرسمية المعتادة ؛ وأقيمت فى الأيام التالية حفلات رسمية أخرى

وقد سبق أن أتينا على تاريخ تلك الهيئة الأدبية الشهيرة التى تضم دائماً أربعين من « الخالدين » صفوة ما تخرجـه عبقرية فرنسا الأدبية ؛ وبينا كيف نشأت متواضعة جداً منذ ثلثمائة عام فى منزل سيد يدعى فالنتان كونراد كان من أمناء لويس الثالث عشر ، وكان أديباً يجمع حوله عدة من الأصدقاء الأدباء والشعراء ، وكان ذلك فى سـنة ١٦٢٩ ؛ ولبث أولئك السادة يجتمعون من آن لآخر مدى خمسة أعوام ، ويتجاذبون فى اجتماعهم شتى المحادثات الأدبية ، حتى علم الكردينال ريشيلو بخبرهم ؛ ففكر فى اخضاع هذه الجماعة الأدبية لنفوذه ، وفى أن ينظمها ويجعل منها « أكاديمية » ؛ وانتهى الأمر بأن صدرت الأوامر الملكية بانشائها فى يناير سنة ١٦٣٥ ، وصودق عليها من البرلمان فى يوليو سنة ١٦٣٥

واستمرت « الأكاديمية » تنمو وتترعرع ، وتجمع فى سلكها أكابر النثر والشعر حتى كانت الثورة الفرنسية ، فألغيت مع باقى الهيئات العلمية الأخرى فى سنة ١٧٩٣ ؛ وانشئ مكانها « المجمع العلمى الوطنى » ؛ وفى سنة ١٨٠٣ قسم هذا المجمع إلى أربعة أقسام منها « الأكاديمية الفرنسية » التى استردت اسمها الأصلى بعد ذلك فى عهد لويس الثامن عشر (سـنة ١٨١٦) ، وقامت الى جانبها « أكاديمية النقوش والآداب » و « أكاديمية العلوم » و « أكاديمية الفنون الجميلة » . وفى سنة ١٨٣٢ انشئت أكاديمية خامسة هى أكاديمية العلوم الأخلاقية

وهذه هى الفترة الوحيـدة التى اعترضت حياة الأكاديمية الفرنسية ؛ ومازالت الأكاديمية تقوم خلال هذه القرون الثلاثة بدورها التاريخى فى الاشراف على الآداب الفرنسية ، وإن كانت مهمتها الأصلية التى حددت فى الأوامر الملكية أن تشرف على « تحسين اللغة وتوسيعها » ؛ ومازال الظفر بالانخراط فى سلـكها أسمى ما يطمح اليه كاتب أو شـاعر ، ومازال الانتماء اليها عنوان « الخلود »

ذكرى شومان أستاذ النقد الموسيقى

احتفلت الدوائر الفنية الألمانية فى الثامن من يونيه الجارى بالذكرى الخامسة والعشرين بعد المائة لمولد الموسيقى الألمانى الأشهر روبرت شومان ؛ ونظمت لهذه المناسبة حفلات موسيقية عظيمة فى أنحاء ألمانيا عزفت فيها قطع شومان ؛ وأذاعت المحطات اللاسلـكية مختارات موسيقية من آثاره فى برلين وفينا . ويعرف شومان فى عالم الموسيقى بأنه « روح الابتداع الموسيقى » . وكان مولد شومان فى زفيكاو من أعمال سكسونيه . ودرس الحقوق أولا ، ولـكنه رغب عنها إلى دراسـة الموسيقى . ودرس العزف (على البيانو) فى ليبزج على يد فيكس وهو من أبرع أساتذة العصر ؛ ولـكنه أصيب باصابة فى يده اضـطرته إلى ترك العزف والاشتغال بالتأليف الموسيقى ؛ ودرس هذا الفن على دورن أولاً . وفى سنة ١٨٤٣ عين أستاذاً فى معهد ليبزج ، ثم عين بعد ذلك قائداً موسيقياً فى دوسلدورف سنة ١٨٥٠ ، واستمر فى هذا المنصب نحو أربعة أعوام ؛ وأنفق شومان معظم حياته يطوف المدن الألمانية مع زوجه كلارا

وبدأ شومان حياته كمؤلف موسيقى فى سنة ١٨٣٤ إذ بدأ تحرير (المجلة الموسيقية الجديدة) وكان ينشر فيها فصولا نقدية قوية تلفت الأنظار بحسن أسلوبها وقوة منطقها ؛ وقد وصـل شومان فى هذه الناحيـة النقدية إلى ذروة البراعة حتى اعتبر أستاذ النقد الموسيقى . وكان شوبين وبراهمس وهما يومئذ من أعلام الموسيقى ينوهان بنبوغه وتفوقه فى هذا المضمار ؛ وأعظم آثاره فى التأليف الموسيقى قطعه الخاصة بالعزف (البيانو) ومنها رباعيات ومقطوعات بديعة للقيثارة . وألف أيضاً قطعـة أوبرا عنوانها (چينوفيڤا) ، وعدة أوبرات موسيقية

وكان لجهود شومان وطرائقه أثر كبير فى تطور الموسيقى الألمانية المعاصرة . وقد كتب ترجمة حياته عدة من الـكتاب والفنانين الأكابر ، ومنهم باترسون وريزمان . وخصص له فاسليفسكى ترجمة كبيرة وكذلك فولر ميثلاند وغيرهما

تخليد ذكرى شاعرة فرنسية

وضعت بلدية مدينة نانت لوحة تذكارية باسم الشاعرة اليزا مركير التى توفيت منذ مائة عام فى الخامسة والعشرين من عمرها ، على المنزل الذى كانت تسكنه هذه الشاعرة الفنية التى بلغت رغم حداثتها فى الشعر مرتبة كبيرة حتى كان لامرتين يقول عنها « إنى أتوقع أن تمحونا هذه الصغيرة جميعاً »

وفاة فكتور هوجو — صورة خبرية واقعية

ما زالت فرنسا تحتفل بالذكرى الخمسينية لوفاة شاعرها الأكبر فكتور هوجو حسبما ذكرنا فى فرصة سابقة ، وقد قرأنا أخيراً فى إحدى المجلات الفرنسية الكبرى بقلم مسيو «ارمان براڤيل» وصفاً بديعاً للظروف التى أحاطت بوفاة الشاعر الكبير صيغت فى قالب رواية خبرية ، ونحن ننقله لقراء (الرسالة) فيما يلى :

باريس فى ٢٢ مايو سنة ١٨٨٥

اليوم فى الساعة الأولى والدقيقة السابعة والعشرين بعد الظهر توفى المسيو فكتور هوجو عضو الأكاديمية الفرنسية ، متأثراً بالالتهاب الرئوى الذى اشتد عليه منذ أيام وكان يثير فى نفس أسرته والمحيطين به انزعاجاً وقلقاً . وقد أشار الدكتور زى وزميله الدكتور ڤولبيان فى تقريرها هذا الصباح إلى أن « الحالة فى منتهى الخطورة » . وكان الشاعر الكبير فى الثالثة والثمانين من عمره

وقد أسلم الشاعر الروح يحيط به حفيداه جان وجورج ، ومسيو لوكروى ، ومسيو ڤكتوريان ساردو ، ومسيو اسكندر دعاس ، وبعض شخصيات أخرى . ويروى بعضهم أنه قال حين فاضت روحه : « وداعاً يا جان » ، وبعضهم يروى أنه قال : « ها هنا معركة النهار والليل » أو أنه قال : « ليس هذا هو النور ، ولكن ليس هو الظل أيضاً »

وعرض المونسنيور جيبر أسقف باريس أن يقوم بالرسوم القدسية الأخيرة للشاعر الأكبر ، ولكن أسرته اضطرت إلى الرفض عملاً بوصية فكتور هوجو نفسه ؛ إذ قال : «إننى أرفض رثاء كل الكنائس ، وأطلب صلاة لكل الأرواح»

ومنذ ١٩ مايو كان قد فقد كل أمل فى إعادة الصحة والحياة اليه ؛ وقد أصابه بالليل إغماء طويل ، وبالأمس بدأ النزع الأخير

وما ذاع النبأ المحزن حتى هرع الجمهور إلى منزل شارع إيلاو وما زال فى ازدياد مستمر ، وبدأت الزيارات الرسمية ، وكان أول القادمين مسيو بريسون رئيس الوزراء ، ولحق به مسيو فلوكيه رئيس مجلس النواب

وبعد بضع دقائق ألقى مسيو لى روايبه رئيس مجلس الشيوخ فى المجلس كلمة مؤثرة حين أعلن وفاة « شيخ » اليسرة المتطرفة وشاعر الجمهورية والديموقراطية الأكبر ؛ ولا ريب أن جميع السلطات الكبرى ستشترك فى تكريمه ؛ وقد طلب مجلس باريس البلدى أن تنقل رفات الشاعر إلى « البانتيون » ؛ ومن المحقق أن الجناز سيكون قومياً تحفه أعظم مظاهر الجلال ، وسوف يكون مناقضاً لرغبة الميت الذى أوصى بأن ينقل إلى مقره الأخير فى نعش الفقراء ؛ وهى الرغبة الوحيدة التى ستحترم

السبت ٢٣ مايو

حفلت كل الصحف بفصول مؤثرة تذيلها أعظم الأسماء ؛ وقد نشرت « الفيجارو » قصيدة لمسيو الكونت دى ليل عنوانها « التحية الأخيرة » ، وقد دهش لقراءتها الذين يعرفون خصومة الشاعرين ، وما تبادلاه قبل من قارس اللفظ ؛ بل يرى أن دى ليل قال حينما وقف على مرض هوجو : « لقد شرب المجد وأكله ، فعليه الآن أن يهضمه » ، فرثاؤه اليوم لا يمكن أن يعتبر بعد هذه الشماتة إلا بطاقة زيارة تودع عند باب الأكاديمية

وقد هرع عدد من الكتاب الشبان إلى سرير الميت ليسهروا إلى جانبه ، وبين هؤلاء حفيد الشاعر ، وليون دوديه ، وكاتيل مانديس ، وبول آرين ، وجان إيكار ، وأميل بليمون . وقدم مسيو ليوبولد هوجو فى منتصف الليل ليصور عمه فى فراش موته

٢٦ مايو

نشرت الجريدة الرسمية ما يأتى : « سيدفن جثمان فكتور هوجو فى البانتيون ، والبانتيون ليس بناء كنسياً ولا يتبع أية دائرة كنسية ، وإنما هو من أملاك الدولة ؛ وقد رأت الوزارة أن تحقق رغبة البرلمان فى هذا الشأن »

وسوف يحدث هذا المرسوم استياء فى الدوائر الكنسية التى مازالت تعتبر البانتيون من توابعها وأنه فى حرم كنيسة سانت جنڤياف . وسيكون جناز شاعر البؤساء بلونه المدنى مقوياً لصفة البانتيون المدنية ؛ وسوف يثور هذا الجدل حول تابوت الشاعر

وما زالت صفوة فرنسا تنحنى أمام الميت العظيم ؛ وقد حنطت جثته بمنتهى العناية ؛ وما زال كل يعجب برأسه الشاحب الجميل الذى يكاد يضارع بياضه بياض لحيته

الجمعة ٣٠ مايو

وضع المسيو فكتور هوجو فى ناووسه ووضعت إلى جانبه باقة من الورد قدمها فلكيبه وبعض تذكارات شخصية ، وقد قرر برنامج الجناز وخلاصته أن ينقل الجثمان فى نعش يوضع تحت قوس النصر ، ويترك هناك يوماً وليلة فى حراسة الشعراء ، والسلطات

المدنية والجيش وشعب باريس ، ثم يحمل فى حفل ظافر الى البانتيون ، وستلقى بعض الخطب عند مبدأ سير الجناز وعند مقدمه

الأحد أول يونيه

منذ صبيحة الأمس بدأ حفل الشاعر النبيل مؤلف « سير الدهور » و « التأملات » ، وسار وراء تابوته إلى « الانوال » عمد باريس العشرون ، والصحفيون ، والكتاب ، وكلهم بالثوب الرسمى والربطة البيضاء ، وحولهم من الجانبين جموع حاشدة لبثت تحيط طول الليل بمنزل الميت ؛ وكان قوس النصر قد جلل بغطاء أسود رهيب ، وحول الى محراب يحرسه حرس شرف من الجند والفرسان وطلبة المدارس ، والشعراء الشبان ، ولم ينقطع سيل الناس طوال اليوم ، يحملون الباقات والأزهار ؛ وهكذا ظهر أن ڤكتور هوجو مازال يغزو جميع الأرواح والقلوب

الاثنين ٢ يونيه

خصص يوم الأمس كله لظفر ڤكتور هوجو ؛ ولم يحتفل قبل قط بجناز شاعر بمثل هذا الجلال . ولعل كاتباً لم يمثل من قبل قط تطور عصره كما مثل ؛ فقد مثلت فى شخصه الديموقراطية التى استطاعت أن تصل إلى الحكم بعد طول النضال ؛ وهو شاعرها ولسان حماستها الغنائية ، وهو بتنفس آمالها ومخاوفها فى كتابه « البؤساء » ، وبتنفس غضبها وأحقادها فى كتابه « العقوبات »

وكان الجو بديعا فاتراً ؛ وفى نحو الساعة التاسعة أتى الموظفون وممثلو مسيو جرافى رئيس الجمهورية ، ومجلس الوزراء بكامل هيئته ، وأعضاء الأكاديمية الفرنسية ، والجنرال سوسيبيه حاكم باريس وأركان حربه ، واجتمعت الوفود فى شارع « الجيش الأكبر » وقد احتلوا شارع نبى بأكمله

وألقيت طائفة من الخطب منذ الساعة العاشرة ؛ منها خطاب لمسيو لى روييه باسم مجلس الشيوخ ، وفلوكيه باسم مجلس النواب ، وجوبليه وزير الداخلية باسم الحكومة ، وأميل أوجييه باسم الأكاديمية ؛ وكان أروعَ الخطباء جميعا ولاسيما حينما صاح بصوت قوى : « ليس هذا دفناً ، وإنما هو تقديس »

ثم تحرك الموكب بعد نشيد المارسليز ، وعزفت موسيقى الجيش لحنا محزنا لشوبان

واليك ترتيب الموكب : سارت فى الطليعة فرقة من الحرس الجمهورى ، ثم سرية من الفرسان ، ثم حاكم باريس وحاشيته ، ثم الموسيقى العسكرية ، فطلبة المدارس ، فاحدى عشرة عربة تحمل أكاليل الزهر ، ثم أربعة من عمال الكوميدى فرانسيز ، يحملون وسادة عليها أوسمة المتوفى ، ثم نعش المتوفى ، وهو نعش الفقراء ، وإلى جانبه أفراد أسرته وخاصة أصدقائه ، مثل جورج هوجو ، وأوجست فاكيرى ، وليوبولد هوجو ، وبول فوبك ، وكاميل بيلاتان ، والفونس دوديه ، واميل زولا وغيرهم ، ثم أعضاء المجمع العلمى فى أثوابهم الخضر ، ثم أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب بشاراتهم المثلثة اللون ، ثم أساتذة الجامعة بأثوابهم الرسمية المختلفة ، وأعضاء جمعية الكتاب ، وسيل لا نهاية له من الوفود المختلفة

وكانت جوانب الطرق تغص بالجماهير الحاشدة ، وكانت النوافذ والأشجار والأسطحة حافلة بالنظارة

وبلغ الموكب البانتيون من شارع سوفلو فى منتصف الساعة الثالثة ، وقد جلله السواد والأعلام القومية ، وهنالك ابتدأت الخطب الختامية ، فألقى منها إحدى عشرة ؛ وكان بين الخطباء مسيو أودبه باسم مدينة بيزانصون مسقط رأس الشاعر ، ومسيو ماديه باسم المنفيين فى يوم ٢ ديسمبر ، ومسيو جورد باسم نقابة الصحافة الباريسية ، وهنرى دى بورنييه باسم كتاب المسرح وبعض الأجانب باسم بعض المعاهد العلمية الأجنبية

ثم عزفت الموسيقى لحن ڤكتور هوجو الذى وضعه مسيو سان سانس ، وعلى أنغامه أودع التابوت فى مثواه الأخير إلى جانب توابيت ڤولتير وروسو وغيرهم من العظماء الخالدين

واستمر تعاقب الوفود حتى مغيب الشمس ، وانتهى ڤكتور هوجو إلى أن يرقد هادئاً فى عالم الخلود

3 me Année, No. 104.

Lundi-1-7-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـدد ١٠٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — أول يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـدد

كلكم حواريون

فمن يهوذا ؟

لا تسمع من أى انسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ، ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذه الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخطلهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة ؛ وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برَّة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أموال الأمة فى « قانون التضمينات » ، ثم أصبحنا و إذا المكان خلاء ، والاشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة ! !

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا الملام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الانجليز أكرموه فدفنوه ! !

***

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره ، والأسى يتلظى على وجهه ، كيف تحكمت المحاباة فى دوائر الحكم ، وفشا التواكل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة فى الترقية خُرْق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ ؛ ثم ترى «الأقلام» غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالأضابير ، والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هـــذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب ! !

***

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهش : متى كان البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟ ؟

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة !

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة فى كل من كتب ! !

***

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسَنَين تهلّ على رُدنه العريض انهلال القَطْر : لم يبق للدين فى هذه الدنيا سلطان ، ولا للخالق فى هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة فى هذه المادية قيمة ! ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء ، فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ، ويتأبّهون عن العامة ، ويمدون أعينهم لشهوة الحياة ، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد ! !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هـذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا !

***

وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاوله ، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثْرَوا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معانى النهب ، وحيلة من حيل الشطارة ؛ فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفى حسك لا محالة أنك مغبون فى السعر ، أو مخدوع فى النوع ، أو مظلوم فى التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير أن يَصْدُقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد رَجْعُهم من غشه على مليم !

***

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممضّ والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل : إذا كنتم يا قوم جميعاً حَوَارِيِّين ، فمن الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين ؟ ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟

وعظ مالك بن دينار عظةً تقاطرتْ عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك عينه ! وقال ويحكم ! كلكم يبكى فمن سرق المصحف ؟ ؟

احمد حسن الزيات

دموع

من رسائل «الطائشة»(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورسائلُ هذه الطائشة إلى صاحبها، تُقرأُ فى ظاهرها على أنها رسائلُ حبٍ، قد كُتِبَتْ فى الفنون التى يترسَّل بها العشاق؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر، تُقرأُ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلتاعةٍ لاتزال شُعلةُ النار فيها تتنسَّمى وترتفع؛ وقد فدحتها الحياةُ إذ حصرتْها فى فنٍ واحدٍ لا يتغير، وأوقعتها تحت شرطٍ واحدٍ لا يتحقَّق، وصرفتْها بفكرة واحدة لا تزال تخيب

وأشدُّ سُجون الحياةِ فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها، لا هو مُستطيعٌ أن يدَعها، ولا هو قادرٌ أن يحققها؛ فهذا عندُ شقاؤه ما يعتدُّ ولا يزال كأنه على أوّلِه لا يتقدّم إلى نهاية؛ ويتألم مايتألم ولا تزال تُشعِره الحياةُ أن كل مافات من العذاب إنما هو بدءُ العذاب

والسعادةُ فى جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكرٌ غيرُ مقيّدٍ بمعنىً تتألم منه، ولا بمعنىً تخاف منه، ولا بمعنىً تحذَر منه. والشقاءُ فى تفصيله وجملته انحباسُ الفكر فى معانى الألم والخوف والاضطراب

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هـذه الرسالة المصوَّرةَ التى يبرُقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه. وهى فيها عَذْبةُ الكلام من أنها مُرَّةُ الشعور، متّسقةُ الفكر من أنها مختلّةُ القلب، مُسدّدةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس. وتلك إحدى عجائب الحب؛ كلما كان قَفْراً مُمْحِلاً اخضرّت فيه البلاغةُ وتفنّنَتْ والتفّتْ، وعلى قِلّةِ المُتْعةِ من لذّاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه. ولكأنّ هذا الحبّ طبيعةٌ تُروَى بالنار فتُخْصِبُ عليها وتتفتّقُ عمانيها، كما تُرْوى الأرض بالماء فتُخصِب وتتغطّى بنباتها؛ فإن رَوِيَ الحبُّ من لذّاته وبَرَدَ عليها، لم يُنْبِتْ من البلاغة إلا أخفَّها وزناً وأقلّها معانيَ، كأوّلِ ما يبدو النباتُ حين يتفطّر الثرى عنه؛ تراه فتحسبه على الأرض مَسْحة لونٍ أخضر؛ أو لم يُنبِتْ إلا القليلَ القايلَ كالتّماشيب(١) فى الأرض السَّبِخة

إن قصةَ الحب كالرواية التمثيلية، أبلغُ ما فيها وأحسنُه وأعجبُه ما كان قبل «العُقدة»، فإذا انحلت هذه العقدة فأنت فى بقايا مفسَّرةٍ مشروحةٍ تريد أن تنتهى، ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليلَ الذى بينها وبين النهاية

***

وهذه هى رسالة الطائشة إلى صاحبها:

. . .

ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظ حقيقتى وحقيقتك؟

يُخيَّل إلىَّ أن ألفاظَ خضوعى وتضرُّعى متى انتهت إليكَ انقلبتْ إلى ألفاظ شِجارٍ ونزاع!

أىُّ عدلٍ أن تلمسكَ حياتى لَمْسةَ الزهرةِ الناعمة بأطراف البنان، وتَقذِفَنى أنت قذفَ الحجر بِملْءِ اليدِ الصلبة مُتمطِّيةً فيها قوّةُ الجسم؟

جعلْتَنى فى الحب كآلةٍ خاضعةٍ تُدار فتدور، ثم عبِثتَ بها فصارت متمرِّدةً تُوقَف ولا تقف؛ والنهايةُ - لا ريبَ فيها - اختلالٌ أو تحطيم!

وجعلتَ لى عالَماً، أما ليلُه فأنتَ والظلامُ والبكاء، وأما نهارُه فأنتَ والضياءُ والأملُ الخائب. هذا هو عالَمى: أنتَ أنت...!

سَمائى كأنها رُقْعةٌ أُطبِقتْ عليها كلُّ غيوم السماء، وأرضى كأنها بُقْعةٌ اجتمعتْ فيها كلُّ زلازلِ الأرض! لأنك غيمةٌ فى حياتى، وزلزلةٌ فى أيامى

---

(١) نحن لم نخترع الطائشة، فهى فتاة متعلمة أديبة، تكتب كتابة بليغة، وقد أحبت رجلا متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت. وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة، فكانت تقول: إنها منهن كالغائب المحكوم عليه، لا هو يملك دفاع الذنب ولا الحاكم عليه يملك إثبات الذنب

(١) أعشاب قليلة متفرقة

يا بُعدَ ما بين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى!

***

ما يَحْمُلُ منك أن تُلزَمنى لومَ خطأ أنتَ المخطىءُ فيه

سَلنى عن حبى أُجِبْكَ عن نكبتى ، وسَلنى عن نكبتى أُجبك عن حبى

كان ينبغى أن تكونَ لىَ الكبرياءُ فى الحب ، ولكن ماذا أصنع وأنت منصرفٌ عنى ؟ وَيلاهُ من هذا الانصرافِ الذى يجمل كبريائى رِضًى منى بأن تَنسى !

ليس لى من وسيلةٍ تَستعطفُكَ إلا هذا الحبّ الشديد الذى هو يَصُدُّك ، فكأنَّ الأسبابَ مقلوبةٌ مى منذ انقلبتَ أنت

ويخيل إلىّ من طُغيان آلامى أن كلّ ذى حُزْنٍ فعندى أنا تمامُ حُزنه !

ويخيل إلىّ أنى أفصحُ من نَطقَ بِآه !

عذابى عذابُ الصادقِ الذى لا يعرفُ الكذب ، بالكاذب الذى لا يعرف الصدق

كم يقول الرجالُ فى النساء ، وكم يَصِفُونَهُنّ بالكيد والغدر والمكر ؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّه فىّ أنا وحدى . . .

ما لِكلامى يتقطّع كأنما هو أيضاً يختنق ؟

***

لَشَدَّ ما أتمنّى أن أشترىَ انتصارى ، ولكن انتصارى عليك هو عندى أن تنتصر أنت

إن المرأة تطلب الحرّيةَ وتَلجُّ فى طلبها ، ولكن الحياة تنتهى بها إلى يقينٍ لا شكٌ فيه ، هو أن الطفَ أنواعِ حرّيتها فى الطف أنواع استعبادِها

حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمرِ الناهى أيها القاسى . لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لا يعجبنى منك إلا هذا . . . !

ويزيدك رِفعةً فى عينى أنك لم تحاول قطُّ أن تزيد رِفعةً فى عينى

فالمرأة لا تحبّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يَلفِتَها دائماً ليرفعَ من شأنه عندها

إن الطبيعة قد جعلت الأنوثةَ فى الانسان هى التى تَلفِتُ إلى نفسها بالتصنُّع والتّزَيُّدِ ، وعَرْضِ ما فيها وتكلُّفِ ما ليس فيها ؛ فان يَصْنَع الرجلُ صنيعَها فما هو فى شىءٍ إلا تزيين احتقاره !

التّزَيُّدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى !

***

ارْفع صوتك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين : صوتَك وقلبى

ليست هى كلماتى لَدَيك أكثرَ مما هى أعمالك لَدَىّ

وليس هو حبى لك أكبرَ مما هو ظلمُكَ لى !

ما أشدَّ تعْسى إذا كنتُ أخاطب منك نائماً يسمعُ أحلامَه ولا يسمعنى !

ما أتعسَ من تُبكيه الحياةُ بكاءَها الفاجىءَ على ميّتٍ لا يرجع ، أو بكاءَها المألوفَ على حبيبٍ لا يُنال !

***

ولكن فَلأصبرْ ولأصبرْ على الأيام التى لا طعمَ لها ، لأن فيها الحبيبَ الذى لا وفاءَ له !

إن المصابَ بالعمَى اللّونىّ يرى الأحمرَ أخضر ، والمصابَ بعَمَى الحب يرى الشخصَ القَفْرَ كله أزهار

عَمًى مركَّبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبق

وعَمًى فى الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ، فيرى الأيام كلها فى حكم هذه الساعة

وعَمًى فى الدم ، أن يَشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يُحيى خياله ويغذّيه أكثرَ مما يُحيى جسمَ صاحبه

وعَمًى فى العقل ، أن يجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النهار على الدنيا ، تَظهر الأشياءُ فى لونه ، وبغير لونه تنطفىْ الأشياء

وعَمًى فى قلبى أنا ، هذا الحبُّ الذى فى قلبى !

***

ليس الظلامُ إلا فِقدانَ النور ، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم

وظلمُ الرجالِ للنساء عملُ فقدانِ المساواة لا عملُ الرجال كيف تَسخرُ الدنيا من متعلّمةٍ مِثلي ، فتضعُها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بطاقة ، لما كتبت تحت اسمها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . . ؟

وحتى فى ضَعف المرأة لا مساواةَ بين النساء فى الاجتماع ، فكل متزوِّجةٍ وظيفتُها الاجتماعية أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقةٍ أن تقول إن عِشقَها وظيفتُها . . .

وحتى فى الكلام عن الحب لا مساواة ، فهذه فتاةٌ تُحِبُّ فتتكلَّم عن حبها فيقال : فاجرة وطائشة ، ولا ذنب لها غير أنها تكلمتْ ؛ وأخرى تحبُّ وتكتم فيقال : طاهرة عفيفة ، ولا فضيلةَ فيها إلا أنها سكتتْ

أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكلُّ فى حرِّية الكلمة المخبوءة . . . .

لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . .

***

إن القلَقَ إذا استمرّ على النفس انتهى بها آخر الأمر إلى الأخذ بالشاذّ من قوانين الحياة

والنساء يُقلِقْنَ الكونَ الآن مما استقرّ فى نفوسهن من الاضطراب ، وسيخرِّبنه أشنعَ تخريب

ويلٌ للاجتماع من المرأة المصرية التى أنشأها ضعفُ الرجل ! إن الشيطان لو خُيِّرَ فى غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرّة متعلمة خياليّة كاسدة لا تجد الزوج ... !

ويلٌ للاجتماع من عذراء بائرةٍ خيالية ، تريد أن تفرّ من أنها عذراء ! لقد امتلأت الأرضُ من هذه القنابل .... ولكن ما من امرأةٍ تفرِّط فى فضيلتها إلا وهى ذنبُ رجل قد أهمل فى واجبه

***

هل تَملك الفتاةُ عِرْضها أوْلا تملك ؟ هذه هى المسئلة . . . إن كانت تملك ، فلها أن تتصرفَ وتعطى ، أوْلا ، فلماذا لا يتقدّمُ المالك ... ؟

هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها ، فالحيوانُ الذى لا يعرف النسبَ لا تعرف أنثاه العِرْض

وهل كان عبثاً أن يَفرِض الدين فى الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل ؟

ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مدّنوه هو أيضاً ... !

***

طالت رسالتى إليكَ يا عزيزى ، بل طاشت ، فانى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُكَ أجدُها .

ولقد تكلمتُ عن الدِّين لأنى أراكَ أنتَ بنصف دين ...
فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوّجتَ اثنتين ......
لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى ... ؟

(طنطا) طبق الأصل مصطفى صادق الرافعى

. . .

الى (ب) فى دمشق :

خير ما أرى لك أن تدع الغد حل مشكلة اليوم ، وليس بين اليوم والغد إلا أن تصبر ، وأنت كالذى رأى نفسه فى غبش الفجر ويزعم أنه أمسى ..

« الرافعى »

٢ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ونستعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه . ويعنى السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى اليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لايجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبى ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الاسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ؛ وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة [١] ، واذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكننا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الاخبار المكللة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » ، وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة يذكرها كلها فى ترجمته ، ولايتسع هذا المقام لذكرها [١]

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها ؛ الرحلة الحلبية وتراجمها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته اسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى »

***

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى الى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت الينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمنى فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى بوضع كتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب « السلوك فى دول الملوك » لتقى الدين المقريزى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ؛ وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٨٤٥ ــ ٨٥٧ هـ ؛ وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولاً على رغبة الداوادار يشبك المهدى وزير

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه — فى الضوء اللامع فى المجلد المشار اليه — ص ٧٤

(١) راجع الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٥ وما يليها حيث يعدد السخاوى كتبه وتآليفه

السلطان الظاهر خشقدم (١) ؛ وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة بإسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى ؛ وكتب السخاوى أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الأصر » (٢) ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى فى عدة مجلدات وينم عنوانها عن موضوعها ، ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمعت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة . . . » وقد هيأت حياة السخاوى نفسه وتجواله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى اعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل فى ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر فى خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ (٣)

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى كتب التراجم الاسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى فى أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لا يجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً فى مواطن كثيرة ، فينزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين ؛ وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه ابن حجر — لم ينج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقريزى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو فى أحيان كثيرة فى حملاته قوياً صارم الوطأة ، غير أنه يبدو فى أحيان أخرى سقيما تعوزه الحجة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه ، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها فى مقدمة الضوء اللامع فيما يأتى : « ولكني لم آل فى التحرى جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الأعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان بن ظهيرة المتلى يقولان ، إنك منظور اليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنمش للمعقول ، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد اليه الأعناق فى سفره ومقامه ، من زكيته فهو العدل ، ومن مرضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لا ترجمه بما لعله يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه فى كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ؛ ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه فى مديحه والاشادة بغزير علمه ، والتنويه بتبوئه مركز الرياسة والزعامة فى علم الحديث ، ومنها ما خصه به بعض خصومه كالبقاعى قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بإيراد بعض القريض الذى قيل فى مديحه وتقديره

وقد كان كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ؛ تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا

---

(١) التبر المسبوك (ص ٥) — والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٤٥)

(٢) حصلت دار الكتب أخيراً على صورة فتوغرافية لهذا الكتاب منقولة عن نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد

(٣) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ فى ترجمة ابراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ

سيما البقاعى والسيوطى ؛ واتخذت صوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل ؛ واستمر صداها يدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، وكانت من أهم وأغرب الحوادث الأدبية فى هذا العصر (١)

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى فى التراجم منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم فى وفيات الأمم » وهو ثبت لوفيات الأعيان فى القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر فى مجلد ضخم أسماه « كتاب الجوهر والدرر » ، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب ، وفى خاتمته ما يفيد أن السخاوى كتبه فى مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث بافاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ، وما قيل فى رثائه من نثر ونظم

وهنالك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل الينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ للمدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى منوعة منها : ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع فى بيان المساجد والجوامع ، القول التام فى فضل الرمى بالسهام ، عمدة المحتج فى حكم الشطرنج ، الكنز المدخر فى فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

***

ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما الينا ؛ أولهما كتاب « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات » وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، ولا سيما مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التى تقع فيها هذه المشاهد فى أواخر القرن التاسع ؛ وذكر لكثير من المشاهد والمدافن التى لم يعن بها المقريزى فى خططه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم ؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب فى تاريخ الخطط المصرية ، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالمه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها فى القرن التاسع الهجرى

وأما الثانى ، فهو كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرف السخاوى فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التى تدخل فى حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الاسلامية التى ظهرت فى مختلف أبواب التاريخ وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف فى تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والاشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التى وضعت فى هذه النواحى المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوى وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن نفى شخصية السخاوى ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوى بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الاسلامية والعالم الاسلامى فى القرن التاسع الهجرى

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) سبق أن عالجنا هذه المعارك الأدبية الشهيرة فى بحث مستفيض نشرناه فى مجلة الهلال الغراء (سنة ١٩٣٢)

٢ـ فريزر ودراسة الخرافة (١)

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

ثبّتت الخرافة كذلك دعائم الملكية الشخصية وحفظتها ، إذ مما لا شك فيه أن هـذه الملكية متأخرة فى الوجود عن الملكية العامة ، فالناس عرفوا متاع الجمية ومال القبيلة قبل أن يعرفوا مال زيد وعمرو . والملكية العامة نفسها ظهرت فى شكلها الأول على صورة الملكية المقدسة ، فنشأت فى أحضان الخرافة وتربت على حسابها . وقد كان التقديس ولا يزال وسيلة من وسائل احترام الملكية والمحافظة عليها . وللخرافة يد أخرى فى الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . وإذا تتبعنا عقائد وتقاليد الأمم الهمجية المعاصرة ، وجدنا فيها خير برهان على هذه القضايا

فى البولينيز Polynésie ، أحد أقسام الأقيانوسيه ، لا يجرؤ أحد على الاعتداء على أملاك الشيوخ والرؤساء والمحاربين لمالها من صفة مقدسة تبعاً لأصحابها ، فحرام على أى شخص أن يعدو عليها بالسرقة أو النهب أو التبديد ؛ ومن اقترف اثماً من ذلك استوجب غضب الآلهة ولعنة الملائكة والناس أجمعين ، وجر على قبيلته بوجه خاص السخط والنكال لهذا كان عدوّ الجماعة التى تعمل على محاربته ورد المال المسلوب إلى أهله . يقول براون : « إن كل ما يملكه السيد أو يحيط به مقدس فى نظر عبيده من سكان زيلندة الجديدة . لذلك لا يستطيع أحدهم — برغم حبه للتبغ — أن يمس ورقة منه علم أنها من مال السيد . وقد حدث مرة أن أعطى صديق لى حفنة من التبغ الى عبد لم يكد يمضغها حتى علم أنها أخذت من منزل سيده ، فأسقط فى يده ، وسارع المسكين الى مولاه يقص عليه القصص ، ويسأله المغفرة واباحة التبغ الذى مضغه ، خشية أن يجر عليه صنعه نتائج مهلكة (٢) . » فبيت السيد اذن حَرَم آمن لا يستطيع مخلوق أن ينتهك حرمته .

وكثيراً ما ترك رؤساء القبائل التى نتحدث عنها أموالهم وأمتعتهم معرضة للجمهور دون أن تصاب بسوء . وإذا أراد فرد عادى أن يحمى ماله ، اكتفى بأن يميزه بشارة من الشارات المقدسة . ووسائل التقديس كثيرة : منها أن يقام فى الحقل شاخص على هيئة صليب أو سمك نهرى خاص (brochet) ! أو أن يوضع تحت شجرة الفاكهة صورة فأرة إذا رآها السارق ولى مدبراً ، أو أن يربط فى عنق الشخص خيط أحمر علق فيه رمز لتمساح أو قطة أو وطواط ، تلك الحيوانات التى تثير فى نفوس القبائل الهمجية عوامل الخوف والرعب ، أو التقديس والاحترام ، وقد تحمى قرية بأسرها بواسطة عزيمة أو رقيـة معلقة فى رجل دجاجة ، فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة فى حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة ، وربما كان لها على نفوس متنقيها سـلطان لا يعد له سلطان قوانيننا المنظمة . فكثير من البدو تأنف نفوسهم من الاذعان لأمر ، اللهم إلا ما أملته تقاليدهم الخرافية أو قيودهم الجمية . يقول بعض الرحالة : « انه ما كان يمكن حكم الزيلنديين بمجموعة من القوانين غير تلك التى جاءت بها خرافتهم . ذلك لأن هؤلاء القوم الحربيين يأبون أن يخضعوا اللوائح ومراسيم لم تصدر عن الآلهة ، ولا يترددون لحظة فى أن يرفضوا فى احتقار أى أمر بشرى ، وفوق هذا فانه من الخير أن يقاد شعب قيادة هينة بواسطة خرافة يدين بها بدل أن ترغمه القوة الغاشمة ارغاماً (١) »

وقد حاربت الخرافة السرقة بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب ، فسكان مدغشقر يعتقدون أن من سرق بيضة أصيب بالجرب ، ومن سرق قطعة من الحديد حلت به عاهة جسمية أخرى . وكى يحمى أهل سيام حقولهم ينصبون فيها راية خافقة ، فاذا ما جرؤ لص واعتدى على هذه الحقول أصيب برعدة واضطرب اضطراب العلم الخافق ولم يقو على الهرب . ويقال إن صياداً كان يفقد كل يوم جزءاً كبيراً من صيده ، فرأى أن يحصن شباكه وفخاخه بتلك الراية الآنفة الذكر ، فلم يدن اللص منها فى الغد إلا وارتعدت فرائصـه ، ولم يبرح مكانه حتى قبض عليـه . وجرت عادة السومطريين (سكان سومطرة) أن يبتهلوا الى آلهتهم ويستنزلوا لعنات السماء على من سرق شيئاً من أمتعتهم ، فلا يلبث السارق أن

(١) سبق القلم فى المقال الأول فعد جزائر السود (Mélanésie) جزءاً من أفريقيـة ، والحق أنها جزء من استراليا (انظر الرسالة عدد ١٠٢) ص ٩٧٩)

(2) W. Brown, New-Zealand, pp. 13 sg.

(1) Thomson, The Storg of New-Zealand, p. 105.

يعلن عن نفسه وعما سرق . ويروى أنه سرق مرة أرز سومطرية ، فأخذت تدعو عيناً على السارق ، وفى الصباح وجدت الأرز المسروق قد وضع خفية أمام بابها . وهاك نموذجاً من هذه الأدعية الغريبة : « شياطين الماء وملوك الأرض والسماء ، أسألكم المعونة والثأر لى ممن اعتدى علىّ . فان كان السارق رجلاً فيخفق فى جميع مشروعاته ، وليصب بمرض يعذبه عذاباً أليماً دون أن يقتله ، ولتخنه زوجه ، وليعصه ولده ، وإن ذهب الى الحرب فليقتل ، وإن ركب سفينة فليغرق دون أن يعثر له على أثر ، وإن قطع شجرة فلتسقط عليه ، ولتصب الآلهة عليه جام غضبها فتهلك زرعه ولا تمن عليه بشىء يأكله حتى يضطر الى أن يتكفف الناس ولا يجيبون سؤله فيموت جوعاً . وإن كان السارق امرأة فلتبق عاقراً الى الأبد ، وليسىء زوجها معاملتها ، وليهجرها بنوها ، ولتصب بأمراض لا شفاء منها[1] . » ويظهر أن قدماء الأغريق كانوا يلجأون الى أمثال هذه الأدعية والابتهالات لحفظ أموالهم ، فكانوا يكتبونها على ألواح خاصة يضعونها فى الأمكنة التى يراد حمايتها ، ولا يزال بعض هذه الألواح باقياً الى اليوم . وقد استخدموا هذه الأدعية كذلك فى إرغام السارق على الاعتراف بسرقته ، وهذا ضرب من وسائل التحقيق أن عيب بخرافته فهو يمتاز بسهولته . أما الرومان فقد ذهبوا الى ما هو أبعد من ذلك ، واعتقدوا أن هناك إلهاً خاصاً يتولى حراسة الحدود بين الحقول المتجاورة ، فكل من اعتدى على جاره كان عرضة لسخط هذا الاله العظيم . ويخيل إلينا أن إله الحدود هذا يفسر ما كان عليه الرومان الأول من عناية بالزراعة وشؤونها . وجملة القول أن الخوف الناشىء عن أسباب خرافية صرف الناس عن السرقة فى كثير من الشعوب القديمة ولدى القبائل الهمجية المعاصرة ، فنتج عن هذا احترام للملكية الفردية وأمن مكن المالك من الانتفاع بها

ولا يفوتنا أن نضم إلى الملاحظات السابقة ما نشاهده بيننا من أثر الخرافة فى حفظ المال والمتاع . فالعجل إن قيل إنه « للسيد » قضى الليل والنهار فى الحقل وخارج الدار دون أن يصاب بأذى ، وإن كان من عجول عباد الله الآخرين أضحى عرضة للسرقة والنهب والسم والذبح . وكيف لا « والسيد » الذى جاء بالأسير من بلاده كفيل بأن يحمى ماله غائباً أو شاهداً ، حياً أو ميتاً ! ولا أظننا نجهل الأحلام المتواترة والقائلة بأن فلاناً رأى « الامام » مثلا يطارده طوال الليل ، لأنه ، فيما يزعمون ، لم يوف بنذر نذره له من قبل . وما أشنع هذا الزعم الذى يناقض أصلا من أصول الدين ، ويسمح بالتقرب إلى غير الله ، وقد وصل الأمر ببعضهم أن ادعوا أن هذا البلد بلد « الدسوق » ، والآخر ملك « البهنساوى » ، والثالث من نصيب « العريان » ، ويعنون بذلك أن كل واحد من هذه الأمكنة دخل فى حوزة حارس أمين وحام عظيم . فلم يكن بدعاً أن تلجأ طائفة من الناس إلى نقل ملكيتهم — إن صح هذا التعبير — ولو ادعاء إلى بعض الأولياء والقربين ليحفظ مالهم من الضياع . أما التمائم والرقى فقل فيها ما شئت ، وحدث عنها ولا حرج : فتارة يقال إن هذه التميمة تحفظ من السرقة والغرق والحرق ، وأخرى يظن أن هذه الرقية ما تلبث فى دار إلا أمنت كل مكروه ، ولعل عادة وضع التماسيح على الأبواب تعتمد على خرافة من هذه الخرافات التى ترمى إلى حماية المال والمتاع ؟

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

[1] بتصرف من كتاب: E. H. Gomes, Seventeen gears..., 64—66

التربية عند الانكليز

التعاون فى سبيل تربية الطفل بين المدرسة والمنزل[1]

للأستاذ محمد عطية الابراشي

المفتش بوزارة المعارف

من مظاهر التربية الحديثة أن التعاون فى المدرسة يجب أن يحل بالتدريج محل المنافسة ، وأن المدرسة والمنزل يجب أن يعملا يداً بيد فى سبيل تربية الطفل تربية يصلح بها للحياة التى تنتظره ، تربية اجتماعية كاملة ، بحيث يتعود التعاون مع غيره من الصغر ، حتى يستطيع أن يقوم بأعمال جليلة فى الكبر . قد لا يستطيع الآباء فى المنزل أن يروا الغرض من الحياة أو معنى الحياة ، وقد يكونون محبين لأنفسهم ، يأخذون ولا يعطون . وهنا تبدو الحاجة الى المدرسة ، فانها تأخذ وتعطى ، وتدرك معنى الحياة ، وتستطيع القيام بمساعدة المنزل فى تربية الطفل تربية عملية علمية صحية ، تتفق والبيئة التى ينتسب إليها

وأحسن الوسـائل التى بها يستطيع المنزل والمدرسة معاً إعداد الطفل للحياة الكاملة هى :

(١) العناية بالدور الأول من الحياة وهو دور الطفولة ، فانه هو الأساس الذى يبنى عليه مستقبل الطفل وحياته . ولقد بلغت بالانجليز العناية بالطفل لدرجة أنهم يفكرون فيه حتى قبل أن يولد بخمسين سنة على الأقل ، فالطبقة الراقية منهم تفكر فى أثر الوراثة ، فلا يتزوج أحد من هذه الطبقة بمن به أو بها مرض من الأمراض العقلية أو العصبية أو الرئوية ؛ خوفاً من التسبب فى ايجاد طفل معتوه أو مجنون أو مستعد للسل مثلاً

(٢) أن يعطى الطفل حرية كبيرة لتنمية مواهبه وقواه التى تعد هبة للحياة الاجتماعية ، ولا نقصد بذلك أن ندع الطفل يفعل كل ما يشاء ، بل نعطيه فرصة فى أن يعمل ويجرب ، ونراقبه عن بعد حتى يظهر خطؤه ، وندعه يحاول إصلاحه بنفسه ، ونساعده عند الحاجة ، ونعمل على أن يعرف نفسه ، ويعتاد ضبط شعوره وعواطفه ، والصبر ، والتجربة والمثابرة ، والتفكير فى الجماعة ، وفى روح الجماعة ، بحيث نضحى فى سبيله بكل شىء آخر ؛ فلا نفكر إلا فى الطفل وفى تقويمه وتهذيبه ليكون المثل الأعلى فى الحياة

(٣) الاهتمام بالألعاب الرياضية ؛ فانها أحسن وسيلة لتقويم خلق الطفل وتقوية جسمه ؛ بها نبث فيه حب العمل والتفكير لا فى نفسه بل فى الفرقة التى يشترك فيها ، وبذلك نميت فيه ذلك المرض النفسى : مرض حب الذات والتفكير فى النفس ليس غير

(٤) الحاجة الى معرفة أن الطفل يحتاج أحياناً الى الهدوء والصمت

(٥) العمل على الاصلاح دائماً . والتفاهم بالمحادثة الودية خير طريقة للعلاج والاصلاح . وإن المراقبة فى دور البلوغ ، والمراهقة واجبة ، لأن هذا الدور أكثر أدوار الحياة خطراً

(٦) العناية بالفنون والأعمال اليدوية كوسيلة للنمو العقلى والخلقى وكسب المهارة

(٧) يجب أن يتم التعاون بين المدرسة والمنزل ، للوصول بالطفل الى الكمال . فاذا لم يكن هناك تعاون بينهما فمن المحال أن نصل إلى الغرض الأسمى من التربية

وفى الأمم المتمدينة ، وبخاصـة انجلترا والولايات المتحدة بأمريكا نجد الثقة متبادلة بين المدرسة والمنزل ، والرابطة بينهما كبيرة ، يتعاون كل منهما على تثقيف الطفل وإفادته ، فليست المدرسة فى واد والمنزل فى آخر . وإنى آسف لأن أقول إن المدرسة وحدها فى مصر هى التى تجاهد منفردة فى سبيل تربية الطفل ؛ فالمنزل فى الغالب منفصل عنها كل الانفصال ، وقد يهدم ما تبنيه أحياناً . ولا سبب لذلك إلا انتشار الجهل والأمية وحبذا الأمر لو قامت المدرسة بدعوة المتعلمين من الآباء فى وقت معين كل ثلاثة أشهر مثلا للتفاهم والبحث معهم فى الأمور التى تتعلق بشؤون الأطفال ، والنظر فى أحوال التعليم ، ومستقبل التلاميذ ، والعمل على رفع مستواهم العلمى والخلقى والصحى والاجتماعى

وفى (نيويورك) مثلاً نجد المدرسة تعمل على التقريب بينها وبين المنزل ؛ فالآباء فى الولايات المتحدة بأمريكا أعضاء عاملون

---

(١) من كتاب « نظام التعليم فى انجلترا » تحت الطبع

فى الحياة المدرسية يذهبون الى المحاضرات العامة التى تلقى فى المدرسة، ويشتركون فى مناظراتها، ويساعدون فى مقاصفها، ويعاونون فى محافلها الاجتماعية

وبأمريكا الآن جمعيات للآباء والمدرسين فى كل مكان تلقى فيها محاضرات عن: أعمال المدرسة، والغرض من المدرسة، والطفل، ونفسيته، وتربيته، ومعاملته

والكل يفكر فى الطفل ثقة بأن طفل اليوم هو رجل الغد، وأثر التربية اليوم يظهر فى الغد، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غداً. وإن غداً لناظره قريب. والوسيلة الوحيدة لاصلاح الجيل المقبل وترقيته هى العناية بالجيل الحاضر. فاذا عنينا بأطفال اليوم وتربيتهم تربية صالحة فى المدرسة والمنزل، واللعب، انتظرنا ثمرة طيبة وشعباً راقياً فى المستقبل

وفى مدارس الأطفال فى (وِنِتْكا) بأمريكا يشترط لقبول التلاميذ أن يقبل الآباء معاونة المدرسة والاشتراك مع موظفيها فى العمل، وبغير ذلك لا تقبل الأطفال. وفى انجلترا قد بذلت جهود كبيرة فى السنوات العشر الماضية للتوحيد بين هذين العاملين: المدرسة والمنزل، وتوثيق عرى الرابطة بينهما. ولقد نجحت هذه المجهودات وأصبح الآباء يعنون بأمور التعليم، يسترشدون برأى المدرسة، ويستعيرون من مكتبتها إذا شاءوا، ويدعون للمجتمعات الموسيقية والتمثيلية والرياضية لكى يروا أبناءهم يغنون أو يمثلون أو يلعبون، ويشاهدوهم كرجال يقومون خير القيام بكثير من الأعمال من إدارة مطعم، وتنظيف فصول، وتنظيم حديقة، ومراقبة ألعاب رياضية، وإدارة مكتبات، وتوزيع الأدوات وجمعها بعد الانتهاء منها، وإصلاح كل ما يحتاج الى الاصلاح فى المدرسة. فالطفل عضو عامل فى المدرسة يعوّد من صغره الاعتماد على نفسه، والاستعداد للحياة العملية العالية باشتراكه مع رفقائه فى الفصل والمعمل والمصنع والمحفل والملعب الرياضى

وفى المنزل يجد الطفل الانجليزى مدرسة أخرى صغيرة؛ فالبيئة علمية، والجو علمى؛ أم تعلمه، وأب يرشده، وخادم تقرأ له. فالكل يفكر فيه صباحاً ومساء. فى الصباح يأتى الطفل إلى أمه بالصحيفة اليومية فتقرأ له الجزء الخاص به من الصحيفة عن الفيل والنمر مثلاً، فيعرف ماتم من أمرهما. ثم تقطع له هذا الجزء فيضمه بين كتبه الخاصة، فى حجرته الخاصة بكتبه ولعبه، وفى الساعة السابعة مساء يتناول كوباً من اللبن أو فنجاناً من المرق بعد الاستحمام، ثم تأخذه إلى فراشه، وتقرأ له بعض الحكايات السارة، وتنشده شعر الطفولة، وتغنى له بعض الأغانى بصوت هادىء جميل حتى ينام، فتتركه إلى الصباح

وترحب المدرسة الانجليزية بالآباء، وتريهم الأعمال التى يقوم بها أولادهم فيها، وتعمل على إيجاد روح التعاون بينها وبين المنزل والمدرس الحازم يستطيع أن يساعد الآباء فى معرفة أن الحياة لا تقصد طفلاً واحداً، أو أسرة واحدة، أو مدرسة واحدة ليس غير، بل تقصد المجتمع الذى ينسب اليه الفرد، والذى يجب أن يقوم الكل بواجبه نحوه؛ حتى تزول الأثرة التى تظهر فى بعض الآباء الذين لا يفكرون إلا فى أبنائهم وبناتهم. فالمدرسة تستطيع بمعاضدة المنزل أن تقوم بجلائل الأعمال نحو الأخلاق والانسانية وتحسين المستوى الصحى والاجتماعى والعلمى والخلقى. ولسنا فى حاجة إلى تكرار القول بأن التعاون بين المدرسة والمنزل هو الوسيلة الوحدة لنجاح التعليم. وبالمنتديات يمكن الجمع بين الآباء والمدرسين لاستماع روايات أو مناظرات مثلا يقوم بها الطلبة والمدرسون، وبهذه الطريقة تتم الرابطة، ويلم الشعث، ويعمل الجميع لاسعاد الطفل وتربيته تربية حسنة

ولقد أوحت روح (بستالوتزى) إلى المدرسين بأن يكسبوا تقدير الآباء، فان هذا التقدير هو العامل الأول لنجاح الادارة المدرسية، وإن كانت المدرسة فى حاجة فانها فى حاجة إلى مساعدة المنزل؛ فالمدرسة هى التى تتسلم البضاعة التالفة؛ يأتى الطفل اليها يتكلم لغة غير لغتها، ويتخلق بأخلاق سيئة، وحينئذ نجد عمل المدرسة مضاعفاً؛ فتبتدىء تعلمه لغة جديدة أو لغتين، وبجانب بث الأخلاق الفاضلة فيه تعمل على تقويم المعوج منها

وإنى أعتقد أن الطفل يتمنى أن يأخذ والده فى إحدى يديه، وأستاذه فى يده الأخرى؛ حتى يعمل الكل وحدة «ثلاثية» متينة الاتصال تعمل لشىء واحد هو رقى المجتمع، والوصول إلى الحياة الكاملة؟

محمد عطية الابراشى

٣ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

شذرات من كلام محمد اقبال

أقفى على ما كتبته فى المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندى محمد اقبال تؤيد ما قلت. وهى شذرات من كتابه جاويدنامه، وهو رحلة خيالية فى الأفلاك والجنة تضمنت آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين، وسأتكلم عنها فى مقالات أخرى، وإن تكن هذه الشذرات طويلة فالحق لا يضيره الطول. قال على لسان سعيد باشا حليم حينما لقيه فى فلك عطارد مخاطباً المسلم:

« قم فصوّر بنفسك عالماً آخر، وامزج العشق بالذكاء الباهر. إن شعلة الأفرنج أصابها الماء فهى خامدة، فالعيون ناظرة والقلوب هامدة؛ أصابت سيوفهم منهم المقاتل، فسقطوا كصيدهم فى المجاهل. فلا تطلب الحرقة والنشوة من كرومهم، ولا ترجّ عصراً جديداً فى أفلاكهم. فى نارك أنت حرقة الحياة ونورها، وعليك أنت بعثها ونشورها

قال مصطفى[1] وهو يتغنى بالتجديد: « لا بد أن نمحو كل قديم عتيد. » إن الكعبة لا تجدد فيها الحياة، إذا جاءها من أوربا اللات ومناة. وا أسفا ليس فى رباب التركى نغمة جديدة، جديده قديم أوربا الغالبة. لم يكن غير هذا النفَس فى صدره، ولم يكن سوى هذا العالم فى ضميره. فلا جرم سكن إلى العالم الموجود، وذاب كالشمع فى حرقة العالم المشهود. وكم فى طباع الكائنات من طريف وجديد، ليس فى تقويم الحياة هذا التقليد، إن القلب الحىّ يخلق العصور، وينفر من التقليد أى نفور

إن يكن لك قلب المسلم الولهان، فانظر فى ضميرك والقرآن، كم عالم جديد فى آياته، وكم عصر مطوى فى آناته[2]. وحسب العصر الحاضر واحد من عوالمه، إن نفذ قلبك إلى بواطنه، إن المؤمن من آيات الله الوهاب، يلبس العوالم لبس الثياب. كلما قدم عليه عالم منحه القرآن عالماً آخر... الخ

وهذا حديث من الكتاب نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (محمد اقبال) حينما التقيا فى الجنة:

نادر:

مرحباً بالشاعر المشرقىّ، الذى يجدر به اللسان الفارسىّ، إنى محرَم للأسرار فأفش أسرارك، ماذا عندك عن ايران الوطن المبارك؟

زنده رود:

فتح عينه على نفسه حيناً، ثم وقع فى الشرك سريعاً. هو صريع دلال أوربا الفاتنة هام بها فاتبعها، وفتن بزينتها فقلدها، همّه اليوم الملك والنسب، وذكر سابور وتحقير العرب، أوقاته من الواردات خالية، يطلب الحياة من القبور البالية. تحدث بالوطن وذهل عن نفسه، وترك حيدراً[1] وهام برستمه! الخ

ويقول على لسان أبدالى[2] ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر حينما لقيه فى الجنة

أبدالى:

ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه، ليست قوة الغرب من العود والرباب، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب، ولا من سحر ورديات الخدود، ولا من الساق العارية والشعر المجدود. وليست هيبة الغرب من نبذ الدين، ولا بهاؤه من حروف اللاتين. ما قوة الأفرنج إلا العلوم والفنون، وما ضوء مصباحهم إلا من هذه النار

ما الحكمة صورة من الزى واللباس، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الراس؛ إن للعلم والفن أيها الشاب النافر، سراً وراء هذه الظواهر؛ وإنما يغنى فى هذه السبيل العين النظارة، لا هذه العمارة[3] أو تلك العمارة؛ حسبك الفكر النفاذ، وناهيك بالطبع الدرّاك. إن مُلك المعنى لم يحجّره أحد، ولا يناله إلا الجهاد والجلد، لقد غفل التركىّ عن نفسه، وسكر من الأفرنج رأسه،

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلمة « طوينا مسافة القرون » فكتبت: « طوينا مسألة القرون » كذلك حرفت « أين ثم أين » إلى « آمين ثم آمين »

(١) يعنى الغازى مصطفى كمال باشا (٢) جمع آن

(١) على بن أبى طالب (٢) أحمد خان أبدالى ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر الهجرى (٣) العمارة غطاء الرأس

فشرب من يدهم السم حلو المذاق ، وترك عامداً ترياق العراق ، ولست أدعو له إلا بالهداية والسداد . إن عبد الأفرنج قد أولع بالظهور ، فأخذ عنهم الغناء والفجور ، يضنى روحه فى اللهو والفتون ، ويستصعب الجد فيركن إلى المجون . يؤثر السهل ايثاراً لراحته ، ويرى فى السهل كفاء لفطرته . وإنما طلب السهل فى هذه المحن ايذان بأن الروح قد فارق البدن »

ويقول فى خاتمة كتابه خطاباً للجيل الجديد :

« آسيا موطن الشمس ومشرقها ترى غيرها وتحتجب عن نفسها ، قلبها محروم من الواردات الجديدة ، فهى اليوم لا تزن شعيرة ؛ وقتها فى معترك هذه الدار جامد ساكن لا يلذ التسيار . هى صيد الشيوخ وقنيص الملوك ، وغزال فكرها ظالع منهوك . العقل فيها والدين والعلم والشرف والعار من ربقة السادة الافرنج فى إسار . هجمتُ على عالم أفكارها ، ومزقت حجاب أسرارها ، وجعلت قلبى فى صدرى دماً حتى صبغت عالمها لوناً آخر . . . . شباب عطاش كؤوسهم فارغة ، ووجوههم نضرة ، ورؤوسهم مضيئة ، وأرواحهم مظلمة ، ضعاف البصر قد حرموا اليقين والأمل ، لم تدرك أعينهم شيئاً فى هذا العالم ، يكفرون بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم ؛ إن منكر الحق عند الشيوخ كافر ، ومنكر نفسه عندى أكفر »

***

ثم أعود الى الكلام فيما فعله الكماليون فيما يسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، وأقدم قبل الكلام ترجمة البلاغ الذى أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت :

نشرت الهيئة التمثيلية التى مهدت لاجتماع مجلس الأمة الكبير بأنقرة هذا البيان قبل فتح المجلس :

١ — بمنه الكريم سيفتتح مجلس الأمة الكبير فى أنقرة يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة

٢ — اختير يوم الجمعة لفتح مجلس الأمة الكبير الذى سيؤدى الوظائف الحيوية الخطيرة مثل انقاذ مقام السلطنة ، والخلافة ، واستقلال الوطن . ويستفاد من بركة هذا اليوم فتؤدى صلاة الجمعة فى جامع الحاج بايرام ويحضرها المبعوثون كلهم ، للتيمن بأنوار القرآن والصلاة . وبعد الصلاة يسار باللحية المباركة واللواء الشريف إلى الدائرة المخصوصة . وقبل الدخول إلى الدائرة يتلى دعاء وتذبح الذبائح . وفى هذه المراسم تنظم الفرق العسكرية ، من الجامع الى الدائرة المخصوصة

٣ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يبدأ اليوم بتلاوة الختمة الشريفة والبخارى فى مركز الولاية بترتيب الوالى ، وتؤخر الأجزاء الأخيرة من الختمة الشريفة لتتلى أمام الدائرة يوم الجمعة بعد الصلاة

٤ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يشرع منذ اليوم (فى كل الجهات) فى قراءة الختمات الشريفة والبخارى ، وتقرأ الصلوات الشريفة على المنارات يوم الجمعة قبل الأذان ؛ وحينما يذكر أثناء الخطبة الاسم الهمايونى العظيم اسم حضرة صاحب الخلافة سلطاننا يدعى لصاحب الشوكة ولممالك الشاهانية ولرعاياه بالخلاص والسعادة . وبعد أداء الصلاة بكمل الختم وتلقى المواعظ فى تبيين خطر وقداسة المساعى الملية التى يراد بها خلاص مقام الخلافة المعلى والسلطنة وأقسام الوطن كلها ، وفيما يجب على كل فرد من المؤازرة فى تأدية الوظائف الملية التى يقوم بها المجلس الكبير المؤلف من نواب الأمة . ثم يدعى بالخلاص والسلامة والاستقلال لخليفتنا وسلطاننا ، وديننا ودولتنا ، ووطننا وملتنا ، وبعد إيفاء هذه المراسم الدينية ، والخروج من الجامع ، يجتمع الناس فى مركز الحكومة فى كل البلاد العثمانية ، للتهنئة بفتح المجلس . ويقرأ المولد الشريف فى كل جهة قبل صلاة الجمعة بصورة مناسبة

٥ — تتخذ كل الوسائل لاذاعة هذا البيان ، ويبلغ سريعاً إلى أبعد القرى ، وأصغر الفرق العسكرية ، وكل مؤسسات الدولة ، ويعلق فى لوحات مخصوصة ، ويطبع ويوزع مجاناً حيثما أمكن ذلك

٦ — نضرع الى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل

باسم الهيئة التمثيلية

مصطفى كمال

ذلك ما افتتح به الكماليون عملهم ؛ فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للاسلام . وكان أشدهم إفراطاً فى ذلك الغازى مصطفى كمال باشا الذى كان المسلمون جميعهم يعدّونه بطل أبطالهم غير مدافع . ولست أدرى أيعود الكماليون

فيتوسلون بالدين إذا وقعوا فى محنة أخرى . ولست أودّ لهم المحن بل أدعو لهم بالعافية والهدى . حدثنى من أثق به عن الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله أن الغازى قال له مشيراً إلى القرآن الكريم : « لن تفلحوا ما دام هذا الكتاب البالى إمامكم » وحدثنى آخر من كبار الرجال أن الغازى رمى بالمصحف ساخراً؛ وكان يأمر فتترجم له بعض آياته ليتخذها هزواً . ألم يكن للنهضة التركية بدّ من هذا ؟ لقد سبقنا الأوربيون فى كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتوراة والانجيل . ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لا يقتدى بها العقلاء . وقد قرأت فى إحدى الجرائد الانكليزية منذ سنين أن ملك الانكليز يواظب على قراءة فصول من التوراة منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا

وقد كتب الكماليون فى دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الاسلام ، ثم عادوا فمحوا ذلك منادين بأن الدولة لا دين لها . ثم عمدوا إلى القوانين المدنية ، وهى مستنبطة من الشريعة الاسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا . وليسوا أول من يلام على ذلك ، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة ، ولكن الكماليين كانوا بدعاً من الأمم فى اختيار قانونهم الجديد . فما كان هذا القانون وليد عاداتهم ، ولا نتيجة حاجاتهم ، ولا منتهى مارآه أولو الأمر منهم ، بل أتوا بالقانون السويسرى مجموعاً مطبوعاً مجلداً ، وعرض على المجلس هذا المجلد مُطْبقاً ، وأخذت الآراء فأجمع عليه الأعضاء ، فانتقل قانون سويسرا إلى الأناطول فى ساعة ، وصار الأناطول سويسرا ، وصار أهله سويسريين ، وأنجاهم الله من القوانين الاسلامية البالية ، إذ أنزل عليهم قانوناً جديداً مطبوعاً مجلداً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

***

ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية . وقد ترجموا القرآن من قبل إلى لغتهم فعذرناهم وقلنا لا بد للمسلم أن يفهم قرآنه ، والتركى لا يستطيع أن يفهم القرآن بالعربية فلا مناص من ترجمته إلى لغته ؛ والأمر فى الأذان غير هذا ، فهو تسع كلمات معدودات صارت شعاراً للمسلمين فى أقطار الأرض كلها يفهمونها على اختلاف لغاتهم ؛ ليس فى الأرض مسلم لا يعرف معنى الله أكبر ومحمد رسول الله ، والصلاة والفلاح ، وإن يكن فى الأرض مسلم لا يفهمها وجب عليه أن يفهمها احتفاظاً بهذا الشعار ، واستمساكاً بهذه الكلمات الجامعة بين المسلمين . فما بال الكماليين أصرّوا على التأذين بالتركية ؟ ذلك بأنهم لا يبالون بالرابطة الاسلامية ، وما أحسبهم إن استمرت لهم هذه السيرة إلا سيلغون الأذان كله فيستريح السادة المترفون من هذه الضوضاء . ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد فتمشيت فى إحدى كلياتها مع الطلبة . فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية ، فوقف الطلبة ، وتلا أحد الأساتذة دعاء باللاتينية . ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً . وهناك شواهد كثيرة على احتفاظ الأمم فى بعض أمورها بكلمات من لغات غير لغاتها احتفاظاً بذكرى تاريخية أو ابقاء على سنة دينية . وأذكر هنا أن فى اكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة ، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ، فهل منع هذا الامبراطورية البريطانية من أن تسود العالم ؟ أو كان هذا بعض الأسباب التى مكنت لها فى الأرض ؟

ولا ننسى هنا أن الجامعة المصرية حينما شيد بناؤها على طراز أوربىّ لا مصرىّ ولا عربى لم يُتم بُناتها التقليد ببناء مسجد ، ييسر للطالب المصلى تأدية الصلاة ، فكأنه أكره على ترك الصلاة اكراهاً . وقد تكلمت فى هذا فقيل لى إن فى تخطيط الجامعة مسجداً . ولست أدرى متى يشيد هذا المسجد المخطَّط ؟ لماذا نؤمن ببعض سنن الأوربيين ونكفر ببعض ؟ ولماذا يا قوم نقلدهم فى المراقص ولا نقلدهم فى بناء المعابد فى الجامعات ؟ وقد كان لنا مصليات فى مدارسنا ، وكان لها أئمة يصلون بالطلبة ، ولكنا شعرنا بتوغلنا فى المدنية وتقدمنا فى العلوم والفنون فخجلنا من الابقاء على هذه السنن القديمة فأهملناها فدرست ونسيت !

***

ومما فعله الكماليون آخراً تحويل جامع آيا صوفيا كنيسة بمحو ما فيه من آيات قرآنية وأحاديث ، والكشف عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ؛ وقد احتج لهم من يدافع عنهم بالحق وبالباطل بأن بناء المسجد وَهى ، ولم يبق صالحاً لاقامة الصلوات فجعلوه متحفاً وكشفوا عن هذه الصور الأثرية ، فهل معنى هذا أن

الكماليين أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يفدوهم بروّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أولا يسقط؟ هل بلغ الولع بالآثار القديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميلة، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة

لست أرى فيما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنفاذاً للمنهاج الذى وضعوه. فهذا جامع كان كنيسة معظمة عند النصارى، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجعلوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها، وبنوا لها منارتين، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم: «لتفتحن القسطنطينية! ولنعم الجيش جيشها، ونعم الأمير أميرها!» ولا يزال التركى كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح، وغلبة الاسلام فى هذه المدينة ونحو هذا مما لا يلائم «النهضة التركية الأخيرة» ولا يساير المدنية الحديثة، ثم لا يزال هذا الجامع حسرة فى نفوس النصارى، ما نسوه قط، وقد أعربوا عن آمالهم فى تحويله إلى كنيسة يوم احتل الحلفاء الآستانة فى الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى. فكان لزاماً أن يمحو الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين، لينسوا الماضى وينظروا إلى الحاضر. وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التى التزموا محاكاتها فى كل شىء.

وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح فى الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح؟ ستقولون إن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح، ولا يزال كثير من مساجدنا فى الأندلس والبلقان كنائس فى أيدى النصرانية. وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لا نبدؤهم به!!!

وقد بلغنى أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية فى هيبه لى أطه، هذا المسجد الذى كان يشرف على بحر مرمرة يوحى إلى المسلم أن دينه ينبغى أن يعز فى البر والبحر، فان صدق هذا الخبر، ولست على يقين منه، فهو حلقة من هذه السلسلة

(له بقية) **عبد الوهاب عزام**

الديمقراطية والانتخاب

فى التربية

للأستاذ فخرى أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية فى نظم الحكم الحديثة، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة فى الفرصة التى تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم؛ ففى نصف القرن الأخير جُعلت مرحلة التعليم الأولى فى دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية، لينال كل فرد حظاً من التعليم، وعاونت الحكومات ذوى المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضى إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التى كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يَخْلُ انتشاره من مساوئ: من ذاك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة تواً عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه فى المدارس إلا النزر اليسير الذى لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالى، وتدلت الصحف، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سوى ارضاء تلك العقلية المنحطة، وقد آذى هذا الأدبُ المنحط الثقافةَ الرفيعة: إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تعلماً راقياً، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها، إلا أن يكون له وازع من نفسه شديد يَقْسِرُه على التسامى عن الفضول؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أُسِيءَ استعمالها كما أُسِيءَ استعمالُ الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله فى بلاد الغرب التى سبقتنا اليه فهل هو كذلك فى مصر؟ لقد أخذنا

مبدأ التعليم العام فيما أخذنا عن أمم الغرب ، وقلنا : مادمنا نطالب الديمقراطية فى السياسة والحكم فلا بد من اتباعها فى التعليم ، وما دمنا نريد النهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لننقيها من خرافات الجهل وجموده ، وأغرقنا وتسرعنا فى تطبيق ذلك للمبدأ شأننا فى كل ما ننقل عن الغربيين : فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا فيها الناشئين من كل صوب ، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة ، وتخرّج فى معاهدنا ألوف الشبان ، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة فشل لم يكن فى الحسبان : فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد ، وتعليمهم ناقص مشوه ، وأخلاقهم لا تحمد ، والتعليم عامة يتقدم فى طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

***

ذلك بأننا أخذنا بمبدأ الديمقراطية فى التربية مطلقاً غير محدود ، وهومبدأ غيرطبيعى ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام ، وإنما المبدأ السارى فى الطبيعة هو مبدأ الانتخاب : فالأصلح فى الطبيعة هو الذى يرقى ويسود ؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية فى حياتهم الاجتماعية ونظامهم الحكومية ، وهم اليونان : فديمقراطية أثينا لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية إذا تذكرنا أنه كانت بها دائماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين فى الحقوق والواجبات : طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ولما بحث فلاسفة اليونان الكبار فى النظم الحكومية لم يُؤْثِرْ واحد منهم الديمقراطية المطلقة ، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هى النظام الطبيعى ؛ وحين عالج أفلاطون التربية وضع لها نظاماً أرستقراطياً قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح ، لا ديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة: فجعل التعليم على ثلاث مراحل يتمتع الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية فالثالثة إلا من أظهروا استعداداً طبيعياً لذلك ، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية ، ومن الثانية يتخرج المقاتلون ، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالطبيعة لم تجعل أبناءها متساوين فى المواهب ، بل هى ترفع بعضهم فوق بعض درجات ، ومادام هذا كذلك فسيظل فى كل مجتمع فى كل عصر طبقات متفاوتة ، ولن ترقى أمة إلا أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات ، والغفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

وأشهر الشعوب بالديمقراطية فى العصر الحديث الانجليز ، ولكن من يتأمل فى حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا : فالفوارق بين طبقات النبلاء والأوساط والسوقة قائمة محددة يشعر بها أفراد كل طبقة ، والنبلاء يترفعون على من عداهم ترفعاً شديداً ، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار ، حتى لتكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة ؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الانجليز العملية ، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعى والحكومى ، وخلو تاريخهم من زعازع التقلبات

وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم : فالنظام الارستقراطى يتمثل فى المدرسة الانجليزية كما يتمثل فى المجتمع الانجليزى : فالتعليم عام مباح للجميع ، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يأبون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة ، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد انتهاء المرحلة الاجبارية وينزلون إلى ميدان الحياة العملية ، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوها من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار فى مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم ، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على النابغين المتفوقين ، وهكذا يبدأ التعليم فى أول مراحله ديمقراطياً عاما ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خُلُقاً وموهبة ، ولا يصل إلى مراتب الادارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصايرها إلا صفوة أبنائها ، ويظل الأوشاب فى أسفل

***

أما فى مصر فاننا لطول لهفتنا إلى الديمقراطية والعلم — بعد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً — اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً ، وأخذنا بمبدأ الديمقراطية وحده ، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعى مالم يُماشِه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب ، ومالم يُراعَ معه قيام الفوارق بين الطبقات ، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً : فكثر عدد المتعلمين ولكن قلَّتْ قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق ، والجانب الخلقى هو الذى يعنينا هنا أكثر من غيره ، وقُصارى

ما يقال فى أخلاق أبناء مدارسنا وخريجيها أن النفس تمتلىء أسى ويأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين تذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لغدها ، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حَشْدُ التلاميذ فى المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

فى كل أمة فى العالم طبقة سفلى ، فلا ضير علينا فى الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا ، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا فى بلادنا كبيرة العدد كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية ، وأن أخلاق تلك الطبقة فى منتهى الضعة ، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار عصور الاستبداد والجهل التى أوهنت الأخلاق وبثّت الكذب والنفاق والغش والخيانة والخشونة والوقاحة ، وما يزال أبناء الطبقة الوضيعة عندنا متّسمين بهذه الصفات ، وهم لا يرون بها بأساً ولا يعدّونها إلا إمارات مهارة وحنكة ووسائل احتيال العيش وانتهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم فى مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم فى السنين الأخيرة إقبالاً شديداً ، لا لِقَدْرِهم العلم قَدْرَه ومعرفتهم بفضل الخلق الكريم العالى ، بل طمعاً من الآباء فى أن يروا أبناءهم يرفلون فى أزياء الأفندية والبكوات ، ويترشحون لعالى المناصب والرتبات ، فوجد أبناء السائقين والأسكافين والخَدَم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصاريعها فجَلَسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نُشِّئُوا فى بيوتهم على حسن الذوق ولُطْف الخطاب وطهارة الطوية ، فبثوا فى جو المدرسة خشونة طباعهم ، وجلافة خطابهم ، وسفالة أفكارهم ، وضَعَةَ نفوسهم ، ولم تكن إلا سنون حتى تسمم جو كل مدارسنا ، وصارت تطبع كلّ مَن أمّها من التلاميذ — سوقتهم وراقيهم — على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة

والذى أراه أنّ مدارسنا لن تقال من كبوتها ، وأخلاق ناشئتنا لن ترفع من حطتها ، حتى يُصدّ هذا الذى يحق أن نسميه « غارة السوقة على المدارس » ، ويفصل بين أبناء السوقة وأبناء الأسرات الطيبة فى معاهد العلم ، وما دام هذا المزج الذى لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطغى على أخلاق عليتنا ونحن نمكّن لهذا الطغيان بأيدينا فى مدارسنا

فى الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة ، ونحن الذين نريد الرقى ببلادنا نبغى الخير للجميع بلا نزاع ، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدى إلى غرضنا المنشود ، هو يهبط بأخلاق العلية ولا يرفع السفلة ، كالذى يمزج قليلاً من الماء النقى بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر ، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعة واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنمدهم بالتعليم الذى ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوقة والتطبع بطباعهم ، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة ، ومتى خَلَصَ لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفاء ذوى الخلق العظيم القادرين على تدبير أمورها وقيادة نواحى النشاط العام فى حياتها ، ولنا أن نلتفت بعد ذلك — أو مع ذلك — إلى أبناء السوقة ، فنفسح لهم فى مجال التعليم والتربية عما يؤدى إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم ، ولكن على أن يظلوا بنجوة لا يبثون السموم فى بيئة أرفع من بيئتهم ، وإنّ رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال ، كما أنهم إنما هبطوا الى دركهم ذاك فى أجيال ، فجدير بنا أن ننبذ التسرع جانباً

***

من ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت اليه فى كلمة سابقة ، يُقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلقى والعقلى لا على أساس الديمقراطية العمياء ، فمما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبناؤها فى بيوتهم نشأة طيبة ، فلننتخب أبناء هذه الطبقات — بخير الطرق المستطاعة — ولنُفرد لهم مدارس تمدهم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون

ولا شك أن اليُسر المالىّ من دواعى رقى الأسرة ورقى المجتمع كله . فالأسرة التى تشعر باليسر وترى امتيازها المالى على غيرها تسمى ليكون لها امتياز خلقى أيضاً ، فتنزع إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفساف ، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق ، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل

طبعاً وتبتدىء بالمظهر ثم تأخذ بالجوهر . أما الأسرة السوقية المدقعة فيورثها كفاحها فى طلب القوت وضيع الرذائل وقذرَ العادات ، ومن ثم عكن أن يُتخذ اليسر المالى مقياساً لرقى أسرة الطالب وسموها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً لذاك أيضاً ، ويجب بعد أن يُقبل الطالب فى المدرسة أن تستمر الرقابة المدرسية الصارمة ، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء فى بيئتها الراقية فُصل على الفور ليظل جو المدرسة دائماً نقياً يسمو بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالعقول : بأن يُرفع مستوى الامتحانات التى يتوقف عليها تقدم الطالب فى مراحل العلم — أيا كان نوعها وكيفما أدخلت على أنظمتها الاصلاحات — حتى لا يُسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأتهم الطبيعة بالمواهب الصحيحة ، فيُسمح للجميع بطَرْق مرحلة التعليم الأولى ، ولكن لا ينال الاجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

***

هكذا يُطبَّق مبدأ الانتخاب فى التربية بناحيتها الخلقية والعقلية ؛ وباتباع هذا المبدأ ترقى أخلاق المتعلمين ويرتفع مستوى الحاصلين منهم على الاجازات العلمية ويقل عددهم فلا يزيد على حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة ، ومن تخلفت به مواهبه منهم عن إدراك غايات العلم الصحيح يُعرج على ما يناسبه من مهن وأعمال

فمبدأ الانتخاب ، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد والطبقات ، مبدأ اختيار الأصلح ، الذى هو المبدأ الطبيعى ، هو المبدأ الذى به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من عللها الكثيرة ؛ أما مبدأ الديمقراطية المطلقة ، مبدأ فرض المساواة التامة بين الجميع فى كل شىء ، مبدأ إفساح المجال لكل من هب ودب ، فهو مبعث آفات التعليم ، وهو الذى أدى إلى حشد التلاميذ فى المدارس ذلك الحشد الذى عزا إليه تقرير معالى وزير المعارف معظم مساوىء التعليم فى مدارسنا

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

إبليس يتوب ... !

للأستاذ محمد سعيد العريان

« ليس أسمج من الرذيلة تكون وحدها فى الأرض ، إلا الفضيلة تكون وحدها ...! »
الرافعى

اطَّلع إبليسُ ذات مساء على الأرض ؛ يستروح من نسمات الليل والدنيا نائمة — رَوْحَ الفردوس الذى طردته الكبرياءُ من رحمته . وانبثّ زبانيتُه ينفثون الشرّ عن أمره فى أوكار الظلام ؛ ففى كل منعطَفٍ شيطانٌ صغيرٌ يتربّص ، وبين كل اثنين ثالثٌ لا يريانه . . .

وسمع إبليسُ فى هدأة الليل عابداً يتهجّد ، مايبدأ ولاينتهى من سجدةٍ إلا لَعن الشيطان . . . !

وأحسّ إبليسُ لعناتِ الشيخ العابد تنصبُّ عليه كما ينهال التراب على نار تتلهّب ، أو ينصبُّ الماءُ على جمرةٍ تؤجّ

وصَرَّت أسنانُ الشيطان من الغيظ ، وانقدح من حَجاجيْه شرارٌ كالحب ، أن عجزَ وعجزتْ زبانيتُه معه عن فتنة مثل هذا الشيخ الزاهد وإرادتِه على أن يتعلّق بحظه من الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة !

أفكان يعصم الشيطانَ من اللعنات أن يُسلّط على الناس جميعاً شهواتهم ويُغرى بهم أنفسَهم ؟ فكيف وإنّ عبادَه من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنة على مقدار ما يُيسر لهم شهواتِهم ويضاعف لهم من مَسرّاتها ؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعَهم إلى طاعته . . . ؟

وهبَّت نسمةُ السَّحر تُعطر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاستروَح منها إبليسُ رَوحَ الماضى يُذكره أيامه كلها منذ بدء الخليقة ويلقى التاريخَ بين يديه . وتنشّته الذكرى وعاد الزمانُ القهقرى أمام عينيه ؛ فاذا هو مَلكٌ بين الملائك يسبّحون بحمد ربّهم حافّين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربّه أبياً مستكبراً أن يسجد لبشرٍ من طين ؛ وإذا هو من بعدُ مطرودٌ

من رحمة الله ، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسُبُّه الأبد ؛ ثم ينفث نفثته فى صدر حوّاء فيزلُّها وزوجها عن الجنة فيُخرجهما مما كانا فيه ، ويتعقّب أبناءهما من بعدهما على الأرض يصنع منهم حطبَ جهنم ، فما بشرٌ من الناس إلا شيطانُه يسعى بين يديه ...

ثم هو فى موقفه ذاك تتناثر من حوله لعناتُ الناس سواءٌ منهم طائعُه وعاصيه . وتصكّ أذنيه من مكانٍ سحيق زفراتُ عباده فى نار جهنم تكوى جباهُهم وجنوبهم بما أغواهم الشيطانُ وأضلهم سواءَ السبيل !

ولأوّل مرة استشعر إبليسُ لذعَ الندم فدمعت عيناه ...!

يالها من سخرية ... إبليس يتوب ... ! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء انتقاماً لكبريائه التى زعمها ديستْ يوم أُمِرَ أن يسجد لصلصالٍ من حمإٍ مسنون !

أكانت توبةً نصوحا ، أم مبالغةً فى الانتقام ، أم هو يشتهى أن يعيش بشراً بين البشر عُمْراً من عمره ، ليذوق بعض لذّات البشرية ، ويرى بعينى حسه كيف يفتتن بها الناسُ جميعاً منذ كانوا فتسرع بهم شهواتُهم إلى طاعة الشيطان ... ؟

***

وطلع إبليس على الأرض فتًى وسيماً يمشى على قدمين مشى الناس . وشعر لأوّلِ ما لبسته البشريةُ أنه جائع ، فماجَ على ندىٍّ ساهرٍ له به عهد ، لأنه هو الذى أنشأه وأقامه حجراً على حجر ، وطالما قضى فيه الليالىَ ذواتِ العدد من حيث لا يراه الناس ؛ ينفث الشر ، ويبذر بذور الخطيئة ، ويفتنّ فى وسائل الاغواء ...

كانت مصابيح النّدىّ ترمى أضواءها إلى بعيد ، وتمُدُّ من أشعّتها شركاً يصيد الناس ويأخذ عليهم طريقهم ؛ وكان كلُّ ما ينبعث منه يُشعر أن هناك حركةً وعملاً يغريان من يلتمس إرضاء شهواته ...

ولكن ... ولكن هاهو ذا إبليس يصعد الدّرجَ فى أناةٍ ورفق ، ويدفع الباب فى هدوءٍ وخفة ، ويخطو إلى البهو فى سكون وحذر ، فيرى ، ولكنه يرى أجساداً لا تكاد تتحرك ، ويسمع ، ولكنه لا يسمع إلا مثل أنفاس النائمين ؛ ويشهد ، ولكنه لا يشهد إلا عيوناً محدّقة فى الفضاء تتأمل . لم يكونوا سكارى ولا مُغيَّبين ، ولكن فكرةً واحدة كانت تسيطر عليهم جميعاً ، فكرةً بين السخط والرضى ، وبين الندم والاستغفار !

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده وطلب طعاماً ، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله ، ويتسمع نجوى الضمائر الخفية تهمس فى أعماق أصحابها

ورأى مائدة خضراء مبسوطة ، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقدٌ وورق ، ورأى كؤوساً فارغة وممتلئة ، ورجالاً ونساء قد تحلّقوا حول المائدة ، ذراعاً إلى ذراع ، وامرأةً بين كل رجلين ... ولكن يداً واحدة لا تمتدّ إلى شىء ، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة ...

وأبصر رجلاً يهتز فى موضعه هِزّة خفيةً وهو يتحدّث إلى نفسه : كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نقد ، إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ولكنه ليس من حقه ، لأن حظه فى اللعب قضى به لغيره ، هو قضاءٌ غير مشروع ولكنه حكم العرف فما عليه إلا الطاعة ! وقالت له نفسه : ما أنت والقمار ؟ شدّ ما نهيتُك فلم تنته ! الآن فذُق ألم الحرمان مما تملك ، فلعلك من بعد ألا تستمعَ إلى إغواء الشيطان ...

واختلج إبليس حين ذكر اسمُه اختلاجةً كادت تنمّ عليه ؛ وهمّ أن ينهض ، لولا أن أقبل النادلُ (١) عليه بالطعام

وشُغِل إبليس لحظة بالأكل ، يزدرد اللقمة بعد اللقمة يكاد لا يحرّكِ بها فكيه ؛ وعرف لأوّل ماذاق الطعام — لماذا كانت شهوة البطن أوّلَ همٍّ الانسان ... !

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرهم ، فما راعه إلا هذا المقامر الرابح محدقاً فى الفضاء يتفكر ، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوان الندم والخزى والحياء ... ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرّقه فى سُمّاره وهو يقول : معذرة ياصحابىّ ، فانما هو مالكم ليس لى حق منه فى شىء ، وما لعبت لأسلبكم ما تملكون ، إنما أردتُ السلوة وإزجاء الفراغ . وعضّ على شفته واحمر وجهه ، إذ كان يعلم أنه يكذب فى اعتذاره ؛ فما كان ليقامر إلا مؤمّلا أن يربح ، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ ما لا يملك ؛ وقد ربح الليلة ، ولكنه حين ضمّ يديه على

(١) النادل واحد الندل (بضمتين) ، وهم خدم الدعوة والمطعم والقهوة

المال أحسَّ كأنه يقبض على جمر ؛ ورفت به سانحةٌ من الخير ، فتعفف أن يأ كل مال الناس فخرج عنه لأهله . . . !

ونظر الرجل إلى يمين ، فاذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها ، فمال عليها وهو يهمس :

« أيكون قد أغضبك مافعلت ياسيدتى ؟ »

قالت المرأة : « عفواً ، ليس لى شأن بذاك ، ولكن أمراً يقتضينى أن أعود مسرعة إلى الدار . . . ! »

وهبت واقفة ، فقال الرجل : « خير . . . . ! أتأذنين لى أن أصحبك ؟ »

قالت : « شكرا . . . ! »

وسارت فى طريقها فما ألحَّ الرجل ولاتموقت المرأة ، ومالت إلى غرفة فى الندىّ تأخذ زينتها فى المرآة فأدركتها صديقة ، ونظرت كل منهما فى وجه صاحبتها فأطالت النظر ثم أطرقتا . .

منذ بعيد تقارف هاتان المرأتان الاثم فى غير حذر ولاتذمم ؛ أما إحداها فضحية شاب غوى أغراها حتى نال منها ثم اختفى من وجهها وخلّف بين أحشائها بضعةً منه ، ففرّت بجريمتها من قانون الجماعة إلى حيث تشفى داء قلبها بالانتقام من الرجال

وأما الأخرى فزوج كالأيِّم ، أو هى أيم وإن تك ذات بعل ؛ فما شعرت يوماً أن لها حقاً على رجلها ، وإنه لدائب التجوال بين البلاد ، لاتستقر به الدار فى حضن زوجته أياماً حتى تعرض له الأمانى تغريه أن يضرب فى الأرض يطلب المجد بالثمن الغالى . . . بشرف زوجته . . . !

لم تحس المرأتان قبل الليلة معنىً من معانى الندم ؛ فمالهما الليلة مطرقتين لا تنبسان ؟

أرأيت إلى المجرم إذ يُفجَأ وهو يقارف جريمةً منكرة ، فليس يملك أن ينكر ولا أن يعتذر ؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا فاذا هما تتعانقان وقد اجهشتا باكيتين ، وأطفأت دموع الاستغفار وقد النار ولذع الندم ، فكأنما حلت فى جسد كلٍّ منهما روحٌ جديدة قد خرجت من الجنة لساعتها لم تتعلق إثماً ولم تجترح معصية

وتلفت إبليس فاذا الندىّ مقفر خالٍ ليس فيه إلا النُّدُل يسعون بين الموائد الخالية ، يرفعون الأوراق والأقداح ويصففون الكراسى والمناضد

وتنفّس الصبح فأبدل إبليس ثياباً بثياب ، وانطلق فى تُبّانِه وبُرْنُسِه إلى سِيف البحر (١) ، يستمتع به مايستمتع البشر ، ويملأ عينيه وقلبه من مفاتن دنيا الناس . لقد كان له فى البحر معهدٌ يرتاده زبانيتُه يعلمون الناس السحر وينصبون شَرَكَ الفتنة ؛ وهوذا البحر ، فأين فتنته وسحره ، وأين مباهجه التى كانت ؛ أين الأجسام البضة ، والأذرع الغضة ، والسيقان اللفاء ، والصدور النواهد ؛ وأين العيون التى ترمى فتصمى ، وأين لآلئُ البحر تغوص وتطفو ، وأين الزَّبَدُ الأبيض يلاطم الزبد الأبيض

لقد خلا البحر من عرائسه ، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطئ ، مايبدو منها إلا عينان كصَدَفَتين ملقاتين فى كومة رمل !

وهذه فتاة تمشى على استحياء مستندة إلى ذراع أخيها ، فما تعرت من بُرْنُسها إلا ليسترها الماء . وهذا رأس رجل يبدو سابحاً من بعيد ، مايكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذّى منه الحسناءُ السّبوح

وأحسّ إبليس أوّلَ آلام البشرية فى الوحدة والفراغ والضجر ، فمضى على وجهه ممتلئَ النفس فارغ الفؤاد . لقد ودّع عالَمه الموحش تحت الرّغام ليظفر بالأنس فى عالم البشريّة ، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان ؛ وخلع عنه شيطانيّته تائباً ليهب للناس الإستقرارَ والسلام ، فما لقى هو فى بشريته إلا الاضطراب والألم

***

واطمأنت الحياةُ بالناس ، فاجتمعوا على الرضى والطاعة فى حالِ شرٍ منها السخطُ والعصيان ؛ إذ لم يكن ثمّتَ عدوانٌ يدعو إلى المقاومة ، أو تَرَبُّصٌ يُنَبِّه إلى الحذر ، أو كيدٌ يستتبع الحرصَ واليقظة ؛ وعاد كل فردٍ أمةً وحده ، يعيش فى رضى وقناعة على أكمل مايكون الانسان صلاحاً وحبّاً فى الخير ، ولكن الجماعة لم تجد مايشدّ وحدتها ويربطها آصرةً إلى آصرة . ودبّ النعاسُ إلى أجفان الحياة : فمات الطموح

(١) التبان : سراويل البحر . والسيف (بكسر أوله) : البلاج

لأنه بابٌ من التكبر ؛ وخمد النشاط ، لأنه جهاد فى غير عَدُوّ ؛ واستنام الناس إلى القدر ، لأن التمنى ضربٌ من الأثرة ؛ وعاش نصف الناس عيالاً على نصف الناس ؛ فليس ثمت عملٌ للشرطة والجيش ورجال الحكم ؛ وأنّى لهم أن يعملوا مادام لامسرقة ولا قتال ولا عدوان ؟

وكسدت سوق القَفَّال والزَّرَّاد والصَّيْقَل والرَّمّاح ؛ وما حاجة الناس إلى الأقفال والدروع والسيوف والرماح ؟

وقال فتىً لصاحبه : تعالَ نلتمس نزهةً فى غير ساحة (المولد) ؛ فما لنا ولهذه المهرجانات التى لا تجتمع إلا على شرّ ولا تحشد الناس إلا لمعصية ؛ حسبى أن أعمر قلبى بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتى وإمامى . . .

وأمّن صاحبه على قوله ؛ ولكن البدّال ، والبقّال ، والبزّاز ، وبائع الحمص ، وصانع الحلوى ، ومدير الملهى -- لم يعرفوا لماذا هجر الناسُ المولد ؛ فمضى الموسمُ ما باعوا ولا اشتروا ولا تعوّضوا ، وقوّض كل منهم خيمتَه ومضى غير مأجور على جهاده !

وقال بعضهم لبعض : « أترون الناس قد نسوا أولياءهم فتمرّدوا على ما اعتادو ؟ »

فأجاب شيخ كبير : « ذلك من عمل الشيطان . . . ! »

وأراق الخمّارُ أحمرَه وأصفره وهو يقول : « ليت خمرى كانت خلاً . . . ! »

وجلس قاضيان يداولان بينهما الرأى :

« أيهما خير : أن تعيش الفضيلةُ وحدها على الأرض ، أو أن تنبت بين أشواك الرذيلة والمنكر والشر ، فيكون للانسانية منها أفراح ثلاثة : فَرَحُ النفس المؤمنة بها ، وفرَحها بالصبر على المجاهدة لها ، وفرحها بالظفر بعد مشقّة الجهاد . . . ؟ »

ونظر الشيخ الزاهد فى صحيفة أعماله ، فاذا هى بيضاء أو كالبيضاء ؛ فليس يُضاعِف الأجرَ إلا المقاومة . ولو أن عابدا قضى الدهر كله راكعاً ساجداً ، ما عَدَل أجْرُ عبادته كلّها ثوابَ ساعةٍ لشابٍّ تتجاذبه شهواتُ الدنيا ، كلما هفَت نفسُه إلى معصية ردّه عنها الايمانُ والتّقى ، فهو أبداً فى مجاهدةٍ لا يهدأ ، وهو أبداً مأجورٌ أجراً لاينتهى !

وإنما يقظة الحياة فى الجهاد والمقاومة وتوقُّع ما يأتى به الغدُ على شتى ألوانه ؛ فاذا عُدِم الجهاد ، وفُقِدت دواعى المقاومة ، وعاش الانسان لساعته التى هو فيها — أعمى أو كالأعمى لا يُبصر ما أمام — فَقَدَت الحياةُ معناها الأسمى ، وعاش الناس فى هدى أشبهَ بالضلال ، وفى فضيلةٍ شرٍّ من الاثم والفسوق والعصيان !

ليتك تدرى أيها الزارى على القدر ...! هل تستوقد النار إلا بالحطب ؟ فمِن أين لك مادمتَ تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجافّ !

وهل يعلم الفُسّاق والعُصاةُ من بنى آدم ، أنهم قبل أن يكونوا فى أخراهم حطبَ جهنم — كانوا فى دنياهم سُلم البشرية إلى مثلها الأعلى . . . ؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاسُ الذى ضرب على عيون البشر ؛ وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية قد ناله ما ينال الناسَ من الضيق والملل وتقلُّب الرأى ؛ إذا تقلقلت دنياه طلب الإستقرار ، فاذا استقرّ عاد ينشد الحركة ويتبرّم بالسكون . . . !

وقلّب وجهَه فى السماء كاسفاً محزوناً ، ثم أسند رأسَه إلى راحته وجلس يتفكّر . . .

أىّ خير كان يقدم هو للجماعة البشرية على حين كان لا ينبغى إلا الكيدَ والانتقام ؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة ، وتسكن بعد حركة ، وتسترخى بعد نشاط ، لأنه هو قد بطل سحره ، وإذ لم يعد فى الدنيا شرٌّ ، مات فى الجماعة روحُ الانبعاث إلى الخير . . !

أيها الخالق العظيم ، ما أعجب تدبيرك وأدقّ حكمتك ! خلقت الشر والخير يصطرعان فى هذا العالم لتوجدَ منهما الخيرَ الأعظم ، وأنا — أنا الشيطان المشئوم — حسبتنى يوماً أكبر مما أنا ، حين ذهبتُ أُهدّم ما تبنى ، وأعصى ما تأمر ، وأدعو إلى ما تنهى ، فلما آذنتَ أن تُذل كبريائى ، أريتنى نفسى إلى جانب عظمتك ، فاذا أنا ، أنا الذى زين له الغرور يوماً أنه أكبر من أمرك ، إذا أنا أعصى عصيانى فى طاعتك ، وأفسد إفسادى لاصلاح عبادك على قدر منك وتدبير حكيم . . . . !

وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه فى كل مكان ، فلا هو هناك — فى عالَمه الشيطانى — كان موفقاً فيما يحاول الانتقام من بنى آدم ، ولا هو هنا . . .

وعاودته نزغة شيطانية لم يلبث أن قمعها فى صدره وانطلق فى سبيله

* * *

وانتهى إلى البستان المعشوشب المخضل وقد نال منه الاعياء فارتمى على العشب الرطب يستريح فى ظل وارفة لفاء ، وطلع له من بين ملتفّ الحدائق حسناءُ وضاءة ، تمشى كما يهتز الغصن وترنو كما يبتسم الزهر

وأحس إبليس مرة أخرى أن قانون البشرية يعمل فى دمه وأعصابه ، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ثم أطبق عينيه وهو يتنهد ، كأنما قد توهم أنه قد احتوتها أجفانه ، وشعر بمس الحب فى قلبه فأشرق وجهه بابتسامة هادئة فيها لمحة من السرور وغير قليل من الألم

وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد ، وضمت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شىء ، مستأمنة مطمئنة

وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً ، فاستحيت حواء الصغيرة وأرخت فضل ثوبها على الوجه الفاتن ، ووقف إبليس ينشد قصيدة غزل طويلة ، وعتها حواء كلمة كلمة ومعنى معنى ، ولكنها لم تنبس ، ومدّ إليها يداً يستنهضها فما نهضتْ وازورّت عنه مُعرِضة ، وسكت ولكن عينيه ظلتا تتحدّثان حديثهما

واربدّ وجه المرأة من غضب ، فما رأى إبليس غضبتها إلا فناً جديداً من فنون جمالها ، فقالت وقد ضاقتْ به : « اليكَ عنى يافتى وخلّ سبيلى . . . . ! »

وضاق صدر الشيطان بهذه الانسانة العنيدة ، وثقل عليه أن يعجز عن نيلها وهو هو !

كم فتاةٍ وامرأةٍ قبل صاحبته تلك كانت من عباده وأتباعه ما تأبّتْ واحدةٌ منهن على ما أراد لها ؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو ، فليس به اليوم حاجةٌ لأن يسعى لغيره وقد خلع شيطانيّته !

ماذا . . . ! أيعيش هذه الآلاف من سنيه الماضية يتحكم فى البشرية كلّها ، ويعلى إرادته ، ويسعى بين الناس ، ويصل بين الأحباب ، ويقدّم الثمرة لكل من يشتهيها ؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرةَ أعجزه أن ينالها . . . ؟

وللمرة الثانية منذ خلِق شعر أن كبرياءه جريح . . . !

لقد أبى أن يسجد لأبى البشرية كلها وفسق عن أمر ربه ، أفتفسق عن إرادته امرأة ؟ وما هو إن لم ينلْها ؟ وما هى حتى تتأبّى عليه كلّ هذا الاباء ؟

وعاود احتيالَه يستجدى الحسناءَ بعضَ الرضى ، فولّتْ عنه معرضة مستكبرة ، ومضت تدوس بقدميها الصغيرتين قلبَ إبليس . . . !

وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلة فما أمدّته بشىء ، وبدا إبليس فى بشريته إنساناً ضعيفاً قليلَ الحول ، لا قدرة له على التصرف ولا طاقة له بالاحتمال . . .

ووجدت له شغلاً من فراغ . . . وعدا خلف المرأة يحاول أن يدركها ما يبالى نظرات الناس ؛ فاذا زوجها يلقاها على الطريق فيصحبها إلى الدار يداً فى يد وجنباً إلى جنب !

وأحسّ إبليس فوق ألم الحبّ الذى يجد ــ ألماً جديداً من آلام البشرية ، وقذفَ منظرُ الزوجين المتحابّين فى قلبه الحسد . . . !

وآدَه العجز والشعورُ بالحرمان ، فعاودته شيطانيّتُه ثائرةً محنقة . على أنه وقد ذاق بعض لذّاتِ البشرية فى آلامها لم يكن يريد أن يرتدّ إلى عالمه ، إنما كان حسبه أن يستمدّ الحيلةَ من طبيعته الأولى عن يحب وهو باق فى بشريته !

ولكنه ــ وا أسفاه ! ــ لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلاً فى وقت معاً ؛ وحين ألهمته طبيعتُه الأزلية بالرأى فقذف بالفكرة المحرّمة فى قلب المرأة ــ كان خلقاً آخر ليس من البشرية ولا حظّ له من المرأة . ونظرت الحسناءُ إلى وراء تفتقد عاشقها الدنف فما رأته ، وما كان لها أن تراه وقد عاد شيطاناً لا يخضع لنواميس هذا العالم ؛ ورآها هو تنظر متلهّفةً مشتاقة ، فما نالته نظرتُها ولا مسّت قلبه ؛ لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحَىْ شيطان . . . !

وكُتب فى تاريخ الأرض ، أن إبليس قد تاب مرّةً ، ولكن ردّته الى شيطانيته امرأة . . . . ! ؟

(طنطا) **محمد سعيد العريان**

٦ – شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وروى مخارق أن أبا العتاهية جاءه فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه ، لى فمتى تنشط ؟ فقلت متى شئت ! فقال : يكون ذلك فى غد ؛ فجئته فأدخلنى بيتاً له نظيفاً ، ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا ، ودعا بألوان من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ، ثم صب قدحاً وقال : غنني فى قولى :

أحمـدٌ قال لى ولم يَدرِ مابى   أتحب الغـداة ُعتبـةَ حقاً

فغنيته ، فشرب قدحاً وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غنني فى قولى :

ليس لمن ليست له حيلةٌ   موجودةٌ خيرٌ من الصّبر

فغنيته وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنني فديتك فى قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى   تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيته إياه ؛ وما زال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره ، فأغنيه ويشرب ويبكى ، حتى صارت العتمة ، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست ، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاء من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق الذى لا لقاء بعده ؛ وجعل يبكى ، فانصرفت وما لقيته زماناً

وروى أبو سلمة الغنوى أنه قال لأبى العتاهية : ما الذى صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ فقال : إذن والله أخبرك ، إنى لما قلت :

الله بينى وبين مولاتى   أهدتْ لى الصد والملالاتِ

منحتهـا مهجتى وخالصتى   فكـان هجرانها مكافاتى

هَيَّمنى حبهـا وصَيّرنى   أحـدوثة فى جميع جاراتى

رأيت فى المنام فى تلك الليلة كأن آتياً أتانى فقال : ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ، فانتبهت مذعوراً ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل

فاذا كانت هذه الروايات كلها فى حادثة واحدة فهى متضاربة متدافعة ينقض بعضها بعضاً ؛ وإذا كان الرشيد هو الذى كان يأخذ على أبى نواس اندفاعه فى اللهو ويحاسبه على ذلك فى شعره ، ويحبسه عليه مرة بعد مرة ويزج به فى سجنه ، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذى كان يسلكه مع أبى العتاهية ، وهو لم يكن أرق غزلاً من أبى نواس ولا غيره من جمهور الشعراء الذين كانوا يلتفون بالرشيد ، وكان لهم من رقيق الغزل ما يغنيه عن غزل أبى العتاهيـة ؟ وليس هذا وذاك كل ما يعنينا من هذه الروايات ، بل يعنينا منها أيضاً أنها لا تصل بنا إلى غور نفس أبى العتاهية وصلتها بتلك النزعة الصوفية التى صارت اليها ، وقد كان فى ظاهر أمره أبعد الناس منها ، فلا تبين لنا تلك الروايات إلا أنها حالة طرأت عليه فى بغداد ، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة ، وتردها الرواية الأخيرة إلى تلك الرؤيا الناميـة السابقة ، وهى إذا صحت لا تكفى وحدها فى الأخذ به الى كل ما أخذ به من ذلك الغلو فى أمره ؛ فاذا أمكننا أن نصل إلى هذه النواحى الغامضة من أمر أبى العتاهية أمكننا أن نفهم من أمره مالم يفهمه الناس منه الى الآن . وسنجلو من أمر ذلك ما نحتاج اليه هنا ، ونترك ما بقى من ذلك إلى موضعه من هذه الدراسـة لأبى العتاهية ، ليكون لنا منها دراسة منظمة لا يسبق شىء منها على موضعه ولا يتأخر عنه

وإنه ليهمنا فى الأول أن ننفى ما يفيده ظاهر تلك الروايات من أن تلك النزعة الصوفية فى أبى العتاهية كانت نزعة طارئة عليه فى بغداد ، والحقيقة أنها كانت نزعة قديمة عنده ، وأن أمرها يرجع إلى مبدأ أمره بالكوفة ، وأنه كان يخفى ذلك فى نفسه ليظهر به فى الفرصة التى يكون له فيها أثره فى الناس جميعاً ، لا فى نفسه وحده . ودليلنا فى هذا هذه الرواية التى تنطق بأن القول فى الزهد كان أول ما أخذ به فى شعره

روى محمد بن عبد الجبار الفزارى أن أبا العتاهية اجتاز فى أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به فى الكوفة ويبيع

منه ، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلم ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يافتيان ! أراكم تذاكرون الشعر ، فأقول شيئاً منه فتجيزونه ، فان فعلتم فلكم عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا به وسخروا منه ، وقالوا نعم ، قال : لابد أن يشترى بأحد القمرين رُطَبٌ يؤكل ، فانه قمرٌ حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا ، فقال أجيزوا :

« ساكني الأجداث أنتم »

وجعل بينه وبينهم وقتاً فى ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الخَطَر ، وجعل يهزأ بهم وتممه :

ساكنى الأجداث أنتم مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

وهى قصيدة طويلة فى شعره

فهذه نزعة أبى العتاهية فى الزهد والتصوف ظاهرة فيه تمام الظهور من أول أمره ، ولا شك أنه رأى بعد هذا أن يتصل بشعراء الكوفة ليظهر بينهم أمره فى الشعر ، وأنه فى سبيل هذه الغاية أخفى هذه النزعة فى نفسه ، وأخذ يسلك فى اللهو والشعر مسلك هؤلاء الشعراء ، ثم تركهم إلى بغداد عاصمة المملكة العباسية لينال من ظهور الشأن بالاتصال ببنى العباس ما لا يناله لو بقى بالكوفة ، فنال من ذلك بغيته وأكثر من بغيته ، وأخذت نفسه تنازعه ميلها إلى الزهد ، وإلى الظهور بمظهره الحقيقى الذى يريد أن يمكر فيه صفو هؤلاء الملوك ، ويطلع الرعية على إسرافهم فى الحياة ، وغفلتهم عن الآخرة ، وانصرافهم عن مناهج الخلفاء الراشدين ، وسبل الملوك الصالحين ، ويخدم فى ذلك بمهارة فائقة أغراضاً سياسية له ، سنبينها بعد فى موضعها أيضاً

ولا غرابة بعد هذا فى أن يهتم الرشيد بأمر أبى العتاهية فى هذه الحال الجديدة ، ويعرف سوء أثر شعره فى الزهد وما إليه فى نفوس الرعية بالنسبة إليهم ، وقد كان يشاهد افتتان الناس بأبى العتاهية وشغفهم بشعره الذى قرب إليهم ألفاظه ومعانيه ، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء السابقون ، فصار يلهج به العابد فى خلوته ، والراهب فى صومعته ، والملاح فى سفينته ، والفلاح فى حقله ، والراعى فى غدوه ورواحه ، والعامل فى شغله وفراغه ، حتى صار شاعر الشعب بحق ، ولسان الرعية الناطق بالصدق . وإنما نسوق من ذلك ما يدل على مقدار تعلق الناس بشعر أبى العتاهية وافتتانهم به :

قال يحيى بن سعيد الأنصارى : مات شيخ لنا ببغداد ، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزونه ، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد فعزاه ثم أنشده :

لا تأمن الدهر والبَس لكل حين لباسا
ليَدْفِنَنَّا أُناس كما دَفَنَّا أناسا

فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبى العتاهية

وقال محمد بن صالح العلوى أخبرنى أبو العتاهية قال : كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل ليس أحد أقدر على هذا من أبى العتاهية ، وهو فى الحبس ، قال فوجه إلىَّ الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر باطلاق ، فغاظنى ذلك فقلت : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره ، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطَّرْفُ الطَّموحُ أيها القلبُ الجَمُوحُ
لدواعى الخير والشـ ـر دُنُوٌّ ونُزُوحُ
هل لمطلوب بذنب توبة منـه نَصُوحُ
كيف إصلاحُ قلوب إنمـا هُنَّ قُرُوحُ
أحسن الله بنـا أن الخطايا لا تفوحُ
فاذا المستور منـا بين ثوبيه فَضُوحُ
كم رأينا من عزيز طُوِيَتْ عنه الكُشُوحُ
صاح منـه برحيل صائح الدهر الصَّدُوحُ
موتُ بعض الناس فى الأر ض على قوم فُتُوحُ
سيصـير المرء يوماً جسداً ما فيـه روحُ
بين عينى كل حىٍّ عَلَمُ الموت يلوحُ
كلنا فى غفلة والـ ـموتُ يغدو ويروحُ
لبنى الدنيا من الدنـ ـيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ ـن عليهن المُسُوحُ
كل نَطَّاحٍ من الدهـ ـر له يوم نَطُوحُ

نُحْ على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنوح
لتموتنّ وإن عُمّـ ـرتَ ما عُمّر نوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الموعظة ، وأشدهم عسفاً في وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

وقد اختار أبو العتاهية عهد الرشيد لاظهار ما كان يخفيه في نفسه من ذلك لأنه كان أقل غلظة من أبيه المهدي ، وأخيه الهادي ، وأخف منهما عسفاً وبطشاً . وقد ذكر ابن خلكان أنه أراد أن يظهر بذلك في عهد المهدي ، فأمر المهدي بحبسه في سجن الجرائم ، فلما دخله دهش ورأى منظراً هاله ، فطلب موضعاً يأوي فيه ، فاذا هو بكهل حسن البزة والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصده وجلس من غير سلام عليه ، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكث كذلك مليا وإذا الرجل ينشد :

تعودت مسّ الضر حتى ألفته وأسلمني حسن العزاء إلى الصبر
وصيرني يأسي من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

فاستحسن أبو العتاهية البيتين وثاب إليه عقله ، فقال له : تفضل أعزك الله عليّ باعادتهما ، فقال : يا إسماعيل ويحك ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك ! دخلت فلم تسلم عليّ تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألتني مسألة الوارد على المقيم ! فقال له : اعذرني متفضلا ! فدون ما أنا فيه يدهش ! قال : وفيم أنت تركت الشعر الذي هو جاهك عندهم ، وسببك إليهم ؟ ولا بد أن تقوله فتطلق ، وأنا يدعى الساعة بي فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه ، وإلا قُتلت ، فأنا أولى بالحيرة منك ؛ ثم دعي بهما فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى ، فأمر المهدي بضرب عنقه . ثم قال لأبي العتاهية : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قال بل أقول ، فأمر به فأطلق

وقد كان الرشيد أشفق بكثير مع أبي العتاهية في ذلك من أبيه . والذي أراه أن الرشيد كان يحبسه في ذلك ثم يعفو عنه ، وأن ذلك تكرر منهما بقدر ما حدثتنا به تلك الروايات السابقة ؟

عبد المتعال الصعيدي

٢٧ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكي نجيب محمود

قال : أما إن كانت الروح يا أصدقائي خالدة حقاً ، فما أوجب العناية بها ، ليس في حدود هذه الفترة من الزمن التي تسمى بالحياة وكفى ، بل في حدود الأبدية ! وما أهول الخطر الذي ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر . لو كان الموت خاتمة كل شيء ، لكانت صفقة الأشقياء في الموت راجحة ، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم ، لا من أجسادهم فحسب ، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً . أما وقد اتضح في جلاء أن الروح خالدة ، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا ، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً في ارتقائها إلى العالم السفلي ، اللهم إلا التهذيب والتثقيف ، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى ، إذا ما بدأ حجته إلى العالم الآخر

فبعد الموت ، كما يقولون ، يقود كلّ امرئ شيطانه (١) الذي كان تابعاً له في الحياة ، إلى مكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب ، ومن ثمّ يأخذون سمتهم نحو العالم السفلي ، يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العام الآخر ، فاذا مالقوا هناك جزاءهم ولبثوا أجلهم ، رجع بهم ثانيةً بعد كر الدهور المتعاقبة دليل آخر ، وليست هذه الرحلة للعالم الآخر ، كما يقول اسكيلوس Aeschylus في « التلفوس » Ielephus ، طريقاً واحدة مستقيمة ، وإلاّ لما احتاج الأمر إلى دليل ، فلم يكن أحد ليضل في طريق واحدة ، ولكن الطريق كثيرة الشعب والحنايا ، وإني لأستنتج ذلك مما يقدّم إلى آلهة العالم السفلي من الشعائر والقرابين ، في أمكنة من الأرض تتلاقى عندها سبل ثلاث .

(١) في الأصل Genius ومعنا روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الانسان وتملي عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل

فالروح الحكيمة المنظمة تكون عالمة بموقفها وتسير فى سبيلها على هدى ، أما الروح الراغبة فى الجسد ، والتى لبثت أمداً طويلاً - كما سبق لى القول - ترفرف حول الهيكل الذى لا حياة فيه ، وحول عالم الرؤية ، فيحملها شيطانها الملازم لها فى عنف وعسر ، وبعد عراك متصل وعناء كثير ، حتى تبلغ ذلك المكان الذى تجتمع فيه سائر الأرواح . فان كانت روحاً دنسة ، خبيثة الصنيع بأن انغمست فى الفتك المنكر ، وفى أخوات الفتك من الجرائم الأخرى ، وتلوثت بهذه السلسلة من الآثام - فان كل إنسان يفرّ من تلك الروح وينصرف عنها ، فلن يكون أحد لها رفيقاً أو دليلاً ، بل تظل تخبط وحدها فى أرذل الشر ، حتى ينقضى أجل معلوم ، فاذا ما انقضى ذاك الأجل ، حُمِلَتْ خانعة إلى مستقرها اللائم ؛ كذلك لكل روح طاهرة مستقيمة ، مضت فى حياتها مرافقة للآلهة مترسّمة خطوهم ، مُقامها الخاص

هذا وإن فى الأرض لربوعاً مختلفة عجيبة ، تختلف فى حقيقة أمرها - كما أعتقد معتمداً على رأى ثقة لن أذكر اسمه - تمام الاختلاف عن آراء الجغرافيين من حيث طبيعتها ومداها . فقال سمياس : ماذا تعنى يا سقراط ؟ لقد سمعتُ للأرض أوصافاً كثيرة ولست أدرى مع أيها تذهب ، وأحب أن أعلم ذلك

فأجاب سقراط : حسناً يا سمياس ، لا أظن أن حكاية تروى تستلزم لروايتها فن جلوكس Glaucus ، ولست أرى أن فن جلوكس مستطيع أن يقيم الدليل على صدق حكايتى ، التى أنا عاجز تمام العجز عن إثباتها بالدليل ، وحتى لو استطعت ذلك ، لخشيت يا سمياس أن أختتم حياتى قبل أن يكمل الدليل ، ومع ذلك فقد أستطيع أن أصف لك صورة الأرض وربوعها كما أتصورها !

قال سمياس : حسبى منك ذلك

قال : حسناً ، إذن فيقينى أن الأرض جسم مستدير ، هو من السموات فى مركزها . لهذا لم يكن بها حاجة إلى الهواء أو ما إلى الهواء من قوة أخرى ، ليكون لها عماداً ، بل هى قائمة هنالك ، تحول موازنة السماء المحيطة بها ، وتوازنها هى نفسها ، بينها وبين السقوط أو الانحراف فى أية ناحية ، ذلك لأن الشىء الذى يكون فى مركز شىء آخر منتشر انتشاراً متوازناً ، ويكون هو نفسه متزناً ، لن ينحرف بأية درجة فى أى اتجاه ، بل سيظل ملازماً لحالة بعينها دون أن يحيد . ذلك هو أول رأى لى

فقال سمياس : وهو بغير شك رأى صحيح

- كذلك أعتقد أن الأرض فسيحة جداً ؛ وإننا ، نحن الذين نقيم فى المنطقة التى تمتد من نهر فاسيس Phasis إلى أعمدة هرقليس Pillars of Heracles ، بمحاذاة البحر ، إنما نشبه النمل أو الضفادع احتشدت حول مستنقع ، فلسنا نأهل إلا جزءاً ضئيلاً ، وأعتقد أن كثيراً من الناس يقيمون فى أمكنة كثيرة كهذه . فلا بد من القول بأن هنالك فجوات فى أنحاء الأرض جميعاً ، مختلفاً أشكالها وحجومها ، يتجمع فيها الماء والضباب والهواء ، وأن الأرض الحقيقية أرض نقية تقيم فى السماء النقية حيث سائر النجوم - تلك هى السماء التى يجرى عنها الحديث عادة بأنها أثير ، وليس الأثير منها إلا ارساباً يتجمع فى فجواتها ، وأما نحن الذين نقيم فى هذه الفجوات ، فنظن مخدوعين بأننا إنما نقيم على سطح الأرض ، كما يخيل للكائن الذى فى قاع البحر بأنه على سطح الماء ، وبأن البحر هو السماء التى يرى خلالها الشمس وسائر النجوم - فهو لم يَطْفُ على سطح الماء قط لوهنه وفتوره ، ولم يرفع رأسه ليرى ، ولا سمع دهره ممن شهد تلك المنطقة الثانية ، وهى أشد نقاء وجمالاً من منطقتنا . والآن ، فتلك حالنا تماماً : فنحن مقيمون من الأرض فى فجوة ، ونخيّل لأنفسنا أننا على السطح ، ونطلق على الهواء اسم السماء ثم نتوهم أن النجوم سابحة فى تلك السماء . ولكن ذلك أيضاً يرجع لما بنا من ضعف وفتور ، فهما اللذان يحولان بيننا وبين الصعود إلى سطح الهواء : فلو استطاع انسان أن يبلغ الحد الخارجى ، أو أن يستعير جناحى طائر ليطير بهما صُعُداً ، فيكون كالسمكة التى تطل برأسها لتشهد هذا العالم ، إذن لرأى عالماً قاصياً ، ولاعترف الانسان ، إذا ما شحذت طبيعتُه من بصره ، بأن ذلك هو مكان السماء الحق والضوء الحق والنجوم الحق ، لأن هذه التربة وهذه الصخور ، بل وكل هذه المنطقة التى تحيط بنا قد فسدت وتآكلت كما يتآكل كل ما فى البحر من أشياء بفعل الأجاج . فيندر فى البحر أن ينمو شىء نمواً رفيعاً كاملاً ، فكل ما فيه شقوق ورمال وحمأة لا نهاية لها من الطين ، لا بل يجوز أن نقرن البر

الكاظمي

للأستاذ معروف الرصافي

ليس من غاية الحياة البقاء   فإذا خاب فى الخلود الرجاء
غير أن الحياة بالعز عنـد الرّ   جُل الحر غاية غراء
أى فخر للناعمين بعيش   لم تجلله عزة قعساء
حسب من رام فى الحياة خلوداً   أنه بعـد موته علواء
وكفى المرء بعـد موت حياةً   أن ذكراه حـلوة حسناء

* * *

قد قضى الكاظمى وهو جدير   أن تعزى فى موته الشعراء
عاش منسىّ عارفيه ولمـا   مات فاضت بنعيه الأنباء
ذكرته نعاته بنعوت   قبله حاز مثلها العظماء
فلئن كان ما يقولون حقاً   إنهم بالذى نسوا لؤماء
كيف ينسون فى الحياة أديباً   عبقرياً عَنَتْ له الأدباء
أفيُنْسى حياً ويُذْكر ميتاً   إن هذا ما تنكر العقلاء
إن هـذا أمر يتيه ضلالاً   فى بوادى تفسيره الحكماء
ضحكوا منه فى الحياة ومذ ما   ت تعالى نحيبهم والبكاء

* * *

أيها النادبون غـيرىَ غُروا   بَرّح اليوم للبيب الخفاء
يُـكرم الميت بالثناء ويحيا   عندكم فى المهانة الأحياء
كل من يخبر الأناسِيَّ خُبْرِى   لا يبالى أأحسنوا أم أساؤا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الـ   يوم عندى سبابهم والثناء
قد تمادى فى القائلين غلوٌّ   وتوالى فى الفاعلين رياء

* * *

أيها الكاظمى نم مستريحاً   حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت فى مصر باحترام يؤديـ   ـه إليك الأماثل الفضلاء
إن للنيل من جرانك شكراً   ستؤديه دجلة اللَّسناء
لم تعش عيشة الرفاه ولـكن   لك فى العيش عزة وعلاء
أى حر فى الشرق عاش سعيداً   لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئاً إن لم تعش فى العراقيـ   ـن مضاعاً تنتابك الأرزاء
من شقاء العراق إن ذوى النعْـ   ـمة فيـه أجانب غرباء

* * *

إن جَفَتنا بلادنا فهى حب   ومن الحب يستلذ الجفاء
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا   بل لها الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها   وعنانا سـقامها والشفاء
كم أردنا سخطاً عليها ولـكن   غلب السخطَ فى القلوب الرضاء
إنما هـذه المواطن أمٌّ   مستحق لها علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء   ومن الأم هل يراد جزاء ؟
إنمـا نحن مصلحون وما إنْ   غاية المصلحين إلا الرفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالاً   فهدى المظلمين منه الضياء

بغداد   **معروف الرصافي**

عما فى ذلك العالم من مناظر هى أروع فى جمالها ، فالعالم الآخر أسمى بدرجة عظيمة جداً . والآن أستطيع أن أقص عليك ياسمياس حكاية رائعة عن تلك الأرض العليا التى تحت السماء ، وهى جد جديرة بالانصات

فأجاب سمياس ونحن ياسقراط يسرنا أن نصغى

زكى نجيب محمود

(يتبع)

البقـاء

بقلم الياس قنصل

أزهدُ الناسِ فى الحيـاةِ يُمنّى   نفسه بالبقاءِ رُغم شكاتِهْ
والذى أفنت الليـالى صباه   ورماه زمانُه بأذاتِهْ
يطلب الموتَ وهو امّا أتاه   ردَّه عنـه ملغياً كلماته
وإذا خاضَ قائدٌ غمرةَ الحر   بِ فيهـا بسيفه وقناته
حدّثَ النفسَ بالرجوع سليماً   وسماتُ النجاح فى قسماته
وإذا قامَ رائدٌ يطلبُ المرْ   خَ حيث الحِمام بعض هداته
ودَّعَ الأرضَ آمناً مطمئناً   واثقاً من معادِه ونجاته
كلّنا يعشقُ الحياةَ ويهوى الـ   عيشَ فوق الثرى على عِلاّته
ربّ ساعٍ إلى الخلود مجدٍّ   يغلبُ الناس والقضا بثباته
ليس يسعى وإن يُرقْ دمُه إلاّ   ليحيا مكرّماً فى حياتِهْ

عاصمة الأرجنتين   **الياس قنصل**

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردبريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

حاسته الفنية

لم يكن نيتشه مفكراً فحسب ، بل كان فناناً ذا حاسة فنية عميقة ، يدل على ذلك ميله خلال طفولته الأولى إلى الموسيقى وعشقه لأربابها . وهل كان إلا غرامه بها الذى جعله ينظر إلى « ڤاجنر » كمثل أعلى لموسيقى عصره ؟ وقد انكب على تلقن أصولها ومبادئها فى صباه الأول ، ودفعته حاسته إلى نظم بعض المقاطيع الموسيقية . وما هى إلا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لأشرف على عالم غير عالمه ، ولأشفى على وجود قد يبدل كل أفكاره وكل آرائه . وهو يقول عن نفسه « لو لم ترجح كفة التفكير عندى لكنتُ الآن موسيقياً ! » على أن ذوقه الموسيقى لبث حياً فى طوايا نفسه . يرتاح للموسيقى أينما صدحت ، ويغيب فى عوالمها حيث تفتحت عوالمها . وهو أكثر مايطمئن لتلك العوالم الفنية المظلمة التى تذهل فيها النفس وتدرج إلى أعماقها حيث يلتقى الفيلسوف والفنان . وقد يؤاخى هذه الحاسة — عنده — حاسته الشعرية . فهو شاعر بالفطرة ، يبدى آراءه الفلسفية بطريق الشعر ؛ وله فى الشعر جولات صادقة تدل على فن عميق وابتكار رائع . وهو وان صدف عن عالم الشعر فان حاسته الشعرية لم تخمد ، بل ظلت تعاوده فى كل ما كتب وسطر . وانشاؤه يغلب عليه الشعر والعاطفة . لا ترى قارئه فى تأملاته عقل نيتشه وحده ، وإنما هو واجد كل كيانه يفكر ويكتب ، يطلع عليك بوجوده كله لا بفكره وحده

الانفعالية

تكاد تكون تفاصيل حياته الشخصية محدودة . فهو قد ولد عام « ١٨٤٤ » فى « روكن » ، حيث كان أبوه قسيساً . وقد تيتم فى الخامسة من عمره . فأتم دروسه الثانوية وتوجه إلى الدروس العالية . وبينا كان يتهيأ للموضوع الذى ينال به « الدكتوراه » فى « ليبزيج » دُعى ليكون أستاذاً فى جامعة « بال » وقد مُنح « الدكتوراه » بدون أن يعرض موضوعه

قضى ستة أعوام هادىء النفس فى الجامعة يقوم بتدريس اليونانية ، وهو خلال هذه الأعوام كالمقيد بصحبة أصدقائه لايخرج من حلقتهم ، وهؤلاء الأصدقاء هم زملاؤه وبعض رفاقه ، أضف إلى ذلك بعض زيارات متتالية إلى منزل الفنان « ڤاجنر » . وقدكان يختلس بعض الفرص فيذهب فى بعض سياحاته القصيرة إلى البحيرات والجبال ، ولم يعكر عليه هذا الهدوء إلا إعلان الحرب السبعينية ، فهجر الجامعة وتطوع فى الجيش الألمانى ، ولكن صحته خانته ، فاضطر إلى العودة مريضاً ، وأعظم ما قام به من الآثار الأدبية خلال هذه الفترة كتابه « نشوء المأساة » ونقده للحضارة الحديثة . فى الكتاب الأول يعالج نبوغ اليونان وعبقريتهم المختلفة فى الفنون ، وفى الكتاب الثانى يعرض « تأملات فى غير حينها » وهو ينطوى على أجزاء : فى الجزء الأول يحمل على « دافيد ستراوس » ، وفى الجزء الثانى يبحث فائدة التاريخ وأخطاره ، وفى الجزأين الأخيرين يبسط عبقرية الفيلسوف « شوبنهاور » وعبقرية الفنان « ڤاجنر » معتقداً أن فى امكان هذين النابغتين أن يقودا الانسانية إلى مثلها الأعلى

وفى سنة ١٨٧٦ عرا حياته الداخلية ماعرا حياته الخارجية من تطور وتبدل ، وأعظم ما نزل به نزاعه مع صديقه « ڤاجنر » أضف إلى هذا ماحاق بصحته من سوء واعتلال ، حتى منحته الجامعة فرصة يقضيها إذا شاء فى إيطاليا أو على هضاب سويسرا . وبعد هذه الراحة عاد إلى بذل الجهود برغم أن صحته كانت تنذر ولا تبشر . فجمع سنة ١٨٧٨ كتابه « أشياء إنسانية ، إنسانية جداً » وكتاباً آخر يضم « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » فزادت صحته ضعفاً حال بينه وبين التعليم ، فاعتزل الجامعة لكى يجد المجال الفسيح والقوة الكافية لتتميم رسالته الفلسفية

وها هنا بدل القدر صفحة حياته ، ومنحه حياة جديدة يغمرها الاعتزال ، وحرية التفكير والانفصال ، يكمل تحت ظلها هذه الرسالة التى خُلق لها

* * *

لم يكن ميل نيتشه إلى دراسة اللغات القديمة مجرد هوى أوهيجان ابن ساعة ثم ينطفئ . فقد مال نيتشه إلى هذه الدراسة بقلبه وعقله ، ذلك لأنه يريد أن يظهر أمره فى علم ضيق المساحة ليدرك العلم فضله . وهو أكثر الناس علماً بقيمة العلماء الناقصين الذين يعلمون كل شىء ولا يعلمون شيئاً . وهاهو ذا الآن لا يريد أن يعرف كل شىء ، وإنما يريد أن يعرف شيئاً معرفة متقنة ، فبذل

القصص

من أساطير الاغريق

هرقل
في سبيل التفاحات الذهبية
للأستاذ دريني خشبة

٧ — خيول ديوميديز

وكان الملك ديوميديز ، ملك تراقيه ، يقتني مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار ، ولا تباريها خيولٌ في مضمار ؛ ولكنها لم تكن كهذه الخيول التي يقتنيها الناس ، بل كانت بالوحوش أشبه ، وإلى السباع أقرب ، لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تسيغ النبات ، بل بالعكس ، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً . .

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم ، وتستطيب لحم الانسان وتستلذه ، ولم يكن الملك القاسي يبخل عليها به . ولكي يُوَفِّر لها هذا الغذاء الغريب ، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبي تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك ! فلما نمى الخبر إلى يوريذوس ، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميديز ولتخليص الناس منه ومن خيوله

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه ، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس ، فلما سأله ديوميديز في ذلك ، انقض عليه كأنه الحتف ، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها . . .

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً ، واغتذت بلحمه الملكي الفاخر ! ! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم ، ونثر الورد والريحان تحت قدمي هرقل ، ومضى البطل فألجم الخيول كلها ، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس ! !

٨ — منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء ، مشغوفةٌ

ما بذل من صبر وجهد بذل الأمين الراعي لأمانته . مدرعاً بالأناة التي لا غنى عنها للذاهب مذهبه . راضياً بأن يزهق روحه في سبيل العلم وخدمته . ولكنه سالك فيه مسلكا جديداً لا أثر فيه للتعاليم الدارسة ، وللتقاليد التي لا تجدي شيئاً . وهو يمزج هذه الدراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزيجاً جديداً

يعتقد نيتشه بأن المثل « الكلاسيكي » سيبقى خالداً لا يهدده الفناء . فلا العلم ولا الخلق ولا التثقيف بمستطيعة أن تنقذنا من البربرية إذا سلخنا المثل الكلاسيكي ، وكفرنا بالبساطة الشريفة التي تتجلى في الفن اليوناني والبراعة اليونانية . وإذا شاء رسل العلم أن يجحدوا هذه البراعة وينكروها على اليونان ، فانها براعة سائدة خالدة مسيطرة على براعتنا ، تدل على أن اليونان كانوا أكثر توفيقاً منا في حل مسائل الوجود

وهكذا تظهر مهنة « دارس علم اللغات » مهنة جميلة سامية هو لا يعنى باحياء الآثار العافية ، والنصوص البالية ، ولكنه كادح دائب على احياء روح اليونان القديمة ، يريد أن يتفهم كيف قدر لهذه الروح أن تتسامى وتتعالى في الآثار التي تركتها ، والفنون التي أنجبتها ، والمؤثرات التي تركت تأثيرهم بادياً في أدبنا وفلسفتنا ، فجعلت منهم أساتذة لا يزال الغرب يتلقن عنهم . هذا هو دأب نيتشه يوم دخل جامعة « بال » مدرساً . يقول في إحدى محاضراته « إن دراسة علم اللغات ليست بآلهة شعر ولا بنبية رحمة ، لكنها رسولة الآلهة ، والآلهة في القديم كانت تهبط على القرويين المحزونين . واليوم تهبط هذه الرسولة على عالمنا القاتم الألوان ، المظلم الرسوم ، المفعم بالآلام والشقاء الذي لا يشفى ، حاملة إلينا بلسم العزاء ، عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألقة في قطر خصب أزرق سعيد »

(يتبع)

خليل هنداوي

باقتناء الحلى والجواهر النادرة ، تضحى فى سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا ، إذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة ! !

وكان أبوها الأفين يلبى رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً ، فلما وُصِفَت لها مِنْطَقَةُ هيبوليت ، مليكة الأمازون ، وما رُصِّعت به من اللآلئ ، ثار فى نفسها فضول الذهب ، وألم بها مرض الحصول عليه . فانطلقت إلى أبيها تبكى ، وتشكو العطل وقلة الحلية ، ولو أن خزائنها تحوى نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها ؟ فتاهت قليلاً ودلَّت ، ثم ذكرت منطقة هيبوليت ! !

ورثت الملك على كتفى ابنته ، ودعا إليه هرقل ، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على مِنطقة الملكة ولو أدّى دمه ثمناً لها ! !

أما الأمازون ، فقبيل عظيم من النساء المحاربات ، يحيين حياةً عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحيّر الألباب وتذهل العقول . فمنهن فريق يعمل فى الحصون ويسهر على قلاع المملكة ، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء ، وثالث يقوم بمهمة الشرطة والعسس ، ورابع للعمل فى الأسطول الذى يلقى الرعب فى الشواطئ ... ... الخ

ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال ، فاذا جازف رجل ، وانسرق بينهن ، ترصّده الموت فى كل مكان !

وكانت مملكتهن فى جزيرة نائية قاصية ، ذهب هرقل فى البحث عنها كل مذهب ، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه إليها

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الأمازون ، ولكنه أبى ، لأن مجازفاته التى يتعرض بها للهلاك ، إن هى إلا ثمن الحرية التى ينشدها ويحلم دائماً بها !

ووصل هرقل إلى الملكة ، وتحايل حتى مثل بين يدى الملكة ، فلقيته بما هو أهله من التجلة والاكرام ، كأن إله عظيم . . وأبدى رغبته فى الحصول على المنطقة الغالية التى تزين وسط الملكة ، وتحلّى خصرها ، ليقدمها ثمناً لحريته الضائعة ، للفتاة المزهوّة (أدميت) بنت ملك أرجوس ...

وتبسّمت الملكة ، ووعدته أن تخلعها عليه ، ليصنع بها بعد ذلك مايشاء . ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة ، وعشاء فاخر ... وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها ! !

لقد هالها هذا النجاح المطّرد الذى يظفر به خصمها فى كل مكان ، فتحولت إلى أمازونة جميلة ، واندست بين رعايا الملكة ، وألقت فى روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن ، وأنه إنما أقبل لِيَسْبِىَ الملكة ، وليفر بها إلى ملك أرجوس ، وأنه اتخذ المنطقة تَعِلَّةً لذلك جميعاً ، فثارت ثائرة الأمازون ، وتجمهرن حول الملكة ، وصارحنها بما قالت لهن حيرا . فأمرتهن بالحرب ... ولكن هرقل ، البطل الأعزل ، انقض كالمنية على الأمازون ففرّق شملهن ، وأظفرته شجاعته بهن ، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها ، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة ، فأشار إليها قائلاً : « وهنا أيضاً أنتصر عليك ، وسأنتصر عليك دائماً ! »

٩ — وطربت ابنة الملك بمنطقة هيبوليت أيما طرب ، وكبرت فى نفسها منزلة هرقل ، فاستوصت به أباها خيراً

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته فى هرقل ، فلم يكلفه هذه المرة شططاً ، بل اكتفى أن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التى تُدَوِّم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك ، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى ، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين . ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه الرنان ، وفى كنانته سهامه التى رويت من دم هيدرا

١٠ — قطعان الجريونز

وكان يأوى إلى سفوح الجبال فى مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جِريُونز . وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم عرفت فى سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها ، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم

وطمع يوريذوس فى نَعَم جريونز وشائه ، فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها

وأغذّ هرقل السير ؛ وألفى المارد مُمدداً فى كهفه السحيق يغط فى نوم عميق ، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد ، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نأمة فيها ولا نَفَس ! وساق القطعان ، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة ، والوفر الكثير

وأرخى الليل سدوله ، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق ، فأناخ فى منحدر معشوشب ، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا ،

وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الحلوة . . .

وكان يأوى إلى هذا الجبل ، جبل آفنتين ، مارد لص قطاع طريق ، يدعى كاكوس ، وجد هرقل غارقاً فى سبات ناعم ، فذهب بنصف القطيع أو يزيد . . . .

واستيقظ البطل على رُغاءٍ يتجاوب فى حدود الأفق ، فلما تفقد قطعانه انطلق فى أثر اللص حتى لحق به ، وحطمه تحطيما !

وقبيل شروق الشمس ، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب تستقبل الرزق والنَّعَم ، وتهتف باسم البطل الحلاحِل الذى بهرها بشجاعته ، وخلب ألبابها بما أبدى ، وما ينفك يبدى ، من ضروب القوة والاستبسال

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالى من المحبة والافتتان بهرقل ، فتسخّط وحنق ، وبيّت الشر المستطير

١١ — تفاحات هسپريا الذهبية

وأدركت حيرا ماينقم الملك من هرقل ، فوسوست اليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسپريا الذهبية ، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها !

ولقد أهديت هذه التفاحات الى حيرا ، ليلة زفافها الى زيوس ، رب الأرباب ، فيما أهـدى إليها من تقدمات وتحف ؛ أهدتها إليها (جى) ربة الأرض ، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها . لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص ، فقد رصعت بأندر اللآلىء ، وزينت بصور الآلهة ، ونقشت فيها حدائق الأولمب ؛ ثم هى تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت : ذلك أنها إذا غابت الشمس ، وأقبل الليل بظلامه ، شعّت أضواءً ولألاء قل أن تصدر إلا عن كوكب درّى ، أو شمس وضاءة ، فتنقشع الغياهب وتنجلى الدياجير !

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الأولمب وحُرّامها الغلاظ على هذه القُنْيَة النادرة ، فأرسلت بها إلى الهسپريد ، بنات هسپروس إلـه الغرب العظيم ، ليحرسْنها . ولتكون عندهن فى مأمنٍ من كل ساربٍ بليل ، أو سارقٍ فى نهار ، وقد عرف الهسپريد لهذه التفاحات قيمتها ، فَعلّقنها فى دوحة باسقةٍ فى حديقة قصرهن المنيف ، وأقمن على حراستها التنين الهائل لادون ، الذى قيل فى صفته إن له سبعين ألف رأس فى كل رأس سبعون ألف عين ، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً . ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سُمكاً ، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرِمٍ ، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن ، ومُكاء الشياطين !!

وانقلب هرقل على وجهه فى الأرض حيران !

أين هى تفاحات هسپريا هذه ؟

« أفى الأرض أم فى السماء ؟ لأمض ! فرب إلـه دلنى إليها . . . »

وشرّق وغرّب ، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، وانسرق إلى الكهوف والغيران ، وأوغل فى الجبال ، وتحدّر فى القيعان ، ومر بكل حَنيّة ، ووقف عند كل عَين ، حتى كان لدى نهر أريدانوس ، ووقف بشاطئه يتناجى ؛ فخرجت من الماء النمير عرائسه ، ورُحن يُسَرِّين عن هذا اللاجئ الحزين

وإنه ليسائلهن عن تفاحات هسپريا ، فيحدثنه ويتلطفن معه ، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس إلـه البحر ، عسى أن يهديه إلى ما يريد

ويهيم فى الأرض محاذياً سيف البحر ، حتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم ، وخط الشيب رأسه ، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صـدره العريض ذى النتوء ؛ وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون ، وتطل من حدقتيهما الأحداث !

وجده جالساً القرفصاء مُقلّباً ناظريه فى مملكة الماء التى تتصل باللانهاية ، فألقى عليه تحيـــة هيّنة ، رد عليها الشيخ بهذه العبارة :

« أيها الفتى لم قطعت علىّ تأملاتى ؟ ! »

« فقال هرقل : « أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلاّ ماأخبرتنى عن حدائق الهسپريد ، فتكون لك علىّ يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها ! »

وتجهّم نريوس وقال : « حدائق الهسپريد ! أوْه ! أنت هرقل إذن ! »

فبهت هرقل وأجاب : « أى وحقك أنا هو ، فمن ذكرنى عندك ! ؟ »

— « ليس هـذا من شأنك يا بنى ، ولكن لملك تبتغى تفاحاتها الذهبية ؟ »

— « إى وزيوس يا أبتاه ! »

— « بشراك إذن ! فلن يحصل عليها إلا أنت ، ولكنك لست أنت الذى ستنفذ إلى حدائق الهسپريد ! إذهب إذن فالتمس

المسكين پروميثيوس (١) مُكَبَّلاً فوق جبال القوقاز ، فأحسن إليه ، وَسَلهُ حاجتك ، فهو وحده الذى يستطيع إرشادك إلى ما تريد . . »

وشكره هرقل ، وحياه ، وأطلق ساقيه يطوى الفيافى إلى القوقاز . وهناك وجد پروميثيوس والرّخ ينوشه ، بحيث يمزق كبده ويهرأه ، ويغتذى به ؛ فوتر قوسه ، وسدد إلى الطير سهماً أصماه ، وخلص إلى الآله البائس فأزال أصفاده ، واحتمله إلى السفح ، وما زال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه ، ثم تحدّث إليه عن حدائق الهسپريد وتفاحاتها الذهبية . فحدجه پروميثيوس بنظرة فاحصة ، وقال له : « لكأنك هرقل إذن ؟ »

— « أجل أنا هرقل يا أبتاه ! »

— « وأنت عدو حيرا يا بنى ؟ »

— « عدوها المبين يا أبتاه ! »

— « مسكين ! ! »

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته ، وطار لونه ، وهاجت فى فؤاده البلابل والأشجان ؛ ثم اتصل الحديث ، وقال پروميثيوس :

— « انطلق يابنى إلى أخى أطلس ؛ هناك . . . هناك فى إفريقية المظلمة شمالاً بغرب ؛ تجده على قنة جبل شامخ يحمل السماء على منكبيه ، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين المشرق والمغرب . فأقرئه سلامى ، وزُفّ إليه بشرى خلاصى مما أوقع زيوس بى ، ثم حدّثه بحاجتك يقضها لك ، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسپريد ، وهو وحده يستطيع أن ينفذ اليها ، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذى يحرس تفاحات هسپريا الذهبية ؛ فاذا أتاك بها ، فاحذر أن يأخذك بشىء من مكره ، فانى قد علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل ، ويود لو ينجيه منه أحد ، ولو انتثرت الكواكب ، وانتقض نظام الكون ! »

هرقل يصارع انتيوس

وفى طريقه إلى أطلس ، لقى من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هذا . من ذلك أنه مرّ بقوم من الأقزام ضئال الأجسام قصارها ؛ كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم مفتول العضل : ليحميهم من جيرانهم الأعزاء الأقوياء ، وليدفع عنهم غائلة الغربان النحاسية التى كانت تتلف أعنابهم وتبيد زروعهم كلما تم نضجها فى كل عام . وكان ذلك المارد - أنتيوس - ذا حولٍ وذا طول ، حتى لكان يخشاه الوحش ، ويتخوفه الجن ، وترجف من سولته أفعوانات البحار ، فلما شهد هرقل يخب فى أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى ، أخذ أهبته لمنازلته ، ولم تساوره ذرة من الشك أنه منتصر عليه

فلما وصل هرقل ، حيا أحسن تحية ، ولكن أنتيوس لم يجب ، بل إنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل ! !

— « ماذا بك أيها الأخ ! دعني فليست لى عندك حاجة ! »

— « لا ، لا نجوت إن نجوتَ ! لا أرى إلا أن أصرعك ! »

— « ولِمهْ ؟ »

— « هذا مالا أعرف ، ولكن لابد من أن أصرعك على أية حالة ! »

وتصارع الخصمان ، وأقبلت الأقزام ترنو إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلببه تلبيباً !

وكان أنتيوس كلما خانته قواه ، وأيقن أن هرقل لابد صارعه ، وقف قليلاً على أديم الأرض يستمد منها قوة ، ويستلهم الحول من أمه (جى) . . .

فهو ابن جى إذن ، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد ، إذن فلتمده بكل مافى سرها من قوة ليصرع هرقل !

وخارت قوى البطل ! وراح يلهث من شدة النصب ؛ بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر ، عند ما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض ؛ فرفعه رفعة هائلة ، ولم يمكنه من الوقوف لحظة على قدميه ؛ ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل ، حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت . . !

فألقى به . . . ومضى لشأنه ! !

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطىء ، ويترامين بلآلئ مما يعد لهن من حصباء البحر ؛ فوقف غير بعيد وهتف بهن :

« ياعرائس الماء الجميلات ! هل لكن أن تهدينني إلى أطلس الذى يحمل السماء ، وعسك كواكبها أن تقع ! ؟ »

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر ، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت : « امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذى يفصل البحر المحيط من مائنا هذا (وكان البحر الأبيض) ، فاذا استطعت أن تنفذ فانك تكون على فراسخ من أطلس . . . »

---

(١) العدد ٩٩ من الرسالة

وشكرها هرقل ، وانطلق . . .

وكان أمام السد ؛ ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قُنن وقُلل وأحياد ؛ فلما لم يستطع أن يتسلقه ؛ ضربه بيمينه ضربة ، وبشماله أخرى ، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها ، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية ، ماتزال تعرف إلى يومنا هـــذا بأعمدة هرقل ! ! [1]

ونظر فما هاله إلا هذا الآله العظيم سامقاً فى الأفق ، يحمل على كتفيه العريضتين قبــة السماء . والنجوم منتثرة حوله كأنها قطرات أمطار فى يوم عاصف !

وتقدم هرقل فحيّا الآله الضخم ، وحياه الآله الضخم بأحسن مما حيا هرقل ، ثم أقرأه هذا تحية پرومثيوس ، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التى ظل مُكَبَّلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً !

وطرب أطلس لهذه البشرى ، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مُغطَّاة بالثلوج ، ثم قال :

— « ومن أنقذه من عذابه الطويل يا صاح ! »

— « أنا إن كان يسرك ذاك النبأ »

— « أنت ؟ أنت من الكرمين إذن ! مرحباً بك أيها المخلص الأمين !

لقد كدت ألق بهذا الحمل الذى ترى لأنقذ أخى ، ولكنى خفت أن يهلك العالم بمن فيه . . . و . . . على ذكر أخى ، كيف هؤلاء الناس الذين خلق ؟ أبخير هم ؟ وهل يحبتون له حقاً ؟ إن زيوس مغيظٌ منهم ، وامرأته حيرا محنقة كذلك ، أعندك من أخبار هؤلاء شىء ؟

— « عندى أشياء يا أبتاه . . أنا ابن زيوس من ألكمين ، وقد نقمت حيرا على والدتى ، فأرادت أن تفجعها فىّ ، وقد أغرت رب الأرباب بى ، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر ، وقد أرسلنى أجوب الآفاق وأذرع الأرض من أجل تفاحات هسپريا الذهبية ، وقد ذكر لى أخوك ، بعد إذ أطلقته ، أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسپريد وأنك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات ، فهل أسعد بأن تؤدىَ لى هذه اليد ؟ لقد كادت حيرا كيدها هــذا ، وإلا تنصرنى أكن من الهالكين ! »

وشاءت الخيلاء فى أعطاف أطلس ، ومرت حُمَيَّا الزهو فى ظهره الشاسع ، فقال : « أجل يا صاح ، لن يستطيع قتل لا دون غيرى ، ولن يدخل حدائق الهسپريد سواى ، ولكن كيف أترك حملى هذا لآتيك بالتفاحات ؟ »

ونظر هرقل إلى القبــة الهائلة نظرةً تفيض كبرياء وقال : « أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه ، حتى تعود بالتفاحات !! »

وما كاد يتم كلمته ، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء ، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار ، يمتّع نفسه بمشيةٍ حرةٍ طليقةٍ فى حدائق الأرض الغناء !!

وغبرت أيام . . .

ثم ذكر تفاحات هسپريا ، فذهب إلى حدائق الهسپريد ، واقتحم الأســوار ، وانقض على التنين لادون فزلزلت الأرض تحتهما ، ولم يدعه يفلت ، برغم مرونته فى الوثب وسرعته فى الالتفاف ، حتى خرّ صريعاً

ومد يده إلى الأيكة الذاهبة فى السماء فتناول التفاحات المتلألئة الوضاءة ، وعاد يزهو ويختال إلى حيث هرقل المجهود المتعب

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذى يؤود هرقل ، حتى ذكر الأدهار السحيقة التى لبث يتململ طوالها تحت عبئه ؛ فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود الى حمله الشاق . . . وبدا له أن يدع هرقل ويمضى . . . ولكن هرقل المتعب فطن الى ما وقر فى قلب أطلس ؛ فناداه : « أبتاه ! لعمرى ان حملك لأخف من الهواء ؛ ولعمرى اننى لأستطيع أن أصمد له الى نهاية الأبد ! »

وبهت أطلس وقال : « إذن لتمض فى حملك مادام يسرك ! »

فأجاب هرقل : « ليس أيسر من هذا ! ولكن هل تسمح فتحمل مكانى برهةً حتى أضع حويّةً فوق كتفىّ ، فانى أشعر بنتوء فى أديم السماء ! ! »

وقبل أطلس المغفّل ، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر ، وتقدم فحل محل هرقل ! !

والتقط صاحبنا التفاحات ، وانطلق لا يلوى على شىء ! !

وبعد رحلة طويلة مضنية ، دخل على يوريذوس بالقُنْية الغالية التى خلبت لب فتاته أدميت ؛ وخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها

(لها بقية) دريني خشبة

(١) بوغاز جبل طارق

البريد الأدبي

لورد هيدلى عميد المسلمين الانكليز

نعت إلينا أنباء لندن الأخيرة عظيماً من عظماء الانكليز يعرفه المسلمون جيداً في مشارق الأرض ومغاربها هو لورد هيدلى زعيم المسلمين في انكلترا

توفى لورد هيدلى في الثمانين من عمره بعد حياة حافلة متنوعة الأطوار والأوضاع وبعد أن لبث اسمه يرن في العالم الاسلامي أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، مذ اعتنق الاسلام ، وكان أول من اعتنقه من أشراف الانكليز

ولورد هيدلى من صميم الأرستقراطية الانكليزية ، ولد في سنة ١٨٥٥ ؛ وأبوه الشريف النسون ون ابن بارون هيدلى . وتلقى تربية جامعية حسنة في وستمنستر وترنتى وكامبردج ؛ وبرع في الرياضة منذ فتوته ولا سيما « البوكس » وألف في هذا الفن رسالة ذاعت في وقتها ذيوعاً كبيراً . ثم اشتغل حيناً بالتدريس ، ثم بالصحافة حيث كان يحرر جريدة « سالسبورى » ؛ ثم اشتغل بالاعمال الهندسية التي تخصص فيها ، وعمل مدى حين سكرتيراً للسير هنت ، وسافر بعد ذلك إلى الهند حيث تولى عدة أعمال ومشروعات هندسية هامة ، ولا سيما في أعمال الموانى ، وذاعت شهرته الفنية يومئذ واعتبر من أعلام المهندسين

وفي سنة ١٩١١ غدا ر . ح . النسون لورد هيدلى بعد وفاة عمه البارون هيدلى ؛ وفي نفس هذا العام ، في مأدبة عقدتها الجمعية الاسلامية بلندن ، أعلن لورد هيدلى الجديد أنه اعتنق الاسلام ، وأنه لم يقطع علائقه مع ذلك بالكنيسة البروتستانتية التي نشأ في ظلها ؛ وكان إسلام اللورد هيدلى حادثاً اجتماعياً عظيما في انكلترا ، وثار حوله الجدل مدى حين ، وحملت بعض الهيئات والصحف على اللورد المسلم حملات شديدة ، ولكنه لم يحفل بها واستمر في طريقه يدعو إلى الاسلام ويفاخر باعتناقه

وفي سنة ١٩٢١ تزوج لورد هيدلى للمرة الثانية بعد أن توفيت زوجه الأولى في سنة ١٩١٩ ؛ وكانت زوجه في هذه المدة مسز باربارا بانيتون ، وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره .

وفي سنة ١٩٢٣ انتخب اللورد هيدلى رئيساً للجمعية الاسلامية بلندن تنوبهاً بخدماته للدعوة الاسلامية ، وفي هذا العام سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج ، وأنعم عليه الملك حسين ملك الحجاز يومئذ بوسام النهضة العربية ؛ ولُقب اللورد من ذلك الحين « بالحاج هيدلى » وغلب عليه اللقب الجديد

وفي سنة ١٩٢٩ ، تزوج الحاج هيدلى للمرة الثالثة بأرملة الماجور باسفورد وكان يومئذ في الخامسة والسبعين

وكان اللورد هيدلى رجلاً وافر النشاط والذكاء يجمع بين مصالح كثيرة مختلفة ، ويديردفة طائفة متنوعة من الأعمال الهامة ، ويسير بها جميعاً في طريق التقدم والنجاح

وقد ترك اللورد المتوفى من زوجه الأولى أربعة أولاد ؛ وورثه في لقب اللوردية ولده البكر رولاند ياترك النسون ون

***

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن هناك طائفة من مشاهير الانكليز اعتنقوا الاسلام في مختلف العصور ، ومن هؤلاء رجل من اكستر يدعى يوسف بتس أسره القرصان المغاربة سنة ١٦٧٨ وأرغم على اعتناق الاسلام ، وأدى فريضة الحج مع سيده . ثم فر بعد ذلك إلى أزمير ونشر رسالة عن مغامراته ؛ ومنهم توماس كابث الشهير الذي اعتنق الاسلام ووصل إلى منصب « الأغا » في بلاط السلطان باستانبول ، ثم انتهى بأن عين حاكماً للمدينة المنورة . ومن مشاهير الانكليز الذين أسلموا في عصرنا الحاج عبد الله فيلبي (سنت جون فيلبي) مستشار الملك ابن السعود ، واللايدى إيفلين كوبولد صاحبة كتاب « الحج إلى مكة » الذي ترجم أخيراً إلى العربية ، ومنهم الدكتور نولان الذي كان مديراً للأمن العام ، واعتنق الاسلام ثم سافر إلى تركيا ، وهاجر بعدئذ إلى أمريكا ، ومنهم كثيرون من المستشرقين الذين أسلموا لأغراض علمية وسياسية

ذكريات عن بيير لوئيس

منذ عشرة أعوام ، فى يونيه سنة ١٩٢٥ توفى الكاتب والشاعر الفرنسى الكبير بيير لوئيس ، فى الرابعة والخمسين ، بمنزله فى شارع بولا نفلييه بباريس ؛ وكان يعانى آلام المرض قبل وفاته بأعوام طويلة ، والآن يحتفل أصدقاء الكاتب الكبير بذكرى وفاته ، وهذه سنة مؤثرة فى فرنسا ، فقلما يودع هذه الحياة كاتب أو شاعر أو نابغة من نوابغ العلم أو الفن حتى تقوم جمعية من أصدقائه والمعجبين بنبوغه لتعمل على تكريم ذكراه فى كل مناسبة ، وتذكى فى نفوس الخلف حب تراثه ، وقد كان لبيير لوئيس مكانة خاصة فى نفوس الخاصة وذوى المشاعر الرفيعة ؛ ذلك لأنه يثير بروعة بيانه ورقة أسلوبه شجناً لا تملك مغالبته ، وقد بدأ بيير لوئيس حياته الأدبية بانشاء مجلة صغيرة اسمها « لا كونك » فى مارس سنة ١٨٩١ ، وكان يطبع منها مائة عدد فقط ، ويعاونه فى تحريرها كتاب تملأ اليوم أسماؤهم فرنسا ، مثل أندريه جيد وبول ڤاليرى وهنرى دى رينيه

وكان أول من لفت الأنظار الى بيير لوئيس ودفعه إلى طريق المجد ، القصصى الشاعر الكبير فرانسوا كوبيه ؛ ففى مارس سنة ١٨٩٣ ظهرت قصة لوئيس المسماة « افروديت » ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى تناولها كوبيه بالنقد فى جريدة « الجورنال » وكان مما قاله يومئذ ما يأتى : (انه لم يكتب مثلها فى النثر الفرنسى منذ « قصة المومیا » و « سلامبو ») . ثم قال : إنها قصة خليعة جدا ، فهو يوصى بقراءتها للفنانين ، وللفنانين وحدهم ، وكان ذلك كافياً لأن تلقى « افروديت » ذيوعاً عظيما ، وأن ينحدر بيير لوئيس بسرعة الى طريق المجد

وما فعله فرانسوا كوبيه مع لوئيس ، فعله لوئيس فيما بعد مع كلود فارير ؛ فقد أصدر فارير كتابه « المتمدنون » سنة ١٩٠٥ ، وتقدم لينال به جائزة جونكور ؛ وكان بيير لوئيس أحد العشرة الذين يؤلفون المجلس ، فأذاع بعد قراءتها فى كل مكان أنها لا تقل فى الروعة والابداع عن قطع « ميرميه » ؛ وهكذا نال فارير جائزة جونكور ، وأضحى بفضل لوئيس علماً ذائع الصيت ، ولم ينس فارير لبيير لوئيس هذا الفضل ، فلبث طوال حياته يرعاه بحبه ورفيع تقدره

عناصر الحركة الهتلرية

ألقى المسيو هنرى بيجه ، وهو من أعضاء مجلس الدولة الفرنسى ، فى « أكاديمية العلوم الأخلاقية » محاضرة عنوانها « الدولة الألمانية الثالثة والنظريات الاشتراكية الوطنية » ، وهى خلاصة بحث دقيق قام به لدرس خواص النظام الهتلرى ؛ وخلاصة رأى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية إنما هى ظفر حزب وظفر نظرية قاما على « تفاعل عناصر اليأس وعناصر الخرافة » ؛ وأما مثل هذه الحركة فتنحصر فى ثلاثة أشياء : نظرية الجنس أو الوحدة الشعبية Volkstum ؛ ونظرية الزعيم Fuahrer ، ونظرية الاشتراك Gemein Dchaft . وتقوم الحركة من الوجهة النظامية على المزج بين الدولة والحزب والشعب واعتبارها أسماء ثلاثة لمسمى واحد ؛ متعارضة بذلك كل التعارض مع النظام الديموقراطى الحر الذى يقوم على فكرة الفرد والدولة ، ويفرق بينهما أتم تفريق . ويرى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية رغم قوتها الحاضرة ، تحمل عناصر فنائها ، وأن هذا الفناء ليس بعيد الحدوث

كتاب جديد عن الملكة فكتوريا

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الملكة ڤيكتوريا بقلم الكاتب والمؤرخ الانكليزى ا . بنسون . ومع أنه يقع فى مجلد واحد ، فقد ألم بحياة الملكة العظيمة إلماماً قوياً ، ويستند مستر بنسون فى معظم آرائه على خطابات الملكة ذاتها ، ولاسيما فى أعوامها الأخيرة . وهو لا يعنى بتحرى الصور الشائقة أو المثيرة ، ولكنه يسير فى بحثه بهدوء واتزان ، ويحلل أخلاق الملكة وموقفها من الشخصيات الكبيرة التى كانت تعمل معها ، ومما يدلل عليه مستر بنسون أن الملكة ڤيكتوريا أبدت مواهبها العظيمة فى عصر متقدم جداً ، فرسائلها وهى فى الثالثة عشرة لا تختلف كثيراً عن رسائلها وهى فى الخمسين من حيث القوة والاتزان وحسن التدليل ، ومما هو جدير بالذكر ما يعرضه مستر بنسون عن معركة الملكة فكتوريا مع وزيرها الشهير جلادستون ، فقد كانت ثمة بين الشخصيتين العظيمتين معركة ملأت أيام الملكة الأخيرة ، وكان الحق فيها فى جانب الوزير ، ولكن الملكة صمدت فيها إلى النهاية

من روائع الشرق والغرب

المنصور Almansor

للشاعر الألمانى هاينرخ هاينه Heinrich Heine
نقلها عن الألمانية
الدكتور زكى محمد حسن
الأمين العلمى لدار الآثار العربية

هاينرخ هاينه شاعر غنائى وكاتب ألمانى ولد من أبوين يهوديين بدسلدورف سنة ١٧٩٧ ودرس الحقوق ولكنه هجرها إلى الأدب وذاع صيته فيه سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٢٧ حين ظهر كتابه « صور رحلة » Reisebilder عن طوافه فى ألمانيا ، وما لبث أن نشر أحسن شعره فى ديوان سماه كتاب الأغانى Buch der Lieder قابله القراء فى ألمانيا بحماسة تفوق الوصف

واعتنق هاينه الدين المسيحى سنة ١٨٢٥ ، ولكنه كان فى الحقيقة متشككاً فى كل شىء ، إباحيا جد الأباحة ، مستهتراً كل الاستهتار . وفى سنة ١٨٣٠ هاجر هاينه إلى باريس فاستوطنها واشتهر فى أنديتها الأدبية حتى توفى سنة ١٨٥١ بعد أن أقعده الشلل فى أواخر حياته

وظل الألمان يعدونه من أكابر كتابهم وشعرائهم حتى كان الانقلاب الأخير ، فنعى الهتلريون عليه أصله اليهودى فانقلبوا على ذكراه وهدموا ما أقيم له فى ألمانيا من أنصاب وتماثيل

وامتاز هاينه بأسلوبه التهكمى اللاذع ووصفه الدقيق المشرق ، بيد أن أهم ما خلد ذكراه حتى الآن وسوف يخلدها طويلاً إنما هى أغانيه فى ديوانه الذى أشرنا إليه ؛ وانا ننقل منه إلى العربية القصيدة الآتية التى يعجب الألمان بها كثيراً على الرغم من تعريضه فيها بالمسيحية قال :

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة
تقف أعمدة ثلثمائة وألف ،
ثلثمائة وألف من الأعمدة الشاهقة تحمل القبة العظيمة الضخمة

وعلى الأعمدة والقبة والجدران تجرى وتنحدر فى كل اتجاه
آيات القرآن العربيـة فى حروف مشبكة مزهرة مزخرفة

قديماً بنى ملوك العرب هـذا البيت تمجيداً لذكر الله ،
بيد أن أشياء كثيرة قد تغيرت فى هذا الدهر ذى الأحداث المظلمة !

فعلى المنارة حيث كان المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة ،
ترسل الآن أجراس المسيحية رنين دقاتها الحزينة

وعلى المنبر حيث كان المؤمنون يرتلون كلام النبى ،
يعرض الآن القسس الصغار الصلع أعاجيب قداسهم المضجر !

وهناك دوران والتفاف ، حول نساء كالعرائس المنقوشة
بالألوان المختلفة ، وهناك ثغاء وتبخر وأصوات نواقيس ،
بينما الشموع الغبية ترسل أضواءها

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة ، يقف المنصور بن عبد الله
يتأمل الأعمدة فى سكون ، ويغمغم بالكلمات الآتية :

إيه أيتها الأعمدة القوية الجبارة
التى ازّينت ذات يوم تعظيما لله
ها أنت ذى الآن مضطرة إلى أن تقدمى للمسيحية المشنوءة
فروض الطاعة فى ذلة وخنوع

أنت على ممر العصور ترضين وتقنعين ،
وأنت تحملين العبء بصبر واستسلام ،
فكان جديراً بمن هو أضعف منك أن يكون أسهل انقياداً
وأسرع خضوعاً

ثم يطأطئ المنصور بن عبد الله رأسه ذا الوجه الطلق فوق
حوض المعمودية المزخرف فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة !

***

وهرول المنصور من الكنيسة مسرعا ،
فامتطى جواداً عتيقاً جموحاً انطلق به ،
حتى صارت خصـــلات شعره المبللة
وريش قبعتـه تهتز فى الريح

فى الطريق الى القليمة (١) على ضفة الوادى الكبير
حيث تزهر شجيرات اللوز وشجيرات البرتقال ذات الرائحة الزكية

هناك يسير الفارس المرح وهو يصفر ويغنى ويضحك
والطيور تشاركه فى شدوه
وخرير النهر يتابعه فى طربه

وفى قصر القليمة تقطن « كلارا دى الفارس »
ووالدها يحارب فى نافار ،
فهى تتمتع بحرية أوسع وأمسية أوفر

ويسمع المنصور على بعد أصوات الدفوف والطبول ،
ويرى أضواء القصر تتلألأ بين الأشجار والحقول

فى قصر القليمة ترقص اثنتا عشرة سيدة بثيابهن المزركشة ،
ويرقص اثنا عشر فارساً بحللهم المطرزة
ولكن أجملهم رقصاً وسمتا هو المنصور بن عبد الله !

كأن له جناحين من البهجة والسرور !
فهو يرفرف فى القاعة هنا وهناك !
وهو يعرف كيف يقول لكل حسناء ،
عبارات الملق والغزل والاطراء

فيدا « إيزابلا » الجميلتان يقبلهما بشغف ، ثم يقفز مسرعاً
ويجلس إزاء « الفيرا » فيقبل عليها بوجهه الفرح

وهو يسأل « ليونورا » ضاحكاً :
هل كانت تحبه اليوم ؟
وهو يريها الصليب الذهبى المطرز فى معطفه !

وهو يؤكد لكل سيدة أن صورتها مرسومة فى قلبه
مقسماً ثلاثين مرة فى تلك الليلة « ما أنا مسيحى ! »

* * *

فى قصر القليمة انتهى المرح وساد السكون
واختفى الرجال والنساء ، وانطفأت الأنوار

وبقيت دونا كلارا والمنصور وحيدين فى القاعة الكبرى
بينما كان آخر مصباح يبعث بضوئه فى عزلة وانفراد

فعلى المقعد الكبير تجلس السيدة ،
وعلى الكرسى الخشبى يجلس الفارس
ورأســـه الذى أضناه التعب
يســـتريح على ركبتى حبيبته

وتصب دونا كلارا باحتراس وهى تفكر
عطرا من قنينة ذهبية فوق خصلات شعره الأسمر
وهو يتنهد من أعماق قلبه

وتطبع وهى غارقة فى لجة التفكير قبلة حلوة من فم رقيق
على خصلات شعره الأسمر
فتعلو السحب جبهته

عبرات من عيون مضيئة
تسكبها الحسناء وهى تفكر
على خصلات شعره الأسمر
فيقبض مريعاً على شفتيه

ويحلم المنصور كأنه يقف ثانية مطأطىء الرأس والجبين
فى كنيسة قرطبة الكبيرة
يسمع كثيراً من الأصوات العميقة

وكل الأعمدة الشاهقة يسمعها تتمتم محتجة متضجرة
فهى لا تريد أن تحتمل أكثر من هذا
وهى تميل وترتعد

وهى تتهدم منزجرة ، ويكفهر الشمع والقسس
وتهوى القبة فى صوت عظيم
وتولول آلهة المسيحية

زكى محمد حسن

(١) ضاحية من ضواحى قرطبة غير مسكونة الآن

الكتب

١ — حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل

٢ — قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

للأستاذ جمال الدين القاسمى

للأستاذ محمد بك كرد على

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

— ١ —

مؤلف « حياة محمد » أشهر من أن يعرف ، برع فى تصوير الرجال وآخر ما كتبه سيرة أعظم رجل قام فى الأرض ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وقد وضع الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى مقدمة الكتاب وأبدع ؛ وكاد الاجماع يتم على استحسان ما كتب المؤلف الذى قال إنه توخى الأسلوب العلمى الجديد ، وما خلا كلامه من خطابيات تكررت معانيها ، فخرج السفر عن الرسم الذى وضعه له صانعه أحياناً . ووقع له غير مرة أن مثل لبعض الظواهر فى التاريخ المحمدى بحوادث عصرية لا دخل لها فى الموضوع ، فقد مثل فى قصة زينب بنت جحش بعدام ركامبيه (ص ٢٩١) ولا معنى لهذا الاستطراد

وأحسن المؤلف فى تعليل بعض حوادث السيرة مما كان يتخذ منه من لا يقول بالاسلام سلاحاً يحاربه به على غير هدى ، على حين اختلف أحبار الأمة فى توجيهه ، ومن ذلك مسألة تعدد زوجات الرسول . ووقع له (ص ١٦٦) فى الكلام على بيعة العقبة أن وجه صيغة بيعة النساء إلى الرجال ، والآية الكريمة صريحة فى أن الخطاب للنساء ، ولذلك سميت بيعة النساء (يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى « ولا يعصينك فى معروف » قال إنما هو شرط شرطه الله تعالى للنساء ، ومعنى لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن أى بولد ملقوط ينسبنه إلى الزوج فان الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها

وقد تابع بعض المؤرخين فى دعوى أن الرسول اجتمع ببَحيرا الراهب فى بُصرى (ص ٧٦) وأنه عليه السلام اتصل فى رحلته الثانية إلى الشام « بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها وتحدث اليه الراهب نسطور وسمع منه » ، وهذه الرواية فى اجتماع الرسول ببحيرا ونسطور لا تستند إلى أصل تاريخى صحيح ، ولذلك أوردها ابن كثير فى البداية والنهاية بصيغة الشك فقال : « زعموا » ولم يرد ذكر لبحيرا فى كتب السريان ؛ ومعنى بحيرا بالآرامية « المختار » ، والذى يعنينا أن بحيرا اختلف الناس فيه : فمن قائل على ما فى الروض الأُنُف أنه كان حبراً من يهود تيماء ، ومن قائل على ماورد فى المسعودى أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ؛ وفى سيرة ابن هشام أن بحيرا كان اليه علم أهل النصرانية ؛ ويقول ابن الجوزى فى عيون التاريخ والسير إن أبا طالب لما ارتحل بالرسول تاجراً قِبَل الشام نزل تيماء فرآه حبر من اليهود ، ويقال إنه بحيرا الراهب ، فقال : من هذا الغلام معك ؟ قال : هو ابن أخى ، قال : أشفيق عليه أنت ؟ قال : نعم ، قال : فوالله لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود . ويقول ابن كثير إن الذى يظهر من سياق قصة الراهب أنه كان راهباً نصرانياً . ويقول الزهرى إنه كان حبراً من أحبار يهود . واختلفوا فى عمر الرسول يومئذ ، فمنهم من قال إنه كان فى الرحلة الأولى ابن سبع سنين ، ومنهم من ادعى أنه كان ابن اثنتى عشرة سنة لما وافى بصرى فى رواية ، أو تيماء فى أخرى . ويقول ابن سعد فى الطبقات إن بحيرا قال لأبى طالب : احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى الشام ، إن اليهود حسد وإنى أخشاهم عليه . وتناقض هذه

الروايات فى دين الراهب بحيرا أكان نصرانياً أم يهودياً ، وتناقض الرواة فى محل هذا الاجتماع : هل كان فى تيماء أو فى بصرى من أرض الشام يوقع الشك فى أمرها ، وكذلك الحال فى الرحلة الثانية واجتماع الرسول بنسطور . والجواب لمن يريدون أن يتخذوا من هـذه الرواية سنداً ليقولوا إن الرهبان كانوا يعرفون أنه سيظهر من العرب رسول تختم به الرسل ويدعو الناس إلى التوحيد ؛ الجواب إن ذلك لا يتعلق به أمر كبير فى إثبات نبوة الرسول ؛ والجواب على أعداء دين الرسـول من أنه أخذ عن هـذه الرهابين أن ابن سبع سنين أو اثنتى عشرة وهو عابر سبيل مع أهله لا يعرف الأخذ عن أحد ، والرحلة الثانية الى الشام لم تتجاوز مدتها شهرين فى أصح الروايات جيئة وذهاباً ، ونسطور هذا مجهول الهوية والمكان

وأهم ما فات المؤلف كونه لم يذكر أن المسلمين قوى أمرهم أول الاسلام باسلام عمر بن الخطاب ، وأنهم أخذوا يدعون الى دينهم جهرة وكانوا يدعون اليه على تقية ، ويصلون فى دار الأرقم خائفين يترقبون أعداءهم من قريش ، فأصبحوا يطوفون فى الكعبة ظاهرين

— ٢ —

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهى : إما شىء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شىء ناقص يتممه ، أو شىء مغلق يشرحه ، أو شىء طويل يختصره ، دون أن يخل بشىء من معانيه ، أو شىء متفرق يجمعه ، أو شىء مختلط يرتبه ، أو شىء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغى لكل مؤلف كتاب فى فن قد سبق اليـه ألا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شىء كان معضلاً ، أو جمعه إن كان مفرقاً ، أو شرحه إن كان غامضاً ، أو حسن نظم وتأليف ، أو اسقاط حشو وتطويل ا هـ

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه فى التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات فى علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل ، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً . فقد نقل فى أول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب فى أربعمائة صفحة) من أقوال القدماء ، ثم أثبت له رأياً واحداً سُبق اليـه (ص ١٠١) رجح فيه رأى الجلال الدوّانى على رأى الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى شىء من الترغيب والفضائل

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد . قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما أخذ عن بعض المتصوفة ومجدّدهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ونقل عن مجلات غاضاً عن ذكر أسمائها ترفعاً على ما يظهر

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً فى هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات فى صورة مؤلَّف . وكانت طريقة التأليف فى عهود الارتقاء العلمى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطى أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمى رحمه الله ، وهو من العلماء النورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة فى الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى فى أكثر تآليفه ببسط آراء غيره

أما طريقة التأليف اليوم فالايجاز من دون اخلال بالمعانى ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار اليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملأ صفحات بلا داع . وعلى هـذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا فى موضوعات اسلامية أو عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث أولا ثم كتبوه فى صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا فى موضوعهم ، عازين ما لابد من عزوه لأصحابه تدعيما لأقوالهم من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لا خلل فى تضاعيفها ولا شقوق ؛ وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على محل الشاهد ، وأعرضوا عن باقى ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة أوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب للسلف وفت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفى المجلدات . وقد رأينا الكتب المنفحة عاشت أكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته

محمد كرد على

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الثالثة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الثالثة

اعلانات قضائية

انه فى يوم السبت ١٣ يوليو سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ صباحاً واليوم التالى بعده إذا لزم الحال بناحية أدفو بحرى بعزبة أبو كشكش سيباع علناً بقرة حمراء سن ٦ سـنوات ملك محمود محمد على من أدفو بحرى بعزبة أبو كشكش وفاء لمبلغ ٢٧٦ قرشاً صاغاً بخلاف النشر وما يستجد نفاذاً للحكم نمرة ٧٠٩ سنة ١٩٣٤ أدفو الأهلية وهذا البيع بناء على طلب أحمد صالحين سبيع من أدفو فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأحد ٧ يوليو سنة ١٩٣٥ من الساعة ٧ صباحاً بالسعدية مركز بنى مزار والأيام التاليـة سيباع علنا حاصلات ١٦ ط منزرعة أذرة صيفى ينتج من الفدان ثلاثة أرادب أذرة ومنقولات وحاصلات ١٨ ط منزرعة قمح بحوض إبلاق بزمام السعدية ينتج من الفدان الواحد أربعة أرادب قمح حب وثلاثة حمول تبن ملك صالح أفندى زيدان من السـعدية وهذا البيع كطلب يسين عثمان من السعدية وفاء لمبلغ ٣٤٨ قرش صاغ بخلاف رسم هذا النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٠٥٥ سنة ١٩٣٤ فعلى كل من له رغبة فى الشراء الحضور

فى يوم الخميس ٤ يوليه سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ صباحا والأيام التالية بسوق بندر جرجا مركز جرجا سيباع منقولات منزلية ومحصول زراعة ١٥ ط و ٣ ف منزرعين قمح البين أوصافهم بمحضر الحجز ملك أحمد زيدان أحمد من نجع الرمالة تبع ناحية القرعان نفاذاً للحكم رقم ٢٠٩٠ سنة ١٩٣٥ جرجا وفاء لمبلغ ٤٨٦٨ قرش صاغ بخلاف رسم هـذا أو أجرة النشر وهذا البيع بناء على طلب الخواجه زكى جرجس عبد الله من جرجا ومحله المختار بجرجا مكتب حضرة حسين افندى البناوى المحامى بجرجا

فى يوم الأحد ١٤ يوليه ١٩٣٥ الساعة ٨ صباحا بسوق ناحية ياقور مركز أبو تيج سيباع علنا زراعة عشرة قراريط منزرعة قطن ملك محمد أحمد على من أسيوط نفاذاً لحكم محكمة أسيوط الجزئية فى القضية المدنية نمرة ٦٢٣٢ سنة ١٩٣٠ وفاء لمبلغ ٤٩٥ قرش صاغ خلاف أجرة النشر والبيع كطلب أحمد على شعبان بأسيوط فعلى راغب الشراء الحضور

فى يومى ٣ و ٤ يوليه سنة ١٩٣٥ من الساعة ٧ ر ٣٠ صباحا بعزبة عمر وتبع ندبة مركز دمنهور وإن لم يتم ففى يوم الأثنين ٨ بسوق منه دمنهور سيباع علنا ثلاثة أرادب فول وشبة بقر حمره سن ٢ تقريبا تعلق نفيسة الامام بدر وعبد العزيز عمرو محمد القيمين بالناحية أعلاه نفاذاً لحكم محكمة دمنهور الجزئية فى القضية المدنية ٢١٩١ سنة ١٩٣٥ وهذا البيع بناء على طلب عبد الرحمن محمد سلامه القيم بعزبته تبع ندبه مركز دمنهور ومحله المختار مكتب حضرة الأستاذ سعد الأنصارى المحامى بدمنهور وفاء لمطلوبه وقدره ٢٧٤ قرش صاغ بخلاف رسم النشر وما يستجد فعلى راغب الشراء الحضور

فى ٧ يوليه سـنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ صباحا بناحية كفر العرب البحرى مركز تلا وفى يوم ١٣ منه الساعة ٨ صباحا بسوق بندر تلا منوفية سيباع نصف أردب أذرة كيزان ملك أبو العلا أبو العلا نوفل من الناحية نفاذاً للحكم نمرة ١٩٩٨ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٤٨ قرش صاغ خلاف ما يستجد كطلب عبد إمام عمارة بكفر العرب البحرى فعلى راغب الشراء الحضور

3me Année, No. 105.

Lundi-8-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ١٠٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٨ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الميت الذى لا يموت

الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين



« عجب عجيب ! ! شيخ يلبس حُلة مقطوعة الكم ، ضيقة الرُّدن، مُبَنَّقة الجيب ، ويعتم على طربوش كطرابيش الأفندية ، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية، ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد الكفر ، ويترجم كتب أوربا ، ويأخذ عن جمال الدين ، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح ، ويريد أن يُدخل فى الأزهر علوم المدارس ، ويشتغل بالأدب ، وينشئ المقالات

للصحف ؛ ثم يحرم « الدوسة » ، وينكر الوسيلة ، ويحلل الموقوذة ، ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا فى صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريق السلف... ! !

نعوذ بالله من شر هذه المحنة وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله أن يقبضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة . . . . »

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » فى صحن الأزهر حين انبلج نور الاصلاح من جبين محمد عبده ، كما كان يقول مشركو قريش فى فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! لأن دعوة الدين لجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع ، فى الأخلاق والطباع ، فقال الناس حين رأوا رجلا رأسه فى السماء ورءوسهم فى الأرض : انظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون ويغير خلق الله ؟! ولأن دعوة الاصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البلَه ، وخمود كغشية الموت ، واستغراق كخدَر الأفيون ، من طول ما تنكرت له الاحداث ، وطغت عليه البدع ، وعشّشت فيه الجهالة ، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية ، أو صوامع الرهبان ، يقطع أهله عن الناس ، ويجرى بهم إلى الخلف ، ويعيش معهم فى الماضى ، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر على مسائل الفقه ، ويتقيد بآراء السلف ، ويتعبد بألفاظ الموتى ؛ فلما نبههم الامام إلى أن الدين للدنيا ، والعلم للعمل ، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً ، وحبل الدين جديداً ، وخلافة الله قائمة ، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمتُه سمت البيئة ، وزيه زى القوم ، ورأيه رأى الحَلْقة ، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه ، ثم قالوا معتزلى مبتدع !

* * *

قال الأستاذ الامام وهو ينفض باسما ما حثَوْه على عِطفيه من الظنون والتهم : لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر ، ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله ! ثم استعان على خصومه بالاحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن ، وهادن من هادن ، فوضع يمناه فى أيديهم ، ويسراه فى أيدى أولئك الذين فتنهم الغرب فأنغضوا رءوسهم إلى مدنية الاسلام ، وذووا وجوههم عن ثقافة العرب ، يحاول أن يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متّسقة الفكر ، متفقة الهوى ، متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر ؛ فنجح على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون فى إبّان الدعوة ، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومة ، ويبذرون البذر فى عصف من المعارضة ، ثم ينفثون فى أتباعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقواهم الخارقة ، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس ، وشهوداً على الناس ، وأدلاء على المحجة

* * *

لاريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفَيْن الذين يوضح الله بهم طريق الانسانية من قرن إلى قرن ؛ وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة الذهن ، وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وثاقة التركيب ، وشجاعة القلب ، فشب نابياً على الضعف ، آبياً على السكون ؛ يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلِداته فى المكتب ، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كأخوته فى الحقل ! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدى يطلب العلم ، فيفر منه إلى مدارج السبُل يطلب الفلاحة ! لأن حفظة القرآن وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة ؛ وحيويته تأنف الخمود ، وحريته تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة

ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة ، سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى ؛ والتصوف فى المغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل ؛ فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حُميّا شبابه بالذكر ، ويطفئ غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدى والكمال المطلق

ثم اتصل بالسيد جمال الدين فتولى عقله يثقفه بالمنطق ، ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ؛ فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه ، وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله ، أبلغ الأثر فى تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته . . .

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

٥ـ كلمة وكليمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أرادوا مرة امتحان السياسيين فى بلاغة السياسة ، فطرحوا عليهم هذا الموضوع :

سرقت حقوق أمة ضعيفة ، فاكتب كيف تشكرها على هديتها . . .

***

عندما يشرب الضعفاء من السراب الذى تخيله السياسة لأعينهم ـ يقدمون لهم المناديل النظيفة ليمسحوا أفواههم . . .

***

لو سئل السياسى العظيم : أى شىء هو أثقل عليك ؟ لقال : إنسانيتى

***

قد يبطل المنطق كل الحجج إلا اثنتين : حجة السياسى القوى حين يغتصب الضعيف ، وأختها حجة اللص الفاتك حين يسأل من أين اشترى ؟ فيقول : اشترت يمينى من شمالى . . . . .

***

قالوا . نظم الصقر قصيدة من الغزل فى عصفور جميل مصبغ الريش ، فكان مطلعها : « ما ألذ » ريشك أيها العصفور ! هكذا لغة السياسة

***

مر فيلسوف برجل مصور بين يديه صورة امرأة قد صورها فأكثر عليها الحلى من الذهب والجوهر ، فسأله فى ذلك ، فقال المصور : لم أستطع أن أجملها حسناء فجعلتها غنية . . . كذلك أحزابنا السياسية لما عجزت عن حقيقة السياسة جعلتنا أغنى الناس بالكلام الفارغ

***

من تمام فضيلة الرجل السياسى أن يكون له كلامان : أحدهما سكوته

***

فى الحب والسياسة ، لا يبدأ الإثم إلا كالفلتة المفردة ؛ ولكن متى وقع الشاذ فى السياسة والحب ، صار هو القاعدة . . . .

***

إذا رأيت شباب أمة يتبذلون بالثياب والزينة ، فاعلم أنها أمة كذب ونفاق : يغطون الحقيقة الرخيصة بالثوب الغالى ، ويكذبون حتى على الأعين

***

فضيلة الملائكة عند الناس أنهم لا يكابدون ولا يحزنون ؛ أفلا تكون فضيلة الناس عند الملائكة أنهم يكابدون ويحزنون ؟

***

قالت العشرة للألف : أنت سرقت منى صفرين . . . هكذا رأيت غرور بعض أدبائنا

***

يكبر بعض الأدباء من صغر المحيطين بهم ؛ قالوا بعرت شاة حول قطعة من حجر ، فنطقت بعرة فقالت للحجر : يا ما أعظمك أيها الجبل الشامخ . . .

***

يكون فى بعض الأدباء من سخافة الحقد ما لا يكون مثله إلا فى بعض النساء من دناءة الغيرة : لو ماتت ضرتها لبقى من ذنبها أنها كانت ضرة . . .

***

من فرض على الناس أن يعرفوه نابغة فقد فرض عليهم أن يعرفوه ممتوهاً أو مغروراً

***

إذا أردت أن تتكلم عن ميت ، فضع نفسك فى موضعه ثم تكلم

***

من أكثر الشكوى إلى الناس ، علمهم كيف يسمعون كلامه خالياً من الشكوى

***

إذا صدق الحب كانت بعض اللعنات فيه أحياناً ضرباً من التحايا (غيابيا) . . .

***

كلُّ معشوقةٍ هي أعظمُ من عاشقها بحاجته اليها ، ولو كانْ مَلِكا وكانت خادماً ؛ فما أحقر العظَمة أحياناً !

* * *

علمتني التَّجربةُ أنه لا يَحْسُنُ استعمال البلاغة مع عجائز النساء ، فانهنّ يحسبنها غزلاً . . . فمن كَتب لاحداهن فلا يجعلنَّ كتابه متقدِّماً في الأدب بل متقدِّماً في السِّن . . .

* * *

لاتكونُ صورة المرأة أجملَ من الأصل إلا عند اثنين : العاشق ، والمصور المُسكْرَه على التزوير . . .

* * *

المرأةُ التي لاتعرفُ كيف تجعلُ كبرياءَها وسيلةَ حُبٍّ ، لاتجعلها إلا وسيلةَ مَقت

* * *

إذا أصبتَ زوجَين يتمنى أحدهما موتَ الآخر ، فلن تجدَ لهذا الآخرِ عملاً إلا أن يَغيظَ صاحبه كلَّ يوم بأنه لم يَمُتْ . .

* * *

أعظمُ الشعراء وأعظمُ الفلاسفة من بلغ درجةَ الطِّفل ... في جعل حكمه على الدنيا من الشعور لا من الفكر

* * *

تزولُ صفةُ الجمال عن الحبيب إذا لم يره مُحبُّه متَّصفاً بها ؛ ولكنّ المشكلة هي : كيف يستطيع أن يراه غيرَ جميل ، وهو كأنما خُلِقَ من أجلِ عينيه خاصَّة ؟

* * *

أيُّهما الذي تحبُّه المرأة ؟ ألرجلُ القويُّ بأنواعِ القوة يُعجِبُها فتراه سيِّدَها وسيِّدَ قلبها ، أم الرجلُ الضعيفُ أنواعَ الضعف ترى نفسها سيِّدَته ؟

هذا هو جوابُ طبيعةِ المرأة على طلب المساواة بين الرجال والنساء

* * *

من سُخْريةِ الحياة بالنابغة العبقريّ ، أنه حين يؤخِّر عملَه من عجز أو ضعف ، يكون هذا هو كل ما يستطيعه النابغة العبقري . . . .

* * *

لو اجتمع الذين ملأوا الدنيا بشهرتهم لما ملأوا داراً صغيرة ؛ كأن منهم ممالِكَ للتاريخ كممالك الأرض فلا يتسع إلا لعَدد محدود

* * *

لو كنتُ قاضياً ورُفِعَ إليّ شابٌ تجرّأ على امرأة فمسَّها أو احتكّ بها أو طارَدَها أو أتبعَها ، وتحقَّق عندي أن المرأة كانت سافرةً مدهونةً مصقولةً متعطِّرةً مُتَبرِّجة — لعاقبتُ هذه المرأةَ عقوبتين : إحداهما بأنها اعتدَتْ على عفة الشاب . . . ، والثانية بأنها خَرقاءُ كشفت اللحمَ للهِرّ . . . .

* * *

لن يكونَ الالحادُ من العلم ، فأساسُ العلم هو هذا : ما عَرَفْتَه فقد عرفتَه ، وما لم تعرفه فلا أقلَّ من أن تقرَّ بأنك لا تعرفه

* * *

إذا كنت قائداً عظيماً في أمة ذليلة فقيرة ، استطعت أن تكون نبياً فيها بنَصْبِ شَنَّا قَتَين ؛ وما أسرعَ ما يعتقدون أن الذى معه عِزْرائيل كالذى معه جِبْرائيل . . . .

* * *

ليس المصلحُ من استطاع أن يُفسِدَ عمل التاريخ فهذا سهلٌ مُيَسَّرٌ حتى للحَمْقى ؛ ولكن المصلحَ من لم يستطع التاريخُ أن يُفسد عملَه من بَعْد

* * *

كل أبٍ يضربُ أولادَه المساكين هو نابليون ، ولكنه نابليون داره فقط . . . .

* * *

دَجاجةُ القَفَص امرأةٌ متحجبةٌ في نظر الثَّعلب ؛ وحجابها جهلٌ وحماقةٌ ورَجْعيةٌ وتَخَلُّفٌ عن زمن الثعالب . . . .

* * *

هنا مسألةٌ اقتصادية : فهذا مسجدٌ واسع مفتوح لا يؤجَّر بإيجار يُنْتَفَع به ؛ وهذه كنيسةٌ قائمةٌ لا تستوفي الدولةُ عليها ضريبة . أفليس الاصلاح أن يحوِّلَ المسجد دارَ صناعةٍ مثلاً ، وتنقلبَ الكنيسةُ مثلاً (خمَّارة) ؟

بلى أيها الحاكم . إن هذا هو إصلاحك الطبيعى ما دام عقلك كيسَ دراهم ، وما دامت بلادك بلاد إفلاس . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

دستور قناة السويس

وهل نسخ ميثاق عصبة الأمم ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ يناير الماضى تجوز السفن الايطالية قناة السويس فى كل يوم تقريباً ، مشحونة بالجند والسلاح والذخيرة فى طريقها الى الارترية والسومال ؛ ولاتخفى ايطاليا الفاشستية بعد أن حشدت قواتها الزاخرة فى شرق أفريقية أنها مصممة على تنفيذ مشروعها الاستعمارى الضخم فى المنطقة الحبشية ، وأنها لاتقبل ثمناً للعدول عن غزو الحبشة أقل من بسط حمايتها الفعلية عليها ؛ أما الحبشة فانها من جانبها تشهد جـلدة متحفزة تلك الأهبة الضخمة التى تنظمها دولة قوية من دول الغرب المتمدن للبطش بها وسحقها من عداد الأمم الحرة ، وزجها إلى حظيرة الأمم المستعبدة بعد أن لبثت آماد التاريخ دولة كاملة السيادة والاستقلال

وهذا المنظر الذى نشهده اليوم هو أحد هذه المناظر العديدة التى شهدها كثير من الأمم الشرقية والافريقية الضعيفة منذ أواخر القرن الماضى ، والتى تعرف فى لغة الاستعمار الأوربى « بافتتاح إفريقية » ؛ منظر الدول الغربية الكبرى تتسابق إلى بسط حمايتها على تلك الأمم ، ثم تتقدم استعمارها واستعبادها خطوة فخطوة باسم المدنية والمصالح الاقتصادية والتهذيب الأوربى

ليس من موضوعنا أن نعرض إلى شىء من نواحى ذلك الصراع الذى سينشب فى القريب العاجل فى شرق إفريقية والذى تخوض فيه الحبشة معركة الحياة والموت ؛ ولكنا نريد أن نعرض إلى مسألة يثيرها هـذا الصراع فى الوقت الحاضر ، هى مسألة قناة السويس ونظامها الدولى فى مثل هذا الظرف ، وسنقتصر فى بحثنا على الشرح الفقهى والتاريخى المحض

* * *

أبدى السير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى الكبير ، وأحد أقطاب الدعوة إلى السلام ، رأيه أخيراً بأنه إذا نشبت الحرب بين إيطاليا والحبشة ، فانه لا يجوز أن تبقى قناة السويس مفتوحة فى وجه الفريقين المتنازعين ، بل يجب أن تغلق دونهما ، وألا تمكن السفن الايطالية من المرور فيهـا ، كما أنه يجب ألا تمكن الحبشة من استيراد الذخائر عن طريقها ؛ ويستند السير آنجل فى رأيه إلى أن المعاهدات الدولية التى تكفل حرية الملاحة فى القناة أثناء الحرب والسلم معاً قد نسختها نصوص ميثاق عصبة الأمم

ولبيان ذلك نقول إن النظام الذى تخضع له قناة السويس اليوم هو نظام الحيدة الدولية المطلقة ، وهو النظام الذى كفلته معاهدة ٢٩ أكتوبر سـنة ١٨٨٨ التى وقعت فى استانبول بين الباب العالى ، وبريطانيا العظمى ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا وإيطاليا ، وأسبانيا ، وهولنده ، وروسيا ؛ ونص فى ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو « الاتفاق الحر على نظام نهائى يكفل فى كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة فى قناة السويس » . وتحتوى المعاهدة على سبع عشرة مادة تنظم شروط الملاحة فى القناة فى أوقات السلم وفى أوقات الحرب

وهذه الحيدة المطلقة للقناة وقت الحرب تنص عليها المادة الرابعة من المعاهدة فيما يأتى : « تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب . وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على أنه لا تفرض أية ضربية حربية أو يعمل أى عمل من شأنه أن يخل بحرية الملاحة فى القناة ذاتها أو فى موانى الوصول إليها ، أو فى قطاع من هذه الموانى طوله ثلاثة أميال بحرية ، وهذا حتى لو كانت الدولة العثمانية هى إحدى الدول المتحاربة » . وتنص المادة السادسة من المعاهدة على « أن قناة السويس تبقى مفتوحة فى وقت الحرب شأنها وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية ، لجميع الدول بلا تفريق . . . وتتعهد الدول الموقعة بانها لا تقوم بأى عمل لعرقلة حرية الانتفاع بالقناة وقت الحرب ، مثلما يجب ذلك وقت السلم ؛ ويجب ألا تعرض القناة مطلقاً لمزاولة حق الحصار »

على أنه يحظر على سفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب ، بمقتضى نص المادة الرابعة أيضاً ، أن تتزود من المؤن فى القنال أو موانيه إلا بالقدر الضرورى ؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة ، وألا تمكث فى موانى القناة أكثر من أربع وعشرين ساعة ؛ ولا يسمح لها بأن تنزل جنوداً أو ذخائر

إلى البر . ويمكن أن يسمح لسفينتين حربيتين ، كلتاهما بالبقاء فى ميناء الوصول ، ولكن لا يسمح لأية سفينة حربية بالبقاء فى مياه القناة »

هذه هى خلاصة النصوص التى يقوم عليها نظام المرور فى قناة السويس وقت السلم ووقت الحرب ؛ وما تزال معاهدة سنة ١٨٨٨ هى المرجع والحكم فى هذا الشأن ، وإن كانت بعض نصوصها الأخرى قد ألغيت بفعل الظروف والتطورات الدولية . مثال ذلك أنه قد نص فى المعاهدة على أن تقوم الحكومة العثمانية باتخاذ ما يجب لتنفيذ المعاهدة ؛ ولكن الدولة العثمانية قد ذهبت واختفت من عالم الوجود ، وفقدت تركيا كل حقوقها القديمة على مصر بمقتضى نصوص معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولاً ، ثم بمقتضى نصوص معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) ؛ وهى حقوق يقضى المنطق والقانون بأن تؤول إلى مصر ؛ ولكن مصر لم يعترف لها بهذا الحق ؛ وينص تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ الذى تعترف فيه بريطانيا العظمى باستقلال مصر ، على أن بريطانيا العظمى تحتفظ ضمن المسائل المعلقة بمقتضى التصريح بمسألة المواصلات الامبراطورية ، أو بعبارة أخرى بمسألة قناة السويس ؛ ومن جهة أخرى فقد اختفت بعض الدول الأخرى التى اشتركت فى عقد المعاهدة مثل امبراطورية النمسا والمجر وروسيا القيصرية ؛ وفقدت ألمانيا بمقتضى معاهدة الصلح كل حقوقها فى مصر وفى جميع المعاهدات التى عقدتها مع مصر ؛ وفيما عدا ذلك فنصوص معاهدة سنة ١٨٨٨ ما تزال قائمة ، وما تزال إلى اليوم دستور قناة السويس

***

والآن لنر إلى أى مدى يمكن أن يتأثر هذا الدستور الذى يقضى بحرية الملاحة فى القناة وقت الحرب ، بنصوص ميثاق عصبة الأمم . وما يشير إليه السير آنجل من أن هذا الميثاق ينسخ دستور القناة نجده فى المادة ٢٠ من ميثاق العصبة ؛ وهذا نصها ؛ « يعترف أعضاء العصبة بأن الميثاق الحالى يلغى كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التى تتعارض مع نصوصه ، وتتعهد بأنها لا تعقد فى المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص » ، ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام العام بين الأمم ، وعلى مبدأ التفاهم والتحكيم فى تسوية المنازعات التى تقع بينهما ، فان مثل هذا الدستور الذى وضع لقناة السويس منذ نحو نصف قرن ، والذى يقضى بأن تسهل حرية المرور فى القناة لسفن الدول المتحاربة ، لا يتفق مع الغاية التى تعمل لها عصبة الأمم ، وهى توثيق أواصر السلام بين الأمم ، بل يغدو بالعكس عاملاً فى تشجيع الحرب ؛ ومثل هذه النصوص التى تتعارض مع روح ميثاق العصبة يجب أن تعتبر منسوخة لاغية

ولكنا نجد من جهة أخرى فى ميثاق العصبة نصاً آخر ربما كان يناقض هذا الرأى ، فالمادة ٢١ من الميثاق تنص على « أن التعهدات الدولية مثل معاهدات التحكيم والاتفاقات الاقليمية مثل نظرية مونرو ، وهى التى يقصد بها توطيد السلم ، لا تعتبر متعارضة مع أى نص من نصوص هذا الميثاق » . فاذا اعتبرنا معاهدة سنة ١٨٨٨ داخلة فى باب التعهدات الدولية أو فى باب الاتفاقات الاقليمية وهو الأرجح ، فان ميثاق العصبة لا يمكن أن يؤثر على نصوص معاهدة سنة ١٨٨٨ . ونظرية مونرو كما نعلم هى قاعدة السياسة الأمريكية ، وبمقتضاها تعتبر الولايات المتحدة الأمريكتين منطقة نفوذ معنوى خاص ، لا يصح أن تمتد إليها يد أية دولة أوربية بالتدخل فى شؤونها أو محاولة بسط نفوذها الاستعمارى على أى جزء من أجزائها ، وإلا اعتبرت هذه المحاولة عملاً عدائياً موجهاً إلى الولايات المتحدة ذاتها . وكما أن النص هنا صراحة على استثناء نظرية مونرو الأمريكية قد وضع نزولا على رغبة السياسة الأمريكية ، صاحبة الفكرة الأصلية فى إنشاء عصبة الأمم ، فكذلك قد يكون النص على استثناء الاتفاقات الاقليمية هنا تحقيقاً لرغبة السياسة البريطانية ؛ وهى قد أصرت على اعتبار قناة السويس منطقة اقليمية تعلق عليها أهمية خاصة أولاً فى تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ حيث احتفظت بمسألة المواصلات الامبراطورية ، وثانياً فى التبليغ الذى اقترن بهذا التصريح إلى الدول ، وفيه تعتبر أن التدخل فى أمر العلائق المصرية الانكليزية يعتبر عملاً غير ودى بالنسبة لانكلترا

***

على أن المعاهدات والنصوص وحدها لا تكفى ، وهنالك الجانب العملى ؛ واحترام هذه النصوص يتوقف دائماً على الظروف والاتجاهات السياسية . فمثلاً حينما قامت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، وكانت انكلترا تميل فيها إلى جانب اليابان ، لم تسمح

انكلترا بفتح قناة السويس فى وجه الأسطول الروسى المسافر إلى الشرق الأقصى ، واضطر هذا الأسطول أن يطوف حول إفريقية ، وأن يسير إلى الصين من طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان هذا السفر الطويل من عوامل انهاكه وهزيمته بعد ذلك فى موقعة تسوشيما (سنة ١٩٠٥) وخسران روسيا للحرب ، هذا مع أن روسيا إحدى الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٨٨ كما قدمنا . وفى الحرب الكبرى لم تحترم حيدة القناة ولم تحل المعاهدة الدولية دون تحصينها واغلاقها فى وجه الدول المعادية لانكلترا ودول الحلفاء ؛ وقد استأثرت انكلترا وحلفاؤها أثناء الحرب باستعمال القناة ؛ ومن جهة أخرى فان ألمانيا وتركيا لم تحترما من جانبهما حيدة القناة ، ونظمتا سنة ١٩١٥ أكثر من هجوم محلى على مصر من جهة القناة ، وضربت شواطئها بالقنابل المخربة ؛ واستمرت طوال الحرب منطقة حربية محضة تستأثر انكلترا بالاشراف عليها

وكذلك لا نستطيع فى الظروف الحاضرة التى يحلق فيها شبح الحرب فى شرق افريقية أن نقف عند المعاهدات والنصوص فى تقدير الدور الذى يمكن أن تؤديه قناة السويس فى اذكاء هذه الحرب أو وقفها ؛ فايطاليا تستعمل القناة بملء الحرية لارسال الجند والذخائر إلى شرق افريقية ؛ فاذا نشبت الحرب بينها وبين الحبشة فماذا يكون شأن القناة ؟ هل تظل مفتوحة أثناء الحرب لمرور الأمداد الايطالية ، أو تغلق فى وجهها ؟ إن معاهدة سنة ١٨٨٨ صريحة كما بينا فى وجوب فتح القناة وضمان حرية الملاحة فيها أثناء الحرب بالنسبة للفريقين المتحاربين ؛ ولكن النصوص وحدها لا تكفى هنا . وكل شىء يتوقف على ظروف العلائق بين انكلترا وإيطاليا ؛ فاذا كانت هذه العلائق مما يسمح بتأييد السياسة البريطانية لمشروع إيطاليا فى غزو الحبشة ، فان القناة ستبقى مفتوحة حرة ؛ وإذا كان لدى السياسة البريطانية ما يحملها على الوقوف فى وجه مشاريع إيطاليا ، فقد تغلق القناة بالاستناد إلى ميثاق عصبة الأمم أو غيره من الأسانيد والنصوص

وعلى أى حال فان المسألة فى منتهى التعقيد والدقة ، وأمرها مرهون بالظروف والمفاجآت التى قد تثيرها الحوادث دون توقع أو تقدير

محمد عبد الله عنان

مات الشيخ بدر الدين !

للأستاذ على الطنطاوى

اليوم انقطعت رواية الحديث :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا

أخرجه البخارى ومسلم والترمذى

كان أقل مزايا الشيخ بدر الدين الحسنى أنه يحفظ صحيحى البخارى ومسلم بأسانيدهما ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد ، وسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجة ، ويروى لك منها ماتشاء كأنه ينظر فى كتاب ؛ وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وماقيل فيهم ، وسنى وفاتهم ، ويجيبك عما شئته منها ، وأنه يحفظ عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة كالألفية والزبد والشاطبية والطيبة الخ ... وأنه ألف نحواً من خمسين مؤلفا قبل أن يتجاوز عمره الثلاثين ؛ وأن له اطلاعا فى كافة العلوم حتى الرياضيات العالية فقد أقرأها لطلاب شعبة الرياضيات فى المدرسة التجهيزية فأدهشهم وأدهش باطلاعه معلميهم ؛ وأنه ماانقطع عن الدرس والتدريس يوما واحداً منذ سبعين سنة على زهادة عجيبة ، وورع نادر ، وترفع عن الدنيا ولذاذاتها مع الغنى الواسع والمال الكثير ، وهو على الجملة آخر علماء السلف الصالح رضى الله عنهم .

مر على دمشق فى هذه السنين العشرين ، من جليل الحوادث وفادح الخطوب ، مالو مر على الشامخات الرواسى لجعلها دكا ، أو وقع على الجلاميد الصم لصيّرها هباء . فأعدت له الايمان الذى لا يزلزله رزء ، والثبات الذى لا تزيله مصيبة ، وصبرت عليه « صبر المظيم على العظيم » . . . . حتى تعودت مسّ الضرّ ، وألفت قوارع الدهر

« وصارت إن أصابتها » سهام   تكسرت النّصال على النصال

وغدا أبناؤها لطول ما رأوا من البلاء ، وما راضوا نفوسهم عليه من الصبر ، لا يألمون لمصيبة ، ولا يجزعون لنائبة ، ويهتفون بالزمان كلما تعب من مساءتهم ، فأقلع عن ايذائهم :

إن كان عندك يا زمان مصيبة   مما تسوء به الكرام فهاتها

***

نكبت دمشقَ الحرب ، فقلّت الأقوات ، حتى أكل الناس

العشب . . . وباد الرجال : مَنْ لم يمت منهم برصاص الانكليز والفرنسيين ، ومن لم يمت من الجوع ، مات على مشانق جمال باشا ، حتى لم يبق فى دمشق إلا شيوخ ركّع ، ونساء جُوَّع ، وأطفال رضّع . . .

فشيعت دمشق من مات ، وحدبت على من بقى ، ماخارت ولاجزعت . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كانت « ميْسلَون » فذبح « العُمْروط الأفّاق » ربّ البيت ، واستباح الحمى ، وأراد أن يعدو على سليلة الشرف ، وبنت الأكرمين ، فصدّته أروع صدّ ، فأتى على الديار فجعلها حصيداً ، كأنْ لم تغنَ بالأمس ؛ وعادت دمشق من ميسلون ، فاذا كل شىء قد انهار ، وإذا الدار قواء ، كأنما لم يشد فيها مُلك ، ولم تقم فيها دولة ، ولم يكن لها استقلال . . .

فدفنت دمشق بيدها أبناءها ، وأقسمت على قبورهم « القسم الأحمر » وما بكت ولاشكت . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كانت الثورة ، فهبت دمشق تعلن فى أبنائها بأن قد جاء « الامتحان الأول » فأرونى ماذا حفظتم من الدرس . . .

وكان الامتحان فى دقّ الباب (١)

فدقه الأبطال من أبناء دمشق دقاً ضوضى (٢) على جوانب السين ، فثار الناس فزعين يقولون : ماذا ؟

قيل : بردى يشتعل ! . . . قالوا : أطفئوه بالنار !

فكانت المعركة بين الماء والنار . . . بين الدم والحديد . . . فردّ الفتية العُزّل الجيش اللجب ، فوقف سنتين دون نهر تورا لايجتازه ، وما عرضه بأكثر من « ستة أمتار »

ثم انتهى الامتحان ، فدفنت دمشق أبناءها ، وقامت دمشق المفجوعة على أنقاض دمشق المحرّقة المهدّمة فجدّدت القسم ، وكانت ميسلون فصارتا ميسلون والغوطة . . . . . . « وصبرت دمشق » !

ثم كان يوم (٣٠) كانون ، فأعلنت دمشق أن قد جاء الامتحان الثانى ، وكان الامتحان فى فتح الصندوق (١)

فقالت القوة : لا ! وقال الحق : نعم !

فكانت المعركة بين القوة والحق ، فانتصرت نعم ، وكسر الصندوق ، ودفنت دمشق أبناءها ، وجددت القسم ، وصرن ثلاثة : ميسلون والغوطة والمرجة ! « وصبرت دمشق » !

صبرت دمشق ، ولم تجزع ولم تضطرب ، ولم تقلقها هذه الحادثات ولم تبكها ؛ ولكن كلمة واحدة سرت أمس فى دمشق ، فتقلقلت لها دمشق واضطربت ، وخفّت منها الأحلام ، وضلّ عنها الصبر ، فلم تعد تطيق صبراً ، فانفجرت تبكى فى نكبة اليوم النكبات كلها !

تلك هى الكلمة الرهيبة : مات الشيخ بدر الدين . . . .

***

كان الشيخ سرّ قوة دمشق ، تلجأ اليه كلما دهمتها الخطوب ، فتفىء منه إلى جنة وارفة الظلال ، وتفزع اليه كلما حاق بها اليأس ، فتجد عنده الأمل الباسم الذى يشق طريقاً للحياة وسط شعاب الموت ، والثقة بالله التى تسمو بصاحبها حتى يجتاز العقبات كلها طائراً بجناحين من الشجاعة والثبات

وكانت كلمات الشيخ كأنما هى السحر ، ينصب فى أعصاب الشاميين إذ يسمعونها ، فيقدمون لايهابون شيئاً ، كذلك الذى شرب ماء الحياة فلا يبالى -- وهو لن يموت : — أىّ أودية الموت سلك !

وكان الشيخ رمز العصور الذهبية الأولى ، وصفحة حية من تاريخ المجد الاسلامى ، وآية من آيات الله قامت فى هذه الأيام المظلمة لتنيرها بنور الصدر الأول ، كما ينير البدر الليل الداجى بنور الشمس المشرقة ، ولكنّ ذاك بدر الدنيا ، وهذا « بدر الدين » !

وكانت غرفة الشيخ فى دار الحديث حمى قد حماه الله بهيبة العلم ، وحجبه بجلال الاخلاص ، فهى من دمشق الأموية أو العباسية ، أو دمشق صلاح الدين ، لا من دمشق « القرن العشرين » ، وقفت عند عتبتها سطوة جمال باشا ، وقوة الانتداب لم يجتزها منهما شىء ؛ وكان يجيئها أبداً العتاة الجبارون الذين

(١) قال أمير الشعراء رحمه الله :

« وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق »

فذلك هو الباب . . .

(٢) أى كانت له ضوضاء

(١) قيل : هو صندوق الانتخاب

يخشاهم البلد ، ويجرى حكمهم لا يرده أحد ، فكانوا جميعاً من بشاوات وموسيوات . . . يخلعون نعالهم بأيديهم ، ثم يدخلون مطأطئ رءوسهم حتى يجلسوا على ركبهم بين يدى الشيخ ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، ثم لا يتكلمون إلا أن يسألهم ، أو يأذن لهم بالكلام ، وربما أعرض عنهم ، وربما وعظهم أو علمهم ، ولا يقول لهم إلا كلمة الحق ، ولا يكلمهم إلا بلسان عالم من دمشق صلاح الدين !

فكان الشاميون حين يرون هذا لا يبالون ، وفى دار الحديث هذا الجيش ، بما كان فى دمشق من جيوش ودبابات وطيارات .. أفليس عجيباً أن هذا الشيخ الهِمّ ابن التسعين ، قد :

سدّ الطريق على الزما ن وقام فى وجه الخطوب !

* * *

والشيخ لا جرم نسيج وحده فى هذا العصر ، وهو بقية من المحدثين الأولين الذين ألّفوا بسيرهم تاريخ المسلمين العلمى ، أجل تاريخ علمى كتب أو يكتب إلى يوم القيامة . فقد لبث سبعين سنة ، يشتغل بالدرس والتدريس والتقوى والعبادة ، على خطة معروفة ، وسنة مألوفة ، ما تبدلت يوماً ولا تغيرت ، إلا لمرض مقعد ، أو أمر قاهر ، أو سفر لازم ؛ وقد بلغ من ثبات الشيخ وحسن ظنه بالله عز وجل انه كان [1] مرّة فى قطار الحجاز فوقف القطار فى عرض البادية لشىء طرأ عليه ، (وقد رأينا هذه البادية فاذا هى رمال ملتهبة ، وشمس محرقة ، ولا شىء سواها) فنزل بعض القوم يصلون ، ونزل الشيخ ، فلما أحرموا بالصلاة وكادوا يركعون ، صفر القطار ، فانفضوا إليه فتعلقوا به وتركوا الشيخ قائماً . وسار القطار ؛ (قال الراوى) فنظرت إليه فلا والله ما التفت ولا تحرك ، فكدت والله أُجَنّ ، وأقبلت على من بيدهم أمر القطار فرجوتهم أن يقفوه فأبوا ، فسقطت على قدمى كبيرهم حتى لان فأمر بالقطار فتقهقر حتى وقف على الشيخ فاذا هو جالس لم يسَلم ، فلما سلم قام فركب ، وما يبالى بانقطاعه فى البادية ، ولا بالموت الذى يحوم حوله ، ما دام قائماً بين يدى رب الأرض والسموات ، ومن بيده الموت والحياة

* * *

(١) حدث بهذه القصة رجل كبير كان شاهدها

لبث سبعين سنة يفيق إذا عَسعَسَ الليل [1] ، فيصلى ماشاء الله أن يصلى ، فيشعر بلذة العبادة ، ويحسّ حلاوة الإيمان ، ويسمو بنفسه عن الدنيا ولذاذتها حتى يحقرها وتهون عليه ، فيصبح وهو يطير بنفسه فى سموات الجنان والناس يمشون فى حضيض الأرض

ثم يمضى إلى الجامع الأموى فيصلى الصبح مع الجماعة ، فى مكانه الذى لم ينقطع عنه ثلاثة أرباع القرن ، وربما ثبت عليه أكثر من ذلك ، فقد جاوز رحمه الله التسعين ، فاذا قضيت الصلاة عاد إلى غرفته ، فلبث يقرأ ويقرئ إلى ما بعد العتمة ، إلا أن يكون يوم الجمعة فيجلس للدرس العام يحدث الناس تحت قبة النسر من الظهر إلى العصر ، لا يسكت ولا يتنحنح ولا يقف ؛ يبدأ بحديث فيرويه مسنداً ، ويستقرئ طرقه كلها ، ويتحدث عن رواته ، ثم يذكر شواهده من الكتاب والسنة ، فلا يروى حديثاً إلا رفعه ، ولا كلمة إلا عزاها ، ثم يذكر ما أخذه منه الفقهاء من الأحكام ويوازن بينها ، ويبسط الكلام فيما يتصل بذلك من الفلسفة والتصوف والعلوم ، وكان الشيخ فى الفلسفة الاسلامية منقطع النظير

وطالما حضر هذا الدرس جلة علماء دمشق ومن يزورها من علماء الأقطار ، فخرجوا معجبين مُكبرين ؛ وطالما حضره الأطباء والمحامون وأهل الفلسفة والطبيعة ، فخرج كل وقد امتلأ وطابه من وسائل الفن الذى يشتغل به ، أو العلم الذى انقطع إليه

وكان يمضى الدرسان والثلاثة ولم يتعد الشيخ شرح حديث واحد

ولم يكن يردّ سائلاً ، أو طالب علم ؛ وكان يوليه ما شاء من وقته ووجهه ؛ وكان إذا استفتى قال للسائل ، انظر كتاب كذا ، وكتاب كذا ؛ وربما دله على الصفحة التى يجد فيها المسألة ، لا يحبّ أن يفتيه هو

وكان يصوم الدهر ، فاذا كان المساء أكل ما قدم إليه ، ولم يعرف عنه فى سفر ولا حضر انه اشتهى طعاماً أو كرهه إلا مرة كان فى سفر ، فقيل له : ما نطبخ ؟ فقال : ما شئتم !

قالوا : عندنا بامياء وفول وعدس . . . .

(١) وذلك قبل السحر

قال : هل قلتم إن عندكم فولاً ؟

ففهموا أنه يشتهيه ، ولم يروعنه في هـذا الباب أكثر من هذا . ولم يكن يشتم رجلاً أو يغتابه ، ولم يكن يدع أحداً يغتاب في مجلسه ، وكان غاية تأنيبه إذا غضب أن يقول :

— « بابا — وكانت تلك كلمته — لماذا أنتم هكذا ؟ »

***

تواضع لله ، فأناله الله رفعة ما أنالها سلطاناً ولا ملكا ، وانصرف عن الدنيا فأقبلت عليه الدنيا ، ودر عليه المال فما مسه ولا مد إليه يداً ، واعتزل الناس ورغب عن الجاه ، فأقبل عليه الناس ، ورغب فيه الجاه ، فما غيره ولا أقام للجاه وزناً ، وابتعد عن الحكام ، فتزلف إليه الحكام ، ووضعوا بين أيديه دنياهم فما حاد عن دينه ولا رزأهم دنيا ، ولا كتمهم نصحاً ...

عاش فكانت حياته أعظم حياة ، ومات فكان موته أفخم موت[1] . وكيف لا يكون فخماً ، وقد كان الشيخ دولة وحده ، وقد كان تاريخاً ، وقد كان مجموعة كاملة من الفضائل كلها ، تأكل وتشرب وتمشي ؟

***

رحمك الله يا أيها الامام العالم العظيم ، ورزق دمشق الصبر على فقدك ، وعوض منك المسلمين خيراً ...

فقد كنت بدراً للديانة مشرقاً   وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

علي الطنطاوي

(١) وكنا على أن نصف الجنازة التي مشى فيها مائة وخمسون ألفاً ، ولم تر دمشق مثلها ، فضاق عنها هذا الفصل ، ولعله لا يضيق إن شاء الله عنها فصل آت .

الشعر الوطني في الأندلس

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

كثر الشعر الوطني عنـد العرب في العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية ، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها . وما ذلك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزق الاستعمار شملها ، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد ؛ فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذي يكسبونه في موقعـة ذلك اليوم ، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة في تاريخهم الأدبي والحربي ، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعي إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذي تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود اليها مافقدته من العز والعظمة ، وتارة ينعون على قومهم تخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم ، لافتين أنظارهم إلى ما يسومونهم من الخسف والعذاب ، وما يبتزونه من أموالهم وخيرات بلادهم

وأخيراً ، وعلى هذا المنوال ، تكون الشعر الوطني في العربية ، وأصبح في المقام الأول من أغراضه الشعرية ، فخلف بذلك المديح الذي كان يحتل هذا المقام من قبل

ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربي في تلك العصور ، لم نجد للشعر الوطني ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر ، ولم نعثر على ما يفيد أن هـذه الظاهرة التي غلبت على الشعر العربي اليوم أمكنها في عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر ، بله أن تغلب على شعر شاعر من العرب أو من غير العرب فيمن نظم بالعربية ، فتجرف غيرها من الظواهر وتكون هي المسيطرة على كثرة أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم . ولذلك لما قال ابن الرومي أبياته المشهورة في هذا المعنى كانت عنقاء مغرب الشعر الوطني ، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يضرب في طبيعة حب الناس لأوطانهم ، وتلك الأبيات هي :

ولي وطن آليت ألا أبيعه   وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم   مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها ، فحنوا لذالكا

ولا نعني بالشعر الوطني ما كان من قبيل العواطف المجردة عن المعاني المذكورة كهذا الذى يكثر قوله فى بلاد الغربة تشوقاً إلى معاهد الأحباب ومواطن الشباب ، فان هذا قد زخرت به العربية قديماً وحديثاً ، ولم يخل عصر من أعصارها من لدن الجاهلية إلى الآن عن قوله والمكثرين منه . وما أشعار نجد والحجاز والعقيق ورامة وغيرها إلا بعض من كل ، وقُل من جل ، مما يتمثل فيه هذا اللون من الشعر العاطفى أحسن مثال . ولكن ما نعنى هو الشعر الوطنى بمعناه الشائع الذى يصطبغ بالفكرة السياسية التى ألمعنا اليها من قبل ؛ وهذا هو الذى يصح القول فيه أنه وليد التجديد الأدبى فى العصر الحديث ، وأنه لم يكن له وجود فى العصور المتقدمة التى ازدهرت فيها الآداب العربية سواء فى شبه الجزيرة نفسها ، أو فيما اصطنع لغتها من البلدان بعد إشراق نور الإسلام فيها — اللهم إلا هذا القطر الأندلسى الذى عقمت الأيام أن تلد مثله فى رقيه وحضارته ، فانه لا بد أن يستثنى من العموم

ذلك أن عرب الأندلس الذين تقدموا الزمن بكثير فى النضوج العلمى لم يجز أن يتخلفوا عنه فى الاحياء الأدبى ، فطلعوا على العالم العربى بالتوشيح الذى لم يستطع التجديد المصرى حتى الآن أن يأتى بما يشبهه من حيث التأثير البليغ فى تحرير الشعر من قيود البحور والقافية الثقيلة ، وقد حاول المشارقة أن يأتوا بشيء فى هذا الصدد فاستظهروا بالدوبيت ، والسكان وكان ، والقوما وغيرها ، ولكنه كان شيئاً غريباً عن الذوق العربى غرابة هذه الكلمات فى اللغة العربية ، وكذلك قالوا الشعر الوطنى وأكثروا منه وتفننوا فيه ، فانفردوا به عن سائر الشعوب العربية ، وسبقوا اليه الأجيال الحديثة ، وكان إحدى مآثرهم الجليلة فى النهوض بالأدب العربى من وجه عام

ولقد كان باعثهم عليه هو نفس ما بعث إخوانهم اليوم من تكالب دول النصرانية عليهم وإذلالها لهم فى عقر بلادهم ، ولذلك لم يوجد فى عهد الفتح وعهد الأمويين إذ أمرُ العرب مقبلٌ وشملهم جميع ، وإنما وُجد بعد أن ضعف لسانهم ودالت دولتهم وصاروا يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة بعد الأخرى ، وحصون بلادهم فى قبضة العدو فلا ترجع اليهم أبداً ؛ وعرفوا الغاية التى اليها يسيرون ، والمصير الذى منه يقتربون ، فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم ، فبكوا واشتكو ونظموا الأشعار الوطنية فى تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة فى صون كيانهم ، معرضين بما يؤول اليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة وطمس معالم الحضارة والدين

ولقائل أن يقول إن مثل هذه الأحوال قد صار فى بلاد الشرق ولا سيما فى عهود الحروب الصليبية يوم سلبت من الأمبراطورية العربية أثمن درة فى تاجها : مصر وبلاد الشام ، ومع ذلك فلم تتفتق قرائح الشعراء هناك بالشعر الوطنى ولم يظهر منهم من جال فى ذلك الميدان ، فما السبب فى ذلك ؟ لعل للعجمة التى كانت قد بدأت تعقل اللسان العربى فى ذلك العهد من جراء ظهور سلطان الأعجام فى بلاد العرب وضعف الانتاج الأدبى تبعاً لذلك ، تأثيراً مباشراً فى عدم ظهور هذا النوع من الشعر فى بلاد الشرق وإن وجدت البواعث . على أن هذه الأحوال وإن لم تبعث على قول الشعر الوطنى كانت السبب فى ظهور فن من فنون الأدب لا يقل خطراً عن الشعر مطلقاً وهو فن القصص ، فان من المعلوم أن كثيراً من هذه القصص الحماسية كعنترة وسيف بن ذى يزن وغيرها إنما وضعت فى هذا العهد الصليبى ، وفى مصر بالخصوص ، لتضرب للناس أمثلة من الشجاعة العربية يخلق بهم أن يحتذوها فى صد هجمات المغيرين من ذئاب الغرب على بلاد الاسلام ، وهى وإن كانت عامية التأليف تدل على أن المشرق لم يقف واجماً بازاء تلك الحوادث الكبرى وإن لم يهتد إلى الشعر الوطنى كما اهتدت اليه الأندلس !

ونقفك الآن على نماذج من الشعر الوطنى الأندلسى لترى أنه لا يكاد يتميز عن الشعر العصرى الوطنى فى وصف من الأوصاف . ولا ننقل لك شيئاً من قصيدة صالح بن شريف الرندى فى رثاء الأندلس ، وإنما نشير اليها فانها شهيرة لا تخفى على تلاميذ المدارس الابتدائية الاسلامية !

فانظر إلى هذه القطعة للأديب أبى عبد الله الفازازى يصف فيها الفوضى الفاشية على بلاد الأندلس وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها بل وإعانة الأعيان منهم على خرابها ! ويستشف من الغيب المآل الذى تؤول اليه إن دامت على تلك الحال ، فيسأل الله

تعالى أن يلطف بعباده ويرحمهم :

الرُّوم تضربُ فى البلادِ وتغنمُ   والجورُ يأخذُ مابقى والمغرمُ
والمالُ يورد كله قشــتالة   والجند يسقط والرعية تُسلَمُ
وذوو التعيش ليس فيهم مُسلمٌ   إلا معين فى الفساد مُسَلِّمٍ
أسفى على تلك البلاد وأهلها   الله يلطفُ بالجميع ويرحم

وانظر إلى هــذه القطعة أيضاً لأبى المطرف بن عميرة يقف فيها موقف اليائس البائس يمتنع حتى عن الاستسقاء لبلاده ، ويتساءل فى حزن وحقد كيف يمكن أن يدوم وداده لهذه الديار ، التى ألقت بطاعتها للأغيار :

زدنا عن النائين عن أوطانهم   وإن اشتركنا فى الصبابة والجوى
أنا وجدناهم قد استسقوا لها   من بعدماشطَّت بهم عنها النوى
ويصــدنا عن ذاك فى أوطاننا   مع حبها، الشِّركُ الذى فيها ثوى
حسناء!طاعتها استقامت بعدنا   لعدونا ، أفيستقيم لها الهوى ؟

وله أيضاً يشير إلى انتقاله من بلد إلى بلد لاستيلاء العدو على البلاد واحدة فواحدة ، من قصيدة طويلة :

كفى حزناً أننا كأهل مُحَصَّبٍ   بكل طريق قـد نفرنا وننفر

واستمع إلى هذين البيتين اللذين قيلا فى أهل بلنسية ، وما أكثر انطباقهما علينا اليوم :

لبس الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ   حلل الحرير عليكمو ألوانا
ماكان أقبحهم وأحسنكم بها   لولم يكن بِبَصَرْنَةٍ ماكانا!..

ولابن الأبار من قصيدة طويلة يخاطب بها السلطان أبا زكريا ابن أبى جعفر صاحب أفريقية :

أدرك بِخَيْلِكَ خيل الله أندلسا   إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست   فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جَزَراً   للحادثات وأمسى جدُّها تعسا
فى كل شــارقة إلمام بارقة   يعود مأتمها عند العدا عُرُسا
بالمساجد عادت للعدا بِيَعاً   وللنــداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها   مدارساً للمثانى أصبحت دُرُسا

وقصائد الاستنجاد بملوك العدوة كثيرة ، يستدعى إيرادُها أو الاشارة اليها فصولاً ، ولـكن لا بأس بايراد شىء من قصيدة فى هـذا المعنى لابراهيم بن سهل الاسرائيلى ، وهى كافية للدلالة على قوة العاطفة الوطنية عند أهل الأندلس ، لأن هـذا الجنس من الناس ملموزٌ بضعف هذه العاطفة ، فصدور هذه القصيدة عن فرد منه دليل على ما قلنا :

وِرْداً فمضمونٌ نجاح المصدرِ   هى عزة الدنيا وفوز المحشر
يامعشر العرب الذين توارثوا   شيم الحميةِ كابراً عن أكبرَ
إن الالـه قد اشترى أرواحكم   بيعوا ! فهنيكم وفاء المشترى
أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكم   وبكم تمهـد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتـدعموا   ذاك البناء بكل لدن أسمر
لـكم عزائم لو ركبتم بعضها   أغنتكم عن كل طرف مضمر
الـكفر ممتـد المطامع والهدى   متمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضجر فى المرابط غيرة   ألاَّ تجوس حريم رهط الأصفر
كم نـكروا من معلم ، كم دمَّروا   من معشر ، كم غيروا من مشعر !
كم أبطلوا سنن النبى وعطلوا   من حلية التوحيد صهوة منبر!
أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟   أين العزائم مالها لا تنبرى ؟
أيهز منكم فارس فى كفـه   سيفاً ودين محمد لم ينصر ؟

ونختم هذه الـكلمة بتنبيه قومنا إلى تاريخ هـذه الفاجعة العظيمة فان فيها عبرة لمن يعتبر

(طنجة)   عبد الله كنونه الحسنى

عمـــل عظيم

للأستاذ محمد بك كرد علي

لو كل بلد اسلامى قام بواجبه قيام المسلمين فى مدينة بيروت ثغر الشام ، لاضمحلت الأمية علة العلل فى هذا المجتمع ، ولزاد فى بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، ورثوا مما يتهمهم به أعداؤهم من أن دينهم لا يفسح لهم مجالاً للنور والثقافة

أسس المسلمون فى بيروت فى سنة ١٢٩٦ هـ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسـلامية ، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارىء شلت حركتها ، ومن أهمها أن الحكومة العثمانية ماكانت تحب استرسال المسلمين فى سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون فى مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ماشـاءوا وشاءت دول الاستعمار

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون اعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة ، خصوصاً وقد رأوا كلة التبشير تقوى ، فهبوا الى التذرع لاحياء جمعيتهم فى سنة ١٣٣٨ هـ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا أرضاً عظيمة من الأوقاف أقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهى ، فكان لهم منها بأجَـرَة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فى السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التى تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين أقوياء فى عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا فى مناهج البنات على مناهج البنين — والعلوم النظرية واحدة فى جميع مدارسهم — دروساً عملية فى تدبير المنزل ، تتناول الطبخ ، والخياطة على اختلاف أنواعها ، والأشغال اليدوية ، والرسم ، والموسيقى ، وتربية الأطفال

أصبح لهذه الجمعية فى مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والأناث ، منها مدرستان ثانويتان ، احداها للصبيان والثانيـة للفتيات ، أطلق على كل واحدة منهما اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها فى السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا فى الجمهورية اللبنانية فى احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يردُّ عهد تأسسه الى ستين أو سبعين سنة . وبلغ مجموع ما فى مدارس البنين والبنات فى بيروت فى سنة ١٩٣٤ — ٣١٣٠ طالباً وطالبة ؛ وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الأطفال

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم فى الثروة فى قيام هذه المدارس ، يمدونها بما تصل اليه أيديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم فى هـذه الأزمة الخانقة أقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لأن مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة ، لا يسرف فى مالها أيام الرخاء ، ويراعى فى الانفاق العام الحاضر كما تراعى الأعوام المقبلة

ولما رأت الجمعية أن التبشير يسرى بسرعة فى القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من أعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكوَّنت لها رأس مال وبدأت بانشاءِ المدارس فى القرى فى سنة ١٣٤٠ هـ فكان لها منها الآن ثنتان وأربعون مدرسـة فيها ما يربو على الألفى طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائى الصحيح على منهاج التعليم فى الجمعية

ولم تـكتف جمعية المقاصد بما أتت ، بل عمرت لها فى بيروت مستشفى ذا طبقتين يحتوى على اثنتين وثلاثين غرفة ، منها ماهو بمساحة مائة وعشرين ذراعاً مربعاً ، وجهزته بستة وسبعين سريراً ، وبلغ ما أُنفق على بنائه ٢,٣١١,١٥٩ غرشاً سورياً أو نحو أربعة آلاف ومائتى جنيه عثمانى ذهباً ، ونشطت المدارس الأهلية الأخرى وعاونتها ، وتولت رجالها مراقبتها وإرشادها ، ورممت بعض المساجد فى الحاضرة والضاحيـة ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص فى مدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظة القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك

هـذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغُـيُر على أبناء دينهم ، فتألف منها رأس مال لا يستهان به ؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشـك أن ينسلخوا منه ، وكل

ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذى كانت طريقته وطريقة أعوانه أن يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذى كان سداه الاخلاص ، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضى ، فى محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ؛ وقلّ فى الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره فى هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ؛ وقل أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من أبناء بيروت لقضى مع الزمن على الأمية فى المسلمين . وجوهر كل نهضة فى عقول الرجال ، ولا نجاح فى الأعمال لغير المخلصين الثابرين

دمشق محمد كرد على

دولة المماليك فى حكم التاريخ

للأستاذ ظافر الدجانى

لعل تاريخ الشرق الأدنى فى عهد الحكومة الاسلامية أحفل التواريخ بما يملأ على النفس جوانب الفكر والخيال ، ويوحى إليها أبلغ ضروب الحكمة والموعظة ، لأنه كان مسرحاً لظهور بعض الدويلات الاسلامية الغريبة فى نشوئها ومظاهر حكمها ومبلغ تأثيرها فى مجرى تاريخه العام[1] ولعل أغرب هذه الدويلات ، دولة المماليك فى مصر ، التى اختلست من الدهر ما يزيد على خمسين ومائتى سنة ، كان المملوك فيها مالكاً والمغلوب غالباً ، فكان يتخللها من المؤامرات والدس وأهوال الاستبداد مالا نظير له فى تاريخ المجتمع البشرى . على أنها والحق يقال ليست أول محاولات هذه الطائفة البشرية لاغتصاب الحكم والاستبداد به والانتقام من الجنس الانسانى عامة لما ألحقه بها من ضروب الفظاعة والقساوة ، فقد شهد تاريخ رومة الخالد ، قبل ظهور النصرانية ، كثيراً من هذه المحاولات الجامحة التى باءت جميعها بالفشل والخذلان بعد أن روعت العالم وضربت له مثلاً صارماً فيما يستطيعه أبناء المماليك ، بل أبناء كل طائفة مظلومة ، فى ميدان التمرد والانتقاض ومقايضة الجور والأذى الصاع منهما بصاعين . ولعل هذه الدولة كانت أكبر انتصار أحرزته هذه الطائفة ، بل لعلها أروع مظهر لجموح أخلاقها ، وتعدد الخوالج التى كانت تتجاذب نفوسها وتتنازعها إلى مسالك الخير والرجولة وجلائل الأعمال ومفاوز الشر والجريمة والآثام !

فى الحق أن هذه الدولة لعبت دوراً خطيراً على مسرح الحياة السياسية العمرانية فى الشرق الأدنى حتى ليعزى إليها أكبر الفضل فى صدّ هجمة التتر المنبعثة من أعماق المشرق ؛ قال ابن خلدون : « حتى إذا استغرقت الدولة فى الحضارة والترف ، ولبست أثواب البلاء والعجز ، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسى الخلافة وطمسوا رونق البلاد ، وأدالوا بالكفر عن الايمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق فى التنعم والتشاغل فى اللذات والاسترسال فى الترف من تكاسل الهمم ، والقعود عن المفاخرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولة ؛ فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الايمان باحياء رمقه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الاسلام فى حقارة الرق »[1]

فكانت تنقضى أيام هذه الطائفة فى التنقل من ميدان إلى ميدان ، ومن حصن إلى حصن ، فى مختلف أنحاء سوريا وفلسطين ، وقد اندحر التتر فى أكثر من واقعة واحدة ؛ كواقعة « عين الجالوت » التى كان النصر فيها حليف المسلمين ، فهلك كتبوغا زعيم التتر ، ومزقت جموعه كل ممزق[2] كما هلك خليفته أيضاً وجموعه من بعده ، عند ما حار بهم الملك الظاهر بيبرس ، وردهم على أعقابهم خاسرين متعثرين فى أذيال الهزيمة[3] ، وكانت سوريا فى خلال ذلك

(١) كانت العوامل التى دعت إلى ظهور هذه الدويلات كثيرة منها اضطراب أحوال الشرق السياسية وغلبة الاستبداد على حكامه وملوكه وشيوع بعض الآراء السياسية والدينية وعظم تأثيرها فى نفوس العامة ، وبعض مظاهره الاجتماعية كحياة القصور والحريم ونحو ذلك مما تضيق بذكره هذه الكلمة

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧١

(٢) تاريخ مصر لابن إياس . مصر ١٣١٢ هـ ج ١ ص ٩٧

(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩

ميداناً لجهاد هؤلاء المماليك العنيف ضد الحملات الصليبية فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهم ، وما زالوا يذرعون أرضها صعوداً وصعوداً ، متكاتفين متكالبين حتى انتزعوا السلطة من أيدى الصليبيين ، واستخلصوا منهم القلاع والحصون ، فافتتح الملك الظاهر بيبرس حصن صمد وسيس [١] ، وسيس هذه كانت كعبة المجاهدين من أبناء المماليك لأنها مدينة نصرانية ، فكان أهلها يظاهرون الأرض على جيوش المسلمين

وكان العلويون والحشاشون ، وهم من الباطنية ، أصحاب سلطة ونفوذ ، وكان قد دوخهم هولاكو فى حملته المشهورة ، ودمر حصونهم وقلاعهم [٢] فاستأصل أبناء المماليك شأفتهم ، وحرروا سوريا من ربقة مظالمهم فى عهد الملك الظاهر بيبرس المذكور [٣] . وكان الملك الظاهر بيبرس هذا قد استقدم ابن الخليفة الظاهر بأمر الله آخر خلفاء الدولة العباسية فى بغداد ، فأكرمه وقلده الخلافة ولقبه « المستنصر بالله » ، فأصبحت القاهرة مركز الخلافة الاسلامية بعد أن كان مركزها بغداد . وبقيت هنالك حتى مقدم العثمانيين [٤] . ولكن الواقع أن سلطة هؤلاء الخلفاء كانت مقيدة لا تعدو أمور الدين والزعامة الدينية . وإنما أكد حاجة المماليك الى هذه الخلافة الوهمية رغبتهم فى وسم حكومتهم بطابع دينى شرعى حتى تنهض حجتهم ويستقيم أمرهم بين جماعات المسلمين [٥]

وأخيراً لا ينبغى أن ننسى أن هؤلاء المماليك قد خلفوا كثيراً من الآثار والأبنية التى تشهد لهم بالتقدم فى فن العمارة وفى الرى والعمران ، فقد شيدوا المساجد والمدارس والقصور والمستشفيات ، وعمروا القناطر والترع ، وحفروا الخلجان ، ووسعوا الأوقاف من كل ناحية . وكانوا يتبارون فى ذلك حتى عمر القطر المصرى والبلدان المجاورة التى خضعت لحكم المماليك

(١) المصدر نفسه ١٠٤

(٢) تاريخ مصر الحديث ، للمرحوم جورجى زيدان ، مصر ١٨٨٩ م ص ١٨ (٣) دائرة المعارف الاسلامية « مادة المماليك »

(٤) راجع تاريخ ابن إياس المتقدم ج ٣ ص ٩٧ . وتاريخ جودت ترجمة دنا (بيروت ١٣٠٨ هـ) مجلد (١) الخ . . .

(٥) ابن إياس ص ١٠٠ . قال Main فى كتابه المماليك (لندن ١٨٩٦ م) ص ٢١٤ ما ترجمته : « كانت خلافة المماليك مظهراً لا أثر للحياة فيه ، ولكن خلافة العثمانيين كانت مجرد حلم ! »

بجليل الآثار . فعمر الملك الظاهر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة ، وقناطر شبرامنت بالجيزة ، وقلعة دمشق ، وعمر المدرسة بين القصرين بالقاهرة ، وحفر خليج الاسكندرية ، وبنى قرية الظاهرية [١] . وشيد الملك الناصر القصر الكبير الأبلق ، وعمر الديوان الكبير والجامع الكبير الذى بالقلعة ، وعمر الجراة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ، وحفر الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار [٢]

على أنه مهما قيل فى حسنات هؤلاء المماليك فثمت ما يقال فى سيئاتهم وفيما خلفوه من آثار البطش والجور والارهاق ، لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، وغلبة القسوة وشهوة الاستبداد على طبائعهم ، أولئك الذين كانوا فى الأمس عبيداً أرقاء ! فكان السلطان منهم مستبداً فى أمره لا وازع يكفه عن عمل الموبقات ؛ وكانوا فوق ذلك لا يعرفون « مبدأ الوراثة » فى الحكم ، فكان القوى منهم ينتهز الفرص للتفرد بالحكم والاستبداد بالضعيف ، فكان ذلك الوقت وقت تشاغل وفرص ، بل وقت مؤامرات تحاك فى الخفاء ، فلا يسلم منها الشعب ، ويصيبه من جرائها كثير من الجور والارهاق . وكانت الضرائب غير مقيدة بقانون أو وازع دينى أو إنسانى ، وإنما كانت تتفاوت فى الزيادة والنقصان حسب الظروف والأحوال ومشيئة السلطان

ولم تكن مصر مع ما ذكرنا بأسوأ حالاً من سورية وفلسطين ، ولاسيما وأن الأخيرتين كانتا ميداناً للحروب والمناحرات . وهكذا ضج الناس وعم الفقر ، وانتشر الجهل والبلاء . وكان المجد العربى والعزة العربية والخلق العربى قد محت جميعها من أذهان العامة ، فأصبح الناس لا يبالون بمن يولونه قيادهم ، ويسلمون له زمام أمورهم ، وإنما يطلبون العدل والانصاف !

وفى وسعنا المضى فى هذا السبيل القاتم ، ولكننا نخشى ألا يكون فى ذاك فائدة بعد أن دللنا بالقليل على الكثير ، وهذه كتب التاريخ حافلة بمظاهر الجور بل بمشاهد الفقر والذل التى سادت الشرق العربى فى ظل حكم المماليك

يافه ظافر الدجانى

أ . ع

(١) ابن اياس ص ١١١ (٢) المصدر نفسه ١٧٥

من مشاهد الشرق

١ – طائفة البهرا فى الهند

ومجالسهم فى عدن

بقلم محمد نزيه

منذ عنيت الصحافة المصرية بأنباء الهند ، وهى تذكر عن مكاتبيها فى تلك البلاد النائية جماعة البهرا وشيخ البهرا بكثير من الاجلال والعناية ، ولقد طالما رأيت مذ شهدت الشيخ ومسست حياة جماعته أيام رحلتى فى الهند أنهما حقيقان بعدة فصول تجمع الى طرافتها فائدة التعريف بجماعة من جماعات الاسلام لها خطرها فى الهند ، على الرغم من أنها قليلة العدد لا يكاد أفرادها يجاوزون الثلثمائة ألف هندى مسلم ، إلا أن التحامهم أرق وسائل التعاون وأجدى أسباب الارتباط قد أغناهم عما يراد بالكثرة من قوة وعتاد

والبهرا طائفة من طوائف الشيعة يطلق عليها فى العربية اسم (الشيعة الداوودية) نسبة الى رئيسها الأول ، وقد كان باليمن ثم انتهى به العزم الى الهند ، فحط الرحال فى صحبة من أتباعه عدينة گجرات ، على ساعات بالقطار من (بمبى) ؛ منذ نيف ومائة سنة ، وبمبى إذ ذاك فى علم الغيب

وإذا كانت جماعات الشيعة قد عرفت بأوضاعها الخاصة وتقاليدها المستقلة فى الدين والاجتماع ، فان شيعة البهرا أو شيعة الداوودية قد عرفت فى جماعات الشيعة نفسها بعقائد وتقاليد تدير حولها سياجاً يفصلها عن غيرها فصلاً تاماً ؛ فهى تعتقد أن المهدى المنتظر سيكون من سلالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وتذهب إلى تخصيص فرع معين من فروع الدوحة النبوية ، على أن المهدى سيكون من ثمره ، أو على أن نبوة المهدى تسكن فيه ، وهى إذ كانت لا تعرف موعد ظهور الرسول الجديد ، لا تفتأ تنتظره دون تعجل ولا ملالة ، وتتمثله فى واحد من الأحياء الذين ينتظمهم هذا الفرع المعين ، فاذا حان حينه فقد استخلف على رسالة المهدى وريثاً من أبنائه ، وما تزال أمانة النبوة تنتقل فى صندوقها المقفل من وريث إلى وريث ، ومن عصر إلى عصر ، حتى يتهيأ الزمن لاستقبال هذه النبوة الجديدة ، وحتى يرى الله أن قد استفحل الضلال فلا مناص من إنقاذ الدنيا ، فيأمر فاذا بصاحب الصندوق قد فتحه وأصاب فيه عدة النبوة وخاتمها ، وإذ ذاك يظهر المهدى المنتظر . أما هذا الذى تكمن فيه نبوة المهدى ، فيظل نكرة لا يعرف سره من الناس إلا الشيخ الأعلى لجماعة البهرا ، يجتمع به كل ليلة فى خلوة مهيئة بالمسجد الخاص ، وما يزال هذا أمره حتى يقبل اليوم الذى يسفر فيه للناس

وشيخ البهرا هو همزة الوصل بين المهدى المنتظر وأتباعه ، وهو مستودع سره ومثار نجواه ، يستشيره ويستلهمه ويخرج بتعاليمه على الناس ؛ وأما الطائفة فتنشر الدعوة إلى المهدى المنتظر ، وتنشرها بأن تزين مبادئها للناس ، وماتزال ماضية فى مهمتها حثيثة السير حيناً ووئيدته حيناً حتى يدخل المسلمون جميعاً فى طائفة البهرا ، يقدسون مذهبها ، ولا يحيدون عن عقائدها

وشيخ البهرا فى العالم هو اليوم مولانا طاهر سيف الدين ، وهو الذى يقيم على جماعاتها فى كل بلد توجد بها شيخاً من قبله يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه – وقد رأيت أول من رأيت من أولئك الشيوخ ، فى عدن ، بعد أن علمت أنه من أجل أهل الاقليم مقاماً ، ومن أرفعهم شأناً ، فاذا رجل يحف به الوقار ، ويتهلل وجهه الذى استتر نصفه خلف لحيته البيضاء ، بالبشاشة والأنس ، حديد البصر ، أخضر الأحداق ، أبيض اللون ، نحيل الجسم بعض النحول ، يستر رأسه بعمامة بيضاء ويبتسم عن سنين أو ثلاث فى فمه ، فقد بلغ بالستين مبلغ الشيوخ — ولعل أبرز ما فى الشيخ لحيته الطويلة ولسانه العربى المبين : أما لحيته فكأنها قطن منق ، يتفرق على صدره خصلاً رقيقة منفوشة ، إن تكلم اهتزت أطرافها ، واتبعت فى اهتزازها حركات فمه ، كأن بين لسانه ولحيته صلة من فضل ومن وقار . وكأنما عاهد الشيخ نفسه على ألا ينطق بغير العربية الفصحى ، فما سمعه

الناس متكلما إلا بها ، وقد حاسب نفسه على الضمة والفتحة حساباً عسيراً

ولقد كنت فى جملة من دعاهم الشيخ إلى مأدبة عشاء أقامها فى دار البهرا بعدن ، وهى من أفخم دور المدينة وأكثرها أناقة ، تجمع بين منزل الشيخ والمسجد الخاص الذى لا يصلى فيه غير البهرا ، ولا تصح صلواتهم فى سواه . والشرفة الفسيحة التى يستقبل الشيخ فيها زواره ، تحف بها حجرات كثيرة أعدت لشؤون الطائفة ، وقد بنيت هذه الدار على نفقة (البهريين) القيمين فى عدن ، وعددهم لا يجاوز الألف ، كلهم ملتحون

***

كانت الشرفة الرحيبة التى هيئت ليستقبل الشيخ فيها ضيفه مفروشة بالحصير ، وفى صدرها صفت الوسائد إلى الجدار ، واتكأ على أوسطها صاحب الدار ، ويطلق عليه فى أساليب (البهرا) اسم (الداعى) لأنه أحد هؤلاء الدعاة المديدين الذين يكل الشيخ الأكبر إلى نشاطهم البارع ، وذكائهم الخلاب أمر الدعوة إلى اعتناق هذا المذهب من مذاهب الشيعة فى جهات كثيرة من أنحاء العالم ، فكان الرجل لا ينهض من مجلسه إلا ليستقبل المدعوين من غير جماعة (البهرا) بينما يقبل المدعوون من هـذه الجماعة وفيهم من يدخلون فى وجوه عدن وخير تجارها ، فيقدمون على الشيخ وهو مستو فى مجلسه ، حتى إذا صار كل منهم قيد خطوة منه انحنى كانحناء المصلى ، وكاد يلمس الأرض بيمينه ، ثم رفعها إلى مفرقه ، وتراجع إثر ذلك إلى مجلسه من المكان

وطفق الشيخ يتحدث إلى خاصة مدعويه وأقربهم إلى مجلسه ، وهو لا يفتر عن رعاية المدعوين جميعاً ، يقسم بينهم بشاشة محياه ، ويلقى عليهم من نظرات عينيه أشعة تحمل فى حرارتها معانى الشكر والترحيب والرعاية ، وإنك لتنظر إلى هاتين العينين فتلمح فى إشراقهما عواطف الحدب والرفق والاشفاق

اكتمل المدعوون عدا فى أربعة صفوف طوال ثم دار اثنان أو ثلاثة من البهرا بأباريق الماء بين الصفوف يصبون منها على الأيدى ، وفى إثرهم حملة المناشف ، وفى دقائق معدودة غسلت الأيدى جميعاً ، وتهيأ القوم لاستقبال الطعام . وما هى إلا برهة يسيرة حتى مد المتطوعون للعمل من أبناء الطائفة سمطاً طويلة من قماش أبيض على أديم المكان ، ثم صفوا فوقها أطباقاً رحيبة من الليف ، وثبتوا على كل طبق قاعدة اسطوانية جوفاء ترفع أخونة الطعام

انتظم المدعوون حول الموائد ، وكنت فى مائدة الشيخ ، فلم نلبث أن توسط خواننا إناء صغير من البلور فيه ملح مجروش يضرب إلى الاحمرار ، ولقد ماثلت جميع الأخونة خواننا فيما عليه ، ولم يعسر على أن أدرك أن لابد للتقاليـد البهرية من نصيب فيما يحتوى عليه هذا الاناء ، ولم أتبين أنه الملح ، وحرك الفضول يدى فتناولت أصابعى حصوات منه ، فلم تكد تبلغ فمى حتى أحسست كأنما مسنى عقرب

وقال الشيخ فى صوت جهير بعد البدء بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو يضع سبابة يمناه وإبهامها فى الاناء : « ليكن الملح فاتحة طعامنا حتى يكون بيننا » فاذا الجمع كله يذوقه . . . وجيء بجفان الأرز فكانت تقلب فى الخوان جفنة تلو جفنة حتى اكتظ على سعته ، ثم حملت صحاف الأطعمة إلى الشيخ ، فكان يتناولها ويضعها بين يديه تحت المائدة ، ثم يتولى سكب ما فيها على الأرز واحدة بعد واحدة ، بين برهة وبرهة ، وهو لايفتأ يذكر الله ويذكر باسمه كلما فعل ، فأما حرصه على أن يضع الطعام بيديه بين أيدى الطاعمين فلعل سببه أن أبناء طائفته يلتمسون فى ذلك خيراً وبركة . . . بل لقـد خيل إلى أننى أجد ما يلتمسون كما رأيت الشيخ يخرج مما بينه وبين المائدة صحافاً من الطعام كان يشغلنى ما أنا فيه ، وربما شغل غيرى عن رؤيته وهو يتناولها من الخدم المتطوعين . . . وكأنما كانت بسملته المرتفعة الرهيبة التى تصاحب يديه كلما ارتفعتا وبينهما لون من ألوان الطعام فى طريقه الى الأرز ، توحى إلى الناس أنه يستنبته مما بينه وبين المائدة ، وكان الطاعمون جميعاً يتناولون الأرز بأصابعهم إلا من طلب الملعقة من خاصة الضيوف

وما إن فرغنا من الطعام حتى عاد الناس إلى مجالسهم صفوفاً وطيف عليهم بأباريق الماء فغسلوا أيديهم ، ثم بالمناشف فجففوها ، ومرت دقائق معدودة ، ثم أقبل الخدم يمرون بين الصفوف ينثرون عليها ماء الورد ، ويبدون بعده زجاجات من عطر عربى فياح ،

فتمتد الأيدى ، وتنال كل كف حظها منه ، وفى إثر هذا وذاك يمضى حملة البخور فى طريقهم وهم يديرون أوانيها حول الرؤوس ثم يدخلونها تحت الأثواب ، فيتصاعد بخار المسك والعود من فتحاتها . . . وثم شىء اسمه (التمبُل) وهو ورقة شجرة هندية تعرف بهذا الاسم ، تطوى على مزيج من توابل مرة المذاق جميلة الرائحة ، يقال إن بينها نوعا مخدرا ، يمر بهذا التمبل بين الصفوف رجال من البهرا ، فيحبون كل مدعو بواحدة إلا من رفض ، فما إن يطبق المرء عليها فكيه حتى تروعه منها مرارة بالغة ، ولقد روعتنى أكثر مما روعتنى ملوحة الملح ، فتلفت أبحث عن وسيلة للخلاص منها ، ولما لم أجد حنثت أسنانى على مضغها حتى أستطيع ازدرادها ، وإن هى إلا دقيقة أو بعضها حتى خفت وطأتها على لسانى ، ومافتئت تخف حتى زالت ، وهى تردد بعد ذلك فتتعطر بها روائح الأفواه ، وتطيب أنفاسها . وغادرنا دار الشيخ وفى أثوابنا شذى المسك ، والعود ، وفى وجوهنا عبير ماء الورد ، وفى أكفنا نفح الطيب ، بل وفى أفواهنا أريج القرنفل . . . فكأنما لمسنا نسيما رفيفاً من نسائم الجنة ، يمضى فى طريقه فيهمس فى آذان أهل الأرض بما ينقله عن أهل السماء

***

ولقد كان لى مع الشيخ بعد ذلك فى مجالس أخر حوار لعله لم يسغه ، ولم يقبل على الاشتراك فيه راضياً ؛ فقد كنت أتبين رغبته عنه فى صعوبة خلال أدبه الجم . . . ولكن طالب العلم من السفر حريص على أن يطل بعقله على كل ما عسى أن تراه عيناه ؟

القاهرة محمد نديم

من ذكريات مصر

ساعات مع الكاظمي

للأستاذ كمال ابراهيم

مات الكاظمي ! فطويت بموته للعبقرية صفحة زاهرة ، كانت سامية المثال ، علوية الروح ، عراقية النشأة ؛ نمت نبتتها متسقة الأصول على دجلة المبارك ، وعلت دوحتها مبسوطة الأفانين على ضفاف النيل السعيد ؛ وما زالت تصوب إلى السماء صعداً حتى اجتاحها للمنية اعصار شديد ، فجالدها أعواماً ، وغالبها أياماً ، حتى هوى بها من باسق الذرى إلى الأرض ، حيث النهاية التي لا تراغم ، والقدر غير المدفوع

مات الكاظمي ! فسكت لسان عربي مبين ، كان فخر لغة الضاد ، وحادي الأبناء إلى المجد ، وباعث العزائم في الخطوب السود ؛ وكان لسان العروبة الناطق بحقها في حياتها ، ومخذمها المذرب عند الخصام ، فكم ذاد عن الحسب الكريم ، ونافح عن الحق الهضيم ، وتغنى بالمجد القديم ، يوم لم نكن نجد في هذه الأمة إلا الخافر لذمتها ، والمنتهك لحرمتها ، والكافر بنعمتها ، والمظاهر لأعدائها عليها

والهفتا على العروبة الهضيمة ! لقد أخرس الردى شاعرها الصيداح ، فاشتملت بالأسى أباطح الحجاز ، وصوحت أزاهير اليمن الخضراء ، وحالت ربى حائل والرياض ، وجلل السواد سواد العراق ، وفاضت عيون النيل ، وجرت باكية معولة عيون الشام ومحاجر لبنان ، ترجع أنغامها الحزينة بنات الهديل بين لفائف الأغصان . .

كان الشعر العربي قد بلغ من الاسفاف الحضيض ، فعدت به عن مجاراة الحياة أثقال تلك الصناعة الممقوتة التي حملها اياه شعراء الفترة المظلمة ، وضيقت عليه الخناق تلك القيود المحكمة من زخارف اللفظ وبهارج البديع وأفانين الصناعة ، حتى أخرجته عن طبيعته ، وزاغت به عن سمته ، فجاء متكلفاً نابياً ، وغثاً بالياً وجامداً بغير روح ، لولا ذماء ضعيف يشعر ببقية الحياة . كان الشعر كذلك ، وكانت البيئة الأدبية في العراق متأثرة كل التأثر بشعر (الأخرس ، وصالح التميمي ، والشاوي ، والجبوري ، وأضرابهم) حتى أتاح القدر للشعر من نفخ فيه من روحه ؛ فأطلقه من عقاله ، وأنهضه من كبوته ، وسما به صعداً الى السماء يرف بجناحين من نور ، بعد أن كاد يحثى عليه التراب في حفير مظلم عميق ، وكفى الكاظمي سبقاً أنه بذ المتأخرين ومعظم المتقدمين في ارتجال الشعر من غير كلفة في أي غرض ، تستقيد له شوارد القوافي بديهة حاضرة ، وذاكرة نادرة ، وحافظة وعيت من شعر الأولين عيونه ، وما أجدر شاعرنا أن يكون لسان حاله ما قال (ابن هانئ الأندلسي) عن نفسه :

ماضرني إن لم أجئ متقدما ... السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعاً ... فلرب كنز في أساس جدار

وكما كان الكاظمي السابق في حلبة البيان ، كان كذلك علو كعب في ميدان الجهاد والاصلاح . عُرفت منه هذه النزعة وهو طرير لم يكتهل ، وغرير لم يعجم حوادث الزمان ، فكان صوته في الاصلاح يرن في مجتمعات بغداد ، ولكنه كان قليل العائدة ، حتى قدم الزوراء إذ ذاك رجل الاصلاح المشهور (الشيخ جمال الدين الأفغاني) فوجد شاعرنا فيه ضالته ، فكان من أشياعه ، فضاقت عليه البلاد بما رحبت ، وقذفت به نوى شطون ، شرق فيها وغرب ، حتى احتضنته (مصر) ؛ فألقى بها عصاه

وبوادي النيل الجميل حيث القوة تصارع الحق ، والظلم يناهض العدل ، والحرية تنتحب ، يأبى الكاظمي إلا الصدع بالحق ، فيقارع الاستعمار ، ويتغنى بالحرية ، ويشيد بمجد العرب الضائع ، حافزاً للأبناء على استرداد ذلك المجد ؛ وخلصت له في مصر صفوة ممتازة من أعلام البيان وقادة الفكر وزعماء الأمة ، عرفوا له فضله ، فصدقوه الولاء ، وأحلوه السويداء . واستوثقت الصلات بينه وبين (الوفد المصري) فكانا لساناً من ألسنته مشرعاً لا ضد حزب من الأحزاب ، ولكن ضد سياسة الاستعمار فحسب . . .

عرفت الشيخ الكاظمي أول هبوطي مصر (عام ١٩٢٩) فكنت أسأل عنه من أتعرف اليهم ، حتى أرشدني (محرر الأهرام) إلى داره في (مصر الجديدة) فذهبت اليه في لمة من الاخوان ، جئنا اليه من بلده ، ومسقط رأسه . فما كان أشد ابتهاجه بنا ، وطربه بمقدمنا ، لقد استعاد بتلك الزيارة ذكريات ماضيه حلوة في العراق . فكان رحمه الله يحدثنا عن أيامه تلك بشوق واقبال ليس فوقهما مزيد

وقد كانت داره مصاقبة لدار أستاذنا المرحوم (الشيخ محمد عبد المطلب) وكانت بينهما صلة وثيقة ، وصداقة قل أن تعرف

بين الأصدقاء ، فكنت أقصد (مصر الجديدة) فى الغالب لزيارة الشيخين وتجديد العهد بهما ؛ فأقضى ساعات هى أمتع ما تكون للنفس ، وأشهى ما يلذ للعقل ، ويقرأ علىَّ شاعرنا ما استجد له من شعر

ما أنس لا أنس تلك الايام السعيدة التى كنت أخرج فيها مولياً وجهى شطر (هليوبوليس) يحدونى الشوق الى تلك العبقرية الفياضة ، والصفحة النادرة ، والشخصية الفذة ، فأجلس الى الشاعر ، أتلقف من حكمته ، والتقط من درر فوائده وجواهر فرائده ، وشاعرنا محدث كما هو شاعر ، يهدر كالسيل إن أفاض فى الحديث ، يصله ببعضه ، ويزين مجلسه بطرائف الأخبار ، وروائع الحكم ، وأوابد الملح والفاكهات ؛ فلا تكاد تسأم له لهجة ، ولا تمل منه لغة . وكان - رحمه الله - حريصاً على أن يكشف لنا عن صفحات القضية العربية فى عهدها الأخير ويجردها بغير طلاء ، ويجلو لنا حقائق التاريخ ناصعة غير مموهة ، ويبعث فينا من روحه لمواصلة العمل والجهاد . . .

لقد كان شاعرنا ذخراً لأمته ، ولكنه كان مضاعا تنكر له وطنه الأول كما تنكر له دهره ، وظل وفياً لهذا الوطن يلاحى عنه بمهجته ، على حين لم يجد منه طوال حياته غير الجفاء ونكران الجميل ، ظل وفياً له حتى قضى نحبه . فلما قضى نحبه جئنا بعده نذرف الدمع عليه نادمين . . .

فاذهب كما ذهب الوفاء فانه عصفت به ريحا صبا ودبور

(بغداد) كمال ابراهيم

خريج دار العلوم

نصحيح والتفات نظر

طلعت « الرسالة الغراء » فى (العدد ١٠٣) على قرائها بمقالة ممتعة فى تحليل شخصية الامام المؤرخ (السخاوى) بقلم الأستاذ المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان ، فكان من حق الأستاذ علينا أن نشكر له مباحثه الدقيقة ، ومن فرض العلم علينا أن نبين للناس هفوات قلم طامعين بعفوه ، لما اشتهر عنه من سعة علمه وعظيم حلمه

أورد الأستاذ فى آخر مقاله المذكور أن صاحب (شذرات الذهب) يضع وفاة السخاوى (فى مكة) . وهذا سهو من الأستاذ لأن عبارة (شذرات الذهب) هى بحروفها : (وتوفى — بالمدينة — المنورة يوم الأحد الثامن والعشرين من شعبان ، وصلى عليه بعد صلاة صبح يوم الاثنين ووقف بنعشه تجاه الحجرة الشريفة ودفن بالبقيع بجوار مشهد الامام مالك) ج ٨ ص ١٧

فانكشف بهذا النص المفصل الموافق لمحفوظ غير واحد من ثقات المؤرخين أن من أرخ وفاته فى مكة فقد وهم ، وجل من لا يغلط

نزيل القاهرة محمد آل ناصر الخشبة

دراسات فى الأدب الانجليزى

المذهب الواقعى وفن الدرامة [1]

بقلم محمد رشاد رشدى

فى المسرح الاغريقى : أول ما يتبادر الى ذهن الباحث فى هذا الموضوع أن يُنقَّب عن الواقعية فى عناصر الدرامة الثلاثة : فى الموضوع والأشخاص والأسلوب . غير أن نسبة الواقعية فى كل من هذه الأجزاء قد تختلف نظرياً - أى فيما يكتبه نقاد العصر عن الفن المسرحى - عما يباشر عمليا فوق مسرح العصر . ولذلك رأينا من الأوفق فى معالجة هذا الموضوع أن نلقى نظرة سريعة على النقد المسرحى نتبعها بمطابقة هذا النقد للمسرح نفسه . والناقد الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه فى حديثنا عن المسرح الاغريقى هو أرسطو . .

كتب (أرسطو) فى رسالته عن الشعر يتحدث عن الواقعية فى الموضوع قال : « يتضح مما سبق أن مهمة الشاعر هى أن يصف - لا الشىء الذى حدث - بل الشىء الذى من المحتمل وقوعه - أى ما قد يكون ممكنا أو ضرورياً » . وعلى هذا فوحدة الموضوع إنما تنشأ من مبادئ الواقعية الأساسية ؛ فحوادث القصة يجب أن يتصل بعضها ببعض اتصالاً ممكناً أو ضرورياً تحتمه ظروف القصة نفسها وجوها الخاص بها . وكتب هذا الناقد عن أسلوب القصة المسرحية ، قال : « يمكننا الآن أن نرى أن على الكاتب أن يخفى نفسه حتى يستطيع أن يتحدث طبيعياً لا صناعياً » . ومن الجدير بالذكر هنا أن الأثر الذى يحدثه أسلوب (شكسبير) على المسرح لا يختلف واقعياً عن الأثر الذى يحدثه أسلوب (أوسكار وايلد) — أو (كونجريف) أو (شريدان) أو (برناردشو) . أما عن شخصيات الدرامة فقد قال أرسطو : « من البدهى أن أشخاص القصة إما أن يكونوا أشخاصاً صالحين أو طالحين — ويتبع هذا أن بطل القصة إما أن يكون فوق مستوانا الخلق والاجتماعى ، أو تحت

(١) رجعنا فى هذا البحث الى رسالة الأستاذ ا . هـ . دافيز ، التى حاز بها جائزة Le Bas لعام ١٩٣٣ من جامعة كمبردج

هـذا المستوى - أو فى نفس المستوى ومثلنا تماماً - غير أن من يتأمل الدرامة الاغريقية لا يجد فيها متسماً لهذا الصنف الثالث من الشخصيات التى هى فى مستوانا ومثلنا تماماً - على أن ذلك لا يمنع أن يكون للدرامة الاغريقية الحظ الأفر من الواقعية ، وأن تكون بعيدة بعداً شاسعاً عن كل ما هو رمزى أو مثالى . وقد يبدو هذا مخالفاً للمألوف - غريباً - غير أننا سنحاول بسطه وتفصيله

(فالتراچيدية) الاغريقية تعالج فى مجموعها ماضى الاغريق وأساطيرهم ؛ وهى لذلك يمكن أن تعد فى القصة التاريخية - ويتضح قولنا هذا إن استطعنا تصوّر جماعة المتفرجين فى مسرح أثينا ، عند ازدهار الدرامة وانتشارها . فقـد كان هؤلاء القوم على قسط من البداوة يسمح لهم بأن يعدوا كل مانظمه الشعراء من قصص الآلهة وأنصاف الآلهة تاريخاً قومياً لبلادهم وشعبهم ؛ وإن ما نراه نحن اليوم غريباً خرافياً فى شعر أولئك الشـعراء مثل ظهور الآلهة على المسرح ، أو إنبعاث الأشباح من قبورها ، لم يكن هكذا غريباً أو خرافياً عند الاغريق الأوائل ، بل كان حقيقة تروى وتاريخاً يقص - نسبة إلى دينهم وحياتهم وقوة خيالهم الطفل - أما أن الدرامة التاريخية هى أقرب أنواع هذا الفن إلى الواقع والحياة فهذا مما لا ريب فيه - وقد كتب الناقد الانجليزى (كولريدج) يقول : « لأجل أن تكون الدرامة حقيقة تاريخية يجب أن يعالج موضوعها تاريخ القوم الذين تمثل لهم وتقص عليهم ، - ونحن إذا أنعمنا النظر قليلاً وجدنا أن من الصعب أو من المستحيل أن تنشأ لشعب عاطفة وطنية مالم يكن هـذا الشعب على علم - ولو خاطئاً - بتاريخه وتاريخ بلده - ومن هذا ينتج أنه فى الدرامة التاريخية تكون العلاقة بين حوادث القصة على المسرح وبين المتفرج على مقعده قوية متصلة أقوى منها فى أى نوع آخر من الأدب المسرحى . ومن المشاهد أن الكاتب المسرحى يتوخى ذكر هزائم التاريخ وسقطات الأبطال وفشلهم ، فان هو ذكرها فانما يذكرها معكوسة فلاتوحى إلى نفس المتفرج يأساً ولا خيبة ، ولكن تشملها حماسة ووطنية ، وإنا لنذكر حظ الشاعر الأثينى البائس الذى بنى قصته على فشل (أثينا) البحرى فى حربها مع (أسبرطة) ، فكانت النتيجة أن ألزمه قومه بدفع قسط من المال كبير عقاباً له وتأديباً وإظهاراً لاحتجاجهم وسخطهم . فخلال هـــذا الشعور الذى تتأجج به نفس المشاهد ، وخلال إحساسه بوحدة بلده وقوميتـه واتصال ماضيه بحاضره تقوّى حوادث القصة التاريخية على المسرح إحساسه هو بنفسه وكيانه كما يقوّى وجوده هو حقيقة القصة وصحتها ولونها الواقعى . ومهما يكن فى المسرحية التاريخية من شذوذ أو بُعد عن الامكانية فان لونها الواقعى يظل أقوى الألوان جميعاً مادام التاريخ يكسوها وبظلها بظله

غير أن هناك مأخذا واحدا ، هو أن أبطال تلك المسرحية هم دائماً أبداً فوق المستوى الاجتماعى العادى

الدرامة الرومانية : لم تتقدم (التراچيدية) عند الرومان عما كانت عليه عند أسلافهم الأغريق - إن لم تكن قد انحطت وضعفت ؛ أما فى (الكوميدية) فقد كتب الناقد اللاتينى (دوناتُس) ما يدهش له أقطاب المذهب الواقعى الحديث ، قال : « الكوميدى هى مرآة الحياة البشرية » - وهو يذكر فى موضع آخر أن « الكوميـدية » تصف أشخاصاً معينين تتكون حياتهم من حوادث بسيطة عادية ، فى حين أن (التراچيدية) تختار لمسرحها قاعات الملوك aulis regis الذين تتكون حياتهم من حوادث جسام ذات أثر خطير . وقد أصبحت مطابقة (الكوميدية) الرومانية للحياة والواقع أمراً مشهوراً عند كل من قرأها ، فأسلوب كاتبيهـا (تِرِنْس) و (بلَوْتُس) هو أقرب أساليب الآداب القديمة إلى اللغة اليومية ، كما أن جل أبطالها هم من الطبقة الوسطى ، وحوادثها بسيطة عادية قد تقع كثيراً للقارىء أو للمشاهد فى حياته الخاصة

إلى هذا الحد كانت (الكوميدية) الرومانية تطابق الواقع ، غير أنا نشاهد فيها اتجاهاً غريباً يتنافى مع صبغتها الواقعـية - وأعنى به (تصنيف الشخصيات) - وبنحو هـذا الاتجاه نحو اختيار مثل خاص لكل شخصية من الشخصيات . فللابن مثل خاص معروف به لدى كل كتاب المسرح ورواده - كذلك لكل من العبد والأب والعاهر وكل شخصية يتكون منها المسرح مثل خاص ؛ فلكل منهم أحاديث خاصة ، وملابس خاصة ، وصفات خاصة يعترف بها الجميع ، حتى ان لونهم

الانسانى وصبغتهم الواقعية تكاد تكون معدومة على المسرح

الدرامة الانجليزية فى عصر شكسبير: ازدهرت الدرامة فى هذا العصر بأنواعها الثلاثة: التاريخية والبيتية والشعرية أوالغرامية. أما النوع الأول فقد سبق أن تحدثنا عنه وسنتحدث الآن عن اللون الواقعى فى كل من النوعين الآخرين

يحسب الكثير من الناس أن الشعر يتعارض مع الحياة والواقع، وأن القصة الشعرية يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن الحياة، وخالية كل الخلو من اللون الواقعى؛ غير أن هذا الظن — فى رأيى — خاطئ كل الخطأ

وإن أوضح تعريف للشعر أن نقول إنه ترتيب تجارب الشاعر فى الحياة ترتيباً خيالياً عكس كل ترتيب آخر فكرى أو فلسفى. والشعر على العموم يأخذ شكلا من تعبيرين: فهو إما أن يأخذ شكل الاسطورة، أو شكل المجاز والصورة، أو شكل الأسطورة والمجاز معاً. فشعر (ملتون) مثلاً يأخذ شكل الأسطورة، وشعر (دن) يأخذ شكل المجاز والصورة. أما فى مسرحيات (شكسبير) العظمى فالشعر فى القصة نفسها — فى الموضوع — قبل أن يكون فى الكلام والصورة — ونحن إن قصرنا الشعر على الكلام والألفاظ وجردنا منه موضوع القصة فاخترناه موضوعاً نثرياً مما قد يقع كل ساعة وكل يوم كان الأثر الذى لابد أن تحدثه القصة أثراً ضعيفاً بعيداً عن الواقع والحقيقة؛ وليس معنى الواقعية أن تكون القصة خالية من الشعر، فوجود الشعر لا يمنع وجود هذا اللون، بل هو قد يقويه ويزيده نضرة ووضوحاً؛ ويكفى أن يفكر المشاهد فى نفسه أنه لو حدث له مثل ما يرى فى القصة أمامه، ولو كانت له من الصفات مثل ما للبطل نفسه فسيحدث الحادث بنفس الطريقة، ومثلما حدث للبطل تماماً . . .

وقد يعترض البعض بأن اللغة الشعرية تجرد الكلام من لونه الواقعى — ولكن من منا قد دهش لروميو يتحدث شعراً، أو (لهاملت) يناجى نفسه ويحدثها حديثاً؛ لو أن (شكسبير) صاغه صياغة غير الشعر لجاء باهتاً، ضعيفاً، لايؤدى معنى، ولا يحمل صورة. وإن من يقرأ قصة شكسبير (أنطونيو وكليوباتره)، ثم يقرأ بعدها قصة شو (قيصر وكليوباترة)، والأولى شعر والثانية نثر — ليرى الى أى حد استطاع شكسبير أن يكسو القصة بشعره لوناً واقعياً قوياً، فى حين أنه لا يتمالك نفسه من الضحك أو ذوقه من النفور عندما يسمع (كليوباتره) تودع قيصر قائلة: Good Bye, Ceasar

فلأجل أن يكون الشاعر واقعياً يجب أن يكون الشعر فى عناصر قصته الثلاثة: فى موضوعها وأبطالها وأسلوبها؛ وإن من يتأمل (شكسبير) من كل نواحيه يتضح له أن الشاعر الكبير كان إمام الواقعيين وسيدهم، فهو يسمعك شعراً ولكنه شعر يصف الحياة أدق وصف — حياة الجسم وحياة الروح — وأنت تحس وأنت تقرأه أن (ياجو) ما كان ليستطيع أن يقول غير ما قاله، أو يفعل (هملت) غير ما فعله

ولقد قرأت قصة (مكبث) مراراً، فكنت فى كل مرة أقف مبهوتاً أمام هذه السطور يحادث بها (مكبث) نفسه بعد أن منته الساحرات أمانيهن الخلابة، فأصبح فى حيرة من أمره وأضحى خياله ملتهباً، وعقله مشتتاً:

« المخاوف الحاضرة أقل عناء من التخيلات الواسعة البعيدة، وإن عقلى الذى لم يقتل بعد كل القتل — يعصف هكذا بكيانى كله — حتى لقد قبر الفكر فى الحلم والتخيل، ولم يبق كائناً أمامى غير كل ما هو ليس بكائن ». أقول إن شاعراً غير (شكسبير) ما كان يستطيع أن يعطينا وصفاً أدق من هذا، وأكثر مطابقة للواقع والحقيقة، لو استطعنا تأمل حالة (مكبث) الذهنية وهو يلفظ تلك الكلمات — و (شكسبير) دائم الجهد فى أن يصبغ قصصه باللون الواقعى، فتراه فى أعظم قصصه (التراجيدية) يدخل فصولاً وأشخاصاً مضحكة خفيفة، تقرب ما بين جو القصة وبين جو الحياة العادية — والأثر الواقعى الذى ينشأ من هذا لا ينتج من أن الضحك والبكى يسيران جنباً إلى جنب فى حياتنا، بل لأن اللون الواقعى فى الشخصية المضحكة أشد وأظهر منه فى شخصيات (التراجيدية)

فالشخصية المضحكة هى فى الغالب تحت مستوانا الاجتماعى، ولذلك نميل نحن الى تصديق صحتها والاعتقاد بوجودها أكثر من ميلنا الى الاعتقاد بوجود شخصية أو شخصيات فوق مستوانا؛ ومن هذا كان (شكسبير) يستخدم أهل الطبقة الدنيا ليصبغ الكثير من قصصه بلون واقعى؛ خذ مثلاً شخصيتى حافرى القبور فى (هملت)، والبستانى فى (ريتشارد الثانى)، وجماعة الممثلين القرويين فى (حلم منتصف ليلة صيف)، وظهور

٢٨ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال : الحكاية ياصديقى هى كما يأتى : فأولاً إذا نظرت إلى الأرض من أعلى رأيتها تشبه إحدى هذه الكور التى تكسوها أغشية من الجلد فى اثنتى عشرة قطعة ، وهى مختلفة الألوان ، فليس ما يستخدمه المصورون فى هذه الدنيا من الألوان إلا مثال منها ، أما هنالك فالأرض كلها مصبوغة بها ، وهى أشد لماناً ونصاعة من ألواننا ، فثمَّ أرجوانى عجيب الرونق ، وثمَّ ذهب يتألق ، والأبيض فى أرضها أنصع من كل ثلج أو طباشير . تلك الأرض مصبوغة بهذه الألوان وغيرها ، وهى أكثر عدداً وأروع جمالاً مما وقعت عليه عين الانسان ، والفجوات نفسها (التى كنت أتحدث عنها) يغمرها الهواء والماء ، فتراها كالضوء الوامض بين سائر الألوان ، ولها لون خاص بها يخلع على تباين ما فى الأرض نوعا من التآلف ، وكل شىء مما ينمو فى هذه المنطقة الجميلة — أشجاراً وأزهاراً وفاكهة — أجمل — بنفس الدرجة — من أضرابه هنا ؛ وثمَّ تلال ، صخورها أشد صقلاً ، وأكثر شفافية ، وأجمل لوناً — بنفس الدرجة — مما نغلو بقدره عندنا من زمرد وعقيق ويصب وسائر الجواهر التى إن هى إلا نثرات منها ضئيلة ، فالأحجار كلها هنالك كأحجارنا الكريمة ، بل أروع منها جمالاً ؛ وعلة ذلك أنها نقية ، وأنها لم تفسدها ولم تَبرِها العناصر الملحة الفاسدة ، كما فعلت بأحجارنا الكريمة ، تلك العناصر التى خثرت عندنا فتولد منها الدنس والمرض فى التراب وفى الصخور على السواء ، كما تولدا فى الحيوان والنبات ، تلك هى جواهر الأرض العليا ، وفيها كذلك يسطع الذهب والفضة وما اليهما ، وليست تلك الجواهر بخافية عن العين ، وهى كبيرة وكثيرة ، وتوجد فى مناطق الأرض جميعاً ، فطوبى لمن يراها . ويعيش فوق الأرض ناس وحيوان ، منهم من يستوطن اقليما داخلياً ، ومنهم من يسكن حول الهواء ، كما نسكن نحن حول البحر ، ومنهم من يعيش فى بلد يتاخم القارة ، ويهب حوله الهواء . وجملة القول أنهم يستخدمون الهواء كما نستخدم نحن الماء والبحر ، وللأثير عندهم ما للهواء عندنا ؛ هذا وحرارة فصولهم هى بحيث لايعرفون معها مرضاً ، فيُعَمَّرون أطول بكثير مما نُعَمَّر نحن ، ولهم بصر وسمع وشم ، وسائر الحواس كلها ، وهى أبعد كمالاً من حواسنا بنفس الدرجة التى بها الهواء أنقى من الماء ، أو الأثير أصفى من الهواء . كذلك لهم معابد وأماكن مقدسة فيها يقيم الآلهة حقاً ، فهم يسمعون أصواتهم ويتلقون اجاباتهم ، وهم يشعرون بهم ويديرون بينهم وبين أنفسهم أطراف الحديث ، وهم يرون الشمس والقمر والنجوم كما هى فى حقيقة أمرها ، وعلى هذا النحو كلٌّ ما هم فيه من أسباب النعيم

تلك هى طبيعة الأرض كلها ، وما حول الأرض من أشياء ، وفى الفجوات التى على ظهر الأرض أصقاع متباينة ، بعضها أعمق وأوسع من فجوتنا التى نقيم فيها ، وأخرى أعمق وأضيق فوهة منها ، وبعضها أوسع وأقل عمقاً ، وترابطها جميعاً بعضها ببعض ثقوب عدة وممرات عريضة وضيقة فى باطن الأرض . وهنالك يتدفق فيها ومنها ـ كما يتدفق فى الأحواض ـ تيارٌ عظيم من الماء ، وثمَّ مجار ضخمة لأنهار تحت الأرض لا ينقطع جريانها ، وينابيع حارة وباردة ، ونار عظيمة ، وأنهار كبيرة من النار ، ومجار من طين سائل ، منها الرفيع والسميك (كأنهار الطين فى صقلية وما يتبعها من مجارى الحمم) فتغمر المناطق التى تتدفق

شخصية (فالستاف) الفكهة بعد كل من المعركتين فى (هنرى الرابع) ، وظهور شخصية المهرج (النول) فى منظر العاصفة فى (الملك لير) ؛ والأمثلة غير هذه كثيرة ، كما أن (شكسبير) لاينهى رواية بنهاية حوادث القصة الأساسية ، بل يعرض عليك فصلاً ، وربما عرض فصولاً لاقيمة لها فى القصة ، غير أنها تكسبها لوناً واقعياً يدلك على أن الحياة ما زالت كما هى بعد موت بطل الرواية أو بطلتها

محمد رشاد رشدى

بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

حولها . وهنالك فى باطن الأرض نوع من الذبذبة يحرك هـذا كله إلى أعلى وإلى أسفل ، والحركة الآن فى هـذا الاتجاه : وبين الفجوات هوةٌ هى أوسعها جميعاً ، تنفذ خلال الأرض كلها ، وهى التى وصفها هوميروس بهذه الكلمات :

« ان أغور عمق تحت الأرض جد سحيق »

وقد أطلق عليها فى مواضع أخرى اسم جهنم ، وكذلك فعل كثير غيره من الشعراء . وسبب الذبذبة هو تلك الأنهر التى تتدفق فى هذه الهوة ومنها ، ولكل منها طبيعة التربة التى تجرى فيها ، وإنما كانت تلك الأنهار دائمة التدفق دخولاً فى الهوة وخروجاً منها لأن عنصر الماء ليس له قاع ولا مستقر ، وهو يعج ويهتز صعوداً وهبوطاً ، وهكذا تفعل الريح والهواء المحيطان به ، إذ هما يتبعان الماء فى صعوده وهبوطه وفى اندفاعه فوق الأرض هنا وهناك ، مثل ذلك مثل الشهيق والزفير لا ينقطعان حين تتنفس الهواء ، وباهتزاز الرياح تبعاً للماء دخولاً وخروجا نشأت عنها العواصف المروعة القاصفة : فاذا ما تراجعت المياه مندفعةً إلى الأجزاء السفلى من الأرض ـ كما تسمى ـ انسكبت فى تلك المناطق خلال الأرض وغمرتها ، كما يحدث إذا تحركت مضخة الماء الحركة الثانيـة ، فاذا ما خلفت تلك المناطق وراءها وكرت إلى هنا مندفعة ، فانها تملأ ما هنا من فجوات مرة أخرى ، حتى إذا امتلأت هذه ، فاضت تحت الأرض فى قنوات لتلتمس سبيلها إلى أمكنتها العـديدة ؛ فتكوّن بذلك البحار والبحيرات والأنهار والينابيع ، ومن ثمَّ تفور فى الأرض ثانية ، فيدور بعضها دورة طويلة فى أراض فسيحة ، ويذهب بعضها إلى أمكنة قليلة وإلى المواضع القريبة ، ثم تهبط مرة أخرى إلى جهنم ، فيبلغ بعضها حداً دون ما كان ارتفع اليه بمقدار كبير ، ولا يهبط بعضها الآخر دون ذلك الحد هبوطاً كثيراً ، لكنها جميعاً تكون أوطأ من نقطة الانبثاق إلى حدما ، ثم ينهمر بعضها ثانياً فى الجانب المقابل ، وينهمر بعضها الآخر فى الجانب نفسه ، ويدور بعضه حول الأرض فى ثنية واحدة أو فى عدة ثنايا تشبه حنايا الثعبان ؛ وتنزل ما استطاعت النزول ، ولكنها دائماً تعود فتصب فى البحيرة ، أما الأنهار التى على كلا الجانبين فلا تستطيع النزول إلى أبعد من المركز ، لأن فى الجانب المقابل لهذه الأنهار هاوية

(يتبع) **زكى نجيب محمود**

على دار النيابة

للأستاذ فخرى أبو السعود

يا دارُ قد عبثتْ بكِ الأقدارُ ... وبغى عليك المعشَر الأشرار
عُطِّلْتِ فى رَيْعِ الشباب وصُدَّ عن ... ناديك ظلماً رهطك الأبرار
وخَلَوْتِ حتى صرتِ ربعاً موحشا ... يُشجى النفوسَ حِيَاله التـذكار
لم يبقَ منكِ ـ وَلَمْ يَطُلْ بكِ عَهْدُنا ـ ... يا دارُ إلاَّ الرَّسْمُ والأخبـار
غاضتْ بشاشَةُ صفحتَيكِ وإن تكُنْ ... حفَّتْ بكِ الأغصانُ والأزهار
وعَلَتْ لِوَاءَكَ ذلةٌ وكآبة ... ولغَيْرِهِ التبجيلُ والإكبار
مهجورة فى موطنٍ عَمَرَتْ به ... للظالمين الآثمين ديار
وُنِدَتْ بكِ الآمالُ فى إبَّانها ... وخبا ضياءٌ للهُدَى ومَنَار
ما كان يَبغيكِ اللئامُ بِريبةٍ ... لو صَدَّ عنكِ الجحفل الجرَّار

* * *

لله رهطٌ فيكِ أمسِ تجمَّعوا ... تَرْضَى الكنانةُ سَعْيَهم ، أخيارُ
من كلّ عالى النفس أرْوَعَ مالَهُ ... فى الدَّهر إلاَّ مَجْدَ مِصْرَ شِعَارُ
لا يَطَّبيه زَيْفُ جاهٍ كاذبٍ ... كلاَّ ولا يغتَرُّهُ الدينار
خُلصَاءُ مِصْرَ هُمُ وَصَفْوَةُ آلها ... والأوفياء لعهـدِها الأحرار
فَخَرَتْ بِهِمْ مصرٌ وعَزَّتْ فى الورى ... وبمثلهم تتفـاخر الأقطار
رهطٌ من الصِّيدِ الكرام إمامهم ... سعدُ الرئيسُ القائدُ المغوار
كم رَنَّ فى ناديكِ عالى صوته ... بالحقِّ يَستخذِى له الفُجَّار
ما كان أفْخَمَ ذاكَ مظهر سُؤْدُدٍ ... لَوْ دَامَ منـه سُؤْدُدٌ وفخار
غيظَ العداةُ له وكادوا كيدهم ... حتى عَلاكِ الوَهْنُ والإقفار
سَدُّوا الطريق إليك أو بعثوا بمن ... لا ترتضى مصرٌ ولا تختار

* * *

فصول ملخصة فى الفلسفة الالمانية

١٣ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

ونظرة واحدة الى المواد التى شاء أن يلم بها ترينا ما بذل صاحبها من قلبه وعقله فى التحليل والاستقراء ، معالجاً الأدب اليونانى وتاريخ اليونانية القــديمة ، والفصاحة اليونانية وتاريخ الفلسـفة اليونانية حتى أفلاطون . وبعض نظرات عميقة ينفذ بها الى بعض فلاسفة أو شعراء . وقد قدر بنفسه أنه منجز خلال سبعة أعوام أو ثمانية درس كل ما يتعلق ببراعة اليونان . وأقدم على المفاداة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس المسألة اليونانية من جميع وجوهها ، ولـكن – ويا للأسف – ظلت هذه الأفـكار صوراً مقتضبة ومقاطيع صـغيرة غير كاملة . لأن صحته المختلة حالت بينه وبين تقديم ما ينبغى له لمثل هذا الأمر ، فانثنى عن عمله هذا ، ولـكن الصور التى تركها تكاد لا تخفى عنا الفكرة العامة التى أراد نيتشه أن يصورها وينشرها

يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلمه « شوبنهاور » بأن جوهر الوجود هو الارادة ، وهذه الارادة واحدة عند كل الـكائنات ، وهى تتجلى بثباتها وقوتها فى جثمان الخليقة ؛ على أن هذه الارادة هى شقية تفتقر الى الرحمة لأنها تثابر على الجهاد والمقاومة فى هذا الوجود ، وهى موقنة عالمة أن نتيجة المعركة عليها لا لها . « وهل الحياة إلا أن تريد شيئاً بدون سبب ، وأن تتألم دائماً ، ثم لا ينتهى الألم إلا بالموت . . . وهكذا تقابل الحياة الأحياء حتى ينفطر الـكون ويعمر فساده » . إن الوجود فى نظر العقل غير كامل ، لأن نواقصه كثيرة ، وعنصر الألم فيه غالب على السعادة والراحة ، وبهذا يقضى على العقل أن يطوى الارادة على نفسها ويسحقها من وجوده ، واذا انعدمت الارادة انعدم الوجود نفسه ، لأن الوجود ما هو إلا الارادة الفعالة . ولـكن نيتشه لا يذهب الى هــذه النتيجة التى أدركها شوبنهاور . فالوجود الذى لا يكمل فى نظر العقل – عند شوبنهاور – فانه يكمل كأثر فنى يحمل الى صاحبه الغبطة الفنية . وفى مثل هذا الافتراض الذى يفترضه نيتشه يرى من واجب كل انسان أن يستنفد وسعه ويبذل جهده فى امتلاك نصيبه من هذا الجمال ، باحتوائه على ما فى نفسه من معنى الجمال ، وبتأمله للوجود ولنفسه بعين الجمال

إننا فى ساعة الابداع الفنى نشـعر بغبطة لا تحد ولا تحس إذ هى غبطة المبدع . وإذا كان الانسان فى هــذه الحياة فرداً قائماً بذاته ، يحيا فى عالم المادة ، فهو فنان بطبيعة خياله المبدع الوثاب . يستطيع أن يبدع إبداع من يخلق ويصور – إن كان فناناً مبدعاً ، ويقدر أن يكون مبدعاً فى تفكره فى الأثر الفنى الذى يبعث فى نفسه خياله الباطنى ، لأنه يشاطر المبدع فنــــه ويتحد معه فى تحليقه . وهو فى كلتا الحالتين متخيل صوراً وألواناً جديدة تبعث فيه الغبطة الفنية ، ولا يضر هــذه الصور أن تكون أخيلة أو أحلاماً ، لأن أجزاءها مقتبسة من الوجود ، ولا ينبغى لهذه الصور أن تكون صوراً ضاحكة تملأ الجو أفراحاً ، فقــد تكون صوراً تملأ الأفئدة ذعراً والنفوس شـقاء ، وتكون بعد ذلك كله جميلة . . .

هذه الخاصة العاملة على إبداع الصور والأوهام ، وتغليب الناحية الخيالية على الناحيــة الحقيقية يدعوها نيتشه « الخاصة الأبولونية : نسبة الى « أبولون[1] » ، والفن الأبولونى عنده هو النحت والتصوير والشعر القصصى . إن الرجل الأبولونى يستنقذ نفسه من التشاؤم باستسلامه للجمال . يقول للحياة : أنا أريدك ، لأن صورتك جميلة ، يجدر بها أن تكون مادة للحلم والخيال . . .

(١) إله الشعر والموسيقى

يا دارُ أنت رجاء مصرَ وفى سوى ناديك ليستْ تُبْلَغُ الأوْطار
لن يستقيم لآل مصرَ بناؤُهم يوماً ورُكْنُك بينهم مُنْهار
مادام ربعُك موحشاً قفراً فلن يَلْتَامَ شَمْلٌ أو يعزَّ ذمار
يَبقى بغيرِكَ أمْرُهم فوضى به يلهو اللئامُ ويعبث الأغرار
لو يعلمون سَعَوْا إليكَ ومسَّحُوا إما سعَى للـكعبة الزُّوَّار
حتى يعودَ الحقُّ فيكِ لحِضْنِهِ وَيَعِزَّ فيكِ ذمارُهم يا دار

فخرى أبو السعود

ولكن الانسان ليس بكائن يمكن تحديده بالذاتية ، أو بالانفصال ، فهو كائن يشعر بنفسه كارادة متفوقة ، ويحس أنه قطعة من هذه الارادة المتوزعة فى الوجود كله ، ويدرك أنه متحد مع كل ما يحيا وما يتألم ، تام الاتحاد مع الوجود . والانسان – فى حالة ذهول أو سكر ناشىء عن مادة مخدرة ، أو إزاء حوادث طبيعية كعودة الربيع – يشعر بأن هـذا الحاجز الذاتى الذى يفصله عن الوجود قد وهى وزال ، ويجد نفسه متحدة مع الطبيعة كلها ، وهذا الطور ما يدعوه نيتشه « الطور الديونيزوسى » ، نسبة الى الالـه « ديونيزوس [١] » ولغة الرجل الديونيزوسى هى الموسيقى التى يعتبرها شوبنهاور لغة الارادة الخالدة بل صورة الرغبة الدائمة المستترة فى باطن الوجود ، والانسان – فى هذا الطور – يحس بالألم الشامل والوهم الباطل وشقاء الفردية ، فيكاد يجنح الى التشاؤم ، ولـكنه يهتز قليلاً ويشعر بخلوده ويدرك أن ارادته المفصولة إنما هى جزء من ارادة الوجود ، فتراه حيال كل مظهر من مظاهر الفناء ، أو مصرع بطل من الأبطال ، تراه يشعر بأن حياة الارادة الباقية لم تطفأ بموت البطل . إن الرجل الديونيزوسى ينقذ نفسه من التشاؤم لأنه يبصر خلود الارادة ، والحادثات تمر والتقلبات تستمر ؛ هو يقول للحياة : أنا أريدك ؛ لأنك أنت الحياة الخالدة

وبهذين المذهبين يرى نيتشه أن اليونان قد قهروا التشاؤم ، وجعلوا الحياة جميلة زاهية ؛ ويرى أن التفاؤل اليونانى لم يكن وليد الخفة والعبث ، أو تجاهل لما يغمر الوجود من شقاء وألم ، ولـكنه تفاؤل تولد من مثل أعلى وغاية أسمى ؛ والمؤرخ الذى يستقرئ هذه التأثيرات فى مطلع تاريخهم يتبين له أن القوم عرفوا الألم كما عرفناه ؛ وتذوقوا الشقاء كما تذوقناه

سأل ملك « ميدا » الفيلسوف « سيلين » ما عساك تجد خير شىء للانسان ؟ فأجاب الفيلسوف : « يا ذرية التعس والألم ، وأبناء المصادفات والمتاعب ! لماذا تنقمون على إذا جئتكم بما لا ترتاح له آذانكم ؟ إن الخير الذى لا خير بعده هو ألا تكون – أيها الانسان – مولوداً ، وألا تكون موجوداً ، وألا تصير شيئاً ؛ والخير العاجل لك أن تلاقى مصرعك الآن ! » فهذا الألم المنبعث من أعماق الروح الشاعرة بالأوجاع والشقاء الغامر الأرض ، هو الذى أهاب باليونان ودعاهم إلى أن يكملوا معنى الحياة الناقصة بخلقهم آلهة هى آلهة جبال « أولمبوس » ، هذه الآلهة هى نتيجة إبداع الروح « الأپولونية » وانتصارها . أرادوا أن يستنقذوا أرواحهم من حقيقة الوجود المروعة فمدوا الى خلق شعب من الآلهة وجملة أوهام طبقوها على الحياة التى يرونها صالحة للظهور ؛ وهم مؤمنون بأن هذه الآلهة تعمل معهم على مجابهة التشاؤم . وهكذا لبست الحياة عندهم لباساً جديداً ، وظهرت ظهوراً جديداً ، وغدت جميلة فى عيونهم لأن آلهة جميلة تتصرف بها وتقبل بأقدارها ؛ وهوميروس هو المثل الأعلى للروح الأپولونيـة ؛ ومقاطيعه وقصائده هى نشيد انتصار الحضارة اليونانية على سيئات الأجيال الغابرة ، وهى التى خلقت هذه الروح التى تغلب اليونان بأوهامها وأخيلتها على كآبة الحيـاة الحقيقية وقبحها . وإزاء هذه البراعة الأپولونية نشأت البراعة « الديونيزوسية » أو براعة المأساة ؟

« يتبع » خليل هنداوى

(١) إله الخمرة عند اليونان ، وهو « باخوس » عند الرومان

القصص

من أساطير الإغريق

نهاية هرقل

للأستاذ دريني خشبة

١٢ — رحلة هرقل إلى الدار الآخرة

لم تكن محفوفة بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة ؛ فقد سلك هرقل سُبُلاً من قبل. كان الموت يجثم له في كل خطوة فوقها ، وكانت المنايا تتربص به ، ثم تفر منه آخر الأمر ، كأنما كان هو موتاً للموت ، ومنيةً للمنية ، وفناء للفناء

أُسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسپريا ، واستولى عليها الجزع حين رأت إلى التنين لادون مضرجاً بدمه ، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة ! !

وسير بيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة ، الذي رأيناه يعدو في إثر پلوتو - إله الموتى - حينما زار هذه الدار الأولى ليخطف پرسفونيه ، وهو أبداً ربض عند قدمي سيده الجالس فوق عرش هيدز ، يقلِّب في غيهب السُّفْل أعينه الست ، كأنها أنجم تحترق في فحمة ليل بهيم ، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية ، ينشب أظفاره في أرواح المجرمين ، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى !

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل ، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبته عليه السماء ؛ فانطلق يعدو إلى دار الموتى ، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده ؛ حتى إذا كان قاب قوسين من السُّدة القائمة الدجوجية ، ووجد سير بيروس مقعياً يغط في نوم عميق ، وإله الموتى مستلقياً يُقلب في حضنه القوي پرسفونيه الجميلة ، انقض على الكلب فخنَّقه حتى لا يعوى فتعاويه كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة . . . ! وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين !

وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل !

لقد كانت الظلماء تتدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة ، وترد نور النهار المتلألئ ديجورا يلج في ديجور ! !

وكان الزبد ينتثر من أفواهه كأنه نَدفٌ يسَّاقط من عَلٍ في ليلٍ عاصف !

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى وينثني كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون !

وكان يعوى وينبح فيقلقل الجبال المجاورة ، ويزلزل قصور أرجوس !

وانظر إلى الملك الجبان !

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع ، وانطلق إلى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق ، وآلى لا يخرج حتى يعود هرقل بسير بيروس إلى هيدز !

* * *

وهكذا أصبح هرقل حراً ، وأُلقيت عن كاهله هذه الربقة التي أذلته طويلاً ، وتلفت حوله فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية ، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح ، والأخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى الأولمب ليلاقي أباه وليقدم له طاعته ، وليرى هل يتوب عليه من غضبٍ لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً . . .

ولقِيَه أرباب الأولمب هاشين باشين ، وأخذوا يتندرون

عجازفاته العجيبة التي انتصر فيها على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون . . . .

وأغرقوا في الضحك حين ذُكر أطلس وما كان من أمر الحوية !! . . . .

واقترح هِرْمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه ، ويباروه في العدو والسباحة وألعاب القُوى ، لتتم بذلك بهجة لقائه ، وليعبروا عما يكنونه له من حب ، ويضمرون من إعجاب . فأقيم ملعب الأولمب الفخم ، وشيدت على جوانبه المدرجات العجيبة التي تتسع لألف ألف من الآلهة وأنصاف الآلهة وكبار المدعوين من عباد برومثيوس [1]

وتم مهرجان الألعاب ، وحاز هرقل قصب السبق في أكثر المباريات ؛ وكان هذا هو الأولمبياد [2] الأول الذي أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات

وتتابعت السنون . . .

ومر هرقل بقوم يبكون ؛ وقيل له إن أدميتوس [3] ملك تساليا مرض ، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود في هذه الدار الدنيا ، فأجيب إلى ما تمنى ، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضره الموت ، وهنا تقدمت زوجه المخلصة السستيس فضحت بنفسها كي ينجو بعلها من الموت ، وليخلد ماشاء له الخلود . وماتت الزوج الوفية فداء للملك . وينظر أرميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه ؛ ويكون في حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش في صحراء ؛ ويقدم إليه الطعام فلا يكاد يسيغه ؛ وترقص القيان بين يديه فيثرن في نفسه الاشمئزاز كأنهن جِنَّةٌ تدمدم في ظلام غابة . . .

ويبغض الدنيا . . .

ويود لو كانت زوجه الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظةً واحدة وتتلاشى الحياة بكل من فيها . . . !!

لذلك يبكي الملك ، ويبكي حوله شعبه الأمين !

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ إلى هيدز ـ دار الموتى ـ فيستنقذ ألسستيس من براثن الفناء ، ويردها معززة مكرمة إلى زوجها المسكين فيهدأ قلبه ، ويرقأ دمعه ، وتستقر نفسه ، ويفيء إلى أمر هذا الشعب الذي تكبكب حوله يعول وينتحب . . .

ونَفَذَ البطل إلى ظلمات الدار الآخرة ، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة ألسستيس ؛ فتغفّل حارسها الجبار وخنقه ، واختطف الفتاة الناعسة وفر بها دون أن تشعر به زبانية پلوتو وعادت الطمأنينة إلى قلب الملك ، ورفرف السلام على المملكة

* * *

هرقل وأومفاليه

وذهب هرقل يذرع الأرض ، واشترك في حملة الأرجونوت ضد السنتور [1] ، وانضم إلى الأغريق في حصارهم الأول لطروادة ولقي رجلاً ذا خيلاء وكبر فقتله ظالماً ، وكان زيوس ينظر من علياء الأولمب ، فعبث وبسر ، وقضى أن يظلَّ هرقل في خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين



هرقل وأمفاليه (تصوير موبان)

وتجهم هرقل ، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة ، حتى راعه جمالها ، واستهوته مفاتنها ، وأحس للمرة الأولى في حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً يتأجج في قلبه يوشك أن يجعله ضراماً

وحلاَ في فمه ما مر من الذل ، وطاب ما كره من العبودية ، وود لو قضى الحياة في ظلال هذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة ، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم وبال . ولكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى

(1) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجيه — العدد ٩٩

(2) الأولمبياد هو دورة الألعاب الأولمبية

(3) أسطورة أدميتوس وزوجه السستيس وطرد أبوللو من السماء من أبرع الأساطير الاغريقية وقد نعرض لها قريباً

(1) لهذه الحرب أسطورة طويلة آثرنا ألا نثبتها مخافة الاطالة

زواج هرقل

وطوّف هرقل فى أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون ، مملكة أونيوس ، ولقى ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور فى خميلة غناء . وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب ، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل ، وكان لسانه قد انحلت عقدته عن وحى الهوى ، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها ، وينمق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى ، وتهتف بالخُضرة والحُمرة ، وتصافح الروح بالعبير الفياح

وأنِسَت ابنة الملك بهرقل واطمأنت اليه ، وبثها وبثته ، وتشاكيا ماشاء لهما الغرام الروى ، والحب الفتى ، والدمع المسكوب!

وعلم منها أن أخيلوس ، أحد آلهة الأنهار ، قد خطبها إلى والدها ، وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد :

« فهل أسعد بأن تزيح هذا الكابوس عن قلبى ؟ »
« وتقف حائلاً بينى وبين الشقاء الذى يتربص بى ؟ »
« فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب ، ويرفلان »
« فى برد السعادة ، ويتغنّيان مع الطير ألحان الهوى »
« والحياة ! ! ... ... »(٢)

هكذا بكت دِيانيرا إلى هرقل ، فهاجت فى قلبه نخوة البطولة ونَحِيزة المغامرة ، وأطلقت فى كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال :

« قرّى عيناً أيتهــا الحبيبة ، فليس أيسر »
« على هرقل من حرب الآلهة . لقد صرعتهم »
« جميعاً فى حفل الأولمب ؛ وقد مر بى من المغامرات »
« ما ينخلع من بعضه قلب أخيلوس ... ... »(١)

واستأذن هرقل على الملك ، وحيا أحسن تحية ، ثم طلب يد ديانيرا . . . وكان أونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وأمرائها ؛ وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم ؛ فلما تقدم اليه هرقل استبشر وقال : « ... ... لقد كنت يا بنى وعدت أخيلوس أن يبنى على ديانيرا ، وهو من تعلم فى الحول والطول والجبروت ، ولكنى مع ذاك لا أفضله عليك ، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه ؛ فمن يصرع صاحبه كان كُفؤاً لديانيرا »

وقبل هرقل ، ورضى أخيلوس ؛ واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع العظيم بين الجبارَين العنيدَين . . . وكان كلٌّ واثقاً بنفسه ، لايخامره أدنى شك فى أنه فائز على صاحبه . فلما تقابلا ، ثار من حولهما النقع ، وكانت أنظار الناس كالمتصلة بسواعدهما بأمراس شِداد ؛ وبعد قليل أخذت الأرض ترجف من تحتهما ، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير . . . وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها إشفاقاً على هرقل ، وكان هو كذلك ، كلما خارت قواه ، نظر اليها النظرة تتجدد بها روحه وتتضاعف مِرّته ويمتلئ قلبه بالآمال . . . . . .

وكأن أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل ، وكان يستطيع أن يتشكل بأى خلق أراد ، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة ، إلى تنين عظيم الجرم ، إلى أسد بادى النواجذ ، إلى . . . ماشاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع . . : ثم انقلب إلى عجلٍ جسدٍ ذى قرنين كبيرين ، وشرع ينطح هرقل ، وهرقل يتقيه ، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه ، وجعل يخبط برأسه الأرض فى عنفٍ وغل ، حتى كُسر أحد القرنين وفرّ أخيلوس من الميدان هارباً . . . لايلوى على شىء . . .


صراع هرقل وأخيلوس (تصوير جيد)

ودوى الملعب بالتصفيق ، واندلعت الحناجر بالهتاف ، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق . . وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلةٍ فردوسيّة خالدة ، مازال صداها يرن على شفاه المحبين . .

وتم العُرس . . .

وانطلق هرقل بزوجه يجوب الآفاق . .

(١ ـ ٢) هذه السطور من سوفوكليس فى مأساته الخالدة « عذارى تراقية »

وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا . فبينما كان يعمل فكرته كيف يقتحمه ، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجه فيعبر بها إلى العدوة الثانية سالمة آمنة ، ثم يرتد فيحمله اليها كذلك ؛ وقبل هرقل ، ونسى ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء ، وحربٍ قديمة تدمى لها قلوبهم ، وتقرح نفوسهم ، وأعان هرقل زوجه فاستوت على ظهر السنتور ، وخاضَ بها الماء وهو يطفر من الفرح ، ويحلم بالمنى والآمال . فما كاد يبلغ الشاطئ الآخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاةٍ من سهام هرقل . ولكن ديانيرا صرخت صرخة داوية نبهت ما غفل من سمع زوجها ؛ فلما فطن إلى خيانة السنتور ، شد قوسه العظيمة ، وأرسل إلى دبر السنتور سهماً مراشاً كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى !

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته ، وبرودة الفناء تشيع فى جسمه البدين ، فأقسم ليكيدن لهرقل ، فيذيقه من هذا السم الذى سقى به سهامه ما يودى به . فقال لديانيرا : « أيتها الفتاة ! لا تثق أن حب هرقل دائم لك ، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسبى وأصبى . وما أحسبك إلا ذاكرةً كيف كان يتفانى فى حب أومفاليه . تخذى قميصى هـذا فاحفظيه لديك ، حتى إذا أحسست من زوجك جفوةً ، أو رأيت فيه ازوراراً ، فابعثى به إليه ليلبسه ، وألقى فى روعه أنه يحفظه من أعدائه . فانه إن فعل ، عاد إليك بقلب مفعم بالحب ، ونفس ملتاعةٍ كلها شوق وتوق . . . » وخر السنتور ميتاً !

وأخـذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة ، وفى نفسها من الهم شىء عظيم ! « من أومفاليه هذه ؟ ! كان يحب أومفاليه ؟ كان يحب فتاةً غيرى ؟ وحق زيوس لأسألنه ! هاهو ذا قد سبح إلى الشاطئ ! »

ولقيته فسألته ، فاعترف لها بكل شىء ، وطمأنها على محبته وإخلاصه . . . . ولكن قلب المرأة لا يعرف هـذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة ! فقـد ظل الوسواس يدب فى نفس ديانيرا ، حتى كان هرقل فى إحـدى جولاته ، وكانت هى عند أبيها ملك كاليدون ؛ فطالت غيبته ، وذهبت بهـا الظنون من أجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور ، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى وصيفاتها [1] إلى هرقل فى منآه البعيد . وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السنتور . فلما لبسه هرقل ، التصق به التصاقاً ، وأخذ السم يشيع فى جسمه الحديدى فيذيبه ويفتته . . .

وصرخ البطل بلا جدوى ! وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق ، ولحمه يتهرأ ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت . . . ثم أخذت نفسه تَسَاقَطُ أنفساً . . . وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل فى دموعٍ سخينة وآهات حارة . . .

ولفظ نَفَسَه الأخير وهو يبكى ويقول : « فِدًى لك نفسى . . . يا . . . ديا . . . نيرا ! »

***

« وهَوَى الى الأرض ما كان من الأرض ، ورفرفت »
« الروح الكبيرة فى جهرة من أرواح الآلهة التى أقبلت »
« من الأولمب تزف ابن زيوس العظيم . والكل ضاحك »
« مستبشر أن ألتى أخوهم حمله الثقيل ، وخرج الأولمب »
« جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه فى عليين ! . . . [2] »

***

وحمل الجثمان الطاهر الى جبل أويتا ، حيث دفن فى إجلالٍ وإعظام ، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها المزيز ما ؟

دريني خشبة

---

(١) فى أحد المصادر أنها أرسلت خادمها الصناع ليخاس

(٢) هذه السطور من شللر الألمانى . وفى بعض المصادر أن الذى أثار الغيرة فى قلب ديانيرا ، أنها سمعت أنه عاد الى احدى صويحباته القدامى (ايول) وأنه هام بها . ومع ذاك فلو علمت أن القميص مسموم لما أرسلت به إليه

قلب فتـــاة

للآنسة ابنة الشاطئ

لعلها حنقت عليّ حينما تقدمت إليها في لوعة صامتة ثائرة ورجوتها أن تبكي وأن تسرف في البكاء؛ ولعلها أنكرت مني أن أفاجئها في وحدتها وقد استنامت إلى أحزانها وأسلمت أفكارها إلى ذلك الفضاء الرحب الواسع الذي نود لو نفر إليه، وإن كنا نجهل أين مكانه منا وأين السبيل إليه! لقد كنت أعلم يقيناً أن هذه الكلمات التي اصطلحنا على تسميتها كلمات المواساة، والتي تعود المرء منا أن يلقيها على مسامع المحزون، لا تحمل عن هذه المسكينة شيئاً مما ترزح تحته من أعباء ثقال، وكنت أعتقد أنني إذ كنت لا أملك إلا الوقوف بجانبها أفرض عليها سماع كلمات المواساة المحفوظة، وأحتم عليها أن تزدردها كما تزدرد قطع الثلج، لخير لها أن تظل هكذا في ذهولها وإطراقها، لعلها واجدة من خداع الخيال ما ينسيها شيئاً من رهبة الحقيقة الواقعة، ولو إلى فترة قصيرة! لكني كنت أحبها، وأتألم لها، وكان هذا الحب من القوة والعنف، بحيث ينكر عليّ أن أظل واجمة وهي تكاد تحترق أمامي في صمت، وأن أقف مكتوفة الأيدي، بينما أرى ذرات كيانها المضطرب تكاد تتبخر في الفضاء الأثيري المخلخل بعد العاصفة... آه! كم كنت أود أن أحترم صمتها، وأن أتركها في جلستها المفجعة ومكانها المنفرد؛ ولكني خشيت أن يهدمها الحزن المكتوم. وكان لابد لي أن أقول شيئاً، فلم أجد ما أقوله إلا أن آخذ رأسها بين يديّ وألح عليها أن تمعن في البكاء

***

لم تكن هذه الفتاة من أولئك الفتيات اللائي يحملن قلوبهن في أكفهن ويخرجن بها إلى الأسواق للبيع أو الاستئجار، وكان كل من يعرفها لا يكتم إعجابه بذكائها وجاذبيتها وسمو أخلاقها، ولكنها كانت لا تكترث لشيء من هذا إلا كما يكترث الغني ببضعة مليمات! كانت تعلم يقيناً أن أثمن شيء لديها، هو قلبها الحي الكبير، وكانت تعتز به اعتزاز الانسان بأثمن ما يملكه؛ وكلما أثنى الناس على ذكائها أو حسنها، ابتسمت ابتسامة يتجسم فيها عدم الاكتراث، وتساءلت في نفسها: إذا كان هذا هو مقدار احتفال الناس بتلك الظواهر المادية التافهة، فكم يكون مدى احتفالهم بالكنز الذي في صدرها؟! ذلك القلب المليء بالحياة، الشغوف بالتضحية، النزاع إلى المثل العليا، والذي يود لو تتاح له الفرصة لاسعاد الآخرين!

ولقد أحبت هذه الفتاة! أحبت بكل ما في طبيعتها من إسراف وغلو، وبكل ما في قلبها من قوة وحياة، وما في نفسها الشعرية من ثورة وحرارة! وكان حباً نبيلاً تسامى شيئاً فشيئاً حتى تخلص من أدران الماديات... ولعل الشاب الذي أحبته لم يكن بادئ ذي بدء يفهم معنى ذلك النوع من الحب، ولكنه أدرك على ممر الأيام أنها قدمت إليه قلباً من ذهب، وحباً نبيلاً أشبه بالخيال لغرابته وندرته، فهاله ما قدمت، وصمم على الاحتفاظ بحبها حتى يضمهما اللحد، وعلى أن يمهد لها حياة سعيدة ولو كلفه ذلك حياته. واستبد به بعد ذلك حب قوي غلاب جعله يرى الحياة بدونها جحيما لا يطاق؛ وكان كلما تسامى إليها وتوغل في فهمها ودراستها، اتضحت له قيمة ذلك الحب الذي لا يعرف الأثرة ولا الاستهتار، وغمرته لذة روحية تجعله في شبه ذهول... ذهول الحالمين السعداء

***

عرفته في اكتوبر سنة ١٩٢٩، وكان لا يزال طالباً بالسنة الأولى باحدى المدارس العليا، وكان تعارفهما طبيعياً ووليد المصادفة البحتة. فقد نزح والداه من الريف إلى القاهرة، ليحميا وحيدهما من بلدة المغامرة واللهو والفساد؛ واتخذت الأسرة مسكناً متواضعاً في بيت كانت تسكن به أسرة الفتاة؛ ومرضت الأم مرضاً أقعدها عن مباشرة أعمال أسرتها الصغيرة، فتطوعت الفتاة لمساعدتها، لأنها جبلت على حب الخير؛ ثم كانت ساعة من تلك الساعات التي ينسى المرء فيها نفسه وتقاليده وارادته، فتقابلت الفتاة المحتجبة الحريصة، بالفتى الشاب المثقف، ولم يكن لأحدهما يد في تلك المقابلة. كان ذلك في مساء ليلة ليلاء من ليالي الشتاء القاسية، وقد آوت الجنوب إلى المضاجع فراراً من ثورة الطبيعة؛ ولاذ الناس بالبيوت ينشدون الدفء في صمت وسكون. وكان هناك شعاع حائل ضئيل، ينبعث من نافذة الأم المريضة، ويفنى بعد قليل في جوف الظلام. وقد رقدت المسكينة حين استبدت بها نوبة قاسية أذهلتها عن كل ما حولها؛ وكان صوت الريح يذهب بأنات الأم العليلة، فلم يكن يسمعها أحد

سوى الشبح الأبيض الواقف بجانب سريرها ، كأنه ملاك هبط من السماء . كان هـذا شبح الفتاة النبيلة الحنون التى قامت بتمريض العليلة . وفتح الباب فجأة ، ودخل الابن الشاحب المحزون يصحبه الطبيب ، فلم تتمكن الفتاة من الخروج ، فقد كان عليها أن تصغى إلى تعليمات الطبيب ، وأن تشرح له ملاحظاتها عن درجة حرارة العليلة ، وبصاقها وطعامها ، ولم يتمكن الفتى من الخروج ، فقد كان المرض الليلى لأمه ، وكان عليه أن يصغى لما يقوله الطبيب عن سير المرض ؛ وهكذا جمعهما الحزن المشترك ؛ وأنستهما رهبة الموقف ، وشدة تفجعهما للمريضة وابنها ، ما درجت عليه من تحفظ واحتجاب

وكان لابد للفتى بعد أن شفيت أمه أن يشكر تلك الانسانية النبيلة ، وكان لابد لها أن ترد على رسالته ، لتؤكد له أنها ماقامت إلا بواجبها الانسانى ، ثم اختفت تلك المراسلات الرسمية ، لتفسح المجال للتراسل الأخوى والتفاهم الروحى ، بين الشاب المعجب بنبل الفتاة ، وبين الفتاة الثائرة الحنان ؛ ووجد كلاهما لذة مبهمة فى ذلك النوع من الاخاء والصداقة ، ولذ لهما أن يفرجا عن أنفسهما بالكتابة ، وكلاهما يفهم أخاه ويحيا فى بيئة تكاد لا تسمح لهما باستنشاق الهواء

* * *

لم يكن مرض الأم الذى أصابها فى شتاء عام ١٩٢٩ والذى كان سبباً لتعارفهما ، إلا نوبة من نوبات مرض صدرى يرعى فى رئتها ويأتى فى مهل على ما احتازته المسكينة من جـلد واصطبار ، وهاقد تمكنت العلة منها وأصبحت شبحاً هزيلاً يدب إلى القبر ، ويهدى آخر أنفاسه إلى حياتنا العاجلة

وقرر الأطباء أن تبادر العليلة إلى مصحة حلوان . . . وإلا تعجل إليها الموت ؛ ولـكن كيف ؟ إن الوالد الشيخ لا يملك إلا ما يسد به رمق أسرته الصغيرة ، كان يملك بضعة فدادين فى مديرية الشرقية ، وكانت زوجته تملك شيئاً من الحلى ، فبذلا كل ذلك عن طيب خاطر فى تعليم وحيدهما ، ولـكنه نال شهادة التعليم ليعلقها على جدران الحجرة الحقيرة التى استأجروها أخيراً ليقيموا بها . ثم قبع فى كسر داره بجانب أمه العجوز المريضة ، وأبيه الشيخ الفانى ! وإلا فهل يجمع الصبيان فى الطرق ليلقى عليهم الدروس ، ويطبق مبادئ روسو وآراء فريدريك هربرت سبنسر مستعملاً (هدايا) فروبل و (جهاز) مدام منتسورى ؟ أم يفتح مدرسة أهلية وقد تراكمت المدارس فى أحياء البلاد ، وهو بعد لا يملك ما يشترى به الدواء لأمه المصدورة العليلة ؟

كان مرهف الحس مهذب الوجدان ، وقد عز عليه أن يفقد أبواه ثروتهما فى سبيله ، حتى إذا مابلغ مبلغ الرجال كان حملة عليهما . كان يشعر بأنه مسئول عن كل ما أصاب ويصيب والديه ؛ وقد عذبه ذلك الخاطر وأمعن فى إيلامه ، فأخذ يبحث عن عمل كل يوم ، ولـكن ما الذى يستطيع حامل دبلوم المعلمين العليا أن يعمله ، وهو لا يملك إلا تلك الثروة العلمية المخزونة فى دماغه ، لا يدرى كيف يستغلها ! ولقد صبر على الجوع حيناً وتحمل الضيق أحياناً ، ولـكنه الآن لا يستطيع الصبر ، إذ يرى أمه التى غمرته بالعطف والحنان ، تجود بحياتها مع أنفاسها الخافتة اللاهثة ؛ ويرى أباه يجلس ذاهلاً مطرقاً ، ينظر نظرات حزينة جوفاء إلى تلك الانسانة المخلصة الراقدة ، التى قاسمته حلو العيش ومره ثلاثين عاماً ، غمرته فيها بكل حب وإيثار ؟ !

* * *

وقف الشاب يوماً بين أبويه وقد نفد صبره وعذبه عجزه فرفع يديه إلى السماء فى حركة ضارعة مبتهلة ، وتساءل بصوت متهدج حزين : « أبتاه . . ! ألا أستطيع أن أصنع شيئاً لها ؟ حياتى يا أبى ماقيمتها إذا لم تكن لـكما وفى سبيلكما ؟ ألا يمكننى فداؤها ؟ » فابتسم الشيخ الحزين بعـد أن تحجرت الابتسامة فى شفتيه أعواماً ، وقام إلى ولده البار يضمه إلى صدره ، ويغمره بقبلاته ، ثم أسر إليه أن لا وسيلة لانقاذ الأم المعذبة إلا بزواجه من ابنة عمه التى ورثت عن أبيها كثيراً من المال والعقار

طعنة أصابت قلب الفتى فأدمته ! لقد كان مستعداً للتضحية بحياته لأنها ملك له ؛ أما أن يضحى بقلبه وقد وهبه ، وبفتاته وقد وثقت به واطمأنت إليه ، فهذا مالا طاقة له به . . يتزوج ؟ ولمن إذن يترك الفتاة الصغيرة المثقفة ؟ لقد تمكن الحب من قلبيهما ثلاث سنوات ، وكانا من الاعتزاز بهذا الحب بحيث لم يلوناه بإباحة منكرة ! كانا يخشيان على حبهما وهو الثوب الأبيض الناصع ، أن يلوثه القليل من الغبار ، ولم تعد لهما حيلة فى التخلص من سلطان هـذا الحب الذى نما مع الأيام ، فـكيف يفرض عليه أبوه ذلك الثمن الغالى ؟ لا . . إنه لن يحطم قلبها ولن يكفر بالنعمة التى منحته إياها . . إنه بشر ولاحتماله حد معقول ؛ وقد أحب بكل قواه ؛ ولئن كان مسئولاً عن سعادة أمه ، فهو

مسئول كذلك عن سعادة فتاته . فقد منحته الأولى حبها وحنانها لأن عاطفة الأمومة فيها أرادت ذلك ، بينما منحته الثانية حبها منة منها وتفضلاً . . .

لقد يستطيع أن يخنق حبه ويحطم قلبه ، ليشترى بذلك سعادة أمه ، ولكنه لا يستطيع أن يحطم قلب فتاته الصغيرة النبيلة . . .

ولكن الفتاة كانت أقوى منه . . لقد أحبته حباً صادقاً ، والمرأة إذا أحبت فعلت المستحيل فى سبيل سعادة من تحب . . . لقد عجز عن السير فى طريق التضحية الشائك ، فلتحمله هى على كتفيها غير آبهة بالأشواك تمزق ثياب راحتها ، وتسيل دماءها . ولقد أعماه الحب عن الواجب ، فلتفتح بأناملها الرشيقة عينيه ، وتوقظ شهامته ورجولته ، وحسبهما سعادة بعد ذلك إنقاذ الأبوين الكريمين

ولكن كيف تقنعه بوجوب التضحية ؟ حدثتها نفسها أن توهمه أنها تحب غيره ، ولكنها رجعت عن تلك الفكرة الروائية التى فرضها « اسكندر دياس » على المحبين ، وعز عليها أن تلوث الحب العالى بمثل هذه الأفكار ، وهو آخر ما تبقى لها من سعادة ! وأشفقت على فتاها أن تنهدم المثل العليا أمامه فيجزع وربما جحد الفضيلة وأنكر الحياة ! ثم فكرت فى أن توهمه أن أباها يفرض عليها الزواج من غيره ، ولكن هذا لن يفيد فى إيقاظ نخوته وشهامته ، وإذن فلتتقدم اليه فى صراحة وحزم ، لتعلنه أن حبها وقد تنزه عن الماديات ، أضعف من أن يحتمل تبعة موت الأم الحنون ، وجنون الأب الشيخ ، وأنها تحبه إلى الدرجة التى تخشى عليه فيها من فقد احترامها له إذا قتل أمه بأنانيته . إنها تحبه ، ولكن هذا الحب نفسه هو الذى يفرض عليها أن تتنكر له إذا لم يؤد واجبه كرجل وكابن ، فاذا ما سألها عما ستفعله بنفسها بعده ، أجابته فى رفق حازم أن لا شأن له بها ، وأن عليه أن يتزوج من ابنة عمه . . .

لها الله ! ! ما كان أنبلها وهى توصى حبيبها الذى انتزعته الأقدار منها بالرفق بابنة عمه وإسعادها وتمهيد الراحة لها ؟ !

لها الله ! ! ما كان أنبلها وقد وقفت تهمس فى أذنه ألا يحدث أمه عن تضحيته ، وألا يقدم اليها الدواء مسموماً باشعارها أن حياتها أنقذت بهذا الثمن الغالى . . .

ما كان أنبلها وقد وقفت تبعده عنها أشد ما تكون حباً له وشغفاً به ! !

* * *

من يدرى ؟ ! ربما كان هول الموقف قد شغلها عن النظر إلى الأفق البعيد ، حيث تتجمع قطع الظلام ويتصل بعضها ببعض ! وربما كانت تجهل أن انتزاع الكلمات التى حرضت بها الفتى على الزواج من ابنة عمه ، أقسى وأشد إيلاماً من قطع لحمها وهى حية . . . ظنت نفسها سعيدة ساعة خضع الفتى لحكمها ، وقامت تودعه وتشد على يده بكلتا يديها وهى تبتسم ابتسامة شاحبة ذاهلة ، حتى إذا ما تركته وتزودت منه بالنظرة الأخيرة ، أحست بالألم يحز فى قلبها ، فهرعت إلىّ – وأنا صديقتها الواحدة – كالمجنونة ، تشكو وتلتمس التشجيع ؛ ثم ركنت إلى الصمت والهدوء ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ! وكنت أعلم أن وراء مشيتها الميكانيكية الفجعة ما وراءها ! وأن تلك البسمة الصفراء الباهتة المتحجرة على شفتيها ، تخفى وراءها ناراً ترعى قلب الفتاة المسكينة . كان هدوؤها المصطنع يقتلنى ، وكنت ألمح عن كثب وميض النار تتأجج بين جوانحها وتختفى تحت رماد الحياء والمداراة ، كزبد الأفران العالية ، يبدو سطحه للعين ترابياً أدكن ، حتى إذا انفرج الزبد نرى حممه ! ولم أكن أرجو شيئاً ، إلا أن يَمُن الله عليها بنعمة البكاء ! !

كان حبها من نار ونور ، فلما حرمت نوره ، رأت أن تحترق بناره فى صمت ! فقد كان عليها أن تظهر للناس بسمة ضاحكة وإلا ولغت ألسنة السوء فى سمعتها ، ولوثت حبها الطاهر النبيل ، وعبثت بمستقبل الحبيب النائى البعيد !

وكان علىّ أنا ، أن أنفنى بشهامتها ، وأن أؤكد لها أنها ظفرت من الحياة بأوفى نصيب ، حين اشترت بسعادتها سعادة ثلاثة آخرين ! وكانت تنصت لكلماتى أحياناً ثم يغلبها الضعف فتفر إلى حيث تختلى بنفسها لا لتبكى ، فليتها كانت تفعل ، وإنما لتحترق فى صمت !

ولمحتُ عن بُعد شبح العاصفة يقترب فى بطء ، فلازمت الفتاة وأنا أكاد أختنق من الحزن والألم ؛ فلما أعلن أخوها أن فتاها تزوج بابنة عمه ، أرسلت نظرات محمومة مبهمة جوفاء ! وفى بطء حزين ، قامت إلى حجرتها ، فركضت وراءها ، ولم أجد ما أقوله إلا أن أطلب اليها أن تسرف فى البكاء ، فقد هالنى تحجر الدمع فى مقلتيها أشد مما يهولنى الصراخ والنواح وانهمار الدموع ! !

ابنة الشاطىء

البريد الأدبي

الرصافي في دينه

دفع إليّ اليوم وأنا مار في سوق الحميدية أخ لنا من الوراقين الأدباء متـدين غيور ، كتاباً جديداً لأمين الريحاني اسمه : قلب العراق ، صدر في هـذه الأيام في بيروت ، وأقرأني فيه الفقرة الآتية (ص ٢٦٥) ، ولست أعرف من الكتاب أكثر منها ، فأحببت أن أنشرها ليقول فيها الرصافي كلمته ، فهو المتهم فيها ، واليه تنسب هـذه الآراء . . . وليطلع عليها خولة الكتاب ، وحماة الدين ، وورثة البيان القرآني : الرافعي والزيات وعزام ، ويروا رأيهم في هذه « الأفكار الجديدة » !

وهذه هي الكلمة بنصها وفصها :

قال :

« إن للرصافي رأياً في الوحي الشعري غريباً : هو لا يؤمن بالوحي ، أو بالحري الوحي المنزل ، إنما يعتقد أن القوة الشعرية في الابداع تتعلق بقوة الباه في الجماع ، وأن الضعف الذي يعتري القوة الواحدة يتصل بالأخرى ، إذن لابد من التوازن بينهما ، بل هو ضروري . . . (إلى أن قال) :

. . . ثم ذكر النبي محمداً ، وهو في نظر معروف شاعر عظيم على أن أجمل قصائد النبي ، أي أجمل السور القرآنية ، إنما هي التي جاء بها في عهد الاعتدال الجنسي يوم لم يكن له غير خديجة زوجاً ، أما بعد وفاة خديجة فقـد أصبح محمد مزواجاً ، وكانت القصائد — السور — في هذا العهد مثل نسائه (كذا) أي دون ما تقدم منها ومنهن

فقد كتب الرصافي سيرة النبي محمد ، وأطلعني عليها مخطوطة بيده ، في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية ، فما أدهشني منها مافيها من العلم والتحقيق لأن مصادر الموضوع متوفرة لمن شاء معالجته ، وأحسن البحث والموازنة ، إنما أدهشتني القوة النافذة والمقدرة على التحليل والاستخراج ، والتفاسف في عقائد لا تستقيم بغير الايمان والجرأة والصراحة مع الاتكال على العقل والعلم فيهما

فقد استخدم في « سيرته » المصباح الذي استخدمه العلماء الأوربيون في نقد التوراة ، أي مصباح النقد الأعلى الذي ينير العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية ، ومما يزيدك إعجاباً بالرصافي أنه لايحسن لغة أجنبية ، فقد ركن في كل ما حلل وأوّل واستخرج واستنتج الى اجتهاده الخاص والى علومه الواحدة العربية

وإنك لتدرك الروح في مصنفه هذا إذا ما علمت رأيه بالله ، فقد قال لي مرة : إن الآية لا إلـه إلا الله ، لا معنى لها ويجب أن تبطل ، أو تبـدل بالآية ، لا إلـه إلا الوجود ، أي أن الكون هو الله ، والله هو الكون ، هي عقيدة البانيتزم أي الحلول وهو فيها على اتفاق والزهاوي ، قد يهمل وينسى كثير من شعر الرصافي في المستقبل ، وتظل سيرته النبوية من الكتب التي تقرأ وتكتنز ذاك هو الرصافي في دينه » اهـ

فما هو رأي الشاعر الكبير الأستاذ معروف الرصافي ؟ . . .

دمشق — علي الطنطاوي

(الرسالة) لم نقرأ كتاب الريحاني لأنه لم ينشر في مصر ؟ ولكننا نعلم أن حكومة العراق صادرته ؟ وربما كان هذا الهتر من أسباب هذه المصادرة ؟ على أن الرصافي قد يقول شيئاً من هذا الكلام في ساعة لهوه ليطوى في بساط الشراب ، لا لينشر على الناس في كتاب ! فذنب (الفيلسوف) الذي روى ، أقبح من ذنب (الأديب) الذي تحدث ! والكلمة قبل كل شيء للأستاذ الرصافي

الى الدكتور عزام

في العدد ٨٧ من (الرسالة) نشر الدكتور عبد الوهاب عزام « قصيدة تاريخية » خطيرة بعثها بعض أهل جزيرة الأندلس للسلطان بايزيد العثماني يستغيثون به مما حلّ بهم من القواصم والدواهي في دينهم ودنياهم بعد أن نقض الاسبان العهد والميثاق الذي أخذ عليهم . وقد وصلت القصيدة للدكتور عزام بواسطة العلامة الشيخ الجليل الراوية خليل الخالدي الذي نقلها من نسختين

بقلم مغربي رآهما بمدينة فاس . وختم الأستاذ عزام تمهيده للقصيدة الثانية بقوله : ولسنا ندري ما كان جواب السلطان بايزيد على هذه الدعوة اللهوفة والقصيدة الباكية . فمن عرف شيئاً في هذا فليخبرنا مشكوراً »

وأنا أخبر الأستاذ الفاضل – ولا شكر – بأن القصيدة الثانية ذكرها كلها الشهاب أحمد المقّري صاحب نفح الطيب في كتابه : « أزهار الرياض . في أخبار القاضي عياض » (١ : ٩٤) وهو كتاب طبع جزؤه الأول بتونس سنة ١٣٢٢ ويوجد بعض ثانيه خطاً ؛ كما ذكر قصيدة ميمية بعثها أبو عبد الله بن الأحمر لسلطان المغرب يعتذر فيها عما فعل وذلك بعد نزوحه لفاس واستقراره بها حيث توفي وترك ذرية

أما جواب السلطان (أبا يزيد الثاني ابن محمد الفاتح ووالد سليم الأول) فيظهر أنه سعى لاغاثتهم بما أمكنه مع ما عرف به من الرغبة عن الحرب والاخلاد الى السلم ، فقد ذكر الأستاذ حسين لبيب في كتابه تاريخ الأتراك العثمانيين (٣ : ٣٩) أن (كمال ريس) أول مشاهير أمير الايات الترك ، كان أول ما ظهر اسمه : (سـنة ١٤٨٣ لما جُعل قائداً للأسطول الذي أرسله السلطان بايزيد غوثاً وإعانة لمسلمي غرناطة الذين أرسلوا لسلطان البحرين والبرين مستجيرين به من ظلم وتعدى نصارى اسبانيا)

فيكون بذلك قد كاتب الاسبان في خطبهم أولاً :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم   فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداءً وجرأة   علينا وإقداماً بكل مساءة

(كما تقول القصيدة) فلما لم يسمع له نداء أرسل أسطولا لاغاثتهم وإعانتهم في محنتهم ولكن الشمس كانت الى الغروب

رباط الفتح (المغرب الأقصى) عبد الكريم بن الحسني

تكريم الأزهر للأستاذ الأكبر

أقام الأزهر علماؤه وطلابه في مساء الأربعاء الماضي حفلة تكريمية للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي دُعي اليها ألوف ، وألقيت فيها خطب ، وأنشدت بها قصائد ؛ وكانت الرسالة تود أن تسجل هذه الظاهرة الجديدة في حياة الأزهر لولا أن لجنة الاحتفال أغفلت دعوتها ، لسبب نرجو أن يكون كل شيء غير المروق أو الفسوق . . . . ! !

لوبي دي فيجا

تحتفل اسبانيا بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دي فيجا بمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته ، وفي الأدب الاسباني اسمان خالدان يفوقان في العظمة والبهاء كل اسم آخر : هما سير فانتس دي ساقدرا ، ولوبي دي فيجا ، الأول في النثر والخيال الرائع ، والثاني في الشعر ؛ وقد عاشا في عصر واحد ، ولكن سيرفانتس دي ساقدرا قد غدا اسما عالمياً ، وغدا أثره الشهير «الدون كيشوتي» أثراً من أعظم الآثار العالمية ، هذا بينما يبقى لوبي دي فيجا اسبانياً فقط وينحصر صيته وأثره في الأدب الاسباني ، ولكن لوبي دي فيجا يبذ من هذه الناحية مواطنه ومعاصره ، فهو عميد الأدب الاسباني الحديث وأعظم أقطابه ، وهو لوبي فيلكس دي فيجا ، ولد بمدريد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ ، وربى تربية عسكرية ، وانخرط في سلك الجيش بادئ ذي بدء ، وفي سنة ١٥٨٢ اشترك في الحملة التي بعثتها اسبانيا إلى جزائر الآزور ، وبعد ذلك بأعوام اشترك في الحملة البحرية الكبرى التي جردتها اسبانيا لغزو انكلترا وهي المعروفة بحملة « الارمادا » ، (سنة ١٥٨٨) ؛ ثم انتقل إلى الحياة المدنية ، وعمل سكرتيراً للدوق آلبا (دوق البه) وزير فيليب الثاني الشهير ، واشتغل بعد ذلك سكرتيراً للمركيز ملبيكا . وفي سنة ١٦١٣ دخل الرهبنة وانقطع للنظم والكتابة حتى وفاته في ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥

كان لوبي دي فيجا شاعراً عبقرياً ومؤلفاً مسرحياً عظيماً ؛ وكان يضطرم ابتكاراً وطرافة ، وكان ينثر في شعره كل العواطف البشرية وضاءة ملتهبة من الحب والأسف والغيرة والأمل والحزن والطمع وطموح المجد ؛ وكان شاعر الحقيقة في الوقت نفسه يتنقل بين مراحل الحياة البشرية ؛ وكان أنيقاً في لفظه يتخير التعبير المنسجم ، فيجمع نظمه بين الفلسفة الحية والخيال الساحر والبيان الرائع . وكان تقلبه في ميادين الحياة المختلفة ، من الجندي ، إلى الحياة المدنية ، ثم إلى الحياة الكنسية ، من أكبر عوامل الخصب والتنوع في خياله ؛ وكان يحب مسقط رأسه «مدريد» ويخصها ويخص مجتمعاتها بكثير من نظمه الممتع ، بيد أن لوبي دي فيجا كان شاعر الخاصة ، ولم يغز نفوس الكافة ، ذلك لأنه كان يرتفع عن مستواهم في تفكيره وفي وحيه ؛ أما معاصره وشريكه في

الخلود ، سيرفانتيس ، فقد كان أبعد صيتاً منه فى نفوس الكافة ، لأنه كان أكثر تنزلاً اليهم وأقرب إلى أفهامهم ومشاعرهم

وكتب لوبى دى ڤيجا كثيراً للمسرح الاسبانى ، وكان من أعظم عوامل مجده وازدهاره ؛ وقد بلغ ما كتبه من القطع المسرحية زهاء ألفى قطعة ؛ ولم يتبوأ مكانه فى الأدب الاسبانى بقريضه وأناشيده قدر ما تبوأها بهذا التراث المسرحى الرائع ، وله أيضاً كثير من المؤلفات القصصية ، ونظم كثيراً من الأناشيد والشعر الخالص فى مختلف الفنون والنواحى ، وكان يتبوأ فى عصره ذروة النفوذ ، ويمكن أن نقارن نفوذه الروحى فى عصره وفى أمته بنفوذ ڤولتير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر

وفاة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى

استعز الله بمحدث الشام وعلامة الاسلام الأستاذ الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والد رئيس الحكومة السورية عن تسعين عاماً قضاها فى الاقراء والافتاء والعبادة . وقد عرا الشام من هول مصابه رجفة من الحزن لم تسكن على الصبر والعزاء بعد . وقد نشرنا عنه فى هذا العدد مقالاً للأستاذ الطنطاوى يبين عن فضله ويكشف عن عظم المصاب فيه

اربعون عاما من السينما

فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، أذاع لوى لوميير أنه قد أتم اختراع جهاز ضوئى جديد ينقل صور الأشخاص والكائنات فى حركاتها الطبيعية . وفى شهر ديسمبر من هذا العام أقيمت التجربة العملية الأولى لهذا الاختراع فى البهو الأسفل لمقهى يقع فى البناء رقم ١٤ من شارع الكابوسين ؛ وكان هـذا الاختراع هو السينما ، فاجتمع لشهوده ثلاثة وثلاثون شخصاً ؛ ولم يكن المعروض « فلماً » شائقاً بالمعنى الصحيح ، ولكن مناظر متقطعة من الأشخاص والأعمال

وقد عمل لوى لوميير وأخوه أوجست لوميير بعد ذلك على تحسين هذا الاختراع الذى درسه مخترعون آخرون قبل ولاسيما هنرى ماريه العلامة الطبيعى الشهير . وعاش لوميير ليرى بعينيه كيف نما اختراعه وأضحى أداة مدهشة من أدوات المتعة والثقافة العالمية . وقد تناوله أثناء هذه الحقبة مخترعون عظماء مثل أديسون وتمهدوه بطائفة من الابتكارات المدهشة حتى أضحى من أعظم مدهشات عصرنا

وفى الأنباء الأخيرة أن بلدية باريس قد احتفلت بمرور أربعين عاماً على اختراع لوى لوميير لآلة السينما ؛ وشهد لوى لوميير الاحتفال بظفره بعد أربعين عاماً من تحقيقه ؛ وألقيت خطب بديعة ، وأنعم على المخترع خلالها بوسام الاستحقاق الذهبى

كتاب عن مصر

أخرجت شركة درلانجر للطباعة والنشر فى انجلترا كتاباً جديداً بعنوان « آخر بلاء لمصر » وهو يتضمن تاريخ حياة اللواء رسل باشا حكمدار القاهرة وقصة مكتب المخدرات

مؤتمر المستشرقين

سيعقد فى مدينة روما مؤتمر المستشرقين التاسع عشر بين ٢٣ و ٢٩ من شهر سبتمبر القادم ، وسيمثل مصر فيه الأساتذة طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق

وسيشهده طائفة أخرى من رجال الأدب واللغة فى مصر وفلسطين وسورية ، وقد أسندت وكالته إلى الدكتور كارلو نالينو أستاذ الأدب العربى بجامعة روما وعضو المجمع الملكى للغة العربية بالقاهرة

مجلة الفجر الفلسطينية

توفرت طائفة من شباب العرب فى فلسطين على اخراج مجلة أدبية أسبوعية باسم « الفجر » تصدر عن مدينة يافا

ويقوم على تحريرها نخبة ممتازة من الكتاب فى فلسطين ؛ كالأساتذة محمود سيف الدين الايرانى ، وعارف سليمان العزونى ، والدكتور أبى غنيمة ، وسامى السراج . يعاونهم فى تحريرها من مصر الأساتذة محمود تيمور وابراهيم المصرى ومحمد أمين حسونه ؛ وقد صدر منها عددان دلاّ على نزعة طيبة وجهد محمود

لاحياء ذكرى ليسنج

كانت قد ألفت فى ڤينا قبل الحرب لجنة خاصة للنظر فى اقامة أثر تذكارى كبير للكاتب والنقادة الألمانى الكبير ليسنج ومرت اللجنة بأدوار وأحداث كثيرة ، وتوقفت أعمالها أثناء الحرب ؛ بيد أنها وفقت أخيراً إلى اتمام مهمتها بعد صعاب جمة ، وافتتح الأثر الذى صنعه المثال شارو برسم ليسنج فى حفلة كبيرة جمعت رجال الفن والأدب وأساتذة الجامعة ؛ وخطب رئيس أكادمية الفنون وهو رئيس لجنة الذكرى الدكتور ردليخ فنوه بالعلائق الفكرية التى تربط ليسنج بمدينة ڤينا إذ زارها مرتين ، وأقام بها ردحاً من الزمن ، وكان يحلم فيها بأن يغدو مديراً للمسرح الامبراطورى حيث كانت تمثل رواياته بنجاح مستمر ؛ وأشار إلى أن الأثر الذى يقام للكاتب فى ڤينا إنما يراد به تحية الآراء والمبادئ التى كافح ليسنج من أجلها ، وهى مبادئ الانسانية والعدالة والتسامح ؛ وهى مبادئ تخلو اليوم منها بعض المجتمعات (يشير إلى ألمانيا) . وخطب وزير المعارف النمسوية الدكتور برتر ؛ فأتى على حياة ليسنج ومؤلفاته ، وقال إن النمسا الحالية تكرم فى شخصه ألمانيا العالمية ، وتدلل على أنها مازالت بلد الثقافة الروحية والفن الرفيع ؛ وأنها على أهبة دائماً لأن تكرم النبوغ الفكرى ؛ وأعلن حاكم مدينة ڤينا أنه يضع يده على الأثر باسم المدينة ؛ وأن الميدان الذى يقام فيه سيسمى قريباً بميدان ليسنج

وليسنج كما هو معروف من أكبر كتاب ألمانيا المسرحيين فى القرن الثامن عشر

أثر جديد لجان لوران

نشرت مجلة « الأخبار الأدبية » الفرنسية (نوفيل لتريز) فى أحد أعدادها الأخيرة فصلاً عنوانه « خاتمة مسيو دى بوجرلون » وهو أثر لم ينشر من قبل للكاتب الفرنسى جان لوران ؛ وتتمة لكتاب قصصى بقلم لوران عنوانه « مسيو بوجرلون » ظهر فى سنة ١٨٩٧ ، ولقى فى عصره نجاحاً عظيماً ، وطبع مراراً فى أعوام قليلة ، ولآثار جان لوران قيمة خاصة ، فهو كاتب اجتماعى وافر السحر والطرافة ، وقلما تجد فى الآداب الفرنسية نظيراً لأسلوبه المطبوع أو تصويره الدقيق . وقد امتاز لوران بأنه يصف من المجتمع جوانبه الخفية ، ومثالبه المروعة ، فليس أبدع ولا أروع من قلمه فى وصف أوكار البغاء والرذيلة ، ومهابط الفجور والتدهور الاجتماعى ، وصرعى المخدرات والشهوات السافلة . وقد توفى هذا الكاتب المبدع سنة ١٩٠٦ بعد أن تبوأ فى أدب عصره أرفع مكانة

نادى المثنى بن حارثة

فى بريد العراق أن شباب بغداد أسسوا نادياً بهذا الاسم ، غايته بث الثقافة العربية ، واحياء التقاليد القومية ، واذكاء روح الرجولة فى الشبان بالطرق المشروعة ، ومحاربة كل مايضعف الأخلاق ويوهن الصحة

وفى النادى لجان مختلفة ، منها لجنة الثقافة القومية ، تمهد المحاضرات والخطب والنشرات العلمية ، وتقوم باحياء الأيام والحوادث القومية ، وتكافح الأمية ، وتعنى بالآثار العربية ، وتمد مكتبة منظمة تحوى الكتب العربية المختلفة ، وتتصل بالحلقات العلمية فى البلاد العربية

واللجنة الاجتماعية ، ومهمتها الخدمة الاجتماعية : وتقوم بالارشاد الصحى والاجتماعى والتهذيبى ، وتعالج المرضى من الفقراء ، وتعنى عناية خاصة بالفلاح والعامل وترقية شؤونهما

ولجنة الفنون الجميلة ، وهذه تعنى بالأناشيد العربية والموسيق وتمثيل الروايات القومية والقيام بترقية الرسم والتصوير والنحت والاعتناء بالعربية

واللجنة الاقتصادية ، تأخذ على عاتقها تشجيع المصنوعات الوطنية ، والسعى إلى ايجاد مصانع وطنيـة تقوم باحياء بعض الصناعات الوطنية التى كان لها الشأن الكبير فيما مضى ، وهى تعمل كذلك على ايجاد صناديق للتوفير وغير ذلك من الأمور الاقتصادية التى تحتاج اليها البلاد

ولجنة محيى القرى ، وهى تعنى بايجاد قرية عراقية عصرية كاملة من جميع الوجوه العمرانية والصحية

ثم اللجنة الرياضية ، وتقوم بتشجيع الرياضة والألعاب على اختلاف أنواعها ، من فروسية ورماية وركوب خيل وصيد وسباحة ، وتعنى بصورة خاصة باحياء الألعاب القومية الموروثة

ومثل هذا النادى المفيد يحتاج إلى عون الحكومة ليأمن عوادى الانحلال وجرائر الفوضى ؟

الكتب

رسالة فى الاسلام

بين هيجل ومحمد عبده

تأليف الأستاذ محمد محمد البهى
عضو بعثة تخليد ذكرى الامام

من أولى نتائج الدرس الذى عكف عليه أعضاء بعثة تخليد ذكرى الأستاذ الأمام محمد عبده ، كتيب قيم وضعه باللغة الألمانية الأستاذ محمد محمد البهى ، الذى لا زال يتابع دراسته فى جامعة هامبورج بألمانيا

ويقول المؤلف فى مقدمة كتيبه هذا إن الدافع له على إصداره هو ما رآه فى ألمانيا من أن الناس فيها لا يفقهون الاسلام على حقيقته ، وقد كوّن رأيه هذا بعد استماعه لأستاذه « نوك » Brof. Dr. Noack فى محاضراته عن « فلسفة التاريخ » لهيجل ، وبعد اشتراكه فى مساجلة الأستاذ شتروتمان Brof. Dr. Srtolhmann لتلاميذه فى عدد من المؤلفات عن الاسلام . وبذلك أتيحت له الفرصة ليوازن بين آراء « هيجل » فى الاسلام ، كما جاءت فى كتابه « فلسفة التاريخ » ، وآراء فيلسوف الاسلام الامام محمد عبده ، كما جاءت فى كتابه « الاسلام والنصرانية ، والعلم والمدنية » . وأراد الأستاذ البهى أن يتقدم برسالة فى هذا الموضوع لينال بها الدكتوراه فى الفلسفة ، ولكن غيرته على العلم والدين لم تمهله حتى يستوفى البحث ، فأصدر هذا الكتيب لينفس عن روحه وليطلق فكرته من عقالها ، وكان حقاً موفقاً فى سرد أهم آراء الفيلسوف الألمانى هيجل الخاصة بالاسلام ، وبرغم الاجمال الذى التزمه المؤلف فانه ألمّ بتلك الآراء إلماماً حسناً . فذكر كيف أن الاسلام فى نظر الفيلسوف هيجل ، هو صورة صادقة للعقلية الشرقية ، فهو يجمع بين المتناقضين : المسائل التجريدية والمسائل الواقعية . وأن فكرة الآله عند اليهود هى غيرها عند المسلمين — على حد ما يعتقده هيجل ، فيهوا Jehova هو رب الشعب الاسرائيلى فقط ، أما الله فرب العالمين ؛ ويرى هيجل أن المسلمين يعيشون ويحيون من أجل دينهم وتحقيق مبادئه ، وأن حياتهم الدنيوية ليست إلا وسيلة لبلوغ الآخرة ومافيها من متاع . ولهذا كانت فتوحاتهم العظيمة فى آسيا وأفريقيا وأوروبا . وكان التعصب ضد الكفرة على أشده فى بادئ الأمر ، إلا أنه تراخى بعض الشيء ، فاستعيض عن قتل الكافر بفرض جزية سنوية على شخصه ؛ ومع ذلك لم يكن التعصب فى الاسلام مدعاة تخريب وهدم ، كما هى طبيعة التعصب ، بل كان فوق ذلك مدعاة تشييد وبناء . ثم تدرج المؤلف إلى ذكر رأى هيجل فى أن الاسلام كدين يبرر أعمال العنف والقوة لنشره ، كما برر روبسبير Robespierre أعمال العنف والقوة لبلوغ الحرية ؛ وأن الفردية فى الاسلام من التناقض بدرجة تجعل الحاكم الذى يبنى المجد والعظمة والسيطرة لايتوانى فى أن يضحى بها جميعاً فى سبيل الدين ، وقد لا يلبث إلا قليلاً حتى يستردها دون هوادة ، وأن الخليفة عمر — على حد ما ذكره هيجل — هو الذى أمر باحراق مكتبة الاسكندرية ، بينما الخليفة المنصور كان يجمع العلماء فى مجلسه ويغدق عليهم العطايا ؛ وبحسن معاملته لهم ازدهر الأدب والعلم فى أيامه . ثم ذكر بأن الحريات كانت مكفولة للناس كافة ، لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين طبقة وأخرى ، حتى كان الرجل من رعاع الناس يدخل على الخليفة فى مجلسه فيحدثه مطمئناً عن كل مايريد ؛ ولكن عقب ذلك اعتكف الخلفاء والحكام فى قصورهم وأبعدوا الشعب عنهم ، فانقلب الحال إلى الضد . ويرجع « هيجل » أسباب ذلك إلى أن التعصب الدينى كانت قد بردت حرارته ، فبدأت المفاسد تسود المجتمع ، وأصبح الاستمتاع بملذات الحياة شهوة الناس فى هذه الدنيا ، ثم تراجع الاسلام كما

يقول هيجل إلى أفريقيا وآسيا ، ولم تطقه النصرانية إلا فى ركن ضيق من أوروبا . وتلاشى الاسلام كقوة مسيرة لتاريخ العالم .

ويعترف هيجل بأن الغربيين أخذوا عن العرب مختلف العلوم والفنون والمعارف ، وبخاصة الفلسفة ؛ ويقر فيلسوف الألمان أن الاسلام هو أكبر ظاهرة فى تاريخ العالم

غير أن الأستاذ البهى يرى أن هيجل حكم على الاسلام من خلال أعمال بعض المسلمين . وكان الأولى به أن يرجع إلى مصادر الاسلام وهى : القرآن والحديث وما أجمع عليه الأئمة . وعاب على هيجل طريقته فى البحث ، وقال بأنه (أى المؤلف) لن يكون عادلاً فى حكمه إذا ما نسب إلى الدين المسيحى عداءه للعلم ومحاربته لحرية الفكر ، مستندا فى ذلك إلى بعض الحوادث التى منها :

(١) إعدام (حيباتيا) المصرية Hypatia ، وكانت سيدة من أفذاذ العلماء الرياضيين ، عام ٤١٥ ميلادية أثناء تعقب النصارى للفلاسفة

(٢) إحراق ١٢٢٠ شخصاً بالنار فيما بين سنة ١٤٨١ و١٤٩٩ ميلادية ، وهم أحياء. تنفيذاً لأحكام الرقابة الموضوعة على الكتب وأصحابها

(٣) إحراق جيوردانو برونو Giordano Bruno ، الذى قال بالوحدانية الربانية

(٤) إحراق الكردينال زيمنس Ximenes ٨٠٠٠ مجلد من الكتب العلمية فى غرناطة

إن كل هذه الأعمال لا تؤيدها التعاليم الدينية المسيحية ، وكل بحث يرتكن إلى مثل هذه الأشياء يكون خاطئاً . وهكذا كان هيجل فى بحثه عن الاسلام ؛ واستشهد المؤلف برأى الأستاذ هورتن الذى ذكر فى أحد كتبه : « أن انحطاط المسلمين وعدم قيامهم بأعمال مجيدة سامية لا ترجع الى روح الاسلام ، ولكن إلى سوء تصرف الخلفاء وإلى غيره من الأمور ، ونشأ عن ذلك أضرار عديدة بالدين والعادات وسمعة الاسلام »

ثم ناقش الأستاذ البهى ثمانى مسائل من آراء الفيلسوف هيجل أولها : الفردية فى الاسلام . فهى ليست العمل للآخرة دون سواها ، كما تصورها هيجل ، ولكن العمل للدنيا أيضاً ؛ واستشهد بما جاء فى الذكر الحكيم : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وما جاء فى الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وتكلم فى المسألة الثانية عن الصوم وأن الغرض منه ليس مجرد صحة الأبدان ، بل له غرض معنوى آخر هو إشعار الصائم بوجوب العطف على الفقراء والمساكين

أما المسألة الثالثة فقد حاول فيها الأستاذ البهى أن يثبت بأن الاسلام لم يكن فى كل الحروب التى خاضها إلا مدافعاً عن كيانه . أما فكرة الغزو لاجبار الناس على اعتناق الاسلام ، فليس لها أصل فى الدين . وقد استشهد بآراء هورتن الذى ذكر فى أحد كتبه بأن الحروب الدينية فى الاسلام لم تكن إلا للدفاع عن هجمات الأعداء أو لاخماد فتنة . ولهذا كانت الفكرة القائلة بأن الدين الاسلامى يبرر أعمال العنف والقوة فكرة خاطئة

وعالج المؤلف فى المسألة الرابعة مسألة الجزية على الذميين ، وقال بأن الغرض منها لم يكن إجبار الناس على اعتناق الاسلام بل كانت مجرد ضريبة للمحافظة على أرواح الناس وأملاكهم

أما عن التعصب فى الدين ، وهى المسألة الخامسة فالاسلام لا يعارض العلم ، ولا يعاقب الأحرار من العلماء أو يتعقبهم ، بل دعا الدين الاسلامى إلى الدراسة ، وإلى العلم والمعرفة ، وقد أحيا المسلمون العلماء أياً كانوا ، وأشادوا بذكرهم واحترموهم وبجلوهم ؛ ويكفى أن علماء اليهود فى سورية وعلماء النصارى فى مصر ، كانوا يجلسون مع غيرهم من العلماء فى مجالس الخلفاء والحكام . ولقد نقل المسلمون العلوم إلى بلاد الغرب ، كما أن الاسلام لم يحظر على الناس حرية البحث ، بل ضمن لهم الحرية الكاملة سواء أكانوا من الأولياء أم الأعداء.

أما مسألة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، وهى النقطة السادسة ، فان هذه الدعوى لم تأت فى أى كتاب علمى للتاريخ ، وقد كذبتها دائرة المعارف الاسلامية ، كما كذبها الأستاذ موللر Prof. Müller فى كتابه « الاسلام فى الشرق والمغرب »

وعالج المؤلف فى النقطة السابعة عفاء الدولة الاسلامية ، وقال إن ذلك يرجع إلى أسباب سياسية واقتصادية ، مما ليس له علاقة بالدين ، واستشهد برأى الفيلسوف شبنجلر حيث يقول :

شرح الايضاح في علوم البلاغة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

ذكر جلال الدين الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القزويني أنه ألف كتابه (الايضاح) وجعله على ترتيب مختصره الذى سماه (تلخيص المفتاح) وبسط القول فيه ليكون كالشرح له، فأوضح فيه مواضعه المشكلة، وفصل معانيه المجملة، وعمد إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه (مفتاح العلوم) للامام السكاكي، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر في كتابيه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما — فاستخرج من ذلك كله زبدته، وهذبه ورتبه حتى استقر كل شيء منه في محله، ثم أضاف إلى ذلك ما أداه اليه فكره ولم يجده لغيره، فجمع بهذا أشتات هذه العلوم كلها، واستقامت له فيها هذه الطريقة البديعة التي فتن بها الناس بعده وجاراه فيها كل من كتب في علوم البلاغة الثلاثة إلى الآن

وهو يميل في مختصره (تلخيص المفتاح) إلى طريقة السكاكي في العناية بجمع القواعد دون إيراد الشواهد، ويميل في الايضاح إلى الجمع بين طريقة السكاكي في ذلك، وطريقة عبد القاهر في العناية بإيراد الشواهد، وقد امتاز في إيضاحه على السكاكي في طريقته بحسن الترتيب، وبوضوح العبارة وجريها على الأسلوب العربي، كما امتاز على عبد القاهر بالقصد في إيضاح القواعد على ما يليق بأسلوب الكتابة العلمية

ولكن العلماء الذين أتوا بعد الخطيب لم تعجبهم طريقة (الايضاح) على ما تمتاز به من هذه الميزات العظيمة، وفتنوا أيما فتنة بطريقة (التلخيص) في العناية بجمع القواعد، وإهمال إيراد الشواهد من منظوم العرب ومنثورهم، فوضعوا عليه من الشروح المبسوطة مالا يحصى، ووضعوا على تلك الشروح شروحاً سموها حواشى، ووضعوا على تلك الحواشى شروحاً سموها تقارير، وجروا فيها كلها على إهمال ما أهمله الخطيب في تلخيصه من تلك الشواهد التي لا يستقيم النظر في هذه العلوم إلا بها، فجاء كل ما كتبوه على هذه الطريقة حشواً لا فائدة إلا في القليل منه، حتى أصبحت طريقة غاية في العقم، وغدت دراسة هذه العلوم بها خالية من الثمرة، عاجزة عن تربية الذوق البياني

وقد أحسنت كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر بالعدول عن درس هذه العلوم في التلخيص وشرحه للسعد التفتازاني إلى درسها في الايضاح وحده، ولكن طلاب هذه الكلية يجدون أنفسهم في حاجة إلى الرجوع إلى هذه الشروح والحواشى والتقارير في كثير من مواضع الايضاح في سائر أبوابه، فيضطرون بحكم هذه الحاجة إلى الرجوع إليها كلها، واستيعاب النظر فيها، وتضييع بذلك الفائدة المقصودة من إيثار درس الايضاح عليها

ولا شك أن هؤلاء الطلاب وغيرهم من طلاب هذه العلوم في حاجة إلى شرح على الايضاح يجاريه في طريقته، ويكمل من شواهده ما لم يكمله، ويزيد عليها ماتدعو الحاجة إليه، وينظر في ذلك الحشو الكثير الذى أتخمت به هذه العلوم فيختار منه ما فيه فائدة تتصل بها وما أقل ذلك بينه، ويهمل ما لا اتصال له بها وما أكثره فيه، ويؤدى مع ذلك كله واجب النظر العلمي الحديث في بعض مسائلها، وقد وفق الله واضع هذا الشرح الجديد على الايضاح إلى ما أراده من هذه الأغراض، فجزاه الله عنه خير الجزاء. (ص)

« وإذا كان هيجل قد ختم بحثه عن الاسلام بقوله: «إن قوة الاسلام اختفت كعامل لتكييف تاريخ العالم. . » فعلينا أن نتذكر بأنه يوجد اليوم ثلثمائة مليون مسلم في العالم »

وأعقب الأستاذ البهى ذلك البحث بآراء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الاسلام، مستندا في ذلك إلى كتابه « الاسلام والنصرانية، والعلم والمدنية » — كما ذكرنا في البدء. وإنما نكتفى هنا بالاشارة اليه، ليراجعه من يهمه الاطلاع عليه

ابراهيم ابراهيم يوسف

3 me Année, No. 106. | Lundi-15-7-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــــدد ١٠٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

المبت الذى لا يموت

٢ ـ الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين

تولدت حيوية الامام القوية من جبِلّة أبيه الحرة فى « محلة نصر » ، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية فى « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العلمية فى شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة ؛ فكان سر الوراثة يُجريه فى الاعتقاد على الاخلاص ، وفى العزم على المضاء ، وفى القول على الصراحة ، وفى العمل على الجرأة ، وفى الحياة على التمرد ؛ فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء ، الأرهاصَ فى الأنبياء ، كان لا يفتأ منذ الحداثة يساوره فى كل هم يحاوله ، وعمل يزاوله ، وموضع يستقر فيه ؛ وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ، فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطالب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغى التحول ؛ ولذلك كان الامام لا يُكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمته على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح دخل المعهـــد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء

الـكتب ، فكان وَكْدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الجمود ، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت ؛ وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هـذا العقل المتجدد التمرد إلى العلوم العقلية ، والمعارف العصرية ، والأدب المنتج ؛ ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الـكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الادارية فى الحـكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع ؛ وكانت مقالاته فى (الوقائع المصرية) دستوراً للغة ، ونظاماً للـكتابة ، ومنهاجاً للفضـيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين فى الغضْبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية ؛ وهناك دله ذلك الشعور النبوى فيه إلى ماجره سوء سياسة السلطان ، من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الاخوان ، فوضع دستوراً لاصـلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الاسلام ، ومشروعاً لاصلاح القطر السـورى قدمه إلى والى بيروت ، ولو أخـذت بهما الحـكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهُون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى الافغانى إلى باريس ، ودعا فى (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر

ثم ولوه بعد العفو عنـه القضاء ، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية ، وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعيـة ، وارتجل لهذه من الاصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى ، الدينى والمدنى ، فى إصلاح الأزهر ، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر ، فاذا قلبه على الوضع الذى يريد فقـد وضع الـكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ؛ ولـكن أبالهب وأشياعه فى الجامع وفى القصر أرادوا وأسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته ! !

***

ذلك سر الوراثة الفسلجية عن أبيه القروى الفقير الباسل ؛

أما سر الوراثة الروحيـة عن خاله التقى العارف ، فرجوعه إلى مشارع الدين الصافيـة ، وعقائد القرآن الأولى . قال ذات يوم لخاله : ما طريقتكم ؟ قال : الاسلام ؛ قال : وما وردكم ؟ قال : القرآن . فلم يتَّبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة : أيقظ همه للاسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ؛ وجعل عزمه للقرآن ففاز منه برياض مونقة ، وأعـلام بينة : فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فـكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الـكتاب وسره !

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحـكيم الثائر ، فذلك النفوذ البعيد فى علوم الفلسفة ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والالمام المحيط بثقافة العصر ، والعـلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم ! وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة من روح الله ليعيد كلمته على لسانه ، ويميت شريعته عن قلبه

***

كان الامام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولـكنها انحصرت بحكم الظروف فى الاصلاح الدينى ، فوقفت بين الدين الذى تأخر ، والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلاً بين الجامدين الذين يرون فى تجديده الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييده العلم بالدين رجعية ! فلو أنه عالج الاصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحـكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل

وبعد ، فان فى ميدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الاسلام ومصلح الأزهر ! ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه لاستغفرنا الجهل سبعين مرة ، ولـكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الامام وخليفته ! فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ؟

احمد حسن الزيات

فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

... وهذا مجلس من مجالس الطائشة مع صاحبها ، مما تسقَّطه من حديثها ؛ فقد كان يكتب عنها ما تُصيبُ فيه وما تخطىء ، كما يكتبُ أهلُ السياسة بعضُهم عن بعض إذا فاوضَ الحليفُ حليفه أو ناكرَ الخصمُ خصمَه ؛ فان كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلِّم وحده ، بل فيه نطقُ الدولة .... وفيه الزمنُ يُقبل أو يُدبر

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّول التي تُرْغِم صديقاً على الصداقة لأنه في طريقها أو طريق حوادثها . وكان يسميها « جيشَ احتلال » ، إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوَّأتْ منها ما شاءت على رغمه ، واستباحت ما أرادت مما كان يحميه أو يمنعه . وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلَّ شيء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته ... فهذا ليس مما يُغسل بالماء ولا يكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية ، إنما إزالتُه في إزالة الشَّبح الذي هو يُلقيه أو إطفاء النور الذي هو يُثبته

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية ، والسخريةُ من الحسن الفاتن الذي تقدسه ، تأتي من اشتهاء هذا الحسن ؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدَّساً ... أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط ، أو هو جَعلُ تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه . لا بد من سُفلٍ مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر ؛ فاذا قال رجل لامرأةٍ قد فتنَته أو وقعت من نفسه : « أحبُّك » أو قالتها المرأةُ لرجل وقع من نفسها أو استهامها ، ففي هذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معاني الوقاحة الجنسية ، وكل السخرية بالمحبوب سخريةً باجلالٍ عظيم ... وهي كلمةُ شاعرٍ في تقديس الجمال والاعجاب به ، غير أنها هي بعينها كلمةُ الجزَّار الذي يرى الخروف في جماله اللحميِّ الدهنيِّ ، فيقول : « سمين ... ! »

لهذا يمنع الدينُ خلوةَ الرجل بالمرأة ، ويُحرِّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس ، ويَفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب ، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضِّ البصر ، إذ لا يكفي في ذلك حجابٌ واحد ، فان الطبيعة الجنسيةَ تنظر بالداخل والخارج معاً . ثم يطرد عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته ، إذ هي كلمةُ حيلةٍ في الطبيعة أكثرُ مما هي كلمة صدقٍ في الاجتماع ، ولا يؤكد في الدين صدقَها الاجتماعيَّ إلا العقدُ والشهودُ لربط الحقوق بها ، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارِها في موضعها من النظام الانساني ؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معاني الزوج ، أما أن يكون من معنًى آخر أو يكونَ بلا معنًى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هي وحدها التي تلد ، وما دامت لا تلد للبيع ....

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأةٍ ذكية مطلعةٍ محيطة مفكرة ، تُبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً ، وقد أصبحت بعد سَقطةِ حبها ترى الصوابَ في شكلين لا شكل واحد ؛ فتراه كما هو في نفسه ، وكما هو في أغلاطها

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مُطارَحات العاشقة ، واقتصرنا على ما هو كالاملاء من الأستاذة ....

***

قال صاحب الطائشة : ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه .... حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة . فقالت : إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتنا نحن الى تلميذها القديم ؟

قال : وأبلَغُ من يرد على قاسم اليومَ هي أستاذته التي شبتْ بها أطوارُ الحياة بعده ، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهدٍ بعينه ولم يتتبعِ الأيامَ نظره ، ولم يستقرِ أطوارَ المدنية ؛ فلم يُقدِّر أن هذا الزمن المتمدِّنَ سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله ، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواها بالطبيعة وأقواها بالعلم ، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازلُ ولا تحت الحياة مثلُها

مزَّقَ البرقع وقال : « إنه مما يزيد في الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان في مجموع خلقها — على الغالب —

ما يردُّ البصر عنها » فقـد زال البرقع ، ولـكن هل قدَّر قاسم أن طبيعـة المرأة منتصرةٌ دائماً فى الميْدان الجنسىّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لـكلّ معركةٍ أسلحتها ، وأنها إن كشفت برقع الخزّ فستضعُ فى مكانه برقعَ الأبيضِ والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » فقد زال البرقع والنقاب ، ولـكن هل قدّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تُلبس جسمها ثوباً يكسوه تلبسُه الثوبَ الذى يكسوه ويزينه ويظهره ويحرِّكه فى وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هـذا الموضع اسمهُ . . وهذا الموضع اسمه .. وانظر هنا وانظر هاهنا .. مازادت المدنية على أن فـكـكَت المرأةَ الطيّبة ثم ركّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لنرتبطَ به الزوجَ معنا ، فلم يزد على أن جرَّأنا على الحب الذى فرَّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ ليُعجبها وتعجبَه فيصيرا زوجين ــ إنما تخالط فى هـذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته ، فتـكون طبيعتُه وطبيعتها هى محل المخالطة قبـل شخصيهما ، أو تحت ستار شخصيهما ؟ وهو رجل وهى امرأة ، وبينهما مصارعةُ الدم ... وكثيراً ما تـكون المسكينةُ هى المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهرٍ يُصنع حُبُّه ومجالسُ أحبابه فى « هوليود » وغيرها من مُدُن السيما ، فان رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفةِ والوقار قال : بلادةٌ فى الدم ، وبلاهة فى العقل ، وثِقَل أىّ ثقل . وإن رأى غير ذلك قال : فجورٌ وطيش واستهتارٌ أىّ استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدّين ؟

أخطأ قاسم فى إغفال عمل الزمن من حسابه ، وهاجمَ الدين بالعُرف ؛ وكان من أخش غلطه ظَنُّه العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العُرف هو أن هذا الأخير دائمُ الاضطراب ، فهو دائم التغيُّر ، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة . وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْى ، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا فى جزيرتهم أو محالّتهم أو ناديهم رجلاً يلبس فى حِقْويه تُبّاناً قصيراً كأنه وَرَقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء ، إذا رأوا هذا المتعفِّفَ بخرْقَة . . . . أنكروا عليه وتَساءلوا بينهم . مَن ؟ مَن هذا الراهب . . . . ؟

ونسى قاسم ــ غفر اللهُ له ــ أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرِها فالتى تُفرغ الثوبَ على أعضائها إفراغَ الهندسة ، وتُلْبس وجهها ألوان التصوير ــ لا تفعلُ ذلك إلا وهى قد تغير فهمُها للفضائل ، فتغيرتْ بذلك فضائلُها ، وتحوّلتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروحُ المسجد غير روح الحانة ، وهـذه غيرُ روح المرقص ، وهـذه غير روح المخدع ، ولـكلِّ حالةٍ تلبسُ المرأة لِبْساً فتُخفى منها وتُبدِى . وتحريكُ البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغير صفاتها ، وأين أخلاقُ الثياب العصريةِ فى امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلتْ بمشاعرِ الطاعة والصبر والاستقرار والعنايةِ بالنسل والتفرُّغ لاسعاد أهلها وذويها ــ مشاعرَ أخرى أوّلها كراهيةُ الدار والطاعة والنسل ، وحَسبُك من شرّ هذا أوّله وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلدٌ متَّبع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نَصّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فساد الجاهلة وفساد المتعلّمة أن الأولى « لا تكلِّف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدِّم له أفضلَ شىء لديها وهو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلماتُ ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن لم يكن ذلك إلا بعـد محبةٍ شديدة يسبقها علمٌ تامٌّ بأحوال المحبوب (.....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئاتٍ وألوف ممن تراهم فى كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهرٍ من التعفُّف (؟؟؟؟) . . . »(١)

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر مافى هذا الـكتاب هو فى رأينا خلط وخبط

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ المدنيِّين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لاحدى الفاجرتين: أيتها الجاهلةُ الحمقاء كيف لم تتحاشى ولم تتسترى فلا يكونَ للقانون عليك سبيل؟

وحتى فى هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرفُ الأرنبَ وأذنيها[1] وإلا فمتى كان فى الحب اختيار، ومتى كان الاختيارُ يقع فيما يجرى به القدَر، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . . فتدرس الصفات والشمائل فى مئات وألوف ممن تراهم فى كل وقت لتصفيها كلها فى واحد تختاره من بينهم؟ هذا مضحك!

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ فى هذه الأيام: كفرار بنت فلان باشا خريجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها، ففسِّر لى أنت كلام قاسم، وأفهمنى كيف تكون اثنان واثنان خمسةً وعشرين؟ وكيف يكون فرار متعلمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لا يكون أهلاً لها؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن فى هذا أيضاً، فكثير من المنكرات والآثام قد انحل منها المعنى الدينىُّ وثبت فى مكانه معنىً اجتماعىٌّ مقررٌ، فأصبحت المتعلمة لا تتخوَّف من ذلك على نفسها شيئاً، بل هى تقارفُه وتستأثر به دون الجاهلة، وتلبس له (السواريه)، وتقدِّم فيه للرجال المهذَّبين مرةً ذراعها، ومرة خصرها...

أقرأتَ (شهر زاد)؟ إن فيها سطراً يجعل كتابَ قاسم كلَّه ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيءٌ يُقرأ:

قالت شهر زاد المتعلِّمةُ المتفلسفة، البيضاءُ البضَّة، الرشيقةُ الجميلة؛ للعبد الأسود الفظيع الدميم الذى تهواه: «ينبغى أن تكون أسودَ اللون؛ وضيعَ الأصل؛ قبيحَ الصورة، تلك صفاتُك الخالدةُ التى أحبُّها ... ...[2]»

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

***

(١) يقول العرب: «فلان يعرف الأرنب وأذنيها» أى يعرف الشىء بالعلامة التى تنبئه ولا تتخلف

(٢) ص ١٠٦ من «شهر زاد» للكاتب الدقيق الأستاذ توفيق الحكيم. وقد كتبنا نحن فى هذا المعنى وكشفنا عن سره فى كتاب «أوراق الورد» ص ٥١ — ٥٢ وفى غيره من كتبنا

قال صاحب الطائشة:

فقلتُ لها: فاذا كان قاسم لا يرضيكِ، وكان الرجل مصلحاً دخلتْه روح القاضى، فخلَط رأياً صالحاً وآخرَ سيئاً، فلعل «مصطفى كمال» يعجبكِ من رجل فى تحرير المرأةِ تحريراً مزّق الحجاب والـ ... ؟

قالت: إن مصطفى كمال هذا رجلٌ ثائرٌ، يسوق بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة، ولا يمكن فى طبيعة الثورة إلا هذا، ولا يبرحُ ثائراً حتى يتمَّ انسلاخُ أمتِه. وله عقلٌ عسكرىٌّ كان يمكرُ به مَكرَ الألمان حين أكرههم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) فحوّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات. وليس الرجل مصلحاً ألبتة، بل هو قائدٌ زهَاه النصرُ الذى اتفق له، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة: «أريد. . .» وجعل بعد ذلك إذا غَلِطَ غلطةً أرادها منتصرة، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضةَ دولته، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها، ويأخذ كيف شاء، ويَدَعُهم كيف أحب؛ وبكلمة واحدة: هو مؤلِّف الرواية والقانونُ نفسُه أحدُ الممثِّلين ...

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لا مصلح؛ فان أخصَّ أخلاق الثورة حِقْد الثائرين، وهذا الحقد فى قوة حربٍ وحدها، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة. والرجل يحتذى أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين فى خيرها وشرِّها، ويجعل رذائلهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرّأون هم منها ويُلحقُها هو بقومه، فكأنه يعتنفُ الآراءَ ويأخذها أخذاً عسكرياً، ليس فى الأمر الا قولةُ أُريد. فيكون ما يريد. هو لم يحكم على شبرٍ من أوروبا يجعله تركياً، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنَّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لأيْسَرُ عليه أن يجيء بملائكةٍ أو شياطينٍ من المرَدَة، ينفخون أرض تركيا فيمطُّونها مطاً فيجعلونها قارّةً مِن أن يُكرِه أوروبا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدمِ مسجد. إنه لا يزال فى أول التاريخ، وهذا الشعبُ الذى انتصر به لم تلِدْه مبادئُه ولا أنشأه هَدمُ المساجد وشَنقُ العلماء،

بل هو هو الذى ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعوِزُه إلا القائد الحازم المصمِّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فاذا فُتِنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبياً فهذا شيءٌ آخر له اسمٌ آخر

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر فى انجلترا ، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدوَيلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم يستعِزُّ الرجلُ بدالّته على قومه ويدخله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسفِّه دينَهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الاصلاح فى رأيه . أفتُرَى الانجليزَ حينئذ يضوون اليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا فى الحرب ، ومصلحُنا فى السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . . ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسة واحدة لايكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن العجزَ ممهدٌ من تلقاء نفسه ، والأرض المتخسِفةُ هى التى يستنقعُ فيها الماء فله فيها اسمٌ ورسم ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ ، فاذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! (١)

***

قال صاحب الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لاترين مثل هذا لنفسك ؟

فتضعضعت لهذه الكلمة وتلجلجت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتني الرأى لنفسى ، ووضعتني فى الحقيقة التى لا تتقيد بقانون الخير والشر

قلت : فاذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها فى الرأى وتنصح بالرأى الصائب غيرها ، فيوشكُ ألا يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولا يعود فى المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الاسلامى مع المرأة ، فهو يخلق طبائع المقاومة فى المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيَّل إليها أن السماء عيونٌ تراها ، وأن الأرض عقولٌ تحصى عليها . وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضى قضاءً مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب اغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث فى الراديو له دوىّ فى الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب وغَيرة الرجل وشرف الأهل ، ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنينٌ يكبَرُ ولايزال يكبَرُ حتى يكون عارَ ماضيها وخزْىَ مستقبلها

هذه كلها حُجُبٌ مضروبة لاحجابٌ واحد ، وهى كلها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجابَ الأخير كالسور حول القلعة . ولكن قَبح الله المدنية وفنها ؛ انها أطلقت المرأة حرّة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هى الحرية فى اختيار أثقل قيودها لاغير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ، ولكن بين اللصوص ، كأنك فى هذا لست حراً إلا فى اختيار من يجنى عليك . . . . !

لم تعد المرأة المصريةُ انتصارَ الأمومة ، ولا انتصار الخُلق الفاضل ، ولا انتصار التعزية فى هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة

قال صاحب الطائشة ؛ فضحكت وقلت : وانتصارى . . . ! ؟

طبق الأصل (طنطا) مصطفى صادق الرافعى

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هى فى الدنيا ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يردّ بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب تخذه عمن أخطأ

(١) سنفرد مقالا خاصاً لهذا الالحاد التركى الذبابى . . . . فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، وسنقدمه لقرائنا

حول المســـجد

للأستاذ أحمد أمين

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة انجليزية فضلة ، وكان ذهني مستغرقاً في برنامج « الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية » والمتحدثون — عادة — يلونون حديثهم — ولو من غير شعور — بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم — ومهما بعُد المتحدث عن الموضوع الذي يستولي عليه فسرعان ما يعود إليه ، وينغمس فيه

لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره ، وإذا بنا نتكلم في « التربية والتعليم وشؤونهما » وإذا بي أسأل السيدة :

— ما برنامج الأخلاق والتربيــة الوطنية للمدارس الثانوية في انجلترا ؟

— ليس لهما في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة ، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات ، وأهم ما يقوم بهذه المهمة « الكنيسة » فهي تنظم دروساً للشبان والشوابّ في هذا الموضوع ، ويقوم بها رجالها ، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس في المدارس ؛ وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجمل ، واحتراماً أوفر ، وطعماً أحلى

***

انتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا ، وساءلت نفسي :

ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الاسلامية ؟

إني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة اجتماعيــة هامّة بجانب وظيفته الدينية ، هي الاشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر ، والمشاكل التي تعرض في كل زمن ، كما أن من وظيفته الاشراف على حالة الحي الاجتماعية ، وما يصاب به من بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك ؛ ثم تنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفى الحي ، غير أن المستشفى يداوي الأمراض الجسمية ، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحي ، ويعرف علاجهم ، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي ، يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ومن صحيحهم لمريضهم ، ويقضي على المنازعات والخصومات ما استطاع ، ويثقف الجهلاء ، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً ، يخطبون ويعظون ، ويعلمون ويثقفون — وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة ، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة وبما تقوم به المحكمة ، وبما تقوم به جمعيات الاحسان ، وبما هو فوق هذا وذاك

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل ، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلّم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتفقه فيه في دينها ودنياها ، وترشد فيـــه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني : لأنها بعيدة عن المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها في الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها — لقد حرمت المرأة من المسجد ، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية ، لأن الأم — غالباً — هي مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها ، جمحت وغوت ؛ فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي

هذا هو المسجد كما أتصوره ، وكما ينبغي أن يكون — قوي الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية ، في الرجل والمرأة ، قلوب الحي معلقة به ، يغارون عليه ، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه ، ويرون أنه لهم وهم له ، وأن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه ؛ متعلمو الحي جنوده في نشر الثقافة ، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر ، ونساؤه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد ، فأين مسجدنا منا ، وأين نحن من المسجد ؟

لقد اعتزل الناسَ واعتزله الناسُ ، ولم يشعر شعوراً قوياً بوجودهم ، ولم يشعروا شعوراً قوياً بوجوده

نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته « آثاراً » ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك « آثاراً » فليس يؤمه — مع الأسف — إلا الطبقة الفقيرة البائسة ، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش ،

أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدَّى شعائره إلا القليل النادر ، كأن السينما والمساجد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهي حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير

ووزارة الأوقاف كذلك عدَّت المساجد « آثاراً » ، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء يعاملونها معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألفت في القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ما نشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورحبت السياسة بهذا النظر الأثري إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ، هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشبان مرة والشواب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد في الاسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مُهِمّ ، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع الناس في الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولو سار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني ؟؟ . . إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ؟

في القطار الى (رأس البر) **أحمد أمين**

بين الأسطورة والتاريخ

هل احرق فاتح الأندلس سفنه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين ، لا في التاريخ الاسلامي وحده ، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها ؛ وتعتبر موقعة شذونه أو « مدينا سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الانسانية ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وروائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو في بعض نواحيها وضاءة مشرقة ، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان

ولسنا نعرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه ، ولكنا نعرض لواقعة ترتبط باسمه ، وقد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في لون التاريخ الحق ، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبتة والمضيق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط ، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

(رمضان سنة ٩١) ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ - ابريل سنة ٧١١ م) . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى اسبانيا حتى أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أوالظفر ، ويقطع عليهم كل فكرة فى التخاذل أوالارتداد . فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الاسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة ؛ ولا تذكرها الرواية الاسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الشهير « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس [1] ؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الأدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الاسلامية تمر عليها بالصمت المطبق

وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذى يقال إن طارقاً ألقاه فى جنده قبيل نشوب الموقعة الحاسمة بينه وبين القوط ؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذى مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أبدع نماذج البلاغة العربية ؛ فقد استهله طارق بقوله : « أيها الناس ؛ أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى ، أوبعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحربى الشهير الذى تنسبه الرواية الاسلامية المتأخرة إلى طارق ، لم يرد فى روايات المؤرخين المتقدمين ؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ وذكره ابن قتيبة ، ولم يشر اليه ابن الأثير وابن خلدون ، ونقله المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه [2] ، وهو على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين ؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن ؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً - وهو ما نراه موضع الشك - فانه يمكن تفسيره بأن السفن التى عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطى ، ولم تكن سوى أربع ، وقد عبر الجيش الاسلامى عليها تباعاً فى مرات عدة ، فمن المعقول إذاً أن يعتبر طارق أنه فى حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى إفريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الادريسى ؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع ، فانه لما يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، وليس موقف قيصر فى غاليا أو موقف بونابارت فى إيطاليا فيما بعد بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم)

***

والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق . على أننا لا نعدم أيضاً فى التاريخ الحق أمثلة واقعة منها . ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الامبراطور يوليان فى حملته الفارسية . وكان يوليان مذ جلس على عرش قسطنطينية ، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التى ما زالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة ، وكان مثل الاسكندر المقدونى يحفزه ويذكى عزمه ؛ ففى سنة ٣٦٣ م ، سار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته فى جيش ضخم ، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال ، ثم سار جنوباً بحذاء الفرات ، وسار فى نفس الوقت فى الفرات أسطول رومانى ضخم يحمل أقوات الجيش ؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات ، واجتاح بلاد الأشوريين ، وأشرف على نهر دجلة حيث كان الفرس فى انتظاره فى الضفة الأخرى ؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة ؛ واعتزم الامبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس فى قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس فى عقر أرضهم ؛ وهنا اعتزم الامبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره

(١) راجع « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » طبع رومة ص ١٧٨
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٢

وهى أن يحرق أسطوله الراسى فى دجلة ؛ وفى الحال نفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتياز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمؤونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرمى بذلك الاجراء إلى غاية حربية حكيمة هى ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة فى مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله فى الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليه وعلى المؤن التى يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً فى غزوته ، وقد لقى جزاء جرأته فى نكبة جيشه أمام الفرس وفى مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

* * *

وفى التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح ، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانى يذكرنا بطارق فاتح اسبانيا وما ينسب إليه فى هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز فى الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والعواقب ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت فى ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها ؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هى الأرض ، وما هى الأمم التى يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز فى أسطوله المتواضع الى مياه المكسيك فى سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكيين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم فى الأرض الجديدة ، حتى فكر الفاتح الجرىء فى إعدام سفنه ؛ وأعدمت فى الحال باغراقها ؛ وكان كورتيز يرمى بهذا الاجراء إلى غاية ظاهرة هى ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلا إلى الخور أو أملا فى الارتداد . إما الظفر أو الموت : هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولكن ضرورياً ، حتى لا يجد الباقون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتمى الجميع فى أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر .

ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه فى التاريخ ، لأن الفاتح الأسبانى تقدم فى جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة فى حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً (١)

ومثل هذه الحوادث تبدو فى التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بعدت فى ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفى التاريخ حوادث من نوع مماثل فى شذوذه وروعته ما زالت فى عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثانى سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتزم فى الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما يلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المطلى بالدهن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت فى أيدى الغزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو فى روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذى وقعت فيه ، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا ، وتفهمها بروح العصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير فى روعتها

محمد عبد الله عنان

(١) نرى أن نشير هنا إلى كتاب من أبدع كتب التاريخ هو « فتح المكسيك » Conquest of Mexico بقلم المؤرخ الأمريكى وليم برسكوت ، ففيه عرض بديع لسيرة هذا البطل الفاتح وأعماله العظيمة

التشـــجيع ....

للأستاذ على الطنطاوى

سيدى . . . . . صاحب الرسالة ، أنت
لا تحب الثناء ، ولـكن القراء يحبون الحقيقة ،
فأرجو أن تنشر لهم هذا الفصل «على»

قرأت ما كتب عني وعن كتابى «أبو بكر الصديق» أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات ، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا ، ونبل الأخلاق ، والتشجيع الذى يتفضل به الـكبير على الصغير ، فيسدد به خطواته ، ويأخذ بيده ، ويصب من قوته فى أعصابه ، حتى يقوى ويشتد ويتقدم ، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة فى التشجيع وماله من الأثر فى العلوم والآداب ، وأن أفى للحق والواجب ، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة ، ماله علينا من منّة ، وما للرسالة علينا من يد ؛ وأنا وأصحابى هنا مدينون للرسالة ، بما نجد من قوّة ، وما نحس من نشاط ، ما كنا لولا «الرسالة» نحس منه شيئاً ؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية ، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً ، لا تفرق بين أبناء قطر وقطر ، وبلد وبلد ، ولا تزن الأدباء بالشهرة الواسعة ، ولـكن بالانتاج القيم ، فـكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك ، وسجل الأدب الحديث ، وجعلت من قرائها — وقراؤها كل الناطقين بالضاد — أسرة واحدة ، تجمعها وحدة المبدأ ، ووحدة الغاية . وهل أجل فى اثبات هذه الوحدة ، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعى من فلسطين ، فيعقب عليه آخر من الشام ، ويجيبه ثالث من مصر ، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب فى الموضوع خامس من دمشق ؟ . . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحارى وبحار ، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك ، كالمقعد من المقعد فى الصف الواحد ، يخرج رأى من هنا ، ورأى من هنا ، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل ، وينطق بالكلمة الحاسمة وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة !

***

أشكر للأستاذ هذه السنّة التى يتبعها فى تشجيع صغار الأدباء ، والأخذ بأيديهم ، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم ، وسبب النجاح ؛ وقد قرأت مرّة أن مجلة انكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذى يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة ، فكانت الجائزة لـكاتبة مشهورة قالت : إنه التشجيع ! وقالت : انها فى تلك السنّ ، بعد تلك الشهرة والمـكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضى إلى الامام وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير

وإن من أظهر الأسباب فى ركود الأدب فى الشام فى القرن الماضى ، وانقطاع سبيل التأليف ، هو فقدان التشجيع ، وذلك «الاحتكار العلمى» الذى قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم ، وخنق كثيراً من العبقريات المهيئة للظهور ، فقد كان العلم فى الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة ، لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها ، هى : بيت العطار ، والحمزاوى ، والغزى ، والطنطاوى ، والشطى ، والخانى ، والـكزبرى ، والاسطوانى ، والحلبى . . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائيـة ؛ فى القميرية والعمارة ، وزقاق النقيب ، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائرى رحمة الله عليه وعليهم ؛ وكان لهذه البيوت كل معانى الامتياز و «الاحتكار العلمى» ، فاذا سُمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت ، وقدروا فيه النبوغ ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة ، بذلوا الجهد فى صرفه عن العلم ، والعدول به إلى التجارة ؛ أوليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت ؟ أوليس للولد ولاية المهد فى وظيفة أبيه ، تنحدر اليه الأمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً ، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار ، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على «حوانيتهم» ؟ أو لا يكفى أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذى يمن به عليهم هؤلاء العلماء ؟ . . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل الى العلم ، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد ، والعقل الراجح ، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه — وكان أبوه امرأً تاجراً — ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم ، وجعلوا يكلمونه ،

ويرسلون اليه الرسل ، ويكتبون اليه الكتب ، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً ، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك ، ابن عابدين صاحب « الحاشية » ، أوسع كتاب فى فروع الفقه الحنفى

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة محمد بك كرد على عن العلم ، فبعثوا اليه بشقيقين من آل . . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما ، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً – فما زالا بأبيه – ولم يكن أبوه من أهل العلم – ينصحانه أن يقطعه عن العلم ، ويعلمه مهنة يتكسب منها ، فما فى العلم نفع ، ولا منه فائدة . . . ويلحان عليه ويلازمانه ، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا ، الأستاذ كرد على أبو النهضة الفكرية فى الشام وقائدها ، ووزير معارف سورية [1] ومفخرتها ، والذى من مصنفاته : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، والمحاضرات ، وغابر الأندلس وحاضرها ، والادارة الاسلامية ، والاسلام والحضارة العربية . . . والمقتبس . . . ومن مصنفاته : « المجمع العلمى العربى بدمشق » ، ومن مصنفاته هؤلاء : « الشعراء والكتاب من الشباب » !

ولعل فى الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد على . وهاهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخارى مات وماله مصنف رسالة فما فوقها ، على جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وقوة قلمه ، وشدة بيانه ؛ وسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة فى المنطق ، كتبها بلغة سهلة عذبة ، تنفى عن هذا العلم تعقيد العبارة ، وصعوبة الفهم ، وعرضها على شيخه ، فسخر منه وأنبه ، وقال له :

أيها المغرور ! أبلغ من قدرك أن تصنف ، وأنت .. وأنت.. ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة . . فكانت هى أول مصنفات العلامة البخارى وآخرها !

وقد وقع لى أنى كنت فى المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر ، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها ، وأبدل كلماتها ، وأدعيها لنفسى ، كما يفعل اليوم بعض الأدباء « التراجمة » حين يترجمون الكلمة الانكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً ، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو « السارق » ! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع . . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها ، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق ، حتى إذا اجتمع عندى كثير من القطع ، عرضته على أستاذ العربية ، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى اسماعيل حتى أفندى ، يعلمنا النحو العربى باللسان التركى ! فلما قرأه سخر منى وسبنى وتهكم علىّ ، وجاء من بعدُ أخى أنور العطار — فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع ، عرضه على الأستاذ كرد على رئيس المجمع العلمى العربى ، فأقام له حفلة تكريمية !

فكانت النتيجة أنى عجزت عن الشعر ، حتى لَنَقْلُ البحر بفمى أهون علىّ من نظم خمسة أبيات ، وأن أخى أنور العطار غدا شاعر الشباب السورى ، وسيغدو شاعر شباب العرب !

***

وأول من سنّ سنة التشجيع فى بلدنا هو العلامة المرحوم مربى الجيل الشيخ طاهر الجزائرى ، الفيلسوف المؤرخ الجدلى ، الذى من آثاره المدارس الابتدائية النظامية فى الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد على بك ، وخالى الأستاذ محب الدين الخطيب . . . . ومما كتب فى ذم التثبيط :

« . . . وقد عجبت من أولئك الذين يسمون فى تثبيط الهمم ، فى هذا الوقت الذى يتنبه فيه الغافل . . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم نرَ أحداً من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم ، فينبغى للجرائد الكبيرة ، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه المادة ، والتحذير منها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم »

وكان الشيخ فى حياته يشجع كل عامل ، ولا يثنى أحداً عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرنى أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو فى ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غير ممكن . فتفل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

---

(١) سابقا

ثم ان التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؛ ورب ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء ، أو أديبا من أعاظم الأدباء ! وفى علماء القرن الماضى فى الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الافتاء ، وكرسى التدريس تحت القبة .

نشأ الشيخ محمد اسماعيل الحائك عامياً ، ولكنه محب للعلم ، محب للعلماء ، فكان يحضر مجالسهم ، ويجلس فى حلقهم للتبرك والسماع ، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس فى الصف الأول ، فجمل الشيخ يؤنسه ويلطف به ، لما يرى من دوامه وتبكيره ، ويسأل عنه إذا غاب ، فشد ذلك من عزمه ، فاشترى الكتب يحيى ليله فى مطالعة الدرس ، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة ، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة ، وصار واحد زمانه فى الفقه والأصول ، وهو عاكف على مهنته لم يتركها ؛ وصار الناس يأتونه فى محله يسألونه عن مشكلات المسائل ، وعويصات الوقائع ، فيجيبهم بما يعجزعنه فحولة العلماء . وانقطع الناس عن المفتى من آل العمادى فساء ذلك العماديين وآلمهم ، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشر ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً ، فقد كان يحيا من عمله ، ويحيا الناس بعلمه ، وكان يمر كل يوم بدار العماديين فى « القيمرية » وهو على أتان له بيضاء ، فيسلم فيردون عليه السلام ، فمر يوماً كما كان يمر ، فوجد على الباب أخا للمفتى ، فرد عليه السلام ، وقال له ساخراً :

ـ إلى أين يا شيخ ! أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتى بولاية الافتاء ؟ وضحك وضحك من حوله ، أما الشيخ فلم يزد على أن قال :

ـ إن شاء الله !

وسار فى طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار فى الأزقة حتى عاد إلى داره ، فودع أهله ، وأعطاهم نفقتهم ، وسافر !

وما زال يفارق بلداً ، ويستقبل بلداً ، حتى دخل القسطنطينية فنزل فى خان قريب من دار المشيخة ، وكان يجلس على الباب يطالع فى كتاب ، أو يكتب فى صحيفة ، فيعرف الناس من زيه أنه عربى فيحترمونه ويجلونه ، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعدُ . . . فكانوا يعظمون العربى ، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذى اهتدوا به ، وصاروا به وبقومه ناساً . . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه ، فقال له يوماً رجل منهم :

ـ إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدو لها جواباً ، والسلطان يستحثهم وهم حائرون ، فهل لك فى أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب ؟

قال : نعم

قال : سر معى الى المشيخة

قال : باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها) ، فسأله الشيخ اسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء ، ولم تكن هيئة الشيخ بالتى ترضى ، ثم ألقاها اليه وانصرف الى عمله ، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التى كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس ، فاستخرج منها قصبة فبراها ، وأخذ القط فقطها ، وجلس يكتب الجواب بخط نسخى جميل حتى سود عشر صفحات ما رجع فى كلمة منها الى كتاب ، ودفعها إلى الناموس ، ودفع اليه عنوان منزله وذهب . فلما حملها الناموس الى شيخ الاسلام وقرأها ، كاد يقفى دهشة وسروراً

ـ وقال له : ويحك ! من كتب هذا الجواب ؟

ـ قال : شيخ شامى من صفته كيت وكيت . . .

ـ قال : على به

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يدخل على شيخ الاسلام ، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره ، منحنياً ، ثم يمشى متباطئاً حتى يقوم بين يديه . . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التى نسيها الشيخ ، ولم يحفظ منها شيئاً

ودخل على شيخ الاسلام ، فقال له :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ، وذهب فجلس فى أقرب المجالس اليه . وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الاسلام سر بهذه التحية الاسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له :

ـ سلنى حاجتك

- قال : إفتاء الشام وتدريس القبة

- قال : هما لك . فاغدَ على غداً !

فلما كان من الغد ذهب اليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب أتانه ودار حتى مرّ بدار العاديين فاذا صاحبنا على الباب ، فسخر منه كما سخر وقال :

- من أين ياشيخ ؟

- فقال الشيخ : من هنا ، من اسطنبول . أتيت بتولية الافتاء كما أمرتنى

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالى بالفرمان ، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله فى حفلة حافلة

***

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطاً فى سوق السكية على باب الجامع الأموى ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس فى الحلقة التى تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه ، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدى الشيخ فى الحلقة ، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله ، حتى صار مقدماً فى كافة العلوم

فلما مات الشيخ حضر فى الحلقة الوالى والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فاذا هو فى دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له . فعيّن مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة فى احفاده إلى اليوم (١)

على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور ، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أنى أهل لكل ما تفضل به علىّ الأستاذ من النعوت ، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله ، وأشكر للأستاذ الزيات باسمى واسم إخوانى هنا ، أياديه علينا وعلى الأدب العربى ، الذى سمت وتسمو به « الرسالة » !

على الطنطاوى

(١) ومدرس القبة الرسمى اليوم شاب أوربى الزى ، أوربى اللسان ، أوربى الزوجة . لا يدخل المسجد مرة فى العام ، ولكنه مدرس القبة !

٤ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية

انتشر الاسلام بين الأمم فدخل الناس فى الاخوة الاسلامية وصاروا أمة واحدة ، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم ، لا يكتبون غيرها

ولما حييت لغاتهم على مرّ الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربىّ الذى ألفوه ، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى . ولم يخسروا فى هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاّتها أوضح وأيسر مما كان عندهم

— ١ —

كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، وهو مشتق من الخط الآرامىّ القديم ، والخط الفهلوى مبهم مشكل . قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ما قاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار ، يعنى أنه خط يخفى الألفاظ . ذلك بما تشابهت حروفه ، وبما اشتركت الأصوات المختلفة فى بعض الحروف . وقد أدّى هذا اللبس الى مالم يعهده التاريخ فى لغة أخرى . كان الكتاب يكتبون كلمة آرامية مكان كلمة فارسية خوفا من اللبس ، فاذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارســـية غير المكتوبة ، وتركوا الآرامية المكتوبة . روى عن ابن المقفع أنه قال : إن فى اللغة الفهلوية ألف كلمة تقرأ ولا تكتب . وروى ابن النديم فى الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلمة « بسرا » الآرامية ويقرءون گوشت (لحم) بالفارسية ، ويكتبون « لهما » الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية

ولم تكن الألفاظ الآرامية مقصورة على ما يستعار من لغة الى أخرى من الأسماء ، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات . وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوى ندر القارئون فى ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا ، وللأخوة العامة التى أدخلهم الاسلام بها حين مدّ ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

— ٢ —

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أميـــة لا تعرف قراءة ولا كتابة ، وتسربت الى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة . كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر فى القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس ، وكتب بالحروف اليونانيـة . وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية فى جهات الطونة ، وكذلك كتبت التركية بالعبرية ، والنسطورية ، والهندية ، والسلافية ، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدا كتابة تركية . وهما الخط الأورخونى الذى دلت عليه الآثار التى عثر عليها حوالى نهر أورخون فى سيبريا ، والخط الأويغورى . والأول كتبت به تركية الشمال ، وبالثانى كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخونى فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامى القديم . وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادى الى القرن الثامن . وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً ، أربعة منها حروف حركة ، وثلاثة منها مركبة . ويوصل به غالباً كلمتان أو ثلاث معاً . وأحياناً يستغنى بالحرف من الكلمة فتكتب (ت) للدلالة على آت (فرس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا . ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربى وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغورى وهو أحدث الخطين ، وأطولهما عهداً ، وأوسعهما انتشاراً ، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادى . كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية ، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك ، بعد أن دخلوا فى الاسلام فكتبت به الدولة الخاقانية فى كشغر (٣٢٠ ـ ٦٠٩ هـ) والدولة الجنكيزية ، والايلخانية (٦٥٤ ـ ٧٤٤) ودولة آلتون أوردو فى قفجاق (٦٢١ ـ ٩٠٧) . وكتبت به بعض الكتب الاسلامية حتى القرن العاشر الهجرى . وهذا الخط مشتق من الخط الصُغْدى والصغدى مأخوذ من الآرامية أيضاً ، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة . وهو من

اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربى أيضاً .

فكان من نعم الاسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربى الذى صار خط الأمم الاسلامية جمعاء . ثم الآثار القليلة التى أثرت فى الخطين الأورخونى والأويغورى فى بقاع ضيقة ، وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربيـة فى العهد الاسلامى إذ أفاد الترك من الحضارة الاسلامية ، ودخلوا فى جماعة المسلمين ، وتمكن سلطانهم بينهم

— ٣ —

والتركية العثمانية التى اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف فى تاريخها غير الحروف العربية ، ولم تدوّن إلا فى ظل الحضارة الاسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة

دخل السلاجقة فى الاســلام ثم أقاموا دولتهم فى القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة ٤٤٧ ، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط . ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة ســلاجقة الروم وهى التى نشأت فى الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسى فى القرن الخامس قد ازدهر بجانب الأدب العربى ، فأخذ السلاجقة حضارة الاسلام باللغتين العربية والفارسية . فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين . وكان الأدب التركى مقصوراً على العامة ، غـير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية

وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

— ٤ —

وكانت الكتابة التركية فى عهدها الأول تقارب الأسلوب العربى لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلا . ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم . ثم انتهى الأمر فى العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة فى كل كلمة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية : كل حرف صحيح يليه حرف معتل للدلالة على الحركة

فاذا قرأنا مثلاً فى ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومى وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق : أل (هـذا) كُرُ (يرى) بقمز (لا ينظر) كُنَش (الشمس) الُر (يكون) أيقُدا (فى النوم) أجَر (يطير) ، فاذا قرأنا فى كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق : أول ، گوروو ، باقماز ، گونَش ، أولور ، أويقوده ، أوچار

وإذا قرأنا فى الكتب التى كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة فى كل مقطع . فاذا نظرنا فى الكتب التى كتبت من بعد وجدنا اطراد حروف الحركات فى مقاطع الكلمة . كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى :

نمز (نظيف) آرقداش (أخ) كنيش (واسع) دها (أيضاً) گبى (مثـل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) گوزل (ظريف)

فصارت بعد كما يأتى :

نه ميز (الهاء علامة الفتحة الخفيفية) أرقاداش ، گه‌نيش داها ، گيبى ، قادار ، ده كيل ، ده رين ، گوزه ل

وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واصلين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم ، ولكنهم آثروا ، إنفاذاً لخطتهم ، أن ينبذوا الحروف العربية ، وهى الحروف التى يكتب بها مسلمو العالم كافة ، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والايطالية فبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين .

ولست أقول ما قاله أحـد كبراء الفرس لأديب تركى يناظره فى الحروف اللاتينية : « إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته فى كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا » لست أقول هذا ففى الأدب التركى القديم ما هو جدير بالرعاية ، وقد افتنّ الترك فى تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه

مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحا ولكنها فتنة من فتن تقليـد أوروبا التى ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان ، وقد بلغ الأمر أن يرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية ، فاذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربى ليست فى الحروف

اللاتينية ؟ قالوا نضع لها حروفاً لاتينية بالتركيب أو النقط . فياسبّة الأمم ، وعار الأجيال ، وموتى النفوس ، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين فى حروف اللاتينية ، ولا تكملون ما فى حروفكم من نقص ، وتصلحون ما بها من عيب ؟ جرى الجدال بينى وبين واحد منهم فكان منه الحوار الآتى :

قلت : كيف تكتب ، خاشعاً وخاضعاً ، بالحروف اللاتينية ؟

قال هكذا : Khash,i و Khad,i فأركب K ، H للدلالة على الخاء ، و S ، H للشين وأضع مدا على A وأدل على العين بالحرف i مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون

قلت فلماذا كل هذا العناء ؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل فى الحروف اللاتينية ، أترى هذا أيسر وأبين من خاشع وخاضع ، قال : لا، ولكن الكلمتين بالخط العربى خاليتان من حروف الحركة

قلت : فضع كسرة تحت الشين والضاد . وهذا حسبك ، بل لست فى حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركاتها . قال هذا صحيح فى هذا المثال ، فما بال الكلمات الأخرى . قلت : صدقت فهلمّ نتناول الموضوع على عمومه

ــ ماذا تنقمون من الكتابة العربية ؟

ــ ننقم منها أنها كتابة لاتبين عن الألفاظ ، فهذه الصورة « حسن » تقرأ حَسَن ، وحُسْن ، وحَسُن ، وحَسَّن ، وحُسِّن . . . الخ

ــ قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولا مشكوله ، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض ، ثم وجدوا الحرف الواحد فى أكثر حالاته مبهم الحركة ، فشكلوا الحروف فتعينت الحركات ، واستبانت الألفاظ ، وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة ، فما زال بها الاختراع ، والتجميل والتجويد حتى بلغت جمالها الحاضر ، وتعددت الخطوط ، وجعل لكل مقصد ضرب يواتيه ، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها . فإن كنتم يارجال القرن العشرين أحياء قادرين على الابداع ، أباة آنفين من المحاكاة ، وإن تكن عقولكم غير سقيمة ، وقرائحكم غير عقيمة ، فانظروا فى كتابتكم ، فان رأيتم عيبا فأصلحوه ، وإن آنستم نقصاً فأكملوه ، ولا تكونوا فى عصور العلم ضلالاً ، وفى نور القرن العشرين ظلالاً ، أدخلوا فى الكتابة حروف الحركة إن شئتم ، أو افعلوا غير ذلك إن استحسنتم ، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال العقول ، وهوان النفوس ، والموت الذى لا يستره باطن الأرض

ثم لا تنس يا أخى أن اللغة العربية لغة أوزان وصيغ ، فليست كل كلماتها فى حاجة إلى الشكل ، ولو اتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربى يستطيع أن يكتب سطوراً لايحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة ، وقد ضربت مثلاً من هذا فى مقدمة الشاهنامه

ــ هب ما قلت صواباً ، فماذا ترى فى شكاوى أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية : للحرف صورة فى أول الكلمة وأخرى فى وسطها وثالثة فى آخرها ، على حين لا يرى الطابع الأوربى أمامه للحرف إلا صورة واحدة

ــ بل صورتين صغيرة وكبيرة

ــ أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية

ــ هذه الشكاوى هى شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال ؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد ، ليأخذ كثيراً ويعطى قليلاً ، وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة ، ثم أخبِرْنى : ما الذى جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة ؟

ــ صور هذه الحروف ، ثم فصل بعضها من بعض

ــ قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولاتزال توصل فى كتابة اليد ، فلما كانت المطابع استحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض ، فما الذى يمنعكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف فى المطبعة إلا صورة واحدة ؟

ــ هذا يبدو لى صواباً ولكنه عجيب غريب

ــ أعجب منه أن نفكر فى كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية . قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً ، والاختراع مهما قل عجيباً غريباً

ــ لا تنس أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطوت المسافات بين أطراف الأرض . والأمم صائرة إلى التوحيد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية ؟

ــ أجل قرّبت العلوم والمخترعات بين الأمم ، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس ، ولا تزال تفرّق بينهم بأتفه الأشياء وهى الألوان . والتوحيد الذى تريده أوربا أن تكون هى آكلة

ونحن ما كولين . وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن . وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية ؟ ان أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة . ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا ، بل لأن هذه حروفهم وتلك حروفنا . وسيشترك فى السخرية من لم ير الحروف العربية قط . ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة ؟ وهل استعملوا الحروف التى اتفقوا عليها بأسلوب واحد ؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير فى الجامعة المصرية كتاب من جماعة فى أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية فى العالم ، فسألنى رأيى فيما يجيبهم به فقلت ان كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فاذا صار الرومىّ واليونانى والألمانى والفرنسى والانكليزى والاسبانى الخ يكتبون بحروف واحدة ، وأجمعوا فى كتابة هذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر فى الأمر

وبعد ، فاللغات يا أخى مهما أحكمت كتابتها ، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين . تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة . وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الانسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها ، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعانى من النقوش دون توسط الألفاظ . وإذا أسرع القارئ سلط عينيه على المكتوب وقصّر لسانه عن مجاراة عينيه ، ثم يا أخى هل بلغت الحروف اللاتينية التى فتنتم بها درجة الكمال ، وبرئت من العيوب ؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه C ، k ، q ، والحرف الواحد يدل على أصوات مختلفة فالحرف c يلفظ مرة ك وأخرى س ، و s يكون س حيناً وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية ، وهى أدق الكتابات الأوربية ، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة فى الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل palais و pose, palet و pot, pause و pau, pean و Choud, Chaux و Crét, Craie . فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة . وكم فى الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى فى الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الانكليزية ، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل ، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل daughter و night laugh, nerghbour wright . ولو قرأ قارئ الكلمات الانكليزية كما تدل عليها حروفها مافهم عنه أحد ، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً انكليزياً عن اسمه أو اسم شارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والامبراطورية الانكليزية ، مع هذا ، لم تضمحل بهذه الكتابة ، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من العيّابين الطعّانين فى الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الاملاء الانكليزى أو تنبه إلى عيوبه . وذلك بأن الحروف العربيـة لا تحميها امبراطورية ولا أساطيل ، نعوذ بالله من ضعف الهمم ، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهى أيسر كتابة . لا تملى على صبىّ كلمة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة . وهى كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يساير خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول ، وهى فى جملتها أوضح من كتابة اليد فى اللغات الأوربية . قال لى مستشرق ألمانى كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وحذق كثيراً من لغات أوروبا :

« ما أشكل علىّ قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل على وعلى غيرى مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية »

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين . قال لى طبيب كبير من أطباء العيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبى واسع . وما بكم صعوبة الحروف العربية ، ولكن الغرام بمتابعة أوربا ، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم . ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة ، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم . إن المريض يكثر التحدث عن صحته ، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة ، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذى شرب به قد أضرّ به ، أو أن الطعام الذى طعمه لم يلائمه . فكذلك أنتم تخلعون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرهما وإنما الداء الدوىّ فى أنفسكم ، والعلة القاتلة فى سرائركم

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

المؤتمـــر الثامن

للجمعية الطبية المصرية بدمشق

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمى العربى

مطالب جليلة ، ورغائب جميلة ، وقلوبٌ كبيرة نبيلة ، إلى معارف شبيبةٍ مثقفـــةٍ ، ومدارك كهولةٍ ممحصة ، وتجارب شيخوخة محنكة ، مع كثيرٍ من الخيرات والبركات ، قد حل دمشق أولئك جميعاً بحلول رجال المؤتمر الطبى الثامن فيها

أجل تغيرت بهم فى دمشق أحوال المجتمع والحياة ، فأصبح مؤتمرهم حديث الأندية ومَلهجَ الألسنة ، فلم يبق فى أحياء الفيحاء من لم يتحدث به من الرجال والنساء ؛ وتبدلت كذلك فنادق دمشق بأبهائها وموائدها وبما قام فوق صروحها من خُضر الأعلام المصرية الزاهرة بأنجمها الثلاثة وهلالها خفاقةً إلى جانب تلك الأعلام الشامية الزاهية بألوانها الأربعة وجمالها

ويا حبّذا يوم نشاهد هـــذه الأعلامَ العربية بلغة أبنائها وبلدانها ، تَقر عيوننا بكثرة أنواعها وألوانها فيتماوجُ غداً على المؤتمرات العربية فى دمشق : العلم المصرىُّ والشآمىّ والعراقىّ والحجازىّ واليمانىّ والبرقى(١) والتونسى والجزائرى والمراكشى ، وتمازج فيها لهجات العرب المنتشرة فى أقطار هـذه الأعلام ، فيتألف من مجموعها لحنٌ عربىّ ندىٌّ يرتفع له حجاب السمع ، ويهتزُّ له شِغاف القلب

بل قل ما أسعدَ ذلك اليومَ الأغرّ المحجّل الذى نرى فيـه للأقطار العربية المتحدة — والقاهرة (وَشِنْطونُها) يومئذٍ — علماً عربياً واحداً ، ونسمع لها فيه نشيداً عربياً واحداً ، كما نرى اليوم أبناء العالم الجديد لولاياتهم المتحدة الأمريكيـة لواءً وطنياً واحداً ، ويسمعون فى جميع أنحائها نشيداً قومياً واحداً !!

عيدان أظلا دمشقَ واجتمعا للدمشقيين فى يوم واحد ، وعلى صعيدٍ واحد : عيدُ المولد النبوىّ ، وعيد المؤتمر الطبىّ ، فـكأنما اندمجت بذلك ولادةُ هذه الأمة الدينية الغابرة ، بولادتها السياسية والدنيوية الحاضرة ! فليس اليوم فى الفيحاء إلا قلوب تخفق لذكرى ذلك النبىّ العربىّ العظيم الذى أحيا من هـذه الأمة مواتَها ، وجمع بعد صدع النوى شتاتها ؛ وليس فيها اليوم إلا قلوبٌ طاهرة وعقول ناضجة ، تفكر فى إحياء هذه الفصحى المحبوبة وإزالة بلبلتها بتوحيد لغتها العلمية ، وإعادة عزتها بجمع كلمة أبنائها ؛ وليس فيها كذلك إلا حفـلات وولائم متتابعات فى قصر أمية والقصر الملـكى ، وردهة محاضرات الجامعة ، وحـديقة الأمة الرائعة ، ورياض الغوطة الفيحاء ، وربُى بلودان الشماء

كذلك تبدّلت بالمؤتمر الثامن فى دمشق لهجـةُ صحافتها ، فذهلت بنشر أخباره جريدة (الأيام) عن صراحتها ، و(القبس) عن معارضتها و(الجزيرة) عن ميثاقها ، و(ألف باء) عن اعتـدالها ، و(فتى العرب) عن كفاحه ، و(الشعب) عن طماحه ، و(المضحك المبكى) عن ظريف هزله ومزاحه

إن هذا المؤتمر — وهو دليلُ يقظة الأمة العربية وبرهانُ رشدها الاجتماعى — ليرمزُ إلى شعورها بقوتها الـكامنة اليوم ، وبقدرتها الفاعلة غداً ؛ ولذا ورد على من خبر انعقاده فى دمشق ما خفف من بث قلبى الملتاع بتشتت هذه الأمة ، والمرتاع لمصيرها المظلم ، فشعرت لعمرى به شعور الأمل الحالم اغتبط بتوهم الحقيقة ، والهائم الحائم على مواقع القطر ابتهج برؤية أمنيّته فلمع نور البشر فى غرّته

ولِمَ لا أغتبط — ليت شعرى — ولا أبتهج ، أو لا تقلبني نشوة الطرب ، وبعيني رأيتُ حسن ذلك الخيال مجسماً ، وبأذنى سمعت لحن ذلك الوصال مرنماً ، فى بعض مجامع المؤتمر(١) من عتاب الأحباب على الهَجْر ، والأقرباء على الجفاء ، وجيرة المنازل والديار ، على تناسى حقوق الجوار ؛ والجوار — عمركَ الله — رحمٌ شابكة وصلة واشجة ؟ وكان ممـا استرقته الأذن من قول أديب شامىّ لطبيب مصرى وهو يعاتبه :

— « إن لم تنضموا إلينا فضمونا إليكم ، فما كان لحواجز الاستعمار أن تقوى على فصم عرى الجوار ؛ ألسنا نحن الشاميين نشارك إخواننا المصريين فى أفراحهم وأتراحهم ؛ أما كنا نفرح بالأمس لسعد ، ولفوز سعد ، وأنصار سعد ؛ ألم تُرمض جوانحنا « سيشل » بذكراها ، وتقض مضاجعنا « دنشواى » ببلواها ؛ أو لسنا نشاركـكم اليوم فى نعيم الواحى (الراديو) فنطرب أمثالكم لألحان أم كلثوم وعبد الوهاب ، مثلما نساهمكم فى العلوم والآداب

(١) نسبة إلى برقة أى طرابلس الغرب

(١) على مائدة القصر الملكى — أوريان بالاس — فى وليمة مديرية الصحة العامة .

بسماع الآيات والخطب والمحاضرات ؟

أو ليس علماؤكم فى الأزهر والجامعة علماءنا ، وأدباؤكم من الكتاب والشعراء أدباءنا ، وتاريخ القطرين الشقيقين يكاد يكون واحداً ، ومطالعاتنا اليوم فى الكتب والمجلات والصحف المنشرة ، تكاد تكون واحدة أيضاً ؟ أولا تعلم أن « الرسالة » يقرأها فى دمشقنا هذه جمهرة العلماء والأدباء من الجنسين المنيف واللطيف على السواء ؟ »

وكان الطبيب المصرى يجيبه على أسئلته هذه العذبة الرقيقة بقوله :

— بلى ، بلى ، ونحن لكم اليوم يا أخى كذلك ، وفوق ذلك

فهذا الحديث وأمثاله هو من بعض بركات المؤتمر المصرى على العرب والعربية معاً . ومن أعن تلك البركات المأثورة العزمُ على توحيد المصطلحات العلمية ؛ فى جلستها الخطيرة بحث الخطباء فى تاريخها وطرق وضعها ووسائل توحيدها ، وقد أشار كاتب سر المؤتمر الحكيم الدكتور عبد الواحد الوكيل فى فاتحة الجلسة إلى أن الجمعية الطبية المصرية قد اهتمت فى جميع مؤتمراتها السابقة بتوحيد المصطلحات الطبية ، فكان كل واضع يتعصب لوضعه فخرجنا من مؤتمراتنا كلها بدون فائدة ؛ ويجب الآن بعد تكوين المجمع اللغوىّ الملكى مع وجود المجمع العلمى الشامى أن نخرِجَ هذه القضية من أيدينا إلى المجمعين

وقد شجعت جمعيتنا الدكتور محمد شرف على وضع معجمه وآزرته الحكومة فوزّعه على الجمعيات اللغوية فى الممالك العربية ، واقترحنا أن يُجعل أساساً لأعمال المصطلحات الفنية ، وأن يضاف اليه فى كل طبعة ما يتمحص منها ، وما يوضع من الألفاظ الجديدة فيتألف منه على الأيام معجمنا العربى المنشود

ثم بحث الخطباء فى طرق الوضع وهى جمة ، فذكروا منها قبول الأسماء الأعجمية الواردة على أوزان عربية ، وليس فى لغتنا ما يدل عليها ، وقبول النحت عند الضرورة فى الأسماء الأعجمية المركبة ، وترجمة الأسماء التى لا يصح تعريبها ؛ وفى الأسماء العلمية المركبة من جنس ونوع قد يجب تعريب الجنس ، والنوع ذو المعنى مما يجب ترجمته لا تعريبه ؛ وأما الأسماء المنسوبة الى الأعلام والأماكن فلا يجوز غير تعريبها ، إلى غير ذلك من الأساليب التى لا يجنح اليها إلا بعد التثبت من أن دواوين اللغة وكتب الطب والعلم لا تشتمل عليها ، فاذا ظفرنا بمثل كلمة التعايش لكلمة Symbiose وقد ذكرها الزمخشرى ، لم نحتج الى نحتها أو ترجمتها أو تعريبها

وفى خلال المباحث حدث جدال قليل بين بعض الأطباء فى الدفاع عن الأوضاع ، لا محل لتفصيله ، فانبرى لفصل الجدال بينهم الدكتور محجوب ثابت فرأينا منه خطيباً حلو النادرة ، طلق البادرة ، يتدفق فى إيراد بيناته وفكاهاته تدفق اليعبوب ، فيملأ الأسماع والقلوب ، ومما قاله :

إن العملَ المشوش (المهرجل) لا يثمر أبداً ، والجمعيات الطبية العربية — وهى بحمد الله كثيرة فى بلاد العرب — لا تثمر ولا تنتج إن لم تعمل كذلك بطريقة علمية منظمة ، فلو أن شعبة المصطلحات الفنية فى الجمعية الطبية المصرية أخذت مثل كتاب : Medical terms dictionary وقسمت ألفاظه على عدد أعضاء الشعبة ، وفى آخر كل شهر يعرضون ما وضعوه على الجمعية مجتمعين ، وبعد تمحيصها وتحقيقها ، ترسلها الجمعية إلى مجمع اللغة الملكى بمصر ليحكم لها أو عليها ، فيعتبر حكمه عدلاً ، وقوله فصلاً

لا جرم أن من الانصاف والحصافة أن تجتمع كلمة الأقطار العربية على مجمع مصر الملكى لأنه يمثلها بالأعضاء الذين اختارهم من علمائها فاذا ما حكم بصحة لفظة فكأنما حكمت بها مجامع العرب كلها ، إذ هى ممثلة فيه ومحكمة فى ناديه ؛ وأما مجامع اللغة فى البلاد العربية فتعتبر روافد لمجمع مصر أو مؤتمرها اللغوىّ ، بما ترسله إليه من الأوضاع الجديدة ، وأعضاء المجمع المرسل يبيّنون لاخوانهم فى مصر توجيهاتها ، وأسباب تعديلها وتفضيلها ، وبذلك يكون الانتاج خصيباً ، والرأى على الأغلب مصيباً ، وقديماً قيل : المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، ومجمعُ اللغة المصرى ضعيف بواحده ، قوىّ بروافده

إن هذا المؤتمر الطبّى الثامن لغزير النفع ، كثير الرجع على الأمة العربية ، فمن منافعه الجليلة تمهيدُه السبيل إلى توحيد المصطلحات العلمية ، وتمهيده السبيل إلى تعليم الطبّ فى المدارس الطبية باللغة العربية وبهما يتمهّد السبيل إلى توحيد مناهج التربية والتعليم فى بلاد العرب الذى هو لعمرى من أقوى البواعث على توحيد الثقافة العربية المؤدى إلى توحيد الأمة العربية ، وإلى سيادتها فى العالم بتعارفها وتآلفها وتحالفها :

فنحن فى الشرق والفُصحى بنو رَحِمٍ
ونحن فى الجُرح والآلامِ إخوانُ

عز الدين التنوخى
كاتب سر المجمع العلمى

دراسات فى الأدب الانجليزى

المذهب الواقعى وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدى

تتمة

الدرامة الانجليزية فى عهد (درايدن)

من أهم ما يميز هذا العصر – منتصف وأواخر القرن السابع عشر – انتشار عادة غريبة، هى محاولة حل كل شىء فى الوجود بواسطة العقل والتفكير؛ وقد كان (بوالو) على حق حينما قال: (إن ديكارت قد ذبح الشعر) – على أن هذه العادة نشأت نتيجة لحضارة هذا العصر التى كانت قائمة على أكتاف الطبقة الوسطى – ونحن لانجد عصراً من عصور انجلترا كان نصيب الفلاح فيه أقل مما كان فى ذلك العصر؛ مع أن مادة الفن الغزيرة تأتى دائماً من الفلاح حيث يعيش الرجل جنباً إلى جنب مع الطبيعة، ويواجه صعابها وشؤونها كل ساعة وكل يوم فيتحايل على فهمها وإدراك أسرارها لابالعلم والتفكير بل بالدين والفن

فى هذا العصر لبست الدرامة ثوب النثر وأخذت (الكوميدية) تنقد عادات الناس وأحوالهم، فهى تارة ساخرة وتارة مهذبة ناصحة، وأخرى مستهترة متهتكة – على أن حوادثها وشخصياتها كانت كثيرة المطابقة للواقع، حتى أن بعض الكتاب كان يبنى قصصه بناء تاماً على حوادث شخصية وقعت له أو لمن يعرفهم – وإن كان ثمة شىء ينقص من واقعية هذه (الكوميدية) فهو أن الكاتب كان كثير الحضور والظهور فى قصته – فهو يكاد يكون دائم الحديث على ألسنة أبطاله، إما ناصحاً أو متفكهاً أو ناقداً أو جاهلاً هؤلاء الأبطال الذين لايمتون للشعر بسبب – وللحياة اليومية بكل سبب – يتحدثون بلغة هى أبعد ما تكون عن لغة الحديث العادية. أما (التراجيدية) فقد اتجهت اتجاهاً آخر كان فيه القضاء عليها، فباتت تصور عالماً كله بطولة وحب وشجاعة، وأضحى أبطالها آلات تتغنى بالفضيلة والطهر والمروءة فى كلام موزون مقفى ثقيل على الأذن لامرونة فيه ولا عبقرية؛ وإنما كان هذا التصور الخاطئ للحياة رد فعل للجو الاباحى المستهتر الذى كان يعيش فيه شعراء العصر وطبقته العليا – كما كانت الفضيلة والبطولة مثل الفروسية الأعلى فى القرون الوسطى – رد فعل لخلو الحياة فى ذلك العصر خلواً يكاد يكون تاماً من كل ما هو فاضل برئ

نهضة الدرامة فى القرن التاسع عشر: كانت حياة المسرح الانجليزى فى القرن الثامن عشر حياة خاملة لا نشاط فيها ولا جدة، ولو أن نجماً أو نجمين سطعا فى سمائه ثم أفلا – وأعنى بهما (شريدان) و (جولد سمث). والآن ونحن نريد أن نعالج نهضة القرن الفائت الحديثة يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن كل من الاتباعية (الكلاسزم) مذهب العهد المنقرض، والابتداعية (الرومانتسزم) مذهب العهد الناهض الجديد. والحق أن كلا من المذهبين ينشأ عن وجهة نظر خاصة نحو الطبيعة البشرية. (فالاتباعية) تعتبر الانسان حيواناً حقيراً بطبيعته، وتعتبر أنه لايستطيع أن يرقى وينهض إلا بالطاعة وحكم النفس والعمل الدائم. ومن هذا كانت الطاعة وضبط النفس أظهر مميزات هذا المذهب، وأنت تجدها تتجلى فى الفن (الاتباعى) فى دقة الأشكال والأوضاع، وفى صقلها صقلا تاماً، ثم فى خلوه من كل ما من شأنه التطرف والعنف. أما الابتداعية فتعتبر الانسان نبيلاً بطبيعته، غير أن الأوضاع والأنظمة التى وضعها لنفسه هى التى حطت من قيمته وجعلته ذليلاً ضعيفاً. ومثل هذه الأنظمة المجتمع نفسه – والأخلاق – والقانون وغيرها – وإن عبارة (روسو) الافتتاحية فى كتابه العقد الاجتماعى: (الانسان حر بطبيعته ولكنه يجد نفسه مكبلاً بالقيود أينما كان) هى أول تعبير صادق (للابتداعية) وهى تتجلى فى الفن فى نبذ متعمد لكل القواعد والتعاريف، وفى الاعتماد اعتماداً تاماً على قوة تعبير الفنان تعبيراً لا يقيده شكل ولا تحده قاعدة – فان أراد الفنان (الابتداعى) أن يعالج الطبيعة لم يكن محتاجاً إلى الفلسفة تقوده وتهديه – كما كان يفعل شعراء وكتاب القرنين السابع والثامن عشر، بل إن عليه أن يلاحظ ظواهرها فقط، وأن يدون ملاحظاته دون تعديل ولا تهذيب

ومن هذا يتضح قرب المذهب (الابتداعى) من المذهب الواقعى – أعنى اتجاه (الابتداعية) اتجاهاً واقعياً قوياً بطبيعتها – واتصالها اتصالاً أساسياً بالحقيقة والواقع. وإن شعر الشاعر الانجليزى (وردسورث) ونظريته فى الأسلوب الشعرى – أن

يكون خليطاً من الأساليب والألفاظ التي يتحدث بها الناس في حياتهم العادية — لشاهدَ على ذلك

ومما يشاهد في الدرامة في أواخر القرن التاسع عشر نبـذ بعض كتابها — عن عقيدة وعمد — كل ما هو شعري نبذاً تاماً كاملاً . ولقد نشأ هذا عن رغبة أصحاب المذهب الجديد في إدخال طرق البحث العلميـة في الأدب ، إذ يجب أن تكون الملاحظة دقيقة لا تحيز فيها كما يجب أن يكون الملاحظ مختفياً لا أثر لوجهة نظره الخاصة ، بل يدوّن كل ما يلاحظـه تدويناً صادقاً واضحاً .

وقد كتب (زولا) يقول : (لقد ترك الـكيميائيون اليوم البحث عن الذهب — على أنهم لو اهتدوا يوماً الى صـنعه ، فسيكون دليلهم البحث العلمي الجديد ، وإني أشبه نفسي بهم — فأنا أكدّ وأبحث محاولاً إتمام الطريقة الحديثة التي ستهدينا ولا ريب شيئاً فشيئاً الى الحقيقة كاملة) ؛ على أن (زولا) نفسه كان يدرك أن الدرامة لأجل أن تكون فناً ، يجب أن تجمع عناصر أخرى غير عناصر العـلم . وهو يذهب في كتابة أخرى له الى أن للواقعية نفسها لوناً شعرياً فنياً لا يستطيع أحد إنكاره ، إذ يقول : « من يسـتطيع أن ينكر أن في حجرة العامل الفقير شعراً أكثر مما في قصور التاريخ جميعها ؟ »

ومن ظواهر هذه الواقعية العلمية التي ظلت تسود الدرامة منـذ نهضتها في أواخر القرن الماضي الى عهدنا الحالي ظاهرة التشاؤم والانقباض . والحق أن الواقع والتشاؤم يسيران دائماً جنباً الى جنب ، فالعقل الانساني يميل الى صبغ ما يخشى حدوثه بصبغة الحقيقة ، وما يرجوه وما يأمله بصبغة الحلم والخيال ؛ ولقد كانت آلهة الانسان الفطري — وقد كان يخافها كل الخوف — أقوى في مخيلته وأوضح شكلا من حوادث حياته اليومية

أقطاب النهضة الحديثة : أنتون تشيكوف

تؤكد شخصـية (تشيكوف) وجو مسرحياته الخاص وأسلوبها أنه أول الـكتاب الحديثين الذي حقق المثـل الأعلى للواقعية ؛ فتشاؤمه ونظرته الخاصة نحو الحياة تبدو كأنها ليست نظرة شخصية خاصة به بل نظرة أهل عصره العامة — نظرة الروسي البائس الفقير الذي كان يعيش في روسيا في القرن الماضي . فأنت لا تجد (لتشيكوف) دعاية خاصة يدعو بها أو عقيدة يدافع عنها ، بل هو يصور الحياة كما يراها ، هادئاً قابعاً مختفياً وراء صورته . . .

هنريك ابسن :

كذلك مسرحيات هذا الـكاتب النرويجي هي مثل أعلى للواقعية الحديثة ؛ ولو أنها تختلف كثيراً عن كتابات (تشيكوف)، ولقد تبدو قصصه — لأول نظرة — قصصاً تعالج شـئوناً اجتماعية مثل الزواج وتحرير المرأة وغير ذلك ؛ ولقد يتبادر إلى ذهن القارى أنه بزوال هذه الشؤون وحلها ستزول قيمة القصص وتقل أهميتها . على أن هذا الزعم خاطئ ، فروح (إبسن) ليست بروح المصلح الاجتماعي فحسب ، بل هي قبل كل شيء روح شاعر كان إذا ما فكر في مشكلة اجتماعية ملـكت عليـه كل حواسه فأصبح لا يرى للعيش قيمة إذا هو لم يهتد الى حلها وإزالة خطرها

ومسرحيات (برنارد شو) تعالج هي الأخرى موضوعات اجتماعية ؛ على أن الفرق بين الـكاتبين عظيم ، فمعالجة (شـو) لموضوعاته هي معالجة علمية بحتة ، أعني أنها لا تهمه شخصياً بل اجتماعياً — أما مع (إبسن) فهي كما قدمت موضوعات شخصية قبل أن تـكون اجتماعية أو عالمية — موضوعات تهمه مباشرة كأنما كان يتعلق بها كيانه ووجوده . وقد كتب (إبسن) مرة يقول : « كل ما أكتبه له علاقة وطيدة بكل ما أحيا خلاله ؛ وفي كل قصة أو قصيدة أكتبها أبغي تحرير نفسي وصفاءها » . ومن الجلي أن هذا يختلف كثيراً عن تفكير الـكاتب الايرلندي الذي يهمه تحرير انجلترا قبل تحرير نفسه هو ؛ وقد كان تحرير النرويج يهم (أبسن) أيضاً ، على أن الأهمية لم تأت مباشرة ، بل أتت عن طريق نفسه وروحه . ولقد يبدو من حديثنا هذا أن مسرح (شو) أكثر مطابقة للواقع وللروح العلمية الجديدة من مسرح (إبسن) ، على أن هـذا خطأ وعكسه صحيح . والسبب في ذلك هو أن الناس يختلفون في آرائهم أكثر مما قد يختلفون في مشاعرهم وإحساساتهم — (فبرنارد شو) الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الفكرة والرأي ، والذي يعيب مسرحياته من الجهة الواقعية كثرة ظهور المؤلف في القصة — سيهرم ويذوي عندما تهرم الموضوعات التي يعالجها وتموت — أما (ابسن) الذي لا يعتمد على الفكرة اعتماد (شو) ، والذي لا يجعل من أبطال مسرحه ألاعيب ودمى لا قيمة لها إلا اظهار الفكرة والدعاية لها ، بل يجعل منها أشخاصاً آدميين نافذا الى أعماق نفوسهم — مظهراً منها ما قد خفي ومضيئاً ما قد أظلم أو قتم — فسيظل حياً ما دام الانسان والنفس البشرية حية على ما هي عليه

٧ ـ شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ما ليس من سجيتها فى الزهد لأغراض له فى ذلك ـ ما رواه صاحب الأغانى قال : حدثنى أحمـد بن عبيد الله بن عمار . قال حدثنى ابن أبى الدنيا قال حدثنى الحسين بن عبد ربه قال حدثنى على بن عبيدة الريحانى قال حدثنى أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين ، فقلت له : أمثلك يضع نفسه هـذا الوضع مع سنك وشعرك وقدرك ؟ فقال له : أريد أن أتعلم كيادهم ، وأحفظ كلامهم

وهو فى أخذه بما كان يأمره به الرشيد منه ليتقى به حبسه وسجنه إنما كان يأخذ بالتقية التى يأخذ بها الشيعة ، وقد كان على ما سيأتى من رجالهم ، فجرى بذلك مع الرشيد كما جرى به مع الهادى والمهدى ، وكان إذا خرج من سجنه ، وجرى على ما يهواه منه ، مضى معه كأن لم يكن هنالك شىء يخفيه منه فى دخيلة نفسه ومدحه بشعره أحسن مدح ، وأخذ عليـــه منه جزيل صلاته وجوائزه ، حتى إذا غلبتـــه نفسه نبا عليه ، وأخذ فى زهده ونسكه ، وأخذ الرشيد فى الغضب عليه وسجنه وحبسه ، وأبو العتاهية رابح فى الحالين ، قاض لنفسه غرضها من مال العباسيين ، ولمذهبه السياسى الذى سنشرحه غرضه من ذم دنياهم ، والنعى على ما فى دولتهم من فساد دينى وسياسى واجتماعى

وقد أخبر ابن أبى العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس ، فذكره الرشيد فعرف خبره ، فقال : قولوا له صرت زير نساء ، وحِلْس بيت ! فكتب إليه أبو العتاهية :

بَرِمتُ بالنـاس وأخلاقهم ... فصرت أستأنس بالوَحْدَه
ما أكثر الناس لعمرى وما ... أقلهم فى منتهى العِـدَّه

ثم قال : لا ينبغى أن يمضى شعر إلى أمـير المؤمنين ليس فيه مدح له ، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها وهى :

عاد لى من ذكره نَصَبُ ... فدموعُ العـين تنسكبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُه ... يعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرْجَى ومن يَهَبُ ... مَلِكٌ دانت له العرب
وحقيق أن يُدَانَ له ... من أبوه للنبى أب

ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عن الرّبع المحيل قَعودِى ... إلى ذى زُحُوفٍ جَمّةٍ وجنود
وراعٍ يراعى الليل فى حفظ أمة ... يدافع عنها الشر غير رَقود
بألوية جبريلُ يقـدم أهلها ... ورايات نصر حوله وبُنُود
تجافَى عن الدنيا وأيقن أنها ... مفارقةٌ ليست بدار خلود
وشَدَّ عُرَى الاسلام منه بفتية ... ثلاثة أملاك وُلاةِ عهود
هُمُ خير أولاد لهم خير والد ... له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارونَ حول سريره ... فخيرُ قيـــامٍ حوله وقُعودِ

وبرينا (أبسن) أن أعلى أنواع الواقعية فى الدرامة كما فى كل فن آخر ـ إنما يعتمد على الخيال القوى الوثاب الذى يستطيع أن يعالج مسائله الشخصية معالجة يفهمها الجميع وتصل إلى كل القلوب حتى لقد تبدو لها وكأنها مسائلها هى لا مسائل الشاعر ، ونبضاتها هى قد سجلت على الورق لا نبضات الكاتب النرويجى أو الروسى أو الانجليزى ؛ وعلى هذا فنى معنى أدق مما كان يقصده الفيلسوف الأغريقى (أرسطو) تكون شخصيات مثل هـذه الدرامة (مثلنا تماماً)

فليست الواقعية وليدة بحث علمى أو مذهب أو عصر خاص ، بل هى جزء لا ينفصل عن الشاعرية الفذة والخيال القوى الذى يصور لك ما يرسمه تصويراً حياً قوياً ، يجعلك تراه وتؤمن به وتشترك فيه حساً وعاطفة وفكراً

محمد رشاد رشدى
بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

تقلّب ألحاظَ المهابة بينهم   عيونُ ظباء فى قلوب أسود
خدودهمُ شمسٌ أتت فى أهلة   تبدت لراءٍ فى نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط

ثم انقضى عهد الرشيد وجاء بعده عهد ابنه الأمين ، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ، فاضطرب أمر الدولة ، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضى فى سبيله من الزهد ، واستخدام شعره فى دعوة الأمة إليه ، وتهوين أمر الدنيا التى فتنوا بها عن الآخرة ، ولم يعد يقول الشعر فى التغزل والمجون وما إليهما ؛ ولكن لم يقطع صلته بملوك العباسيين ولم يتحرج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً فى أموالهم . وسنتكلم بعد فى أمر ذلك الزهد

حدث عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على وَرَقِ الشباب   وغصونه الخُضْرِ الرِّطابِ
ذهب الشباب وبان عنى (م) غير مُنتَظَرِ الاياب
فلأبكينّ على الشبا   ب وَطيبِ أيام التصابى
ولأبكينّ من البِلَى   ولأبكينّ من الخضابِ
إنى لآملُ أن أُخَلَّـ   ـدَ والمنية فى طِلابى

قال فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه ، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ ، فقيل لى : هو أبو العتاهية

وحدث حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فاذا عون حاجبه قد جاء فقال : هذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفنى منه الساعة يشغلنى عن ركوبى ، فخرج إليه عون فقال : إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين ، فأخرج من كمه نعلاً عليها شراك مكتوب عليه :

نعلٌ بعثت بها ليلبسها   قرمٌ بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرّكها   خدّى جعلت شراكها خدى

ثم قال لعون قل له إن أبا العتاهية أهداها اليك ، فدخل بها عليه فقال له احملها معنا . فلما دخل على الأمين أخبره بها ، وأنه رأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها ، فقرأ الأمين البيتين فقال : أجاد والله وما سبقه إلى هذا المعنى أحد ، هبوا له عشرة آلاف درهم ، فأخرجت والله فى بدرة وهو راكب على حماره ، فقبضها وانصرف

ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبى العتاهية فى عهده ، وكان المأمون أحسن حالاً من الملوك العباسيين قبله ، فقرب أبا العتاهية منه ، وأكثر من بره وصلته والاحسان اليه بما لم يفعل مثله معه سلفه ؛ ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم

ودخل عليه مرة فأنشده :

ما أحسن الدنيا وإقبالها   إذا أطاع الله من نالها
من لم يُواس الناس من فضلها   عرّض للأدبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ! فأما الثانى فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها ، وإنما توجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر . فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، فأمر المأمون بأن يدفع اليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق . فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافلٍ أوْدَى به الموت   لم يأخذ الأهْبة للفوت
من لم تزلْ نعمته قبلهُ   زال من النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، الآن طبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم

فاذا رأينا المأمون بعد ذلك يزهد فى هذا الملك العظيم لأهله من بنى العباس ، ويؤثر به من بعده الامام عليا الرضى من آل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فيزوجه بنته أم حبيب ، ويجعله ولى عهده ، ويضرب اسمه على الدينار والدرهم ، فان لشعر أبى العتاهية أعظم الأثر فى ذلك ؛ وهذه هى النتيجة والثمرة التى جاهد به من أجلها ، فقد سعى فى تزهيد الناس فى كل أسباب الدنيا والتكالب عليها ، ليزهد العباسيين فى التكالب على هذا الملك

الذى يملكونه منها ، ويعودوا به إلى سيرته الأولى ، فيتولاه أصلح الناس له ، ولا يستأثر به أحد على غيره ؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع على الرضا ، فقد كان بمدينة مرو وفيها على ، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء ، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار ، واستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة ، وجمع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وأولاد على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فلم يجد فى وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من على الرضا ، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المعروفة بينه وبين عمه إبرهيم بن المهدى ، فقضت على تلك الفكرة الصالحة ، ومضى العباسيون فى أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم ، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التى انتهى بها ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراده ، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى فى عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبى العتاهية فى عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله فى تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ

وروى محمد بن أبى العتاهية قال : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه :

إلهى لا تعذبني فانى ... مقرٌّ بالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى ... لعفوك إن عفوتَ وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا ... وأنت علىَّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرتُ فى ندمى عليها ... عضضتُ أناملى وقرعتُ سنى
أجَنّ بزهرة الدنيا جنوناً ... وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقتُ الزهد عنها ... قلبتُ لأهلها ظهر المِجَنّ
يظن الناس بى خيراً وإنى ... لشر الخلق إن لم تعف عنى

ثم أمر أن يكتب على قبره

أذن حىّ تسمعى ... إسمعى ثم عى وعى
أنا رهنٌ بمضجعى ... فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة ... أسلمتنى لمضجعى
كم ترى الحىّ ثابتاً ... فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى ... فخذى منه أو دعى

عبد المتعال الصعيدى

٢٩ - محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تتمة الحوار

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالاقيانوس oceanus الذى يجرى فى دائرة حول الأرض ، ويسير فى الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذى يجرى تحت الأرض فى ربوع جدباء حتى يصب فى بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هذه هى البحيرة التى تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل فى جسوم الحيوان . وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه فى منطقة شاسعة من النار ، حيث يكوِّن بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط ، يغلى فيها الماء والطين ، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل ، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يختلط بمائها ، وبعد أن يتحوى فى عدة ثنايا حول الأرض ، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجثون Pyriphlegethon — كما يسمى — الذى يقذف فى كل مكان بفوارات من النار . ويخرج النهر الرابع فى الجهة المقابلة ، ويسقط أول ما يسقط فى منطقة همجية متوحشة ، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذى يشبه حجر اللازورد ، وهذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا Stygian River وهو يصب فى بحيرة ستكس Styx التى يكوِّنها ، وبعد أن يصب فى البحيرة ويستمد لمائه قوى عجيبة ، يجرى تحت الأرض ، دائراً حولها فى اتجاه يضاد نهر بيرفليجثون ، ويلتقى به فى بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجرى فى دائرة ويتدفق فى جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر

تلك هى طبيعة العالم الآخر ، فلا يكاد الموتى يصلون الى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضى فى أمرهم بادئ ذى

بده ، إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر ، فانهم يذهبون الى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيُحملون فيها الى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ويمانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً بما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجى لهم اصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجرموا ، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتدنيس المعابد وازهاق الأنفس ازهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك ـ أولئك يلقى بهم فى جهنم لايخرجون منها أبداً ، فهى لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجرموا اجراماً لا يجل عن العفو على هوله ـ أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم ـ هؤلاء يغمسون فى جهنم ، ولزام عليهم أن يَصْلوا عذابها حولاً ، وفى نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فالى نهر بيرفليجيثون ـ فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى ، أو بمن نالتهم منهم اساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فان نالتهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ونجوا من عذابهم ، وان لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا ممن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضاتهم . أما من امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مُقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك ، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها

إذن ياسمياس ، وقد رأيت هذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغى لنا ألا نفعله لكى نظفر بالفضيلة والحكمة فى هذه الحياة ؟ ألا إن الجزاء لجميل ، والأمل لعظيم

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذى قدمته عن الروح ومنازلها ـ فما ينبغى لرجل ذى فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه فى رأيى حقيق ، وقد اتضح خلود الروح ، أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وانه منه لظن عظيم ، ولا بد له أن يسرى عن نفسه بمثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايتى ، ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى ، ما دام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هى أدنى إلى إيذائه بما تجر وراءها من أثر ، وما دام فى هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة ، وهى : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق ـ أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ ، مهيأة للرحيل إلى العالم السفلى حين يدركها الموت . فأنتم ، أى سمياس وسيبيس ، ويا سائر الرجال ، سترحلون فى وقت قريب أو بعيد . أما أنا ، فهاهوذا ينادينى صوت القدر على حد قول شاعر المأساة ، ولابد أن أجرع السم عما قريب ، ويجمل بى فيما أظن أن أذهب أولا إلى الحمّام حتى لايشق على الناس غسلُ جثمانى بعد موتى

فلما أن فرغ من الحديث ، قال كريتون : أعندك ما تشير علينا به ياسقراط ؟ ألديك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أى شىء آخر نستطيع أن نعينك فى أمره ؟

فقال : ليس عندى شىء بعينه : غير أنى أحب لكم ، كما كنت أحدثكم دائماً ، أن تنظروا فى أنفسكم ، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجلى ، وهو أيضاً فضل منى لكم . ولا ينبغى لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدّقتم عما أوصيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها ، فلن تجدى عليكم حماسة الادعاء شيئاً

قال كريتون : سنبذل جهدنا ، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى ؟

على أى وجه تشاءون ، غير أنه لا بد لكم أن تمسكوا بى ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفت إلينا وأضاف باسما : لا أستطيع أن أقنع كريتون أننى سقراط ذاته الذى كان يتحدث ويوجه الحوار ، فهو يحسبنى سقراط الآخر الذى سيشهده بعد حين جثة هامدة ـ وهو يسائل : ماذا عسى دفنى أن يكون ؟ مع أنى قد أفضت فى الحديث محاولاً إقامة الدليل على أنى مُخلِّفكم حين أجرع السم ، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم ـ ويظهر أنه لم يكن لحديثى هذا الذى سرّيت به عن أنفسكم وعن نفسى ، أثر فى كريتون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لى الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيلى عند المحاكمة :

على أن يتخلف وعدكم عما وعد ، فقد كان كفل للقضاة أنى سأبقى ، ولكن عليكم أن تكفلوا له أنى غير باق ، بل إنى ظاعن راحل ، فتقل بهذا رزيته عند موتى ، ولا يُحْـزِنه أن يرى جثمانى يحترق أو يُهال عليه التراب . إنى لا أحب له أن يتحسر على جدى العاثر ، بأن يرتاع لدفنى ، فتأخذه الحيرة : على هذا النحو نكفن سقراط ، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شراً فى ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لا تحزن إذن ، أى عزيزى كريتون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفضِّل أن يكون

ولما فرغ من هـذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه كريتون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وفى هول المصاب . لقد كنا كمن ثكل فى أبيه ، وأوشكنا أن نقضى ما بقى من أيامنا كالأيتام ، فلما تم اغتساله جىء له بأبنائه — (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من كريتون ، ثم صرفهن وعاد الينا

ها قد دنت ساعة الغروب ، فقـد قضى داخل الحمام وقتاً طويلا ، وعاد بعـد اغتساله فجلس إلينا ، ولـكننا لم نُـفِضْ فى الحديث ، وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبـه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب ، فقد كانوا يثورون ويصيحون فى وجهى حينما آمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد ، فوداعاً ، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم فيم قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء

فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فسأصدع بما أمرتنى به . ثم التفت إلينا وقال : ياله من فاتن ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، وكان يحادثنى الحين بعـد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلى فلزام علينا يا كريتون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالقـدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهيىء شيئاً منه

فقال كريتون : ولـكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون فى لذائذ الحس ، فلا تتعجل إذن ، اذ لا يزال فى الوقت متسع

فقال سقراط : نعم يا كريتون ، لقـد أصاب من حدثتنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ، وانى كذلك لعلى حق فى ألا أفعل كما فعلوا ، لأننى لا أظن أنى منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة . اننى بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فعلاً ، انى لو فعلت ذلك سخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تعص أمرى

فلما سمع كريتون هذا ، أشار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً ان عاد يصحبه السجان يحمل قدح السم ، فقال سقراط : أى صديقى العزيز ، انك قد مرنت على هـذا الأمر ، فأرشدنى كيف أبدأ . فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم . وهنا تناول سقراط القدح فحدق فى الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يُرَع ولم يمتقع لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة ؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : اننا لا نُـعِـدُّ يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال : انى أفهم ما تقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توفقنى فى رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر — فلعل الآلهة تهبنى هذا ، فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يَـمْـدُدْ فى قوس الصبر منزع ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى ، وأخذت أندب نفسى ، حقاً انى لم أكن أبكيه بل أبكى لحظى فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل أن كريتون ، وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فتبعته ، وهنا انفجر أبولودورس الذى لم ينقطع بكاؤه طول الوقت ، بصيحة عالية وضمتنا جميعاً موضع الجبناء ، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط ، فقال : ما هـذه الصرخة العجيبة ؟ لقـد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو ، فقد خُبِّرت أنه ينبغى للانسان أن يسلم الروح فى هدوء ، فسكونا وصبراً

فلما سمعنا ذلك ، اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا ، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران — كما قال — ثم استلقى

زهرتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قدتصوّحتِ عندشرخ الشباب   زهرتي بغتــةً فجاءٌ مصابي
زهرتي قد جاء الربيع بما ازدا   ن به من نبتٍ ومن أعشاب
ولقد قام مهرجان على الأر   ضِ جميعاً بطاحِها والهضاب
لعزيزٌ عليّ ألا تـكوني   طاقةً فوق الكالئ المعشاب
نبت الزهر كله فلماذا   أنتِ يا زهرتي بجوف التراب

***

ضقتِ بالقبر فاخرجي من ظلام الـ   أرض للنور فوقها والرحاب
أخرجي من جوف الثرى وابسمي لي
عن رضًى أو تجهّمي للعتاب
أخرجي من جوف الثرى من جديد
واسحريني بلحظِكِ الخلّاب
وأعيدي إليّ أسعدَ عهدٍ   كنتُ فيه وذاكَ عهدُ شبابي
قرّبيني إذا أردتِ سلامي   واصرميني إذا أردتِ خرابي
وافتحي العينَ والمسامعَ دوني   واسمعي شدوي وانظري إعجابي

***

أنا يا زهرتي دعوتكِ للحبِّ (م) مراراً فلم تردّي جوابي
لا تقولي إني هلكتُ فلا تر   جُ لميتٍ ذاق الردى من مآب
أنتِ تحيين في فؤادي وعيني   ودمي فائراً وفي أعصابي
ايقظي من هـذا الرقاد فإن الشْـ
شَمْسَ قد ذرّت من وراء الحجاب
أنتِ للحب والغرام بوجه الـ   أرض لا للرقاد تحت التراب
أنتِ لا تخلقين يا زهرتي أن   تختفي في غياهب الأحقاب

***

يتهاوى دمعُ الأسى من عيوني   كشهابٍ ينقضّ إثرَ شهاب
متِّ قبلي فلو سبقتُكِ عاهد   تِ دموع الأسى على التسكاب
لا سلامٌ على الربيع إذا ثا   بَ ولم تصحبيه عند المثاب
ارجعي لي وقبّليني ولا تخـ   شَيْ رقيباً على الهوى لا يحابي
ارجعي ارجعي كما كنتِ قبلا   أو خذيني بأقرب الأسباب
إنني لم أزرْ أجَلْ بَعْدُ قبري   غير أني منه على الأبواب

***

آهِ إن الحياة أعجزُ من أن   تستطيعَ الرجوعَ بعد الذهاب
بين شعرٍ أقوله وأنيني   شعبة من وشائج الانساب
ذهبت زهرتي التي كنتُ أشدو   باسمها خالياً وبين صحابي
زهرةٌ قد سقيتُها بدموعي   مزّقتها المنون بالأنياب
إنني كنتُ أعبد الحسن فيها   ولقــد كان وجهُها محرابي
خطفتها المنون مني كعاباً   ما على الموت بعدها من عتاب
خطفتها مني ذئابُ المنايا   وذئابُ المنون شرُّ الذئاب
قلت أسلو فأستريح ولـكن   كيف أسلو والحب ملء إهابي
كل شيء مذكّرٌ لي بليلَى   ليتَ شعري ماذا يذكّرها بي
هدّدتني إذا تصديتُ عيني   وفؤادي والنفس بالاضراب

***

وكأن الدنيا العريضةَ بحرٌ   وكأنا عليه بعض الحباب
خضتُ بحرَ الهوى وكان خضمّاً   ثم منه ركبت متنَ العباب
ثم صارعتُ الموجُ منه فما كنـ   تُ سوى مغلوبٍ الى غلّاب
عن يميني وعن شمالي ماءٌ   ثم إني أعدو وراء السراب

بغداد ٤ تموز   **جميل صدقي الزهاوي**

على ظهره ، كما أشير له أن يفعل ، وكان الرجل الذي ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ، ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا ، ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب ، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم الى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف عن وجهه ، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إنني يا كريتون مدين بديك لاسكلبيوس Asclepius فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى سُمعت حركة ، فكشف عنه الخدم ، وكانت عيناه مفتوحتين ، فأقفل كريتون فمه وعينه

هكذا يا اشكراتس قضى صديقنا الذي أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس ، وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلا

تم الحوار   **زكي نجيب محمود**

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٤ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

على أن الروح « الديونيزوسى » يكاد يكون فاشياً فى كل أصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك فى المنكرات ، وإشباع البهيمية الانسانية باللذائذ . واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى ، ومشى فيهم هذا الروح . ولكن انهما كهم لم يكن انهما كا بهيمياً . أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بعاطفته مع الوجود . ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية . والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا ، ولا يتسرب إليها الفناء ؛ تعيش بعيدة عن الحضارة ، وظهورها فى شعب متحضر يقضى على حضارته ويقذف بالحواجز التى تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعى مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس ببهيمى . يتجلى فيه شىء من السمو الالـهى ، وهو رمز الغريزة الأكثر قوة وسيطرة على الانسان . هو سريع الهيام يذهله تقرب الالـه منه . كثير الاشفاق والعطف لأنه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التى يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا الفريق يبدو فى بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالـهى » ورقصه ، وموسيقاه تغادر روح الناظر فى شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته ، ويشركه فى ذهوله وسكرته . حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الالـه « ديونيزوس » وهذا السكر الالـهى قد ولد خيالاً شعرياً لم يكن فى حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفى . فالمأساة اليونانية هى بحقيقتها موسيقية شعرية . وهى هتاف ظفر الارادة التى تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها . بطل كل مأساة هو الالـه «ديونيزوس» ، وهى عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة فى مدح الالـه . ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً فى المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالـهى الذى يظهر على السكارى الهائمين فى الوادى ، السكارى بالالـه . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالـهى . وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيرومونى » أو « أوديب » . و «ديونيزوس» هو البطل الحقيقى فى كل مأساة ، يبدو بأشكال مختلفة . وهو فى ظهوره هـذا يشبه الانسان فى حياته ، يتيه ويضل ، يناضـل ويتألم . « ديونيزوس » هو هذا الالـه المتألم الذى تكلمت عنه الأساطير . هذا الالـه الذى يحس فى نفسه بآلام الفردية . هذا الالـه الذى قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الالـه « زاكروس » ومن ابتسامته تولدت الآلهة ، ومن دموعـه نشأ الرجال

إن روح هذا الالـه قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان . فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا إلى طريقة ثالثة ، هى المعرفة العقلية للوجود وأجزائه . فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم . فبينما يقول الفنان للحياة « يليق بنا أن نحياكِ ، أيتها الحياة ! لأن صورتك جميلة » يقول العالم لها « أنا أريدك أيتها الحياة ! لأنك جديرة بأن تعرفى . . . » وهكذا وجد العالم فى اكتشافاته العلميـة من اللذة والبهجة ما يجده الفنان فى أوهامه وأخيلته . وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجمل وجه الحياة الشوه جميلاً . ويجب ألا نجحد أن فضيلة العلم إنما هى تتمثل فى البحث الدائم والتنقيب المتواصل . لا فى الحقائق التى يكتشفها . أو النتائج التى ينيلها . وخطيئة العلم القطعى هى أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه ، فتسمده حالته

الأولى مادام يبحث وينقب ، ويشقى في الحالة الثانية ما دام يطمح ويطمع إلى ما لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه ، وأن رأس كل فضيلة هي المعرفة ، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء ، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الانسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يوناني جاحد للوحي ، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة في الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة . سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع في النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه ، وباختياره لمصرعه الذي لقيه . ترك الحياة هادئ النفس ، لا يمضه أسى ولا يقرعه ندم ، كأنما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه في الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع

هـذا هو عقل سقراط الذي هزم « المأساة عند اليونان » وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل ، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحي شيئاً ولا توضح عن أية حقيقة نافعة ؛ وقد تجيء فاحشة المغزى ، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجمل النماذج التي تخلقها الانسانيـة . فاذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية – كما يريد العلم المتفائل – فان المغزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده ، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذي تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جبلة ، وهو يريدها منطقية ، تفقه نفسها بنفسها ؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدري لروح عصره ، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدري شيئاً ، وأنه على حق في خصامه معهم . يعرج على نوادي الشعراء والمفكرين والخطباء والمعلمين ، فيقول : إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها ، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه حيثما توجه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً ، وخطأً فاشلاً ، مما اضطره أن يعلن أنه مقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده .

فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شيء منها ، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العـالم الذي هدمه هو أسمى من العالم الذي راح يبنيه بعقله

***

هذا ملخص ما رآه نيتشه في « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضي النبيل . وقد لا يعنينا أن ننظر إلى مذهب « نيتشه » من حيث تعلقه بالتاريخ . فهو ليس في الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان . وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوپنهاور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأنني فهمت شوپنهاور ، ولكني مؤمن جد الايمان بأن شوپنهاور قد أعانني على تفهم نفسي » وحال نيتشه في درسه العبقرية اليونانية قد تشابه كل هذه الحال ، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه في الحياة . وهذه الارادة التي يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف «نيتشه» ؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نيتشه بذاته حين درس براعة اليونان

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

أروع قصص الحب في التاريخ القديم

للأستاذ دريني خشبة

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العذارى ؛ وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين ؛ وكان البدر العاشق المُسَهَّد يُرسل القُبَلَ فتنطبع على خدود الورد ، وتلثم أعواد الزنبق ، ثم تنتشر بالشذى فتعطّر أحلام الدنفين !

وكان كيوبيد الصغير يتميّز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك ، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه ڤينوس !

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفّق ماء الشباب في جسمها الريّان ، فهويت إليها نفوسهم ، وخفقت بحبها قلوبهم ، وآثروها بعبادتهم من دون ڤينوس !

وكان للفتاة أختان حسناوان ، ذواتا دَلٍّ وفتون ، ولكنهما كانتا مع ذاك دونها قَسامةً وَوَسامةً ولا نهائية !

أجل ، كانتا دونها لا نهائية ، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لُجَّةٍ من الحسن الغامض ما لها من قرار ؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها ، وافتتانهم بها ، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال !

ودعت إليها ابنها ربّةُ الحب ، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجَسَّمَتْ له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة التعسة :

« أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لهما شعب من العباد المخلصين ؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم ، وهم كما تعلم مغيظون مني ، فيقولون هاهي ذي ڤينوس التي هدمت كبرياءها امرأة ، وصرفت الناس عن عبادتها غادة ؟ اذهب إذن فتربّص لها ، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدْز ، وبئس القرار ! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى ، أو يفتتن بها پلوتو وملؤه . . . . .

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حُفَّت بالورد :



بسيشيه وكيوبيد

وعبقت فيها أرواح البنفسج ، وتأرّج النرجس الغض ، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الإله الأصغر ، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاة بريئة ، كل ذنبها جمالها ، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها ، وفتنوا فيها ...

وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة ؛ وتفيض بالآلام ؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل ، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامتة ؛ تَعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفاق !

وصَدَح بلبلٌ غَرِدٌ في هَدْأةِ الليل الفضي ، فانتفض الإله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى . . . لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة ، ولايأسر لبه هذا البهاء الالـهى الذى يغمر الـكون حوله ، حتى كان عنـد أسوار القصر الملـكى الراقدة فى طوفان زاخر من أزهار الشيير والياسمين والبابونيا

وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان فى حديقة القصر . . .

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامىّ ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس . . .

وانفتل فى غرفة بسيشيه الناعمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يوتّر القوس الذهبية ، وينتقى من كنانته سهماً تقطر المنية من سِيَتِه ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة . . . . . .

يا للجمال النائم فوق الأريكة ! ويا للفتنة المائعة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلها ! وكان نهدها البارز المثمر محلّلاً بثديين ناضجين ، يتحلّبان لذاذةً ويلتهبان إغراءً ! !

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ؛ لدْنتان وإن كانتا كالمرمر ؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود !!

وكان السحر يُهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوّم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه وبأسه ! . . . .

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة ، متلألئاً فى شماعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولا من لدن ديانا (١) البارة ، أقبل ليقول للإلـه الأصغر : « مكانك أيها الرامى الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟ ! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به ، فانك لن تجد فى ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البرئ . . . ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحملق فى وجه بسيشيه . . . . . .

وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الأسيل . . . .

وأخذ بلبه هذا الشعر المسجدِى تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاءً ورونقاً ، فآلى لايهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ؛ وانتزع السهم فألقى به فى كنانته . . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبى من سهام الحب ، فملأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه لهفان ، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلةً دقيقةً حلوةً ، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لايبالى بسخط أمه ڤينوس ! !

* * *

وانصدع عمود الليل ، وتنفّس الصبح فهبّت الأرواح النائمة ، وأقبلت ڤينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات فى قصر الملك . . . . . . بيد أنها ، بدلاً من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح فى حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغُدران الصافية تحييها وتغنى لها ، وتضفر لها أفواف الزهر . . . . ! !

وحنقت ربة الجمال والحب ، ومادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً فى عينى الفتاة ! !

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول . . . وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون . . .

ومضوْا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة ، ولـكنها ما كانت لتزداد إلا شكاةً وأشجاناً ! !

وكرت الأيام . . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفى نفسها أن تلقى بحمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد . . .

وظلت هى ترقب الموج الهائج ، وتشهد اليم المصطخب ، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ؛ ثم صرخت صرخةً هائلة ، وألقت بنفسها من عل . . . . . .

وكأن كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس ، إلـه الريح الجنوبية ، وأطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التى تكاد تُلقى بنفسها من

(١) ديانا هى ربة القمر ، وهى التى اكتشفت كيوبيد ، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

قُنة الجبل يا صديقى زفيروس . فان رأيت أن تكون لك علىَّ هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر ، فخذ أهبتك ، ولا تدعها تغوص فى اليم ، بل تلقها فى يديك الرفيقتين ، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ؛ فدعها ثمة ، فقد أعددت لها مُستراداً وملعباً . . . . . »

ولشد ما دهِشت بسيشيه إذْ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأةً فيلتقطها فى يديه الكريمتين ، ثم يترفّق بها فيضمها على ظهره العريض الرَّحْب ، كأنه أريكة من أرائك الجنة التى وُعِد المتقون ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج ، ويصير البحر فى لمحةٍ كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها صفحة السماء . . .

ويصل إلى الشاطىء المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمةٍ ، وينطلق فى البحر الذى يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه . . .

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذى هى فيه حُلم ، أم هى قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة ؟ ! !

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هى التى تنفذ إلى دار الموتى ؛ وأنه ليس فى دار الموتى شمس ولا إياة ، وهى تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهى ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بأرادها البر والبحر ، وتنشر إياءها فى الأكوان جميعاً . . .

إذن هى لم تمت ، وهذا الطيف الكريم الذى أنقذها من الموت ، والذى ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ؛ وإذن فلتنهض ولتضرب فى هذا الفردوس المنعزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر . . .

ومضت فى غِيـاضٍ وأرباض ، ورأت فى الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأحْياد ، فيممت إليه ، وما كادت تدنو منه حتى فُتِحت بَوَّابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرَت أصواتٌ رقيقة موسيقية تحتفى بها وتُحَـيِّي وتُبَـيِّي ! . . . . . .

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شىء حولها حدّثها أنها ترى رؤية حقيقية ، لا رؤيا منامية . . . . فدخلت القصر ، وفى نفسها من الحَـيْرةِ وشدة العجب ما أخذ يتضاعف فى كل خطوةٍ ويزداد . . .

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق . . . ولكن عبثاً . . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها ، تقودها إلى المخدع الوثير الذى أعدته العناية لها . . .

ودار الحديث بينها وبين طيفٍ لا تراه :

ـ « . . . ويدهشنى أنكم تحتفون بى . وتبالغون فى إكرامى ، وأنا لا أرى منكم أحداً ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ [(١)] »

ـ « كلا أيتها العزيزة ؛ ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك . . »

ـ « ومن ذا الذى أصدر إليكم هذا الأمر ؟ »

ـ « وُنهينا أيضاً عن ذكر اسمه . . . »

ـ « أنتم كرام ، ولكنكم تضايقوننى إلى حد الازعاج . . »

ـ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، ففى المساء ، تلقين الآمر الكريم صاحب هـذا القصر ، وصاحب القصور الكثيرة فى أطراف الأرض »

ـ « وهل لى أن أجول جولةً فى قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبى . . . »

ـ « ولم لا . . . بسيشيه العزيزة ؟ »

ـ « بسيشيه ؟ ! . . . ومن أنبأكم اسمى ؟ »

ـ « رب هذا القصر أيتها العزيزة . . . »

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسّق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، مُحَـيِّيَة بابتسامةٍ خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة . . . ! !

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف ، وأوساط الردهات ، وفى حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرَّطْب ، تحتى الضَّيْفةَ ، كأن حياة تدب فى مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها ، فتتحرك الأذرع ، وتومىء الرؤوس ، وتعر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ . . .

وكانت العنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبَّثَ فتَسْـمِعها أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهى من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس

(لها بقيـــة) دريني خشبة

---

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الاخفاء

أقصوصة عراقية :

بَدَّاى الفـــايز

للأستاذ محمود ا. السيد

— ١ —

كان اليوم العاشر من شهر مايو . . .

كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود القامة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، فى منطقة خضراء بين ذى الكفل والكوفة — كأمثالهم فى مناطق الفرات الأخرى — ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وَجِلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً

وكان الصبح . . .

وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء المساكين ، ويحيى فيهم عنصر النشاط الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا مذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم — مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين — وماشيتهم ؛ وهما لهم قوام الحياة

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة فى الحقول على مقربة من بيوتهم — وهى من القصب البالى والحصر وجريد النخل — ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب

وحان الضحى ؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحُصُرَ والعَمَدَ والحبال وما إليها ؛ ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون فى غير مالين ولا إمهال

وحان الظهر ؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيراً مفاجئاً — ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد فى العراق — فحجبت وجه الشمس عاصفةٌ شديدة أثارت الموج فى النهر ، وعظم بها الخطر ، لأن السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوى أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلاطمها فيوهنها ويكاد يهدمها تهديماً

وكان الخطر أعظم ما يكون فى الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم

وكان الرؤساء جميعاً ، هنا وهناك ، مع وفرة غناهم ، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع . فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصِّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصى والسياط

ونحن الآن فى الضفة اليمنى

حان الأصيل ، وبدأت قصتنا ؛ فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه « بَدَّاى الفايز » ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التى ينتمى إليها ، معتدلاً يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الأعراب ؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير فى العمل أم لم يكن ، فان (بداى) الذى كان شاذا فى قبيلته فى بعض خلاله ، قوى الشكيمة ، عزيز النفس ، معتزاً بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يغمغم متظلماً فى شبه ثورة وعصيان

وبهت الرئيس ، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً : مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد ، وحملَه خنجره المفضض حتى فى ساع العمل العسير ، مستنكراً تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلةً خاضعين

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم انثنى عنه فى لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصى وأنكى ، قال يُعَيِّره :

— « ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن اخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ! ؟ ولأى يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التى تعلقها بالسدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جَسَّام أخاك عباس ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان الذليل ؟ ! »

وإذ نطق باسم « جسام » شدَّد « السين » تشديداً غريباً ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة ؛ ثم إذ أتم كلمته ابتسم ساخراً متهكما وتولَّى ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يراهم دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة ، وهو فى أسوأ حال من الاضطراب النفسى والغيظ ، وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة) ؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده :

– «اخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولأنتقمنّ ولأدفعنّ عنى عارى ! »

وترك العمل وهو حانق غضبان . وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه . و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعدُ الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباسا ، فى نزاع على دين قديم ، منذ عهد قريب ؛ وتلكأ عن أداء دِيَتِه . هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذى خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً . لم يكن ساكتاً عن حقه ، والثأر فى القبائل كالدِيَةِ ، حقٌ . على أنه لم يرَ بداً من التريث حتى تنجلى هذه المصيبة التى حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان . فكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ؛ فعُيّر أمام الناس ، فلا كانت الحياة إن لم يثأر وينتقم . . . . . »

هذا ما فكر فيه فى دقائق مسرعة كالثوانى ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه ، وتوارى عن الأنظار

— ٢ —

ونحن الآن فى الضفة اليسرى

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم فى هذه الليلة ان لم تنقص قليلاً . وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود . وكان الأعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ؛ الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف

وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس

وكان وهو فى جماعته ، مطمئناً غافلاً ، لا يدرى أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه فى تلك الليلة ؛ لا يدرى أنه جاء دارة القوم خلسةً وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لأى وجهد كبير ؛ وأنه كان – وقد مضى الهزيع الأول من الليل – يكمن له وراء نخلة فى طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلى مضرب الحرس ملماً بكوفيته ، متلفعاً بعباءته السوداء ؛ مصمما على قتله

وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلاً عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادى صحبه نداء الحذر والانتباه

وكان ينظر إليه وهو واقف فى الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره كالخنزير الحانق على الصياد ؛ ويقول بصوت خافت ؛ وكأنه يتوعده :

– « اصبر لى قليلاً يا ابن الكلب . . . . »

ثم حشا بندقيته ؛ وقد اشتدت ضربات قلبه ؛ وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشى القديم ؛ وثنى ركبتيه وأطال النظر فى عدوه ليسدد الرمى ؛ وكاد يطلق رصاصاته الخمس التى أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارسا آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا ما لم يكن يريده ؛ لأن ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ، فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثانى ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ، وبينما هو فى موقفه هذا ، ارتفعت من جانب بعيدٍ قيدَ غلوة صيحة حارس يستغيث

لقد حم الأمر ؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت فى السد المصاقب ، ومضى الحرس وفى طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالى الجبال مستطاعاً

واستيقظ أبناء القبيلة فروّعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها فى الزرع وفى إقامة السدود . وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثاً ، وراموا مستحيلا

وما كان أمامهم إلاّ الهرب ، فكان النساء يولولن ، والأطفال فى خوف ورعب يتصارخون . وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت . وكان الرجل آخر هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه فى الزرع ، ونسى بقرته وغنمه ؛ وعلى

هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع . . .

وأدركت الرحمةُ الطبيعةَ حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فهذا القمر المنير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة فى قسوة وجمود

— ٣ —

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلة متسمّة ، تنصبُّ منها فى السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول ، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء . وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التى فُجعت بها القبيلة فى دهش وتألم . وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئاً يتمزق فى جوفه . ثم استيقظ فى نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة فى الانتقام والثأر ؛ وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً ، فرأى – مما رأى – أطفال جسام الثلاثة فى صراخهم وعويلهم ، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا فى الرابعة والخامسة ، نحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو فى الثالثة من العمر ما يزال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً ، والأم ذاهلة تحنى فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الأب ، وهو دهش يحمل طفليه ، غنمه فيذهب إليها حيث كانت فى زريبة مجاورة ليسوقها أمامه . . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل ؛ فكانوا فى مثل يوم المحشر الموعود

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو

وحينئذ كان بداى يحكم لثامه شداً ، ويتنكب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها . وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها فخفف عنها حملها الثقيل . وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه فى الزحام ، واحداً من أبناء عمه ، فخاطبه مرشداً ومشجعاً :

— « دونك السد »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدى إلى قرية قريبة ، الطريق الوحيد الذى لجأ اليه القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً . . .

وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت . وحملت أخته أمها العجوز . وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً ، معه ، وهو حامل طفليه . واستمدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التى رحلت من مستقرها وقد مسها ضرٌّ أليم . وأقبل أثرهم الرجل الملثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، فى ضوء القمر ، محملقاً كأنه يقول له :

— « هلا عرفتنى ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة فى الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم

ونحّى جسام طفليه عنه فى تأن وحذر ، ومد يمناه إلى خنجره بيد أن بداى أخاف ظنه فما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الآن ! . . . مع السلامة . . خلصت . . ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ إلى زورقه مسرعاً ، تاركاً ثاره [1] وزوجه التى انتبهت اليه آخر الأمر ، فى حيرة واستغراب

***

وآب بداى الفائز إلى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التى لم يفعل مثلها أحد قبله ، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد ، واستحيا لأجلها ، ولو إلى حين ، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

— ٤ —

ومر عام على هذا الحادث . فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهراً ؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها ؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسمون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة ، وهى أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنةِ القبائل الموروثة وتقاليدها

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل

(العراق — الأعظمية) محمود . أ . السيد

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه

البريد الأدبي

تبسيط اللغة الانكليزية واهتمام الانكليز بنشرها

يبدى الانكليز فى الوقت الحاضر اهتماماً خاصاً بنشر اللغة الانكليزية ، ويحاولون بمختلف الوسائل أن يجعلوا منها لغة دولية عامة ، كاللغة الفرنسية فى الشئون والمعاملات الدولية والتجارية ؛ ويرجع هذا الاهتمام إلى ما بعد الحرب الكبرى إذ اتسع نطاق الامبراطورية البريطانية اتساعاً عظيما ، وضمت إليها شعوب وأمم جديدة ، وزاد نفوذ انكلترا الدولى تبعاً لذلك ، واتسع نطاق تجارتها اتساعا عظيما . والانكليز أقل الأمم اهتماما بدرس اللغات الأجنبية ، وقد حاولوا أن يتلافوا هذا النقص بفرض لغتهم على الشعوب التى تنضوى تحت لوائهم ، ولكنهم يرغبون اليوم فى التقدم خطوة أخرى ، وذلك بالعمل لجعل اللغة الانكليزية لغة دولية اختيارية . وقد رأوا أن أنجع وسيلة لتحقيق هذه الغاية هو تبسيط اللغة الانكليزية إلى أبعد حد ، وانتهوا فعلا إلى عمل هذه التجربة ، فقام الأستاذ أجدن أحد أعضاء المعهد اللغوى بجامعة كامبردج باختيار الألفاظ الانكليزية التى تعبر عن أكبر عدد من المعانى المطلوبة ، وانتهى إلى حصرها فى ٨٥٠ كلمة تكون وحدها لغة انكليزية جامعة وافية بالتعبير عن كل ما يرغب ، ويكفى لدرسها وحفظها ثلاثون ساعة ، وليس فيها أى تضارب ولا تعقيد ، وليس فيها من الأفعال سوى ١٨ فعلاً ، وقد سميت هذه اللغة « بالانكليزية الأساسية » . ويعلق الانكليز على هذا التبسيط المدهش للغة تبلغ كلماتها عشرين ألفا آمالا كبيرة ، وتنوه الصحف العلمية بهذه المناسبة بأن أحب الكتاب الانكليز إلى الشعب الانكليزى هم أبسطهم لغة وبيانا مثل سويفت وبرنارد شو ، ومن ينحو نحوهما فى التعبير الجزل البسيط الذى لا يتخلله حشو ولا ترادف ولا تعقيد

ازمة الديموقراطية

تشغل أزمة الديموقراطية أذهان الساسة والكتاب الأحرار ، وقد صدرت فى موضوعها فى الآونة الأخيرة مؤلفات عديدة ولا سيما مذ تولت عصبة الهتلريين الحكم فى ألمانيا وسحقت كل أنواع الحقوق والحريات العامة ؛ ومنذ أسابيع قلائل ظهر كتاب جديد فى الموضوع بقلم مسيو دى روفيرا الكاتب والسياسى الاسبانى عنوانه « تجربة سياسية » Un Essai Politique ومن رأى هذا الكاتب أن الديموقراطية تجتاز أزمة الموت ، بيد أنه من المستحيل أن يظفر المؤرخ أو السياسى المعاصر بجراثيم الداء التى تنخر أسس الديموقراطية ؛ وأكبر الظن أن مؤرخ القرن الثانى والعشرين أو الثالث والعشرين سيكون أقدر منا على تفهم الصلات والحوادث التى تربط الثورة الفرنسية بالحركات الثورية الجديدة مثل الشيوعية والفاشستية ، وأقدر منا على تفهم المراحل التى جازتها المبادئ الثورية السياسية حتى انتهت إلى نواحيها الاجتماعية ؛ وقد يرون أن تحول العالم القديم إلى العالم الجديد قد استهدف لسلسلة من النزعات والعوامل المضطربة . ثم يقول مسيو روفيرا : إننا نشعر الآن فى جميع أوربا بضرورة الارادة العاملة ؛ ولنا أن نسميها « سلطة » أو « طغياناً » فان المهم هو أننا نريد أن نعمل . ويجب علينا ألا نحكم على آبائنا بالبله والعجز لأنهم لم يبتوا فى المسائل بشىء . والواقع أنه يجب أن نعتبر خاتمة القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين مرحلة الهدم بالنسبة للعالم القديم ، ومرحلة التجارب الهائلة ؛ وليس ثمة ما يدهش إذ نرى ما نرى من ذلك الاضطراب الهائل الذى يسود شؤون العالم اليوم . وقد أثارت ملاحظات المسيو دى روفيرا كثيراً من الاهتمام والجدل لأنها تتعلق بمسألة تعتبر مسألة العصر ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

رسائل جديدة لشارلس دكنز

صدر فى لندن مجلد من رسائل جديدة لشارلس دكنز الكاتب الانكليزى الفكه ، محتوياً على جميع الرسائل التى كتبها دكنز لزوجته كاترين هوجارت من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٦٧ وكانت مدام دكنز قد أوصت بهذه الرسائل لبناتها ، وأودعتها ابنتها الثانية كات بيروجيني بالمتحف البريطانى وأوصت بأن تبقى فى طى الكتمان بعيدة عن النشر والاذاعة حتى تموت هى ، والسير هنرى فلدنج دكنز آخر من بقى على قيد الحياة من نسل الكاتب الشهير . وقد عمل المتحف البريطانى بهذه الوصية ولم يسمح باذاعة الرسائل حتى تحقق شرط الانقراض . وليس فى هذه الرسائل جديد مما لم يعرف عن حياة دكنز ، ولكنها تلقى ضياء جديداً على ما كان بينه وبين زوجه من الخلاف وما كان بينهما من أسباب النفرة والاحتكاك مذ عرفها باسم كاترين هوجارت . والرسائل الجديدة على وجه العموم صورة حية من خواص دكنز ومواهبه الكتابية ، وهى تسبغ على الحوادث والمسائل التى تتناولها حياة جديدة لم تتوفر فى أية ترجمة من التراجم التى تناولت حياة الكاتب الكبير ، وفيها يبدو دكنز فى ذروة براعته المعروفة فى التصوير الفكه المبكى معاً . وقد تلقى الجمهور الانكليزى الرسائل الجديدة لهذا الكاتب المحبوب بلهفة واشتياق . والذين قرأوا من أبناء العربية شيئاً من قصص دكنز ولا سيما قصته الخالدة « دافيد كوبر فيلد » أو « نادى بكويك » أو « نيكولس نيكلباى » أو غيرها يذكرون كيف يستطيع هذا الكاتب المبدع أن يصور حياة البؤس والتشريد فى صور بسيطة مبكية معاً ، وكيف يستطيع أن يهز أوتار القلوب بعرضه المؤثر وبيانه الخلاب

وليم كوبيت

يحتفل الدوائر الأدبيـة الانكليزية بذكرى كاتب مازالت كتابته تطبع أذهان النشء الانكليزى بطابع قوى : ذلك هو وليم كوبيت الذى توفى منذ مائة عام . وقد ولد كوبيت سنة ١٧٦٢ فى فرنهام من أعمال سورى ، فى أسرة ريفية فقيرة ، وقضى حداثته فى فلاحة الأرض ، ثم تقلب فى مهن صغيرة مختلفة ، فاشتغل كاتباً وجندياً ، ولما ترك الجندية سافر إلى أمريكا وقضى بها ردحا من الزمن ثم عاد إلى انكلترا ؛ واشتغل أثناء ذلك بالصحافة آناً وبالزراعة آناً آخر ، ولقى فى حياته العملية صعاباً جمة نظراً لمناوأته رجال الحكم ؛ واستقر فى انكلترا منذ سنة ١٨٠٠ وأخذ يعالج الصحافة السياسية أولاً إلى جانب حزب الأحرار ، ثم إلى جانب المحافظين ؛ وكانت صرامته وعنفه وشدة حملاته تثير عليه السخط فى الجانبين ، ولكنه مع ذلك كان يبدى براعة ظاهرة فى حملاته ، وكان مرهوب القلم . وفى سنة ١٨١٧ سافر إلى أمريكا مرة أخرى ومكث بها عامين ثم عاد إلى انكلترا ؛ ورشح نفسه للانتخاب النيابى فسقط لأول مرة ، ثم عاود الكرة بعد ذلك ونجح فى الانتخاب كنائب عن أولدهام . بيد أنه لم يبد فى مجلس العموم مقدرة خطابية . ولم يلبث أن توفى بعد ثلاثة أعوام ، فى يونيه سنة ١٨٣٥

وقد كان كوبيت من أعظم النقدة فى عصره ، وكان كاتباً وصفياً لا يجارى ، وكان يملك زمام البيان بقوة مدهشة ؛ وكان أشد تأثيره فى شباب عصره ؛ وأشهر مؤلفاته « نزهات ريفية » و « نصيحة إلى الشبان والشابات » وهو من خير ما كتب وخير ما ظهر فى عصره ؛ ثم رسائله السياسية الأسبوعية وهى تملأ مجلدات كثيرة

الذكرى الثلاثون للامام محمد عبده

أقامت رابطة الشباب الأدبية فى الساعة السادسة من مساء الخميس الماضى بالدار الجديدة لجمعية الشبان المسلمين احتفالاً رائعاً بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة المصلح الكبير الامام محمد عبده ، شهده صفوة من رجال العلم وجمهرة من شباب الأمة ، وتكلم فيه الأستاذ عبد الوهاب النجار عن حياة الامام ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق عن الامام فى الأزهر ، والدكتور محمد حسين هيكل عن الامام فى الصحافة ، والأستاذ عبد الله عفيفى عن دفاع الامام عن الاسلام ، والأستاذ الهلباوى بك عن الامام فى القضاء ؛ وكادت هذه الخطب الممتعة تؤلف للامام ترجمة وافية لولا أن ضيق الوقت أعجل الأستاذين النجار والهلباوى عن لم الموضوع واستيفاء البحث

الكتب

١ — فتح العرب لمصر : للدكتور بتلر

ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد

٢ — فنون الطهي الحديث

لمؤلفيه السيدين أبي زيد أمين وطفيان سعيد

للأستاذ محمد بك كرد علي

من الكتب كتاب واحد يغني عن عشرة ، وقلما أغنى قط كتاب عن كتاب . وهذا الكتاب في فتح العرب مصر يدخل في باب ما لا يستغنى عنه من الكتب لفائدته وطرافته . صرف مؤلفه في وضعه وقتاً طويلاً يدرس ويبحث ، ثم يستقرئ ويستنتج ، فجاء كتابه ناضجاً من كل وجه ، حرياً بأن يتعلم بعض من يؤلفون بالعربية أصول التأليف المنقحة بالنظر إلى هذا الكتاب وكيف يدرس الغربيون أبحاثهم ليفيدوا العلم ويأتوا بالمتقن من صفحاته

استعان المؤلف في تأليفه بشذرات قليلة مما كتبه الروم ومؤرخو الكنيسة القبطية ، وما كتبه أهم المؤرخين من العرب والانجليز والفرنسيين والألمان ، وما عثر عليه من أوراق البردى في أرجاء مصر ، وما كشف من عادياتها القديمة ، ورجع إلى عالم عصره الشيخ محمد عبده فأعطاه بعض قطع اختارها أو كتبها ، وكانت خاصة بالفتح ، وساعده غير واحد من أعلام مصر في قراءة جمل من القبطية وغيرها فجلا تاريخ هذه الحقبة بأجمل أسلوب عصري ، صوّر لك ماوقع من حوادث الفتح العربي كأنك تشهدها

قال : « ولعل القارئ يستطيع من مطالعة الملاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ ، ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي ، فالظاهر أن مؤرخي العرب لا يعرفون شيئا عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القواد ، وهم كذلك يخلطون بين قيرس (المقوقس) وبنيامين ، وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر ، وفتح الاسكندرية ، ولا يميزون بين فتح الاسكندرية الأول الذي كان صلحا وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة ، وكانوا يذهبون إلى أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم . وقد ظلم التاريخ القبط في ذلك ظلماً فاحشاً على نحو ما ظلم العرب ظلماً كثيراً بنسبة حريق خزانة كتب الاسكندرية إليهم » قال : وما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق ، وقال إنه ممن يحمل لكل من الشعبين العربي والقبطي أكبر الاعجاب

ومن براهينه في تبرئة العرب من حريق خزانة الاسكندرية أن هذه القصة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة وقد فحص هذه الحكاية وحللها (شأن عشرات من علماء المشرقيات) فألفاها كما رأوها سخافات مستبعدة ينكرها العقل ، وقال إن الرجل الذي ذكر أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل ، وإن القصة قد تشير إلى واحدة من خزانتين : الأولى خزانة المتحف ، وقد حرقت في حريق قيصر ، وإذا لم تتلف كلها كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب . وأما الثانية وهي خزانة السرابيوم اما أن تكون تلفت قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد ضاعت ، وعلى كل فقد ضاعت أخبارها قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن ، ولو كانت هذه الخزانة باقية عند ما عقد قيرس صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لنقلت الكتب ، وقد أبيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة وقدرها أحد عشر شهراً ، وإن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجود الخزانة ، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وإنه لو صح أن هذه الخزانة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم وهو يوحنا النقيوسي ، وكان قريب العهد من الفتح ، ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً الخ

وقال المؤلف في الحاشية إنه لم يقصد سوى اثبات الحقيقة ،

وما قصده الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضروري ، ولو كان ضرورياً لما تعذَّر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك ، ولاشك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع فى أيديهم ، وعنوا بحفظها ، وترجموا منها فى كثير من الأحوال . قال : وفى الحق أنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحى هذه الأيام أن يحذوا حذوه ، فقد نقل سيديليو فى تاريخ العرب العام أن الفرنسيين عند ما فتحوا مدينة قسنطينة فى شمال أفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التى وقعت فى أيديهم « كأنهم من صميم الهمج » ؛ ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة خزانة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها فى كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا فى حملها عناءً . وقيمة الكتب التى نجت وحفظت تدل على فداحة الخسارة التى لحقت العلم بضياع ما ترك منها اهـ

بهذا الانصاف ، وهذه العناية ، وهذا الجهد ، ألف المؤرخ الانجليزى تاريخ الفتح العربى فى مصر ، فرسم صورة جميلة ، وكان اعجابه بعمرو بن العاص لا يقل عن اعجابنا معاشر العرب به وبأمثاله من الصحابة الفاتحين . وعناية المترجم الفاضل شديدة بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها ؛ وقد وقع له تحريف فى بعض الأعلام ، ومنها ترجمته اذاسا (Edesse) ، وهى الرُّها وأطلق عليها الترك « أورفه » ؛ ومنها « افيسوس » وهى « إفسس » مدينة فى آسيا الصغرى أطلالها قرب أزمير اليوم ؛ ومنها « برجاموس » وهى « فرغاموس » ، وفى قاموس الجغرافيـة القديمة للعلامة أحمد زكى باشا أن فرغامس هو الاسم الوارد فى كتب العرب للدلالة على مملكة قديمة بآسيا الصغرى اسمها عنـــد الأفرنج (Pergame) ، ومنه اشتقوا الكلمة التى يطلقونها على الرق (بفتح الراء) أى الجلود المستعملة للكتابة ، لأنها أول ما صنعت بهذه المملكة ، فيقول الطليانيون (Pergamina) والفرنساويون (Parchemin) الخ . وقال مدينة « بيرويه » وهى مدينة حلب ذاتها . هذا إلى هنات قليلة لا يكاد يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية . أما الترجمة فى مجموعها فيستحق عليها المترجم كل ثناء وشكر

— ٢ —

أحسن مؤلفا فن الطهى الحديث على الطراز العربى والغربى وضعه . ألفاه بعـد أن عانيا صناعة الطبخ بالعمل فى مصر وبلاد الغرب سنين طويلة وعملا فى قصور الملوك والأمراء وفنادق النبلاء واللآء ، فجاء الكتاب نافعاً فى بابه لا تستغنى عنه ربة دار ، ولا طاهٍ يروقه أن يزين خُوانه بشهىّ الألوان ، ويتفنن فى تلذيذ الآكلين بطعام صحىّ منوّع . جاء الكتاب فى ١١٧٠ صفحة كبيرة وصفت فيه الأطعمة والحلويات والتبلات مشفوعة بالمقادير الواجب استعمالها وبصورة وضعها وصنعها بحيث لا يكاد يحتاج من يريد الاقتباس منها إلا إلى قليل من الدقة والعناية حتى يتفنن فى طبخ الطعام ويجهز ألواناً رائعة شائقة شكلاً وطعماً . وكنا نتمنى لو دفع المؤلفان كتابهما إلى من يصقل عباراته ويترجم أسماء بعض الألوان الأفرنجية بألفاظ عربية تدنى مفهومها من ذهن من لا يحسن لغة من اللغات الأجنبية من أبناء العرب

وقديماً ألف أجدادنا فى هذا الموضوع بما دل على رسوخهم فى الرفاهية ، وقرأنا فى الكتب أن الخليفة الفلانى أو الملك الفلانى كان يقدم على مائدته عشرات بل مئات من ألوان الطعام . والتفنن فى الطبخ دليل الحضارة ، ولطالما كان بعض الأمراء يرسلون إلى الأقطار البعيدة بعض طهاتهم ليأخذوا عنها صنع أطعمة لا يعرفونها ، والمطابخ الافرنجية اليوم أرقى من المطابخ الشرقية ؛ لأن طعامها يطهى على أساليب كيمياوية صحية لا نزاع فى خفتها وطرافتها . وحضارة الغرب أرقى الآن من حضارة الشرق ، اللهم إلا فى مسائل يتفرد بها الشرقيون

فليس البحث فى الأكل الجيـد إذاً بالذى يعد انحطاطاً ، ونحن لو أنعمنا النظر لا نفسر هذا الجدال القائم بين البشر اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا على الرفاهية ، وما فلسفة الأمم إلا فلسفة خبز فى الواقع . ودعوى خدمة المدنية والانسانية صورة مبهرجة يراد بها غير ما تعطى ظواهرها . والأمة التى يكثر خبزها وتتلون أطعمة المتوسطين والموسرين فيها هى أمة راقية سعيدة ، والعرب الذين عهدنا لهم تلك الخشونة فى المطعم لما فتحوا الممالك وخرجوا من جزيرتهم أغرقوا فى التنطع والتنوّق إغراق غيرهم من الأمم

محمد كرد على

3 me Année, No. 106.

Lundi-15-7-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــــدد

الميت الذى لا يموت

٢ ـ الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين

تولدت حيوية الامام القوية من جبلّة أبيه الحرة فى « محلة نصر » ، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية فى « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العلمية فى شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة ؛ فكان سر الوراثة يُجريه فى الاعتقاد على الاخلاص ، وفى العزم على المضاء ، وفى القول على الصراحة ، وفى العمل على الجرأة ، وفى الحياة على التمرد ؛ فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء ، الأرهاصَ فى الأنبياء ، كان لا يفتأ منذ الحداثة يساوره فى كل هم يحاوله ، وعمل يزاوله ، وموضع يستقر فيه ؛ وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ، فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغى التحول ؛ ولذلك كان الامام لا يُكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح

دخل المعهـــد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء

الكتب ، فكان وَكْدُه طول عمره أن ينمش الدين من هذا الجمود ، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت ؛ وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد إلى العلوم العقلية ، والمعارف العصرية ، والأدب المنتج ؛ ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الادارية فى الحكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع ؛ وكانت مقالاته فى (الوقائع المصرية) دستوراً للغة ، ونظاماً للكتابة ، ومنهاجاً للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين فى النضبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية ؛ وهناك دله ذلك الشعور النبوى فيه إلى ما جره سوء سياسة السلطان ، من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الاخوان ، فوضع دستوراً لاصلاح التعليم الدينى قدمه إلى شيخ الاسلام ، ومشروعاً لاصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت ، ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى الافغانى إلى باريس ، ودعا فى (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر

ثم ولوه بعد العفو عنه القضاء ، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية ، وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الاصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى ، الدينى والمدنى ، فى إصلاح الأزهر ، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر ، فاذا قلبه على الوضع الذى يريد فقد وضع المكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ؛ ولكن أبا لهب وأشياعه فى الجامع وفى القصر أرادوا وأسفاؤه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته ! !

* * *

ذلك سر الوراثة الفسلجية عن أبيه القروى الفقير الباسل ؛

أما سر الوراثة الروحية عن خاله التقى العارف ، فرجوعه إلى مشارع الدين الصافية ، وعقائد القرآن الأولى . قال ذات يوم لخاله : ما طريقتكم ؟ قال : الاسلام ؛ قال : وما وِرْدكم ؟ قال : القرآن . فلم يتَّبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة : أيقظ همه للاسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمتمررين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ؛ وجعل عزمه للقرآن ففاز منه برياض مونقة ، وأعلام بينة : فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره !

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فذلك النفوذ البعيد فى علوم الفلسفة ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والالمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم ! وسر النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطرى ، ونفحة من روح الله ليبيد كله على لسانه ، ويبعث شريعته عن قلبه

* * *

كان الامام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الاصلاح الدينى ، فوقفت بين الدين الذى تأخر ، والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلاً بين الجامدين الذين يرون فى تجديده الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييده العلم بالدين رجعية ! ولو أنه عالج الاصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل

وبعد ، فإن فى ميدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الاسلام ومصلح الأزهر ! ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه لاستفقرنا الجهل سبعين مرة ، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الامام وخليفته ! فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ؟

احمد حسن الزيات

فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

... وهذا مجلسٌ من مجالس الطائشة مع صاحبها، مما تسقَّطه من حديثها؛ فقد كان يكتب عنها ما تُصيبُ فيه وما تخطىء، كما يكتب أهلُ السياسة بعضُهم عن بعض إذا فاوضَ الحليفُ حليفَه أو ناكرَ الخصمُ خصمَه؛ فان كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلّم وحده، بل فيه نطقُ الدولة .... وفيه الزمنُ يُقبِل أو يُدبِر

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّول التى تُرْغِم صديقاً على الصداقة لأنه فى طريقها أو طريق حوادثها. وكان يسميها « جيشَ احتلال »، إذ حطت فى أيامه واحتلتها فتبوأتْ منها ما شاءت على رغمه، واستباحت ما أرادت مما كان يَحميه أو يَمنعه. وقد كان فى مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذى رأى ظلَّ شىء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيتَه ... فهذا ليس مما يُغسل بالماء ولا يكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية، إنما إزالتُه فى إزالة الشبح الذى هو يُلقيه أو إطفاء النور الذى هو يُثبته

فى كل شىء على هذه الأرض سُخرية، والسخريةُ من الحسن الفاتن الذى تقدسه، تأتى من اشتهاء هذا الحسن؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدَّساً ... أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط، أو هو تجعلُ تقديسه باباً من الحيلة فى إسقاطه. لا بد من سُفلٍ مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر؛ فاذا قال رجل لامرأةٍ قد فتنته أو وقعت من نفسه: « أحبُّكِ » أو قالتها المرأةُ لرجل وقع من نفسها أو استهامها، ففى هذه الكلمة الناعمةِ اللطيفة كلُّ معانى الوقاحة الجنسية، وكل السخرية بالمحبوب سخريةً بإجلالٍ عظيم ... وهى كلمةُ شاعرٍ فى تقديس الجمال والاعجاب به، غير أنها هى بعينها كلمةُ الجزّار الذى يرى الخروف فى جماله اللحميِّ الدهنيّ، فيقول: « سمين ... ! »

لهذا يمنع الدينُ خلوةَ الرجل بالمرأة، ويُحرّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس، ويَفصل بمعانى الحجاب بين السالب والموجب، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضّ البصر، إذ لا يكفى فى ذلك حجابٌ واحد، فان الطبيعة الجنسيةَ تنظر بالداخل والخارج معاً. ثم يطرد عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته، إذ هى كلمةُ حيلةٍ فى الطبيعة أكثرُ مما هى كلمة صدقٍ فى الاجتماع، ولا يؤكد فى الدين صدقَها الاجتماعيَّ إلا العقدُ والشهودُ لربط الحقوق بها، وجعلها فى حياطة القوة الاجتماعية التشريعية، وإقرارِها فى موضعها من النظام الانسانى؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معانى الزوج، أما أن يكون من معنًى آخر أو يكونَ بلا معنًى فلا؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هى وحدها التى تلد، وما دامت لا تلد للبيع ....

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأةٍ ذكية مطلعةٍ محيطة مفكرة، تُبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً، وقد أصبحت بعد سَقْطةِ حبها ترى الصوابَ فى شكلين لا شكل واحد؛ فتراه كما هو فى نفسه، وكما هو فى أغلاطها

وقد أسقطنا فى رواية مجلسها ما كان من مُطارَحات العاشقة، واقتصرنا على ما هو كالاملاء من الأستاذة ....

***

قال صاحب الطائشة: ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت: إنها خير تلاميذه .... حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه فى تحرير المرأة. فقالت: إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتنا نحن الى تلميذها القديم؟

قالت: وأبلغُ من يرد على قاسم اليومَ هى أستاذته التى شبتْ بها أطوارُ الحياة بعده، فقد أثبت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر فى عهدٍ بعينه ولم يُتبِع الأيامَ نظره، ولم يستقرئْ أطوارَ المدنية؛ فلم يُقدِّر أن هذا الزمن المتمدّنَ سيتقدم فى رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم فى فضائله، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواها بالطبيعة وأقواها بالعلم، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازلُ ولا تحت الحياة مثلُها

مزّقَ البرقع وقال: « إنه مما يزيد فى الفتنة، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان فى مجموع خلقها — على الغالب —

ما يردُّ البصر عنها » فقد زال البرقع ، ولكن هل قدّر قاسم أن طبيعة المرأة منتصرة دائماً في الميدان الجنسي بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لكل معركة أسلحتها ، وأنها إن كشفت برقع الخز فستضع في مكانه برقع الأبيض والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا . فهي تأتي كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » فقد زال البرقع والنقاب ، ولكن هل قدّر قاسم أن المرأة السافرة ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تلبس جسمها ثوباً يكسوه تلبسه الثوب الذي يكسوه ويزينه ويظهره ويحركه في وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هذا الموضع اسمه . . وهذا الموضع اسمه .. وانظر هنا وانظر هاهنا .. مازادت المدنية على أن فككت المرأة الطيبة ثم ركبتها في هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لترتبط به الزوج معنا ، فلم يزد على أن جرّأنا على الحب الذي فرّ به الزوج منا ، وقد نسي أن المرأة التي تخالط الرجل ليعجبها وتعجبه فيصيرا زوجين — إنما تخالط في هذا الرجل غرائزه قبل إنسانيته ، فتكون طبيعته وطبيعتها هي محل المخالطة قبل شخصيهما ، أو تحت ستار شخصيهما ؛ وهو رجل وهي امرأة ، وبينهما مصارعة الدم ... وكثيراً ما تكون المكينة هي المذبوحة . وقد انتهينا إلى دهر يصنع حبه ومجالس أحبابه في « هوليود » وغيرها من مدن السيما ، فان رأى الشاب على الفتاة مظهر العفة والوقار قال : بلادة في الدم ، وبلاهة في العقل ، وثقل أي ثقل . وإن رأى غير ذلك قال : فجور وطيش واستهتار أي استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدين ؟

أخطأ قاسم في اغفال عمل الزمن من حسابه ، وهاجم الدين بالعُرف ؛ وكان من أفحش غلطه ظنه العرف مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العرف هو أن هذا الأخير دائم الاضطراب ، فهو دائم التغير ، فهو لا يصلح أبداً قاعدة للفضيلة . وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن السرى ، وأصبحنا

نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا في جزرهم أو محلتهم أو ناديهم رجلاً يلبس في حقويه تباناً قصيراً كأنه ورق الشجر على موضعه ذلك من آدم وحواء ، إذا رأوا هذا المتعفف بخرقة . . . . أنكروا عليه وتساءلوا بينهم . من ؟ من هذا الراهب . . . . ؟

ونسي قاسم — غفر الله له — أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرها فالتي تفرغ الثوب على أعضائها إفراغ الهندسة ، وتلبس وجهها ألوان التصوير — لا تفعل ذلك إلا وهي قد تغير فهمها للفضائل ، فتغيرت بذلك فضائلها ، وتحولت من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروح المسجد غير روح الحانة ، وهذه غير روح المرقص ؛ وهذه غير روح المخدع ، ولكل حالة تلبس المرأة لبساً فتخفي منها وتبدي . وتحريك البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريك النفس لتتغير صفاتها ، وأين أخلاق الثياب المصرية في امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التي كانت لها من الحجاب ؟ تبدلت مشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعناية بالنسل والتفرغ لاسعاد أهلها وذويها — مشاعر أخرى أولها كراهية الدار والطاعة والنسل ، وحسبك من شر هذا أوله وأخفه !

كان قاسم كالمخدوع المغتر بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روح القاضي ، والقاضي بحكم عمله مقلد متبع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نص لم يكن له فيه شأن ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاط الرجل حتى جعل الفرق بين فساد الجاهلة وفساد المتعلمة أن الأولى « لا تكلف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذي تريد أن تقدم له أفضل شيء لديها وهو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساء المتعلمات ، إذا جرى القدر عليهن بأمر مما لا يحل لهن لم يكن ذلك إلا بعد محبة شديدة يسبقها علم تام بأحوال المحبوب (....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت (!!!!) وهي تحاذر أن تضع ثقتها في شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوة الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهي في كل حال تستتر بظاهر من التعفف (؟؟؟؟) . . . »[1]

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر مافي هذا الكتاب هو في رأينا خلط وخبط

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ الدَّنيِّين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لاحدى الفاجرتين : أيتها الجاهلةُ الحمقاء كيف لم تتحاشي ولم تتستري فلا يكونَ للقانون عليك سبيل ؟

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرفُ الأرنبَ وأذنيها[1] وإلا فتى كان في الحب اختيار ، ومتى كان الاختيارُ يقع فيما يجرى به القَدَر ، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها . . . . فتدرس الصفات والشمائل في مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت لتُصفِّيها كلها في واحد تختاره من بينهم ؟ هذا مضحك !

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ في هــذه الأيام : كفرار بنت فلان باشا خرِّيجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها ، ففسِّر لي أنت كلام قاسم ، وأفهمْني كيف تكون اثنتان واثنان خمسةً وعشرين ؟ وكيف يكون فرار متعلِّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لا يكون أهلاً لها ؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هــذا أيضاً ، فكثير من المنكرات والآثام قد انحل منها المعنى الديني وثبت في مكانه معنىً اجتماعيٌّ مقررٌ ، فاصبحت المتعلمة لا تتخوّف من ذلك على نفسها شيئاً ، بل هي تُقارِفُه وتستأثر به دون الجاهلة ، وتلبس له (السواريه) ، وتقدّم فيــه للرجال المهذّبين مرةً ذراعها ، ومرة خصرها ..

أقرأتَ (شهر زاد) ؟ إن فيها سطراً يجعل كتابَ قاسم كلَّه ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيء يُقرأ :

قالت شهر زاد المتعلِّمةُ المتفلسفة ، البيضاءُ البضّة ، الرشيقةُ الجميلة ؛ للعبد الأســود الفظيع الدميم الذي تهواه : « ينبغي أن تكون أســودَ اللون ؛ وضيعَ الأصل ؛ قبيحَ الصورة ، تلك صفاتُك الخالدة التي أحبُّها ... ... »[2]

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

***

قال صاحب الطائشة :

فقلتُ لها : فاذا كان قاسم لا يرضيكِ ، وكان الرجل مصلحاً دخلته روح القاضي ، تَخلَّط رأياً صالحاً وآخرَ سيئاً ، فلعل « مصطفى كمال » تمسُّكِ من رجلٍ في تحرير المرأةِ تحريراً مزّق الحجاب والـ ... ؟

قالت : إن مصطفى كمال هــذا رجلٌ ثائرٌ ، يسوق بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة ، ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هــذا ، ولا يبرحُ ثائراً حتى يَتِمّ انسلاخُ أمتِه . وله عقلٌ عسكريٌّ كان يمكرُ به مَكرَ الألمان حين أكرهَهم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) فحوّلوها تحويلاً يردُّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات . وليس الرجل مصلحاً ألبتــة ، بل هو قائدٌ زَهَّاه النصرُ الذي اتفق له ، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة : « أريد . . . » وجعل بعــد ذلك إذا غَلِطَ غلطةً أرادها منتصرة ، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضةَ دولته ، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها ، ويأخذ كيف شاء ، ويَدَعُهم كيف أحب ؛ وبكلمة واحــدة : هو مؤلِّف الرواية والقانونُ نفسُه أحدُ الممثِّلين ...

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لا مصلح ؛ فان أخصَّ أخلاق الثورة حِقْد الثائرين ، وهذا الحقد في قوة حربٍ وحدها ، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة . والرجل يحتذي أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين في خيرها وشرّها ، ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرأون هم منها ويُلحِقُها هو بقومه ، فكأنه يَنتفُ الآراءَ ويأخذها أخذاً عسكرياً ، ليس في الأمر الا قولةُ أريد . فيكون ما يريد . هو لم يحكم على شبرٍ من أوروبا يجعله تركياً ، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لا يَعسُرُ عليه أن يجيء بملائكةٍ أو شياطينٍ من المرَدَة ، ينفخون أرض تركيا فيُمطِّونها مطّاً فيجعلونها قارّةً من أن يُكرِه أوروبا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدمِ مسجد . إنه لا يزال في أول التاريخ ، وهذا الشعبُ الذي انتصر به لم تَبلِهِ مبادئُه ولا أنشأه هَدْمُ المساجد وشَنْقُ العلماء ،

(١) يقول العرب : « فلان يعرف الأرنب وأذنيها » أي يعرف الشيء بالعلامة التي تثبته ولا تتخلف

(٢) ص ١٠٦ من « شهر زاد » للكاتب الدقيق الأستاذ توفيق الحكيم . وقد كتبنا نحن في هذا المعنى وكشفنا عن سره في كتاب « أوراق الورد » ص ٥١ — ٥٢ وفي غيره من كتبنا

بل هو هو الذي ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعْوِزُه إلا القائد الحازم المصمّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فإذا فُتِنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبياً فهذا شيء آخر له اسم آخر

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثها بحثاً علمياً ؛ فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر في انجلترا ، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدويلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم يتميزُ الرجلُ بدالّته على قومه ويدخُله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسفّه دينَهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الاصلاح في رأيه . أفتُرى الانجليزَ حينئذ يضوون اليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا في الحرب ، ومصلحُنا في السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . . ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يتدافعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسة واحدة لايكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن المعجزَ مُهدٌ من تلقاء نفسه ، والأرض المنخسفةُ هي التي يستنقعُ فيها الماء فله فيها اسمٌ ورسم ؛ أما الجبلُ الصخريُّ الأشمّ ، فاذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! (١)

* * *

قال صاحب الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لاترين مثل هذا لنفسك ؟

فتمضمضت لهذه الكلمة ولجلجت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتني الرأي لنفسي ، ووضعتني في الحقيقة التي لا تتقيد بقانون الخير والشر

قلت : فاذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها في الرأي وتنصح بالرأي الصائب غيرها ، فيوشكُ ألا يبقى في نساء الأرض فضيلة ولا يعود في المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الاسلاميّ مع المرأة ، فهو يخلق طبائع المقاومة في المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيَّل إليها أن السماء عيونٌ تراها ، وأن الأرض عقولٌ تحصي عليها . وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضي قضاءً مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب اغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث في الراديو له دويّ في الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب وغَيرة الرجل وشرف الأهل ، ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنينٌ يكبَرُ ولايزال يكبَرُ حتى يكون عارَ ماضيها وخزْيَ مستقبلها

هذه كلها حُجُبٌ مضروبة لاحجابٌ واحد ، وهي كلها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجابَ الأخيرَ كالسور حول القلعة . ولكن قَبح الله المدنية وفنها ؛ انها أطلقت المرأة حرّة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هي الحرية في اختيار أثقل قيودها لاغير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ، ولكن بين اللصوص ، كأنك في هذا لست حراً إلا في اختيار من يجني عليك . . . . !

لم تمد المرأة المصريةُ انتصارَ الأمومة ، ولا انتصار الخُلق الفاضل ، ولا انتصار التعزية في هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة

قال صاحب الطائشة : فضحكت وقلت : وانتصاري . . . ! ؟

طبق الأصل (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروي قصة هي في الدنيا ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويعتبر ، ولعله يردُّ بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب تأخذه عمن أخطأ

(١) سنفرد مقالا خاصاً لهذا الالحاد التركي الذبابي . . . . فقد عثرنا في النسخة الخطية التي عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، وسنقدمه لقرائنا

حول المسجد

للأستاذ أحمد أمين

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة انجليزية فاضلة ، وكان ذهني مستغرقاً في برنامج « الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية » والمتحدثون — عادة — يلونون حديثهم — ولو من غير شعور — بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم — ومهما بعُد المتحدث عن الموضوع الذي يستولى عليه فسرعان ما يعود إليه ، وينغمس فيه

لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره ، وإذا بنا نتكلم في « التربية والتعليم وشؤونهما » وإذا بي أسأل السيدة :

— ما برنامج الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية في انجلترا ؟

— ليس لها في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة ، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات ، وأهم ما يقوم بهذه المهمة « الكنيسة » فهي تنظم دروساً للشبان والشواب في هذا الموضوع ، ويقوم بها رجالها ، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس في المدارس ؛ وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجل ، واحتراماً أوفر ، وطعماً أحلى

***

انتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا ، وساءلت نفسي :

ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الاسلامية ؟

إني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة اجتماعية هامة بجانب وظيفته الدينية ، هي الاشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر ، والمشاكل التي تعرض في كل زمن ، كما أن من وظيفته الاشراف على حالة الحي الاجتماعية ، وما يصاب به من بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك ؛ ثم تنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفى الحي ، غير أن المستشفى يداوي الأمراض الجسمية ، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحي ، ويعرف علاجهم ، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي ، يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ومن صحيحهم لمريضهم ، ويقضي على المنازعات والخصومات ما استطاع ، ويثقف الجهلاء ، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً ، يخطبون ويعظون ، ويعلمون ويثقفون — وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة ، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة وبما تقوم به المحكمة ، وبما تقوم به جمعيات الاحسان ، وبما هو فوق هذا وذاك

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل ، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتفقه فيه في دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني ؛ لأنها بعيدة عن المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها في الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها — لقد حرمت المرأة من المسجد ، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية ، لأن الأم — غالباً — هي مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها ، جمحت وغوت ؛ فهي الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي

هذا هو المسجد كما أتصوره ، وكما ينبغي أن يكون — قوى الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية ، في الرجل والمرأة ، قلوب الحي معلقة به ، يتغارون عليه ، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه ، ويرون أنه لهم وهم له ، وأن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه ؛ متعلمو الحي جنوده في نشر الثقافة ، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر ، ونساؤه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد ، فأين مسجدنا منا ، وأين نحن من المسجد ؟

لقد اعتزل الناسَ واعتزله الناسُ ، ولم يشعر شعوراً قوياً بوجودهم ، ولم يشعروا شعوراً قوياً بوجوده

نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته « آثاراً » ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك « آثاراً » فليس يؤمه — مع الأسف — إلا الطبقة الفقيرة البائسة ، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش ؛

أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدّى شعائره إلا القليل النادر ، كأن السينما والمساجد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهي حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير

ووزارة الأوقاف كذلك عدّت المساجد « آثاراً » ، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء يعاملونها معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألفت في القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ماننشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورحبت السياسة بهذا النظر الأثري إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ، هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشبان مرة والشواب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد في الاسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مهم ، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والتأديبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد مجمع الناس في الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولو سار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدي كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني ؟؟ . . إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ؟

في القطار الى (رأس البر) **أحمد أمين**

بين الأسطورة والتاريخ

هل احرق فاتح الاندلس سفنه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين ، لا في التاريخ الاسلامي وحده ، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها ؛ وتعتبر موقعة شذونه أو « مدينا سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الانسانية ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وروائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو في بعض نواحيها وضاءة مشرقة ، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان

ولسنا نعرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه ، ولكنا نعرض لواقعة ترتبط باسمه ، وقد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في لون التاريخ الحق ، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبتة والمضيق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط ، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

(رمضان سنة ٩١) ثم فى حملتهم الثانية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ – ابريل سنة ٧١١ م) . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى اسبانيا حتى أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو الظفر ، ويقطع عليهم كل فكرة فى التخاذل أو الارتداد .

فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الاسلامية التى حدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة ؛ ولا تذكرها الرواية الاسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الشهير « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس [1] ؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الأدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الاسلامية تمر عليها بالصمت المطبق

وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذى يقال إن طارقاً ألقاه فى جنده قبيل نشوب الموقعة الحاسمة بينه وبين القوط ؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذى مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أبدع نماذج البلاغة العربية ؛ فقد استهله طارق بقوله : « أيها الناس ؛ أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحرفى الشهير الذى تنسبه الرواية الاسلامية المتأخرة إلى طارق ، لم يرد فى روايات المؤرخين المتقدمين ؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ وذكره ابن قتيبة ، ولم يشر اليه ابن الأثير وابن خلدون ، ونقله المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه [2] ، وهو على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين ؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن ؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً – وهو ما نراه موضع الشك – فانه يمكن تفسيره بأن السفن التى عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطى ، ولم تكن سوى أربع ، وقد عبر الجيش الاسلامى عليها تباعاً فى مرات عدة ، فمن المعقول إذاً أن يعتبر طارق أنه فى حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى افريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الادريسى ؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع ، فانه لما يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، وليس موقف قيصر فى غاليا أو موقف بونابارت فى إيطاليا فيما بعد بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم)

***

والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق . على أننا لا نعدم أيضاً فى التاريخ الحق أمثلة واضحة منها . ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الامبراطور يوليان فى حملته الفارسية . وكان يوليان منذ جلس على عرش قسطنطينية ، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التى ما زالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة ، وكان مثل الاسكندر المقدونى يحفزه ويذكى عزمه ؛ ففى سنة ٣٦٣ م ، سار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته فى جيش ضخم ، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال ، ثم سار جنوباً بحذاء الفرات ، وسار فى نفس الوقت فى الفرات أسطول رومانى ضخم يحمل أقوات الجيش ؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات ، واجتاح بلاد الأشوريين ، وأشرف على نهر دجلة حيث كان الفرس فى انتظاره فى الضفة الأخرى ؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة ؛ واعتزم الامبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس فى قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس فى عقر أرضهم ؛ وهنا اعتزم الامبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره .

(١) راجع « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » طبع رومة ص ١٧٨
(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٢

وهى أن يحرق أسطوله الراسى فى دجلة ؛ وفى الحال نفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتيـاز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمؤونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرى بذلك الاجراء إلى غاية حربية حكيمة هى ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة فى مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله فى الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليـه وعلى المؤن التى يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً فى غزوته ، وقد لقى جزاء جرأته فى نكبة جيشه أمام الفرس وفى مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

* * *

وفى التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح ، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانى يذكرنا بطارق فاتح اسبانيا وما ينسب إليه فى هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز فى الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والعواقب ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت فى ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها ؛ ولكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هى الأرض ، وما هى الأمم التى يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز فى أسطوله المتواضع الى مياه المكسيك فى سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكيين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم فى الأرض الجديدة ، حتى فكر الفاتح الجرىء فى إعدام سفنه ؛ وأعدمت فى الحال بإغراقها ؛ وكان كورتيز يرى بهذا الاجراء إلى غاية ظاهرة هى ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلا إلى الخور أو أملا فى الارتداد . إما الظفر أو الموت : هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولكن ضرورياً ، حتى لا يجد الناقمون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتمى الجميع فى أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر . ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه فى التاريخ ، لأن الفاتح الأسبانى تقدم فى جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة فى حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً (١)

ومثل هذه الحوادث تبدو فى التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بعدت فى ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشـد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفى التاريخ حوادث من نوع مماثل فى شذوذه وروعته ما زالت فى عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثانى سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتزم فى الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما يلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسطوله الضخم على طريق من الخشب المطلى بالدهن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت فى أيدى الغزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو فى روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذى وقعت فيه ، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا ، وتفهمها روح العصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير فى روعتها

محمد عبد الله عنان

---

(١) نرى أن نشير هنا إلى كتاب من أبدع كتب التاريخ هو « فتح المكسيك » Conquest of Mexico بقلم المؤرخ الأمريكى وليم برسكوت ، ففيه عرض بديع لسيرة هذا البطل الفاتح وأعماله العظيمة

التشجيع ....

للأستاذ علي الطنطاوي

سيدي . . . . . صاحب الرسالة ، أنت
لا تحب الثناء ، ولكن القراء يحبون الحقيقة ،
فأرجو أن تنشر لهم هذا الفصل « علي »

قرأت ما كتب عني وعن كتابي « أبو بكر الصديق » أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات ، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا ، ونبل الأخلاق ، والتشجيع الذي يتفضل به الكبير على الصغير ، فيسدد به خطواته ، ويأخذ بيده ، ويصب من قوته في أعصابه ، حتى يقوى ويشتد ويتقدم ، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة في التشجيع وما له من الأثر في العلوم والآداب ، وأن أفي للحق والواجب ، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة ، ماله علينا من منّة ، وما للرسالة علينا من يد ؛ وأنا وأصحابي هنا مدينون للرسالة ، بما نجد من قوّة ، وما نحس من نشاط ، ما كنا لولا « الرسالة » نحس منه شيئاً ؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية ، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً ، لا تفرق بين أبناء قطر وقطر ، وبلد وبلد ، ولا تزن الأدباء بالشهرة الواسعة ، ولكن بالانتاج القيم ، فكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك ، وسجل الأدب الحديث ، وجعلت من قرائها – وقراؤها كل الناطقين بالضاد – أسرة واحدة ، تجمعها وحدة المبدأ ، ووحدة الغاية . وهل أجل في اثبات هذه الوحدة ، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعي من فلسطين ، فيعقب عليه آخر من الشام ، ويجيبه ثالث من مصر ، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب في الموضوع خامس من دمشق ؟ . . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحارى وبحار ، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك ، كالمقعد من المقعد في الصف الواحد ، يخرج رأى من هنا ، ورأى من هنا ، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل ، وينطق بالكلمة الحاسمة

وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة !

***

أشكر للأستاذ هذه السنّة التي يتبعها في تشجيع صغار الأدباء ، والأخذ بأيديهم ، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم ، وسبب النجاح ؛ وقد قرأت مرّة أن مجلة انكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذي يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة ، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت : إنه التشجيع ! وقالت : انها في تلك السن ، بعد تلك الشهرة والمكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضي إلى الامام وتقعد بها كلمة التثبيط عن المسير .

وإن من أظهر الأسباب في ركود الأدب في الشام في القرن الماضي ، وانقطاع سبيل التأليف ، هو فقدان التشجيع ، وذلك « الاحتكار العلمي » الذي قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم ، وخنق كثيراً من العبقريات المهيئة للظهور ، فقد كان العلم في الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة ، لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها ، هي : بيت العطار ، والحزاوي ، والغزي ، والطنطاوي ، والشطي ، والخاني ، والكزبري ، والاسطواني ، والحلبي . . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية ؛ في القيمرية والعمارة ، وزقاق النقيب ، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائري رحمة الله عليه وعليهم ؛ وكان لهذه البيوت كل معاني الامتياز و « الاحتكار العلمي » ، فاذا سُمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت ، وقدروا فيه النبوغ ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة ، بذلوا الجهد في صرفه عن العلم ، والعدول به إلى التجارة ؛ أوليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت ؟ أوليس للولد ولاية العهد في وظيفة أبيه ، تنحدر اليه الأمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً ، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار ، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على « حوانيتهم » ؟ أو لا يكفي أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذي يمن به عليهم هؤلاء العلماء ؟ . . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل الى العلم ، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد ، والعقل الراجح ، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه — وكان أبوه امرأً تاجراً — ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم ، وجعلوا يكلمونه ،

ويرسلون اليه الرسل ، ويكتبون اليه الكتب ، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً ، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك ، ابن عابدين صاحب « الحاشية » ، أوسع كتاب في فروع الفقه الحنفي

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة محمد بك كرد علي من العلم ، فبعثوا اليه بشقيقين من آل . . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما ، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً - فما زالا بأبيه - ولم يكن أبوه من أهل العلم - ينصحانه أن يقطعه عن العلم ، ويعلمه مهنة يتكسب منها ، فما في العلم نفع ، ولا منه فائدة ... ويلحان عليه ويلازمانه ، حتى فجر فصرفهما فكان من ولده هذا ، الأستاذ كرد علي أبو النهضة الفكرية في الشام وقائدها ، ووزير معارف سورية[1] ومفخرتها ، والذي من مصنفاته : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، والمحاضرات ، وغابر الأندلس وحاضرها ، والادارة الاسلامية ، والاسلام والحضارة العربية . . . والمقتبس . . . ومن مصنفاته : « المجمع العلمي العربي بدمشق » ، ومن مصنفاته هؤلاء : « الشعراء والكتاب من الشباب » !

ولعل في الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد علي . وهاهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخاري مات وماله مصنف ، رسالة فما فوقها ، على جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وقوة قلمه ، وشدة بيانه ؛ وسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة في المنطق ، كتبها بلغة سهلة عذبة ، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة ، وصعوبة الفهم ، وعرضها على شيخه ، فسخر منه وأنبه ، وقال له :

أيها المغرور ! أبلغ من قدرك أن تصنف ، وأنت .. وأنت .. ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة . . فكانت هي أول مصنفات العلامة البخاري وآخرها !

وقد وقع لي أني كنت في المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر ، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها ، وأبدل كلماتها ، وأدعيها لنفسي ، كما يفعل اليوم بعض الأدباء « التراجمة » حين يترجمون الكلمة الانكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً ، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو « السارق » ! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع . . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها ، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق ، حتى إذا اجتمع عندي كثير من القطع ، عرضته على أستاذ العربية ، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى اسماعيل حقي أفندي ، يعلمنا النحو العربي باللسان التركي ! فلما قرأه سخر مني وسبني وتهكم علي ، وجاء من بعد أخي أنور العطار — فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع ، عرضه على الأستاذ كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي ، فأقام له حفلة تكريمية !

فكانت النتيجة أني عجزت عن الشعر ، حتى لنقل البحر بفمي أهون علي من نظم خمسة أبيات ، وأن أخي أنور العطار غدا شاعر الشباب السوري ، وسيغدو شاعر شباب العرب !

***

وأول من سن سنة التشجيع في بلدنا هو العلامة المرحوم مربي الجيل الشيخ طاهر الجزائري ، الفيلسوف المؤرخ الجدلي ، الذي من آثاره المدارس الابتدائية النظامية في الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد علي بك ، وخالي الأستاذ محب الدين الخطيب . . . . ومما كتب في ذم التثبيط :

« . . . وقد عجبت من أولئك الذين يسعون في تثبيط الهمم ، في هذا الوقت الذي يتنبه فيه الغافل . . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم نر أحداً من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم ، فينبغي للجرائد الكبيرة ، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه المادة ، والتحذير منها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، وينتبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم »

وكان الشيخ في حياته يشجع كل عامل ، ولا يثني أحداً عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرني أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو في ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غير ممكن . فتفل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

---
(١) سابقا

ثم ان التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؛ وربّ ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء ، أو أديبا من أعاظم الأدباء ! وفي علماء القرن الماضي في الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الافتاء ، وكرسي التدريس تحت القبة .

نشأ الشيخ محمد اسماعيل الحائك عامياً ، ولكنه محب للعلم ، محب للعلماء ، فكان يحضر مجالسهم ، ويجلس في حلقهم للتبرك والسماع ، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس في الصف الأول ، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به ، لما يرى من دوامه وتبكيره ، ويسأل عنه إذا غاب ، فشدّ ذلك من عزمه ، فاشترى الكتب يحيي ليله في مطالعة الدرس ، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة ، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة ، وصار واحد زمانه في الفقه والأصول ، وهو ما كف على مهنته لم يتركها ؛ وصار الناس يأتونه في محله يسألونه عن مشكلات المسائل ، وعويصات الوقائع ، فيجيبهم عما يعجزعنه فحولة العلماء . وانقطع الناس عن المفتي من آل العادى فساء ذلك العاديين وآلمهم ، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشرّ ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً ، فقد كان يحيا من عمله ، ويحيا الناس بعلمه ؛ وكان يمر كل يوم بدار العاديين في « القيمرية » وهو على أتان له بيضاء ، فيسلم فيردون عليه السلام ، فمر يوماً كما كان يمر ، فوجد على الباب أخا للمفتي ، فردّ عليه السلام ، وقال له ساخراً :

ـ إلى أين يا شيخ ! أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتي بولاية الافتاء ؟ وضحك وضحك من حوله ، أما الشيخ فلم يزد على أن قال :

ـ إن شاء الله !

وسار في طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار في الأزقة حتى عاد إلى داره ، فودع أهله ، وأعطاهم نفقتهم ، وسافر !

وما زال يفارق بلداً ، ويستقبل بلداً ، حتى دخل القسطنطينية فنزل في خان قريب من دار المشيخة ، وكان يجلس على الباب يطالع في كتاب ، أو يكتب في صحيفة ، فيعرف الناس من زيه أنه عربي فيحترمونه ويجلونه ، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعدُ . . . فكانوا يعظمون العربي ، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذي اهتدوا به ، وصاروا به وبقومه ناساً . . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه ، فقال له يوماً رجل منهم :

ـ إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدو لها جواباً ، والسلطان يستحثهم وهم حائرون ، فهل لك في أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب ؟

قال : نعم

قال : سر معي الى المشيخة

قال : باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها) ، فسأله الشيخ اسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء ، ولم تكن هيئة الشيخ بالتي ترضي ، ثم ألقاها اليه وانصرف الى عمله ، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التي كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس ، فاستخرج منها قصبة فبراها ، وأخذ القط فقطها ، وجلس يكتب الجواب بخط نسخي جميل حتى سوّد عشر صفحات ما رجع في كلمة منها الى كتاب ، ودفعها إلى الناموس ، ودفع اليه عنوان منزله وذهب . فلما حملها الناموس الى شيخ الاسلام وقرأها ، كاد يقضي دهشة وسروراً

ـ وقال له : ويحك ! من كتب هذا الجواب ؟

ـ قال : شيخ شامي من صفته كيت وكيت . . . .

ـ قال : عليّ به

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يسلم على شيخ الاسلام ، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره ، منحنياً ، ثم يمشي متباطئاً حتى يقوم بين يديه . . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التي نسيها الشيخ ، ولم يحفظ منها شيئاً

ودخل على شيخ الاسلام ، فقال له :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ، وذهب فجلس في أقرب المجالس اليه . وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الاسلام سرّ بهذه التحية الاسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له :

ـ سلني حاجتك

ـ قال : إفتاء الشام وتدريس القبة

ـ قال : هما لك . فاغدَ على غداً !

فلما كان من الغد ذهب اليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب اتانه ودار حتى مرّ بدار العباديين فاذا صاحبنا على الباب ، فسخر منه كما سخر وقال :

ـ من أين ياشيخ ؟

ـ فقال الشيخ : من هنا ، من اسطنبول . أتيت بتولية الافتاء كما أمرتنى

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالى بالفرمان ، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله فى حفلة حافلة

* * *

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطاً فى سوق المسكية على باب الجامع الأموى ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس فى الحلقة التى تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه ، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدى الشيخ فى الحلقة ، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله ، حتى صار مقدماً فى كافة العلوم

فلما مات الشيخ حضر فى الحلقة الوالى والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فاذا هو فى دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له . فعيّن مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة فى احفاده إلى اليوم (1)

على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور ، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أنى أهل لكل ما تفضل به علىّ الأستاذ من النعوت ، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله ، وأشكر للأستاذ الزيات باسمى واسم إخوانى هنا ، أياديه علينا وعلى الأدب العربى ، الذى سمت وتسمو به « الرسالة » !

على الطنطاوى

(1) ومدرس القبة الرسمى اليوم شاب أوربى الزى ، أوربى اللسان ، أوربى الزوجة . لا يدخل المسجد مرة فى العام ، ولكنه مدرس القبة !

٤ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية

انتشر الاسلام بين الأمم فدخل الناس فى الاخوة الاسلامية وصاروا أمة واحدة ، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم ، لا يكتبون غيرها

ولما حيّت لغاتهم على مرّ الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربيّ الذى ألفوه ، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى . ولم يخسروا فى هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاّتها أوضح وأيسر مما كان عندهم

— ١ —

كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، وهو مشتق من الخط الآرامىّ القديم ، والخط الفهلوى مبهم مشكل . قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ماقاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار ، يعنى أنه خط يخفى الألفاظ . ذلك بما تشابهت حروفه ، وبما اشتركت الأصوات المختلفة فى بعض الحروف . وقد أدّى هذا اللبس الى مالم يعهده التاريخ فى لغة أخرى . كان الكتاب يكتبون كلة آرامية مكان كلة فارسية خوفاً من اللبس ، فاذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارسية غير المكتوبة ، وتركوا الآرامية المكتوبة . روى عن ابن المقفع أنه قال : إن فى اللغة الفهلوية ألف كلة تقرأ ولا تكتب . وروى ابن النديم فى الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلة « بسرا » الآرامية ويقرءون گوشت (لحم) بالفارسية ، ويكتبون « لحما » الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية

ولم تكن الألفاظ الآرامية مقصورة على ما يستعار من لغة الى أخرى من الأسماء ، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات . وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوى ندر القارئون فى ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا ، وللأخوة العامة التى أدخلهم الاسلام بها حين مدّ ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

— ٢ —

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أمية لا تعرف قراءة ولا كتابة ، وتسربت الى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة . كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر فى القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس ، وكتب بالحروف اليونانية . وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية فى جهات الطونة ، وكذلك كتبت التركية بالعبرية ، والنسطورية ، والهندية ، والسلافية ، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدّا كتابة تركية . وهما الخط الأورخونى الذى دلت عليه الآثار التى عثر عليها حوالى نهر أورخون فى سيبريا ، والخط الأويغورى . والأول كتبت به تركية الشمال ، وبالثانى كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخونى فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامى القديم . وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادى الى القرن الثامن . وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً ، أربعة منها حروف حركة ، وثلاثة منها مركبة . ويوصل به غالباً كلتان أو ثلاث معاً . وأحياناً يستغنى بالحرف من الكلمة فتكتب (تْ) للدلالة على آت (فرس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا . ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربى وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغورى وهو أحدث الخطين ، وأطولهما عهداً ، وأوسعهما انتشاراً ، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادى . كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية ، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك ، بعد أن دخلوا فى الاسلام فكتبت به الدولة الخاقانية فى كشغر (٣٢٠ ـ ٦٠٩ ﻫ) والدولة الجنكيزية ، والايلخانية (٦٥٤ ـ ٧٤٤) ودولة آلتون أوردو فى قفجاق (٦٢١ ـ ٩٠٧) . وكتبت به بعض الكتب الاسلامية حتى القرن العاشر الهجرى . وهذا الخط مشتق من الخط الصُغْدى والصُغْدى مأخوذ من الآرامية أيضاً ، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة . وهو من

اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربي أيضاً

فكان من نعم الاسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربي الذي صار خط الأمم الاسلامية جماء. ثم الآثار القليلة التي أثرت في الخطين الأورخوني والأويغوري في بقاع ضيقة، وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربيـة في العهد الاسلامي إذ أفاد الترك من الحضارة الاسلامية، ودخلوا في جماعة المسلمين، وتمكن سلطانهم بينهم

— ٣ —

والتركية العثمانية التي اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف في تاريخها غير الحروف العربية، ولم تدوّن إلا في ظل الحضارة الاسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة

دخل السلاجقة في الاسلام ثم أقاموا دولتهم في القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة ٤٤٧، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط. ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة سلاجقة الروم وهي التي نشأت في الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسي في القرن الخامس قد ازدهر بجانب الأدب العربي، فأخذ السلاجقة حضارة الاسلام باللغتين العربية والفارسية. فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين. وكان الأدب التركي مقصوراً على العامة، غير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية

وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

— ٤ —

وكانت الكتابة التركية في عهدها الأول تقارب الأسلوب العربي لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلا. ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم. ثم انتهى الأمر في العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة في كل كلمة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية: كل حرف صحيح يليه حرف معتل للدلالة على الحركة

فاذا قرأنا مثلاً في ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومي وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق: أل (هـذا) كُرُر (يرى) بقمز (لا ينظر) كُنَش (الشمس) ألُرُ (يكون) أيقُدا (في النوم) أجَر (يطير)، فاذا قرأنا في كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق: أول، گورووو، باقماز، گونَش، أولور، أويقوده، أوچار

وإذا قرأنا في الكتب التي كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة في كل مقطع. فاذا نظرنا في الكتب التي كتبت من بعد وجدنا اطراد حروف الحركات في مقاطع الكلمة. كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى:

تمز (نظيف) آرقداش (أخ) كنيش (واسع) دها (أيضاً) گبي (مثـل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) گوزل (ظريف)

فصارت بعد كما يأتي:

ته مز (الهاء علامة الفتحة الخفيفية) أرقاداش، گه نيش داها، گيبي، قادار، ده كيل، ده رين، گوزه ل

وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واصلين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم، ولكنهم آثروا، إنفاذاً لخطتهم، أن ينبذوا الحروف العربية، وهي الحروف التي يكتب بها مسلمو العالم كافة، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والايطالية فبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين.

ولست أقول ما قاله أحد كبراء الفرس لأديب تركي يناظره في الحروف اللاتينية: «إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته في كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا» لست أقول هذا ففي الأدب التركي القديم ما هو جدير بالرعاية، وقد افتنّ الترك في تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه

مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحا ولكنها فتنة من فتن تقليد أوروبا التي ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان، وقد بلغ الأمر أن يرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية، فاذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربي ليست في الحروف

اللاتينية ؟ قالوا انضع لها حروفاً لاتينية بالتركيب أو النقط . فياسبة الأمم، وعار الأجيال ، وموتى النفوس ، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين فى حروف اللاتينية ، ولا تكملون ما فى حروفكم من نقص ، وتصلحون ما بها من عيب ؟ جرى الجدال بينى وبين واحد منهم فكان منه الحوار الآتى :

قلت : كيف تكتب ، خاشعاً وخاضعاً ، بالحروف اللاتينية ؟

قال هكذا : Khash,i و Khad,i فأركب K ، H للدلالة على الخاء ، و S ، H للشين وأضع مدا على A وأدل على العين بالحرف i مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون

قلت فلماذا كل هذا العناء ؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل فى الحروف اللاتينية ، أترى هذا أيسر وأبين من خاشع وخاضع ،

قال : لا، ولكن الكلمتين بالخط العربى خاليتان من حروف الحركة

قلت : فضع كسرة تحت الشين والضاد . وهذا حسبك ، بل لست فى حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركاتها . قال هذا صحيح فى هذا المثال ، فما بال الكلمات الأخرى . قلت : صدقت فهلم نتناول الموضوع على عمومه

ـ ماذا تنقمون من الكتابة العربية ؟

ـ ننقم منها أنها كتابة لاتبين عن الألفاظ ، فهذه الصورة « حسن » تقرأ حَسَن ، وحُسْن ، وحِسْن ، وحَسَّن ، وحُسِّن . . . الخ

ـ قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولا مشكولة ، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض ، ثم وجدوا الحرف الواحد فى أكثر حالاته مبهم الحركة فشكلوا الحروف فتبينت الحركات ، واستبانت الألفاظ ؛ وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة ، فما زال بها الاختراع ، والتجميل والتجويد حتى بلغت حالها الحاضر ، وتعددت الخطوط ، وجعل لكل مقصد ضرب يواتيه ، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها . فإن كنتم يا رجال القرن العشرين أحياء قادرين على الابداع ، أباة آنفين من المحاكاة، وإن تكن عقولكم غير سقيمة ، وقرائحكم غير عقيمة ، فانظروا فى كتابتكم ، فان رأيتم عيبا فأصلحوه ، وإن آنستم نقصاً فأكملوه ، ولا تكونوا فى عصور العلم ضلالاً ، وفى نور القرن العشرين ظلالاً ، أدخلوا فى الكتابة حروف الحركة إن شئتم ، أو افعلوا غير ذلك إن استحسنتم ، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال العقول ، وهوان النفوس ، والموت الذى لا يستره باطن الأرض

ثم لا تنس يا أخى أن اللغة العربيه لغة أوزان وصيغ ، فليست كل كلماتها فى حاجة إلى الشكل ، ولو اتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربى يستطيع أن يكتب سطوراً لا يحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة ، وقد ضربت مثلاً من هذا فى مقدمة الشاهنامه

ـ هب ما قلت صواباً ، فماذا ترى فى شكاوى أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية : للحرف صورة فى أول الكلمة وأخرى فى وسطها وثالثة فى آخرها ، على حين لا يرى الطابع الأوربى أمامه للحرف إلا صورة واحدة

ـ بل صورتين صغيرة وكبيرة

ـ أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية

ـ هذه الشكاوى هى شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال ؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد ، ليأخذ كثيراً ويعطى قليلاً ، وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة ، ثم أخبرنى : ما الذى جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة ؟

ـ صور هذه الحروف ، ثم فصل بعضها من بعض

ـ قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولا تزال توصل فى كتابة اليد ، فلما كانت المطابع استحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض ، فما الذى عنكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف فى الطبعة إلا صورة واحدة ؟

ـ هذا يبدو لى صواباً ولكنه عجيب غريب

ـ أعجب منه أن نفكر فى كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية . قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً ، والاختراع مهما قل عجيباً غريباً

ـ لا تنس أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطوت المسافات بين أطراف الأرض . والأمم صائرة إلى التوحيد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية ؟

ـ أجل قربت العلوم والمخترعات بين الأمم ، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس ، ولا تزال تفرق بينهم بأتفه الأشياء وهى الألوان . والتوحيد الذى تريده أوربا أن تكون هى آكلة

ونحن ما كولين . وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن . وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية ؟ ان أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة . ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا ، بل لأن هـذه حروفهم وتلك حروفنا . وسيشترك في السخرية من لم ير الحروف العربية قط . ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة ؟ وهل استعملوا الحروف التي اتفقوا عليها بأسلوب واحـد ؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير في الجامعة المصرية كتاب من جماعة في أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية في العالم ، فسألني رأيي فيما يجيبهم به فقلت ان كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فاذا صار الروسي واليوناني والألماني والفرنسي والانكليزي والاسباني الخ يكتبون بحروف واحدة ، وأجمعوا في كتابة هـذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر في الأمر

وبعد ، فاللغات يا أخي مهما أحكمت كتابتها ، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين . تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة . وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الانسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها ، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعاني من النقوش دون توسط الألفاظ . وإذا أسرع القارئ سلط عينيه على المكتوب وقصّر لسانه عن مجاراة عينيه ، ثم يا أخي هل بلغت الحروف اللاتينية التي فتنتم بها درجة الكمال ، وبرئت من العيوب ؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه C ، k ، q ، والحرف الواحد يدل على أصوات مختلفة فالحرف c يلفظ مرة ك وأخرى س ، و s يكون س حيناً وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية ، وهي أدق الكتابات الأوربية ، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة في الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل palais و pose, palet و pot, pause و pan, pean و Choud, Chaux و Crét, Craie . فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة . وكم في الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى في الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الانكليزية ، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل ، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل daughter و night laugh, nerghbour و wright . ولو قرأ قارئ الكلمات الانكليزية كما تدل عليها حروفها مافهم عنه أحد ، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً انكليزياً عن اسمه أو اسم شارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والامبراطورية الانكليزية ، مع هذا ، لم تضمحل بهذه الكتابة ، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من الميابين الطمانين في الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الاملاء الانكليزي أو تنبه إلى عيوبه . وذلك بأن الحروف العربيـة لا تحميها امبراطورية ولا أساطيل ، نعوذ بالله من ضعف الهمم ، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهي أيسر كتابة . لا تملى على صبي كلمة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة . وهي كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يساير خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول ، وهي في جملتها أوضح من كتابة اليد في اللغات الأوربية . قال لي مستشرق ألماني كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وحذق كثيراً من لغات أوروبا : « ما أشكل علي قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل علي وعلى غيري مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية »

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين . قال لي طبيب كبير من أطباء العيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبي واسع . وما بكم صعوبة الحروف العربية ، ولكن الغرام بمتابعة أوربا ، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم . ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة ، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم . إن المريض يكثر التحدث عن صحته ، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة ، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذي شربه قد أضر به ، أو أن الطعام الذي طعمه لم يلائمه . فكذلك أنتم تحملون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرهما وإنما الداء الدوي في أنفسكم ، والعلة القاتلة في سرائركم

(له بقيـة) عبد الوهاب عزام

المؤتمـــر الثامن

للجمعية الطبية المصرية بدمشق

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

مطالب جليلة، ورغائب جميلة، وقلوبٌ كبيرة نبيلة، إلى معارف شبيبةٍ مثقفـــةٍ، ومدارك كهولةٍ ممحصة، وتجارب شيخوخة محنكة، مع كثيرٍ من الخيرات والبركات، قد حل دمشق أولئك جميعاً بحلول رجال المؤتمر الطبي الثامن فيها

أجل تنيرت بهم في دمشق أحوال المجتمع والحياة، فأصبح مؤتمرهم حديث الأندية ومَلهج الألسنة، فلم يبق في أحياء الفيحاء من لم يتحدث به من الرجال والنساء؛ وتبدلت كذلك فنادق دمشق بأبهائها وموائدها وما قام فوق صروحها من خُضر الأعلام المصرية الزاهرة بأنجمها الثلاثة وهلالها خفاقةً إلى جانب تلك الأعلام الشامية الزاهية بألوانها الأربعة وجمالها

ويا حبّذا يوم نشاهد هــــذه الأعلامَ العربيةَ بلغة أبنائها وبلدانها، تَقر عيوننا بكثرة أنواعها وألوانها فيتماوجُ غداً على المؤتمرات العربية في دمشق: العلم المصريُّ والشآميّ والعراقيّ والحجازيّ واليمانيّ والبرقي(1) والتونسي والجزائري والمراكشي، وتمازج فيها لهجات العرب المنتشرة في أقطار هــذه الأعلام، فيتألف من مجموعها لحنٌ عربيّ ندىٌّ يرتفع له حجاب السمع، ويهتزُّ له شِغاف القلب

بل قل ما أسعدَ ذلك اليومَ الأغرَّ المحجّل الذي نرى فيــه للأقطار العربية المتحدة — والقاهرة (وَسِيـطـونُها) يومئذٍ — علماً عربياً واحداً، ونسمع لها فيه نشيداً عربياً واحداً، كما نرى اليوم أبناء العالم الجديد لولاياتهم المتحدة الأمريكيــة لواءً وطنياً واحداً، ويسمعون في جميع أنحائها نشيداً قومياً واحداً!!

عيدان أظلاَّ دمشقَ واجتمعا للدمشقيين في يوم واحد، وعلى صعيدٍ واحد: عيدُ المولد النبويّ، وعيد المؤتمر الطبيّ، فكأنما اندمجت بذلك ولادةُ هذه الأمة الدينية الغابرة، بولادتها السياسية والدنيوية الحاضرة! فليس اليوم في الفيحاء إلا قلوب تخفق لذكرى ذلك النبيّ العربيّ العظيم الذي أحيا من هــذه الأمة مواتَها، وجمع بعد صدع النوى شـتاتَها؛ وليس فيها اليوم إلا قلوبٌ طاهرة وعقول ناضجة، تفكر في إحياء هذه الفصحى المحبوبة وإزالة بلبلتها بتوحيد لغتها العلمية، وإعادة عزتها بجمع كلمة أبنائها؛ وليس فيها كذلك إلا حفـلات وولائم متتابعات في قصر أمية والقصر الملكي، وردهة محاضرات الجامعة، وحـديقة الأمة الرائعة، ورياض الغوطة الفيحاء، ورُبى بلودان الشماء

كذلك تبدّلت بالمؤتمر الثامن في دمشق لهجـةُ صحافتها، فذهلت بنشر أخباره جريدة (الأيام) عن صراحتها، و(القبس) عن معارضتها و(الجزيرة) عن ميثاقها، و(ألف باء) عن اعتـدالها، و(فتى العرب) عن كفاحه، و(الشعب) عن طاحه، و(المضحك المبكي) عن ظريف هزله ومزاحه

إن هذا المؤتمر — وهو دليلُ يقظة الأمة العربية وبرهانُ رشدها الاجتماعي — ليرمزُ إلى شعورها بقوتها الكامنة اليوم، وبقدرتها الفاعلة غداً؛ ولذا ورد على من خبر انعقاده في دمشق ما خفف من بث قلبي الملتاع بتشتت هذه الأمة، والمرتاع لمصيرها المظلم، فشعرت لعمرى به شعور الأمل الحالم اغتبط بتوهم الحقيقة، والهائم الحائم على مواقع القطر ابتهج برؤية أمنيّته فلمع نور البشر في غرّته

ولِمَ لا أغتبط — ليت شعري — ولا أبتهج، أو لا تغلبني نشوة الطرب، وبعيني رأيتُ حسن ذلك الخيال مجسماً، وبأذني سمعت لحن ذلك الوصال مرنماً، في بعض مجامع المؤتمر(1) من عتاب الأحباب على الهجر، والأقرباء على الجفاء، وجيرة المنازل والديار، على تناسي حقوق الجوار؟ والجوار — عمركَ الله — رحمٌ شابكة وصلة واشجة؟ وكان مما استرقته الأذن من قول أديب شاميّ لطبيب مصري وهو يعاتبه:

— «إن لم تنضموا إلينا فضمونا إليكم، فما كان لحواجز الاستعمار أن تقوى على فصم عرى الجوار؛ ألسنا نحن الشاميين نشارك إخواننا المصريين في أفراحهم وأتراحهم؛ أما كنا نفرح بالأمس لسعد، ولفوز سعد، وأنصار سعد؛ ألم تُرمض جوانحنا «سيشل» بذكراها، وتقض مضاجعنا «دنشواى» ببلواها؛ أو لسنا نشاركُكم اليوم في نعيم الواحي (الراديو) فنطرب أمثالكم لألحان أم كلثوم وعبد الوهاب، مثلما نساهمكم في العلوم والآداب

(1) نسبة إلى برقة أي طرابلس الغرب

(1) على مائدة القصر الملكي — أوربان بالاس — في ولمية مديرية الصحة العامة.

بسماع الآيات والخطب والمحاضرات ؟

أو ليس علماؤكم في الأزهر والجامعة علماءنا ، وأدباؤكم من الكتاب والشعراء أدباءنا ، وتاريخ القطرين الشقيقين يكاد يكون واحداً ، ومطالعاتنا اليوم في الكتب والمجلات والصحف المنشورة ، تكاد تكون واحدة أيضاً ؟ أولا تعلم أن « الرسالة » يقرأها في دمشقنا هذه جمهرة العلماء والأدباء من الجنسين المنيف واللطيف على السواء ؟ »

وكان الطبيب المصري يجيبه على أسئلته هذه المذبة الرقيقة بقوله :

— بلى ، بلى ، ونحن لكم اليوم يا أخي كذلك ، وفوق ذلك

فهذا الحديث وأمثاله هو من بعض بركات المؤتمر المصري على العرب والعربية معاً . ومن أعز تلك البركات المأثورة العزمُ على توحيد المصطلحات العلمية ؛ ففي جلستها الخطيرة بحث الخطباء في تاريخها وطرق وضعها ووسائل توحيدها ، وقد أشار كاتب سر المؤتمر الحكيم الدكتور عبد الواحد الوكيل في فاتحة الجلسة إلى أن الجمعية الطبية المصرية قد اهتمت في جميع مؤتمراتها السابقة بتوحيد المصطلحات الطبية ، فكان كل واضع يتعصب لوضعه فخرجنا من مؤتمراتنا كلها بدون فائدة ؛ ويجب الآن بعد تكوين المجمع اللغويّ الملكي مع وجود المجمع العلمي الشاميّ أن تخرجَ هذه القضية من أيدينا إلى المجمعين

وقد شجعت جمعيتنا الدكتور محمد شرف على وضع معجمه وآزرته الحكومة فوزّعته على الجمعيات اللغوية في الممالك العربية ، واقترحنا أن يُجعل أساساً لأعمال المصطلحات الفنية ، وأن يضاف إليه في كل طبعة ما يتمحص منها ، وما يوضع من الألفاظ الجديدة فيتألف منه على الأيام معجمنا العربي المنشود

ثم بحث الخطباء في طرق الوضع وهي جمة ، فذكروا منها قبول الأسماء الأعجمية الواردة على أوزان عربية ، وليس في لغتنا ما يدل عليها ، وقبول النحت عند الضرورة في الأسماء الأعجمية المركبة ، وترجمة الأسماء التي لا يصح تعريبها ؛ وفي الأسماء العلمية المركبة من جنس ونوع قد يجب تعريب الجنس ، والنوع ذو المعنى مما يجب ترجمته لا تعريبه ؛ وأما الأسماء المنسوبة إلى الأعلام والأماكن فلا يجوز غير تعريبها ، إلى غير ذلك من الأساليب التي لا يجنح إليها إلا بعد التثبت من أن دواوين اللغة وكتب الطب والعلم لا تشتمل عليها ، فإذا ظفرنا بمثل كلمة التعايش لكلمة Symbiose وقد ذكرها الزمخشري ، لم نحتج إلى نحتها أو ترجمتها أو تعريبها

وفي خلال الباحث حدث جدال قليل بين بعض الأطباء في الدفاع عن الأوضاع ، لا محل لتفصيله ، فانبرى لفصل الجدال بينهم الدكتور محجوب ثابت فرأينا منه خطيباً حلو النادرة ، طلق البادرة ، يتدفق في إراوريباته وفكاهاته تدفق اليعبوب ، فيملأ الأسماع والقلوب ، ومما قاله :

إن العمل المشوش (المهرجل) لا يثمر أبداً ، والجمعيات الطبية العربية — وهي بحمد الله كثيرة في بلاد العرب — لا تثمر ولا تنتج إن لم تعمل كذلك بطريقة علمية منظمة ، فلو أن شعبة المصطلحات الفنية في الجمعية الطبية المصرية أخذت مثل كتاب : Medical terms dictionary وقسمت ألفاظه على عدد أعضاء الشعبة ، وفي آخر كل شهر يعرضون ما وضعوه على الجمعية مجتمعين ، وبعد تمحيصها وتحقيقها ، ترسلها الجمعية إلى مجمع اللغة الملكي بمصر ليحكم لها أو عليها ، فيعتبر حكمه عدلاً ، وقوله فصلاً

لا جرم أن من الانصاف والحصافة أن تجتمع كلمة الأقطار العربية على مجمع مصر الملكي لأنه يمثلها بالأعضاء الذين اختارهم من علمائها فإذا ما حكم بفصاحة لفظة فكأنما حكمت بها مجامع العرب كلها ، إذ هي ممثلة فيه ومحكمة في ناديه ؛ وأما مجامع اللغة في البلاد العربية فتعتبر روافد لمجمع مصر أو مؤتمرها اللغويّ ، بما ترسله إليه من الأوضاع الجديدة ، وأعضاء المجمع المرسل يبيّنون لإخوانهم في مصر توجيهاتها ، وأسباب تعديلها وتفضيلها ، وبذلك يكون الانتاج خصيباً ، والرأي على الأغلب مصيباً ، وقديماً قيل : المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه ، ومجمع اللغة المصري ضعيف بواحده ، قويّ بروافده

إن هذا المؤتمر الطبي الثامن لغزير النفع ، كثير الرجع على الأمة العربية ، فمن مناقبه الجليلة تمهيدُه السبيل إلى توحيد المصطلحات العلمية ، وتمهيده السبيل إلى تعليم الطبّ في المدارس الطبية باللغة العربية ومهما يتمهّد السبيل إلى توحيد مناهج التربية والتعليم في بلاد العرب الذي هو لعمري من أقوى البواعث على توحيد الثقافة العربية المؤدي إلى توحيد الأمة العربية ، وإلى سيادتها في العالم بتعارفها وتآلفها وتحالفها :

فنحن في الشرق والفُصحى بنو رَحِمٍ
ونحن في الجُرح والآلامِ إخوانُ

عز الدين التنوخي
كاتب سر المجمع العلمي

دراسات في الأدب الإنجليزي

المذهب الواقعي وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدي

تتمة

الدرامة الإنجليزية في عهد (درمدن)

من أهم ما يميز هذا العصر ـ منتصف وأواخر القرن السابع عشر ـ انتشار نادة غريبة ، هي محاولة حل كل شيء في الوجود بواسطة العقل والتفكير ؛ وقد كان (بوالو) على حق حينما قال : (إن ديكارت قد ذبح الشعر) ـ على أن هذه العادة نشأت نتيجة لحضارة هذا العصر التي كانت قائمة على أكتاف الطبقة الوسطى ـ ونحن لا نجد عصراً من عصور انجلترا كان نصيب الفلاح فيه أقل مما كان في ذلك العصر ؛ مع أن مادة الفن الغزيرة تأتي دائماً من الفلاح حيث يعيش الرجل جنباً إلى جنب مع الطبيعة ، ويواجه صعابها وشؤونها كل ساعة وكل يوم فيتحايل على فهمها وإدراك أسرارها لا بالعلم والتفكير بل بالدين والفن

في هذا العصر لبست الدرامة ثوب النثر وأخذت (الكوميدية) تنقد عادات الناس وأحوالهم ، فهي تارة ساخرة وتارة مهذبة ناصحة ، وأخرى مستهترة متهتكة ـ على أن حوادثها وشخصياتها كانت كثيرة المطابقة للواقع ، حتى أن بعض الكتاب كان يبني قصصه بناء تاماً على حوادث شخصية وقعت له أو لمن يعرفهم ـ وإن كان ثمة شيء ينقص من واقعية هذه (الكوميدية) فهو أن الكاتب كان كثير الحضور والظهور في قصته ـ فهو يكاد يكون دائم الحديث على ألسنة أبطاله ، إما ناصحاً أو متفكهاً أو ناقداً أو جاعلاً هؤلاء الأبطال الذين لا يعتون للشعر بسبب ـ وللحياة اليومية بكل سبب ـ يتحدثون بلغة هي أبعد ما تكون عن لغة الحديث العادية . أما (التراجيدية) فقد اتجهت اتجاهاً آخر كان فيه القضاء عليها ، فباتت تصور عالماً كله بطولة وحب وشجاعة ، وأضحى أبطالها آلات تتغنى بالفضيلة والطهر والمروءة في كلام موزون مقفى ثقيل على الأذن لا مرونة فيه ولا عبقرية ؛ وإنما كان هذا التصور الخاطئ للحياة رد فعل للجو الإباحي المستهتر الذي كان يعيش فيه شعراء العصر وطبقته العليا ـ كما كانت الفضيلة والبطولة مثل الفروسية الأعلى في القرون الوسطى ـ رد فعل لخلو الحياة في ذلك العصر خلواً يكاد يكون تاماً من كل ما هو فاضل بري.

نهضة الدرامة في القرن التاسع عشر : كانت حياة المسرح الانجليزي في القرن الثامن عشر حياة خاملة لا نشاط فيها ولا جدة ، ولو أن نجماً أو نجمين سطعا في سمائه ثم أفلا ـ وأعني بهما (شريدان) و (جولد سمث) . والآن ونحن نريد أن نعالج نهضة القرن الفائت الحديثة يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن كل من الاتباعية (الكلاسزم) مذهب العهد المنقرض ، والابتداعية (الرومانتسزم) مذهب العهد الناهض الجديد . والحق أن كلا من المذهبين ينشأ عن وجهة نظر خاصة نحو الطبيعة البشرية . (فالاتباعية) تعتبر الانسان حيواناً حقيراً بطبيعته ، وتعتبر أنه لا يستطيع أن يرقى وينهض إلا بالطاعة وتحكم النفس والعمل الدائم . ومن هذا كانت الطاعة وضبط النفس أظهر مميزات هذا المذهب ، وأنت تجدها تتجلى في الفن (الاتباعي) في دقة الأشكال والأوضاع ، وفي صقلها صقلاً تاماً ، ثم في خلوه من كل ما من شأنه التطرف والعنف . أما الابتداعية فتعتبر الانسان نبيلاً بطبيعته ، غير أن الأوضاع والأنظمة التي وضعها لنفسه هي التي حطت من قيمته وجعلته ذليلاً ضعيفاً . ومثل هذه الأنظمة المجتمع نفسه ـ والأخلاق ـ والقانون وغيرها ـ وإن عبارة (روسو) الافتتاحية في كتابه العقد الاجتماعي : (الانسان حر بطبيعته ولكنه يجد نفسه مكبلاً بالقيود أينما كان) هي أول تعبير صادق (للابتداعية) وهي تتجلى في الفن في نبذ متعمد لكل القواعد والتعاريف ، وفي الاعتماد اعتماداً تاماً على قوة تعبير الفنان تعبيراً لا يقيده شكل ولا تحده قاعدة ـ فإن أراد الفنان (الابتداعي) أن يعالج الطبيعة لم يكن محتاجاً إلى الفلسفة تقوده وتهديه ـ كما كان يفعل شعراء وكتاب القرنين السابع والثامن عشر ، بل إن عليه أن يلاحظ ظواهرها فقط ، وأن يدون ملاحظاته دون تعديل ولا تهذيب

ومن هذا يتضح قرب المذهب (الابتداعي) من المذهب الواقعي ـ أعني اتجاه (الابتداعية) اتجاهاً واقعياً قوياً بطبيعتها ـ واتصالها اتصالاً أساسياً بالحقيقة والواقع . وإن شعر الشاعر الانجليزي (وردسورث) ونظريته في الأسلوب الشعري ـ أن

يكون خليطاً من الأساليب والألفاظ التي يتحدث بها الناس في حياتهم العادية – لشاهدٌ على ذلك

ومما يشاهد في الدرامة في أواخر القرن التاسع عشر نبذ بعض كتابها — عن عقيدة وعمد — كل ما هو شعري نبذاً تاماً كاملاً . ولقد نشأ هذا عن رغبة أصحاب المذهب الجديد في إدخال طرق البحث العلمية في الأدب ، إذ يجب أن تكون الملاحظة دقيقة لا تحيز فيها كما يجب أن يكون الملاحظ مختفياً لا أثر لوجهة نظره الخاصة ، بل يدوّن كل ما يلاحظه تدويناً صادقاً واضحاً .

وقد كتب (زولا) يقول : (لقد ترك الكيميائيون اليوم البحث عن الذهب – على أنهم لو اهتدوا يوماً الى صنعه ، فسيكون دليلهم البحث العلمي الجديد ، وإني أشبه نفسي بهم – فأنا أكدّ وأبحث محاولاً إتمام الطريقة الحديثة التي ستهدينا ولا ريب شيئاً فشيئاً الى الحقيقة كاملة) ؛ على أن (زولا) نفسه كان يدرك أن الدرامة لأجل أن تكون فناً ، يجب أن تجمع عناصر أخرى غير عناصر العلم . وهو يذهب في كتابة أخرى له الى أن للواقعية نفسها لوناً شعرياً فنياً لا يستطيع أحد إنكاره ، إذ يقول : « من يستطيع أن ينكر أن في حجرة العامل الفقير شعراً أكثر مما في قصور التاريخ جميعها ؟ »

ومن ظواهر هذه الواقعية العلمية التي ظلت تسود الدرامة منذ نهضتها في أواخر القرن الماضي الى عهدنا الحالي ظاهرة التشاؤم والانقباض . والحق أن الواقع والتشاؤم يسيران دائماً جنباً الى جنب ، فالعقل الانساني يميل الى صبغ ما يخشى حدوثه بصبغة الحقيقة ، وما يرجوه وما يأمله بصبغة الحلم والخيال ؛ ولقد كانت آلهة الانسان الفطري – وقد كان يخافها كل الخوف – أقوى في مخيلته وأوضح شكلاً من حوادث حياته اليومية

أقطاب النهضة الحديثة : أنتون تشيكوف

تؤكد شخصية (تشيكوف) وجو مسرحياته الخاص وأسلوبها أنه أول الكتاب الحديثين الذي حقق المثل الأعلى للواقعية ؛ فتشاؤمه ونظرته الخاصة نحو الحياة تبدو كأنها ليست نظرة شخصية خاصة به بل نظرة أهل عصره العامة – نظرة الروسي البائس الفقير الذي كان يعيش في روسيا في القرن الماضي . فأنت لا تجد (لتشيكوف) دعاية خاصة يدعو بها أو عقيدة يدافع عنها ، بل هو يصور الحياة كما يراها ، هادئاً قابعاً مختفياً وراء صورته . . .

هنريك ابسن :

كذلك مسرحيات هذا الكاتب النرويجي هي مثل أعلى للواقعية الحديثة ؛ ولو أنها تختلف كثيراً عن كتابات (تشيكوف)، ولقد تبدو قصصه – لأول نظرة – قصصاً تعالج شئوناً اجتماعية مثل الزواج وتحرير المرأة وغير ذلك ؛ ولقد يتبادر إلى ذهن القارئ أنه بزوال هذه الشؤون وحلها ستزول قيمة القصص وتقل أهميتها . على أن هذا الزعم خاطئ ، فروح (إبسن) ليست بروح المصلح الاجتماعي فحسب ، بل هي قبل كل شيء روح شاعر كان إذا ما فكر في مشكلة اجتماعية ملكت عليه كل حواسه فأصبح لا يرى للعيش قيمة إذا هو لم يهتد الى حلها وإزالة خطرها

ومسرحيات (برنارد شو) تعالج هي الأخرى موضوعات اجتماعية ؛ على أن الفرق بين الكاتبين عظيم ، فمعالجة (شو) لموضوعاته هي معالجة علمية بحتة ، أعني أنها لا تهمه شخصياً بل اجتماعياً – أما مع (إبسن) فهي كما قدمت موضوعات شخصية قبل أن تكون اجتماعية أو عالمية – موضوعات تهمه مباشرة كأنما كان يتعلق بها كيانه ووجوده . وقد كتب (إبسن) مرة يقول : « كل ما أكتبه له علاقة وطيدة بكل ما أحيا خلاله ؛ وفي كل قصة أو قصيدة أكتبها أبغي تحرير نفسي وصفاءها » . ومن الجلي أن هذا يختلف كثيراً عن تفكير الكاتب الارلندي الذي يهمه تحرير انجلترا قبل تحرير نفسه هو ؛ وقد كان تحرير النرويج يهم (أبسن) أيضاً ، على أن الأهمية لم تأت مباشرة ، بل أتت عن طريق نفسه وروحه . ولقد يبدو من حديثنا هذا أن مسرح (شو) أكثر مطابقة للواقع وللروح العلمية الجديدة من مسرح (إبسن) ، على أن هذا خطأ وعكسه صحيح . والسبب في ذلك هو أن الناس يختلفون في آرائهم أكثر مما قد يختلفون في مشاعرهم وإحساساتهم — (فبرنارد شو) الذي يعتمد اعتماداً كلياً على الفكرة والرأي ، والذي يعيب مسرحياته من الجهة الواقعية كثرة ظهور المؤلف في القصة – سيهرم ويذوى عندما تهرم الموضوعات التي يعالجها وتموت – أما (ابسن) الذي لا يعتمد على الفكرة اعتماد (شو) ، والذي لا يجعل من أبطال مسرحه ألاعيب ودمى لا قيمة لها إلا اظهار الفكرة والدعاية لها ، بل يجعل منها أشخاصاً آدميين نافذاً الى أعماق نفوسهم – مظهراً منها ما قد خفي ومضيئاً ما قد أظلم أو قتم – فسيظل حياً ما دام الانسان والنفس البشرية حية على ما هي عليه

٧ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ماليس من سجيتها في الزهد لأغراض له في ذلك ـ مارواه صاحب الأغاني قال : حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار . قال حدثني ابن أبي الدنيا قال حدثني الحسين بن عبد ربه قال حدثني علي بن عبيدة الريحاني قال حدثني أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين ، فقلت له : أمثلك يضع نفسه هذا الوضع مع سنك وشعرك وقدرك ؟ فقال له : أريد أن أتعلم كيادهم ، وأتحفظ كلامهم

وهو في أخذه بما كان يأمره به الرشيد منه ليتقي به حبسه وسجنه إنما كان يأخذ بالتقية التي يأخذ بها الشيعة ، وقد كان على ما سيأتي من رجالهم ، فجرى بذلك مع الرشيد كما جرى به مع الهادي والمهدي ، وكان إذا خرج من سجنه ، وجرى على مايهواه منه ، مضى معه كأن لم يكن هناك شيء يخفيه منه في دخيلة نفسه ومدحه بشعره أحسن مدح ، وأخذ عليه منه جزيل صلاته وجوائزه ، حتى إذا غلبته نفسه نبا عليه ، وأخذ في زهده ونسكه ، وأخذ الرشيد في الغضب عليه وسجنه وحبسه ، وأبو العتاهية رابح في الحالين ، قاض لنفسه غرضها من مال العباسيين ، ولمذهبه السياسي الذي سنشرحه غرضه من ذم دنياهم ، والنعي على ما في دولتهم من فساد ديني وسياسي واجتماعي .

وقد أخبر ابن أبي العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس ، فذكره الرشيد فعرف خبره ، فقال : قولوا له صرت زير نساء ، وحِلْس بيت ! فكتب إليه أبو العتاهية :

بَرِمتُ بالناس وأخلاقهم ... فصرت أستأنس بالوَحْدَهْ
ما أكثر الناس لعمري وما ... أقلهم في منتهى العدَّهْ

ثم قال : لا ينبغي أن يمضي شعر إلى أمير المؤمنين ليس فيه مدح له ، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها وهي :

عاد لي من ذكره نَصَبُ ... فدموعُ العين تنسكبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُهُ ... يعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرجى ومن يَهَبُ ... مَلِكٌ دانت له العرب
وحقيق أن يُدانَ له ... من أبوه للنبي أب

ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عن الرَّبع المحيل قَعودي ... إلى ذي زُحوفٍ جَمَّةٍ وجنود
وراعٍ يراعي الليل في حفظ أمة ... يدافع عنها الشر غير رَقود
بألوية جبريلُ يقدم أهلها ... ورايات نصر حوله وبُنُود
تجافَى عن الدنيا وأيقن أنها ... مفارَقةٌ ليست بدار خلود
وشدَّ عُرَى الإسلام منه بفتية ... ثلاثة أملاك ولاةِ عهود
هُمُ خير أولاد لهم خير والد ... له خير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارونَ حول سريره ... فخيرُ قيامٍ حوله وقُعود

ورينا (أبسن) أن أعلى أنواع الواقعية في الدرامة كما في كل فن آخر ـ إنما يعتمد على الخيال القوي الوثاب الذي يستطيع أن يعالج مسائله الشخصية معالجة يفهمها الجميع وتصل إلى كل القلوب حتى لقد تبدو لها وكأنها مسائلها هي لا مسائل الشاعر ، ونبضاتها هي قد سجلت على الورق لا نبضات الكاتب النرويجي أو الروسي أو الانجليزي ؛ وعلى هذا في معنى أدق مما كان يقصده الفيلسوف الأغريقي (أرسطو) تكون شخصيات مثل هذه الدرامة (مثلنا تماماً)

فليست الواقعية وليدة بحث علمي أو مذهب أو عصر خاص ، بل هي جزء لا ينفصل عن الشاعرية الفذة والخيال القوي الذي يصور لك ما يرسمه تصويراً حياً قوياً ، يجعلك تراه وتؤمن به وتشترك فيه حساً وعاطفة وفكراً

محمد رشاد رشدي
بكالوريوس بامتياز في الأدب الانجليزي

تـقلّب ألحاظ المهابة بينهم عيونُ ظباء فى قلوب أسود
خدودُهمُ شمسٌ أتت فى أهلة تبدت لراءٍ فى نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط

ثم انقضى عهد الرشيد وجاء بعده عهد ابنه الأمين ، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ، فاضطرب أمر الدولة ، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضى فى سبيله من الزهد ، واستخدام شعره فى دعوة الأمة إليه ، وتهوين أمر الدنيا التى فتنوا بها عن الآخرة ، ولم يعد يقول الشعر فى التغزل والمجون وما إليهما ؛ ولكن لم يقطع صلته بملوك العباسيين ولم يتحرج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً فى أموالهم . وسنتكلم بعد فى أمر ذلك الزهد

حدث عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفى على وَرَقِ الشباب وغصونه الخُضْرِ الرِّطاب
ذهب الشباب وبان عني (م) غير منتظَر الاياب
فلأبكينّ على الشبا ب وطيب أيام التصابى
ولأبكينّ من البِلَى ولأبكينّ من الخضاب
إنى لآملُ أن أخلّـ ـدَ والمنية فى طلابى

قال فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه ، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ ، فقيل لى : هو أبو العتاهية

وحدث حبيب بن الجهم النميرى قال : حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتى وفرضى ، فلم يدخل عليه أحد قبلى ، فاذا عون حاجبه قد جاء فقال : هـذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفني منه الساعة يشغلني عن ركوبى ، فخرج إليه عون فقال : إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين ، فأخرج من كمه نعلاً عليها شراك مكتوب عليه :

نعـلٌ بعثت بها ليلبسها قرمٌ بها يمشى إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرّكها خدّى جعلت شرا كها خدى

ثم قال لعون قل له إن أبا العتاهية أهداها اليك ، فدخل بها عليه فقال له احملها معنا ، فلما دخل على الأمين أخبره بها ، ورأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها ، فقرأ الأمين البيتين فقال : أجاد والله وما سبقه إلى هذا المنى أحد ، هبوا له عشرة آلاف درهم ، فأخرجت والله فى بدرة وهو راكب على حماره ، فقبضها وانصرف

ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبى العتاهية فى عهده ، وكان المأمون أحسن حالاً من الملوك العباسيين قبله ، فقرب أبا العتاهية منه ، وأكثر من بره وصلته والاحسان اليه بما لم يفعل مثله معه سلفه ؛ ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم

ودخل عليه مرة فأنشده :

ما أحسن الدنيا وإقبالها إذا أطاع الله من نالها
من لم يُواسِ الناس من فضلها عرّض للأدبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ؛ فأما الثانى فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها ، وإنما توجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر . فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، فأمر المأمون بأن يدفع اليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق . فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافل أودَى به الموت لم يأخذ الأهبة للفوت
من لم تزلْ نعمته قبلهُ زال من النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، الآن طيبت المنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم

فاذا رأينا المأمون بعد ذلك يزهد فى هذا الملك العظيم لأهله من بنى العباس ، ويؤثر به من بعده الامام عليا الرضى من آل على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فيزوجه بنته أم حبيب ، ويجعله ولى عهده ، ويضرب اسمه على الدينار والدرهم ، فان لشعر أبى العتاهية أعظم الأثر فى ذلك ؛ وهذه هى النتيجة والثمرة التى جاهد به من أجلها ، فقد سعى فى تزهيد الناس فى كل أسباب الدنيا والتكالب عليها ، ليزهد العباسيين فى التكالب على هـذا الملك

الذى علكونه منها ، ويعودوا به إلى سيرته الأولى ، فيتولاه أصلح الناس له ، ولا يستأثر به أحد على غيره ؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع على الرضا ، فقد كان بمدينة مرو وفيها على ، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء ، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار ، واستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة ، وجمع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وأولاد على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فلم يجد فى وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من على الرضا ، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المعروفة بينه وبين عمه إبرهيم بن المهدى ، فقضت على تلك الفكرة الصالحة ، ومضى العباسيون فى أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم ، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التى انتهى بها ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراده ، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى فى عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبى العتاهية فى عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله فى تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ .

وروى محمد بن أبى العتاهية قال : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه :

إلهى لا تعذبنى فإنى   مقرٌّ بالذى قد كان منى
فمالى حيلة إلا رجائى   لعفوك إن عفوت وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا   وأنت علىّ ذو فضل ومنّ
إذا فكرتُ فى ندمى عليها   عضضتُ أناملى وقرعتُ سنى
أجنّ بزهرة الدنيا جنوناً   وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقتُ الزهد عنها   قلبتُ لأهلها ظهر المجن
يظن الناس بى خيراً وإنى   لشر الخلق إن لم تعف عنى

ثم أمر أن يكتب على قبره

أذن حىّ تسمعى   إسمعى ثم عى وعى
أنا رهنٌ بمضجعى   فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة   أسلمتنى لمضجعى
كم ترى الحىّ ثابتاً   فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى   فخذى منه أو دعى

عبد المتعال الصعيدى

٢٩ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تتمــــة الحوار

فهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالاقيانوس oceanus الذى يجرى فى دائرة حول الأرض ، ويسير فى الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذى يجرى تحت الأرض فى ربوع جدباء حتى يصب فى بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هذه هى البحيرة التى تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل فى جسوم الحيوان . وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه فى منطقة شاسعة من النار ، حيث يكوّن بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط ، يغلى فيها الماء والطين ، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل ، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يختلط بمائها ، وبعد أن يتحوى فى عدة ثنايا حول الأرض ، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجثون Pyriphlegethon — كما يسمى — الذى يقذف فى كل مكان بفوارات من النار . ويخرج النهر الرابع فى الجهة المقابلة ، ويسقط أول ما يسقط فى منطقة همجية متوحشة ، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذى يشبه حجر اللازورد ، وهذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا Stygian River وهو يصب فى بحيرة ستكس Styx التى يكوّنها ، وبعد أن يصب فى البحيرة ويستمد لمائه قوى عجيبة ، يجرى تحت الأرض ، دائراً حولها فى اتجاه يضاد نهر بيرفليجثون ، ويلتقى به فى بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجرى فى دائرة ويتدفق فى جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر

تلك هى طبيعة العالم الآخر ، فلا يكاد الموتى يصلون الى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضى فى أمرهم بادئ ذى

بده ، إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر ، فانهم يذهبون الى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيُحملون فيها الى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ويعانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً عما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجى لهم اصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجرموا ، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتدنيس المعابد وازهاق الأنفس ازهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك – أولئك يلقى بهم فى جهنم لا يخرجون منها أبداً ، فهى لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجرموا اجراماً لا يجل عن العفو على هوله – أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم – هؤلاء يغمسون فى جهنم ، ولزام عليهم أن يَصْلوا عذابها حولاً ، وفى نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذف به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فالى نهر بيرفليجيثون – فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى ، أو عن نالتهم منهم اساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فان نالتهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ونجوا من عذابهم ، وان لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا ممن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضاتهم . أما من امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مُقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك ، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها

إذن يا سمياس ، وقد رأيت هـذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغى لنا ألا نفعله لكى نظفر بالفضيلة والحكمة فى هذه الحياة ؟ ألا إن الجزاء لجيل ، والأمل لعظيم

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذى قدمته عن الروح ومنازلها – فما ينبغى لرجل ذى فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه فى رأيى حقيق ، وقد اتضح خلود الروح ، أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وانه منه لظن عظيم ، ولا بد له أن يسرى عن نفسه بمثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايتى ؛ ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى ، ما دام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هى أدنى إلى إيذائه عما يجر وراءها من أثر ، وما دام فى هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة ، وهى : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق – أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ ، مهيأة للرحيل إلى العالم السفلى حين يدركها الموت . فأنتم ، أى سمياس وسيبيس ، ويا سائر الرجال ، سترحلون فى قت قريب أو بعيد . أما أنا ، فها هوذا يناديني صوت القدر على حد قول شاعر المأساة ، ولا بد أن أجرع السم عما قريب ، ويجمل بى فيما أظن أن أذهب أولا إلى الحمّام حتى لا يشق على الناس غسلُ جثمانى بعد موتى –

فلما أن فرغ من الحديث ، قال كريتون : أعندك ما تشير علينا به يا سقراط ؟ ألديك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أى شىء آخر نستطيع أن نعينك فى أمره ؟

فقال : ليس عندى شىء بعينه : غير أنى أحب لكم ، كما كنت أحدثكم دائماً ، أن تنظروا فى أنفسكم ، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجلى ، وهو أيضاً فضل منى لكم . ولا ينبغى لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدّقتم عما أوصيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها ، فلن تجدى عليكم حماسة الادعاء شيئاً

قال كريتون : سنبذل جهدنا ، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى ؟

على أى وجه تشاءون ، غير أنه لا بد لكم أن تمسكوا بى ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفت إلينا وأضاف باسما : لا أستطيع أن أقنع كريتون أننى سقراط ذاته الذى كان يتحدث ويوجه الحوار ، فهو يحسبنى سقراط الآخر الذى سيشهده بعد حين جثة هامدة – وهو يسائل : ماذا عسى دفنى أن يكون ؟ مع أنى قد أفضت فى الحديث محاولاً إقامة الدليل على أنى مُخلّفكم حين أجرع السم ، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم – ويظهر أنه لم يكن لحديثى هـذا الذى سرّيت به عن أنفسكم وعن نفسى ، أثر فى كريتون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لى الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيلى عند المحاكمة :

على أن يختلف وعدكم عما وعد ، فقد كان كفل للقضاة أنى سابق ، ولكن عليكم أن تكفلوا له أنى غير باق ، بل إنى ظاعن راحل ، فتقل بهذا لوعته عند موتى ، ولا يحزنه أن يرى جثمانى يحترق أو يُهال عليه التراب . إنى لا أحب له أن يتحسر على جدى العاثر ، بأن يرتاع لدفنى ، فتأخذه الحيرة : على هذا النحو نكفن سقراط ، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شراً فى ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لا تحزن إذن ، أى عزيزى كريتون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفضل أن يكون

ولما فرغ من هذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه كريتون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وفى هول المصاب . لقد كنا كمن ثكل فى أبيه ، وأوشكنا أن تقضى ما بقى من أيامنا كالأيتام ، فلما تم اغتساله جىء له بأبنائه — (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من كريتون ، ثم صرفهن وعاد الينا

ها قد دنت ساعة الغروب ، فقد قضى داخل الحمام وقتاً طويلا ، وعاد بعد اغتساله فجلس إلينا ، ولكنا لم نفض فى الحديث ، وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبه وقال : لست أتهمك يا سقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب ، فقد كانوا يثورون ويصيحون فى وجهى حينما آمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد ، فوداعاً ، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم فيم قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء

فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فسأصدع بما أمرتنى به . ثم التفت إلينا وقال : يا له من فاتن ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، وكان يحادثنى الحين بعد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلى فلزام علينا يا كريتون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالقدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهيئ شيئاً منه

فقال كريتون : ولكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون فى لذائذ الحس ، فلا تتعجل إذن ، اذ لا يزال فى الوقت متسع

فقال سقراط : نعم يا كريتون ، لقد أصاب من حدثتنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ؛ وانى كذلك لعلى حق فى ألا أفعل كما فعلوا ، لأننى لا أظن أنى منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة . اننى بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فعلاً ، انى لو فعلت ذلك سخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أشرت به ولا تعص أمرى

فلما سمع كريتون هذا ، أشار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً ان عاد يصحبه السجان يحمل قدح السم ، فقال سقراط : أى صديقى العزيز ، انك قد مرنت على هذا الأمر ، فأرشدنى كيف أبدأ . فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم ، وهنا تناول سقراط القدح فحدق فى الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يُرَع ولم يتغير لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة ؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : اننا لا نُعِدُّ يا سقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال : انى أفهم ما تقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توفقنى فى رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر — فلعل الآلهة تهبنى هذا ، فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يعد فى قوس الصبر منزع ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى ، وأخذت أندب نفسى ، حقاً انى لم أكن أبكيه بل أبكى بخيبتى فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل أن كريتون ، وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فتبعته ، وهنا انفجر أبولودورس الذى لم ينقطع بكاؤه طول الوقت ، بصيحة عالية وضعتنا جميعاً موضع الجبناء ، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط ، فقال : ما هذه الصرخة العجيبة ؟ لقد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو ، فقد خبّرت أنه ينبغى للانسان أن يسلم الروح فى هدوء ، فسكوناً وصبراً .

فلما سمعنا ذلك ، اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا ، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران — كما قال — ثم استلق

زهرتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قد تصوَّحتِ عند شرخ الشباب   زهرتي بغتةً فجلَّ مصابي
زهرتي قد جاء الربيع بما ازدا   ن به من نبتٍ ومن أعشاب
ولقد قام مهرجانٌ على الأر   ض جميعاً بطاحها والهضاب
لعزيزٌ عليّ ألا تكوني   طاقةً فوق الكاهل المعشاب
نبت الزهر كله فلماذا   أنتِ يا زهرتي بجوف التراب

* * *

ضقتِ بالقبر فاخرجي من ظلام الـ   أرض للنور فوقها والرحاب
أخرجي من جوف الثرى وابسمي لي   عن رضًى أو تجهّمي للعتاب
أخرجي من جوف الثرى من جديد   واسحريني بلحظكِ الخلّاب
وأعيدي إليّ أسعدَ عهدٍ   كنتُ فيه وذاك عهدُ شبابي
قرّبيني إذا أردتِ سلامي   واصرميني إذا أردتِ خرابي
وافتحي العينَ والمسامعَ دوني   واسمعي شدوي وانظري إعجابي

* * *

أنا يا زهرتي دعوتكِ للحبّ (م) مراراً فلم تردّي جوابي
لا تقولي إني هلكتُ فلا تر   جُ لميتٍ ذاق الردى من مآب
أنتِ تحيين في فؤادي وعيني   ودمي فائراً وفي أعصابي
ايقظي من هذا الرقاد فإن الشـ   ـمسَ قد ذرّت من وراء الحجاب
أنتِ للحب والغرام بوجه الـ   أرض لا للرقاد تحت التراب
أنتِ لا تخلقين يا زهرتي أن   تختفي في غياهب الأحقاب

* * *

يتهاوى دمعُ الأسى من عيوني   كشهابٍ ينقضّ إثرَ شهاب
متِّ قبلي فلو سبقتُكِ عاهد   تِ دموعَ الأسى على التسكاب
لا سلامٌ على الربيع إذا ثا   بَ ولم تصحبيه عند المثاب
ارجعي لي وقبّليني ولا تخـ   ـشَيْ رقيباً على الهوى لا يحابي
ارجعي ارجعي كما كنتِ قبلا   أو خذيني بأقرب الأسباب
إنني لم أزرْ أجلْ بعدُ قبري   غير أني منه على الأبواب

* * *

آهِ إن الحياة أعجزُ من أن   تستطيعَ الرجوعَ بعد الذهاب
بين شعرٍ أقوله وأنيني   شعبة من وشائج الانساب
ذهبت زهرتي التي كنتُ أشدو   باسمها خالياً وبين صحابي
زهرةٌ قد سقيتُها بدموعي   مزّقتها المنون بالأنياب
إنني كنتُ أعبد الحسن فيها   ولقد كان وجهُها محرابي
خطفتها المنون مني كعاباً   ما على الموت بعدها من عتاب
خطفتها مني ذئابُ المنايا   وذئابُ المنون شرُّ الذئاب
قلت أسلو فأستريح ولكن   كيف أسلو والحب ملء إهابي
كل شيء مذكِّرٌ لي بليلى   ليتَ شعري ماذا يذكّرها بي
هدّدتني إذا تصدّيتُ عيني   وفؤادي والنفس بالاضراب

* * *

وكأن الدنيا العريضةَ بحرٌ   وكأنا عليه بعض الحباب
خضتُ بحرَ الهوى وكان خضمّاً   ثم منه ركبت متنَ العباب
ثم صارعتُ الموجَ منه فما كنـ   ـتُ سوى مغلوب الى غلّاب
عن يميني وعن شمالي ماءٌ   ثم إني أعدو وراء السراب

بغداد ٤ تموز   **جميل صدقي الزهاوي**

على ظهره ، كما أشير له أن يفعل ، وكان الرجل الذي ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ، ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا ، ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب ، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم الى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف عن وجهه ، إذ كان قد دثر نفسه بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إنني يا كريتون مدين بديك لاسكلبيوس Asclepius فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى سُمعت حركة ، فكشف عنه الخدم ، وكانت عيناه مفتوحتين ، فأقفل كريتون فمه وعينيه

هكذا يا اشكراتس تغني صديقنا الذي أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس ، وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلا

تم الحوار   **زكي نجيب محمود**

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٤ - تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

على أن الروح « الديونيزوسى » يكاد يكون فاشياً في كل أصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك في المنكرات ، وإشباع البهيمية الانسانية باللذائذ . واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى ، ومشى فيهم هذا الروح . ولكن انهماكهم لم يكن انهماكا بهيمياً . أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بعاطفته مع الوجود . ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية .

والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا ، ولا يتسرب إليها الفناء ؛ تعيش بعيدة عن الحضارة ، وظهورها في شعب متحضر يقضي على حضارته ويقذف بالحواجز التي تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعي مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس ببهيمي . يتجلى فيه شيء من السمو الالهي ، وهو رمز الغريزة الأكثر قوة وسيطرة على الانسان . هو سريع الهيام يفعله تقرب الاله منه . كثير الاشفاق والعطف لأنه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التي يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا الفريق يبدو في بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالهي » ورقصه ، وموسيقاه تغادر روح الناظر في شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته ، ويشركه في ذهوله وسكرته . حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الاله « ديونيزوس » وهذا السكر الالهي قد ولد خيالا شعرياً لم يكن في حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفي . فالمأساة اليونانية هي بحقيقتها موسيقية شعرية . وهي هتاف ظفر الارادة التي تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها . بطل كل مأساة هو الاله «ديونيزوس» ، وهي عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة في مدح الاله . ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً في المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالهي الذي يظهر على السكارى الهائمين في الوادي ، السكارى بالاله . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالهي . وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيروموني » أو « أوديب » . و «ديونيزوس» هو البطل الحقيقي في كل مأساة ، يبدو بأشكال مختلفة . وهو في ظهوره هذا يشبه الانسان في حياته ، يتيه ويضل ، يناضل ويتألم . « ديونيزوس » هو هذا الاله المتألم الذي تكلمت عنه الأساطير . هذا الاله الذي يحس في نفسه بآلام الفردية . هذا الاله الذي قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الاله « زاكروس » ومن ابتسامته تولدت الآلهة ، ومن دموعه نشأ الرجال

إن روح هذا الاله قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان . فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا إلى طريقة ثالثة ، هي المعرفة العقلية للوجود وأجزائه . فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم . فبينما يقول الفنان للحياة « يليق بنا أن نحياكِ ، أيتها الحياة ! لأن صورتك جميلة » يقول العالم لها « أنا أريدك أيتها الحياة ! لأنك جديرة بأن تعرفي . . . » وهكذا وجد العالم في اكتشافاته العلمية من اللذة والبهجة ما يجده الفنان في أوهامه وأخيلته . وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجعل وجه الحياة المشوه جميلاً . ويجب ألاّ نجحد أن فضيلة العلم إنما هي تتمثل في البحث الدائم والتنقيب المتواصل . لا في الحقائق التي يكتشفها . أو النتائج التي يبلغها . وخطيئة العلم القطعي هي أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه ، فتستمد حالته

الأولى مادام يبحث وينقب ، ويشقى في الحالة الثانية ما دام يطمح ويطمع إلى ما لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه ، وأن رأس كل فضيلة هي المعرفة ، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء ، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الانسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يوناني جاحد للوحي ، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة في الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة . سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع في النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه ، وباختياره لمصرعه الذي لقيه . ترك الحياة هادئ النفس ، لا يمضه أسى ولا يقرعه ندم ، كأنما كان يثبت بهذا المصرع إيمانه في الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع

هـذا هو عقل سقراط الذي هزم « المأساة عند اليونان » وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل ، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحي شيئاً ولا توضح عن أية حقيقة نافعة ؛ وقد تجيء فاحشة المنزى ، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجمل النماذج التي تخلقها الانسانيـة . فاذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية – كما يريد العلم المتفائل – فان المنزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده ، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذي تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جميلة ، وهو يريدها منطقية ، تفقه نفسها بنفسها ؛ كان مظهر سقراط مظهر المزدري لروح عصره ، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدري شيئاً ، وأنه على حق في خصامه معهم . يمرج على نوادي الشعراء والمفكرين والخطباء والملهين ، فيقول : إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها ، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه حيثما توجه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً ، وخطأ فاشلاً ، مما اضطره أن يعلن أنه مقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده .

فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شيء منها ، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العالم الذي هدمه هو أسمى من العالم الذي راح يبنيه بعقله

* * *

هذا ملخص ما رآه نيتشه في « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضي النبيل . وقد لا يعنينا أن ننظر إلى مذهب « نيتشه » من حيث تعلقه بالتاريخ . فهو ليس في الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان . وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوبنهاور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأنني فهمت شوبنهاور ، ولكني مؤمن جد الايمان بأن شوبنهاور قد أعانني على تفهم نفسي » وحال نيتشه في درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال ، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه في الحياة . وهذه الارادة التي يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف « نيتشه » ؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نيتشه بذاته حين درس براعة اليونان

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

أروع قصص الحب في التاريخ القديم

للأستاذ دريني خشبة

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العذارى؛ وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين؛ وكان البدر العاشق المسهَّد يرسل القُبَل فتنطبع على خدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطّر أحلام المدنفين!

وكان كيوبيد الصغير يتميّز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل بسيشيه ابنة الملك، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه ڤينوس!

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفّق ماء الشباب في جسمها الريّان، فهويت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من دون ڤينوس!

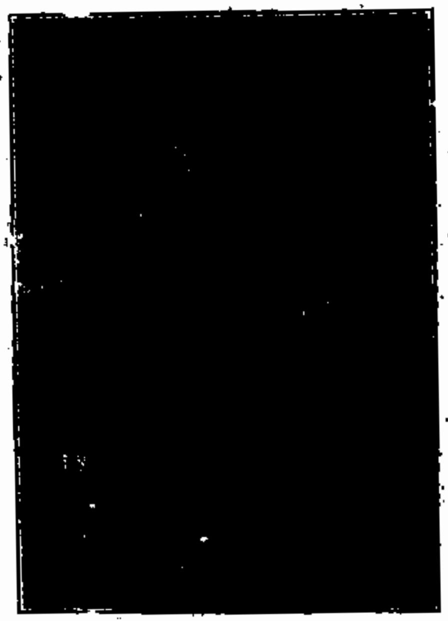
وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دَلٍّ وفتون، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامةً ووسامةً ولا نهائية!

أجل، كانتا دونها لا نهائية، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لُجّة من الحسن الغامض مالها من قرار؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!

ودعت إليها ابنها ربّةُ الحب، فأثارت في قلبه العداوة لهذه الغادة وجسّمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة النّعمة:

« أفيرضيك يا بني أن نكون من آلهة الأولمب نكرتين لا يخبت لها شعب من العباد المخلصين؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم، وهم كما تعلم مغيظون مني، فيقولون هاهي ذي ڤينوس التي هدمت كبرياءها امرأة، وصرفت الناس عن عبادتها غادة؟ اذهب إذن فتربّص لها، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدز، وبئس القرار! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، أو يفتتن بها پلوتو وملؤه . . . . . .

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حُفّت بالورد وعبقت. فيها أرواح البنفسج، وتأرّج النرجس الغض، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرقّت من غيظ الإله الأصفر، وجعلته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاةً بريئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفتنوا فيها...



بسيشيه وكيوبيد

وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة؛ وتفيض بالآلام؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامتة؛ تعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفّاق!

وصدح بلبلٌ غَرِد في هدأة الليل الفضي؛ فانتفض الإله الأصفر وحمل قوسه وسهامه ومضى . . . . لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة ، ولايأسر لبه هذا البهاء الالٓهى الذى يغمر الكون حوله ، حتى كان عند أسوار القصر الملكي الراقدة في طوفان زاخر من أزهار الشيير والياسمين والبانونيا

وبرفتين من جناحيه الصغيرين كان في حديقة القصر . . .

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامىّ ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس . . .

وانفتل في غرفة بسيشيه الناعمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يوتّر القوس الذهبية ، وينتقى من كنانته سهماً تقطر المنية من سِنّتِه ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة . . . . . .

يا للجمال النائم فوق الأريكة ! ويا للفتنة الناعمة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلها ! وكان نهدها البارز المثمر مجللاً بثديين ناضجين ، يتحلبان لذاذةً ويلتهبان إغراءً ! !

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ؛ لدْنتان وإن كانتا كالرمر ؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود !!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه وبأسه ! . . . .

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة ، متلألئاً في شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولا من لدن ديانا (١) البارة ، أقبل ليقول للإلٓه الأصغر : « مكانك أيها الرامى الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟ ! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به ، فانك لن تجد في ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الهدف البرىء . . . ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحلق في وجه بسيشيه ... ...

وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الأسيل ....

وأخذ بلبه هذا الشعر السجدى تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاءً ورونقاً ، فآلى لايهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ؛ وانتزع السهم فألقى به في كنانته . . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ، شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبي من سهام الحب ، فلأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه لهفان ، يتزود لأوبته من جفنها النعسان وجمالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقةً حلوةً ، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لايبالى بسخط أمه ڤينوس ! !

* * *

وانصدع عمود الليل ، وتنفس الصبح فهبّت الأرواح الناعمة ، وأقبلت ڤينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات في قصر الملك ... ... بيد أنها ، بدلاً من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح في حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغُدران الصافية تحييها وتغني لها ، وتضفر لها أفواف الزهر . . . . ! !

وحنقت ربة الجمال والحب ، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ومناعمها ظلاماً في عيني الفتاة ! !

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجمها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول . . . وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون . . .

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة ، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاةً وأشجاناً ! !

وكرت الأيام . . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفي نفسها أن تلقى بحمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد . . .

وظلت هي ترقب الموج المائج ، وتشهد اليم المصطخب ، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ؛ ثم صرخت صرخةً هائلة ، وألقت بنفسها من عل . . . . . .

وكان كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس ، إلٓه الريح الجنوبية ، وأطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التي تكاد تُلقى بنفسها من

---

(١) ديانا هي ربة القمر ، وهي التي اكتشفت كيوبيد ، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

قُنة الجبل يا صديق زفيروس . فإن رأيت أن تكون لك على هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر ، فخذ أهبتك ، ولا تدعها تغوص في اليم ، بل تلقها في يديك الرفيقتين ، واذهب بها إلى الجزيرة المقابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ؛ فدعها ثمة ، فقد أعددت لها مُستراداً وملعباً . . . . . . »

ولشد ما دهِشت بسيشيه إذ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأة فيلتقطها في يديه الكريمتين ، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرحب ، كأنه أريكة من أرائك الجنة التي وُعِد المتقون ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج ، ويصير البحر في لحظة كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها صفحة السماء . . .

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمة ، وينطلق في البحر الذي يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه . . .

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذي هي فيه حُلم ، أم هي قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة ؟ ! !

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هي التي تنفذ إلى دار الموتى ؛ وأنه ليس في دار الموتى شمس ولا إياء ، وهي تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهي ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر ، وتنشر إياءها في الأكوان جميعاً . . .

إذن هي لم تمت ، وهذا الطيف الكريم الذي أنقذها من الموت ، والذي ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ؛ وإذن فلتنهض ولتضرب في هذا الفردوس المنزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر . . .

ومضت في غِياض وأرباض ، ورأت في الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأجياد ، فيممت إليه ، وما كادت تدنو منه حتى فُتحت بوابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرت أصوات رقيقة موسيقية تحتفي بها وتُحيِّي وتُبَيِّي ! . . . . . .

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شيء حولها حدثها أنها ترى رؤية حقيقية ، لا رؤيا منامية . . . . فدخلت القصر ، وفي نفسها من الحَيْرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف في كل خطوة ويزداد . . .

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق . . .

ولكن عبثاً . . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها ، تقودها إلى المخدع الوثير الذي أعدته العناية لها . . .

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه :

ـ « . . . ويدهشني أنكم تحتفون بي . وتبالغون في إكرامي ، وأنا لا أرى منكم أحداً ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ [(١)] »

ـ « كلا أيتها العزيزة ؛ ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك . . »

ـ « ومن ذا الذي أصدر إليكم هذا الأمر ؟ »

ـ « ونُهينا أيضاً عن ذكر اسمه . . . »

ـ « أنتم كرام ، ولكنكم تضايقونني إلى حد الازعاج . . »

ـ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، ففي السماء ، تلقين الآمر الكريم صاحب هذا القصر ؛ وصاحب القصور الكثيرة في أطراف الأرض »

ـ « وهل لي أن أجول جولة في قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبي . . . »

ـ « ولم لا . . . بسيشيه العزيزة ؟ »

ـ « بسيشيه ؟ ! . . . ومن أنبأكم اسمي ؟ »

ـ « رب هذا القصر أيتها العزيزة . . . »

وجالت الفتاة في القصر الجميل المنسق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، مُحَيِّية بابتسامة خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة . . . ! !

وكانت التماثيل في زوايا الغرف ، وأوساط الردهات ، وفي حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرَّطب ، تحيِّي الضَّيْفة ، كأن حياةً تدب في مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها ، فتتحرك الأذرع ، وتومئ الرؤوس ، وتعرّ الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ . . .

وكانت المنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبث فتسمعها أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهي من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس

(لها بقيـــة) دريني خشبة

---

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الاخفاء

أقصوصة عراقية :

بَدّاى الفـــايز

للأستاذ محمود . ا . السيد

— ١ —

كان اليوم العاشر من شهر مايو . . .

كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود القائمة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، فى منطقة خضراء بين ذى الكفل والكوفة — كأمثالهم فى مناطق الفرات الأخرى — ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وَجِيلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً

وكان الصبح . . .

وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء الساكنين ، ويحيى فيهم عنصر النشاط الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا مذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم — مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين — وماشيتهم ؛ وهما لهم قوام الحياة

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة فى الحقول على مقربة من بيوتهم — وهى من القصب البالى والحصر وجريد النخل — ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب

وحان الضحى ؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحُصُرَ والمَسَدَ والحبال وما إليها ؛ ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون فى غير مالين ولا إمهال

وحان الظهر ؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيراً مفاجئاً — ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد فى العراق — فحجبت وجه الشمس عاصفة شديدة أثارت الموج فى النهر ، وعظم بها الخطر ، لأن السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوى أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلطمها فيوهنها ويكاد يهدّمها تهديماً

وكان الخطر أعظم ما يكون فى الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم

وكان الرؤساء جميعاً ، هنا وهناك ، مع وفرة غنامهم ، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع . فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصى والسياط

ونحن الآن فى الضفة اليمنى

حان الأصيل ، وبدأت قصتنا ؛ فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه « بَدّاى الفايز » ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التى ينتمى إليها ، معتدلاً يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الأعراب ؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير فى العمل أم لم يكن ، فان (بداى) الذى كان شاذاً فى قبيلته فى بعض خلاله ، قوى الشكيمة ، عزيز النفس ، معتزاً بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يغمغم متظلماً فى شبه ثورة وعصيان

وبهت الرئيس ، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً : مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد ، وحمله خنجره المفضض حتى فى ساع العمل المسير ، مستنكراً تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلة خاضعين

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم انثنى عنه فى لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصي وأنكى ، قال يُعَيِّره :

— « ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن اخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ! ؟ ولأى يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التى تعلقها بالمدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جَسّام أخاك عباس ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان الذليل ؟ ! »

وإذ نطق باسم « جسام » شدّد « السين » تشديداً غريباً ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة ؛ ثم إذ أتم كلمته ابتسم ساخراً متهكماً وتولى ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يرام دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة ، وهو فى أسوأ حال من الاضطراب النفسى والغيظ ، وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة) ؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده :

ـ «اخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولأنتقمنّ ولأدفننّ عنى عارى ! »

وترك العمل وهو حانق غضبان . وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه . و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعدُ الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباسا ، فى نزاع على دين قديم ، منذ عهد قريب ، وتلكأ عن أداء ديَتِه . هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذى خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً . لم يكن ساكتاً عن حقه ، والثأر فى القبائل كالدِيَة ، حقّ . على أنه لم ير بداً من التريث حتى تنجلى هذه المصيبة التى حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان . فكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ؛ فَسُيِّر أمام الناس ، فلا كانت الحياة إن لم يثأر وينتقم . . . . . »

هذا ما فكر فيه فى دقائق مسرعة كالثوانى ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه ، وتوارى عن الأنظار

— ٢ —

ونحن الآن فى الضفة اليسرى

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم فى هذه الليلة ان لم تنقص قليلاً ، وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود . وكان الأعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ؛ الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف

وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس

وكان وهو فى جماعته ، مطمئناً غافلاً ، لايدرى أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه فى تلك الليلة ؛ لايدرى أنه جاء دارة القوم خلسةً وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لأى وجهد كبير ؛ وأنه كان ـ وقد مضى الهزيع الأول من الليل ـ يكمن له وراء نخلة فى طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلى مضرب الحرس ملثما بكوفيته ، متلفعاً بعباءته السوداء ؛ مصمما على قتله

وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلاً عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادى صحبه نداء الحذر والانتباه

وكان ينظر إليه وهو واقف فى الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره كالخنزير الحانق على الصياد ؛ ويقول بصوت خافت ؛ وكأنه يتوعده :

ـ « اصبر لى قليلاً يا ابن الكلب . . . . »

ثم حشا بندقيته ؛ وقد اشتدت ضربات قلبه ؛ وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشى القديم ؛ وثنى ركبتيه وأطال النظر فى عدوه ليسدد الرمى ؛ وكاد يطلق رصاصاته الخمس التى أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارسا آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا مالم يكن يريده ؛ لأن ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ، فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثانى ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ، وبينما هو فى موقفه هذا ، ارتفعت من جانب بعيد قيدَ غلوة صيحة حارس يستغيث

لقد حم الأمر ؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت فى السد المصاقب ، ومضى الحرس وفى طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالى الجبال مستطاعاً

واستيقظ أبناء القبيلة فروّعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها فى الزرع وفى إقامة السدود . وحاولوا كفاح المياه المرمة فحاولوا عبثاً ، وراموا مستحيلا

وما كانت أمامهم إلاّ الهرب ، فكان النساء يولولن ، والأطفال فى خوف ورعب يتصارخون . وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت . وكان الرجل آخر هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه فى الزرع ، ونسى بقرته وغنمه ؛ وعلى

هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع . . .

وأدركت الرحمةُ الطبيعةَ حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فهذا القمر النير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة فى قسوة وجمود

— ٣ —

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلمة متسعةً ، تنصبُّ منها فى السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول ، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء . وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التى فُجعت بها القبيلة فى دهش وتألم . وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئاً يتمزق فى جوفه . ثم استيقظ فى نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة فى الانتقام والثأر ؛ وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً ، فرأى – مما رأى – أطفال جسام الثلاثة فى صراخهم وعويلهم ، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا فى الرابعة والخامسة ، نحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو فى الثالثة من العمر ما يزال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً ، والأم ذاهلة تحنى فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الأب ، وهو دهش يحمل طفليه ، غنمه فيذهب إليها حيث كانت فى زريبة مجاورة ليسوقها أمامه . . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل ؛ فكانوا فى مثل يوم الحشر الموعود

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو

وحينئذ كان بداى يحكم لثامه شداً ، ويتنكب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها . وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها فخفف عنها حملها الثقيل . وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه فى الزحام ، واحداً من أبناء عمه ، فخاطبه مرشداً ومشجعاً :

— « دونك السد »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدى إلى قرية قريبة ، الطريق الوحيد الذى لجأ اليه القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً . . .

وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت . وحملت أخته أمها العجوز . وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً ، معه ، وهو حامل طفليه . واستعدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التى رحلت من مستقرها وقد مسها ضرٌّ أليم .

وأقبل أرثم الرجل اللثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، فى ضوء القمر ، محملقاً كأنه يقول له :

— « هلا عرفتنى ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة فى الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم

ونحّى جسام طفليه عنه فى تأن وحذر ، ومد يداه إلى خنجره بيد أن بداى أخلف ظنه فما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الآن ! . . مع السلامة . . خلصت . . ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ إلى زورقه مسرعاً ، تاركاً ثأره [1] وزوجه التى انتهت اليه آخر الأمر ، فى حيرة واستغراب

* * *

وآب بداى الفائز إلى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التى لم يفعل مثلها أحد قبله ، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد ، واستحيا لأجلها ، ولو إلى حين ، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

— ٤ —

ومر عام على هذا الحادث . فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهراً ؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها ؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسعون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة ، وهى أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل

(العراق — الأعظمية) محمود . أ . السيد

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه

البريد الأدبي

تبسيط اللغة الانكليزية واهتمام الانكليز بنشرها

يبدى الانكليز فى الوقت الحاضر اهتماماً خاصاً بنشر اللغة الانكليزية، ويحاولون بمختلف الوسائل أن يجعلوا منها لغة دولية عامة، كاللغة الفرنسية فى الشؤون والمعاملات الدولية والتجارية؛ ويرجع هذا الاهتمام إلى ما بعد الحرب الكبرى إذ اتسع نطاق الامبراطورية البريطانية اتساعاً عظيما، وضمت إليها شعوب وأمم جديدة، وزاد نفوذ انكلترا الدولى تبعا لذلك، واتسع نطاق تجارتها اتساعا عظيما. والانكليز أقل الأمم اهتماما بدرس اللغات الأجنبية، وقد حاولوا أن يتلافوا هذا النقص بفرض لغتهم على الشعوب التى تنضوى تحت لوائهم، ولكنهم يرغبون اليوم فى التقدم خطوة أخرى، وذلك بالعمل لجعل اللغة الانكليزية لغة دولية اختيارية. وقد رأوا أن أنجع وسيلة لتحقيق هذه الغاية هو تبسيط اللغة الانكليزية إلى أبعد حد، وانتهوا فعلا إلى عمل هذه التجربة، فقام الأستاذ أجدن أحد أعضاء المعهد اللغوى بجامعة كامبردج باختيار الألفاظ الانكليزية التى تعبر عن أكبر عدد من المعانى المطلوبة، وانتهى إلى حصرها فى ٨٥٠ كلمة تكون وحدها لغة انكليزية جامعة وافية بالتعبير عن كل ما يرغب، ويكفى لدرسها وحفظها ثلاثون ساعة، وليس فيها أى تضارب ولا تعقيد، وليس فيها من الأفعال سوى ١٨ فعلاً، وقد سميت هذه اللغة «بالانكليزية الأساسية». ويعلق الانكليز على هذا التبسيط المدهش للغة تبلغ كلماتها عشرين ألفا آمالا كبيرة، وتنوه الصحف العلمية بهذه المناسبة بأن أحب الكتاب الانكليز إلى الشعب الانكليزى هم أبسطهم لغة وبيانا مثل سويفت وبرنارد شو، ومن ينحو نحوهما فى التعبير الجزل البسيط الذى لا يتخلله حشو ولا ترادف ولا تعقيد

أزمة الديموقراطية

تشغل أزمة الديموقراطية أذهان الساسة والكتاب الأحرار، وقد صدرت فى موضوعها فى الآونة الأخيرة مؤلفات عديدة ولا سيما مذ تولت عصبة الهتلريين الحكم فى ألمانيا وسحقت كل أنواع الحقوق والحريات العامة؛ ومنذ أسابيع قلائل ظهر كتاب جديد فى الموضوع بقلم مسيو دى روفيرا الكاتب والسياسى الاسبانى عنوانه «تجربة سياسية» «Un Essai Politique» ومن رأى هذا الكاتب أن الديموقراطية تجتاز أزمة الموت، بيد أنه من المستحيل أن يظفر المؤرخ أو السياسى المعاصر بجراثيم الداء التى تنخر أسس الديموقراطية؛ وأكبر الظن أن مؤرخ القرن الثانى والعشرين أو الثالث والعشرين سيكون أقدر منا على تفهم الصلات والحوادث التى تربط الثورة الفرنسية بالحركات الثورية الجديدة مثل الشيوعية والفاشستية، وأقدر منا على تفهم المراحل التى جازتها المبادئ الثورية السياسية حتى انتهت إلى نواحيها الاجتماعية؛ وقد يرون أن تحول العالم القديم إلى العالم الجديد قد استهدف لسلسلة من النزعات والعوامل المضطربة. ثم يقول مسيو روفيرا: إننا نشعر الآن فى جميع أوربا بضرورة الارادة العاملة؛ ولنا أن نسميها «سلطة» أو «طغياناً» فإن المهم هو أننا نريد أن نعمل. ويجب علينا ألا نحكم على آبائنا بالبله والعجز لأنهم لم يبتوا فى المسائل بشىء. والواقع أنه يجب أن نعتبر خاتمة القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين مرحلة الهدم بالنسبة للعالم القديم، ومرحلة التجارب الهائلة؛ وليس ثمة ما يدهش إذ نرى ما نرى من ذلك الاضطراب الهائل الذى يسود شؤون العالم اليوم. وقد أثارت ملاحظات المسيو دى روفيرا كثيراً من الاهتمام والجدل لأنها تتعلق بمسألة تعتبر مسألة العصر، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

رسائل جديدة لشارلس دكنز

صدر فى لندن مجلد من رسائل جديدة لشارلس دكنز الكاتب الانكليزى الفكه ، محتوياً على جميع الرسائل التى كتبها دكنز لزوجته كاترن هوجارت من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٦٧ وكانت مدام دكنز قد أوصت بهذه الرسائل لبناتها ، وأودعتها ابنتها الثانية كات بيروجيني بالمتحف البريطانى وأوصت بأن تبقى فى طى الكتمان بعيدة عن النشر والاذاعة حتى تموت هى ، والسير هنرى فلديج دكنز آخر من بقى على قيد الحياة من نسل الكاتب الشهير . وقد عمل المتحف البريطانى بهذه الوصية ولم يسمح باذاعة الرسائل حتى تحقق شرط الانقراض . وليس فى هذه الرسائل جديد مما لم يعرف عن حياة دكنز ، ولكنها تلقى ضياء جديداً على ما كان بينه وبين زوجه من الخلاف وما كان بينهما من أسباب النفرة والاحتكاك مذ عرفها باسم كاترن هوجارت . والرسائل الجديدة على وجه العموم صورة حية من خواص دكنز ومواهبه الكتابية ، وهى تسبغ على الحوادث والمسائل التى تتناولها حياة جديدة لم تتوفر فى أية ترجمة من التراجم التى تناولت حياة الكاتب الكبير ، وفيها يبدو دكنز فى ذروة براعته المعروفة فى التصوير الفكه المبكى معاً . وقد تلقى الجمهور الانكليزى الرسائل الجديدة لهذا الكاتب المحبوب بلهفة واشتياق . والذين قرأوا من أبناء العربية شيئاً من قصص دكنز ولا سيما قصته الخالدة « دافيد كوبر فيلد » أو « نادى بكويك » أو « نيكولاس نيكلباى » أو غيرها يذكرون كيف يستطيع هذا الكاتب المبدع أن يصور حياة البؤس والتشريد فى صور بسيطة مبكية معاً ، وكيف يستطيع أن يهز أوتار القلوب بعرضه المؤثر وبيانه الخلاب

وليم كوبيت

تحتفل الدوائر الأدبية الانكليزية بذكرى كاتب مازالت كتاباته تطبع أذهان النشء الانكليزى بطابع قوى : ذلك هو وليم كوبيت الذى توفى منذ مائة عام . وقد ولد كوبيت سنة ١٧٦٢ فى فرنهام من أعمال سورى ، فى أسرة ريفية فقيرة ، وقضى حداثته فى فلاحة الأرض ، ثم تقلب فى مهن صغيرة مختلفة ، فاشتغل كاتباً وجندياً ، ولما ترك الجندية سافر إلى أمريكا وقضى بها ردحا من الزمن ثم عاد إلى انكلترا ؛ واشتغل أثناء ذلك بالصحافة آناً وبالزراعة آناً آخر ، ولاقى فى حياته العملية صعاباً جمة نظراً لمناوأته رجال الحكم ؛ واستقر فى انكلترا منذ سنة ١٨٠٠ وأخذ يعالج الصحافة السياسية أولاً إلى جانب حزب الأحرار ، ثم إلى جانب المحافظين ؛ وكانت صرامته وعنفه وشدة حملاته تثير عليه السخط فى الجانبين ، ولكنه مع ذلك كان يبدى براعة ظاهرة فى حملاته ، وكان موهوب القلم . وفى سنة ١٨١٧ سافر إلى أمريكا مرة أخرى ومكث بها عامين ثم عاد إلى انكلترا ؛ ورشح نفسه للانتخاب النيابى فسقط لأول مرة ، ثم عاود الكرة بعد ذلك ونجح فى الانتخاب كنائب عن أولد هام . بيد أنه لم يبد فى مجلس العموم مقدرة خطابية . ولم يلبث أن توفى بعد ثلاثة أعوام ، فى يونيه سنة ١٨٣٥

وقد كان كوبيت من أعظم النقدة فى عصره ، وكان كاتباً وصفياً لا يجارى ، وكان يملك زمام البيان بقوة مدهشة ؛ وكان أشد تأثيره فى شباب عصره ؛ وأشهر مؤلفاته « نزهات ريفية » و « نصيحة إلى الشبان والشابات » وهو من خير ما كتب وخير ما ظهر فى عصره ؛ ثم رسائله السياسية الأسبوعية وهى تملأ مجلدات كثيرة

الذكرى الثلاثون للإمام محمد عبده

أقامت رابطة الشباب الأدبية فى الساعة السادسة من مساء الخميس الماضى بالدار الجديدة لجمعية الشبان المسلمين احتفالاً رائعاً بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة المصلح الكبير الامام محمد عبده ، شهده صفوة من رجال العلم وجمهرة من شباب الأمة ، وتكلم فيه الأستاذ عبد الوهاب النجار عن حياة الامام ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق عن الامام فى الأزهر ، والدكتور محمد حسين هيكل عن الامام فى الصحافة ، والأستاذ عبد الله عفيفى عن دفاع الامام عن الاسلام ، والأستاذ المليباوى بك عن الامام فى القضاء ؛ وكادت هذه الخطب الممتعة تؤلف للامام ترجمة وافية لولا أن ضيق الوقت أعجل الأستاذين النجار والمليباوى عن لم الموضوع واستيفاء البحث

الكتب

١ — فتح العرب لمصر : للدكتور بتلر
ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد

٢ — فنون الطهي الحديث
لمؤلفيه السيدين أبي زيد أمين وطنيان سعيد

للأستاذ محمد بك كرد علي

من الكتب كتاب واحد يغني عن عشرة ، وقلما أغني قط كتاب عن كتاب . وهذا الكتاب في فتح العرب مصر يدخل في باب ما لا يستغنى عنه من الكتب لفائدته وطرافته . صرف مؤلفه في وضعه وقتاً طويلاً يدرس ويبحث ، ثم يستقرئ ويستنتج ، فجاء كتابه ناجحاً من كل وجه ، حرياً بأن يتعلم بعض من يؤلفون بالعربية أصول التأليف المنقحة بالنظر إلى هذا الكتاب وكيف يدرس الغربيون أبحاثهم ليفيدوا العلم ويأتوا بالمتقن من صفحاته.

استعان المؤلف في تأليفه بشذرات قليلة مما كتبه الروم ومؤرخو الكنيسة القبطية ، وما كتبه أهم المؤرخين من العرب والانجليز والفرنسيين والألمان ، وما عثر عليه من أوراق البردي في أرجاء مصر ، وما كشف من عاديّاتها القديمة ، ورجع إلى عالم عصره الشيخ محمد عبده فأعطاه بعض قطع اختارها أو كتبها ، وكانت خاصة بالفتح ، وساعده غير واحد من أعلام مصر في قراءة جل من القبطية وغيرها فجلا تاريخ هذه الحقبة بأجل أسلوب عصري ، صوّر لك ماوقع من حوادث الفتح العربي كأنك تشهدها قال : « ولعل القارئ يستطيع من مطالعة الملاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ ، ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي ، فالظاهر أن مؤرخي العرب لا يعرفون شيئا عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القواد ، وهم كذلك يخلطون بين قيرس

(المقوقس) وبنيامين ، وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر ، وفتح الاسكندرية ، ولا يميزون بين فتح الاسكندرية الأول الذي كان صلحا وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة ، وكانوا يذهبون إلى أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم . وقد ظلم التاريخ القبط في ذلك ظلماً فاحشاً على نحو ما ظلم العرب ظلماً كثيراً بنسبة حريق خزانة كتب الاسكندرية إليهم » قال : وما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق ، وقال إنه ممن يحمل لكل من الشعبين العربي والقبطي أكبر الاعجاب

ومن براهينه في تبرئة العرب من حريق خزانة الاسكندرية أن هذه القصة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة وقد لخص هذه الحكاية وحللها (شأن عشرات من علماء المشرقيات) فألفاها كما رأوها سخافات مستبعدة ينكرها العقل ، وقال إن الرجل الذي ذكر أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل ، وإن القصة قد تشير إلى واحدة من خزانتين : الأولى خزانة المتحف ، وقد حرقت في حريق قيصر ، وإذا لم تتلف كلها كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب . وأما الثانية وهي خزانة السرابيوم اما أن تكون تلفت قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد ضاعت ، وعلى كل فقد ضاعت أخبارها قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن ، ولو كانت هذه الخزانة باقية عند ما عقد قيرس صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لنقلت الكتب ، وقد أبيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة وقدرها أحد عشر شهراً ، وإن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجود الخزانة ، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وإنه لو صح أن هذه الخزانة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم وهو يوحنا النقيوسي ، وكان قريب العهد من الفتح ، ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً الخ

وقال المؤلف في الحاشية إنه لم يقصد سوى اثبات الحقيقة ،

وما قصده الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضروري ، ولو كان ضرورياً لما تعذّر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك ، ولاشك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع في أيديهم ، وعنوا بحفظها ، وترجموا منها في كثير من الأحوال . قال : وفي الحق أنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحي هذه الأيام أن يحذوا حذوه ، فقد نقل سيديليو في تاريخ العرب العام أن الفرنسيين عند ما فتحوا مدينة قسنطينة في شمال أفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم « كأنهم من صميم الهمج » ؛ ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة خزانة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها في كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا في حملها عناءً . وقيمة الكتب التي نجت وحفظت تدل على فداحة الخسارة التي لحقت العلم بضياع ما ترك منها ا هـ

بهذا الانصاف ، وهذه العناية ، وهذا الجهد ، ألف المؤرخ الانجليزي تاريخ الفتح العربي في مصر ، فرسم صورة جميلة ، وكان اعجابه بعمرو بن العاص لا يقل عن اعجابنا معاشر العرب به وبأمثاله من الصحابة الفاتحين . وعناية المترجم الفاضل شديدة بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها ؛ وقد وقع له تحريف في بعض الأعلام ، ومنها ترجمته اذاسا (Edesse) ، وهي الرُّها وأطلق عليها الترك « أورفه » ؛ ومنها « افيسوس » وهي « إفسس » مدينة في آسيا الصغرى أطلالها قرب أزمير اليوم ؛ ومنها « برجاموس » وهي « فرغاموس » ، وفي قاموس الجغرافية القديمة للعلامة أحمد زكي باشا أن فرغامس هو الاسم الوارد في كتب العرب للدلالة على مملكة قديمة بآسيا الصغرى اسمها عند الأفرنج (Pergame) ، ومنه اشتقوا الكلمة التي يطلقونها على الرق (بفتح الراء) أي الجلود المستعملة للكتابة ، لأنها أول ما صنعت بهذه المملكة ، فيقول الطليانيون (Pergamina) والفرنساويون (Parchemin) الخ . وقال مدينة « بيرويه » وهي مدينة حلب ذاتها . هذا إلى هنات قليلة لا يكاد يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية . أما الترجمة في مجموعها فيستحق عليها المترجم كل ثناء وشكر

— ٢ —

أحسن مؤلفا فن الطهي الحديث على الطراز العربي والغربي وضعه . ألفاه بعد أن عانيا صناعة الطبخ بالعمل في مصر وبلاد الغرب سنين طويلة وعملا في قصور الملوك والأمراء وفنادق النبلاء والملاء ، فجاء الكتاب نافعاً في بابه لا تستغني عنه ربة دار ، ولا طاهٍ يروقه أن يزين خُوانه بشهيّ الألوان ، ويتفنن في تلذيذ الآكلين بطعام صحيّ منوّع . جاء الكتاب في ١١٧٠ صفحة كبيرة وصفت فيه الأطعمة والحلويات والتبلات مشفوعة بالمقادير الواجب استعمالها وبصورة وضعها وصنعها بحيث لا يكاد يحتاج من يريد الاقتباس منها إلا إلى قليل من الدقة والعناية حتى يتفنن في طبخ الطعام ويجهز ألواناً رائعة شائقة شكلاً وطعماً . وكنا نتمنى لو دفع المؤلفان كتابهما إلى من يصقل عباراته ويترجم أسماء بعض الألوان الأفرنجية بألفاظ عربية تدني مفهومها من ذهن من لا يحسن لغة من اللغات الأجنبية من أبناء العرب

وقديماً ألف أجدادنا في هذا الموضوع بما دل على رسوختهم في الرفاهية ، وقرأنا في الكتب أن الخليفة الفلاني أو الملك الفلاني كان يقدم على مائدته عشرات بل مئات من ألوان الطعام . والتفنن في الطبخ دليل الحضارة ، ولطالما كان بعض الأمراء يرسلون إلى الأقطار البعيدة بعض طهاتهم ليأخذوا عنها صنع أطعمة لا يعرفونها ، والمطابخ الافرنجية اليوم أرقى من المطابخ الشرقية ؛ لأن طعامها يطهى على أساليب كيماوية صحية لا نزاع في خفتها وطرافتها . وحضارة الغرب أرقى الآن من حضارة الشرق ، اللهم إلا في مسائل يتفرد بها الشرقيون

فليس البحث في الأكل الجيد إذاً بالذي يعد انحطاطاً ، ونحن لو أنعمنا النظر لا نفسر هذا الجدال القائم بين البشر اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا على الرفاهية ، وما فلسفة الأمم إلا فلسفة خبز في الواقع . ودعوى خدمة المدنية والانسانية صورة مبهرجة يراد بها غير ما تعطي ظواهرها . والأمة التي يكثر خبزها وتتلون أطعمة المتوسطين والموسرين فيها هي أمة راقية سعيدة ، والعرب الذين عهدنا لهم تلك الخشونة في المطعم لما فتحوا الممالك وخرجوا من جزيرتهم أغرقوا في التنطع والتنوق إغراق غيرهم من الأمم

محمد كرد علي

3 me Année, No. 107.

Lundi-22-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ

٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

١ ـ محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة



كان الجيل الماضى بمصر لايزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة فى الجماعات والأسر ، فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة ، يرتاحون للندى ، ويتنافسون فى العرف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر ؛ و(مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ فى كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم ؛ وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة ، والبلاغة المأثورة ، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة ،

فتفتق الذهن ، وتصقل الذوق ، وتوجه الميل ، وتنيل الحظوة ؛ وكانت المواهب والملكاتُ تتفتح فى جوانب هذه الأندية فتدل على نفسها أهلَ النفوذ فيُشبلون عليها حتى تزهر وتثمر ؛ وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ فى طور الانتعاش ، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفى والبارودى والافغانى وعبده وسلمان وحمزة والشنقيطى واليازجى والمويلحى ونديم وسعد وفتحى ومصطفى وقاسم ؛ فالمجالس تُشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ، ومن الشعراء بطانة ، حتى قر فى نفس حافظ وأندادهِ من ناشئى الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (للَّيثى) ، وسبب المجد (لسامى) ، ووسيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض

* * *

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليُتم والعُدم لا يجد حانياً غير أمه ، ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة ، ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يُزَجّى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض ، ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القدر ، لا ينشئ الشعر إلا فى ذاك : ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلَّغ من العمل بها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه : ثم خرج منها ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نُفى من السودان والجيش

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحياة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوف إلى غاية ، لأن طفولته الشاردة المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ؛ ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة أن الشعر وحده يشغل الحياة ، ويبسط الرزق ، ويكسب الحقوق ، أخيَته على نمط مسلم ابن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ، ممن عاشوا صنائع للملوك ، وحمائل على الجوائز ، ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال الامام محمد عبده ينتفع بجاهه وينىء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ، ويناده‍م برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صِلات القصر فيحجبه عنها شاعر الأمير بحوله وقوله

ومِنْ دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن ينفقوا إلى جد السفه إذا عاشوا فى الحاضر كصريع الغوانى وابن هانى ، وأن يمسكوا إلى حد الكزازة إذا عاشوا فى المستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ !

تمتلئ يداه بالمال اليوم فيعتريه حال من البَرَم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان ، وظلم الانسان ، وشقاء الأديب

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن الى تبعة ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ؛ وأينما كان كان الأنس الشامل ، والظرف الناصع ، والأدب الغض ، والحديث المشقق الذى يمتزج بالروح ، ويغمر بالنشوة جوانب النفس

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطبع مَعَرّىَّ الغريزة لا يتضح فى نفسه معنى البيت ، ولا يجرى فى حسه شعور الأسرة ؛ ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر فى المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعلق به درك . ولكنه حين أُريد على ترجمة البؤساء ، وكتاب الأخلاق ، ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة ، فقعدت به عن التمام ، وخذلته عن الاجادة ، وشلته عن العمل . . .

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

كفر الذبابة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال كليلة[(١)] وهو يعظ دمنة ويحذّره ويقفي حقَّ الله فيه ؛ وكان دمنة قد داخله الغرور وزهاه النصر ، وظهر منه الجفاءُ والغلظة ، ولقيَ الثعالبُ من زيغه وإلحاده عنتاً شديداً : . . . واعلم يادمنة أن مازعمتَه من رأيك تاماً لا يعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذى لم يتمّ ، والغرورُ الذى تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذى يُثبت أن غيرَ رأيك فى الآراء هو الصحيح

ولو كان الأمر على ما يتخيّلُ كل ذى خيال لصدق كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدّق كلُّ إنسان لـكذَب كلُّ إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضهم ببعض ، ليجىء حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر ، ويثبُتَ الـكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص ، ويصحّ الصحيحُ مادامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد مادامت الشهادةُ عليه ، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء

قال دمنةُ وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنباً سمعت العلماءَ يتكلمون فى مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تـكون القارعة ؛ فقالوا : إن فى النجوم نجوماً مذنَّبةً لو التف ذنبُ أحدها على جِرْم أرضنا هذه لطارتْ هواءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعفُ منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريض . فقالت الأرنب : ما أجهلـكم أيها العلماء ! قد والله خرفتُم وتـكذَّبتم ، ولا تزال الأرضُ بخير مع ذوات الأذناب ؛ والدليلُ على جهلـكم هذا . — ، قالوا : وأرتهُم ذنبها . . . !

قال كليلة : وكم من مغرور يُنزل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : « كذَبوا وصدَقتُ أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ، والتبس عليهم وانـكشف لى ، وهم زعموا وأنا المستيقن . » ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الخرقاءِ من هنةٍ تتحرّك فى ذنبها . وكان يُقال : إنه لا يجاهرُ بالـكفر فى قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به ؛ فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليـه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية . ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةُ حمقه ، وهذا يخشونه فيتركون معارضته وعليه شهادةُ ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هـذا . وقالت العلماء : إن كنتَ حاكماً تشنق من يخالفك فى الرأى ، فليس فى رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تقتل مَن ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجدار . أما إن كنتَ تناظر وتجادل ، وتُقنع وتقتنع ، وتدعو الناس على بصيرة ، ولا تأخـذُهم بالعمى ـ ففيك العقلُ الذى اسمه العقل

* * *

قال كليلة : وأنا يادمنة ، فلو كنت قائداً مطاعاً ، وأميراً متبعاً ، لا يُعصى لى أمر ، ولا يردّ علىّ رأى ، ولا ينكر منى ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لى دائماً إلا إحـدى الـكلمتين : أصبتَ أصبت ؛ ولا يلقانى أحدٌ من قومى بالـكلمة الأخرى ، رهبة من سخطى رهبةَ الجبناء ، أو رغبة فى رضاى رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لى باطنهم جميعاً ، وصحت نياتُهم كلها ـ فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالنى نقصهم إلى نقص العقل بعد كماله ، وردّتنى فسولتُهم إلى فسولة الرأى بعد جودته ، فأخلق بى أن أعتبر وضعهم إياى فى موضع الآلهة هو إنزالهم إياى فى منزلة الشياطين ، وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبنى ما أصاب العنز التى زعموا لها أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العـظـاء ، وكان فيها عضْرفوطٌ كبير[(١)] فملـكتْه الجماعةُ وذهبت تأتمر عن أمره وتنتهى . فمرّ بهذه الخربة فيلٌ جسيمٌ

---

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعى يعمد اليه حين يريد تقدير المعانى بالتمثيل والمحاورة (الرسالة)

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط ضرب من العظاء يكون أكبر منها

من الفيلة ، لم يحس بالعظاء ، ولم يميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض هنا وهنا ؛ فنظر المضرفوط كيف يصنع به ، وكان قائداً عظيما ، ثم تدبر أمر الفيل ، فرآه لا يتحرك إلا بأقدامه ينقلها واحدة واحدة ؛ فقدر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودب دبيبه إلى قدم الفيل ؛ فلما رفع الفيل قدمه اهتبل هذه الغفلة منه ... واندس تحتها ، فاندس مقبوراً في التراب ! ثم إن العظاء افتقدت أميرها . فلما مضى الفيل لسبيله ، ورأت ما نزل بها نفرت إلى أحجارها واستكنت فيها ترتقب وتتربص ؛ فدخلت إلى الخربة عنز جملت تتقمم منها وترتع فيها ، ورأتها العظاء فاجتمعن يأتمرن ..

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألت عظاية منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الاناث دون الذكورة في خلقها ، والأنثى هي الذكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوهاً ، ولذلك هن يقابلن الحياة أو يختصرنها أو يشوهنها . أفلا ترين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه .... ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولك في الرأى فأين الخرطوم ؟

قالت الأخرى : هو هذه الزنمة المتدلية من حلقها ، وهو خرطوم على قدر أنوثة الأنثى ... !

قالوا ؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يملكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهبن لها الخربة وأمتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت : لا جرم أن تكون العنز فيلة في أمة من العظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبير إلا بصغير ، ولا قوى إلا بضعيف ، ولا طاغية إلا بذليل ؛ وإن العظمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإنه رب عظيم طاغية متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب ، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فمتى جاءت إليه فقد جاءت ، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحية أخرى ، ليثبت الحظ أنه الحظ

وتقدم العظاء إلى العنز ، فقلن لها : أيتها الفيلة العظيمة ، إن قرينك العظيم قد مس أميرنا المضرفوط بقدمه فغيبه تحت سبع أرضين ، وإننا قد اخترناك ملكة علينا ، ووهبنا لك الخربة وما فيها

قالت العنز : فاني أتهيب منكن هذه الهبة ، ونعمتا صنعتن ؛ غير أن بينكن وبيني ما بين العظاية والفيل ، وما بين الحصاة والجبل ؛ فاذا أنا قلت ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرت ، فأنا أمرت ؛ وإذا أنا فعلت ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوة فيلة ، وفي الخربة كلها فيلة واحدة ؛ فلا أعرفن منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة ، طاعة الأعمى للبصير . ألا وإن أول الحقائق أنني فيلة وأنكن عظاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكن ، وقوتي حق لأنها قوة ، وباطلي كذلك حق لأنه من قوتي ؛ وقد قال حكماء الفيلة : إن القوى بين الضعفاء مشيئة مطلقة ، فهو مصلح حتى بالافساد ، حكيم حتى بالحماقة ، امام حتى بالخرافة ، عالم حتى بالجهالة ، نبي حتى بالشعوذة ...... !

قالوا ؛ وتنكر عليها عظاية صالحة عالمة كانت ذات رأى ودين في قومها ، وكن يسمينها : (العمامة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كل هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرصت غير الحق فانك تحكميننا من أجلنا لا من أجلك ، وما قولك إلا كلمات لا يحققها إلا أعمالنا نحن ؛ فتلك الطاعة فيما يصلحنا لا فيما يفسدنا ، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا ، لتتبين الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة ، فنأخذ عن بينة ونترك عن بينة ؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة : إنه يجب على من يقدم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه ، أو يسن لها سنة لتتبعها — يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمة وتحريرها أن يتقدم لأهل الشورى وفي رأسه الرأى ، وفي عنقه حبل ؛ ثم يتكلم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ، ويجادله ويجادلونه ؛ فان كان الرأى حقاً أخذوا الرأى ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهور

وفى ديننا أن الطاعة فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَضْرفُوطٌ بحّاثةٌ فى الأديان دَرّاسةٌ لكتُبها ؛ فكان مما علّمنا أن المخلوق مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التامُّ فى الأرض هو مجموعُ العقول كلِّها ، وكان أتمُّ الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنها أصحُّها وأتمُّها . فلا الدينَ اتّبعتِ أيتها الفيلة ولا اتبعتِ فينا العقل

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفَّشَتْ وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترّهَاتِ من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أسمعَنّ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياء ولا العَضَافيط ... فذلك وحيٌ غير وَحْيي أنا ؛ وإذا كان غير وحْيي أنا فأنا لستُ فيه ، وإذ لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُح للحكم الذى شرطُه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يجعلكم غُرَبَاءَ عنى جعلني غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغُربتين ، فهو أوّلُ القطيعة ، والقطيعةُ أوّلُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غير أمرى ، ونَهْىٌ غيرُ نَهْيي ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتى — فأنا مجنونة إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضحكت (العمامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ . . . أنا . أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلق أن يعترىَ عقلَكِ شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حَسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة فى جهةٍ من العقل تأتى من النقص المتحيِّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تاماً عَبقَرِياً فى أمور لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك ما لا يُحسِنه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا ؛ فجاشت العنزُ وفارَتْ من الغضب فورةَ الجبّار ، وخيِّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمَتَيْها امتدَّ منها خُرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويْحكم ! خذوا هذه (العمامة) فاشنُقوها ؛ فانها كما قالت ؛ تقدّمتْ إلينا بالرأى والحيل . . . !

وكان فى العَظَاء ضِعافٌ ومَهازيلُ وجبناء وما كولون لكلِّ آكل ؛ فتشَبَّحَ[(١)] لهم أن أنثى الفيل هـــذه . . . ستَخْلُفُهم فِيلةً إنْ هم أطاعوها ؛ فاذا مَرَدُوا عليها فانها من صرامة البأس بحيث تجعل كلَّ ظِلْفٍ من أظلافها جَبَلاً فوقهم كأنه ظُلَّةٌ فتسوخ بهم الأرض . ثم إنهم انخزلوا وتراجعوا وأخِذتِ (العمامةُ) الصالحة فشُنِقَتْ ، وخمد الرأيُ من بعدها وانقطع الخلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ . . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تجرّرُ أذيالها . . . .

قالوا ؛ واغترّت الماعزة وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها وهى ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأن الفيل القوىّ ، فَلَجَّتْ فى عمايتها وكفرتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقنى الله فيلةً وخلقتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنز فى الدنيا ؛ وذهبتْ تقلِّد وتعيش على مذاهب الفِيَلة بين العَظَاء ؛ فاذا مشتْ ارتجَّت وتخطَّرتْ كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أنذرتِ الأرضَ أن تتمسكَ لا تَدُكّها بجنبها ... !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخراب مرّةً أخرى ، فلاذَتْ العَظَاء كلُّهن بالفِيلة . . . . وتأهّبتْ هذه للقتال وتحصَّفَتْ فى المبارزة والمناجزة . . . . والماعزَة فنصبتْ قرنيها ، وحرّكتْ زنَمَتَيها ، وطأطأتْ ، وشدَّتْ أظلافَها فى الأرض ، وتبدَّنتْ قوائمها ، وصلَّبتْ عظامها ، ونفَّشتْ شعرَها ، وتَشوّكتْ كالقنفذ ، وأصرَّت بكل ذلك إصرارَها ؛ وكانت عنزاً نطيحةً منذ كانت تتبع أمها وتتلوها ، فكيف بها وقد تفيَّلَتْ . . ؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هـــذا الهولَ الهائل . . . فأقبَلَ ، فمدّ خُرطومه ، فنالها به ، فلفَّها فيه فقبضَه ، فرفمه ، فطوّحها ، فكأنما ذهبتْ فى السماء ... !

وتهارَبت العَظَاء ولذْنَ بأجْحارهن ، ثم غدَوْنَ على رزقهن فاذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فدَبَبْنَ عليها وارتعَين فيها وعَلمن أنها كانت ماعزة فيّلها جنونها ، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ، وأن من غَلَبَ

(١) أى خيل إليهم وتمثل

أمَّةَ العظَماء على أمرها فليست الأيام والليالى عظَماء فيغلبها ؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الاناء الأحمر يُريك الماء مُحمراً والماء فى نفسه لا حمرة فيه ، حتى إذا انكسر الاناءُ ظهر كما هو فى نفسه ؛ وكلٌّ ما يخفى الحقَّ هو كهذا الاناء : لونٌ على الحقّ لا فيه ؛ ثم أيقَنَ أن محاولة إخراج أمةٍ كاملة من نزَعات ماعزةٍ مأفونة ، هى كمحاولة استيلاد الفيل من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة ، أنه لولا أن هذه العنز الحمقاءَ قد كفرت كُفرَ الذبابة لمـا أخذَها اللهُ أخْذَ الذبابة

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابةً سوداء كانت من حمْقى الذِّبان ، قُدِرَت الحماقةُ عليها أبدية ، فلو انقلبتْ نقطةَ حبر لما كُتبتْ بها إلا كلمةُ سُخف

ووقعت هـذه الذبابةُ على وجه امرأة زَنجيّةٍ ضخمة ، فجعلتْ تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدلِّ الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسلٌ كيف يتفق على ما يتّفق عبثاً فى عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذَبوا الناس ؛ إذ كيف يستوى فى الحـكمة خَلْق (أنا) وخَلْقُ هذه الذبابة الضخمة التى أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرتْ ليلةً فى السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأنَ وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليلٌ آخر على ما يحقق عندى من فوضى العالم وكذِبِ الأديان وعبثِ المصادفات ؛ فما الايمان بعينه ، إلا الالحاد بعينه ، ووَضعُ العقل فى شىء هو إيجادُ الألوهيةفيه ، وإلا فـكيف يستوى فى الحـكمة وضعى (أنا) ورفعُ هذا الذِّبان الأبيض ويَمسُوبه الـكبير إلى السماء . . . ؟

ثم إنها وقعتْ فى دار فلاّح ، فجعلتْ تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعتْ بقرةُ الفلاّح من مرعاها ؛ فبُهتتِ الذبابةُ وجدَتْ على غُرّتها من أوّل النهار إلى آخره ، كأنها تزاولُ عملاً ؛ فلما أمستْ قالت : وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق فى الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد ثقَبتا ثقبين فى وجه هـذه البقرة واكتنّتا فيهما تأكلان من شحمها فتعظُمان سِمَناً ؛ والناس من جهلهم بالعلم الذُّبابىّ يسمُّونهما عينين . . . . وأنا قضيتُ اليومَ كلّه أخمِشُ وأعضُّ وألسع لأثقبَ لى ثقباً مثلهما فما انتزعتُ شعرة ؛ فهل يستوى فى الحـكمة رزق (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين فى وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خُنْفُساء تدِبُّ دبيبها فى الأرواث والأقذار فنظرتْ إليها وقالت : هذه لا تَصْلُح دليلاً على الـكفر ؛ فانى (أنا) خيرٌ منها ؛ (أنا) لى أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهى ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذُباب القرون الأولى ذلك الذى كان بليداً لا يتحرّك ، فلم تجعل له الحركةُ جناحاً . ثم إنها أصْغَتْ فسمعتْ الخنفساءَ تقول لأخرى وهى تحاورها : إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهى فليكْفُر كما يشتهى ؛ ياوَيحَنا ! لِمَ لمْ نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وَجَدَ من يَنْفُخُه ولم نجد . . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليلُ العقل فى هذه العاقلة ، ولعمرى إنها لا تعْنى مثَاقِلةً من أنها بطيئةٌ مرهقةٌ بعَجزها ، ولـكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفـكارها ، وهى الدليل على أنى (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة . . . !

وجعلت الذبابةُ لا يُسمَعُ من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . . من كُفْرٍ إلى كفرٍ غيره ، إلى كفرٍ غيرها ؛ حتى كأن السماوات كلّها أصبحتْ فى معركةٍ مع ذبابة ... ...

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الالحاد الأحمق تَسعى سَعْيها ؛ فبينا الذبابةُ على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين ، وأعجبتها نفسها ، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها — دنت بَطةٌ صـغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس ، فمدّتَ مِنقارَها ، فالتقطتها . ولما انطبق المنقارُ عليها قالت : آمنتُ أنه لا إلـه إلا الذى خلق البطة . . . . ! ! م؟

(طنطا)

إلى (......) المجهولة :

اشكرك ياسيدتى ، وكل ما صنعته فهو خير ما كنت صانعة . وسأكتب إن شاء الله فى موضوعك بعد فترة من الزمن ، ولـكن إياك والخاطر الذى خطر لك فانك تربحين به عشرة ، وتخسرين عشرات . . . . الرافعي

التراث المنسى

مسالك الأبصـــار

ومؤلفه الشهاب العمرى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

فى سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم ، هو كتاب « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمرى ، وذلك باشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكى باشا وبتحقيقه . ثم وقف مشروع اخراج الكتاب فى مستهله لأسباب نجهلها حتى اليوم ، ولكنا علمنا أخيراً أن دار الكتب قررت استئناف العمل فى « مسالك الأبصار » واخراجه تباعاً إلى جانب الآثار القديمة الأخرى التى تعنى بنشرها

وهو نبأ يستقبله الباحثون والأدباء بمنتهى الغبطة . ذلك أن « مسالك الأبصار » من الآثار الاسلامية الضخمة التى تمتاز بغزارة مادتها وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها ؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة ، التى كتبت فى عصور متقاربة ، وامتازت على جميع الآثار الاسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها ؛ وهى : مسالك الأبصار ، ونهاية الأرب للنويرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى . وقد أخرجت لنا دار الكتب « صبح الأعشى » كاملاً فى أربعة عشر مجلداً ، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو ثلثه فى احد عشر مجلداً ، وما زالت ماضية فى اخراجه ، وبقى عليها أن تستأنف العمل فى ثالثة هذه الموسوعات الكبرى ، ونعنى « مسالك الأبصار »

كان القرن الثامن الهجرى فى مصر عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة ؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة فى الأدب العربى مصرية محضة ، فقد بلغت ذروتها على الأقل فى مصر ، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها . وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى هو أول كتاب الموسوعات ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ — ٧٣٢ هـ) وقد وضع لنا موسوعته الفريدة « نهاية الأرب فى فنون الأدب » فى أوائل القرن الثامن الهجرى فى أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً ، فجاءت أثراً ضخماً لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل فى غزارة المادة وتنوع الموضوعات وطرافة الأوضاع ؛ ثم تلاه العمرى الذى نريد أن نتحدث اليوم عنه وعن مجهوده ، بوضع موسوعته « مسالك الأبصار » ؛ وجاء القلقشندى ليختتم هذا الثبت فى أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته « صبح الأعشى »

كان العمرى دمشقى المولد ؛ ولكن مصرى التربية والموطن والتكوين ؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى ؛ وينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن ثم كان تلقيبه بالعمرى . ولد فى ثالث شوال سنة سبعمائة (١٣٠٠ م) ، وتلقى تربيته الأولى فى دمشق ؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها واتخذها وطناً وموئلاً ، ومال إلى التخصص فى علوم الفقه واللغة ، وبرع بالأخص فى الكتابة والانشاء ، وتقلد فى البلاط القاهرى عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى ولايته الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الانشاء والرسائل ، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة ، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور

ولبث العمرى إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس ؛ وعنى عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك والمسالك وطبائعها وخواصها ؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها ، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين ، ودرس الفلك أيضاً ، ولم يكتف فى درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة ، ولكنه قرن الدرس النظرى بنوع من الدراسة العملية ، فتجول فى أنحاء الشام والأناضول والحجاز وبعض الممالك الاسلامية الأخرى ، حسبما يبدو ذلك فى أكثر من موضع من سياق موسوعته ، وحسبما يشير اجمالاً فى مقدمته [1] ، واستعان فى تعرف أحوال الأمم والممالك التى لم تتح له زيارتها بأقوال العارفين والثقاة ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة [1] ، حتى اجتمعت له من ذلك

(١) راجع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » (طبع دار الكتب) ص ٢

مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره حتى أن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات البليغة : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق انشاؤه بالبوارق المستعرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يُخجل الروض الذى باكره الحيا مُزهراً ، صرّف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أى العمرى ، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته »[1]

ولأقوال الصفدى ، وهو إمام النقد فى عصره ، قيمتها فى التنويه بخلال العمرى الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمرى نفسه مازال خير شاهد بعبقريته ولا سيما فى فن الانشاء والترسل ، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ماشغلنا بالنوى أن نودعا
ابثكموا شوقاً أبارى ببعضه ... حمام المشـــايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبى مثله ... أقضى به الليل التمام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضى ... ولا أنه يلقى محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماق مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب فى العمر ساعة ... كمن فارق الأحبـــاب فى العمر أجمعا

وقطع العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين

— ٢ —

ترك لنا العمرى تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صبابة المشتاق » وهو فى المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دمعة الباكى » و « يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل فى الشتاء و « النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود اليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير [1]

وقد انتهى الينا من هذا التراث أهمه وأنفسه ؛ فلدينا أولا كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمرى وأضخمها ؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً [2] ، ويقول لنا العمرى إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر الأيام والليالى » وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ؛ وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر [3] ، بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه

---

(١) راجع ترجمة العمرى فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعاً من معجم الصفدى « أعيان النصر وأعوان العصر » وهو ما يزال مخطوطاً

(١) فوات الوفيات — ج ١ ص ٨

(٢) فى دار الكتب نسخة فتغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٢٥٦٨ تاريخ) وتقع فى ٤٣ مجلداً أو قسماً ، والفضل يرجع فى استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكى باشا

(٣) راجع مسالك الأبصار — ج ١ — ص ٦

العظيم النويرى صاحب موسوعة « نهاية الأرب » وهى أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحو فى تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « فى الأرض » والثانى « فى سكان الأرض » ، ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها وما تحتويه من أنهار وجبال ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة وما فيها من المدن والجزائر وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والاعراض الطبيعية ؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات ضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدى العمرى هنا دقة البحث والتحرى ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره كلما شعر بمبالغة أوغرابة فيما يروى . ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر ، وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يجئ الكلام على التاريخ ، وهو قسمان ، تاريخ الدول التى كانت قبل الاسلام ، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الاسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالى فى أمر مشاهير ممالك عباد الصليب فى البر دون البحر » نشره المستشرق أمارى (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الايطالية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادى ، وينسب العمرى ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالى يدعى « بلبان الجنوى » عرفه فى بعض رحلاته واستقى منه معلوماته وهى معلومات فى منتهى الدقة ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الايطالية فى ذلك العصر . وعنى صديقنا العلامة السيد حسن حسنى عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف افريقية والأندلس ؛ ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول

— ٣ —

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الانشاء والرسائل ، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة سواء فى توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الانشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الوظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية ؛ وإذا فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهى عبارة عن الرسوم والاجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علائقها الخارجية ، سواء فى إجراء المفاوضات السياسية أم فى عقد المعاهدات أو مخاطبة الدول الأخرى أو استقبال ممثليها ومعاملتهم أو فى تحرير المكاتبات الدبلوماسية . وتسمى هذه الرسوم والنظم فى الدولة الاسلامية « بالمصطلح الشريف » . وقد كان للعمرى أكبر الفضل فى تجديد هذه النظم ، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق والدقة ؛ وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمرى كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »(١) وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية ؛ ثم يتحدث

(١) وقد طبع بمصر أكثر من مرة

عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الادارية، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلة البحرية. ويعتبر كتاب العمري دستور المصطلح الشريف في مصر الاسلامية؛ ويعتبره القلقشندي صاحب صبح الأعشى أنفس الكتب المصنفة في هذا الباب [1]. وقد انتفع به القلقشندي في موسوعته أعظم انتفاع، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التي دبجت بقلم العمري في ظروف ومناسبات مختلفة، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمري من المواهب الانشائية السامية

وللعمري آثار ورسائل أخرى كما قدمنا، ولكن معظمها لم يصل إلينا، وما زال بعضها بعيداً عن التداول في بعض المكاتب الأوربية. على أن «مسالك الأبصار» يبقى دائماً أعظم آثاره؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الكتب المصرية لاخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضي أعوام قلائل حتى تضمه كاملاً بين أيدي الباحثين

محمد عبد الله عنان

(1) راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٧

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسي

يغلب أن يسيطر على الحياة في كلا عنصريها من السعادة والشقاء قانون المرجّحات العام الذي يسيطر على جميع حوادث الطبيعة ويسير بها جميعاً، كلما امتدّ الزمن وتوالى الحدوث، إلى التعادل والاستواء، وما نرى من فروق شاسعة بين حظوظ الناس من السعادة والشقاء سببه — فيما نرى — قصر مدى التجربة والاختبار. وأعتقد أن لو أتيح للأحياء من الناس عمرٌ أطول، أو لو كانت أمواج السعادة والشقاء وأصداء اللذة والألم أقل لبثاً وأقصر مكثاً، لتدانى من التعادل نصيبُ كل امرئ من حظى السعادة والشقاء

***

حياة كل امرئ «متوالية» من الآمال والآلام والأحلام والأعمال. ولست بمستطيع أن تجرّد الحياة حلقةً واحدة من هذه الحلقات: الآمال تثير الآلام والأحلام، والأحلام لابد مفضية في نهاية الأمر إلى الأعمال، والأعمال بدورها تبتعث آمالاً جديدة، والأمل الجديد يثوّر آلاماً وأحلاماً جديدة، وهكذا تظل تدور بين حدّين من الأمل والعمل يتوسطهما واسطان هما ما نألم وما نحلم إلى أن تتلأ علينا القبور، وترَصّ علينا الجنادل والصخور

***

ليس مما يُنقص قيمة العمل الطيب أن يكون حاديه ورائده اللذة منشودةً أو حاصلةً، بل نحن نعتقد أن من مصلحة الأخلاق، ومن الخير العميم للناس أن يتعلم الناس كيف يستشعرون السعادة ويتذوّقون الغبطة في العمل الطيب بدءاً وختاماً، حساً وخيالاً.

كذلك نعتقد أن من مصلحة الأخلاق ونشر الفضيلة وتعميم الصلاح أن يشعر المرء أن عمل الخير مجزيٌّ عليه في هذه الحياة الدنيا، وأن ليس على المرء يصنع الخير أن ينتظر إلى اليوم الأخير ليثاب على عمله الصالح وينال جزاء ما قدّم من خير وأسلف من صلاح

يكاد يكون الاحساس بالحق ونصرة العدل من فطرة البشر ومن هنا نرانا — في الأحوال العادية — نهلّل للعدل ونمقت الجور، سواء أكنا نحن المعنيين بالجور والعدل أم كان المعنى غيرنا

***

من غرائب الطباع امرؤ يثني عليك بما أنت أهله أو بما لست أهلاً له، ثم تراه لغير سبب واضح أو علة مقبولة ينقلب عليك، ولا يتعفف أن يهجوك بعكس ما كان يمتدحه فيك! هذا الصنف من الناس هم، في اعتقادي، من المتسوّلة الجبناء الذين يستجدون امتداح الناس بامتداحهم الناس؛ فاذا خاب ما يؤملون، ولم يبادلهم ممدوحوهم مدحاً بمدح انقلبوا قادحين مشنعين

***

ما أشبه بناء الأمة ببناء الهرم؛ ما يزال قائماً ثابت الاتزان، ما شغل الرأس منه مكان الرأس، والقاعدة مكان القاعدة؛ وما أسرع ما ينهار الهرم ويتفكك حينما تنقلب الأوضاع فتسمو القاعدة إلى مكان الرأس، ويهبط الرأس إلى مكان القاعدة؛ ومن هنا أضحى الهرم المقلوب مضرب المثل في سخافة البناء ووهن الثبوت . . . .

***

لست أدرى أى خير وأية سعادة كانا يصيبان البشر لو أقصى من مجال الدين جميع المتجرين به . فليتق الله المتاجرون وليجعلوا فى غير مجال الدين مجارتهم

* * *

تظل تجربة المرء ناقصة مالم تتكرر . . .

* * *

خصومتك الصغير تورثك المهانة ، سواء أكنت المنتصر فى هذه الخصومة أم كنت الخاسر

* * *

الأغراب والتكلف فى أساليب الحياة والأخلاق دليل على فساد الطبع والتواء التكوين

* * *

قد تكون المحافظة على القديم ناجمة من خوف الحديث وحسب ، لا من حب للقديم صحيح

* * *

ثم صنف غريب من الكتاب والمفكرين يعمدون إلى الرأى الواهن الواهى ، أو الفكرة الميتة يثيرون حولها حرباً شعواء ويوسعونها طعناً وضرباً ، ثم يلتفتون إلى الناس ولسان الغرور يقول : انظروا ماذا صنعنا وإلى أى المقاتل قد نفذ سلاحنا ؟ وقد نسوا — حفظهم الله وكلأهم — أن سلاحهم يُجرد على موتى ويُشرع على أشلاء

* * *

قد يعيش الكاتب بشهرته الأدبية أعواماً بعد أن يصفى . وهذا سرُّ ما نراه من مدح يكال وتقدير يُسرف فى توزيعه على أناس لا يستحقون بعض أبعاضه . والحقيقة أن من الكتاب اليوم من يعيشون بقوة الاستمرار وحسب ، لا بقوة العمل وصدق الانتاج

* * *

ما أسرع ما يلتفُّ صغار النفوس حول صغير النفس ، أما كبير النفس فلا يسمح لهم بالدنو منه لئلا تعلق به من نتنهم عالقة . الاتجار بالوطنية فى الشرق علة مستحكمة لا يزيلها إلا صرامة النقد ، وصراحة المقت ، وقسوة التشهير

* * *

يموت العظيم فى الغرب ، ولكن ما أسرع ما تُسدُّ الثغرة ويقوم الخلف . ويموت العظيم الشرقى فيظل محله خالياً جيلاً أو أجيالاً . وذلك أن تربيتنا الاجتماعية الناقصة لا ترفع إلى مستوى الزعامة الصحيحة القوية فى الجيل الواحد إلا نفراً قليلاً جداً ، فاذا أودى هذا النفر ظلَّ محلهم خالياً إلى أن تتمخض الأمة بعد حمل طويل وآلام مبرحة وتجارب شاقة فتلد المولود الجديد الذى يُقدَّر له أن يستأنف السير ويتولى القيادة

* * *

قد يعمد الرجل الشرير إلى بعض الخير يصنعه ليتبين كيف يكون أثر ذلك ، كما قد يسعى الرجل الطيب إلى بعض الشر يصنعه لمثل غرض الشرير فى صنعه الخير . وإلى هذا قد يُردُّ بعض ما نراه من شذوذ فى الخلق السوى

* * *

قد يبدو الفكر العميق للقارئ السطحى الضحل متناقضاً ، وذلك ان ذا الفكر العميق قد ينتهى إلى أغوار لا يستطيع أن ينفذ إليها ضحل التفكير ، ويدرك من العلائق والوشائج الخفية بين الأشياء مالا يدركه ذو الفكر الرقراق الذى لا غور له

* * *

المصادفة بليغة الأثر فى حياة الفرد ، أما فى حياة الأمة فهى ضئيلة الأثر أو لا أثر لها البتة

* * *

ما من رأى إلا ودار فى أكثر من ذهن واحد ، ولكن شخصاً واحداً يكتب له أن يخلِّد هذا الرأى

* * *

الرأى يرتأى كالصدى يكثر تجاوبه كلما استوعر طريقه

* * *

الألم كالنار يصهر القوى ولكن لا يلاشيه ، كما لا تلاشى النار الحديد ، أما الضعيف فيحيله الألم دخاناً يصّاعد

* * *

قد يتصدى المرء أحياناً للرأى العام لا ليتحدّاه ، إنما هو يتصدى له ليدرك مبلغ قوته ثم ليدرك مدى الرأى العام ومجراه ، فيحوِّل شراع العمل على هواه

* * *

الرجل القوى حق القوة لا يخلق بهذه القوة عبيداً وآلات

ناطقة ، إنما يخلق بها رجالاً أقوياء . وكل مظهر من مظاهر القوة لا يفضى الى هذه النتيجة يجب أن يشكــكنا فى هذه القوة

***

يجب أن ندخر خصومة الصراحة وجهد المقاومة للأمور الجسام والمسائل العظام . أما الصراحة العادية فى كل ما يعرض للمرء من شؤون الحياة اليومية تافهها وجليلها على السواء فجهد غير مبرور وعمل غير مشكور ، ولا يعود على المصارِح منه إلا خصومات لا تنتهى وعداوات لا تنقضى

***

ما تزال المرأة طفلة حتى تحب ، وما يزال الرجل رجلاً حتى يحب . ومتى أحبت المرأة بلغت أوج الأنوثة ؛ أما الرجل السليم القوى فيندر أن يجعل الحب آخر مرحلة من مراحل الحياة ، وهو ـ أى الحب ـ عند الرجل مرحلة الى رجولة اسمى . فالمرأة تتجه الى الحب لا لتتعداه ، أما الرجل فيحب ليكون الحب مرحلة من مراحل حياته . وهذا يشير الى أن الحياة تريد من المرأة الحب فقط ، وتريد من الرجل فضلاً عن الحب الجهاد والمغامرة

***

يجب ألا يغرّ الشبان بيت شوقى « نظرة فابتسامة . . » ثم ما بعد ذلك . فبين النظرة والابتسامة ـ فى كثير من الأحيان ـ وبين قلب الفتاة سبعُ قلاع بسبعة أسوار

***

رُكِّب فى طبيعة المرأة التلويح من بعيد والاغراء . فهى قد تتبذَّل أحياناً ولو لم تنوِ السقوط ، وتدنو ولـكن لا لتصل ، وتقترب ولـكن لا لتُنيل . فـكأنها تعمد الى ذلك لتقيس مقدار فتنتها وتختبر قوة أنوثتها

***

الرجولة لا تكون كاملة إلا إذا خالطها بعض طبائع الأنوثة . فـكأن الطبيعة فى ذلك لا تريد للرجل أن يتخلص من إرث الأنوثة الأقدم ، حينما كانت الذكورة لا تزال فى ضمير الغيب ، وكانت الأنوثة كل ما فى يد الطبيعة من مواد التجريب والاختبار

***

ثورة الحب تفضى الى أسر الزواج ، وثورة الحقد والطمع تفضى الى أسر السجن

***

نداء الأمومة عند المرأة أقوى من نداء الحب . وكثيراً ما تضحى المرأة بحبها فى سبيل الأمومة السالمة والنسل القوى القويم

***

لا يستطيع إبليس — فى كثير الأحيان — أن يتراءى للرجل الا عن طريق المرأة . فهى — فى أغلب الأحيان — سفيره اليه . وكثيراً ما تنجح هذه السفارة كما نجحت من قديم فى جنات عدن

***

حياة المرأة أنشودة يتناوب انشادها الملائكة وإبليس

***

حب الأم أشرف أنواع الحب وأعمقه وأدومه . وذلك أن فيه من حب الأبنة وحب الأخت وحب العاشقة وحب العابدة . فالأم إذ تحب وليدها وترأمه لا تحبه وترأمه كوليد فقط ، إنما هى ترأمه وتحبه ، ولو فى غير شعور ، حبَّ الأبنة أبويها ، والأخت أخاها ، والعاشقة عاشقها ، والعابدة معبودها

***

من مظاهر الفُسُولة وصَغَار الرجولة أن يتعشَّق الفتى فتاته ، ثم لا يفتأ يعلن عن هذا العشق وينبِّه اليه فى كل مناسبة وعند كل حديث ؛ فكأنه الـكلب يلغ فى الاناء أو يبول فيه لينفِّر منه بقية السباع !

***

فى الزمان غير المحدود والمكان غير المحدود يكون احتمال الحدوث غير محدود أيضاً . ولا أدرى لم يستبعد أو ينفى حدوث حادث يقدر أو يفترض بحجَّة بُعد الاحتمال

أديب عباسى

٥ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية والألفاظ العربية

وقد تعجل الكماليون فى انفاذ قانون الحروف اللاتينية ، واشتدّوا فى ذلك لا يستثنون الكتب التى فى المطابع ، قد طبع بعضها بالحروف العربية ولما يتم طبعها ، فسارع بعض المؤلفين إلى إكمال كتبهم قبل الموعد المحدود ، ودون الكمال المنشود . ويئس آخرون أن يُتموا كتبهم قبل الأجل المضروب وكرهوا بل عجزوا أن يكملوها بالحروف الجديدة فيجعلوها ذات خطين أعجمى وعربى ، فوقفوا بها حيث وقف بهم القانون الجديد . وأعجب ما فى هذا أن أحد الأدباء الكبار كان يطبع معجماً كبيراً وأخرج منه مجلدين ، ولم يسوّغ له القانون أن يكمله بالحروف العربية فيما يحتاج إليه من وقت ، وعجز هو وعجز الفكر الانسانىّ أن يكمل هذا المعجم بالحروف اللاتينية على ترتيبها بعد أن طبع معظمه بالحروف العربيـة على ترتيبها فبقى ناقصاً حائراً بين القديم والجديد

كأنما محا الترك العثمانيون من تاريخهم ستة قرون حين اختاروا للغتهم الحروف اللاتينية . فهل هم يعترفون ، كما قال ذلك الأديب الفارسىّ ، أن لهم تاريخاً لا يضيرهم أن يمحى منه ستة قرون ؟ وليت شعرى هل لهم فى التاريخ غير هذه القرون الستة ؟

مَثِّل لنفسك صبياً تركياً ممن تعلموا القراءة بالحروف الجديدة يدخل اليوم جامع الفاتح أو سليمان فينظر إلى أسماء الصحابة فلا يدرى ما هى وينظر إلى اسم الفاتح واسم سليمان القانونى فلا يدرك منهما حرفاً . وتصوّره فى بروسه فى أولو جامع (الجامع الكبير) الذى جعل الخطاطون الترك على مر العصور جُدُره معرضاً لبدائع الخط وفنونه ، تصوّره ينظر إلى آثار أسلافه فلا يتبين منها شيئاً ، ويود لو كتبت بالحروف اللاتينية . وتصوره كذلك أمام كل أثر عظيم من آثار المسلمين . وتصوره وقد شبّ وقوى على الدرس والبحث يذهب إلى مكتبات استانبول فيرى من آثار أسلافه ، وكل المسلمين أسلافه ، أكداساً لا يفقه منها حرفاً إلا بدرس خاص . ألست ترى هذا الناشئ مقطوعاً من تاريخه ، غريباً عن قومه ، ألست تراه يتيماً حرم ميراث آبائه ، وجنى عليه سفه أو صبائه ؟

وقد ذهب مع الحروف العربية فن جميل بلغ فيه الترك الغاية ، وتنافس فى تجويده سلاطينهم وأمراؤهم وكبراؤهم فأتوا فيه بآيات الجمال وحِلى التاريخ ؛ وشد ما يهيج الحسرة أن تسير فى شوارع استانبول عند الباب العالى فترى الخطاط التركى الماهر وقد كسدت بضاعته ، وحاولت أن تجارى الزمان صناعته ، فكتب على مكتبه بالحروف اللاتينية Hattat أى خطاط

سيقول بعض الناس إن هذه المواطف لا ينبغى أن تعوق سير الأمم ، وأنا أقول لو كان هذا سيراً ما اعترضناه ، ولو كان إصلاحاً ماعارضناه ، ولكنه تقليد يعصف بتاريخ الآباء ، ويزلزل أقدام الأبناء ، ويقطع سنن الأمة كما تقطع جذور الشجرة

* * *

وقد وصل الكماليون عملهم فى الحروف العربيـة باجتهادهم فى نبذ الكلمات العربية والفارسية . زعموا أنهم يريدون إنقاء اللغة التركية من الكلمات الدخيلة ، فما بالهم يخرجون كلمة عربية ليضعوا مكانها كلمة أوربية ؟ كانوا يسمون معهد الأبحاث التركية «تركيات مؤسسه سى» فمحوها وكتبوا «تركيات أنستيتوسى» فلماذا آثروا كلمة institu على مؤسسة ، وهى كلمة هم واضعوها فى العربية وعنهم أخذها العرب ؛ وكم كان لهم من حذق وذوق سليم فى وضع مصطلحات علمية باللغة العربية التى اتخذوها هم وسائر المسلمين كاللاتينية عند الأوربيين . وكانوا يسمون الجامعة «دار الفنون» فسموها Université ، وكذلك وضعوا مكان معلم ومدرس وغيرها من ألقاب الجامعة ألقاباً أخرى أخذوها من الألمانية ، ومثل هذا كثير . فليس بالقوم الاصلاح أو العصبية التركية ، ولكنه بغض العربية . وإذا تحكم البغض والحب فى تصريف الأمور لم يبق للحق والهدى مكان .

وكان لهم فى العام الماضى مؤتمر لغوى تكلم فيه أستاذ فى الجامعة فقال : إن بين العربية والفارسية والتركية علائق يجب الابقاء عليها ، فطرد من المؤتمر ومن الجامعة ، تقديساً للحرية التى يتغنى بها الكماليون ! وسمعت أن حسين جاهد ، وهو من الدعاة الأولين إلى العصبية التركية فى اللغة قال فى المؤتمر إن إنقاء اللغة يتم على مر الزمان ، ولا تصلح فيه الطفرة . فشتم وأسكت

وأوذى، ولو كان الأمر بحثاً وإصلاحاً لاتسع للآراء المختلفة، وأُخذ فيه بالنظر والروّية

وقد سمعنا أن الفرس يريدون أن يحذوا حذو الترك في هذا. ونحن لا ننكره أن يأخذ الشرقيون بعضهم عن بعض، وأن يزول العداء القديم بين الفرس والترك، وينسوا ما تصفه الشاهنامه من حروب إيران وتوران، وما يحدث به التاريخ من جلاد الصفويين والعثمانيين. أجل، أدعو الله أن يؤلف بين الأمتين، ولكن لا أحب أن يقلد بعضهم بعضاً فى هذه الترّهات، وتتقبّل إحداها الأخرى فى هذه الضلالات

نحن لا ننكر على الترك والفرس أن يؤثروا الكلمات التركية والفارسية على الكلمات العربية حين يحسّون الحاجة إلى ذلك، ويدعوهم إليه اصلاح اللغة وتجميلها، وإنما ننكر عليهم أن يفعلوا ذلك بغضاً للغة العربية، وإيثاراً لتقطيع الأوصال بين الأمم الاسلامية. إن فى الفارسية والتركية اصطلاحات علمية وأدبية كثيرة، بل تكاد تكون اصطلاحات الآداب والعلوم كلها عربية، وهذه الاصطلاحات هى من أعظم الروابط بين الأمم الاسلامية. وفى حذفها مفاسد كثيرة، منها أنهم يحرمون أنفسهم اصطلاحات وضعت واستقرّت، وتحددت، وأحكمها الاستعمال فى عصور متطاولة. وليس الاصطلاح على الكلمات، وخلق اللغة العلمية بالأمر اليسير؛ والثانى أنهم يباعدون بين اللغة العلمية القديمة واللغة العلمية الحديثة، وفى ذلك ما فيه من الفصل بين قديم الأمة وحديثها، والحيال بين المحدّثين وما كتب أسلافهم، وبين مؤرخى الآداب وفقه أطوار الأدب الأولى

والثالث أنهم يقطعون الوشائج بين آدابهم والآداب الاسلامية الأخرى التى شاركهم أهلها فى تأليف حضارة واحدة، على حين يسعى الناس للتقريب بين الآداب واللغات ولا سيما اللغات العلمية، وهم أنفسهم من الساعين للتقرب إلى أهل أوربا أو الفناء فيهم. فلماذا الوصل من ناحية والقطع من ناحية أخرى، والتقرب إلى قوم والتباعد من آخرين؟ بل لماذا التقرب من الأعداء، والتباعد عن الأصدقاء، وحب الأمم الأوربية وبغض الشعوب الاسلامية؟ هل لذلك من تأويل؟

والرابع أنهم يعسّرون لغتهم على طلابها من الأمم العربية خاصة والأمم الاسلامية عامة، والأمم تسعى اليوم لتيسير لغاتها وتسهيلها على طلابها

لست أقول هذا اشفاقاً على اللغة العربية، أو عصبية لها، فليس يحس المتكلم بالعربية والقارئ فيها أن ألفاظاً منها مستعملة فى الفارسية والتركية أو غير مستعملة، ولا يهتم بهذا إلا حين يدرس الفارسية والتركية، ودراسة هاتين اللغتين من شؤونهما لا من شؤون العربية، وإنما يعنيني ألا تقطع الصلات بين أمم عاشت دهوراً متآخية متعاونة كأنها أمة واحدة. وإنما يدعونى إلى الجدال أن الأخوة الاسلامية، والجامعة الانسانية، تنفر من هذه العصبيات القاطعة، والنعرات المفرّقة

وفى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية عُرّبت وأدمجت فيها، وصيغت على أوزانها، وما يفكر العرب فى اخراجها من لغتهم؛ ثم ألا يرى الفرس أنهم إن ذهبوا مذهب الترك فى أمر اللغة ثار عليهم الأفغان والهند المسلمون وأهل كشغر وما وراء النهر ثورة أدبية فنبذوا اليهم لغتهم التى اتخذوها لساناً أدبياً، ثم اجتهدوا فى اخراج الكلمات الفارسية من لغاتهم؟

أضرب لاخواننا مثلاً أوربياً، فان الشرقيين لايعرفون الحق إلا إذا شهدت به « ماركات » من أوربا:

هذه اللغة الانكليزية، وهى ما هى انتشاراً بين الأمم، وذيوعاً فى الشرق والغرب، فيها كثير من الألفاظ اللاتينية والجرمانية، ومعظم اصطلاحاتها فى الآداب والعلوم لاتينية. وقد وقع ما وقع بين الأمم اللاتينية والانكليز من حروب متمادية، وما فكر الانكليز فى أن يجمعوا الكلمات اللاتينية وينبذوها إلى اللاتين كراهة لهم، أو عصبية للغتهم؛ ما فعل القوم هذا، لأن لهم من جلائل الأعمال ما يشغلهم عن هذه السفاسف

القوم يذهبون مع الحياة مذاهبها، ويتوسلون لها بخير وسائلها، فلا تتسع أوقاتهم للمناقشات فى الحروف والألفاظ، ونحن نغمض أعيننا عن أواصر تجمعنا، وآلام وآمال تقرّب بيننا، ونقلب تاريخنا لنعثر على عداوة قديمة، أو حرب ذهب الزمان بذكراها وآثارها، لنخلق منها قطيعة جديدة، ونثير بها خصومة شديدة. كاد الانكليز والألمان يتفانون ويفنوا الأمم معهم منذ خمسة عشر عاماً؛ وهم الآن يمدون أيديهم للتعاون والتعاهد! فأين يذهب بكم أيها الشرقيون، وإلى أين تساقون أيها المسلمون؟ ذلك كلام واسع الجوانب، بعيد الأغوار، لا يتسع له هذا المجال. ولعل لى اليه عودة ان شاء الله؟

(له بقية)

عبد الوهاب عزام

من مشاهد الشرق

٢ ـ طائفة البهرا فى الهند

فى الطريق الى داعى الدعاة

بقلم محمد نزيه

وأذن الله أن أبرح عدن إلى الهند ، فلم تبرح النفس تواقة إلى رؤية الشيخ الأكبر لطائفة البهرا ، ولم تزل تستنفر عزيمتى حتى عاهدت كل منهما صاحبتها على أن تكون زيارة الشيخ أول ما أتكلف له بعد مطالعة (بمبى) ، فلم أكد أنيخ الراحلة فى هذه المدينة ، حتى طالعنى أبناء هـذه الطائفة زرافات ووحداناً ! تموج بهم المدينة ؛ فهم فى شوارعها ودروبها وحوانيتها يعرفون بطول اللحى ، وبالعمائم البيضاء ، و (البنطلونات) تحت المعاطف القصيرة ، وبالنشاط الذى لا يفتر ، وبالوقار الذى لا يُذهل عنه ؛ فانهم قوم جبلوا على النشاط حتى لتحسبهم فى سرعتهم إذا ساروا وفى دأبهم إذا عملوا ، أضعاف أضعافهم ، هم لا يتجاوزون العشرين ألفاً فى مدينة تزخر بمليون وثلثمائة ألف نسمة ؛ ولـكن دأبهم جعل الواحد منهم عشرة أشخاص ! لا تكاد تراه هنا حتى تشهده هناك ، كأنه من عالم الأرواح . . . هم كالموج المتلاطم على سطح المحيط ، يضيق به الخضم وهو منه كالحصاة من الجبل ، بل وتمضى السفن فى طريقها تشق العباب ولا تحفل به ، حتى إذا دوى الموج ارتعدت فرقا ، واهتزت رعباً ، وكانت تهتز عجباً

ليس من جماعة البهرا من لا يجمع إلى فصاحة الأردية طلاقة الـكجراتية ، ورطانة الانجليزية ؛ وليس فيهم من يعرب لباسه عن حاجة ، أو ينم ضعفه على هوان ، فكلهم عند نفسه كريم ، وفى قومه عزيز

كنت راغباً فى زيارة الشيخ الأكبر ، فلم يزدنى ما تحققته من طوابع طائفته إلا رغبة أمست رؤى ، وأصبحت هواجس ـ والشيخ لا يحظى بالاستئذان عليه إلا كل عظيم بارز فى قومه ، ولامناص ـ لمن شاء ـ من رجاء يتقدم به إلى رئيس الوزارة البهرية ، فاذا انتهى هذا به إلى الشيخ فأذن ، حدد الموعد بحساب الدقائق فيما لا يستنفد من الساعة إلا أقلها ، وعلى أن يذكر الزائر أن الدقيقة ستون ثانية ، والثانية ستون ثالثة ، فكأن دقات القلب لا تسعف فى هذا الحساب

وكان أن تفضل الشيخ الأكبر ، فأذن لرئيس وزرائه أن يستقدمنى ، ضاربا للقاء موعداً من مساء يوم قريب . . . فلما أن اقترب الموعد ، ركبت إلى قصر الشيخ ، وكعبة الحجيج من أبناء الطائفة ، فى (والْ كِيشَرْ)

ووال كيشر ، هو من ثغر بمبى حى الطبقة الرفيعة من سراة الاقليم ، أقيم على ربوة عالية تطل على المحيط وتشرف على المدينة كلها ـ لـكأنه نجم مهاه عن ذكره الفلكىّ ـ ليس بين قصوره وعمائره إلا متاحف تنطق بغنى الهند وتفصح عن جاهها وترفع النقاب عن فنونها ـ من شاء أن يعلم أين تنصب كنوزها ففى هذا الحى السعيد مصبها ، وفيه يستحيل الذهب فنوناً ، وتقوم الرياض على قنة الجبل كأنها البنود المرفوعة . أليس زرعها يتماوج من مداعبة النسيم كما تتماوج البنود ، أليست مطرزة بألوان من الزهر مختلفات بين أحمر القرنفل وأبيض النرجس وأصفر الورد وأزرق البنفسج ، على صفحة من خضرة مذهبة ؛ ثم لعل ما ينفح الناس من طيبها فينبهم إلى تحيتها إذا أغفلوا ، إنما يقوم فى موضع تلك القداسة المعنوية التى تنبه الناس إلى تحية العلم

بلغت السيارة بنا حى وال كيشر ، فتباطأت عنـد أقدامه وتهيأت للتصعيد فى مراقيه ، وأخذت تطوى مسالـكه ونحن فى داخلها كأننا تحت أجنحة طائرة ، وقد مهد الطريق على شدة صعوده وكثرة منعرجاته ، وامتد الزرع على جانبيه ، وقد امتزج سكون الليل إذ ذاك وسكون العظمة يزدهى بها هذا الجبل الذى لا يحمل على أكتافه ، ولا يضم إلى صدره ، إلا العظماء وفنونهم ؛ فاذا رهبة زاد بلوغها فى النفس هـذه الأضواء الخافتة التى تشع من مصابيح الطريق ، ولا راجل فى مراقى هـــذا الجبل بل سيارات تصعد بأهلها أو تهوى بهم فينة بعد فينة . وفيم يقـدم الراجل على ركوب هـذا الجبل ؟ وهو لا ناقة له فيه ولا جمل ؟ أما خفوت الأضواء ، فلعل له غاية لا تمت بسبب إلى مبادىء الاقتصاد ، هذه المبادىء التى يلفظها هذا الجبل ، بل لعله يرتفع

بساكنيه معتصما بالعلو من سيلها ، وعاصما لهم منه ، إنما هى دعوة الجمال ، ومن آياتها ألا يطغى النور الصناعى على النور الطبيعى ، على نور القمر وما أحاط به من كواكب

كنا نجتلى مفاتن هذا المنظر السحرى ، والسيارة توغل فيه كأنما نسيت أنها تقصد بيتاً ، فاندفعت على غير هدى تريد أن تصل إلى أعماق هــذا الابداع ؛ أما أنا فقد مرت بى برهة ماشككت أثناءها فى أننى أترك العالم ، وفى أننى لن ألبث طويلاً حتى أبلغ ماوراء الكون ، وأهتدى إلى أسرار الخلق وغوامض الحياة والموت .. ثم ليكن ما يكون ، ومازالت أرواحنا تسمو ويخلص جوهرها من شوائب الدنيا وأعراضها وشهواتها حتى صارت كأنما فرغ الله من صنعها منذ طرفة عين ، ذلك كله والسيارة تهتز فى منعطفات الجبل كأنها سكرى . . . . بل هى سكرى ! ولم لا ؟ وهى تسبح فى خمر الطبيعة ، ثم لم لا ؟ ومن شأن هذا الجمال أن يشيع الحياة فى الجماد

انتهينا إلى بوابة رحيبة الجانبين مفتوحة المصراعين ، وكلت حمايتها إلى حارسين عليهما أزياء الجند ، ما إن نفذت سيارتنا منها ، ثم هوت خطوات فى جادة القصر ، حتى كنا فى قلعة ذات أبراج ، تكاد تقطع بيننا وبين معالم الدنيا ، وكأنما أعدت لتقارع الفناء ، وليمتنع بها الأبد

ثم استقرت السيارة بنا فى منتصف هذه الجادة عند ردهة على يمينها ذات ثلاثة أبواب ، وهنالك ابتدرنا خادمان ملتحيان هما من أبناء الطائفة بالسؤال ، فأجبنا ، وإن هى إلا برهة حتى استقبلتنا غرفة الانتظار عن يمين الردهة ، فلما شرعت إليها ساق ، همس سائق السيارة فى أذنى بانجليزيته المفهومة على أى حال ، أن اخلع نعليك فذلك عند القوم سنة مؤكدة ، وقد فعلت ، ودخلت فاذا غرفة تتسع لنحو سبعة أمتار فى نصفها ، صفت إلى جدرانها كراسى نظيفة ليست بالوثيرة ولا بالخشنة ، وكل أبهتها فى سجادتها البيضاء ، المتسمة بأبهى الألوان فى أبدع الشكول ، وفى تلك الصور القليلة تحف بها إطاراتها الثمينة ، وقد ثبتت إلى الجدران ، وبينها صورة الحرم القدسى رصعت بالأصداف ، وقد علمت أنها كانت فيما حمله وفد المؤتمر الاسلامى إلى الهند من هدايا ؛ فكانت نصيب هذه الغرفة

ظللت أتأمل محتويات الغرفة دقائق لعلها بلغت عشراً ، حتى أقبل علىّ رجل معتدل القامة كريم الوجه ، هو فى ضحى العقد السادس من العمر ، ينبئ الجد فى ملامحه والنفوذ فى عينيه خلف منظاره الأبيض ، والانتصاب فى قامته ، والهدوء فى نبرات صوته ، عن أن له فى هذه الدولة شأناً ؛ طويل اللحية أسودها ، يرتدى معطفاً قصيراً من أقمشة الصيف خفيف الاسمرار مشدوداً إلى عنقه ، تحته بنطلون من القماش نفسه ، وقد تعمم على طربوش ، فحيا ، ثم استوثق من أننى صاحب الموعد المضروب ، فاقتادنى إلى مجلس داعى الدعاة

ذاك رئيس الوزارة البهرية ، وكاتم سر إمامها ، وأقرب القوم إلى نفسه ، وهو من وجوه المدينة وأعلام رجال المال فيها ، وهو ممن يلقى الحاكم إليهم سمعه ، ولا يضن بالطاعة له المحكوم . . . ثم هو قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك ، خادم للشيخ لا يعدل بمرتبته تلك مرتبة إلا أن تكون فى السماء

القاهرة — محمد زنيه

حافظ بك ابرهيم

أثر حياته فى أخلاقه وشعره

بمناســبة ذكراه

بقلم السيد احمد العجان

تمهيد :

لست أحاول التحدث عن نواحى الدراسات المختلفة فى أدب حافظ ، فان مباحث شعره المتعـددة لا تأتى عليها لمحة سريعة ووقت قصير ؛ ذلك لأن العاطفة فى رثائه موضوع دراسـة ، وتداعى المعانى فى خمرياته موضوع دراسة ، وظرفه وفـكاهته ومدحه ووصفه كلها محل بحث وتناول وتحليل . ولقد تكلمنا [1] عن حافظ (الشاعر الوفى لمصر) فى ذكراه الثانية ، وسنتكلم اليوم عن ناحية جديدة لها متين الصلة بالمجتمع ، وكبير الأثر فى حياتنا العامة ، وهى أثر حياته فى أخلاقه وشعره

— ١ —

نشأ حافظ ابراهيم — رحمه الله — نشأة شعبية ، قد زخرت بألوان العيش ، وتقلبت بين مُتع دنيا لم تشبعه ، وبؤس زمان غلب عليه ، وعاش مسكيناً وبائساً فى مجموع حياته ، لا نستطيع أن نحدد صفوه ونعيمه بشهر معلوم ، ولا بسنة ، ولا بفترة من الزمان طويلة ؛ فانه قد يكون فى اليوم الواحد شـقياً وسعيداً ، بائساً وغنياً ، إلا أنه فى المجموع متغلب البؤس ، متدانى الرزء ، غير مجدود

وما النعيم لديه إلا فترات يخلقها ما فيه من ظرف ومرح ، وتبعثها مداعباته وفكاهته ، ويولدها تفاؤله بالمستقبل ، ويقينه فى الظفر ، ثم ماراه فى العلم والفضيلة من تقريب للسعادة ، وسمو بالروح

وهذا القدر من الظرف والمرح هو الذى هيأ لحافظ عطفاً على فقره ، وولد فيه حناناً من بؤسـه ، وحببه إلى الصحاب والعارفين ، ودفعه إلى مواساة البائسين ، ومشاركة المحزونين ، فائن صح أن فى البؤس ذلة وانـكساراً ؛ فان فى الحنان ميلاً إلى البر ، واندفاعاً إلى الصدقة

(١) العدد ٥٦ من (الرسالة)

— ٢ —

كان لهذه النشأة أكبر الأثر فى صدق شعوره وإحساسه بالآلام ، وتعبيره عنها أدق تعبير ، ورسمه صوراً شـفافة واضحة لألوان البؤس التى يكتوى بنارها الشعب ، ويقاسى بسببها العذاب

وجدير بنا أن نتساءل : أكان مدفوعاً إليه بنفسه ، مطبوعاً فى حنانه ؟ أم هو البيان يثيره والشعر يحفزه ؟ أجاب حافظ — رحمه الله — بما يقطع كل شك ، ويقضى على كل تأويل :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً   دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشـقاء زماناً   وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ناقباً فى فؤادى   ومشى الحزن ناخراً فى عظامى
فلهذا — وقفت أستعطف النا   س على البائسين فى كل عام

ولقـد عرف إحساسه خلق كثير : عرفه صديقه الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقال فى المرآة ، : « على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس . . . ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) ، وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً . » ولا ينبئك مثل صديق

وعرفه كل من خالطه وعاشره ، بل عرفه كل من قرأ شعره ، وتصفح ديوانه الذى هو صورة من نفسه

«قد درواأن الشعر فى كل أرض   هو من نفس أهلها منزوع »

— ٣ —

إذن كان حافظ يتطلب البؤس والبائسين تطلباً ، ويتفقدهم تفقداً ، وكانت لديه رغبة قوية صادقة فى مشاركة البائسين آلامهم ، ومشاطرته أحزانهم ، « والرغبة [1] الحق هى تلك القوة الروحية التى توحى إلى الشخص القيام بالشىء بهمة لا تعرف الـكلال ، ولا تقف دونها عقبة : رغب « ابراهام لنكولن » فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى ، فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله ، وتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد ، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً ، بانتخابه رئيساً للجمهورية فى ولايات أميركا المتحدة ، فكان من أوائل أعماله ، العمل على تحرير العبيد

(١) الأستاذ محمد عطية الابراشى

وإن شدة الرغبة فى الاصـلاح الاجتماعى هى التى جعلت « شارلز ديكنز » أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترة فى القرن التاسع عشر

وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت « أديسون » أكبر مخترع فى القرن العشرين . والأمثلة كثيرة لا حصر لها »

وهذه الرغبة كانت قوية لدى حافظ ، تهزه ويجيش بها صدره ، صادقة غاية الصدق ، أراد بها إنقاذ الشعب من ذله ، وتحريره من إساره وعبوديته ؛ فلست أحسب رجلاً وهبه الله إشفاقاً على البائسين ، وحناناً على صرعى الفقر ، وضحايا الأملاق ، ومنكوبى الزلازل والغرق والحريق كشاعرنا العظيم ؛ فهو يرسم ببيانه الذى يطاوعه صوراً ناطقة تكاد تتجسم أمامك ، وتمثل بين يديك ، تسمعك أنينها وتوجعها ، وتبثك آلامها وتفجعها ، وتحرك فيك ما كمن من عطف واستتر من حنان . فما سنحت فرصة إلا غرد بالألم ، ولا حانت مناسبة إلا دعا إلى الرحمة

— ٤ —

ولهذا نراه شـديد الولوع بقصص المرزوئين ، وروايات المعدمين . شغف « بالبؤساء » فترجمها ، وهام بها فنقلها إلى لغة قومه ، لأن فيها إرواء لعاطفته ، وغذاء لنزعته ، وتعبيراً صادقاً عن خلجات فؤاده ، ولأنها منتجع خاطره ، ومهوى قلبه . واختار لها من الألفاظ والأساليب ما يذيب قسوة الصلد رقة وليناً ، ويخترق أذن الأصم فيضحى سميعاً . ولأنها تمثل لوناً من الانسانية المعذبة ، وطائفة من أسرى العوز ، وضحية من ضحايا تتكرر على الدوام ولا تنقطع ، تتكاءدها الهموم ، وتمثل بها خطوب الزمن ، وتنهشها أفاعى الضنك على مرأى من السراة وأولى الأمر : فلا يخلصها منقذ ، ولا يدافع عنها نصير

— ٥ —

ثم لهذا نرى الغزل فى شعره قد توارى واختبأ ، ولا نستطيع أن ننسب حافظاً إليه ، لأنه أحسّ بما يشغله عن تتبع المرأة ، ويصرفه عن طلابها

وقد يكون ذلك لضيق اليد ، وخلو الجيب ، إذ من شأن الاتصال أن يتطلب المال ، والوقت ، والثراء . ولـكنى أرجح الأول ؛ لسمو غايته ، ونبل مقصده ، وموافقته لحياة شاعرنا

ثم لهذا أيضاً بكى كل مصاب ومفجوع ، وناح على كل ضائع وشريد ، واستبكى المحسنين معه ليستدر عطفهم ويستميل قلوبهم

— ٦ —

وإذ أحسّ أن كثيراً من أهل العسرة وضيق اليد يرمقون المال ويتشهونه ، حتى إذا لم ينالوه يئسوا من الدنيا ، وسخطوا على الحياة ، أخذ رحمه الله يعالج أدواءهم ، ويهدم مذهبهم

فهو مع فقره لم يتبرم بالحياة إلى حد القنوط ، ولم يسخط عليها حتى اليأس . فليس التجرد من المال فقراً ، وتكدس الخزائن به غنى ، ولـكنه وسيلة ترفيه وأداة رغد ، فان لم يفد متاعاً ولم يكسب مغنما ، فلا خير فيه ولا منفعة منه . وأنه كثيراً ما اجتمع له المال الوفر من كتب ألفها وترجمها ومقالات كتبها وسطرها ، ووظيفة قبضها ، فما استقر عنده ، ولا عمل على ابقائه . قال الأستاذ البشرى فى المرآة : « وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً من الأموال ، لـكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه ، أو ينفقها فى يوم إن استطاع »

— ٧ —

ثم أمسك بأيديهم ، ونهض بهم إلى حيث المجد يبتغى ، والشرف ينال ، وعزة النفس تكتسب : بالعلم ، بالأباء ، بالـكرامة والرزق ووفرة المال ، بالسعى ، بالهجرة ، فأرض الله رحبة واسعة : وفيها لمن رام الحياة سعادة   وفيها لمن رام النعيم مقـــام

والتفت إلى الحاكمين والسراة يستثير عطفهم ، ويحرك الشفقة والحنان نحو مساكين تنتابهم غير الدهر ، وتتوالى عليهم أحداث الزمان ، وبائسين يؤلمهم الفقر ، ويؤذيهم العرى

— ٨ —

وعاطفة المواســاة ترتقى بحافظ : فلا تقتصر على مواساة الفقراء والمنكوبين ، وأسرى الحروب والملقين ، ولـكنها تنوح بالألم ، على كل حالة يعتبرها صاحبها شقاء ويظنها تعساً . على كل حالة تصرع الرجل فيها الشدائد ، وتضعضعه النوائب ، وتهده العظائم والشوائب . على كل حالة يتبدل فيها شأن الانسان من رضى وسكون ودعة ، إلى تبرم وسخط وكراهة ، من شعور بالراحة والسعادة والهناء ، إلى تذمر وامتعاض وموجدة ، فتراه

يواسى ملوكا غاب عن جبينهم التاج ، وسلاطين خلت أيديهم من الملك ، وأصبحوا يحتمون بالقانون بعد أن كانوا مصدر القانون ! ويخضعون للنظام وقد كانوا يصدرون النظام ! ويبتدئون بالتحايا العارفين وقد كانوا بها يبتدأون ، ولهم مراسيم تقضى وواجبات تؤدى . . . ! !

هذه الامبراطورة « أوجيني » زوجة نابليون الثالث تقدم مصر بعد زوال ملكها ، فيرفع لها حافظ تحيته ، بل مشاطرته ومواساته :

إن يكن غاب عن جبينك تاج | كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج | لايدانيه فى الجلال مدانى
ذاك من صنعة الأنام وهذا | من صنيع المهيمن الديان
فاعذرينا على القصور كلانا | غيرته طوارئ الحدثان

وقال فى فتنة الآستانة موجهاً إلى السلطان عبد الحميد صورة من التأسى والتصبر ، مشفقاً عليه باكياً ، بعد أن كان مغيظاً حانقاً ، يعيب على الشامتين شماتهم ، وينتقص رجولتهم ، ويبين أنه لازال خارج الحكم عبد الحميد كما كان مملكا حاكما :

كنت أبكى بالأمس منك فمالى | بت أبكى عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى | فيك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمة | أن يشمت الورى فى طريد
ماعهدنا الملوك تبكى ولكن | علمتها نزوة الفؤاد الجليد
شفع الدمع فيك عند البرايا | ليس ذاك الشفيع بالمردود
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمس | مطاع فى سيد ومسود

ولعل هذه الفواجع المتكررة ، والأرزاء المتتابعة ، التى يستوى فيها الفقير لا يجد قوتاً ، والشريد لايعثر على مأوى ، والملك لا يأمن غدر الدهر وخيانة الزمن ، والسلطان لايستقر به الجاه ، ولاتدوم له العزة — لعل هذه الفواجع — هى التى جعلت حافظاً ينحى باللائمة على حواء أمنا الأولى ؛ لأنها ولدتنا ولم توص الزمان بنا خيراً ، مع عرفانها بصروفه وأكداره :

لم تلدنا حواء إلا لنشقى | ليتها عاطل من الأولاد
سلمتنا إلى صروف زمان | ثم لم توصها بحفظ وداد

ولكنه فى غضبه هذا لم يذهب كما ذهب غيره : يدعو الموت ويتطلب مبارحة الحياة وفراق الدنيا ، ولم يكن كمن قال : « فياموت زر إن الحياة ذميمة » ؛ ولا من قال : « ألا موت يباع فأشتريه » ؛ بل فطن لما فرط منه ، وانتبه لما بدر ، فنفض عن نفسه غبار الشجو ، وكابوس الجزع ، فهو يسوءه أن يضيق ذرعاً بدنياه ، ويؤكد أن الاستسلام للألم مما يشينه ، وقد يعوقه عن تأدية رسالته . فالمواساة ليست بكاء فقط ، أو ألماً فحسب ، ولكنها : تسرية هموم وتخفيف مصاب ، ثم هى فوق ذلك جلب منفعة ، وإكساب غنيمة ، وليس فى مقدوره أن يخدم الفقراء والبائسين إذا ضاق بالحياة وسخط على الدنيا ، وانزوى بعيداً ، لا يتصل بالحاكمين ، ولا يتعرف ما عند المحسنين

— ٩ —

ولقد عرف أن تخليد الذكر إنما يكون بالاحسان ، فهو أبقى على الزمن ، وأدوم فى التاريخ ؛ فأخذ يغرى الحاكمين بالعطف على أبناء الشعب والعمل على إسعاده ، ولا سيما أن منصب الوزارة ليس دائماً ، ولكنها الصالحات والمؤسسات الخيرية أبقى وأكثر دواماً :

إن المناصب فى عزل وتولية | غير المواهب فى ذكر وتخليد

وأغرى السراة بالانفاق على الفقراء ، فلقد يكون منهم الزعيم السياسى يخلص الوطن وينقذ البلاد ، أو الرئيس الدينى يرعى الأخلاق ويحمى الشريعة ، أو الشاعر النابغة يهز القلوب طرباً ، ويثقف العقول بياناً وحكمة :

أيها المثرى ألا تكفل من | بات محروماً يتيماً معسرا
أنت من يدريك لو أنبته | ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخرا | يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه شاعرا | مثل (شوقى) نابها بين الورى
ربما أطلعت منه (عبده) | من حمى الدين وزان الأزهرا

* * *

كم قضى البؤس على موهبة | فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعا | حسبه من ربه أن يؤجرا

ثم نراه يبين لأولئكم السراة أن لا قيمة للمال إذا لم يعصمنا من الفقر ، ولم نؤسس به الملاجئ ، ودور العلم ، وبيوت الشفاء ؛ فان الدينار نفرح به مادام فى أيدينا ، حتى إذا مادخلنا به السوق كان والدرهم سواء . والمال الكثير إذا حل الغلاء ؛ يكون قليلاً يمضى سريعاً

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى | به ربه للسوق ألفاه درهما

فلا تحسبوا فى وفرة العلم لم تفد متاعاً ولم تعصم من الفقر مغنما
فان كثير المال والخفض وارف قليل إذا حل الفلاء وخيما

— ١٠ —

ولقد بصر بلذع السؤال ومرارته ، وألم الاستجداء وحرقته فأهاب بالمحسنين أن يصدروا عن عاطفة ، وألا يحرجوا المحروم ؛ فان خير الصنائع ما تنبو بحاملها عن الاهانة ، وإن الذى يجود بعد الحاح وطلب كثير ؛ لهو المعدود من البخلاء :

خير الصنائع فى الأنام صنيعة تنبو بحاملها عن الأذلال
وإذا السؤال أتى ولم يهرق له ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فانه وهو الجواد يعد فى البخال

وهو لذلك يربأ بنفسه أن تمد يده لذى منّة ، وأن تبسط لمن يستعذب سؤال المحتاج ، أو من يعتز بغناه ليسخر من مسهب معوز ؛ فيعف ويودّ لها البلى قبل سؤال الدنىء اللئيم

أيا يد ما كلفتك البسط مرة لذى مِنّة أولى الجميل وأنعما
فلله ما أحلاك فى أنمل البلى وان كنت أحلى فى الطروس وأكرما

— ١١ —

لحافظ — رحمه الله — مذهب فى الاحسان ، فهو يرى أنه ليس منة وفضلاً يفخر به ذووه ، وتعلو به رؤوسهم وتشرف أقدارهم ، وانما هو واجب على المثرى أن يؤديه ، وحق للفقير يجب أن يوفيه ، ودين لا يفر من قضائه الا مماطل ، ولا يهرب منه الا نذل دنىء . والاحسان فى نظره يستطيع كل انسان أن يؤديه :

بالقول !! يخفف به الألم عن الشاكى ، ويثير به همم أولى العزم والمروءة والنجدة

وبالدمع !! مشاركة للمحزون فيما أحزنه ، وللمهموم فيما أجهه والمصاب فيما أصابه

وبالمال !! الذى هو العون فى قضاء الصوالح ، والجالب للنفع ، والدافع للضر ، به تقضى الرغبات ويؤدى المطلوب قال فى زلزال إيطاليا :

سلام على الأولى أكل الذئب وناشت جوارح العقبان
وسلام على امرئ جاد بالدمع ، وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الانسان عند بنى الانسان . لم أدعكم إلى احسان

(البقية فى العدد القادم) السيد محمد العجان

الى الأستاذ امين الخولى :

حول الفقه الاسلامى والفقه الرومانى

للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما كتبتم رداً على مقالى عن الفقه الاسلامى والرومانى وأشكركم على حسن ما ظننتم بى من الغيرة الدينية وجميل الأدب فى النقاش . وبعدُ فانك أيها الأستاذ قد تنكبت فى ردك جوهر الموضوع فى مقالى إلى ناحية أسلوب التفكير وصحة الانتقال والاستنتاج — كما عبرت — مكتفياً ببيان أنك قد اطلعت على الموضوع نفسه وأنه قد نشر فى مصر — وربما بنصه — منذ ربع قرن مضى الخ ، وقلت إنك قرأته ولا تزال تذكره جيداً ومع ذلك قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى الخ

فانى أقول لك — على تسليم ما ذكرت — : انى لم أكتب ما كتبت متّهماً لك فى معارفك ومعلوماتك ، ولا لأن أقنعك أنت وحدك فقط دون الجم الغفير من قراء (الرسالة) الغراء الذين قد قرأوا ولا شك رأيك ورأى غيرك فى الموضوع وإلا لما كان الأمر فى حاجة إلى نشره فى صحيفة سيارة كالرسالة ، فالأمر قد صار أعم من أن يختص بى أو بك . أفليس من اللازم أن تجيب — ولو بايجاز عن كل ما كتبتُ وتبسط للقراء رأيك مدعّماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرك ، وبذلك تكون قد أرت السبيل للقراء لأن يهتدوا برأيك ويتفقوا معك على تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى . وإلاّ فلا معنى لأن تفتح باب البحث مختاراً ، ثم إذا دعيت إلى بسطه عمدت إلى سدّه متعللاً بضيق الوقت

لا يا أستاذ ! إن الوقت الذى تعتذر بضيقه الآن قد اتسع لدرس علوم وفنون وصنائع قد ضاق عن أقلها الزمن الماضى ، فلماذا يضيق ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ؟

وإذا كان قراء الصحف الأسبوعية لا ينشطون للمناقشة الفنية

كما قلت فانى أجل قراء (الرسالة) بخاصة عن ذلك . فالرسالة فى اعتقادى هى الصحيفة الأسبوعية الجدية الوحيدة التى ينبغى أن تضطلع برسالة العلم - كما يُعبر اليوم - والأدب والفن ، وأرى أن قراءها كذلك يمتازون من قراء غيرها من الصحف . على أن الصحيفة الراقية هى التى ترفع قراءها إليها لا التى تنزل إليهم . والآن آخذ فى ذكر ملاحظاتك على مقالى والرد عليها

وأبدأ أولاً بأخذك علىّ قولى : ان الأخذ والتأثر يجريان إلى مدى واحـد بقولك : (إن التأثر قد يكون سلبياً صرفا ، ثم استشهادك لذلك بأن الوثنية العربيـة قد أثرت فى الاسلام فى تحريم التصوير والنحت الخ ، والحق أيها الأديب أن تحريم التصوير ليس من موضوعنا فى شىء ، وليس إلا من باب سد الذرائع وهى القاعدة المعمول بها فى الاسلام ولا تزال أصلاً فى مذهب مالك ؛ ومن أمثلة ذلك فى الاسلام تحريم آلات اللهو سداً للذريعة فى تعاطى الخمر ، وضرب الحجاب على المرأة سداً للذريعة فى افتتان الرجل بها ، كالعكس إلى غير ذلك ، فلماذا أيها الأستاذ لا تجعل تلك من هـذه ؟ ولا تكون فى حاجة لتكلف هذا التأثر السلبى غير المفهوم ، اللهم إلا إذا كان كتأثر الشىء بضده فى ظهوره ووضوحه عند المقابلة كالبياض مع السواد مثلاً فيكون هذا من باب : وبضدها تتبين الأشياء

ثم انى أخشى أن يعد ما قلته أيها الأستاذ خطوة فى التهرب من الموضوع والتملص منه ، ذلك لأن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، فادعى كولد زهير ومن قلده تأثر الفقه الاسلامى بالرومانى ، فقلنا كما قال غيرنا أيضاً : ان الأحرى والأنهض بالدليل أن يكون الرومانى هو المتأثر . هـذا هو حاصل الموضوع ، فلو سلمنا صحة تقسيم التأثر إلى إيجابى وسلبى كما قلت أيها الأسـتاذ فما السلبى مما نحن فيه فى قليل ولا كثير . وإذا كنت ترى تأثر الفقهاء بالفقه الرومانى إنما هو تأثر سلبى بهذا المعنى فقد لا يبقى بيننا ما يستوجب النزاع والمناقشة

(٢) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الاسـلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ أبعد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل المناقضة لما عليه قومه . . . الخ . قلت : (إن هذا القول غريب من . . . لأنه لا يصح إلا على تقدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه وهو أمى . . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة ، أما على أن الاسلام كما هو فى حقيقته وحى إلـهى فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً فى نقض قاعدة البيئة والثقافة الخ)

فلولا حسن ظنى بسلامة نيتك أيها الأستاذ لعددت هذا منك مغالطة غير سائغة من مثلك ؛ ذلك لأنى لم أقل فيما كتبت إن الاسلام بظهوره بهذه الصفة ناقض لقاعدة البيئة والثقافة قط ، ولكنى قلت : إن الاسلام فى ذاته خارق لها ، لأنه دين سماوى ووحى إلـهى لا تتحكم فيه بيئة ولا تؤثر عليه ثقافة ؛ على أن قولى خارق أحرى بأن يفهم منه اثبات قاعدة البيئة والثقافة ؛ لأن الخارق ما خرق العادة وخالف مقتضاها ، والغرض مما قلت بيان أن الاسلام فى فقهه وعقائده وعباداته لا يتطرق اليه تأثير البيئة والثقافة ، لأنه فى كل ذلك جاء خارقاً لقانونها ، ولم أقل قط إن الاسـلام ناقض لقاعدة البيئة والثقافة كما فهمت أيها الأستاذ ، بل قلت : إنه خارق ؛ وفرق بين مدلولى اللفظين ، فليشهد القراء وليحكموا !

(٣) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد . . الخ (إن هذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل) . فلماذا أيها الأديب الفاضل ؟ فهل كنت تنكر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يمت إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء ، حتى ترى أن بعض الشريعة لم يوجد إلا بعد زمنه ؟ ألم يقل الله جل ذكره فى كتابه العزيز : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ؟ ويقول ابن عباس والسدى فى تفسيرها : إن المعنى اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى بتنزيل ما أنزلت وتبيين ما بينت لكم ، فلا زيادة فى ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ؟ حتى غالى بعض نفاة القياس فاحتج بها على إنكاره

(٤) ثم ذكرت أيها الأستاذ قولى : وهيأ لنا شريعة كاملة ، وقانوناً ربانياً منظماً يصلح لأن يطبق على أى جيل وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله . . . الخ ، فقلت : (إن هذا الكلام ليس أحسن حالاً من سابقه ، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا واستنتجوا واستنبطوا . . . الخ) ونحن لا ننكر

هذا ، وعبارتى لا تفيد نفيه إذ لست ظاهرياً ، وقد شاء فلك أيها الأديب أن يقتضب من عبارتى ماشاء فقط ، وإلا ففى آخر الفقرة بيان المراد ، فقد قلت فى آخرها إنهم (أعنى الفقهاء) فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية ، وهذا هو معنى الفهم والاستنباط ، ولا يقال له زيادة ولا تعارض فى العبارة ، لأن المراد بما لم يزد فيه الفقهاء شيئاً أصوله وقواعده الأساسية ، وهى التى لم يلحق المشرع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا منها على سبيل واضح وقانون ربانى منظم وشريعة كاملة ، فيحسن أن نقول هنا إننا والأستاذ الفاضل على خطة اتفاق

(٥) وقلت أيها الأستاذ إن قولى (. . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الاغراض واضحة المرامى ، يناقضه قولى فى القرآن : على أن الاختلاف فى تفسيره ليس إلا لايجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية ، وقلت : (إن هذا الايجاز المعجز لم يفت آيات الاحكام كذلك وبعد المرامى يشملها . وجوابى عليك أن آيات الاحكام قد جاءت مفسرة بالسنة إلا ما ندر منها كآية الربا ، فلم يبق مجال للاختلاف فيما أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يمكن أن يكون فى غيره مما لم يفسر بالسنة ، وبهذا يتضح الفرق بين أدلة الاحكام والتفسير المختلف فيــه ، ويصح به لنا القول بألا يقاس بالفقه التفسير ، وحسبك دليلاً على الفرق بين فهم الكتاب وفهم السنة ما صنع الامام على كرم الله وجهه عند إرساله ابن عباس رضى الله عنهما لجدال الخوارج ، إذ أمره أن يتوخى جدالهم بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ؛ وما ذاك إلا لما ذكرنا

(٦) وتقول أيها الأستاذ (وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض ففيم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة الخ

وأقول لك إن سبب الخلاف بين فقهاء المذاهب ليس اختلاف البيئة والثقافة مع غموض الأدلة ، ولكن السبب الأكبر هو اختلاف علمهم بالأدلة أولاً ، ثم تفاوت مراتبها عندهم قوة وضعفاً ، وقد كانت السنة آنئذ تتلقى من أفواه الشيوخ . وقد يبلغ الفقيه حديث لم يبلغ الآخر ، أو يكون هذا سمعه بطريق أقوى من طريق الآخر ، وهذا عندى السبب الأكبر فى اختلاف الفقهاء . ولذلك قال الشافعى إذا صح الحديث فهو مذهبى . ونحن لا ننكر اختلاف الأفهام فى الاستنباط أصالةً ، ولكنا ننكر لزوم أن يكون ذلك من آثار البيئة والثقافة ، فاختلاف الأفهام جار حتى بين أبناء المدرسة الواحدة والبيئة الواحدة كما هو مشاهد ، فلا يصلح دليلاً لتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى

(٧) واستطرفت أيها الأستاذ الأديب تمثيلى للصراحة بقولنا مثلاً لا تكذب قائلاً : « إن هذه المسألة على وضوحها الشديد محل خلاف تعدى إلى كتب البلاغة) والكلام إنما هو تمثيل للصراحة لغة ، وفرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية

ثم إنى لم أمثل بهذا إلا توضيحاً لكون الكلام العربى الصريح لا يختلف معناه على حسب الأزمان والبيئات ؛ ويدل على هذا قولى بعد ذلك : وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها ، أى اجمالاً ، من يعرف مدلولات الكلام العربى من مثقفى اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف)

وهذه ميزة للغة الضاد يجب ذكرها على حين أن بعض اللغات سواها قد تغيرت وتطورت تطوراً كاد يجعلها مقطوعة الصلة بينها وبين ماضيها قبل مائتى سنة

(٨) وأما استغرابك لقولنا إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فيذهب إذا علمت أن آيات الأحكام جاءت جلها إن لم نقل كلها مفسرة موضحة بالسنة ، فالسنة مع كونها مصدراً خاصاً لبعض الأحكام فهى فى بعض واسطة بين الكتاب وبين الفقهاء فى فهم آيات الأحكام ، وبهذا تعلم أغلبية الأدلة الفقهية التى من السنة وإن كان أغلبها فى الحقيقة تفسير ما أجمل الكتاب ، وهذا معنى التبيين فى قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل اليهم) الآية

(٩) ثم قلت أيها الفاضل مستدلاً على تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى : (إن الرومانية حكمت الشام قطعاً ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعاً ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها الشام قبل الاسلام قطعاً . . . ثم قلت وكان الاسلام هو الذى خلف على ذلك بلا شك ، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذى تختلف به

الشام عن الحجاز مثلاً ، ولا بد والأوزاعى ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرها المحتوم فى تكوين الأوزاعى الخ . فلو سلمنا جدلاً بصلاحيـة الفقه الاسلامى وقبوله للتأثر بالبيئة والثقافة كما تعتقد أيها الأستاذ الفاضل ، فالشام لم يفتح فى عهد الأوزاعى ولـكنه فتح فى عهد عمر رضى الله عنه ، والأوزاعى – وهو من تابعى التابعين ، ومن الطبقة السابعة من الرواة ، ومن أهل القرن الثانى – لم يأت إلا وقد انصرم ، أو كاد ينصرم بعد رسوخ الاسلام فى الشام جيل كامل . ثم إن الاسلام من شأنه أنه لم يفتح بلاداً وتطأها أقدام جنوده الأبطال إلا وينقل اليها معه حضارته وآدابه وأحكامه ، وأصرحُ من ذلك أن أقول إن الاسلام لم يفتح البلاد ويتولى الشعوب إلا لينسخ أدياناً ويقر مكانها ديناً واحداً ، ويهدم قوانين ويبنى بدلها قانوناً جديداً مفرداً ، ويجتث حضارات ويغرس محلها حضارة واحدة ؛ فالاسـلام لم يفتح أرضاً ولم يحكم شعباً إلا ليؤثر فيه – يامولاى الأسـتاذ – لا ليتأثر به

وقد تولى الاسـلام الشام منذ عهد الخليفة الثانى وأسبغ عليه من روحه وثقافته وتعاليمه حتى غدا إسلامياً صبغةً وروحاً ، ومضى على ذلك زمن ، ولم يأت الأوزاعى إلا والشام فى دينـه وروحه وثقافته إسـلامى صرف ، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر . فالأوزاعى وليد بيئة إسلامية وثقافة إسلامية ، فتسرب الثقافة الرومانية اليه بعد أن اندثرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان وحل محلها ماهو خير ثقافة وأعدل حكماً – من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم

(١٠) والعجيب أيها الأستاذ الفاضل أنك فى آخر ردك على مقالى قلت لا أدع منه عبارة ختامية تلك هى . . . إن الفقه الرومانى جديد لفَّقَه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامى ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم ، قائلاً بل أقول . . . لسنا فى شىء من المطالبة بهـذه المقيدة فى الفقه الرومانى ، فليست أصول الاسلام ستة ، تلك الخمسة المعروفة ثم سرقة الفقه الرومانى من الفقه الاسلامى الخ)

ولا أدرى ماذا أردت بأصول الاسلام الخمسة ؟ فان كنت تريد بها أركانه التى أولها الشهادتان وآخرها الحج ، فالاستنتاج عجيب ، لأننى لم أقل إن هذا الاعتقاد ركن من أركان الاسلام ، بل غاية ما فى الأمر أنى قلت إنه واجب ؛ وواجبات الاسلام يامولاى الأستاذ أكثر من أن تكون ستاً أو ضعفها ، فاذا ضممت اليها الواجبات الاعتقادية والأعمال والتروك صارت أكثر من أن تحصر ! فبأىّ منطق استنتجت من قولى ما لم أقله ، وألزمتنى على هذا القول بأن أصول الاسلام ستة ؟ ولا يفوتنى هنا أن أقول لك أيها الأسـتاذ إن أدبك الجم قد سمح لك أن تنصحنى بأن أعدل رأيى فى هذه الأشياء قبل أن أهتم بمسـألة الفقه الرومانى وأخذه أصوله من الفقه الاسلامى أو تأثر الفقه الاسلامى فتلك مسائل متأخرة ، ولـكنى هنا لم يطاوعنى أدبى معك — مهما كان بالنسبة إلى أدبك — أن أقول لك مقال الناصح المشفق إنه يحسن أن تصلح منطقك أولا قبل التعرض لتطبيقه على مثل هذه الأمور

وفى الختام أقول لك إنه ليس من الخير أن يتذرع الـكاتب للتغلب على مناظره بتحقيره أو مغالطته ، وأعتقد أنك أعلم بأدب الحوار والمناقشة من أن أنبهك اليه والسلام عليك

سنغافوره صالح بن على الحامد العلوى



نهر النيل

كما ذكره العلامة ابن خلدون فى مقدمته

بقلم رشوان أحمد صادق

جاء ذكر النيل فى كثير من المؤلفات العربية التى وضعها جغرافيو العرب من أمثال الادريسى وياقوت الحموى والاصطخرى وابن سعيد الجيهانى وغيرهم كثير . على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً فى مقدمته المشهورة

وقبل أن نتحدث عن مقال ابن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية :

أولا : اطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل

ثانياً : لم يذهب ابن خلدون إلى أعالى النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلى مثل الأراضى المصرية

ثالثاً : إن ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هذا الرجل الفيلسوف

رابعاً : إن العهد الذى كتب فيه ابن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل ، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة ، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعد أن وطد محمد على الأمن فى أعالى النيل ، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل

والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيل ثم نعقب عليها

قال : « فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الأقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم فى الأرض جبل أعلى منه . تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها فى بحيرة هنالك وبعضها فى أخرى ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر ، فاذا جاوزها تشعب فى شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها فى البحر الرومى عند الاسكندرية ، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه . ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب فى البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه »

من ذلك يتبين إلى أى حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر . أما عن أعالى النهر فمعلوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع . وعلى الأخص كتاب بطليموس الذى ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الادريسى وغيره . ولكن فى كلام ابن خلدون مسألة مهمة ألا وهى ذلك النهر الذى يتجه غرباً ويصب فى البحر المحيط ما هو ذلك النهر الغربى ؟

أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأى هيرودوت الذى يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط ؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكنغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس ببعيد ؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهيراته من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل ؟

ولكى نوضح هذه المسألة نقول : إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية :

١ — يقول ابن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب فى بحيرتين ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها فى بحيرة واحدة عند خط الاستواء ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحدهما نحو الشمال والآخر نحو الغرب ويصب فى المحيط

لعله كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة ادورد ، وأن البحيرة

الثالثة هى بحيرة البرت ، والنهر المتجه شمالاً هو بحر الجبل والمتجه غرباً هو الـكنغو

والقاعدة فى هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والـكنغو غير محدودة تماماً ، كذلك ليست شديدة الارتفاع ، وفى زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجارى المائية التى يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً ، وأن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزنوج

فان كان ابن خلدون يقصد ذلك – وهو الأرجح – فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق

ولقد ظلت فـكرة اتصال النيل بالـكنغو زمناً طويلاً فى عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الـكنغو

٢ — أما عن الرأى الثانى فنقول إن ابن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الغزال (بحيرة نو واقليم السدود ومنخفض بحر الغزال) . فالواقع اننا عنـد ما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها ، ولـكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المسافات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً أن هـذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة . فلقد ذكر الزبير باشا فى مذكراته أنه ضل الطريق وسط هـذا المستنقع اثنى عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك

فربما كان ابن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هـذا المستنقع العظيم . وان النهر الذى يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده . وربمـا وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهـــذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى (البحر) المحيط

ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعالى النيجر ، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى أن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً

وربما كانت تلك الفكرة بعيدة عن ذهن ابن خلدون ، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وان فـكرة اتجاه النيل غرباً كانت سائدة فى قديم الأزمنة

٣ — أما عن الرأى الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى ، بحيرة رودلف ، وظن أن نهر أومو الذى يتصل بهـا متصل بنهر أوكوبو أحد أفرع السوباط ، وأن البحيرة الثانية هى فكتوريا ، والبحيرة الثالثة هى نو (ومنخفض بحر الغزال واقليم السدود) ، وأن النهر الغربى هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد ، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر ، ثم ينصرف الأخير الى المحيط كما سبق أن بينت ذلك فى الرأى السابق

ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأى على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرق ، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالى النيل الى ساحل أفريقية الشرق حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الاسيوى المقابل لساحل أفريقية الشرق ، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزنوج ، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل واقليم البحيرات

ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرق فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كمنبع للنيل

ولعل تلك الفروض كانت راجعة الى عـدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته ، وان كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذى لا يخلو من المبالغة والخطأ ، زد على ذلك قلة المعدات العلمية وآلات الضبط والمقاييس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم

والآن ندخل فى التفاصيل التى ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل

قال يصف البحيرة الثالثة : « فى أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقسم ماءها الى قسمين فيمر الغربى منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب فى البحر المحيط »

وفى ذلك اشارة الى خط تقسيم المياه بين النيل والـكنغو ، ويرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة البرت من الجهة الغربية تحف به الجبال ، ثم خلف هذه المرتفعات أى فى الجهة الغربية منها توجد المجارى المائية التى تمد نهيرات الـكنغو ، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الـكنغو

وراء هذه الجبال المتاخمة لشاطئ بحيرة البرت الغربي جزءاً متمما لهذه البحيرة خصوصاً وهـذه المنطقة تحتوى على عدد عظيم من النهيرات ، فهى عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً فى أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التى تفصل مياه وادى الـكوه ووادى جندى المتصلين ببحر العرب عن وادى بحر السلامات المتصل بنهر شادى المتصـل ببحيرة تشاد

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التى تفصل بين مياه بحر الغزال من جهة ونهر شادى المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى . إذ أن نهرى الجبل والغزال يكونان حوضاً منخفضاً فى الوسط وحافته مرتفعة ، وما ارتفاع الجهات التى تفصل حوض الغزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التى فيها بحر الغزال وحوض تشاد

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون : « ويخرج الشرقى منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما . وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الأسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد فى بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الأقليم »

وفى ذلك اشارة إلى فروع النيل وتغيرها فى عهد العرب وما بعده عما كانت عليه فى عهد البطالـة ، فقد زالت المصبات الشرقية كلها تقريباً

ويقول أيضاً « وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان ، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقله وهى فى غربى هذا النيل ، وبعدها علوه وبلاق ، وبعدها جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق فى الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى مهوى بعيد صباً مهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد ، وكذا وسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل ، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة ، والواحات فى غربها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة »

وفى ذلك اشـارة صريحة إلى الشلالات التى تعترض النيل قبيل أسوان والتى تكون عتبة عقبة ، إذ نجد الانحدار شديداً . ويظهر أن المنطقة التى يصفها ابن خلدون هى المنطقة المسماة الآن شلال حلفا ، وتبدأ بعد سرامسن ، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيمى وابكه وطولها معاً أكثر من ١٦ ك . م ، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً . وهذه الجنادل هى التى يطلق عليها عادة شلال حلفا وهى كغيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة فى مجرى النهر وتتكون منها الجزر

وأما عن لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التى قامت على أنقاضها المدن الحديثة ، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة فى هذه المنطقة الجدبة والتى تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو الأرجح ، إذ يقول : « بلاد الحبشة على واد يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك فى النيل الهابط إلى مصر » . ويقول « وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل »

وهذه إشارة إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق . على أنه يتفق مع بطليموس فى أنه ينبع من جهات غير منابع النيل فى جبل القمر . وهذه المسألة مدهشة ، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام ارانستين ، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة ، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والادريسى بحيرة تسانا ؟

ثم ذكر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، وقال عنهما : البحران الهابطان ، ثم ذكر بوغاز باب المنـدب والمنطقة المعروفة الآن باسم الارتريا ، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس ، وذكر سواكن ، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكانها ، وذكر النيل فى المنطقة بين المقطم (وجبل الواحات)

فى أوطانهم غرباء

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

إنما فى بلادنا الشعراء   فئةٌ فى أوطانهم غرباء

لا رخاءٌ ولا أمانٌ ولا ما   لٌ ولا عزّةٌ ولا سرّاء

ألمن يكذبون ذاك التملّى (١) ؟   ولمن يصدقون هـذا الشقاء ؟

ما جروحٌ تَدمَى الجلود بها مثـ   لُ جروحٍ تَدمَى بهـا الاحشاء

ماشكوا أعباء الحياة وان كا   نت ثقالاً عليهم الأعباء

وإذا دافعوا عن الحق جهرا   فهناك الويلات والارزاء

لم أجد للجمهور عطفا عليهم   وكأن الجمهور منهم بَرّاء

انهم لا يرون من قومهم بِرْ   راً ولا تقديراً وهم احياء

وإذا مالقوا الردى فعليهم   يكثر الحزنُ منهم والبكاء

تلك أخلاقهم وقد ورثتها   سنناً من آبائها الأبناء

ليس هـذا فى يومنا وحده جا   رٍ وعلّ الأيام طراً سواء

إنما دنيانا لقوم جحيمٌ   ولأقوامٍ جنةٌ غنّاء

* * *

ولقد أخّر الألى قرضوا الشعـ   رَ نفوسٌ لهم بهـا كبرياء

واجتنابُ الرياء منهم بعصر   شاع من أجل العيش فيه الرياء

شعراء العراق كل سنيهم   سنةٌ فيها تخلف الأنواء

اننى أطلب العزاء لنفسى   فى أساها ، وأين منى العزاء ؟

لهف نفسى على القريض فقد هبّـ   ـت عليـه تشلّه النكباء

عبثت فى الربيع بالروض حتى   ملأته من زهره الاشلاء

وإذا الورد فى الربيع تولّى   فعلى ذلك الربيع العفاء

جفّت الدوحة التى كل صبح   فوقها كانت تهتف الورقاء

وعلى الزهر قد تصوّح عندى   زفرة تصطلى بهـا الاحشاء

بسمت فى ربيعها لذُكاء   كلما أشرقت عليها ذُكاء

أيهـا البلبل الذى يتغنّى   لا يَسُمْكَ الهوانَ هـذا الغناء

* * *

أيها الشعر أنت أشجى أنين   نزعته من نفسها الحوباء

أنت فى اسماع الأشايب موسيـ   ـقى وفى أعين الشباب ضياء

وإذا كنتَ الدهرَ للشعر أُطرى   فقليلٌ منى له الاطراء

وكأن السماء ديوان شعر   بعضُ أبياته النجومُ الوِضاء

وكأن المجرّ والليلُ صافٍ   كدموعى قصيدةٌ عصماء

لم يكن بالشعر الغرامُ قليلاً   غير أن العراق منه خلاء

أحسنُ الشعر ما بنته على ما   شعرت فى حياتها الشعراء

غير أن التقليد فيه كثيرٌ   وقليلٌ على الشعور البناء

وأجلّ القريض ما استحسنته   حين يُتلَى العقولُ والاهواء

ونصيبُ الكثير منه بوارٌ   ونصيبُ القليل منه البقاء

(بغداد)   جميل صدقى الزهاوى

(١) الاستمتاع

وذكر بلدة اسنا وأرمنت وأسيوط وقوص وصول ، وقال عند الأخيرة يتفرع النهر إلى فرعين : فرع يذهب إلى اللاهون ويقصد بذلك بحر يوسف ، ثم ذكر عيذاب

من ذلك يتبين لنا أن معلومات ابن خلدون عن نهر النيل كانت مستمدة من كتابات من سبقوه إلى هذا الموضوع ومن الرواة كذلك ، ولكن يجب أن نعترف بأن ذكاء هذا الرجل ومقدرته العلمية جعلاه يضع هذه المعلومات فى قالب يقبل العقل الجزء الأكبر منه . فلقد ذكر بعض الجهات وعلل وجودها أحسن من غيره بكثير ، ومع ذلك فان له عذره ، إذ أن السياحة إلى مثل تلك الجهات كانت من الصعوبة بمكان ، ولم يكن هناك آلات دقيقة ولا معدات علمية تساعد على ضبط الأماكن بالدقة ، زد على ذلك فقد الأمن فى تلك الجهات وصعوبة ارتيادها ، ومع ذلك فان كتابات ابن خلدون جاءت معتدلة خالية من القصص الخرافية بعيدة عن المبالغة والخلط بين المعلومات والمعتقدات ؟

رشوان أحمد صادق

B. A فى الجغرافيا

المسـاء

بقلم أمجد الطرابلسى

هوَ ذا الليلُ قد أطلَّ منَ الأفْـ … ـقِ فى فمِ الفضاءِ صمتٌ رَهيبُ
جاءَ يختالُ فى غلائلهِ السُّو … دِ وفى وجههِ عُبوسٌ مَهيبُ
فتولتْ ذُكاءُ جازعةَ النُّو … رِ وفرّت وقد علاها الشُّحوبُ
بسطت للوَداعِ أىَّ شُعاعٍ … شاحبٍ قد أمضّهُ التأويبُ
ما ترى الأفْقَ قد تورّدَ حزناً … إنّهُ منْ دمِ النهارِ خضيبُ
كانَ ساحَ الوغى وقد ظفِرَ اللّيـ … ـلُ كما يظفَرُ القوىُّ الغصوبُ
وتولّى النهارُ ، أىَّ طعينٍ … مُستضامٍ تسيلُ منهُ النُّدوبُ
مأتمَ الشمسِ أهكذا الكونُ بغْىٌ … ودماءٌ طليلةٌ وحروبُ
إنْ غدا الليلُ ظافراً فكذا النو … رُ على الأرضِ عاجزٌ مغلوبُ
هكذا يظفَرُ الظلامُ ويخبو … لهَبُ النورِ فى الدُّنا ويَخيبُ
هكذا سُنّةُ الحياةِ غِلابٌ … وكذا الحقُّ هيّنٌ مغصوبُ
وأطلّ الرّاعى ينوحُ على الشمـ … ـسِ كما ناحَ فى الرُّبى العندليبُ
هبطَ القريةَ الحزينةَ يبكى … وتعالى حُداؤهُ والنحيبُ
أكذاكَ الأكواخُ يغمرُها الصمْـ … ـتُ ويعلو الحقولَ هذا القُطوبُ؟
أكذاكَ الطيورُ تندُبُ شجْواً … ويَعُمُّ الرُّبى الظلامُ الرحيبُ؟
أينَ سهلٌ يموجُ فى لُججِ النو … رِ ووادٍ جمُّ الظِّلالِ عشيبُ
أينَ لحنُ الحياةِ تُنشِدُهُ القرْ … يةُ؟ أينَ المِراحُ؟ أينَ الوُثوبُ
فبكى والقطيعُ بينَ يديهِ … خافتُ الخطوِ والثُّغاءِ ، كئيبُ
ومشى فى الظلامِ يبكى على النو … رِ كما سارَ ثاكلٌ محروبُ
يصرُخُ النائُ فى يديه فتبكى … لِبُكا الناى أعينٌ وقلوبُ
هى أنشودةُ الوَداعِ يُغنّيـ … ـها وقد حانَ للضياءِ غروبُ
هى أنّاتُ شاعرٍ عبقرىٍّ … عشِقَ النورَ واستبتهُ الغيوبُ
أيُّهذا المساءُ فيكَ منَ المَوْ … تِ دُجاهُ وسرُّهُ المحجوبُ
العفاءُ الدجىُّ مثلُكَ رحْبٌ … وشبيهٌ بكَ الفناءُ الجديبُ
هكذا تنطفى الحياةُ ويغشا … ها سكونٌ منَ الفناءِ مُريبُ
هكذا تسكُنُ الأمانىُّ للمَوْ … تِ ، ويَبلى ثوبُ الحياةِ القشيبُ
وتغوصُ الرِّكابُ فى ثبَجِ الرمْـ … ـلِ وتخفى مهامهٌ وسُهوبُ
ويَضيعُ الضَّجيجُ فى العدمِ القفْـ … ـرِ وتُمحى معالمٌ ودُروبُ
نامتِ القريةُ الحزينةُ إلّا … ساهراً نومُهُ الهنىُّ سليبُ
لمُناهُ بينَ الأضالعِ همْسٌ … ولِخفّاقهِ المُلحِّ وجيبُ
ظلَّ سهرانَ يرقُبُ الأنجُمَ الزُّ … هرَ تهادى كما تهادى حبيبُ
علِقتْ عينُهُ السماءَ ذُهولا … واستباهُ هذا الفُتونُ العجيبُ
فى فجاجِ السماءِ عرْسٌ بهىٌّ … وعلى الأرضِ مأتَمٌ وكُروبُ
فهُناكَ النجومُ تطفَحُ بِشراً … وهنا الليلُ حالكٌ غِربيبُ
زغردتْ فى السماءِ أنجمُها الفرْ … حى وغنّى بعيدُها والقريبُ
وتبدتْ تختالُ عُجباً كما تخْـ … ـتالُ بينَ الشُّفوفِ خودٌ لعوبُ
هكذا تضحكُ السماءُ منَ الأر … ضِ كما يضحكُ الخلىُّ الطروبُ
إيهِ يا ليلُ رُفَّ فوقَ خلىٍّ … لم تؤرِّقْهُ لوعةٌ وخُطوبُ
وانشُرِ الحُلمَ والطيوفَ لِصبٍّ … لم يُنغّصْ نعيمَه تعذيبُ
لستَ يا ليلُ للّذى ألفَ السُّهْـ … ـدَ كما يألفُ الغريبَ الغريبُ
أنا يا ليلُ ليس لى من سكونِ الـ … ـكونِ أو هدأةِ الظلامِ نصيبُ
حسبُ قلبى ظلامُهُ ودُجاهُ … وأساهُ المبرِّحُ المشبوبُ
لىَ ليلانِ ساهرانِ وغيرى … ليلُهُ باسمُ الطيوفِ خصيبُ
أنا أحيا الحياةَ ليلا طويلا … أفيصفو لىَ الدُّجى ويطيبُ ؟
إطوِ يا ليلُ هذه السُّجُفَ السُّو … دَ فكم تحتَ جُنحِها مكروبُ
كم قلوبٍ وجيعةٍ ونفوسٍ … تحتَ هذا الدُّجى تكادُ تذوبُ
يا إلهى سئمتُ هذى الدياجى … إنّ فى القلبِ ظُلمةً لا تغيبُ
أنا كهفٌ مهدَّمٌ مُستباحٌ … فيهِ للحزنِ والشكوكِ نعيبُ
يصفِرُ الغمُّ فى دُجاهُ كما تصْـ … ـفِرُ فى الليلِ شمألٌ وجنوبُ
أقطعُ الليلَ ساهراً ذاهلَ الفِكْـ … ـرِ وفى الصدرِ للهمومِ شُبوبُ
غارقاً فى هواجسى وذهولى … وعلى العينِ للسُّهادِ رقيبُ
شاقنى النورُ يا إلهى ولكنْ … أينَ منّى السّنا وأينَ اللهيبُ ؟
شاقنى الشدوُ والغناءُ ولكنْ … أينَ منّى اللحونُ والتطريبُ ؟

… … … … … …

للضياءِ الحبيبِ يا نفسُ فى الأر … ضِ مغيبٌ وللحياةِ مغيبُ
لا يرُعْكِ الظلامُ إنْ ملأَ الكو … نَ فإنَّ الصّباحَ سوفَ يؤوبُ

دمشق — أمجد الطرابلسى

ما يحتويه قانون العقوبات الألماني الجديد

نظريات جديدة

في فهم العقوبة والمجتمع

كانت الحكومة الألمانية قد انتدبت منذ حين لجنة من كبار المشترعين (الهتلريين) لبحث مبادئ العقوبة الجنائية التي يجب أن تتمشى مع مبادئ الثورة الاشتراكية الوطنية ومبادئ حزب (النازي)؛ وفي الأنباء الأخيرة أن التعديلات الجديدة لقانون العقوبات الألماني قد صدرت متضمنة لمبادئ جديدة عجيبة في تعريف الجريمة وتحديد معنى العقوبة الجنائية لم يسمع بها من قبل في أي بلد متمدين. وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالاً قيماً لكاتب فرنسي كبير، فرأينا أن نترجمه لقراء (الرسالة) فيما يلي:

يقول زعماء الأمبراطورية الألمانية الثالثة (الزعماء الهتلريون) إن قانون العقوبات هو «مرآة صادقة للروح القومي»

ونحن في فرنسا نتأثر منذ قرون بالقانون الروماني القديم الذي اشتقت منه ثورة سنة ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) مبادئه الجوهرية، ولكن الهتلريين يرفضون هذه المبادئ باشمئزاز، ويقولون ما معنى هذا الاجلال الخالد لقصاصة من الورق؟ إن التعلق بحرفية النصوص ينم عن ذهنية متأخرة وضيعة. والقانون يقوم على حقيقة حية هي «ضمير الشعب»، ولا غاية لقانون العقوبات إلا أن يحمي هذا الضمير

ونحن في بلادنا ذات المبدأ الانفرادي، نقدس ذلك المبدأ الأساسي العظيم: «لاعقوبة بغير نص» Nulla poena sine lege

ولكن المشترعين الألمان الجدد يقولون: إنه لا يوجد قانون في العالم يمكن أن يتحوط بنصوصه العقابية لكل الأعمال البشرية الممكنة، وإذن يجب على قضاتنا أن يعاقبوا أيضاً على الأعمال التي لم ترد في القانون «متى كانت تثير الرأي السليم المتزن للمجتمع»

وكذلك نبذ المشترعون النازيون مبدأ أساسياً آخر هو «عدم رجعية القوانين» (أو عدم سريانها على الماضي)، وعلى هذا فان محكمة لايبزج العليا قد حكمت بالاعدام على فان درلوبي مع أنه في الوقت الذي وقع فيه حريق الريخستاج لم يكن القانون يعاقب على هذه الجريمة إلا بالأشغال الشاقة. وإذا كنا نحن نرى من المثير أن نطبق على المجرم قانوناً كان يستحيل عليه أن يعرفه، فان المشترع الألماني يقول إنه يجب عليه (أي المجرم) أن يعرف إلى أي حد يمكن أن يثير بعمله السخط العام

ونحن من جانبنا يصعب علينا أن نعترف بقانون عقوبات لا يعترف «بالحريات الفردية»، فانه إذا عدمت هذه الحريات أضحى المشترع حكما متعسفاً لا غير. وهذا ما حدا برجل مثل رامون فرنانديز أن يقول إن صوغ القانون الشيوعي الجديد، والقانون الفاشستي الجديد «لايتميز فقط بسحق القانون القديم، وإنما يتميز بسحق الحقوق جميعاً»؛ بيد أنه يجب أن نعترف على رغم اشمئزازنا بأن الهتلريين يقومون بتحويل الحقوق. ذلك أن الشعب هو الذي يرفعونه فوق كل شيء؛ والشعب، لا الفرد، هو الذي يريدون حمايته بادئ ذي بدء؛ وهو تحويل في القيمة يتمشى مع استبدال المبادئ الحرة القديمة «بمجتمع دولة عام»

ومن مبادئنا أننا نريد أن تحدث القوانين والظروف دائماً أثرها لصالح الفرد، فاذا عدل قانون، فاننا نطبق عليه أخف النصوص؛ فاذا تطرق الشك إلى ذهن القاضي وجب عليه أن يحكم بالبراءة؛ وكل متهم يعتبر بريئاً حتى يفصل في قضيته، وهذه كلها مبادئ يمقتها الهتلريون

فهم يصيحون: أليس فظيعاً أن نضع المجرم في ذروة قانون العقوبات؟ وأن نعكف بشغف على درس نفسيته باسم الدفاع عنه؟ لقد انحدر علماء الجنائيات في الأمم الديمقراطية إلى هذا الدرك، أعني إلى درك «الحق الزائف» أو «الحق المعدوم»

والواقع أن ميولنا الفردية تجنح إلى التساهل مع المجرم؛ فمتى حللنا البواعث التي دفعت المجرم إلى ارتكاب جرمه، فقد فهمناها، وعندئذ نعطف على المجرم عطف الانسان على الانسان، بل لقد انتهى مشترعونا الجنائيون شيئاً فشيئاً لا إلى تحديد العقوبة، ولكن إلى حب الاصلاح

وهذه حالة ذهنية لا يسيغها مشرعو الامبراطورية الألمانية الثالثة؛ فهم يرفضون، لا أن يحكم على بريء – ولكن أن يفلت مجرم من العقاب. وإذا القضاء لم يقدم ترضية كافية لسخط الشعب العادل حينما يطالب بالعقوبة، فان النظام الاجتماعي يغدو في خطر، وتسري إلى الشعب عوامل الهياج العام

ومن خواص هذه النظرية تقرير صنوف المشبوهين . وإذا كان القاضي يمثل الشعب حقاً ، فانه في زعم أولئك المشترعين لا يمكن أن يرتكب خطأ قضائياً ، ويكفيه دون أن يفتح القانون أو يرجع إلى ضميره الشخصي ، أن يستشير ضمير الشعب ، والشعب معصوم لا يخطئ ، وهو يكاد يتكهن ، وعواطفه هي التعبير عن العدالة ذاتها

ويقرر قانون العقوبات الاشتراكي الوطني أنه يمكن معاقبة مجرم لم يتم جريمته ، ولكن « أراد أن يرتكبها » . وفي رأيه أن الجريمة ليست هي عمل القتل في ذاته بل هي « اعتزام القتل » ونحن في فرنسا نعاقب على « الشروع » في بعض الأحوال ؛ فلا يعاقب مثلاً ذلك الذي يجس جيب انسان من الخارج بنية سرقته ، ولكنه يقع تحت طائلة القانون إذا حاول أن يدخل يده في ذلك الجيب . فهذه الفروق القضائية الدقيقة يخشاها المشترع الألماني أعا خشية ؛ ولهذا يتخذ الرأي الناقض ويرى أن يضع تحت نظرية « العزم المهدد » أقل حركة تمازجها الشبهة

وهكذا نرى أن قانون العقوبات الألماني الجديد وكذلك الاجراءات الجنائية قد بسطت كل التبسيط . وقد ألغيت « الظروف المخففة » ولم يعترف « بسبق الاصرار » بحيث أضحت جريمة الهوى والجريمة التي دبرت طويلاً سواء في العقوبة ؛ ذلك أن المجموع يجب أن ينتقم بسرعة وبلا هوادة من أولئك الذين يعكرون صفوه ؛ وللقاضي أن يوقع عقوبات تبعية بعد تنفيذ العقوبة الأصلية مثل الجلد والصوم الجبري ، ومصادرة الملك ؛ وهكذا يراد أن يدفع الجانح الذهن إلى مرتبة انسان منحط من الوجهة الجسمية والعقلية

وقد ذهب المشترعون النازيون إلى حد اعتناق الروح الاسبارطي ؛ فالدولة لها الحق « أن تقضي بصفة ادارية بالموت على بعض الأفراد الذين ليست لهم قيمة جوهرية » فرجل مثل بيرون (لورد بيرون شاعر الانكليز) يمكن أن يلقى في الماء منذ مولده ؛ ورجل مثل هلدرلن الشاعر الهائم يمكن أن يعدم ؛ ويصرح قانون العقوبات الجديد للطبيب بأن يعدم المريض الذي لا يرجى برؤه متى طلب اليه ذلك . وبعكس ذلك فانه لما كان الفرد السليم مديناً بحياته للمجتمع ، يعتبر الانتحار جريمة ، ويعاقب الشركاء في محاولته . ثم إنه لما كان الشرف أثمن من الحياة ، فان القانون يعترف باجراء المبارزة بين المتخاصمين

ويكشف لنا المشترعون الهتلريون عن غايتهم النهائية فيما يأتي : ليس المجتمع هو الذي يكون غاية في ذاته ، ولكنه الجنس أو الأمة ؛ والعمل لعظمتها يجب أن يكون هو غاية الحياة لكل فرد

إن النزعة الفردية وحدها هي التي تدفع الفرد إلى حب الانسانية . ولكن الهتلريين باعتمادهم على القيم الاجتماعية ، يجنحون إلى أهم عناصرها ، أعني « القومية »

وعلى هذا فان قانون العقوبات عندهم يقرر صنوفاً جديدة للجرائم ؛ فمثلاً يعتبر « خائناً للوطن » من يجرح الاشتراكيين الوطنيين في عزتهم ، أو يهزأ باحتفالاتهم ، أو يسخر من أغنيتهم ، أو من ينوه بأعمالهم الهمجية ؛ وكذلك من ينتقص من اقدار الأبطال الماضين ، أو من يهين المحاربين القدماء . وهكذا نقلت الحماية الشرعية لشخص الانسان إلى حماية الحزب وإلى حماية الأمة

ثم إن الأمة عندهم تقوم على الجنس ، ويجب أن يحتفظ الدم الشمالي القديم بنقائه وتفوقه . وعلى هذا فانه ترتكب جريمة « خيانة الجنس » كلما امتزج الألماني (أو الألمانية) باليهود أو بالأجناس الملونة ، أو لذا امتزج علناً بزنجي وجرح بذلك « العاطفة الجنسية » لأمته . ويعاقب الزنجي بعقاب أشد لاعتباره انساناً منحطاً

ونحن نعرف أن الهتلريين أصدروا في العام الماضي قانوناً للتجارة ينظم العلائق بين العمال وبين أصحاب الأعمال على أسس جديدة . وقانون العقوبات الجديد يتأثر بهذه الأسس ؛ اذ المقصود أن ترتب بين المخدوم والعامل نفس العلائق التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين السادة والأتباع . فالعامل يجب عليه الطاعة والاخلاص ، ولا يستطيع بعدُ أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، بل يعتبر واقعاً تحت حماية السيد ، وعلى السيد أن يقوم بحماية مصالحه المادية والأدبية . صحيح أن قوانين العمل الاشتراكية (مثل قانون الثماني ساعات ، وقانون التأمينات وغيرها) لم تلغ ، وصحيح أنها ما زالت تطبق ، ولكن لا لحماية حقوق العامل ، بل من وجهة اجتماعية مشتركة ، لأن القضاء على النزعات المتمردة يؤكد تعاون العمل ورأس المال

فهل يعني ذلك كله أن حماية الفرد قد ألغيت بتاتاً ؟ كلا ؛ ولكن قانون العقوبات لا يهتم بشأن الفرد إلا باعتباره عضواً في

(البقية على صفحة ١١٩٨)

القصص

من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

للأستاذ دريني خشبة

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

فلما كان الغسق (١) سمعت إلى الباب ينفتح ، ويدخل فتى خفيف الخُطى ، ويقبل عليها فيُحيي أحسن تحية بأرق صوت ، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها

وكان الظلام شاملاً ، فلم تستطع بسيشيه أن تتبيّن وجه الجالس إليها أو خلقه ، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتزج بصوته الحنون ، وكانت تحس كأن عبرات تكاد تخنقه ، لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به ... واقترب منها ... وأخذا في حديث شهي ، ولكن الحياء كان ما يزال يعقد لسانيهما ...

واقترب منها كذلك ...

وتماست الأجسام المرتجفة ، وليس كتماس الأجسام مُفرِّجاً عن الحب !

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه ، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا ، ثم دنا الفم من الفم ، واستراح الخد على الخد ، وبدأ طوفان القبل ... ...

وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة :

« ... أنا ... أحبك ... »

***

ـ « كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذى أنقذتنى من براثن الموت ! ! »

ـ « أجل يا مُنية النفس ، ورجيَّة القلب ، بمعونة الآله الرفيق زفيروس »

ـ « أفأنت إلـهٌ إذن ؟ »

ـ « لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً ... »

ـ « إذن ما اسمك ؟ »

ـ « ولا هذا أيضاً ! »

ـ « أحب أن أراك ، فهل تأذن بإيقاد المصباح ؟ »

ـ « إذا حاولت أن تريني ، كان فراق بيني وبينك ! ! »

ـ « أنت تزعجني أيها الحبيب الصغير ... »

ـ « ولم أزعجك ؟ ... ألست قد أنقذتك من الموت ، وأسكنتك هذا القصر المنيف ، ولست أمُنُّ عليك ! ! »

ـ « برغم هذا فانك تزعجني ... »

ـ « هاتي قبلة ... ودعي هذا الحديث الشاجن ... »

ـ « ... ؟ ... »

***

وظل يزورها كلما أقبل الليل ، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذيْن في عناق وقُبَل ، وحديث ألذ من قِطع الروض ، وأروح من رفيف النسيم ؛ ثم ينفصل على أن يعود لميعاده من اليوم التالى ... ... وبسيشيه راضية قانعة ، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفي ... ولا ما يكون اسمه ...

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطىء الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميل ، فتعانقهما عناقاً حاراً ، ويغمرها للقائهما فرح كبير ، وتعود بهما إلى القصر ، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته ، وتقف عند الصور والتماثيل ونافورات الزئبق ؛ وتدخلهما « هيكل الحب » كما اتفقت وحبيبها أن يسميا المخدع ؛ ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن تلقاها . . .

وتكون الغَيرة قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين ؛

(١) الغسق أول ظلمة الليل

ويكون الحسد قد شاع فى نفسيهما الخبيثتين ، فتضمران لها الشر المستطير

— « ولـكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه ؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة ؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظرى اليه ؟ أليس يخشى أن تفزعى منه إذا رأيته على حقيقته ؟ أيغرك منـه كلامه الناعم الموشى ؟ لا يا أختاه ! نحن نخشى أن يقلاك يوماً أو يجفوك فيقتلك . . . ! لا بد أن تأخذى حذرك منه ! ولا بد أن تنتهزى فرصة يكون غارقاً فى نوم عميق فتوقدى المصباح وتنظرى اليه ، فان كان وحشاً أو هولة ، فاليك هـذا الخنجر المرهف فاغمديه فى قلبه واستريحى منـه ، وعودى معنا إلى أبينا الملك فانه جد مشتاق اليك . . . »

ودفعتا اليها الخنجر المسم بغِلِّهما ، وولتا عنها تختبئان فى أجمةٍ دانية . . .

وفعل كلامهما فى قلب أختهما فعله ، فلما كان الليل ، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب ، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته ، وإلى الخنجر فشرعته ، وذهبت تنظر إلى العاشق البرىء . . .

فماذا رأت ؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض ! . . .

لقد كان نائماً حالماً ، فيه دعة وفيه فتون . . . وملأ الفتاة حباً . . . فارتجفت . . . واهتز المصباح فى يدها . . . فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته . . . وفتح عينيه . . . فرأى إلى الخنجر المرهف فى يمين بسيشيه . . .

ياللهول . . . !!

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة ، ورف بجناحيه الصغيرين ، وقال :

« بسيشيه ..! ياشقية ..! وداعاً ..! فلن نلتقى بعد اليوم !! »

وشاعت الحسرة فى قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والاعياء . . .

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه فى شـدة وعنف ، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفعوانات هائلة تنفث الموت الأسود من أنيابها البارزة الحوانى ، ثم أحست كأن القصر يرجف ويميد ، ويكاد ينقض ، فهرعت إلى الخارج مهرولة ، وهرعت فى إثرها المخاوف والأشجان ، يحـدوها الذعر والفزع الشديد

ونظرت فى السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو اليه ، بل وجدت سُحُباً قاتمة تنعقد فى المشرقين والمغربين ، والوَدْق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب ! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدَّوْح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليَباب !

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت ، وترجم وجهها الكاسف المُغَضَّن بجمرات البَرَدِ أيان وَلَّت

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطىء كالذى يتخطفه الشيطان من المس ، فلما لم يلب نداءها أحد ، انثنت نحو القصر ، واطَّوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم ... ولـكن ... هيهات ! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ ، ولم يكن غارقاً هذه المرة فى الطوفان الزاخر من أزهار الشيير والياسمين والبابونيا ، وكان عالياً على غير عهدها به ، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ ؛ فلما استيأست من الدخول ، وشعرت بقلبها يتحطم ، وبنفسها تذهب شعاعا ، استلقت على الكلأ ، واستسلمت لنوم ممتلىء بالأشباح

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه ، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر ، وفركت عينيها تخال أنها تحلم ، ولـكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجيرات قليلة من الشاهبلوط ؛ وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النمير . . .

ويكون صوابها قد ثاب إليها ، فتيمم شطر الشاطىء تتفقد وروده ورياحينه ، ولـكنها لا تجد إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة ، وإلا أكواماً من الوَدَعِ والمحار تجلل كُثبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة ، كأنها قوافل من آلام بسيشيه وأشجانها !

« ويلاه !

« لقد حُمِلْتُ إليك أيتها الجنة الصغيرة وبُرْدُك بُرْدُ الشباب ، ورَيْمانك ريمان الصبى ، وفى أعطافك تنهل سُلافة الحب ، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء ، وفى غُدرانك تترقرق أمْوَاهُ الهوى ؛ وكل مافيك تدب فيه حياة إلـهية ناضرة

« أفهكذا يذبل شبابُك ، ويذوى ريمانك ، ويغيض حُبُّك

وتقفر شطئانك ، فليس يرف فوقك إلا هامة ، ولا يهتف فيك إلا صدى الوحشة ، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم ؟!

« ويلاه !

« لقد كنت أفرك عيني أحسبني منك أينها الجنة فى حلم ، فالآن أفرك عينى أرى هل أنا من خرابك اليوم فى حلم ؟!

« لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة ، فلماذا لقيت أختى ؟! أين ذهبتا ؟! أحسبهما ذُعِرَتا من العاصفة ، وفزعتا من الزلزال ، ففرَّتا . . . فصبر جميل !! . . . »

***

هكذا ظلت تبكى بسيشيه ، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أَوْبة حبيبها . . . ولكن . . . بلا جدوى !!

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سَغَبها ، وترشف من بقية الماء فى الغدير رشفات تبل بها أُوامها ، ثم تعدو فى الجزيرة باحثةً عن . . . . . لا شىء !!

ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير ترتوى ، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد ، والغدير يتسع ويتسع ، حتى تكون على عُدْوَة نهر عظيم دافق ، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيُّه . ويبدو لها أن تلق بنفسها فى أعماقه ، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض . . . وإنها لتنظر الى الماء فيجيش قلبها بالذكريات ، وتفيض عيناها بالدمع ، ويشحب جبينها الكاسف الحزين ، ثم يتأوَّد غُصنها اليابس الهش ، فتنحدر الى اليم ، وتتلقفها اللجة

ولكن رب النهر الذى كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها ، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فج عميق ، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة ، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها

وتأنس بسيشيه الى العرائس الحلوة ، ولا يخجلها أن تأخذ معهن فى حديث حبها ، فاذا سألنها عن صفة حبيبها ، قالت : « كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون فى ذراعىَّ ، مسنداً رأسه على صدرى ، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن . وكان طَيِّبَ الأنفاس ، فما قبلني أو قبلته إلا شممت عبق الورد فى فمه ، وأرج البنفسج فى خده . وكان اذا عانقنى أو عانقته ، تحسستُ له جناحين على ظهره ، صغيرين ناعمين ، فاذا سألته عنهما ، أنكر عَلىَّ وصرفنى برفق ودعة عن الحديث عنهما ، فنأخذ فى أمور أخَر . وكان يحمل قوساً من ذهب ماتفارقه ، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب .. وما دهانى فى الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة ، فيحلق فى كبد السماء كأن له قصراً فيها .. فبحق زيوس عليكن ياعرائس الا ما أعلمتُنَّنى مَن هذا الحبيب ، فأنتن بنات إلٰه مبارك ، ولا بد أن يعرف أبوكن من أمره كل شىء . . . »

وصمتت بسيشيه ، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشةٍ حائرة ، ثم يتهامسن ، ثم لايحرن جواباً ؛ فقالت لهن :

«أنتن تزعجنني ياعرائس ، فهل هكذا يُلقى الضيف لديكن ؟ »

فقالت كبراهن : « لا عليك يا فتاة ، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيتِ أمر كيوبيد !! »

ــ « كيوبيد ؟! ومن كيوبيد تعنين !؟ »

ــ « كيوبيد بن ڤينوس ، فهو الذى كان يهواكِ وكنتِ تهوين !!؟ »

ــ « كيوبيد الإله ! كيوبيد حبيبى ! ياويح لى . . . لابد أن يعود لى إلٰهى الجميل الحبيب . . . لن تحلو لى الحياة بدونك يا كيوبيد . . . »

***

هامت بسيشيه على وجهها فى أقصى الأرض ، وكلما مرت بروضة أو غيضة ، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمت بحفاف غدير ، برزت لها عرائس الماء فشكت اليهن ، وسألتهن إن كن يعرفن أين يأوى كيوبيد ؟ وقالت لها عروس :

ــ « أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذى يحمل السماء برَوقيه ؟ إذا كنت عنده فتلبثى حتى يعود بان[1] من صيده فتعلقى به ، واذرفى من دموعك تحت قدميه ، فاذا هش لك وبش ، فاذكرى له حاجتك يقضها لك ، أو يدلك على من عنده قضاؤها »

ــ « ومن عسى أن يكون بان يا أختاه ؟ »

ــ « رب المراعى ، وإله الصيد ، وحامى القنص . ألم تقربى له ؟ ألم يفعل أبواك ؟ »

(١) ورد ذكره فى بعض الأساطير باسم كونستيس .. وما يزال الرعاة الانجليز يتغنون بحاميهم بان إلى اليوم

ـ « بل فعلنا . . . . »

وسهدت إلى الجبل وكأنما بها عقل من الجنون ، وجعلت تطوف به حتى مالت الشمس إلى الغروب ، فرأت (بان) قادماً يدب بحافريه ، ويردد فى الآكام ناظريه ؛ فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً ، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها ، وسباه منظرها . . .

وشكت إليه ، فما هالها منه الا قوله : « تعسة ! أنت غريمة ڤينوس !! » فقالت ، وفى عينيها دموع تخنق منطقها : « غريمة ڤينوس ؟ ومالى أنا ولڤينوس ؟ » فقال بان : « جمالك هذا جنى عليك . . . لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب الى عبادتك أنت أيتها الشقية ، ولذلك حنقت عليك ، وأصابك من الأذى ما أصابك . . . إسمعى يافتاة . . . لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير ؛ هل تعرفينها ؟ أم پرسفونيه ، فتاة الربيع التى خطفها أخى پلوتو لتؤنسه فى هيدز ! مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوپيد وهيامه بك ! بك أنت ! أليس اسمك پسيشيه ؟ »

ـ « . . . . . . ؟ . . . . . . »

ـ « تحمّلى إليها إذن . . . إنها ليست بعيدة من هنا . . . إنها شفيقة رفيقة ، وهى ترثى لأمثالك من العاشقات الوامقات ؛ تحدثى إليها عن كيوپيد واستمعى إلى ما تقوله لك وتشير به عليك . . . أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة ؟ إنها هناك تنتظر ابنتها فى أوبتها من هيدز »

وتحملت إلى الغابة ، ولقيت ديميتير الطيبة الوقور ، فانحنت تحييها ؛ وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين ، وتخاذلت فخرت مغشياً عليها ! . وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة ، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب ، فكان الزهر ينبت حول پسيشيه كلما انتثرت قطرات على الأرض ، فلما أفاقت ، بهرها هذا السرير الربيعى من منضور الورد يحف بها ، ويحنو عليها . . . حنو المرضعات على الفطيم !

وبسمت ديميتير ، وواست الفتاة الوالهة وآنستها ، ثم ذكرت لها أنها رأت كيوپيد بكرة ذلك اليوم ، وفى كتفه جرح دام أحدثته فيه أمه ڤينوس ؛ لماذا ؟ لا يدرى أحد ! ـ « . . . فاذا كان لا بد لك من لقاء كيوپيد ، فاذهبى إلى ڤينوس وتبتلى إليها ، وادخلى فى خدمها وحشمها ، وأثبتى لها بتفانيك فى طاعتها أنك من عبادها المخلصين ؛ عسى يا بنيّة أن ترضى عنك ، ويذهب عنك هذا الحزن . . . »

ثم قادتها إلى قصر ڤينوس ، وزودتها بما ينبغى لها من النصح ، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر پرسفونيه

وبرهنت پسيشيه على حسن إخلاصها وجميل تؤبها ، وكانت ربة الحسن تسخرها فيما لا طاقة لبشر به ، فكانت تقوم بما تكلف به وتؤديه خير الأداء

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها ڤينوس بالتوجه إلى هيدز ـ دار الموتى ـ واقتحامها ، ثم لقاء پرسفونيه ، ربة الربيع ، وزوج پلوتو ، وسؤالها صندوق الطيّب الذى تدهن منه العجوز الشمطاء ، فيرتد اليها صباها ، ويتدفق ماء الشباب فى أعطافها ، وتعود كما كانت ، شرخ صبى ، وعنفوان شباب !

وأسقط فى يد پسيشيه ! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز ! ! ولكنها حين ذكرت پرسفونيه ، بدا لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشدها أو تزودها خالص نصيحتها . فذهبت إلى الغابة ، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها ، لتعود أدراجها إلى هيدز ، إذ كان الربيع الحلو قد صوّح ، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره . . .

وهشت لها ديميتير ، وعقدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة ، ولما حان موعد الافتراق ، أبدت پسيشيه رغبتها فى أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها فى ظلمات دار الفناء ، فلم تعارض الفتاة ، بل أذنت لها راضية (١)

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغنى وتنشد . . . وتبكى ! ! وكم كان عجب پلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته ، وبلغ به التأثر مبلغه ، فغادر لهما غرفة العرش المظلمة . . .

وتلطفت پسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين ؟ ؟ فوجمت پرسفونيه ؛ وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب ، لولا أن ذكرت الفتاة أن ڤينوس هى التى أرسلتها لتطلبه وتجيئها به . فنهضت پرسفونيه إلى دولاب قريب ، وعادت بالصندوق ، ترتجف به يدها العاجية الجميلة ، وقدمته للفتاة وهى تقول :

(١) فى بعض المصادر أن زفيروس هو الذى قاد الفتاة الى هيدز

« لا تفتحيه . . . لا تفتحيه أيتها الصغيرة ! ! »

واستأذنت بسيشيه ، وعادت أدراجها إلى . . . هذه الدار الأولى . . .

وفى طريقها إلى قصر فينوس ، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبى . . . وذكرت كذلك تلك الليالى الطوال التى ظلت فيها مُسهَّدةَ العينين تبكى كيوبيد وتحن إليه ، حتى شفَّها الوجد ، وأوهنها السقم ، وبرّح بها الهيام الشديد ؛ فتحدثت إلى نفسها تقول : « فلم لا أدهن بقليل منه وجهى وبَشرَتى ؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت ، مادمت أطمع فى لقاء كيوبيد ؟ إن ربة هيدز حذرتنى من فتح الصندوق ، لا أدرى لماذا ؟ فإذا كان ما به شر ، فلم تريده فينوس الجميلة ؟ لا ! لا بد أن أتطيب به ، وليكن بعدها ما يكون !! »

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته . . . . ولكن . . . .

وا أسفاه ! ! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر . . . روح النوم ... ولقد وثب فى وجه بسيشيه فحدَّق فى عينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم ماهى إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المُنَدَّى تغط فى نوم عميق . . . . ! !

***

وكان كيوبيد يتنزه فى الحدائق المجاورة ، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ ، وصدره يعلو ويهبط ، كأن كابوساً مستقر عليه

ودنا إلـه الحب من بسيشيه ، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول ، وثار فى قلبه الحنين إلى الليالى المقمرة الحلوة التى كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير ، الذى يترنح أمامه فى قبضة الروح الشرير . . . روح النوم !

ونظر كيوبيد بعينيه السَّحريتين ، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعا هائلا . . . فثارت فيه نخوة الوفاء ، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة ، حتى قهره ، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير ، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه ، ودفنه فى غَوْرٍ من الأرض

ثم تقدم الى حبيبته ، وطفق يروّح على وجهها ، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض ، وطرب الورد ، وشاعت فى الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً ! !

« أختاه ! ! انهضى ! أنظرى الىّ ! هأنذا كيوبيد ! هلمى فلن نفترق بعد اليوم ! ! »

***

وأغذا السير ، حتى اذا كانا فى دولة الأولمب صاح كيوبيد فى معشر الآلهة : « أن اشهدوا أيها الأرباب ، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لى فباركوه . . . . » وطرب الآلهة ، وأقيم المهرجان الفخم ؛ ورقصت ديانا ربة القمر ، وعزف أبولو على موسيقاه ، وتقدمت فينوس فبار كت الزوجين الحبيبين ، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التى لا تفنى ... ومنذ ذلك اليوم وهى ترف بأجنحة فراشـــة جميلة فى جنة الأولمب ، والى جنبها حبيبها كيوبيد

دريني خشبة

البريد الأدبي

حول كتاب فتح العرب لمصر

عزيزى الأستاذ الفاضل صاحب (الرسالة)

قرأت اليوم فى (الرسالة) الغراء صحيفة النقد التى تسميها (الرسالة) صحيفة « الكتب » ، وقرأت فيها للأستاذ الجهبذ العلامة محمد بك كرد على كلمتين ، احداهما عن كتاب « فتح العرب لمصر » ؛ والثانية عن كتاب « فنون الطهى الحديث » .

ولقد عنانى أن أقرأ ما كتبه الأستاذ الفاضل عن كتاب فتح العرب لمصر بنوع خاص ، لأن ذلك الكتاب حبيب إلى نفسى لصيق بها . ورأيت الأستاذ الفاضل يذكر عن الكتاب بعض حسناته فشكرت له ذلك ، فالكتاب جدير من الناطقين بالعربية بكل تقدير واعجاب ، إذ هو مثل عال من أمثلة البحث الدقيق العادل ، فوق ما يمتاز به من قوة الأسلوب وجماله فى لغته ثم عرج الأستاذ على الترجمة والمترجم ، فتفضل بأن وصف المترجم بأنه اعتنى عناية شديدة « بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها » . ثم ذكر ما سماه تحريفاً فى الأسماء ، وذكر من ذلك أمثلة

على أنى وإن شكرت له قوله إن المترجم قد عنى بالترجمة عناية « شديدة » أرجو أن أراجعه فى زعمه أن ترجمة (Edessa) تكون محرفة إذا قلنا هى « اذاسا » ، فان اطلاق ذلك الاسم على المدينة كان مقصوداً ، فالمدينة معروفة بالرها وبأذاسا ، والاسم الثانى أقرب إلى التسمية العامة فى اللغات المختلفة ، فكان هذا سبباً فى تفضيل « أذاسا » على الرها ؛ وأما برجاموس أو فرغاموس فلا أدرى وجه التحريف فيها ، فان الباء والفاء والجيم والغين كانت دائماً موضع اختلاف فى وضع العرب للأسماء ، ولاسيما المحدثين منهم ، وقد آثرت أن أكتب الاسم بالعربية قريباً كل القرب من الاسم القديم الذى كان ولا يزال معروفاً يطلق على المدينة التى كانت فى آسيا الصغرى . وأما « افسس » و « افيسوس » فلم أفطن إلى وجه التفرقة بينهما ، ولا إلى وجه التحريف فى الاسم الذى أوردته فى الترجمة ، فليس بين الكلمتين من فارق إلا اثبات حركات الكلمة على النحو الذى يسهل النطق بها

على أن الأستاذ الفاضل لم يكتف بعد ذلك بتوجيه النظر إلى هذا التحريف الذى زعمه ، بل ذكر كلمة عامة عن « هنات قليلة » لا يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية ؛ وكنت أود أن يجمل حضرته من ذلك الوجه بحثاً فيما يوجه فيه الترجمة وجهة صالحة ، غير أنه اكتفى بالتعميم والاشارة والايجاز فى موضع كان الأوجب فيه الافاضة والاطناب ، ذلك بأن عمل المترجم إن هو إلا النقل ، وما يكون نقله جديراً بالتقدير إلا إذا سلم من العيوب التى تؤخذ على أساليب اللغات الأعجمية . ولعل اشتغال الأستاذ الفاضل بالكتابة عن الكتاب الآخر (فن الطهى الحديث) فى نفس اليوم قد جعله لا يجد الوقت لذكر شىء من تلك الهنات ، فرجاؤنا أن يتفضل باعادة الكرة وبيان ما أجمل ؛ ورجاؤنا كذلك أن يبين وجه النقد حتى نكون على بصيرة من رأيه ، نفعنا الله بعلمه وفضله وعلم أمثاله من أعلام العلماء ؟

محمد فريد أبو حديد

وفاة دريفوس

من أنباء فرنسا الأخيرة أن الكولونل ألفرد دريفوس قد توفى فى الخامسة والسبعين من عمره ، ولم يشتهر فى تاريخ فرنسا المعاصر اسم بقدر اسم دريفوس ، ولم يقترن باسم آخر مثل ما اقترن به من الحوادث والحركات العظام ؛ كان اسم دريفوس منذ أربعين عاماً ملء الأسماع فى فرنسا والعالم بأسره ، وكانت القضية الشهيرة التى ارتبطت باسمه ، واتهم فيها ظلماً بالخيانة ، أعظم قضية عرفها التاريخ من حيث اتساع مداها ، وتشعب نواحيها ، وتعقد إجراءاتها ، وما أثارته مدى عشرة أعوام فى فرنسا من الأحقاد والشهوات التى كادت تزلزل أسس الحياة العامة فيها وتثير ضرام الحرب الأهلية . وقد كان دريفوس يهودياً ، وهو سر المسألة كلها ؛ فقد كانت الخصومة السامية أو حركة العداء ضد اليهود

يومئذ على أشدها فى معظم البلاد الأوربية ، وكانت الكنيسة والعسكرية فى فرنسا تضطرمان بهذا العداء ، وكانت قضية دريفوس نفثة من نفثات هذه الحركة التى أريد بها القضاء على نفوذ اليهودية فى السياسة والجيش ؛ فاتهم دريفوس الضابط اليهودى (سنة ١٨٩٦) بالخيانة العليا ، وبأنه يقدم إلى بعض البلاد الأجنبية (ألمانيا) معلومات عن الدفاع الفرنسى ، وضبطت ورقة سميت فيما بعد « بالبردرو » نسبت إلى دريفوس ، وحوكم الضابط البرىء وقضى عليه ظلماً بالنفى إلى جزيرة الشيطان ؛ ولكن العدالة لم تعدم أنصاراً ؛ فقد أثار خصوم العسكرية وخصوم الكنيسة على هذا القضاء الظالم دعاية شديدة ؛ وبذلت جهود قضائية وسياسية فادحة لتبيان براءة الضابط اليهودى ، وتبين فيما بعد أن « البردرو » قد زُور عليه ؛ وما زالت المعركة بين « الدريفوسيين » وبين الوطنيين خصومهم تضطرم وتنتقل من دور إلى دور حتى تقرر إعادة النظر فى القضية مرة بعد مرة ؛ ونزل إلى المعركة كتاب عظام مثل فرانسوا كوبيه فى جانب الوطنيين ، وأميل زولا فى جانب « الدريفوسيين » ؛ وأرسل اميل زولا صيحته الشهيرة : « إنى أتهم ! » ؛ أى يتهم القضاء والعسكرية بالتآمر والتزوير ، واستمرت المعركة نحو عشرة أعوام أعيد النظر خلالها فى القضية عدة مرات ، وانتهت أخيراً محكمة النقض بأن قضت ببراءة الضابط اليهودى (سنة ١٩٠٦) وردت اليه مراتبه وحقوقه ، وأسدل الستار على تلك المأساة الشهيرة التى هزت حياة فرنسا العامة أعواماً طوالاً

هذا وسنفرد فى فرصة قادمة فصلاً خاصاً لهذه القضية الشهيرة ، التى تعتبر من أعظم قضايا التاريخ

السخاوى

سيدى الأستاذ . . قرأت بالرسالة بالعدد ١٠٤ كلمة الأستاذ البحاثة مقريزى هذا العصر محمد عبد الله عنان فى ترجمة السخاوى مالفظه : (ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما إلينا : أولهما كتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب . فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات) الخ . . .

والواقع أن هذا الكتاب كما ذكر العلامة النبهانى فى كتابه (جامع كرامات الأولياء) ليس للحافظ السخاوى إذ قال عاطفاً على ما استمد من الكتب ما لفظه : (وتحفة الأحباب فى الكلام على الأولياء المدفونين بمصر للسخاوى من أهل القرن التاسع وهو غير الحافظ السخاوى) اه وذلك لأنه ذكر فى فاتحته أن اسمه محمد بن احمد الحنفى ، وقد ذكره ابن مخلوف فى طبقات المالكية وأنه فرغ من تأليفه سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وأنه كان حياً سنة ستين وتسعمائة ، فنسبة كتاب تحفة الأحباب للحافظ السخاوى المتوفى بالمدينة المنورة سنة تسعمائة واثنتين خطأ دخل على كثير من أهل العلم يجب ألا يضيع ولا يفوت على البحاثة عنان . . فلذلك لزم التصحيح ، وانى أحيل الأستاذ عنان على كتاب مصرع الامام الحسين ليزداد علماً والسلام ؟

(جرجا) محمود عساف أبو الشباب

منتدى النشر بالنجف

تألف فى النجف هذا المنتدى من صفوة العلماء والأدباء للسعى إلى تعميم الثقافة الاسلامية والعلمية ، وإحياء لغة الضاد ، ونشر المعارف الدينية والأخلاقية فى ربوع البلاد بكل ما لديه من شتى الوسائل المشروعة

وها هو ذا اليوم فى أول أدواره يضع الخطط التى تساعده على إنجاز مهمته العالية وتحقيق رغبته المنشودة ومن بينها دعوة العلماء والمؤلفين إلى مشاركته ومساعدته بأقلامهم ونزوتهم العلمية

ويذيع مجلس إدارته أنه مستعد من الآن لتلقى كل سؤال أو استفتاء دينى أو علمى يرد عليه فيحيله الى اللجنة المختصة للنظر فيه ولاستجواب العلماء ممن تشرف المنتدى بانتسابهم اليه ومن غيرهم من العلماء الأعلام

المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان

قرر مجلس الوزراء اشتراك الحكومة المصرية فى المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان الذى سيعقد بمدينة بروكسل بين ١٦ و ٢١ من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٥ ، وندب الأستاذين مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى لتمثيل الحكومة فى هذا المؤتمر ؛ وربما مثلا الأزهر بعد ذلك فى المهرجان الذى ستقيمه جامعة بودابست فى أخريات شهر سبتمبر بمناسبة احتفالها بالعيد المئوى الثالث على انشائها

أحب شاعرة الى الانكليز

احتفل أخيراً فى انكلترا بالذكرى المئوية لوفاة مسز «هيمانس» الشاعرة المؤثرة التى تعرف فى الأدب الانكليزى «بحبيبة انكلترا»

وكانت وفاتها فى مايو سـنة ١٨٣٥ . وهى شاعرة العواطف ، وشاعرة الأمومة الرقيقة ، ومسرات الأسرة والورع والرضى ؛ ومازال شعرها الرقيق فى كتابيها «كازابيانكا» و«قبور العائلة» مثالاً للنظم الأنيق المبدع الذى يملأ القلب سحراً وتأثراً . وكانت مسز هيمانس أستاذة للخيال الواضح والصور الرقيقة والانفعالات العميقة ؛ وكانت تتبوأ فى عصرها مقاماً عظيما فى الشعر ، ولو أن أسلوبها اليوم قد عفا ؛ وكانت ثقافتها الواسعة ، ومواهبها الفنية موضع الاعجاب ، وكانت تشتهر بالأخص بخلالها الرفيعة وجلدها ورقتها وتواضعها ، حتى كانت تحمل عباقرة العصر مثل وردسورث وشيللى وبروننج وبيرون على احترامها وإكبارها . وكانت ظروف حياتها المؤثرة تزيد فى هذا التقدير ، فقد كانت مسز هيمانس تنظم لتعيش ، ولم يكن يهمها اختيار الجيد من الشعر ، وإنما كان يهمها اختيار أكثر النظم قبولاً وانتشارا

وقد قطعت مسز هيمانس حياة قصيرة مؤثرة . فقد تزوجت الـكبتن هيمانس فى الثامنـة عشرة ، ولم تمض سـتة أعوام حتى رزقت منه أربعة أولاد ، ثم لم يلبث أن غادرها وحيدة . وهنا يبدو نبل هذه الشخصية ، فقد احتملت كل أعباء الحياة صابرة جلدة ، لا يضلها جمالها الباهر عن الطريق السوى ؛ وسرعان ما ذبل هذا الجمال فى حياة ملئها الشجن وهموم الأسرة ؛ وفى سن الحادية والأربعين غادرت مسز هيمانس هذه الحياة بعد أن طبعت أمومة العصر بطابعها ، وتركت لجنسها تراثاً مازال يحمل على التقدير والاكبار

استدراك

كتب إلىّ جماعة يسألونني عن مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسنى رحمة الله عليه فحققت عنها فاذا هى قد احترقت مسوداتها حين احترقت مكتبة الشيخ . ولست أعرف للشيخ مؤلفاً باقياً . أما الفقرة التى سقتها بين يدى مقالتى عن الشيخ فى (الرسالة) الخامسة بعد المائة فهى من ترجمة الشيخ المنشورة فى جريدة ألف باء الدمشقية صبيحة وفاته مكتوبة بقلم أستاذ كبير من كبار تلاميذ الشيخ رحمه الله

وقد كتبت هذا التنبيه كيلا يسجل فى (الرسـالة) مايوهم غير الحقيقة . و (الرسالة) سجل خالد . ومن حق (الرسالة) على كتابها ألاّ يكتبوا فيها إلا حقيقة ، ومن حق قرائها عليها ألاّ يجدوا فيها إلاّ حقيقة

على الطنطاوى

نظريات جديدة

(بقية المنشور على صفحة ١١٩٠)

الجماعة . وعلى هذا فان الملـكية الفردية لا تجب حمايتها إلا بقدر ما يبديه المالك من السداد فى ادارتها بحيث تعاون فى تحقيق الخير العام . وفى القانون الفرنسى ما زالت تعرف الملـكية بالتعريف الرومانى القديم ؛ فهى الحق فى أن تتمتع بشىء وأن تستعمله أو تسىء استعماله ؛ والواقع أن هـذا الحق قد قيد فى العهد الأخير بقيود ما زالت فى ازدياد . ولـكن الهتلريين يرون الغاء المبدأ ذاته ؛ فالملـكية الفردية لا يعترف بها ، وانما يعترف بوضع اليد على الأملاك ، بشرط ألا يتصرف الفرد فيها إلا فى صالح الدولة

وكذلك الأسرة تحميها نفس المبادئ العامة ؛ فانه يحظر على كل فرد «أن يتلف أو ينقص كفايته لانتاج النسل»

وقد ذهب الهتلريون بعيداً فى تحديد واجب الفرد نحو الأمة ، فقرروا أن التضامن اجبارى

تلك هى الأسس الجديدة لهذا التشريع الهائل ؛ وقد اتبع المشترعون الألمان اجراءات محاكم التحقيق (التفتيش) لـكى يصلوا الى غايتهم بأية وسيلة ، وهى تحقيق خير الجماعة القومية وسيادتها ، فجعلوا من القاضى شخصية مطلقة السلطة ، وجعلوه مشرفاً دائماً على أخلاق الفرد ، فمن يحاول غير الزعماء أن يميز نفسه من المجموع ، كان عرضة للقبض والعقاب

واذا كان فى هذه المبادئ ما يروع ، فذلك لإننا منذ عصر الأحياء ، ومنذ عصر الثورة الفرنسية بنوع خاص ، قد شهدنا القوى الفردية تنمو وتتسع إلى أعظم حد ، ولم يفعل الاصلاح الاشتراكى فى عصرنا شيئاً لوقفها . واليوم وقد انتهت الفردية إلى هذا الافراط ، فان الرجعة التى كانت تبدو مستحيلة بالأمس تصبح اليوم محتومة . ذلك أن الحرب ، والأزمة الاقتصادية ، وروح الأثرة المتسلطة على المنتجين ، وكبرياء عظماء الفنانين ، قد أدت إلى الرجعة الجماعية الحاضرة ؛ وسوف تنتهى هذه النزعة بلا ريب الى صنوف جديدة من الافراط ، والى تناسق لا يطاق . ولعلنا نرى الفردية والنزعة التعاونية وهما النزعتان الجوهريتان المتناقضتان اللتان تتجاذبان الانسان ، تنتعشان ، وتشرفان بالتناوب على الحركات الاجتماعية ، دون أن يتحقق بينهما توازن ما ؛ والتوازن كمال يناقض الحياة ذاتها (. . .)

الكتب

١ — **مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين :**

لأبي الحسن الأشعري [1]

٢ — **التيسير فى القراءات السبع :**

لأبي عمرو عثمان بن سعيد الدانى [2]

للأستاذ محمد بك كرد علي

فى مطبعة الدولة فى استانبول طبعت لجنة « النشريات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » هذين الكتابين المعتبرين. نشر الكتاب الأول منهما : العلامة ريتر . وكتب الأشعري مفخرة أهل السنة والاستقامة على كثرتها لم يطبع منها سوى كتابين فى الهند : « الابانة عن أصول الدين » و « استحسان الخوض فى الكلام » وهذا الكتاب فى مقالات الاسلاميين ، هو الذى عني بتصحيحه والتعليق عليه ، ووضع فهارسه السيد ريتر ، وقال فيه : إنه مهم فى بابه لمعرفة فرق أهل الاسلام ، لأن تأليفه أقدم من « الملل والنحل » للشهرستاني و « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادى و « الفصل فى الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الظاهري ، وأن الأشعري أدرك المتأخرين من المعتزلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فاضطر فى نقل بعض ما ينقله عن أوائلهم إلى الأخذ من الكتب المؤلفة قبله فى مقالات الناس مثل مقالات الكعبي والكرابيسي واليمان بن رباب وزرقان وغيرهم ، وهذه قد ضاعت كلها

وقد علل الناشر ضياع الكتب بقوله : إنه كلما كان الكتاب أقدم عهداً كانت نسخه أعزّ وجوداً وأقل عدداً ، وذلك لعدة أسباب : منها استيلاء الفناء عليها بتقادم العهد ، وجريان حكم الزمان عليها بالمحو والافساد ، ومنها ضياعها وتلفها عند استيلاء الأعداء على البلاد وجنايتهم على الكتب بالاحراق والانحراق ، ومنها اعتداء بعض أهل المذاهب على كتب مخالفيهم ، ومنها أن المعلمين والمدرسين الذين كان جلُّ همهم أن يضبطوا قواعد كل علم بأقصر لفظ ، عمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم ، وتنسيق المباحث وترتيبها ، ووصل كل بحث بما يجانسه ، وضم كل فرع الى أصله واختصروها إيثاراً للايضاح والتقريب ، وتسهيلاً للتعليم والتعلم ، فآثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك فصارت المؤلفات السابقة كأنها منسوخة باللاحقة فتركت ونسيت

وكتاب مقالات الاسلاميين بحث مستوفى فى المذاهب والفرق الاسلامية ، لم يستعمل فيه مؤلفه السباب والمهاترة على ما وقع فى مثل ذلك ابن حزم والبغدادى وغيرهما ممن كتبوا فى مناقشة أهل الأهواء وأصحاب المقالات . فالأشعري عمد الى لسان العلم يستخدمه فى ذكر مقالات مخالفيه ؛ وقد حوى كتابه فوائد تاريخية وسياسية ولاسيما فى تدون وقائع من طالبوا بالخلافة من العلويين فى كل عصر ، وفى أحكام الامامة واعتقاد أهل الفرق فيها ، وفى الحكمين والحكم عليهما بما فعلا . أطلق فى كل ذلك العنان لقلمه حتى لا تكاد تستبين أن المؤلف خالف أصحابه المعتزلة فى شىء ، بل هو معتزلي تربية ومنشأ ، وربما جاءه الفيض من الأخذ عن علمائهم ، وإلا كان فقيهاً عادياً من فقهاء عصره ومحدثيه

وفى الكتاب وصف دقيق لمسائل علم الكلام وما اختلف فيه أرباب المذاهب ، كتبه بلهجة سلسة يتفهمها لأول وهلة حتى من ليس له أنسة بمثل هذه الأفكار والعبارات ، وذلك لأن المؤلف هضم ما تعلمه وتمثله ، فوصفه بدقائقه وصفاً قرَّبه من الأذهان . وهذه الموضوعات من أبحاث قدماء العلماء ، واليوم لا يهتم لها إلا خواص الناس ومن هم بسبيلهم من طلاب العلم الديني

والكتاب فى مجلدين بلغا أكثر من ستمائة صفحة ، هذا عدا الفهرس الذى وضعه الدكتور ريتر فى أسماء الرجال والنساء ، ذكر فيه المكان الذى وردت فيه تراجمهم تسهيلاً على القارىء ،

---

(١) مات سنة نيف وثلاثين وثلثمائة (٢) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

وهناك فهرس بأسماء الفرق والطوائف ، وثالث بأسماء البلدان والأماكن . وقد تجلى التوفيق والعناية فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذى يعدُّ بلا جدال من الأمهات فى هذا الموضوع

***

الكتاب الثانى هو « التيسير » فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى ، نشره العلامة برتزل وقال فى المقدمة التى وضعها له بالعربية : « إن علم قراءة القرآن أقدم العلوم الاسلامية نشأة وعهداً ، وأشرفها منزلة ومحتداً ، وكان أول ما تعلم الصحابة من علوم الدين حفظ القرآن وقراءته ، ثم لما اختلف الناس فى قراءة القرآن وضبط ألفاظه مست الحاجة إلى علم يميز بين الصحيح المتواتر ، والشاذ النادر ، ويتقرر به ما يسوغ القراءة به وما لا يسوغ ، وقاية لكلماته من التحريف ، ودفعاً للخلاف بين أهل القرآن ، فكان ذلك العلم علم القراءة الذى تصدر لتدوينه الأئمة الأعلام من المتقدمين

قال وفى الحق إن تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم ، وذلك أن البحث فى مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتتيسر تلاوة كلمات القرآن على أفصح وجه وأبينه ، كان من أبلغ العوامل فى عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكانت ثمرة هذا الاجتهاد والجهد أن القراء تشربوا مزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها . ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين فى علم القراءة ، كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبى عمرو والكسائى بارعين فى علم النحو

ويرى الناشر أن على كل من يتصدى للنظر فى تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التى تتناولها كتب النحويين ، أو للبحث فى تنوع اللغات واختلافها بحسب الأقطار والأمصار ، ينبغى له أن يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع فى درس معانى القرآن ، واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ، ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التى يجدها فى المصحف الذى بين يديه فقط من غير التفات إلى روايه الأئمة الآخرين ؛ فقد غفل عن أمر ذى بال اهـ

والمؤلف كان شيخ مشايخ المقرئين فى الأندلس ، رحل فى أخذ القراءات عن الأئمة فى الشرق « وكان هو من الأئمة فى علم قراءة القرآن ، وطرقه ورواياته وتفسيره ومعانيه وإعرابه ، ولم يكن فى عصره ولا بعده من يضاهيه فى قوة حفظه وحسن تحقيقه ، ونقل عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته ، وما كتبته إلا حفظته ، ولا حفظته فنسيته ؛ وكان أيضاً عارفاً بعلوم الحديث وطرقه وأسماء رجاله ، وبارعاً فى الفقه وسائر أنواع العلوم » خلف فيما قيل مائة وعشرين مصنفاً ، لا يزال بعضها محفوظاً فى بعض خزائن الكتب فى الغرب والشرق ، واعتمد الناشر فى طبع كتاب التيسير على ست نسخ منها ما هو فى دار الكتب ببرلين وفى دار الكتب فى مونيخ وفى خزانة ليدن وبعض خزائن استانبول

وكتاب التيسير كما قال فيه مصنفه مختصر فى مذاهب القراء السبعة بالأمصار ، يتضمن من الروايات والطرق ما اشتهر وانتشر عند التالين ، وصح وثبت عند المتصدرين من الأئمة المتقدمين . افتتح كتابه بذكر أسماء القراء والناقلين عنهم ، وأنسابهم وكناهم وموتهم وبلدانهم ، واتصال قراءتهم وتسمية رجالهم ، واتصال قراءتنا نحن بهم ، وتسمية من أداها إلينا عنهم رواية وتلاوة وأتبع ذلك بذكر مذاهبهم واختلافهم

دمشق **محمد كرد على**

3 me Année, No. 108.

Lundi-29-7-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

٢ — محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة



كان حافظ فى ميعة شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوة على قدر نبوغه؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر؛ ثم عاش عيش الطائر الغَرِد: عمره ساعته، ودنياه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو؛

ويشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحَب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابيــة العقيم التى حَيَّها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشــط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطئ فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبــدؤه الأدبى مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر ، وعرش الخلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع فى مدح عباس وتمجيــد عبد الحميــد ؛ ثم اتصل بالامام وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الانجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصيدة فى رثاء الملكة ڤيكتوريا ، وقصيدة فى تتويج الملك إدوار السابع ، وقصــيدتان فى وداع اللورد كرومر ، عبر بهما عن الرأى السياسى الارستقراطى فى ذلك الحين ؛ ثم خلص للشعب فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقـــة الشابة إلى لواء مصطفى ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانىّ الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره ؛ ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الـكتب) ، وأجزل له المرتب طمعاً فى مواهبه ، وثواباً على فضله ؛ ولـكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة فاستراح للخفض ، واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعا إليه من فترة إلى فترة ؛ فلما خرج على (المعاش) انضوى إلى أعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر الوطنى ، ولـكنه كان قد أصْفى . . .

***

وكان فكر حافظ فيضَ الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الـكثير الغالب من آراء المجالس ، وأقوال الصحف ، ومخزون الحافظة ، فلم تُعنه حياته على التروية ، ولم يَدَعْه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنيعة لوحى البيئة ، وإلهام الفطرة ، وتوجيه المناسبة ؛ فهو فى قصائده للإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل ، وتهالـكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الامام ونعيه ؛ وفى قصائده لقاسم يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه ؛ وفى قصيدته التى أنشدها فى احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم فى تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه ؛ وفى قصائده التى نظمها فى مشروع الجامعة وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الاكثار من الـكتاتيب وانشاء الجامعة ؛ وفى رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب ، والخير والشر ، والغنى والفقر ، بما لا يبعد عن متناول الناس ، ولا يرتفع عن مستوى الجمهور ؛ من أجل ذلك كان فـكره مستقيما لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش ، والسر فيه اعتماده على قوة الاجماع ، لا على غرابة الابداع

***

وكانت ثقافة حافظ ثقـافة الشاعر العربى الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطُّرَف ، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، وإلحاح الحاجة ؛ ولحافظ فى كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز

عكف منذ شب على دواوين الشعراء وأجزاء (الأغانى) يتنخَّلها ، ويتمثلها ، ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده ؛ ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع ويأخذها عن الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض ؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة ؛ وثقافة الشاعر المدنى المجدد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة

***

أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة ، وهو فى ذلك ثانى الخمسة (١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانىّ شعبه ، وتصويره لمساوئ عصره

احمد حسن الزيات

(١) البارودى وحافظ وصبرى وشوقى ومطران

فى رأس البر

للأستاذ أحمد أمين

يعجبني فى رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية . يعيش الناس — كما كان يعيش آباؤهم الأولون — فى أكواخ من الحصر ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ؛ ويلبسون لباساً ساذجاً قريب الشبه بما كان يلبس آباؤهم ، ويسبحون فى البحر عراة ، ويمشون على البر حفاة ؛ ملوا المدنيـة وزخارفها ، والحضارة وبهرجها ؛ وهربوا من المدن وضوضائها ، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها ، وارتموا فى أحضان الطبيعة فأفسحت لهم صدرها ، ينزلون الى البحر فينفضون عنهم هموم الحيـاة ، وينبطحون على الرمل ويذكرون قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

ليس فيها قصور شامخة بجانب أكواخ وضيعة ، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتية أو غازية ؛ ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة ؛ يصعب عليك التمييز فيها بين الغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، إلا فى الآنسات والسيدات فهن يأبين إلا الظهور ، والتمسك بالفروق ، وإلا فى أمثالهن ممن حليتهم لباسهم ، وقيمتهم مظهرهم

خاف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجليتها ورذائلها ؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها ، وتأنف الأنوف من روائحها ، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها ؛ ولا تليفون يرن فى الهجير وفى منتصف الليل فيوقظك من نومك الهادئ ، ويحملك رجاء تنوء بحمله ، أو يصلك بثقيل ينغص عليك الحياة بحديثه ؛ ولا راديو يسمعك اللطيف والسخيف ، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه ، وأشد ما تكون رغبة فيه ، لأن جيرانك يأبون إلا أن ينتفعوا به كاملاً من بدء يمين — شمال ، إلى سلام الملك !

* * *

حياة حرة طليقة ، وجو مفتوح ، وهواء جديد دائماً ، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها ، ولم تحبسه الأبنية الشامخة ، ولم تحجزه الحيطان الأربعة ، تتجدد النفس بتجدده ، وتمتلئ نشاطاً من نشاطه ، يغذى كل خلية غذاء حلواً طيباً ، ويخلع على الجسم لوناً نحاشياً ظريفاً ، وينعش العواطف والروح ، فهى قوية حادة ، شديدة التنبه ، شديدة الاحساس ؛ حتى عاطفة الدين ، فهى أقوى ما تكون ، وأطهر ما تكون ، وأصفى ما تكون ، حينما تتجلى الطبيعة فى ثوبها الفطرى الجميل ، فى السماء والماء ، والمزارع والحقول ، فليس الألحاد والزندقة والتعصب الذميم وضيق النظر إلا وليـد الحضارة المعقدة ، والجو الخانق ، والفكر الراكد ، ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة

فى جو المدن لا يشعر الانسان بالسماء إلا عنـد المطر ، ولا بجمال الشمس ولا جمال القمر ، ولا يحس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد ! كل ما حوله من جمال جمال صناعى ؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور فى منابتها ، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء ، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة وجمال الطبيعة وجمال الخلقة . وهيهات أن يتساوى منتحل وغير منتحل ، فليس التكحل فى العينين كالكَحَل !

إنما يشعر الانسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف ، ويفر من الحضر إلى البدو ، فينكشف له الخلق بجماله القشيب ، وتأخذ بلبه السماء فى لا نهائيتها ، والبحار فى أبديتها ، ويشعر شعوراً قوياً بأنه ذرة من ذرات العالم ، وجزؤ صغير من أجزائه ، ضعيف بنفسه ، قوى بكله ، وأنه لاشىء يوم ينفصل عنه ، وأنه نغمة من نغماته يوم يتصل به

* * *

لوددت أنى خلعت نفسى فى المدينة يوم فارقتها ، فقد سئمتُ نفسى وسئمتنى ، ومللتها وملتنى ، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب نخلعه حيناً ، ونلبسه حيناً ، ويبلى فنجدده ، ونكرهه فنغيره — إذن لاستبدلت بنفسى — ولو إلى حين — نفساً مرحة تستغرق فى الضحك من الشىء التافه ومن لا شىء ، ولا تبكى على ما فات ، ولا تحمل هماً لما هو آت

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً ، ثم تكون فراشة حيناً ، أرشف من هذه الزهرة رشفة ، ومن هذه رشفة ، وأنشر جناحى فى الشمس ، أعيش فى جمال وأغيب فى جمال ، كما تغيب الشمس الجميلة فى الشفق الجميل ، أو كما تفنى النغمة الحلوة فى رنات الآلات ، أو كما تنداح الابتسامة العذبة فى الوجه الصبوح ، أو كما تندمج الموجة العظيمة فى البحر العظيم !

ولكن أنى لى هذا ؟ ولو كان لشكوت وبكيت ، فقد خلقت كما خلق المتنبى

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبى
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

* * *

وخرجت مبكراً والناس نيام ، أمشى على الشاطئ ، وأرقب الشمس فى طلوعها ؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره ، فليس لها تلك القوة العاتية ، ولا الحرارة القاسية ، ولا الأضواء المشية ؛ فيها شىء من الوداعة واللطف والحنان !

ها هى ذى قد طلعت ، فأخذت الحياة تدب فى النفوس ، تلقى أشعتها على البحر فينعقد منه سحاب فمطر فأنهار ، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة ، وقوى ساحرة ، وأفعال عجيبة ! أنظر يميناً فأرى النيل ، وأنظر يساراً فأرى البحر ، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دورته ، وأدى مهمته ؛ قد خرج هذا العذب الفرات ، من هـذا الملح الأجاج ، كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم ! قد سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فاغتصب مجراه ، وأملح ماءه ، ثم فكوا قيوده ، فاسترد حقوقه ، وأراد أن ينتقم من أبيه ، فحاول أن يحتل شاطئه ، ويحلى ماءه ، ولكن يعكر صفاءه ، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب وإذا هما مؤتلفان ، بينهما برزخ لا يبغيان

ثم تسطع الشمس ، ووددت أن تكون مذكرة فى اللغة العربية ، كما هى مذكرة فيما أعرف من اللغة الأوربية ، لأنها تتزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث ، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتنتشى وتبتهج ، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة

وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى ، وتحل فى قلب الانسان فيهدأ روعه ، ويذهب فزعه ، ويطمئن إلى حياته ، وتتحرك ارادته ، وتنتعش آماله

دعنى أتمر ، فالعراء على الساحل مباح ، فأملأ جسمى بأشعتها ، وأملأ شعورى ودمى بقوتها ، وأملأ نفسى بعظمتها وسحرها .

ومشيت إلى قلعة فى رأس البر كنت آنس بها قديماً ، وكان فى كل حجر من أحجارها صفحة من العزة القومية ، والحمية الوطنية ؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشعر بنفسها ، وتدافع بنفسها عن كيانها ، وتحس بتبعاتها ، وتدبر شؤونها ، وتدير أمورها ، كما يتراءى لها — فرأيتها وقد عدا عليها الزمان ، وعلاها البلى ونقض أحجارها ، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها ، ورأيت بها « مدفعاً » قد هزأ به الرمل فغطاه ، وسخر به الصدأ فملاه ، دفن كما يدفن عزيز أرداه الزمان بسهامه ، وذل كما يذل السيد الكريم توالى عليه الدهر بأحداثه ! ورأيتهم أقاموا فى وسطها صهريجاً يخزن الماء لرأس البر ؛ فقلت : سبحانك ربى ، جعلت من مستودع النار ماء ، كما جعلت من الشجر الأخضر ناراً ! لقد كان مكانك رمز القوة فأصبح رمز الرقة ، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدلت بهم ملائكة يوزعون الرحمة ، وكان بك دم يغلى ، فأحاله الزمان القاهر زلالا باردا ، وما أدرى ماذا جاش بنفسى فدمعت عينى

وقالوا قد جننت فقلت كلا ... وربى ما جننت وما انتشيت
ولكنى ظلمت فكدت أبكى ... من الظلم المبين أو بكيت
فان الماء ماء أبى وجدى ... وبئرى ذو حفرت وذو طويت

ثم صحوت فقلت : أتندب كل طلل مررت به ، وتبكى كل شىء رأيته ، وتحزن فى معاهد الفرح ، وتنقبض فى مغانى المرح ؟ من أجل هذا تمنيت — قبل — أن أخلع نفسى ، ووالله لو أمكنتنى الفرصة ثانية ما ترددت ، ولسمحت وما حرصت ، فقد برمت بها وعجزت عن حملها

هيا إلى البحر ! فهناك الفرح والمرح ، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم ، ويداعبون أمواجه وتداعبهم ، وأحياناً ينسون جلاله فيصفعهم ! فيه الحياة ، وفيه القوة ، وفيه العظمة ، وفيه أكبر مظهر لطاحون العالم ، تطحن دائماً ، وتطحن ناعماً !

رأس البر

أحمد أمين

قضايا التاريخ الكبرى

من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعتبر عصر لويس الرابع عشر أعظم عصور التاريخ الفرنسى ، لا من وجهة السلطان الباذخ فقط ، ولكن من الوجهة الاجتماعية والفكرية أيضاً ؛ فكما أنه عصر الفتوحات العظيمة ، فهو أيضاً عصر تقدم فكرى واجتماعى ساطع ؛ ولم تبد الملوكية الفرنسية من قبل قط بمثل ما بدت به فى عصر لويس الرابع عشر من العظمة والبهاء ، ولم يزدهر المجتمع الفرنسى مثلما ازدهر فى هذا العصر ؛ وفيه تتفتح العبقرية الفكرية إلى الذروة ، ويحتشد النبوغ الفكرى أيما احتشاد ، هو « القرن الأعظم » كما ينعت فى التاريخ الفرنسى ، وهو عصر « الملك الأعظم » ؛ وهو عصر كورنى وراسين وراسان ولافونتين وجمهرة كبيرة أخرى ممن يزدان بهم التاريخ الفرنسى

بيد أن هذا البهاء الساطع الذى يشع به « القرن الأعظم » تغشاه الظلمات فى كثير من النواحى ؛ ففيه يتكشف ذلك المجتمع الباهر عن ثغرات خطيرة من الانحلال الخلقى والاجتماعى ؛ وفيه تزدهر الجريمة ، وتنحط النفس البشرية إلى ضروب شائنة من الفساد والاثم تخلق بأشنع العصور

فى سنة ١٦٧٦ كشفت مأساة السموم الشهيرة (١) التى أخذت فيها المركيزه دى برانفلييه بطائفة من الجرائم المروعة عن طرف من تلك الآثام الخفية التى تجثم وراء مجتمع زاهر ؛ وكان ذلك الحدث المدهش مفاجأة مروعة لمجتمع ذلك العصر ؛ فقد ظهر أن السم — ذلك السلاح الخفى الغادر — يحصد علية القوم حصداً ، وأن كثيراً من الوفيات الفجائية المريبة التى وقعت فى تلك الفترة إنما هى جرائم قتل شائنة ترتكب فى سبيل

الانتقام والمال والهوى

بيد أن جرائم المركيزه دى برانفلييه كانت جرائم فردية ، وكانت محدودة المدى ، ولم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ذلك الثبت الحافل من جرائم هائلة مثيرة مما تبث الروع الخفى الصامت إلى المجتمع الباريزى وتصمه بحمأة العار والاثم ، ويدمغ شينها المثير أرفع الرؤوس والمقامات فى ذلك المجتمع الأنيق الباهر

كانت جرائم « السحرة » ، وذيوع الخرافات السحرية بين علية القوم ، ومزاولة هذه الرسوم الوثنية الشائنة ، والتماسها وسيلة لتحقيق أحط الشهوات البشرية ، من ظواهر ذلك الانحلال الخفى الشامل الذى يغشى عظمة « العصر الأعظم »

كان السحر من الأمور التى طبعت أذهان العصور الوسطى بطابعها القوى ؛ وكانت مزاولة السحر جريمة يعاقب عليها القانون فى تلك العصور بأشد العقوبات ؛ وكان يعتبر من السحر كل مالا تسيغه عقلية هذه العصور من الأمور المدهشة حتى ولو كانت مما يدخل فى حيز الاكتشافات العلمية كمزاولة السيميا أو البحث عما يسمونه حجر الفلاسفة ، والتجارب الكيميائية المدهشة ؛ وكان السحر دائماً وسيلة الاجرام ، ترتكب باسمه وفى ظله أشنع الجرائم الدموية والأخلاقية ؛ وكان هذا النوع من السحر الملوث بحمأة الجريمة ، والذى تخضب رسومه الفظيعة فى معظم الأحوال بالدماء البشرية ، يسمى « بالسحر الأسود » أو السحر الذى يقصد به وجه « الشيطان »

ولم تكن عقلية القرن السابع عشر بعيدة عن هذه الأوهام الشائنة ، بل كانت تتأثر بها أيما تأثر ؛ وكان المجتمع الرفيع الذى يحفزه حب المال أو لوعة الهوى أو ظمأ الانتقام أو غيرها من الشهوات البشرية أو المثالب الخلقية يجد فى السحر ملاذه ويعتقد أن السحر مازال وسيلة لتحقيق هذه الأطماع والأهواء

فى ظل هذا المعترك الذى تضطرم فيه الشهوات الوضيعة ، ويملك الايمان بالسحر عقول الخاصة فضلاً عن الكافة وتسرى إلى المجتمع أسباب الانحلال الخلقى والاجتماعى ، كان « السحرة » ومن اليهم من دعاة السيميا والكيمياء يبثون فى المجتمع أباطيلهم ، ويزاولون تلك الرسوم المروعة المثيرة التى تعرف « بالسحر الأسود » ويسلحون الأيدى الغادرة بالسموم المرهقة ، وينظمون أشنع

(١) تناولنا هذه المأساة المروعة تفصيلا فى كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » ص ١٥٨ — ٢١٢

الجرائم الدموية والخلقية ، ويستظلون للتمويه على الكافة بظل الخفاء والمقدرة على تنبؤ الغيب وتسخير القدر ، وتوجيه الحظوظ

وقد بلغ الشغف بالخفاء والتماس السحر ذروته فى ذلك العصر ؛ وكان يتمخض بين آن وآخر عن طائفة من الجرائم الفظيعة التى يكتنفها خفاء السحر وروعته

وكانت جرائم السحرة الشهيرة التى اكتشفت فجأة فى عصر « الملك الأعظم » من أروع هذه المفاجآت التى يرتجف المجتمع لهولها وشناعتها

***

فى يوم من أواخر سنة ١٦٧٨ ، اجتمع فى باريس على مائدة سيدة تدعى « لاڤيجوريه » هى زوجة خياط للسيدات ، محام متواضع هو الأستاذ پيران ، وامرأة « عرافة » مشهورة فى هذا الوقت تدعى مارى بوسى ؛ ففى أثناء العشاء بدرت من العرافة تلميحات خطيرة حول جرائم ترتكب بالسم ، ويشترك فى ارتكابها رجال ونساء من علية القوم ؛ فانزعج الأستاذ پيران ، وأفضى بما سمعه إلى مدير البوليس « لارينى »

وكانت ذكريات جرائم المركيزة دى برانڤليه ما تزال حية رنانة ، فأدرك « لارينى » أنه ربما كان أمام ثبت آخر من الجرائم المماثلة ، فأمر بالقبض على مدام ڤيجوريه ، ومارى بوسى وابنتها مانون وولديها ؛ وذلك فى ٤ يناير سنة ١٦٧٩ ، وأفضت التحقيقات الأولى التى قام بها لارينى نفسه إلى أن قبض فى ١٢ مارس على امرأة تدعى «لاڤوازان» أو مدام ڤوازان ، وهى عرافة شهيرة فى ذلك العصر تزاول السحر وأموراً خفية أخرى ، وعلى ابنتها مرجريت ، ثم على رجل يدعى « لى ساج » وهو شريك لاڤوزان وعشيقها ، ثم على عشرات آخرين ممن ورد اسمهم فى التحقيق ونسب اليهم قسط من الأعمال والجرائم المروعة التى كشفت عنها اعترافات المتهمين

كان لارينى مديراً للبوليس ، يقف بحكم وظيفته على أخطر الأسرار وأفظع الجرائم ، ولكنه لم يلبث أن رأى نفسه أمام معترك هائل من الجرائم التى ترتجف لهولها وروعتها أقسى القلوب وأصلبها ؛ جرائم تمتد إلى النفس والعرض والمال بأشنع الآثام ، وتتطاول إلى الملك وحياته ذاتها ، ويشترك فى تدبيرها وارتكابها نفر من العظماء نساء ورجالاً يزاولون « السحر الأسود » ويشتركون طوعاً فى اجراءاته المروعة الشينة ، ويغمسون أيديهم فى الدم البرىء تقرباً إلى الشيطان ، والتماساً لتحقيق أسفل الشهوات والغايات

وكانت لاڤوازان هى المحور الأكبر لذلك الثبت المروع من الجرائم التى سودت صحف « العصر الأعظم » وهى امرأة تدعى فى الأصل كاترين ديزى ، وزوجها رجل يدعى مونڤوازان ، أو ڤوازان ، ومن ثم كان اسمها . وقد بدأ الرجل حياته تاجراً فى الحلى ، ثم زاول أنواعاً أخرى من التجارة ، ولكنه لم يفلح ولازمه النحس ، فاعتزمت زوجته عندئذ أن تزاول مهنة التنجيم والعرافة . وكانت لاڤوزان فى الواقع ذات مقدرة خاصة فى تفهم نفسية بعض الناس ، وكانت قد درست شيئاً من الفلك ومايتعلق بالسحر من المسائل والرسوم التى كانت ذائعة فى ذلك العصر ؛ فامتهنت العرافة والسحر ، واستقرت فى منزل يحيط به حديقة فى ڤلنيف من ضواحى باريس . وأقبل عليها القوم من كل صوب يستوحون علمها ونصحها ، وكانت تزاول كل مايدخل فى باب الخفاء من قراءة الكف وصنع التمائم والتعاويذ ، والتنبؤ بالمستقبل ، بيد أنها كانت تزاول أعمالاً أخطر ، فقد كانت تبيع السموم لزوجات يردن التخلص من أزواجهن ، أو أقارب يترقبون وفاة المورث ، وكانت تصف الأدوية لمختلف الأمراض ، وتزاول التوليد وبالأخص الاجهاض ؛ وكان بين قصادها سادة من الأكابر وسيدات من أرقى طبقات المجتمع

وكانت لاڤوازان ، كما يصفها المعاصرون امرأة قصيرة القد ؛ مليئة الجسم ، وافرة الحسن ، لها عينان ساطعتان ثاقبتان ، وكانت بما ينهمر عليها من المال من كل صوب تعيش عيشة ترف ومتاع ، تصطفى العشاق حسبما تهوى تحت سمع زوجها المسكين وبصره ، وتقيم الحفلات الصاخبة ، وكانت تعشق الشراب وتفرط فيه ، فلا ترى دائماً إلا ثملة ، تضرب زوجها أوعشاقها وهم عديدون ؛ وكانت تحيا هذه الحياة الحيوانية المحضة فوق أكداس من الأثم ترتكبها كل يوم ، لايزعجها شبح أولئك الذين ترسلهم بسمومها إلى الأبدية ، ولاتلك الضحايا البشرية العديدة التى كانت تزهقها مع شركائها كلما أجرت رسوم القداس الأسود كما سنرى

وكان شريكها وساعدها الأيمن فى تلك الحرفة الأثيمة رجل يدعى «ليساچ» ، وكان أحب عشاقها اليها وأشدهم نفوذاً لديها ، وكان ليساچ يزاول أعمال السيميا ليكتشف ما يسمونه « حجر الفلاسفة» أو المادة التي يمكن أن تعاون فى تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب ، وتمده لاڤوازان كما تمد غيره من السيميائيين والشموذين بالأموال الوفيرة لاجراء التجارب المطلوبة . وكان هذا «الساحر» الخطر من أهل الجنوب واسمه الحقيقى آدم كيريه ؛ وكان يشتغل بتجارة الصوف ، ولكن غلبه شغف السحر والخفاء فاتصل بلاڤوازان ووثق الحب بينهما ذلك التحالف الأثيم ، ووعد لاڤوازان بالزواج متى غدت أرملا . وفى سنة ١٦٦٧ قبض عليه بتهمة « الاتصال بالشيطان » وقضى عليه بالأشغال الشاقة فى الأسطول ، ولكن لاڤوازان سعت لانقاذه بنفوذها واستطاعت أن تستصدر العفو عنه فعاد إلى باريس سنة ١٦٧٢ وتسمى بليساچ ، واستأنف أعماله الأثيمة مع عشيقته

وكان ليساچ وغداً سافلاً لا يحجم عن ارتكاب أية جريمة ، وكان له أكبر نفوذ على لاڤوازان وزميلاتها ، فكان يقتنص منهن الأموال الوفيرة بخبثه ودهائه ؛ وكان يكتب التعاويذ للراغبين ويعقد صلاتهم بالشيطان بتمائم وأدعية مريبة ، وأحياناً يتزيا بزى القسس ويقيم الصلوات والأقدسة ؛ وكان منظره غريباً يضع على رأسه شعراً أحمر ، ويرتدى ثوباً أشهب ومعطفاً غريباً ، وكان القبض عليه المرة الثانية عقب القبض على لاڤوازان فى ١٧ مارس سنة ١٦٧٩

***

كان اكتشافاً مروعاً ذلك الذى وقع به لارينى مدير البوليس من أعمال هذه الطغمة . ولم يكن أمر السحرة مجهولاً ، وكان الهمس يسرى حول آثامهم وجرائمهم فى أرفع الابهاء ؛ ولكن لارينى لم يكن يتوقع قط أن يكشف التحقيق الذى أجراه وأشرف عليه مدى أشهر عن تلك الشبكة السوداء الهائلة التى تغمر العاصمة الفرنسية والتى تجذب شراكها الخطرة أعظم الرؤوس وأعظم المقامات . وقد أثبت لارينى فى ملف التحقيق الذى أجراه أقوالا ومعلومات مدهشة عن أعمال المتهمين وحياتهم الغريبة ؛ ومما أثبته من أقوال لاڤوازان ، إن أفضل ما يعمل هو أن يقبض على كل من يزاول قراءة الكف ، فان هذه الحرفة تكشف عن أمور مدهشة حيثما يمنى المحب بخيبة الأمل ، وإن التسميم جرم ذائع ، وإنه يدفع عن « العملية » الواحدة أحياناً عشرة آلاف جنيه (نحو خمسين ألف فرنك من العملة الحديثة) ؛ وأيد ليساچ هذه الأقوال ، وزاد عليها أن كل أولئك الذين يزعمون أنهم يبحثون عن الكنوز أو حجر الفلاسفة أو غيرها إنما يزاولون أعمالا خفية أخرى ، وأولئك الذين يزاولون السحر إنما يتعاقدون على تسميم زوج أو زوجة أو أب وربما على تسميم طفل فى المهد

بيد أن أروع ما سطره التحقيق أقوال المتهمين عن مزاولة « السحر الأسود » وإجراءاته الدموية المثيرة . وكانت هذه الاجراءات تقترن عادة بأزهاق طفل صغير يسرق أو يؤخذ من بين اللقطاء الذين تقذف بهم الأمومة الأثيمة . وكان يؤتى لهذه الغاية بيغى تمدد عارية بين هالة من الشموع السوداء ؛ ثم يأتى الساحر فى ثياب قس ، وبعد أن يذبح الطفل ، يلقى بعض التمائم والدعوات الشيطانية ؛ وكان الساحرات يبحثن دائماً عن الأمهات الآثمات أو البغايا الحاملات فيجرين توليدهن ويأخذن المواليد برسم القربان ؛ ويلقى بهذه الجثث الصغيرة فى بعض الغابات أو تحرق فى منزل الساحرة . وكانت لاڤوازان أنشط الساحرات فى إجراء هذه الرسوم الهائلة ؛ وكان يعاونها فى إجرائها غير ليساچ قس وغد يدعى الأب جيبورج ؛ فيقوم بقراءة « القداس الأسود » أو قداس الشيطان على أجسام النسوة اللاتى يرغبن فى هذا الاجراء وكن يتمددن عاريات فوق مائدة تؤدى وظيفة الهيكل ، ويوضع الاناء المقدس على البطن العارى ، ويذبح وقت القربان طفل يلقى دمه فى الاناء ، وقد اعترفت لاڤوازان أنها أحرقت فى فرن منزلها أو أخفت فى حديقتها نحو ألفين وخمسمائة جثة من هذه الضحايا الصغيرة البريئة !

هذا طرف مما دونه لارينى فى تحقيقه من أقوال المتهمين أنفسهم . ويعلق لارينى على ذلك بقوله ، إنه يستحيل أن يتصور الانسان أن تكون هذه الجرائم حقيقية أو ممكنة إذا ما تأملناها . بيد أنها اعترافات أولئك الذين ارتكبوها أنفسهم ؛ وتفاصيل الاعتراف لا تدع مجالاً للريب

(للبحث بقية) **محمد عبد الله عنان**

(النقل ممنوع)

جندى الأدب المجهول

للأستاذ عبد الوهاب النجار

أقول جندى فقط لأنه لم يكن ضابطاً كريماً ولا ضابطاً عظيماً ولا ضابطاً صغيراً ، بل كان جندياً . وكفى

والذى أتحدث إلى حضرات الأدباء عنه ، أعتقد أن أحداً منهم لا يعرف عنه شيئاً . وهو المرحوم الشيخ المعمَّر محمد أفندى التميمى بن المرحوم الشيخ أحمد التميمى مفتى الديار المصرية

وكان والده المرحوم الشيخ أحمد التميمى من أهل مدينة الخليل بفلسطين ومن علمائها ومن ذرية تميم الدارى . وقد أتى به إلى الديار المصرية ساكن الجنان ابراهيم باشا جدمولانا الملك فؤاد ، وعين مفتياً للديار المصرية . وظل بتلك الوظيفة إلى أن عزل بالمرحوم الشيخ محمد العباسى الحفنى المهدى — (وقد تولى الشيخ المهدى إفتاء الديار المصرية وهو طالب بالأزهر)

مات المرحوم الشيخ أحمد التميمى عن ولديه عبد الرحمن أفندى ومحمد أفندى ؛ فأما عبد الرحمن فأسرع فى تركة والده إسراعاً شديداً ، فأنشأ له ذهبية فى النيل وجعل مقابض مداريها من الذهب ، والجزء الذى يغرز فى الطين من الفضة ، وجعل نعال خيله من الفضة ! وكان أخوه محمد لا يعصى له أمراً ، فكلما أراد بيع عمارة أو بيت أمضى محمد مع أخيه عبد الرحمن واعترف بقبض ثمن حصته ، وهو فى الواقع لا يناله من ذلك سوى النزر اليسير

فلما فرغت الراحة عمد محمد افندى إلى اسطنبول ليجد واسطة من أصدقاء والده ليمين فى وظيفة . ولست أعلم إن كان أخوه عبد الرحمن افندى سافر إلى اسطنبول أو لا

وآخر عهدى بعبد الرحمن افندى أنه كان مأمور مركز ؛ وكانت له ورشة نجارة بطنطا ، لأنه أتقن فن النجارة أيام أن كان مهيمناً على عمارات والده

وأما محمد افندى وهو أديبنا المجهول ، فلما عاد بالوصية عين موظفاً بتفتيش السنطة والهيايتم التابع لدائرة ثالثة زوجات المرحوم إسماعيل باشا

كان المرحوم محمد افندى التميمى مغرماً بالتدخين فى النرجيلة (الشيشة) ، فلما كان فى اسطنبول خرج إلى متنزه اسمه (الكاغدخانه) ومعه النرجيلة يدخن فيها ، وجاءت السيدات والأوانس من كل صوب وحدب إلى ذلك المكان النزه . ونظر فوجد بقربه سيدة جميلة رشيقة قد جلست ومعها سيدة أخرى . وحانت من السيدة التركية التفاتة فرأت ذلك الرجل الذى يلبس جبة وقفطاناً وعمة خليلية منهمكاً فى كتابة شىء ، فحزرت أنه يكتب عنها ، فأرسلت السيدة الأخرى إليه وكانت تحذق العربية ، فسألته عما يكتب ، فناولها ما كتبه فقرأت :

ظل قلبى فى غزال من بنات الترك يُفكرْ
رمت منها الوصل قالت سن صقللى هيدا سكتَر

أى أنت ملتح ، هلم فاذهب ! فأسرعت إلى السيدة التركية وأرتها ما كتبه وترجمت لها بالتركية ما فى الكتابة من ألفاظ عربية فسرها ما سمعت ، وحلفت بالمحرجات من الايمان إلا ما حل عندها ضيفاً الليلة

ولما كان بتفتيش السنطة ومركزه القرشية عين ناظراً لورشة التصليحات التى أنشأها المرحوم إسماعيل باشا لأصلاح الآلات الميكانيكية ، وكان بناؤها سنة بضع وسبعين ومائتين وألف هجرية ؛ فمر التميمى بالحدادين يحمون الحديد إلى درجة الاحمرار ثم يفطحونه بمطارقهم . فقال مواليا أوله :

لان الحديد للمعلم والحبيب ما لان
وقد ند عن ذا كرتى باقيه

وله لطيفة وهو بالورشة ، فان المرحوم خلف الله باشا عين مفتشاً لتفتيش السنطة والهيايتم ؛ فلما استقر به المقام طلب إحصاء بالعمال الذين بالورشة ومرتب كل واحد منهم أو يوميته ، فلما نظر فى ذلك الاحصاء وجد (خوجة لتعليم العمال القراءة والكتابة وإرشادهم فى أمر دينهم ، ومرتبه جنيه فى الشهر) فقال : هذا الخوجة لا لزوم له . فقال التميمى : إنى فكرت فيما فكر فيه سعادة الباشا وأردت رفته ولكنى وجدت الرجل يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد مجاناً ، ويخطب الناس يوم الجمعة والأعياد بلا مقابل ، فقلت أتركه الآن حتى يأتى (ابن الحلال) الذى يكون قطعُ رزق هذا الرجل على يده . والحمد لله سعادتكم ، شرفتم ويمكنكم

أن تعملوا ما لم أعمله . فقال خلف الله باشا : والله لا أكون ابن ال . . الذى يقطع رزق هذا الرجل على يده . وبقى الرجل فى هذه الوظيفة عشرات من السنين إلى أن توفى

وكان له صديق مُثر من المال ، علم أن التميمى اعتزم الزواج ، وما بينهما من المودة يقضى عليه بتقديم المساعدة و (النقوط) ، فأحدث غضباً لا أصل له ، وفطن التميمى فكتب اليه :

إن قوماً أبغضونا خيفة من قول هاتِ
قل لهم فى يوم عرسى نقطـــونا بالسكاتِ

والأمثال لا تتغير

ولما نقل المرحوم ابراهيم أدهم باشا من تفتيش السنطة والهياتم وعين مديراً للغربية ، طلب أحد العمد ، فخشى العمدة أن يعتريه الباشا المدير بسوء ، وجاء إلى التميمى ليكتب إلى الباشا خطاب عناية به فكتب :

قد ظن هذا رجائى عندكم فأتى مستشفعاً بى فملَ الطامع الراجى
قد ظن عكساً وقصدى من سعادتكم أن تضربوه جزاءَ ألفَ كرباج

وأخذ الرجل الكتاب بعد أن ألصق جوانبه بالبرشام وهو يكاد يطير من الفرح ، وقدم على الباشا وناوله إياه ، فأغرق الباشا فى الضحك وعفا عنه

وله رجز فى الفلاح حين واتاه القطن فى نحو سنة ١٢٨٠ عقب حرب أمريكا ، واقتنى الجوارى البيض والعبيد ، وتأنق فى المأكل والملبس ، أحفظ منه :

من بعد خضر اصار يقْنى كلفدان وطمامه قلدر وخادمه أمان
ولكم مصاغ علقـه بمضهم من فوق زوجته الكثيبة ستهم
تلقاه يرمى اللفظ كالجالوس ويقول عندى نسخة الجاموس

***

وفى أيام اختفاء عبد الله افندى النديم بالقرشية عند المرحوم أحمد باشا المنشاوى ، وكان يسمى نفسه السيد على الادريسى اليمنى ، كان النديم يجالسه كل ليلة ولا يدرى حقيقته . وكان المجلس عندهما إلى ما بعد نصف الليل . ففى ليلة سأل المنشاوى باشا جليسيه عن أرباب الجرائد ، فكان عبد الله النديم يسرع ويجيب ويسبق التميمى إلى الجواب ، فقال المنشاوى باشا وما تقولان فى صاحب الطائف ؟ فسكت النديم أو السيد على الادريسى اليمنى وتكلم التميمى ، وقد رابه شأن النديم ولم يقم من المجلس إلا وهو موقن بأن جليسه فى هذه السنوات هو عبد الله النديم

فلما رجع إلى بيته كتب اليه

يأيها الحبر الذى كالبحر يبعد ساحله
من كان مثلك فاضلاً نمت عليـه فضائله

وأرسل البيتين مع الخادم ؛ فلما قرأها النديم ارتاع وخشى على نفسه . فلما جن الليل وجاء محمد افندى التميمى على عادته لقيه بالعناق ، وكتم التميمى أمره إلى أن أعانه الذى قال إنه علم بالنديم بالجميزة ، وكان الواقع أن النديم أعلن نفسه لذلك الخبر بعد أن مضى على الحكم عشر سنوات شمسية وأحد عشر يوماً

وللتميمى قصائد لا أحفظها ولا أجد من يقفنى عليها الآن ؛ وهو أول من أبرز رواية بالعربيـة وسماها أم حكيم ، وقد مضى على إبرازها أكثر من خمسين سنة

وقولى إنه معمر سببه أن التميمى كان قد تولى عمارة مسجد وضريح سيدى نخر الدين ببلدة طوخ مَزْيد فى عهد المرحوم اسماعيل باشا ، وكانت العمارة ينفق عليها من دائرة ثالثة أزواج الخديو اسماعيل ، وأحيلت الكتابة على والدى رحمه الله وكانا قريبين فى العمر . وكنت إذا سألت كلا منهما عن الأسن منهما أنبأنى كل منهما الآخر بأنه أسن منه ، وقد توفى والدى سنة ١٩١٩ عن نحو مائة سنة ، وعاش محمد افندى التميمى بعده من أربع إلى خمس سنوات ، واعتقادى أنه أربى على المائة

فهذا الرجل فى نظرى هو جندى الأدب المجهول

عبد الوهاب النجار

٦ – النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

المرأة :

ومما آخذه على الكماليين خطتهم فى تربية النساء ، فقد أخذوا بيد المرأة التركية ، ربة الدار الطاهرة ، وأم الأشبال الباسلة ، فقادوها إلى المراقص ، والملاهى ، ومجالس السمر أخذاً بسنن أوربا ؛ وسموا هذا تحريراً للمرأة وانصافاً لها واعظاماً ، واعترافاً بقدرها ، كأن المرأة لاتكون حرة إلا إذا هجرت الدار ، وعمرت المراقص ، وأهملت أطفالها لتجالس سُمّارها ، وتركت سكينة الدار وسعادة الأسرة ، إلى ضوضاء الملاهى وزاع المحافل ! لست آخذ على الكماليين أنهم تركوا المرأة تغشى المراقص اختياراً ، ولم يردوها إلى الدار قسراً ، بل آخذ عليهم أنهم هم دعوها إلى ذلك ، وحرضوها عليه ، وزينوه لها ، بل ألزموها به بعض الالزام حين نظروا شزراً إلى الموظفين الذين لا يأخذون زوجاتهم باتباع السنن الجديدة ، ويريدونهنّ على مسايرة النهضة النسوية ، ويروضونهنّ على أفانين المعيشة الأوربية

فعل الكماليون هذا تقليداً لأوربا وتقرباً اليها ، واستحياء من الاستمساك بآداب لايعرفها الغربيون ، والابقاء على سنن ينكرها السادة الاوربيون . ثم زادوا تقرباً حين أباحوا تزوج المسلمة من غير المسلم ، وقد عاشت المرأة التركية حقباً ترى واجبها أن تربى أشبالها للدفاع عن قومها ودينها ، وحماية تاريخ الاسلام والترك ، وترى نفسها أعز وأرفع من أن يلى أمرها غير مسلم ؛ وكانت هذه الكبرياء عصمة لها ولقومها فى المحن التى انتابتهم ، والفتن المحيطة بهم ، وفى هذا النزاع ، نزاع الحياة والموت الثائر بين الشرق والغرب . فذهبت هذه «النهضة» بكبريائها ، ومحت ما أورثها الاسلام والتاريخ من عزة وإباء

وأتم الكماليون اعظام المرأة وتحريرها بأن فتحوا دوراً للبغايا فسايروا بعض الأمم الأوربية ، وشاركوا مصر الاسلامية فى وصمة العار ، ومحة الخزى ، التى تحاول اليوم أن تمحوها عن جبينها . وقد بلغ من اعتدادهم بما فعلوا ، وافتخارهم بما اقترفوا ما تبين عنه القصة الآتية : حدثنى من لا أرتاب فى صدقه قال : كنت على ظهر سفينة من عابرات المحيط ، ذاهباً إلى المؤتمر البرلمانى فى البرازيل ، وكان على السفينة جماعة من ممثلى الدول يؤمون المؤتمر ، وكان فيهم مندوبو الحكومة التركية ، فجلسنا مرة نتحدث ، وذهب بنا الحديث مذاهب حتى قال مندوب تركى مفتخراً متبجحا : لقد أنفقنا كذا وكذا فى بناء دور فخمة رائعة للبغاء (وذكر مقدارا من المال عظيما جداً ، لا أذكره الآن)

قال محدثى : فلما قام صاحبنا نظر مندوبو الدول الأوربية بعضهم إلى بعض ساخرين متعجبين يقولون : ماذا يريد أن يقول هذا الرجل ؟

* * *

لا يحسبنّى أحد مجادلاً فى سفور المرأة واحتجابها فيقولنّ فيم يجادل هذا الجاهل ؟ لقد سبقته المدنية مراحل كثيرة لجدال الناس اليوم فى اللبس والعرى . لا يقولن أحد هذا فانى لست أنكر على المرأة أن تأخذ طريقها طليقة رشيدة ، تصرّف أمورها وتقوم بقسطها فى الأمور العامة والخاصة على قدر ما تمكنها أعمال الدار والقيام على الأسرة . ولست أنكر أن الاسلام منح المرأة من الحقوق مالم تظفر به نساء أمم فى أوربا حتى اليوم . لا أنكر هذا ولا أجادل فيه ، ولكنى أضن بالمرأة أن تنزل عن عرشها فى أسرتها لتتبذل فى الطرق والمسارح والمراقص ، وأشفق عليها أن يخدعها الرجال لحاجات فى أنفسهم فيزينوا لها كل ما تنزع إليه مآربهم ، ثم يكذبون فيذكرون الحرية والحق والاصلاح والكرامة ونحو هذا من الكلمات الكاذبة الخادعة ، الثائرة الرائجة فى هذا العصر . أيها الناس لا تخدعوا أنفسكم ولا تجحدوا أن لهو المدنية الحاضرة يدور معظمه حول جسم المرأة فى الطريق والمرقص والمسرح وشاطئ البحر . وحسب المرأة ذلة وهواناً أن تكون ألعوبة الرجال حيثما شاءوا وكيف شاءوا . وبعد فهذا أمر لا يعالج بكلمات ، ولا ينفد بيانه فى صفحات ، فحسبى أن أتناوله مجملاً موجزاً لا معدّداً مناهج النهضة التركية الأخيرة

* * *

ويقتضى المقام هنا كلمة موجز عن نساء مصر : تغيرت المرأة

المصرية فى السنين الأخيرة تغيراً عظيما . وبعض هذا التغير خير لا مراء فيه ، فقد تعلمت وبَصرت بمناهج الحياة ، وهذا صلاح وخير ؛ ولكن ما يسمى النهضة النسائية فى مصر تشوبه شيات من الضلال ، وألوان من أفن الرأى وخدعة الهوى ، ويلتبس الخير والشر فى كثير من جوانبها : فى مصر جماعة تتكلم عن نساء مصر كل حين ، وتدعى أنها تنطق بآلام المرأة المصرية وآمالها ، وهى على ذلك لا تمثل إلا جماعة من النساء هن أقرب إلى أوربا من مصر ، وأشبه بالأجنبيات منهن بالمصريات . وأما المرأة المصرية كما نراها وكما نودّ أن نراها فلا تمثلها هذه الجماعة إلا بزعمها ؛ هى جماعة كثيرة القول والعمل فى الجوانب اليسيرة البرّاقة التى لا تكلفها إلا الكلام والاجتماع من حين إلى حين ، وأما جوانب الاصلاح العسيرة التى تقتضى كدّ الفكر واليد وهجر الراحة والرفاهية : جوانب الاصلاح الخلق والدينى التى تحول بين الناس وبين كثير من رغائب المدنية الأوربية ، فليس للجماعة غرام بها ، ولا صبر عليها . لا ريب أن للجماعة أعمالاً مشكورة فى تربية الفقيرات والحدب عليهن ، ولكن أبرز أعمالها أن تجمع الشواب من بنات الأسر الراقية للغناء والرقص وامتاع النظارة بضروب من المناظر وهلم جرّا . يضربن بذلك للمرأة المصرية أسوأ الأمثال ، ويدعونها إلى شر الخطط ، ويحطمن فى ساعات ما وطدته الأمة فى أجيال

كثيراً ما سألت أصحابى : لماذا لا تدعو هذه الجماعة إلى طريقة خلقية رشيدة ، أو سنة دينية حميدة ؟ لماذا لا يطالبن — مثلاً — أن يكون للنساء الحق فى غشيان المساجد أحياناً ليوعظن ويعلَّمن ما منح الاسلام المرأة من حق ، وما فرض عليها من واجب ؟ وقد اطلعت فى عدد الرسالة الأخير على كلمة للأستاذ أحمد أمين « حول المسجد » أخفف عن نفسى بنقل شذرة منها ، قال : « بل لِمَ لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل . فيخصص مسجد كل حىّ وقتاً لنساء الحىّ تعلَّم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتُفقَّه فيه فى دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما . فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحى والدينى لأنها بعيدة من المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها فى الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها . لقد حرمت المرأة من المسجد فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية . لأن الأم — غالباً — هى مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزّيها ، جمحت وغوت . فهى الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يُذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهى »

فليت شعرى ما رأى سيداتنا فى هذا الكلام ؟ أليس الاهتمام بالمساجد فى حالنا الحاضرة أولى من الاهتمام بالمؤتمرات التى يحرصن عليها ويحاولن فيها أن يسبقن نساء أوربا ؟ أذكر أن وفداً من سيداتنا المصريات ذهب إلى مؤتمر نسائى كان فى رومية — فيما أذكر — فهل تدرى فيم تكلم الوفد ؟ تكلم فى « حقوق الطفل غير الشرعى » ! !

وأنا أترك القارئ لنفسه هنا يبدى ما يشاء ويقول ما يريد فى هذا الموضوع . وفى هذا العام ذهب وفد للمشاركة فى مؤتمر نسائى اجتمع فى اسطنبول ، فنادين باسم المرأة المصرية أنهن راضيات مغتبطات بما اختطه الكماليون للمرأة التركية ، وبكل ما فعله الكماليون . وتطوعت زعيمتهن فقالت للغازى مصطفى كمال باشا : إنك تسمّيت « أتاتورك » وأنا أسميك « أتاشرق »

وليس يهمنى هنا أنها منحت الغازى لقباً لا معنى له فى اللغة التركية ، فان معنى أتاتورك : التركى الأب ، فمعنى «أتاشرق» على هذا القياس الشرق الأب وهو كلام لا معنى له . ليس يهمنى هذا الغلط اللغوى ولكنى أقول إن الوفد النسائى ما كان يبين عن آراء المرأة المصرية ، ومعظم المصريين من نساء ورجال لا يرضون مذاهب الكماليين فى المرأة ولا غيرها . ومعظم الشرقيين لا يرضون لأنفسهم مذاهب الكماليين ، بل معظم الترك لا يرضونها ، فان كانت الزعيمة أرادت أن تقول إن الغازى صار بعمله أباً للشرق كله فهى أبوّة لا يعترف بها الشرق ، وهى « أبوة غير شرعية » والكلام فيها كالكلام فى الطفل غير الشرعى

لست ، يعلم الله ، أحاول بهذا توهين المساعى النسائية فى مصر ، ولا تهوين أمرها على الناس ، ولا الزراية على أحد من المتصديات لها ، وما أريد لهن إلا الكرامة والرشد ، والنجح والظفر ، ولكن علينا أن ننصح ما استطعنا وأن نبين الرشد والغىّ

الى الدكتور ابراهيم مدكور

التـــابو

للأستاذ محمد روحى فيصل

قرأت مغتبطاً دراسة الدكتور للخرافة ، وقوة أثرها فى الجماعة ؛ وأشهد لقد أحسن العرض وأتقن البحث ، ثم وفق إلى كثير من الأمثلة الواقعة الجليلة التى استقاها من أوثق المصادر ، والتى تلقى ضوءاً على الموضوع ؛ ولابد أن يكون القراء قد أعجبوا كما أعجبت بعمق ثقافته وسداد تفكيره

يقول الدكتور : « وللخرافة يد أخرى فى الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة فى حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة ، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لا يعدله سلطان قوانيننا المنظمة »

وهذا صحيح ! فلقد شهدت فيمن شهد الرواية السينمائية الرائعة « ضحية المعبد » التى تصور عادات القبائل المتوحشة فى جزر البحار الجنوبية ، وتبرز العقلية الأولية القاصرة فى إطار وضيع مهين ، وتتلخص فى أن فتاة لا بأس بجمالها نذرت نفسها للرب وكرست حياتها لخدمته ، فغدت عذراء مقدسة لا يتزوجها ولا يخاطبها ولا يمسها أحد من الناس . وشاء القدر العابث أن تعشق شاباً طويل القامة مفتول الذراعين ، ويعشقها هو الآخر فيتغازلان ويجتمعان ، ثم يهربان إلى جزيرة نائية خوفاً من عقاب « التابو » ! ! ذلك أن من يهاجم العذارى ، أو يخرق حدودهن ، وينتهك حرماتهن ، جزاؤه الموت ؛ أفلسن للآله وحده ؟ فكيف يَشرَكه فى ذلك آدمى نجس ؟ . . . وراح رجال القبيلة يفتشون عن المجرم ويقتفون معالمه ، وبعد لأى وجهد عثروا عليه فأوثقوه بالحبال ثم هووا به إلى قاع اليم فذهب ضحية المعبد . . . ! !

والتابو Tabou وسم أو علامة يضعها المتوحش على باب داره مثلاً إن أراد حمايتها ، وله بعد ذلك أن يهجرها ما شاء من السنين ، فلن يجرؤ امرؤ على سرقتها أو دخولها . والتحريم الذى تخلعه هذه العلامة على الأشياء والأشخاص ليس كالتحريم الذى نعهده فى شؤوننا الأخلاقية من تحبيب فى الخير وتبغيض فى الشر ، وإنما هو تحريم خاص ، ملفف بالرهبة والتقديس ، ومفعم بالأسرار والمساتير

فالأمراء البولينيزيون الذين يزعمون أن نسبهم الكريم يتصل بالأرباب يطلق عليهم « آربى تابو » أى الأمراء المقدسون ؛ أما كلمة « نوا » فانها تفيد العموم والاشتراك . فالمرأة فى بولينيزيا توصف قبل أن تتزوج بنوا ، أى أنها حرة طليقة تتزوج ممن تشاء ، وإذا تزوجت أسدل عليها ستار صفيق من التابو فتحرم على الناس جميعاً خلا زوجها

وحدث أن رجلاً من « التونجا » مسّ جثة أمير ميت فحكم عليه بالحرمان التابوى عشرة أشهر قمرية لأن الأمراء مقدسون أحياء وأمواتاً ، ومن يمس شعر أمير أو جسده أو عظمه أو يشترك فى جنازته يطوق بالتـــابو . والمعروف فى « نيوزيلانده » ان القارب الذى ينقل جثة لا يجوز استعماله مرة أخرى ، وإنما يطرح أبداً على الساحل بعد طلائه بالبياض

ويذكر الأستاذ ليفى برول فى كتابه « العقلية الأولية » أن الرجل من قبائل « المركيزا » إذا ذبح عدواً له حكم عليه باللامساس عشرة أيام يحرم عليه فى خلالها مس امرأته وإشعال ناره ، فلا بد له إذن من طاه يطبخ له طعامه . والزاد الذى يحمله الشريف على ظهره يحرم على جميع الناس إلا على صاحبه ! كأن

جهدنا ، وأن ننادى بالرأى صريحاً فى غير محاباة ولا مراءاة ؛ فليس من الخير للأمة أن يدهن الناس فى أمورها ، وأن يسلموا للضـــلال زمامها ، وللفوضى قيادها ؛ وليس من البر بالنساء المصريات أن ندعهن سائرات على غير هدى ، فلا نعاونهن بالنصيحة المخلصة ، ونسدّدهن بالرأى الصريح ، فنخذلهن ونقعد عن نصرتهن بالفعل وبالقول ، والله يهيئ لنا من أمرنا رشدا

عبد الوهاب عزام

(له بقيـــة)

التحريم أو « التتويب » قد انتقل من شخص الشريف إلى أشيائه ! وشعور الأمراء محرم لمسها ، ولو أن أميراً مس شعوره بأصبعه فعليه أن يدنيها من أنفه فى سرعة ليستنشق رائحة القداسة التى علقت بها !

وفى الاصحاح السادس من سفر العدد من التوراة كلام مسهب عن شيء يدعى النذير ، فقد أمر موسى أن يقول لبنى إسرائيل : أنه إذا انفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب . فالنذير يجتنب الخمر والخل ولا يشرب من نقيع العنب ، ولا يمر موسى الحلاقة على رأسه ؛ وينتهى النذر الاسرائيلى على نحو ما ينتهى التابو البوليتزى ، وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة فيأتى الكاهن إليه ويضع على يديه طعاماً

ومن عادات اليهود ألا يقسموا بالله الكريم ، فهم يتورعون أشد الورع عن القسم باسم « يهوا » ، ومن يمس جثة ميت عد نجساً لمدة سبعة أيام ، وتنتقل نجاسته إلى كل شيء يلمسه ، وفى ختام الأيام السبعة يغسل لباسه ويستحم بالماء الطهور ؛ وكذلك النفساء فهى نجسة لا تجوز مقاربتها فى حال من الأحوال

أما السبت فله عندهم قواعد خاصة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه . حرم عليهم فيه العمل ، واشعال النار فى المنزل ، وطبخ الطعام ، والخروج من المنزل إلى مسافات معينة . والتاريخ يروى أن پومپي الكبير قد تغلب على اليهود فى القدس لأنهم لم يسعوا إلى مقاومته يوم السبت ، وان انيتوكرس الرابع السلوقى افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا حرمة السبت

* * *

ليست تخلو فكرة التابو من خير ونفع ، ذلك انها كما يقول فريزر فى كتابه « عمل بسيشه » أساس الشعور بحق التملك واحترام الأوضاع الاجتماعية والرابطة الزوجية وما إلى ذلك كله مما يتصل به الناس فى حياتهم الخاصة والعامة . ولكنها على ذلك إنما تدل على انحطاط العقل ، وأخذه بالعنف فى فعل الخير والشر ، وحاجته إلى الحدود والحواجز ، وتعليله الأمور والأحداث على الطريقة الدينية الميتافيزيكية ؟

محمد روحى فيصل

حول الفقه الاسلامى والفقه الرومانى

للأستاذ محمد محسن البرازى

الأستاذ بمعهد الحقوق فى الجامعة السورية

صدفتنى أشغال شاغلة عن قراءة (الرسالة) ومطالعة كتب الأدب عامة منذ شهر وأكثر ؛ ولما عدت ، بعد تحررى من قيود الموانع ، إلى النظر فيما فاتنى من أعداد مجلتنا المحبوبة ، ألفيت فيها مقالين فى موضوع الفقه الاسلامى والفقه الرومانى ، أحدهما لمواطننا السيد على الطنطاوى بعنوان : « حول الأوزاعى أيضاً » (العدد الحادى والتسعون) ، والآخر للسيد صالح بن على الحامد العلوى السنغافورى بعنوان : « هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى أم الحقيقة هى العكس » (العدد السابع والتسعون) ؛ فرأيت أن الواجب العلمى يدعونى إلى أن أقول كلمة فى الموضوع الذى عالجاه . فجئت إلى صاحب (الرسالة) أرجو منه أن يكرم وفادة كلمتى هذه ، وله الشكر خالصاً

يتلخص ماجاء فى المقالين فى مادتين اثنتين : (١) كون الفقه الاسلامى لم يؤخذ عن الفقه الرومانى ولم يتأثر به (٢) كون الفقه الرومانى مأخوذاً عن الفقه الاسلامى

إننى لاأريد أن أبحث الآن فى الشطر الأول من هذا الرأى ، لأسباب منها أنه لايجوز عندى الخوض فى موضوع خطير كهذا بكلمة عجلى ؛ وأما الشطر الثانى فلا أرى منتدحاً عن البحث فيه ، وأعتقد أنه يحتمل الايجاز

علم أصحاب المقالين أن الشريعة الرومانية هى أقدم عهداً من الشريعة الاسلامية ، وأنه لايمكن لعاقل أن يزعم مازعماه بصورة بسيطة مجردة ، ولذلك لجآ إلى تأييد دعواهما بدليل ليس بأقل منها غرابة ، وهو أن الفقه الرومانى المعروف اليوم هو — فى نظرهما — فقه جديد « لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم »

فى كلمات لا تزيد على العشرين ، وفى أقل من مدة قلم ، يقضى الأستاذ الطنطاوى ببطلان ما أجمع علماء الحقوق والتاريخ بلا استثناء على صحته ، وأنكر ما لم يختلف فيه اثنان منذ أن اشتغل الناس بدرس تاريخ الرومان وحقوقهم

ثم أيد الأستاذ العلوى دعوى زميله الطنطاوى ، معتمداً على ما كانت نشرته مجلة حضرمية منذ ربع قرن لأحد السادة العلويين الحضارمة ، فلم يخرج ماجاء به عن المناقضات

إن دعوى كهذه لايعبأ بها فى البيئات العلمية ، لأنها تخالف حقيقة علمية تعد بمثابة البداهة ؛ ولو أنها نشرت فى صحيفة غير موثوق بها ، أو مجلة من عامة المجلات ، لما كنت حركت فى موضوعها قلماً ؛ ولكنها نشرت فى مجلة لم يُكتب لغيرها من المجلات العربية ما كتب لها من الحظوة عند ذوى العلم والأدب ، وسعة الانتشار فى مختلف الأمصار ؛ تصدر عن عاصمة الأدب العربى والفكر الاسلامى فى هذا العصر ، وينظر الناس إلى ما يكتب فيها ممثلاً بصورة إجمالية لآراء عمدتها الذين هم من أركان النهضة الأدبية العربية الجديدة ، ونزعة الاسلام الحديثة . لذلك خشيت أن يحسب علماء الغرب هذا الرأى العجيب معبراً عن اتجاه جدّى للرأى العام الاسلامى المثقف ، فيحكموا علينا بما لا نستحقه

أحسّ صاحب المقال الأول بوهن دليله ، فنهج منهجاً غريباً بعد ذلك ، إذ طلب التدليل على عكس ما ادعى ، أى على أن الفقه الرومانى الحديث هو الفقه الرومانى القديم قائلاً : « ليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة »

الله ! الله ! أيطلب من أحبار العلم التدليل على ماأقرته أجيال من الأعلام المحققين لمجرد دعوى انفرد بها أديبنا الطنطاوى ، وهو على الرغم من تفوقه على أكثر أقرانه بذكاء كان موضع إعجابنا ، لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب فى معهد الحقوق بدمشق ، ولم يتأتّ له النظر فى تاريخ الحقوق ، ولم يقيّض له بعد أن يطلع على ما ظهر فى العالم من مؤلفات فى الحقوق الرومانية وما اكتشف من آثار تاريخية

إن من يقدم على الجزم بأمر كهذا يُحدث — إن صح — انقلاباً فى العالم العلمى لايعادله أى انقلاب عرفه التاريخ فى الدين أو السياسة أو الاجتماع ، لا يحق له أن يكتفى بأن يقول لهذا العالم العلمى : « دلّل أيها العالم على صحة ما عكفت على دراسته

باعتباره صحيحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً

البينة على من ادّعى ؛ فعلى من يقول إن الفقه الرومانى الذى نعرفه الآن مختلق أن يثبت اختلاقه ويبين مختلِقه ، ويظهر مكنون الفقه الرومانى القديم ، أسوة بما يفعله العلماء إذ يكشفون القناع عن الوثائق التاريخية المزورة والكتب المنتحلة

لئن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين ، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا : « هاتوا دليلكم » ، فقد حق كذلك لصاحبي المقالين المتحمسين للأسلام هذا التحمس أن يزعما مازعماه

لقد جمع نصوصَ الشريعة الرومانية وآراء فقهائها حتى بدء القرن السادس المسيحى ، تلك النصوص القانونية والآراء الحقوقية التى هي أساس لدرس الحقوق وبحثها فى جامعات العالم ، ذلك الأمبراطور المتشرع الرومانى جوستنيان Justinien (المتوفى سنة ٥٦٥ ب . م) فى خلال ست سنين (٥٢٨ — ٥٣٤ ب . م) وأضاف إلى ذلك القوانين التى أصدرها ؛ وقد عرفت هذه المجموعة الحقوقية منذ بدء القرون الوسطى ب « Corpus Juris civilis » .

وكان بين العلماء الذين يشتغلون تحت رعاية الأمبراطور الفقيه أساتذة فى معهد حقوق بيزانس : (القسطنطينية) ، ومعهد حقوق بيروت

إن هذه المجموعة الحقوقية قد انتقلت إلينا بنصها وفَصّها ، وهى مؤلفة من أربعة كتب أو مجموعات صغيرة : ال « كوديكس Codex » ، وال « ديجست Digeste » وال « انستيتود Institutes » ، وال « نوفل Novelles » ؛ ولا تزال نسخ قديمة من هذه الكتب أو المجموعات القيمة محفوظة فى المكاتب الكبرى فى أوربا يرجع عهد بعضها إلى القرن السادس (ب . م) ، أى إلى القرن الذى عاش فيه جامعها وواضعها الامبراطور جوستنيان نفسه

ومن أجلّ هذه النسخ المخطوطة نسخة من ال « ديجست Digeste » كتبها خطّاطون إغريقيون فى القرن السادس والقرن السابع (ب . م) ، معروفة بال « فلورنسية Florentiene » لوجودها فى مدينة « فلورنسه » منذ سنة ١٤٠٦ [1] . وقد نشرت هذه المخطوطات مصورة تصويراً فوتوغرافياً ، وحققها العلماء الاختصاصيون فى المخطوطات ، ولم يطعن عليها طاعن ؛ وعثر على مخطوطات كثيرة من عصر « جوستنيان » مكتوبة فى اللغة اليونانية على ورق البردى ، نشر قسماً منها العالمان الألمانيان « ميتيس Mitteis » و « ويلكن Wilcken » سنة ١٩١٢ ونشر الأستاذ « جان ماسپيرو Jean Maspero » عدداً كبيراً من هذه المخطوطات المدونة على ورق البردى فى مجموعة متحف القاهرة Catalogue des papyrus Grecs d'époque Byzantine (سنة ١٩١٠ — ١٩١٤) بل إن المتاحف والمكاتب تحفظ أيضاً نسخاً مخطوطة أصلية لمجموعات قانونية سابقة لعهد « جوستنيان » كالمجموعة القانونية للأمبراطور « ثيودوسيوس Theodosius » ، وكتاب المتشرع « غايوس Gaius » المعروف بال « Justitutes » ، ومؤلفات أخرى ، منها مؤلف معروف بـ Fragmenta Vaticana وضع فى القرن الرابع (ب . م) وعثر عليه فى مكتبة الفاتيكان سنة ١٨٢٠

ثم إن الفقه الرومانى هذا قد عمل به بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى روما ، وبعد وفاة الامبراطور جوستنيان ، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية ، وهذا أمر لم يختلف فيه العلماء المؤرخون . فبلاد فرنسا الجنوبية ظلت خاضعة لأحكام الفقه الرومانى بصفة حقوق عرفية حتى قبيل الثورة الفرنسية . هذا عدا البلاد التى تأثرت كثيراً أو قليلا بالحقوق الرومانية ، كايطاليا وألمانيا ، حتى إنكلترا بلاد العرف والتقاليد . وقد بقى الفقه الرومانى معمولاً به فى عصرنا هذا فى بلاد جنوبى أفريقية الخاضعة لأنكلترة

أما المناقضات التى وقع فيها السيد صالح العلوى نقلاً عن السيد العلوى الحضرمى ، فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة الـ « ٧٨١ » من الرسالة . فبعد أن قال إن الفقه الرومانى « اختفى ثم اكتشف ، ولم يظهر ويعمل

(١) راجع تاريخ مخطوطات الحقوق الرومانية فى مقدمة العلامة « مومسن Mommsen » فى مجموعة جوستنيان التى قام بطبعها ؛ وراجع ذلك مختصراً فى كتاب الحقوق الرومانية للأستاذ العلامة « جيرار Girard » ص ٨٣ وكتاب المؤسسات الحقوقية الرومانية للأستاذ الكبير « كوك Cuq » ص ٦١ هامش ٨

به إلاّ فى القرن الثانى عشر ، وانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى عشر » ؛ وقال فى السطر الـ « ٢٢ » من الصفحة نفسها : « ان دعوى اختفائه أكذوبة » ، ثم مالبث ان استند إلى قول العلامة « سافنيه » : « ان القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع »

أما وقد صح لدى السيد العلوى قول « سافنيه » هـذا ، فهو مضطر إلى الاعتراف إذن بأن الفقه الرومانى المعروف لدينا الآن ، هو تلك « القوانين الرومانية التى لم تختف لأنهـا ظلت معمولاً بها إلى اليوم » ، ومرغم على التسليم بأن تلك القوانين الرومانية القديمة التى هى أقدم عهـداً من الفقه الاسلامى ، لم تختلق اختلاقاً ولم تلفـق تلفيقاً من قبـل العلماء الحديثين ، ولم تؤخـذ عن الفقه الاسلامى ، خلافاً لـما ادعى . ولا أدرى كيف يورد قول سافنيه هذا ويؤيده ، ثم يحاول ، بعد القول المستشهد به بسطر واحـد ان يأتى بأدلة على اقتباس القوانين الرومانية من الحقوق الاسلامية

قلنا إنه لا يجوز مبدئياً طلب التدليل على أن الفقه الرومانى الحديث هو نفس الفقه الرومانى القديم لمجرد دعوى وحيدة فى بابها . ثم إذا قبلنا لزوم التدليل ، فمـا هى وسائل البينة ؟

إن السيد الطنطاوى يتطلب « الأسانيد الصحيحة ، والروايات المضبوطة »

ان البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ؛ فاذا كانت هـذه الأمور غير مدونة بنفسها ، كالحديث الشريف[1] فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، واقامة الدليل على صدق الرواة ، إلى آخر ذلك مما هو معروف فى أصول علم الحديث . أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه ، لم يعـد مجال حينئذٍ إلى الأخـذ بطريقة الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخته الأصلية التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت عن هذه .

فالقرآن الكريم مثلاً ، لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه ، وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت إلينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهـد قريب من عهد نزوله ، لم يُلجأ إلى الرواية لاثبات صحته

وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الذى دوّن وجمع فى عهد جوستنيان ، فهو لا يثبت بالروايات والأسانيد ، ولـكنه يثبت بنسخه المخطوطة القديمة التى هى من عصر جامعه ومصلحه جوستنيان . وهـذه النسخ قد عثر عليهـا ولا تزال محفوظة ؛ ولو لم يكن على الفرض ، بأيدينا منها ، إلا ما هو منذ القرون الوسطى ، لوجب أيضاً ألا نشك فى صحتها ، لأن علماء تلك القرون المظلمة لم يكن لديهم من الـكفاية والمقدرة العلمية مايمكنهم من وضع حقوق راقية كالشرع الرومانى ، فالأولى ألا يشار إلى الروايات والأسانيد فى موضوع الحقوق الرومانية وغيرها من الحقوق التى دونت عند وضعها

هل بعد الوثائق الأثرية والنسخ المخطوطة القديمة حاجة لدليل على صحة ؟ إن القوانين والأحكام الحقوقية الرومانية المعروفة فى عهدنا هـذا هى نفس القوانين والأحكام التى عرفها الرومان فى القرن السادس الميلادى وقبله

قد يغضب صاحبا المقالين فيقولان إن هذه النسخ المخطوطة القديمة نفسها مصطنعة لفـّقها الأوربيون ؛ فاذا بلغت بهما الحماسة الدينية القومية هذا الحدّ من إنـكار الحقائق العلميـة التاريخية الراهنة لم يعد آنئذٍ مجال للبحث

ولـكن هل يجوز لنا أن نتهم جميع علماء الغرب بلا استثناء بالتزوير ؟ وما الذى يسوغ لنا ذلك ؟ أو لا نجد بينهم أناساً وضعوا الحقيقة فى أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شىء ؟ ألا نرى بينهم عدداً غـير قليل دافع عما يعتقد أنه الحقيقة مخاصماً بذلك رجال الدين ، ومعادياً فى هذا السبيل السلطان الجائر ؟

ألم ينافح كثير من علماء المشرقيات عن ديننا الحنيف ، ونبينا العربى ، وحضارتنا الاسلامية ، ومدنيتنا الشرقية ، تجاه حملات المتعصبين من أبناء جلدتهم ودينهم ؟

حسبنا أن نذكر على سبيل المثال أسماء الفرنسيين : « جوستاف لوبون » صاحب كتاب حضارة العرب و « هوداس » و « مارسيه » ، مترجمى صحيح البخارى للفرنسية ، و « درمنغيم »

(١) الحديث الشريف لم يدون كالمذكرات العصرية أو التآليف الموضوعة ، بل كان عبارة عن الأقوال التى كان ينطق بها الرسول « ص » فى مجالسه بين أصحابه وفى خطبه ومواعظه ، أو الأحـكام التى كان يفصل بها الخلافات ، أو الأعمال التى كان يقوم بها والتى صارت تعتبر سنة يقتدى بها ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يأمر بتدوينها ، إنما حفظها أو حفظ قسما منها من سمعها من أصحابه فتناقلوها بروايات مختلفة فيما بينها فى بعض الأحيان . وهكذا انتقلت بطريقة السماع حتى شرع فى تدوينها بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة

صاحب كتاب حياة « محمد » ، و « ماسينيون » مدرس العلوم الاجتماعية الاســلامية فى كلية فرنسا ، وصاحب المؤلفات الكثيرة عن الاسلام ، ومدير مجلة المباحث الاسلامية ؛ ويكفينا أن ننوه بتلك الوقفة الشريفة التى وقفها هذا الأستاذ الأخير سنة ١٩٢٨ دفاعا عن المدنية الاسلامية ، ورده البليغ على المسيو « لويس برتران » الذى حمل على الاسلام والعرب فى مقال نشرته فى ذلك العام جريدة « الفيجارو » الباريسية

أيعقل ألا يوجد رجل واحد شريف منزه عن التزوير بين علماء أوربا من فرنسيين ، وألمان ، وانكليز ، ومجر ، وايطاليين ، واسبان ، وروس الخ . ؟ فلو لم يوجد إلا عالم واحد صادق يقول الحق ، لكان بلا ريب قد رفع صوته عالياً أمام هذه الفرية الفظيعة التى يتهم بها السيدان ، الطنطاوى ، والعلوى العالم فى الغرب ؛ ولكننا شهدنا قبل مقالى حضرتيهما حرباً قلمية دونها حرب البسوس ، وخصاما علمياً دونه خصام الملل والنحل ، ودعاوى ذم وتزوير لا تجاريها دعاوى « آثار كلوزيل Clausel » الحفرية . ونحن نعلم أن العلماء فى أوربا يتجادلون ويتناظرون فى أمور نعدها فرعية وزهيدة

أضف إلى ذلك أن العلماء الاختصاصيين فى الحقوق الرومانية ليسوا جميعاً من عرق لاتيني أو ثقافة لاتينية ، بل هم من مختلف الأعراق والأمم ؛ وثمّ علماء من الألمان هم جهابذة فى الفقه الرومانى ، أمثال « سافيني Savigny » و « ايهرينغ Ihering » لا يمكن أن نتهمهم بتعصب للرومان ، وقد ساروا جميعاً فى ضوء الحقيقة التاريخية المقررة مطابقة الفقه الرومانى المعروف فى عصرنا للفقه الرومانى القديم

لم يمنع العلمـاء الأوربيين عامة تفاخرهم بشرع الرومان الذى ورثوه من الاقرار باقتباس الرومان شيئاً غير يسير من شرائع الأمم الشرقية التى سلفتهم أو عاصرتهم مباشرة ، أو عن طريق الأغريق ، حتى أن عالماً عظيم القدر هو من أكابر الأثريين الأستاذ « ريفيو Revillou » الفرنسى وضع كتاباً دلل فيه على اقتباس قسم عظيم من أحكام قانون « الأثنى عشر لوحاً » الرومانى ، وهو أقدم قانون لدى الرومان من شريعة المصريين القـدماء مورداً للنص الرومانى والنص المصرى ، ومبيناً ما بينهما من شبه لا مراء فيه ؛ وبهذه الطريقة العلمية ، وبعد تنقيب وبحث مدة أعوام ، عمـد إلى اثبات دعوى الاقتباس والأخذ ، لا بمجرد القول يثيره غرب الشباب

إن علماء يوجد بينهم أمثال « ريفيو » ، وأمثال المستشرق الفرنسى « هوداس » الذى يقول : « إن القرآن ليحوى بصورة كامنة جميع ما يمكن أن يصـل اليه العقل البشرى من معارف [1] » و « كولد زيهر » الذى يقول : « يجب على المرء إذا شاء أن يكون عادلاً أن يسلم بأن فى نظريات الاسـلام قوة فعالة متجهة نحو الخير ، وبأن حياة توافق هذه النظريات تستطيع أن تكون حياة لا تشوبها شائبة من الناحية الخلقية ؛ فهى توجب الرحمة لمخلوقات الله جميعاً ، وحسن النية فى المعاملات ، والمحبة والوفاء ، وكبح غرائز الأثرة [2] » ، والبارون « كارادى قو » الذى يكتب صراحة عن ابن خلدون : « انه لم يسبق قط لعقل من العقول أن يكون لديه فكرة فى فلسفة التاريخ أكثر وضوحاً من فكرة ابن خلدون ؛ وأن ابن خلدون هو سلف علمائنا الاجتماعيين الحديثين الخ [3] » . وعلماء آخرون هم فى هذه المنزلة أو أسمى ؛ إن علماء كهؤلاء لا يمكن أن يزوّروا بداعى التعصب الدينى شريعة يسمونها بالفقه الرومانى ويقتبسونها عن الشرع الاسلامى ؛ ولا يعقل أن يسكتوا أمام تزوير كهذا

ثم إن بين أحكام الحقوق الرومانية ، وأحكام الشريعة الاسلامية ، ولا سيما فيما له صلة بالأحوال الشخصية ، وحقوق الأشـياء (حق الملك وما يتفرع عنه) اختلافاً وتبايناً لا يدعان عدا الأدلة التى ذكرناها مجالا للشك بأن دعوى اختلاق الفقه الرومانى من قبل علماء حديثين اقتبسوه عن الفقه الاسـلامى ضرب من الخيال

فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية ، وكره لأوروبا والثقافة الغربية ، فيسرفوا فى القول حتى يجانبوا المنطق

إن الحقيقة فوق العاطفة والهوى ، والعلم لا وطن له . ثم إن فى دعاواهم الغريبة وتهمهم الفظيعة ، بنيّة خدمة الاسلام ما قد يضرّ بالاسلام ويسىء بثقافة المسلمين الظنون

محمد محسن البرازى
أستاذ فى معهد الحقوق بالجامعة السورية

(1) Houdas : l'islamisme P 13. edit Paris 1904
(2) Goldziher : Le Dogme et la loi de L' islam trad fr. P. 15.
(3) Baron Carra de Vaux : Les Penseurs de l' islam t = p 278. ed. Poris 1927

في الإصلاح العلمي :

الأزهـــــر

بين الجامعية والمدرسية

بقلم محمد طه الحاجري

تسيطر على الدراسة العاليـة فى مصر روحان ، ما زالتا تصطرعان وتنتضلان ، كما يصطرع الحق والباطل ، فى عنف وقسوة حيناً ، وفى هدوء وهينة حيناً آخر . إحداهما روح جامعية تقوم على تمثيل العلم فى أصح صوره وأدق معانيه ، وتهذيب العقل فى أوسع باحاته وأكمل مجاليه ، وتربية الملـكات العالية التى يقوم بها ذلك العالم الصغير ، وتطلب الحقيقة فى مختلف أشكالها ، وبشتى وسائلها ؛ والأخرى روح مدرسـية تعتمد على قشور من العلم لا تغنى عن العلم شـيئاً ، وتلقين لبعض الحقائق المقررة كأنها حقائق مطلقة ، وإغفال لحرمة العقل والملـكات الانسانية لأن الأمر أهون من ذلك فيما يزعمون

والأولى روح مطلقة تأبى التقيد ، بعيـدة الأفق لا يكاد يحدها حد ، إلا ما اقتضته طبيعة العلم واستلزمته أساليب التفكير الصحيح . والأخرى لا حياة لها إلا فى أثقال من القيود المرهقة ، واسداد من الحدود الضيقة ، توقف الفـكر ، وتبلد العقل ، وتعطل المواهب ، وتجعل من الرجل آلة طيّعة ، وكائنا منفعلاً لا فاعلاً . ففرق ما بين الروح الجامعية والروح المدرسـية ، هو فرق ما بين الروح الفاعلة المختارة ، والآلة المنفعلة المنقادة . تلك توجه العلم للعـلم ، وتطلب الحقيقة من أجل الحقيقة ، وتقدّر المسائل العلمية تقديراً ذاتياً ، لا يخضع للهوى ، ولا يتكيف بغاية معينة مرسومة ، ليست من العلم ولا من الحق ولا من الحياة الفاضلة . وهذه جعلت العلم مركباً إلى العيش ، ووسيلة إلى نوع من الحياة الدنيا ، وآلة صماء لتهيئة غرض محدود وإصابة هدف معين ، فوضعت له المناهج والرسوم ، وثقل بالأصفاد والقيود ، وأقيمت من حوله الأسداد والحدود ، وحصن من أن تصل إليه شعاعة من أشعة الروح الجامعية النفاذة ، فتثير فيه طبيعة الثورة على تلك اليد الثقيلة الباطشة

وتتنازع الروحان المهيمنة على العلم ، ولـكن الغلبة للروح الجامعية مهما أقيمت فى وجهها الصعاب ، واكتأدت سبيلها العقاب ؛ ذلك أن قوتها من قوة العلم ، والعلم قوى غلاب ، لا يصده صاد ولا يغلبه غالب . والروح المدرسية روح مصطنعة ، أوجدها الضعف ، ودعمها الاستعمار ، وقام من حولها دعاة الذلة والمسكنة يسندون ما وهى ، ويرأبون ما تصدع ، ويلونونها بألوان فاقعة تأخذ بأبصار الغفل السذج

هذا إلى أن الروح الجامعية روح عريقة فى مصر تضرب إلى حـدود بعيدة من تاريخنا العلمى ، وتتمثل فى ذلك التوثب الفكرى المجيد الذى يبدو — فى أروع مظاهره — فى ذلك التراث العلمى الذى خلفه أجدادنا من رجال الأزهر : جامعة العلم ومثابة العلماء مدة من القرون مديدة ، جديرة أن تلبسنا ثوب الفخر ، وتقوى فى نفوسنا الاعتزاز بالروح الجامعية ، وتبث فينا القوة على تعزيزها ودفع المعتدين عليها ، دون أن تفرقنا فى ذلك الأهواء المقيتة ، وتوزعنا العصبيات الفارغة . بل كلنا أمام العلم والتاريخ جامعيون : نستمد من روحنا العلمية وتاريخنا الجامعى قوة على قوة وعزة فوق عزة ، ونستمسك بجامعيتنا ونستعصم بها من عوامل الضعف أو التسفل ، ومن منازعة أهواء الحياة ، والتفريط فى جانب العلم

فلست أذهب مذهب القائلين بأن الروح الجامعية فى مصر وليدة الجامعة الأولى أو الثانية ، أو أنها جاءت إلينا من أوربا مع العائدين إليها من المصريين ، أو مع الأساتذة الأجانب القادمين أو المستقدمين ؛ فلنا جامعيتنا الأصيلة المنبعثة عن أقدم الجامعات ، ولنا تقاليدنا العلمية الصحيحة التى تشبع فى أنفسنا الرغبة العلمية وترضى فيها العزة القومية ، وتبعث فيها المضاء والحمية ، وتعصمنا من مهاوى الروح المدرسية التى يتكاتف ربائب الاستعمار وأبواقه وأنصاره والمخدوعون فيه والعمون عنه على تثبيت أقدامها ، ونشر سمومها ، وتزيينها فى أعين الغفل الواقفين عند الظواهر ، المفتونين عن الحقائق ، فى أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان : من النظام والجمال ومراعاة الزمن ومسايرة الحياة ومطالب العيش ، وما إلى ذلك من العبارات الخادعة

وتلك هى الخدعة التى تخشى أبلغ الخشية وأعظمها اعتلاجاً

فى القلب أن يقع الأزهر فى حبالتها ، وأن يتردى فى مهواتها . ونرجو ألا يكون اندفاعه فى سبيل الاصلاح والتجدد مغشياً على بصره أن يتنبه إليها ، وألا تكون مسايرته لروح العصر صارفة له عن روح العلم وصبغته التى صبغ عليها ، وألا ينسيه جديده الذى يشتد عدواً فى طلبه وتحقيقه عن تقاليده العلمية الأولى التى تفخر بها مصر والشرق العربى بله الأزهر نفسه

وإنه لحقيق بالأزهر فى وقاره ورزانته ، وزمامه بيد الأستاذ المراغى فى بصره وحكمته ، ألا يمنعه طلب الجديد عن التمسك بتقاليده ، وألا تخدعه مطالب الحياة عن روحه الجامعية التى قام عليها بناؤه ، وارتفع بها مجده ؛ ولعله لا يني فى تصفية ما خلفه العهد المشئوم من آثار لتلك الروح المدرسية المشئومة ، كانت هى القاضية عليه ، لو طال بها الزمن فيه ، فى غفلة من هؤلاء وإغماض من أولئك ، لولا لطف الله بنا ورحمته عليه

إنما ينبغى أن يكون أساس الاصلاح فى الأزهر هو الأخذ بأساليب البحث الحديثة ، ومجاراة الرقى العلمى فى مجالاته العليا ، ومسايرة الحركة العلمية فيما يتصل بنواحى دراسته ، والاتصال بالحياة المصرية اتصالاً نبيلاً يعينه على تأدية رسالته ، إذ يهيئ له وسائل الاصلاح الاجتماعى ، ويمهد له سبل الدعوة إلى الحق والفضيلة والدين ، مع الاحتفاظ بتلك الروح الجامعية التى تأبى أن تتعبد لما دون العلم من المطالب الدنيا ، وتلك الصوفية العلمية التى تفرض على صاحبها الفناء فى العلم ، والاندماج فى الدرس ، والترفع عن الدنيات . وللأزهر من [illegible]يعه فى ذلك شواهد باهرة وآيات ظاهرة : فليس فى ذلك القول ما يسوغ لقائل أن يرميه بأنه خيال شاعر أو حلم نائم

لا ! بل تاريخ العلم كله ، وسير العلماء الغابرين والمعاصرين ، شاهد بأن الروح العلمية الخالصة التى ترفع العلم فوق كل اعتبار ، وتذهب به إلى منزلة من التقديس عالية ، هى وحدها التى ينبغى أن تسود جامعات الدرس ومعاهد البحث ، وهى وحدها التى تخلع على صاحبها ثوب المجد ، وترفعه إلى منزلة الخلود

فليس « تمصير » الأزهر أن ينزل به إلى تلك الدركة الدنيا من الحياة حيث يضطرب الناس ويتعايشون ، وأن يعد أهله لمرافق الحياة وقضاء ضرورات العيش ليس غير ، ليصير أحدهم معلم صبيان ، أو مأذون قرية ، أو امام مسجد ، أو واعظاً فى مدينة . وتصبح تلك الجامعة الكبرى ولاهم لها إلا تخريج أولئك وتزويدهم بما لابد منه لأمثالهم ! وياضيعة التاريخ المجيد إذن ، وياهوان الاسم الكبير الضخم ، ويا للسخرية من تلك الصفة الجامعية التى وسموا بها تلك المدرسة !

كم يمتلئ صدرى أسى وحسرة حتى ليكاد قلبى أن يتفطر حين أشعر بذلك المصير الذى أخشى أن يهوى إليه الأزهر فى سبيله إلى الاصلاح ، ومسراه نحو التجديد ، لولا أمل يغمر قلبى فى حكمة الأستاذ الأكبر وبصيرته ، وروحه الجامعية التى تتجلى فى أحاديثه وخطبه ، وفى أنه يترسم الأستاذ الامام « قدس الله سره » فى خطواته الاصلاحية ، ومراميه العلمية

إن الضعف النفسى هو الثغرة التى تنفذ منها الروح المدرسية إلى الأزهر . فما أكثر ما تضيق النفوس بالكمال ، وتنوء بتكاليف المثل الأعلى . ولكن الأمر فى الاصلاح العلمى يجب ألا ينزل على حكم الضعف ، فان العلم يتطلب بطبيعته القوة المتحكمة ، والعزمة المصممة ، كما يجب أن يسمو المصلح فوق الاهواء فلا يداهن فيها ، وفوق شهوات النفوس فلا يتألف عليها أو يتملقها

أنا لا أقول إن « العلم زبال » كما كان يقال فى الأزهر ، فقد تطورت الحياة الاجتماعية تطوراً لا يسيغ ذلك القول ؛ ولا أقول إن العالم يجب أن يعيش فى صومعة يتابع فيها دراسته ، ويوالى فيها تأملاته ؛ أو يقنع بالدون من العيش فى مقابل طموحه العلمى ، فهذا مالا سبيل إليه مطلقاً ؛ ولكنى أقول يجب ألا يكون العيش غاية العلم ، فانه متى صار أداة لمرافق الحياة وجب أن يتكيف بما تقتضيه ، لا بما يقتضيه البحث العلمى والحقيقة المنشودة . وأى مسخ للعلم وتحويل له عن سبيله أشنع من هذا ؟ وانى أعيذ الأزهر — وله من ماضيه المجيد معاذ ومستعصم — أن يحقر تاريخه ، وينكر ماضيه ، ويكون صاحب هذه الجناية . ثم لعله مع هذا لا يوفق فى تهيئة الترف والرفاهية والحياة الكريمة لرجاله ، وبالها من عثرة !

وما أحقه إذن بقول الله جل شأنه : خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

على أن الحياة لا تضن على الرجل الكريم الذى يبذل نفسه فى سبيل العلم بما يضمن له راحة البال ، وهدوء الضمير ،

وكرامة النفس ؛ ومتاع العيش . ومن فوق ذلك كله مايستشمره من سعادة لا تعـدلها سعادة فى كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموفقة

ولقـد أحس بأن الناس بدأوا يمجون ذلك الصنف من المعاهد الذى تهيمن عليه الروح المدرسية . وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين انطبعوا بطابع تلك الروح ، فصاروا بالآلات التى تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيويتهم دائبة على الخلق والابداع . ولئن لم يتجل هـذا المظهر اليوم تجلياً قاطعاً يمتاح الشبهة ، فان الحياة صائرة إليـه ، ما من ذلك بد ؛ وبين أيدينا مقدماته جلية

فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير ، ولا يصرفنه المتاع العاجل عن العاقبة القريبـة ، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح ، وعن النظر فى منطق الحياة الذى لا يتخلف ؛ ولا تغرنه الحياة الدنيا عن الآخرة ، فمـا متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

الجو فى القصـــة

بقلم محمود عزت موسى

قبل أن نستعرض بعض مسائل هذا البحث ، نتقدم بسؤال صغير : هل يخلق جو القصة قبل تكوين القصة ذاتها ، أى قبل الألمام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها ؟ إن الاجابة على هذا السؤال قد تبدو مربكة ، كثيرة الشعاب ، والواقع غير هذا ، فان أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذى « يؤدى » أو هو الذى يساعد على تأدية عملية الخلق فى الرواية أو القصة ، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض ، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب فى قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذى تقع فيه هذه العمليات ، إذ أن القصة كأى شىء حى يحتاج إلى الجو الذى يؤهل له عملية الظهور فى الحياة والنمو والاكتمال

ذكرت (آنا جريجوفنا) فى مذكراتها عن زوجها فيدور دوستويفسكى القصصى الروسى الخالد أنه لما كان فى سويسرا ، كان كثير الاضطراب والملل والسأم ، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً ، بل كان كثير التحنان إلى روسيا دائم الشوق إليها . وقد بدا هذا ظاهراً فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بعض خلصائه فى روسيا ، وقد كان دوستويفسكى فى تلك الآونة التى قضاها فى سويسرا يعانى ضيقاً مالياً خانقاً ، وكانت الديون التى ألزم نفسه أداءها بعد وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى فى سويسرا مأمناً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى بلاده لمطالبته بسـداد ديونهم أو زجه فى سجن المدينين حتى يوفى دينه . . لكن هذا الرجل العظيم لم يغفل قط يوماً أثناء إقامته فى سويسر الحنين إلى روسيا حتى أتيح له ذلك بعد سنوات . فلم يكد يصل إلى وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب فى عروقه قوية مشبوبة . . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتنقطع عن زيارة بيته على أثر وصوله !

كتب دوستويفسكى فى بعض رسائله « إننى أحتاج إلى الجو الروسى حتى أستطيع أن أكتب كما أريد » وهـذه العبارة الدقيقة تكاد تحل بنفسها موضوع هذا البحث . فان هذا القصصى على الرغم من أنه عاش فى روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاها فى الخارج ، ومع أنه استطاع أن يختزن فى ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث ، وأن يخلق الجو الروسى فى كافة رواياته التى ألفها فى سويسرا كنتيجة للاعتبارات السابقة ، إلا أنه مع هذا كله خشى إن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذى اختزنه فى حياته الماضية ، وشعر بحاجته — على حد التعبير الادبى — إلى أوكسجين روسى يملأ رئتيه . لأنه استشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات فى خلق الجو فانه فى حاجة إلى أن يكون دائماً فى ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته . أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب

إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص ، هذا الجوهو ذوب مواهبه ، هو العالم الذى يضع فيه أفكاره ، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية ؛ فاذا رأينا رجلاً مثل دستويفسكى يحتاج إلى

جو روسيا لتكوين أعماله الأدبية ، فهو يعطى لهذا الجو شكلا ولوناً ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسيين وإن اتفقو جميعاً فى شىء واحد ، وهو الجو العام لبلادهم ، إلا أن لكل منهم جوه الخاص . ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين

والقصصى الذى لا تلمح فى عمله جواً خاصاً به ، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده ، أو ترى جوه خليطاً من تأثرات شتى ؛ هـذا القصصى لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً . لأن التركيز ينقصه ، بل هو قصصى « اكتسبَ » فن القصة اكتساباً ، والتقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين ، واستلب من كل الأجواء الأدبية التى عاش فيها شيئاً ، ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة . وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء ، لأنه شائع بين كافة الفنانين ، لاشخصية له بينهم

إن أهمية وجود الجو فى القصة لاحد لها . فان هذا الجو هو الذى تخلق فيـه الشخصيات والحوادث ، وكلما كان القصصى أو المصور ، أو الموسيقى ، أو الشاعر ، مؤمناً بالجو الذى يعيش فيـه ارتفع فنه إلى الذروة ، واستطاع أن يبرع فى ايضاح عمله الفنى

قد تكون القصة — فى موضوعها — بسيطة ، لاشـذوذ فى حوادثها ، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى فى القصص الرخيص ، ومع هذا فان القصصى يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصى ؛ وذلك لأن طريقة العرض والتقديم والجو الذى تنطلق فيه القصة هى التى تحيا بها القصة . ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين ، فان القصصى لايمتاز عن غيره بكثرة الاغراب فى الحوادث ، بل هو يمتاز بجوه ، هذا الجو الذى تحيا فيه شخصيات قصصه ؛ حتى ليشعر القارئ بأنه يعيش مع تلك الشخصيات ، وبهذا يحس القارئ أنه أمام عمل فنى مجيد ، جدير بالتأمل العميق ، لايمكن أن يذهب أو يضمحل بعـد قليل كما تذهب صور الحوادث التى يقرأها الانسان فى الصحف ، والتى يعتقد بعض الناس — خطأ — أن هذه الحوادث من القصص ، وهذه الحوادث فى المعنى الفنى أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة

ولنقرب هذا ، نقول إن كثيرين يسجنون مثلاً ، فاذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه فى المدة التى أمضاها فى السجن اقتصر على ذكر الحوادث ، وهذا شىء عادى يمكن لكل انسان أن يفعله ؛ بينما لايعمد إلى ذلك الفنان الذى يعيش فى جو السجن ، فهو يرى الحوادث التى وقعت له فى السجن فى المكانة الثانية . أى أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً ايجابياً لخلق الاحساسات والتأملات والأفكار ، بعد أن انعكست عليه حوادث السجن المختلفة ، فأخرجها على النحو الذى أحس به ، وهذه هى شخصية الفنان . إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بسائر الناس ، ويرى المنظر ، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة ؛ بل يراه بعينه الفنية التى تنفذ إلى أبعاد شتى لايمكن أن تخطر على ذهن عادى ، أو تلفت شعوره

إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لاتكفيان لكى يكون القصصى كاتباً مجيداً ، يستطيع أن يخلق الجو القصصى ؛ وقد يبرع القصصى فى تكوين القصة من كل جوانبها ، ولكنه يفشل فشلاً تاماً فى ايجاد الجو ، ولنضرب المثل على هذا نقول : إن الأغانى الريفية تحس فيها حرارة الايمان بالبيئة ، وهى على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التى تفسد طبيعة الأغانى وتباعد بينها وبين الحقائق ، وقربها من الطبيعة وتعبيرها المبين عن مشاعر انسانية مأخوذة من البيئة هى فى قيمتها الفنية أسمى من الأغانى التى لاتعتمد على الجو ، بل تعتمد على الامعان فى التأثير بذكر الهجر ، والوصال ، والدموع ، وما إلى ذلك من العواطف التى يمكن حشدها فى كل أغنية فى أى اقليم . وقد تكون الأغنية الأخيرة فى تجويدها ورقتها وزخارفها ، أحسن من الأولى صنعاً ، إلا أنها مفقودة الطابع

وعلى هذا الوضع نقول بأن « الجو » لايمكن أن يخلق عند الفنان إلا إذا كان مؤمناً كل الايمان بالبيئة ، وحقيقة الفن الذى يعالجه . . . ؟

محمود عزت موسى

للتاريخ

الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

« بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس
من نور الذكر الحكيم » سعد زغلول (١)

بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعي عهدٌ وذمّة ، وله عليّ حرمةُ المعلّم والأب والصديق ؛ أفترى كل أولئك يمنحني الحقّ أن أكتب عنه كما عرفتُه ، وأخذتُ عنه ، واستمعتُ إليه ، واستمتعت بفنّه وأدبه ومجلسه ؛ أم تراه سيغضب إذ يراني أتناول حياته وأدبه فأنشر منهما على الناس ، ثم لا أنبئه بما اعتزمتُ إلا حين تنبئه الصحائفُ المنشورة ، على حين أجالسه كل مساء . . . ؟

وإني لحريص على رضاه ، وما أعلم أنه يغضبه أن يحسن رأيي فيه أو يسوء ؛ فإنه ليعلم علمي أن ذلك حق الأدب ، لا يمنع منه تفاوتُ المنازل أو تداني الرتب ، ولا يؤثر فيه حق المعلم والأب والصديق ، بل لعله إذ يغضب أن يكون غضبه من أنه يؤثر العيش في عزلته التي رضيها لنفسه ، بعيداً من ضوضاء الحياة وصخب الناس ، منعزلاً في (طنطا) الحبيبة إليه ، عن مجالي الأدب ومزدَحَم التأديبن في (القاهرة)

على أني إلى ذلك لا أستطيع أن أردّ طَلِبة للأستاذ الزيات ، وهو قد طلب إليّ أن أكتب هذا الفصل عن الرافعي ، على علم بمنزلته عندي ومنزلتي عنده ؛ أفتشفع لي هذه المعذرة عند الأستاذ الرافعي أم سيشفع لي الأستاذ الزيات . . ؟

* * *

تمهيد :

سمعت اسمَ الرافعي لأول مرة مقترناً إلى نشيده الخالد : « اسلمي يا مصر . . . » في حفلٍ حاشد بطنطا ؛ وكان لاسمه يومئذ في أذني رنينٌ عذب ، امتزج بأنغام ذلك النشيد ، وتألف لي منهما لحن عُلوِيٌّ ساحر ، فيه جمال وعذوبة ، وفيه اعتزام وقوة . على أني لم أكن أعرف يومئذ أهو الرافعي صاحب (الأخبار) (١) ، أم رافعيٌّ آخر ، يجمع بينهما وحدة اللقب وشرعة الوطنية

ومضت سنوات ، وشدوت من العلم ما شدوت ، وإذا صديق يدفع إليّ كتاب « رسائل الأحزان »

كنت يومئذ في بُكْرة الشباب ، في تلك السن التي تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين ، وفكر حالم ، ورأس يزدحم بالأماني ؛ وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود ، حتى يعرف أن دنياه من دنيا الناس ، ويحسّ الفرق بين عالم قلبه ، وعالم حسّه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة يذرف دمع عينيه ودمع قلبه ، فلا يطرب إلا لأنغام الحزن ، ولا يُسرِّي عنه إلا رسائل الأحزان . . . !

واستهواني عنوان الكتاب ، فتناولته أقلّب صفحاته ، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة . . حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » فإذا شعرٌ عذب يخالط النفس ، وينفذ في رفق إلى القلب ؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة ، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة . وحبّبَ إليّ هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه في رويّة ومهل لعلني أن أستدرك ما فاتني من معانيه ؛ وأدّخر لنفسي قوةً من سحر بيانه ، وصدق عواطفه ؛ وعُدت إليه أقرؤه قراءة الشعر ، أفهمه بفكري وشعوري ، وأنظر فيه بعينيّ وقلبي ؛ فإذا الكتاب يكشف لي عن معناه . .

وأحببتُ الرافعي من يومئذ ، فرُحتُ أتتبّع آثارَه في الصحف والكتب ، لا يفوتني منها شيء . وأشهد ، لقد كنت أجهد جهداً شديداً في فهم كتابة الرافعي ؛ لأني لم يكن لي عهد بمثلها فيما أقرأ ، وما كنت أقرأ من قبلُ إلا لازجاء الفراغ ، ألتمسه في ذلك النوع الهيّن من أدب القصص والصحف ؛ على أنني كنت إلى جانب ذلك أحب الشعر ، أقرؤه فأفهم ما أقرأ ، فكان لي من ذلك ما أعانني على فهمِ الرافعي ، ثم الاعجاب به من بعد ، ثم ألا يعجبني إلا مثلُ ما يكتب . . . .

---

(١) من كتاب لفقيد الشرق الزعيم سعد زغلول إلى الرافعي ، في تقريظ كتابه « إعجاز القرآن »

(١) هو المرحوم أمين بك الرافعي صاحب جريدة (الأخبار) المصرية ، وابن عم الأستاذ مصطفى . . .

صلتي بالرافعي :

كنت أعرفه وأسمع عنه ، على حين لا يعرفني ولا يسمع بي ، وليس عجيباً ؛ وكنت ألقاه في الطريق منطلقاً إلى غرض ، يهز في يمناه العصا ، ويتأبط بيسراه عدداً من الصحف والمجلات والكتب ، واسع الخطو لا يتمهل ، ماشياً على حيد الطريق لا يميل ، ناظرا إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهم باجتياز الشارع ؛ فاذا ألقيت إليه تحية ، رفع يمناه بالعصا إلى رأسه من غير أن ينظر يمنة أو يسرة أو تضيق خطاه ؛ وكنت أرى ذلك فأحسبه نوعاً من الكبر وأرستقراطية العلماء ، فباعد ذلك بيني وبينه إلى حين . . .

ففي خريف سنة ١٩٣٢ اجتمع بطنطا طائفة من الشباب على تأليف رابطة أدبية باسم « جماعة الثقافة الاسلامية » ، تقوم أغراضها على العناية بشؤون الأدب والاجتماع ، والعمل على إحياء مجد العرب والاسلام . وتذاكر المجتمعون فيمن يمكن أن ينضم إلى الجماعة من أهل الرأي لتقوى به على تنفيذ أغراضها ، فكان اسم الرافعي أول هذه الأسماء

وذهبت اليه عن أمر الجماعة في وفد ثلاثة ، فلقينا الرجل مرحباً مبتسما وقادنا إلى (دار كتبه) ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزل فيها عليه الحكمة ويلقى الوحي ، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث ما نكاد نشعر أن الزمن يمر

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب من فوقه تحجبه عن عيني محدثه ؛ وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام ، تطل من بين صفحاتها المطوية قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد ، أو أن له وقفة عند هذا الموضع من الكتاب سيعود إليها ؛ وعلى حيطان الغرفة أسونة الكتب المتراصة ، لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئت من حكمة ، وما أكبرت من عطف ، وما استعذبت من فكاهة ؛ وللرافعي فكاهة رائقة يخترعها لوقتها لا تملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقر المصنوع ؛ على أن له في فكاهته مذاهب عقلية بديعة ، تحس فيها روحه الشاعرة ، وفنه البكر ، وحكمته المتزنة ، وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد يكون كثير من مقالات الرافعي برهاناً على ذلك ، فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة

وطال بنا المجلس وخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف ، وإذا هو يطلب إلينا البقاء ، ويلح علينا في تكرار الزيارة ، ويكشف لنا عن سروره بألا نغيب مجلسه ، وعرفت الرافعي عرفا تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفني هو أيضاً فأصفاني عطفه ومودته

اختبار !

وجلست إليه في الزورة الثانية وبين يديه صحفه وكتبه ، فدفع إلي صحيفة يومية كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة لشاعر كبير ، وطلب إلي رأيي في القصيدة . لم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبته يقصد إلى أن يشاركني في لذة عقلية أحسها في هذا الشعر ؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ورأيي فيها ، وتناولها مني ليرى اختياري ، فما عرفت إلا وقتئذ أنه كان يختبرني ؛ ولكني — والحمد لله — نجحت في الامتحان قدراً من النجاح . . . !

وتكرر هذا الاختبار مرات وهو لا يحسبني أدرك ما يعني ، على أن إدراكي هذا قد جعلني من بعد أكثر تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ . وأولاني ثقته على الأيام ، فكان علي من بعد أن أقرأ أكثر ما يهدى إليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التي يصح أن يقرأها منها ، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته ؛ وكنت أنا أكثر ربحاً بذاك . . .

الشيخ الرافعي . . . .

كثير من الذين يقرأون للرافعي ويعجبون به ، لا يعرفون عنه إلا هذا الأدب الحي الذي يقرأون ؛ بل إن أكثر هؤلاء القراء ليتخيلونه شيخاً معتجر العمامة ، مطلق العذبة ، مسترسل اللحية ، مما يقرأون له من بحوث في الدين ، وآراء في التصوف ، وحرص على تراث السلف ، وفطنة في فهم القرآن ، مما لا يدركه إلا الشيوخ ، بل مما لا يدركه الشيوخ . . . وكثيراً ما تصل اليه الرسائل بعنوان : « صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى صادق الرافعي . . . » أو « صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . . . »

ومن طريف هذا الباب رسالة جاءته من (حلب) منذ قريب ، يبدي كاتبها دهشته أن يرى صورة الرافعي منشورة في

(الرسالة) إلى جانب مقالته فى عدد الهجرة ، مطربَشاً ، حليق اللحية ، أنيق الثياب ، على غير ما كان يحسب ؛ ويتساءل كاتب الرسالة : لماذا ياسيدى أبدلتَ ثياباً بثياب ، وهجرتَ العمامة والجبة والقفطان ، إلى الحلَّة والطربوش ؟ ألك رأى فى مدنية أوربا وفى المظاهر الأوربية غير الرأى الذى نقرؤه لك . . . ؟ »

وما كان هذا السائل فى حاجة إلى جواب ، لو أنه عرف أن الرافعى لم يلبس العمامة قط ، وهذا لباسه الذى نشأ عليه منذ كان صبياً يدرج فى طربوشه وسراويله القصيرة ، يوم كان تلميذاً يدرس الفرنسية إلى جانب العربية بمدرسة المنصورة . . .

نشأته :

على أن نشأة الرافعى كان لها أثر بالغ فى هذا الاتجاه العقلى الذى برز فيه وتفرَّد به ؛ فهو قد نشأ فى بيت له نسب عريق فى الاسلام . وأنت إذا رجعت إلى تاريخ القضاء فى مصر إلى قرن مضى ، رأيت لاسم (الرافعى) تاريخاً فى كل ديوان من دواوين القضاء والافتاء . وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعى الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبى حنيفة أتباع فى مصر ؛ فهوشيخ الحنفية فى هذه الديارغير منازع ، وقد تخرَّج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب ، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمد البحراوى الكبير ؛ كما تخرَّج على يدى أخيه الشيخ عبد القادر الرافعى كثيرٌ منهم ، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن فضيلة الأستاذ محمد بخيت مفتى الدولة السابق ، مدَّ الله فى حياته . وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الافتاء كلها محبوسة على (آل الرافعى) ، حتى ذكر اللورد كرومر فى بعض تقاريره : « إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً » . .

وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرازق الرافعى) كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وكان رجلا ورعاً له صلابة فى الدين ، وشدة فى الحق ، مابرح يذكرها مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا . وبيت الرافعى فى (طرابلس الشام) من البيوت الرفيعة ، ومايزال كعبة يحجّ إليها العلماء . واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون . . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى وإن كان قد ربى تربية مدنية كالتى ينشأ عليها أكثر أبناء هــذا الجيل لم يزل بعضَ أهله ؛ وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها فى سبيل الدين ، وينافح الشـِّرك ، ويدعو إلى الله . وما جهادُه فى ذلك ــ على تسلُّط أسباب الفتنة والزيغ فى هــذا الزمان إلا حلقة من سلسلة جهاد طويل ، أفرغها آباؤه حلقةً حلقة منذ انحدر أولهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . .

***

الرافعى الشاعر

أفرأيت الرافعى وهــذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم لذى تلقّاه فى المدرسة ؛ ومن أين للرافعىّ أن يعرف هذه القناعة . . . ؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكبّ على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها وينبش عن دفائنها ؛ فحصّل ما حصل من علوم اللغة والدين ، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية . وكان فى نفس الرافعى هوى قديم أن يكون شاعراً . . . فأخذ يقرض الشعر ، وأتمّ طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين . . . وقدم بين يدى ديوانه مقدمة بليغة ، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوى الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعى الشاعر الأديب فى ديوانه وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشىء فى العالم العربى ؛ فقد كتب فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء ، فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى ما يأتى :

« وقد صدَّره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر ، وتقسيمه ، وبيان مزيّته ، فى كلام تضمّن من فنون المجاز ، وضروب الخيال ، ما إذا تدبّرته وجدته هو الشعر بعينه . . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يُستحبّ أن يخلو منه ؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملتْ محاسنه ظهر فى جنبها أقلُّ العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلق به هذه الشوائب ، ورجاءَ أن يتنبّه إلى مثلها فى المنتظَر ، فان الناظم ــ كما بلغنا ــ

لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الافراد المجلِّين في هذا العصر ، وممن سيُحَلّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر . . . »

الرافعي وحافظ

لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحده هو الذى تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم ؛ فقد نال يومئذ أكبر قسط من عناية الأدباء في عصره ؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم ، بعث بها إلى الرافعي في سنة ١٩٠٦ تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشئ الجبار :[١]

أراك وأنت نبْت اليوم تمشي ... بشِعرك فوق هام الأوّلينا
وأوتيتَ (النبوّةَ) في المعاني ... وما جاوزتَ حدّ (الأربعينا)
فزنْ تاج الرياسة بعد (سامي)[٢] ... كما زانتْ فرائدُه الجبينا
وهذا الصولجان فكن حريصاً ... على مُلكِ القريض وكن أميناً
وحسبك أن مُطريَك (ابن هانى)[٣] ... وأنك قد غدوت له قرينا

نبوءتان

لم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشباب من فنون الشعر ، ولم يكن معروفاً له اتجاه أدبيٌّ إلى غير هذا اللون من شعر الشباب ؛ على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الامام (محمد عبده) ، في كتاب بعث به إلى الرافعي سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) تدعو إلى العجب والتأمُّل ؛ إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ؛ وأن يقيمك في الأواخر مقام حسّان في الأوائل . »

أفكان الشيخ محمد عبده يُلَقَّى الغيب ، فيعلم من شأن الرافعي في غده مُقَامَه في الدفاع عن الحق والذود عن لغة القرآن ؛ أم استجاب الله دعاءه للرافعي كما استجاب دعاءه لحافظ . . . (١)

(١) أتاحت لي صحبة الرافعي ثلاث سنين ، أن قرأ أكثر رسائل الأدباء إليه بخط أصحابها ؛ فكل ما سيأتي ذكره منها في هذا المقال أثبته عن بينة

(٢) محمود سامي البارودي باشا ، المتوفى سنة ١٩٠٤

(٣) ابن هانئ : أبو نواس الشاعر العباسي المشهور ، ويعني به حافظ نفسه

وأشبهُ أن يكون نبوءة أخرى ما كتبه المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا من تقريظه ديوان الرافعي في جريدة اللواء : « وسيأتي يومٌ إذا ذُكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان . . . »

ولما همّ الكاظمي الشاعر أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب إلى الرافعي : « ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر . . . »

(للحديث بقية) محمد سعيد العريان

(١) لما عرب حافظ كتاب (البؤساء) عن الفرنسية ، أهداه إلى الأستاذ الامام مع كلمة جاء فيها : « وقد عنيت بتعريبه لما بيني وبين أولئك البؤساء من صلة النسب . . . » فيقال إن الأستاذ الامام كتب إليه يمازحه : « لو كان البؤس هو الذى أعانك على تعريب هذا الكتاب ، فاني أدعو الله أن يزيدك بؤسا . . . ! » فكان حافظ — رحمه الله — يقول : « استجاب الله دعاء الامام ! » وقد عاش حافظ مدة حياته بائسا ومات بائساً

حافظ بك ابراهيم

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد أحمد العجان

تتمـــة

— ١٢ —

نصائحه الى اليائسين :

١ — الهجرة خير للفقير :

إن ضيق العيش لا يرضى به إلا ذليل خطمه الذل ، وجبان أقعده الخوف ؛ والكسل والعجز والخمول آفة المصرى ، وكثير من الشرقيين ضربوا فى الأرض ، وركبوا البحار ، فأثروا

أليس خيراً للمعدم أن يجوس خلال البلاد ، يطلب سعة ويبتغى سعادة ؟ لقد سبقه فى الهجرة كثير من أبناء الشام ، ورجال الشرق :

ما عابهم أنهم فى الأرض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يَضِيرْهُم سراء فى مناكبها
فكل حى له فى الكون مضطرب
رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا
إلى المجرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع
مدوا لها سبباً فى الجو وانتدبوا

وقديماً غادر هو الوطن ، ونزح عن بلاده ، يطلب عيشاً ، ويروم رزقاً :

نزحت عن الديار أروم رزقى ... وأضرب فى المهامه والتخوم
ولولا سورة للمجد عندى ... قنعت بعيشتى قنع الظليم

وكان فى مقدوره أن يتقاعد لو كان يرتضى وجدان مواطنيه ، ولكنه يأبى أن يكون خاملاً :

فياليت لى وجدان قومى فأرتضى ... حياتى ، ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة
لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
يضيق على السورى رحب بلاده ... فيركب للأهوال ما هو راكبه
ويخرج بالرومى مذهب رزقه ... فتفرج فى عرض البلاد مذاهبه

وعجيب أن يقيم بيننا الغربى فيثرى ويخصب ، ونحن قعود عن منافسته وسبقه ومجاراته

سابق الغربى واسبق واعتصم ... بالمروءات ، وبالبأس اعتصاما
جانب الأطماع وانهج نهجه ... واجعل الرحمة والتقوى لزاما
وامتط العزم جوادا للعلا ... واجعل الحكمة للعزم زماما

ومع هذا الفقر الذى ساءل من أجله السراة والمترفين ، والذى من أجله حبب الهجرة ودعا إلى الارتحال ابتغاء الرزق ، ومع حاجته إلى الأنصار والأعوان يمدون له يد المساعدة ، ويقدمون له المطايا ، فانه جد حريص على كرامته ، يحتفظ بها ويرعاها

ولقد راق لديه ما فعل « فيكتور هيجو » بعد أن زج فى السجن ، وحشد فى زمرة السفاكين والمجرمين ، وأراد الولاة الغاصبون أن يمنوا عليه بالعفو ، فأبى واستكبر أن تسدى إليه العفو يد مذنب أثيم :

عاف فى منفاه أن يدنو به ... عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتدانى ونسوا ... أنه ذاك العصامى الأبى
كتب المنفى سطراً للذى ... جاده بالعفو فاقرأ واعجب :
أبرئ عنه بعفو مذنب ؟ ... كيف تسدى العفو كف المذنب؟

وكثير من العلماء النابهين ، والشعراء والكاتبين ، والأئمة والزعماء ، درجوا فى منابت الفقر ، وقاسوا محن العيش ، فطلبوا الجاه فى العلم ، والشرف فى الكرامة ، والهيبة فى الأباء ، وخلقوا لأنفسهم مجداً لا يقاس به عرض الدنيا : فلقد كان بشار بن برد الشاعر النابه من أولئك الفقراء ، إذ كان أبوه طياناً يضرب اللبن ، وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة ، والجاحظ يبيع الخبز والسمك ، وأبو تمام يسقى ماء بالجرة فى جامع مصر ، كما كان أبو حنيفة بزازاً ، وكما هو مشاهد الآن فى زعامة الأمم الراقية أمثال روزفلت ، وهتلر ، وموسولينى

إن الظروف القاسية تحطم عظماء الرجال ولكنها لا تجرؤ أن تحطم التفاؤل عند المتفائلين ، وهؤلاء الذين يجالدون آلام الجوع والمسغبة ، وفى قلوبهم إيمان وفى ضمائرهم حياة ، ليس شيمتهم التفاؤل فقط ، ولكنه التفاؤل الرخيص

وكان حافظ رحمه الله أحد هؤلاء المتفائلين ، كما ينطق بذلك شعره صريحاً بينا :

على أننى لا أركب اليأس مركباً ... ولا أكبر البأساء حين تغير
نفسى برغم الحادثات فتية ... عودى على رغم الكوارث مورق

فياقلب لا تجزع إذا عضك الأسى — فانك بعد اليوم لن تتألما

ولئن تتابعت عليه نارات الأحداث ، وطوارق الغير ، فان ذلك لا يثنيه عن عزمه ، ولا يقعده عن غايته ، ما دامت العلياء رائده ، وشرف الغاية مأربه :

مرحباً بالخطب يبلونى إذا — كانت العلياء فيه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى — أوثر الحسنى ؛ عققت الأدبا

— ١٣ —

لقد مدح حافظ كل ذى جاه فى الدولة ، أو ذا تصريف فى أمور البلاد ، أو من أنس منه الخير يجلب والشر يتقى ، وهو طبيعى فى رجل كحافظ مجرد من القوة ، وأصفر من المال ، فركن إلى الولاة والحاكمين يتقى عواديهم ويأمن جورهم ، وقد يناله خيرهم ، ويدركه نفعهم

ولكنه فى مدحه الذى من أجله عرض ألفاظ اللغة ، « ونبش (١) بطون الكتب ، وقلب أحشاء القواميس ، ثم استخرج من الألفاظ أطلاها وأحلاها ، ومن المعانى أسماها وأعلاها ، وصاغ من كليهما مدحة تهز الممدوح وتطربه ، » لم يخالف ضميره ولم يتجر بوطنيته ، ولم يرق ماء وجهه ، ويمتهن كرامته . بل كان يقف عند دهاء السياسة وحزم الرجولة ، ولين الجانب حيث لا مغمز ولا تجريح

مدح الخليفة وسلاطين الدولة العثمانية ، وخديو مصر وأمراءها ، ورجال مصر وسراتها ، بل مدح اللورد كرومر وملك الانجليز ومندوب الانجليز . ولكن ما كان يمدحهم تملقاً ورياء ، بل كان أشبه بالتشبيب يقدمه الشاعر لتصغى الأسماع اليه وتتعلق القلوب بما بعده ، ثم يتناول مطالب الشعب يقدمها ، وشكايات الوطن يلفت الأنظار اليها ، وقد ينتقد فى السياسة ، ويتهكم بمسلك الحاكمين ، كما حدث فى قصيدته التى رفعها إلى عميد الدولة البريطانية بعد حادثة دنشواى

قصر الدبارة هل أتاك حديثنا — فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحباً — بعد التحية إننى أتعتب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل — عنا ولكن السياسة تكذب
أنقمت منا أن نحس ؟ وإنما — هذا الذى تدعو اليه وتندب
أنت الذى يعزى اليه صلاحنا — فبما تقرره لديك وتكتب
أو كلما باح الحزين بأنة — أمست إلى معنى التعصب تنسب؟
فاجعل شعارك رحمة ومودة — إن القلوب مع المودة تكسب

لقد طبع حافظ مدحه بطابع المصلحة للمجتمع ، والنفع للوطن ، والتعبير عن أحاسيسه وآلامه والذود عن شرفه وكرامته . وكان هذا المدح يتقدم به فى قصائده كالتشبيب عند السابقين كما فى قصيدته التى رفعها لسمو الأمير عباس الثانى فى عيد رأس السنة الهجرية

قصرت عليك العمر وهو قصير — وغالبت فيك الشوق وهو قدير
وأنشأت فى صدرى لحسنك دولة — لها الحب جند والولاء سفير
فؤادى لها عرش وأنت مليكه — ودونك من تلك الضلوع ستور
وما انتفضت يوماً عليك جوانحى — ولا حل فى قلبى سواك أمير

ثم انتقل — بعد أن عرض للهوى والصبابة والغرام — إلى آمال الوطن ومطالبه :

أمولاى إن الشرق قد لاح نجمه — وآن له بعد الممات نشور
مضى زمن والغرب يسطو بحوله — على ومالى فى الأنام ظهير
إلى أن أتاح الله للصفر نهضة — فقلت غرار الخطب وهو طرير
جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا — ومصر على آثارها ستسير
وما يمنع المصرى إدراك شأوها — وأنت لطلاب العلاء نصير
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة — اليك بحبات القلوب تشير

— ١٤ —

فى مصر فقراء وأيتام وذوو خصاصة ، ولهم حقوق على المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون له

١ — لهم حق التعليم حتى يرتفع مستواهم ، وتعلو منازلهم وحتى يتضامنوا مع المجتمع فى بناء مجده بوحى من الضمير ووازع من النفس ، لا بطريق السخرة والأجبار ، وحتى تكون العلاقة بين أفراده وهيئاته بعضهم مع بعض علاقة محبة وإخلاص وولاء ، لا علاقة سيادة وغطرسة وكبرياء

٢ — ولهم حق تيسير سبل الرزق ؛ بفتح أبواب العمل أمامهم ، والسهر على صوالحهم ، ورعاية شؤونهم ؛ حتى يعيشوا وأسراتهم فى مأمن من الجوع والخصاصة ، وحتى لا يشغلوا المجتمع بسرقاتهم وسطوهم

٣ — ولهم حق المعالجة فى بيوت الشفاء والمصحات ، حتى تسلم جسومهم من العلل ، وتصح أبدانهم من الأسقام . فنحن فى ميدان نهضة ، وكل نهضة لابد لها من عدة ، فلتكن عدتنا رجالاً أشداء البنية أصحاء الأجساد ، سليمى العقل نابهين حازمين ، كى

(١) حافظ : ليالى سطيح

يكون منهم الجندى الباسل ، والزارع النشيط ، والصانع الحاذق ، والوطني الغيور ، إلى آخر ما يتطلبه الوطن ليسلم ، وتستدعيه النهضة لتدوم .

٤ — على أن منهم العاجز الضعيف ، واليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، كل أولئك فى حاجة إلى ملاجىء يأوون اليها ، ومدارس يتعلمون بها ما ينفع الجماعة ويدر عليهم الخير

٥ — ثم من فوق ذلك ، ومن قبل كل ذلك ، لهم حق قد يعلو على كل الحقوق فى جلال شأنه وخطره ، ذلك هو أن يشعروا بعطف ذوى الجاه وأرباب النفوذ وأولياء الأمور ، حتى يشربوا فى قلوبهم حبهم ، ويولوهم الطاعة التى تحقق لهم رغباتهم

هذه حقوق الشعب المسكين كما يراها حافظ ، فهو يرقب فرصة اعتلاء سعد منصة الحكم فيتقدم اليه يقول :

يا سـعد إن بمصر أيـ ـتاماً تؤمل فيك سعدا
قـد قام بينهم وبين العا م ضيق الحـال سدا
ما زلت أرجو أن أرا ك أبا ، وأن ألقاك جداً
حتى غـدوت أبا له أضحت عيال القطر وُلْدا
فاردد لنا عهـد الأما م وكن بنا الرجل المفدى

عليكم حقوق للبلاد أجلها تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم يداً تبتنى مجداً ورأساً يفكر

فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقاً

وقصيدته فى سبيل « الجامعة » تبين رأيه فى التعليم ، وأنه لا يقنع بالأوليات السطحية ، بل بالثقافة الرشيدة والدراسة الحكيمة ، وأن ألف كُتّاب لا تعدل مدرسة عالية أو جامعة منظمة ؛ لأننا نستبدل بالكتاتيب داء الجهل بداء أشد خطراً وهو الغرور

ذرّ الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغنى عن الشهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ماعلة عرضت؟ من المدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل إن جنحت وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

والحق أن حافظاً صورة من النفسية المصرية العامة فى هذه الفترة ، فترة الانتقال والحيرة والاصطدام فى جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو على ذلك قد أدى رسالته فى الحياة ، وقام بواجبه نحو وطنه وشعبه ، لأنه بصر بآلامه ، وتغنى بالأمل المنشود ، والمصلحة المرجوة ، ووقع على قيثارة الحنان أناشيد الأسى وأنات البائسين ، فجزاه الله كفاء وفائه الجنة وحسن المقام وخلود الذكر

السيد أحمد العجان

سود قمصانكم حمر غداً

للأستاذ فخرى أبو السعود

أُمَةَ الأحباش يا أُسْدَ الحمى ... علِّمى الطليانَ عُقْبى من بغى
أنتِ لَقَّنتِهِمُ فى عَدْوَةٍ ... غالِىَ الدرس ، وطوبى من وعى
فنسوه ، فأعيديه عسى ... يحفظون الدرس رنّانَ الصدى
ويُميط القومُ عن أعينهم ... غرراً بات شبيهاً بالعمى
ويُقِلُّونَ دعاوى لهمُ ... ملأوا من إفكها الأرضَ سُدَى
مثّلوا الذئبَ ولكن لم يَرَوْا ... حَمَلاً يَرْهَبُ ذُؤْبانَ الفلا
همْ أرادوا أن يحاكوا دولةً ... مُلْكُها يجمع أطرافَ الدُّنَى (١)
أمـةٌ قامت تُحاكى حُرّةً ... ساخراً من جهلها هـذا الورى
مِنْ شُوَيْبِسْرَا الشَّرْقِ رَجَّوْا جَنّةً ... لهمُ طابت مَعيناً وجَنَى
طمعوا فيها ولكن دونها ... مربضُ الأساد مِنْ ذاك الشَّرى
حشدوا حولكِ من قمصانهم ... جحفلاً طبّقَ أجواز الفضا
وأثاروا مُرْعِداتٍ فوقهم ... حائماتٍ حجبتْ أُفْقَ السما
وأعدّوا من جحيم العلم ما ... يفلق الهام وما يبرى الصَّفَا
طالما بَدّدْتِ خصما عادياً ... فى عصور الجهل قِدماً والدُّجى
فانظرى اليومَ عدوًّا باغيـاً ... صالَ بالعلم وفى النُّور سَطا
جَرِّدِ السُّمْرَ مِنَ الفضْلِ وقد ... قصَرَ الفضلَ عليـه والحجى
أُمَـةَ الأحباش فانْفِى عزمةً ... ما تلقّتْ جحفلاً إلا انثنى
وإذا جاءوا فقولى لهمُ ... قولةً فيهـا رشادٌ وهُدى :
« نحن خَضَّبْنا بكم فى عَدْوَةٍ ... جانبَ السهل وأفوادَ الرُّبى
فاجمعوا أشلاءَكم مِنْ تُرْبِها ... قبل أن تخطوا إلى هذا الحِمى
نحن إنْ لم نقرأ العلمَ ولم ... نَحْذِق الفنّ ولا نَحْتَ الدُّمى
نمنعُ الحوضَ ونَفْنَى دونه ... ونعاف العيش فى ظل العدى
يا عبيدَ الأمس إنّا لم نَدِنْ ... أبَدَ الدهر لجبّارٍ عتا (٢)
ما رَوَى التاريخُ عنّا أبداً ... غيرَ عزٍ باذخٍ فيما نَوَى
لم نغِرْ يوماً على جارٍ لنا ... غير أنّا كمْ رددنا من طغى
فإذا ساءكمُ فى أرضنا ... ـ يا بنى الصُّفْرِ ـ رقيقٌ يشترى
فغـداً نَقْرِنُ منكمْ بهمُ ... كلَّ مفتونٍ على الغاب اجترا !
تدّعونَ الفضل ظلماً والعلا ، ... والعلا منكم براءٌ والنّدى
لكمُ فى الغدر ماضٍ مظلم ... فى طَرابُلْسَ من الفضل خلا
كم غدرتم وفررتم هلعاً ... ما صبرتم مرّةً فى الملتقى
عُمَرُ المختارُ قد جلّلكمْ ... يومُه عاراً على طول المدى
فالبسوا العار عليكم سرمداً ... وانزلوا حيث نزلتم بالظُّبى
ما لكم غير ظُبانا من قِرى ... عبثـاً منّيْتمُ النفس المنى
سـودُ قمصانكم حمرٌ غداً ... من نجيعٍ من لُهاكم قد جرى ! »
وتحايا ـ أُمَةَ الأحباش ـ من ... كلِّ حُرٍّ وَدَّ لو كان الفِدا
لو دَرَى الحربَ لَلَبَّى ومضى ... فى صفوف الحق لا يخشى الردى
إذْ تنحّى كلُّ شعبٍ طالما ... شاد بالسلم وبالحق شدا
مَلأَ الدنيا كلاماً فإذا ... قيل : مَن للسلم والحق ؟ انزوى
أمَمُ الغرب وما أدراك ما ... أمم الغرب وما رهط العلا
ذَلّ من يطلبُ نَصْفاً فيهمُ ... إنما يُطْلَبُ فى ساح الوغى

فخرى أبو السعود

(١) يحاول الطليان التشبه بالامبراطورية البريطانية

(٢) حافظت الحبشة دائما على استقلالها ولم تستقل إيطاليا إلا حديثا

النسيان

للدكتور ابراهيم ناجى

وحبيب كان دنيا أمَلِى ... حُبُّه المحرابُ والكعبةُ بيتُهْ
مَنْ مشى يوماً على الوردِ لهُ ... فطريقى كان شوكاً ومشيتُهْ
من سقى يوماً بماءٍ ظامئاً ... فأنا مِنْ قدحِ العُمْرِ سقيتُهْ
خفقَ القلبُ له مُختلِجاً ... خفقةَ المصباحِ إذ ينضبُ زيتُهْ
قدْ سلانى فتنكّرتُ لهُ ... وطوى صفحةَ حُبّى فطويتُهْ

ابراهيم ناجى

الطبيعة

بقلم رفيق فاخورى

تحنو على عهودها النفسُ ولا — تسطيع أن تصبر عن لقائها
كأنما حلَّ بجسمى روحها — وفى عروقى سابَ من دمائها

***

بكرٌ لها منها حُلَى دانيةٌ — لكل جسٍّ بينهنَّ مسلكُ
لى من مرائيها شخوصٌ أجتلِى — مَحْيايَ فى وصالها وأُدرك

***

مطبوعةٌ طبعَ الحياة العاريه — غبطتُها وحزنها علانيه
تستقبلُ الأجيالَ فى ثوبٍ إذا — أبلته عادت فارتدته ثانيه

***

قديمةٌ ، آذارُ يُحْيِيها ، ولا — يمحو بِلَى الخريفِ من جلالها
يمشى عليه الدهرُ وهى عنه فى — شُغْلٍ فلا تُلْقِى إليه بالها

***

لها البقاء حين نغدو رِمَماً — مَنْسِيَّةً لا تهتدى لها الذِكَرْ
ياليت لى عيناً كمرآة الضُّحَى — ترعَى مجاليها إذا غابَ النظر

***

أُحِبُّ بها خرساءَ خمّتْ شمسُها — فألهبتْ أنفاسَ كلِ ذى حَرَكْ
وهيمنَ الصمتُ على أرجائها — كأنْ بِمَنْعَى الكونِ قد دار الفلكْ

***

واستحوذتْ على الورى إغماءةٌ — ثقيلةٌ ، سلطانُها لا يُدْفَعُ
وعَرَتِ الأطيارَ سكتةٌ فما — يَنْغَمُ فى سُباته مرجِّعُ

***

والنهرُ لهبانُ وللماءِ به — مَسارِبٌ يَسْبَحُ فيها الخاطرُ
والسهلُ فى غيبوبةٍ مستغرقٌ — مَيْتٌ وفيه تلتقى العناصر !

***

أحبُّ بها كَسْلَى تولّى جسمَها — بعد اقترارٍ ومراحٍ خَدَرُ
واحتبسَ النسيمُ محروراً فما — يَشيعُ فى الفضاء عنها خَبَرُ

***

أُغرِقُ فى صحرائها كآبةً — تَنْسُجُ فى قلبى غماماً أسودا
وأشتهى لُقيانَها سُوَيْعَةً — أنسى بها نفسى ولا أرعَى غدا

رفيق فاخورى

حمص

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٥ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

يؤمن نيتشه بأن حياة الانسان هى نضال دائم لكل وهم ولكل خطأ . وينظر إلى الوجود بعيني متشائم ؛ فتبدو الطبيعة له صورة تبعث الخوف ، والتاريخ وحشياً خالياً من المعانى ؛ ينفر ممن يؤمن بأن كل شيء هو للأحسن ! ولا يعتقد بأن فى وسع الحياة أن تهب لنا لحظة فرح حقيقى . وإذا كانت هذه وهى الحقيقة فواجب الانسان السامى أن يحارب بدون هدنة ولا هوادة كل ما هو سيء ، وأن يهدم كل القيم الخاطئة والتعاليم الفاسدة ، وألا يرحم أى مظهر من مظاهر الضعف والرياء والجبن فى هذه الحضارة . (إننى أحلم برجال كاملين ، مطلق الارادة ، لا يدارون ولا يراءون . يدعون أنفسهم الهدامين . يخضعون كل شيء لنقدهم ويضحون بأنفسهم فى سبيل الحقيقة . ألا ينبغى لكل سيء ولكل كاذب أن يظهر تحت وضح النهار ؟ نحن لا نريد أن نبنى قبل الساعة الموقوتة ، ونحن لا ندرى إذا كان بإمكاننا أن نبنى ، أو إذا كان الأحسن لنا ألا نبنى أبداً . هنالك متشائمون كسالى خاضعون مستسلمون ؛ إننا لا نكون من هؤلاء . إن المثل الأعلى الذى نتبعه ونترسمه هو الانسان الذى قال عنه شوبنهاور ، من يعتقد بأن السعادة الحقيقية هى غير ممكنة ، ومن يبغض ويمقت الوجود المادى الذى تتكامل فيه الانسانية المنحطة ، ومن يسحق كل ما ينبغى سحقه ولا يشعر بألم يحز فى نفسه ، أو ينتشر حوله ؛ ويمشى بإرادة جبارة لا يلويه عن عزمه شيء ، وكل إرادته أن يكون مع الحق والصدق فى كل شأن من شؤونه .)

يصل شوبنهاور بانسانه إلى سلب الحياة منه والفناء المطلق ، أما نيتشه فانه يقدس (كاليونانى الديونوزوسى) هذه الارادة التى تريد الحياة الخالدة وتعمل على تخليدها بأية الوسائل . فهو متشائم ، لكن تشاؤمه لا يدفعه إلى الاستسلام ، ولكن إلى البطولة المناضلة . فهو يرى الزهد علامة من علامات الانحطاط والذل . لأن التشاؤم – عنده – فكرة مستحيل تحقيقها ، لا يقبل

بها واقع ولا يثبتها منطق ، ولن يكون الفناء غاية الوجود ، وهكذا راح نيتشه يمجد الحياة وآلاءها بدلاً من أن يبشر بالفناء وبغض الحياة كمعلمه ؛ يقدس مايقوى فى الانسان إرادته ، ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسمى

ونيتشه فى هذا شأنه شأن اليونان فى مآسيهم ، يفخر بذاته ، ويطول بسموه ، ويعجب بالحضارة اليونانية لأنها انشأت جماعة من الرجال السامين ، وهل غاية الحياة إلا مثل هـذا التوليد ؟ والانسانية عنده تركض وتتألم وتتمخض لتلد هذا العدد الضئيل من هؤلاء الرجال السامين . « وإنما على الانسانيـة أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية ، هذه غايتها ، ليس لها من بعدها غاية ! وإن علينا أن نوحى اليها أن تعجل بتوليد الفيلسوف والفنان فينا وفى غيرنا . وأن نسعى إلى إكمال معنى الطبيعة ؛ وأن على الانسان أن يحس بنفسه أنه صنع غير كامل من صنع يدها . ولكننا نوقظ فيه — برغم نقصه — هذه العبقرية الفنية حتى يساعد الطبيعة على إكمال ماجاء ناقصاً منها ، وبهذا يكمل الانسان الفنان صنع الطبيعة . وبهذا تغدو معرفة الانسان نفسه وشعوره بصغرها هى أساس نهضته . . .

« ألا إننى أرى فوق شيئاً يتألق ؛ هو أسمى منى ، فيه من معنى الانسان أكثر مما فىّ ! فساعدنى على الوصول إلى هذا المثل ؛ كما أننى سأعمل على مساعدة من يفكر مثلى ويتألم مثلى . . . كل ذلك لتمهد الطريق أمام ذلك الانسان المقبل ، الشاعر بكماله ومعرفته الواسعة ، ومحبته العميقة التى لا تُحد ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد : هذا الانسان الذى سيحيا فى الأرض حاكماً ، بيده مقياس كل شىء » فلا يجب والحالة هذه أن نترك للمصادفات عمل هذا الانسان، وإنما ينبغى للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلق هذه الذرية ـ ذرية الأبطال ـ على أن هذا المذهب قد يترك جحفلاً من العبيد الذين شأنهم أن ينفذوا ارادة الأبطال . والعبودية ـ عند نيتشه ـ لازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال . إذ ليست غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء المتعبين . فعمال اليوم ليسوا بأكثر سعادة من عبيد الأمس . هؤلاء كانوا يخضعون لشرفاء ذوى غطرسة وخيلاء . وأولئك دائبون على خلق نخبة سامية من رجال العبقرية ، فالبطل ليس دأبه بأن يحقد على المظلومين والمتخلفين فحسب ، بل مما ينبغى له أن يقتل عامل الشفقة فى صـدره إذا هب لأنه عامل خطر . إذا ظفر عمل على قتل البراعة فى سبيل السعادة المادية للانسانية . وهو ـ هنالك ـ لا بد مصطدم بالشريمة الغالبة التى تسيطر على الوجود . وكل من ودأن يحيا ، أو حكم عليه بأن يحيا فى وجود مشحون بالألم والفناء أفينبغى له أن تشتمل نفسه على هذه المضادة المؤلمة التى تعبر عن كنه الحيـاة ، ومر كل تطور واستحالة . . . « كل لحظة تفترس الثانية . وكل ولادة هى موت كائنات لاعـداد لها . الولادة والحياة والموت كنه ذو جوهر واحد . وهكذا نستطيع أن نشبه البراعة المنتصرة بالبطل الظافر الذى يسيل دمه من جراحه ، ولـكنه يجر خلفه قطيعاً من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته »

ينبغى لنا إذا أردنا الحقيقة أن نضرب بكل وهم باعث على التفاؤل عرض الحائط . فالرجل الغربى الذى يظن ببساطة نفسه أن العلم يبعث على السعادة ، ويرى أن سـعادة الجميع هى غاية الحضارة القصوى ؛ هذا الرجل يجرب أن ينكر تعس « العبيد » هذا التعس اللازم للمجتمع البشرى . وهو يموّه عليهم بقداسة العمل ، زاعماً أن الآكل بعرق جبينه هو أشرف الناس . فياله من مذهب حقير أصبح لا يخدع أحداً ! ولماذا لا نعترف بأن العبودية هى حقار وصغار ، ولـكننا نستطيع أن نخفف وقعها ونجعلها أقل شقاء ، ونحتم على أصحابها القبول بها . . . فما ظل المجتمع الانسانى على هذا الوضع فان فيه الأقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين فى الأرض !

***

كال المدفع يدوى فى جوف أوربا ، ونيتشة معتزل فى أحد وديان « الالب » يعالج درس الروح اليونانية وفهم وحياتهم . ولما استقر السلام أعلن أن عصر الأحزاب قد شارف النهاية . وأن روحاً حرة يجب أن تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود ! « إن الشرق والغرب مفصولان بشحطة يرسمها قلم لأعيننا ، هذه الشحطة هى التى تثير خوفنا . تقول النفس الفتية (أنا أجرب بأن أكون حرة !) وحق لها أن تثور ، لأنهـا ترى أن شعبين قد يهرقان دماءهما لأن بحراً يفصل بينهما ، أو لأن ديانتين مختلفتين عندهما لم تكونا قبل ألفى عام » وهكذا نرى نيتشه بكل ما أوتى من تفكير وقوة يريد أن يزعزع تقاليد عصره ، ويشعر بنفسه بأنه لم يخلق لحاضره وإنما خُلق للأجيال القادمة

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

من أساطير الإغريق

أدونيس

للأستاذ دريني خشبة

كان جميلاً كالكأس المترعة . وجهٌ أبيض كالحبَب ، ثم تتدفق الخمر فى دمه ، وتكمن فى عينيه ، وتنثال على لسانه

رأته ڤينوس يستحم فى بحيرة مزهرة ، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلور ، يسبح فى لجة من لُجَين !

ولمحها الغلام فخجل واستحيا ، وطفق يخصِفُ عليه من أوراق اللوتس . . . . ولكن الحياء ورَّد وجنتيه ، وصبغ خديه ، وفترَّ ناظريه ، وتصبَّب فى شفتيه فاحمرَّتا ! وبذلك أصبح فتنةً تملأ البحيرة ، وعجباً يشيع فى الماء

وسبح إلى الشاطئ المقابل ؛ بيد أن ڤينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو ، فانثنى يريد الشاطئ الآخر ، فكانت ڤينوس عنده كذلك ؛ فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرةً أخرى ، ولكن الالٓهة العنيدة كانت تسابق الوهم فى الوصول إلى أحد الشاطئين ؛ فلما نال الجهد من أدونيس لم يرَ بُدًّا من البروز إلى البر ، وليكن من أمر هذه الغادة التى تهاجمه بحبها وهو لا يعرف من هى ـ ما يكون !

ـ « أدونيس . . . . أليس كذلك ؟ »

ـ « ؟ . . . . . »

ـ « ألا تتكلم ؟ . . . »

وكانت قطرات الماء البلورية تتحدر على جسمه الرشيق ، فمن يدرى ؟ أهى من ماء البحيرة أم من ماء الخجل ! . . .

ـ « تكلم يا أدونيس ! ألا تعرف من أنا ؟ ؟ . . »

ـ « ؟ ؟ . . . . »

ـ « أنا التى سجد عند إخمصيها مارس الجبار ! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الأولى التى زلزلت بها أركان قلبه ! ألا تصدق ؟ أدونيس ؟ ! . . . »

ـ « أرجوك . . . إن رفاقى ينتظروننى ، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد . . . »

ـ « صيد ؟ . . . . وماذا تصيدون فى هذه البريّة الموحشة ؟ . . . »

ـ « الخنازير يا غادة . . . إنها متوحشة جداً . . . »

ـ « وهى خطرة أيضاً ، وكل يوم لها ضحايا . . . أدونيس ! ألست ترى إلى جمالك الفينان ! ألا تشفق عليه أن يصيبه سَفْعٌ من شمس هذه البرية المحرقة ؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة ؟ . . . تكلم ! لا تصمت هكذا ؟ »

ـ « أرجوك ؟ »

ـ « ترجونى ؟ أنا التى أرجوك يا حبيبى ! »

ـ « . . . . ؟ ؟ . . . . »

ـ « أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبى ؟ وَىْ ! ما للحياء يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس ؟ تعال . . . هات قُبلة ! »

ـ « لا . . . لن يكون شىء من هذا ! اسمعى ! ها هى ذى سلوقياتى تنبح ولا بد أن أسرع إليها . . . دعينى . . . دعينى ! »

ـ « لن أدعك ، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعىّ يا حبيبى ! . . . . . هات قبلة قلت لك ! . . . . »

ـ « . . . . ؟ ؟ . . . . »

ـ « إذن أنال بالقوة كل ما أشتهى ! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتىّ المشتعلتين ! »

ـ « أ . . . ر . . . جوك . . . أوه . . . حسـ . . . بك . . . »

ـ « فمك جميل شهى ، ولـكن خديك جميلان كذلك . . . ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان ! . . . »

ـ « . . . . . . ؟ ؟ . . . . . . »

ـ « أنفاسك تتضوَّع من فمك الرقيق ، وأنفك الدقيق ؛ فهل فيك حديقة من بنفسج ؟ . . . »

ـ « أر . . . جوك . . . كفى . . . كفى . . . سلوقياتى تنبح ، ولابد أن أذهب ! . . . »

ـ « تذهب ؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذى يضمك ؟ حقاً أنت غرير ! . . . »

ـ « أرجوك . . . قلت لك ! . . . »

ـ « كل هذه القبـل أغمر بطوفانها فمك ، ولا تحيّيها بقبلة ؟ . . . قبِّـلْنى ! . . . »

ـ « لا . . . لا أقدر . . . ارسلى ذراعيك عن عنق . . . »

ـ « أنت لا تقدر ؟ آه ياساذج ؟ إننى لن أفلتك ما دمت تتباله علىَّ ! . . . »

ـ « أرجوك ، دعينى أذهب ! أوه . . . »

ـ « قبِّلنى قلت لك ! لن يقهر كبريائى فتى غرير مثلك ! إذا قبلتنى أرسلتك ! . . . »

ـ « أقبلك ؟ »

ـ « أجل ، قبلنى يا أدونيس ! »

ـ « أقبلك كيف ؟ »

ـ « هكذا يا صغيرى . . . . . . »

ـ « . . . ؟ . . . ؟ . . . دعينى إذن ! »

* * *

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع ، فارتجفت ارتجافة هائلة ، وخرّت إلى الأرض كأنما أُغشى عليها ؛ وارتبك الفتى الذى لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب ، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو ، ثم يذهب إلى صيده بعد . ولـكنه لم يدر ماذا يفعل ؛ وعلى كل فقد طفق يدلك قدميها ، ويربت على صـدرها ، ويمر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها ، فلما لم تُفق ، أهوى على فمها الحلو يلثمه . . . ورد إليه دينْه من القبل !

وكانت ڤينوس الخبيثة تحس وتصمت . . . ولا تأتى بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التى تطيف بها ، وتتنزل من السماء الصافية عليها ، ألم تـكن تضرع اليـه من أجل قبلة واحدة ؟ فـكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القُبل ؟ !

ولم تطق ڤينوس . . .

فڤينوس ربة ولـكنها هلوك ! لقد طوقت أدونيس بذراعيها ، ثم أمطرت فمه الخمرىّ ، ووجهه المطرىّ ، آلافاً من القبـل العِذاب ، والنولات الرطاب [(١)]

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر ، وعينين تتقدان اشتهاء ، ولـكنه كان يصم أذنيه ويُغلّق أبواب قلبه . وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثديها ، فما زادته إلا شموساً وعناداً . . .

قالت له : « ألا تُـقبل علىّ إلا ميتة يا أدونيس ؟ أيسرك أن أقضى نحبى إذن ؟ ألست أعدل عندك خنزيراً برياً ؟ أكلما خلعت عليك شبابى ونضرتى وحبى ألقيت بها فى تراب كبريائك غير آبه لدموعى وتوسلاتى ؟ افتح قلبك للحب ياصغيرى !!. . . »

ولـكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها : « أهذا كله عندك هو الحب ؟ . . »

فتنظر فى عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما فى قرارة نفسه وتسأله : « إذن ماهو يا أدونيس ؟ »

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها : « إن كنت تجهلين ماهو ، فالحب أجل من هذا وأقدس ياغادة . . . . . . إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره ، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً . . . دعينى أذهب إذن . . . دعينى . . . سلوقياتى تنبح

---

(١) لانستطيع متابعة الموقف ، ولـكننا نثبت هنا أسطراً من شكسبير الذى لم نعرف فيه تفحشاً ، فى وصف ما كان بينهما — وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais (مجموعة وارد ولوك ص ١٥٢٤)

And on his neck her yoking arms she throws:
She sinketh down, still hanging by his neck,
He on her belly falls, she on her back.
Now is she in rhe very lists of love,
Her champion mounted for the hot encounter:
All is imaginary she doth prove,
He will not manage her, altheugh he mount her.. erc...

والقصة رائعة ، وبها أكثر من ثلثمائة بيت فى وصف القبل وحدها ، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص

ولا بد أن أذهب اليها . . . . »

***

وكأن ثلجاً ذاب فى أعصاب ڤينوس عند ماسمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها ، فتقلّص ذراعاها ، وفترت نفسها ، وخمدت فى قلبها تلك الشهوة الملحة التى سلطت عليها تعذبها وتضنيها ... واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها ، فانطلق يعدو كالظليم إلى سلوقياته التى كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادى النواجذ بارز الأنياب .

وجلست ڤينوس تنظر إلى أدونيس يعدو ، وتجتر كلماته وتتعذب . . .

وغفت إغفاءة قصيرة ، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق ، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد ، فهبت مُروَّعة ، لأن الصوت كان بصوت أدونيس أشبه ، وانطلقت تعدو حتى كانت عنده . . .

ياالهول ! !

أدونيس مضرج بدمه ، وعيناه مستسلمتان للموت (١) ، وسلوقياته تبكى حوله ؟ ! لقد انقض عليه الخنزير الضارى فمزّق لحم الفخذة ، وسرى فى الدم سم الكَلَب !

ووقفت ڤينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير ، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكى . . . ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها ، وجعلت تقول :

« ألم يكن حباً حبى يا أدونيس ؟! ياللقضاء ؟! كنت أعرف هذه النهاية ، وكنت أشفق عليك منها ، ولذا كنت أتشبث بك ، وأحاول أن أنسيك بقبلى ودموعى خنازير هذه البرية ، ولكنك قلت إن حبى شهوة ، وصبابتى غلمة ، فجنيت على نفسك وعلىّ ! ! أوه ! ياالبرودة الموت ؟ أدونيس ؟ أدونيس ؟ رُدَّ علىّ ياحبيبى ! لقد حسبتنى غادة ! أنا ڤينوس أكلمك فردّ على . . . آه . . . »

وألقت به على الكلأ السندسى (٢) ، وانطلقت تبكى وتنتحب ، حتى كانت عند عرش الأولمب فقالت تكلم رب الأرباب زيوس المظيم :

ـ « أدونيس يا أبى ! ! »

ـ « ماله ؟ . . . »

ـ « قضى . . . قتله الخنزير . . . »

ـ « ومالك مذعورة هكذا ؟ . . . »

ـ « مذعورة ؟ ! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز ! ! »

فوقف إلّه كان يجلس قريباً من السدة وقال : « تذهبين إلى هيدْز ؟ ! ياالهول ! والجمال والحب ؟ أيذهبان فى إثرك إلى دار الموتى ؟ وهذه الدنيا ياڤينوس ؟ »

ـ « هذه الدنيا تنعى من بناها ... تخرب ... لا زهر ... لا شفق ... لا طير ... لا موسيقى ... لا خمر ... لا حب ... لا حنين ... لا غزل ... لن تكون دنيا كم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبى أدونيس ! ! »

فسجد الإلّه الذى تكلم أمام زيوس ، ثم نهض وقال له :

ـ « أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاى أن يلبى طلبة ڤينوس ربة الحب . . . »

فتبسم إلّه خبيث كان قريباً منه ، وغمز إليه وقال :

ـ « وربة الجمال ياابن العم ! ! »

***

وأرسل زيوس المظيم إلى أخيه ... بلوتو ... إلّه هيدز ، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه ؛ ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا ، فأبى أن يلبى رجاء أخيه ، فألح عليه ، فلم يقبل . . .

ثم اتفق الاخوان ، زيوس وبلوتو ، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة ، فيقضى ستة أشهر فى هيدز ، أشهر الخريف والشتاء ، وستة أشهر فى الدنيا ، حيث تأخذ زخرفها فى الربيع وتؤتى أكلها فى الصيف ! !

ولما لقيت ڤينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له : « أتستطيع اليوم تعريف الحب ؟ » . فقال أدونيس : « هاتى قبلة ياڤينوس . . . هاتى قبلة . ... هاتى ألف قبلة . . . »

دريني خشبة

---

(١) اقرأ مرثاة بشلى (أدونيس) فى كيتس . طبعة أكسفورد ص ٤٢٥

(٢) ذكر شاكسبير أن أدونيس تحول زهرة بيضاء فيها بقع كالدم ، وهذا يخالف اطراد القصة حسب الأسطورة اليونانية

قلعـــة الرمل

بقلم حسين شوقى

كانا يسيران على الشاطئ غير معتنيين بما حولهما وهما يتبادلان هذا الحديث :

هو – عزيزتى ، إنى آسف إذ تأخرت عن موعدك ؛ ولكن صديقاً حميماً لم أره من زمان طويل اعترضنى فى الطريق واستوقفنى ملياً . . .

هى – لاعليك من ذلك ، فليس ثمة ما يدعو للاعتذار

هو – ولكن لماذا أجدك وحدك ؟ لِمَ لَمْ تذهبى إلى السيدة (س) لتأنسى برفقتها ؟

هى – إنى أوثر العزلة ، كى أشهد فى سكون تلك الصفحة الزرقاء العجيبة المنبسطة أمامى . . .

هو – ولكن البحر ثائر اليوم ، إنى لا أحبه فى مثل هذه الحال ؛ إنه ليشبه وجه عجوز قد غضّنته السنون

هى – أنت تراه كذلك ؟ . . . أحسبك زعمت لى مرة أنك تحب البحر وهو هائج ، لأنه يشبه قطيعاً من الخراف البيضاء اللطيفة ! . . . .

هو (فى حيرة) – هل . . . هل تنزلين إلى البحر ؟

هى – نعم ، وأنت ؟ . . .

هو – أنا سأنتظرك فى المقصف ، لأنى على موعد هناك ؛ أتأذنين لى فى الذهاب ؟

هى – الآن ؟ . . .

هو – أجل . . . .

هى – لك ما تشاء ! . . . (ثم افترقا)

الفتاة فى همّ شديد ، لأن صاحبها لم يعد يحبها ؛ إنها لاتشك فى أنه بدأ يملّها ، فقديماً لم يكن يسمح لها أن تنزل إلى البحر وحدها وهو كذلك مضطرب مائج ، وهو لم يلاحظ ثوب البحر الجديد الجميل الذى كانت تلبسه ، مع أنه نال اعجاب جميع الذين شاهدوها تخطر به على الشاطئ . . . تنهدت الفتاة قائلة : « آه ! لماذا لم تُخلق القلوب البشرية متشابهة كلها ؟ لماذا خُلق كل قلب يعيش من عواطفه فى دنيا وحده ؟ »

وبينما الفتاة غارقة فى هذا التفكير ، إذ وقع نظرها على أطفال يبنون قلعة من الرمل ، وهم يهللون ويلغطون فرحين . بدّد هذا المنظر البهيج خواطر الحزن التى كانت تستبدّ بالفتاة ، فوقفت ترقب فى اهتمام عمل الصغار ، ولما انتهى بناء القلعة وضع الأطفال فى كل ناحية منها قطعة من الخشب على شكل مدفع ، ثم اختلفوا على جنسية العلم الذى يرفع على القلعة ، إذ كان كل منهم يحاول أن يرفع رايته ؛ وبعد جدال ومداولة ، اتفقوا على رفع راياتهم جميعاً عليها ونال كلّ منها حظه من المجد . عندئذ صاحت الفتاة فى دهشة : ولكن مُلك أى دولة هذه القلعة ؟ فأجابوا ملك جميع الدول

فقالت الفتاة : آه ! ماأمهركم فى السياسة أيها الصغار ! لوأن آباءكم لم يعرفوا الأثرة لأراحوا العالم من مشاكل عدة ! ليت رجال السياسة ظلوا أطفالاً . . . ! ولكن ، ها هى ذى موجة عظيمة تطغى على الشاطئ فتبتلع القلعة بمدافعها وراياتها ؛ فوقف الأطفال لحظة واجمين ، ولكن كم كانت دهشة الفتاة عظيمة حينما رأت هذا الوجوم ينقشع بغتة ، ثم هو ينقلب إلى ضحك ومرح ونشاط ، إذ استقر رأيهم على بناء قلعة أخرى من فورهم ، تكون أروع وأفخم من القلعة الأولى . . كم كانت الفتاة تغبط هؤلاء الصغار على تلك السرعة التى سلوا بها أشجانهم ، إنها تعطى كل ما تملك لكى تتمكن أن تستبدل بقلبها الكليم أحد هذه القلوب الغضة ! ثم أخذت تتذكر طفولتها السعيدة أيام كانت آلامها النفسية لا تدوم أكثر من لحظة . .

الفتاة حزينة ، حزينة جداً ، لأن حبها فى دور النزع ، فهاهو ذا حبيبها يتأخر عن مواعيده ، وها هو ذا قد بدأ يتملل بالمعاذير ؛ فهل يكون ذلك إلا المقدمات المألوفة للفراق . . . ؟ الفتاة تذكر فى حسرة وألم مقدار ما كان تعلق حبيبها بها فى بداية حبهما . . وتذكر كيف كان لا يقوى على فراقها لحظة ، حتى أن أحد أقاربه الأعزاء قد مات فلم يشترك فى جنازته حتى لا يفرّق ذلك بينهما وقتا ما . . ! وكم زعم لها أن وجودها بجانبه ضرورى له ضرورة الماء للسمك .. والآن ، الآن ، هو يتلمس الأعذار ليبتعد عنها . . !

ما أغلظ قلب هذا الفتى ! إن هذه الأمواج الصاخبة لأرقّ قلباً منه ، وإنها لترحب بالفتاة على حين يفرّ هو منها ! كم تود الأمواج أن تضمّ إلى صدرها تلك الدمية الجميلة ذات الجدائل

البريد الأدبي

استفتاء السلام

تألفت منذ حين فى انكلترا لجنة سميت « بلجنة التصريح القومى » عن عصبة الأمم ومسائل التسليح ، ونظمت استفتاء عاماً للشعب البريطانى عن مسائل السلام الدولى ليعرف العالم إلى أى اتجاه يتجه بعواطفه وتأييده ؛ وتولى رئاستها الفيكونت سسل ، وأنفقت اللجنة مدى أشهر جهوداً عظيمة للدعوة إلى الاستفتاء وتنظيمه ، وجمع الاجابات عن الأسئلة التى طرحتها على الجمهور البريطانى . وقد أصدرت أخيراً كتاباً شرحت فيه جهودها والنتائج التى وصلت إليها ، وهذه هى الأسئلة الخمسة التى طرحت على الشعب البريطانى لابداء رأيه فيها :

١ — هل يجب أن تبقى بريطانيا العظمى عضواً فى عصبة الأمم ؟

٢ — هل تؤيد تخفيض التسليح تخفيضاً عاماً بمقتضى معاهدة دولية ؟

٣ — هل تؤيد الغاء الخدمة القومية العسكرية والتسليح الجوى بمقتضى معاهدة دولية ؟

٤ — هل يحظر صنع الأسلحة وبيعها للفائدة الشخصية بمقتضى معاهدة دولية ؟

٥ — هل إذا أصرت أمة ما على مهاجمة أمة أخرى يجب على الأمم الأخرى أن ترغمها على وقف الاعتداء بالاجراءات الاقتصادية ، وبالاجراءات العسكرية إذا اقتضى الحال ؟

وقد عاونت اللجنة فى عملها عدة من الصحف الكبرى ، فطرحت هذه الأسئلة للاستفتاء ؛ وقسمت اللجنة بريطانيا العظمى إلى مناطق توافق الدوائر الانتخابية ؛ وكانت نتائج الاستفتاء التى نشرتها فى كتابها كما يأتى :

السؤال الأول — أجاب عنه بالايجاب ١٠,٦٢٤,٥٦٠ شخصاً ، وبالنفى ٣٣٧,٩٦٤

السؤال الثانى — أجاب عنه بالايجاب ١٠,٠٥٨,٥٢٦ شخصاً وبالنفى ٨١٥,٣٦٥

السؤال الثالث — أيده بالايجاب ٩,١٥٧,١٤٥ شخصاً ، وعارضه ١,٦١٤,١٥٩

السؤال الرابع — أيده بالايجاب ١٠,٠٠٢,٨٤٩ شخصاً وعارضه ٧٤٠,٦٣٤

السؤال الخامس — أجاب عنه بالايجاب عن الشطر الأول أكثر من تسعة ملايين ، وبالايجاب عن الشطر الثانى أكثر من ستة ملايين ، وأجاب بالنفى عن الشطر الأول نحو ستمائة ألف وعن الشطر الثانى أكثر من مليونين

ولمثل هذا الاستفتاء ونتائجه أهمية عظيمة فى بلد كبريطانيا تتمتع بأعرق الأنظمة الديموقراطية ، ويحسب فيه أكبر حساب للرأى العام ، وتتجه السياسة الخارجية تحت مؤثرات الرأى العام ورغباته . ويتضح من مجموع الاجابات أن الشعب البريطانى يميل بصفة عامة إلى السلام والسياسة السلمية . وقد عقب الفيكونت سسل على نتائج الاستفتاء بمقال عن حالة السياسة الدولية العامة قال فيه :

« إن الموقف الأوربى قد ساء إلى أعظم حد ، وقد أخذ العالم يتحرك نحو الحرب ، وهزت الحوادث المخربة التى وقعت فى الشرق الأقصى كل أنظمة السلام ، وقامت أمة عسكرية (يريد اليابان) تتجاهل المعاهدات الدولية فاستولت على أراض شاسعة من أملاك جارتها ، وتحدت معارضة جنيف بكل نجاح »

« وقد قبلت عدة أمم أوربية نظام الدكتاتورية الذى يدعو

الذهبية ! أتذهب الفتاة إلى لقاء صاحبها فى المقصف ؟ لا ! إنه سوف يستقبلها بتلك الابتسامة المصطنعة البغيضة ! وإن لقاء الأمواج لأحب اليها من لقاء هذا الحبيب .. اصبرى أيتها الأمواج ؟ إن الفتاة الجميلة ذات الجدائل الذهبية تراود نفسها أن تهب لك هذا الجسم الغض ، وماأراها ستمتنع عليك ، وما أراها ستكون لغيرك ... ... وكان انتظار الفتى صاحبته فى هذا اليوم وبعد هذا اليوم عبثاً ...

حسين شوقى

إلى استعمال القوة كأداة صالحة لتسوية المسائل الدولية ، وأنذرت دولتان عظيمتان عصبة الأمم بالانسحاب ، وعاونت القوميـة الاقتصادية التى نشأت عن الأزمة العالمية ، على احياء نظريات العزلة القديمة ؛ والخصومات الجنسية التى تخلق بأشنع العصور الوسطى ، ولاح أن أوربا تنحدر إلى حالة الطائفية القديمة التى أنقذتها منها المدنية النصرانية »

تاريخ للصحافة

كانت جريدة « التيمس » قد أصـدرت بمناسبة عيدها الخمسين بعد المائة وهو الذى احتفلت به فى شهر يناير الماضى ، عدداً خاصاً بتاريخ الصحافة من سنة ١٧٨٥ وهو عام انشائها حتى يومنا . وقد لقى هذا العدد الخاص يومئذ رواجاً عظيماً ونفـد بسرعة مدهشة حتى أن إدارة « التيمس » رأت أن تعيد طبعه ولـكن فى شكل كتاب يصلح للمكتبة . وقد صدر هذا المجلد أخيراً ، وهو فى نحو مائتين وعشرين صفحة ، وهو يحتوى على تاريخ ضاف للصحافة وتطوراتها فى مدى القرن ونصف القرن الذى عاشته الجريدة الانكليزية الـكبرى ؛ وقد صدر بصورة فتوغرافية لـكتاب الملك جورج الخـامس إلى التيمس وفيه يهنئها بعيدها ؛ ونشرت صورة طريفة أخرى منها صورة تخطيطية لمدينة لندن منذ مائة وخمسين سنة حينما صدر العدد الأول من « التيمس » تحت عنوان « السجل اليومى العام » . وقد طبع فى ثوب قشيب فى منتهى الأناقة ، وجعلت منه نسخ مذهبة بديعة تناسب هذا التذكار الصحفى العظيم

آراء جديدة فى التربية

تتحدث الصحف النمسوية فى تلك الآونة عن العلامة المربى (البيدا جوجى) چاك دالـكروزى وعن نظرياته فى التربية ، وذلك لمناسـبة احتفاله ببلوغ السبعين من عمره . وچاك دالـكروزى سويسرى الأصل ولـكنه ولد فى ڤينا ونشأ بها فى ذلك العهد السعيد ، عهـد شوبرت ويوهان شتراوس ؛ ومال إلى الشعر والموسيقى ، وظهر بطريف آرائه فى التربية . وأنفق مدة الحرب فى ألمانيا ، ولـكن نظرياته لم تلق هناك نجاحاً ؛ ثم نزح إلى براج وهنالك ذاعت نظرياته ، وأنشئت المدارس والبرامج الجـديدة متأثرة بروحها ، ويرى دالـكروزى أن الموسيقى تولد مع الانسان ، وأن الانسان ولا سيما الطفل يحملها فى أعمق مشاعره ؛ ومن ثم ابتكر دالـكروزى نوعاً من الرياضـة التوقيعية تتأثر بروح الموسيقى التى هى روح الانسان . وتقوم نظرية دالـكروزى الأساسية فى التربية على أن الانسان يستطيع الابتكار بطبيعته ، وأن الانسان هو الذى يخلق نفسه ويكونها ، ولهذا يرى أنه يجب أن يعود الطفل الارتجال فى القول والعمل ؛ وهـذه نظرية تخالف رأى بروكنر القائل بأن الانسان لا يستطيع الابتكار إلا بعـد التحصيل والمران الفنى ، ولـكن چاك دالـكروزى يبث روح الابتكار فى تلاميذه ، وينظمه كفن ، ويرى أنه خير وسيلة لسرعة البت وتحقيق المجهود ، وإدراك الآراء ، وهو يصـقل الشعور ، ويوجد صلة مباشرة بين الروح الذى يتأثر ويوحى ، وبين المخ الذى يفكر ويتصور ؛ وقد دلت التجارب على أن الطفل يعشق الارتجال ، وانه يتفوق فى الابتكار أحياناً على الأحداث ، وذلك لأن ذهنه لم يكن قد صفد بعد بالأصول والقواعد الموضوعة ، ولأن ذهنه يتمتع بالحرية الطبيعية

ولنظريات دالـكروزى فى التربية وتـكوين النشء أثر عميق فى تربية الجيل الحاضر من الشباب فى النمسا وتشيكوسلوفاكيا ؟

الكتب

١ — **المقنع فى رسم مصاحف الامصار مع كتاب النقط**
لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى (١)

٢ — **المختار من شعر بشار للخالديين**
نشره وعلق حواشيه الأستاذ محمد بدر الدين العلوى

للأستاذ محمد بك كرد على

تحدثنا فى العدد الماضى عن كتاب التيسير فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى الذى نشره العلامة برتزل . واليوم نتحدث عن كتابه الآخر وهو « المقنع » فى رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط نشره كذلك العلامة برتزل ، قال المؤلف فى مقدمته : « هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما سمعته من مشيختى ، ورويته عن أئمتى ، من مرسوم خطوط مصاحف أهل الأمصار : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر العراق ، المصطلح عليها قديماً ، مختلفاً فيه ومتفقاً عليه ، وما انتهى الىّ من ذلك ، وصح لدىّ منه عن الامام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعن سائر النسخ التى انتسخت منه الموجه بها الى الكوفة والبصرة والشام . وذكر كيف جمع عثمان المصحف ، وروى أن علياً قال : لو وليت لفعلت الذى فعل عثمان . وقال : إن أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جمله على أربع نسخ ، وبعث الى كل ناحية من النواحى بواحدة منهن ، فوجه الى الكوفة احداهن ، والى البصرة أخرى ، والى الشام الثالثة ، وأمسك عند نفسه واحدة . ثم أفاض فى رسم المصاحف وذكر ما حذفت منـــه الياء اجتزاءً بكسر ما قبلها منها ، وما حذفت منه الواو اكتفاء بالضمة منها أو لمعنى غيره ، وما رسم باثبات الألف على اللفظ أو المعنى ، وما رسم باثبات الياء على الأصل ؛ وما رسم باثبات الياء زائدة أو لمعنى ، الى ما يتعلق بذلك ، وختم هذا الكتاب بقوله : « فان قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان فى الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ، ومناقب اجتمعت له ، لم تجتمع لغيره ، منها أنه كتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله (ص) ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبى على جبريل عليهما السلام ، وهذه الأشـــياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ، لامتناع اجتماعهما فى غيره ، وان كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره ، من سائر المهاجرين والأنصار ؛ ثم سلك عثمان رضى الله عنه طريق أبى بكر فى ذلك إذ لم يسمه غيره ، وإذ كان النبى (ص) قد قال اقتـــدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم ، ويكون مافيه من لغات ووجوه على مذهبهم ، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات . . . »

وأتبع المؤلف كتاب المقنع فى مرسوم المصـــاحف بكتاب نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة ، ومذاهب القراءة ، بدأه بذكر من نقط المصاحف أولاً من التابعين ومن كره ذلك ، ومن ترخص فيه من العلماء ، ثم عرض لكل ما يتعلق بهذا الباب . وقد وضع الناشر فهرساً للآيات الواردة فى كتاب التيسير وكتاب المقنع وكتاب النقط فجاء مسهلاً للمطالع والمراجع

هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون . وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر ، وأساتذة دار العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم هم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب

اننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبانيين ، وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أميركا ، بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا . أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا ؟

(١) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

— ٢ —

عني السيد محمد بدر الدين العلوى من أساتذة جامعة عليكرة الاسلامية فى الهند بتصحيح « المختار من شعر بشار » اختيار الخالديين وشرحه لأبى طاهر اسماعيل بن أحمـد بن زيادة الله التُّجيبي البَرْقى من أهل القرن الخامس ، فوقع فى ٣٤١ عدا فهارس قوافى الأبيات والمصاريع وأسماء الشعراء وأسماء الرجال والنساء والقبائل والأصنام والأفراس والجمال . وهذا من الـكتب التى يزيد احياؤها مادة الأدب القديم ، وتفيد فى بث الجيد من الشعر والنثر وفصيح اللغة ، وفيه جواب كاف شاف لمن حاولوا أن يحذفوا من كتب القدماء مالم يروه منطبقاً بزعمهم على مصطلح هذا العصر فى هزل الأدب ومضحكاته ؛ فقد نقل من صفحة ٢٠١ إلى ما بعدها قصصاً وأشعاراً من هذا القبيل ، أجاد الناشر ومعلق الفوائد على الـكتاب السيد العلوى فى ابقائها بحالها ، على ما تقضى بذلك أمانة العلم ، إذ الناس يحبون أن يروا الـكتاب كما ألفه مؤلفه ، لا كما راق ناشره ، وقد يجوّز هذا لنفسه حذف مواضع لم ترقه ، وعبارات لا يستحسن اثباتها أصحاب الذوق الجديد ، فيجىء الـكتاب المشذّب على هذا النحو كتاب الناشر لا كتاب المؤلف ، ولو كانت هذه الطريقة من اثبات ما يسمونه الفحش اليوم مما يستنكر لما رأينا الراغب الأصفهانى فى محاضراته ، ولا ابن حزم الظاهرى فى طوق الحمامة ، وهما ما هما من المكانة الدينية والعلمية ، يجوزان أن ينقلا أشياء من هذا القبيل يعدُّها بعضهم فى عصرنا نابية عن حد الأدب ؛ فالناشر المستعرب الهندى إذن جدير بكل احترام واعجاب لعنايته بنشر مصنف قديم على النحو الذى وضعه واضعه

والشكر الكثير للجنة التأليف والترجمة والنشر على احيائها هذه الـكتب خدمة للمعارف والآداب سيذكرها التاريخ لجماعة متشاكلين فى العلم والتربية تألفوا على غاية نبيلة واحدة ، وهى خدمة العلم والأدب فى مظاهره المنوعة ؟

محمد كرد على

خواطر الخيال واملاء الوجدان

تأليف محمد كامل حجاج

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأديب الأريب محمد كامل حجاج له فضـل قديم على قراء العربية بما عرفهم من الأدب الغربى فى كتابه الـكبير « بلاغة الغرب » وأنا أعترف أنى عرفت الأدب الغربىّ أول ما عرفته ، فى هذا الـكتاب ، وأحسب كثيراً من المتأدبين يشاركوننى فى هذا الاعتراف

وقد أخرج الأديب الفاضل عام أول كتاباً سماه « خواطر الخيال وإملاء الوجدان » ، وهو كتاب من إنشائه يتضمن خمسة وسبعين مقالاً فى موضوعات شتى . والـكتاب أربعة أقسام . وليست خواطر الخيال إلا القسم الأول منه الذى يحوى مقالات الربيع ، والزمان ، والزهرة ، والشيطان الجميل ، والأمل ، والنور ، والظلام ونحوها من الموضوعات الخيالية والوجدانية

والقسم الثانى فيه أبحاث فلسفية ونفسية مثل الموسـيقى والحب ، الموسيقى والسحر ، الموسـيقى والتربية ، أغانى الحب عند هنود أمريكا ، وأكثر ما فى هذا القسم يتصل بالموسـيقى . وكاتبنا الفاضل له ولع بالموسيقى ، وخبرة بها ، واهتمام بتاريخها . وقد ألف فيها كتاباً طبعه مؤتمر الموسيقى الذى اجتمع بالقاهرة منذ سنتين

والقسم الثالث من الـكتاب باب النقد وفيه مقالات كثيرة منها « بين القديم والحديث » ورواية عائدة ، وألف ليلة وليلة ، وعلى ضفاف الـكنج ، ونابغة شرقى مجهول ، وفيه تراجم جماعة من أدبائنا فى القرن الماضى مثل عبد الله باشا فكرى ، ومحمود باشا قدرى ، ورفاعه بك ، وعبد الله نديم ، ومحمود صفوت الساعاتى

والقسم الرابع سماه الـكاتب متفرقات وفيه أربع مقالات

والأديب الفاضل محمد كامل حجاج مولع بالجمال حيثما تجلى . فهو كلف بالجمال فى الحدائق ، ذو دراية ودُربة فى زراعة البساتين ، وهو كلف بالجمال فى الموسيقى يكثر التحدث بها والـكتابة عنها ، وله فيها ذوق سليم . وهو كلف بالجمال فى التصوير وله فيه حسنات . وهو كلف بالجمال فى الفضيلة والأخلاق الطيبة ، كريم الخلق مولع بالتحدث عن الخلق الكريم والدعوة اليه الخ الخ

وهو إلى هذا كله واسع المعرفة بالأدب الفرنسى ، حريص على إقناع قراء العربية بطرفه وروائعه

هـذا الـكلف بالجمال فى مظاهره المختلفة والبصر بالأدب الفرنسى يتجلى فى صفحات الـكتاب . ولست أستطيع تفصيل ما فى الـكتاب هنا ولـكنى أدعو المتأدبين إلى أن يقرأوا فى الـكتاب تفصيل ما أجملت ، وبرهان ما ادعيت ، فالـكتاب جدير بالقراءة خليق باهتمام الأدباء وكاتبه جدير منا بالشكر والثناء

عبد الوهاب عزام

3 me Année, No. 109.

Lundi-5-8-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٩ « القاهرة في يوم الاثنين ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أساليب الاستعمار

قضيـــة الحبشة

قضية الشرق وقضية الحرية

للاستعمار الغربي تاريخ أسود ، حافل بصنوف الاعتداءات الدموية على حقوق الأمم الضعيفة ، وعلى أرواح الشعوب الآمنة وحرياتها وأرزاقها ؛ ولكن هذا الاستعمار الدموي الغادر ، لم يبلغ في عصر من العصور ، ولا في ظرف من الظروف ، ما يبلغه اليوم من الجرأة والاستهتار ، بل من الاجرام والتوحش ، فهو لا يحاول حتى أن يستر نياته كما عهدناه في الماضي أو يسبغ على تصرفه أي لون مشروع أو معقول ، بل يتقدم بكل بساطة ، مسفراً عن براثنه ، شاهراً سلاحه للقضاء على الفريسة ، متغنياً في غير حياء ، ولا وجل بما يستطيع أن يغنم من وراء الدم المسفوك ، والحريات المغصوبة ، والبلد المباح

تلك هي الصورة التي يعرضها لنا النزاع الإيطالي الحبشي . ونقول النزاع من باب التجاوز ، إذ أي نزاع هنالك ؟ بلد حر

مستقل منذ أحقاب التاريخ ، وشعب آمن مطمئن فى أرضه التى خصه الله بها ، يريد الاستعمار الفاشستى الغاشم أن يلتهمه نهاراً جهاراً ؛ ولا عذر له — إن صح التعبير — إلا أنه يريد أن يزيد فى أرضه وفى ثرواته وفى سلطانه ، وأن يحقق شهوة عرضت له فى استباحة الهضاب الحبشية الغنية بكنوز الطبيعة ، التى يضطرم جشعاً للحصول عليها . وأى طريق هذا الذى يلجأ إليه لتحقيق هذه الشهوة الوضيعة الغاشمة ؟ هو القتل المنظم يسميه الحرب ، والفتك الذريع يسميه الفتح ؛ هو القرصنة المجردة ، وهو السلب الجهر ، وهو قطع الطريق ؛ وهو أخيراً كل ما فى الجريمة من عدوان وانتهاك وكل ذلك باسم المدنية الغربية والتهذيب الأوربى

وأوربا المتمدينة ، ما هو موقفها من ذلك العدوان الآثم ؟ وشرائع الله وشرائع الأمم ما مصيرها ؟ أما أوربا المتمدينة فهى تأتمر جمعاء مع هذه الفاشستية الدموية المتوحشة ؛ وإذا شذت دولة فعرضت بعدوانها فإنما ذلك لغيرة أو منافسة ؛ وإنما عصابة الاستعمار كلها يد واحدة تؤيد إيطاليا القوية الزاخرة بالجند والسلاح ، لا باعتبارها دولة أوربية وقوة استعمارية فقط ، ولكن باعتبارها دولة غربية تزمع أن تفترس أمة شرقية ، وأمة بيضاء تزمع أن تفترس شعباً أسمر « ملوناً » ؛ وكلها تأتمر مع القوى المعتدى ضد الضعيف المعتدى عليه ، فتمتنع عن بيع السلاح للحبشة مصانعة لإيطاليا ومؤازرة لقضية الاستعمار المشتركة ، لكى تعجز الحبشة عن الدفاع عن نفسها ، ولكى يستطيع المعتدى أن يحصد أبناءها المدافعين عنها بأيسر أمر

وأما شرائع الله وشرائع الأمم ، فان هـذا الاستعمار الباغى ينتهكها شر انتهاك ؛ بل إنه ليتيه كبرياء إذ يستطيع انتهاكها دون وازع ، ويزعم أنه يستطيع بما لديه من القوى والعدد أن يسخر من رأى العالم ومن الانسانية كلها ؛ فحقوق الأمم وحرياتها المقدسة ، وأمن الشعوب وحياة الأمم والأفراد كلها لغو فى نظره ؛ ثم هو يطأ قانون الأمم (القانون الدولى) بقدميه ويسحقه سحقاً ، فلا ترده عن مشروعه الآثم معاهدات سلم وتحكيم يرتبط بها ، ولا يحترم معاهدات خاصة عقدها مع الأمة التى ينوى افتراسها يوم كان يخطب ودها

تلك هى إيطاليا الفاشستية ، وذلك هو موقفها كما يعرضه ذلك الرجل ! ذلك الطاغية الذى يزعم أنه بعدوانه الصارخ على حرية الأمم ، يقود أمته فى سبيل المجد والعظمة والثراء ، وما يقودها إلا فى سبيل الدمار والفناء

لقد كانت إيطاليا لأقل من قرن أمة ذليلة تصفدها أغلال الحكم الأجنبى ، وكانت أوربا والعالم كله يعجب بكفاحها فى سبيل حرياتها ؛ وما زالت أسماء أولئك الزعماء الذين قادوها فى سبيل الحرية أمثال مازينى وأورسينى وكافور وجاريبالدى تستثير اعجاب الخلف وتقديره . ولكن إيطاليا ، ولكن ذلك الطاغية الذى يسيطر على مصايرها اليوم ، يوشك أن يقضى بمعوله المخرب على ذلك الصرح النبيل الذى ما زالت تتخذه الأمم الطامحة إلى حرياتها مثلا أعلى

إن هذا النزاع الذى تهتز له اليوم ارجاء العالم كله ، ليس قضية إيطاليا والحبشة بل هو أجل شأناً من ذلك وأبعد مدى ؛ هو قضية الغرب الظافر والشرق المغلوب ، وهو قضية الاستعباد والحرية ؛ وإذا كانت قوى الاستعمار تتضافر اليوم مع إيطاليا لتزيدها جرأة على جرأتها ، وقوة على قوتها ، فذلك لأنها ترى فى سحق الحبشة سحق آخر معقل للحرية الافريقية ؛ وإذا كانت بعض الدول الاستعمارية تحاول أن تبذل باسم عصبة الأمم جهوداً لاتقاء الحرب الافريقية ، فليس ذلك حباً منها للسلام أو عطفاً على الحبشة ، ولكن لأنها تشفق أن يثير هذا الفصل الجديد فى الصراع بين الشرق والغرب ، وبين الاستعمار وفرائسه ، اضطراباً فى أملاكها ومستعمراتها ، وأن يذكى فى الأمم المستعبدة روح الانتقاص والثورة فتعمل على تقويض سلطانها المغصوب

إن فرصة تلوح فى الأفق للأمم الشرقية ، فهل تعنى الأمم الشرقية بمراقبة الحوادث ، وهل تعد نفسها لانتهاز فرصتها ؟

(. . .)

كلمات عن حافظ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنـةَ الأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي ؛ أيُّها القلبُ المسكينُ أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : مالك لا ترضى ولا تهدأ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إليّ أنه هو راضٍ مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نـهـمَتـه ولم يبق فى نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لى . وكنت أعجبُ لهذا الخُلق فيه ولا أدرى ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعاً بطابَع اليُتم فلم يعرف منذ أدرك ألا أنه ابنُ القـدَر ؛ تأتيه الأفراحُ والأحزانُ من يدٍ واحدة مقبَّلة كما تنالُ الصبيَّ ألطافُ أبيه ولَطـمَاتُ أبيه . . . .

وقد قلت له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ؛ فضحك وقال . أو كأنني أحلم بغير نوم . . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِق بربه فى سنة ١٩٣٢ فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوماً بروح القبر ، وفى القبر أولهُ . ولما أزْمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . . فقال : أو تراني لم أمتْ بعد فى مصر . . . ؟ إن الذى بقى هيِّن

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قويَّ المَلكة فى فن الضحك ، كأن القـدَر عوَّضه به ليُوجِدَهُ فى الناس عطفَ الآباء ومحبةَ الاخوة . ولم يَخلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ فى زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ فى نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكفِّئة تميلُ بها موجةٌ وتَمُدُّ لها موجة ، وهى بهذه وبهذه تمرُّ وتسير

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَـدَر نظاماً فى زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة فى هذا الباب ، ووقع إصلاحاً فى عيشتهم وكانوا إصلاحاً فى عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشَبَّهُ بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرّج منها فى مدرسة التجارة العليا . . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة

* * *

وهذه النوادر كأنها هى أيضاً صنعت (حافظ) فى شكل نادرة . فكان فقيراً ، ومع هذا كان للمال عنده مُتَمَّم هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيماً ، ولكنه دائماً متودِّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلْعة ؛ وكان بائساً ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان فى ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طِوالَ عمره مُتبَسِّطاً مهتزاً كأن له زمناً وحدَه غير زمن الناس ، فتتراكم عليه الهموم وهو مُستَنيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلةِ الشِّبَع ، ويَستَرسلُ إلى البَطالة وكأنه مُشمِّرٌ للجِد ، ويستمكنُ الحزنُ منه فى ساعة فيتَبدَّد حزنه بالساعة التالية . . . .

رأيته فى أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشُه وكان يَعُدُّ قروشاً فى يده فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لى غير هذه القروش الملعونة ، فهلمَّ نتعشّ . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أنى تعشّيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش . وكنت أطالعُ فى وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعانى (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أناملُه ذهباً وفضة . وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثانى من (البؤساء) ورآنى فى القاهرة فأمسك بى حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا فى الأصيل عربة وخرجنا نتنزَّه أى خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضى لا يتغير فى بؤس

(١) لما توفى حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف . فلم نعرض فى كلماتنا هذه لشىء من أدب الرجل وانما هى ذكرى وبقايا من الأيام

ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود . وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فناً من الفوضى الانسانية حتى لكأنه حلمٌ شعرىٌّ بدأ من أبويه ثم انقطع وتُرك لتتممه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الانسانية رآه جميلاً جمالَ الأشياء الطبيعية لا جمالَ الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها . وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُطهّماً ، وأرى فى شكله هندسةً كهندسة الكون تتمم محاسنَها عقابيحها . وكم قلت له : إنك يا حافظ أجملُ من القمر ......

أما هو فكان يرى نفسه دَميماً شنيعَ المرْآةِ متفاوتَ الخلق كأنه إنسان مغلوطٌ فى تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساءُ اثنتان : فاما جميلةٌ تنفر من قبحى ، وإما دميمةٌ أنفر من قبحها ؛ ولهذا لم يُفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يُحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ؛ وبقى شاعراً غير تام ، فان المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه . وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . .

***

وتهدّم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخِذتُم مَوْجَ الأثير بَريداً
حين خِلْتُم أن البرُوق كُسالى [(١)]

فنظرتُ إلى وجهه المعروق المتغضّن وقلت له : لو كان فيك موضعُ قُبلة لقبّلتك لهذا البيت ؛ فضحك وأدار لى خدّه ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

***

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مُجمع عليه ؛ وكان يتقصّص النوادرَ والفكاهات ومُطارحاتِ السَّمَر من مظانّها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فاذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبَه هو ، وجمل يقلّبها ويتصرف فيها ويُبينُ عنها أحسن الابانة بمنطقه ووجهه ونبرات فى لسانه ونبراتٍ فى يده

وهو أصمعىُّ هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فاذا استهلّ سحّ بالنوادر سحاً كأنها قوافى قصيدة تدعو الواحدةُ منها أختها التى بعدها

وقد أذكرتنى (القوافى) مجلساً حضرتُه قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) هلم نتساجلْ فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدُنا . وكانت القافية من وزن : قدّرها ، أحمرها ، أخضرها الخ ، وجعلتُ أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الاطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسرُدُ له من حفظه الغريب

أما فى النوادر فالعجيبةُ التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » وكان داهيةً ذكياً وظريفاً لبقاً ، وكنتُ أخالطُه وأتصلُ به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ؛ فلما مُدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وماهو ؟ قال : كل لقمة بنادرة

فتهلل حافظ وقال : نعم لك علىّ ذلك . ثم أخذ يقصُّ ويأكل ، والعشاءُ حافلٌ ، وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أخلَّ حتى وفّى بالشرط . وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه . . . .

***

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به . فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائماً — دعوه لالقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حميةً وعلماً ، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى . فقام حافظ فأنشدهم بعض ماترجمه نظماً عن شكسبير ومثله تمثيلاً

(١) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق

أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب . ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلق عليهم من نوادره . وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكرٌ أم ثيّب ؟ فقالت : كثرت الفتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هـذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تفلح

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب فى تنبّه (حافظ) إلى ما يجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التى كسبهم بها من بعد . ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدرى أ كان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا . فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...

* * *

وفنُّ (الشعر الاجتماعى) الذى عرف به حافظ ؛ لم يكن فنّه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه فى طريقته . فلما جاءت إلى مصر الأمبراطورة (أوجينى) نظم قصيدته النونية التى يقول فيها :

فاعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارئ الحدثان

ولقيتُه بعدها فسألنى رأيى فى هذه القصيدة ، وكان بها مُدلاً مُعجباً شأنه فى كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء فى ألفاظها ومعانيها وأشرت إلى الطريقة التى كان يحسن أن تخاطب بها الأمبراطورة . فكأننى أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لى : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعى » ، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال : إن كل قصائد شوق الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقينى بعدها مرة أخرى فقال لى : إن الشاعر الذى لا ينظم فى الاجتماعيات ليس عندى بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هى الاجتماعيات إلا جمل مقالات الصحف قصائد ... ؟

فالأستاذ الامام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصلُ هذا المذهب الذى ذهب اليه حافظ . وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التى تعرض فى مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبنى عليها أو يُدخلها فى شعره . وهو أحياناً ردئ الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفياً إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطَّلة ، وإنما هى فى الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة فى عالم الكلام بأبهائها وزرثها ...

* * *

وكنت أولَ عهدى بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الامام وأنفذتها اليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لى إنه هو تلاها على الامام ، وأنه استحسنها . قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطانى من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه فى الشعر كبيرُ معنى . قال : ويحك إن هذا مَبْلغُ الاستحسان عنده

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلاً ... فأرضانى والله أن يكون بينى وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ

وأنا أرى أن « حافظ ابراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » ، لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ فى حافظ أنه كان دائماً فى حاجة إلى مَن يسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى اسماعيل باشا صبرى فى القصر العينى ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أذُن الامام هى التى ربّت الملكَة فيه ، وقد بينا هذا فى مقالنا فى (المقتطف)

وكان تمام الشعر الحافظىّ أن يُنشـــده حافظ نفسهُ ؛ وما سمعت فى الانشاد أعربَ عربيةً من البارودى ، ولا أعذبَ عذوبةً من الكاظمى ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجلُّ البارودى اجلالاً عظيما ، ولما قال فى مدحه :

قُمْ كلُّ معنى فارسىّ بطاعتى وكلُّ نفور منه أن يتودّدا

قلت له : ما معنى هذا ؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسيّ وما هو بفارسي ؟

قال : إنه يعرف الفارسية ، وقد نظم فيها ، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها . قلت : فكان الوجه أن تقول له : أعِرنى المجموعة التى عندك . . .

أما الكاظمى فكان حافظ يُجافيه ويُباعده ، حتى قال لى مرة وقد ذكَّرته به : « عَقَقْناه يا مصطفى ! »

وما أنس لا أنس فرحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده . وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو ، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى . ثم تخلى البارودى وصبرى ، وحكم الكاظمى وحده ، فنال حافظ المدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى الغَرْزَمة [1] قال : لماذا لم تدخل فى هذه المباراة ؟ قلت : وأين أنا من شوق وحافظ وفلان وفلان ؟ فقال : « لِيه تخلّى هِمَّتَك ضعيفة ؟ » ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجباً بها ، فنقلتُ ذلك إلى حافظ فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة

* * *

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى . فى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) فظهر فى أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*) . وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان ، وقام به الشعراء وقعدوا ، وكان له فى الغارة عليهم كزَفيف الجيش وقَعْقَعةِ السلاح ، وتناولته الصحف اليومية ، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر ؛ وانتهى إلى الخديو ، وتكلم عنه الأستاذ الامام فى مجلسه ، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستانى ، وأديب عصره الشيخ ابراهيم اليازجى ، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له ؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه ، فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً ، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله : وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال ؛ وذِمة الاسلام أنت صاحبُه

ثم دخلنا إلى « قهوة الشيشة » فقال فى كلامه : إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين . فقلت : ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوق . . .

وغضب السيد توفيق البكرى غضباً من نوع آخر ، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . . . . وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا) ، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحاً يَرِنُّ رنيناً

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعاً ، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر . . . فكان هذا ردَّ نفسه على نفسه [1]

وتعلّق مقالُ المنفلوطى على المقـــال الأوّل فاشتهر به لا بالمنفلوطى ؛ وغضب حافظ مرة ثانية ، فكتب إلىّ كتاباً يذكر فيه تعسُّف هذا الكاتب وتحامله ، ويقول قد وكلْتُ اليك أمرَ تأديبه

فكتبت مقالاً فى جريدة (المنبر) وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض ، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت : إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِه فأكبّ على قدم الملك حتى شفّعه ؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له ، قال : ويحكم ، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذُنيه فى رِجليه ....

* * *

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين ، حين ظهر مقال (الثريا) ، ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيه ؛ فمررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم ، فلما

(١) الغرزمة أول قول الشعر حين يكثر الردىء فيه يقال فلان يغرزم

(١) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعد أن هذبه ؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى لأنه هو كان يعلم أن النائحة المستأجرة لا يسمى بكاؤها بكاء ....

قضايا التاريخ الكبرى

٢ – من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق في باريس وفي فرنسا بأسرها؛ ولم يكن القضاء العادي ليكفي لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع، فرأى لويس الرابع عشر ووزراؤه أن يعهد بعقابها إلى القضاء الاستثنائي، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هي «الغرفة الساطعة»(١) الشهيرة في تاريخ ذلك العصر، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التي تنتدب للنظر في الجرائم الكبرى كانت تجلس في غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالمشاعل والمصابيح

وعقدت «الغرفة الساطعة» جلستها الأولى في العاشر من ابريل سنة ١٦٧٩، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شيء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم؛ وتولى الرآسة المستشار لوي بوشرا كونت دي كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة؛ وتولى لاريني مهمة القاضي المحقق؛ وكانت إجراءاتها تتلخص في أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعني بواسطة «اللتر دي كاشيه» (أو رقعة السجن)، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف إلى «الغرفة الساطعة»؛ وهي تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار في اعتقال المتهم، فاذا قررت ذلك، استمر التحقيق معه؛ وعند نهايته، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة، فيقرؤها القضاة، ويقدم نائب الملك (النائب العمومي) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة، وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

وكانت «الغرفة الساطعة» تعقد في قصر «الأرسينال»؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا اليها ٤٤٢ متهماً، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم؛ وحكم بالاعدام على ستة وثلاثين، وتقرر تعذيبهم بالتحقيق العادي وبالتحقيق الاستثنائي، ثم أعدموا حرقاً كما سيجيء؛ ومات اثنان في السجن؛ وحكم على خمسة بالاشغال الشاقة، وبالنفي على ثلاثة وعشرين؛ وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء، ولكن لأن لهم شركاء في التهم المسندة اليهم من أكابر الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

* * *

يقول ڤولتير في كتابه «عصر لويس الرابع عشر» في حديثه عن قضية السحرة، إن أعظم رؤوس في المملكة استدعوا لابداء أقوالهم أمام «الغرفة الساطعة» ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران؛ والدوقة دي بويون، والكونتة دي سواسون والدة البرنس أوجين، والماريشال دي لوكسمبورج؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هي أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لائتمار السحرة، وأن التحريض على اغتيالها لم يجئ إلا من أعماق القصر، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دي مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة،

(١) La Chambre ardente

اطمأن بي المجلس قال حافظ: ما رأيك في شعر اليازجي؟ فأجبته؛ قال: فالبستاني، فنجيب الحداد، ففلان، ففلان؛ فداود بك عمون؟ قلت: هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغُ معه الحكم على شعره. قال: فماذا قرأت له؟ قلت: ردّه على قصيدتك اليه: شجتنا مطالعُ أقمارِها. قال فما رأيك في قصيدته هذه؟ قلت: هي من الشعر الوسط الذي لا يعلو ولا ينزل

فما راعني إلا رجلٌ في المجلس يقول: أنصفتَ والله! فقال حافظ: أقدم لك داود بك عمون ...... رحم الله تلك الأيام ما ؟

(طنطا) حسن محمود فهمي

قد وصلت فى ذلك العصر إلى ذروة القوة والنفوذ ، وتبوأت فى البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على المليك المتيم مدى أعوام طويلة ؛ ولـكن حل عهد السأم والهجران أخيراً ، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هى فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دى فونتانج ، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرمت سخطاً ويأساً ، وفكرت فى أن تنتقم من الملك وحظيته الجـديدة معاً ، واتصلت بالساحرة لا ڤوازان وزميلة لها تدعى لاتريانون ، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ؛ وتعهد الساحران المسمان رومانى وبرتران بقتل الآنسة دى فونتانج ، وبذلت مدام دى مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دى مونتسبان إبان نفوذها وسـلطانها وثيقة الصلات بلاڤوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماساً لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم ؛ وكانت هـذه الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك فى إجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطغام ، وتقوم لاڤوازان وزملاؤها باجراء القربان الدموى والسحر الأسـود ، وتعتقد الحظيـة الهائمة أنها بذلك تذكى نار حبها فى نفس الملك وتوطد دعائم نفوذها وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لارينى من أقوال لاڤوازان وشركائها فى أن الجناة فكروا أولاً فى أن يزهقوا الملك بالسم ، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حينما اعتاد أن يمر ، فيستنشقه تباعاً ويموت ببطء ، وتعهدت الآنسة ديزييه وصيفة مدام دى مونتسبان بتأدية هذه المهمة . ولـكن لاڤوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه فى أيام معينة العرائض التى يرفعها اليه رعاياه بالتظلم والالتماس ، ويسمح لـكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز ، ففكرت لاڤوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف ، فاذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك ؛ وتعهدت الساحرة لاتريانون باعداد هذه العريضة ، وتعهدت لاڤوازان بتقديمها إلى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيميا ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دى ترم فى قصره ، وسعت لاڤوازان لدى وصيف بالقصر من معارفهـا ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لاڤوازان ، وتنبأوا لها بالوقوع بين براثن القضاء متهمة بجريمة دولة ؛ ولم يكن الموت شر مايخشاه السحرة فى تلك العصور ، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم ، بيد أن لاڤوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جعلتها مدام دى مونتسبان ثمناً للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر) ، فقصدت إلى سان جرمان فى يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩ ، ثم فى التاسع منه ، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم اليه العريضـة المسمومة ، ولـكنها لم تفز ببغيتها ، فعادت مكتئبة إلى باريس ، ولـكن مصممة على أن تعود فى أول فرصة . بيد أن عين لارينى كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة ؛ وفى الثانى عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت ، وعلى عـدة من شركائها حسبما أسلفنا

ولما ذاع نبأ القبض على لاڤوازان وشركائها ، ارتاعت مدام دى مونتسبان ، وغادرت البلاط فى الحال إلى الريف ، فمكثت هنالك مدى حين

***

أنفقت المحـكمة الخاصة أو « الغرفة الساطعة » أشهراً طويلة فى تحقيقات واجراءات يتسع نطاقهـا يوماً عن يوم ، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الـكبيرة ، حتى أن المحقق لارينى اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لمرافقته فى زيارته لسجن ڤنسان حيث اعتقل المتهمون ، وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة ، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر ، وكتب لوڤوا رئيس الوزارة إلى رئيس المحـكمة يقول له : إنه لمناسـبة ما نمى إلى جلالته من الحديث حول « الغرفة » واجراءاتها ، فان جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب اليهم أن يستمروا فى اقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى اليه قضاة المحـكمة ليطمئنهم ويشجعهم ؛ ويقول لنا لارينى تعليقاً على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب ، وإنه يرجو تحقيقاً لخير المجموع أن ننفذ جهد الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم ، وأن نجتث جذورها إذا

استطعنا ، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات

بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ فى بعض الأمور ، وظهر أثر هذا التحفظ فى الحرص على عدم حالة لافوازان إلى التعذيب ، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يراد أن يذاع وأن يعرف ؛ ومع ذلك فقد صرحت لافوازان فى ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالأعدام « أنها مضطرة لأن تقول اراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ اليها سعياً إلى ازهاق الكثيرين ، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور »

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونفوازان ابنة لافوازان عقب اعدام أمها ، كتب إلى لاربنى يطالب اليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات فى ملف خاص ، وكذلك أقوال الساحرين رومانى ورتران ، وهما من شركاء لافوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونفوازان ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك ، ومن جهة أخرى فقد وعد لوفوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته إذا قال كل شيء ، ولكنه لما ذهب فى اعترافاته إلى حدود مروعة ، رمى بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغى اليه بعد ؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها فى ملف خاص ، وأن ترفع إلى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب فى اذاعتـه ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التى تصيبه فى أعز عواطفه وفى كرامته الملوكية . ألم تلجأ حظيته التى كان يعبدها إلى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها فى معاهدهم سعياً إلى ازهاقه ؟ أليست مدام دى مونتسبان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك العظيم ألمه وتأثره ؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التى تكشف عن عاره فى خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر باحراقها بعد ذلك فى مدفئه فى يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعنى بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما

***

كانت « الغرفة الساطعة » حاسمة صارمة فى أحكامها ، فقد حكمت بالاعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهماً ثبتت إدانتهم فى مزاولة التسميم والأعمال السحرية الاجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهماً . ونفذ الاعدام فى المحكوم عليهم تباعاً ؛ وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائماً . وكانت لافوزان ولافيجوريه ولساج فى مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع . وقد احرقوا معاً فى « ميدان جريف » . وتصف لنا مدام دى سفينيه الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لافوازان — وقد شهدته بنفسها — وتقول لنا « لقد أسلمت لافوازان روحها للشيطان فى لطف » . وينقل إلينا الكاهن الذى تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهى : « إننى مثقلة بأكداس من الجرائم ، ولست أدعو الله أن ينقذنى من النار بمعجزة ، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشيء مما ارتكبت »

ويقدم إلينا فولتير فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر » خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله : « نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس . بيد أن حكم الاعدام الذى قضى به على لافوازان وشركائها قد وضع فى الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة فى شرذمة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها ؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية ، نتيجة الجريمة »

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقى ضياء كبيراً على روح هذا العصر وخلاله — ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هى أن عصور العظمة القومية ، تتكشف فى الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوى والاجتماعى تتناسب مع ما تبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحى والأخلاق ، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضيعة . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء يعانى فعل هذه العناصر الهدامة التى انحدرت بالمجتمع الفرنسى غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط ، كان نذر الثورة الفرنسية الكبرى (١)

تم البحث — **محمد عبد الله عنان**

(١) اعتمدنا فى هذا البحث على كتاب العلامة فونك برنتانو Le drame des poions وكتاب فولتير Siecle de Louis XIV

وقفـــــة بالعقيق !

للأستاذ على الطنطاوى

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق
مائل بين أربع مائلات ينزع الشوق من فؤاد علوق

« البحترى »

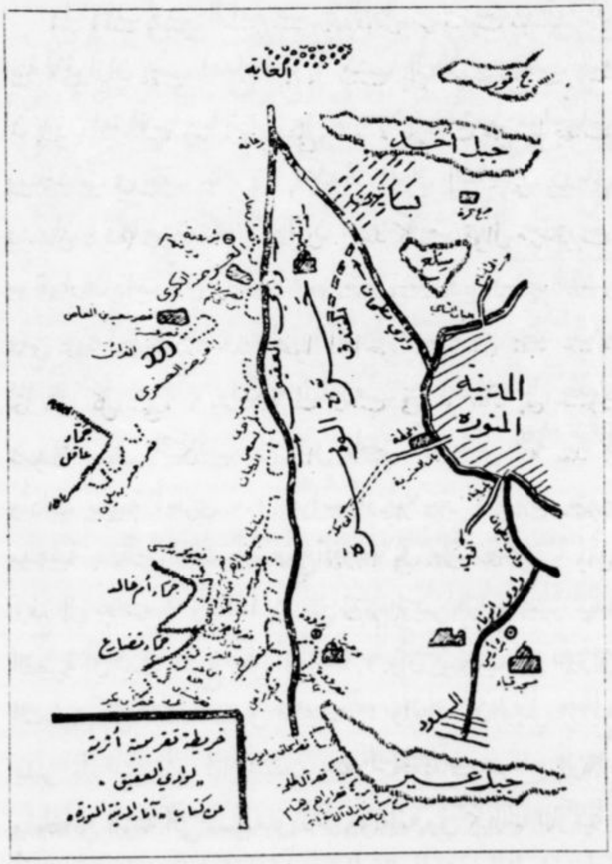
. . . . أصابتنا فى المدينة عينٌ من المطر ، فحبستنا فى الدار أياماً ، وجاءت بعد مَحْلٍ من الأرض ، وشُحٍّ من السماء ، فروّت الأرض ، وأسالت الأودية ، فاستبشر الناس بنا (١) إذ كان قدومنا خيراً ، وزيارتنا غيثاً ، ومقامنا ربيعاً ؛ وليس أجمل فى أرض العرب من الربيع ، ولا أجدى من الغيث ؛ ثم انقشعت الغيوم بعد أيام ، إلا جهاماً من السحاب هفّاً رقيقاً ، وأفتق (٢) قرن الشمس تخلع على الدنيا حُلَّةً نسجت من خيوط النور . . . . وحَلِيَ اليوم وطاب ، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه ، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش ، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة ، وآنافنا بهذا الأرج يتضوّع من هذه التربة المعطرة « بعطر السماء » . . . وسرنا فى « شارع المنبرية » نريد الحرم ، ، فلم نكد نتعدى « المناخة » حتى قيل : قد سال العقيق .. فاذا الوجوه تطفح بالبشر ، وتفيض بالسرور ، وإذا على كل لسان : قد سال العقيق . . . . وإذا الناس يستعدون للخروج !

وهل يملك الناس نفوسهم ، فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق ، وقد سال العقيق ؟ وهل يذكر عربىّ العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر ، والفنّ والجمال ، والحياة الناعمة والعيش الرغيد ؟ أولم يكن وادى العقيق رمز الهوى والشباب ، ومغنى الغنى والغناء ، ومثابة الفنّ والأدب ، ومجمع العشاق ، وندىّ الشعراء ؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب العالم ؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أربع دواوين الأدب العربى وأحلاها ؟ ألم تعش على أطراف العقيق العشرات من القصور الفخمة ، والرياض النضرة ، والمغانى التى فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو فى الأذن تكراره ، ويلذ اللسان ترداده ؟ . . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، ويروِ أشعار العقيق ، من لم يرَ قط العقيق ، فيهوى العقيق ، ويحنّ إلى العقيق ؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق ؟ . . .

أو لم يسمع عبد العزيز بن الماجشُون أن قد سال العقيق ، وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يتريث ولا يمر بداره ، ويمضى اليه من ساعته ، فيلهو فيه بعض اللهو ، ويسمع فيه الغناء ، وهو هو فى مكانته ووقاره ؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم ؟

***



خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية ، الكابية الباكية ، التى أضاعها أهلوها ، وأهملوها حتى نسوها ... حتى بدت لنا الحرّة السوداء الواسعة (١) فسلكنا طريقاً فيها جديدة ، على يسار الطريق القديمة التى تهبط الحرّة على سلم منقورة فى الصخر ، وهذه النقرة هى ثنية الوداع ، التى طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن :

(١) معشر الوفد السورى

(٢) أفتق قرن الشمس ، أى بدا من فتق فى السحاب

(١) وهى حرة الوبرة احدى حرتى المدينة ، أو لابتيها

طلع البدر علينـا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

والتي منها أشرق « المبدر » على القلوب والعقول ، فأنارها فهي منه في نور إلى يوم القيامة !

وسرنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فانتهينا إلى بئر عروة ، التي حفرها الامام الزاهد العلم عروة بن الزبير ، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير وهو مقيم في الرقّة ؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت على جذوع النخل ، فجلسنا فيها على كراسيّ مستطيلة ، تتخذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً ، تطلّ على الوادي العظيم

والوادي رغيب ، بين عدْوَتيه أكثر من مائة متر ، وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر ، وقد غنى الوادي وامتلأ ، والسـيل دفاع يلتطم آذيّه ، وتصطخب أمواجه ، يرمي بالزبد ، ويطوّح بالفقاقيع ، ويجري متكسراً وله خرْخرَة ، وله دَرْدرة ، وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً ، يحفون بـ «سماورات» الشاي البراقة العالية ، ويغنون ويطربون ، ما سمحت لهم « الحكومة » أن يغنّوا ويطربوا ...

***

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم وأوطانهم ، ويحنون إلى الغوطة الغناء ، والعين الخضراء ، والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدّق في ماء العقيق ، وأحن إلى أيامه الغر ، وماضيه الفخم ، وأفكر في حاضره الممض ، وواديه القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي سبيكة ذهب ، أو قطعة ياقوت ، ألقي عليها نور وهاج ، ثم أراها قد استقرت وسكنت ، فاذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق في العطر والنور ، وإذا من حوله العشرات من القصور ، تفيء كأنها الثريا في السماء ، فتنعكس أنوارها في الماء ، فتتوارى النجوم استحياء ، وتغمض العين خجلاً ، ثم تستتر ببرقع الغمام وتبكي ، فيضحك العقيق لبكاء السماء ، وتضحك الأرض لضحك العقيق !

***

وأرى قصر عروة العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله الجليل ، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة ، ليأخذوا من شعره ، ويحفظوا من حديثه ، فاذا طال بهم الانتظار ، وتصرّم الليل ، ولم يفوزوا بطائل ، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا أن يباكروه من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق « يناجي طيف من يهوى ، ويبغي عنده السلوى » وخشع الليل ، وأنصت السـكون ، فقام عروة على شرفة القصر ، فراقه سكون الليل ، وفتنه منظر العقيق ، فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد :

إن التي زعمت فؤادك ملّها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما   يبدي لصـاحبه الصبابة كلها
وبيبت بين جوانحي حب لها   لو كان تحت فراشهـا لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها   يوماً وقد ضحيت اذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقـــة فأدقها وأجلـها
لما عرضت مسلماً لي حاجة   أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي   ما كان أكثرها لنـا وأقلها
فـدنا فقال : لعلها معذورة   من أجل رقبتها ، فقلت : لعلها

فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله ، فقال له : أسمعت أبيات عروة أمس ؟ قال : وأية أبيات ؟ قال : وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملّها . . . .

فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : لعلها ، قال أبو السائب : أحسن والله ، هذا والله الدائم العهـــد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة   عنيّ فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول : لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل !

وينتظر عبـد الله حتى إذا حان المساء ، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب اليه فقال له : « جئت أنشدك وأحدثك » فيقول : « هات ما عندك » ، فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيتي العرجي :

باتا بأنعم ليـــلة حتى بدا   صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عنـد الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب : أعده عليّ ، فيعيده أبو مصعب ، فيستفز المخزومى الطرب فيحلف بالطلاق لاينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته !

ويمرّ بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول : كيف أمسيت أبا السائب ؟ فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول ابن حسن : مالك يا أبا السائب ، انى لا أكاد أفهم عنك فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل عبد الله بن حسن على عبد الله ، فيقول : متى أنكرت صاحبك ؟ فيقول : منذ الليلة ، فيقول : إنا لله ! أيّ كهل أصيبت به قريش ! ثم يمضى

ويمرّ بهما عمران بن محمد التيمى قاضى المدينة يريد مالاً له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فيسلم ويقول : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة أخذ الغريم فضل ثوب المعسر

فيقول القاضى لعبد الله : متى انكرت صاحبك ؟ فيقول : آنفاً ، فيسترجع القاضى ويهمّ بالمضى ، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول : أفتدعه هكذا أيها القاضى وتمضى ؟ والله ما آمن أن يتدهور فى بعض آبار العقيق ، قال القاضى : صدقت ، يا غلام ! قيدَ البغلة ، فيضع القيد فى رجله وهو يشير بيده ويصيح :

فتلازما عنـد الفراق صبابة أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

***

ثم يضطرب الماء ويموج ، فتنطمس الصورة فلا أرى فى الماء إلا أشباحاً مبهمة ، مهتزة متداخلة ، ثم تبين و تضح ، فاذا أنا أرى قصر عروة ، وقد هيئ وفرش ، ودارت به الخدم والعبيد ، واجتمع من حوله السراة والأعيان ، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق ، فعلَ الذى ينتظر شيئاً ويبطئ عليه ، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة ، وقد كان فى دمشق فأصابته الأكلة فى رجله ، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده ، وقيل له نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً ! فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية . قالوا : نسقيك المرقد . قال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ فى التهليل والتكبير ، وقال : شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك. فان الألم ربما عزب معه الصبر ، وأنت شيخ كبير !

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى . فقطعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليه المنشار . . . فقطعت ، وهو يهلل ويكبر . . . ثم أغلى له الزيت فى مغارف الحديد ، فحسم به . فغشى عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، فلما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها فقلبها فى يده ، ثم قال :

أما والذى حملنى عليك ، إنه ليعلم إنى ما مشيت بك إلى حرام . . . .

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد — وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً ، وأدباً ونسباً — كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته ، وما يعلم عروة بشىء من ذلك ، وكان عروة رجلاً صالحاً قد عاف الدنيا ، وانصرف عنها ، ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر العُتْبى أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك ابن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومُصْعَب ، على عهد معاوية ابن أبى سفيان فقال بعضهم لبعض : هلمّ فلنتمنّ

فقال عبد الله : مُنْيَتى أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة

وقال مصعب : منيتى أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتى قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة

وقال عبد الملك : منيتى أن أخلف الأرض كلّها — وأخلف معاوية

فقال عروة : لست فى شىء مما أنتم فيه ، منيتى الزّهد فى الدنيا ، والفوز بالجنة بالآخرة ، وأن أكون ممن يروى عنه هذا العلم

فصرف الدهر من صرفه — إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله — فكان عبد الملك يقول : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى عروة ؟

(البقية فى العدد القادم)

على الطنطاوى

٧ – النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمـــــة

بقيت هَنات مما اقترف الكماليون لا أبغى إحصاءها، بل أكتفى بواحدة منها هى: لبس القبّعة. والأمر فى نفسه هيّن. ولكل أمة أن تتخذ من اللباس ما يلائم هواها، ويواتى حاجاتها، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم؛ ولكن الكماليين اتخذوا القبّعة عَمارة لهم سيراً على خطتهم فى تقليد الأوربيين وإتماماً لسنتهم فى محاكاتهم، وإمعاناً فى هجر ما يميزهم منهم فيحرمهم شرف الفناء فيهم. ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أن لا مناص لهم من لبس القبعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان لا بدعة يمليها التقليد لكان لهم فى العقل مساغ، وفى العذر متّسع، ولكان عليهم مع هـذا أن يفهموا الأمة بالدليل، ويجادلوها بالحسنى، حتى ترى أن القبعة لباس اختاروه لأنفسهم، لا ذلة ضربت على رءوسهم، فقد عاشت الأمة التركية أحقاباً ترى هذه القبعة شعار مخالفى دينها، ولباس أعداء تاريخها. فلما أكره التركىّ فى ثورة التقليد أن يضعها على رأسه أحسّها ذلة طأطأ لها الرأس الأبىّ، وعاراً ذلت له النفس الكريمة. وحاولت رءوس أن تنبـذها فقطعت، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت. وإنك لتبصر رأس التركىّ الأصـيد، وكأنه حمل من الذّل ملء الأرض والتاريخ، وسيم من الخسف ما تنوء به عزته وعزة آبائه. وليس هيّناً على أمة أن تسام هذه الخطة، وتحمل على هذا العنت. وإن يكن بعض الترك لبس القبعة عزاً وفخاراً، فقد لبسها معظمهم خزياً وشناراً، تنطق بذلك أساريرهم وتبين عنـه عيونهم؛ ولو أن القوم، إذ رأوا رأيهم، أخذوا به النشء الصغار، وخيّروا فيه الكبار، لهان الأمر بعض الهوان. تصور الشيخ ابن السبعين أو الهِمّ ابن التسعين قد شابت لحيته فى الاسلام، ونبتت نفسه وترعرعت ثم ذبلت فى كره القبعة، يُكره على أن يختم حياته بها، ويتوج شيبته بسوادها. وانظر ذلك الشيخ الجليل الذى كان يدرس العربية فى جامعة استانبول فقيل له: البس القبعـة وانزع العمامة. قال: أعرونى وعدّونى من رجال الدين. قالوا: فاخرج من الجامعة إن لم يكن لك بدّ من عمامتك. فخرج منها وخلفه فيها معلم ألمانىّ، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعـلّم الطلبـة، وكفى الله الطلبة عمامة الشيخ وعلمها، وأسعدهم بقبعة الألمانى وبركتها

* * *

وقد جاءت الأنباء بأن الايرانيين حذوا حذو الترك فى لبس القبعة، ولم يقنعوا بالبهلوية «التى ابتدعوها» فهنيئاً لهم تقليد المقلّدين

فلو كان عبد الله مولى هجوتُـه ولـكنّ عبد الله مولى مواليا

وأعجب من هذا وأشأم صيحة سمعناها من العراق تدعو إلى الاقتداء بالفرس والترك فيما صنعوا. وهى دعوة إلى هذا التقليد الأشأم الذى يبدأ فى ناحية فيسرى سريان العلة فى جميع النواحى؛ إذا ضل العرب فى الضالين، وتهافتوا مع المتهافتين، فبأىّ وزَر تعتصم الحضارة الاسلامية، وبأى ملاذ يلوذ التاريخ الاسلامى؟ وكيف تثبت الأمم الاسلامية فى هذه الزعازع إذا مال العرب وهم العماد، وزُلزلوا وهم الأوتاد؟ كيف وهم الحلماء إذا طاشت الأحلام، والراسخون إذا زالت الأقدام؟

ما أحسب العراقيين يستجيبون هذه الدعوة، فيسنوا للعرب أقبح سنّة، أو يستبدوا دونهم برأى، وهم الدعاة إلى الأخوّة العربية، الغلاة فى الحماسة القومية؛ الأمر، كما قلت، هين إذا أدت اليه الروية والاختبار، فليجتمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة فى مؤتمر عربى أو اسـلامى، ولينظروا فيما يلائم كل اقليم من الأزياء، وما يوافق المدنية الحاضرة من ألبسة، ثم ليختاروا على بينة. وليكن ما يختارونه موافقاً لأزياء أوربا أو الشرق، أو مخالفاً لكل أزياء العالم، فلا حرج فى هـذا ولا بأس به

لقد لبس العراقيون منذ سنين عمارة سموها الفيصلية جمعت مزايا القبعة الأوربية والعقال العربى، يسهل خلعها ووضعها، وتحمى الرأس والرقبة والوجه عند الحاجة، وهج الشمس ولفح الهجير، وتفرغ على رأس العربى جمالاً وجلالاً، وتتوّجه بمجد الماضى والحاضر. فلماذا لا يدعى إلى تعميمها، ويحتج لها بمزاياها؟ ألأنها اختراع لم تلده قرائح الأوربيين، ولباس لم تقرّه سننهم؟ إن لم يكن بد من شهادة أوربية فسلوا أهل أوربا العالمين بأحوال بلادكم فسيقولون إنها خير لكم من القبعة، وأجدى

عليكم منها . ليت شعرى إلام ندعو إلى اليقظة فتنامون ، وإلى الحذر فتستسلمون ، وإلى العزة فتهنون ، وإلى الاستقلال فتتبعون ، وإلى الاجتهاد فتقلدون ؟

كفى يا قوم بالزمان واعظاً ، وبالتجارب هادياً . إنكم فى مهب العواصف ، ومفترق الطرق ، فخذوا حذركم ، ونبهوا عقولكم واشحذوا عزائمكم ، ولا تصدروا إلا عن بينة ، ولا تقولوا إلا عن روية ، فانه الحياة أو الموت ، والبقاء أو الفناء

الخاتمة

رأى القراء مما قدمت أن الترك الكماليين لم يأتوا بجديد فى هذه « النهضة التركية الأخيرة » ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا . أحسنوا بما أخذوا بأسباب الحياة فاجتهدوا فى تعمير بلادهم وإسعاد أهلها ، وتوسلوا لمعارك الحياة بعددها فدربوا الجيوش واستكثروا من السلاح وجعلوا أنفسهم سادة بلادهم . وأساءوا بما تبعوا أهل أوربا فى امور هى من نفايات الحضارة ، وحثالات المدنية ، وبما هجروا من أجل ذلك كثيراً من سنن دينهم القويم ، وأخلاقهم الكريمة ، وتاريخهم المجيد . وأذكر فى هذه الخاتمة ما قاله فى أوربا بعض أولى الرأى منذ سنين : قال : « كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا ! معذرة ، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم ، وجالدوكم ما استطاعوا ، ودافعوكم جهد طاقتهم ، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة . وها نحن أولاء نعترف بأن الخير فى اتباعكم ، والشر فى مخالفتكم ، وإن آباءنا أثموا إذ منعوا عنا خيركم ، فاقبلوا الأبناء فى جماعتكم ، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم . ها نحن أولاء نحنى رؤوسنا إكباراً لكم ، ونلوم أجدادنا من أجلكم . »

وبعد . فهذه الكلمات التى كتبتها لا تفى بهذا الموضوع العظيم ، ولا بد أن يتعاون الكتاب والمفكرون فى هذه السبيل حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة . فانما نحن فى فتن لا عذر فيها لمقصر ولا حجة فيها لمتهاون

وما أردت بما كتبت إلا وجه الله ، والله هو الحق المبين . وهو حسبنا ونعم الوكيل « إن أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

عبد الوهاب عزام

المدنية الأمريكية

كما يصفها أندريه موروا

للأستاذ محمد روحى فيصل

أندريه موروا كاتب فرنسى معاصر ، وروائى واسع الشهرة ؛ وهو الآن فى الخمسين من عمره ، يكتب كثيراً ويعمل كثيراً ، ولعله « الحركة الدائمة » التى ينشدها علماء الطبيعة ، والغريب أن انتاج موروا على كثرته خصب عميق ، فيه ملاحظات نفسية قيمة ، وفيه وصف بارع طريف ، وفيه حلاوة قل أن تجدها عند غيره من الكتاب والروائيين

قام بسياحة إلى أمريكا منذ حين ، زار فى خلالها مدن الشواطئ الشرقية ، ورأى آثارها ، وحاضر فى جامعاتها ، وفهم فى شهرين حقيقة المدنية الأمريكية ومظاهرها الصحيحة ، ثم عاد إلى وطنه وألقى محاضرة قيمة طويلة نقتطف منها ما يلى :

« وصلت باخرتنا إلى نيويورك فى الصباح الباكر فراعتنى المدينة العظيمة النائمة ، وطغى على شعور غريب جميل . والحق أن مرفأ نيويورك منظر لا أعرف أبهج منه ولا أروع ولا آخذ بلب الرائى المفتن ! بقينا على الماء نسير خمسة أيام ثم طلعت علينا نيويورك بوجهها الضخم وهيكلها العريض كما يطلع الجبل الشاهق على المسافر العانى بعد طول السير وطى الأميال . وجلنا فى الشوارع نسير على غير هدى ، فاذا المبانى ضخمة بالغة الضخامة ، متينة بالغة المتانة ، تشق الفضاء طولاً وعرضاً واتساعاً . ونلاحظ أن الضخامة مظهر من مظاهر الجمال ، وأعنى أن جمال الشئ إنما يرجع أحياناً إلى ضخامته الناشزة ؛ أرأيت إلى أهرام مصر أو قصر (بيتى) كيف أن علوهما خلع عليهما جمالاً خاصاً على جمال الفن والهندسة »

« والأمريكيون شعب يعمل فى جنون ، فلا يريح جسده ولا يريح عقله ، وإنما يجهدهما فى التجارة والصناعة والاختراع ؛ وهذه الظاهرة هى أقوى ما يلمح العابر السائح من الصور . ويل للمحاضر فى أمريكا ! إنه يخضع للحركة الأمريكية الطاغية ، ففى الصباح يلقى محاضرة ، وعند الظهر يرأس حفلة خطابية ، ثم يحاضر فى نادى النساء ، وفى الساعة الخامسة يقول كلمة فى جامعة كولمبيا أو الاتحاد الفرنسى ؛ وأنى رحل يجد برنامجاً طويلاً مريعاً يبتدئ من الصباح وينتهى فى منتصف الليل ! »

« إن العقلية الأمريكية تتطلع إلى عرفان كل شئ ، وتولع بالجديد الغريب ؛ وهى عقلية فتية تؤمن سريعاً وتكفر كثيراً ؛ وأنت لابد ناجح فى أمريكا إن كنت روائياً طريفاً ناقداً متفلسفاً . والكاتب الناشئ يغدو معروفاً فى أقل من شهرين ، تقام له الحفلات الرائعة ، وتتحدث إليه الصحف ، وتطبع مؤلفاته مراراً ثم ... ثم يموت فى أذهان الجمهور ، وينحدر إلى الخمول والنسيان ، كأنما هى شهرة خاطفة تمتع بها قليلاً وحلم فيها كثيراً ثم عاد إلى الواقع المجهول يتفيأ ظلال الذكرى وبقايا المجد ! »

« والشخصية الفردية لا أثر لها فى أمريكا على الأطلاق ، والسعادة الروحية لم يتمتع بها الأمريكى بعدُ لذاته ؛ دائماً (خدمة الجمهور) هو المذهب السائد الذى يؤمن به الأمريكيون كافة ، وهو مذهب ، على قيمته ، خطرٌ كل الخطر ، مفسد للشخصية والنبوغ ، لأن المرء الذى لايبالى بوجوده الفردى يعد آلة تعمل من غير شعور ولاتطور . والواقع أن المصانع قامت مقام اليد العاملة ، والآلة طغت على الفن ، « والكثرة » هى المقياس الذى توزن به قيم الأعمال ونتائج الأشياء »

« وهذه المساوئ التى نذكرها ويذكرها غيرنا ليست مساوئ النفسية الأمريكية ، وإنما هى مساوئ المدنية الغربية الحاضرة . ولئن مات الفن اليدوى فى أمريكا وعاشت الآلة فانما يموت الفن ويحيا الآلة فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا ؛ ونستطيع أن نستثنى مهنة النقوش والخياطة والفسيفساء التى يزاولها القليل من الخلائق البشرية ؛ أما عامة الشعب فمحشود فى المصانع يعمل مجتمعاً من غير تفكير فى الذات ؛ والأدب الأمريكى أدب الصناعة حقاً ، يصور ميكانيكية المعمل وسرعة الحياة واضطراب المجتمع ؛ أما أزمات النفس ، وثوران العواطف ، وانفعالات الأهواء ، فهى غريبة نكرة فى الأدب الأمريكى الحديث . . . . .

الواقع أن الحياة الحاضرة حياتان : حياة آسيوية أخروية متشائمة ساخطة ، نظرت إلى الدنيا من خلال منظار أسود كئيب ، فرأت جوعاً وفقراً ومرضاً وظلماً ، فكرهت المجتمع الحافل ، وانعكفت على التصوف وأحبت الأحلام ، ثم قالت : إنما الدنيا متاع الغرور ! . وحياة أمريكية دنيوية صناعية لا تبالى بالباطن المحجوب ، ولاتمنى إلا بالأرض ؛ فالأمريكى قل أن يلتفت إلى نفسه يطالع فيها ويتأمل جوانبها على نحو ما يفعل الأسيوى الحالم ، وإنما هو يطالع فى الآلة والمصنع والأرض ، ثم يحاول أن يجد السعادة فيما يحيط به من الدنيا الواقعة المحسوسة

وعندى أن الحياتين على نفعهما لاتصلحان للبشرية ، فالتطرف مذهب لا أحبه لنفسى ولا أرضاه لجنسى ، وإنما أرجو حياة وسطاً بين الحياتين ، قوامها الحس والتفكير ، ومادتها الدنيا والنفس ، وغايتها التقدم والمرح والانتاج . ولعل الحياة الأوربية هى الحياة التى تجمع خصائص الحياتين المتطرفتين : الأسيوية والأمريكية . .

وهنا قد يستطيع الفرنسيون أن يوفقوا بين هذه وتلك ، وينشروا الاعتدال ؛ فالمدنية الفرنسية مدنية قديمة ذات أدب خصب صحيح ، لها أنصار كثيرون ، ولها ماض جليل حافل ، ولها صناعة قوية جميلة . وإنما المهم أن يعرف الفرنسيون أى سبيل يسلكون لذيوع الثقافة الفرنسية وتأثيرها فى العقول . ولقد ينبغى قبل كل شىء أن نفتح أعيننا جيداً حين نطوف البلاد ونجول الأرجاء ، ثم نرسل العقل حراً فى البحث والتفكير ، والمطالعة والاستنتاج »

محمد روحى فيصل

فرقة الخـــوارج

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فرقة الخوارج من تلك الفرق الهدامة التى نشأت فى مختلف مراحل التاريخ الاسلامى ، وكانت حرباً على الدولة الاسلامية ، وعقبــة كأداء فى طريق عزها وازدهارها . أما العوامل التى أدت إلى ظهور الخوارج فكانت فى بادئ الأمر سياسية ثم ما لبثت ميولهم أن اتجهت إلى الناحية الدينية فأخذوا يحوكون حولها معتقداتهم ونظرياتهم

تسميتهم

لا نجد فى التاريخ الاسلامى كله فرقة تعددت أسماؤها كهذه الفرقة ، غير أن اسم الخوارج قد غلب عليها . وقد سموا بالخوارج لخروجهم على الامام على بن أبى طالب فى معركة صفين سنة ٣٧ هجرية لقبوله التحكيم وقولهم : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال . ويقول بعض المؤرخين إنهم دعوا بالخوارج لخروجهم بعد ظهور نتيجة التحكيم فى رمضان سـنة ٣٧ هجرية من الـكوفة إلى النهروان . ثم تطور هـذا الاسم فأصبح يطلق على كل جماعة خرجت على القانون والسلطة الحاكمة سواء فى صدر الاسلام أو زمن التابعين

أما الخوارج أنفسهم فيقولون إنهم تسموا بهذا الاسم لخروجهم من بيوتهم طلباً للجهاد والاستشهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله والدين الحنيف ، ويستندون فى ذلك على قول الله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفةٌ منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائـكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلُّوا فليصلُّوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدة ، ولا جُناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعدّ للـكافرين عذاباً مُهينا »

وهنالك اسم آخر يطلق على هذه الفرقة وهو اسم الشراة ، ويقال إن الخوارج يفضلونه على الاسم الغالب عليهم ، لأن هذه التسمية تعنى أنهم اشتروا الجنة بالدنيا واستبدلوا الباقية بالفانية استناداً على الآية الـكريمة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكمُ الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ودعيت هذه الفرقة أيضاً فرقة المحكمة ، وذلك لأنها حكمت الله تعالى ورفضت تحكيم العبيد . ويميز المؤرخون الفرقة الأولى من الخوارج التى انشقت على علىّ بن أبى طالب فى صفين عن الخوارج بدعوتها الفرقة المحكمة الأولى أو الحارورية نسـبة إلى حاروراء بقرب الـكوفة ، وهى المكان الذى خرجوا إليه ، ويدعون بقية الخوارج فرقة المحكمة

نشأتهم

من الصعب أن نعين العلاقة بين ظهور الخوارج ومسألة التحكيم ، فنقول إن هذه نتيجة لتلك وإنه لولا مسألة التحكيم لما اعترى جيش الامام على ذلك الانقسام ولما نشأت فرقة الخوارج ؛ وقد عنى البعض يبحث هذه النقطة فتبين لهم بعد دراسة عميقة أن نشوء الخوارج ومسألة التحكيم مستقلتان عن بعضهما استقلالاً تاماً . ويعتقد المستشرقون لامانس وكايتانى وولهاوسن أن فرقة الخوارج ظهرت قبـل التحكيم مما يدل على صحة الرأى القائل باسـتقلال المسألتين بعضهما عن بعض . ولـكن المستشرق ديلافيدا يخالف رأى لامانس ورفيقه ، ويقول إن الخوارج ظهروا بعد التحكيم

معركة صفين

تولى على بن أبى طالب الخلافة والعالم الاسلامى فى غليان شديد من جراء مقتل الخليفة عثمان بن عفان وعواقب هـــذه الجريمة ، فلم تكن مبايعته بالاجماع كأسلافه . وكان عدوه الأكبر معاوية بن أبى سفيان والى الشام الذى خرج طالباً للثأر من قاتلى قريبه الخليفة المغدور . فلما انتهى على من أمر طلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام فى موقعة الجمل بالقرب من البصرة سار طالباً معاوية فالتقى الجيشان فى سهل صفين وهو مكان قريب من بلدة الرقة فى شمالى شرق الشام

وفى أول صفر من سنة ٣٧ هجرية ، ابتدأ القتال بين الفريقين فرجحت كفة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فخاف معاوية العاقبة ، وعمد إلى الحيلة يساعده على إتقانها الداهية الأكبر عمرو ابن العاص . وبينما كانت الحرب مستمرة إذا بجنود الشام يرفعون المصاحف فجأة على أسنة الرماح طلباً للتحكيم . فلم يؤخذ علىّ بهذه الحيلة ، وقرر الاستمرار فى القتال إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . ولكن فريقاً كبيراً من جنده على قبل التحكيم وحمل زعيمه على قبوله رغماً عنه . وبعد أن رضى الامام بالتحكيم قام فريق آخر من جنده يندد بالتحكيم ، ويصيح : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال ، ويظهر أنه كان بين هذا الفريق بعض من أتباع الفريق الأول . فانقسم بذلك جيش على إلى شطرين ، ونجحت الحيلة التى قال فيها عمرو « إن قبل خصومنا التحكيم اختلفوا ، وإن ردوه افترقوا »

ولما ظهرت نتيجة التحكيم التى تقضى بخلع على عن الخلافة — ولا أقول معاوية ، لأن اقرار عمرو بن العاص بخلع صاحبه لم يؤثر فى مركز معاوية لأن خلعه كان وهمياً ، إذ أن معاوية لم يكن خليفة ليخلع عن عرشها — رفض على قبولها ، وهكذا أضعفت نتيجة التحكيم مركز على وقوت مركز معاوية

فقويت برفض على لنتيجة التحكيم حجة الفريق القائل بعدم قبول التحكيم منذ بادىء الأمر ، واكتسب إلى صفه جميع الموتورين من سياسة الامام . وهكذا نرى أن فريق الخوارج كان مؤلفاً من جماعات متفككة العرى تجمعها مناوأة سياسة على ، إما لأنه لم يقبل التحكيم أولاً أو لأنه قبل التحكيم ثانياً ، أو لأنه رفض قبول نتيجته ثالثاً . والقسم الأكبر من الخوارج هم الذين أخذوا على علىّ قبوله التحكيم صارخين : لا حكم إلا لله . ثم انضم إلى هذه الفرق المختلفة كل من كان ناقماً على السلطة أو خارجاً على القانون ، حتى أصبح معسكر الخوارج ملجأ لهؤلاء ، أيام الراشدين والأمويين والعباسيين

وبعد انشقاقهم على جيش الخليفة ساروا إلى حار وراء وانتخبوا عبد الله بن وهب الراسبى خليفة عليهم . وقد اضطر على أن يحمل عليهم قبل أن يسير لقتال معاوية ليأمن شرهم ، فقاتلهم فى معركة عظيمة تدعى معركة النهراوان فى ٨ يوليو سنة ٦٥٨ ميلادية ، وتغلب عليهم ، غير انه دفع ثمن هذا النصر غالياً ، لأن هذه المعركة أضعفت جيشه فأصبح عاجزاً عن المسير إلى سورية لحرب معاوية ، وبقى بالكوفة إلى أن قتله ابن ملجم الخارجى سنة ٦٦١

الخوارج فى عهد الدولة الأموية

اشتدت فى عهد الدولة الأموية قوة الخوارج ، وكانوا من العوامل الرئيسية التى طاحت بحكم الأمويين ، فما من خليفة أموى إلا ثاروا عليه ، غير أنهم ظهروا واشتهروا خصوصاً فى زمن الخليفة عبد الملك بن مروان ، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان . وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير — شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان فى الخلافة — وكان قائده المهلب بن أبى صفرة . ولما تغلبت قوات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب كان لا يزال المهلب يحارب الخوارج فبايع عبد الملك بالخلافة حالما بلغه نعى مصعب وتابع قتاله .

ثم أرسل عبد الملك فى سنة ٧٥ هجرية الحجاج بن يوسف الثقفى والياً على العراق فتمكن بشدة بأسه من خضد شوكة الخوارج . وقد امتازت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من فرق الخوارج ببسالتها وشدتها واستماتتها فى ميادين القتال والنزال

الخوارج فى عهد الدولة العباسية

ضعف أمر الخوارج فى عهد الدولة العباسية ولم تعد فرقهم خطراً على الدولة الاسلامية كما كانت نشأتها فى العصر الأموى ، غير أنهم لم يعدموا أوقاتاً قاموا فيها ببعض الثورات والفتن . وقد اشتهرت من بين فرقهم فى هذا العهد فرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض التى ظهرت فى عمان وعلى الخليج الفارسى وفى افريقيا الشمالية أى تونس الخضراء والجزائر والمغرب الأقصى

ولما غلب الخوارج على أمرهم فى الناحية السياسية أخذوا ينصرفون إلى الناحية الدينية ويحوكون حولها نظرياتهم ومعتقداتهم الدينية

تصلب الخوارج وشذوذهم فى المعتقدات الدينية

عرفت فرق الخوارج واشتهرت بتصلبها الدينى الشديد وتمسكها بالمعتقدات الدينية التى تدين بها ، ولذا كانت كل جماعة منهم ترى أن زعيمها بدأ ينحرف عن المبادىء التى تعترف بها

انشقت عنه وعن أفراد فرقها وكونت لها فرقة خاصة ، وهذا هو السبب فى تعدد فرق الخوارج وتشعبها . ومن هذه الفرق الفرقة الاباضية والفرقة الصفارية والأزاردة والمجاردة والنجدات وغيرها . وكانت كل فرقة تنقسم إلى فرق صغيرة عديدة ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ثمانى فرق من الأزارقة . ولا ريب أن انقسام الخوارج إلى فرق متعددة كان عاملاً قوياً فى إضعاف شأنهم وزوال هيبتهم

معتقدات الخوارج السياسية

قلنا فى صدر هذا المقال إن حركة الخوارج بدأت حركة سياسية ثم تحولت بمضى الوقت إلى حركة دينية . ولذا فان معتقداتهم تدور على وجهين سياسى ودينى . فأما معتقداتهم السياسية فتدور حول مسألة الخلافة ، ولهم فى هذه المسألة مواقف أساسية يخالفون بها السنة والشيعة . فهم مثلا لا يقيدون جنسية الخليفة ولا يمانعون فى أن يكون حتى زنجياً ، بينما أن السنيين لا يجيزون سوى انتخاب قرشى للخلافة . أما الشيعة فيذهبون إلى أبعد من ذلك ولا يعترفون إلا بالخليفة الذى هو من آل البيت

ولا يرى الخوارج أن من الضرورى وجود خليفة على رأس الأمة إذا انتظمت أمور الرعية ، بينما أن الشيعيين يقولون بوجوب بقاء الامام فى كل عصر ودهر . أما السنيون فليس عندهم اجماع عام على هذه المسائل

وليس الخليفة معصوماً عن الخطأ كما هو الحال عند الشيعة ، فهم يجوزون القيام عليه حتى قتله إذا بدا منه اعوجاج أو عدل عن الصراط المستقيم الذى يتحتم على الخلفاء أن يتبعوه . وهم لا يعترفون من الخلفاء الراشدين إلا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولا يعترفون بالخلفاء الأمويين والعباسيين وأصحاب موقعة الجمل أى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام

معتقدات الخوارج الدينية

أشرت آنفاً إلى التصلب الدينى الشديد الذى اشتهر به الخوارج ، فهم يطلبون من المؤمن أن يقرن إيمانه بالعمل الحسن إذا أراد الثواب ، لأن الايمان وحده غير كاف لدخول جنة الفردوس . ويكفر الخوارج صاحب الكبيرة ، فهم بذلك على عكس فرقة المرجئة التى ترجئ تكفير المؤمن الى يوم القيامة .

ويذهب الأزارقة — ومذهبهم أشد مذاهب الخوارج تصلباً — إلى أن مخالفيهم مشركون ، ودرجة الاشراك عندهم أشد وأدهى من درجة الكفر ، فهم يستبيحون قتل مخالفيهم مع نسائهم وأولادهم

ومن الغريب أن هذه الفرقة المتعصبة لمذهبها ، الصلبة فى معتقداتها ، القاسية على إخوانها من المسلمين متسامحة مع اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين . والبعض من الأزارقة يعتبر غير المسلم مؤمناً إذا اعترف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين . ويظهر تسامحهم نحو غير العرب فى أنهم يجيزون خلافة كل مسلم سواء أكان حبشياً أم عبداً زنجياً

ويتردد بعض الخوارج فى قبول سورة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم لاعتقادهم أنها سورة غرامية ، فلا يمكن أن يحويها كتاب الله . والبعض الآخر يتردد فى قبول سورة أبى لهب

أما فى الفقه فهم لا يعترفون من أصوله الأربعة إلا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة واجماعهم فقط لا أجماع الأمة الاسلامية. أما القياس فلا يعترفون به ولا يقبلونه ركناً رابعاً للشريعة الاسلامية السمحاء التى سنها الله جل جلاله للمسلمين نبراساً ومعواناً . أما التفسير فهم لا يقيدون أنفسهم به ولا يؤولون

ويظهر تصلبهم الدينى بوضوح فى فروض الصلاة ، إذ لا يكفى فى نظرهم أن يكون الجسم عند الصلاة طاهراً ، بل يجب أن يكون الفكر كذلك ، لاعتقادهم أن الفكر السيء يبطل الصلاة كما أن الجسم الملوث يبطلها . ونظراً لتصلبهم الشديد فى معتقداتهم السياسية والدينية دعاهم بعض المؤرخين الغربيين The Puritans of Islam

فلسفة الخوارج وأدبهم

ويمثل الخوارج فى إحدى فرقهم حركة فكرية لا يستهان بها جعلت المستشرق الكبير ديلافيدا يجزم بأنه يجب أن يكون من جراء ذلك علاقة وثيقة بين المعتزلة والخوارج . وتنحصر أهميتهم من الناحية الفلسفية فى إثارتهم مسألة الايمان والعمل وكان مجرد تطرف معتقداتهم يجذب إليهم أحياناً البعض من العلماء والأدباء والشعراء الذين تستهويهم المبادئ المتطرفة

حديث

بقلم الأديب أحمد الطاهر

نفض بديه الشريفتين من غبار الحرب وجلس إلى أصحابه وقال: « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. » قول على سهولة وضعه، وبساطة لفظه، يدل على فهم وثيق للحياة، وإدراك عميق لأسرارها، ووزن صحيح لحقيقتها. وهو يدل من ناحية على عظمة هذه النفس النبوية التي وازنت بين جهاد الغزو، وكفاح الحرب، — وفي ذلك ما فيه من كرب وبلاء — وبين جهاد الإنسان في الحياة تلقاء ما يلقى من خطوبها، وأحداثها، وصروفها، وأعناتها، وما يفرض عليه فيها من حقوق لا مندوحة عن أدائها، فأدرك رسول الله وقال إن الحرب جهادها أصغر، وإن الحياة جهادها أكبر، وإن جهاد الأبدان هيّن يسير، وجهاد النفوس شاق عسير، وإن جهاد الغزو محدود بوقته قصر أو طال، وجهاد الحياة يبدأ بالحياة وينتهي بانتهاء الآجال

وفي كلمة رسول الله تحديد لما بين النفوس والأبدان من صلة يجعل للنفوس على الأبدان سيطرة وسلطاناً، وتسخر الأبدان للنفوس فيما توجهها اليه من غايات ومقاصد

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت في مرادها الأجسام

وكلما علت النفوس سمت أغراضها، وجلت مآربها، فاشتد الجهاد والنضال بينها وبين ما يتكاءدها في سبيل الحياة من عقبات وحوائل، حتى يصبح جهادها عنيفاً حاراً يهون إلى جانبه جهاد الغزو على ما فيه من سفك للدماء

ولا جدال في أن صاحب السلطان والأمر ومن اضطلع بتدبير شؤون الرعية والقيام على حقوقها، والذود عنها يلقى عناء ومشقة وعسراً، يتضاءل أمامها ما يلقاه أوزاع الناس وعامتهم ممن ليس عليهم من الأمر إلا أن يسخروا أبدانهم لنيل غرض أو بلوغ مقصد

أدرك رسول الله أنه وقد خرج من ميدان الغزو ونفض عن نفسه وعن أصحابه نقع الحرب، سيلقى ميدان جهاد أوسع وأرحب وأكثر عناء وأشد بلاء، أليس عليه بعد هذا الغزو من أعباء الدنيا والدين، ما لا يقوم به إلا أولو العزم المتين؟

أليس عليه أن يقر هذا النصر الذي أحرز، ويرجع الأمور إلى نصابها في السلم بعد أن نَبَتْ بها مواضعها في الحرب؟

أليس عليه أن يواصل السير في تبليغ الرسالة التي اؤتمن عليها، وأن يسوس بالعدل والرحمة الأمة التي بعث إليها، وأن يثبت بين الناس شرعة قد نشر لواءها، ويسلك بهم ودياناً قد مسح غثاءها؟

أليس عليه أن يؤدي لله شكراً على هذا النصر والتأييد؟ وأداء هذا الشكر لا تعرفه إلا هذه النفس العظيمة التي لا ترضى فيه عما دون الغاية، ولا تنتهي فيه إلى نهاية؟

أليس في ذلك من العناء والجهد ما يهون بجانبه عناء الحرب وجهادها؟

***

وأهون ما يهون به عناء الحرب وجهادها أن رسول الله المؤيد بروح الله، ليس عليه إلا أن يستنفر الناس فيسموا إليه زمراً تخضع لآرائه، وتنضوي تحت لوائه؛ وأما جهاد السلم الذي ألمنا ببعض نواحيه إلماماً فمكتوب عليه وحده، يضطلع بالأمر فيه، ويحيط بأسراره وخوافيه، وهو في هذا الجهاد أعزل أكشف لا عدة له إلا نفس عظيمة في صدره، ووعد من الله بنصره!

وسوق الناس إلى الحرب ليس بالأمر الشاق العسير: فساعة الحرب تسبقها أحداث وخطوب وإحن وحفائظ: تستنهض الهمم، وتستنفر النفوس، وتستثير العزائم. فما هو إلا أن

وقد حفظت لنا كتب الأدب العربي كثيراً من أدبهم وشعرهم وحكمهم وخصوصاً آثار شاعرهم العظيم وخطيبهم المفوه قطري بن الفجاءة

الخوارج اليوم

لم يبق من فرق الخوارج إلى اليوم إلا فرقة الأباضية، وهي من الفرق المعتدلة، وقد نشأت في الأماكن الاسلامية النائية، في عمان ثم في شرق أفريقيا الشرقية، ثم في أفريقيا الشمالية. وتكون هذه الفرقة الآن دولة مستقلة في داخلية سلطنة عمان على الخليج الفارسي؟

فريد مصطفى عز الدين

يستنفروا فينفروا وينساقوا إلى الحرب وِرْداً ، يؤزهم الحماس أزاً ، حتى إذا « حميت وشب ضرامها » رخصت الأرواح وهان الموت : فما ترى الناس يفكرون أو يترددون ، ولكن إلى حياض الردى يتدافعون : لا يصدهم عنها صادّ ولا يتكاءدهم فى سبيلها عقبة ، وأنّى لهم أن يترددوا والحافز لا تفتر همته ، والدافع لا تهن عزمته . وهم لا يستشعرون عناءً للحرب ، ولا يرون خطراً للقتال ، ولا يفكرون فى بلاء الغزو . لأنهم لا يجدون متسعاً لأن يشعروا أو يبصروا أو يفكروا

أما فى السلم فما أشق الرسالة وما أخطر الجهاد ! الناس هادئون وادعون ، يجدون من الوقت والطمأنينة متسعاً للتخاذل والتفكير ، والتردد والتدبير ، والاختلاف والمِحال ، والتنكر والجدال ، أليس شاقاً جهاد الرسول : وهو يدعوهم إلى دين لم يعرفه آباؤهم ، وخلق لم تألفه طباعهم ، وحياة غير التى ألفوها ؟

* * *

على أن رسول الله حين أشار إلى الجهاد الأكبر ، جهاد الحياة ، لم يكن يحدث الناس بما سيلقاه وحده من نصب وإعنات ، وإنما أراد أن يذكرهم بما كتب عليهم جميعاً من جهاد فى الحياة . فما كتب الجهاد على الزعماء دون الدهماء ، ولا كتب على القواد دون الأجناد ، ولا على الرعاة دون الرعية ، ولا على الكبير دون الصغير ، إنما جهاد الحياة فرض يستقبل الناس حين يستقبلون الحياة ، ولا ينصرف عنهم حتى تنصرف عنهم الحياة

لما تؤذن الدنيا به من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه	بما سوف يلقى من أذاها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها	لأفسح مما كان فيه وأرغد

وهذا الطفل إذا اشتد جاهد فى الحياة جهاداً يتسق مع شأنه فى الحياة ، ولا يزال الطفل ينمو ويخطو فى حياته ، ونصيبه من الجهاد ينمو ويخطو ألزَمَ له من ظله حتى مماته . وجهاده فى مراحل حياته يعتريه من الأعراض والصور مايعترى كل كائن حى فى أطوار حياته من نمو وقوة ونشاط وضعف وعجز وفتور وغير ذلك

فالرضيع لا يجاهد إلا فيما يشعر به من ألم أو حاجة . ولذا يكون جهاده « ذاتياً » محدوداً ، يستعين فيه بأعضاء بدنه ؛ فان ألح عليه الألم والحاجة استعان فيه بالبكاء حتى يغاث فيظفر ، أو يعيى فينام فيقهر . ثم ينمو الطفل فيدرك معنى « الملكية » فيجاهد فى الاحتفاظ بما ملك ويسعى للملكية مالا يملك ، فيزداد جهاده ، ويشتد ويحول إلى غير ما كان عليه جهاد الرضيع

والشاب فى شبابه يدرك معنى الحياة فيستشرف إلى نعيمها وملذاتها ، وتتعدد حاجاته ومطامعه ، ويسعى حثيثاً للاستمتاع بالنعيم واللذة ، ويُعِدّ نفسه لما تفرضه عليه سنن الحياة ، فيجاهد فى ذلك جهادا عنيفاً ، ويلقى فى جهاده نصباً

والكهل يسعى وراء الرزق : يدبره لنفسه ، ويدر اخْلاَفَه على أهله وأبنائه ، ويدخر منه لعقبه وأخْلاَفه . وإنه لواجد فى سبيل الرزق عقبات وعوائق . وإنه لجاهد مجاهد فى تذليلها ، والتغلب عليها ، وإن جهاده لشديد ، وإنه لأكثر بلاء وعناءً

والشيخ الفانى الذى نفض يديه من الدنيا ، تنتابه الأمراض والعلل ، ويلح عليه الفناء ، وتخذله قواه ؛ فيجاهد فى الحياة الباقية له جهادا عنيفاً جباراً ، ولكنه خافت صامت ؛ يكسر من حدته صبر الشيوخ وأناتهم ، وضعف آمالهم واستسلامهم

أولئك جميعاً تفرض عليهم الحياة فروضاً ، وتلوح لهم بمطامع وهم يبسطون إليها آمالاً : ثم تقيم لهم فى السبيل عقبات ، وتنصب بينهم وبين مطامعهم حجاباً ، وتجعل أمانيهم سراباً ، وهم لاينفكون يجاهدون : تنزل بهم البأساء ، فيطمعهم الرجاء ، وتنقطع بهم أسباب الأمل ، فيغريهم طول الأجل

حتى الرجل الذى لا تشغله الدنيا بزخرفها . والذى يصدف عن مطامعها ، والذى يؤثر الآخرة على الأولى : ذلك جهاده قوى حاد . فهو أبداً فى جهاد مع نفسه ولنفسه : يروضها على الزهد والاستغناء ، ويدفع عنها عوامل الاغراء ، ويسوقها إلى الفضيلة ، ويباعد بينها وبين الرذيلة ، وهو جهاد لا يهون ، ولا يصبر عليه إلا القليلون

وأهون الناس شأناً فى الحياة وأقلهم تقديراً لشأنها وأكثرهم استخفافاً بها لا محيد له عن الجهاد فيها : أليس عليه أن يجاهد الحر والبرد والمطر والشمس والعلل والأمراض ؟ ذلك جهاد على سذاجته شاق وعسير

ما أصدق رسول الله فيما قال ، وما أبعد نظره فيما رأى ؟

اليوزباشى أحمد الطاهر

من مشاهد الشرق

٣ ـ طائفة البهرا فى الهند

في حضرة داعي الدعاة

بقلم محمد نزيه

مضى محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية وأنا فى أثره ، فى بعض جادة القصر ، حتى انتهى وانتهيت معه إلى باحة فسيحة أمام سلم مديد ، ذى ست درجات من رخام أبيض يشف عن زرقة رقيقة ، فلما أن دَرَّجْناه كنا أمام بابين رحيبين ، كلاهما سبيل إلى تلك الحجرة الرهيبة التى يستقبل داعى الدعاة زواره فيها ؛ وإذا كانت غرفة الانتظار قد تقاضتنا خلع الأحذية قبل ولوجها ، فأحْرِ بغرفة الشيخ الأكبر أن تطالب قصادها بمثل ذلك وأكثر منه . وكذلك هتفت بى نفسى هذه المرة بما هتف به سائق السيارة من قبل ، أن أخلع نعليك فانك قادم على أنيس الهدى المنتظر وجليسه ، وأمينه سراً وعلانية ، وأبى بكره من دون الخلق أجمعين !

ولقد ظللت مذ أُسْرِيَ بى من غرفة الانتظار إلى غرفة الملتقى — وكلاهما حرام — منصرفاً عن كل ما عسى أن يتداول سمع المرء وبصره ، إلى التفكير فى ذلك الرجل الذى يتقاضى جميع الناس كل أسباب التقديس له ، بين مؤمن بمذهبه ومستريب به ومنكر له ، ثلاثتهم من تقديس الشيخ فى أوضاع متشاكلة ما أرادوا لقاءه ، بل وما يكون هذا التقديس من ثالث الثلاثة تكلفا ولا صناعة ولا زَيْفا ، فقد كنت أحسبه كذلك من قبل ، وهأنذا الآن فى منتصف الطريق بين الحجرتين ، مفعم النفس رهبة شديدة تكاد تطغى على الرغبة الشديدة فى رؤية الشيخ ، بل وما فتئت هذه الرهبة تشتد سريعاً ، حتى لقد بلغت شأوها فى ثلاث من خطواتى ، وإذا بالحواس الخمس قد رقت فى بعض الدقيقة ودق ارهافها ، فكأنما غادرت عالم الملموس والمحسوس إلى عالم الالهام ؛ وما دام هذا العالم الجديد لا يدرك مما يحيط بالمرء وإنما يدرك من باطنه ، من دخائل نفسه ، فقد انقلبت حواسى كلها إلى نفسى ، وكأننى بت لا أعى من الوجود شيئاً ، ولم تزل هذه النفس المرتهبة تتسع حتى تملأ كل فضاء داخل الجسد ، وتشمل القلب كله ، وتغير على ما فوقه وما تحته ، وما عن يمينه وما عن يساره ، وما أمامه وما خلفه ، كل ذلك فى خطى الكهرباء ، فلم أكد أتم الخطوة الرابعة حتى كنت نفساً ولا جسد

وأخذت هذه القوة الجديدة تتخيل صورة الشيخ وتحاول رسمها ، فاذا دأبت فى هذا السبيل جاهدة ، انبعثت ذرات الرهبة ، فتوثبت على القلب فاختل نظام دقاته ، وهنالك تضطرب النفس فلا تقوى على المضى فى مهمتها ، لذلك لم ترسم الصورة حتى صرت على قيد خطوات من صاحبها ، فتقدمت اليه حتى استويت أمامه . لم يكن فى وسعى ولا فى وسع سواى أن يصافح الشيخ دون أن ينحنى ؛ إلا أن يركع ، مالم يكن قصيرا ، ولست بقصير . ذلك أنه يجلس على كرسى لعل مقعده أدنى إلى الأرض مما يعهد فى كل كرسى ، ولم ينهض الشيخ عنه ليصافحنى واقفاً ، وربما كان لا يعرف الوقوف من أسباب التحية ، فلا مناص لمن شاء مصافحته من الانحناء ، ثم لا مناص لمن استأذن عليه من المصافحة ، ومن يدرى ؟ لعل هذا الكرسى القصير إنما دبر تدبيراً ، ثم إن هذا الكرسى قد عوض عن قصر أرجله رحابة فى صدره ، حتى لقد تبينت الشيخ من الكرسى ولم أتبين الكرسى من الشيخ

صافحت الشيخ منحنياً ولا بد ، فاذا كف نحيل لعل الرَّفّ يؤذى عظمه ، فلقد أحسست أننى أقبض على حزمة من الأقلام ، بل أحسست أكثر من ذلك بالمفاصل الدقيقة لكل أصبع ، وكأنما انفرطت عظامها فى يدى فما يستعصى عدها علىّ ! لكأن هذه الكف ترتفع من تلقاء نفسها إلى فمى ، فلقد علمت أننى رفعتها ، ولعل ذلك إكبار ولعله رفق بالضعف ، ولا سيما وهو ضعف الكبر ؛ ولشد ما يحنو بعض القوة على بعض الضعف ؛ إذن فقد انحنيت فصافحت ثم قبلت ، وخطوت بعد ذلك إلى الكرسى الواحد الذى يشاطر الغرفة كرسى الشيخ ، ثم تحركت حدقتا عينى فطافتا ببعض الحجرة وميضا حتى استقرتا لحظة على صاحبى محمد على بخش وقد ألصق ظهره بالجدار ، وأمال رأسه إلى الامام قليلا ، وشبك أصابع كفيه على صدره تحت لحيته ؛ وجمد كذلك كأنه التمثال

سألنى داعى الدعاة عن موقع المدينـة من نفسى ، ثم عن الصحافة المصرية وحظها من النهوض ، فلما أن فرغ من أسئلته وحان دورى فى السؤال ، وكنت أعلم أن التحدث فى مسائل الدين هو أشهى الأحاديث لدى رجاله ، وأعلم إلى ذلك علماً ليس بالظن أن أقران الشيخ لا يفتأون ينعون على الناس تركهم أمر الآخرة ، فـكل امرىء عنـدهم مُفرِّط مهما تخفف من زخارف العاجلة وتولى يرجى الآجلة ، ما يألونه إذ يرونه ذلك النصح الممزوج بالتعنيف والاتهام ، فهم متسخطون متبرمون رغماً من رغم ، أثرة بالـكمال من دون الناس ، فقد استهللت بالأسف لاهمال المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم معاً ، وكأنما قلت للسيل انهمر ، فقد تدفق الشيخ فلم يترك فى معجم الألم كلمة الا قالها ، ولاحركة الا أتاها ، بعينيه وشفتيه وكفيه ، قال بلسانه العربى المبين — وقد أسلفت أنه من سلالة عربية قريبة العهد بموطنها الأول ، اليمن : (إن دولة الاسلام قد انهـارت أركانها فى كل مكان ، ودكت حصون الدين وسقطت معاقله ، حتى عادت أطلالاً نناجيها) ثم راح يبعث قول الشريف الرضى :

ولقـــد مررت على ديارهمُ وطلولها بيد البـــلى نهبُ
فبكيت حتى ضج من لغب نضوى ولج بعـذلى الركب
وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

قلت : هل يرى مولانا أن تخلف العالم الاسلامى ناجم عن إهمال الدين ؟ قال : (عن اهماله فقط ، وليس فى أداء فرائضه وحسب ، بل فى التأدب بآدابه ، بل فى الاستمساك بأسباب التعاون والمودة ، وإطراح الخصومة والعداوة والبغضاء ، وحدب الغنى على الفقير ، واطمئنان الفقير إلى الغنى ، وخشية الله والآخرة ، واتقاء الخزى والندامة ، والحسرة والعذاب يوم القيامة)

قلت : وهل من أمل فى إصلاح ما انهدم ؟ فانبسطت أسرة الشيخ دفعة واحدة والتمعت عيناه ، وطالعنى منه صوت يتجلى فيه الحزم والعزم والايمان والبأس الشديد وهو يقول : (نعم . إن الأمر لله فى دين الله ، وإنه ليحميه ويعلى كلمته حين يشاء ، ولـكنما يُترك الأمر للناس حتى يُسلّموا بالفشل ويَيْئسوا من النهوض ، وإذ ذاك يقضى الله فاذا الحق فى الذروة والباطل فى الرغام)

قلت : أفلا يحاسب رجال الدين على شىء مما نرى من أمر الدين . ؟ فسكن الشيخ لحظة ثم قال : (أعلم أن كثيراً من الناس يقومون رجال الدين ويقصـدون ، ولـكن ما الذى يسع رجال الدين أن يفعلوا إن كانوا فى شعب متخاذل مستضعف ؟ إنهم إذ ذاك لا يفضلون أبناء شعبهم ، ولعلك تعلم أن الفساد جرثومة سريعة العدوى ؛ وهب أن بين رجال الدين من امتنع من جرائيم الفساد ، فماذا يفعل وأهل أمته كلهم ذلك الحوارى الذى شهد على عيسى بن مريم ؟ ! . أفتدرى كيف تقهر الأمراض العصية فى الأجساد ، إن أحدث أسباب ذلك وأصدقها نتيجة أن يلقح الجسد المريض بعين الجراثيم التى تمرح فيه ، ولم يتنبه الطب إلى ذلك إلا بعد قرون من تنبه الحـكام الى أثر هذه الوسيلة نفسها فى أخلاق المحـكومين ، ولن يعدم زمن من الأزمان ، ولن تبرأ جماعة من الجماعات ، من أشرار وإن قلوا ، وتلك سنة الحياة ، وقد احتال الظلمة وافتنّوا فى الاحتيال ، حتى استكشفوا أن رجل الدين الصالح لايقهر إلا برجل الدين الطالح ، ثم هم يزودون صاحبهم بقوة المال وسطوة البطش والعدوان ، ويذودون عنه بعد ذلك إن أحدق به خطر ، فاذا سئلوا فى ذلك قالوا ، إنما نرفع كلمة الدين ونعيذه من الهوان)

وتنفس الشيخ برهة ثم قال : (كلـكم راع وكلـكم مسؤول عن رعيته ، وقد نزل الدين سهلاً مفهوماً ، فلنأخذ عبادته التى لا تحتاج إلى رجال الدين ، فاذا استقرت هذه الأوليات فى النفوس ، سهل علينا أن نميز الصالح من الطالح من رجال الدين فنأخذ عن أولها وندع الآخر . على الآباء والأمهات جميعاً بهذه المهمة ، كل يؤدب أبناءه بأدب الدين منذ الصغر ، قبل أن يبلغ الطفل أشده ، فيصبح تحت رحمة القانون والبيئة والمطامع)

قلت : وهل من سبيل إلى تخفيف الفساد ؟ قال : (نعم ، ولـكن أسباب التخفيف لا تعرض هكذا على بساط الريح ، فلا بد من البحث والروية والتثبت ، ولا سيما ونحن نريد أن نعالج جماعات كثيرة مختلفة العلل ، وقد يصلح لهذه من الدواء ما يزيد تلك علة على علة ، ولذا وجب أن يجتمع أطباء الدين والأخلاق من كل جماعة أطباؤها ، فاذا تذاكروا جميعاً حتى اهتدوا إلى العلة المشتركة ، تذاكروا حتى يهتدوا الى الدواء المشترك . المؤتمرات ، على أن تكون خالصة لله وحده ، نقية من الدخلاء ، بريئة من الشبهات ، حرة أكمل حرية ، مطبوعة بإنكار الذات والايثار

دون الأثرة) وسكن الشيخ برهة وقد بدا على محياه أنه يطلب الراحة ؛ ثم ضغط على جرس كهربائى مثبت على منضدة صغيرة أمامه ، فان هى إلا ثوان معدودة حتى أقبل من داخل الحجرة خادم يحمل بيمينه لفافة من قماش ، تقدم بها الى الشيخ فتناولها منه ، ثم مد بها يده الى ناحيتى ، فخطوت اليه وأخذتها شاكراً ، وودعت داعى الدعاة بعد أن ألقيت على سمعه ما واتانى به الله من كلمات الشكر والتقدير

أما لفافة القماش ، فقد تبينت بعد أن بارحت الغرفة أنها (شال) من الكشمير وسط فى صنعته وقيمته ، ثم علمت أنه نفحة الشيخ لكل زائر غريب ، وإنما تختلف قيمتها بقدر ما للزائر من مكانة فى قومه ، وأما غرفة الزيارة فرحيبة تكاد تتسع ثلاثين متراً فى نصفها ، يرتفع سقفها على عمد من رخام ، عارية الجدران من الصور ، حافلة الأديم ببساط أبيض عار من زهو النقوش ، وقد أسلفت أنه لم يكن بها إلا كرسيان للشيخ ولى ، ولعل هذه البساطة فى مظاهرها والرحابة فى اتساعها مما يزيدها رهبة ويزيد صاحبها إجلالاً . أما الشيخ فانه من نحول الجسد ورقته كأنما إياه كان المتنبى يعنى لما قال :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وهو على شدة نحوله ليس بالطويل القامة ، كأنه غاندى ، لولا أن وجهه المستطيل خفيف السمرة ، مشرق الديباجة ، متسع العينين حتى ليملآن نصف وجهه ، حديد البصر ، كأنما تطل نفسه المطمئنة من عينيه ، ضاحك السن فى وقار كثير ، تنبئك مظاهره كلها بأنه رجل موطأ الأكناف حقاً . وقد استتر رأسه تحت طاقية بيضاء ، وغطى جسمه بجلباب أبيض ، وهو فى غرفته مثال نادر الأنداد للبساطة فى الغنى والتواضع فى الجاه

كررت إلى جادة القصر يصحبنى محمد على بخش ، فمضينا إلى مسجد القصر متحدثين بالانجليزية فانه لا يعرف العربية ، فاذا نحن حيال مسجد حديث البناء أنيقه ، متوسط السعة ، مفروش بالسجاد ، ذى ثلاثة أبواب ، اثنان منها لدخول المصلين من الرجال ، والثالث لدخول المصليات من النساء ، وقد فصل بينهن وبين الرجال فى رواق المسجد جدار رقيق لا يتصل بسقفه ، أما المنبر فمن الخشب الثمين المتين وقد خلا من كل زخرف ، كل ما فى المسجد ناطق ببساطته ، خلا ثرياته الثمينة التى تؤلف فى انتظامها أروع الشكول . فلما فرغنا من تفقد المسجد دعانى صاحبى إلى التدرج إلى أعلى القصر ، حيث أعد به موضع يشرف على المدينة كلها ، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم ، ولولا سدول الليل لاستطعت فى هذه القمة إحصاء مساجد (عبى) وعد حدائقها ، وتبين أعلامها والتحديق فى ميادينها ، على أنك لا ترى المدينة وحدها من هذه القمة ، بل ترى البحر وعبابه ينساب إلى عالم المجهول م؟

القاهرة — محمد زنبه

الأدب والتاريخ

٢ ـ الرافـــعى

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

الرافعى الأديب

مضى الرافعى فى قرض الشعر ، معنياً به ، منصرِّفاً فى فنونه ، ذاهباً فيه مذاهبه ، إلى جانب عنايته بالتأليف والـكتابة ، وانكبابه على العلم والتحصيل ، فوضع فى سنة ١٩١١ كتابه (تاريخ آداب العرب) ، وحسبك به من كتاب أن يقضى الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد بك أسبوعاً يخطب عنه فى مجالس العاصمة (١) وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان ـ وهو أشهر كتاب العربية فى ذلك الوقت ـ مقالة فى صدر (المؤيد) جاء فيها : « لو كان هذا الـكتاب فى بيت حرام إخراجُه للناس منه ، لـكان جديراً بأن يُحَجَّ إليه ؛ ولو عُـكِـف على غير كتاب الله فى نواشئ الأسحار ، لـكان جديراً بأن يُعكَف عليه . . . »

وقال عنه المقتطف : « إنه كتاب السنة ... » وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعدُ لغير هذا الـكتاب ومن يقرأ كتاب الرافعى (تاريخ آداب العرب) يعرفه عالماً عميق البحث ، مُرَتَّب الفكر ، واسعَ المعرفة ؛ إلى جانب معرفته به شاعراً عربىَّ الديباجة ، مُشرِق المعنى ، مشبوبَ العاطفة ؛ على أنه كان يومئذ لم يجاوز الثلاثين ...

ثم ألَّف الرافعى (كتاب المساكين) الذى يقول عنه فقيدُ العربية العلامة أحمد زكى باشا : « لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير ، وجوته كما للألمان جوته ، وهوجو كما للفرنسيين هوجو . »

وتألق نجم الرافعى الشاعر العالم الأديب ، وبرز اسمُـه بين عشرات الأسماء من أدباء عصره برَّاقاً تلتمع أضواؤه وترمى أشعَّتَـها إلى بعيد ؛ على أن هذه المنزلة الـكريمة التى نالها الرافعى بين الـكتَّاب إلى جانب منزلته فى الشعر ـ لم تكن غريبة ؛ فقد حدَّثنى أديب فاضل كانت له صلة بالعـلامة الشيخ ابراهيم اليازجى : أن الرافعى لما طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٣ وأهدى منه نسخة إلى الأستاذ اليازجى ـ أبطأ فى الـكتابة عن الديوان ؛ فسأله هـذا الأديب الفاضل فى ذلك فقال : لقد قرأت مقدّمة الديوان فأكبرت أن يكون كاتبها من عصرنا ؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها فى مظانِّها من كتب العربية ، مما أخادع نفسى فى قدرة هذا الشيخ على كتابة مثلها . فقال له : إنه ليس بشيخ ؛ بل هو فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين . .

وليس عجيباً أن يكون هذا كلام اليازجى ، فقد برهن الرافعى من بعدُ ألفَ برهان على ذلك . وإنما كتب هذه المقدمة وعُنى بها حتى جاءت ما جاءت ، ليعارض بهـا مقدمة حافظ لديوانه الذى نشره قبل ذلك بقليل ؛ وكان لمقدمة حافظ هـذه حديث طويل ، حتى نسبها بعضهم يومئذٍ إلى الويلحىّ ؛ ولـكن مقدمة ديوان الرافعى جاءت بعدها تقطع قول كل خطيب ؛ واحتفل بها (المؤيد) أيَّما احتفال فنشرها فى صدره ، والمؤيد يومئذ جريدةُ العالم العربى

بين الجديد والقديم :

ثم بدأ الرافعى يميل عن الشعر رويداً رويداً حتى هجره منذ عامين ، لم ينظم فيهما غـير قصيدتين اثنتين نُشرتا له فى مجلة المقتطف . وإنها لخسارة كبيرة أن ينصرف الرافعى عن الشـعر ويترك ميدانه خالياً . . على أنه لم يهجر غير الشعر المنظوم ، وهذه كتاباته المنثورة ضربٌ من الشعر أفسحُ مدًى وأبعد غاية ، وإنه لينشئُ بها أدباً جديداً فى العربية على رغم ما يُتَّـهم بالتقليد والمحافظة على القديم ؛ بل معانيه كما قال الأستاذ الدكتور منصور فهمى فى تقريظه رسائل الأحزان : « إنها من آخر طراز يأتى من أوروبا . . . » على أن الرافعى إلى ذلك ليس له حظٌّ من لغـةٍ أجنبية ، ومعرفته الفرنسية لا تجدى عليه اليوم أكثر مما كانت تجدى عليه يوم كان يتعلمها بالمدرسة وهو غلام !

وللجديد والقديم حديثٌ طويل فى تاريخ الرافعى ؛ فهو قد

(١) حدثنى الأستاذ الرافعى بهذه العبارة ، كما حكاها له الأستاذ أحمد لطفى السيد بك

وقف نفسه على الدفاع عن الدين والحفاظ على لغة القرآن . ذلك مذهب درج عليه وأعانته عليه نشأته وتربيته ؛ وهل يأخذ أحد عليه هذا المذهب أو ينكره ؟ . . فهو إنما « يحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء ، لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً . . . » وإنه بسبيل ذلك ليسأل : ما الجديدُ وما القديم ؟

لو أنهم يَعنون بالجديد الابتداعَ والطرافة بمقدار ما يتطوّر الفكر ، أو الانشاء والابتكار على مقدار ما ينفعل الزمن فى إحساسات أهله ، أو التنويعَ والخَلْق على قياس ما يزيد فى المعانى ويستجدّ من انفعالات النفس – لو أنهم يعنون بالجديد شيئاً من ذلك ، أو كل شىء من ذلك ، لوجدوا الرافعى مجدداً مع المجددين ؛ بل لما كان لشىء من هذا أن يُسمى جديداً ، لأنه حُكم الزمن وسنّة التطور من قديم . . أما أن يكون التجديد هو ابتداعَ لغةٍ ليست من اللغة ، وإنشاءَ دينٍ من شهوات النفس لا من وحى السماء ، والتزويرَ على التاريخ القديم باختراع تاريخ من الأحلام – أما أن يكون ذلك كذلك فما هو التجديد ، ولكنه التبديد الذى يوشك أن يتبعه الفناء . . . !

فى النقد :

هذا هو الرافعى فى موقفه من الجديد والقديم ؛ وما نحبّ أن ننتهى منه حتى نعرض لأسلوب الرافعى فى النقد ؛ فما نعرفه ناقداً عنيفاً إلا حين يتناول الجديد والقديم ؛ وإذا نحن تدبرنا ما أسلفت من تلخيص رأيه فى الجديد والقديم ، ومن مقدار حماسته فى الذود عن الدين والعربية – عرفنا لماذا يؤثر الرافعى ذلك الأسلوب العنيف فى مهاجمة خصومه والطعن عليهم ، إذ هو لا يَعتبر حينئذٍ إلا شيئاً واحداً ، هو الدفاع عن الدين وتراث السلفَ ، مؤمناً بأنك « لن تجد ذا دِخْلةٍ خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلَها فى اللغة . . . » وأنت لا ترى الرافعى مرة يأخذ فى أسباب النقد ليدفع كيداً يراد باللغة والدين ، إلا كما ترى البدوىّ الثائر لعِرضِه ، يطرح كل اعتبار من دون هذا الشرف المثلوم ؛ فمن ثمّ يكون فى كلامه معنى الدم . . .

على أن الرافعى إلى شدته وعنفوانه ، ناقدٌ بصير بأساليب النقد ، مما عالج من مختلف فنون الأدب ، ووقف على أسرار العربية ؛ من ذلك لما كتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى مقالته عن الشعراء ونشرها فى مجلة (سركيس) سنة ١٩٠٣ ، كتب المرحوم حافظ ابراهيم إلى الرافعى يقول : « . . . . قد وكلتُ أمر تأديبه إليك . . . ! »

وقد تعجب أشدّ العجب أن ترى الرافعى ينسى حين يجرّد قلمه للنقد كلَّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ؛ ولكنه هو يعتذر من ذلك بقوله : « . . . إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه ، فقد تكون غدا فيمن لا نعرفه ؛ ونحن نردّ على هذا وعلى هذا بردٍّ سواء ، لا جهلُنا مَن نجهله يلطِّف منه ، ولا معرفتُنا من نعرفه تبالغ فيه . . . فان كان فى أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذى يصف الرجل الضالَّ ليمنع المهتدىَ أن يضلّ ، فما به زَجْرُ الأول ، بل عظةُ الثانى . . . »

وقد خسر الرافعى كثيراً بالأمساك على مذهبه ذاك ، ووضع نفسه بحيث تنوشه من كلِ جانب سهامٌ مسدَّدة ، وألَّب عليه كثيراً من الخصوم ؛ ولكنك لن تسمع منه أبدا كلمة الندم ، وتراه على تربُّص دائم لكل « ذى دخلة للدين والعربية . . . » وهو ضربٌ من التضحية والشجاعة يدعو إلى الاعجاب

وكما ترى هذا الموقف للرافعى من دعاة الجديد فى الأدب ، ترى له موقفاً قريباً منه من دعاة الجديد فى الأخلاق والاجتماع ؛ فله آراء فى الاختلاط ، والحجاب ، والتعليم ، والحرّية ، والحبّ والزواج ؛ تراها منبثّة فى عديد الكتب والمقالات ؛ ولكن قليلاً من القراء من يستطيع أن يفهمها بروح مجردة من هوى ، ليعرف أىّ مذهب فى الاجتماع يدعو اليه الرافعى ؛ وله فى هذه المقالات روحٌ رفافة ، وشعر ساحر ، وحجة قوية ؛ وهو فيها من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة ؛ ولستَ واجداً أحداً يردّ عليه رأيه فى ذاك على قلة من تجد من أنصاره ؛ وقد جلستُ مرة إلى أديبٍ كبير ومربٍّ فاضل ، نداول الرأى فى أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعى ، فقال لى : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك

لن تجد أحداً – أيضاً – يستطيع أن يصاول الرافعي في ميدانه بمثل حجته وقوة إقناعه . . . »

الرافعي والمرأة :

وإذ تكلمتُ عن مذهب الرافعي في الاجتماع ، فاني أقف قليلاً لأتحدّث عن الرافعي والمرأة

وعجيبٌ أن يكون الرافعي صاحب « إعجاز القرآن ، وأسرار الاعجاز ، والبلاغة النبوية ، والانسانية العليا ، وسموّ الفقر ؛ والمحدّث ، المفسِّر ، المتصوّف ، الذي يصف عن عصر النبوّة ، ومجالس الأئمة ، وكأنه يعيش في جوِّهم وينقل عن حديثهم ؛ والذي تتصل روحه فيما يكتب من وراء القرون بروح الغزالي ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيّب ، وغيرهم وغيرهم من أئمة السلف – عجيب أن يكون هذا الرافعي هو صاحب « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وسموّ الحب ، واليمامتان ، وسحر المرأة ، والطائشة ، وغيرها وغيرها ؛ فيصف عن المرأة والحب ، ويتحدّث في ذلك حديث الرجل الذي عرف وذاق وجرّب ، ولبس المرأة ولبسته ، واستبدل قلباً بقلب ، وتقلب بين مجالس ومجالس ، وسمع (لا) بمعنى (نعم) ، و(اليكَ عنى) في موضع (اتبعني يا حبيبي) ؛ والذي يترجم معنى النظرة والابتسامة وما بعدها . . . !

وإنك لتراه أحياناً يمزج بين حديث الحب وحديث الدين ، ويصل بين وَحْيِ السماء ووحي العيون الدُّعْج . . . فتسأل : أيّ رجل هو ؟

ولقد خالطته زماناً ، فاني لأعرفه عرفاني لنفسي ، فما وجدته في حالَيْه إلا الرجلَ العفَّ الكريم ، ولكن له عالَماً من وراء هذا العالم ، يصل اليه في سبحات فكرية لطيفة ، ليستوحيه من معاني المرأة ما لا سبيل إلى معرفته في دنيا الناس . ولو أنك أردت أن تسأله مرة : أيّ رجلٍ أنت ؟ لما جاءك الجواب إلا أنه رجلٌ وَحَسْب . . . !

وتسأل نفسك : هل عرف الرافعي الحب تخفّ بجناحيه إلى تلك العوالم غير المنظورة ينقل عنها فلسفة الجمال والمرأة والحب . . . ؟ فاستمع اليه يقرر : « إن النابغة في الأدب لا يتمّ تمامه إلا إذا أحبّ وعشق . . . ! » ثم ارجع إلى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ لتعرف « أنها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ، ليَحْدُثَ منها تاريخ ؛ وسكنتْ بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة . . . »

ولكن ، من تكون تلك الفتانة التي تيّمها وتيّمته زماناً ، « هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوته وفلسفته . . . ؟ »

ذلك سرُّه هو ، أو سرُّها هي . . . !

وطنيته :

وللرافعي رأيٌ في معنى (الوطن الاسلامى) ، والوطنية الاسلامية ، تلمحه في كثير مما يكتب ، قوامه « أن يَظهر المسلمُ الأول بأخلاقه وفضائله في كل بقعةٍ من الدنيا مكانَ انسانِ هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فان كلَّ أرض اسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا انسانها التاريخيّ بجهله وخرافاته وما ورث من القِدَم ، فهنا المسلمُ الفرعوني ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ ، وفي بلدٍ المسلمُ المجوسيّ ، وفي جهةٍ المسلمُ المعطل . . . وما يريد الاسلام إلا نفسَ المسلم الانسانيّ . . . »

فلا يمنع أن يكون إلى جانب احساسه بمعنى (المصرية) احساس آخر بمعنى (الاسلامية) على أنها الوطن الأكبر ، كما لا يمنع الطنطاوى أن يكون إلى جانب حبه (طنطا) حبٌّ أعمق يشمل (مصر) كلها ؛ فاذا تحدّث الرافعي عن الشام ، أو العراق ، أو بقعةٍ أخرى من الوطن الاسلاميّ ؛ فما يعنى ذلك أنه قد خلع مصريته

والوطن عند الهمجيّ دارٌ تؤويه ، وحقلٌ يُغِلّ عليه ، وكلما زاد الانسان في معنى الانسانية انبسطت له رقعةُ الوطن ، فمن ثمّ كان الوطن فيما يرى الانسانُ المسلم هو كلّ أرض يخفق فيها لواءُ الاسلام ، وما مصر ، والعراق ، والشام ، والمغرب ، وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هـذا الوطن الاسلاميّ الأكبر ، كالأقاليم من الدولة ، والمناطق من الأقليم ، والشوارع من المنطقة ، والدُّور من الشارع ، والغرفتين من الدار ، حين يتدابر الأخوان وتدبُّ بينهما الشحناء التي توشك أن تنسيهما أنهما أخوان لأب وأم . . . !

(البقية في العدد القادم)

محمد سعيد العريان

دراسات فى الأدب الانكليزى

وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

نشأته وطفولته :

هو زعيم طائفة شعراء البحيرات وسيد شعراء الانكليز بعد شكسبير وملتن . ولد هـذا الشاعر فى السابع من شهر ابريل سنة ١٧٧٠ فى كوكرموث فى إقليم البحيرات من مقاطعة كمبرلند . وهو من أسرة متوسطة فى الجاه والثروة ، توفيت أمه وهو ابن ثمانى سنين ، وكانت تؤمّل لو فسح لها فى الأجل أن تشاهد الدور الذى سيمثله على مسرح الحياة ، لأنها لمحت فيـه طفلاً حدة طبعه ورجاحة عقله بميزانه عن بقية إخوته الخمسة . ولقـد كان والداه مرشديه ، فهما اللذان تعهدا إنماء قواه العقلية ، وتوجيه مداركه الشعرية فى أقوم السبل وأرشد الطرق ، وذلك بتلقينه أشعار القدماء والمحدثين ، وإلى ذلك يشير وردزورث فى قصيدته « الفاتحة » The Brelude

كان موطنه مزداناً بالمناظر الشعرية الخلابة التى استهوت فؤاده ، ووجدت منفذاً إلى عقله فظهر أثرها فى شعره

وبعيد وفاة والدته قصد مدرسة هوكشد حيث تلقى مبادئ العلوم والفنون . وكانت هذه المدرسة فى محيط ريفى ساذج ، تكتنفها المناظر الطبيعية من جميع الأطراف ، مما أغوى شاعرنا وجعله يصرف أويقات فراغه فى حضن الطبيعة . فتارة تلقاه يتمشى على شـواطئ البحيرة ، وأخرى تجده يصطاد الأسماك ويداعب العصافير فى أعشاشها ، أو يمرح بين التلال والشعاب يلاعب المعزى ويعبث بالحملان . وكثيراً ما كان يصطحب الكتب الى تلك الحقول فيطالع منها مايستسيغه ويبعث فى نفسـه أملاً ورغبة فى الحياة

فى كمبردج :

توفى والده قبل أن يتم دروسه الابتدائية ، لـكن أريحية عمه وليم كفلت له الالتحاق بكلية القديس يوحنا فى جامعة كمبردج . وقد كره الشاعر هذه البيئة الجديدة ، ومجّت نفسه هذه الحياة المقيدة فى بدء الأمر ، إلا أنه عاد فألفها وتشبع بروح ذلك المكان بعد أن جالت فى ذهنه صور الشعراء الذين قضوا قسما من حياتهم فيه . فقد أمده خياله الخصب بعالم روحى مطلق يعيش فيه ويستأنس بأهله لما لم تتح له الظروف أن يعيش طليقاً فى الحياة . ولقد كان يتردّد على أهله فى پيرنث أو فى هوكشد كلما سنحت له الفرص . وجرى له ذات يوم حادث غريب كان له أثر بعيد فى حياته الأدبية ، إذ بينما كان يتسلق أحد التلال فى هوكشد رأى رؤيا غريبة ظنّ أنه أوحى اليه فيها بالعمل العظيم المعدّ له . وقد ورد ذكر هـذا الحادث باختصار فى قصيدته (الفاتحة) ولا نعلم عنه أكثر من ذلك

رحلته الأولى :

اتفق شاعرنا وصـديقاً له على القيام برحلة كبيرة فى جبال الألب فى إحدى فرص الصيف ، وكان ذلك على أثر انتشار الأخبار الأولية عن الثورة الفرنسية . استأجر الصديقان سفينة وأبحرا فيها إلى ميناء كاليس ونزلا فى اليوم الذى حلف فيـه لويس السادس عشر يمين الاخلاص للدستور الجديد . ومن ثم قصدا الجنوب إلى بحيرات إيطاليا وسويسرا ، فصرفا على شواطئها بعض الوقت الممتع ، ثم قطعا سمپلون ومن هناك كرا عائدين إلى الأوطان ، وفى طريقهما لقيا جيوش الثوّار ناشرين لواء الحرية ومنتضين سـيف العصيان على الملـكيين . ولقد كان لهذه الرحلة أثر كبير فى نفس وردزورث ، إذ أوحت إليه بروح شعرية وثابة ونفس متمرّدة تنزع إلى الحرية وتطلب التجديد ، فلا غرو إن انتصر للثوّار الفرنسيين ورفع صوته معهم منادياً بسقوط باستيل الاستعباد

فى فرنسا مرة ثانية :

ما كاد الشاعر يتسلم شهادته من كمبردج حتى عن له أن يزور فرنسا مرة ثانية ليتصل بالثوار الذين تشبعت نفسـه بمبادئهم فى رحلته الأولى . شرع فى ذلك ماشياً سنة ١٧٩٠ ، فمرّ بباريس عش الثوار حيث قضى بضعة أيام يرصد فى أثنائها حركات الثوار عن كثب ، ومن ثم رحل إلى أورليان فبلوا Blois حيث

تعرّف بابنـة جرّاح فرنسى اسمها أنيتْ ڤالون Annette vallon وأقام هناك برهة يتعلم عليها مبادئ الفرنسية . ولقد كانت هذه الفتاة على حظ وافر من الجمال مما استهوى شاعرنا وأوقعه فى الشرك ، فوضعت على أثر ذلك طفلة . رأى وردزورث أن يمحو إثمه هـذا بالزواج منها ، لـكن الظروف لم تسمح له بالبقاء طويلاً فى أرض الثوّار لنفاد دراهمه وقطع عمه المساعدة المالية عنــه متوخياً بذلك إرغامه على الرجوع إلى بلاده لئلا يقع فى حبائل الملـكيين . وإننا لنحمد الأقدار التى أوحت الى عمه ذلك ، إذ لولاه لقضى شاعرنا كما قضى غيره من عباقرة الرجال أنصار الثورة الفرنسية ، ولم يخلف لنا بعدُ تراثاً أدبياً يُذكر

ولقد أثارت عليه فعلته هـذه حرباً عواناً فى الأوضاع الاجتماعية والأدبية فبعد أن كان متـصفاً بالفضيلة والـكمال إلى حدّ القداسة أمسى اسمه مقروناً بالـكفر والاثم خصوصاً بعد أن كشف لنا الدكتور هارير عن هذه الصحيفة السوداء من حياته فى فرنسا فى كتابه « حياة وردزورث » . ولقد ظهر فى سنة ١٩٢٢ كتاب لاميل ليجوس اسمه « وليم وردزورث وأنيتْ ڤالون » يصف فيـه علاقة الشاعر بمعشوقته المنكودة الحظ فى بلوا . ولم يُشر الشاعر إلى هذه الحادثة فى جميع أشـماره أو كتاباته النثرية إلا ببعض الاشارة والتلميح فى قصيدته ڤودرا كور وجوليا Vaudracore & Julia

وفى أثناء إقامته فى بلوا اتّصل بفيلسوف وزعيم جمهورى كبير هو ميشيل بيوپاى ، فصرف معه طوال الليالى على ضفّة اللوار فى الجدل والبحث فى حرية الانسان السياسية والاجتماعية مما غذى عقيـدة شـاعرنا الثورية وأذكى فى نفسه نار التمرد والخروج على المبادئ القديمة . ولقد سوّلت له نفسه الانخراط فى عداد الثـوار وحـضهم على مهاجمة معاقل الملـكيين . بيد أنه لم ينفّذ رغبته هذه لنفاد دراهمه كما بينا فعاد إلى انكلترا وفى نفسه غصة وفى فؤاده حرقة لحبوط مسماه وتلوث اسمه بذلك الفعل المنكر

شقيقته :

كان للشاعر شقيقة اسمها دوروثى لا تقل عنه فى توقد الذهن وحدّة الذكاء ونفاذ البصر ، وكثيراً ما كانت توجه نظره إلى أمور دقيقة ، وحوادث غريبة ، ومناظر بديعة فيتخذها مواضيع لقصائده . وقد أخذت على نفسها مرافقته فى غدواته وروحاته منذ صباها رغم معارضة أمها لها . فمند ما لمحت فيـه وميض العبقرية وفيض الشاعرية هبت إلى مناصرته وتشجيعه على المضى فى سبيله . وكانت فى أكثر الأحيان تقرأ أشعاره وتنظر فيها قبيل إعدادها للنشر نظر الناقد الشفيق . وقد وجد فى أخته هذه كل العزاء والأنس بعيـد رجوعه من فرنسا كاسف البال كسير القلب لما جنته يداه من إثم

فى فورنست :

كانت أخته تقطن آنئذ فورنستْ فقصدها شاعرنا ، وهناك نظم عدة قصائد جمعها فى مؤلفين سماها « سير فى الليل » An Ereniug Walk « ومقطعات وصفيــة » Descriptive shetches . ولقد أعجب كولردج بهما وتـكهن لناظمهما بمستقبل باهر فى عالم الأدب رغم ما وُجّه اليه من نقد على صفحات « منْثلى ريڤيو » و « ادنبرج ريڤيـو » . وفى تلك الأثناء خاض الشاعر المعامع السياسية فنادى بتحرير الزنوج ومعاضدة ثوّار الفرنسيين ، ويعالج فى بحث له يرد به على أحد أنصار الملـكية مبادئ الحرية منادياً باتساع نطاق الديموقراطية على حين لم يكن فيه الرأى العام قابلاً للأخذ بهذه الآراء المبتسرة

فقضى شاعرنا ردحاً من الزمن حائراً بين الـكنيسة والأدب لضيق ذات يده . على أن المنية وافت صديقه الحميم ريسلى كالڤرت فأوصى هذا قبيل مماته لوردزورث بتركته البالغة نحو ٩٠٠ ج مما حداه إلى الانصراف بكليته إلى الأدب وقرض الشعر . ولقد كان لهذه المبرة أثر ظاهر فى حياته ، وقد أشار اليها فى « الفاتحة » وفى قصيدة موضوعها « إلى كالڤرتْ »

والظاهر أن شاعرنا لم يكن على وئام تام مع أقاربه . نستنتج هذا من رسالة بعثت بها شقيقته دوروثى إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « إن أخى لناقم على أقاربه ، ولا يصفو قلبه إلا لأخويه يوحنا وخريستو »

(يتبع) جبرئيل القسوس

شهـــــداء الانسانية

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة

شهداء العلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك : هل تحقق الخير الذى بذلوا حياتهم من أجله ؟ فتدركه الحيرة ! أيكذب كى يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، أم يصدق فيفجعهم فى آمالهم ، أم يغريهم بالصبر الطويل كصبر الأحياء على الشر . أم يغريهم بالعودة إن استطاعوا الى كفاح الحياة . وإذا استطاع أن يعزى الشهداء الموتى فماذا يقول للشهداء الأحياء :

الناظم

* * *

على باب الحياة أرى زِحَامَاً   من الأشباح عجَّ بهم وسالا
من العهد القديم إلى زمان   حديث قد مضوا زُمراً تَوالى
هُمُ ضَحَّوْا بهذا العيش كيما   يطيبَ العيش للأحياءِ حالا
إذا ما هالك ألفوه ظلوا   على شغف يعيدون السؤالا :

* * *

بربك هل مضى قدرٌ بِشَرٍّ   وخبث النفس هل أودى وزالا
وهل جفَّت دموع الناس طرا   وهل بلغوا من العيش الكمالا
وذل الجوع هل قد زال عنهم   وكان سوادهم هَمَلاً مُذالا
وجهل يغتـدى بالناس بُهْماً   يُصَرِّفها يميناً أو شمالا
وهل غلبوا من الشهوات ما قد   عدا سلطانه فيهـم وغالا
أصار العيش من مِقَةٍ وأَمن   وكان العيش لؤماً واقتتالا
أعاد العيش عدلاً واعتِدالا   وكان العيش مكراً واغتيالا
بربك لا تقـل إنّا غُبِنّا   وإن هزأ الحِمَامُ بنا وصالا

* * *

أيفجعهم بآمالٍ عِزَازٍ   وما نال الردى منها منالا
يقول لهم : لقد رُمْتُمْ خيالا   وأسديتم وضحيتم ضلالا
أيسكت والسكوت له معانٍ   أيخدعهم وما ألفوا احتيالا
أيغريهم بصبر مثـل صبر   لدى الأحياء دام لهم وطالا
أَيَأْسَى أن مَوْتى لم ينالوا   من العرفان ما يُرْجَى نوالا
أيغريهم بِبَخْع النفس بأساً   إذا استطاعوا عن الأخرى انتقالا
أيسخر أنهم ـ وهُمُ رفات ـ   أبوا للعيش سقماً واعتلالا
فيا عيش الورى ماذا تراه   يقول لهم إذا ألْقَى مقالا

* * *

يقول لهم إذا اسْطعتُمْ فعودوا   دفاعاً للنوائب أو صيالا
إذا الأحياء لم يرعوا عهوداً   لأحياء فلا تشكوا انخذالا

* * *

يقول لمعشر الأحياء منهم   ليقضوا العيش صبراً أو نزالا
أيفدح أن تقاسوا العيش نحساً   لِيُسعِد بعـدكم صحباً وآلا
وكم من نعمة لولا شقاء   قديماً لم تكن إلا وبالا
فكم خَبَر الأوائلُ من شقاء   فنلنا من شـقائهم نوالا

عبد الرحمن شكرى
مفتش بوزارة المعارف

خمـــــر الرضا

للدكتور ابراهيم ناجى

ياحبيبى اسْقِنى الأمانِيَّ واشْرَبْ   بُورِكَتْ خمرةُ الرضاوَهْىَ تُسكَبْ
بُورِكَ الكَأْسُ والحَبابُ الذى يَرْ   قُصُ فى الكَأْسِ والشُّعاعُ المُذَهَّبْ
نَضَبَتْ رَحمـةُ الوجودِ جميعاً   وَبِكَ الرحمةُ التى ليس تَنْضَبْ
وَلَئن ضاقَتِ السماء بِشَجْوِى   فالسماء التى بِعَيْنَيْكَ أَرْحَبْ
وشَقَائى وِسادُ رأسى إذا نِمْـ   تُ وَمَرْسَاىَ حيثما أتقلَّبْ
كَمْ تَمَنَّيْتُ والصُّدُورُ تُجَافِيـ   نى وَتَزْوَرُّ والوجوهُ تقطَّبْ
كم تمنيتُ صَدْرَكَ البَرَّ ، يَرْتا   حُ على خَفْقِهِ الطَّرِيدُ المعذَّبْ
هَاتِ وَسِّدنِىَ الحَنانَ عليـهِ   جَسَدى مُتْعَبٌ وَرُوحىَ متعَبْ

ابراهيم ناجى

أياصوفيا

بقلم أمجد الطرابلسي

أياصوفيا حان التفرق فاذكرى
عهود كرام فيك صلوا وسلموا
حافظ ابراهيم

« أياصوفيا » تُذْرِى الدُّموعَ وتَسفَحُ … وتُمْسِى على مُرِّ الأنينِ وتُصْبِحُ
تنكَّرَ أهلوها لها وأذاقها … فوادحَهُ صَرْفُ الزمانِ المُفدِّحُ
وهانتْ على مَنْ كانَ بالأمسِ مُشْفِقاً … يُدافِعُ عنها الطامعينَ ويَنفَحُ
فوا أسفا ! ماذا أساءتْ وأذنبتْ … وقد يُغفَرُ الذنبُ العظيمُ المُبرِّحُ
أيَهْجُرُها أبناؤها دونَ رحمةٍ … وتُترَكُ فى أيدى الأسى تتصوَّحُ
ألم تكُ مِحْرابَ الخلافة أعصراً … يرفُّ عليها المجدُ والعزُّ يَصْدَحُ
إذا سمعَ الناسُ الأذانَ رأيتَها … تكادُ بأفواجِ المصلّينَ تَطفَحُ
وإن تُلِىَ الفُرقانُ فيها رأيتَها … تمايَلُ مِنْ تَرْتيلِهِ وترَنَّحُ
فأضْحتْ خلاءً لا الحمائمُ خُشَّعٌ … لديْهَا ، ولا الدَّاعى المؤذِّنُ يُفْصِحُ
وعُطِّلَ فيها الدينُ فهْىَ وَجِيعةٌ … تضِجُّ شكاةً والمنابرُ نُوَّحُ

* * *

« أتاتورْكُ » لا يغرُرْكَ أنَّكَ حاكمٌ … مُطاعٌ ، تُرَدِّى إنْ أردتَ وتصفحُ
رُوَيْدَكَ إنَّ الدهرَ ـ مذْ كانَ ـ قُلَّبٌ … يَعُودُ فيستقْضى الذى كان يمنحُ
لعَمْرُكَ إنْ أمسيتَ ربّاً مُسوَّداً … أتعلمُ ما يُبْدِى الصَّباحُ ويَفضحُ؟
إذا العينُ نامتْ عَنْ أذى الدهرِ غَفْلَةً … تُفيقُ على الهَوْلِ الفظيعِ وتُفْتَحُ
وأنتَ الذى يدعونكَ اليومَ مُصْلِحاً … فهلْ يَهْدِمُ التاريخَ والمجدَ مصلحُ
لئِنْ كانَ قُبحاً نبذُكَ العُرْبَ جانباً … فنَبذُكَ للدينِ المقدَّسِ أقبحُ
حُقودٌ على العُرْبِ الكرامِ صَبَبْتَها … على الدين ، ما تنفَكُّ تُورِى وتقْدَحُ
تبينَ فيها الغَدْرُ واللؤمُ والأذى … « وكُلُّ إناءٍ بالذى فيهِ ينضح »
تجَرَّأتَ مغتراً على الدينِ أهْوَجاً … ولكِنَّ دينَ اللهِ أسمى وأسمحُ
وشَمَّرْتَ للدينِ الحنيفِ مغالباً … فوا عجباً ! أنْتَ الأجمُّ وتَنْطَحُ
وما ناصَبَ الدينَ العداوَةَ أحمقٌ … مِنَ الناسِ إلا عادَ وهْوَ مُجرَّحُ
وَلِلهِ عينٌ تَكْلأُ الدينَ بَرَّةٌ … وتدفَعُ عنه كلَّ من جاء ينبح

* * *

بَنَيتم على الإسْلامِ شامخَ مُلْكِكم … فلَسْتَ إذا هدَّمْتَه اليومَ تُفْلِحُ
وإنَّ أيادِى العُربِ فيكم كثيرةٌ … وما ضرَّها أنْ تُنكِروها وتَقْدَحُوا
ولولا تهاويلُ الخلافةِ لم يكنْ … «لعثمانَ» فى ضخمِ الممالكِ مَطمحُ
فإنْ تهجُرُوا الدينَ المقدَّسَ فارْجِعُوا … سَوائِمَ ترْعَى فى المُروجِ وتَسْرَحُ

* * *

« أتاتورْكُ » حاذِرْ مِنْ بنى الغرْبِ وَثْبةً … وإنْ غرَّدُوا بالسِّلْمِ يوْماً ولَوَّحُوا
فحُبُّهمُ حُبُّ الذِّئابِ لِنعْجَةٍ … وسِلْمُهُمُ البرَّاقُ سِلْمٌ مُسلَّحُ
فَصَمْتَ عُرَى الشَّرْقِ العزيزِ بنَزْوةٍ … من الحُمْقِ ما تنفكُّ تنزُو وتجمَحُ
وقطَّعْتَ أسبابَ القرابةِ عامِداً … وهذا الذى يُرْضِى عِداكَ ويُفرِحُ
أأنتَ إذا خُنْتَ القرابةَ واجدٌ … من الأهلِ من يحنو عليكَ وينْصَحُ
وواللهِ لا يُبدى لكَ الغرْبُ حُرْمةً … ولوْ رُحْتَ فى أذيالِهِ تتَمَسَّحُ
يقولُ لكَ الغربُ المُدِلُّ بنابِهِ … وقد جئتَ تستجْدِى رضاهُ وتمدحُ
مكانَكَ يا شرْقِىُّ وارْجِعْ بذِلَّةٍ … فمنْ ذا رأى الشَّرْقِىَّ للعِزِّ يَصْلُحُ
ومهما سما الشَّرْقِىُّ فالشرقُ نعجةٌ … تُسَمَّنُ للغربِ النَّهومِ وتُذْبَحُ
فلا تلْتمسْ عطفاً من الغرْبِ صاغراً … ذليلاً فما يحنو القوىُّ ويَسْمَحُ
ولا تعبُدِ الغربىَّ جهلاً فإنما … ستكسِبُ منه كلَّ ذلٍّ وتربحُ
ألستَ تراهُ رابضاً متربِّصاً … يوَدُّ لو انَّ الصيدَ يبدو ويسنحُ

دمشق … أمجد الطرابلسي

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٦ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

الغزوة الأولى

حمل نيتشه فى الغزوة الأولى على الكاتب الألمانى « داڤيد ستراوس » وعلى كتابه الذى أخرجه فى درس الدين والمدنية ، والإيمان قديمه وحديثه . وقد يحتدم فى نقده للجزء الثانى من الكتاب حيث يعلن « ستراوس » المثل الأعلى الذى يجده خير ما وجده لأبناء الأجيال القادمة . ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذى لم يعلُ ولم يسفل ، بل وقف وسطاً قانعاً بما آل اليه ، يأخذ من كل علم بحزمة ، ويقنع من كل فن بضمة ، ويعتقد بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الانسانى

لا يؤمن « ستراوس » بجنة المسيح ، ولا يرتاح لوجود الله ، وإنما يعمل على أن يوحى الى أنصاره أن العالم ما هو إلا رحى ميكانيكية لا تهدأ عن دورانها ، وما على الانسان إلا أن يسلم من الوقوع تحت ثقالها . وهو فى الأخلاق كذلك ، فلا يبشر بمذهب خطر ، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وان يكون كما تريد نفسه فى الوجود . وإنما يقول هذه الجملة بعد تثبته من اختلاف الناس فى حظوظهم ومواهبهم ، « لا تنس أبداً أيها الانسان أن الآخرين هم أناس مثلك ، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك »

يحسب كل ما تجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً ، لأن العبقرية تتجلى فى التوسط لا فى التطرف . فالنشيد التاسع « لبيتهوفن » لا يقع موقع الرضا إلا عند من يرون الغريب عبقرية ، والخروج عن المألوف والوزن سمواً . وقد ظن بنفسه أنه قهر « شوبنهاور » ببرهانه الركيك الذى رآه « إذا كان الوجود قبيحاً ، فالعقل الذى أوجده هو قبيح أيضاً ، فالمتشائم إذن هو مفكر قبيح ، والوجود هو حسن وجميل ! . . . »

إن ستراوس فى نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذى يدعى معرفة كل شئ ، ويريد أن يفرض سلطته على الوجود . هو مفكر هياب لا يبلغ بفكره إلا منتصف الطريق ، ولا يستطيع أن يقصد نهايته . إنه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة . وهو مفكر يدعو الناس إلى حياة قانعة خانعة ، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقرية يعمل على معاكستهم لأنهم — بزعمه — خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم حدود النبوغ المتوسط

***

الغزوة الثانية :

وتصدى نيتشه فى تأملاته الثانيـة للتاريخ ، وهو لا يجابه رجلاً معلوماً أو طائفة مشهورة ، وإنما ينازل مذهباً حديثاً يهم بأن يشيع ويطبع الحضارة العصرية بطابعه ، فالتاريخ هو خير راع للحضارة وناقل لها ما ظل يعمل على خدمة الحياة ، ويحث الناس على نشدان الحياة الساميـة ، فالتاريخ الوقوف على نشر المآثر يمثل للانسان آثار الأقدمين الرائعة ويبعث فى روحه الأمل

نجـــوى

أنت لحن الفؤاد فى الخفقان ... يا نجىَّ الضمير فى كل آنِ
رافق القلب ذكرك العذب كالما ... ءِ رفيقاً لخاطر الظمآن
إن هذى الحياة - وهى شؤون - ... ليس فيها سواك لى من شان
أنا من أجلك احتملت حياتى ... حين ظلَّلت فى الحياة مكانى
ربَّ ليل مضى عليك هنيئاً ... بتُّ فيه مؤرق الأشجان
طيفك العابث الكذوب يمنيـ ... ـنى فأحيى ليلى سمير الأمانى
وأرى عطفك البعيد قريباً ... فيفيض السرور فى وجدانى
ثم يحنو علىَّ طيفك حتى ... نتهادى مواثق الرضوان
ونحلُّ الوصال لثما وضما ... وحديثاً باللحظ أو باللسان
ثم أصحو فلا أراك حيالى ... فيثور الدفين من أشجانى
أيها الظالم الجميل ترفق ... بأسير معذب ولهان

بغداد — ابن عباس

الملتهب والعزم المتأجج لأكمال معنى هـذه الآثار ، ويعمل على رفع مثل الانسانية الأعلى ناقضاً من قلبه التلهى بحب الحاضر والاستسلام لملذاته . أما التاريخ التقليـدى الذى يوحى للانسان احترام الأشياء الفانية ، وحب الآثار الماضية ، فهو خير حقير يحمل أصحابه على الرضا بالحاضر الممقوت ، يسكرهم بذلك الماضى الذهبى البعيد ويسكب فى وجودهم القاتم المستكين مخدراً شعرياً يبعثهم على الركود . وهنالك التاريخ الناقد الحاكم ، يعرض الماضى كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه ، لأن كل ما كان من حقه أن يزول . — ان مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضى الثقيل ، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويعشوا قُدُماً إلى ما خطت لهم الحياة

ولقد يستحيل التاريخ إلى قوة غاشمة سيئة حين ينفصل فى طريقه عن الحياة ، وحين يود أن يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها ، إنه يصبح رسول موت لا رسول حياة . ينشئ من الانسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف . ويقتل فيه القوة التى تسوقه إلى العمل . . . إنه مجموعة أثرية لاحظ فيها لسطر من سطور العمل . صاحبها ضعفت شخصيته ، ونشأ فى تفكيره عالة على غيره ، وتعلم أن التاريخ يجب أن يتلقنه تلقيناً ، وألا يضعه بنفسه . على أن المؤرخ الحقيقى الذى ينبغى لمثله أن يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التى يدرسها وقفة الخلى ، ويعمل دائباً على تشييد بناية الحاضر . رجل التجارب والسمو هو الذى يسطر التاريخ

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه : هى أن التاريخ يكرِّم من التفاؤل ما كان محفوفاً بالكدر والخطر . ويحترم الميول الفظَّة ويمجد الظفر . يعتقد المؤرخ أنه يرى فى الحركة الانسانية أثراً لا أعلم من أى عقل سام منحدره . يجهد العقل ليدرك أنى بدأت هذه الحركة وأين يجب أن تنتهى ؟ والانسان لم يكن عظيماً إلا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الأهوج ، ولـكنه يفعل ذلك دون أن يخرج من نفسه

ليس التاريخ الحقيقى بذلك التاريخ الذى يأتى على كل شىء وإنما هو تاريخ أبناء العبقرية ، وسيأتى عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التى ألف التاريخ تسجيلها . وسترسم هذه الصورة بصورة أدنى إلى الحقيقة ، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه ، وإنما يقصر فيه على رجال العبقرية الذين أثروا فى العالم ؛ هم لا يأتون ويتعاقبون حسب شريعة تاريخية ، ولـكنهم يعيشون وراء الزمان ! يمثل وجودهم المتصـل المتماسك معبراً ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة . ولنعم هذا التاريخ الذى يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل ! وهذه هى جمهورية العباقرة التى تحدث عنها « شوبنهاور » . عبقرى ينادى عبقرياً فى أثناء العصور واهضام الأجيال . ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم ، ويدنى بعضهم من بعض ، وأن يهيئ — فى كل مهلة — ولادة جديدة لعبقرى جديد . إذ ليست غاية الانسانية من سـيرها ذلك الغرض الذى تزحف اليه وإنما غايتها تتمثل فى النماذج الـكاملة التى تخرجها وتنشئها فى الوجود

***

الفترة الثالثة :

ولم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتعاليمها الخطرة . فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة ، فتحرى عن عباقرة أحياء يستطيعون ان يذهبوا بالشباب إلى هذه العمارة وإلى هدف جديد ، ينزع عنهم هـذا التفاؤل المخدر ويعرضهم أمام أنفسهم مجردين ، وسـعى إلى أن يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه ؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب ؟

وقع — أو شاءت المصادفات — أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب شوبنهاور « العالم إرادة وتمثيل » وما كان نيتشه ليقدران هذا الـكتاب سيقلب كل أطوار حياته ، ويترك ثورة مستعرة فى فى نفسه ، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الأيام ضراماً ، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها ، وتمد ألسنة شواظها إلى نفسها فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها ... فكان أول ماشغله من هذا الـكتاب الجديد شخصية صاحبه المتجلية فى كل حرف من حروفه ؛ وهو الذى يقول : « أنا من قراء شوبنهاور ، ممن يدركون أنهم سيتلون شوبنهاور من فاتحته إلى خاتمته ، وسيصغون إلى كل حرف تهمسه شفتاه . إن نثق به ثقة عمياء مازادها كر الأيام إلا ثباتاً »

(يتبع)

خليل هنداوى

القصص

من أساطير الإغريق

القرية الظالمة

للأستاذ دريني خشبة

ذهبا يدلجان فى هدأة الليل ، ويضربان فى ظلام الوادى ، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة ؛ وكلما نال منهما الجهد ، جلسا يتسامران ، أو ينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة ، إلى السحر الذى تنفثه قيثارة الفتى اليافع

ـ « حسبك يابنى ، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة »

ـ « وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه ؟ »

ـ « أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس . أترى إلى هذه القرية النائمة فى أكناف الجبل ؟ »

ـ « أين يا أبى ؟ »

ـ « أنظر جيداً »

ـ « الظلام دامس ، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً . . . »

ـ « أنظر فى الجهة التى تشير إليها يدى »

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد ؛ كشفت القرية للفتى

ـ « آه . هذه هى . عمش خفيف أصابنى الليلة يا أبتاه ! »

وكان الفتى حلو الدعابة رقيق النكتة ، ثرثاراً ، فقال له الشيخ يحذره :

ـ « إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً ، ولا تخاطبنى إلا أن أخاطبك ؛ وإياك أن تأتى باشارة تسقط هيبتنا فى أعين القوم ، فانهم لؤماء سفهاء ، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية . . . »

« نسيت القفل يا أبتاه ! ! »

ـ « أى قفل ؟ »

ـ « الذى أقفل به فمى فما يتحرك بينت شفة »

ـ « يا خبيث . . : أصمت »

***

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدّت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعـدها ، وانصبت ميازيبها بماء منهمر . وانطلقا إلى القرية . . .

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذى شرفات ، فقال الشيخ :

ـ « تشبث يا بنىّ بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة ، فانظر ماذا ترى »

وفعل الفتى ، ونزل ، وقال للشيخ :

ـ « أبتاه ! نسوة عاريات يرقصن ، وندامى وخمر ، و . . . موسيق . . . وفتيان وفتيات . . . و . . . . »

ـ « وماذا يا صغيرى العزيز ؟ »

ـ « ودعارة وعهر يا أبتاه . . . . لماذا جئنا هنا ؟ لماذا جئنا هنا ؟ . . . »

ـ « قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس ، هلم إلى باب هذا المنزل »

وطرقا الباب ، فبرز لهما فتىّ غرانِق وقال : « ماذا ؟ شحاذان قذران ! » فقال الشيخ :

ـ « على رسلك يا بنى . أنا رجل شيخ غريب ، وهذا ابنى ، وقد دهمتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح ، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات . . . »

ـ « غرفة ولقيمات ؟ ها ها . . . اذهبا اذهبا . . . لصوص ! هذه حيل قطاع الطريق والـفاحين بَلوْناها من قبل »

ثم قذف بمصراع الباب فى وجهيهما . فنظر الشيخ إلى ولده وقال : « أرأيت ؟ سر إلى هذا البيت القريب »

وقال لابنه : « هلم إلى النافذة فانظر . . . »

وتسلق الفتى وحملق قليلاً ، ثم قفز وقال : « أبتاه ! أناس يخزنون الذهب فى خوابٍ عظيمة ويختمون عليها بالرصاص المذاب ؛ من أين لهم هذا الذهب كله يا أبى ؟ .. » فقال الشيخ : « هم لصوص يا بنى ، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً ، ولا يسطون على دار ؛ ولـكنهم يمتصون دم الفقير والمعتر ، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا ؟ ! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين ! هلم إلى بابهم ... ... »

وطرقا الباب ، وسألا طعاماً ، ومبيت ليلة ، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار :

ـ « إن هذا العام عام شـدة ، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع ، ماذا عندنا لنعطيكم ؟ هيكل زيوس قريب من هنا ناما فيه ، وكهنته أسخياء كرماء ، وعندهم فى كل آونة خمر ... سيطعمونكما ويسقونكما ! وربما قدموا لـكل منكما غادة ! فهم فساق عرابيد ... إقصدا إليهم ... اذهبا ... »

وقذفت بالباب فى وجهيهما ... ...

قال الشيخ : « أرأيت يا بنى ؟ » فقال الفتى مداعباً : « نحن نستحق أضعاف هـذا الهوان ! مالنا وللناس ؟ ! » ؛ فقطب الرجل جبينه وقال : « مالنا وللناس ؟ اذن ما نحن فى هذه الدنيا يابنى ؟ ولـكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة ؛ سر بنا الى ذلك القصر العتيق »

فلما كانا عنده ، تطلع الفتى فرأى صَحْباً كثيراً ما زال يتعشى ، والموائد حافلة بالأشربات والأشواب ، وبكل ما لذ وطاب . والندامى البيض كالنجوم رافلات ، ورافلون ، فى وشى وأفواف . وكأن الفتى استطير من العجب ، فقال للشيخ : « كل الناس يا أبتاه هانئون هذه الليلة المقرورة إلا نحن ! ! الجميع يأخذ فى نشوة ولذة ونحن نضرب فى وحل و نَتَشَقَّقُ من غيظ ؟ ! »

قال أبوه : « ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك ؟ هلم إلى الباب » وقرعا الباب فبرز لهما شابٌ مفتول العضل كأنه هرقل . فلما سألاه حاجتهما ، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع

قال الشاب المفتول : « اليكم أيها الاخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً فى قريتنا هذه ، ولولا طول الحذر ماذقتم الليلة رجل دجاجة . . . . . . إنهما يطلبان مبيتاً وعشاءً ، ولا أدرى لِمَ لَمْ يقصدا الى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الـكثير ؟ ! وحيث أشياء أخرى . . . . . . »

وقهقه السمار وتـكبكبوا حول الغريبين ، ثم أخذوا معهما فى ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل . هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراء ، وهذه تعانق الشيخ وتقبّله وتقدم له كأساً من الخمر ، وتلك تَركب الفتى « زَقَفُونَه ! » (١) . . . .

ولما فاضت الـكأس بالشيخ والفتى ، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات ، ثم غابا عن أنظار الجماعة ، كأنما تحولا الى هواء . . . ؟ ! فَشُدِهِ القوم ، وأوْجَسوا خيفة

***

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان فى شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت ، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها ، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمةِ والده فى هذه الرحلة المضنية فى ذلك البلد البخيل . . . فقال له : « اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة فى حَيْد الجبل ، وسأتسلى بموسيقاىَ حتى تعود » فقال الشيخ : « وحكمتى التى أردتك أن تَراها بعينيك ؟ هلم ، هلم . . . أترى إلى ذلك الـكوخ ؟ لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا »

وكانت فى الـكوخ كُوة صغيرة ينبثق منها نور خافت . فلما نظر الفتى تمتم يقول : « أبتاه ! امرأة متهدمة وشيخ محطم ! يا لبؤس الحياة ، ويا لشظف العيش ! لماذا أثرت العاصفة يا أبى ؟ إن الماء ينز عليهما ويبلل فراشهما . . . »

(١) لم نعرف غير هـذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الانسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسـط والعنق وقد استعملها أبو العلاء فى رسالة الغفران فنقلناها عنه

ـ « سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذى يبقى »

ـ « ما ذا تعني يا أبي ؟ هل تهدم القرية ؟ »

ـ « صه ! هلم فاطرق باب الكوخ . »

* * *

ـ « قم يا فيلمون . إن بالباب طارقاً »

ـ « نامي يا بوسيز ! إنه البَرَد ترجم به العاصفة »

ـ « لا . ليس برداً . إسمع ! أناس ينادون . قد تكون بهم حاجة »

ونهض فيلمون متهالكاً على نفسه ففتح الباب . وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش ، وتلق الرجل وابنه أحسن لقاء

ـ « مرحباً مرحباً . . . أنتما فى حاجة إلى دفء . بوسيز . انهضى يا امرأة فأوقدى ناراً . أنا أعرف أن الحطب مبلل ، ولكن حاولى . . . مرحباً يا كرام معذرة ، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر . بوسيز ، هاتى قربة النبيذ أولاً . ليس فيها الا صبابة ! لا بأس ! سيبارك زيوس للضيفين فيها . . . هاتى شيئاً من المشمش الجاف يا امرأة ! . . . »

وتأتى بوسيز بقربة النبيذ ، وما يكون فيها إلا ثمالة ، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء ، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر باخوس ؛ وبعد أن يروى منها هو وابنه ، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم ! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول : « بحق زيوس إلا ما أخبرتنى أيها الصفى الصالح من أنت ؟ » فيقول الشيخ : « أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار وهذا ابنى الموسيقى البارع . أتطرب للموسيقى ؟ »

ويهتز الرجل ، ويوقع الفتى على قيثارته لحناً كأنه لسان العاصفة بما فيها من سنابرق وهزيم رعد ومكاء ريح وتنقير مطر ، ثم هو مع ذلك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب . . . وطرب فيلمون ، ورقصت جوانح بوسيز ، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى ، ناسية أن تقدمه الى الشيخ ، وهذا من أثر الموسيقى على أعصابها ، فقدمه هذا الى أبيه فى أدب واحترام .. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة ، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة ، وتضاعفت فى الطبق حتى ملأته . فأكل الشيخ ، وأكل ابنه ، وأكل فيلمون وزوجه ، وهما لا يصدقان ما يريان !

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم ، فكان القليل يزداد والمشفوف يتضاعف . وكانت لديهما إوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين ، ليريا ماذا يكون من أمرها . ولكن الأوزة فزعت فزعاً شديداً ، وانطلقت فى ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه . فابتسم ، وربت على ريشها الناعم النظيف ، وأجارها من سكين فيلمون

وكان نسيم السَّحر قد أخذ يهب فى الأفق الشرقى ، فقال الشيخ :

ـ « أيها العزيز فيلمون . أيتها التقية الكريمة بوسيز ، من إلهكما ؟ »

ـ « إلهنا زيوس تبارك فى علياء الأولمب ؟ »

ـ « أو يسركما أن يكون معكما الآن ؟ »

ـ « معنا ؟ هو دائماً معنا ! »

ـ « أجل . هو دائماً مع عباده المخلصين . ولكن ، أيسركما أن تكونا الآن فى حضرته يحدثكما وتحدثانه ؟ »

فيصيح فيلمون :

ـ « أنت هو زيوس . تقدّست . تقدست »

ويسجد الرجل وزوجه ، وما تفتأ تأخذهما رعدة شديدة

ـ « أجل . أنا زيوس . أتيت أبتلى هذه القرية . وهذا ولدى هرمز . انهضا . والآن . ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا . . . »

ووقف زيوس ، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق ، ثم إلى الغرب ، ثم إلى الجنوب ، ثم إلى الشمال ؛ ؛ ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات ، وجلس

وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض ، وسمع كأن الجبل القريب يندك ، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها ، وتنقلب القرية إلى جحيم ملتهب ، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال ، فيطمئنهما زيوس

ـ « الكوخ يا إلهى ! أنا رجل فقير ! »

ـ « مال كوخك يافيلمون ! »

ـ « إذا انهدم عشت فى العراء ! »

ـ « لا عليك ! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة ؟ »

وأشرقت الشمس ، فنهض الآله الأكبر ، ونهض الجميع معه . وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب وارتد على عقبيه مذعورا :

ـ « مولاى ! لمن هذا القصر المشيد ؟ »

ـ « هو لك يا فيلمون ، أمرت الآلهة فبني لك فى ساعة السحر جزاء كرمكما . هلما نشهد غرفاته »

وانطلق الجميع يتنقلون فى غرفات القصر وردهاته ، وكلما مر فيلمون وزوجه بتمثال إله سجدا له وأخبتا ، حتى إذا كانوا فى أكبر ردهات القصر ، وقف زيوس وقال : «فيلمون ! هذا هيكلى ! وقد جعلتك كاهنى الأكبر ، فتمن الآن علىَّ ، فسأجيبك إلى كل ما تطلب »

فتبسم فيلمون وقال : « مولاى ! الشباب يا مولاى ! ليعد الشباب إلىّ وإلى زوجى بوسيز ، ولنعش طويلا ، فاذا جاء وعدك فلنمت فى يوم واحد فى ساعة واحدة ! » وسجد يقبل الأرض بين قدمى الآله الأكبر !

فقال زيوس : « انهض يا فيلمون فطلبك مجاب ، وستميشان راغدين ! »

***

وسلم الآلهان وغابا عن الأنظار ، وخرج فيلمون وزوجه ليريا إلى القرية ، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تمج أمواجها ، وجزيرة كبيرة خضراء فى وسطها قصرهما المنيف ! فآمنا بزيوس وسبّحا له !

وعاشا طويلا ، وماتا فى يوم واحد وساعة واحدة ، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراهما فى العصور ؟

دريني خشبة

البريد الأدبي

المؤتمر المصرى الثالث للطلبة المصريين بانجلترا

أقام الطلبة المصريون فى انجلترا مؤتمرهم الثالث من مساء يوم الأربعاء ١٠ يوليه إلى يوم الاثنين ١٥ منه ، فحاضر فى اليوم الأول الملازم حسن بكير فى البوليس المصرى والأمن العام : حالتهما وما يجب أن يكونا عليه ؛ وفى يوم الخميس ألقت الآنسة أسماء فهمى محاضرة عن (علاقة علم النفس بالتربية ومقاييس الذكاء) ، وكذلك ألقى الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد محاضرة عن (عيوب النظام المدرسى الحالى بمصر ووسائل اصلاحه) ؛ وفى يوم الجمعة تكلم الأستاذ يحيى نامق عن (حركات الشباب المصرى وكيف يجب أن تتجه) ، والأستاذ حسن محمد الشعرانى عن (رقى الصناعة فى مصر) ، ثم تحدثت الآنسة حنينه خورى عن (الحبشة وعاداتها وعلاقتها بمصر) ؛ وفى يوم السبت تكلم الأستاذ ابراهيم حسن الوجى عن (فضل الاسلام فى رفع منزلة المرأة) ؛ وفى يوم الأحد تكلم الأستاذ سليمان أحمد حزين عن (مشكلتى السكان والدفاع القومى ومكانتهما من سياستنا التعليمية) ، والأستاذ يحيى عبد السلام العلايلى عن (علاقة الطلبة المصريين بانجلترا وكيف يجب أن تكون)

وفى يوم الاثنين انعقد المؤتمر بشكل جمعية عمومية لمراجعة النتائج التى وصل اليها فى المحاضرات السابقة ولمناقشة شؤون المؤتمر الرابع المقبل وانتخاب اللجنة المعدة لادارته

بين الرصافى والريحانى

نشرنا فى عدد مضى مارواه الريحانى عن الرصافى فى كتابه الجديد (قلب العراق) وانتظرنا كلمة الأستاذ الرصافى فى هذه الرواية . وقد قرأنا أخيراً فى جريدة الاستقلال البغدادية كتاباً من الأستاذ الرصافى ينكر فيه كل ماعزاه الريحانى اليه انكاراً يؤيد تعليقنا على هذا الخبر إذ ذاك ، وهذا كتاب الرصافى بنصه :

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب جريدة الاستقلال الغراء أرجو نشر الكلمة التالية فى جريدتكم ولكم الفضل والشكر :

أطلعنى بعض معارفى على مارواه الريحانى عني فى كتابه قلب العراق فعجبت منه واستغربته كل الاستغراب . لقد اجتمعت بالريحانى عدة مرات فى أزمان مختلفة ، ومجالس مؤتلفة وغير مؤتلفة ، تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث من كل نوع ، ولا أتذكرها اليوم لمرور الزمان ولاختلال ذاكرتى بالنسيان ، فأنا من هذه الناحية لا أستطيع أن أناقشه فى صحة تلك الأقوال التى أسندها إلىّ ورواها عنى . ولكننى الآن أستطيع أن أنفى نفياً باتاً صحة كثير مما رواه فى كتابه المذكور بدليل أن فى تلك الأقوال مالو قاله اليوم أحد غيرى لأنكرته عليه أشد الانكار . إذن فكيف أقول للريحانى ما أنكره لو قاله غيرى ؟ وفى الأخير أقول : إن كان كل مايرويه الريحانى فى كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة منه ، وويل له من الحقيقة !

معروف الرصافى

معهد شرقى فى برلين

من أنباء برلين الأخيرة أن الحكومة الألمانية قررت إنشاء معهد جديد يسمى « المعهد الشرقى » يلحق بجامعة برلين ويعنى بدراسة اللغات الشرقية ومسائل الشرق وحضاراته . وسيدمج فى هذا المعهد الجديد ، معهد اللغات الشرقية القديم Seminar für Orient. Sprachen الذى كان ملحقاً بجامعة برلين ، ومعهد اللغات السامية والعلوم الاسلامية ، والمعهد الصينى ، والمعهد الهندى الألمانى . أما المعهد اليابانى المخصص لدراسة المسائل والحضارة اليابانية ، فسيبقى مستقلاً كما هو الآن نظراً لمهمته الخاصة

وفى هذا النبأ ما يلفت النظر ، لأن الحكومة الألمانية الحالية وهى الحكومة الهتلرية قد اضطهدت حركة الاستشراق ، أعنى المباحث الشرقية والاسلامية ، اضطهاداً شديداً ، لأن معظم أقطاب المباحث الشرقية والاسلامية من اليهود ؛ وقد طاردت الحكومة

الهتلرية العلماء اليهود أشد مطاردة وشردتهم من معاهدهم، وركدت بذلك حركة الاستشراق فى ألمانيا؛ وكانت هذه الحركة زاهرة بألمانيا قبل الحرب لأنها كانت يومئذ تجيش بالمطامع الاستعمارية فى الشرق وتشجع المباحث الشرقية والاسلامية وتغذيها بالمال والبعوث؛ ثم ضعفت هذه الحركة بعد الحرب، وفترت همم العلماء المستشرقين لتخلى الحكومة عنهم وقصورها عن إمدادهم بالمال اللازم؛ فهل نفهم من إنشاء «المعهد الشرقى» الجديد أن الحكومة الهتلرية تزمع العودة إلى تشجيع المباحث الشرقية، وأن لهذه الخطوة علاقة بمطامعها السياسية والاقتصادية فيما وراء البحار؟ هذا ومن جهة أخرى فالمعروف أن الحكومة الهتلرية تقيم سياستها على فكرة الجنس، وأنها تنادى بانحطاط الأجناس الشرقية وعدم كفايتها «لانشاء الحضارات» وتعتبرها فرائس مشروعة لاستعمار الجنس الآرى إلى آخر ما هنالك من مبادئ ومزاعم جديدة يعمل الهتلريون على بثها وتدعيمها؛ ولذا فانا نجد ما يدعو إلى التأمل فى اهتمام الحكومة الهتلرية بانشاء «المعهد الشرقى»

عميد أطباء فرنسا

من أنباء فرنسا أن الدكتور الكسندر جنيو عميد الأطباء الفرنسيين سناً قد توفى فى سن الثالثة بعد المائة؛ وأنه لبث محتفظاً بصفاء ذهنه وقوة حواسه حتى اللحظة الأخيرة. وقد كان مولد هذا الطبيب المعمر فى سنة ١٨٣٢؛ ودرس الطب، ونال أجازته سنة ١٨٥٧؛ ثم نال شهادة العالمية الطبية سنة ١٨٦٩، واشتهر بنبوغه فى الجراحة؛ وانتخب عضواً فى أكاديمية الطب، ثم رئيساً لها، وانتخب أيضاً رئيساً لجمعية الجراحين؛ وله مؤلفات قيمة فى فن الجراحة مازالت حجة فى بابها. وقد كان الدكتور جنيو طوال حياته شهيراً ذائع الصيت لا كطبيب نابغ فقط، ولكن كرجل اجتماع جم الفكاهة، وقد اشتهر بالأخص برسالة ألفها فى أواخر حياته عن «طول الحياة»، وما يجب على الانسان أن يتبعه من نظم التغذية والرياضة إذا أراد أن يعيش مائة سنة، وخلاصة نصحه فى ذلك أنه يجب الامتناع عن الافراط فى أى شىء، فى العمل أو فى الراحة أو فى الطعام أو فى الشراب؛ ويجب الامتناع بالأخص عن التدخين والخمر وغيرهما من المواد والعناصر المهلكة التى تبثها المدنية الحديثة

المرأة والاستكشاف

نظمت أخيراً فى انكلترا بعثة استكشافية جديدة لارتياد «الأرض الخضراء» (جرينلاند) فى منطقة المتجمد الشمالى؛ ورحلت البعثة فوق السفينة القطبية الشهيرة «كوست» وهى سفينة السير أرنست شاكلتون الذى اشتهر باكتشافاته فى تلك المناطق، وعهد برئاسة البعثة الجديدة إلى الأستاذ واجر؛ وبين أعضائها عدد من العلماء القطبيين المعروفين بين انكليز ودانماركيين ومنهم الأستاذ كورتولد الذى اشتهر بمخاطراته فى الجزيرة الخضراء وقضى بها وحده شتاء كاملاً فوق الجليد فى سنة ١٩٣١. ومما يلفت النظر أن هذه البعثة القطبية ترافقها أربع سيدات هن زوجات أربعة من الأعضاء، وسيقضين الشتاء مع البعثة فى الجليد، ويحتملن نفس المشاق التى يحتملها باقى الأعضاء. وقد سافرت البعثة من نغرابردين فى اسكتلندا فى أوائل شهر يوليه صوب البحار القطبية، ويتولى تسيير السفينة بحارة من النرويجيين الذين عرفوا بخبرتهم فى هذه البحار، واحتمالهم لهذه الأجواء

وعلى ذكر مخاطرة المرأة فى ارتياد المجاهل والوهاد الخطرة فى سبيل الغايات الاستكشافية نذكر أن امرأة بمفردها هى الدكتورة مارى آكلى أرملة المثال الشهير كارل آكلى تزمع السفر بمفردها إلى بعض مناطق أفريقية الوسطى فى رودسيا وفى سوالى لاند وزولولاند لدرس حياة الحيوان فى تلك الأنحاء، ولتعرف رسوم القبائل وعاداتها الوثنية. وقد سبق أن قامت الدكتورة آكلى بمثل هذه الدراسات فى بعض أنحاء أفريقية الجنوبية، وقامت أيضاً برحلات شاقة فى الجبال الكندية بأمريكا، ولها اكتشافات معروفة فى تلك الأنحاء استحقت من أجلها عدة أوسمة وتقديرات علمية

خليل بك مطران وفرقة التمثيل الحكومية

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتعيين الشاعر الكبير الأستاذ خليل بك مطران مديراً للفرقة التمثيلية التى اعتزمت الحكومة انشاءها تنفيذاً لاقتراح لجنة ترقية المسرح المصرى بمرتب قدره خمسون جنيهاً فى الشهر؛ وهو تعيين معناه الجد فى انهاض هذا الفن الذى عبثت به الأهواء والفوضى فخرجت به عن سبيل النهضة العامة

الكتب

قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نشره « مكتبة النشر العربي بدمشق »

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت فى مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كرد على ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمى بأنه كتاب قد جمع جمعاً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأى واحد وهو ترجيح قول الجلال الدوانى على قول الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى مقام الترغيب فى الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف فى عهد الارتقاء العلمى هى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمى آخر من جرى على هذه الطريقة وهى بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت فى التأليف طريقة جديدة اليوم وهى أن المؤلف فى فن يقتصر على لباب ماقرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ؟

فالأستاذ كرد على ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة التأليف العصرية التى هى بزعمه الاكتفاء بالاشارة إلى ما كتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء فى سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وماخرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد على يريد انتقاد أخيه هذا فى المقدمة التى من قلمى والتى أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمى رحمه الله . وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد على جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن أنى أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمى فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم فى الآفاق ، وليس محمد بك كرد على بالذى يجهل ذلك أو يقدر أن يمارى فيه ، وإنى لجدّ مستغرب منه ضيق صدره بثنائى على رجل لا يتمارى اثنان فى دمشق الشام فى كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق فى كل مقام مباهاة

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمى إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان أخونا كرد على يسمى ذلك « تمجيداً » فان التمجيد فى محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجّد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمى فى علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ؛ وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذى يستحق النقد . ما كنت أحبّ أن يغمز الأخ كرد على بى فى مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه فى إحدى المقدمات الأربع التى أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله فى موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأ وغاية ، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إننى أنا والأخ كرد على لا نقدر أن نتكلم فى علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمى جمع جمعاً ،

وان الجمع فى التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع فى كل من عهدى التقدم والتأخر . وفى أوربا اليوم كتب كثيرة لا تزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان فى ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح والتجريح لاختلاف أذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قارئ قادراً أن يستقى من هذا الجمع ما يستعذبه . فالشيخ جمال القاسمى كان يعلم ما فى عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدى النبوى ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشعرانى والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين فى هذا الكتاب طلبتهم . وقد نسى أخونا الأستاذ كرد على محنة الشيخ جمال القاسمى عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدى به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهى الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل فى كونها على حق إلى يوم القيامة . فنى بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عند ما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هى فى جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوى لا يتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا فى المسائل التى لاخلاف فيها بين العلماء والتى إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يُؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو فى علم الحديث الجبل الذى لا يُطاوَل والبحر الذى لا يُساجَل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة الكرد على . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد على وحده الذى بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الأصحاب أطلعنى على كتاب للدكتور زكى مبارك لمحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع أو استكباراً لأتيانه ؛ وهـذا باب جديد عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفى بالقول إن السجع وُجد فى الجاهلية وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء فى القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو أبلغ الكلام العربى وغير العربى ، وجاء فى كلام الصحابة والمخضرمين ثم فى الطبقة التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ثم فى التى تليهم إلى يومنا هذا . ولم نعلم أحداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذى يستعمله فيه الكاتب ، أى إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقوافٍ فلم يكن السجع مستحسناً فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها . وأما فى المواطن التى هى أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلميـة الصرفة ، فليس السجع بالذى يُعد سُبَّة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية فان هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هى أيضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج إليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية . والسجع وإن لم يكن مقيـداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضا بقيود لها مواقع فى النفوس ، وهى فى محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر أحد أن يقول إننى أنا مفرط فى هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لى ، ولكنى لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربى عندما يكون فى محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التى تلقى على الجماهير . وإن العرب قد اصطلحوا على السجع فى أسماء الكتب ولم يخطئوا فى ذلك لأن الكلام المسجّع أعلق فى الذهن من غيره . وعسى كلامى هـذا يكون مقبولاً عند أخى الأستاذ الكرد على ، ولا تتأثر به آصرة الأخاء القديم الذى بيننا والذى لا يمكن أن يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً . فكيف إذا كان خفيفاً . وإن أدرى فقد يكون أراد أن يداعبنى ، ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا

جنيف

شكيب أرسلان

3me Année, No. 110.

Lundi-12-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مصـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

مصر والشرق الاسلامى

إذا قلتَ إننا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية المثلثة التى ضربتها علينا الأقدار الخصيمة فى السياسة والاقتصاد والأدب قتلت فى عقولنا الرأى الأصيل ، وفى نفوسنا العزم المستقل ، وفى مواهبنا العمل المرتجل . فنحن فى مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل ، و إلى العالم يسير ، بعين بلهاء لا يجاوز بصرُها مدى العجَب ! وعلَّتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) ؛ رُبُّوا على مقاعد المدارس ، و ثُقِّفوا على مباحث الكتب ، ودُرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهى وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يُصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه ، أو تقرير خبير ، أو إشارة (مندوب) ، أو رغبة سلطان ، أو إرادة حزب ؛ وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين ساسة العراق و إيران وتركية ؛ فبينما تجد الأولين — وهم رجال قانون —

مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين — وهم رجال حرب — لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجيش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يمضون إلا على العزم ، ولا يأوون إلا إلى الأمة

ففى مجلس من مجالس الحكم ، أو فى ناد من أندية السمر ، تجول فى خواطرهم الفكرة ، أو تجرى فى نفوسهم الأمنية ، فما هى إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة ، ماضياً كالنظام ، شاملاً كالتعبئة ؛ والعسكرى لا يتردد ولا يتلكأ ، و إنما ينطلق ماضى الصريمة قُدُماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر ، وطريقه المعركة ، وغايته النصر !

***

تدبر ذلك ووازن بين هـــذه السياسة الدبلوماسية التى تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ؛ و بين تلك السياسة العسكرية التى تهجم ولا تضطرب ، وتقدُم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ، فلعلك واجد فى الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذى نحن فيه : أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالاً ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، و يحفزها حاضر مُلِحّ ، و يغريها مستقبل واعد ؛ ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر ، وقاصرة لا تملك التصرف !

هل تجد بربك علة لجمودها وونائها فى غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وارادتها المعطلة ؟ ما دستور سياستنا فى الغرب ؟ متابعة انجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، و إطفاء هذه البقعة المشرقة فى وجه أفريقية بهذا المظهر الكاسف . وما دستور سياستنا فى الشرق ؟ إن كنت تسمى الاغفال سياسة والقطيعة خطة ، فدستورهما ما ترى بيننا و بين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ، وما تشهد بيننا و بين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ، ثم ما تسمع بيننا و بين الشرق الإسلامى من تغاضب على التمثيل السياسى ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجى فى أوربا ، حتى فى العواصم التى لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية ؛ فلما نبهنا اخواننا فى آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم ، لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلاً عما بينهم و بيننا من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك فى الغالب بمن تنفيهم الاهواء لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا للعراق و إيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم فى طهران !

فمس ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها فى القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها المعين إلى مكة ! ذلك والغرب كله يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ، و يحتال له بالتجارة ، و يتدسس إليه بالعلم ، و يدور من ورائه بالمعاهدات ، ثم يرى أن العرب صلبه والاسلام روحه ، فيهجم عليهما بالمودة ، و يتسابق اليهما بالخديعة ؛ ولكن الاسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هـذه الارادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتسايُرَ الهوى فى الأمم الاسلامية التى ألفت بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع

ومن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحررت كفايتها بجمع هذه القلوب المخلصة على جهاد الاستعمار ، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق ؟

إن وطننا يا قوم مترامى الحدود ، فلماذا تحدونه على الضيق ، وقومنا ضخام العديد ، فلماذا تحصرونهم على القلة ، واخواننا كرام يصفون المودة و يولون المعونة ، فلماذا تجعلون بيننا و بينهم سداً من الاهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناجحة لترخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وتجارتها فى الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب ، والوحدة فى اللغة والأدب ، والمشابهة فى الخط والحالة ؟ !

احمد حسن الزيات

محمد طاهر باشا نور



مثل نادر من المثل العليا في كرم الخلق وعفة الضمير وصدق النية؛ استأثر به الله وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إلى كفايته ورعايته؛ فكان الأسى على فقده شاملاً يتبين في كل وجه، ويحز في كل قلب؛ والمصيبة في الأخيار النوابغ مصيبة الانسانية جمعاء، لأن كمالها قائم على كمالهم، وتقدمها سائر على أعمالهم، وسلامها معقود بما ينبعث عن فِطَرهم النبيلة من إلهام الجمال والخير والحق. كان رحمه الله على كرم أبوته وأمومته، وشرف منصبه وأسرته، متواضع النفس لين الجانب؛ وكان على هذا التواضع وذلك اللين أبيّ الطبع شديد الأنفة، لا يطمئن على مكروه ولا يصبر على غضاضة. ومن العجيب النادر أنه استطاع على سلامة قلبه من النفاق، وبراءة لسانه من الملق، ونزاهة نفسه عن الخنوع، أن يصعد في مناصب الدولة الخطيرة صعود الشمس في الفلك، فلم تعقه مكاره العزة والإباء عن بلوغ الغاية منها؛ وفي ذلك ولا ريب نجاح للكفاية في استقلالها، وانتصار للحق في ذاته

لم يكن طاهر باشا رجل حزب، ولكنه كان رجل أمة. حصر جهده في عمله، وحدد عمله بواجبه، وانطوى قلبه منذ نشأ على صراحة القانون ونزاهة القضاء ونصاعة العدل؛ فكان في كل عمل تولاه مظهراً لهذه الأخلاق وموئلاً لأصحاب الحق

وفي سنة ١٩٢٤ كان زعيم الأمة الخالد سعد باشا زغلول رئيساً للحكومة، وكان رضي الله عنه حريصاً على أن يقيم حكومته على الاخلاص في العمل والنزاهة في التصرف والفناء في الواجب؛ فخلا يومئذ منصب النائب العمومي، وهو ألصق المناصب القضائية بسلامة الناس، لأنه يد القانون وعين العدالة ولسان الحق؛ فدار الزعيم الجليل بعينه وقلبه في رجال القانون وكبار الدولة يتوسم صفات النائب التي يريدها في الوجوه، ويتعرفها من الماضي، ويتجسسها من الأسئلة، فلم يقع اختياره الموفق إلا على طاهر نور مدير الادارة القضائية، وهو من غير العاملين معه ولا المقربين إليه ولا المتصلين به. فقام النائب المختار بما حمل من أعباء العدل على ما تحققه فيه الزعيم من الفطانة والأمانة والذمة والحكمة، لا يضطرب في مهب الأهواء، ولا يسخر سلطانه لشهوات الرؤساء، ولا يمرّض أخلاق الناس وأعراضهم لهوان السياسة، حتى طمى في مصر الحكم وفشا في الناس الظلم، فلم يستطع في ذلك العهد البغيض أن يوفق بين جور الحاكم وعدل القانون، فنقل وكيلاً لوزارة الحقانية سنة ١٩٣٠، وظل فيه على عهد الناس به حتى قبضه الله إليه. رحمه الله رحمة واسعة، وعوض أمته وأسرته منه خير العوض.

الزيات

الأدب والأديب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا اعتبرتَ الخيالَ في الذكاء الانساني وأوليتَه دقةَ النظر وحُسْنَ التمييز، لم تجده في الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهيّة بوسائل عاجزةٍ منقطعة، قادرةٍ على التصوّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول في أول حياتها، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها، والمسدَّدَة في طريقه مدةَ حياتها، لا يمكن أن يتقررَ في خيالها أن الشيء الموجود قد انتهى بوجوده، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهي؛ فهي لا تتعاطى الوجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرغ منه فما يُبْدَأ، وتمّ فما يُزاد، وخلدَ فلا يتحوّل؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتصرّف وهمها في كل ما تراه أو يَتَلجْلج في خاطرها، فلا تبرح تتلمّح في كل وجود غيبا، وتكشف من الغامض وتزيد في غموضه، وتجري دأباً على مجاريها الخيالية التي تُوثق صلتها بالمجهول. فمن ثم لا بدّ في أمرها مع الوجود مما لا وجود له، تتعلق به وتسكن إليه؛ وعلى ذلك لا بد في كل شيء – مع المعاني التي له في الحق – من المعاني التي له في الخيال؛ وهاهنا موضعُ الأدب والبيان في طبيعة النفس الانسانية؛ فكلاهما طبيعيٌّ فيها كما ترى

وإذا قيل الأدب، فاعلم أنه لا بد معه من البيان؛ لأن النفس

تخلُق فتُصوِّر فتُحسِن الصورة ؛ وإنما يكون تمام التركيب – في مَعْرِضه وجمال صورته ودقّةِ لمحاته ، بل يَنزِلُ البيانُ من المعنى الذي يَلْبَسه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة ، إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئاً مُسمًّى أو متميزاً بنفسه ، فإن تكونَ بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً ، وما بُدٌّ من أن تستوفي كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيتَ في الثمرة ونضجها ؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال في شيء جماله هو من فائدته ، وفائدته من جماله ؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره ، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير ؛ وصار الفرقُ بين حالَيْه كالفرق بين الفاكهة إذْ هي بابٌ من النبات ، وبين الفاكهة إذْ هي بابٌ من الخمر .
ولهذا كان الأصلُ في الأدب البيانَ والأسلوبَ في جميع لغات الفكر الانساني ، لأنه كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يَخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة ، وأن يُلقِي الأسرارَ في الأمور المكشوفة بما يتخيَّل فيها ، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يُضاعِفُ من معانيه ، ويتركَ الماضيَ منها ثابتاً قاراً بما يخلِّد من وصفه ، ويجعلَ المؤلم منها لذاً خفيفاً بما يَبُثُّ فيه من العاطفة ، والمملولَ ممتعاً حُلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة . ومَدارُ ذلك كلّه على إبتاء النفس لذةَ المجهول ، التي هي في نفسها لذّةٌ مجهولة أيضاً ؛ فإن هــذه النفس طُلَعةٌ متقلّبة ، لا تبتغي مجهولاً صرْفاً ولا معلوماً صرفاً ، كأنها مُدْرِكة بفطرتها أنْ ليس في الكون صريحٌ مُطلَقٌ ولا خفيٌّ مطلق ؛ وإنما تبتغي حالةً ملائمة بين هذين ، يثور فيها قَلَقٌ أو يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هي مادّة الأدب ؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى في الحياة التي ليس لها معنى ، أو كان متّصلاً بسرِّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب ، أو غيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها ؛ فإنه كما يَرْحَل الانسانُ من جوٍّ إلى جوِّ غيره ، ينقله الأدبُ من حياته التي لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى ، فيها شعورُها ولذّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان ؛ حياةٍ كملَتْ فيها أشواقُ النفس ، لأن فيها اللذّاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف . ولعمري ما جاءت الجنةُ والنارُ في الأديان عَبَثاً ؛ فإن خالق النفس بما ركّبه فيها من العجائب ، لا يحكُمُ العقلُ أنه قد أتمّ خلقها إلا بخلق الجنة والنار معها ؛ إذهما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدةِ إن هي استقامت مُسدَّدَة أو انعكستْ حائلة

وقد صحّ عندي أن النفسَ لا تتحقّق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتُحسُّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى – إلا في ساعاتٍ وفَتَرات تَنسَلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقةِ حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان ؛ فإذا هبطتها النفس ، فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واستروحتِ الخلد ؛ وهذه المنطقة السحرية لا تكون إلا في أربعة : حبيبٍ فاتنٍ معشوقٍ أُعطِيَ قوةَ سِحْرِ النفس ، فهي تَنسى به ؛ وصديق محبوب وفيٍّ أُوتِيَ قوةَ جَذْبِ النفس ، فهي تنسى عنده ؛ وقطعةِ أدبية آخذة ، فهي ساحرةٌ كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق ؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع ، ففيه من كل شيء شيء

وهذه كلُّها تُنسي المرء زمنه مدةً تطول وتقصر ؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزليّ في لحظاتٍ من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية . ومن ثم نستطيع أن نقرِّر أن أساسَ الفنِّ على الاطلاق هو ثورةُ الخالدِ في الانسان على الفاني فيه ؛ وأن تصويرَ هذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير – هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم إن الاتّساقَ والخيرَ والحقَّ والجمال – وهي التي تجعل للحياة الانسانية أسرارَها – أمورٌ غير طبيعيةٍ في عالم يقوم على الاضطراب والأثَرة والنزاع والشهوات ؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة ، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلة عالمَها الذي تكون طبيعيةً فيه ، وهو عالمٌ أركانه الاتساقُ في المعاني التي يجري فيها ؛ والجمالُ في التعبير الذي يتأدّى به ؛ والحقُّ في الفكر الذي يقوم عليه ؛ والخيرُ في الغرَض الذي يُساق له ؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة ، ولا معيارَ أدقُّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأي ؛ ففي عمل الأديب تخرجُ الحقيقةُ مضافاً إليها الفن ، ويجيء التعبيرُ مَزيداً فيه الجمال ، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيّة ، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةِ القلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودقّتها الموسيقيّ ؛ وتلبسُ الشهواتُ الانسانيةُ شكلها المهذَّب لتكون بسببٍ من تقرير المثَل الأعلى ، الذي هو السرُّ في ثورة

الخالدِ من الانسان على الفانى ، والذى هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفنّ معاً ؛ وبهـذا يَهَبُ لك الأدب تلك القوّةَ الغامضة ، التى تتسع بك حتى تشعرَ بالدنيا وأحداثها مارّةً من خلال نفسك ، وتحسّ الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتها . وذلك سرُّ الأديب العبقرىّ ؛ فانه لا يرى الرأى بالاعتقاب[1] والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنما يحسّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلْهَمه إلهاماً ؛ وليس يُؤاتيه الالهام إلا من كون الاشياء تمرّ فيه بمعانيها وتَعْبُره كما تعبر السفن النهر ، فيحسّ أثرها فيه فَيلهم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الكون ، على حين أن حقائق الكون هى النافذةُ من خلاله

ولو أردتَ أن تعرّف الأديبَ من هو ، لما وجدت أجمع ولا أدقّ فى معناه من أن تسمّيه الانسان الكونىّ ، وغيره هو الانسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثّره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصيةُ الكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدلّ السماء بما فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحياةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لاحدّ له ، والاتساع الذى كلُّ آخر فيه لشىء ، أوّل فيه لشىء

وهو انسان يَدُلّه الجمالُ على نفسه ليدلّ غيرَه عليه ، وبذلك زِيدَ على معناه معنى ، وأُضيفَ إليه فى إحساسه قوّةُ إنشاء الاحساسِ فى غيره ؛ فأساسُ عمله دائماً أن يزيدَ على كل فكرةٍ صورةً لها ، ويزيدَ على كل صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدع المعانىَ للاشكال الجامدة فيوجدُ الحياةَ فيها ، ويبدع الأشكالَ للمعانى المجرّدةِ فيوجدها هى فى الحياة ، فكأنه خُلِقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للناس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفنى . وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة كأنما أوجدتهم الحكمة لتنتقلَ بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الكونَ العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقّق نفسَه

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنىّ ، وكالشهادة من الحياة المعنوية لهذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوبَ هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الأدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان

وفصْلُ ما بين العالم والأديب ، أن العالِمَ فكرة ، ولكن الأديب فكرةٌ وأسلوبها ؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متصلة متشابهة يُشارُ إليهم جملةً واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقرىّ : هذا هو ، هذا وحده . وعلمُ الأديب هو النفسُ الانسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودُها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هـذه الانسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ، فالأديبُ العبقرىُّ لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خَلقها وتركيبها ! وكأنما أمرُّها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه . . . . وبذلك يجىء النابغُ من أدب العباقرة وبعضُه كالمُقْترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالموافقة واقرار الحكمة ، وأساسُه على كل هذه الأحوال النقدُ ثم النقد ، ولا شىء غير النقد ، كأن القوةَ الأزليةَ تقول لهذا المُلْهَم : أنت كلمتى ، فقُلْ كلمتَك . . . .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولكن الحسَّ به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وهاهنا يتألّه الأدب ، فهو خالقُ الجمال فى الذهن ، والممكنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانيةَ باضافة الصُّور الفكرية الجميلة اليه ، ومحاولاته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحطّ المجتمعِ من غِشَاوة الفِطرةِ ، وصَوْلةِ الغريزة ، وغرارةِ الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمرُ فى الأدب على ذلك ، فباضطرارٍ أن تتهذّب فيه الحياةُ وتتأدب ، وأن يكون تسلّطُه على بواعث النفس دُربةً لاصلاحها وإقامتها ، لا لأفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرارٍ أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونَفىَ التزوير عنها ، واخلاصها مما يلتبسُ بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الانسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلف الأديبُ ذلك لأنه مستبصرٌ من خصائصه التميزُ

(١) الاعتقاب إطالة النظر وكد الفكر

وتقدم النظر وتسقُّط الالهام ، ولأن الأصلَ في عمله الفنيّ ألا يبحث في الشيء نفسِه ، ولكن في البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سرِّه ، ولا يُعنىَ بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ، ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقُهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومَراشدهم ، يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخلطه في نفسه ، ويُنفِذه من حواسه ، كأنما له في السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه ولىَ الحكم على الجزء الخفيّ في الانسان ، يقوم على سياسته وتدبيره ، ويَهديه إلى المثل الأعلى . وهل يُخلَق العبقريُّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يَقدر على الذي هو أكملُ والذي هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لا نهاية لهما ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته ، فاذا وقائعُ الحياة في حذْوٍ واحد من النزاع والتناقض ؛ وإذا هي دائبةٌ في محْق الشخصيةِ الانسانية ، تاركةً كل حيّ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فاذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العاليةُ إلى أنْ تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيع الناس ، وسُخرتْ في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبَى منه ولا يستوى لها أن تغمض فيه ، ونقلت الانسانيةُ كلَّها ووُضعت على مجاز طريقها أين توجهتْ فتأكّد الأمرُ فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت أنها من خالصةِ الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقريرُ الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ؛ وأن تجمعَ الكلّ على الجمال وهو لا يختلف في لذته ؛ وتصِلَ بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرّق في موعظتها ؛ وتُشعرَهم الحكمة وهي لا تتنازعُ في مناحيها . فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين ، كلاهما يُعينُ الانسانيةَ على الاستمرار في نمائها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرضُ للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ، وذلك وحيُ الله إلى الملك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحي الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار

فان لم يكن للأديب مثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديبُ حالةٍ من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصر هم الأرقام الانسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته .

ولا يخدعنَّك عن هذا أن ترى بعضَ العبقريين لا يُوَفَّق في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغلُ فيها ، ويتملَّاها ، ويكون منها على ماليس عليه أحدٌ إلا السّفْلة والحِشوة من طغام الناس ورعاعهم ؛ فان هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة مافيها من النهى ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مما هي في الفضائل ؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهيُ أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلىَ المشوَّهَ المتحطِّم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهى — يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه أو الاحالةِ في الحادثة التي يصفونها ؛ فينتهي الراهب التقيُّ في القصة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة البغىّ قديسة ، ويرجع الابن البرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ الدم ؛ إلى كثير مما يجرى في هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس ، وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شرّ ، ولكنه أسلوبٌ من الفن ، يقابله أسلوبٌ من الخلق ، ليبدع أسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى ، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقةٍ طارئةٍ على النفس ، لا تعبيرٌ عن حقائق ثابتة مستقرّةٍ فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلوَ بالرذيلة . . . في أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهياً في حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأن الرّذائلَ هي اختارت منه مفسرَها العبقريّ الشاذَّ الذي يكون في سموّ فنه البياني هو وحده ، الطَّرفَ المقابلَ لسموّ العبارة عن الفضيلة ؛ فيصنع الالهامُ في هذا وفي هذا صنعه الفنيّ بطريقةٍ بديعة التأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه ؛ كأن منهما إنساناً صار ملكاً يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب . . .

وإذا أنت ميلت بين رذيلة الأديب العبقري في فنه ، ورذيلة

الأديبِ الفسْل الذى يتشبه به — فى التأليف والرأى والمتابعةِ والمذهب — رأيت الواحدةَ من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجاف : هذا دموعه ألمه ، وذاك دموعه ألمه وشعره . وفى كتابة هذه الطبقة من العبقريين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبى ، وأن اللذة به هى علامة الحياة فيه ، إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست فى الحقيقة إلا نكتةً نفسية لاهتياج البواعث فى نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هى أيضاً مسألةٌ من مسائل الانسانية مطروحةٌ للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ، ودقائق التحليل

* * *

واللذةُ بالأدب غير التلهى به واتخاذه للعَبَث والبَطَالة فيجىء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفاً ومَضْيَعَة ؛ فان اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغةِ معانيه وتناوله الكَوْنَ والحياة بالأساليب الشعرية التى فى النفس ، وهى الأصل فى جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعةٌ كلُّه كسائر ما ركب فى طبيعة الحى إذ يحس الذوقُ لَذَّةَ الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعىّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوةِ وزيادتِها . أما التلهى فيجىء من سخف الأدب ، وفراغ معانيه ، ومؤاتاته الشهواتِ الخسيسةَ ، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية ، بل أدبَ فئة بعينها وأحوالها ؛ فان أديب صناعته أو أديبَ جماعته ، غير أديب قومه وأديبِ عصره : أحدهما إلى حدّ محدود من الحياة ، والآخر عملٌ جامع مستمرٌ متفنّن ، لأن عمله الأدبى هو وجوده ، وكل شىء فى قومه لا يبرح يقول له : اكتبْ . . .

ومن الأصول الاجتماعيةِ التى لا تتخلّف ، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب ، كان الأدب أدبَ الشعب فى حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشه ، وزَخَر الأدب بذلك وتنوّع وافتنّ وبُنى على الحياة الاجتماعية ؛ فان كانت الدولةُ لغير الشعب ، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين وبُنى على النفاق والمداهنة والمبالغةِ الصناعية والكَذِب والتدليس ، ونَضِبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرّر من صورةٍ واحدة ؛ وفى الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارِها فى كلّ من حَوْله إلى الاحساس بالكون وجَماليه وأسراره فى كل ما حَوْله . أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخليطه ، فيصبح أدبه أشبهَ بمسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع ، لا يزال يذهب فيها ويجىءُ حتى يملّ ذهابَه ومجيئَه

والعَجَب الذى لم يتنبه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربى قديماً وحديثاً ، أنك لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفى الاجتماعىّ للأدب فى أسمى معانيه إلا فى اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم !

فاذا أردتَ الأدب الذى يقررّ الأسلوبَ شرطاً فيه ، ويأتى بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع ، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقّةِ البيان صورة لرقة النفس ، وبدقّته المتناهية فى العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة ؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ فى حياة أمةٍ من الناس ، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية ، مُحْكِمَةٌ لها الأوضاع الانسانية ، مشترطةٌ فيها المثلَ الأعلى ، حاملةٌ لها النور الالـهىّ على الأرض . . .

وإذا أردتَ الأدبَ الذى يُنشئُ الأمة إنشاءً سامياً ، ويدفعها إلى المعالى دفعاً ، ويردُّها عن سَفَاسِف الحياة ، ويوجّهها بدقّة الابرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ، ويسدّدها فى أغراضها التاريخية العاليةِ تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم المحرَّر المحكم ، ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة ، ويَنفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية . . .

. . . إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحىّ فى ذلك كله . وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدّساً ، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة ، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يَتخذُوا بالأدب حَذْوه ، وحسِبوه ديناً فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتَضَر بالعلل القاتلة ، ذاهبٍ إلى الفناء الحتم !

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه ، لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو مَن كان لأمته ولُغتها فى مواهبِ قلمه لقبٌ من ألقاب التاريخ . م؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

همـــا

للأستاذ أحمد أمين

« هما » انسانان متباينان ، لا يجمعهما إلا أنى عرفتهما

أما « هو » الأول ، فنظيف الثوب فى غير أناقة ، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها ، ولا يتأذى من أنها زاهية تستلفت الأنظار – قد طبع على ما يود ، فلا هو جميل يقيد النظر ، ويفترق البصر ؛ ولا هو قبيح الشكل سمج المنظر ، تتفاداه العيون ، ويلفظه الطرف ، لو عهد اليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله ، لأنه يأبى تكاليف الجمال وتكاليف القبح

كثير التفكير فى نفسه ، كأن الله لم يخلق فى العالم إلا هى ، وإن كان قد خلق أشياء فنفسه مركزها ، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس ، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه ، فى نفسه محكمة منعقدة باستمرار ، تطول فيها المرافعة ، ويشتد فيها الخصام ، وتكثر منها الأحكام ، والنقض والابرام – حدثنى أنه إذا جلس فى مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب ، كأن ذهنه « شريط ماركونى » ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها ، هل مست شعور أحد ، هل ظلمت أحداً ، هل جرحت كرامة أحد ، ألم يكن غيرها خيراً منها ، أما كان يحسن أن يقال فى مثل هذا الموقف غير هذا الكلام ؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها ، ماذا يريد منها ، لقد جرح احساسى بها ، لقد كان يلتفت إلىّ عند قولها ، وما سبب ذلك والعلاقة بينى وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه ، لابد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا ، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدى ولم يتبين غرضى . فاذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد ، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة ، ويفسرها تفسيراً جديداً ، حتى يدركه النوم ، وقلّ ألا يحلم بما حدث ، وقلّ ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة

من أجل هذا يفر من الناس ، ويفر من المجتمعات ، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر عرضها ، والتعليق عليها ، فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه اليه من دعوات ، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم ، فاذا اضطر إلى دعوة ذهب اليها كارهاً ، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها ، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها ، تفضيلا للحساب العاجل على الحساب الآجل ، فقلّ أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات

أداه التفكير الكثير فى نفسه إلى أن يكون عميق التفكير فى كل ما يعرض عليه ، فاذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه ، وغاص فى نواحيه ، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها ، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس ، كثير الاطلاع ، تثقف بالثقافة الانجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها ، وسمع بعمق التفكير الألمانى فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها ، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسى وما فيه من دقة فى تحليل العواطف واجادة الوصف ، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وتضلع من آداب اللغات الثلاث ، وعرف أشهر ما كتب فيها ، فاذا حدثك فى أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع ، ومعرفة دقيقة هذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها – ثم هو بعدُ لا يرضى عن نفسه ، فهو دائم الدرس ، دائب العمل ، كلما قطع شوطاً طمح إلى ما هو أرقى منه ؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجرى دائماً ليسبقه ؛ وهيهات أن يلحقه

وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول ، لا يعرف حقيقته إلا خلصاؤه ، إن جلس مع غيرهم فعيي جهول لا يشاركهم فى جدل ، ولا يفضى اليهم بحديث ، يعرف مواضع السخف من قولهم ، ومواضع النقص فى تفكيرهم ، ويتظاهر بأنه لا يعى ما يقولون ، ولا يرقى إلى ما يفكرون ويجادلون ، يتغابى وهو الذكى ، ويتعايى وهو الفصيح

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة فى غير ما ترف ولا سرف . عرضت عليه يوماً « وظيفة » يكاد ينال منها ضعف مرتبه فرفضها فى غير تردد لأنه يرى أنه لا يصلح لها ولا تصلح له ، ولا تتفق ونفسه ، ولا يتقنها اتقان عمله الذى يقوم به

ثم هو – غالباً – لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه ، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالاً لا تسمح به الدنيا إلا نادراً ،

ويقيس الكمال بمقياس محدود معين ، مع أن للكمال مناحى مختلفة ، وقد يُتَسامح فى نقص يستره كمال ، ويُغتفَر ضعفٌ تسنده قوة ، ولكنه فى تقديره يجسم النقص ، ويكبر الضعف ، ويريد فى رئيسه الكمال صرفاً ، والقوة خالصة ، فكأنه يريده نبياً أو إلهاً ، وأنى له بذلك ؟ فهو فى نقد لهم مستمر ، وتجريح دائم — وأما هم فيكرهونه لأنه حنبلى فى تصرفه — متزمت فى خلقه ، صريح لا يلطف صراحته بلباقة ، شديد لا يمزج شدته برقة ، التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيماً أو أعوج ولا وسط بينهما ، لا يأتمر بأمر رئيسه ولا ينتهى بنهيه متى خالف قانوناً — والقانون عنده هو القانون الحرفى الذى لا يحتمل تفسيراً ولا تأويلاً — من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء مختلفون وتنقل من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائماً فى نظرهم اليه ونظره اليهم — حتى لقد كان رئيسه يوماً ما أقرب الناس اليه وأعرفهم به ، ورجوت السعادة له أيام رياسته ، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية ، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه

***

أما « هو » الآخر فجميل الصورة ، ظريف الهيئة ، حسن الحلية ، ممتلىء البدن ، ريان الجسم ، واسع البطن ، أنيق الملبس إلى آخر حد الأناقة ، دقيق الذوق فى تناسب الألوان ، وتناسق الأشكال ، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس ، وما يتناسب وما لا يتناسب ، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع فنان ، يحدثك حديثاً مستفيضاً عن خير الخياطين ومزاياهم وعيوبهم ، ومواضع الاجادة والعيب فيهم

وشىء آخر يجيد ذوقه ، ويجيد التحدث فيه ، ويجيد وصفه ويجيد نقده ، وهو الطعام والشراب ، فان أردت أن تعرف لوناً من الطعام لا يناسب لوناً أو أردت حديثاً شهياً عن طعام شهى أو عن المائدة وكيف تنظم وعن بيوت مصر وما يجيده كل بيت من الأصناف فهو فى ذلك الذى لا يبارى ، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع فى صنوف الشراب ، فأيها قبل الأكل وأيها على الأكل وأيها بعد الأكل ، وأى ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأيها لا يصح ، وأى أنواع الشراب تجيده بلاد فرنسا وأيها تجيده ألمانيا وأيها أسبانيا — بل كل هذه معلومات أولية بالنسبة اليه فعنده ما هو أدق فى ذلك وأعمق

هذه هى الدنيا وهذه هى الحياة ، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعمت وما شربت وما لبست

وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد ، ولطافة التكوين ، وبراعة الشكل ، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك ، ثم يتبع هذا بالكلام على مغامراته وما شاهده فى حياته ، كأنه كان له فى كل خطوة حادثة نسائية ، وفى كل سفر عشق ، وفى كل مجتمع غرام — والعشق العفيف ، والهوى العذرى والحب الأفلاطونى ألفاظ جوفاء لا تدل على شىء إلا على جنون قائلها أو ريائه ، ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور ، وله من وسائل الأغراء ونصب الشباك ، ورسم الخطط ما يعجز عنه القائد الماهر ، والصائد الحاذق ، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات والأفاعيل والأحاديث ما يستلفت النظر ، وإذا هو فى حديث جذاب مع من أحب

وإلى هنا ينتهى علمه الواسع وقدرته الفائقة

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق ؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء . ولا بأس من استعمالها أحياناً متى جلبت خيراً أو دفعت ضيراً ، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدأ ، فليس فى الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة » على أن تُفسَّر الغاية بغايتى لا غاية غيرى فكن « وفدياً » فى دولة الوفد ، و « شعبياً » فى دولة حزب الشعب و « حراً دستورياً » فى دولة الأحرار الدستوريين ، والعن فى كل دولة أعداءها ، وتغن بمناقبها متى كان هذا ينيلك « درجة » أو على الأقل « علاوة » ، واجعل مبدأك مشايعة الزمان ، تقبل على من أقبل عليه ، وتدبر عمن أدبر عنه — ولا تأخذ شيئاً « جداً » فما الحياة إلا لهو ولعب ، فان استطعت أن تجعلها كلها « مزحة » أو « نكتة » فافعل فهكذا خلقها الله

صادفته يوماً فى فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس بشكله وأناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه ، وتحدث بصوت عال قليلاً ، فاذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا ، وإذا الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً والتفات الناس يزيد شيئاً فشيئاً وإذا الحديث جذاب ، وإذا هو محور من فى المجلس وقيد أبصارهم وآذانهم

وشأنه فى « المصلحة » التى يعمل فيها شأنه فى الفندق ، كمبة القصّاد ومجمة الرواد بقضى الحاجات لِتقْضى حاجاته ، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه ، وهكذا اتخذ « وظيفته » تجارة ، يحسب فيها فى دقة ما يشترى وما يبيع ، وما يدخل وما يخرج ، ومقدار الرصيد ، وبكم هو دائن وبكم هو مدين

* * *

لعل الذى جعل من الانسان ذكراً وأنثى ، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال ، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين ، وكل ما فى الأمر أنه قد يكون « هو » الأول صرفاً أو « هو » الثانى صرفاً ، وقد يكون خليطاً منهما ، مزيجاً بينهما – هما رجل الآخرة ورجل الدنيا ، ورجل الفلسفة ورجل المادة ، ورجل الأخلاق والمبادئ ، ورجل المصالح والمنافع ؟

أحمد أمين

مأساة قضائية شهيرة

ذكريات عن قضية دريفوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أسابيع قلائل توفى فى صمت وسكون ، رجل كان اسمه قبل ثلاثين عاماً يدوى فى أرجاء العالم بأسره ، ويقترن اسمه بأعظم وأشهر مأساة قضائية فى عصرنا ؛ ذلك هو الكولونل الفريد دريفوس الضابط الفرنسوى اليهودى ، الذى أثار اتهامه ومحاكمته ومحنته فى خاتمة القرن الماضى فى فرنسا أعظم ضجة ، وشغلت قضيته الأمة الفرنسية بأسرها زهاء عشرة أعوام ، وأثارت فيها من الجدل القضائى ، والشهوات والاحقاد القومية والجنسية ، والعواطف السياسية ما كاد يدفعها إلى معترك الحرب الأهلية والفوضى

وقد طويت صفحة قضية دريفوس منذ بعيد ، وأسدل الستار على آخر فصل من فصولها منذ ثلاثين عاماً . ولكن هذه المأساة القضائية الهائلة ، التى طبعت تاريخ العصر بطابعها القوى ، وأثرت فى كثير من نواحيه السياسية والاجتماعية ، ما زالت منذ ثلاثين عاماً تثير اهتمام البحث التاريخى والقضائى ، وتصدر عنها المؤلفات الحافلة بأقلام أكابر الكتاب والساسة ، ومنهم من عاصروها واتصلوا بحوادثها وشخصياتها . وكان آخر ما صدر عنها من المؤلفات الهامة كتاب بالألمانية حافل بالشهادات والوثائق الحاسمة ، هى مذكرات الجنرال ماكس فون شفارتزكوپن ، وهو الذى كان ملحقاً عسكرياً للسفارة الألمانية فى باريس وقت انفجار العاصفة والقبض على دريفوس (سنة ١٨٩٤) متهماً بالخيانة العليا وبيع أسرار الجيش لدولة أجنبية ؛ وكانت فرنسا بأسرها تتهم ألمانيا بأنها هى الدولة التى تحاول الوقوف على أسرار الدفاع الفرنسى ، وتتهم الملحق الحربى الألمانى بأنه هو الذى يعمل على ابتياع هذه الأسرار . ولم يكن فى وسع الجانب الألمانى أن يتكلم يومئذ وأن يفضى بما لديه لاظهار الحقيقة ؛ وكانت المأساة القضائية تسير فى طريقها ، وينزل القضاء الحربى بالضابط البرئ أقسى حكمه مستنداً إلى طائفة من الوثائق والشهادات المزورة ، وفرنسا تضطرب من أقصاها إلى أقصاها سخطاً على الخائن وعلى اليهودية التى ينتمى اليها ؛ وهناك فى الظلام رجل واحد يعرف لب الحقيقة ، ويستطيع أن ينقذ البرئ ، وأن يهتك هذه الحجب كلها بكلمة ؛ ذلك الرجل هو فون شفارتزكوپن الملحق الحربى الألمانى ، بطل المأساة الخفى ؛ ولكن هذه الكلمة لم يستطع أن يقولها ولم يسمح له بقولها يومئذ ، وقضت الرسوم والاعتبارات السياسية أن ينوء بالسر حتى مرض موته ؛ وعندئذ أفضى به إلى زوجه وأوصاها بنشر مذكراته ووثائقه ، وقام بنشرها الكاتب الألمانى برنهارد شفر تفيجر تحت العنوان الذى اختاره صاحبها لها وهو « الحقيقة عن دريفوس » (١)

ولم يك ثمة شك فيما سيقوله الرجل الذى اشترك بنفسه فى حوادث المأساة ، وعرف سرها فى المهد ؛ فقد أكد لنا شفارتزكوپن وهو على شفا القبر ، ما كشفت عنه من قبل تطورات القضية الشهيرة ، وما اضطر القضاء الأعلى أن يثبته وأن يعلنه بعد تلك الجهود والمحاولات الفادحة التى بذلها أنصار البرئ

(١) Die Wahrheit ueber Dreyfus : Berlin 1930

لاعادة النظر وتحقيق العدالة ؛ أكد لنا براءة دريفوس مرة أخرى ، وأوضح لنا بما يعرض من الناحية الخفية للحوادث كيف كان القضاء بعيداً عن الحقيقة ، وكيف كان المجرم الحقيق ظاهراً غير بعيد عن يد العدالة ، ولكن يتمتع بحماية العسكرية المتعصبة المغرضة ؛ ويقدم الينا شفارتز كوپن فوق أقواله الخاصة طائفة هامة من المذكرات والوثائق الرسمية التي تبودلت بخصوص الحادث ، ومنها رسائله إلى قلم أركان الحرب الألماني

وقد أتيحت لنا منذ أعوام فرصة لدراسة قضية دريفوس من الناحيتين القضائية والتاريخية ، وكتبنا عنها بحثاً مستفيضاً في كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » (1) وشرحنا أدوارها السياسية والقضائية المدهشة ، وبينا كيف أنها كانت أثراً بارزا من آثار « خصومة السامية » أو حركة العداء ضد اليهودية ، فالى هذا البحث نحيل القارئ ؛ ولكنا نرى أن نقدم هنا خلاصة موجزة لأهم وقائع القضية ، لابد منها لفهم ما سيجئ من البيانات والتعليقات

في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤ قبضت السلطات العسكرية على ضابط بقسم المدفعية هو الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العليا ، وذلك على أثر ضبط قلم التحريات السرية لوثيقة تتضمن التعريف ببعض أسرار الدفاع الفرنسي ، قيل إنها بخطه وإنه قدمها إلى سفارة أجنبية ، وقد عرفت هذه الوثيقة فيما بعد باسم « البردرو » وقدم دريفوس إلى المجلس الحربي ، وحوكم سراً ، وحكم عليه بالنفي المؤبد والتجريد (٢٣ ديسمبر سنة ٩٤) ، وكان دريفوس يؤكد بكل قواه أنه برئ من كل تهمة ؛ ولكن لم يصغ إليه أحد ، وجرت محاكمته بسرعة وتحيز ظاهر ، ونفذ فيه الحكم بصرامة ؛ وكان يؤمن ببراءته جماعة من أكابر المفكرين والساسة ويرونه ضحية الخصومة السامية ؛ وكان من بين هؤلاء السياسي شورر كستنر وكيل مجلس الشيوخ وطائفة من أعلام الكتاب مثل أميل زولا ، وإيف جيو ، وجوزف ريناخ ، وجورج كليمنصو ، وجوريس ، وكاسنياك ؛ فأثار هؤلاء دعوة شديدة ضد رجال العسكرية والقضاء الحربي ، وطالبوا باعادة النظر في القضية ؛ وبذلت أسرة دريفوس جهوداً كبيرة لانقاذه وتبيان براءته ؛

وكان الكولونيل بيكار من رجال العسكرية الذين يشكون في نزاهة القضاء الحربي ، فانتهز فرصة انتدابه لرئاسة قلم التحريات السرية ، ودرس القضية ومستنداتها المزعومة ؛ فأيقن أن دريفوس كان بريئاً وضحية واستطاع بعد البحث أن يعرف كاتب « البردرو » الحقيقي وهو ضابط يدعى « استر هازى » . ولم تلبث هذه الحقيقة أن ذاعت رغم اضطهاد زعماء العسكرية لبيكار ؛ واستغلها أنصار الاعادة ؛ فاضطرت السلطات الحربية أن تقبض على استر هازى ، وأن تحاكمه تهدئة لثورة الرأى العام ، ولكن المجلس الحربي قضى ببراءته ، فكانت هذه البراءة نذير فورة أشد من الأولى . وفي ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ نشر أميل زولا في صحيفة « الاورور » خطابه المشهور « إني أتهم ! » موجهاً إلى رئيس الجمهورية ، واتهم فيه القضاء الحربي في عبارات عنيفة ملتهبة بانه انتهك قدس العدالة والقانون ، وقضى عمداً على البرئ ، واستعمل الغش والتزوير في إجراءاته ؛ فأحيل زولا على محكمة الجنايات بتهمة القذف ، وحكم عليه بالحبس عاماً وبالغرامة (٣ فبراير سنة ٩٨) ولكنه فر إلى انكلترا تفادياً من تنفيذ الحكم ؛ ولم تفتر جهود أنصار الاعادة مع ذلك ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى اعترف الكولونل هنرى وهو رئيس سابق لقلم التحريات ، بانه اشترك في صنع بعض الوثائق السرية التي قدمت كدليل على إدانة دريفوس فقبض عليه وسجن ، ولكنه انتحر في سجنه ؛ فزاد الشك في إجراءات القضاء الحربي واشتد سخط الرأى العام ؛ واضطر عندئذ وزير الحربية أن يحيل الطلب الذى قدمه الضابط البرئ باعادة النظر إلى محكمة النقض ؛ وقضت هذه بنقض الحكم (٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩) وأحيل دريفوس إلى المجلس الحربي في رن ، واستقدم من منفاه في جزيرة الشيطان في حالة يرثى لها ؛ ولكن المجلس الحربي قضى ثانية بادانته مع الظروف المخففة وحكم بسجنه عشرة أعوام ؛ وأصدر مسيو لوبيه رئيس الجمهورية عفواً عن المحكوم عليه . ولكن الضابط البرئ وأسرته وأنصاره لم ترضهم هذه الخاتمة العرجاء ، فضاعفوا جهودهم في سبيل الاعادة ومحو كل أثر للحكم ؛ وانقسمت فرنسا عندئذ إلى شطرين ، فريق وهو الأغلبية إلى جانب الاعادة وانصاف البرئ والحد من طغيان العسكرية ؛ وفريق الوطنيين يؤازر الجيش ويقاوم الاعادة ؛ واشتد

---

(1) يراجع كتابي المذكور ص ٥٠٤ إلى ص ٥٣٢

الجدل بين الفريقين ، واتخذ مظهراً سياسياً عنيفاً يغشى كل الحياة العامة فى فرنسا ؛ وفى أثناء ذلك وقف أنصار الاعادة على وثائق وحقائق جديدة تؤيد البراءة ، وقدم دريفوس طلباً ثانياً باعادة النظر ، ورأت الحكومة القائمة تهدئة للرأى العام أن تحيل طلبه ثانية إلى محكمة النقض ؛ فقررت المحكمة أن تنظر فيه بنفسها ، وأصدرت حكمها فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦ بالغاء حكم محكمة رن وبراءة الضابط اليهودى ؛ وفى الحال أعيد دريفوس إلى فرقته ومنح وسام الشرف ، وأسدل الستار على تلك المأساة القضائية الهائلة ، وهدأت العاصفة السياسية الكبرى التى أثارتها زهاء عشرة أعوام

* * *

يقول الكاتب الأشهر أميل زولا فى كتابه الذى وضعه عن القضية بعنوان « الحقيقة تسير »(1) « إن فون شفارتز كوبن وحده هو الذى يستطيع أن يذيع الحقيقة الناصعة » ، وقد كان ذلك إبان اضطرام الصراع بين الحق والباطل وبين البرىء وجلاديه ؛ ولكن شفارتز كوبن كان يومئذ مرغماً على الصمت كما أسلفنا . أما اليوم فبين يدينا أقواله وشهادته الحاسمة ، وقد فاه شفارتز كوبن وهو على شفا الموت فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٦ بهذه الألفاظ التى حرصت زوجه على تدوينها : « أيها الفرنسيون ؛ استمعوا إلىّ : إن الفريد دريفوس برىء ، ولم يرتكب جرماً قط ؛ وكان الأمر كله دسائس وتزويراً ، إن دريفوس برىء » وفى المذكرات والوثائق التى تركها شفارتز كوبن أدلة الحقيقة الناصعة التى طالب زولا بكشفها ؛ فان « البردرو » الذى كان أساس الاتهام ، والذى نسب زورا إلى دريفوس ، كان من صنع استر هازى وبخطه ، وكان المجرم الخائن هو استر هازى ؛ وتلك حقيقة ثبتت ابان المأساة القضائية ذاتها ؛ بيد أن شفارتز كوبن يفصل لنا علائقه بذلك الضابط المجرم ، وكيف أنه لبث فى خدمته عامين يمده بأسرار الدفاع الفرنسى ؛ ثم يقول لنا إن « البردرو » لم يصل إلى يده قط ، ولم تلتقطه مدام بستيان خادمة السفارة الألمانية من سلة الأوراق المهملة ، وتوصله إلى قلم التحريات الفرنسية ، كما هو ذائع ؛ ولكن المرجح أن استر هازى وضعه فى صندوق الخطابات الخاص بالسفارة فاستلمه شخص ثالث لم يعرف قط ؛ وهذه شهادة تهدم الرأى الحديث الذى يقول به بعض الكتاب الفرنسيين ، وهو أن شفارتز كوبن نفسه هو كاتب « البردرو » مقلداً فيه خط استر هازى وأنه ألقاه فى سلة الأوراق المهملة عمداً لكى يصل إلى قلم التحريات السرية عن يد مدام بستيان وتتم بذلك الدسيسة ؛ والواقع أن شفارتز كوبن لم يقف على أمر « البردرو » إلا بعد القبض على دريفوس والحكم عليه بعامين حيث رأى صورة الوثيقة منشورة فى جريدة « الماتان » فعرف لفوره أنها من خط استر هازى ، وأدرك فى الحال روعة الخطأ القضائى الذى ارتكب

وفى الرسائل التى تبادلها شفارتز كوبن مع الكونت منستر سفير المانيا فى باريس وقتئذ ما يدل على التأثر العميق الذى كانت تتبع به السلطات الألمانية يومئذ تطورات المأساة القضائية ؛ وقد لبث الكونت منستر نفسه مدى حين بعيداً عن فهم الحقيقة معتقداً مسؤولية شفارتز كوبن حتى أنه حمل عليه فى بعض رسائله بقسوة ، واتهمه بأن تصرفاته المريبة كانت أكبر سبب فى الحملات الصارمة التى شهرتها الصحافة الفرنسية على المانيا ، والتى اضطرت حكومة القيصر أن تسعى لدى الحكومة الفرنسية لوقف هذه الحملات ؛ وقد وقف الكونت منستر بعد ذلك على طرف من الحقيقة ؛ وكان أركان الحرب الألمانى يعرفها منذ الساعة الأولى ، ويعرفها القيصر أيضاً . وكان القيصر يعرف ويثق بأن السفارة الألمانية فى باريس لم تتصل بدريفوس قط ؛ ولما صرح له الكونت منستر حين مقابلته بأنه لا يشك لحظة فى براءة دريفوس ، أجابه القيصر بأنه لا يشك فيها كذلك ؛ ونجد تفصيل المحادثات والتقارير الرسمية الألمانية المتعلقة بقضية دريفوس فى المجلدين التاسع والثالث عشر من مجموعة الوثائق الرسمية التى أصدرتها المانيا عن تاريخ ما قبل الحرب . هذا وفى مذكرات الجنرال فون شفارتز كوبن كثير من الوثائق والتفاصيل التى تلقى أكبر ضوء على حقائق المأساة القضائية الكبرى ، وتعرضها فى كثير من نواحيها عرضاً جديداً مؤثراً

ولقد كانت فورة الخصومة السامية التى بعثت قضية دريفوس ، ضربة شديدة لليهودية ، استنفدت كثيراً من مواردها

(1) La vérité en marche

وقفـــــة بالعقيق!

للأستاذ على الطنطاوى

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق
مائل بين أربع ماثلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحترى »

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وأرى عروةَ وقد أقبل من سفره ، فدخل القصر ، وحار الناس كيف ينعون إليه محمداً ، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه ، فقال عروة لبعض بنيه : اكشف لعمك عن رجلى ينظر إليها ، ففعل

فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا أبا عبد الله ! ما أعددناك للصراع ولا للسباق ، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه : رأيك وعلمك

قال عروة : ما عزّانى أحد عن رِجلى مثلك

قال : فانى معزيك بمحمد !

فوثب فزعاً يقول : ما له ؟

قال : قد لقى الله

فاصفرّ عروة ثم جلس يسترجع ويقول :

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذت ابناً وتركت أبناء ، فانك إن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت !

***

ويتبدل المنظر فاذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذى يقول فيه عمرو بن الوليد :

القصر فالنخل فالجمّـــاء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

وأرى فيه حركة وازدحاماً ، وأرى على الوجوه سحابة من غمّ ، وعلى الجباه سطوراً من كآبة ، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم فاذا هم واجون ، لأن سعيد بن العاص يحتضر ! وأىّ نبأ فى المدينة أروع من موت سعيد ؟ وفيه يقول الفرزدق :

ترى الغرّ الجحاجح من قريش إذا ما الأمر فى الحدثان غالا
قياماً ينظرون إلى ســـعيد كأنهمُ يرون به هلالا

وأدخل القصر فأسمع عمراً ابنه يقول له : لو نزلت إلى المدينة !

فيقول له سعيد : يا بنى إن قومى لن يضنوا على بأن يحملونى على أعناقهم ساعة من نهار ، فاذا أنا مت فآذنهم ؛ فاذا واريتنى فانطلق إلى معاوية فانعنى له ، وانظر فى دَينى ، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل ، ولكن اعرض عليه قصرى هذا ، فانى إنما اتخذته نزهة وليس بمال

وما هى إلا أن يموت فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه فى البقيع . ورواحل عمرو بن سعيد مناخة ، فيعزيه الناس على قبره ويودعونه ، ويمضى من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له . فيتوجع له معاوية ويقول : هل ترك ديناً ؟

فيقول : نعم ، فيقول معاوية : هو علىّ

فيقول : قد ظنّ ذلك وأمرنى ألا أقبله منك ، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه ، فيكون قضاء دينه منه

فيقول : اعرض علىّ

فيقول : قصره بالعرصة

فيقول معاوية : قد أخذته بدينه

وقواها ؛ ولكنها كانت لها نذر الخطر والكفاح ؛ فقد لبثت اليهودية مدى حين آمنة مطمئنة فى ظل الديموقراطية الظافرة ؛ ولكنها أفاقت مذعورة من هذه الدعة الظاهرة ، ونهضت تكافح طغيان القومية والعسكرية والكنيسة معاً ؛ وكانت هذه اليقظة اليهودية وقود الحركة الصهيونية التى أذكى تيودور هرتسل الكاتب اليهودى جذوتها . وكان هرتسل يشهد مأساة دريفوس وتطوراتها منذ البداية كمراسل لجريدة « نويه فرايه بريسه » النمسوية [١] ، ويصور حوادث المأساة بقلمه الملتهب تصويراً قوياً مؤثراً يثير روح الكفاح والمقاومة فى الملايين من بنى جنسه ؛ واستطاعت اليهودية غير بعيد أن تستجمع قواها ؛ وغدا هرتسل روح الحركة الجديدة التى انتهت بتنظيم الصهيونية السياسية ؛ ثم الفت اليهودية فرصتها أثناء الحرب الكبرى ، واتجهت صوب فلسطين ، وما زالت حتى ظفرت ببغيتها من الحلول بأرض الميعاد والاحتشاد فيها وتحقيق حلمها القديم بالعود إلى أرض سليمان

محمد عبد الله عنان

(١) Die Neue Freie Presse (الصحافة الجديدة الحرة) وهى أقدم الصحف النمسوية وأكبرها

قال نوفل بن عمارة : وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاشترى معاوية القصر بألفَ ألف درهم ، والمزارع بألف ألف ، والنخيل بألف ألف درهم[1]

فيقول عمرو : هولك على أن تحملها إلى المدينة ، وتحملها بالوافية .

فيحملها له إلى المدينة ، فيفرقها عمرو فى غرمائه ، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد ، فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ، فيرسل عمرو إلى المولى فيقرئه الصك ، فيبكى حين يقرؤه ويقول : نعم ، هذا خطه وهذه شهادتى عليه

فيقول عمرو : ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ؟ وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش.!

فيقول المولى : أنا أخبرك : مرّ سعيد بعد عزله فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد وقال : ألك حاجة ؟

قال : لا . إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ، فأحببت أن أصل جناحك

فقال لى سعيد : ائتنى بصحيفة ، فأتيته بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين ، وقال : إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فاذا جاءنا شىء فأتنا

فيقول عمرو : لا جرم والله لا يأخذها إلا بالوافية ، ياغلام ! أعطه إياها ، فيعطيه عشرين ألف درهم وافية

ويجيئه مولى لقريش فيقول : إنى أتيت أباك بابن مولاى (فلان) ، وقد هلك أبوه ليزوجه . فقال : ماعندى ، ولكن خذ ماشئت فى أمانتى

فيقول له عمرو : كم أخذت ؟ فيقول : عشرة آلاف

فيقبل عمرو على القوم فيقول : من رأى أعجز من هذا ؟ يقول له سعيد : خذ ماشئت فى أمانتى ، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف ، والله لو أخذ مائة ألف لأديتها

* * *

ويتبدل المنظر ، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر ، وانتقلت اليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام ، ذلك أن خبراً سرى فى المدينة سريان الأمل فى النفوس اليائسة ،

(1) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١٤٤

فترك الناس ماهم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه مالم يسمعوا ... وإذا ابن عائشة وهو أضن خلق الله بالغناء ، وأسوأ الناس فيه خلقاً ، ومن إذا قيل له غنّ ، قال : أمثلى يقال هذا ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت ، قطع الغناء مغضباً وقال : أمثلى يقال أحسنت ؟ وإذا هو يغنى أطيب غناء وأطربه ، فلا ينتهى من صوت حتى يشرع فى آخر ، لا يسكت ولا يستريح ، حتى عدّوا عليه مائة صوت ، وإذا خبره أن العقيق طمى وازداد ماؤه ، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر ، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن ، وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان ، فقال لهما : امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذى عليه ابن عائشة ؛ فخرجا حتى فعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن : كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال : بخير ! فداك أبى وأمى ، قال : انظر إلى من بجنبك ، فنظر فاذا العبدان ، قال : أما تعرفهما ؟ قال : بلى ، قال : فهما حران لئن لم تغننى مائة صوت لآمرنهما بطرحك فى البئر ، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما . فغنى فلم ير الناس أحسن يوماً منه

* * *

ثم أرى فتياناً من فتيان المدينة فيهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغنى قد خرجوا إلى وادٍ يقال له رومة من بطن العقيق ، فغنوا ، فأثار غناؤهم أهل الوادى ، فاجتمع اليهم الرجال والنساء حتى كان حولهم مثل مراح الضأن ؛ وأرى محمد بن عائشة مقبلاً معه صاحب له ، حتى يرى جماعة النساء عندهم فيأخذه الحسد ، ويحزّ فى نفسه الغيرة ، فيقول لصاحبه : كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة ؟ فيسخر منه صاحبه ، فيهيج ابن عائشة فيأتى قصراً من قصور العقيق فيعلو سطحه ، ويلقى رداءه ، فيتكىء عليه ويغنى بشعر عبيد بن حنين :

هذا مقـــام مُطرَّدٍ   هدمت منازله ودوره
نمّت عليه عـداته   كذباً فعاقبه أميره
ولقد قطعت الخرق بعـ   ـد الخرق معتسفاً أسيره
حتى أتيت خليفة الر   حمن ممهوداً سريره
حييتـــه بتحيّة   فى مجلس حصرت صقوره

فلا ينقضى الصوت إلا والنساء كأنهن تحت القصر الذى

هو عليه ، وقد تقوض مجلس يونس ولم يبق فيه أحد !

* * *

وأرى غلاماً خلاسياً ، مديد القامة أحول ، قد ارتقى صخرة فى العقيق منفردة ، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة ، ثم هب فزعاً وهو يغنى غناء ما سمع مثله السامعون ، يزعم أن الشيطان اجراه فى مسامعه وهو نائم ، ويعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة فى يده ، فيمر به شيخا مغنى مكة ابن سريج والغريض ، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرضان لمعروف أهلها ، ويلقيان من بها من صديقهما ، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت :

القصر فالنخـــل فالجماء بينهما ... أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

فيعيده ، وهو مشغول عنهما بصيده ، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول : هل سمعت كاليوم قط ؟ فيقول : لا والله ! فيقول : فما هو رأيك ؟ فيقول : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف بمن فى الجوبة ؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع !

فكرَّا راجعين

وكان الغلام (معبد) سيد من غنى صوتاً فى الحجاز !

* * *

ويتبدل المنظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد خطبها رجل عبشمى من أهل الشام ، فلما أراد أن يرحل بها وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلاً يغنى بشعر أبى قطيفة :

لا ليت شعرى هل تغير بعدنا ... جنوب المصلى أم كعهدى القرائن

وهل ادؤر حول البلاط عوامر ... من الحىّ أم هل بالمدينة ساكن

إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق منى برقها المتطامن

ولم أتركها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن

فتسقط وقد أغمى عليها ، فيعالجونها كيما تفيق ، فاذا أفاقت سمعته يغنى :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا ... قباء وهل زال العقيق وحاضره

وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أراهط غرٌّ من قريش تباكره

لهم منتهى حبى وصفو مودتى ... ومحض الهوى منى وللناس سائره

فتنشت بين النساء وسقطت ميتة . . . . . .

* * *

... واضطربت الصورة وتضاءلت ، ثم توارت واختفت ، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة ، وإذا المجد والجلال ، والمطر والنور ، وإذا الدور والقصور ، والأنس والحبور ؛ كل أولئك قد غطى عليه الفناء ، وابتلعه هذا السيل الدفّاع ، ثم عاد يجرى بين الآكام الجرداء ، وله خرخرة وله دردرة . . .

وإذا كل ما بقى من هذه الدنيا الواسعة ، قهوة قامت على جذوع النخل ، وبئر نصبت عليها سانية ، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاى ، ويطربون ، وما بهم لو حققت من طرب ؛ وإذا قصر سعيد أنقاض مائلة ، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر . . . . . .

وإذا المجد والجلالة والجا ... ه كما يطرس السطورَ البنان !

دمشق **على الطنطاوى**

عاقبـــة سليمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلاً يتصدى له ، ويلح عليه بما لا يسمه أن يجيبه إليه ، فالأمر متروك إلى صدق الروية ، وسرعة الخاطر ، وحسن البديهة ، ولـكل موقف ما يقتضيه ، ويدفع إليه ويغرى به ، والذى يُلهمه الواحد فى موقف لا يُلهمه واحـد آخر فى الموقف عينه ؛ فاذا بدا لى أولئك ما لجأ إليه « حامد » غريباً أو شاذاً أو غير لائق ، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه ، فان عذره أنه لم يخطر له سواه ، وأن الموقف كان يتطلب السرعة واتقاء الجدل ، فقـد كان - كما لا تعلم - فى قهوة « الحمام » - بفتح الحاء - وكانت معه « فريدة » وهى بنت عمه ، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون فى العادة بين ذوى القربى : وكانت تنطوى له على حب هادئ ، وتحس - بفطرتها الذكية - أنه يصبو إليها ، ولـكنها كانت تراه لا يصارحها بشىء ولا يبنها أمراً ، ولا يدع لفظاً أو عملاً يشى بهواه هذا ، فجنحت إلى الشك ، ثم يئست . ولما تقدم أحد أغنياء الريف يخطبها ، أغرت أباها بالتلكؤ ، لعل حامداً يتحرك ، ولـكنه لم يفعل . فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب ، فانه لا يبق أمامى إلا زواج المال والوجاهة . . . وهكذا حدث ، أعنى أنه لم يحدث ، وإنما احتفل بقبول هـذا الوجيه الريفى ، وبتقديم « الشبكة » إلى عروسه المستقبلة ، على أن يكون العقد ليلة الجلوة

ومضت أيام ، والتقى حامد بهـا خارجة من متجر كبير ، فخفت اليه وهو يهم بركوب سيارته وسألته :

« لماذا هذه الجفوة ؟ »

فضحك وقال : « الجفوة ؟ إنما أفسح لمن هو أحق منى »

فتلفتت ثم قالت : « سأصرف سـيارتى وأركب معك ، فهل تقبلنى ؟ »

قال : « ليس لى خيار ، انك كهذا الهواء ، لاغنى عنه »

قالت : « أشكرك » وصعدت إلى جانبـه وأشارت إلى سائقها أن ينصرف . وسألها حامد :

« إلى أين بنا ؟ »

قالت : « إلى مكان فيه هواء ، وطعام ، فانى جائعة وحرَّى »

فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل ؛ فأكلا شيئاً وشرب هو قدحاً من البيرة - أو الجعة كما تسمى - وقالت له على الطعام

« لماذا لم تهنئنى ؟ »

قال : أهنئك من اعماق قلبي ، ولـكن بأى شىء ؟ »

قالت : بخطبتى - ثم انك لم تحضر - لماذا ؟ »

قال : « آه صحيح ، مبروك ! لقد سمعت أنه غنى جداً ، ووجيه فى بلده »

قالت : « نعم ، إن غناه مضافاً إلى غناى خليق أن يساعدنى على ما يميل اليه طبعى من البذخ والترف . صحيح ، فانى لا أطيق الفقر ، ولا أستطيع أن أحيا حياة رقيقة الحال »

قال : « أعرف ذلك — أو أنا على الأصح قدرته »

فحدقت فى وجهه فقال : « نعم ، لقد انتهى كل شىء الآن فلا ضير من الصراحة ، ومن الممكن أن أكاشفك بالحقيقة ... »

فقاطعته وقالت : « هل تعنى أنك . . . . »

ولم تتمها ، فقال : « نعم ، قدرت أن لا أمل لى ، فان عمى غنى وأنا فقير ، وقد عطفه علىّ أنى ابن أخيه »

فقالت : « ولـكنك لست بفقير ! »

قال : « أعنى نسبياً . كل ما أكسب بعـد الجهد والعناء ستون جنيها فى الشهر . وما خير ستين لمن تنفق وحدها - وهى فتاة فى بيت أبيها - أكثر من هذا القدر ؟ »

فلم تقل شيئاً ، وفتر الحديث بعد ذلك ، وصار متقطعاً ، وإن كان حامد لم يقصر فى توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال . ثم قاما ، وانهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همساً : « حامد ! هذا هو ! »

فتلفت وهو يسأل : « من ؟ » ولـكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفى وأغلقته وراءها ، وانطرحت على أرضها - لا مقعدها - فأهمل حامد السؤال والجواب ، ودخل سيارته وأدار المحرك ، ولم يفته أن يحكم ايصاد الأبواب حتى لا يفتحها أحد من الخارج ، وأسدل الستائر الخلفية فاستحال

أن يرى أحد فريدة وهى راقدة . ولم يكن حامد يعرف ممن تجرى ولا كان يدرى ما يخيفها ويدفعها إلى التخفى ، وإنما كان يدرى أنها تريد ذلك ، فعليه أن يكون عوناً لها

ومد يده إلى ناقل السرعة ، يريد أن يضعه فى المكان الأول ، وإذا برجل ضخم هائل الأنحاء ، ولكنه أنيق الثياب محبوكها يقول له :

« لحظة ! لقد رأيت فتاة تدخل هـذه السيارة ، فافتح الباب من فضلك لتخرج »

فابتسم حامد وقال : « رأيت فتاة تدخل فى هذه السيارة ؟ أواثق أنت ؟ » ويتلفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية : « أقول لك افتح الباب »

فقال حامد : « معذرة ، ولكنك مخطىء . . . . إنى لست سائق سيارتك »

فاحتد الرجل وصاح به : « انها . . . انها . . . ألا تنوى أن تفتح ؟ »

وعالج الباب ، ولكنه كان موصداً من الداخل ، فأعياه فتحه ، فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس :

« افتح . . . أقول لك افتح . . . أخرج هذه الفتاة »

وصار المحتشدون على الرصيف جمعاً حافلا ، وأكثرهم من العامة والنوبيين ، والصبيان ، وسائقى السيارات المختلفة ، وعلت أصواتهم بالنكات والضحك ، فزاد الرجل حماقة ، وجعل يدق الباب بجمع يده ، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن يدخل رأسه من نافذتها لينظر ، فلم يبق مفر من عمل يعمله حامد ليدفعه عنه ويتخلص منه ؛ ولو غيره فى مكانه لكان الأرجح أن يلكمه ، ولكن حامد لم ير أن يتقى شراً بشر ، واكتفى بأن يطير له طربوشه عن رأسه ، فطار عقله وراءه ، وارتد عن السيارة لينقذه من التراب البليل — أو الوحل — وسر الناس هذا المنظر فضحكوا ، وقهقهوا ، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون ، والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحداً منهم ، ولكنه ثقيل وهم خفاف ، فكف ، وعاد اليه الرشد مع التعب ، ونظر فاذا السيارة قد غابت !

***

وقالت فريدة لحامد فى بيتها عصر يوم :

« هل تعرف لماذا دعاك عمك ؟ »

قال : « لا »

قالت : « ليسألك عما حصل فى قهوة الحمام ، وعلى بابها »

قال : « من أخبره ؟ أنت ؟ »

قالت : « بل هو »

قال : « هو ؟ »

قالت : « نعم ، ألا تعرفه ؟ الخطيب : واتهمنى بالسكر أيضاً »

قال : « اتهمك أنت ؟ ولكنك لم تذوق شراباً سوى الماء . أنا الذى شربت بيرة »

قالت : « ولا أنت — فاهم ؟ »

قال مستغرباً : « ولا أنا ؟ ولكنى شربت بيرة — ولم لا أشرب ؟ وماذا يدعونى أن أقول غير الحق ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « كما تشاء ! ولكنى أنذرك إذا اعترفت »

فسألها متعجباً : « تنذريننى ؟ لست فاهماً »

قالت : « يا صاحبى ، لا أستطيع أن أتزوج سكيراً — أنا هكذا — من الطراز القديم المحافظ »

فانتفض واقفاً وصاح : « ماذا تقولين ؟ »

قالت بضحك : « أليس كلامى مفهوماً ؟ »

قال : « ولكنك مخطوبة . . . . ؟ »

قالت : « كنت مخطوبة . . . أما بعد أن كشفت لى عن حبك المكتوم ، فقد اغتنمت الفرصة وقذفت بالشبكة فى وجهه »

قال : « ولكنى فقير . . . . »

قالت : « وأنا أحب الفقر . . . ليس أمتع منه ، لا تخف أن أجىء اليك بغناى الثقيل المنفر . . . والآن ألا تقبلنى ؟ »

فدنا منها وهو يقول : « لم ألثم شفتيك منذ . . . . »

فقالت : « منذ يناير سنة ١٩٢٧ . . . دونت ذلك فى مذكراتى . . . « اليوم لثم شفتى . . . . . . »

ابراهيم عبد القادر المازنى

التطور والتقليد

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عاملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حى من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حى ؛ وقد كان لكل من الأدبين العربى والانجليزى نصيب من كليهما ، غير أنا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربى كان أوفر حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزى أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع

تطورت لغة الأدب الانجليزى وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه فى عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشدّ اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصة الطويلة والقصيرة

وتتابعت مذاهبه : تخلّتْ المدرسة الرومانسية التى ازدهرت فى عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أينع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مِدادَ نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التى أطلَعتْ ملتون وبنيان اللذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتاباتهما ؛ ثم كانت المدرسة الكلاسية فى القرن الثامن عشر فافتتن زعماؤها فى الشعر أمثال درايدن وبوپ ، وفى النثر أمثال أديسون وستيل ، بمحاكاة الآثار الكلاسية القديمة من أغريقية ولاتينية فى حسن الصياغة وإحكام الأسلوب ؛ ثم أعقبت هذه مدرسة رومانتية أخرى فى مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلى وكيتس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان ؛ وفى أواسط ذلك القرن قامت المدرسة الواقعية تحدّ من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تنيسون ثم هاردى .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة فى عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافى وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والمغامرات فى الكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدّد الدينى الذى كان زعماؤه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال المتهافت على حياة المدن المزدرى بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً فى عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك فى عالم السياسة : من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع واغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التى تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التى شهدها القرن الماضى . وقد تتابعت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاحَ معايبها وتدارُكَ ما أهملته

هكذا تطور الأدب الانجليزى مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربى : فلغة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الاسلام الفحلة ، فلغة الصدر العباسى الجزلة ، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة فى اللين والاناقة ، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفنى المتعمل المرصع الذى تزايد تعمّله وترصيعه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض الأدب وشملت من أسباب الحضارة مالم تشمل قبل : من شؤون الإمارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والأخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالأدب العربى قد تطور تطوراً عاماً اتجه إلى ترقيق العبارة وتوسيع أغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها فى مجرى الأدب الانجليزى ؛ ومعظم أغراض الأدب العربى وصفاته تووِرثت جيلاً عن جيل : فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها فى الشعر ظلت أبواباً ممتازة محدّدة يتبارى الشعراء فى تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلاًّ منها ؛ وكتب الأخبار الأدبية والتاريخية المختلطة ظلت على

وتيرة واحـدة من أول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض فى طريقة البحث والسرْد وتهذيب الأبواب والفصول

ولا غرو فقد كانت تحيط بالأدب العربى ظروف كلها تدعو إلى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربى ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكد يطرأ عليه جديد من الأفكار والأنظمة بعد تشبُّعه بحضارة الأقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما تترك صداها فى الأدب : فقـد كانت القصة من أولها إلى آخرها على وتيرة واحـدة : أُسَرٌ وأمراء يتوارثون الحكم ويتجاذبونه ، وأممٌ مكفوفة عن شؤون الحـكم إلا أن تثور ثائرتها فى الفينة بعد الفينة فتُقمع وتعود الأمور إلى وتيرتها ، ومامن نزعة جديدة أو اتجاه جديد يحوّل عنان الأمور إلى غير ما هى سائرة فيه

والأدباء أنفسهم كانوا منعزلين بآدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن أمانيه أو يحاولون قيادته ، وكانوا أقرب مكاناً إلى الأمراء منهم إلى صف الشعب ، لأنهم كانوا يعتمدون على الأولين فى معاشهم

ثم إن قيام الامبراطورية الاسلامية أدى من بادئ الأمر إلى نتيجتين كانت كلتاهما ذات أثر بالغ فى الأدب العربى ، وكانتا عَامِلَىْ محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجاً ، ودخول الأعاجم فى اللسان العربى

فان فساد اللغة تدريجاً جعل الأدباء يحتذون دائماً حـذو المتقدمين من العرب الأقحاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حَسْبُ الشاعر المتأخر أن يجارى المتقدمين فى جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرّز على أولئك المتقدمين ويبتكر مالم يعرفوا ، وهو وإن لم يُرِدْ إلا محاكاة أسلوبهم إلا أن ذلك مؤديه حتما إلى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة

والأعاجم الذين دخلوا فى اللسان العربى انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا إلى محاكاتهم تقويماً لعربيتهم وطلباً لأسرار اللغة وقواعدها ؛ ولا يخفى أن كثيراً من أقطاب الأدب المتأخرين كانوا من هؤلاء الأعاجم المستعربين ، فـكان تأثيرهم فى الأدب تأثير محافظة وتقليد ونظر إلى القديم

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الأدباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين ، وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى فى الأدب العربى دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار فى شيء : كالغزل الاستهلالى ، وذكر الابل والحداء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلتها فى الغرض والوزن والقافية

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة فى الأدب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلباً لصلات الممدوح أو لهبات خصم المهجو ، فقـد كان الشاعر مثلاً يمدح قائد الخليفة أو وزيره مادام مرضياً عنه ، فان نُـكب تقرَّب الشاعرُ إلى الخليفة بذمه ؛ وقد كان أكثر المدح والهجاء من هـذا النوع المتكلف المستَمْنِح ، ومالم يُصدرْه الشاعر عن شعور حقيقى فسبيله فيه أن يحاكى ويأخـذ ممن تقدم نَقْصاً وزيادة وتخريجاً وتوليداً ، لذلك ظلت معانى المدح والهجاء وتشبيهاتهما فى مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين ، وأثر هـــذا جلىٌّ فى جمود الأدب وتقيُّده بالقديم بدل اتجاهه إلى مناحٍ جديدة

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربى ، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب ، فالأدب كـكل كائن حى يَجْمُد ويتضاءل إذا لم يتصل بغيره ، فتتجاوب الاحساسات والأفكار ، وقد كان من أكبر عوامل رقى الأدب الانجليزى وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه إلى الآداب الـكلاسية ، أما الأدب العربى فلم يكن له مرجع عدا ماضيه ، فظل دائماً ينظر إلى الخلف بدل أن ينظر إلى الامام ، ولو استفاد من الأدب الأغريقى مثلاً لـكان له تاريخ غير تاريخه المعروف

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت إلى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد فى الأدب العربى ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد ألحاناً بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقى ، ثم انحدر فى طور تدهوره الطويل ، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلُّب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور ؟

فخرى أبو السعود

الى الشباب الناهض

الأدب اللاهي ...

للأستاذ محمد روحي فيصل

قال صاحبي :

« والأدب لو تدبّرتَ متعة تلهو بها النفوس ، ولذة تنشط لها العقول ، وفن جميل نقرؤه فتبرز الأحلام ، وتتدافع الخواطر ، وتخف الحياة ، ثم نخلص إلى عالم حلو لا تجثم عليه أثقال السعي والعيش ، ولا تحده قيود الجد والوقار . . »

وسكت هامساً قد انفرجت عيناه الصغيرتان تستطلعان في وجهي أثر الحديث ، وتتبينان ما عسى أن أقول ، فراعه أن أجمع الأنف وأزوي اللحظ وأقطب ما بين الحاجبين ، ثم أقوم هادئاً إلى مكتبتي المتواضعة فأنزع منها رسالة [1] في مائة صفحة قد ألفت النظر اليها والانعام فيها منذ سنوات ، فما أتركها إلا لنوم أو طعام ، أو شأن من شؤون الدنيا . وشرعت أتلو على صاحبي صفحة موجزة ليست جديدة في روحها ومعناها لدى القراء ، ولكنها جديدة طريفة في عيني ، أريد أن أذيعها اليوم في الناس ليتدبروها وليروا الرأي الذي يرتأون فيها

فافتح إن شئت أية مجلة عربية ، فانك لاشك واجدها قد جرّدت كثيراً من صفحاتها للشعر ، أو للشعر المنثور ، أو لغير هذا من القطع الفنية مما يسمونه أدباً ، وما هو من الأدب الصادق الصحيح في شيء ! والظاهر أن اعتبار الأدب وسيلة للتعابث والمفاكهة ، أو للتظرف والمنادمة ، هو علة هذا الهراء والهذيان ، وسبب قوي لكل ما يعتري الآداب والفنون من انحطاط وإسفاف ، وما يتدسس اليها من ألوان المجانة وفضول الكلام . ونحن في هذه العجالة إنما نبغي تبيان أوجه الخطأ في هذه النظرة اللاهية الهازلة ، والكشف عن عقمها وفسادها ، وعن نتائجها الخطيرة التي تقتل في الأدب روح الجد والصدق والطبع

وقبل أن نخوض في هذا الحديث الذي يستشرف له القلم اليوم نقرر أن النهضات القومية التي تحدو بالأمم في مدارج العظمة والمجد ، وتنفث في الشعوب معنى القوة والاستقلال ، لا تطلع عليها إلا إثر النهضات الأدبيــة التي تهتاج فيها النفوس ، ويتيقظ الشعور ، وتلتهب العواطف ، ويتحرك الكامن من الهواجس والأماني ، فيكون الأدب بمثابة ناقوس يهيب بالركب الغافي إلى السير والعمل . فهذه ألمانيا لم يستطع بسمارك تأليف وحدتها وضم دويلاتها بعضها إلى بعض إلا بعد أن تذوق الألمانيون آثار جوت وشيلر وهيني وليسنغ وهردر . وهذه فرنسا ما نهضت في الثورة الكبرى إلا بعد أن شاعت بين أبنائها مؤلفات روسو وفولتير ومونتسكيو . وشبيه بذلك انجلترا في القرن السابع عشر يوم هبت للحياة العالية وللفتح والسيادة ، فقد كان شكسبير وغير شكسبير نشروا قبل ذلك في الأمة الانجليزية أرواحهم الحية ونفثاتهم القدسية

هذا ما تستفيده الجماعات من الأدب ؛ ولعل ما يعود منه على الفرد أجل وأرفع ، ذلك بأن الأدب باب كبير من أبواب السعادة ، وطريق ناعم ناضر تشم من جوانبه روائح الورد ، وتمتع باصرتيك في مسالكه بأكمام الزهور ، وتتسمع في أجوائه الى أناشيد البلابل الثائرة الخافقة . انك بالأدب تحيا حياة طيبة راضية ، تحيا حياة موسعة « مضاعفة » تحسها في أعماق قلبك ، وفي رجع شهيقك وزفيرك !

إن العطف والالفة قوام الهيئة الانسانية ؛ فلا ينعم امرؤ بالانفراد ولا يهنأ بالوحدة ، وأحسب لو أن الناس جميعاً كانوا أخسر خسرة لا يجوز منهم إلى جنة الله غير رجل واحد لكان هذا الرجل الصالح أنكد حظاً وأسوأ مقاماً ممن هم على النار يتقلبون ! كأني أراه في جنبات الفردوس وعلى ضفاف الأنهار يمشي على غير هدى وإلى غير غاية حتى تبلى قدماه ، وينظر إلى أفاويق النعيم وألوان الجمال فتبدو له كئيبة محزونة ، ثم يرتمي في الجحيم الصالي يفضله على هذا النعيم الذي لا يرى فيه من يقول له : ما أرغده ! ويحب ذو النعمة الحسد ، ولو نزع من الصـدور لاشتراه وفرقه على الناس مجاناً ليحسدوه على ما به من نعمة ! ويرتاح العاشق إلى من يتحدث اليه عن فرحة حبيبه وغضبة عذوله ... فالسعادة كما ترى لا تتم حتى تستجلي مثالها في المرآة ،

(١) نرجو أن نطبع هذه الرسالة قريبا

والانسان لا يطرب حقاً إلا إذا رأى كلام النفس مسطوراً على قطعة من طرس

فما دام التعاطف عماد الحياة فلن يوجد بغير تعبير ، لأن الحياة لا يمكن أن تكون بغير أدب ؛ تصور أمة تتملى فى نفسها شعوراً سامياً : هذا تطمح آماله إلى السيادة ، وهذا يدفعه حب الخطر إلى جوب البحار ومجاهل الأرض ، وذاك تنزع قلبه بهجة الجمال وفتنة الحسن ؛ تصور أمة تجيش فى نفوس أبنائها مختلف الميول والأهواء ملحة قاسية ، مكتظة دافقة ؛ أفتستطيع أن تتمثلها حريبة من الأدب ؟ أما أنا فلست أعرف أمة حية لم يكن لها أدب جميل ؛ فان أمة لا تعرف الشعور مكتوباً لا تعرفه محسوساً

فالأدب كما ترى ليس حلية تزين بها الأمة جيدها ، وليس هو ألهية من الألاهى كما يزعم الأستاذ شفيق جبرى[(١)] لأنه لو كان كذلك لانتظم فى سمط الكماليات ، والأدب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة ، وشرط لازم لها ، لا يمكن تخيلها ولا تكمل سعادتها بدونه

ما ينبغى أن يكون الأدب ألهية من الألاهى نعبث بهـا على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء ، فان الشر كل الشر فى هذه النظرة الخاطئة ، ذلك بأن الألهية تصدفنا عن جليل الحياة وعظيمها ، وتدفعنا إلى عالم البطالة نلهو ونعبث ؛ فاذا نحن رحنا نصور ذلك ظفرنا بما لا خطر فيه ولا قيمة له ، ونـكون كمن فاز بالقبض على الريح . واعتبار الأدب ألهية يهيب بالمتأدب إلى أن يتحرر من ربقة الجـد واللمحة الصادقة ، فيهذى لغواً تقرؤه العقول فى ساع كلالها وفتورها ، أو يستمع الناس إليه كما يستمع الوالدان إلى ولدهما المحبوب وهو يلثغ بالألفاظ والكلمات ، فاذا كذب أو أخطأ أو مسخ الحقيقة أو شوه الفضيلة غُفر له ذلك

ولعل فى النظر إلى الأدب كألهية مدعاة إلى التزويق فى البيان ، والاكثار من المحسنات البديعية من جناس وتورية وطى ونشر ، فينعدم الطبع ويغـدو الشعر مجموعة من الألاعيب اللفظية والتهريج الـكلامى[(٢)] . والحق أننا بلغنا فى هـذا غاية ننكرها ونأسف لها ، فنحن ما نزال نخطئ فى تقديرنا للشعر ، وفهمنا المعانى ، ونقدنا لفنون القول والبيان ، وما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الـكاذبة والطلاوة العابثة ، وتفتننا الألاعيب اللفظية والاناقة الـكلامية ، وترانا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل كل الجهل مقاييس الأدب الصحيحة ، وحـدود الجودة والرداءة ، ومواطن الجمال والدمامة ، نستحسن ما تغثى منه النفس وما هو حقيق بالنبذ والاهمال ، ثم نستقبح ما قد يكون فى الذروة من البلاغة الرائعة ! فما أحوجنا إلى إصلاح هذه النظرة العقيمة التى نزن بها الآثار الفنية ، وتصحيح الذوق الأدبى المقلوب ! وما أفقرنا إلى من يأخذ بأيدينا إلى النماذج الحية فيدلنا على قوتها وحسن تمثيلها ، وإلى السخافة المرذولة فيرينا وجه ضعفها وعبثها ! وعندى أن كل إنتاج فى الأدب لم يبدأ بهذا الاصلاح على هـذا النحو فانما هو محاولة فاشلة فائلة ، ومضيعة للجهود المبذولة فى غير طائل . . .

لقد كنا إلى عهد قريب أمواتاً نرتدى معالم الأحياء ، أمواتاً فى حسنا وشعورنا وتفكيرنا ، أمواتاً فى أهدافنا ومُثلنا العليا ، أمواتاً فى نظمنا ومرافقنا الاجتماعية ، أمواتاً فى كل شىء لا يسمع لنا نبض ولا خفق حياة . كنا أحياء نعيش فى العدم أو يعيش العدم فينا ، كأن الغيب الجليل الهازل قد قذفنا من جوفه جثثاً هامدة تغدو من المهد فى لحـد ومن اللحد فى مهد ! فأنت ، إذ تدرس الأدب العربى فى هذه الفترة الغافلة من الزمان التى دامت ما يقرب من ألف عام ، لا تجد أثراً لمـا يعتلج فى النفوس الخافقة من ضروب العواطف وشتى الانفعالات ، وما يجرى فى الهواجس من الأحلام والأوهام ، وما ينتاب الضمائر من قلق أو يأس أو ألم ، وإنمـا تلفى أدباً فارغاً أجوف يفيض بالاحساس المكوس والاسفاف المخل والصناعة البديعية أو التدجيل الذى يعتمد على الطباق والجناس والمقابلة وما إليها ! وحسبك أن تقرأ شعر ابن نباتة وابن معتوق والحلى لتلم بطرف من شعر اللفظ البالى الهزيل الذى يحبس المعانى المشبوبة فى أضيق الآفاق !

ثم اتصلنا بالغرب فى يوم اسماعيل وبعـده ، وكان اتصالاً وثيقاً تناول بالتغيير بعضاً من العادات والأوضاع المعيشية ، وكثيراً من طرائق التفكير والتعليم ؛ وكان للآداب من هـذا

(١) راجع المحاضرة الأولى من كتابه « المتنبى »
(٢) راجع المقال الممتع الذى أثبته العقاد فى صدر « المطالعات »

التطور نصيب وافر ، فان المتأدبين الذين درسوا فى معاهد أوربا عادوا إلى ديارهم بعـد ذلك يحملون رؤوساً وقلوباً غير التى كانوا يحملون ، ذلك بأنهم تذوقوا أشتاتاً من الأدب الحى ، وبلوْا شخصيات من الشعراء متمايزة ، وفقهوا أساليب النقد الحديث ، ولما أرادوا القيام برسالة « الحياة » شرعوا فى الهدم وإزالة الأنقاض وتنبيه الأمة إلى مواطن النقص والهزل والكذب

هـذا جماع ما يعترى الأدب فى اعتباره ملهاة وتسلية ؛ ولو أننا شئنا التمثيل لأتينا بهذا الغرض الوضيع الذى يكاد يكون كله غلواً وعبثاً ، ذلك هو المدح ، ومن البديهى أن يكثر فيه الغلو البشع لأن الممدوح ليس يرضى الا اذا خلعت عليه صورة ترفع من قدره وتعظم من شأنه ، ولأن المادح إنما جل همه التكسب والاستجداء . فلا بد إذن من المبالغة والكذب فى الاحساس والتوشية المموهة ، ولذلك كان المدح من أنواع الأدب الرخيص

وإنما الأدب العالى الرفيع تصويرٌ لما يتردد فى أطواء النفس من النزعات والمشاعر ، وترجمة لما يجول فى الخاطر من الهواجس والأحلام ، أو لغير هذا من صروف الحياة وأحداثها — يرسم الشاعر ذلك كله لاهازلاً ولا عابثاً وإنما جاداً كل الجد ، صادقاً تمام الصدق ، مخلصاً أوفى الأخلاص !

ارجعْ إلى نفسك حين تكتب ، تخذ عنها واستوحها ، وليكن لك من صدق إحساسك ودقة تأملك وصفاء بصيرتك ما تكشف به عن ألوان هذه الحياة النامية الزاخرة التى تسمى فى تلافيف قلبك وثنايا ضلوعك بحيث تجد لها صورتين : أولاهما فى الضمير وأخراهما على القرطاس . فلن يكون الأدب أدباً إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور والدمعة عن عين المحزون ؛ وإذا بهرك أن الشاعر أو الكاتب يبدع فى التصوير ويسمو فى البيان فينبغى أن تؤمن أن الرجل إنما يذيب من لحمه وعصبه ، ويريق من مائه ودمه فى سبيل الفن والأدب !

والاستحسان إنما يجب أن يكون فى إطار هذا الأدب السامى الرفيع برسله المبين لا خادعاً ولا مشعوذاً وإنما مصوراً مشاعره البينة النيرة ونزواته الخفية المكبوتة . فأنا إذ أنقد أنظر إلى إحساس الشاعر هل كان نافذاً عميقاً ؟ وإلى نظرته هل كانت عامة شاملة ؟ ثم الى تعبيره هل كان فيه مجيداً موفقاً ؟ فاذا تبيّن لى هذا كله على نحو ماأريد استحسنت وفضّلت ، وأنا محق نحور فى استحسانى وتفضيلى . وقد يكون من الخير أن نضرب لذلك مثلاً نوضح فيه هذا الذى نزعم ، فقد تغنى الأمثلة عن تقرير القواعد النظرية والشروح المستفيضة

ما اختلف عربى الى جامع بنى أميـة فى الشام إلا أخذته حالة نفسية خاصة بيقايا المجد والعظمة ، يحسبها فى أطوائه غامضة مبهمة ، كئيبة متحسرة ! فان كان مبيناً فصيحاً وشاء نشرها وتوضيحها لم يزد على قول أمير الشعراء :

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله   هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت   على المنابر أحرار وعبـــدان
فـلا الأذان أذان فى منارته   إذا تعالى ولا الآذان آذان !

هذه أبيات صادقة لا تمويه فيها ولا تضليل ، نظمها الشاعر فى قالب رائع جميل ، ولعل فى بسط الحزن على المسجد ما يضاعف هذه الروعة التى لا تلمحها فى الكلمات منفردة ، وإنما تلحظها منبثقة من خلال الاتساق والانسجام . إنه ليحلو لى هذا التساؤل عن مروان ، وهذا الترجيع للمحزون فأقبع فى مكانى هامساً فى خفوت : « وا حسرتاه على شوق ! »

ولنتأمل — فى روية وإنعام — صورة هذا العزيز المهان التى يعرضها علينا شوق :

بنت فرعون فى السلاسل تمشى   أزعج الدهرَ عريُها والحفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لمـــا   رُدِّيت مثلما تُردى الأماءُ
أُعطيتْ جرة وقيل اليك النهـ   ـرَ قومى كما تقوم النسـاءُ
فمشت تظهر الأباء وتحمى الدمـ   ـعَ ان تسترقـه الضراءُ
فبكى رحمـة وما كان من يبـ   ـكى ، ولكنما أراد الوفاءُ !

ما أريد أن أتناول هذه الصورة الشعرية الرائعة بالتحليل أبين مواضع قوتها وجمالها ، فانى ان لمستُها أخشى تشويهها والحط من شأنها ، فحسبى وحسب القارئ تلاوتها فى هدوء نتملى معاً حلاوتها ونستشعر نضارتها . إنما أطلب فى رفق ولين ، إلى الشباب الناهض ، أن ينظر الى الأدب بعين الجد والصدق حتى ينتج مثل انتاج شوقى الخالد

حمص « سورية »

محمد روحى فيصل

الأدب والتاريخ

٣ - الرافــــعى

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تتمـــــة

إيمانه :

والرافعى رجل مؤمن إيمانَ فكرٍ وعقيدة ، تُشرق على قلبه وعقله حقائقُ هذا الدين ، فهى كأنما تأتيه تلتمس فى كتابته وشعره حياةً تـكون بها فى الناس معنى يقدرون على فهمه ، إذ لا يُستطيعون أن يفهموه بأنفسهم ، فمن ثَم تراه حين يكتب عن الدين يتدفـق تدفُّقَ البحر ، وتتدافع معانيه تدافع الموج ، وتزدحم أفكاره ازدحام اللُّجة ؛ ومن هنا تغمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفـكره

وما سَهلٌ أن تجد كاتباً غير الرافعى يكتب بهذا الأسلوب فى هذه المعانى ؛ فانك لترى إيمان أكثرِ من تعرف ، فـكرةً يستبدّ بها العقلُ المتقلب ، فهو إيمانٌ متقلقل يتنازعه الشك ، لا يأخذ ولايدع إلا بحذر ؛ أو تراه إيمان عقيدةٍ موروثة تستبدّ بصاحبها استبداد الجهل والتقليد ، فهو إيمان جامدٌ ، لا يأخـذ ولا يدع إلا ما أُريدَ على أن يأخذ وأن يدع . وقلما تجد غير هـذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معاً ؛ ولو قد وُجد من يؤمن هذا الايمان ، لرأيتَ الاسلام ينبعث اليوم كأوّله ، ولعادت المعجزة الاسلامية تكتب فصلاً جديداً فى تاريخ الانسانية

والرافعى بإيمانه ذاك ينقاد للمقدور انقياد الطاعة ، واثقاً أن لامفرّ للانسان مما قـدِر عليه ؛ فلا تراه يتبرّم أو يتسخط لشىء يناله ، وتسمعه يقول : « جئنا إلى هـذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعاً وإن كرهاً ؛ فمدّ يدك بالرضى والمتابعة للاقدار أو انزعها إن شئت ، فانك على الطاعة ما أنت على الـكره ، وعلى الرضى ما أنت على الغضب ؛ ولن تعرف فى مذاهب القدر ، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أى وجهيك هو الوجه ؛ فقـد تـكون مقبلاً والنفعة من ورائك ، أو مدْبراً والمنفعة أمامك ، والقدر مع ذلك يرمى بك فى الجهتين أيهما شاء . وحرىٌّ بمن يوقن أنه لم يولد بذاته ، ألا يشك فى أنه لم يولد لذاته ، وإنما هى الغاية المقدورة المتعينة ، فلا الخلق يتركونك لنفسك ، ولا الخالق تاركٌ نفسك لك ... » فمن ثَم ترى الرافعى دائماً يُحسن الظنّ بالغد ويراه خير أيامِه ، فهو يحاول أن يجعل من كل ألمٍ يناله لذّة يُشعر بها نفسَـه ، ومن كل فادحةٍ تنزل به خيراً يترقبه ويهيىء له ، وهو يفصح عن ذلك المعنى فى مقالاته : سموّ الفقر ، وحديث قطّين ، وبين خروفين ، والانتحار ، وكتاب المساكين ، أدقّ إفصاح وأبلغـه

ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعى لا يرى فى تلك العلة التى أوْدتْ بسمعه وهو غلامٌ بعـد ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلى الذى يُملى به فى تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله فى العربية منذ قرون . ولاشىء غير الايمان بحكمة القدَر وقانون التعويض ، يجعل الانسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن ، فلا تأخذ منه النوازلُ بقدر ما تعطيه . . .

حياته الخاصة :

وبعد ، فأنا قد رأيت الرافعى يكتب ، وجالسته وهو يفكر ، وجلستُ اليه ليملى علىّ ، وَصحبتُه فى غدواته وروحاته ، وأشركنى فى مطالعاته ، وأخذ منى وأعطانى ؛ فمن حقّ العربية علىّ أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الرافعى بسيطة كل البساطة ؛ فهو فى أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق ، ولا يمتدّ بالعرف امتداداً كبيراً . تراه فى الديوان ، وفى البيت ، وفى الشارع ، وفى القهوة — رجُلاً كبعض من تعرف . ولو أنك ذهبت اليه فى الديوان ، ورأيته جالساً إلى مكتبه ، يوقّع على هذه الورقة ، ويراجع تلك الحسبة ، ويحادث الناس ويحادثونه . . . لشككت أن يكون هـذا هو الرافعى ؛ وقد يميّز مكتبه عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف مركومة إلى جانب ، أو كتابٌ جديد مستند إلى كتاب ، على أنه فى عمله معروف بشدّته وعنفوانه ، وكثرةِ دلاله أيضا ...!

وفى البيت قلما تجد الرافعى إلا جالساً إلى مكتبه مطالعاً

أو كاتباً ، وتكاد غرفة كُتُبه أن تكون كل نصيبه من الدار ... وله صبرٌ عجيب على العمل ؛ فهو حين يجلس للمطالعة قد يظلّ ثماني ساعات لا يزايل موضعه . ولا يسهر خارج الدار عادةً إلا ليلةً أو ليلتين فى الأسبوع ، وسائر لياليه عمل مستمر فى الكتابة أو المطالعة ؛ ويندر أن يأوى إلى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة ؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية إلى عهد قريب ، وهو يحاول معظم تمرينات (صاندو) الرياضى المشهور ؛ وترى صورته قريبة من مكتبه ، إلى جانب صورة محمد عبده ، وجمال الدين ، و . . . وملكة الجمال التركية كريمان هانم خالص . . . !

وهو لأولاده أخ كبير ، لا يدخل أحدهم إليه فى مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة ، ولكنه قلما يدخل اليه أحد منهم إلا إذا دعاه ، لتخلو له جَلْوتُه

وإذا أراد الرافعى أن يسهر ليلة خارج الدار ؛ فليس إلا فى السيما أو فى القهوة ، وذهابه إلى السيما عمل أدبىٌ أيضاً . . . فهو لا يميل إلا لمشاهدة نوع خاص من الروايات الفنية ، يكون له منها مادةُ وحى . . .

وحتى فى القهوة لا يريد أن يمضى وقته عبثاً ؛ فلا بد من صحف أو كتب أو مجلات ، يمضى بها الوقت ، أو يفرغ منها مع الوقت ؛ فتراه مُكِباً على كتابه ، وفى يمينه قلم يشير به إشاراته ، وفى يساره لىُّ الكركرة (1) ، وفمه إلى فمها يبادلها أنفاساً بأنفاس . . . فاذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جليسه بحديث عذب ، أكثره دعابة وأقله هزل . . . وإذا أردت أن تستمع الى الجِدّ الهازل ، أو الهزل الجادّ ، فاجلس الى الرافعى لحظات . . .

ولصوته رنّة عذبة ، كانت حبسة من مرض فمادت لحناً من الموسيقى ؛ فأنت تميّز صوته بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات . ولو سمعت الرافعى خطيباً لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب ؛ فان صوته يعلو ويعلو ، ويمتدّ امتداده فى الجهات الأربع ، ثم يعود اليك عَوْد الصدى من مكان بعيد ، أرَنَّ أغنّ مندفعاً متحمّساً ينسيك الزمان والمكان والناس ، فاذا أنت حيث يريد أن ينقلك . ولكنك مع الأسف قلما تسمعه خطيباً ، لأنه يجهد فى الخطابة جهداً كبيراً يبلغ منه . فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعوه الموضوع ، فيحمل نفسه على ما يكره . . . فاذا دعوته أنت أنكر على نفسه أنه خطيب ؛ ومن أين له أن يعرف . . . ؟

وفى الرافعى كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع ، ولا أحسب أحداً يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة ، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة ، أو ينصرف عنك الى كتابه ، أو يقبل عليك فى صمت وأنت تتحدث اليه ، أو يأخذ عليك أشتات الحديث فلا يدع لك أن تتكلم ، فتنصرف وما عرفت إلا لوناً واحداً من أخلاقه . وجلساء الرافعى قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه .

كيف يكتب ؟

وهو حين يهم أن يكتب ، يختار موضوعه ، ثم يتركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيّئ له مادته ، ويدعه كذلك وقتا ما ، يطول أو يقصر ، يقيّد فى أثنائه خواطره ؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شئ مادّة وَحى ، فكأن فى الوجود الذى يراه صوتاً يسمعه ، وكأن لما يسمعه لوناً يراه ، وكأن فى كل شىء شيئاً زائداً على حقيقته ، يُعلى عليه معنى أو رأياً أو فكرة

فاذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف ، يأخذ فى ترتيبها معنى الى معنى وجملة الى جملة ، وهذه هى الخطوط من هيكل المقالة ثم هو يعود إلى هذه الخواطر المرتّبة ، ينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، وينفلق له عن كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامة بعضُها من بعض ، فيكتبها

ولا تراه حين يكتب أو يُملى ينظر إلى أصول المقالة بقدر ما ينظر فى أعماق فكره الى ما يتّصل بمعنى ما يكتب ؛ فقد يكون المُملَى منه صفحة أو صفحتين ، فيُملى صفحاتٍ وصفحات

ومذهبه فى الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من المعانى ؛ فهو لا يكتب الكتابة الصِحافية السوقية ، لأن الهدف الذى يرمى اليه هو أن يضيف ثروة جديدة الى اللغة . ولن تجد كاتباً

(1) الكركرة : النارجيلة (الشيشة) كما يسميها الرافعى

غير الرافعى يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من قرائه أو يُشَعْوِذ عليهم ليملأ فراغاً يريد أن يمتلئ

وميزة أخرى تراهـا فى كتابة الرافعى ، هى أنه لا ينحرف مرة واحدة عن مذهبه فى المادة والموضوع ، فهو هو منذ كان الى اليوم ، لم يرجع عن رأى رآه ، أو يناقضْ نفسه فى منهجٍ ابتدعه ، وهذا بعض أسرار الايمان فى هذا الرجل الذى لم يغالط نفسه قط

وله فلسفة خاصة به ، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه ، على حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا مزَقاً مرقّعة من آراء فلان وفلان . . . وإنى لأشهد أن هؤلاء أكبر من كل فيلسوف فى الأرض ، لأنهم وعوا فى رءوسهم آراء كل فلاسفة الأرض . . . ثم لم يزيدوا . . . !

وحظ الرافعى من لغة العامة كحظـه من الفرنسية ... فأكثر لُغته من الـكتب ، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية ، وبالقراءة عن المدارسة والاستماع ؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغانى شعبية بديعة ، بالغةً الغايةَ فى بلاغة العامية ، من دون أن ينحرف فى ذلك عن أسلوبه فى البيان العربى وطريقته فى توليد المعانى ؛ ولعل قراء (الرسالة) لم يزالوا يذكرون له « أغنية الزبّال ! » وتراه إذ يحاول أن يصنع شيئاً من ذلك يرجع إلىّ ليسألنى عن كلة أو تعبير مما ينطق العامة ؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية ..

وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية راقية . . . فهو يشكو دائماً الجوّ العامىّ الذى يحوطه ، فكيف به لو كان يسمع لغو الناس . . . ؟ ومن ثمّ لا يهم الرافعى أن يكتب إلا حاول جاهداً أن يتخلص من هذا الجوّ الذى كان فيه ، فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تتفق ، ليعيش لحظة قبل الـكتابة فى بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ فى هذا الباب كتاباتُ الجاحظ وابن المقفّع . وأحبّ الـكتب اليه من بعد ، كتاب الأغانى لأبى الفرج

ولـكتابة الرافعى جرس موسيقى خاص تتميز به ، حتى ما عليه على عجل بلا إعداد ولا توليد ؛ وكثيراً ما يُملى بلا إعداد صفحات وصفحات ، وقد أملى علىّ مرة مقالاً طويلاً فى الرد على بعض الأدباء ، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية ، على حين لم يستغرق إملاؤه ساعات ؛ ولعل تعبى فى كتابته كان أكثر من تعبه فى إملائه . . . !

والرافعى على ما يبدع فى كتابته ، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد الفراغ منه بساعات ، فهو دائماً يطالب الأعلى ؛ وهو نوع من التواضع ونوع من الطموح فى وقت معاً . . . !

ويُتهم الرافعى بالغموض أحياناً ؛ وليس ثمة غموض فيما يكتب إلا عند من لم يتزوّد من الأدب الصحيح ، أو يتعوّد قراءة أدب الرافعى ؛ على أن كتابته فى مجموعها لا تصل إلى نفس قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر ، بعقله وروحه ، لا قراءة القصص والروايات ، يفتش بعينيه بين السطور عن معنى يسليه ، أو حادثةٍ يُزجى بها الفراغ ... ونصيحتى إلى الذين يطلبون التسلية فى الأدب ، ألا يقرءوا كتب الرافعى ، فانها لن تجدى عليهم شيئاً ...!

وقد يطلب إليه الـكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه أهون مما هو أو أقلّ سمواً ، فيأبى أن ينزل إلى ذاك ؛ ومذهبه أن يحاول جذبَ الجمهور إلى أعلى ، بدل أن يتدلىّ هو إلى الجمهور ، وأن يكتب ما يُرضى الفن لا ما يرضى الناس . على أنه لو أراد الرافعى أن ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئاً غير الرافعى لأنه على مقدار عمق الفكرة ، يكون عمق الصورة اللغوية التى تتأدّى بها ، ولن يستطيع كاتب من الـكُتاب — فيما أرى — أن يرضى الفن ويرضى الجمهور فى وقت واحد ، حتى لو كان يكتب بلغة العامة ، فان الـكتابة لغةٌ وفكر ، أفتراه إن كتب بلُـغة العامة ، يكتب أيضاً بأفكار العامة . . . ؟

وقد أخذ الرافعى منذ أكثر من عام يكتب فى (الرسالة) نوعاً أحسبه جديداً فى الأدب العربى ، جَمعَ إلى الرافعى طائفة من القراء لم يكونوا يقرؤون له ، وعرّفه إلى الذين لم يكونوا يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه . ولا أدلّ على قيمة هذه المقالات ، من ترجمة بعضها إلى غير العربية ، على ما فى ترجمة كتابة الرافعى مِن عنف ومشقة !

وأذكر أن بعض المستشرقين الألمان يُعنى بوضع كتاب بالانجليزية عن (زعماء الأدب العربى الحديث) بمعاونة الأستاذ طاهر الخميرى المغربى ، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من

كبار كتابنا ، فلما قرأ مقالات الأستاذ الرافعى فى (الرسالة) ، كتب اليه منذ قريب رسالة طويلة يثنى عليه ثناء بالغاً ، ويعده بأن يصحح أغلاطه فى الجزء الثانى من الكتاب . . . . !

الرافعى القصصى :

لم يكن الأستاذ الرافعى معروفاً بكتابة القصة ، حتى جاءت قصصه فى (الرسالة) برهاناً على نوع جديد من عبقريته ، وهو يروى أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء ، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية ؟ . . . هذا سؤالٌ أحسب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه ؛ ذلك لأن كثيراً منهم لا يرى للرافعى فيها يداً إلا أن يُجَلّيها لوقتها . وأىّ يدٍ هذه . . . ؟

وطريقة الرافعى فى كتابة هذا القصص غريبة ، فمعظمه لا أساس له من الواقع ، أو أن له أساساً لا يلهم هذه القصصَ الطوال البديعة فى خيالها وموضوعها وفنها ، وانما هو يفكر فى موضوع الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ — على طريقته فى تأليف مقالاته — فاذا انتهى إلى ذلك تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم ما ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور ، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى أعدّه من قبل ، وإنه ليُلهم أحياناً ويوفق فى ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتى القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا سطور ، أو إلا أسماء الرجال . . . .

على أن وجه الابداع فى ذلك ، هو قدرة الرافعى على أن يعيش بخياله فى كل عصر من عصور التاريخ ، فيحسّ احساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لايشكّ من يقرؤها فى أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . . .

فليزِدْنا الرافعى من هذا الباب ليُعرّف دعاةَ الجديد أى رجل هو من رجالات العربية ، وما أشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصلٌ بعنوانه فى تاريخ الأدب الحديث

أرانى قد أطلت وما استوفيت ، على أنى ما قصدت إلى دراسة الرافعى ، وإنما هو إلمام سريع ببعض جوانبه ، على مقدار ما يتهيأ فى الذاكرة من الخواطر لوقتها ، فمعذرة ، والى اللقاء بعد جمام . . . ؟

(طنطا) محمد سعيد العريان

دراسات فى الأدب الانكليزى

٢ — وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

المتاخمون — The Borderers

وعلى أثر هذه الهبة أخلد ورد زورث إلى السكينة فى بيته الجديد فى « راسيدوم لودج » فى مقاطعة دور تشاير منقطعاً عن العالم وعاكفاً على المطالعة والانتاج ، وفى بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة « المتاخمون » ، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التى اقتبسها من « وليم ڤودْوِنْ » وفيها يدعو الى حل الشرائع والسنن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والمناداة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية ، أما تأسيسها فمن طريق الدعاية والجدل ، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن فى بدء حياته . ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لمبدأ الشيوعية الجديدة . بيد أن وردزورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالما تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها

كولردج ووردزورث

كان كولردج الشاعر الشهير يقطن فى بيت قريب من مسكن شاعرنا ، فلما علم بوجود ناظم « القطعات الوصفية » فى جواره رأى أن يزوره . ولما التقيا كان أول ما فعلاه أن تبادلا قراءة منظوماتهما وخصوصاً « الكوخ المتهدم » أو « مرغريت » وقد ضُمّتْ مؤخراً إلى قصيدته المشهورة « النزهة The Excursion » والمتاخمون The Borderers لوردزورث ومأساة أوساريا Osaria لكولردج

ولقد كتبت دوروثى رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « لقد كانت خسارتك عظيمة فى عدم مشاهدتك كولردج .. إنه لرجل عظيم حقاً ، ولا ينطق إلاّ بحديث طلى عذب يشفّ عن سموّ روحه وقوة إدراكه ، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين »

وعلى أثر زيارة كولردج له كتب عنه يقول : « انني لأستصغر نفسي إذا ما قورنت به » . وفي رسالة له يشير إلى دوروثي بأنها « امرأة حقاً ، وتتجلى أنوثتها في طبيعتها وفي روحها وعقلها . هي ساذجة الطبع ، قوية العاطفة عفيفة النفس ، ذات عين ثاقبة دقيقة الكشف والملاحظة » . ويقول وردزورث عن صديقه كولردج : « لم أرَ له مثيلاً بين الرجال »

فلا غرو إذن أن نجد شاعرنا وشقيقته بعد تبادل مثل هذه العواطف مع كولردج ينزحان إلى قرية صديقهما غبّ زيارته لهما بشهر . هناك وجد كلٌّ منهما له في الآخر مكملاً . فبينا كان كولردج رجل خيال وأحلام ، كان وردزورث شاعر الطبيعة والحقيقة . وليس أحوج من المصادقة بين الشعراء إلى التباين في الأهواء والأذواق الأدبية والفنية

وما كاد يستتبّ أمرهما حتى شرعا في مراسلة « نيومنثلي مَقَزِين » ، فساهما في نظم قصة موضوعها « الملاّح القديم The ancient Mariner » . أما مصدر هذه القصة فهو حلم قصه عليهما أحد الأصدقاء فرأيا أن يحوكاه في قصة شعرية . غير أنهما عدلا عن الاشتراك في نظمها لما لقياه من المشقّة في اقتسام مواضيعها الرئيسية . فقد قرّرا أولاً أن ينظم وردزورث الأجزاء التي تتجلّى فيها الأشياء والحوادث عاديّة مألوفة ، وأن يقتصر كولردج على ما يُعتمد فيه على الخيال الرائع والتصوير الشائق . ولالتباسهما في التمييز ما بين هذين النوعين من الفنّ آثر كولردج أن يختصّ بنظمها وحده ، ففعل ذلك بعد أن نظم وردزورث بضعة أبيات منها . ويُعزى إلى وردزورث استنباط الطائر الميمون Alabatross أحد أبطال هذه القصة . أما الفلسفة التي تتضمّنها هذه القصّة فهي أن يحبّ الانسانُ ما على الأرض على السواء حيواناً كان أو انساناً أو جماداً ، مادامت كلّها من خلقه تعالى

ولقد عزم الشاعران على دراسة اللغة الألمانية والالمام بثقافتها ذريعة إلى تفهم فلسفتها الغنية . لهذا قرّرا السفر إلى ألمانيا ، بيد أن أحوالهما الماديّة كانت مضعضعة إلى حدّ رأيا معه أن يسدّا عوزهما عن طريق النشر . لهذا أصدرا في سبتمبر ١٧٩٨ مجلّداً جامعاً لأشعارهما أسمياه « قصص شعرية غنائية » Lyrical Ballds . ولم يكن لكولردج فيه غير ثلاث قصائد إحداها « الملاّح القديم » ولسوء الحظ لم يصادف الكتاب رواجاً كبيراً في بدء الأمر ، كما يظهر من رسالة بعثت بها سارا زوج كولردج إليهما بُعيد سفرهما إلى ألمانيا تقول فيها من ضمن ما كتبته لهما « لم يلق الكتاب الاقبال المرجو »

سافر الشاعران ودوروثي إلى ألمانيا مخلّفين زوجة كولردج وأطفالها في رعاية پول أحد أصدقائهم . وقد رأوا أنهم بانفصالهم يقلون من المحادثة باللغة الانكليزية ويكثرون من ممارسة اللغة الألمانية ، لهذا قصد كولردج راتزبرج ليقضي هناك بقية الشتاء ؛ أما وردزورث وشقيقته فآثرا البقاء في مدينة غوسلار حيث نظم قصائده في « الطفولة الانكليزية » . ولم يستفد وردزورث من هذه السياحة بقدر ما استفاد صديقه كولردج ، فقد أصبح كولردج قادراً على النطق باللغة الألمانية كابنائها ، وعلى أثر رجوعه من ألمانيا ترجم كتاب « ولنشتين » للفيلسوف شيلر . إلاّ أن إلمام وردزورث اليسير بهذه اللغة لم يكن بعيد الأثر في حياته الأدبية . رجع وردزورث وشقيقته من ألمانيا يحدوهما الشوق والحنين إلى أرض الطفولة ، وكان ذلك في ربيع سنة ١٧٩٩ ، وفي طريقهما عرّجا على سوكبرن ليزورا أصدقاءهما آل هتشنسن . وما كاد كولردج يسمع بذلك حتى لحق بهما إلى سوكبرن في صيف تلك السنة

في اقليم البحيرات مرة ثانية

وفي هذه الزيارة أُتيح لوردزورث أن يرود هو وكولردج ودوروثي وبعض الأصدقاء اقليم البحيرات مرة ثانية ، وخصوصاً مع عصبة كهذه دأبها التأمّل ، وفي حين اكتملت فيه عقلية وردزورث وأرهف حسُّه للتشبّع من جمال الطبيعة في هذا الاقليم الذي ألفه منذ صباه . واقليم البحيرات من أجمل البقاع في بلاد الانكليز على الاطلاق ، وهو يقع على حدود سكوتلندا في مقاطعتي وستمولند وكمبولند حيث ولد شاعرنا . وفيه نحو ست بحيرات متقاربة ، تحيط بها جبال شاهقة وتطوّقها مناظر طبيعية رائعة . في هذا الاقليم قضى كلّ من كولردج وسذي قسماً من حياته ، وفي هذا المحيط نشأ شاعرنا وترعرع ، فلا غرو إذا أمه بعيد رجوعه من ألمانيا . ولاستطابته المقام والعيش في

هذه البقعة استأجر فيها بيتاً سماه « كوخ الحمامة » . وفى القسم الأول من قصيدته « المعتزل The Recluse » صورة رائعة لحياة أولئك الأدباء فى ذلك البيت . ولقد ذاع صيت هــذا الاقليم واشتهر باشتهار أصحابه الشعراء وروّاده الأدباء فأصبح ولا يزال محجة لأهل الأدب والفنّ يقصدونه من جميع الأقطار الأوروبية ليتعرّفوا إلى البقعة التى خلّدت أسماء شعراء البحيرة وخُلدتْ فى أشعارهم . وجمل مؤخراً من بيت وردزورث ورفاقه متحفا أودعَ فيه كلّ ما خلّفه من آثار تظلّ تدلّ عليه وتنطق بنبوغه على مدى الأيام . ولقد وضع وردزورث سنة ١٨١٠ مقدمة لكتاب « مناظر منتخبة من كمبرلند » لولكنسنْ ، وهو وصف بارع لهذه البيئة وسكانها

فى تلك البقعة أخذ نجم وردزورث يسطع فى سماء الشعر إذْ ثمّ شرع ينظم قصائده الخالدة التى تُعدّ فتحاً جديداً فى الأدب الانكليزى ، كيف لا وقد أتيح له أن يحتك بزهرة الأدباء فى ذلك العصر كسرْ هتشنسون ولامبْ ودى كونس وسكوت وسرْ همفرى ديفى . فكانت عصبة دأبها البحث والتأمل والتحقيق والانتاج الأدبى . وكثيراً ما كان يقوم بنزهات قصيرة مصطحبا شقيقته دوروثى وأخاه يوحنا ، فيرتادون شواطئ البحيرات ويتسلقون الجبال والآكام ويهبطون الوديان والمنعرجات وشاعرنا فى تنقلاته هذه كثير التأمل دقيق الملاحظة والاستقراء ، فلا يفوته منظر جميلٌ دون أن يصفه ، ولا خاطر رقيق إلا ويسجله . فى ذلك الاقليم أتمّ قصائده الكبرى التى تمثل نزعته وتشرح فلسفته ، أهمها « المعتزل The Recluse » والفصل الأول من « النزهة The Excursiou » و« الفاتحة The Prelude » . وفى قصائده هــذه وفى غيرها من منظومات هذا الأوان تلمح روحا ونابة ونفساً نزاعة مستعصية ؛ وسنقول كلمة فى « النزهة » و « الفاتحة » عند الكلام على شعره

(يتبع) جريس القسوس

وزارة المعارف العمومية

إعلان

العدول عن مسابقة كتب المطالعة العربية

للمدارس الابتدائية

سبق أن أعلنت الوزارة عن حاجتها إلى كتاب فى المطالعة العربيـة لكل سنة من السنوات الأربع بالمدارس الابتدائية وحددت لتقديم هــذه الكتب ميعاداً غايته آخر ديسمبر سنة ١٩٣٥

وقد رأت الوزارة أخيراً أن تضع هى الكتب المطلوبة — ولهذا تعلن عدولها عن المسابقة ؟

اعلان

وزارة الأوقاف

بصفتها مديرة لدائرة سمو الأمير أحمد سيف الدين تعيد اشهار مناقصة دق وتجميع ثلاث مواسير ارتوازية بوصه ٨ بأطيان مأمورية شرنوب حسب المقايسة الموجودة بالدائرة ، وتقدم العطاءات داخل مظاريف مقفلة بالشمع الأحمر باسم وزارة الأوقاف قسم الادارة لغاية ظهر يوم ٢٠ أغسطس سـنة ١٩٣٥ ، وكل عطاء لا يكون مصحوباً بتأمين يوازى ٢٪ من قيمته لا يلتفت إليه ، والوزارة حرة فى قبول أو رفض أى عطاء بدون ابداء الأسباب ، وقد تحدد لمهو العمل مدة أربعين يوماً من تاريخ التصريح ، وعند رسو العطاء يكمل التأمين إلى عشرة فى المـاية . هذا ولمقدمى العطاءات حق حضور جلسة فتح المظاريف فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى ؟

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى

قرأنا فى (الرسالة) الثامنة بعد المائة مقالة الأستاذ محمد محسن البرازى ، فى الردّ علينا ، فاذا الأستاذ برغم تفوقه على أكثر أقرانه من الشباب الذين درسوا فى أوربة بذكاء كان موضع اعجابنا ، قد أخطأ فهم كلامنا ، فأخذ منه بعضاً وترك منه بعضاً . وحمّل كلامنا ما لا يحمل ، وأخذ منه عبارة على غير الوجه الذى وضعناها عليه ، ثم لم يدّخر وسعاً فى ردّها ، ولم يتورع عن أن يسميها زعماً لا يمكن لعاقل أن يزعمه ، وما لم يمكن للعاقل يمكن للمجنون . . . . فكان الجنون جزاؤنا لأنا لم نذهب الى الأستاذ فنقرأ له كلمتنا كلها ، التى لم يقرأ منها إلا ما فيه الردّ علينا ، فكان أمرنا معه كما قال المثل الفقهى :

« زنَّاه َحَدَّه . . . »

***

لا يا أستاذ ! أنا ما قلت : « إن الفقه الرومانى جديد لفّقه طائفة من العلماء الخ . . . » وسكتّ ، ولكنى أوردت هذه الجملة فى معرض الفرض والتقدير ، فقلت (وهذه عبارتى بالنص) : « . . . على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل على واحد على أن الفقه الاسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ، (وقد علق على هذه الكلمة أستاذنا الجليل الزيات بالتفريق بين الأخذ والتأثر) إلا إذا كان القرآن مترجماً عن لغة الرومان ، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين ، والذى نقوله ، (وليتنبه القراء للذى نقوله) إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين (إذا كانت) فان الفقه الرومانى هو المقتبس عن الفقه الاسلامى ؛ ودليلنا على ذلك أن الفقه الرومانى الحاضر جديد لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم ، وهذا الدليل على علاته (تأمل قولنا على علاته) أقوى من دليلهم على دعواهم ، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الرومانى الحاضر هو القديم بذاته ، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة ، والروايات المضبوطة ، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا ، وروايات سنتنا »

هذه هى الجملة ، وليس معناها يا سيدى أنا نعتقد بأن الفقه الرومانى جديد الخ . . ولم يكن موضوع مقالنا الفقه الرومانى ، ولكنها كلمة جاءت عرضاً ، ومعناها أن هذه الدعوى على علاتها (أى مع اعترافنا بأن فيها شيئاً) أقوى من دليلهم على دعواهم أن الفقه الاسلامى مأخوذ من الرومانى ، أى أن دليلهم ليس بشىء مطلقاً ، ما دام دليلنا على هذه الدعوى الغريبة أصحّ منه ، هذا هو القصد ، وهذا أسلوب من أساليب البيان يفهمه من كان من أهله !

ثم إن هذا كله على فرض أن هناك علاقة بين الفقهين ، ووجود العلاقة هو المقدمة المنطقية اللازمة لهذه النتيجة ، ونحن ننكر هذه العلاقة ، والأستاذ قد أنكرها وبيّن أنه لا تشابه فى أحكام الفقهين فى الأحوال الشخصية الخ .. فنحن إذن متفقون على اسقاط هذه النتيجة

ولست أقول هذا الآن ، ولكن يقوله كلامى المنشور فى (الرسالة) الواحدة والتسعين منذ أربعة أشهر كاملة

فهل يصحّ للأستاذ أن يقيم القيامة علينا ، ويزلزل بنا الأرض ، من أجل هذه الكلمة ؟ . . .

***

هذا ، وإن فى مقال الأستاذ شيئاً عن الموازنة بين رواية الحديث ونقل الفقه الرومانى ، قد يفهم منه أن الفقه الرومانى أصحّ سنداً ، وأثبت نقلا ، لأنه — كما يقول الأستاذ — قد دوّن فى عصر جامعه ومصلحه جوستنيان ، والحديث إنما شرع فى تدوينه بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة ، ولأنه لا دليل على الصحة بعد الوثائق الأثرية ، والنسخ المخطوطة القديمة . فنحن ننبه من قد يفهم منه هذا الأمر بأنه باطل وليس بشىء

ونحن نكرر وصية الأستاذ (الشاب) لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية (ونزيد : أو تعصب عليهما) ، وكره لأوربة والثقافة الغربية (ونزيد : أو موت فى عشقهما) فيسرفوا فى القول حتى يجانبوا النطق

ونسأل الله أن يرينا الحقّ حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطلَ باطلاً ويرزقنا اجتنابه . ونشكر للأستاذ الفاضل جهده وفضله ما؟

على الطنطاوى

٨ ــ شاعرنا العـالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

عقيدته الدينية والسياسية : كان لنشأة أبى العتاهية بالكوفة أثر فى عقيدته الدينية والسياسية ، فقد كانت الكوفة مهد التشيع للعلويين من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة خلافته ، وآثرها بذلك على المدينة التى كانت عاصمة الخلافة قبله ، فنشأ بها أبو العتاهية متشبعاً بمذهب الزيدية البترية ، لا يتنقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان ؛ وكان مجبراً ، يقول بالتوحيد ، ويزعم أن الله خلق جوهرين متضادين لا من شئ ، ثم بنى العالم هذه البِنية منهما ، وهو حادث العين والصنعة لا محدث له إلا الله تعالى ، وسيرد الله كل شئ إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً ؛ وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طِباعاً ، ويقول بالوعيد وتحريم المكاسب . ولما ظهر الخلاف فى خلق القرآن كان ممن يقولون بخلقه ، وقد حدث أبو شعيب صاحب ابن أبى دؤاد قال : قلت لأبى العتاهية : القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : أسألتنى عن الله أم عن غير الله ؟ قلت عن غير الله ، فأمسك ؛ وأعدت عليه فأجابنى هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً ، فقلت له مالك لا تجيبنى ؟ قال : قد أجبتك ولكنك حمار

فهذه هى عقيدة أبى العتاهية لا شئ فيها مما ينسبه إليه بعضهم من الزندقة ، وإن كان يخالف فيها المعروف من مذهب الجماعة ، ولكن بنى العباس كانوا قد نقضوا ما اتفقوا عليه مع بنى على قبل قيام دولتهم ، من جعل الأمر شورى بينهم ، فاستأثروا به لأنفسهم ، وثار بذلك بنو على عليهم ، وتحركت نفوس كثير من العلماء ووجوه الناس لنصرتهم ، فلم ير بنو العباس حيلة تنفعهم فى ذلك إلا أن يأخذوهم باسم الدين ، ليخدعوا به العامة ، ويرهبوا به الخاصة ، وأحدثوا فى ذلك ما لا يعرفه الاسلام من التجسس على الناس فى أمور عقائدهم ؛ وقد أمر الاسلام أن يؤخذ الناس فى ذلك بما يظهر منهم ، وأن يترك باطنهم لله تعالى وحده ؛ وإنما السياسة وحدها هى التى أخذت من أخذت فى ذلك العهد باسم الزندقة ، والدين برئ من هذه الدماء التى سفكت بالشُّبهة ، واستبيحت بالظِّنة

فلما انتقل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد ، وعرف العباسيون أخذه بالتشيع لأبناء على ، حتى استرابوا به ، وأحاطوه بجواسيسهم الذين بثوهم فى الناس لارهابهم بالصاق تهمة الزندقة بهم ، إذا رأوا فيهم ميلا إلى أعدائهم ، فعاش أبو العتاهية فى بغداد تحوم حوله هذه الشبهة من أجل تلك الغاية السياسية ، واغتر بها بعض الناس فطعنوا بها فى عقيدته ، وهو أبعد الناس من تلك التهمة الشائنة ؛ وقد أمكنه مع هذا أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التى فهم العباسيون غرضه السياسى منها ، وأنه يقصد محاربة دولتهم بذلك السلاح الذى أعياهم أمره ، وجعل يفتح أعين الناس إلى عيوبهم فلا يعرفون كيف يكسرونه من غير أن يفتضح أمرهم ، ولم يجدوا إلا أن يداوروا فى أمره ، ويأخذوا صاحبه بالشدة مرة وباللين أخرى ، ويشككوا الناس فى أمر عقيدته ليضعف أثر شعره فيهم ، ولا يصل إلى ما يريده منهم ، فكانت محاربة بارعة من الجانبين ، قام فيها الدهاء السياسى مقام السيف ، وأدى فيها أبو العتاهية رسالته الشعرية بدون أن يمكن سيف العباسيين من رقبته ، وعملوا هم على إفساد غايته بدون أن يفضحوا أمرهم أمام الناس بسفك دمه لأنه ينشر فيهم تلك الدعاية المحبوبة ، ويحاول إصلاح نفوسهم بالزهد الذى بعدوا عنه كل البعد ، وشغفوا بدنيا العباسيين كل الشغف ، وإنا نسوق بعد هذا بعض ما كان يلقاه أبو العتاهية فى ذلك لنعرف كيف كانوا يتكلفون الصاق تلك التهمة به

ذكر النسائى عن محمد بن أبى العتاهية أنه كان لأبيه جارة تشرف عليه ، فرأته ليلة يقنت فروت عنه أنه يكلم القمر ، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها ليلاً وأشرف على أبى العتاهية فرآه يصلى ، فلم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئاً

وممن كان يشنع على أبى العتاهية بهذا رجاء بن سلمة ومنصور ابن عمار ، وقد حدث العباس بن ميمون عن رجاء قال : سمعت

أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة عم يتساءلون ، ثم قلت قصيدة أحسن منها . قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا . ولما قص منصور على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفى ، فبلغ قوله منصوراً ، فقال أبو العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر فى شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عرى وعورته ... للناس بادية ما إن يواريها
فأعظم الاثم بعد الشرك نعلمه ... فى كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها ... منهم ولا تبصر العيب الذى فيها

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يغفر الله لك أبا السرى ما كنت رميتنى به

وحدث الخليل بن أسد النوشجانى قال : جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا ، فقال زعم الناس أنى زنديق ، والله ما دينى إلا التوحيد ، فقلنا له فقل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

ألا إننا كلنا بائد ... وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الالـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ... وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

وحدث محمد بن أبى العتاهية قال : لما قال أبى فى عتبة :

كأنما عتبة من حسنها ... دمية قس فتنت قسها
يارب لو أنسيتنيها بما ... فى جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة ، وقال يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها فى شعره بمثل هذا التهاون . وشنع عليه أيضاً بقوله :

إن المليك رآك أحـ ... ـسن خلقه ورأى جمالك
فحذا بقـــدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

وقال أيصور الحور على مثال امرأة آدمية والله لا يحتاج إلى مثال ، وأوقع له هذا على ألسنة العامة فلقى منهم بلاء

ولا تخفى سماجة هذا النقد ، وأن الدين لا يصل فى الحرج على الشعراء إلى هذا الحد ، وأين ابن عمار فى هذا من عبد الملك بن مروان وقد اجتمع ببابه عمر بن أبى ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة ، فقال لهم أنشدونى أرق ما قلتم فى الغوانى ، فأنشده جميل :

حلفت يميناً يا بثينة صادقا ... فان كنت فيها كاذبا فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنى ... وباشرنى دون الشعار شريت
ولو أن راقى الموت يرقى جنازتى ... بمنطقها فى الناطقين حييت

وأنشد كثير :

بأبى وأمى أنت من مظلومة ... طبن العدو لها فغير حالها
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى ... فى الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلى بصرم عزة نسوة ... جعل المليك خدودهن نعالها

وأنشد ابن أبى ربيعة :

ألا ليت قبرى يوم تقضى منيتى ... بتلك التى من بين عينيك والفم
وليت طهورى كان ريقك كله ... وليت حنوطى من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى ... هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه : أعط كل واحد منهم ألفين ، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف . ولكن هذا عصر وذاك عصر ، والناس فى كل عصر على دين ملوكهم ، وإذا كان العباسيون قد تغالوا فى أخذ الناس بالزندقة فى عصرهم ، فلماذا لا يتغالى ابن عمار وغيره فى ذلك أيضاً ؟

عبد المتعال الصعيدى

دموعى وصــــباباتى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

دموعىَ ياليـلَى إليكِ رسائل   أبثّ صـباباتى بها أو أحاول
ومن فشلت آماله فى حيـاته   فليس له غير الدموع وسائل
من السَّبْح قد كلَّت يداى وأرجلى   أما لك يا بحر المحبـــة ساحل
أقول لقلبى يوم مات رجاؤه   عزاءك يا قلبى فإنك ثاكل
وقد أتداعى للمنيَّـــة فى غد   كأنى جدار ضعضعته الزلازل
على الأرض أيام الشقاء كثيرة   تُمضّ وأيامُ السرور قلائل
تقرَّبتِ يانفسى من الهُلك بعدما   تكلَّفتِ عمراً أفعمتـه الغوائل
دنا أن تكونى للمنايا فريسة   فلا تجزعى مما بكِ الدهرُ فاعل
ولا تجزنى إمَّا ألمَّ بكِ الردى   فقبلكِ يا نفسى تردَّت فطاحل
وماقيمةُ القلب الذى تحت أضلعى   فتنُصَبَ أشراكٌ له وحبائل
على الحق قد عوَّلتَ ياقلب مؤثرا   ومَن لك ألا يُزهِق الحق باطل
ومهما تزدنى غيهباً فوق غيهبٍ   فإنك عند الصبح يا ليلُ زائل
إذا كنتَ تستهدى بعقلك وحده   فما أنت فى يوم إلى الله واصل
و إن كان إيمان الفتى عن عقيدة   فأضيعُ شىء فى الحوار الدلائل
يلوموننى فى حب ليـلىٰ بشدة   ومن حب ليلى لى عن النوم شاغل
لقاؤكِ ياليـــلى لنفسى لبانةٌ   فأىَّ رقيبٍ بيننا هو حائل
و إن تك روحى هـذه ثمناً له   فما أنا بالروح العزيزة باخل
ونفسى إذا فتَّشتِ نفسى وجدتِها   كعصفورة قد هدَّدتها الأجادل
ولِلْهمّ إمَّا جنَّنى الليـل داجيا   جحافلُ فى آثارهن جحافل
إذا كان لى ذنبٌ به تأخذيننى   فإنى لذاك الذنب بالدمع غاسل
سهامك يادهرَ الأديبِ كثيرةٌ   وكلى إذا سدَّدتَ سهماً مَقاتل
وياطيف ليلى أنت أكرم من سرى   إلى مغرمٍ قد أعجزته الوسائل
وياطيف ليلى أنت فى الأرض صنوُها   وأنت لهـا فى كل شىء تماثل
و يا طيفها مالى شكاةٌ من النوى   فإنك فى عينى وقلبىَ ماثل
تُماطلنى ليلى إذا هى واعدت   وأنت إذا واعدتنى لا تُماطل
و إن بخلت ليـلى فإنك محسنٌ   و إن هجرت ليلى فإنك واصل

لقــد جعل الدنيا إلىَّ حبيبةً   هوًى هو فى أعماق نفسىَ داخل
لئن كان يانفسى شديداً بك الصدى   لقد نضبت يا نفس تلك المناهل
وما هــذه الدنيا سوى دارِ محنةٍ   قليل بها مَن لم تصبه النوازل
إذا سلِم الانسان من غيظِ أرضه   أصابته من صوب السماء القنابل
حيـاة إذا إينفَتْ تُزايل أهلَها   وموتٌ إذا استولىٰ فليس يزايل
ولا تحسب الأخرى أقل قساوةً   فأكثرنا منهـا على النار نازل
أراك تخاف النارَ نارَ جهنمٍ   و إنك أنت المؤمن المُتفائل
يقولون شيطانُ القريض موسوسٌ   وهل مصدر الوسواس إلا الخلاخل
وما منتدى الآداب إلا كروضة   محبَّبـــة أبكارها والأصائل
وكل امرئ يصبو لما اختار ذوقُه   وفى الروض غربانٌ وفيه عنادل
وللعندليب الزهرُ فى الروض باسمٌ   وللزهر فيـه العندليبُ يُغازل
وأكبرُ مَن حاك القريضَ هو الذى   يهزّ جماهيراً بمـا هو قائل
وأكبر منه مَن إذا قال أصبحت   تناقَلُ أقوال الحكيم المحافل
وأكبرُ من هذا وذلك شاعرٌ   عن الحق فى نظم القوافى يُناضل

بغداد   جميل صدقى الزهاوى

العصر الذهبى

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة :

أولع الناس من قديم الزمن بالتفكير فى عصر الانسانية السعيد : عصر الخير العميم الشامل ؛ فبعضهم كان ينشده فى الزمن القديم ويبكى انقضاءه ، وبعضهم ينشده فى المقبل من العصور ، يدنيه رقى الانسان . وكثيراً ما استخدم شعاره أهل الحرص لنيل أطماعهم ، واقتياد الناس لاستثمارهم واستذلالهم ؛ وكثيراً ما علق الأذلاء بكماله حتى إذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة ؛ وهو مثل عال ولا تحلو حياة الانسان إلا به ؛ ولئن صدق ما يقوله بعض المفكرين الذين يزعمون تحققه نذير الفناء ، فرحباً بالفناء يكون نذيره الخير والسعادة الشاملة والمثل العالى ، وقد لا يصدق تشاؤمهم !

الناظم

* * *

عصرَ السلام تحيـــة وسلام   خامتْ عليك رجاءها الأقوام
من كل عصر فى نسيجك لحْمَةٌ   ألأجل صنعك تدلُف الأعوام
إمَّا دنوت وما عهـدتك دانياً   عَفَّى على نقص الأنام تمام

نستقبل الأيام وهى كوالح   مستبشرين إذِ التمام إمام
خالوك فى الماضى ـ ولم تك ماضياً ـ   إذ زان منه البعد والأوهام
ويرون فى غدهم سراباً نائياً   فيطول نحس العيش والاجرام
تتغير المُثُلُ التى شاقتهمُ   تتبدل الآمال والأحلام
حسب الورى من حسن عهدك قدوة
    علياء ما إنْ شانها استبهام
ما فاتهم طب الطبيب وإنما   تتباين الأرواح والأفهام
ولَانت فى سير النفوس إذا صفت   يدنى إليك البر والاكرام
عطف النفوس على النفوس ولن تُرَى
    أبداً ونفس فى الأنام تضـــام
هيهات يكرم فاضلاً ذو خسة   أو يغفر الجانى شآه كرام
استبطأوك وأنت بين جنوبهم   وتَنَظَّروك ودأبك الالمام
ورأوك فى الدهر البعيد ولو دروا   أنْ لو أرادوا كان منك لِمَام
لرأوا مشيئتهم تشاء ولا تشا   هاموا وتحسب أنهم ما هاموا
ومن المشيئة ما يجىء فجاءة   ليست تجزئ أمره الأيام
ونأى بهم عن وِرْدِ خيرك أنهم   للحرص حادٍ بينهم وزمام
أمباغتا بالخير بعـــد تمنع   حب الأنام لعهدك استقدام
ولقد يتوب أخو المجانة بغتـة   من بعد عيش كله آثام
ويتوب هذا الخلق من شر ومن   إثم فتحمد خَيْرَك الأيامُ
كم فتنة أججتَ نار جحيمها   شوقاً لعهـدك والأنام حُطام
وشعار حق كم غدا أُحْبُولة   أثرى بحقـك فى الأنام لئام
وإذا العبيـد تحكموا فى فتنـة   ساروا على نهج الظَّلُوم وضاموا
أثرى العبيـد ببابلٍ وبطيبةٍ   أغرتهمُ بكمالك الآلام
لو أنهم ملـكوا لعافوا مسلكا   يدنى إليك وطاشت الأحلام
ولطالما حن اليهود لشرعه   ودعا المسيح له ورِيمَ سلام
وتَنَظَّر المهـــدىَّ قوم أمّلوا   ركباً له يحدو به الاسلام
ثار الفرنس وخيرهم يبغى له   عهداً تدين لشرعه الأحكام
يبكى ويعتنق الغريب مُبَشِّراً   بالشر زال وبالكمال يُشام
مازال شر — لا — ولم يمهد به   نهجَ السلام الحكمُ والحكام
أنَّى تكون وفى الأنام تفاوتٌ   أُسْدٌ لها فى الصاغرين سَوام
عِزٌّ وذو مكر فلست بكائن   حتى تَساوَى فى الأنام الهام
فمتى يدين لسُنَّةٍ لك جمعهم   ويراك خيراً شَرُّهم فترام
لا يصدق الكُهّان إن هم أنبأوا   بدوام ما لم يُلْفَ فيه دوام
كم من عهودٍ كان يحسب أهلها   أنْ زل عنها النقض والابرام
نَسِىَ الأنام عهودهم فعهودهم   أقصى وأدنى منهمُ الأوهام
فقد الأنام صفاتِ أجداد لهم   وتحولت وتبـدلت أجسام
والطبـع فى غدد الجُسوم فَعَلَّها   يوماً تصح فلا يكون أثَام
وتعود من فرط الصفاء حياتهم   ذهبيـــــــةً أيامها والعام
خير مَرَى الحرصُ الخسيسُ أقل من
    خير لديك تروده الأحـــــلام
والنحس عدوى ليس يُقصِى شرَّها   إلا التضافر شاده الأقوام
كذبوا فما أبقى التقاتل بينهم   إلا الضعيف وقد قَضَى المقدام
خلفت فى سير النفوس مباهجاً   وتجملت بجمالك الأيام
كغناء حادى الركب رَفهَ عنهمُ   نعم النشيد ونعمت الأنغام
حُلُمٌ هو المثـل الأجلُّ وإنهم   لولا مثال كمالك الانعام
ولعل عمر الشر ليس بدائم   ينمو سناك فينمحى الاظلام
قالوا إذا ما جاء خيراً كله   لم يبق خير فى الحيـاة يشام
لولا جهاد فى الشرور تعطلت   سبل المكارم واستنام أنام
إن لم يكن نقص ففيم رجاحة   وبضدها تتميز الأقوام
لا يطعم السعدُ الشَّهِىَّ وشُهْدَهُ   من لا ترود فؤادَه الآلام
والوهن يسعى للفناء دبيبـه   إن لم يكن حذرٌ وعَمَّ سـلام
لغز الحياة وليس يفقـه لغزها   بين الأنام مُفَهَّمٌ عَلّام
والشر أهون بعضه من بعضه   فاطلب كمالاً كى يقـل الذام
أهلاً بغائلة الفناء نذيرها   عهـد يَشُوق سلامُه وتمام
إن لم يصح العيش إلا أن ترى   شرع التنافس فى الأنام يقام
فعسى التنافس فى المحامد ينثنى   طبعاً وإن قيـل الأنام لئام
يدنو إذا بطلت ضرورة كائدٍ   يُزْجَى بهـا رزق له وحطام
إن نال كلٌّ مطمئناً رزقَه   فعلام لؤم للورى وخصام
دِينُ التنافس فى المكارم ربمـا   أنماه نصح فيهمُ وحسام
فترى الورى دينَ الورى وصلاحُهم
    فرض يدين لشرعه الأقوام

عبد الرحمن شكرى

القصص

من أساطير الإغريق

مأســـاة أم

للأسـتاذ دريني خشبة

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه فى حدائق السوسن ، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب ، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورد ، وتحملق نواظر النرجس ترى إلى كاليستو الرقيقـة رقة النسيم ، الحلوة كأنها حلم جميل فى أجفان عاشق ، الموسيقية التى يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء ، ويتسع حتى يغمر السكون ، فيثوى بكل أذن ، ويستقر فى كل قلب ، ويخفق مع نبضات المحبين ، وينسكب ذوباً من دموع المدنفين المعذبين !

رآها زيوس فجُنّ بها ! وبالرغم مما أعطى على نفسه من مواثيق لزوجه حيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائى كن إلى هـذه اللحظة ستاً أو أكثر من ست ، فقد ذهب يقتفى أثر كاليستو ، ويرهف سمعيه ليملأ بموسيقاها قلبه

كانت تمشى بين صفين من أعواد الزنبق ، تنمقهما ورود ورياحين ؛ وكانت تنثنى وتميس ، فيهتز الروض وينتشى الزهر ، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة ، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت ، كأن كل شىء فى تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو فى فرقة كاليستو الموسيقية

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجنىّ ، ورطبها الشهىّ ، فتتذوقه كاليستو وهى تبتسم وأسكر النسيم الخمرى عينيها الساجيتين ، فاستسلمت للكرى الطارىء والغفوة العارضة ، وتمددت على البساط السندسى ليحسر الهواء عن ساقيها ، ولتكون فتنة يضل فى تيهها قلب زيوس ، وتضرب فى بيدائها نفسه . . . على غير هدى ! ! . . .

وبدا للإلـه الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الإهاب ؛ ثم يسوق آلهة الأحلام فترقص فى أجفان كاليستو ، تبهرج لها من الرؤى مايشب فى نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب ، ويثير فيها حرارة الحياة

ونام الخبيث إلى جانبها ، وطفق يروح على وجهها ، ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد ، وراح يضغط قليلاً . . . قليلاً

ولقد فعلت الأحـلام الحلوة فعلها فى قلب كاليستو ، فلما استيقظت ، ووجدت نفسها فى حضن هذا الشاب اليافع الجميل ، لم تنفر ، بل خجلت خجلة زادتها جمالاً ، وضاعفت سـحرها وفتونها ؛ وفترت أهدابها فاسـترخت ، وفنيت فى حبيبها المفاجىء . . . وفنى هو الآخر فيها

***

وجاءها المخاض !

ووضعت غلاماً أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب ، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلّها الندى

فلما زارها زيوس وبشرت به ، اهتز الإلـه الأكبر وشاعت الـكبرياء فى أعطافه ، وأخذ الغلام فباركه ، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة ! ؛ ثم زف إلى كاليستو تلك البشرى التى ظل يخفيها عنها طوال حبه لها ، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفاً :

– « بوركت يا أركس ! يا أجمل أطفال الأولمب ! »

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب ، وقالت له :

– « أجمل أطفال الأولمب ؟ إذن من أنت أيها الحبيب ؟ »

– « بشراك يا كاليستو ! فأنا ربُّك وزوجك وحبيبك زيوس ! » ولم يسعْ كاليستو إلا أن تسجد لربها وهى ترتعد من الخوف ؛ فقال لها :

– « انهضى ! انهضى ! ماذا تصنعين يا حبيبة ! انهضى فقد رحمت ابننا أركس إلـها ، فاكفليه حتى يشب ، وإياك أن تراكما حيرا فتسحقكما . . »

وقبَّل الغلام وقبل الأم ، ، ، وغاب فى الأفق . . .

***

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة ، فاذا خرجت للصيد فى الغابات القريبة ، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر ، يكفى أحدهما لتشتيت شمل جيش بأ كمله . وكانت تحمل اليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة ؛ حتى إذا استد ساعده ، علمته الرماية وألعاب الفروسية ، مستعينة فى ذلك بالسنتور العظيم ، شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه

وذاعت الأنباء فى دولة الأولمب ، أن زيوس خليلة يختلف إليها فى الفينة بعد الفينة ، وأنه أولدها طفلاً بارع الحسن ، وسيما قسيما ، يكاد يكون فى مستقبله هرقلا آخر ، يضارع هذا الهرقل الهائل ، ابن ألكمين ، الذى كان يدوّخ أبطال العالم فى ذلك الوقت . . .

وقد مادت الأرض بحيرا حين علمت هذه الأنباء ، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس ، وتخشى أن تلد إحداهن بطلاً يكسف شمس ولديها مارس وفلكان . وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها ، فكم نثرت فى طريقه شوكاً ، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار . أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر ينغص حياتها ، ويراوحها بالأشجان والآلام ! !

وكانت كلّيستو تصدح فى أصيل يوم من أيام الربيع ، فتستجيب لها الغابة ، ويردد غناءها الطير ، ويمشى فى إثرها الدوح ، وتهتز الأرض والسماء ؛ وكانت حيرا قد عرفت أوصافها من شيرون ، مدرب فتاها أركس ؛ فلما سمعتها تغنى ، ويمشى وراءها العالم بأسره ، عرفت أنها هى ! !

وكاد قلب حيرا يصبو الى كلّيستو ، مسحوراً بروعة الغناء ، مأخوذاً بترجيع البلابل . . . حتى لكانت تخال الورد نفسه يغنى معها ! ! وكادت بذلك تنسى غيظها ، بل كادت تنخرط فى هذا الحشد الموسيقى الذى يصفق لكلّيستو ويستجيب لألحانها ! ولكن !

لقد ذكرت ابنيها مارس وفلكان ، وذكرت يوم صرعهما هرقل فى حفل الأولمبياد ، حتى لكانا ضُحكة كل راء ! فنسيت الغناء وأصمّت أذنيها ، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية ، ورُقى غيبية ، ثم صاحت بالفتاة فسُمّرت مكانها دهشةً مأخوذة ، فنثرت حيرا فى وجهها الماء وهى تقول : « شاهَتْ دُبّة ! شاهَتْ دُبّة ! »

وا أسفاه ! !

لقد أحسّت كليستو فى ذراعيها الجميلتين بخدَر شديد ، ثم نظرت فرأت شَعَراً خشناً ينمو بسرعة فيغطّى جسمها البض الجميل كله !

وَأحسّت أظافر طويلة غليظة تنبت فى أطارف أصابعها ، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رِجْليها المعبودتين !

وشعرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول ، ثم يتغير ويتحول حتى لقد رُكب فيه أنف كبير أسود ، وفم مغبر فى منتهى القبح ، يسيل على جنباته لُعاب شائه كريه !

وخُيّل لها أن ذَنَباً ينبت وراءها ، فتحسّسته فأيقنت أنه ذَيل خبيث . . . ما فى ذلك ريب !

وفزعت كليستو ، فأرادت أن تصيح تستنصر الغابة ، ولكن . . . يا للهول ! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات ، وتعوى كما تعوى الذئاب ! !

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر ، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين ، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض !

وأصابها حيرا ظمأ كاد يصهر حلقها فذهبت إلى غدير تروى ، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقلب فى صفحته ، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد ، بل إنها قد انسحرت فصارت دُبّة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود ، وعينين رجراجتين تقدحان بالشرر

***

وانطلقت فى الغابة تعدو وتعدو ، وتتوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد ، وكانت الحيوانات -- حتى ضواريها — تفزع منها كلما مرت بها ، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الوحشة ، التى كانت قبل لحظات ترقص بين يديها . . . وتنشد وتغنى ! !

وضربت فى القفار والفلوات ، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه ؛ وكانت تختلف الى الغابة ، فاذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ولكنها تتوارى عنهم ، وفى نفسها هموم وحسرات

خمس عشرة سنة !!

قضتها كلّيستو التاعسة فى هذا الشقاء الطويل ، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر فى ابنها وتبكى . . . وتفكر فى مآلها . . .

وتبكى ، وتفكر فى ذكريات شبابها ... وتبكى ، وتذكر الوسيق والغناء . . . وتبكى ! !

واشتعل قلبها شوقاً إلى أركس ، فجلست الى أيكة حزينة تتناجى :

« ترى ! ما ذا تصنع الآن يا بنى ؟ أما تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة ؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولب ؟ هل أنت مريض يا أركس ؟ هل فى جنبك جرح يتفجر دماً لبعد أمك عنك ، كهذا الجرح الذى تنزف منه نفسى ، وتنسكب حياتى ؟ وهل إذا أصابك ضر ، فأنت واجد قلباً يحنو عليك ويترفّق بك .... ويرعاك ؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى ؟ يا ولدى ! ! . . . يا حبة القلب يا أركس . . . . ! ! »

وتبكى البائسة بكاء يذيب الصخر ، ويحرق فحمة الليل ، ويزلزل أركان الـكهف المظلم الذى تعودت قضاء لياليها فيه . . .

***

أما أركس فقد كان هو الآخر يبكى أمه ، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه ، ويطفئ بمواعظه نار أساه ، فنسىَ ، أو تسلى . . . أو تناسى . . .

واستد ساعده ، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم ، ولا يخيب له رمية ؛ وأحبّه شيرون من سويدائه ، ولازمه طويلاً ، حتى كانت حرب السنتور فودّعه وعاش الفتى وحيداً . . . يحيا حياة هى بحياة أمه فى شبابها الأول أشبه ؛ فيختلف الى الغابة يصيد منها الثعالب ، والى البرية يرمى فيها الوعول ، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد

وفيما هو يرتاد الغابة فى ضحى يوم شـديد القيظ ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة ، وتعرف فيه ابنها ، وأعز الناس عليها ... ! فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لاتنبس ولا تحير !

فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التى تقف صامتة كالألغاز فى المتاحف ودور الآثار ؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عند ما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال !

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها ، لأن الصيادين لا رهبون من ضوارى الغاب شيئاً كما يرهبون الدِّباب ، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها ، ولـكن . . . هيهات ! ! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك !

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه ، وهو غير متهيئ للرماية ، فارتبك حين تناول قوسه بيد مرتجفة ، وأصابع مرتعشة . . . . ولـكنه ، ويا للعجب ! أحس ببريق غريب ينبعث من عينى الدبة ، وشعر بحنان وعطف يتحركان فى صميمه من أجلها ، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع ، وضاعف دهشته أن الدبة سُمرت مكانها دون ما حراك ، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين ترنوان اليه ، وما تريمان عنه ! !

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الـكلام فتقص حكايتها على ابنها ، بيد أنها خافت أن تضـاعف انزعاجه بصراخها الحيوانى المخيف . . . فصمتت . . . وتكلمت عبراتها ! !

ثم . . . .

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه ، وكاد السهم المميت يعرق فيودى بحياة أعز الأمهات . . . . لولا أن زيوس . . . الالـه الذى طال رقاده ! . . . كان يسمع فى تلك الآونة ويرى ، ولولا أن تحركت فى قلبه الرحمة هذه المرة ، فلم يبال التدخل فى سحر زوجته ـ حيرا الخبيثة ـ فأطلق لسان كليستو ، وصاحت فجأة :

« أركس ! ... بنى العزيز ! ... أنا هى ... أنا هى أمك .. »

وسقطت القوس من يد أركس .. . . وكانت مفاجأة مشجية ! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق ! ! وقال لها :

ـ « ماذا تقولين ؟ أدُبة تتكلم ؟ أمّ من ؟ ... من أنا ؟ ... »

ـ « أنا هى يا بنى ... أنا كليستو أمك البائسة ... فعلت بى حيرا ما ترى ... خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكى من أجلك فى هذه الغابة الموحشة ... ! »

ولم ينبس أركس ببنت شفة ، بل تقدم مهدماً من الهم ، فعانق أمه ... ووقفا لحظة يبكيان !!

ثم تدفق حنان السماء ، وأمطرت رحمة الآلهة ، وأمر زيوس فحملا إلى الأولب — أركس وأمه — ومن ثمة أطلقهما رب الأرباب فى السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها ، ما نزال نراهما إلى اليوم ، وما نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة ، إذ نسمى الأم « الدب الأكبر » ، ونسمى الابن ، أركس الحبيب « الدب الأصغر ... » ... وما تزال حيرا القاسية تنظر اليهما وتتميز من الغيظ (١)

دريني خشبة

(١) أورد الأستاذ جريس . هـ . كيفر فى كتابه الجيل عن أساطير اليونان زيادة فى آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره ، بل لم يشر اليها أحد من مؤرخى الأساطير . والزيادة — إذا صدق حدسنا — هى من ابتكار الأستاذ ، ولذا لم نر أن نكمل بها قصتنا

البريد الأدبي

موسم الثقافة الاسلامية

فكرت رابطة الاصلاح الاجتماعى فى اجتماعها الأخير — فى القيام بدعاية واسعة النطاق لتنظيم « موسم للثقافة الاسلامية » يبتدىء من ٢٠ أغسطس وينتهى فى ٢٠ من سبتمبر القادم وإعداد برنامج حافل يشتمل على ما يأتى :

١ — إصدار أعداد خاصة من الصحف الاسبوعية الاسلامية ، تدعو لفكرة الجامعة الاسلامية وتتحدث عن التاريخ الاسلامى وتشرح الثقافة الاسلامية الحق

٢ — إصدار صفحات خاصة من الصحف اليومية تحتوى على آراء الزعماء والقادة فى الدعوة للوحدة الاسلامية وحث الشباب الاسلامى على القيام بنشر الثقافة الاسلامية فى مختلف الأقطار

٣ — إعداد محاضرات يومية تلقى فى المساجد والجمعيات والأندية والروابط وفى المذياع

٤ — إقامة حفلات تعارف وإخاء بين شبيبة العالم الاسلامى

اللغات الاجنبية فى الازهر

بحثت لجنة تعديل قانون الأزهر فى تعليم اللغات الأجنبية فيه فرأت بالاجماع وجوب تعليمها فى كلية أصول الدين لمختلف السنين الدراسية ، ولطلبة التخصص جميعاً ، واختلف فى تقريرها على طلاب كليتى اللغة العربية والشريعة ، ويقال إن ذلك الخلاف قد انتهى بتقريرها عليهم كذلك بحجة أن العالم الذى يتخرج فى الأزهر وفقاً لنظامه الحديث يجب أن يعد اعداداً اجتماعياً يؤهله لطلب الرزق فى كل ميدان من ميادين العمل ، ولا يكون هذا الاعداد صحيحاً إلا إذا ألم بلغة أو لغتين من اللغات الأجنبية ، أما اللغات التى ستقرر دراستها فى كليات الأزهر الثلاث فهى الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية واليابانية والصينية واللاتينية

نسبة بيتين

اطلعنا فى العدد ١٠٥ من الرسالة : على مقال : (ساعات مع الكاظمى) للأستاذ كمال ابراهيم نسب فيه هذين البيتين إلى ابن هانئ الأندلسى :

ما ضرنى ان لم أجىء متقدماً ... السبق يعرف آخر المضمار

وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعا ... فلرب كنز فى اساس جدار

وهذا سبق قلم من الكاتب ؛ والبيتان هما من خاتمة قصيدة لشاعر المغرب والأندلس فى وقته غير مدافع أبى عبد الله لسان الدين ابن الخطيب : دفين فاس ؛ وقد اثبتهما معزوين اليه معاصره وصديقه أبو القاسم محمد الشريف الغرناطى فى شرحه لمقصورة « حازم » (١) ؛ وكذلك أثبتهما له من المتأخرين أبو العباس المقرى فى النفح (٢) ؛ وابن الخطيب هذا أحد مفاخر المغرب وشعرائه المكثرين ، وله من الشعر ما يملأ الدنيا على سعتها ، توقن بهذا إذا ما علمت أنه جمع مطولاته خاصة فى ديوان أسماه « الصيب والجهام ، والماضى والكهام » فى سفرين ، وجمع مقطوعاته خاصة فى ديوان سماه فتات الخوان ، ولقط الصوان » ، واختار من مطالع ماله من الشعر سفراً دعاه « أبيات الأبيات » ، وجمع موشحاته وغيرها من الموشحات التى عارضها فى سفر أسماه « جيش التوشيح »

وقد نقبت فيما أعلمه من المكاتب العامة والخاصة علنى أعثر على كنز من هاته الكنوز الثمينة فلم أفلح !

ثم دعانى هذا إلى أن أزمعت منذ حين على جمع ما يمكننى الوصول اليه من شعر هذا الشاعر ، فاجتمع لدىّ من ذلك — بعد إفراغ الجهد وطول المراجعة — نحو الثلاثة آلاف بيت ، جمعتها مما أمكننى الاطلاع عليه من كتب لسان الدين وغيره من الذين عاصروه أو شغفوا به فعنوا بجمع أخباره ، والتقاط كتاباته وأشعاره ، ما بين مخطوط منها ومطبوع ؛ وسأتربص طويلا علنى أصل إلى ما لم يمكنى الوصول اليه من شعر هذا الشاعر فأضيفه إلى ماجمعته ، وأطبع الجميع مع مقدمة أقصر فيها القول على تحليل شاعرية لسان الدين ، وبهذا نصل إلى معرفة شاعر كبير قد جهلناه زمناً طويلا . . . ؟

فاس (المغرب الأقصى) — أحمد بن المليح

(١) عن النسخة المخطوطة بخزانة القرويين تحت رقم (415 ل 40) ، ص ١٧

(٢) ج ٤ ص ١٦٩

أرنولد تسفايج

يقيم منـذ عامين فى فلسطين كاتب من أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين هو القصصى الأشهر أرنولد تسفايج A. Zweig [(١)] ، وقد لجأ إلى فلسطين فراراً من عسف الطغيان الهتلرى ، لأنه يهودى تنكره ألمانيا الهتلرية ؛ ونزل فى ضيعة فى جبل الكرمل على مقربة من حيفا ، وكان مولد هذا الكاتب العظيم فى كلوجاد سنة ١٨٨٧ ؛ ودرس القانون وامتهن المحاماة ، ولكن جرفه تيار الأدب . وقد لفتت اليه الأنظار أولى قصصه : « مذكرات أسرة كلوبفر » ، وهى تاريخ أسرة يهودية هاجرت من بولونيا إلى ألمانيا ويظن أنها أسرته الخاصة ، ثم اتبعها برواية « أخبار كلوديا Die Novellen um Claudia » ، ثم هجر تسفايج القصة مدى حين وانقطع للتأليف المسرحى فنالت قطعه المسرحية نجاحاً عظيما فى ألمانيا والنمسا وفى كثير من الأمم الأخرى التى ترجمت قطعه إلى لغاتها . بيد أنه ترك التأليف للمسرح وعاد إلى القصة منذ عشرة أعوام فنجح فيها نجاحاً عظيما ، وأعظم قصصه هى بلا ريب « الجاويش جريشا » Sergeant Grischa التى يصف فيها مناظر الحرب الكبرى فى الميادين الشرقية وصفاً قوياً رائعاً ويصور فيه قائداً ألمانيا يظن أنه لودندورف فى صور لاذعة ، ثم اتبعها برواية « عذراء سنة ١٩١٤ » Die Junge Frau von 1914 ، والتربية فى فردون Die Erziehung vor Verdun

وقد عاد أرنولد تسفايج أخيراً إلى معالجة التأليف المسرحى ، وأخرج قطعة مسرحيـــة جديدة أوحت بها إليه إقامته فى مروج فلسطين عنوانها « بونابارت فى يافا » Bonaparte vor Jaffa ، ويقول الكاتب الشهير تعليقاً على عوده إلى التأليف المسرحى إنه شعر أثناء اشتغاله بكتابة القصة بأن شهوة المسرح تضطرم فيه مرة أخرى ، وأنه فى فترة فراغ وعزلة وضع قطعته الأخيرة فى خمسة فصول ، ثم يلخص موضوعها وظروف كتابتها فيما يلى :

« وقفت بطريق المصادفة على رواية تتعلق بحملة بونابارت على مصر ومشروعه فى غزو فلسطين وسورية ، والذى سحرنى بنوع خاص هو المشروع الهائل بل الجنونى الذى تصوره نابليون ، وهو أن يشق لنفسه طريقاً من عكا وحلب واستانبول ثم البلقان إلى فينا ومن ثم إلى فرنسا ، وذلك بعد أن حطم الانكليز سفنه فى أبى قير ، ولقد قرأت قصة الغزوة الفلسطينية باهتمام كبير خصوصاً وأن مسرح الحوادث كله يبدو أمام عينى ، من شرفة منزلى . فأمامى خليج حيفا ، ثم عكا على قيد أميال قليلة ، ثم جبل تابور الذى اضطرمت فيه المعارك ، حتى خيل إلى وأنا أكتب أننى أرقب حركات الجنود بكل تفاصيلها . وأما عن باعث القصة ، فانا نعرف أن نابليون قد أمر فى يافا بثلاثة آلاف من الأتراك ؛ ولما لم يستطع إطعامهم أمر بقتلهم ، ولكن الواقع أن الفرنسيين غنموا من الجيش التركى الذى قدم من دمشق وهزم فى جبل تابور نحو ستة آلاف قدر من المؤن ، وهذه تكفى لاطعام ثلاثة آلاف أسير مدى عشرين يوماً . فاذا كان نابليون قد تصرف طبقاً للضرورات العسكرية فان عمله مع ذلك يبقى بعيداً عن كل عاطفة انسانيه

« ولم اتبع فى القطعة المسرحية التى وضعتها الأسلوب التاريخى ؛ ولكنى راعيت فيها الاسلوب الواقعى وعالجت مسألة العمل الوحشى (غير الانسانى) وإذا لم يكن من شأنه أن يقع على عاتق ذلك الذى يرتكبه رغماً عن كل البواعث الواقعية . وفى الفصل الأخير الذى تقع حوادثه فى يافا كباقى فصول القطعة ، ولكن بعد هزيمة عكا ، أتناول باعث مقتل الثلاثة آلاف تركى فى أسلوب ساخر أرمى به إلى تصوير شخصيات الرواية . وقد حاولت أيضاً أن أكشف عن أنانية نابليون ، وكيف أن هذه الأنانية كانت متأصلة فى أعماق روحه ؛ وإذا كنت قد وفقت فى صوغ الخاتمة ، فان النظارة لا بد أن يذكروا واترلو ، وفشل نابليون ، وخاتمته المحزنة »

مكتبة لموسى بن ميمون

يذكر القراء أنه قد احتفل أخيراً فى مصر وفى كثير من الجامعات والهيئات العلمية الأوربية بذكرى الطبيب الأندلسى اليهودى الأشهر موسى بن ميمون وذلك لمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته . وقد عاش ابن ميمون فى قرطبة وفى مصر ، وكان طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ؛ وكتب مؤلفاته بالعبرية والعربية معاً ، وفى أنباء فلسطين الأخيرة أن بلدية مدينة تل أبيب اليهودية قد قررت أن تنشئ مكتبة خاصة بموسى بن ميمون تودع فيها ما انتهى الينا من مؤلفاته سواء بالعربيـة أو بالعبرية أو تراجمها اللاتينية ، وكذلك جميع المؤلفات التى كتبت عنه فى جميع اللغات وفى مختلف العصور

(١) وهو غير الكاتب النمسوى الذائع الصيت اشـتيفان تسفايج Stephan Zweig

الكتب

١ — تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبـد الله الزنجاني

٢ — الخلق الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك

للأستاذ محمد بك كرد على

— ١ —

تاريخ القرآن هو كما قال المؤلف وجيز في سيرة النبي الأكرم والقرآن الكريم والأدوار التي مرت به من كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات ، طبعته مؤخراً مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . وقد استند المؤلف ، وهو من المستنيرين من علماء إيران ومن اسرة نبيلة بشرفها وعلمها في مدينة زنجان ، في تأليفه على مصادر لكبار علماء السنة والشيعة وجوّد الكلام على ما تقتضيه بيئته ، وربما تجاوزها إلى أبعد غاية كان في مقدوره تجاوزها . وحبذا لو كان قد توسع في القراءات واستخدم لذلك مثلاً كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ والمطبوع في مدينة دمشق . وليته قال لنا شيئاً في القراءات وما هي عليه اليوم في بلاد فارس والهند والصين وتركستان وجاوه والحجاز ومصر والعراق والشام وشمالي أفريقية ، وتوسع في كلامه على ما قاله العلامة نولدكه في هذا المعنى وردّ عليه ؛ ومثله من يحسن عليه الرد ؛ وبسط القول في الترجمات الأفرنجية وأيها أجدر بالعناية والقبول ، إلى غير ذلك مما نرجو أن يتعرض له العلامة المؤلف في طبعة ثانية مزيدة

وقد صدّر الكتاب الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحى الاسلام بمقدمة موجزة قال فيها : ولئن ساغ في العقل أن يقتتل المسلمون أيام كان هنالك نزاع على الخلافة ، ومن أحق بها ، ومن يتولاها ؛ فليس يسوغ بحال أن يقتتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ ، وأنه لولا ألاعيب السياسة ، واستغفال الماكرين لعقول العامة ، واحتفاظ أرباب المطامع والشهوات بجاههم وسلطانهم ، لانمحى الخلاف بين الشيعي والسني ، ولأصبحوا بنعمة الله اخواناً ، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي ومالكي إلى شافعي ؛ ورجا أن يفكر عقلاء الفريقين في احياء عوامل الالفة ، وأن يترك للعلماء البحث حراً في التاريخ ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب ، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي

ورأى صديق أحمد أمين هو رأي فريق كبير من علماء المسلمين اليوم ، وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، فقد قال في خطابه البديع الذي أجاب به من كرموه في الحفلة الأخيرة في القاهرة : إن من مناهج العمل على ازالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بينها ، فان الأمة في محنة من هذا التفرق ، ومن العصبية لهذه الفرق ، ومعلوم لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي ، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات ، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها . وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجملتها شيعاً في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي كفءٌ لبنت الحنفي ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة ، وعذبات العمائم وطول اللحى ، حتى أن بعض الطوائف لا تستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لانشاء مساجد خاصة »

هذه أمنية عقلاء المسلمين ، وياحبذا لو عنى بعض علماء الأزهر فكتبوا كتاباً بل كتباً في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة ، والطرق العملية لازالته على ما يجب كل مسلم دَرَّاكة ، ولا سبيل إلى ضم الشمل المبتوت ، والخلاص من هذا الاختلاف المقوت ، بغير الرجوع إلى الكتاب وما صح من السنة ،

والقاء الخلافات جانباً بين أرباب المذاهب الاسلامية

— ٢ —

طالعت بالأمس لمؤلف كتاب « الخلق الكامل » كتاباً جميلاً أسماه « محمد (ص) المثل الكامل » فا كبرت بحثه وغبطته على استخراج العبر من هذه السيرة الشريفة التى تدعو المؤمنين وغيرهم الى التأسى بها . واليوم طالعت كتابه « الخلق الكامل » وهو فى مجلدين ضخمين يتبعهما مجلد ثالث ، فرأيت مؤلفاً يجمع بين الثقافتين الاسلامية والغربية ، ويكتب كتابة من تمثل فنه ، وأخذ به ، ودعا اليه مخلصاً مؤمناً . ولقد فزع فى وضع كتابه الى أصح المصادر الاسلامية : فزع الى الكتاب والسنة والى آراء علماء الأخلاق من سلف هذه الأمة وبعض رجالها المعاصرين، وفزع الى آراء علماء التربية وفلاسفة الغرب ، واعتبر الاسلام جامعاً لكل الفضائل النفسية والدينية ، لو تذوقه أهله حق تذوقه ، وعملوا بكل ما أمر به لكانوا خير أمة أخرجت للناس فى هذا العصر

عالج المؤلف كل ما يخطر بالبال من النقائص ، وما يقابلها من الحسنات والمكارم ، وهو يرى مثلاً من نقائصنا الخلقية أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، واحتقار بعضهم الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، ولطم الخدود والعويل على الشبان الذين يجنّدون لخدمة بلادهم والدفاع عنها ، واحتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغربية وان كانت سيئة ، والانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنىّ ، وتطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وان كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات الى الأزواج الأغنياء وان كانوا فاسدى الأخلاق ، وشهادة الزور وحلف اليمين الغموس واعانة الظالم على ظلمه ، والاقبال على الروايات الهزلية المقوتة والزهد فى الكتب الجيدة المفيدة ، والامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، وازدراءَ المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهزئين ، وتكريم الزنادقة والملحدين الى آخر ما عدّد

ويتألف من كل باب من الأبواب التى عالجها رسالة جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها . ومما قال إن فلاسفة الغرب وإن كان يرجع اليهم فضل السبق فى بحث أمهات الفضائل فهم لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حداً فاصلاً بين ما يحقق الفضيلة وما لا يحققها ، فانهم لم يذكروا متعلق العفة ولا أى شىء تكون ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة . وأفاض فى الفلسفة الخلقية وينابيع الخلق والعواطف والانفعالات النفسية وينابيع الأخلاق والمادة والبيئة ووسائل تقويم الخلق والموازين الخلقية ووجوه الخير ومظاهر التربية الخلقية فى الأمم الغربية والشرقية ومظاهر الأخلاق الاسلامية ومظاهر الأخلاق الفردية ومظاهر الخلال الاجتماعية إلى غير ذلك من الأبحاث التى خاض عبابها وجزأها أجزاء ، ومزج فيها الكلام فى القديم والحديث على النحو الذى تقبله النفوس ، ولا يكون مثالاً -ير حى لا ينتفع به قارئه لبعده عن مستوى عقله وخلقه وعاده وحاجته

وعلى الجملة فان كتاب الخلق الكامل استجمع صفات التأليف النافع ، وظهرت شخصية مؤلفه فى صفحاته ، وتحمسه لما يريد أن يدعو اليه ليستقيم حال هذا المجتمع الذى كثرت شروره ومفاسده على صورة لم تكن للمسلمين فى الدهر السالف ؛ دهمتهم سيئات الحضارة الجديدة فسهل عليهم قبولها أكثر من حسناتها التى صعب عليهم الأخذ بها كلها ، ومن الغريب أننا بقدر ما يعلو مستوانا فى العلم نزداد ضعة فى الأخلاق إلا قليلاً ، وبعداً عن الجميل من حسنات الأجداد والآباء ، حتى لقد تجد فى المتعلمين أخلاقاً شاذة واستهتاراً رديئاً قد لا تقع على مثله فى العامة والأميين ، وهذا من جملة سيئات المدنية المادية التى تجردت من عاطفة الدين وعاطفة الخلق ، وقاست كل أمر على المادة والنفع العاجل

محمد كرد على

تاريخ العرب

فى الجاهلية وصـــدر الاسلام

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

اشتمل هـذا الـكتاب على تاريخ دول العرب فى الجاهلية ، وعلى السيرة النبوية ، وعلى تاريخ دولة الخلفاء الراشـدين . وفى تاريخ العرب فى تلك العهود الثلاثه مسائل كثيرة تحتاج الى التمحيص ، وشبهات للشعوبية فى القديم والحديث ، فعنى هذا الـكتاب بتمحيصها ، وكشف أمر تلك الشبهات فيها ، وسلك فى دراسـة السيرة النبوية منهجاً جديداً كشف فيه غامضها ، ورد بأقوى الأدلة كل ما يحاول به تشويه شيء منها ، ومن ذلك غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة ، فقد أراد صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » أن يرجع أسبابها الى طمع المسلمين فى أموال أولئك اليهود ، وذكر أنه من أجل ذلك تعرض النبى صلى الله عليه وسلم لدينهم ، وكلفهم أن يعترفوا برسالته وهم لا يمكنهم أن يعترفوا برسول من غير بنى اسرائيل ، ولو أنه اقتصر على محاربة الوثنية العربية وحدها لما وقع نزاع بينه وبين اليهود الذين يشاركونه فى أمر تلك الوثنية

فأثبت له صاحب كتاب « تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام » أن اليهود هم الذين بدءوا المسلمين فى ذلك النزاع بعد أن جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين الفريقين فى حلف واحد ، وجعل منهم أمة واحدة تجمع بينها رابطة الوطن ، وإن اختلف دينها الى الاسلام واليهودية . أما ذلك المال فكان الاسلام يحرم أن ينظر اليه المسلمون فى قتالهم ، وكان الله جل شأنه يؤدبهم بالقول وبالفعل إذا خالف بعضهم ذلك كما حصل منهم فى غزوة بدر وغزوة أحد ، وإنما كان سبب قتال اليهود نقضهم ذلك الحلف ، وكراهتهم أن ينهض العرب بذلك الدين الجديد وهم أصحاب البلاد ، واليهود قوم طارئون عليهم ، فكان شأنهم فى ذلك شأن الأجانب الآن فى بلادنا ، وإذا كان من حق الأجنبى على صاحب الوطن أن يكرم جواره ، فمن حق صاحب الوطن على الأجنبى أن يراعى ذلك منه فلا يكره الخير له ، ولا يقف حجر عثرة فى سبيل نهوضه ، فاذا لم يراع ذلك له كان من حقه أن يخرجه من وطنه ، وألا يكرم جواره كما لم يكرم جواره

ومن ذلك أيضاً تلك الفتن التى حدثت بين الصحابة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أدى للتاريخ حقه فيها ، كما أدى لأولئك الأصحاب حقهم فى صحبتهم لصاحب الرسالة ، وفى عظيم جهادهم فى نشر تلك الديانة . وهكذا سار المؤلف فى كتابه يعنيه تحقيق مسائل التاريخ أكثر من عنايته بسرد أخبارها ، ويشفى فى ذلك غليل من يريد الوصول إلى الحق فيها ؟

(ص)

وزارة الأوقاف

اعلان

تشهر الوزارة توريد الكتب والأدوات الدراسية اللازمة لإدارة التعليم فى سنة ٩٣٥ الدراسية والوارد بيانها بالكشوف المودعة مع شروط التوريد بقسم الإدارة بديوان الوزارة و بمكتب إدارة التعليم الكائن بسراى اليازجي بروض الفرج لمن يريد الاطلاع عليها . وتصرف استمارة العطاء وشروط التوريد من إدارة التعليم نظير مبلغ مائة مليم يوردها الطالب لخزينة الوزارة

وتقدم العطاءات ومعها العينات مصحوبة بتأمين ابتدائى يوازى ٢٪ اثنين فى المائة من قيمتها داخل مظروف مختوم بالشمع الأحمر بعنوان حضرة صاحب المعالى وزير الأوقاف إلى قسم الادارة بديوان الوزارة لغاية ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ أغسطس سنة ٩٣٥ . ولمقدمى العطاءات الحق فى الحضور أمام لجنة المزادات بالوزارة أثناء فتح المظاريف بجلسة يوم الأربعاء الموافق ٢١ أغسطس سنة ٩٣٥

ومن يرس عليه أى عطاء يكمل تأمينه إلى ١٠٪ عشرة المائة من قيمة ما يرسو عليه ، وللوزارة الحق فى قبول أو رفض أى اعطاء دون ابداء الأسباب ؟

اعلانات قضائية

فى يوم الثلاثاء ٢٧ أغسطس سنة ٩٣٥ سيباع علناً الساعة ٨ افرنكى صباحاً وما بعدها بحارة زاوية نصر نمرة ١٦ تبع قسم اللبان منقولات منزلية مبينة بمحضر الحجز بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٨٦ قرشاً صاغاً خلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٠٠٠ سنة ١٩٣٥ منشية وهذا البيع بناء على طلب الست أسما سلامه محمد ضد ضباشه محمد على صالح فعلى راغب الشراء الحضور

المخطوطات العربية

المخطوطات العربية القديمة لها مكانتها العليا ولا يقدرها قدرها إلا غواتها . لهذا جمع منها الكثير صاحب مكتبة العرب الشهيرة بالفجالة وعرضها للبيع بأثمان معتدلة كما أنه مستعد لشراء أمثالها من الكتب وغيرها والموجود من المخطوطات فى الأدب والتاريخ والشعر والروحانى والصنعة الكريمة والطب وكتب إسلامية مختلفة فى كل مذهب وغيرها من كل الفنون وجميع المخابرات مع صاحب المكتبة الشيخ يوسف البستانى بشارع الفجالة نمرة ٤٧ بمصر

فى يوم الأحد ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ افرنكى صباحاً بناحية مونسه والأربعاء ٢٨ منه بسوق أشمون إذا لزم سيباع علناً جاموسة خضراوى بقرون مصرى سن ٦ سنوات سليمة ومقدار من القمح يقدر بأردبين قمح استرالى ملك أحمد عفيفى منصور من الناحية وفاء لمبلغ ٢١٩٨ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٣٠٠ سنة ١٩٣٥ وهذا البيع بناء على طلب فالية على منصور من مونسه فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية كمشوش مركز منوف وفى يوم السبت ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ بسوق منوف سيباع علناً ١٠ أردب قمح استرالى من محصول العام و ٦ كرامى خيرزان و ١ سرير حديد أسود بوصة ونصف وهذه الأشياء ملك عبد الحميد أفندى اسماعيل جمعة المقيم بكموش نفاذاً للحكم الصادر من محكمة منوف الجزئية فى القضية المدنية نمرة ٥٦٢٢ سنة ١٩٣٤ وفاء لمبلغ ١٤ جنيه و ٥٤٠ مليم بخلاف رسم هذا والنشر وما يستجد وهذا البيع بناء على طلب زكى محمود أفندى ناشر الكاتب بمحكمة شبين الكوم الأهلية فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ صباحا بكفر قباله مركز المحلة وفى يوم الثلاثاء التالى بسوق المحلة كطلب السيد محمد مراد من الناحية سيباع علنا خروفين وأردب قمح ملك ابراهيم يوسف الغبارى من الناحية نفاذا لحكم محكمة المحلة الأهلية نمرة ٣٥١٨ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١ ج و ٨٦٠ م فعلى راغب الشراء الحضور

3 me Année, No. 111.

Lundi-19-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

ســعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كان رحمه الله كالبحر! لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول! لم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ فى بشريته، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه، وقوته عَرَض منتقل فى ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلا فى طبعه، والعبقرية فطرة فى خَلقِه، والقوة جوهراً فى إرادته. وإذا كان النبوغ قوة فى

مَلَكَةٍ على حساب مَلَكات ، وارتفاعا فى جهة بانخفاض جهات ، فان نبوغ سعد باشا كان نظاماً عَـدْلا فى نوعه : ظهر فى كل موهبة من مواهبه بمقدار واحـد ، وبهر فى كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز . فهو فى صرامة المنطق مثله فى لطافة الشعر ، وفى جرأة القلب مثله فى رقة الشعور ، وفى بلاغة اللسان مثـله فى براعة الذهن ، وفى كيد الخصومة نفسه فى شرف الرجولة ، وفى قيادة الجمعية التشريعية عينه فى قيادة الأمة المصرية !

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصـة ، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربيـة الصحيحة . نشأ كلاهما قرويين لم يَشُبْ دماءهما عنصر دخيل ، أزهريين لم يشلّ تفكيرهما تقليد عاجز ؛ ثم مضيا على إلهام الجنس ، ورسم التاريخ ، وهدى العقيدة ، يدعو أحدهما إلى اصلاح الدين ، ويدعو الآخر إلى صلاح الدنيا ، برجولة الخلق ، وفحولة التفكير ، وبطولة التضحية ؛ حتى كان من أثر جهادهما المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجـدان وثورة الحميّة .

كانت معجزة الرجلين فى رسالتهما الإنسانية ، من نوع معجزة الرسول فى رسالته الإلهية : رجولة قاهرة وفصاحة ساحرة وخلق عظيم . وتلك هى عناصر الشخصية الجبارة التى تأمرك وكأنها تستشيرك ، وتقودك وكأنها تتابعك ، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة ! !

* * *

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد فى كلة فهى (الدفاع عن الحق) ؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة ؛ فـكان فى كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة ، وسلطان الهوى ، وعدوان الرذيلة . عُيِّن بعـد خروجه من الأزهر محرراً فى الوقائع المصرية مع أستاذه الامام ، فـكان يكتب فى الاستبداد والشورى والأخلاق ، وينتقـد الأحكام التى كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة) ؛ ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى ، فنزل الحق من عدله وعقـله فى حمى أمين ؛ ثم أصغى لصرخة الحق فى الغضبة العرابية ففصل من وظيفته ، فزاول المحاماة ، وهى يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق ؛ فأنقذها من هذه المراغة ، وطهرها من ذلك الرجس ، وردّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم ، تساعد القانون وتؤيد الحق

وكان سعد أفندى زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر ، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذى أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامى فقال :

« درس القضية ، والدفاع عن الحق ، واحترام القضاء »

ثم اختير نائب قاض فى محكمة الاستئناف ، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص ، والدرس المحيط ، والتوجيه النزيه ، والاستدلال الصحيح ، والاستنباط الدقيق ، والحكم الموفق . ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف ، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية ، وفساد المستعمر ، وعناد القـدَر ؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية ؛ فطاطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار ، وأعز جانب العربية فى وطنها فجعلها لغة الثقافة ، ووضع الأقدار فى مواضعها فرفع بذلك من قدر الكفاية

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها فى « الجمعية التشريعية » ، فـكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه المُلزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ، ودهشة النواب ، ومُتّجه الأفئـدة ؛ وكان منهاجه فيها قوله المأثور :

« الحق فوق القوة ، والأمة فوق الحـكومة »

ثم أُعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساى) ، فدوى فى سمعه صوت الحق الصريع ، وعصفت فى رأسه نخوة الشعب المستذَل ، فنهض للغاصب المزهوّ نهضته المعروفة ، فخيّس بها أنف الجبار العنيد ، وفتح بفصلها الدامى تاريخ مصر الجديد

* * *

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق ، فى أمة سَفِهَتْه فى نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه ، ثم ركَّبه على الصورة التى أرادها لتبليغ هذه الرسالة ، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة ، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة !

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

أيها البـــحر!

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا احْتَدمَ الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ للزمن فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائي »

وتنتقِلُ إلى أيامِك أرواحُ الحدائق ، فتنبتُ في الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيةِ ، كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره

ويُوحي لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر ، إلا أنه أرقُّ وألطف

ويرى الشعراءُ في ساحلك مثلما يرون في أرض الربيع ، أنوثة ظاهرة ، غير أنها تلدُ المعانيَ لا النبات

ويُحِسُّ المشاقُ عندك ما يُحسُّونه في الربيع : أن الهواءَ يتأوَّه . . . .

* * *

في الربيع ، يتحرك في الدم البشريِّ سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائي » يتحرك في الدم سرُّ هذه السُّحُب

نوعان من الخمر في هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب

وبالربيعَين الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعالم السحريِّ العجيب : عالَمِ الجمالِ الأرضيِّ الذي تدخله الروحُ الانسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُّ في شعاع ابتسامةٍ ومعناها

* * *

في « الربيع المائي » ، يجلسُ المرءُ وكأنه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض

ويشعرُ كأنه لابسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب

ويخِفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعاني الأرضية انتزعتْ من المادة . وهنا يدركُ الحقيقة ، أن السرور إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك في « دنيا الرزق »

تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلعُ وتغرُب على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الموظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ — وا أسفاه — يكونون في ساعاتهم المظلمة . . .

الشمسُ هنا جديدة ، تُثبتُ أن الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في كيفية شعور النفس به

* * *

والقمرُ زاهٍ رفَّافٌ من الحسْن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر

أو كأنه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طلع في أوائل الليل ؛ تَخَصرَته السماءُ في مكانه ليستمرَّ الليل

فجرٌ لا يوقظ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يوقظُ الأرواح لأحلامها

ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُـنْتبهِمة كأنها أحلامٌ معلَّقة

للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المعشوق حين تقبِّله أولَ مرة

* * *

و « للربيع المائي » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل

أما الطيور فنساءٌ يتضاحكنَ ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون

نساءٌ إذا انغمَسْن في البحر ، خيِّلَ إليَّ أن الأمواج تتشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن . . . .

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسة حوَّاءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلٓهي . قد انتقل

---

* كتبنا في (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر

معنى الغرق الى الشاطئ . . . إن الغريق من غرق فى موجة الرمل هذه . . . .

***

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا

وخيِّل اليّ أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فوكزَ البحرَ برِجْله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بنى آدم ! !

أعَلَى اللهِ أن يَغضَباً بالمغرور منكم إذا كفرَ به ؟ أعَليّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركَلَنى برجله . . . ؟

***

أيها البحر . قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الانسان المغرور

وتجيش بالناس وبالسفُن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً ترمى به

والاختراعُ الانسانىُّ مهما عَظُم لا يُغنى الانسانَ فيك عن إيمانه

وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمة والهوْل ، رداً على عَظمة الانسان وهوله فى الربع الباق ؛ ما أعظمَ الانسانَ وأصغره !

***

يَنزلُ الناسُ فى مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر

ويركبون ظهركَ فى السفُن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها فى الأرض

يا سحر الخوف . أنت أنت فى البحر كما أنت أنت فى جهنم

***

وإذا ركبك المُلحِدُ أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وهدَرْتَ عليه وثُرت به ، وأريتَه رأىَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقفلان عليه ، تركتَه يتطأطأ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدحرِجُه وتدحرجُها

وأطَرْتَ كل ما فى عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل

وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَلَ العقل ، ولكنه عملُ الغَفلة والأمن وطول السلامة

***

ألا ما أشبه الانسانَ فى الحياة بالسفينة فى أمواج هذا البحر !

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها

ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هى الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها . ونجاتُها فى قانونها

فلا يعتبنّ الانسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه

كتبت فى شاطئ سيدى بشر
(اسكندرية)

مصطفى صادق الرافعى

مصر وقت الفتح الفاطمى

والعوامل التى مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر وقت الفتح الفاطمى ، فريسة هينة للفاتح ؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح الفاطمى بنصف قرن فقط . وقد ثابت للفاطميين مذ شادوا ملكهم فى إفريقية ، نية فى غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض نواحيها ، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر ؛ ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة ، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون فى المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار فى المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك فى عهد ثانى خلفائهم القائم بأمر الله [1] . على أن الخلافة العباسية التى استطاعت فى فورة من القوة فى عهد المكتفى بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلى فى مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسى والدينى فيها ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد ، وكانت هذه النزعة الاستقلالية ، ذاتها عاملا فى ضعف سلطان الخلافة فى مصر ، وفى المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائى ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملاً فى حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المعتدين عليها والمتطلعين إلى امتلاكها . وكان جل اعتمادهم فى ذلك على جند مصر ذاته ، ولكن الشعب المصرى لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ، فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم باطماع أولئك الزعماء وجشعهم فى استخلاص أرزاقه [1] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم فى تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفاً على ضعفها ، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هى الدولة الفاطمية تسير مسرعة الى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التى شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ فى هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التى تحمل عناصر الهرم والفناء الى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنعماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التى اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها فى المهد ، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت فداحة الخطر الذى يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم فى المغرب الأقصى حتى المحيط ، فانهم لم يطمئنوا الى البقاء فى تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا باقامة ملكهم فى افريقية الى ذروة الأمانى والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائى درة خضراء ؛ وكانت مصر فى نظرهم هى ميدان المعركة الحاسمة التى يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية — خصيمتهم السياسية والمذهبية — وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا ، وكما سنفصل بعد ؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين عما يهددهم فى

(١) راجع المقريزى — اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ — ٤٩ — والخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣

(١) راجع الخطط — ج ٢ ص١٢٦ و ١٢٧

افريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضاً ؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الأخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ ذلك لأن ابن كيغلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ؛ ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الأخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الاخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بانشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الأخشيدية ؛ واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية ، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة ٣٣٢ هـ) وسطعت الدولة الأخشيدية بمصر مدى حين ، وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بنى العباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى همة منشئها الأخشيد وإلى قوة خلاله ؛ فلما توفى الأخشيد (سنة ٣٣٤) ، وخلفه ولده انوجور على مصر والشام ثم أخوه على بن الاخشيد (سنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الامور فى عهدهما إلى كافور الأخشيدى خادم أبيهما ، أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الاخشيد ، انتزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ؛ وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والاجتماعية الهدامة التى كانت تقضم أسس الدولة الأخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه فى الامارة صبى حفيد للأخشيد هو احمد بن على بن الأخشيد ، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ ولكن الامور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيدية ولاح لها شبح الفناء جاثماً فى الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة ، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ؛ وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بنى الأخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزما أمام الاخشيد لسحق الدولة الأخشيدية[1] . ولما توفى كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت اعطية الجند ، كتب بعض زعمائه إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه إلى فتح مصر[2] ؛ واشترك فى هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة فى عهد كافور ، هو يعقوب بن كلس ؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه ؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المعز إلى فتح مصر ، ووصف له خصبها وغناها ، وضعفها واضطراب أحوالها[3] ؛ وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الأخشيد ، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية . والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها وفى نظمها الاجتماعية وأحوالها المعنوية ، وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خلباً ؛ وكان الشعب مطية التغلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق

(١) الخطط — ج ٢ ص ١٢٧
(٢) ابن خلكان فى ترجمة القائد جوهر — ج ١ ص ١٤٨
(٣) ابن خلكان — ج ٢ ص ٤٤٠

أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاريعه ، وكانت العاطفة القومية تتبرم بهذه السيادة الأجنبية التى تمثلها تصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية ، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨ هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف [١] وكان ذلك بلا ريب عاملاً فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها فى النضال والمقاومة . أضف الى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت الينا فى ذلك رواية إذا صحت فانها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية للبيع فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وأنها اشترت الصبية لتستمع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا اليهم [٢]

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسية ؛ وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الأخشيدية التى سطعت فى عهد مؤسسها

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٣٤

(٢) المقريزى — الخطط ج ٢ ص ١٦٦ — واتعاظ الحنفاء ص ٦٤

لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت فى قفار المغرب ، فى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ؛ وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، إلى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . وإليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم إليه من باب خاص ، فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وانها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى اخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل ، أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ؛ وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ؛ وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ؛ وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا ياشيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ؛ انهضوا رحمكم الله ونصركم [١]

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) المقريزى الخطط . ج ٢ ص ١٦٤ واتعاظ الحنفاء ص ٦٠ و ٦١

حول الأوزاعى «ثالثا»

للأستاذ أمين الخولى

... ولا مفر لى من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها ؛ ثم سلام على الأخ السيد السنفافورى ، وانتصاحٌ خير انتصاح بنصيحته فى أن أعدل منطقى ؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء ؛ ولعله يعمل معى على هذا الاصلاح الرشيد الذى أبادر بشكره عليه ، فيدعنى أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء ، وله أن يبعث إلى هذا الاصلاح بأى طريق يؤثره . وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الاصلاح اهتمام فليجعله — إن كان ذلك — بيننا خاصاً

ياسيدى ؛ فسرت فى حديث عن الأوزاعى التأثر الرومانى ، بالتأثر بالثقافة والبيئة الذى لا بد من تقديره ؛ فكتبت تقول لى إن القانون الرومانى الحديث مأخوذ من الفقه الاسلامى ؛ وإذ ذاك قلت لك هذا رأى قديم نشر فى مصر ولا يؤثر فى قولى ؛ فقلت لى إنى أكتب ذلك للقراء ، لا لك وحدك . والذى نشر فى الكتب المطبوعة منذ ربع قرن ؟ أليس هو للقراء ؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع مافى الكتب ؟ أم أين منطقى . . . وأقول لك لا يؤثر على قولى ولا يتصل به من قرب ، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيى مدعماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرى ؛ ولكن لم أكن مناظرك فى هذا ، ولا عرضت له ؛ وعنونت كلمتى الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة ، حول الأوزاعى ؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه ؛ وستعرف آخر الأمر لماذا فعلت ذلك ؛ فالآن أين منطقى . . وأقول لك وقتى — وقتى أنا — وعملى وواجبى ومصالحى ، فتقول لى لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ، فبربك أين منطقى ؟ . . . وأقول لك حين تسوى بين الأخذ والتأثر انهما متغايران والثانى منهما قد يكون حاداً قوياً ، وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة ، فلا يعجبك ذلك . وتحدثنى عن سد الذرائع ، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية ، ولما نفرغ من المناظرة فى تاريخ القانون ، التى تجبرنى عليها ، حين تزعم أن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، وعلم الله أنى أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذى تحب أن تتكلم فيه ، فتجبرنى على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك ، فأين منطقى . . . ؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الاسلام تمام الانطبــاق ، فتقول لى إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لى بينهما ، وفى منطقى — المريض — أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق ، فما التفريق بين الناقض والخارق ؛ وأين منطقى . . .

وتقول إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة وفى زمن واحد . فأقول لك نمت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلف فيها اختلاف هائل ؛ فتقول لى إنما أريد الأصول والحدود والفرائض ؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها ، والتطبيق عليها ؛ وأين منطقى . . .

وأقول لك إن بعد المرامى القرآنية سبب للاختلاف ، فتحتج فى الرد على هذا بأمر على لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف ، فأين منطقى . . .

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف ، فتقول السبب الأكبر هو كذا ، وهذا عندى هو السبب الأكبر ، وهل وجود السبب الأكبر — عندك — ينفى السبب ، أو الأسباب الكبيرة ، والصغيرة و و . . . ، وأين منطقى

وأقول لك اختلف الأدباء فى فهم معنى الكذب فى القرآن واستعماله فيه ، فتقول لى فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صرائح مؤدياتها اللغوية ، وهل ليست مؤدياتها هذه هى معانيها وما يفهم منها ، وهل ليس هذا هو ما يحدد وبقدره حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم ، والا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التى تختلف عند السيد . . . وأين منطقى . . . ؟ إن منطقى لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع نفهمها المسلم اليوم بمثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة

دون خلاف ، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال ، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها ، وهذا معنى قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله ، لا بغير ذلك من المعانى ؛ ثم منطق هذا لم يفهم الكلام فى التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول قبل مائتى سنة ، لأنا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية ، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مراميها أو وقوع المشترك فيها ، لا لبعد المرمى الدقيق الاعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فلا أفهم ذلك ، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب ، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهى أمر احصائى ؟ ثم كيف غلبت وهى تابعة لأصل هو الكتاب لا تجىء بما ليس فيه ، فكل ما فيها فيه ، فما هذه الأغلبية ، وأين منطق . . . أصلح الله شأنى وأصلح شأنك إن قبلت منى هذه الدعوة فى غير غضب ، وإلا فدع نصيبك منها لى كله

وأقول لك تتأثر الأمم بميراث بعضها ؛ فتقول لى قد مضى على الرومان قرن وأكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان ؛ ورحم الله منطقى مع هذا التراث ، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً ، وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والغرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان البرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ؛ والغارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطقى أنا . . .

وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى إكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التى لا تتبدل

وقلت : « الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا » فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الاسلام لا يصح أن يجرى فيه الخلاف إذن ، فعجبت من ذلك ، وسألتنى بأى منطق استنتجت من قولك ذلك ، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الاصلاح وقع هذا الكلام فى عبارتك ففهمته ، ثم كنت ذكرت ياسيدى فى هذا المجال أول ما ذكرت : الضلال والزيغ ومحاربة الاسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك ؛ وأما الآن فأقول لك : إن هذا الكلام الذى كنت ذكرته عن عجبك من وزارة الأوقاف الاسلامية كيف تقول كذا وكذا فى الفقه ، ومنى كيف أقرر هذه الضلالة وأفسرها ؛ هذا الكلام كله هو الذى يجعلنى أفهم — ولو لم تقل — أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره ؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن ، وواجب النصح ، ولو غضب أو قذف : أولى لى — أنا أولاً — ثم لحضرتك ثانياً ، أن تدع المناقشة فى تاريخ القانون الرومانى لدراسة يحق لها أن تتكلم فى هذا أو ترتئى فيه ؛ لا لمقال ينشر فى سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره فى مصر ؛ وهو كل بضاعتنا وما تدور عليه مناقشتنا . والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً ، وندرس تاريخه درساً عميقاً ؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم ، ثم نلتقى بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة ، ونتعاون على الوصول إليها ، لا لنكفر كل قائل ، ونتهم كل متكلم ، ونتحدث عن الرومان والاسلام واليونان والعرب ، والفرنجة والمستشرقين والمبشرين فى صفحة وبقطرة مداد واحدة . تلك نصيحتى إليك ياسيدى أكررها جزاء لك على خالص نصحك لى بأن أغير منطقى ؛ وإنى لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطقى أنا ، لكنما المنطق وحدة عقلية إنسانية لا يد لى فيها ولا يد لك بتغييرها . فنبهنى أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الانسانية ، ولا تخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فننعزل عن الدنيا ؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع . وهذا الذى بينت هو الذى منعنى من الخوض معك فى مناقشة العلاقة بين القانونين ـ الرومانى والاسلامى ـ وهو الذى تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت

وإذا كنت — وحق المنطق وكرامة العقل — لم أغالطك مطلقاً ، فانى وحرمة الاخوة الاسلامية لم يدر بخلدى أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك ، والحق أجل منى ومنك . والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولى

الى الشيخ اللغوى ... و (فلان)

الوظيفة والموظفون

للأستاذ على الطنطاوى

اعلم — أعزك الله — أن الوظيفة ليست غُلاًّ فى العنق ، ولا قيداً فى الرجل ، وليست مقايضَة أو مُبادَدَة ، آخذ فيها الوظيفة[1] باليمين ، لأعطى الوجدان بالشمال ؛ ولو أنها كانت كذلك ، لعزفت عنها واجتويتها ، ونفضت يدى منها ، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبى كرّة أخرى ، أو أقضى وأسرتى خَمْصاً ، على أن آكل خبزى مغموساً بدم الضمير . . . وعلى أن أكفر بالفضيلة ، وأومن بالمصلحة ، فأزن كلّ شىء فى الدنيا بميزان صنجاته الدنانير ، وأبصر كلّ مافى الكون من ثقب القرش ، وأفكر إذ أفكر بعقلى الذى فى كيس نقودى ، لا بعقلى الذى فى رأسى ، فاختزل المنطق كله فى قضية واحدة ، هى الأولى والأخرى ، وهى الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهى الكتاب المعجز الذى لا يُفرّط فيه من شىء ، ولا يعجزه شىء ، فيكون المنطق كله هذه القضية : تحصيل المال واجب ، وفى هذا الأمر تحصيل مال ، فهذا الأمر واجب . . وضَعْ مكان (هـذا الأمر) ما تشاء من أفعال اللؤم والخسّة ، والكذب والنذولة ، والضّعة والفسُولة ، تنتظم القضية وتستقيم ، وتصح وتطرد . . . . ولا يبقى فى الدنيا ردىء ولا فاسد ، ولا منكر ، ما دام معه المال !

لا — يا سيدى — لست أسلك هذه الطريق التى لا أزال أحذّر منها من لم يسلكها ، وأصرف عنها سالكيها ، وإن كان السالكوها هم الكثرة من موظفينا وعلمائنا ، ومن كل ذى وظيفة ، أو صاحب صلة بالحكومة ، حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتى الأمر يعترف أنه مؤذٍ للأمة ، مُنافٍ للفضيلة ، مناقضٌ للشرف ، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه ، ومعيشته تستلزمه ، وانه رجل (عاوز يعيش . .) ولا يعيش من لا يساير وينافق ، ويَذِلّ ويَتزلّف ، لا يدرى الجاهل أن المعيشة على الصّعتر مع الشرف ، خير من حياة النعيم والترف ، من غير فضيلة ولا شرف !

* * *

ومن أنبائك — أعزك الله — أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه ، ولا يرى إلاّ بعين أمرائه ، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا ، ولا يقبل ما ردّوا ، ولا يوقر ما سفهوا ، ولا يرى ما استقبحوا حسناً ، ولا ما كتموا ظاهراً ، ولا ما صغّروا كبيراً ، ولا ما عظموا حقيراً ؟ أو لو كان رؤساؤه مخطئين ، أو لو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟

ومن ذا حظر عليه ما أبيح للناس ، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير ، وحرية الرأى ، وحرية القول ، ولماذا يشتهى من الطعام ما يعافه رئيسه ، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله ، ولا يكون عليه فى ذلك من حرج ، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه ، ومن المذاهب غير مذهبه ؟ ولماذا لا ينشر هذ الرأى ، ويؤيد هذا المذهب ، ما دام لا يأتى محرماً فى الشرع ، ولا ممنوعاً فى القانون ؟ . .

والوظيفة — يا سيدى — عَقْدٌ بين الدولة والموظف[1] ، على أن يعمل عملاً بعينه ، على جُعْلٍ بذاته ، أفهل يعمل الأجير فى الدُّكان ، والعامل فى المصنع ، والنّادل فى الفندق ، والخادم فى البيت ، وكلُّ مأجور من الناس فى عمل جلّ أو قلّ ، علا أو سفل ، فاذا أكمل عمله وجوّده ، استحق الأجر ، وانطلق حراً فى وقته ، يقضيه على ما أحب ، حراً فى ماله ينفقه على ما شاء ، حراً فى رأيه ينحو به النحو الذى أراد ، ويسوقه المساق الذى اختار . . . ثم لا يكون الموظف حراً أبداً ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟

وماذا علىّ وأنا مدرس إذا أنا أعْدَدْتُ درسى وألقيته ، وقرأت وظائف تلاميذى وصحّحتها ، وفعلت كل ما يوجب علىّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل ، أن أؤلّف وأكتب ، وأنقد الأخلاق والكتب والعادات ، وأساهم فى الجهاد الاصلاحى ، وأحمل القسط الذى أطيقه من أثقال الأمة ، ومن ذا يحمله إذا لم أحمله أنا وأمثالى من الموظفين والمتعلمين ؟ وكيف تتقدم الأمة وتسير فى طريقها إلى غايتها ، إذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها ؟

أفهل يريد سيدى — أعزه الله — أن أمحو ملكة الكتابة

(١) الوظيفة هى الراتب ، والتوظيف تعيين الوظيفة ، وإذا نحن أطلقنا الوظيفة على العمل نفسه فانا نتبع فى ذلك العرف السائد

(١) لست أعنى العقد الاجتماعى نظرية روسو المعروفة ، فذاك شىء قد سقط اليوم من قائمة العلوم ودخل فى سجل التاريخ

من رأسى ، وأطمس نور البصيرة من قلبى ، وأسدل على عينى حجاباً حتى لا أرى فأمرّ فأشكر ، أو أبتئس فأنقد ، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح علىّ الكتاب طريقاً إلى مقالة ، وأتعزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث ، أو قصة فأدوّن هذه القصة ، وأدل على مكان العبرة منها ، وموطن العظة فيها ؟ أفهل يريد سيدى أن أذهب إلى غار فى الجبل فأحبس نفسى فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته ؟

أوهل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه ، مسخراً لأغراضهم ساعياً فى مصالحهم ، ولو كانت الطريق إلى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجّة لا يسلكها رجل يعرف ماهى الفضيلة ، ويدرى ماهو الشرف ؟

وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الأمة ، فلا يشعر بشعورها ، ولا يألم لألمها ، ولا يحس أنه منها ، ولا يشاركها فى شىء من عواطفها ، فى حين أن المفروض فى الموظف أنه من أرقى أبناء الأمة فكراً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأشدّهم شعوراً « بالواجب العام » ؟

أوهل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الأمة ، ثم ليناموا آمنين إذا هى خافت ، ويضحكوا فرحين إذا هى تألمت ، وينعموا فارهين إذا هى شقيت ، ويأكلوا مسرفين إذا هى جاعت ؟

كلا ! كلا ياسيدى ، فالموظف من الأمة وإلى الأمة ، وليس فى البلد شعب وموظفون ، ولكنّ فيه شعباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويصدر عن مبدإ واحد ويسعى إلى غاية واحدة ، ولأن تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها ، أولى من أن أنزل أنا على رأيك ، وأخضع لارادتك ، فيما يؤذى الحقيقة وينافيها

كلا ! لقد انقضى ذلك العهد الذى كان الموظف فيه مسئولاً أمام رئيسه ، وأصبحنا اليوم وكلنا مسئولون أمام الأمة والتاريخ ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به علىّ ، ولكن راتبك أنت منحة من الأمة – التى أنا من أبنائها تمن هى بى – عليك !

***

وبعد ؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر ، وأرباب الأقلام ، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين ، وحق الأمة عليهم ، وأمل الأمة فيهم ؟ أوليس يجب عليهم معالجة هذه النواحى من أخلاقنا ، وبسط الكلام فيها ، وتحذير السالين منها ، ومداواة المصابين بها ؟ . . .

على الطنطاوى

الى الأستاذ محمد كرد على

أغراض الاستشراق

للأستاذ محمد روحى فيصل

المجالة التى أسوقها اليوم إنما كتبت منذ عهد بعيد ، وهى كما ترى أو كما سترى تحكى أغراض المستشرقين الدينية والسياسية ، وتبين البواعث النفسية التى قام عليها تاريخ الاستشراق ، وتعدد الوان التخاذل العلمى والوجدانى التى خضعت لها هذه الطائفة منذ نشأتها الأولى ! ولقد كنت أريدها دراسة قوية مستفيضة موفقة تشرح ما تتوغر به صدور القوم من الحقد والوجدة ، وتفضح ما ألم بالقلوب من النزوات البشعة والاهواء المريضة ؛ وأذكر أنى ما قرأت كلمة فى هذا الصدد لكاتب من الكتاب الا اعتادنى الحنين الى تكملة ما شرعت فيه قديماً ، واستئناف تبيان ما عميت أو تعامت عنه البصائر والأفهام

كان يعوقنى عن ذلك أمران ، هما الدعامة التى ترتكز عليها أسباب الكتابة والنشر ، أولها فقدان الصحيفة العربية الاسلامية الشرقية التى ترحب ببحوث كهذه التى نعتزم إذاعتها فى الناس ، والتى تشجع الكاتب الباحث على المضى فيما أخذ به نفسه من الدراسة الحرة الخالصة ؛ وثانيهما غموض الحجة وهلهلة المنطق والتواء التاريخ للظهور على المستشرقين والتغلب على مزاعمهم ودحض آرائهم واثبات خطئهم ؛ فليس يكفى عندنا أن نتهمهم فى ابهام ، ونبغضهم لغير سبب ، ثم نحمل عليهم ونرشقهم بقارص الكلام وعنيف السباب ؛ إذن لتجنينا عليهم فظلمناهم ظلماً كبيراً ، ولكانت دعوانا التى نتقدم بها عاثرة خاسرة !!

أما الصحيفة العربية الاسلامية فقد عثرنا عليها واهتدينا اليها ، و « الرسالة » السمحة لن تضيق أبداً بما نعتقد أنه الحق ، أو تتبرم بنفى ما غشى العرب والاسلام من ضمة الخطأ والعدوان ، وهى المجلة الراقية التى تعتز بالكرامة وتعتصم بالنبل ثم تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة ؛ وأما الحجة والمنطق والتاريخ فقد توفرت لدينا وأسلست عناصرها لنا

واتضحت فى ذهننا ، وإنا لنرجو أن نؤثر فى الأسلوب والعرض جانب الحق والانصاف والهدوء على جانب التحامل والملامة والغضب

وأحب قبل كل شىء أن أقول لعلامة الشام الأكبر ومؤرخها البارع الأستاذ محمد كرد على إنه إذا قدر أن ينشر المستشرق برتزل كتابى " القنع والنقط نشراً حسناً ويضع لهما فهرساً خاصاً يسهل على المطالع أمر المراجعة والتنقيب ، فما ينبغى أن توجه الشكر والثناء إلا للناشر الفاضل وحده ، أما أن ترسل الكلام إرسالاً وتمتدح المستشرقين كافة فهذا ما ينكره العلم ولا يرضاه الحق ، فتقول : « هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون : وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر وأساتذة العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب . إننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والأسبانيين وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أمريكا بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا ، أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا » (١)

لقد تعودنا أن نكيل المديح للمستشرقين كيلاً ، وأن ننعت جهودهم بأنها بذلت لخدمة لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، وأن ما نشروه من البحوث والمخطوطات إنما كان لذات العلم خالصاً ، ونرانا نرجع اليهم كلما اختلفنا فى رأى أو حزّ بنا أمر لنستوحى منهم الحكمة وفصل الخطاب ! هم يتمتعون منا بثقة لا حد لها ، ولكن هل عرفنا أغراضهم وغاياتهم ؟ هل تبينا حقيقة مقاصدهم ؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه اليوم ، وسيتضح لكل ذى عينين باصرتين أن وراء الأكمة ما وراءها . . . ! !

ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله ، فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى والى كل ما أنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث ، وهى لذلك تستحق أجزل الثناء ، بل إنها لما ينبغى أن نفاخر به أبد الدهر ، إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدُّوا لا يتجاوزون عدد الأصابع ، وهم إزاء هذه الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئاً ؛ وقد قيل إن النادر لا حكم له . فأنت لو تصفحت هذه الأسماء : مرجليوث ، لامنس ، ماسبرو ، دى سامى ، فلوغل ، كارليل ، كولنبرك ، جنستون ، ستونتن ، هوغتن ، غابلنتس ، سيدليو ، كوسان دى برسفال ، كلاروت ، جيب ، دى لاغرانج رينو ، مونك ، پرون ، كازميرسكى ، كسغارتن ، برنستين ، فترر ، وولف ، بورغستال ، جونس ، غوتوالد ، كريستيانوفتش ، خانيكوف ، بوتجانوف ، سيانكوفسكى ، سافاياف ، غريغورياف ، تورنبرغ ، دوزى ، بروكلمان ، غويدى ، غولد زهير ، هيار ، فمبرى ، زترستين ، نالينو ، هوداس ، موسل ، بيكر ، دى فو ، ماسينيون ، هرغرونى ، فولرس ، ارنولد ، مورتمان ، لشاتلييه ، بوفا ، كاباتون ، هاليفى ، مكدوبل ، دوفال ، بارت ، ليفى ، كازانوفا ، شوفين ، كولينيون ، دافيدس ، لامبروز ، نافيل . لشككت فى حسن الغاية من أعمال الكثير منها ، ولحرصت على أن تقصر الثناء على بعضها فى تحفظ واعتدال ! !

* * *

كان الباعث الأصلى للأوربيين على تعلم اللغات الشرقية دينياً محضاً . فقد هالهم أمر العرب ، وأدركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين إنما يريدون فيما يريدون الاستيلاء على أوربا بأسرها لنشر تعاليمهم الجديدة والقيام بما أوصاهم به سيدهم الأعلى ونبيهم الكريم محمد بن عبد الله ، والتاريخ يحدثنا أنهم امتلكوا حقاً اسبانيا الواسعة ، واجتاحوا جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه Poitiers أو بلاط الشهداء كما يطلق عليها مؤرخو العرب ، ثم احتلوا جزيرة صقلية وشرعوا فى بسط نفوذهم الأدبى على ايطاليا . . . وايطاليا كما تعلم معقل المسيحية الحصين ، ومصدر أشعة الدين ، فعزم الغربيون على أن يحاربوا الاسلام والشرق بكل قواهم متخذين جميع الوسائل الفعالة

لجأوا إلى السيف أولاً فقاتلوا وقاتلوا حتى إذا لم يفلحوا كل الفلاح ولم ينالوا ما يبتغون عمدوا إلى وسيلة أخرى أمرّ من تلك وأدهى ! فقد عقدوا مؤتمراً كبيراً فى ڤينا عام ١٣١١ ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس ، وقرروا أن تؤسس فى باريس وبولون

(١) مجلة « الرسالة » عدد ١٠٨

واكسفورد وسلمنكة مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما هم فيه مؤمنون . وأنشأ الدومينيكان والفرنسيسكان[1] فى أديارهم دروساً فى هـذه اللغات ، فغدت إيطاليا فى ذلك العهد موطن علم المشرقيات . على أنهم كانوا يُعنون بصورة خاصـة بالعربية والعبرية ، يأخذون الأولى عن السوريين الموارنة كبنى السمعانى ، والثانية عن الأحبار الربانيين . فانتشرت العربيـة بين الطليان انتشاراً عظيما ، حتى أن تجار البندقية وجنوة وبيزا ونابولى كانوا ينظرون إلى أن تعلمها من الحاجات الماسة للحياة على نحو ما ننظر اليوم إلى اللغة الفرنسية أو الانجليزية . وعقيب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربى طبع فى روما . ولما قامت الحركة البروتستانية فى القرن الخامس عشر وأمدها لوثر بروحه ازدادت عناية الغربيين بالعبرية والسريانية والـكلدانية للبحث عن النص الأصلى للتوراة ، وتبع ذلك قيام البابا غريغوار الثالث عشر وأربان الثامن بتعليم اللهجات الشرقية عملياً ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية . وفى عام ١٦٢٧ أنشئت مدرسة « انتشـار الايمان » التى خرَّجت الألوف من علماء المشرقيات ؛ وكذلك أنشئت فى فرنسا على عهد الوزير كولبير مدرسة « الشبان » التى أذاعت الفارسية والتركية وكثيراً من القصص الشرقية كألف ليلة وليلة وغيرها من الرسائل .

وفى نهاية القرن السابع عشر نشر اليسوعيون أتباع لويُولا اللغتين اليابانية والصينية وثقافتهما .

على أن الاستشراق بعد ذلك قد تبدلت بواعثه ، فغدا يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين ، ذلك لأن فى القرن الثامن عشر ظهرت طائفـة من الـكتاب كفولتير وغيره حملت على الدين ورجاله حملة منكرة ، وتناولته بالسخرية والتهكم المر ، غير مبقية على شىء من احترامه القديم وسلطانه النافذ ؛ ولأنه قامت فى ذلك الحين ضجة الاستعمار وثار الغرب على الشرق يريد استعباده . فوضع المستشرقون أنفسهم تحت تصرف رجال السياسة ، يُدلون إليهم بما يعلمون عن الشرقيين لتتمكن أقدامهم فى بلاد الشرق ، وتـكون لهم على أهله سلطة خالدة .!!

ونلاحظ فى هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات فى مختلف المدن الشرقية ، فقد أنشأ المستشرقون جمعية العلوم والفنون فى باتافيا عام ١٧٧٨ ، والجمعية الأسيوية فى البنغال عام ١٧٨٤ ، والجمعيـة الأسيوية فى بومباى عام ١٨٠٥ ، والجمعية الأسيوية فى باريس عام ١٨٢٢ ؛ وقد بذلت هذه الأخيرة جهوداً جبارة فى دراسة الشرق ولغاته وتاريخه لا سيما اللغـة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسـفة ، وعلم وأدب ، لتقدم للحكومة آخر السنة تقريرها المعروف الذى لا يضم بين جوانبه حقائق تمليها العدالة ويبينها الواقع ، وإنما ينطوى على سموم من الحقد وأثر من المغالطة ! وهذه المجلة الأسيوية la revue Asiatique التى ما تزال حتى الآن تصدر فى باريس مرة كل شهرين إنما هى أثر من آثار هذه الجمعية . . .

لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجيـة ووزارة المستعمرات ، يترددون على رجالاتهما لمعرفة ما جدّ وتغير من القرارات ، وأن هـذه البعثات التى يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصاً ؛ وإنما هى فى الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الماكرة الجاثمة فى الوزارتين المذكورتين ، تطوف أنحاء الشرق باسم العلم منقبة باحثة ، حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيهما معلوماتها طروبة فخورة ! وكثيراً ما كانت هـذه

(١) طائفتان هما بمثابة جنديين قويين من جنود البابا ، تهيجان الحياة الدينية فى نفوس الشعب ، وتحاربان البدع المستحدثة التى لا تجيزها الـكنيسة الـكاثوليكية ! أسس الأولى اسبانى اسمه Saint Daminique هاله تفشى المنكرات وإهمال القسس واجب الوعظ والأرشـاد ، فطلب إلى البابا عام ١٢١٥ ميلادية إنشاء فرقة تقوم بنصر تعاليم المسيح وتجديد الطاعة له . وأسس الثانية عام ١٢١٠ ميلادية ايطالى غنى اسمه Français d' Assise هاله انغماس الناس فى الترف ، وإسرافهم فى اللهو والمجانة فنزل عن ماله كله للفقراء وطفق يحيا حياتهم المدقعة ، يمشى فى الأسواق منتعلاً حذاء بالياً ويرتدى ثوبا من الصوف أسمر وقد ائتزر من فوقه بأزار مشدود حول وسطه ، فحسبه الناس لأول وهلة معتوها ممروراً فراحوا يعبثون بمرآه ويتندرون به فى أسمارهم ويهزأون بتعاليمه الخشنة القاسية ثم كثر أنصاره واشتد ساعده وذاع مذهبه

والطائفتان كانتا متصلتين بالشعب مباشرة أقوى اتصال ، تمتزجان بعامته وخاصته ، فتسكبان فى خياله ما تشاءان ، وتصبان فى وهمه ما تهويان ، بخلاف الرهبان « الأخرويين » الذين كانت تفصلهم عنه هوة عميقة بسبب انكماشهم وجودهم فى الـكهوف والأديار

البعثات « العلمية » تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية ، وقد تطرد منها أحياناً على أسوأ حال !!

***

وبعد ، فلو نظرنا إلى بحوث علماء الشرقيات التي خطوها عن الأدب العربي والعقلية العربية ، وفلاسفة العرب لاستخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة ؛ هـذه نظرية « السامية والآرية » التي يؤمن بها أغلب المستشرقين والتي تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس السامي على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة ، لا يحسون بالجمال والفن ، ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية . يقول أرنست رينان[1] في الفصل الأول من كتابه في تاريخ اللغات السامية : « إن اللفظين اللذين استعملا ولا يزال استعمالها جارياً إلى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عن الجنس السامي تقريباً . فالبحث التفكيري المستقل الدقيق العميق ، أو بعبـارة أخرى التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهنـدي الأوربي (الآرى) الذي كان يبحث منـذ أقدم العصور إلى الآن لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذي ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا إلى أصفى صورة دينية عرفها التاريخ فالمدرسة الفلسفية موطنها اليونان والهند ، في وسط قوم طُلَعَة يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشياء . أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة في شكل ألغاز فهي من نصيب الجنس السامي

« والجنس السامي أدنى من الجنس الآرى إذا قورن به ، فهو — أي الجنس السامي — ليست له هذه الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبـة عند الكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) ، وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم

« من آثار التوحيد عند الساميين التعصبُ ، فعدم وجود التسامح الديني عنـد الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم في التوحيد ، ومسألة النبوات والوحي هي من المسائل التي تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم إلى كتابيين وغير كتابيين

« والساميون تنقصهم الدهشـة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ، والتي تدعو إلى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا : « ربنا قادر على كل شيء » كما أنهم في حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب في عصر العباسيين وجب أن يكون الجواب على ذلك إنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمى فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع انه لم تظهر لها أي مبادئ أو مقدمات في شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية ، وهذا هو كل ما في الأمر ، كما انها لم تزدهر إلا في الجهات البعيـدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس

« والتوحيد له تأثير أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنويع ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين ؛ والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازي عند اليهود والشعر الشخصي الغنائي عند العرب ، والأبطال في هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية إلى الغاية التي نجدها في الشعر العربي واليهودي ترجع إلى خصيصة أخرى من خصائص النفس السامية وهي انعدام المخيلة الخالقة عندهم ، وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع .. !!

« والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامي البحت لم يعرف مطلقاً إلا نوعاً واحداً من القصاص هو

---

(١) عالم فرنسي ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٨٩٢ ، كتب في التاريخ وبحث في اللغة ثم قارن بين الشعوب وانتهى كما ترى الى هذا الخلط العجيب الذي لا يقول به الجاهلون بله العلماء !

الموت . وملكة الضحك معدومة عند الساميين ، حتى إن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة

« والساميون عندهم نقص تام فى كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودهما عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهى الفن الشخصى إلى الغاية هى الفن الوحيد الذى عرفه الساميون

« والأخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها ، فالسامى لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه ، وإذا طلبت اليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده وأن يقيم العدل بلا تحيز فانما طلبت اليه مستحيلاً ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها » (١)

لن نناقش الآن هذه النظرية أو نقول فيها رأياً ، لأن ذلك مما يطول بنا ، وحسبنا أن ندل على شىء مما يعتقد المستشرقون ، ومع أن تسعين فى المائة من هذه النظرية خطأ واختلاق فقد أحلها الغربيون من نفوسهم المحل الأرفع لأنها توائم نزعاتهم وتتفق وميولهم الطافرة إلى السيطرة والاستعمار

* * *

لست أدرى ما الذى يرضينا فى المستشرق ! ؟ ألعلم النزيه ، وقد رأينا أنه إنما كان لآراب أخر ، أم الذوق الأدبى ، وليس من شك عندنا أنه بعيد عنه بعد الأرض عن السماء ! فالمستشرق مهما تضلع من اللغة العربية ، وأخذ من الثقافة الأدبية ، وتغلغل إلى الروح الاسلامية فلن يدرك أبداً غاية الأدب وأثره وحدوده ولن يستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيدة فنية على نحو ما يتذوقها العربى ! هو يفهم القرآن ولكنه لا يخشع عند سماعه أو تلاوته ، ويشرح القصيدة العربية غريبها وبديعها وعروضها ولكن أذنه لا تطرب لهذه الرنة الموسيقية المبثوثة فى أطواء الشعر العربى ؟

حمص — **محمد روحى فيصل**

(١) العبارات هنا من ترجمة الأستاذ صادق برسوم مطر

صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحى ، وزوّار الامام الشافعى ، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية ، ليروا مقابر الخلفاء والمماليك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميعاً ، ولكنه غير بصير ؛ وكان له حجر عال عريض يقعد عليه ، ولا يريمه ، فى الشتاء والصيف ؛ ولم يكن يبالى لا الشمس ولا الرياح ، ولا المطر ولا التراب ؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر ، فاذا غابت الشمس ودخل الليل ، اختفى ، كأنما ابتلعته الأرض ، أو انشق له الحجر فغاب فيه ، فكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد ، وأن كل راكب يميل اليه ويترجل عنده ، ويضع بين أصابعه زمام دابته ، حتى يفرغ من الصلاة فى المسجد أو غيرها مما جاء له ، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضى . وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل فى الحى ، وكل غريب ألقى اليه بزمام حماره أو بغلته أو فرسه أو مهره ، من صوته ؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو ممسك بالأعنة — حمار مَن الذى نهق ، وأى هذه الدواب تعلك لجامها ، وأى البغال مزنوق فيرفه عنه ويرخى له الرباط الذى تحت حنكه ، وأى حمار تفلتت الشكيمة من فمه ، فينهض اليه ويردها إلى مكانها من فيه ، وأى الأفراس انحل إبزيم منطقته فيعقده ، أعنى يدخل لسانه فى طرفه الآخر . وكان كثيراً مايشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق ، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة ، أو برفع المهماز إذا أحس بيده آثار وخزه فى جلدها ، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً بظهرها ، فقد كان رحيما رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها ، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فكان يمشى مطمئناً واثقاً ، كأنما يرى الطريق ، ويلقى التحية إلى الناس بأسمائهم ، فى دكاكينهم حين يبلغها ، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض ، فيقول له : « مالك مستعجلاً يا فلان ؟ خيراً ، إن شاء الله ! » وكان — ولا يزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذى أمام المسجد يؤدى اليه سلم ، درجاته متهدمة ، فكان إذا بلغها يرقى فيها كأنه صبى فى العاشرة من عمره ؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال ، ويركضها فى الطرق والسكك التى ألفها ، فاذا اعترضه زحام أو قطيع من الغنم ، حبس الدابة ، ثم أرخى لها اللجام ، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نقر (١) بها ، ليزعجها ويستحثها ؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان ، لا تطاوعه نفسه حتى على نكزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر ، لا يتجهم ولا يكتئب ، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا ، ضحوكا ، طيب النفس ، حلو الدعابة ؛ ولكن غزله كان فيه بعض العنف ، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه اليه بقوة فينتتف بعضه ؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء ، وجاء معه طبيب عيون ألمانى ، فأدار عينه فى الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار اليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشى — أمير الجيوش — فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه ، فقالوا : « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به ، فتعجب ، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم   قد ضل من كانت العميان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله ، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه اليه ، ووجد فى صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس ، فنشأت بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة ، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام ، ويجلس إلى جانبه على حجره العالى ، ويراعيه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها ؛ ووقع من نفسه رفقه بها وحسن تعهده لها ، فقال له يوماً — بعربيته المحطمة — إنه يريد أن يعمل له فى عينيه شيئاً ،

(١) النقر أن تلوى لسانك إلى فوق وتنزعه بحنكك ثم تطلقه بقوة فيفرقع

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فإذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تترافس

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولا يدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شىء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس . ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيراها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأتها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى محياه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وارفضّ دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فمست لحيته المبتلّة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه « لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولا حيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم – صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ ـ طائفة البهرا فى الهند

ملاحظات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمة

يقول الكهل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فإذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلاذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت مذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شىء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألا يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبداً . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرق بينه وبين سواه ، فإن أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ

من غـير طائفته ؛ ومُعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الدائمة لمعاونة أخيه فى مذهبه ، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم ، حتى (الحكومة) يعزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصى إفريقية على بمبى ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسـه وتذهب وحشته ، فينفح بما يحتاج التجارة إليه من مال ، يبدأ به عمله ، فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدى طائفته ، فلا يكاد ذلك يَضِح لهم ، حتى يتهالوا على بضاعته ابتياعاً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فان تجده مهما نقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يفِ الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة فى حاجة إلى الراعى ، يصرفها ويسهر على تدبيرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضى هو داعى الدعاة فى بمبى ، وهو نائبه فى كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخولونه أمرهم فيقضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا يراجع فى أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فكيف يبرم عدله ولا ينال المظلوم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل المظلوم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم ، فيادعى القوم اكفنى عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كالموت لا يُعْتِب . . . هـذا قاض أمره عجيب ، وقضاؤه أعجب ، أتراه يقضى على شرعة مدونة ؟ أتراه يستلهم قانوناً بيمينه ماله عنه من محيد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنها تسترقّ الناس حولها ، مرتغبين لا مرتهبين ، بدافع الحب ، ومظهرُ الحب الخضوعُ ، يسمو حتى يصير تفانياً . تتجه القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتعلق القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تتقبل ظله قبول الرضا ، لأنه ولى المالك المتصرف ـ فى رأيها ـ فاذا عدل ، تفانت فيه ؛ فاذا أحب فنيت فى روحه ، وذاك داعى الدعاة عند طائفة البهرا

هو فرد ولكنه الجماعة كلها ، وهم جماعة ولكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير ، هو قلب هـذا الرجل ، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه ، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون . ولقد علمت أن الحب شريعتهم ، فاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهى التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ نعم فلكم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأعزت يتيماً ، وروّت صادياً ! وهل يكون ساقى البذرة إلا رب ثمارها . . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِئُه طعامُه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتغل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، ويربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش فى المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فكان لا ينقطع عن العبادة فى ليله أو نهاره ، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لراقد بالعراء لا يحمل لدنياه هماً ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبى به فى بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تكأكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يا رسول الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فعجب النبى عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟. من يقوم بطعامه ؟! رسول الله يسأل ؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكد النبى يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، ترجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسول الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبى ترصد ابتسامة الرضـــا ، فاذا بالوجه المشرق الكريم يعبس ويضطرب ، ثم تجتمع فى غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلكم خير منه) . داعى الدعاة الشيخ المسن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدسونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقـال من حجرة من قصره إلى

أخرى ، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم ، فيقضى بعض نهاره عاملاً لدنيـاه ، كأنه على شيخوخته وضعفه ، يعيش أبدا

إن الدين لله ، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته ، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار ، إنما يسمو رجل الدين ، ويخلص روحه ، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا ، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده ، مزدريا للوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى ، بأن دعوته رهن بوظيفته ، ووظيفته رهن بدعوته . . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً ؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره ، بادى النعمة واليسار ، عالى الكف يعطى ويتعفف أن يأخذ ، وكيف السبيل ؟

سبيل واحد يسلكه داعى الدعاة البهرى ، وعماله فى مختلف البلاد ، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ كان تاجراً ؛ وفى التجارة وهى أم (المعاملات) ، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب ، ومن كل فضيلة فى الأرض ، وهى التى توجت (بالأمين) اسم محمد ، و (بالصادق) أمانة محمد ، فكانا شافعيه لدى الله فى اختياره ، ولدى الخلق فى دعوته

وفى هامش هذا الحديث فلنذكر ، أن داعى دعاة البهرا ، أراد فى العام الماضى ، وكنت حينئذ فى بمبى ، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسين ، ومفيض نفسه ودمه ، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير ، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال ، وأسباب التحدث بنعمة الله ، وفى سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر ، عبرت به إلى البصرة فى ستمائة بهرى ، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمجد الناس من عطاياه ، بأكرم ما يتسع له كرم ، وأكمل ما يفيض به جاه . . فمن أين ؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه

***

فلينته هذا الحديث الذى لا يفرغ منه ، بأمرين ، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة ، وعلى قدر القلة فى عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح ، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيـلة ، وكأننا أحفادهم ، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة ، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار ، وأيسر حرفة مع الفضيلة ، فاذا أهبنا برجل الدين ، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعوّل عليها ، ويلتمس شرفها ، فأخلق بكل رجل أن يحمّلها أمنيتيه من الغنى : غنى النفس وفى أعقابه غنى المال ؟

القاهرة

محمد نزيه

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحه

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن « النهضة التركية الأخيرة » وما تناوله من بحث ونقد أبرز الاصلاحات الكمالية بقلم نزيه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذى يشاركه فيه كل شرقى يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق ، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب ..! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم ، فى حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التى تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة :

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد . إلا أنه من الانصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها . . فاننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها ، ومن اشتهر بينهم من أعـلام الموسيقى ، بل حفظوا لنا ثمارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم « النوتة الغربية »

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين الموسيقى على أخطاء كثيرة ، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها ، وتبحروا فى علم الأنغام ووضعوا لـكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء ، ولهم فى هـذا

الميدان جولات موفقة ، حتى أنهم استنبطوا كثيراً من الأنغام الشائعة بيننا ، ووجهوا عنايتهم كذلك إلى علم الايقـاع ، ووضعوا لأوزانه طريقة حديثـة تدون بها ، كما أن لهم فضلاً لا يستهان به فى ابتكار جملة ضروب زادت من جمال الموسيقى الشرقية . هذا الى اهتمامهم بضبط مسافات السلم الموسيقى الشرقى وعدم تركهم كبيرة ولا صغيرة فى الموسيقى النظرية أو العملية إلا قتلوها بحثاً وتمحيصاً

إنه حق وفضل لاينبغى إنكارهما . . وقد كنا إلى عهد قريب نعترف فخورين بزعامة تركيا للموسيقى الشرقية

فلما قامت « النهضة التركية الأخيرة » تهللنا بشراً وقلنا لا بد أن القوم لن يقنعوا بما وصلت اليه موسيقاهم من تقدم ونجاح ، وسيدأبون على البلوغ بها إلى أوج المجد والعظمة . . ولـكن أحلامنا اللذيذة لم تلبث طويلاً عند ما فوجئنا بقرارات الكماليين القاسية التى منهـا : استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية ، وهجر ألفاظ لغـة الضاد ، والترحيب بالمصطلحات اللاتينية و ... وأخيراً .. عدم استعمال الأرباع الشرقية ، وإلغاء الموسيقى التركية وإحلال الغربية محلها . . !

نزلت علينا تلك القرارات نزول الصاعقة وهدمت ما كنا نبنيه من آمال . . وظهر لنا ما يضمره الكماليون من إسراف فى هجر الشرق والشرقيين ، ومن رغبـــة فى الفناء فى الغرب والغربيين . . !

تتأثر موسيقى كل أمة ـ كما يتأثر أى فن ـ بعوامل شتى : منها الجو والأخلاق والعادات وغير ذلك . فليس من السهل أن نبدل بقرار ذوق أمة فى غمضة عين ، لأنها لم تـكتسب هذا الذوق إلا بمرور الزمن وبفعل مؤثرات البيئة التى تعيش فيها . فقرار التركى الأب « أتاتورك » إلغاء الموسيقى التركية لا محالة خاطئ لأنه يجبر الأتراك على موسيقى لم يتذوقوها ولن يتأثروا بها مطلقاً . . فاذا سمع التركى مثلاً قطعة حماسية غربية فلن تهز مشاعره بقـدر ما تفعل فيهـا قطعـة تركية ، لأن ... زلى لم تصـل إلى طريقة استفزاز شعور التركى ، ولم تصدق فى التعبير عن نفسيته ، بعكس الثانية ؛ وإذا كان الألمانى مثلاً لا يتأثر بموسيقى الفرنسى أو الروسى كما تؤثر فيه موسيقاه ، فـكيف بالتركى ، والفرق شاسع جداً بين تقارب أمزجة هؤلاء ، وبعد هذا الأخير عنهم..!

كان الأجدر لو أريد قتـل الموسـيقى التركية أن تشجع الموسيقى الغربية ويشجع الاقتباس منها والتطعيم بها ؛ فعلى مر الزمان تزول تلك الموسيقى التى لا نصير لها ، بدل هذا التصرف الذى استعملت فيـه الطفرة . ولـكن من يجرؤ منهم على إعلان هـذا الرأى يكون نصيبه شراً مما نال الأستاذ المدرس بالجامعة فى المؤتمر اللغوى ، وحسين جاهد ، وقد أشار اليهما حضرة الدكتور عزام فى إحدى مقالاته القيمة . . !

من هذا نلاحظ أن الديوان الموسـيقى الغربى مكون من أصوات كاملة وأنصافها ؛ بينما الديوان الشرقى يتكون من أصوات كاملة وأنصافها وأرباعها أيضاً .. ولـكنهم مع ذلك آثروا الديوان الأول لأنه غربى قبل كل شىء . . !

فاذا كان الديوان الغربى موجوداً بتمامه ضمن الديوان الشرقى ، وبذا يتسنى عزف أية قطعة غربية على أية آلة موسيقية شرقية ، مع أنه فى كثير من الآلات الغربية لا يمكن عزف أغلب القطع الشرقية . . . وإذا كانت الأرباع الشرقية تتيح ثروة جديدة فى علم الأنغام زيادة على الثروة التى نحصل عليها من الأنصاف وحدها ، وبذا يتسع المجال أمام الملحن ويمكنه أن يعبر بلحنه عما يشاء . . . . فهل من الحـكمة أن نلجأ إلى الديوان الناقص ونترك الديوان الـكامل . . . ؟

إن كل مزايا الديوان الغربى موجودة فى ديواننا الشرقى ، وفوق ذلك فان لديواننا مزايا أخرى عندما نستعمل الأرباع الصوتية ، فلا شك حينئذ فى أن قرار الحـكومة التركية إلغاء الأرباع الشرقية فى الموسيقى لم يكن لعيب فى هذه الأرباع بل إتماماً للخطة التى رسموها من البعد عن كل ماهو شرقى أو يمت للشرق بصلة . .

الآن . . وقد ظهر للملأ تصرف الحـكومة الكمالية وتنصلها من كل ما يقربها من الشرق سواء كان ذلك فى الدين أو العلم أو اللغة أو الفن أو الأخلاق والتقاليد ، فليس من الخير أن يقتصر موقفنا على مراقبة أعمال هذه الحـكومة وعلى مناشدة الـكتاب والمفـكرين أن يتعاونوا فى هـذه السبيل « حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بهـا على المحجة البيضـاء إلى الغاية المجيدة » كما يتمنى الأسـتاذ الفاضل الدكتور عزام ، بل يجب أن نفـكر تفـكيراً جدياً فى نقل الفنون الشرقية من تركيا كى نحافظ عليها قبل أن تعفو ويطويها البلى

فالى مفكرى الشرق العربى أرسل هذه الصيحة راجياً أن

دراسات فى الأدب الانكليزى

٣ ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

أشعاره ونظريته فى الأدب

ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه Syrical Balleds سنة ١٧٩٨ كما بينا سابقاً ، أما الطبعة الثانية فقد نشرت سنة ١٨٠٠ حاوية مقدمته الشهيرة التى ضمنها نظريته فى الأدب عامة وشعره خاصة دون خيفة أو تردد . ولكولردج فى الطبعة الأولى من هـــذه المجموعة ثلاث قصائد . غير أنه أضاف إليها قصيدتين أخريين ظهرتا فى الطبعة الثانية . وهذه القصائد الخمس هى « الملاح القديم ، والعندليب ، و Foster - Mother tale ، و Dungeon ، والحب » .

وما كاد الأدباء والكتاب يطلعون على آراء وردزورث فى مقدمة ديوانه ويقرأون أشعاره فى ديوانه حتى تناولوه بأقلام نارية وألسنة حادة ، فسخروا ما شاء الله لهم أن يسخروا بآرائه وأشعاره . ولم يبق ديوانه فى شكل واحد بل ظهر فى أوضاع شتى ، وكان الشكل الأخير الذى ظهر فيه سنة ١٨٤٥ جامعا جزأين مع المقدمة ومذيلا بملحق فى (التعابير الشعرية) Poetic Dicton

أما النظرية التى أودعها المقدمة فنتلخص فيما يلى : —

« على الشاعر أن ينتزع موضوعاته من الحوادث العادية المألوفة ، وأن يعبر عنها بلغة سهلة واضحة ليفهمها « الراعى والعالم » على السواء . أى لا تكون خلواً من البلاغة ، ولا تهبط الى درجة الركاكة والفهاهة . وعليه أيضاً أن يلبس الحوادث كساء من الخيال الرائع لكى تظهر وهى عادية مألوفة غير عادية ولا مألوفة ، وأن يقف تجاه كل حادث موقف العالم الدقيق المحقق ، الذى يحلل الأمور تحليلاً علمياً منطقياً ، فيبحث عن المسببات ويرجعها إلى أسبابها ، محكما فى كل حالة عقله فى التحليل وعاطفته فى التعبير . أما الشعر فهو الانبعاث الطبيعى للشعور القوى الزاخر ؛ وما الشاعر إلا إنسان يخاطب بشراً ، إنسان شديد الاحساس والغيرة متضلع من درس الطبيعة البشرية ، تنكشف له نواح فى الحياة ومظاهر فى الطبيعة تحتجب عن غيره ، وهو يعبّر عن موضوعه بلغته ليتغنى بها الجميع . بهذا يمتاز الشاعر من سائر البشر عموماً ومن علماء الطبيعة بعض الامتياز خصوصاً »

ولقد نحا وردزورث فى انتخاب موضوعات أشعاره منحى إسحاق ملتن ووليم بلايك وروبرت برنز وقراى وغيرهم ، غير أنه لم يقتصر على أسلوب واحد فى النظم ، بل طرق معظم البحور والأوزان الشعرية التى سبقه إليها الشعراء قبله . أما سبكه اللفظى ففى غاية الدقة والبساطة ، وتراكيبه خالية من الألفاظ اللاتينية التى يكتظ بها شعر مِلْتِن ، ومن قالكية بوب ، أو إبهامية برونتج الناجمة عن تطرّفه فى الايجاز . ويندر أن نجد فى شعره رجوعاً إلى الأساطير الأولى أو اقتباساً من الأدب (الأصولى) الكلاسيكى أو تقليداً له ، ولقد أكثر من دراسة الشعراء الذين سبقوه وخصوصاً شكسبير ، وملتن وجوسر وسبنسر وكوبر وقراى وتشبع بآرائهم وأساليبهم فنسج على منوالهم فى بدء حياته ، غير أنه عاد فابتدع له أداة للتعبير خاصة به . أما ميزات شعره فنتلخص فيما يلى :

بساطة الأسلوب وسهولة التعبير ، ووضوح المعنى فى أغلب الأحيان

انتزاعه موضوعات أشعاره من الطبيعة والحوادث اليومية والأشياء العادية المألوفة . وقد ورد ذكر هاتين الميزتين فى الكلام على مقدمة ديوانه

يولوها حقها من الاهتمام ، وأهيب بوزارة المعارف المصرية أن ترسل إلى تركية بعثة من طلبتنا النجباء كى يدرسوا فنون الموسيقى الشرقية الصميمة ، وينقلوا لنا كل ما تصل اليه أيديهم قبل أن تتلاشى هذه الفنون ويتم حلول الموسيقى الغربية محلها ، وذلك أسوة بالبعوث التى ترسلها إلى أوربا ؛ وهناك يتشبع الطلبة بالموسيقى الغربيـة ولا يكونون فى المستقبل حرباً على الموسيقى الشرقية التى من العار أن تنهض على حساب الموسيقى الغربية أو تتلوث بدماء دخيلة فيتعكر صفاؤها . .

اسكندرية عبد الحميد رفعت شجة

تصوفه :

وهذه إحدى خصائص الحركة الابتداعية التى كان يمثلها شاعرنا فى بلاد الانكليز أصدق التمثيل . ووردزورث يرى أن الله روحٌ تقطن فى جميع مظاهر الكون أو الطبيعة الخارجية من هواء وجبال ورياح وصخور حتى الرعاة والحيوانات . وتظهر لنا هذه الفلسفة جليّة فى قصيدته Tintern Abbey ، وتعرف عند أهل اللاهوت والصوفية « بشمول الألوهية » أو « وحدة الوجود » Pantheism ، « أى أن الله إنما هو القوى والنواميس الطبيعية وأنه حال فى كل شىء وليس مستقلاً » . على أنه لم يتمسك بهذه العقيدة تمسكاً دينياً ذمياً كما يظن بعضهم ، بل اتخذها عقيدة شعرية وقتية دفعته عاطفته وروحه الشعرية إلى إيرادها فى سياق الكلام

ولعه بالطفولة والأطفال :

وهذا ظاهر فى معظم قصائده مثل « نحن سبعة » ، وفى القصائد التى ورد فيها ذكر الطفلة « لوسى » . وتتجلى هذه الخاصية بوضوح فى قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » ؛ ففيها يرى أن الانسان أقرب ما يكون إلى الله وإلى السماء فى أوان الطفولة . وهو يؤمن بسابق وجود الانسان وأزليته (Preexistance) ، أى ان الانسان كان أصلاً فى السماء فهجرتها روحه وظهرت فى جسد بشرى على الأرض . فالانسان فى عهد الطفولة يكون بحكم الطبع قريباً جداً من الزمن الذى قضته روحه فى السماء ، لهذا يفضل عهدُ الطفولة عهدى الكهولة والشيخوخة . إلا أنه يحسن بنا أن نرفق بالشاعر فلا نُجرى عليه الأحكام الجارفة فى كل ما نعزوه إليه من العقائد . فهو — كما بيّنا سابقاً — لم يكن متعصباً لرأى أو لعقيدة واحدة منظمة شأن كبار الفلاسفة أو اللاهوتيين وإنما كان شاعراً يكتب عن عاطفة شديدة ، فهو لا يستقر على رأى من الآراء ما دامت العاطفة لا العقل هى الدافع والمحرك له فى أغلب منظوماته

الخيال الرائع

يمتاز وردزورث بالباسه الأشياء الطبيعية المألوفة كساءً من الخيال الراق ، وعنده أنه كلما ازداد الشاعر توسعاً وانطلاقاً فى عالم الخيال ازداد لذة واستمتاعاً فى الحياة . ويختلف عن كولردج باتخاذه عاديات الأشياء ومألوفها مواضيع تصويره وخياله متوخياً أن يبتدع مما هو عاديٌّ ومألوف شيئاً جديداً مبتكراً . فبينا كولردج يتدرج من عالم الروح والخيال إلى عالم المادة والحقيقة ترى وردزورث يشرع من عالم المادة وينتهى عند التصاوير الشائقة والأخيلة الرائعة

غموض معانيه

وهذه الميزة لا تلازم معظم أشعاره وإنما تصدق على البعض منها . وغموضه ناجم عن عجزه فى بعض الأحيان عن التمييز بين ما هو عادى مألوف وما يظنه غريباً نادراً ؛ هذا عدا جنوحه إلى إلباس الأشياء العادية حلّة من رائع الخيال مما يوقع القارئ فى ارتباك شديد يجعله غير قادر على إدراك المعنى الصحيح وتفهم ما يتوخى الشاعر إفهامه

وعدا هذا يمتاز وردزورث بوصفه الحيوانات والطيور الأهلية منها والبرية . ويؤخذ عليه ندور ورود النكتة فى أشعاره ، وأن أشعاره لا تلهب الحماسة فى نفس القارئ

ولكى يتم لنا البحث فى أشعاره لا بدّ لنا من أن نقول كلمة فى قصيدتين كبيرتين من قصائده ألا وهما الفاتحة The Prelude والنزهة The Exeursion . أما « الفاتحة » فهى ترجمة وافية لحياة وردزورث الشعرية ، ففيها يبحث عن تطور نفسه الشعرى ونمو سليقته منذ عهد الطفولة . فى هذه القصيدة ملتقى حاضره وماضيه ، وفى هذا الملتقى مبعث لشعوره . إذ أنه كلما ذكر أيام الصبي اللذيذة اختلجت فى نفسه عاطفة قوية وتملّكه شعور لذيذ لا يتمالك من بعثه شعراً حياً لا أثر للكلفة فيه . وللذاكرة المقام الأول والفضل الأكبر فى تصويره أحلام الطفولة وأيام الصبى ، إذ لولاها لنضب معين شعوره وانحبس لسانه عن التعبير عما يجيش فى صدره من مشاعر وفى نفسه من خلجات ، ووقف قلمه عن وصف الأويقات العذبة الهنيئة التى قضاها تحت كنف أمه الرؤوم : الطبيعة بأبسط معانيها وأجلى مظاهرها . وهذه القصيدة مهداة إلى صديقه الشاعر كولردج ، وتقع فى عدة أبواب يختص الأول منها بحياة الطفولة ، والثانى بحياة المدرسة ، والثالث بالسنين التى صرفها فى كمبردج ، والرابع فى حياة لندرة ومؤثراتها ، والخامس بزيارته الأولى لفرنسا والألب وإقامته فى فرنسا خلال الثورة الفرنسية ،

غير ذاكر شيئاً عن علاقته بأنيت ڤالون معشوقته المعهودة

أما « النزهة » ففيها يحلق الشاعر ويسمو فى عالم الروحيات إذ هى مجلى تأملاته فى الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والصوفية ، وفيها يطرق شتى الموضوعات العلمية البحتة ، كتركيب العقل ونشوئه ، وفلسفة العواطف ، والتأمل ؛ غير أنه يكسوها حلة من الخيال ، ويعبر عنها بأبسط التراكيب وأسلس العبارات وأوضحها ، هذا إذا ضربنا صفحاً عن جنوحه فى بعض الأحيان إلى الغموض فى المعنى . « والنزهة » تقع فى تسعة أجزاء مقتضبة ، كل فصل منها حاو لقسم من أقسام القصة التى يسردها ويجعلها هيكل هذه القصيدة الكبرى

وهو فى جميع مباحثه هذه لا يتوخى غير الصدق واظهار عظمة الخالق . أما مدار بحثه فى هذه المواضيع فنفسه ، لا لأنه صنع من جبلة غير التى صنع منها سائر البشر ، بل لأنه أكثر علماً بنفسه من غيرها من النفوس

ولقد أثارت نظريته هذه وأشعاره جدلاً عنيفا وبحثاً متواصلاً فى البيئات الأدبية ، فمن الأدباء من حمل عليه وطعن فيه ، ومنهم من انتصر له . ومن الذين انتقدوه فرنسيس جفرى وبيرون وهزلت ، ومنهم أيضاً صديقه كولردج فى فصل من كتابه (تراجم أدبية) ، بيد أنه لم يكن هدّاماً فى نقده ولا شديد التحامل عليه فى تعليقه على آرائه كغيره من النقّاد . أما إمرسن الكاتب الأمريكى الشهير فينتصر له ، ويعدّ قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » التى تمثل عقيدة شاعرنا الفلسفية ونظريته الأدبية بعض التمثيل ، من أروع بل أروع ماخلّفه لنا أدباء القرن التاسع عشر من القصائد . ولقد كان ديوان وردزورث معواناً للفيلسوف الانكليزى الشهير جون ستوارت مِلْ على تخلصه فى ربيع حياته من السوداء التى كانت تلازمه من حين إلى آخر ، إذ وجد فى قراءة القصائد الفلسفية والدينية منها راحة وعزاء بل خير شفاء له من دائه النفسانى

ومؤرخو الأدب الانكليزى يجعلون السنة التى ظهر فيها ديوان وردزورث لأول مرة ، أى سنة ١٧٩٨ ، فاتحة العصر الابتداعى ، لأن أشعاره تمثل الحركة الابتداعية من الناحية الأدبية خير تمثيل . ولكى يتضح لنا معنى هذا القول علينا أن ننظر بعض النظر فى خواص هذه الحركة ، وخصوصاً الناحية الأدبية منها

(البقية فى العدد القادم) جريس القسوس

فى اللغة والأدب

المثنيـــات

للأستاذ محمد شفيق

إن من خصائص اللغة العربية التى امتازت بها على غيرها من اللغات الحية هذه المثنيات [1] . وقلما يخلو علم من علوم لغة الضاد من مثنيات إن قليلة أو كثيرة . وقد رأيت أن أقدم إلى قراء « الرســـالة الغراء » أمثلة منها مرتبة على العلوم ، مبتدئاً بالأدب واللغة لشدة علاقتهما بالرسالة ، وإن كانت هى حفية بالثقافات الاسلامية والعربية وغيرها :

المثنيات فى اللغة والأدب والنحو والعروض

(الابردان) الغداة والعشىّ ، والظل والفىء ، وفى الصحاح : الابردان : العصران . (الأبيضان) اللبن والماء ، أو الشحم واللبن ، أو الشحم والبياض ، أو الخبز والماء ، أو الحنطة والماء ، أو الملح والخبز ، قال الشاعر :

ولكنه يأتى إلى الحول كاملاً وماليَ إلا الأبيضين شرابُ

(الأجدّان) الليل والنهار ، وكذلك الجديدان ، والدائبان والطريدان ، والعصران ، والملوان ، والأحدثان ، والأصرمان .

(الأحمران) الخمر واللحم ، وفى المثل « أفسدَ الناسَ الأحمران » قال الشاعر :

---

(١) وقسموا المثنى إلى نوعين : المثنى الحقيقى وهو مشهور ، والمثنى التغلبي وهو تغليب احد المتجاورين والمتشابهين على الآخر فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصداً إليهما جميعا ، والتغليب يكون تارة للشرف وأحياناً للشهرة وآونة للخفة كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر . قال الزجاجى ... قال المفضل الضبي ... وجه إلى الرشيد فخرجت حتى صرت إليه ... فقال يا مفضل عندك مسألة تسأل عنها ، قلت نعم يا أمير المؤمنين قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال قد أفادنا هذا قبلك هذا الشيخ ـ يعنى الكسائى وكان فى المجلس ـ لنا قمراها يعنى الشمس والقمر كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر ، قلت ثم زيادة يا أمير المؤمنين ، قال زد قلت : فلم استحسنوا هذا ؟ قال لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد وكان أحدهما أخف على الأفواه غلبوه ... قال قلت قد بقيت مسألة أخرى ، فالتفت إلى الكسائى وقال : أفى هذا غير ماقلت ؟ قلت : بقيت الغاية التى أجراها الشاعر المفتخر فى قوله ، قال : وما هى ؟ قلت : أراد بالشمس ابراهيم خليل الرحمن ، وبالقمر محمداً صلى الله عليه وسلم ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين ؛ فسر وأمر له بجائزة عظيمة

إن الأحامرة الثلاثة أهلكتْ   مالى وكنتُ بهنَّ قِدماً مولعا
الرَّاح واللحم السمين وأطَّلى   بالزعفران فلا أزال مُولعا

(الأخضران) النباتان القريب والبعيد، لأنَّ القريبَ أخضر حقيقةً، والبعيد كما قالوا أسود؛ والأسودُ عند العرب أخضر، يقال فلانٌ أحرق الأخضرين: يراد المبالغة فى ظلمه وتعديه، كأنه يوصلُ الشرَّ إلى القريب والبعيد. وقيل الأخضران: النبات والانسان من العرب؛ قال الفضل بن العباس:

وأنا الأخضرُ من يَعرفني   أخضر الجلدةِ من نسل العربْ

(الأصرمان) الذئب والغراب لأنهما انصرما عن الناس، أى انقطعا، قال:

وموماة يحارُ الطرفُ فيهـا   إذا امتنعتْ علاها الأصرمان

(الأعميان) السيل والفحل، والسيل والحريق، والسيل والليل، والسيل والجمل الهائج: لأنها لا تتقى موضعاً ولا تتجنب شيئاً كالأعمى الذى لا يدرى أين يسلك فهو يمشى حيث ذهبت رجله

(البازيان) الأعشى وجرير. كان أبو عمرو بن العلاء يقول: الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى

(البردان) الغداة والعشى، قال ابن خالويه: حدثنا ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعى قال: دعا أعرابيٌّ لرجلٍ فقال: أذاقك الله البردين — يعنى بردَ الغنى وبرْد العافية — وأماط عنك الأمَرَّين، يعنى مرارة الفقر ومرارة العرى، ووقاك شر الأجوفين، يعنى فرجه وبطنه

(الحكيمان) أبو تمام والمتنبى: سئل أبو العلاء عنهما وعن البحترى فقال: هما حكيمان والشاعر البحترى، كأنه يريد أنهما ينتزعان المعانى من كلام الحكماء ويراعيان الصناعات الشعرية التى أحدثها المتأخرون، وأما البحترى فانه يجرى على عادة العرب فى ترك التكلف واختراع المعانى

(الخالدان) هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان، وخالد بن قيس بن المضلل بن مالك، قال الشاعر:

فقبلىَ ماتَ الخالدانِ كلاهما   عميدُ بنى جحوان وابنُ المضللِ

(الخالديّان) هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم الشاعران المشهوران، قال الصابى:

أرى الشاعرين الخالديين نشَّرا   قصائدَ يَفنَى الدهرُ وهى تقيدُ
تنازعَ قومٌ فيهما وتناقضوا   ومَرَّ جدالٌ بينهمْ وتردُّدُ
فطائفةٌ قالتْ سعيدٌ مُقدم   وطائفةٌ قالت لهم بل محمدُ
وصار إلى حكمى فأصلحتُ بينهم   وما قلتُ إلا بالتى هى أرشدُ
هما لاجتماع الفضل روحٌ مؤلف   ومعناهما من حيث أُلفيت مفرد
كما فرقدا الظلماء لما تشاكلا   علاءً أشكا ذاك أم ذاك أمجدُ
فزوجهما ما مثله فى اتفاقه   وفردهما بين الكواكب أوحدُ
فقاموا على صلح وقام جميعهم   رضياً وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

(السَّببان) هما عند علماء العروض خفيف، وهو حرفان ثانيهما ساكن، وثقيل وهو حرفان متحركان

(الصادان) هما الصاحب بن عباد والصابى، قال أبو الحسن البندارى: أكتب أهل العصر الصادان

(الجرادتان) هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق واسمهما بعاد وثماد، وبهما ضرب المثل «ألحن من الجرادتين»(1)

(الصناعتان) هما عند الأدباء صناعة الشعر وصناعة النثر، وللبلغاء فيهما مؤلفات كثيرة، وأما الصنعتان فى قول الوراق يرثى أبا الحسين الجزار:

يا عيـدنا الأضحى سقى   صوبُ الغمام أبا الحسينِ
لو عاشَ فيك لقـد غدا   يشكو بوارَ الصنعتينِ

فالمراد بهما صنعة الجزارة لعدم من يتقدم إلى الله بالاضاحى، وصنعة الشعر لعدم الكرماء

(الفاصلتان) هما عند العروضيين صغرى، وهى ثلاثة أحرف متحركات على التوالى يعقبهن ساكن، وكبرى، وهى ما تجمع أربعة أحرف متحركة على التوالى يعقبهن ساكن

(رهين المحبسين) هو أبو العلاء المعرى، سمى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج منه مطلقاً، فأراد بأحد المحبسين البيت وبالآخر العمى

(ملكا الشعراء) هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى، قال الصاحب بن عباد: بدئ الشعر بملك وختم بملك، يعنى امرأ القيس وأبا فراس

(فصلا المدح والذم) و (جمعا التصحيح) و (اجتماع الساكنين على حدة) و (اجتماع الساكنين على غير حدة) عند النحويين مشهورة(2)

محمد شفيق

---

(1) تفصيل خبرهما عند المحبى فى «جنى الجنتين» فى صفحة كبيرة
(2) وقد أسهب المحبى فى الكلام عليها بما لا يوجد بعضه فى كثير من كتب النحو

صور من التاريخ الاسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ — ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

كان القرن الهجري الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتهم على العقيدة، وتقوم شخصياتهم على العزائم الثابتة، والمبادئ الواضحة القويمة. ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش، في الصدر الأول من الدولة الأموية، لكان خليقاً به أن يضع في طليعتهم بطلاً فذاً، كان لا ينفك شوكة في جنب هذه الدولة، لسموّ نفسه، وطمعه في الخلافة، وعمله لتحقيق غرضه؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية؛ كان يطمع في النجم، وكان يؤيد مطامعه عزمٌ قوي، وبأس شديد، ولسان ذرب، وشرف واضح، وهمة قعساء، تعضدها الشهامة والبطولة، ولقد تمت له بكل هذا أدوات الرجولة. ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي.

أنجبه أبوان كريمان؛ أما أحدهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بني أسد بن عبد العزى، حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً في الناس، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول، ومن ذوي المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم، ولا يبتّ في أمر هام إلا بعد مشورتهم وبذل نصحهم؛ ولقد كانت له اليد الطولى في نجدة الاسلام أيام كان المسلمون قلة، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة، في فتح البلدان، ونشر الاسلام؛ أرسله أمير المؤمنين عمر إلى مصر نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحها، وقال له: إني أرسلت اليك رجلاً بألف! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه، وبجيد أعماله أنه أهلٌ لهذا التقدير العظيم. وفي الحق أن الزبير كان يعدّ في الصف الأول بين أمجاد قريش، وذوي الثروة فيها، وقد رشحه مركزه ونباهة شأنه، وقوة شخصيته للخلافة؛ فكان أحد الستة الذين عهد اليهم ابن الخطاب، أن يختاروا خليفة منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه؛ أما أمه فحسب القارئ أن يعرف أنها أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأخت عائشة أم المؤمنين، وكانت مع شرف أرومتها، ذات حزم وفكر ثاقب، كما كانت صلبة العود، أبية النفس، لها عزمٌ جبار؛ فلو أنها لم تكن أنثى، لكانت رجلاً ولا كالرجال!!!

من هذه الأنساب الواضحة، والدوحة الباسقة، خرج عبد الله وورثه آباؤه وأقرباؤه جل الصفات الممتازة التي تغذي الطموح وتذكيه؛ وساعدت بيئته التي نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والاقدام في نفسه، فامتاز بالفصاحة، وذلاقة اللسان، وقوة الحجة، حتى كان يعد من خير خطباء الاسلام؛ واشتهر كذلك فضله وزهده، وطول صيامه وقيامه، بين الخاصة والكافة. أما شجاعته فحدّثْ عن الليث ولا حرج! فهو الذي يقول: « ما أبالي — إذا وجدت ثلثمائة من الرجال، يصبرون صبري — لو أجلب بهم على أهل الأرض!! » ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول « إن عبد الله كان لا ينازَع في ثلاث: شجاعة، وبلاغة، وعبادة » وتلك عدة الرجولة الكاملة، وخاصة في ذلك العصر

***

كان عبد الله أول مولود للمهاجرين بالمدينة عام الهجرة، فدرج بها، ونشأ فيها، حتى نال من التعليم المنتشر في عصره ما أكسبه ثقافة دينية محضة، فعرف الكتابة والقراءة، على طريقة عصره، وحفظ الكتاب، وروى الأحاديث؛ واقتدى في حياته وعبادته بمن كان يخالطهم ويعاشرهم من جلة الصحابة الكرام؛ فأثر هذا في أخلاقه تأثيراً كبيراً، كان من ثماره تلك النزعة، نزعة العبادة وطول القيام والتهجد التي غلبت عليه فيما بعد. وكان أهم ما يجذب النظر اليه وهو صغير، جراءته النادرة، وميله إلى العناد، مع الثقة بنفسه، والاعتداد بقوته؛ « كان ذات يوم يلعب مع الصبيان، فمرّ رجل فصاح بهم، ففروا ومشى عبد الله القهقرى (بظهره) ثم قال: يا صبيان اجعلوني أميركم، وشدوا بنا عليه فهزمه! » . ومرّ به عمر بن الخطاب، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون، ففروا وبقي هو؛ فقال له عمر: لماذا لم تفر مع رفاقك؟ فأجابه بجراءة وفصاحة: « لم أجرم فأخافك،

وليست الطريق ضيقة فأوسع لك » . هذه أمثلة صغيرة ، ولكننا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة ، في زمن الطفولة والتنشئة ، ونستنبط منها أن للعظمة بوادر تلوح في الحوادث الحقيرة ، كأنها ارهاصات لظواهر أخرى كبيرة ، تكون حينما تكون عظائم الأمور ، ومن هذه المُثُل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه ، وثقته بها ؛ ولا ريب أن الحبة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فانها تشق الأرض شقاً ، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة !

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح ، ثقف صناعة الحرب ، ثم صحب الجيوش الغازية ، وأبلى في العدو بلاء محمودَ الأثر ؛ روى الزبير بن بكّار « أنه - عبد الله - قتل بيده في فتح افريقية أميرَ جيوش الروم » فأرسله عبد الله بن أبي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان ، فما سمع بشارته أعجبه كلامُه وشجاعةُ قلبه ، ثم سأله : أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ فأجابه : وما يمنعني من ذلك ؟ ثم قام خطيباً ، وتدفقت من فيه آياتُ البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح ، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ؛ وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه ، وانفضّ الجمع ، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه ، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول أبي عمرو بن عبيد : « كان عبد الله شهماً ذَكَراً ذا أَنَفَة ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والأمهات والخالات » . بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير أن يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتىء عثمان يتفرس في مخايله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه ... ومن ثمّ دبّ الطمع إلى قلبه في طلب الخلافة لنفسه ، وأبقى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يألُ جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل ، الذى يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة ؛ ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التى هي دار الخلافة ؟ ولِمَ لا يكون خليفة وجدُّه أبو بكر أولُ الخلفاء ؟ بمثل هذا تحدّث إلى نفسه ، ولكن أنّى له هذا ، وفي القوم كثيرٌ ممن يكفُّونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامي ؟ ؟

وإذن فليرتقب سنوح الفرصة ، وليأخذ أهبته ريثما تواتيه الظروف المسْعِدة ، عسى أن ينال ما يبتغيه ! وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلي الأمر من بعد عثمان ، فما هو أن بويع عليٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهلَ الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عُبيد الله ، وتحت راية خالته عائشة ، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة عليٍّ بالعراق ، وإنما زجها عبد الله ودفع بها في هذا المأزق الحرج ، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التى ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وبعد أن هوّل ما بينها وبين علي من الأحن القديمة ، فاستجابت طبيعة المرأة لما أُلقي اليها من دواعي الاغراء ، وأجمعت أمرها على النزال ، فقامت تخطب المسلمين ؛ تحرضهم على الانتقام لعثمان . . . . حتى كان ما كان يوم الجمل . روى المسعودى « أن عائشة قالت يوماً : إذا مرّ ابن عمر فأرُونيه ، فلما مرّ قالوا هذا ابن عمر ؛ فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيري إلى العراق ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعني عبد الله بن الزبير)

يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفيّ لجيش عائشة على علي ، وأنه كان قطبَ الرحا يوم الجمل ، والدافع له إلى هذا إنما هي نيتُه المستورة ، ورغبتُه المكبوتة في أمر الخلافة

***

ثم تجرى الأمور على قدر ، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل علي ، فيتمنى عبد الله أن لو كان معه جند يشدّ أزره أمام الخليفة الجديد ! ولكن أنى له ذلك الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة إحداها بزعامة معاوية ، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبي طالب ، فلم يبق إلا الاذعان للواقع ، والحزم إذن في المداورة لمن يبني أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصةٍ أخرى أمثلَ من هذه

بايع ابنُ الزبير معاوية ، وفي نفسه غصة ، ولقد كانت المطامع الكبيرة التى ينطوى عليها توقفه من معاوية موقف الند للند ، بل موقف المشاكس المناقض ، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به ، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة ، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى ،

يُروى أن معاوية حجّ سنة ، ثم رحل إلى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله ، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم في هودجه ، فانتبه على وقع الحافر ، وقال من صاحب الفرس ؟ قال أنا عبد الله ! لو شئت يامعاوية قتلتك الآن ! ! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لستَ هناك ، ثم دار بينهما حوار طويل ، وكان مما قال عبد الله : أفعلتها يامعاوية ! أَما إنا قد أعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به مادمت حياً ، ولكن ليعلمنّ مَن بعدك ! ! ! وفي هذا التهديد مايتم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله ، وإنما كان يكتمها إلى أجل ؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه ، فيقع بينهما في مجلس الخلافة الجدالُ الشديد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، ولكن ابن الزبير كان يُفحم عمراً بالقول الرادع ، والحجة الدامغة . قال له مرة : « يا ابنَ العاص . إنما طال بي إلى الذُّرى ما لا يطول بك مثله : أنفٌ حمي ، وقلبٌ ذكي ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ، وطريف مانع » . فعبد الله — كما قلنا — يطوي نفسه على طلب الخلافة ، ويستسرّ الأمر ، ولم يكن هذا ليخفى على أحد ، حتى على الخليفة نفسه ؛ وتتضح نيته ، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد . يروي الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً ، فقال معاوية مالي أراك مطرقاً إطراقَ الأفعوان في أصول الشجر ؟ قال : « أنا أناديك ولا أناجيك ؛ أخوك من صدَقك ، ففكِّرْ في الأمر قبل أن تندمَ » فهو لم يرض البيعة ليزيد ، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك ؛ وبهذه اللهجة الحازمة جابه خليفة المسلمين ، مع قدرته على الفتك به . ولقد حذّر معاوية ابنه يزيد منه ، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه ؛ قال لابنه : « إياك منه — ابن الزبير — إنه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجراءة عند إطلاقه ، فوجِّهْ اليه كلّ جدك وعزمك ، وأما ما بعد ذلك فقد وطّأت لك الأمم ، وذللتُ لك أعناق المنابر . . . » . فمعاوية السياسي الخطير ، والداهية العظيم ، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبدَ الله ؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوبَ من جانبه ، لما يعهده فيه من قوة الشكيمة ، وصدق العزيمة ، وأنه لا يستكين ولا يستخذي ، وأن صدرَه مطويٌّ على أمور جسام

* * *

ويلحقُ معاوية بربه ، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية ، حيث يتولى يزيد الأمر ، ويميل إلى السرف في المتع والشهوات ، وينغمس في ملاذه ، حتى لينسيه ذلك أن يعنى بأمور المسلمين على الوجه الذي يرضى جمهرتهم في سائر الأمصار ، ويضمن التفافهم حوله . حينئذ يغلي صدرُ عبد الله بمكنوناته ، فيتحفز ، وتزداد حرارة نفسه ، ثم ينطلق إلى منبر المدينة ، فيُلقي من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمةَ الثورة على الخليفة الأموي ؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة ، يسب فيها يزيد ، ويذكر مقابحه وعيوبه ، ثم يبلغ كلامُه مسامع يزيد ، فيؤدي هذا إلى وقعة الحرّة ، التي انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه نقطة سوداء أثيمة ، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلفِ الأقطار الاسلامية عن الخلافة الأموية ، وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطلبه ؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد ، وكانت نزعته هذه تعتمد على عدة أمور : منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها ، فتدخّله من هذا الاستخلاف طموح إلى الأمر ، ولذا كان يقول لئن أُصبتُ بأبي فلقد أصبت بامدى عثمان ؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل ، وكأني به يقول لنفسه : لم لا أكون خليفةَ المسلمين ، والأمر لا يجري على ميراث ولا يتبع قانوناً ؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية ، كما أراد معاوية أن يُقيم دولة سفيانية ؟ وقد نمى عنده هذه الخواطرَ ما أنسه في نفسه من قوة الشخصية ، وشدة الاعتداد ، مع شرفه وجراءة قلبه . سأله ابن عباس مرة : بماذا تروم هذا الأمر ؟ قال بشرفي ! ، وقد وجد في أهل الحجاز ضراماً لناره . فهم يؤيدونه على الأموية ، ولذا اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية في العدد القادم)

محمد حسني عبد الرحمن

الشباب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة

مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المثل العليا وعزوفه عن حقيرات الأمور وابائه الضيم للناس ولنفسه ، وبألا يقنع من الحياة بما يرى ، وبأن يحاول أن يبلغ من جليلات أمورها البعيد الدانى الى قلبه ونفسه ، وبأن يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها ، وأن يستنقذ الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ومأساة وضيعة الناظم

***

إن الشباب حديقة الأزمان   عَطِر الروائح ناصع الألوان
مثل الربيع إذا جلوت بسحره   نَوْرَ الرُّبَى وأطايب البستان
روحٌ من الفردوس يُثمِل نَشْرُه   تغدو الحياة به رياض جِنان
ما راعه حكم الحِمَام وصَوْلُه   إن الشباب من الخلود لَدَانى
لا اليأس يضنيه ولا جزع إذا   كثر العثار وزلت القدمان
ينسى الذى يمضى لينشد مقبلاً   مستأنفاً للعيش بالنسيان
ولو أن رفضا للقضاء يذيقه   كأساً تذيب القلب من ذيفان
والشيب بالتسليم يكسر سمها   حيث الشباب لِغِرَّةِ الأسوان
وهو المغامر فى الحياة بنفسه   نشوان لا من خمرة النشوان
نشوان من خمر الحياة وكأسها   تغنيه عن نشوات بنت الحان
فكأنما فك الزمانُ قيودَه   عنه وما للدهر من سلطان
ويصوغ من أحزانه نغماً له   فكأنه خلوٌ من الأحزان
يسمو إلى الغرض البعيد طموحه   ويرد خطب الدهر بالايمان
متحصن منه بأمنع معقل   متكفِّل إيمانه بأمان
ويكاد من فرط المناءة والهوى   يدع الثرى ويهم بالطيران
والشيب يرسب فى الحضيض تخلفاً   وترى الشباب كذروة الأكوان
ما أرَّقته ذكرة من أشيب   جم التردد خَطْوُهُ متدانى
وله على إدبار دَهْرٍ عزةٌ   تنأى به عن ذلة وهوان
كِبْرُ الشباب ولا اعتداد مُسَوَّدٍ   بالجاه والأجناد والأعوان
إن كان صعلوكاً فليس بخانع   فكأنه ذو التاج والايوان
إن العزيز هو العزيز على الصِّبَى   والشيب مهما عز ذل جَنَان
ذل الجَنَان لوهن جثمان ولا   ذل كذل الوهن فى الأبدان
ورث المراح ذخيرةً لمبذر   خال الحياة رخيصةَ الأثمان
لَذَّاتُه دَيْنٌ يؤديه إذا   حل المشيب وهد من جثمان
تتعادل اللذات فى ريعانه   ولواعج للشيب فى ميزان
عهد الصراحة والمروءة والندى   وتألُّفِ الخلان بالخلان
عهد المحبة والأخاء وربما   تُلْفِيهما فى القلب يمتزجان
عهد إذا طلب الكرى لم يُعْيِه   وكرى المشيب مؤرَّق الأحزان
عهد الصِّبَى عهد المنى ، فإذا مضى   لم يبق إلا مُرُّ سُؤْرِ دنان
وتكاد ذكراه إذا فات الصبى   تحيي الصبى وترد غرب زمان
أطاعه عُلْوِيَّةٌ ، أحلامه   ذهبيةُ الآمال كالعقيان
عهد الصيال ولا صيال لأشيب   هاب الحياة وصولة العدوان
والخطب أن يَهْوِى المشيب بصائل   ما كان يخشى جولة الحدثان
حتى تراه بالحياة مُرَوَّعاً   قلق الضلوع مؤرَّق الأجفان
والخوف طبع فى المشيب وقلما   تلقى الشباب على غرار جبان
ولربما جمح الشباب بِسادر   عَبَدَ الحياة عبادة الشيطان
ولربما عبد الحياة أخو النهى   كعبادةِ لله والأوطان
قال المشيب ورُبَّ قولة صامت   تعظ المصيخ له بغير لسان
ما سَرَّنى أنى فطنت وإننى   والحلم والتبيان فى أكفان
ونسيت ما نَشْرُ الجنان وخلدُها   وذكرت أن العيش مهلة فانى
ولقد علمت الآن ما عهد الصبى   من بعد جهلى فيه والنسيان
والآن عالجت الحياة كما أرى   لا ما أريد من البعيد الدانى
وعددت من سُنَنِ الحياة وحكمها   ما يفعل الانسان بالانسان
فى حرصه أو قَسْوِهِ أو رِقِّهِ   من فتكه بالروح والأبدان
وفزعت من ظُلْمِ الحياة وطالما   ذَلَّلْتُ منها أيَّمَا طغيان
وتلوت فى التاريخ آيات الأسى   مسطورةً بمدامع الأحزان
فعسى الشباب بمقبل من دهره   يبلو الحياة بعزمة وأمانى
ويَسُنُّ للدنيا الوسيعة سُنَّةً   لا سنة للحرص والحرمان
يستنقذ الأزمان من عبث الورى   ويُطَهِّرُ الاحشاء من أضغان
ويُذِلُّ طاغوتَ الأمور فيحتذى   شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن
ويُحِيلُ ظلم العيش عدلاً سائغاً   يُنْسَى به ما كان من عدوان

عبد الرحمن شكرى

ذكرى ســـعد

للأستاذ فخرى أبو السعود

تهفو لذكرك أنفسٌ ومشاعر   وتجود أفئــدةٌ له وخواطر
ويُضيء شعرٌ من علائك قابسٌ   ويَتيه فخراً فى مديحك شاعر
وعلوت أنت فما يزيدك مادحٌ   مجداً ولا يُعلى مكانَك ذاكر
يافخرمصر فى الشعوب على المدى   ما قام فيهـا بالرجال مُفاخر
كانت حياتُك صفحةً كم سُطِّرَتْ   فيها لمصرَ محامدٌ ومآثر
أنت الذى أعليتَ خافتَ صوتها
والخصم يُرعِد والخطوبُ بواسِر
فشدَتْ بذكرك ألسنٌ وصحائف   وبذكرِ مصرَ عواصمٌ وحواضر
روَّعْتَ عنها غاصباً متجبراً   الموتُ من أسيافه متقاطر
ليثٌ يَروعُ العالمين مهابةً   قدراعهُ مِن ليث مصر زَماجر
لما رأوك تُثير شعباً هامداً   وتمجُّ سِحرَ القول قالوا : ساحر
لو أنصفوا قالوا : نبىٌّ مرسل   الوَحْىُ يَتبعُ خطوَهُ ويُساير
أدّيْتَ أمس رسالةً عُلويةً   العِــزُّ أولُ آيِها والآخِر
فى عهدك الزاهى الأغرّ — ولم يطُلْ —
ينعتْ أمانٍ للبلاد زواهر
شَرَقَتْ لمصر سيادةٌ كانت خَبَتْ
من عهد فرعونٍ وعزٌّ باهر
وطَلَعْتَ فى دست الرياسة قائداً   فى راحتيه أزِمَّةٌ ومصائر
ومثَلْتَ فى دار النيابة مِدْرَهاً   شخصتْ إليه جوارحٌ ونواظر
أنَّى حَللتَ سما بمجدك منصبٌ   أن زانه سعد العظيمُ الكابر
استقبلتْ بك مصرُ سالفَ رفعةٍ   وبدَتْ لمأمول النهوض بشائر
فأتتْ ثمان بعد ذاك كأنها   دهرٌ على الوادى المروَّع داهر
وتُلدتْ بها الآمال فى إبّانها   وتَلَتْ سناك على البلاد دياجر
سَرَقَتْ زمامَ الحكم فيها عصبةٌ   لا عاد عهدهم الأثيم الدّاثر
من كان قاعُ السجن مأوى مِثلِهِم
عَمَرَتْ محـــافلُ باسمهم ومنابر
أجْرَوْا على الأهلين ما لم يُجْرِه   فى سالف الأحقاب غازٍ فاجر
وتحكّموا والأجنبىُّ مُظاهرٌ   لهمُ وجُندُ الأجنبىِّ مُناصر
أوْهى وأوْهنُ ما رأوه شرائعٌ   عَبَثوا علانيةً بها ودساتر
أعداءُ مصرَ همُ كواشحُ سعدها   قد شفَّهم حقدٌ عليه ساعر
نَقِمُوا عليه فى النفوس مكانةً   مَسعاتهم عن دَرْكِها تتقاصر
ضنُّوا على سعدٍ بتمثال وقد   ضمّتْ جوانحُ رَسْمَهُ وسرائر
فى موطنٍ كم فاز بالأنصاب فى   ساحاته عِلجٌ دخيل ماكر
وحمَوْا بقيّتَه ضريحاً شادَهُ   لرُفاته الشعبُ الحفِىُّ الشاكر
ولو استطاعوا فوق ذاك لما ثوَى   فى مِصرِهِ جسد الزعيم الطاهر
حَسَدٌ لعلياء الرئيس وفضلهِ   حيًّا وميْتاً ما يزال يُساور
إن يمنعُوا عنه بِناءَ حجارةٍ   فلهُ البناءُ المشمخِرُّ الفاخر
بُنيانُ مجدٍ شادَهُ بيمينه   هيهاتَ يَبلُغه الحسودُ الخاسر
يمضون فى غدهم حُطاماً مُغفَلاً   وهو المخلّدُ فى العصور الظافر

فخرى أبو السعود

راتبى

للأستاذ محمود غنيم

ولى راتبٌ كالماء تحويه راحتى
فيُفلتُ من بين الأصابع هاربا
إذا استأذن الشهرُ التفتُّ فلم أجد
إلى جانبى إلا غريماً مطالبا
فأمسيتُ أرجو نعيَهُ يومَ وضعِه   وليس الذى يمضى من العمر آيبا
لعمرك مافوق المكاتب راحةٌ   ولا تحتها كنز يدرُّ المكاسبا
قضيت حياتى بين دارى ومكتبى
فألفيتُ وجهَ العيش أصفر شاحبا
تشابهت الأيام عندى كأنما   مضى العمرُ يوماً واحداً متعاقبا
فقل لشباب النيل قالةَ ناصحٍ   تعاف له أخلاقه أن يواربا
إذا مصرُ لم ترفعْ قواعد مجدها   بساعدها لم تقض منه مآربا
وإن تكُ فى كل المرافق عالةً   على غيرنا عشنا بمصرَ أجانبا
أما من سبيل للحياة وغيرُنا   يرى سبلاً شتى لها ومذاهبا ؟

محمود غنيم

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٧ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

أثرت فى نيتشه تعاليم شوبنهاور تأثيراً ظهر فى كتابه « نشأة المأساة » وعنه اقتبس قواعد كتابه . فاتخذ الارادة منه كشيء قائم بنفسه ؛ والذاتية فى الوجود مصدر كل ألم ، والموسيقى كلغة أصيلة للارادة . وفى الكتاب ذاته يرحب بشوبنهاور ويحييه تحية العبقرية ، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة ، ويحلل تأثيره وما يمكن لهذا التأثير أن يفعله فى الأرواح الحديثة . يقول : « إن انسان اليوم يتحرى عن ذاته ، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه المصادفات إلى معلم نافع فيتبعه ، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة ، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول إلى هذه « الذات » الغامضة المتوارية فى أحناء كل انسان » ، ولم يكن معلمه إلا شوبنهاور

شاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذى يتحرى عن الحقيقة فى كل ما حبر وسطر . وفى مدرسة شوبنهاور تعلم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هى بما فيها من قبح وبما تنطوى عليه من ألم . وتعلم أن العبقرية يجب أن تناضل عصرها وأبناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها ، فهى حين تناضل الضعف وتحارب الرذيلة ، تحاول فى هذا كله أن تطهر ذاتها من كل الأوضار التى دخلت عليها من مجتمعها

وأخيراً وجد نيتشه فى شوبنهاور تعريفه لحياة البطولة ؛ (أما الحياة السعيدة فهى ضرب من المحال . ولكن الذى يمسح الانسان بمسحة الجلال هو أن يعتنق حياة البطولة ، وأن يقضى وجوداً تزينه الرجولة . لا تحفل بأن تكافأ على حياتك ، فخير ما تكافأ به نفسك أن تكون عظيما ظافراً ، ذكراك تبقى حية ، وأنت تمجد تمجيد الأبطال ؛ وارادتك تثب من خطر إلى خطر ، وتصعد من قدر إلى قدر ، حتى تتلاشى فى « النرفانا ») وهكذا خال نيتشه أنه وجد فى شوبنهاور روح « ديونيزيوس » التى تعتمد على الارادة وحدها

الغزوة الرابعة

وهناك صداقته القديمة للموسيقى الفنان « ريشارد فاجنر » هذه الصداقة التى يعود عهدها إلى أيام الحداثة ، ما عمرها إلا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجاباً تسامى عن اعجاب فنان بفنان إلى امتزاج انسان بانسان ؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحاً طويلاً من الزمن ، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة ؛ وظلا ثابتين على هذه الصداقة حتى شاءت الظروف أن تفرق بينهما ؛ فمضى « فاجنر » إلى « بايروت » حيث أسس فيها داراً للتمثيل ، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب ؛ وفى احدى مطالعاته الأخيرة وصف « فاجنر » كبطل من أبطال العبقرية على النحو الذى ذهب اليه فى معلمه « شوبنهاور » ، ولكن هذا أدى رسالته عن طريق الفلسفة ، وذاك يؤديها عن طريق الفن بأسلوب حى يمازجه شيء من الغموض ، هو ذلك العبقرى « الديونيزوسى » الذى لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة فى نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص ؛ فهو عبقرى جمع اليه جملة فنون متصاحبة : فيه براعة الممثل ، وعبقرية الموسيقى ، وسمو الشعر ؛ تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشى حسه ، وقد كان هدف « فاجنر » من افتتاحه لدار التمثيل أن يخلق درامة موسيقية يُحيى بها عهد المأساة عند اليونان ؛ وإن تحقيق هذه الدرامة لَيُعد أول محاولة من نوعها فى تاريخ أدب الغرب الحديث ؛ لأنها محاولة لا ترمى فى الحقيقة إلا إلى احياء العبقرية اليونانية الهامدة ، ولو أن هذا العمل قُدر له الانتصار والبقاء ، لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد فى تاريخ الانسانية

ولكن نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً إلى أهله ، وقد تراكم عليه اليأس والضجر ، فجمته الأيام فى أحلام صباه ، وانتصر فيه اعجابه بفاجنر على كل شيء

هذا نيتشه الذى كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكرى الذى قهره عليه سلطة هذين المعلمين ، وهو أحد

المتعصبين لأفكارهما وآرائهما ، وأحد العاملين على بثها ، لأنهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى . ولكن نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما . وقد عرفنا كيف انفصل عن « شوبنهاور » في مسائل واضحة من مذهبه . فقد أصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية ، وفي الخاصيات التي يعزوها صاحبها إلى الارادة ، وفي الارادة التي يزعم صاحبها أنها كنه أكناه الكون ، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه . وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو إليه شوبنهاور ، فأبى الخضوع والاستسلام ورفض الجنوح للسكون الفلسفي . وبهذا قضى على فلسفة الحكمة « الراكدة » اللابسة لباس اليأس . هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها . ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل . ويمدح الحكمة الممزوجة بالمأساة ، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة ، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه ، هذه الحقوق التي تخول الأنسان حق التخيل وحق التوهم

ولم يكن حكم نيتشه على « ڤاجنر » أقل جرأة وقسوة . فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال ، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب . ويقارن بينه وبين « باخ وبيتهوڤن » اللذين هما أصفى مزاجاً منه . وأصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقي والشاعر والمفكر . وأخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة . منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحية والذهول البوذي ، وحبه للأشياء الغريبة . أصبح في شك من أي تأثير يحمله « ڤاجنر » إلى الشعب الألماني

هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى « ڤاجنر » المثل الأسمى قد انقلب عليها وجحد بها ، فما هي علة هذا الانقلاب ؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال أثناء تحدثه عن شوبنهاور « إننا نخاله فيلسوفاً : ثم نرى : إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فان هذه الملحوظات لا يشوبها خلل . لأن منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها ، فهو كفيلسوف يعلّم قد يكون مخطئاً مائة مرة . ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة ، مرتدية أزياء الحقيقة . . . وههنا مجال النظر والتأمل ؛ ففي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة ، هذا الشيء هو الذي يُخلد الفلسفة ويولد العبقرية » . وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين ، فهو قد مل إليهما بآثارهما والتعصب لها . ثم انقلب هذا الميل والتعصب إلى الآثار إلى إعجاب مجرد بالشخصية ، فأحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما . ثم عمل على أن يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة أو يشوش أسبابها ، ولكنه اضطر إلى نقد مالا يوائم فكرته نقداً عاماً ، وأخيراً اقتربت تلك الساعة التي وجد فيها أن الفواصل التي تفصله عنهما هي أكبر من أن تُخنق

وألفى أن في سكوته عنها خيانة لنفسه . فبدأ ينقد آثارهما ويظهر أخطاءها . وهو في كل ذلك لا يحاول أن يفهمهما بحقيقتهما ولكنه عامل على تفهيم نفسه بالاتصال بهما ؛ وهو بدلاً من أن يصور نفسه بصورتهما رأيناه قد حوّل صورتهما إلى صورته ، وأذاب ذاتيهما في ذاته ، كالبحر الذي يحول فيه الفرات أجاجاً . وصورة « شوبنهاور » التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقية مشابهة ، وإنما هي صورة للمثل الأعلى للفيلسوف « التراجيدي » كما يتخيلها نيتشه . وهكذا قل في صورة « ڤاجنر » . وهو دائماً لا يعبر في كل ما يصف ويصور إلا عن حلمه الباطن

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

حروب طروادة

التفاحة المشئومة

للأستاذ دريني خشبة

نشـيد الزمان !

وقصيدة الماضي !

وغنـاء السلف !

وحُداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد ؛ رُكبانها الآلهة ، وأپوللو وكيوپيد ومَلؤها ولِدانها المخلَّدون !

***

أنشـد يا هوميروس !

واملأ الأحقاب موسيقى !

واللانهاية جمالاً وسحراً !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والانسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دويّ العصر ، فهي أبداً تحنّ إلى سكون الماضي !

***

لن تصمت يا هومـيروس !

فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك !

والقلوب هي القـلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنيناً ، فلقد أوسعتنا هذه الدنيا أنيناً ؛ ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين !

— ١ —

رآها تخطر فوق الثبج ، وتميس على رؤوس الموج ؛ فهام بها ، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمپ ، فكان يقضي عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة ، ويفتش في كل موجة عن حبيبته « ذيتيس » . . . عروس الماء الفاتنة ، « ذات القدمين الفضيتين[1] » ، ابنة نريوس ، رب الأعماق ؛ الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس ، في قصور المرجان . . . هناك . . . هناك تحت العُباب . .

ورقت له الفتاة ، حين علمت أنه رب الأرباب ، وسيد آلهة الأولمب ، زيوس العظيم ، فوصلت بحبالها حباله ، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة ، تصاول حيرا أم مارس وفلكان ، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأپوللو ، وتدِل على ديون أم ڤينوس . . . وعلى سائر ربات الأولمب !

وابتسم لهما الزمان ، وتساقيا كئوس الغرام دهاقاً ؛ وأوشك الالـه الأكبر أن يبني بها لولا وسواس خامر قلبه ، فآثر أن يستشير ربات الأقدار[2] قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشيء

ولقد شاء حسن طالع الالـه الأكبر أن يفعل ؛ إذ أخبرنه أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب ، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه ؛ أو على الأقل ، تكسف شمسُ عظمته شمس أبيه ، فيعيش إلى جانبه إمّعةً لاشأن له . وهوَّلن لحدثنه عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع ، ويستحر القتال ، بين شعبه « الأغريق » وجيرانهم « الطرواديين » . . .

---

(١) العبارة من هومير

(٢) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوچيا اليونانية ، ماعدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات : (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء ، (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه المتين والواهي ، (٣) أتروپوس كبراهن وهي تقطع الحبل جزءاً لجزءاً بمقص كبير

وخفق قلب زيوس ، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن [١] بعد فظائع وأهوال ، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه

لذلك قصر هواه ، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي أن تتزوج ذيتيس من پليوس ملك فيتيا ، الذي كان هو الآخر مولعاً بها ، مشغوفاً بجمالها حباً . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبنى ابنته على بشريٍّ هالك ولو كان ملكا . بيد أنه صدع بأمر الآلـه الأكبر ، وقبل پليوس لابنته بعلاً . . .

وحزنت ذيتيس ، وانعكفت في غرفتها المرصعة باللآلىء تشكو وتبكي ؛ فلما علم زيوس ما حل بها ، زارها من فوره ، وطفق يلاطفها ويترضـاها ، حتى رضيت أن تكون زوجة لپليوس الملك : « على أن تحضر بنفسك ، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف ، وليعزف أپوللو على موسـيقاه ، ولترقص ديانا ربة القمر . . . »

— ٢ —

ودُقَّت البشائر ، واضطرب بطن اليم ، وانشق الماء عن طريق رحب يتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نريوس في أعماق المحيط ، ووقفت الأوسيانيد والنيريديد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحيي الضيوف الأعزاء ، الأودّاء الأحبّاء ، وتغني وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الموسيقى الشجية

وانبرى أپوللو يوقع على قيثارته الذهبيـة . أپوللو ! ! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة ، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة ، فتقفز الحجارة مترنحة من الطرب إلى مكانها من الأسوار !!

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضي ، وتعلو في السماء ، أم ديانا الهيفاء ترقص في القلوب والأحشاء !!

ونهض الجميع إلى القصف الفاخر الذي تفننت في تنويع آكاله وأشربانه أيدٍ إلـهية ماهرة ، فأكلوا ما لذ ، وشربوا ما طاب ، وأخذوا في سمر جميل . وكان هرمز يرسل نكاته الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك ، وتدوّي الأكف بالتصفيق . !

وبينما الآلهة في قصفهم ، لا يفـكر أحدهم إلا في هنـاء العروسين ، إذا بالربَّة الخصيم أريس [١] تظهر فجأةً في وسـط الجماعة ، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر ، وتنفثان سم البغض ، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خُصَلٌ ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة ، وعلى صدغيها الأبرصين يخشخش عقربان منكران لـكل منهما ذُنَابَى يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا

ظهرت إريس غاضبة حانقة ، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التي أرسلت إلى الأرباب جميعاً . وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد ، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وَطِئته قدماها . أليست هي ربة الخصام ، النافخة في نار العداوة التي تتضرم منذ الأزل في الجوانح والقلوب ؟

لـكنها لم تنس لهم هـذا الأهمال ، بل أقبلت ، وهي تتميَّز من الغيظ ، لتقلب هذا العرس الـكريم إلى مأتم أليم

ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفةً حين رأوا إليها تُقلّب فيهم ناظريها المشتعلين ، غير أنهم اطمأنوا قليلاً ، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخِوان الفخم تُفَّاحةً كبيرة من الذهب ، نُقشت عليها هذه الـكلمة المقتضبة : « للأجمل ! »

— ٣ —

باريس :

درجت عادة القدماء أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجه من توّه إلى الهيكل يقدم القرابين وزف الهدْى ، ثم يستوحى المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء ، ليأخذ للأمر أهبته ، وليعد لـكل شيء عدته

فلما وضعت هيكوبا ، ملـكة طروادة ، غلامها باريس ، حمله أبوه الملك ، بريام ، إلى هيكل أپوللو ، ليرى رأى الآلـه فيه

واربدّ وجه الملك الشيخ ، وتقبضت أساريره ، حين قال له كاهن المعبد : إن ولده سيكون كارثةً على قومه وعلى بلده !

(١) حرب طويلة لايتسع هذا المـكان من الرسالة للتحدث عنها ، ويرجع إليها في الميثولوجيا من شاء

(١) تسمى أيضاً دسكوردبا (ومعناها نزاع) أو إيتيه

يأتي من الإثم ما يجر إلى قتل آله وبني جلدته ، ويُفضي إلى سقوط طروادة في يد أعدائها

وتحدث بريام إلى هيكيوبا في ذلك ، فصمما على الخلاص من الطفل بتركه في العراء ، فوق واحدةٍ من جنبات الجبل ، ينوشه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فعلتهما الشنعاء !

ولكن القضاء ينبغي أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به ، واتخذه لنفسه ولداً ؛ ثم سهر عليه واعتنى به ، ونشأه تنشئة الفروسية التي كانت أحب مزاولات الحياة في هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً ، جميلاً ممشوقاً ، فعمل مع الراعي الذي أنقذه . وكان مولعاً بالبحر ، تشوقه أمواجه ، وتفتنه أواذيّه ، فكان يختلف إليه ريثما تفيء الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج . وبدت له إحدى عرائس الماء – إيونونيه – وكانت قسيمة وسيمة ، فهويها وعلقها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شيء عليه في هذه الحياة

وعشقته إيونونيه ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعي الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليل برد الشفاء ، وا أسفاه !

لقد قضت ربات الأقدار – كلوتو وأختاها – ألا يدوم هذا الحب طويلا [١] !

— ٤ —

اجتمع الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها ، وكل تدعي أنها أجمل من في الحفل جميعاً . . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت حيرا ومينرفا وفينوس ، ميممات شطر الجهة التي يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة . . .

– « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وآثركن إلى قلب الإله الأكبر ، أنا ، أحقكن بهذه التفاحة العلوية ، وأعرفكن بقدرها . . . سأضمها إلى تفاحات هسيريا [٢] ، فهي بهن أليق ، وهن عليها أحفظ . . . سيماقفها مع أخواتها الثلاث لتزدان بها حدائقهن . . . »

– « أنت تفاخرين بملك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وأبهة الموعظة الحسنة ، وجلال الرأي السديد ؟ بل أنا . . . مينرفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة . . . »

– « فيم تختصمان يا أختيّ العزيزتين ؟ أليس قد كُتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هي للأجمل ؟ أو لست أنا . . . فينوس جميعاً . . . ربة الجمال ؟ لِمَ تربعت على عرش الفتنة إذن ؟ هي لي من دونكما ! . . . »

واختلف الآلهة ، وساد هرج ومرج ، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يفوه بكلمةٍ يفضل بها إحدى الربات الثلاث حتى لا يقع في سخط الأخريين ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما . . .

وتفرق الجمع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتلبثن به ، واتفقن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن في أمر التفاحة ، وتعاهدن ، بالأيمان الغلاظ ، أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرن طويلاً ؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلئ والمرجان ، كأن إلهاً حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لُقية إيريس ! !

وكانت عروس فتانةٌ من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها في الجهة التي جلست بها الربات يتربصن . . .

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مُستراد باريس الذي يُريح فيه قطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتبادلان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشائه ويغني ، فزلزل قلب إيونونيه ، وهامت نفسها ، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذي انتهى اليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد ذاعت وشاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ؛ فلما

(١) نظم الشاعر الانجليزي الغنائي الفرد تنيسون مأساة ايونونيه نظماً رائعاً ، وهي من خير شعره ويجدها القارئ في ديوانه ص ٧٤–٨١ طبعة كالنز

(٢) راجع قصص « هرقل » في الأعداد السابقة من « الرسالة »

عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات في هذه الناحية من الجبل من أجله، اضطربت أيما اضطراب، وقلقت على باريس أيما قلق. لأنه وحده هو الذي يجوز بهذا الطريق، حين ينفذ إليها يحلمان ويتناجيان. وكان مصدر قلقها هو ماعساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة . . .

— ٥ —

وصاحت حيرا: « قف أيها الراعي الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه. تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً، وأنا — حيرا — مليكة الأولمب وذات الحوْل والطوْل فيه، وربة التاج والصولجان، وصاحبة القوة والسلطان، وآثر أزواج ربك، كبير الآلهة؛ وأحبهن إليه ... أنا — حيرا ذات الجبروت — وولدى مارْس إله الحرب، ورب الطعن والضرب، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى ڤلكان كذلك، إذا شئت سرد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم، لا يُشق لك غبار، ولا يجرى معك في مضمار! إذا خضت حرباً حماك مارْس وأيدك، ونصرك ڤلكان وآزرك . . . ألست ترى إذن أيها الراعي الجميل أنني أحق من هاتين بتلك التفاحة؟ أنا — حيرا مليكة الأولمب — سأمنحك الثروة التي لا تفنى، والسلطان الذي لا يبيد . . . سأجعلك ملك هذه الديار التي ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التي تحياها ... أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذي يثغو . . . »

وصمتت حيرا ... وجعل باريس يقلب في التفاحة ناظريه، وفي قلبه مما رأى وسمع فرَقٌ عظيم . . .

لقد كانت حيرا تختال في ثوبها الأولمبي الموشى، وكان طاووسها الجميل — الذي اتخذته منذ الأزل رمزاً لها — يتشبث بناصيتها ويميس، فيزيدها جلالاً وكبرياء.

— وأوشك الفتى الراعي أن يقدم التفاحة لحيرا، لولا أن صاحت به مينرفا:

— « على رسلك أيها الشاب . . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا ... أنا لن أزخرف عليك ملك ولا سلطان، فأنت أعقل من أن تنخدع للعرض الزائل، وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك، وهواك على قلبك ... أنا مينرفا ربة الحكمة وإلهة الروح الأعلى المقدس ... سأمنحك السداد، وسأكشف لك حجب الجهالة، وسيضيء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس، وأعلم الناس، وأحكم الناس ... »

وسكتت مينرفا؛ وسُمع هاتف من جهة البحر يصيح: « باريس! اعطها لمينرفا يا باريس ... »، وكانت إيونونيه مافى ذلك شك!!

وكاد باريس يلقى بالتفاحة في يدى مينرفا ... لولا أن تقدمت ڤينوس الصنّاع ... ڤينوس الحلوة ... ڤينوس الساحرة ... ڤينوس ذات الدل ... ڤينوس التي تكفى غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجى لاذلال ألف قلب ... ... لولا أن تقدمت ڤينوس كلها تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها ... ... تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم، وتتبرج وتهتز، وتشد هذا الثدى وتثنى هذه الذراع، وتميل برأسها الذى كله خدود وعيون وأصداغ ... تقدمت ڤينوس تبسم للراعى الجميل عن فم حلو رقيق، تتلألأ ثناياه، ويتضوع عبير خمره، وقالت: « باريس! هل لك عينان تعرفان الغزل، وقلب يعرف الحب؟... باريس! أنا ڤينوس التي صليت لها بالأمس، والتمست منها التوفيق ... ها أنا ذى يا باريس ... أليست التفاحة للأجمل! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة في العالم؟ ستكون زوجتك مثلى، تغمرك بجمال لانهائى لاحدود له، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش منها في جنة ... قبل ... نظرات حلوة ... خدٌّ مورَّد ... أهدابٌ كظلال الخلد ... ساق ملتفة عبلة ... جسم ممشوق طوال ... جيد مهتز ناضج ... ثدى مثمر يتحلب نعيما ... ... هاتها يا باريس ... هاتها يا حبيبى ... »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة في يديها الجميلتين، برغم الصيحات المتتالية التي كانت تهتف به من البحر: « لا يا باريس ... لا يا باريس ... إعطها لمينرفا يا باريس ... ! »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه ... ولم يلق إيونونيه بعدها!!

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

نصوص سريانية عن العلوم الاسلامية فى بغداد

صدرت أخيراً فى انكلترا موسوعة نفيسة للعلوم العربية وأحوالها فى بغداد فى أوائل القرن التاسع الميلادى (أوائل القرن الثالث الهجرى) وعنوانها : « موسوعة للعلوم الفلسفية والطبيعية كما كانت تدرس فى بغداد حوالى سـنة ٨١٧ م » أو « كتاب كنوز أيوب الرهاوى » ، وقد نشرت هذه الوسوعة بالسريانية وهو نصها الأصلى مقرونة بترجمة انكليزية وملاحظات نقدية بقـلم العلامة الشهير الدكتور منجانا صاحب مكتبة « رينولدز » الشهيرة التى تحتوى طائفة كبيرة من أنفس المخطوطات الشرقية ؛ وقد سبق أن نشر الدكتور منجانا بعض هذه النصوص والتراجم نقلاعن المخطوطات السريانية والجرشونية التى تحتويها مكتبته . وهو يقول لنا فى مقدمته إن هذا الجزء هو المجلد الأول فى سلسلة جديدة علمية يراد إصدارها

وأهمية النصوص السريانية فى تفهم أحوال العلوم الاسلامية الأولى تبدو جلية متى ذكرنا أن العرب، حينما بدأوا ترجمة العلوم اليونانية ، استعانوا فى نقلها بالسريانية ، فكانت تنقل أولاً إلى السريانية ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية ، وكان أعظم أولئك المترجمين كما هو معروف حنين بن اسحاق ، أما أيوب الرهاوى هذا صاحب « الـكنوز » التى أصدرها الدكتور منجانا ، فهو من أشهر المترجمين الذين نقلوا المؤلفات اليونانيـة العلمية إلى السريانية ، وقد ذكره ابن النـديم فى كتابه « الفهرست » ، وعرفه العرب بالأخص من تراجمه للـكتب اليونانيـة الطبية ؛ وقد انتفع حنين بن اسحاق بترجمة الرهاوى لمؤلفات جالينوس ، وترجم الرهاوى أيضاً بعض مؤلفات أرسطو ، وألف رسالة دينية عنوانها « كتاب الايمان » . وقد ولد هذا العلامة فى مدينة إذيسا أو (الرها) حوالى سنة ٧٦٠ م وتوفى حوالى سنة ٨٤٠

ولا شك أن المجلد الأول الذى أصدره الدكتور منجانا من النصوص السريانية التى اتخذت واسطة لنقل العلوم اليونانية إلى العربية سيكون له شأن يذكر فى درس الحركة العلمية الاسلامية فى بغداد فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أعنى فى أزهر عصور الدولة العباسية

لجنة الفتاوى فى الأزهر والمعاهد الدينية

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن رسائل الاستفتاء عن مختلف المسائل الفقهية تنثال كل يوم على الرياسة الدينية من مصر ومن جميع الأقطار الاسلامية فأراد أن يجعل لهذا التثقيف المثمر جهة خاصة تتولى الفتوى على هـذه الأسئلة وترجمتها إلى لغة المستفتى ثم عرضها على الرياسة العليا . فأصدر قراراً بتأليف لجنة تسمى « لجنة الفتاوى فى الأزهر والمعاهد الدينية » وأسند رياستها إلى العالم الجليل الأسـتاذ حسين والى عضو هيئة كبار العلماء ، وعضو مجمع اللغة العربية الملـكى . وجعل أعضاءها أحد عشر عضواً يمثلون المذاهب الأربعة المشهورة ، وسيكون دستورها فى الفتوى أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التى يريد الاجابة على مقتضاها . فاذا لم يعـين المستفتى مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية

العارية الدولية للكتب

اجتمع فى شهر مايو الماضى المؤتمر الدولى الثانى للمكتبات وفنونها بمدريد واشبيلية وسلمنكا وبرشلونه ، وكان الغرض من اجتماعه إيجاد اتحاد أدبى بين الدول لنشر العلوم والثقافة بالتعاون بين مكتبات العالم . وكان من أهم ما نظر فيه مسألة « العارية الدولية للـكتب » فاتخـــذ فيها قراراً ننقل خلاصته عن تقرير المندوب المصرى فيما يلى :

١ ـ أن تكون المعاملة بين الدول فى مسألة العارية الدولية للـكتب على قاعدة المثل فى أوسع معانيها

٢ – أن تتعهد المكتبة المستعيرة بضمان كل ما ينشأ من ضياع أو تلف للكتب التي ترسل إليها

٣ – أن تتعهد المكتبة المستعيرة بأن تتحمل كل نفقات الارسال والتأمين

٤ – أن تنفذ عملية الاستعارة بأسهل الطرق وأسرعها وبأقل النفقات الممكنة

٥ – أن تكون الاستعارة بين الدول بطريقة مباشرة

٦ – يجب على كل مكتبة قبل أن تطلب مؤلفات من الخارج أن تتأكد من عدم وجود هذه المؤلفات في بلادها

٧ – يحسن أن يعين في كل مكتبة موظف خاص باستعارة الكتب وهو الذي يرسل ويتسلم الكتب المطلوب استعارتها

٨ – وعلى المكاتب المنضمة إلى الاتحاد أن تعمل إحصائية عن الكتب التي أعارتها أو استعارتها كل عام

الانكليز واللغات الأجنبية

المعروف عن الانكليز أنهم أقل الشعوب الأوربية ميلا إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد يرجع ذلك من وجوه كثيرة إلى انتشار لغتهم في كثير من البلاد والأمم التي يبسطون عليها سيادتهم أونفوذهم ؛ ولكن الواقع أن الانكليزي يرغب بطبيعته عن بذل أي جهد لتعلم لغة أخرى ؛ بيد أنه لوحظ منذ بداية هذا القرن أن الشباب الانكليزي قد أخذ يميل نوعاً إلى تعلم لغة أجنبية ، وأنه يؤثر الفرنسية في ذلك على كل لغة أخرى ، وتليها اللغة الألمانية ؛ وقد أذاع أحد كبار الأساتذة الفرنسيين الذين يتولون التدريس في جامعة لندن أخيراً تقريراً عن تقدم اللغة الفرنسية في انكلترا وفيه يقول إنها أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة التي تدرس في المدارس الابتدائية الممتازة في انكلترا وعددها نحو خمسمائة مدرسة ؛ وأنه يوجد زهاء خمسين ألفاً من الشبان الانكليز يتعلمون الفرنسية في المدارس الليلية ، وعشرين ألفاً يتعلمون الألمانية ، وتسعة آلاف يتعلمون الأسبانية . ويغلب تعلم الفرنسية في المدارس الابتدائية الحرة وفي المدارس الثانوية . ويختار الفرنسية كلغة أجنبية إضافية نحو تسعين في المائة من تلاميذ هذه المدارس . غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الطلبة بعد تعلم الفرنسية في المدارس لا يجرؤون على التكلم بها بعد تخرجهم ، لأنهم يجدون صعوبة كبيرة في التحدث بها سواء من جهة النطق أو النحو ؛ ويلاحظ من جهة أخرى أنهم لا يقرأون بها سوى القليل من الكتب والنشرات السخيفة . وإلى جانب ذلك يتقدم تعلم اللغة الألمانية خصوصاً في الأقسام العلمية للجامعات

جائزة نوبل للسلام

من المعروف أن معهد نوبل يخصص جائزة سنوية للسلام يمنحها للشخص أو الأشخاص الذين يقدمون أعظم خدمات لقضية السلام العالمي . وقد منحت هذه الجائزة في العام الماضي المستر ارثور هندرسون الوزير الانكليزي السابق ورئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزي الذي اشتهر بمقالاته وكتبه لتأييد قضية السلام . وفي أنباء (أوسلو) الأخيرة أنهم يرشحون لنيل جائزة السلام عن سنة ١٩٣٥ ، السيو مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والهير كارل فون اسيوتسكي . والأول معروف بحبه وخدماته للسلام ، وأما الثاني فهو كاتب ألماني ذو نزعة ديموقراطية ، كان يحرر صحيفة « دي فلت بينه » (المسرح العالمي) ، وقد اشتهر بحملاته على الجمعيات الوطنية النازية السرية . فلما تولى النازي الحكم في يناير سنة ١٩٣٣ ، قبض عليه وأودع في معسكر الاعتقال . ولا يزال معتقلاً حتى اليوم

مشروع أدبي ضخم

وضع أحد كبار الناشرين في السويد مشروع مباراة أدبية ضخمة ، خلاصتها أن يتقدم اثنا عشر ناشراً يمثلون كبرى الدول الأوربية ، ويقدم كل ناشر منهم أنفس ما لديه من مخطوطات كبار المؤلفين المعدة للنشر إلى لجنة من المحكمين من أكابر المفكرين ؛ وتنتخب كل لجنة مما يقدم اليها أنفس وأجمل رواية ؛ ثم ترسل الروايات الاثنتا عشرة المختارة إلى السويد وتعرض هنالك على لجنة عليا من المحكمين ، وهذه تختار أنفس وأجمل رواية من الجميع ؛ ويمنح مؤلف هذه القصة المختارة مكافأة مالية قدرها ثلثمائة ألف فرنك (نحو أربعة آلاف جنيه) . ثم تترجم إلى معظم اللغات الحية وتنشر في مختلف بلاد العالم ؛ ويقدر واضع المشروع أنه يمكن أن يجتني من تنفيذه نحو مليون فرنك . بيد أن المهم في ذلك كله هو ما يصيب المؤلف الذي يسعده الحظ بأن تفوز قصته بالجائزة الكبرى ، فهو يغدو بالحصول عليها من أصحاب الثراء ؟

الكتب

روض الشقيق في الجزل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان

١٢٨٤ — ١٣٤٦ هـ

للأستاذ محمد بك كرد علي

بيت الأمراء أرسلان فى لبنان عريق فى النسب والأدب ، وأشهرهم فى هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من انبغتهم الشام من أرباب الأقلام ، ويليه فى الشهرة الأدبية شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هذا الديوان . طبعه فى دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضى ، وعلق عليه حواشى وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التى تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة ١٣ هـ . وكان قد حضر وقعة أجنادين ، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبى عبيدة بن الجراح ، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة ٤٥ هـ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه، وشهد وقعة قِنَّسرين . وأرومة هذا البيت ترتقى بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبى قابوس ممدوح النابغة الذبيانى . وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان ، وهو فى ٢٧٠ صفحة متوسطة القطع ، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والمدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب ، وردّ على بعض المؤرخين الذين أغفلوا المقاصد حزبية ذكر آل أرسلان فى بعض المواضع والمواقع ،وقديماً قالوا : الناس مصدّقون بأنسابهم

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه روض الشقيق ، فى الجزْل الرقيق ، وذلك لجمعه بين متانة التركيب ، ورقة الشعور ؛ وفى لفظة الشقيق من التورية مالا يخفى . وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد ، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله : « لا ينبغى لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً ، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نِداً ، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى المثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المماتنة . فلا يرتبوا أفكارهم فى لغة قبلها ، ولا يضلوا فى الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت عليهم أجارعها ، وصارت مَلَكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربى القديم طريف البضائع ، وأن يضيفوا إلى الارث العُدمُلى Archaïque الكريم حديث البدائع ، مشروطاً فى نقلها إلى خزانة العربية ، لأجل تمام القصد واجتناب الهجنة ، أن يكون الأسلوب العربى الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها .. »

وها كم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير فى ضنكه ويحث الموسر على إعانته ، « وهى قصيدة فذة فى بابها فى وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم » :

رأيت سليل الفقر يعمل فى الثرى ... مكباً على مُحرأثه يتلهف
يخدُّ أديم الأرض خداً كأنه ... له قِبَل الغبراء ثار مخاف
كأنى به نادته للحرب فاغتدى ... يكرُّ عليها بالحديد ويعطف
كأنى به إذ فرق الترب والحصى ... يفتش هل فى باطن الأرض منصف
كأنى به إذ خط فى الأرض قبره ... يهمُّ على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذى ليس ناهضاً ... به بشر غض البنان مهفهف
جبين بمرفضّ الصبيب مضمَّخٌ ... وشَعر بملتصّ الغبار مغلف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما ... تبينت من أوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه ... إذا قرَّ منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت ... أضالعه فى زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه ... حسيسُ هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت ... تصافح منه جلده حين تعصف

وأثبت حَمْىُ الشمس فى أم رأسه … نبالاً فراس العظم منها منقف
تبطن منثور الغبار جفونه … فضرَّج منها مقلة تتحسف
كأن حماة الشوك فى ذيل برده … طراز حواه العبقرى المفوَّف
يمدُّ إلى الجبار كفاً تكدحت … أناملها والله بالعبد أرأف

ومنها :

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى … وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هى الفقر ما أدراك ما الفقر إنما … لهات الردى منه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى … فلا الرغد ميسور ولا العمر ينزف
بكيتك يا خلوَ اليدين بأدمعى … فأنت صريع النائبات المذفف
روح كثير المال يسحب ذيله … وأنت المعنَّى يا فقير المكلف
ألست الذى شاد الحصون بعزمه … وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر فى اللج ينثنى … ومشَّى قطار النار فى البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرة … وحاك لهم موشــية تتغضف
بلى إن من هان العسير بكده … على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه … ولامسَّ كفيه القضيب المعقف
أبى الحق أن يشقى الفقير بعيشه … وذو المال فى شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه … غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما فى كبود العالمين هوادةٌ … ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة … يحثُّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق … ولو هزَّ فودَيه النصيح المعنف
أراه إذا ما نَعَّم الرغد جسمه … غدا قلبــه يقسو لديه ويصلف
اليكم بنى غبراءَ تدمى عيونهم … وليس لهم إلا المياسير مسعف
يمدون نحو المحسنين أكفهم … وما يستوى المكفىُّ والمتكفف
سأَلت عزيز المال حين يغوثهم … من الرمل يحثوا أم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى اليهم فريضةٌ … وفى ذلك الآيات لا تتحرف
فان طلبوا الانصاف قبل سماحة … ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف العسر عنهم فانما … أخو الضر يمسى ضارياً حين يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى … فيبدر منهم بادر لا يكفكف
فان لم ينالوا بالهوادة حقهم … ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه … فان الخطاب العذب نعم المثقف
لكم عبرة فى الغرب من كل فتنة … تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب … لما قام منهم قائم متطرف

وفى الديوان كسائر الدواوين الشعرية أماديح وقصائد فى التهنئات ، ومقاطيع فى الغزل والنسيب ، وكلها من الشعر الجزْل . رحم الله ناظم عقودها وأمد فى حياة ناشرها

إلى صديقى العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شقَّ علىَّ يا أخى أن تلقى دلوك فى الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذى ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، فى فن لست منه ولا أنا فى العير ولا فى النفير ، وجئت تغالى بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول فى هذه المآزق ، لأنك فى غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجا إلى مصانعة الناس ، ولا نضبت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ؛ وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك فى غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجرى إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ؛ والأفراط فى التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبى فى العرب ؛ والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج فى زماننا . ومن الأمانة للعلم والأدب أن يُدَلَّ كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه فى العيان ، ولا يشول مهما نفخناه فى الميزان

وأكتفى الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمالَ والقسام فى العربى (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمى » الذى جاء اسما على مسمى ، مع العلم بأن الجمال الحقيقى هو الجمال المعنوى ، لا الجمال الصورى ، الذى هو جمال زائل ؛ فالجمال المعنوى هو الذى ورد به الحديث الشريف : إن الله جميل ويحب الجمال . وعلى هذا يمكننى أن أقول إنه لم يُعط أحد شطر الجمال المعنوى الذى يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى ، الذى كان فى هذه الحقبة الأخيرة

جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ؛ لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . . الخ)

بأبي أنت وأمي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا نم لا ! وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج إلى أسمى مطاف » وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من ثقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من إجهاد الفكر ؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي أسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع ؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعدّ عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ؛ ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما أظنك تنكر عليّ أن رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . وأظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف

لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخَرَةٍ ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره في الأقطار ؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها ؛ والجواد عينه تُغني عن الفُرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ؛ كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يرن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيماً ، وديواناً تتأرج أرجاؤه ندًّا ولطيما ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ؛ ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما اغنيته فتيلاً ؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه دراً نظيما ، لما خفي أمره .. » أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، وأجمل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنُفهم ، لا لنُسجم ونُبهم . وبعد فمالنا وللتقيد عما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم ما يحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع

محمد كرد علي

3me Année, No. 112.

Lundi-26-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة

ـص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

٢ ـ سعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) فى زمن خذل الحقَّ فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة ، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل . وكانت عُدة هـذا المحامى النذْره لذلك الدفاع البـلاغـة والمنطق والقانون :

فالبلاغة للجمهور ، والمنطق للخصوم ، والقانون للحكومة ؛ ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام الزعيم إلى التأثير المحض ، والاقناع المطلق ، والتطبيق المجرد ، فان خطبتـه فى كل موضع وفى أى

موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة ، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقامَ ذلك الظهور ؛ فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الانكار والجهل ، وبالعاطفة إلى النفس إذا عالج الخمود والغفلة ، وبالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة . ولم ير التاريخ المصرى بل الشرقى قبل سعد خطيباً بَلِيلَ اللسان ، ندىَّ الصوت ، طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة ، حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الاقناع والامتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوفِ بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الايقاع ؛ وكل ذلك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلٰهى باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتّضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتماع

***

كان سعد رجل جلاد وجدل ؛ تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدب اللسان والقلم ، وتنفس به العمر فى ميادين الجهاد فى الحق ، فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمران ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى يَنْهَض بالكلام أربع ساعات متوالياتٍ لا يتلكأ ، ولا يتلجلج ، ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع ؛ وكأنما كانت الخطابة لطول مازاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع الملازم والعادة المستحكمة ؛ فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعانى متساوقة تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض : هذا بالصورة الآخذة ، وذاك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم ، والأداء العجيب !

أكثر ما فى خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة ؛ فاذا قرأت بعد ذلك ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المشوش ؛ أما سعد فتسمعه وتقرأه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه ، والكاتب الماثل بروحه ؛ ذلك لأنه يخطب كما يكتب ويكتب كما يخطب ، متوخياً فى الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة ، وصحة الأقيسة ، وقوة الأدلة

***

كان سعد برد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب لِلَفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصومة ، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ، ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجمّ

دخلت ذات يوم بيت الأمة فى وفد من قومى نجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وائتمرت به الحكومة ، وتخشّن عليه الانجليز ، ودس له المراءون الغَدر فى الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به ؛ وكان فى ذلك اليوم عليلاً لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى فى إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم ؛ فنزل الزعيم النبيل مدثَّراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده ؛ وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتفدية حين لاح وجهه الشاحب من العلة

قدّم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة فى غلاف حريرى جميل ، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم مالبث أن شبا وجهه ، واستقام عوده ، وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالأشارات المبينة ، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فما سمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحى ، وأسلوباً يتسامى للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضى بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملاً للفن !

تلك صورة جانبية لناحية من نواحى فن الزعيم ، جلوناها على قدر هذه الصفحة ؛ ولعلنا نعود يوماً الى هذا الاجمال فنفصله ، وإلى هذا التركيب فنحلله

احمد حسن الزيات

القومية العربيـــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كثيراً ما يسألني الشبان الذين لم يشهدوا الثورة المصرية — لأنهم كانوا أطفالاً — « هل كانت حقيقة رائعة ؟ »

فأقول : « لقد بلغت غاية الروعة — في حدودها . ولم يكن في الوسع أن تكون فوق ما كانت ؛ ولكنها فشلت — مع الأسف — لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين »

ذلك أني أومن بما أسميه « القومية العربية » وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأي أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسمبها غير عابئة بشقيقاتها ، أو ناظرة اليها ؛ ويحنقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق . وعندي أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا ، وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية — إذا لم تفقدنا إياها — ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب ؛ والعلم ينقل ، وقد نُقل من الشرق إلى الغرب ، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغيّر جلده أو يخسر خصائصه

وقد اعترض عليّ شاب — ذات مرة — ونحن في حديث كهذا ، فقال : « وما الرأي في القومية ؟ أليست حقيقة تاريخية تفرّق بين هذه الشعوب والأمم التي تريد أن تجمعها وتربطها برباط واحد ؟ »

فقلت له : « إن هذه القوميات العنيفة الضيقة الحدود ، حديثة من الوجهة التاريخية ، وهي — بحدتها الحاضرة — بنت العصر الحديث ، أو إذا شئت ، فقل انها وليدة الحرب العظمى ، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً ، بل إن فكرة الامبراطورية البريطانيـة نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين . ولعل أكبر مسئول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج . ما علينا من هذا ، ولنرجع إلى حديث الشرق : لقد كانت هناك وحدة وثقافة اسـلاميتان دان لهما الشرق ، أو ما يعنينا منه ، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة ، ولم يمنعها أن تظل قائمة أنّ ثورات شبت ، وحروباً استعرت ، فان هذه أشبه بالفتن الداخلية والحروب الأهلية ؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد ، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغرّبوا ، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً ، وتخطوا تخوماً ، تفصل بين أقطار ، وتعزل أمة عن أمة . ولا يزال الحال كذلك ؛ ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم في غير مصر — إلا من حيث التقدم المادي — وكانت اللغـة العربية هي اللسان الذي لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره في حيثما يكونون من هـذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هـذا مصري وذاك فلسطيني أو شامي أو حجازي . وعلى أن القوميـة هي اللغة لا سواها . ولتكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون ، ولتكن الأصول البعيدة المتغلغلة في القدم ما شاءت ، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعب واحـد . ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يفكر — إلى الآن على الأقل — إلا بالألفاظ . هي وحدها أداة التفكير ، فلا سبيل اليه بدونها ؛ ومن المستحيل — الآن — أن نتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ تعيّنه . ولكل لغة أساليبها وطرائقها ، فأساليب التفكير وطريقة التصوّر خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة ؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة ، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى ؛ وهذا فرق ما بين الانكليزي والفرنسي ، وما بين الانكليزي والهندي ؛ وهذه فيما أظن ، حقيقة علمية ، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً كالعراقيين ، والسوريين ، والفلسطينيين ، والحجازيين ، واليمانيين ، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد ؟ »

فعاد الشاب يسألني : « وأصلنا المصري ؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم ؟ »

فقلت له : « أكرم بهذا من أصل ! وإنها لمدنية باهرة تلك التي كانت للفراعنة ؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضـارة القديمة ، ولـكنها بادت واندثرت ، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون في التراب ، والذي لا يمكن أن يؤثر في حياتنا

الحاضرة إلا من طريق واحد ـ هو إشعارنا المزة ، وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل ، كما يكون الأب كريماً فيخجل الابن أن يكون كزاً لئيماً وأن يفعل ما ينافى كرم آبائه وطيب أرومتهم ؛ ولكن المدنية العربية ـ أو قل الاسلامية إذا شئت ـ لم تفن ، ولم تبد ، ولم تندثر ، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان ، وهذه تكتسب وتستفاد : ولكنها فيما عدا ذلك ، بقيت حية ، وأبقى ما بقى منها لغتها بكنوزها المختلفة ، فهى — أى المدنية العربية — عامل مؤثر بوجوده — لا بذكراه كالعامل الفرعونى. ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التى يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين اخواننا »

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون ، ولكنهم يرون أنفسهم شباناً ، ويستهولون أن يوكل إلى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم ، ولكنى أنا أومن بقدرة الشباب على المعجزات ، لأن خياله أنشط ، وجرأته أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات ، وآماله فسيحة . وإذا كان الشاب لا يقدم ، فمن ذا عساه يفعل ؟؟

ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة أمل فى حياة مأمونة ، وما خير مليون من الناس مثلاً ؟ ماذا يسعهم فى دنيا تموج دولها بالخلق ، وكيف يدخل فى طوقهم أن يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم ؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظامهم . ولكن مليون فلسطين إذا أضيف إليهم مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى . وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الأكثر ، وجل اعتمادها على حاصلات الأرض ، والصناعة فيها ساذجة محدودة ، وضيقة النطاق ، والزراعة لا تغنى الأمم كما تغنيها الصناعة ، والمال عصب الحياة وسر القوة ، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هى مقسمة موزعة ، لأنه لا يوافق الدول الغربية التى لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض ، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر ، لجاراتها الشرقية ، وأسواق الجارات لمصر ، ومعقول أن تشترى منا دول أوربا حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها ، ولكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً فى أوربا ، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالغاً ما بلغ التجويد فيه ، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق ، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية

قد يقال ولكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول نعم إنه الآن حلم ، لا أكثر ، ولعله لا يتراءى إلا لآحاد يعدون على الأصابع فى كل بلد ، وعسى أن تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد أن دار زمناً فى نفوسهم ، ولكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به أمم أخرى فى هذا العصر ؛ وبالأمم حاجة إلى الأحلام ، وإلى الالحاح على نفسها بها حتى تخلد إليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم تسع لتحقيقها ، وإلا فلأية غاية تسعى ؟ ؟ ماذا تطلب من الدنيا ؟ وماذا عسى أن يكون مرامها فى الحياة إذا لم تحلم بأمل ؟ أيكون كل ما تبغى أن تأكل هنيئاً ، وتشرب مريئاً ، وتنام ملء جفونها ؟ ؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إذا هى أقصرت وكفت عن الأحلام والتأميل وما يغريان به من السعى ، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشىء ، وحقيق بنا إذا سلمنا إلى حين أن نعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الحالمة

والأحلام ضرورة من ضروريات الحياة ، للأفراد والجماعات ، وبغيرها يمتنع السعى وتنقطع الحوافز ، وتركد الدنيا ويأسن العيش ، ومن لا حلم له ، لا أمل له ، ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

مصر وقت الفتح الفاطمى

والعوامل التى مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة

— ٣ —

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب، وهذه الخلال البدوية النقية حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر، وكانت هذه الروح والخلال هى دعامة الدولة الجديدة؛ نشأت فى مهدها، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التى تجد فى قفار المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها. وكانت هذه الأسبارطية [1] الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البداية؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين وطليعة دولتهم يزحف بعصبته من البربر على بنى الأغلب لينتزع ملكهم، كان زيادة الله بن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته [2]، ولم يك ثمة شك فى مصير ملك يغشاه مثل هذا الانحلال فى الروح وفى الخلال؛ ولما تم الظفر لأبى عبد الله ودخل رقادة عاصمة الأغالبة، واحتوى على تراث بنى الأغلب، عرضت عليه جوارى ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن، فلم ينظر إلى واحدة منهن، وأمر لهن بما يصلح شأنهن [3] وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة فى المأكل والملبس، ولم تزد اقامتـه فى القصر الأنيق على اقامة القفر الساذج [4]

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته فى افتتاح مصر، استعد لذلك استعداداً عظيماً، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال، وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلى؛ ومع أن المعز كان قوى الأمل فى التغلب على مصر، ومع أنه كان يعرف من طلائعه وعيونه مبلغ ما انتهت اليه من التفكك والضعف عقب موت كافور، فانه لم يدخر عدة فى الرجال أو المال، واليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة: استدعى المعز يوماً أبا جعفر حسين بن مهذب متولى بيت المال، وهو فى وسط القصر، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة، فقال له: هذه صناديق مال، وقد شذ عنى ترتيبها، قال الحسين، فأخذت أجمعها حتى رتبت، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين، فلما رتبت أمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه، وقال: قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار، وكان ذلك فى سنة ٣٥٧ هـ؛ فأنفقت جميعها على الحملة التى سيرها إلى مصر [1]؛ ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس، غير الجند المشاة [2]، وهى قوة زاخرة تقتضى لكى تقطع هذا القفر الشاسع بين افريقية ومصر بعددها وعددها جهوداً جبارة؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهباتها الهائلة وقت خروجها من القيروان إلى مصر فى يوم من أيام ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ خيال الشاعر المعاصر ابن هانىء، فأنشد فى وصفها:

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثـله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
الا ان هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل فى أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحـل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصباح الملمع
فان يك فى مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء فى مصر بمقدم

---

(١) نسبة إلى اسبارطة من حواضر اليونان القديمة، وقد اشتهرت بنوع من التربية الخشنة الصارمة كانت تفرضه على أبنائها منذ الحداثة حتى يشبوا جنداً أقوياء يغالبون كل ضروب المشاق

(٢) اتعاظ الحنفاء ص ٣٦

(٣) « « ص ٣٧

(٤) « « ص ٣٨

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٤

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥. — ابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

العساكر الفاطمية ؛ ولم يكن مشروع الفاطميين فى فتح مصر مجهولاً ؛ وكان للمعز بمصر دعاة يبثون دعوته خفية ، ويبشرون بالفتح الفاطمى [١] . ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح ، خصوصاً بعد الذى شهدته من عسف الجند العباسيين ، وطغيان الولاة المستعربين ، وما انتهت إليه شؤونها فى أواخر عهد الدولة الأخشيدية من الاضطراب والفوضى ، وما توالى عليها من محن الغلاء والوباء ؛ ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصى هو كافور ؛ وكان لهذا الحادث الفذ فى تاريخ مصر الاسلامية ، بلا ريب ، وقع عميق فى جرح الشعور القوى ؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها ؛ وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية ، تستظل بلواء الامامة الاسلامية كالدولة الفاطمية ، على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر ، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضى المصرية ، اشتد الاضطراب فى مصر ، وكثر الخلاف فى الرأى ، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بنى الأخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف ، وأخذوا يتأهبون للقتال ؛ ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى أن يكون سفيرهم فأجابهم إلى ذلك ؛ وسار على رأس جماعة من وجوه مصر إلى لقاء جوهر ، فلقيه على مقربة من الاسكندرية ، فى قرية تعرف بأروجه ؛ (أواخر رجب سنة ٣٥٨) فاغتبط جوهر بمقدمهم وأجابهم إلى ماطلبوا ؛ وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة فى الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ؛ وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر « بعد أن تخطفتها الأيدى واستطال عليها المستذل ؛ المعنة نفسه بالاقتدار عليها ، وأسر من فيها ، والاحتواء على نعمها وأموالها ، حسبما فعله فى غيرها من بلدان المشرق » وان أمير المؤمنين بادر بتسيير الجيوش الظفرة لمجاهدته وحماية المسلمين ببلدان المشرق مما شملهم من الذل واكتنفهم من المصائب والرزايا ، ثم يشير جوهر إلى ما تطرق إلى شؤون الحكم من فساد وإلى ما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب ، وإلى ما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشؤون ، ويختتم ببيان بعض الأحكام الشرعية الفاطمية وتوكيد الطاعة لأمير المؤمنين [١]

وفى هذا الأمان الذى أصدره جوهر لأهل مصر إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ ، وأخذوا يهددون مصر ؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه ، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر ، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة فى يد أولئك الغزاة السفاكين ؛ بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد

على أن جوهراً اضطر مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يفتتح مصر . ذلك أن فلول الأخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب ؛ فاختاروا لهم أميراً ، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة ؛ ولما وصل الجيش الفاطمى إلى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل ، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الأخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير ، ولاذوا بالفرار وتم الفتح الفاطمى لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨)

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين كرة أخرى ، فجدد لهم الأمان ؛ وذهب الوزير ابن الفرات ، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء ؛ وسار جوهر فى ركبه الظافر إلى عاصمة مصر فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٠ م) « وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أصفر [٢] » ؛ وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل فى المكان

(١) اتعاظ الحنفاء ، ص ٦٦

(١) راجع هذه الوثيقة بنصها فى اتعاظ الحنفاء — ص ٦٧ — ٧٠
(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

الذى غدا فيما بعد مدينة القاهرة ، واختط العاصمة الجديدة فى نفس الليلة إيذاناً بقيام الدولة الجديدة ، وبعث البشرى إلى مولاه المعز بالفتح العظيم ، فوصلته فى منتصف رمضان ، وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر
فقل لبني العباس قد قضى الأمر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

— ٤ —

وقامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة ، وأعدت بقصورها ومسجدها الجامع (الجامع الأزهر) لتكون منزلاً ملوكياً لبنى عبيد وعاصمة للخلافة الفاطمية ، وبدأ الحكم الفاطمى بمصر على يد مبعوث الخليفة الفاطمى وقائده جوهر ؛ وكان خطر القرامطة الذى أشار إليه جوهر فى رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم ، ويهدد مصر بالويل والدمار ، وملك الفاطميين بالفناء العاجل . وقد زحف القرامطة على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ هـ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر ، معارك هائلة فى ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشأم . ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر ، سار من أفريقية إلى مصر بأهله وأمواله فى ركب هائل تفيض الرواية المعاصرة فى وصف ضخامته وروعته [1] ، فوصل إلى الاسكندرية من طريق برقة ، فى ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ ؛ وهرع وفد من أكابر المصريين للقائه وتحيته عند المنارة ، فقال لهم « إنه لم يسر إلى مصر لازدياد فى الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين واقامة الحق والسنة » [2] . ودخل المعز القاهرة ، عاصمته الجديدة فى أوائل رمضان ، ولما وصل إلى قصره خر ساجداً فى مجلسه شكراً لله ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل [3] ؛ وسطعت فى الحال آيات من عظمة الملك الجديد

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ واتعاظ الحنفاء ص ٨٨

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٩٠

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبدأت زعامتها الدينية فى المشرق ؛ وكانت الامامة الدينية أخص الصفات التى تبدو بها الخلافة الجديدة ، وكان المعز لدين الله يحرص جد الحرص على صفة الامامة ورسومها ؛ بيد أن الفاطميين قدموا إلى مصر يحيط بنسبهم وامامتهم نفس الريب الذى أحاط بهما منذ قيام دولتهم فى المغرب ؛ وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون إلى على وفاطمة ، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه ، فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه . ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء ، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبى ؛ ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال هذا حسبى ؛ فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ! [1] ، وفى ذلك ما يدل على اعتداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها ، قبل اعتمادها على امامتها وهيبة انتسابها لآل البيت ، وان كانت قد اتخذت الامامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى ، وأقامت ملكها السياسى على أسس دعوتها الدينية

وكان عهد المعز بمصر عهد توطيد ودفاع عن الملك الفتى . وكان خطر القرامطة لا يزال جاثماً فى الأفق ينذر دولة الفاطميين الجديدة بالمحو والفناء . ولم يمض بعيد حتى غزا القرامطة دمشق وانتزعوها من يد حاكمها الفاطمى . ثم زحفوا على مصر بقيادة الحسن الأعصم كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ وأوقعت بهم هزيمة فادحة . بيد أنها لم تكن خاتمة النضال ؛ فقد لبث المعز حتى وفاته فى معارك مستمرة فى الشأم مع القرامطة والروم ؛ بيد أنه أتيح له قبيل وفاته أن يشهد ظفره ؛ ولم يغادر هذه الحياة ، (فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥) حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وامامتها على المغرب ومصر والشأم والحرمين

(تم البحث)

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٧

٣ – فريزر ودراسة الخرافة
الزواج (١)

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشؤونه ؛ فرفعت قدره ، ودعت الناس إليه ، وحددت قيوده ، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم ؛ فلا يكاد المرء يفكر فى أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة إلى تفكيره هذا ، محاولة أن تعين له الزوجة التى تليق به ، وباحثة عما إذا كان نجمها يتفق مع نجمه ، وطالعها يتلاءم مع طالعه . وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برقى وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها . وبين ظهرانينا من هذه الخرافات الشىء الكثير ؛ « فالتبييته » ، وحساب الطالع ، وقراءة الكف ، « وضرب الرمل » ، ترمى غالباً إلى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة الملائمة فى الحياة الأسرية ؛ وإذا ما قر رأى الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التى تقيهما الساحر وضره والحاسد وشره . فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة ، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة . ولم تتعفف الخرافة عن التدخل فى العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها ، أو تقف فى طريقها وتقضى عليها . وكلنا يعرف خرافة « الحل والربط » السائدة فى قرانا ، والتى كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين ، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء . طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً ، وتسلب أم الأولاد نسلها وتقضى عليها بالحرمان والعقم

لم يعن فريزر فى كتابه « محامى الشيطان » بدراسة هذه الخرافات المتعددة ؛ وإنما نفرغ لإيضاح نقطة واحدة هى موضوع كلمة اليوم . وتتلخص فى أن الخرافة غرست فى القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها ، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الجمعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين العزب والمتزوجين . ذلك أنها أثارت على الزنا والفسق حرباً شعواء وصورتهما فى أقبح صورة ممكنة ، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة . فالزنا واللواط وكل اختلاط جنسى غير مشروع كانت ولا تزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أخش الخطايا الخلقية التى لا يقع إثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب ، بل يتعداهم إلى الطبيعة فيقلب نظامها ، وإلى الآلهة فيثير سخطها وغضبها . وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة إلى هلاك الحرث والنسل ، وموت الزرع ، ويبس الضرع ، وسقوط المطر ، والرعد والبرق ، ونزول الصواعق التى لا تبقى ولا تذر . لذلك أضحى الزنا وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره وتعدو عليه فى أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنا ذو أثر سيىء على الحاصلات المختلفة . فاذا ساء المحصول فى قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع إلى ارتكاب الفحشاء التى أغضبت الآلهة . وإذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنا ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير يكون فى سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء ؛ وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل الى الله حين يقدم قربانه قائلاً : « إله الأرض والسماء والجبال والهضاب ، قد أجدبت الأرض من أجلى ، فلا تنزل علىّ جام غضبك ونذير سخطك ، وارأف بى وارحمنى . هأنذا أصلح الجبال وأسوى الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار ، فاللهم رد إلينا المحصّل المفقود ، ولا تضيع علينا أى مجهود ، وأخصب أرضنا ، ونم زرعنا »(١)

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقية الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض إذ اعتدى على محرم . ويروى أنه سنة ١٨٩٨م انقطع المطر

(١) نأسف جد الأسف لأن ظروفاً قاهرة قضت علينا بقطع هذه السلسلة بضعة أسابيع . ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ محمد روحى فيصل على كلمته الرقيقة (الرسالة : عدد ١٠٨ ، ص ١٢١٢)

(١) Mason, Journal of the Asiatic Society of Bengol, (1868) s. XXXVII, 2 = partie, p. 147 sq.

عن هذه الجهات زمناً طويلا ، فجفت الذرة ، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى . فهرع الأهلون إلى قسسهم يرجونهم أن يستكشفوا سر هذا السخط العظيم . وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم . فجمع كل رئيس أتباعه ، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى . وقد أدى البحث الدقيق إلى إثبات أن ثلاث فتيات أبحن أعراضهن وأكلن بأثدائهن ؛ وما إن همت القبائل بمعاقبتهن حتى نزل المطر مدراراً[1] ! ويزعم كثير من متوحشى سومطرة أن الزنا مجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح . وعلى الجملة فمعظم القبائل الهمجية الباقية إلى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية كثيرة أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع

وليست هذه المعتقدات بمقصورة على القبائل المتوحشة ، بل إن لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة . فالأغريق مثلا يؤمنون ببعضها ويفسحون للخرافة المجال فى العلاقات الجنسية كما أفسحوا لها فى شؤونهم الاجتماعية الأخرى . يروى سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذى قتل عفوا أباه وتزوج أمه . فأصبحت القرى والحقول قفراء ، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً . وأعلن وحى (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة ورد الحياة إلى هذه الأرض الموات الا بطرد المجرم[2] . وفى شرائع بنى إسرائيل مايؤذن بأن ارتكاب الفحشاء يغير نظام الطبيعة ، ويبدل سنة الله فى خلقه . يقول أيوب : « الزنا جريمة شنعاء ، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه وناراً تأكل الشحم واللحم وتقضى على الحاصلات كلها »[3] . وفى القرن الثالث الميلادى لم تؤت الحقول الأرلندية أكلها ، فيما يزعمون ، لأن أحد الملوك تزوج بأخته[4] . وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزانى بحقل أو وقوفه فى بيدر يؤذى ثمره وينقص غلته ويذهب ببركته

أما أخطار الزنا المباشرة وأثره السيئ فى مرتكبيه أنفسهم ، فيكاد يسلم بها فى مختلف الجمعيات الانسانية . وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله فى صناعته أو زراعته بفجوره وفسقه . وإذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث ، ظن الناس أن فى هذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه . والأمثلة فى هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم فى الأمم المتمدينة ؛ وسنكتفى بعرض بعضها . فبدو روديسيا يلعنون كل امرأة تموت أثناء وضعها ، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا اثم لها . وتزعم طائفة من سكان أفريقية الشرقية أن الطفل الذى يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة . وتقول طائفة أخرى إن المرأة تموت إن أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها ؛ وإذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة ارتكابه المنكر مرض ولده على الأثر . وحدث مرة أن مات ثلاثة اخوة فى فترة قصيرة ، فاتهمت أمهم بالزنا مع رحم محرم . ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج فى صيده ورحلاته وحروبه ؛ وربما أدى ذلك إلى موته . لهذا اعتاد كثير من الهنود ، إن خرجوا إلى الحرب ، أن يجمعوا نساءهم فى صعيد واحد كى ترقب إحداهن الأخرى

فواضح إذن أن الزنا وما اتصل به ، فى نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة ، خطر يهدد الفرد والأسرة والجماعة ؛ فليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم ، بل يتعداهم إلى القبيلة جميعها والشعب بأسره ؛ هو جناية عامة وجريمة شعبية تصيب الأمة فى أموالها وأرواحها . لذلك قسا الناس فى محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب . وإذا صح أن نقيس الجريمة بما تدر لها من قصاص ، استطعنا أن نقول إن الزنا من أشنع الجرائم التى عرفها الانسان ، ان لم يكن أشنعها . وهذه القسوة الزائدة فى مطاردة الزنا والزناة سهلة التعليل ؛ فان المسألة مسألة حياة وموت ، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد فى أعز شىء لديه ، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه

ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التى أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضاً أو جنى على عفاف امرأة . فقوانين

(١) Dapper, Description de l'Afrique, p — 326

(٢) Sophocle, Aedipe—Roi, 22 sq. 95 sq.

(٣) Job, xxxi, 11 sq.

(٤) Keating, History of Irelaud, pp. 337 sq

(مانى) تقضى بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره، وعلى الزانى بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قلياً [١]. وتعاقب قوانين حامورابى الزناة بالشنق والاغراق [٢]؛ وقد كان بنو اسرائيل يحكمون على الزانى غير المحصن بالرجم، وعلى المحصن بالقتل [٣]. ولا تزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة فى غير ما شفقة. ففى افريقية الوسطى يجلد الزانى وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله. وإذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها. ولدى الهوتيتوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضربا بعصا غليظة. وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة فى عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة، فاذا استطاع أحدهم النجاة عفى عنه، وفى سومطرة يوأد الزانى ويقبر حياً

وهناك نوع خاص من الفحشاء اشتد هوله فقست الجمعية فى محاربته، وهو ما كان بين أفراد الأسرة القريبين كالرجل وزوجة ابنه، والمرأة وأب زوجها. ولكى يُدرأ خطر هذا المنكر وضعت فى سبيله عقبات كثيرة تحول دون وقوعه؛ وهذا هو السر فى أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين، فى حين أنها لا تجد غضاضة فى أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض، فجماعة البنتو فى افريقية الوسطى لا يسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته، ولا للمرأة بأن تتمشى مع حميها منفردين، ومن الجرم أن يرى رجل حماته تأكل؛ وعليه أن يكفر عن هذا عختلف القرابين، وليس له أن ينعم النظر فيها، وإذا خاطبها وجب عليه أن يطأطئ رأسه ويغض من طرفه، وإن صادفها على غرة أفسح لها الطريق، وسارع إلى الغابة مختفياً كى لا تراه ولا يراها تماماً. وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لا يبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عارى الوجه؛ وإذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم، وتوارى فى الغابات المجاورة، فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شىء واحد، وهو أن هذه القبـــائل تحول دون أى اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين

(١) Laws of Manu, VIII, 371 sq.

(٢) Code of Hammurabi, parag. 129,157.

(٣) Deutérouowe, XXII,22.

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الزنا والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها، وأبرزتهما فى مظاهر عاملين خطرين من عوامل القضـاء على الفرد والأسرة والجماعة، وبذا استطاعت إلى حد كبير محاربتهما والقضاء عليهما. وإذا كانت الجمعية تنظر بعين السخط والمقت إلى كل اختلاط جنسى غير مشروع، فانها تدفع الأفراد تبعاً إلى احترام الزواج والخضـوع لقيوده. وكل رأى أو عقيدة أو تشريع يحارب الأباحية هو فى الوقت نفسه سلاح قوى لتثبيت دعائم الحياة الأسرية ؟

(له بقية)

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

البـــــدر الحسنى

محدث ونحوى أيضاً

للأستاذ عبد القادر المغربى
عضو مجمع اللغة العربية الملكى

وهى الكلمة التى ألقاها الأستاذ المغربى رئيس المجمع العلمى فى الحفلة الكبرى التى أقيمت على ذكر المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والد فخامة الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥، وقد أقيمت الحفلة فى مدرج الجامعة السورية

شيخُنا البدر، أشبه ما يكون بالبحر: فهو من أىّ النواحى أتيتَه وجدت علماً وفضلا، ووجدتَ ورعاً وتقوى، ووجدت من جميل خصاله ومستحبّ أخباره مجالاً للقول، وموضعاً للعظة، وموضوعاً للبحث

لكننى لضيقِ الوقت سأقتصرُ من ترجمة حياته على وصف [١] طريقتنا فى الدروس التى أخذناها عنه، تعرفون منها أنه كان رحمه الله نسخةً طبق الأصل عن رجال سلفنا الصالح فى وَرَعهم وتقواهم ووقوفهم عند حدود الشريعة

(١) تفصيل وصف هذه الدروس وسيرة الشيخ بدر الدين فى العددين الأخيرين من مجلة المجمع العلمى

فى شهر ذى الحجة سنةَ ألفٍ وثلثمائةٍ وأربعٍ وثلاثين بدأتُ بقراءة صحيح مسلم على شيخنا رحمه الله فى دار الحديث الأشرفية ، وشاركنى فى هــذه الدراسة قليلٌ من الاخوان ، حتى إذا أتممتُ صحيح مسلم وشرعتُ فى سُنن الترمذى ازدحمَ علماءُ دمشق وفضلاؤها على غرفة الدرس ؛ وكنتُ عدا ضبطِ الأحاديثِ والتعليقِ عليها ، ألتقطُ من فم شيخنا بالمناسبة فوائدَ تتعلق بعلم الحديث ، من ذلك قوله :

— كلُّ حديثٍ فيه لفظ (الحميراء) مثل حديثِ (خذوا ثلثى دينكم عن هذه الحميراء) يَعنون عائشةَ رضى الله عنها — فهو دليلٌ على ضعفه

— حديثُ (توسّلوا بجاهى الخ) : قال شيخنا اشتهر على الألسنة وهو غيرُ صحيح

— حديث : إن جبريل كان يدسُّ الطينَ فى فمِ فرعون كى لا ينطقَ بالشهادتين استبعدتُــه أنا ، وأقرَّنى الشيخ قائلا : (الله أعلم بصحة هذا الحديث)

— وسمعتُــه مرةً يروى عنــه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الْهُو والعبوا فانى أكره أن أرى فى دينكم غلاظة) وبديهىٌّ أن المراد باللهو واللعب المباحان شرعاً

وبمناسبة حديث الأَمَةِ التى سألها النبىُّ صلى الله عليه وسلم : أين ربكِ يا جارية ؟ فأشارت إلى السماء — قال الشيخ : (مرَّ عيسى عليه السلام برجلٍ يصلى وصنعتُــه عملُ البراذع وهو يقول فى سجوده : (دُلَّنى يا ربُّ على حمارك لأصنعَ له برذعة من ذهب) فاعترضه عيسى . فأوحى الله إليه : (دعه فانه مجَّدَنى بحسب عقله)

وكنا أحياناً نلمح فى الحديث بصيصاً من معنًى يتعلق بأحوالنا الاجتماعية ، فنريد شيخنا على التوسع فى شرحِ الحديث ، فيأبَى تورعاً وخشيةَ أن نقعَ فى باطلٍ من القول :

جاء فى حديث عائشة أن جبريلَ أراه صلى الله عليــه وسلم صورتها فى قطعةٍ من جيّد الحرير . فتساءلنا فى الدرس عما إذا كان هذا الحديث يدلُّ على جواز التصوير ؟ أو على جواز أن يرى الرجلُ من يَوَدُّ خِطبتها من النساء : فيكون التصوير حاجة من حاجات الاجتماع

فقال أحد الاخوان : مادام للرجل الحقُّ أن يرى خطيبته نفسها فليس ثم حاجةٌ إلى رؤية صورتها . فرد عليه آخر بأنه قد يتفق أن يكون هو فى بلدٍ وهى فى بلد آخر فيحملَ اليه البريدُ صورتها ، كما حمل جبريلُ صورةَ السيدة عائشة

كان يجرى هــــذا الحوارُ فى الدرس وشيخنا ساكت وأردناه على أن يفيدنا ما عنده فى هذا الموضوع فلم يفعل ، وظل ساكتاً . واستدرجتُــه مرةً إلى موضوع عصرىٍّ طريف فأفتى به أو كاد . ثم عاد إلى الاعتصام بالسكوت :

ذلك أنه مرَّ معنا فى حديث مسلم قوله : (لِمَ ؟ أُصلى فأتيمم) ، فقرأتها (لمْ أصلى فأتيمم) واستشكلت رفع (أصلى) ، فقــال الشيخ (لِمَ) للاستفهام لا للجزم ، وأصلى مستأنف مرفوع

فاغتنمت هذه الفرصة وقلت له : إنهم اليوم اصطلحوا على علامات يرقمونها بين الجمل ، ويسمونها علامات التنقيط : وهى نقطة ، ونقطتان ، وواو صغيرة كالضمة ، وخط صــغير أفقى ، وخط آخر عمودى ، وغير ذلك مما يستعملونه فى مقامات التعجب والاستفهام والوقف

فقولُ الحديث (لِمَ أُصلّى فأتيمم) ؛ لو وُضعتْ علامــة الاستفهام بعد (لِمَ) لقُرئت استفهاماً من أول الأمر

فهل يجوز لنا استعمالُ هذه العلامات المستحدثة فى كتاباتنا كما استعمل السلف الصالح ما أحدثوه من النقط والتشكيل ؟

قال الشيخ : يجوز ، قلتُ ونستعملُها فى كتب الحديث ؟ قال يجوز ، قلت وفى القرآن . قال يجوز

ثم سألنى قائلاً : ولــكن لماذا لم تُرْقم هــذه العلامات فى كتابِ مسلمٍ المطبوع الذى نقرؤه ؟ قلتُ لأنه كتابٌ دينىٌّ . وطابعوه يخشوْن إنكارَ بعضِ العلماء عليهم فلا يباع الــكتاب ، فلم يضعوا هــذه العلامات ، واجتهدتُ أن لا أسميها له بأسمائها الأفرنجية مثل (Point) (Virgule) فلحظ الشيخُ أن فى الأمر سراً ، فتبسم وضرَب على كتفى وقال : « الله يُصلحك » ولم يُردْ أن يُفتى بشىءٍ جديدٍ قد يمكن أن تكون فيه شائبة بدعة

إلى هذا الحد كان شيخُنا رضى الله عنه يحرصُ على سلامة الدين ويحذَر أن يتسرَّب إليه شىءٌ من البدع

ومن ذلك أيضاً أنه مرَّ معنا فى الحديث نهىُ النبى صلى الله عليــه وسلم عن تشييدِ المساجد ، وفسر ابنُ عباسٍ التشييد بالزخرفة ، فقال بعض الأخوان : المرادُ بالتشييد رفع بناء المساجد . فقلتُ بل الصحيحُ ما قاله ابنُ عباس من أن التشييد هو الزخرفة

وهو مشتقٌ من (الشيد) الذى معناه الجصّ، والجصّ مادة تزخرف به الأبنية. أما رفع بناء المساجد فأمرٌ مستحبٌ فى عمارتها، وذلك لكى يتخللها الهواء ويَسْهُل التنفسُ على المصلين، فالتفتَ إلىّ الشيخُ وقال مبتسماً: وما دخل الهواء والتنفس فى الدين والتشريع؟ وعجبَ من قولى أشدَّ العجب

***

أما أن الشيخ كان متوسعاً فى اللغة العربية؛ فهذا يلحظُه منه كلُّ من أطالَ مجالسته، وراجعه القولُ فى تفسيرِ غريبِ الحديث؛ ولكنه رحمه الله ما كان يُكثر من الاستشهاد بنصوص الأدباء، ولا بأقوالِ الشعراء، لما يقعُ فيها أحياناً من اللغوِ وعَبَثِ القول

وقد سمعتُه مرةً يُنشد بنغمة حزينة:

(أيا نجدُ لو كان النوى منك مرةً
صَبَرنا ولكنَّ النوى منكَ دائم)

وأنشدنى مرةً أخرى:

صديقُ الصدقِ فى الدنيا قليل
فمنْ لكَ إنْ ظَفِرتَ به فمن لك
لحاجته يَوَدُّكَ كلُ شخصٍ
وذاكَ إذا قضاها منك ملك
صديقُكَ مَنْ إذا ما كنتَ منه
طلبتَ الروحَ بالتمليكِ ملّك

وجاء يوماً ذكرُ طرابلس الشام وليمونها فسألنى: ما معنى قولهم فى المثَل (مَنْ لم يجيء بشراب الليمون يجيءْ بشوكِه وحَطَبه) فتجاهلتُ الجوابَ لأسمعَ من فمه ولو مرةً تفسيرَ النصوص الأدبية — كما سمعتُ منه مراراً تفسير النصُوص الدينية

ففسره لى قائلاً:

المرادُ بشوكه وحَطَبه قُضبانُه وعيدانه. والمعنى من لم يجيءْ باللين واللطف، يجيءْ بالشدّة والعُنف

وأنشدنى يوماً قولَ الراجز:

(التمرُ والسَّمْنُ جميعاً والأقِط
الحيْسُ إلاّ أنه لم يختلط)

فاعترضتُ بأن الحيسَ هو حلوى للعرب تكون مختلطة من التمر والسمن والأقِط الذى هو ضربٌ من الجبن فكيفَ يقولُ الشاعر (لم يختلط). ثم قلتُ للشيخ لعلَّ صحةَ الرواية فى البيتِ هكذا: (لكنْ شرطُه أن يختلط). ثم راجعت كُتُبَ اللغة فوجدتُ روايةَ البيت كما قال شيخنا رحمه الله ورأيتُ علماءَ اللغة استشكلوا البيتَ كما استشكلته أنا. وأجابَ بعضهم على هذا الاشكال بجوابٍ لم يُعجبنى

ومِن عادةِ شيخنا رحمه الله أنه إذا طَلبَ منه أحدٌ إجازةً بالعلوم تمنّعَ وتمثّلَ بقول القائل

(ولستُ بأهلٍ أن أُجازَ فكيفَ أنْ
أُجيزَ ولكنَّ الحقائق قدْ تخفى)

وأنقلُ من مذكّراتِ شاعرنا (خليل بك مردم)
— وكان رفيقى فى درس صحيح مسلم — هـذا الخبرَ الذى يتعلَّقُ بى، وقد أنسيتُه أنا وهو: أننى قرأتُ يوماً على الشيخ عدةَ أحاديثَ يدلُّ ظاهرها على عَدَمِ إيمان أبى طالب. فأطبقتُ الكتابَ بين يَدَيَّ وسألت شيخنا عن حقيقةِ ذلك وأبيتُ إلا كلمةً صريحةً منه يطمئنُّ إليها القلبُ فى إيمان عمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم. فامتعضَ الشيخُ من إلحاحى، وقالَ سبحانَ الله ياشيخ عبد القادر أنت كاتبٌ وأديب، أما سمعتَ ما قاله (أبو طالب) مخاطباً النبىَّ صلى الله عليه وسلم

ودعوتنى وزعمتَ أنك ناصحٌ
ولقد صدقتَ وكنتَ ثمَّ أميناً

فأنتَ تسمعُ أبا طالبٍ يقولُ لابن أخيه (ولَقَدْ صَدقت) ثم تستشكل؟

فسررت يعلم الله بجواب شيخنا كما سرنى استظهاره للشعر القديم واستحضاره له حين الحاجة اليه

ولا عَجَبَ أن يكونَ شيخُنا لغوياً، فانه لا يكادُ يوجد محَدِث إلا وهو لُغَوىّ، ولا لُغَوىّ إلا وهو محدّث؛ لأن المحَدث لا يمكنه أن يفهمَ معانىَ أحاديثِ الرسول إلا بعد فهمِ معنى كلماتها اللغوية، واللغوىُّ لا ترسخ قدمه فى اللغة مالم يستظهر الجمَّ الكثيرَ من أحاديث الرسول، تكون له عُدّة فى الاستشهاد بها حين الحاجة فاللغوىُّ المتقنُ محَدِث، والمحدث المتقنُ لُغوى

وشيخُنا الذى يحفظُ على أقل تقدير خمسة آلاف حديث

يحفظ على أقل تقدير ألف كلمة لغوية بشواهدها من كلام النُّبوة

فأنتم ترَوْنَ أن بين شيخنا البدْر ، وبين مجمعنا العلمى العربى نسبةَ موصولةَ السببْ فى خدمة لغة العرب

هو (رحمه الله) كان ينشر اللغة العربية بواسطة دروسه المشهورة ، ونحن ننشرها بوسائطنا المجمعية المعروفة

أذكُرُ أنه زارنى يوماً فى دار المجمع العلمى ، فأجلستُه فى صحن المدرسة ، خشية أن يرى فى ردهتها صُوَرَ المتوفين من أعضاء المجمع ، معلَّقَةً على جُدرانها ، فيمتنعَ عن الدخول كما هى عادته

وبعد أن استقرَّ به المجلس سألنى : وماذا تصنعون هنا ؟

قلت : إننا يا مولانا نشتغلُ فى خدمةِ اللغةِ العربية ونشرِها وفى ذلك خدمة للدين الاسلامى ونشرِه

وإذا أحدُ تلاميذه (اللطفاء) يَلمَسُ كَتِفه من ورائه ، ويشير إلى التماثيل الحجرية المنصوبة فى أحد أركان المدرسة ، فقال لى الشيخ : وماهذه التماثيل ؟ وأشار اليها بأصبعه

فشعرتُ إذ ذاك بخطورة الموقف ، وبصعوبة الاعتذار عن وجودِ تماثيلَ فى صحنِ مدرسةٍ دينية اسلامية ؛ غير أن الله ألهمنى جواباً تضمَّن حقيقــةً معقولة ، لـكنها ويا للأسف منسيةٌ مجهولة

فقلت : إن هذه التماثيل تجْـمَعُ فى دور الآثار للاستدلال بها على تاريخ الجاهلية الأولى ، ويدخل فى ذلك عبادةُ تلك الأمم للتماثيل ، وإرسالُ الرسل لانقاذهم من تلك العبادة ، كما كان من نبينا صلى الله عليه وسلم مذ أنقذَ أهلَ الجاهلية من الشرك ، وصَقَلَ نفوسهم بصقالِ التوحيد

ولـكنَّنا اليوم نرى الناسَ قد أغفلوا دراسة هذه الناحية من تاريخ الأمم القديمة ، ونسوا نعمةَ الله عليهم بالبعثة المحمدية ، حتى إذا رأوا هذه التماثيل فى المتاحف تذَكَّروا النعـمة ، وحمدوا الله عليها

قلتُ هــذا وسكتُّ منتظراً ماذا يقول الشيخ ؟ فلم يقل إلا خيراً وتبسم ودعا لى وللمجمع

رَحِمَ الله شيخَنا البَدْر ، وأثابه عن حياتِهِ الصالحة بأجزل الأجر . . . م؟

المغربى

استعطاف

بقلم رفيق فاخورى

هواكَ عن هذا الوجودِ شاغلى ... والوجدُ منذ غبتَ عنى واصلى

إبعثْ مَوَاتَ خاطرى بزورةٍ ... واخطُ خُطا الظلال فى الخمائل

واحملْ إلى قلبى الكليم باسماً ... وشافياً من عَطفكَ الممنَّع

ما سَرَّنى أنَّ النعيم قسمتى ... إنْ لم تكن فى ناظرى ومسمعى

لَأَنْتَ حسبى مِنْ ضياء إن دجا ... يومى،وحسبى من هُدًى فى حَيرتى

رُدَّ على عينى جَلاءها ومُرْ ... يَسطعْ مُحَيّاكَ على دُجُنَّتى

وينحسِرْ عن مقلتى سهادُها ... يا طالما منعتَها رقادَها !

عِدْنى أعشْ إلى غدٍ بنظرةٍ ... عابثةٍ كم أخلفَتْ ميعادَها !

وبَسْمةٍ تُفحمنى ولم تَقُلْ ... شيئاً ، وإنما البيانُ فى الصُّوَرْ

إذا عَلَتْ ثغرَكَ فَدَاها الحشا ... بِدَمِهِ ثم مشى على الأثر

وهمسةٍ أرقَّ من نَفْحِ الصَّبا ... تسكُنُ فى أُذُنَىَّ ما عاش الهوى

تألفها جوارحى فكُلُّها ... أُذْنٌ،ويتزاحِ عن الصدر الجوى

يا مُنيةَ الولهان صِلْ بعد النوى ... أوْ لا فَخُذْ قلبى وخُذْ لسانيا

هذا شــغلتهُ بذِكرِ دائمٍ ... وذاكَ قد أسهرتَه اللياليا

حمص — **رفيق فاخورى**

طموح

للأستاذ محمود غنيم

خليلىَّ هل للمجد حدٌّ فأنتهى ... إليه لقد طال العبورُ ولم أُرْسِ

مآربُ تترى ، كلما نلتُ مأرباً ... تنازعَنى عنه إلى غيره نفسى

فلا النفسُ إن أبلُغْ تقفْ عنـد غايةٍ ... ولا هى إن أُخفِقْ تُرخّنى باليأس

كذلك أشقى ما حييتُ فان أمت ... فياليت شعرى ما ورائىَ فى رمسى

محمود غنيم

وراثة العبقرية

« نشرت مجلة (الشهر) الفرنسية بحثا طريفا فى وراثة العبقرية استعرض فيه كاتبه أحدث النظريات العلمية فى هذا الموضوع . فآثرنا نقله إلى قراء الرسالة »

شغلت مسألة وراثة العبقرية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة منهم جالتون وموبياس وريبو ولمبروزو وكرتشمر وغيرهم من الباحثين

وهذه المعضلة تبدو فى أشكال مختلفة . تبدو أولاً كحالة خاصة من معضلة الوراثة على العموم . إذ ما هى الآثار التى يتركها الآباء والأمهات ؟ وبأى الأشكال تظهر ؟ وما هى الآثار النسبية فى تكوين الشخصية للوراثة المجردة من جهة ، وللبيئة والتربية من جهة أخرى ؟ وهل أثر الوراثة دائم أو غير دائم ؟ وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر العبقرية والذكاء شذوذاً إذا قورنا بحالة الشخص العادى . وكثيراً ما يصحب هذه العبقرية وهذا الذكاء فقدان فى التوازن الجسمانى ، وغالباً فى التوازن النفسى . كذلك قد تصحبهما حالة جنون

ولأننا نعلم أن عدداً من هذه الأمراض ينتقل بالوراثة ، كان لنا أن نتساءل عن صدى هذا الاتجاه المزدوج : وراثة العبقرية ، ووراثة الاضطراب العصبى أو المرض

إن مما لا شك فيه أن (فى بعض الحالات) تكون العبقرية أحياناً وراثية . وقد ظهر ذلك جلياً فى كثير من رجال العلم والموسيقيين والمصورين والشعراء وكبار الكتاب

فبين العلماء استطاع جالتون أن يجد أسراً كان بها عالمان وأحياناً ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك . ووجد موبياس ٢١٥ أسرة اتفق فيها أن كان الأب والابن وافرى الاستعداد الرياضى ، (بين هذا العدد ثلاثة وثلاثون والداً لكل منهم أكثر من ابن واحد موهوب) . وقد وجد هذا الاستعداد فى ثلاثة أجيال متتالية سبع عشرة مرة ، وبين خال وابن أخته عشرين مرة : وبين أبناء العم مرتين ، وبين أشقاء أو شقيقات ١٣١ مرة ، وبين أكثر من شقيقين ثلاثة وعشرين مرة . وكان العالم الفلكى الكبير (دومينيك فرانسوا آرجو) له ثلاثة أشقاء وولدان كلهم موهوبون فى استعدادهم الرياضى . وكانت أسرة برنولى Bernouilli أعظم أسرة علمية عرفها التاريخ مما دفع الأستاذ دوبليه الفلكى بمرصد بوردو أن يخصص للكتابة عنها كتاباً صدر عام ١٩٢٩ وسماه Les Bernouilli et le Bernowillienum وفى هذا الكتاب ذكر الأستاذ دوبليه أن أسرة برنولى شغلت كرسى العلوم الرياضية فى جامعة بال — مسقط رأسها — مائة عام وثلاثة دون انقطاع ؛ وبقيت أكاديمية العلوم فى باريس تحوى أحد أفراد أسرة برنولى مدة واحد وتسعين عاماً متوالية

وكما نرى أثر الوراثة بين العلماء نراه أيضاً بين الشعراء . وقد وجد جالتون اثنين من العباقرة فى الشعر بين أسر : بيرون وشنييه وجوته وهين وراسين . . . . وثلاثة أو أربعة فى أسر : أسكيل وارستوفان وكورنى وملتون . . . وخمسة أو ستة فى أسرتى كولردج ووردزورث . . .

ووجد جالتون اثنين من الكتاب والأدباء فى كل أسرة من أسر بوسويه وشاتوبريان وشامبليون وادجاربون ومِلْ . . . الخ وثلاثة أو أربعة فى أسر بنتام وبوالو وفينيلون ولِسِنج وسفينى ، وخمسة أو أكثر فى أسر فيلينج وماكولى وشليجل وستايل وغيرها

وبين الموسيقيين تجد أسرتى باخ Back وسترس Strauss هما الأسرتين اللتين ظهر فيهما أكبر عدد من الموسيقيين . ويبدأ تاريخ أسرة باخ عام ١٥٥٠ ، واستمر يظهر منها الموسيقيون الموهوبون ثمانية أجيال متعاقبة ؛ وكان من عادة هذه الأسرة أن يجتمع أعضاؤها المغرمون بالفنون مرة فى كل عام ؛ فكان يصل عدد المجتمعين أحياناً إلى مائة وعشرين فناناً ؛ وقد ذكر فتيس Fétis أن هذه الأسرة حوت سبعة وخمسين موسيقياً منهم تسعة وعشرون كانوا فى عداد النابغين

على أننا لا ينبغى أن نخرج من هذه الحقائق بأن العبقرية (دائماً) وراثية . إذ أن توارث العبقرية محدد ببضعة أجيال فقط ، كما أنه ليست هناك قاعدة عامة لتوارث العبقرية . بل بالأحرى هناك استثناء . ويمكن أن نقول أكثر من ذلك وهو أن العبقرية الحقيقية دائماً منعزلة ، أو كما يقول لوردا Lordat : (إن العباقرة هم أطفال لقطاء ورجال أعزاب) Les génies sont des enfants trouvés et des célibataires. ويقصد بذلك أن الطبيعة تمحى حين يُخلق العبقرى

ولو كانت العبقرية تنتقل بالوراثة دائماً لكان من الضرورى أن توجد (أجناس) معينة من العباقرة . وهذا ما لا وجود له . (إن العبقرية حادث فجائى يكون أحياناً وراثياً) Le génie est un accident, qui est parfoit héréditaire.

وقد ذكر لومبروزو الملاحظة الآتيـة : (إذا وضعنا جانبا عدداً قليلاً من الحالات الاستثنائية كالتى نجدها فى أسَر دارون وكاسّيني وبرنولى وسـان هيلير وهيرشل ، وجدنا أن العبقرى لا ينقل إلى ذريته إلا اتجاهاً حقيقياً يعظّمه فى عيوننا الاسم المجيـد !)

إن أبنـاء العباقرة هم فى الغالب مخلوقات عادية بل أقل من العادية . ويقول ج . مورو دوتوز : (إن الملاحظة العامة ترينا أن غالبية أبناء الرجال العباقرة ليسوا فقط أقل من آبائهم ، بل هم كسائر الناس العاديين) ، وقد أكد ألـكسندر تاسونى Alexandre Tassoni أحد كتاب القرن السابع عشر أنه كثيراً ما يحدث أن ينجب آباءٌ عباقرة أبناءً عظيمى الغباوة ، وآباءٌ شديدو الغباوة أبناءً علماء . واستشهد على النوع الأول بأبناء أفريكان الـكبير وأنطوان وشيشرون ومارك أوريل وسقراط . ويعتقد أوسوالد الـكيميائى الألمانى الشهير أن أبناء الرجل العبقرى لابد أن يكونوا أقل منه

وذكر تاسونى رأى أحد العلماء المعاصرين له وكان يفسر النقص فى كثرة أبناء الرجال العباقرة بقوله : (فى الرجال العظام تتجمع معظم القوى الحيوية فى المخ كما تقويه وتبعث الحيـاة والعنف فى القوى الفكرية . ولهذا السبب يكون الدم والخلية باردين ضعيفين . والنتيجة أن يكون أبناء أولئك الرجال وخصوصاً الذكور أغبياء)

وهناك حقيقة أخرى هامة فيما يختص بوراثة العبقرية ، وهى أن هناك ظواهر من الجنون والاضطراب العصبى تحول دون وراثة هذه العبقرية . ذلك أن العبقرى تصحبه غالباً أنواع خاصة من الأمراض النفسية . وكثيراً ما يُلاحظ المرض العقلى عنـد سلف وخلف الرجل العبقرى . ومن المعلوم أن الجنون ينتقل غالباً وبكثرة شديدة فى الأجيال القريبة . وحالات الجنون الوراثى فى ثلاثة أجيال متعاقبة عديدة جداً . وكان الجنون فيها فى الغالب من نوع واحـد . والآن ، أليس هنا تشابه — وإن لم يكن كاملاً — بين وراثة العبقرية ووراثة الجنون ؟

وقد ذكر مورو دوتور أن بين طبقات المجتمع التى تحوى أكبر عـدد ممكن من الرجال الممتازين بذكائهم الشديد يوجد أيضاً أكبر عدد ممكن من المجانين . وقد لاحظ كل علماء النفس أن هناك عدداً من المجانين لهم أقارب يتميزون بذكاء تتفاوت درجاته . من ذلك أوليمبيا أم اسكندر الأكبر التى كانت امرأة فاسدة الخلق ظاهرة الوضاعة . وكان أب الاسكندر داعراً إلى أقصى حد . وكان الاسكندر نفسه مصاباً بحالة عصبية فى كوعه . وكان شقيقه أريدوس — الذى قتل بأمر أوليمبيا — أبله معتوها

وكان ابن برناردين دوسانت بيير ، وإحدى بنات فكتور هوجو ، ووالد وأشقاء فيلمان ، وشقيقة الفيلسوف كانت ، وشقيقة هيجل ، وغيرهم وغيرهم كانوا جميعاً مجانين . وكانت شقيقة ريشليو تتصور أن ظهرها من البلور ، وكان شقيقه معتوهاً . وكان والد الموسيقى بيتهوفن مدمناً الخمر ، وكان الشاعر بودلير نفسه نصف مجنون . وقد كتب يقول : (إن والدىّ اللذين كانا إما معتوهين أو مجنونين قد ماتا ضحيتى جنون فظيع) وكان والدا الشاعر الأمريكى الشهير ادجار بو شديدى الادمان لتعاطى المشروبات الروحية

وكانت تحدث لشاتوبريان حركات تشنجية فى ذراعه ، وكان دائم التفكير فى الانتحار ، وكان أخوه نصف مجنون ؛ وكان والد بلزاك غريب الأطوار ، وكذلك كان بلزاك نفسه . وكانت جورج صاند شـديدة الانقباض والحسرة وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وقد حاولت الانتحار فيما بعد عدة مرات . وقد كان والدها يشبهها من هاتين الناحيتين . وكان كثير من أقارب هوفمان مجانين . أما هوفمان نفسه فقـد أصابه الخَرَف لطول استسلامه للشراب ، وكان يتصور أمام عينيه أشباحاً ويصيبه من جراء ذلك الرعب الشديد ، فيطلب من أمه أن تجلس بجانبه . وكانت خالة هيرنر مجنونة وأخته شديدة الـكآبة ؛ وقد جن ابنها

وكان أثر الوراثة المرضية بارزاً فى لورد بيرون . إذ كان أبوه رجلا فاسد الخلق وقحاً . وكانت أمه غريبـة الأطوار متكبرة طائشة . كذلك كان شوبنهور وارثاً لما كان عليه من غرابة الميول واضطراب الأعصاب . فقـد كانت خالة جدته وجدها مجنونين . وكان أبوه تنتابه نوبات قوية من الغضب المتزايد والهم

الدفين الذى يكشف عن نفسيته المريضة

وكانت أسرة الفيلسوف رينان - الذى كان يعذبه اضطراب أعصابه - تسودها أنواع مختلفة من الجنون ؛ وكان عمه مأفونا . وقد قضى حياته فى التصعلك حتى وجد ذات ليلة ميتاً على قارعة الطريق . وكان جد رينان شديد الوطنية عظيم الاخلاص ، ولـكنه فقد عقله عام ١٨١٥ م نتيجة همّ ألمّ به . وقد أصبحت بلدة تريجوبيير التى ولد بها رينان ممتلئة بالمجانين وأنصاف المجانين نتيجة إكثار أهلها من زواج بعضهم ببعض

فما ذكرنا يظهر أن العبقرية ليست محدودة . وأنها لا تمتد إلا لأفراد مخصوصين ، فلا بد اذن من أن نعرف أن هناك شيئاً آخر غير الوراثة المجردة . إن العبقرى يظهر فى الأسرة فى لحظة معينة ولا يمكن أن يظهر قبل ذلك . كذلك قد يتبعه وقد لا يتبعه عباقرة آخرون . والأب العبقرى قد يكون له ابن عادى ، وقد يكون هـذا الابن غبياً . وإذا استمرت الأسرة فى إنتاج عباقرة كثيرين فان هذه الظاهرة تقف بعد بضعة أجيال كأن الطبيعة قد نالها الرهق والضنى . وأخيراً كثيراً ما يحدث أن يحل الجنون محل العبقرية ويكون ذلك راجعاً إلى نوع خاص من الوراثة متأثر بعوامل غير وراثية

وقد قال البعض : إن الوراثة والبيئة يتعاونان معاً بنشاط على إيجاد العبقرى ، إذ أن (الوراثة) لاتنتج فى الرجل إلا (ما يمكن أن يكون) وليس ما سيكون ، أما آثار الوسط وحدها فهى قادرة على تحويل الاحتمال إلى أمر واقع . على أن (الوسط) لا يكون تأثيره بعـد الولادة فقط ، بل إنه يؤثر فى الشخصية المستقبلة قبل الولادة ، وذلك بطرق مختلفة

ولقد عملت أبحاث فى جلاسجو عن علاقة عدد المواليد بالذكاء فظهر أن عدد المواليد يزيد عند الرجال الأقل ذكاء ، كذلك الأسر يتكاثر عددها كلما قلت الـكفاءة العقليـــة عند أعضائها

إن العبقرية شذوذ وشرود عن الحالة العادية ، وهى بلا شك اضطراب أكيد ؛ هى حادث فجائى ، وكذلك الجنون ، وهذا الحادث الفجائى قد يرجع إلى حالة الوالدين قبل الحمل أو إلى اضطراب يصيب الجنين ، فما يحدث للوالدين قد ينتج عند الطفل نوعاً من الشذوذ النافع ، وقد ينتج تشويهاً فى خلقته ، أو يؤدى إلى التحام الجنينين ببعضهما إذا كانت الأم تحمل اثنين : وهـذا الشذوذ قد ينتقل بدوره بالوراثة . على أن انتقاله يكون بدرجة محدودة ولبعض أجيال فقط ، والاضطراب الذى يحـدث فى حالة عدم استمرار التحام الجنينين قد يكون أثره فيما بعد إما أن ينتج عبقرية وإما جنوناً ، أو اضطرابا فى الأعصاب ؛ وقد تجتمع الحالتان معاً . وأخيراً قد تتبع كل منهما الأخرى ، أى أن يجمع الشخص أحياناً صفات العبقرى ومواهبه ، وأحياناً أخرى اضطراباً فى الأعصاب يجعله أشبه ما يكون بمجنون حقيق

وهناك أنواع من الشذوذ تنتقل أحياناً بالوراثة ، وأحياناً لاتنتقل ، مثل الحوَل ، وقصر النظر ، وصغر أحد أعضاء الجسم أو كبره أكثر من الحد الطبيعى ؛ وأحياناً يكون هناك اتجاه نحو مصادر الانسان الأولى . وقد تكلم عن ذلك ريبو فى كتابه عن (الوراثة) إذ ذكر أن أسرة كلبورن كان بها شـذوذ الست أصابع Sexdigitisme (أى زيادة أصبع فى اليد أو فى القدم) وقد استمر هذا الشذوذ فى الأسرة مدة أربعة أجيال

والآن ، أليس هناك تشابه بين الشذوذ الجثمانى والشذوذ العقلى الذى يسمى العبقرية والذى تـكون فيه الوراثة أيضاً محدودة ؟

ذكرت مدام ناجوت ولبوكفتش أن سيدة كانت تتبع عبثاً وسائل لاجهاض نفسها ، فعند ما وضعت الطفل فى ميعاده المعتاد كان هذا الطفل قوىّ البنية ولـكنه كان أبله . وكانت والدة (كاردان) قد حاولت إجهاض نفسها أيضاً عدة مرات دون جدوى ، وكانت النتيجة أن أصبح الطفل الذى ولدته وهو (كاردان) عبقرياً فذاً ؛ وقد تـكون محاولة السيدتين كلتيهما إجهاض نفسيهما ليس هو السبب الحقيقى ، لـكن هذا التشابه كاف لأن يرينا كيف تنتج حالات الشذوذ التى تسمى بالعبقرية . والتى هى وراثية ولـكن إلى درجة محدودة

إذن ماذا عسى أن يكون قانون هـذا الشذوذ ؟ ذلك ما لا يعلمه أحد . ومنذ بضعة أعوام قال الأستاذ ج . هكسلى إنه قد يمكن فى المستقبل أن يُجعل كل طفـل عبقرياً بتغيير بعض غدده ، وقد يكون ذلك حلماً خيالياً . على أن مجموع الحقائق المعروفة تثبت أن فى تـكوين العبقرية قانوناً ينتج (شذوذاً) خاصاً . فمن يدرى ؟ قد يستطيع الانسان فى حالة فهم هذا القانون ودراسته أن يصنع العبقرية ...؟

(...)

دراسات فى الأدب الانكليزى

٤ ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

تمهيد

الحركة الابتداعية

أما أبطال هذه الحركة فهم : الفيلسوف الشهير كانت فى ألمانيا ، والكردينال وسلى فى بلاد الانكليز ، وروسو فى فرنسا . ولا غرو فى أن الأخير كان فارس هذه الحلبة وسيد زعمائها فى مختلف البلدان . فقد نادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وبسيطرة العاطفة على أعمال الانسان ؛ ونظريته فى التربية تتلخص فيما يلى : « ترك غريزة الانسان وجسمه وقواه العقلية تنمو فى مجراها الطبيعى ، وذلك بنبذ قيود المدنية الحاضرة ، والتقرب من الطبيعة »

وبعد مرور نحو ربع قرن على وفاة فيلسوف الثورة رجع شاعرنا صدى صوته فى إقليم البحيرات ، وأصبح حامل اللواء (الرومانتيكى) فى بلاد الانكليز . وتمتاز هذه الحركة بسمو مقام الرجل العادى ، فقد أصبح موضوعَ الأدب بدل الرجل الارستقراطى ؛ وهذه الميزة تظهر بجلاء فى قصص سر ولتر سكوت ، ودكنز ، وفى معظم قصائد شعراء القرن التاسع عشر ، وتشجع هذه الحركة حب الأطفال وتقليدهم لأنهم ـ كما أسلفنا ـ أقرب إلى الفضيلة من الشيوخ . ولقد رأينا شيئاً من هذا فى أشعار ورد ذورث ، وظهر شيء منه فى نثر « لامب » وخصوصاً فصله المشهور : « أطفال الحلم » ، وفى أشعار سونبرن أحد شعراء القرن التاسع عشر المتأخرين . وتمتاز أيضاً بالولع بالحيوانات الأهليـة منها والبرية ، وبحب القصص التى تدور حوادثها على الحب والحرب ، خصوصاً ما كان منها شائعاً فى العصور الوسطى ؛ والتى بطلها الرجل العادى لا الارستقراطى . ومن أهم مظاهرها شيوع الدين والتقوى ، والتأمل والبحث فى أسرار الكون ، والخروج على العادات المألوفة ، والتمرد على الهيئة البشرية . ولقد اتُخذ الأدب سلاحاً لمحاربة سخائف الحضارة وقيودها ، ومن أهم أبطال هذا المظهر بيرون وشلى وكيتس . وتتميز هذه الحركة أيضاً بالتقرب إلى الطبيعة وانتزاع الموضوعات الأدبية منها ، والابتكار فى اختيار الموضوع ، والتفنن فى التعبير عنه ، لا النسج على منوال الأقدمين كما هو شائع فى العصر الكلاسيكى

وإذا ما ألقينا نظرة على شعر وردذورث ألفيناه يمثل الأدب (الرومانتيكى) أصدق التمثيل ، وما يصدق على شعره يصدق على آرائه ونزعاته ، وخاصة فى مستهل جهاده الأدبى ، حينما كان من أنصار الثورة الفرنسية التى كانت ثمرة فلسفة روسو بطل الحركة الابتداعية

زواجه ، كهولته ، منتهى حياته

تزوج وردزورث سنة ١٨٠٢ م من مارى هتشنسن ، من تلك العائلة التى كان يكثر من التردد عليها . ويُروى أنه أراد أن يغتفر زلّته مع خدينته « أنيت ڤالون » قبيل إقدامه على الزواج ، لهذا شرع فى استرضائها بشتى الوسائل ، والظاهر أنه نجح فى ذلك . والذى نعلمه أن (أنيت) هذه لم تلاق جفاءً ومضضاً فى عيشتها ، وأن ابنتها زُوجت من أحد السراة . وفى قصيدة للشاعر موضوعها « على الشاطئ قرب كاليس » يخاطب ابنته هذه ويرخّم بها بكل وداد وتحنان . على أن هذه القصة لا تزال طىّ الخفاء ولم ينكشف لنا منها إلا الشيء القليل . والباحث فى ترجمة حياة وردزورث وتحليل عبقريته يود لو أنه ذكر لنا تلك الحادثة بالتطويل شارحاً بذلك عواطفه نحوها وحبه لها قبل وبعد وقوعه فى الجرم . لو فعل الشاعر ذلك لوفّر على الباحث الشيء الكثير من الحدس ، ولأنار لنا هذه الناحية المهمة من حياته غير تارك بذلك مجالاً لتقوّل المتقولين ، وإشاعات المشيعين

ولقد وجد فى زوجته امرأة سامية الخلق عالية المدارك شديدة العطف والاحساس ، لا تقل بذلك عن أخته دوروثى . فلا عجب أن رأينا دوروثى تخلد إلى الراحة بعد أن أدت واجبها إلى أخيها ونحو الأدب بكل أمانة واخلاص ، إذ رأت فى امرأة أخيها خير خلف لها . ولقد خلّد الشاعر اسم زوجته هذه فى قصيدة موضوعها « هى مثال الرضا » She was a Phanthani of delight

وفى سنة ١٨٠٨ ورده نعى أخيه يوحنا ، فقد مات غرقاً فى أحد المراكب التى كان يتولى إدارتها . فكان ذلك باعثاً للحزن والأسى فى نفسه . وعلى أثر موت شقيقه نظم قصيدة خالدة عنوانها « أخلاق المجاهد السعيد » The charaitei of the Happy warrior مشيراً فيها إلى أخيه وحياته الحافلة بجليل الأعمال ؛ ولهذه القصيدة

من الشهرة ما جعل الانكليز والأمريكان يتلونها فى مآتمهم ، فيجدون فى ذلك ما يعزّى النفوس ويسرّى عنها الأحزان

وفى تلك السنة أيضاً انتقل الشاعر وامرأته وأولاده الأربعة إلى ألان بارك إلى بيت رحب الفناء جميل الشكل حيث أتم قصيدته : (النزهة) . هنالك افترق الشاعران الصديقان كولردج ووردزورث ، وذلك على أثر تعريض وردزورث بصديقه ووصمه إياه بالجنون الناتج عن إدمانه الأفيون ، فكان لهذا أثر بليغ فى نفس كولردج لم يطق بعده العيش معه ، وبانتهاء صداقتهما انتهت حياتهما الأدبية الخصبة ، ويندر أن نجد بين عيون قصائد وردزورث واحدة نظمت بعد ذلك الافتراق

وفى سنة ١٨١١ انتقل شاعرنا إلى بيت مجاور لأحدى الكنائس حيث توفى اثنان من أولاده ، إلا أنه لم يمكث هناك طويلا ، بل رحل سنة ١٨١٧ إلى بيته الجميل فى (كدل ماونت) حيث أُتيح له أن يلقى شخصيات ذات أدب جم ومكانة اجتماعية سامية ؛ ولقد قام برحلات شتى أهمها إلى أواسط أوربا ، وأخرى إلى سكوتلندا ، وعلى أثر رحلته الأخيرة نظم خمس عشرة قصيدة تفيض بذكريات الطفولة وأحلام الشباب ، منها قصيدته المشهورة (الحصاد المنعزل)

ولقد لبث طيلة هذه المدة مكلوم الفؤاد ، حزين النفس ، لما حل به من المصائب والويلات العديدة ، ولما كان يلاقيه من جفاء وخصومة فى الأوساط الأدبية . غير أنه حدث فى سنة ١٨٣٩ ما طيب نفسه وسرى عنه شجونه وهمومه ، وشجعه فى مبدئه ، فقد عرّفه كيبل Keble أحد كبار أساتذة كمبردج إلى أحدى الشخصيات الكبرى فى البلاط ، وأشاد بذكره أمام ذوى المناصب السامية ، فذاع صيته بين الخاص والعام ، وأحرز مركزاً رفيعاً فى الأدب لا يقل عن مركز ملتن

وفى سنة ١٨٤٢ منحته الدولة مرتباً سنوياً مقداره ٣٠٠ جنيه تشجيعاً ومكافأة له ؛ وبعد موت روبرت سذى سنة ١٨٤٣ عرض عليه منصب شاعر الدولة ، فرفضه فى بدء الأمر لبلوغه الرابعة والسبعين ، وقيل لأنه رأى صعوبة وعناء فى نظم قصيدة فى كل سنة يلقيها فى عيد ميلاد الملكة كما جرت العادة قبله ، غير أن رئيس الوزراء سر روبر بيل عاد وبعث إليه بكتاب نقتطف منه ما يلى :

« لما كانت صاحبة الجلالة توليك ثقتها الغالية فبادر بقبول هذا المنصب ، وكن عند أملها فيك . وإنها لتتوخى بعملها هذا أن ترفعك إلى المركز الذى يليق بمقامك الأدبى والاجتماعى ، ما دمت فى رأيها ورأى الجميع سيد الشعراء الأحياء على الاطلاق ؛ فلا ترفض هذه النعمة »

وبعد ما اطّلع وردزورث على هذا الكتاب الرقيق قبل هذا المنصب السامى فتُوّج بإكليل من غار ، وأصبح خليفة ملتون الأوحد ، ولم يُنتجْ بعد تبوئه هذا المزكز الرفيع شيئاً خالدا ، بل استولى عليه الخمول منذ زواجه ، ومنذ أن بدأت الحكومة تمدّه بمعاش سنوى كاف . ومن القصائد المشهورة التى نظمها بعد ذلك الأوان واحدة ضمّنها ولاءه وشعوره نحو صاحبة الجلالة قدّمها إليها مع نسخة من ديوانه

وفى سنة ١٨٤٧ م تُوفيتْ ابنته (دورا) فعجلت بذلك وفاته . وكانت وفاته فى الثالث والعشرين من ابريل (فى اليوم الذى تُوفى فيه شكسبير) من سنة ١٨٥٠ م . وهكذا خمد ذلك النفس الذى كان يلتهب عاطفة وعطفاً على الفقراء وولعاً بالطبيعة

ولقد دُفن جثمانه فى كنيسة فى (قراسمير) – حسب طلبه – فى حضن ذلك الوادى الذى نشأ فيه وترعرع ، وبه تغنّى ، وبذكره أشاد.

ولقد أقيم له نصبٌ تذكارى من رخام فى مقبرة الشعراء فى (وست منستر أبى) تحيط به أنصاب تذكارية لكبلْ وأرنلد وكنجزلى وموريس ، ونقش على هذا النصب الكلمات التالية :

« لذكرى وليم وردزورث الشاعر الملهم والفيلسوف الكبير الذى وُهبَ عقلا نيّراً ، ولساناً غنياً ، ليتحدث إلى الطبيعة والبشر ، الذى لم يألُ جهداً فى نشر الفضيلة والكمال ، والذى تغنّى وأشاد بذكر البسطاء والفقراء ، فذاع صيته بين العام والخاص ، وأصبح رسول الحقّ وربّ الشعر . لذكراه يشيد أصدقاؤه والمعجبون بأدبه هذا النصب التذكارى ، لينطق بنبوغه على مدى الأيام »

الكرك — شرق الأردن

جريس القسوس

مصادر هذا البحث

1 George Harper's W. Wordsorth, Life, Work and Influence
2 Zeitlin's Hazlit on Eng. Literature: ch. X
3 Wordsworth's Poetical Works: Students Camb. Edition
4 Goss' English Literature; Vol. IV
5 Cazamian's Eng. Literature; P. 1034 ff
6 Oliver Elton's Survey of Eng. Literature; Vol. II; P. 49 ff
7 Moody and Leavit's English Literature; P. 273
8 Wordsworth's Preface to Lyrical Ballads

صور من التاريخ الاسلامى :

عبد الله بن الزبير

(١ – ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسنى عبد الرحمن

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وقد يكون من الانصاف للحق والتاريخ أن نثبت هنا آراء غيره ، ممن عاصروه ، فى أسباب طلبه هذا الأمر ، واتهاما له فيه : روى المسعودى أن ابن عباس كان يقول « أما والله ما عرفت عبد الله إلا صوّاماً قوّاماً ؛ ولـكنى مازلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلاتُ معاوية الشهب ؛ وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء ، عليها رحائل الأرجوان ، فيها الجوارى الحسان ، عليهن الثياب معصفرات ، ففتن الناس بموكبه »

وقال ابن الزبير لامرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب : إننى لم أخرج ولم أطلب الخلافة إلا غضباً لله وللمسلمين من أثرة معاوية وابنه ، فهم يستأثرون بالفىء دون الناس ، ويستحلون محارمَ الله . قال هـذا وسألها أن ترجو زوجـها فى مبايعته ؛ فلما جاء زوجها ذكرت له ابنَ الزبير وعبادَته وجهادَه ، وأثنت عليه قائلة إنه يدعو إلى طاعة الله عز وجل وأطنبت فى مدحه ، ثم طلبت من زوجها أن يبايعه ويؤيده ، فأجابها ابن عمر « ويحك ! أما رأيت البغلات الشهب التى كان يحج عليها معاوية قادماً إلينا من الشام ؟ قالت ، بلى ! قال والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن !! »

فهذان اثنان من أقطاب الرجال فى عصره ، ومن ذوى الشرف والفضل والنزاهة فى المسلمين ، يقرّران أنه ما يبغى إلا الدنيا ، وأنه يتّخذ من العبادة سلما يرقى به إلى قلوب الناس ، ليسا دوه على قضاء مآربه فى الخلافة

والذى يمكن أن نستنبطه من ظروف الحوادث فى ذلك العصر ، أن سعيه وراء الخلافة كان مبنياً على طائفة من الأسباب إذا راعيناها جميعاً ، أمكن التوفيق بين وجهات النظر المختلفة ؛ فقد أراد أن يلىَ أمور المسلمين ، ليحقق نزعتـه ويشبع رغبته ، وليعدلَ فى المسلمين ، فيردّ الأمور إلى حالتها الأولى ، ويقيم الأمر بالقسط ؛ فـكأنه كان يبغى بذلك أمرَى الدنيا والآخرة معاً

ومهما يكن الداعى إلى طلبه الخلافة ، فانه كان كفؤاً لها ، وقد واتتـه الفرصة ، التى لبث يترقبها زمناً ، بموت يزيد وابنه معاوية الثانى ، ولم يبق فى السفيانية من يقوى كاهـله للقيام بأعباء الخلافة ؛ وحينئذ نرى عبد الله يُهمّ بالعمل الجرىء ، فهو رجل الساعة ، والظروف المهيّأة تنتظر منه الوثوب والظهور ، وقد كان ذلك ؛ إذ دعا لنفسه على منبر الحجاز سـنة ٦٤ هـ ، ولم تلبث الدعوة الجديدة أن سرت فى أنحاء العالم الاسلامى ؛ فخطب له على كافة المنابر (بالعراق وخراسان والحجاز والشام) سوى بعض جهات بالشام كان هواها ما يزال أموياً

وهنا تقوم عقبة شاقة أمام الخليفة الجديد ! فأهل الشام الذين لم يبايعوا قد أخذتهم نعرة العصبية لبلدهم ، فيمشى بعضهم إلى بعض ، وفيهم الرؤساء والقواد يتشاورون ويقلّبون الأمر على كافة وجوهه ، حتى لا يُفلتَ الملكُ من أيديهم ، ولا يخرج السلطان من بلدهم ؛ ثم يُسفر اجتماعـهم وتشاورهم على أن يبايعوا مرْوان ، وإن لم يكن سفيانياً فانه أموى ؛ وهو بعدُ أرشدُ القوم وأحزمهم وخير من يُسند إليه هذا المنصب من أهل هذا البيت ، فى مثل تيك الظروف ؛ ولـكن الضحاك بن قيس ومعه جنده يعارض هذه البيعة بشدة ، يريد أن يتم الأمر لابن الزبير ، فتقع الحرب بين الفريقين بالشام ، وتلوح بشائر النصر للضحاك ، فيعمد مروان الداهية إلى الحيلة « كما فعل معاوية مع على سابقاً » ويطلب الهدنة ، ثم ينقض بجنده على جيش عدوه بغتة ، فيشتتهم ، ويقتل قائدَهم الضحاك (بمرج راهط) . وبهذه الهزيمة تنطفئ دعوة ابن الزبير بالشام ، وتقوم الراية المرْوانية تخفق فى ربوعه

ولو أن الضحاك ساعده الحظ وانتصر فى مرج راهط لتغير أمرُ الخلافة ، ولحييت الدولة الأموية فى أول عهـدها ، وانقلبت سلسلة التاريخ الاسلامى ، فرويت على غير وجهها الذى تُروى عليه اليوم

* * *

بعد هذه الموقعة أضحى للمسلمين خليفتان ؛ أحدُهما بالحجاز ، والثانى بدمشق ، ولـكن مرْوان تعاجله المنيةُ بعد قليل ، فبلى الأمر من بعده ابنـه عبد الملك سنة ٦٥ هـ . وكان عبد الملك حازماً

وفيه صرامةٌ ، وله عزيمةٌ ورأى سديد ، ولكنه مع هذا كله نراه يتهيب ابنَ الزبير ؛ لما ثبت له فى قلوب الناس من المكانة ، ولأن كثرة الأقطار الاسلامية تؤيدُه . فكَّر عبد الملك فى الأمر طويلاً ، ثم طفق يُعد للحرب عدَّتها ، فأخذ يحشد الجنود ، ويعرضها بنفسه ، وصمم أن يحسمَ هذه المشكلة الخطيرة التى بينه وبين منافسه ؛ فيحسن بنا أن نتركه قليلاً يستقرّ فى منصبه الجديد ، وينظم جيوشه ، ويرَى رأيه ، لننظرَ ماذا يفعل الخليفة الآخر مع الوفود التى كانت تأتيه من أنحاء البلدان وأقاصى الأمصار ، لتُقرّ بخلافته ، وتجددَ بيعته ، وتطالب منه العطاء وتظهر له حسنَ استعدادها لنُصرته وتأييده ، ولنرى فى الجملة سياسته مع جنده الذين هم عماد خلافته وسندُ دعوته

جاءه مصعب أخوه بجماعة من أعيان أهل العراق ، بعد أن مهَّدها ، وملك زمامها ، وخاطبه قائلاً : «لقد جئتُك بوجوه أهل العراق ورجالاتها ، ليؤكدوا لك البيعة ، وليأخذوا منك العطايا ! » فيدعوه حرصه أن يمنعهم العطاء ويقول لأخيه : « إنما جئتني بعبيد أهل العراق ، يستنزفون بيتَ المال ؛ لوددت أن لى بهم صرفَ الدينار بالدرهم ! ! » . وكان هذا الردّ طعنةً نجلاء أصابت قلوب أهل العراق ، فزلزلت خلافته ولما تزلْ فى مهدها ؛ وما فتىء يجرى على هذه السياسة ، سياسة الحرص والشحّ بالمال ، مع التأنيب والزجر ، وعدم التشجيع بالكلمة الطيبة ـ ولقد بالغ فى تقتيره على الجنود أيما مبالغة ، فكان أحياناً يقتصر على إطعامهم التمر ، مع التقتير فى صرفه لهم ، فاذافرُّوا أنَّبهم بقوله : « أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ! » حتى قال فيه شاعرُهم :

ألم تر عبد الله ، والله غالب على أمره ، يبغى الخلافةَ بالتمر !؟

وكان يدعوه حرصُه أن يقول : ماذا عسى أن أنتفع بالدنيا ، وإنما بطني شبرٌ فى شبرٍ ؟ ويقول المسعودى : أظهر عبدُ الله الزهدَ وملازمةَ العبادة مع الحرص على الخلافة ، وشبر بطنه . وليس من شك فى أن سياسة التقتير التى نهجها هى سياسة عاجزة ، لا تنتج إلا الهزيمةَ وسقوطَ الدعوة ، وضياعَ الأمر ، فلا يسعُنا إلا أن نقول إن هذا موطن ضعفٍ كبير ، ما كان ليليقَ بطالب الخلافة ، ولا سيما إذا وجد أمامه مزاحماً قوياً ، وخصما عنيداً كعبد الملك بن مروان ! ! إذ كيف يبذل الجنودُ فى سبيله الدماء ، ثم يضنّ عليهم بالعطاء ؟ إن هى إلا الهزيمةُ الكبرى ! وإذن فقد جنى على عبد الله بخله ، حيث صرف عنه القلوب ، فتحولت الوجوه إلى الخليفة الآخر ، يجدون فيه ملكا يكثر العطايا ، ويكرم الوفود ، ولا يُعزّ الدرهمَ والدينار ، بل يجود بالدنيا لتُقبل عليه الدنيا ؛ اتجهت قلوبُ الناس إلى عبد الملك ، وشخصت أبصارُهم إلى بريق نُضاره ، فلما أنس بهذا ، ووثق بضعف عدوّه من هذه الناحية ، توجَّه يقود جيشه الكبير إلى البصرة — وكانت لعبد الله مركز قوته ، كما كانت الحجاز موطنَ دعوته — فلاقى بها أخاه مُصعباً ، ودارت بينهما رحا الحرب ، فقُتل مصعب ، وهُزم جندُه ، واستولى عبد الملك على العراق حصن الدعوة الزبيرية . وفى الحق أن عبد الملك ما قتل مصعباً ، وإنما أرداه وهزم جيشه حرص أخيه على الدنيا ، حرصاً نفر منه القلوب ، فأسلمه أهل البصرة : وفروا إلى صفوف العدو ، فقلّ ناصرُه ، وراح ضحية التقتير وسوء التدبير

لم يبق بعد هذا إلا أن يلتقى القرنان ويتصادم الجيشان بالحجاز . فلندع عبد الملك ينظم أمر العراق الذى دخل فى حوزته بعد النصر ، ولنترك له فرصة يجهز فيها جيشاً آخر ، تحت إمرة قائده الجبار الحجاج بن يوسف الثقفى ، ليلاقى به عبد الله فى الحجاز . لندع كل هذا جانباً لنشاهدَ موقفَ بنى هاشم من خلافة ابن الزبير ، وما صنع هو معهم بالحجاز !

كان ابن عباس وابن الحنفية وغيرُهما يعلمون من قبلُ طموح عبد الله إلى الخلافة ، وينكرون عليه فى أنفسهم ، بل كانوا يستكثرون عليه ذلك ، ويرون أنه ليس أحق منهم بالأمر (وإن كان أحقّ من مروان وابنه) وكانوا يرون أن الذى يدفعُه إلى هذا إنما هو الجشعُ والحرصُ على المظاهر الدنيوية (وقد ذكرنا حكاية البغلات الشهب عن ابن عمر وابن عباس) — لذلك لم يبايعوه ، فخنق عليهم ، وضيق خناقهم ، حتى إنه فكر فى الخلاص منهم ، فحبسهم فى شعب عارم ، وجمع حولهم حطباً كثيراً ، وهددهم بالاحراق ، وكاد يقضى عليهم ؛ ويقال إنه ما فعل هذا إلا خوفاً من تفرق الكلمة ، واختلاف الناس ، كما فعل عمر مع علىّ لما تأخر عن مبايعة أبى بكر ، فقد هدده كثيراً

ولقد لجأ ابن الزبير إلى النفى عقاباً لمن تخلف عن بيعته ،

فأخرج محمد بن الحنفية من مكة والمدينة ، ونفى ابنَ عباس إلى الطائف ، وبهذا العمل العدائى مع بنى هاشم ، واضطهاده لهم ، ضم سبباً جديداً قوياً إلى أسباب خذلانه ، وإفلات الأمر من يده ، فكان بذلك مجانباً الحزمَ والسياسةَ الرشيدةَ

***

ويسير الحجاج ذلك القائدُ العنيدُ إلى الحجاز ، فيستولى بعد مناوشات قليلة على جبل أبى قبيس الذى يُطلّ على مكة ثم يحاصرُ البلدَ الحرام ، فتتعطل مشاعرُ الحج ، حتى إنه هو وجنوده وقفوا بعرفات ولم يطوفوا بالبيت ذلك العام ، وطاف عبد الله ومن معه بالبيت ولم يقفوا بعرفات ؛ وطال الحصار حتى سئم أهلُ مكة ؛ ويقول الطبرى إن الحجاج حصره ثمانية شهور ، ولم تزل الحرب بينهما حتى تفرّق عنه عامةُ أصحابه ، وخرج أهل مكة إلى الحجاج بأمان ، ولم يصبر مع ابن الزبير سوى نفرٍ قليل ممن بايعوه على الموت دونه

وفى يوم عصيب ، من أيام الحصار الرهيب ، يدخل عبد الله على أمه أسماء ، فيدور بينه وبينها حوار رائع ، يعرض عليها حاله وما آل إليه أمرُ أصحابه ، ويطلب مشورتَها ، فتبذل له النصح ، وتحثه على الاستمساك بما ولاه المسلمون ، وأن يدافع عن حقه إلى آخر قطرة من دمه ، وألا يقبلَ من عدوه خطة يصحبها الذلُّ ، وتقول له فى عبارة حماسية مؤثرة : « والله يا بنىّ لضربةُ سيفٍ فى عزّ ، خيرٌ من ضربةِ سوطٍ فى مذلةٍ » وتُلهِبه هذه النصيحة ، وتثير نخوته ، فيخرج إلى العدوّ فى قلةٍ من صحبه ، وفى كثيرٍ من جَلَدِه وإيمانِه ، وقوةِ عزمِه ؛ وحينئذ نقرأ فى جهاده واستبساله أروع صفحة للبطولة الكريمة ، والدفاع عن الحقّ الهضيم ، صفحة يتجلى فيها البلاءُ الحسن ، والصبرُ الجميل والاعتماد على قوة اليقين ، مع ضعف العُدّةِ والعدد ، ووفرةِ العدوّ وإحاطته ، وتمكّنه من ناصية الموقف . ملك الحجاجُ عليه أبوابَ المسجد الحرام ، وحاصره فيه ، فبات يصلى ليلته ، ثم أغفى قليلاً ، وقام يصلى الفجر ، ولما انفتل من صلاته أخذ يستعدّ للنزال ليرمىَ آخرَ سهم فى كنانته ، وليموت بعده شهيدَ الوفاء لمبدئه ، ثم قال لمن معه : « يا آل الزبير ! لو طِبتم لى نفساً عن أنفسكم كُنا أهلَ بيتٍ من العرب ! أما بعد فلا يرُعْكم وقعُ السيوف . . . غضوا الأبصار عن البارقة ، ولا يُلهينّكم السؤالُ عنى ، فلا يقولنّ أحدُكم أين عبدُ الله ! . . . ألا مَن كان سائلاً عنى فانى فى الرعيل الأول ، احملوا على بَركة الله . . »

وبعد أن بثّ الحميّةَ فى قلوب من حوله ، وألهبهم حماسة ، حمل على عدوّه بسيفين صارمَينَ ، يضرب بهما معاً ، فيهزم الداخلين عليه من هذا الباب ، ثم لا يلبث أن يتكاثر الهاجون على الباب الآخر ، فيصمد لهم ، حتى يولوا الأدبار ، فيوقع بهم ، وهو يقول : « ياله من نصرٍ ، لو كان له رجالٌ !! »

لو كان قرنى واحداً أرديتُه   أوردتُه الموتَ وقد ذكيتُه !

ولم يزل يضربُ القوم بصارميه ويشتت شملهم ، حتى قُذف بحجرٍ ضخم أصابه بين عينيه فخرّ صريعاً ، وتكاثر الجندُ على البطل المضرّج بدمه الحرام ، فى المسجد الحرام ، واحتزّوا رأسه ولم يرعَوا فيه ديناً ولا رَحماً

وكان مصرع البطل الشهيد سنة ٧٣ هـ بعد أن أدرك وطره وسلّم الناسُ عليه بالخلافة زهاءَ تسعِ سنواتٍ ، كانت كلُّها خطباً واستعداداً ، وحرباً وجهاداً

***

وبعد فهذا بطل صِنديد ، وخليفة شهيد ، نرى فى طلبه الخلافةَ ، وتعريضِ نفسه للمخاطر ، إبّان تلك الظروف المصيبة حدباً على المسلمين ، وأنفةً أن يُساموا الخسفَ من بنى أمية ، ونوعاً من التضحية فى سبيل الجماعة ، كما نلمحُ فى نفسه نزعةً سامية ، وشرفاً وشجاعة ، لا نجدُها فى كثير من رجالات عصره ، فلقد كان هو رجل الوقت بلا منازع ، لم يتوقع بنو أمية الوثوب الظافر عليهم من غيره ؛ ولقد صدقت فيه فراسة معاوية

والحق أن خلال عبد الله منذ تنشئته كانت ترشحه وتمده للخلافة ، ولكن لأية خلافة ؟ للخلافة المتقشفة الحريصة على أموال المسلمين أن تنفق فى غير وجهها ، لا تلك الخلافة المترفة التى تنغمس فى النعيم ، وتغمرُها أبهةُ الملك ومظاهرُ السلطان ؛ ولو لم يرنُ عبدُ الله بطرفه إلى هذا المركز السامى ، لكان ذلك غريباً عن طبعه ، مناقضاً لنشأته ، وعلو همته وطموحه ؛ فلنسجل له ثورته المنيفة الدامية على من طلبوا الملك والدنيا باسم الخلافة الاسلامية العتيدة

(ميت غمر)   محمد حسنى عبد الرحمن

نحو الفجر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقدمة :
إن الذى يأمل للانسانية فجراً تنجاب فيه ظلمة الضيم والقهر ، يرى فى فجر كل نهار رمزاً له ووعداً به ؛ فيتعلل بهذا الرمز وينتظر إنجاز الوعد آملا أن النومة التى يحدث فيها للانسانية كابوس من الأضغان والأذى والتنابذ والكيد ، والاستهتار فى العبث بالحق ، يكون فيها أيضاً نسيان لخصالها الوضيعة يدركها من طريق سنة النوم فتستيقظ فى خلق الحق والخير (الناظم)

* * *

أرقت فطال الليل أم طال بى عمرى ... كأن انجياب الليل فى موعد الحشر
كأنى فى لج من الليل غارق ... سوى هدأة لم تلف فى لجج البحر
كأنى غريب من حراك لواعجى ... بعالم صمت غاله الصمت من سحر
كأن غصون الدوح فى حندس الدجا ... رءوس ثكالى أرسلت أسود الشعر
كأن النجوم الغانيات ترهبت ... تبيت طوال الليل تعبد فى دير
أو الفل مزروعاً بحقل بنفسج ... وكاللازورد الأفق رصّع بالدر
أو أن ثقوباً فى جدار زبرجد ... تطلّع منها الغيد يشرفن من خدر
أقلب طرفى بينها متفهماً ... تفهّم معنى اللفظ فى صفحة السفر
كأن الدجا دير به البدر راهب ... جميل المحيّا حوله هالة الحبر
كأن صقيعاً قد كسا الأرض نوره ... أو أن عليها أبيض الطهر ما يمرى
كأن فراشاً أبيضاً مدّ نوره ... مهاداً لروح أو شبا كامن السحر
أما يذهل الراؤون من سحر ضوئه ... وقد تحسب الأحلام تسرى وما تسرى
وإن تك أحلام فأوهام خاشع ... عراه جلال الحسن فى الليل والبدر
أيحلم هذا الدوح فى سحر ضوئه ... فقد خلته من هدأة النوم فى أسر
كأن حفيف الدوح أضغاث حالم ... أو أن حديثاً بينه خافت السر
أدور بعينى لا أرى غير ساكن ... فأين احتيال الناس بالغدر والمكر
وأين نشاط القوم للهو والهوى ... وأين مساعى الناس فى الخير والشر
ألا ليت نسياناً كذا النوم ساقياً ... يدير لهم كأساً ألذ من الخمر
لتذهلهم عن كل شر وفتنة ... فيستيقظ النوّام فى خلق الطهر
خواطر آمال أسلّى بها الدجا ... وتمضى مضىّ الليل أو طيرة الطير
فلما تقضّى الليل وانجاب جنحه ... رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر
تشوب اخضرار الروض صفرة ساطع ... من الضوء مثل الغيد فى حلل خضر
كما تينع الأثمار شاب اخضرارها ... لدى النضج لون فى غلائلها الصفر
كأن نبات الزهر من نبت جنة ... رمى ملك من أفقها الأرض بالبذر
أظل وطرفى فى مدى الأفق ذاهل ... أحاك عليه الفجر وشياً من السحر
ويرنو إلى الفجر من خلف ظلمة ... بنور كما شفّ الرماد عن الجمر
كأن مماتاً فى الدجا أهلك الدنا ... فتبعث فيها الروح فى وضح الفجر
كأن كيان الكون يخلق ثانياً ... فإن انفجار الفجر كالخلق والنشر
تخال تباشير الصباح أزاهراً ... إذا ما بدت فوق الشجيرات كالنور
فيختلط الزهران حسناً ومنظراً ... ويزداد نظر الحسن من مشهد النضر
تحدّث أنباء السماء بمشرق ... من الضوء مثل الرسل تبعث بالخير
تبادهنا منها محاسن جمة ... كما باده الأذهان من حسن الفكر
تفض ختام النفس عن كل ذكرة ... وكم ذكر فى الضوء والزهر والعطر
تذكرنا الآمال والحب والصبى ... كأن رواء الصبح ضرب من الشعر
كذلك يغدو منظر الحسن ذكرة ... وخاطرة فى النفس تسعد فى الفكر
وتستيقظ الأرض النؤوم إذا حنا الصـ ... باح عليها يلمس الثغر بالثغر
كما استيقظ الطرف المغمض بعدما ... أريق عليه ساطع من سنا البدر
تحن إليه النفس من بعد ظلمة ... فتحكى حنين الطير تهفو إلى الوكر
ترى الصبح يجلو النهر كالقين سيفه ... ويذكى الندى فوق الشجيرات كالدر
أطل بأفكارى على النهر مثلما ... لدن هدأة يحنو النبات على النهر
تصب عليه الشمس رقراق عسجد ... فيعلو لجين النهر نهر من التبر
ترى تارة فى متنه الماء راجفاً ... كما ارتعدت أبشار غيد من القرّ
وتحسب أن النهر يشعر بالذى ... يعالج من حاليه فى القر والحر
ترى النهر مثل العين سحراً وبهجة ... ويملأ مثل العين بالصور الكثر
يبوح بسر الحسن لون مجدد ... ولولاه ما ألفيت فى الكون ما يغرى
وأروعه ما كان منه فجاءة ... فجاءة صبغ النهر من سحب حمر
وليس رواء الكون فى الصيف وحده ... فرب شتاء ناثر أيما ذخر
جلال يريح النفس من بعد رونق ... نصيبك من سحرين فى الحر والقر
على أن ذكرى الصيف فيه جلية ... ففى النهر من ذكر وفى الروض من ذكر

المثل الأعلى فى السينما — حياة عبقرية منالة

اللحن الذى لم يتم

Symphonie inachevée

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

قد يكون الاقبال على هذا الفلم الناطق بالألمانية ضعيفاً ، لأن مخرجه لم يترك مجالاً للمادة تعبث بالفن ، وللمصلحة تغلب على العاطفة ، وللعبث تسطو يداه على « مثل أعلى » ألفته عبقرية — أقامت فى الأرض عمرها — بمداد روحها ودماء قلبها . على أن هـذه الحياة قد فسدت ، ولم يبق خالصاً ظاهرها ولا باطنها ، فالقوم قد لجوا من صراع المادة المستحوذة عليهم ، وهم الذين تركوا لها مجال التسيطر ، تفر المادة منهم ، وهم إليها يفرون ! وقد آل بهم هذا الصراع الدائم إلى أن يعموا عن جوهر الحياة الذى وضعته الحياة على أبنائها يوم كانت ، فهم من صراع إلى صراع ، ومن نزاع إلى نزاع ، لا ترتاح لهم جنوب ولا تستقر مضاجع . أحلامهم طافحة بالعراك كيقظاتهم ، وليت شعرى لِمَ هذا العراك ، وليت فيه هذا النزوع إلى محجة الحياة ، فهم مضطرون إلى تهـدئة أعصابهم المجنونة وقلوبهم الثائرة باللهو واللعب ، يطلبون اللهو متى انتهوا من جدهم ، ويتوخون العبث متى خرجوا من دائرة عملهم . لهو كثير وجد كثير تذوب بينهما حياة شفافة فى سبيل الحياة البهيمية ! وقد شعرت السينما بتعب الانسانية وأحست بضناها ، فأحبت أن تسعفها فى جهادها ، وتريها ومضـات تلمع وتخبو فى جنبات « الشاشة البيضاء » . فهى تتشبث بالألحان والحسان ومظاهر الخيال الذى لا ينطبق على حقيقة ، لتفرّج عن هذه الانسانية المنكوبة ، ولـكنه دواء من ينقش الشوكة بشوكة ، ويُنير للشمعة سبيلها بذوبها . لأن مثل هذه الألحان المضطربة والنجوم الساطعة الخابية سرعان ما نفقد تأثيرها لأنها لم تصب هدفاً معلوماً ولم تطرق نهجاً مرسوماً

قد تـكون السينما للأدب حليفة وقد تـكون عدوة ، لأنها تريد أن تهضم « الأدب » وتبلع زاد العقل لتحمله للناظر عن طريق العين ، فهى مساعدة للأدب على خلق « المثل الأعلى » ؛ وباعثـة فى الأرواح مختلف الأشواق والحنين إلى ربوع « المثل الأعلى » ، ولـكن من المخرجين من لا يبالى بهذا المثل ولا يسمع صوته ، لأنه يريد أن يقبض على عيون الناس وجيوبهم ، وهذا هو الأديب التاجر ، ومنهم من يؤمن بهذا المثل ، ولـكنه لا يجد الفرصة سانحة لمثل هـذا النوع . فهو يُلقى الومضة إثر الومضة لأنه لا يقدر أن يتبرأ من كل ما يجيش فى صدره ، ولـكن أكثر بضاعته بضاعة يرضى بها رؤساءه . ورؤساؤه يعرضونها ليكسبوا بها جنوداً ونقوداً ، وهـذا هو البائس المدارى ، ومنهم من بلغ إيمانه بالمثل الأعلى مبلغاً عظيماً ، يخرج من الروايات ما تؤمن به روحه ، ويخلق فيها شيئاً جديداً متدفقاً لأنه يعمل بقلبه لا بيده ، وهذا هو من يشفق على هذه الانسانية ، ويريد أن يحملها على أجنحة صوره وألحانه — ولو ساعة — إلى عالم المثـل الأعلى ؛ يريها ما هنـالك من نور طافح وأمل خافق . والجالس إلى أفلام هذا المخرج ليجد نفسه وقد انساخت عنه بغير شـعور منه إلى عالم شعرى بعيد ، ما كان حاملة إليه إلا فـكرة سامية نقلتها أشعة العين إلى القلب فهام واستُهيم . . . إن مثل هذا المخرج يعطى أكثر مما يأخذ ، وبهمه من الناس قلوبهم قبل جيوبهم

مرّت بى هذه الخطرات وازّاحمت فى نفسى يوم رنت عيناى وخشع قلبى لهذا (اللحن الذى لم يتم) أراه للمرة الثانية ، وقد تجردت روحى عنى لتتسامى فى هذا اللحن ما شاء لها التسامى

— ٢ —

هذا اللحن أو هـذا (الفِلم) ترجمة دقيقة لفصل من حياة « شوبير » الموسيقى النمساوى الذى لم تفض عليه الحياة أجله .

وقد يحلم المحروم باليسر واللهى كذلك حلم الأرض بالصيف واليسر
فلمـا تقضى الليـــــل يحدو لواعجى
وذكرى طيور الصيف تهزج فى صدرى
أخذت نصيباً من جَدَى الفجر وافراً
فنهنهت آلامى وأرخيت من صبرى
وأملت للدنيا صباحاً مؤجلا سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فـكل صـباح رمزه ومثاله ووعد به يحدو الى الزمن النضر
نسر بنعماه وإن لم تكن لنا وننشده فيما يكون من الدهر

عبد الرحمن شكرى

(١٧٩٧ — ١٨٢٨) لكنه فصل مشحون بكل ما يتمثله فكر عن فنان . وسأعرض عليك هذا الفصل لتتلمس فيه هذا المثل الأعلى الذى نجح المخرج فى إظهاره . وإنما هو حياة فنان يشق طريقه إلى المجد بأوتار قيثارته وأنامل « بيانه » البيضاء ، وتاريخ صراع هذا العبقرى للمصادفات والأقدار التى انتصر عليها

نحن الآن فى منزل « رهون » تجتمع فيه البذلة الثمينة بجوار تمثال « نابوليون » والقيثارة الجريح بقرب الحسون فى قفصه « رهين المحبسين ! » تتسلم هذه الأشياء فتاة جميلة ، لامعة العينين ، لا تقدر قيمة الأشياء إلا بحسب قائمة عندها

يطل على النافذة فتى تكاد تيبس عضلات وجهه المتصلب ، على عينيه نظارتان ، يمد قيثارته التى طالما ملأت لياليه ألحاناً ، وأشبعت وحدته أماناً ، يقدمها بيد مرتعشة ليرهنها ، يجد ثمن الرهن ضئيلاً فيراجع الفتاة الجالسة فتجيبه : هذا هو الثمن المحدد ! ولكن صوتاً يهيب بها فى داخلها ، وإنما هو صوت الحنان على الفن الذبيح . . . فتزيد الثمن وتدعو الله أن يذهل والدها عما زادت ، ليتسنى لصاحب القيثارة أن ينتفع ببدل قيثارته . فيأخذ الثمن ويحصيه بعد خروجه فيجده أكثر مما قالت ، فيعود بقلبه البسيط ، فيعثر بالفتاة خارجة وتخبره أنها شذت معه إكراماً لفنه ؛ وإذ يسمع - شوبير - ألحاناً تأتى من بعيد فينطلق وراءها وهى تقودها إليه عاطفة غريبة ، فتسأله سر ابتهاجه بهذه الألحان ، فينبئها أنها ألحانه يرددها الصبايا الحانيات على الماء

- إن ألحانك ترددها « ڤينا » ؟

- أجل ! ترددها « ڤينا »

- أنت سعيد إذاً يا شوبير ! ولا بد أنك غنى

- أما الغنى فلا

- ولماذا تثابر إذن على التلحين ؟

- وما يكون عمل شوبير فى الوجود إذا انصرف عن التلحين؟

- وهذه الأبيات الرقيقة التى أسمعها أهى من « جيته » ؟

- لا !. ومن هو جيته ؟ إننى لم أسمع به قبل اليوم

- إنها من نظم صديق « موللر »

- عجيب ، ألا تعرف « جيته » ؟

وهنا يعودان على آثارهما فتثب إلى غرفتها وتقذف له على طريقه بديوان (لجيته) فيأخذ الكتاب ، ويلتهم ما فى الكتاب ويتلو ذاهلا غافلاً ؛ يخطر فى الشوارع وعيناه شاخصتان فى الكتاب ، ويدخل قاعة الدرس وطلابه فى حرب يعلنها بعضهم على بعض ، سلاحها الأوراق والكتب وإهراق المداد ! وقد تصيب دواة قبعته فتطير عن رأسه فلا يشعر : ولكنه لا يكاد يستقر فى مكانه حتى تهدأ الجلبة وتقر الحركة ، فيعجبه هذا السكون ويشكر طلابه عليه ، فيبدأ درس الحساب ويكتب على اللوح الأسود بادئاً بجدول الضرب ، ولكن هذه اليد تتحرك بغير وعى وتنتقل بغير إرادة . لأن القلب الموسيقى الذى أطل عليه من وراء « جيته » قد استولى عليه ، فيده تسطر وقلبه يلحن ، وما هى إلا لحظة حتى كان الطلاب من ورائه يرددون اللحن الذى سطره ! وإذا مدرس الحساب يتحول إلى درس موسيقى ! فيسمع الرئيس الألحان شائعة فى الفناء ، فيطرق غرفة « شوبير » فيجده لاهياً وطلابه بهذه الأغنية ، فيطالب إليه أن يهرع إلى مقابلته ، ولكن هذه المقابلة التى يتخيلها الناظر عثور جد وسوء طالع ، قد هيأت لشوبير أن يقابل « مدير الأوبرا » فى « ڤينا » المعجب ببراعته ، وهو ينتظره فى بهو الرئيس يحمل إليه دعوة إلى منزل الكونتس « دى رنسكى » ليعزف فى إحدى مهراناتها الموسيقية الحافلة التى تقيمها كل خميس وتجعل من منزلها ملتقى أرباب الفن وأنصاره . وجدير بمثل هذه المقابلة أن تفتح أمام « شوبير » مستقبلا زاهياً مضموناً . ولكن أنى له أن يغشى هذه الحفلة وليس عنده رداؤها . وقد طرق بيت الرهون فرده صاحبه خائباً ، لأنه لا يملك ما يفك به رهينة ، ولكن الفتاة الهائمة بفنه أعادت إليه رداءه وقبعته لتحقق له ظفره فى هذه الليلة

كان بهو « الكونتس » يعج بالزائرين والزائرات ممن سما بأرواحهم الفن والموسيقى ؛ وفجأة دخل « شوبير » منتفخ الرداء ساطع الوجه ، يلمس غده بيده . ولكن نشوة السرور قد أذهلته عن أن ينزع (علامة الرهن) عن ظهر الرداء . فمر وعيون القوم رانية إليه ، تتغامز عليه . فقبل يد الكونتس وحطم بخيط «العلامة» تمثالاً عزيزاً علق به ، ولكن الكونتس لم تزد إلا ترحيباً به

جاء دور « شوبير » ومرت أنامله على « البيان » يعزف أنشودة أبدعها لمثل هذه الساعة . وأودعها كل ما يختلج فى صدره من أمانىّ وأشجان . فترى القوم سكارى وما هم بسكارى ! فتدخل — خلال ذلك — الكونتة استركاز الفتاة الحسناء وهى متأخرة ، فتأخذ مقعدها وتصغى بروحها المرحة إلى هذه النغمات ، فتسأل فتاها فيجيب همساً : انه « شوبير » فلا تفهم .

فيكتب على صفحة مرآتها بعد ذر « البودرة » أحرف « ش و ب ى ر » فلا تفهم ... وتنفخ على اسمه فيطير . ولكن أوضاع جلوس شوبير على البيان تهيب بها إلى الضحك فتملك نفسها فلا تقدر ، فترسلها ضحكات عالية تنال من عزة « شوبير » فيرمقها شزراً ، ويغلق البيان بعنف ، ويهب من مقعده لا يملك نفسه الهتاجة ، فيدركه « مدير الأوبرا » فيجيبه بإباء وأنفة :

— أنا لست ممن يعزفون وهم يضحكون !

وانطلق وقد ترك فى المنزل ، زوبعة ، وصاحبة المنزل تقول للفتاة « ومما يؤسف له أن المقطوعة لا تبعث على الضحك »

تلك عزة الفن دعته فأجاب ، وهو يقدر أنه قاتل مستقبله ، وداع البؤس إلى ساحته ، ولكن ما همه بمستقبله وبغناه إذا كان الفن يحيا فى منزله مهاناً ويرضى بهوانه ؟ أليس هذا المثل يضرب لكل فنّان معنى العزة ويبعث فيه الكبرياء ؟

خرج « شوبير » دامى القلب ، ولكنه عنيف الثورة شديد النقمة على هذه الغادة التى حالت بينه وبين اتمام لحنه . . . آب إلى غرفته بأمانيه المهزومة كالقائد المنكسر يعود بفلول جيشه وأوسمته القديمة ، فألفى غادته الأولى فى انتظاره ، وهى لم تكن لتحب أن تراه مقطباً عابساً ، جلس إلى البيان يعاود ذلك اللحن الطائر ، فلا يكاد يشرف على المهوى الذى تعالت فيه ضحكة الساخرة ، حتى يتمثل أن ضحكتها تملأ جو غرفته ، فيهب مذعوراً يسد أذنيه ، وكأن يداً سحرية تحول بينه وبين الانتقال إلى المهوى الثانى . وبعد محاولة غير مجدية غادر البيان والبيان يضحك ، وجدران الغرفة تضحك ، وهى فى قرارة ضميره تضحك . . .

كلفه هذا الحادث كثيراً ، فقد أخرجوه من المدرسة ، وحرموه الخبز الذى يأكله ، فألحف الدائنون فى الطلب ، ولج الأصدقاء فى الهرب . وشفعت له « فتاته ايمى » عند « مدير الأوبرا » ولكن هذا قد قُدّ قلبه من جماد !

ـ كن لطيفاً معه

ـ أنا لستُ بلطيف

ـ لا تهجر شوبير !

ـ إنه يستحق

ـ ولكن اذكر أن « ڤينا » تترنم بأغانيه ، فأين أغانيك ؟ بمثل هذه البساطة وهذه الحدة كانت تجادل « ايمى » مدير الأوبرا لاستمالته إلى معاضدة « شوبير » ، ولكن العبقرية كتب عليها القدر ألا تخط طريقها إلا بدماء القلب الجريح ، والشقاء الدائم ، فليمش « شوبير » على طريق العبقرية . . .

— ٣ —

طالب أحد الأمراء الموسرين فى « هونغاريا » إلى شوبير أن يقدم عليه ليعلم فتاتيه الموسيقى ، فارتاح لهذا الطالب وأيقن أن الأمل طفق يبسم له ، فودع « ايمى » ووعدها بأن يكاتبها وسار وراء الأمل الجديد

دخل المنزل فاستقبله الوالد بابنتيه «ماريا وكارولين» . نظر شوبير فى وجه « كارولين » فأدرك أن هذا الوجه هو وجه الساخرة ، فاربدّ وجهه وتقلصت شفتاه . ولكنه هدأ نفسه وكظم غيظه . وغادر الوالد المكان ، وعدت وراءه « ماريا » لأنها لا رغبة لها فى الموسيقى ، وخلا له ولها المكان

قالت كارولين باسمة :

ـ أريد أن أعرفك ، لأننى جعلتُ درس الموسيقى سبباً !

ـ أتودين أن تسخرى منى أيضاً ؟

ـ لا يا شوبير ! أريد منك أن تغلق هذا البيان

فدنا شوبير من البيان وأغلقه بهدوء ، فضحكت كارولين وقالت :

ـ فى امكان الانسان أن يغلقه بدون ضوضاء ! قد شعرت بخطيئتى العظمى ، وانى لأرجو أن تصفح عنى . . .

ـ قد صفحتُ !

ـ إذاً سنبتدأ غداً . . .

وفى اليوم الثانى كان « شوبير » يلقى على تلميذته قواعد فى الموسيقى وفى الايقاع ، ويبدى لها أن الايقاع هو حياة الموسيقى وأصل توازن ألحانها ؛ ويعرض عليها مقطوعة صغيرة له تتلوها بصوت عال ، فتتلو السطر الأول والثانى ثم يتعالى صوتها شادية مرنمة يتلاشى أمام نغماتها ونبراتها عزف البيان ولحن القيثار ، فيذهل شوبير وأى ذهول ! ويتصاغر أمام جلال هذا اللحن المتناسق ؛ حتى انتهت من تلاوتها وجاءت على هذه الكلمة « وهى مقطوعة مهداة إلى الفتاة ايمى » فثارت فى نفسها غيرة عميقة ، لأنها كانت تشعر بأن هذا الفنان يجب أن يكون لها وحدها ، فطلبت إليه أن يقدم لها فى المرة الثانية من أغانيه مالا تشركها فيها امرأة ! ولتكن تلك الأغنية التى لم تكمل . . . ولكن هذه الأغنية ظلت غير تامة لأنه لم يستطع أن يتمها

قالت له كارولين فى إحدى خلواتها :

– سمعت بأنك تختلط بعمالنا فى المزرعة فى جلسات طربهم وانى لأربأ بأستاذى أن يغشى هذه المجامع الساقطة

ولـكن شوبير كان يستوحى الفن حيثما كان ، ويعتقد أن الفن يسكن فى الأكواخ ، وفى الجماعات المنحطة ، وفى التراب . وظل يغشاها كعادته ، حتى فجأته يوماً فى مجلس لهؤلاء « الغجريين » الذين تخذوا الحياة عزفاً وطرباً ، وقذفوا بهمومها من وراء ظهورهم . فجأته وهى ترتدى رداء « الغجريات » وعلى وجهها تطفو بهجتهن وسرورهن . فرقصت حتى بات المـكان كله لا يتسع إلا لقدميها . رقصت حتى أعيت ، ودنت منه تنشد مقطوعة رقيقة تدعو إلى الاستسلام الذى تولده الغبطة السكنية :

« قل انك تحبني ؛ قل بدون انقطاع
قل انك تحبني قليلاً . . .
كلماتك هذه تبعث الغبطة فى نفسى ، والراحة فى قلبى
عيناك هما السبيل الجميل حيث يتوارى حلمى
قل انك تحبنى ، واكذب إذا وجب الـكذب . . .
قل ذلك . . . لأنك — إذا سكتّ — تسلمنى إلى الموت »

وجدير بمثل هذه الأغنية الرقيقة أن تذهلها عن نفسها ، وأن تغيب أستاذها عن وعيه . فيلثم يدها ، والزوبعة لا يزال هزيمها بين الأغصان . فغادرت المـكان راكضة بين المروج الذهبية التى هى قبلة العشاق ، ومرتجى أصحاب الوحدة ، فتبعها ليرجع إليها نقابها

– قفى يا كارولين . . . لقد نسيت نقابك . ماعسى يقولون فى القصر اذا عرفوا ؟ لماذا جئت ؟

– ألا تعرف أنت حتى الآن . . عانقنى يا شوبير !

وهنا ضمتهما قبلة عميقة لم تشهدها إلا السماء . ولم تسمع همسها إلا الأزهار والأعشاب . . . . أذهلتها عن نقابها الذى سقط على الأرض فعادت بغير نقاب

— ٤ —

أدرك الأمر والدها ، ورأى فى فتاته ميلاً إليـه قد ينتهى بالزواج . فأحب أن يحول بينهما ، فصرف « شوبير » صرفاً أدبياً ليعود إلى عزلتـه الأولى . وشوبير فى كل غيبته لم يذكر « إيمى » بكتاب . لأن كفة « كارولين » رجحت على كفتها . فلم تستقبله « إيمى » ولـكنها سمعت أنه يكاد يغدو مجنوناً . وهو فى كل يوم يرتقب كتاباً من « كارولين » وها قد دب اليأس فى نفسه بعد انتظار ثلاثة أشهر ، وها قد أشفقت « إيمى » عليه فهرعت إليه بدون إرادة ولا عزيمة . . . . وفى لحظة حضورها وردت عليه بطاقة من القصر تأمره بالحضور العاجل . فما قابل « إيمى » إلا ليودعها وتودعه

– إيمى ! كونى سعيدة إننى مسافر ، سوف أبعث إليك بأنبائى

انطلق « شوبير » ولا يعرف ما كُتب له . فشاهد فى القرية حالة غير معهودة ؛ أجراس تدق ، وثياب بيضاء ترف . وأغانٍ تتعالى . إنه عرس « كارولين » أجئتَ يا شوبير لتودع كارولين؟

لم يكن صاحب البطاقة المرسَلة إلا « ماريا » أخت « كارولين » دعت « شوبير » ليحضر حفـلة زفاف أختها . وليصفح عنها لأنها كفَّرت عن وزرها بالبكاء الطويل ، ولـكنها أذعنت لوالدها مضطرة غير مختارة . . . وقد وقف « شوبير » بين الجموع يشهد سرورها أمامه

وقفت « ماريا » فجأة بين جموع المهنئين فى بهو القصر ، تعلن أن « شوبير » يريد أن يهنئ العروسين « فدخل شوبير وقد رنت العيون إليه ، ومشى حتى بلغ موقف « كارولين » وقال لها : « يا سيدتى ! هل تتفضلين بأن أقدم تتمة اللحن الذى لم يتم تقدمة لك فى يوم عرسك ؟ » واختلف إلى البيان يردد اللحن الأول « وكارولين » بين الجموع تنتفض طوراً وتختلج تارة تحت تأثير الذكريات الهافية حولها . تفيض على قلبها مرارة ، وعلى محجريها تطفح دمعتان . وما كاد ينتقـل « شوبير » إلى تتمة المقطع ، وقد اختلفت النغمة ، وامتزج الجلال بالجمال ، ونطقت العاطفة ، وغلب القلب على الأنامل ، حتى سـقطت « كارولين » مستخرطة فى البكاء فى الموقع الذى قاطعت شوبير بضحكتها . فانفض الجمع وأخذوا المريضة . وشوبير مُسمَّر فى مكانه لا يتزحزح . وبعد برهة عاد إليه زوجها يقول له : « إنها تحسنت قليلا وتود أن تقابلك » . عادت كارولين ووجهها مقنع بكل ما رسمت على وجهها الحياة منذ طفولتها حتى الساعة . فالآمال مجاورة للآلام . واليأس مؤتلف مع القنوط : إنه وجه حياة كاملة

– شوبير ! هذه مقطوعتك أرسلها إلىّ

– ولِمَه ؟ إنها مكتوبة للجميع

– عش سـعيداً يا شوبير ! ولا تحزن . إنك تملك شيئاً هو اسمى من كل شىء . . . هو الفن الذى يعطيك الخلود

طفرت من عينها دمعة ، وانصرفت راكضة لأنها لا تستطيع أن تقف أمام هذه السحابة الجارفة التى يسوقها فن عميق سامٍ جارف

عاد « شوبير » إلى لحنــه ، فأبقى ماعزفه ، ومزق تتمة اللحن ، وكتب حول ما مزقه : « ليكون دليلاً على حبي الذى لا ينتهى ، جملتُـه لحناً لا ينتهى » . وخرج « شوبير » يسلك الطريق الذى أبصر أحلامه الواثبة ، والآن يبصر نفسه المكتئبة ؛ وما زال يقذف به السير حتى وقف على تمثال « مريم العذراء » وهنالك تمازج كل ماتقيه من عوامل متضادة ، من يأس ورجاء . من غبطة وكآبة ، وفن ومثل اسمى ، لتؤلف هـذه العوامل «أنشودته السلام الملائكى» التى خلدت شوبير فى عالم الوسيقى ..

« السلام الملائكى [1] »

سلام عليك يا مريم ! يا ملكة السماء
إليك ترتفع صلاتى ، وأرى العطف فى عينيك
وفيك أيتها الطاهرة أضع رجائى

***

ولدى كان مخفف بؤسى ، ومعزى فاقتى
إنه تألم ، وا أسفاه ، إنه قضى
افهمى دموعى أنتِ ، يا من كنتِ أماً
وأعيدى إلىّ طفلى البائس . . .

***

سلام عليك يا مريم ! إن ولدى جميل
كنتُ به مختالة معجبة . . .
باركى سريره الصغير . . .
إنه كان خيرى ، بل خيرى الوحيد

***

إذا أصابنى الله فى غضبه
فاعطفى أنتِ على الصغير البرىء
واستجيبى لى . . . إننى أم
تطلب الموت فى سبيل ولدها

***

سلام عليك يا مريم
أرى طفلى وُلد ثانية بالصلاة
كأنه الزهرة العاطرة ، والمنحة الجميلة ،
والجمال الجذاب ، والسر المقدس ،
انظرى إلىّ ! أنت يا موضع أملى !

ولدى ! إن جبينك ليسطع نوراً . . .
شكراً لك أيتها الأم الالـهية
أنتِ التى أنقذتِ ولدى
سلام عليكِ يا مريم . . .

***

هى مقطوعة تناجى بها أم ثكلى « مريمَ » وتبثها شكواها . وقد برح بها الحزن وأمضها الألم . والآن تغلق قلبها المفتوح وتطوى ألمها المنشور ، وتحس براحة نفسـية ، تصافح الألم فلا تراه شائكاً ، بل هى الآن أوسع صدراً للألم لأنه لا يعانى على إيمانها . وقد تكون هذه الفكرة فكرة فنان شاعر يناجى مثله الأعلى الذى وجد فيــه أمله الأسمى . فهو يحمل نفسه الجرّحة يريد أن يلتى لها منزلاً تنزل فيه ، فيجد الأبواب كلها مسدودة ، وها هو ذا الآن على طريق المثل الأعلى الذى سلخه عن الوجود

قد تلاشى الحب فى « شوبير » وانطفأت جذوته الملتّهبة ، وابتعدت ذكرياته المذبة . لا لأن شوبير محب كاذب يسهل عليه الاتصال والانفصال . ولـكن شوبير قلبه قلب فنان ، وقلب الفنان كبير ، قد ارتسمت ـ على قلبه ـ كل أشواقه الماضية ، وآلامه الغابرة ومرت معــه لتؤلف « ذلك المثل الأعلى » بفنه الذى ـ كما قالت كارولين ـ إنه وحده يعطيه الخلود

وقد يتساءل القارئ : أما وقد عاد شوبير خائباً ، فكيف التقت به « إيمى » فتاته الأولى ؟ بقيت نقطة غامضة لم يعالجها المخرج ليترك المثل الأعلى منتصراً على كل شىء

— ٥ —

قد لا تروق هذه النتيجة للبعض ، لأنهم يتلقونها بعقولهم ، وعقولهم لا يرضيها شىء من غذاء العاطفة ، ولا تقبل إلا بما فيه غذاء لمنطقها ، ولا يغذى منطقها إلا عالم الواقع الملموس . . . ولـكن فاتهم أن هذا العالم الواقعى قد بدأت تطفو عليه عوامل الاضمحلال لأنهم قتلوا فيــه كل مثل ، سواء ذلك المثل الذى يوحيه الفن أو يوحيه الشعر

لا يحمل الناس من هذه الوهدة التى نزلوا فيها وهذه المادية التى استغرقوا فيها إلا الايمان بالمثل الأعلى فهل نرى ـ السينما ! ـ تقف يوماً أمام الفن والشعر جنباً لجنب ، لتؤدى ما عليها من التبشير بهذا « المثل الأعلى » ؟

خليل هنداوى

---

[1] هى أغنية — كما يتضح — تناجى بها أم ثكلى « مريم العـذراء » وهى مشهورة بين الألحان الـكنائسية

٩ - شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

زهده وتكسبه بالشعر : كان أبو العتاهية مع زهده لايترك التكسب بشعره ، وإذا رجعنا إلى حاله فى ذلك وجدناه لم ينقطع عن بنى العباس وقبول جوائزهم من عهد المهدى الذى ابتدأ اتصاله بهم فيه ، إلى عهد المأمون الذى انتهت فيه حياته ، وقد طعن عليه بذلك فى زهده كثير من منافسيه فى الشعر وغيره ، وحملوا ذلك منه على الرياء والمخادعة ، وقد أنشد المأمون بيت أبى العتاهية يخاطب سلما الخاسر :

تعالى اللهُ يا سَلم بن عمرو   أذلَّ الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لمفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً . فبلغ ذلك سلماً فقال : ويلى على المخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها ، وعبأ البِدَرَ فى بيته ، ثم تزهد مرا آة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب . واجتمع أبو العتاهية مع جماعة عند قُثَم بن جعفر بن سليمان فأخذ ينشد فى الزهد ، فطلب قثم الجماز فأحضر اليه وأبو العتاهية ينشده ، فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ   يزهِّد الناس ولا يَزْهَد
لو كان فى تزهيده صادقاً   أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه   والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى   يناله الأبيض والأسود

فالتفت أبو العتاهية اليه فقال من هذا ؟ قالوا الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتص لخاله منك ، فأقبل عليه وقال له : يا ابن أخى إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه ، فالله يغفر لكما ، ثم قام

وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال : كنت فى مجلس خزيمة فجرى حديث ما يسفك من الدماء ، فقال والله مالنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته ، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة ، وأن أصير بعد الرياسة سوقةً وتابعاً بعد ما كنت متبوعاً ، ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى ، فاذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبى العتاهية فيها مكتوب :

أراك امرءاً ترجو من الله عفوه   وأنت على مالا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر   أيامن يداوى الناس وهو سقيم
وإن امرءاً لم يلهه اليومُ عن غد   تخوّف ما يأتى به لحكيم
وإن امرءاً لم يجعل البر كنزه   وإن كانت الدنيا له لعديمُ

فغضب خزيمة وقال : والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر . فقيل له وكيف ذاك ؟ فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله

وقد كان أبو العتاهية يجمع إلى أخذه بهذا التكسب الذهاب فى البخل إلى حد مكن منه خصومه فشوهوا به زهده أيضاً ، وله فى بخله نوادر كثيرة ، وأخبار مأثورة ، قال ثمامة بن أشرس أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسَهُ   تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق   وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنتَ ذا مال فبادر به الذى   يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت من أين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليتَ ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وانه الحق ؟ قال نعم ، قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً ليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد . فترك جواب كلامى كله ، ثم قال لى والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال لى هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام

وحدث محمد بن عيسى الخزيمى وكان جار أبى العتاهية قال : كان لأبى العتاهية جار يلتقط النوى ، ضعيف سيء الحال ، متجمل عليه ثياب ، فكان يمر بأبى العتاهية طرفى النهار ، فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيء الحال عليه

ثياب متجمل ، اللهم أعنه ، اصنع له ، بارك فيه ، فبقى على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة ، فقلت له يوماً يا أبا إسحاق إنى أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقل ، فلم لا تتصدق عليه بشىء ؟ فقال أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن فى الدعاء لخيراً كثيراً

وقال على بن مهدى حدثنى الحسين بن أبى السرى قال : قيل لأبى العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله ؟ قال والله ما بخلت بما رزقنى الله قط ، قيل له وكيف ذاك وفى بيتك من المال ما لا يحصى ؟ قال ليس ذلك رزقى ، ولو كان رزقى لأنفقته

وقال محمد بن عيسى قلت لأبى العتاهية أتزكى مالك ؟ فقال والله ما أنفق على عيالى إلا من زكاة مالى ، فقلت سبحان الله ، إنما ينبغى أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال لو انقطعت عن عيالى زكاة مالى لم يكن فى الأرض أفقر منهم

فأما تكسب أبى العتاهية بالشعر فلا شىء فيه عندى مع أخذه بذلك الزهد ، لأن الزهد فى الاسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والسعى فى الحصول على الرزق ، والتكسب بالشعر سبب من تلك الأسباب ، والشعر فن من الفنون التى لا غنى للدولة عنها ، فيجب أن يأخذ حظه من الأموال التى تجبى فيها ، ويجب على أرباب الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء لرجاله ، ليتوفروا على إجادته ، ويتضافروا فى النهوض به ، وليس على الشعراء من حرج إذا لم يصل نصيبهم من ذلك إليهم أن يتلطفوا فى الوصول إليه بمدح الملوك والوزراء ، وكذا غيرهم ممن فى أيديهم تلك الأموال ، وإنما يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه فى الالحاح به ، وجعله كل غايته من الشعر ، فحمله ذلك على الالتواء فى سبيله ، واتخاذ الشعر أداة شر بين الناس ، يقلب الحقائق بينهم ، ويجعل فى سبيل المال الباطل حقاً والحق باطلاً ، والظلم عدلاً والعدل ظلماً ؛ وقد تكسب الشعراء بشعرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له شعراء يمدحونه وينصرون دعوته ، ويدافعون عنه أعداءه ، ويردون عنه هجاءهم بالحق إذا هجوه بالباطل

ولم يكن شاعرنا أبو العتاهية بحيث يصل به التكسب بالشعر إلى هذا الحد ، وقد مضى لنا فى ترجمته ما يؤيد ذلك له ، وكم له من مواقف مشهودة مع ملوك عصره وأمرائه ، لم تنسه فيها جوائزهم أن ينكر عليهم ما يستحق الانكار منهم ، أو يغضب لنفسه إذا رأى منهم أقل تهاون به . حدث الحسين بن أبى السرى قال : مر القاسم بن الرشيد فى موكب عظيم ، وكان من أتيه الناس ، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق ، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت اليه ، فقال أبو العتاهية :

يتيه ابنُ آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنُهْ

فسمع بعض من كان فى موكبه ذلك فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبى العتاهية وضربه مائة مقرعة ، وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بى فى مثل ذلك الموضع ؟ وحبسه فى داره ، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات :

حتى متى ذو التِّيه فى تيهه ... أصلحـــه الله وعافاهُ
يتيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العزّ ليبقى به ... فان عز المرء تقواه
لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه ، وكانت مائلة اليه فرقت له ، وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى بر أبا العتاهية وأدناه واعتذر اليه

وحدث محمد بن عيسى قال : كنت جالسا مع أبى العتاهية إذ مر بنا حميد الطوسى فى موكبه ، وبين يديه الفرسان والرجالة ، وكان بقرب أبى العتاهية سوادى على أتان ، فضربوا وجه الاتان ونحّوه عن الطريق ، وحميد واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون اليه يعجبون منه وهو لا يلتفت تيهاً ، فقال أبو العتاهية :

للموتِ أبناءٌ بهـــمْ ... ماشئت من صلف وتيه
وكأننى بالموت قـد ... دارتْ رحاه على بنيـهْ

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال :

ما أذَلَّ المُقِلّ فى أعين النّا ... س لاقـــلاله وما أقماهُ
إنمـا تنظر العيون من النّا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

وقد كان أبو العتاهية فى آخر أمره يحاول جهده أن يجعل جوائز الملوك وغيرهم اليه فى نظير هدايا يتقدم بها اليهم ، كما كان يفعل ذلك مع الأمين والمأمون فيما ذكرنا فى ترجمته ، وهو فى ذلك يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم ، ويترفع عن ذلك التكسب الذى كان يأخذ به فى أول أمره ، وإن كان على تلك الطريقة التى لم يكن لها أثر معيب فى نفسه

وأما بخله فنعتقد أنه لم يصل فيه إلى ذلك الحد الذى يؤثر فيه ما أثر عنه من تلك النوادر وغيرها ، وإنما ذلك من اختلاق

خصومه ومنافسيه عليه ، ليشوهوا منه تلك الصيحة الممدوّية فى الزهد ، ويظهروه فى مظهر من يقول بما لا يفعل ، فلا يتأثر الناس بدعوته ، ولا ينظرون إلى أقواله ، ولاشك أنه يشفع لأبى العتاهية فى ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدى الملوك والعظماء ، ويبذل فى ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة ، فاذا ضن به بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائماً فى غير حاجة ملحة إلى من يحاول أن يشترى شعره بها ، فيسير فيه كما يشتهى هو لا كما يشتهى غيره ، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان ، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال ، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده فى وقت حرمانه ، ويضن به على من لا يجده فى ذلك الوقت إلا عدوا له أو شامتاً فيه ، وقد كان يجد من الناس ما ساء به ظنه فيهم ، وآثر به العزلة عنهم ، وكان له فيهم مذهب غريب يقضى بتبخيلهم كلهم ، فهو يقارضهم بخلاً ببخل ، ويضن عليهم ضناً بضن ، قال مخارق : لقيت أبا العتاهية على الجسر ، فقلت له : يا أبا اسحاق أتنشدنى قولك فى تبخيل الناس كلهم ؟ فضحك وقال لى : ها هنا ؟ قلت : نعم ، فأنشدنى :

إن كنت متخذاً خليلا ... فتنقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً ... فى الود فابغ به بديلا
ولربما سئل البخيـ ... ـل الشىء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـ ... ـل اليه يكره أن ينيلا
فلذاك لا جعل الالـ ... ـه له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ ... ـت فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له : أفرطت يا أبا اسحاق ، فقال : فديتك فأكذبنى بجواد واحد ؟ فأحببت موافقته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ثم قلت : ما أجد ؛ فقبل بين عيني وقال : فديتك يابني ، لقد رفقت حتى كدت تسرف

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيما لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره ، كما أزرى ذلك بغيره ، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدى أن يمد اليه يده ليزوجه إحدى ابنتيه ، وقد كان لأبى العتاهية بنتان : احداهما « لله » والأخرى « بالله » ، فخطب منصور منه « لله » فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبى العتاهية ، وكأني به قد ملها فلم يكن لى إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ؛ ولكنى أختاره لها موسراً ؟

عبد المتعال الصعيدى

في اللغة والأدب

٢ ـ المثنيــات

فى التاريخ والجغرافية والفلك

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها : أبوقبيس والأحمر ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، والأخشب فى اللغة هو الجبل الخشن العظيم ، ويقال هو الذى لا يرتقى علوه . وهما جبلا منى . وقيل هما الأخشب الشرقى والأخشب الغربى ، فالشرقى أبو قبيس والغربى جبل الخُط من وادى ابراهيم . قال أبو عبيد : وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو : موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل ، وهما متصلان من أعمال صنعاء ، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران فى القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد ، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد ، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران ، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر ، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل فى رأى العين ، ويسميهما أهل الشام يدى العقرب ، ويقال لهما زبانى الصيف ، لأن سقوطهما فى زمن تحرك الحر

(الشرطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادى الأخضر من دمشق وهمـا الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالى وأدنى وهو القبلى ، وبينهما الوادى والنهران بردى وبانياس . ويقال : فلان حاز الشرفين أى شرف الأب والأم

(الغوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين ، وهما : شجرتا صفصاف بالوادى التحتانى معدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون فى أشعارهم فمنهم الأمير المنجكى حيث قال :

وبالصفصافتين مقام أنس عليل نسيمه يبرى السقاما
إذا غنت حمائمه سكرنا بما تملى ولم نشرب مداما

(العزيزيتان) قريتان بمصر فى ناحية الشرقية منسوبتان إلى العزيز بن المعز

(العسكريان) محمد بن على والحسين بن رشيق، منسوبان إلى عسكر: محلة بمصر، وأبو الحسن على بن محمد ... بن جعفر وولده الحسن منسوبان إلى عسكر المعتصم وهى مدينة سر من رأى (سامرا)، والعسكريان الأديبان أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى وتلميذه أبو هلال الحسن بن عبد الله منسوبان إلى عسكر مكرم

(الفرقدان) نجمان منيران فى بنات نعش يضرب المثل بهما فى طول الصحبة فى التساوى والتشاكل. قال البحترى:

كالفرقدين إذا تأمل ناظر لم يعد موضع فرقد عن فرقد

(القرافتان) القرافة الصغرى والقرافة الكبرى، فيهما مقبرتا مصر، وكانتا من قبل خطتين لقبيلة من اليمن ثم من المعافر ابن يعفر يقال لهم بنو قرافة

(المحلفان) نجمان يطلعان قبل سهيل فيظن الناظر لكل منهما أنه سهيل، ويحلف أنه سهيل ويحلف آخر أنه ليس به

ما يتعلق بالمنطق من المثنيات

(الجنسان) الجنس القريب والجنس البعيد

(الحدان) الحد التام والحد الناقص

(الضدان) صفتان وجوديتان يتعاقبان فى موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسواد والبياض

(المتقابلان) بالعدم والملكة أمران أحدهما وجودى والآخر عدم ذلك الوجودى لا مطلقاً بل من موضع مقابل له كالبصر والعمى، والعلم والجهل، فان العمى عدم البصر عما من شأنه البصر، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم

(المتقابلان) بالايجاب والسلب هما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقاً كالفروسية واللافروسية

(المضافان) هما المتقابلان الوجوديان اللذان يعقل كل منهما بالقياس إلى الآخر كالابوة والبنوة

(النوعان) الحقيقى والاضافى: فالحقيقى الكلى المقول على واحد أو كثيرين متفقين فى الحقائق فى جواب ماهو، والاضافى ماهية يقال عليها وعلى غيرها الجنس قولاً أولياً أى بلا واسطة كالانسان بالقياس إلى الحيوان

المثنيات المتعلقة بالتفسير والقراءات

(النجدان) هما الضلالة والهدى، فى قوله تعالى (وهديناه النجدين)

(مدهامتان) هما فى القرآن بمعنى سوداوين من شدة الخضرة من الرى لأن العرب تسمى كل أخضر أسود

(الصدفان) هما فى الآية الكريمة جبلان متلاصقان، من المصادفة أى المقابلة، وقيل من الصدف وهو الميل لأن كل واحد منهما منعزل عن الآخر

(السدان) هما فى قوله جل وعز (حتى إذا بلغ السدين) الجبلان المبنى بينهما السدان وهما جبلا أرمينيا وأذربيجان، وقيل هما جبلان منيعان فى آخر بلاد الترك

(الابنان) هما فى مصطلح أهل القراءات ابن كثير وابن عامر

(الأبوان) هما أبو عمرو وأبو بكر بن عاصم القارئان المشهوران

(الاخوان) هما حمزة والكسائى. (الحرميان) هما ابن كثير ونافع من القراء السبعة

المثنيات المتعلقة بالحديث الشريف

(التدليسان) أحدهما تدليس الاسناد وهو أن يروى عمن لقيه ولم يسمع منه موهماً أنه لقيه أو سمع منه، والآخر تدليس الشيوخ وهو أن يروى حديثاً عن شيخ سمعه منه فيسميه أو يكنيه ويصفه بما لم يعرف به كيلا يعرف

(الشيخان) هما عند الاطلاق أبو بكر وعمر، وعند المحدثين يراد بهما البخارى ومسلم

(الذبيحان) فى حديث (أنا ابن الذبيحين) اسمعيل أو إسحق وعبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم. والمرجح أن الذبيح هو اسمعيل، وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً [1]

---

(١) بسط المحبى فى (جنى الجنتين) مفصل القول فى ذلك بتحرير دقيق عن ابن تيمية وغيره من الأئمة

(العودان) منبر النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه ، وقد ورد ذكر العودين في الحديث وفسرا بذلك ، وقال شمر في قول الفرزدق :

ومن ورث العودين والخاتم الذى
له الملك والأرض الفضاء رحيبها

وكني بالعودين عن الشاهدين ، قال شريح : القضاء جمرة فادفع الجمر عنك بعودين

(الأسودان) الحية والعقرب ، وفي الحديث (اقتلوا الأسودين)

(الثقلان) الانس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض ولرزانة رأيهم وقدرهم ، أو لأنهم مثقلون بالتكليف ، وفي الحديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل إعظاماً لقدرهما وتفخيما لشأنهما

(الأسواريان) محيسن ومحمد بن أحمد نسبة إلى أسوار — بالفتح — قرية بأصبهان ، محدثان

(الأماميان) محمد بن عبد الجبار ومحمد بن اسمعيل البسطامي محدثان

المثنيات في الطب والكيمياء والنباتات

(البهقان) أبيض بياضه دقيق ظاهر البشرة لسوء مزاج العضو إلى البرودة وغلبة البلغم على الدم ، وأسود يعتري الجلد إلى السواد لمخالطة المرة السوداء الدم

(الحلولان) حلول سرياني وهو عبارة عن اتحاد الجنسين بحيث تكون الاشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد فسمي الساري حالاً والمسري محلاً ، وحلول جواري وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز

(الزرنيخان) أراد به الأطباء الزرنيخ الأحمر ، والزرنيخ الأصفر

(البهمنان) نباتان أحمر ظاهره السواد وأبيض كذلك ، وهما فارسيان معربان وكلاهما يضران السفل ويصلحهما الأنيسون والكثيرا أو العناب

المثنيات المتصلة بالفلسفة والأخلاق والتصوف

(الأجلان) هما على رأي الفلاسفة طبيعي واخترامي فانهم قالوا : الرطوبة الغريزية من الحرارة الغريزية بمنزلة الدهن للفتيلة المشتعلة وكلما انتقص تتبعها الحرارة الغريزية في ذلك . . . الخ ما ذكره المحبي في « جني الجنتين »

(الأدبان) أدب الغريزة ، وهو الأصل ، وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع شيء إلا بنمو أصله ، ولا ينمو الأصل إلا باتصال المادة ، وقيل الأدبان أدب النفس وأدب الدرس

(الامامان) هما في اصطلاح أهل التصوف : الشخصان اللذان أحدهما عن يمين العرش أي القطب ونظيره في الملكوت وهو مرآة ما يتوجه في المركز القطبي إلى العالم الروحاني من الامدادات التي هي مادة الوجود والبقاء ، وهذا الامام مرآته ، والآخر عن يساره ونظيره في الملك وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية وهذا مرآته ومحله أعلى من صاحبه وهو يخلف القطب إماماً إذا مات

(الفناءان) أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة وهو بكثرة الرياضة ، والثاني عدم الاحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق

(الصورتان) النوعية والجسمية ، وهما محلهما الهيولى ، وهي جوهر في الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال

ما يتصل بالفقه والأصول من المثنيات

(البيِّعان) هما البائع والمشتري ، وفي الحديث : « البيعان بالخيار مالم يتفرقا[1] »

(المفهومان) مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة : فالأول مايفهم من الكلام بطريق المطابقة ، والثاني ما يفهم من الكلام بطريق الالتزام ، وقيل هو أن يثبت في المسكوت على خلاف ما يثبت في المنطوق

(الخليطان) هما الشريكان يخلط أحدهما ماله بمال الآخر ، وفي الحديث : « وما كان من خليطين فانهما يتراجعان بينهما بالسوية[2] »

(البيهقيان) حنفي وشافعي : فالحنفي إسماعيل بن الحسن ، والشافعي أحمد بن الحسين

(يتبع)

محمد شفيق

(١) في « جني الجنتين » وكتب الفقه تفصيل آراء الفقهاء في معنى الحديث
(٢) شرح هذا الحديث في « جني الجنتين » في صفحة كبيرة

القصص

صور من هوميروس

٢ - حُروب طَرْوَادَة

پاريس يعود

للأستاذ دريني خشبة

- « ألست تحن إلى وطنك ، وتتمنى لو ترى والديك ياپاريس ؟ . . . »

- « وطني ووالدي ؟ »

- « . . . ؟ . . . »

- « وهل لي وطن غير هذه المروج الخضر ، ووالدان غير أبي الراعي وأمي المتداعية الفانية ؟ »

- « مسكين ! ! »

- « بل أسعد الناس بأن أكون ابنهما ! ولمْ ؟ أليس أبي سيد هذه الفلوات ، وأمي أعز الأمهات ؟ »

- « ذلك حق لو أن أباكِ هذا الراعي ياپاريس ! »

- « ماذا تعنين ؟ »

- « أعني أنك لست ابنه ؟ ... »

- « وَيْ ! لو لم تكوني ڤينوس لقتلتك ! »

- « الحق أقول أيها العزيز ! »

- « أنت تعذبينني ! ابن من إذن ؟ ... »

- « أترى إلى جمالك البارع ، وجسمك المشوق السمهري ؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف ؟ »

- « ...... ؟ ...... »

- « أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك ؟ ... »

- « سخرية وهزؤ ... إلام تلذعين فؤادي يا ربة الحسن والحب ؟ ألأنني أعطيتك التفاحة الخالدة ؟ ... ... »

- « الآلهة لا تكذب ياپاريس ! »

- « أنا ؟ ... أبي ... ملك ؟ ... هذا الراعي ؟ ! ملك ماذا ؟ ؟ »

- « ليس هذا الراعي قلت لك ! ! أنت لست ابنه ! أنت سليل الملوك ، الصيد ! ! ... ... »

- « إذن من عسى أن يكون أبي ؟ ... ... »

- « ملك طروادة ! ! ... ... »

- « ملك طروادة أبي ؟ ... پريام ؟ ! ... ... »

- « هو ... هُوَ ... ... »

- « هاهاها ... ... ومن جاء بي هنا ؟ سرقوني ؟ ... أليس كذلك ؟ ... ... »

- « لا تنس ياپاريس أنك في حضرة ڤينوس ... وأقولها لك كرة أخرى : إن الآلهة لا تكذب ... أجل أنت ابن پريام ملك طروادة ... قيل له إنك تجر عليه ألواناً من العذاب فصدق ، وأرسل بك من ترَكك فوق جبل بعيد ، لتأكلك الذئاب ... كل هذا إذْ أنت طفل صغير ... وليد ... ولقد عثر بك ذلك الراعي الذي تحسبه أباك ففرح بك وقال لامرأته : عسى أن يكون لنا منه ولد ... والآن ... لقد وعدتك زوجة جميلة ... أجمل امرأة في العالم ... فاذهب أولاً إلى طروادة ، والق أباك فإنه سيعرفك ... سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك ... وسيحدثه قلبه ... وتكلمه روحه أنك ابنه ... سيفرح بك پريام ياپاريس ، وسيخفق قلب هكيوبا ... أمك التي تبكي من أجلك ، وتتمناك بنصف مُلْكها !

فإذا اطمأنوا بك ، ولبثت فيهم أياماً ، فأبدِ لهم رغبتك في الإبحار إلى بلاد الأغريق في أسطول كبير ... ... إن ثمة المرأة التي وعدتك ... أجمل نساء العالم ... »

وغابت ڤينوس !

***

جلس باريس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة ، وعلى السفح المشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى ، ثم أخذ يفكر فى كل كلمة انفرجت عنها شفتا ڤينوس …

« تُرى ؟ ! أصحيح ماقالته ڤينوس ؟ أصحيح أن پريام أبى ؟ ألا أنادى أبى الراعى بعد اليوم ؟ وأنت أيتها الشاء والنَّعم : أفراق لالقاء بعده ؟ وا أسفاه ! لم لقيت ڤينوس ؟ عزيز على أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح ! وأنت أيتها السماء الحبيبة ؟ بمَ أستبدل قلائدك الدرية فى الليل ، وشمسك الدافئة ، وسحبك الموشاة بالذهب فى النهار ؟ ! … … … … … »

الآلهة لا تكذب ! ! هكذا كانت تقول ڤينوس ! أنا إذن ابن ملك ! وأبى لابد أن يكون غِرًّا ضيق المطن ، وإلا فلم صدق ماذكرته له الـكهنة عنى ؟ طفل صغير يُنبذ بالعراء لتأكله السباع ! ياالقساوة القلوب ، ويحجر الأكباد ؟ ! وأمى ؟ أين كانت أمى ؟ وأين كان قلب الأم فى هذه المرأة ؟ كيف سهل عليها أن تدعنى يُنطلق بى لأنبذ بالعراء ، فريسة لاحول لها لـكلاب الجبل ، وطعمةً شقية لسباع البرية ؟ ! … … … … »

لا بد أن أذهب ! لا بد أن أعلم حقيقة أمرى ! وداعاً أيها البحر ! وداعاً أيتها المروج ! يا كل شىء هنا … وداعاً ! »

وانطلق لا يلوى على شىء …

وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه فى الطريق فينكرون منه كل شىء ! ينـكرون منه انقباضه وعهدهم به طلق المُحيّا لا يفارق المرح ثغره البسام ، وينـكرون منـه صمته الطويل وهو الثرثار الذى لا يقف لسانه ولا تسكن شفتاه ! وينـكرون منـه هذه النظرات العميقة الحزينة ، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب …

وكان هو ينكرهم جميعاً كذلك ! أليس قد عرف أنه ابن ملك ؟ وابن أى ملوك العـالم ؟ ابن ملك طروادة ! وهل أقوى وأعظم فى ملوك العالم من ملك طروادة ؟

وبرغم هذا الانـكار كان الرعاة ما يبرحون يحبون پاريس ويعجبون به ، وقد أحزنهم أن ينطلق فريداً وحيداً فى فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش ، فذهبوا يقتصون أثره ، وكانوا له حرساً شديداً فى وحشة هذه البرية المخوفة …

ووصل إلى طروادة …

وجلس فوق هضبةٍ مرتفعةٍ قليلاً فنظر إلى المدينة الخالدة ! واجتمع حوله أصدقاؤه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد ، ولم هجر قطمانه وأوطانه ، وهل فى أمره … حب … ؟

وطمأنهم پاريس ، وزوّق لهم الأحلام والأمانى ، ووعدهم خيراً « لا ترى مثله عين ، ولا يخطر على قلب بشر »

ودخلوا المدينة …

وعمّوا ميدانها الرحب الفسيح ، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضى ، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التى عارمها أبطال طروادة وما جاورها من القرى . ولبث پاريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة ، ثم زهاهم الروح الرياضى فقدموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب ، فأشركهم فى كثير من المباريات …

ولقد برّز پاريس على أقرانه ، وبذّ كل من تبارى معهم فى مضمار ، حتى لفت إليـه أعين النظّارة وأصبح موضع إعجاب الحاضرين …

وكانت الأسرة الملـكية ، الملك وزوجه وأبناؤه وحاشيته ، يحدّقون فى الفتى مشدوهين مأخوذين ، وكانت المالـكة خاصـةً تحس كأن رباطاً روحانياً يجذبها إلى الناحية التى يجول پاريس فيها ويصول ؛ بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب فى عضلات البطل ، إنما يتدفق من عضلاتها هى ! وأعجب من ذلك جميعاً ، ذلك الحنان المتفجر فى قلبها ، وذاك الحب الحزين السادر الذى يغمرها كلَّها من أجل هذا الغريب المفاجئ المجهول !

ولمحت كاسنْـدرا ، ابنة الملك ، ماكان ينتاب أمها من عواطف ، وكانت فتاةً بارعة الحسن ، مليحة الدل ، فينانةً ريّانة ؛ أعجب بها أپوللو فمنحها حبه ، وهام بها حتى لـكان يعبدها عبادةً ، وهو الإلـه المعبود !

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه ؛ فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب ، والتنبؤ بما كان وما يكون ؛ فـكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم وهم يسمعون ويعجبون …

ولـكنها تاهت على أپوللو ودلّت ، وكانت أبداً تمنحه الجفاء والصدود ، وتُعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وشعره وموسيقاه !

رجاها أبولو أن تكون له ، وأن ترتضيه لها بعلاً ، ووعدها لقاء ذلك أن يبنى لها القصور الشماء فى قبة السماء ، وأن يحملها معه أبداً فى رحلاته العلوية فترى كل ما يدب على الأرض ، وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زيوس الأعظم فيمنحها الخلود وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم ... ... بيد أنها ما كانت لتزداد إلا شماساً وعنادا

ولما ضاق أبولو بها ذرعاً ، صب جام غضبه عليها ، وسلَّط عليها سخرية سامعيها ، فما تقول شيئاً ، ولا تتنبأ بشىء ، ولا تكشف غيباً ، إلا استهزأ بها الناس ، وعيروها بأنها تكذب وتهرف وتدعى ! . . .

فلما شاهدت ما كان من فورة الاحساس التى تجرف قلب أمها من أجل باريس ، ذكرت لها أن هـذا الشاب إن هو إلا أخوها الذى نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع ، وآيتها على ذلك هـذا التشابه الشديد بينه وبين أخيها هكتور وبينه وبين أبيها الملك . وحاجها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين هكتور . . . ولكن ما كادت المطابقة تتم حتى أخذته هكيوبا فى حضنها الحنون المرتجف ، صائحة مستعبرة : « ولدى باريس . . إبنى باريس ... ولدى ... إلىّ إلىّ يا بنى ... ! ! » . أما الملك فقد بكى هو الآخر ، ونهض فعانق ابنه عناقاً طويلاً حاراً ، غاسلاً جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار عن الماضى البعيد الحزن

ولما أخبرهم باريس أن ڤينوس ، ربة الحب والحسن ، هى التى هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته ، خر الملك وأهله لها ساجدين ... إلا كاسندرا

لقد عبست عبوسة قاتمة ، وحدجت أخاها الغريب بنظرة كالحة ! ! ثم صاحت بالملك : « أبى ! لتحذر هـذا الأخ ... لتحذر باريس ... ولتذكر نبوءة الكهنة فى معبد أبولو .... ابنك يجر الخراب على مملكتك ، ويعرض شعبك للدمار ، وينشر الموت فى بيوت رعاياك ! ! »

وهنا ينتقم أبولو ، ويسخر من حبيبته الجافية !

لقد تضاحك الملك مستهزئاً ، وغمزت الملكة ابنتها ولزتها بكلام قارص ... أما هكتور ، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحاً ثقيلاً ...

مسكينة كاسندرا ! !

حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها الذلة والهوان ... !

كل ذلك والرعاة ... أصدقاء باريس ... ينظرون ويعجبون ... ولا يفهمون ! !

الآلهة لا تكذب ! !

أفرخ روْع باريس إذن ! وصدق كل ما ذكرته ڤينوس !

ها هو ذا يعيش فى قصر منيف باذخ ؛ وها هو ذا ، لأول مرة فى حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ ، ليلبس من سندس أبيض واستبرق ! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضة ، وصحاف الآكال من ذهب ! وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه ، وجيوش تصدع بأمره ، وأساطيل لجابٌ تملأ البحر ، إذا شـاء أقلعت وإذا شاء أرست ؛ ؛ ومُلك وسلطان ، وتاج وصولجان ... !!

لا تنقصه الآن إلا أجمل فتاة فى العالم . . .

تلك الفتاة التى وعدته ڤينوس ! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة فى العالم هى من غير ريب فى بلاد الأغريق ... لأن ڤينوس أوصته بوجوب الابحار إليها ... وهل أجمل من حسان اسبرطة فى بلاد الاغريق ؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام إذن ، فليبحر باريس إلى اسبرطة ! !

(لها بقية) دريني خشبة

فى حفل استقبال سمو الأمير سعود

يقال إنه كان للهدية الثمينة التى انفرد بتقديمها أحد كبار الهنود بمصر . حضرة السيد بير شريف على المدنى صاحب فابريقة سجاير ملوك الهند وفخر العرب ، من بين المحتفلين بقدوم سمو الأمير سعود بالوكالة العربية بالقاهرة وقد نالت عند سمو الأمير حسن القبول والاعجاب فتناولها شاكراً وأثنى على صاحبها مما لفت نظر جميع المحتفلين بسموه وجعلهم يتحدثون بشأنها ، وندرة هـذا النوع من الهدايا إذ لا وجود له إلا بين قصور الملوك والأمراء وخاصة فى الهند مما روته الصحف فى حينه يوم الحفل من الأسبوع الماضى ؟

البريد الأدبي

كتاب جديد عن ستالين

قرأنا في مجلة «لوروب نوفيل» وصفاً لمؤلف جديد عن «ستالين» بقلم مسيو بيير فردريس. والظاهر أن شخصية ستالين (أو الرجل الصلب) طاغية روسيا السوفيتية أضحت مستقر الاهتمام والدرس؛ فلأسابيع قلائل يصدر عن ستالين كتاب جديد بالفرنسية. وقد سبق أن أشرنا في هذا المكان إلى صدور الكتاب الأول وهو بقلم مسيو هنري باربيس الكاتب الفرنسي الثوري؛ وأما الكتاب الثاني فعنوانه ستالين أيضاً وهو بقلم مسيو بوريس سوفارين الكاتب الشيوعي؛ والكتاب الجديد بالفرنسية أيضاً مع أن مؤلفه مسيو سوفارين روسي الأصل نشأ في مهد الصحافة الروسية، ولكنه نزح إلى فرنسا منذ الثورة البلشفية، وغدا من أقطاب الشيوعيين في فرنسا، وكتابه يقع في مجلد ضخم يناهز السبعمائة صفحة، وهو كما يسميه في عنوانه «خلاصة لتاريخ البلشفية» بيد أنها خلاصة ضافية جداً. ويبدأ مسيو سوفارين بالكلام عن ستالين ونشأته الأسيوية في بلاد الكرج في أسرة ريفية فقيرة؛ ثم يتناول تاريخ الحركات الثورية في روسيا منذ أواخر القرن الماضي بافاضة، وتاريخ الأحزاب الثورية ومبادئها، وكيف تمخضت عن قيام الحزب البلشفي في أوائل هذا القرن؛ ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن مقدمات الثورة البلشفية التي انتهت بقيام الحكومة السوفيتية وقبض البلاشفة على اقدار روسيا إلى اليوم، ويستعرض خلال ذلك كل ما سنه البلاشفة من القوانين أو النظم الجديدة الاقتصادية والاجتماعية؛ ويعنى عناية خاصة باستيعاب كل ما يتعلق بتلك الشخصية الغامضة — ستالين — وكل ما يمكن أن يلقي الضياء على خواصها الغريبة. ويبدو ستالين خلال هذا الدرس شخصية مدهشة، فبينما نراه في ثوب متواضع جداً رجلاً لا يتمتع بثقافة محترمة، إذا به رجل ذو إرادة حديدية مخيفة، وإذا به طاغية خطر، يتذرع بأقصى الوسائل لتحقيق سياسته وأهوائه، ثم إذا به لا يزال مطبوعاً بالنزعة والصفات الأسيوية القديمة في الشغف بالدس والعمل من وراء ستار. ثم لا ريب مع ذلك أن ستالين من أعظم شخصيات التاريخ الحديث، وهو بذلك جدير بأن يدرس دراسة عميقة واسعة كتلك التي يقدمها إلينا مسيو سوفارين بعد أعوام طويلة من البحث والدرس في جميع المصادر والمحفوظات الروسية والأجنبية

وفاة شاعر انكليزي كبير

توفي أخيراً الشاعر الانكليزي السير وليم وطسون في نحو السابعة والسبعين من عمره، وكان يعاني آلام المرض منذ أعوام؛ وولد السير وطسون في سنة ١٨٥٨ في بلدة من أعمال يوركشير، وتلقى تربيته الأولى في ليفربول حيث كان أبوه يشتغل بالتجارة، ثم درس الحقوق في جامعة ابردين؛ وفي سنة ١٨٨٠ نشر أولى قصائده في كتاب سماه «أمنية الأمير» وظهر فيه تأثره بنفوذ الشاعرين كيتس وتنيسون؛ وبعد بضعة أعوام أخرج كتابه «صور من الفن والحياة والطبيعة»، ولكنه لفت الأنظار لأول مرة حينما نشر في سنة ١٨٩٠ قصيدته الشهيرة «قبر وردسورث» التي أثارت يومئذ اعجاب النقدة، واعتبرت دليلاً قاطعاً على مقدرته الشعرية؛ وأعقب السير وطسون ذلك بعدة قصائد وأناشيد شعرية؛ وظهر من ذلك الحين بمواهبه الأدبية، واشترك في تحرير كثير من الصحف الأدبية الشهيرة. ولما توفي الشاعر تنيسون رثاه بقصيدة رائعة ضم اليها قصيدة أخرى في الذكرى المئوية للشاعر شيللي (سنة ١٨٩٣). وفي ذلك العام منحته الحكومة «معاش الأدب» الذي كان مخصصاً لتنيسون وقدره مائتا جنيه. ولما وقعت المذابح الأرمنية في تركيا في أواخر القرن الماضي، نشر السير وطسون عدة قصائد وأناشيد عنها في جريدة «الوستمنستر جازيت» ثم جمعت بعد ذلك في

ديوان سمى « عام العار » . وفى سـنة ١٩٠٩ نشر ديواناً سماه « القصـائد الجديدة » فلقى نجاحاً عظيما ، ثم نشر « الشعر فى المنفى » ، وأنعم عليه بلقب « السير » سنة ١٩١٧ ؛ واستمر السير وطسون بعد ذلك يخرج مجموعات شعرية متعاقبة

ويحمل شعر السير وطسون طابع المدرسة الروائية وميلها إلى البلاغة ، بيد أنه يمتاز بالوضوح الجم والاحتشام الرفيع

ولما مرض السير وطسون منذ أعوام ولم تف موارده بحاجته للعلاج ، أبدى مواطنوه له تقديرهم واعجابهم بفتح اعتماد مالى شعبى يمكنه من اتمام علاجه وارتياد المصحات اللازمة ؛ وقد نجح الاكتتاب نجاحاً عظيما

وفاة السيد محمد رشيد رضا

استأثر الله فى يوم الخميس الماضى بالعالم الـكاتب والفقيه الحجة السيد محمد رشيد رضا صاحب (المنار) ؛ أدركه موت الفجاءة وهو فى السيارة عائداً من توديع الأمير سعود فى السويس . وليس فى العالم الاسلامى مثقف يجهل تلميذ الأستاذ محمد عبده ، وحامل لواء الاصلاح الدينى من بعده ؛ فان أربعين سنة قضاها الفقيد الـكريم فى تحرير المنار يفسر كتاب الله على طريقة الامام ، ويبسط أحاديث الرسول على نهج السلف ، ويحرر الفتاوى فى المسائل الدينية المختلفة ، ويقطع ألسنة المبشرين والملحدين بالأدلة النواهض ، ويجلو عن الشريعة ظلام الشُبه بالعقل النير ، ويزيد فى ثروة الأدب الاسلامى بالمصنفات القيمة ، حرية أن تحله من قلوب المؤمنين موضع التجلة ، وتبوئه من صفحات التاريخ مكان الأئمة

ولد الفقيد فى قرية (القلمون) إحدى قرى لبنان القريبة من طرابلس ، فتلقى العلم طفلاً ويافعاً فى هذه المدينة ، ثم هاجر إلى مصر ، فدخل الأزهر واتصل بالامام محمد عبده اتصالاً وثيقاً ، فأشار عليه أن يصدر (المنار) فكانت سجلاً لآراء الأستاذ الاجتهادية فى حياته ، واستمراراً لدعوته الاصلاحية بعد مماته . ثم ساهم فى النهضة العربية واتصل بجمعياتها السرية فى أطوارها المختلفة من سنة ١٩٠٨ إلى قيام الحرب الـكبرى . فلما أعلنت الهدنة عاد إلى سورية فانتخب رئيساً للمؤتمر السورى الذى نادى بالأمير فيصل ملـكا ؛ ثم ظل فى خدمة هذه الدولة العربية الجديدة حتى ثل عرشها الفرنسيون سـنة ١٩٢٠ ، فارتد إلى القاهرة يحرر المنار ويعالج التأليف ، فأصدر طائفة من الـكتب القيمة أشهرها تكملة تفسير الامام على هديه ووحيه ، ثم الجزء الأول من تاريخ الامام وكان قد أصدر منه جزءه الثانى فيما قاله ، والثالث فيما قيل فيه ، ثم كتابه الجليل (الوحى المحمدى) وهو من غير شك معجزة نبوغه وكتاب خلوده . رحمه الله رحمة واسعة وعوض فيه الاسلام والمسلمين خيراً

ذكرى آندرسن معبود الطفولة

احتفل أخيراً فى كوبنهاجن عاصمة دانمارکه باحياء ذكرى الـكاتب القصصى الـكبير هانز كرستيـان آندرسن ، وذلك لمناسبة مرور ستين عاماً على وفاته . ويحق لدانمراكه أن تفتخر أيما فخر بأن ينتسب اليها ذلك الذى يعتبر بحق معبود الطفولة فى جميع أنحاء العالم . ذلك أن آندرسن هو أمير القصص الساذج الذى مازال سحر الطفولة المرحة منذ ثلث قرن . وقد ولد آندرسن سنة ١٨٠٥ فى مدينة أودنسى من أعمال جزيرة فيين ؛ وكان أبوه صانع أحذية شديد الفاقة فلم يتمكن من تربيته ، ولـكن جماعة من أصدقائه لاحظوا مواهب الطفل الخارقة ولا سيما فى الموسيقى ؛ ولما بلغ هانز أشـده أبدى مقدرة فى قرض الشعر ، وحاول أن ينتظم فى سلك المسرح فى كوبنهاجن ؛ ولـكن تربيته الساذجة حالت دون هذه الأمنية ؛ وبلغ الملك خبر هذا الفتى العجيب ومواهبه الخارقة ، فأمر بأن يلقن بعض ضروب الثقافة ؛ وكان لذلك العامل الجـديد أحسن الأثر فى إبراز مواهبه الشعرية والفنية . وكان بدء شهرته ومجده قصيدته الخالدة « الطفل المحتضر » . ثم تلاها بقطعة أدبية ساخرة اسمها « نزهة إلى آماك » وقد صدم آندرسن فى بدء حياته الأدبية بمهاجمة النقدة ؛ ولـكنه لم يعبأ بهم ؛ وأمر الملك بأن يسافر آندرسن فى بعض الرحلات على نفقته . وكان أعظم ما أخرج آندرسن بعد رحلاته ، قصصه الخالدة التى تعرف « بقصص الجن » . ومنها « كتاب الصور الذى لا صور فيه » « سوق شاعر » « قصص من جتلنده » « البجعة المتوحشة » « العذراء الثلجية » « الجندى الشجاع » وغيرها ؛ وهى جميعاً من القصص البرئ الساذج الذى وضع للطفولة ، ومن أبدع ما أخرج القلم فى هذا الباب من القصص ؛ ويمتاز آندرسن بخياله المبدع وأسلوبه الساحر ، وخفة روحه التى تخلب لب قرائه الأطفال فى جميع أنحاء العالم ، وقد ترجمت قصصه إلى جميع اللغات الحية ، بحيث أصبح بحق كاتباً عالمياً عظيما

قصور بيزنطية

من أنباء استانبول الأخيرة أن المباحث الأثرية التى يجريها العلامة الأثرى الايكوسى الأستاذ باكستون للبحث عن مواقع بيزنطية القديمة قد اسفرت عن العثور على بعض آثار تحدد موقع

القصر الامبراطورى القديم أو قصر قياصرة الدولة الشرقية . وقد توفر على درس هذه المسألة عدد كبير من العلماء ؛ ودرسوها على ضوء الخطط القديمة لعاصمة القياصرة ؛ ولكن مباحثهم كانت نظرية فى الغالب ؛ وأشهر من قام بهذه الدراسات العالمان الأثريان ممبورى وفياند فى رسالتين شهيرتين أثبتت بهما بعض الخرائط والخطط النظرية القديمة لعاصمة القياصرة . وقد استعان الأستاذ باكستر بهذه الدراسات التاريخية على إجراء مباحثه ؛ وبدأ بالحفر على مقربة من جامع السلطان أحمد الذى تجتمع فيه عدة من أشهر الآثار البيزنطية مثل كنيسة أياصوفيا الشهيرة ، وهى على مقربة منه ، ومسرح الهيبدروم (مسرح الخيل) ؛ وحصر الأستاذ حفرياته فى المنحدر المتجه نحو البحر ، فعثر على عمق مترين ونصف متر على ممشى من الرخام وعلى بعض الأساسات القديمة ، ووجد بينها آثار أحجار وفسيفساء تدل على أنها من صنع الترك فى القرن السادس عشر ؛ ولما نظفت هذه الأسس وحفر حول الممشى الرخامى ظهرت فسيفساء أخرى ، عرف فى الحال أنها من بقايا القصر الامبراطورى ، فتوسع الأستاذ باكستر فى الحفر فى تلك المنطقة ، فعثر على قطع أخرى من الفسيفساء البيزنطية القديمة ، ولم يعرف بعد أى جزء من القصر الامبراطورى هذا الذى اكتشف ؛ على أن هذا الممر الرخامى يمتد نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو عشرة أمتار ، وتظلله أعمدة ترتفع نحو خمسة أمتار ونصف متر . والمظنون أن هذا الممر إنما هو أحد أروقة « الهيبدروم » ؛ وقد كانت هذه الأورقة فى العصور القديمة داخل القصر فى الجناح المخصص لشخص الامبراطور ؛ وربما كان هذا الممر الرخامى وهذه الفسيفساء من بقايا كنيسة « ثانيا » وهى الكنيسة الامبراطورية الخاصة ، وربما كان من بقايا الجناح الصيفى الذى بناه الامبراطور تيوفيلوس . ومهما كانت الآراء الخاصة بهذه الآثار ، فان الرأى مجمع على أنها على أعظم جانب من الأهمية فى الكشف عن مواقع القصر الامبراطورى القديم

نظريات الجنس والدم فى ألمانيا

تتخذ نظريات الجنس والدم والسلالة فى ألمانيا كل يوم صوراً مدهشة من الغلو والأغراق ؛ وما زالت التفرقة بين الجنس الآرى والجنس السامى (وبخاصة اليهود) عماد الفكرة الجنسية ؛ ولكن تحدث أخيراً بعض غلاة الوطنيين الاشتراكيين (الهتلريين) فقال إن الطب الحديث هو من عوامل فساد الدم ، ويجب أن يحذر الجنس الآرى والجنس الجرمانى بنوع خاص مجارب الطب الحديث لأنه يهودى المنشأ والصبغة ؛ وقد تفنن أقطاب الأطباء والباحثين اليهود فى اختراع نظريات الميكروبات وغيرها وأفسدوا بذلك نظام الطب الطبيعى الذى يجب أن يكون شعار الجرمانية إلى غير ذلك من الأقوال المغرقة التى تدل على غلو لا فى التعصب فقط ولكن فى تشويه العلم والحقيقة أيضاً . وثمة صيحة غريبة أخرى يلقيها غلاة الهتلريين ، فهم يحذرون الألمان من أكل البقول والمنتجات الأجنبية ، لأنه لا يصح أن يتكون الدم الألمانى النقى إلا بالأغذية والبقول التى تنتجها الأرض الألمانية . وضربت جريدة « الفرانكيشه تسيتونج » مثلاً لذلك بالليمون الذى ارتفعت أسعاره أخيراً فى ألمانيا ، فقالت يجب على الألمان أن يصرفوا النظر عن الليمون الأجنبى لأنه يفسد دماءهم ، وأن يستعيضوا عنه ببقل ألمانى آخر يسمى « الرها بارب » وهو بقل حامض يزرع بكثرة فى ألمانيا ويمكن استخراج حامضه واستعماله مكان الليمون ؛ وهكذا يخلط القوم خلطاً غريباً فى نظريات الدم والسلالة والقومية وغيرها من حميات التعصب المغرق التى تجرف ألمانيا الهتلرية

الرقص العارى ليس فنا

هل يعتبر الرقص العارى منافياً للحياء ؟ لقد انتشر الرقص العارى أخيراً فى فرنسا وأصبحت عدة من ملاهيها الشهيرة تخصص للرقص العارى فى برنامجها أهم مكان . والمقصود بالرقص العارى هو العراء المطلق ، ويقوم به راقصات حسان يرقصن أمام الجمهور عاريات تماماً ، ولم يكن البوليس يتدخل فى أمر هذا الرقص لاعتباره داخلاً فى باب الفن ، ولكن القضاء تدخل أخيراً بناء على شكوى قدمت اليه من أحد النظارة ، فقد اصطحب رجل زوجه وابنته إلى أحد الملاهى الشهيرة ، وبعد حين غادرت ابنته المكان لسبب ما ، ولم يمض على خروجها برهة حتى ظهرت الراقصة الشهيرة جوان وارنر عارية تماماً وأدت رقصتها ، وهتف لها الجمهور طويلاً . ولكن السيد المشار اليه ذهب تواً إلى إدارة البوليس وقدم شكواه ضد هذا المنظر المنافى للحياء والذى ينطوى على فسق بين . ورفع الأمر إلى القضاء ، فقدمت الراقصة وصاحب الملهى متهمين بارتكاب عمل ينافى الحياء ، وأخذت المحكمة بهذا الرأى ، وقضت على الراقصة بغرامة قدرها خمسون فرنكاً ، وعلى صاحب الملهى بمائة فرنك ، وذلك برغم ما دفعت به الممثلة من أن رقصها العارى إنما هو رقص محتشم يدخل فى باب الفن ، وبرغم مادفع به صاحب الملهى من أن برنامج الليلة كان مذكوراً فيه هذا المنظر ، وقد كان على المشتكى أن يمتنع من الدخول

الكتب

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزي

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

للأستاذ محمد بك كرد علي

القريزي مؤرخ القرن التاسع غير مدافع (٨٤٥ هـ)، استفاضت شهرته بتآليفه في حياته وبعد مماته، وقد طبع له حتى الآن «كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» و«الالمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» و«البيان والاعراب عما في أرض مصر من الاعراب» و «الأوزان والمكاييل الشرعية» و «الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة». وأهم كتبه الذي حفظ به تاريخ عمران مصر كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» الذي يدعى تسهيلاً «الخطط» طبع غير مرة وعني به علماء المشرقيات عناية خاصة ومنهم من اقتطع منه فصولاً نقلها إلى إحدى اللغات الأفرنجية، ومنهم من درسه في الجامعات وعلق عليه

ومن كتب المقريزي التي بقيت محفوظة في بعض دور الكتب العامة، واكتفى علماء المشرقيات بنقل ما يتعلق بغرضهم منها «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وقد وفق الأستاذ محمد مصطفى زيادة المدرس بقسم التاريخ في كلية الآداب بالجامعة المصرية باخراج هذا السفر الجليل على طريقة علماء المشرقيات في إحياء تراثنا الأدبي، معارضاً له على عدة نسخ مخطوطة وأهمها نسخة بخط المؤلف. وتجد في كل صفحة أثر العناية البالغة في هذا الجزء الأول — القسم الأول ٢٦١ صفحة من القطع الأخير

«كتب المقريزي — كما جاء في تصدير الناشر — كتابه على نظام الحوليات الشائع في مؤلفات المؤرخين الشرقيين في القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدته، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبداً، ولم يستوقف القارىء في وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد» وقال المقريزي إنه لما أكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط» و «كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء» وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية. أحب أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية غير معتن فيه بالتراجم والوفيات لأنه أفرد لها تأليفاً آخر

وفي هذا الكتاب كما في أكثر ما خطته يد المقريزي يسقط الباحث على شذرات في التاريخ وآراء سديدة في نقد الحوادث ماعرف عنه مثله في سائر كتبه المنقحة، فقد قال في دولة بني العباس وهو ما سبق له التصريح بمثله في كتابه النزاع والتخاصم: «وفيها افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصار لهم دول عظيمة جداً، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر» وقال في المنصور إنه أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب وكان قبل ذلك أمرهم واحداً، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، وكان قد نظر في العلم فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم

ومما دونه من حوادث سنة ٥٩٤ أن معز الدين اسماعيل ابن سيف الاسلام طغتكين ملك اليمن ادعى الالوهية نصف نهار وكتب كتاباً وأرخه من مقر الالوهية ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم أنه من بني أمية ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس ولبس ثياباً خضراً وعمائم خضراً مذهبة، وأكره من كان في مملكته من أهل

الذمة على الاسلام ... وفى حوادث سنة ٦٠٧ أن الملك الأوحد ابن العادل ظفر بملك الكرج ففدى هذا نفسه منه بمائة ألف دينار وخمسة آلاف أسير من المسلمين ، وأنه يلتزم الصلح ثلاثين سنة وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها . وفى حوادث ٦٠٩ أنه كان فى جهاز ضيفة خاتون ابنة العادل مائة مغنية يلعبن بأنواع الملاهى ، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة . وفى حوادث ٦٢٦ أنه وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل ، وحملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل بمصر، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة ، وحمل من داره خشب خزائن الكتب مفصلة وحملها تسعة وأربعون جملاً ، وان عدة الكتب ١١٨٠٨ كتب ، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك والغصون لأبى العلاء المعرى فى ستين مجلداً

وقال فى الموفق العباسى إنه أول خليفة قُهر وحجر عليه ووكل به . وروى قول ابن مقلة : « اننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم لأنى كاتبت الديلم وقت انفاذى إلى أصبهان وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد فان اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى وإلا فهى تجتنى بعد موتى . » وذكر أنه قلت الجباية فى عهد العزيز من الأيوبيين بمصر فاتفقوا فى دار السلطان على ما يصرف إلى عياله وما يقتات به أولاده ، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه ، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات ، فان المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر مايؤخذ منهم للسلطان ، فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة وضمن باب المزر باثنى عشر ألف دينار ، وفسح فى اظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت ، ولم يقدر أحد على انكار ذلك ، وصار مايؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال . . . العزيز هو الذى منع من استخدام أهل الذمة فى شىء من الخدم السلطانية ، والزموا لبس الغيار فى عهده ، وأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين وزاد فى شناعتها ، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات ، وأباح أرباب الأمر والنهى الخمر والحشيش ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ، وكثر اجتماع النساء والرجال على الخليج لما فتح ، وعلى ساحل مصر ، وتلوث النيل بمعاص قبيحة « وعدمت الأرزاق من جانب الديوان ، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان ، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات ، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات » ومع هذا قال المقريزى فى هذا الملك لما مات : إنه كان ملكا كريماً عادلاً رحيما ، حسن الأخلاق ، شجاعاً ، سريع الانقياد ، مفرط السخاء ، سمع الحديث من السلفى وابن عوف وابن برى ، وحدث ، وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة ، وكان يعطى العشرة آلاف دينار ، ويعمل سماطاً عظيما يجمع الناس لأكله ، فاذا جلسوا للأكل كره منهم أكله ، ولا يطيب له ذلك ، وهذا من غرائب الأخلاق اه

ووصف فى حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة الغلاء الذى حدث فى مصر حتى أكل الناس الميتات وأكل بعضهم بعضاً وتبع ذلك فناءٌ عظيم ، وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية لايمدُّ النيل فيها إلا مداً يسيراً ، وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء فبلغ من كفنه العادل من الأموات فى مدة يسيرة نحواً من مائتى ألف إنسان وعشرين ألف إنسان ، وأكلت الكلاب بأسرها ، وأكل من الأطفال خلق كثير ، وصار الناس يحتال بعضهم على بعض ويؤخذ من قُدر عليه فيؤكل ، وإذا غلب القوى ضعيفاً ذبحه وأكله ، وفقد كثير من الأطباء لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى فاذا صار الطبيب إلى دار المريض ذُبح وأكل . وهذا الوباء والغلاء يشبهان ما وقع من مثلهما فى أواخر عهد الفاطميين فى مصر والشام

ويطول بنا المقال إذا أردنا الاستكثار من الاقتباس من كتاب الملوك ، وقد استفدنا منه أنهم كانوا يطلقون على النبيلات من ربات الحجال « الستر العالى الصاحبة فاطمة » ، « الستر العالى الصاحبة غازية خاتون » ، « الستر الرفيع فلانة » كما نقول اليوم « صاحبة العصمة » ، وكنت قرأت على حائط فناء مدرسة الفردوس بحلب : « هذا ما أمرت بانشائه ذات الستر الرفيع والجناب المنيع الملكة الرحيمة عصمة الدنيا والدين ، ضيفة خاتون ابنة السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب... »

محمد كرد على

3 me Année, No. 113.

Lundi-2-9-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع البدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مصر والأمم الشرقية

أثارت زيارة سمو الأمير سعود ولى عهد المملكة السعودية لمصر مسألة قديمة لا تزال منذ أعوام موضع الدهشة والتساؤل ، هى مسألة العلائق الرسمية بين مصر والمملكة السعودية : فمصر لم تعترف حتى اليوم بصفة رسمية بالمملكة السعودية ، أعنى بحكومة نجد والحجاز ، كما أن المملكة السعودية لا تعترف من جانبها بالدولة المصرية ؛ ولا توجد دولة أخرى من دول العالم لا تعترف بها مصر سوى روسيا السوفيتية

وقد كشفت الحفاوة الودية الرائعة التى استقبل بها الأمير سعود فى مصر ، واشتركت فيها الحكومة بصفة غير رسمية ، عن مبلغ ما يعتور العلائق بين مصر والمملكة السعودية من شذوذ ونقص ؛ وكانت حماسة الأمة المصرية فى استقبال ضيفها العظيم أكبر دليل على ما تكنه مصر للأمة العربية الشقيقة من صادق الحب والإخاء ، وعلى مبلغ ما تشعر به من بواعث الأسف لهذا الوضع الشاذ الذى ما زال يغشى صفاء العلائق الرسمية بين الدولتين لماذا لا تبادر مصر بالاعتراف بالحكومة السعودية ، وقد

اعترفت بها دول العالم جميعاً ؟ هذا ما نتساءل عنه منذ أعوام . إن مصر تستطيع أن تبرّر عدم اعترافها بروســيا السوفيتية ، وهى الدولة الوحيدة الأخرى التى لا تعترف بها ، بما شاعت من الحجج والمعاذير ؛ ولكن موقفها من المملكة السعودية مما يصعب فهمه وتعليله . وإذا لم يكن ثمة موضع للتحدث عن التبعات فى هذا المقام ، فانه مما يجدر ذكره أن جلالة ابن السعود قد أبدى فى كل فرصة استعداداً محمـداً لتنظيم العلائق بين مملكته وبين المملكة المصرية . وقد تكون ثمة مسائل وتفاصيل لابد من تسويتها لإقامة الروابط الرسمية بين الحكومتين على أسس وطيدة مرضية ؛ ولكنا لا نعتقد أن هذه المسائل من الخطورة بحيث يتعذر تذليلها وحلها

ولسنا فى حاجة لأن ننوه فى هذا المقام بما يجمع بين الأمتين من الروابط التاريخية القديمة ، ولا بما يوثق بينهما من أواصر الدم والدين واللغــة ومختلف المصالح المعنوية والمادية ؛ وإذا كان مما يدعو إلى الغبطة أن الأمتين رغم هذا الشذوذ القائم فى علائقهما الرسمية ، تقــدر كلتاهما واجبها نحو الأخرى ، وتعاملها معاملة الأخت الشقيقة ، بل وتبعث إليها بممثل غير رسمى يتمتع فعلاً بجميع المجاملات الممكنة ، فإنه لابد من تتويج هذه الحالة الفعلية القائمة بالصبغة الرسمية الصريحة حتى يزول كل ريب والتباس فى علائق الدولتين

* * *

وثمة ملاحظة أخرى فى موقف مصر من الأمم الشرقيــة الشقيقة هى تصرفها فى مسألة تبادل التمثيل السياسى مع أفغانستان : فقد أنشأت أفغانستان لهـا فى مصر منذ أعوام مفوضية خاصة وبعثت إليها بوزير مفوض ؛ ولبثت أفغانستان تنتظر مدى أعوام أن تعاملها مصر بالمثل ، وأن تقوم فى كابول مفوضية مصرية يتولى أمرها وزير مصرى مفوض ؛ ولـكن الحكومة المصرية رأت أخيراً أن تكتفى بأن تنشئ فى كابول مفوضـية اسمية يتولى أمرها « قائم بالأعمال » وأن تسند إلى وزير مصر المفوض فى طهران ، فاضطرت الحكومة الأفغانية إزاء ذلك أن تلغى مفوضيتها فى مصر ، وأن تبعث بوزيرها المفوض إلى جهة أخرى ، وأن تكتفى كالحكومة المصرية بمفوضية اسمية يتولاها « قائم بالأعمال » وتسند إلى وزير أفغانستان المفوض فى تركيا

وهذه نتيجة يؤسف لهـا ؛ خصوصاً إذا ذكرنا أن مصر فى الوقت الذى تقدم فيه على هذا التصرف إزاء أفغانستان ، وفى الوقت الذى تكتفى فيه بأن يمثلها فى العراق « قائم بالأعمال » ، تنشئ لها مفوضية جديدة فى النمسا يتولاها وزير مفوض خاص

* * *

هـذه مآخذ فى سياسة مصر الخارجية نحو الأمم الشرقية ، كنا نود أن تنزه عنها وأن ترتفع فوقها ؛ فمصر وحدة بارزة فى هذه الكتلة الشرقية التى تضطرم اليوم بروح جديدة ، وتحفزها آمال وأمانى مشتركة ، وتجمع بينها جميعاً صلات التاريخ والأجيال ، وسياسة مصر نحو هذه الأمم الشقيقة يجب أن تقوم على اعتبارات معنوية سامية ترتفع فوق كل الاعتبارات المادية

ويجب أن تذكر مصر دائماً أنها تضطلع بتبعات خاصة نحو العربيــة والاسلام ؛ فهى تحمل رسالة الثقافة العربية ، وإليهـا تتجه أنظار الأمم العربية ، تقفو أثرها وتتعاون معها فى إحياء الآداب العربية ، ثم هى تحمل زعامة الاسلام الدينية والاجتماعية ، وإليها تتجه أنظار الأمم الاسلامية لتتعاون معها فى حماية التراث الاسلامى المشترك ؛ وفى تضامن مصر مع الأمم العربية والاسلامية فى صوره الممكنة قوة لا يستهان بها ؛ وهذا المركز الخاص الذى تتبوأه مصر بين الأمم العربية والاسلامية يحتم عليها أن تكون قدوة فى حسن التفاهم مع هذه الأمم الشقيقة التى تلتف حولهـا وتحبوها بعطفها وتقديرها

فهل لنا أن نؤمل أن تتجه سياسة مصر الخارجية إلى تقدير هذه العوامل والاعتبارات الخطيرة ؟ وهل نشهد فى القريب العاجل عقد معاهدة الصـداقة المصرية الحجازية ؟ هذا ما نرجو لخير مصر ، وخير العروبة والاسلام « *** »

في الربيع الأزرق (١)

خواطر مرسلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَين البحر والسماء ؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورة إلٓهية

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَيْ طفلٍ يتخيل أن البحر قد مُلِيءَ بالأمس ، وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفأ الاناءُ فاندفق البحر ؛ وتسرَّحتُ مع هذا الخيال الطفليّ الصغير فكأنما نالني رشاشٌ من الاناء . . . .

إننا لن ندركَ روعةَ الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها ، ومرَح الطفولة ، ولعبها ، وهَذَيانها

* * *

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لا من الأرض

* * *

إذا أنا سافرتُ جئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ؛ شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد سافرت هي وجاءت إليّ

* * *

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها ، وتَعرفُ لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهرَ أقيم للحُور العِين في السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنةٌ سابحة في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة وَيْ كأن الله أمرَ العالمَ ألا يَعبسَ للقلب المبتسم

* * *

(١) هذه تسمية جديدة للمصيف على ساحل البحر

أيامُ المَصِيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الانسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الانسان ؛ فيرتدُّ إلى دهرِه الأول دهرِ الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ المصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى

* * *

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحول أياماً إلى راحة وفراغ

* * *

لا تتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد ، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ؛ فاذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ

* * *

الحياةُ في المصيف تثبت للانسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحْتفَل بها كثيراً

* * *

يشعر المرءُ في المُدُن أنه بين آثار الانسانِ وأعماله ، فهو هناك في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما في الطبيعة فيحُسُّ أنه بين الجمال والعجائب الالٓهية ، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال

* * *

إذا كنت في أيام الطبيعة فاجمل فكرك خالياً وفرِّغه للنَّبت والشجر ، والحجَر والمَدَر ، والطير والحيوان ، والزهر والعُشْب ، والماءِ والسماء ، ونورِ النهار وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالَم بابَه ويقول : ادخل

* * *

الطُف الجمال صورةٌ أخرى من عظَمَة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصن ، تخيِّل إليّ أن لها عظمة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

* * *

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية ، حين يفورُ شِعرُ الجمال في الدم — أطلتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهيةٍ ، عطرة ، متأنقة ، متأنثة ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنت يا فلانة . . .

* * *

أليس عجيباً أن كل انسان يرى في الأرض بعض الأمكنة

كأنها أمكنةٌ للروح خاصة ؛ فهل يدلّ هـذا على شىء إلا أن خيالَ الجنة منذ آدمَ وحوّاء ، لا يزال يعمل فى النفس الانسانية ؟

* * *

الحياةُ فى المدينـة كشرب الماء فى كوب من الخزف ؛ والحياة فى الطبيعة كشرب الماء فى كوب من البلُّور الساطع ؛ ذاك يحتوى الماءَ وهذا يحتويه ، ويُبدى جمالَه للعين

* * *

واأسفاه ، هذه هى الحقيقة : إن دقّةَ الفهم للحياة تُفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحب ؛ وإن العقل الصـغير فى فهمه للحب والحياة ، هو العقلُ الـكاملُ فى التذاذه بهما . واأسفاه ، هذه هى الحقيقة

* * *

فى هذه الأيام الطبيعية التى يجعلها المصيفُ أيامَ سرورٍ ونسيان يشعرُ كلُّ إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمةَ هزلٍ ودُعابة . . .

* * *

من لم يرزق الفكرَ العاشقَ لم يرَ أشياءَ الطبيعة إلا فى أسمائها وشِياتِها ، دون حقائقها ومعانيها ؛ كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلَّهن سواءً ؛ فاذا عشق رأى فيهن نساءً غير من عرَف ، وأصبحن عنده أدلةً على صفات الجمال الذى فى قلبه

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجُه الحياة ؛ أما دنيا المصيف فقائمةٌ بما تلذُّه الحياة ؛ وهذا هو الذى يغير الطبيعة ويجعلُ الجوَّ نفسه جوَّ مائدة ظُرفاء وظريفات . . .

* * *

تعمل أيامُ المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخالُ بعض الشعر فى حقائق الحياة

* * *

هذه السماء فوقنا فى كل مكان ، غير أن العجيبَ أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياءَ منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلتَ العالم بالنفس الواسعة رأيتَ حقائقَ السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغُرُ وتضيق ، وأدركتَ أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيِّقُ لاهى

* * *

فى الساعة التاسعة أذهبُ إلى عملى ، وفى العاشرة أعملُ كيت ، وفى الحادية عشرةَ أعملُ كيتَ وكيت ؛ وهنا فى المصيف تفقد التاسعةُ وأخواتُها معانيَها الزمنيةَ التى كانت تضعها الأيامُ فيها ، وتستبدلُ منها المعانىَ التى تضعها فيها النفسُ الحرة

هـذه هى الطريقة التى تُصنع بها السعادةُ أحياناً ؛ وهى طريقة لا يقدر عليها أحدٌ فى الدنيا كصغار الأطفال

* * *

إذا تلاقى الناسُ فى مكان على حالة متشابهـة من السرور وتوهمه والفكرة فيه ؛ وكان هذا المكانُ مُعَدّاً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها ـ فتلك هى الرواية وممثلوها ومسرحها (١) أما الموضوعُ فالسخريةُ من إنسان المدنية ومدنية الانسان

* * *

ما أصدقَ ما قالوه : إن المرئىَّ فى الرائى . مرضتُ مدةً فى المصيف ، فانقلبت الطبيعةُ العروسُ التى كانت تتزينُ كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب . . .

شاطىء سيدى بشر (اسكندرية) [illegible]

---

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح . وأن صوابها المزرح ولكن الصاحب بن عباد استعملها فى قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندى القوم ومجتمعهم

الى الآنسة ف . ط . بدمشق

لا أستطيع أن أشكرك بما أنت أهله وأرجو بعون الله وتيسيره أن أكون عند ظنك ، ولكن احذرى هذا الوهم الكبير ، وهم المثل الأعلى ، فكل الرجال مثل أعلى فى أول الرواية . . . الرافعى

حول النزاع الايطالى الحبشى

عصـــبة الأمم

وما نستطيع أن تفرضه من العقوبات

بقلم باحث دبلوماسى كبير

تعانى عصبة الأمم أزمة دقيقة من جراء تعرضها للنزاع بين ايطاليا والحبشة ؛ ولم يكن فى وسع العصبة أن تقف جامدة أو أن تتنحى عن بحث مشكل يقع فى صميم اختصاصها بمقتضى « الميثاق » وتثيره دولتان كلتاهما عضو فى العصبة ، وعصبة الأمم تعرف منذ البداية أنها تواجه فى المشكلة الايطالية الحبشية أزمة خطيرة ، بل تواجه محنة قد يقوض الفشل فى درئها صرح العصبة ، وكل المبادئ الدولية التى يقوم عليها ، وتعرف منذ البداية أيضاً أنها لن تستطيع أن تقوم فى معالجة هذه الأزمة بدور فعال ، أو باجراء حاسم ، ولـكنها أيقنت فى نفس الوقت أن قليلاً من الشجاعة فى مواجهة الموقف ، وأن تطبيق بعض الاجراءات النظرية التى ينص عليها ميثاق العصبة فى مثل هذه الأحوال ، وأخيرا أن محاولة اكتساب الوقت فى بعض المجادلات الفقهية قد تنتهى بانقاذها من مأزق الحياة والموت

وقد أبدت العصبة هذا القليل من الشجاعة فاستمعت إلى نداء الحبشة فى بحث النزاع ، وإن لم تبحثه إلا فى الحدود الضيقة التى ارتضتها ايطاليا ، وسعت إلى تطبيق المادة الثالثة عشرة من الميثاق ، واتفق الطرفان على محاولة اجراء نوع من التحكيم ، وألفت بالفعل لجنة تحكيم مشتركة تمثل الفريقين المتنازعين ؛ ولـكن الحوادث تطورت بسرعة ، وأكدت ايطاليا وما تزال تؤكد بمنتهى الصراحة أنها لا تبغى بديلا بافتتاح الحبشة والاستيلاء عليها ، وأنها سوف تلجأ لتحقيق غايتها بالقوة القاهرة ، وأنها لن تنى عن مشروعها أمام أى تدخل أو أية قوة فى العالم ؛ وهكذا تحطمت جميع الآمال التى علقت على تدخل العصبة ، وعلى لجنة التحكيم ، ولن يحول دون اضطرام الحرب فى شرق أفريقية سوى معجزة ، أو تطور فى الحوادث لا يخطر ببال انسان ، ولن تحدث هذه المعجزة أو هذا التطور الخارق

ونحن نعرف كيف حاولت السياسة البريطانية جهد استطاعتها أن تحول دون اضطرام الحرب فى هذه المنطقة التى تجاور عدة من الأملاك البريطانية ، ويهدد حلول ايطاليا فيها وادى النيل من منبعه إلى مصبه ، ويضع السودان ومصر فى مأزق خطر ، ويجعلهما عرضة لأخطار النزعة الاستعمارية التى تضطرم بها ايطاليا ، ويهدد من جهـــة أخرى مواصلات الامبراطورية البريطانية فى البحر الأحمر ، وفى عدن وباب المندب بصفة خاصة ؛ ولـكن السياسة البريطانية لم توفق رغم ما بذلته من الجهود وما عرضته من الحلول إلى اقناع السياسة الايطالية الجامحة المتوثبة بالعدول عن مطامعها وأحلامها العريضة فى اقامة امبراطورية استعمارية ضخمة فى شرق أفريقية

والآن ، وقد فشلت كل محاولة للتسوية السلمية ، ولم يبق سوى اضطرام هذه الحرب الهمجية التى تصر الفاشستية على اضرامها تحقيقاً لمطامعها ومشاريعها المثيرة فى افتراس الشعوب الآمنة ، تحاول السياسة البريطانية أن تجد سبيلاً لمقاومتها وتحطيم مشاريعها ، لا حباً بالحبشة ، أو نصرة لقضية السلام فى ذاتها ، ولـكن توسلا إلى درء الأخطار التى تهدد سيادتها ومصالحها الامبراطورية فى البحر الأبيض المتوسط وفى شرق أفريقية إذا استطاعت الفاشستية أن تفوز ببغيتها فى افتتاح الحبشة . وقد تستطيع السياسة البريطانية أن تشل حركة الفاشستية ببعض الاجراءات والمساعى التمهيدية ، وقد لا تحجم عن أن تخوض معها غمار الحرب إذا لم تجد مناصاً من خوضها

ومن هـذه الاجراءات والمساعى التمهيدية التى تفـكر انـكلترا فى التذرع بهـا لرد الفاشستية عن عدوانها ، محاولة توقيع العقوبات الدولية التى ينص عليها ميثاق عصبة الأمم . وقد كثرت الاشارة أخيراً إلى هذه العقوبات ومداها ومبلغ ما ينتظر من تأثيرها إذا طبقت . ولهذا نرى مناسبة لأن نتناولها بشىء من الشرح والتفصيل ، فنقول إن المادة (١٥) من ميثاق العصبة تنص على الاجراءات والقرارات التى يمكن اتخاذها لتسـوية المنازعات الدولية التى قد تقع بين أعضاء العصبة عن يد العصبة

ذاتها وما يمكن أن يقوم به مجلس العصبة فى هذا السبيل . وتنص المادة التالية أى المادة (١٦) على العقوبات الدوليـة التى يمكن توقيعها على الدولة التى تخالف تعهداتها وتلتجئ إلى الحرب ، وإلى القارئ نص هذه المادة الشهيرة كاملاً :

« إذا التجأ عضو من أعضاء العصـــبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها فى المادتين ١٢ و ١٣ أو المادة ١٥ ، فانه يعتبر فعلاً قد ارتكب عملا حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين . ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا فى الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية ، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التى خرقت الميثاق ، وأن يقطعوا كل المواصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هـذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى سواء أكانت عضواً فى العصبة أم لا

« وفى هـذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوصى إلى الحكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التى يساهم أعضاء العصبة فى تقديمها للقوى المسلحة التى تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة

« ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاونوا بعضهم بعضاً فى تطبيق الاجراءات الاقتصادية والمالية التى تتخذ طبقاً لهذه المادة والتى يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار . ويتعهدون بالتعاون أيضاً فى مقاومة كل إجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التى خالفت الميثاق ؛ ويتخذون الاجراءات اللازمة لكى يسهل المرور فى أراضيهم لقوات أى عضو من أعضـاء العصبة يساهم فى العمل المشترك الذى يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

« ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق . ويصدر قرار الفصل بموافقة جميع أعضاء العصبة الآخرين الممثلين فى المجلس »

هذا هو مجمل الاجراءات التى سجلها ميثاق العصبة لتوقيع العقوبات الدولية على العضو المعتدى أو المنتهك لميثاق العصبة . وظاهر أن هـذه العقوبات ذات صبغة اقتصادية محضة ؛ ويمكن وصفها بأنها نوع من الحصار الاقتصادى . ولهذا الحصـار الاقتصادى إذا طبق على دولة من الدول أكبر الأثر فى الضغط عليها وشل مشاريعها العسكرية ، خصوصاً إذا كانت مثل إيطاليا تعتمد على الخارج فى كثير من المواد الأولية الأساسية . بيد أن هذه النصوص التى سجلتها عصبة الأمم فى ميثاقها لا تزال نظرية محضة ، ولم يجر تطبيقها حتى اليوم بصورة فعلية ، وإن كان ذكرها قد جرى فى بعض الأزمات الدولية ، ولا تزال أكبر نقطة ضعف فيها خلوها من أى ضمان فعلى للتنفيذ ؛ فليست لعصبة الأمم أية قوة أو أية سلطة فعلية تمكنها من تطبيق مثل هذه العقوبات ، وليس فى وسع مجلس العصبة إلا أن « يوصى » إلى الحكومات ذات الشأن بتقديم القوى اللازمة ، فاذا رفضت هذه الحكومات أن تقدم هـذه القوى ، فماذا عسى أن يستطيع مجلس العصبة إزاء الدولة « المعتدية » ؟ هذا ومن جهة أخرى فان صفة « الاعتداء » لم تعرف حتى اليوم تعريفاً كافياً ؛ وربما كان من الميسور أن يعرف « المعتدى » حالاً فى مسألة النزاع الايطالى الحبشى ، إذ لا ريب فى أن « المعتدى » هو إيطاليا ؛ ولكن ليس من السهل فى كثير من المنازعات الدولية أن يقطع فى أمر « المعتدى » قطعاً لا مرية فيه

وقد كان هـذا النقص فى ضمان التنفيذ وما زال أعظم نقط الضعف فى مواثيق السلام والتحكيم الدولية ، وهو أعظم نقط الضعف فى ميثاق تحريم الحرب (ميثاق كلوج) الذى اغتبط لعقده أنصار السلام أيما اغتباط ، ثم لم يلبث أن ظهر عقمه حين الحاجة الى تطبيقه . وقد كان اعتداء اليابان على منشوريا أعظم صخرة ارتطم بها ميثاق عصبة الأمم وميثاق تحريم الحرب . والآن يبدو عقم هذه المواثيق الدولية مرة أخرى إزاء النزاع الايطالى الحبشى ؛ وحينما كان الفريق الأقوى يعتبر المواثيق الدوليـة قصاصات لا قيمة لها ، كما هو الشأن فى حالة إيطاليا التى ترتبط مع الحبشة ومع فرنسا وانكلترا بأكثر من معاهدة لاحترام استقلال الحبشة وسلامة أراضيها ، فان المناقشات الفقهية فى احترام مواثيق السلام لا تجدى مالم تكن مؤيدة بالقوى الفعلية لتنفيذها

ولكن السياسة الانكليزية ما زالت تعول على دستور عصبة

الأمم فى سعيها لرد عدوان السياسة الفاشستية . وهى تشير إلى مسألة العقوبات الاقتصادية التى نصت عليها المادة السادسة عشرة كوسيلة من وسائلها . والواقع أنه ربما كان لهذا السعى أثره المادى إذا أيدته الدول . فقد حدث فى سنة ١٩٢١ ، حين غزت يوجوسلافيا الأراضى الألبانية ، أن هددت عصبة الأمم بتطبيق العقوبات الاقتصادية ، فكان ذلك كافياً لوقف الاعتداء . وقد عجزت العصبة فى سنة ١٩٢٣ أن ترد السنيور موسوليني عن احتلال جزيرة كورفو اليونانية تنفيذاً للبلاغ النهائى الذى وجهه إلى اليونان ، ولكنها استطاعت بعد ذلك بعامين أن تحول دون اضطرام الحرب بين اليونان وبلغاريا من جراء النزاع بينهما على الحدود . وقد فطنت عصبة الأمم نفسها إلى هذا النقص الذى يعتور نص المادة (١٦) ، وبحثت فى أمره ، وقررت فى شأنه بعض التعديلات التى من شأنها أن تسهل الاجراءات فى حالة الأزمات الخطيرة ؛ ويقضى هذا التعديل « بأنه يجب على مجلس العصبة أن يقرر ما إذا كانت قد ارتكبت مخالفة للميثاق » ولكن العصبة صرحت أيضاً أن المجلس لا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يدعو الأعضاء إلى تطبيق العقوبات الاقتصادية ، وقد يستطيع بعد ذلك أن يطالب الدول بتقديم المعاونة العسكرية التى يمكن استخدامها ضد الدولة المعتدية . بيد أن هذا التعديل لم تصادق عليه الأغلبية المطلوبة من الأعضاء حتى اليوم

وقد تستطيع السياسة الانكليزية أن تقنع عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية على ايطاليا ، وهذا الاقناع ميسور إذا استطاعت أن تجذب السياسة الفرنسية إلى جانبها وأن تقنعها بضرورة العمل معها لدرء الأخطار التى تهددها وتهدد أوربا من جراء الحرب التى تعمل الفاشستية لاضرامها . وعندئذ يمكن أن تؤدى انكلترا فى هذا الحصار الاقتصادى الذى ينص عليه ميثاق العصبة أكبر دور ، هذا فضلاً عن الدور الذى تؤديه باقى الدول المؤيدة لانكلترا ضد ايطاليا ، وذلك بقطع المواد الأولية عن ايطاليا ورفض التعامل معها فى كل ما يمكن أن يسهل استعداداتها الحربية ؛ أما انكلترا ففى وسعها أولاً أن تلجأ إلى اغلاق قناة السويس بالاستناد إلى نص المادة (٢٠) من ميثاق العصبة ، وهى التى تنص على الغاء جميع المعاهدات السابقة التى لا تتفق مع نصوص الميثاق وغاياته ، باعتبار أن معاهدة سنة ١٨٨٨ التى تضمن حيدة القناة وفتحها فى كل وقت من أوقات السلم أو الحرب ولسفن جميع الدول أضحت مناقضة لميثاق العصبة ، وهذا ما تنكره ايطاليا على انكلترا كل الانكار ، لأن معاهدة سنة ١٨٨٨ ما تزال قائمة فى نظرها ويجب احترامها طبقاً لنص المادة ٢٨٢ من معاهدة فرساى (بند ١١) ، حيث ينص على تعداد المعاهدات التى تبق نافذة المفعول مع ألمانيا ، وميثاق عصبة الأمم ليس إلا فصلا من فصول معاهدة فرساى . وفى وسع انكلترا أن تلجأ أيضاً إلى إغلاق جبل طارق فى وجه السفن الايطالية ، كما أنها تستطيع أن تغلق فى وجهها بوغاز باب المندب فتقطع بذلك على إيطاليا كل سبيل للاتصال بالأرترية أو السومال . على أن إيطاليا ترى فى هذه التصرفات كلها أعمالاً عدائية وإعلان حرب تقابله بالمثل ، ومن المحقق أن انكلترا ستفكر طويلا قبل أن تقدم على شىء منها

وهناك مسألة تصدير السلاح إلى الحبشة ، وهذه أيضاً وسيلة ناجعة فى يد انكلترا ؛ وقد ألغى تصدير السلاح إلى الحبشة مؤقتاً فى انتظار نتيجة المساعى السلمية ، فاذا أصرت إيطاليا على موقفها ، وهو الأرجح ، فان انكلترا ستعود إلى تصدير السلاح إلى الحبشة ؛ وتزويد الحبشة بالسلاح يطيل أمد الحرب ، ويزيد فى متاعب إيطاليا إلى حدود قد لا تقوى على مغالبتها

وسنرى على أى حال ما إذا كانت عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الدول التى تسيطر على مجلس العصبة ، تستطيع فى هذه الدورة القريبة التى ستعقد بعد يوم أو اثنين ، أن تذهب فى الشجاعة والحزم إلى حد المطالبة بتوقيع العقوبات على إيطاليا

(***)

بين ثقافتـــين

يتّجه الناقد الأدبى بنظره الى مختلف النوازع الفكرية والتّجهات الأدبية فى هذا البلد ، فلا يلبث أن يرتدّ اليه الطرف حيران ؛ فما نستطيع أن ندّعى عن يقين أن لهذا العصر اتجاهاً أدبياً يُنسب اليـه ويعرف به ويتسم بطابعه . ولـكنها تيارات مختلفة يتنازعها الضعف والوهن ، وتتوزّعها الأهواء والشّـيع ؛ وبين دُعاة الجديد وأنصار القديم حرب مشبوبة ومعركة هدّامة ، لا نراها سيُؤْذَن لهـا أن تهدأ فتستقرّ إلا أن نعرف مدى هذا الجديد ، وماهيّة ذلك القديم

ولن يتأتى لنا أن نعرف ذلك أيضاً ، ما دامت مناهج الدراسة الأدبيّة فى مصر لا تعرف لها مُتّجهاً ومذهباً ، وعندنا عددٌ من معاهد الأدب ، يذهب كل منهـا مذهباً فى تخريج طلّابه ، وتُمثّل فى مناهجه الدراسىّ صورة مصغرة للصراع الأدبى المختلف النزعة والاتجاه بين أدبائنا الـكبار !

فعندنا الأزهر ، قديمٌ موغلٌ فى القـدم ، لا يرى العلم والأدب والثقافة إلا كما كان يراها القُدامى الأوّلون من علمائه ؛ وهو مذهبٌ فى الاعداد الأدبىّ له قيمته وأثره ، ولـكن له إلى جانب ذلك عيوبه وخطره - وما نعنى الأزهرَ الجديد الذى يخطو اليوم الى التجديد خُطاه الأولى ، بحنكة شيوخه وهمة شبابه ، فانه ما يزال على الطريق ، ولا نعرف أين تستقر به الغاية من الهدف الذى يرمى اليه

ولو أنا تركنا الأزهر وولّينا النظرَ شطر الجهة الأخرى ، لرأينا منهجاً جديداً فى كلية الآداب ، بينه وبين منهج الأزهر ما بين طرفىْ خيطٍ طويل يصل أول التاريخ بما بعـد التاريخ ؛ فهناك القديم الغارق فى القدم ، كأنما يحاول أن يقف خطْوَ الزمان ، وهنا الجديد الغالى فى الجـدّة ، كأنما يحاول أن ينسلخ من ماضى التاريخ . وهناكَ فى الأزهر يُدْرس القـديم ويُعنى بالقديم ، بعيداً من روح العصر وسنّة التطور ؛ وهنا فى كلية الآداب يُحاوَل الجديد من غير أن يستند إلى أساس من العلم القـديم ، وهو بذلك كذلك ، بعيدٌ من روح العصر وسـنة التطور ؛ ومن ثمّ نرى فى أكثر ما ينتج أدباؤنا لهذا العهد نوعين من الأدب ، لو وضعت أولهما فى الذروة من بلاغة الوضع وحسن الأداء ، لوضعت ثانيهما فى المنحدَر ؛ على أنك لو نظرت إليهما من ناحية الموضوع والفكرة لجعلت أعلاهما أسفل وصمدت بالثانى ... ولـكنك لن تجد فى واحد منهما - على الأكثر - ما يبعثك على الاعجاب بالفكرة والأسلوب معاً ، ومن هذا لا ترضى عن أحدهما فى ناحية إلاّ أغضبك فى الأخرى ، ومنـه جاءت الدّعـوَيان اللتان تسمعهما دائماً عند ما يستحرُ الجدل بين دعاة الجديد وأنصار القديم : « هذا أدب فارغ أكثر عنايته بأسلوب الأداء دون المعنى » أو « هـذا أدبٌ ساقط يَتَحَيَّـفُ اللغـة ويُهمل الجمال الفـنّى فى اللفظ »

وكلتا هاتين الدعوَيين صادقة من وجه ؛ لأن الأدب فكرةٌ وبيان ، لا يتم تمامه إلا بهما معاً ؛ وأنت قلما تجد بين الـكاتبين والشعراء من أدبائنا من يجمع إلى جمالِ الفكرة جمالَ الأسلوب

***

ولو قد تركنا الأدب فى ناحية وأردنا أن نعرف اتجاه الثقافة فى مصر بوجهٍ عامّ ، وأثر ذلك فى أخلاق أبنائها وفى المُثـل العليا التى ينشدونها - لوجدنا مثل هذا الاضطراب وتلك الفوضى ، ففى الأزهر ثقافة دينية ، ولـكنها جامدة لا تتطور ، واقفة لا تتحرك ، مغلّقة من دونها الأبواب فلا تؤثر تأثيرها إلا فى أبناء الأزهر وحدهم ، أو فى المحيط الضيّق الذى يضطربون فيه من قُرائهم

على أن فى جمود الأزهر مدى طويلاً ، قطعاً بين الازهر وبين عصرهم ، ومن ثَمَّ أخذت الثقافة الدينية تتقلّص رويداً رويداً ، حتى غدت مقصورة على طائفة قليلة من أبناء الريف ، وبدأ تأثير الأخلاق ينحسر تبعاً لذلك حتى نوشك بعد قليل ألا نرى أثراً له فى نفوس الـكهولة والشباب منا

إلى جانب ذلك أخذت الثقافة المدنيـة فى مدارس التعليم العام تفتن أبناءنا بالمناصب والوظائف والسلطان المرموق ، فاتجهوا إليها بعقولهم وأفرغوا لهـا أنفسهم ، حتى ما يكاد أبٌ يفكر فى تعليم بنيه وبناته إلا ذهب إلى هذه المدارس المدنية

ومنهاج التعليم فى هذه المدارس هو ما نعرف ، وهو ما يشكو منه واضعوه والقائمون عليه ، ولعل شر عيوبه أنه لا يرمى إلى غرض عام من أغراض التربية الصالحة ، وأنه يُعـنَى أكثرَ ما يُعـنَى بتلقين المعلومات وتحفيظ النظريات ، فلا الدين ، ولا القومية ، ولا الأخلاق ، ولا المُثـلَ العُليا ؛ ومن ثمّ كانت القومية المريضة ، والدين الزائغ ، والأخلاق المنحـلّة ، والأمثلة الدُّنيا

هذان نوعان من التربيـة وأساليب التعليم فى مصر ، يكاد

الشعب بهما أن يكون طائفتين مختلفتى الخلق والثقافة والتفكير كأنما تعيشان فى عصرين مختلفين ، وهاتان الطائفتان من متعلمينا وهذان المذهبان فى التربية المصرية ، هما اللذان يكشفان عن سر الاضطراب فى الثقافة المصرية ، كما يكشفان عن مقدار الفوضى فى اتجاهنا الأدبى

وإننا بسبيل هذا البحث لَنُحاول أن نتعرفَ أى هذين المذهبين ستكون له الغلبة ، وأىّ هاتين الثقافتين أجدر بالبقاء ؟

* * *

إن تيار العصر يجرفنا فى مَسراه فما يدع لنا الفرصة أن نتلبَّث قليلاً لنعرف موقفنا ، على أن كلتا التربيتين لا تجديان علينا الجدوى التى تقرّبنا إلى المثل الأعلى الذى ننشده ؛ ولسنا بمستطيعين أن نظل أبداً نحلم بالماضى والحياةُ تتقدم ، ولسنا بقادرين على أن ننسلخ من هذا الماضى ونخلع قوميتنا لنعدوَ فى غبار الأوربيين ، فلا غنى لنا عن المزاوجة بين هاتين الثقافتين والمزج بينهما ، لنخرج من ذلك بمنهج تعليمىّ صالح ، يحفظ علينا قوميتنا ، ويصل بين ماضينا والعصر الذى نعيش فيه

على أن فوضى الأدب ودعوى الجديد والقديم ، يجب أن ينتهيا إلى غاية ؛ فما فى اللغة والأدب جديد ولا قديم ، وما حسنٌ أن ننتكر لتراث أدباء العربية الماضين بدعوى التجديد ، ولا أن ننكر حكمَ العصر وسنّة التطوّر بالدعوة إلى القديم ؛ فما ينهض هذا إلا بذاك ، وما يستطيع بانٍ أن يبنى على غير أساس ، ولا بدّ لمن يتهيأ لحمل رسالة الأدب لينشئ فيه الجديد الذى تُنصت له الدنيا ويفاخرُ به العصر ، أن يأخذ له عدّته ويتزود بزاده : فيتوفّر على دراسة الأدب القديم ، ويستمع إلى أئمته ، ويروى عيونه ، ويستظهر من روائعه ، ثم يأخذ بسببٍ من كل علمٍ وفن مما يعرفه عصرُه ، فاذا اجتمعت له الأسبابُ واستكمل الأهْبة ، عاد إلى دنياه التى يعيش فيها ، وإلى العصر الذى يتصل به ، وإلى الأحداث التى تنفعل بها نفسُه ، وإلى عواطفه التى انطبعت فيها صورة دنياه ؛ ثم ليُنشئ ما ينشئ ، فسيأتى بالجديد فى الديباجة الصافية ، وبالمعنى البكر فى العبارة المستقيمة ، وبالشعر الرائق فى اللفظ الجزْل ، وبالفكر العميق فى البيان الساحر

ولكن أين نجد هذا مما ندرس هنا وهناك ، وما نجد هنا وهناك إلا فكراً بلا بيان ، أو بياناً بلا فكر ؟ وما نرى هناك وهنا إلا رطانة مستعربة ، أو عربية فارغة ، نسميها الجديد والقديم !

* * *

على أن فى مصر مدرسة نحمد أثرها ، ونذكر يَدَها على الأدب والثقافة العربية ، هى مدرسة دار العلوم ، فهى الصلة بين الثقافتين ، والملتقى بين الغريبين ؛ جمع منهجها بين الثقافة العربية والاسلامية التى تدرس فى الأزهر ، والثقافة المدنية التى تدرس فى المدارس العامة ؛ فالى جانب دراسة الدين ، ونصوص اللغة ، وتراث السلف من أدباء هذه الأمة وعلمائها — يدرس التاريخ ، والفلسفة ، وأشتات من الرياضة والعلوم والفنون والآداب ؛ فمن أجل ذلك كان لدار العلوم هذا الأثر القوى فى النهضة الأدبية الحاضرة ، وكان لأبنائها السبق فى كثير من ميادين الانتاج ؛ وأنت ترى فيما يبدعه الكتاب والشعراء من أبناء دار العلوم ، طابعا خاصا قلّما تراه فيما ينتجه غيرهم من الكتاب والشعراء ؛ ذلك لأنهم درسوا القديم دراسة روية وفهم ، وعاشوا فى عصرهم كما يعيش أهله ؛ فلم ينسلخوا عن ماضى أمتهم ، ولم يتخلفوا عن عصرهم ، فكانوا بذلك صلة التاريخ بين ماضيه وحاضره

تلك شهادة الحق لهذه الدار التى أنشأها اسماعيل منذ ستين عاماً ونيف ، فنهضت بتبعاتها على أكمل وجه ، وأدت أمانة العلم أحسن أداء ، نذكرها لها منصفين فى الوقت الذى تحاول فيه أحداث الزمان أن تنال منها وتنكر جدواها

على أن فضل هذه المدرسة ليس مقصوراً على أثرها فى اللغة والدين ؛ فلعلها المدرسة الوَحِدة التى تخرّج المدرسَ القومىّ ، والمدرسُ فى بلدنا — كمناهج التعليم فى مدارسنا — لا يراد منه أن يمثل الروحَ القومىّ أكثرَ مما يراد منه أن يكون مدرسَ مادة بعينها ، ولكن خريج دار العلوم بحكم ثقافته وتربيته ، هو وحده يمثل الروحَ القومىّ أصدق تمثيل ، بعروبيته ، ودينه ، وخلقه ، ومكانه من زمانه ؛ فليت وزارة المعارف عرفت له ذلك فلا تدعه فى هذه الدائرة الضيقة من برنامج عمله المحدود ، فن مصر فى حاجة إلى هذا الروح القوىّ ليبعث فى التلاميذ من أبنائها معنى القومية وينشئهم التنشئة القومية التى تؤهلهم لحمل تبعات الجهاد فى المستقبل القريب

ونحن مستيقنون أن دار العلوم يوم ينفسح لها الميدان لتؤدى رسالتها ويمكن لها لتنهض بما استمدت له ، ويزاد فى مناهجها ما يؤهلها لأن تنظر فى كل جديد فتتبع أحسنه — نكون قد عرفنا الاتجاه الأدبىّ الذى نسير اليه ، ورسمنا لنا فى الثقافة منهاجاً صالحا ، لا يمكن للأجانب أن يغزونا فى آدابنا وعقولنا ، بعد أن نالوا منالهم من أرضنا وأموالنا !

من تراثنا العلمي

كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

البَـيْزَرَة (أو البَزْدَرَة) : علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها ، وإزالة مرضها ، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد ، وضعفها فيه — قاله في كشف الظنون

والكلمة معربة ، وهي من قولهم « بَيْزار » معرب « بازْدار » و « بازْيار » ، أي حافظ البازي وصاحبه ، والجمع «بيازرة » كما في التاج واللسان ، قال الكُميت :

كأن سوابقها في الغبار صقور تعارض بيزارها

وجاءت بالدال في قول أبي فراس :

ثم تقدمت إلى الفهاد والبازداريين باستعداد

قال الشيخ داود الأنطاكي : وغايته اقتناص ما يشق اصطياده واللهو والرياضة ، وشرح الصدور ، وتسكين نحو الجذام والنقرس والمفاصل لتوالي الفرح ، وسكون الغضب الخ

وقد سموه علم البزدرة (أو البيزرة) ، إضافة له إلى أشرف أنواعه وأخفها ، وهي البزاة

ولخصه في « التذكرة » في مقدمة وثلاثة مباحث :

فالمقدمة في كيفية اهتداء الناس إلى اتخاذ الطيور ، وأول متخذ لها ، وما هو المعتبر منها

والمبحث الأول في كيفية الاستدلال على الجيد منها باللون والصفة ، وفي ذكر طرق التعليم

والمبحث الثاني في أوقات الارسال وكيفية الصيد ، واختلاف حال الطيور

والمبحث الثالث في علامات الصحة والمرض وطب الجوارح

* * *

وقد كان هذا العلم مزدهراً معروفاً أيام عز العرب وازدهار مدنيتهم ، ثم ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد ، وفقدت كتبه كلها ، ونسيه الناس ، فلم يكد يذكره أحد ممن ألف في تاريخ الثقافة الاسلامية ، ولم يبق بين أيدينا من المراجع في هذا العلم إلا هذا الفصل الذي كتبه الشيخ داود الانطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب (١) وكلمة في كشف الظنون للحاج خليفة (٢) لاتعدو الأسطر الثلاثة ، نقلا عن جامع السعادة لكاشكري زاده ، وكلمة في مُعْلَم (دائرة معارف) البستاني تحت عنوان : بزدرة

على أن للمتقدمين كتباً كثيرة في هذ العلم عدّ منها ابن النديم (٣) في الفهرست : كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار ، وكتاب البزاة للفرس ، وكتاب البزاة للروم ، وكتاب البزاة للترك ، وكتاب البزاة للعرب ، وكتاب البزاة واللعب بها لأبي دلف العجلي (٤) وسماه ابن خلكان (٥) كتاب البزاة والصيد

ومن الكتب المؤلفة في هذا العلم كتاب « القانون الواضح » ذكره في كشف الظنون نقلا عن جامع السعادة لكاشكري

---

(١) المعروف بتذكرة داود ، وهو داود بن عمر الأنطاكي ، طبيب ماهر ضرير ، لم يكن في زمانه أعلم منه بالطب ، ولد في أنطاكية وحفظ القرآن ، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات ، وأحكم اليونانية ، وهاجر إلى القاهرة ونال بها شهرة ، ورحل إلى مكة فمات فيها سنة ١٠٠٨ هـ. تصانيفه كثيرة ، أهمها التذكرة ، وتزيين الأسواق في الأدب ، وكفاية المحتاج في علم العلاج ، وشرح عينية ابن سينا ، وله شعر ، وكان يملي ذلك كله املاء

(٢) الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله ، كاتب شلبي المؤرخ التركي المستعرب ، ولد في القسطنطينية وتقلب في كثير من المناصب ، وحج وساح في الأرض ، وتوفي في الآستانة سنة ١٠٦٦ هـ وله مصنفات أهمها الكتاب الجليل كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، وتحفة الكبار في أسفار البحار ، وتقويم التواريخ وغيرها

(٣) محمد بن اسحاق بن يعقوب النديم البغدادي الوراق المعتزلي وكنيته أبو الفرج مؤرخ ثقة بحاثة ، توفي سنة ٣٨٥ هـ وكتابه الفهرست من أقدم وأفضل كتب التراجم

(٤) القاسم بن عيسى أمير الكرخ وسيد قومه وقائد للمأمون ، أديب شاعر كريم ممدوح ، وله تصانيف منها سياسة الملوك والبزاة والصيد ، وهو الذي قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٥

(٥) أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي ، المؤرخ الحجة الأديب البارع ، وكتابه الوفيات أحسن كتب التراجم وأجمعها وأضبطها ، ولد في اربل سنة ٦٠٨ وأقام بمصر مدة تولى فيها نيابة القضاء ، ثم تولى قضاء الشام للملك الظاهر ، ثم تردد بينها وبين مصر ، ودرس في العادلية والأمينية وغيرهما من مدارس دمشق ، وتوفي فيها سنة ٦٨١ ودفن في سفح قاسيون

زاده [1] ووصفه بأنه كاف فى هذا العلم ولم يسم مؤلفه

وذكر الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ رضا الشبيبى (وزير المعارف العراقية اليوم) فى مجلة المقتبس [2] أن فى الخزانة التيمورية كتاباً اسمه « القانون فى البيزرة » ولعله هو

وذكر أن من كتب هذا العلم كتاب « أنس الملا بوحش الفلا » تأليف محمد بزمنكلى نقيب الجيش المصرى فى أواخر القرن الثامن ، وهو فى خزانة باريز تحت رقم ٢٨٣٤ ، والقواعد المحبرة فى البيطرة والبزدرة للأنطاكى

وهناك آثار تعم الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهى كثيرة منها : كتاب المصائد والمطارد لكشاجم [3] ذكره ابن خلكان فى الوفيات ، وانتهاز الفرص فى الصيد والقنص للشيخ تقى الدين الناثرى ألفه بزبيد سنة ٩١٠ ، ذكره الحاج خليفة فى كشف الظنون وغيرها

وقد تكلم فى طباع الجوارح وأحوالها كثيرون منهم : الدميرى [4] فى حيـــاة الحيوان . والقزوينى [5] فى عجائب المخلوقات وغيرهما

وفى الأدب العربى أدب للصيد قائم برأسه ، يعرف بالطرديات نبغ فيه جماعة منهم : أبو نواس ، وأبو فراس ، وكشاجم ، والحلى وغيرهم

***

(١) أبو الخير أحمد بن مصلح الدين كاشكرى مؤرخ تركى الأصل مستعرب ، ولد فى بروسة وتنقل فى مناصب التدريس والقضاء إلى أن ولى قضاء حلب وكف بصره ، وتوفى سنة ٩٦٨ هـ ، ومن كتبه : الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية ، ومفتاح السعادة والشفاء وغيرها

(٢) العدد الأول من المجلد التاسع الصادر سنة ١٣٣٥ هـ ، وقد كان يصدر المقتبس مفخرة القطر الشامى أستاذنا الجليل محمد بك كرد على ، وقد صدرت فى مصر ثم فى الشام ، فكانت الحجر الأول من بناء نهضتنا الأدبية والفكرية ، ومجموعتها سجل أدبى لتلك الحقبة ، وكتاب فيه من المباحث العلمية ونفائس آثار الأولين ما لم ينغمر فى غير المقتبس

(٣) محمود بن محمد بن الحسين الرملى المعروف بكشاجم ، شاعر متفنن من كتاب الانشاء ، له « أدب النديم » و « خصائص الطرب » و « المصايد والمطارد » وله ديوان ، مات سنة ٣٥٠ هـ

(٤) محمد بن موسى بن على الدميرى وكنيته أبو البقاء ، باحث فقيه أديب مولده ووفاته فى القاهرة ، كان خياطاً ثم أقبل على العلم وأفتى ودرس فى الأزهر . له حياة الحيوان ، والديباجة شرح كتاب ابن ماجه ، والنجم الوهاج فى شرح المنهاج وغيرها توفى سنة ٨٠٨ هـ

(٥) زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك رضى الله عنه ، مؤرخ جغرافى ، ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق وتولى قضاء واسط والحلة أيام المستعصم العباسى ، توفى سنة ٦٨٢ هـ ، له آثار البلاد وأخبار العباد ، وخطط مصر وعجائب المخلوقات (قال فى الأعلام) وقد ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية

وفى سنة ١٣٣٢ هـ وجد الأستاذ الشيخ رضا الشبيبى بين (نفيسات آثار شعثها الاهمال ، وطمسها الابتذال ، منبوذة فى ناحية غامضة ، نبذك سقط المتاع ، ملقاة نالت منها الأرضة والحشرات ، أضعاف ما اقتبسته منها العقول النيرات . قد علاها من الزبل وسلح الطيور ونحوها ما غير محاسنها ، وأخلق كريم ديباجتها) وجد بين هذه الآثار كتاباً فى البيزرة ، وأول شىء فى هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه ، وأنه خال من البسملة والحمدلة ، عار من تقديم مقدمة قبل الشروع فى المقصود ، وعلة ذلك انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة . . . وليس هذا الكتاب مما ألف للاسكندر الرومى ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه : « كتاب البيزرة صنفه الحكماء المتقدمين (كذا) للملك الاسكندر الرومى ؛ وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لابد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح » ، والذى أوقع الوراقين فى هذا الوهم ما ورد فى نحر الكتاب من أن ثقات الروم من أهل المعرفة ؛ ذكروا أن الاسكندر الرومى قال للحكماء المحتفين بخدمته : « أريد أن تعرفونى بطبيعة البازى وأمراضه وعلامة كل مرض ودوائه وهل طبيعته تقارب طبيعة الآدمى أم لا ؟ » وأنت تعلم قصور هذه العبارة عما يدعون ، كيف وفى الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين ، ومنهم من صحب الرشيد !! فالكتاب إذن من طرائف عصر عربى راق كما يظهر أيضاً من أسلوب انشائه السهل الممتنع البليغ . ولا يبعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو الرابع للهجرة . يدلنا على ذلك أن المسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ أورد فى مروج الذهب عن الجوارح فصلين ترجح ـ بقول الأستاذ ـ أنهما منقولان عن هذا الكتاب باختلاف يسير

وروى لنا خبير أن فى خزانة باريز كتاباً رقمه ٢٨٣١ بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه : « كتاب الجوارح والبزدرة تصنيف الفيلسوف (أبو) بكر بن يوسف بن أبى بكر ابن حسن بن محمد القاسمى القرشى العلوى الأشعرى » تاريخ كتابته سنة ٨٤٨ هـ

فاسم هذا الكتاب طبق المحز وأصاب المفصل من الكتاب الماثل أمامى الآن ، لكن لا تزال حقيقة مؤلفه مبهمة مجهولة . هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان ، فى المقالة الأولى ٥٢ باباً فى تاريخ

الصيد بالجوارح وتقسيمها إلى أقسامها وكيفية ترتيبها وسياستها ثم إرسالها إلى غايتها

وفي المقالة الثانية ٦٣ باباً في أدواء الجوارح وعللها وما يتخذ لعلاجها من المركبات فجملة الأبواب ١١٥ باباً في حجم ١٤٥ ورقة أو ٢٩٠ صحيفة صغيرة مخطوطة خطاً واضحاً متأخراً، أغاليطه بخطئها العد، وفي آخره: «وقع الفراغ من كتابة هذه البيزرة نهار السبت ١٢ جمادى الأخرى سنة ١٢٠١ من الهجرة على يد ملامط ابن عبد الله الطرفي» اهـ. كلام الأستاذ الشبيبي

* * *

أما الكتاب الذي أصفه اليوم فقد وقع عليه صديقنا الوراق العالم الشيخ حمدي السفرجلاني في خزانة قديمة في دمشق فعرف قدره فاشتراه. ثم كانت له قصة انتهت بأن بيع الكتاب إلى أحد المولعين بالكتب القديمة من الأفرنج وبقيت منه النسخة الفوتوغرافية التي أصفها عند الأستاذ السفرجلاني

وكتابنا – وإن لم يعرف مؤلفه – من أقدم الكتب المصنفة في هذا العلم وأجلها. فقد وضع للعزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي العبيدي الفاطمي صاحب مصر والشام المتوفى في الحمام يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ

وكان مُغْرى بالصيد، يصيد بالحبل والجارح من الطير ويصيد بالسباع. وكان مؤلف الكتاب كما يتحدث عن نفسه من بيازرة العزيز والمقربين اليه، وكان غالياً في التشيع لا يذكر العزيز مرة إلا صلى عليه وسلم! ومن قوله وهو يتحدث عن بازٍ: «ولم أرَ في المدة التي لزمت فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة الى أن صنفت كتابي هـذا في علم البيزرة مثل هذا البازي على كثرة ما رأيت منها. ولقد وصل الينا في ليلة واحدة مائة باز من الشرق والغرب. فكم تراه يصل في كل سـنة محمولاً إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما لم يحمل إلى ملك قبله كثرة وجودة، وكل ذلك أتولى تدبيره، وأمارس تضريته، والاصطياد به الخ»

وقال في آخر الكتاب:

«وقد كان مؤلف هذا الكتاب في جملة البيازرة متقدماً عليهم – لا في جملة واحد منهم لا يحسن شيئاً من البيزرة، ثم أفرده أمير المؤمنين صلى الله عليـه عنهم، وله من العمر إحدى عشرة سنة، وعلّمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثوب – ثم خرج في صناعته إلى ما قد شاهده الناس وعرفوه، ورقى أمير المؤمنين صلى الله عليه منزلتـه إلى أن صار اقطاعه عشرين ألف دينار، وبلغ المنزلة التي لو رآها في النوم لما صدقها، فلا يَخْفَ عن الناس ما كان فيه. وما صار إليه»

والكتاب كله من النمط العالي في إنشائه وأسلوبه، وهو مشحون بالفوائد والأخبار الأدبية، والأشمار المستملحة، والقصص اللطيفة، ويقع في ٣٠٠ صفحة مكتوبة بخط قريب من النسخي، قليلة أخطاؤه، مشكول شكلاً لا يعتمد عليه دائماً، فيه إشارات خاصة كانت توضع على الحروف المهملة ثم أهملت[1]، ومقدار المكتوب من الصفحة (١٨ – ١٠) سنتيمتراً، وفيـه ١٣ سطراً وفي آخره: «وقد وصينا بما فيه الصلاح لمن انتهى إليه وعمل به، وبالله نستعين وعليه نتوكل

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين، كما هو أهله ومستحقه، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين، وعلى الأئمة من عترته الطاهرين الأخيار وسلم تسليماً»

وبعد ذلك ست صفحات يختلف خطها قليلاً عن خط الكتاب فيها:

باب النفقة على البيازرة وما يصل من أموال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين اليهم في كل سنة

وباب في أحكام الصيد الشرعية وما يحل من ذلك وما يحرم في خمس صفحات في الثلاث الأخـيرة منها خرم يصعب معه قراءتها وقد صرح بأن هذه الأحكام على المذهب الشيعي وعرّض بالمذاهب الأخرى

وليس في أول الكتاب أو آخره ما يدل على تاريخ كتابته ولـكني عثرت في وسطه على جملة مكتوبة تحت (باب ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة) بخط الناسخ هذا نصها:

«وكتب هذا الكتاب تاريخ سنة خمسمائة في شهر شوال»

وإذن فيكون عمر النسخة التي نصفها أكثر من ثمانية قرون

هذا وسنعرض على القراء خلاصة أبواب الكتاب، ونماذج منه صالحة في مقالة أخرى، فقـد طال بنا نفس الكلام، والله المستعان

علي الطنطاوي

(١) وللعلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري رسـالة في بيان هذه الاشارات مطبوعة

في الكتب

ما كنت أتمنى أنه أقرأ

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

ليس أكثر من الكتب في الدنيا ، ولعلها الشيء الوحيد الذي يزيد ولا ينقص ، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التي بقي لنا منها أثر — ودع ما نقل بعضهم عن بعض — جمع في مكان واحد ، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التي تزحف بها على الريف من ناحية ، وعلى الصحراء من نواح ، وليس أشد شرها ممن يستقل ذلك ، أو لا يرى فيه غناء ، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان ، فما أعني أن في الموجود من الكتب ما يغني عن الاستزادة أو يصدّ عن التطلع ، أو ما يكتفي به العقل الانساني عن المضي في البحث والتقصي ، وإنما أعني أنه حسب من شاء أن يقرأ ، فما يتسع عمرٌ — مهما طال — للالمام ببعض هذا الوجود من ثمار العقول ، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (! !) وزيدت عليه ، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله ، ولكني ، مع ذلك ، أراني أحياناً — وأنا جالس بين ما بقي لي من كتبي — أتحسر وأتمنى : أتحسر لأن مطبوعاً من هؤلاء المؤلفين ، على الشعر ، أبى إلا أن يكون جاهلا نفسه ، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك ، وذهب يكتب . أو أن كاتباً فذاً غالط نفسه فراح يقرض الشعر ، ويجيء بالغثّ ويحسب أنه صنع شيئاً ، وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدة في معنى يخطر لي ، وأراه كان أقدر على صوغه ، أو وضع كتاباً في بحث معين ، أو كتب قصة مثلا ، أو أردف ما كتب بشرح ما يعني ، كأنما كل هذه الكتب لا تكفي ولا تقنع !

وأتساءل أحياناً — لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر سقط الزند وبعض اللزوميات ، وزادنا من مثل رسالة الغفران ، أكان هو ينقص شيئاً أم كان يزيد ؟ ؟ وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب ؟ ؟ كنا نربح فيما أعتقد ، ولم يكن يضيع علينا شيء من نظمه لا نهمله الآن ، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف ، ليرضى غروره ، وليتعزى أيضاً باظهار اقتداره . وإنه لفحل عظيم ، وما يطيب لي أن يظن أحد أني أغمطه أو أنزله دون منزلتــه ، وإني لأعلى به عيناً من أن يخطر لي أن في وسعي أن أظلمه ، ولكني كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة ، وفي يقيني أنه لو كان فعل ، لبلغ الذروة واستولى على الأمد

ويؤسفني أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة . أما لو كان فعل ! ؟ أين بين كتاب العرب ، من كان أقدر على ذلك منه ، وأولى بأن يكون أبرع فيه ، وأسحر وأفتن ؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بالغته ؟ من له مثل فطنته ونفاذنظره ، وفكاهته ، وحسن تأتيه ، ولطف مداخله ، وحذقه في التناول والعرض ، ودقته في فهم الناس واستبطانهم ، والاحاطة بجوانبهم المختلفة ، والتفطن إلى نواحي الجد والهزل فيهم ، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك ، وإرباء ذاك على هذا ؟ ؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً ! ؟ أترى كان يستطيع — لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة — أن يحول مواهبه إلى هذه الجهة ؟ ؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر ، على الأداء ، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه ، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره ، ينطق بما حمله من المعاني ؟ ومن يدري ؟ إن مطالب الكاتب غير مطالب المصور ، وأداة هــذا غير أداة ذاك ، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب ، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة ، والسكون لا ينفي التعبير والنطق ، وقد يكون أنطق ، وأبلغ في نطقه من الكلام . فهل كان بيان الجاحظ — وهو فيض لا تصده السدود — يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع ، والنطق بقوة الابراز لا بفضل الانسياب أوالتدفق ؟ أعود فأقول ، لا أدري ؟

وتمنيت ، وأنا أدير عيني في كتبي على رفوفها ، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بينوا لنا — أو لي أنا على الأقل — ماذا يريدون أن يقولوا . عجيب أمرهم والله ! قرأت مرة لأحدهم — وأظنه « هجل » فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله — كتاباً في « فلسفة التاريخ » فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسي : إما اني أنا حمار ، وإما أن هذا الرجل

لا يحسن العبارة عما فى رأسه ، ولكنى أفهم عن غيره فلماذا أرانى لا أفهم عنه ؟ ؟ وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل انسان مثلى ؟ وكان فى هذا الكتاب فصل عن المدنية الاسلامية أو عن تاريخ العرب — فقد نسيت — خيل إلى أنى فهمت أقله ، ودارت الأيام ، ووقع فى يدى كتاب لرجل أمريكى اسمه « دريبر » عن المدنية ونشوئها ، يكتب كما يكتب خلق الله — لا الألمان — فاذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هجل التى لم أفهمها ، فسألت نفسى : لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل ؟؟ ثم عدت أسألها وأتعجب : لماذا فهم « دريبر » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟ وأسأت الظن بنفسى واعتقدت أن بى نقصاً فى التدريب العقلى ، وراجعت « هجل » وكررت إلى هؤلاء الألمان الموصين كرة الصم المستميت ، ولكن مضغ الجلاميد أعيانى ، فنفضت يدى منهم — ومن نفسى — يائساً ، وقلت : ياهذا ، لقد صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع عنهم ، وانج بنفسك منهم

ولست أعرف أن للمتنبى نثراً ، وإن شعره لحسبه ، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر ، أو يجشم نفسه جهداً فى باب غيره ، ولكنى مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه فى مصر ورحلته إلى « الأستاذ » كافور ! ألا يشعر القارئ معى أن كنوز الأدب العربى ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبى فى « كافور » ؟ يالها من تحفة نادرة ، ضن بها علينا المتنبى ؟ ؟ أتراه لم يخطر له هذا قط ؟ فماذا كان يصنع ياترى حين لا يعالج النظم ؟ لقد كان مقلا ، وليس ديوانه الذى خلفه بالذى يستنفد عمر مثله أو جهده ، فلماذا ياترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة ؟ أكان الكلام الجيد لا يؤاتيه إلا منظوماً ، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن ؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم ؟ ربما

وينقص الأدب العربى — فى رأيى — اعترافات رواته ، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع ؛ وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته ، فليت واحداً منهم كانت له جرأة « روسو » اذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة ، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التى لانراها تغربل شيئاً ، ولأمكن أن تنفق الأعمار التى تضيع فى هذا البحث ، فيما هو أجدى . ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصاً من أمتع ما فى الآداب ، غربيها وشرقيها ، ولكشفوا لنا عن خصائص ، نفسية وعقلية ، ينفع الناس العلم بها ، ولتسنى أن نملل هذه الفوضى التى أغرق فيها الرواة أدبنا ، ولاسيما القديم منه . ومن الذى لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها فى قصيدة لشاعر قديم ، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين ، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق ، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان ، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين فى الصحراء ؛ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة فى سبيل مزية أصغر منها ، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب فى القريحة ، وعلى قوة الخيال ونشاطه ، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعراً مجيداً أو قصاصاً بارعاً ؛ ولكنهم يزهدون فى ذلك ، ويظلمون أنفسهم ، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب ؛ أى حفاظاً ليس إلا ؛ أى خزانة مفتاحها فى لسانهم ؛ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا ، وتوخوا الأمانة فى الحفظ والرواية ، لعدوا علماء ، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان ؛ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة ، ويروحون يزوّرون ويفترون ويلفقون ، ويظهرون فى ذلك من الحذق والبراعة مالو أظهروا بعضه فى غيره لرفعهم مقاماً عالياً . فلا بد أن يكون هناك عوج فى طباعهم والتواء فى عقولهم يزينان لهم الطريق الذى سلكوا ، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم ، ويغريانهم باهمال مواهبهم ، أو سوء استخدامها

وعلى ذكر الاعترافات أقول إنى لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسى الفاجر ، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه فى زمانه ، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لساناً وأقواهم بياناً ، ومثل سيرته لا تزيد الناس فهماً للحياة وحسن إدراك لها ، وما فى الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه ، كما يفعل غيره ، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلى ، ولولا أنه شاعر لما شُغل بقصصه أحد ، والشهرة هى التى جنت عليه فأبرزت جانب السوء والاستهتار من حياته ، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب . فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس ، وماذا كان يمكن أن يكون فى اعترافاته مما يجهله الناس ،

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار القديمة(١) فى بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئاً عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

شدا صديقنا المفضال الشاعر الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال بهذا البيت فى ديوانه « پيام مشرق » (أى رسالة الشرق) منذ ثلاث عشرة سنة ، ولكنه لم يسمع صدى المعرفة الحقيقية « لنغماته الشجية » من العرب إلى اليوم . وثلاث عشرة سنة مدة طويلة . لأن الشيء إذا مر عليه زمن قليل يقال إنه مضى ودخل فى ذمة التاريخ ، وليس كل ما دخل حصن الماضى نال رعاية التاريخ . لأن مخالب التاريخ الحديدية لا تقتطف إلا ماهو مؤثر مباشرة فى الحوادث المادية ولا تهتم بوجود الكائن الحى بنفسه أياً كان، ولكن هناك أشياء خارجة عن وصول مخالب التاريخ ومؤثرات الزمن مع كونها مؤثرة فى الحوادث المادية . وتلك الأشياء هى الحقائق الملهمة ، ومنها الشعر أو « النغمات الشجية » كما عبر الدكتور . فالحقيقة الملهمة شيء خالد بعيد المرام عن تلاعب الزمن ، وعزيز المنال من مخالب التاريخ ، تظما الحياة الانسانية إلى مناسمته فى كل زمان ، وتتطلع إلى مؤانسته فى كل مكان

(١) إشارة إلى أن النار كانت تعبد فى بلاد إيران قبل الاسلام



الدكتور محمد اقبال

وعلى هذا أريد أن أعرف إخوانى الناطقين بالضاد بتلك « النغمات الشجية » وأن أكون على الأقل ترجماناً لها إن لم أكن راوية ، فأقدم اليوم اليهم على صفحات (الرسالة) ترجمة حياة الدكتور بالايجاز ، وسأتبع ذلك بحديث عن شعره وفلسفته وآرائه فى نواحى الحياة المختلفة إذا وفقنى الله لذلك

انحدر الدكتور السر محمد إقبال من سلالة وثنية عريقة فى المجد والشرف من طبقة « پَنْدِتْ » القاطنة ببلاد كشمير فى شمال الهند . و « پندت » لقب يلقب به أهل العلم والفضل من طبقة البراهمة التى هى أرفع الطبقات وأعلاها شرفاً وعلماً ونفوذاً فى النظام الاجتماعى الوثنى فى الهند ، وقد أشار الدكتور إلى ذلك إذ قال :

مرا بنگر كه درهند وستان ديگرنمى بينى
برهمن زاده رمزآ شناى روم وتبريزاست

« انظر إلى فانك لا تجد فى الهند مثلى من سلالة برهمن ولكنه يعرف رموز روم وتبريز(١) »

تشرفت عائلة الدكتور باعتناق الاسلام قبل مائتين وخمس وعشرين سنة . وذلك أن أحد أجداده اتصل بولى من أولياء الله من الصوفية المسلمين فأشرب قلبه حب الاسلام فأسلم . وكان من

(١) إشارة إلى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومى الصوفى المسلم الشهير وإلى رموز شعر شعراء تبريز مثل حافظ وسعدى

وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به . كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة ، كما عرفها وعاناها ، فاسق عظيم

وليت دعبلاً ترك لنا مذكرات ! فانه متمرد ظريف ، وليس أحب إلى المرء من الوقوف على مظاهر التمرد ، ولكن التمرد صنيعه فى حياته ، وصنيع شعره معه — أو أكثره — فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الحطب

* * *

لو ذهبت أذكر ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتاباً ، لما فرغت ، فما لهذا آخر ، فحسبى ما بينت ، وليكن كاشارة الفهرس

ابراهيم عبد القادر المازنى

آثار تلك الحادثة أن حسن الاعتقاد فى الصوفية المخلصين لا يزال من الأوصاف المميزة لعائلة الدكتور إلى اليوم

ولد الدكتور محمد إقبال فى سـنة ١٨٧٦ ميلادية فى بلدة سيالـكوت مسقط رأس فيلسوف الاســـلام العلامة الشهير عبد الحكيم السيالكوتى من أقليم پنجاب فى شمال الهند . فلما بلغ سن التعليم أدخله أبوه فى مكتب من المكاتب الاسلامية فى تلك البلدة ، ومن وهبه الله الذكاء المتوقد والحذق الحاد ظهرت بوادره منذ نعومة أظفاره . كذلك الدكتور إقبال فانه لم تمض عليه مدة قليلة حتى أتم دراسة المكتب فأدخله أبوه فى المدرسة ، وفى المدرسـة أيضاً بقى مثالاً لحدة الذهن وموضع الاعجاب من جميع أساتذته . فانه لم ينتقل من فصل إلى فصل ولم ينل شهادة بعد شهادة إلا بتفوق على أقرانه وباستحقاق مساعدة مالية شهرية من قبل الحكومة جائزة لنبوغه إلى أن أتم دراسته الثانوية ، وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل الدكتور كلية فى نفس البلدة ، وكان فى تلك الكلية أحد كبار علماء الذين أستاذاً للغة الفارسـية والعربية وهو شمس العلماء مولانا مير حسن [1] الذى كان يشار اليه بالبنان فى الأدب الفارسى والعربى فتتلمذ له الدكتور ونبغ فى الفارسية كما تعلم منه العربية أيضاً . وبعد إتمام دراسـة الـكلية انتقل الدكتور إلى كلية الحكومة ببلدة لاهور حاضرة اقليم پنجاب ونال منها شهادة B. A. بتفوق حيث اسـتحق مداليتين ذهبيتين والمساعدة المالية الشهرية من قبل الحكومة . وفى هذه الأثناء انتقلت خدمات المستشرق الشهير السر توماس آرنلد من كلية عليكره إلى كلية لاهور . وكان السر آرنلد هذا مشهوراً بسعة اطلاعه فى علوم الفلسفة ، وكان عند الدكتور إقبال أيضاً ميل غريزى إلى الفلسفة حيث لم يترك دراستها فى نيل جميع شهاداته الماضية فتتلمذ للسر آرنلد . فكان السر آرنلد يعترف دائماً بذكاء تلميذه المتوقد واستعداده للفلسفة ويفتخر به إلى أن أتم الدكتور دراسة الجامعة ونال شهادة M. A. مع مدالية ذهبية

عين الدكتور بعـد إتمام دراسته مباشرة أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية فى الكلية الشرقية بلاهور ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الانجليزية فى كليـة الحكومة بلاهور . فصنف فى أيام تدريسه كتاباً فى السياسة المدنية باللغة الأردية . وكان الدكتور طول مدة التدريس فى الكليتين حسن الصيت فى العلم والفضل عند أساتذتهما ، وممدوح الخلال مأثور المحامد عند تلاميذه

لم يسمح للدكتور عشقه للعلوم وطموحه إلى التوسع فيها بأن يقنع بتلك الوظيفة ؛ فهجر فى سنة ١٩٠٥ وطنه وأقربه ثلاث سـنوات طلباً للتوسع والمزيد فى الفلسفة والقانون وللتحقيقات العلمية الأخرى إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج ونال منها شهادة فى فلسفة الأخلاق ، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة مونيخ فيها ونال منها شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ، ثم رجع إلى انكلترا والتحق بجامعة لندن ونال منها شهادة المحاماة (Bar — at — Law)

إن كثيراً من طلاب الشرق حينما يذهبون إلى الغرب يجدون أنفسهم فى عالم جـديد لم يخطر ببالهم ولا هجس فى ضمائرهم ، إذ الفوضى الأخـلاقية قد استحكمت عراها ، والأباحية قد شيدت وطائد رباها ، وأبواب المفاسد مفتوحة ، ودواعى الخلاعة مسروحة . فيندفعون فى تياره ويضيعون فيـه أوقت فراغهم حتى أوقات أشغالهم ، ولـكن الدكتور لم يضيع أوقاته ، بل كان يستغل حتى وقت فراغه فقد سعى فيه لخدمة الاسلام بتبليغه إلى العوام ، إذ ألقى فى غضون قيامه فى انجلترا ست محاضرات فى الاسلام بين حشد الخاص والعام . وقد منح الله الدكتور العبقرية الشاملة وأسبغ عليه جميع مزايا النبوغ ، فهو ناثر بليغ كما هو ناظم مطبوع ، وكاتب بارع كما هو خطيب مصقع فكان لمحاضراته رنة بين الناس ووقع حسن فى أوساط العلم والأدب

وإذا كان غاية ما يبتغيه الأستاذ من تلميذه ويتمنى له ، لعكوفه على تعليمه ومكابدته فى تهذيب نفسه وتنوير عقله ، أن يبلغ منزلته فى العلم والأدب ، وأن يقوم بمهمته أتم قيام ، وأن ينوب عنـه أحسن مناب لا يشوبه خلل ، ولا يعتريه أود ولا يخالطه وهن ولا أمْت . فقد بلغ فيـه صديقنا الدكتور إقبال حيث لم تبلغ الآمال والهمم ، إذ الدكتور بذكائه المتوقد ، وفكره الحاد ، وحصافة رأيه ، وطول باعه فى العلوم والصناعات نال أجل مكان وأخص محـل فى أنظار جميع أساتذته فكانوا يتباهون به فى السر والعلن ، ويذكرونه فخراً فى مسامرات الأدب وأندية العلم . وهذا هو الذى حفز أستاذه السر توماس آرنلد أن يفوض إليـه القيام بأعمال وظيفته بجامعة كمبردج لستة أشهر عند غيابه عنها فخلفه الدكتور أستاذاً بالجامعة ، وقام بالمهمة خير قيام تناقلته ألسنة المديح وناطه الذكر الجميل

رجع الدكتور من أوروبا إلى الهند فى سـنة ١٩٠٨ مزوداً

(١) توفى رحمه الله تعالى فى سنة ١٩٢٩ ميلادية

بالعلوم والصناعات ومتأهباً لخدمة وطنه وأبناء دينه ، فاستقبله حشد كبير من جميع الأجناس والطبقات والأديان والملل . وأقيمت فى تكريمه مأدبة فاخرة ليلة وصوله إلى لاهور هنأه فيها أعيان البلد ورؤساء القوم بسلامة وصوله إلى وطنه ، كما اعترف غير واحد من الشعراء والأدباء والعلماء والفضلاء بالقصائد والخطب فيها بعلمه وفضله . ومن ذلك الحين اختار الدكتور لنفسه الحياة الحرة ولم يقبل مناصب الحكومة لكي يجد مجالاً واسعاً لبحوثه العلمية ، وميداناً أوسع لخدمة إخوانه ودينه . فبدأ يمارس مهنة الارشاد القانونى للطالبين

والدكتور بنفسه رجل قنوع ، نزيه ، عزيز النفس ؛ يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك فى بيت من ديوانه : « رسالة الشرق » قال :

ناز شهان نمى كشم زخم كرم نمى خورم
درنگراى هوس فريب همت اين گداى را
« أنا لا أتحمل دلال الملوك ، ولا جرح الاحسان
يا من انخدعت بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير »

فقد رفض غير واحد من مناصب الحكومة التى قدمت إليه وآخرها منصب ممثل الحكومة الهندية لدى حكومة جنوب أفريقيا وهو منصب ذو مرتب باهظ وشرف عظيم

اشتغل الدكتور بعد رجوعه من أوربا فى تصنيف ديوانين « أسرار خودى » و « رموز بيخودى » على الترتيب باللغة الفارسية . فنالا إعجاب الجميع من ذوى الفضل والعلم ، وترجم الأول الدكتور نكلسن إلى الانجليزية فذاع به صيت الدكتور فى أوربا وأمريكا فمنحته الحكومة فى سنة ١٩٢٣ لقب « السر » اعترافاً بفضله فى الشعر وطول باعه فى العلوم

وفى سنة ١٩٢٦ أجبره أحبابه وأصدقاؤه وأهالى لاهور على أن يرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعى فى إقليم بنجاب . فلم يقبل أولاً . فلما ألحوا عليه كثيراً قبله . فانتخب عضواً بأكثرية ساحقة . فسعى الدكتور سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب الفادحة عن كاهل الفلاح الهندى ، ولسن قانون العقاب لكل من يطعن فى شارع الدين أو أحد رؤسائه من غير دينه هو ، وقد سنّ فعلاً ، ولتقرير غاية الاصلاح لادمان الخمر عند الحكومة حرمتها التامة تنفذ فى مدة خمس عشرة سنة . وفى سنة ١٩٢٨ أثار الدكتور فى المجلس بحثاً طريفاً استوقف الأنظار ، وهو هل الأراضى من ملكية الحكومة أو ملكية الشعب ؟ وفى سنة ١٩٣٢ عنـــد انتقاد ميزانية الحكومة أثبت بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة أن الأراضى ليست من ملكية الحكومة فلا يجوز للحكومة جمع المال بالضرائب الفادحة على أراضى الفلاح

وفى سنة ١٩٣١ انتخبته الحكومة عضواً فى مجلس المائدة المستديرة المنعقد فى لندن لاصلاح الهند الدستورى فسافر إلى لندن وعند الرجوع لبى دعوة المؤتمر الاسلامى بالقدس وزار مصر أيضاً وألقى على طلبى منه محاضرة قيمة فلسفية دقيقة فى جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة موضوعها « الاسلام كالتحول فى التاريخ » باللغة الانجليزية ، ولكن من الأسف لم يقدر أحد من السامعين ولا من أركان إدارة الجمعية أن ينقل تلك المحاضرة القيمة المفيدة إلى العربية للحاضرين أو يكتبها على الأقل وينشرها على صفحات الجرائد للافادة

وفى أواخر سنة ١٩٢٨ دعى الدكتور من قبل جمعية اسلامية ببلدة مدراس حاضرة اقليم جنوب الهند لالقاء محاضرة فى الاسلام ، فلبى الدعوة ، فلما وصل إلى مدراس احتفل به أهالى مدراس من جميع الأجناس والملل احتفالاً باهراً ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة من قبل جمعيات مختلفة منها جمعية العلماء البراهمة وغيرها من جمعيات الوثنيين ؛ ومن مدراس توجه الدكتور إلى حيدر آباد تلبية لدعوة صاحب السمو نظام حيدر آباد فمر بأمارة ميسور ، وهى أمارة وثنية كبيرة فى جنوب إمارة حيدر آباد ، فلما وصل بنجلور بلدة من بلادها استقبله حشد كبير من الطلبة والعلماء والوجهاء ، وكان بينهم رئيس الوزراء لأمارة ميسور أمين الملك ميرزا اسماعيل (وهو مسلم) فسافر معهم إلى بلدة ميسور حاضرة إمارة ميسور ، ونزل ضيفاً على الأمير الوثنى مهاراجا ميسور ، وأقيمت فى تكريمه مآدب كثيرة أهمها مأدبة جامعة ميسور التى خطب فيها الدكتور ، وفى هذه المأدبة خطب عالم وثنى كبير وهو أستاذ الفلسفة بالجامعة فقال : « إن المسلمين مهما قالوا إن الدكتور اقبال منهم ، فان الحقيقة أنه منا جميعاً ، هو ليس من ملك دين واحد أو جماعة واحدة ، فان افتخر المسلمون بأنه من أبناء دينهم ، فلسنا نحن الوثنيين بأقل فخراً منهم بأنه من أبناء وطننا الهند » . ومن ميسور توجه الدكتور إلى حيدر آباد ، فاستقبله جمع غفير من جميع الأجناس والملل ، بينهم أركان الحكومة وأساتذة الجامعة وطلبتها وغيرهم من ذوى

الجاه والشرف ، وكان طلبة المدارس مصطفين فى الشوارع والمحطة ويغنون بأصواتهم الشجية « نشيد المسلم » الذى صنفه الدكتور باللغة الأردية وأوله :

جين وعرب هارا ، هندوستان هارا
مسلم هين هم وطن ، هى سارا جهان هارا
« إن الصين والعرب لنا ، (كما) أن الهند لنا
اننا المسلمون ، فالعالم كله وطننا »

نزل الدكتور ضيفاً على سمو نظام حيدر آباد وحظى بالمثول فى حضرة سموه ، وألقى محاضرات عديدة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد ، ثم توجه من حيدر آباد إلى الجامعة الاسلامية بعلى قره تلبية لدعوتها ، فألقى فيها أيضاً غير محاضرة ؛ وجميع هذه المحاضرات التى ألقاها فى مدراس ، وحيدر آباد ، وعلى قره ، ست تحتوى على أعمق الأفكار وأدق المعانى ، فى فلسفة دين الاسلام ، وقد سعى الدكتور فيها لتشكيل علم الكلام الجديد على ضوء الفلسفة الحديثة ، وقد نشرت فى شكل كتاب ونحن مستعدون أن نتحف قراء الرسالة بشىء منها لو تحملوا جفاف الفلسفة فى جنب حلاوة الأدب

وفى سنة ١٩٣٣ دعا الدكتور المغفور له جلالة الملك نادر شاه خان ملك أفغانستان مع عالمين كبيرين هنديين وهما الافوكاتو السيد راس مسعود رئيس الجامعة الاسلامية بعلى قره ، وصديق صاحب الفضيلة الشيخ السيد سليمان الندوى من كبار علماء الدين للاستشارة فى تأسيس جامعة بكابل ، وفى أمور تعليمية أخرى . فلبى الدكتور الدعوة ، وفى هذا السفر صنف الدكتور ديوانه المسمى « مسافر » باللغة الفارسية

وفى سنة ١٩٣٤ سافر الدكتور لزيارة البلاد الاسلامية فى المغرب ولمشاهدة الآثار الاسلامية فى الأندلس وصنف فى هذا السفر ديواناً باللغة الأردية مسمى « بال جبريل » وفى أواخر نفس السنة دعى الدكتور إلى انجلترا لالقاء محاضرات فى فلسفة الدين فى سلسلة محاضرات هيبرت Hibbert Lectures فلبى الدعوة

هذه هى ترجمة حياة الدكتور بالاختصار وموعدنا بالحديث عن شعره المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

من بدائع شكسبير (١)

حلم منتصف ليلة صيف

A Midsummer Night's Dream

بقلم محمد رشاد رشدى

يحملنا جو القصة أجيالاً عديدة إلى الوراء حيث (ثيزيوس) دوق أثينا يعد قصره للاحتفال بقرانه بتلك الأمازون الساحرة . أما أسلوب القصة فهو ملىء بالصور الخلابة التى تشيع فى الذهن جواً يشبه جو الحلم الغريب . كذلك تنتشر أشخاص الجن التى ما تزال تظهر ثم تختفى فى القصة روحاً غريبة نائية حالمة . . . .

والحب – سيد خالق الأحلام والخيالات – هو موضوع القصة ... بيد أنه ليس بالحب المداعب اللاهى تحمله السطور فى خفة ورشاقة مقبلاً حيناً مدبراً حيناً آخر . بل هو حب قوى قاهر يبهر النظر والسمع ويأبى إلا أن تعبر عنه الاستعارة والمجاز واللغة الشعرية الحارة . تبعثه من الصدر مثلما تبعث ليلة مقمرة هادئة من ليالى الصيف شعر شاعر من صدره ، أو زفرة عاشق من حنايا ضلوعه

(ليساندر) و (هرميا) يتفقان على اللقاء :

ليساندر : فى مساء الغد عند ما تبصر (فيبى) طلعتها فى البحيرة ناثرة على العشب الأخضر لباساً من اللؤلؤ السيال — فى ذلك الوقت قد اتفقنا على أن نجتاز أبواب أثينا ونخفى هاربين

هرميا : وفى نفس الغابة حيث اعتدنا اللقاء ، وحيث كنا أحياناً نرقد على العشب اللين الرخص ونشم أنفاس الزهر الوحشى . هناك يلقى أحدنا الآخر ، أى ليساندر !

ويضل كل من العاشقين سبيله وينهكهما البحث والفكر فيرقد كل تحت شجرة من أشجار الغاب ويغلب عليهما النعاس فما يدريان من أمرهما شيئاً ، ويأتى (بَكْ) رسول ملك الجان فيهصر فى عينى الفتى زهرة من أزهار الغاب سحرية تغير قلبه

(١) استعرت هذا العنوان من رسائل أستاذى الجليل محمد فريد أبو حديد التى كان ينشرها تحته فعسى أن يسمح الأستاذ لى بالاستعارة وعسى أن أوفق فى إيفاء الاسم بعض ما وفاه هو من الحق

حتى إنه إذا ما صحا من نومه وقع فى حب أول امرأة يلقاها . . . وفى نفس الوقت يهيم فى الغاب الفسيح (يمتريوس) عاشق (هرميا) المنبوذ منها تتبعه (هيلينا) التى ينبذها هو ولا يصغى لما تريد أن يصل أذنه من ألفاظ الحب والتوسل . بيد أن (پَكْ) سرعان ما يأتيه هو الآخر بالزهرة السحرية فيغير قلبه ، ويصبح فاذا به مدله فى حب (هيلينا) ، ويهيم المشاق فى الغاب كل يبحث عن أليفه تارة متباطئاً وأخرى مسرعاً . تراقبهم من عل أشجار البلوط الشاهقة ويظلهم الليل فى ردائه الهادىء . ونبسم نحن إذ نرى كيف يتغيرون . كيف يشكون وكيف يتدلهون — على أننا لا يسعنا إلا الاشتراك فى كل ما يفعلون

هذه العاطفة هى حلم ، غير أنه حلم يحركنا ، فان الشاعر يلعب بالعواطف فيخلطها ويمزجها سوياً ثم يثنيها ثم يعود فيفصلها ويقيم كلا منها على حدة كأنما هى خليات رقصة جميلة ، ونشاهد نحن الوجوه النضة الوديعة تمر سريعة إلى جوار الشجيرات الخضراء وتحت أبصار النجوم اللامعة ، تبللها حيناً دموع الشوق والألم ويشيع فيها حيناً آخر بريق الحب والأمل . . .

أولئك قوم قد وهبوا أنفسهم للحب خالصة لا يبغون من عطائهم هذا جزاء ولا مقصداً ، وإنما هى هبة نقية خالصة لأنها موجهة لله لا للشيطان ، وللحب الخالص لا لشهوات البدن

هى – فى الحق – هبة للجمال الذى يخالج مشاعرهم ويملك عليهم حسهم وفكرهم – وإن مرآهم يألمون ثم يسمدون – يشكون ثم يفرحون ، يطربهم التافه من الخير ، ويعصف بهم خالج الفكر البسيط ، تحنو عليهم بنات الغاب ساعة مداعبات ، ثم تسخرن بهم ساعة أخرى لاهيات – لهو نوع من السحر المبين . . .

ونشاهد بين الحين والآخر جماعة من القرويين يتدربون على تمثيل قطعة مسرحية يحيون بها حفل زواج أميرهم (تيزيوس) – أولئك قوم بسطاء مثل كل أهل الريف يعيشون عيشة طبيعية بسيطة لا يشغل فكرهم خاطر ولا يعذبهم شك لاهين قانعين مؤمنين كل الايمان بالحياة ، بعيدين كل البعد عن بحثها والتأمل فيها . ويفزعهم مرآى رفيقهم (بوتوم) وقد أتاهم يحمل فوق عنقه رأس حمار فيصيح أحدهم :

« يا للشيطان ! يا للغرابة ! لقد زارنا ابليس

صلوا أيها الرفاق – اهربوا أيها الرفاق – المعونة ! »

كان هؤلاء رجالاً من المحتمل أن يكون شكسبير قد رأى وخبر أمثالهم فى بلدته ، لأن الدرامة لم تعد بعد مقصورة على بلاط الملوك والأمراء ، بل عمت البلاد والقرى جميعها ، وأصبحت وكأنها ضرورة من ضرورات العيش ومرفقاً من مرافق الحياة لا ينفصل عنها ، ولقد كان كل عيد من أعيادهم مهرجاناً عظيما يشترك فيه الصغير والكبير ويتعاون على إقامته الجميع ، إذ أن القوم فى ذلك العهد كانوا يعشقون التمثيل ويجيدونه بالطبيعة ، لأن الروح إذا ما كانت ناضجة ممتلئة فهى لا تميل إلى التعبير عن خواطرها بالأرقام والمنطق ، بل تعمد إلى تصويرها فتقصها وتقلدها ، تلك هى لغة الأطفال ، لغة الفن والخلق والسرور

وفوق كل هؤلاء العشاق والممثلين البسطاء تلهو وترفرف بأجنحتها جماعة الجن وبنات الغاب . هم أيضاً يعشقون (فتيتانيا) ملكتهم التى تحب صبياً صغيراً أتت به من بلاد الهند ، ويغار زوجها (أوبرن) منه فيريد أن يبتاع الصبى منها على أنها لن تنيله ما يريد :

بتانيا : لو اجتمعت الجن كلها لما اســـتطاعت أن تبتاع منى هذا الصبى ، كانت أمه من أتباعى ولكم جلسنا جنباً إلى جنب على رمال نبتون الصفراء فى الليل الهادئ ، تهب علينا نسمات الهند العطرة ، نرقب السفن يحملها الفيضان فوق تياره سريعة تتسابق – وكم كنا نضحك عند ما نرى الشراع وقد حملت وانتفخت منها البطون ، وكانت الريح العابثة هى الزوج أو العاشق المسئول

ويتشاجر (أوبرن) مع زوجه فتهرع الجن خائفة إلى أكمام الزهر تختبئ فيها وتتخذ منها ملجأ يقيها غضب الملك والملكة ويريد (أوبرن) أن يثأر لنفسه ، فيرسل خادمه (پَكْ) يلمس بالزهرة السحرية أجفان زوجه ، حتى إذا ما صحت أجمل بنات الغاب وأرشقهن من سباتها وجدت نفسها مدلهة بحب مخلوق عجيب له رأس حمار وجسم رجل ، هو (بوتوم) القروى الممثل

وتركع الملكة أمام المريض المسحور ، وتضع فوق كتفه التى بالشعر اكليلاً من الزهر النضر ، ثم تنادى أتباعها وتخاطبهم :

« ترفقوا بهذا الرجل وأحسنوا مثواه ؛ غنوا له وارقصوا أمامه كلما مشى خطوة ، أطعموه المشمش ، والعنب ، والتين الأخضر والتفاح »

كان لزاماً على (تيتانيا) أن تفعل هذا، لأن حبيبها كان ينهق نهيقاً فاحشاً، وكان إذا ما قدمت له الزهور والفاكهة هز رأسه فى طلب الهشيم والبرسيم!

أهناك أعذب وأمر من سخرية شكسبير هذه؟ أى هزء بالحب، وأى حدب عليه! العاطفة فى نفسها نبيلة، بيد أن موضوعها تافه حقير، هى فراش ذهبى لكنه يطير فى الوحل، فراش أعمى لا يدرى أين يسير

وشكسبير إذ يصف كل آلامها يحتفظ أيضاً بكل ما هو حلو وجميل فيها

تيتانيا: تعال نجلس فوق هذا الزهر، دعنى ألمس وجنتيك الجميلتين وأرشق الورد فى رأسك الناعم، وأقبل أذنيك الطويلتين الحلوتين

لقد طمس الحب عينى ملكة الغاب فباتت ترى فى صدغى الحمار جمالاً، وتلمس فى رأسه نعومة، وتحس فى أذنيه حلاوة وطراوة

وينقضى الليل، ويأتى الصباح فيبطل السحر ويزول، وتفيق (تيتانيا) إلى نفسها فتبدو لها ذكريات الأمس (مثل أشياء صغيرة يصعب تمييزها، فكأنها رؤوس جبال نائية يراها الانسان عن بعد كالسحب الكثيفة قد تجمعت فوق الأفق)

هذه هى القصة، فهل لنا أن نناقشها جدياً مثلما نناقش (هملت) أو (عطيل)؟ هل لنا أن نفرض منطق الحياة على حوادثها وأسلوبها وأشخاصها، أو أن نبحث عن الجمال والانسجام فى كيانها وتركيبها؟

لا، فنحن إن فعلنا ذلك بعدنا عن الروح التى يجب أن نتفهمها فيها

هذه القصة لا تصور الحياة بل تمثلها — هى تمثل الناحية الحلوة الناعمة السهلة الهادئة من العيش مثلما تصور قصة (لير) الناحية الأخرى العاصفة، المظلمة، المريرة، الموحشة

على أن الحياة ليست دائماً عاصفة موحشة؛ كما أن القبرة لا تنشد كل يوم ألماً ونحيباً، فهناك فى حياة الرجال لحظات يحسون فيها بجسومهم، وأرواحهم، وقد رقت وصفت وارتفعت فأصبحت فى صفاء نسمات الخريف تهب عند الأصيل، وفى هذه اللحظات يكفى أن يثلج أفئدتهم ويملأها طرباً وحبوراً أن يشاهدوا زهرة جميلة قد تفتحت أكمامها، وتلألأ على أوراقها ندى الشروق، وأن يحرك مشاعرهم ويملأها عطفاً ورقة وحناناً، مرأى كلب بائس ينبح ألماً ويتضور جوعاً

ذلك لأن فى النفس حينذاك لحناً ونشيداً يعزف، فإذا كل ما بالعيش قد أصبح بهياً جميلاً، وإذا كل ما يدب على الأرض قد أمسى طيباً وديعاً كالحمل، ذلك أن بالروح موسيقى تسبغ الدفء والسلام والحب على كل شىء خارج الروح: موسيقى (أحلى من نغم الكروان، يسمعه الراعى وقد ترعرع قمحه ومشى النضوج فى سنابله)؛ فهل نترك تلك الأوقات السعيدة دون أن نسجلها

إن أكثر الواقعيين تطرفاً، وأشدهم تشاؤماً وانقباضاً لا يستطيع أن ينكر وجود أمثال تلك اللحظات، فإن هو فعل فقد ترك انتاجه ناقصاً مبتوراً ونفسه ضيقة يعوزها الاتساع والبسطة، على أن شكسبير الكامل لم يكن يستطيع أن يكون ناقصاً، فلم تكن تلك الأوقات النادرة تمر دون أن يرقبها ويسجلها معاً

لقد سجلها الشاعر كما يجب أن تسجل — أعنى أنه لم يصورها كما هى فى الحياة — لم يرسم لنا أحلام الشباب نفسها، يحلمها وهو يقظان فتسعده وتزكى خياله، بل صور لنا عالماً جميلاً غريباً حتى إذا ما تعرفنا إليه ودخلناه[1] أحسسنا نفس ما يحسه الشباب الحالم من سعادة ودفء وسلام، وكانت المشاعر التى تختلج بها نفوسنا حينذاك هى نفس المشاعر التى تنتجها هذه الأوقات السعيدة فى حياة الرجال

أقول إن شكسبير كان واقعياً حتى فى أحلامه وخيالاته وقد يبدو هذا القول غريباً، على أن شرحه سهل بسيط؛ فكثير من الناس يحسب أن الفنان ساعة الخلق يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ويصورها فان هو قلد — فى زعم هؤلاء — شيئاً لا يراه الجميع فى الطبيعة ويحسونه — كان تقليده خاطئاً وخلقه وهماً باطلا، وعندى أن هذا الرأى خاطىء من أساسه؛ فالحق أن الفنان لا يقلد مظاهر الطبيعة نفسها، بل يدرس ويقلد السبيل الذى

(١) شأن الشاعر فى ذلك شأن الموسيقى يصف لنا أنغامه وصفاً فنياً، فتحدث فى النفس الأثر المرغوب من راحة أو ثورة ومن حزن أو فرح، وهى لو أخذت كل نغم على حدة لما تركت فى النفس أثراً من الآثار

تسلكه الطبيعة فى خلق مظاهرها ، وإنما هى الآلة المصورة التى تعنى بتصوير هـذه المظاهر دون أن يهمها تقليد السبيل الخالقة وتصويرها . ومن هذا يكون الحكم على العمل الفني من حيث قربه من الواقع والحق لا يتعلق بمحتويات العمل نفسه بل بالاحساس الذى تنتجه هذه المحتويات على القارئ أو المشاهد أو المستمع

فشكسبير هنا لا يعطينا هذه اللحظات السعيدة فى حياتنا نفسها بل ما قد تنتج هذه اللحظات أو ما يقرب منها

إن ما يعطينا الشاعر هو حلم حلمه ساعة منتصف ليـلة صيفية حيث يرق النسيم ويصفو ، ويهدأ الفكر ويرتاح البدن ، ذلك هو كائن دقيق يهيم ويتنقل من حلم إلى حلم ، له أجنحة فضية رقيقة تتكسر جميعها وتتلاشى إذا ما حاولنا أن نحبسه أسيراً فى سجن العقل والمنطق وأن نضيّق الخناق عليه هناك . فليس من الواجب أن نخبر طبيعة هـذا الكائن ولا أن نديم البحث فى حقيقته بل ندعه يمضى أمام أبصارنا ترفرف فوقه أجنحته الجميلة ، فيبهر منا البصر ويحملنا معه إلى عالم الأحلام من حيث أتى . وهل هناك أحلى من أن نترك حياة الحقيقة هذه وراءنا لحظة لنريح الفكر فى حياة اللاحقيقة ؟

لقد يسعدنا أن نتحرر من أسر المنطق الثقيل لنمضى ونحيا حياة المغامرة والغرابة والشعر حيث لا قيـد ولا شرط — مثل هذه الحياة للعقل تريحه وتجدد نشاطه ، وللنفس تنقيها وتنضجها ، ولـكننا يجب أن نصدّق ما نراه لـكى نستمتع هذه المتعة ونستريح هذه الراحة

نعم . إن بالقصة ما لا يمكن تصديقه وما لا يمكن وقوعه فى الحياة ، لـكن عدم الامكانية هذا هو الذى قد يعد العقل بالراحة والهدوء إذ أنه يجرد العواطف من حرارتها فلا يجعل المشاهد يتألم أو يشق ؛ فاذا ما جاءت اللحظة التى يقوى فيـها إحساسه بالقصة ويشتد عطفه يذكر نفسه بأن الموضوع كله حلم وخيال فقط ، فتهدأ نفسه ويبدأ يرى حوادثها مثل أشـياء بعيدة نائية يكسوها البعد لباساً من الهواء أزرق شفافاً

ولـكن أرى ينقص عدم الامكانية هذا من قيمة القصة أو يحط من مغزاها ؟ ثم ترى هل الحياة خالية كل الخلو من الجنى الداعب (بك) ورفقائه ؟

لا ! إن بنات الغاب يمشن فوق أرضنا هذه من وقت لآخر مداعبات حيناً نفوس الشباب وقلوبه ، حدبات حيناً آخر على عقول رجال الأعمال الجامدة وأفئدتهم الصلدة ، وأحياناً مشفقات منشدات للفقير والمـكلوم أناشيد الراحة والأمل ، ونحن نخشى (بك) الساحر ولـكننا لا نراه — نحسه يسير معنا فى حياتنا ، ونحس سحره الفعال كما صوره شكسبير يغير رؤوس الرجال : إلى رؤوس الحمير والبغال — بيـد أن سحره قوى لا يقاوم مرغوب من الناس محبوب من الشعراء . . .

أحب أن أقول إنه برغم كل ما بهذه القصة من شذوذ وغرابة فانها تطابق الحياة والواقع ، ولا تقل فى هذا عن قصة (لير) أو (هملت) — تطابق الحياة فقط فى أن الاحساس الذى تنتجه فى النفس هو إحساس صادق حقيقى كثيراً ما نحسه فى حياتنا ، العادية ونحتاج إليه ، ولو أن ما بالقصة نفسها يختلف عن الحياة وذلك نوع من أنواع الخلق الفنى النادر ، ومثل من أمثلة الفن الايمازى الذى ما أحسب أحداً غير شكسبير يستطيعه بسهولة ووضوح

لقـد نحلم أحياناً عند ما نسمع لحناً شجياً أو نرى وجهاً بهياً . بيد أن الشاعر هنا يدعونا لأن نحلم عند ما نقرأ شعره . فهل نرفض الدعوة ؟ إن الحلم الهادىء الجميل نادر فى هذا العيش ، وإن الاحساس بالراحة والطمأنينة وحلاوة الحياة الذى يعقب الحلم ويقطن النفس بعد رحيله عنها أندر من الحلم نفسه وأثمن . . .

فلزام علينا إذن أن نقبل دعوة الشاعر ، وأن نقبلها فرحين شاكرين ؟

محمد رشاد رشدى

بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

١٠ - شاعرنا العـــالمي

ابو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

حماقاته : روى صاحب الأغاني عن الحسن بن علي قال : حدثنا محمد ابن القاسم قال : حدثني اسماعيل بن عبد الله الكوفي قال : حدثني عمروس صاحب الطعام ، وكان جار أبي العتاهية قال : كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة ، سمعت بشراً المريسي يقول له : يا أبا اسحاق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فانه مشبه ، قال : كلا إنه قرأ بنا البارحة في الصلاة « قل هو الله أحد » ، وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد

وقد ذكرنا عن مخارق فيما سبق ما جرى لأبي العتاهية معه حينما دعاه فغناه وشرب معه ثم أمر غلامه فكسر كل ما بين أيديهم من النبيذ وآلته والملاهي ، قال مخارق : فظننت أنها بعض حماقاته ، فانصرفت وما لقيته زماناً ، ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت فاذا هو قد أخذ قوصرتين ونقب إحداها وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، ونقب أخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل ، فلما رأيته نسيت كل ما كان عندي من الغم عليه والوحشة لعشرته ، وضحكت والله ضحكا ما ضحكت مثله قط ، فقال : من أي شيء تضحك ؟ فقلت : أسخن الله عينك هـذا أي شيء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين ؟ انزع عنك هذا يا سخين العين ، فكأنه استحيا مني ؛ ثم بلغني أنه جلس حجاماً ، فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره ، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيه ، فأتيته عائداً ، فخرج إليّ رسوله يقول : إن دخلت إليّ جددت لي حزناً ، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه ، وأنا أستودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء ، ثم كان آخر عهدي به

وذكر بشر بن المعتمر أنه قال يوماً لأبي العتاهيـة : بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل ، أكذلك كان ؟ قال : نعم ، قال له : فما أردت بذلك ؟ قال : أردت أن أضع نفسي حسبما رفعتني الدنيا ليسقط عنها الكبر ، وأكتسب بما فعلته الثواب ، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة ، فقال له بشر : دعني من تذليل نفسك بالحجامة ، فانه ليس بحجة لك أن تؤذيها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك ، أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم ؟ قال : لا ، قال : هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم ؟ قال : لا ، قال : فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين

قالوا وإنه من أجل هذا وأشباهه غلب عليه هذا اللقب « أبو العتاهية » وقد أخبر ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال : كني بأبي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته . وأخبر محمد بن موسى بن حماد قال : قال المهدي يوماً لأبي العتاهية أنت إنسان متحذلق معته ، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وسارت له في الناس ، قال : ويقال للرجل المتحذلق عتاهية ، كما يقال للرجل الطويل شناجية ، ويقال أبو عتاهية باسقاط الألف واللام

ومن المحتمل عنـدي أن يكون تلقيبه بذلك من أجل ابنه عتاهية الذي روينا عنه فيما سبق بعض أخبار أبيه ، وأن تلك الأمور التي نسب اليه من أجلها هـذا الحمق كان يتحامق بها لأغراض له فيها ، وقد تحمل الأغراض بعض ذوي العقول على هذا التحامق فلا يكون لهم منه بد ، كما قال الشافعي رحمه الله وقد جرى بينه وبين بعض من صحبه مجانة :

وأنزلني طولُ النوى دارَ غربة
إذا شئت لاقيتُ امرأً لا أشاكله
أحامقه حتى يقال سجية ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ويمكن أن يكون من تلك الأغراض التي حملت أبا العتاهية على ذلك اتقاء ما كان يدبر له من ضروب الكيد ، ومحاولة الايقاع به ، وأخذه بتهمة الزندقة وما إليها ، فان ظهوره بهذا المظهر يهون من أمره ، ويجعله امرأ لا يخاف شره

ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج قال : أخبرني محمد بن الصولي قال : حدثنا أبو ذكوان قال : حدثنا العباس بن رستم قال : كان

حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاماً

وإذا كان خوفه من حمدويه هو الذي حمله على أن يحترف هـذه الحرفة التي ليست من شأنه ، لا ما تظاهر به من إرادة تذليل نفسه ، فيمكننا أن نحمل على ذلك كل تلك الحماقات التي تؤثر عنه ، ونخرجها على ذلك التحامق الذي يقصد به مداراة أهل الظلم والحمق

وقد كان أبو العتاهية يعتمد في هـذه الحياة المضطربة التي عاش فيها على ضروب من الحيلة كان يجيـد تمثيلها ، ولولاها لطاحت رقبته فيمن طاحت رقابهم ممن لم تساعفهم الحيـلة في تلك البيئة ، ولأبي العتاهية في ذلك نوادر لطيفة كان يتوصل بها إلى ما يعجز عنه غيره ، ويحوز بها القبول لدى أرباب الحل والعقد في عصره من رجاله ونسائه ، ولنختم هذا الفصل بتلك النادرة الظريفة من نوادره

ذكر أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي أن أبا العتاهية لما ألح في أمر عتبة لأول دخوله بغداد ولم ينل منها شيئاً ، وجدها يوماً قد جلست في أصحاب الجوهر ، فمضى فلبس ثياب راهب ، ودفع ثيابه إلى انسان كان معه ، وسأل عن رجل كبير من أهل السوق ، فدل على شيخ صائغ ، فجاء إليه فقال : إني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة ، فقام معه وجمع جماعة من أهل السوق وجاءها فقال : إن الله قد ساق إليك أجراً ، هذا راهب قد رغب في الاسلام على يديك ، فقالت هاتوه ، فدنا منها فقال : أشهد أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقطع الزنار ودنا فقبل يدها ، فلما فعل ذلك رفعت البرنس فعرفته ، فقالت نَحُّـوهُ لعنه الله ، فقالوا لا تلعنيه فقد أسلم ، فقالت إنما فعلت ذلك لقذره ، فعرضوا عليه كسـوة فقال ليس لي حاجة إلى هذه ، وإنما أردت أن أشرف بولائها ، فالحمد لله الذي من علي بحضوركم ، وجلس فجعلوا يعلمونه الحمد وصـلى معهم العصر ، وهو في ذلك بين يديها ينظر إليها لا تقدر له على حيلة ما؟

عبد المتعال الصعيدي

اسطورة يونانية : « اورفيوس ويوريديس »

الألم

[مهداة إلى شاعر يتألم : إلى الصديق محمد الفراتى]

للأستاذ خليل هنداوى

« أعيدوه الى أرض الحياة وحده ! إن عوده سيكت اذا عادت معه ، وان قيثارة الأرض ستنقص وتراً ، انى أريده يغنى فلا تعطوها له . نحن فى السماء كما على الأرض نتلذذ بالآلام الوالدة »

قد أطربَ الطيرَ بأنغامه وسهَّدَ الوحشَ بألحانهِ
يغيبُ عن إحساسِه ذاهلاً منتقلاً فى غير أوطانه
يشكو إلى القيثارِ أشجانَه فيملأ الكونَ بأشجانهِ
سكرانُ ! لا يُدرك ما مسَّه نشوانُ ! لا يَخرجُ من حانهِ

***

البحر والأمواجُ تصغى له والليلُ إن أسبلَ أستارَه
يأوى إلى عزلتِه حائراً يُذيعُ فى العزلةِ أسرارَه
ما بالُه يُعول قيثارُه فحطموا الليلةَ قيثارَه
هو الهوى امتدَّ إلى قلبه وأضرمَ الحبُّ به نارَه

***

وهذهِ من أيقظتْ روحَه تسرحُ فى الغابةِ كالحالمه
خاليةُ القلبِ ، تلاقى الفتى معرضةً عن حبّه ، واجمه
لا تفهمُ اليومَ نداء الهوى لا توقظوها ! إنها نائمه
يا هائماً قد لجّ منه الجوى إنهدْ إلى غانيةٍ هائمه . . .

***

سيفتحُ القيثارُ من نفسِها ما تعجزُ الأزهارُ عن فتحِه
ويفتحُ الألحانُ محزونُها جرحا بها أعمقَ مِن جرحهِ
وينقلُ النغمُ إلى سمعِها ماراحَ يشكو الصبُّ من برحهِ
لا تُنزلِى الرأفةَ فى قلبها ! فانما الإبداعُ فى نوحهِ . . .

***

طفا على الكون سكونُ الدجى وقد غفا غيرُ عيونِ الزهرْ
وخفَّ فى الأجواءِ عبقُ الشذا ونامتِ الأكوانُ إلا القدَرْ
هبّا إلى الرقص يُحيِّيهما فى صفحةِ المشرقِ ضوءُ القمر
من يُنبئُ الإلفينِ أن القضا مُبدِّلٌ صفوَهما بالكدر ؟

***

تسلَّلَ الصلُّ إلى جسمِها بوخزةٍ من وَخزاتِ المنونْ
فلم يكن فى عمرها فسحةٌ فخاطبتْ محبوبَها بالسكونْ
يا ليلةً ضلَّتْ مسراتُها ! وما اهتدتْ إلا عيونُ الشجونْ !
زَفوا عروسَ الموتِ يا ويلتا ! للموتِ، ماتغنى فتاها الشئون (١)

***

استنطقَ القيثارَ لكنما قيثارُه المحزونُ لا يُسعِدُ
سعى إلى وادى الردى ذاهلاً لكى يناجى روحَ من يعبُد
أصغى إليه الموتُ فى فترةٍ فجاءه يسألُ ما يقصدُ ؟
فقال : والقيثارُ فى شجوِه لى عندكم محبوبةٌ ترقدُ

***

يأيها النادى إلى عالمٍ ! داخلُه المفقودُ لا يرجعُ
ليس شفيعٌ للذى جاءنا بمهجةٍ محزونةٍ يشفعُ
أجابَ عندى لكَ أغنيةٌ أنشدَها قلبى ، فهل تسمعُ ؟
ثم انبرى يَنفثُ من حزنهِ ما تنهمى حزناً له الأدمعُ

***

رقت له زوجُ الردى فانثنت تستعطفُ الموتَ على من نزلْ
قالت له : عطفاً على هائمٍ ليس له من بعدها من أملْ . . .
أرجع إليه من سَبت عقلَه نوّارةَ الوادى ، ونورَ المقل
قد أرعنَ الوادى برنانه ألم يُلن قلبك هذا الغزلْ ؟

***

قال له الموتُ وقد راقهُ ورق ، والقلبُ أسيرُ النغمْ
أُخرج من الوادى ، ولا تلتفت ! إنى معيدٌ خلقها من عَدَمْ
فحطَّمَ القيثارَ من بشرِه وخفَّ جذلانَ ، سريعَ القدمْ
يسبق من تسرى بأعراقها الروحُ وتهتزُّ اهتزازَ النسَمْ

***

مشى وئيداً مرهفاً سمعَه لعله يُصغِى إلى جرسِها

(١) المراد بالشئون الدموع من قبيل المجاز المرسل

أصغى إلى الأزهار من حولِه   أصغى ، فلم يسمع سوى همسِها

الزهرُ والأعشابُ فى يقظةٍ   كأنها تمشى إلى عرسِها

أوَقعُها ألينُ من وقعِها ؟   أم حسُّها أرفقُ من حسِّها ؟

***

رنا إلى خلفُ على رقبةٍ   وقد عراه الشكُّ من عودِها

إن لم تعد حيةً فلأعد !   إنَّ الردى أهونُ من فقدِها

فأبصرَ الغادةَ شفافةً   كشعلةٍ تسطعُ من وقدِها

ولمعةُ الأحلامِ فى عينِها   وجذوةُ الأشواقِ فى خدِّها

***

تقابلا ! لكنَّ صوتَ الردى   صاحَ ، فخالَت كُتلةً من ترابْ

فلم يعانقْ غير أحلامِه   ولم يُشارفْ غيرَ لمعِ السرابْ

وهاتفٍ صاح به : يا فتى   عُدْ للهوى الباكى ، وعُدْ للعذابْ

واحمل بقايا العود ، لا تمهل   حرّقتَها : ليس لها من إيابْ

***

غداً إذا آبَ وآلامُه   هادئةٌ ، يسكتُ قيثارُه

غذوه بالآلام لا ترأفوا   ترنُّ بالآلام أوتارُه

لا تقتلوا الأشجانَ فى نفسِه   تفيضُ بالأشجانِ أشعارُه

لولا الذى تسكبُه يا ندى !   ماضحِكَتْ فى الروضِ أزهارُه

***

لنا بآلامِ الورى لذةٌ   وبالنَّدَى يُشرِقُ لونُ الزهَرْ

نريدُه يشدو لنا ، فليعدْ !   حليفُه الهمُّ وطولُ الضجرْ

نريده يشدو فلا تقطعوا   من معزَفِ الألحانِ هذا الوترْ

قد يَطرَبُ اللهُ وأملاكُه   لنكبةٍ تُنطِق قلبَ البشرْ

***

للأرضِ من قلب الفتى مِزقةٌ   ومزقةٌ يرفعها للسماءْ

فوزعِ القلبَ على أهلِه   وامنحْ من الآلامِ معنى الهناءْ

خُلقتَ هتافاً فلا تبتئسْ   هل نتاجُ الطيرِ إلا غناءْ ؟

إن تَبقَ منه بضعةٌ فلتكنْ   هديةً مشكورةً للفناءْ . . .

دمشق   خليل هنداوى

ظمأ على ظمأ

بقلم فريد عين شوكه

ظمأ على ظمأ وليس لمهجتى   رِىٌّ سواك يَبُلُّ حَرَّ ظمائى

يا مهد أحلامى ومُتعة خاطرى   ومناط آمالى وفيض رجائى

أنت الحياة ولا أزيدك بعدها   وصفا ، فذلك منتهى إيفائى

كم ذا تشعُّ بخاطرى فأغيب عن   صحبى ولا أصغى إلى خلصائى

وأظل أسبح فى هواك وألتقى   بك فى الخيال وأنت عنىَ نائى

وأراجع العهد الحبيب المشتهَى   فلعل فى ذكراه بعض عزائى

والصحب من حولى عيون تجتلى   حالى وتلحظنى على استحياء

حتى إذا جمح الحنين ولج فى   خلدى وألهب بالأسى أحشائى

مدُّوا إلىَّ عيونهم وتساءلوا   عما يغُول بشاشتى وصفائى

فأحار ثم أجيب غيرَ موفَّق   مع وفرة الأعذار فى حوبائى

يا غائباً عن ناظرىَّ وليس فى   قلبى سواه يرِفُّ بين دمائى

كم أشتهى برح الضنى لتعودنى   وأراك رأى العين فى جلسائى

يامستريح البال من عبث الهوى   لو كنت تعلم فى نواك شقائى

الفرقة الهوجاء قد رانت على   كبدى فيا للفـــرقة الهوجاء

شتان ما بينى وبينك فى النوى   كالبعد بين قرارتى وسمائى

ما أبعد الحالين ! أنت منعَّم   غافى العيون على رضًى وهناء

تسعى لك الدنيا وتحتشد المنى   للقاك كل صبيحة ومساء

وتعيش فى وادى الهوى متفيئاً   أندى الظلال وأكرم الأفياء

وأنا ، وقاك الله من سَرَف الجوى   وكفاك ما ألقى من الأعباء !

وأنا — كما تدرى — أهيم بمهمه   قفر الجوانب موحش الأرجاء

حرَّانُ تلفحنى الهواجر باللظى   حتى تذيب عزيمتى ومضائى

ظمآنُ أستسقى الغمام وإنه   ليضن أن يهمى بقطرة ماء

حيران ما أرتاح لحظ بصيرة   حتى أعاف إقامتى وثوائى

والوعة المهجور فى وادى النوى   مما يساوره من البرحاء

يا جنة السلوان ، ناءت عزمتى   من فادح الذكرى وخار بنائى

فمتى أفىء إلى ذَراك وأستقى   بَرْد العزاء ونشوة التأساء

فريد عين شوكه

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٨ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

الآن تبين لنيتشه أن هاوية سحيقة تفصل بينه وبين شوبنهاور وڤاجنر ، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع ، وقد بدا له أن نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة ، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التى استخلصها شوبنهاور من نظراته ، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة فى الوجود . ولكن هذا المذهب العدمى الذى يستتر فيه الخطر ، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً ، فان جيلنا إذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والذات الخانعة ، كان هـذا منه علامة الوهن والضعف والانحطاط . تنشأ فى جيـل تعب من الحياة وتصدع من الألم ، ويرتاح إلى الراحة المتمثلة فى العدم ، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته . . . ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث ؟ ماهى العلامات التى ساعدت على نشره . وما هو داء العدمية ؟ وما هو دواؤه ؟ ولم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد أن حكمه على ذينك المعلمين قد تحول من الكل إلى الكل . وإذا برفيقيه اللذين كانا عدته فى مكافحة التفاؤل يغدوان خصمين عنيفين له تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع . وأدرك فى النهاية أن ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير ، فاذا لم يبرأ من هـذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فانه لن يتاح له أن يقف أمام نفسه واعياً همسها فاهماً نجواها لابساً لباسها ، ولن يتاح له أن يأتى الناس بانسانه الكامل الذى أوحته اليه تعاليمه الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان ، فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التى يتحلى بها أسلوب « ڤاجنر » ووجد فيه ذلك الدليل الأمين الذى ينفع المفكر الذى يبغى أن يدرس هذه النفس وينحدر إلى أعماقها . فهو اعتنق مذهب « ڤاجنر » بادئ ذى بدء ليصل إلى هذه النفس . والآن يحاول أن ينجو من حبائل هذا الساحر . « إن ما يشغلني الآن هو الشفاء . . . لم يكن « ڤاجنر » إلا علة من عللى » . . على أن الأندية الأدبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب وهذه المفاجأة . وأجمعت كلها الحملة على نيتشه العقوق الذى رأت فيه الناكث للعهود . وأخذت الأندية تبعث بتآويل شتى لمعنى هذا الانفصال . وكلها أزمعت القول بأن نيتشه كان فى الحالة الأولى خير من تفهم « ڤاجنر » ووقف على دقائق مذهبه ، وكان تحليله الأول له خير ما أخرجه ناقد محلل عن هذا الفنان . وعللت بأن ما عراه من مرضه العقلى الذى ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع ، هو الذى ساقه إلى التنكر لأصدقائه ، ولكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة ، وهو الذى كتب نظراته وأعطى مذهبه حراً مفكراً مختاراً . لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طمن «ڤاجنر» ونال من مذهبه . أما أصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشه بهذا الفنان . وهنالك آراء تقاربت تجئ طوراً مع نيتشه وتارة عليه . أما الذين يمقتونه فهم ينقمون منه هـذه الشخصية أو هـذه الأنانية التى قادته إلى نكران الصداقة ، زاعمين أن شخصـية نيتشه لا تود أن ترى ظلاً لشخصية غيرها ، وشخصية نيتشه فى الحقيقة شخصية ذاتية قوية ، لأن الرجل يرى أن الشخصية هى كل شىء ، يُضحى فى سبيلها بكل شىء ولا يُضحّى بها فى سبيل أى شىء . فوجد نيتشه أن شخصيته تكاد تفنى فى شخصية « ڤاجنر » وهو الذى التصق به واتصل لمجرد الوصول إلى نفسه وتفهمها . ولم يجعل منه رسولاً هادياً ولا مثلاً سامياً . . وهكذا أخذت هذه الشخصية الغالبة تضيِّق عليه ويضيق بها ، وتخفى صوته الحقيقى ، فليضحِّ بكل شىء فى سبيل ذاته . ولعل نيتشه أدرك أن القوم سيختلفون فى تعليل هذا الانقلاب فكتب هـذه الرسالة التى تنطوى على صفاته ولون تفكيره . « كنا صديقين غريبين . . . . . كنا كمركبين . كلاهما له غايته وله سبيله . . . . قد نتلاقى ونرفع أعلام اللقاء كما فعلنا . . . وفى هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان فى مرفأ واحد ، يغمرهما شعاع واحد ، كأنهما مقدمان على هدفهما ، وكأن هـذا الهدف واحد عندهما ، ولكن الضرورة التى لا تُدفع قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وأنواء متباينة . وقد نتراءى ولكن لا نتلاقى . كم لوحتنا الشمس والأمواج ! نظل غريبين لأن الشريعة الغالبة تريد ذلك . .

ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً . . . وهكذا نريد أن نؤمن بصداقتنا « فى النجوم » حتى فى المهد الذى يجب أن نكون فيه خصمين على الأرض »

أليس فى هذه الكلمة ما يجعل نيتشه ربئاً شريفاً بازاء خصميه وأنصار خصميه ؟

نيتشه الفيلسوف !

— ١ —

لم تكن نهاية عمر نيتشه إلا معركة متصلة الأسباب ، يشنها صاحبها على الداء الذى خامره ، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه . وهو خلال ذلك يطول صراعه ويمتد نزاعه ، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذى تصدى له ، ولا يشعر بالمجد الذى صار يركض اليه فى أصقاع العالم

هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قدشك عند مناقشتها النقاد الذين لم تتسع لها عقولهم ، فقالوا عنها : إنها فلسفة طائشة جاءبها مجنون ، قد تمخض بها الجنون فتاً من قبل ! وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً ، على أن شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة ، فقد كتبها صاحبها واعياً وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون ، ومهما ذهب النقاد فى تعليل جنون نيتشه : أهو جنون اكتسابى أم وراثى ، فان الرجل قد استطاع بما أوتى من عبقرية سامية أن يحدث فى صفحة الحياة أمواجاً عنيفة بالحجر الذى ألقاه . وبهذا لا ينبغى لنا أن نعتقد أن الجنون أثر فى آثاره وهو الذى دل على وعى خارق فى أحد نوباته وأعنف آلامه

— ٢ —

أراد نيتشه آلامه ، وعمل على تحملها غير مستثقل ولا مستضعف ، يحولها إلى الحاجة التى يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته . فاذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لأنه لا يريدها ؛ فهو جدير بالاحترام . والبطل يحترم مستلماً ومكافحاً

أول نعمة احتسبها للألم أنه أنقذه من مهنة التعليم ودراسة اللغات المندثرة ، إذ أخذ يحس أن هذه المهنة برغم شرفها لا تتلاءم والفرض الذى تتوق إليه روحه . فهو فيلسوف قبل أن يكون عالماً بدراسة اللغات . وأخذ يشعر بأن وفاءه لهذه المهنة دفعه إلى قتل أزهى أيامه وتعطيل دراساته ، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء ! فجاء الداء وأجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضى الذى أصبح يعده غريباً عنه وهو منه . جاء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها ، وألقاه فى عزلة عميقة لا يقر فيها إلا إلى نفسه لأنها حرمت عليه الانكباب على المطالعة والانصراف إلى الدرس . فهو اليوم وحيد مع نفسه ، أمام نفسه . يسمع نداء من كان فى أذنه وقر عنها . فرحت اليوم نفسه بعودته إليها ، بأوبته إلى العزلة والراحة الخالدة : هذه النفس التى كادت تقتلها الحادثات وتطغى عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنها الأكفان ورفعت صوتها الرنان « ما تذوق يوماً من السعادة ما تذوقه خلال أيام دائه لأنه عاد إلى نفسه . وهذه العودة إليها كانت شفاءه . وهذا الشفاء يتلوه شفاؤه المادى »

على أن الداء لم يزد نيتشه إلا احترازاً فى النظر إلى مسائل الكون والحياة ، وهو عاكف على التطلع إلى هذه المبادىء الفلسفية ، ولكن يراها بمجموعها جملة مبادىء هى حقائق بعينها ؛ اطلع اليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة ، ومما ينبغى أن ينظر اليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم فى العقل البشرى ، فاذا تألم جسدنا — وهو العقل الأكبر — فالعقل الصغير لابد متأثر بما نزل بالعقل الكبير ، وإذ ذاك يسأل السائل : هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه أو انحطاطه ؟ وقد أيقن نيتشه بأن السقم زاده احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخيلة والأوهام التى تتولد عادة عند من راقت لهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا « بلى ! انني أدرك أن الألم لا يحمل الانسان إلى المقام الأحسن ، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا ! »

والانسان الذى يريد أن يناضل ما ينتابه من قلق جسمانى متسيطر ينبغى له أن يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه ، تخرج منها ارادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندى المستسلم لألوان من العذاب ، أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للارادة ، والانسان الذى يتمكن من هذا الامتحان يقضيه من غير ضعف ، يتعلم منه أن يتأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء ، لا يخدعه عن حقيقتها شىء ؛ فهو يأبى أن تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المغرية ، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحياة يتحرك فى طوايا نفسه ، يريد أن يستبدل بها آلاماً تتولد له حين

يقابلها وجها لوجه يميط عن وجهها النقاب . وينزع كل زينة خادعة تتبرج بها لاغواء الناس ؛ وهو إذا أحب الحياة بعد ذلك فانه يحبها كالعاشق الغيور المتحرز ، حبك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشك عندك

يلاحظ نيتشه أن الألم هو الذى جعله متفائلاً ، والسقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسمانى فى عقل المفكر ، ولاحظ به كيف يسمى الألم إلى قهر عزة العقل الفلسفى ورد هذه العزة ضعفا وذلة وحزناً وكآبة . وأدرك ما هى المواضيع والزوايا السماوية التى يلجأ اليها عقل المرضى والمنحطين سمياً وراء ما يخفف عنهم من فاقتهم وكآبتهم . وأدرك بعد هذا كله أن كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب ، وكل فضيلة تعطى للسعادة تحديداً سلبياً ، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى أن فى مراحل الاعتدال والراحة التامة والأمل الدينى فى عالم خير من هذا العالم ، وفى برزخ غير هذا البرزخ ، يرى فى هذا كله حداً للرفعة والسمو ؛ إن هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهى تحمل طابع الفساد والانحطاط ؛ وآمن بأنه فهم أن كل هذه المذاهب الداعية إلى التشاؤم والركون المطلق تدل على أن أصحابها الواضعيها كانوا فى حالة مرض عضوى ؛ ولما أراد هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل ؛ وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم ، فانصب على الداء بكل ما يحوى جسده ونفسه من عزم ، يقاومه فى معركة لاهوادة فيها ولا رحمة ، وبقوة روحه قد انتصر فى عالمى جسده ونفسه ؛ عاد متفائلاً ، وعادت اليه العافية ، « ألا إننى اكتشفتُ حياة جديدة ؛ اكتشفتُ نفسى . إننى قد جرعتُ الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها ، وجعلتُ من رغبتى فى الشفاء والحياة كل فلسفتى ، حذار جميعاً ؛ إن الأعوام التى انحطت فيها حيويتى ، هى الأعوام التى طلقتُ فيها تشاؤمى ، وغريزة الوقاية هى التى صرفت عنى فلسفة اليأس والفاقة »

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٣ – حُروب طَرْوَادَة

إلى أسبارطه !

للأستاذ دريني خشبة

– « سمعت يا أبي قصة أختك المعذبة « هسيونيه » إذ أنا أرعى الشاء والبهم ، فكان قلبي يتفطر أسى ، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه في الصميم من شرفه ، وعار ليس أيسر من دفعه ، لكنه يغضي عليه ، وينام عنه ، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة ، أو حلماً لا يدور لهم بخلد ! ؟ »

– « حسبك يا باريس ! حسبك يابني ! إنها محنةٌ كتبت على طروادة ، ، صنعها جدك بيديه ! »

– « جدي ؟ »

– « أجل ! جدك . . . أبي . . . أبي لا يوميدون ! هو الذي نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل . . . الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل . . . الوحش الذي فتك بمذاري طروادة . . . لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فانه يتزوج هسيونيه . ولما قتله هرقل العظيم . . .

– « رفض والدك أن يزوجها منه ! »

– « هو ذاك ! »

– « لم أسمع بهذا من قبل . . . ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئه أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي !

– « كنت طفلاً . . . وقد كنت بعض هذا السبي . . . ثم من كان يستطيع دفع هرقل ، أقوى أبناء زيوس ، وصاحب المجازفات الخرافية ! من كان يستطيع حماية طروادة منه ، بعد أن نكث الملك بوعده ؟

أنت كنت بعض السبي ؟ انت يا أبي ؟

– « أجل يا باريس ! وقضيت في أيدي أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابي ! لله كم كانوا كرماء حقاً ؟ . . . »

– « وكيف عدت إلى طروادة إذن ؟ »

– « مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب ، ولم يكن له ولي عهد غيري ، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطلبونني ملكاً لهم ، بأي ثمن . . . ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء . . . لقد أعادوني معززاً مكرماً إلى وطني ، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل . . .

– « ولم لم تعد عمتي هسيونيه يا أبتاه ؟ »

– « لقد تزوجها تيلامون يا بني ، وأحسبها الآن أُمّا »

– « ذلك أدعى لعودتها . . . إنها لا شك تتعذب في دار غربتها . . . مسكينة ! ! إن حدائق الخلد لا تجدي نفعاً إذا كانت سجناً لأحدنا !

– « هذا حق يا بني . . . ومثله القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون !

– « أنا حزين يا أبتاه . . . لا بد أن تعود عمتي . . . أفتأذن لي في الابحار إلى هيلاس (١) ؟ إذا أذنت ، فلن أعود إلا بها

***

الآلهة لا تكذب !

هكذا قالت ڤينوس ! وإذا كانت الآلهة لا تكذب ، فلن يكذب أبوللو ! لابد أن تصدق النبوءة القديمة ؛ لابد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة ، وليخيم الموت في داراتها جميعاً . . .

(١) اسم بلاد اليونان قديماً

الآلهة لا تكذب !

لقد أبحر إلى أسبارطة فى يوم عاصف ؛ أسود من جبين الموت ! وأبرد من بطون القبور ! ولقد كان أسطوله اللجب يرقص على نواصي الموج ، كما يرقص الطائر المذبوح فى قبضة الفناء . . .

هيلين (١)

ثمرة الحب الأولمبى الساحر ... ابنة زيوس ، الغزل ، زير النساء ؛ من ليدا الفاتنة ، التى حوّلها حبيبها كبير الآلهة ، وسيد أرباب الأولمب ؛ إلى بجعة بيضاء تتهادى فى مرايا المستنقعات والغدران ، ليسهل عليه لقاؤها دون عزول . . . أو رقيب ! ولقد ولدت له هذه الطفلة التى كانت كقطرة المداد يمهر بها إعلان الحرب !

شبت هيلين وشبت فى أثرها شياطين الفتنة ؛ وكبرت ، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق !

لقد كان جمالها أسطورةً مصورةً فى السحب ، موشاةً بذهب الأصيل ! كانت نظراتها تفتدى بأرواح المحبين فى غير شرَه ، وترتوى بماء حياتهم فى غير نهم . . . وإن كان محبوها يحصوْن بالآلاف . . . !

وهى لم تعمد يوماً إلى قتل هذه الأرواح المظلومة ؛ ولم يكن ذنبها كذلك أن تنظر فتصرع ، أو تنعس فتُصمى ... ولكن القتل كان يذهب بأرواح عاشقيها عفواً كلما نظرت هنا أو هنا ... وذلك هو القتل البرىء ...!

وكان لها فم شَتيتٌ حلو ، أودعت فيه السماء أسرارها ، وصبغته عرائس (٢) الفنون بحمرة القبل ؛ فهو دائماً يبتسم ، وكل ابتسامة منه تُحيى وتُميت !

وخدّاها الأسيلان كذلك ! لقد كانت لها نعومة ولمعة ، و « نونةٌ » (٣) خلّابة ، هى ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف !!

ثم عنقها الطويل البلّورى الشفّاف ، وجيدها الممتلىء الخصب ! وجسدها الرخص المرمرى ! وساقاها الملتفتان ، يختلط فى بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد !

هذه هى هيلين !

فاذا فترْتَ العينين ؛ وأرخيْت الأهداب المكحلة السوداء ، ذاتَ الوطف ؛ وأرسلت نظراتك المذهولة ترف بالخد والجيد ، والفم النضيد ، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب ، وأثقال الهوى ... رأيت التمثال المعبود الذى خاب ألباب أمراء هيلاس ، وأجّج قلوبهم بالفتنة ، وقرّح أجفانهم بالسهاد !

* * *

لم تنشأ هيلين مع ذاك فى حجور الآلهة ، إذ تزوجت أمها ، بعد أن هجرها زيوس ، من تنداريوس ، أحد أمراء هيلاس ، فترعرعت الطفلة فى مهاد النعمة ، وسعدت بالهناءة والعيش المخفرج حتى كانت هيلين التى رأيت ! ؟

وقد تقدم إلى خِطبتها كثير من سادة الأغريق ونبلائهم ، ولكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعْلاً لها ... لا لعيب فيهم ... ولكن القلب !!

أجل ، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولمبية الرائعة ، إلا لكل جميل رائع ! ولما لم يكن فى كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها ، فقد رفضتهم جميعاً ، وعلة ذلك هذا الدم المتكبر الذى يتدفق فى عروقها ، وذلك الجمال المعبود الذى كان أكثر من أن يحصر فى امرأة واحدة !!

وجرت الألسن فى هيلين ، وجمال هيلين ، وعشاق هيلين . . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم ، والتى زوج أمها من جراء ذلك هولاً شديداً ورهقاً ...

تحدثوا أن عشاق هيلين ، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها ، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها ، يطمع كل منهم أن يفوز هو بيد هذه الغادة ذات الفاتن ، التى أذلت الأعناق العزيزة ، ورغمت بها الأنوف الأغريقية الشماء !

وخشى تنداريوس أن تشب الحرب بينهم ، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لها دون الآخرين ... وأسقط فى يده حين تقدم منالايوس ، ملك أسبارطة ، وسليل الآلهة أيضاً ، إلى هيلين يطلب يدها ... فلما أسرّت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك

---

(١) ايلين أو هيلانه أخت كليتمنسترا من أشهر الأشخاص الكلاسيكية

(٢) Muses

(٣) للخد البارز المستدير خط مما يلى الأنف يزيده جمالا وقد أطلق عليه بعض الكتاب (نونة) ولا ندرى هل توافق الرسالة على هذه التسمية ؟

أسبارطة بعلاً لها ، تضاعف فزعه ، وازدادت خشيته ، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئاً ، فان أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألدّاء ، وهو لا حول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا طول !!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة ...

لقد أقام حفلاً شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين ، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم ، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لها وعدم التوفيق في إنجاز شيء مما أقدموا له واختلفوا فيه ... : « أفان بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم وترتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة فقتلتموه أوفضحتموه في عرضه ، وجعلتم اسم هـذا البيت الكريم مضغة في أفواه الهيلانيين وجيرانهم ؟؟ إنما نريد أن نتقي هذا الشر فلا يستطير ، ونتدارك الأمر ؛ فلا ندعه همجية بيننا ؛ ولن أكلفكم في سبيل ذلك شططاً . . يمين ، يا سادة ، صادقة ، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا ، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين ، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة . . . بل لنتفق جميعاً على أمر يكون أعم مما أشرت إليه ، أن نكون يداً على من تحدثه نفسه بالأضرار بهيلين أو بسَبْيِها ؛ فقد تحدث إليّ من عنده علم أن بعضكم ينتوي هـذه النية السوداء . . . ينتوي أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها ، وأنتم السادة النُّجب من عِلْية الأغريق وجيرة الأولمب ، أفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كالكم شاركتم فيه من قبل ؟ ... »

ويجيب المدعوون في صوت واحد : « حاشا حاشا ! لنقسم جميعاً . . . » وأشرقت هيلين على الملأ ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا ، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقى الرنان ... تختار ملك أسبارطة ، الملك منالايوس ، ليكون زوجها الوفي الأمين !!

وطأطأوا رؤوسهم ... وانصرف أحدهم في إثر الآخر . . .

***

رسا أسطول باريس في مرفأ ليسديمونيا[1] الأمين ، وخرج الأسبارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن بريام العظيم ، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحبي العرش ، فيلبث أياماً في ضيافتهما ، ثم يعود أدراجه الى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه !

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب ، وتحرك الموكب الكبير في طريق حُفَّت بالشعب الطروب ، وفُرشت بأوراق الورد ، وتأرجحت في جنباتها أنواع الرياحين . وكانت فرق من الموسيقيين تعزف هنا وهناك ، فتراقص ألحانها المذيبة حبات القلوب . وكم كان جميلاً رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً ، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافها حتى يبلغ عنان السماء . . . فاذا فرغوا وصلت هتافهم فرقة تالية . . . وهكذا . . .

وكان سِرب من أجمل قيان اليونان وحِسانها يحيط بالملكة الجميلة ، وقد قصَّرْنَ ثيابهن وأرسلن شعورهن ، فبدون فتنة الركب ، وكن سحر الموكب ، ولفتْنَ من باريس بصره وسمعه وفؤاده !

وكان الفتى يخالسهن نظراتٍ مشغوفةً ، وكن بدورهن يبْسمن له ويتبرّجْن ، حتى التقت عيناه بعيني الملكة . . . فنسي نفسه ! !

لقد خُيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيـه ، ليتأرجح في مقلتيه ! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى ؟ إنه لم يذهب الى الأولمب قط ، وهل لبشرى أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هذا الجمال الساحر ، والحسن الفتان ؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب باريس في قوة وعنف ، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها ! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهمٍ مُراش من عينيها الساجيتين ، انطلق الى جوانحه في بروقٍ من بسماتها . . . ورعود !

لقد زلزل قلبه . . .

وأحس كأن قُوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمي هيلين ! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل . . . ولكن بلا جدوى . . .

ثم بدت له فينوس بحيث لا يراها أحد غيره . . . وقالت له : « هِيَ . . . هي . . . كن شجاعاً ! » . . . ثم غابت ربة الحسن . . .

فذكر ماضيه القريب ، وذكر ما وعدته به فينوس ، وذكر

---

(١) عاصمة أسبارطة قديماً وقد يطلق هذا الاسم على أسبارطة نفسها

أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية . . . سماوية . . . من ربة الحب ، وأنها مخلوقة تخلقها ، عذوبة روح ، ورقة نفس ، ودفء دم ، وسحرَ عيون . . .

فصمَّم على أن تكون له ! !

* * *

ولبث باريس في ضيافة الملك أياماً كانت تتصرم كأطياف الأحلام ! ثم حدث حادث جلل في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه ، فلما كان يوم السفر ودع منالايوس زوجته الحسناء ، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم ، باريس ، « ابن صديق ملك طروادة ! » . فطمأنته هيلين ، وخرجت تودعه ، حتى إذا كانت عند أسوار ليسدعونيا ، حيته تحية فاترة . . . وعادت لترعى عصفورها الغِرِّيد . . . ! !

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة ، وأقبل هو عليها في غير وجل . أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها ! وأقبل هو عليها يغازلها ، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته فينوس !

« هيَ هيَ . . . كن شجاعاً ! » . وهكذا كانت تتردد هذه العبارة المقتضبة في أذني باريس كلما ذكر الوفاء وشكران الجميل ؛ وكلما هم أن يبتعد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه . . .

« هيَ هيَ . . . كن شجاعاً ! » إذن فليكن باريس شجاعاً كما أمرته فينوس ! ليقترب من هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمن عليه بها ، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات ؟ ليقترب منها ، ولتصب هي سلسبيلاً من الموسيقى في أذنيه المرهفتين لكل كلمة من كلماتها ... وليرشف هو هذه الخمر التي تتدفق من عينيها وأهدابها ... ليرشف من هذه الخمر حتى تثمل روحه ، ويسكر قلبه ، وتزيغ عيناه !

ليقتربْ ! ليقتربْ كثيراً ! ليمس جسده المشتعل ، جسدها المعطّر الفينان ! إنها لا ترفض أن يكون ذراعه فوق كاهلها ! بل هي أيضا تنثر ذراعها فوق كاهله ؟ هاهما يتخاصران ! الخبيث يضغط ثديها الأيسر بشدة ! هل يبحث عما يكنه قلبها ؟ أم يفتش عن شيء مفقود في نفسها ؟ إن عينيه ما يتحولان عن عينيها ! إنه يحملق فيهما بشراهة !

قُبلة . . .

هي القبلة الأولى من غير شك : هي الاعتراف الصريح بنضوج الحب !

وقبلة ثانية . . .

وهي القبلة المؤكدة لأختها الأولى ! هي عدم المبالاة بما عساه أن يكون ! هي أول شرط في عقد هذا الغرام الأثيم . . . ! هي الاعتداء الصارخ على عرض منالايوس . . . منالايوس العظيم ملك أسبارطة . . . وسليل الآلهة ! !

* * *

ـ « ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سوياً أبد الدهر ! . . . »

ـ « ألا يسرني ! ما السرور إذن يا حبيبي باريس ؟ »

ـ « إذن فلنترحل في ظلام الفجر ! »

ـ « إلى أين ؟ »

ـ « إلى طروادة ؟ »

* * *

وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل . . .

هيلين ! !

وعفا الحب عن عمة باريس ! عفا الحب عن الأثيم هسيونيه !

(لها بقية)

دريني خشبة

من أساطير الأغريق

المحسن ...

[مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة]

للأستاذ محمد روحي فيصل

منذ آلاف السنين ، بينما الناس فى اللهو والضلال كانوا منغمسين ، سُمع من جانب السماء صوتٌ هائل كأنه الرعد القاصف قد اهتزت له أطباق الفضاء ومادت منه جوانب الأرض ؛ فاذا عيازيب النور بجف على أثر ذلك ، والظلام يغمر الدنيا كلها ؛ كأنما الشمس الحبيبة — أمُّ الحياة — قد غاضت أشعتها الزاهية وانطفأ معناها الحى ، وإذا بالأنهار والينابيع والغدران تجمد وتكف عن السعى ، وقد استحال خريرها المؤنس الجميل إلى صمت كئيب موحش كصمت القبور ، وإذا بريح صرصر عاتية تهب مجنونة على الأرض فتقتلع الأشجار بأصولها وفروعها وتهيج الغبار ، وتختطف المنازل من أماكنها ، وإذا بالضوارى المروّعة تنفر من مكامنها هائجة غاضبة تزأر ..!!

وريع الناس وجبنوا فما يدرون ماذا دهاهم من الخطوب ، ثم أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون : أى ذنب اقترفناه ، وأية فريضة لم نقم بها حتى صب علينا الآلـه العظيم غضبه وويله ؟

وكانت قافلة الحياة يومئذ من الشر والضلال فى منزلة لم يعرفها التاريخ فى أدنى عهوده ، تسير على غير هدى وإلى غير غاية فى معمهٍ من الفساد وطريق من الرذيلة ، وكان رجال الفن أدق الناس شعوراً وأرهفهم إحساساً . فقال الشاعر : « إنى نظمت فى مديح الآلـه قصيدة رائعة منتزعة من النفس ؛ لا صادرة عن اللسان ، ما أحسب أن أحداً من الشعراء سبقنى إلى مثلها على كثرة المادحين ، أودعت فيـه قلبى ودمى ، وحرقت لها مخى وكبدى ، ثم صغتها فى لفظ عذب جميل ! فأنا أسبح بحمده ما نطقت ، وأنشر روحَه أنى حللت ، ولقـد أجثو فى محرابه خاشعاً متصدعاً ، أتلو آى التمجيد والاجلال ، فكيف يغضب منى وينقم علىّ ؟ »

وقال الموسيقى : « وأنا أيضاً لحّنت أنشـودة قوية تحكى هديل الحمام وتغريد العنادل ، ورجّعتها ترجيع عاشق محزون ، ثم قدمتها هدية حقيرة للآلـه الجبار ، فلماذا غضب .؟ »

وقال النحات : « أما أنا فقد صنعت له تمثـالاً عظيماً يجمع إلى معانى الجبروت تهاويل الجمال ، وإلى قوة البنية رشاقة القسمات تُرى أيغضب الآلـه منى وأنا مجسِّده ؟ (١) »

وانتفض المصور وقال : « أأنا مغضب الآلـه إذن ؟ لقـد أخذت زرقة السماء وخضرة الأوراق واحمرار الشفق ، ونزعت من الورود ألوانها ، والتمست من ذلك كله صورة لآلهنا الكبير فما زلت أعمل فيها وأنسقها حتى برزت حيـــة ناطقة فى إطار واضح مشرق ... »

ويضطرب الناس ، وتطغى عليهم حيرة جاهلة عمياء ؛ تتبينها فى الوجوه الواجمـة ، والنظرات الحائرة ، والخطى الثقيلة ! ويتداولون الأمر همساً ، ويلتمسون الخلاص من الخطب ، ويجمعون رأيهم على الذهاب إلى وادى عبقر ، موطن الوحى والالهام . فراحوا جميعاً إلى حيث يلاقون إلـههم الغاضب ، يتقدمهم الشاعر ساهمَ الوجه ، تائه البصر ، وحمل المصور لوحته وريشته العذراء ، وتأبط الموسيقى قيثارته المشدودة الأوتار ، وجمع النحات أزميله ومنقاشه وحجره ...

وفى لمحـة خاطفة ، طلعت الشمس ، وغردت الطيور ، واستأنفت الأنهار سيرها ، ثم لامست الوادى غيمة كبيرة بيضاء هبط منها الآلـه الجبار !!

وخر الناس من الخشية سُجّداً يلتمسون البركة والضراعة والغفران ! وكما يسمع الحالم فى النوم سمعوا صوت إلـههم يقول : لقد بعثت فيكم رسولاً كريماً ينشر الرحمة ويملـكم العطف والتقدير فتجاهلتموه !

بعثته والأخلاص ملء برديه وفيض إهابه فلم تقدروه !

هو خادمكم الأمين يبذل عرق جبينه لاصلاح مجتمعكم الواهى وينفق المـال الذى بين يديه دون أجر غير أجرى ؛ لأنه يعطيكم أكثر مما يأخذ منكم ، ويبنى المستشفيات والملاجئ ، ويقيم دوراً للعلم فنسيتموه أو تناسيتموه !

وحق عظمتى ، لولا رحمتى التى وسـعت كل شىء لجعلت الأرض فوقـكم قاعاً صفصفاً ...

عند ذلك صاح الساجدون كلهم :

ما اسم هذا الرسول الـكريم ؟

فأجاب الآلـه الجبار : المحسن

حمص **محمد روحى فيصل**

(١) التجسيد : تمثيل الرب بطبيعته وهيئته فى زى انسـان ، والتعبير مقتبس من اليونانية Anthropamarphisme

الهـــدية

للأستاذ بشير الشريقي

حدثني صديق لي وهو في مقتبل عمره ، وأول عهـده بالوظيفة ، قال :

في صباح أحد الأيام ، وأنا متهيء للخروج إلى عملي ، إذا بباب غرفتي يطرق ، وإذا بالطارق فتى جميل المحيا ، يقظ الملامح ، يحمل على يديه سفطاً مستطيل الشكل ، كبير الحجم ، فما وقع نظري على الفتى والسفط بين يديه حتى تولاني الانقباض ، لأنني عرفته من هو ؟ وأين يشتغل

تمتم الفتى : لقد عاد عمي الشيخ من دمشق مساء أمس وهو يهديك تحياته ، وقد أرسلني بهذا السفط هديته من دمشق اليك

ولـكن عقلي كان قد اهتدى إلى أني موظف ، وأن لصاحب هذه الهدية مصالح كثيرة عندي يهمه قضاؤها

فبادرت الفتى بتؤدة : ما هذا ؟ ليس من الضروري . . . . له مني الشكر . . . أعد السفط اليه . . . ليس من الضروري . . . ولـكنه قاطعني بأدب : لقد بعث به الشيخ اليك .. وهو هديته من دمشق . . . وسيغضب عليّ إن رجعت به

قلت بلهجة الآمر : أرجعه . . . سوف لا آخذه

عاد الفتى بالسفط وهو لا يصدق أني رفضت قبوله ؛ وعدت فأغلقت عليّ باب غرفتي أفكر في الذي صنعت : لولا أنه صاحب حاجة عندي لما خطرت هذه الهدية له على بال ولما فكر فيّ لحظة ، إذ لا صداقة بيني وبينه ، وأنا لا أراه إلا في الدائرة حين يريدني في أمر رسمي ، أو في الطريق فنتبادل التحية من بعيد ، وفوق ذلك فهو من التجار الذين يحاسبون على السحتوت والقطمير ، والذين يعطون القرش ليستردوه قرشين ؛ وهكذا كان الظاهر محاطاً كله بالريب فلم يدخل في نفسي أن هدية الشيخ منزهة عن الغرض

وبينا أنا على هذه الحال ، إذ أرى الشيخ من نافذة غرفتي قادماً إليّ ، فأسرعت وفتحت له الباب :

أهلاً وسهلاً بحضرة الشيخ ، الحمـــد لله على سلامتك ، تفضل . . . جلس فإذا به قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولـكنه لا يزال محتفظاً بقوته ونشاطه ، قد تدلت من ذقنه لحية كبيرة بيضاء ، يرتدي سروالاً وجبة ، نظيف البزة ، وسيم الطلعة ، حسن القيام على نفسه

— ماذا فعلت يا ابن أخي ، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية

قلت : ويرد الصـدقة

قال : ويرد الصدقة ؟ ! ولـكن قسماً بهذه اللحية – وقبض على لحيته – إن الهدية قد صنعت على اسمك وحملتها من دمشق اليك

قلت : أشكرك . . . أشكرك . . .

قال : ولا أزيدك علماً أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه : « من أهدى اليه شيء ورده فكأنما ردّه على الله »

قلت : صدق رسول الله الـكريم .. أنا لا أشك في حسن نية الشيخ ، ولـكن القانون يا عم . . . هذا القانون المـكلفون نحن قبل غيرنا بحفظه واحترامه ينهانا عن أخذ مثل هذه الهدية ، فهي في عرفه رشوة والعياذ بالله ، يستحق معطيها وآخذها شديد العقـاب — إليك المواد — ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٦ من قانون العقوبات العثماني — وقرأت له نصوصها — إنه لأمر خطير

وقلت له :

ولـكي تثق بواسع علم المشرّع الذي سن لنا قانون العقوبات وبعد نظره أروي لك هذا الحديث الشريف المثبت في الصحيحين عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن النبيه على الصدقة فلما قدم قال : هذا لـكم وهذا أهدي إليّ فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هـذا لـكم وهذا أهدي إليّ فهل قعد في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! »

وهنا صمت الشيخ ولـكن لسان حاله كان يقول :

— لقد عرفت كثيرين غيرك من الموظفين كباراً وصغاراً فلم يحدثني واحد منهم عن مواد قانون العقوبات ولا عن حراسة القانون ، لم يذكر لي واحد منهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع عامله على الصدقة بل كان أمري معهم ولا يزال على العكس تماما فأنا مكلف عند كل خطوة وعند كل حاجة أن أقدم الهدايا وألبي الطلبات . . . .

* * *

وإلى هنا انتهى حديث الصديق فوجدته جديراً بالتدوين ؛ فدونته في الحال ؛ وها هو كما سمعته بلا زيادة ولا نقصان ؟

(شرق الأردن)

بشير الشريقي

البريد الأدبي

جورج رسل عميد الشعر الارلندى

من أنباء ارلندة أن شاعرها الكبير جورج وليم رسل قد توفى فى الثامنة والستين من عمره . وكان رسل عميد الشعراء الأرلنديين منذ أوائل هذا القرن ، كما كان السير وليم وطسون عميد الشعراء الانكليز ، وقد توفى كلاهما هذا الصيف ، ففقد الأدب الانكليزى بذلك آخر زعماء المدرسة الشعرية القديمة ؛ وكان مولد جورج رسل فى لورجان سنة ١٨٦٧ ؛ وتلقى تربيته فى دبلن ودرس التصوير ومارسه ؛ ثم غدا زعيما لحلقة أدبية كانت تنشر صحيفة عنوانها « الثيوسوفى الأرلندى » ، وفيها نشر أشعاره الأولى التى جمعت بعد ذلك فى ديوان سمى « أغنية وطنية متناثرة » (سنة ١٨٩٤) وفى مجلد آخر سمى « أنفاس الثرى » (سنة ١٨٩٧) . وكان رسل إلى جانب مواطنه الشاعر بيتس زعيما للأحياء الأدبى فى أولنده ؛ ودرس رسل التصوف الشرقى ، وتوثقت أواصره بزميله بيتس ؛ وكان يعمل مدى أعوام طويلة كاتباً فى شركة للأقمشة ، فقدمه صديقه بيتس إلى الزعيم والمثرى الأرلندى الكبير السيرهوراس بلانكيت وأوصاه به خيراً ، فألحقه بالشركة الزراعية الكبيرة التى ألفها لمعاونة المزارعين ؛ وتولى رسل الطواف على دراجة فى القرى الأرلندية يستفهم من السكان عن أحوالهم ورغباتهم . وفى سنة ١٩٠٥ اختاره السير بلانكيت لتحرير صحيفة الجمعية ، وهى صحيفة سياسية تعاونية ، فاستمر فى تحريرها حتى سنة ١٩٢٣ . وفى ذلك العام أصدر رسل لنفسه صحيفة جديدة عنوانها « السياسى الأرلندى » فاستمرت حتى سنة ١٩٣٠ . وأصدر خلال هذه الفترة عدة مؤلفات شعرية ونثرية منها كتاب « لب المعرفة » (سنة ١٩٠٣) ورواية مسرحية عنوانها « ديدرى » (١٩٠٧) وكتاب « مثل المجتمع الأرلندى الريفى » (١٩١١) وقصيدة كبيرة عن ثورة سنة ١٩١٦ عنوانها « التحية » ، وديوان عنوانه « السحر وقصائد أخرى » وغير ذلك مما يضيق بذكره المقام

وقد كان رسل وطنياً كبيراً ، يشتغل بالسياسة إلى جانب الأدب ، ويسخر الأدب لخدمة وطنه ، وتأييد مثله العليا فى الحرية والاستقلال ، وكان أيضاً انسانياً عظيما يبذل وسعه لمعاونة البائس وغوثه ، وانتشال الطبقات الدنيا من وهدتها

فكتور هوجو الصحفى

كان فكتور هوجو شاعر فرنسا الأشهر صحفياً كبيراً ؛ وقد تناول هذه الناحية من حياة الكاتب الكبير ، مسيو بول سوشون ، بمناسبة الذكرى الخمسينية لوفاته ، فقال : إن هوجو قد مارس خلال حياته ثلاثة أنواع من الصحافة : الصحافة الأدبية ، والصحافة السياسية ، والصحافة الخبرية . وقد بدأ هوجو حياته الصحفية فى جريدة « كونسر فاتير لترير » ، وكان يكتب فيها فصولاً نقدية ، أثارت إعجاب النقدة يومئذ ، ووصف ادموند بيريه يومئذ كاتبها بما يأتى : « صحفى وناقد ، كانت لدعاته الأولى لذعات أستاذ مبرز ؛ وعند هذا الفتى الذى لم يجاوز الثامنة عشرة موهبة نثرية لا تقل عن موهبته الشعرية . ومما يلفت النظر لأول وهلة سعة معارفه الأدبية ، فهو يكاد يستوعب كل شعراء العصر القديم . ثم الشباب ! وهذا هو الذى يفيض على صحف « الكونسر فاتير لترير » سحراً لا يقاوم »

ولما صدرت فى سنة ١٨٠٩ أول طبعة من مؤلفات شينيه ، كتب هوجو فى التعليق عليها أن نزعة شعرية جديدة قد ولدت ، ولما صدر ديوان « التأملات » استقبله بحماسة وترحاب

أما فى الصحافة السياسية فان هوجو لم يرتفع إلى هذا المدى وقد أبان مسيو سوشون فى بحثه وجوه الضعف التى كانت تغلب على الشاعر الكبير فى هذا المضمار . بيد أن هوجو كان من الناحية الخبرية صحفياً لا يجارى . وقد كان يقدم أخباره للجمهور تحت عنوان « أشياء رؤيت » . وقد ظهرت مجموعة منها بعد

وفاته تحت هذا العنوان ، وفيها يقيد الحوادث التى شهدها خلال حياته وخواص العظماء الذين لقيهم

تلك صفحة من حياة هوجو لم نأخذ حقها من التعريف فى حياة الشاعر الكبير

آثار قديمة فى سوريا

كشفت الحفريات الأثرية التى يقوم بها العلامة الأثرى الفرنسى أندريه بيرو فى سوريا على مقربة من بلدة أبى كمال عن آثار هامة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح ، وتدل على أن حضارة زاهرة قامت فى ذلك العهد فى تلك الأنحاء ، وتدل النصوص والنقوش التى عثر عليها أن هذه المنطقة كانت منزل الحيثيين الذين استطاعوا أن يقاوموا طويلاً غزوات البابليين والمصريين ، أما الآثار المكتشفة فهى عبارة عن بقايا قصر تبدو منه مراكزه الوسطى ، ويلوح أنه كان مقراً ملوكياً ، وملاذاً للكبراء ومركزاً لبعض الصناعات التى كانت زاهرة فى ذلك العصر ، وهنالك مايدل على أن حصونه التى كانت محيطة به قد قوضت ، وأن حمورابى زعيم البابليين قد اقتحمها وأحرق القصر

ومن الآثار الغريبة التى اكتشفت فصل حقيقى من فصول التعليم بمقاعده وأدراجه ، مما يدل على أنه كان مدرسة يؤمها الشباب . وتدل مواقع القصر فى مجموعها على أن كبراء هذا العصر كانوا يتمتعون بضروب من الرفاهة والترف ، لم تعرفها العصور الوسطى فى أوربا ؛ وتتخلله طرق مستقيمة ذات زوايا قائمة ، وسلالم داخلية كبيرة ، ومخازن للمؤن ، ومجار منظمة تحمل المياه والفضلات إلى خارج المدينة ، ووجدت فى معظم الأبنية المجاورة آثار حمامات وأحواض للاستحمام صنعت من الفخار المحروق

برنارد شو فى التاسعة والسبعين

احتفل الكاتب الانكليزى الأشهر جورج برنارد شو أخيراً ببلوغه التاسعة والسبعين من عمره ، وذلك فى بلده ومسقط رأسه هرتفوردشير . وفى يوم الاحتفال بمولده اعتكف الكاتب الشهير واحتجب طول الصباح فى مكتبه ؛ وعند الظهر أعلن أنه قد انتهى من كتابة الفصل الأول من قطعة مسرحية جديدة ، وقال إنه سيعالج فيها موضوعاً جديداً هو « الحب »

حول كتاب قواعد التحديث للقاسمى

أليس من الحق وقد كتب عن هذا الكتاب كاتبان من أكبر كتاب العربية فى كبرى مجلاتها ، وكان السبب فى هذه الفصول الممتعة ، وهذه المساجلات الأدبية الطريفة بين أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، ومؤرخ الشام وكاتبها العلامة محمد بك كرد على أن ننوه فى (الرسالة) بفضل هؤلاء الشباب الغير على الدين واللغة والثقافة الاسلامية الذين ألفوا « مكتب النشر العربى » ونشروا طائفة صالحة من كتب الفلسفة والحديث للغزالى وابن الطفيل والقاسمى وغيرهم ، وأنجزوا فى مدة قليلة مالم ينجز مثله سواهم فى برهة طويلة ؟

أليس من الحق أن نشكر للسادة الأذكياء المثقفين العاملين : ظافر القاسمى ، وداود التكريتى ، وعصام الانكليزى ، أعضاء « مكتب النشر العربى » قيامهم بهذا الغرض الذى قصرنا جميعاً فى القيام به ؟ وثباتهم على تأديته على قلة التشجيع ، ورقة الحال ، وشدة الزمان ؟

(متأدب)

ملكة الجمال فى سوريا ولبنان

تقوم الزميلة جريدة لزيكو الغراء بتنظيم مباراة الجمال التى كلفت القيام بهذه المهمة لتشترك ملكة الجمال فى سورية ولبنان بمباراة الجمال فى مدينة بروكسل وقد تقرر أن تقام حفلة كبرى فى فندق بلودان يوم الخميس المقبل لهذه الغاية وتألفت لجنة من السيدة عقيلة رئيس الجمهورية والسيدة عقيلة وزير المعارف والسيدة عقيلة مدير البرق والبريد العام على أن يقوم بسكرتارية اللجنة السيد باسيل مكرديج مدير المطبوعات فى وزارة الداخلية لانتخاب ثلاث أوانس واحدة من دمشق والثانية من حلب والثالثة من اللاذقية من بين المتباريات ثم تشترك الأوانس الثلاث فى حفلة مباريات الجمال فى صوفر مع الأوانس اللبنانيات اللواتى ينتخبن فيها الآنسة التى تتربع على عرش الجمال فى سوريا ولبنان

وستكون هذه الحفلة تحت رعاية رئيس الجمهورية . (الأيام)

أقول : هذا بعض ما أنشىء له فندق بلودان الذى لم يمض الله فى الشام بمثل انشائه نبعث به إلى (الرسالة) بلا تعليق

(متأدب)

الكتب

كتاب الأموال

في ٦١٦ صفحة

لأبي عبيد القاسم بن سلام (١)

للأستاذ محمد بك كرد علي

ولد أبو عبيد في هراة وأبوه مملوك رومي ، وتخرج في بغداد على أئمة وقته وروى عنه أئمة مذكورون ، وكان آية في النحو واللغة والحديث والفقه ، وعدّ أعلم رجال عصره بلغات العرب ، قال ابراهيم الحربي :

رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم : رأيت أبا عبيد ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء . وروى الناس من الكتب المصنفة لأبي عبيد بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ومعاني الشعر وكتاب الأموال ، والغريب المصنف زعموا أنه أجل كتبه

كان أبو عبيد خاصاً بعبد الله بن طاهر الوزير المشهور أغناه عما أعطاه ، ولقد بعث أبو دُلف إلى عبد الله بن طاهر يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها . وقال : أنا في جنبة رجل لم يحوجني إلى صلة غيره ، فلما عاد إلى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار . فقال : أيها الأمير قد قبلتها ، ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشتري بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ففعل ، وهذا من العلم الحقيقي والخلق الكامل ، وعزة النفس إذا فقدت من العلماء خاصة صار العلم تهريجاً ومهزلة

قالوا : ولما عمل أبو عبيد كتاب الغريب عرضه على عبد الله ابن طاهر فاستحسنه وقال : إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش . فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر ، قال أبو عبيد : كنت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة ؛ وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في موضعها من الكتاب ، فأبيت ساهراً فرحاً مني بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر أو خمسة أشهر فيقول قد أقمت الكثير . وكان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثا فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويصنف ثلثه . وذكر من ترجموا له أنه كان فاضلاً في دينه وفي علمه ، ربانياً متفننا في أصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه

غلب على أبي عبيد جمع التفرق في الكتب وتفسيره وذكر الأسانيد ، وصنف المسند على حدته ، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدته ، وأجاد تصنيفه ، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه ، وكتابه الوحيد الذي ظهر بالطبع كتاب الأموال وهو كما وصفوه من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده . جرى فيه على أسلوب قدماء المؤلفين من إيراد الرواية والسند في الأحاديث ، لكنه لا يطيل في ذكر الرواة وينسب الحديث إلى آخر راوية معتمد ، ثم يشرع في شرح ما أبهم وتفسير ما أعضل من الأحكام ، يرجح ما هو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه بصراحة . بأسلوب محكم سلس ينم عن إحاطته بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع ، ثم يشير إلى عمل الصحابة والتابعين من بعده في أحكام الأموال وصنوفها والفيء والصدقات والجزية وفتوح الأرضين صلحاً أو عنوة ، وما يتبع ذلك من الأحكام التي قال بها القرآن أو فسرتها

---

(١) المتوفى سنة ٢٢٤ هـ

السنة أو عدّلها بعض الصحابة بحسب الحال

فقد ذكر فى باب مالا يجوز لأهل الذمة أن يحدثوا فى أرض العنوة وفى أمصار المسلمين وما لا يجوز قول عمر (ض) « لا كنيسة فى الاسلام ولا خصاء » وقول عمر بن عبد العزيز: « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار ، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار » ، فقال أبو عبيد : أراه يعنى الكنائس والبيع وبيوت النيران يقول : لا ينبغى أن تكون مع المساجد فى أمصار المسلمين . قال أبو عبيد ، فهذا ما جاء فى الكنائس والبيع وبيوت النار ، وكذلك الخمر والخنازير قد جاء فيهما النهى عن عمر ، ثم قال : وأما وجوه هذه الأحاديث التى منع فيها أهل الذمة من الكنائس والبيع وبيوت النيران والصليب والخنازير والخمر أن يكون ذلك فى أمصار المسلمين خاصة ، وبيانه فى حديث ابن عباس . حدثنا أبو عبيد قال : سمعت على بن عاصم يحدث عن أبى على الرحبى عن عكرمة عن ابن عباس قال : أيُّما مِصرٍ مَصَّرته العرب ؟ فليس لأحد من أهل الذمة أن يبنوا فيه بيعة ولا يباع فيه خمر ، ولا يقتنى فيه خنزير ولا يضرب فيه بناقوس ، وما كان قبل ذلك فحق على المسلمين أن يوفوا لهم به . قال أبو عبيد : فقوله كل مصر مصرته العرب يكون التمصير على وجوه : فمنها البلاد التى يسلم عليها أهلها مثل المدينة والطائف واليمن ، ومنها كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً ، ثم نزلوها مثل الكوفة والبصرة وكذلك الثغور ، ومنها كل قرية افتتحت عنوة ، فلم ير الامام أن يردها إلى الذين أخذت منهم . ولكنه قسمها بين الذين افتتحوها كفعل رسول الله (ص) بأهل خيبر . فهذه أمصار المسلمين التى لا حظّ لأهل الذمة فيها ، إلا أن الرسول كان أعطى أهل خيبر اليهودَ معاملة لحاجة المسلمين وكانت إليهم ، فلما استغنى عنهم أجلاهم عمر وعادت كسائر بلاد الاسلام : فهذا حكم أمصار العرب ، وإنما نرى أصل هذا من قول رسول الله (ص) أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . وفى ذلك آثار ثم ساق الأحاديث ، والمأثور عن عمر فى جلاء غير المسلمين من جزيرة العرب ، وذكر بلاد الصلح كهَجَر والبحرين وأيلة ودومة الجندل وأذْرُح . وذكر أحكام البلاد التى فتحها عمر كالشام ومصر والعراق الخ

ومما ذكر ، وهو ما نطيل بنقله إرادة الوقوف على طريقته فى تأليفه ، (ص ١٦٩) أن عمر بن الخطاب استعمل عُمَير ابن سعيد أو سعد على طائفة من الشام ، فقدم عليه قَدمة فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عرب السوس وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئاً ، ولا يظهروننا على عوراتهم ، فقال له عمر : فاذا قدمت نخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بعير بعيرين ، ومكان كل شىء شيئين فان رضوا بذلك فأعطهم وخَرّبها ، فان أبوا فانبذ إليهم وأجّلهم سنة ثم خرّبها ، فقال : اكتب لى عهداً بذلك فكتب له عهداً ، فلما قدم عمر عليهم عرض عليهم ذلك فأبوا ، فأجلهم سنة ثم أخَرّبها . قال أبو عبيد : وهذه مدينة بالثغر من ناحية الحدث يقال لها عرب سوس وهى معروفة هناك — ومعروفة لعهدنا بهذا الاسم أيضاً — وقد كان لهم عهد فصاروا إلى هذا . وإنما نرى عمر عرض عليهم ما عرض من الجلاء ، وأن يُعطَوْا الضعف من أموالهم ، لأنه لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم ، أو أن النكث كان من طوائف منهم دون إجماعهم ، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئاً إلا القتال والمحاربة ، وقد كان نحوٌ من هذا قريباً الآن فى دهر الأوزاعى بموضع بالشام يقال له جبل لبنان ، وكان ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثاً ، وعلى الشام يومئذ صالح بن على فحاربهم وأجلاهم ، فكتب الأوزاعى فيما ذكر لنا محمد بن كثير برسالة طويلة منها : « قد كان من أجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان ، مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم ، ولم تُطبِق عليه جماعتهم ، فقتل منهم طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم . فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم . وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة ، ثم يبعثهم على أعمالهم ، فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى ، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله (ص) ، وقوله : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ، ومن كانت له حرمة فى دمه فله فى ماله والعدل عليه مثلها ، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد فى سعة ، ولكنهم أحرار أهل ذمة الخ » . وكتاب الأوزاعى

هذا نقله البلاذرى فى فتوح البلدان مع اختلاف يسير

وهكذا يمضى المؤلف فى تأليفه ومعالجة فصول كتابه الممتع . يأتى بالآثار المشهورة الصحيحة على مثل هذه الطريقة السهلة ، وفيها جمل من الأحكام التى استخرجها الحكام بعد عهد صاحب الشرع الأعظم . وقد أورد كثيراً من الكتب والمعاهدات والعقود والاقطاع ، وذكر فصولاً فى الصدقات والغنائم والزكوات وثمار الأرضين وما يجبى منها ومالا يجبى والمعادن والركاز والمكاييل والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التى توضع فيها والوقف ، إلى غير ذلك من الأبواب بحيث لم يترك شيئا مما يحتاج اليه من يريد الوقوف على أحكام كل ذلك فى الاسلام ، وإن كان أكثره ، ويا للأسف أصبح يتلى اليوم للعلم به فقط ، أو التبرك بسيرة السلف الصالح وترداده لمعرفة تاريخ تشريعهم

ومما قال فى اسقاط الجزية عمن أسلم : وإنما احتاج الناس إلى هذه الآثار (عن الصحابة وغيرهم) فى زمن بنى أمية ، لأنه يروى عنهم أو عن بعضهم أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا ، يذهبون إلى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد ، يقولون فلا يسقط اسلام العبد عنه ضريبته ، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم ، وقال إن عمر بن عبد العزيز فرض على رهبان الديارات على كل راهب دينارين ، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك لهم ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤونتهم : وقال إن رسول الله (ص) استحل دماء بنى قريظة لمظاهرتهم الأحزاب عليه ، وكانوا فى عهد منه ، فرأى ذلك نكثاً لعهدهم وإن كانوا لم يقتلوا من أصحابه أحدا ، ونزل بذلك القرآن فى سورة الأحزاب ، قال وكذلك آل أبى الحقيق رأى كتمانهم إياه فاشترطوا له ألا يكتموه نكثاً ، وقد حكم بمثل ذلك عمرو بن العاص بمصر

وقال فى القريات التى أقطعها الرسول لتميم الدارى فى فلسطين : إنها أرض معمورة لها أهل فانما ذلك على وجه النفل له من رسول الله (ص) ، لأن هذا كان قبل أن تفتح الشام ، وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليها ، وهذا كنفله بابن بقيلة عظيم الحيرة حين سأله إياها الشيبانى ، فجعلها له بمثل افتتاح الحيرة ، فأمضاها له خالد ابن الوليد حين ظهر عليها ، وكذلك امضاء عمر لتميم حين افتتح فلسطين . ومما قال فى الأقطاع : « وأما إقطاع أبى بكر طلحة وعيينة ، وما كان من انكار عمر ذلك وامتناعه من الختم عليه ، فلا أعلم له مذهبا إلا أن يكون رأى عمر أنه كان يومئذ يكره الأقطاع ولا يراه ، ألا تسمع قوله لطلحة : « أهذا لك دون الناس » ثم رأى بعد ما أفضى الأمر اليه غير ذلك ، فقد علمنا أنه قد أقطع غير واحد فى خلافته ، وهذا كالرأى يراه الرجل ثم يتبين له الرشد فى غيره فيرجع اليه ، وهذا من أخلاق العلماء قديما وحديثا »

ومما قال فى السبب الذى دعا إلى ضرب الدراهم : قال أبو عبيد : سمعت شيخا من أهل العلم بأمر الناس ، كان معنياً بهذا الشأن ، يذكر قصة الدراهم وسبب ضربها فى الاسلام ، وقال : إن الدراهم التى كانت نقدَ الناس على وجه الدهر لم تزل نوعين : هذه السود الوافية ، وهذه الطبرية العُتُق ، فجاء الاسلام وهى كذلك ، فلما كانت بنو أمية وأرادوا ضرب الدراهم نظروا فى العواقب فقالوا : إن هذه تبقى مع الدهر ، وقد جاء فرض الزكاة « إن فى كل مائتين أو فى خمس أواقٍ خمسة دراهم » والأوقية أربعون ، فأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال السود ؛ ثم فشا فشواً بعد لا يعرفون غيرها ، أن يحملوا معنى الزكاة على أنها لا تجب حتى تبلغ تلك السود العظام ، مائتين عدداً فصاعداً ، فيكون فى هذا بخس للزكاة ؛ وأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال الطبرية أن يحملوا المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عدداً حلت فيها الزكاة ، فيكون ذلك اشتطاطاً على رب المال ، فأرادوا منزلة بينهما يكون فيها كمال الزكاة من غير اضرار بالناس ، وأن يكون مع هذا موافقا لما وقت رسول الله (ص) فى الزكاة ؛ إلى أن قال بعد شرح ما عملوه بشأن الدراهم : فمضت سنة الدراهم على هذا واجتمعت عليه الأمة فلم تختلف أن الدرهم التام هو ستة دوانيق ، فما زاد أو نقص قيل درهم زائد أو ناقص ، فالناس فى زكاتهم بحمد الله ونعمته على الأصل الذى هو السنة والهدى لم يزيغوا عنه ولا التباس فيه ، وكذلك المبايعات والديات على أهل الورق ، وكل ما يحتاج إلى ذكرها فيه ، هذا

كما بلغنا ، أو كلام هذا معناه اه »

ومما روى فى صدقة الحلى من الذهب والفضة : « إن عبد الله ابن عمرو حلّى ثلاث بنات له بستة آلاف دينار ، فكان يبعث مولى له جليداً كل عام فيخرج زكاته منه » ، ومما قال : « وشرائع الاسلام أمهات لا يقاس بعضها ببعض ، لأن لكل واحدة حكماً غيرُ حكم الأخرى » ، ونقل كثيراً من كتب عمر بن عبد العزيز تأييداً للأحكام التى وردت فى القرآن وفسرتها السنة ، وكان عمل الراشدين ومن بعدهم سنة متبعة فى الأموال ، ومنها كتب عمر بن عبد العزيز : أن اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث . فكتب عمر : لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له الأثاث فى بيته ، نعم فاقضوا عنه فانه غارم »

ويغتبط قارئ كتاب الأموال أن يرى نور العقل يتخلل كلام أبى عبيد ، وأن يقرأ فيه صورة جميلة من تأليف القوم فى القرن الثانى وأوائل الثالث بهذه البلاغة الخالية من التكلف . ولو كتبت العلوم الاسلامية كلها على المثال الذى كتب به علماء القرون الأولى لاقتصرت على طالبها طرق التعليم . ولنجا الناس من استظهار تلك الدساتير التى جمد من اقتصر عليها ، وسار من تفلت من قيودها سيراً متساوقاً وصل به إلى الغاية ، ويشبه كتاب الأموال فى تأليفه تأليف يحيى بن آدم فى الخراج ، ولا يشبه كتاب الخراج لأبى يوسف بأسلوبه ، لأن هذا عبارة عن رسالة شرعية سياسية إدارية كتبها إمام عظيم لامام عظيم فى إصلاح مملكته ، وأورد له الأحكام للتدليل على ما يقول ، ولم يكتبها للتعليم والتفقيه ، وفى كتاب الأموال كثير من الفصح والشوارد اللغوية وألفاظ يمكن إحياؤها وهى اليوم منسية أو فى حكم المنسى

ويسرنى أن ناشر كتاب الأموال الأستاذ محمد حامد الفقى هو من علماء الازهر ، وقد جوّد فى التصحيح والتعليق عليه ، وإيراد الروايات المختلفة ، وطبعه على نسختين مصرية وشامية ، على ما كان وقف على طبع غيره مثل : « تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول » لابن الديبع الشيبانى (٩٤٤ هـ) ، ويلاحظ أنه كان من المفيد للكتاب لو أن ناشره الأستاذ الفقى وضع له فهارس على نحو ما فعل الأستاذ أحمد محمد شاكر لما أعاد نشر كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ، فانه حلاه بالفهارس على مثال علماء المشرقيات عندما يعانون نشر كتبنا ، فيقربون فوائدها بما يؤلفون لها من فهارس بأسماء الرجال والبلدان وغير ذلك ، وقد يضعون للكتاب الواحد خمساً أو سبعاً من الفهرستات المختلفة تيسيراً على القارئ ، وهذا ما بدأت به دار الكتب المصرية فى مطبوعاتها من الأمهات المعتبرة التى تتحف بها العالم العربى الحين بعد الآخر

محمد كرد على

3me Année, No. 114.

Lundi-9-9-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١١٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مصر وعصبة جنيف

تحدث بعض الكتاب لمناسبة الموقف الدقيق الذى تقفه مصر من النزاع الايطالى الحبشى ، عما كانت تجنيه مصر من المزايا لو أنها كانت عضواً فى عصبة الأمم ، وعما كانت تستطيع أن تؤديه فى الظرف الحاضر لصون حقوقها لو أتيح لها أن تبسط وجهة نظرها أمام العصبة ؛ وفى رأى هؤلاء أن مصر تخسر كثيراً إذ تحرم فى هذه الآونة من رفع صوتها بطريق العصبة ، وأن السياسة الانكليزية هى التى عملت لاسكات صوتها وحالت بينها وبين جنيف

ولسنا من رأى هؤلاء ، ولسنا ممن يحسن الظن بالعصبة ولا ممن يؤمنون بوسائلها ومبادئها وغاياتهـا ؛ ومن رأينا أن مصر لم تخسر شيئاً بابتعادها عن العصبة مهما كانت أسباب هذا الابتعاد

ويكفى أن نتأمل هذا المنظر الذى تقدمه إلينا عصبة جنيف ونحن نكتب هذه السطور ، لنقتنع بأن هذه الهيئة التى تزعم أنها رسول السلام والأخاء والحقوق الانسانية ، إنمـا هى شبح وستار فقط ، تعمل وراءه قوى الاستعمار ، فتأتمر وتتجاذب وتمثل مختلف

الأدوار التي تمكنها من أعناق الفرائس ؛ والفرائس هى الأمم الشرقية التي سلبت أو يراد أن تسلب حرياتها باسم المدنيـة الأوربية والتهذيب الأوربى

* * *

فايطاليا والحبشة كلتاهما عضو فى عصبة الأمم ، وبينهما نزاع أثارته السياسة الايطالية عن عمد واصرار سابق ، وقد طرح النزاع أمام عصبة جنيف منذ يناير الماضى ، فماذا فعلت العصبة لتطبق نصوص ميثاقها ؟ لقد أوصت بالعـمل على حسم النزاع بطريق التحكيم ، ولـكنها ما زالت تصغى إلى وعيد السياسة الايطالية ، وتشهد نياتها وتصريحاتها الواضحة لغزو الحبشة وافتراسها ؛ والحبشة تستغيث بالعصـبة ، والعصبة تسوف وتمد إيطاليا بالوقت اللازم لاستكمال أهبتها ، وتفسح كل مجال لمـا تعرضـه دول الاستعمار لاقتسام الحبشة أو فرض نوع من الحماية أو الانتداب عليها كوسيلة لارضاء إيطاليا وحسم النزاع وتأييد السـلام ، وإيطاليا خلال ذلك تبرق وترعـد وتصرح بأن العصبة إذا حاولت أن تنحرف ضـد المطامع الايطالية أو تنتقص من شرعيتها ، فانها تصفع العصبة وتجرى مشيئتها بالعنف والقوة القاهرة

والدول الاستعمارية تحرك اليوم عصبة الأمم ، وتوجهها علنا دون خفاء ؛ وقد ابتدعت العصبة أو حملت أن تبتدع يوم قيامها نظام الانتداب خدعة غادرة تصفد بها عدداً من الأمم والشعوب التى وقعت فى يد الحلفاء غداة النصر ، والتى مازالت ترزح تحت هذا الرياء الشفاف

ولم نشهد عصـبة الأمم تنتصر مرة لدولة شرقية أو أمة مستضعفة مهما كان فى جانبها الحق ، ولا سيما إذا كانت هنالك مصلحة أو غاية لدولة من دول الاستعمار ، سادة العصبة ؛ ولم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من النزاع بين انكلترا وتركيا على مسألة كردستان ، وموقفها من النزاع بين انكلترا وإيران على مسألة جزائر البحرين ، ثم موقفها من مسألة منشوريا وعجزها المطبق عن أن تعمل شيئاً لرد الاعتداء اليابانى على الصين ؛ بل لم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من العراق يوم التحقت بها ويوم اشترطت عليها أفدح الشروط ثمناً لهذا الالتحاق

ولمـاذا نذهب بعيداً ونقلب صحف العصبة ونحن نشهد موقفها اليوم إزاء النزاع بين إيطاليا والحبشة ؟ إن صفة الاعتداء الصارخ هنا تلحق إيطاليا بلا ريب ، ومع ذلك فهل استطاعت العصبة أن ترفع صوتها ضد المعتدى ؟ وهل استطاعت حتى اليوم أن تفعل شيئاً ولو من الوجهـة النظرية لغوث المجنى عليه ؟ وهى لن تفعل شيئاً بلا ريب حتى يقع المحتوم وتنقض إيطاليا على الفريسة تحاول التهامها ، ولن ينفع الفريسة يومئذ إلا ما يتاح لها من وسائلها الخاصة للدفاع عن نفسها

* * *

وبعد ، فمن هم السادة فى العصبة ؟ ومن هم الذين يشرفون على مجلسها ويوجهونه ؟ هم أقطاب الاسـتعمار ومنظموه ، وهم المغيرون على حريات الأمم ، وهم المستمرئون لاستغلالها وإذلالها واستلاب حقوقها باسم المدنية الأوربية ؛ هذه المدنية التى أضحت تلتمس ذريعة للسفك وافتراس الشعوب الآمنة

لقد كان قيام عصبة جنيف مهزلة وخديعة شائنة : مهزلة لأنها زعمت فى ميثاقها أنها قامت لتحقق ما لم تستطع أن تحققه الأمم والانسانيـة جميعاً مدى الأحقاب ، أعنى منع الحرب وتحقيق العدالة الدولية ، وحمـاية الضعيف من القوى بالوسائل السلمية ؛ وخديعة شائنة لأنها تبطن وراء هـذه المظاهر الخلابة دستور الاستعمار المنظم والانتهاك المثير لحقوق الأمم باسم الانتداب والمدنية والتهذيب وما إليها

فما الذى يمكن أن تجنيه مصر من الانتظام فى عصبة جنيف ؟ وأى ضير عليها إذ تبقى بعيدة عن هذه الهيئة المريبة العاجزة التى يفتضح أمرها اليوم ؟ فعلى أولئك الذين يزعمون الغيرة على حقوق مصر — ومصر تعرفهم حق المعرفة — أن يفروا على أنفسهم أمثال هذه الدعاية التى تنم دائماً عمـا وراءها .

(* * *)

عربة اللقطاء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلست على ساحل الشاطبي (فى اسكندرية) أتأمل البحر ، وقد ارتفع الضحى ، ولكن النهار لدن ناعم رطيب كأن الفجر ممتد فيه إلى الظهر

وجاءت عربة اللقطاء فأشرفت على الساحل ، وكأنها فى منظرها غمامة تتحرك إذ تعلوها ظلة كبيرة فى لون الغيم . وهى كعربات النقل غير أنها مسورة بألواح من الخشب بجوانب النعش تمسك من فيها من الصغار أن يتدحرجوا منها إذ هى تدرج و تتقلقل

ووقفت فى الشارع لتنزل ركبها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل سفيح ولقيط ومنبوذ ، وقد انكمشوا و تضاغطوا إذ لا يمكن أن تمط العربة فتسعهم ، ولكن يمكن أن يكبسوا ويتداخلوا حتى يشغل الثلاثة أو الأربعة منهم حيز اثنين . ومن منهم إذا تألم سيذهب فيشكو لأبيه . . . ؟

وترى هؤلاء المساكين خليطاً ملتبساً يشعرك اجتماعهم أنهم صيد فى شبكة لا أطفال فى عربة ، ويدلك منظرهم البائس الذليل أنهم ليسوا أولاد أمهات وآباء ، ولكنهم كانوا وساوس آباء وأمهات ....

***

هذه العربة يجرها جوادان : أحدهما أدهم والآخر كميت . فلما وقفت لوى الأدهم عنقه والتفت ينظر ؛ أيفيرغون العربة أم يزيدون عليها ..؟ أما الكميت فحرك رأسه وعلك لجامه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكر فى تخفيف العبء الذى تحمله يجعله أثقل عليك مما هو إذ يضيف إليه الهم والهم أثقل ماحملت نفس ؛ فما دمت فى العمل فلا تتوهمن الراحة فان هذا يوهن القوة ، ويخذل النشاط ، ويجلب السأم ، وإنما روح العمل الصبر ، وإنما روح الصبر العزم

ورآهم الأدهم ينزلون اللقطاء ، فاستخفه الطرب ، وحرك رأسه كأنما يسخر بالكميت وفلسفته ، وكأنما يقول له : إنما هو النزوع إلى الحرية ، فان لم تكن لك فى ذاتها فلتكن لك فى ذاتك . وإذا تعذرت اللذة عليك فاحتفظ بخيالها فانه وصلتك بها إلى أن تمكن وتتسهل ؛ ولا تجمعن كل طباعك طباعاً عاملة كادحة وإلا فأنت أداة ليس فيها إلا الحياة كما تريدك ؛ وليكن لك طبع شاعر مع هذه الطباع العاملة فتكون لك الحياة كما تريدك وكما تريدها

إن الدنيا شىء واحد فى الواقع ، ولكن هذا الشىء الواحد هو فى كل خيال دنيا وحدها

***

وفى العربة امرأتان تقومان على اللقطاء ؛ وكلتاهما تزور للأم على هؤلاء الأطفال المساكين ؛ فلما سكنت العربة انحدرت منهما واحدة وقامت الأخرى تناولها الصغار قائلة : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . إلى أن تم العدد وخلا قفص الدجاج من الدجاج ..!

ومشى الأطفال بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة ، معترفة أن لاحق لها فى شىء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحر والشمس ، فغفل الصغار عن كل ذلك وصرفوا أعينهم إلى الأطفال الذين لهم آباء وأمهات ....

***

واكبدى أضنى الأمى كبدى ؛ فقد ضاق صدرى بعد انفساحه ، ونالنى وجع الفكر فى هؤلاء التعساء ، وعرتنى منهم علة كدس الحمى فى الدم . وانقلبت إلى مثواى ، والعربة وأهلها ومكانها وزمانها فى رأسى

فلما طاف بى النوم طاف كل ذلك بى ، فرأيتنى فى موضعى ذاك وأبصرت العربة قد وقفت ، وتحاور الأدهم والكميت . فلما أفرغوها وشعر الجوادان بخفتها التفتا معاً ثم جمعا رأسيهما يتحدثان !

قال الكميت : كنت قبل هذا أجر عربة الكلاب التى

يقتلها الشُّرطة بالسُّم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلاب المسكينة . ثم أرجع بهـا مَوْتَى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء فى كل مرادٍ ومضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها ولا أشعر بغير الثقل الذى أجره ؛ فلما ابتليت بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسست ثقلاً آخر وقع نفسى وما أدرى ما هو ، ولكن يخيل إلىّ أن ظل كل طفل منهم يُثقلُ وحده عربة

قال الأدهم : وأنا فقد كنت أجرّ عربةَ القُمامة والأقذار ، وما كان أقذرَها وأنتنَها ، ولكنها على نفسى كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ، كنتُ أجدُ ريحَها الخبيثة مادمتُ أجرها ؛ فاذا أنا تركتُ العربة استرْوَحتُ النسيمَ واستطعمت الجو ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ فى الزمن نفسه كأن هذا الزمن قد أروح وأنتنَ منذ قُرِنتُ بهؤلاء وعربتهم

قال الكميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه إذ يكون وراءها كالقطعة المتممة لها ، ولا تقبل أمُّه إلا هذا ولا يصرِفُها عنه صارف ، فترغمُ الوجود على أن يتقبل ابنها وعلى أن يعطيَه قوانينَه . أما هؤلاء الأطفالُ فقد طردهم الوجودُ منه كما طرد الله آباءَهم وأمهاتِهم من رحمته . وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ما نشعر به ؛ فلسنا نجر للناس ولكن للشياطين..

* * *

وهنا وقف على حوذىّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال : من هؤلاء يا أبا على ؟

قال الحوذى : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم

قال أبو هاشم : سبحان الله ، أما تترك طبعك فى النكتة ياشيخ ؟

قال الحوذى : وهل أعرفهم أنا ؟ هم بضاعةُ العربة والسلام . اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كل ما أسمع

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطاً عليهم ، كأنهم أولاد أعدائك ؟

قال الحوذى : ليت شعرى من يدرى أى رجل سيخرج من هذا الطفل ، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة ؟ انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان ، فى عُنق هذا الولد الذى كان من سنتين ابن سنتين (١) . . . . لا أرانى أحمل فى عربتى أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم العربات إلى أبواب دُورهم فان هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يرسل إلا إليها

أنا والله يا أبا هاشم ضيّقُ الصدر ، كاسفُ البال من هذه المهنة ، ويخيّل إلىّ أنى لا أحمل فى عربتى إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدّعارة والسكْر وعواصف وزوابع . . . .

قال أبو هاشم : ولكن هؤلاء الأطفال مساكين ، ولا ذنب لهم

قال الحوذى : نعم لا ذنب لهم ، غير أنهم هم فى أنفسهم ذنوب . إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتدادَ الاثم والشر فى الدنيا . ولدتهم أمهاتهم لِغَيَّة (٢)

فقطع صاحبُه عليه وقال : وهل وَلَدْنَهم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن ؟

قال : نعم إنه عمل واحد ، غير أن أحواله فى الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوى حالُ من يشترى المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه - وما سموُّه إلا الزواج - فتسفَّل وانحط ، ورجع فسقاً ، وعاد أوله على آخره . كان أوله حزماً فلا يزال إلى آخره حزماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره . فلما حملت المرأة وفاءتْ إلى أمرها ، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معاً ؛ انطوت للرجال على الثأر والحِقد والضغينة ؛ فلا يكون ابنُ العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً

والأمهاتُ يُعْدِدْنَ لأجنَّتهن الثيابَ والأكسيةَ قبل أن يولدوا ، ويهيّئن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً فى الحياة ، فيَكْسِبْنَهم فى بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياة الهنيئة والرغبةَ فى السموّ بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء يعددن لهم الشوارعَ والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبى على) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات

(٢) ولدته لغية أى من سفاح وضده لرشدة بفتح الراء

طولَ أشهر حملها أن يجيئها الوليد بل أن يتركها حياً أو مقتولاً ؛ فيُورثهم بذلكَ وهم أجنةٌ شعورَ الخفة والحسرة والبغض والمقت ، ويطبعهم على فكرة الخطيئة والرغبة فى القتل ، فلا يكون ابن العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضاً

وتظلّ الفاسقةُ مدة حملها تسعة أشهر فى إحساس خائف ، مترقب ، منفرد بنفسه ، منعزل عن الانسانية ، ناقم ، متبرم ، متستر ، منافق . فلو كان السّفيح من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سُمُّه من هذا الاحساس العنيف . ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذا بطنها (١) قطعتْه لِتَوِّه من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمت به ليموت ؛ فان هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهوموت آخرشرٌ من ذاك ؛ ومهما يَتَولَّهُ الناسُ والمحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره مما فى دمه وطباعه الموروثة ، ولايبرحُ جريمةً ممتدةً متطاولة ، ولا ينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئة ولعنة

فهؤلاء كما رأيتَ أولادُ الجرأة على الله ، والتعدّى على الناس والاستخفافِ بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغضُ الخارج من الحب ، والوقاحةُ الآتيةُ من الخجل ، والاستهتارُ المنبعث من الندامة ؛ وكل منهم مسئلةُ شر تطلب حلها أو تعقيدَها من الدنيا ، وفيهم دماءٌ فوّارة تجمع سمومها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة

قال أبو هاشم : ألا لعنــة الله على ذلك الرجل الفاسق الذى اغترّ تلك المرأة فاستزلها وهوّرها فى هذه المَهواة . أ كان حقُّ الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمى . أما كان ينبغى أن يكون هذا الآخِرُ هو الأولَ فى الاعتبار ، فيعلمَ أنهذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبته ، وهو البلاغُ إلى مايحاوله منها ، فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالث يراهما . . . فلعلهما يستحيان

قال الحوذىّ الفيلسوف : لعنة الله على ذلك الرجل ، ولعناتُ الله كلُّها ، ولعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التى انقادت له واغترت به . إن الرجل ليس شيئاً فى هـذه الجريمة فقد كانت بصقةٌ واحدة تُغرقُه ، وكانت صفعةٌ واحدة تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ومعها جهنم أيضاً

ألم تعلم الحمقاء أن الرجـل الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعـة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجل هو الذى ساوَرَ هـذه المرأة ، بل هى مادة الحياة التى رأت فى المرأة مُستودعها فتريد أن تقتحم إلى مقرها عَنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد ، ولا شىء إلا أن توجد ؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً ولا فضيلة ولا رذيلة

لأنهما يجب التحصين . أللصاعقـة المنقضَّة ، أم للمكان الذى يُخشى أن تنقضّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعة الاسلامية : حصِّنوا المكان ؛ ولكن المدنية أجابت : حصنوا الصاعقة . . . !

***

وكانت المرأتان الصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما :

يا حسرتا على هؤلاء الصغار المساكين . إن حياة الأطفال فيما فوق مادة الحياة ، أى فى سرورهم وأفراحهم ، وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أى فى وجودهم فقط

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالهم فى نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجهم من « الملجأ » وهو كل النظام فى دنياهم ، ليس بعده إلا التشريدُ والفقر وابتداء القصة المحزنة

فقالت الصغرى : ولمَ لا يفرحون كأولاد الناس . أليست الطبيعةُ لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتى عذراء لم تبدأ فى حياتك حياةٌ بعد ، ولم تجاوبى بقلبك القلبَ الصغير الذى كان تحت قلبك تسعة أشهر . وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ

لقد ولدت يا ابنتى خمسة أطفال ، وبالعين البليغة التى أنظر بها اليهم ، أنظر إلى هؤلاء فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الانسانى ؛ يعبسُ لهم حتى الجو ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الغمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره

---

(١) أى وضعت وولدت ، وهو تعبير عربى بليغ

يا لهفي على عودٍ أخضرَ ناعمٍ ريانَ كان للثمر فقيل له : كن للحطب

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيته نفسه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به . وهؤلاء اللقطاءُ فى حياةٍ عامة قد نُزعت منها الأمُّ والأب والدار فليس لهم ماضٍ كالأطفال وكأنهم يبدأون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غير أنهم طردوا من حقوق الطفولة كما طردوا من حقوق الأهل . وحسبك بشقاء الطفل الذى لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله ، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته فى الطريق

إن الطبيعة كلها عاجزة أن تعطىَ أحدهم مكاناً كالموضع الذى كان يتبوأه بين أمه وأبيه

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صوراً مبهمة صغيرة من كل جمال العالم ، تفسرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة ؛ فأين أين العيون التى فيها تفسير هذه الصور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكةِ والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذال الطَّغام الذين أولدوا النساءَ هؤلاء المنبوذين . يزعمون لأنفسهم الرجولة فهذه هى رجولتهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتهم ، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابُهم . . عجباً إن سيئاتِ اللصوص والقتلة كلُّها يُنسى ويتلاشى ، ولكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتكبر . . .

أَ كان ذنبُ المرأة أنها صادقةٌ فصدَّقت ، وأنها مخلصةٌ فأخلصت ، وأنها رقيقةٌ فلانت ، وأنها محسنة فرحمت ، وأنها سليمة القلب فانخدعت ؟

وا كبدى للمسكينة هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التى خلقت لها . هل انخدعت إلا الأم التى فيها ، وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأبُ الذى فيه ؟

وا كبدى لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاثَ فجائع : فى كرامتها التى ابتُذِلت ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها ، وفى طفلها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كتب عليه

إن هذا لا يعوِّضُه فى الطبيعة — إلا أن يكون لكل رجل من أولئك الأنذال ثلاثُ أرواح ، فيُقتَلَ ثلاثَ مرات ، واحدة بالشنق ، والثانية بالحرق ، والثالثة بالرَّجم بالحجارة

* * *

وكان اللقطاءُ قد تَبَعْثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى ، فوقف أحدهم على طفل صغير يلعب بما بين يديه ، وأمه على كَثَب منه ، وهى تتلهى بالمخرّم تتلوّى فيه أصابعُها

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال : أأنتم جميعاً أولاد هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

قال اللقيط : هما المراقبتان ؛ وأنت أفليست هذه التى معك مراقبة ؟

قال الطفل : ما معنى مراقبة ؟ هذه ماما ؟

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مراقبة

قال الطفل : وكلكم أهل دار واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دُورنا

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك ؛ ثم تغضب إذا أعطوك ليزيدوك ، وهل يُسكتونك بالقرش والحلوى والقُبلة على هذا الحد وعلى هذا الحد ؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ ، فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطينى شيئاً إذا بكيت ، ولا تزيدنى إذا غضبت ، ولا . . . .

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رقم عُشرة . . . .

فلوى اللقيط المسكينُ وجهَه ، وانصاع وأدبر

« ومشى الأطفال بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها فى شىء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل » . . . . . ؟

(اسكندرية)

إلى (فلان) بنابل — تونس — إن كانت مقالات الانتحار قد صدتك عن الانتحار إلى حين فهل تريد جنوناً بعد عقل وكفراً بعد إيمان ؟ وكيف تريد الانتحار فى ليلة زفاف صاحبتك ، فتلق عليها الريبة وهى طاهرة ، وترميها فى الأفواه تمضغها مضغ المر ، وتنشىء لها بجنونك قصة فى الاثم والعار ليس منها حرف صحيح !

إن لم تتق الله فى نفسك فاتق الناس فى نفسك الأخرى ، وان لم تكن كريماً فلا تكن بهذا اللؤم مع التى أحببتها وأحبتك (الرافعى)

أقطاب الرواية المصرية

أبو عبد الله القضاعي

فقيه ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الاسلامية ودرس آثارهم، ما دثر منها وما بقى؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق استقصيت فيها حياتهم وآثارهم؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخى مصر الاسلامية فى عصور متأخرة، مثل النويرى والمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن إياس؛ وقصدى بذلك أن أترجم لمؤرخى مصر الاسلامية كلما سنحت الفرص، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصرى

والآن نستأنف هذا الدرس، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية، هو أبو عبد الله القضاعى، وهو مؤرخ وفقيه وسياسى معاً، عاش فى فترة من أدق الفترات التى جازتها مصر الاسلامية، وشهد الدولة الفاطمية فى ذروة القوة والعظمة، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها، وشهد محنة من أشنع المحن التى عانتها مصر الاسلامية، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته فى طلب العون والغوث؛ وكتب عن مصر الاسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة، لم تصل للأسف كلها الينا، ولكن ما انتهى الينا منها عن يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها

وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، فى عصر الحاكم بأمر الله، ودرس الحديث، والفقه على مذهب الشافعى وبرع فيه، وبرز فى التاريخ والأدب؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء، ولبث يليه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أو العزل، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبى القاسم الجرجرائى المعروف بالأقطع (١) وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعى فى عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للامور؛ وتجول القضاعى ودرس فى بغداد ومكة والشام؛ ووقف على أحوال الدول الاسلامية يومئذ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة، وتبوأ فى البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعى بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التى توالت على مصر فى عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م)؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة. وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر الاسلامية « بالشدة العظمى ». وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئـذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله فى سنة ٤٤٦ هـ إلى امبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا فى آسيا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر التى كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الاسلامية بأربعمائة ألف أردب (٢) ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته على عرش قسطنطينية الامبراطورة تيودورا، واشترطت لارسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذى بدء. ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام، وهزم المصريين فى عدة مواقع؛ فكف

(١) سمى كذلك لأنه كان أقطع اليدين، قطع بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ

(٢) خطط المقريزى. بولاق. ج ١ ص ٣٣٥

٢٤ ٥ ٥

المستنصر عن متابعة الحرب ، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة ، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسمى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة ، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثقته وتقديره . فقصد القضاعى إلى بيزنطية عن طريق الشام ؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الامبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الامبراطورة تيودورا . وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما فى كنيسة القمامة (١) ؛ وسبب ذلك أن أبا عبدالله القضاعى كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلى رسوله فى جامع قسطنطينية ، فأذنت له فى ذلك ؛ فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم ؛ فبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة ؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم » (٢) بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعى إليها لم يكن الامبراطورة تيودورا ، وأن الذى استقبل السفير المصرى هو خلف تيودورا الامبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذى تولى عرش قسطنطينية فى أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ فقد نقل المقريزى فى كتابه « المقفى » فى ترجمة القضاعى ما يأتى : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبرى ، سمعت القاضى أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى يقول : لما دخلت على ملك الروم اليون ، رسولاً من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى ، ففعل ؛ فقال لى الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ؛ فقلت أنا والله مستكف ؛ فقال لى لم أكلت الفتات ؟ فقلت : بلغنى مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقط ماسقط من المائدة برىء من الحمق والفقر ؛ فأمر الخازن فى الحال باحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنيت وبريت من الحمق » (١) ؛ وذكر المقريزى فى الخطط أيضاً مايؤيد هذه الرواية (٢) . على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعى وصل إلى قسطنطينية فى أواخر عهد الأمبراطورة تيودورا ؛ واستمر فى أداء مهمته بعد وفاتها لدى الأمبراطور ميخائيل السادس ؛ ومكث حيناً بقسطنطينية ؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها (٣) . أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الاسلامية تحديداً واضحاً ، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، تنفيذاً للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر وتوفى قبل الوفاء بها

ولكن القضاعى أخفق فى مهمته . ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك ؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر ، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى ؛ وعاد القضاعى إلى مصر على أثر هذا الفشل ، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته فى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته . ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام ، فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤

— ٢ —

كتب القضاعى عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ منها كتاب

(١) هى كنيسة بيت المقدس التى تعرف عند النصارى « بالقبر المقدس » أو قبر المسيح

(٢) ابن ميسر فى « أخبار مصر » فى حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط المقريزى ج ١ ص ٣٣٥

(١) نقل ترجمة القضاعى هذه من القطعة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « المقفى » المستشرق كينج فى مقدمته للجزء الذى نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للكندى (ص ٢٢ و ٢٣)

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكى فى ترجمة القضاعى — ج ٣ ص ٦٣

« الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعي وأخباره » وكتاب « الانباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ، وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو (مسند الصحاب) وهما في الحديث ، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بمدريد [1] ؛ وانتهى الينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته « موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية [2] ، ولكنا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاعي » وهو الذي يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار اليها

بيد أن أهم آثار القضاعي هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط وهو المسمى : « المختار في ذكر الخطط والآثار » ؛ ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت الينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندي والمقريزي وابن تغرى بردى والسيوطي شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاعي في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التي نزلت بمصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها وصروحها ، وهي حقيقة ينوه بها المقريزي في مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاعي « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أي القضاعي) في سنة سبع وخمسين واربعمائة [3] قبل سني الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع » [4] والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاعي أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي بإفاضة ، وأضاف اليه ما انتهت اليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس

والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار » إنما هو المنعوت « بتاريخ القضاعي » لأن ما نقل الينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة ، ولا وجود له في الموجز المسمى « عيون المعارف »

وقد كان القضاعي ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الاسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصري حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطي ينقل في حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاعي مكتوباً بخطه [1] ، وفي ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت « بتاريخ القضاعي » إنما هو كتاب المختار في الخطط والآثار ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصري ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمي الأول ، الذي احتجبت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتي غدت كالحلقة المفقودة في مصادر تاريخ مصر الاسلامية [2]

(النقل ممنوع) **محمد عبد الله عنان**

---

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠

(٢) راجع في ترجمة القضاعي : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ — السبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ — والمقريزي في المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كبنج ص ٢٢ و ٢٣) وفي الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٥٥ — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ — وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنتي ٤٤٧ و ٤٥٤

(١) راجع فهرس مخطوطات الأسكوريال للأستاذ ليفي بروفنال (ج ٢) رقم ٧٣٦ و ٧٦٢ (كتاب الشهاب) ورقم ٧٥٢ (مسند الشهاب)

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم (١٧٧٩ تاريخ)

(٣) وهي رواية خاطئة ، لأن القضاعي توفي سنة ٤٥٤ هـ كما قدمنا

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

اللغـــة والألفاظ

الدعوة الى اختصارها لتسهيلها

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

اللغة تتبع الدولة ، وتسير فى ظلها ، ولا سبيل إلى انتشار لغة يغلب أهلها على أمرهم ، وبعيدٌ أن تصد عن الذيوع لغة يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم ، ولا عبرة فى هذا الأمر بما فى اللغة نفسها من سهولة أو عسر فى التحصيل ، والمعوّل على القوة والسلطان ، لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته ، ويسيرة المطلب أو عميقة المغاص ، وقد استطاعت اللغة الانجليزية أن تنتشر فى الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها ، وأن تزحزح الفرنسية وتحطها عن عرشها ، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً وغرباً ، وليست الانجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية ، ولكن قوة أهلها أكبر ، ونشاطهم أعظم ؛ وهذه « الاسبرانتو » التى اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها ؟ يعرفها آحاد راقتهم الفكرة ، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين ، لأنه ليس وراءها ولا قدامها دولة لها سطوة ، وفى الهند لغات عدة لا رجاء لاحداها حتى فى أن تصبح لغة الهند كلها مادامت انجلترا تحكمها ، وفى مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً ، هى الجالية اليونانية ، ولكنه يندر أن يعنى مصرى بتعلم لغتها ، على حين نتعلم الانجليزية فى مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية

ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد ، فحسبنا هذا القدر ، فالذين يقولون إن المستر اوجدن قد تخير من اللغة الانجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها ، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور فى اللغة العربية ، وإنه يعين على نشر اللغة ويفضى إلى ذيوعها ، ويتيح لها أن تصبح « عالمية » — أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب ، ويفكرون على هذا النحو ، يغلطون ويقلبون المسألة ، ذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست اللغة الانجليزية ، ولا فيها لأبنائها وعلمائها وكتابها وساستها أى كفاية ، وإنما هى حسب الأجنبى الذى يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أوما هو من هذا بسبيل ، وقد ابتكر المستر اوجدن هذه الوسيلة ليمكن للغته ويزيدها ذيوعاً ، لا لينشرها ، فقد تكفلت بنشرها الامبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر اوجدن ؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك فى لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة ، لما أجدى ذلك شيئاً ، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحلية

وشىء آخر يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل ، ذلك أن السهولة مرجعها إلى العقل ، لا إلى الألفاظ ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً ، لا ثمانمائة ، لما اختلف الحال ، ولبقيت المسألة حيث كانت ، لأن المعول فى التعبير على الكاتب ؛ وليس على عدد الألفاظ ، وما من كاتب أو شاعر فى الدنيا يستعمل كل ما فى لغته من كلمات ، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ فى ذاته ومن حيث هو ، منها أن يكون المعنى الذى يلتمس المرء العبارة عنه ، واضحاً فى الذهن ، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التى يؤدى بها المعانى ، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غائماً ، أو غامضاً ، أو غير واضح على العموم ، فى ذهن المرء ، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به ، فيجىء الكلام مضطرباً غير مفهوم ، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول ، وقد يكون المرء عارفاً بما فى نفسه ؛ مدركاً للمعانى الدائرة فيها ، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها ويبرزها فى صورة واضحة ، فيسىء الأداء ؛ وإن كان قد أحسن التفكير ، ويقصر فى العبارة ؛ وإن لم يقصر فى فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخوالج . وفى وسعى أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة ، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد ، وفى مقدورى كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعمق المعانى وأعوصها تعبيراً يحمل القارىء على الظن بأن هذه كلها من البداءة ، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة ، وحوشيّة أو مأنوسة ، بل بالكاتب نفسه ، أى بوضوح المعنى الذى فى رأسه

أو غموضه ، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك . وقد يتفق لك أن تحادث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ، فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده ، فهذا العامى الأمى لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللغـة ولم يستعمل المهجور والدارس منها ، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمتعلمون ، ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه . فلو أن الألفاظ هى التى يرجع إليها أمر الغموض أو البيان ، والصعوبة أو السهولة ، لوجب أن تفهم عنه ، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم

فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التى فى اللغـة ، ولتكن ألفاً لا أكثر ، أو مائة ألف ، أو أقل من ذلك أو أكثر ، فلن يختلف الأمر فى الحالين ، والأمر من حيث الأداء فى اللغة مثله فى التصوير ، ذلك أن الألوان التى يستعملها المصور قليلة العدد جداً ، وهى أداة المصورين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب ، ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن قلة الألوان التى يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل ، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها ، ومع ذلك يجىء واحد بالصورة الناطقـة بل التى تـكاد تصيح من قوة النطق ، ويجىء آخر بغير شىء ، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها ، وإن المصور نفســه هو الذى لم يستطع أن يؤدى بها ما أراد أن يبرزه أو يثبته أو يدل عليه أو يرمز له ، وكذلك فى الـكتابة : لا ذنب للألفاظ ، فانها — وهى مفردة — لا تؤدى شيئاً ، ولا فرق بينها ، ولا فضل لواحدة على واحدة ، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الـكاتب نظماً أى بعد أن يؤلف بينها ، كذلك الألوان ليست هى الصورة ، وإنما تصبح صورة بعـد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت ، فسيظل هناك كتاب مشرقون واضحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعـه ، وآخرون غامضون أو معوصون ، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبينوا ما فى نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على الأداء الحسن الواضح ، أو لأن فى أسلوب تفكيرهم التواء ، أو لأن فى طريقة تناولهم للموضوع عوجا ، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة — فى مرد أمرها — إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ . ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده لهان الخطب ، وما على الانسان حينئذ إلا أن يفتح معجما — إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الـكلمات التى يستعملها الـكتاب ، قليل جداً إذا قيس إلى ما فى اللغة ، وهو لا يزيد على بضع مئات ، ومن هـذه المئات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور ، وبها يؤدى ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعانى والخواطر والاحساسات ، كما يستطيع المصور — ببضعة ألوان — أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها ، فلا معنى إذن لهذه الضجة التى يثيرها بعض إخواننا الـكتاب حول اللغة ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها ، وهجر المهجور منها ، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه ، والـكاتب الذى يؤثر الاغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ ، يجنى على نفسه بذلك ، وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم

* * *

وبعد ، فانه لا يصح أن يقال إن لغة من اللغات عيبها كثرة ألفاظها ، فان الألفاظ تنشأ ، وتحيا ، وتموت ، على حسب الحاجة ، والناس لا يشتقونها أو ينحتونها ، أو يضعونها ، أو يستعيرونها من اللغات الأخرى ، للترف ، بل للضرورة فى وقتها ، وللألفاظ حياتها كما للناس ، وهى — مثلهم — أجيال ، حتى معانيها تتطور على الأيام ، ويجرى عليها من الحظوظ ما يجرى على كل كائن حى ، وإنما الذى يصح أن يقال ، والذى يقبل من قائله ، هو أننا نسيء تعليم لغتنا ، ونجعلها بسوء طريقتنا فى تعليمها وبتقصيرنا فى حقها ، أعوص مطلباً مما هى فى الحقيقة وأشق فى التحصـيل على أبنائها — فضلا عن الغرباء — من اللغات الأجنبية التى أحسن أهلها القيام على خدمتها وذللوا لطلابهـا ما فيها من صعوبات لا تخلو منها لغة

وما عدا ذلك خلط لا قيمة له

ابراهيم عبد القادر المازنى

كيف ارتاد الشيخ رشيد مصر — رسالة تاريخية قيمة

من المرحوم السيد رشيد رضا

إلى صديقه الأستاذ المغربى

. . . كان السيد رشيد رحمه الله أشار فى مصنفاته الأخيرة إلى مبلغ الود الذى توثقت عراه بيننا فى عهد طلبنا العلم فى طرابلس الشام ، وقد استمرت هذه المودة زهاء عشرين سنة ، حتى سافر إلى مصر ، واتصل بالأستاذ الامام ، وأنشأ المنار . وكانت هذه الرحلة إلى مصر نتيجة الدراسة العلمية الحرة المشتركة بيننا خلال تلك المدة . ولا أدل على ذلك من هذه الرسالة المرسلة اليكم . وكان السيد رشيد كتبها إلى بعد أن وصل مصر سنة ١٨٩٨ م والرسالة المذكورة تدخل فى نحو ٢٠٠ رسالة مثلها أرسلها إلى السيد رشيد خلال تسع سنوات (من ١٨٩٨ — ١٩٠٦) حتى جئت مصر وحررت فى المؤيد

والرسائل المذكورة محفوظة لدى لايعوزها إلا حذف بعض (الخصوصيات) فتتمثل كتاباً يحتوى على مذكرات فى مواضيع مختلفة هامة ، لما فيها من وصف الحالة الاجتماعية والأدبية فى مصر خلال تسع سنوات

« المغربى »

الرسالة

أخى وسيدى :

سلام وتحية — وأشواق قلبية

لقد امتلأت المخيلة ولا سعة فى الوقت لشرح ما ينبغى شرحه بل ولا لكتابته موجزاً بعبارة بسيطة . ولكن لابد من الأيماء إلى البعض بما يحتمله الوقت من البيان

(١) فى بيروت : رغب إلىّ الوطنى الفاضل عبد القادر أفندى القبانى أن أحرر جريدة الثمرات ، وأعلّم فى المدرسة التى أنشأها مع الشيخ أحمد عباس فانها تحتاج لمثلى ولم يجداه

(٢) حدثنى المومإ إليه عن السيد محمد بيرم حديثاً طويلا يتضمن حالته فى بيروت والآستانة ورجوعه إلى تونس ثم إقامته فى مصر : أهمه أنه فى بيروت جرى له مع قاضيها يومئذ مذاكرة علمية طويلة ما كان أحد غيرهما يفهم مايقولان . وبعد الانصراف سأل عبد القادر أفندى السيد بيرم عن القاضى فقال إنه أعلم من رأى ، ثم سأل القاضى عنه فقال انه زنديق فلم يسلم له باطناً . وأن جريدته (الاعلام) ذكرتهم بكلام القاضى بعد زمان ، لأنها كانت خادمة للانكليز ، وأنه رأى منها عدداً يتكلم فيه على الكمال ويقول فيه إن الكمال موجود عند الانكليز ، فيجب أن نأخذه عنهم بعد ما قدم مقدمه أنه يجب أخذ الكمال حيثما كان

(٣) حدثنى أيضاً عن ترجمة فانديك ، وأن أطباء الافرنج لا يعترفون له بأنه طبيب ماهر ولا علماؤهم بأنه عالم وإنما كان مترجماً . وحزبه — ومنهم جماعة المقتطف — الذين تحزبوا له يوم أخرجته الجمعية الأمريكانية من المدرسة بناء على أنه ليس لديه من العلم ما يؤهله لها — يسمونه فيلسوفاً

(٤) اجتماعاتى مع الأمير شكيب وحديثه لى عن شؤونه فى الآستانة لا سيما مع ابراهيم بك المويلحى وترددهما بين السيد جمال الدين (الأفغانى) وبين أبى الهدى أفندى وقضيت العجب مما ذكر لى من خبث المويلحى

(٥) اجتماعاتى مع وجوه الجبل (لبنان) متصرفه فمن دونه أمور شخصية ليس فيها فائدة تاريخية أو علمية إلا مسألة تولية نسيب بك جنبلاط قائمقامية صيدا بارادة سنية وذهابه بأمر الوالى إليها وما كان من الاحتفال الغريب من أهلها به وإرسال الوالى تلغرافا صبيحة ليلة وصوله بطلبه لبيروت وإقامة وكيل لصيدا مكانه بحيث لم ينم فى صيدا إلا ليلة واحدة

(٦) بور سعيد والاسكندرية وصرفاً كل منهما ومبانيهما وشوارعهما لا سعة للكلام فى ذلك

(٧) مدرسة جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية وتعليمها ورئيسها عبد القادر أفندى سرى

(٨) اجتمعنا بالسيد عبد الفتاح النديم بداره فى الاسكندرية وأهدانى نسخة من الجزء الأول من سلافة النديم وأخبرنى أن كتب أخيه (عبد الله نديم) لم تزل فى الآستانة وهى عند الشيخ ظافر ، ولم يعطوها له بناء على صدور الأمر بفحصها ، وأن كتاب المسامير الذى ألفه بالطعن فى أبى الهدى أفندى توجد نسخة منه عند أخ لجورجى كان يتردد بين السيدين الأفغانى والنديم فى الآستانة وأخو جورجى الآن فى مصر لكنه يطلب فى مقابلة الكتاب مئات من الجنيهات

(٩) مولد السيد البدوى الرجبي فى طنطا وما يقام فى ذلك المسجد العظيم فى أيامه من الأذكار والنوبات واجتماع الألوف من النساء والرجال وطوافهم بقفص قبر السيد كما يطاف بالكعبة ، وتقبيلهم له وتمسحهم به ، بل وتقبيل عتبة باب مقصورته

(١٠) بحيرة الاسكندرية ، الملاحة . أراضى مصر وفيها سباخ كثير ، أشجارها ، النيل ، عظمتها لاسيما فى كفر الزيات والمنصورة ودمياط ، الطرق الحديدية والترام الكهربائى — أمور عمومية

(١١) ذهبت إلى دمياط عن طريق المنصورة ومعنا الشيخ أبو النهى والشيخ أبو النصر (القاوقجيان) فنمنا بالمنصورة عند صديقنا الشيخ عبد الرزاق أفندى الرافعى القاضى ولم يكن ثمة ، لكن تلقانا ولده محمد أفندى بالترحاب وهو لطيف جداً ، وسهر عندنا المفتى والنائب وبعض أهل العلم ، ولما سمعوا حديث أخيكم أعجبوا به ، ودعانا المفتى للغداء عنده فى اليوم التالى فسافرنا إلى دمياط ولم نجب دعوته

(١٢) الجمعية الأدبية للخطابة فى المنصورة وكلام المقطم فيها

(١٣) اجتماعنا بالعلماء فى دمياط وكثرة سؤالهم لى عن المسائل الدينية والصوفية والفلسفية ، وبفضل الله لم أتوقف فى جواب . وقد تمنى الكثير منهم أن أبقى عندهم وبعضهم أن يكون معى

(١٤) فريد بك (وجدى) ابن وكيل محافظ دمياط ، شاب ذكى نبيه ، أبصر أهل دمياط بحالة الاسلام والوقت وجهته مثالنا دينية ، يطالع الاحياء ، وله اعتناء بالفلسفة ، ألف كتاباً صغيراً سماه الفلسفة الحقة أهدانى نسخة منه ، وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسوية فى الديانة الاسلامية ويعرضه فى معرض باريز الآتى ، وهو منفرد بهذه الأفكار فى دمياط ، لأن دمياط بلدة اسلامية لا مداخلة للنصارى والافرنج فيها ، ومن ثم هى ضعيفة فى العمران ، قوية فى التمسك بالدين ، لانظير لها فى مدن مصر . زرت فريد بك وزارنى ، وقد أعجب بى كل الاعجاب ، وتمنى أن أكون معه دائما ، ونشط همتى على انشاء الجريدة (المنار) وسيكتب فيها

(١٥) فاتنى أن أذكر لكم عند ذكر الاسكندرية أننى اجتمعت هناك برجل يدعى السيد حسن أفندى وهو رجل باقعة أصله بيروتى ودخل النصرانية وتعلم اللاهوتى البروتستانتى ثم رجع للاسلام ، وهو متقن للغة الانكليزية ومتزوج بافرنجية ، وقد ساح فى البلاد كثيراً وأكثر إقامته فى عدن يتعاطى الأعمال التجارية ، وله مداخلة مع جميع طبقات الناس ، ويعاشر كلا على مشربه خيراً أو شراً ، يجتمع باللورد كرومر وبمختار باشا (الغازى) وبسائر الوزراء والكبراء وكتاب الجرائد ، وله صحبة مع أصحاب المقطم أثنوا عليه يوم جاء مصر ، وفى هذه المدة الأخيرة أقامه الشيخ الميرغنى الشهير خليفة على تلامذته فى شرق أفريقيا إلى رأس الرجاء ، ولا نعلم ما يكون من أمره ، وقد وعدنا بالمساعدة فى أمر الجريدة (المنار)

(١٦) مصر وما أدراك ما مصر ! ! وصلنا إليها قبيل العصر يوم السبت الماضى ، وأتينا تواً للأزهر ؛ فتلقانا الشيخ اسماعيل (الحافظ) وغيره ، وشربنا الشاى فى غرفة الشيخ بدر الغزى — يظهر أنه بابىّ على مذهب شيخه — وفى ضحوة يوم الأحد ذهبت لزيارة المصلح العظيم الأستاذ الشيخ محمد عبده ومعى الشيخ اسماعيل والشيخ أبو النهى . قعدنا فى المندرة وأعطيت العبد بطاقة الزيارة فأوصلها إليه فى الحريم . فلم يلبث أن نزل وهى فى يده ولم يتركها مدة جلوسنا ، بل جعل يقلبها بيده ويتكلم

سألنا أولاً عن أستاذنا الشيخ حسين افندى (الجسر) ثم عن عزيز افندى سلطان ومحمد باشا المحمد ، ثم عن طلبة العلم وشيوخهم وتعليمهم . ومما قلنا له إن الطلبة نحو مائتين والمستفيد المجتهد نحو اثنين

ثم أنشأ يتكلم عن حالة الأزهر والأمة . فعلمنا أن ما كنا نعتقده فيه من أنه موجه كل همه وسعيه للأزهر صحيح . ومن جملة كلامه أن سعادة هذه الأمة فى الأزهر ، وأن شقاءها من إهمال الأزهر . وإنه لا يرى نفسه سعيداً إلا إذا نجحت مساعيه فى إصلاح التعليم فيه . وإنه إذا رأى انتظامه قبل موته يموت قرير العين ويرى أنه ملك عظيم ، وحدثنا بأمر الامتحان فى الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه وبتعليمهم ، بل قال إن الكثير من مدرسى الأزهر لا قابلية فيه الآن لأن يكون طالب علم : ومنهم من يصلح اليوم لأن يطلب العلم من طريقه

قال : كنت فى الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة فيحل ألفاظها المفردة بارجاع ضمائرها وبيان متعلق ظروفها — هذا إن أحسن الجواب — فأسأله عن المراد بهذه العبارة فلا يحير جواباً .

قال لأحدهم مرة : ما مراد المصنف من هذه العبارات — ثلاث مرات — وهو يعيد له الحلّ السابق . فقال له فى الأخير : إن مراده كذا ، فقل مثلما قلت ؛ فلم يحسن ذلك . وقال — بمناسبة ذمّ كتبهم — : سألت أحدهم فى المنطق فأجاب بما يبعد عن الصواب . قال : فقلت : من أين لك هذا الكلام ؟ فقال : من حاشية الصبان على السلّم . قال : فلم أصدقه فنظرت فى الكتاب فرأيتها كما قال . فقلت للشيوخ كيف يعرف المنطق من هذا الكتاب ، وإن صاحب السلّم لا يعرف المنطق وشارحه لا يعرف المنطق ومحشّيه (الصبان) لا يعرف المنطق

قال : كان مراده من العام الماضى قلب هيئة الأزهر دفعة واحدة ، لكن قيل له إن الشيوخ يصعب عليهم ذلك ، ولابد من أخذهم بالتدريج

وقال : إن مداخلته بالحكومة إنما هى لأجل الأزهر لأنه لولا مركزه فى الحكومة لا يقبل له قول ولا يستطيع أن يعمل شيئاً فيه . وانه يعلم أن كثيراً من الشيوخ الذين ينقادون له الآن ساخطون عليه فى نفوسهم ، مع أنه سعى لعلماء الأزهر بمبلغ خمسة آلاف جنيه بعضها من الحكومة وبعضها من الأوقاف ، وكانوا فى غاية الضيق

مما ينقمون عليه أنه لا يطول أكمامه مثلهم ، وأنه يركب الحصان ويلبس الجزمة عند ركوبه كما فهمت من الشيخ اسماعيل فتأمل . وقال : لما ولاه الخديو السابق القضاء قال لناظر الحقانية : أنا خلقت لأن أكون معلماً لا لأن أكون حاكماً : أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا . فقل للخديو يجعلني فى دار العلوم ، فلم يرض الخديو ، وقال : إن الحكومة أرادت الاصلاح بكذا وكذا

قال : وإن المصريين منهم من يعتمد على فرنسا وعلى . . . وعلى . . وكل هذا أوهام ، والصحيح أنه لا يضمن لنا الاستقلال والحياة للأمة إلا شىء واحد وهو التربية والتعليم الصحيح

ثم تكلم عن ضعفنا وقوة أوربا وقال : إن جميع ما حولنا — لا سيما حكامنا وعلماؤنا — يدل على اليأس ، ومع هذا فان لى أملاً كاملاً ، ويوجد رجل آخر فى مصر له نصف أمل سأسأله عنه[1] ، ثم جاء بكلام تاريخى عن حالة أوربا فى ضعفها وكيف قويت

سألته عن الكتاب المعهود[2] ، فقال : إنه لم يتممه وأنه لا بد منه ومن كتبٍ أخرى . لكنه يحتاج إلى مساعد حاذق أمين : يفحص له عن النصوص ؛ فان جميع أرباب التآليف الكثيرة كالغزالى وغيره كانوا كذلك ، وإلا فان الوقت لا يتسع لتلك المؤلفات . وإنه لم يجد ذلك المساعد ولا بالمال . فقلت له : « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » وربما يحصل بينى وبينه ارتباط عظيم . ولو جئت مصر غير متعلق[3] بغيرى ربما كان أولى ؛ فانى أجد قبولاً عظيما عند الكبراء والوجهاء من أهل العلم وأهل الدنيا : ماتكلمت أمام أحد إلا اعتبرنى اعتباراً زائداً . وقد تبيّن لى صحة قول من كان يقول لى : إنك ضائع فى بلادك ولو كان فى الوقت سعة لأخبرتك بما يسرك جداً من التفصيل

أخبرنا الأستاذ (الامام) أيضاً أنه كان شرع فى تأليف رسالة فى التوحيد منذ كان فى بيروت ، وانه سيتمها ويقرؤها درساً فى الأزهر فى أول السنة الآتية ، ويقرأ كتاب السيرة المعهود أيضاً إذ قراءته تدعو إلى اتمامه

وقال بمناسبة صعوبة التآليف المهمة فى العربية — إن بعض الكتب التاريخية وغيرها ربما لا يوجد فيه من العبارات المفيدة إلا عبارة واحدة أو اثنتان والباقى لا أهمية له . فاستخراج المفيد صعب ، ومثل مثلاً فقال : إذا أردنا أن نكتب فى تاريخ علم الكلام فمن أين نستفيد : كيف كان هذا العلم فى عصر الصحابة ومن بعدهم ؟ وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى ؟ ومن أين جاءه ذلك الفكر فى المخالفة ؟ وهل كان غيره على رأيه ؟ وما الذى حمل أبا الحسن الأشعرى على القول بأن الوجود عين الوجود مثلا ؟ وما غرضه من ذلك ؟ ومتى دخلت الفلسفة

---

(١) ثم أخبرنى فى رسالة أخرى أنه سأله عنه فقال هو الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه

(٢) كان يفكر رحمه الله فى تأليفه وهو فى السيرة النبوية كما يفهم من الآتى

(٣) يشير إلى ارتباطه بشريك له فى إنشاء المنار

ونحوها من الفنون فى هـذا العلم ؟ وما غرض العلماء من جعل الفلسـفة تدخل على المقول مع عقائد الدين فى وقت واحد ؟ مسائل لم يشرحها أحد من علماء الاسلام . وقال : إن لعلماء الافرنج ومؤرخيهم كلاماً فى الدين الاسلامى لم يهتد له أحد من المسلمين ، وذكر لنا بعض تلك الـكتب ومؤلفيها وكيفية أبحاثها

وقال : إن الأمم تتقدم الى الأمام ونحن نرى من سعادتنا فى تقدم الأمة أن ترجع للوراء تسعمائة سـنة . وأن تـكون كتبنا وتعاليمنا كما كانت منذ تسعمائة سنة

وذكر فى معرض الانتقاد ابن عابدين وانتقـد عليه وقال : كان يمكن جمل الـكتاب مجلدين بذكر ما يفيد والسكوت عما لا يفيد ، وذكر الاحياء وأنه ينبغى اختصاره ، وأنه رأى له مختصراً فى مجلدين فى المـكتبة الخديوية مدحه كثيراً ، ولولا أنه مخروم لسعى فى نشره ، وقد تعجبت لرضائه عنـه رضاءً تاماً ، ولعله لا يعجبه غيره كذلك

أما سيرة الأسـتاذ (الامام) فى مصر فـكلٌ يعلم أن بيده زمام الأزهر ، وأنه هو الساعى فى انتظامه . وشيخ الاسلام فمن دونه تبع له ، وفى إنشاء الرواق الجـديد الذى أنشأه الخديو ويسمى بالرواق العباسى وهو حسن جداً ، وقد سعى بمبلغ من النقود ليوزع على النابغين فى الامتحان من الطلبة ، وسيوزع قريباً فى احتفال يخطب هو فيه الخ

وأما من حيث المحـكمة فقد سمعت أنه يأتى الساعة واحدة فيحلّ المشاكل ويفصل الدعاوى المتراكمة . وينقلون عنه حكايات لطيفة فى بيان الحيل وكشف الدسائس

ذكرت له : أن غرضى الأول تلقى الحـكمة منـه فى أوقات الفراغ ؛ فسر لذلك وعهد إلىّ أن أجيء لبيته صباح يوم الجمعة (نهار غد) وأنه يأخذنى حيث يذهب

فانى أن أكتب لكم عند ذكر التربيـة أنه قال للسيد جمال الدين (الأفغانى) عند ما كانا فى فرنسا ، دعنا من السياسة ولنختر لنا مكانا مهملا لا اعتبار له فى نظر الحكام (أو ما معناه) ونعلم به ونربى بعض الأولاد ، فلا تمضى عشر سنين إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا فى ترك أوطانهم والهجرة فى نشر العلم والدين فنرسلهم للجهات ، وأن السيد (الأفغانى) أبى عليه هـذا وقال له : أنت مثبط فلم يكن مندوحة عن الانصياع له . وقال : لو أن السـيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لأصلح اصلاحاً عظيما

ذكرت له بمناسبة ما شاهدته من طواف الناس بقبر السيد البدوى ولثم أعتابه ، فحدثنا أن بعض الوجهاء كان عنده فى يوم مولد السيدة زينب وأنه قام ليحضر المولد . فسأله الأستاذ أين تذهب ؟ قال : لزيارة السيدة . فقال : لأى شيء خصصت زيارتها بهذا اليوم . قال : لأنه يوم المولد . فقال له : ما هو يوم المولد ؟ أنا لا أفهم معنى هذا اللفظ . هل هو عبارة عن يوم تقوم فيه من قبرها وتستقبل الزائرين ، وطفق يندد بهذا الأمر . فقال له الرجل إن كثيراً من العلماء والفضلاء يحضرون هـذه الموالد وتهيأ للقيام . فقال الأستاذ : أنا لا أعتبرك وأعتبر هؤلاء الذين تسميهم فضلاء إلا وثنيين ، لأن هذه الأعمال أعمال الوثنيين ؛ إن كل آيات الـكتاب ونصوص السنة تذم هذا (أو ما معنى هذا) بل الفاتحة التى تصححون بها عبادتكم تنهاكم عن هذا وتعده خلاف العقيدة ، أنتم فى كل ركعة من الصلاة تقولون : « إياك نعبـد وإياك نستعين » فـكيف تصدقون بهـذا وأنتم تطلبون الاعانة من هؤلاء الأموات ، أفعالـكم متناقضة ، لأن قراءتكم الفاتحة لهم يدل على أنهـم محتاجون إليكم بهذا العمل الذى تهدونه لهم ليكون فى ثواب أعمالهم ثم تطلبون منهم الحوائج الخ

أهـل مصر عموماً لا سيما العلماء والوجهاء وأركان الحزب الوطنى يلعنون أبا فلان فى المجالس ويكفرونه ، ويقولون إنه هادم لأساس الدولة وإنه موقع الفتنة بين السلطان والخديو ، حيث أوهم الأول أن الثانى طالب للخلافة ويساعده على هـذا العمل توفيق البكرى الانكليزى المشرب

ما كنت أتخيل أنى أكتب هذا المقدار لضيق الوقت علىّ ولا أراك تؤاخذنى على قبح الخط وعدم انتظام الـكلام ، واقرأه على الشيخ محمد (كامل) افنـدى الرافعى لأنى أود أن يطلع عليه ، وكنت عازماً أن أكتب له بمثل هذا فلم يساعدنى الوقت م؟

أخوكم

محمد رشيد رضا

المعنى والأسلوب

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب جدير بهذا الاسم ، لا يغنى أحدهما إذا غاب الثانى ، ولا يرتفع الأديب إلى الذروة العليا فى الأدب إلا باجتماعهما له

وقد كان كبار شعراء الانجليزية — كشكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون — يجمعون إلى خصب شعورهم بصيرة باللغة بعيدة ومقدرة على التصرف بمفرداتها وتراكيبها تصرفاً يبرز معانيهم فى أحسن صورة ، أما توماس هاردى فقصر به عن بلوغ ذروتهم — رغم خصوبة شاعريته — إعواز الرصانة فى أسلوب شعره الذى هو أشبه بالنثر الجيد ، وقصوره عن أولئك الفحول فى البصر باللغة ومعرفة كيفية التصرف فى ألفاظها وتعابيرها ، ومن ثم ينزله النقاد الانجليز المرتبة الثانية بين شعرائهم

وقد كان للمعنى — المعنى الصادق الجدير بالتعبير عنه — المنزلة الأولى عند كبار الأدباء الانجليز دائماً ، وكان الأسلوب يحل عندهم فى المحل الثانى ، ويأتى لأداء المعنى لا ليحل محله أو يتحيَّفه ، ولم يشتد الولع بالأسلوب إلى حد الاغراق إلا فى عهد قصير فى القرن الثامن عشر ما يزال يُعدّ أحط أزمان الشعر الانجليزى ، وسرعان ما تحرر الأدب من قيوده ، وعاد كما كان تعبيراً صحيحاً عن الشعور الصادق فى أسلوب طبيعى مستقيم

أما الأدب العربى فطغى الأسلوب على جانب كبير منه فى مختلف عصوره وتحيف المعنى أو ألغاه : ففى الأدب العربى شعر ونثر كثيران يروع أسلوبهما والمعنى فيهما ضئيل هزيل أو مصطنع كاذب غير معبر عن شعور صحيح أو تفكير سليم ، لأن الأديب قدّم براعة الأسلوب على التعبير عن حقيقة خواطره أو الاتيان بمعنى جديد يستحق عناء الانشاء

لقد كان العرب شعراء السليقة لا شك ، يُحِلُّون الشعر أو الأدب عامة مكانة عالية ويحتفون به ويطربون له ، حتى أوشك أن يكون فَنَّهم الجميل الوحيد ، ولكن من العجيب بل من المُؤْسِف أن الأدب العربى أحاطت به ظروف أزاغت نظرة كثير من أدبائه إلى الأدب أو وظيفته أو رسالته ، وقد أشرتُ فى كلمات سابقة إلى بعض تلك الظروف ، ومنها دخول الأعاجم فى اللسان العربى ، واعتزال الأدباء مجتمعهم واعتمادهم على صلات الكبراء ، وتغلُّب نزعة التقليد على نزعة التطور فى الأدب العربى ، واعتزاله غيره من الآداب القديمة والمعاصرة له إلى حد كبير

زاغت نظرة كثير من الأدباء إلى الأدب فحسبوه صنعة لا فناً جميلاً ، وظنوا الغرض منه إظهار البراعة لا التعبير عن الشعور والفكر الصادقين ، فجاءت آثارهم صناعة وبراعة خالية من المعانى الصادقة العالية والشعور العميق الصحيح : فالمقامات ورسائل الدواوين وأشعار النسيبِ الاستهلالى والمدح والهجاءِ المأجورين والفخر الأجوف ، والمنثورُ والمنظومُ المرصعان بغرائب السجع والجناس والزِّواج والمقابلة وهلم جراً ، كل هذه آثار أدبية قليلة الحظ من الصدق والحياة وعمق الفكرة ، وإن تكن لها مزية فهى مزية الأسلوب إن كان مُنشئها بارعاً

وهناك عدا ذلك آثار أدبيـة لم يقدِّم أصحابها الأسلوب على المعنى ، ولكن المعنى فيها تافه بذاته غير ذى بال . فالأدب الرفيع هو ما تحدَّث عن مشاعر النفس العميقة وتأثراتها بأسباب الحياة ، ومَشاهد الكون ، وتناول حياة الانسانية على الاطلاق ناظراً فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، معبراً عن آمالها وآلامها ، فأين من هذا خمريات أبى نواس ومقذعات جرير والفرزدق ومجونيات بشار ؟ لقد كان هؤلاء شعراء صادقى المعانى فى كثير مما قالوا رائعى الديباجة ، ولكن شعرهم لتفاهة المواضيع التى سخروه فيها أو ضِعتها لا يرتفع إلى الطراز الأول من الشعر الانسانى ، ولا تبقى له قيمة إذا جردته من أسلوبه الجزل

فاذا نظرت إلى كثير من منتجات أولئك الأدباء طالباً تلك النظرة الانسانية العامة ، وراغباً فى شىء من الثقافة تضيفه إلى ماعندك ، ومنتظراً أن ترى نفسية الأديب وشخصيته مرتسمتين فى آثاره لم تصب من ذلك شيئاً ، ولم تزدد علماً من دواوين وكتب كاملة بغير فائدة لغوية أو براعة لفظية أو تعبير جديد عن معنى متداول قديم

فاذا ألغيت من آداب اللغة كل الآثار التي لا تتعدى مزيتـها أسلوبها ، والتي هزلت معانيها أو كذبت أو لم تزد على التمحل والمبالغة والتخريج والاغراب ، لم يبق لك إلا القليل من الأدب السامي الذي اجتمعت له مزايا المعنى القيم والموضوع المهم المفيد والأسلوب المحكم ، كأشعار الفحول في الحكمة والوصف الطبيعي والتعبير الصادق عن الوجدان والنسيب الحقيقي والحماسة وما إلى ذلك ، وتلك دون غيرها هي الجديرة أن تسمى آداباً

وهذه الآثار — وأحسن نماذجها حكمة المتنبي وأوصاف ابن الرومي وأبي تمام والبحتري ونظرات المعري ووجدانيات الشريف الرضي ، ورسائل الجاحظ — هي خلاصة الثقافة التي يخرج بها الدارس من الأدب العربي ، وهذا المحصول الثقافي هو بلا شك دون المحصول الذي يظفر به مطالع الأدب الانجليزي ، الذي أوسع أقطابُه النفس الانسانية والحياة البشرية والمحاسن الطبيعية درساً ووصفاً ومناجاة

لقد أشرت إلى الظروف التي أحاطت بالأدب العربي فأدخلت فيه كثيراً من زيف الصنعة وكاذب القول وغلّبتْ الأسلوب في كثير منه على المعنى ، ولعل طبيعة اللغة العربية قد ساعدت على هذا التغليب ، وأمدّت لمن انصرفوا بكلياتهم إلى الأسلوب وجمعت حولهم المستجيدين : لما للغة العربية من بلاغة أصيلة ، وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في الآذان والنفوس من روعة وفتنة ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة واتساق بحيث يستطيع المتمكن من كل هـذا أن يستولى على الألباب دون أن يبتدع في المعنى ، كما يصرفك جمال اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنّى به أحياناً

وقد زالت اليوم الظروف التي لابست الأدب العربي قديماً ، فهبطت بمعاني الكثير منه وأدخلت عليه الزيف والصنعة وزيغ النظرة إلى الغرض منه ، وما زالت للغة سعتها ومقدرتها وجمالها وموسيقاها ، فاذا اجتمع صدقُ النظرة إلى الأدب ومطاوعةُ أداته وهي اللغة ، إذا قرنت المعاني المبتكرة السامية إلى اللغة الفنية المساعدة ، فما أجدر الأدب العربي أن يتبوأ منزلة عالية بين الآداب ، وما أقوى الأمل في أن يفوق مستقبله كلّ ماعرف ماضيه

فخري أبو السعود

من تراثنا العلمي

٢ — كتاب في البَيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

« أبواب الكتاب »

المقـدّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له في كل لطيف من خلقه مُعجز يُتفكَّر فيه ، وخفيّ من صُنعه يُتنبّه به عليه ، ونِعَم تقتضي مواصلة حمده ، ومِنَن تحثُّ على متابعة شكره . والذي ميّز كل نوع من حيوانٍ خلقه على حِدَته ، وأبانه بشكله وصورته ، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومُركّبه ، ويسّره للأمر الذي خلق له ، ويُؤدّيه إلى مصلحته ، وقوام جسمه . وجعلنا من أشرف ذلك كلّه نوعاً ، وأتمّه معرفة ، وجمع فينا بالقوّة ما فرّقه في تلك الأصناف بالآلة ، فليس منها شيء مخصوص بحالٍ له فيها مصلحة إلا ونحن قادرون على مثلها ؛ كذوات الأوبار التي جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا تعدمها ؛ فإنا بفضل حيلة العقل نستعمل مثل ذلك إذا احتجنا إليه ، ونفارقه إذا استغنينا عنه ؛ وكذوات الحدّ والشوكة من صدف أو مخلب ، فان لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة ؛ وكذوات الحافر والظلف فان لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتّقي أذى الأرض به . وجعل لنا خدماً وأعواناً ، وزينة وجمالاً ، وأكلاً وأقواتاً ؛ فبعض نمتطيه ، وبعض نقتنيه ، وبعض نغتذيه . وأحلّ لنا صيد البرّ والبحر والهواء ؛ نقتنص الوحش من كناسها ، ونحطّها من معاقلها ، ونستنزل الطير من الهواء ، ونستخرج الحوت من الماء . ولم يكلنا في ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عضدنا عليه ، وسهّل السبيل إليه ، بأن خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصاً أغراضها بغيرها من سائر أجناسها ، ووصلها من آلة الخلقـه وسلاح البُنية ،

وقبول التأديب والتضرية ، والانطباع على الأكف ، والاستجابة . فدلّنا على موضع الصنعَ فيها ، وموقع الانتفاع بها ، كالفهد والكلب وسائر الضوارى ، والبازى والشاهين وسائر الجوارح كما يحويه من ذلك لنا كاسب وعلينا كادح ، وبمصلحتنا عائد ؛ نستوزعه جلّ جلاله الشكر على ما منحناه من هـذه الموهبة ، وفضلنا به من هذه التكرمة ، إلى ما نقصر عن تعداده ، ونعجز عن الاحاطة به من عوائد كرمه ، وفوائد قسمه ؛ ونرغب إليه جلّ جلاله فى العون على طاعته ، ومقابلة إحسانه باستحقاقه . وصلى الله على محمد نبيّه الصادق الأمين ، البشير النذير ، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم تسليما ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب حتى تنتهى الى العزيز بالله أمير المؤمنين فتشمله ونسله الى يوم الدين

إن للصيد فوائد جمّة ، وملاذ ممتعة ، ومحاسن بينة ، وخصائص فى ظلف النفس (١) ونزاهتها وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة ؛ فبه يستفاد النشاط والأريحيّة ، والمنافع الظاهرة والباطنة والمران والرياضة ، والخفوف والحركة ، وانبعاث الشهوة واتساع الخطوة ، وخفّة الركاب ، وأمن من الأوصاب ؛ مع ما فيه من الآداب البارعة ، والأمثال السائرة ، ومسائل الفقه الدقيقة ، والأخبار المأثورة ما نحن مجتهدون فى شرحه وتلخيصه ، وتفصيله وتبويبه فى هذا الكتاب المترجم بكتاب (البَيزرة) على مبلغ حفظنا ، ومنتهى وسعنا ، وبحسب ما يحضرنا ، وينتظم لنا اتباعاً فيما لا يجوز الابتداع فيه ، وابتداعاً فيما أغفله من تقدمنا ممن يدعيه ، ونحن مقدمون ذكر الأبواب التى تشتمل على ذلك ليأتى كل باب منها فى معناه ، وبالله الحول والقوة ، ومنه عز وجل التوفيق والمعونة

(باب) من كانت له رغبة فى الصيد وعنده شىء من آلته من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأشراف

(باب) تمرين الخيل بالصيد والضراءة ، وجرأة الفارس على ركوبها باقتحام العقاب ، وتسنّم الهضاب ، والحدور والانصباب

(باب) ما قيل فى طرد كل صنف من وحش وطير

(١) ظلف نفسه عن الشىء منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه

(باب) فضائل الصيد ، وأنه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان فى الحال ، متقاربان فى علوّ الهمة : اما ملك ذو ثروة ، أو زاهد ذو قناعة ، وكلاهما رمى اليه من طريق الهمة إما لما تداوله الملوك من الطلب وحب الغلبة الخ . . . والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دنىء المكاسب ، ورغبتها الخ ، فمن هذه الطبقة من يقتات من صيده ما يكفيه ، ويتصدق بما يفضل عنه توقياً من المعاملة والمبايعة ، ومنهم من يبيع ما فضل عن قوته ، ويعود بثمنه فى سائر مصلحته ، وكانت هذه حال الخليل بن أحمد الفرهودى مع فضله وأدبه وكمال علمه وآلاته الخ . . وكان جلّة الناس فى عصره يجتذبونه الخ . . . فأحد من كاتبه سليمان بن على الهاشمى ، فكتب الخليل بن أحمد إليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنًى غير أنى لست ذا مال
شحّى بنفسى أنى لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال (١)

«قال» وقلما رأيت صائداً إلا تبينت فيه من سيما القناعة الخ . . وقال أرسطاطاليس : أول الصناعات الضرورية الصيد ، ثم البناء ثم الفلاحة . ولو أن رجلاً سقط إلى بلدة ليس بها أنيس ولا زرع لم تكن له همة إلا حفظ جسمه ونفسه بالغذاء الخ . . . ويغدو للصيد اثنان متفاوتان : صعلوك متسحق الأطمار . وملك جبار ، فينكفىء الصعلوك غانماً ، وينكفىء الملك غارماً ، وإنما يشتركان فى لذة الظفر الخ . . . وقال أبو العباس السفاح لأبى دلامة سل ! . . فقال : كلباً ، قال : ويلك وما تصنع بكلب ؟ قال : قلت سل ، والكلب حاجتى ، قال : هو لك ، قل : ودابة تكون للصيد ، قال : ودابة ! قال : وغلام يركبها ويتصيد عليها ، قال : وغلام ! قال : وجارية تصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا ، قال : وجارية ! قال أبو دلامة : كلب ودابة وغلام وجارية ! هؤلاء عيال ! لا بد من دار ! قال : ودار ! قل : ولا بد من غلة وضيعة لهؤلاء ، قال : قد أقطعناك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة قال : ما الغامرة ؟ قال : التى لا نبات فيها ، قال : أنا أقطعك

(١) والذى قاله ابن خلكان : أنه كان للخليل راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، وكان والى فارس والأهواز ؛ فكتب اليه يستدعى حضوره ، فكتب الخليل جوابه (هذين البيتين وبعدها) :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

(فى قصة طويلة)

خمسمائة جريب فى فياف بنى أسد ، قال : قد جعلنا لك المائتين عامرة بقى لك شىء ؟ قال : أقبل يدك ، قال : أما هـذه فدعها ! قل : ما منعت عيالى شيئاً أهون عليهم فقدا من هذا (١)

وقيل لبعض من كان مدمناً على الصـيد من حكماء الملوك الخ . . . وقيل للزاهد المشغوف بالصيد الخ . . . وهـذا كتاب كليلة ودمنة الخ . . . وكانت ملوك الأعاجم تجمع أصنافها (أى الحيوانات) ، وتدخل أصاغر أولادها عليها وتعرفها الخ . . .

وأشرف الغذاء الذى يحفظ به الأعضاء ، وليس شىء أشبه بها وأسرع استحالة إليها من اللحم ، وأفضل اللحمان ما استدعته الشهوة ، وتقبلته الطبيعة بقوة عليه ، ولا لحم أسرع انهضاماً وأخص بالشهوة موقعاً من لحم الصيد المطرود المكدود ، لأن ذلك ينضجه الخ . . .

وإن كان الحيوان غليظاً ، عكست هـذه الأسباب طبعه ، ونفت ضرره ، وقمت كيموسه ؛ وربما أكل اللطيف الخفيف على تعنف وتكره ، فكان إلى أن يأخذ من الأعضاء ، أقرب من أن تأخذ منه الأعضاء

وتأول الرواة معنى امرئ القيس فى قوله :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلٍ ... مُخرِجٍ كفَّيْه من سُترِهِ
فأتَتْه الوحشُ واردةً ... فتمتَّى النزْعَ من يَسرِهِ
فرَماها فى فرائصِها ... من إزاء الحوض أو عُقرِهِ
مطعمٌ للصـيد ليسَ لهُ ... غيرها كسبٌ على كِبَرِهِ

على المدح بادمان الصيد ، وعن الطائر فيه ؛ واستثناؤه بقوله على كبره زائد عندهم فى المدح لوصفه أنه يتكلف من ذلك مع فدح السن وأخذها منه شيئاً لا يعجزه مع هذه الحال ، ولا يلحقه فيها ما يعرض للمسن من الفتور والكلال ؛ وبنو ثُعل بنو عمه لأنهم نخذ من طيء ، وكندة نخـذ من مرة ، ومرة أخو طيء فلم يرد غير المدح ؛ وهـذا الرامى عمرو الثعلى ، وكان من أرمى الناس الخ . . .

وفى أبيات امرئ القيس هـذه ، أدب من أدب الصيد ، ولطائف حيله ، وهو قوله : فتمتى النزع من يسره ، وتمتى وتمطى واحد ، أبدلت التاء من الطاء ، وفى تمتى معنيان : أحدهما الاعتماد والتوسط من قولهم حصلته فى متى كمى ، فتمتاه بمعنى تعمد متاه (كذا) والآخر بمعنى إبدال التاء من الطاء يريد التمطى (١) وهو أن مريد الصـيد بالرمى يتمطى بيساره نحو الأرض مرات حتى يؤنس الطريدة فتألف ذلك منه ولا تذعر له ، ثم حينئذ يستغرق نزعه ويمضى سهمه

ولا يزال امرؤ القيس فى كثير من شعره يفخر بالصيد ، وأكل لحمه ، كقوله الخ . . .

ومن فضائل الصـــيد ما فيه من التبرز على ركوب الخيل صعوداً ، وحدوراً ، وكراً ، وانـكفاء ، وتعطفاً ، وانثناء الخ . .

وقال بعض الحكماء : قلما يعمش ناظر زهرة ، أو زمن مربغ طريدة ، يعنى بذلك الخ . .

وليس يكبر الملك الرئيس المعظم الوقور ، إذا أثيرت الطريدة أن يستخف نفسه فى اراغتها ، ويستحفز فرسه فى أثرها الخ . .

وحكى عن عظماء الأكاسرة الخ . . وعن الخلفاء الراشدين الخ . .

ومنها ما يسنح فيه من النشاط والأريحية الخ ... وربما قويت النفس حينئذ ، وانبسطت الحرارة الغريزية فعمات فى كوامن العلل . أخبرنى غير واحد ممن شاهد مثل ذلك : أنه رأى من غدا إلى الصـيد وهو يجد صداعاً مزمناً ، فظفر فعرض له رعاف حلّل ما كان فى رأسـه ، وآخر كانت به سلعة يجبن عن بطها قويت عليها الطبيعة فانبطت ، وآخر كان فى بدنه جرح الخ ... وربما عكس ما يعرض له من ذلك ذميم حالاته ، فآلت إلى ضدها من الخيرية حتى يتشجع إن كان جباناً ، ويجود وإن كان بخيلاً ، ويتطلق وجهه وإن كان عبوساً

أخبرنى بعض الأدباء ، عن رجل من الشعراء ، قصد بعض الكبراء فتعذّر عليـه ما أمّله عنده ، وحال بينه وبينه الحجاب وكان آلفاً للصيد ، مغرى به ، فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف ، فكتب فيها ما قاله من الشعر فى مديحه ، وصاد عدة من الظباء والأرانب والثعالب ، وشد تلك الرقاع فى أذناب بعضها وآذان بعض ، وراعى خروجه إلى الصيد ، فلما خرج كمن له فى مظانه

---

(١) قال الجاحظ : فانظر إلى حذقه بالمسألة ، ولطفه فيها ، ابتدأ بكتب فسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ؛ حتى قال ما لو سأله بديهة لمـا وصل اليه . « انظر أخبار أبى دلامة فى الجزء التاسع من الأغانى »

(١) قال فى اللسان والتاج . والتمتى فى نزع القوس من الصلب

ثم أطلقها فلما ظفر بها واستبشر، ورأى تلك الرقاع ووقف عليها زاد فى طربه واستظرف الرجل واستلطفه وتنبه على رعى ذمامه، وأمر بطلبه فأحضر ونال منه خيراً كثيراً

ومن شأن النفس أن تتبع ما عزّها، وبعد من ادراكها الخ ... وهذا شبيه بما تأوله يحيى بن خالد البرمكى فى توصية ولده بتقديم المدات أمام الهبات فانه قل لهم الخ ...

ولو أن محاول حرب، أو مقارع جيش، ملك عدوه قبل مكافحته إياه حتف أنفه، أو انفل جيشه من سوء تدبيره فانصرف، أو جاءه ضارعاً طالباً لأمانه، لما كان مقدار السرور بذلك كمقداره لو نازله فقهره، أو بارزه فأسره، وهذا بيّن فى الملاعب بالشطرنج الخ ...

ولو أن ملكا يهدى له فى كل يوم عدد كثير من أصناف الوحش والطير لم يبلغ فرحه بذلك جزءاً واحداً من اغتباطه بقبرة ضئيلة يدأب فى صيدها، أو عكرشة هزيلة يظفر بها الخ ..

وقال بعض المحدثين:

لولا طراد الصيد لم يك لذة ... فتطارى لى بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله ... من لذة حتى يصيب غليلا

وأخذ هذا المعنى محمد بن الوزير الحافظ الغسانى فكساه لفظاً حسناً، فى كلمة له يعتذر فيها من تأخير هدية:

أخر ماعنده لتطلبه ... ولذة الصيد حين تطرده

وقال بعض الكتاب يستعفى رئيساً من برّ بعث به اليه، (بعد أن مدحه بأبيات):

لا أستلذ العيش لم أداب له ... طلباً وسعياً فى الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يواتينى الغنى ... حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاحبس نوالك عن أخيك موفراً ... فالليث ليس يسيغ إلا ماافترس

ومن فضل العلم بالصيد ما حكاه لى أبى عن اسحاق بن ابراهيم السندى عن عبد الملك بن صالح الهاشمى عن خالد بن برمك؛ أنه كان نظر وهو مع صالح الهاشمى صاحب المصلى وغيره من رجال الدعوة، وهو على سطح قرية نازل مع قحطبة حين فصلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة أيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة: نادِ فى الناس بالاسراج والالجام وأخذ الأهبة، فتشوف قحطبة فلم ير شيئاً يروعه، فقال لخالد: ما هذا الرأى؟ فقال: أما ترى الوحش قد أقبلت، إن وراءها لجمعاً يكشفها؛ فما تمالك الناس أن يتأهبوا حتى رأوا الطليعة، ولولا علم خالد بالصيد لكان ذلك العسكر قد اصطلم

وعذل بعض أبناء الملوك فى الاستهتار بالصيد والشغف به الخ

ولما شهد أبو علقمة المرى عند سوار أو غيره من القضاة؛ وقف فى قبول شهادته، فقال له أبو علقمة: الخ

ومن فضائل الصيد أنه كان الملك من ملوك فارس الخ ...

وكانت لبهرام شوبين حظية الخ ...

وذكر الأصمعى عن الحارث بن مصرّف الخ ...

ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فناداه فاستجاب له فقال له: ما اللذة؟ فقال له: كبائر اللذات أربع، فعن أيهن تسأل؟ فقال: صفهن لى، فقال: هل تصيدت قط؟ قال: لا (وسأله عن خصال) قال: لا، قال: فما بقى لك من اللذات؟..

يتبع **على الطنطاوى**

الى الأستاذ البرازى

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى
للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما سطره قلمكم أيها الأستاذ الفاضل فى العدد ١٠٨ من الرسالة الغراء رداً علىّ وعلى الأستاذ على الطنطاوى وما كدت أوغل فى أسطره حتى أرسلت زفرة حارة تتخللها آهة من أعماق صدرى لا لأنك خالفتنى فى رأيى أو لأنك أتيت لتدافع عن الفقه الرومانى أو غيره . ولكن لتلك الروح التى تبدو من خلال سطوره ، روح الافتتان بأوربا وما تقوله أوربا والاستماتة فى سبيل الدفاع عنها والفناء فيها وعدم الاستقلال أمام ما تمليه من الآراء والتقريرات ، ثم الوقوف مع الاسلام بروح ميتة تزعمونها روح العدل وإنصاف البحث العلمى كما سماها لكم الشيوخ المحنكون ، والحقيقة غير ذلك . وياليت الأمر وقف عند هذا الحد فقط ولكنه تعدى إلى الأزراء بالعصبية الدينية واستهجان العاطفة القومية ودعوة الشباب المسلم إلى هذا التقليد الأعمى الذى تسمونه الانصاف لأروبا ، وإلى الاقتداء بأئمة أوربا الأبرار الذين لا ينطقون عندكم عن الهوى بل عن علم وبحث وانصاف . هذه النزعة الغالية جعلتنى أرسل الآهة تلو الآهة على الشباب المسلم المتعلم منا معاشر العرب ممن يفدون على أوربا القوية المادية بقلوب فارغة وطباع فطيرة غير مجهزين من سلاح الاسلام إلا بوراثة اسمه ، يأتون ليكرعوا من غمار موارد أوروبا ويتشبعوا من علومها وثقافتها . فتنفحهم من فتونها وحبها وتملأ صدورهم الفارغة مما تشاء هى لا ما يشاء الآباء . فيعودون وقد تشبعوا بثقافة أوربا وأخلاق أوربا والتعصب لأوربا أيضاً . وقد يكونون مزودين من كل شىء إلا من تعاليم الاسلام والحماس للاسلام ، وماذا يصنعون أمام أوربا وقد أتاهم هواها قبل أن يعرفوا الهوى ؟ إن أمثال هؤلاء لا يعدّون عندى إلا جرائم لآبائهم تتكرر بتكرر أنفاسهم

والله إننا لا ننكره ذات أوربا ولا علوم أوربا ولا ثقافة أوربا ولكننا ننكره هذه النزعة الغالية ، وهذه الثقافة الببغاوية الصورية التى يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين . أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فاننا فى مقدمة من يحبذها ويدعو اليها ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية فى نفوس الناشئة حذراً من هذا الفناء وهذا الادغام المشين

ولست أدعى انطباق كل ما قلت عليك يا حضرة مناظرى الأديب ! كلا ! ولكنى أقوله بمناسبة ما رأيته ملموساً فى مقالك من نزعة الافتتان بأروبا وتقليدها ودفاعك عنها دفاع المستميت ، ثم تظلمك لعلمائها بعبارات جعلتنى أتخيل أننا صرنا فى عصر صار فيه الشرق رب الصولة والدولة وكان الغرب على عكس ذلك ، وكأنك قمت محتسباً تستعطف العالم لانصاف الغرب الضعيف المظلوم من بنى الشرق وعنت الشباب

وماذا صنعنا سوى أننا أنكرنا أن يكون الفقه الاسلامى متأثراً بالقوانين الرومانية ، وأنه إذا كان بين الفقهين تشابه فليس الحكم على أن الفقه الاسلامى هو المتأثر بأولى من العكس ، فأدلة الفقه الاسلامى صريحة والمستنبطون منها وهم مؤسسو المذاهب لا يجوز أن يقال بتأثرهم بالقانون الرومانى إذ لم يتصلوا بالرومان ولم يعرفوا لغتهم ونشأوا ودرجوا فى محيط إسلامى وفى ثقافة اسلامية محضة ، ومن خطل الرأى وعدم الانصاف أن يقال لمجرد وجود التشابه بين الفقهين إن الفقه الاسلامى هو المتأثر أو الآخذ مع فقد الدليل وتوفر القرائن على ضده ، ولم لا يقول زاعمو التأثر إن هذا التشابه وليد المصادفة ؛ إذ أن الدين الاسلامى أتى فى أحكامه بما يوافق العقل السليم من العدل والانصاف ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح ، فما أمرنا بأمر فقال العقل السليم ليته نهى عنه ، ولا نهى عن أمر فقال العقل السليم ليته أمر به ، هكذا وصفه بعض الصحابة ، وعن هذا نشأ الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة فى مسئلة الوجوب بالعقل أو بالشرع والقول بالتحسين والتقبيح العقليين ؛ فلا يبعد أن تكون العقول التى عنيت بوضع القوانين لتحديد الحقوق وفصل الخصومات ، قد صادفت بعض ما قرره الفقه الاسلامى الملازم لمطابقة العقل فى قضائه وأحكامه ، وقد نقلنا حكاية اختفاء القوانين الرومانية وزعم ظهورها بعد ، وأن تاريخ ظهورها بزعمهم كان بعد تأسيس المذاهب وانصرام عصر

أعتها ومن المستحيل تأثرهم بشيء لما يظهر بعدُ من اختفائه ، وإذا كنا رجحنا أن القوانين الرومانية هي الآخذة عن الفقه الاسلامي فلم نقل ذلك اعتباطاً ولكن ببراهين نعتقدها كافية في ذلك ، وأخذُ أوربا عن علوم العرب غير مجهول كما تكرره المجلات العلمية عند كل مناسبة

القول باختفاء القوانين الرومانية ثم ظهورها

أما القول بأن القوانين الرومانية قد اختفت ودرست ثم ظهرت فجأة ؛ فلسنا نحن منتحليه وإنما قاله علماء غربيون ، فقد حكى جيبون أن هذه القوانين — أي قوانين الاثنتي عشرة لوحة — بقيت الى زمان جوستنيان ثم فقدت ، ونقل العلامة موسهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة في حوادث القرن الثاني عشر في العدد ٥ من الفصل الأول من القسم الثاني من الكتاب الثالث : إن الملك لوثاريوس اكتشف في افتتاح أمَلْفي سنة ١١٣٧ نسخة مجموع الشريعة الشهيرة التي كانت مجهولة على أجيال كثيرة ، فأتى بها الملك الآن الى مدينة بيزا ... الخ

ولا شك أن القوانين المعمول بها قبل ظهور هذه القوانين كانت مغايرة لها أيَّ مغايرة كما سيأتي . وأول من ابتدع هذه الحكاية أي حكاية اختفائها واكتشافها هو لود فيكوس سنة ١٥٠١ م ، ثم راجت هذه الحكاية وانتشرت في القرون الوسطى الى الآن (انظر جيبون جزء ٤ صفحة ٥٥٥) ، وقال اللورد ماكنزي في كتابه على القانون الروماني صحيفة ٦ إن هذا القانون (يعني قانون الاثنتي عشرة لوحة) لم يصل الى أيدينا وغاية معلوماتنا فيه تستند على بعض أوراق مفرقة وبعض ملاحظات تاريخية مما فقدت آثاره ... الخ

القوانين الرومانية القديمة

أما القوانين الرومانية القديمة ؛ فهذه نماذج منها ذكرها الأستاذ عبد الجليل سعد قال : إن فقه الرومانيين الأولين كان أشبه شيء بالفصول المضحكة (انظر تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون جزء ٤ صفحة ٥٢٧) وذلك لأن جميع معاملاتهم كانت لا تخلو من الحركات والطقوس ، وكانوا لا يفرقون بين المعاملات والأحوال الشخصية ، بل كانت الصيغة المستعملة واحدة للجميع وهي ما يسمونه : (مانسيباشيو) فاذا أراد أي إنسان إجراء أي عمل قانوني سواء كان زواجاً أو بيعاً أو وصية أو غيره ، فعليه أن يحضر القباني ومعه الميزان ، وعليه أن يحضر الشهود الذين يشترط ألا يقل عددهم عن خمسة ، وعندئذٍ يبتدئون في عمل الطقوس المفروضة ؛ فيتلون بعض العبارات ويصنعون بعض الاشارات أو الحركات ، ثم يمسك المشتري أو الموصى اليه أو الموهوب له قطعة من النحاس ويضرب بها في كفة الميزان ليقلد الطريقة القديمة المتبعة في وزن البدل ، ثم بعد ذلك يتفوه الطرف الثاني بجُمَلٍ معلومة تدل على أنه قابل ومقر على هذا العمل (انظر ماين على القوانين القديمة صحيفة ٢٩٥ و ٣٠٥) فلم يكن إذن لدى الرومانيين القدماء عقود مختلفة تتوقف على النية ، بل كان من الضروري إجراء حركات معيّنة ، فكان الخصمان في الدعوى يتكالحان أمام القاضي ، وكان المتظلم يمسك بخصمه من قفاه ويتضرع الى إخوانه أن يساعدوه ، وكان الموصى اليه لا بد وأن يخلع لباسه ويقفز ويرقص ! وكان الأب هو الحاكم والقاضي في أسرته . وجميع أفرادها داخلون في ملكه يتصرف فيهم كما يتصرف الانسان في ملكه المنقول ، فله بيعهم كالعبيد سواء كانوا نساء أو رجالاً (راجع جيبون صحيفة ٥٦٣ جزء ٤) ولم يكن حق الملكية معروفاً لديهم على النسق الذي نعرفه ، بل كان الملوك يقطعون الاقطاعات للضباط والعساكر ، وهؤلاء يجبون الخراج من أصحابها المزارعين (ماين صحيفة ٢٦٥) ، ومن أراد الزواج يذهب ويشتري زوجته من والدها على الصورة المتقدمة مع إحضار القباني والميزان والشهود ، ثم قال : أما قانون الاثنتي عشرة لوحة فلم يزل أصلا ثابتاً ، ثم قال : ومن يطلع على أحكام هذا القانون يجد بعضها في غاية الشدة والقسوة كمعاملة المدين المفلس ، فانه كان يمهل ثلاثين يوماً وهو مسجون مكبل بالحديد والقيود والسلاسل التي لا يقل وزنها عن خمسة عشر رطلا ثم يعرض ثلاث مرات في السوق العمومي لاستجداء الأصحاب والأقارب ، وبعد انتهاء الثلاثين يوماً إما أن يعدم أو يصير عبداً للدائن يبيعه ويقضي دينه ، وإذا كان له جملة دائنين حق لهم أن يجزّئوا لحمه قطعاً وينتقم كل منهم لنفسه بتقسيم بدنه هذا التقسيم الشنيع (انظر جيبون جزء ٤ صحيفة ٥٨٩ الى ٦٠٠) وكانت أحكام الرومان الجنائية قاسية للغاية ، فكانوا يلقون المذنب لافتراس

الوحوش الـكاسرة فى محل يسمى : الأنفتياتر ... الخ ما ذكره

هذا بعض ما قاله العلماء الغربيون عن الفقه الرومانى القديم ومخالفته للجديد ، وهو كاف - بلا شك - فى خرق الاجماع الذى ادعيته عندهم يا حضرة الأستاذ على استمرار القانون المعهود بينهم من ذلك العهد ، ولا نناقشك الآن فى أصل احتجاجك بسكوت الأوربيين عن جرح القانون الرومانى المعهود لديكم أو تلفيقه إلا بهذا ، ولا نعيد لك ما قاله العلامة ابن تيمية ، ولا أبو الوليد ابن خيره ؛ فقد يكون كل كلام لا يروج لديكم إلا إذا كان عليه الطابع الأوربى ، فذاك عند البعض قضاء لا يرد قائله ، غير أننا سنمهلكم وننتظر حتى يأتى يوم تصيح بكم فيه أوربا الحبيبة : أن أصلحوا معلوماتكم ، وغيروا مذكراتكم ، فعند ذلك تخفون اصواتها قائلين : غطى هواك وما ألقى على بصرى !

سقوط قياس القانون الرومانى بالقرآن

قلت أيها الأستاذ فى الصفحة ١٢١٦ من الرسالة : (إن البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ، فاذا كانت هذه الأمور غير مدوّنة بنفسها كالحديث الشريف فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه لم يعد مجال حينئذ إلى الأخذ بطريق الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخه الأصلية ، التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت من هذه ، فالقرآن الكريم مثلاً لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت الينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهد قريب من عهد نزوله ، لم يلجأ إلى الرواية لاثبات صحته ؛ وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الخ) وقلت فى صفحة ١٢١٥ : (انن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين ، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا : هاتوا دليلكم ، فقد حق كذلك لصاحبي المقالين المتحمسين أن يزعما ما زعماه)

فما أغناك أيها الأستاذ عن قياس القانون الرومانى بالقرآن الكريم ؛ وزعمك أن الاستناد فى اثبات كونه هو المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما هى نسخه المخطوطة القديمة الموجودة ، لا روايته الصحيحة ، فحينئذ هو عندك فى نسبته إلى الشارع (ص) كنسبة القانون الرومانى المعروف إلى جوستنيان ؛ وهذا تقرير لا أعلم مسلماً قاله قبلك أيها الأستاذ الفاضل ، فالعمدة فى اثبات القرآن الكريم ليست نسخه المخطوطة فحسب ، بل المقرر حتى عند تلاميذ المدارس الابتدائية أن العمدة فى اثبات القرآن الكريم إنما هو التواتر ، والتواتر أقوى الأسانيد ، وقد تلقاه الجيل عن الجيل ؛ ورواه الخلف عن السلف بالتواتر فى كل عصر من عهد نزوله إلى اليوم ، ولم يقل أحد بأن العمدة فى ثبات القرآن إنما هى نسخه المخطوطة القديمة فقط . وكيف يقاس القانون الرومانى الذى لا يعلمه إلا الأفراد من المتعلمين بكتاب يتلى فى كل مسجد وزاوية ، بل فى كل بيت فى بلاد الاسلام ، وفرض على كل فرد من المسلمين تلاوة شىء منه فى كل يوم خمس مرات ، ذلك بعد أن حفظه الجم الغفير عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عصره ، حتى ثبت أنه قتل فى يوم اليمامة فقط سبعون قارئاً ، ورونه الألوف عن الألوف من ذلك العصر ، وهكذا دواليك إلى اليوم ، ولا يبلغ الطفل المسلم سن التمييز إلا ويوجه لتعلم القرآن الكريم قبل دراسته لأى شىء كان

أين يكون قانون لا يعرفه إلا الأفراد من المتصدين لدراسة الحقوق من كتاب يدرسه العابد فى محرابه ، والتاجر فى سوقه ، والزارع فى ريفه ؛ ويشترك فى تلاوته الشريف والوضيع ، والذكر والأنثى من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير ، حتى أننا لو فرضنا أن المدنية العصرية قد عمت العالم وتخللت أوساطه الرفيعة والمنحطة ، وأريد أن يتلى القرآن بالمذياع على كل ذى مصحف لا نفتحت عند سماعه مائة مليون مصحف فى شرق الأرض وغربها ، ولو أخطأ القارئ فى فاتحته لرد عليه عند ذلك فوق ثلثمائة مليون صوت من أنحاء الدنيا ! . . . .

هل يقاس هذا إلى ذاك إلا إذا قيست الذبالة بالغزالة ؟

وقلت : (أما المناقضات التى وقع فيها ... صالح العلوى ... فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة الـ ٧٨١ من الرسالة ، فبعد أن قال : (إن الفقه الرومانى اختفى ثم اكتشف ولم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر وأنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى

عشر) وقال فى السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) ثم ما لبث أن استند إلى قول العلامة سافنيه : (إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع) الخ

ومحصل ما نسبته إلىّ أيها الأستاذ أنني أؤيد دعوى اختفاء القوانين ثم اكتشافها ثم أدعى أنها لم تختف بل بقيت معمولاً بها وأستند لذلك بقول سافنيه :

هكذا شاء قلمك يا أستاذ الحقوق أن يصنع ، وهكذا أراد أن يمسخ الحق ليصوره باطلاً فيقطع من عباراتى ما شاء ويصل ، ولا يتورع من أن يبلع بعض الكلمات بلعاً ؛ ذلك ليبنى مما قلته تناقضاً

وانظروا أيها القراء ثم احكموا ، أما ما قلته فى السطر الثانى من الصفحة ٧٨١ ؛ فهذا نصه بالحرف : (ثم إن الفقه الرومانى — على زعم أنه اختفى ثم اكتشف — لم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد ، أما قبل الحادى عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم ، ولا شك أن الفقه الاسلامى قد قرر وصنف الخ) فقلت هنا على زعم أنه اكتشف الخ ، لأبين أن تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى غير معقول حتى على زعم أن الفقه الرومانى الموجود هو القديم نفسه وأنه اختفى ثم اكتشف لأنه على هذا الزعم لم يظهر بزعمهم إلا بعد الحادى عشر وقد وُجد فقهاء الاسلام وألفوا وصنفوا قبل ذلك بزمن طويل وهناك قلتُ : وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأعمهم ومنهم : مالك والشافعى وأحمد وأبو حنيفة والثورى والأوزاعى الخ . درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . أليست هذه مهزلة مضحكة ؟

فهل سوغ لك هذا أيها الأستاذ أن تنسب إلىّ من هذا أننى أقول باختفاء الفقه الرومانى ثم ظهوره ؟

وقلت إننى قلت فى السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أكذوبة) وجعلتها بين قوسين ، وهذا يفهم أنها بالحرف ، وأصلها بالنص : (إن دعوى اختفاء الفقــه الرومانى ثم ظهوره بعــد ستة قرون أكذوبة لا مرية فيها ، وقد كان الفقه الرومانى معروفاً وهو أشبه شىء بالفصول المضحكة) ، ولـكن قلمك يا أستاذ الحقوق أدى منها هذه الـكلمات الثلاث أو الأربع وذهبت الـكلمات الباقية ضحية فى سبيل خلق التناقض الموهوم !

وأما العبارة الأخيرة فلم تذكر سطرها ولا جانبها ، وقد يكون ذلك لـكونها تبعد عما قبلها بأسطر والغرض إيهام القراء وجود التناقض فى عبارة متصلة وقد ذكرتها أعنى العبارة الأخيرة بنصها ولك الشكر ، غير إنك اختزلتها اختزالاً كى تجعلنى أمام القراء ملزماً بها بزعمك بالاعتراف بأن الفقه الرومانى الحديث هو القديم ، والعبارة (ثم إن حكاية اختفائها وبروزها فى القرن الحادى عشر لم يقل بها غير هولود فيكوس سنة ١٥٠١ م ثم راجت . أنظر جيبون ٤ صفحة ٥٥٥ ، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة فقد قال القانونى الشهير سافنيه إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع . اهـ ، ويعنى بها القوانين القديمة المقدم ذكرها) هذه عبارتى حرفياً ، وبهذا وذاك ينكشف للقارىء الـكريم أننى لم أقل إن الفقه الرومانى اختفى ثم اكتشف إلا وأنا مبين بأن ذلك زعمٌ ، وقلت إن للرومان قانوناً معروفاً كله همجية وقسوة ، وهو الذى لم يختف وهو المعنىُّ بقولة سافنيه ، وكلامى صريح فى ذلك وبهذا يتضح ألا تناقض وإن كان فانما هو فى مخيلة الـكاتب الأديب !

باهبذا العصبية والعاطفة القومية !

وتقول أيها الأستاذ : فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصّب للدين ثم تقول : (إن فى دعاواهم ما يضر بالاسلام ويسيء بثقافته الظنون)

فيا عجباً لك أيها الأستاذ أدفاعنا عن الاسلام بالبرهان والمنطق يضر بالاسلام وتعصبنا لديننا يسيء بثقافتنا الظنون ؟ هكذا تعصبنا نحن فقط يضرُّ بديننا ؟ لماذا يضر التعصب (على فرض وجوده) بنا وبديننا ولم يضر بأروبا ولا بدينها وقد ضربت فيه الرقم القياسى وبلغت النهاية ؟ ألم تتقول أروبا على الاسلام بما ليس فيه وتقذف أهله بما يندى له جبين الشرف ، وترمى نبينا العربى صلى الله عليه وآله وسلم بفرى تصرخ منها الحقيقة ويضج لها التاريخ ؟ فعلت ذلك ولا تزال تفعل إلى اليوم . فهل أضرَّ بها لدينكم فتيلاً ؟ لقد أشبع الأوربيون ديننا زوراً وأوسعوا تاريخنا مسخاً وتشويها مما لو جمعنا بازائه كل ما قاله متعصبو المسلمين فيهم لما كانت نسبته اليـه إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس ؛ وهاهم أولاء يملأون الدنيا تبشيراً بدينهم ، ودعاية لهم غير آبهين عند ذلك بأن

يسفهوا الأديان ويكيلوا أنواع الأذى على مشرعيها . فهل أضر ذلك أيها الأستاذ بمسيحيتهم ؟ وهل أساء بثقافتهم لديكم الظنون ؟ أو

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر   لعزة من أعراضنا ما استحلت

أما إذا قمنا لندافع عن ديننا بالتي هي أحسن ونظهر فضل تشريعه على العالم ببراهين كافية وأدلة وافية متذرعين بأقوال بعض الأوروبيين أنفسهم غير قاذفين لأحد ولا متهجمين على أحد قلتم إننا متعصبون نسرف في القول على علماء أوروبا الذين لا يمكن أن يزوروا ، وأنهم وضعوا الحقيقة في أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شيء. لأن فلاناً ألف كتاباً عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفلاناً قال كلمات تعتبر ثناء على الاسلام ، والآخر مدح فلاناً المؤرخ العربي وقال إنه من سلف علمائنا ، فأولئك قوم رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فاصمتوا فلن يقولوا إلا حقاً ، ولن يخبروا إلا صدقاً . ومعنى هذا أغلقوا أبواب البحث عن أوروبا وتلقوا كل ما نلقيه عليكم بالتسليم . هكذا احتججتم وبهذا قضيتم ؛ فما لكم كيف تحكمون ؟

أما العصبية أيها الأستاذ فما أعظم رزء قومنا بفقدها . وأما العاطفة القومية فما أحوج أمتنا إلى الشعور بها فاننا الآن في زمان لا ملاذ فيه إلا للقوة ولا صولة فيه إلا للعصبية . فنحن في عهد تنشد فيه العصبية وتخمد فيه العاطفة الدينية ، ومن لا يتعصب لدينه لا يتعصب لقومه ولا وطنه ؛ وهل تلتمس القومية عند من لا عصبية له إلا كما تلتمس عند الديوث خلال الشرف . إنني أنصحكم أيها الشباب عن هذا الضعف وأحذركم عن هذا التلاشي والاندماج في أوروبا ، إنكم في حاجة لغير هذا

فيا شباب العرب ! كونوا في عصبيتكم لدينكم ناراً تتأهب ، وكونوا في عواطفكم أعاصير تلوى بكل ما هو أمامها من باطل وبغي . وكونوا في مبادئكم جبالاً لا تعبأ بالزلازل ولا تحركها هوج العواصف

إن المجد والحرية يدعوانكم من وراء القرون أن تتقدموا إلى الأمام . فتجهزوا يا أبناء جنود الفتوح وسلالة فوارس بدر . فحيا الله عصبية العروبة وعاطفة الاسلام ، وسلام على صدور امتلأت أحناؤها بنور الاسلام ، وفي سبيل الله نفوس للآباء أزهقت طعناً بالرماح وقعصاً بالسيوف ضحايا على أعتاب الاسلام !

سنغافورة   صالح بن علي الحامد العلوي

المصيف ...

للأستاذ محمود خيرت

خلا الرَّبعُ في الصيف من ربِّه   فهلاّ خلا الدمعُ من غربه
وكم ضاق ربعٌ بسُكانه   فولّوا فراراً على رَحبه
وحَسْبهمُ القيظ عذراً فمَن   يُؤاوى الجحيمَ إلى جَنبه
ترى الناس في زُمَرٍ يركُضون   منازيحَ كالطَّير في سِربه
إذا سعَّر الحرُّ رطْبَ النَّسيم   تنقَّل يبحثُ عن رَطْبه
وليس السُّفارُ ووعثاؤه   بصارفه عن جَنى طلَبه
ومهما تمرَّرَ طعْمُ الدواء   فإنَّ السلامة في شربه

***

وأما المصيف فمن ذا الذي   تعلَّلَ منه ولم يُصبِه
هناكَ الطَّبيعةُ فتّانةٌ   ترِفُّ من الحُسن في ثوبه
هناك الجمال وسُلطانه   هناك الهوى بأساليبه
إذا ما الغواني رمى لحظهنّ   شربتَ الدموعَ على نخبه
وهَمَّ الخليُّ ثقيلَ الهموم   يُسِرُّ إلى جاره ما به
وقد سبقَتْ عينُهُ كفَّهُ   إلى موضع الجُرح من قلبه
وتخطرُ في الشَّطِّ أغصانهنّ   دلالاً فيوغِلُ في عُجبه
وعُجْبُ المليحات من دأبهنّ   وما كان للشطِّ من دأبه

***

ويجلِسن تحت مظلاّتهنّ   نَشاوى وكلٌّ إلى صحْبه
يطوف الحديث بأرجائهنّ   ألذَّ من الصفو في ذَوْبه
إذا حل أُذْنَ نزيلِ الشباب   لواهُ وزعزع من لُبِّه
وإن حلَّ أُذْنَ نزيل المشيب   أعاد الشَّباب إلى شَيْبه
ويسمعُه الطير في روضه   فيهتزُّ سُكراً على قضْبه
ويجرى النَّسيمُ به عاطراً   فيغزُو الأنوفَ شذا طيبه

***

ومنهنَّ مَن راقَها في العُباب   زئير الضَّراغمِ من صَخْبه

فوافتــه تَسبحُ جبّـارةً   فهلْ خرَجتْ فيهِ مِن صُلبِه
فما راعها هولُ أمواجِـه   ولا راعها الهول فى جُبِّـه
ومَن كان فى الخَطْبِ ذا مِرّةٍ   أصاب المَقاتل من خَطْبِـه
ومَنْ سار للأمرِ لم يتّخِذ   له عدّةً ضــلَّ فى دربه
فهذا المصـيفُ ولذّاته   وهـذا هو السِّرُّ فى حُبِّه
فشتانَ بين لهيب الجحيم   وطيب النعيم وأســبابه

اسكندرية   *محمود منيرت*

تحيــة مصر

بقلم الياس قنصل

أبليتُ كلَّ تصلُّبى وعُرامى   ـ قال الزمانُ ـ وما بلغت مرامى
جمعتهما بيضُ الخلال ووثّقتْ   تلك العرى لغةُ الكتاب السامى
يتسابقان إلى العُلا بأُخُوّةٍ   وشّى سناها صفحةَ الأرحامِ
قطران فى عقدِ العروبةِ برّزا   أرضُ الشآم وموطن الأهرامِ

* * *

يا مصرُ « سعدُكِ » كان أيضاً سعدنا
فى دفع شرِ الظلمِ والظلامِ
وجهادُ فتيةِ جلّقٍ لكِ حصّة   منه ، تخلخل أضلع الأخصامِ
من يخبر الغربىَّ أنَّ رجاءه   فى شرقنا وهم من الأوهامِ
يحظى بنيل الحقِّ شعبٌ صادفتْ   أسيافهُ دعماً من الأقلامِ

* * *

يا مصرُ يا أُمَّ الحضاراتِ التى   مهدتْ سبيل الحقِّ للأفهامِ
ما دشّن التاريخَ قبلكِ للورى   شعبٌ بآى السؤدد المترامى
أنتِ التى نطق الجمادُ بمجدِها   من غير ما عىٍّ ولا إبهامِ
فى كلِّ تمثالٍ هناك عصارة   من عزمكِ المبنىِّ بالإقدامِ

* * *

فى أىِّ عصرٍ لم تكونى معقلاً   من كلِّ نائبةٍ لـكلِّ مُضامِ
لجأ المسيحُ إليكِ فاتّضعتْ له   بعد الهياج عواصفُ الأيامِ
وأتاكِ أعلامُ البيانِ فأَمّنوا   من شرّةِ الحكّامِ والأحكامِ
خلقٌ لنيلكِ ما تضاءل فضلهُ   بل عزّزته فضائلُ الإسلامِ

* * *

للشعرِ فيكِ بلابلٌ صدّاحة   علويّةُ الألحانِ والأنغامِ
قبستْ من الروض الجمال فكان فى
إنشادِها بسـنائه النَّمّامِ
لا ترتضى لخيالها يوماً سوى   مغنى الأثيرِ ومسرح الأجرامِ
قلبُ العروبة منصت لنشيدها   إنصاته للوحىِ والإلهامِ !

* * *

كم فى سجلِّ الفنِّ عندكِ من فتى   بلغ النبوغُ به أجلَّ مقامِ
إنْ كان لخركِ بالممثّلِ رائعاً   ما القول فى النحّاتِ والرسامِ ؟
فى كلِّ ميدانٍ لأهلكِ جولةٌ   محفوفةٌ بالفوزِ والإعظامِ
أنتِ المليكةُ والفنون لآلئٌ   فى تاجكِ المتألق البسّامِ

* * *

يا مصرُ لم أنبس بذكركِ مرّةً   إلاّ وروح الشوقِ طىّ كلامى
إن كانت الأقدارُ تأبى أن أرى   فيكِ البهاء فأنتِ فى أحلامى
هذى مناجاتى لنيلكِ اكبرتْ   ببنى الكنانةِ حكمةَ الأعوامِ
لا زلتِ للمجدِ المؤثّل شارةً   وعليكِ منّى ألف ألف سلامِ !

عاصمة الأرجنتين   *الياس قنصل*

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٩ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

– ٣ –

كانت أولى مآثر نيتشه اللامعة فى الفلسفة « نشأة المأساة » ، فهى المثل الأعلى الذى وجده فى البطل « ايشيل » والفيلسوف « شوبنهاور » والفنان « ڤاجنر » ، وفى أخريات أيامه جدّد نيتشه العهد لمثله الأعلى الذى تكرر فى « السوپرمان – الانسان الكامل » ، وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمتين : عصر سلب ونقد مفرط . إن نيتشه قد عجل بالبناء وكأنى به قد شعر بأن مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذى يجب أن تكون عليه . ألم يحس فى نشأته الأولى أن فى أصول « شوبنهاور وڤاجنر » مالا يمت بأصوله ولا يلتقى مع فكرته ، فعمل على اقتلاع ما لا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لايوائمها . وفى العصر الثانى رأيناه يقتفى سبيله الذى انتهجه فى البدء بعد أن حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة . وبهذا انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الاثبات ، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبى . وكان من آثار ذلك العهد الأول « أشياء انسانية » و « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » و « فجر » ، وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه ، وكلها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود ، هـذا الحذر الذى ولده الداء فى نفسه ، فالريح الذى يخفق حوله بارد قاتم ، ونيتشه يلوح كالمهدّم العابث الذى زال من صدره عامل الاشفاق ، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الأخلاق ، ففى كتابه « أشياء انسانية » يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه « شوبنهاور » جاحداً مذهبه ، كافراً بتعاليمه ، لا يؤمن بأن الارادة شىء قائم بذاته ، نافياً القول بامكان « شىء يقوم بذاته » ، يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة ، ويرذل فضيلة الزهد ، هذه الفضيلة التى تجرد الانسان من شخصيته وأنانيته ، وفى هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الانسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل ؛ ولـكنها بمجموعها تمشى ولا غاية تسمى اليها . وفى كتابه « المسافر وظله » ، يعلن ذلك الظل الذى يلحق الأشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة ، ويعتقد بأن الأشياء لاتدرس واضحة جلية عندما يحدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة « المثالية » لأنه لا يبدو إذ ذاك من الاشياء إلا أجزاؤها المضيئة ، أما الأجزاء القائمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلى ، وهكذا ينبغى للمفكر الحقيقى الذى يرغب بأن تكون له فكرة تامة عن الحقيقة أن يتأملها من وجهها الخفى . وفى كتابه « فجر » يُخضع نيتشه لنقده مسألة « القيم والنظم الأخلاقية » التى يقدسها الناس ويحترمون قواعدها ، هو يرى أن الايمان بالواجب ليس بنظام سماوى ولا بتعليم أوحته السماء على البشر ، وليس هنالك قاعدة خالدة لتمييز الخير من الشر ، وهـذه الشريعة الأخلاقية التى تجبر الانسان على أن يكون صادقاً أمام نفسه فى كل شأن ، قد تنتهى بالاضمحلال ، فقد يغدو الانسان بالأخلاق ردىء الأخلاق ، كما يغدو بالدين زنديقاً ، لأن اخلاصه لعقله يزجيه إلى أن يقذف بنقده الأخلاق ذاتها ، وأن يكون فى ريب من نظمها

– ٤ –

والمثل الذى استخلصه نيتشه من الوجود أصبح يدنو الآن من المثل الواقعى ، فقد يرى أن كل كائن فى الثلاثين من أعوامه الأولى تتولد فيه حركة قد تحتاج الانسانية إلى ثلاثين ألف سنة لتحقيقها . الانسان الأول ينشأ فى حداثته مؤمناً متديناً ، ثم فاقداً لايمانه فى الله والخلود ، مأخوذاً بما يزين له العلم النظرى ، ثم يفقد العلم النظرى تأثيره ، حين يمسى لايشبع نفسه ولا يكفى عقله . وفى النهاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده إلى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً . وفى انسان العلم وفى الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل ، فى هذا الانسان يرى نيتشه الانسانية المتسامية ، فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله ، وهو مفتقر إلى صحة أدبية قوية لا غش فيها ،

تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام إلى اليأس والفناء ، وليس من السهل على الانسان أن يمزق عن جسده أثواب الخطأ الملتفة عليه فى كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ، « فالحياة الانسانية غارقة بأكملها فى الأخطاء ، وليس فى استطاعة الفرد أن ينتشل نفسه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصما قاسياً على ماضيه ، كثير السخرية من الأهواء التى تدفعنا إلى الايمان بالمستقبل وبالسعادة الآتية » ، وبهذا يستطيع إذا كان جريئاً صافى الطبع أن يجد فى العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس ، فإن المعرفة المبطنة بالتشاؤم تنقذه من السأم الذى يأكل قلوب سواد الناس . حتى إذا قدر أن يتحرر من كل ما يحترمه الناس زاده تعمقه بالأشـياء طرباً وجمالاً ، فهو يهـوى أن يحلق فوق الاضطراب البشرى لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات والأوهام والعقائد ، هو يحيا لـكى يفهم فهماً صحيحاً ، وإن أسمى مكافأة عنـده هى أن يتفهم فى نفسه وفى غيره من الأكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية فى حركات الـكون ، وأن يستدل -- كالمنجم -- على مستقبل الذرية البشرية

(وهل تعتقد بأن مثل هذه الحياة المتجلببة بمثل هذه الغاية باعثة للفناء خالية من اللذة ؟... إنك لم تدرك أن السحب الثقيلة ، سحب الأحزان هى أثداء ضخمة ترضع منها أفاويق عذبة حلوة ، لتقبل الشيخوخة فتفهم بنفسك كيف تلبى نداء الطبيعة ، نداء هذه الطبيعة التى توجه العالم إلى السرور . هذه الحياة التى تخذت الشيخوخة سنامها اتخذت الحـكمة ذروتها . . . وهل الحـكمة إلا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلى . . . الحـكمة والشيخوخة عنصران نراهما على قمة طود واحد — هكذا شاءت الطبيعة — قد تقترب الساعة فلا تهتج ! ولتكن حركتك الأخيرة — حين يتراكم ضباب الموت — جهداً تبذله وتوقاناً نزاعاً إلى النور ، لتكن تنهداتك الأخيرة أنشودة انتصار الحـكمة)

ومنذ عام ١٨٨٢ بدأت تتبدل لهجة نيتشه تبدلاً محسوساً على أنه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتى النهاية . فكتبه الأخيرة إنما هى غارة شعواء ضـد المسيحية وما تحمله من زهد وتقشف . ولـكن هذه الصيحات التى يرسلها قوية عالية أصبح يمازجها قليل من الألحان العاطفية ؛ ألحان نشيد الانتصار

عاد نيتشه إلى صحته بعد أن قضى أيام علة وسأم ، يرتقب الموت فى كل فجر يتنفس ، وفى كل ليل يتعسعس . عاد إليه رجاء جديد وتنفس جديد ، — والأرض أرحب بكثير من كفة الحابل . . . ! — يقول فى فاتحة كتابه « العلم الطرب » : (إن هذا الـكتاب هو صيحة طرب بعد أيام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز . هو أغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بُعثت بعثاً جديداً ، وألحان إيمان واسـع فى الغد وما بعده ، فى مستقبل مفتوح لى يحمل طيه حوادث قريبة ، ينطوى على بحار حرة وغابات جديدة تجذبني نحو ما أستطيع أن أبلغه وأقدر أن أومن به) وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم ، فبانت له سماء صافية مضيئة . رحل الشتاء المتجمد وخفق قلب ربيع جديد .

وفى هذه الخطرات الجديدة التى هيمنت عليه عادة الشك فى قيمة ذلك الروح الحر الذى بشر به وجعل منه مثالاً عالياً . إن هـذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب ، قد جعل منه الألم كائناً كئيباً وهـذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حراً طرباً وثاباً على أمواج الحياة ، إن هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعـة التى وجدها فى نبيه « زرادشت » هذا النبى الذى قضى فى الصحراء عشرة أعوام ، مرتاحاً لعزلته وفـكرته ، ثم نزل إلى الناس بلقنهم الديانة الجـديدة ، ديانة السوبرمان والعودة الخالدة ، وهو يجمع حوله فى منارته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للانسانية المتألمة السامية . إن رجال الرغبة الـكبيرة والاحتقار الـكبير والسأم الـكبير ؛ هؤلاء الرجال يجب أن يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذى يشفيهم من تشاؤمهم ويضىء لأعينهم آفاق المستقبل ، ثم يموت فى اللحظة التى يبلغ فيها أعلى ذروة الحـكمة ، فى اللحظة التى تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الأعلى فى الهاجرة الـكبرى ، معلناً بموته انتصار مذهبه

وقد رأينا توصلاً إلى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً أن نقسمها إلى قسمين : الناحيـة السلبية ، وهى تنطوى على نقد الانسان الحالى ونقد إيمانه وغريزته ، والناحية الايجابية ، يبحث

فيها السوبرمان وعودته الخالدة ، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل . لأن هذه الأفكار فى الآونة الأخيرة لم تثبت على حال معهودة فهى سريعة التبدل وسريعة التنقل . ونيتشه نفسه لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة . . . لأن الحقيقة عنده لا خلاف فيها . على أنه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التى يراها فاسدة بأدلة باهرة وحجة منطقية « إلا أن غريزتى تريني فى هذا الانسان أو فى هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو للاحتقار . . . وفى هذا المذهب أو فى هذا الايمان جرثومة مرض ... إنني أحاربهم وأكافحهم كما يكافح الخطر والمرض . فاذا صح أنني أنصر مذهباً حياً وخصومى ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب معاودى ، وفى الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران ! وبما أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة ، أرانى أطرب بانكساراتى كما أطرب بانتصاراتى وكل ما وراء ذلك عندى سواء

أوليس من الغباوة أن نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر ، شأن فلسفة « كانت » وشوبنهاور ، وليس للمنطق كبير شأن فى هذه الفلسفة ؟ . على أن نيتشه إذا صح حدسى كان يأتى المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة ، يتلقفها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التى يطلق فيها حكمه الأخير . فاذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت أن المواضيع نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه العظيم . وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أن الرجل خلت أحكامه منها ، أو أن عقله لم يكن منطقياً . فالرجل حاد الفكر ، وفلسفته — من حيث المجموع — يربط بينها نظام منطقى دقيق . ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً ، فجاءت مقاطيع متفككة بأجزائها كاملة بكليتها . مقاطيع أودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٤ – حروب طروادة

التعبئة

للأستاذ دريني خشبة

عاد منالايوس من رحلته فى الحدود ، وليته لم يعد !

لقد جُن جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم !

« علام إذن كانت كل هذه الضجة التى أحدثتها تلك اللعينة قُبيل زواجها ؟ لقد تركت عشاقها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها ، وظلت تتيه وتدل وتتأبى وترفض ، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها ، وملوكها الصيد ، وفرسانها المذاويد !

فيم إذن كانت كل هذه الضجة ؟

هل منحتني جسمها فقط ، يوم اختارتني بعلاً لها ؟ وهل ذخرت قلبها للعشق الأثيم ، والهوى الفاجر ، حتى تزقها شياطين الفتنة هـذا الشاب الغُرانق اللاهى المستهتر ، فراحت تقدمه فوق مذبح جماله قرباناً للذتها النجسة ، وتقدمةً لشبابه الذميم ؟ واحـَربَا ! هل اختارتنى بعلاً لها ، لا لشيء إلا أننى ملك وسليل آلهة ؟ !

يا للفاجرة !

أفى ذلك البيت الرفيع الذُّرى ، ظلت تتقلب التاعسة فى ذراعىْ هـذا الخائن ، شَبقةً متلذذة ؟ هل ظل هو يضمها إلى صدره الثائر فى شدة وعنف ؟ ! هل كانت تستزيده ؟

أيتها الجدران الحزينة ! كم قبلةٍ دنسة أصمّت آذانك ، وكم صرخةٍ فاجرة دوت كالرعد فى حناياك ؟ حدثنى أيها الهواء المسمم عما كنت تشهد فى صميمهما ، حين كانا ينفثانك من صدريهما سمًّا قتـَّالاً ! خبِّرى أيتها الستائر ، أيتهـا المصابيح ، ياشموع قصرى ، أيتها الأرض الملوّنة ، أيها العرش المهين ، أيها التاج الذليل .. أيتها الكؤوس المتناثرة ، والأكواب المقلوبة .. تحدثى إلىّ ! !

حدثني يا كل شيء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف !

آه ! الشرف ؟ ! الخرافة الكبرى !

الحرب ! . . . الحرب ! . . . الانتقام ! . . . الانتقـام من الفاجرة ... اقتلوا الخائن ... يا حلفائى ... تنداريوس ... أدعُ حلفاءك ... لقد أقسموا جميعاً ... لقد كنت تتوقع هذه النهاية تنداريوس ... استيقظ ... استيقظى يا أسبارطة ... جنودى ... شعبى ... هلموا إلى ... »

وهكذا أرسلها منالايوس صرخةً داوية تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء هيلاس ، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها ... إلا القليل

لقـد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداروس ، وصدَّقوا يمينهم التى أقسموا ، فلبوا سراعاً ؛ وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة عسكرية تمج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالأساطيل تيمم شطر أوليس [1] ، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد ؛ فلا يرسو إلاّ فى مياه طروادة

لبّى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم ... إلا ملك إيثاكا ... أوليسيز [2]

أوليسيز

كبر فى نفس أوليسيز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن

---

(١) أوليس ثغر كبير فى مقاطعة بووطيه (التى كانت طيبة حاضرتها قديماً)

(٢) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عوليس) لوحشيتها ، وبدلا من أوليسيس أو يوليسيس لتكرار السين ، ويسمى أيضاً أوديسيوس

رفضت ، وهو مع ذاك ملك إيتاكا وبطلها الحُـلاحل ، وفارس هيلاس الذي لا يشق له غبار . وكبر في نفسه أن تؤثر عليه منالايوس ، وهو مع ذاك دونه شجاعة وأقل منه إقداماً حين يثار النقع وتستحر الحرب العوان ؛ وكبر في نفسه أيضاً ألا تكون له زوجة يفاخر بها هيلين ، وأتراب هيلين ، وآل هيلين ، فذهب من فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة پنلوپ : « الزهرة التي تهتز للندى ، وترقص لخيوط الشمس الذهبية ، وتُغنّى مع الأطيار ، ويسكر النسيم إذا داعب خدها ... قُبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق ، وابتسامة السماء الضاحكة في قلوب المحبين المعذبين ... پنلوپ ... الوديعة كالأطفال ، الحلوة كالرضى ، الصافية كقطرة الندى في أوراق الورد ، المرحة كسطور الغرام في خطاب الحب ... پنلوپ ... التي تفخر الأرض بأنها تحملها ... والهواء بأنها تستنشقه ... والسماء بأنها تظلها وتشرف عليها ... والجبل بأنها تنظر إليه ... والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين !

پنلوپ ! ذات الفم العطرى ، والخد اللامع المورد ، والجبين الناصع الوضّاح ، والعنق الناهضة الجَيْداء ... ربيبة الآلهة ، ولمحة الأولمب ، وپندورا الثانية ... »

تزوج أوليسيز من پنلوپ هذه ، فأخلصت له الحب ، وأصفاها المودة والغرام ؛ وولدت له طفله الجميل المتلألئ تليماخوس (تلماك) ، فزادت محبتها له ، وتضاعفت عبادته لها ، بعد هذا الرباط القدسي الكريم

عزّ على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب ، لا لشيء يجر عليه مغنماً أو رفعة ، ولكن ليحارب حرباً لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهي ؛ فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر ، فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزونة ، ويحيا الطفل يتيماً مُفجَّماً ... ومن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام ؟ من امرأة أذلت سادة هيلاس ، وجرحت كبرياء زوجها ، وفضحت أباها ... ثم ... هتكت عرضها ، إذا كان لها عرض ، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم !!

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته في هذه الحرب إذن ، ولو كان في ذلك ، كله أو بعضه ، الحنث العظيم ... فما يمين شرف هذه التي يتمسك بها ملك كبير كملك إيتاكا ، من أجل امرأة ليس لها شرف ؟!

ليقعد إذن عن هذه الحرب ، وليصم أذنيه دون صيحتها الكبرى ، فاذا ألحّ عليه الملحون ... فهو مجنون مأفون مخبول ... لا تهيمن عليه مسكةٌ من عقل ولا توشعه أثارة من تفكير

أرسلوا إليه رسولهم السياسي الكبير بالاميديز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التي آلاها ، ويحرضه على « الطرواديين اللؤماء ، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين في أعراضهم » ولكنه ألفاه يحرث شاطئ البحر بمحراثٍ هائل يجره ثورٌ ذو خوار ... وحصان عربي أصيل !!

ـ « عم صباحاً أيها الملك ... »

ـ « ... ! ... »

ـ « ماذا يصنع مولاي ؟ »

ـ « أحرث هذا الحقل الخصيب ! »

ـ « أي حقل ؟ »

ـ « الحقل الذي ترى ... أليس لك عينان تسمع بهما ، وأذنان تريان ما أفعل ؟ »

ـ « عينان تسمعان ، وأذنان تريان ؟ ... »

ـ « اذهب ... لا تشغلني ... أريد أن أبذر حقلي هذا الصباح »

ـ « وماذا عساك أن تبذر أيها الملك »

ـ « لست ملكاً لا تهزأ بي ... نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا ... اذهب ... اذهب ... »

ـ « وماذا تحاول أن تزرع هنا ؟ »

ـ « سأزرع مِلحاً ؟ ! »

ـ « تزرع ملحاً ؟ ! وتحصد ماذا ؟ »

ـ « أزرع ملحاً ، وأحصد ... سمكا ... هذا ... لا لا ... سأحصد باذنجاناً ... ... ولكن لماذا تقف هكذا قريباً مني ؟ لماذا لا تذهب ؟ »

ـ « ألا تعرفني يا مولاي ؟ »

ـ « أرجوك ! أنا لست مولاك ولا مولى أحد ! اذهب ودعني أشتغل »

ـ « أنا بالاميديز يا مولاي ! وا أسفاه ! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود ! »

ـ « تنتظرنى ؟ ... إنها لابد جائعة ياپالا ... ياپاما ... ياپالا ديز ! ! »

ـ « لست پالاديز يامولاى ! ... أنا پالاميديز ! »

ـ پالاميديز ! هذا عجيب ! تعال إذن فاعمل معى ... سَأسَأ (١) ... ... »

ـ « الحرب يامولاى ! الأساطيل فى أوليس ! »

ـ « أى حرب ، وأى أساطيل يارجل ؟ »

ـ « سنحارب طروادة ! »

ـ « ولم لم تذهبوا بعد ؟ »

ـ « نريد أن تكون معنا ، فالكل يهتف بك ويدعوك ؟ »

ـ « أنا ؟ يدعونى أنا ؟ ... أنت يارجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحاً ؟ وماذا أصنع فى الحرب ؟ هل أخبروك أننى فارس ؟ ... اذهب اذهب ... سأساً ... ... سأساً ... »

ـ « ألا تعرف من أنت يامولاى ؟ »

ـ « وهل تعرف أنت من أنت ؟ »

ـ « أنا پالاميديز ، وأنت ؟ » .

ـ « أنا ؟ أتريد أن ترسل اسمى إلى الميدان ؟ ... أتتركنى بغير اسم يارجل ؟ »

***

لم يستطع پالاميديز أن يفوز من أوليسيز بطائل ، فقد مثل ملك إيتاكا دور مجنون تمثيلاً متقناً ، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لاشاة له فيها ولا جمل ، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض . بيد أن پالاميديز لم ييأس حين رأى ما شاهده من جنون الملك ، فان وسواساً وقر فى قلبه أن هذا البله قد يكون تبالهاً ، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها ، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التى أقسمها عشاق هيلين

لذلك لجأ پالاميديز إلى الحيلة هو الآخر ، فانقطع أياماً ظل يرقب الملك فيها عن كثب ، بحيث لا يراه أوليسيز ، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولاً فأولاً إلى رئيس البلاط ، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه ... الذى يفطن إلى مكر پالاميديز فيبالغ فى ادعاء الجنون ، وينزل إلى البحر يحرث موجه ... بعد إذ فرغ من حرث شاطئه ! ...

ويسقط فى يد پالاميديز فيطلق آخر سهم فى كنانته ... ذلك أنه تحايل فسرق تليماخوس الصغير ، ولى عهد أوليسيز ، والأعز عليه من نفسه ، ومن الدنيا وما فيها ... سرقه فذهب به إلى حيث والده يحرث الشاطئ ويحرث البحر ، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون جنون الملك ، هل يقتل ابنه ، ويكون بذلك مجنوناً حقا ، أم يتفاداه ، ويكون جنونه محض ادعاء وبلهه تلفيقاً فى تلفيق ؟ !

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده ، وقرة عينه ، من أن يتم فيه حيلة پالاميديز الداهية ! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت ، لوى عنان الثور ، وذاد الفرس ، متفادياً الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر . . .

فتضاحك پالاميديز ، وفضح جنون الملك ، وأخجل حيلته .. ثم لم يزل به حاضاً محرضاً حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين

***

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أوليس ، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى ، فاختير ابن الشمس البكر ، أجاممنون ، شقيق منالايوس وصفيُّه ، بالاجماع

اختير أجاممنون للقيادة العامة ولو لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى . وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسيز العظيم ملك إيتاكا ، وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال ، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان ، وديوميديز المحارب الصنديد ... إلى آخر هذه العصبة المختارة من جيرة الأولب ، والسادة النجب من فرسان هيلاس

اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منالايوس وممثله فى هذه الحرب ، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سناً ، وهو مع ذاك أحد شجعان هيلاس المعدودين

***

انتظمت صفوف الجند ، وأخذوا فى مران عنيف أياماً معدودات ، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم ، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى ، أمير البر والبحر ، بالاقلاع ، فتجرى بهم الجوارى المنشآت فى موج كالجبال ... إلى ... طروادة ! ...

(١) سأسأ بالحمار دعاه للشرب أو الانصراف أو للعدل والسير

النقد

النقد والمثـــال

للأستاذ أحمد الزين

كتبت إليّ – أعزّك الله ، وأمتع الأدباء ببقائك – أنه قد بعد عهدك بمطالعة ما كنت أكتبه فى الصحف من فصول فى النقد ، ممتعةٍ فى حسن ظنك بأخيك ، وبحوثٍ ضافيةٍ دقيقةٍ فيما تنظره عين رضاك عن صديقك ، وقلتَ : إنها لامست موضع هواك ، وحققت غاية مناك ، وشفت من صدرك غلّة لم يكن ليشفيها ما طالعتَ أوسمعتَ من فصولٍ غيرها فى النقد مما ملئت به صدور الصحف والمجلات ، وحُشيت به بطون المؤلفات ، وأفاض فيه أساتذة النقد الأدبىّ فى الدروس والمحاضرات ، إذ كان أكثرها بل كلّها من إملاء الغرض ووحى الهوى ، وليس للفن فيها من الحظ إلا بمقدار ما يبرّر الناقدُ به تفضيل صاحبه على غيره ، واتهام الآخر بالعِىّ والقصور فى نثره أو شعره ؛ يُغفِلون الأذواق والعقول ، ويحكّمون النزعات والميول ، ويتبعون القلوب على ما يعرفون من تقلّبها ، ويستملون العواطف الخادعة على تحوّلها وعدم استقرارها ؛ فتخرج بحوثهم مختلّة السياق ، مضطربة الآراء ، لا تحمل قارئاً على احترامها ، ولا باحثاً على الاعتماد عليها . فهى بقصائد المدح والهجاء ، أشبهُ منها ببحوث الأدباء والعلماء ، حتى إن الشعراء والكتاب أنفسهم لم يعودوا يأبهون لما ينشره هؤلاء النقاد عن ثمرات قرائحهم ، إذ كان نقدهم إما مدحا تمليه مودّة أو منفعة ، وإما هجاءً تبعثهم عليه عداوة أو حسد ، ولقد قلتُ مرة لبعض الشعراء المجيدين : إن فلاناً الناقد المعروف قد كتب فصلاً طويلاً فى صحيفة كذا يثنى فيه على بعض قصائدك ثناء لو قرأته لسررت به ، وهششت له ؛ وطفقت أطيل فى ذكر ما كَتَب ؛ فقال صاحبى : بعض هذا يا أخى ، فما مَدحُ هؤلاء مما أرجو ، ولا نقدهم مما أخشى ، فما أيسر الوسائل التى يُنال بها مدحُ هؤلاء ورضاهم ، وإن ثناءهم لأشبه شىء بالشهادة للميت حين يُحمل إلى قبره ، ويقال : (ماتشهدون فى هذا الرجل ؟) فيقول المشيّعون : (صالح وابن صالح) ولعله كان على خلاف ما شهدوا به فى حياته ، وقد أراح الله البلاد

يحملون إليها المنايا الصفر ، والغوائل السود ، فى شفار المشرفيات البيض !

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالاقلاع ...

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربى أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار ، أم الهزيمة والانكسار ؟ ليكونوا من أمرهم على بينة ، وليكونوا أيضاً قد استخاروا أربابهم فتخيرُ لهم ، واستشاروها فتخلص لهم المشورة ، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفى حراستها

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ، ونفوس مبتهلة . . .

ومضت أيام . . .

ثم رأوا إلى كاهن المعبد يدلف نحوهم فى هدأة فجر صامت ، فشخصت أبصارهم إليه ، وظنوا فيه الظنون

وجلس الكاهن المُسن يقلب فى القادة عينيه الكبيرتين ، وصمت لحظة ثم قال : « أين ابن بليوس أيها الملأ . . . ؟ »

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا . . .

فقال الكاهن : « ابن بليوس رب الأعماق ، من زوجته ذيتيس ! أليس فيكم أخيل ؟ ! . . . »

فأجاب أجا ممنون : « ومن أخيل أيها الأب المقدس ؟ ! »

فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التى قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاماً يكسف مجده مجد أبيه . . . ابحثوا عنه ، فلن تفتح طروادة إلا على يديه ... لن ينفعكم أن تذهبوا بدونه ... هكذا قالت الآلهة . . . »

(لها بقيــة) دريني خشبة

والعباد بمانه ، ولم تقتصر متابعةُ الغرض ومسايرة الهوى فى النقد الأدبيّ على صغار النقاد فى هذا البلد ، بل شمل ذلك أساتذة النقد وذوى الكلمة الفاصلة منهم ، ومن يُرتقب رأيه فى كل أثر فنيّ ، كما يَرتقب المتّهم حُكمَ القضاء العادل الذى لا مردّ له ، ولا جدال فيه ، فطغى على الجميع سيلُ الغرض ، واندفعوا فى تيار الهوى ، ولم يبالِ واحد منهم بمكانه فى الأدب ، ولا بمنزلته الرفيعة فى نفوس الادباء ، وآيةُ ذلك أنك لا تجد اثنين من الناقدين يتفقان فى الشاعر الواحد على رأيٍ واحدٍ فى شعره ، ويضمانه فى المنزلة التى يستحقها مع غيره ، بل تختلف الآراء فيه — بل فى البيت الواحد من شعره — اختلافاً ظاهراً إلى حدّ التناقض ، فبينا أحدهم يرى فى الشاعر أنه شاعر العربية ، إذا بالآخر يقول : (إنه ليس بالشاعر ولا يِشبه الشاعر) ، وهكذا ترى المبالغة والاغراق فى طرفى الرأى ، مما أسقط النقد الأدبيّ وأضاع الغرض منه فى تهذيب الفن ، وأضعف أثره فى نفوس الكتاب والشعراء . مع أنه مما لا نزاع فيه أن للذوق الأدبى مقياساً عاماً لا يختلف فى أصله ؛ وإن اختلف فى بعض الفروع التى لا تقدّم ولا تؤخّر فى الحكم على الشاعر فى جملته ، ولا فى منزلته الشعرية بين أبناء جلدته

وثمّة أمر آخر هو أمرّ نكايةً فى الأدب ، وأبلغُ فى هدمه ، وهو أن أكثر هؤلاء النقاد يقيسون الأدب العربيّ بمقاييس الأدب الغربى ، فيطلبون إلى الشاعر المصرى العربى أن يحاكى شعراء الغرب فى أغراضهم ومعانيهم ، وإن كان أكثرها لا يلائم بيئته ، ولا يجرى مع قانون حياته ، ولا يتفق بوجه مع الطبيعة الشرقية ؛ وأطالوا فى اتهام من خالفهم بالجمود ، وضيق الأفق الفكريّ حتى حاول بعض الشعراء الناشئين تكلف هذه المحاكاة مراغمةً لشعور القلب وإحساس الفؤاد ، وإرضاءً لهؤلاء النقاد فخرجت قصائدهم لا شرقية ولا غربية ، مشوّهة الصور ضعيفة الأثر ، كالحة الظاهر ، جوفاء الباطن ، لم تصوّر إحساساً فى فرد ولا فى جماعة ، ولم تعبر عن شعور فى الأمة ولا فى الشاعر نفسه ، فلم تسترع هذه القصائد سمعاً ، ولم تجتذب اليها قلباً ؛ ولولا طائفة قليلة أمسكت بسلسلة البيان أن تنقطع ، وآوت اليها طرائدَ الشعر العربيّ ، وصبرت وصابرت فى مدافعة هؤلاء المستغربين فى شرقهم ، وصانت ذخائر العرب — وأخصها اللغة — حتى تسلمها إلى طائفة أخرى مثلها ممن قوى فى نفوسهم شعورُ القومية ونظروا فى الأدب العربى نظرةً واسعةً منصفة ، فعرفوا من نفائسه ما لم يعرفه سواهم ؛ لولا هؤلاء لأفل نجم البيان العربىّ عن هذه البلاد ، ومات الشعر أو كاد

وقلتَ : إنّ آثر النُّقاد عندك وأجداهم بحثاً على طالب الشعر والكتابة من يُعنى بالبحث فى آثار الكتاب والشعراء واختبارِ ثمرات قرائحهم ، فيميز جيّدها من رديئها ، وناضجها من نِجها ، ويُرى القارىء أسباب الاجادة فيما يستجيد من شعر أو نثر فيأخذ بها ومواضع الزّلل والمؤاخذة فيما لا يستجيد منهما فيجتنِب الوقوع فيها

أما البحث فى تحليل حياة الشعراء وكيف نشأوا والعصور التى يعيشون فيها ، والبيئاتِ المحيطة بهم فذلك أولى بالمؤرخ الأدبىّ منه بالناقد الفنىّ ، على أن تلك البحوث لا تفيد طالب الشعر فائدة قليلة ولا كثيرة فى الاجادة الفنية ، وإن إفادته فى توسيع ثقافته العلمية

ثم سألتنى أيها الأخ الكريم أن أعود إلى محادثة الأدباء والمتأدبين فيما قرأتُ وأقرأ من جيّد الكلام ورديئه ، وتبيين سبب الاجادة فى الأول ، وموضع المؤاخذة فى الآخر ، والترجيح بين المتساويين فى أول النظر على صاحبه ، ثم لا أذكر بيتاً فيه زلةٌ لشاعر إلاّ عقبتُه ببيت قد سلم منها لمعاصر أوغير معاصر ، مفاضلاً بين البيتين ، موازناً بين الشعرين ، ليكون ذلك مثالاً يُتّبع ، وقياساً ينتهج ، فان لم أجد فيما أحفظ منَ الشعر مايصلح مثالاً ، ويتخذ قياساً ، غيّرتُ من البيت نظمه ، وداويتُ سقمه ، وذهبتُ بشكله ، وأبقيت على أصله ، وذلك هو ماانتهجته فى البحوث السابقة ، وشرحتُه فى أول بحث كتبتُه ، وإنا لسؤالك لباذلون ، ولدعوتك لملبون ؛ نسأل الذى فطر الفطرة ، ووهب القدرة ، أن يعصمنا من هوى لا نستطيع غلابه ، وأن يعيذنا من خطأ لا نعرف صوابه ، ولست أعد قراء (الرسالة) بأن تحمل حديثى إليهم فى كلّ أسبوع ، بل قد تطول الفترة بين الحديثين ، وقد تقصر ، إذ لم أتعوّد فيما أكتب التقيّد بالوقت ، فان هذه القيود الصحفية مما يحمل الكتاب فى بعض الأحيان على أن يملأوا الصحائف بالسطور ، وإن خلت من فائدة الجمهور

أحمد الزين

البريد الأدبي

هنرى باربيس H. Barbusse

توفى فى أواخر شهر أغسطس المنصرم كاتب وشاعر من أعظم كتاب فرنسا وشعرائها المعاصرين ، هو هنرى باربيس ؛ وكان باربيس زعيم المدرسة الثورية وأعظم كتابها ، ولم تمض أشهر قلائل على صدور كتابه الأخير الذى كتبه عن ستالين طاغية روسيا البلشفية ، وعن تاريخ الحركات الثورية فى روسيا القيصرية ، وهو الكتاب الذى أشرنا إليه وقت صدوره فى هذا المكان من « الرسالة »

وقد ولد هنرى باربيس فى ازنيير فى سنة ١٨٧٤ ، وتلقى تربية جامعية حسنة ، ونظم الشعر القوى منذ شبابه ، وكتب القصص ؛ وظهر لأول مرة فى أفق الأدب بصدور ديوانه المسمى « الباكيات Pleureuses » فى سنة ١٨٩٥ م . وفى سنة ١٩٠٣ م نشر قصته « المتضرعون Les Suppliants » ، ثم أخرج قصته « جهنم L'enfer » فى سنة ١٩٠٨ ، وامتهن باربيس الصحافة وبرز فيها ؛ وفى سنة ١٩١٠ تولى تحرير صحيفة Je sais tout الشهيرة ولما نشبت الحرب الكبرى انخرط فى سلك الجيش العامل كجندى فى المشاة ، وأبدى شجاعة فائقة فى الذود عن وطنه استحق من أجلها وسام « صليب الحرب » ، وفى أثناء الحرب أخرج باربيس أعظم قصصه وهى : « النار Le Feu » وهى مذكرات فرقة محاربة والشعلة Clarté ، وبهما يرتفع باربيس الى صف أعظم كتاب العصر ويصل الى ذروة قوته ، ولما انتهت الحرب وقع تحول عظيم فى تفكير باربيس وفى مبادئه فاعتنق المذهب الشيوعى ، وتولى التحرير فى جريدة « لومانتيه » الشيوعية التى أنشأها جان جوريس واشتهر بكتاباته الملتهبة ، وفى سنة ١٩٢٠ أصدر باربيس قصته « النور فى الهاوية Les lueur dans L'abime » ؛ وفى العام التالى أخرج قصة قوية أخرى عنوانها : « بعض زوايا القلب Quelques coins du coeur » ؛ ثم أصدر كتاب « الاغلال Enchainements »

وفى سنة ١٩٢٧ أصدر كتابه « بيان الى العقلاء Manifeste aux intellectuels » ، ومنذ أشهر قلائل أخرج كتابه عن ستالين . وكان باربيس فى أعوامه الأخيرة دائم التردد على موسكو وثيق الصلة بزعمائها ، وكانت وفاته فى موسكو فى مستشفى الكرملين بعد مرض قصير . ومما يجدر ذكره أنه تزوج من ابنة كاتيل مانديس الكاتب والفنان الشهير ، وهى أيضاً كاتبة وأديبة معروفة

قوانين الملكية فى روسيا

يخطئ من يعتقد أن روسيا البلشفية تعيش فى ظل النظام الشيوعية ؛ والحقيقة أنها لا تكاد تطبق اليوم نوعاً من اشتراكية الدولة أو الاشتراكية المخففة ؛ وقد اقتنع البلاشفة بعد تجارب شائكة أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية المنظمة فى ظل الشيوعية ضرب من الخيال . ومما يدل على أن روسيا السوفيتية تعود شيئاً فشيئاً الى النظم الفردية ، أن الحكومة البلشفية قد أصدرت أخيراً قانوناً جديداً بتحديد ملكية الأراضى فى مختلف الولايات الروسية ، ولا سيما فى جمهوريات التركمان وأزبكستان وأزربيجان وقازاقستان ، وبعض مناطق سيبيريا الزراعية ، وفيه تفصيل لما يمكن أن يملكه المزارع من الأرض أو الماشية لاستعماله الشخصى ؛ والقانون الجديد يتحدث عن وضع اليد والحيازة فقط ، على أن تلحقه قوانين أخرى بتثبيت الملكية متى استقر تقسيم الأراضى نهائياً . وليس القانون جديداً فى الواقع ، فان المزارع « الكولاك » يتمتع منذ أعوام بحق ملكية حديقته وبعض الماشية ، ولكن القانون الجديد يزيد فى نسبة الملكية الى حدود لم تعرف من قبل فى ظل النظام البلشفى ، هذا فضلاً عما يتضمنه من الوعد بتثبيت الملكية وتطمين المزارعين بذلك على مصير أراضيهم ومواشيهم . وبمقتضى هذا القانون يصبح للمزارعين فى سيبيريا الحق فى امتلاك أرض تبلغ مساحتها الى هكتار واحد حسب منطقة الأرض ، وفى امتلاك الماشية من خمسين رأساً من

الرندير الى مائتى رأس ، ومن الـكلاب ماشاء . وفى جمهوريات أزربيجان وأزبكستان وما إليها يستطيع المزارع أن يمتلك من ٢٠ إلى ٣٠ فى المائة من الهـكتار أرضاً زراعية ، ومن الماشـية جواداً وحماراً وخمس عشرة الى ثلاثين رأساً من الغنم

وفى هذه القوانين الجديدة دليل قاطع على ما انتهت اليه سياسة السوفييت من التطور نحو الفلاحين . وقد كان لتنفيذ المشاريع الاقتصادية الجديدة أثر كبير فى هذا التطور ، لأنها أقنعت زعماء البلاشـفة بأن الترويح عن المزارعين وتحريرهم من قيود الانتاج الاجماعى مما يضاعف أسباب الانتاج والرخاء الزراعى

أعمدة سبعة من الحكمة

لم يمض على وفاة الـكولونل لورنس زهاء أربعة أشهر ، ومع ذلك فان آثاره وذكرياته تشغل اليوم فراغا كبـيراً فى الأدب الانكليزى ، فقد صدرت أول طبعة جديدة تذكارية من كتابه الشهير « سبعة أعمدة من الحـكمة Seven Pillars of Wisdom » وهذه الأعمدة السبعة هى : القاهرة وأزمير وقسطنطينية وحلب وبيروت ودمشق والمدينة . وكان الـكولونل لورنس قد بدأ فى كتابته منذ سنة ١٩٢١ ، وفيه يقص سيرة أعماله المدهشة فى بلاد العرب ، وما اشـترك فى تدبيره من الثورات والانقلابات والوقائع الغريبة التى انتهت بتمكين الانكليز من الاستيلاء على فلسطين والعراق ، وسـيرة مغامراته الشخصية ، وفيه روايات وأسرار خطيرة عن كثير من القادة والزعماء الذين عمـلوا مع لورنس . وفى سنة ١٩٢٦ ظهر كتاب « أعمدة الحـكمة السبعة » وظهرت منه فقط مائة وعشرون نسخة باسم المشتركين ، فكأنه لم يطبع ولم يذع فى الواقع إلا فى دائرة خاصة جدا ، ثم لخص منه لورنس كتاباً آخر هو « الثورة فى الصحراء » وهو الذى طبع وأذيع بكثرة ، وقد كان من أكبر أمانى أصدقاء لورنس والمعجبين به ، أن يخرج كتابه الشهير فى طبعة جـديدة ذائعة ، والآن تتحقق هذه الأمنية بعد وفاته ، ويصبح كتاب « أعمدة الحـكمة السبعة » فى متناول كثيرين ممن لم يحظوا باقتنائه

مآسى التاريخ

صدر أخيراً كتاب جديد للمؤرخ الفرنسى ج . لينوتر الذى توفى منـذ أشهر قلائل ، عنوانه : « مآسى التاريخ Drames de l' Histoire » ، وقد اشتهر لينوتر بنوع خاص من التاريخ لبث يكتبـه أعواماً طويلة فى جريدة الطان تحت عنوان : « التاريخ الصغير » وفيه يتناول من حوادث التاريخ المنسية ومآسيه الطريفة ما يفوق فى الحقيقة كثيراً من وقائع الخيال ، وتوفر لينوتر على دراسة هذا النوع ، حتى أصبح أستاذه الحقيق ، وكانت الثورة الفرنسية وحوادثها العجيبة أعظم مصادره ، فتناول كثيراً من حوادثها الخفية وتفاصيلها العجيبة التى يغفل عنها المؤرخ العام وأخرج فيها كتباً ورسائل ساحرة ، ومن مؤلفاته الشهيرة فى هذا الباب : « من ثورة إلى أخرى » و « من السجن إلى النطع » و « ملك بلا مملـكة » و « باريس الثائرة » وغيرها ، وأما كتابه الأخير « مآسى التاريخ » فقد كتبه فى أواخر حياته ، وتناول فيه عدة مآس شهيرة مثل سقوط الجيرونديين ، ومصرع الدوق دنجين ، ومقتل الكاتب بول لوى كوربيه وغيرها ، وكتبها بأسلوبه القوى الساحر ، الذى يدنو فى تفاصيـله من الرواية ، ويجمع فى جوهره عناصر التاريخ المنـسية ، وقد كانت فصول لينوتر التى تنشرها « الطان » مثلا بديعاً لهذا النوع الشعبى من التاريخ ، وكان لينوتر دائب التوفر على اخراجها حتى أواخر أيامه ، بل نذكر أن الفصل الأخير الذى كتبه فيها لم ينشر فى الطان إلا بعـد وفاته بيوم أو اثنين ، وقد فاز لينوتر قبل وفاته بنحو عامين بكرسى الاكاديمية ، وكان من الخالدين

لقب جديد لربات الجمال

كان لفوز الفتاة الاسبانية الحسناء كاناريني أليشا نافارو فى مباراة الجمال الأوربية العامة وفوزها بلقب « مس أوربا » وقع عميق فى اسبانيا حيث يبدى الشعب الاسـبانى حماسة عظيمة لهذا الفوز لا سيما وانه أول حادث من نوعه فى اسبانيا ؛ ويؤمل الاسبان أن تفوز فتاتهم بتاج الجمال العالمى . بيد أن بعض المفكرين الاسبان رأوا أن الجمال المادى وحده لا يكفى لأن تتبوأ الفتاة مركزها الممتاز فى المجتمع ؛ ولا بد أن تتحلى إلى جانبـه بالصفات الأدبية والمنزلية التى يجب أن تختص بها المرأة ، ولذلك أقيمت فى مدريد مباراة من نوع خاص بين لفيف من الفتيات الحسان يتبارين للفوز بلقب « ربة الدار » ؛ وتضمنت هـذه

المباراة امتحان الفتيات فى أعمال الطهى والكى والخياطة وغيرها من الأعمال المنزلية ، ففازت بهـذا اللقب الآنسة كونشيتا مانسيجوى دى لارا ، ونالت أول لقب من نوعه بين الحسان وهو « ربة الدار » Miss Dona de Casa .

أغراض المستشرقين

قرأت فى (الرسالة) ما كتبه الأستاذ محمد روحى فيصل فى أن علماء المشرقيات أبعد الناس عن البحث العلمى المجرد يوم يخوضون الأبحاث الاسلامية ، وأنهم يقصدون من الاستشراق خدمة دينهم وسياسة دولهم . وقد لامنى لقولى من مقالة فى الرسالة إن علماء المشرقيات يحمدون لنشرهم كتب العرب ، وإنه كان على سادتنا العلماء أن يأخذوا باليمين آثار السلف يحيونها ، حتى لا يطول مقامها فى الخزانة تنتظر عطف أبناء الغرب عليها . إنى موافق على ماقاله فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق واختصوا فى علومه ، إلا أننى لا أغمط حق العاملين منهم ، لتفضلهم بنشر كتبنا . وأرجو ولاأزال أرجو أن ينقطع فريق من علمائنا وأدبائنا لمساهمة علماء المشرقيات هذه الخدمة الجليلة ؛ لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدنيتنا ، وصاحب البيت أحق الخلائق بالعطف عليه وعلى ما فيه

وقد وقع لصديق العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش ، يوم ألقيت فى دار المعلمين العليا بالقاهرة (٥ مايوسنة ١٩٢٧) محاضرة فى « أثر المستعربين من علماء المشرقيات فى الحضارة العربيـة » وعددت ما نشره علماء المشرقيات فى كل أمة غربية من كتبنا ، أن قام رحمه الله يعدد أغراض علماء المشرقيات من الغربيين فى الدين والسياسة ، وما كان موضوع المحاضرة غير التنويه بفضل من خدموا آثار أمتنا فاستفدنا نحن بالعرض . وأذكر أن بعض أساتذة مصر ممن حضروا المجلس تبرموا بكلام الأستاذ جاويش وعدوه خروجا عن الموضوع ، لأنى لم أمتدح المستشرقين إلا من الوجهة التى أفادوا بها حضارتنا ، حتى إن الأستاذ على الشمسى باشا (وزير المعارف المصرية يومئذ) كان ممن حضر فقال : سامح الله الأستاذ جاويش ، ان صاحب المحاضرة لم يتعرض لمدح المستشرقين فى السياسـة والدين ، وإنما ذكر افضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتبنا . قال ذلك للأستاذ سـيد كامل رحمه الله ، (راجع المحاضرة فى مجلة المجمع العلمى العربى م٧ ص ٤٣٣)

فأنا والحالة هذه إذا امتدحت من علماء المشرقيات ، وأعجبت بعملهم فى خدمة آدابنا ، فانما تنويهى بهم من هذه الناحية فقط . وأعلم أن كثيرين منهم يعملون لسياسة بلادهم أولا ، وأن منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلماً لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم فى القرون الوسطى ، ومن أحب أن يقف على تخريف المخرفين من المستشرقين ، وانصاف المنصفين منهم فى أحكامهم على الاسلام والعرب فليرجع إلى كتابى الأخير « الاسلام والحضارة العربية » فمعظم هذا السفر يدور على هـذا المحور ، وأحب مع هـذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نكاف من لم يتأدبوا بأدبنا ، ولم تعمل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن يعتقدوا ما نعتقـد ، ويكتبوا فينا ما نحب . فلـكل جنس تفكيره ، ولـكل جيل مدنيته ، ولـكل إنسان أهواؤه وأغراضه .

محمد كرد على

الأستاذ صاحب الرسالة

لا يزال الأستاذ صاحب الرسالة ومحررها يعالج منذ أسبوعين مرضاً شديداً قطعه عن الناس وعن العمل . والحمد لله قد طرأت على صحته عوارض التحسن منـذ اليوم ، ولا يمضى وقت طويل حتى يستأنف الأستاذ جهاده الموفق فى خدمة الأدب والثقافة

الكتب

١ – حياة الوزان الفاسي وآثاره

تأليف الأستاذ محمد المهدي الحجوي

٢ – تاريخ الصحافة (الجزء الرابع)

للفيكونت فيليب دي طرازي

٣ – تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

تأليف الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

للأستاذ محمد بك كرد علي

في شمالي أفريقية اليوم حركة مباركة في التأليف، تدل على انتباه فكري يبشر بخير كثير لتلك البلاد الاسلامية العربية؛ تطالعنا تلك البلاد الحين بعد الآخر بتآليف يُجَوِّد كتابها ما ينشرون؛ ويضعون أسفارهم على النمط العصري الحديث، ومما طالعناه مؤخراً «التذكار فيمن ملك طرابلس، وما كان بها من الأخبار» لابن غلبون الطرابلسي نشره وعلق عليه الأستاذ الطاهر أحمد الزواوي، و«كشف الحجب عن مدنية العرب» للأستاذ محمد بن عمار الورتتاني التونسي، و«رسائل الرحالة» العالم عبد العزيز الثعالبي، وبعض تآليف في الأدب والشريعة للأستاذ طاهر بن عاشور؛ وتآليف عالم أفريقية حسن حسني عبد الوهاب معروفة مشهورة، وكذلك تآليف العلامة الشيخ محمد بن أبي شنب رحمه الله في الجزائر فانها من الممتع الجيد و«كتاب الجزائر» للأستاذ أحمد توفيق المدني من أجود ما كتب في تاريخ الجزائر وتقويم بلدانها وحالتها الاجتماعية والادارية والسياسية والاقتصادية. هذه بعض ما وصل الينا من تآليف أهل المغرب الأدنى والأوسط، أما المغرب الأقصى، فقد ظهر أربعة مجلدات ضخمة من كتاب «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» للمؤرخ المدقق مولاي عبد الرحمن ابن زيدان، وهو في تاريخ مراكش في السياسة والاجتماع والأدب، أبان فيه واضعه عن نَفَس طويل ومادة واسعة ظهرت منها عظمة تلك الديار في الدهر السالف، ونشر في فاس الأستاذ عبد الحي الكتاني كتباً نفيسة وعلق عليها فأحسن؛ ونشر العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الفاسي في فاس والرباط (رباط الفتح) كتاب «الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي» في أربعة مجلدات، دل على علو كعبه في الشريعة وتاريخها وأدبها، وله غير ذلك من المصنفات والأبحاث والمحاضرات والمسامرات، وها هو نجله الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدي يطالعنا ببحث طريف في حياة الوزان الفاسي وآثاره، فكان النجيب ابن النجيب. زادنا الله في أفريقية من أبناء نجباء الأبناء

***

هو بحث قدمه المؤلف لمؤتمر المستشرقين الثامن الذي أقامه معهد المباحث العليا المغربي بفاس يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٣ في ترجمة أبي علي الحسن الوزان الفاسي المعروف عند الأفرنج باسم ليون الأفريقي (Léon l, Africain)، وكان هذا الرجل العظيم من أصل أندلسي، نشأ في فاس وتجلى فيه الذكاء منذ الصغر، فتعلم العلوم الدينية والأدبية ثم ساح في بلاد المغرب الأقصى أوائل المائة العاشرة وكتب رحلات ومفكرات في جغرافية تلك البلاد بناها على مشاهداته، ورحل إلى الروم ومصر والحجاز، وكان في بعض رحلاته سفيراً عن بعض ملوك المغرب الأقصى في زمن الدولة الوطاسية، وارثة الدولة المرينية «دولة العلم والعرفان والفن الرائق الفتان» وقيام الدولة السعدية في الجنوب، ووقع للوزان أن أسره قرصان البحر من الطليان فأتوا به هدية لطيفة إلى البابا ليون العاشر في رومية، وكانت إيطاليا آخذة بنهضتها في عهد ذلك البابا العظيم حامي المعارف والآداب فوجد في الرحالة الوزّان ضالته المنشودة لخدمة المعارف، وبعد موت البابا سنة ١٥٢١ م ٩٢٧ هـ دخل الوزّان تحت حماية الكردينال «جيل دي فيطرب»

وكان يعلمه العربية ، ثم تولى مدة تدريس العربية فى كلية بولونيا فى إيطاليا ؛ وبذلك تعلم الايطالية واللاتينية ، وكان من قبل يعرف الاسبانية والعبرانيــة . وألف هناك قاموسه الطبي باللاتينية والايطالية ... وأهم ما نقله بنفسه إلى الايطالية بأمر البابا كتابه فى وصف أفريقية ، وقد جوّد فى هذا الـكتاب من وراء الغاية حتى جعله الغربيون أعظم مرجع لهم للوقوف على تلك الأرجاء الشاسعة . وصف فيه كل مارآه من طبيعتها وأجوائها وحاصلاتها وعالمها وأخلاقها وعاداتها

وقد طبع كتاب الوزّان من القديم فى إيطاليا وفرنسا غير مرة ؛ وعلق عليه ناشروه شروحاً كثيرة واستفادوا منه . فصل كل ذلك الأستاذ المؤلف تفصيل باحث محيط بأطراف موضوعه . وأجاب من اعترضوا عليه مستغربين نبوغ المترجم له فى سن الفتوة فقال : « دخل الوزّان معترك الحياة دخول أبطال الرجال على حداثة سنٍّ فجلى وأبلى بلاء تجده غريباً فى حياة الرجال . نعم ذاك غريب إذا قيس بسنه ، ولـكن لا بدع هناك فى حق الشباب المغربى ، فقـد حفظ له التاريخ أعمال كثير من أفراده المبكرين فى النبوغ العلمى والسياسى ، وذلك باب فتحه المولى إدريس بن إدريس رمز الشباب المغربى العربى بما فيه من نبوغ وكفاءة ، ومثال الفضيلة المحمدية ، والشمم الهاشمى ، والعبقرية القرشية . فقد بويع وهو ابن إحدى عشرة سنة وقام بالملك أحسن قيام وأسس دولة من أفخر الدول تأسيساً ونظاماً ، وأسس لمملـكته عاصمة من أفخر العواصم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، لم يؤسس العرب مدينة أحسن منها مناخاً ولا أليق منها بقعة للعمران ، ومات بعد أن بلغت دولته العنفوان ، وهو ابن ست وثلاثين سـنة ، وله نظائر فى تاريخ المغرب نبغوا مبكرين فى مختلف مظاهر الحياة لا نطيل بهم ، ومنهم المترجم »

— ٢ —

هذا هو الجزء الأخير من تاريخ الصحافة تصنيف الأستاذ فيليب طرازى أمين دارى الـكتب والآثار فى بيروت ، وقد اشتغل فى هذا الموضوع الطريف أربعاً وأربعين سنة وصرف فيه مالاً ووقتاً وجهداً حتى تسنى له اقتناء مجموعة من الصحف والمجلات العربية التى صدرت فى القارات الخمس منذ عام ١٨٠٠ م إلى عام ١٩٢٩ وبلغ عدد مالديه من أعداد هذه الصحف والمجلات وهو يحرص على العدد الأول منها فى الغالب — نيفا وثلاثة آلاف ومائتين وخمسين جريدة ومجلة ، فـكان عدد ما صدر من المجلات فى المملـكة المصرية منذ تـكوين الصحافة إلى سنة ١٩٢٩ : ١٣٩٨ جريدة ومجلة وعدد ما صدر فى بلاد الشام ٧٧٩ كان من حصة الجمهورية اللبنانية ٤٢٦ الخ واتضح « أن بعض المدن النائية فى أوربا وأمريكا والتى لا ينطق سكانها بالضاد فاقت بعدد جرائدها ومجلاتها كثيراً من عواصم الدول وشهيرات المدن الواقعـة فى صميم البلدان العربية ويعزى ذلك الى هجرة العدد الوافر من الـكتاب فى عهد الدولة العثمانية . فقد كانت هذه الدولة تضطهد المفكرين والمثقفين من سكان بلادها وتشدد عليهم وتخاف صرير أقلامهم . ويرجع أكثر الفضل فى هذه النهضة الصحافية الميمونة إلى أدباء لبنان الذى نزح منه مئات الألوف الى تلك الديار العامرة ولا سيما إلى العالم الجديد ، ويقع هذا الجزء فى ٥٤٥ صفحة وقد ترجمت أكثر فصوله إلى الانجليزية ليعم الانتفاع بهذا الاحصاء ، ويستفيد الغربى كما يستفيد العربى من مضامين الـكتاب عنـد ماىرا دالـكشف عن جريدة ومعرفة منشئها الأول وتاريخ صدورها والمدينة التى صدرت فيها الى غير ذلك من الفوائد . وفى الحقيقة إن للبنانيين الأثر المحمود فى إصدار الصحف فى الشرق والغرب باللغة العربية ، وكان للمؤلف الفضل الأوفر فى تدوين أعمالهم والتدليل عليها باحصاءاته المدققة ، فله الشكر على هذه العناية وهذا الدؤوب

— ٣ —

الأمير فخر الدين المعني الثانى أعظم أمير عربى قام فى النصف الأول من القرن الحادى عشر من الهجرة فى جبل لبنان وما اليه من بلاد الشام . كان واسع المدارك محباً للعمران والحضارة ، انتفع بكل قوة وجدها أمامه ، وإذ كان حكمه يتناول الدروز والشيعة والسنة والموارنة والروم الأرثوذكس وغيرهم من النحل فى الساحل الشامى ، ويريد أن يرضى كل فريق تبعاً للسياسة التى جرى عليها ، اتهمه بعضهم بأنه كان يذهب مذهب الدروز ، وفريق بأنه كان نصرانياً ، والحقيقة أنه كان مسلماً يرى رأى أهل السنة والجماعة ، وكان قد لجأ إلى ايطاليا فى أخريات أيامه فأخذ معه إمامه وأنشأ مسجداً ومنارة فى البلد الذى نزله حتى أن فتاة له ماتت هناك لم يرض أن يدفنها فى أرض إيطاليا ، وحملها معه الى الشام لما عاد اليها لتدفن فى أرض اسلامية . وأهل لبنان

يتمجدون بالأمير المعني لأنه حكم النصارى فأحسن إليهم ما وسعه الاحسان ، واعتمد فى الحكم على بعض نبهائهم يومئذ . ولذلك كان من الواجب تدوين تاريخه ، والجمهورية اللبنانية الصغيرة فى إبّان نشأتها تحاول أن تجمل لها تاريخاً تعتزُّ به ، وقد تخلقه خلقاً ، فكيف بتاريخ رجل جدير من كل وجه بالتخليد ؟ وهذا ما تمحض له زمناً الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، واستطرد فى كتابته استطرادات كثيرة حتى جاء كتابه فى ٤٤٦ صفحة ، مستنداً فيه الى مصادر لبنانية وغيرها ، باحثاً عما يهم وما لا يهم من الحوادث التى لها مساس بحاكم حكم لبنان من سنة ١٥٩٠ إلى سنة ١٦٣٥ م ، وكان قضى فى الآستانة مقتولاً سنة ١٠٤٥هـ . وقد حلّى المؤلف كتابه بصور أثرية قديمة تمثل حالة البلاد فى عصر الأمير المعني ، وشرح كل ما رآه جديراً بالشرح فى الحواشى ، فاستحق شكر الباحثين فى تاريخ هذا الجزء الصغير من الديار الشامية

محمد كرد على

تصويب

جاء فى القسم الأول من وصف كتاب البيزرة فى الرسالة (١١٣) اسم المؤرخ التركى « طاش كُبرى زَادَه » صاحب مفتاح السعادة محرفاً ، وهذا صوابه . كما أن ما جاء عن « جامع السعادة » صوابه « مفتاح السعادة » كما هو مكتوب فى موضع آخر من المقالة

3me Année, No. 115.

Lundi-16-9-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

السنة الثالثة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » العـــدد ١١٥

فهرس العـــدد

المسرح المصرى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

أخفق المسرح المصرى ، أو لم يقم ، وهذا أصح ، لأن الذين حاولوا هـذا الأمر لم يجدوا من يسدد خطاهم ، ويأخذ بيدهم ، ويشد أزرهم ، فخابت مساعيهم ، وضاعت عليهم جهودهم وأموالهم ، وتخبطوا حيناً ، ثم يئسوا وانصرفوا عن أمر لا طائل تحته ، ولا محصول وراءه ، ولا خير فيه لا لهم ولا للأدب ولا للناس

ويخطئ من يظن أن الذنب للحكومة وحدها ، وأن تقصيرها فى بذل العون للمسرح قعد به ثم قضى عليه ، ولا ريب أن الحـكومة أهملته وتركته للأقدار ، حتى صار فى النزع ، ثم حاولت أن تدركه ، ولـكن بعد أن تفاقمت العلة وتعضَّت المداوى ، فلم ينقذه المـال الذى بذل له ، بل أزلفه إلى البوار الذى لم يبق منه مفر ، ذلك أن المـال لم يكن كل ما بالمسرح فقر إليه ، فقد بدأ مستغنياً بنفسه عن مثل هذه المعونة ، وكان فى أول عهـده يلقى من الاقبال والتشجيع ماينفى عنه الشعور بوجود خلة تتطلب أن تسـدّ ، ثم فتر الاقبال وانصرف الناس لأنهم لم يجدوا

ما يطلبون ، وما كان خليقاً أن يؤدى إلى قيام مسرح مصرى بالمعنى الصحيح ، فقد كان المسرح معنياً بالترجمة والنقل والتمصير ، فكان صدى للمسارح الغربية ، ولم تكن له صبغة مصرية ، وليس عندنا ممثلون فى وزن ممثلى الغرب ، والحياة المصرية لا تشبه الحياة الغربيــة إلا فى بعض المظاهر المنقولة ، ومجتمعنا يقوم على نظم تغاير نظم الغرب من وجوه شتى ، على الرغم من كثرة ما أخذنا عنه واقتبسنا منــه ، وكذلك تختلف الروح والمزاج والطبائع والنزعات . فأنا شرقيون على فرط ما نحاول أن نتغرّب ، وما زال صحيحاً أن الشرقَ شرقٌ ، والغرب غربٌ ، وأنهما لا يكادان يلتقيان ، والشرق مهبط الأديان ، والغرب مصانع آلات ، والأديان لا تهبط الآن فى شرق أو غرب ، ولكن مزاج النفوس هو هو ، كما كان ، فى الناحيتين ، وتهيؤها واستعدادها واتجاهها ، وأسلوبها فى تلقى الحياة وتناولها ، ولا عبرة بالتعليم أو الجهل فى هذا الباب ، وإنما العبرة بالروح العامة ، وقد يزوّرها التعليم الحديث ويخفيها أو يسترها ، ولكنه لا يستطيع أن يغيرها

لهذا كان ما يمثل على المسرح المصرى من الروايات المترجمة أو الممصرة ، لا يستولى على هوى الجمهور ، ولا يشعره أن ما يراه يصور حياته كما بدت للكاتب ، وبعد أن أفرغ عليها صبغة الفن ، فبقى المسرح غريباً أجنبياً وإن كانت لغته العربية حيناً ، والعامية أحياناً ، وصار المرء يؤثر أن يقرأ هذه القصص فى الأصل أو باحدى اللغات التى نقلت إليها ، أو أن يشاهد ما يعرض منها فى دور السينما

وقد قطع المسرح — أو باعد على الأقل — ما بينه وبين الأدب ، فكانت تلك جناية ليس كمثلها جناية ، ألوت به أشد الإلواء ، وأتت عليــه من قواعده ، ولسنا نفرد رجال المسرح أو الأدباء باللوم ، فان كلا من هؤلاء وهؤلاء يحمل نصيبه ، ولعل رجال الأدب قصروا فى الاتصال بالمسرح ، وعسى أن يكون الذنب للاتجاه العام الذى سار فيــه الأدب المصرى بعد نهضته الحديثة ، فقد كانت العناية كلها — أو جلها — بالشعر والبحث والنقد ، ولم تكن القصة تشغل حيزاً فى هــذه الحلبة الواسعة ، ولــكن رجال المسرح كانوا أشد تقصيراً ، فقد كانوا يستطيعون أن يحولوا إليهم جدولا من ذلك النهر الفياض ، غير أنهم تهيبوه وأشفقوا من مطالبه ، وظنوا أن فى مقدورهم أن يستغنوا عنه ، وأجروا سفينتهم على العامية فجنحت بهــم ولزقت بالأرض ، وتحطمت على الصخر

والعامية لفظة نطلقها هنا على اللغة وعلى أسلوب التناول أيضاً ، فنحن نعنى بها الجهل باللغة ، والجهــل بالروح التى كان يجب أن يستوحيها المسرح ، وهو توسع فى التعبير نجيزه لأنفسنا فى هذا المقام ولا نرى منــه بأساً ، ولا نخشى معه التباساً ؛ والأدب وحده هو الذى يدخل فى وسعه أن يهتدى إلى اللغة الموافقة لقصة المسرح ، وهو وحــده الذى يستطيع أن يستلهم روح الجماعة ، فاما أنه هو الذى يقدر على الأداء الموافق ، فلأن الأدب ذوق وبصر وسليقة وعلم وفن ، فان لم يكن هذه فهو ليس بأدب ، وأما قدرته على الاستيحاء فذلك لأنه فن ، والفن ملــكة يحصل بها إدراك الحقائق وإبرازها على نحو يصدق على العموم وإن كان يبدو أنه فى أمر على الخصوص ، ومن هنا فرق ما بينه وبين التجربة ، فانها معرفة بأحوال معينة وخبرة بها تقتصر عليها ولا تتسع حتى تكون شاملة ، أما الفن فيتعلق بالحقائق العامة ، وهو فطنة ، لا علم ، وملــكة قد تساعدها الخبرة ولــكنها لا تخلقها ، وذوق تصقله وترهفه المرانة غير أنه لا يكتسب بها ، وإن كانت المرانة تفيد الحذق والبراعة

ولا يقل أحد إن الجماهير لا تقــدر الأدب ، وإنها يشق عليها أن ترتفع إلى طبقته كما يتعذر عليه هو أن ينزل إليها ، فان القول بهذا جهل وغفلة ، والذى يذهب إلى هذا الرأى إنما ينظر إلى الشكل والعبارة لا إلى الجوهر والموضوع ، ثم هو يخلط بين ضروب متباينة من الأدب . نعم ، يعسر على الجماهير غير المثقفة أن تنتفع أو تستمتع ببحث أودرس ، أو أن تدرك القيمة

الحقيقية لقصيدة ، وأن تفطن إلى عناصر الجمال أو الجلال أو القوة فيها ، ويعييها أن تبين لماذا يطرب بها الشعر أو يروقها الكلام ويطيب موقعه من نفوسها ، أو يؤثر فيها ، ولكنها تميز بغريزتها وإن لم تميز بعقلها ، وتحس بروحها وإن عزها الاهتداء إلى السبب ، والقصة ، بعد ، شيء لا عناء عليها في فهمه ، لأنها حوادث ووقائع قد يكون أو لا يكون وراءها معنى عويص أو فكرة عميقة ، على أن الوقوع على المراد لا يعجز الجمهور إذا سيق مساق القصة ، وللناس نفوس، وفيهم نظر ولهم إدراك وإحساس إذا لم يكن لهم علم . وأسلوب القصة يسهل التلقف ، ويقرب المناص ؛ وفي وسع القارئ أو المشاهد أن يعرف مبلغ الصدق في التصوير إذا لم يستطع أن يفطن إلى دقائق الفن ، كما يعجب بالصورة ويشهد لها بالصدق في التعبير ، والقوة في النطق ، وإن غابت عنه المزايا الفنية التي لا يراها أو لا يستطيع الحكم عليها إلا أهل هذا الفن والعارفون به

وقد تم هدم المسرح لما ظهرت السينما الناطقة ، لأن مجالها أرحب ، وميدانها لا تكاد تحصره الحدود ، وقد تضعضع المسرح في أوربا من جرائها ، فلا بدع ان قوضته في مصر ، وهو هناك يعاني منها البرح ، فغير مستغرب أن يدركه هنا الفناء ، وعسير بعد السينما الناطقة أن يقوم في مصر مسرح إلا في ظل الحكومة وبمالها ورعايتها ، ولكنه لا خير في هذه الرعاية إذا لم يفض عليه القائمون به الصبغة المصرية ، ولم يخلعوا عنه ذلك الثوب المستعار الذي انتهى بأن صار كفناً له ، وقد صار أمل المسرح المصري معقوداً الآن برجلين اثنين يتوليانه : حافظ عفيفي باشا ، والشاعر خليل مطران ، فاذا خاب هذان ، فلست أرى أملا للمسرح وراءها

وقد كانت عناية الحكومة — إلى الآن — بالأوبرا دون غيرها ، وصحيح أنها اعتادت في السنوات الأخيرة أن تمنح الفرق إعانات ، وأن تبذل للممثلين مكافآت ، ولكن الاعانة كانت ضئيلة لا تغني ، والمكافأة كانت زرية ؛ وكان الأسلوب الذي تجري عليه وزارة المعارف في منحها لا يخلو من امتهان لكرامة الممثل . على أن هذا كله لم يكن إلا ستراً لجودها على الأوبرا ، وليست الأوبرا مصرية ، ولا التمثيل فيها بلغتنا ، ولعل مصر هي الدولة الوحيدة التي تبني داراً للأوبرا لتستقدم إليها فرقاً من أمم شتى تمثل بلغاتها المختلفة ويضمن لها الربح ، وإن كان أبناء البلاد لا يذهبون إليها ولا يشهدون ما يمثل على ملعبها . وهو تكلف شديد انفردنا به ، ولا غاية منه إلا أن يجد السياح حين يفدون داراً للأوبرا ، عامرة بمثل ما ألفوه في ديارهم ؛ ولو أن هذه الأوبرا كانت مصرية والتمثيل فيها كذلك ، لكان هذا أبعث على سرور السياح ، لأنهم لا يجيئون إلى بلادنا ليروا فيها ما يرون في بلادهم ، بل ليطلعوا على ما عندنا نحن ، مما امتازنا به وخالفناهم فيه ، ولو وثقوا أن ما عندنا ليس إلا صورة لما تركوه لما جشموا أنفسهم عناء السفر ومشقات الرحلة ونفقاتها . وليت الفرق التي نبذل لها المال لنفاخر بها من الطراز الأول ! والغريب بعد ذلك أن الفرق المصرية كانت تذاد عن دار الأوبرا إلا في الندرة القليلة والفلتات المفردة . وهذا حال يجب أن يقلب ليعتدل ، وعار ينبغي أن يغسل عنا ، ومهزلة يجب أن تقصر الحكومة عنها ، وإلا صح فينا بعد ألف سنة أننا أمة تضحك من جهلها الأمم .

ابراهيم عبد القادر المازني

ثبات الأخلاق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لو أنني سُئلتُ أن أُجملَ فلسفةَ الدين الاسلاميّ كلَّها في لفظين، لقلتُ إنها: ثباتُ الأخلاق، ولو سُئل أكبرُ فلاسفة الدنيا أن يوجز علاجَ الانسانية كلَّه في حرفين، لما زاد على القول إنه: ثباتُ الأخلاق، ولو اجتمع كلُّ علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يُعوزُها في كلمتين لقالوا: ثباتُ الأخلاق

فليس ينتظرُ العالمُ أنبياءَ ولا فلاسفةَ ولا مصلحين ولا علماء يُبدعون له بدْعاً جديداً؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الاسلامَ هذا التفسير، ويثبتَ للدنيا أن كل العبادات الاسلامية هي وسائلُ عمليةٌ تمنع الأخلاقَ الانسانية أن تتبدّل في الحيّ فيخلعَ منها ويلبس، إذا تبدلت أحوالُ الحياة فصعِدت بانسانها أو نزلت؛ وأن الاسلام يأبى على كل مسلم أن يكون إنسانَ حالته التي هو فيها من الثروة أو العلوم، ومن الارتفاع أو الضَّعَة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها؛ ويوجب على كل مسلم أن يكون إنسان الدرجة التي انتهى اليها الكونُ في سموّه وكماله، وفي تقلّبه على منازلِه بعد أن صُفِّيَ في شريعة بعد شريعة، وتجربةٍ بعد تجربة، وعلمٍ بعد علم

انتهت المدنيةُ إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحوال الحياة، فمن كان تقياً على الفقر والاملاق وحرَمه الاعسارُ فنونَ اللذة، ثم أيسر من بعدُ؛ جاز له أن يكون فاجراً على الغنى، وأن يتسمح لفجوره على مدّ ما يتطوّحُ به المال، وإن أصبح في كل دينار من ماله شقاءُ نفس إنسانيةٍ أو فسادُها

ومن وُلد في بطن كُوخ، أو على ظهر الطريق، وجب أن يبقى أرضاً إنسانية؛ كأن الله سبحانه لم يبن من عظامه ولحمه وأعصابه إلا خربةً آدميةً من غير هندسة ولا نظام ولا فن... ثم يقابله من وُلد في القصر أو شبيهِ القصر فله حكم آخر، كأن الله سبحانه قد ركّب من عظمه ودمه وتكوينه آيةَ هندسةٍ، وأعجوبةَ فن، وطُرفةَ تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقةً على طبقة

ولكن الاسلام يقرر ثباتَ الخلُق ويوجبه وينشئُ النفس عليه، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته، لأن هنالك حدوداً في الانسانية تتميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضعٌ إلا وراءه تقدير، ولا تقديرٌ إلا معه حكمة، ولا حكمةٌ إلا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلو الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كِفَّتي ميزان شُدَّتا في علاقة تجمعهما وتحركهما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزلُ بالنازل لتدلَّ عليه وتشيلُ بالعالي لتبيّن عنه. فالاسلامُ من المدنية، هو مدنيةُ هذه المدنية

* * *

إنها لن تتغيرَ مادة العظم واللحم والدم في الانسان فهي ثابتة مقدَّرة عليه، ولن تتبدل السنن الآلهيةُ التي توجدها وتفنيها فهي مصرَّفة لها قاضيةٌ عليها؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها، تكون أسرارُ التكوين؛ وفي هذه الأسرار تجد تاريخ الانسانية كلَّه سابحاً في الدم

هي الغرائز تعمل في الانسانية عملَها الآلهي، وهي محدَّدة محكمةٌ على ما يكون من تماديها واختلافِ بينِها، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها. ومن ثمَّ يكون الخُلُق الصحيحُ في معناه قانوناً إلهياً على قوة كقوة الكون وضبطٍ كضبطه. وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخُلق أن يحوّلَ المادةَ التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب، ولكنه يتحول معها إذا هو لانَ أو ضعُف. فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك، إذ هو قوةُ الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك، كما أنه قوة المزْج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما. وقد سُوِّغَ القُدرةَ على هذه الأحوال جميعاً، ولولا أنه بهذه المثابة لعاش الانسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تؤرَّخ فضائلُه أو رذائله بمدح أو ذم

فلا عِبرة بمظهر الحياة في الفرد، إذ الفردُ مقيدٌ في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده. فانك ترى الغرائز دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنٍ أخرى. فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة. ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها

فالأخلاقُ على أنها فى الأفراد هى فى حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفراده ؛ فقِوامها بالاعتبار الاجتماعىّ لا غير

* * *

وحين يقع الفسادُ فى المُجْتَمَع عليه من آداب الناس ، ويلتوى ما كان مستقيما ، وتَشتَبهُ العاليةُ والسافلة ، وتُطَّرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعى ، ويقومُ وزنُ الحكم فى اجتماعهم على القبيح والمنكر ، ويجرى العِبْرة فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرّمات ، ولا يُعجِبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ فى محل العادة ؛ فهناك لا مِساكَ للخلُق السليم على فرد ، ولا بد من تحوّل الفرد فى حقيقته إذ كان لا يجئُ أبداً إلا متصدِّعاً فى كل مظاهره الاجتماعيـة ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً ، وكأنه منتقلٌ من عالَم الى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ وأفرادٌ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل فى تاريخ الانسانيـة لا يُبعثُ أحدُهم إلا ليَهيجَ به الهيْجُ فى التاريخ ، ويتطرّقَ به الناسُ الى سُبلٍ جديدة كأنما تطردهم اليها العواصفُ والزلازلُ والبراكين ، لا شريعتُه ومبادئه وآدابه . وأما الحكماءُ الناجحون فهم دائماً فى هذه الانسانية أمكنةٌ بشريةٌ محصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها فى أنفسهم ، فلهم فى ذات أنفسهم عِصمةٌ ومَنَـَعة كالجبال فى ذات الأرض

* * *

الأخلاقُ فى رأيى هى الطريقة لتنظيم الشخصية الفَردةِ على مقتضى الواجبات العامة ، فالاصلاحُ فيها إنما يكون من عمل هـذه الواجبات ، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه . وعندى أن للشعب ظاهراً وباطنا ، فباطنُه هو الدينُ الذى يحكم الفرد ، وظاهره هو القانونُ الذى يحكم الجميع ، ولن يَصلح للباطن المتصل بالغيب ، إلا ذلك الحكم الدينىُّ المتصـلُ بالغيب مثله ، ومن هنا تتبيّنُ مواضعُ الاختلال فى المدنيـة الأوربية الجديدة ، فهى فى ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسدٌ بها فى ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين ، ولكنه مع ذلك يبـدو صالحا منتظما فى ظاهره الاجتماعىّ بالقوانين وبالآداب العامة التى تفرضها القوانين ، فلا يبرحُ هازئا من الأخلاق ساخراً بها لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاق يَعتَدّ بها إلا إذا درّت بها منافعُـه وإلا فهى ضارَّة إذا كانت منها مضرَّة ، وهى مؤلمة إذا حالت دون اللذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مطلقٌ فى باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونَزَعاته ، وكلتا الفضـيلة والرذيلة معدومتان فى لغـة الأهواء والنزَعات إذ الغايةُ المتاعُ واللذة والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ فى أوربا إذا فنى المؤمنون بالأديان فيها أو كاثَرَهم الملحدون ، وهم اليوم يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى فى طوائفَ منهم قد خربت أنفسهم من إيمانها فتحولوا ذلك التحولَ الذى أومأنا إليه ، فاذا أعصابهـم بعـد الحرب ما تزال محاربةً مقاتلةً ترمى فى كل شىء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفُّن والبِلى . . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولـكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق

وقديما حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوّخوا الأمم ، فأثبتوا فى كل أرض هدى دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم فى الحرب ما هو من ورائها فى السِّلم ، وذلك بثبات باطنهم الذى لا يتحول ، ولا تستخفه الحياةُ بنزَقها ، ولا تَتسفَّهُهُ الدنياتُ فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهلَ هـذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا ، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كل مسلم فانما هو وعقليتُه فى سلطان باطنـه الثابت القارّ على حدود بينةٍ محصلةٍ مقسومةٍ تحوُطها وتمسكها أعمالُ الايمان التى أحكمها الاسلامُ أشـد إحكام بفَرْضها على النفوس منوّعةً مكررة كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيرا ويُحدث بها تغيرا آخر ، ويجعلها كالحارسـة للارادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة (١)

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فاذا جُنّ الموجُ فلن يَضيرَه ما بقى الساحلُ رَكيناً هادئاً مشدوداً بأعضادِه فى طبقات الأرض . أما إذا ماج الساحل ... فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكون إلا خَسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما

* * *

(١) فصلنا هذا المعنى فى كثير من مقالاتنا فى الرسالة كمقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم) وغيرهما

فى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ فى الانسان قانونٌ مثله لا بد منه لضبط معانى الانسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الاسلاميّ وواجباتِه وآدابه ، إنْ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله ، فما تلك إلا طُرُقٌ نابتة لخَلْق الحِس ِّ الأدبيِّ ، وتثبيتِه بالتكرار ، وإدخاله فى ناموسٍ طبيعيّ باجرائه فى الأنفس مجرى العادة ، وجعلِه بكل ذلك قوةً فى باطنها ؛ فتُسمّى الواجبات والآداب فروضاً دينيّةً ؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوين النفس العالية ، وتكون أوامرَ وهى حقائق (١)

من ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها — وهى بطبيعتها لا تقبل إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصَفّاةَ التى يَنْشُدونها فى إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشئ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها فى حسناتها ، وحماقَتها فى حكمتها ، وتزويرها فى حقيقتها ، وأن نُسيغَ منها الحُلوةَ والمرة ، والناضجةَ والفجّة ، وإنما نحن نحصّلها ونقتبسها ونرتجع منها الرّجمةَ الحسنَةَ ؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالحَ مكانَ الشيء قد كان دونه عندنا وندعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة المحكمة فى أدياننا وآدابنا ، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم . بَيْدَ أن العجب الذى ما يفرغ تَعَجّبى منه أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرها الا هدمَ تلك الضوابط التى هى كل ما نمتازُ به ، والتى هى كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، ولَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق

أقول ولا أبالى : إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا ، ولا عقل لهم إلا عقلُ ما ينقلونه ؛ فَصنعتهم الترجمةُ من حيث يدرون أو لا يدرون صنعةَ تقليدٍ مَحْضٍ ومتابعةٍ مُستعبدَة ، وأصبح عقلُهم بحكم العادة والطبيعة ، إذا فكّر انجذب الى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هى التى تَعملنا كما يقول بعض الحكماء ، فهم بذلك خطرٌ أىّ خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصِه ، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه الى شعب آخر ....

***

إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها ، فانما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوتنا فى النزاع العالمىّ بكل مظاهره أيّها كان ؛ ولها وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك التثبت فى هذا ولا أن نتسامح فى دقة المحاسبة عليه

فالمحافظة على الضوابط الانسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا ، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ؛ ثم تنسيقُ مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ؛ ثم العملُ على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبيّ فى جملته بتقويم أجزائه . هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق

والالحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوربية التى لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر فى أجمل أشكاله . . . ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وماجرى هذا المجرى . ثم التدليس على الأمة بآراء المقلدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية ، وما اتصل بذلك . ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها . تلك هى المعاول الأربعة التى لا يهدم غيرُها بناءَ الشرق

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا قبل مدنيتهم

(طنطا)

إلى البغدادى فى بغداد : سنتقدم بعد قليل على موضوع الزبال والله المستعان ، فقد كنا نتهيب هذا الموضوع إذ هو عندنا لبس الزبال ولكنه نصف المسألة الانسانية كما يقول عن نفسه

الرافعى

(١) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الاسلامى كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة ...

طب النفس

للأستاذ أحمد أمين

لست أدرى لماذا يؤمن الناس أشد الايمان بمرض أجسامهم ، ولا يؤمنون بمرض نفوسهم ، فاذا شعر أحدهم بمرض جسمى أسرع إلى الطبيب يصف له أعراضه ، ويستوصفه دواءه ، وينفذ أوامره مهما دقت ، ويبذل فى ذلك الأموال مهما جلت ، ثم هو يمرض نفسياً ، فلا يأبه لذلك ، ولا يعيره عناية ، ولا يستشير طبيباً نفسياً ، ولا يعني بدرس الأعراض ومعرفة الأسباب ، وقد يلح عليه مرض النفس ، ويصل به إلى اليأس ، فلا يسعى لعلاج ، ولا يجدّ فى معرفة دواء ، كأن نفسه أهون عليه من جسمه ، وروحه أتفه من بدنه

ومن أجل عناية الناس بأجسامهم دون نفوسهم ؛ كان لدينا نظام شامل واف لطب الأجسام دون طب النفوس ؛ فمدرسة لتخريج الأطباء حتى للطب البيطرى ، ومعاهدُ للتشريح والتجارب ، وتخصصٌ فى الأمراض ؛ فهذا طبيب عين ، وهذا طبيب أنف وحنجرة ، وهذا طبيب أسنان ، وهذا طبيب باطنى الخ ، وكان لكل حىّ طبيب أو أطباء ، ولكل مدرسة طبيب ، وفى الأمم الراقية لكل أسرة طبيب ، ووجدت المستشفيات فى أنحاء الأقطار ، وعدها الناس عملاً خيرياً يتبرعون لها بأموالهم ، كما عدتها الحكومات ضرورة اجتماعية ترصد لها الأموال فى ميزانياتها ، وأنشئت الصيدليات فى كل حىّ وكل شارع لتلبية طلبات الأطباء والجماهير فى كل وقت إسعافاً للجسم فى مرضه وفى ترفه

وخضعت هذه النظم لسنة الارتقاء ، فهى تساير الزمان ، وتستفيد مما يؤدى إليه البحث والعلم ، وتتكيف حسب ماتقتضيه الأحوال ، وتجهز بأحدث المخترعات

والعقل عني به بعض هذه العناية ، فكان أطباء للأعصاب ، ومستشفيات للمجاذيب ، وبحوث وتجارب فى أمراض العقل وعلاجه

أما النفس فحظها من ذلك كله حظ الأرنب بجانب الأسد ، فلا الناس يقدّرون خطورة أمراضها ، ولا تنشأ المدارس لأطبائها ، ولا تؤسس المستشفيات لعلاجها

مع أنى أعتقد أن آلام الناس من نفوسهم أكثر من آلامهم من جسومهم ، وأضرار المجتمعات من مرضى النفوس تفوق أضرارها من مرضى الجسوم ، وللنفس أمراض لا حصر لها ، تختلف كاختلاف أمراض الجسم الى مرض عين ومرض معدة ومرض أمعاء ، فهناك حميات نفسية متعددة كحميات الأجسام ، وهناك تسمم نفسى يشبه التسمم الجسمى ، وهناك ميكروبات نفسية كالميكروبات المادية ، وهناك عدوى بها تصيب النفوس كعدوى الأجسام — وهناك انفعالات تحرق النفس وتضنى البدن الى آخر ما هنالك ، ولكل هذه الأمراض علاجات تختلف باختلاف المرض وباختلاف الشخص ولها أدوية من جنسها ، منها ما يسكن الألم ، ومنها ما يشفى المرض — وهى فى دراستها وتشخيصها وعلاجها أدق وأصعب منالاً وأغمض كشفاً ، والفرق بينها وبين أمراض الجسم وعلاجه كالفرق بين الجسم والنفس

فما أحوجها الى أطباء مهرة ، ومستشفيات صالحة معدة ، ودراسات عميقة منتجة ، ونظام فى ذلك ترقى مع الزمان رقى طب الأجسام

لعل الذى صرف الناس عن علاج نفوسهم الى علاج جسومهم أنهم أو الكثير منهم لا يزالون يسبحون فى دائرة الحس وحده ، ولم يرتقوا الى ملاحظة النفوس وشؤونها ؛ فاذا جرح الانسان جرحاً بسيطاً فى جسمه هرع الى الطبيب يعالجه ويحتاط له ، وإذا كسر عظمه ذهب الى الطبيب ليجبر كسره ، ولكن إذا جرحت نفسه ولو جرحاً عميقاً ، وكسرت ولو كسراً خطيراً احتمل الألم من غير بحث عن علته أو نتائجه أو طرق مداواته لأنه لا يزال مادياً فى إدراكه أولياً فى تفكيره

أو لعل السبب أن الناس لا يؤمنون بأطباء النفوس إيمانهم بأطباء الأجسام ؛ فهم لا يعتقدون فى صلاحيتهم ، ويشكون كل الشك فى قدرتهم على علاجهم ، فيستسلمون للمرض النفسى كما يستسلمون لمرض جسمى استحال شفاؤه ولم يستكشف دواؤه ،

إن كان هـذا فعلى الطب النفسى أن يثبت قدرته ، ويبرهن على نجاحه حتى يقبل الناس عليه ويؤمنوا به

وقد يكون السبب أن الناس يؤمنون بسهولة أمراض النفس وقدرتهم على علاجها والاشتفاء منها من غير طبيب ، فما عليه إن كان حزيناً إلا أن يضحك ، أو منقبضاً إلا أن يتسلى ، وهذا خطأ بين ؛ فأمراض النفوس كأمراض الجسم فيها مايداوى بحِميَة وفيها ما يستعصى على الطبيب الماهر والخبير الحاذق

* * *

لعلك تزعم أن هذه الناحية من طب النفوس لم تهمل بتاتاً فهناك المدارس للتهذيب ، فيها إصلاح النفوس وفيها دروس الدين والأخلاق لمعالجة الأمراض ، وهناك الوعّاظ لارشاد الناس وعلاج النفس ، وهناك العرف والقوانين توجه الناس الى الخير وتحذرهم من الشر ، وفى ذلك تهذيب لنفسهم وإصلاح لجوانب الشر فيهم

ولكن يظهر لى أنها كلها مع فائدتها لا تكفى ، لأنها — من ناحية — تكاد تكون علاجاً عاماً يقال لكل الأشخاص ، وتخاطب بها كل النفوس ، كالطبيب يذكر ضرر الافراط فى الأكل ، وأضرار كثرة التدخين ، وفائدة الرياضة البدنية ، وفائدة الاعتدال فى المآكل والمشرب ، وهى قل أن تتعرض للأزمات النفسية الخاصة بكل نفس وما أحاط بها من ظروف خاصة ، ونوع النفس وما يلزم لها من علاج خاص بها ، هى أقرب ما تكون إلى الوقاية لا إلى العلاج ، وللاحتياط من الوقوع فى المرض لا لعلاج المرض ، فان تعرضت لعلاج وصفت علاجاً عاماً للناس على السواء ، إذ ليس فى استطاعتها — غالباً — أكثر من ذلك

ومن ناحية أخرى أكثر ما بأيدينا منها اليوم لم يؤسس على ما وصل اليه العلم الحديث ، ولم يبن على ما استكشف من قوانين علم النفس على قلة ما استكشف منها ، فالدراسة الحديثة أبانت عن اتجاهات كانت غامضة ، وأخطاء كانت ترتكب فى تصور النفس وإدراكها وجرائمها وطرق تهذيبها ، ولا يزال علماء النفس يقرون بأنهم فى أول مراحلهم ، ولم يقولوا فى النفس إلا الكلمة الأولى ، فكان من المعقول أن يساير التهذيب ودراسة الأخلاق وعلاج النفس ما وصل اليه علم النفس وعلم الاجتماع ، كما يساير علم طب الأجسام ما يستكشف من مخترعات . وآلات الجراحة اليوم غيرها بالأمس ، والمادة الطبية اليوم غيرها بالأمس وهكذا ولكن ذلك لم يكن

وربما كان أقرب المناحى إلى طب النفس منحى الصوفية ، فقد كان لكل مريد شيخه يفضى اليه بدخائل قلبه وأزمات نفسه ، ووساوسه وخطراته وآلامه وتوجهاته ، والشيخ يصف لكل مريد ما يراه أنسب له وأقرب لعلاجه ، ويصف له طرقاً يسلكها واتجاهات يتجهها وأوراداً يتلوها ، يرى أنها تشفى مرضه ، وتبرىء نفسه ، وله فى كل مريد نظرته وفراسته ، بها يشخص وبها يصف ، ولكن تكاد تقتصر هذه الحالة بين المريد والشيخ على الأزمات الدينية ، أما ما عدا ذلك من أزمات دنيوية واجتماعية ، فقلما يتناولها المريد والشيخ ، على أنه ، من لكل مريد بهذا الشيخ الدقيق النظر الصائب الفكر الصادق الفراسة الموفق فى تبيُّن المرض ومعرفة العلاج

* * *

وإذا عدمنا مثل هـذا الشيخ وحرمت مجتمعاتنا من نظم وافية شاملة للطب النفسى كالنظم الوافية الشاملة للطب الجسمى فلا أقل من أن نوجه النظر إلى أن يعنى كل شخص بناحيته النفسية عناية لا تقل عن عنايته الجسمية . فضحايا أمراض النفوس كثيرون ، وصرعى المرض لا يحصون ، والالتفات إلى فتك هذا النوع من الأمراض ضعيف فاتر — فهناك صرعى الخوف من الموت ومن الفقر ومن الرؤساء ، وهناك صرعى الشك فى الدين وفى الحياة وقيمتها وفى كل ما يحيط بهم مما فى الأرض وما فى السماء ، وهناك صرعى الحزن لا يسرهم شىء فى الحياة ، ويودون أن يبكوا دائماً ويسودون كل منظر يرونه ، ويحزنون عند ما يحزن الناس ويحزنون عند ما يضحك الناس ، فاذا عدموا أسباب الحزن خلقوها حتى من أعمق منابع السرور — وهكذا تتعدد الصرعى

كصرعى السل والسرطان وما إليهما — يبـدأ فيهم مكروب النفس صغيراً ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يفترسهم ، ثم من العجيب ألا يتوجهوا قليلاً ولا كثيراً إلى قتلها قبل أن تقتلهم وهزيمتها قبل أن تهزمهم ، كأنهم يظنون أن المرض فوق أن يعالج والأمر أيأس من أن يفكر فيه

* * *

لأمراض النفس أسباب عدة : من حالة صحية ، وبيئة اجتماعية ، وبذور ميكروبات تسربت اليها من كتب قرأتها ، ومقالات طالعتها ، وأحاديث سمعتها ، ومناظر رأتها إلى غير ذلك ، ولعل أهم مرض نفسي يصيب طائفة المثقفين سببه أنهم لا يريدون أن يكونوا أنفسهم ويريدون أن يكونوا غيرهم

لقـد خلقت النفوس البشرية متشابهة فى بعض جهاتها ، مختلفة فى بعض جهاتها ، شأنها فى ذلك شأن الوجوه ، فـكل وجه فيه عينان وأنف بين العينين وفم تحت الأنف وذقن تحت الفم ولـكن مع هـذا الاشتراك لـكل إنسان وجهه الخاص به لا يشاركه فيـه غيره ، وكذلك النفوس تشترك فى اللذة والألم ، وتشترك فى أهم منابع اللذة ومنابع الألم وتشترك فى الغرائز الأساسية وما إلى ذلك ، ومع هذا فلـكل انسان نفسه الخاصة ، لا يساويها فى جميع وجوهها غيرها

ومما ألاحظه أن نفس كل انسان إن سارت على فطرتها ، وعرفت أن تتغذى بما يناسبها ، وطلبت لها مثلاً أعلى يتفق وطبيعتها ، عاشت فى الأغلب راضية مطمئنة ، فان خالفت فطرتها وحاولت أن تـكون غيرها أظلمت وأصابها الحزن والقلق والاضطراب ، وفقدت سعادتها وهناءها ، واطمئنانها ورضاءها ، ومحال أن تنال ما يخالف فطرتها ، كما هو محال أن يكون الوجه الأسود أبيض ، أو الأبيض أسـود ، أو الطويل قصيراً ، أو القصير طويلاً

يسعد الانسان إذا عرف طبيعته وحدوده التى يستطيع أن يصل إليها ، ونوع الرقى الذى يمكن أن يبلغه ، فان حاول أن يكون غـير ذلك كان فى الحياة « ممثلاً » لا يعيش عيشته الطبيعية ، فهو فقير يمثل دور ملك ، وصعلوك يمثل دور وزير ، وطفل يمثل شيخاً هرما ، ورجل يمثل دور امرأة ، ومحال أن يوائم بين نفسه الحقيقية والدور الذى يمثله إلا بمقدار ما يظهر على المرسح ، فان هو حاول أن يطيل ذلك بعد دوره لجزاؤه الهزؤ به ، والسخرية منه ، وقلق نفسه ، واضطراب شأنه

فأكثر أسباب اضطراب المثقف ناشئ من أنه غبى يريد أن يكون ذكياً ، أو ميال بطبعه إلى العزلة والانكماش ، يريد أن يكون وجيهاً شهيراً ، أو عالم يريد أن يكون أديباً ، أو أديب يريد أن يكون عالماً ، أو صريح يريد أن يخادع ويمالق ، أو خجل يريد أن يكون وقحاً ، أو متزن نواحى العقل يريد أن يكون نابغاً شاذاً الخ . فهو يحاول ويحاول ، ثم يفشل ويفشل ، لأنه يكلف النفس ضد طباعها ، وهذا الفشل يهز نفسه هزة عنيفة تسبب له القلق الروحى والاضطراب النفسى ، هو بذلك يريد أن يكون إنسـاناً صناعياً وهو مخلوق إنساناً طبيعياً ، فالتوفيق محال ، فخير نصيحة لهذا وأمثاله أن تقول له : « كن نفسك ، ولا تَنْشُد إلا مَثَلك »

أحمد أمين

أقطاب الرواية المصرية

عز الملك المسبحي

جندي ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان المسبحي رجل حرب ورجل قلم ؛ وكان سليل أسرة حرّانيـة (١) نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ؛ وكان احدى هاته الشخصيات القوية البارزة التي كانت الدولة الفاطمية ابان قوتهـا وفتوتها تحشدها حولها ، وتوليها ثقتها وعطفها ، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين . بيد أن المسبحي كان مصرياً بمولده ، مصرياً بتربيته وبيئته ، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها ؛ ولو لم يذهب الزمن بآثاره ولا سيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر ، لـكان بين يدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها في المرحلة الأولى من الحكم الفاطمي ، أعني مرحلة العظمة والبهاء

وولد المسبحي بمصر حسبما ذكر في تاريخه ونقل الينا الرواة المتأخرون في العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٧ م) (٢) ؛ وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله ابن احمد بن اسماعيل المعروف بالمسبحي ؛ ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا عن تربيته وتكوينه ، ولـكن يبدو لنا من آثاره التي نسبت اليه ، والتي انتهت الينا شذور منها أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحي ، كذلك يظهر أن المسبحي بدأ حياته العامة جندياً ورجل ادارة ، لأنه كان يرتدي زي الجند ، ولأنه تقلد بعض المناصب الادارية الهامة ؛ وقد ذكر لنا المسبحي في تاريخه أيضاً ، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ بيد أنه تقلب قبل ذلك في بعض الوظائف الهامة ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب (١) وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله وعينه في بطانته الشخصية في سنة ٣٩٨ هـ . وكان الحاكم يومئذ فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ؛ ولـكنه كان في ذروة القوة والسلطان والبطش ، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه ، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة ٣٩٥ — ٤٠٠ هـ) ويروى لنا المسبحي نفسه في تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التي شهدها في هذا العهد (٢) ؛ وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والـكبراء لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره ، ولـكن المسبحي تبوأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة لا تتطاول اليه الشكوك والريب ، ولا تتجه اليه النقمة الغادرة ، بل يظهر أن المسبحي كان من أخص خواص الحاكم ، حسبما تدل به الواقعة الآتية التي يرويها لنا في تاريخه ، قال :

« قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يامختار ، استدعاني والدي قبل موته ، وهو عاري الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، قال فاستدعاني وقبلني وضمني اليه وقال : واغمّي عليك يا حبيب قلبي ! ودمعت عيناه ، ثم قال : امض ياسيدي فالعب فأنا في عافية . قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله تعالى العزيز اليه » (٣)

ويقول لنا ابن خلـكان إن المسبحي نال لدى الحاكم حظوة وسعادة ، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الـكبير (٤) ، وتبدو دلائل هذه الصداقة التي توثقت عراها بين الحاكم والمسبحي في كثير مما يرويه المؤرخ في تاريخه وينقله عنه الـكتاب المتأخرون مثل المقريزي وابن تغرى بردى عن عصر الحـاكم بأمر الله ، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية ، ففي كثير من هذه المواطن يبدو المسبحي الصديق المخلص والمستشار الأمين

(١) نسبة إلى حران ، وهي مدينة قديمة كانت تقع بين الموصل والشام على مقربة من الرها
(٢) ابن خلـكان ج ١ ص ٦٥٤

(١) ابن خلـكان ج ١ ص ٦٥٣
(٢) نقله المقريزي عن المسبحي في الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ٣٢ و ٣٣
(٣) نقله ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤
(٤) ابن خلـكان ج ١ ص ٦٥٣

وهذه حقيقة تلفت النظر ، فان الحاكم كان أميراً خطر النزعات عنيف الأهواء ، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه . بيد أن الذهبي يقدم الينا فى تاريخه تعليلا لهذه الظاهرة ، هو أن المسبحى كان رافضياً [1] . والروافض فرقة من غلاة الشيعة تغلو فى حب على بن أبى طالب وفى بغض أبى بكر وعثمان ومعاوية ومن اليهم ، وقد اختلف فى سبب تسميتهم بالروافض . وهنا نلمس سر هذه الصداقة التى توثقت بين المؤرخ وأميره ، فقد كان الحاكم ، جرياً على سنة آبائه ، يصطفى غلاة الشيعة أبناء مذهبه ويوليهم مناصب النفوذ والثقة ، وكان المسبحى يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته ، فقد كان عارفاً بعلوم عصره ، وكان راوية ومحدثاً ساحراً ، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذى يشغف به الحاكم بأمر الله ، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف [2] ؛ وهذه كلها عوامل وظروف تلقى أكبر الضياء على طبيعة هذه الحظوة التى نالها المؤرخ فى بلاط الحاكم بأمر الله

وقد استطالت هذه الحظوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ ؛ ولا نعرف ماذا كانت صلة المسبحى بالبلاط الفاطمى فى الأعوام التالية ، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة ، وانقطع للبحث والكتابة ، ووضع كثيراً من مؤلفاته فى هذه الفترة التى استطالت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته فى شهر ربيع الثانى سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م)

— ٢ —

يقدم إلينا ابن خلكان ثبتاً حافلاً من مصنفات المسبحى ، وفى هذا الثبت القوى المتباين منعاً ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحى التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف المسبحى فى التاريخ والجغرافيا والأدب والاجتماع والفلك كتباً بل موسوعات ضخمة ، واليك مفردات هذا الثبت الذى يقدمه الينا ابن خلكان : كتاب التاريخ الكبير فى ثلاث عشرة ألف ورقة ، كتاب التلويح والتصريح فى معانى الشعر وغيره فى ألف ورقة ، كتاب الراح والارتياح فى ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الغرق والشرق فى ذكر من مات غرقاً وشرقاً فى مائتى ورقة ، كتاب الطعام والادام فى ألف ورقة ، كتاب درك البغية فى وصف الأديار والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة ، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب المفاتحة والمناكحة فى أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة ، كتاب الأمثلة للدول المقبلة وهو فى النجوم والحساب خمسمائة ورقة ، كتاب القضايا الصائبة فى معانى أحكام النجوم ثلاث آلاف ورقة ، كتاب جونة الماشطة فى غرائب الأخبار والأشعار والنوادر ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الشجن فى أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة ؛ كتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة ؛ وكتاب مختار الأغانى ومعانيها ؛ وغير ذلك من الكتب ؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسبحى بلغت نحو الثلاثين [1]

وهو تراث حافل ضخم ينم عن غزارة مدهشة ، ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها فى آداب هذا العصر ؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر ، ولا نكاد نظفر فى عصرنا للمسبحى بأثر تام أو فصل تام ، وقد اشتهر المسبحى بالأخص بتاريخه الكبير ، الذى يصف لنا محتوياته فى مقدمته فيما يلى : « هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتب فيه ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » [2] ، وإذن فقد كان تاريخ المسبحى ، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته موسوعة قوية شاسعة ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله ، وشخصيته الغريبة الفذة التى درسها المسبحى عن كثب ؛ ولكن الشذور القوية الممتعة التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها

(١) راجع السيوطى — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(٢) ابن خلكان — ج ٢ ص ٦٥٣ — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) « « « « « «

وبذخها وبهائها ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومعاهدها في كثير من الافاضة

وقد لبث تاريخ المسبحي مستقى خصباً لمؤرخي مصر الاسلامية حتى عصر متأخر جداً ؛ فالمقريزي وابن تغرى بردى والسخاوي والسيوطي وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ؛ وكذلك يذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » عما يأتي : « ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسبحي الحراني المتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وهو كبير في اثني عشر مجلداً ؛ واختصره تقي الدين الفاسي والذيل عليه لابن مُيَسّر » (١) ؛ وفي ذلك مايدل بأن تاريخ المسبحي كان موجوداً حتى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ؛ بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثاني عشر (الثامن عشر) ؛ فقد ورد في معجم مخطوطات الأسكوريال الذي وضعه الغزيري اللبناني (Casiri) باللاتينية في سنة ١٧٧٠ بأنه يوجد في مكتبة الأسكوريال العربية (أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحي (كذا) (Almisihi) (معجم الأسكوريال رقم ٥٣١ فقرة ٢) (٢) ، وليس من شك في أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحي ، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الأسكوريال الحديث الذي وضعه ديرنبورج ، ثم ليفي بروفنسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد في كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسبحي ، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر الأسكوريال في القرن الثامن عشر قد ضاع شأن كثير من الآثار التي أثبت الغزيري وجودها في معجمه

بيد أنه يبدو من هذا الوصف الذي أثبته الغزيري في معجمه أن المسبحي استمر في تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٤ هـ ، وربما استمر إلى ما قبيل وفاته في سنة ٤٢٠ هـ إذا لم يكن الغزيري قد وقف على نهاية كتابه . هذا وقد كتب ابن ميسر المصري المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ذيلاً لتاريخ المسبحي ، يبدأ فيه من حيث انتهى المسبحي ، وسماه « أخبار مصر » ؛ وانتهى الينا منه قسم يبدأ في سنة ٤٣٩ هـ وينتهي سنة ٥٥٣ هـ ، وهذا الذيل هو الذي أشار اليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم (١)

هذا وقد كان المسبحي شاعراً رقيقاً وله شعر جيد نقل الينا ابن خلكان شيئاً منه ، ومن قوله يرثي أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده ... فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت قد مت قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنا معاً

وقوله من قصيدة يرثي بها والده

بأبي فجعت فأي ثكل مثله ... ثكل الأبوة في الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الردى ... أو يعتريه من الزمان هموم

وقد رأينا أن المسبحي كتب فيما كتب كتاب « التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره » مما يدل على أنه كان راسخ القدم في فنون الشعر رسوخه في النثر

(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) راجع كشف الظنون (طبعة فيجل) ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨

(٢) Casiri - Bibliotheca arabico - Hispana Escurialensis

(١) وقد نشر هذا القسم المستشرق الفرنسي هنري ماسيه (راجع مقدمته الفرنسية في شرح الصلة بين الكتابين)

من تراثنا العلمي

٣ – كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

وللصيد لذة مشتركة موجودة في طباع الأمم ، وكأنها في سكان البدو والأطراف أقوى لمصاقبتهم الوحش ومنازلتهم إياها ؛ فلا تزال تراهم لها ذا كرين وبها متمثلين ، ومنها طاعمين ، حتى أن نساءهم ليتصيدن على الخيل ؛ ذكر ذلك بعض الرواة فقال : أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وإذاهم يتذاكرون العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر : أحدثكم بعض ذلك : إنه كان لي خليل من بني عذرة (وقصّ قصة الدوحة ، وهي على طولها ، وعلى أنها أخذت من الكتاب نحواً من عشر صفحات من أجمل قصص الحب في الأدب العربي ، وهي مشهورة لم نروها لطولها)

وربما ألث السحاب[1] وجرت الأودية وتتابع السيل ، وثلجت الصحراء ، حتى يعم ذلك معاقل الأروَ ، وكناس الظباء ، ومرابض المها ، ومفاحص القطا ، ومسالك الطير من الهواء ، فتلجأ الصوار[2] والسِّرب والعانة والرعيل والرف الى العمارة ؛ فتؤخذ قبضاً وتكون حالها في استسلامها ، وضعف من يقدر عليها في تلك الصورة كقول علي بن الجهم في وصف غيث :

وحتى رأينا الطير في جنباتها   تكاد أكف الغانيات تصيدها

ولا يكون لصيدها ذلك الموقع ، على أن ناساً قد أمكنهم مثل ذلك فرأوا تركه ، وقالوا إنما لجأت إلينا وعاذت بجوارنا ، فنؤمنها ولا نروعها ولا نجور عليها ، وفعل مثل ذلك مجير الجراد واسمه حارثة بن حنبل من طيء ، وكان الجراد قد وقع في أرضه ؛ فبدأ بالوقوع حول خبائه ؛ فخرج أهل الحي ليصيدوه ؛ فركب فرسه وأشرع إليهم صدر قناته وقال : ما كنت لأمكنكم من جاري ونخر بذلك قومه ، فقال هلال بن معاوية التغلبي :

ومنا الكريم أبو حنبل   أجار من الناس رجل الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم   غياث الورى في السنين الشداد

وفعل مثله رجل من بني عبد الله بن كلاب يقال له همّام ، وبات بأرض خلاء ليس معه أحد ؛ فأوقد ناراً ، وقد كان صاد صيداً ، فلما رأى الذئب النار أتاها ، وذلك من شأنه إذا رأى النار ، فلما قرب الذئب منه وهو غرثان أقبل يتقرش ما يرميه همّام من العظام ولا يراه ، فلما تبينه رمى إليه بقية صيده ولم يرعه ، وأنشأ يقول :

يا رب ذئب باسل مقدام   منجرد في الليل والإظلام
عاود أكل الشاء والأنعام   قد ضافني في الليل ذي التمام
في ليلة دانية الأرزام   يقرش ما ألقى من العظام
فبات في أمني وفي ذمامي   مستدفئاً من لهب الضرام
آثرته بالقسم من طعامي   ولا يخف نبلي ولا سهامي
ولو أتى غيري من الأقوام   من اللئام لا من الكرام
إذن للاقى عاجل الحمام

وأخبرني من وثقت بصدقه عن رجل من جلة أهل همذان أن الثلج كثر في ضياعه حتى لجأت إليها عانات كثيرة ؛ فأخذها وكلاؤه ولم يحدثوا فيها حدثاً وكتبوا إليه بخبرها ؛ فكتب إليهم أن أقيموا لها قضيماً وعلفاً الى أن ينحسر الثلج ؛ فاذا انحسر الثلج فخلوا سبيلها واحموها حتى تصل الى أبعد موضع من العمارة ففعلوا ذلك

وتلجأ أيضاً الى الأنس والعمارة إذا أجدبت السنة وعدمت الكلأ ، وذكر هذا المعنى ابراهيم الموصلي في قوله يرثي أخاه اسمعيل بن جامع المغني ، فقال :

وإني واسمعيل يوم فراقه   لكالغمد يوم الروع فارقه النصل
فان أغش قوماً بعده أوازورهم   فكالوحش يدنيها من الأنس المحل
يذكرنيك الخير والشر والتقى   وقول الخنا والحلم والعلم والجهل
فألقاك عن مذمومها متنزهاً   وألقاك في محمودها ولك الفضل

وقد زعم قوم أن هذا الشعر لمسلم بن الوليد الأنصاري

ومثله لآخر :

تخرم الدهر أشكالي فأفردني   منهم وكنت أراهم خير جلاس

(١) الث والالثاث والثلثة الالحاح والاقامة ودوام المطر
(٢) الصوار جماعة البقر وجمعه صيران

وصرت أصحب قوماً لا أشاكلهم والوحش تأنس عند المحل بالناس

وأخبرنى مخبر عن أبى العباس الخ . . عن المعتصم أنه أوغل يوماً فى الصيد وحده ، فبصر بقانص يصيد ظباء فاستدناه وقال : حدثنى أعجب ما رأيت فى صيدك ، فقال :

خربقت المشارع التى ترِدها الظباء ؛ فلما شمت الخربق صدرت عطاشاً ، ثم عادت من غد فانصرفت أيضاً عطاشاً ، ثم عادت فى اليوم الثالث بأجمعها ، فلما جهـدها العطش رفعت رؤوسها الى السماء فأتاها الغيث فما انصرفت حتى رويت وخاضت فى الماء

وذكرت العلماء بطبائع الحيوان أن الوحش ربما انحازت الى العمران عن مواضعها من الجبال والبر فى الفصل الذى يتصل بفصل الشتاء ؛ فيستـدل بذلك أهل البلدان على قوة شتاء تلك السنة وشدة برده وثلجه لأنها تحس فى الجبال بتغير الهواء وبرد شديد ؛ فتستدل بذلك على ما بعده من قوة البرد وتخاف الهلاك فتلجأ الى العمارة

(باب) من كان مستهتراً بالصيد من الأشراف : اسماعيل ابن ابراهيم الخ . . وحمزة بن عبـد المطلب الخ . . ومن خلفاء بنى العباس الخ . . الخ . . (وهو باب طويل حافل بالأخبار الممتعة ، والأشعار المستملحة)

(باب) صفة البواشق وذكر ألوانها وشـياتها وأوزانها وصفة الفاره منها : فالأحمر الأسود الظهر جيد صبور على الـكد ، والأحمر الظهر والبطن رخو ماله جلد الخ ...

وأ كثر ما رأيناه من أوزانها مائة وثلاثون درهماً ، وأقله خمسة وتسعون الخ ...

(باب) فى ضراوة الباشق وفراهته وما يصيد من الطرائد المعجزة التى هى من صيد البازى وذكر علاجات البواشق وعللها وما خلص منها من العلل وأنجب ، وذكر القرنصة وذكر ما عاش عندى منها بالقاهرة حرسها الله ، وذكر ما يحتاج إليه فى القرنصة من الخدمة ، وذكر السبب الذى استحقت به التقدمة على البزاة إذ كان مؤلفو الـكتب يقدمون البازى على سائر الجوارح

(فصل) صفة ضراوة الباشق وهو وحشى ، يحتاج الباشق إلى أن يكون على يد رقيق من البيازرة يعرف ما يعمل به ، وهو أن يخيط عينه إلى أن يكلب على الطعم ومقدار ذلك سبعة أيام الخ . . . فاذا كلب كلباً تاماً على الطعم فافتحه وأطعمه الخ . . . فاذا لم يبق عليك من إجابته شىء على ما وصفنا ، فخذ له من طير الماء الفرافير ولقفه إياها الخ ... الخ ...

(فصل) ذكر الضراوة على البيضانى والمـكحل

إذا أردت أن يصـيد الباشق البيضانى والمـكحل الخ . . . وقد رأيت من فراهة البواشق مالم أر مثله قط ، فمنها باشق أحمر كبير الخ ... ومن قوة البواشق ثلاثة لم يسمع بمثلها قط الخ ... وكان لنا باشق وحشى الخ . . . ولم أر مثله إلا باشقاً كان لمولانا صلوات الله عليه (يعنى العزيز الفاطمى) ، فإنه أمرنى فى بعض الليالى أن أشبعه وشغل هو صلى الله عليه بطير الماء الخ . . . وإنه كان لنا باشق يعرف بباشق ابن حوفية ، وكان يكون على يد أمير المؤمنين صلى الله عليه الخ ... وهذا لم أر مثله إلا من باشق كان الخ ... وقد كان عندى باشق حوام الخ ... الخ

(فصل) صفة علاج القرنصة وذكر ما تحتاج إليه من آلتها

(فصل) ذكر علاج القرح فى جناح الباشق وكيف يخرج

(فصل) صفة علاج الدود

(باب) فى صـفة البزاة وذكر شياتها وألوانها وأوزانها وضراءتها والحوادث التى تحدث لهـا وعلاجاتها وما تحتاج إليه من الخدمة فى قرنصتها

(فصل) صفة شياتها

(فصل) ذكر أوزانها

(فصل) صفة ضراوة البازى : إذا وقع البازى إلى الصياد فسبيله أن يخيط عينيه الخ ...

وقد كان لى باز ، وكان الخ ...

وكان عندنا باز حمل إلينا من دمشق الخ ...

ولقد بلغنا فى صيد البازى خبر عجيب ، لم نسمع بمثله ، وذلك أن مسلماً دخل إلى بلد الروم الخ ...

(فصل) ذكر ما يحتاج إليه البازى فى القرنصة[1]

---

(١) قال الشيخ داود الأنطاكى : وأما القرنصة فعبارة عن اراحة الطائر مدة معلومة عن الصيد ؛ وتكون غالباً للبزاة ، ووقتها من دخول ايار

(فصل) ذكر سياسة الذرق

(فصل) ذكر الأدوية والعلاجات وما يستدل به من الذرق[1] على كل علة

(فصل) ذكر ما يحدث الجص وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج النفس

(فصل) ذكر علاج البشم

(فصل) ذكر علاج البياض إذا أصاب عين البازى

(فصل) ذكر ما يولد القمل فى البازى وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج المسمار إذا أصاب كف الجارح

(فصل) ذكر ما يحدث الورم فى الكفين وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج القلاع

(فصل) ذكر مايتبين به كون الدود فى البازى وصفة علاجه

(فصل) صفة علاج الحر

(فصل) صفة علاج مخاليب الجارح إذا تقلعت

(فصل) صفة علاج البرد

(فصل) صفة علاج اعوجاج ريش الجناح

(فصل) صفة علاج العقر إذا أصاب كف البازى

(فصل) ذكر ما يحدث السدة فى المنخرين وصفة علاجهما

(باب) فى تفضيل الصقور على الشواهين لما فيها من الفراهة وهو السبب الموجب لتقديمها وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها، (وفيه فصول طويلة كالذى مر فى باب البواشق وباب البزاة)

(باب) فى صفة الشواهين وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها

(باب) السقاوات وذكر ألوانها وأوزانها وضراءتها، وما تصيده من الوبر والريش، وذكر ما يستدل به على جيدها ورديئها

(باب) العقبان الخ . . .

(باب) الزمامجة الخ . . .

(ذكر) ما قيل فى العقاب من الشعر المستحسن

(باب) صيد الفهد الخ . . .

(ذكر) الصيد بالفهد وما يستحسن منه الخ . . . وقال بعض الشعراء الخ . . . (وفى هذا الفصل كثير من الأشعار والأخبار الجيدة)

(ذكر) ما قيل فى ابتذال الملك نفسه فى الصيد بهذا الضارى ومباشرته له الخ . . . (وفى هذا الفصل أشعار كثيرة)

(باب) فى صفة الظباء وذكر مواضعها التى تأويها وصيدها وما فيها من المنافع، وما قيل فى ذلك من الشعر

(باب) فى ذكر كلاب سلوق وخصائصها وصيدها وعللها ودوائها، وما قيل فيها من الشعر (وفيه فصول وقد أورد المؤلف فى بعضها طائفة صالحة من الشعر)

(باب) ذكر ما قيل فى الجوارح وما وصفت به من الشعر المستحسن لمتقدم ومتأخر، (وفيه فصول)

(باب) صيد طير الماء فى القمر بالبازى والباشق، وهو باب تفردنا به دون غيرنا ولم نعلم أحداً سبقنا اليه من مؤلفى كتب البيزرة من المتقدمين (وهو آخر أبواب الكتاب) ثم تأتى الزيادات التى أشرنا اليها فى صدر مقالنا السابق

* * *

هذا وصف موجز، وبيان لقيمة هذا الكتاب الجليل، وإنا لنرجو أن يهيىء الله له ناشراً، يسرع إلى طبعه ليستفيد منه أهل الأدب، وأصحاب هذه الصناعة، ويأخذ مكانه فى المكتبة العربية، فان مكانه لا يزال خالياً، ولا يسده اليوم فى الدنيا كتاب غيره، وإنا لنرجو أن تعنى بأمره « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ويكون لها فى نشره مأثرة جديدة، تضم إلى مآثرها الجمة وأياديها الكثيرة على الثقافة والأدب ما؟

علي الطنطاوى

(١) الذرق للطائر كالزرق وزناً ومعنى، وهو بمنزلة البول من الانسان

دراسات في النقد [١]

طريقة أرسطو في النقد الأدبي

بقلم محمد رشاد رشدي

كتب (أوسكار وايلد) مرة يقول : إن أعلى أنواع النقد هو سجل الروح . فالناقد لا يرى في العمل الفني أكثر من وحي يوحي اليـه بعمل جديد شخصي قد لا يكون بينه وبين العمل المنتقد أي وجه من وجوه الشبه ، هذا الرأي (لأوسكار وايلد) يصف لنا مدرسة بأجمعها من مدارس النقد - أعني بها مدرسة الشموريين . وفي ضوء هذه المدرسـة سأحاول أن أستخلص طريقة (أرسطو) في النقد ومدرسته . فاذا ما فرغت من هذا حاولت أن أناقش هاتين المدرستين مع أي مدرسـة أخرى قد تمت إليهما بسبب

ولأجل أن تـكون المناقشة جليـة واضحة سأبدأ الآن بأن أقتطف من بعض النقاد نبذاً كتبوها عن شكسبير

كتب الناقد الفرنسي (تين) عن الشاعر الـكبير فقال : « أظهر ما في شكسبير خياله القويّ الذي لا يعرف قناعة أو راحة ، فهو يبعثر الاستعارات فوق كل ما يكتبه ، وفي كل لحظة تتغير خواطره إلى صور قوية واضحة ، ويعرض لنا عقله رسومات وأشكالاً متتابعة ، وشكسبير لا يرى الأشياء أبداً في هدوء . بل إن قوى عقله جميعها تتركز في الصورة أو الخاطر الذي يعالجه تركزاً يملك عليه كل نفسه ويمتص كل قواه الأخرى . إن كتابنا المتوسطين يحملون كل همهم في أن تـكون كتاباتهم منطقية واضحة جلية وهم في الغالب يصيبون ما يقصدون ، بيد أن شيئاً واحداً يبقى بعيداً عن متناولهم . ألا وهو الحياة

أما شكسبير فهو على عكس هـذا يدع الوضوح والنطق لنفسيهما ويحمل كل همه أن يصيب ما يكتبه الحياة والحركة . ولهذا السبب يبدو شكسبير لنا غريباً وقوياً ، مبدعاً وخالقاً أكثر من أي شاعر من شـعراء عصره أو غير عصره . أبدع من وصف النفس البشرية ، وأبعد الشعراء عن المنطق وتفكير القدماء المتزن ، وأقدرهم على أن يثير في النفس دنيا من الأشكال والصور الحية التي لا تموت »

وكتب (كارليل) عن نفس الشاعر يقول : « إنه لفيما أسميه رسم الصورة — معالجة الرجال والأشياء تـكون عظمة شكسبير . فعظمة الرجل تأتي يقيناً من هذه الناحية — من العين المبصرة ! تلك هي العين التي تـكشف لنا عن الموسـيقى الـكامنة في الخلق . عن الفكرة الجليلة التي قد ضمنتها الطبيعة مخلوقاتها جميعاً . على أن الشاعر لأجل أن تـكون لديه هذه الهبة يجب أن يكون عنده من العقلية القوية ما فيه الـكفاية . فان امتلاك الرجل عقلية قوية كان شاعراً في كلامه . فان لم يستطع هذا كان — وذلك أفضل وأجدى — شاعراً في أفعاله

وكتب (سير والتر رولي) عن شكسبير فقال : « إن قوة خياله لا تسمح له بأن يجد الراحة في فـكرة أو ناحية واحدة فهو في استطاعته أن يدرس حياة الرجال مثلما يدرس المرء الحياة على ظهر باخرة . وهو دائم الاهتمام بما يحدث يومياً بين أفراد العائلة الانسانية ، غير أن للصورة دائماً في عقله أساس واحد ترتكز عليه ، ذلك أنه دائم التفكير في البحر — البحر الذي لا يعرف لقوّته حداً والذي لا يسيره عقـل أو منطق ، والآن من الواضح أن النقاد الثلاثة مشتركون جميعاً في تحديد الصفات الأساسية التي تـكون عظمة شكسبير كما أنه من الواضح أيضاً أنهم يختلفون كل الاختلاف في الطرق التي سلـكوها في نقدهم . فمع (تين) نرى أن شاعرية شكسبير إنما تأتي من أنه أبعد الناس عن المنطق العادي وتفكير القـدماء المتزن ؛ ومن (كارليل) نعلم أن ميزة الشاعر الأساسية في أن تـكون عقليته ممتلئة ناضجة ؛ ويبدو من هذا أن كلا من الناقدين يعتقد أن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسـه ، « فتين » العاطفي القوي الخيال يزدري المنطق العادي ، ويرى فيه عقبة في سبيل الشعر ، و « كارليل » الذي كان اعتماده في حياته على فـكره دون عاطفته يرى أن العقل وحده جدير بأن يخلق الشاعر وأن يجعله مبدعاً عظيما

أما (رولي) فهو لا يفعل شيئاً من هـذا ، فهو يهتم فقط بأن يوضـح ويعلـق ، وأن يشرح ويعلل دون أن يعني بالمدح أو بالحط من قيمة الأشـياء ، ونحن في الواقع لا نستطيع أن نحكم

(١) هذه هي أولى دراسات في النقد الأدبي الغربي سأتبعها بدراسة تفصيلية لتطور النقد عند الانجليز منذ نشأته الى وقتنا الحالي

ما إذا كان تفكير شكسبير الدائم فى البحر ، البحر الذى لا يعرف لقوته حداً والذى لا يسيره عقل أو منطق ، يزيد فى شاعرية الشاعر أو ينقص منها . ونحن لا نرى النقد هنا سجلاً لروح الناقد ومشاعره ، وإنما كل ما نراه هو وضوح فى الأسلوب ودقة فى الوصف وقوة فى المنطق ، وتلك هى مدرسة أخرى من مدارس النقد تختلف عن مدرسة (أوسكار وايلد) ينحو النقد فيها منحى البحث العلمى حيث لا نجد لمشاعر الناقد نفسه أو لإحساسه الشخصى إزاء ما ينتقده أثراً من الآثار

تلك هى المدرسة الفكرية أو الاتباعية ، وقد كان أول من أسسها الفيلسوف الأغريقى (أرسطو)

ونحن لا نحس هنا أثراً لذات الناقد ؛ فهو بعيد كل البعد لا نراه إلا كما نرى الرجل العلمى من خلال بحثه — الفكر والمنطق — ذلك هو الأساس الذى بنى عليه (أرسطو) طريقته فى النقد ، كان الرجل دقيق الملاحظة للطبيعة والفن ، وإنه لمن هذين الينبوعين فقط نراه يستقى كل آرائه ، يبنى كل نظرياته ويستنتج كل استقراءاته

وليس (لأرسطو) آراء شخصية يفرضها على القارئ ؛ فهو إن مدح شيئاً فليس يمدحه لأن نفسه تتعشقه أو تميل إليه ، ولكن لأن التجارب قد أثبتت أن هذا الشيء صحيح جدير بالتقدير . خذ مثلاً حديثه عن الشعر القصصى إذ يقول :

(أما عن البحر الذى يكتب فيـــه هذا الشعر فهو (بحر الأبطال) ، فإن أراد شاعر أن ينظم قصيدة قصصية فى غير هذا البحر ، كان شعره شاذاً غير مألوف . إذ أن التجربة والطبيعة نفسها قد وقفت هذا النوع من الشعر على ذلك البحر)

(وأرسطو) لا يسمح لنفسه مطلقاً بأن تتمسك برأى من الآراء أو أن تمدح شيئاً أو تذم آخر دون سبب أو علة ، بل هو يقنع بأن يشرح القبيح دون ذمه ، وأن يظهر الجميل دون مدحه ، شأنه فى هذا شأن أصحاب المدرسة الواقعية فى القصص الحديث ، وهو فى هـذا أيضاً يختلف عن أصحاب المدرسة النظرية فى النقد التى كتب عنها (أرنولد) يقول : (هى جماعة من النقاد ذات لون فلسفى باطل خداع ، تجيش بنفوسها بعض الآراء الخاطئة التى لم تبنها التجربة والفكر ، بل بنتها الأوهام والعواطف الذاتية تريد أن تفرضها على كل ما يقع فى يدها من شعر أو فن

والناقد من أتباع تلك المدرسة لا يمدح عملاً إلا إذا صادف هوى فى نفسه وسد حاجة من حاجياتها ؛ فإن هو لم يفعل كان العمل باطلاً زائفاً ، وكذلك من مميزات هذا الصنف من النقاد أنهم يعنون بمحتويات العمل الفنى أكثر من عنايتهم بالفن نفسه — أعنى بالأسلوب والطريقة والجمال — كما أنك كثيراً ما تسمعهم يقولون : (حبذا لو ترك الشاعر هذا الموضوع وكتب فى موضوع كذا وكيت) ، وذلك كما لا يخفى أردأ أنواع النقد وأحطها قدراً ، إذ أن واجب الناقد الأول أن يفحص ويحكم على العمل الذى أمامه داخل دائرة العمل نفسه وحدوده لا خارجها ، محاولاً أن يتفهم ما يقصده الشاعر ويرمى إليه ، والى أى مدى استطاع أن يبلغ قصده وأن يبرز فكرته للقارئ

وقد يجدى أن نعطى هنا مثلا من أمثلة هذه المدرسة النظرية الخاطئة لنرى الى أى حد يبعد (أرسطو) عنها ويرتفع

كتب (أوسكار وايلد) أحد نقاد هـذه المدرسة — فى رأيى — يقول : (لأن تمضى من فن عصر من العصور إلى العصر نفسه هو أكبر خطأ يرتكبه المؤرخون جميعاً . فالفن الردئ الزائف كله إنما يأتى من الرجوع إلى الحياة والطبيعة والتسامى بهما إلى مراتب المثل العليا !)

من هـذه النبذة نستطيع أن نحكم بأن (أوسكار وايلد) كان يدين بهذا الرأى الذى يعطينا إياه — ولكننا لا نستطيع القول بأن شيئاً أو سبباً معيناً أدى به إلى هذا الاعتقاد — كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نحكم ما إذا كان هـذا الرأى خاطئاً أم صحيحاً ؟ وذلك لأن الناقد نفسه لم يخبرنا ولم يعلل ما يقوله : لم يكن (أرسطو) ليسمح لنفسه بأن ينقد بهذه الطريقة ، ولكن تعال معى نرى كيف كان (أرسطو) يعالج مثل هذا الرأى لو أنه كان يدين به مثلما كان يدين الناقد الانجليزى ، فإنه إذا ما قال إن الفن الزائف إنما يأتى من الرجوع إلى الطبيعة والحياة أتبع قوله بأن ذلك صحيح لأن (هوميروس) لم يذهب إلى الحياة فى البحث عن مادته (هذه أمثلة فقط ولا تعتبر صحيحة) ، وأن كل روعة فن (إيسكلس) إنما تأتى من اعتماده على أساطير الآلهة كمادة لفنه وأن فن (أريستوفانيس) كان أحط وأقل قيمة لأنه كان يصور الحياة ويستمد منها . ذلك أن (أرسطو) لا يسمح لنفسه بأن يكون نظرياً ، بل يجب أن يعطيك براهين وأمثلة وأسبابا تعليل ما يقول

خذ مثلاً آخر حديثه عن طول القصيدة القصصية إذ يقول: (يمكن فى هذا الصنف مَن الشعر أن تعالج جميع أجزاء القصة معالجة مناسبة من حيث الزمن الذى يأخذه سير حوادثها فى الحياة ، أما فى القصة المسرحية فالأمر يختلف إذ أنك لو عالجت حوادث القصة فى مثل ما تعالجها من الطول فى القصيدة القصصية ، كان الأثر الذى تحدثه فى النفس أثراً سيئاً يجلب الملل والسأم ؛ قد يبدو هـذا القول نظرياً ولـكنه يتبعه بأن يقول : (إن صحة ما نقوله واضحة لأن كل من حاول أن يصوغ قصة سقوط (تروادة) صياغة مسرحية ، ولم يعن بأن يختصر فى الحوادث أو يركزها قد فشل فشلاً تاماً)

كان (أرسطو) سريع الملاحظة ، حاضر الذهن ، يمقت النوع من القضايا الذى لا يبرره سبب أو يشرحـــه مثال ، كما أن المنطق كان دائماً رائده فى البحث والنقد — ذلك لأن طبيعة عقله كانت طبيعة عمليـة واقعية مثل طبيعة أهله وقومه الاغريق . وهو إن سرد لك قضية من القضايا ، أو نظرية من النظريات سردها فى بساطة وغير كلفة تشعرك بأنك كنت تعلمها من قبل ، وأن عكس هذه القضـية لا يمكن أن يوجد أو أن يكون صحيحاً ، كما أن قضاياه تمتاز بأنها يمكن أنُ تستخلص منها قضايا أخرى صغيرة ، وأن تبنى عليها نظريات أكبر وأوسع أفقاً

فى رأى أرسطو كناقد أن الشعر نوع من التقليد والمحاكاة — تقليد الحياة والطبيعة — وفى رأى (شلى) كناقد أيضـاً أن« الشعر هو مايحيل الأشياء كلها جمالاً — فهو يزيد الجميل جمالاً ويزيّن القبيح ويجمله » — كلنا يعرف أن قول(شلى) هذاصحيح ، وأن الشعر فعلاً يؤدى كل هذا ، ولـكن هل نستطيع أن نسمى هذا القول تعريفاً للشعر ؟ هنا نشعر بالفارق بين الناقد الشعورى والناقد الفـكرى ، فـكلاهما يعبّر عن أشـياء صحيحة حقيقية ، ولـكن الثانى يجعلك تلمس ما يقول وتبصره ، بينما يسحر الأول سمعك ثم يتركك ويمضى — وقد لا يكون تعريف أرسطو للشعر فى جمال أو حـلاوة تعريف (شلى) لـكنه ملموس محسـوس نستطيع أن نبصره فى وضوح وأن نبنى ونعتمد عليه

وهناك فارق آخر بين الناقدين يبدو لنا أيضاً من خلال تعريفهما للشعر ، فواضح من سطور شـلى أن الناقد لا يعنى فقط بطبيعة ما ينقده وماهيته ، بل يعنى أيضاً بالغرض والرسالة التى عليه أن يؤديها الشعر — مما يجعل البحث بعيداً عن روح العلم — فى حين أن (أرسطو) لايتساءل مطلقاً عن رسالة الفن أو الشعر فى الحياة ، بل كل ما يهمه أن يبحث طبيعتهما وأن يشرحهما لنا — شأن العالم الـكيميائى أو الطبيعى —

وقد كان (لأرسطو) وجهة نظر فى نقده خاصة به ، وأعنى بها أنه كان يرى أن لـكل فنّ من الفنون ، قصصاً كان أم شعراً غنائياً ، نهاية طبيعية لا بد أن يصل إليها وألا يتعداها ؛ فان أراد صاحب الفن أن يتعدى بفنه نهايتـه كان مآله الفشل ومصيره السقوط الذى لا نجاة منه ، فقد يصل شـعر شاعر مثلا مرتبة النضوج والـكمال ، وهو فى سن الثلاثين ، غير أنه مهما عمّر الشاعر بعد ذلك من سنين ومهما زاده العمر من حكمة وتجارب ، فان شـعره لن يزيد ولن ينضج أكثر مما نضج — وقد لا يرى البعض هذا الرأى غير أنه — فى اعتقادى — رأى لا بأس به ، ساعد على تكوينه لدى (أرسطو) حب الاغريق الغريزى للاعتدال والوسط ، وخوفهم من بطش الآلهة وغيرتها إن اشتدّ الرجل منهم أو زها وعظم أكثر من اللازم . وقد كان التوسط والاعتدال رائد الاغريق فى كل شىء ، ولم يكن التطرّف عندهم ذنباً فحسب بل جريمة كبرى ، ولذلك نرى الاعتدال أظهر ما يميز أدبهم وفنهم ، ولذلك أيضاً كان (أرسطو) مؤسس المدرسة الفكرية التى تمنح نفسها للمنطق والعقل وتحاذر كل الحذر من الشعور والعاطفة

والآن وأحسبنى قد بسطت بعض البسط طريقة (أرسطو) فى النقد وقارنتها بالطريقة الشعورية الأخرى أحب أن أقول كلمة عن المذهبين

إن كل ما يفعله (أرسطو) هو أن يشرح ويفصل ويرتب ويصنف ليعطينا فى النهاية مجموعة من القوانين والقضايا ما أحسبها تخلق فناناً أو تصلح من شأن فنان آخر . وهو فى هذا يخاطب الفكر لا العاطفة ، وإنى كلما تصوّرته يعالج (شكسبير) يضيق بى الخيال ولا أدرى كيف كان يتيسر (لأرسطو) أن يفعل هذا قد كنا نفهم بعض صـفات فن شكسبير ومميزاته من نقد (أرسطو) له . على أنى أشك كثيراً فى أنه كان يجعلنا نتفهم الشاعر نفسه ونمشقه مثلما فعل (كولريدج) و (هزلت) و (تين)

وفى رأيى أن أعلى أنواع النقد ماكان يؤثر فى النفس ويوحى

٢ - الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار القـديمة فى بلاد إيران
ولـكن العرب لا يعرفون شيئاً عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

حينما ننعم النظر فى شعر اقبال واتصافه بميزات خاصة فى الأزمان المختلفة نجد أنه يتمتع الآن بدور ثالث . فقد قطع قبله دورين : أولهما دور نشأته ، حين كان اقبال لا يزال فتى يافعاً وطالباً بالمدرسة . فقد بدأ اقبال يقول الشعر باللغة الأردية وهو فى صباه ، فـكان ينال به استحسان زملائه الطلبة ، ويجمعهم حوله اغتباطهم بحدة ذكائه وتفوقه عليهم فى الشعر . فـكانت شهرة إقبال فى الشعر بادئ ذى بدء محصورة بين أترابه وأقرانه ، فلما انتقل من كلية سيالـكوت إلى كلية الحـكومة بلاهور بدأ يشترك فى مجالس الشعراء ويقول القصائد للاحتفالات السنوية لجمعية حماية الاسلام الشهيرة بلاهور ، فذاع صيته بين الخاص والعام

ينتهى هذا الدور لشعر اقبال إلى سنة ١٩٠٥ ، أى قبل سفره إلى أوربا ، ويمتاز شعره فيه بسعة الخيال ، وابتكار المعانى ، ولـكنه مجرد عن دقة الفـكر والتعمق بالنسبة إلى شعره فى أدوار أخرى ، ومعظمه باللغة الأردية ، تتجلى فيه روح الحب وطلب الجمال وترحيب العشق ، وأكبر ميزة لهذا الدور أنه دور أمل لشىء غير معلوم ، ففيه تتوق روح الشاعر إلى المجهول ، وتنزع إلى الغائب ، وتضطرب ، كما يظهر لك من ترجمة بيت من أبيات هذا الدور فيما يلى ، قال :

« أنا طالب النور ، أنا قلق فى معمورة هذا العالم
أنا مثل الطفل الصغير فى ظلام الوجود الحالك مضطرب كالزئبق »

وأما الدور الثانى فهو الزمن الذى قضاه الدكتور فى أوربا ، أى من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٨ . وهذا الدور من شعر الدكتور أقل انتاجاً من الدورين الآخرين ، ويمتاز من الأول بأن أثر مشاهدات أوربا باد فيه ، ولـكن روح الحب ، وطلب الجمال ، وترحيب العشق لا تزال متجلية فيه كما كانت فى الدور الأول . وقد حدثت فيه حادثة ، وهى أن الأبحاث العلمية سطت مرة بنفسية الشاعر ، فأراد أن يترك الشعر ويتوب عنه وينصرف إلى العلم ، فمنعه عن ذلك صديق قديم له كان حينئذ فى لندن ، وحاول اقناعه فلم يقتنع ، وأخيراً اتفقا على أن يستشيرا فيه أستاذه السر آرنلد . فأيد آرنلد رأى صديقه فعدل عن ارادته . وأكبر ميزة لهذا الدور أن بدأت أفـكاره الشعرية تعلو وتتسع حتى ضاق عنها نطاق اللغة الأردية الحديثة السن فمال إلى الفارسية وبدأ يعبر بها عن الهامه الشعرى

وأما الدور الثالث فيبتدئ من بعد رجوع الدكتور من أوربا إلى الهند ، أى من سنة ١٩٠٨ إلى الآن ، وهو الأهم ، إذ فيه تدرج شعره فى معارج الكمال وتسنم سنام المجد وبلغ من دقة المعانى وعمق الفـكر وحسن البيان غاية لم تبلغها الآمال ولا نالتها الأمانى . وفيه حلت السكينة والطمأنينة فى روح الشاعر محل التوقان والاضطراب ، كأنها أدركت ذلك الغائب المجهول الذى حنت اليه طويلاً ونزعت اليه سنين ، وفيه خف عن نفسية الشاعر سلطان المحبة والجمال ، وقام مقامه توقان الحـكمة والكمال ، وفيه جادت قريحة الشاعر بما لم تجد فى الدورين السابقين ، إذ ظهرت إلى الآن سبعة دواوين ، ونحن ندعو الله أن يمد فى حياته ويوفقه أكثر من ذلك ، وفى هذا الدور أيضاً تمكن الشاعر من إبراز معالم فلسفته فى شعره للعالم ، وفيـه تحققت رسالة شعره للعالم الاسلامى والشرق إذ كان فى نفسه تتساجل روحان : روح

إليها النقـد الذى يشرح ويفصل دون أن يزج فى دائرة الفن ودون أن يصبح علماً من العلوم . ذلك هو النقـد الذى يعالج الأدب مثلما يعالج الأدب نفسه الحياة ، أعني عن طريق الخيال والعاطفة

كتب (تشارلس لام) يقول :

(إنى أفضل العاطفة على العلم) وفى يقينى أن كل من له صلة بالأدب ولا يفعل مثلما يفعل (لام) يكون مخطئاً فى حق نفسه وفى حق صناعته أوفنه ؟

محمد رشاد رشدى
بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

الحب للجمال والمجد للعشق ، وروح المسلم الشرقى المتحمس الثائر . فكان فى الدورين الأولين الحظ الأوفر للأولى وفى هذا الدور للثانية

حينما نحاول البحث عن العناصر التى تكونت منها نفسية الشاعر وشعره نجد أنهما قد تكونا من عناصر جمة ، منها ما هو هبة من الله كالعبقرية والذكاء ، ومنها ما هو وراثى غير كسبى ، ومنها ما هو ثقافى كسبى ، ومنها ما يرجع الى البيئة سواء أكانت جغرافية أم اجتماعية . فهذه الأصناف الأربعة من العناصر هى دعائم نفسية الشاعر ووطائد شعره

أما العناصر الموهوبة مثل العبقرية وغيرها فلا يقدر الانسان على الكشف عن حقائقها ، ولا على الفحص عن دقائقها ، وما يقدر عليه هو وصف ظواهرها بالمقارنة . فإذا قارنا ظواهر عبقرية الدكتور وذكائه بالشعراء الآخرين نجد أنه فريد زمانه ، وقريع دهره ، قد أوتى عبقرية شاملة لا يدرك شأوها ولا يلحق غبارها ، وذكاءً متوقداً لا يجارى ، وقلباً عقولاً لا يبارى ، وحذقاً حاداً لا ترام مساماته وفكرا نافذاً لا يمكن مجاراته ، وبصيرة قوية لا يجرى فى مضمارها

أما العناصر الوراثية فالدكتور من نسل آرى . والآريون يمتازون بدقة الفكر وسمو الخيال عن الشعوب الانسانية الأخرى . ثم الدكتور ينتسب الى طبقة البراهمة منهم ، وهى طبقة قد سادت ولا تزال تسود بحدة ذكائها ورجاحة عقلها وحصافة رأيها جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى فى الهند منذ آلاف من السنين ، فدقة الفكر وسمو الخيال بالقوة[1] عنصران وراثيان هامان فى نفسية الدكتور وشعره

وأما العناصر الثقافية الكسبية فهى التى يكسبها الانسان بواسطة التربية والتعليم . فقد بلغ فيهما الدكتور رفعة لا تسامى ومنزلة لا تغالب ، إذ تعلم فى معاهد الشرق والغرب ونال منها أرقى الشهادات وأعلاها بالتفوق والامتياز وهضم الثقافتين — الشرقية والغربية — فى معناهما الحقيقى . فهو على اطلاع تام بالفكر الشرقى — الهندى والايرانى — بجليه وخفيه وتاريخه وتقدمه ، كما هو عالم متبحر فى الفكر الغربى بجميع أدواره وتحولاته ، سواء كان عند اليونان أو الرومان ، أو الانجليز أو الألمان ، أو فرنسا أو أمريكا . وقد سبر الدكتور غور الفكر السامى العربى أيضاً وبخاصة الاسلامى منه كما تميط اللثام عن ذلك مصنفاته ، وقد أشار إليه هو أيضاً فى خطاب حيث قال :

« أنا قد صرفت معظم حياتى فى دراسة فقـــه الاسلام وسياسته وحضارته ومدنيته وأدبه ؛ فبناءً على دراستى الطويلة هذه وعلى العلاقة الخاصة التى لى بروح تعليم الاسلام أعتقد أننى على بصيرة أقدر بها أن أحكم على منزلة الاسلام فى العالم من حيث الحقيقة العامة »

والدكتور حائز فى جميع هذه العلوم والمعارف درجة الاجتهاد

وأما العناصر التى ترجع إلى البيئة فهى صنفان : الاجتماعية والجغرافية . أما الاجتماعية فقد ولد الدكتور فى مجتمع اسلامى وتربى فيه ودرس حاضره وماضيه ، فهو كأحد أركانه من محبيه الأوفياء ، وعشاقه الصادقين ، ومن أكبر الطامحين إلى خيره ومجده ، كما هو من كبار العارفين بحقيقته وصلاحيته . وهذا الحب ، والعشق ، والطموح ، والمعرفة كعناصر البيئة الاجتماعية متجلية فى نفسية الشاعر وشعره ، وليس هذا التجلى عن عاطفة وتعصب ، بل عن علم وعقل ، كما سيظهر لك من المقال الذى سنخصصه لذلك فى المستقبل إن شاء الله

وأما عناصر البيئة الجغرافية . فقد ولد الدكتور فى مقاطعة بنجاب وتربى فيها . وبنجاب أخصب المقاطعات الهندية فى سفح جبال هملايا تجرى من تحتها خمسة أنهار . فهى بهوائها المعتدل ومناظرها الجميلة التى تُفرح قلوب الشاهدين وتُؤنس أبصار المبصرين ، تملأ النفس بالمؤثرات القوية التى تربى الذوق وتُقوى ملكة الشعر ، وتُغذى الفكر . فحسن الذوق ، وحب الجمال ، والتصرف فى فنون الشعر ، وجولات الفكر المتجلية فى شعر الدكتور ونفسيته فيها أثر للبيئة الجغرافية

أما شعر إقبال من حيث الفن فسنتحدث عنه فى مقال تال

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الرهندى

(١) يرى معظم علماء النفس والتربية أن الصفات الوراثية توجد فى الطفل بالقوة لا بالفعل أى على شكل استعدادات واتجاهات

فلسفة الأسماء

بقلم ظافر الدجانى

إذا كانت اللغات من ألوان الحياة الفكرية الصريحة التى يتسم بها الانسان وتميزه من سائر الكائنات الحية ، فان الأسماء — أو ما يعبر عنه الصرفيون بأنه مادل على معنى فى نفسه غير مقترن وضعاً بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة — من مظاهر بيئاته الاجتماعية والطبيعية . فلسنا نبالغ إذن إذا قلنا بأن لعنصر الأسماء فى اللغات فلسفة خاصة مستقلة ، استطاع العلم الحديث مؤخراً أن يقتبسها ويستزيد منها بل يستغلها استغلالاً بالغاً يستحق عليه كل ثناء وإعجاب وإكبار . ومن الحق علينا القول بأن أقطاب اللغات فى العالم لا يتفقون على أقدمية الأسماء وأسبقيتها فى اللغة ، فمنهم من يذهب إلى أنها أسبق مرتبة فى الوضع والاستعمال من الحروف والأفعال ، لأن منزلتها فى النفس من حيث القوة والاعتقاد أن تكون قبل الفعل ، والفعل قبل الحرف ؛ ومنهم من يذهب — وهؤلاء معظمهم من أصحاب التوقيف ودعاة الالهام — إلى أن جميع الأصول اللغوية إنما وقع الوضع فيها معاً فلا يجوز لك الاعتقاد بسبق الاسم على الفعل أو سبق الفعل على الحرف

ومهما يكن من شيء فان بعض الأسماء — أعنى أسماء الأعلام والأجناس بوجه خاص — تمتاز على سائر الأصول اللغوية بأنها وضعت للدلالة على الأشياء المحيطة بالانسان فى بيئتيه الطبيعية والاجتماعية ، وما عساه ينجم عنهما فى حياته الفكرية ، بعكس الحروف والأفعال — مثلاً — التى إنما وضعت لتدخل بها « الأسماء فى المعانى والأحوال »[(1)] ، أو بعبارة أخرى لتربط ما بين الأسماء فى جمل معلومة مستقلة بدلالاتها اللفظية

ومعنى ذلك أنه يتعذر على الانسان مثلاً أن يستدل بالأفعال والحروف العربية على نوع الحياة الطبيعية والاجتماعية التى كان يحياها العرب قبل الاسلام ، إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه ، فى حين أن استدلاله بالأسماء يكاد يكون فى حكم الواجب الذى لا عدول عنه ، لأنها تعكس لنا ألواناً من البيئات المتنوعة التى كان العربى عرضة لها آنئذ ، كأسماء الكائنات الحية وغير الحية التى كان على اتصال بها ، وأنواع الأسلحة التى كان يستعملها فى حروبه وغاراته ، والموازين والأثقال التى كان يصطنعها فى بيعه وشرائه ونحوه . كما أنها تعكس لنا أيضاً شيئاً من أثر البيئة الطبيعية فى نفسه وإحساساته ، ففى ميسورك مثلاً أن تقرر باحصاء الأسماء التى تعبر فى العربية عن ضروب المصائب والرزايا من ناحية ، والأسماء التى تعبر عن مظاهر اللهو والعبث من ناحية أخرى ، ثم الموازنة بينها ، ما إذا كانت بيئة العرب قبل البعثة بيئة قاسية مظلمة قاحلة أم بيئة مشرقة سمحة خصبة

وليس ذلك وحسب ، بل فى ميسورك الاستدلال بالأسماء العربية « العاربة » منها و « المعرّبة » ، الأصيلة والدخيلة ، على مختلف التقلبات السياسية التى طرأت على الوسط الاسلامى فى غضون تاريخه الطويل الحافل ؛ وبالتالى الاستدلال على مختلف الأدوار الاجتماعية التى تقلبت عليه ، ومقدار نفوذ كل من العناصر الفلسفية والجنسية فيه ؛ فاذا كانت الأسماء الفارسية مثلاً فى الآداب والفنون أغزر من الأسماء اليونانية دل ذلك على أن نفوذ الفرس من هذه الناحية كان أبعد من نفوذ اليونان ، وإذا كانت الأسماء اليونانية فى ميدان الفلسفة أوفر من الأسماء الفارسية والهندية دل ذلك على أن العرب قد تأثروا بالفلسفة اليونانية أكثر من تأثرهم بفلسفة الفرس والهند . بيد أنه بالأسف ليس الوصول إلى هذا الاستدلال باليسير الهين لأن المعجم العربى ناقص من وجوه كثيرة ، أهمها الوجه التاريخى المدعم بالشواهد والأدلة مما لا يتسع المقام لذكره

هذا إلى عثورك خلال أزمنة التيقظ الفكرى والنهضات الدينية الحافلة على بعض أسماء الأعلام الذائعة بين الأوساط العامة لأنها غالباً هى أسماء بعض الزعماء أو القادة أو الأنبياء الذين لهم الفضل كل الفضل فى بعث هذه النهضات وإحيائها ، بحيث يستدل منها على ما لهؤلاء المصلحين من حظوة لدى الجمهور ، وما لتلك النهضات من سحر فى أفئدة العامة . ومن ثم كانت لبعض الملل أسماء خاصة تعرف بها ولا يصطنعها غيرها كعزرا وإسرائيل فى

(١) الخصائص لابن جنى ٤٣٢

اليهودية ، وحنا وبطرس فى المسيحية ، ومحمد والحسين فى الاسلام بل ترى فى بعض أزمنــة الاضطهاد والغلو الدينى أن لفظ المولى عز وجل يشترك عادة فى أسماء الملوك والأمراء من أولى الحل والعقد فى تلك الأعصر الرهيبة . يتضح ذلك من أسماء الخلفاء من ولد العباس فى أواخر أيامهم حين أمست الخلافة رمزاً للنفوذ الدينى مجرداً عن السلطة الزمنية ، وفى خلفاء الفاطميين وغير الفاطميين من السلالات الملكية التى قامت على الدعايات الدينية

ومن ناحية أخرى ترى أن بعض الأسماء قد تضيع فى زوايا الاهمال والنسيان ، ولو إلى حين ، لأنها تكون عادة أسماء بعض الأفراد أو الجماعات المضطهدة ، بحيث يستدل من ذلك على مبلغ غلو الدولة القائمة وشدتها على الفرق المناوئة ، فمثلاً إذا علم القارىء أن العلويين والشيعة كانوا مضطهدين فى الدولة الأموية ، فانه يستطيع أن يستدل على مقدار هذا الاضطهاد إذا ذكر أن الناس فى أيامها كانوا كما يقول المستشرق « مارجليوث » يتحاشون تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء علوية كعلى والحسن والحسين وأشباهها [1]

* * *

وبعد فقد أوردنا لك بعض فلسفة الأسماء موضحة بالأمثلة النظرية ، ولكننا لم نشرح لك كيف كان استغلال العلم الحديث لها ، لأن هــذه الأمثلة على وفرتها قليلة النفع من ناحية عملية تطبيقية إن لم تكن عديمته ، لأن الحياة العربيــة الجاهلية من الأزمنة التاريخية التى تتوفر فيها النصوص والوثائق والآثار . ومن هنا قطعنا بأن الحاجة غير ماسة إلى استيضاح الأسماء العربية وتفصيل ما تنطوى عليه من ألوان هذه الحياة المتنوعة

وإنما تتبين فلسفة الأسماء الخاصــة وترجح قيمتها العملية المحسوسة فى الأبحاث الدقيقة المنعقدة حول حياة الانسان الأولى ، التى لا تجد لدرسها من المصادر الأولية ســوى اللغات وبعض الآثار الجيولوجية التى نراها تكتشف بين حين وحين ، وينفض الغبار عنها فتقيم المعوج من هذه الدراسات وتنير المبهم المستغلق

فمن ذلك أن أصل اللغات الأوروبية ظل إلى عهد قريب مجهولاً أو فى حكم المجهول ، فنشأت حول ذلك نظريات عديدة متباينة ، لكل نظرية أنصار متحزبون وعلماء محققون ، ثم إن بعض الثقات حاولوا درس هذه اللغات بطريق القياس والمقابلة فخرجوا من هذا الدرس بنتائج باهرة لم يتسق للمنطق والتاريخ أن يتوصلا إليها . إذ وجــدوا أن بين اللغات الأوروبية على اختلافها من ناحية واللغة السنسكريتية ـ أقدم اللغات الهندية الموجودة ـ من ناحية أخرى كثيراً من الشبه فى القواعد والأوضاع اللغوية ، كما وجدوا أن فيها بعض الأسماء المشتركة كبعض أسماء الأعداد والأجناس ونحوها ، فاستخلصوا من ذلك أنه لا بد من أن تكون اللغات الأوروبية والهندية من فصيلة واحدة دعوها باللغات « الأندو أوروبية » Indo - Europeon

وإذ انتهوا من ذلك فانهم حاولوا أن يستدلوا بهذه الأسماء على موطن « الأندو أوروبين » الأصلى ووصف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، وما إذا كانوا يعرفون البحر والأحراج والأنهار ، وأى أنواع الحيوانات كانوا على اتصال وثيق بها ، وهل عرفوا الحديد والبرونز قبل شتاتهم وانقسامهم قبائل وشعوباً ، ثم هل كانوا على درجة كبيرة من التمدن والحضارة ؟ أم كانوا بعد فى طور الفطرة الانسانية العريقة فى البداوة ، ولهم فى ذلك أبحاث مطولة دقيقــة تنطوى على كثير من قوة التحقيق والتحليل ورجاحة الفكر والنظر

وقس عليه محاولات المستشرقين فى الاستدلال ببعض الأسماء المشتركة بين الأقوام السامية على موطن الساميين الأول ونوعه ، وحضارة الساميين ومقدارها ، بل قس عليه أبحاث المحققين فى مختلف نواحى الحياة الانسانية قبــل الأعصر التاريخيــة حيث تنعدم الآثار والمنقولات ، فلا تكاد تجد من مصادر درسها إلا اللغات التى نشأت مع الانسان وسايرته فى تطوره واستوائه

فالعجب من العلم الحديث ونشاطه ومؤهلاته البالغة التى لم تترك كبيرة ولا صــغيرة من صامت الكون أو ناطقه دون أن تحاول استقراءها ونبش دفائنها عسى أن يكون فيها ما ينير سبل القوم فى تفهم أسرار الكون ومظاهر الحياة الانسانية

يافا — ظافر الدجانى

(١) فى كتابه « محاضرات على مؤرخى العرب » ص ٨٦

شكوى الشيخ إلى ابنه

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

أبوكَ بأن يردى بُنيَّ مهددُ   كأن الردى سيف عليه مجرد

ويشكو تباريحاً تكاد تهده   وشيخوخةً ليست عن الموت تبعد

أحسُّ بقرٍّ في عروقي وأعظمي   يكاد دمي منه بجسميَ يجمد

أُقادُ إذا رمتُ المضيَّ لحاجة   وأمشي كما يمشي الأسير المقيد

كأنك بي شلواً على النعش سائراً   وعما قليل في التراب يُوسَّد

وليس مُخيفي الموتُ إن هو زارني   ولكن وراء الموتِ شملٌ مُبدَّد

تعالَ فقبّلني بُنيَّ مودِّعا   فانّ فراقي عنك يا ابني مُؤبَّد

ولي من حياتي يا بُنيَّ بقيةٌ   ولكنها عما قليلٍ ستَنفد

بُنيَّ أقم حيناً بجنبي فانني   على غير ما قد كنتَ من قبلُ تعهد

أبوك من الآمال جرَّد نفسَه   وأنتَ فتًى فيه المنى تتجدد

ولم يك حظّانا من الدَّهر واحداً   فلي الأمسُ من أيامه ولك الغد

أنا اليوم أشقى بالمشيب ووهنه   وأنت بشرخٍ من شبابك تَسعُد

لعمرك لا عهد المشيب الذي به   برمتُ ولا عهد الشبيبة سرمد

وما نحن إلاّ كالسيوف بحومةٍ   نُجرَّدُ حيناً للوغى ثم نُغمد

* * *

ستحدثُ فوق الأرض أشياء جمةٌ   وأنت لها بعدي بُنيَّ ستشهد

خُلِقْتَ لعهد غير عهدي فلا تكن   جباناً إذا ما ضيمَ لا يتمرد

وما الشيب شعرٌ أبيض فوق مفرقي   ولكنه نار على الرأس توقد

وليست حياةٌ بالإياس شقيةٌ   كأخرى بادراك الأمانيّ ترغد

تَفتَّح وردُ السُّؤلِ إلا بروضتي   وما قيمة الروض الذي لا يورّد ؟

أغرّد في روض الحياة كبلبلٍ   ومن بعد حين موشك لا أغرّد

سأرحل عن دنيا إليَّ حبيبةٍ   بها هام حتى الزاهدُ المتعبّد

تحاول نفسي بالحياة تمسكا   ولكنما خيط الحياة مُعقَّد

بُنيَّ وإني ذاهب غير آيبٍ   إلى حيث يَبلَى الجسم مني ويفسد

وما أنا وحدي هالك فيثور بي   على الموت حب للحياة مُوطَّد

فقبليَ أجيالٌ ألمَّ بها الردى   وبعديَ أجيال ستَرْدَى كما رَدُوا

نجيء ونمضي زمرة بعد زمرة   ونَنْبُتُ مثل العشب والموت يحصد

مُقيدةٌ منا الجسومُ بأرضها   ولكنما الأرواح لا تتقيّد

ستذهب ذرّاتٌ لجسميَ ألَّفت   بَدادِ وعلَّ الروح لا يتبدد

وقد تسبح الأرواح في ضوء أنجم   فيجمعها جنحٌ من الليل أسود

وما هذه الدنيا بدار سعادة   وإن طاب فيها الأثرياء وأرغدوا

ففي كل يوم للتعاسة لوحة   وفي كل يوم للشقاوة مشهد

وإن فؤاداً لا يرقّ لزفرة   يصعّدها قلب كسير لجلمد

ومن كان في بيداء يشكو لُهاثه   فليس له غير المنية مورد

سئمتُ مِراس الحرب فالسلم بغيتي   ولكنّ باب السلم دونيَ موصد

* * *

بُنيَّ لقد كانت حياتي شقية   وعلّك من بعدي بُنيَّ ستسعد

قضيت حياتي كلها في تمرّدٍ   ومن ذا يرى خسفاً ولا يتمرّد

لقد وُلدَ الانسانُ حرًّا بطبعه   ولكنه للنفس منه مقيِّد

أناخ عليها بالخرافات مثقلاً   وقيدها بالوهم والوهم مفسد

يلوذ بمن أثرى ويعنو لمن طغى   فيصبح عبداً صاغراً وهو سيد

تداولت الدنيا شعوبٌ كثيرة   وقد حبّذوا تلك القيودَ وأيدوا

أمَن كان حمّاداً لها فهو مؤمن   ومن كان نقاداً لها فهو ملحد ؟

وإنك مني يا بُنيَّ بقيّة   أعيش بها في الموت أو أتجدد

بُنيَّ أرى مستقبلي فيك ماثلا   وفيك أقول الشعر غضًا وأُنشد

إذا متُّ فاذكرني بُنيَّ مكرراً   فبالذكر أحيا ثم بالذكر أخلد

(بغداد)   جميل صدقي الزهاوي

المســـــاء

للدكتور ابراهيم ناجى

يا غلّةَ المتلهّف الصــادى يا آيتى وقصيدتِى الكُبْرَى
زادى لِقاؤكِ : طاب من زادِ وإذا نأيتِ أعيشُ بالذِّكرَى

يَلقى خيالَكِ كيفَمَا باتَا صَبٌّ له لفتاتُ مَسْحُورِ
يَرْوَى ويشبَعُ منكِ هيهاتَا لا يرتوى بصر من النور

بعد الأوارِ يدب فى الغرس لا يرتوِى عودٌ من الطلّ
ومَن اختسى من لفحة الشمس لا يرتوى أبداً من الظلّ

ذُقتُ المنـايا عدّ أنفَاسى والبعثُ كانَ شبابَكِ الزاهى
ومن ارتوى من سخَط الناس لم يروِه غير رضا الله !

يا للمســاء العبقرىّ وَمَا مَنَحَتْ من النفحات عيناكِ
أو كانَ رؤيا واهم حلما ما كان أقدسَــهُ وأسناكِ

يا للنسائم من مُسَــبّحةٍ خَشعت بهيكل ذلك الوادى
لحفيفها همساتُ أجنـــحة ورفيفُها صــلواتُ عبّاد

نمشى وقد طال الطّريق بنا ونودّ لو نمشى إلى الأبدِ
ونودّ لو خلَتِ الحياةُ لنـا كطريقنا وغدتْ بلاَ أحدِ

نَبْنى على أنقَاضِ ماضينا قصراً مِن الأوهامِ عِملاقَا
ونظلّ ننشـد مِنْ أمانِينا وشياً من الأحلامِ برّاقَا

وأظلّ أسقيها وتملأ لى من منبع فوق الظنُونِ خَفِى
حتى إذا سَكِرَت من الأمل وترنحتْ مالَتْ على كتِفِى

حَلفَتْ بأنّى أغتـدى معَها حيث اغتدت وهواى فى دمها
فَمسحْتُ بالقبُلاتِ أدمعها وطبعْتُ أقسامِى على فمِهَا

إنّا لَقومٌ أنـكروا الجَسَدا فاعجب لمفترقيْنِ ما افترقَا
أو ما ترى روحيهما اتّحـدا أو ما ترى ظليْهما اعتنقَا

ابراهيم ناجى

حياة الأحلام

بقلم الياس قنصل

لستُ أرثى لمن يكونُ طَموحاً ذا أمانىّ شِبْهِةٍ بالمحالِ
إنْ يفُتْــه تحقيقها لدواعٍ تصرف العزمَ عن طلاب المعالى
لم يفتــه تمثيل تحقيقها فى عالم الفكرِ تحت جوّ الخيالِ
يقطع العمرَ بين رؤيا وحلمٍ ليس فيها وفيــه غير الظلالِ
خالقاً من اوهامه ما تمنّى جاعلاً منهـا مسرحاً للكمالِ
لستُ أرثى لحالمٍ ليس يدرى رغم طول البقاء معنى الملالِ
إنمـا أرثى للذى يبتغى « الملمو س » فى دنيا أُبدعتْ للزوال
كل شىء - مهما غلا - إن ينلْه الـ مرء أمسى فى عرفه غير غالِ
أين من عاش نائلاً كلَّ ما يطلبه ممن عاش بالآمالِ !

عاصمة الارجنتين — الياس قنصل

١١ – شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

منزلته فى الشعر : قد يكفى أبا العتاهية عندنا توجيهه الشعر هذه الوجهة الصالحة ، وذهابه به فى جد الحياة نحو تربية الشعوب وهدايتها ، وإنارة السبيل أمامها ، وتقويم عوجها ؛ وهذا أبو نواس وهو من أعلام الشعر فى عصره يشهد له بهذا الفضل ، ويفضله به على نفسه . حدث هرون بن سعدان قال : كنت جالساً مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين بنى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبنائهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ، ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبل شيخ راكباً على حمار مريسى ، وعليه ثوبان ديبقيان ، قميص ورداء قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب اليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه ، فمكثا بذلك ملياً ، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحاً من الاعياء ، ثم انصرف الشيخ وأقبل أبو نواس ، فجلس فى مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا الاعظام ، وتجله هذا الاجلال ؟ فقال : هذا اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية . فقال له السائل : لم أجللته هذا الاجلال ؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه . قال : ويحك لا تفعل ، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى وأنا أرضى

وقد يكفى أبا العتاهية أيضاً أنه هو الشاعر الشعبى الذى أمكنه أن يدنو بالشعر العربى إلى أفهام العامة ، فوردوا مناهله العذبة بعد أن حرموا منها زمناً طويلاً بنزول لغتهم عن لغته ، وانصراف الشعراء عنهم كأنهم عجماوات لاحظ لها من علم أو أدب ، وهذا كله مع احتفاظه للشعر بما يتطلبه منه الخاصة أيضاً ، فأرضى بشعره الفريقين ، ولم ينزل به عن مرتبة فحول الشعر فى عصره وقبل عصره ، وقد قلنا إنه كان يقصد إلى ذلك قصدا ، ويثور به على الطريقة القديمة عامدا ، وسقنا من قصته فى ذلك مع سلم الخاسر ما يؤيده ، وهذه هى قصته معه كاملة :

قال أبو الفرج : حدثنى على بن مهدى ، قال : حدثنى أحمد ابن عيسى . قال حدثنى الجماز . قال : قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائراً ، فقلت : مقبول منك ومشكور أنت عليه فأقم ، فقال إن هذا مما يشتد علىّ ، قلت : ولم يشتد عليك ما يسهل على أهل الأدب ؟ فقال لمعرفتى بضيق صدرك ، فقلت له وأنا أضحك وأعجب من مكابرته : « رمتنى بدائها وانسلت » ، فقال : دعنى من هذا واسمع منى أبياتاً ، فقلت : هات ، فأنشدنى :

يا لقومى للموت ما أوحاه … نغّص الموتُ كلَّ لذة عيش
عجباً إنه إذا مات مَيْتٌ … صَدَّ عنه حَبيبُهُ وجفاه
حيثما وَجَّهَ امرؤٌ ليفوتَ الـ … موتَ فالموتُ واقف بحِذاه
إنما الشيب لابن آدم ناعٍ … قام فى عارضيه ثم نعاه
من تمنّى المُنَى فأغرق فيها … مات من قبل أن ينال مُناه
ما أذلَّ المُقِلَّ فى أعين النا … س لا قلاله وما أقماه
إنما تنظر العيون من النا … س إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية . فقال : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها

وقد ذكر ابن رشيق القيروانى أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ ، ويعنى بها مع الاجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوماً مع أبى نواس والحسين بن الضحاك الخليع ، فقال أبو نواس : لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتى إن الهوى قاتلى … فسيّروا الأكفانَ من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى … فاننى فى شُغُلٍ شاغل
عينى على عُتْبَةَ منهلّةٌ … بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلى قتيلاً بكى … من شدة الوجد على القاتل
بسطت كَفِّىَ نحوكم سائلا … ماذا تردّون على السائل
إن لم تُنيلُوه فقولوا له … قولاً جميلا بَدَلَ النائل
أو كُنْتُم العام على عُسرةٍ … منه فَمُنُّوه إلى قابل

فسلما له وامتنعا من الانشاد بعده ؛ وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الاشارات ، فلا ننشد شيئاً . قال ابن رشيق : وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضاً لا يفضله غيره

ولم يكن أبو العتاهية فى ذلك يتكلف شيئاً لا تواتيه فيه سجيته ، بل كان يجرى فيه على سجية مواتية ، وشعر مطبوع لا تكلف فيه ولا تصنع ، وقد بلغ من سهولة الشعر عليه أنه كان يقول : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت ، وقيل له : كيف تقول الشعر ؟ قال : ما أردته قط إلا مثل لى ، فأقول ما أريد ، وأترك مالا أريد . وحدث عبدالله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ؛ فجلس إلىّ ، فقلت : يا أبا اسحاق ، أما يصعب عليك شىء من الألفاظ فتحتاج فيه الى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو الى ألفاظ مستكرهة ؟ قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ، قال : فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتاً على مثل البلاغ ، فقال من ساعته :

أىُّ عيش يكون أبلغ من عيـ ... ـشٍ كَفافٍ قوتٍ بقدر البلاغِ
صاحبُ البغى ليس يسلم منه ... وعلى نفسه بَغَى كلُّ باغى
رُبَّ ذى نعمة تَعرَّضَ منها ... حائلٌ بينه وبين المساغ
أبلغَ الدهرُ فى مواعظه بل ... زاد فيهنَّ لى على الابلاغ
غبنتني الأيامُ عقلى ومالى ... وشبابى وصحتى وفراغى

وكان أبو العتاهية مع هذا إذا أراد تفخيم لفظه ومعناه لم يقصر به ذلك عن غيره ، ومضى فيه كأنه من أولئك الشعراء الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين ، وقد قال مسعود بن بشر المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الاسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جد ؟ قلت : من ؟ قال : مثل جرير حين يقول فى النسيب :

إن الذين غَدَوْا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك ما يزال معينا
غَيضْنَ من عَبراتهن وقلن لى ... ماذا لقيتَ من الهوى ولَقينا

ثم قال حين جد :

إن الذى حَرمَ المكارمَ تَغْلِباً ... جعل النبوةَ والخلافة فينا
مُضرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا آل تَغلبَ من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئتُ ساقكمُ الى قَطِينا

ومن المحدثين هذا الخبيث الذى يتناول شعره من كمه ، فقلت : من ؟ قال : أبو العتاهية ، قلت : فبماذا ؟ قال قوله :

اللهُ بينى وبين مولاتى ... أبدتْ لى الصدَّ والملالاتِ
لا تغفر الذنبَ إن أسأتُ ولا ... تقبل عذرى ولا تُواتى
منحتُها مهجتى وخالصتى ... فكان هجرانها مكافاتى
أقلقنى حبُّها وصيّرنى ... أحدُوثة فى جميع جاراتى

ثم قال حين جد :

ومهمهٍ قد قطعتُ طامسه ... قَفرٍ على الهول والمحاماةِ
بحُرَّةٍ جسرَةٍ عُذافِرَةٍ ... خوْصاءَ عَيْرانةٍ عَلَنداَة
تُبادِرُ الشمس كلما طلعتْ ... بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناق خُبّى بنا ولا تَعِدِى ... نفسك مما ترَيْنَ راحات
حتى تُناخِى بنا الى ملك ... تَوَّجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مَفْرقه ... تاج جلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لكِ يا ريح فى مباراتى
مَنْ مثل من عمُّه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخؤولات

وإذا كنت فيما سبق قد جعلت أبا العتاهية زعيم شعراء عصره ؛ فهذا ابن مناذر يقضى له أيضاً بهذا السبق ، وهذا بشار قد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعني أبا العتاهية ، وكذلك كان يرى فيه هذا الرأى كثيرون مثل الفراء وجعفر بن يحيي وأبى نواس ، وقد وازن الحرمازى بينه وبين أبى نواس ، فقال : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ؛ فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فاذا تعاطيا جميعاً السرعة فضله أبو العتاهية وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس ، وقد يرجع هذا عندى الى ما كان لأبى نواس من دراسة واسعة فى اللغة وغيرها من العلوم ، فلا يخفى أن مثل هذه الدراسة لم يتح مثلها لأبى العتاهية

ولكنه يبقى بعد هذا ما قد يفيده ظاهر بعض ما رواه صاحب الأغانى من أن أبا العتاهية لم يكن يرى فى شعره هذا الرأى ، قال : نسخت من كتاب هرون بن على ، قال حدثنى على بن مهدى ، قال : حدثنى ابن أبى الأبيض ، قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب

أستحسنه لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردئ ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به ، الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت : صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لِدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلُّكمُ يصير الى تَباب
ألا يا موتُ لم أر منك بُدًّا ... أتيتَ وما تحيفُ وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى ... كما هجم المشيب على شبابى

قال : فصرت الى أبى نواس فأعلمته ما دار بيننا ، فقال : والله ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس ، فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طولُ التعاشرِ بين الناس مملول ... ما لابن آدمَ إن فتشتَ معقولُ
يا راعِىَ الشاءِ لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل ما زلتُ أعمره ... على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفَس ... إلا وللموت سيفٌ فيه مسلول
لم يُشغَل الموتُ عنا مذ أُعِدَّ لنا ... وكلُّنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب ... والحيُّ ما عاش مَغشىٌّ وموصول
كلُّ ما بدا لك فالآكال فانية ... وكلُّ ذى أُكل لا بد مأ كول

قال : ثم أنشدنى عدة قصائد ما هى بدون هذه ، فصرت الى أبى نواس فأخبرته فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءا

والذى أراه فى ذلك أن أبا العتاهية كان يريد بهذا صرف هذا الرجل عنه ، لأنه كان معتزا بشعره معتدا به ، وقد قارع به بشاراً وغيره لدى الملوك والأمراء فحاز به قصب السبق ، ونال من صلاتهم وجوائزهم مالم ينله غيره ، ولو كان يراه دون غيره من الشعر لقعد به فى بيته ، ولم يقو أن يقارع أحدا به ؟

عبد المتعال الصعيدى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٠ - تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

كل جيل أو كل حضارة مرتبطة بسلسلة من القيم الاجتماعية تؤمن بأن هنالك شيئاً أسمى من شىء ، وأن عملا أفضل من عمل ، وترى أن الحقيقة أسمى من الضلال ، وأن عاطفة الرأفة أفضل من عاطفة القسوة ، وواجب التاريخ البشرى هو تعيين هذه المقامات والفصل بينها ، لأن هذه المقامات المنطوية على التقاليد الاجتماعية هى التى تسيطر على حياة الأفراد والجماعات ، وتؤثر فى كل أحكامنا ومناقشاتنا . وجدير بها والحالة هذه أن تشغل عقل الفيلسوف وأن تستبد بأكثر عقله وفراغه

نظر نيتشه إلى هذه المقامات وتأملها ملياً ، فجاءت نتيجة تأمله أن هذه المقامات التى تتعاقب عليها الحياة الأوروبية اليوم لهى مقامات فاسدة يجب تنكيسها لأنها لا تصلح للبقاء ، وبهذا يتبدل مجرى حياتنا ، وتبيد هذه المكازات التى تتوكأ عليها أحكامنا وأفكارنا . وقد نرى نيتشه — فى أحد نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله — ينذر بخراب مروع لهذه البشرية : « إننى أحلف لكم بأن الأرض ستتلوى متشنجة خلال عامين اثنين . . . إننى بنفسى قضاء وقدر »

إن الانسان الحالى يضع فى قائمة « القيم الاجتماعية » عدداً من القيم المطلقة العالية التى لا يمسها سوء ولا يشرف عليها عقل ، ولا يتطاول إليها نقاش ، وبواسطة هذه القيم يسعى الى تبيين الحقيقة . من هذه القيم المعروفة مثلاً عنصرا الخير والحقيقة . وقديماً وحديثاً نرى أن تعبد الحقيقة والصدق هو رأس عقائدنا وإيماننا . ناهيك أن المفكرين أنفسهم وقفوا متهيبين إزاء مسألة الخير والشر حين عرضت لهم ، وقد ظلوا مترددين أمامها ، راعين للتقاليد التى توارثوها عنها . « فكانت » قد افترض وجودها .

وشوبنهاور وجد أن المقدة الأخلاقية إنما هي عقدة عامة ، جميع الناس فيهـا سواء . « فلا تسئ لأخيك ، وأغث إخوانك ما اسطعت » . وهكذا تطامن الفلاسـفة على هذه المقدة ولم يهزوا شجرتها . وكلهم تجمهروا ليدرسوا رأس الأخلاق وهذا الضمير الخلقي الذي اصطلح البشر عامتهم على احترامه والذي لا يزال يسيطر على الأجيال الحالية

أعلن نيتشه الحرب على هـذا التعبد للحقيقة وهذه العبادة لشريعة الأخلاق . وبدلاً من أن يتقبلها قبولاً لا مفر منـه ولا وجه لمقابلته بجدل . رأيناه يقابلها كمسألة يدرس وجوهها ويحل مبهمها ويفترض ما يفترض في سـبيل تفهمها . أليس من حقه أن يتساءل « ولماذا كانت الحقيقة خيراً وأحرى ؟ : ولماذا كان الخير أجدر من الشر بالأخذ ؟ » ثم حلّ هذه المسألة بذات الجرأة التي ظهر بها جاعلا قاعدة الانسان الحر هذه الكلمة المأثورة « لا شيء حقيقي في الوجود ، كل شيء حلٌّ للانسان »

وما هذه الـكلمات النظرية التي تتردد بحروف مختلفة وأسماء متباينة دون أن يخرج معناها بخروج مبناها إلا كلمات ابتدعها الخيال وثبتها الوهم . أما الحقيقـة الجديرة بالنظر ، الحقيقة التي ينبغي لنا أن نعرفها فهي حقيقـة عالم رغائبنا وأهوائنا . فـكل ما يحتوي عليـه حياتنا وإرادتنا وفـكرتنا هو في الحقيقة نتاج ما فينا من الغرائز الحاكمة . وهذه الغرائز المتفرقة إنما تتشعب بها السبل إلى غريزة واحدة ، لا ترد إلا اليها ولا تصدر إلا عنها . هذه الغريزة هي إرادة القوة ، هذه الارادة التي تفنينا ـ لو رجعنا اليها في تحليـل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا ونحيط بها . فـكل كائن ـ سواء كان من عالم الحيوان أو النبات أو الانسان ـ يسعى إلى بسط سلطانه على غيره من الـكائنات حتى يخضع له ما يخضع منها . وإن هذه الحرب القائمة وهذه الجهود الدائمة ، حيث لا تستقر حياة موجود إلا ببسط نفوذها ونشر قواها ، هي الشريعة الأساسية في الوجود ، وفي كل مظاهر الحياة ـ أنى كانت ـ ترى الغريزة قائدها وهاديها : فاذا رأيت إنساناً ما يجنح بطبعه إلى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهذا الجنوح إنما قام بفضل هذه الغريزة الطبيعية التي رأت من خيرها أن تسلك هذا السبيل ، وهكذا قل في الفضـيلة الدينية التي تجد بها بعض

النفوس أقواتها وطمام غرائزها . وفي الحقيقة التي يضحي العالم في سبيلها بأزهى عمره تسوقه إليها إرادة القوة التي تعمل على بسط سلطانها ، ولـكن الانسان مال إلى عبادة ما ابتدعه بنفسه « كمثل أعلى » ليشبع حاجة فيه من حاجاته . فبدلاً من أن يقول : سأحيا أنا لاشباع غرائزي ، وسأتحرى عن الخير والحقيقة تبعاً لهذه الشريعة حيث تدفعني إرادة قوتي : قال : إنما الخير والحقيقة شيئان ينبغي أن يطلبا لنفسيهما . . . يجب صنع الخير لأنه الخير . ويجب نشدان الحقيقة حباً للحقيقة . وحياة الانسان ليس لها قيمة إلا بقـدر ما تفكر من أنانيتها وذاتيتها في سبيل خدمة هـذا المثل الأعلى ؛ فلتُقتل إذن كل ميولها الغريزية في سبيل هذا المثل ، معتقدة أن الأنانية هي شر كبير ورذيلة خطرة . على أن هذا الانسان نفسه الذي قدر هذا التقدير إنما تسوقه غريزة ـ لأن الغريزة هي سائقة النفوس الى ما تعمل ـ ولـكن هذه الغريزة غريزة فاسدة

على أن هذه الغرائز ليست في الناس سواء ، فبعضها معتدلة تعمل على تغذية حياتهـا وصيانة نموها ، وبعضها فاسدة معتلة تعمل على إخفاء مادتها الحيوية . وللعلل الجسدية تأثير كبير فيها قد يتداركها الطبيب قبل أن تُضوي الجسد . وهنالك علل « الشخصية » ولهذه العلل أسباب طبيعية . وبحسب هذه الغرائز المختلفة المتسيطرة على الانسان يأتي صاحبها صالحاً أو طالحاً ، مثلاً عالياً أو مثلاً سافلاً

إن ـ هنالك ـ رجالاً خالصي الأجسام والأرواح يقولون « نعم » للوجود ! هم سعداء ناعمون بحياتهم ، وهم ممن يجدر بالحياة أن تخلد لهم . وهنالك رجال منحطون ضعفاء مرضى قد أظلمت غريزتهم وماتت حيويتهم ، يقولون « لا » للوجود ! يجنحون إلى الموت والفناء ، لاغاية لهم يتحرون عنها ، وليس لهم ـ والحالة هذه ـ أن يتحروا عن بقائهم في الوجود ، وهذه سنة طبيعية تنطبق على الحياة التي لا تتمود ، والحياة ـ في كل صقع ـ سائرة في طريق التقدم أو في طريق الانحطاط . والانسان فيها مثل غرسة ، طوراً تحيا ذابلة يائسة ، وطوراً تتفتح مشرقة زاهية ، تسمو منها فروع عالية

يتبع

خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

٥ - حروب طروادة
أخيل

للأستاذ دريني خشبة

شُده القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ونهض الكاهن الوقور ذو اللحية المرتعشة يضرب فى غَبْشَةِ الصبح ، متكئاً على عكازه الذى أحنته وأحنتْ صاحبه السنون ، ولم يكد يتسنم ذروة الجبل حتى أشرقت ذُكاء ، فاختلط ذهب أشعتها بفضة لحيته ، فزادته رهْبةً ، وزاده البعد وقاراً ، وملأ بهامته السامقة وطيلسانه القشيب ، قلوب العسكر ، وعيون القادة ، ألغازاً وأسراراً ...

. . . .

عاشت ذيتيس فى كنف بليوز قانعة راضية ، لا يعنيها من هذا العالم الرحب إلا الجنين الحبيب الذى يتقلب فى أحشائها ، فتتقلب معه أكبر الآمال

ومضت شهور ... ووضعته غلاماً بكاءً كثير الصخب ، يضرب الهواء برجليه الصغيرتين ، فكأنما يضرب المشرقين والمغربين ، وينظر فى السماء العميقة بعينيه الزرقاوين ، وكأنما يبحث فى أغوارها عن جده .. ومجده ! وترى إليه أمه وتبتسم !

وشبّ الغـلام وأيفع ؛ وتحدّثت إلى أمه العرّافات والكاشفاتُ الغيبَ أن سيكون محارباً عظيماً ، تتحدث بذكره الركبان ، وتتعطر باسمه المحافل فى كل زمان ومكان ؛ وأن لابد من رحلةٍ به إلى الدار الآخرة — هيدز مملكة بلوتو — حيث تستطيع الأم غسلَ ابنها فى أمواه ستيكس ، نهر الخلود الزاخر ، الذى أودعته الآلهة أسرارها ، ونظمت فيه شعراء الأولب أشعارها واشتهرت بركاته فى العالمين

حدثتها أنها إذا غسلت ابنها فى أمواه ستيكس ، فانها تكسب جسمه مناعةً ضد الموت ، وحفاظاً من الفناء ؛ لأن جلده يصبح كالدرع المسرودة من حديد ، لا تنفذ فيه السهام ، ولا يؤثر فيه طمن القنا ، ولا ضرب المشرفيات البيض

ووقفت به على شواطئ ستيكس !

وهالها أن تنظر فترى إلى المنايا تقفز على غوارب الموج ، وتثب فوق نواصى الثبج ؛ تدمدم كأنها الذئاب ، وتهوّم كأنها البواشق ، وترقص ظلالاً سوداء كأنها الجن !

لقد ريعت الأم المسكينة ، وكادت تنثني بطفلها المعبود ، إشفاقاً عليه من هول ما شاهدت ... بيد أن الطفل ... بيد أن أخيل الصغير ، كان يصرخ وينتحب كلما بعدت به أمه عن شواطئ النهر ، فى حين كان يهدأ ويبتسم كلما اقتربت به منها . فتعجبت ذيتيس ، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة فتغمر ابنها فى مائه لحظةً وتمضى لشأنها ...

وكأن الآلهة قد استجابت لتوسلاتها . . . . فقد نامت الأمواج ، واستقر سطح الماء ، وقالت شياطين النهر المصطخب ؛ فتقدمت الأم المضطربة ، حاملةً ولدها من إحدى رجليه ، وذكرت أربابها ، مبتهلةً إليهم ، وغمست أخيل فى الماء الهادئ فى أقل من لمح البصر ، وعادت أدراجها فرحةً متهللة ..

جزء واحد من جسم أخيل لم يغمره الماء !!

ذلك هو عقِب قدمه اليسرى ! فيا للهول !

لقد أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للسنتور العظيم شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه ، يلقنه الفنون الحربية ، وينشئه على أعمال الفروسية ، ويبث فيه من ذلك الروح الكبير ، الذى بثه فى سائر تلاميذه من قبل ، فكانوا فرسان كل حلْبة ، وصناديد كل ميدان ، ولقد نبغ أخيل فى استعمال السيف ، واللعب بالرمح

وتوتير القِسى ، وثقف رِحيل المصارعة والملاكمة . . . وقصارى القول ، أصبح فتى زمانه ، وَالعلم اللاق فى قلوب أنداده وأقرانه . . . إن كان له أنداد وأقران

وعاد إلى أمه فاحتفت به ، وذهبت من فوْرها هــذا إلى العرافات القُدامى ، وكهنة المعبد ، فاستوحتهم ما عسى أن يكون فى كتاب الغيب من حظ لابنها فى الميدان . . .

ولكنها حزنت ، ودهاها من الهم ما دهاها ، حين قال لها الكاهن الأكبر ، مُؤمِّناً على ما تنبأت به العرَّافات ، إن أخيل سيُدعى للقتال فى صفوف الأغريق ، وأنه سيلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، بسهم يرميه به ألد أعدائه ، يصيب منه مقتلاً فى موضع دقيق من جسمه ، هو ، وا أسفاه ، عَقِبُ قدمه اليسرى ، التى لم تغمرها مياه ستيكس !!

حزنت ذيتيس ، وتجهمت للحياة المشرقة ، وتجهمت الحياة المشرقة لها ؛ وآلت إلا أن تحول بين ابنها وبين الحملة على طروادة التى كانت الصيحة لها تجوب آفاق هيلاس فى تلك الآونة . . .

وجلست تفكر . . .

وبدا لها أن ترسل بأخيل حيث يحل ضيفاً على ليقوميدس ملك سيروس الكريم المضياف ، وأن تنتحل الأعذار الواهية ، فتعرض على الملك أن يسمح لولدها بالتنكر ، بأن يُصفِّف طرته ويرسل غدائره ، ويزجج عينيه وحاجبيه ، ويصبغ خديه وشفتيه ويضفى عليه من وشى العرائس ، وأفواف الأناث ، وحِبَرَ القيان الغيد ، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه ! تحسب المسكينة أنها بذلك تعفيه مما قدر له ، وأينما كان يدركه القتل ، ولو كان فى برج مشيد !!

***

واشتد طلب الأغريق لأخيل ، ولبث الأسطول الضخم يرقب مجيئه فى كل لحظةٍ عدة أيام ، وخشى أجاممنون إن هو أقلع بالفلك ، ورسا عند شطئان طروادة أن ترسل الآلهة ريحاً صرصراً تسخرها عليه فتأتى على أسطوله ، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطاً أبداً ، لا يتقدم . . . ولا يتأخر ؛ وتكون إقامته ثمة بالهزيمة أشبه ، وإلى الانخذال أقرب . فأخذ يبعث الرسول يتلو الرسول للبحث عن أخيل ، الذى انبأت الآلهة أن فتح طروادة مستحيل بدونه ؛ ولكن عبثاً حاول أحد من الرسل

العثور بأخيل أو بظل أخيل ؛ بل كانوا يعودون جميعاً وهم يتعثرون فى أذيال الخيبة ، ويلملمون أطراف الفشل !

وهنا ، نهض البطل اللك ، أوليسيز ، فتى إيثاكا ؛ وندب نفسه للبحث عن أخيل ، وأقسم لا يعودن إلا به !

ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربى ، أوجس خيفةً من أن يفر أوليسيز ، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل ، إن هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها ، إلا أن أجاممنون نفسه ، وهو القائد الأعلى للجيوش والأساطيل ، قبل أن يذهب أوليسيز كيما يقص أثر أخيل ، بعد أن أخذ عليه « يميناً على حَدِّ الحسامِ المهنَّد ! »

***

استطاع أوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوز فى أعماق المحيط ، واستطاع أيضاً أن يختلط بالخدم والخول وحاشية القصر ، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء القربين من رجال الأسرة المالكة فيعلم منهم أين يختبئ أخيل ، وكيف يمارس حياة المذارى فى بلاط ليقوميدس ، ملك سيروس ، كأنه إحداهن ، وعلم أيضاً أن أخيل نشأ نشأةً عسكرية على يدى شيرون المظيم ، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به ألا يستنيم لهذه الحياة الناعمة التى لا تليق إلا بأبكار الخدور ، وربات الحجال ، لا بالأبطال وصناديد الرجال . . . . . . فانطلق إلى سيروس من فوره !

انطلق أوليسيز إلى سيروس النائية ، التى تكاد تكون منقطعةً عن العالم ، وقد حمل على ظهره العريض ، وكاهله القوى حقيبةً كبيرة جمع فيها من كتان مصر وأصباغها ، وعطورها ، وحِبَر الشام ، وحريره وبَخُّوره ، وتصاوير فارس ، وقمقها وسنجابها ، ومشرفيات الهند ، وتحف السند ، وطُرَف الصقلب . . . . . . ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعاً

فلما كان فى حاضرة المملكة ، يمم شطر قصر الملك . . . وكان الوقت ضحى ؛ ثم إنه طفق يصيح باللهجة السيروسية ، معدِّداً أسماء السلع التى : « استحضرناها حديثاً من مصر الجميلة المتفننة ، والشام الصناع العبقرى ، وفارس الفنية الكسروية ، والهند العظيمة ، والسند الـ . . . . . . ونحن لا نبيع إلا للملوك وأبناء الملوك ، لأن الشعب فقير لا يقدّر بضائعنا الغالية . . . ونحن

معروفون في مصر ، لا يشتري فرعون إلا منا ، وفي الشام ، وفي فارس ، وفي الهند ، حيث الأقيال العظام والـ ...... »

وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجر المفاخر بما معه واجتمعن حوله يتفرّجن ويتلهّين ؛ هـذه تختار منديلاً من حرير الهند ، أو منطقة من خز الشام ، وتلك تشترى من أصباغ مصر وعطورها وخرزها ، وثالثة تفتتن بتصاوير فارس ، فتشترى كل ما مع الرجل منها . . . .

ولـكن فتاة مُلثّمة ... وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة ، ولا تـكاد تُبين إلا عن عينين زرقاوين متألقتين ، تقدمت في خطوات متزنة ، ومشية منتظمة ، وأخذت الحقيبة من الرجل فقلبتها ، وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق الظُّبى ، حتى تهللت ، وبدا البشر في عينيها ، وتناولت حساماً مرهفاً وشرعت تلعب به في الهواء ههنا وههنا ، كأنما تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم في لوحة الخيال البعيـد ، المنطبع على أسوار طروادة !!...

وشُده أوليسيز مما رأى !

إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلاعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة !

وإن فتاة تنازل السيف هكذا ، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن يقفوا في وجهها ؛ إذا جمعتهم وإياها حَلْبَةٌ للوغى !

إنها تأخذ على الهواء مسلكه ، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات القاسيات !

وانقشع الشك من نفس أوليسيز ، وأيقن أنه أمام البطل المنشود ، فصاح بصوته الجهوري ، وكأن الرعد ينبري من بين شدقيه :

« أخيل ! .... »

وكأن كل ما في الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسيز :

« أخيل ... أخيل ... أخيل ... »

ووقف أخيل لحظة جامداً ، شارد اللب ، زائغ العينين ، كأنه مستيقظ من حلم كربه مفزع ؛ ثم ما هو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية التي كانت تحبس جسمه العظيم في سجن امرأة ، وصاح بأوليسيز وقد بدا في بُرْد الأسد

« أناهو ... أنا أخيل ... فرحي يا رجل ! »

ـ « أنت هو ....؟ ! »

ـ « أجل ... أخيل بن بليوز ... أبي إلـه عظيم وأمي بنت إلـه عظيم ، فلبيك وسعديك ! »

ـ « وأنت مختبئ هنا في خدور النساء خشية الحرب التي احتشد لها قومك دفاعاً عن الوطن ؟ »

ـ « أية حرب يا رجل ؟ »

ـ « بين هيلاس وبين طروادة ! »

ـ « ومن أثارها ؟ »

ـ « لقد سرق باريس بن بريام ، هيلين ملـكة أسبارطة »

ـ « سرقها ؟ ولم لم تقتله الفاجرة ؟ »

ـ « فرّت معه ، ولم يمنعها أن تلقي شرف هيلاس في الوحل »

ـ « ولم لم تذهب أنت إلى الصفوف ، ويبـدو لي أنك محارب كبير ؟ »

ـ « بل أقبلت من الصفوف لأبحث عنك ! ! »

ـ « ومن أنت حتى ينتدبك الجيش للبحث عن أخيل ؟ »

ـ « ومن أنا ؟ وماذا أسرك أن أكون ؟ »

ـ « من أنت يا رجل ؟ »

ـ « أيسرك أن ملـكا هو الذي يبحث عنك يا أخيل ابن بليوز ؟ »

ـ « ماذا تعني ؟ أأنت ملك إذن ؟ ملك ماذا ؟ »

ـ « ملك إيثاكا يا أخيل ! ! »

ـ « أنت ملك إيثاكا ؟ أنت أوليسيز ؟ هاها ... وما تلك الحقيبة إذن ؟ »

ـ « هي وسيلتي اليك ، لقد مزقت بها خمارك ؛ وهتكت بما فيها براقعك ! »

ـ « أنت تهينني ! »

ـ « لا عليك ؛ ما دام محدثك أوليسيز ! »

ـ « أفي الحق انك هو . . . . ؟ ؟ »

ـ « أقسم لك بالـكُناس الذي آواك ...

ـ « وفيم كنت تحرث شاطىء البحر إذن ؟ لقد ذُكر أنك زرعته ملحاً ، فهل حصدت مردينا يا أوليسيز ؟

ـ « أخيل ! الأسطول ينتظرنا ، ألف ألفٍ يتحرقون شوقاً لرؤياك ، وأنت أكرم من أن تفر من حرب ... فهلم !

ــ « هلم الى أين ؟

ــ « الى أوليس أيها العزيز .. الى حياة البطولة والمجد والشرف !

ــ « البطولة والمجد والشرف ! ! ماذا تقول ؟

ــ « لم يخلق تلاميذ شيرون للتقلب فى قصور الراحة ، والتلذذ بما فى العيش من طراوةٍ ونعومة ... هلم يا أخيل نخض المعمعة ، ونلق طروادة العاتية ، ونُلَقِّنها درساً دامياً فى الذود عن كرامة الوطن ! لا تقتل وقتنا فقد حرصنا جميعاً على أن تكون معنا ، وتحدثت إلينا آلهتنا أن طروادة لا تُفْتَح إلا عليك ، ولا تمنو إلا لك ، وقد اتفقت المقادير أن ترميها بك ... لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا فر أخيل وتقاعس ، فأين أبطال هيلاس ! ! هلم هلم ، فقومك بنو الكريهة وقروم الحرب وحتوف الأقران ... لو رأيت إليهم مُستلْئمين فى سلاحهم ، مُقَنَّعين فى حديدهم ، مُلَمْلَمين فى سفنهم ، لزهاك عسكرهم الجرار ، وبهرك خميسُهم العرمرم ! وتمنيت أن تكون أحدهم بالدنيا وما فيها

دع الغيد يفاخرن بالقلائد والعقود ، وتعال نحن نعد ما فى أجسامنا من ضربات السيوف ، ووخزات الرماح ، ومواقع السهام ، فهذه أعز مفاخر الرجال يا أخيل !

أخيل ! رُدَّ علىّ ! قل سأحضر معك ! كلنا ننتظرك يا أخيل ! لن تُفتح طروادة إلا عليك ! فأى نخر ينتظرك تحت أسوارها ، وأى مجد يكلل هامتك يا بطلها الصنديد !

تكلم ، ولا تصمت هكذا ... إن ملك إيثاكا يتوسل إليك أنا أوليسيز كله ! سأكون خدنك فى الحوْمة ، وصديقك فى المعمعة ! وأجا ممنون ! إنه قائدنا الى الفخار ، وصاحبنا فى مصارع الشرف ! وديوميديز ! بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال ! سينسى شجاعتـه حين ينظر إليك تلاعب الأسنّة ، وتقبّل مراشف الرقاق البيض ! وأجاكس يا أخيل ! لقد بهره ما سمعه عنك ، وهو يتمنى أن يراك ، ويحارب تحت بند خفاق من بنودك ! أجاكس نفسه ، يود أن يكون جندياً من جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعاً ... !

ماذا ؟ تبكى ؟ . . . لا لا يا أخيل . . . لترقأ دموعك فهى أغلى من أن تنسكب هكذا ! أكرم بك هيلانياً رقيق القلب ، باراً ببلادك ، مناضلاً عن رايتها فى ساحة المجد !

لتشربْ من دموع أخيل يا ثرى الوطن !

لتروك هذه العبرات الغاليات ، فهى ترياقك إذا حزبك أمر ، أو ادلهمت بك الخطوب ! »

. . . .

وهكذا كان أوليسيز ماهراً فى إثارة النخوة فى قلب البطل ! وهل أحلى من كلمات البطولة ، وأوقع من حديث المجد ، فى نفس شاب مثل أخيل ؟ لقد تقدم مختاراً طائعاً فقبل جبين أوليسيز ، ولثم سيفه ، ثم ودّع بنات الملك ، وحيا القصر ، وتزود من الحدائق نظرات

وانطلق فى إثر أوليسيز !

الى . . .

أوليس !

(لها بقية) دريني خشبة

أشكر الأستاذ الأديب محمد روحى فيصل ، وأدع للرسالة أن تجزيه عنى

دريني

من الفن القصصى الحديث

المشعوذ

LE BATELEUR

للقصصى الألمانى اريش كستنر Erich Kaestner

ترجمة على كامل

فى ليلة من ليالى الصيف الماضى شوهد على شرفة مقهى (مجلس الوصاية) الواقع على رصيف مون بلان بجنيف منظر كان جقاً غير عادى ، إذ قبل أن ينتصف الليـل بقليل كان المقهى يفيض بالزبائن الوجهاء الذين كانوا يشربون قبل أن يذهبوا للنوم مختلف المشروبات المثلجة . فقـد كان الجو ثقيلاً ، ثقيلا لدرجة أن رياح البحيرة لم تستطع إحداث أقل إنعاش أو تخفيف

وكان الأغنياء البرجوازيون من أهل جنيف يوقفون عرباتهم أمام الفندق ثم يبحثون بعد أن ينزلوا منها عن مكان وسط ذلك الجمع المختلف الأجناس المحتشد فى ذلك المكان

وكان فريق الاركسترا يعزف فى الهواء الطلق بضع مقطوعات من أوبرات شهيرة ، وكان كل الجالسين يشعرون بأنه يحيط بهم جو على أتم ما يرام : فجوازات السـفر تامة من كل الوجوه ، والحقائب مهيأة للغاية ، وأربطة الرقبة متفقة تماماً مع (البدل) ، والقهوة المثلجة فى درجة الحرارة التى يرغبونها ، وأمواج الأوبرات التى يعزفونها جيداً تفتن جميع الآذان

وفى هذا الجو المفعم بالنعيم والفخامة برز مرة واحدة وسط الشارع أحد حمالى البواخر ، وكان أشبه ما يكون بمصارع ، وكان جسمه كله برنزى اللون من أثر الشمس . وبدل القميص كان يلبس (مايوه) بنفسجياً وحول فخذيه بنطلون أحمر متسخ . وكان يلوّح بيديه بكوبة من الجعة نصفها فارغ . محيياً — وهو يضحك — الجالسين فى المقهى الذين لم يكن من السهل لعينيه أن تراهم جميعاً . ولقد كان يبدو من منظره أن الشراب قد أسكره قليـلاً . وكانت ابتسامته تبدو غريبة ، وبعـد أن عبر شرفة المقهى عاد أدراجه وبدا على وجهه كأنه يريد أن يشرب فى صحة الحاضرين . ثم أفرغ ببطء ما تحتويه كوبته ولم يظهر على من بالمقهى أنهم وجدوا فى هذا المنظر تسلية كبيرة جداً ، وأفرغ الرجل ما تبقى من الجعة على الرصيف دون أن يبدو عليـه أى ارتباك ، ثم أمسك الـكوبة بكلتا يديه وحطمها تحطيما كاملا بين أسنانه كانسان عضه الجوع . وكان بالقرب منه فتاة أمريكية من أعظم الموجودات رشاقة فصرخت حين رأته يفعـل ذلك واصفر لونها مرة واحدة . أما جارتها ففين ملكها الفزع وضعت منديلها سريعاً على فمها . ووقف عدد من الزبائن ودفعوا كراسيهم إلى الوراء وجرّوا بأقصى سرعة . أما أفراد الأركسترا أنفسهم فقد تحولت أنظارهم عن النوت التى أمامهم وطاشت أنغام كل منهم

وفى أثناء كل ذلك الوقت كان الرجل يسحق قطع الزجاج بصوت مرتفع دون أن يتحرك من مكانه متابعاً بعينيه بكل هدوء عصبية المتفرجين المتزايدة ، وكان صوت مضغ الزجاج — ذلك الأمر العجيب النادر — هو وحده الذى يزعج ذلك السكون الشامل . ثم أحنى الرجل رأسه كأنه يتحدث سراً مع أحد من الناس وتأرجح على ركبتيه ثم اتجه إلى مناضد أكثر بعـداً وهز من جديد كوبته ونظر بهدوء شـديد إلى الوجوه الخائفة وحطم قطعة أخرى بين أسـنانه . وهرب هذه المرة أيضاً عدد من الجالسين بينما طلب عدد آخر — وقد أثارهم ذلك المنظر الغريب — من خدم المقهى أن يطردوا ذلك الرجل . على أن الخدم اكتفوا بهز أكتافهم ، فقد كانوا على جانب من التعب الشديد غير قادرين حتى على جمع الحساب الذى لهم عند الزبائن . كما أن الفزع كان قد أخذ منهم كل مأخذ . ومن الحق القول أيضاً بأنهم كانوا لا يودون مطلقاً أن يتشاجروا مع (آكل الزجاج)

وطلب رجل فرنسى — كان قد أصبح وجهه رمادى اللون من هول الرعب — مدير المحل كيما يوجه إليه اللوم الشديد . ووعد مدير المحل بأن يقدم مساعدته وتقدم خطوات نحو حمال البواخر ، لـكن شجاعته خانته حالا فتقهقر . ذلك لأن المشعوذ

لم ينقطع عن التردد بين طرف المقهى وهو يمضغ على مهل بقايا كوبة الجمة ، وبعد أن ازدرد جزءاً منها لفظ البقية على الأرض .

وبدا على جانب شفتيه مجرى رفيع من الدم انساب حتى ذقنه دون أن يشعر هو نفسه بذلك إذ كان منشغلاً تماماً بمضغ غذائه الوحيد

ومر بالمكان مصادفة أحد رجال البوليس قادماً من رصيف و . ولسن ، وكان يرتدى (بدلة) زرقاء بأشرطة بيضاء ، فعندما رأى ذلك المنظر الغريب انسل بهدوء إلى شارع الناقوس ، واختفى دون أن يصرخ آمراً بعودة النظام

ووقفت السيارات فى عرض الطريق بينما جلس السائحون صامتين من الذهول ، وقد اتجهت أنظارهم - دون أن تتحول مطلقاً - صوب النوافذ الزجاجية

لقد فقد زبائن المقهى وعيهم كلية ، وملكهم الرعب من جراء شجاعة ذلك الرجل الخارقة ، ولقد دفعهم الخوف لأن يضموا أيديهم على حقائبهم ، فقد تكون هى أحسن وسيلة لابعاد ذلك الحال الذى حمل اليهم الألم والأذى

على أنه لم تكن هناك وسيلة ما !

لم يبق من الكوبة شىء يذكر ، كان الرجل يمضغ بهدوء البقايا الأخيرة ولم يقاومه إلا القاعدة لأن زجاجها أكثر سمكا ، فلوح بها فى الهواء وعليه أمارات النصر الممتلىء بالاحتقار

كان السكون التام يسود المكان كله ولم يكن هناك إلا فتاة صغيرة — عيناها نصف مقفولتين — تبكى بوداعة . وفى تلك اللحظة اقترب رجلنا من المنضدة المجاورة وقبض — دون أن ينطق بكلمة واحدة — على آنية السكر المعدنيـة وأدارها على المنضدة ثم قدمها وهى فارغة مما كانت تحويه طالباً المعونة ، وقد علت وجهه أمارات التهديد . وفى الحال انفتحت حقائب النقود كأن قوة سحرية فعلت بها ذلك . وتراكمت قطع النقود فى آنية السكر كأنها قطرات مطر هاطل ، وتنقل الرجل من منضدة إلى أخرى وهو مالك نفسه أكثر من رجل مسلح من رجال العصابات . مادا آنية السكر كأنه يصوب مسدساً . إنه لم يستجد بلسانه مطلقاً ، كما أنه لم يشكر من أعطوه ، على أنه لم يكن يغادر المنضدة إلا بعد أن يعطيه الجالسون عليها نقوداً

وفى الطريق وقف المارون ينظرون فى صمت مايفعله الرجل وقد ظهر عليهم السرور واضحاً . ولاحظ مدير المحل — ولكن بعد أن فات الأوان — أن سمعته فى خطر كبير فانحنى يطلب بأدب جم إلى العامل أن يوقف هذه الشحاذة ، لكن الرجل أبعد ذلك الشخص الذى يضايقه بأن هز كتفه هزة خفيفة ثم استمر فى تكديس النقود كأن شيئاً لم يحدث قط ، فقد كان يعتبر الجالسين فى المقهى كأنهم أكياس منتفخة من الذهب

لقد جاء إلى المكان وأطاعوه بسهولة ! وفى اللحظة التى شعر فيها بأنه حصل على ما يريد أفرغ ما تحتويه آنية السكر فى جيبه وألقى على الأرض - دون أى مراعاة - قاع الكوبة الذى لم ينقطع عن التلويح به فى الهواء حتى تلك اللحظة ، ثم ارتدى بنطلونه باهمال ، كما هى حال الطبقات الدنيا ، وسار فى طريقه باحتقار وازدراء

وبقى الزبائن الساكين جالسين فى أماكنهم ذاهلين ، أشبه ما يكونون بمرضى فى دور النقاهة ؛ محطمين من التعب والارهاق والآن ما الذى حدث ؟

الذى حدث أن رجلاً لا يلبس ياقة ولا رباطاً للرقبة ازدرد الزجاج . بيد أن وقع الحادث على المتفرجين كان أكثر من ذلك هولاً ورهبة

وابتدأ فريق الأركسترا يعزف مقطوعات للموسيقى فيردى بينما كان أحد خدم المقهى يمسح جبهته خفية

البريد الأدبي

مستعرب عظيم

يلومني بعضهم لتنويهي في كل مناسبة بفضل علماء المشرقيات في الغرب على حضارتنا وآدابنا ، ولقولي إننا كنا نجهل كثيراً من علم أمتنا ومدنيتها لو لم يقم الغربيون يحيون كتب العرب منذ القرن السادس عشر من الميلاد ؛ حتى طبعوا منها خزانة عظيمة باتقان وضبط ، ما برحت مرجع الدارسين والباحثين ، وإذا أشرت إلى علماء أمتي بالجرى في طريقة أولئك العاملين ، فهناك الامتعاض ، وهناك الغمز واللمز ، وهناك الأعذار التي لا مبرر لها

أنا لا أجادل إلا بايراد مثال واحد على صحة مدعاي ، والأمثلة متوفرة كثيرة . هذا الأستاذ كرنكو الألماني لم يجد منشطاً من دولة ، ولا من جامعة ، ولا من جماعة ؛ ومع هذا طبع نيفاً وعشرين كتاباً من كتبنا لخدمة العلم والحضارة العربية . وترجمة الرجل طريفة عسى أن يكون في نشر طرف منها بعض العبرة لقومي ، وألا يثقل عليهم إذا قلنا إنهم مقصرون عن اللحاق بغيرهم ولد « فريتس كرنكو » أو « سالم الكرينكوى » ، كما سمى نفسه بعد في قرية شونبرغ في شمالي ألمانيا ، وتعلم مع لغته الألمانية ، وكان بها شاعراً ، اللغات الانجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية ، فأتقنها اتقاناً جيداً ، ثم بدأ وهو صبي يافع يتعلم اللغات الأوربية الأخرى واللغة الفارسية ، وتعلم طرفاً صالحاً من الحميرية والعبرية والآرامية والتركية ، ثم رحل إلى انجلترا واشتغل بالتجارة حتى أسس مصنعاً للأقمشة في « لستر » كان يشتغل فيه أكثر من ألف عامل وعاملة ، ولم تفته مع كثرة أشغاله العقلية ساعة إلا طالع فيها الكتب العلمية ، ومما له شوق إلى درس آداب العربية والحضارة الاسلامية ، ولا سيما ما كان له علاقة بأوائل الاسلام والقرون التي سبقته ، فتعلمها وأتقنها حتى أصبح يكتب فيها ويؤلف مثل أبناء العرب

وفي الحرب نكب بفقد وحيده ، ثم بخسارة كبرى في تجارته حدث به إلى تركها في سنة ١٩٢٧ . وتفرغ بعد ذلك للعلم ، وهو اليوم يعرف لغات أوربا وثلاث لغات من لغات الشرق : العربية والفارسية والهندية معرفة جيدة ، ودرس اللغات الأخيرة في الكتب من دون أستاذ ، وهو اليوم لا منصب له يعيش براتبه ، وماله مال أمثاله ممن يحترف الأدب ، ولما اشتدت به الضائقة كتب اليه أحد أصدقائه من مسلمي الهند أن ينسخ له من الكتب العربية ما يراه جديراً بالطبع من خزانة المتحف البريطاني في لندرا ، وجعل له جعلاً سنوياً مناسباً . وقال لي الأستاذ : إني الآن أعيش بفضل لغتكم

هذه جملة حاله ، أما انتاجه فكثير جداً ، لا تكاد تقوم بمثله المجامع العلمية الكبرى ، ورجائي أن يقتدي بسيرته رجالنا ، فهي غريبة في بابها

طبع الأستاذ كرنكو مجموعة من كتب العرب، أعرف منها الكتب التالية :

(١) قصيدة طفيل الغنوي البائية مع ترجمة انجليزية

(٢) قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير مع مقدمة ألمانية

(٣) شعر أبي دهبل الجمحي رواية الزبيري بكار مع زيادة وحواش وملاحظات

(٤) طبقات النحاة لأبي بكر الزُّبيدي مع مقدمة وشروح عليها باللغة الايطالية

(٥) ديوان مزاحم العُقيلي بترجمة انجليزية

(٦) كتاب المجتبي لأبي بكر بن دريد

(٧) ديوان النعمان بن بشير الأنصاري وفي ذيله ديوان بكر ابن عبد العزيز العجلي

(٨) حماسة هبة الله بن الشجري

(٩) ديوان طفيل الغنوي وديوان الطِّرمّاح بن حكيم مع مقدمة وترجمة وشروح وفهارس مطولة بالانجليزية

(١٠) الكتاب المأثور لأبي العَميثل الأعرابي عن نسخة قديمة كتبت سنة ٢٨٠ مع مقدمة ألمانية وفهارس

(١١) جمهرة ابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهارس له في مجلد كبير

(١٢) تنقيح المناظر لكمال الدين الشيرازي شرح كتاب المناظر لأبي الهيثم البصري

(١٣) كتاب التيجان في تواريخ ملوك حمير لعبد الملك ابن هشام عن وهب بن منبّه التابعي وفي ذيله ما بقي من رواية عبيد بن سَرْيَةَ عن الأمم البائدة، وقد كتب في مجلة «مدنية الاسلام» الألمانية أن هذين الكتابين من أقدم الآثار المدونة باللغة العربية

(١٤) «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني في أربعة مجلدات. ويطبع الآن ويصحح كتاب «معاني الشعر الكبير» لابن قتيبة، وهو في ألف صفحة، و«إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه» والمجلدات الثلاثة الأخيرة من «التاريخ المنتظم» لابن الجوزي، و«المؤتلف والمختلف» للآمدي، وكتاب «نحاة البصرة» للسيرافي، و«الجماهر في معرفة الجواهر» لأبي الرَّيحان البيروني، إلى غير ذلك مما يطبعه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر وأوربا

وبعد هذا ألا نرى من الواجب أن نرسل من هذه الأقطار العربية تحياتنا إلى هذا العالم العامل الكامل في الديار الغربية، وندعو بطول بقائه ليخدمنا بعقله ونبوغه، وندعو أن يهيئ الله لأمتنا أمثاله من العلماء العاملين

محمد كرد علي

كتاب الذخيرة لابن بسام

تألفت أخيراً برياسة العلامة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال لجنة من أفاضل المستشرقين لتعنى بإخراج أثر إسلامي أندلسي ضخم هو كتاب: «الذخيرة في التعريف بمحاسن أهل الجزيرة» لابن بسام، وهو من أكابر أدباء الأندلس في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري. ولم يكن موجوداً ولا معروفاً قبل بضعة أعوام من كتاب ابن بسام غير أجزاء أو نسخ ناقصة؛ ولكن الأستاذ ليفي بروفنسال، وهو من خيرة المستشرقين الذين وقفوا جهودهم على استقصاء تاريخ الأندلس المسلمة وآدابها وحضارتها، لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة في خفايا المكاتب المغربية حتى ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب: «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»؛ وساعده على ذلك وجوده بالمغرب الأقصى، مدى أعوام طويلة، مديراً لمعهد المباحث الاسلامية في رباط الفتح (مراكش)، وتجوله الدائم في أنحاء مراكش والجزائر، وتمكنه من معرفة الآثار والمخطوطات الأندلسية؛ وهو صاحب القسم الثاني من فهرس المكتبة العربية في الاسكوريال، وله عن اسبانيا المسلمة مؤلفات عديدة. منها: «اسبانيا في القرن العاشر» و«النقوش الاسلامية في اسبانيا المسلمة» و«وثائق جديدة عن تاريخ الموحدين» و«وصف لمدينة سبتة في القرن الخامس عشر» الخ. وقد طبع كتاب دوزي عن الأندلس طبعة جديدة منظمة منقحة؛ وكتاب الذخيرة الذي يعنى الآن بإخراجه، أثر أدبي تاريخي ضخم ينقسم الى أربعة أقسام: الأول خاص بقرطبة وأعيانها، والثاني خاص بغرب الأندلس وأعيانها، وأخبار أشبيلية وبني عباد؛ والثالث خاص بشرق الأندلس وبلنسية وأعيانها، والرابع خاص بأخبار الجزيرة وأعيانها. وهو يلقي أعظم الضياء على تاريخ اسبانيا المسلمة وآدابها وأحوالها الاجتماعية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أيام دول الطوائف. ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة ناقصة من كتاب الذخيرة في مجلدين كبيرين، تحتوي على القسمين الأول والثاني فقط من الكتاب. ومن المحقق أن دوائر البحث الاسلامي سوف تنتظر بفارغ الصبر ثمرة الجهود المحمودة التي يبذلها الأستاذ ليفي بروفنسال وزملاؤه الأفاضل لاخراج هذا الأثر النفيس

من آثار نابوليون

كشف البحث في مكتبة خاركوف العامة (روسيا) عن وجود أثر نفيس من آثار نابوليون، وهو عبارة عن كتاب منه بخطه إلى صديقه وعامله يوسف فوشيه، والكتاب مؤرخ في ١١ مايو سنة ١٨١١، وفيه يدعو الامبراطور فوشيه ليتولى إدارة شؤون بروسيا، ويحثه على القدوم إلى درسدن مع عدة من معاونيه الذين يعرفون اللغة الألمانية، وكان نابوليون في ذلك الحين قد غلب على بروسيا ومزقها، وأخذ يستعد لغزوته الروسية الشهيرة. وأما يوسف فوشيه الذي يوجه إليه هذا الخطاب، فهو من أشهر الشخصيات في تاريخ نابوليون وتاريخ فرنسا في هذا العصر؛

وقد كان من أقطاب الثورة وزعماء اليعاقبة ، ولما بزغ نجم نابوليون عين مديراً لبوليس باريس ، واستمر فى هذا المنصب أعواماً طويلة ثم تولى بعد ذلك عدة مناصب فى الادارة وفى البطانة ، واشتهر فوشيه بدسائسه الكثيرة التى جعلت منـــه شخصية روائية مدهشة ، وكان داهية وافر الذكاء والخبث ، وقلما نجد قصة من قصص هـذا العصر لا يحتل فيها فوشيه أعظم مكانة ، وكان نابوليون يثق به وينتدبه لأخطر المهام السرية ، ولـكنه فى أواخر أيامه أخذ يرتاب فيه ويقصيه عنه ، وكان فوشيه أديباً كاتباً ، وقد ترك لنا عدة آثار ورسائل ، وكتب عنه الكثيرون مؤلفات ضخمة ، ولا سيما شتيفان زفايج الـكاتب النمسوى ، ولوى مادلين الـكاتب الفرنسى

وفاة فنان نمسوى

من أنباء فينا أن المهندس والفنان الأشهر الأستاذ أوسكار شترناد قد توفى فى السادسة والخمسين من عمره فى مصيفه فى « أوسترى » ، وقد كان الأستاذ شترناد أعظم إخصائى فى فنه ، وهو الهندسة الزخرفية ، واشتهر منذ أواخر عهد القيصرية ، وتولى زخرفة كثير من المنشآت الشهيرة ، ومنها « الأوبرا » النمسوية . ولبث مدى أعوام طويلة أستاذ هذا الفن فى مدرسة الزخارف الفنية

الرقابة الأدبية فى روسيا

تفرض روسـيا السوفيتية على الـكتب والصحف رقابة صارمة ؛ وكما أنها ترعى هذه الرقابة وتنظمها داخل روسيا ، فلا يكتب أو ينشر شىء ينافى المبادىء الشيوعية أو يتوجه إلى نقدها والطعن فيها ، فـكذلك تنظم هذه الرقابة على الحدود تنظيما دقيقاً فلا يتسرب إلى الأراضى الروسية من الـكتب أو الصحف شىء يخشى منه على عقول النشء الروسى الذى نشأ وترعرع فى ظل الثورة الشيوعية ، وآخر نوع من أنواع هذا الحجر قانون أصدرته وكالة الشؤون التجارية الخارجية ، يقضى بأنه لا يجوز لشخص داخل روسيا أن يستورد من الخارج كتباً أو صحفاً أجنبية إلا بتصريح خاص من المـكاتب التى ستنشأ لهذا الغرض ، وكل صحيفة أو كتاب لم يؤذن باستيراده يعتبر مهرباً ويحاكم محرزه ولا سيما إذا كان فيـه طعن على الحـكومة السوفيتية أو مبادئها أو وسائلها ، وقد حملت السلطات السوفيتية على تشديد الرقابة على هذا النحو بما لاحظته فى الأعوام الأخيرة من اشتداد الحملة على روسيا السوفيتية ، وتصوير نظمها وأحوالها فى معظم البلدان الأجنبية ، سواء بطريق الـكتب أو الصحف ، تصويراً منفراً تقشعر منه القلوب

الى صديقى الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى

كنت شـديد الاعجاب بقصيدتك « عاصفة روح » التى سمعتك تنشدها قبل نشرها فى العدد الأخير من « مجلتى » الصادرة فى أول سبتمبر ، ولـكنى لما خلوت إلى نفسى كنت كمن يفتش على مهل عن شىء ضائع فى ذا كرتى !.. وأخيراً لقيت هذا الشىء الضائع ... لقيت مطلع قصيدة من ذات العنوان والوزن ، بل لقيت القصيدة كلها من نظم الشـاعر الدمشقى مشيل عفاق منشورة فى العدد السابع من مجلة الدهور الصادر فى شهر سبتمبر سنة ١٩٣٤ مطلعها :

إعصـــفى يا رياح واهزنى يا سماء
من يكن ذا جناح هل يهاب الفضاء ؟

ولقيتك فى المقطع الثانى من قصيدتك تقول :

اعولى يا جراح أسمعى الديان
لا يهم الرياح زورق غضبان

لقد أوغلت فى قراءة قصـيدتك ، ووازنت بين أقوالك ومعانيك ، وبين الأقوال والمعانى الواردة فى قصيدة الشاعر الدمشقى ، وأخيرا لقيت الأليق أن أسألك عما إذا كان هذا مجرد توارد خواطر ، وقد ألفنا تعليل الاغارات الأدبية بتوارد الخواطر أريد أن أمضى معك فى تعليلك ، وأن أكتفى بنشر مقطع واحد من قصيدة ذلك الشاعر الدمشقى يتفق مع مقطع من قصيدتك ، أريد ذلك حتى لا أضيف خسارة صديق جديدة إلى قائمة أولئك الضعفاء غير المأسوف على صـداقتهم ، فهل من تعليل ؟ .... إنى لمنتظر

حبيب الزحلاوى

تصحيح أخطاء فى شعر هذا العدد

فى البيت الثانى عشر من قصيدة الأستاذ الزهاوى ضبطت تسعد بضم العين والصواب الفتح

والبيت الثامن من قصيدة الدكتور ناجى عبث به بعضهم فأخرجه إلى بحر آخر

وفى البيت الأول من قصيدة السيد الياس قنصل وردت كلمة (شبهة) ولم تعرف اللغة هذه الـكلمة

الكتب

ثلاث رســائل

بخط ياقوت الحموى الرومى

للأديب الفارسى عباس اقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

عند كاتب هذا المقال مجموعة صغيرة فى ثمان وأربعين ورقة صغراء ، طول كل ورقة ١٥ سنتيمتراً وعرضها ١٠ ، وهى بخط نسخ جميل ، كتبها كلها الأديب العالم الكبير شهاب الدين أبوعبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى ، المؤلف ذائع الصيت صاحب معجم البلدان ، ومعجم الأدباء ، المولود سنة ٥٧٥ والمتوفى سنة ٦٢٦

فى هذه المجموعة أربع رسائل صغيرة كتبها ياقوت نفسه فى أوقات مختلفة ، ثم جمعها فى مجلد واحد . وهى كما يأتى :

١ — كتاب الفصيح : لأبى العباس أحمد بن يحيي ثعلب الشيبانى (٢٠٠ — ٢٩١) وهو ٢٨ ورقة . وقد طبع مرات

٢ — كتاب تمام الفصيح : لأبى الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا اللغوى المتوفى سنة ٣٩٥ . وفيه ١١ ورقة

٣ و ٤ — كتابان لأبى الحسن علىّ بن عيسى الرمّانى الورّاق (٢٧٦ — ٣٨٤) الأول منهما ، لسوء الحظ ، سقط من المجموعة ، ومحى عنوانه من الغلاف . والكتاب الثانى كتاب الحروف . وقد سقط أوّله ، وبقى معظمه فى ٩ ورقات

ولا شبهة فى صحة نسبة هـذه النسخة الى ياقوت الحموى وأصالتها . فالخط والورق والتاريخ يؤيدها . ثم ياقوت نفسه يكتب هذا خمس مرات بالخط الذى كتبت به النسخة نفسها . ولدينا شواهد تاريخية أخرى نحصيها فيما يلى :

على غلاف هذه المجموعة ، كما يظهر من الصورة [1] هـذه الكلمات : كتاب الفصيح

تأليف أبى العباس أحمد بن يحيي ثعلب

وكتاب تمام الفصيح

تأليف أبى الحسين احمد بن فارس

... ...

وفيه كتاب .... وكتاب الحروف

كلاهما عن علىّ بن عيسى بن على الرمانى

وفى الحاشية اليسرى إزاء اسم كتاب الرمانى « ملك لكاتبه ياقوت الحموى عفا الله عنه » ثم فى أسفل صفحة الغلاف كتب ياقوت نفسه فى سطور رأسية أسماء رواة كتاب الفصيح الى زمانه وبين كيف نسخ هذه النسخة من الفصيح وصححها . ونحن ننقل هنا بعض ما كتب :

..... وصاحب هذا الكتاب عبد الله الفقير إليه ياقوت ابن عبد الله الرومى الحموى ، بعد أن عارض بأصله هـذا نسخة السماع وكتب ما كان فيها من ..... وما كان فى هذه النسخة من الزوايد مخالفاً للأصل ضرب عليه بالحمرة . وذلك بأعلى ... الآخر سنة عشرين وستمائة . وهذا خط صاحب الكتاب ياقوت الحموى عفا الله عنه ...

وفى آخر نسخة كتاب الفصيح : « منقول من خط أبى الحسين علىّ بن عبيد الله السمسمى اللغوى بحواشيه حرفاً حرفاً ، وكان على وجه نسخته ، وفى الحاشية اليمنى بجانب هـذه العبارة كتب بخط أحمر : « قوبل بالأصل المنقول عنه ؛ فصح والحمد لله رب العالمين ، وقوبل ثانياً وصح »

وكتب فى هذه النسخة ، كما يقول ياقوت فى حاشية الغلاف : اختلافات النسخ فوق الكلمات بمداد أحمر ، وزيدت فى الحواشى زيادات وتصحيحات . وهذا برهان بمقابلة النسخة بنسخ أخرى

(١) أرسل الكاتب مع المقال صوراً من الكتاب لم يتيسر نشرها فى الرسالة

وليس فى الرسالة تاريخ نسخها ، ولـكن يؤخذ من حاشية الغلاف المكتوبة فى ربيع الآخر ســنة ٦٢٠ : أن مقابلة هذه النسخة بنسخة أخرى كان فى هذا التاريخ ، وقد حمل ياقوت هذه المجموعة معه حين فرّ من متوحشى التتار بين سنتى ٦١٧ ، ٦١٨ . وكان من بركة هذا الفرار أن بقيت لنا هذه النسخة ولم يصبها من أيدى هذه الجماعة الوحشية ما أصاب نفائس الـكاتب فيما وراء النهر وخوارزم وخراسان

***

وقد كتب على ظهر الورقة الأولى من كتاب تمام الفصيح لاحمد بن فارس : « كتاب تمام الفصيح تأليف الامام أبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا رحمه الله . ومن خطه نقل » ، وفى أول الـكتاب « نقلت من خط أبى الحسين أحمـد بن فارس مصنف الـكتاب » وتنتهى النسخة بهذه العبارة :

« وكتب أحمـد بن فارس بن زكريا بخطه فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة بالمحمّدية . قال ناسخ هذه النسخة هـذا جميعه صورة خط الامام أبى الحسين بن فارس رحمه الله . فأما أنا فانى فرغت من نسخ هذه النسخة بكرة الأحد سابع ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة بمرو الشاهجان حامداً لله ومصلياً على نبيه المصطفى محمد وآله وصحبه الـكرام ، وكتب ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى »

وكتب فى الحاشية مقابل كلمة المحمدية : « قلت المحمدية محلة بالرى هى بين السور البرّانى والسور الداخلانى » ، وهذه العبارة التى كتبها ياقوت فى آخر نسخة تمام الفصيح علاوة على تصريحه بأن هذه النسخة خط يده ، وأنه ختمها يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ٦١٦ فى مرو الشاهجان ، ونقلها من نسخة المصنف التى كتبها بخطه فى رمضان سنة ٣٩٣ فى المحمدية ترينا تدقيق ياقوت فى ضبط أسماء البلدان . فان هذا العالم الـكبير الذى أمضى شطراً من عمره فى تحقيق أسماء البلاد وتعيين مواقعها ، وجمع المعلومات التى مكنته من تأليف كتابه البديع الخالد معجم البلدان رأى فى نسخة اسم محلة غير مشهورة فاهتم بتعيين موقعها فى حاشية نسخته حتى أبان عنه ، وكان من قبل خفياً عليه نفسه كما يتبين مما يأتى :

وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان ، بمناسبة كلمة المحمدية ، نسخة كتاب تمام الفصيح التى كتبها بخطه المصنف أحمد بن فارس ، ووقعت فى يده بمرو الشاهجان ، ونقل العبارة التى ذكرها أحمد بن فارس فى آخر نسخته ونقلناها هنا . وهذا من أقوى الأدلة على صحة نسبة النسخة الحاضرة إلى ياقوت ، وهذه عبارته فى معجم البلدان « ووقع لى بمرو كتاب اسمه تمام الفصيح لابن فارس وبخطه . وقد كتب فى آخره : وكتب أحمد بن فارس بن زكريا بخطه فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ (كذا بالرقم فى النسخة المطبوعة فى لايبسيك) بالمحمدية فغبرت دهراً أسأل عن موضع بنواحى الجبال يعرف بهذا الاسم فلم أجده لأن ابن فارس فى هذه الأيام هناك كان حياً حتى وقعت على كتاب محمد بن أحمد بن الفقيه فذكر فيه . قال جعفر بن محمد الرازى : لما قدم المهدى الرّى فى خلافة المنصور بنى مدينة الرّى التى بها الناس اليوم ، وجعل حولها خندقاً ، وبنى فيها مسجداً جامعاً ، وجرى ذلك على يد عمار ابن الخصيب . وكتب اسمه على حائطها ، وتم عملها سنة ١٥٨ . وجعل لها فصيلاً يطيف به فارقين آخر ، وسماها المحمدية . فأهل الرى يدعون المدينة الداخلة المدينـة ، ويسمون الفصيل المدينة الخارجة ، والحصن المعروف بالزبيدية فى داخل المدينة بالمحمدية

« له بقية »

عبد الوهاب عزام

مطبوعات دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد بك كرد علي

أصدرت دار الكتب المصرية الجزء الخامس من « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » لجمال الدين أبى المحاسن يوسف ابن تغرى بردى الأتابكى فى ٤٦٧ صفحة كبيرة ، مشفوعاً بفهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ٤٢٨ هـ إلى سنة ٥٦٦ هـ ، وفهرس الأعلام ، وفهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والأرهاط ، وفهرس أسماء البلاد والجبال والأودية والأنهار وغير ذلك ، وفهرس وفاء النيل من سنة ٤٢٨ إلى ٥٦٦ وهى الأعوام التى استغرق هذا الجزء الكلام عليها . وأصدرت أيضاً الجزء الثانى من « الجامع لأحكام القرآن » لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى الأندلسى المتوفى بمنية ابن خُصَيب فى الصعيد الأدنى سنة ٦١٧ هـ ، وهو تفسير جليل « أسقط منه القصص والتواريخ ، وأثبت عوضها أحكام القرآن ، واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ » . وقد جاء الجزء الأول فى ٣٩٦ صفحة والثانى فى ٤٣٦ ، مصححاً بمعرفة الأستاذ السيد محمد الببلاوى مراقب إحياء الآداب العربية

والدار آخذة فى اتمام طبع كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى ، وقد أنجزت إلى الآن جزأه السابع . و « نهاية الأرب فى فنون الأدب » للنويرى ، وقد أتمت طبع السفر الحادى عشر منه . وانتهت منذ مدة من طبع « صبح الأعشى » للقلقشندى فى أربعة عشر مجلداً ، ولا ينقصه إلا الفهارس التى تحلى بها كل من النجوم الزاهرة والأغانى ونهاية الأرب . وأتمت طبع « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، فى أربعة مجلدات ، ويحمل الرابع منها الفهارس المنوعة . وطبعت ديوان مهيار الديلمى فى أربعة مجلدات ، وديوان صَرَّدُرّ ، وديوان نابغة بنى شيبان ، وديوان علم الدين أيدمر المحيوى ، وديوان جران العود النميرى ، إلى غير ذلك مما أحيته فى عهدها الأخير على نفقتها وبعناية رجالها . كما طبعت فى خمسة مجلدات قائمة الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة التى دخلت الدار

وكانت طبعت طائفة من الكتب الجليلة ، منها « الطراز » لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوى اليمنى فى ثلاثة مجلدات ، و « الاعتصام » للشاطبى فى ثلاثة مجلدات ، و « الاحكام » للآمدى فى أربعة مجلدات وغير ذلك . جرى طبع هذه الكتب باشرافها قبل أن تنشئ مطبعتها الفنية المتقنة ، وكانت طبعت فى دور آخر من أدوارها الماضية تاريخ مصر لابن إياس فى ثلاثة مجلدات مع الفهارس ، و « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لابن جيعان ، و « تاريخ الفيوم وبلادها » للنابلسى الصفدى ، و « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لابن دقماق وغيرها

هذا عمل دار الكتب اليوم وأمس ، ورأيت بعض الغيورين على العلم ينتقدون عليها بطأها فى اخراج الكتب للناس ، وما عمل هذه الدار بما تنشر من الأسفار الممتعة إلا عمل علمى محض يراد منه احياء ما قد يتعذر على الأفراد احياؤه من الأمهات العربية ، على غاية من العناية بالتصحيح ، مع معارضة النسخ المختلفة بعضها ببعض ، والتعليق على محال الاشكال من النسخ الأصلية المعتمدة ، وشرح ما يجب شرحه من المشكلات اللغوية والأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها ، وهو عمل شاق لا يدرك مبلغ خطورته إلا من عاناه ؛ فقد يتوقف الناشر فى صفحة محيت بعض كلماتها ، أو طمست بعض سطورها أياماً كثيرة ويتقاضاه اثبات الرواية الصحيحة أوقاتاً ، لو كان له أن يصرفها كما يشاء لكتب رسالة مطولة فى فن من الفنون . فاحياء كتاب من هذا الطراز ، فيه ما فيه من الغموض واللبس أصعب من تأليف كتاب ، ذلك لأن مصححه مقيد بالنص ومقيد بالرسم والخط ومقيد بالأمانة ، ليس له أن يبدل على هواه كلمة بكلمة ، ولو رأى ما ذهب إلى ذهنه أحق بالاتباع والاثبات . ولو كان عمل الدار تجارياً لأخرجت كل شهر بضعة مجلدات ، ولكن ماذا تكون قيمتها العلمية ؟

أما من يتبجحون بأن بعض منشورات الدار لا تخلو ، مع هذه العناية البالغة ، من أغلاط وتهاون ، فجوابنا لهم أن يتفضلوا وينشروا لنا رسالة صغيرة للقدماء ، فى مثل هذه الصورة اللائقة التى تصدر بها مطبوعات دار الكتب ، وعندئذ يحكم العارفون لهم أو عليهم . والدعوى الطويلة العريضة فى خلوة غير العمل السديد ، والنقد سهل والصعوبة فى الابداع

وأى خدمة أعظم من الخدمات التى تقوم بها دار الكتب المصرية للآداب العربية ، وكثير مما طبعته مَعْلمات أو انسيكلوبيديات فى الأدب والانشاء والعلوم . فالشكر للأستاذ المربى محمد أسعد بك برادة مدير دار الكتب على عنايته بالدقيق والجليل فى ديوانه ، ولاخوانه ومعاونيه الأساتذة المحققون : السيد محمد الببلاوى ، وزكى العدوى ، والشيخ محمد عبد الرسول ، والشيخ أحمد الزين وغيرهم من الناظرين فى الكتب . والشكر الكثير لمجلس دار الكتب الذى ما برح يقرر نشر كل مفيد من آثار السلف .

محمد كرد على

3me Année, No. 116. | Lundi-23-9-1935

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

ملكة الجمـــال

للدكتور عبد الوهاب عزام

للأقلام محن تقضى عليها أن تسف إلى ما لا تود الكتابة فيه ، وتكره على أن تخط ما تريد الترفع عنه . وقلمى مكره على الكتابة فى هذه الحماقات ، مرغم على أن يعنى بهذه الترهات

— ١ —

كنت أحادث جماعة من الأصدقاء ، فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا فى المدنية الحاضرة حسنها وقبيحها ، وجليلها وسفسافها . قلت : أحسب أن المسيطرين على أخلاق الناس فى كثير من مناحى المعيشة الحاضرة جماعة من التجار المفسدين . قال صديق : كيف ذلك ؟ قلت : فى طبع الانسان الكلف باللذات ، والاستهتار بالشهوات ، وقد سار العالم آلاف السنين على هدى التجاريب ، وتعليم الأنبياء والحكماء ، يزن آلامه ولذاته ، ويعدل بين مصالحه وشهواته ، ويضع شرائع ، ويسن سنناً ليعيش الانسان على شريعة تعرف وتنكر ، وتستحسن وتستقبح ، وتقول هذا حلال وهذا حرام ، حتى استقامت للانسان خطة فى سياسة نفسه ومعاملة الناس . وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها ، علماً بأن وراء اللذة العاجلة شراً أعظم منها ،

ويصبر نفسه على ما يكره إيثاراً للعافية فى العقبى ، واستمساكا بالفضيلة التى سكن إليها ، ومكنتها فى نفسه سيرة الآباء

قال صديق : هذا حق فما وراءه ؟ قلت : أرى العصر الحاضر مفتوناً كل الفتنة بالأهواء ، مستكلباً على الشهوات ، قد فتحت له من الملاهى أبواب ، ومدت له إلى الغىّ أسباب ؛ فشغلت من الحياة جانباً . هذه الملاهى والمراقص والحانات والمواخير . ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلبة ربح عظيم ، ووسيلة مال وفير ، فأقبلوا عليها إقبالاً ، وافتنّوا فيها افتناناً ، واستعانوا على تزيينها وجلب الناس إليها بكل ما أنتجت الحضارة من علم وفن ، ولم يدعوا حيلة فى الاستهواء إلا اتخذوها ، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها . افتن كل فيما يعرض ، وتؤدى المنافسة والطمع فى المال إلى استباحة المحظورات ، فينظر الناس أول الأمر ثم يسكنون ، ويخدعون أنفسهم فيما يرون ، بما تصبو إليه غرائزهم وتغرم به شهواتهم حتى يصير هذا أمراً معروفاً وعملاً مألوفاً . ثم يحدوهم حب الربح والمنافسة إلى أن يثيروا شهوات الناس بأفانين أخرى وهلم جرا ، حتى لا يصدهم وازع من فضيلة أو عادة ، وعبثاً يحاول القانون أن يصد التيار ، أو يقيم الجرف المهار ، وهكذا تقاد الأمم بأذنابها ، وتأتمّ بضلالها . وقس يا صاحبى على هذا أزياء النساء . فتنافس التجار فيها هو الذى يطيلها ويقصرها ، ويطلع كل يوم ببدعة تبين عما دق من المرأة وجل ، وما ظهر وما بطن . ولست أجد بداً من ذكر الحقيقة « العارية » ، وهى أن النساء الخليعات هنّ القدوة فى هذه السبيل ، يلبسن ما يلفت النظر إليهن ، ويميزهن من غيرهن ، فيروق النساء الأُخَر هذا الزى ، والمرأة لا تحب أن تُغلب فى زينتها وتجمّلها . فيصير هذا الخروج على السنن سنة مألوفة وطرافة (مودة) معروفة . وما ترى فى ألبسة البحر من تغير مستمر غايته أن تبرز المرأة عارية متزينة ؛ فهذه سبيله ، تبدأ به الخليعات الجريئات فتتهافت عليه الأخريات

ووراء هذا جماعة من تجار الكتاب ، والفسقة المفسدين ؛ يريدون أن ينالوا رغائبهم بشريعة ، ويفسدوا فى الأرض على علم فيكذبون على الجمال والفن والحرية ما شاءت مآربهم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويسمون الرذائل بغير أسمائها ، فالفسق إعجاب بالجمال ، وكل خليعة فنانة ، وكل خليع أستاذ ، ويتنافس أصحاب المجلات فى كتابة ما تحبه النفوس المريضة ، وعرض الصور التى يهفو إليها الشبان ، لا يبالون فى سبيل المال أن تصلح الأمة أو تفسد ، وتعمل التجارة عملها حتى يجد الرجل الحريص على الفضيلة ، الداعى إليها إذا ابتلى بمجلة أغضى عن مفاسدها ، فصار له رأى فى نفسه ، وفى غير مجلته ، وعمل آخر يجارى فى المجلة . وقد عجبت لبعض الكتاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق ، والتنديد بالخلاعة والمجون ، وبدع العصر الحاضر ، إذ رأيت المجلة التى يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه ، ويوافق مواعظه

— ٢ —

قال صديق : والشىء بالشىء يذكر ، وملكات الجمال ما ترى فيهن ؟ لقد سرت البدعة إلينا ، قلت استمع : كنت فى الصيف الماضى ذاهباً إلى إيران فعرجت على لبنان أياماً . وبينا أنا فى ظهور الشوير ، رأيت الناس يزدحمون ، ويستبقون إلى بعض الفنادق وسمعت أن هذه الجموع وتلك الوفود تتزاحم لتشهد اختيار ملكة الجمال فى لبنان . قال رفيق لى : قد سرت العدوى إلى البلاد العربية ، فقلت غاضباً : كلا . قال ألست ترى وتسمع ؟ قلت لا أكذبك ، لست أرى فى هذه الأزياء ، ولا أسمع فى هذه الرطانات عروبة ، فلا تعدّ هؤلاء من العرب

وقرأت منذ أيام أن ناساً اجتمعوا فى حمانا من لبنان لاختيار امرأة يسمونها ملكة الجمال ، وأن قنصل مصر ببيروت رأس هذا الجمع فأسفت أن شغل القنصل الفاضل نفسه بهذه السفاسف ، وشارك فى هذه المخازى . وقرأت عن انتخاب آخر فى بكفيا . وحمدت الله ، إذ لم أجد من المنتخبات اسماً يدل على عربية أو إسلام

وقرأت من بعد فى الجرائد عن حماقات كهذه فى الإسكندرية ، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهى يريد أن يجذب الناس إليه ، وصاحب جريدة غير عربية يبغى رواج جريدته ، وأمثال هذين . وبعد قليل رأيت صورة الملكة وقرأت أحاديث عنها ، فعلمت أن فتاة اسمها شارلوت سماها بعض ذوى المآرب ملكة الجمال فى مصر ، ولقبوها مس إيجبت (Miss Egypt) ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لتشارك فى مباراة الجمال . قلت شارلوت ليس اسماً مصرياً ، ومس إيجبت لا تعرفها مصر ، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يشهروا فتاة ، أو يشتهروا بها ، أو يتملقوا إليها ، أو ينالوا مالاً أو لهم مآرب أخرى . ثم تذكرت ما سطرت فى أول هذا المقال ، تذكرت أن زمام الأخلاق فى هذا

العصر بأيدى هذه الطغمات وأشباهها ، وأن هذا الذى نستنكره اليوم سيصبح إذا سكتنا عليه ، عادة تعد المجادلة فيها ضرباً من الأفن . وفكرت أن مس إيجبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر ، وتشارك فى سوق الرقيق هناك ، وتبوء مصر بكل ما فى ذلك من عار وحماقة . فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام ، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمة صار سنة ، وظن المفسدون ، كما تسوّل لهم مآربهم ، أنها سُنة حسنة ينبغى ألا تحرم منها مدينة أو قرية ، وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال فى تركيا فلم يستح بعض الوقحين من طلبة الجامعة أن يقترحوا أن يحتفل بها فى نادى الجامعة . مَن مُبلغ عنا هـذه الفتاة ، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها ، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوربا مدعية أن مصر أرسلتها ، ومصر بريئة منها وممن يرسلونها . ليت شعرى أرضى المصريون : الحكومة والأمة بهذه السبة . هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها

كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستعبدة ، ودولة مهددة سيخرج بطلاً أو بطلة ، تهيب بالمصريين ليغسلوا العار ، ويحموا الديار ، أو نرسل وفدا يدفع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم ؛ فاذا السفهاء فى شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل !

وقد أجاب أهل دمشق داعى العروبة والكرامة والفضيلة ، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سورية ، واستنكروا ذلك ، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة ، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء ومنعت اجتماع السفهاء لاختيار ملكة للجمال ، وفى ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة

سيقول السفهاء : جماعة لا يعرفون الجمال ، ولا يقدرونه ، ولا يميزون الحسن من القبيح ، فهم ساخطون ثائرون . والله يعلم أن الجمال يُعَبِّدُ قلوبنا ، ويملك مشاعرنا ، وتهفو اليه أفئدتنا حيثما تجلى فى السماء أو فى الأرض ، ولكننا لا نعرف الجمال فى الأسواق ، يصفق حوله الفساق ، ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء ، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء

عبد الوهاب عزام

الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وكيف يُشعبُ صدْعُ الحبِّ فى كَبِدى » . كيف يُشعبُ صدعُ الحب ؟

لَعَمْرى ما رأيتُ الجمالَ مرةً إلا كان عندى هو الألمَ فى أجمل صُوره وأبدعِها ؛ أُرانى مخلوقاً بجُرْح فى القلب ؟ ولا تكونُ المرأةُ جميلةً فى عينى إلا إذا أحسستُ حين أنظرُ اليها — أن فى نفسى شيئاً قد عرفها ، وأن فى عينيها لحظاتٍ موجَّهة إلىَّ ، وإن لم تنظر هى إلىَّ

فاثباتُ الجمال نفسَه لعينى ، أن يُثبتَ صداقتَه لروحى باللمْحة التى تَدلّ وتتكلم ؛ تَدلّ نفسى وتتكلم فى قلبى

* * *

كنت أجلس فى (اسكندرية) بين الضُّحى والظهر فى مكان على شاطىء البحر ، ومعى صديقى الأستاذ (ح) من أفاضل رجال السلك السياسى ، وهو كاتب من ذوى الرأى ، له أدبٌ غضٌّ ونوادرُ وظرائف ؛ وفى قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله فى مثله قد بلغ ماشاء اللهُ قوة وتمكنا ، حتى لأحسبُ أنه رجل من أولياء الله قد عوقب بحكم عليه أن يكون محامياً ، ثم زيد فى الحكم فجعل قاضياً ، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان ينقلب فى الليل مسرحاً ومرقصاً وما بينهما ... فيتغاوَى فيه الجمالُ والحب ، ويعرض الشيطانُ مصنوعاتِه فى الهزْل والرقص والغناء ، فاذا دخلتَه فى النهار رأيتَ نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه ، فتُحس للنور هناك عملاً فى نفسك

ويُرى المكانُ صدْراً من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل ، فما تجيئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر إلا وجدته ساكناً هادئاً كالجسم المستثقل نوماً ، ولهذا كنت كثيراً ما أكتب فيه ، بل لا أذهب اليه إلا للكتابة . فاذا كان الظهر أقبل نساءُ المسرح ومعهن من يطارحهن الأناشيدَ وألحانَها ، ومن يثقِّفهن فى الرقص ، ومن يُروِّيهن ما يمثلْنَ ، إلى غير ذلك مما ابتلاهن به الحياة لتساقطَ عليهن الليالىَ بالموت ليلة بعد ليلة

وكن إذا جئن رأينني على تلك الحال من الكتابة والتفكير ، فينصرفن إلى شأنهن ، إلا واحدة كانت أجملهن . وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل ، كأن المرأة منهن مثلُ العنز التى كسر أحدُ قرنيها ، فهى تحمل على رأسها علامةَ الضعف والذلة والنقص ، ولو أن امرأة تتبدَّد حيناً فلا تكون شيئاً ، وتجتمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً ، وأخرى شكلاً ناقصاً ، وتارة هيئة مشوهة لكانت هى كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتى يعشين فى المسرات إلى المخاوف ، ويمشين بمقدمات الموت ، ويجدن فى المال معنى الفقر ، ويتساقين الكرامةَ فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أبٍ أو أم أو زوجة

***

وتلك الواحدةُ التى أومأتُ إليها كانت حزينةً مُتسلِّبةً(١) فكأنما جذبها حزنُها إلىّ ، وكانت مفكّرة فكأنما هداها إلىّ فكرها ، وكانت جميلةً فدلَّها علىّ الحب ، وما أدرى والله أىُّ نفسينا بدأتْ فقالت للأخرى أهلاً ... ورأيتُها لا تصرف نظرها عنى إلا لتردَّه إلىّ ثم لا تردُّه إلا لتصرفَه ، ثم رأيتها قد جال بها الغَزَلُ جولةً فى معركته ... فتشاغلتُ عنها لا أُريها أنى أنا الخصمُ الآخر فى المعركة ...

بَيْدَ أنى جعلتُ آخذُها فى مَطارح النظر وأتأملها خلسةً بعد خلسةٍ فى ثوبها الحريرىّ الأسود ، فإذا هو يَشُبُّ لونَها(٢) فيجمِّله بتلألؤ ، ويُظهر وجهَها بلون البدر فى تمّه ، ويُبديه لعينىّ أرقَّ من الورد تحت نور الفجر

ورأيت لها وجهاً فيه المرأةُ كلُّها باختصار ، يُشرق على جسم بضٍّ ألْيَنَ من خَمْل النَّعام ، تعترضُ فيه الأنوثةُ فنَّها الكامل ؛ فلو خُلق الدلالُ امرأةً لكانتْها

وتلوح للرائى من بعيد كأنها وضعت فى فمها (زرَّ ورد أحمرَ) مُنضمّاً على نفسه . شفتان تكادُ ابتسامتُهما تكون نداءً لشفتى محب ظمآن

أما عيناها فما رأيتُ مثلَهما عينىْ امرأةٍ ولا ظَبْية ؛ سوادُهما أشدُّ سواداً من عيون الظِّباء ؛ وقد خُلِقتا فى هيئة تثبت وجودَ السِّحرِ وفعلَه فى النفس ؛ فيهما القوةُ الواثقةُ أنها النافذةُ الأمر ، يمازجُهما حنانٌ أكثرُ مما فى صدر أمٍّ على طفلها . وتمامُ الملاحةِ أنهما بهذا التكحيل ، فى هذه الهيئة ، فى هذا الوجه القمرىّ

يا خالق هاتين العينين : سبحانك سبحانك !

***

قال الراوى :

وأتغافلُ عنها أياماً ، وطال ذلك منى وشقَّ عليها ، وكأنى صغَّرتُ إليها نفسَها ، وأرهقتُها عنى الخضوع ، بَيْدَ أن كبرياءها التى أبتْ لها أن تُقدِم ، أبت عليها كذلك أن تنهزم

وأنا على كل أحوالى إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشى العطرَ يكون مُتضوِّعاً فى الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسَّه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذتَ منى . ثم لا تدفعنى إليه إلا فِطرةُ الشعر والاحساس الروحانى دون فطرة الشر والحيوانية(١) ، ومتى أحسستُ جمالَ المرأة أحسستُ فيه عمنى أكبرَ من المرأة . أكبرَ منها ؛ غير أنه هو منها

قال الراوى :

فانى لجالسٌ ذاتَ يوم وقد أقبلتُ على شأنى من الكتابة وبازائى فتى رَيِّقُ الشباب فى العمر الذى ترى فيه الأعين بالحماسة والعاطفة أكثرَ مما ترى بالعقل والبصيرة ، ناعمٌ أملدُ تمَّ شبابه ولم تتمَّ قوته كأنما نكصت الرجولةُ عنه إذ وافته فلم تجده رجلا . . . . أو تلك هى شيمةُ أهل الظرفِ والقصفِ من شبان اليوم ، ترى الواحدَ منهم فتعرفُ النُّضجَ فى ثيابه أكثر مما تعرفه فى جسمه ، وتأبى الطبيعةُ عليه أن يكون أنثى فيجاهدُ ليكون ضرباً من الأنثى . . . . — إنى لجالسٌ إذ وافت الحسناء فأومأتْ إلى الفتى بتحيتها ، ثم ذهبت فاعتلتْ المِنصّة مع الباقيات ، ورقصت فأحسنت ما شاءت ، وكأن فى رقصها تعبيراً عن أهواء ونزَعات تريد إثارتَها فى رجلٍ ما . . . . فقلت لصاحبنا الأستاذ (ح) : إن كلمة الرقص إنما هى استعارة على مثل هذا كما يستعيرون كلمة الحب لجمع المال . ولا رقص ولا حب إلا فجور وطمع

---

(١) يقال تسلبت المرأة إذا أحدت ولبست ثياب الحداد

(٢) أى يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال

(١) بسطنا هذا المعنى فى المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفى مواضع كثيرة من هذا الكتاب فلم نتوسع فيه هنا

ثم إنها فرغت من شأنها فمرّت تتهادى حتى جاءت فجلست إلى الفتى .... فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمّ بما فى نفسها : أتراها جملته ههنا محطة ... ؟

قال الراوى : أما أنا فقلت فى نفسى لقد جاء الموضوع .... وإنى لفى حاجةٍ أشد الحاجة إلى مقالة من المكحولات ، فتفرغتُ لها أنظر ماذا تصنع ، وأنا أعلم أن مثل هـذه قليلا ما يكون لها فكرٌ أو فلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفة والمعانى كلّها تكون فى نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله

***

وكان فتاها قد وضع طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهد رَجعَ حكمُ الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة .... فأسفر ذاك من طربوشه وأسفرت هذه من نِقابها . قال الراوى : فما جلستْ إلى الفتى حتى أدنتْ رأسها من الطربوش ، فاستنامتْ إليه ، فألصقت به خدها ....

ثم التفتت إلينا التفاتةَ الخِشْف المذعور استروَحَ السَّبعَ(١) ووجد مقدَّماته فى الهواء ، ثم أرْخت عينيها فى حياء لا يستحى ....

وأنشأت تتكلم وهى فى ذلك تسارقنا النظرَ كأن فى ناحيتنا بعضَ معانى كلامها ....

ثم لا أدرى ما الذى تضاحكتْ له ، غير أن ضحكتها انشقت نصفين رأينا نحن أجلهما فى ثغرها ....

ثم تزعزعتْ فى كرسيّها كأنما تَهُمّ أن تنقلب لتمتدّ إليها يدٌ فتُمسكها أن تنقلب ....

ثم تساندتْ على نفسها كالمريضة الناقهة تتناهضُ من فراشها فيكاد يئنُّ بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا ، وجاوزتنا غيرَ بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكسرة متخاذلةً كأن فيها قوة تعلِنُ أنها انتهت ....

***

قال الراوى :

ونظرتُ إليها نظرةَ حزن ، فتغضّبتْ واغتاظتْ وشاجرتْ هذه النظرةَ من عينيها الدّعجاوَينْ بنظرات متهكمة لا أدرى أهى توبخُنا بها ، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجّاناً ....

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجهَرُ بالكلام ليبلُغها : أما ترى أن الدنيا قد انتكستْ فى انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد فى فساده ، وأن البلاء قد ضوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت فى الشرّ القديم فانتزعت ؟

قال : وهل كان فى الشر القديم بقيةُ خير وليس مثلُها فى الشر الحديث ؟

قلت : ههنا فى هذا المسرح قِيانٌ لو كانت إحداهن ... فى الزمن القديم لتَنافَس فى شرائها الملوكُ والأمراء وسَراة الناس وأعيانهم ، فكان لها فى عمارة الزمن صونٌ وكرامة ، وتتقلّب فى القصور فتجعل لها القصورُ حرمةً تمنعها ابتذالَ فنها لكل من يدفع خمسة قروش ، حتى لرُذَّال الناس وغوغائهم وسفِلَتهم ؛ ثم هى حين يُدبرُ شبابها تكون فى دار مولاها حَميلةً على كرَم يحملُها ، وعلى مروءة تعيش بها

وقديماً أخذت سلاّمةُ الزرقاء فى قُبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم تبلغ ألفىْ جنيه . فهل تأخذ القَينةُ من هؤلاء إلا دَخينةً عِلّيمين(١) ... ؟

قال الأستاذ (ح) : ما أبعدك يا أخى عن (بورصة) القُبلة وأسعارها .... ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الراوى : كانت سلاّمةُ هذه جاريةً لابن رامين(٢) وكانت من الجمال بحيث قيل فى وصفها : كأنَّ الشمس طالعةٌ من بين رأسها وكتفيها ؛ فاستأذن عليها فى مجلس غنائها الصيرفىُّ الملقب بالماجن ، فلما أُذنت له دخل فألقى بين يديها ، ثم أدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين وقال : انظرى يا زرقاء جُعِلتُ فداك ، ثم حلف إنه نُقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذاك ؟ قال : أردتُ أن تعلمى

ثم غنت صوتاً وقالت : يا ماجن هبهما لى ويحك . قال : إن شئت والله فعلت ؛ قالت : قد شئت . قال : واليمين التى حلفتُ بها لازمة لى إن أخذتهما إلا بشفتيك من شفتى ....

***

(١) الخِشف ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى ، واستروح السبع أى وجد ريحه فى الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة وجمعها الدخاخن

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بثمانين ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة بمائة ألف درهم

مصر وقناة السويس

دستور القناة وحق السيادة المصرية

لباحث دبلوماسي كبير

كان انشاء قناة السويس فى أرض مصر نذير سوء لمصر، كما كان نذير الخير والرخاء لتجارة الغرب وصناعته؛ ولم تجن مصر من انشاء القناة فى أرضها سوى المتاعب الخالدة، وما زالت بسبب هذه القناة عرضة لفروض مؤلمة من الاستعباد الأجنبي، كما أنها ما تزال عرضة لعدوان الاستعمار ووثباته؛ وقد شعرت مصر مرة أخرى بما يمكن أن يجره عليها وجود هذه القناة فى أرضها من ضروب الشر والأذى، فى الآونة الحاضرة التي يوشك أن يضطرم فيها النضال بين دولتين من دول الاستعمار، هما ايطاليا المتوثبة السابحة فى أحلام عظمتها الجديدة، وبريطانيا العظمى التي تسيطر فعلاً على قناة السويس وتدعى عليها لنفسها حقوقاً خاصة ما تزال مصر تنازع فيها

ولما كانت مصر ما تزال ترتبط بحكم الظروف فى شؤونها ومصايرها الحيوية بتطورات السياسة الانكليزية، فانها تجد نفسها اليوم عرضة لأخطار هذه الحرب الاستعمارية التي تصر ايطاليا على اضرامها فى شرق أفريقية؛ وإذا كانت انكلترا تلمح شبح الخطر من جراء هذه الفورة الفاشستية على امبراطوريتها الاستعمارية، وعلى سيادتها فى البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وتزمع على ما يبدو أن تقاوم هذا الخطر، وأن تسحق المطامع الايطالية إذا اقتضى الأمر بقوة النار والسيف، فان مصر تجد نفسها من جراء ارتباطها بانكلترا، ومن جراء موقعها الجغرافى وحراستها الاسمية لقناة السويس فى أحرج مركز وأدقه. ماذا يكون موقف مصر إذا أصرت ايطاليا على مشروعها الاستعمارى وأعلنت الحرب على الحبشة، وماذا يكون مصير قناة السويس طريق ايطاليا الوحيد إلى ميدان القتال؟ بل ماذا يكون موقف مصر إذا تفاقم الأمر، ونشبت الحرب بين انكلترا وايطاليا، ومصر تجاور ايطاليا من جهة الغرب، وثغورها لا تبعد أكثر من سبعين ساعة عن مراكز الأسطول الايطالى؟ هذه فروض خطيرة مزعجة، ولكنها أضحت تلوح فى الجو قوية تكاد تنقض صواعقها بين آونة وأخرى؛ ومن ثم كانت موضع الاهتمام من جانب السياسة الانكليزية ومن جانب ولاة الأمر فى مصر

وأول ما يشغل مصر فى الآونة الحاضرة مسألة قناة السويس، ومدى ما يمكن أن يكون لمصر، سواء بمفردها أو بالاتحاد مع انكلترا من حق فى اغلاقها وقت نشوب الحرب الإفريقيـة، وهـذا بفرض أن الحرب لم تتعد طرفى النزاع الأصليين: أعنى إيطاليا والحبشة؛ ففى هذه الحالة تعتبر مصر من الوجهة الدولية فى حالة حياد بالنسبة للدولتين، ولكنها لن تكون كذلك فى الواقع لأن قناة السويس تغدو فى هـذه الحالة طريقاً حربياً لايطاليا، وفتحها فى وجـه السفن والقوات الايطالية لا يمكن أن يحقق معنى الحيدة، بل يكون وسيلة لمعاونة إيطاليا على افتراس الحبشة التي ترتبط مصر بها بروابط تاريخيـة ودينية وثيقة، ولمصر كما لانكلترا مصلحة حيوية فى ألا تقع منطقة تانا والنيـل الأزرق فى يد دولة قوية كايطاليا يكون وجودها فى تلك المنطقة خطراً على ماء النيل

وقد قيل لنا أخيراً إن فقهاء الدولة المصرية بحثوا مسألة قناة

قال الراوى: ورأيتها قد أذِنَتْ لى وأنصتتْ لكلامى، وكأنما كانت تسمعني أعتذر اليها، واستيقنتْ أن ليس بى إلا الحزنُ عليها والرثاءُ لها، فبدت أشـدّ حياءً من العذراء فى أيام الخِدْر . . . . . .

ثم قلت: نعم كان ذلك الزمن سفيهاً ولكنها سفاهة فن... لاسفاهةُ عربدةٍ وتصَعْلك كما هى اليوم

فنظرتْ الىّ نظرةً لن أنساها؛ نظرة كأنها تَدَمّع، نظرة تقول بها: ألستُ انسانة؟ فلم أملك أن قلتُ لها: تعالى تعالى وجاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به الفرصة، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت؟ . . . .

(لها بقية) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الى الفنان (الحائر): اكتب لى أيها المسكين عنوانك، فان موضوعك لا يحسن أن يكتب فيه إلا إليك. إن شيطانك يا رجل كأنه درس انفقه . . . .

الرافعي

السويس ومدى ما لمصر من حق فى اغلاقها إذا اقتضت الضرورات الدولية ، وقيل لنا إنهم انتهوا إلى تقرير حق مصر فى اغلاقها فى وجه الفريقين المتحاربين إذا نشبت حرب إيطالية حبشية . ونحن ممن يأخذون بحق مصر فى اغلاق القناة سواء من الوجهة الدولية أوالوجهة الواقعية كما سنفصل بعد ، ولكن الذى لفت نظرنا فى مباحث فقهاء الدولة المصرية هو أنهم انتهوا إلى تقرير حق مصر فى اغلاق القناة من طريق لا نعتقد أنه خير الطرق ولا خير الأسانيد لتدعيم هذا الحق . ذلك لأنهم استندوا على ماقيل لنا فى تقريره إلى ميثاق تحريم الحرب الأمريكى أوميثاق كلوج الذى عقد فى باريس فى أغسطس سنة ١٩٢٨ وانضمت مصر إليه إلى جانب الدول الموقعة عليه . وميثاق تحريم الحرب كما نذكر ، ينص على استنكار الدول الموقعة للحرب كأداة للسياسة القومية ، وعلى تعهدها ألا تلجأ لحل المنازعات الدولية مهما كانت أنواعها وأسبابها إلا للوسائل السلمية . وقد وقع ميثاق تحريم الحرب فى باريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ ، وفى ٤ سبتمبر التالى أبلغت مصر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بأنها تقرر انضمامها للميثاق بصيغته الأصلية دون التسليم بأى تحفظ أبدى بشأنه ، والمقصود بالتحفظات هنا ما أبدته بعض الدول الاستعمارية مثل بريطانيا من الاحتفاظ فى ردودها بحقوق وتحفظات معينة فى تسوية علائقها مع الدول التى تعتبرها واقعة تحت سيطرتها أو نفوذها

ويلوح لنا أن ميثاق تحريم الحرب لا يمكن أن يعتبر سنداً كافياً لما نراه من حق مصر فى اغلاق القناة . وفى رأينا أن هذا الحق يمكن اسناده من جانب مصر إلى حقوق السيادة القومية . ذلك أن مصر قد حلت بمقتضى التطورات الدولية منذ الحرب محل الدولة العثمانية الذاهبة واستعادت سيادتها القومية كاملة بانتهاء التبعية العثمانية الاسمية ، وأضحت لها من الوجهة الدولية مالأية دولة من حقوق السيادة الأرضية . هذا من الوجهة العامة . وأما من حيث مركز القناة الدولى ، فقد وضعت معاهدة استانبول التى عقدت فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بين الباب العالى ، وبريطانيا العظمى ، والنمسا والمجر ، وألمانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وهولنده ، وروسيا ، لقناة السويس دستوراً خاصاً من سبع عشرة مادة ، أساسه حيدة القناة التامة وحرية الملاحة المطلقة فيها وقت الحرب والسلم . وقد نص فى ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو « الاتفاق الحر على نظام نهائى يكفل فى كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة فى قناة السويس » . وكفلت المادتان الأولى والرابعة هذه الحرية فيما يأتى :

المادة الأولى - « تبقى قناة السويس حرة ومفتوحة دائماً أيام الحرب والسلم سواء لجميع السفن التجارية أو الحربية دون أى تفريق فى جنسياتها

وعلى هذا فالدول الموقعة متفقة فيما بينها على ألا تمس حرية المرور فى القناة أثناء الحرب أو السلم

ولا تخضع القناة مطلقاً إلى مزاولة حق الحصار »

المادة الرابعة - « تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب ممراً حراً حتى لسفن الدول المتحاربة وفقاً لنص المادة الأولى . وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على ألا تمرض القناة لمزاولة أى عمل حربى أو أى عمل من شأنه أن يخل بحرية الملاحة فى القناة ذاتها أو فى موانى الوصول إليها ، أو فى قطاع من هذه الموانى طوله ثلاثة أميال بحرية ، وهذا حتى لو كانت الدولة العثمانية هى إحدى الدول المتحاربة

ولا يجوز لسفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب أن تتزود من المؤن فى القنال أو موانيه إلا بالقدر الضرورى ؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة ؛ ويجب أن تمضى أربع وعشرون ساعة بين خروج سفينة حربية من أحد ثغور القناة وبين قيام سفينة تابعة لدولة معادية »

ففى هاتين المادتين جوهر دستور قناة السويس ، وعليهما يستند أنصار الدعاية الايطالية فى القول بأن مصر لا تستطيع اغلاق القناة مطلقاً حتى ولو أعلنت إيطاليا الحرب على الحبشة ، واتخذت القناة أثناء الحرب ممراً لأساطيلها وجنودها

بيد أن هنالك فى معاهدة استانبول نصاً هاماً تضمنته المادة الثالثة عشرة ، وهو أنه « فيما عدا التبعات المنصوص عليها صراحة فى مواد هذه المعاهدة ، فان ما لجلالة السلطان من حقوق السيادة ، وما لسمو الخديو من حقوق بمقتضى الفرمانات لا يمس بأى حال »

فى هذا النص ما يؤيد حقوق السيادة المصرية التى نرجع إليها حق مصر فى إغلاق القناة . ذلك أن حقوق السيادة التى كانت للدولة العثمانية على مصر قد آلت إلى مصر ذاتها بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولا ، ثم بمقتضى معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) ؛ فمصر من الوجهة الدولية هى صاحبة السيادة الأرضية على قناة السويس ، ولا يحد من هـــذه السيادة سوى حقوق الامتياز الممنوح لشركة القناة وهى حقوق استغلال تجارية فقط ؛ ولكن يحده من الوجهة الفعلية ما تدعيه انكلترا لنفسها فى تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ من تحفظات يتعلق أحدها بحق انكلترا فى الدفاع عن المواصلات الامبراطورية ، والقناة فى نظر انكلترا شريان من شرايينها الهامة

وفى وسع مصر أن تدعم حقها فى إغلاق القناة ، باعتباره حقاً من حقوق السيادة القومية ، أولاً بميثاق عصبة الأمم حيث ينص فى المادة العشرين على ما يأتى : « يعترف أعضاء العصبة بأن الميثاق الحالى يلغى كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التى تتعارض مع نصوصه ، وتتعهد بألا تعقد فى المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص » ، ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام العام بين الأمم ، وعلى مبـدأ حسم المنازعات الدولية بالوسائل السلمية ، فان هذا الدستور الذى يجعل من قناة السويس وقت الحرب ، طريق حرب يزيد فى ضرامها وأخطارها ، يجب أن يعتبر وثيقة قديمة تنافى روح العصر ونصوص الميثاق . وثانياً بميثاق تحريم الحرب حيث ينص فى المادة الثانية منه على أن الدول الموقعة عليه تقرر بأن تسوية المشاكل والمنازعات الدولية أيا كان نوعها وأسبابها يجب ألا يعالج إلا بالوسائل السلمية ومصر طرف فى هذا الميثاق مثل إيطاليا

ونذكر أن السنيور موسوليني قد أدلى فى بعض أحاديثه الأخيرة ، أن مصر وانكلترا لا تستطيعان إغلاق قناة السويس لأن المادة ٢٨٢ من معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) ، وهى التى تنص على المعاهدات والاتفاقات التى يبقى مفعولها بين ألمانيا والحلفاء ، قد ذكرت معاهدة أكتوبر سنة ١٨٨٨ الخاصة بدستور القناة ضمن المعاهدات النافذة الباقية (فقرة ١١ من المادة المذكورة) ؛ وميثاق عصبة الأمم هو جزء من معاهدة فرساى ، فليس فيه إذاً ما يمكن أن يتخذ سنداً لالغاء معاهدة سنة ١٨٨٨ ، وهذا اعتراض له قيمته من الوجهة الفقهية لو لم تكن معاهدة سنة ١٨٨٨ قد غيرت فى كثير من أجزائها بفعل التطورات الدولية ؛ وليس المقصود هنا إلغاء المعاهدة برمتها ، وإنما المقصود نسخ حق حرية الملاحة المطلق الذى قررته المعاهدة ، لأنه يغدو فى مثل الظروف الحاضرة خطراً على سلام العالم ، فضلاً عن أنه خطر على مصر ذاتها

هذا ومن جهة أخرى فان هنالك حالة فعلية لايمكن إغفالها ، هى أن القناة تقع فعلاً تحت سيطرة القوات الانكليزية ، وانكلترا تدعى عليها بمقتضى تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ حقوقاً تؤيدها هذه الحالة الفعلية ، ومهما كان من اعتراض مصر على المسائل المحتفظ بها فى تصريح فبراير ، فانه لا شك أن هذه الحالة الفعلية هى لب المسألة كلها ، وإذا كانت مصر تفكر حقاً فى إغلاق القناة إذا أقدمت إيطاليا على إضرام نار الحرب ، فانها سوف تفعل ذلك بالتفاهم التام مع انكلترا ؛ وقد يؤيد تصرف الدولتين فى ذلك قرار يصـدر من عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية المنصوص عليها فى الميثاق ضـد إيطاليا ، ويكون إغلاق القناة وقتئذ ذا صبغة دولية محضة ، ويكون فى عرف العالم كله وسيلة من الوسائل التى تتذرع بها مصر وانكلترا لصون السلام العالمى الذى تصر إيطاليا الفاشستية على تكديره تحقيقاً لشهواتها الاستعمارية

(✱✱✱)

٤ – فريزر ودراسة الخرافة

احترام الحياة الانسانية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
المدرس بالجامعة المصرية

أسلفنا القول فى بيان أثر الخرافة فى تثبيت دعائم الحكومة والملكية الشخصية والزواج . وها نحن أولاء نشرح ما غرسته فى النفوس من تقديس للانسان واحترام لحياته ؛ وبذا نكون قد أتممنا سلسلة النظم الاجتماعية التى شاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة فى نشأتها وتكوينها

بديهى أن معيشة البادية المبنية على حب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، وحماية الجار ، والدفاع المستميت عن المال والعرض ، والمملوءة بالأضغان والأحقاد أدعى لاراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه . فالانسان الأول الذى عاش هذه العيشة المضطربة ما كان ينعم بضمانات كافية لحفظ روحه . فلم يكن له عسس منظم يسهر على حراسته ، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كل من اعتدى عليه ، ولا محاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكى الدماء . ولا زلنا نشاهد الى اليوم أن القتل وازهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب وفى الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص . بيد أن الجمعية تعالج نفسها بنفسها وتمد لكل داء ما يناسبه من دواء . ولئن فات الانسان المتوحش شرطتنا المنظمة ، وجندنا الشاكى السلاح فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقن دمه . ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التى تتمثل فى صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة . ظهرت مع الانسان منذ نشأته ، ولازمته فى مراحل التاريخ المختلفة : تبدو فى العصور القديمة والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، بين البدو والهمج ولدى الأمم المتمدينة . ويكفى أن نشير الى أن كثيرين منا لا يجرؤون على السير ليلا – بل نهاراً – بجوار دار قتل فيها قتيل زعماً منهم بأن روحه الثائرة ستفتك بهم . وعلى عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة مما ترجع الى هـذه الخرافة ، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية . ويقص علينا عامتنا وسكان قرانا أغرب القصص عن المردة الذين لاقوهم فى طريقهم ودار بينهم ما دار من حوار ونقاش ؛ والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذى اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة ! وحديث « القرينة » والعفاريت ملأ قرانا ومدننا ، وأصبح أشهر من أن يعرّف عنه ، وله طب خاص وقوامون على أمره يتعهدونه بالبخور « والدقة » وما الى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الانسانية جنايات شنعاء ، فبلت بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلهم ، وقضت على آخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات . وقعدت بكثيرين عن السعى وراء أرزاقهم خشية أن يعدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح . وفى بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن ينتفع بمال أبيه وأهله وذويه بعد موتهم ، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الحرم المباح والمال المعتدى عليه ، فكل يعيش ليومه ، ولا يعمل شيئاً لغده ؛ وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التى هى أساس التقدم الصناعى والتجارى والاقتصادى ضائعة لدى هذه القبائل ؛ وفى ضياع هذه الفكرة ما يتنافى وتكوين الثروة والمتاع ، وكيف تتكون الثروة عند قوم كل همهم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها ؛ فاذا ماتوا انقرضت أمتعتهم معهم وبددت أموالهم ؟ يقول أحد كبار الرحالة : « إنه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أى قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين . كل يعيش على حسب هواه ، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير . وليس هناك ما يمنعهم من السرقة واقامة الأبنية الثابتة إلا العقيدة السائدة من أنه إذا مات أحدهم وجب أن تبدد أملاكه . فكل بتاجونى حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد ورثته فى شىء ، ذلك لان كل ما ادخره يبلى معه ، وعلى أبنائه أن يكوّنوا ثروتهم بمجهودهم الخاص . . . وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجاتهم العاجلة ولا يتعلقون برغبة

حقيقية ، ولا يصوبون نحو غاية بعيدة ؛ وهذا سر كسلهم وتواكلهم ورضاهم بالقليل الذى يتنافى مع التقدم والحضارة ، وعلام التعلق بالمستقبل الذى لا يرجى منه خير أو شر ؟ الحاضر هو كل شىء فى أعينهم ، والمنفعة الذاتية مبدؤهم ؛ فالابن لا يتعهد قطيع أبيه لعلمه أنه لا يعود عليه بطائل ، وإنما يكد ويكدح وحده ليحصل على ثروة شخصية [1] » فخرافة الأشباح والعفاريت والمردة سبب من أسباب الضعف السياسى والاقتصادى لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة

غير أن هذه الخرافة ليست شراً كلها ، بل كانت عاملا من عوامل الخير والدفاع عن الانسان فى الجمعيات التى سادت فيها ، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الانسانية . وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع بها أن تعكر على الأحياء صفوهم وتعترضهم فى طريقهم وتتقمص أجسامهم . وأرواح القتلى بوجه خاص مفطورة على الثأر ممن اعتدى عليها فى شخصه أو فى أهله وعشيرته . لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيتها بالهدايا والقرابين ، فيذبحون المعز والضأن والديكة والخنازير التى يغسل القاتل بدمها أقذار خطيئته . وأحياناً يحاربون هـذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ويهجرون القرى والمساكن من جرائها . وكم من قرية كانت آهلة بالسكان صباحاً ، ثم قتل فيها قتيل ظهراً فأضحت فى المساء خراباً يباباً ! وقد يمثل بالمقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كامنة فى جسمه وعاجزة عن الثأر له

فالاغريق الأول كانوا يعتقدون أن روح القتيل تتأجج غيظاً ممن اعتدى عليها وتتابعه فى حقله ومسكنه ولا ينجيه منها إلا فراره خارج الديار عاماً كاملا يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من ثورتها . وإذا عاد إلى وطنه سارع إلى تقديم الضحايا والقرابين تكفيراً عن اثمه . وقاتل هذا شأنه يعد شراً يتقى وخطراً تخشاه الجمعية لما يحيط به من أرواح ثائرة قد تؤذى كل من حام حوله ، فكان طبيعياً أن تحكم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن اللازم لتكفير خطيئته وارضاء الروح التى جنى عليها [1]

والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين والانتقام من المسيئين ؛ فهى تتدخل من غير انقطاع فى عالم الأحياء وتتصرف فيه تمام التصرف . نعم إن هناك فرقاً بين الأشخاص والأرواح ، بين الأحياء والأموات ، بيد أن هـذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية . وما الديانة الصينية إلا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح وما يتصل بها . وقوم يذعنون للأرواح هذا الأذعان لا يجرؤون على الاعتداء عليها ويقدسون الحياة الانسانية تمام التقديس [2]

ويعتقد سكان أفريقية الوسطى أن القاتل إذا قاسم قوماً فى طعامهم أو بات فى كوخهم أحل بهم غضب الله وربما كان سبباً فى هلاكهم ، اللهم إلا إن تداركهم القسس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم ، ويزعم بعض القبائل الهندية أن الرجل إذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه الا إن أراق دم خنزير أو جدى صغير ، ومع أن البانتو يعدون الفوز فى المعارك الحربية مفخرة عظيمة وشرفاً لا يعدله شرف فانهم يخشون أرواح القتلى خشية تصل بهم أحياناً إلى الجنون والصرع . ولدرء هـذا الخطر يبقى المحارب الظافر فى العاصمة بضـعة أيام لابساً خرقاً بالية آكلاً فى أوان وملاعق خاصة ، وحرام عليـه أن يشرب الماء وأن يقرب النساء وأن يتناول أى طعام دافئ . وإذا قتل أحد سكان الكنغو قتيلاً حمل على رأسه بعض أرياش الببغاء وغطى جبهته بلون أحمر ، وكأنما يريد بذلك أن يستتر عن أعين الروح التى تطارده . وفى غانة الجديدة تسارع القبيلة المحاربة بعد إنجازها هجوماً أو معركة ما بالعودة إلى مسكنها أو إلى قرية محالفة قبل أن يدخل الليل الذى تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحاربين . وفى مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه من دم القتيل أو أى أثر من آثاره . لذلك يطهر المحارب جسمه وحربته بعـد أن يتم مهمته ، وإذا وصل إلى قريته حيل بينه وبين أهله وذويه وبقى منعزلاً فترة من الزمن ، وفى اليوم الثالث من وصوله يحتفل به

(١) Alcide d' Orbigny, Voyage dans l' Amérique méridionale, II, P. 99 sq

(١) Platon, Lois IX, 8. — Aristote, Constitutions d' Athénes, 57.

(٢) Groot, The religious system of chiuna, IV, 450. 464

أصدقاؤه احتفالاً مناسباً ، وفى اليوم الرابع يلبس أجمل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكى السلاح مخترقاً شوارع القرية ؛ وعله يرمى بهذا إلى استرداد قوته وشجاعته . وإذا شكا أحد أبناء القرية ألماً فى معدته ظن أن ذلك راجع إلى أنه جلس فى مكان شغله محارب من قبل ؛ وإذا أصيب بأذى فى أسنانه عزا هذا إلى أنه أكل فاكهة لمسها محارب [1]

وأرواح الآباء والأقارب القتلى بوجه خاص شديدة الهول وعظيمة الخطر ، لأنها تجد وسائل كثيرة للثأر لنفسها وأعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى . وقد يكون فى هذا ما يفسر قسوة الجمهور إلى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه . والقوانين الجنائية نفسها مشربة بهذا المعنى فى مختلف الأمم والشرائع ، ولأبناء القرية الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب ، فلئن استساغ همجى إزهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفى ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه . فسكان الكنغو مثلاً لا يرون غضاضة عليهم فى العدوان على القرى المجاورة فى حين أن عدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفا ورعباً ، ولا يتردد القاتل فى أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً كأنه أحد أقاربه أو أصدقائه ولا يشرب ولا يأكل ويبكى بكاء مراً [2]

وليس خطر الأرواح والأشباح بمقصور على الأفراد وحدهم بل يتمداهم إلى الجمعية بأسرها ، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجانى من غيره . لذلك تضطر الجمعية إلى تهدئة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو إلى محاربتها والفرار منها . ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصعد إلى عالم السعادة ولا تنزل إلى عالم الشقاء ، وإنما تبقى دائماً حائرة فى الأرض تفزع من تلق ، ولترضية هذه الأرواح تقدم لها فى الغابات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية : « أرواح من سقطوا من شجرة ، أو من ماتوا جوعا وعطشاً ، أو من أكلهم النمر والثعبان ، أو من عدا عليهم الانسان ، أو من أهلكهم الطاعون والجرب ، لا تسيئوا معاملتنا ، ولا تؤذونا ولا تثوروا علينا ، امكثوا هنا فى هذه الغابة حيث

(1) Guise, On the tripes inhapiting ... New Guinea, Journal of the anthroponlogical institute, XX VIII, p . 213 sq

(2) Weeks, Among Congo cannibals, p. 268

الأرز اللازم لطعامكم [1] » وقد لا تقف الجمعية عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدئة الأرواح المضطربة ، بل تعمل على مطاردة هذه الأرواح بطرق أخرى . فهنود أمريكا الشمالية إذا عادوا من معركة صاحوا صيحات عالية وأحدثوا جلبة وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم ، ومن الغريب أنا نجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غانة الجديدة الهولندية والألمانية ، وفى استراليا . ويقطع جماعة الأسكيمو المقيمون فى مضيق بيرنج عضلات ذراع وجنب القتيل ليحول ذلك دون سيره إن عادت روحه إلى جسمه طلباً للثأر . وفى أفريقية الجنوبية يُهشّم العمود الفقرى تهشيماً منعاً للقتيل من الحركة . وتملأ طائفة أخرى عين القتيل بالفلفل كى تضل روحه السبيل

فخرافة الأرواح والأشباح ملأت الناس أفراداً وجماعات ذعراً وهولاً ، ودفعتهم إلى احترام الحياة الانسانية وتقديسها . وما القوانين الجنائية المنظمة ؛ والمحاكم القائمة بين الناس بالعدل والانصاف إلا أثر صالح من آثار هذه الخرافة . خشى الفرد القاتل الأرواح وعدوانها فلم يسرف فى القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصه ، ورأت الجماعة فى هذه الأرواح خطراً يهدد كيانها فأنزلت بالقتلة صارم العقاب ، وسنت ما سنت من حدود تروع الجناة وسفاكى الدماء ، وبذا أضحت الحياة الانسانية محفوظة بعاملين : داخلى وخارجى ، فردى وجمعى ، ومحمية بسلاح الاخلاق والقانون

يُجهد الفقهاء والمشرعون أنفسهم اليوم فى مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوابر أو زواجر . ويختلف علماء القانون الجنائى فى أثر العقوبة : فطائفة تقول إن الغرض منها إصلاح المجرم ، وأخرى ترى فيها القصاص الملائم للمجنى عليه ، وثالثة تعدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمعتدى عليها . وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة إلا منطق مهذب ندخله فى تقاليد القبائل الهمجية وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى . وهكذا تسير الانسانية من الخيال إلى الحقيقة ، ومن بحر الخرافة العميق إلى صخور العقل الثابتة ، ومن الخارق للعادة إلى الطبيعى ، ومن المسلم به إلى المنطق

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) Bringand, Les Karins de la Birmanie p. 208

الشعر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

ظهر الاسلام وقد تحكم فى حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة ، فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها ؛ فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعى أن ينفض رأسه إليه ، وألا يشجع الناس عليه ، فنى القرآن : « والشعراء يتّبعهم الغاوُون . وما علمناه الشعر وما ينبغى له » ، وفى الحديث : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يُرِيَه خيرٌ له من أن يمتلىءَ فمه شعراً » . فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذى يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب . ثم شُغل العرب جميعاً بالدعوة العظمى ، فمن مؤيد ومن معارض ، واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فجردوا عليه الأسنّة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش . فلم يغامر فى الخصومة إلا الشعراء القرشيون وقد كانوا قلالاً قبل الاسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثاراً بعده لدواعى النزاع والمعارضة . بدأ هذه الحملة منهم عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان ، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودّوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم ، فما هو إلا أن قال لهم : « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » حتى صمد للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم الهاجون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى نقول إن الشعر قد خطا فى مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد ؛ يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبى بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : أسلك كما أسل الشعرة من العجين

فليس من شك فى أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . وخضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأى ، فخرست الألسنة اللاذعة ، وفر الشعرُ الجاهلى ثانية إلى البادية ، وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك ، فخفَتَ صوت الشعر لقلة الدواعى إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين فى صادق المدح والرثاء ؛ وتساهل الرسول فى سماعه حتى أثاب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من الشعر لحكمة »

تلك كانت حالة الشعر فى عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء فى تأديب الشعراء ، وانصراف هم العرب إلى الفتوح ؛ ولكن الدين قد بدأ يفعل فى النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر فى الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلاً فى شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومعن بن أوس والنابغة الجعدى ، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الاسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ، فان شعرهم استمرار للمذهب الجاهلى لم يتأثر بالاسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب فى شعر حسان ، أو قلة الانتاج فى قريحة لبيد ، أو كثرته فى الحطيئة والنابغة الجعدى مثلا ؛ والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربى ظل فى الجاهلية والاسلام واحداً فى مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بنى أمية ؛ والتأثير الذى ناله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة ، وإنما وسع فى معانيه ومناحيه ، فقوى بعض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالغزل وهل يمكن التجديد فى الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر فى البادية ، والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم

---

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر حديثاً

المأثور من سؤدد وخلق وأدب ؟ فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم في القرن الأول عن مذهب شعرى جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد ، فان مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية ، فلنقصر الجهد على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرها وأثرها في الانتاج العقلي للعرب

***

كانت القحطانية والعدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، والعروبة والشعوبيـة ، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيـل أن يثور ، ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هـذه الفكرة ، والبصرة والكوفة تخططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الزعامة والامامة ؛ فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الاسلام ، كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غـير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده

ظلت هذه الروح العصبية مكبوتة في عهد الشيخين لأخذها الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المغنم من طريق الجهاد والفتح ، فلما ولى الأمر عثمان وهنت اليـد المصرفة فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأى فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آلـه الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية ؛ وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والغنائم بالثراء إلى حد البطر ، فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين على ومعاوية ، وقتل الامام فتحرج الأمر وانشقت العصا ، وانصرف العرب إلى جهاد العدو عن جهاد أنفسهم باللسان والسيف ، وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا . ففي الشام حزب يشايع بني أمية ، يريض لهم الأمر ، ويمكنهم في الملك ؛ وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير ، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته ؛ وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطالب لهم بحقهم في الخلافة ؛ وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة . وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين ، وهم المرجئة ؛ واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ، ولـكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والاغضاء والحزم حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج ، فلما مات أفاق خصومه من خَدَر سياسته فزعزعوا عرشه ، حتى إذا وهى أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفي زمن عبـد الملك اشتدت المعارضة واستمرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفيء ، واكتمل شباب الجيل الذى نشأ في الاسلام واغتذى بثمر الفتوح واستمتع بجمال الحضارة واختلط بأنماط شتى من الناس وساهم بيده ولسانه في هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربي غاية ماقدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصبية الغالبة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة ، والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائهم ، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو اليها وينافح عنها . واذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشـعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشـعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك في أن الشـعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيـه وأغراضه ؛ ولـكن هـذه الحياة لم تـكن كلها نزاعاً سياسياً وجدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن

أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها فى الشعر

***

كان من الطبيعى أن تختلف مظاهر هذه الحياة فى المواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه ؛ وقد لاذ العرب قبل الاسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس ، فأنشأوا إمارة المناذرة ؛ فلما فتحوه فى عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان فى العراق ميراث وَفْرٌ من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة ، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر ؛ وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية ، ووقعت فيه الأحداث الاسلامية الجُلَّى كوقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المعارضة لبنى أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين فى السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والكوفة بعد استقرار الامام بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة ، وهم كما قال الأصمعى رأس كل فتنة ؛ ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الامام على : « يا خنازير العرب والله لئن صار هذا الأمر إلىَّ لأضعن عليكم الجزية » . فكان الشعر العراق صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة ؛ فهو قوى عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه العصبية القَبَلِيَّة ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس ، وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الاسلامية ، وتتغذيه نفحات بدوية وصِلات أموية ، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ

والحجاز منبع الاسلام كان أشبه بينابيع النهر : يفيض منه الماء الصافى فى سكون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات فتكدر نميره واشتد هديره ، وتوزعته الجداول والأقنية ، فبعضه فى سباخ الأرض ، وبعضه فى الرياض ، فروى بعضاً وأغرق بعضاً . انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام ، وبقى هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمعونة من كل قطر ، واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلوهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق ، وفى أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو ، فتبسطوا على النعيم وعكفوا على اللذة ، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة ، وذهبوا فى حياة المجون كل مذهب ؛ ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم فى وقت واحد كما يقول أبو الفرج : « ابن سُرَيج ، والغَريض ، ومعْبد ، وحنين ، وابن محرز ، وجميلة ، وهَيْت ، وطُوَيْس ، والدلاَل ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ، وابن طنبورة ، وعزة الميلاء ، وحَبَابة ، وسَلاَّمة ، وبلبلة ، ولذة العيش ، وسعيدة ، والزرقاء ، وابن مِسْجح » وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم ؛ فقد حدث الامام مالك عن نفسه قال : « نشأت وأنا غلام أتتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لى أمى : يا بُنى إن المغنّى إذا كان قبيح الوجه لا يُلتفت إلى غنائه ، فدَع الغناءَ واطلب الفقه فانه لا يضر معه قبح الوجه ؛ فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بى عز وجل ما ترى » . من ذلك شاع الحب فى مدن الحجاز ورقّت عواطف بنيه ، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضرى الرقيق الصادق ، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وينتهى إليهم

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم ، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز ، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق ، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته لخلاف ، أو يهيجوا طاعيته لمغنم ، فبقى الشعر من جراء ذلك راكداً فى نفوس أهله لا يبعثه باعث ، ولا يتوافر على دراسته وروايته باحث ؛ وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد اليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه ، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة فى اللغة والنحو والأدب

(يتبع)

الزيات

الى الدكتور طه حسين

نزيل حمص

للأستاذ محمد روحى فيصل

هو العبد الحبشى الماكر ، ومولى السيد جبير بن مطعم ، (وحشى) . نزل حمص واستقر بها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين فى صدر الاسلام ، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً ، وكان وحشىّ فى الجاهلية ، فتىً شجاعاً رقيقاً يخضع على كرهٍ منه لما يخضع إليه الرق من ضعة الذل والعبودية ، فلما كانت غزوة أحد وقامت الحرب التى لابد منها بين النبى وخصومه ، صاح به مولاه جبير وقال :

— هذا العداء دائر بيننا وبين محمد ، وأنت باسل طموح ، فلئن قتلت حمزة بن عبد المطلب عم النبى وثأرت لى منه ، فأنت حر طليق

— سمعاً وطاعة يا مولاى

وتشب النار ، ويضطرب الناس ، وتتساقط القتلى من الفريقين ، ووحشى الماكر كامنٌ أثناء المعركة وراء شجرة يستتر بها عن الأعين ويرقب الفرصة السانحة ، فلما رأى أسد الله حمزة يجول فى الميدان ويصول على جواده ، رماه بحربة من هذه الحربات القاتلة التى لا تخطئ موضع الخطر فى الانسان ، ولا تحيد عما قُصد بها من غاية ..!!

وينطلق العبد إلى مولاه جذلان مرحاً ، ويظفر بحريته الحبيبة ، ولكنه « لم يعد إلى بلده ، وكيف سبيل العودة إليها ؟ ولم يَسُد فى مكة ، وكيف السبيل إلى السيادة فيها ؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد وطليقاً كالأسير »

ثم ينتشر الاسلام ، وتنهار الوثنية ، ويدخل المسلمون الظافرون مكة الكافرة ، فتضيق الدنيا على رحبها بالعبد القاتل ، ويفكر كثيراً فى نجاته ، فيفزع آخر الأمر مضطراً إلى الاسلام ، ويقصد خائفاً وجه النبى ، ولكن النبى لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً . ويحزن النبى عليه السلام حين رآه ، ويسترجع بالذكرى والخيال عمل وحشىّ المنكر الماضى ، فيقول له : غيّب وجهك عنى ! فيخضع التائب للأمر الواقع ، ويندم على ما فعل « وعاش وحشى فى المدينة حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وحمل الندم يحز فى قلبه حزاً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، يؤرقه إذا دنا الليل ، ويعذبه إذا أقبل النهار ! »

ويلهو العبد النادم بالجهاد ، ويشترك فى حروب الردة ، فيبلو فيها البلاء الجميل ، ويقتل مسيلمة الكذاب ، ثم يمعن فى جهاده ويغزو مع من غزا بلاد الروم ، فينزل حمص ويستقربها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين ، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً ؛ ولكن الندم على هذا الجهاد المتصل لا يزال قوياً واضحاً يفعل أفاعيله فى نفس وحشى المسلم ، يقلق عليه مضجعه ، ويشغله عن كل شىء ، ويعذبه عذاباً أليماً

ويمضى على عادته أديب العربية الكبير الدكتور طه حسين فى تحليل النفس النادمة ، ووصف ما تعانى من الآلام ، فاذا وحشى « يستعين على الندم بالخمر ، وإذا هو يشرب ويسرف فى الشرب ، وإذا هو يُضرب فى الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب ، وإذا هو معروف فى أهل حمص بما قدم من خير وشر ، وإذا هو معروف فى أهل حمص بسكره إذا سكر ، وبصحوه إذا صحا ، وإذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث . والندم يلح عليه حتى يبغضه إلى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً ، وكما مضت عليه الأيام ازداد امعاناً فى الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم ماثل مع ذلك فى نفسه ، ملم بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا إلى الفرار منه إلا إلى الشراب ، وهو يُضرب فى الشراب ، وقد ضعف وفنى ، فلا يحتمل الضرب فيموت »

***

وقفت خاشعاً بالأمس على قبر وحشى المجاهد السكير ، وهو قبر متواضع متهدم لا يزال قائماً فى شرق حمص يزوره الناس كل يوم ، أسترجع الجهاد العظيم الذى أبلاه صاحبه ، وأتمثل مصرع حمزة « خير الناس » ومسيلمة « شر الناس » على يده ، وأسأله هل شرب فأسرف فى الشرب ؟ وضرب على ذلك فلم يمتنع عن

السكر ؟ وهل كان حقاً لا يجد سبيلاً إلى الفرار من الندم إلا إلى الشراب ، وهل ختم حياته الصالحة بهذا الشر المنكر ؟ وما عهدتنى قط فى حياتى أقف على الارماس البالية المتداعية ، أخشع حيالها وأسكن إلى صمتها وأستنطقها تاريخ أصحابها كما يسجله الدهر ، وتمليه الحقيقة ، ويقتضيه المنطق ، وخرس القبر الأبكم الأصم فلم يجب السائل ولم يتحدث إلى الواقف ، ولـكن معنىً واضحاً أشرق على قلبى وتمدد فى نفسى ، يقول إن وحشى الجاهد قد ظلم ظلماً كبيراً ، ونسب إليـه ما هو منه براء ، ولم يكن كما وصف مدمناً يفزع إلى الخمر ليقتل ندمه الثائل وينسى ألمه الرازح

ورجعت إلى الـكتب أستنطقها هى الأخرى عن حياة وحشى ، فاذا بها تتحدث إلى عن كل شىء ، وتقص لى ما تعرف فى هدوء المنطق وجمال الحقيقة ، ولـكنها تنكر هـذا الشرب المتصل الذى ختم به وحشى حياته وضرب من أجله مرات ، والاسلام يمحو ما قبله ، فـكيف اشتد الندم بالصحابى هـــذا الاشتداد ، حتى لجأ إلى الخمر يعاقرها ويلهو بها ، وهو يعلم أن الله قد رضى عنه وغفر له حين دخل فى الاسلام ؟

ان الـكاتب الأديب الروائى غير مطالب بالدقة التاريخية ، ولا هو مسئول حين يعمم القول ويرسله إرسالاً ، مادام قوله لا يناقض وجه التاريخ ولا يهدم ظاهر الرواية ؛ ولـكنه مطالب مسئول حين يقرر شيئاً يخالف المأثور الواقع أو لا يقره التاريخ عليه ولا يؤيده الحق فيه .

وما أرى إلا أن عظام الصحابى الجليل قد اهتزت فى قبره ، وضج الحمصيون لما نسب الى نزيلهم الـكريم . ونحن خبيرون بثقافة الدكتور الواسعة العميقة ، وشدة تحريه فى كتب التاريخ الاسلامى ، واستقامة منطقه ونظرته ، فهل يدلنا الدكتور أو تحيلنا « الرسالة » على مصدر الرواية التى يصورها الأديب المثقف فيحسن تصويرها ويبدع فى سردها ، والتى لم نعثر عليها فيما بين أيدينا [١] من كتب التاريخ ومراجع البحث ؟

(حمص) محمد روحى فيصل

(١) لم نجد شيئاً فى « وفيات الأعيان » لابن خـلكان ، ولا فى « الاصابة فى تمييز الصحابة » للعسقلانى ، ولا فى « فوات الوفيات » للـكتبى ، ولا فى « تهذيب الأسماء واللغات » للنووى . انما قرأنا رواية موجزة فى حاشية « خلاصة الـكمال فى تاريخ رجال الحديث » للأنصارى ، وهى : — قال عمر بن الخطاب : « ما زالت فى نفسى لوحشى حتى أخذ ، قد شرب الخمر بالشام فجلد حداً فحططت من عطائه الى ثلثمائة » وكان فرض له عمر فى ألفين — والـكلام كما ترى من عمر وقد جلده حداً مرة واحدة ، ومعروف أن وحشى توفى أيام عثمان بن عفان ، فالرواية على هذا لا تثبت إدمان الشرب ولا معاودة الحد . وهناك أحاديث أربعة وقيل ثمانية مرويات عن وحشى ... ! !

حب الاستعمار والجشع سيقضيان على الحضارة

مؤتمر الكتاب في باريس

لحفظ الثقافة

« الماركسية حلقة من سلسلة الثورات التي قام بها البشر »
(كهينو)

بقلم ماجد شيخ الأرض

احتشد نيف ومائة كاتب أموا باريس من جميع أقطار المعمورة في قاعة (قصر التواليه) وجلس وراءهم حشد عظيم من النظارة أتوا يشاركون الكتاب عواطفهم نحو المدنية التي يبحث عن درء الخطر الذي يتهددها ، ويستمعون إلى أقوال كبار الكتاب وآرائهم في المحافظة على مخلفات الثقافة التي ينعم الانسان بثمارها اليانعة ويحس بنشوتها إذا غمرت فضيلة العلم فؤاده ، وتفتحت أمام عينيه بعض أسرار هذا الكون المجيب المغلقة

هبت عاصفة من التصفيق الشديد ، وعلت أصوات الحضور بالهتافات لسير الثقافة مرفوعة الجبين بالرغم من معارضة الرجعيين عند ما انتهى اندره جيد من خطابه الذي افتتح به المؤتمر وأتى على ذكر غاياته وبيان أبحاثه ، وكأن الجمهور أحس بالواجب المقدس الذي حدا بفنان مثل جيد إلى الظهور من عزلته التي اعتادها طيلة خمسة وستين عاماً مسافراً يجوب البلدان والأقطار ، أومنزويا في بيته يدون آراءه وأفكاره في كتب لا يطبع منها إلا عدداً محدوداً ، كأن الجمهور شعر بالخطر الداهم الذي يحتم على كل فرد له ميزة من العقل والاحساس أن ينتبه فيصمد في جملة الصامدين . لم يكتف الجمهور بالهتاف ، وما كاد جيد ينتهي من خطابه حتى تقدم إليه رهط من الشباب المثقف بلغ بهم الحماس مبلغه يريدون رفعه على الأيدي لولا أن حال دون بغيتهم الاعتذار وتطبيق نظام المؤتمر ، ثم لم تلبث عاطفة الحماس أن هبت من جديد لكن في هذه المرة كان يعلوها حزن عميق ارتسم على الوجوه عند ما قام إلى المنبر عضو المؤتمر الكاتب (اراغون) يؤبن بعبارات رقيقة الكاتب الثوري (رنيه كريفيل) الذي قضى في منتصف الطريق التي يعمل فيها للحرية وإحقاق الحق ، وقد دمعت عيون بعض الفتيات إذ أتى الخطيب على فقرات مؤثرة للكاتب الراحل

كان انعقاد المؤتمر في مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو الفائت ، ودامت الجلسات تترى بعضها في النهار وبعضها في المساء حتى الخامس والعشرين ، وقد قسمت الابحاث على عشر جلسات تناوب بعض الأعضاء رياستها ، وتعين لكل جلسة مقررين منهم . أما الابحاث التي تنوقش فيها وجرى إقرار ما يجب عمله بشأنها فهي :

تراث الثقافة . موقف الكاتب في المجتمع الانساني . الشخصية . الانسانية . الشعب والثقافة . الابداع عند الكاتب وقيمة الفكر . تنظيم مقررات المؤتمر . الدفاع عن الثقافة

ولمعرفة أهمية هذا المؤتمر يكفينا أن نذكر جيد ومالرو وكوتوريه وارغون ونيزان وكهينو وبندا من الفرنسويين ، وتولر وهنريخ مان من الألمان ، وفرانك من الأمريكان ، وإهرنبورغ وكولتسوف وتيخانوف والشاعر باسترنيك من السوفيت ، والسيدة كارن ميكائيليس الدانماركية ، والسيدة واديا ولعل اسمها وديعة الهندية وهكسلي وفورستر من الانكليز

بدت الجلسة الأولى جدية أكثر من أخواتها لأن بعض المؤتمرين لم يكونوا بعد قد تعارفوا وإن سبق تعارفهم روحياً منذ زمن طويل ، أو لأن الموضوع الذي طرحه المسيو بندا في هذه الجلسة كان دقيقاً وكان خطيراً احتدم حوله النقاش مع أن أكثر هذه الخطب كانت مهيأة من قبل ليتسنى لهم ترجمتها ، ولوحظ أن الخطب التي تطرق أصحابها فيها إلى السياسة هي الخطب التي تحمس لها الجمهور وأظهر إعجابه بها إلى حد كاد يخرجه عن المألوف في مثل هذه الاجتماعات ، حتى بتنا نقول إن في كل يوم مظاهرة ، تارة ضد الرأسمالية ، وتارة للحرية المهددة بالفاشستية ، وطوراً للطبقات العاملة التي لا تستفيد من الوضع الحاضر غير دفع الغرم . بل كيف لا يتحمس الجمهور وهو يرى الكتاب وقد وفدوا من أقصى الجهات وتحملوا أعباء السفر على اختلاف نزعاتهم وتباين آرائهم ليضعوا لهم نظاماً يحفظون به

تراث الثقافة الذى خلفته لنا حضارة الانسان وليدة دمه المهراق وعراكه المستمر

قال جوليان بندا ماخلاصته : « إن نظرة أمم أوربا للآداب والفنون تختلف اختلافا بيناً مع النظرة الشيوعية من حيث علاقة الحياة الفكرية بالحياة الاقتصادية

فان الأولى تعتقد باستقلال وسمو الحياة الفكرية عن الحياة الاقتصادية ، أما الثانية فانها تعتقد بتضامن الحياتين . فالاختلاف يبدو لنا أساسياً مما يجعل التسوية بينهما مستحيلة لابد لهـــا من حرب

ثم هناك مسألة أخرى اختلف فيها الناس كثيراً : هل وجهة النظر الشيوعية المذكورة شىء خفى من شأنه أن يقضى على وجهة النظر السائدة فى الغرب ، ويقطع عليها الطريق ، أو أنها نتيجة سير وجهة النظر الثانية وتطورها ؟

فبعضهم يقول بأنها وليدة التطور والاتساع العام للمدارك عند الأمم الغربية ، يشبهونها بمذهب (الرومانتيسم) الذى كان وليد الاتساع الخاص للمدارك الأدبية

لكن الأمر على غير ما يتصورون ، فان الرومانتيسم برغم ما أدخله من العناصر الجديدة فى الأدب لم يكف أصحابه عن الاعتقاد باستقلال الرجل الموهوب وبعده عن المؤثرات والأوضاع الاقتصادية

فبين وجهتى النظر الغربيـة والشيوعية إذاً تباين ليس فى المرتبة أو المسافة ، بل فى الروح والتكوين »

لم يكد ينتهى المسيو بندا من خطابه حتى قفز إلى المنبر المضوان الفرنسيان المسيو كهينو والمسيو نيزان ، وإليك خلاصة ما قاله الأول :

« إن الأمر أهون بكثير مما يتوهمه المسيو بنـدا ، فحسب رأيه إذا انتقل واحدنا من هذه البلاد إلى بلاد الاتحاد السوفيتى فلا بد أن تستقيم له غير هذه الروح وغير هذا الدماغ للتفكير

لا حاجة عندى لكل هذا التغيير وإذا لم يكن بد من شىء فهو اتباع العقل فى مجرى تدرجه الطبيعى

وليست الثورة البلشفية الأخيرة عن بواعث دينية أو إقليمية محلية ، بل هى حلقة من سلسلة الثورات الانسانية التى ابتدأت منذ أن دب الانسان على الأرض

ولست أرى فى كارل ماركس غير مفكر من هؤلاء المفكرين الذين يظهر أمثالهم كل يوم فى الغرب ، وليس هناك من شىء فى رأيى يدفع بنا إلى مقاومة الماركسية ونبذها

ومن العبث والسذاجة أن نقابل هذا الخط الطويل من الآراء المثالية بخط مثله من الآراء الاقتصادية التى لا تقل فى قدمها وفى تدرج حركتها عن الآراء الأولى

أما إنجاح الماركسية ، فمتوقف على الفئة التى تهتدى قلوبهم إليها وعلى مقدار إخلاصهم وتضامنهم ، ولا أظن أن هنالك فريقاً من البشر يلحقه خيرها وفريقاً آخر يلحقه شرها ؛ ما دام الناس فى هذا العالم متشابهين من أكثر الوجوه ، وذلك ما يقوله لنا إحساسنا الداخلى فى كل ساعة : إننا متشابهون . فان مصير الناس كلهم واحد ، كما يقول هوجو ، ومقدراتهم متشابهة سواء أكان الانسان عالماً أم عاملاً . أليست الحياة والموت محتمين ! ومشاكل العيشة العامة والخاصة تتشابه بدون استثناء ، وكل ما عمله الذين سبقونا وما نعمله لكشف خبايا هـذه الأسرار المحيطة بنا ، ما زال ويا للأسف ابتدائياً ، وهـذا ما يشجع فينا الشعور بالتشابه ، والشعور بالتشابه يجعل الاحساسات الشائعة بيننا واحدة ، وكلاهما يدفع بنا إلى إنشاء الجمعية المشتركة فى النفع والضرر ، بل نحن نعمل على إنشائها بدافع طبيعى فينـا ونريدها من صميم أفئدتنا »

وإليك خلاصة ما قاله المسيو نيزان :

« لا أستطيع الكلام بدون الاعتماد على التاريخ لأن ما جاء به الفيلسوف بندا يتضمن شيئاً كثيراً منه

لقد صور لنا المسيو بندا العالم الغربى فى صورة متناسبة متناسقة تجمع شتى الأقوام وشتى الطبقات ، وأكثر ظنى أن هذه الصورة لا تتفق مع صحائف التاريخ ، ومن المستحيل أن تكون لهذا العالم صورة جامعة متناسقة فيها مختلف العناصر البشرية الغربية مادامت مراجعها وينابيع حياتها مستقاة من مدنية الاغريق والنصرانية ثم النهضة الأوربية (الرينسانس) وعهد الاصلاح (الريفورم)

والثورات البورجوازية المختلفة . فأستطرد وأؤكد أن المدنيـة الاغريقية نفسها لم تـكن فى أيامها السوالف عمل جميع الاغريق

ينظر المسيو بندا إلى الغرب نظرة أفلاطونية ، نظرة إيجابية ، لا تتطلع إلا إلى الآثار الثمينة وإلى الأفـكار من حيث هى أفـكار رفيعة ، نظرة محدودة لا تعبأ بما تحت هـذه الآثار من دوافع واحتمالات غامضـة ، ولا تهتم بالحوادث البارزة التى سهلت تلك النتائج

صحيح أن هذه النظرة سادت برهة عند اليونان القدماء ، ثم أصبحت فيما بعد قوام التفكير النظرى عند الأمم الأوربيـة البورجوازية

لـكن مذهب أفلاطون ليس كل ما عند الأغريق من مذاهب للتفكير

أنى المسيو كهينو فيمن ذكرهم على اسم ابيقور الذى كان يوجه كلامه إلى العبيد الأرقاء ، وهو الرجل الذى ما كان يتوخى تطهير جمهرة مختارة من البشر ، ولا كان يستنسب جلساته بين طائفة متميزة منهم ، واليكم الآن مجمل ردى على المسيو بندا :

إن هذه الطائفة المثقفة التى شاء أن يسميها بالعالم الغربى نقبل كل انتقاد يمكن أن يوجه اليها ، أو إلى الأوضـاع التى تعيش فيها ، ونرحب بكل تحوير ممكن لهذه الأوضاع يكون فى جانب الطبقات التى تحيا وتفـكر ، وتجوع وتموت . ونقبل فى آن واحد أن نؤمن ونشك فى كفاءة الانسان وقدرته ، كما قبل ذلك كارل ماركس فى كلامه عن الانسان (الذى اكتفى حاجاته) ونحن قبل كل شىء نرفض المعتقدات الدينية ، والصفات الالـهية رفضاً باتاً ونعتبرها — كما اعتبرها ابيقور وكتاب فرنسا فى القرن الثامن عشر — أشياء تتمثل فيها مخاوف الانسان وأثر اضطهاده

أما موقفنا من وجهة النظر الغربية فهو ليس قطعاً لها وانفصالاً عنها ، بل هو موقف النور الهادى الذى يقبل الحالين معاً فيتسع إلى أقصى حد ويضيق إلى أقصى حد

ونحطم بالحجة الدامغة هذه الميثولوجيا الانسانية التى تريد منا أن نعبد ونمجد انساناً غامضاً نجهل وجوده ، وتحملنا على أن ننسى أو نتناسى أننا للآن لم نكن متساوين فى الآلام ، وفى الانتصارات ، وحتى فى الموت »

يتبين لنا من خلال الخطب الثلاث التى تخيرنا تلخيصها فى هذا المقال ، المنطق الذى جرى عليه الخطباء فى نقاشهم ، فلا سبيل إلى الحشو والتنميق ، وكانت الأبحاث على بساطة انشائها دقيقة إلى حد كبير ، يقرأها القارئ الفطن بدون عناء ، فتتجلى أمامه المشاكل الكبرى التى طالما دوخه التفكير فيها محلولة لا تحتاج لغير التنفيذ ، وكأنما العالم مريض أصيب بداء عضال عالجه هؤلاء الكتاب فأحسنوا التشخيص وأحسنوا الدواء

ولعل أكثر جلسات المؤتمر حماسة هى الجلسة التى بحث فيها الكتاب موقفهم من المجتمع ، فكانت مظاهرة علمية قامت ضد الظلم والجور والاضطهاد ، وكيف لا يتظاهر الكتاب للحرية المغتصبة ، والحق المضاع ، وهم رسل الحرية ورواد الحقيقة ، بل كيف لا يثورون وبينهم قسم كبير طردوا من بلادهم بعد أن أحرقت كتبهم وسيموا أنواع العذاب والتنكيل ، لـكن هذا الحماس ما لبث دقائق حتى عاد الكتاب يبينون آراءهم فى جو مشبع بالهدوء والسكينة

شكت كارن ميكائيليس مندوبة الدنمارك من أن الكتاب لا يأبهون كثيراً إلى المهمة التى خلقوا لها ، ولا يقدرون الدور الذى يجب أن يلعبوه على مسرح الحياة حق قدره فيؤدوه خير أداء ، إن الكتاب بحكم وظيفتهم أدلاء ، ومن واجب الدليل أن يكون فى الطليعة ، لـكنهم يخشون العزلة ، وتراهم يفتشون عمن يحل محلهم ، ثم يلتجئون إلى حلقة منزوية من أصحابهم وزملائهم ، يصوبون جامات الغضب على القادة المضلين ، لـكن همسهم هذا ويا للأسف لا تسمعه غير آذانهم . . . .

وشكا جيد من قلة اخلاص الكتاب فيما يكتبون ... وشكا مالرو من تدجيلهم لنيل المال والجاه . . . .

والخلاصـة قد أوضح الكتاب أن المجتمع البورجوازى لا يمكن الكاتب من أن يخلص فيه لفنه وأدبه ، وقد شذ بعض القصصيين الانكليز ، اذ أطروا الحرية التى يمنحهم إياها النظام الديموقراطى القائم فى بلادهم ، لـكن وجد من بينهم من تصدى لهذه الفكرة ، وأبان لهم ان هذه الديموقراطية البورجوازية التى يتبجحون بها لا تشمل غير طبقتها وهى مع ذلك صائرة الى

الزوال يتآمر عليها أبناؤها البورجوازيون

نشطت حركة الحاضرين فى إحدى الجلسات نشاطاً زائداً واشرأبت الأعناق وحملقت العيون وأخذوا يتهامسون بكثير من الدهشة : « مندوبو السوفييت » كأنما هؤلاء هبطوا عليهم من جرم سماوى لم يأتوهم من بلاد تدعى الاتحاد السوفييتى فوق هذه البسيطة ، يريدون استطلاع ما ظهر من هيئتهم وما استتر . ثم ساد سكون رهيب استعداداً لسماع الرد المستمد من التجربة الصحيحة على ما جاء فى خطاب المسيو بندا ، غير أن مندوبى السوفييت خيبوا هذا الظن واكتفوا برد المسيو كهينو والمسيو نيزان ، وأتوا على وصف بعض مناحى الأدب السوفييتى الجديد

وقال إهرمبورغ صاحب كتاب (ثانى أيام الخليقة) ما خلاصته :

« اذا كان الكاتب فى المجتمع البورجوازى يكرم ويمجد باعتبار انه قام بخدمة وطنية تعادل الخدمات التى يقوم بها أمثاله فى البلاد الأخرى ، ويقرأ كتبه من أراد أن تسمو مداركه أو أن يجد لذة يملأ بها أوقات فراغه — والقراء فى هذا المجتمع من توفرت أسباب حياتهم قليلون — واذا كان القراء لا يقرأون الأدب بقصد أن يستعينوا بما يقرأونه فى حياتهم الخاصة والعامة وأن يجدوا فيها هدياً لقلوبهم وسمواً لنفوسهم وما يضمرون ، فلا يكون لما يشاهدونه فى ليلتهم من عواطف نبيلة على أحد المسارح أو لما يقرأونه فى إحدى القصص ، من تأثير فيما يعملونه فى نهارهم . وكثيراً ما تخالف أعمالهم ما اختلجت فى الليل قلوبهم له . اذا كانت هذه قيمة الأدباء فى المجتمع الأوروبى فانى أقول بكل فخر :

اننا توصلنا الى أن يكرم الكاتب والشاعر فى الاتحاد السوفييتى على أنهما يؤديان عملاً مثل سائر الأعمال الحيوية التى لا يستغنى عنهما بحال من الأحوال . فقراءة الأدب للمزارع والعامل ولأى شخص آخر مثل قمحه ولبنه وثوبه ومأواه . يقرأه فيلتذ ، لكنه لا يقتصر على هذه اللذة ، فانه يفتح قلبه له فتهديه هذه العواطف النبيلة التى للأدب فى حياته وفى عمله اليومى

هذا هو تأثير الأدب السوفييتى ، مع أنه ما يزال طفلاً لا يحسن الكلام بدون تمتمة »

كانت خطب مندوبى السوفييت على هذا النمط : استعراض للموضوع فى المجتمع البورجوازى ، ومقارنة ما استجد فى بلادهم بشأنه مع بيان أوجه الانتقاد ، وما حدا إلى نبذ الأسلوب القديم

* * *

لا عجب أن نرى الكتاب فى العالم المتمدن يهبون للدفاع عن الثقافة من عاديات الزمان ، وهم حملتها ورافعو لواء مجدها ، بل ومن حقهم قبل كل انسان آخر أن يهتموا لهذا الأمر فى مثل هذا الوقت العصيب الذى ينذر العالم بالشر وسوء المصير ، ألم تر المدنيات القديمة التى لو بقيت لكانت للانسان مدنية تفوق مدنيته الغربية بمراتب — كيف اندثرت وعفتها الحروب والمنازعات والوهن الذى إذا دب إلى جسم أمة قضى عليها بالتفسخ والانحلال

وليست أوروبا اليوم بأحسن مما أشرنا اليه ، فان النزاع على الممتلكات الاستعمارية ، والتفاخر بالقومية ، وتفاقم جشع الناس ، وتفشى الأثرة بينهم أرزاء تنوء تحتها الثقافة وستؤدى إلى أوخم العواقب

ماجد شيخ الأرض

فى العدد التالى سننشر ملخص مقال الأستاذ أندريه جيد

عرض لإحدى مشاكل الأدب الانكليزي

هل ألف شكسبير رواياته ؟

بقلم جريس القسوس

أخي ح . ش .

كتبت إليّ تسألني أن أجلو لك حقيقة هذا النابغة ، الذي على سعة شهرته وذيوع اسمه في مختلف الأزمان والبلدان ، مازال مبهم الشخصية ، مجهول الهوية ؛ ومافتئ الكثيرون من الأدباء في انكلترا وفي أمريكا يرتابون في أمر تأليفه الروايات المنسوبة إليه ؛ فتراهم في كل حين يكتشفون لها مؤلفاً جديداً غير شكسبير ، مؤيدين آراءهم بأقطع البراهين وأقواها .

ولقد بلغت هذه المسألة من الأهمية وخطورة الشأن ما جعل الأدباء ينقسمون إلى مدرستين ، الأولى تنتصر لشكسبير وتعضده وتعرف هذه بمدرسة مستقيمي الرأي (أورثوذكس) بينما الثانية وهي اللاستراتفوردية Anti - Stratfordian — نسبة إلى ستراتفورد قرية شكسبير ومسقط رأسه — تجرّده من كلّ صبغة أدبية ، وتتهمه بضعف الارادة والجهل ، فهي لا تودّ أن تنسب هذه المؤلفات الرائعة إلى امرئ كشكسبير وضيع النسب ، نشأ نشأة الوضعاء من عامة البشر ، فلم يلتحق بمعهد عال أو يتفقه على مدرّب كبير

إنه لمن العار بل من الحرام — على رأيهم — أن تنشأ العبقرية في الأكواخ ؛ وإنه لمن الشائن المزري إذن أن تعزى هذه الروايات على ما فيها من روعة وجلال إلى شكسبير العامي القروي . في ذلك يتفق أصحاب هذه المدرسة ، غير أنهم يختلفون في أمر مؤلفها

أما أوّل الأدباء الذين نسب إليهم تأليف روايات شكسبير ففرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ — ١٦٢٦) الفيلسوف الانكليزي الشهير ، وأوّل واضع أسس النظرية البيكونية Baconian Theory ؛ فهربرت لورانس Herbart L'awrence ، إذ ألف سنة ١٧٦٩ كتاباً سماه (مجازفات في الذوق السليم) Adventures in Common Sense ؛ بيد أن هذه الآراء لم تثر اهتمام الأدباء ولم تحرك لهم ساكناً مدة نصف قرن أو أكثر . بعد ذلك لقيت لها أنصاراً عضدوها بالمؤلفات العديدة ، منهم ج . س . هارت J. C. Hart في كتاب ألفه سنة ١٨٤٨ ، وفي مقالة موضوعها « من ألف روايات شكسبير ؟ » نشرت في التشمبرز جورنال Chambers' Journal ؛ ومنهم و . ه . سمث في رسالة بعث بها الى لورد اليسمير Ellesmere موضوعها « هل ألّف بيكون روايات شكسبير ؟ » ومنهم أيضاً الكاتبة ديليا بيكون Delia Bacon في كتاب اسمه « كشف القناع عن فلسفة روايات شكسبير » « The plilosophy of the plays of Shakespeare identified »

وقد ظهر مؤخراً غير هؤلاء في انكلترا وفي أمريكا كاللورد بنزانس ومسز . ت . مارتن ، و ج . قرينود وغيرهم من مشاهير الأدباء وكبار النقدة ممن عززوا النظرية البيكونية ، وحملوا على شكسبير حملة كادت أن تمحو اسمه محواً ؛ وتدحر جيش أنصاره دحراً

ويبني معظم أنصار بيكون حججهم على النقط التالية :

(١) إن سر توبي ماتيوس Sir Tobie Mathews بعث سنة ١٦٢١ برسالة إلى بيكون يمتدحه فيها ويعدّه « أنبغ من أنجبت انكلترا ، ومن عاش على هذا الجانب من البحر ، في العصر الحاضر »

(٢) إن في روايات شكسبير بعض فقرات ومفردات تدل على تبحر مؤلفها في العلم وتعمقه في الفلسفة والقانون مما لا يمكن أن يعزى إلى شكسبير كما يظهر في ترجمة حياته المعروفة

(٣) إن في روايات شكسبير مشاهد وأبياتاً تشهد بأن ناظم عقدها أرستقراطي النزعة والنشأة . مثالُ ذلك أنه : يسخر بالرعاع ، ويزدري عامة البشر في كلّ من « يوليوس قيصر » و « كور يولانس » سخرية وازدراء لا يمكن أن يصدرا من شكسبير القروي الوضيع النسب ، إن ذلك لامظهرٌ عن مظاهر نبذ الأرستقراطية للعامة وكراهيتها لها ، واعتزازها برجالها ، وفي مقدمتهم بيكون

(٤) أما آخر هذه البراهين ، والذي عليه يبني جميع خصوم شكسبير ، على اختلاف أشخاصهم ، آراءهم واعتقادهم الراسخ في

أن شكسبير على مافى نسبه من ضعة ، وفى نشأته من حقارة ، وفى علمه من نقص ، وفى خلقه من مغمز ، وفى حياته من غموض وإبهام ، لا يمكن أن يكون مؤلف تلك الروايات الخالدة ، التى تشهد لصاحبها بعبقرية تفوق كل عبقرية ، ونبوغ هو فوق كل نبوغ ، كيف يمكن هذا ، ما دام هناك بيكون الفيلسوف الكبير ، والنابغة الفذّ الذى شغل أهل زمانه ، وملأ أسماعهم وأبصارهم ؟

ويأخذ أنصار شكسبير هـذه الحجج ويفنـدونها واحدةً واحدةً . فيقولون — مثلاً فى الرد على الحجة الأولى إن (مسْتوبى ماتيوس) لم يعن فى رسالته بيكون الفيلسوف ، وإنما عنى راهباً يسوعياً آخر اسمه طوماس ساوزويل Thomas Southwell كان يعرف بلقب بيكون . مع كل هـذا يرى أنصار شكسبير — مسلمين جدلاً بأنى مسر توبى يعنى الفيلسوف بيكون — أن ليس فى هـذا مايدل كل الدلالة على أن بيكون إنما هو مؤلف روايات شكسبير . إن هى إلا العاطفة ، عاطفة الصداقة العمياء هذه ذات التعميات والأحكام الجارفة

أما فيما يخص الأشعار فليس فى البقية الباقية من شعر الفيلسوف بيكون ما يدلّ على أنه شاعر بالمعنى الصحيح ؛ ذلك الشاعر الفذ الذى يمكن أن يُعزى إليـه نظم تلك القطع الرائعة التى تتخلل معظم رواياته وخاصة الأخيرة منها

هـذا أما المفردات أو الفقرات العديدة الواردة فى روايات شكسبير والدالة على تبصر فى العلم وتبحر فى الفلسفة والقانون والمام بأغلب الفنون فلم تـكن مقصورة على شكسبير أو على بيكون وحدهما . فقـد كانت بحقّ ملك جميع المؤلفين فى عصر اليصابات وبالأخص الأخير منه . إذ شاع فيه التقليد والنسج على منوال الأولين . فالذى يجوّز لنا الارتياب فى أمر تأليف شكسبير لهذه الروايات على هذا الأساس الواهى ، يجوّز لنا أيضاً الاشتباه فى غيرهم من الـكتاب والشعراء

وعلاوة على هذا يرى أنصار شكسبير ان ليس فى هـذه الروايات مايدلّ على المام واسع بالعلوم والفنون أو تعمق فى الفلسفة والقانون ، إلماماً وتعمقاً يصح معهما أن ينسب تأليفها إلى بيكون صاحب النظريات الفلسفية الخالدة والنثر الأدبى الرائع أما القول بأن مؤلف هـذه الروايات لا بدّ أن يكون ارستقراطىّ النسب والنزعة كما يظهر من شعوره نحو الرعاع وخصوصاً فى « يوليوس قيصر » و « كور يولانوس » فليس بالقول الذى يُعتمد عليه فى بنيان مثل هـذه النظرية وتحقيقها . إذ ما روايات شكسبير إلا مملكةٌ كبيرة ، فيها الملوك والنبلاء ، والرعاع والعلماء ، وفيها الجنود والصناع ، والأرواح والآلهة ، كلٌّ منهم يفكر ويقول ويعمل حسب طبيعته ونزعته ، وعلى قدر قوته ومعرفته ، غير مقيّـد برأى الشاعر أو عقيدته الخاصة . بذا يمتـاز شكسبير عن (بروننج) خاصة وعن باقى الشعراء والـكتاب عامة . فما الرعاع فى الحقيقة إلا من هذا البشر الذى توخى شكسبير فى تصوير طبيعته ونفسيته الصدق والعدل

هذا بعضٌ مما يقوله أنصار شكسبير فى الردّ على خصومه ، غير أنهم لا يقفون عند هذا الحدّ ، بل يوردون الحجج الايجابية الدامغة التى تؤيد آراءهم كل التأييد . من ذلك قولهم إن حيـاة شكسبير ليست محاطة بالابهام كما يظن خصومه . فلو استعرضنا تراجم معاصريه من الأدباء لألفينا فى جميعها ـ اللهم إلا من اتصل منهم بالسياسة أو القانون وكان له فيها شأن كبير ـ غموضاً وابهاماً يساويان ، ان لم يزيدا ، ما فى ترجمة حياة شكسبير من غموض وابهام

ويرى أنصار شكسبير أيضاً أن لديهم تقارير عديدة تدل على اتصال الشاعر بالمسرح وانشغاله بأموره مدة ليست باليسيرة . وفى بعض رواياته نلمح ما يدل على إلمام الشاعر بفنّ المسرح ودقائقه . يحضرنا من ذلك ـ على سبيل التمثيل ـ ما جاء على لسان هملت فى تلقينه الغلمان سبل الالقاء والتمثيل تلقيناً يشهد له ـ أى لشكسبير ـ بطول الباع فى هـذا الفنّ . وليس فى ترجمة حياة بيكون الضافية ، ما يدلّ على ولوعه بالتمثيل أو كلفه بالمسرح .

أما ادّعاء خصوم شكسبير أن مافى رواياته من مفردات فى القانون ، يكفل لبيكون ـ وهو بالطبع قانونى ـ تأليفه الروايات لحجّـة واهية ، من السهل دحضها . فقد كانت لندن فى عصر اليصابات تكتظ بطلاب الحقوق هواة المسرح ، فـكان لشكسبير فى ذلك فرصة سانحة لمجالستهم والاستماع الى أحاديثهم التى تدور ، فى أغلب الأحيان ، حول القانون . هذا عدا تجاربه واختباراته فى هذا الفرع كابن أحد الملاك أو التجار

ومن البيّنات الواضحة التى يعتمدها أنصار شكسبير فى الردّ على خصومه ، ورود اسم شكسبير مع التعليق على فنه فى بعض النسـخ الأولى من رواياته مفردةً Quartoes ومجموعةً First Folio وفى مجموعة صونيتاته Sonnets ومذكرات معاصريه ، وخاصةً فرنسيس ميرز Francis Meres فى كتابه « بلادس تيميا Palladis Tamia » وروبرت جرين Robert Green فى تهكمه اللاذع على شكسبير ، وفى قصيدة بن جونسون « Ben Jonson » التى فيها يخلّد « وزّة أفون Swine of Avon »

وقد ظهر مؤخراً غير بيكون مرشحون آخرون لروايات شكسبير ، منهم «لورد رتلند الخامس عشر Lord Rutland 15th» ومنهم كونت دربى Derby ولكن أحدثهم ظهوراً وأشدّهم خطراً على المثـل الستراتفوردى ديفر ايرل اوف اوكسفورد السابع عشر . فقد وضع ج . طوماس لونلى Loonly سنة ١٩٢٠ كتاباً فى هـذا الموضوع سمّاه « إثبات شخصية شكسبير فى دى ڤير ايرل أوف أوكسفورد » « Shakespeare identified in Edward De vere the 17th Earl of Oxford »

وآخر كتاب ظهر فى هذا الموضوع هو لمونتاجو دوجلاس Montagu Douglas رئيس جمعيـة أدبية (١) أخذت على نفسها معاضدة دى ڤير ودحض آراء أنصار شكسبير . فقد وضع كتاب « ايرل أوف أوكسفورد لشكسبير The Earl of Oxford as Shakespeare. » وهو يجمع باختصار كل ما يمكن أن يقال فى هذا الأديب كمؤلف للروايات المنسوبة لشكسبير

أما النظرية الشيخزبيرية (٢) فما هى فى الحقيقة بنظرية ، وإنما هى خرافة أكبر عامل فى خلقها التشابه الظاهر بين اسمى الشيخ زبير وشكسبير . ليس هذا فحسب ، بل إن علاقة شكسبير الغرامية مع « السيدة السمراء » « The Dark Lady » ، ويظن بعضهم أنها مصرية — وحبه للخيول وخاصة خيول رواد المسرح وما فى رواياته من امتداح لجزيرة العرب وتغنٍّ بسمائها وطيرها « فونكس Phoenix » وزهرها وشجرها ، كل هذه بعض من الشواهـد التى قد يتخـذها هواة النظريات أساساً للنظرية الشيخزبيرية

ولقد غرب عن بالى أن أذكر لك أن من الأدباء من يعزو إلى شكسبير تأليف نحو أربعين رواية أخرى ، ومنهم من يرى أن شكسبير لم يؤلف كل رواياته ، بل شاركه فى ذلك كتّاب آخرون كبيمونت وفليتشر ، وخاصة فى « تيطس اندرونيكس » وثلاثة أجزاء : « هـنرى السادس » ، و « تيمون أثينا » ، و « بيركليس » ، و « هنرى الثامن »

هذا عرضٌ موجز لما يمكن أن أخبرك به فى هذا الموضوع ، ولا أنكر عليك أننى بعد دراسة حجج الفريقين وتمحيصها بكل دقة — أرانى ميالاً كل الميل إلى المدرسة الستراتفوردية . ولا أشك فى أن النجاح سيحالفها ، مهما وُجّه إليها من نقد لاذع ، ولشكسبير من تهم هو برىء منها

الكرك : شرق الأردن

جريس القسوس

مصادر المقال

1. Neilson and Thorndike's The Facts about Shakespeare
2. Harvey's Oxford Companion to Eng· Literature
3. Prof. Byron Smith's Lectures on Shakespeare
4. Douglas' M. W. The Earl of Oxford as Shakespeare
5. The Encyclopedia Britanica,(Shakespeare)
6. J. Qusus' Shakespeare and Sheik Zubeir

(١) Shaheapearean Fellowship

(٢) نسبة إلى الشيخ زبير

تبتغى أمّها

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

دفنوا فى حفيرة أمَّ سلمى — ثم عادوا يجرّرون الذيولا
كتموا عن سلمى الصغيرة موتَ الـ — أمّ حقاً وآثروا التضليلا
سألتهم والعينُ بالدمع شكرى — غير مخدوعة بما قد قيلا
أين أمّى عودوا إلىّ بأمّى — أنا لا أبتغى بأمّى بديلا
أنا إن لم ألعب بجانب أمّى — لم يجد للافراح قلبى سبيلا
أنا إن عشتُ وهى تبعد عنى — كان عيشى علىّ عبئاً ثقيلا
إنها لى تُنيم فى الحضن منها — وتغنّى لى بكرةً وأصيلا
وإذا ما بكيتُ تمسح دمعى — بيديها منعاً له أن يسيلا
ثم من حبها تقبّلنى فى — وجناتى فتحسن التقبيلا
ثم تعطينى دُميةً هى ما أصـ — بو إليه حُبَّ الخليل الخليلا
دُميتى بنتى مثلما أنا بنتٌ — لِأُمَيمى التى رعتنى طويلا
ثم تُهدى إلىّ شيئاً من الحلـ — وى فيغدو الحلوى لهمّى مزيلا
أرجعوا لى أمّى الحنونَ فإن لم — تُرجعوها يكون خطبى جليلا
وإذا ما لم تُرجعوا لىَ أمّى — أملأ الأرضَ والسماء عويلا
أنا فى حاجة إلى عطف أمّى — أيها الناس فارحمونى قليلا
هى أمّى التى فتحتُ عيونى — أجتلى وجهَها فكان جميلا
ورضعتُ اللبانَ منها فكان الثـ — دىُ منها لى منهلاً معسولا
إننى عند غيبة الأمّ عنى — لا حناناً أرى ولا تدليلا
أرجعوا لى أمّى ولا تخدعونى — بالأباطيل إن صبرىَ عيلا
وإذا صحّ أن أمّىَ أوْدت — فاجعلونى لقبرها إكليلا

(بغداد) — **جميل صدقى الزهاوى**

مناجاة الأمل

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ألا عِدْ وأخلف أنت بالوعد مانح — فمطلك مغفور وخيرك راجح
ولم تك مثلَ الآلِ فالآلُ مُهلك — ووحيك أسخى ماتضم الجوانح
وكم ناقم من خلف وعدك لا غنىً — له عنك أو تغنى المنايا اللوافح
وأعشقُ مَن يهواك مَنْ هو ناقم — وأمدحُ مَن يرجوك مَن هو قادح
نَشاوَى همومٍ قد تُديرُ عليهمُ — كئوساً فتفترُّ الثغور الكوالح
سلام على الدنيا ورضوان راحمٍ — إذا ضاء نجم منك فى الأفق لائح
عفاءٌ على الدنيا وهُلْكٌ ونقمةٌ — إذا لم تكن والمرء بالعيش رازح
وكم فى ثنايا اليأس منك كوامن — إذا فنيتْ فالعيش فانٍ وطائح
أيا بهجة العمران لولاك لم يكن — فلا شُيِّدَ البانى ولا كَدَّ كادح
إذا اشتدت اللأْواء زدت تألقاً — كذاك سواد الليل للنجم قادح
وليس بعيب أن تُراد لمحنة — فمن ذا يريد النجم والصبح واضح
أيا بلسم الأحزان لولاك لم يعش — على عَنت الدنيا لهيفٌ ونائح
معين على البلوى معين على الضنى — إذا لم يكن فيه معين وناصح
ويا حادىَ الركبان فى العيش مثلما — حدا الركبَ فى الصحراء حادٍ وصادح
ويا رحمة الله التى عمت الورى — ولم يخل منها جارم النفس جامح
على صاحب الكوخ المهدم مشرق — ببشرى ورب القصر راجٍ وطامح
وأسعد ما تُلْفَى إذا كنت ماطلاً — فكل طليب شائق وهو نازحُ
رست بك فى لج الحياة نفوسنا — فلم تتقاذفها الهموم السوارحُ
لشيّدت للايمان فى قلب آملٍ — معابد قد ضمت عليها الجوانحُ
ثبات وصبر واعتزام وهمة — فضائل نفس كلها أنت مانح
ولولا مساعٍ أنت عاقد أمرها — لآثر عقر الدار غادٍ ورائح
تكاد تنير الليل إمّا توقدت — أمانىُّ تذكو حين تخبو المصابح
تأرج من ذكراك نفحة خاطر — أأنت أريج من شذا الزهر فائح
وإن غَنِىَّ الناس من أنت ذخره — وأى غِنى يغنى وضوؤك نازح

وسائل من جدواك أنت استثرتها ... وتُفتَقُ إن لحتَ النهى والقرائح
وكم لك دون النفس وحى وهمسة ... إذا نطقت تعيا اللغاتُ الفصائح
وكم من غريق أسقط الجهد كفه ... فالحت إلا وهو فى اليمِّ سابح
منحت حياة مرة بعـد مرة ... وتبخل بالعيش النفوس الشحائح
ورب حبيس أنزل السجن ظلمة ... عليه ونور منك فى السجن لائح
أياطائراً يشدو وفى النفس أيكُهُ ... فيخفت فيها يأسها المتناوح
ويا آسِىَ الأحزان والظلم والضنى ... ولولاك أعيا الطب مودٍ وطائح
تَخَلَّلُ أنات الشـقاء ونوحه ... فتعذب فى الاسماع حتى المنائح
خاصت على الأيام أحسن خلعة ... فيخفى بعيش شره والمقابح
سقيت فأنسيت المؤجل من ضنى ... ومن وخط شيب فى غد وهو واضح
وأنسيت أن الشر حتم مقدر ... وأن المنايا غاديات روائح
تضاحكُ فى يأس ونحس وكربة ... كأن الرزايا عابثات موازح
بها مؤنس من طيب عهدك عامر ... بشائر فى لأوائها ومفارح
وتخلق منك النفس دنيا سنية ... وفى أفق منها النجوم اللوائح
مباديك شتى كالأزاهر جمة ... ففى كل حال موطن منك صالح
أياسحر إنْ لم تُغنِ فالسحر كاذب ... مغاليقـه فيما تريد مفاتح
تعللنا بالسعد من بعد ميتة ... فتحسن فى مرآك حتى الضرائح

عبد الرحمن شكرى

ذهب الشـــباب

للأستاذ فخرى أبو السعود

ذهب الشبابُ وغاض ذاك الرونقُ ... لم يبقَ إلا حسرة وتحرُّقُ
لم يبق إلا ذكر عهد زائل ... إذ أنت أملحُ مَن يُحَبُّ ويُعلَقُ
حالَ الجمالُ فلا قوامٌ مرهفٌ ... يصبى النفوسَ ولا محيًّا مُشرِقُ
ما أنت إلا الروض صُوِّحَ بعد إذ ... هو مثمرٌ نضر الأزاهر مورق
ولقد يُجاد الروضُ بعد جفافه ... ويجِدُّ من أبراده ما يَخلَق
وأرى جمالك ليس يبعَثُ مَيْتَهُ ... شمسٌ تضيء ولا غمامٌ يُغدِق
ولقد يروق الزهرُ بعد ذبوله ... وتظَلُّ منـه ريحة تتنشَّقُ
ورأيتُ حُسنك حين أدبرَ لم يَذَرْ ... إلا قذًى يُؤذِى العيونَ ويُوبِق
إلا مقابحَ كم تحاول سترَها ... فتَنِمُّ من دون الطلاء وتنطق
قد جفَّ عودُك والصِّبا مازال فى ... أعطاف غيرك ناضراً يترقرق
ألوَتْ بقدِّك بعد لين هزِّه ... غِيَرُ الزمان وما عليها موثق
رَهَّلْنَهُ فى حيث تجمُلُ دِقَّة ... وهزَلْنَهُ حيث الجزالة أخلق
فغَدَتْ تقحَّمُهُ العيونُ وطالما ... قد راعها منـه الرُّواء المونق
وتبدَّل الطبع المحبَّب لم يعُدْ ... دلٌّ يشوق ولا شمائلُ تُعشَقُ
وتطامَنَ القلبُ الأبىُّ وإنَّهُ ... بالأمس لَلْحِصْنُ المنيعُ المغلق
ومضى شِماسٌ كان فيك سجيةً ... فاليوم فيك وداعةٌ وترَفُّق
واليوم فيك تلطُّفٌ ومودَّة ... كم كان يخطبها المحبُّ الشَّيِّق
وتخلفتْ بك فى الهوى أسبابُهُ ... ولقـد عهِدْتُك سابقاً لا يُلحَقُ
ولقد علِمتُك فى الملاحة مُفرَداً ... ما لاحَ من حُسنٍ جوارَك يُمحَق
كانت لحُسنك دولةٌ فتفرقتْ ... هيهات يُجمع شملُها المتفرق
نُثِرتْ كِنانةُ عابديك وكلُّهم ... سالٍ لعهدك أو لحالك مُشفق
وانفضَّ منهم مخلصٌ ومُنافِقٌ ... وأقلَّ مَدْحَكَ صادقٌ ومُملِّق
وغدَوْتَ بعضَ الناسِ حيث تسير لا ... مجدٌ يحفُّ ولا جـلالٌ يُحدِقُ
تبدو، فلا حدَقُ العيون مُبادِرٌ ... لهفاً إليك ولا الجوانح تخفق
وتبينُ، لا قلبٌ لبينك مُدْنَفٌ ... عانٍ ولا جفنٌ لذكرك يأرق
نَبَتِ القلوبُ وكنت قبلُ مُحكَّماً ... فيهنَّ تأسر ما تشاء وتُعتِق
وإذا القلوبُ تغيَّرتْ وتفرقت ... عىَّ الحليمُ بجمعها والأخرق
سكنتْ نفوسٌ كنتَ أمس عناءها ... ولعلكَ اليـوم المُعنَّى المُقلَق
ولىَّ جمالُك والطبيعةُ لم تزل ... تزهو وترفل فى الضياء وتعبَق
تمضى على عاداتها ماراعها ... حُسنٌ تصوَّحَ أو شبابٌ ينفق

فخرى أبو السعود

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢١ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

يقول نيتشه مبيناً نظرته في مجموعة القيم الاجتماعيـة : أنا لا أدرى إذا كانت الحياة بذاتها جميلة أو قبيحة . لا شيء عندى باطل إلا هذا النزاع المستمر بين المتفائلين والمتشائمين . وأى انسان في الوجود يحق له أن يُقدِّر قيمة الحياة ؟ أما الأحياء فلا يقدرون لأنهم فريق من المتجادلين المتخاصمين . والأموات — وإنهم لأجدر بألا يجيبوا — لأنهم أموات . فلا أحد بقادر على إبداء قيمة الحياة ، وإنني لأجهل كل الجهل إذا كان وجودى خيراً أو عدمى ؟ ولكنني في اللحظة التي أحيا فيها الآن أريد بأن تكون الحياة فياضة مضيئة لامعة في نفسي وخارج نفسي . فأقول إذ ذاك — نعم — لكل ما يجمّل الحياة ويجعلها جديرة بأن تحيا . وإذا تبين لي أن الضلال والوهم يساعدانني على تذوق الحياة أقول — نعم — للضلال والأوهام . وإذا بدا لي أن الصفات السيئة مهما كانت ألوانها تساعدني على انتصار حيوية الانسان أقول — نعم — للخطيئة والشر ، وإذا اتضح لي أن الألم هو أنجع من السرور في تهذيب النوع الانساني أقول — نعم — للألم وأقول — لا — لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الانسانية ، وإذا اكتشفت أن الحقيقـة والفضيلة والخير وكل ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضر بالحياة أقول — لا — للعلم والمعرفة والخير

— ٢ —

يبحث الآن نيتشه كيف نشأت بين الناس هذه القيم الاجتماعيـة ويصور التأثير الذى تركته في روح الرجل الغربي الحديث ، نقّب نيتشه في أصول المذاهب الخلقية التي تواضع عليها البشر فألفى أن أصولها المتشابهة تعود إلى فضيلتين اثنتين توزعت عنهما كل الفضائل : فضيلة الأسياد والسلالات القوية الحاكمة ، وفضيلة العبيد والضعفاء الأذلاء .

وإنك لواجد في منشأ الحضارة الأوروبية هذا العمل الذى ولد هذين المذهبين . فهناك طائفة محبة للقتال ، وعصابة من الرجال المفترسين الذين يسطون على طائفة جانحة للسلم ، نافرة من الحرب كما هو الأمر في الحضارة اليونانية الرومانيـة ، التي تلاشت إزاء هجمات الأقوام الجرمانية . إن الرجل الشديد المعتمد على نفسه ، تموج في صدره رغبته بتعيين قيم الناس والأشياء بنفسه . وليست فضيلته إلا بهجته الراقصة بشعوره بقوته وكماله . يدعو « حسناً » من كان يماثله شرفاً وسيادة ، ويدعو « رديئاً » من يختلف عنه . الخير عنده ما هو إلا مجموعة تلك الصفات الطيبة والخلقية التي يقدّرها في نفسه وفي أقرانه . يُبهج نفسه أن يكون قوياً وقديراً . يعرف أن يُخضع غيره ويُخضع نفسـه . يقسو على نفسه كما يقسو على سواه . يُقدس هذه الصفات عند الآخرين ويحتقر الضعف والجبن حيث ظهرا ، يسخر من عاطفة الشفقة والنزاهة ؛ ومن كل الفضائل السائدة اليوم ، لأنه لا يراها صفات تليق بسيد . يُعجب بالقوة والقسوة والخداع ، لأن هذه الصفات تحقق له ظفره في النضال ، يحترم الميثاق عند أمثاله الأقوياء ، ويجد نفسه في حل مع العبيد الضعفاء ، يُنكل بهم إذا أراد نكالاً ، ويسعدهم إذا أراد إسعادهم . له الأمر في أمرهم . يبذل روحه في سبيل قائده وأميره ، ويكرم شيخ قبيلته ، ويحترم تقاليد أهله

ألا إن الفضيلة الأرستقراطية لفضيلة قاسية متعصبة ، ولما كان الشرفاء أقلية ضئيلة في جحافل كثيرة تتمنى الايقاع بها ، فعليهم أن يصونوا صفاتهم الخاصة التي تضمن لهم الفوز . وتقاليدهم التي اصطلحوا عليها في زواجهم وتربية أبنائهم وارتباط بعضهم ببعض هي من التقاليد العاملة على صيانة ذريتهم من الأخطار . لهذه الذرية الأرستقراطية إلهها الذى تتجسد فيه كل فضائلها التي قادتها إلى القوة وإلى هذا المظهر الذى بدت به ، إن هـذا الآلـه هو — إرادة القوة — التي ساقت الزعماء إلى السلطة ، وجعلت منهم أقوياء سعداء ، والعبادة التي يقومون له بها هي

تفسير ابتهاجهم بالحياة على النمط الذى يفهمون منه أنهم جيلون أقوياء

هذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد ، والضعفاء الأذلاء ، وإذا كانت الكبرياء والبهجة بالحياة ، هى العاطفة التى تموج فى صدور الأسياد ، فلا عجب إذا نما فى صدور الضعفاء التشاؤم ، ومقت الحياة ، وكره الأقوياء . الأقوياء يكيد بعضهم لبعض . أما الضعيف الغريب الذى يتصدى لهم فويل له ، لأن غريزتهم فى البأس والقوة لا تشبع إلا بسحقه ! لأنهم يعتقدون أنهم بما فعلوا أتوا عملاً جليلاً يحق لهم به أن يغدوا على أفواه الشعراء أسماء مُردَّدة ، وهم — فى ناظر هذا الغريب المغلوب على أمره — شياطين وقردة ؛ تحمل الرعب والهول للآمنين . إن جرأة هذه الطائفة وجنونها وقسوتها ، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتهديم وظفرها . كل هذه الصفات ينعتها أولئك المقهورون بالبربر والبربرية ، وهكذا رجل القوة والبأس والرجولة فى مذهب فضيلة الأسياد يصبح رجل اللؤم والرداءة فى مذهب فضيلة العبيد . والردئ الشرير — فى عرف الضعيف — هو كل من ارتدى رداء القسوة والعنف والرعب ، والجميل عنده كل هذه الفضائل التى يحتقرها الأسياد ؛ الفضائل التى تخفف من شدة الظلم ، وتمنع ارهاق المظلومين ، وترأف بالبائسين المتألمين ؛ فضائل الشفقة والرقة والصبر والتواضع والاحسان فضائله . إن العظيم الذى كان محارباً مخيفاً قوياً فى شريعة الأسياد ، يحول فى شريعة العبيد هادئاً حليماً ، ويصبح جديراً بالصغار ، لأنه بالغ فى توانيه عن القتال ، وبالغ فى لبسه ثوب المساكين

— ٣ —

والآن لننظر فى هذه القيم الاجتماعية التى أنشأها العبيد ، فان الشريعة المسيحية وفضائلها تولدت فى تلك البيئة . وعصابة العبيد والضعفاء والمنحطين وجدت زعيمها فى الكاهن ، ومن هو الكاهن ؟

ينبغى للكاهن أن يكون « منحطاً » ليمكنه تفهم رغائب شعبه المريض ، وهو بعد هذا يجب أن يصون سلطته وزعامته لتتجه إليه ثقة المتألمين ، ويكون حارسهم الأمين المسيطر عليهم ، وإلههم الذى منه يخشون . وهى مهنة تستلزم منه أن يحرس الضعفاء من الأقوياء ، ويعلن العداوة بينه وبين الأسياد . عداوة سلاحها سلاح الضعيف : مراوغة وكذب ورياء . فيحول بنفسه حيواناً مفترساً مروعاً كالحيوانات المفترسة التى يحاربها ، ولا تقف مهنته عندهذا فحسب ، فهو مضطر إلى أن يحرس الشعب من نفسه ومن النوازع السيئة التى تتمشى عادة فى الشعوب المريضة ، يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيل اليه فيه فوضى أو تفسخ أو انحلال ، يلمس هذه النوازع الملتهبة ويزيدها ضراماً دون أن يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعى القطيع . قد تكون هذه المهنة نافعة من وجه ، لأنها تهذب بعض المفاسد ، وضارة من وجه لأنها تقف عثرة فى سبيل حركة التقدم الطبيعى

ألا نجد « المرفأ » المرفأ الأمين الذى تأوى اليه هذه السفن المشحونة بالمرضى والمتألمين ، هو الموت . . . الموت الذى يسكن كل الآلام ويذهب بكل الأوجاع ؟ وهؤلاء الذين أظلمت فى نفوسهم قوة الحياة تبقى قوة الارادة عندهم متيقظة تعارك الفناء وتناضل العدم ، وهى التى شوهت معنى الحياة عندهم ، أمست تمدهم بقواعد للحياة جديدة ، وحيل تعمل على تسكين آلامهم ، تخدعهم عن حقيقة ألمهم ، فيحس الكاهن انتفاعاً بهذه الغريزة الطبيعية ، فيسوقها ويديرها ويثيرها حتى يجعل منها آلة سلطته وزعامته ، فيصبح زعيم جماعة لا تحصى من المرضى والمنحطين . وما هو الثمن يا ترى ؟

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٦ - حروب طروادة

القربان(١)

للأستاذ دريني خشبة

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طروادة فيدمرها تدميراً !

ولكن البحر هادئ ، والرياح نائمة ، ولا بد لهذه السفن الثقيلة بالعدة والعديد من قوة هائلة تدفعها فى هذا الخضم الساخر ! الأيام تمضى دون أن تستيقظ الريح !

والملال يدب فى قلوب الجند من طول ما لبثوا فى تلك الجهة من الشاطئ العابس المتجهم لا يريمون !

والميرة تكاد تنفد ! . . . . . .

والخيل تعلك حديدها كأنها برمت بهذا الركود !

- « كالخاس ! »

- « مولاى ! »

- « إذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا تبتغى لتُطْلِق الرياح ؟ ؟ . . . . »

- « لبيك يا مولاى »

وانطلق عرّاف الحملة الى المعبد القريب فمكث غير قليل ، وعاد بقلبٍ موهون ، وجسمٍ مضعضع ، ووجه مُغْبر ، وجبين كاسفٍ معقد

- « ما وراءك يا كالخاس ؟ ! »

- « مولاى ! . . . . »

- « تكلم ! تكلم يا كالخاس ! »

- « الآلهة ! الآلهة عطاشى يا مولاى ! »

ولم يتمالك العرّاف الشيخ أن سقط على نفسه من الاعياء ، ومما يخترم فؤاده من الهم ! وأسقط فى أيدى القادة . . . وعالجوا كالخاس بالماء ، ودهنوه بالطيوب ، حتى أفاق

وقال العراف مخاطباً أجاممنون :

- « مولاى ؛ ابنتك يا مولاى ! »

- « ابنتى ؟ ! ابنتى من ؟ »

- « إفجنيا ! . . . »

- « ماذا ؟ افجنيا مالها ؟ »

- « لابد من تقديمها قرباناً ! لابد من أن يُطَلّ دمها على مذبح الآلهة الأكبر ! »

- « ولِمَه ؟ »

- « لكى تطلق الرياح من عقالها ، ولكى تكون فِدى للجيش كله ، ولهيلاس جميعاً ! ! ! »

- « يا للهول ! لا كانت هذه الحرب ! »

وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله ، وطفقوا يترضونه : « من أجل الآلهة ، وفى سبيل الوطن ! » ، والرجل يبكى وينشج ، و يُذهب نفسه شعاعاً !!

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه . . . .

فلما انصرفوا دعا اليه كالخاس ، وأخذ معه فى حوار طويل ، ثم رجاه أن يذهب الى المعبد فيضرع الى الآلهة ، عسى أن تقبل قرباناً آخر غير هذه الفتاة الحبيبة النكودة ، مهما غلت قيمة هذا القربان !

(١) اعتمدنا فى تلخيص هذا الفصل — علاوة على هوميروس — على درامة يوريبيدز الخالدة (Iphigenia) ، وذلك لأن ما وصلنا من هوميروس عنها مقتضب ، فكانت درامة يوريبيدز هذه ودرامته الأخرى (افجنيا فى أوليس) كالشرح المسهب لها

وعاد كالخاس ، وأخبر أن الآلهة لا تبتغى بإجنيا بديلا !

وانهزم أجاممنون الأب ، وانتصر أجاممنون المؤمن التقى الورع ، الذى يقدس الآلهة ، ويعرف لها قدرها ، فأمر بقرطاس وقلم ، وكتب الى زوجه كليتمنسترا :

« بشراك يا حبيبتى !

أتعرفين أخيل ؟

أخيل الذى أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب ! بطل هيلاس الذى وعدتنا الآلهة طروادة على يديه ! الشاب الوسيم القسيم القوى الأبى الشجاع ! يتقدم أخيل لخطبة إجنيا – ابنتنا المحبوبة – ويود لو تزف اليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة ! انه لا شك سيرى فى مرآة إجنيا وطنه ، وحينئذ يكون حرباً على الأعداء ، ونقمة عليهم من السماء !

أرسليها أيتها العزيزة ، وأحب الىّ أن تسرعى بإرسالها من دون ما جلبة ولا عناد ، فالوقت ضيق ونحن على وشك الابحار »

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب الى آرجوس ... حيث تثوى كليتمنسترا فى قصرها المنيف « أتريدى » مع ابنتها إجنيا ، وأبنائها الآخرين !

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد يدها . فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى ، وتصلى للآلهة التى وفقته للانضمام إلى الجيوش الغازية

خفق قلب إجنيا . . . وكأنما غرقت فى لجة من الأحلام التى تجيش عادة فى قلوب العذارى ، حين يمر بهن هـذا الطور الناعم الجميل من أطوار الحياة . . .

ولكن ما الذى أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ؟ ولم اختار هذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة ؟ لا ندرى !

لقد مرت أيام دون أن تحضر إجنيا . ولم يكن الطريق طويلاً أو شاقاً بين أوليس وآرجوس حتى تتأخر كل هـذه المدة . . . فهل حدث شىء ؟ . . .

وكأنما طول الانتظار قد أثار العاصفة من جديد فى قلب أجاممنون الأب ! فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولمبى ، ولو صار بعدها زنديقاً ملحداً مطروداً من جنة الآلهة ، مغضوباً عليه من قلب الوطن ! !

وقد كان !

فانه استدعى الرقيق العجوز ، الذى كان يحمل دائماً بريد القائد العام الى آرجوس ، ودفع إليه برقعة أمر فيها ألا تحضر إجنيا ! ! وأمره أن يسرع بها الى زوجه ، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر !

* * *

وا أسفاه !

لقد التقى منالايوس – شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة ؛ والذى من أجله شبت هذه الحرب – الرقيق العجوز حامل الرسالة ، فاستوقفه وقرأها !

ودارت الدنيا بالملك المحزون ، واحلولكت الحياة فى عينيه وقصد من فوره إلى أخيه فانتهره ، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب والتعيير . يدفع أجاممنون عن ابنته ، وفلذة كبده ، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها ، ويعيره منالايوس بالمروق من الدين ، وعصيان الآلهة ، وشق عصا الطاعة على السماء !

وإنهما لكذلك ، اذا برسول يعلمهما أن كليتمنسترا ، زوجة أجاممنون وابنتها إجنيا ، تستأذنان فى المثول بين يدى الملك ، ويدى القائد العام ! !

يا لسخرية المقادير ؟

يتفجر الحنان فى قلب منالايوس المتحجر ، ويرق لأخيه البائس الملتاع ، فيقول له : « أخى ! أنقذها يا أخى ! انها ابنتى كما هى ابنتك ، فانقذها كما يحلو لك ! ! »

ويبهت أجاممنون لهول الموقف ، ولا يدرى ماذا يقدم أو يؤخر ؛ ثم يراه واقفاً وحده يبكى . . . كما يبكى الأطفال . . . بعد إذ غادره أخوه

ويلمح زوجه مقبلة ، فيصلح من شأنه ، ويتكلف البشاشة والتبسم ، وإنها لبشاشة باكية ، وإنه لتبسم مر حزين ! !

– « أهلا أهلا إجنيا ! ! مرحباً مرحباً كليتمنسترا ! سفر حميد ورحلة طيبة ! !

– « أين أخيل ، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين ؟

– « أ . . . أ . . . أجل . ولكن لابد أن تعودى أنت إلى آرجوس !

ـ « أعود إلى آرجوس ! أعود وأترك ابنتى !

ـ « أجل ! تعودين وتتركين إجنيا !

ـ « والعرس ! وإعلان الخطبة على الأقل ؟ ألا أحضر شيئاً من ذلك ؟ هذا لا يكون ! لن أعود حتى أشهد كل شيء ! »

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها ، وحتى ترى إلى هـذا المعسكر المجر والأساطيل المنتشرة فى البحر كالدُّبَى ، تحيّى ابنتها وتحيّي أخيل ، وترقص طرباً للعروسين ! !

ثم يحدث ما ليس فى حسبان أحد ! !

يحضر أخيل ليقابل القائد العام ، وليبدى له سخطه وسخط جنوده (الميرميدون) من طول هذا الانتظار الذى يبدو أن ليس له آخر . . . ويلح لديه فى وجوب الأقلاع الى طروادة مهما كلفهم الأمر !

وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيـل ، وتسمعه يذكر فرقة الميرميـدون المشهورة فى جميع الآفاق ببسالتها وكلَفِها الخارق بالحروب ، حتى تعرفه ، وتعرف أنه أخيـل . . . أخيل بعينه . . . خطيب ابنتها . . . وزوج إجنيا الحبيب !

فتتقدم إليه هاشّةً محيية ، حتى اذا أنس اليها ، بدهتـه بالسؤال عن العُرْس !

ـ « عرس ؟ عرس ماذا ؟

ـ « عرس ماذا ؟ ألست أخيلْ ! ألست قد تقدمت إلى أجا ممنون ، أمير آرجوس ، تطلب أن تكون إجنيا زوجة لك ؟ ألم تطلب يد إجنيا ؟ تكلم ! ... »

ولـكن أخيل يسمر مكانه باهتا ، لايدرى ماذا يقول ، لأنه لايعرف مما قالت السيدة شيئاً !! وتحملق الملـكة فى أخيل طويلاً ، ويتصبب العرق من جبين إجنيا ، الفتاة البريئة ، لما ترى من حيرة أمها ، وارتباك هذا الجندى الباسق الجميل ، الذى كانت تحلم به زوجا كريماً لها ؟ !

وكأن هذا الموقف لم يرض أحداً ... حتى الرقيق العجوز ، حامل بريد القائد العام ؛ فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق ، فباح بكل شيء . . . . . . ! باح بكل ما سمع من محاور منالايوس الملك ، وأجا ممنون القائد الأعلى ، بخصوص هذا الزواج المفترى : « مولاتى الملـكة ! خذى حذرك لفتاتك المسكينة ، إنها ستذبح ! إن الـكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الثمين ! إن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد إجنيا ! بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلاً أو كثيراً ! ها هو أمامك فاسأليه ! ... »

وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم !

لقد تحطمت كليتمنسترا !

وذاب الثلج فى عروق إجنيا !

وزلزل أجا ممنون !

أما أخيل ! فقد شُده ، وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول ! ثم ما هو إلا أن أفيق فاضطربت به الأرض ، وأحنقه أن يُتخذَ مطية لهذا العبث العابث ، والسخرية المهينة ! وصاح الشاب كأنه أسد مَهيج ، وانقدح شرر الغضب من عينيه ، حتى خيف أن يبطش بأجا ممنون وجنوده ، . . . كيما يثأر لاسمه ، ويطهر كرامته . . .

وانتهزتها الملـكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل ، فانبطحت عند قدمىْ أخيل تقبلهما ، وتغسلهما بدموعها ، متوسلة اليه أن يدفع عن إجنيا ، ويحول بينها وبين الموت !

ـ « فان لم يكن بحسبك أن أمرّغ خدى تحت قدميك لتكون حامِىَ ابنتى ، فانها هى أيضاً تفعل مثـلى يا أخيل ! انها تمرغ حُرَّ جبينها عند موطىْ هذه القدم الطاهرة لتكون خامتها وحارمها ! ! »

ـ « قفى يا سيدتى ! وكلى أباها فى شأنها ، فان لم يحل بينها وبين الموت ، فانى سأقتتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك ، ولو حاربت هيلاس جميعاً ! ! »

***

وترجو الأم زوجها أن يحول بين ابنته وبين هـذه القتلة الشنيعة ؛ ويتصدع قلب أجاممنون ، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة ... فيعد ! ولـكن ... لات حين موعد ! !

لقد نمى الى المعسكر أن أخيل أنذر أن سيقف دون الدم الذى أمرت الآلهـة أن يراق فغيظوا وأحنقوا ، وذهبوا اليه يتحسسون جلية الأمر ، فصارحهم به ، فانقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد ، ويرجونه بحجارة الشاطئْ ... فولى مدبرا ! !

وريعت الأم حين رأت إلى المير ميدون — جنود أخيل الأمناء — يرجون سيدهم فيمن يرجه من الجنود الآخرين ، فعوّلت على أن تحمل السلاح وتقف الى جانبه ، تذود هؤلاء الوحوش ! !

ولكن إفجنيا الصغيرة ! إفجنيا الفتاة ! إفجنيا العظيمة ! وقفت فى وجه أمها ، وصرخت قائلة :

« مكانك يا أماه ! لن يموت أخيل من أجل فتاة !

من أنا حتى يفتدينى هذا البطل العظيم ؟ وما حياتى التافهة فى حياته المذخورة الغالية ؟ . . . إن رجلاً يحارب من أجل هيلاس ، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن الى حربٍ من سبيل ؟

أيها الجنود !

خلُّوا سبيل سيدكم ، فلن تفتح طروادة الا عليه ، كما أخبرت بذلك آلهتكم ! ومادام النصر معلقاً بحياتى ، فكم يبهجنى أن أفتدى الوطن ، وأرضىَ أربابى ! ! ان هيلاس كلها تنظر الىَّ اليوم ! فهل نخرأ كثر من أن أكون عند حسن ظنها بى ! !

أنا لها ! أنا أفديك ياوطنى ! أماه ! لا تحزنى ! أنظرى الىَّ ! هأنا أبتسم للموت .... للقتل .... للذبح .... هلموا يا سادة .... هلموا ... أين المذبح ... صلوا من أجلى ... تحيا هيلاس ! .. »

وفى هذه اللحظة فقط ، تكبر إفجنيا فى عينى أخيل ، فيتمنى لو أجلت فى حياتها لتكون زوجة كريمة له ... ويعرض استعداده للمنافحة عنها بسيفه ، ولكنها تنهاه ، وتوصيه أن يعيش لوطنه ، ويذب عن بيضته ، ويعلى كلمته . . .

وتنسكب دموع أخيل . . .

ويسير الجميع وراء إفجنيا العظيمة ... إلى ... المذبح !!

فيا للفتاة . . .

ويا للأم . . .

ويا لأخيل البطل !

* * *

وتضع إفجنيا رأسها على رخامة المذبح ، ويرهف الكاهن مُديته ... ولكن ؟ . . . لقد شده القوم . . . ! ونظر بعضهم الى بعض ... !

انهم ينظرون فلا يرون إفجنيا !!

بل يرون مكانها ظبْياً ... رشأ غريراً !!

إذن هى المعجزة !!

لقد تفطّر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة ، فهبطت من ذرى الأولمب لتنقذها ... فرفعتها الى السماء ... ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم فى مملكة توريس !!(١)

وارتفعت أغانى الغوانى ...

يسبحن للآلهة العطشى !!

(لها بقية)

دريني خشبة

(١) إلى هنا تنتهى مأساة إفجنيا فيما يتعلق بحروب طروادة ، ومن أراد مزيداً فليقرأ درامتى يوريبيدز (١ – افجنيا فى توريس ، ٢ – افجنيا فى أوليس) من ترجمة دانت الشعرية ، أو ترجمة جلبرت مورى النثرية

أقصوصة عراقية

نكتـــة العمامة

للأستاذ محمود . أ . السيد

على الشرفة الغربية الكبرى ، فى فندق دجلة الكبير ، المشرف على الصالحية وجسرها ، فى ذات ليلة قمراء من ليالى صيف عام ١٩٣٥ ، كنا جماعة صغيرة من إخوان الصفاء ، فيها طبيب وكيميائى وصحافى وأديب ؛ نحف بسيدة فاضلة ، وافدة من بلاد المجر للسياحة ودراسة تقاليد العرب ، وأطوار سكان البادية ، وأحوال العامة ، والأدب الشعبى غير المكتوب فى العراق نكرمها مكبرين همتها القعساء التى جشمتها عناء السفر الى بلادنا ، فى هذا الفصل الذى يشتد حره ؛ فهرب منه كثير من أهلها المترفين الى مصائف لبنان وغير لبنان ، فراحت تنتقل بين القبائل أياماً وأسابيع ، ثم تعود الى هذا القصر الذى أعده أصحابه نزلاً للتجار والسياح والسياسيين والعلماء الأجانب من أوربيين وأمريكيين وغيرهم ، لتدون مذكراتها العلمية ، وتسجل ما تقف عليه من قصص وأساطير ، وما يحكى لها الرواة من حكايات وروايات تستعين بها على أداء مهمتها العلمية ، ولتستريح يوماً أو أياماً قليلة ثم تعود الى زيارة القبائل والتنقل فى القرى والمدن باحثة مدونة ثم تعود . . .

ومع أنها كانت تبدو للرائى فى أقل من الأربعين من العمر ، فقد كان يعلوها جلال الشيوخ . وهى تنتمى الى « عصبة علمية » تضم رجالاً أفذاذاً من الباحثين وعلماء المشرقيات . طويلة القامة ، مغولية الملامح ، لأنها من سلالة الهون . عالمة بخمس لغات ومنها التركية الحديثة التى تعلمتها فى استانبول . وقد عرفناها فى ذلك الفندق مصادفة . وكنا نؤمه كل ليلة — فى الشتاء والصيف — لنزجى فيه بعض أوقات فراغنا بالحديث والمسامرة ، واستطلاع طلع « الغربيين » الكثيرين الذين نراهم فيه ، فنتقرب إليهم متشوفين ، متبينين نواياهم ونوايا حكوماتهم فى بلادنا ، منافحين عنها ، ذاكرين لهم ما يخفى عليهم من محاسنها ، وما فى طبيعة قطينها وقطين الشرق كله ، وقرارات نفوسهم من سمو فى الخلق والعاطفة وقرب الى الانسانية والحق والخير ، ناعين على الغرب ماديته وحضارته الرأسمالية الاستعمارية . وكثيراً ما كنا نجادلهم عن إيمان بحقنا وبحق الشعوب المظلومة فى الحياة ، فننتصر عليهم أحياناً بقوة الحجـة ، وينتصرون علينا أحياناً بالعناد والمغالطة والمكابرة وما إليها مما يتسلح الغربى به فى مناضلة الشرق اليوم

وكان اسم هذه السيدة المجرية ماجدا

قالت ماجدا تخاطبنا فى شىء من الاستغراب :

— « اليكم حادثة من حوادث قطركم هذا ما كان أغربها عندى إذ تلوتها مجملة فى هذه الجريدة الانكليزية التى تصدر عن عاصمتكم دار السلام بل التى كانت يوماً ما دار السلام »

وأخرجت جريدة « التيمس » البغدادية من حقيبتها فألقتها على المائدة التى كانت فى وسط مجلسنا منطاة بأقداح الشاى وعدته . ثم ابتسمت وابتسمنا مدركين المعنى المقصود بقولها عن بغدادنا « التى كانت دار السلام » لأنها أصبحت دار الحرب منذ سنة ١٩١٧ ، الحرب النارية الدامية أولاً ، والحرب السياسية ثانياً ، وقالت :

— « هل يصدق أحد منا نحن معشر الأوربيين لو سمع هذا الخبر فى بلده ، إذا كان يجهل حقيقة الحياة الاجتماعية فى بلادكم : أن صبياً فى الحادية عشرة من العمر وأخاً له أصغر منه يقتلان أختاً لهما لأنها انحرفت عن صراط العفاف . هذا ما تقوله هذه الصحيفة — اليوم — عن صبيين من حى (باب الشيخ) . فوا عجباً ! حتى الصبيان تجعل منهم النخوة البدوية والغيرة قساة ذباحين ؟ »

قلت وقد بدا لى أن أهون عليها ما سمعت :

— « لقد نقلت هذا الخبر جريدة أخرى وقالت عن الصبيين القاتلين إنهما يحترفان نحر الجزور لدى جزار . وربما كان احترافهما هـذه الحرفة التى ألفا فيها رؤية الدماء والضحايا من الخراف وغيرها صباح مساء ذا أثر عميق فى نفسيهما ، فهان عليهما ما فعلا . وأرجو ألا ترى سيدتى الفاضلة فى ذلك دليلاً على وجود ميل طبيعى فى مواطنينا إلى التوحش وقتل الانسان . . . وأردت أن أعلل الدوافع التى دفعت الصبيين إلى إتيان هذا الأمر ، فلم تدع لى مجالاً للكلام ، بل قالت ، وقد مضت ترتشف الشاى وتبدى

إعجاباً خارجاً عن موضوعنا بالقمر الزاهر المضيء فوق دجلة ، فى سماء معروفة بجمالها لدى كل غربى ساح فى البلاد العربية وبلغ بغداد :

ـ « كلا لم يخطر ببالى أن أتهم العرب العراقيين بالميل إلى التوحش وقتل الانسان لعين الأسباب التى تدفع غيرهم من أبناء البلاد المتأخرة إلى القتل وإزهاق الأرواح ظلماً وعدواناً . ولكننى استغربت أن تقع فى مثل هذه الآونة مثل هذه الحادثة التى تدل على روح قديم وعادات ، كنا نقرأ فى الكتب الباحثة فى أحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم أنها كانت ، وحسبنا أنها زالت من جراء الاحتكاك والاتصال بالغرب ، بعد دخول البريطانيين هذه الأقطار ، منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ، الاتصال الذى له حكمه فى تغيير العادات والأخلاق »

قال طبيب من أصحابنا باريسى التحصيل لاتينى الثقافة :

ـ « لا شك فى أنه كان لدخول الانكليز بلادنا واتصال الغربيين بنا واتصالنا بهم اتصالاً لم يكن من قبل ، تأثير فى تغيير بعض العادات والأخلاق فى المدن الكبرى ولا سيما العاصمة ؛ ولكننا لو نظرنا ملياً فى التغيير الذى حدث لوجدناه منحصراً لدى الطبقة العليا ، وبعض أبناء الطبقات الأخرى ، فى الأسر التى تعددت فيها الدماء واختلف ميراث السلالات المختلفة المتواشجة بالتزاوج . فكانت النتيجة حدوث انحلال أخلاق فى أفرادها ، لا نرى له مثيلاً فى أبناء القبائل والأرياف والبوادى والعامة فى المدن ـ الذين هم فى الأصل القديم من أبناء القبائل ـ والذين ينتسب اليهم هذان الصبيان . ألا تؤيدوننى فى هذا الرأى يا رفاق ؟ »

سكت بعضنا ، وقال بعضنا :

ـ « بلى »

وقال أحدنا وهو الصحافى :

ـ « إن أكثر عاداتنا وتقاليدنا ـ وقولى تقاليدنا أصح من قول السيدة الفاضلة والأخ الطبيب أخلاقنا ـ لم يتغير بعد . وأعنى بتلك العادات والتقاليد ما كان متأصلاً فى روح الشعب ممتزجاً بدمائه منذ قرون وأزمان . فالعراقى العربى الخالص فى الزمن القديم الذى كان يقتل زوجه أو أية امرأة من آل بيته وذوى قرباه إذا ما حادت عن طريق العفاف واستزلها شيطان من الانس وعبث بها فأثمت معه ، هو هذا العراقى العربى ـ سواء أكان خالصاً فى عروبته أم لم يكن وهو يدعيها ـ الذى يعيش فى القرن العشرين ، والذى يمثله خير تمثيل بطلا الحادثة التى أتاحت لنا الفرصة لهذا الحوار ، إلا الأماشذ من الناس . وهؤلاء الشاذون ممقوتون مكروهون يلبسون ثياب الخزى والعار أنى حلوا وأقاموا . وقد يوجد فارق بين رجل الأمس الذى كان يقدم على القتل وسفك الدم فى بيته لدرء العار عنه ، على الشبهة والظن ، ورجل اليوم الذى يتبين ويتريث حتى يأتيه اليقين بما يصح أن يدعوه إلى مالا بد له منه لكى يُجرى حكم التقاليد ، ويحيا فى قومه عزيزاً شريفاً لا يطأطئ رأسه العار ولا يذله ، ولكن هذا الفارق طفيف »

قالت وقد لذها الحديث وزادها الولع بتدوين الحكايات والروايات عن تقاليدنا وعاداتنا شوقاً إلى استماع شئ جديد مما يدخل فيما خضنا فيه :

— « ألا تحدثوننى بحادثة من حوادث العهد السابق لعهدكم الحديث ، أسجلها إلى جانب هذه الحادثة التى سوف أستقصيها وأدونها بتفاصيلها ، فانها تغنى عن كثير مما يصح أن يروى عن قوة التقاليد — على ما يسميها السيد الصحافى — وشرف العامة وغيرتهم وحرصهم على المرأة من أن تمتد اليها يد الغريب بما يشينها ويدنسها ؟ »

قلت :

— « أى عهد تعنين ؟ »

— « العهد الذى ختمته نهاية القرن التاسع عشر ؛ إذ أننا نعتبر تلك النهاية آخر خيط من الليل السابق لعهد اليقظة فى بلادكم ، وبداية الاتصال بالعالم المتمدن »

قلت :

— « سأقص عليك قصة البطل الغيور عبد الحميد ، وهى قصة لحادثة واقعة فى النصف أو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، مما حكى لنا مشايخنا من حوادث بلدنا هذا ، قالوا :

نكتة سوداء من سخام القدر كانت فى عمامته ذات يوم ، لم يفطن اليها ، وقد جاء القهوة كما كان يجيئها كل يوم ، مرفوعاً رأسه على الرؤوس ، مفعمة نفسه بخيلاء الفحولة وكبرياء

البطولة ، البطولة التي اعتلى عرشها المسكين في البلد بحق ، فهابه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتناول الرواة في الأحياء أخباره في كثير من الوقائع الخطيرة التي صادف والأحداث التي شهد

وكان الشطب — وهو آلة التدخين عند القوم في ذلك الزمن — المفضض الطويل في يسراه يدخن به مفكراً صامتاً ساهماً ، والدخان ينبعث من بين شدقيه كثيفاً

لقد قال له صاحبه أحمد العلوى ، وقد لقيه في الطريق قادما من بيته قبيل ساعة : « إن وسخا أو سخاما على رأسه » ، وانصرف لطيته . . . . وكان الناظر إلى وجهه يرى الشر عليه بادياً في وضوح

وما عتم أن قام إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيده اليمنى على خنجره ، رسول الموت الذي طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، وجعل يدخن ، كما كان . . .

ومر به صاحبه ، وكانت القهوة حافلة بالكهول والشيوخ ذوى النظرات القاسية والعمائم الكبيرة ، فنظر إليه قليلاً ، ثم أقبل عليه ، فجلس إلى جانبه ، ومال إليه برأسه يكلمه همساً :

« إن في عمامتك لنكتة سوداء نبهتك إليها فلم تزلها بعد »

كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر ، ولكن أحمد لم يفقه لها معنى

وكان سكوت ، ثم قام الرجل تاركاً صاحبه جالساً في مكانه ، دهشاً ، ومشى إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيمينه على خنجره ذلك الذي طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، بجانب صاحبه ، ثم جعل يدخن كما كان . . .

قال له أحمد :

— « غريب هذا الذي أرى منك أيها الأخ ! هل أنت آت من بيتك ؟ كيف غفلت كذلك عن إزالة النكتة من السخام التي في عمامتك ؟ »

وهنا انفجر الرجل من شدة الغيظ ، وقام على قدميه مرتجفاً ، وقد دارت به الأرض الفضاء :

— « ويلك لم تبق إلا أمى العجوز ! »

تلك هي القصة التي قصها علينا المشايخ فيما قصوا وحفظوا من حكايات بغداد في زمن قديم خلا

لقد نحر عبد الحميد زوجه وأخته بيده ، واحدة تلو أخرى ، كما ينحر الجزار الخراف والبقر ، ليزيل السخام من عمامته . فعمامته هي التاج ، تاج الشرف والعرض والكرامة فوق هامته في هذه الحياة ، وشرفه وعرضه وكرامته شرف أسرته وعرضها وكرامتها ، وكل أولئك من شرف قبيلته وحيه وعرضهما وكرامتهما ، فان وسخ العار ذلك التاج ودنسه فلا يطهره منه إلا الدم والموت .

ولم يلم الرجل على ما فعل أحد ، لأنه فهم ما قال له صاحبه على غير حقيقته ، بل لاموا صاحبه الذي لم يستطع إيضاح ماقصد بعبارته التي توهم سامعها الاشارة والرمز إلى العاب والعار . فعبد الحميد كان يمثل العربي العراقي ابن الشعب والقبائل بالأمس ، وان كان يسكن داراً في بلد لا خيمة في بادية ؛ وهذان الصبيان يمثلانه اليوم أتم تمثيل . فهما وذاك في الحقيقة واحد في ثلاثة ، وان تباعد بينهما وبينه زمانهما وزمانه »

قالت وكأنها استدرجتني الى استملام رأى لى فيما كنا نتحدث فيه :

— « وما رأيك أنت في هذا العقاب الذي كانت تعاقب به المرأة عندكم اذا مازلت بها القدم ، وما زالت تعاقب به ؟ »

— « لا يسمى الناس قتل المرأة عندنا اذا ما أثمت عقاباً ، بل يسمونه — بحكم العادات والتقاليد الموروثة — محوا للعار وتطهيراً للعرض من الدنس . وإذا كنا نعتقد أن حياة الشعب المادية هي التي تملى عليه منهاج أخلاقه وتقرر له عاداته وتقاليده . »

— « بلى . أعتقد ذلك . . . »

— « . . . فان الحياة المادية لشعبنا الفقير المسكين لم تتغير بعد تغيراً جوهرياً بالاتصال بالغرب لكى تتغير تلك العادات والتقاليد لديه ، بل تغيرت الحياة المادية في القصور ، ولدى بعض المتفرنجين من الموظفين ، وقولى هذا تعليل متمم لما كان قاله أخونا الطبيب . . . . »

(العراق ، الأعظمية)

محمود . أ . السيد

البريد الأدبي

جوابي لأخي محمد سيكوند قصيراً كما تراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطئ ، على حين أن أخي محمداً الكرد على دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني أنا وإياه لسنا من هـذا العلم في ورد ولا صدر . فاذا كان الأمر كذلك فما كان أحراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد أطنب في وصفه مثل الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حذام

أنا كان أكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته ؛ فان كنت لست من علماء الحديث فاني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مسلوباً مزية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الأستاذ كرد علي عظيما في عيني ، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة

أما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم الى مرسل ومسجّع ، وموزون مقفّى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفى هو الشعر الذي لا رونق للّغات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله تعالى قد نزل بهذه الطريقة ، وأن نهج البلاغة وكثيراً من كلام أفصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فان كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب

جنيف ١٠ جمادى الآخرة **شكيب أرسلان**

الى الأديب الزحلاوي

اطلعت على كلمتكم المنشورة بعدد (الرسالة) الأخير . الخاصة بقصيدتي المنشورة في « مجلتي » ولما كنت لم يسبق لي التشرف بقراءة شيء ، ولم أسمع مطلقاً قبل اليوم عن شاعركم الدمشقي عفلق افندي ؛ فاني أرجوكم أن تتكرموا بنشر قصيدتي وقصيدته معاً . وأعتقد أن الأستاذ صاحب (الرسالة) لا يمانع في ذلك مادام قد سمح لك أن توجه ما كتبت إليّ

والفت نظر زحلاوي أفندي إلى أن المقطعين الذين انتخبهما لي ولعفلق أفندي ليس فيهما ذرة من التشابه ، فما الشبه ، بين « أعولي يا جراح » و « اعصفي يا رياح » ، وما الشبه بين « أسمعي الديان » وبين « اهزئي بالسماء » ! ! إن هذا لفهمٌ عجيب

ختاماً لك وللأستاذ صاحب الرسالة تحياتي ما

الدكتور
ابراهيم ناجي

حول مستعرب عظيم

اطلعت في العدد الخامس عشر بعد المائة من (الرسالة) الغراء على مقالة الأستاذ المؤرخ محمد كرد علي بك التي يترجم فيها للأستاذ المستشرق الدكتور ف . كرنكو ، ويثني على خدماته لأدب العرب

وقد رأيت من الواجب أن أستدرك على الأستاذ كرد علي بك بعض ما أعرفه عن هذا المستشرق المخلص . فقد كان أستاذاً للآداب الاسلامية في جامعة (بون Bonn) في ألمانيا ، وكان مما يدرسه هنالك (كتاب علوم الحديث لابن الصلاح) ، كما هو من أعضاء بعض المجامع العلمية

ومن عظيم خدماته تحقيقه لمعجم الشعراء للمرزباني الذي

طبع فى القاهرة فى هذا العام ؛ وفى مقدمته (المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وألقابهم وأنسابهم ، ومختار أشعارهم للآمدى) ومما صححه كتاب (من يسمى عمراً من الشعراء) ، وهى رسالة بعث بها محمد بن داود بن الجراح إلى أبى أحمد يحيى بن على ابن يحيى بن أبى منصور المنجم . ترجم فيها لما يزيد على مائتى شاعر ممن يسمى عمراً

وصحح أيضاً التاريخ الكبير للبخارى ، وهو تحت الطبع فى الهند . . . إلى غير ذلك مما يستحق عليه شكر العلماء والأدباء من أهل الشرق والغرب .

محمد شفيق

النونة

تابع الأستاذ « دريني خشبة » فى مقاله فى « الرسالة » (العدد ١١٣) بعض الكتاب فى إطلاق لفظ « النّونة » على الخط الذى يلى الأنف فى الخد البارز المستدير ، وسأل الرسالة رأيها فى صحة هذا الاطلاق

والمعروف أن « النّونة » هى النقرة فى ذَقَن الصبى ، كما جاء فى اللسان والقاموس والتاج والنهاية وغيرها ، وفى حديث عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال : « دسّموا نونته كى لا تصيبها العين » أى سوِّدوها . وقال الأزهرى : هى الخُنْعُبة والثُّومة والهَزْمة والوَهْدة والقَلْدة والهَرْتمة والعَرْتمة والحَثْرَمة

على أن الخنعبة والثومة ليست النقرة فى الذقن كما قال الأزهرى ، ولكنها مشق ما بين الشاربين ، أى إنما هى هذه الوهدة التى تمتد من وَتَرة الأنف إلى منتصف الشفة العليا

والهزمة كل نقرة فى الجسد ، وتخص بالنقرة التى فى أعلى الصدر مما تحت العنق

والهرتمة والحثرمة والعرتمة : الدائرة التى فى أعلى الشفة العليا ، وليس فى ذلك ما يصح إطلاقه على الخط الذى يلى الأنف ، وإنما ذلك الخط هو القَسِيمة ، والله أعلم .

على الطنطاوى

سيرة تيمورلنك

سألنى أحد أدباء الخرطوم عن كتاب عربى يقرأ فيه سيرة الفاتح التترى الكبير تيمورلنك ، فأجيبه على صفحات الرسالة بأن أنفس مصدر فى هذا الموضوع هو كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لشهاب الدين المعروف بابن عربشاه الدمشقى ؛ وهو قطعة فذة من الأدب التاريخى والبيان الرائع ؛ وقد كتبه مؤلفه بعد وفاة تيمور بنحو جيل فقط ، واستقصى أخباره من مصادرها ومواطنها ، وشهد غزوه لدمشق صغيراً ، وقد طبع هذا الكتاب مراراً بمصر وأوربا وترجم إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر

ويستطيع الأديب الفاضل أن يقرأ طرفاً من أخبار تيمور أيضاً فى تاريخ مصر لابن اياس (ج ١ ص ٣٢٦ وما بعدها) وفى النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٨٠١ و ٨٠٢ و ٨٠٣ و ٨٠٤ هـ ؛ وفى السلوك فى دول الملوك للمقريزى (مخطوط) فى الأجزاء الأخيرة ؛ وبالانكليزية فى كتاب جيبون Decline. and Fall of the Roman Empire (الفصل الخامس والستون) ، ويستطيع أن يقرأ عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور وعن بعض المصادر المتعلقة به فى كتابى « مصر الاسلامية » (الفصل الخامس من الكتاب الثانى) ؛ وفى كتابى ابن خلدون (ص ٨٠ ـ ٨٦)

م . ع . ع

كتاب عن النقد المصرى

لفت نظرنا فصل نشرته جريدة « تسيرشر تسيتونج » السويسرية الألمانية فى صحيفتها التجارية فى عددها الصادر فى ٥ سبتمبر عن كتاب اقتصادى ألفه أحد مواطنينا المصريين بالانكليزية ، ونشرته احدى شركات النشر فى لندن ، وعنوان الكتاب هو : « النظام النقدى فى مصر Monetary systene in Egypt » ، ومؤلفه هو الأستاذ محمد على رفعت . وفى هذا الفصل عرض دقيق ممتع لما احتواه الكتاب ، فهو يتضمن تاريخ النقد المصرى من سنة ١٨٣٤ ، أى منذ عهد الاصلاح أيام محمد على إلى سنة ١٨٨٥ ، أى إلى بدء الاحتلال الانكليزى ، ثم إلى سنة ١٩١٤ ؛ وشرحاً وافياً لنظام النقد فى مصر ؛ ويخصص المؤلف فراغاً كبيراً للتحدث عن المؤسسة المصرية الاقتصادية الكبرى أعنى بنك مصر ، ونموه السريع المدهش ، ونشاطه المشعب الذى يحمل على الاعجاب ، وشركاته المديدة التى شغلت أعظم ركن فى النهضة الاقتصادية ، وأثره القوى فى تطور الاقتصاد المصرى ، ويعتبر المؤلف انشاء بنك مصر ، بحق فاتحة النهضة الاقتصادية المصرية

وعمادها الحصين . ويحدثنا أيضاً عن أحوال البنوك في مصر بصفة عامة، وعما للمال الأجنبي من أثر كبير في شؤوننا الاقتصادية وغير ذلك مما يتعلق بموضوع مؤلفه

هذا هو ملخص الفصل الذي قرأناه في جريدة « تسيرشر تسيتونج » ، ولم نحظ برؤية كتاب الأستاذ رفعت ، ولكنا اغتبطنا أن تهتم جريدة سويسرية نائية بنقد كتاب لمواطن فاضل . والذي يدعو إلى الأسف في ذلك هو أنه بينما نجد مثل هذا الاهتمام من جانب الصحافة الأجنبية بالجهود العلمية أيا كان مصدرها ، إذا بنا نجد الصحافة المصرية على النقيض من ذلك لا تكاد تهتم باستعراض أي مجهود علمي محلي ، ولولا أنها نلزم هذا الركود النقدي المؤلم ، لكنا قرأنا عن كتاب الأستاذ رفعت وكتب غيره من مواطنينا الفضلاء ، فصولا وفصولا قبل أن نقرأ عنه في الجريدة السويسرية . فمتى تعني صحافتنا بهذا الجانب المنسي من مهمتها ؟ ومتى تعني بالنقد العلمي الصحيح ، وتحله منها المكان اللائق ؟

شعر الزهاوي يترجم الى الالمانية

ترجم الأستاذ الدكتور ودمر أستاذ الفلسفة في جامعة برن الى اللغة الألمانية شعراً ملحمة الأستاذ الزهاوي التي عنوانها : (ثورة في الجحيم) مع خمسين قصيدة وثلاث وخمسين رباعية ، ونشر كل ذلك في كتاب جمل عنوانه : (جميل صدقي الزهاوي) وقد صدر الجزء الأول منه

الابتذال الرفيع

اشتهر الأمريكيون بالشذوذ في كثير من الأمور ؛ ولكن لم يكن من المتصور أن يطغى هذا الشذوذ حتى على الاعتبارات والتقاليد العلمية التي ترتفع في كل البلاد المتمدينة عن كل ابتذال . فقد قرأنا في بعض الأنباء الأخيرة أن الأمريكيين ينتظرون عودة الممثلة السينمائية الشهيرة جريتا جاربو الى أمريكا بفارغ الصبر ، وأنهم اعتزموا أن يظهروا إعجابهم بها وبمواهبها بطريقة جديدة لم تكن تخطر على البال . وذلك أن « جامعة جنوب كاليفورنيا » قد أصدرت قراراً خلاصته أن تدعى جريتا جاربو من هوليوود الى حفلة استقبال تقيمها الجامعة وتمنح فيها الممثلة الشهيرة اجازة « الدكتوراه الفخرية » تقديراً لمواهبها الفنية ، وينتظر أن يكون هذا الاحتفال الأول من نوعه فريداً في فخامته وطرافته ، وفيه تلقي جريتا محاضرة في موضوع فني . ويقال فوق ذلك إن الممثل الهزلي الشهير شارلي تشابلن ، سيدعى الى الجامعة لنفس الغرض وسيمنح اجازة فخرية لنفس الإعتبارات ، نقول ، وهكذا يبتذل كل شيء في أمريكا ، حتى التقاليد العلمية التي تتخذ في كثير من الأمم والجامعات العريقة لوناً من القدسية ؛ ولكن أمريكا ليست بلداً عريقاً في المدنية ولا التقاليد ، والعلم فيها بضاعة مزجاة ، والأجازات الجامعية فيها لا اعتبار لها ، وهي تنثر على الطالبين بأيسر أمر

ذكرى لوبي دي فيجا

احتفلت اسبانيا احتفالاً قومياً شائقاً بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دي فيجا لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته . وقد سبق أن ترجمنا الشاعر الأشهر في هذا المكان من الرسالة ، وقدمنا خلاصة نقدية عن حياته وخواصه الشعرية والأدبية . والآن نقول إن العاصمة الاسبانية قد احتفلت بذكرى الشاعر أعظم احتفال ؛ وخصصت الأيام الأخيرة من أغسطس لاقامة الحفلات والمآدب الشائقة . وكان من أظهر خواص هذه الاحتفالات المسارح المديدة التي أقيمت في العراء لتمثيل روايات لوبي دي فيجا ؛ وقد أراد الشعب الاسباني بذلك أن يحيي أيام الشاعر وصور عصره ، وسار الممثلون إلى هذه المسارح الريفية ، في عربات النقل كما كان يحدث أيام الشاعر . وقد كان التأليف للمسرح أحد كفايات لوبي دي فيجا ؛ فقد كان شاعراً وجندياً وقساً ، وباحثاً ، وقد كان أيضاً شريداً وخليعاً وصعلوكاً ؛ وقد خدم في حملة « الارمادا » الشهيرة التي جردت على انكلترا ، وقضى معظم وقته على ظهر السفينة يقرض الشعر . وقد هذب المسرح الاسباني ووهبه أثمن تراث وأجله

غرفة الكتب

من الأنظمة الغريبة التي أنشئت في روسيا السوفيتية إدارة تسمى « غرفة الكتاب المركزية » فلا يصدر في روسيا السوفيتية وجميع الجمهوريات الملحقة بها كتاب أو مجلة أو جريدة لا تسجل

فى هذه الادارة ، وقد أصدرت الحكومة قانوناً يحتم على الناشر أن يقدم اليها خمسين نسخة من الكتاب أو الصحيفة التى ينشرها ، وتستخدم الغرفة المركزية من هذا المدد خمس نسخ لاجراء المبادلة الدولية فى الكتب التى تصدر فى الدول الأخرى ثم تدرس كل كتاب أو صحيفة من الوجهة الفهرسية ، وتصدر عن ذلك مجموعات دورية مصنفة حسب أنواع الفنون والعلوم ، وقد بلغت فهارس هذه الغرفة حتى اليوم نحو ستين ألف مجلد ، وفى وسع المعاهد العلمية والمكاتب العامة وكذلك الأفراد أن ينتفعوا بمحتوياتها النفيسة

الذكرى المئوية لوزارة المعارف

تألفت لجنة برياسة صاحب السعادة وزير المعارف العمومية وعضوية كل من وكيل الوزارة ، ومدير الجامعة المصرية ، ومرقص سميكة باشا ، وأمين سامى باشا ، ومحمد أسعد براده بك ، ومحمد خالد حسنين بك ، وابراهيم درويش بك ، ومحمد نصار بك ، والأستاذ خليل مطران لتحضير ما يلزم للاحتفال بالذكرى المئوية لانشاء ديوان المعارف التى تقع فى غضون شهر فبراير سنة ١٩٣٧ ووضع كتاب ذهبى تستعرض فيه سياسة التعليم ونظمه المختلفة فى مصر منذ العصور الأولى

النشيد القومى الرسمى

أصدر حضرة صاحب السعادة الأستاذ أحمد نجيب الهلالى بك وزير المعارف القرار التالى :

نظراً لما للأناشيد القومية من الأثر القوى فى إظهار جلال الأمة ، والتنويه بعظمتها ، وإيقاظ شعور الشعب حين يتناشدها ، والحاجة إلى نشيد من هـذا النوع باق فى المناسبات القومية والدولية ، أسوة بالدول المتحضرة

وبما أنه لا يوجد لمصر فى الوقت الحاضر نشيد قومى معترف به رسمياً مما تتعين معه المبادرة لسد هـذا النقص بتشكيل هيئة يعهد إليها وضع شروط مباراة عامة لاختيار نشيد يحقق أغراض الأناشيد القومية أصدرنا القرار الآتى :

المادة الأولى — تشكل لجنة من :

حضرة صاحب العزة أحمد لطفى السيد بك مدير الجامعة المصرية رئيساً

حضرات : الأستاذ خليل مطران ، الأستاذ على الجارم المفتش بالوزارة ، الدكتور محمود أحمد الحفنى مفتش الموسيقى بالوزارة ، عبـد الله سلامة أفندى مفتش التربيـة البدنية بالوزارة ، أعضاء

المادة الثانية — تكون مهمة هذه اللجنة وضع شروط مباراة عامة بين الشعراء والموسيقيين لنظم وتلحين نشيد قومى يكون صالحاً للاعتراف به رسمياً

المادة الثالثة — تعين جوائز مالية تمنح على الوجه الآتى :

« ا » ٥٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول فى نظم النشيد الذى يعترف به رسمياً

« ب » ٣٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثانى

« ح » ٢٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثالث

« ى » ٥٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول فى تلحين النشيد الذى يعترف به رسمياً

« ﮬ » ٣٠ جنيها مصريا يمنحها الفائز الثانى

« و » ٢٠ جنيها يمنحها الفائز الثالث

المادة الرابعة — على وكيل الوزارة تنفيذ هذا القرار

الكتب

الجبل الملهم

La Montagne inspirée

لناظمه الشاعر اللبنانى « شارل القرم »

للأستاذ خليل هنداوى

ألفتُ ألا أكتب عن كتاب إلا بعد ركود الضجة التى تقوم حوله ، سواء عنـدى أكانت ضجة استحسان أم ضجة استهجان ، ثقة منى بأن النسمة الهادئة تسكن ما لا تسكن الريح العاتيـة . والآن وقد هدأت الضجة حول ديوان الجبل الملهم ، وقرّ ضمير صاحبه بعد أن أحرز على جائزة « ادغاريو » الفرنسية ، واطمأن وجـدانه للحفلة الرائعة التى سيخطب فيها أدباء لبنان ، مرحبين بشاعر تغنى بجمال لبنان ! وخلاصـة تلك الضجة التى قامت والتى سـتقوم عبارات ثناء بدون كيـل ، وجمل ولاء بلا وزن ، ترفع « شارل القرم » إلى ذروة دونها الذرى التى تغنى بها وتحدث بجمالها ، وكيف لا يرفع النبوغ أصحابه فى بلاد يعرف أهلها معنى النبوغ ويرعون حق النبوغ ويقدرون قدر النبوغ ؟

تناولت ديوان « الجبل الملهم » من بين دواوين كلها عيون رانيـة إلى ، يستنجز أصحابها منى وعداً بالـكتابة عنها ، فآثرت الالتذاذ بديوان يحدثني – فى الصيف – عن الجبل الملهم ، فأهملت من هم أدنى إلىّ وعكفت على الجبل الملهم أتلوه بشوق وغبطة ولذة . وقد شغلت نفسى بتأمل الأمثلة الفنية فيه ، كاملة هنا متوسطة هنالك ناقصة هنالك ، وأنا برغم هذا التفاوت فى مراحله لم أدع لغبطتى مجالاً لهزيمة

هنالك أجزاء متفككة عملت على وصلها بخيالى ، وهنالك اضطراب كثير فى ألحان بعض الأوزان التى جاءت كثرة تنوعها زيادة فى التشويش ، فلا تـكاد تهدأ الأذن إلى لحن حتى يطلع لحن آخر تنبو عنه . فحملت ذلك إلى نقص فى الـكفاءة الفنية التى تحتاج إلى تمرين كبير ، وهنالك بعض تشابيه تمجها آذان أهـل البـلاد أنفسهم ، لأنها لا تمازج روح لغتهم ، ولا توائم نفس عبقريتهم ، كتشبيه الشمس « بصابون السحاب » ، وهنالك ضياع المثل الأعلى الذى يتبعه الشاعر بحيرة ، يتبعه بقلب موزع مضطرب ، فلا يدرك ما هو هذا المثل ولا يدرى أين يجده . لا يعتمد على عقله ولا يثق بروحه . يحارب بعض التقاليد ويؤمن ببعضها إيماناً أعمى : يتطرف فى كل شىء يحبه أو ينفر منه . كأنما قلبه لا يغلب عليه اعتدال ولا استقرار

هـذه بعض صفات تطالعك من الديوان وددتُ أن أتوسع فيها توسعاً فنياً ، ووددتُ أن يكون بحثى متملقاً بها ، وقفاً عليها ، لولا ظاهرة خطرة غريبة كامنـة فى احدى الثنايا ، ما وقفتُ عليها حتى ارتمشتُ وعاودنى ألم عنيف وشـك فى المستقبل . فتركت تلك التعليقات الفنية التى تتعلق بأصحابها وجابهت هذه الظاهرة الاجتماعية التى لها خطرها فى حياتنا وبيئتنا وقوميتنا

تلوت هذه الأبيات التى يتحدث بها عن اللغة العربية :

« إننا ننطق اليوم لغة جاءت من آسيا
قد فرضها علينا القتل والرعب
وباطلاً نضع فيها الفن والشعر
والعلم والايمان » !
« إننا لن ننظر إلى العربية
نظرنا إلى أخ يُدعى إلى منزل أبيه
إن هذه الزهرة الصحراوية قد تقبلتها حدائقنا
تحت ضغط حكومة قاسية »
« قبلناها وهذبناها
وأدعمناها باعتنائنا الشديد
ولـكن الاسلام لا يرضى بأن تكون هـذه اللغة المرفوعة على جباهنا — لنا »
« إن هذه الـكلمات الغريبة « اللغة السريانية » التى يتلقنها أبناؤنا
لم تكن يوماً غريبة عنا

بل يكاد يخيل إلينا أن قلوبنا
تذكر يوماً نحتتها فيه »

« ولكن هؤلاء الذين يجحدون أصانا اللاصق بنا . . .[١]
هؤلاء المنفصلين عنا ، المسلوخين من أذرعنا
الأغنياء بالنفى . . .
هؤلاء يحتقرون أصلهم . كما يفعل الأعزاء العاقون الناكرون الاحسان »

تلوت هذه الفقرات وأنا أكذب نفسي وأتهمها . أحقاً أرى صاحب الجبل الملهم يتنصل من اللغة العربية ، ويعتبرها زهرة غريبة نبتت طفيلية فى حدائق لبنان ؟ أحقاً يرى صاحب الجبل الملهم أن هذه اللغة قد فرضت على أهل لبنان بالسيف والدم ؟ فاذا كان الشاعر لم يكتب له نصيب ولا سهم فى هذه اللغة لا فى نطق ولا كتابة ، فما له يعمل على التنكر منها وضربها فى الصميم ! وما بال أصحابنا اللبنانيين يشايعونه على هذا . وهم علموا ما للعربية من فضل ومآثر . وعلموا أن الاسلام لم يفرضها عليهم بالقتل والضرب . وإنما فرضت نفسها وعملت على فرض نفسها . ومتى كانت اللغات تلين لارادات الأفراد ؟ وهل السريانية أخت العربية لو كان فى أجلها فسحة تذوقت رداها ؟ وماذا فى السريانية من أدب وفن يتعلق بأحشاء لبنان ، ويصطبغ بدم لبنان ؟

وأما أن الشاعر لا يريد الكتابة بالعربية لأنه لا يراها جديرة بأن تكون وعاء حكمته وفنه وشعره ، فهل عجزت اللغة عن ضم شتات أفكاره ؟ وهى التى لم تعجز ولن تعجز عن أفكار من كان لهم شأنهم وخطرهم ، إلا أن تكون أفكاره مما لا تحيل به المعقول . ولكن هو الشنآن

كنا نريد أيها الشاعر وأنت لا تنطق بهذه اللغة أن تحترم على الأقل كيانها ، ولا تدس عليها دساً يسخر منه الأجانب أنفسهم . كنا نريد أن يكون لك بأدباء المهجر أسوة حسنة : أولئك الأدباء الذين اصطلحت عليهم عوامل الغربة والانقطاع . وظلوا راعين للغتهم حافظين لحرمتها عاملين على رفع ألويتها . وقد علت منهم المجيد السباق فى لغته واللغة الأجنبية التى اصطنعها . كجبران ونعيمة والريحانى وكثير من أمثال هؤلاء فى المهجر وغير المهجر ممن تفتحت لهم من الآفاق ما تفتح لك ، ولان لهم من عبقرية غيرهم ما لان لك

وأما أن الشاعر يود العودة الى إحياء الروح الأولى وهى الروح الفينيقية ، شأن المصرية الفرعونية . فالمصريون الفرعونيون أنفسهم لم يفكروا يوماً فى نفى اللغة العربية من بين ظهرانيهم ، ولم يجدوا فى بقاء العربية ما يحول بينهم وبين التمصر الذى أرادوه

اضطراب ـ فى لبنان ـ فى المثل العليا والتفكير ، واختلاف فى الثقافة والمنحى . كأنما بيئة تفككت أجزاؤها وانطوى كل جزء على نفسه بدون وحدة منتظمة ولا جامعة ملتئمة . كل حزب يمشى ولا يدرى أين يمشى وأى هدف يقصد

وحدوا يا قوم تفكيركم واعرفوا ما تطلبون ، فاننا حتى اليوم لا ندرى مثلكم الأعلى ولا ندرى أى منهج تقصدون ؛ وأنقذوا لبنان قبل أن تقتله محبتكم ، فالمحبة المنقسمة على نفسها هى أشد خطراً من الكره والنفور . وليكن لكم مثل أعلى تحجون إليه وتعملون على إظهاره فى بيوتكم ومدارسكم ، وفى مجامع جدكم ولهوكم ، ينشأ عليه صغاركم ويشب عليه فتيانكم

أما أولئك الذين ينتظرون أن يهيموا غداً فى الحفلة التكريمية لصاحب الجبل الملهم ، أينظرون أى اكليل يحمله اليهم ، وأى اكليل يحملونه اليه ؟ اكليله لهم اكليل احتقار اللغة العربية ، واكليلهم له مبايعته على ذلك . اكليله « قبلات لبنانية على شفاه اللغة الفرنسية »[١] ، واكليلهم الدعاء لمحب لبنان ورافع جبهة لبنان والمبشر بنبوغ لبنان . أحبوك يا لبنان وادعوا محبتك لأنفسهم حتى خنقوك بالأقماط وأدرجوك بالأكفان !

لبنان الذى يشبه اليوم « برج بابل » بأديانه ولهجاته ومذاهبه ، لا يوحد بين أجزائه إلا هذه العربية ، وإنما توحد بينها توحيداً تقليدياً لا يعمل على الايمان به قلب ولا يؤمن به دم . فاذا انهارت هذه السارية التى تتحد عليها أجزاء لبنان تمم الفوضى داره ويفشو فيه روح التمزق . وأصحابنا بعد هذا كله يريدون أن يجمع بينهم هذا النشيد : « كلنا للوطن . . . كلنا للعلا . . . كلنا للعلم » . وقد علم العلم والعلا والوطن أن لا مكان لهم فى المكان الذى تتقلص فيه اللغة ولا يحترم لها كيان ، وتهان فلا يهب لنصرتها أعوان تفرقوا ما اسطعتم فى ثقافتكم ومثلكم ، فما أشبه الليلة بالبارحة

خليل هنداوى

---

(١) من هم هؤلاء ؟

(١) إشارة الى البيت الذى ختم به الشاعر ديوانه

3 me Année, No. 117.

Lundi-30-9-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبتديان رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ١١٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢ رجب سنة ١٣٥٤ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

صفحة

عبرة الحادثات

للدكتور عبد الوهاب عزام

المدنية الأوربية ، على خيراتها وما أجدت على الناس من علمها ورفاهيتها ، مدنية مادية دعائمها المعادن والأحجار ، يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما ، ويغذى بالفحم والنفط وأخواتهما ، وتدور بهما دواليب المصانع والمغازل والمناسج . قد استحكمت فيها الآلات ، وأتقنت الصناعات حتى أغنت عن الانسان أدواتها ، ونافسه عتادها ، فثارت العداوة بين الآلات وصانعيها وعمالها ومالكيها . وقد أوحى ذلك إلى بعض الأمريكيين فاخترعوا إنساناً آليا يخدم خدمة الإنسان ويتحرك حركاته ، وهل الانسان فى المصانع إلا آلة سريعة العطب ؟

طبع إنسان هذا العصر آلياً دائراً لا يألف الاستقرار ولا يعرف السلام ، ولا تتمكن فى قلبه المحبة ، ولا تستقر فى سريرته الشفقة . واستكلبت هذه الآلات على غذائها ، وتنافست فى أقواتها ، وأحس كل أنها القوة لا العدل ، والغلبة لا الانصاف ، فنفخوا فى الأمم روح العصبية ، وغرور المنجهية ، وزعم كل قبيل أن أوّله

خير الأولين ، وأنه سيد الحاضرين ، وأن بنيه سادة الآتين ، وأن الأرض كلها له ، وأن الويل لمن جادله . ثم ماشئت من أناشيد مثيرة ، وتربيـة هائجة ، وإيقاظ الوحشية فى النفوس ، وإشعال البغضاء فى الأفئدة ، حتى صار الناس على رغم العلم والفلسفة وعلى ما قرّبت بينهم الوسائل الحديثة أميل إلى الحرب والجلاد ، وأحب للتخريب والتدمير من أناسيّ القرون الخاليـة ؛ فبينا تراهم فى ظاهر من السلام والوئام ، يتغنّون بحضارتهم ، ويعكفون على دراستهم ، ويتكلمون فى العدل والحرية والاخوة ، إذ تحكهم التجارب قدح الزناد ، فاذا النار تحت الرماد ؛ تغلب عليهم الطباع الحربية ، وتسيطر عليهم الحياة الآليّة ، فاذا الأمم كلها جنود ومصانع للسلاح والمدمرات ، وإذا الأوربى كالذئب الذى لبس جلد الشاة ثم خلعه

ومهما يكن حظ القوم من العدل والنصفة ، ونصيبهم من المودة والألفة ، فذلك فيما يشجر بينهم من خلاف . فأما أهل الشرق سكان آسيا وأفريقية من الأمم الملونة فليس لهم فى العدل حماية ، ولا فى القانون نصفة ، « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمّيين سبيل » . وما يزال صدى الأحداث يدوّى فى آذاننا ، وحسبك حروب طرابلس والبلقان والريف . فان ساغ لأوربى أن يطمئن إلى عدل أوربا وانصافها ، وقوانينها وجماعة أممها ، فليس للشرق أن يسكن إلى ذلك ، فهو مال مباح ودم مهدور

***

وتلك أمة ينفخ قادتها فيها الغرور والعُجب ، ويذكرونها مجد الرومان وغابر الزمان ، حتى انتفخت أوداجها وورمت أنوفها . ثم صاحوا فيهـا قد بطشنا بطرابلس عشرين عاماً حتى دوخناها ، وذللنا دانيها وقاصيها ، ولـكنها لا تفى بحاجتنا ولا تسد مطامعنا . ونظروا فاذا فى أفريقية دولة واحدة مستقلة تحفظ عليها استقلالها من دون أمم أفريقية أنها دولة نصرانية لم يستبح المغيرون أن يجعلوها كالمسلمين ، ولـكنها على نصرانيتها أمة سوداء ضعيفة تسكن أرضاً واسعة ، صاح زعيمهم هلمّ إلى الحبشة ! فانبرت العقول تخترع الأوهام والتعلات ، والألسن تفترى الـكذب ، والأقلام تخط الأباطيل . وطفقوا يعيدون قصة الذئب والحمل حيناً ، ويصرحون بمكنون ضمائرهم حيناً . وسار الشر إلى الحبشة فى جيوشه ومفترياته

ويشفق بعض الدول من هـــذه الغارات ويخاف عقباها فيستغيث الحق والعدل ، وحماية الضعيف ، والاقتصاص من القوى . وتتوالى نُذُر الحرب ، وتطيف بمصر مقدماتها ، وتقف مصر بين دولة محتلة ، وأخرى مجاورة ، تشقها الطريق بين الحبشة وإيطاليا . تهيب مصر بجيشها فاذا جيش ضئيل ، وسلاح كليل ! وتدعو بنيها فاذا نفوس أبيّة ، وسواعد قوية ، ولـكنها لم تدرّب للقتال ، ولم تُعدّ للنضال ، ولم تشهد الزحوف ، ولم تعتد التعرض للحتوف ، ولم تحمل السلاح ، ولم تمرس بآلات الـكفاح ؛ أنفس عزيزة وأمة ذليلة ! ويقول مَن أبى على الأمة أن تأخذ للأيام أهبتها ، وتُعد للخطوب عدتها : لا تُراعوا ، هأنذا أدفع عنكم ! فاشكرونى ولا تـكفرونى . ولو ترك لنـا من قبل أن نعبئ جيوشنا ونعد سلاحنا لـكان شكرنا أعظم وأجـدى ، وكنا فى أنفسنا أعز وأقوى ، وأنّى يُعز من يدفع عنه فى عقر داره ، ولا يعوّل عليه فى حماية نفسه :

ودرى من أعزّه الدفع عنه فيهما أنه العزيز الذليل

هذا موقف الذلة والمهانة ، والضعة والاستكانة ، موقف من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يجلب لها خيراً ولا شراً — رب عيش أخف منه الحمام !

ذلـكم درس للحادثات مبين ، وعظة للخطوب بليغة ، فعلى المصريين راعيهم ورعيتهم ، ودهمائهم وقادتهم ، أن يفهموا الدرس ويعوه ، ويتدبروا الموعظة وينتفعوا بها . ومهما تنجل عنه السحب المـكفهرة ، وتتكشف عنه الحادثات المنذرة ، فليعملوا برأى واحد ويد واحدة ، ويتوسلوا بالعزم والحكمة حتى لا يقفهم الزمان هذا الموقف مرة أخرى ، « إن فى ذلك لذكرى »

عبد الوهاب عزام

نظرة في النجوم

للأستاذ أحمد أمين

مما أرثى له أن أرى الشرقيين وخاصة سكان المدن لا ينتفعون بسُطُوح منازلهم الانتفاع الواجب ، فهم قلما يصعدون اليها إلا عند تركيب قوائم الراديو أو حبال الغسيل أو تخزين ما يستغني عنه في حجر السطح ، وهم يحبون أن يلتصقوا بالأرض ولا يحلقوا في السماء، وينزلوا بحضيض المنازل ولا يسموا الى أوجها

وفاتهم أن من خير متع الحياة « سطوح المنازل » لا سيما في جو بديع بجونا ، تصفو فيه السماء في أكثر أشهر السنة ، ويهبُّ فيه النسيم العليل ليلا ، ويمتد فيه البصر ، وتنشرح فيه النفس ، ولياليه بين ليال مقمرة بديعة لا تمل العين جمالها ، وليال غاب فيها القمر فقامت النجوم مقامه تناغيك وتحدثك وتملأ قلبك روعة ونفسك حياة

تبا للأعين التي تنظر دائماً الى تحت ، ولا تنظر الى فوق ، والى الأسفل لا الى الأعلى ، ويلذ لها أن تنظر الى المسافات القريبة والى ما تلمس ، ولا تنظر الى البعد السحيق والمنظر البعيد . إن العين إذا اعتادت ذلك قلدتها النفس فلم تنظر الى الأمل البعيد ولم تلتذ بالطموح ، ولم تسعد بالأمل ، وقنعت بما هي فيه ورضيت بالدون وتشاغلت به ، وصدها ذلك عن أن تنشد الكمال ، للارتباط الشديد بين عالم الحس وعالم العقل وعالم الروح

ولقد كان آباؤنا الأولون أكثر منا عناية بالسماء ، حتى العرب في بداوتهم أطالوا النظر في النجوم وانتفعوا بجوهم المفتوح ، وسمائهم الصافية ، فعرفوا كثيراً منها ، ووضعوا لها أسماءها ، وكان لهم فيها ملاحظات دقيقة ، وأسمار رقيقة ؛ أما نحن فقل أن نعرف من أسماء النجوم إلا الشمس والقمر ، وجهلُنا بأسماء مشاهيرها جهل فاضح لا يتفق وسماءنا البديعة . وأما شعراؤنا — سامحهم الله — فأكثرهم لا يشعر في السماء والنجوم إلا تقليدا ، وقد يبرح به ألم الهجر في غرفته المسقوفة وقد أغلقت شبابيكها واسدلت ستائرها ومع ذلك يشكو النجوم وثباتها وهو لا يرى سماء ولا نجوما

لو كان في أوروبا جو مكشوف دافيء كجونا ، لعرفوا كيف ينتفعون بالسماء كما انتفعوا بالأرض ، ولاتخذوا من سطوح منازلهم مقاماً للسمر الحلو والتأمل اللذيذ ، ولاتخذوا منها منتديات ومقاه ومسارح للسينما والتمثيل وأمكن للمحاضرات فانتفعوا بجمال الجو وجمال منظر السماء وجمال منظر السينما والتمثيل وجمال الحديث معاً ، ولو فعلنا لارتحنا من عناء المتسولين والمتجولين وماسحي الأحذية إلا أن يصعدوا الينا في السماء

* * *

نممت هذا الشهر بسطح منزلنا ، وأكثرت من التحدث إلى النجوم ، والاصغاء إلى حديثها ، وملت إلى قراءة شيء من أخبارها ، فملأت قلبي حياة ، وعقلي هدوءا ، وأعصابي راحة

وكنت كلما شكوت من شيء بثثت شكواي إلى النجوم فتبخرتْ ، وكلما تدنست في جو الأرض تطهرت في جو السماء ، فان آلمتني السياسة بألاعيبها وخداعها ، والأولاد بمضايقاتهم ومتاعبهم ، والخدم برذائلهم ، والبيئة بغشاكلها وصغائرها ، علوت إلى السطح وانسطحت على سجادة ، ووصلت أسباب ما بيني وبين النجوم فزال كل ألم ، واحتقرت كل ما ضايقني ، وعشت في عالم جديد لذيذ مريح ، ورأيت أني غسلت نفسي كما يغسل الثوب في البحر الواسع

عظيمة هذه النجوم وجميلة وجليلة ! فان رأيت نجوم المجرة وعلمت أنها تبلغ عدتها الملايين ، وأنها تسير بسرعة هائلة ، وأن بعض النجوم يقطع نحو ٢٤٠ كيلو مترا في الثانية ، وبعضها يقطع نحو ٤١٠ كيلو في الثانية ، وأن بعضها بلغ من البعد عنا ما لا يصل الينا ضوؤه إلا في آلاف السنين ، أيقنت بهذه العظمة ؛ وشعرت في أعماق نفسك بحقارتك وحقارة مشاغلك وحقارة أرضك كلها — وإن علمت أن في السماء آلافاً من الشموس تكوّن كل شمس منها مجموعة من النجوم كمجموعتنا الشمسية ، سبحت في عالم من العظمة لا حد له ، وتساءلت في كثير من الحيرة والاعجاب إلى أي طريق هي مسوقة ، وإلى أي طريق نحن مسوقون معها ؟ وقلت كما قال أبو الشبل البغدادي :

بربك أيها الفلك المـدارُ … أقصدٌ ذا المسيرُ أم اضطرار
مَدارُك قل لنا في أي شيء … ففي أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء … سوى هذا الفضاء به تدار ؟

ثم رددت الطرفَ خاسئاً وهو حسير ؛ ولكنها حسرة لذيذة لا أرضى بها بديلاً

أيتها النجوم . كم من الناس نظروا إليك فأعجبوا بعظمتك وجمالك وجلالك ، وكم من الشعراء تغنوا بك ، وتفننوا فى الاشادة بذكرك ، وعابوا عليك سرعتك أيام الوصال ، وبطئك أو وقوفك أيام الهجران

وكم حارت فيك العقول فظنوك آلهة وعبدوك من دون الله ، وأقاموا لك الهياكل والتماثيل ، ثم تقدموا قليلاً فأنزلوك من مقام الألوهية قليلاً ، وجعلوا لك أثراً كبيراً فى أحداث الأرض ، فلك أثر فى الرياح والأمطار والسعادة والشقاء ، وربطوا مواليد الناس بك ، وجعلوا اسعادتهم وشقاءهم من أجلك ، وحتى الفلاسفة العظام أمثال أرسطو أعجزتهم عظمتك عن أن يدركوا حقيقتك فأسندوا إليك عقولاً كباراً وجعلوا منزلتك فى الفكر والعقل فوق منزلة الانسان ، وسبحوا فى الخيال فأسسوا نظاماً وهمياً للأفلاك وتدرجها فى الأثر حتى تصل إلى عالمنا — وخدع الناس بك فبنيت لك المراصد لمراقبة حركاتك ، وأقنع المنجمون الناس بتأثيرك فسمعوا لقولهم ، واتخذ الملوك المنجمين يعتمدون عليهم فى تدبير مملكتهم ، كما يتخذون الأطباء لتدبير أجسامهم ، فلا يضعون بناء إلا بعد رصدهم لك واشارتهم بأنك ستمنحين السعادة لبنائهم ، ولا يحاربون إلا برأى رجالك وتخير أوقات رضائك

وكم شغل الناس بطوالعك ، وتخيروا أوقات زواجهم محسوبة بحسابك ، وتنبأوا — بمعونتك — بموت فلان وحياة فلان وأنت أنت فوق ذلك كله لا تعبئين به ولا تلتفتين إليه . كأن أمرهم لا يعنيك ، وشؤونهم لا تهمك ، وتتابعت الأجيال ومرت السنون ، وفنيت أقوام وجدت أقوام وكلهم يمنحونك اعجابهم وأنت فى علاك وسيرك وسرعتك دائبة أبداً

وأتى العلم الحديث فغير فيك الأفكار ، وساواك بالأحجار ، وجعل قمرك الجميل كأرضنا غير الجميلة ، وسلب عنك العقل والفكر وأخضعك لنواميس الطبيعة وأبان خرافات الأقدمين فيك — ومع ذلك أقر بجلالك وأخذ بدقة نظامك ، وأقر بجهله أن يحيط بك ، وأن يتعرف كل قوانينك — فأنت أنت أيام الجهل وأيام العلم ، وأيامنا وأيام آبائنا

وبينا أنا فى ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، إذ دعانى الخادم إلى التليفون فنزلت من السماء إلى الأرض

— آلو

— فلان — لعلك تذكرنى

— أهلاً وسهلاً

— أريد أن أقابلك

— هل من شىء ؟

— لقد تخرجت من كلية الآداب واشتغلت فى عمل لا يناسبنى ، وماهية لا تليق بى ، واخوانى كلهم خير منى ، فلى سنوات لم آخذ علاوة ولم أرق إلى درجة

— نعم

— والآن هناك حركة ترقية وأريد مساعدتك

ثم حوار طويل ، ورجاء مستمر ، وشكوى بؤس ، وعائلة يعولها ، وماهية لا تكفيها ، ودنيا ضاقت به وبها

***

فى أى تفكير كنت ، وإلى أين صرت ، هذه السماء وهذه الأرض ، أين هـذا العالم العظيم السعيد الذى كنت أحلم به من هذا العالم الحقير التافه الذى نقلنى اليـه التليفون والذى يمضى فيه أكثر الناس أكثر أعمارهم ، لقد غطسنى بحديثه فى ماء مثلج ، فلأصعد ثانية إلى السماء ولأعاود ما كنت فيه . . . لا — لم تعد للفكر لذته ولا لحديث النجم متعته

***

لقد قلب علم الفلك عقلية الانسان رأساً على عقب ، فقد كان يظن أنه سيد العالم ، وأن أرضه هذه هى مركز العالم ، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حولها فأبان له العلم أن أرضه ليست إلا هنَةً تسبح فى الفضاء ، وأنها شىء تافه فى المجموعة الشمسية التى تدور حول الشمس ، وأن كل العالم من أرض ونجوم خاضعة لقوانين واحدة كقوانين الجذب وما إليها ، وأنه إن كانت أرضه هنة فكيف به هو — كل هذا غيّرَ عقلية الانسان وأنزله من شامخه وسلبه غروره فأخذ يفكر تفكيراً جديداً وينظر لنفسه وللعلم نظراً جـديداً ويربط نفسه بالعالم ، ويرى أنه هو والعالم وحدة ، وأن هذه الوحدة تخضع لقوانين ثابتة استكشف أقلها وغاب عنه أكثرها ، ما استكشف منها يدل على عظمة باقيها وعمومها وسيطرتها — ولكن شيئاً واحداً لم يتغير فى الانسان وهو ارتباط عواطفه بالنجوم ، وأنها تجد السبيل دائماً لقلبه ، وتوحى إليه بعظمة ربها وربه

أحمد أمين

٢ - الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاءت أحلى من الأمل المترض سنحت به فرصة؛ وعلى أنها لم تخط الينا إلا خطوة وتمامها، فقد كانت تجد في نفسها ما تجده لو أنها سافرت من أرض إلى أرض، ونقلها البعد النازح من أمة إلى أمة

يا عجباً! إن جلوس انسان إلى انسان بازائه قد يكون أحياناً سفراً طويلاً في عالم النفس؛ فهذه الحسناء تعيش في دنيا فارغة من خلال كثيرة، كالتقوى، والحياء، والكرامة، وسمو الروح، وغيرها؛ فاذا عرض لها من يشعرها بعض هذه الخلال، وينتزعها من دنيا اضطرارها وأخلاق عيشها ولو ساعة — فما تكون قد وجدت شخصاً بل كشفت عالماً تدخله بنفس غير النفس التي تدبرها في عالم رزقها . . .

ولا أعجب من سحر الحب في هذا المعنى؛ فان العاشق يكون حبيبه إلى جانبه، ثم لا يحس إلا أنه طوى الأرض والسموات ودخل جنة الخلد في قبلة . . .

***

جلست الينا كما تجلس المرأة الكريمة الخفرة، تعطيك وجهها وتبتعد عنك بسائرها، وتريك الغصن وتخبأ عنك أزهاره. فرأيناها لم تستقبل الرجل منا بالأنثى منها كما اعتادت؛ بل استقبلت واجباً برعاية، وتلطفاً بحنان، وأدباً من فن بأدب من فن آخر؛ وكان هذا عجيباً منها، فكلمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت: أما واحدة فاننا نتبع دائماً محبة من نجالسهم وهذه هي القاعدة. وأما الثانية فاننا لا نجد الرجل إلا في الندرة؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يتسمون بسيما الرجال — كحيلة المحتال على غفلة المغفل، وهم معنا كالقدرة بالثمن على ما يشتريه الثمن؛ ليسوا علينا إلا قهرا من القهر؛ ولسنا عليهم إلا سلباً من السلب، مادة مع مادة؛ وشر على شر؛ أما الانسانية منا ومنهم فقد ذهبت أو هي ذاهبة

قال (ح) : ولكن . . .

فلم تدعه يستدرك، بل قالت: إن «لكن» هذه غائبة الآن . . . فلا تجيء في كلامنا. أتريد دليلا على هذا الانقلاب؟ إن كل إنسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين؛ ولكن كل امرأة منا تعلم أن الخط المعوج هو وحده أقرب مسافة بينها وبين الرجل . . .

قالت: فاذا وجدت إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها . . . ردتها أخلاقه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل، وزادتها طبيعتها الزهو بهذا الرجل، فتكون معه في حالة كحالة أكمل امرأة؛ بيد أنه كمال الحلم الذي يستيقظ وشيكا، فان الرجل الكامل يكمل بأشياء، منها واأسفاه! منها ابتعاده عنا.

ثم قالت: وصاحبك هذا منذ رأيته، رأيته كالكتاب يشغل قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو . . . .

***

وضحكت أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتاب عند هذه كتاباً يشغل بمعانيه؟ غير أني رأيتها قد تكلمت واحتفلت، وأحسنت وأصابت، فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح) وغبت عنهما غيبة فكر؛ وأنا إذا فكرت انطبق علي قولهم: خل رجلاً وشأنه، فلا يتصل بي شيء مما حولي. وكان كلامها يسطع لي كالمصباح الكهربائي المتوقد، فقدتها فكرها الي غير ما قدمت الي نفسها، ورأيت لها صورتين في وقت معاً، إحداهما تعتذر من الأخرى . . . . .

وكنت قبل ذلك بساعة قد كتبت في تذكرة خواطري هذه الكلمة التي استوحيتها منها: لأضعها في مقالة عنها وعن أمثالها وهي هذه الكلمة:

إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعتها، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردة تجريدها الحيواني المتكشف المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعمل هذه المرأة إلا أعمال هذه الأنثى؟

وما الذي استرعاها الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهل المال أهل السرقة؟ إن الليل ينطوي على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء

وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت

رذائلها دائماً وراء عينيها ، وما دام بازاء عينيها دائماً الأمهاتُ والمحصَنات من النساء ، وليس شأنُها من شأنهن ؟ إن خيالها يحرزُ في وعيه صورتَها الماضية من قبل أن تزلّ ؛ فاذا خلت إلى نفسها كانت فيها اثنتان إحداهما تلعن الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى

وهي حين تُطالعُ مرآتها لتتبرّج وتحتفل في زينتها ، تنظرُ إلى خيالها في المرآة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها ، ولهذا تُبالغُ أشدّ المبالغة ؛ فلا تُعنَى بأن تظهر جميلةً كالمرأة ، بل مُشمِرةً كالتاجر ... وتكسُّبُها بجمالها يكون أولَ ما تفكر فيه ، ومن ذلك لا يكون سرورُها بهذا الجمال إلاّ على قدر ما تكسب منه ؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة ، فان سرورها بمسحةِ الجمال عليها هو أولُ فكرها وآخرُه

إن الساقطة لا تنظر في المرآة — أكثر ما تنظر — إلا ابتغاءَ أن تتعهّدَ من جمالها ومن جسمها مواقعَ نظرات الفجور وأسبابَ الفتنة ، وما يَستهوى الرجلَ وما يُفسد العفّة عليه ، فكأن الساقطةَ وخيالها في المرآة رجلٌ فاسقٌ ينظر إلى امرأة لا امرأةٌ تنظر إلى نفسها ...

* * *

ذهبت أفكر في هذه الكلمة التي كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن ألبسَ في هذه القضية وجهَ القاضي ؛ فدخلتني رقةٌ شديدةٌ لهذا الجمال الفاتن الذي أراه يبتسم ، وحوله الأقدارُ العابسة ، ويلهو ، وبين يديه أيامُ الدموع ، ويجتهد في اجتذاب الرجال إليه ، والوقتُ آتٍ بالرجال الذين سيجتهدون في طرده عن أنفسهم

وتغشّاني الحزنُ ورأت هي ذلك وعرفته ؛ فأخرجت منديلها المعطّر ومسحت وجهها به ، ثم هزّته في الهواء فاذا الهواءُ منديلٌ معطرٌ آخر مسحتْ به وجهي . . .

وقال الأستاذ (ح) : آه من العطر ! إن منه نوعاً لا أستنشيه مرة الا ردّني إلى حيث كنت من عشرين سنةً خلَتْ ، كأنما هو مُسجّل بزمانه ومكانه في دماغي . . .

فضحكت هي وقالت : إن عطرنا نحن النساءَ ليس عطرا ، بل هو شعورٌ نثبته في شعور آخر

فقلت أنا : لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا ؛

قالت : وما هو ؟

قلت : إن المرأة المعطرة المتزينة هي امرأة مُسلَّحة بأسلحتها ، أفي ذلك ريب ؟

قالت : لا

قلت : فلماذا لا يُسمى هـــذا العطرُ بالغازات الخانقة الغرامية . . . ؟

فضحكت فُنوناً ؛ ثم قالت : وتسمى (البودرة) بالديناميت الغرامي . .

ونقلني ذلك إلى نفسي مرة أخرى ، فأطرقتُ إطراقة ؛ فقالت مابك ؟

قلت : بي كلمةُ الأستاذ (ح) ، إنها ألهبَتْ في قلبي جمرةً كانت خامدة

قالت : أو حركت نقطة عطر كانت ساكنة . . .

فقلت : إن الحبَّ يضع روحانيته في كل أشيائه ، وهو يغير الحالةَ النفسيةَ للانسان فتتغيرُ بذلك الحالةُ العقليةُ للأشياء في وهم المحب . (فعطرُ كذا) مثلاً . . . . هو نوعٌ شَذِيٌّ من العطر ، طيّبُ الشميم ، عاصفُ النَّشوَة ، حادُّ الرائحة ، لكأنه ينشرُ في الجو روضةً قد مُلئتْ بأزهاره تُشمُّ ولا تُرى ؟ وإنه ليجعلُ الزمنَ نفسه عبقاً بريحه وانه ليُفْعِمُ كلَّ ما حوله طيباً وانه ليسحرُ النفسَ فيتحوّل فيها . . .

وهنا ضحكتْ وقطعت عليّ الكلامَ قائلة : يظهر لي أن (عطر كذا) هاجرٌ أو مخاصم . . .

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتشقتُ أرَجَهُ مرة إلا حسبتُه ينفَح من الجنة

فما أسرعَ ما تلاشى من وجهها الضحكُ وهيئتُه ، وجاءت دمعةٌ وهيئتُها . ولمحت في وجهها معنى بكيتُ له بكاء قلبي

جمالها ، فتنتها ، سحرها ، حديثها ، لهوها ؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عينٌ ولا أثر ، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذنوبٌ ، وذنوبٌ ، وذنوب

* * *

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ألا نوحشها

من انسانيتنا ، وأن نَبذُلَ شوقها إلى ماحُرمتْه من قدرها قدرَ إنسانة فيما نتَعَاطاه بيننا . والمرأةُ من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع — طمعت فى الاحترام من رجل شريف متعفّف ، ولو احترامَ نظرةٍ ، أو كلمة . تقنعُ بأقل ذلك وترضى به ، فالقليلُ مما لا يدرك قليله هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنالُ كثيرُه

ومثل هذه المرأة ، لا تدرى أنت أطافتْ بالذّنب أم طاف الذنبُ بها ؟ فاحترامها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوجوم أمام المصيبة فى لحظة من لحظات رهبـــة القدَر وخشوع الايمان

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّمُ والحسرةُ واللهفة مما هى فيه ، وهذا هو جانبُهن الانسانىُّ الذى يُنظرُ اليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى ، وحسرة أخرى ، وندم آخر . كم يرحمُ الانسانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغمةَ على أن تعاشرَ من تكرهه فلا يزال يغلى دمُها بوساوس وآلامٍ من البغض لا تنقطع ! وكم يرثى الانسانُ للزوجة الغيور ، يغلى دمُها أيضاً ولكن بوساوس وآلام من الحب ! ألا فاعلم أن كل امرأة من مثل هـذه الحسناء تحمل على قلبها مثل همّ مائة زوجةٍ كارهةٍ مرغمة مستعبدة ، يخالِطُه مثلُ همّ مائة زوجة غيور مكابدةٍ منافسةٍ ، ولقد تكون المرأة منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبها فى السبعين من عمر قلبها

وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى ، ولم تكن معنا لا فى زمانها ولا فى مكانها ولا فى أسبابها ، وقد فتحت البابَ الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفر والحياء ، وحوّلت جمالها من جمالٍ طابعهُ الرذيلةُ إلى جمال طابعُه الفن ، وأشعرت أفراحَها التى اعتادتها روحَ الحزن من أجلنا فأدخلت بذلك على أحزانها التى اعتادتها روح الفرح بنا

من ذا الذى يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفسٍ مثل هذه ثم لا يحسن به ؟ (١)

* * *

تتجددُ الحياةُ متى وجد المرءُ حالةً نفسيةً تكون جديدةً فى سرورها . وهذه المرأةُ المسكينةُ التى لا يعنيها من الرجل مَن هو ؟ ولكن كم هو ...؟ لم ترَ فينا نحن الرجلَ الذى هو « كم » بل الذى هو « من » . وقد كانت من نفسها الأولى على بُعدٍ قصىٍّ كالذى يمدُّ يده فى بئر عميقة ليتناولَ شيئاً قد سقط منه ؛ فلما جلست الينا اتصلت بتلك النفس من قُرب ، إذ وجدت فى زمنها الساعةَ التى تصلح جسراً على الزمن

قال الراوى : كذلك رأيتها جديدة بعد قليل ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التى جاءت من هذه . إن قلبها ينشر الآن حولها نوراً كالمصباح إذا أُضيئ ، وأراها كالزهرة التى تفتّحت ؛ هى هى التى كانت ، ولكنها بغير ما كانت

فقالت هى : إنى أحسبُك تحبنى ؛ بل أراك تحبنى ؛ بل أنت تحبنى . . . لم يخْفَ على هذا منذ رأيتك ورأيتنى

قلت : هبيهِ صحيحاً فكيف عرفتـهِ ولم أصانعكِ ، ولم أتملّق لك ، ولم أزد على أن أجئْ الى هنا لأكتب ؟

قالت : عرفته من أنك لم تصانعنى ، ولم تتملق لى ، ولم تزد على أن تجئْ الى هنا لتكتب . . .

قلت : ويحكِ لو كُحِلَتْ عينُ (الـكرسكوب) لـكانت عينَك . وضحكنا جميعاً ؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كثر ورودُها على القاضى جعلتْ له عيناً باحثة .

* * *

قال الراوى : وأنظرُ إليها فاذا وجهُها القمرىُّ الأزهرُ قد شرِقَ لونه وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثلُه على وجه العذراء المخدَّرة إذا أنت مسستَها بريبة ؛ فما شككتُ أنها الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلح وجهُها وحياؤُها ، وهما أبداً متعاديان فى كل امرأة مكشوفة العفة . . .

وذهبتُ أستدرِك وأتأوّل ، فقلت لها : ما ذلك أردتُ ، ولا حدَسْتُ على هذا الظن ، وإنما أنا مُشفِق عليك متألم بك ؛ وهل يَعرِضُ لكِ إلا الطبقة النظيفة . . . من المجرمين والخُبثاء وأهل الشرّ ؛ أولئك الذين أعاليهم فى دُور الخلاعة

---

(١) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربيطة) كتبناه فى مثـل موضوع (الجمال البائس) غير أنه بمنحى آخر ومعان أخر . والربيطة هى الـكلمة العربية التى تقابل كلة Maitresse يريد بها الأوربيون المرأة التى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة . . .

والمسارح وأسافلُهم فى دُور القضاء والسجون ؟

فقالت : اعترِفْ بأنك لم تحسِنْ قلبَ الثوب فظهر لكل عين أنه مقلوب ؛ لكنك تحبنى . . . . وهذا كافٍ أن ينهضَ منه عُذر

قال الأستاذ (ح) : إنه يحبك ، ولكن أتعرفين كيف حبُّه ؟ هذا بابٌ يضع عليه دائماً عِدّةً من الأقفال

قالت : فما أيسرَ أن تجد المرأةُ عدةً من المفاتيح . . .

قال : ولكنه عاشقٌ يُنير العشقُ بين يديه ، فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس ، ما تطمعُ إلا أن تراه وما يطمعُ إلا أن يراها ، ولا شىء غير ذلك . ثم لا يزال حسنُها عليه ولا يزال هواه إليها ، وليس إلا هذا

قالت : إن هذا لعجيب

قال : والذى هو أعجب أن ليس فى حبه شىء نهائى ، فلا هجرٌ ولا وصل ؛ ينساكِ بعد ساعة ولكنك أبداً باقيةٌ بكل جمالك فى نفسه . والصغائرُ التى تُبكى الناسَ وتَتَلذَّعُ فى قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرةً فى همِّهم ويطفئوها وينتهوا منها ككل شهوات الحب — تبكيه هو أيضاً وتتلذعُ فى قلبه ، ولكنها تظلُّ عنده صغائر ولا يعرفها إلا صغائر ؛ وهذا هو تجبيرُه على جبّار الحب

***

قال الراوى : ونظرتُ إليها ونظرتْ ، وعاتبتْ نفسٌ نفساً فى أعينهما ، وسألت السائلة وأجابت المجيبة ، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

لأحياء الآداب العربية والتراث القومى

ومهمة دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يستطيع الذين درسوا الآداب التاريخية الغربية ، وقرأوا تواريخ الأمم الغربية فى تلك الموسوعات والآثار الجليلة التى تمتاز بطابعها العلمى الدقيق ، أن يقولوا بحق إن تاريخ الاسلام والأمم الاسلامية لم يكتب حتى عصرنا

إن الآداب العربيـة تزخر بالموسوعات والآثار التاريخية فى كل عصر ، وكل قطر ؛ ومنها بلا ريب آثار كثيرة تمتاز بدقتها ونفاستها ؛ ولكن هذه الآثار تقف أولاً منذ عصر بعيد ، فلا تكاد تجد فى العربية موسوعة أو مؤلفاً تاريخياً جليلاً منذ القرن العاشر الهجرى ، وهى من جهة أخرى لا يمكن أن تعتبر أكثر من مادة لتغذية المؤرخ الحديث بما يحتاج إليه من التفاصيل والوثائق ؛ ومن الأنصاف أن نقول إن هذه المادة تمتاز بغزارتها فى عصور كثيرة ، ولكن من الأسف أن أغلبها ما زال يحتجب عن أعيننا فى أروقة المكاتب والمجموعات الخاصة ، فلا يصل إليها الباحث إلا بعد الجهد المضنى

وهذه مسألة تستحق الاهتمام من كل أولئك الذين يتصلون بالمباحث الاسلامية والتاريخية ، وأولئك الذين يشرفون على توجيه الثقافة القوميـة ، وفى مقدمتهم وزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية . فالى الآن لم يكتب تاريخ مصر الاسلامية ، ولا مصر الحديثة بما يجب من دقة وإفاضة ، وإلى الآن لم تعرف مصادر التاريخ المصرى معرفة حسنة حتى من كثير من أولئك الذين يعنون بكتابته أو بتدريسه ؛ وإنه لما يبعث إلى الدهشة كما يبعث إلى الأسف أن نجد الكتب الدراسية التى يعتمد عليها الشباب فى دراسة التاريخ المصرى أو الاسلامى بوجه عام ، خلاصة مشوهة اشتق معظمها من المؤلفات الأجنبية ، وهى لذلك تفيض بالأخطاء والمثالب ، وينقصها روح الانصاف

والتمحيص ؛ هـذا بينما تلقى الـكتب التى تعنى بتواريخ الأمم الأجنبية عناية أوفر لأنها تعتمد فى مادتها على المصادر القوميـة المنظمة ، ويجد فيها الشباب من التبسط والتمحيص مالا يجده فى كتب التاريخ المصرى أو الاسلامى

إن دار الـكتب المصرية تزخر بمئات وألوف من مصادر التاريخ الاسلامى وتاريخ مصر الاسلامية بنوع خاص ، وبين هذه المصادر موسوعات جليلة فى مختلف العصور ، ومنها ما كتبته أقلام معاصرة قديرة ؛ وفيها من المواد والتفاصـيل والوثائق ما يغتبط له الباحث ويحقق غايته . ولـكن كم من هذه المصادر الجليلة أتيح له أن يرى الضياء حتى يومنا ؟ ومع ذلك فان هذه الآثار التى أخرجت حتى اليوم لم تلفت أنظار الباحثين والقراء لأنها لم تنل حقها من التعريف أولاً ، وثانياً لأن معظمها ما زال فريسة الناشرين المتجرين الجهلة ، يخرجونه فى أثواب عتيقة منفرة يقبل عليها الباحث مرغماً ويلقى فى مراجعتها من المشقة ما يلقاه فى مراجعة المخطوطات القديمة ذاتها .

هذا وما زالت المراجع والموسوعات القديمة التى وضعت بين أيدى الباحثين والـكتاب مستقى خصباً لنقل النصوص والروايات كما كتبت منذ مئات السنين ؛ وما زال معظم المؤلفات التاريخية المعاصرة يقوم على هذا النقل المجرد ؛ ومثل هذه المؤلفات لا قيمة له من الوجهة العلمية ، لأن عصر النقل المجرد انتهى منذ بعيـد ، وأصبح التاريخ فى عصرنا علماً جليلاً يقوم على المباحث والمقارنات العلمية والنقدية والاستنباط المسند ، وأصبح وثيق الصلة بكثير من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ فمن المؤلم أن يرغم الشباب فى هذا العصر الذى يعتبر فيه التاريخ مرآة الحضارة ودعامة للعاطفة القومية ، على أن يقرأ التاريخ الاسلامى والتاريخ القومى فى هذه الـكتب الممسوخة التى استخرجت دون بحث أو تمحيص من الروايات القديمة ، ولا فضل لمصنفيها – إن كان ثمة فضل – إلا فى الاختصار والتبويب والطبع الأنيق

***

وقد آن أن نتحرر من هـــذا الجمود الذى يشل ثقافتنا التاريخية ، ويحجب عنا تراث الماضى الزاخر ، وأن نستخرج من هذا التراث نفائسه ، ونقدمها لجيل العصر فى أثواب العصر وأساليبه . وأول ما يجب لتحقيق هـذه الغاية فى رأينا هو أن يبذل جهد صادق للتعريف بهذا التراث وقيمته وأمكنة وجوده . وهـذه مهمة تستطيع دار الـكتب المصرية أن تؤدى فيها أعظم دور . ولقد عكفت منذ أعوام على دراسة هذا الجانب من تراثنا القومى ، فـكتبت عدة دراسات ومباحث عن أقطاب الرواية المصرية مثل ابن عبد الحـكم والـكندى وابن زولاق والمسبحى والقضاعى والنويرى والعمرى والقلقشندى والمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن اياس ، استعرضت فيها تراجمهم وجهودهم وآثارهم المنشورة والمخطوطة استعراضا وافياً ، وعنيت فيها عناية خاصة بالتعريف بعشرات بل مئات من الآثار والمصادر الجليلة التى تتعلق بتاريخ مصر الاسلامية ، والتى ما زالت مخطوطة بعيدة عن التعريف والتداول تحجبها ظلمات النسيان فى أروقة دار الـكتب . بيد أن مثل هذه المجهودات الفردية لا يمكن أن تحقق الغاية المنشودة . وعندنا أن دار الـكتب المصرية يجب عليها أن تعنى بوضع فهرس خاص لمصادر التاريخ المصرى العربية المنشورة والمخطوطة بنوع خاص ، تتحرى فى وضعه أحدث الطرق العلمية وتصنف المصادر فيه حسب العصور ، وتوصف محتوياتها وصفاً علمياً دقيقاً ؛ ولا تقتصر فى ذلك على المصادر الموجودة ، بل تضمنه أيضاً ذكر المصادر والآثار المخطوطة المحفوظة فى مختلف المـكاتب الأجنبية بالاعتماد على فهارس هـذه المـكاتب أو بارسال مندوب أو أكثر للخارج لدراستها وتدوين أوصافها وتصوير ما يجب تصويره منها . ثم يوضع إلى جانب هذا الفهرس العربى ، فهرس آخر يتضمن جميع المصادر والآثار الأجنبية المتعلقة بمصادر التاريخ المصرى فى جميع العصور ، وفى جميع اللغات الحية ، ويصنف تصنيفاً علمياً دقيقاً ؛ وتبذل دار الـكتب جهدها لاستكمال ما ينقصها من هذه المؤلفات ، وينشر الفهرسان ، ويصبح كل منهما مرجعاً نفيساً لمصادر التاريخ المصرى ووثائقه ؛ وبذلك تحظى آثارنا المحجوبة بشىء من التعريف ، ويسهل سبيل البحث على الباحثين ، ويفتتح عهد جديد لدراسة التاريخ المصرى وكتابته

ثم يجب إلى جانب ذلك أن تدرس جميع الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر وأنظمتها الادارية والاجتماعية والاقتصادية مما تحتفظ به دار الـكتب ذاتها ، أو الدفترخانة المصرية ، أو وزارة الأوقاف أو غيرها ؛ ومن المعروف أنه توجد لدينا طائفة كبيرة من هـذه الوثائق ، ولا سيما مما يتعلق بالعصر التركى ، وفيها كثير مما يلقى

الضياء على طبيعة الأنظمة الادارية والاجتماعية والثقافية فى مصر فى هذا العصر . ومعظم هــذه الوثائق التى تحتفظ الدفترخانة المصرية بكثير منها محرر باللغــة التركية ، ويقتضى ترجمته أو تلخيصه . ونذكر أن الأنظار اتجهت منذ أعوام إلى هذه الوثائق ، وعرفت أهميتها وقيمتها التاريخية ، وقيل لنا إنه سيعنى بترجمتها وتنسيقها ، ولا نعلم ماذا تم بعد ذلك فى شأنها . بيد أنه لا ريب أن هــذه الوثائق المختلفة ، ومنها بوزارة الأوقاف حجج أوقاف قديمة ترجع إلى القرن التاسع الهجرى ؛ إذا نظمت ولخصت فى فهرس دقيق جامع ، تــكون مرجعاً نفيساً لتاريخ مصر الادارى والاجتماعى والاقتصادى والقضائى فى هذه العصور

***

وتوجد ثمة فى هذا الميدان مهمة علمية أخرى تــستطيع دار الــكتب والجامعة المصرية والجامعة الأزهرية أن تضطلع بها ، هى نشر طائفة من الآثار والمصادر الاسلامية والمصرية الجليلة مما تغص به أروقة دار الــكتب المصرية . ولقد أخرجت لنا مطبعة بولاق ثبتاً حافلاً من هذه الآثار الجامعة فى أواخر القرن التاسع عشر ، فكانت مأثرة علمية جليلة لولاها لبقيت المــكتبة العربية عاطلة حتى يومنا من أمهات المصادر والمراجع الــكبرى ؛ وقد أرادت دار الــكتب أن تستمر فى الاضطلاع بهذه المهمة ، وما زالت تعمل لاخراج بعض الموسوعات والآثار الجليلة ؛ وقد أخرجت بعض هذه الآثار ، ولاسيما موسوعة «صبح الأعشى» للقلقشندى ، ولــكن عملها فى ذلك بطىء جداً ، ينقصه الطابع العلمى قبل كل شىء ؛ ومن الواجب أن تنظم هذه المهمة تنظيماً علمياً ، وأن تشرف على أدائها هيئة فنية قديرة ، ومن الواجب أن تضاعف الجهود لاخراج هذه الآثار والموسوعات فى فترات معقولة ، إذ ما زلنا نتلق أجزاءها فى فترات متباعدة ، وقد يستغرق اخراج الجزء الواحد عامين أو ثلاثة . ثم إن الجامعة المصرية والجامعة الأزهرية تستطيع كلتاهما أن تقوم فى هذا السبيل بمجهود قيم ؛ ولا نعلم أن إحدى الجامعتين قامت إلى اليوم باخراج شىء يذكر من الآثار الاســلامية المخطوطة ، هذا بينما نرى الجامعات والهيئات العلمية الأوربية والأمريكية تشرف باستمرار على إخراج كثير من هذه الآثار ؛ ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن كتاب « النجوم الزاهرة » لأبى المحاسن بن تغرى بردى الذى تقوم الآن باخراجه دار الــكتب المصرية ، قد اشرفت على إخراجه منذ أكثر من عشرين عاماً جامعة كاليفورنيا الأمريكية ، وتولى نشره وتحقيقه المستشرق الأمريكى وليم بوبر ؛ وان الجزء الفاقد من تاريخ مصر لابن اياس الذى أخرجته مطبعة بولاق منذ أربعين عاماً ، تولى اخراجه الأستاذ باول كاله الألمانى باشراف جمعية المستشرقين الألمانية وهكذا . ومن واجب مصر ، باعتبارها زعيمة الثقافة العربيــة والاسلامية أن تأخذ بنصيبها من حركة أحياء الآثار الاسلامية على يد هيئاتها العلمية الــكبرى ، وفى مقدمتها الجامعتان المصرية والأزهرية . ولا ريب أن اشراف الجامعتين الــكبيرتين على هذه الحركة يسبغ عليها قسطاً من الطابع العلمى الذى ننشده لآثارنا وموسوعاتنا ؛ ذلك أن ما ينشر منها اليوم على أيدى الناشرين التجرين يخرج فى صور يرثى لها من المسخ والتحريف ؛ وليس من المبالغة أن نطالب بهذه المناسبة إلى دار الــكتب المصرية أن تسن من القواعد والقيود لاستنساخ المخطوطات ثم لنشرها ما يكفل اخراجها على أيدى ناشرين من الطراز الأول ، يقدرون قيمتها العلمية ويخرجونها فى أثواب محترمة ، ويعرضونها للبيع بأثمان لا تخرج عن حد الاعتدال

***

هذه خواطر واقتراحات نعتقد أنها تجول فى أذهان كثير ممن يعنون بالمباحث الاسلامية وحركة احياء الآداب العربية ، بل نعتقد أنها ليست بعيدة عن أذهان المشرفين على مصاير تعليمنا وثقافتنا . وإذا كنا نخص ثقافتنا التاريخية القومية واحياء تراثها ومراجعها بشىء من الاهتمام ، فذلك لأننا عكفنا على دراسة هذه الناحية من حركتنا العلمية والأدبيــة مدى أعوام طويلة ، ولسنا فيهـا أوجه النقص والعمل بصورة واضحة ؛ وقد كنا وما زلنا نعتقد دائماً أن دار الــكتب المصرية ، وهى أعظم مستودع لتراثنا المنسى ، هى أول وأولى هيئاتنا بالعمل لتحقيق هذه الغاية ، ذلك لأنها تضطلع بالفعل بناحية من هذه المهمة الجليلة ؛ وكل ما يطلب اليها هو أن تعمل لتنظيمها وتوسيع مداها على أسس علمية فنية تكفل اداءها بصورة مرضية ؛ ولو عنيت جامعتنا المصرية ، وجامعتنا الأزهرية بأن تأخذ كلتاهما بنصيبها من هذه الحركة لاكتملت لدينا أسباب النهضة ، ولاستطاعت مصر أن تضطلع برسالتها فى احياء الآداب العربية والاسلامية ، وواجبها فى احياء تراثها القومى ؟

محمد عبد الله عنان

حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

أرأيت كيف غيّر (الكورنيش) من الرمل وكيف حكم في حظوظ البقاع ؟! هكذا ساءلت نفسي وبدأت الحديث مع صديق رافقني إلى سيدي بشر في أول سبتمبر نبحث عن دار ننزلها تحت حكم ظروف طارئة — بعد أن هجرت الاسكندرية كمصيف منذ خمس سنوات

وكأن الله يريد أن يقفنا على المزيد من آياته في تطور الكون وأنه جل شأنه قد انفرد بالدوام ، فما تحدثنا حتى دلفت بنا السيارة إلى اليمين تقطع شارعاً ضيقاً قصيراً لم أره من قبل ، قام على أحد جوانبه خلاء وعلى الآخر بناء ضخم يوشك على التمام ، وقد كدت أنكر الربوع وكأنها غير تلك التي قضيت بها الصيف أعواماً ثلاثة متواليات . وما وصلنا آخر الشارع حتى طالعنا منزل يتصل بالماضي ببنائه وموقعه اتصاله بذكرياته ، ويجفوه بلونه الجديد ، وبهذا اللون وحده يتقرب إلى الحياة الجديدة وماطرأ على (سيدي بشر)

هذا منزل (لافرلا) ثالث الأبنية بتلك المحلة نزلناه أول مرة منذ تسع سنين يوم كان (سيدي بشر) في الصف الأخير بين المصايف لا تسمع له بينها ذكرا ، فاذا ضمك مجلس مع المقبلين على التصييف شاقك ما تسمع عن (سان استفانو) وفخامة المنازل حوله ، وطيب الهواء في (كارلتون) ، وسهولة المواصلات في (سان چورچ) ، وتحس كأن البلدية ائتمرت مع الزمان القلّب فخبت الأسماء الأجنبية بخير الأمكنة ، وخصت هذه بالعناية البالغة بينما تركت الجهات الوطنية بلا ميزة ، وعطلتها من كل حلية !

غير أني أحسست لأول سكناي ظاهرة غريبة في (سيدي بشر) ، فالرطوبة أقل كثيراً من جميع المحطات . والرطوبة شر مارهقني في الاسكندرية صيفاً ، وهذه ميزة تعدل في نظري جميع المزايا الأخرى . ميزة تغلب أثرها على ما كنت أرى من دهشة حين أذكر بين اخواني أين أقضي الصيف وكأنهم لم يسمعوا بمحطة تدعى (سيدي بشر)

وما زلت أذكر من فكاهات تتصل بهذا المعنى أن المرحوم محمد نافع باشا ، وكان قطباً للحلقة الأولى بالكازينو — وكنا ندعوها المصطبة — كان يدعوني سيدي بشر إذا ناداني اشارة إلى انفرادي بينهم بهذا المصيف ، أو إلى اكتشافي له إذا شئت الحق

و (سيدي بشر) ذاته هو المحلة المزدحمة اليوم ، وهو الكعبة للطبقة التي كانت تنفر منه وتعده شيئاً غير الرمل وشيئاً غير المصيف منذ تسع سنين ، فثم منازل أنيقة على شاطئه الجميل ، وهذه أفواج تختص (البلاج) بخير ساعاتها ، وأفواج أخرى تسارع بسياراتها تتصيد القاعد الخالية فيما انتثر فيه من مقاهٍ ومجالٍ للسرور

وإذا نظرت إلى (الربوع) وجدتها

تَشقى كما تَشقى العباد وتسعد

أما يوم نزلنا سيدي بشر فلم يكن به غير ثلاثة أبنية وبضعة حوانيت في بناء مستقل — ولم يكن في الجيرة ماينقص إلا تلك الأكشاك الخشبية وقد صفت على نظام في أجمل بقعة تشرف على شاطئه ، وقد خصصت لأسر الضباط الانكليز يقوم على حراستها نفر من أولئك الذين استحلوا الكل فلم يعفوا عن الأجزاء

ولم يكن للانجليز أن يختاروا الا خير البقاع ، وأحسن المواقع ، فهذه النقطة السوداء شهادة لسيدي بشر بامتيازه

وقد استتبعت هذه الجيرة المضة أن يأوي إلى الجوار نفر من أخلاط الدخلاء يبيعون الجنود الخمور وأخرى الحاجات ، يبجلونهم ويختصونهم بخير ماحوت حوانيتهم حتى ليمنعون المصري ما يطلب بأي ثمن

ولم تكن الحراسة بين المصريين عبثاً ولا ذات مشقة ، فهؤلاء الحراس يودعون كرم الخلق المصري : العرض والحياة والمال . وينفقون ليلهم في تلك الحوانيت يشربون إلى السكر ، ويسهرون إلى الصبح

***

بعد أسبوعين ، وفي ليلة واحدة انعكست الآية وسمعنا بمختلف الرطانات إشادة بالخلق المصري والكرم المصري والنبل الوطني بين الجزع والفزع مما حدث ، فقد استطاب الجند الضيافة ، وأساغ الشرب مالا يسوغ ، وذاق المحتفون من الأخلاط بعض

آثار الاحتلال فى عتادهم وفى أنفسهم ، وشهدنا آية الصبر فى لحظة ، وكسبنا للقضية الوطنية أنصاراً حتى بين الأقداح وفى أحقر الحوانيت

ومن يصحب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذباً

***

سألنى بكر أولادى ذات صباح لمن هذه الأرض التى يقوم عليها (الكامبو) ؟ قلت للبلدية . قال وماهى البلدية ؟ أجبت تقريباً للمعنى من ذهن الطفل : هى للحكومة . قال وهل يؤدون أجرتها كما أدينا للخواجه (لافرلا) ؟

قلت يا بنى لم هذا الالحاف ؟ وفيم الاعنات ؟ وما أريد أن أبكر بالغصص إلى قلبك . إعلم أن هؤلاء الانجليز دخلوا مصر بحجة الدفاع عن عرش الخديو وحمايته ، ولم يكن ثمة تهديد لعرش ولا هدر لحياة ؛ وما زالوا يجدون فى كل يوم سبباً لأطالة الضيافة ، فهم يأخذون هذه الأرض بلا أجر كما احتلوا البلاد . قال ، لو أننا نشترى منها قطعة صغيرة ونبنى بيتاً صغيراً فلا نؤدى أجرة فى كل عام . قلت : فكرة اقتصادية وجيهة ، ولكن الانجليز ؟ قال سأخرجهم حين أصبح ضابطاً . ألم تقل بالأمس إنك ستدخلنى المدرسة الحربية ؟

قلت : صدقت ! ولقد قلت وأسأل الله إذا امتد الأجل أن توفق لخدمة البلاد ، وأدعو الله لك ولأخوانك بحياة حرة فى جو حر

وأردت أن ينقطع الحديث المشؤوم وعملت على تغيير مجراه فاستعجلته لنخرج على نية شراء بعض ما يلزمه ، وسرنا نقصد محطة الترام فوجدنا حانوتاً مغلقاً وقد تأخر عنى خطوة وانشغل به بصره ، فلما ذكرته بالسير قال : ألم تر ؟ قلت ماذا ؟ قال دكان الخواجه (خ) ، والله يا بابا لقد بكيت أمس إذ قلت لعسكرى البوليس صباح أمس حين وقف صاحب الدكان يحكى له ماجرى — خذ العساكر إلى القرقول فلم يفعل ! !

ساءنى أن يستمر الحديث على هذه الوتيرة وقلت يا بنى لقد تردد الدمع فى مآقى الوزير شريف باشا من قبل حين رأى صفوف الاحتلال فى طريق الخديو من المحطة إلى عابدين ! ولا شك أنهم سيخرجون يوماً بأذن الله ، ولن ترى من ذلك شيئاً ؛ ولقد رأى أجدادك أبشع من ذلك وأشنع ، فقد روى (هنس زيزنر) أنهم كانوا يقتلون جرحى المصريين فى التل الكبير ؛ وما زلنا نرى من أحفادهم من يحتمون بهم ومن يتقون . فيوم لا ترى واحداً من هذا الفريق لا ترى على أرض الوطن محتلاً ، ولولاء ماالحق القاهرة ذلة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

دارت الأيام ، وعدت إلى سيدى بشر وفى مكتبى الأول أكتب رسالتى وأشخص بين الفينة والفينة إلى البحر فلا أرى معسكراً يحجب ، ولا علامة تثير الغصص وتذكى الألم ، قلت مع الرسول الأمين عليه صلاة الله وسلامه : « ويعجبنى الفأل »

لعل ما ترى من استنامة للرفاهية أشبه بهذا الطلاء الزائل الذى كاد يغير من منزل (لا فرلا) — لعل الجفوة التى ترى بين رجالنا وشبابنا للمبادىء القويمة أشبه بتلك التى كنا نرى ونسمع عن سيدى بشر منذ تسع سنين ، ولعل ما يحجب عنا محاسن الخلق الوطنى أشبه بخشبات المعسكر التى تكسرت وزالت ، ولعل القوة الخارقة الطارئة التى اعتبرها علماء الاجتماع وأساطين التاريخ ميزة الخلق المصرى حين هب بعد قمبيز ، ومثلت الحكم الاسلامى بالطابع الخاص فى الدول الطولونية ، والأخشيدية والأيوبية ، وحكمت القومية المصرية فى عهد المماليك ومحمد على ، وحررت البلاد من الانجليز فى ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، لعلها بإذن الله قريب منا ! ولعلها على الأبواب ! ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب !

(سيدى بشر) **محمد محمود جلال**
المحامى

صور حجازية « طبق الأصل »

الإعــــدام !

للأستاذ على الطنطاوى

سيقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : هذه وحشية ، هذه همجية ، هذا لا يكون فى القرن العشرين ، قرن الحرية والنور ، هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن ؛ المسيو فلان ، والمستر هلان ، والهر جرمان ، والسنيور ايطاليان

ويقول الحق : هــذا واجب ، هذا حسن ، هذا دواء القرن العشرين ، قرن الاستعمار والاستعباد ، وإبادة الضعفاء ، واغتصاب الحريات ، هذا ما أمر به الله ، وجاء به رسول الله صلى الله عليــه وسلم فلينظر امرؤ مسلم : أيتبع أمر الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يتبع رأى المسيووات والمساتير ، والهررة والسنانير ؟! . . .

سمعت — وأنا فى مكة — أنّ أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة (آخر المحرّم سنة ١٣٥٤) فجعلت أرقب وأنتظر ، لا أحب أن أسأل أحداً ، كيلا تفوتنى لذة المفاجأة وروعة الحادث . ثم إن الرجل فى الحرم كالسائح فى أرض الله ، لا يدرى من يسأل ؛ ولا يعرف من يخاطب ، وبينا هو فى « الهند » يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود ، ويبصر عادات الهنود ، إذا به ينتقل بعـد خطوات الى « نجد » فاذا هو بين النجديين ، وإذا كل شىء من حوله عربى نجدى ، ثم يخطو فاذا هو فى مصر ، بين المصريين ، يسمع حديث مصر . فى لهجة مصر . . . فكأن الدنيا كلها قد استقرت فى الحرم ، تستظل بالبيت العتيق ، وتطوف به ، وتجثو خاشعة من حوله ، فلا يحس الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا ، أو ظاهر جدرانه حيًّا من الناس ، أو عامراً من الأرض

حتى إذا قضيت الصلاة ، وانفتل الامام ، ابتدر الناس أبواب الحرم يستبقون الى شارع الحكومة ــ وهو فى أسفل أجياد ، عتد من شمال الصـفا حتى يجاوز باب ابراهيم ــ فلم تـكن إلا هُنيْهات حتى امتلأ الشارع على سـعته بالناس ، ولم يبق فيه موطئ قدم ، فجعلت أزاحم الناس لأخلص الى الساحة ، فلا أتقدم بخطوة ؛ ومن لى باختراق هذا السد الهائل من الأجساد ، واجتياز هذا الخضم من الناس ؟ فأيست واحتسبت مصيبتى فى فوت المشهد عند الله ، وهممت بالعودة الى الحرم ، وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين (سعادة سكرتير جلالة الملك) فتعلّقت به وقلت :

ــ والله لا أدعك حتى تبلغ بى الساحة

فاعتذر وتملّص ، فما نجا ولا تخلص ، وكيف يتملّص منى وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة ، أفيدعها بعدما وجدها ؟ فأجاب على كره وسار وأنا أتبعـه ، والبحر ينشق له كأن بيده عصا موسى . . . وما للناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين ، وهو سكرتير الملك ؟ حتى إذا بلغ بى درج القصر عاد لشأنه وتركنى ، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيـه ، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقربين والحاشـية ، فقادونى الى غرفة فخمة أعدت للأمير فيصل (ابن الملك ونائبه على الحجاز) ولأهل البيت : بيت الملك

ولم لا يفعلون وأنا ممن يكتب فى الصحف ، والاكرام إنما يكون لمن يكتب فى الصحف ، أو علك سبيلاً من سبل الدعاية ، والحذر إنما يكون من هؤلاء . فذكرت قالون وزير لويس السادس عشر ، حين رأى أن خير طريقـة لتقوية الحكومة الضعيفة ، وإغناء الخزانة الفقيرة ، أن تقيم الحكومة الولائم الفخمة وتنفق الأموال الطائلة ، تشترى ألسنة المادحين ، وأقلام الكاتبين حتى يقال : إنها غنية . . فقالوا : إنها غنية ، لأنهم أكلوا خبزها ولكن الخزانة قالت : إنى فقيرة ! وقال التاريخ : إن قالون رقيع . . .

***

وقفت فى النافذة بين فتية من آل البيت ؛ فيهم ابن للأمير فيصل فى نحو الثانية عشرة من عمره ، ما رأيت فى لداته أنقب منه ذهناً ، ولا أصحّ جواباً ، ولا أحدّ ذكاء ؛ وأطللت على الناس ، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزىّ ، فمن رجل عباية (١) على رأسه عقال أسود على صِماد أحمر (٢) قد التحف بعباية رقيقة على ثوب أبيض ، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من المثنون ، وهلالاً دقيقاً من تحتها ، نما فيه صف واحد من الشعر كأنما هو مروحة تدلت على صدره : سنة يتبعونها ما أنزل

---

(١) العباية : العباءة والرجل الجافى

(٢) الصماد : ما يوضع على الرأس دون العمامة أو العقال ، ويسميه الشاميون كوفية ويدعوه النجديون العماع

الله بها من سلطان ... وهذا هو النجدى

ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً فوقه رداء قصير (جاكيتة) من قماش هفهاف ، وعلى رأسه قُلَنسيَّة (طاقيَّة) بيضاء ، إذا مشى فى الشمس تممَّ عليها بلحفة بثقل الفراش ، يتقى بها شمس مكة الحادة المخيفة[1] وهو حليق اللحية صغير الشاربين ... وهذا هو الحجازى

ومن رجل وسخ الثياب ، ممزقها ، لا تدرى عن ثيابه ما لونهما وما هى ، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال . . . وهذا هو الأعرابى

ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع ، عليه عباءة جيلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب ، أو يلبس بدل الثوب حلّة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية ، إلاّ قليلاً منها يبقيه بمثابة الدلالة على أنه ملتح ... وهذا هو السورى . وأكثر السوريين فى الحجاز موظفون فى الوظائف الفنية ، وأقلهم تجار

ومن رجل على رأسه عمة ضخمة فخمة كعمائم السلاطين من آل عثمان — يوم كان لآل عثمان سلاطين ، وكان لسلاطينهم عمائم — وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة ، وله لحية كثّة مستديرة ، وشاربان طويلان ، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض ، تبلغ الكعبين ... وهذا هو الهندى

ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الأمريكانى) نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر (فوطة) لفّها على خصره النحيل لفاً محكماً ، واجتزأ بها عن السراويلات ، وارتدى عليها رداءً قصيراً رقيقاً ، وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة الجنيهات أو أكثر ... وهذا هو الطالب الجاوى ، وما أكثر هؤلاء الطلاب فى مكة

ومن عبد أسود ، جعد الشعر ، أفطس الأنف ، ضخم الشفة ، عارٍ إلاّ من خرقة تستر عورته أو بعض عورته ... وهذا هو الأفريقى الأسود

ومن ... ومن أمم ربنا التى لا تعد ولا تحصى

وكان القوم مختلفين فى أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم ، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التى قطعوا السباسب ، وخاضوا البحار ، ليواجهوها ، ويقفوا أمامها ، ويتعلقوا بأستارها

* * *

ثم أقبل الجند ، وهم بثياب عربية . قد تمنطقوا عليها بمناطق الرّصاص ، فاصطفوا من حول الساحة ، ثم أقبل الأمير فيصل فى موكبه ، يحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء ، فصعد إلى الغرفة التى نحن فيها فجلس فى شرفتها الكبرى

ثم جىء بالرجل ؛ وهو قصير كزٌّ ساهم ، ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب ، وكان أصفر قد دمع وامتقع لونه ، وغاض من وجهه الدم ، مجموعة يداه إلى قفاه ، قد مات من قبل الممات . يقوده جنـدى آخذاً بتلابيبه ، حتى إذا بلغ به الساحة خلاّه فهوى جاثياً على ركبتيه ، فلبث لحظة ما يفتح عينيه من الجزع ، ثم ارتدت إليه نفسه بعد حين ، فجعل يقلّب عينيه فى الناس فيرى كل شىء من حوله ميتاً لا حياة فيـه ، فكأن الدنيا قد أظلمت فى ناظريه حين يئس من الحياة ، كبيت أطفىء فيه المصباح فى ليل داج

وجعل يرى الشمس مشرقة ، ويرى الجند جائين ذاهبين ، يُدلون بشاراتهم وسلاحهم ، ويرى القصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان . . . ولكنه لا يرى من ذلك كله إلا صوراً مطموسة ، تطلع عليه من خلال حلم عميق ... ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت ، ولم يبق قيد ناظريه إلا الكعبة ، يبصرها من باب الحرم ، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ويشير بسبابته إشارة التوحيد ، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة فغاب فى ذهول عميق ، ولم يعد يفكر فى شىء

وجىء بالمجرم الآخر ، وهو عبد أسود ، ضخم الجثة ، غليظ الشفتين ، كثير الشعر ، كأنه غول هائل ، أو وحش مروع ،

---

(١) من أصيب بضربة الشمس فى مكة فانما أصيب بالموت المحقق ، ومع ذلك فقد كان معنا فى رحلتنا الكشفية الى الحجاز ، شاب نجدى اسمه حبيب ، ما رأيته ستر رأسه ، فى بادية ولا فى حضر ، فقلت له : ويحك ألا تخشى ضربة الشمس ؟ فقال لى ما نصه : والله لو وقفت الشمس هنا أربعين صباحاً (ونقر على صدغيه) ما خلصت الى داخل . . . فعلمت حينئذ كيف مضى أجدادنا لفتح العالم . .

وقد قيده الجند ، وجمعوا يديه إلى عنقه وأقبلوا يمسك به ستة منهم وهو يصاولهم ويقاومهم ، ويزمجر ويصرخ صراخاً شديداً ، وهم يزبرونه ويقرّعونه حتى انتهوا به إلى الساحة ، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب وشدوه اليه شداً وثيقاً ، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله

* * *

وكأن العبد قد اهتمجت نفسه ، وأدركه الخور ، فسكت وسكت الناس وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم

وجعلت أطل من الشباك أبحث عن الجلاّد فلا أرى أحدا ، وأفتش عمن يتلو حكم الاعدام فلا أجده . وأرى سمو الأمير يشير بيده ، فاذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف ، وبيده سيف صقيل مسلول ، فيأتي الأعرابي من ورائه وينخسه بالسيف ، فينتبه ويمد عنقه مستطلماً ، فيهوى العبد بالسيف على قذاله ، ثم يحز به الرأس حزّا ، فلا تمضي ثوان إلا والرأس قد بُتر عن الجسد ، من القذال إلى أعلى الصدر ، وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تند من المقتول صرخة ، ونفر الدم من عنقه كأنه نافورة ، ومال الجسد قليلاً قليلاً حتى هوى ، وهويت أنا قبل هويّه وكفاي على عيني ، ولم أعد أشعر بشيء

ولما صحوت قيل قد فاتك المشهد الهائل : قطعت يد العبد ورجله من خلاف

قلت : ويحكم ، ماذا تقولون ؟

قالوا : قطعت يده ورجله ، ألم تتل قول الله عز وجل : « إنَّما جزاءُ الَّذين يُحاربُونَ اللهَ ورَسولَه ويَسْعَونَ في الأرض فساداً أنْ يُقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تُقطَّعَ أيْديهم وأرْجُلُهم من خِلافٍ أو يُنفَوْا مِنَ الأرض » . أما إنه لولا هذا ما بلغتم أرض الحجاز سالمين . وما العهد السابق ببعيد ، أفلا نستحي بقتل واحد أو اثنين الناس جميعاً ؟ قلت : بلى والله ! صدق الله العظيم : « ولكم في القِصاص حياة »

دمشق — علي الطنطاوي





٢ ـ الشعـــر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم احمد حسن الزيات

خصائص الشعر فى العراق

لعل الشعر العراقى الاسلامى أصدق ما يصور حياة البادية ، وأصح ما يعبر عن نفسية العرب ؛ فانه — وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلى يصدر عن دوافعه ، وينبع من منابعه — أنقى جملة وأبين علة وأصح نسبة ، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ . وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التى هيأها الاسلام للعرب لأول مرة ، فجمل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والالفة ، وباطنها العداوة والفرقة ؛ فهو مهاجاة بين الأفراد ، ومساجلة بين الأحزاب ، ومفاخرة بين القبائل ، ومدح للزعماء والخلفاء ؛ وهـذه الموضوعات بطبيعتها تقتضى اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية ، وتعتمد فى الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة ، وفى المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلَب والسلَب . فالهجاء فى هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد أن يكون مظهره العراق ، لتَكالب القبائل المتعادية عليه ، وظهور المذاهب المتباينة فيه ، وغلَبة البداوة والانفة والبطر على أهله . فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه ، وهو ينتحل الأسباب المختلفة ، ويرتدى الأثواب المتعددة ، فيكون فردياً وقَبَليًّا ووطنيًّا ودينيًّا وسياسيا ؛ ولكنه فى الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة

وقد ينبت المرعى على دِ مَن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيِّة وأديب النصرانية وشاعر الأموية . كان أول ما غرزم به من الشعر الهجاء ، هجا امرأة أبيه وهو صغير ، وهجا كعب بن جميل شاعر تغلب ، فأهمله وهو يافع ، وعَلِق به لقب الأخطل منذ شبَّ لسفاهته . ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس ، أو بين قبيلته وبين القبائل ، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو ولىّ العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الانصارى تقاول وجدل ، فطلب من كعب بن جميل أن يهجو الأنصار ، فتحرج أن يذمَّ قوماً آووا رسول الله ونصروه ، وقال له : أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل) : فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر ، وفضل عليهم قريشاً فى قصيدته الرائية ، وكاد يشفى من ذلك على الخطر لولا عون يزيد ؛ وبالغ الأمويون فى إيثاره وإكرامه ، وأمعن هو فى النفح عنهم ، فناضل الزبيريين بعد الأنصار ، وصمد إلى القبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التى مطلعها :

ألا يا اسلمى يا هندُ هنـدَ بنى بكر
وإن كان حيَّاناً عِدَى آخر الدهر

لمناصبتها الأمويين العداء من جهة ، ولافتتاحها الجزيرة على قومه من جهة أخرى ، ثم ختم حياته بمالأة الفرزدق ومهاجاة جرير . والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته ، على وثيق صلاته بالخلفاء ، لم يشذ عن طبيعة العرب فى التدين ، فقد قال الأب لا منس فى فصل كتبه عنه : « إن أثر النصرانية فى دين الأخطل ضئيل ، ونصرانيته سطحية ككل العقائد الدينية عند البدو » ، فهو يدمن الخمر فى حمى الدين ، ويكثر الهجاء فى حمى الخليفة ، ويهاجم القبائل فى حمى تغلب ؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمى ثم التميمى نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه ؛ فكان يهجو بنى قومه لحدة طبعه وشراسة خُلقه ، فيشكونه إلى أبيه فيضربه ؛ ثم لج فى هجاء الناس حتى استعدَوا عليه زياداً والى العراق لمعاوية ، فطلبه ففرَّ منه فى مدن العراق وقبائله ، ثم لجأ إلى المدينة واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره ؛ فلما مات زياد عاد الشاعر الى وطنه فساهم فيما وقع

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر حديثا

فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد ، حتى بنى بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصفقت شعره ، وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة ، وللسواس مهزلة ، وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من حكمة . وكان جرير بن عطية الخطفى التميمي قد قال الشعر كصاحبيه فى الحداثة الباكرة ، وقاله مثلهما فى الهجاء ، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التى ساعدت الطبع على نبوغه فى الشعر وتفوقه فى الهجاء ؛ وكان أول من نازله وأفحمه غسان السُّليطى حين هجا قومه ، فاستغاث السليطى بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً ، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع ، فناضل عنه الفرزدق لموجدة فى نفسه على جرير ، وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك . وفضّل الأخطلُ الفرزدقَ على جرير إما لدفاعه عن قيس ، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه ، فهجاه جرير ، ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا له ونازعاه الغلبة . وانشعب الناس فى أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين ؛ وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين ، يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف ، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بنى حصن ، وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ، والأدباء والأمراء يتناولون ما روَى بالموازنة والنقد والحكم ، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه ؛ فقد روى الأغانى أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم فى الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا فى أمر جرير والفرزدق ، فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا فى عسكر المهلب فى جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً ، وكره أن يعرض نفسه لشرهما ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ فى عسكر قطرى بن الفجاءة ، فأتيا فوقفا حيال العسكر فدعواه فخرج يجر رمحه ، وظن أنه دعى إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد ، فقال من يقول

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طى التِّجار بحضرموت بُرودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعى وأبى النجم العجلى والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً وناباً مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجر القول فى الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أُعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد فى الاسلام : مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم »

مذهبهم فى الهجاء

مذهبهم فى الهجاء هو المذهب المتبع والطراز الغالب ؛ على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم فى الطبقة والبيئة والطبع

فالأخطل سيد فى قومه ، كريم فى نسبه ، نبيل فى نفسه ، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل فى سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد . ومن أجل ذلك كانت لغته فى الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة ، لا يسف الى القبيح ولا يستعين بالمخازى ، وإنما يهاجم القِرن فى صفات الرجولة فينفى عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله فى تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيمٍ وتيما قلت أيهما العبيد !

لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله فى كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزّاء والسكَر

قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سُبَّت بها مضر

الآكلون خبيث الزاد وحدهمُ والسائلون بظهر الغيب ما الخبر

وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أخش هجائه قوله فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم ... قالوا لأمهم بولى على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ... ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعنبر الهندى عندهم ... والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى فى إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى الى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية ، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته فى السمو الى المعالى والسبق الى الغايات ، وفى ذلك يجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار جرير الى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق . انظر الى قوله لجرير :

يا ابن المراغة إن عمَّىَّ اللذا ... قتلا الملوك وفككا الأغلالا
وأخوهما السفاح ظمَّأ خيله ... حتى وردن جبي الكلاب نهالا
فانعق بضأنك يا جرير فانما ... منتك نفسك فى الخلاء ضلالا
منتك نفسك أن تكون كدارم ... أو أن توازى حاجباً وعقالا

وإلى قوله له :

ولقد شددت على المراغة سرجها ... حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نطفتها لتدرك دارماً ... هيهات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاظمت الأمور لدارم ... طأطأت رأسك عن قبائل صيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد ... بيتاً كبيت عطارد ولبيد

تجد أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر . ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمضّ لا يجرى مع هجاء جرير فى ميدان ، ولا يستوى وإياه عند العامة فى ميزان ، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة فى الأخطل وحِدَّةُ الشبيبة فى جرير ؟ إن جريراً نفسه قد عالى ونَاء خصمه عنه فى آخر الشوط بكبر سنه ، فقد قال : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلنى » . وقال فى قصيدته النونية التى هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه :

جاريت مُطَّلع الرهان بنابه ... رَوْقٌ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها فى أغراض قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجى المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه : الأولى فى هجاء القبائل القيسية ومطلعها :

ألا يا اسلمى يا هند هند بنى بكر
وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

والأخرى فى مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا
وأزعجتهم نوى فى صرفها غِيَرُ

ومنها :

بنى أمية إنى ناصح لكم ... فلا يبيتن منكم آمنا زُفَر
فإن مشهده كفر وغائلة ... وما يُغيَّب من أخلاقه دعر
إن العداوة تلقاها وإن كمنت ... كالعُرّ يكمن حينا ثم ينتشر
بنى أمية قد ناضلت دونكم ... أبناء قوم همُ آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً ... فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم
وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الاسلام سببا للفخر ولا مادة للهجاء ، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه ، على أنه يستغل أحيانا بعض ما أنكر الاسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه ، كقوله فى الأنصار يرميهم بشرب الخمر :

قوم إذا هدر العصير رأيتهم ... حمراً عيونهم من المسطار

وكقوله فى كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم
إذا جرت فيهم المزّاء والسكر

يتبع ... الزيات

في مؤتمر الكتاب الأوربيين لحفظ الثقافة

خطاب أندريه جيد

نحن قليل في هذا المكان بعددنا ، كثير إذا اقتصر الأفراد منا على حب بلادهم ، وكثير كثير إذا أضمر هؤلاء الأفراد للبلاد الأخرى ضغينة وحقداً : إذا ما حدثتكم عن شعوري أيها السادة أقول بأني إنساني النزعة في الوقت الذي ما أزال فيه فرنسياً صميماً ، وأقول بأني فردي من أنصار الفردية مع الاعتقاد الراسخ بأني شيوعي صميم ، لا أجد في الشيوعية غير نصرة لفرديتي وكل تأييد ، لقد كانت رسالتي التي حملتها طوال خمسة وستين عاماً : أنه بمقدار ما تكون شخصية الانسان قوية وأصيلة فيه ، تكون خدماته للمجتمع أجل وأحسن ، وقد أضفت في السنوات الأخيرة إلى هذه الرسالة رسالة جديدة هي من الأولى بمثابة البنت للأم ، هي أن الجمعية الشيوعية تترك المجال الوسيع لكل شخصية وللخصائص التي تتميز بها كل شخصية تنمو وتزدهر على وجهها الأكمل ؛ وحسبي أن أتمثل بعبارة لأندره مالروساقها في مقدمة أحد الكتب وقد أصبحت مثلا يجري على كل لسان « إن الجمعية الشيوعية ترد إلى كل شخصية نتاجها الخصيب »

وأذكر اسم رابليه في هذا الكلام لأن النشاط الذي تركه في آدابنا الفرنسية الجميلة لم يتركه أديب من بعده ، ولأني أعتبره خير ممثل للأديب الفرنسي العريق ، ولربما كان فيما كتب بين معاصريه خير ممثل للعصر الذي عاش فيه ، لقد أخذت الآداب الفرنسية بعد رابليه تهدأ ثورتها ، تتوخى الطريق المطمئنة المسالمة التي لا صعاب فيها ولا عراقيل ، تجنح إلى الغموض والابهام غير مكترثة بالمادة مشيحة بوجهها عنها

أعني بالآداب الفرنسية التي سميت « كلاسيكية » كل ما يدخل تحتها من كتاب وقراء ونظارة وأبطال للرواية والقصة ، أعني بأن كل هؤلاء قد كُفُوا مؤونة السعي والجد طلباً للعيش ؛ وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الأديب أن يحدث أناساً موفورين عن أناس موفورين ، وإذا لم يكن منعماً هذا الذي يحدث عنه الأدب ، فليس من شأننا أن نعرف ذلك وليس من شأننا أن نعرف لماذا كان أكثر هؤلاء الذين يحدث عنهم أغنياء مغتبطين ؟ وعلام يستندون في جمع ثرواتهم ؟ إن الأدب لا تعنيه كل هذه الأسئلة الممضة ! فهؤلاء الأبطال يصورهم لنا راسين في مآسيه الرائعة وقد خلوا من تكاليف الحياة ليس لهم إلا أن يندفعوا مع أهوائهم مرخين العنان لقلوبهم تعشق وتحب ، ولرؤوسهم تحلم وتفكر . إن هؤلاء الأبطال لا يعيشون في غير أسطر ضمت في كتاب أو على خشبة مسرح يتقمص أفعالهم الممثلون

لست هنا في معرض دعوى أدافع بها مطالباً بحكم على هذه الآداب الكلاسيكية ، فاني من أكثر الناس حباً لها وإعجاباً بها وبكل ما هو رائع وجميل ، بل أقول إن الأدب لم يشهد منذ الأغريق الأقدمين عهداً رائعاً مثل عهد هذه الآداب . ولرب قائل يقول : إن هؤلاء الملوك والملكات وهؤلاء الأمراء والكبراء الذين لا تخلو منهم رواية مسرحية ألفت في القرن السابع عشر هم الذين ينبو عنهم ذوقنا ؛ وأكبر ظني أن ليس هناك أحد يستسيغ الحديث عن أناس نسبت اليهم أفعال حميدة وكلام مزوق معسول ، وقد جعلوا في جو من الأبهة والملك يشفعان لهم إذا لم يأت كل ما نسب إليهم مطابقاً للواقع صادراً عن ميولهم ومجرد إحساساتهم ؛ وإذا استساغ البعض حديثاً من هذا النوع فانهم لا يجدون فيه صورة منقولة عن عالم الأحياء الذي يعيشون فيه . فليس كل من يدبون على الأرض مترفين ولا أصحاب امتيازات

لعمري إن آداباً تلك سمتها لا تعبأ بغير هذا النمط من الناس ولا تهتم بغير الرؤوس والقلوب منهم ، لا يرجى لها مستقبل تأمن فيه من أن تزل قدمها فتهوى إلى أعماق البحر الذي تمشي على شطآنه

إن الآداب والفنون إذا لم تكن مرآة للحياة وصدى للحقيقة فانها أشياء مصطنعة لا تلبث أن تفقد قيمتها ، وإننا إذا استثنينا الآداب اللاتينية لا نجد آداباً أوروبية أخرى أكثر من الفرنسية إيغالاً في الخيال وتعلقاً به ، ما تزال إلى الآن تعتمد عليه اعتماداً كبيراً .

إن الآداب لا تسمو ولا تقوى ولا تتجدد إلا بالمقدار الذي تستمده من الشعب الذي يعتبر بحق دعامة المجتمع وأساس بنيانه ، وما أشبه حال الأدب ببطل الأسطورة الأغريقية ذات المغزى البليغ

التى تحكى أن أنتيوس يفقد قواه وتفل عزيمته كما ارتفعت رجلاه عن أن تمس الأرض (١)

يتساءلون عن الكاتب الذى غذى الآداب الفرنسية فى غضون القرن الثامن عشر وجدد فى حيويتها ! ليس هو فولتير ولا هو مونتسكيو على عبقريتهما وما قدماه لهذه الآداب من البدائع . إن هذا الكاتب رجل خرج من بين الرعاع لا حسب له ولا نسب : هو ديدرو وهو روسو

. . . يقول كاتب فى جريدة (الاكسيون فرانسيز) منذ عهد قريب : « إن المدنية هى الكذب ومحض الاختلاق ، وظيفتها إقامة رجل متصنع فى شؤونه متكلف فى أحواله مكان الرجل الطبيعى العادى ، شبهها شبه الرجل الذى يبرز مرتدياً ثيابه مصففاً شعره بعد أن يكون عارياً فى حجرته الخاصة » ثم يختم المقال بقوله « على المرء أن يختار بين أن يكون متمدناً لا يعرف للأخلاص معنى وبين أن يكون غير متمدن مخلص لذاته »

كلا ليس من المحتم على المدنية أن تتجرد من صفة الاخلاص ، وليس من اللازم على الانسان إذا أراد التمدين أن يكون كاذباً أفاكا ، بل إذا لم يكن للمدنية بد من شىء تتصف به وتحمل طابعه فانه الصدق . انى لست من الذين يلقون تبعة الكذب والتزييف البادين على كل مظهر من مظاهر حياتنا على عاتق الفرد ، فان الجانى هو المجتمع كلما أراد أن يخنق صوت الشعب ، وكلما حاول أن يتركه على حاله من الغباوة والجهل والاستعباد ، لا يعرف ما يجيش فى فؤاده فيعبر لنا عنه ولا يدرك ما تستفيده الثقافة منه إذا جهر بما هو دائر فى خلده حائم بمخيلته

وقفت نفسى مذ كنت شاباً احترفت حرفة الكتابة على دحض الزعم القائل « قال الانسان كل ما يمكن أن يقوله وليس فى استطاعة أحد أن يقول غير ما قد قيل » وقد اتخذ هذا الزعم وطنيو ذاك العهد شعاراً لهم يتمثلون به

أليس من دواعى العجب والغبطة وقد مضى عصران كاملان على الكلمة التى كان يعتز بها لابروير : « جئت فى الزمن الأخير » أن نرى أنفسنا أمام عالم حافل بالعجائب والغرائب لم نصل بعد إلى كثير أو قليل من أسراره ، أمام عالم يقظ فى إبان فتوته يطلع علينا كل يوم بجديد

من يقل أدب قوم فكأنه عنى بذلك خصالهم وأحوال مجتمعهم ، لكن هذه القاعدة كثيراً ما تشذ ، وقد كثر شذوذها فى الآداب الفرنسية ، فان لدينا طائفة كبيرة من الكتاب العظام لم يحظوا فى حياتهم بعطف الجمهور وتقديره ، فيقال بأنهم يكتبون لأنفسهم ؛ لكن هذه الطائفة لم تعدم بعد حين الأنصارَ الذين رفعوها إلى المكان اللائق بها ؛ وقد فطنوا للنظرات المجلى التى لم يستطع ادراكها المعاصرون . وكأنى بذلك أعود بالمخيلة إلى بودلير والى رامبو والى ستاندال أيضاً الذى كان يكتب لعدد ضئيل من محبى أدبه ، ويقول بأن قراءه الحقيقيين لم تلدهم أمهاتهم بعد .. بل وأتخيل نيتشه ووليام بلاك ومكفيل الذين لم يكن حالهم بأحسن من حال الأولين . هذا وانى لم أذكر إلا الكبار

نشهد اليوم حادثاً لم يسبق للتاريخ مثله ، عظيم الأهمية ، لا تقاس به الأحداث ، ذاك هو النظام الجديد القائم فى روسيا السوفيتية ، ولست مبالغا إذا قلت بأنه عمل « نموذجى » يُنسج على منواله ؛ إن بلادا يجرى فيها مثل هذا النظام تجعل الكاتب يتحسس بيئته ويتصل بقرائه اتصالاً مباشرا ، لا يدور حولهم كالتائه يفتش عن ضالته كما هى حالنا معاشر الكتاب ، فيستمد من الحقيقة التى تحيط به مادته ، ويستلهم منها أخيلته ، ويستمع إلى صداه بأذنه . إن بلاداً مثل هذه يؤدى فيها الأديب رسالته كما يجب أن تؤدى ، جديرة منا بكل اعجاب . بيد أن ذلك كله لا يفيد . إن الطريق كلها سليمة لا تعتورها الأشواك ، وكيف نجتنب الأخطار جميعها ما دام العمل الفنى فى طبيعته ضعيف المقاومة ، قليل التأثير بادئ ذى بدء . ولعل الكلام عن مثل هذه الأخطار التى هى من طراز جديد ستحين له فرصة ثانية ، لقد رأيت فى النتاج الأدبى السوفييتى آثاراً أثارت منى كل اعجاب ، لكنها ما تزال بعيدة عن أن يتمثل فيها الانسان المنتظر ، الذى ما برح هذا الأدب يعمل على ايجاده ، وهو ما يزال فى

(١) الأسطورة تقول إن أنتيوس Antée بن جى (الأرض) اعترض هرقل فى طريقه إلى أطلس (الذى يحمل السماء على منكبيه) وقد وسوس اليه الشيطان بقتله فكان عراك طويل حتى فطن هرقل إلى السر الذى يستمد منه خصمه أنتيوس قوته كلما بدأت قواه أن تخور بوقوفه على الأرض فرفعه رفعة هائلة ثم أخذ يضغط على عنقه الغليظ العبل حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت (المعرب)

مراحله الأولى يصور لنا أدوار التكون والتمخض والولادة ، وانى لشديد الأمل برؤية الآداب السوفيتية قد كبرت واشتد ساعدها ، فأصبح الكاتب فى كنف الحقيقة الماثلة ، فاتحة له صدرها يضمها بكلتا يديه

إن الأدب الخالد الذى تقبله النفوس وتقدم عليه بشغف يتجدد فى كل حين ، لا ينقطع لسد حاجة وقتية تنبعث عند طبقة من الناس ، فى وقت من الأوقات ، وعلى هذا الأساس ، فان حكومة السوفييت لم تقتصر على طبع الآثار والمؤلفات التى جادت بها قرائح كتابها وشعرائها ، فانها عنيت عناية فائقة بنشر أشعار بوشكين ، وتمثيل مسرحيات شكسبير ؛ ولم تقل قط بأن أدب كتابها مرسوم له الخلود ، ولا هى تستبعد أن يكون نتاج هؤلاء الكتاب صائرا إلى الزوال بزوال الحاجة التى دفعت اليه ، مادام الزمن لم يحكم حكمه عليه ، وإذا كان هنالك من شىء يمسخ الفائدة التى يمكن أن يجنيها الناس من قراءة الكتب وانشاء الأشعار ، فما هى إلا أن ترسم لهم الأمثولة ويحدد لهم المغزى ، وفى التدليل الكثير على العظة التى تتضمنها الكتب ضياع لمسحة الجمال التى يتميز بها الأدب ، ويصبح بذلك ضربا من ضروب الوعظ الجافة

ليس مما يضير القراء ألا يوفقوا كلهم إلى غاية واحدة ، فان فى استطلاعهم اياها فى أجواء مختلفة فائدة لا تقدر ، وفى ذهابهم مناحى متباينة بمعد عن أن تكون هناك سلطة يستهدون بها . هذا والثقافة كانت لجلاء الذهن واطلاق الفكر قبل أن تكون عامل ارشاد وتهذيب

تتوجه أنظار المفكرين ، فى هذا الزمن ، الى انتشال الانسانية من وهاد الاضطهادات التى تردت فيها ، وانى لا أقدر لهؤلاء المفكرين أن يظل الانسان موضع اهتمامهم يوم يفلت من قيده وينطلق حراً شريفاً ، فلا يعنون به إلا خانعاً ذليلاً أو غرا جهولاً ، بل ولقد أسبغ على نفوسنا طول تحدثنا عن البؤس وتغنينا بمحامده ومزاياه حلة من الخنوع والاستكانة لا تليق بها

جميل أن نحلم بمجتمع تعم نعماؤه الأفراد ، وأجمل منه أن نوقن بقرب قيام هذا المجتمع ؟

ترجمة وتلخيص ماجد شيخ الأرض

٣ ـ الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار المتقدمة فى بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئا عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

لأبى النصر أحمد الحسينى الهندى

بدأ الدكتور يقول الشعر فى أول الأمر من نوع الغزل ثم باشر أنواع الشعر الأخرى مثل : « مثنوى » و « قصيدة » و « رباعى » و « قطعة » و « مسدس » فأجادها إجادة تخلب القلوب ، غير أن كمال شعره ليس فى هذه الأشكال والقيود الظاهرية ، بل فى ابتكار المعانى ، وإبداع البيان ، ودقة الفكر ، وسمو الخيال ، وحسن التركيب والتشبيه ، وقوة الكلام التى يشتمل عليها شعره . فأنت ترى كيف أن تلك الصفات أورثت التصور حسناً ورونقاً فى قصيدته « الأمنية » التى طلب فيها من الله أن يخرجه من ضوضاء هذا العالم ويسكنه محلاً هادئاً ذا منظر بهيج . قال فى وصف ذلك المنظر :

« ... فلتكن (فى ذلك المحل) الأشجار مصطفة فى جانبين يرسم صورتها ماء النهر الصافى ، وليكن منظر الجبال فيه فتاناً إلى درجة أن يقوم الماء فى شكل الأمواج لرؤيته ، ويمس الماءَ فرعُ الورد مائلاً كأن حسناء ترى وجهها فى المرآة ، وعندما تحنّى الشمس عروس الليل تلبس الأزهار كساء ذهبياً مشرباً حمرةً ... الخ »

وقال فى وصف الحباحب الطائرة ليلاً فى الحديقة :

« إن نور الحباحب يلمع فى معمورة الحديقة كأن الشمع منور فى محفل الأزهار ، أو نجمة قد جاءت طائرة من السماء ، أو شعاع القمر قد نفخ فيه الروح ، أو سفير النهار قد جاء فى سلطنة الليل فكان خاملا فى وطنه وبرز فى الغربة . أوزر قد وقع من قباء القمر أو ذرة قد ظهرت من قميص الشمس . إن فى هذا القمر الصغير نوراً وظلمة فكأنه يخرج من الخسوف حيناً ويدخل فيه حيناً ... الخ »

إن الدكتور إقبال ليس بشاعر فقط بل هو مفكر وفيلسوف أيضاً من الطراز الأول ، وهذا الأمر يزيد شعره حسناً وجمالاً

ورونقاً وكالاً : فقد قال كوليريج الشاعر الفلق الناقد الأديب الانجليزي الشهير : « لم يكن ولن يكون أحدٌ شاعراً كبيراً مجيداً بغير أن يكون في نفس الوقت فيلسوفاً ومفكراً دقيقاً . لأن الشعر أرج علم الانسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة . » ففي الشعر يقدر الشاعر الفيلسوف أن يعالج أمراً من أمور الفلسفة الدقيقة ، وعر الملتمس منيع المطلب ببيت واحد ، في حين أنه لا يقدر على معالجته بصفحات من النثر . فأنت ترى كيف أن إقبالاً بين لك في بيت واحد فلسفة الحياة ، ثم نبهك على مواضع الضعف فيك ، وفي هذا التنبيه منه لك تحريض أيضاً على الأعراض عما أنت فيه قال :

حيات چيست جهان را أسير جان كردن
توخود أسير جهانى كجاتوانى كرد

« ما هي الحياة ؟ هي أن تستأسر العالم لنفسك
(ولكن) مادمت أنت أسيراً للعالم فكيف يمكن لك ذلك »

وقال في بيت آخر ما ترجمته :

« إن الحياة هي أن تخلق اللؤلؤ في صدفك
وأن تنفذ في قلب الهيب ولا تذوب »

وقال في فلسفة الحياة أيضاً مخاطباً قلبه ما ترجمته :

« أيها القلب تعلم من البرعوم سر الحياة ،
فان الحقيقة ليست بمحجوبة في مجازه
فانه قد نبت من التربة المظلمة ،
ولكن نظره (دائماً) إلى شعاع الشمس »

يجيد الدكتور الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والاردية ، ويعرف السنسكريتية والعربية أيضاً ، ويقول الشعر بالفارسية والاردية . وجميع مصنفاته التي ظهرت الى الآن هي كما يلي :

١ — مصنفاته شعراً :

١ — بانك درا (أي صوت الجرس) : وهو ديوان باللغة الاردية يحتوي على أنواع الشعر المختلفة من باكورة شعره

٢ — أسرار خودى (أي أسرار الأنانية) : وهو أول دواوينه باللغة الفارسية وشعره من نوع المثنوي . نشره في سنة ١٩١٦ ، ويحتوي على مباحث إسلامية فلسفية دقيقة لتربية الأنانية . وقد ترجمه المستشرق الشهير الدكتور نكلسن الى اللغة الانجليزية

٣ — رموز بيخودى (أي رموز إنكار الأنانية) : وهو الديوان الثاني باللغة الفارسية وشعره من نوع المثنوي نشره في سنة ١٩١٨ ، وهو كالتكملة للأول لتكوين الأنانية العليا وتربيتها

٤ — پيام مشرق (أي رسالة الشرق) : وهو ديوان باللغة الفارسية يحتوي على أنواع الشعر المختلفة ، نشره في سنة ١٩٢٣ وقد صنفه رداً على « الديوان الغربي » للشاعر الفيلسوف الألماني الشهير جوتيه . وقد ترجمه الدكتور نكلسن الى الانجليزية

٥ — زبور عجم : ديوان باللغة الفارسية وشعره من الأنواع المختلفة ، ويحتوي على أرق العواطف وأدق الأفكار الفلسفية . نشره في سنة ١٩٢٦

٦ — جاويد نامه (أي كتاب جاويد) : وهو ديوان باللغة الفارسية نهج فيه الشاعر منهج فاوست لجوتيه ، ويحتوي على أدق الأفكار الفلسفية الاسلامية . وقد نسبه الى أصغر أبنائه المسمى « جاويد » . نشره في سنة ١٩٣٢

٧ — مسافر : وهو ديوان صغير باللغة الفارسية ، شعره من نوع المثنوي ، يحتوي على ما جادت به قريحته حين سافر الى افغانستان تلبية لدعوة المغفور له جلالة الملك نادرشاه خان ملك افغانستان في سنة ١٩٣٣

٨ — بال جبريل : ديوان باللغة الاردوية ، يشتمل على ما جادت به قريحته عند زيارته الآثار الاسلامية في الأندلس ونشره سنة ١٩٣٥

٢ — مصنفاته نثراً :

١ — السياسة المدنية : صنفه باللغة الاردية وهو أول مصنفات الدكتور

٢ — تاريخ التقدم الفكري في بلاد إيران : وقد نال بتقديم هذا الكتاب شهادة الدكتوراه من ألمانيا

٣ — المحاضرات الست : وهي التي ألقاها في الجامعات الهندية ، وتحتوي على فلسفة الآلهيات الاسلامية

لقد طال بنا الحديث ونحب أن نختمه بكلمتين وجيزتين : منزلة شعر اقبال في الهند : وصداه في العالم ، فأما منزلة شعر اقبال في الهند ، فلشعره رسالة ستعرفها حين نفرد لها مقالاً في المستقبل إن شاء الله . والرسالة إذا قمت لا بد أن تجذب ما حولها الى نفسها كذلك شعر اقبال ، ولا يتسع المجال هنا لأن

نستقصى رأى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية الهندية فى شعر اقبال لابانة جاذبيته ومنزلته . وإنما نكتفى برأى طبقة الشعراء لأنهم أدرى بحقيقة فنه ودقائقه

إن الشعراء فى الهند كثيرون فمنهم من يجيد الشعر بالأردية ومنهم من ينشئه بالفارسية ، ومنهم من يتقنه بالاثنتين ، ولكن إقبالاً أسبقهم غير مدافع ، وأفضلهم غير معارض ، ولشعره بينهم القدح المعلى ، فقد اتفقوا جميعاً على أنه هو شهابهم الساطع ، وبدرهم الطالع ولقبوه « بترجمان حقيقت » (أى المعبر عن الحقائق) وقد شدا غير واحد منهم ناشراً طراز محاسنه فى المجالس ، وناثراً لآلئ وصفه فى المحافل بالأبيات والقصائد نقتطف بعضها هنا . قال مولانا غلام قادر گرامى [١] وهو من كبار شعراء الهند ويقول الشعر بالفارسية :

در ديده معنى نگهان حضرت إقبال
پيغمبرى كردو پيمبر نتوان گفت

« إن فى رأى أرباب النظر قد قام حضرة
إقبال بعمل النبوة ولا يمكن أن يقال له نبى »

وقال الشاعر فكّار — وهو من مسقط رأس إقبال ويقول الشعر بالفارسية والأردية — وهذه ترجمته :

« إنك قد جئت بكأس من الحانة القديمة وبنغمة داودية من وتر الرباب »

« يا طبيب روح الأمة ! أنت قد جئت بمهد الشباب فى دين ابراهيم بدواء الفلسفة »

« وقد كشفت عن نفسك بواسطة (رموز إنكار الأنانية [٢]) يا أبا الحكمة أنت قد جئت بالنهر من السراب »

وقال السيد بشير أحمد اخگر ـ وهو من كبار الشعراء باللغة الأردية ـ وهذه ترجمته :

« إن وجودك لى سبب الحياة . إن أسرار أنانيتك [٣] لى باعث زيادة الهمة »

(١) توفى رحمه الله فى سنة ١٩٢٧ ميلادية ، وكان من عشاق شعر إقبال . فلما قرب من الموت كان يردد هذا البيت على لسانه :

صباه حضرت إقبال اين پيامم ده
كه رفت جان گرامى و تو هنوز خموش

أيتها الريح بلغى رسالتى هذه الى حضرة اقبال ان
روح گرامى قد طارت وأنت لازلت ساكتاً

(٢) اسم لديوان اقبال (٣) اسمان لديوان اقبال

« إن رموز (إنكار الأنانية [١]) قد حل المعقد . إن (صوت الجرس [٢]) قد أصبح لى دليل الطريق »

« إن روح (غالب [٣]) وحنو (مير [٤]) فى قلبك يا إقبال إن حسن ليلى الشعر مخفى فى محملك [٥] هذا »

أما صدى شعر إقبال فى العالم ، فلشعر إقبال فى أفغانستان مرتبة لا يشق غبارها وعزة لا يدرك شأوها ، إذ لا تقام حفلة من حفلات الحكومة إلا وتهز فيه فرق الموسيقى الحكومية قلوب الحاضرين بأناشيد إقبال وبخاصة « نشيد المسلم » منها . وقد نشر أقا هادى حسن وزير التجارة مقالات فى شعر إقبال . وبخاصة عن ديوانه « رسالة الشرق » فى مجلة « أمان أفغان » التى تصدر بكابل

ولم تأل الجرائد والمجلات فى ايران تنويهاً بشعر اقبال ، كما أن أهل العلم والأدب فيها يحيطون به خبراً ، ويثنون عليه أطيب الثناء

وفى تركيا ترجم كثيراً من شعر اقبال إلى اللغة التركية الكاتب المفكر الكبير حسين دانش ، وكتب مقالات عديدة عن ديوانه « رسالة الشرق » وبسط نظرياته فيها

وسافر أحد علماء روسيا إلى الهند ليلتقى بالدكتور اقبال فقط ، ثم نقل إلى اللغة الروسية نظريات الدكتور التى فى ديوانه « أسرار الأنانية »

وفى مصر نشر غير مرة صديقنا المفضال الدكتور عبد الوهاب عزام ترجمة بعض المقتطفات من شعر اقبال

وفى ألمانيا ترجم الأستاذ دايشو روسو مقدمة ديوانه « رسالة الشرق » إلى اللغة الألمانية ، كما أن الدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليبزيج وصاحب مجلة « اسلاميكا » كتب مقالات عن الديوان « رسالة الشرق » ، وقارن فيها شعر اقبال بشعر الشاعر الألمانى الشهير جوتيه ، وترجم الشاعر الفيلسوف الألمانى هانس مائنيكه قطعة من ديوانه « رسالة الشرق » إلى الألمانية ثم كتبها بيده وجلدها تجليداً جميلاً على الطراز الشرقى موشى بالذهب والفضة أهداها إلى الدكتور اقبال تقديراً لشعره واظهاراً لحسن اعتقاده فيه . وقد أنشئت أخيراً جمعية باسم اقبال لتعريف شعره ونشر مبادئه فى ألمانيا . وتترجم فى ألمانيا الآن محاضرات الدكتور

(١) اسم لديوان اقبال (٢) اسمان لديوان اقبال

(٣) غالب كان رأس شعراء اللغة الأردية ، فهو بمثابة شكسبير وجوته بالأردية (٤) ميركا أحد كبار شعراء اللغة الأردية

(٥) يريد به قلبه

في الأدب الانجليزي

الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

مقدمة :

لا شك في أن عبقرية شكسبير ظهرت في مناحي عدة وصور مختلفة ، وليس من السهل على أي شخص مهما كانت نزعته ومهما تباينت عقليته أن ينكر أن شكسبير هو شاعر بريطانيا الأعظم وكبير من كبار الشعراء العالميين ، ولكن ويا للأسف اختلف النقاد في انكلترا وفي غيرها من بلدان العالم في تحديد الدرجة الممتازة التي وصل إليها هذا الشاعر . فاعتبره البعض أعظم شاعر بزغ نجمه على هذه البسيطة لا في عصره فحسب ، بل في العصور التي سبقته أو تلته . وأنكر البعض الآخر هذا الادعاء وتحاملوا عليه تحاملاً ظاهراً ، معتقدين أن عظمته لا تفوق في أية ناحية من نواحيها عظمة جوتي الألماني ودانتي الايطالي

إن من الصعب أن أبرهن في هذه المجالة على عظمة شكسبير وتبرزه على غيره من شعراء العالم ، ولم أقصد فيها إلا البحث في ناحية واحدة من مناحي تفكيره العميق وخياله المبدع الذي تناول بواسطته جميع نواحي الحياة من عقائد وتقاليد فدونها في شعره ورواياته . نعم كان من الصعب عليه أن يوفق بين عقائده الشخصية وبين عقائد مجتمعه البشري ، ولكنه خرج من هذا الميدان مكللاً بأكاليل من الغار وتيجان من الظفر

لم تكن الخرافات والغيبيات (Supernaturalism) عقيدة راسخة في تفكير شاعرنا ؛ فقد كان دائم الاضطراب والشك في هذه الناحية من مناحي الغموض والخفاء المقلقين . لقد حاول في رواياته أن يبتعد عن العقائد الشائعة العامة ، ولكنه لم يستطع ذلك لتخوفه من الرأي العام السائد في تلك الأيام الرهيبة

عقائده الدينية :

ولد شكسبير سنة ١٥٦٤ إبان الدور الأول من حكم الملكة اليصابات في عصر اشتد فيه النزاع الديني واختلفت فيه العقائد ، حتى أصبحت مصدر شقاء وينبوع استبداد ساد انكلترا قرناً من الزمان . ولنراجع في الفقرات التالية صفحات التاريخ فنرى كيف انتشرت البروتستنتية في انكلترا ، وبأية صورة كان نشوؤها وتطورها

كلنا يعرف أن الملك هنري الثامن أراد طلاق امرأته الاسبانية كاترين لعشقه غادة من غادات البلاط ، كانوا يسمونها (آن بولين) ولم يكن في الامكان في ذلك العصر تحقيق تلك الرغبة الجامحة ، فما وسع هنري إلا أن يحدث نزاعاً اشتد أمره مع رئيس الكنيسة الأعلى وحامي حماها في الشرق والغرب . طغت عليه الروح الاستبدادية روح العظمة والتفوق ، فحدثته نفسه بالانفصال عن كنيسة رومة ، ولم يلبث أن أعلن ذلك الانفصال ونصّب نفسه رئيساً أعلى للكنيسة الانكليزية

ولم تكن هذه الحركة في بدء أمرها إلا حركة سياسية محضة لم يشبها شائب من الدين والعقائد ، ولكن ما لبث أن فارق هنري دنياه ونصّب ولده الطفل أدورد ملكاً على عرش بريطانيا ، فكان له من الأنصار والساعدين نفر اشبعت نفوسهم بروح البروتستنتية فأعلنوا أن الكنيسة الانكليزية قد غدت منفصلة

التي ألقاها في الجامعات الهندية في فلسفة الالهيات إلى اللغة الألمانية

وفي ايطاليا نشر العالم الطلياني الكبير الدكتور اسكاريا الذي زار أفغانستان والهند وقابل الدكتور اقبال مقالات عن شعر اقبال في مجلة أدبية ايطالية

وفي انجلترا ترجم الدكتور نكلسون ديوانه « أسرار الأنانية » وجزءاً من ديوانه « رسالة الشرق » إلى الانجليزية ونشرهما فذاع بهما صيت الدكتور في أمريكا وبلاد أخرى أيضاً ، ونوهت أندية العلم والأدب والجرائد والمجلات العلمية والأدبية بشعره ، وكتب عن « أسرار الأنانية » المرحوم الدكتور براون المستشرق الانجليزي الشهير في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، وأيضاً نوه باقبال وشعره في تصنيفه تاريخ الأدب الفارسي في المجلد الرابع منه

وفي أمريكا صنف العالم الأمريكي الجليل ميكنزي كتاباً أسماه « يقظة الهند » فنوه فيه باقبال وشعره ونظرياته وفلسفته

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

تمام الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ووضعوا كتابين من كتب الصلاة ليقرآ فى الكنائس بدلاً من الكتب القديمة

حركة جريئة أعقبتها فترة إحجام ورد فعل . مات إدورد فتبوأت مارى تيودور العرش ، وكان لتربيتها الكاثوليكية أثر عظيم فى نفسها مالبث أن دفعها للاعلان عن فساد جميع القوانين التى ظهرت فى عهد سلفها ، وعن رجوع الكنيسة الانكليزية إلى الحظيرة الكاثوليكية . ولتحقيق تلك الرغبة فى نفسها سنت قانوناً تحتم فيه على كل قس أوراهب أن يرجع إلى الحظيرة القديمة وإلا كان جزاؤه الموت والعذاب

أخيراً انتقلت تلك الملكة الغاشمة إلى جوار ربها وارتقت اليصابات العرش . ونظراً لروحها الاستقلالية ولميلها إلى الطموح والعظمة لم تلبث أن أعلنت بعد مرور سنة من تسنمها العرش . الانفصال التام عن الكنيسة البابوية وتنصيبها نفسها رئيسة عليا للكنيسة الانجليزية

لو أتيح لنا الاطلاع على كثير من الرسائل الشخصية التى كتبها الشاعر العظيم لأصدقائه وأخدانه لأمكننا الوقوف على عقائده وأفكاره الدينية ، هناك أمور عدة تحملنا على الاعتقاد بأن شكسبير كان رجلاً ديناً خيراً ، ولكن حرية فكره كانت سبباً دائماً فى انشغاله بأسئلة لا حد لها عن الموت والحياة غير متأثر بالعقائد الدينية السائدة فى عصره . كان والده بروتستنتياً متطرفاً ، فلا بدع أن نراه متأثراً أثر والده ، متحاملاً على البابوية والكثلكة أشد التحامل وأقساه . وبرغم هذا التحامل الظاهر فان الكنيسة البابوية ادعته فى كثير من الظروف والأحيان ابناً باراً من أبنائها وعلماً من أبرز أعلامها . واستندوا فى إدعاءاتهم هذه على كثير من البراهين والحجج التى إن لم تكن ضعيفة فى حد ذاتها ، فلا تصل إلى تلك الدرجة من الاقناع التى يتوخونها ويطلبونها

قد نستطيع من دراستنا لروايات هـذا الشاعر أن نحدد العقائد التى كان يؤمن بها . فلقد صوّر فى هذه الروايات عدداً كبيراً من رجال الدين أمثال الراهب فرنسيس والراهب لورنس ، وكان فى كل صورة من أمثال هذه الصور يتوخى التبجيل والاحترام لرجال الأكليروس . إلا أن هذه النظرة وهذا الاحترام لم يتجاوزا طبقة الرهبان إلى طبقة الباوات ؛ فروايته التاريخية التى تتناول سيرة الملك يوحنا (King John) تعد فى حد ذاتها أكثر الروايات تحاملاً على البابوية والكثلكة . وعلى الرغم من ازدياد نفوذ البابوية فى هذه الأيام وتفوقها على السلطة الزمنية نرى عدداً قليلاً من الملوك يضربون بسلطتها عرض الحائط ويحاولون نزع نير العبودية عن عواتقهم ، فكثيراً ما تعرضوا لوكلاء البابا وممثليه وأفحشوا لهم القول غير هيابين ولا وجلين . دعنا نعرض الأقوال الجريئة التى فاه بها الملك يوحنا مجيباً على تدخل البابا فى مسائل سياسية لا تعنيه شيئاً فهو يقول :

هل يمكن لأى رجل دنيوى مهما عات سلطته وارتفعت منزلته أن يعارض إرادة الملوك المقدسة ؟ فليس باستطاعتك أيها الكردينال أن تضطرنى إلى إطاعة رجل حقير لا يسمى إلا الاستهزاء به . اذهب إلى سيدك البابا وأخبره ما أسمعتك من قارص الكلم وزد على ذلك أن ليس لأى قسيس إيطالى أن يتدخل فى المسائل الانكليزية ، ومادمنا بمشيئة الله وإرادته قد وُجدنا رؤساء لهذه الأمة فلنا الحق وحدنا فى السير بها حسبما نشاء ونرغب دون أية مساعدة من إنسان . قل له إن ذلك الاحترام وإن تلك السلطة الغاشمة قد تقاص ظلهما منذ مدة » (1)

وفى خطاب آخر من نفس الرواية يعدد الملك يوحنا المساوئ الكثيرة التى كانت الكنيسة تتصف بها فى هـذه العصور . فالبابا أصبح رجلاً مأجوراً يمكن للملوك أن يستخدموه إذا رشوه بالكثير من الأموال ، فليس من واجب الملوك أن يطيعوا رجلاً كهذا الرجل ، وهذه النظرية تتبين لنا فى مواضع عدة من روايات شكسبير فهو يتخذ من البابا أداة للسخرية والهزء فى رواية تيتس أندرونيكس (Titus Andronicus) إذ يقول :

« إنى لأعلم تمام العلم أنك رجل وفى ورع تحمل بين جنبيك نفساً طاهرة وضميراً حياً ، وأن لك حيلاً تماثل الحيل العديدة التى يتبعها البابا فى بسط نفوذه وجمع ثروته » (2)

يتبع

صبرى حماد

(1) King John . Act . III . Sc. I . 147 — 160
(2) Titus Andronicus V . I . 74 — 78

فن الحيـــاة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة :

إن للانسان فى الحياة نشوة كنشوة الفنان عند الصنع ، أو كنشوة المطلع على الفن عند الاطلاع عليه ، فاذا عدم هذه النشوة صعب عليه أن يسوغ الحياة وأن يلتذها ، ولا يمنع عده الحياة فنا جميلا من تقدها أو الرغبة فى إصلاحها ، كما ينقد المطلع على الفن ما يشاهده من الفن ؛ وكذلك لا تمنع الرغبة فى إصلاح الحياة من النظر إليها كأنها ممثلة حسناء تمثل الخير والشر فلا يكرهها من أجل تمثيلها الشر ، وهذا خير من أن يظل يبكى ويندب لأن نمر الشر الذى فى كل نفس لم يتحول هرة وديعة كالتى تراها فى المنازل ، وهو لو تحول ما تجاوز أصله ولا فصيلته ، إذ النمر والهرة من فصيلة واحدة «الناظم»

أيا حسن هذا العيش لو كان قصة ... يُسَرُّ بها سارى الورى وهو يسمرُ
على ما بها من ضجة بين شقوة ... وكم عاشق للنقص يهوى ويُنكر
فليت الفتى يبدو له صرف عيشه ... كعيش غريبٍ قصةً تُتَدَبَّرُ
ويا رُبَّ مأساة إذا ما بدت له ... تُمَثَّلُ إنْ يحزن لها فهو يصبر
وفى فنها ملهى وحسن وسلوة ... ولولا فنون العيش ما كان يُعْذَر
وان كان رب الناس يقضى اقتتالهم ... فما شأن مثلى وهو أعلى وأقدر
وماقصَّرَت بى رغبةٌ عن محاسن ... أريد لها عيشاً سوى العيش يُقْدَر
حياة كحسناء المسارح شرها ... إذا ما حكته عاد بالفن يبهر
ممثلة حسناء كم مثلت أذى ... وغدراً أجادت فنها وهى تغدر
فما زادها إلا بهاء وحظوةً ... لدى عاشقيها وهى بالفن تأسر
تَمَلَّيْتَهَا لما ولعتَ بفنها ... ولولاه تُزْرِى بالحياة فَتَكْدُرُ
حنانيك إن العيش فن فلا تُرَع ... وان ناب خطب فهو مَحْكَى ومَخْبَر
تُعَانُ بهذا الرأى إن كنت قادراً ... وان أمكن الاصلاح لم تكُ تُقْصِر
يمثل كلٌّ دوره فى حياته ... فإنْ راق فن فهو شأوٌ ومَظْهر
أإنْ نَمِرٌ فى النفس لم يُمْسِ هِرَّةً ... تظل على الاسقام تبكى وتسخر
وما نَمِرٌ عن هِرَّةٍ بِمُبَاعَدٍ ... ويطغى وديعٌ حين يبغى ويقدِرُ

عبد الرحمن شكرى

كأس تفيض

للاستاذ محمود غنيم

لكَ اللهُ لا تشكو ولا تتبرَّمُ ... فؤادكَ فيَّاضٌ وثغركَ مُلجَمُ
يفيض لسانُ المرء إن ضاق صدرُه
ويطفحُ زيتُ الكيل والكيلُ مفعَم
وهل يُطبق العصفورُ فاهُ على الشجى
ويمتلئُ الحاكى فلا يترنَّمُ ؟
تعللتُ دهراً بالمنى فاذا بها ... قواريرُ من مسِّ الصَّبا تتحطَّم
لعمرك ما أدرى على أىِّ منطق ... أُشاهدُ فى مصرَ الحظوظَ تقسَّمُ
حملنا على الأقدار وهى بريئة ... وقلنا : هى الأقدارُ تُعطى وتَحرِم
فمن يكُ ذا قُرْبى وصهرٍ فاننى ... بمصرَ وحيدٌ لا شقيقٌ ولا حَم
فلا غروَ أنى قد سكنتُ بأرضها ... كما سكنت أهرامُها والمقطَّم
وقفت مكانى لا أرِيم وإِخْمَصى
على الشوك من طول السُّرَى تتورّم
كأنى إطارٌ دائرٌ حولَ محور ... يسير بلا بطء ولا يتقدَّم
وما أنا ممن تخطئُ العينُ مثلَه ... ولكن تعامى القومُ عنىَ أو عَمُوا

* * *

أيذوِى شبابى بين جدران قرية ... يباب كأنَّ الصمتَ فيها مخيِّمٌ
أكادُ من الصمت الذى هو شاملى ... إذا حُسِبَ الأحياءُ لم أكُ منهمُ
وعاشرتُ أهليها سنين وإننى ... غريبٌ بأحساسى وروحىَ عنهمُ
يقولون : خضراءُ المرابع نضرَةٌ ... فقلتُ : هبوها لستُ شاةً تسوَّمُ
على رسلِكم إنى أقيمُ بقفرةٍ ... يجوز على الأحياءِ فيها الترحُّم
سئمتُ بها لوناً من العيش واحداً ... فدارِى بها دارى وصحبى همُ همُ
حياةٌ كسطح الماء والماءُ راكدٌ ... فليس بها شىءٌ يَسُرُّ ويُؤلم
وما أبتغى إلا حياةً عنيفةً ... تسرّ فأرضى أو تسوء فأنقِم
حياةٌ كلجِّ البحر والبحرُ زاخرٌ ... تُدوِّى بها الأنواءُ والرعد يهزِم
حياةٌ بها جِدٌّ ولهوٌ ، بها رضاً ... وسُخْطٌ ، لها طعمان : شهدٌ وعلقم
فمن مبلغٌ بنت المعز بأن لى ... فؤاداً عليها كالطيور يحوِّم ؟

وأنى من سبعٍ خلونَ محافظٌ … على العهد إن خان العهودَ متيَّم
فان تجتنى مصرٌ فحسبيَ أنتى … أحُج إليها كلَّ عام وأُحرم

***

حنانيك إنى قد برمتُ بفتيةٍ … أروحُ وأغدو كلَّ يومٍ إليهمُ
صغارٌ نربيهم بمثل عقولهم … ونبنيهمو لكننا نتهـدَّم
لأُوشِكُ أن أرتدَّ طفلاً لطولِ ما … أُمثّل دورَ الطفل بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها وسوف نعيدها … دواليكَ، واللحنُ المكرَّرُ يُسأم
وما كنت أُغنى بالنتيجة طالباً … فصرت بها فى هدأة الليل أحلم
فمن كان يرثى قلبُه لمعذَّبٍ … فأجـدر شخصٍ بالرثاء المعلَّم
على كتفيهِ يبلغُ المجدَ غيرُهُ … فما هو إلا للتسلّق سُلَّمُ
وَدِدْتُ لَوَ أنّى عدت للدرس ناشئاً … أسيرُ وفى يمناى لوحٌ ومِرقم

***

يقولون: منطيقٌ أغرُّ بيانُه … فقلت لهم: لـكنَّ حظّيَ أبكم
أرى الحظ مُنقاداً لـكل مهرِّج … فأما على الأكفاء فهو محرَّم
يفوز به من يقطع السبْل مُلحفاً … ويغشى بيوتَ الناس والناسُ نوَّم
ورُب أمورٍ يخجل الحرّ ذكرُها … وبعضُ الذى يُروَى عن الناس يُكتم
وكائن ترى الحرَّ الأبيّةَ نفسُه … يضيع له حقٌّ وآخرُ يُهضم
فياليتنى أغضيتُ جفنى على القذَى … وعلَّمت نفسى بعضَ ماليس تعلم
فلو أن نفسى طاوعتنى فرضتها … على الهوْن لم أخسَرْ وغيرى يَغنم
ألا فليَسُدْ من شاء حسبيَ أننى … ضَنَنْتُ بماء الوجه حين تكرَّموا
نظمتُ فما أطريت غيرى تزلُّفا … ولـكن لنفسى لا لغيرىَ أنظم
ولم أتغزَّل فى الكرام وفضلهم … وغيرى بهم لا بالكواعبِ مُغرم
وإنى لمغبونٌ إذا صرتُ قيصراً … وطوَّق بالنعماء جيدىَ منعم

(كوم حماده) محمود غنيم

الجامعة الأمريكية والصحافة

تفتتح الجامعة الأمريكية بالقاهرة أبوابها هذا العام عن قسم خاص بالصحافة، على نحو ما تعني به الجامعات الأوربية والأمريكية لاعداد طالب الصحافة اعدادا جامعيا دقيقاً يتناول دراسة اللغات وعلوم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية ونظام الحكومات والتربية المقارنة، وكذلك الفنون المرتبطة بمزاولة العمل الصحفى فى نواحيه جميعاً كالأسلوب، وتحرير المقال، والتصحيح، ومهمة الأخبار، والتبويب وما اليها

وتبدو مهمة الجامعة الأمريكية فى هذا الباب عظيمة الشأن، شأنها فى عديد من أقسامها الأخرى كقسم المعلمين والقسم الاعدادى، واضطلاعها بمسائل الطالب الحيوية واعداده للحياة كما يجب أن يحيا. ولـكن طالب الصحافة الجامعى وعناية الجامعة الأمريكية به وتمثل هذا النوع من التعليم فى مصر أو فى الشرق على وجه العموم يكون له من عظم الشأن ما يجعله فى مركز ممتاز دونه فى المعاهد الأخرى نظراً لاعتبارات خاصة لها من الأهمية هى الأخرى ما لها، لأنه:

أولا: مركز مصر من الشرق فى مقام الزعيمة لا يسمح بأن يدانيها بلد آخر فى مضمار الصحافة أو العناية بدراستها

ثانياً: جعل تعليم الصحافة بنوع خاص فى دائرة حرة بعيداً عن الادارة الحكومية والضغط السياسى

ثالثاً: الشعور السائد الذى يتناوب القراء والصحف، شعور بالحاجة الى توسيع المعارف والمعارف الصحفية وتكثير نسلها

رابعاً: فتح أبواب جديدة أمام طلبة التعليم العالى فى مصر والشرق بعد أن ضاقت بهم صناعات ووظائف أخرى كالمحاماة والطب والهندسة وغيرها

خامساً: تغذية الصحف بعنصر صالح لادارة أعمالها بمهارة ولباقة، فضلاً عن أن الصحف تعتبر أداة هامة فى نشر المعارف وفتق الأذهان وخدمة الوطنية، وملاحظة مثل هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة لما يجعل للجامعة الأمريكية أولاً وأخيراً حق السبق وحق العناية فيما لو فكرت حكومة فى الشرق فى مثل هذا النوع من التعليم، وإن كان ذلك، وإنن، فما هو باليوم البعيد الذى نرى فيه الصحفى الأمريكى يمنى الكلمة أول ثمار الجامعة الأمريكية فى مصر والشرق ما؟

ا. ت

٢٢ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

بين اليهود نشأت ذرية الكهان ، وبينهم هبت ثورة العبيد ، واندلعت نيرانها على المبادئ الأرستقراطية . نقموا على المبادئ القائلة بأن الصالح والشريف والقوى والجميل والسعيد هم الذين تحبهم الآلهة ، وعملوا على دحضها بمنطق قوى . قالوا إن الضعفاء والعجزة والأشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم ... وإن المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون إلى الله ، ولهم وحدهم أعدت مساكن النعيم . أما النبلاء والجبارون الأقوياء فهم الجاحدون القاسون ، وهم فى تلك الدار المخذولون والأشقون

جاءت المسيحية فورثت عن اليهودية هذا الميراث . وأكمل الكاهن المسيحى ما بشر به الكاهن اليهودى . وها غبرت عشرون قرناً وهو الظافر المنتصر . فكان أول مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النفس والارادة الحرة المختارة . وفى الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد ، ولا وجود للارادة الحرة ، وقد تكون إرادة بلا حرية ولا اختيار . وإنما هنالك إرادات قوية تقوم بأعمال ذات قيمة ، وإرادات ضعيفة عملها ضئيل ، آراء كالرعد يقصف ، هى فى الحقيقة فكرة واحدة ترتدى أثواباً مختلفة . فالرعد ليس بشىء ذاتى يقدر على القصف وعلى غير القصف . إنه رعد حين يقصف ؛ كذلك شأن مجموعة القوات المتجلية فى الرجل القوى لا تبدو ولا تظهر إلا بهذه المظاهر . والعقل الشعبى استطاع بوساطة الافتراض الاختيارى أن يفرق بين الكائن والحادث وبين الارادة ومظاهرها ، وافترض أن وراء أعمال البشر ووراء ما تأتيه إرادة القوة كائناً أو نفساً هى علة هذه الأعمال . وهذه النفس هى جوهر حر يظهر كيفما يشاء ، ويعمل كما يشاء . وهذا الذى تمثله « حراً مختاراً » أصبح العبد يساويه بالسيد ، بل يجعله متفوقاً عليه . وهكذا أصبحت قيمة الفرد لا تتوقف على ما يتكون فيه من مجموعة قواته . وبذا زال عندهم تفضيل القوى على الضعيف بفضل منطقهم « لأن القوى يعمل بحسب قواه وهو خاطئ ، لأن عمله بحسب قواه عمل سيئ . والضعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق ، لأن عمله بضعف عمل حسن . فالضعيف إذن هو خير من القوى » ويصف نيتشه وصفاً مؤثراً تلك العوامل التى لجأ إليها العبيد الذين تغلى صدورهم غيظاً وموجدة ، ليحطوا من قدر الأسياد ، وليحولوا أنفسهم الى شهداء وقديسين

هذا هو المثل الأعلى للعبد . فهو يحيا بتلك الدعوات المعزية التى ابتدعها . ولكن أثقال ضعفه الراسية على ظهره لينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ ، فيجئ الكاهن لا ليبرئه من دائه ، ولا ليقطع أسبابه كما يصنع الطبيب . يجئ لينسى الصابر ما يحسه من ألم وشقاء ، وليبث فيه « مواد مخدرة » ترقد الألم ولا تمحوه . يعنى بمريضه ويعطيه مادة تضعف فيه القوة الحيوية والعقلية يأتى الزهد والتقشف والبلاهة فى نفسه وجسده خدراً إلى حين ، فيذهل عن ألمه بل يوشك أن ينفك عن كل إحساس فيه . فيغدو هذا الرجل المنحط « قديساً » ، وقد يحيط الكاهن بالرجل فيجعل منه آلة تستغرق كل انتباهه وتجعل منه شيئاً يتحرك بذاته ، ويصرفه عن التأمل فى نفسه والتفكير فيها ، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يسهل عليه نيلها محبة القريب والمحبة والمساعدة المتبادلة ، ثم يعمل الكاهن على أن يصرف « قطعانه المريضة » عن آلامهم الذاتية

وإزاء هذه العوامل التى اختلقها عوامل أخرى ابتدعها لمصلحته الخاصة . عوامل خطرة مؤثرة ، تنطوى على سموم تنسى المتألم آلامه وتفنى فيه قوته الحيوية . وهذا السم هو « الايمان بالخطيئة »

أما أصل الخطيئة فسببه دافعان ولدا اختياراً فى قلب الانسانية . وهما الضمير الفاسد ، والايمان بدين مكتوب على الانسان لله . والضمير الفاسد – عند نيتشه – هو نتيجة تشويش فى النفس عميق . تسيطر على الانسان يوم كان وحشاً ممتزلاً ، ثم انقلب عضواً رئيسياً فى قطيع الأحياء ، والحكومة هل هى

إلا – كما يحتمل الذهن – ظلم مرعب فرضه الأقوياء على الضعفاء ، وفجأة وجد المغلوبون على أمرهم أن أسباب الوجود عندهم مقلوبة رأساً على عقب ، وألفوا أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يتبعوا بحرية واختيار تلك الغريزة الطبيعية التى كانت تسوقهم . فظلوا يبذلون جهودهم بينهم وبين أنفسهم ليقودوا أنفسهم بفطنة ، ويضغطون على إرادتهم خشية أن تجازف بالاساءة إلى الأسياد ، ويعملون بتعقل وتأمل . ولكن هذه الغرائز هى جزء من قوة لابد لها أن تبدو مظاهرها وآثارها . فاذا كتب على هذه القوة أن يضغط عليها حينا حتى لا تخرج عن نفسها بأى دافع ما ، فهى ولا بد مستحيلة إلى قوة خفية تعمل عملها فى الباطن . وبمثل هذا التبدل وعلى مثل هذا التحول وُلد « الضمير الفاسد » . فهو وليد هذا الضغط الباطنى الذى تصير عليه الغريزة الطبيعية فى الانسان . وهو كالوحش السجين الذى عضته الوحشة ونازعه حنينه إلى العرين والحرية والصحراء ، ينهش جسمه بين قضبان القفص . كذلك الانسان الابتدائى الأهلى السجين يتألم بنفسه ، وغريزة الحياة الكامنة فيه المقيدة بمظاهرها الخارجية أمست تبدو بحالة هيجان باطنى

وفكرة الدّين المكتوب لله على الانسان هى فكرة قديمة مترددة فى الشرائع القديمة . ففى العصور الأولى كانت كل قبيلة تؤمن بأنها مدينة بخيراتها الحاضرة للذريات السابقة . وأن الأجداد الذين قضوا يصيرون بعد الموت أرواحاً قوية تتابع تأثيرها فى الأحياء وتواصل إحسانها اليهم . ولكن كل إحسان لابد أن يُبذَل ثمنه . وهكذا تولد فى عقول الناس أنهم مدينون بشىء لآبائهم وأجدادهم . وهم مضطرون إلى تقديم الضحايا لهم جزاء ووفاقاً على دفعهم للأذى والضر عنهم . ومن هنا نشأت عبادة الأجداد فى فجر كل مدنية ، ثم تطورت هذه العبادة قليلاً قليلاً . فالاحترام الذى كان يكنه الانسان لأجداده جميعاً ماثىٌ ينقبض حتى ارتكز فى الجد الأصلى للسلالة ، ثم نزل هذا الجد بدوره منزلة الآله . وكلما كان الآله قوياً مخيفاً كان شعبه الذى يجله ويعبده أكثر فلاحاً وتقدماً ، وفى الظروف التى تنمو فيها عظمة الآله ينمو أيضاً الشعور بذلك الدين المفروض فى سبيل احترامه وتزداد خشية الانسان من قصوره فى العمل لربه .

وبوساطة هذا المنطق ألفينا أن عاطفة خضوع الانسان لله بلغت الدرجة القصوى يوم ظفر إله المسيحية بالأوثان . ودانت له الأرباب وعسكر فى مناطق بارزة من أوروبا . فآمن الانسان إذ ذاك بأن الدين قد تضخم . حتى أصبح أجل من أن يُوفَى . وجد نفسه أنه مَدين عاجز لا يملك شيئاً والدائن هو الله . فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع . والانسان فى شدته هذه يجرى عن وسائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدّين الثقيل . فلام الانسان الأول الذى استحق لعنة الآله . فابتدع « الخطيئة الأصلية » وجرم الطبيعة ، وأنكر الغرائز الكامنة فيه ، ونظر إليها كجرائم شر وشقاء ، ولعن الوجود نفسه . وجعل رجاءه كله فى العدم وفى حياة ثانية . وفى النهاية أعطى المسألة التى ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب ، إن الدين المفروض على الانسان من قبل الله هو دين لن يقدر على أدائه الانسان ، والآله وحده بقى عن الآله . فوجد الآله أن يضحى بنفسه فى سبيل حبه للانسان واستنقاذه من دين مكتوب عليه . فتمثل إنساناً وقرّب نفسه قرباناً . وبهذا الفضل الذى أدّاه اشترى نفوس الذين يراهم جديرين برحمته ورأفته

يتبع

خليل هنداوى

الليسيه فرنسيه

القسم المصرى

إجابة لرغبة العائلات المصرية الكريمة قررت إدارة الليسيه إنشاء قسم مصرى ممتاز تدرس فيه جميع مواد الثقافة العربية والثقافة الفرنسية بطريقة تمكن التلميذ المجتهد من الحصول على البكالوريا المصرية والبكالوريا الفرنسية فى وقت واحد وتفتح أمامه أبواب الجامعة المصرية وأبواب جامعة باريس

وقد أعدت الليسيه جميع المعدات لهذا القسم المصرى الممتاز وستبدأ الدراسة فى أول أكتوبر ويستطيع آباء التلاميذ أن يطلبوا ما يهمهم من البيانات منذ الآن من جناب مدير الليسيه من ١٠ – ١٢ صباحاً ومن ٥ – ٧ مساء بمكتبه فى الليسيه بشارع الحوايانى رقم ٤

القصص

صور من هوميروس

٧ – حروب طروادة

الفدائى الأول

للأستاذ درينى خشبة

رَوِيَت الآلهة إذن وشفت ما فى أنفسها من ظمأ إلى دماء الضحايا ، وإن لم تعفر لديانا البارة ، ديانا ربة القمر ، انقاذها للفتاة التعسة إفجنيا ، وهى على قاب قوسين من خناجر الكهنة والربّيين القُساة

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزى المتدفق فى عروق عُبّادها المخلصين من أبناء هيلاس ؛ فلما ذهب كالخاس ، عرّاف الحلة ، يستوحى أربابه فى معبد دلفى هل لها مطالب آخر فى ضحية أو قربان بعد تقدمة إفجنيا ، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإلـه الأكبر يقول : « لا . . . . ولكم أن تقلعوا اليوم . . . . فإذا كنتم عند شطئان طروادة ، فإن لنا دم الفارس الأول الذى تطأ قدماه رمال الشاطئ . . . سيقتل ، وسيكون لنا عِوَض من إفجنيا ! »

***

ودعا إليه أبناءه (١) ايولوس رب الرياح الست فأمرهم أن يكونوا جميعاً فى خدمة الأسطول الهيـلانى ، حتى يصل إلى طروادة . . . . « وأنا أعرفك يا بوريس حين تعصف وتزف ، وتصبح ويلا على الجوارى أى ويل ؛ وأنت يا كوروس ، إياك وهذه البوارح التى تصلى بها سفائن القوم ، وأنت يا أكويلو ؛ وأنت أيضاً يا نيتوس ، إن ريحك مُجْفِل ، وهبّتك هوجاء ، ولفحاتك حرور ، وأنفاسك سموم ، فإن لم تترفق بالقوم ، وتجر بين أيديهم رخاء ، فلأسجننك فى الكهف الأسود حتى حين ، أما أنت يا ولدى إيوروس ، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك أو يسوء فألهم فيك ؛ بل كن لهم خادماً أميناً ، تدفع ركبهم فى رفق ، وتملأ شراعهم فى أناة . . . . ويسرنى أن تسمعوا النصيحة زفيروس ، فهو ألينكم عريكة ، وأكثركم صفاء . . . ألقوا إليه بزمامكم ، ولا تختلفوا فى أمر يلقيه إليكم ، أصلح لكم زيوس أحوالكم . . . . »

وهبت الريح تخفقت أفئدة العسكر ، وابتهجت أنفس القادة ، واجتمع الميرميدون حول أخيل يترضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم ، ثم انتشرت الشراع ورُفعت المراسى ، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللجىّ ، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء فى خضرتين ، ومن دروع الجند وزبد الموج فى لبدتين ، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطئ الشاحب فى بحر من الآمال !

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره ، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس ، يُخففن الوشائح السوداء التى ادخرنها لأيام الفصل ، إن أيام الفصل كانت ميقاتاً

وتوارت الشمس بالحجاب ، وبزغ القمر يفضض حواشى الماء ، وحملقت النجوم ترى إلى هذا الأسطول اللجب يمخر عباباً من خلفه عباب ، ويطوى لجة من ورائها لجة ، والملاحون دائبون مايئنون ، مرسلين فى اللانهاية ألحانهم ، مرددة الرياح أغانيهم وأنغامهم ؛ والقادة متكبكبون حول القائد الأعلى ، حول أجاممنون ، يدرسون تلك الخطة ، وينقدون هذه الفكرة ، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز

---

(١) (Æolus) رب الرياح فى الميثولوجيا اليونانية ، وقد تزوج من أورورا فأنجبت له أبناءه الستة : ١ — بوريس رب الريح الشمالية ، ٢ — كوروس رب الريح الشمالية الغربية ٣ — أكويلو رب الريح الغربية ٤ — نيتوس رب الجنوبية الغربية ٥ — ايوروس رب الريح الشرقية ٦ — ثم زفيروس رب النسيم الجنوبى (عن هـ . ا . جربر ص ١٨٤)

وتنفس صبح اليوم الثالث . . .

وبدت طروادة العاتية فى الأفق الشرقى ، متشحة بالشفق النحاسى ، الذى صبغ سماءها بالبنفسج الرائع ، تتفجر منه أنهار من الدم ! !

طروادة !

ذات الأبراج المشيدة ، والقباب المنيفة !

إليوم ! ! (١)

بَنِيّةُ (٢) نبتيون إله البحار يوم نفاه زيوس من جنة الأولمب ، ونفى معه أبوللو ، فساعده فى بنائها عوسيقاه ! !

يا ما أروعه منظراً أن ترى إلى أبوللو العظيم يعزف على قيثارته المُرِنّة ، فتثب الحجارة وتتراقص ، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم ! !

طروادة ياذات الحول !

أين تنام هيلين الساعة سالمة حالمة ، وأيان تتقلب ربّة فينوس ملء ذراعى باريس ! !

ويحك يا منالايوس !

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة ، يتمنى لو تندك على العاشقين الآثمين ! !

« . . . أهو الآن يقبلها ، ويجنى جنا خديها بفمه النهم المشتعل ؟ أم هو يضمها إليه فى عنف ، غير آبه لقلبى الخافق المضطرب ! . . . . . . »

منالايوس ! لا بد مما ليس منه بد . . .

***

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يستعدّون ويستمدّون جيرانهم فنصروهم ولبوا نداءهم ، وهرعوا إليهم من كل فج عميق ، وها هى مشارف الجبال وقننها وسفوحها ، ونتوء الشاطىء وصخوره ومغاوره ، وها هى ليديا المتيقظة ، وإبوليا المتحفزة ، وإيونيا الرابضة (٣) . . . ها هى البلاد جميعاً تضج بالجند ، وتعج بالسلاح ، وتقعقع بآلة الحرب ، وتدق طبول الوغى ، وتذكى نيران الحراسة فى قمم الجبال ، فلا تغفل عين ولا تهمد همة ، ولا يتسرب إلى النفوس كلال

واقترب الأسطول من الشاطئ . . .

ولكن أحداً لم يجسر أن يجازف بنفسه ، لأن القتيل الأول ، هو أول من يهبط إلى الأرض ، كما أخبرت النبوءة فى معبد دلفى !

ومرت أيام : والهيلانيون فى سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها ، ويتحرقون شوقاً إلى لقاء جنودها ، ومنالايوس يحرق الأرّم هو الآخر ؛ ولكن أحداً لا يرضى أن يكون الفدائى الأول . . . « لأنى إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوماً على ، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل ، وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قرباناً الآلهة ، ولكن لأزاحم وأنافح وأصول ، فان قتلت بعدها ، فبعشرات وعشرات ، لا كما يقتل كلاب البرية غير مفدى . . . »

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانياً مقاحماً ، هيلانياً واحداً ، من خيرة القادة ومذاويدهم ، عز عليه ألا يكون فى هذا الجيش العرمرم ، على ما جمع من صناديد اليونان ومغاويرهم ، فدائىٌ واحد يتلقى الطعنة الأولى النجلاء ، بثغر باسم ، وقلب لا يجزع ، ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع فى موقف الموت ، ولا تفرق إذا حُمّ القضاء !

كبر على بروتسيلوس أن يرى قومه يجبن ليست لهم يد فيه ، وكبر عليـــه أن يقف ألف ألف لو شاءوا دكوا الجبال وزلزلوا السماوات ، من دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون ، كأنما حربهم هزل ، ونفيرهم مُكاء ، وعزمهم تافيق . أو كأنما ملأوا الدنيا وعيدا لتمتلئ الدنيا عليهم سخرية وضحكا !

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف ، فارتخص نفسه ، وهانت عليه الحياة ، وتفهت فى عينيه لذائذ هذا العيش الذليل ؛ ثم استخار أربابه ، واستماذ بسيد الأولمب ، وما هو إلا أن لمح الشمس يذر قرنها فى خِدْر الشرق ، فوق جبين طروادة ، حتى قذف بنفسه على الشاطئ ، وأرسل فى الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد عيد به جانب الجبل ، وتهتز من قصفه أسوار المدينة ؛ ثم جال جولة هنا وجولة هناك ، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان ، وإذا هو ملق على أديم الثرى مضرجاً بدمه ، معفر الجبين بأول نقع الوغى

(١) (Ilium) هى طروادة أيضاً ، ومن هذا الاسم اشتق هوميروس كلمة (الإلياذة) لملحمته الخالدة (Iliad) . وعلى ذكر الألياذة ننبه القارئ إلى أننا — حتى هذا الفصل — لم نصل اليها ؛ وسنشير إلى ذلك فى حينه

(٢) إشارة إلى أن نبتيون هو الذى بناها

(٣) هذه أقاليم قديمة فى غرب الأناضول مما يجاور طروادة براً وبحراً

رحلة من الدار الآخرة

وذاع خبر مقتله حتى انتهى الى تساليا ، حيث زوجته المفجّعة ، فحزنت عليه حزناً أمض قلبها ، وشفّ جسمها ، وأقض مضجعها ، وصيّر الحياة فى عينها حالكاً شديداً وظلاماً قاتماً ؛ . . . . « پرتسيلوس ! أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شىء فى ميدان المجد والشرف ، ونسيت فيه كل شىء ؟ أهكذا ياحبيبي ذكرت التضحية والأقدام حين تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والأقدام ، فغامرت بنفسك فى هذا المعترك المضطرب ، ونسيت أن وراءك قلباً ينعقد رجاؤه بك ، ونفساً ترف من خلف البحار فوقك ، وروحاً لا سكن لها إلا صدرك الحنون ، وعينين لا يعرفان جمال الحياة إلا فى وجهك المشرق ، وأذنين ما التذتا إلا الموسيقى المنسكبة من فمك ! ! پرتسيلوس ! ماقيمة الحياة بعدك ياحبيبي ! من لزوجتك التاعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن ؟ من للمحزونة الكاسفة لاؤوداميا ؟ ما أشق الحياة علىّ بعدك يا رَجُلى ومن كنت كل شىء لى !

لا أسخط عليكم يا أربابي !

بل أنا أصلى لكم ! أصلى لكم بدموعى وقلبي ! أصلى لكم بأحشائى التى تتمزق ، ورأسي الذى يحترق ! أصلى لكم بلسانى الذى يجف من شَرَق فى حَلْقى ، وكان حديث پرتسيلوس يُرطّبه ويندّيه ! أصلى لكم يا أرباب الأولمپ عسى أن تلين قلوبكم لى ، فأرى حبيبي وأموت ! !

رجيّة يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمپ ! إما أن أقضى فأستريح من هذا الكمد الممض ، والبثّ المؤلم ، وإما أن تأذنوا فيعود پرتسيلوس ، فأراه وأموت !

أتمنى عليكم أن يعود فأكلمه ... أملأ أذنى وقلبي من موسيقاه ! أناديه باسمه وينادينى باسمى ! يعانقنى وأعانقه ! يرى الى عبراتى وأنظر الى عبراته ! يبتسم لى فى رضاه وفرحه ، وأبتسم له فى انكسارى ولوعتى !

إئذنوا يا أرباب الأولمپ ، فأنا ما أفتأ أصلى لكم ، وأتوسل إليكم بدمه الزكى ، وروحه الأبى ، وقلبه الكبير !

إرحموا ذلى ، ورقوا لهوانى ، وارثوا لحالى ! . . . . . »

* * *

وصيّرت بنواحها إشراق الصباح ظُلمةً من الحزن لا أول لها ولا آخر ؛ وأرسلت فى الليل البهيم أنّاتها المؤلمة ، وزفراتها الحارة ؛ ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة ، حتى ارتجفت قواعد الأولمپ ، واهتزت عروشه الذهبية ، وانعقدت بينه وبين لاؤوداميا قنطرة من الحزن ، عبرت عليها بركات الآلهة الى فؤادها المكلوم ، فمسحت عبراتها ، وهدّأت من روعها ، وبشرتها بعودة پرتسيلوس !

وفى هدأة ليلة مقمرة ، سكن هواؤها وصدح بلبلها ، وأنشد البدر لحنه الصافى على أراده الفضية ليغمرها بهاءً وروعة ، خرجت لاؤوداميا المحزونة من قصرها المنيف ، لتلقى روح پرتسيلوس يهدهده هرمز الكريم بين يديه ، حتى يكون تلقاء زوجه ، فترتمى بين ذراعيه !

ويغرقان فى طوفان من القبل !

ويغرقان فى لجة من العبرات !

ويقص عليها پرتسيلوس أنباء مقتله ... فتبكى ... وتبكى ... وتعاتبه لاؤوداميا . . . وتعذله . . . ولكن الساعات الثلاثة التى سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كاللمح . . . فينبههما هرمز الى انقضائها ... وماتكاد تسمع نذير هرمز ، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه الى هيدز ، فيظل فيها الى الأبد ، حتى تصعق مكانها ، وتخر مغشياً عليها . . . وتموت !

فوا رحمتاً للزوجين السعيدين

(لها بقية) دريني خشبة

الباقي على قيد الحياة

للقصصي الفرنسي بلزاك

ترجمة حسن محمد حبشي

حين دقّت ساعة مدينة (مندا) الصغيرة مؤذنة بانتصاف الليل، كان ضابط فرنسي شاب متكئاً على حافة سياج طويل يحيط بالقلعة، غارقاً في لجة التفكير العميق، وذلك أمر غير مألوف بالنسبة لما يحيط به، ولكنه كان منصرفاً عن كل ما هو فيه من وقت وليل ومكان إلى التفكير القويّ، وكانت سماء أسبانيا الجميلة تمتد في زرقة صافية فوق رأسه، قد رُصِّعَتْ بالنجوم اللألاءة، وضوء القمر الساطع ينير هذا الوادي الجميل الممتد تحت قدميه، وهو يشرف على مدينة (مندا) ويعلوها مائة قدم؛ وكأن الطبيعة قد هيأتها هكذا لتكون في مأمن من رياح الشمال الآتية من هذه الصخرة الكبيرة التي تقوم عليها القلعة، وإذ أدار الضابط رأسه، أبصر البحر يكتنف البلدة بأمواهه الفضية، وكأنه قد استحال إلى قطعة من اللجين الذائب، وكأن القلعة كوكب أو جوهر ضوء وهاج، وكان وهو في مكانه، يسمع صدى رنات الموسيقى، وعربدة الضباط في الحفلة الراقصة، وقد اختلط ذلك بهمهمة الأمواج الآتية من بُعد، وكأن نسيم البحر والليل جددا نشاطه المنهوك، زد على ذلك ما حوله من حدائق فيحاء، وزهور عطرية الشذا، نفاحة الأريج، فكأنه مغموس في حمام من العطر الزكي

وكانت قلعة (مندا) في حوزة شريف إسباني، اتخذها وأسرته دار إقامة، وكانت ابنته الكبرى (كلارا) الجميلة ترمق الضابط الفرنسي الشاب بنظرات مبهمة، وإن كانت تنم عن حزن عميق

وكانت كلارا هذه فتاة رائعة الحسن، فوقع جمالها في قلب الضابط الفرنسي موقع الماء من ذي الغلة الصادي، فوقف واجماً يفكر في هذا الجمال، وبالرغم من أن ثروة أبيها كانت طائلة، وموزعة بينها وبين إخوتها الثلاثة وأختيها، فقد رأى فكتور مارشاند (الضابط) أن فيها الكفاية لأن تكون الدوطة كبيرة، ولكن كيف يتسنى له أن يخطب يد (كلارا) ابنة الشريف الاسباني، وهو ابن تاجر صغير في باريس، أضف إلى ذلك ما بين الأسبان والفرنسيس من إحن.

وكان الجنرال (ج) قد علم من مصدر سري أن المركيز يحاول أن يوقد مشعل الثورة لنصرة فردناند السابع، ولذا أرسل مرشاند ليعسكر في مدينة (مندا) حتى يكون على علم تام عما ينويه الثوّار، ولكي يخمد أي حركة يقومون بها ضد الفرنسيس، وفي ذلك الوقت وصلت إشارة بأن المركيز يتصل سراً بالادارة الانكليزية في لندن، وليس من البعيد أن يرسل الانكليز مدداً؛ ومما حير لب فكتور مارشاند أن المركيز قد استقبله وعائلته استقبالاً لا يدل إلا على منتهى الهدوء؛ ووقع بين أمرين، إذ كيف يوفق بين هذا الهدوء الذي يتجلى في المركيز وأعماله، وبين إشارة الجنرال من وجود مفاوضات سرية؟ ولكن سرعان ما تلاشت هذه الخواطر من ذاكرته، حينما مدّ بصره إلى الأمام، فأبصر عدة مصابيح مضاءة في المدينة، مع أنه أصدر أمره، بأن تطفأ الأنوار كلها في ساعة معينة، على رغم أن الليلة ليلة عيد ميلاد القديس سنت جون، ولم يسمح بالانارة إلا للقصر فحسب، ومما أحال الشك يقيناً عنده، وبأن هناك يداً تعمل في الخفاء أن رأى ساريات عدة مراكب وسط مياه البحر، تحت أضواء القمر الفضية. وبينما هو سابح في تيار التفكير العميق إذ سمع وقع أقدام خلفه، ولما تبينها وجد أحد رجاله يلهث، وحين رآه قال له:

ـ أهو أنت يا سيدي الضابط؟

ـ نعم هو أنا... ماذا تريد؟

ـ إن هؤلاء الوحوش يزحفون زحف الديدان

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد رأيت رجلاً يخرج من القصر وفي يده مصباح مضاء، وهذا مما أثار الشك في نفسي، وبعثني على أن أقتفي آثاره، وأظل قريباً منه جهد ما أمكنني؛ أجل! قد يكون مسيحياً محافظاً على التقاليد، غير أن الحالة التي هو فيها، ومخالفة أمرك، كل ذلك مما يجعل الشك يحوك في نفسي. وثم أمر آخر يا سيدي الضابط، ذلك أني اكتشفت على قيد خطوات منك، عرمة من الحطب

ولم يكد الجندى يصل إلى هذا الحد من الكلام حتى دوت فى المكان صرخة صدعت السكون العميق ، وانفجرت قنبلة أودت شظية منها بالجندى لساعته ، واندلع لهيب النيران على بعد عشر خطوات فحسب ، من الضابط الذى أسقط فى يده ، وتبين له أن فى الأمر دسيسة ، وأن الثوار قد تأهبوا للفتك بالأعداء ، واضطرب فى مكانه ، إذ لم يكن معه حسامه ؛ وها هو ذا يرى رجاله وقد تردوا فى ساحة المدينة ، وصمتت الوسيق ، وتلاشت ضحكات الضباط ، ومر على مخيلته ما سيلاقيه – إذا هو ظل حياً – من محاكمة وإهانة . فلم يجد أمامه من وسيلة للنجاة إلا أن يلقى بنفسه فى سفح هذا الوادى ، حيث يتحطم جسمه على صخوره الجاثمة هناك :

وإذ كان على أهبة تنفيذ ما اعتزم ، أحس يداً أعاقته عما هو قادم عليه ، فاشرأب إلى صاحبها ، فاذا به (كلارا) تهيب به ، أن أسرع فان إخوتى على آثارى قادمون .... للفتك ... بك ؛ وامض إلى الصخرة القائمة عند سفح التل ، وستجد حصان أخى (جوانيتو) فامتطه ولا تتريث لحظة ، وإلا فقدت حياتك

فحدق الفتى فيها دقيقة ، وقد فاضت نفسه بالدهشة ، ولكنه تنبه أخيراً ، إذ ثارت فى نفسه غريزة حب الحياة ، تلك الغريزة التى تتمثل فى الجميع على السواء ، فى حيوان أو إنسان ، وحمل اليه الريح صدى صوت (كلارا) تهيب بأخوتها ، ألا يتريثوا فى اقتفاء آثاره ، كما سمع وقع حوافر دوابهم تسابق الريح ، وهم على صهواتها يرسلون عليه وابلاً من الرصاص الذى كان يمر بجانب رأسه ، ولم يتمهل هو الآخر لحظة فى الطريق بل أسرع بالجواد ، وبعد بضع ساعات كان فى حضرة الجنرال ، وكان فى ثلة من إخوانه يتناولون طعامهم ، فارتمى أمامه قائلاً :

– « مولاى . إن حياتى بين يديك ، افعل بها ما تشاء ؟ »

ثم أخذ يقص على الجنرال قصته ، فاذا الجميع ينصتون اليه وكأن على رءوسهم الطير ، على وجوههم غبرة ، ترهقها قترة ، وألجم الخبر أفواههم ، وجعلهم آذاناً فحسب ، فلما أتمها قال له القائد العام:

– « يا هذا إنى أراك سيء الحظ ، أكثر من أن تكون مذنباً ، لا تثريب عليك ، وإنى لأبرئ ساحتك ، إلا إذا رأى المرشال غير هذا »

فسأله الضابط : « وإذا سمع الامبراطور بالحادثة ! ؟ »

فأجابه الجنرال : « سيكون القتل نصيبك ، ولكن دعنا الآن من هذا ، وهيا ندبر خطة ننتقم بها من هؤلاء الأوغاد ، أوشاب الانسانية ، لابد أن يكون الثأر شديداً ، حتى نخمد فى نفوسهم الوحشية والدناءة »

وفى ساعة من الزمن ، شدت فرقة من الجند رحالها ، على رأسها الجنرال ، بصحبة الضابط فكتور ، وإذ علم الجنود مصير زملائهم الذين أخذوا على غرة ، ثارت فى عروقهم دماء الانتقام واستحالوا شعلة تتأجج لحرق الاسبان ، وأقسموا أن ينتقموا لاخوانهم أشد انتقام ، وسرعان ماقطعوا المسافة بين مدينة مندا ، وبين مركز القيادة العليا

ورأى الاسبان أنفسهم محاصرين ، وعلموا أن الجنرال لا يتردد لحظة فى الفتك بأهل المدينة ، لا تأخذه فى ذلك شفقة ولا رحمة ، فبعثوا اليه رسل المهادنة ، ورضى هو أن يسلم كل من فى القصر أنفسهم اليه ، من أحقر الخدم الى المركيز نفسه ، واتخذ القصر مركزاً للقيادة ؛ وأمر بكل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وخدمها أن يقيد ، ونكل بالثوار أشد تنكيل ، ولم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ، بل ثارت فيه غريزته الوحشية ، وبينما هو فى مجلس من رجاله إذ أقبل عليه فكتور مارشاند ، وقال له :

– أسألك يا مولاى أن تجيب لى طلباً ، هو أن المركيز يرجوك أن تفرق بين الأشراف والعامة ، وذلك بأن تطيح رقابهم بيد الجلاد لا بالشنقة ، وأن تفك قيودهم التى كبلوا بها ، وان يحاولوا الهرب ، وذلك عهد قد قطعوه على أنفسهم ، وإنه ليتخلى لك عن جميع أملاكه وأمواله إذا عفوت عن أحد أبنائه ووهبته الحياة

فقال الجنرال : إن أمواله قد أصبحت تبعاً للملك جوزيف ، ولكنى سأهبه ما طلب ، وإن كنت أعرف علة رجائه ، فى أن يبقى اسم الأسرة ، ببقاء أحد أفرادها ؛ سأهبه ذلك ، لمن يرضى أن يكون جلادهم ، ويطيح برقابهم ، والآن لا تذكر لى شيئاً عنهم ألبتة

***

اجتمع الضباط فى الحجرة التالية يتناولون غداءهم ، وكانوا فى نهم شديد إثر ما كابدوه من نصب وتعب ، فأقبلوا على الطعام كالوحوش الضارية قد أنشبت مخالبها فى فريسة دسمة بعد طول سغب ، وتفقدوا الضابط فكتور ، فلم يجدوه بينهم ،

ذلك لأنه مضى إلى الحجرة التي فيها عائلة المركيز وآلمه أن يرى سادة الأمس مقيدين كالعبيد ، قد ارتسمت على وجوههم دلائل الأسى الشديد ، واللوعة المرة ؛ وأى لوعة أشد على النفس من أن يرى المرء عبدا حقيرا يتحكم فيه وهو السيد الحاكم ؟ وسرت رعشة فى جسد الضابط حين فكر فى هذه الرءوس الجميلة ، وانها ستهوى على أقدام الجلاد مصبوغة بالدماء ، وكأنما هم كانوا يفكرون فى هذا الأمر نفسه ، فقد بعثروا حولهم تنهدات الألم والحزن التى ملأت جو الغرفة ، وإذ أبصروا فكتور يدخل حجرتهم اشرأبت أعناقهم ، طمعاً فى أن يكون حاملا اليهم بشرى العفو ، فأمر الجند أن يفكوا قيود السادة ، ومضى هو بنفسه يحل وثاق (كلارا) فقابلته على صنيعه هذا بابتسامة اغتصبتها اغتصاباً ، ومس فى رفق ذراعها البضة الناعمة ، وأعجبته خصلات شعرها الفاحم ، المتهدل على جبينها الوضاء ، وفتنة قدها المشوق الجميل ، وخصرها الأهيف ، فسألته هل نجح فى مهمته ، فهمهم همهمة حزينة ، وجال ببصره فى وجهها ووجه اخوتها الثلاثة ، وكان (جوانيتو) أكبر الأبناء يبلغ من العمر ثلاثين عاماً ، وأخوه (فيلب) عشرين ربيعاً ، وكان (عمانويل) يبلغ ثمانية أعوام ، ذا أنف رومانى وطلعة جميلة ؛ ثم جمع أطراف شجاعته ، وأخبرها برأى الجنرال ، فسرت رعدة الرهبة فى أوصالها ، ولكنها تشجعت ومضت تخبر أباها بما أمره اليها فكتور ، وزادت عليه قولها : — أبى عليك أن تأمر (جوانيتو) وعليه أن يصدع بأمرك اذا كان مخلصاً لك ، ففى طاعته اياك ، وتلبيته لرغبتك اسـادنا ! فلما سمعت الأم ذلك ، أحست بالأمل يعاودها ، وظنت أن نجاتهم أصبحت قاب قوسين ، وماعلمت أن المركيز إذ ذاك يطلب من ولده أمراً ، تنهد له الجبال هدّاً ، واذ تبينت حقيقة الأمر والطلب ارتدت الى الوراء ، تعلوها صـفرة اليأس ، وعرف جوانيتو السر فثارت دماء الغضب حارة فى عروقه ، وهب ثائراً كالأسد ، قد ألفى نفسه أسير قفص من الحديد ، بعد أن كان يطأ الثرى ، فى زهو الأمير ، ويرى الغابة كلها تكاد تضيق عن خطى أقدامه ، ولكن الأب هدأ كل ذلك ، بأن قال : « جوانيتو »

فكانت إجابة جوانيتو هزة الرفض من رأسه ، وارتمى خائراً على مقعده ، يصعد ناظريه فى أبويه ، وقد تجلت الدهشة والأسى والغضب فى عينيه الحائرتين ، فلما رأت (كلارا) إصرار أخيها على الرفض ، تركت مكانها الى حيث جوانيتو ، وطوقت عنقه بذراعيها الغضتين ، وجثت أمامه وقبلته فى عينيه قائلة :

ـ « أى جوانيتو : يا أعز ما أملك ، آه ! . . . ما ألذ الموت إذا كان من يدك ! . . . إنك لا تدرى حلاوته . . . كما أشعر بها الآن . . . أنقذنى . . يا جوانيتو . . من يدى السفاح . . الملوث اليدين . . . حتى لا يقال . . . إن جلاداً حقيراً . . . أطاح رقاب العائلة الحاكمة . . وأنقذنى من بين براثنه . . وبراثن رجل آخر »

ثم نظرت شزرا الى فكتور ، نظرت اليه نظرة تفيض حقداً وكراهية واحتقاراً ، وكأنها بذلك تثير فى نفس أخيها الحقارة للفرنسيس ، وتشعل الضغينة فى نفسه عليهم ، . . . ثم قال له أخوه فيليب متوسلاً : « كن شجاعاً صنديداً وإلا محوت عائلتنا الشريفة من العالم »

وأمره الأب ، فلم يلب طلبه ، فجثا أمامه ، هو وإخوته جميعاً ورفعوا أكفهم مُتوَسِّلين اليه أن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، وأن ينقذ اسم العائلة من أن يدنس ، وعرف الأب من أين تؤكل الكتف ، فأهاب به قائلاً : « أى بنىّ . أغادَرَتْكَ شجاعةُ الاسبانى ، وإحساسه الشريف ؟ أأجثو أمامك . . . وأتوسل اليك . . . ولا ترد طلبى إلا خائباً ؟ أتفكر فى ألمك فحسب . . ولا تزنه بآلامنا جميعاً . . إذا أصررت على المكابرة » ثم التفت الى زوجته قائلا : أهذا ولدى يا زوجتى ؟

فصاحت به الأم فى يأس : «سيلبى طلبك . . أيها المركيز!!»

ولمحت جبين جوانيتو ينعقد أكثر ، وتبينت أنه يألم لها أكثر من الجميع ، وحينذاك كانت الثانية «ماركينا» قد تعلقت بأطراف ذيل أمها ، بقبضتيها الضعيفتين ، وأخذت تذرف الدموع ، فلما شاهدها « فيليب » انتهرها ولامها ، وإذ ذاك دخل الحجرة كاهن المدينـة ، فالتفوا حوله كصغار الطير ، ومضوا به الى جوانيتو الصامت ، فلم يستطع مرشاند ، أن يرى هذا المنظر الأليم ، فبارح الغرفة الى حيث اجتمع الجنرال مع بعض قواده يجرعون الخمر ، وقد أصدر أمره باحضار فرقة من الجند تذب الناس عن أن يقربوا من جثث الخدم المشنوقين ، مدلاة أمام أعين السابلة ، ووقف الجلاد بهيئته المفزعة ليحل مكان جوانيتو إذا خانته شجاعته ، ولم يستطع أن يقوم بتنفيـذ

ما عهد اليـه ، وصدع هذا السكون الضارب أطنابه على المكان وقع أقدام عائلة المركيز ، يحيط بهم الجند مشهرين سيوفهم ، يلمع فى ظباها الردى ، ولم تفارق الهيبـة أفراد الأسرة ، وكانوا يتقدمون الى حيث النطع ممـدود فى خطوات هادئة ، لا أثر للخوف أو الاضطراب فيهـا ، غير أن أحدهم قد علتـه صفرة الأموات ، متـكئاً على ذراع الكاهن الذى أخذ يهدئ روعه المضطرب ، بترانيم دينية ، فعرف الجميع حينئذ أن (جوانيتو) سيقوم بمهمّةِ الجلاد فى اطاحة الرقاب ، وجثا الجميع قريبين من المقصلة ، وأى مشهد آلم للنفس من أن ترى عزيز قوم ذل ؟ لقد كان المركيز وزوجته وابنتاه ، وولداه ، أمام جوانيتو ، الذى أمر اليه الجلاد بمض الكلمات

***

حينذاك اقتربت (كلارا) من أخيها ، وصاحت به : جوانيتو ، ابدأ بى إذا أردت أن ترفق ... بشجاعتى المنهوكة ... هيا .. أطح رأسى أولاً ! !

وساعتئذ أبصر الناسُ الضابطَ (فيكتور مارشاند) مسرعا نحو (كلارا) التى جثت على ركبتيها تتأهب للأمر الواقع ، وتستعد لأن يطاح رأسها ، فلما حاذاها تماماً قال لها فى أذنها : « إن الجنرال ليعفو عنك ويهبك الحياة إذا رضيت بى زوجا ! »

فصوبت اليه نظرة ملؤها الكبرياء بنفسها ، والازدراء له ، ثم صاحت بأخيها ، كأنها اللبؤة الضارية : «هيا ، يا جوانيتو .. فانى ... على أتم الاستعداد .... » وإذ ذاك أبصر الناس رأسها الجميل يتـدحرج تحت قدمى أخيها ، وقد انفصل عن جسدها ، وسرت الرعشة فى جسد أمها ، ولـكنها ملـكت عواطفها ، وتقدم أخوه عمانويل وسأله : « أترانى فى مكانى تماماً .. أيها العزيز جوانيتو ؟ »

ثم أقبلت اليه أخته الصغيرة (ماركينا) والدموع تنهمر من عينيها ، فسألها : « أتبكين يا أختاه ؟ »

فقالت : نعم يا حبيبى جوانيتو ، إنى أبكى من أجلك .... اشد ما يؤلمنى أن تظل وحيداً حين تفقدنا جميعاً فلا تجدنا معك »

ولـكنه رفع السيف وأهوى به على رقبة الصغيرة ، وإذ ذاك تقدم منه أبوه المركيز ، فصوب ناظريه ، وصمدها ، فى دماء أبنائه الجارية تحت قدميه ، كأنها المياه المتدفقة شاهدة على ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ثم التفت ناحية الجماهير الذين عقدت الدهشة ألسنتهم ، فكانوا أصناماً لاتتكلم ، أو تتحرك تأثرا من هذا المشهد المرَوّع ، ثم مد يده الى جوانيتو ، وصاح فى صوت قوى النبرات حادها ، وقال :

« أيها الاسبانيون ! إنى أبارك ولدى ، وأهبه دعوات الأبوة والآن هيا أيها المركيز . أطح رأسى ، ولا يأخذك الخوف أو الرعب ، هيّا . لا تثريب عليك »

فلبى نداء أبيه صامتاً حزيناً ، وإذ ذاك أقبلت أمـه ، منهوكة القوى ، خائرة الأوصال ، كيف لا وقد رأت أبناءها جميعاً ، وزوجها المركيز ، تطاح رقابهم ، كأنهم الماشـية بل أحقر ، ذلك قلب الأم الذى :

لا ربة النسيان تر حم حزنه وترى بكاه
كلا ولا الأيام تبـ لى فى أناملها أساه
إلاّ إذا ضفرت له الـ أقدار اكليل الجنون
وغدا شـقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السـنون

أقبلت أمه متكئة على ذراع الكاهن ، ونظرت إليـه نظرة الوداع ممزوجة بأحرّ الألم ، فما رآها حتى تنبهت حواسه الخامدة وثار غاضباً ، وقال :

— « إن ثدييها هذين قد أرضعانى صغيراً »

فانتفض الجميع ، حين سماعهم هذا ، وانتزعت تلك الكلمات صرخة الفزع من قلوبهم جميعاً ، وسكنت ضحكات الضباط ، وعرفت المركيزة وقتئذ أن شجاعة جوانيتو وَلّت ، ولم يعد ذلك القوى ، فجمعت ما تبقى من شجاعتها المبعثرة ، ثم قفزت من فوق قمة المنحدر فهوت إلى القاع ، وقد مزقتها الصخور الجائعة فى أسـفله شر ممزّق ، فهتف الجمهور الشاهد هتاف الاعجاب ، أما جوانيتو فقد فقد مستجى مغمى عليـه ، فحملوه إلى الخارج حيث عاش وقد أسموه (El Verdugo) (الجلاد)

حسن محمد حبشى

البريد الأدبي

سرقة أدبية !؟

قرأت كلمة فى بريد الرسالة (١١٥) بتوقيع «حبيب زحلاوى» يتهم فيها «الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى» بأنه سرق قصيدته «عاصفة روح» من قصيدة الشاعر الدمشقى ميشيل عفلق (؟) ونحن لم نقرأ قصيدة «عاصفة روح» ولا قصيدة (عفلق) ولا نعتدّ بهذا الشعر، لأنا لا نجد فيه روحاً كالتى نريد، ولا لغة كالتى نرتضى، ولكنا مع هذا نعلم أن الدكتور ناجى من نابغى الشعراء الشباب فى مصر، ونعرف له أشياء بالغة فى بابها حدّ الجودة. فأحببنا أن نطمئن الدكتور الى أنه ليس فى دمشق شاعر يسمى ميشيل عفلق ألبتة، وربما كان فيها كاتب صحف، أو ترجمان قصص، بهذا الاسم، أما شاعر فلا . . .

وقد سألنا عن القصيدتين صديقنا الشاعر أنور العطار، فأكّد لنا أن قصيدة عفلق مسروقة من قصيدة لشاعر من شعراء سورية فى المهجر، وأنّ هذا هو السرّ فى أنه لم ينظم فى حياته غيرها!

على أن هذا المذهب الأدبى الجديد لا ينكر فيما نظنّ السرقات الأدبية. لأنه لو أنكرها وحرّمها، لسقط سقوطاً لا قيام له من بعده، لأن فى كل قصيدة أو مقالة من هذا الأدب الجديد ضميراً مستتراً يعود الى شاعر أو كاتب انكليزى أو فرنسى. ثم إن هذا الأدب لم يكتب بلغة عربية، تضمن له البقاء، وتكفل له الخلود، وليس فيه إلا معناه؛ فاذا خسره فقد خسر كل شىء، وماذا يبقى من أدب معناه مسروق، ولغته مرذولة ساقطة؟ . . .

ولعلّ الله يوفقنا الى تبيان هذا فى مقال آخر، نردّ فيه هذه البدعة المنكرة فى الأدب، بدعة أقوام سرقوا المعانى والأفكار، ثم لم يقدروا أن يصوغوها صياغة عربية فقالوا: إنه لا شأن للألفاظ، ولكن الشأن للمعانى والأفكار

على الطنطاوى

حول سيرة تيمورلنك

قرأت فى العدد السادس عشر بعد المائة من «الرسالة» الغراء ما كتبه الأديب الباحث م. ع. ع عن مصادر ترجمة تيمورلنك وابن عربشاه، ولعل من المفيد أن أذكر بعض المراجع التى ترجمت لهما مما لم يذكر الأديب الكاتب، فقد ترجم له ابن العماد فى كتابه (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) فى نحو خمس صفحات كبيرة من الجزء السابع، وكذلك السخاوى فى (الضوء اللامع)؛ فقد ترجم له فى أربع صفحات كبيرة من الجزء الثالث بتحقيق دقيق، ولابن عربشاه ترجمة واسعة أيضاً فى الشذرات فى أربع صفحات وكذلك فى الضوء اللامع

محمد شفيق

مكانة الفن فى نظم التربية

منذ بضعة أعوام عنى ولاة الأمر فى انكلترا بتوسيع دائرة التعليم الفنى فى بعض درجات التعليم، ولاحظ الخبراء أن هذه الخطوة أثمرت ثمراً حسناً، وارتفع معيار الذوق الفنى لدى الجمهور، وقد رأى مجلس الفن والصناعة أن يتقدم إلى «ديوان التربية» (أو مجلس المعارف الأعلى) باقتراحات جديدة لترقية التعليم الفنى؛ وخلاصة هذه الاقتراحات هو أن يدخل فى برامج التعليم فى المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية نظام ثابت للتعليم الفنى، وأن يخصص فيها لهذا النوع من التعليم من العناية قدر ما يخصص لتعليم اللغات أو العلوم أو الرياضيات، وأن الفن يجب أن يكون مادة اجبارية فى برنامج مدارس المعلمين، وأنه يجب تشجيع استخدام المعلمين الاخصائيين فى الفن. وتبوؤ الفن هذه المكانة فى نظام التعليم يبث فى أذهان الشباب حب الجمال فى جميع مطالب الحياة

ويقول مجلس الفن إن دراسة الفن يجب ألا تكون لقصد الفن ذاته، وإنما يجب أن يكون التعليم الفنى أداة للرخاء الاقتصادى. وذلك أنه إذا مزج الفن والصناعة فان معيار الصناعة يرتفع ارتفاعاً محسوساً. ولهذه النقطة أهمية خاصة،

لأن أبناء الأمة إذا درجوا على تقدير الفن والنماذج الفنية ، فإنهم كمستهلكين لابد أن يطالبوا بمنتجات تتفق مع أذواقهم الفنية ، ولهذا يضطر أصحاب المصانع لاستخدام الفنيين لسد حاجاتهم ، وهذه خطوة هامة في ترقية الصناعة

ويرى مجلس الفن أيضاً ألا يقتصر على تعليم الفن داخل المدارس ، وإنما يجب أن يسهل السبيل للمتطوعين خارج المدرسة ، ويجب أن يكون للفن أثره في الخط ، وفي شرح دروس التاريخ والجغرافيا والآداب والطبيعيات والتدبير المنزلي . هذا ولما كانت المدارس الحديثة تبنى جامعة لكل أسباب الراحة والصحة ، فانه يجب أيضاً أن يعنى بزخرفتها عناية خاصة حتى يعيش النشء بين مناظر الفن والجمال

وليس الفن الانشائي خاصة لأقلية صغيرة من الناس ؛ فقد دلت معارض الأطفال الفنية على مقدرة لم تكن للنشء من قبل . وقد آن الأوان لأن يشغل التعليم الفني مكانته في جميع درجات الدراسة ، وأن يكون من أهم العناصر في نظم التربية وبرامج التعليم

هجرة الكتاب والعلماء من ألمانيا

ليس من ريب في أن قيام طغيان الوطنية الاشتراكية في ألمانيا كان ضربة للعلوم والآداب والفنون الألمانية ، وقد ظهرت آثار السياسة الهتلرية في انحطاط مستوى الدراسات العلمية والفنية في ألمانيا انحطاطاً ظاهراً ، وفي تدهور الصحافة الألمانية إلى الحضيض بعد أن كانت في مقدمة صحافات العالم ، وفي انحلال النهضة الأدبية الألمانية ؛ ومن المعروف أن معظم العلماء الألمان قد اضطروا إلى الفرار من ألمانيا لأنهم من اليهود أو لأنهم لا يناصرون النظام الهتلري . وقد أثيرت هجرة العلماء الألمان في مؤتمر استقلال المباحث العلمية الذي عقد أخيراً في أكسفورد ، وتلا الأستاذ نورمان بنتوتش الانكليزي على المؤتمر تقريراً ضافياً عن الاضطهادات التي وقعت في ألمانيا على العلماء الذين رفضوا مناصرة السياسة النازية ، ويبدو من الاحصاءات التي تلاها أن العلماء الألمان الذين فقدوا مناصبهم في ظل الحكم الهتلري يبلغ عددهم زهاء ألف ومائتين ، وعلق الأستاذ على ذلك بقوله إن مطاردة العلماء على الجملة إلى مثل هذا الحد ليس لها نظير في التاريخ منذ فتح الأتراك القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م ، وهو فتح أعقبه هجرة العلماء البيزنطيين إلى غرب أوربا . ومما يجدر ذكره أن نحو خمسين من هؤلاء العلماء المشردين قد استخدمتهم الحكومة التركية في معاهد استانبول وأنقرة

هذا وأما الكتاب الألمان فيكفي أن تعرف أن أكابرهم يعيشون الآن في المنفى في سويسرة وانكلترا ، ومنهم كثير من الكتاب الآريين (غير اليهود) مثل توماس مان عميد الأدب الألماني المعاصر والحائز على جائزة نوبل ، وأخوه هنريش مان وولده كلاوزه ، وقد جرد معظم أولئك الكتاب من أملاكهم وأموالهم في ألمانيا وحظر على المطابع الألمانية أن تخرج كتبهم كما حظر دخولها في ألمانيا ، ومعظمهم الآن يخرج كتبه مترجمة إلى الانكليزية أو الفرنسية

وأما الصحافة الألمانية ، فان أولئك الذين عرفوها أيام ازدهارها وعظمتها أعني قبل ثلاثة أعوام ، يدهشون اليوم حينما يرون ما انتهت اليه الصحف الألمانية من ضآلة في الحجم والمادة ، ومن تشابه ممل فيما تكتب وتعرض وتناقش

الرياضة والمخدرات

يفتك وباء الأفيون ببلاد الملايو التي يسيطر عليها الانكليز كما يفتك بالصين وكل الشعوب التي تنتمي إليها من الوجهة الجنسية أو من وجهة الحضارة . وقد قرأت السيدة هرسبروج عضو مجلس العموم الانكليزي ومندوبة انكلترا في اللجنة الخاصة بمكافحة الأفيون في عصبة الأمم ، تقريراً في اللجنة عن الوسائل التي تجري عليها السلطات الانكليزية في بلاد الملايو في محاربة وباء المخدرات ، قالت فيه إن هذا الكفاح لا يجري فقط بالرقابة والحظر ، ولكنه يجري بوسائل اجتماعية يراد بها إضعاف الرغبة في تذوق المخدرات وخصوصاً بين الشباب . ومما يلاحظ في بلاد الملايو أن عادات الشعب قد تغيرت تغيراً كبيراً عما كانت عليه منذ عشرة أعوام ، ولا سيما بين الطبقات الصينية . ذلك أن الألعاب تستغرق الآن اهتمام الشباب من الجنسين . وقد أنشئت ملاعب كبيرة في المدن والقرى للعب الكرة ، وهي تجذب جماهير كبيرة ، وأنشئت متنزهات عامة في المدن الكبرى يؤمها الصينيون من مختلف الطبقات ، واتخذت اجراءات ووسائل صحية كثيرة ساعدت على ارتفاع المعيار الصحي في البلاد ، وأنشئت مستشفيات عديدة لمعالجة المرضى والمدمنين ، وقد ظهر أثر التيار الرياضي واضحاً في الجيل الحالي ، فهو أقل ميلا إلى الانصراف إلى لذة المخدرات وأكثر شغفاً بوجوه التسلية القائمة على ترويض الجسم والذهن

الكتب

٢ ـ ثلاث رسـائل

بخط ياقوت الحموى الرومى

للأديب الفارسى عباس اقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

قياس عبارات معجم البلدان هذه بما خطه ياقوت فى آخر النسخة التى بيد الكاتب نقلاً عن خط ابن فارس، لا يدع ريبة فى أن هذه النسخة هى عين النسخة التى كتبها ياقوت لنفسه من نسخة ابن فارس

ختمت هذه النسخة من تمام الفصيح، كما يقول ياقوت فى آخرها، يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ٦١٦ فى مرو الشاهجان، ويصرح ياقوت نفسه فى معجم البلدان أنه كان فى مرو الشاهجان سنة ٦١٦، وكان يُفيد من خزائن الكتب النفيسة فى هذه المدينة، وأنه فى السنة نفسها ترك المدينة خوفاً من التتار وبلغ خوارزم (الجرجانية) بعد قليل. وكذلك يصرح فى معجم البلدان ومعجم الأدباء أنه كان بخوارزم فى ذى القعدة من هذه السنة. ثم تركها هرباً من التتار أيضاً[1]. ومن هذا يتبين أن ختم هذه النسخة فى ربيع الآخر سنة ٦١٦ وقع قبل فرار ياقوت من مرو الشاهجان بشهرين أو ثلاثة

وأما كتابا الرمّانى فلسوء الحظ سقط أولهما من هذه النسخة كما سقط قسم من أول الكتاب الثانى، كتاب الحروف كما قلنا آنفاً

بين كتاب تمام الفصيح والقسم الباقى من كتاب الحروف ورقة واحدة بخط ياقوت لا صلة بينها وبين هذين الكتابين.

(١) معجم البلدان فى كلمة «جرجانية» وكلمة «خوارزم» ومعجم الأدباء ج ٦ ص ١٥٥

والظاهر أنها خاتمة كتاب الرمانى الذى سقط من نسختنا. وأول هذه الورقة:

«قابلت به نسـخة أبى الفتح محمد بن أحمد بن أشرس النيسابورى التى قرأها على أبى محمد عبيد الله بن محمد الكاتب المعروف بابن الجراذى عن ابن الأنبارى، وعلى أبى محمد يوسف ابن الحسين النراق فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة. وصححته على اختلاف نضد هذه النسخة ونسخة السماع عن ابن الأنبارى فى تقديم بعض الكلام فى مواضع وتأخيره. وعلقت الحواشى من نسخته. وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان فى عشية الأحد لثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٦١٥ ياقوت بن عبد الله الحموى المولى الرومىّ الأصل، حامداً لله ومصلياً على سيدنا محمد وآله الطاهرين ومسلماً تسليما»

ثم يتبع هذا بنقل فصل من كتاب لحن العامة لابن حاتم السجستانى. وقد سطر فى آخر كتاب الحروف للرمانى: «آخر كتاب الحروف. والحمد لله رب العالمين. وصلواته على سيدنا محمد وآله. وفرغت من نقله من خط أبى الحسن عمر بن أبى عمر السجستانى بمرو الشاهجان فى محرم سنة ست عشرة وستمائة. وكتب ياقوت بن عبد الله الحموى حامداً لله على سوابغ نعمه»

***

يتبين مما نقلناه من أوائل وأواخر النسخ التى خطها ياقوت فى هذه المجموعة، ومن الشواهد التى أوردناها من معجم البلدان ومعجم الأدباء — ا — أن ياقوت صرح فى خمسة مواضع من هذه النسخ بأن هذه المجموعة خط يده وملكه — ب — وأن ياقوت كتبها فى تواريخ رمضان سنة ٦١٥، والمحرم سنة ٦١٦، وربيع الآخر سنة ٦١٦ — ج — وأنه كتبها فى مرو الشاهجان الحاضرة المشهورة للسلطان أبى الحارث معز الدين سنجر بن ملكشاه السلجوقى التى يقول عنها ياقوت فى معجم البلدان إنه عاش فيها قرير العين مستفيداً من مكاتبها الكثيرة، وأن حبها تمكن فى قلبه حتى أنساه الأهل والعيال وسائر البلدان،

الاسلام الصحيح

للأستاذ اسعاف النشاشيبي

للأستاذ محمد بك كرد على

الاسلام الصحيح هو آخر كتاب عنى بتأليفه أديب فلسطين السيد اسعاف النشاشيبي على أسلوب طريف فى الوضع، استكثر له من المادة، راجعاً فى استقائها إلى الأمهات المعتبرة فى الأكثر، مستخدماً الخطابيات للتأثير فى ذهن السامع وقلبه، ولكنّ خطابياته مدعومة بالنص المقبول والشاهد والمثل، وتتخللها أنواع من البلاغات، وفصح وشوارد من اللغة يحاول الأديب احياءها، يعرضها على القارئ فى خلال كلامه شارحاً لها فى أسفل الصفحة

وموضوع هذا التأليف يدور على مسائل: منها أن صاحبه يدعو إلى الأخذ بالقرآن، ويهيب بفرق الاسلام إلى الالتفاف حول رايته الجامعة، وتكلم على الوهابية والزيدية وبيّن منشأها وعلى الامامة، وأثبت من كتب الثقات أن عترة النبي هم أسرته وأن جماعة النبي إعامم المسلمون كلهم أجمعون، فليس للنبي قرباء ولا بعداء، وبرهن على أنه ليس فى الاسلام طبقات وان بعضهم أبوا إلا أن يكون المسلمون طبقات كمثل الهنادك فى الهند «فجماعة تنوقت فى طغيانها وإلحادها فألهت من ألهت، وما هذا (والله) بطغيان ولا ضلال، لكنه فنون من الجنون . . . وجماعة أنزلت رجالاً من هاشم فى غير منزلتهم، وأعطتهم ما ليس فى الدين لهم، ومشايعتك المرء على باطل إنما هو خذلان، والتقريظ والتمجيد بغير الصدق وغير الحق زور وبهتان. وقد جاء الاسلام ليحرر فأبى معتاد الاستعباد فى الدين والدنيا من قبل إلا استعباده، وإلا أن يشرك بعبادة ربه عباده»، وأفاض فى مراد الشريعة من المودة فى القربى وتفسير آية التطهير، وفى الصلاة على النبي، وفى نشأة نقابة الأشراف، وفى الحديث والمحدثين وجناية هؤلاء كفعل بعض المفسرين على الدين يوم قالوا: إن من الآيات ماله ظاهر ومنها ماله باطن الى غير ذلك مما نقض فيه صراحاً ما يذهب إليه بعض فرق الاسلام. وأثبت أن نهج البلاغة المنسوب لعلى ابن أبى طالب يحمل كثيراً من الصفحات التى لا يعرفها صاحبه، وأن فى تلقين الأحداث كل ما فى هذا الكتاب على أنه صح عمن نسب إليه رضى الله عنه لا يخلو من ضرر على الاحداث، إلى غير ذلك من المطالب التى حل بها ما رآه أولى بالتقديم والمعالجة لرفع الخلاف من صفوف من كانت قبلتهم واحدة، ومورد هم الذى يستقون منه هم فيه شركاء لا تباغض بينهم، والكتاب مفيد لمن يطالعه مطالعة تدبر وتفكر؟

محمد كرد على

وأنها لو لم تقع فى أيدى التتار فسيطر عليها الدمار ما فارقها حتى الممات

والحق أن من العجيب أن تنجو هذه المجموعة الصغيرة التى هى من أنفس ذكريات تلك القرون السالفة، ومن أعز ما ملكه عالم عظيم مثل ياقوت الحموى، من نيران التتار المستعرة، وغير الزمان المدمرة، فها هى الآن بعد سبعة قرون ونصف على مكتبى ذكرى من عظمة المدنية الاسلامية فى تلك العصور، ومذكرة برجل من مفاخر هذه المدنية الوضاءة: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى

عباس اقبال

باريس ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤

3me Année, No. 118.

Lundi-7-10-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ﺻ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١١٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٩ رجب سنة ١٣٥٤ — ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

المثنى بن حارثة

على ذكر «نادى المثنى» ببغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

كانت قبائل ربيعة ضاربة شرقيّ نجد، موغِلة إلى الشمال حتى أعالى الفرات . . وكانت الوقائع تثور بينهم وبين الفرس فى الحين بعد الحين، فكانوا أجرأ العرب على فارس، وكان العرب يسمون فارس الأسد، فسموا ربيعة «ربيعة الأسد»

وكان بنو شيبان من هامات ربيعة فى الجاهلية، وهم كانوا أبطال «ذى قار»، وامتد بهم المجد فى الاسلام فكان منهم بيوتات لها فى الحرب والمكارم مآثر. يقول أبو تمام:

أُولاك بنو الأفضال لولا فعالهم   دَرجن فلم يوجد لمكرمة عقب
لهم يوم ذى قار مضى وهو مفرد   وحيد من الأشباه ليس له صحب
به علمت صُهب الأعاجم أنه
به أعربت عن ذات أنفسها العُرب

هو المشهــد الفرد الذى ما نجا به
لكسرى بن كسرى لا سنام ولا صُلْب

— ٢ —

وقد امتدت أحقاد ذى قار بين الفرس وبنى شيبان خاصة ، وقبائل بكر عامة ؛ حتى كان بنو شيبان طلائع الفتح الاسلامىّ فى العراق : لما عمّ الاسلام الجزيرة وتوطد سلطانه سمع أبو بكر بوقائع سيد من شيبان فى سواد العراق فقال : من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ قال قيس بن عاصم المنقرى : « هــذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ؛ هذا المُثَنَّى بن حارثة الشيبانى »

ثم قدم المثنى على أبى بكر يسأله أن يؤمره على قومه ففعل . وكان المثنى من قبل على قومه أميراً ، وبقى من بعدُ أميراً يستعينه الأمراء إذا حضروا ، ويستخلفونه إذا غابوا ، حتى مات بين مآثر مشكورة ، ومناقب محمودة . وقد صدق عمر حين سماه : « مؤمّر نفسه »

وبعث المثنى أخاه مسعوداً إلى الخليفة يستمدّه فأرسل خالداً إلى العراق ؛ فلما نزل خالد النّباج كتب إلى المثنى وهو معسكر بخفّان ليأتيه ، وبعث إليــه بكتاب من أبى بكر يأمره بطاعته . قال الطبرى : « فانقضّ إليه جواداً حتى لحق به » . فانظر إلى الرجولة كيف تسارع إلى الطاعة !

ولما توجه خالد إلى الشام استبد المثنى بإمرة العراق ، وكان بطل موقعة بابل وفيها قَتل الفيل

قال الفرزدق يعدد بيوتات بكر :

وبيت المثنى قاتلِ الفيل عَنوة ببابل إذ فى فارسٍ مُلك بابل

ثم سار المثنى إلى أبى بكر ليخبره بجليّة الأمر فى العراق ، فوافاه مريضاً قد أشفى ، فأوصى أبو بكر عمر قال : « فان أنا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى . » وسار الناس إلى العراق وأميرهم أبو عبيد الثقفى . فلما كانت موقعة الجسر التى زُلزل فيها المسلمون وقُطع جسر الفرات وراءهم فتهافتوا فى الماء وقف المثنى فى أنجاد من العرب ينادى : « أيها الناس ! إنّا دونكم فاعبروا على هينتكم ، ولا تدهشوا ، فانا لن نزايل حتى نراكم فى ذلك الجانب » . وحمى المثنى الناس حتى عبروا . ثم خلق المثنى من الفلول المهزومة يوم الجسر نصراً باهراً فى موقعة البُوَيب برأيه وسياسته وشجاعته ، واحتسب فيها أخاه مسعودا ؛ ثم تكاثر الفرس عليه فكتب إلى عمر ، فأمره أن يتنحّى بالناس حتى يأتيه أمره . ثم أرسل عمر سعد بن أبى وقاص فى حشد عظيم ، وانحاز المثنى إلى ذى قار . وقدم سعد إلى زَرود ينتظر المثنى ، ولكن الأسد المرزأ ، والمِسْعَر المجرّب ، انتفضت به جراحات يوم الجسر . فبينما سعد يرجو مقدمه جاءته وصيته تحملها امرأته سلمى وأخوه المَعنىّ . عمل سعد بوصية المثنى وأمّر أخاه مكانه ، ثم تزوج امرأته . وقد شهدت سلمى وقعة القادسية ، فلما حمى الوطيس ؛ واستكلب الموت على الأبطال ، نظرت فلم تجد المثنى يسوس الأنجاد ، ويقود الجلاد ، فصاحت : « وامثنّياه ! ولا مثنى اليوم للخيل » . مات المثنى وشهد له التاريخ أنه « كان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة حسن الرأى . أبلى فى حروب العراق بلاء لم يُبله أحد »

— ٣ —

فيا شباب بغداد الذين أنشأوا نادى المثنى ليحيوا ذكره ! اذكروا فيه الرجولة الكاملة ، والشجاعة البالغة ، والمجــد والسؤدد ، والعمل المخلَّد . اذكروه قائداً مقداماً ، وأميراً حازماً ، وسيداً مطاعاً ، وجندياً مطيعاً . اذكروه حراً أبيّا ، ومثلا عربيّا ، وخُلقاً عالياً . واستمدوا من ذكراه وذكرى أمثاله أخلاقاً صلبة تقيكم رخاوة الحضارة ، وعزيمة ماضية ترفعكم عن ذلة الرفاهية ، وتقتحم بكم الأهوال إلى الغاية البعيدة والأمل العظيم . ثم اذكروا أن المثنى فتح العراق جندياً مُسْلماً ، فاذكروا الاسلام ومجده ، واعتصموا بأخلاقه ، واستمسكوا بمعاليه . وسيروا قُدُماً فى عزة العروبة ، وهداية الاسلام ، وأنتم الأعلون والله معكم ؟

عبد الوهاب عزام

٣ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الراوي :

نظرتُ إليها ونظرتْ . أما هي ، فرَنتْ إليّ في سكون ، وكانت نظرتها معاتَبَةً طويلة فيها التملّقُ والتوجُّع ، وفيها الانكسارُ والفُتور ، وفيها الاسترخاءُ والدلال

وبَينَا كان طَرْفُها ساجياً فاتراً كأنه ينظرُ أحلامَه ، إذ حدَّدته إليّ فجأةً ونظرتْ نظرةَ مدهوش ، فبدتْ عيناها فَزعتين ولكن في وجهٍ مطمئن

ثم لم تكدْ تفعل حتى ضيّقتْ أجفانها وحدّقت النظرَ متلألئاً بمعانيه ، فبدت عيناها ضاحكتين ولكن في وجهٍ متألم

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينيها معاً ، وأتمتْ بذلك أجملَ أساليب المرأةِ الجميلة المحبوبة في اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكَسْر حُجته في كبريائه ، وانتزاع الفكرة المستقلّةِ من نفسه

وأما أنا ؛ فكانَ نظري إليها ساكناً متألماً يُقِرُّ أنه يعجز عن جواب عينيها ، وسيبقى عاجزاً عن جواب عينيها . . . .

إن وجهها هو الابتسامُ ورُوحُ الابتسام ، وجسمها هو الاغراءُ وروحُ الاغراء ، وفنها هو الفتنةُ ورُوحُ الفتنة ، وهي بهذا كلّه ، هي الحبُّ وروحُ الحب . غير أن فهمها على حقيقتها في الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنها رذيلةً في جمالها ، وهي بهذا كله ، هي الشقاءُ وروحُ الشقاء

***

أمَّا إني أُحبُّ فنعم ونِعِمَّا ، بل أراه حباً فالقاً كبدي ، وليس يخلو فؤادي أبداً من سوالف حُب مضى ؛ وأما إني أسترْذِلُ في الحب وأمتهن فضيلتي وأنزلُ بها – فلا وأبدا

إن ذلك الحب هو عندي عملٌ فنيٌّ من أعمال النفس ، ولكن الفضيلةَ هي النفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في زمني ، أما الفضيلةُ فهي زمني كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوة من جاذبيـــة الأرض في مدتها القصيرة ، ولكن الفضيلةَ جاذبيةُ السماء في خلودها الأبدي

على أنه لا مُنَافرةَ بين الحب والفضيلة في رأيي ، فان أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا في النفس الفاضلة المتورعة عن مُقَارَفَةِ الاثم . وهمهنا يتحول الحبُّ إلى ملكةٍ سامية في إدراك معاني الجمال ، فيكون الوجهُ المعشوقُ مُصدرَ وحي للنفس العاشقة . وبهذا الوحي والاستمداد منه ينزل الحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفع بالآدميَّة إلى الملائكية (١) ليتلقى النورَ منها فناً بعد فن ، والفرح معنى بعد معنى ، والحزن السماويٌّ فضيلةً بعد فضيلة

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيّةٌ لاتساع بعض العقول المهيَّأة للالهام كي تُحيط بأفراح الحياة وأحزانها ، فتَبدعَ للدنيا صورةً من صور التعبير الجميلة التي تُثير أشواق النفس . كأن كلَّ محب وحبيبته من هؤلاء الملهمين ، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء ، في حالةٍ جديدة من معنى ترك الجنة ، لايجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضي والحزن السماوي

والخطَرُ في الحب ألا يكونَ فيه خطر . . . . فهو حينئذ نداءُ الجنس ، لا يكون إلا دنيئاً ساقطاً مبذولاً فلا قيمةَ له ولا وحي فيه ، إذ يكون احتيالاً من عمل الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبَها النورانيَّ من شوق الروح لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتصل بينهما خلعت الغريزةُ هذا الثوب واستعلنتْ أنها الغريزةُ فانحصر الحبُّ في حيوانيته وبطلت أشواقه الخياليةُ أجمع

***

قال الراوي : وعرفت الحسناءُ هذا كله من عرضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرها ، فقالت للأستاذ (ح) : أما أن يكون مع أثر الشعر والفكر في الجمال ودعوى الحب أثرُ الزهد في الجسم الجميل وادّعاء الفضيلة – فانّ بعيداً أن يجتمعا

قال (ح) : وأين تُبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إني لأعرف من هو أعجبُ من هذا

قالت : وماذا بقي من العجب فتعرفَه ؟

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة في علم الصرف ونرى أن مخالفته هي القاعدة في هذه اللفظة

قال : أعرف رجلاً متزوجاً أحبَّ أشدَّ الحب وأمضَّه حتى استهام وتدلَّه ، فكان مع هذا لا يكتب رسالةً إلى حبيبته حتى يستأذنَ فيها زوجتَه كيلا يعتدىَ على شىء من حقها . وزوجته كانت أعرفَ بقلبه وبحب هـذا القلب ، وهى كانت أعلمَ أن حبَّه وسُلوانَه إنما هما طريقتان فى الأخذ والترك بين قلبه وبين المعانى ، تارةً من سبيل المرأة وجمالها ، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها

فتنهَّدتْ وقالت : يا عجباً ! وفى الدنيا مثلُ هـذا الزوج الطاهر ، وفى الدنيا مثلُ هذه الزوجة الكريمة ؟

ثم إنها وَجَمَتْ هُنيهةً تجتمع فى نفسها اجتماعَ السحابة ، ثم استَدْمعتْ ، ثم أرسلتْ عينيها تبكى . فبدَرْتُ أنا أرَقِّه عنهـا حتى كفكفتْ من دمعها ، وكأنَّ (ح) قد وخزَها فى قلبها وخزة أليمة بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجةَ الطاهرة ، ثم الطاهرةَ حتى فى وسوسة شيطان الغَيرة . ارتفع ثلاثَ مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات ، وكأنه بهذا لم يكلمها بل رسم لها صورتها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى . . . . .

* * *

ويا ما كان أجملَها يترَقرَقُ الدمعُ فى عينيها الفاتنتـين الـكحيلتين فيبُثُّ منهما حزناً يخيِّل لمن رآه ، أنه من أجلها سيُحزِنُ الوجودَ كله

ليس البكاءُ من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هو فنُّ الحزن يضع مجالاً جديداً فى فن الُحسن . وأكاد أعجبُ كيف وجد الدمعُ مكاناً بين المعانى الضاحكة فى وجهها — لو لم يكن هذا الدمعُ قد جاء ليظهرَ على وجهها الفنَّ الآخر من جمال المعانى الباكية

* * *

وسألتها : ما الذى خامَرَ قلبَك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاكِ ، وأنت كما أرى يتألَّقُ النورُ على جدران المكان الذى تَحُلّين به ، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك ؟

فتَشَكَّكَتْ لحظةً ثم قالت : أبِكَ ما تقول أم أنت تتهكم بى ؟

قلت : كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق : الجمال ، والحب ، والألم الانسانى ؟

قالت : لا تثريبَ عليك [1] ، ولـكن صوِّر لى ببلاغتك كيف أحببتك وأنت غير مُتَحبِّب الى ، وكيف جادلتُ نفسى فيك وداورتُها عنك ، وكلما عزمت انحلَّ عزمى ؟ فهذا مالا أكاد أعرف كيف وقع ، ولـكنه وقع . هذه قطرة من الماء الصافى العذْب فضع عليها (المـكرسكوب) يا سيدى وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تُخرجين من السؤال سؤالا . فما الذى خامر قلبك من كلام (ح) فبكيتِ له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرةً من الماء بل تلك دمعةٌ من دموعى ، فضع عليها المكرسكوب يا سيدى

قال الراوى : وكانت حزينةً كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها وبقيت روحُها تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدركَ لغلطته الأولى فقال : إنكِ الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ، فكل امرأة يحبها هى عروسُ قلبه ولها على هذا القلب حقُّ النفَقة . . . .

فضحكت نوعاً ظريفاً من الضحك الفاتر كأنما ابتكره ثغرها الجميلُ لساعة حزنها ، ونظرت الى . فقلت : إن كان الأمر من نفقة العروس على القلب فما أشبه هذا (بلا شىء) جحا

فضحكت أظرفَ من قبل ، وخُيِّل الىَّ أن ثغرها انطبق بعد افترارِه على قُبلةٍ أفلتت منه فأمسكها من آخرها . . .

ثم قالت : ما هو (لا شىء) جحا ؟

قلت : زعموا أن جحا ذهب يحتطبُ ، وحمل فوق ما يُطيق ، فبهَظَه الحِمْلُ وبلغ به المشقَّة ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبلهَ فاستعان به ، فقال الرجل : كم تعطينى إذا أنا حملتُ عنك ؟ قال : أعطيك (لاشىء) . قال : رضيت

ثم حمل الأبلهُ وانطلق معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطنى أجرى : قال جحا : لقد أخذته . واختلفا ، هذا يقول أعطنى ، وهذا يقول أخذتَ ؛ فلَبَّبَهُ الرجلُ [2] ومضى يرفعه إلى القاضى ، وكانت بالقاضى لُوثَةٌ وعلى وجهه رَوْأةُ الُحمق [3]

---

(١) أى لا عتب عليك (٢) أخذ بتلابيبه

(٣) اللوثة بضم اللام مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحمق ، وروأة الحمق علاماته وهى معروفة فى علم الفراسة

تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه . فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت فى الحبس أو تعطيه (اللاشىء) . . .

قال جحا فى نفسه : لقد احتجتُ لعقلى بين هذين الأبلهين ؛ ثم انه أدخل يده فى جيبه وأخرجها مُطبَقة ، وقال للرجل : تقدَّمْ وافتح يدى . فتقدم وفتحها . قال جحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لاشىء)

فقال له جحا : خذ (لا شيئك) وامض فقد برئت ذمتى

قالوا : فذهب الرجل يحتجُّ ، فقال له القاضى : مهْ ؟ أنت أقررتَ أنك رأيتَ فى يده (لا شىء) وهو أجرك ؛ فخذه ولا تطمع فى أزيدَ من حقك . . .

* * *

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضيةٌ أن أكون عروسَ القلم ، فليُجْرِ علىّ القلمُ نفقتى ، وليصوّرْ لى كيف أحببتُ ، وكيف آمرتُ نفسى وجادلتُها ؟

قلت : لا أتكلم عنك أنتِ ولا أستطيعه . بيد أننى لو صنفتُ رواية يكون فيها هذا الموقفُ — لوضعتُ على لسان العاشقة هذا الكلامَ تحدِّث به نفسها

تقول : كيف كنتُ وكيف صرت . لقد رأيتُنى أعاشر مائةَ رجل فأخالطهم فى شتى أحوالهم وأصرّفهم فى هوايَ وكلهم يجهدُ جُهدَه فى استمالتى ، وكلهم أهلُ مودّة وبذل ، وما منهم إلا جميلٌ مخلصٌ قد أَنِقَ وتجمّل وراع حسنُه كأنما هرب إلىّ فى ثياب عرسه ليلةَ زفافه وترك من أجلى عروساً تبكى وتصيح بوَيلها . ثم أنا مع ذلك مُغْلَقةُ القلب دونهم جميعاً أصدُقُهم المودّةَ والصُّحبة ، وأكذِبُهم الحبّ والهوى ؛ فلستُ أحبهم إلا بما أنال منهم ولستُ أتحبّبُ اليهم إلا ما أُنوِّلهم منى ، وهم بين عقلى وحيلتى رجالٌ لا عقول لهم ، وأنا بين أهوائهم وحماقاتهم امرأةٌ لا ذات لها

ثم أرى بغتةً رجلاً فرداً فلا أكاد أنظر اليه وينظر إلى حتى يضعَ فى قلبى مسئلةً تحتاج إلى الحل . . .

وأرتاعُ لذلك فأحاول تناسيه والاغضاء عنه ، فتلجُّ المسئلة فى طلب حلها وتشغلُ خاطرى وتتمدَّد فى قلبى وهو هو المسئلة . . . فأفزع لذلك وأهتمّ له وأجهدُ جهدى أن أكون مرة حازمةً بصيرةً كرجال المال فى حق الثروة عليهم ، ومرةً قاسيةً عنيدة كرجال الحرب فى واجبها عندهم ، ومرة خبيثة منكرة كرجال السياسة فى عملها بهم ؛ ولكنى أرى المسئلة تلين لى وتتشكل منى وتحتمل هذه الوجوهَ كلَّها لتبقى حيث هى فى قلبى فانه هو هو المسئلة . . .

وأغتمُّ لذلك غماً شديداً وأرانى سأسقط بعد سقوطى الأول وأقبحَ منه ، إذ الحياةُ عنـدنا قائمةٌ بالخداع وهـذا يُفسده الاخلاص ؛ وبالمكر وهذا يعطّله الوفاء ، وبالنسيان وهذا يبطله الحب . وإذ عواطفُنا كلها متجرِّدةٌ لغرض واحد هو كسبُ المال وجمعُه وادّخاره ، وفضيلتُنا عمليةٌ لا تتخيل ، حسابيّة لا تختلّ ، فيستوى عنـدنا الرجلُ بلغ جماله القمرُ فى سمائه ، والرجـلُ بلغت دمامتُه الذبابَ فى أقذاره ؛ والحبُّ معنا هو كم فى كم ويبقى ماذا . . . أو كما يقول أهل السياسة هو « النقطة العملية فى المسئلة » . ولـكن المسئلة التى فى قلبى لا ترى هذا حلاً لها ، لأنه هو هو المسئلة . . .

فيزيدُ بى الـكربُ ، ويشتد على البـلاء وأحتالُ لقلبى ، وأدبِّر فى خنقه وأذهبُ أقنعه أن الرجل إذا كان شريفاً لم يحب المرأةَ الساقطةَ إذ يُعاب بصحبتها والاختلاف إليها ، فاذا كان ساقطاً لم تحبه هى ، فانما هو صيدُها وفريستُها وموضعُ نقمتها من هذا الجنس ، وأُسرِفُ على قلبى فى الملامة والتعذيل فأقول له : ويحك يا قلبى ! إن المرأة منا إذا تفتّح قلبها لحبيبٍ تفتّح كالجرح لِيَنزِف دماءه لا غير ، فيقتنع القلب ويُجمِعُ على أن ينسى وأن يرجعَ عن طلبه الحب ؛ وأرى المسئلة قد بطلت وكان بُطلانُها أحسنَ حلّ لها ، وأنام وادعةً مطمئنة ، فيأتى هو فى نومى ويدخل فى قلبى ويُعيد المسئلة إلى وضعها الأول فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسئلة . . . .

فأتناهى فى الخوف على نفسى من هذا الحب وأراه سجنَها وعقابَها ، وقهرَها وإذلاَلها ، فأقول لها : ويلكِ يا نفسى ! إنما همُّكِ فى الحياة وسائلُ الفوز والغَلَب ، فأنت بهذا عـدوّةٌ مسماةٌ فى غفلة الرجال صديقة ، وقد وُضعتِ فى موضع تعيشين فيه بإهانات من الرجال يسمونها فى نذالتهم بالحب . فأنت عدوّةُ الرجال بمعنى من الدّهاء والخبث ، وعدوّةُ الزوجات بمعنى من

الحقد والضغينة ، وعدوّة البغايا أيضاً بمعنى من المغالبة والمنافسة ، وكلُّ ما يستطيع الدهاءُ أن يعمله فهو الذى علىَّ أنا أن أعمله ، فماذا أصنع وأنا أحب ؟ وكيف أمجح وأنا أحب ؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كلّه بعيدٌ عن المسئلة مادام هو هو المسئلة . .

* * *

قال الراوى : وكانت كالذاهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ فى قلبى ؟ فهذا كله هو الذى حدث فى سبعة أيام

قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب . وهَبْك صنعت تلك الروايةَ ووضعتَ على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فبماذا كنت تنطقها فى وصف حبها ، وما اجتذبها من رجل فاز بقلبها ولم يُداورْها ، بعد مائة رجلٍ كلُّهم داوَرَها ولم يفز منهم أحد . أتكون فى وجه هذا الرجل أنوار كتباشير الصبح تدلُّ على النهار الكامن فيه ؟

قالت هى : نعم نعم . بماذا كنت تنطقها ؟

قلت : كنت أضع فى لسانها هذا الكلامَ تجيبُ به عاذلةً تعذُلها :

تقول : لا أدرى كيف أحببته ، ولكنَّ هذه الشخصيةَ البارزةَ منه جذبتني اليه ، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مُفعَماً بالمغناطيس مصدرُه هو ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو

عرَضتْه لى شخصيتُه ظاهراً لأن جواب شخصيته فىَّ ، وأصبح فى عيني كبيراً لأن جوابَ شخصيتى فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيده كلَّ يوم ظهوراً وتزيدنى كل يوم بَصراً ، وأعطاه حقَّه فى الكمال عندى حقّه فى الحب منى ؛ وبتلك الشخصية التى جوابها فى نفسى أصبح ضرورةً من ضرورات نفسى

* * *

قال الراوى :

ولما رأيتها فى جوِّ نسيمه وعاصفته ، أردتها على قصّتها وشأنِها ، فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(فى العدد القادم بقيتها)

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى الأديبة و . س بدمشق : أما بعد الشكر للأديبة الفاضلة فأنت فى الشكوى والموضوع يتعذر . . . . وسيلتهى إليك كتابى الرافعى

افتتاح إفريقيـــة

وكيف غزاها الاستعمار الأوربى

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الايطالية الحبشية التى تكدر اليوم سلام العالم سوى نفثة جديدة من نفثات الاستعمار الغربى ، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزو أمة إفريقية ضعيفة تزخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التى مافتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب ، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة ؛ فهى ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف ، وإنما هى محاولة أوربيـة جديدة لاجتياح آخر أرض فى إفريقية استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الافريقية منذ قرن فقط ، منطقة بكراً ، لايكاد الغرب يعرف شيئاً إلا عن أممها الشمالية التى تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتى كانت تتمتع مدى الأحقاب بحضارات زاهرة ؛ وكانت هذه الأمم المتمدنة الزاهرة – مصر وبلاد المغرب – تكاد تحجب ماوراءها من أمم القارة السمراء ، وتكون دون اجتياحها سداً منيعاً يحميها من مطامع الاستعمار الغربى الذى استطاع منـــذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكتين ، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى ، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر فى الهند . ومنذ أواخر هذا القرن أيضاً توالت بعوث الاستعمار إلى إفريقية ، فنفذت اليها من الشرق والغرب والشمال ، وأثارت اكتشافات الرُّحَّل مثل منجو بارك ودنهام وكلابرتون ورنيه كابيه وستانلى ولفنجستون وغيرهم فى الأمم الأوربية مطامع وآمالاً جديدة ، وبعثت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية فى استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة ، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها فى سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أمم إفريقيـة الشمالية ، وهى مفتاح القارة ، بالطبع محط المشروعات والمحاولات الأولى ؛ وكانت اسبانيا أسبق الأمم

الأوربية إلى التطلع إلى تلك الأمم المغربية التى تواجهها فى الضفة الأخرى من البحر والتى خاضت معها من قبل كثيراً من المعارك ، والتى استطاعت أيام قوتها وازدهارها – أيام المرابطين والموحدين – أن تغزو اسبانيا وأن تحتل قسمها الجنوبى أعنى اسبانيا المسلمة ؛ ومنـذ أيام الأمبراطور شارلكان وولده فيليب الثانى (القرن السادس عشر) بذلت اسـبانيا – وهى يومئذ فى إبان قوتها وعظمتها – عدة محاولات لافتتاح الجزائر وثغور المغرب ، ولـكنها لم تستطع أن تظفر فى تلك الوهاد الوعرة بفتوح مستقرة ؛ واستطاعت تلك الأمم المغربية أن تحافظ على استقلالها فى ظل طائفة من الحـكام المغامرين الذين يرجعون إلى أصل تركى حتى فاتحة القرن التاسع عشر . وكانت اسبانيا قد انحدرت فى ذلك الحين إلى عداد الدول الثانوية ، وأخـذت دولة أوربية أخرى هى فرنسا تتطلع إلى افتتاح تلك الأمم واستعمارها ؛ وكانت حمى افتتاح إفريقية قد أخذت تسرى إلى الدول الأوربية ، على أثر الاكتشافات الجغرافية العديدة التى كشفت عن غنى تلك المجاهل بالثروات الطبيعية المدهشـة ؛ وخشيت فرنسا أن تسبقها أمة أوربية أخرى إلى غزو أمم المغرب التى تواجهها فى الضفة الأخرى من البحر ولا تبعد عن ثغورها الجنوبية سوى يومين ؛ ولم يكن يعوز الاسـتعمار أو تعجزه حجج التدخل والعدوان . ففى سنة ١٨٣٠ ، فى عصر الملك شارل العاشر ، جهزت فرنسا أسطولاً ضخما ، وحملة قوية إلى ثغر الجزائر ؛ واستولى الفرنسيون على الثغر الحصين بعد قتال رائع ، وانسحب الحاكم التركى (الداى) بأمواله وأسرته ؛ واتخذ الفرنسيون من الجزائر قاعدة لغزو المغرب الأوسط كله ؛ وكانت بتوسطها ومناعتها أصلح القواعد ؛ ولـكن فرنسا لقيت خصما صلباً عنيداً فى عبد القادر زعيم الجزائر وبطلها الأشهر ؛ وقد استطاع هذا الوطنى الـكبير والجندى الباسل أن ينظم الدفاع عن وطنه زهاء خمسة عشر عاماً هزم خلالها عدة حملات فرنسية قوية ، وكبد فرنسا خسائر فادحة فى الرجال والمال ؛ ولـكن السياسة الاستعمارية لم ترتد أمام هذا النضال الوطنى الرائع ، ولم تحجم فى سبيل غايتها عن أية تضحية ؛ فما زالت فرنسا تبعث الحملات المختلفة ، وتستولى تباعاً على قواعد الجزائر ، وتخوض مع عبد القادر معارك مضطرمة مستمرة ، حتى أتمت فتح الجزائر ؛ وأسر عبد القادر بعد خطوب وأحداث جمة (سنة ١٨٤٧) ، وارتد الزعيم الباسل بعد أعوام من الأسر بأسرته إلى دمشق ليقضى بقية أيامه فيها

وهكذا كانت الجزائر أول قطر أفريقى سقط فى يد الاستعمار الأوربى ، وكان سقوطها فاتحة تلك الحركة الاستعمارية الهائلة التى تعرف « بافتتاح إفريقية » والتى اشـتركت فيها معظم الدول الأوربية الـكبرى ، طوراً متحدة وطوراً منفردة ، واستمرت طوال القرن التاسع عشر ، وانتهت بتقسيم إفريقية ، وسقوط أقطارها تباعاً فى يد الدول الاستعمارية الـكبرى

ولما اسـتقرت فرنسا فى الجزائر أخذت تتطلع إلى تونس ومراكش ؛ وكانت تونس بما يسودها من الضعف والتفكك فريسة هينة ، فما زال الفرنسيون بها حتى جردوا عليها حملة غازية فى سنة ١٨٨١ ثم جردوا عليها أسطولاً رسا فى بنزرت ، وزحفوا على تونس فى مايو سنة ١٨٨٥ وأرغموا « الباى » صاحب تونس على أن يعترف بالحماية الفرنسية على القطر التونسى . أما مراكش فقد استطاعت لمنعتها ووعورتها أن تقف فى وجه الاستعمار مدى حين ، وعاونتها السياسة الألمانية على مقاومة فرنسا وإحباط محاولاتها حتى أوائل القرن الحالى

وفى الوقت الذى سقطت فيه تونس فى يد الفرنسيين كانت انكلترا قد نظمت مشروعها لاحتـلال مصر ، وألفت فرصتها فى اختلال الأحوال المالية ، وفى قيام الثورة العرابية ، فبعثت حملتها المعروفة إلى مصر فى صيف سنة ١٨٨٢ ، واحتلت عاصمتها فى سبتمبر ، فى ظروف ما زالت معروفة ماثلة فى جميع الأذهان ، وما زال الاحتلال الانكليزى قائماً فى مصر ، وما زالت المسألة المصرية تنتظر حـلا شريفاً عادلا يحقق أمانى مصر فى استرداد حرياتها واستقلالها

***

ومنـــذ منتصف القرن التاسع عشر كانت البعثات الاستكشافية العديدة قد ألقت برحلاتها ومباحثها كثيراً من الضياء على افريقية ومجاهلها ووهادها الغنية ، وثرواتها الطبيعية المتنوعة ، ولم تمض أعوام أخرى حتى اكتشفت منابع أنهارها العظيمة مثـل النيل والنيجر والـكونغو ، وحققت مجاريها

٥ ٠ ٣٤

وأحواضها ، وأخذت روعة الثروات العظيمة التى اختصت بها القارة السمراء تحفز الاستعمار الأوربى وتذكى أطماعه ، واشتدت المنافسة بين الدول الكبرى لاقتسام هذه الأقطار الغنية واحتلالها . عندئذ اتفقت الدول على عقد مؤتمر ينظم اقتسام افريقية ، ويحدد مناطق النفوذ والنشاط لكل دولة ، وكان بسمارك المستشار الألمانى هو صاحب الفكرة ، فعقد المؤتمر فى برلين فى أواخر سنة ١٨٨٤ ، واتفق على أن تكفل الحرية التجارية المطلقة لجميع الدول فى حوض الكونغو ، وأن تكفل حرية الملاحة فى نهرى النيجر والكونغو ، وألا يعتبر الاحتلال النظرى قائماً فى منطقة من المناطق حتى يؤيد بالاحتلال الفعلى ، واعترف المؤتمر أيضاً بقيام دولة مستقلة فى الكونغو وأنها ملك شخصى لملك البلجيك وهى التى أضحت فى يومنا مستعمرة عظيمة تملكها دولة أوربية صغيرة هى البلجيك

على أن قرارات مؤتمر برلين لم يكن لها أثر فعلى ظاهر فيما تلا من تقسيم افريقية . وكانت فرنسا قد وضعت يدها على الجزائر وتونس والسنغال ، ووضعت انكلترا يدها على مصر ، ومنطقة الرأس (الكاب) ، وبدأت ألمانيا احتلالها فى نفس الوقت للكمرون وتوجولاند وشرق افريقية ؛ ولم يكن ثمة بد من أن تتفاهم هذه الدول الاستعمارية الكبرى فيما بينها بمعاهدات واتفاقات خاصة على تحديد المناطق التى تطمح كل إلى امتلاكها ، وكانت كل دولة قد شادت بما احتلته أسس امبراطوريتها الاستعمارية فى افريقية . وكانت فرنسا أنشطها فى بناء هذا الصرح الاستعمارى ، فلم تأت أواخر القرن التاسع عشر حتى كانت قد احتلت معظم افريقية الغربية ، واستولت على السنغال وأعالى النيجر ، وساحل العاج ، وداهومى ، ونفذت فى قلب افريقية إلى السودان الأوسط حتى بحيرة تشاد ، ووطدت أقدامها فى الشمال فى تونس والجزائر ، وافتتحت جزيرة مدغشقر فى سنة ١٨٩٥

أما انكلترا فانها وطدت أقدامها فى وادى النيل ، فى مصر والسودان ، وشرق افريقية البريطانى ، واحتلت زنجبار ، وأخذت فى بناء امبراطوريتها الاستعمارية العظيمة فى أواسط افريقية وجنوبها . وكانت منذ أوائل القرن التاسع عشر قد احتلت منطقة الرأس (الكاب) كما قدمنا ، وكان البوير (وهم سلالة المستعمرين الهولنديين الأوائل) قد استقروا فى منطقة « الأورانج » وفى « ناتال » ، فاستولى الانكليز على ناتال ، وهاجر البوير منها ، وأسسوا لهم مستعمرة جديدة هى « الترنسفال » واعترفت انكلترا باستقلالها سنة ١٨٥٢ ، ولكن انكلترا ما فتئت تبسط سلطانها نحو الشمال تباعا ، فاستولت على أرض الكفر وباسوتولاند ؛ وفى أواخر القرن التاسع عشر أنشأ سسل رودس شركة استعمارية على مثال الشركة التى أسست من قبل فى الهند ، وعضدت الحكومة الانكليزية مشروعه فى فتح الأراضى الواقعة حول حوض الزمبيزى وأمدته بالمال والجند ، وهكذا افتتحت رودسيا ، وأصبحت انكلترا تسيطر على أواسط افريقية الجنوبية من منابع الكونغو حتى الكاب ، ولم يبق خارجا عن سلطانها سوى الترنسفال ومستعمرة الأورانج حيث استقر البوير . وكانت انكلترا تطمح دائما إلى ضم هاتين المستعمرتين إليها لتوحد امبراطوريتها فى افريقية الجنوبية ، وكان البوير من جهة أخرى بزعامة رئيسهم الشهير « كروجر » يناوئون كثيراً من مشاريعها الاستعمارية ، ويقاومون تدخلها بشدة ؛ وأخيراً لم تر انكلترا بداً من اعلان الحرب لتحقيق غايتها ، فاضطرمت الحرب بينها وبين البوير (أكتوبر سنة ١٨٩٩) وأبدى البوير بسالة عظيمة ، واستطال دفاعهم زهاء ثلاثة أعوام ؛ وأخيراً اضطروا إلى الاعتراف بسيادة انكلترا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم الداخلى ، ونالوا من انكلترا تعويضاً ضخماً عما أصابهم من التخريب والخسائر ، وكبدت هذه الحرب الشهيرة انكلترا خسائر فادحة فى المال والرجال ، ولكنها استطاعت أخيراً أن تحقق مشروعها فى توحيد امبراطوريتها فى جنوب أفريقية

* * *

وفى أواخر القرن التاسع عشر اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية ولاسيما بين ألمانيا وانكلترا من جهة ، وبينها وبين فرنسا من جهة أخرى . وانتهت انكلترا وألمانيا أخيراً إلى التفاهم وعقدتا فى سنة ١٨٩٠ معاهدة لتخطيط الحدود بين أملاكهما فى إفريقية . وعقدت بين انكلترا وفرنسا فى سنة ١٨٩٨ معاهدة لتحديد أملاكهما فى حوض النيجر وغرب إفريقية ، ثم عقدت

بينهما معاهدة أخرى فى ســـنة ١٨٩٩ على أثر حادثة فاشودة المشهورة وفيها تنازلت فرنسا عن دعاويها فى أعالى النيل ؛ وأخيراً عقد « الاتفاق الودى » بين الدولتين فى سـنة ١٩٠٤ ، وفيه تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انكلترا فى مصر وألا تناوئ سياستها فيها ؛ وتعهدت انكلترا من جانبها أن تطلق يد فرنسا فى مراكش وألا تناوئ سياستها فيها

وثارت بين ألمانيا وفرنسا من أجل مراكش خصومة مضطرمة كادت أن تنفجر غير مرة ؛ وكانت فرنسا تحرص على أن تضم مراكش إلى امبراطوريتها الافريقية ، وتحرص ألمانيا من جانبها على أن تضع فى سبيل فرنسا كل عقبة ممكنة ؛ وفى سـنة ١٩٠٥ ، زار الامبراطور ولهلم الثانى ثغر طنجة وألقى خطاباً رناناً حمل فيه على السياسة الفرنسية ؛ واضطرت فرنسا أن تقبل بحث المسألة المراكشية فى مؤتمر دولى ؛ وعقد المؤتمر فى الجزيرة (باسبانيا) سنة ١٩٠٦ من الدول الكبرى ؛ وأصدر قراراً باعلان استقلال السلطان ، ووجوب المحافظة على وحـدة الأراضى المراكشية ، مع الاعتراف بحقوق اسـبانيا وفرنسا ومصالحهما الخاصة فى هـذه المنطقة . ولم تغنم ألمانيا شيئاً . وفى سنة ١٩١١ جردت فرنسا حملة على فاس ، وانتهزت ألمانيا هـذه الفرصة فأرسلت سفينة حربية إلى أغادير ، ووقعت بين الدولتين مشادة حادة كادت تنتهى باضـطرام الحرب بينهما ؛ ولـكن الخلاف انتهى بعقد معاهدة اعترفت فيها ألمانيا بحقوق فرنسا فى مراكش مقابل مزايا استعمارية كبيرة فى إفريقية الوسطى . وعلى أثر ذلك انتهزت فرنسا الفرصة وعملت على ارغام مراكش على قبول حمايتها بمعاهدة عقدت مع السلطان فى سنة ١٩١٢

أما إيطاليا ، وهى رابعـة الدول الاستعمارية الـكبرى التى اشتركت فى اقتسام أفريقية ، فـكان نصيبها طرابلس فى الشمال ، وارترية وشطراً من بلاد السومال فى الشرق . وسنعرض فى فصل قادم إلى تفصيل هـذه الغزوات الاستعمارية ، وسنعرض بوجه أخص إلى موقف الحبشة من هـذه الحركة الأوربية الاستعمارية الشاملة وكيف نجت من عواقبها ، واستطاعت أن تحتفظ باستقلالها إلى يومنا ؟

للبحث بقية (...)

٣ ـ الشــعر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم احمد حسن الزيات

---

٢ — خصائص الشعر فى العراق

أما الفرزدق فهو كالأخطل فى الذؤابة من قومه ، إلا أنه كان صريح العـداوة فلا يوارى ، فاحش الدعابة فلا يحتشم ، شـديد الدعارة فلا يتعفف ، حاد البادرة فلا يتلطف ؛ فهو فى هجائه يذكر العورات ويعلن المخزيات بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحى الشاب أن ينشدها ، بَلهَ الفتاة الخفِرة . وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هى كل الأسباب التى أوجدت هـذا الهجاء السوقى الوقح ، فان الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يُسفوا هذا الاسفاف ، فلابد أن يكون لحياة العراق فى ذلك العهد أثر قوى فى ذلك : فالخلق العربى القوى قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختـلاط العرب بالعجم ، والوازع الدينى قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية ، والسلطان السياسى يغمض جفنيه ويضحك ملء شدقيه من هذه المهازل التى يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة . أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والدعاية ، وربما أتى كل رجل منهم بالبيتين والثـلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم فى مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير . وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق فى جرير ، فهو يرمى قومه بضـعة النسب ، وضعف الحيلة ، واتخاذ الغنم ، ورعى الابل ، وإتيان الأتن ، ويفتنُّ فى هـذه المعانى افتنانا عجيبا : يرددها فى كل قصـيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتحرج أحيانا من افتعال الحوادث المضحكة إمعانا فى السخر من المهجو والنيل منه

وهـذا غاية ما وصل إليه الهجاؤون وأهل التنادر فى عصور

---

* من الطبعة الجديدة لـكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر حديثاً

الترف والخلاعة . وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنىء الذى لا يعتقده ولا يصدقه الناس ، إنما يعمد إليه مبالغة فى التحقير والتشهير على نحو مايعمل الرعاع فى الطبقات الوضيعة ، وذلك مالم نعهده فى الهجاء من قبل ، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن فى المرء فيمدح ، أو جهة المساوىء فيه فيذم ، وهو فى كلتا الحالين صادق

وقد يتدلى الفرزدق فى الهجاء إلى الدرك الذى لا تسيغه رجولة ، فينقض رثاء جرير(١) لامرأته بهجائها المقذع ، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة ، كقوله :

كانت منافقة الحياة وموتها / خزى علانيـة عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى / جزعاً غـداة فراقها الأعيار
تبكى على امرأة وعندك مثلها / قـمساء ليس لها عليك خمار
وليكفينك فقد زوجتك التى / هلـكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة فى الحياة ولا أرى / ميتاً إذا دخل القبور يزار

ورأى الفرزدق فى المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة ، وربما دل أيضاً على منزلتها فى المجتمع العربى فى ذلك العهـد ؛ ولا نستنبط ذلك من قوله فى زوجة جرير ، فقد يكون للخصومة بعض الأثر فى سوئه ، وإنما نستنبطه من قوله فى زوجته هو حين ماتت :

يقولون زُر حدراء والترب دونها / وكيف بشىء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت علىّ بزائر / تراباً على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله / على المرء فى أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيتَ ولم تكن / على امرأة عينى اخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز / رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير ، وشهوة الغلبة عند العامة ، ونفاد المعانى السامية فى الهجاء على طول المدة ، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الذم ، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج فى الاقذاع والبذاء ، حتى خرج شعرهما فى النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة . ولـكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيمه ، فيتوب عن قرض الشعر ، ويكف عن هجاء الناس ، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول :

ألم ترنى عاهدت ربى وأننى / لبين رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما / ولا خارجاً من فىّ سوء كلام

أو يجيب إلى داعى الشرف لحسبه فيصدر فى الهجاء عن طبع أبىّ ونفس كريمة ، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه ، كقوله فى معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته :

أبوك وعمى يا معاوىَ أورثا / تراثاً فيحتاز التراثَ أقاربه
فما بال ميراث الحُتات أخذته / وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر فى جاهلية / علمتَ من المرء القليل حلائبه

إلى أن يقول :

وما ولدتْ بعد النبى وأهلِه / كمثل حصانٍ فى الرجال يقاربه
وكم من أب لى يا معاوى لم يزل / أغر يبارى الريح ما ازورّ جانبه
تمته فروع المالـكين ولم يكن / أبوك الذى من عبد شمس يخاطبه

***

أما الطامة الكبرى فهى جرير ، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تـكبحه شكيمة ؛ فلا هو صاحب سياسة كالأخطل ، ولا صاحب نِحلة كالفرزدق ، ولا وارث مَجادة كالاثنين ، وإنما كان سوقياً تَرْعِيَـة رزقه الله حدة الذهن ، ورقة الأسلوب ، وخبث اللسان ، وزاده الهراشُ صلابة عود ، وغزارة فـكر ، ومتانة شعر ، وسهولة قافية ، فبلغ بالهجاء الفردى والقبَـلى غايته فى الاقذاع والاقناع والقوة ؛ وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة فى الهجاء كذكر العورات ، وهتك المحارم ، فاضطر خصومه إلى أن يكاءوه باصطلاحه ، ويقاتلوه بسلاحه ، وأصبح بعده الهجاء فى العراق لا يفعل فى النفوس إلا مشوباً بهذا القـذر ؛ وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق

كان جرير لعاميته وبيئته ، وللأسباب التى ذكرناها من قبل فى معرض الـكلام عن الفرزدق ، يصطنع فى الهجاء أساليب الدهماء ، فيعير الأخطل بالقلف والخنزير والسكر ، ويقذف البعيث فى أمه وهى أمَـة سجستانية ، ويهاجم الفرزدق فى جدته فيتهمها

(١) وهى القصيدة التى مطلعها :
لولا الحياء لهاجنى استعبار / ولزرت قبرك ، والحبيب يزار

بجبير القين ، وفى أختــه جعثن فيرميها بابتذال بني مِنقر إياها على أثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم ، ويشهر بقومه فى إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم فى قتل الزبير ، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا ، فيجسمها بالمبالغة والتزيُّد كضربته النابية للرومى ، وزيجته القالية من نوار

وكان الفرزدق يذهب فى هجائه مذهب الفخر بآبائه ، فيعدد أيامهم الظافرة ، ويجدد مفاخرهم الغابرة ، فلا يستطيع جرير مجاراته فى هذا المضمار ، فيعمد إلى نقض الفخر الصلف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع ؛ وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لا يقام له . اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنــا   بيتاً دعائمــه أعز وأطول

نجده يقول بعد هذا البيت :

بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتبى بفنــاء بيتك مثلهم   أبدا إذا عد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير فى نقيضته لها :

أخزى الذى سمك السماء مجاشعاً   وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم قينُكم بفنــائه   دنسا مقاعدُه خبيثَ المدخل
قُتل الزبير وأنت عاقدُ حبوةٍ   تبًّا لحبوتك التى لم تحلل
وافاك غدرُكَ بالزبير على منىً   ومجَرُّ جعثنِكم بذات الحرمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه   وعجان جعثن كالطريق المُعمل

ويقول الفرزدق :

حلل الملوك لباسُنا فى أهلنا   والسابغاتِ إلى الوغى نتسربلُ

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنــكم   بعد الزبير كحائض لم تَغْتسل

ويقول الفرزدق :

أحــلامنا تزن الجبال رزانةً   وتخالنا جناً إذا ما نجهـــلُ
فارفع بكفك إن أردت بناءَنا   ثهلانُ ذو الهضبات هل يتحلحل ؟
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان حِباء جفنةَ ينقل
إنا لنضرب رأس كل قبيلة   وأبوك خلف أتانه يتقمـــل

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القرمل
واخر بضبة إن أمك منهمُ   ليس ابن ضــبة بالمعم المخول
أبلغ بنى وقبانَ إن حلومهم   خفتْ فلا يزنون حبة خردل
أذرى بحلمهمُ الفِياش فأنتمُ   مثل الفَراش عشين نار المصطلى

ويقول الفرزدق :

وهب القصــائدَ لى النوابغُ إذ مضوا   وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ثم يمضي يعدد الشعراء الفحول ويقول :

دفعوا إلىّ كتابهن وصية   فورثتهن كأنهن الجنــدل

فيجيبه جرير :

أعـــددت للشعراء سماً ناقعــاً   فسقيت آخرهم بكأس الأول
لما وضعت على الفرزدق مِيسمى   وضغى البَعيث جدعت أنف الأخطل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشعاً   ويعـــد شعر مرقش ومهلهل

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب فى الطريق السهل ، ويطفى حرارة الجد ببرودة الهزل ، ويقابل الكمىّ الهاجم فى سلاحه ولأمته ، وهو فى ثوب المهرج وبزّته وضحكته

وجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم فى حياتيه الخاصة والعامة ، فيتسقط أخباره ويتلقط حوادثه ، ثم يعلنها فى شعره تشهيراً به وفضيحة له :

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها ، فيقول جرير :

يا زيق قد كنت من شيبان فى حسب   يا زيق ويحك من أنكحت يازيق
أنكحت ويلك قيناً فى استه حمم   يا زيق ويحك هل بارت بك السوق
يا رب قائلة بعــد البناء بها :   لا الصهر راضٍ ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له : ماتت ، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير ، فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة فى قوله :

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى   بحدراء قوم لم يروك لها أهلا

ويعبث الفرزدق فى المدينة عبث الشباب ، ويعترف بذلك فى قوله :

هما دلتانى من ثمانين قامة   كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فيقول له جرير :

تدليت تزنى من ثمانين قامة   وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويضرب الرومىّ فى حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير :

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع   ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدّتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة ، كصحف الأحزاب تحمل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها ، وموضوعاً لنقدها ونضالها ؛ وجرير لطول ماتمرس بالهجاء وغامر فى الخصومة ، لاذع السخرية ، فاحش الدعابة ، مر التهكم ، ومن ذلك كان يتضور الفرزدق ويمتقع لونه كما وردت المربد قصيدة لجرير . وأى تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله :

يا تيم إن بيوتكم تيمية   قعس العماد قصيرة الأطناب

قوم إذا حضر الملوك وفودهم   نُتفت شواربهم على الأبواب

وقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مرحباً   أبشر بطول سلامة يامربع !

وقوله :

والتغلبى إذا تنحنح للقِرى   حك استه وتمثل الأمثالا

وقوله :

خلّ الفخر يا ابن أبى خليد   وأدّ خراج رأسك كل عام

لقد علقت يمينك رأس ثور   وما علقت يمينك باللجام

(يتبع)

الزيات

السنيون والشيعة

وموقفهما اليوم

للأستاذ محمد رضا المظفر

أُتيح لى أن أتناول « تاريخ القرآن » للأستاذ الزنجانى أبى عبد الله ، فأقرأ فى مقدمته كلمة الأستاذ « أحمد أمين » القيّمة فى بابها . أقرأها ، فيطربنى ما فيها من نغمة متواضعة على وتر من احساس جديد ، نعرفه فى الأستاذ اليوم

ولا أكتم الأستاذ أنى رجعت إلى ذكريات اختزنت عنه من قراءتى لفجر الاسلام وضحاه . ما آلم هذه الذكرى ! فقد خلقت للأستاذ عندى شخصيتين ، تباعدتا على قرب العهد بينهما ، وكادت تدفعنى يومئذ إلى مقالة أضعها بين يديه فى « الرسالة » أو فى غيرها : لا تخرج عن عتاب برىء على كتابيه ، وعن تشجيع على كلته الأخيرة وتأييد لها ، وهى التى أطمعتنى فيه ، لننشد صراط الاصلاح المستقيم ، ولكنى تلكأت لا لشىء ، وما أدرى لماذا كان ؟ ولعله لصلاح !

ومنذ أيام كان عدد الرسالة الـ (١١٠) فى يدى ، فقرأت كلة الأستاذ محمد بك كرد على ، عن تاريخ القرآن ومقدمته ، فطابت لى النبرة وجريت عليها حتى تناولت القلم ، وهأنذا أحدثك وأنا شيعى أجرى مع سنيين فى ميدان الاصلاح لحظيرة الوحدة التى أقامها لنا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

شهد الله والنبى الأكرم أن من أثقل الأشياء على قلمى أن يَقرن بين كلمتى سنى وشيعى : يتقارنان تقارن افتراق ، ويتصلان اتصال تنافر ، كقطبى المغناطيس المتماثلين ، وقد خلقت لهما السياسة الغاشمة هذا التنافر الشائن يوم خُلقت ، وآن لنا أن نخجل أمام الله ورسوله من استمرارنا على هذا الشنآن بين أعداء تستمرّ على مطاردتنا وتستغلّ افتراقنا . وما أجدرنا اليوم أن نضرب على هاتين الكلمتين فى قاموس اللغة ، فنستريح ونُريح ، ونعود أمة اسلامية واحدة كما أرادها الرسول ، أو كما أرادها الله آمنة مطمئنة خير أمة أخرجت للناس !

يرجو الأستاذ (أحمد أمين) فى مقدمته — بعد أن ألمّ إلى

بعض أسباب الخلاف — (أن يفكر عقلاء الفريقين فى سبيل الوئام، ويعملوا على احياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حراً فى التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب) ويتابعه الأستاذ (محمد بك كرد على) فيقول: (ورأى صديق هو رأى فريق كبير من علماء المسلمين اليوم) ثم ينقل لنا خطاب العلامة شيخ الجامع الأزهر، ويقترح أخيراً أن يكتبوا كتاباً فى منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة والطرق العملية لازالته

وأنا أقترح هذا الاقتراح نفسه على علماء النجف الأشرف عاصمة الشيعة الدينية والعلمية، ونقترح جميعاً على الفريقين أن يتفاهموا جميعاً قبل كل شيء، ولكن كيف نحقق هذا الاقتراح ونفرضه عليهم فرضاً؟ يجب أن نعمل له! فهل نستطيعه ولا نجعله مثار نزاع جديد؟

وأؤكد لك أن نشدان علماء الشيعة هو هـذه الوحدة الضاعة، يسعون لها ماسنحت الفرصة، وما عرض لها الزمن، احتفاظاً بجامعة الاسلام العليا، وتوحيداً لكلمة المسلمين

فى إبّان تأسيس الحكم الوطنى فى العراق (والشيعة أكثرية العراق) نادى علماء النجف بالوحدة عالياً، وغالوا فى ذلك إلى أبعد حد، وبذلك استطاعت الأمة العراقية أن تجعل من نفسها شعباً حياً وحكومة صادقة

ولم يكن أبناء الأقطار العربية الأخرى — وخاصة فى مصر — يحسون بواجبهم إزاء العراق الفتى المتطلع إلى سحق العهد التركى البالى، فكانت لهجات متتابعة، ووخزات نافذة تلقتها صدور الشيعة من مصر وسوريا، تلحّ عليها الحاحا، وتكدّر عليها صفو الاتفاق أيما تكدير، وكان من بينها فجر الاسلام وضحاه (وأرجو ألا تخدش هـذه الكلمة عواطف الأستاذ مؤلفهما، فانها الصراحة نريد أن نتبعها) تعززها الأقلام المستأجرة فى العراق، وبعبارة أصرح أقلام الاستعمار، بينما العراق فى ضرورة ملحة إلى الاتفاق بين سنيته وشيعيته، ليرتقى سلم الاستقلال المنشود

***

إنما هى واحدة تجب رعايتها اليوم على كل باحث عن الشيعة من اخوانهم السنيين، غُفل عنها فى فجر الاسلام وغيره. هى واحدة تحل كثيراً من الشغب اليوم

نحن نفهم من كلمة الشيعة إذا قلناها: الأمامية الاثنى عشرية خاصة، لأنهم الأكثرية من بين فِرَق شتى، وذوو المؤلفات والمعارف التى يُقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وإيران والامارات العربية على الخليج الفارسى والهند وأفغانستان، وما إلى ذلك، وهناك الزيدية فى اليمن والبهرة فى الهند. أما الفِرَق الأخرى التى يعدّدها مثل الشهرستانى فى الملل والنحل وغيره، فقد أصبحت فى خبر كان ولا يُعرف لها أىّ أثر فى هـذه البلاد المترامية الأطراف، إلاّ بعض فِرَق لا يُسمع لها حسيس فى المجتمع الشيعى ولا غيره كالغالية

فاذا طوّح القلم بالكاتب اليوم عن الشيعة، وقرأ ما كتبه السلف عنهم، خلط الحابل بالنابل، وألصق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة، وعلى الأصح بالشيعة بالمعنى المفهوم الآن، فكانوا فى نظره مرجئة، وغالية، ومجسمة، ومجبرة، وسبئيّة، وزركشية، وما إلى ذلك

وهـذا ما يُبنى على الباحث المتتبّع، وهذا ما يثير غضب أولئك الشيعة الأحياء، من غير ما حاجة تدعو الكاتب ولا ضرورة، وما أجدر الكتّاب أن يتنبهوا اليوم لهذه الناحية، فلا يثيروا كوامن أحقاد شائنة بذرتها السياسة لأغراضها فى زمن بعيد لسنا أبناءه، فلا يصطدم بآراء أفراد — لا فِرق — لا نعرف عنهم كثيراً، ولا يصح أن يدخلوا تحت هذا الاسم. وعند ذلك قد نُوَفق إلى التفاهم فالتقارب حيث تفرضه الاخوة الاسلامية، ويكون بحثنا نزيهاً يتطلب الحقيقة ليس إلاّ، ليتلقى الطرفان نتائجه بصدر رَحب — على ما يقوله الأستاذ أحمد أمين — كما يتلقون النتائج فى أى بحث علمى وتاريخى، وكما يقع البحث بين علماء الشيعة أنفسهم، وبين مذاهب السنة أنفسها، مادامت السياسة بعيدة عنه ومادام بعيداً عنها

***

وإذا لم نستطع أن نصل إلى ما نتمناه من حمل علماء الأزهر وعلماء النجف على هذه الطريق الحميدة، وعلى هذا العمل المبرور، فأكبر الظن أن من السهل علينا ألا نذهب بعيداً، فنقترح على (الرسالة) الهادية أن تفتح لنا بين أعمدتها سبيلاً للبحث النزيه، وتعززنا بشجاعتها الأدبية، فلا تصغى إلى سخط العامة — إذا ما كان — لنستطيع أن نُنقى من أطمار الماضى مارثّ وبَلى

وفى النجف عندنا جمعيّة دينيّة علمية أُسست هـذا العام باسم (منتدى النشر) تسمى لهذا الواجب وتدعو إليه، (وهى تضم طبقة صالحة من علماء النجف وفضلائها)، وبصفتى كاتبها العام أُذيع عنها هذه النية المحمودة، وأُذيع عنها استعدادها للعمل فى هـذا السبيل. ولقـد كان لما كتبه الأستاذان (أحمد أمين) و(محمد بك كرد على) الوقع الجميل فى نفوس أفرادها، ورحبوا بهذا التفكير العالى الـكبير

وفى مصر (لجنـة التأليف والترجمة والنشر) الموقّـرة، فى استطاعة الجمعيتين أن يقفا فى ملتقى الطريقين، ليأخذا بأيدى الباحثين إلى الحد المعقول، ويتلقيا النتائج للعمل عليها ونشرها فى بلاد الله، كما نريد أن نقترحه على علماء الأزهر والنجف

ندعو إلى هـذا عقلاء قومنا ليضعوا حـداً لهذه المهازل، وليقاربّوا على خطّة واحدة لحلّ الخلاف. وعندى أن يُسدل حجاب كثيف على الماضى البعيد، فيما يعود إلى الحوادث التاريخية التى لا تمس حياتنا العملية اليوم، فينحصر البحث فى نقطة عملية لا غنى لنا عنها

كل ما عنـد الشيعة أنها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم سفينة النجاة، ولـكن ليس كعقيدة وموالاة فحسب، فان هذه عقيدة كل مسلم اعتنق دين الاسلام مصدّقاً لما جاء به النبى (ص)؛ وإنمـا تعنى من التمسك بهم أن نأخـذ بأقوالهم فى أحكام الفقه ونرجع إليهم فى دين الاسلام، ولا نعرف للتمسك بهم معنى غير هذا، وندلل على أن ما جاء به النبى ورثوه عنه، وعلمه مكنوز عندهم وهم أمناء عليه معصومون، لا كسائر الرواة عنه وعنهم، يروون الأحاديث كنقـال يخطئون فى النقل ويصيبون، ويصدقون ويكذبون

وبهذا بَعُدت الشقـّة العملية بينهم وبين اخوانهم أهل السنة، وكثر الخلاف فى الفروع الفقهية؛ فكان وضوء السنة وكان وضوء الشيعة، وكانت صلاة السنة وكانت صلاة الشيعة، وكان وكان

فان استطعنا أن نتفق ونحلّ هذا اللغز بيننا حلاً مرضياً، فقد وفـّقنا الى كل شىء، واستطعنا أن نوجه جبهة الاسلام، كما يشاء لنا ديننا دين القيمة، وما هذا على الرجال المخلصين بعزيز

النجف الأشرف — **محمد رضا المظفر**

كاتب (منتدى النشر) العام

النقـــد والمثال

لغز الشعر

للأستاذ أحمد الزين

من أهم ما تتفاوت به منازل الشعراء، وتتمايز درجاتهم فى الشعر، وتتفاضل به أذواقهم الفنية فى أداء المعنى وبلوغ الغرض، ويختبر به مدى ثقافاتهم البيانية، ويُعرَف منه مقدار مطالعاتهم الأدبية، ونفوذ كلٍّ منهم إلى حُرّ الـكلام وخالصه، وارتوائه من صفو البيان وصريحه، وحفظُه لأحـسن ما قرأ، وحسنُ استعماله أحسنَ ما حفظ من الكلمات والعبارات، هو ذلك الثوبُ البيانىّ الذى يُلبسه الشعراء معانيهـم، وتلك الصورة اللفظية التى يُبرزون فيها أغراضهم، فبحسَب ما يكون ذلك الثوب مقدّراً على المعنى، محيطا بأطرافه، مقيساً على أجزائه، وتكون تلك الصورة اللفظيـة مظهرةً للغرض، مبرِزةً لخفايا المعنى، مصوّرةً لدقائق الفكرة، ومايودعه الشاعر بفنه فى تلك الصورة من الحياة والسحر، وما يترقرق فى الكلمات والعبارات من ماء الجمال، ورونق الحسن، وطلاوة المنطق، أقول: بحسب ذلك كله يكون أثر الشاعر فى القلوب، وسلطانُ شعره على قرّائه، ومنزلتُه فى الفنّ بين نظرائه. وليس المراد بتحسين الألفاظ وتجميل العبارات هو مجرد جريانها على قواعد اللغة، وموافقتها لنصوص المعجمات، فليس كلّ ما تبيحه اللغة وقواعدها يباح فى الشعر استعماله، ويسوغ للشعراء التعبير به، إذ الشاعر إنما يقصد فى شعره إلى الروعة والجمال وعدم الابتذال أكثر من قصده إلى مجرد جواز الاستعمال. وقد سبق أن أوضحت ذلك فى بعض الفصول التى كتبتها من زمن بعيد فقلت ما نصه: إنه مما لا ينازِع فيه ذو ذوق أدبى دقيق أن للشعر لغة خاصة يتميز بها عن غيره، إذا فقدها لا يسمى شعراً بل يسمى كلاماً عروضياً، أى أنه يشبه الشعر فى وزنه وقافيته، دون ألفاظه ولغته، كما أن لـكل من الـكتابة والخطابة ألفاظاً خاصة يتميز بها كل منهما عن صاحبه، ويتميزان بها عن الشعر؛ والفروق الدقيقة بين

ألفاظ هـذه الصناعات الثلاث وعباراتها لا يدركها إلا من له ذوق صحيح وملـكة فنية فى إحدى هذه الصناعات أو فى جميعها .

وقد كان بعض النقاد فى العصور الأولى يسمع الشعر الجيد فيفطن بجودة حسّه إلى ما فيه من ألفاظ غير شعرية ، فيحكم بأنه شعرُ شاعرٍ أو شعرُ كاتب ؛ وكتب الأدب ملأى بهذه الطرائف .

وقد فطن علماء الأدب المتقدمون إلى هذه الفروق فأفردوا ألفاظ الـكتّاب وعباراتهم بمعجمات خاصـة ، منها كتاب الألفاظ الـكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذانىّ ، وجواهر الألفاظ لأبى الفرج قدامة بن جعفر وغيرها ؛ وفى كتاب زهر الآداب للقيروانى فصول كثيرة خاصة بألفاظ الـكتّاب وعباراتهم فى كل غرض من أغراض الـكتّاب والمنشئين فى ذلك العهد .

ولم أجد من العلماء فيما راجعتُ مَن أفرد ألفاظ الشعر والخطابة بمعجم خاص ، وذلك يرجع فيما أظن إلى أن ألفاظ كل صناعة من هذه الصناعات الثـلاث لا تتيسر معرفتها معرفة صحيحة إلاّ لأهلها المشتغلين بها ، والمتوفرين عليها ، بل لفحولها المبرزين ، وأعلامها المتميزين ، لا لـكل من اشتغل بها ، فلا يمكن الـكتاب أن يدركوا من أسرار لغـة الشعر والخطابة ما يدرك الشعراء والخطباء أنفسهم منها ، وكذلك الشعراء لا يدركون من دقائق ألفاظ الـكتابة وألفاظ الخطابة ما يدركه الـكتاب والخطباء أنفسهم من ذلك . وإذن فلا يستطيع تدوين لغة الشعر ولغة الخطابة غير الشعراء والخطباء أنفسهم ؛ ولما كان أكثر الشعراء والخطباء لا يعنون بتأليف الـكتب وتصنيف الرسائل عناية الـكتاب بذلك لقلة حذقهم بصناعة التأليف فقدت المـكتبة اللغوية العربية قسمين عظيمين من هذا النوع الطريف المفيد من المعجمات

وإنك لتجد فقدان اللغة الشعرية فى شعر كثير من شعراء عصرنا ممن لا يرون للبيان اللفظىّ أية قيمة فى الشعر ، ويرون المعانى هى كل شىء ، ولو أديت بأسوإ لفظ وأضعف بيان

وقد سبق فى بعض الفصول أن ذكرتُ للقراء قول بعضهم فى حسن النظم والصياغة اللفظية ما نصه : إنه كمال أدنى إلى النقص ، واحسان أقرب إلى الاساءة . وقول الآخر فى حسن الصياغة اللفظية أيضاً : لقد انقضى عهد الثرثرة والصياغة اللفظية ولن يكون الشعر الجديد شراباً يسقى بالملعقة فى غير جهد لمتناوله !

فتراه يسمى حسن البيان والصياغة اللفظية ثرثرة ، ويقول : إنّ عهد ذلك قد انقضى ! كبرت كلمةً يقولها هذان الـكاتبان وأمثالهما ، إن يقولون إلا خطأ يمليه العجز والغرض

والغريب أن نسمع ذلك فى عصر يتعاون فيه الأدباء والعلماء والمفـكرون مع أولى الأمر فى جميع الأقطار العربية على ترقية اللغة ونشر الثقافة البيانية بانشاء المجامع اللغوية ، وطبع أمهات الـكتب الأدبية ، ودواوين فحول الشعراء المتقدمين

فلا أدرى بعد ذلك أىّ الأمرين أحق بأن ينقضى عهده ، ويمحى أثره ، هل هو التـكلف والابهام والتعقيد المحير للأفهام ، أو هو البيان المشرق ، والأسلوب المستقيم السمح ، والصياغة الصافية الواضحة ؟

أحمد الزين

العامية والعربية

ألفاظ صحيحة فلماذا لا نستعمل ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

يتوهم كثيرون من الناس أن اللغـة العامية ليست من العربية فى شىء ، ولهذا يحرصون ، حين يكتبون ، على الفرار من ألفاظها ، ويذهبون يتكلفون ، فتكون النتيجة الاغراب والباعدة ما بين الـكاتب والقارىء ؛ ومن أجل هذا استفاض الاعتقاد بأن لغة الـكتابة غير طبيعية ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى اتخاذ العامية فى الـكتابة ، ليفهم الناس بغير مشقة ، ولو أن العاميـة دُرست لما كان لهذا كله محل ، وقد سمعت أن المرحوم أحمد تيمور باشا وضع معجما للغـة العامية ردها فيه إلى أصولها العربية ، ولـكنه لم ينشر ، ولا علم لى بما كان من أمره

وقد عثرت فى مطالعاتى على مئات ومئات من الألفاظ العربية يستعملها العامة وإن كانوا يحرفونها قليلاً فى النطق ، وسأورد فى هذا الفصل طائفـة منها بلا ترتيب على سبيل التمثيل ليرى القراء أن اللغة العامية جديرة بالعناية ، وأن اتقاء ألفاظها كلها خطأ ، أو جهل ، وقد جريت فيما أكتب ، على استعمال الصحيح من الألفاظ العاميـة ، واكتفيت بذلك ولـكنى أرى الآن أن التنبيه واجب ، مخافة أن يعتقد بعض القراء أن هـذا منى عن خطأ لا عن عمد

فمن ألفاظ الطعام وما إليه :

الدُّقة ـ الملح مع ما خلط به من الأبزار أو الملح المدقوق

العُجة ـ الدقيق المعجون بالسمن ثم يشوى أو يقلى ، والعامة على عجة البيض

الـكَباب ـ اللحم المشرّح

الوجبة ـ الأكلة

السُّفرة ـ المائدة

القصعة ـ الجفنة

السُّخام ـ السواد الذى يكون على آنية الطبخ من فعل النار

الطاجن ـ إناء من خزف ، يقلى فيه الطعام

المصيدة ـ طعام معروف فى مصر ، من دقيق وسمن

البرمة ـ والبرام ـ قدر وهو مشهور

عقد السكر ـ طبخه حتى نخن

الشريحة ـ اللحمة الرقيقة

الهبرة ـ من اللحم البضعة لا عظم فيها ، وهبر اللحم اقتطع منه قطعة كبيرة

التسميط ـ فى رأس الخروف وغيره ، كشط الشعر عن الجلد لطبخه فى الماء

اللَّهوَجةُ ـ لهوجت الطعام لم أنضجه ، والعامة تستعمل اللفظ مجازيا

شاط الطعام وشاطت آنية الطبخ ، احترق

سفسفت الطعام أوسعته دسماً وأكثرت من السمن فيه

سلق اللحم ـ طبخه فى الماء

طبخ ومشتقاته معروفة

وهذه كلها ألفاظ عربية ، يستعملها أعرق الناس فى العامية .

ومن قبيلها أيضاً فى غير هذا الباب :

الحُلوان ـ ما تجعله للرجل من الأجر على عمل يؤديه لك

المصوصة ـ الفتاة المهزولة

الزغزغة ـ الدغدغة

الزَّعر ـ قلة الشعر ، فهو أزعر ، ويستعمل للذيل عند العوام

صوفة القفا ـ الشعر السائل فى نقرته

الشعر المفلفل ـ إذا كان شديد الجعودة

المُدرك ـ الغلام بعد الاحتلام

فروة الرأس ـ الجلدة

لبّد شعره ـ ألزقه بشىء

تكرّش الوجه ـ تقبض جلده

العمش ـ ضعف البصر ، والرجل أعمش

عظمة اللسان ـ ما فوق أصله

الحَنَكُ ـ سقف أعلى الفم

الورِكُ كالوَرِك ـ معروف

الحُق ـ مغرز رأس الفخذ فى الورك

الرُّكبة ـ ملتقى الساق والفخذ

تشيطن الرجل ـ فعل فعل الشياطين

الديوث ـ الذى يُغضى على ما يرى من هنات أهله

الدردبة ـ الجرى الذى فيه دبّ

الموالسة ـ المخادعة

المذّاع ـ الكذاب ، والعامة تستعملها بالزاى

البرطمة ـ كلام الغضبان

البرجمة ـ غلظ الكلام

الدندنة ـ الكلام أو الغناء بصوت خفيض

الدبدبة ـ صوت كوقع الحوافر على الصلب من الأرض

الطقطقة ـ الاسم من طقّ ، حكاية لصوت الحجر

بجم ـ سكت من عيّ أو فزع أو هيبة

فرشح الرجل ـ أصله أن يثب وثباً متقارباً ، وصار يستعمل للمباعدة بين الساقين

نهج ـ تتابع نفسه من الاعياء والتعب

السكة ـ الطريق

اكتنّ الرجل ـ صار فى كُنّ

تربّع ـ جمع قدميه فى جلوسه ووضع احداها تحت الأخرى

السلفتان ـ امرأتان تتزوجان أخوين

تفرعن ـ صار ذا فرعنة ، أى نكر

جهاز العروس ـ ما تحتاج اليه فى زواجها

العَزَبة ـ التى لا زوج لها

سبّع ـ أقام سبعاً

الخيش ـ نسيج خيوطه غلاظ ، ويكون من مشاقة الكتان ، والمشاقة أيضاً صحيحة

تلفع ـ بمعنى تلحف ، والتفع أيضاً ، والعامة تستعمله على حقيقته وعلى المجاز

العباية ـ كالعباءة تماماً

اللاذة ـ تكون من الحرير ، والعامة تستعملها للقطعة من الحرير يلفونها على الرأس

الكنار ـ للثوب شقة منه تكون فى طرفه

القطيفة ـ هى المخمل

الملاءة والملاية ـ الربطة التى تستتر بها المرأة فى خروجها

البرنس ـ ما يلبسه المرء بعد الاستحمام

الفوطة ـ وجمعها فُوط ، معروفة

المنديل ـ معروف أيضاً

الطُّرطُور ـ القلنسوة الطويلة

التكّة ـ رباط السراويل ، وجمعها تِكك

قوّر القميص ـ جعل له جيباً

الدرابزين ـ للسلم ، معروف

البطانة ـ للثوب خلاف الظهارة

الخياطة ـ للثياب

الشَّلُّ ـ الخياطة الخفيفة ، فى أول الأمر

كفّ الثوب ـ خاط حاشيته

الكُفّة ـ ما استدار حول الذيل

ثوب مُهندم ـ مضبوط

الهدم ، والجمع هُدوم ـ الأكسية

دَعك الثوب ـ ألان خشونته ، والعامة تستعمله على المجاز

السختيان ـ جلد الماعز

القبقاب ـ نعل من خشب ، والعامة تضم أوله

الصندل والصندلة ـ شبه حذاء ، والفعل تصندل

الشىء السيخ ـ الذى لا حقيقة لطعمه

الفطور ـ ما يفطر عليه المرء فى العادة أو بعد الصيام

القرن ـ ناحية الهامة

المفرطح ـ العريض

السّقط ـ الولد يوضع لغير تمام

الطلق ـ وجع الولادة

الأجرد ـ الذى لا شعر عليه ، والعامة تقول الأجرود

نَسَل الشعر والصوف والريش وغيره ـ سقط

البعبعة ـ تتابع الكلام فى عجلة وبصوت أجش

الصُّفارة ـ كالزمارة

كركر ـ وقرقر ـ رفع صوته بالضحك

هأهأ ـ قهقه

* * *

وهناك آلاف من الألفاظ أهملتها لأنه لا خلاف على صحتها ، مثل المرود ، والمكحلة ، والمشط ، والضفيرة ، واللحاف ، والزر والعروة ، والكم ، والابرة الخ الخ ، وقد أهملت هذا الضرب لأنى أردت أن أسوق الألفاظ التى يتوهم الناس أنها غير عربية ؛ وسأورد طائفة أخرى فى فصل غير هذا . ولو عنى رجال المجمع الملكى للغة العربية بمثل هذا البحث لأراحوا أنفسهم من عناء شديد يكابدونه ، ولكان هذا أولى مما يعالجونه من النحت وما إليه وليسروا الأمر على الناس ؟

ابراهيم عبد القادر المازنى

في بلاد اليونان

قَـــدَر

للأديب أحمد الطاهر

وقفنا خاشعين صامتين مطرقين ، وأنصتنا إلى الكاهن يتكلم فى وناء وتؤدة ووقار : يقص علينا من التاريخ قصصاً . وما كنا نفهم من يونانيته ونحن مصريون شيئاً ، ولكن ظلمة المكان ، ورهبة المعبد ، وخشوع السامعين من أهل اليونان ، وصوت الكاهن يرن تحت هـذه القبة العتيقة ، كل ذلك قد استولى علينا فأنصتنا كالسامعين وأطرقنا كالفاهمين ، وتتبعنا حديثه كما لو كان يتكلم بلسان عربى مبين

وانتهى الكاهن من قصصه ، وصافحناه ، وشكرنا له فضله وخرجنا وعلى وجوه اليونانيين بما سمعوا من الكاهن آثار مقروءة من السرور والألم ، والرضا والسخط ، والفخار والحسرة ، مجتمع بعضها إلى بعض

قلت لصاحبي اليونانى المتمصر : « عجل فاننى جد مشتاق إلى فهم حديث الكاهن ، وما أحسبه إلا لذيذاً ممتعاً » قال : « إنه حقاً لذيذ ممتع ، وسأقصه عليك كما سمعته من فمه . » وسكت برهة كأنما يستجمع ذكريات ، ثم قال : « أنظر إلى هذه الشجرة العتيقة القائمة فى فناء الدير ! » فنظرت إليها وقلت : « ليست إلا شجرة عتيقة قائمة فى فناء الدير ! » قال : إنها صفحة من صفحات التاريخ قرأها لنا الكاهن ، وقرأ لنا صفحات أخرى منها دير آخر يسمى ميفاسبليون مررنا عليه فى طريقنا من أثينا إلى دير أجيا لافرا الذى نحن فيه . ولا تنس قبل أن أقص عليك الحديث أننا على قمة جبل رفع هامته فى الفضاء ألف متر ، ثم استقر ثم اكتسى رداء أخضر من شجر الصنوبر ، وطاول به جبال سويسرا وازدهى به بين بقاع العالم التى خلعت عليها الطبيعة جمالها . واعلم أن هذا المكان . . . » قلت : « يا صاحبي ! حنانيك لا تطل على ولا تباعد بينى وبين الحديث فما طلبت وصف ما رأيتَ وما رأيتُ ، وأنا وأنت مهما حاولنا وصف المكان فلن نجعل له من ألفاظنا صورة تصلح لأن تدنو من حقيقته ، وحسبى وحسبك أننا متفقان على أن الله قد خلق هذا المكان فيما خلق فأبدع خلقه ، وصوره فيما صور فأحسن تصويره ، وجمل فى الناس صدق النظر وحسن التمييز فتراموا عليه من كل حدب وصوب ينعمون بجماله ويسبحون بحمد خالقه » قال : « ولكنك لا تفهم كلام الكاهن ولا تتذوق حديثه إلا بعد مقدمتى الطويلة فاصبر على ما لم تحط به خبراً . . . إن هذا المكان لم يكن الوصول اليه فى الزمن السالف يسيراً كما هو الآن : فهذه الجبال التى زحف عليها قطار السكة الحديدية جاهداً كالأسير يرسف فى الأغلال ، ولا يصل إلى عليائها إلا بأضراس من حديد وأسنان كأسنان المشط ترفده كلما ارتفع ، وتصده كلما ارتد أو همّ أن يقع ، هذه الجبال لم يكن من السهل أن يرق اليها الأنسان ، ولا أن يخترق جوفها كما يفعل الآن ، ولا أن تطأ هاماتها الأقدام ، ولا أن تفسد جمالها هذه المدنية القائمة على الحديد والنار ، ولا أن يعكر صمتها ويغض من جلالها صخب الناس فى الليل والنهار . ولذلك اتخذها الرهبان مثابة ، ولجأوا اليها يتعبدون ، وما أحسب الجبال قد برمت بهم وقد وجدت بينها وبينهم صلة وشيجة من الصمت والوقار والرهبة والتنزه عن هوان المدنية ، إذا علمت هذا فاعلم أن الجبال والرهبان قد أنس بعضهم ببعض وقطعت الطبيعة ما بينهم وبين سائر الخلق من أسباب ، واتخذ بعضهم اجيالافرا التى نحن فيها مثابة ومتعبدا ، أقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة التى سمعت فيها حديث الكاهن ، واتخذ بعضهم ميفاسبليون التى مررنا بها مثابة ومتعبدا آخرين وأقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة ؛ وسكن الرهبان إلى الجبل ، وسكن الجبل إلى الرهبان

ولكن ظلم الانسان للانسان لا تنقطع أسبابه ، ولا تنسد أبوابه ، ففى عام ١٨٢١ الذى بدأ الكاهن منه حديثه كان أهل اليونان قد أضناهم الضيق ، وأعيتهم الحيل ، وأمضهم الظلم ، مما يلقون من عسف الترك وحكمهم الجائر . ففى غسق الليل مشى رؤساء القبائل وكبار الرهبان بعضهم إلى بعض يهمسون بالثورة والتمرد ، وما كانوا ليستطيعوا اعلان الثورة أو الاصحار بالتمرد ، بل ما كانوا ليستطيعوا أن يعلنوا مادون الثورة والتمرد مما يسمى شكوى

أو رجاء أو استرحاماً أو ما دون ذلك من ألفاظ الذلة والهوان . ولقيت الدعوة الخافتة من النفوس استعدادا . واجتمعوا تحت ستار العبادة فى هذا المكان ليدبروا أمراً : قال الأحبار : « نحن قادة الثورة وحاملوا لوائها باسم الأمة واسم الدين . » وقالت المشائر : « آمين ! » ، وقال كل حبر من الأحبار : « أنا قائد القواد ولوائى هذا هو اللواء الأعظم بمالى من المكانة بين الحاضرين » ، فدبت بينهم الشحناء وانقسموا شيعاً بعضهم لبعض عدو

ثم خرج إليهم كاهن هذا الدير وفى يده لواء واحد وقال : « لا لواء إلا هـذا اللواء الأعظم : عليه صورة المسيح ، أتجدون خيراً منه تستظلون بظله وترتدون إلى فيئه ؟ » قالوا « إنا معك وإنا لك لأجناد مخلصون » وانضموا إليـه خاضعين يستظلون بلوائه الكنسى ، وهذا هو اللواء الذى كان الكاهن يشير إليه وهو يحدثنا ، وهذا النصب الذى تقيمه الحكومة اليوم إنما يقام تمجيداً لهذا المكان وتخليداً لهذه الذكرى ؛ فهنا اشتعلت نار الثورة الأولى ، وهنا اتحـدت القبائل والأحبار ، وهنا وضع أساس استقلال البلاد ، وجاهد القوم أعواماً ذاقوا فيها حلاوة النصر ومرارة الخـذلان حتى استنجدت الدولة العثمانية ببطل مصر ابراهيم باشا ؛ وما هى إلا أيام حتى بدا القائد العظيم من فوق هذه الجبال ، ثم انصب على هذا الدير ووقف بجواده تحت ظل هذه الشجرة العتيقة ، وقد انتشرت جيوشه على الجبال فى سفحها وعلى قممها وفى وديانها ، وأحاطوا بالمكان إحاطة السوار بالمعصم . قال ابراهيم باشا : « احرقوا هذه البيعة حتى يخضع من فيها من الثوار » فحرقوها وخضع من فيها من الثوار ، وارتد ميمما البيعة التى فى ميغاسبليون ، وكأنه عز عليه أن يمضى فى حرق البيع والأديرة ، فأرسل إلى رهبانها كتاباً قال فيـه : « إما أن تخضعوا أو أحرق بيعتكم كما أحرقت بيعة اجيالاڤرا » واجتمع الأحبار يتشاورون ، ثم دفعوا إليه بكتاب يقولون فيه : « إنك إذا حاربتنا ثم انتصرت علينا فما فى النصر ما يدعو إلى الزهو والفخار ، فمـا انتصرت إلا على بضعة نفر من الرهبان والأحبار ، وأنت ذو حول وقوة بما جمعت من جيوش جرارة ، وخيل كرارة ، وأسلحة ممشوقة ، ودروع محبوكة ، وأما نحن فعددنا خفيف ، وشأننا ضعيف ، ليس بأيدينا من سلاح إلا هذه المسابح نسبح الله عليها فى همس وونا ، وليس على أجسامنا إلا هذه المسوح السوداء ، نحمى بها أجسامنا من قر الشتاء ، ولا مركب لنا فى هذه الجبال إلا أقدامنا الكليلة أو بغالنا الهزيلة ، وإن قدر لنا أن ننتصر عليـك ، ونحن على ما ترى من ضعف وهوان ، فما أشـده من عار ، وما أمره من انكسار ، فتدبر أمرك وأمرنا ، واقض بالرأى الأصيل »

قرأ ابراهيم خطاب الأحبار فاستشاط غضباً وأمر بالجزيرة (١) أن تحرق كلها بمـا وسعت . وأشعل الجند فيها النار ، والنار إذا امتدت فى هـذه الجبال وغاباتها لا تبقى على شىء ولا يصدها شىء . إلا أن يرسل الله من السماء أمطاراً ، أو يجرى الوديان أنهاراً . واحترقت الجزيرة وكل ما فى الجزيرة : إلا هـذا الدير الذى يسكنه هؤلاء الأحبار ، فما امتدت إليـه شرارة من نار ، وبقى معتصماً بمكانه العالى ، يهزأ من فعل النـار ولا يبالى ! وقال الناس : « حقاً تلك إحدى المعجزات ! » ، مضى على هذا الحادث مائة سـنة وعشر سنين حتى كان عام ١٩٣٤ ، وإذا بالدير وبيعته تندلع منهما النار ، لا يعرف لها سبب ، ولا يصد لها لهب ، وأصبح الناس فمـا وجدوا إلا هشيما تذروه الرياح . وفزعوا يحاولون انقاذ بعض ماحوى الدير من تحف ونفائس فأنقـذوا شيئاً قليلاً . وبحثوا عن كتاب ابراهيم إلى الأحبار وصورة كتاب الأحبار إلى ابراهيم فاذا النار لم تبق على واحـد منهما . وماذا تغنى كتب القواد والأحبار ، إذا حم القضاء واشتعلت النار ؟ أليس حديث الراهب لذيذاً وعجيباً ؟ ؟ »

قلت : « وأعجب ما فيه هذه النار : أشعلها بالأمس ابراهيم فكانت على الدير برداً وسلاماً ، وأشعلها اليوم القدر فتركته حطاماً . »

اليوزباشى أحمد الطاهر

(١) الجزيرة يقصد بها شبه جزيرة موره

في الأدب الإنجليزي

٢ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

يجب علينا لفهم هذه الروح في شعر شكسبير أن نطلع على الحالة العقلية التي كانت تسود عصره والعصور التي سبقته . قال كلارك : « لقد كان هناك عدد عظيم من الملاحدين والمشككين وجدوا في عصر كان بمثابة الخطوة الأولى في ترقية العلوم المعروفة لدينا الآن . فقد كان تلاميذ كوبرنيكس الفلكي يتساءلون ويتجادلون في كل ما عرف من النظريات الفلكية من قبل ، وكان هناك نفر آخر من الكيميائيين دحضوا حجج مدعي الكيمياء القدماء ، ولكن هذا النضال لم يكن مقتصراً على جماعة المجددين فحسب ، بل وجد هناك نفر آخر من القدماء المقلدين الذين كانت أقصى غايتهم مقاومة هذا التيار الجارف . وإن من الغرابة أن نجد الملكة اليصابات تستشير المنجمين والدجالين في تعيين الوقت المناسب للاحتفال بتتويجها ملكة على انكلترة »(١)

ومن حسن حظ العلم قيام عدد من المفكرين أثبتوا فساد كثير من النظريات القديمة المألوفة فبزغ نجم رينولد سكوت (Reginald Scott) لما هاجم عدداً من العقائد الدينية المألوفة ، ولم يقتصر هذا التجدد على المفكرين من رجال العلم بل تعداه إلى رجال الكنيسة أنفسهم فظهر هناك من رجال الكهنوت عدد حاول إصلاح الديانة مما طرأ عليها من الخرافات والأباطيل

أما الخرافات فكانت تسيطر على جميع مناحي الحياة في ذلك العصر . فكان السحر بطرقه المختلفة مهنة تمتهنها النساء اللواتي كانت تغلب عليهن صفة الذبول والكبر وبشاعة المنظر . وكان معظم هؤلاء النسوة من الشريرات القذرات ممن كان أقصى غايتهن ايقاع الضرر وبذر المساوئ في المجتمع البشري . غير أنه وجد

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 21

في نفس العصر بعض ساحرات كان همهن شفاء المرضى والقيام بخدمات حسنة للمحتاجين والمهددين بالأخطار

قام الناس على اختلاف طبقاتهم يناوئون السحر والسحرة فهاجموا الساحرات في عقر دورهن وكانوا يأخذونهن راسفات في الاغلال إلى السجون حيث ينتظرن محاكمتهن أمام مجالس من القضاة الذين كرهوا السحر وما يأتي به أمثال هؤلاء الشريرات من موبقات وآثام . فكانوا يعذبونهن بأشد أنواع العذاب . فمنهن من ربطن إلى جذوع الأشجار حيث ذقن الموت جوعاً ، ومنهن من كان يطلب إليهن اعادة الصلوات قبل القائهن في النار المضطرمة

وكان من السائد على أهل ذلك العصر أن ينظروا إلى السحرة كأنهم على اتصال بالشيطان . قال كلارك في كتابه : « ان من أبغض الأمور التي كان يتعاطاها السحرة في عصر اليصابات وما قبله ذلك النوع من السحر الذي كان يعرف بالعين الشريرة (Eoil Eye) فكان من جملة معتقداتهم أن في استطاعة الساحرة أن توقع الضرر أو تميت الناس بمجرد القائها عليهم نظرة من نظراتها النارية ؛ فهذا العمل الذي كان يعتبر من أشد أنواع السحر ضرراً هو بمثابة الحجر الأساسي في بناء علم التنويم المغناطيسي المعروف لدينا الآن »(١)

وكان هناك نوع آخر من السحرة أقل ضرراً وخطراً ، ذلكم هو نوع العرافين أو المنجمين الذين كان الناس يقصدونهم كما يقصدون قارئي الكف في يومنا هذا . فكانوا يوهمون قاصديهم باتصالهم بالسماء والعالم العلوي فيقرأون المستقبل في الماء والهواء ، في النار والدخان . وكثيراً ما كانوا يضطرون إلى استشارة أرواح الأموات أو تأويل صياح الديكة في تفسير ما يرونه من حقائق وأحلام

أما العفاريت فكان الناس يؤمنون بوجودهم الايمان كله ، وما هم إلا بقايا الأشخاص الخرافيين الذين عاشوا في عصر من العصور السالفة وأصبح في استطاعتهم بعد ذلك أن يهيمنوا على الانسان فيحولوا أعماله حسبما يريدون وأنى يشاءون . نعم كان هذا الاعتقاد سائداً لدرجة أن أصبحت الكنيسة تعلم أبناءها

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 39

أن لـكل رجل فى هـذا العالم رفيقاً من عالم آخر يحميه ويقيه غائلة الشر

وكان هنالك نوع آخر من الخرافة هو عالم الأشباح والخيالات . فما الشبح إلا روح غادرت جسدها المائت وانتقلت من عالم الأموات إلى عالمنا هذا ترفرف فى الفضاء لتحقيق غاية من الغايات شريرة كالانتقام والقتـل ، أو خيّرة كحماية البشر وصـد الآلام عنهم . أشباح مرئية وأشباح غير مرئية تحلق بأجنحتها فى الفضاء فتملأ العالم خيالات لا يحصر عددها ولا يعرف مقدارها

عصر كله خرافات تتسلط على عقول أبنائه الأوهام ، ذلكم هو عصر اليصابات الذى يصفه كلارك بقوله : « على رغم أن ذلك العصر كان عصر بداءة وتمهيد للعلوم المعروفة لدينا الآن ، إلا أن معرفة الحقيقة والطبيعة لم تكن متقدمة للدرجة التى يستطاع بواسطتها القضاء على الخرافات السائدة ؛ فكان الناس يؤمنون بالسحرة والدجالين ، بالفلـكيين والمنجمين ، بالحوريات والجنيات ، بالرقى والعزائم ، بالأحلام والاتصال بالأرواح . هذا الاعتقاد السائد كان أكبر عامل فى وجود هذه العوالم فى روايات المؤلفين الذين لم يستطيعوا بأى حال من الأحوال أن يخرجوا عن محيطهم وبيئتهم » (1)

شكسبير والعقائد العامة :

شأن الشاعر أن يدون فى شعره كل ما كان معروفا فى عصره من العقائد العامة ، وهكذا كانت حال شاعرنا شكسبير ، فقد عرف تمام المعرفة أن الخرافات القديمة كانت مواضع خلاّبة استعملها شعراء الاغريق والرومان فى صوغ عباراتهم وتفسير معانيهم ودقائقهم . ولم تـكد العصور القـديمة تنطوى فى عالم السجلات والتاريخ حتى ظهر هنالك عالم خرافى جديد كان فى حد ذاته خليفة للعصور التى سبقته ، ذلك العصر هو عصر القرون الوسطى التى لم يستطع الشعراء الاستغناء عن خرافاتها فى لغتهم بما نقله السلف عمن سبقهم

ومما لاشك فيه أن شاعرنا قد تأثر بعدد غير قليل من العوامل : كالجنس والمحيط والبيئة ، فكان أفراد جنسه « يعتقدون أن كل ما هو غير مرئى حقيقة لا شك فيها ولا نقض » ، ولم تـكن الخرافات فى عصره قد حوول مهاجمتها محاولة صادقة . نعم كان الاصلاح الدينى قد أخذ فى الانتشار فى البلاد الانكليزية إلا أنه كان مقصوراً على المدن . أما القرى فلم تكن قد تأثرت بهذا الاصلاح أى تأثير

عاش شكسبير فى عصر اضطربت فيه العقائد وتضاربت فيه الآراء ، فاعتقد بعض الرجال المتعلمين اعتقادات كانت بعيدة كل البعد عن عقول غيرهم من الناس ؛ وإن من حسن الحظ أن شكسبير يحاول فى بعض رواياته أن يظهر لقارئيه عقائده وآراءه الشخصية . فهو يعتقد فى الخرافات ، ولـكنه يتساءل عن أصلها وكيفية ظهورها ، فهو يقول على لسان الأمير هملت :

« هل من الممكن أن نحسب ذلك الشخص الذى يقضى أوقاته كلها فى الأكل والنوم رجلا ؟ كلا إنه لا يتعدى أن يكون حيواناً فقط . إن من المؤكد أن ذلك الالـه الذى وضع فينا قوة المجادلة والتمييز بين ما نعمله وما لا نعمله لم يضع فينا هذه القدرة لنتركها دون أى استعمال أو ممارسة ، أما الآن فسيان عندى إن كان هذا الفـكر مجرد وهم أو غموض سماوى . فالفـكر لا يحوى فى حد ذاته إلا جزءاً من أربعة من الحـكم والصواب ، بينما اجزاؤه الثلاثة الأخرى لا تخرج عن كونها من عوامل الجبن والخوف ، فلا يمكننى الجزم فيما إذا كنت قد خلقت لأقول مجرد القول فى أن هذه الأمور يجب على أن أعملها ، فى حين أنى قد أوتيت القوة والارادة والحق فى عملها والقيام بها » (1)

إن من الصعب على الشاعر أن يستطيع البحث فى موضوع سماوى بطريقة جدية ترتـكز على تفكر وبحث عميقين دون أن يكون له أدنى اعتقاد فى هذه الأمور التى يبحث فيها ؛ وبنظرة عميقة لروايات شكسبير يمكنك أن تحصل على نتيجة لبحثه فى مثل هذه المسائل . وقد قال روف (Roffe) فى كتابه (شكسبير وعقيدته فى الأشباح) : « لم يستطع شكسبير أن يجعل أشخاص رواياته ينطقون عن عقائده ، ولـكنه استطاع أن يظهرها فى رواياته »

(يتبع) ضبرى حماد

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 33

(1) Hamlet IV 4. 40 — 46

٤ ـ الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

لأبى النصر أحمد الحسينى الهندى

فلسفته

إن كل شىء فى هذا العالم متصف بالفردية ، حتى الحياة أيضاً لا تخلو من ذلك ؛ ولا وجود فى الخارج للحياة الكلية التى ينشدها بعض المذاهب الفلسفية والصوفية ، فالله أيضاً فرد واحد ليس كمثله شىء ؛ وأما الكائنات فهى عبارة عن مجموعة الأفراد ، ولكن النظم ، والنسق ، والتوافق والتطابق الموجودة فيها ليست بنفسها كاملة . ومهما كانت فهى نتيجة سعى الأفراد الغريزى ، وعلى هذا فنحن نتقدم بالتدريج من الفوضى إلى النظام ، ومن النقص إلى الكمال . وعدد أفراد هذه المجموعة غير محدود ولا معين ، فانه يزداد كل يوم ويتضاعف . فالأفراد الحديثو الولادة يشاركوننا بدورهم ويساعدوننا للبلوغ إلى هذه الغاية العظمى ـ الكمال ، ولذلك كان عمل الكائنات غير متناه ، لأنها لا تزال تتدرج فى مدارج الكمال وتترقى إلى ذرى المجد . وعلى أن الكائنات لم تنل الكمال المنشود بتمامه بعد ، وما تفتأ تستنفد وسعها وتفرغ مجهودها فى بلوغه فلا يمكن أن يقال فى شأنها الكلمة الأخيرة ، وما يمكن أن يقال فيها هو أنها ليست بحقيقة كاملة . وعملية الخلق فيها جارية يقوم فيها الانسان بنصيبه ، ويشترك فيها إلى أن يقدر أن يوجد النظام على الأقل فى جزء من فوضاها ؛ والقرآن قد اشار إلى مثل هذا الخلق فى الآية : « فتبارك الله أحسن الخالقين »

فنظرية اقبال هذه فى الانسان والكائنات خلاف ما يراه الانجليز وغيرهم من أتباع مذهب الهيجلية الحديثة أو الصوفية فى مسئلة وحدة الوجود من أن الغاية القصوى لحياة الانسان ونجاتها فى أن تندمج فى الحياة الكلية كما تندمج القطرة فى البحر وتفقد فرديتها

ليست الغاية الأخلاقية للانسان ولا مرمى دينه أن يبيد وجوده باتلاف فرديته وافناء أنانيته ، بل أن يحافظ على فرديته وأنانيته ، وذلك بالحصول على أمثل الصفات وأعلاها التى تجعله فريدا وحيدا . والنبى عليه الصلاة والسلام قد أبانه بقوله : « تخلقوا بأخلاق الله » ، أى اتصفوا بصفات الله ، لذلك كلما كانت صفات الانسان أشبه بصفات الله كان فريد زمانه وواحد عصره .

أما الحياة فيرى اقبال أنها اسم آخر للفرد . وأسمى صورة لها تحققت إلى الآن هى الأنانية التى بها يصبح الفرد مركزا مستقلا ؛ فالانسان مركز مستقل من كلا الجهتين ، أى الجسمانية والروحانية ، لكنه ليس بفرد كامل . والفرد كلما كان بعيدا عن الله كانت فرديته ناقصة وأحط درجة ، وكلما كان قريباً من الله كانت فرديته كاملة وأرفع منزلة . وليس معنى القرب هذا أن تكون نهايته الفناء فى الله أو الأندماج فيه كما قرره بعض الصوفية والفلاسفة ؛ بل خلافا لذلك هو يجذب الله اليه ، أى يتصف بصفاته وأخلاقه [1] ؛ وإلى هذا أشار اقبال فى بيت من ديوانه « بيام مشرق » التبس مفهومه على البعض ، قال :

« دردشت جنون من جبريل زبون صيدى
يزدان بكمند آور آى همت مردانه !
إن فى صحراء جنونى جبريل صيد تافه
يا همتى الشماء اتنى فى أنشوطتك بالله . »

يريد به أن الاتصاف بأوصاف الملائكة عنده شىء تافه بل هو يتوخى بهمته الشماء صفات الله

إن الحياة شىء متقدم . هى حركة تجذب الكائنات إلى نفسها بالغلبة على مشاكلها ومعضلاتها العائقة لها عن سيرها وتقدمها ، وجوهر وظيفتها خلق الأمانى والأغراض الجديدة بالاستمرار والتقدم ولصون نفسها قد أوجدت الحياة الوسائل ، أوهى ظهرت طوعاً لشريعة الارتقاء ، وهذه الوسائل هى الحواس الخمس والقوة المدركة التى بها تغلب المشاكل والمعضلات ، وإن كان أكبر العوائق فى طريقها الطبيعة أو المادة ، لكنها فى ذاتها ليست بشر ، إذ هى تمكنها من إبراز قواها الخفية واستعداداتها المكنونة

---

(١) وقد ورد هذا المعنى فى حديث صحيح رواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال : . . . . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . . . الخ وهو خلاف الفناء والاندماج

إن الأنانية حينما تستولى على المشاكل والمعضلات وبين شأوها عليها تنتقل من الجبر إلى الاختيار فانها إلى حد ما مُجبرة وإلى حد ما مختارة كما ورد فى الأثر أن « الايمان بين الجبر والاختيار » ، ومتى نالت النهاية القصوى من زلنى الانانية العظمى (أى الله) التى ليس كمثلها شىء فى الحرية والاختيار تمتعت بأقصى مدى من الاختيار والحرية ، وعلى هذا فالحياة عبارة عن الجهد المستمر للوصول إلى ذلك المدى من الاختيار والحرية

قلنا إن مركز الحياة فى الانسان الأنانية التى تملى شخصيته على صفحة الوجود ، والشخصية هذه عبارة عن حالة الجهد المستمر ، فاذا احتفظ بتلك الحالة ، بقيت الشخصية ثابتة البناء مشيدة الأركان ، وإذا فقدت ، ضعفت قواعدها وانتكثت مرائرها ، وبما أن الشخصية أو حالة الجد المستمر أبعد الغايات للانسان وأتمها ، فينبغى له ألا يدعها ترث قواها فتضعف ، وتنحل عراها فتفنى . لأن بقاءها هو الذى يسبغ عليه الدوام والخلود ، ثم فكرة الابقاء هذه تعطى له أيضاً معياراً للخير والشر أو الحسن والقبح . فان كل ما يقويها خير وحسن ، وكل ما يضعفها شر وقبيح ، سواء أكان من نوع الفن [1] أم الدين أم الأخلاق

على ضوء هذه الآراء انتقد اقبال فلسفة أفلاطون فدحض حجج جميع المذاهب الفلسفية التى تعتبر غاية الانسان الموت بدل الحياة ، فتلقنه الجبن والوهن وذلك بحمله على الأعراض عن المادة التى هى أكبر العوائق فى طريق حياته ، والابتعاد عن مقاومتها ، مع أن جوهر الانسانية فى الاستيلاء عليها واستخدامها لنفسها بالبطولة والفحولة [2]

وكما أن الاستيلاء على المادة ضرورى لنيل الحرية والاختيار كذلك الغلبة على الزمن لازمة للحصول على الخلود والدوام ؛ و (برجسون) قد علمنا أن الزمان ليس الخط اللامتناهى (فى مفهوم الخط المكانى) الذى لابد أن نجتازه سواء رضينا به أم لم نرض . ولكن هذا المفهوم للزمن ليس بصحيح فان مفهوم الزمن البحت لا يشمل مفهوم الطول

إن الخلود غاية الانسانية وأمنيتها ، يحوزه كل من يسمى لذلك ، وحيازته تتوقف على تلك الأعمال والأفكار من حياتنا التى تقدر أن توطد أساس الأنانية على حالة الجد المستمر وتشيد أركانها ، فديانة بوذا وتصوف إيران وأمثالها من نظريات فلسفة الأخلاق لا تصلح لمآربنا وإن احتوت على بعض الفوائد وهو أننا بعد اجهاد أنفسنا واستغراق وسعنا بالاستمرار نحتاج إلى راحة قليلة لتجديد قوانا ، فكأن تلك الطرق للأعمال والأفكار كالليالى لأيام حياتنا

وعلى كل حال فمتى تمكنت أعمالنا وأفكارنا من توطيد حالة الجد المستمر فى الأنانية ، فالأرجح أن الموت لا يؤثر عليها ، بل محتمل أن تكون الفترة بين حياتنا الحاضرة وحياتنا الأخرى هى فترة الراحة ، وتلك الفترة هى التى عبر عنها القرآن بعالم البرزخ الذى يبقى إلى يوم البعث ، فتلك الأنانية وحدها يمكن ألا تتأثر من الموت وتخرج من الفترة فائزة ، التى قد اعتنت بالحياة الحاضرة اعتناء جيداً ، وإن كانت الحياة تأبى الاعادة والتكرار فى مدارج الارتقاء ، ولكن على حسب مبادئ فلسفة برجسون ، كما يقول لنا الأستاذ وِلدِن كار ، حشر الأجساد أيضاً فى حيز الامكان التام . إننا نوزع الزمن فى اللمحات لذلك نربطها بالمكان فيصعب علينا عبره ، ولكننا ندرك حقيقته حين نغوص فى أنفسنا لأن الزمن الحقيقى هو حياتنا ، تلك التى توطدت فيها الأنانية بحالة الجد المستمر ، اننا محكومون بالزمن إلى أن نراه مربوطاً بالمكان ، إن الزمن المقيد بالمكان سلسلة لفتها الحياة حول نفسها لتجذب ما حولها إلى نفسها ، وإلا فنحن مجردون عن الزمن ، وهذا التجرد يمكن أن نشعر به حتى فى حياتنا الحاضرة وإن كان لدقيقة

إن الشىء الذى يقوى الأنانية هو العشق فى مفهومه المطلق ومعناه جذبك الشىء أو طلبك إياه لتجعله جزءاً من نفسك ، وأسمى صورة له هو ما يمكّن صاحبه من خلق القيم والغايات ، ويدفعه إلى السعى فى تحقيقها وبلوغها ، ثم العشق يجعل العاشق فريداً كما يجعل المعشوق ، وذلك أن طلب الفرد المعين الأوحد يوجد شأن الانفراد فى الطالب عن غيره كما يوجد فى المطلوب ، فانه لا شىء غيره يرضى طلب الطالب ، وكما أن العشق يقوى الأنانية ، كذلك الاستجداء يضعفها ، فكل شىء نيل بغير المجهود الشخصى هو من قبيل الاستجداء ، فالابن الذى يرث

(١) وقد لخصنا رأيه فى الفنون والملاهى فى حاشية مقالنا السابق فراجعه

(٢) وفى القرآن : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وغيرها من الآيات تفيد هذا المعنى

ثروة أبيه من دون مجهوده الشخصى مستجدٍ ، ومثله ذلك الذى يفكر بفكر الآخرين ويرى برأى غيره . وبناء عليه ينبغى لنا أن نوجد ونربى فى أنفسنا العشق أى قوة الجذب ونجتنب جميع أنواع الاستجداء ، وإليه أشار اقبال فى بيت ترجمته :

« إن المملكة التى لم تشتر بالدم
هى عار على المسـلم »

بقى أن نسأل كيف نوجد العشق ، فيقول اقبال : إن المسلمين على الأقل فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام رداً على ذلك ، فانه عليه الصلاة والسلام قد وضح بأعماله وحياته ما هو العشق ، وكيف يمكن القيام به ، لذلك ينبغى للمسلمين أن يختاروا حياته عليه الصلاة والسلاة أسوة لأنفسهم وأن يحبوه ، وإليه أشار اقبال فى بيت قال :

« هركه عشق مصطفى سامان اوست
بحر وبر در كوشه دامان اوست
كل من يكون متاعه عشق المصطفى
يكون البحر والبر فى طرف ذيله »

ان الأنانية فى صعودها إلى فروع العلى ، وبلوغها إلى رفعة الكمال حيث تتمتع بفردية كاملة بنيل زلفى الأنانية العظمى لابد أن تجتاز ثلاث مراحل : مرحلة الخضوع للشريعة ، ومرحلة ضبط النفس وهى الصورة العليا للشعور الذاتى ، ومرحلة الخلافة الآلـهية

ففى مرحلة الخضوع يفسر لنـا اقبال أنه للتقدم لابد من مسلك يسلك ، ومن مشرع يورد ، ومن قانون يخضع له . لذلك كل من يصبو لمدارج الكمال ، ويطمح إلى سنام المجد ينبغى له أن يطيع الشريعة . وفى بيان مرحلة ضبط النفس يقول اقبال إن النفس الانسانية لأمارة بالسوء ، فهى معجبة بذاتها ، أبيّة ، عنيدة ، لاتهتم إلا بأمر نفسها . لذلك هى محتاجة إلى الضبط والتهذيب . وخير طريق لذلك هو إقامة أحكام الشريعة . فالصلاة تنقذها من الفحشاء والمنكر ، والصوم يقتل غلمتها وترفها ، والحج يذيقها لذة الهجر ويخفف عنها سلطان الحب للوطن ويضمها إلى الاجتماع الاسلامى العـام فيجعلها تشعر بجنسية الاسلام ، والزكاة تبيد حبها المال وتعلمها المساواة

أما الخلافة الآلـهية فهى النهاية القصوى للتقدم الانسانى على سطح الأرض ، هى الأنانية الـكاملة والغاية العليا للانسانية ، وقمة الحيـاة من حيث العقل والجسم . ففيها يتحول تشتت الأفـكار فى الحياة الذهنية واختلافاتها وتنافرها إلى التناسق والتوافق ، فتقدر حينئذ على حل جميع العقد المنيمة المطالب والصعبة المرام . هى ملتقى الـكمال للعلم والقوة ، ونقطة الاتصال بين الفكر والعمل ، والعاطفة والعقل . ومن استحقها كان آخر ثمرة لدوحة الانسانية ، وظهوره يبرر جميع آلام الارتقاء ومحنه لأنها كانت قائمة لأجله . هو يكون حاكماً حقيقياً على البشر وحكومته تـكون حكومة إلـهية على الأرض . هو يسبغ من خصب طبعه على الآخرين بحبوحة الحياة ويقربهم إلى نفسه . فـكلما يتقربون إليه تتدرج حياتهم فى مدارج التقدم والـكمال

إن بلوغ الانسانية إلى أقصى مدى من التقدم عقلاً وجسماً شرط ضرورى لولادة ذلك المستحق للخلافة . لذلك كان وجوده فى الحال فى عالم المثال ، ولـكن تقدم الانسانية سائر إلى إنتاج طبقة الأفراد المنفردين فى أوصافهم الحميدة قلةً أو كثرةً ؛ فهؤلاء سيكونون أجداده

أما الحـكومة الآلـهية فمعناها الديموقراطية المـكونة من الأفراد المنفردين فى أوصافهم الحميدة قلة أو كثرةً برأسهم الفرد الوحيد الذى لا نظير له على وجه الأرض . كانت أشباح هؤلاء الأفراد تجول فى فـكر الفيلسوف الألمانى نيتشه ؛ ولـكن إلحاده وتعصبه الأرستقراطى شوهها تماماً (١)

هذا ما عن لنا من فلسفة إقبال الآن ؛ وسنقدم إليك معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب فى المقال الآتى إن شاء الله م؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

---

(١) إن الدكتور إقبال قد وضح منذ عشرين سنة الفرق بين ديموقراطية أوربا وديموقراطية الاسلام فى مجلة العهد الجديد ؛ ونحن نلخصه هنا قال :

« إن ديموقراطية أوربا الموروفة بأظلال الشيوعية والمخيمة بمخاوف الثورة نشأت فى الحقيقة من التجديد الاقتصادى للهيئات الاجتماعية الأوربية . ولـكن نيتشه على كل حال ينكر حكومة الجماعة مثل هذه ويقنط من عامة الناس ، ويؤسس جميع الثقافات العالية على ظهور وتثقيف سبرمان (أى ما فوق البشر) ؛ ولـكن هل العامة حقيقة موضع القنوط ؟

إن الديموقراطية الاسلامية لم تنشأ من تمدد الفرص الاقتصادية ، بل هى مبدأ روحانى مبناه الاعتراف بأن كل إنسان مركز للقوى الخفية التى يمكن أن تكشف إمكاناتها بتربية طراز خاص من الأخلاق والسجايا . وبناء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثل العليا من الحيـاة والقوة . أو ليست إذن الديموقراطية الاسـلامية فى القرون الأولى دحض عمـلى لأفـكار نيتشه ؟ »

الذكر

للأستاذ فخرى أبو السعود

صوتٌ مِنَ الأمس ما أنفكُّ أسمعُهُ ... مُرَدَّدُ اللحن فى بالى مُرَجَّعُهُ
لحنٌ شجىٌّ لطيف الوقع ساحرُهُ ... يَدُ الليالى على قلبى تُوَقِّعه
إذا تَرَدَّدَ منه فى الضلوع صدًى ... ثارَ الحنينُ ونَدَّى الجفنَ مدمعه
نهرٌ يظَلُّ بنفس المرء مُنْسَرِباً ... وفى مجاهل ماضى العيش منبعه
طيفٌ مدى العمرِ مِن ماضىَّ يتبعنى ... وَدِدْتُ لو أننى ما شاء أتْبَعُهُ
مَنْ أنتَ يا مَنْ مِنَ الماضى يخاطبنى ... وَمِنْ قرارة نفسى بتُّ أسمعه ؟
تظَلُّ تحيى الذى قدمات من عُمُرِى ... وما تَشَتَّتَ مِنْ ماضىَّ تجمَعُهُ
نعمْ وَتحكِى لقلبى من مآربه ... ما كان يَنْشُدُهُ قِدْماً ويُزْمِعُهُ
حديثُك العذبُ مهما طال يؤْنِسهُ ... وبالزمان الذى قد مَرَّ يولعه
يا رُبَّ عهدٍ غضيرِ الحُسن رائقِهِ ... قد راح وهْو حثيثُ الخطو مسرعه
مرتْ عليه بنَانٌ منك ساحرةٌ ... فهاج بى الشَّوْقَ مغناه ومربعه
وهام قلبى على آثارِهِ لهِجًا ... يَوَدُّ لو أنَّ هذا الدهرَ يُرْجِعُهُ
وَرُبَّ وادٍ بنفسى مُزْهِرٍ نَضِرٍ ... صَوَّرْتَهُ فَهْوَ حالِى النبت مُمْرِعه
ومنظرٍ مِنْ طُيُوفٍ أنتَ رَاسِمُهُ ... ومِنْ حنينٍ خَفِيٍّ أنتَ مُبْدِعه
وصورة لِذُكاء وهْىَ غاربةٌ ... هفا لها الكونُ إذْ هَمَّتْ تُوَدِّعه
ومَشرِقٍ حَيَّتِ الأرْوَاحَ غُرَّتُهُ ... ونبَّهَ الطيرَ والأزهارَ مطلعه
هذا ادِّكارى : ملْءُ القلب من صُوَرٍ ... مِنَ الطبيعة تَشْجُوهُ وتُمْتِعـه
وسالفاتِ عهودى فى مباهجها ... يُظِلُّنى ثَمَّ نَادِى الزهرِ مُونِعُهُ
حُسْنُ الطبيعة إلفٌ فى الفؤاد له ... عهدٌ بِقَلْبى باقٍ لا أُضَيِّعُهُ
وليس بالقلب ذِكْرٌ مِنْ أخى ثِقةٍ ... يبقى بِقَلبى مَدَى الأيام موْضِعُهُ
فكلُّ ثوبِ وِدادٍ كنتُ ألْبَسُهُ ... يَرِثُّ وَهْوَ جديدٌ ثُمَّ أخلَعُهُ
فكيف أهفو إلى رَثٍّ ومُنْخَرِقٍ ... من العهود وَبالٍ لستُ أرْقَعُهُ ؟
مَنْ رام صافىَ وُدٍّ غير ذى كدر ... ففى الطبيعة للوُرَّادِ مَشْرَعُهُ
أليفُهَا حيثما راقتْهُ صُحبتُهـا ... مُمَتَّعُ النفس راوِى الطرف مُتْرَعه
أصْفَى الوداد وُرُوداً ثم أدْوَمُهُ ... عهـداً وأعْذَبُهُ ذِكْراً وأنقعُهُ

فخرى أبو السعود

بين الهدى والهوى

للشاعر الحضرمى على أحمد باكثير

فى طلوع الفجر الوليد على الكو ... ن ، وإيذان ليـله بالهروبِ
وهبوب الأنفاس من رُدُنَى الصبـ ... ـح برَوْحٍ يحيى النفوس وطيب
رنَّ فى مسمع السكون أذانٌ ... قُدُسِىُّ الترجيع والتثويب (١)
سال ـ حتى عم الفضاء ـ حَناناً ... ذائباً فى شعاعه المسكوب !
خالقاً عالَمـاً من النور والفتـ ... ـنة والسحر والجمال الغريب
رَعَشاتٌ من الغناء السماوىِّ (م) ... تَخطَّى الأسماعَ نحو القلوب !
إنما الدين الحقّ فنٌّ طهور ... قد سما فى معناه والأسلوب !

* * *

وقف (الشاعر) التقىُّ يصلِّى ... فى خشوع لذى الجلال المهيب
فرِحاً قلبـه يطير استناناً ... فى مجال من الأمانى رحيب
مطمئناً لو أنه احترق الكو ... نُ جميعاً ما مسه بلهيب !
عامراً بالهدى يكاد يرى الله (م) ... بعينيـه فهو جدُّ قريب
ربِّ ! لِمْ لا تراك عينى ؟ ألا تبـ ... ـدو لعينىْ عبدٍ إليك منيب
كلِفٍ بالجمال يصبو إلى المنـ ... ـبع بعد الأنبوب فالأنبوب !
فاطوِ عنى الحجاب تشهدْ جفونى ... لمحةً من جمالك المحبوب

* * *

مرَّ فى سمعه حَفيفٌ لِسَهمٍ ... ناشبٍ فى فؤاده المنكوب
ما وعى السمعُ أو درى القلبُ إلاَّ ... بعـد حين من وقعه والنشوب
مَنْ رماه ؟ وأىَّ نصل وعن أيـ (م) ... ـةِ قوس رمى ؟ وفى أىِّ حُوب ؟ (٢)
ولوَى الجيدَ يَسْرةً فإذا هو ... بمثال من الجمال النجيب (٣)

(١) أن يقول المؤذن فى أذان الفجر : الصلاة خير من النوم
(٢) ذنب (٣) الخالص

قمر طالع عليـه من الشر … فة يرنو إليـه كالمذهوب

لفتتهُ الصلاةُ نحو المصلَّى … فادَّراه بكل سهم مصيب

ربّ ! ماذا أرى ؟ ألمحة نور … منك ، أم وهم ناظرٍ مكذوب ؟

أم مَلاكاً بعثتَـه بقبولى … ونجاح المؤمّل المطلوب

ربّ ! قلبى صبا إليه ! كأنْ لم … أكُ فى موقف الصلاة الرهيب

أين وَلّى اطمئنان نفسى ؟ ومَنْ لى … بخشوعى إليك والترحيب ؟ (١)

ربّ ! حل الهوى محـل الهدى فى الـ

قلب ، ويلاه ! ربّ عافِ الذى بى !

وانتهى من صلاته وهو يهذى … بضلالات شعره والنسيب :

***

« ألهِمينى وحى الجمال ! فعهدى … بشهود الجمال غير قريب

إن تكن نظرتى لوجهك ذنباً … فالتياعى كفّارة لذنوبى

وابعثى لى – لتدفئ بُرَدَاتى – … وقدةً من ذراعكِ المشبوب !

وأصبِحينى من خمر عينيك كأساً … تنفِ عنى متاعبى ولغوبى

وابسمى لى – والابتسام يسير – … تبتسمْ لى الحياةُ بعد قطوب »

***

« هى لغز يحـلو التأمل فيه … لحكيم وشاعر وأديب

هى فى لِبْسة التفضل حُسْنٌ … من يد الله ، ليس بالمجلوب

يا لَها حلوةً عليهـا من النو … م بقايا تثاؤب محبوب ! !

وبأهدابها خيوط ضياء … عَلِقت من أحلام ليل عجيب !

مُرسَلاً شَعرُها على غير ترتيـ … ـب ولكن أحلى من الترتيب !

خطَّ فى خدها الوِساد – سعيداً – … آيةً من بدائع التذهيب !

وأذاع النسيم عنهـا بلاغا … أفعم الجو من أريج وطيب

إن طيباً فى الحق ليس كطيب … مرسل من غلائل وجيوب

بكرت تنضح الشجيرات بالما … ء فينعمْنَ بالبنان الخضيب

وفؤادى أحق بالرىّ منهن (م) … فهـلاّ تمدّه بذَنوب !

وقفت وقفـة الدّلال أمامى … تتلهّى فى كفّها بقضيب !

أرسلت كهرباءها فتمشت … فى عروقى بهـزة ولهيب

فكأنا (قُطْبا عمودٍ) ترى التيـ … ـار فيه من جيئة وذهوب

(بين جهدى وجهدها أبداً فر … قٌ) فما إنْ تكفّ عن تعذيبى

(١) التعظيم

أيها (السالب) الجميل حنانيـ … ـك ترفّق بمهجة المسلوب »

***

واستهل الصبح الجديد على الكو … ن مُلَقًّى بالبشر والترحيب

وأتى (الشاعر) الصلاة بقلب … شاعر بالملام والتثريب

مستنيب إلى الإله يُرَجّى … عفوه عن ضلاله والحوب

فدوى فى أعماقه رَجْعُ صوتٍ … كصدى الرعد أو دوىّ النّوبِ (١)

كيف يقوى على سنا (الربّ) قلـ … ـب جُنّ لما رأى سنا (المربوب) ؟

والكمالات لا تناهى لدى اللـ … ـه فلابد من بقاء الغيوب

علي أحمد باكثير

(١) النحل

القــرية

للأستاذ بشاره الخورى

أيتها الفتاة الصغيره … أنت بتاج مَلك جديره

من القرى اشتقوا لك اسم القريه … وعطّل السفحُ فكنت الحليه

شاعرك البلبل ذو الالهامِ … وعُودك الجدول ذو الأنغام

والغيمة البيضاء مثل القبه … كأنها من الحرير جبه

تضم أعناق الربى وتلثمُ … فليس إلا شفةٌ ومبسم

كم طربت شمس لهذا المشهدِ … فمسحت جبهتـه بالعسجد

حتى إذا الليـل سجا ومدا … على الورى جناحه المسودّا

مشى إليه البدر مشىَ الصائدِ … يهتبل الغفلة من مطارد

حتى رمى بخردق النجومِ … صدر الدجى فسِلن كالكلوم

مآتم لكنها أعراس … يدار عندها الهوى والكاس

توحى بها القرية فى رأس الجبل … وأروح العيش خيال وأمل

وساعدٍ عنـد الضحى مفتولُ … تغمره بالقبـل الحقول

أسمر مما لذعته الشمس … فى كفه لكل جسم نفس

يقوم فى الأرض مقام الخالق … فيغدق الرزق على الخلائق

هـذا الذى يحاولون قتله … والعدل يقضى أن يموتوا قبله

بشاره الخورى

بين ناقد وشاعر

علم قراء الرسالة من عدد مضى أن الأديب حبيب الزحلاوى اتهم الدكتور الشاعر ابراهيم ناجى بأنه استعان فى قصيدته (عاصفة روح) بقصيدة الشاعر الدمشقى ميشيل عفلق (عاصفة) ، وقد دفع الدكتور ناجى ذلك الاتهام ، وتحدى متهمه أن ينشر القصيدتين فى الرسالة . وأمس أرسل إلينا الناقد نص القصيدتين ومعهما نقد لاذع ، واليوم بعث إلينا الشاعر بنصهما أيضاً ومعهما تعليق ساخر ، فآثرنا أن نطوى النقد والتعليق لخروجهما عن خطة الرسالة ، واكتفينا بنشر القصيدتين ، ليحكم القراء بين الرجلين

عاصفة روح

للدكتور ابراهيم ناجى

أين شطُّ الرجاء   يا عُباب الهموم
ليـلتى أنواء   ونهارى غيوم

اعولى يا جراح   أسْمِعى الديان
لا يهم الرياح   زورق غضبان

البِـلى والثقوب   فى صميم الشراع
والضنى والشحوب   وخيـال الوداع

فى احتـدام النار   واصطخاب الأنين
تضحك الأقدار   ترقص السكين

كل يوم يروح   فى احمرار الجروح
كل صبح يلوح   فجره مذبوح

اسخرى يا حياه   قهقهى بالرعـود
الصِّبَى لن أراه   والهوى لن يعود

الأمانى غرور   فى لظى البركان
الدجى مخمـور   والرد ، سكران

وخليع العبـاب   موجه العربيـد
دار بالأكواب   ويل هـذا العيد

راحت الأيام   بابتسام الثـغور
وتقضى الظـلام   فى عناق الصخور

كان رؤيا منام   كأسك المسحور
يا ضفاف السلام   تحت عرش النور

اطحنى يا سنين   مزقى يا حراب
كل برق يبين   ومضه كذاب

اسخرى يا حياه   قهقهى يا غيوب
الصِّبَى لن أراه   والهوى لن يؤوب

عاصفة !

لميشيل عفلق

اعصفى يا رياح !   واهزئى بالسماء
من يكن ذا جناح   هل يهاب الفضاء ؟

عبس الغاب وادلهم ، فما يد   سم إلا عن الرعود البوارق
فمشى السر موغلاً فى ثنايا   هُ مصوناً من الدجى بفيالق
وتداعت جهم الغيوم ثقيلا   ت حبالى بشائبات الصواعق
ذعرت فى الفلاة آمنة الوحـ   ـش فراحت تمشى كمشية سارق
وسرى الماء لائذاً يحمى الظل (م) ملماً   ببعضـه متعانق

أمعنت فى الغناء   قاصفات الرعود
ذاك ضحك القضاء   من قيود العبيد . .

اعصفى اعصفى أيا ريح حتى   تُرقصى من دويِّك الأجيالا
واضحكى كم يثير ضحكك عند الـ   ـحشرات النواح والأعوالا
أوصدت وكرها الثعالب حسرى   لابسات من ضعفها أغلالا
وانبرى الليث ناعم البال يمشى   حاشداً تحت نابه الآجالا
ودعاك النسر احمليني أيا ريـ   ـح إلى حيث لا جناح تعالى !

اغسلى يا سيول   زائف الأصباغ
السما كالطبول   زمرت بالفراغ

يا سيول افتحى لنفسى مجرى   أنا نهر حيران لم يلق بحرا

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٣ – تطور الحركة الفلسفية في المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوي

الرجل ذو الضمير الفاسد يحس في نفسه حاجة مريضة للتألم، وهو لا يشعر بأن هذه الحاجة تبعثها علة حقيقية هي وليدة هذا الضغط القاسي على إرادة قوته، وإنما يدرك فقط أنه متعاقد مع الألوهية على دين لا يمكن أداؤه . ومن الحق أن يبدو له أن هذا الدين شديد تهون في سبيله الآلام . فهو يحتمل الشقاء ليُهدئ غيظ دائنه العنيف، وليكفر عن خطيئته . وها هو ذا الآن يلتمس العذاب يتذوقه ألواناً ليفي بدين يزعم أن لا نهاية له . يحمل الألم ولا غاية له إلا الألم ليطفئ في نفسه رغبة التكفير عن ذنبه . وهيهات أن تشبع هذه الرغبة أو تطفأ !

فكرة الخطيئة بعثت مرة ثانية، وأصبحت الآلة التي يتوعد بها الكاهن، وبها يُسيطر على الأرواح، وبها انقادت له جموع الأشقياء ووضع يده على النماج المتألمة التي أبصرها في الطريق . مضى قُدُماً الى أولئك المنحطين العاملين بشقاء يجهلون علته، يتحرون عن العلة أو الواحد المسئول عن انحطاطهم الغارقين فيه . فيوحي الى هؤلاء بأنهم هم أنفسهم كانوا سبب شقائهم الحقيقي، وأنهم ينبغي لهم أن ينظروا الى هذه الآلام كتضحية صغيرة عن خطيئاتهم التي اجترحوها، فليتقبلوها – بطرب – كامتحان أراده الله، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل منه، وتلقَّحوا برضاً بهذه الفكرة المسممة عن الايمان بالخطيئة .

وفي أوروبا اليوم مذهب يضم هؤلاء الخاطئين التوابين الذين يمشون بأجساد مريضة وأعصاب ساكنة ونفوس ذاهلة، فرائس لليأس والهذيان . جوعهم دائم للعذاب، تستولي عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الأبدي

وفي النهاية يجد نيتشه أن التعاليم المسيحية كديانة وكمثل أعلى، لا تقود إلا إلى العدمية « nihilisme » . يجد أنها خلقت عالماً مفعماً بالأوهام المجردة، وتخيلت عللاً خيالية وأعمالاً خيالية، وروابط بين الأكوان خيالية . أسست علماً طبيعياً وهمياً مؤسساً على انكار الأسباب الطبيعية والعلاقات الطبيعية بين الأشياء، وأسست علم نفس خيالي يرتكز على تفسير خاطئ للحوادث الطبيعية وعلى فلسفة خيالية، وبينما كان الرجل المسيحي دائباً في بناء وجود خيالي كان يهدم الوجود الحقيقي، يقاوم الطبيعة « أصل كل بلاء » في سبيل الآله « أصل كل خير وهناء »، فولدت الأوهام المسيحية من بغض الحقيقة، فهي نتيجة انسانية منحطة، تربو فيها كمية الشقاء على كمية الفرح، انسانية تعبة سائمة، متألمة، تميل إلى التشاؤم وعدم الحياة، ولا تجد راحتها إلا في أحضان العدم

– ٤ –

إن عمل التاريخ الأوروبي هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الأسياد، لأنه قبل تلك الشريعة وعمل على اعتناقها وكفر بهذه الشريعة . . . وإنها لمعركة لا تزال مشبوبة محتدمة عشرين قرناً بين « روما » وارثة الحضارة اليونانية ومثلها الأعلى الأرستقراطي،

تهت عن غايتي ولكن تيهي ... ينبت الخصب كلما حلّ قفرا
أنا برق في قوتي والتهابي ... في وميض أحيا وأدفن عمرا
أنا ليل يفنى اشتعالاً وحباً ... لتوشي دماؤه الحمر فجرا
أنا زهر أطارت الريح أورا ... قي فأفعمت واسع الجو عطرا
أعطشتني الرغاب ... فشربت النجوم
وحداني الشباب ... فامتطيت الغيوم
من ذرى هذه السحائب ارمي ... فوق هام الورى رفيع ازدرائي
قدما في السماء أركز جذلا ... ن وأخرى على جبين الفضاء
لم يعد لي في الأرض منزل حرّ ... واسعٌ مطلبي وعالٍ إبائي
أحرقت بيتي الصواعق لكن ... غسلت لي قلبي بذوب الضياء
مزقت ثوبيَ الرياح ولكن ... نسجت من دم الشموس ردائي
إعصفي يا رياح ! ... واهزئي بالسماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضاء

الذى هو أقوى مثل وأسمى مثل تحت الشمس ، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح «الكهنوتى» ، انتصرت اليهودية والنهضة الحديثة التى شبت فى أوروبا قامت فى وجهها عثرات وعقبات ، كثورة « لوثر » والبروتستانت ، وكثورة الباستيل فى فرنسا ، وانهزام نابليون ، هذه نائبات تتالت لحالت بين بلوغ النهضة غايتها ، فآلت إلى انتصار شريعة العبيد ، فأوروبا الآن غارقة فى انحطاط عميق ، يقضى على ما تبقى فى عروقها من حياة ، حتى ليخشى أن يتقهقر النوع الانسانى إلى الوراء ، فلا يورث بعد اليوم إلا صوراً من الخزى والعار

هذه هى شريعـــة العبيد التى تسيطر على العالم تحت اسم « ديانة الألم الانسانى » ، فلنفصل الآن هذه الديانة وماتنطوى عليه

إن تحليلنا لعاطفة الشفقة التى يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت لنا أن هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذى يرون . إن عاطفة الشفقة — فى الحقيقة — يتولد منها سرور أنانى . إذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشر . غايتنا من ذلك أن نظهر شعورنا بقوتنا ، ونخضعهم لسلطتنا . أما الرجل القوى الشريف فهو يفتش عن كفء له ليبادله النضال ويحنى هامته بأزاء قوته ، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها ، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم أكفاءه وأمثاله . أما الضعيف فهو يميل إلى الظفر السهل ، والفريسة الخانعة ، وهل كان ضعيف أو شقى يوماً مَهيباً ؟ وإن الانسان بطبيعته وإرادته يجنح إلى إحسان لا إلى شقاء

إن الشفقة هى فضيلة الأنفس المتوسطة ، تتدرب عليها دون وازع ولا مانع ، حتى إذا نزلت هذه الشفقة ساحة النبيل أصبحت علامة الانحطاط ، وذهاب الكرامة ، وخساسـة الأصل . إن النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها . يصرف عن نفسه الارادة الحسنة كما يصرف الارادة السيئة ، والانسان المتألم القبيح قد يكون على حق فى كرهه للشهود الذين يبوحون بسر فاقته وقبحه وتعاسته . هؤلاء الشهود الذين لا يستحون من أن ينظروا إلى ما كان ينبغى له أن يظل خفياً عن العيون ، فيحملون هذا الشقى منة شفقة ما طلبها وما تمناها

إن الشفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب ، بل هى عاطفة منحطة أيضاً . لنتصور أن ديانة الألم قد انتشرت بين الناس فما هى النتيجة ؟ إن كمية الألم تزيد بدلاً من أن تنقص ، ويصبح الانسان مُجبراً على حمل آلامه الخاصة وجزء من آلام الغير ، حملاً على حمل ، وبهذا تضعف الشفقة من حيوية الحياة ، وتجعل من الألم داء سارياً . ناهيك بأن ديانة الشـفقة تضادُّ المذهب الطبيعى السائد حكمه فى الأحياء ، وهو بقاء الأصلح والأنسب الذى يقضى بفناء الكائنات التى لا يصلح تركيبها للحياة ، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة ، وكل ديانة ترمى إلى الشفقة هى ديانة تعمل على وقاية العناصر المنحطة ، وعملها هـذا هو ما يسوق إليها الفوز فى كل جيل ، لأن الضعفاء والمرضى هم فى الحقيقة الفريق الغالب ، بينا أن الانسان الخالص الصافى من كل شائبة هو نادرة من نوادر الوجود ؛ وقد ثبت فى كل الأنواع الحية العالية أن الأغلبية فيها هى كائنات منحطة التركيب ، سيئة الخلق ، مستسلمة للألم ، والانسان لا استثناء له من هذا الحكم . والانسان — بالنظر إلى الحيوانات — هو سلالة عاليـة راقية ، قابلة للتطور ، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التطور فى الكمال ، وهو لما يزل عرضة للحوادث التى تؤثر فيه وتبدل منه . كما أن معدل الانحطاط فى النوع الانسانى هو أبرز وأكثر منه فى سائر الأنواع . وديانة الشفقة تغدو عاملاً كبيراً فى الابقاء على فريق كبير من الأحياء لا فائدة منه ، لأن انتخاب النوع لا يرى غاية له إلا الفناء . هى تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس . فتجعل الوجود أكثر قبحاً ، والحياة أكثر ميلاً إلى العدم . إن هذه الديانة هى جزء من العدمية . إنها مهددة للوجود وللنماذج العليا من إنسان الوجود . فان مرأى البؤس والألم والانحطاط والقبح يدعو الرائى إلى رجاء العدم ، إما بعامل اليأس من هذا المرأى أو بعامل الشفقة ، حتى ليغدو مذهب الشفقة مرضاً شديداً يقضى على طبيعة كريمة ، ويقتل منها قوة نضالها ودفاعها ، هذا المرض الدائب على تذليل الذرية الأوروبية ، وتقييد اصطفاء الأنواع السامية ، والحيلولة بين الانسان والسوبرمان

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

صور من هوميروس

٨ - حروب طروادة
من السماء . . .
للأستاذ دريني خشبة

قضى پروتسيلوس نحبه ، وعادت روحه الكريمة إلى هيدْز مصطحبةً روح زوجته البارة ، وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق قبر الراحلين فنمت وترعرعت ، ونعم بفيئها الوارف ماء الهِلِسْپُنت [1] ورتعت فى ظلها أترابه . . .

ولكن . . . !

لقد كانت روح پروتسيلوس الجذوة التى أجّجت نيران الحرب فجعلتها ضراماً ! ! فانه ما كاد يُرمى بالسهام فيُصمى فيسيل دمه أنهاراً ، حتى تدفقت جيوش الهيلانيين على الشاطىء الأسيوى ، غير مبالين بالموت الأحمر الذى كانت تمطرهم به سهام الطرواديين ، والمنية السوداء التى كانت تقطر من سيوفهم ، فتحصد صفوف الغازين حصداً . لا . لم يبال الهيلانيون بهذا الهول الأكبر ، بل انقضوا على الشاطىء شِكاكاً فى سلاحهم ، مُقنّعين فى دروعهم ، مرهفين سيوفهم ، تفيض عليهم عدة الحرب كأنهم جِنّةٌ ترقص فى زوبعة ، أو ظلال من الذعر تجول فى ممعمة

وتبعهم قادتهم العظماء فانطلقوا يبوئونهم مواقف للقتال ، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال ، ما أضرموا به جوانحهم شوقاً إلى خوض الكريهة ، وحنيناً إلى اقتحام الوغى ، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض

ودُقت الطبول فكانت إيذاناً بهجوم الهيلانيين

فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر ، والموج يساور الموج ، والموت يصاول الموت ، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة ، وصيحات الهيلانيين تردها صيحات الطرواديين ؛ وليل الآخرة يغطش نهار الدنيا ، وظلام القبور يكشر لهذه الدور ، والفزع يمشى فى صفوف هؤلاء وهؤلاء ، واليتم يجرح هذا الكبد ، ويقرح ذلك القلب ، والحزن يفيض على هذا السهل ، ويجوب ذاك الوادى ، ويرف على قلل تلك الجبال ، وأنين الجرحى يطن فى فضاء الساحة الحمراء ، فيملأ الآذان بالهلع ، والنفوس بالجزع ، والدماء تتفجر هنا ، وتتحدّر هناك ، والرؤوس منتثرة فوق الأديم المضرّج ، زائغة أبصارها ، مفغورة أفواهها ، معفرة بالتراب أنوفها التى عزت على العالمين . . .

ثم انظر إلى أخيل يرعد بين الصفوف ويقصف ، ومن ورائه الميرميدون يوزعون المنايا ويهدهدون الحتوف ويقرّبون الآجال !

وأوليسيز المغوار وتلك العجاجة المنعقدة فوق رأسه من غُبار الحرب ، وهذه الصّمدة السمراء بيمينه تنفث الموت فى صدور الأعداء !

وأجاكس وجنوده ! الكُرّار الفُرّار ، المذاويد الأحرار !

وبنليوس ! قائد المساكر البَوُوطية ، القروم البواسل ، والليوث الكواسر !

وديوميد ! نبعةُ أرومته ، وسيد عشيرته ، ووجه قومه ، وفارس كتيبته !

وأجابينور ! فتى أركاديا ، وملاك أمرها ، وشمس ضحاها !

وميجيز ! النجد الباسل ، والبطل الحلاحل !

وإيدومينيز ! ملك كريد وقائد جنودها ؛ أباة الذل ، وكُماةُ الوغى ، ومَرادى الحروب !

وتليبوليموس بن هرقل بطل المجازفات ، المقدام أخو

(١) هو بوغاز الدردنيل ، وبالقرب من مأخذه الجنوبى ، على شاطىء اسيا توجد طروادة

الغمرات ! [1] ثم انظر إلى الصيد الصناديد من أبناء طروادة ، وجيرانهم الـكماةِ الأباةِ الحماة !

هاك هكتور العظيم بن بريام الملك ، عضد طروادة وسندها وليث عرينها ؛ الثبت الصابر المصابر ؛ رابط الجأش شديد البطش ؛ قوى الشكيمة الفارس المقدام !

هاك هكتور الأسد ، يرغى فى أسود الشرى ويزبد ، ويوقل فى بطاح طروادة وينجد !

وهاك إينياس الهائل ، يقود (الدّردان) الأبطال إلى كرائم الفعال فى ساحة القتال !

وهاك بنداروس ! تلميذ أبوللو وربيبه ، يقود فرسانه الفحول ورجاله البهاليل !

وهاهما ولدا ميروبس الـكبير ملك أبيسوس ، يصولان فى الحومة ويجولان !

وهاك آسيوس بن ملك أبيدوس ، يتقدم رعيل فرسانه ، ويداعب أعداءه بمُهّرانه !

وهاهم أشبال تراقية ، يقودهم يوفيموس المقدام ، ويقتحم بهم أيما اقتحام !

وهاهم نسور أميدون البواشق ؛ أقبلوا من هناك . . . من جنات سيحون وجيحون ليخوضوا الجحيم ، فى ذلك اليوم العظيم ، وليذودوا عن طروادة ، حليفتهم ؛ ويدفعوا . . . !

وهاهم أمراء ميديا ، أقبلوا فى عدة وعديد ، وكل جبار مريد !

أنظر إذن إلى الجيشين فى مد وجزر ، تبسم لأحدهما الآمال ، وتعبس للآخر المنايا ؛ ثم تدور الدائرة ، فيفلذ المنهزم ، ويتأخر المتقدم ، وهكذا دواليك

وتغيب الشمس وتشرق . . . . .

ويبزغ القمر . . . ويغرب

وتكر الأيام ، وتمر السنون !

وكلما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا اليهم وهم ألوف فنالوا منهم ، حتى إذا كرُّوا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها ، واعتصموا بأبراجها ، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى

***

(١) ذكر هوميروس رؤساء العشائر اليونانية التى اشتركت فى هذه الحرب فى الـكتاب الثانى من الالياذة ونحن نـكتفى بذكر من أوردنا

أعوام تِسعة ! !

مليئة بالتعب ، مشحونة بالنصب ، مفعمة بالخطوب والأهوال

وكان الهيلانيون يرسلون البعوث والسرايا ، فتجوب الريف وتؤوب بالغنائم والفئ ، والأسلاب والسّبى ، فيقتسمها القادة ، ويفيضون منها على الجند

وهاجموا مرة إحدى القرى ، فكان من جملة السبى فتاتان ذواتا رقة وفتون . أما إحداها فكانت من نصيب أجاممنون ، واسمها خريسيز ، وهى ابنة كاهن القرية الورع ، حبيب أبوللو وخليله وصفيه ، القديس خريسز . وكانت فتاة لعوباً حلوة الدل رشيقة الروح ، وكان أبوها يحبها حباً جماً لا تعدل بعضه كل مباهج الحياة ! !

أما الأخرى فقد خلصت لأخيل وأخلصت له الود ، وصافاها هو المحبة ، فكان أحدهما للآخر فى هذه المحنة القاسية الصدر الحنون ، والقلب النجىّ ، والملاذ الأمين . اسمها بريسيز ، وأبوها شريف من أشراف هذه الناحيـة التى نكبت بتلك الحرب الضروس ، فَصَلِيَتْ لظاها ، وطحنتها رحاها

وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته ، فازدحمت على قلبه هموم الحياة ، وأحس فى أعماقه بثقل البلية ، وشعر كأنه جُرّد من كل شيء حتى من نفسه

وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الهيلانى فيفتدى خريسيز ، ولو نزل لأجاممنون عن كل ما يملك . وحذره صحبه من المخاطرة بنفسه فى هذا الطريق الشائك ، ولـكنه لم يعرهم التفاتة واحدة ، بل دهن نفسه بالطيب الـكهنوتى المقدس ، ولبس مُسُوحه ، وعقد زناره ، وتناول مِسْبَحَةَ أبوللو العظيم ، ثم توكأ على عصاه العتيدة ، وذهب يتهالك على نفسه ، ويتعثر فى خطاه ، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم

وسأل عن خيمة القائد العام ، فقيل له إنها هى الفسطاط الأكبر الذى تبدو قبته هناك .... هناك عند شاطئ الهلسبنت ، بين الجيش وبين الأسطول

وانطلق الـكاهن الجليل والدمع ينحدر من قلبه قطرات من الدم ... عن طريق عينيه ، فيعلق بلحيته البيضاء ، فيصبغها بأرجوانه ، كأنه آية السماء الباكية ، نذيرا لهذه القلوب القاسية ، والغزاة الأقوياء ! !

وبلغ الفسطاط بعد لأى ...

واستأذن على القائد العام فلم يؤذن له .... فاستأذن ثانيةً فهُدد بالضرب وبالعقوبة ! ... ولكنه أب مفئود ، وحزين منكود ، فتنظَّر قليلاً واستأذن في أدب ولين واستكانة ، فأذن له ....

ووقف أمام القائد الأكبر واهيَ الجسم موهونَ القلب ، محزوناً متصدعاً ، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه ، والأسى يعقد لسانه ، والنار المندلعة في رأسه تنسيه كل شيء

وثار به أجاممنون !

لأنه على ما يبدو فوّت عليه لذةً طارئة ، وسكرةً مواتية ، بمجيئه في تلك اللحظة الهانئة القريرة ، وإلحافه الشديد بضرورة لقاء القائد ....

واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد ، وسمعوا إلى الكاهن الكبير يقول :

« مولاى !

سعيت اليك عائذاً بك ، داعياً أبوللو العظيم لك ، أن يفيء عليكم من النصر والفتح المبين ، وأن يهبكم من الرعاية والمن ما تشتهى أنفسكم ، وتقر به أعينكم ، وما تترفعون به عن ظلم الضعفاء ، والجور على الملهوفين ، فقد يغنى القليل الذى ترضى عنه الآلهة ، عن الكثير الذى يثير سخطها ، ويستنزل غضبها ..

إبنتى يا مولاى !

خريسيز العزيزة ! ردها علىّ يباركْ لك أبوللو ، ويُيَسِّرْ لك سبيلك ، ببركة دعوات قديسه الحزين الواقف أمامك ، المبتهل اليك ، المستعد لأن يفتديها بكل ما علك ، وبكل ما يقدر عليه مما يرضى الملك ! »

لكن الملك أشاح بوجهه ، وكبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه بهذه الطلبة العزيزة أمامه ! خريسيز ! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد احتلت من قلبه مكانة زوجه كليتمنسترا ؟ واستحوذت على لبه حتى نسى الحرب ، وعزف عن الطعن والضرب ، واستقر معها في فسطاطه آخذين في لهوٍ وحب ، وغناءٍ وشرب ! !

أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة ، ولو استحالت عينا الكاهن بئرين تنزفان الدمع ، وتفيضان بالدم ؟

كلا ! لن ينزل أجاممنون عن خريسيز !

« إصغ يا رجل ! ليس بى أن تكون قديس أبوللو ، وحامل صولجانه ، وحامى مسبحته ، وعاقد زناره !

ستعود خريسيز معى ... إلى آرجوس ... وسيذوى جمالها هناك ، وتذبل محاسنها بين ذراعى ، وسأ كل إلبها منزلى تخدم فيه ، وتصير أم بنين ، وسيكون بها قصرى جنة خلد ونعيماً لا يفني ... اذهب ، فاسفح دموعك في صومعة أبوللو ، وصعِّد زفراتك في هيكله ، وبين يدى صنمه ... اذهب ، وانج بنفسك من عذاب أليم ...

خريسيز تعود معك !؟

إنك تثير النقمة في نفسى ، فانج بنفسك ... انج ... »

وتصدّع صدر الرجل ، وكاد قلبه يقف ، فتقف أنفاسه !!

وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه ، وكلمات القائد الظالم تَرَدَّدُ في مسمعيه ، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أبوللو ، وجلس يبكى ... ويصلى !!

« أبوللو !!

يا إلـهى !! أسمعت ؟ لقد استهزأ بك أجاممنون ، وفجعنى في بنتى ، وفلذة كبدى ، وقطعة قلبى ، وحياة روحى !!

أبوللو !!

هل سمعت يا رب النور !؟ أرأيت إلى ذلك العاتى المتجبر كيف ثار بقديسك الضعيف المسن الذى أحنت ظهره السنون في عبادتك ، والصلاة لك ، والتسبيح من أجلك ، والهتاف باسمك . ! ؟

ألا فلتنتقم لعبدك يا أبوللو العظيم ، وليحل على الطغاة غضبك ، ولتُسْحِتْهم بعذاب واصب ، ليس له من قدرتك من دافع ...

أبوللو ... !

استجب يا رب الهيكل الخالد ، وحامى المعبد الأمين !!.. »

وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب ، والشموع الموقدة تذرى دموعها معه !

فثار في عليائه أبوللو ... !

***

انتفض الآله العظيم انتفاضةً رجف من هولها الأولمب ، ورف في السماء كأنه سحابة مظلمة في ليل بهيم ! وفوق كاهله

الكبير قوسه الفضية المرنان ، وعلى ظهره كنانته الواسمة الشاسعة ، يُسمع لسهامها صليل أى صليل ... وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول المطمئن ، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر ، ووتّر قوسه فانهمرت منها سهام كالمطر ، صبّها على السفن حاملات الخيل والبغال أولاً ، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وابلاً منها بعد ذلك ... فلا تسمع إلا أنيناً وبكاءً ، ولا ترى إلا صرعى يضجون ويُعْوِلون ، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهنا فيقمون إلى أذقانهم سجداً وبُكِيِّا . . .

أمطر يا طاعون . . .

ولا حنانيك يا أبوللو . . .

***

واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله . . .

وفى اليوم العاشر أوحىَ إلى أخيل أن يدعو مجلس الجيش ليرى رأيه فى هذه النكبة التى دهتهم بها ميازيب السماء . فلما التأم شمل القادة ، اجتمع الرأى على أن يذهب كالخاس فيستوحى أربابه لتكشف هذه الغمة ، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرابين !

وعاد كالخاس ، كعادته كلما حمل أخبار الشؤم من لدن أربابه كاسف الوجه ، كالح الجبين ، يحبس فى صدره شجون الأرض ، وهموم السماء ! !

« خريسيز يا سادة ! »

« خريسيز تعود إلى أبيها القديس ، وإلا فتلك مقابركم جميعاً فوق هذا الشاطئ المظلم ، المضرج بدمائكم ، ودماء أعدائكم . . . ! »

« هكذا تتفق كلمة الآلهة من أجل أبوللو ... فويلٌ لنا جميعاً إن لم نهدئ ثورة صاحب القوس ، ورب النور ، وسيد الشمس . ! »

« اسجدوا لأبوللو ، واخشعوا . . . »

ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحيرون ، ينظر بعضهم إلى بعض ، ولا تنفرج شفة بكلمة ، ولا يتحرك لسان بقول !

ولكن أخيل شعر فى صميمه أن القدر يُسخّره هذه المرة أيضاً لتفريج الأزمة ، وكشف البلاء ، فنهض غير هياب ، وأرسل قولة الحق فى غير وجل ، وصرّح بضرورة إرسال خريسيز إلى الدها القديس معززة مكرمة ، ثم تقديم القرابين من لحم العجول وشحم الأوعال إلى معبد أبوللو ، وإطعام الحاضر من شوائها والباد

وزلزلت الأرض زلزالها ، وهوت السماء فوق رأس أجاممنون !

ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل ، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرائها فى صدر القائد العام ، الذى طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز : « إذا كان لابد من نزولى عن خريسيز ليسلم الجند من هذا الوباء !! وليسكن غضب أبوللو ، وترضى السماء ! »

وتأججت نيران العداوة بينهما ، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء وذاك يحض على إنقاذ الجنود بتضحية الذات وإنكارها فى سبيل ما هو أسمى وأرفع ، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالى ، فتشبث وأصر إلا ما نزل له أخيل عن بريسيز ، لينزل هو عن خريسيز . ! !

وهنا تتغزل الآلهة لتحكم بين الخصمين !

تبدو مينرفا ، ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، رسولاً من لدن حيرا ، سيدة ربات الأولمب ، للبطل أخيل ، بحيث لا يراها غيره ، فتعظه أن يضحى بفتاته ، ما دام هذا الفظ يتأبى إلا أن يكون ذلك . . .

ويصدع أخيل بأمر السماء . . .

ويذهب أوليسيز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه فى معبده يبكى . . . ويصلى ! فيبشره بها ، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش ، وتنهمر من عينيه دموع الفرح

وتقدم القرابين باسم الجيش الهيلانى إلى معبد أبوللو

فينكشف البلاء . . . . . . وترضى السماء . . . ويُدَفّن الهيلانيون موتاهم !

أما أخيل . . .

فينقطع عن المعركة ، وينعزل فى معسكره ، لا يشترك فى الحرب ، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون !

وتحس أمه بما يلم به من الحزن ، فتزوره ، وتمده خيراً على يد الآله الأكبر ، زيوس ، سيد أرباب الأولمب !

(لها بقية) دريني خشبة

من الأدب الأمريكي :

قيصر

للقصصي الأمريكي بول بورك Paul Burcke

تألق نجم مؤلف هذه القصة في العام المنصرم إذ تفوق بقصته « أخلاق » على جميع القصصيين الأمريكيين وأحرز من أجلها « جائزة أمريكا الأدبية لعام ١٩٣٤ »

بدأت المسألة بمعطف مطر . . .

وإذ خرج « قيصر سمث » في مساء يوم من أيام السبت المعهودة من جمعيـة رماية القرص التي يترأسها وسار على قدميه رغم المطر المدرار شاقا طريقه إلى منزله ، رأى في تسياره الآنسة « شيلا » منزوية في مدخل لاحـد المنازل غير حاملة مظلة ولا متدثرة بمعطف ، وكانت تعمل جهـدها للمحافظة على ثوبها الجديد من الماء الذي يتدفق منحدراً من سطح المنزل ...

وإلى اليوم لم يدرك قيصر ، وهو الرجل الخجول ، كيف تسنى له أن يبدأ بحديث مع سيدة غريبة عنه ، ولـكن لعل فوزه في رماية القرص عصر ذلك اليوم أحيا فيه النشوة . والخلاصة أنه خلع معطفه وقدمه إلى تلك الآنسة ، وارتبك في القول

— « أنت هنا عرضة للتبلل بالماء ... ارتدى هذا المعطف »

ودهشت الآنسة من قوله ونظرت إليه في عجب وقالت :

— « ولـكن كيف لي أن أقبل منك ذلك ؟ . . . . وأنت ؟ »

ولحظ قيصر أن لهـا عيوناً ناعسة ساحرة ، ولم يكن تبينها من قبل وقال لها :

— « لم يبق لي أن أسير طويلاً ، فنهاية سيرى عند منعطف الشارع »

وكان ذلك منه اختلاقا ، وترددت الآنسة بادئ ذى بدء ، وكان من الواضح أن حرصها على ثوبها الجديد جعلها تتقبل في النهاية تلك التضحية . وأجابت

— « حقاً إن ذلك لعطف منك عظيم . لقد انهالت الأمطار فجأة ويلوح لي أنها لن تحتبس قريباً . إنني مدينة لك بالشكر »

فأجابها قيصر وفي نبرات صوته شجاعة الكرام

— « إنه أمر لا يستحق أن ينوه به »

وكان قد اعتزم المسير ، فسألته الآنسة :

— « ولـكن إلى أي مكان أرده ؟ »

فقال : « اسمي قيصر سمث »

وسرعان ما حدقت فيه الآنسة وقالت :

— « ما أروعه اسما ! قيصر ؟ »

وأجاب في تواضع القنوع : « أي ، ولماذا ؟ »

ثم فاه بكلام كبير المغزى إذ قال :

— « لا تكلفي نفسك مشقة ارجاع المعطف »

ثم سكت برهة وقال :

— « سأحضر بنفسي لآخذه »

فترددت الآنسة لحظة ثم قالت :

— « حسناً . إني أدعى شيلا هيرست وأسكن في شارع مونرو رقم ١١٤ »

وأسرع في ارتشاف ابتسامتها العذبة واستمر يتابعها بنظراته حتى أدركه جارف من الماء انساق اليه من حافة قبعته ، فذكره بأن الوقت قد حان ليرجع الى المنزل

وفي المساء التالي ذهب ليسترجع معطفه ؛ فتعرف الى المستر هيرست وزوجته ، وقد استبقياه لتناول الشاي . وفي خلال ذلك تعرف الى « المستر راند » الذي كانت له حظوة عند كل فرد من عائلة هيرست . وتراءى لقيصر أن تلك الحظوة وذلك العطف فيهما الـكثير من المبالغة التي لا مبرر لها . وكان للمستر راند سيارة اتفق المجتمعون على أن يستقلوها الى الشاطىء . وهنالك لم يجد قيصر من يتحدث اليه غير المستر هيرست ، إذ أن راند كان يسير في صحبة « شيلا » على بضع خطوات خلفهما . ثم دعوا قيصر إلى العشاء في ذلك اليوم ، وفي خلاله اختصته شيلا بابتسامة عذبة

وانتهى الأمر بقيصر إلى هذا الحد . ومنذ ذلك اليوم وهو يحمل وجهاً عبوساً ، وما ذلك إلا لتأكده من أن مشاعره تحمل الحب لشيلا ، ولـكن أي أمل له ـ وهو الموظف البسيط ذو الأجر الضئيل ـ في آنسة يبتغيها لنفسه رجل مثل « راند » الثرى . وبالمال الوفير تستهوى كل آنسة ؛ ثم ماذا يقدمه لها

عوضاً عن المال ؟ أيقدم اسمه العظيم الذى لم يحسن حتى اليوم صيانته ؟ أم يقدم لقبه كرئيس لجمعية رماية القرص ؟ لا شك أن هذا وذاك لا يغرى ، وليس ثمة من فائدة ترتجى . أما لو كنت رئيساً أو وكيلا لرئيس أو على الأقل سكرتيرا لاحدى المؤسسات الكبرى ، وكان لدى ما فيه الكفاية من المال لما توانيت عن نقش اسمى ووظيفتى على قبعتى ، ولأمكننى إذن أن أفصح عما يخالج نفسى ، ولعرفت كيف أرفع من شأن اسمى . ولكن أى حال عليها أنا الآن ؟ قيصر ! ! لا شك أنه هزؤ وسخرية ، وما دمت موظفاً بسيطاً فى « محل دولتل وشركائه » فلست قيصرا بل مجرد « أنت ياسمث » أو « أى . أنت الذى هنالك . . . » ذلك إذا ما أريد منى شىء

وانطوى قيصر على أفكاره ، ثم تذكر موعده فسار إلى منزل شيلا ، ولاحت له من بعد سيارة « راند » مستقرة أمام المنزل . والأولى أن نتغاضى عما تمم به ساعة أن رآها

وسألها « راند » أثناء تناول الطعام :

ـ إذن فستحضرين يوم السبت إلى ملعب كرة القدم ، حيث تشاهدينني فى الحفلة التى تقام ضد فرقة الأبطال الأقدمين»

وأجابت شيلا : « نعم »

ونظرت إلى قيصر وقالت :

ـ « ولعلك تحضر أنت أيضاً ! »

وهز هذا رأسه وقال :

ـ « إننى آسف ، إذ أنى سأشترك فى اللعب »

وسأله « راند » : « أى شىء ، كرة القدم ؟ » ثم نظر إلى قيصر متعجباً من ضآلة جسمه وحقارة مظهره الذى لا ينم عن بطولة

واحمر وجه قيصر خجلا وقال :

ـ « كلا ، بل رماية القرص »

فقال « راند » هازئاً :

ـ « أى ، إنكم ترمون بذلك الطبق الصغير هنا وهنالك ، أليس كذلك ؟ لقد فعلت هذا يوم أن كنت صبياً . أما الآن فانى أجدها لعبة مملة »

وأجاب قيصر لفوره :

ـ « وكذا شأنى وكرة القدم . لقد كنت أبحث دائما عن لعبة تتجلى فيها المهارة . ولا شك أن قرصاً يرمى ليصيب هدفا أدعى للمهارة والدقة من كرة تدفع بالأرجل لتتقدم فى السير »

وتدخلت شيلا فى ذلك الحديث الذى أخذ يشتد وقالت :

ـ « ألم نذكر شيئاً عن النزهة بالسيارة ؟ »

وتحمس « راند » وقال :

ـ « بلى ، دعينا نذهب إلى الشاطئ »

والتفتت شيلا لقيصر وقالت له :

ـ « وستكون بالطبع معنا »

وما إن وصلوا إلى الشاطئ حتى نزل ثلاثتهم من السيارة ، وأخذوا يتريضون فى طريق البحر ، وقد خلا من الناس أوكاد ، ولم يبق إلا بضعة أفراد متفرقين يستمتعون بالاستحمام فى البحر

وأرادت شيلا أن تطرق حديثاً لا يجر إلى المشادة ، فسألت :

ـ « هل يمكنك السباحة ؟ »

ولم يعرف كلاهما لمن وجه السؤال ، إلا أن قيصر بادر بالاجابة فقال :

ـ « قليلا ، إذ لم أتدرب عليها التدريب الكافى »

ثم قال « راند » :

ـ « وكذلك حالى ، إن لعب كرة القدم يستولى على كل وقتى ، ولهذا كانت معرفتى بالسباحة ليست عظيمة للغاية »

وسألته شيلا ثانية :

ـ « وماذا أنت فاعل إذا رأيت رجلا يغرق ؟ وليكن على سبيل المثل ذلك الرجل » وأشارت بأصبعها إلى رجل يسبح على بعد غير كبير من الشاطئ

وأجاب « راند » فى لهجة الواثق من نفسه :

ـ « بالطبع أقذف نفسى فى الماء وأعود به إلى الشاطئ »

ونظرت شيلا إلى قيصر وقالت له :

ـ « وهذا ما أنت فاعله أيضاً ، أليس كذلك ؟ »

وتردد قيصر فى الجواب وربما يبصره إلى ما وراءه فوجد قائمة فى مدخل البحر معلقاً بها « حزام النجاة » مشدوداً بحبل إلى القائمة . فقال :

ـ « كلا ، إننى لا أقذف بنفسى فى اليم إذ أنى لا أجيد السباحة ، ولا يمكننى أن أسدى للغريق نفعاً »

وصاح راند بصاحبه : « أى جبان ! » ضمنها شيئاً من السخرية

وحدقت شيلا فى قيصر ، الرجل الذى يحمل اسماً كثير الوعود والآمال . وسألته مرة أخرى :

ـ « إذن تتركه يغرق ؟ »

فأجاب قيصر : « كلا ! »

وقبل أن يتم حديثه أخذ السابح — وقد كان على وشك النسيان منهم — فى أن يثير المسألة بنفسه . وكانت مفاجأة عجلى ساعة أن رفع السابح ذراعيه فى الهواء وصرخ مستغيثاً . فنزع راند معطفه . ثم تردد وقال فى نفسه : هل من الانصاف أن أضحى بحياتى ؟ ولا شك أنه رأى فى هـذه اللحظة الماء فى تلك البقعة أعمق منه فى المحيط ، ثم هو أصقع من ثلج القطب .

وحثته شيلا ، وقد بدأ القلق ينتابها :

ـ « أسرع ! ! انه يشرف على الغرق »

وصاح الرجل من الماء فى صوت يكاد يختنق :

ـ النجدة ، النجدة ! !

وصاحت شيلا مرة أخرى :

ـ « أسرع ، أسرع وإلا ذهبت أنا بنفسى اليه »

وقال لها قيصر بينما كان منافسه يتباطأ بشكل مزر ليخلع حذاءه :

ـ « قنى مكانك ! »

ثم انتزع « حزام النجاة » واتخذ موقفاً كالذى اعتاد أن يقفه فى عصر كل يوم سبت لرماية القرص . ثم رمى رميته فتطاير الحزام مع الهواء ورسم فى الفضاء قوساً عالياً ، ثم انبطح دفعة على الماء . وقد كاد يسقط على رأس المشرف على الغرق

وقال قيصر وقد تملكته السكينة والثقة بالنفس :

ـ « مصيب ! . . . بقدّر بنقطتين . . »

وكانت شيلا ترقب رميته وتتابعها بنظرات وجلة . فلما أن اقتيد الذى نجا وجيء به الى الشاطئ وأفرغ زفيره وتأوهاته ، سأل عمن رمى اليه بحزام النجاة ، فأشارت شيلا الى قيصر وقد تملكها الفخار

وحدق الرجل الذى نجا من الغرق فى قيصر وقال له :

ـ « ظننت حقاً أن حياتى قد انقضت ، إذ أصبت بتصلب فى الشرايين فجأة . . . لقد كانت رمية متقنة »

وأفصحت شيلا عن قيصر بقولها :

انه رئيس جمعية رماية القرص

وقال الرجل وقد أدرك سر الأمر :

ـ « آه ، لهذا كانت تلك الرماية محكمة . والآن اسمح لى أن أقول لك إنك أستاذ ماهر . ولو أنك لم تكن هنا لكنتُ الآن فى ناحية ما من قاع البحر . . . انني أود من صميم فؤادى أن أقدم لك خدمة بأى حال ، فعرفنى ماذا تريد »

وما فرغ من كلامه حتى أخذ ينظر الى قيصر من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ثم سأله :

ـ أين تعمل ؟

فأجاب قيصر :

ـ « فى محل دولتل وشركائه »

ـ « واسمك ؟ »

ـ « قيصر سمث »

وقال الآخر بصوت خافت :

ـ « إن قيصر اسم بديع » ثم أفصح وقال : « واسمى بلوارك » وأعقبه قيصر متسائلا :

ـ « من مصنع ينيفرسال للسيارات ؟ ! » فقد كان اسم بلوارك معروفا للجميع ، حتى لصبية الشارع

فقال هذا : ـ « نعم ، وإن لم تعلق أهمية خاصة على وظيفتك الحالية فانى أتقبلك فى محل عملى بكل ارتياح . إننى دائماً فى حاجة إلى شاب له قدرة على العمل فى الوقت المناسب والرجل العملى يجد عندى الطريق مفتوحاً أمامه . »

وأبرقت عينا قيصر وتمتم :

ـ « إذاً فلا أقل من سكرتير ! »

واتجه ببصره نحو شيلا التى كانت تحدق فيه طوال هذه المدة والاعجاب به قد تملكها

واندفع قيصر قائلاً وكأنه قد استقر على أمر

ـ « ليس من طبعى أن أستخلص الحوادث فأستثمرها لنفسى ، ولكن إن كنت حقاً فى حاجة إلىّ فانى أبحث عن وظيفة تمكننى من الزواج . »

ثم أخذ يد شيلا فى يده ، فما تراجعت ولا وهنت ، وكان ذلك أمام سمع « راند » وبصره الذى تبلبل وانطفأ منذ اللحظة الأولى لتلك الواقعة

وهكذا جاوز قيصر كل تقدير

نقلها عن الانجليزية ا . ا . ى

البريد الأدبي

نظرية النشوء بعد مائة عام

احتفلت جمعية علماء الزولوجيا « علم الحيوان » فى لندن أخيراً بالذكرى المئوية لرحلة العلامة الانكليزى تشارلس داروين إلى أمريكا الجنوبية وجزائر المحيط الهادى ؛ وقد أصبح اسم داروين فى عصرنا علماً على نظرية النشوء والتطور التى تذهب إلى تسلسل الانسان من سلالة أحط من الحيوان ، وأضحت النظريات الدارونية فى ذلك علماً راسخاً ، وكانت رحلة داروين الشهيرة التى كانت أساس مباحثه فى « أصول الأنواع » فى سنة ١٨٣١ ؛ وكان داروين يومئذ فى الثانية والعشرين ، وقد أتم دراسته الجامعية وملكه حب المباحث النباتية والحيوانية ، فانتخب باحثاً طبيعياً مع جماعة من العلماء جهزتها جامعة كمبردج ، واستقلت السفينة الشهيرة المسماة « بيجل » إلى أمريكا الجنوبية ، ولبثت السفينة بيجل تطوف أرجاء المياه الأمريكية ، ومياه المحيط الهادى حتى بلغت أقصى جزائرها المسماة « جلاباجوس » ، وقطعت فى هذه المرحلة نحو خمسة أعوام ، ولم تعد إلى انكلترا إلا فى سنة ١٨٣٦ ، وفى أثناء هذا الطواف كان داروين يجمع المعلومات والملاحظات الدقيقة عما يراه من الحيوان والنبات . وإليك ما يقوله لنا عن هذه المباحث فى مقدمته لكتابه الشهير فى « أصول الأنواع » :

« لما ركبت السفينة بيجل كباحث طبيعى ، لفتت نظرى بعض الحقائق الخاصة بتوزيع المخلوقات التى تسكن أمريكا الجنوبية وبالعلائق الجيولوجية بين سكان هذه القارة فى عصرنا وبينهم فى الماضى . وقد لاح لى أن هذه الحقائق قد تلقى بعض الضياء على « أصول الأنواع » أو مسألة المسائل كما سماها فيلسوف من أعظم فلاسفتنا ؛ ولما عدت إلى الوطن سنة ١٨٣٧ ، فكرت أنه قد يمكن استخراج شىء فى هذا الموضوع بجمع هذه الحقائق وتأملها ، وبعد دراسة خمسة أعوام ، سمحت لنفسى أن أتناول الموضوع وأن أكتب عنه بعض مذكرات ، ثم استخرجت النتائج التى لاحت لى وجاهتها ، وما زلت من وقتها إلى يومنا أتابع مباحثى فى الموضوع »

وقد ضمن داروين مباحثه الأولى كتاباً سماه « رحلة السفينة بيجل » Voyage of the Beagle . وفى سنة ١٨٥٩ أخرج كتابه الشهير الذى يعتبر فاتحة عصر فى المباحث الطبيعية ، وهو كتاب « أصول الأنواع » Origin of Species ، فأثار ظهوره أعظم اهتمام فى الأوساط العلمية ، وما زال داروين يشتغل بنظرياته ومباحثه فى هذا الميدان لا يتحول عنها قط حتى أخرج فى سنة ١٨٧١ كتابه عن « سلالة الانسان » Descent of Man ؛ وفيه يتناول أصل الانسان ونشأته وتسلسله ، ومن ذلك الحين اشتهر مذهب النشوء والتسلسل ، وأثارت نظريات داروين فى طبقات الكافة سخطاً واشمئزازاً لأنها لم تفهم على حقيقتها ، بل فهمت على أنها تذهب إلى تسلسل الانسان من القرد . ولداروين مباحث وكتب أخرى فى هذا الباب يضيق عن ذكرها المقام

قاموس الاكاديمية الفرنسية

من المعروف أن الأكاديمية الفرنسية قد أنشئت فى الأصل منذ ثلثمائة عام لتعنى « بتوسيع اللغة الفرنسية وتجميلها » حسبما ورد فى قانونها التأسيسى . ومع أن الأكاديمية قد استحالت بمضى الزمن الى هيئة أدبية كبرى تقود الآداب الفرنسية وتجمع صفوة زعمائها ، فانها لبثت مع ذلك تحرص على أداء المهمة الأصلية التى خلقت من أجلها ، وهى تنقية اللغة وتحسينها وصقلها . وجهود الأكاديمية فى هذا السبيل تبدو فى القاموس الجامع الذى وضعته عن اللغة الفرنسية ؛ وقد ظهر هذا القاموس فى الصيف الماضى لمناسبة الاحتفال بمضى ثلثمائة عام على تأسيس الأكاديمية ، والطبعة الحالية من القاموس هى الطبعة الثامنة ، وقد بدئ فى وضعها منذ سبعة وخمسين عاماً ! ولولا أن لجنة القاموس ضاعفت جهودها فى الأعوام الأخيرة لما ظهر هذا القاموس الشهير . على

أن الأكاديمية لقيت فى وضعه صعاباً لا نهاية لها ، وخصوصاً فى العصر الأخير حيث كَثرت الاختراعات العلمية ، وتغيرت أوضاع الحياة ، وتغلغلت فى اللغة تعبيرات وكلمات جديدة لا نهاية لها . ومع ذلك فان إصداره بعد هذه الحقبة الطويلة يعد عملاً من أعمال الأكاديمية نظراً لغزارته ودقته وجدته وبديع تصنيفه

وفاة كاتب انجليزى

فى الأنباء الأخيرة أن الكاتب القصصى الانكليزى الكبير سيلاس هوكنج قد توفى فى الخامسة والثمانين من عمره ، وكان هوكنج من رجال الدين ، وتولى عدة مناصب دينية فى شبابه ؛ ولكنه منذ سنة ١٨٩٦ ، نبذ حياة الكنيسة ، وخاض غمار الحركة السياسية ، ودخل البرلمان عضواً من حزب الأحرار ، وفى أثناء ذلك ظهر هوكنج بكتاباته ، واشتهرت قصصه ، وكان معاصراً لعدة من أكابر كتاب القصص مثل كونان دويل ، وجاز ورثى ، والسير هاجارد ، وجوزيف كونراد ، وستانلى ويمان وغيرهم ، ولكنه لم يبلغ من القوة والشهرة مبلغ هؤلاء ؛ بيد أنه من كتاب هذه المدرسة البارزين . ومن قصصه الشهيرة : « آلك جرين » « رغم القدر » « ضوء الساحر » « الرجل الصامت » « المراقبون فى الفجر » « يقظة أنتونى وير » وغيرها

ترجمة لانسبورى بقلمه

المستر جورج لا نسبورى زعيم حزب العمال البريطانى شخصية عظيمة فى السياسة الانكليزية ، وفى المجتمع الانكليزى ؛ وقد نشأ عصامياً ، فى أوضع البيئات والأوساط ، فاشتغل حمالاً للفحم ، وعاملاً ، وذاق شظف العيش والحياة الشاقة ، وهو اليوم فى السادسة والسبعين من عمره ، ولكنه مازال جم النشاط يتزعم حركة المعارضة فى البرلمان ، ويتزعم حزب العمال ، ويشرف على تحرير جريدة الحزب « الديلى هرالد » ، وقد أخرج أخيراً كتاباً يحتوى ترجمة حياته ؛ وفيه يصف حياة الأحياء والمجتمعات الفقيرة فى مدينة لندن منذ ستين أو سبعين عاماً حينما كان يطوفها صبياً عارى القدمين ؛ ثم يصف أدوار حياته ، وكفاحه فى سبيل رفاهة العمال ، ومثابرته على خدمة القضية التى مازال يخدمها . ويبدو مستر لا نسبورى فى كتابه رقيق العاطفة فياض الرحمة والانسانية ، والعطف على الفقير والبائس

مؤتمر للصحافة

عقد فى منتصف شهر سبتمبر بمدينة لندن مؤتمر للصحافة باشراف معهد لندن الصحفى ؛ وأرسل مستر بلدوين رئيس الوزارة إلى المؤتمر رسالة نوه فيها بأهمية الصحافة ومسئوليتها العظيمة ، وتأثيرها القوى فى تسيير الرأى العام وتقديره للشؤون العامة . والقيت فى المؤتمر خطب عديدة نوه فيها بأهمية الصحافة الحرة ، وحاجتها إلى قانون تنظم فيه هذه الحرية ؛ ولما كان فى القانون الجديد الذى صدر خاصاً بالنشر ما يتعارض مع هذه الأمنية ، فقد أعرب المؤتمر عن أمله فى أن يترك للصحفيين حق تنظيم شؤونهم الخاصة ، وقرر السعى لدى البرلمان لحمله على تحقيق هذه الأمنية باصدار قانون جديد ، وقرر المؤتمر أيضاً أن ينشىء نظاما للمعاش يغذى الصحفيين العاطلين والمعوزين

أوتوكار أوسترشيل

توفى أخيراً فى براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا الموسيقى الشهير أوتوكار أوسترشيل مدير المسرح الوطنى ببراج ، وقد كان استرشيل زعيم المدرسة الموسيقية الحديثة فى تشيكوسلوفاكيا ؛ ودرس فى النمسا وألمانيا ، وظهر منذ شبابه بالبراعة فى التأليف الموسيقى ، وله مؤلفات عديدة فى الموسيقى وقطع موسيقية شهيرة ما تزال تحتفظ بروعتها وجدتها ، وكانت وفاته فى عنفوان قوته وشهرته إذ لم يجاوز العقد الخامس إلا بأعوام قلائل

الكتب

وادى النطرون

وتاريخ الأديرة البحرية

للأمير عمر طوسون

للأستاذ محمد بك كرد على

وضع الأمير تآليفه لخدمة مصر والسودان، فهى الآن تملأ قمطرا جميلا من قماطر التاريخ والاجتماع والاقتصاد والمالية وغيرها. ومنها ما كتبه بالفرنسية (١) كمذكراته فى فروع النيل فى القديم وعلى العهد العربى (مجلدان)، و (٢) مذكرات فى مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى أيامنا هذه (مجلد واحد)، و (٣) مذكرات فى تاريخ النيل (ثلاثة مجلدات)، و (٤) كتاب فى جغرافية مصر فى عهد العرب (مجلد واحد)، و (٥) عاقبة أمر المماليك، و (٦) بحث فى وادى النطرون ورهبانه وأدياره وغير ذلك. ومن تآليفه بالعربية (٧) كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن (مجلد ضخم)، و (٨) بطولة الأورطة السودانية المصرية فى حرب المكسيك، و (٩) الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية فى عهد محمد على باشا، و(١٠) الجيش المصرى، و (١١) البحرية المصرية، و (١٢) كتاب البعثات العلمية فى عهدى عباس الأول وسعيد، و (١٣) يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢؛ وغير ذلك من أبحاثه ومقالاته بالعربية والفرنسية مما ينشره فى الصحف والمجلات بالمناسبات

وآخر ما صدر من قلم الأمير بالعربيـة (١٤) « وادى النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة » مذيلا بكتاب « تاريخ الأديرة البحرية »، و (١٥) كتاب للباحث المطلع « المحزون » فى « ضحايا مصر فى السودان وخفايا السياسة الانجليزية » (طبعة ثالثة) طبع على نفقة دائرة سمو الأمير فى مطبعة السفير باسكندرية ، وقد قدم الأمير كتاب وادى النطرون إلى صاحب الغبطة الانبا يؤانس (بابا وبطريرك الكرازة المرقسية الثالث عشر بعد المائة) ودل المؤلف فيه على كثرة بحثه ودرسه وأنه خادم أمين لمصر وسودانها، فى جميع المظاهر النافعة، وأنه حسنة من حسنات مصر الحديثة، ما أحرز شهرته العالمية إلا من طريق العلم والعمل والاخلاص لمصر خاصة، والمسلمين فى الأرض عامة. فجزاه الله عن العلم أفضل ما يجازى من أخلصوا فى خدمته، ونفع بثمرات اجتهاده مصر والمصريين

***

من أفلاطون الى ابن سينا

للأستاذ جميل صليبا

نشر مكتب النشر العربى بدمشق ست محاضرات فى تلخيص فلسفة أفلاطون والفلسفة العربيـة وفى الفارابى والجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو، وفى جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة، وفى نظرية الفيض Emanation عند ابن سينا، أو صـدور الموجودات عن الخالق، وفى نظرية النفس عند ابن سينا، وفى نظرية ابن سينا فى السعادة. قال المؤلف: إذا درسنا فلسفة ابن سينا رأينا أنها تختلف عن فلسفة أرسطو فى كثير من المسائل، كفكرة الفيض، وفكرة خلود النفس وغـيرهما، وأن ابن سينا متفق مع أرسطو فى الطرائق والوسائل، ومختلف عنه فى الغايات والمقاصد، ولعله لم يبتعد عن أرسطو فى بعض المسائل إلا لتأثره بالوسـط الاجتماعى، ورغبته كالفارابى فى الجمع بين الدين والفلسفة، فقد كان الفارابى يعتقد أن الفلسفة واحدة، وأن مقاصدها الحقيقية لا تختلف عن مقاصد الدين. وكان ابن سينا يرى كابن الطفيل أن النبوة حالة طبيعية من أحوال النفس، لا فرق بين الدين والفلسفة إلا من حيث الظاهر. وقال إن الجمع بين الدين والفلسفة كان من أكبر العوامل التى حدت بالفارابى وابن سينا أن يعرضا أحياناً عن أرسطو ويتبعا أفلاطون، وقد سارا فى ذلك على طريقة فلاسفة الاسكندرية؛ ووجـدا فى ترجمة كتب أفلاطون خير معين على ذلك. وقد بسط صاحب هـذه المحاضرات هذه المباحث بسطاً يقربه من الأذهان معتمداً على مصادر عربية وغربية، فالشكر لعنايته وأدبه

٥٣٦

كتاب محاسن أصفهان

تأليف مفضل بن سعد بن الحسين المافروخى الأصفهانى

وبليه رسالة الارشاد فى أحوال الصاحب الكافى اسمعيل بن عباد

صاحب كتاب محاسن اصفهان من علماء القرن الخامس للهجرة ، فارسى اصفهانى استعمل السجع فى كلامه حتى كادت تضيع المعانى ، وكتب كتابه على بلده كتابة مبالغة وتمدح ، وفيه فوائد لمن تهمه أحوال تلك الديار فى تلك العصور . ومما نقله المؤلف كتاب للحجاج . قيل إنه كتبه لوهزاذين يزداذ بن الأنبارى ، وكان قريباً لكاتبه المجوسى الاصفهانى جاء فيه : أما بعد فانى استعملتك على اصفهان ، أوسع الأرض رقعة وعملاً ، وأكثرها خراجاً وأزكاها أرضاً ، حشيشها الزعفران والورد ، وجبلها الفضة والكحل ، وأشجارها الجوز واللوز والجلّوز وما أشبهها ، والتين والزيتون والكروم الكريمة ، والفواكه العذبة ، وطيورها عوامل العسل . وماؤها الفرات ، وخيلها الماذيانات الجياد . . . فايم الله لتبعثن إلىّ بخراج اصفهان كلها أو لأجعلنك طوابيق على باب مدينتها ، فاختر أوفق الأمرين لك ، فقد عظمت جنايتك علىّ وأسأت الى نفسك . . . » وساق المؤلف حديث « لو كان الايمان بناط بالثريا لتناوله رجال من الفرس أو قال من هؤلاء » . وذكر فى جملة فلاسفتها ومهندسيها ومنجميها وأطبائها جماعة من اليهود منهم : يوسف اليهودى ، ويعقوب اليهودى ، والفرج بن سهل اليهودى ، الى غيرهم من المسلمين والمجوس ؛ وذكر فى شعرائهم طائفة من الشعراء بالعربية وأخرى من شعراء الفارسية ، وكذلك من كتاب تلك العاصمة على اختلاف لغتهم

وذكر المؤلف ما فى داخل أصفهان من الدور السرية وأن منها ما يصلح لأمير كبير ، وأن فى أسواقها طرائف بغداد ، وخزوز الكوفة ، وديباج الروم وتُستر ، وبزّ مصر وقباطيّها ، وجواهر البحرين ، وآبنوس عُمان ، ونوادر الصين ، وفراء خراسان ، وخشب طبرستان ، وأكسية آذربيجان وأصوافها ، وفرش إرمنية ، وما يقاربها من الظروف والأوانى والفرش والأمتعة والأثاث والعقاقير والأدوية والأخلاط والأبازير التى مساقطها من البلدان المتطارحة والأوطان المتنازحة ، ووصف جوامع أصفهان ومنها جامع الخصيب بن مسلم لا يصلى فيه فى الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل « وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند ينتابه جماعة من أهلها بوظيفة درس ، أو رياضة نفس ، تزيد بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ، ومناصحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المتكفين ، إلى ما يتصل به وينضم إليه من خانكاهات قوراء مرتفعة ، وخانات عامرة متسمة ، قد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء ، وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها اللواتى قد بناهن الأستاذ الرئيس أبو العباس أحمد الضبى ونضد فيها من الكتب عيوناً ، وخلدها من العلوم فنوناً . ويشتمل فهرستها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات فى أسرار التفاسير وغرائب الأحاديث ، ومن المؤلفات فى النحو واللغة والتصريف والأبنية ، ومن المدونات من غرر الأشعار ، وعيون الأخبار ، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء ، وسير الملوك والأمراء ، ومن المجموعات من علوم الأوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والالهيات ، وبذلك أدركنا أن الجامع الأعظم ودار الكتب فى أصفهان هما من انشاء العرب أيضاً

وفى الكتاب شعر كثير ، ومسائل أقرب الى أن تعد فى باب الأساطير والخرافات منها الى أن تعد فى التاريخ والأدب . وما كتاب محاسن اصفهان إلا صورة صحيحة من تأليف الفرس فى ذلك العصر ، والمؤلف نفسه كثير المادة من الألفاظ ، ضعيف فى السبك ، تقرأ العجمة فى كل سطرين من كلامه . وقد طبع الكتاب فى طهران الأستاذ السيد جلال الدين الحسينى الطهرانى عن نسخة الميرزا جسنخان وثوق الدولة أحد زعماء السياسة فى إيران ، كتبت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وقدم له مقدمة عربية وختمها بقوله : « وإنى مع قلة بضاعتى فى الفنون الأدبية ، وكثرة اشتغالى بالعلوم الرياضية والفلكية ، أرجو من مطالعى هذا الكتاب العفو عن زلتى فى تصحيح بعض مواقعه » وقد وضع للكتابين فهارس الأعلام والأماكن والقبائل وطبعته « مكتبة الاقبال » فى عاصمة ايران . أما رسالة الارشاد فهى فى مدح الصاحب بن عباد الوزير الكاتب المشهور تأليف أبى القاسم أحمد بن محمد الحسنى الحسينى القوبائى الاصبهانى من علماء القرن الثالث عشر من الهجرة . فللناشر أطيب الشكر على عنايته

محمد كرد على

3 me Année, No. 119.

Lundi-14-10-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ــــــ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ رجب سنة ١٣٥٤ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــدد

خزائن الكتب فى القاهرة

على ذكر الخزانة الزكية

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت فى إحدى الجرائد أن وزارة المعارف عزمت على نقل الخزانة الزكية — مكتبة أحمد زكى باشا رحمه الله — من مكانها فى قبة الغورى إلى دار الكتب العامة . ويرحم الله زكى باشا ؛ لو كان حياً لصال بلسانه وقلمه ، وملأ الدنيا حجاجاً ، وشغل رجال الحكومة بزياراته وأحاديثه ، ليدافع عن كتبه العزيزة عليه التى أنفق عمره فى جمعها ، وأقامها مقام الأولاد فمنحها فكره وقلبه ، فيمنعها أن تنقل من مكانها الذى اختاره فى قبة السلطان الغورى . وكان رحمه الله معجباً بالغورى إعجاباً طوى ما بينهما من عصور ، فكان إذا تحدث عنه قال : « صديق السلطان الغورى » . لكن شيخ العروبة الذى كان نشاطاً لا يفتر ، وحركة لا تسكن ، وعملاً لا يمل ؛ قد طواه الردى ، فأصبحت « الخزانة الزكية » الخزانة اليتيمة

ومن قبل نُقلت إلى دار الكتب الخزانة التيمورية التى جمعها من أقطار الأرض العلامة التقى النقى أحمد تيمور باشا رحمه الله

وليست هذه سنّة رشيدة ؛ ليس سنّة رشيدة أن تجمع الـكتب فى مكان واحد ، وتحرم القاهرة المعزّية إلا من مكتبة واحدة يزدحم فيها القرّاء من كل قبيل ، ويلتقى فيها الباحث المدقق الذى يستقصى المخطوطات القديمة ، والقارئ الذى يُزجى وقته بقصة مُلهية ، ويفد اليها أهل القاهرة من المحلات الدانية والقاصية

لا بد لنا من مكتبة عامة جامعة كدار الـكتب ، ولـكن لا بد لنا معها من مكتبات خاصة كالخزانة التيمورية والخزانة الزكية ، يقصدها الباحثون المنقّبون ، ويؤمها خاصة المطالعين ، فيجدون مكاناً ساكناً يسكنون اليه ويتعارفون فيه ، ثم تكون لـكل مكتبة خصائص معروفة تجذب إليها صفاً من الباحثين ؛ ولا بد لنا ، إلى هذه وهذه من مكتبات محلية ، يستفيد منها أهل كل محلّة فى القاهرة ، يجدونها قريبة اليهم ، ويُلفون كتبها ميسرة لهم

كان من سنن الحضارة الاسلامية الاكثار من خزائن الـكتب الـكبيرة والصغيرة فى كل مدينة ، وكان لـكل مسجد كبير خزانة كتب ، فـكانت القراءة ميسورة لـكل طالب فى كل حى وفى كل مسجد ، وليس يتسع المجال هنا للحديث عن خزائن الـكتب فى المدن الاسلاميـة القديمة فى المشرق والمغرب فهو حـديث طويل ، وحسبك أن أبا تمام عوّقه البرد فى همذان فوجد فى إحدى خزائنها ما يسّر له اختيار حماسته ، وأن ياقوتاً الحموى أقام فى مرو الشاهجان فأفاد من اثنتى عشرة خزانة بها ، فى كل واحدة آلاف المجلدات . وهو يقول فى معجم البلدان : « فـكنت أرتع بهـا ، وأقبس من فوائدها . وأنسانى حبها كل بلد ، وألهانى عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هـذا الـكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » . هذه مرو الشاهجان ، فما ظنك ببغـداد والقاهرة وقرطبة ؟ كانت قرطبة لا تخلو دار كبيرة فيها من خزانة كتب

وكان فى الآسـتانة إلى عهد قريب زهاء أربعين خزانة ، فى كل جامع كبير واحدة ، وكثير منها يُشرف على حدائق ، وتتهدّل الأشجار عند منافذها . فليس على القارئ الجلوس بها ، ولا يزعجه عن القراءة لغو ولا جلَبة . وقد يجلس المطالع فى مكتبة الفاتح فيود ألا تنتهى القراءة ولا ينتهى الوقت . وقارئ الـكتب أحوج الناس الى المـكان النزه الهادئ ، يوحى السكينة إلى نفسه ، ويجمع للمعرفة فـكرَه ، ويحبّب إليـه المثابرة والدأب . فأين من هـذا دور الـكتب الـكبيرة المُطبِقة على الطالع بجدرانها ، وجلَبتها ، والتى تقطع عليـه فـكره بمناظر الداخلين والخارجين . يود قاصدها أن يحصّل أقل ما يريد فى أقصر وقت فيسارع إلى الخروج . وكم ينتظر حتى يظفر بالـكتاب المطلوب ؟

وقد كان فى القاهرة خزائن فرّقتها يد الزمان العسراء ، ولعبت بها غِيَرُه الهوجاء ، ثم جُمعت بقية الأحداث منها فى دار الـكتب المصرية ؛ وقد رأينا وزارة الأوقاف إلى عهد قريب تجمع الـكتب من المساجد فتضمها فى الخزانة الزكيّة . لقـد أحسنت الحـكومة بما فعلت حينما كانت الـكتب عرضة للضياع ، غير مهيّأة للانتفاع ، ولـكن الأحوال تغيرت ، ودار الـكتب ضاقت بما فيها ، وغصّت بزائريها . فعلينا أن نتدارك اليوم ما عجزنا عنه بالأمس ، فنُعنَى بتجهيز القاهرة بخزائن الـكتب المختلفة فى المحِلات المختلفة . ونحتفظ بما فى المساجد من الـكتب إن كان لها بقية لنجعلها نواة لمـكتبات كبيرة

ولم لا يكون لنا خزانة فى الجامع العتيق ، وكان مثابة العلم فى مصر زمناً طويلاً ؟ ولم لا يكون لنا خزائن فى جامع ابن طولون ، والجامع الأقمر ، وخانقاة سعيد السعداء التى كانت مأوى كبار العلماء ، ومساجد المؤيد ، وبرقوق ، والسلطان حسن ، وكانت هذه المساجد معاهد للدرس ، وقد اتخذنا بعضها اليوم مدارس أيضاً ، فلماذا لا نتخذها معاهد لمطالعة الـكتب ؟ لماذا لا ننتفع بهذه الأبنية الواسعة الشاهقة فنفيرُ أموالنا ، ونعرف آثارنا ، ونصل ماضينا بحاضرنا ؟ وليت خزائن الـكتب تتقسّم العلوم فيقصد الباحثون الجامع العتيق ليقرأوا الفقه والحديث وكل ما كتب عن الفسطاط ومصر فى عهد الفسطاط ، ويذهبون إلى جامع المؤيد ليقرأوا ما كتب عن المماليك ، ويقصدون خانقاة سعيد السعداء أو تكية المولوية لقراءة التصوف ، وهلم جرّا

هذه آراء يلقاها بالاستهزاء الذين خلعوا أنفسهم من تاريخنا وسنننا ، ولـكنى أرجو أن يكون لها من تفكير المفكرين نصيب

وبعد ، فينبغى أن تبقى الخزانة الزكية فى مكانها إبقاء على السنن الصالحة ، وتيسيراً للقراءة على طلاّبها ، واحتفاظاً برغبة صاحب الـكتب الذى بذل فى جمعها من ماله وعمره ، ولبث حياته يحنو عليها حنوّ الأب الشفيق على أولاده . ولا يزال أمام وزارة المعارف سعة للتفكير والعدول عن الخطأ الذى همّت به .

عبد الوهاب عزام

٤ - الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لها : إن قلبي وقلبكِ يتجاليانِ في هذه الساعة (١) ويتباكيانِ ؛ أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي ؟

إنه ليقول عني : أعزِزْ عليَّ بأن تكوني ههنا ، وأن تتألفَ منكِ هذه القصةُ التي تبدأ بالوَصْمة وتنتهي بالاستخذاء فتنطلقُ المرأةُ في مَتالِفها ومهاويها ليبلغَ بها القدَرُ ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورةُ وسطوتُها بها ، والاذلالُ ومهانتُه لها ، والاجتماعُ وتهكّمُه عليها ، والابتذالُ واستعبادُه إياها . ومهما يأتِ في القصة من معنًى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكن من مَوْقفٍ فليس فيها موقف الحياء ؛ ومهما يجئْ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة . وأعزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبوبَ الذي وُضع ليضيءَ ما حوله ، قد انقلب لجمل يحرق ما حوله ؛ وكان يتلألأ ويتوقّد ، فارتدَّ يتسعّر ويتضرّم ويجني على ما يتصل به وسقط بذلك سقطةً حمراء . . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبك ؟

إنه يقول عنك : يا بُؤسَنا من نساء ! لقد وُضعنا وضعاً مقلوباً فلا تستقيم الانسانيةُ معنا أبداً ، وكل شيءٍ منقلبٌ لنا متنكّر ؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاءِ نفسها تهكماً بنا ، فنبكي من شفقة بعض الناس كما نبكي من ازدراء بعض الناس . يا بؤسَنا من نساء !

***

قالت : صدقت ، وكذلك تنقلب أسبابُ الحياة معنا أسباباً للمرض والموت ، فاليقَظةُ ليس لها عندنا النهار بل الليل ، والصَّحوُ لا يكون فينا بالوعْي بل بالسُّكر ، والراحةُ لا تكون لنا في السكون والانفراد بل في الاجتماع والتبذُّل ؛ وما بردُ العيشُ على امرأة من واجباتها السهرُ ، والسكرةُ والعربدةُ ، والتبذلُ ، وتدريبُ الطباع بالوقاحة ، وتضْريَةُ النفس على الاستغواء والتصدّي بالجمال للكسب من رذائل الفُسّاق وأمراضهم ، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليبَ آخرُها الهوان والمذلة ، واستماحتهم بأساليب أولها الخداع والمكر ؟

إن حياةً هذه هي واجباتُها ، لا يكون البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعة من يحياها ، وكثيراً ما نعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاً تهاربُ فيها معاني البكاء ؛ فاذا أثقلَنا الهمُّ وجلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّف السرور ، ختلْنا العقل نفسَه بالخمر ؛ فما تسكر المرأةُ منا للسكر أو النشوة ، بل للنسيان ، وللقدرة على المَرَح والضحك ، ولأمدادِ محاسنها بالأخلاق الفاجرة من الطيش والخلاعة والسَّفَه وهذَيان الجمال الذي هو شعرُه البليغ . . . . عند بلغاء الفُسّاق

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضِرُ الغادة منكن هو الشباب والصِّبي والجمال وإقبالُ العيش ، فكيف بها فيما تستقبِل ؟

قالت : إن المستقبل هو أخوفُ ما نخافه على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي معدةٌ لمستقبلها إما نوعاً من الانتحار ، وإما ضرباً من ضُروب الاحتمال للذل والخسف . وليس مستقبلنا هذا إلا كمستقبل الثمار النضِرة إذا بقيت بعد أوانها ، فهو الأيام العَفِنة بطبيعة ما مضى . . بلى إن مستقبل المرأة البغيِّ هو عقاب الشر

***

قال (ح) : هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات ؛ فالمرأةُ منهن قد تتبرّم بزوجها وتضْجَر وتنقم ، وتزعم أنها معذَّبة فتتسخّط الحياة ، وتندُب نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحد برجل واحد تألفهُ فتعتادُه فتُرزَق من اعتياده الصبرَ عليه فيسكنُ بهذا نِفارُها . وتلك نعمةٌ واجبها أن تحمدَ الله عليها ما دام في النساء مثلُ الشّهيدات تتعذب الواحدةُ منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل وبألف رجل ، وهم مع ذلك يتبلّون روحَها بعددهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقل الزوجة واجباتها بين الزوج والنسل والدار ، فتغتاظ وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليومية في الحياة ، ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسْف بالأرض وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمان شرفها ، ثم

(١) أي يتكاشفان ويجلو كلاهما للآخر ويوضح

لا تعلم أن نساءً يترقبن هذا الآتى كما يترقب المجرم غَدَ الجريمة من يوم فيه الشُّرطةُ والنيابة والمحكمة وماوراء هذا كلّه

فقلتُ : وهناك حقيقة أخرى فيها العزاء كلُّ العزاء للزوجات ، وهى أن الزوجة امرأةٌ شاعرة بوجود ذاتها ، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها

والزوجة امرأة تجد الأشياءَ التى تتوزّعُ حبّها وحنانَ قلبها ، فلا يزال قلبُها إنسانياً على طبيعته ، يفيض بالحب ويستمدُّ من الحب . والأخرى لا تجد من هذا شيئاً ، فتنقلب وحشيةَ القلب ، يفيض قلبها برذائل ويستمدُّ من رذائل ، إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعةُ ليتعلقَ به من الزوج والدار والنسل

والزوجة امرأة هى امرأة خالصة الانسانية ، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة

وتمامُ السعادة أن النسلَ لا يكون طبيعياً مستقِراً فى قانونه إلا للزوجات وحدهن ، فهو نعمتُهن الكبرى ، وثواب مستقبلهن وماضيهن ، وبَرَكتهن على الدنيا ؛ ومهما تكن الزوجة شقيةً بزوجها فان زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدها مزية ونعمة . أما أولئك فليس لهن عاقبة [1] إذ النسلُ قلبٌ لحالتهن كلها ؛ وهو غِنىً إنسانيٌّ ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً ، وهو رحمة ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن . وقد وضعت الطبيعة فى موضع حب الولد الجديد من قلوبهن ، حبَّ الرجل الجديد ، فكانت هذه نقمةً أخرى

قال (ح) : أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثانى بعد الأول ، أو الثالث بعد الثانى ، أو الرابع بعد الثالث ؟

قلت : ليس الجديدُ عليهن هو الواحدَ بعد الواحد إلى آخر العدد ؛ ولكنه الرجلُ الذى يكون وحده بالعدد جميعاً إذ هو عندهن يشبه الزوجَ فى الاختصاص وفى شرف الحب ، فهو الحبيب الشريف الذى تتعلّقُه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة ؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعانى ألم فقده

يا عجبا ! كل شىء فى الحياة يُلقى شيئاً من الهم أو النكد

(١) يقال ليس له عاقبة أى ليس له نسل وعقب

أو البؤس على هؤلاء المسكينات ، كأن الطبيعة كلها تَرجمهن بالحجارة . .

قالت هى : وليست الحجارةُ هى الحجارةَ فقط ، بل منها ألفاظ تُرجَمُ بها المسكينةُ كألفاظك هذه ... وكتسمية الناس لها « بالساقطة » فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر

***

ثم تنهدتْ وقالت : مَن عسى يعرف خطَرَ الأُسرة والنسل والفضيلة كما تعرفها المرأةالتى فقدتها ؟ إننا نُحسُّها بطبيعة المرأة ، ثم بالحنينِ إليها ، ثم بالحسرةِ على فقدها ، ثم برؤيتها فى غيرنا ، نعرفها أربعةَ أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجةُ نوعاً واحداً . ولكن هل ينصفنا الرجالُ وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا ؟

قلت : ولكنَّ الأُسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحُمرة خديها ، بل على أخلاقها وطباعها . فهذا هو السبب فى بقاء المرأة حيث ارتطمت . وهى متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل

ومن ثَمّ كانت الزّلةُ الأولى ممتدةً مُتَسحِّبةً إلى الآخر ، إذ الفتاة ليست شخصاً إلا فى اعتبارها هى ، أما فى اعتبار غيرها فهى تاريخٌ للنسل إن وقعت فيه غلطة فسد كلّه وكَذَبَ كله فلا يُوثق به

وهذه الزلة الأولى هى بدءُ الانهيار فى طباع رقيقةٍ متداخلةٍ متساندةٍ لا يُقيمها إلا تماسُكُها جُملةً ، وما لم يتماسكْ إلا بجملته فأولُ السقوط فيه هو استمرارُ السقوط فيه . ولهذا لا يعرف الناسُ جريمةً واحدةً تُمد سلسلةَ جرائم لا تنتهى إلا سقطةَ المرأة . فهى جريمة مجنونة كالاعصار الثائر يلفُّ لفاً ، إذ تتناول المرأةَ فى ذاتها ، وترجع على أهلها وذويها ، وترمى إلى مستقبلها ونسلها ، فَيَهتِكُها الناسُ هى وسائرَ أهلها ، من جاءت منهم ومن جاءوا منها

والمرأة التى لا يحميها الشرف لا يحميها شىء . وكل شريفة تعرف أن لها حياتين : إحداها العفة ، وكما تدافع عن حياتها الهلاكَ ، تدافعُ السقوطَ عن عفتها ، إذ هو هلاكُ حقيقتها الاجتماعية . وكل عاقلةٍ تعرف أن لها عقلين تحتمى بأحدهما من

نَزَوات الآخر ، وما عقلُها الثانى إلا شرفُ عِرضها

* * *

قال الأستاذ (ح) : إن هذه هى الحقيقة ، فما تسامح الرجالُ فى شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفُّوا تَعِفَّ نساؤكم » فان عفافَ المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تتهيأ لها الوسائلُ والأحوالُ التى تعين نفسَها على ذلك . وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها ، تشدُّد الرجال فى قانون العِرض والشرف

فاذا تَراخى الرجالُ ضعفت الوسائل ، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر على ما تكون أحوالُها وأسبابُها فى الحياة . وهذه الحريةُ فى المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغضُوا ويتسمَّحوا ، فتهافتَ النساءُ عندهم تنالُ كل منهن حكمَ قلبها ويخضع الرجل . . . .

على أن هذا الذى يسميه القومُ حريةَ المرأة ليس حريةً إلا فى التسمية ، أما فى المعنى فهو كما ترى :

إما شرودُ المرأة فى التماس الرزق حين لم تجد الزوجَ الذى يَعولُها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثل هذه هى حرة حريةَ النكد فى عيشها ، وليس بها الحرية بل هى مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة

وإما انطلاقُ المرأة فى عَبثاتها وشهواتها مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع فى الرجال ، بمقدار مايشتريه المال ، أو تعين عليه القوة ، أو يسوِّغه الطيش ، أو يجلبه التهتك ، أو تدعو إليه الفنون . فمثل هذه هى حرة حريةَ سقوطها وما بها الحرية بل يستعبدها التمتع

والثالثة حريةُ المرأة فى انسلاخها من الدين وفضائله ، فان هذه المدنية قد نسخت حرامَ الأديان وحلالَها بحرامٍ قانونىٍّ وحلالٍ قانونى ، فلا مَسْقطةَ للمرأة ولاغضاضةَ عليها قانونا . . . فيما كان يعدُّ من قبلُ خِزياً أقبحَ الخزى وعاراً أشدَّ العار ، فمثل هذه هى حرة حريةَ فسادها ، وليس بها الحرية ولكن تستعبدها الفوضى

والرابعة غطرسةُ المرأة المتعلمة وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً ، فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكون الزوجَ الناعمَ كقفّاز الحريرِ فى يدها ، ولا الزوجَ المؤنث الذى يقول لها نحن امرأتان . . . . فهى من أجل ذلك مُطلقةٌ مخلاّة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة . فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزَيغها ، وهى مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها

حريةُ المرأة فى هذه المدنية أوّلها ما شئتَ من أوصافٍ وأسماء ، ولكن آخرها دائما إما ضياعُ المرأة وإما فساد المرأة

والدليل على التواء الطبيعة فى المدنية استواءُ الطبيعة فى البادية ، فالرجال هناك قوّامون على النساء ، والنساءُ بهذا قوامات على أنفسهن ، إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يفورُ دماً (١) وبهذه الوحشية يقررون شرفَ العِرض فى الطبيعة الانسانية ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيحاجزُون بين الرجال والنساء أولَ شىء بالضمير الشريف الذى يجد وسائله قائمةً من حوله

* * *

قال الراوى : وغطت وجهها بيديها وقالت : إنك لا تزال ترجم بالحجارة . . . إن فيك متوحشاً

قلت بل متوحشة . . .

إنكِ أنت قد تكلمت فىّ ، فجمالك الذى يضع الانسان فى ساعة مجنونة ليمتّعه بطيشها ، فقد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلت جمالك ، فقد قلت وحيك ، إذ لا جمال عندى إلا ما فيه وحى

أما قلت : إنك لو خُيِّرتِ فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلاً نابغةً يكتب ويفكر ويتلقى الوحىَ من الوجوه الجميلة ؟

---

(١) إلى ج . س . بمرسين (تركيا) . إذا كان حب الفتاة أكبر من حاضرها فلن يكون أكبر من زمنها الآتى كله ، فان كانت (تلك) قد نشأت على الفقر وتعلمت من فقرها الرضى ، ومارست الاحتمال وتعلمت من احتمالها الصبر ، فلتنفذ عزمها فحبيبها الفقير سيكون جمالا وسرورا لفقرها ويكون معها كأنه سعادة من الغنى . أما إن كانت نشأتها فى الترف ولها أخلاق النعمة ، فان حبيبها الفقير سيكون لها هما جيلا ، ثم يقل فيكون هما ثقيلا ، ثم يقل فيكون فقراً صرفا ، وتذهب الأوهام ، وتأتى الحقائق ، ويومئذ تكفى ذبابة لتحمل الحب وتطير به من دارها . . . .

(الرافعى)

فقـــــدان الثقة

للأستاذ أحمد أمين

لعل أسوأ ما تُمنى به أمة أن يفقد أفرادها الثقــة بعضهم ببعض ؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً ، والثقة تجعل الفرد أمة ؛ الثقة تجعــل الأجزاء كتلة ، وفقدانها يجعل الـكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام ، بل يجعل أجزاءها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة ؟ ثم هى لا تغني شيئاً ولا تعيد ثقة

تصور أسرة فقــدَ الزوج فيها ثقته بزوجته ، والزوجة بزوجها ، ثم تصور كيف تكون حياتها : نزاع دائم ، وسوء ظن متبادل ، وانتظار للزمن ليتم الخراب

وهكذا الشأن فى كل مجتمع : فى المدرسة ، فى الجيش ، فى الحزب ، فى القرية ، فى الأمة

بل ما لنا نذهب بعيداً والانسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه ، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً ولا أى عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما ؛ وكم من الـكفايات ضاعت هباء لأن ذويها فقدوا ثقتهم بأنفسهم ، واعتقــدوا أنهم لا يحسنون صنعاً ولا يجيدون عملا

وكل ما ترى من أعراض الفشل فى أمة سببه فقدان الثقة ؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض ، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة ، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم ، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة

كل نظمنا — على ما يظهر — مبنية على فقدان الثقة ، فوظائف « المفتشين » فى جميع مصــالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة ، فالمفتش فى الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة « بالـكمسارى » ، ومفتش المالية ليراقب حركات مرءوسيــه حتى لا يختلسوا أو يزوِّروا ، ومفتشو الوزارات ليروا إلى أى حد يطبق الوظفون تعاليم الوزارة

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملا آخر غير هذا ، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجهوهم وجهة صالحة ، ويتعاونوا معهم على رسم الخطــة القويمة ، ويصححوا الخطأ ، ويكملوا النقص ، ولـكنهم — فى الأغلب — وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة ، والصائد يرقب الفريسة ، لا موقف الهادى المرشد والناصح الأمين

فان أردت « بنداً » واحــداً من « بنود » ما ينفق من الأموال فى ســبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين فى جميع مصالح الحـكومة

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء ، فالمراجعون ومراجعو المراجعين ؛ والأوراق تمر من يد إلى يد ، ومن قلم إلى قلم ، ومن مصلحة إلى مصلحة ، ومن وزارة إلى وزارة . كل ذلك له أسباب ، أهمها « فقدان الثقة »

وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكتف بمرتبات المفتشين ، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء

فدقت صدرها بيــدها وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا . ثم أفـكرت لحظة وقالت : إذا كنت أنت تزعمُ أنني قلتُه ، فأظن أنني قلته . . .

قال (ح) : رجل ؛ ويكتب ؛ ويفكر ؛ ولم تقل هى شيئاً من هذا . أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق

قالت : بل قل أربع غلطات جميلة من فن الذوق . إن الرجل الظريف القوىّ الرجولة ، يجب عليه أن يغلط إذا حدَّث المرأة

قال (ح) : لتضحك منه ؟

قالت : لا بل لتضحك له . . . . .

قلت : فلى اليك رجاء

قالت : إن صوتك يأمر ، فقل

* * *

فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(لها تتمة) (طنطا)

الذين ذكرنا ، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق فى سبيل فقدان الثقة لم نُبعِد

وليست المصيبة كلها فى الأموال ، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظعنا ما يستوجبه فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع فى إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناها كلها « فقدان الثقة »

ثم هناك عقول للنابغين وكبار أولى الأمر فى الأمة تفكر ثم تفكر ، وتقدر ثم تقدر ، وتضع الخطط تلو الخطط ، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات ، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير ، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختـــل ، وهى إنما تزيد بذلك فى « فقدان الثقة »

أضف الى هذا ما تسبغه هذه المظاهر كلها على نفسية الوظف ، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها انما شرعت له ومن أجله وبسبب فقـدان الثقة به ، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكمجرم وكمزور ؛ فيفقد الثقة بنفسه ، ويعمل فى حدود ما رسم له ، ويشعر بالسلطات المختلفة عليه ؛ فلا يجرؤ على التفكير بعقله ، ولا يجرؤ على تحمل تبعة ، ويفرّ من البت فى الأمور ما وسعه الفرار ، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات — وهذا هو سر ما نراه من بطء فى العمل ، وركود فى الحركة ، وضياع لمصالح الناس ، إذ لا شىء يبعث الثقة فى المرءوس مثـل أن يثق به الرئيس ، ولا شىء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من « فقدان الثقة »

أنا كفيل بأنا لو قلبنا كل هذه النظم رأساً على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها ، ثم بنيناها على أسس جـديدة من الثقـة البحتة ، ماخسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقـة بالموظفين والمترددين من المطالعين فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا ، واكتفينا بمدير للمكتب و « فتى » يضع الـكتب كل يوم فى أماكنها ، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا فى المكسب والخسارة ؟ لاشك أننا سنفقد كتباً يسرقها بعض المترددين ، وهذا هو كل الخسارة ، ولـكنا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش ، ونوفر أزماناً طويلة تصرف فى عمليات الجرد والحصر ، وننشر الثقة بين المطالعين ، ونشعرهم بأن المـكتبة فى حمايتهم هم وتحت اشرافهم ، فننمى فيهم الشعور بالتبعة ؛ فاذا كان هذا مكسبنا وهـذه كل خسارتنا ، فالى النار هذه الـكتب المفقودة ، وخسئت عين كل من ينظر فى عمليات الحساب إليها وحدها ، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التى ربحناها

وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الـكبيرة فى المصالح المختلفة ، بل إنى أشترى نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال ، وشعور الناس بالطمأنينة بأى ثمن ، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت فى تجربتى ونظريتى ، وآمنت بوجوب الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذى أفسده النظام القديم ، وقضى على نفسه وعلى شعوره ، ولأنتظر جيلاً جـديداً نشأ فى احضان « الثقة » والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية فى العمل فى دائرة ضيقة من القوانين المعقولة

وهكذا الشأن فى جميع الأمور السياسية والاجتماعية ، فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض — ولو مراعاة للمصلحة — أضمن للنجاح ، وأقرب لتحقيق الغرض ؛ وثقة الجمعيـة برئيسها ، والرئيس بأعضائها — ولو تصنعا — أقرب لأن ينقلب التصنع خلقا

وقد رأينا — دائماً — أن العدوى فى المعانى كالعـدوى فى المحسات ، فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب ، والضحك يبعث الضحك ، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها .

وبعد ، فلا تزال ترن فى أذنى كلمة سمعتها من أستاذ انجليزى كان فى الجامعة : « إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبى ، ولا تمنحون ثقتكم المصرى ، فـكيف تعيشون ؟ »

أحمد أمين

افتتاح إفريقيـــة

وكيف غزاها الاستعمار الأوربي

بقلم مؤرخ كبير

تتمـــة

لم يبق اليوم فى إفريقية من الأمم المستقلة سوى الحبشـة ، وجمهورية ليبيريا ؛ ولـكن ليـبريا ليست فى الواقع سوى منطقة للنفوذ الأمريكي ، وقد أنشأها الزنوج الأمريكيون الأحرار ؛ ومع أنها جمهورية مستقلة وعضو فى عصبة الأمم ، فان السياسة الأمريكية هى التى تشرف على شؤونها العليا ؛ وعلى هذا فليس فى إفريقية اليوم أمة تتمتع باستقلالها الصحيح سوى أمبراطورية الحبشة ؛ وهى تتمتع بهذا الاستقلال منذ فجر التاريخ . وقد حاول الاستعمار الأوربي غير مرة أن يحطم استقلالها ، ولـكنها استطاعت أن تسحق مشروعاته ومحاولاته ؛ والآن يعيد التاريخ دورته ويتربص الاستعمار الأوربي بالحبشة مرة أخرى ، ويحشد كل قواه وعدده المدمرة ، ويطالب علناً بافتراسها والقضاء على استقلالها تحقيقاً لشهوة الفتح والتوسع ؛ وها نحن أولاء نشهد العاصـفة وقد انقضت ، فهل تستطيع مملـكة سبأ الخالدة أن ترد عنها عادية هذا الغزو المبيَّت ؟ وهل تستطيع الفوز بهذا الاستقلال الذى حافظت عليه منـذ الأحقاب ؟ وهل تبقى الحبشة آخر حصن للاستقلال الافريقى ، أم تسقط صريعة الاعتداء ، فيجهز الاستعمار بذلك على آخر ملاذ لهذا الاستقلال ؟ هذا ما سيكشف عنه المستقبل القريب

وقد رأينا فيما تقدم كيف اقتسمت الدول الأوربية إفريقية فيما بينها ، واستقرت كل منها فى بعض مناطقها وأراضيها ، وأنشأت الدول الـكبرى — انكلترا وفرنسا وألمانيا — كل منها فى إفريقيـة امبراطورية استعمارية شاسعة . وكانت إيطاليا إحدى الدول التى شاركت فى افتتاح إفريقية ، غير أنها خرجت منها بصفقة يسيرة . ويرجع ذلك إلى أنها كانت فى أواخر القرن الماضى ، حين بدأ افتتاح إفريقية ، ما تزال دولة ثانوية ، حديثة عهد باستقلالها ووحدتها القومية ؛ هـذا إلى أنها لقيت خلال غزواتها الاستعمارية نكبة لم تلقها أية دولة أوربيـة ، إذ هزمت جيوشها وسحقت فى موقعة « عدوة » الشهيرة حسبما نفصل بعد ، فوضعت هذه الهزيمة الساحقة حداً لمشاريعها الاستعمارية مدى حين

بدأت إيطاليا محاولاتها الاستعمارية فى سنة ١٨٨٢ ، إذ أرسلت إلى بلاد أرترية حملة احتلت خليج عصب وما يليه جنوباً ؛ واحتلت ثغر مصوع وما يليه من الساحل شمالاً (سنة ١٨٨٥) ؛ وأرسلت حملة أخرى إلى بلاد الصومال مما يلى المحيط الهندى ، فاحتلت شقة ضيقة طويلة على الساحل ، من نهر جوبا حتى رأس جردفوى ، وهى التى تعرف اليوم بالصومال الايطالى (سنة ١٨٨٨) . وكانت إيطاليا يومئذ دولة ناشئة فتية تجيش بآمال كبيرة ، وكان وزيرها الشهير (كرسبى) روح هذه المغامرات الاستعمارية ؛ وكان يحلم بانشاء امبراطورية استعمارية إيطالية ضخمة فى شرق إفريقية تضم الحبشة ، وتصل ما بين الأرترية والصومال ؛ وكان تفاهم الدول الأوربية على اقتسام افريقيـة يخول لأيطاليا حرية العمل فى تلك المنطقة . فلما تم احتلال الأرترية والصومال ، اعتقد كرسبى أن الفرصة قد سنحت لغزو الحبشة ، والعمل لانشاء الامبراطورية الاستعمارية التى يتوق إلى إنشائها

وكانت الحبشة منذ منتصف القرن التاسع عشر تجوز فترة من الضعف والتفرق ؛ وكان ملـكها يومئذ الأمبراطور تيودور ، وهو أمير من أمهرا يدعى كاساى ، اغتصب العرش من الرأس (على) ملك الحبشة المسلم ، وأقام نفسه امبراطوراً ، وبسط على الحبشة حكمه المطلق ، وأثار بشـدته وعنفه فى معاملة الأجانب سخط الدول الأوربيـة ، وقبض على عدد من المرسلين والنزلاء الانـكليز وأبى أن يطلق سراحهم ، فجهزت انـكلترا حملة لغزو الحبشة بقيادة السير نابيير ؛ ونفذت هـذه الحملة إلى الحبشة فى سنة ١٨٦٨ ، وهزمت جيش الأمبراطور ، فاضطر تيودور أن يطلب الصلح ، ثم انتحر يأساً وغماً ؛ وانسحب الانـكليز ، وعادت الحرب الأهلية فى الحبشة ، واستولى على العرش كاساى أمير تجرى ، ونصب نفسه أمبراطوراً باسم يوحنا الثانى ؛ ولبثت الحبشة فى حالة اضطراب وفوضى ؛ واحتل الايطاليون فى تلك الفترة ساحل أرترية والصومال ؛ وكانت الجيوش المصرية قد نفذت قبل ذلك بأعوام إلى بعض مناطق الحبشة مما يلى السودان

فاستطاع الأمبراطور يوحنا أن يوقع بها هزيمة فادحة وأن يرغمها على الجلاء عن الحبشة (سنة ١٨٧٦) ، ولما توفى يوحنا سنة ١٨٨٩ خلفه على العرش منليك أميرشوا ، باسم الأمبراطور منليك الثانى . وبدأ منليك حكمه فى ظروف صعبة ؛ وكانت إيطاليا قد استطاعت أن تتقرب إلى الحبشة ، وأن تبسط عليها نفوذها شيئاً فشيئاً تحت ستار المعاونات والصلات الودية ، وما زالت حتى استطاعت بسياسة الضغط والوعيد أن تحمل منليك على أن يعقد معها معاهدة حماية مقنعة هى التى تعرف بمعاهدة أوشالى (مايو سنة ١٨٨٩) ، وبها وضعت الحبشة تحت نوع من الوصاية الايطالية ؛ وحاولت إيطاليا خلال الأعوام التالية أن تتدخل فى شؤون الحبشة تدخلاً قوياً ، وأن تفرض عليها إرادتها ، واستطاعت أن تحتل بعض أنحائها المجاورة لأرترية ، ولكن الشعب الحبشى لم يلبث أن ثار لهذا الاعتداء على أرضه وحرياته ؛ وقاد منليك هذه الثورة الوطنية ، فجردت عليه إيطاليا جيشاً ضخما قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادة الجنرال باراتيرى ؛ ولكن الوطنية الحبشية غمرت كل شيء وسحقت الجيوش الايطالية فى موقعة عدوة الشهيرة من أعمال ولاية تجرى (٢ مارس سنة ١٨٩٦) ، ولم تبق منها سوى فلول ممزقة ، وحطمت آمال إيطاليا ومشاريعها الاستعمارية ، وأرغمت على الاعتراف باستقلال الحبشة ؛ واستمر منليك الثانى أو منليك الأكبر محرر الحبشة أعواماً طويلة يقودها فى سبيل الاصلاح والتقدم ؛ وفى عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية ، واستطاعت أن ترغمها جميعاً على احترام استقلالها . وفى سنة ١٩٠٦ عقد تحالف ثلاثى بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا يقضى بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها فى تلك المنطقة ، وينص على وحدة الحبشة واستقلالها ، وينص أيضاً على تفوق المصالح الايطالية فى الحبشة . ولما توفى منليك الأكبر سنة ١٩١٣ خلفه حفيده « ليجى ياسو » بعهد منه ؛ ولكن عوامل التفرق عادت تعمل عملها ، واضطرمت الحرب الأهلية مرة أخرى ، وعزل « ليجى ياسو » بعد خطوب وحوادث جمة ، وتولت العرش « زوديتو » كبرى بنات منليك ، وعين الرأس تفرى وصياً للعرش وولياً للعهد ، فاستأثر بكل سلطة حقيقية . ولم تمض أعوام قلائل حتى أعلن نفسه أمبراطوراً إلى جانب « زوديتو » ، ولما توفيت الأمبراطورة سنة ١٩٣٠ ، انفرد بالملك وتلقب باسم « هيلا سلاسى » ، وفى عهده قطعت الحبشة مراحل كبيرة فى سبيل التقدم والاتحاد الوطنى ، والتحقت بعصبة الأمم (سنة ١٩٢٣) ، وزار الأمبراطور إيطاليا سنة ١٩٢٥ فاستقبل فى رومة بحفاوة كبيرة ، وعقدت على أثر ذلك بين البلدين معاهدة صداقة وتحكيم واعتقدت الحبشة أنها فى ظل عصبة الأمم ، وظل الصداقة الايطالية الجديدة ، قد أمنت مطامع الاستعمار ومشاريعه الغادرة

* * *

وكانت إيطاليا منذ نكبة « عدوة » قد وجهت مطامعها الاستعمارية شطراً آخر . وكانت طرابلس ، هى المنطقة الوحيدة التى بقيت من شمال إفريقية بعيدة عن الاحتلال الأوربى ؛ وطرابلس تواجه إيطاليا فى الضفة الأخرى من البحر ، وفيها مناطق منبسطة شاسعة تصلح للحرث والاستعمار ؛ ومنذ فاتحة هذا القرن تعمل إيطاليا لانتزاع طرابلس من قبضة تركيا الضعيفة ، ولم تلق إيطاليا اعتراضاً من انكلترا أو فرنسا إذ كانتا تؤثران أن تحل فى طرابلس دولة ثانوية مثل إيطاليا وتخشيان أن تحتلها منافستها القوية ألمانيا . وهكذا استطاعت إيطاليا بموافقة انكلترا وفرنسا أن تمد عدتها لاحتلال طرابلس . وفى أواخر سنة ١٩١١ وجهت إيطاليا إلى تركيا بلاغاً نهائياً تزعم فيه أن مصالحها فى طرابلس قد عبث بها ، وأتبعت ذلك فى الحال باحتلال ثغرى طرابلس وبنغازى ، وتركت تركيا كعادتها طرابلس لمصيرها ، ولم يتقدم للدفاع عنها سوى حاميتها الصغيرة ؛ ولكن زمرة من الضباط البواسل بين ترك ومصريين استطاعوا أن يحشدوا رجال القبائل لقتال العدو المغير ، واستطالت الحرب الطرابلسية زهاء عام (حتى أكتوبر سنة ١٩١٢) وانتصر الايطاليون فى النهاية وعقدوا الصلح مع تركيا ، واعترفت تركيا بالحماية الايطالية على طرابلس . ولكن إيطاليا اشترت ظفرها غالياً بالمال والرجال ، ولم تتقدم مع ذلك كثيراً داخل طرابلس ، لأن رجال القبائل واصلوا الدفاع عن وطنهم ، واستمرت إيطاليا تعانى أشد المتاعب فى طرابلس مدى أعوام طويلة . ولم توفق إلى إخماد القبائل إلا منذ سنة ١٩٢٥ ، إذ جردت عليها قوى جرارة . واستعانت

بأشنع وسائل الفتك الحديثة ، ومع ذلك فانها تقيم فى طرابلس على بركان من الحفيظة والبغض قد ينفجر لأول فرصة

ومنذ قيام الطغيان الفاشستى فى إيطاليا ، تضطرم إيطاليا الفاشستية بآمال وأطماع جديدة ، وتساورها حمى التوسع والفكرة الامبراطورية . وكانت إيطاليا قد حصلت منذ سنة ١٩١٥ بمقتضى معاهدة لندن السرية على وعود من فرنسا وانكلترا بأن تعوض عند دخولها فى الحرب بمنح استعمارية فى إفريقية ، ولكن الحلفاء نكثوا وعودهم فى مؤتمر الصلح ، واكتفوا بما استولت عليه إيطاليا فى أوربا من تراث النمسا . ولكن إيطاليا الفاشستية شددت فى طلب الوفاء بالعهود المقطوعة ، واستطاعت أن تحصل على مزايا استعمارية جديدة فى افريقية ، مثل استيلائها على واحة جغبوب المصرية وواحة العوينات السودانية بفضل نفوذ انكلترا ، واستيلائها على منطقة شاسعة من السودان الفرنسى بمقتضى المعاهدة الفرنسية الايطالية الأخيرة . ولما اعتقد موسولينى أنه سما بايطاليا وقواها العسكرية والمعنوية إلى أرفع مكانة ، اتجه بأنظاره إلى الحبشة ، ورأى أنه بغزوها واحتلالها يمحو وصمة الماضى المؤلم ، ويحقق حلم إيطاليا المحطم فى انشاء امبراطورية استعمارية كبيرة تشمل الأرتيرية والصومال والحبشة . وها نحن أولاء نشهد منذ أشهر قوى الفاشستية تتدفق بواسطة قناة السويس إلى شرق إفريقية ، وها هى تغزو أراضى الحبشة ؛ وهكذا يزمع الاستعمار الأوربى أن ينقض على آخر وحدة مستقلة فى إفريقية ليفترسها كما افترس سائر أخواتها من قبل ، وليعم الاستعباد جميع أرجاء القارة السمراء

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن مصاير هذه الحرب الاستعمارية الجديدة ، فان فى الحبشة شعباً باسلا استطاع منذ فجر التاريخ أن يذود عن حرياته واستقلاله ، واستطاع حتى فى العصر الحديث أن يلقى على أولئك الذين يتربصون به اليوم درساً عميق الأثر ، ولكننا نلاحظ بهذه المناسبة أن إيطاليا الفاشستية تذهب بعيداً فى أحلامها القيصرية . أجل إن موسولينى يتشح اليوم بثياب قيصر ، ويفكر على طريقة الدولة الرومانية ، ويتصور أنه يستطيع بما اكتمل له من الاستعداد الحربى أن يخلق دولة القياصرة من جديد ، وأن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأن يرد مصر — بعد الاستيلاء على الحبشة — إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية الجديدة ؛ ولكن موسولينى ليس بقيصر ، وليست إيطاليا الفاشستية بالدولة الرومانية ، وهيهات أن يسمح العالم الحديث لهذه الفاشستية المحمومة بأن تضع لمحة من أحلامها العريضة موضع التنفيذ . ولقد كانت إيطاليا منذ جيلين فقط أمة مستعبدة ممزقة تجاهد لاستقلالها ووحدتها ، ولكنها اليوم ، وهى حديثة عهد بنعمة الاستقلال ، لا ترى بأساً من أن تجنى على استقلال شعب حر باسل ، لأنها فقط تحلم بافتتاحه واغتيال أرزاقه ؛ ولكننا نحن الذين لا يؤمنون بعظمة الفاشستية ، ولا بخلالها ووسائلها المثيرة ، نتوقع أن تكون هذه المغامرة الذميمة ـ وقد اجترأت الفاشستية على تنفيذ مشروعها ـ قبر الفاشستية وقبر مطامعها وأحلامها الدموية الأثيمة

« تم البحث »

(***)

★ ٤ – الشعر

في صدر الاسلام وعهد بني أمية

بقلم احمد حسن الزيات

٣ — خصائص الشعر في العراق

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمي الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي ، فقال له الخليفة : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فقال : هذا رجل من عاملة ، قال جرير : التي يقول فيها الله : « عاملةٌ ناصبة تصلى ناراً حامية » ، ثم قال بيتاً قبيحاً وردَّ عليه عديٌّ بمثله ، فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وابنُ اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع الى ميل في طبع أمه الى هذا الضرب من البذاء والايذاء ، فاشتهت أن تراه فيه ، حتى صُوِّرت لها تلك الأمنية في الحلم ، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد ، فلما تأولت رؤياها قيل لها : إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً ؛ وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها ، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتك بالمفقّئ والمعنّي ... وبيت المحتبي والخافقات

يريد بالفقأ أو المفقئ قوله :

ولست ولو فقأت عينك واجداً ... أباً لك إن عُدَّ المساعي كدارم

وبالمعنّي قوله :

وإنك إن تسمي لتدرك دارماً ... لأنت المعنّي يا جرير المكلّف

وبالمحتبي قوله :

بيتاً زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

وأين تُقضى المالكات أمورها ... بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الاشارة الى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع الى الموضوع لا الى الأسلوب ، فانه أجل خصومه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلاً ، وأكثرهم افتناناً . ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل القريعي ، وحسان بن ثابت ، والحطيئة ، في الابتداء بوصف الطلل والغزل ، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة ، وتلمس العيوب من خبايا الماضي ، والانتقال المقتضب من معنى الى معنى . وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فان كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلا تراه يعدل عنها ، ولا يكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقوافٍ مختلفة ، فاذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور ، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي ، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهُجر ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفاخرون بالنسب ، ويكاثرون بالعدد والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسع البصري إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل

واجعل الكوفي في الخيل ولا ... يجعل البصري إلا في النفل

★ من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكمُ يوم الجمل

بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى أبيض وضاح رِفَلْ

جاءنا يخطر فى سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الحمل

وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسى الدينى قوله مرتجزاً فى الحجاج :

شطتْ نوى مَن دارُهُ بالايوان

إيوان كسرى ذى القرى والريحان

إن ثقيفاً منهمُ الكذابان ... كذابها الماضى وكذابٌ ثان

أمكن ربى من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان

حين طغى بالكفر بعد الايمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن

سار بجمع كالدبى من قحطان ... فقل لحجاج ولى الشيطان

يثبتْ لجمع مذحج وهمدان ... فانهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل التفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع الشعراء فى حباء الخلفاء وإيثارهم فى الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة . وليس الهجاء الحزبى إلا صورة من صور الشعر السياسى الذى نفق فى هذا العصر ؛ وما نزعم بهذه التسمية أن الاسلاميين قد وقموا على مذهب فى الشعر جديد القصد والغاية ، فان مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة فى عصر الجهالة مشروعة فى عهد النبوة ، إنما نقصد بالشعر السياسى طائفة من المعانى الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب فى الرأى ، وتنازع الزعماء فى الحكم . جاءت هذه المعانى الجديدة على النهج القديم فى صور مختلفة ، نستطيع أن نردها الى أربع : فقد أتت فى صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبى العباس الأعمى :

أبنى أمية لا أرى لكمُ ... شبهاً إذا ما التفَّت الشيعُ

سعة وأحلاماً إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرَّها النزع

أبنى أمية غير أنكمُ ، ... والناس فيما أطمعوا طمعوا ،

أطمعتمو فيكم عدوكمو ... فسما بهم فى ذاكم الطمع

فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذى كانوا لكم رجعوا

عما كرهتم أو لَرَدَّهم ... حذرُ العقوبة ، إنها ترع

وكقول الكميت :

بنى هاشم رهط النبى فاننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب

خفضت لهم منى جناحىْ مودة ... إلى كنف عطفاه أهلٌ ومرحب

وأرمى وأرمَى بالعداوة أهلها ... وإنى لأوذَى فيهم وأؤنَّب

وكفة الأمويين فى هذا الباب أرجح ، لما تجمَّع لهم من الترغيب فى المال ، والترهيب بالملك ، والتمليق لهوى النفوس ، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء فى عصرهم ، إما دفعاً لشرهم وإما طمعاً فى خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر

وقد يأتى الشعر السياسى فى صورة الهجاء كما مرّ ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى ... عجل النتاج بحملها فأحالها

أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها

قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم أمهالها

إن الخلافة فيكمو لا فيهمُ ... ما زلتمُ أركانها وثمالها

أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقد يكون اقتراحاً لسياسة واستطلاعاً لرأى ، كقول مسكين الدارمى ، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه فى ذلك :

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود

ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بنى خلفاء الله مهلاً فانما ... يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربُّه ... فان أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله

ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيبانى أن يقترح ذلك فى حضرة الناس فقال :

آلابنك أولى علك والده ... ونجم من قد عصاك مُطَّرح

داودُ عدلٌ فاحكم بسيرته ... ثم ابن حَربٍ فانهم نصحوا

وهم خيار فاعمل بسنتهمْ ... واحىَ بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره

ثم يكون أحياناً جدلاً فى رأى أو بياناً لمذهب ؛ فمن الجدل السياسى ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشى فى المفاضلة بين على ومعاوية . فقد قال كعب :

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهلَ العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا علىٌّ إمام لنـــا ... فقلنا رضينا ابن هنـد رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكلٌ يسر بما عنــــده ... يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىٍّ بمستعتب ... ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرَّ ... ولا بد من بعـد ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الامام علياً أمر النجاشى أنْ يجيبه فقال :

دَعنْ معاوى ما لم يكونا ... لقـد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىٌّ بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس فى النقع دينا
هموا هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فان يكره القوم ملك العراق ... فقِدْماً رضينا الذى تكرهونا
فقولوا لكعب أخى وائل ... ومن جعل الغث يوماً سمينا :
جعلتم علياً وأشــياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا ؟

ومن البيان المذهبى قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة فى الامامة :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء :
علىٌّ والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبطٌ سبط إيمان وبر ... وسبطٌ غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهـم زماناً ... برضوى عنده عسـل وماء

وكقول ثابت قطنة ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصـل مذهب الأرجاء :

يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استبووا فى دينهم قددا

ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... فى الناس شركاً إذا ماوحدوا الصمدا

إلى أن قال :

كل الخوارج مخطى فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمان فانهـما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعـلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التى عُرضت بها المعانى السياسية ، ولعلك تلاحظ من هـذه الأمثلة أنها فى الغالب مهلهلة النسج ، نابية القافيـة ، بادية التكلف ، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون . وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قريحة كابية ؛ والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير ، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية وعواطف نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الاخلاص وروعة اليقين ، وقوة الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج ، فحقّ علينا ونحن فى مقام البحث فى شعر العراق أن نديم النظر ساعة فى أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم

(يتبع) **الزيات**

يوم افتتاح المدارس

صور دمشقية سوداء

طبق الأصل . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

ذهبت أمس إلى المدرسة الأمينية (١) ، وهي المدرسة الاسلامية التي انحطمت على جدرانها ثمانية قرون وهي قائمة ، ومات من حولها ثمانمائة سنة وهي حيّة ، ونشأت دول وانقرضت ، وبدئت تواريخ وختمت ، وتبدّلت الأرض وتغيرت ، وهي ماضية في سبيلها ، عاكفة على عملها ، قد انقطعت عن الأرض من حولها ، واتصلت بالسماء من فوقها ، فعاشت في سماء العلم والناس يعيشون في أرض المادّة . . .

دخلتها فاذا هي صامتة ساكنة ، لا يسمع في أبهائها صوت مدرّس بدرس ، أو دارسين بتلاوة ، وإذا في كل فصل من فصولها رَهْط من التلاميذ ، متفرّقون في زوايا الفصل ، لا تنفرج شفاههم عن بَسْمَة السرور ، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل ، وإذا الأستاذ صاحب المدرسة قابعٌ في غرفته ، يفكّر حزيناً ، وينظر آسفاً ؛ وهو الذي لم يألُ العمل جهداً ، ولم يسئ بالله ظنّاً ؛ فلما رآني قام إليّ يحدّثني عن المدرسة ، ويعلمني علمها ، فاذا المدرسة قد زلزلت في مطلع هذا العام المدرسيّ ، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الاسلامية وزهدوا فيها ، وزاغوا إلى المدارس الأجنبية وأقبلوا عليها ، وضنّوا على مدارسنا

---

(١) قال أستاذنا العلامة محمد بك كرد علي في خطط الشام (٦ — ٧٧) : الأمينية : قبلي باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموي ، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها (وبابها اليوم من سوق الحرير) وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب ، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك ، قيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الاسلام أمين الدين كمشتكين بن عبد الله السفتكي المتوفى سنة ٥٤١ وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ الخ . . . قلت : وجاء ذكرها في ترجمة الغزالي في طبقات السبكي لما زار دمشق ، ودرس بها ابن خلكان وغيره ، وكان لها شأن بين مدارس دمشق كبير

بدينار واحد في العام ، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار في الشهر . .

وأفاض الأستاذ في البيان ، حتى امتلأت نفسي حزناً ، فخرجت حزيناً فمررت على (الكاملية) (١) فاذا هي في خطب أشدّ ، ومصيبة أفدح ، فجزت بـ (الجوهريّة) (٢) فاذا هي ماتت بعد شيخ الشام ، الشيخ عيد السفرجلاني ، وإذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن ، فسلكت على (التجارية) (٣) فاذا دارها الكبيرة في زقاق الفخر الرازي ، خلاء قواء ، وإذا هي قد انتقلت إلى الخيْضَريّة فاتخذت فيها دارا ، ورأيت (الجقمقية) (٤) القاعة التاريخية الجميلة ، والمدرسة الأثرية الجليلة ، فاذا هي قد اتخذت داراً . . .

فذهبت وأنا أحسّ الألم يقطع في كبدي ، والأسى يحزّ في قلبي ، ووددت لو أن الله قبضني اليه قبل أن أرى مدارسنا الاسلامية ، لا تستطيع أن تعيش في البلد الاسلامي ، ولا تجد من يشد أزرها ، ويأخذ بيدها . . . وأممت شارع بغداد ، أروّح عن نفسي بخضرة البساتين ، وجمال الكون ، وانطلاق الهواء ، ومنظر الجبل ، فما راعني إلا أفواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير ، كأنه قلعة من القلاع ، أو قصر من القصور ، حتى لقد كادت تسدّ بكثرتها الشارع العريض : ما راعني إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك) ، يتدافعون

---

(١) قال في خطط الشام (٦ — ٧٥) : هي التنكزية دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطة تنكز سنة ٧٣٠ . قلت : وسميت الكاملية الهاشمية لأن الأستاذ الجليل الشيخ كامل القصاب جدد بناءها وجعلها مدرسة ثانوية فكانت حيناً من أرقى مدارس دمشق

(٢) قال في الخطط (٦ — ٩١) الجوهرية شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة ٦٧٦ ، وكان بعضهم أواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور الخ ... قلت : وقد أعادها مدرسة وجدد بناءها الشيخ عيد السفرجلاني رحمه الله رحمة واسعة

(٣) مدرسة مستحدثة أسسها طائفة من تجار دمشق وكانت قبيل الحرب وأوائله أرقى مدرسة ثانوية في دمشق

(٤) قال في الخطط (٦ — ٩١) هي شمال الجامع الأموي أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقان وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة الخ .. قلت : وفي هذه المدرسة تخرج أكثر رجال دمشق المعروفين اليوم على يد الشيخ عيد رحمه الله

ويتزاحمون ، كأنهم على باب الجنة ، فكل يطمع أن يسبق إليها ، وكلما فتح الباب لواحد ، لحظته العيون بالغيظ ، ورمقته بالحسد … فسألت قوماً أعرفهم ينظرون كما أنظر ، ماذا هناك ؟ فقالوا : هم المسلمون يريدون أن يسلموا أبناءهم إلى رجال اللاييك ليصبوا فى قلوبهم ما يشاؤون من عقائد باطلة فى الدين ، وعواطف زائفة فى الوطنية ، وزهادةٍ فى اللغة ، وكره للتاريخ الاسلامى ، والقومية العربية ، ويدفعون اليهم الأموال الطائلة ، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم ، والزيغ والالحاد ، وحبّ الغريب ، وبغض القريب ، وما يشترون بها إلا أعداء لهم ولأوطانهم ، يحاربونهم فى دورهم ، ويغزونهم فى أخلاقهم وعقائدهم ، وهم قد انحدروا من أصلابهم ، وخرجوا من ظهورهم ؛ أفرأيت بلاء أشدّ ، وخزياً أكبر ، من أن يحاربونا بأبنائنا ، ويأخذوا على ذلك أموالنا ؟ . . .

فقلت : لا والله ! وسرت ، أخشى أن يتمزق والله من الألم كبدى ، فمررت على (مدرسة الفرير) فاذا الجموع أكثر ، والازدحام أشدّ ، والمسلمون يرجون الخورى . . . أن يُنسى أبناءهم القرآن ، ليحفظهم الانجيل ، ويبغض إليهم محمداً وأبا بكر وعمر ، ويحبّب إليهم بطرس ولويس ونابليون . . . فسرت مسرعاً ، لا يطول بى وقوف فتحرقنى نار الحزن ، وأخذت طريقى إلى مدرستى ، أسلك اليها شارع البرلمان ، فاذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة ، جمهور من المسلمين لا يحصيهم عدّ ، يأخذون بأيدى بناتهم ، ليدخلوهن إليها . . . فمدت أدراجى إلى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواى) إلى مدرستى فى حىّ المهاجرين ، فى لحف جبل قاسيون

***

ولم يستقرّ بى فى المدرسة مقام ، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين ، على رأسه عمة بيضاء كأنها برج ، وحول يده كم كأنه خرج ، تتدلى منه سبحة لا يفتأ يعدّ حباتها ويلعب بها ، وقد يخطئ مرّة فيسبّح عليها ، يجرّ بيده ولداً ، فخذاه مكشوفان وعلى رأسه كُمّة (1) فقلت له :

– ما هذا ياشيخ ؟ أعورة من أعلى ، وعورة من أسفل ؟

– قال : وما ذاك ؟

– قلت : ألم يكفك أن تكشف عورته ، وأنت تذكر الله ، وتتلو كتابه ، وتظهر منه ما أمر الله بستره ، حتى تضمّ إلى العورة عورة أخرى تجىء من فوق رأسه ، فتلبسه القبعة ؟

– فقال (ولوى لسانه وتفيهق وتشدّق) : ماهى بعورة فى مذهبنا

– قلت : وما مذهبك يا مولانا ؟

– قال : مذهب الامام مالك

– قلت : ذاك لمن لايفرّق بين عورة الملتحى وعورة الأمرد ، هذا الذى فى مذهب مالك ، لا مع مثل ابنك الذى لا تؤمن معه الفتنة

وإذا أنت فهمت مذهب مالك بهذا الفهم الأعوج ، أفليس فى الناس فسّاق ، يأكلون عرض ابنك على مذهب مالك ، مادام مذهب مالك حجة يحتج بها كل ماجن وفاسق … رحم الله مالكا وجعل افتراءكم عليه حسنات له .

***

وتركته وقمت إلى قسم الشهادة الابتدائية ، أرى التلاميذ … فاذا أكثرهم لا يستر إلا نصفه الأعلى ، وإذا هم متأنثون مائلون مميلون ، فجعلت أسألهم من هنا وهناك ، فقلت :

– ما شروط الصلاة ؟ من يعرفها منكم ؟

– قالوا : لا نعرفها ، درس الديانة ليس من دروس الامتحان ، فلا نحفظه

– قلت : فماذا قرأتم فى السنة الماضية ؟

– قالوا : وماذا نقرأ ، عندنا ساعة واحدة فى الأسبوع …

– قلت : فلنبحث فى التاريخ ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك ، أو القادسية ؟

– قالوا : ما قرأناها … نحدثك عن سيرة نابليون ، ووقعة واترلو . . . هذا ما قرأناه وسنقرؤه فى هذا العام . . .

***

وبعد . . . فهذا طرف من الحقيقة ، وقليل من كثير من الواقع ، نسوقه بلا تعليق !

(دمشق) علی الطنطاوی

(1) الكمة هى (البيريه) وهى جنس من القبعات فتن بها الناس عندنا فألبسوها أبناءهم فصار يهون عليهم إذا كبروا لبس القبعة ، فاذا لبسوها عرفوا لها حقها ، وما حقها إلا التفرنج ، وترك الشرقية بالكلية

من تراثنا الأدبي

١ - أبو العينـــاء

بقلم محمود محمود خليل

أبو العيناء ونسبه

أبو العيناء كاتب منشئ من كتاب القرن الثالث الهجرى الحافل بأساطين الأدب وجلة العلماء ، ولكنه كاتب ضرير البصر من العباقرة الذين سجل لهم التاريخ الذكر الحسن ، أمثال أبى العلاء المعرى وبشار بن برد وأضرابهما ، وكأن سنة الله قد جرت فى الخلق أن يقترن فقد البصر غالباً بالنبوغ والعبقرية ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً . وإذا كان القدر قد أتاح لشاعر المعرة فطاحل الكتاب والأدباء يدرسونه ويمحصونه ، ويستخلصون فلسفته من شعره ، فلا أقل من أن يدرس أبا العيناء الضرير شخص مثلى ، وفى اعتقادى أن شخصية أبى العيناء جذابة فكهة كما سترى ، وهى تفضل شخصية شاعر المعرة العبوس المتبرمة من هذه الناحية

يحدثنا الرواة أن أبا العيناء اسمه أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن خلاد بن ياسر بن سليمان ، وأصل قومه من بنى حنيفة من أهل اليمامة ، ولحقهم سباء فى خلافة المنصور العباسى ، فلما صار ياسر فى يد المنصور أعتقه ، فهم موالى بنى هاشم

مولده ونشأته

وُلد أبو العيناء بالأهواز فى آخر المائة الثانية للهجرة ، ونشأ بالبصرة ، وبها طلب الحديث وكسب الأدب ؛ وكان على استعداد تام للحرص على كل ما يلق عليه فأثمرت فيه تربيته بالبصرة الثمر الطيب ، وأخرجته رجلاً فذاً فى الحياة ، مثقفاً إلى درجة حسنة ، ولقد هيأته تلك الثقافة إلى رواية الأخبار الطريفة ، والملح اللطيفة ، والأشعار الجيدة ، حتى لقد بلغ به الأمر أن يعرض عليه المتوكل العباسى أن يكون نديمه على شرابه ، ويتمنى عليه لو يجيبه ، فيمنعه عمى بصره عن الوصول إلى تلك المرتبة السنية ، وإن كان قد حاز منزلة سامية من قلب المتوكل . ونرى الأصفهانى فى كتابه الأغانى يجعله من رجال سنده فى جملة أخبار أتى بها فى كتابه ، يقول فى سند له : أخبرنى قدامة عن أبى العيناء عن العتبى

ويمضى أبو الفرج فيروى لنا حديثاً طويلاً بهذا السند فى أمر زواج ليلى العامرية برجل من ثقيف وشعر مجنون بنى عامر حين بلغه ذلك ، وسند آخر أتى به أبو الفرج . قال أخبرنى محمد بن خلف ، قال حدثنا أبو العيناء عن القحذمى عن أبى صالح السعدى ، ثم يمضى فى رواية خبر طويل يتعلق بعمر بن أبى ربيعة ، وكذلك ينقل عنه الأبشيهى صاحب كتاب المستطرف ، وغير هذين المؤلفين كثير ، وعدّ المؤلفين لأبى العيناء من الرجال الذين يعتمد عليهم فى رواية الأخبار والأشعار ما هيأه لذلك إلا نشأته بين أولئك الفطاحل من البصريين الذين تغذى بلب علومهم ، واستصفى ثمار عقولهم

كان أبو العيناء إذاً يتردد على علماء البصرة يأخذ عنهم . فهل كان فى هذا الوقت أعمى أم بصيراً ؟ يقول الرواة إنه ما عمى إلا بعد أربعين عاماً من عمره ، وهو زمن ليس بالقليل يكون أبو العيناء قد أخذ فيه بحظ وافر من متعته ببصره ، والغريب فى هذا حقاً أن الرواة يسطرون لنا أسطورة عن سبب عماه ؛ وهى أن جده الأكبر لقى على بن أبى طالب (ض) فأساء مخاطبته . فدعا عليه وعلى ولده بالعمى ، فكل من عمى منهم فهو صحيح النسب ، فهذا الخبر إن صح ينبثق منه شعاع من الحقيقة يتحكم فيه قانون الوراثة ، فقد ورث عن آبائه سلاطة اللسان

قال أبو العيناء حاكياً عن نفسه : أنا أول من أظهر العقوق لوالديه بالبصرة ، قال لى أبى إن الله قد قرن طاعته بطاعتى ، فقال تعالى : « أن اشكر لى ولوالديك » فقلت يا أبت إن الله تعالى قد أمننى عليك ولم يأمنك علىّ . فقال : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم » ، ولم يقف بسلاطته تلك على أهله وذويه ، فإن الناس كلهم كانوا يخافون معرة لسانه ، والسهام التى يقذفها فى كلامه ، وتستطيع أن تجد له أخبارا كثيرة فى كتب الأدب تؤيد ما ذهبنا إليه ، فهذا موقفه مع فتى ماجن أراد العبث به مرة . فقال له يا أبا العيناء متى أسلمت ؟ قال حين أسلم أهلك وأبوك الذين لم يؤدبوك . . . الخ ذلك الخبر ، وموقف آخر مع عيسى بن فرخان شاه الذى كان يتولى الوزارة ويتيه فيها على أبى العيناء ، فلما عزل لقيه أبو العيناء فى الطريق فسلم عليه وأحفى فقال له : والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك ، وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، فلقد أصابت فيك النقمة ، ولئن كانت الدنيا أبدت

مقابحها بالاقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم

وموقف ثالث يقفه أبو العيناء مع بعض الوزراء فى مجلسه إذ يمدح البرامكة ويذكر سخاءهم وجودهم فيقول الوزير إنما هذا من تصنيف الوراقين ، وكذب المؤلفين ، فقال أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير ؟ فأسكته وعجب الحاضرون من إقدامه عليه

فهذه الأخبار وغيرها كثير تعطينا فكرة صحيحة عن سلاطة لسانه التى امتاز بها بين الأدباء المعاصرين له ، حتى كان الوزراء وأرباب المناصب وغيرهم يخافونه ويتقون لسانه بل يدارونه ، وتلك اللسانة كما قلت كانت موروثة عن آبائه ، فقد علمنا كيف أقدم جده الأكبر على علىّ بن أبى طالب (ض) ، وأساء مخاطبته حتى دعا عليه ، وحتى استجيبت دعوته فيه وفى أحفاده من بعده . ولكن أبا العيناء يعتذر عن بذاءة لسانه حين سأله المتوكل على الله بقوله بلغنى عنك شر . فقال يا أمير المؤمنين إن يكن الشرذكر المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ، فقد زكى الله وذم ، فقال فى التزكية : (نعم العبد إنه أواب) ، وقال فى الذم : (هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم) وقال الشاعر :

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ولم أذمم الجبس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامعَ والفما

وإن كان الشر كفعل العقرب التى تلسع السنىّ والدنىّ بطبع لا يتميز فقد صان الله عبدك عن ذلك

وفى الحق إن أبا العيناء لم يكن يسفه على أحد من الناس إلا على من يتعرض له باساءة ، فاذا تجرأ على هذا شخص فويل له من لسانه ، ولقد أجاب المتوكل إذ قال له كم تمدح الناس وتذمهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسىء يسىء ، وغرضه بهذا أنه يعطى كل إنسان ما يستحقه من مدح أو ذم ، ولقد مدح أناساً كثيرين ولكنه ذم أكثر ممن مدح ، وإنا وإن كنا نعتقد أن أبا العيناء قد أسرف فى الذم اسرافا كثيراً ، فان من الحق علينا أن نعترف أن هناك عوامل أخرى جملته يسرف هذا الاسراف ، وسنعرف بعد ما هى هذه العوامل

(يتبع) محمود محمود خليل

في الأدب الإنجليزي

٣ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيرى حماد

لم يحاول شكسبير اظهار شخصيته من خلال رواياته ، ولكن كارليل يقول عنه : « إن روايات شكسبير هي كنوافذ متعددة يظهر من خلالها ما كان يدور في نفسه من الأفكار والخواطر » . ومن كل رواية من رواياته يمكننا أن نتبين الحالة العقلية التي كان فيها لما أنشأها وكتبها . فني هملت لم يكن تفكيره محصوراً إلا في البحث في الأشباح ، بينما كان في مكبث مشتغلا بالسحر والسحرة

وفي كل من روايتيه تتحقق النبوءات التي تتنبأ بها الأشباح والساحرات . ولكن هناك ثمة فرقاً ضئيلاً بين كل من الروايتين ، وذلك الفرق هو أن نبوءات الشبح في هملت هي من أمور الماضي بينما هي في مكبث من أمور المستقبل

وقد قال جبسن عند كلامه عن العاصفة ما يؤكد هذه النظرية ، فهو يقول : « هل كان في استطاعة شكسبير أن يجعل من جميع هذه النبوءات الخيالية حقائق راهنة إن لم يكن يعتقد الاعتقاد كله بهذه الأمور من عالم الخيالات والأشباح ؟ » (1)

وفي رواية الملك هنرى الرابع نرى هتسبر (Hotsper) يعارض اعتقاد جلندور (Glendower) أن في استطاعته أن يسخر الأرواح والشياطين في مهامه الخصوصية ، فهو يتحداه بقوله : « إنك تعتقد أن في امكانك مخاطبة الأرواح ولكن هذا في استطاعتي أنا وفي استطاعة أي رجل آخر . وقد فاتك ياهذا أنها لا تجيبنا عند ما ندعوها أو نخاطبها »

وهذا الشك لا يلبث أن يزول عند ما يقدم جلندور البرهان الكافي فتخاطبه الأرواح كأنه فرد من أفراد جنسها ؛ وهذا الاعتقاد بالخرافات كان مستولياً على شكسبير لدرجة عظيمة حتى إنه كان يضع المحبين والمجانين والشعراء في مصاف من يستطيعون الاتصال بالعالم العلوي ، وفي رواية هنرى السادس نراه يجمع بين ما هو في عالم العقائد وما هو في عالم الخرافة ، وقد لخص عقيدته في رواية هملت إذ يقول : إن هناك في السماء أموراً عدة يا هوراثيو Horatis مما ليس في استطاعة العالم البشري فهمها أو التفكير فيها »

أو حين يقول في رواية أخرى :

« يقولون إن زمن المعجزات قد انتهى وآن لنا أن نفكر في كياننا الفلسفي فقط فنجعل من الخرافات مسائل عصرية يقبلها العقل ويسيغها المنطق . ولما كنا نستهزئ بالمخاوف والأشباح متسترين برداء من العلم والمعرفة فعلينا ألا نكون عرضة لمخاوف غير مرئية وهذا مما لا يتأتى لنا » (1)

إن في استطاعتنا أن نستنتج من هاتين الفقرتين السابقتين أن شكسبير كان يؤمن بالخرافات والغيبيات ، فهناك عدد غير قليل من الأمور التي ليس في استطاعتنا فهمها أو التعبير عنها . فلا يمكن مثلاً انكار وجود عدد من المعجزات التي يكثر حدوثها فوق ظهر هذه البسيطة ، وما العالم العلوي إلا محيط لا يمكننا حل ألغازه وتفهم معانيه . فان من طبيعة البشر أن يكونوا خاضعين لعالم غير عالمهم يجهلونه ويخافونه ، وما المحاولات التي يقوم بها العلماء لاسناد كل ظاهرة طبيعية إلى عاملها العلمي إلا محاولات خالية من الاقناع وطريق البرهان

قلنا إن شكسبير كان يؤمن بعدد من هذه المخلوقات المغيبة ، وقد جمعها في رواياته محاولا اظهارها بصور رائعة من الخيال والسمو الفكري ، وأولى هذه الأنواع وأهمها هي ظاهرة الجنيات

الجنيات (Fairies)

إن هذه الجنيات هي بقايا المعبودات والآلهة المحلية التي كانت سائدة على القرى الانكليزية في عصر من العصور ، وما العقيدة الشائعة أن هذه الجنيات قد تسلسلت من الآلهة اليونانية والرومانية القديمة إلا حديث خرافة لا أصل له من الصحة والصدق . وهناك نفر غير قليل من النقاد يرجعونهن إلى أصل بشري ، فما هن إلا ذرية سكان بريطانيا الأقدمين الذين طردهم السكات عند استيلائهم على البلاد ، فلم يجدن غير الغابات ملجأ يلجأن اليه ومكاناً يستطمن العيش فيه مدة حياتهن

(1) Gibson Sh Use of the Supernatural P. 6

(1) Bll is Well . . . II 3 . 1

القادمة ، وأصبحن يعرفن فيما بعد بالجنيات

وهذه المخلوقات العجيبة كانت على أنواع عدة ، فمنها ما هو أسود اللون ، ومنها ما هو أخضره أو أبيضه أو رماديه ، وفى كثير من الروايات يصفهنّ شكسبير ، فهو يقول فى موضع من روايته (نساء وندسور المرحات) واصفاً إياهن بقوله : إنهن سوداوات اللون أو رمادياته أو خضراواته أو بيضاواته

وكن لا يخرجن إلا فى غسق الليل ، فيعقدن مجالس الأنس والطرب تحت ظلال الأشجار ، بينا أهل الأرض نيام . وفى (العاصفة) نرى بروسبيرو يخاطب إحدى هذه الجنيات قائلا : « ستخرجين الليلة ويصيبك فيها برد شديد ، قد يؤدى إلى تشنج فى أعصابك فتألمين منه أشد الألم ، وستحيط بك الجنيات فى الليل فينفذن فيك ما لهن من قوة »

تعيش الجنيات فى الحقول المغطاة بالأزهار والرياحين ، أو فى الأماكن الخلوية من اليابسة والماء ، سيان عندهن التلال والوديان ، الغابات والمروج ؛ وكثيراً ما تراهن بجوار الينابيع وضفاف الأنهار ؛ أو فى أعماق المحيطات والبحار ، وقد وصف الشاعر أحد هذه الأمكنة بقوله : « إنى لأعرف شاطئاً تهب عليه الرياح ، وتنبت فيه أزهار الياسمين والزنبق محاطة بالورود الجميلة المنظر » أما الملكة فهى تود الاجتماع فى جميع الأماكن التى اعتدن فيها اللقيا ، فهى تلقى الأوامر على أفراد رعيتها قائلة : « لنلتق على التلال أو فى الوديان ، بجانب الينابيع المرصوفة ، وعلى شواطئ الأنهار الذهبية ، أو فى أعماق البحار الرملية ، وهناك نحتفل برقصنا على موسيقى الرياح الهائجة »

إن أشهر أسماء هذه الجنيّات التى ذكرها شكسبير فى رواياته ثلاثة أولها أبيرون (Oberon) الذى يعتبر ملكا على هذه الطائفة من المخلوقات ؛ أما تيتانيا (Titania) فكثيراً ما يطلق عليها اسم الملكة ماب (Queen Mab) وهى تعتبر باعثة للأحلام كما يظهر من رواية روميو وجوليت : « انى لأعتقد أن الملكة ماب كانت معك فهى وسيطة الجنيات وملكتهن لا يزيد حجمها على حجر صغير أو إصبع من أصابع الرجال ، وكثيراً ما تصبح بشكل ذرة ترتكز على أنوف الناس عند نومهم » فهى تبعث الأحلام والأخيلة اللذيذة ، ولكنها لسوء حظ البشر فى صراع دائم مع زوجها الملك أبيرون ، ومن هذا الصراع قد يتأتى ما يتأتى من الشرور والأضرار لبنى البشر . أما آخر هذه الأسماء وهو بك (Puck) فهو رسول الملك وحامل أوامره

فى الفقرة السابقة رأينا الملكة ماب بحجم صغير ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الجنيات ذوات حجم ضئيل ، وقد وصفهنّ شكسبير فى رواية العاصفة بقوله « حينما تهبط النحل أهبط أنا وفى استطاعتى أن أنام داخل جرس من الأجراس فأتخلص من نعيق الغربان والبوم » . وقد يتمكنّ من الظهور بحجم أصغر فيختفين داخل كؤوس الشراب

ولا ينتظر من هذه المخلوقات الضئيلة إحداث أمر سيئ للبشرية لولا أنها فى نزاع دائم مستمر . نعم إن صفاء نيتهنّ كان سبباً فى خلق بعض الآلام إلا أنهنّ كنّ لا يلبثن أن يزلن ما أحدثن بمهارة وروية . وكثيراً ما تراهن يتعاطين المزاح فيروعن فتيات القرية ويخفنهن فرأينا إيموجن (Imogen) فى سمبالين (Cymbeline) تخاف هذه المخلوقات وتسأل وصيفتها أن تلازمها لتحميها منهن فهى ترجوها قائلة « أرجوك حمايتى من الجنيات ودلاج الليل »

ولكنا نراهن فى الغالب يحفزهن حب الخير وعمله فيقمن بأعمال جمة لفائدة البشرية ونفعها ولا يعد روبنهود (Robinhood) إلا فاعلاً من فعلة الخير ومريديه . فهو يتلقى الأوامر من مليكه ويعرضها على أفراد الشعب وهو يستمع إلى أبيرون حين يقول : « على كل جنى أن يقف بالباب المعين له ، وعليه أن يبارك من فى الغرفة ويدعو لهم بالسلام والطمأنينة » . وكثيراً ما دعت الجنيات للأزواج الحديثى العهد بالسرور والبركة وتلقفن أطفالهم بعين الرعاية والعطف حتى يشبوا ولم يعرفوا الألم قط . وهاهو أبيرون يقول « دعنا نذهب إلى فراش كل عروس جديدة فنبارك لها فتلد غلاماً يلازمه السرور وترعاه العناية »

(يتبع) صبرى حماد

كتب ابن المقفع

للأستاذ بشير الشريق

١ — أبو محمد عبد الله بن المقفع كاتب بليغ مشهور امتاز بأسلوبه الجميل السهل الرشيق ، لا أعرف بين أدبائنا القدماء والمحدثين من هو أقدر منه على الكتابة والتعبير إلا عمرو بن بحر الجاحظ . كان ماهراً فى تصوير طبائع الناس وأهوائهم وميولهم ، احتوت كتبه الحكمة والأدب والأمثال ، كما احتوت قواعد عامة فى الادارة والسياسة والأخلاق

٢ — وهو فارسى الأصل اسمه فى الفارسية « روزبة » ولد فى « خوز » من أعمال خراسان حوالى سنة ١٠٦ هجرية . ونشأ فى البصرة ، وقد ظل يدين بالمجوسية دين آبائه حقبة من الزمن ، ثم اعتنق الاسلام وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره ، قال الهيثم بن عدى يذكر قصة اسلامه : « جاء ابن المقفع إلى عيسى بن على عم المنصور ، فقال له : قد دخل الاسلام فى قلبى وأريد أن أسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس ، فاذا كان الغد فاحضر ؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الاسلام ؟ قال : أكره أن أبيت على غير دين »

٣ — وكما اشتهر عبد الله أنه كاتب كبير ، فقد اشتهر أنه مترجم قدير لا تلمح فى ترجمته أثر العجمة ، فهو أول من اعتنى فى الاسلام بترجمة الكتب القيمة ، ترجم كتب أرسطو الثلاثة فى المنطق ، ونقل كتاب « التاج فى سيرة أنوشروان » ، وقيل إن كتاب « كليلة ودمنة » كان باللغة الفارسية فنقله إلى اللغة العربية . قال الباقلانى : « ابن المقفع ينحط إذا كتب ويعلو إذا ترجم ، لأن له فى الأولى عقله وفى الثانية كل العقول »

وقال الجاحظ : « كان ابن المقفع مقدماً فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة »

٤ — لابن المقفع من الكتب كتابا « الأدب الصغير والكبير » ، وكتاب « الدرة اليتيمة » ، وكتاب « التاج فى سيرة أنوشروان » ، وكتاب « كليلة ودمنة » ؛ وكتب فى المنطق . وهذه الكتب منها الموضوع ومنها المنقول ، فكتابا « الأدب الصغير والكبير » و « الدرة اليتيمة » من تأليف ابن المقفع ؛ أما كتب المنطق وكتاب « التاج » فهى منقولة عن الفارسية التى يجيدها الكاتب اجادة عجيبة ، واختلف أهل الأدب فى حقيقة كتاب « كليلة ودمنة » ، فمنهم من قال إن ابن المقفع هو الذى وضعه ، وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه بمطالعته ، ومنهم من قال إنه لم يضعه ، وإنما كان باللغة الفارسية ونقله إلى العربية

٥ — وبعد فأرى أن أحدث القارئ عن أشهر كتب ابن المقفع وأكثرها متعة وقيمة ، وهى كتاب « الدرة اليتيمة » وكتاب « الأدب الصغير » وكتاب « كليلة ودمنة » ، وسيقتصر بحثى على تعريف القارئ بهذه الكتب تعريفاً اجمالياً ، ثم على عرض أجمل ما فيها من صور أدبية واجتماعية مع شرح موجز :

٦ — الدرة اليتيمة التى لم يصنف فى فنها مثلها تقع فى ثمانين صفحة ، وتشتمل على فصلين كبيرين ، الأول منهما خاص بعلم السياسة ويحتوى على آراء قيمة حكيمة فى ادارة الحكومة ، وواجبات الحاكم ، وعلى وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه الأمير من القوة والعدل ، والبطش والحلم ، والتثبت والعلم ؛ والثانى خاص بعلم الأخلاق ، يشتمل على قواعد دقيقة فى التربية والاجتماع ، وعلم النفس وعلى نظرات صادقة فى الناس وشؤونهم

حل ابن المقفع فى « درته اليتيمة » مسألة كبيرة تتلخص فى كيف يتسنى للأمير أن يحفظ ملكه ويثبت سلطانه ، نقول : إن هذه المسألة قد لفتت نظر كاتب فلورنسى يدعى « مكيافيللى » فى القرن الخامس عشر ١٤٦٩ — ١٥٢٧ ، فوضع كتاباً سماه « الأمير » شرح فيه هذه المسألة شرحاً لا يكاد يختلف فى أصوله ومعانيه عن شرح ابن المقفع ؛ وكانت ضجة عظيمة حول الكتاب فى الدوائر العلمية والسياسية الأوربية ، وكان أن أصبح مكيافيللى بفضل كتابه الذى اعتبره الغربيون أول كتاب فى العلم السياسى ، من أعاظم رجال التاريخ ؛ ولما كان المجال لا يسع الكلام باسهاب اكتفى بقولى : إن من يطلع على « الدرة اليتيمة » يرى أن ابن المقفع بحث فى أصول سياسة الملك بحثاً مستفيضاً ممتعاً ، والى القارئ صوراً من « الدرة اليتيمة » :

٧ — قال ابن المقفع :

أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمور وفرض الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضاء والمعالجة والأناة الناظر

فى الأمر يومه وغده وعواقب أعماله

اعلم أن الملك اثنان : ملك حزم وملك هوى ، أما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى ، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر

لا يضيعن الوالى التثبت عند ما يقول وعندما يعطى وعند ما يفعل ، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الاعطاء ، وإن الاقدام على العمل بعد التأنى فيه أحسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه ؛ وكل الناس محتاج إلى التثبت ، وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع ، وليس عليهم مستحث

إن الوالى لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته ، فأما إذا ولى فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه

لا يمتنع الوالى وإن كان بلغ الرأى والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التصنع والتمحل

لتعرف رعيتك أبوابك التى لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التى لا يخافك خائف إلا من قبلها

احرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فان المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك

ليعلم الوالى أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود ، فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الملوك صفات السوء التى يوصفون بها

لا يولعن الوالى بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروح به عن قلبه ويصدر به أعماله

من صحب السلطان لم يزل مروعاً . فساد الملك أضر على الرعية من جدب الزمان

٨ — « الأدب الصغير » رسالة قيمة فى علم تهذيب الأخلاق ، تقع فى أربعين صفحة كتبت بأسلوب جميل ساحر ، أسلوب فيه حلاوة وعليه طلاوة ، أسلوب تتجلى فيه الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والمعانى التى إذا طرقت الصدور عمرتها ، وهى ممتلئة بأصدق الأنباء عن الروح الانسانية تبرهن على مقدرة ابن المقفع العجيبة فى تصوير طبائع الناس قال :

على العاقل ألا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصاب من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب

وعلى العاقل أن يجبن عن الرأى الذى لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين

وعلى العاقل إن اشتبه عليه أمران فلم يدر فى أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره

من نصب نفسه للناس إماماً فى الدين فعليه أن يبدأ فى تعليم نفسه وتقويمها فى السيرة والطعمة والرأى واللفظ والأخدان . معلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون فى أمورهم ، فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، يترقبون الدول ، ويتعاطون القبيح ، ويتعاينون بالفخر

لا يمنعك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك

ومن ورع الرجل ألا يقول ما لا يعلم ، ومن الأرب أن يتثبت فيما يعلم

إقدام المرء على ما لا يدرى أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل

خمول الذكر أجمل من الذكر الذميم

لا يوجد الفخور محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا الملول ذا اخوان

ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال ، ولا يظهر المروءة إلا المال ، ولا الرأى والقوة إلا بالمال ؛ ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا ولد له فلا ذكر له ، ومن لا عقل له فلا دنيا ولا آخرة له ، ومن لا مال له فلا شىء له . والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس ، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم والأدب ، ومعدن للتهمة ، ومجمعة للبلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب

سروره ، ومن ذهب سروره مقت ، ومن مقت أوذى ، ومن أوذى حزن ، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ، ومن أصيب فى عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له

(٩) «كليلة ودمنة» كتاب بليغ يتضمن الجد والهزل، واللهو والحكمة ، ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة ، ونقله إلى العربية عن الترجمة الفارسية ، فى صدر الدولة العباسية (عبد الله بن المقفع) رأس الكتاب ، وقيل إن ابن المقفع هو الذى وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت للقدماء ، وهو موضوع على ألسن البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهو للعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وهو معروف متداول فلا داعى للافاضة فى بحثه

١٠ — ونتساءل : كيف كانت صورة عبد الله بن المقفع وهيئته ؟ كيف كان شكله وطراز جسمه ! هل كان جيلاً ظريفاً قوياً أم على المكس قبيحاً دميماً ضعيفاً ! ماذا كان يلبس ؟ هل كان يهتم بنظافة ثيابه وحسن هندامه ، كيف كانت حياته الخاصة كيف كان يعيش مع نفسه وأهله وخلصائه ؟ هل كان يميل إلى المرح والداعبة والهزل ؟ هل أحب ؟ ما هى قصة حبه ؟ هل كان له زوجات وأولاد ؟ ما درجة اتصاله بأهله وذوى قرباه ؟ أى متاع الدنيا آثر عنده ؟

هذه أسئلة عظيمة الفائدة المتعة لابد وأن تعرض لذهن من يود أن يعرف ابن المقفع ويفهم أدبه ، ولكن أليس عجيباً ألا نستطيع أن نجيب على سؤال واحد منها وأن نكون على جهل تام بحياة أديبنا الخاصة ؟

ليس الذنب فى ذلك ذنبنا ، وإنما هو ذنب مترجمى أدبنا القدماء فهم قل أن اهتموا أثناء ترجمتهم لأديب أو شاعر بحياته النفسية الخاصة ثم بحياة محيطه ، هذه الحياة التى تكون الأديب وتطبع آثاره الأدبية البيانية بطابع الشخصية والذاتية

١١ — كل ما ذكره المترجمون عن حياة ابن المقفع الخاصة كان جملة واحدة أوردوها عرضاً أثناء تحدثهم عن شعوره الدينى أوردها صاحب الأغانى نقلاً عن الجاحظ قال : كان ابن الحباب ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى ، وحفص بن أبى وردة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، وحماد عجرد ، وعلى بن خليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية ، وابن الزبرقان ، وعمارة ابن حمزة ، وجميل بن محفوظ ، وبشار المرعش ، ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم فى دينه »

نقول إن صحت رواية الجاحظ كان هؤلاء الشعراء والأدباء الذين كانوا يجتمعون على الشراب لقول الشعر ولا يكادون يفترقون هم الذين يمثلون الطبقة الخاصة من الناس التى ذكرها ابن المقفع فى قوله « وعلى العاقل أن يجمل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل فى هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل فى الرأى وثقة فى المودة وأمانة فى السر ووفاء بالاخاء

١٢ — مات ابن المقفع باكراً ، لم يتمع بالحياة ؛ كان عمره ستة وثلاثين عاماً يوم قتلوه ؛ نعم لم يمت المسكين بل قتل حرقاً بالنار . يا لهول الجريمة ! !

أجمع مترجمو ابن المقفع على أن سبب مقتله كتابته أماناً لعبد الله [1] عم المنصور قال فيه :

« . . . ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله ؛ فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » ، فلما وقف عليه المنصور عظم عليه ذلك وقال : من كتب هذا ، فقالوا له : رجل يقال له عبد الله بن المقفع يكتب لأعمامك ؛ فكتب الى سفيان بن معاوية بن مهلب بن أبى صفرة متولى البصرة يأمره بقتله ، ذكروا أن سفيان كان شديد الحنق على ابن المقفع لأنه كان يعبث به وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة »

وإنها لخسارة لا تعوض ، وإنها لجريمة لا تغتفر ، ورحم الله ابن المقفع

شرق الأردن بشير الشريفى

(١) هو عبد الله بن على ، خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جوعه وفر عبد الله إلى البصرة محتمياً بأخويه اسماعيل وسليمان ، فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله يمليان شروطه ، فقبل ذلك المنصور ، فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أماناً يتصعب فى شروطه ، فكان أن كتب هذا الأمان الذى أفقده حياته

١٢ – شاعرنا العـالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فنونه الشعرية : تناول أبو العتاهيـة لأول أمره من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء والعتاب والاستعطاف وما إلى ذلك مما كان يتناوله غيره من الشعراء ، ثم استفرغ بعد ذلك جل شعره فى الزهد والوعظ والحكمة والمثل ، فأعطى الشعر العربى من ذلك ثروة عظيمة كانت تنقصه

فأما غزله فكان يذهب فيه مذهب الشعراء العشاق كجميل بثينة وغيره ، وإن كنا قد ذكرنا فى ترجمته أنه لم يكن صادق العشق مثلهم ، ولكن سجيته التى كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد ، لم تكن لترضى له أن يذهب فى غزله مذهب فساق الشعراء كامرىء القيس وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما ، فجاء غزله عفيفاً بعيداً عن الفحش والفجور ، ليس فيه إلا شكوى الصبابة وألم الصد وعذاب الفراق ونحو ذلك من وجدانات أهل العشق ؛ ولعل هذا أيضاً مما كان يرغب المهدى والرشيد فى غزل أبى العتاهية ويجعلهما يغضبان عليه إذا أراد أن يتركه إلى الزهد ، مع أنهما كانا لا ينظران إلى غزل أحد غيره بتلك العين التى نظرا بها إلى غزله ، وأمر المهدى مع بشار فى غزله معلوم ، وكذلك أمر الرشيد مع أبى نواس ؛ وقد شاع الغزل بالمذكر فى عصر أبى العتاهية فصان نفسه عنه ، ولم يدنس شعره به ، وهذه شهادة مسلم بن الوليد فى غزل أبى العتاهية . ذكر أبو الفرج أن مسلماً قال : كنت مستخفاً بشعر أبى العتاهية فلقينى يوماً فسألنى أن أصير إليه ، فجاءنى بلون واحد فأكلنا ، وأحضرنى تمراً فأكلناه ، وجلسنا نتحدث ، وأنشدته أشعاراً لى فى الغزل ، وسألته أن ينشدنى ، فأنشدنى قوله :

بالله يا قُرة العينين زوريني ... قبل الممات وإلا فاستزيريني
إنى لأعجب من حبٍّ يقربني ... ممن يباعدنى منه ويقصيني
أما الكثير فما أرجوه منك ولو ... أطمعتني فى قليل كان يكفيني

ثم أنشدنى أيضاً :

أخلاىَ بى شجو وليس بكم شجو
وكل امرئ عن شجو صاحبه خِلْوُ

وما من محبٍّ نال ممن يحبه ... هوًى صادقاً إلا سيدخله زهو
بليتُ وكان المزحُ بدء بليتى ... فأحببت حقاً والبلاءُ له بدْو
وعُلِّقْتُ من يزهو على تجبراً ... وإنىَ فى كل الخصال له كُفو
رأيتُ الهوى جمر الغضا غير أنه ... على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدنى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى ... تكون مع الأقدار حتما من الحتم
يصاب فؤادى حين أرمى ورميتى ... تعود إلى نحرى ويسلم من أرمى
صبرت ولا والله مابى جلادة ... على الصبر لكنى صبرت على رغمى
ألا فى سبيل الله جسمى وقوتى ... ألا مسعد حتى أنوح على جسمى
تُمدُّ عظامى واحداً بعد واحد ... بحبى من المذال عظما على عظم
كفاكِ بحق الله ما قد ظلمتنى ... فهذا مقام المستجير من الظلم

قال مسلم : فقلت له لا والله يا أبا إسحاق ما يبالى من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر مافاته من الدنيا ؛ فقال يا ابن أخى لا تقولن مثل هذا ، فان الشعر أيضاً من بعض مصايد الدنيا

وأما مدحه فقد كان مدحا تجاريا لم ينطق فيه عن عقيدة ، بل كان يمدح به قوماً يخالفونه فى عقيدته الشيعية ، ولا يقصد من ذلك إلا الحصول على المال الذى أباح الشيعة أخذه من المتملك لأنه حق لهم ، فسار أبو العتاهية فى مدحه بقدر مايصل به إلى هذا الغرض ، ولم يدخل به فى الخصومة السياسية التى كانت قائمة فى عصره بين العباسيين والعلويين ، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة ، ودفعهم حب مال العباسيين إلى أن يجعلوا حقهم فى ملك المسلمين بالارث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيه العلويون ولا غيرهم من المسلمين ، وفى هذا يقول قائلهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثةُ الأعمام

ولم يفرح العباسيون بشىء فرحهم بهذه الفكرة الخاطئة ، فعدوها أكبر نصر لهم على خصومهم من العلويين ، وأغدقوا على من ابتكرها لهم شعراً مالا يحصى من الأموال ، وحملوا الشعراء على التفنن فيها ، وتصريف الشعر فى تأييدها ونشرها

فلم يصل مدح أبى العتاهية للعباسيين إلى هذا الحد، ولم يبع عقيدته بأموالهم فيفضلهم على العلويين أو يذمهم من أجلهم، بل كان على حبه للمال وبخله به يعرف كيف يرفضه إذا كان فى قبوله إهانة له، أو حطاً من كرامته؛ ويمكننا أن نسوق على ذلك شواهد كثيرة، ذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان منقطعاً إلى صالح المسكين، وهو ابن أبى جعفر المنصور، فأصاب فى ناحيته مائة ألف درهم، وكان له ودوداً وصديقاً، فجاءه يوماً وكان له فى مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره، فنظر إليه قد قصر به عنها، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك، ورأى نظره إليه ثقيلا، فنهض وقال:

أرانى صالحٌ بُغضَا فأظهرتُ له بُغضَا
ولا والله لا ينقـ ـض إلا زدته نقضَا
وإلا زدته مقتاً وإلا زدته رفضا
ألا يا مفسد الوُدِّ وقد كان له محضا
تغضبتَ من الريح فما أطلب أن ترضى
لئن كان لك المال الـ ـمصفّى إن لى عِرْضا

فنمى الكلام إلى صالح فنادى بعداوته فقال فيه:

مَدَدتُ لمعرض حبلا طويلا كأطول ما يكون من الحبال
حبالٌ بالصريمة ليس تفنى موصَّلةٌ على عدد الرمال
فلا تنظرْ إلىَّ ولا تَرِدْنى ولا تقربْ حبالُكَ من حبالى
فليت الرَّدمَ من يأجوج بينى وبينك مُثبتاً أخرى الليالى
فَكرْشٌ إن أردتَ لنا كلاما ونقطع قحفَ رأسك بالقتال

وذكر أيضاً أنه قدم يوماً منزل يحيى بن خاقان، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل إلى منزله ولم يأذن له، فأخذ قرطاساً وكتب إليه:

أراك تَراعُ حين ترى خيالى فما هذا يرُوعكَ من خيالى
لعلك خائف منى سؤالى ألا فلك الأمانُ من السؤال
كفيتُكَ إن حالك لم تمِل بى لأطلب مثلها بدلا بحالى
وإن اليسر مثل العسر عندى بأيهما مُنيتُ فلا أبالى

ولاشك أن هذه النفس فى إبائها وعقيدتها المخالفة لعقيدة ممدوحيها لو كانت لغير أبى العتاهية لصعب عليها فى الشعر مقام المدح، ولكن طبع أبى العتاهية فى الشعر سهل عليه كل شىء، وجعله يأتى فى ذلك من المدح بما أرضى ممدوحيه غاية الرضا، وكان على ما ذكرنا فى ترجمته يقصر التشبيب أمام المدح ولا يطوله حتى يكون كأنه هو مقصوده من شعره، كما كان يفعل ذلك غيره

وكان ابن الاعرابى يتعصب لأبى العتاهية فتنقصه رجل أمامه ورمى شعره بالضعف، فقال له: الضعيف والله عقلك لا شعر أبى العتاهية، ألأبى العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر؛ ثم أنشده قصيدته فى الزهد:

قَطَّعْتُ منكَ حبائل الآمال وحطَطْتُ عن ظهر المطىِّ رحالى

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر؟ فقال له الرجل: يا أبا عبد الله جعلنى الله فداءك، إنى لم أردد عليك ما قلت، ولكن الزهد مذهب أبى العتاهية، وشعره فى المديح ليس كشعره فى الزهد، فقال: أفليس الذى يقول فى المديح:

وهرونُ ماء المُزْنِ يُشفى به الصَّدى إذا ما الصدِى بالريق غُصَّت حناجرُه
وأوسطُ بيتٍ فى قريش لَبيتُه وأول عز فى قريش وآخره
وزحفٌ له تحكى البُروقَ سيوفُه وتحكى الرعودَ القاصفات حوافره
إذا حَمِيَتْ شمسُ النهار تضاحكت إلى الشمس فيه بِيضُهُ ومَغافره
إذا نكبَ الاسلام يوماً بنكبة فهرون من بين البرية ثائره
ومن ذا يفوت الموتَ والموتُ مُدْرِكٌ كذا لم يَفُتْ هرونَ ضِدٌّ ينافره

قال: فتخلص الرجل من شر ابن الاعرابى بأن قال له: القول ما قلت، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين، وكتبهما عنه:

وأما رثاؤه فكان يذهب فيه مذهبه فى الزهد والحكمة، لقرب مقامه من مقامهما، ومن ذلك رثاؤه فى على بن ثابت، وكان صديقاً له، وبينهما مجاوبات كثيرة فى الزهد والحكمة، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه، فلم يزل ملتزمه حتى فاض، فلما شُدَّ لحياه بكى طويلاً، ثم أنشد يقول:

يا شريكي في الخير قرَّبك اللـ   ـهُ فنعم الشريك في الخير كُنتا
قد لعمري حكيت لي غُصص المو   ت فحركتني لها وسكنتا

ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحر بكاء ويردد هذه الأبيات:

ألا مَنْ لي بأنسك يا أُخيّا   ومن لي أن أبثك ما لديّا
طوتْكَ خطوبُ دهرك بعد نشر   كذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قُواكَ لي المنايا   شكوتُ إليك ما صنعت إليّا
بكيتك يا عَليُّ بدمع عيني   فما أغنى البكاءُ عليك شيّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ   فأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وهذه المعاني كما قال أبو الفرج أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا الاسكندرية، وقد أخرج ليدفن، قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس؛ وقال آخر: سكنت حركة الملك في لذاته، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده. وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار

وذكر أبو العتاهية أنه ماتت بنت للمهدي، فحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب، فقلت أبياتاً أعزيه بها، فوافيته، وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول: لابد من الصبر على مالا بد منه، ولئن سلونا عمن فقدنا، ليسلون عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه، فاستأذنته في إنشاد ما قلت فأذن:

ما للجديدين لا يَبْلَى اختلافهما   وكل غضٍّ جديد فيهما بالى
يا من سلا عن حبيب بعد ميْتَتِه   كمْ بعد موتك أيضاً عنك من سال
كأن كلَّ نعيم أنت ذائقهُ   من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبنَّ بك الدنيا وأنت ترى   ما شئتَ من عبرٍ فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كلُّ صالحةٍ   أو لا فما حيلةٌ فيه لمحتال

وأما الهجاء فكان أبو العتاهية يترفع عنه ولا يقوله إلا مضطراً، فاذا قاله لم يفحش فيه كثيراً، وكانت بينه وبين والبة بن الحباب مهاجاة حينما قصد والبة بغداد وهو كوفي مثله، فحسده على أن بلغ في بغداد مالم يبلغه، وأخذ يهجوه ويذمه. وقد حدث محمد ابن عمر الجرجاني قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له: إن والبة بن الحباب قد هجاني، ومن أنا منه؟ أنا جرار مسكين — وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه — فأحب أن تكلمه أن يمسك عني، فكلم أبي والبة فلم يقبل، وجعل يشتم أبا العتاهية فتركه، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل في حاجته، فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبي لي الآن عليك حاجة، قال وماهي؟ قال لا تكلمني في أمره، فقال هذا أول مايجب لك، فقال أبو العتاهية يهجوه:

أوالبُ أنت في العرب   كمثل الشيص في الرُّطب
هَلمَّ إلى الموالي الصِّـ   ـيد في سَعةٍ وفي رَحب
فأنت بنا لعمرُ اللـ   ـه أشبهُ منك بالعرب
غضبتُ عليك ثم رأيـ   ـتُ وجهك فانجلى غضبي
لما ذكَّرتني من لو   نِ أجدادي ولون أبي
فقل ما شئت أقبلهُ   وإن أطنبتَ في الكذب
لقد أُخبرتُ عنك وعن   أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به   مُصاصٌ غيرُ مؤتشب
أتانا من بلاد الرو   م مُعتجراً على قتب
خفيف الحاذِ كالصمصا   م أطلسُ غير ذي نشب
أوالب ما دهاك وأنـ   ـت في الأعراب ذو نسب
أراك ولِدتَ بالمريـ   ـخ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أقيشرَ الخدين   أزرق عارمَ الذنب
لقد أخطأتَ في شتمي   تخبِّرني ألم أُصب

وقال فيه أيضاً غير ذلك، فبلغ والبة، فجاء أبي فقال قد كلمتني في أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه، فقال له والبة فما الرأي عندك؟ قال تنحدر إلى الكوفة، فركب زورقا ومضى من بغداد إلى الكوفة، وكان هجاء والبة فيه ضعيفاً سخيفاً لا يقوى على هذا الهجاء، وفيه من الفحش ما نروي بعضه ليعلم بعد ما بين الهجاءين:

قل لابن بائعة القِصارِ   وابن الدَّوارق والجِرارِ
. . . .
تهجو مواليك الأولى   فكوكَ من ذُلِّ الاسار

هذا مثل من هجوه وإن الشعر لأعلى مقاماً من هذا القبح الذى أتى به، وإنه لينال من نفسه بذلك قبل أن ينال ممن يهاجيه

عبد المتعال الصعيدي

أمام المشـــــنقة

[على لسان أحد الشبان المحكوم عليهم بالشنق لجريمة أتاها]

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

قسا علىّ الفــــلكُ   بعــــد قليلٍ أهلكُ
ما باختيارى فى شـــبا   بى للحيـــاة أترك
أينَ مضت صحابتى   وأيةً قد ســـلكوا
مَن ذا إذا متُّ سَيَبْـ   ـكينى ومَن ذا يضحك
قد نصــبوا لى شركا   فما عدانى الشرك
ما بال شمسى أخذت   عنـــد الشروق تدْلك
قد استوى ضوء الضحى   فى أعيــــنى والحلَك
لم أجْنِ لو كانت يدُ الـ   ـمقدور لا تشـــترك
بالدم قد خضَّب كفّـ   ـى القـــدَرُ المُحرِّك
قد أفرحَ النُظّارَ بى   أنَّ دمى ينســـفك
ازدحموا حولى ولِلْـ   ـأنفاس منهم أمسكوا
ليبصروا كيف حيا   تى حبلُهـــــا ينبتك
ما هى إلاَّ رجفـــةٌ   وبعــــدها لا أحرك
أفى قلوبهـــم علىّ   عنـــد موتى حَسَك
إنىَ إنسانٌ له   أخطـــــاؤه لا مَلَك
كم لىَ من مثل لو أنّ (م) سرّه   ينهتـــك
خذوا حياتى إنهـــا   أثمنُ ما أمتلك
لا تحبسوا الرحمة عمَّـ   ـن قد قضوا أو أوشكوا
ولو تجسّم الأسى   لكان دمعاً يُسفَك

***

كل البِقاع للحيـــا   ة فوقها مُعتَرَك
أمّا الحياة فهى إنْ   وَلّت فلا تُستَدرك
والموتُ بالانسان إلاَّ   مرّةً لا يفتـــــك
إذا أتت ساعتــــــه   فكلُّ شىء مُهلك
تعقده الحيـاة   والـموت له يُفكِّك
قد يُدفَن المرء على   أخيــــه ثم يُترَك
بعد البِلى تعانَقُ الـ   ـعظامُ أو تشـــتبك
إن البلى لكل مَن   حواه قبرٌ يعـــرك
نهارُه وليـــــلُه   كلاهما مُحلولِك
مشـــــنقتى هى التى   أودّها وأفـــرك[1]
وعلّنى إذا ركبْـ   ـتُها فلا أرتبــــك
فأعتـــــلى كأننى   أدركتُ مالا يُدرَك
إنى سلكتُ مسلكا   صعباً وبئس المسلك
والحقُّ خير ما يقو   ل المرء حين يهلك
هــذا جزاء مجرمٍ   بالأبرياء يفتـــك

بغداد   جميل صدقى الزهاوى

---

(١) أمقت

سر الحيـــاة

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ   ـدح عبئاً يُخشَى عليك وثقلا
لغز عيشٍ ولغز عقـل وما أعـ   ـجب لغزاً يروم للغزِ حلا
كلما رمتَ بالمجاهل خُبْراً   زادك العيش بالمعالم جهلا
عَبَثُ العيشِ كلما قال لا سِـ   ـرَّ أعدتَ السؤال جداً وهزلا
قد خبرتَ الأنامَ يا قلب هل تنـ   ـشد سراً من بعد ذاك وسُؤْلا
وحياة بالسر أحجى حياة   هى أحلى مما تراه وأعلى
خُدْعَةُ العيشِ أن يُلَوِّحَ بالسـ   ـر إذا عاف عائشوه ومُلَّا
فتزيد الحياةُ حسناً ومأمو   لاً وتغوى الحياة نشأً وكهلا
مثلما حُجِّبَتْ فتاة لِيُرْجَى   سر حسن لها استسر وقَلَّا
لو بدت عاطلاً لما خلبت لُـ   ـبًّا ولا استعبدت عشيقاً وخِلَّا
كم سعيد يلهو ويعمل لا ينـ   ـقض فعلاً وليس ينكر قولا
وعلى غدرها أحب حياة   وحباها فى الحب أهلاً ونسلا

عاشقاً للحياة بعضاً وكلا … راضياً بالحياة فرعاً وأصلا
فإذا شاكه من العيش همٌّ … قال قولاً ورام للغز حلاَّ
عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ … ـدح عبئاً يُخشى عليك وثقلا
سِرُّها أنك السعيد إذا لم … تدرِ أن لا سرًّا لديها فيُجْلَى
ضلّةٌ ما أقول كم لاح من كشـ … ـفٍ وقد كان خافيَ السر قبلا
ولعل الحياة أكبر لولا … مُعظِمٌ للحياة غالى وأغلى
فهي من فرط رَفعِهِ في انخفاض … تلك عُليا إنْ يُعلِها فهْيَ سُفلى
باء باليأس من عُلاها وقد غا … لى فقال الحياة بالحط أولى
ويعيد الحياة فرضاً وحسناً … ومتاعاً من يأخذ العيش سهلا

عبد الرحمن شكرى

يا كَوْن !

للأستاذ فخرى أبو السعود

يا كَوْنُ كُنْ لى جميلاً … على الدوام جديدا
أبغِى لديك طريفاً … إذا هجرتُ تليدا
لا تَبلَ ، لا تَغْدُ شيئاً … أَلِفْتُـهُ معهودا
بل أَبْدُ دَوْماً عجاباً … مُسْتَطْرَفاً منشودا
لا تَبْدُ فرداً ولكن … كُنْ أنتَ جمًّا عديدا
جدِّد لحسنك هذا … بعد البرود بُرُودا
ولا تضِـقْ بِىَ أُفقاً … ولا تدانَ حدودا
لا زال أُفقُك لى يا … كَوْنى رحيباً بعيدا
أشيم فى كل يومٍ … مرمىً به مقصودا
لا تبدُ يوماً فراغاً … لا تبدُ يوماً زهيدا
لِتَبْقَ حَفْلاً نفيساً … أريغ منك المزيدا
جدِّد صُرُوفَك وأبعث … بعد النحوس سعودا
ابعث أسًى أو سروراً … لكن حذارِ الجمودا
أريد يا كونُ عمراً … فى كل يومٍ مديدا
من عاش فى كل يوم … عمراً أصابَ الخلودا
لا أبتغى العمرَ يوماً … مُرَجَّعاً مردودا
أُريدُ فى كل يوم … أرُودُ هذا الوجودا
فى كل يوم أرانى … فى عالَمٍ مولودا
أُريد أكْشِفُ معنًى … فى كل يومٍ شَرودا
منه أُغذِّى شعورى … وأستجدُّ قصيدا

فخرى أبو السعود

عرش الجمال

[إلى مس مصر ، ملكة الجمال العالمى]

للأستاذ محمود غنيم

يا ربَّةَ المُلْكِ الذى انتظم الورى … مُلْكُ البسيطة ما أتيح لقيصرا
خضعت لحكمك دولةٌ عزّت على … « دارا » وأعيا عرشها « الاسكندرا »
لكِ دولةٌ لم ترهفى من أجلها … حدَّ الحسام ولم تقودى عسكرا
لتُوَدِّعِ الأُسْدُ الغضابُ عروشَها … قد أصبح المَلِكُ المتوَّجُ جؤذرا
من كان يمتلكُ الرقابَ فإنما … عرشُ الجمال على القلوب تسيطرا
كم عاهلٍ ذى سطوة لم يفتتح … قلباً وإن فتح المدائنَ والقرى
مُلْكُ الفراعنة الشِّداد أعدْتِهِ … بيدٍ مخضَّبةٍ وطرْفٍ أحْورا
ما للمها فى مصرَ تحكُم عالماً … والليثُ يَعجزُ أنْ يعيش محرَّرا

* * *

ملكتْ يمينُك كلَّ صدرٍ ناهدٍ … وأطاع أمرَكِ كلُّ خدٍّ أحمرا
كم كاعبٍ ملكت قلوباً أصبحت … أمةً تُباع إذا أرادت وتُشترى
كم تحت حكمِك ذاتُ لَحْظٍ إن رنا … ترَكَ المهنَّد لا يساوى خِنجرا
جُنْدٌ أغرُّ من الحسان الحور لو … لاقيتِ أسطولاً به لتقهقرا
أقسمت ما بين الملوك أعزُّ مِنْ … مَلِكٍ على عرش الملاح تأمَّرا

كوم حماده — **محمود غنيم**

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٤ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

إن انتشار مذهب الشفقة — فى هذا الجيل — دليل على أن الانسان أصبح يزداد خوفه من الألم . أصبح متراخياً ، مخنثاً يخشى من كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده ، لا يحمل الفرار من الألم وحده ، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند الآخرين ، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عند ما يطالب العدل منه ذلك باسم العدل . الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين « وقريباً يأتى ذلك اليوم الذى يتراخى فيه المجتمع الانسانى ويقعد عن معاقبة المجرم الذى يضره . لماذا يعاقب المجرم ؟ إن المعاقبة يرى فيها ضرباً من ضروب الجور . فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه . أليس فى إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يُغنى؟ فلماذا القصاص إذن ؟ إن القصاص يضنى . أما المثل الأعلى الذى يطلبه « وحش القطيع » فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل إنسان ، يرافقه شىء ضئيل من الألم . إن الشقاء — عندهم — شىء يجب محقه

إن نيتشه — فى هذا الفصل وهو خير فصوله — يعتقد أن الجبن والخوف من الألم هما من الصغار والحقار بمكان ، إن الألم هو فى الحق معلم الانسانية وهو الذى يحقق أحسن نماذج شريفة . « أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة أكثر قسوة وأشد رداءة . إن الكائن السامى الذى تفهمونه ، نرى فيه « غاية » ولا نرى فيه « نهاية » . نرى فيه مرحلة يبدو الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرياً حتى يدرك آخر عهده ، بلى ! فى مدرسة الألم الكبير ، فى مدرسة هذا المعلم القاسى يتم الانسان مراحل تطوره ، أليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة ! أليست هذه الرجفة التى تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة . كل هذا ألم يؤول بالنفس – فى مدرسة الألم – إلى خروجها مهذبة نقية ؟ إن فى الانسان « خليقة وخالقاً » فى الانسان شىء هو مادة وطين ووحل ، لا شعور له ، فضاء ، وفى الانسان شىء هو خالق مبدع ، ونقاش ، بهجة فنان وصلابة ومطرقة ، أأدركتم هذه المقارنة ؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى ما فى الانسان من مادة ينبغى سحقه وحرقه فى النار حتى يتطهر ، وإلى كل ما يجب عليه أن يتألم بالضرورة ؟

وشفقتنا هل تدرون موقعها ! إنها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن ، وهكذا : شفقة ضد شفقة

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطى علامة من علامات الانحطاط ، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الدينى ، فى الشريعة المسيحية وفى ديانة الألم الانسانى يتمثل ما يتمثل فى مذهب المساواة . . . مقت الضعيف للقوى ، وجنوح قوى إلى حياة لا ألم فيها . إن المسيحية تجعل الناس متساوين أكفاء أمام الله ، وتعدهم بسعادة كاملة فى الحياة الثانية ، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أكفاء أمام الشريعة والحق ، وعملت على تحقيق سعادتهم فى هذه الدار ، ورجت أن تخلق مجتمعاً يموت فيه التفاوت ويكون أهله فى الحق سواء ؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر . حيث لا أمر ولا طاعة ، ولا استبداد ولا استئثار ، ولا سيادة ولا عبودية ، ولا غنى ولا فقر

هذا هو المثل الذى تنهض اليه الديموقراطية ، ويدعو اليه أصحابها على اختلاف مللهم ونحلهم ... كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية ، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز . وكلهم يؤمنون بأن كل فرد يقدر بل ينبغى له أن يجد سعادته الخاصة فى سعادة المجتمع بأسره ، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق كل فرد على المجتمع ، وبالمحبة العامة السائدة . هذه الأفكار غرست فى عقول أبناء الحاضر غرساً متيناً ، حتى أصبح لا يقوم — فى أوروبا — رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة . ولن نجد فى عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذى كان ينضوى تحت لوائه الألوف ، يمشى فيمشون لا يسألونه أين يمشى ، وهؤلاء من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلا ، لأن شريعة العبيد رافعة رأسها فى كل مكان ، فهم يستمدون

الحكم من هذه الشريعة ، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفا ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون (١)

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب الذى تنغمس فى حمأته الكائنات . فوظيفة الحب ـ عند الرجل ـ غيرها ـ عند المرأة ، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل . فالحب عند الرجل إن هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضعيفة . أما الغريزة العنيفة فيه فهى غريزة القوة ، هـذه الغريزة التى تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقـدر عليه . ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية فى سبيل تحقيق شخصيته هى مايتطلب منه عصره وجهوده . فاذا أسلم نفسه إلى الحب ، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التى يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق

يقول زرادشت « كل ما فى حيـاة المرأة هو لغز ، وكل ما فى المرأة له حل واحد هو التوليد » فالحب إذن هو أبرز ما فى حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور « الأولى » فى الحب ، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذى تصطفيه ، وأن تفتش عن سعادتها فى الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زرادشت : إن سعادة الرجل « أنا أريد » وسعادة المرأة « هو يريد ! » إن المرأة التى تحب ينبغى لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذى يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة . . . هـذه هى شريعـة الحب التى تجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً وفرقاً بعيداً . خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها إذا سئم الرجل من ظفره عليها وألفى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه ، وركض يسعى وراء غرام جديد . ينبغى للرجل أن يحكم وأن يحرس . يجب عليه أن يكون قادراً على أن يحيا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولـكن تعساً له إذا ظل تحت أثقال هذا العمل ، وإذا أدرك حبـه وعجز عن اضرام نار هذا الحب ، فان هذا الحب ليحور بغضاً ، وتنقلب المرأة به عليه ، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار

ولـكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء . . . فالجيل الذى قدس العبد يجرب أن يؤله المرأة . . . لا يرى فى المرأة عنصراً سامياً يستطيع أن يساعد الانسانية فى تقدمها . الرجل وحده يتعلق عليـه ذلك لأنه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفاذاً . والمرأة قد تـكون نبيهة ، ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء ، تتفهم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولـكن طبيعتها أقل عمقاً وأقل غنى من طبيعة الرجل . إنها تبقى دائماً طافية على سطوح الأشياء . إنها شىء لا يذكر ... إنها مسكينة مزهوة بنفسها

يقول زرادشت « يعلم الرجل للحرب ، والمرأة لتسلية المحارب ... وما دون ذلك فهو جنون » ليست المرأة صنماً وإنما هى لعبة سريعة العطب لـكنها ثمينة وقد تـكون خـطرة . هى رقة فى طبع الرجل . تغدو خطرة مرعبة حين يضرمها الهوى والحب والبغض ، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى . ففيها رقة ملمس الهرة وفظاعة مخالب النمرة ، فيها طبيعة نابية نائرة ، وأهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغاب قلقة . . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جماحها ويقودها ويميت فيها جنونها ، حتى إذا استشعرت الوجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللابسة ألف ثوب . فيمرو ـ إذ ذاك ـ قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الـكثير لأنها أكثر عرضة للألم . إنها مفتقرة إلى حبه ، وقد قضى عليها بأن تـكون أقل الخلائق وهماً

ان نيتشه ينقم على المرأة التى تريدان تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها للرجل وتزعم بأنها قرينة مساوية ، تريدان تدخل معه فيما تطلب الحيـاة من نضال . ان نيتشه يبغض النساء اللواتى يعشن فى صفوف الرجال ، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن

(١) ولعل نيتشه صدق فى نبوءته هذه ، فقد علت النقمة على شريعة العبيد بعد أن تزعزعت فضائلها ، وخابت تعاليمها أيما خيبة ، فعلت الفوضى حيث استأثرت الديمقراطية ، وزاد الشعب حيث استغرق الناس فى الحرية ، فهب منهم من لا يؤمن بنصف الحاكم أو بنصف القائد ، وحصر السلطة فى نفسه ، ولم يترك لممثلى الشعب إلا ظلا لا يغنى ولا ينفع ، فحيثما نظرت تنظر ديكتاتورية عاتية عنيفة ، ضمنت للشعب أن تقوده إلى أنهار من عسل مصفى ، وجداول آمال كان ينكرها إذا هجست بها نفسه ... وهل أهول من هذه الديكتاتورية التى نشأت فى وطن نيتشه ؟ وكأنى أبصر هذه الديكتاتورية تقتفى أثر تعاليم نيتشه فى الاصطفاء والسيادة ... كان نيتشه يبشر بفلسفة عنيفة انسانية ، يرحب « بالسوبرمان » أينما كان ، فى الغرب أو فى الشرق ، ولـكن رجال شعبه حوروا هذه التعاليم بعض التحوير ، فجعلوا من فلسفة نيتشه فلسفة قومية ، يريدون أن يكون منهم «السوبرمان» أو قل يريدون أن تكون أمتهم «سوبرمان» بقية الأمم ؟ فهم يضطهدون المنحطين والعناصر التى لا تؤمن بالروح الجرمانية ... وويل غداً لكل ديكتاتورية لا تطئ جوع العبيد

القصص

صور من هوميروس

٩ – حروب طَرْوَادة

فتنة . . . .

للأستاذ دريني خشبة

انتظرت ذبتيس — أم أخيل ، وحبيبة زيوس من قبل — حتى عاد الالـه الأكبر من حفل أولمپ دُعِيَ اليه حينما شبت السخيمة بين أجاممنون وبين ابنها ، فأسرعت اليه لتكلمه فى الاهانة التى لحقت أخيل العظيم ، وأزرت بكبريائه ، كسيد جنود هيلاس . . . . . .

عجلت ذبتيس إلى زيوس . . . . . .

وكانت ذكريات غرام الالـه الأكبر ما تزال تتدفق فى قلبه ؛ وكان رنين القبل فوق شفتيها القرمزيتين ما يزال تتجاوب أصداؤه الموسيقية على شفتيه المنهومتين الملتهبتين ؛ وكان هذا الجمال الفتىّ ما يزال له رَجع فى كل جوارحه ... وجوانحه ... وقفت أمام زيوس ! ....

وكان حلماً لذيذاً طوّف بعينيه ، فرأى إلى قصة حبه تمثل بكل ماضيها الحافل أمامه ؛ ورأى إلى هذه الأويقات الحلوة التى التذ فيها فتنة ذبتيس تثب فجأة من الأيام الخوالى فتغمره بسحرها وأسرها ؛ ورأى إلى ذراعيه الرتجفتين ملتفتين حول خصرها النحيل ، وطرفه الساهم الباكى يجول فى طرفها الناعس الكحيل ، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصبّ فى تمثالها يكاد يكلمه ... فيروى له من أخبار العناق ، وسكرات الهوى ما يفيض له دمعه ، ويجب قلبه ، وترتعد من ذِكره فرائصه . . . .

– « ذبتيس ؟ ! ... ... »

– « .... ؟ ؟ .... »

– « مالك ؟ ... تبكين ! .... »

– « .... ! ! .... »

– « لا ... لا ... إلىّ ياحبيبتى ! »

وكانت كلما ألحت فى الصمت والبكاء ، ألح هو فى التلطف والرجاء ، وكانت ذبتيس تدرك ما أثارته فى قلبه من غرامه القديم ، فدلّت وتاهت ، حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب ، ولو كلفته بهدم الأولمپ ، وثل عروش السماء !

– « أ .... أخيل .... ! »

– « أخيل ؟ . . . ماله ؟ . . . »

– « ما كفانى أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، حتى يهينه أجاممنون ! »

– « يهينه أجاممنون ؟ يهينه كيف ؟ . . . »

– « أغضب قِدّيس أپوللو وكاهنه الأكبر ، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز ؛ فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه ، فسخر الطاعون على الهيلانيين ، حتى كاد يبيدهم ، فلما طلب إليه أن يرد ابنة القديس على أبيها الشيخ ، أبى ، وأخذته العزة بالاثم فلما ألح عليه أخيل ، ولدى البائس ، انقاذاً للجيش ، وإبقاءً على أبناء هيلاس ، رضى أن ينزل عن الفتاة ، إذا نزل له أخيل عن بريسيز . . .

واعتبار المجتمع لهن . وإنما همهن أن يظهرن للرجال بطبيعة مباينة لطبيعتهم وجبلة مخالفة لجبلتهم ، يصعب فهمها ويعسر حكمها . وهاهى المرأة المزاحمة للرجل أضاعت ماخصتها الطبيعة به وأهملت مهنتها التى تقضى عليها بوضع الأطفال

وفى النهاية يرى نيتشه أن أوروبا تتشوه وتزداد تشققاً ، قد استحالت إلى معتزل تسكنه طائفة من الناس توقوق – لا أحزان كبيرة ولا أفراح كبيرة – طائفة من رجال ونسوة تساووا فى العجز والضعف والانحطاط ، يقضون على الأرض حياة متشحة بالسواد ، لا أمل فيها ولا غاية لها ؟

(يتبع) خليل هنداوى

وآثر أخيل حياة المحاربين ومجانهم ، فنزل عن الفتاة للقائد الغاشم . . . »

– « . . . ثم . . . »

– « ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه ، وقد اعتزل الحرب ، وخلا وحده فى معسكره ، يهضم أحزانه ، وتهضمه الآلام ... »

– « لا عليك يا ذيتيس ! لا عليك يا حبيبتى ! قرى عيناً ... قرى عيناً ... فما أخذه الناس بغير ما ينبغى له ، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين ! . . . »

وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها المتلألىء قبلة . . . كم كان يشتهى أن يطبعها على فمها الخمرى . . . لولا أن ذكر أنها زوجة . . . !

***

زلزلت ذيتيس قلب الآله الأكبر بدلالها وقوة فتونها ، وأرّق طيفها الرائع جفنيه ، فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها . . . فهب من مضجعه السندسى فوق سدّة الأولمب ، واستدعى اليه إله الأحلام ، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين

« . . . فاذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون ، فداعب عينيه ، واجثم على قلبه ، وقل له ، وهو يغط فى نومه العميق ، إن الآلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ فى بوق الحرب ، حاضاً عساكرك على اقتحام طروادة . . . فان زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة ، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك فى شوارع إليوم ظافرة منتصرة باذنه . . . »

وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمب ، وانطلق إلى معسكر أجاممنون فى أقل من لمحة ، فداعب عينيه ، وألقى فى روعه الحلم الكاذب ، وعاد أدراجه إلى مولاه .

فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، هب أجاممنون من نومه مذعوراً ، وأرسل رسله الى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق ، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربى ؛ فصمت الجميع ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وكلٌ يظن أن لابد من أمر جلل ، استدعى انعقاد المجلس فى هذه الساعة من بُكرة اليوم !

ونهض أجاممنون فتحدث إلى القادة ، وأخبرهم برؤياه . ولما فرغ ؛ نهض نسطور الحكيم المحنك ، فسبّح باسم زيوس وأثنى عليه ، وقال :

« لو أن أحداً غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ، ولرماه ، الجميع بجِنَّة أومس ، ولكنه قائدنا وملكنا ، وسليل الآلهة العظام ، أجاممنون ، هو الذى رآها ، وهى لاشك موحاةٌ إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمب ، وهو لابد ناصرنا على أعدائنا الظالمين . فهلموا أيها الأخوان إلى رجالكم فأيقظوهم ، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة ، فاذا أشرقت ذكاء فسوّوا صفوفهم ، واشحذوا عزائمهم ، ولنتوكل على أربابنا ، وليهتف الجميع ؛ باسم زيوس ، ولنصل له ؛ ولنسبح تسبيحاً كبيراً . . . »

فلما كان الصبح ، ارتجف السهل والجبل ، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند ، وصار كل معسكر كأنه خلية صخابة من النحل . . . تطِنّ وتَطِن . . . وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء معتكرة ، لرعدها هزيم ولريحها هزيز ، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار ...

وشُرعت الرماح وأرهفت السيوف ، وحلقت المنايا كأنها الأغربة السود ترنّق فوق الفرائس ، وتُدوّم فوق الجيف ... !

ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب ، فشدهه أن يرى إلى استمداد الجيش وتَفَرته نفرة واحدة . . . ولم يخدعه كذلك هذا العدد المديد من الجنود ، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة . . . المير ميدون !

فأوجس فى نفسه خيفةً ، وهاله أن يكون فى الأمر سر ، ووقر فى قلبه أن غَضْبة أخيل لابد أن تغضب السماء ، واستقر فى نفسه أن هذا الجيش العرمرم سائر إلى الهزيمة المؤكدة ، ووارد موارد الردى !

وهكذا جَبُن القائد العام . . . ونَدم على أن عقد المجلس الحربى . . !

فما أن متع النهار ، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية ، ويربضون فى مشارق الجبال ، ورأى إلى طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم ، حتى نهض فوق يفاع من الأرض ، وهتف بجنوده يقول :

– « يا أبناء هيلاس ! يا بنى قومى !

لست أدرى إلام تمتد بنا هذه الحرب ، وحتام نُنفى هنا فى هذا المكان السحيق من الأرض ؟ !

تسعة أعوام يا قوم ، ونحن هنا بمعزل عن العالم ؛ ننام فى الخيام ، ونأوى إلى السفائن ، تلفحنا الرياح ، ويثور بنا البحر ، وتتخطفنا المنايا !

وعبثاً ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا فى هيلاس العزيزة ! ومن يدرى ؟ فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا انتقلوا إلى هيدز ، ونحن هنا نتصارع مع الموت ، من أجل امرأة آبقة لا عرض لها ولا شرف !

أبناء وطني !

ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة ! ؟ هلموا فاغمدوا هذه الرقاق البيض ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف ، ثم لنركب أسطولنا الذى نخر السوس فى أخشابه أو كاد ، ثم لنعد أدراجنا إلى هيلاس سالمين !

حرب ! . . .

أية حرب هذه التى اشتعلت من هولها الرؤوس شيباً ! !

أية حرب هـــذه التى تودى بأعز المهج ، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب ! ؟ بل أية حرب هذه التى توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس ، فيتراشقان بالفحش من القول ، ويتبادلان الهجر من الكلام ، ويوشكان أن يلتحما فى نزال يودى بحياة أحدهما من أجل امرأة ؟ !

أنا ـ أجاممنون ـ أغضب أخيل أخى من أجل لذة طارئة ، ومتاع غير مقيم ! !

يا للهول !

لتنته هـذه الحرب ، لتنته هذه الحرب . . . ولنعد إلى هيلاس . . . . . »

***

وأرسلها أجاممنون خطبةً طويلة تفيض بالحقيقة وتعترف بالواقع . . . فصادفت من قلوب الجند المذبين هوى ، ولقيت منهم استحساناً وتحبيذاً ، وطربت لها نفوسهم التى أضناها الحنين إلى الأوطان ، وشفها التوق إلى لقاء الأهل ، وتبذير هذه الغربة الطويلة التى أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم

وفكر كل فى أبنائه وأبويه وأحبائه ، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هذه الساحة الشجية ، عسى أن يقضى الحقبة القصيرة الباقية من حياته الخريفية فى راحة قلب وهناءة بال بين أهله وذويه . . .

لكن الآلهة لا تريد هذا ! !

وكيف تنتهى حرب أثارها باريس بين ربات الأولمب فى البدء ؟ !

أليس هو قد قضى فى التفاحة لڤينوس ؟

إذن فڤينوس تنصره ، وهى لذلك تقيه هوان الهزيمة وذل الانكسار ! ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب ، التى وعدته نعيماً وملكاً كبيراً ، إذا هو كان قد أعطاها التفاحة ؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل ، وهى لذلك تصل ليلها بنهارها فى تدبير السوء له ، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما !

ثم أيان يهرب من سخط مينرڤا كذلك ؟ !

أليست مينرڤا كذلك قد وعدته الحكمة التى لم يؤتها أحد من قبل ، إذا كان قد قضى لها فى التفاحة ؟ . . .

إن مينرڤا هى الأخرى تتربص به السوء ، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به ، ويسقونه عذاب الهون ، بما قضائه فى التفاحة لڤينوس ! !

سمعت حيرا خطبة أجاممنون من علياء الأولمب ، فأفزعها أن ينقاد الجند له ، وهالها أن يستعد الجميع للرحيل !

فاستدعت إليها مينرڤا ، وخاطبتها بصدد ما قال قائد الهيلانيين ، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرڤا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز ، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى يقوم هو بإلهاب عاطفة الجند ، وتفتيح عيونهم على العار الأبدى الذى ينتظرهم فى بلادهم ، إذا عادوا إليها من غير أن يُظفرهم أربابهم بأعدائهم ، قانعين من الغنيمة بالإياب ! . . . بعد تسعة أعوام فى دار الغربة . . .

وانطلقت مينرڤا إلى ساحة الحرب ، وكانت ترف كالسحابة البيضاء فى دُجنَّة الليل فيما بين جبل إيدا وشواطئ الهلسبنت ، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤوسهم يتحاورون فيما قال أجاممنون ، ورأت إلى أوليسيز متجهماً منقبض النفس مُثقل الروح ، يكاد ينشق من الغيظ ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس ، واستبشرت مينرڤا بما رأت من هياج أوليسيز ، فهبطت عليه رحمة من السماء ، وكلمته قائلة ، بحيث لا يراها إلا هو :

« أوليسيز فتى إيثاكا وبطل هيلاس ! ! »

أسرعت إليك — إليك أنت — إليك يا أشجع جندى هنا ، لأحذرك أن تنخدع بكلام أجاممنون ! إنها خدعة يا أوليسيز ! إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم ، ويخبر هممكم ، فلا تنطلِ عليك كلماته

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافاً وثقالاً لتفتربوا عن

أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم ! بل أضل سبيلا!
أوليسيز ! ماذنب القتلى الأجرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة ، تتركونهم فى حمرتين من مقابرهم : حمرة الدم ... وحمرة الخجل مما فرطتم فى حقوقهم وتهاونتم فى كرامتهم

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز ؟

أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بأجنيا ؟ . . .

أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه . ؟

وشرفكم الذى يذبح كل يوم فى قصور طروادة ! !

واستهزاء الأمم بكم ، وضحك القبائل عليكم ؟ !

لا يا أوليسيز ! هلم لحرض القادة ، وانفخ من روحك فى قلوب الجند . . . »

وسمع أوليسيز إلى ربة الحكمة ، نخفق قلبه ، وثارت نخوته ، والتهبت حميزته ؛ وعاهدها على إضرام المعمعة ، وتأجيج لظى الحرب

وانطلق بين الصفوف فلقى نسطور وأجاكس وبالاميديز وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه ، لحذرهم (من الانخداع بكلمات أجاممنون ، لأنها حيلة يريد بها القائد سبر عزائمهم ، واختبار هممهم) ، كما تحدثت إليه مينرفا ! !

وحضهم على التضحية والصبر ، وحرضهم على الجلد والاستبسال ، وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعاً إليهم ، ثم حذرهم من العار السرمدى الذى يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة ! . . .

وتغيرت الحال !

وتجددت روح الحرب ، وفتح كل جندى عينيه على مجد الوطن ! وبحج أوليسيز !

وبحجت مينرفا !

***

ودهش أجاممنون لهذ التحول المفاجئ فى نفسية الجيش ، تلك النفسية التى كانت منذ لحظة ، فقط ، مزيجاً من القنوط واليأس ، وخليطاً من السرور الخاص لمجرد الأيذان بالعود إلى الوطن ؛ فصارت تضطرم تشوقاً إلى الحرب ، وتتحرق شوقاً إلى امتشاق السمهريات الظوامى !

وما وسعه إلا أن يثنى على شجاعة الجنود ، و . . . عدم استسلامهم ، و . . . ترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء ! !

فكان تحوله أعجب . . . وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب !

ونظر الطرواديون من كوى أبراجهم فراعهم التفاف الهيلانيين بعديتهم ، وإحاطتهم بها من كل جانب ، وسرى الرعب فى قلوبهم ، ودعوا ثبوراً كثيراً ! !

وكان يحنقهم أن باريس الذى جر عليهم كل ذلك الكروب ، وكان السبب المقيم لهذه الحرب ، يقر فى مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها ، ويساقيها كؤوس الهوى والغرام ، غير آبه لما يغص به قومه من كؤوس الردى والحمام !

وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه ، وعبث باطل من أغراض غرامه الدنى ، فسمع الناس يلمظون ويلمزون ، ويلوكون اسمه بألسنة الهوان والتحقير ، فثار ثائره ، وفارت حماسته ، وأقسم ليرين الجبناء من ضروب شجاعته ما تنخلع له قلوبهم ، وتطير من هوله ألبابهم . . .

وذهب من فوره إلى أخيه هيكتور فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء ، ويخترق الصفوف حتى يكون فى وسط الميدان ، وينادى قائد القوم ليتفق معه على أن يستريح الجيشان طيلة هذا اليوم ، ثم لتكون مبارزة بين باريس ، على أن يمثل الطرواديين ، ومنالايوس على أن يمثل الهيلانيين ، فاذا فاز أحدهما بصاحبه ، وأظهرته الآلهة عليه ، عاد إلى قومه فرحاً مسروراً ! !

وطرب منالايوس لما اقترحه غريمه الذى كان كالساعى إلى حتفه بظلفه ؛ وصمتت الأفواه وحملقت الأنظار ، وتلمس كل جندى فى الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب ؛ وبرز منالايوس وبرز إليه باريس ؛ ومرت الأحداث سراعاً أمام عينى ملك أسبارطة ؛ فذكر عشاق هيلين وصدود هيلين ؛ وذكر يوم الخيرة الكبرى يوم رضيته من دون عشاقها الكثيرين بعلاً كريماً لها ؛ وذكر يوم احتفائه بباريس واحتفال أسبارطة كلها به ، كضيف عظيم للملكها ؛ وذكر أن هذا الفارس الذى تزلزل من تحته الأرض إن هو إلا الغادر الختال الذى اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه ، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه . . . ثم ذكر كيف فرت زوجه معه تحت جنح الليل . . . ذليلة للذتها ، أسيرة هواها . . . . . . فثارت فى قلبه زوبعة من الجنون ، وانفجر فى رأسه بركان من الغضب ، واتقدت فى عينيه جحيم بأكلها من النقمة ، واندفق الدم يغلى فى ساعديه ، وانقض على خصمه فأوشك أن يحطمه . . . لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذى كان يحمى باريس منه ، واقفاً إلى جانبه . . . وخلفه . . . وأمامه . . . ومن فوقه ، ومن كل جهة جاءه منالايوس منها ، يذود عنه ، ويتلقى الضربات الأسبرطية فوق درعه المسرودة ،

أقصوصة عراقية :

رصاصة فى الفضاء

« من كتاب (الدفتر الأزرق) للكاتب ، الذى سوف يطبع وينشر فى المستقبل القريب »

بقلم محمود . ا . السيد

— ١ —

حادثة غريبة حدثت فى مرقص الهلال فى بغداد

كان أول من استقر عليه نظرى فى ذلك المرقص ، ليلة حدثت هذه الحادثة التى أروى لكم ، وهى من ليالى صيف ١٩٢٨ ، ثلاثة حسبتهم من طلبة المدارس العليا أو صغار الكتبة فى الدواوين ؛ على مقربة منى يقصفون وينظرون إلى من حولهم من النظارة مستكبرين ، ناقدين المرسح نقد راغب فى إصلاحه : إصلاح الرقص الخليع فيه والغناء المحزن القديم

وكان النظارة تجاراً صغاراً وذوى حرف ، وعمالاً ، رأيتهم اخواناً متقابلين فى حلقات صغيرة من الكراسى الخيزرانية حول موائد مربعة مكسوة بقماش الكتان ؛ تقوم كل مائدة منها أطباق النقل والأقداح وزجاجات الخمور ، وأنوار المصابيح الكهربائية المعلقة فوق رؤوسهم ، الملونة بألوان العلم العراقى ، تبدد الظلام . . .

وكان « جماعة » من الشباب « العوام الأريحيين » ، ذوى العباءات الرقيقة السوداء التى تشف عما تحتها ، والعمائم « المصفورية » المرقشة باللون الأزرق ، يتراشقون بالنكات والفكاهات من وراء حوض مبلط بالقاشانى الأحمر كان فى وسط المرقص تجلله الأعلام وسعف النخل ، وأصواتهم وكلماتهم الشعبية الظريفة تثير الضحك ، وتحيى فى نفوس القوم اللذة والسرور

وكانت الراقصة المغنية الأولى ، تلقى فاتحة الأغانى ، التى أعدت للقوم فى تلك الليلة — وهى عامية مشجية — جذلى ، أو متظاهرة بالجذل ، واثقة بنفسها كما كان يبدو من حركاتها ، معتقدة بأنها تجيد الغناء . ثم أنشدت هذه الأبيات من الشعر الشعبى الجديد :

« عن قص الشعر لا تلومونا   والوقت هذى فنونه »
« قص الشعر صار بوطننا   على الوده شحلو فنه »
« قص الشعر لنا زينه   شبه الذهب بالخزينه »
« كل من يمشى بخياله   والمحب تنظر عيونه »

وقال واحد من الثلاثة — أولئك الذين حسبتهم من الطلبة أو صغار الكتبة — وهو مبدن ذو وجه مربع كأنه مصنوع بفأس النجار ، يخاطب أحد صاحبيه مشيراً إليها :

— إنها لذات وجه صغير جداً ، وقد صبغت وجنتيها بالصبغ الأحمر لتستر اصفراره ولا شك ، فما أقبحها ! »

ورفع إلى فمه كأسه ، ولم يستمر فى انتقاده . أجاب الذى خاطبه وهو أشقر اللون حسن البزة :

— « كلا يا أخى . إنها لجميلة يجملها شعرها الفاحم المقصوص طبقاً للطريقة المصرية التى شاعت فى الأيام الأخيرة »

وراح ثالثهما ، وهو فتى غرانق ، طلق المحيا باسم الثغر ، يشعل طرف سيكارته ويدخن صامتاً ، والتفت إليه ذو الوجه المربع يسأله :

— « هل سليمان قادم إلينا ؟ »

— « سوف يأتى . ولكنه لن يأتينا بقلب مفتوح السرور ، إنهم ظلموه حقاً إذ استلبوا منه وظيفته ، على ما تعلمون »

الأضاة ، ذات الحلقات ! !

ماذا ؟

آه ! إنها هى ! ! هى بعينها ! ! هى ڤينوس ! ! لقد أسرعت إلى باريس تحميه فى ذلك الروع الأكبر ! فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته وهو هو الذى حكم لها بالتفاحة ...

لقد رفعته إلى عَلٍ !

وطفق منالايوس يبحث عنه هنا وهنا ... ولكنه لم يعثر له على أثر !

لقد ذهبت به ربة الحب ، إلى مخدع الحب !

إلى هيلين !

ولكن ويل له من هيلين ! لقد كانت تطلع على الساحة فترى إلى مبارزة البطلين ، فهالها أن يبطش ملك أسبارطة بحبيبها ، لولا هذه السحابة البيضاء التى كانت تحميه دائماً من خصمه وتقيه . . . . .

وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين ، فكان عذلها له أشد على نفسه من ضربات منالايوس ! . . .

(لها بقية)

دريني خشبة

قال الأول : وقد احتسى آخر حسوة من كأسه !

— « ليس فى خدمة الحكومة شرف للانسان ، فان كان سليمان فتى « وطنياً » مخلصاً فى عقيدته السياسية فأمامه سبل العمل المطلق كثيرة ، والجهاد . إن خوض المعركة فى ساحة الجهاد الوطنى قد اقتربت ساعته ؛ فالشعب قد أرهقته الضرائب ، والاستقلال الذى وعدونا صار مجموعة من المناصب العالية ، وعمت فى نظمنا الفوضى ، فماذا نريد أكثر من ذلك لكى نسوغ خروجنا ونهوضنا نحن الشباب ؟ وإلى متى نحسب أن سبل العيش مسدودة أمامنا ، فلا نعرف من طرائق الارتزاق والتكسب إلا الوظيفة ؟ »

قال له صاحباه :

— « صدقت . . هذا صحيح »

وبعد حوار قصير سكتوا ، وكانت فترة بين فصلين

— ٢ —

أقبل الفتى الذى عرفت من بعد أنه هو سليمان على صحبه فى بداية الفصل التالى عجلا يلهث ، لِحَقَا ، وألقى على المائدة جريدة كان يحمل ، ونزع سدارته ، ثم جلس ، وكانت آثار التعب بادية عليه ، واستغرب صحبه حاله ، وناوله ذو الوجه المربع سيكارة ثم سأله :

— « هل حدث حادثٌ غير الذى نعلم ؟ وهل كان اليوم أيضاً تظاهرٌ سياسى ؟ »

— « تظاهر سياسى ؟ كيف ؟ تظاهر سياسى مرة أخرى ؟ أولم يكفنا ما لقينا أمس فى تظاهرنا من ضرب الشرطة اخواننا المتظاهرين بالعصىّ وإرهاقهم ؟ وما الفائدة ؟ »

وكان يجيب صاحبه وهو يتكلف الهدوء ، ولكنه كرر « ما الفائدة » مرتين ثم انفجر صاخبا

وكان العواد والكمانى يطربان الحاضرين بقطعة موسيقية من مبتكرات سامى الشوا إيذاناً بانتهاء دور الراقصة المغنية الأولى

— « لم يبق أمل . . . »

نطق بهذه العبارة حانقاً ، يائساً ، وضرب المائدة بقبضة يده ثم قال :

— « . . . البلاد مقيدة بالمعاهدة ، والمناصب الكبرى للأجانب وذوى العقول القديمة ، وفتيان العراق لا يجدون واسطة لأعلان شعورهم ضد الاستعمار ؛ وهم إذا ما تظاهروا معلنين سخطهم على الصهيونية مثلاً كما فعلوا أمس ، سحقوهم بسنابك الخيل . . . قبض الشرطة الآن على عبد الكريم ، واحمد حسن وطاهر ، واطفى . . . وواحد من المتظاهرين فى المستشفى جريح . . »

واشتد صخبه وصراخه . وكان صحبه ، مع ترحيبهم به ؛ وتَقبّلهم آراءه ، يتلقون نظرات المحيطين بهم الدالة على استغرابهم هذه الخطبة ، التى لم يسمع أحد مثلها فى المراقص ، فى شىء من الارتباك . ونادى الفتى الغرانقُ الخادمَ ليأتى ضيفهم الثائر بربع من الخمر الأبيض

ثم أقبل صاحب المرقص على سليمان متلطفاً يسكته ، وينبهه إلى أن فيما قاله الكفاية ، وأن الخوض فى شؤون الوطن وسياسته فى المرقص بين الكأس والعود ضرب من العبث ؛ « واليوم خمر وغداً أمر » ؛ وكان الرجل أديباً ظريفاً ، فأفاض على الجماعة بجملة من النوادر قبل أن يتولى عنهم وينصرف

وتركت النظر إليهم ، واستماع أحاديثهم منصرفاً إلى دراسة المرسح !

وكما كان الجاحظ وهو من أئمة الدين يؤلف الرسائل فى القيان ، كنت عازماً على كتابة فصل فى نقد مغنيات بغداد اللائى يطربن أبناء الشعب فى ساعات لهوهم ومرحهم . فقلت أخاطب نفسى : « إليك المادة الأولى من مواد الموضوع » ، ثم أخرجت قلمى ودفتر مذكراتى فكتبت :

« كانت المغنية الراقصة الأولى التى يسمونها جميلة العودية معتدلة القامة ، نحيفة ترتدى ثوباً قصيراً بنفسجى اللون ، يتوج رأسها تاج من اللؤلؤ المزيف . وجهها مستطيل . نظراتها تدل على غباء . تضاحك الناس بين حين وآخر . . . وأما غناؤها . . . »

وكتبت صفحة أو صفحتين من دفترى فى ذكر غنائها ؛ وطريقة إنشادها ، ثم انتقلت إلى وصف الثانية ، وقد جاء دورها وحانت منى التفاتة إلى أشخاص قصتى ؛ فألفيتهم عاكفين على مائدتهم يأكلون ويشربون ويتحادثون ، وكان سليمان يفرغ الثمالة من زجاجة « الربع » التى كانت أمامه فى كأسه ، ثم يطالب من الخادم زجاجة « ربع » ثانية ، وعجبت له كيف سكن بعد هياجه ، ثم سمعته يقول لصاحبه :

— « إننى أكرهها . . أكره تلك المغنية الهزيلة . . أكره تاجها المزيف . . أكره وجهها المستطيل . . أكره نظراتها . .

وأحب زهراء وإن لم تكن مغنية من ذوات الفن ولا ذات شرف في هذا المجتمع »

وجاءه الخادم بالزجاجة ؛ ولم يجبه أحد . وفتح الجريدة التي كان ألقاها ساعة أقبل على المائدة وأشار الى مقالة فيها وقال :

— « صرتُ منذ اليوم أعلن حبي لها على رءوس الاشهاد ، فهذه المقالة بل هذه الفلسفة الجديدة قد غيرت رأيي »

وقرأ :

« لا تحتقروا أحداً من النساء ، فبنو الانسانية سواسية في هذه الدنيا . . . . . »

ولم أستغرب هذه « الفلسفة الجديدة » ـ على ما وصفها ـ ولم أعرف صاحبها ، التي راح يؤيدها سليمان في حماسة شديدة . وخيِّل اليّ من عينيه المحملقتين وصوته الراعد ، أن الثورة الكامنة في أعماق نفسه على وشك الظهور مرة أخرى . ولكنه كان مضطرباً قلقاً ، فلم يكمل قراءة المقالة . ورنا الى المسرح معجباً برقص الراقصة الثانية ؛ وكانت فتاة رومية مستتركة وافدة من استانبول . وهز رأسه ، ثم هز رأسه إذ أطربه صوتها الرفيع العذب وأناشيدها التركية الرقيقة . وانشغلت عنه بكتابة وصفها :

— طويلة بيضاء في صفرة كلون الذهب . . . »

واستمررت في الكتابة غير منتبه الى ما يجري حولي ، نحو ساعة أو أكثر أو أقل ، لا أدري . وقبل أن ألقي القلم جانباً رنّت في أذني قرقعة أحدثها سقوط أطباق على الأرض ، وصرخة صارخ يقول :

— « أنت خاطئٌ يا أخي ! أنت خاطئٌ ومخطئٌ كل الخطأ ! »

وكان الصارخ سليمان . قلت : « حقاً لقد ثار صاحبنا » . ورفعت رأسي لأنظر اليه ، فألفيته واقفاً منفوشاً شعر رأسه يعربد ، ويقول مخاطباً رجلاً غريباً لم أره من قبل ، كان واقفاً أمامه ينظر اليه نظرة شامت مستهزئ :

— « أنا شجاع ، شجاع ! لقد طردوني لأنني أبيتُ أن أخدمهم لتحقيق غاياتهم

هذا حق ، ولكنني لم أثر لحرماني من الوظيفة . . . ما أنا بسكران ! . . . لست ثائراً لأني أصبحت محروماً من الوظيفة يا كامل ، بل لأن الوطن يريد رجاله . انظر يا كامل ! ويلك ! أنا رجل أقابل ألف رجل من هؤلاء المخانيث لو دعت الحاجة ؛ وها كم البرهان :

والتفت إلى صحبه مهتاجاً ، وكانوا حيارى واجمين ثم قال :

— « رصاصة لأجل الحرية ! »

وسرعان ما أخرج من جيبه مسدساً فأطلق رصاصة في الفضاء وهرع بعض النظارة إليه ليمنعه من الاستمرار في إطلاق الرصاص ، وبعضهم الى باب المرقص لينجو بنفسه ، إذ أدرك في هذه الحادثة بادرة للجريمة . وجاء شرطي يعدو ويشق لنفسه طريقاً إلى سليمان في الزحام . . . ولم أعد أفهم من الحوادث المتتالية شيئاً . . .

— ٣ —

بعد يومين أو ثلاثة ذكرت الصحف : « أن محكمة الجزاء حكمت على سليمان بن محمود وهو موظف سابق معزول ، بأن يسجن عقاباً له على اطلاقه الرصاص من مسدسه وهو سكران في مرقص الهلال »

ولم أسمع له ذكراً بعد ذلك

العراق — الأعظمية **محمود . أ . السيد**

البريد الأدبي

حول النزاع الأدبي

......

لم أعتد الردّ على من يهاجمون شخصي لأني أعتبر واجب الأديب أن يقوم بقسطه من الانتاج ، لا أن يضيع وقته في المشاحنات الفارغة ، ولكن أراني الآن مضطراً إلى أن أقول كلمة (ستكون الأولى والأخيرة لي في الموضوع) إظهاراً للحقيقة ، وخشية أن تمسي « الرسالة » ، وهي المجلة الأدبية الرصينة ، ميداناً لمجادلات هي في نظري أبعد ما تكون عن الأدب :

لا شك أن الغيرة الأدبية هي التي دفعت صديقي الأستاذ الرّحلاوي إلى فتح هذا النقاش لاعتقاده أن ثمة تشابهاً كبيراً بين قصيدة الدكتور « ناجي » وبين قصيدتي « عاصفة » المنشورة في مجلة (الدهور) منذ عام ونيف . على أنني أرى هذا التشابه ضئيلاً جداً ، ولا يجوز أن يُعزى إلا إلى توارد الخواطر

أما من جهة ردّ الأستاذ الطنطاوي فهو ادعاء لا تدعمه حجة ولا يؤيده برهان . لقد ادّعى هذا الأديب أن صديقه أنور العطار قال له إن قصيدتي مسروقة من أحد شعراء المهجر ، ثم أردف أنه لا يعرف عني سوى أني « ترجمان قصصي ! » فهل « للرسالة » أن تطلّب منه أن ينشر على صفحاتها اسم الشاعر وقصيدته التي يقول إن قصيدتي سرقت منها ، وأصل القصص التي يدعى أني أترجمها ؟

وليعلم الأديب الطنطاوي أخيراً أن من يكتب للناس ما يفيدهم بلغة سهلة بسيطة لهو خير من الذي يسب ويشتم بلغة العرب الأقحاح !

(دمشق) ميشيل عفلق

وفاة رحالة كبير

من أنباء روسيا أن الرحالة المكتشف الشهير بيتر كوزلوف قد توفي في لننجراد في الثانية والسبعين من عمره . وقد اشتهر الأستاذ كوزلوف قبل الحرب باكتشافاته العلمية في مجاهل آسيا ولاسيما في صحراء جوبي . وقد بدأ حياته الكشفية بالاشتراك في بعض الحملات والبعثات الرسمية في أواخر القرن الماضي . وفي سنة ١٨٩٩ جهز حملته الأولى إلى أواسط آسيا ؛ ثم أعقبها برحلات أخرى ، ولكنه وفق إلى أعظم اكتشافاته بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ حينما اكتشف في صحراء جوبي في اعماق آسيا مدينة مجهولة تسمى خاراخوتو . وكانت بها بقايا أبنية ظاهرة ، وآثار جنس بشري غير معروف . ووجدت ضمن الآثار المكتشفة نقوش وكتابات كثيرة بلغة مجهولة ، ولكن الأستاذ كوزلوف استطاع قراءتها بفضل نوع من الدليل المكتوب وجده بين الأشياء المكتشفة . واستمرت حكومة البلاشفة بعد الحكومة القيصرية على تشجيع كوزلوف والانفاق على بعثاته ؛ فقام في العهد الأخير بعدة رحلات إلى صحراء جوبي كانت أخراها في سنة ١٩٢٦ . وعاونته الحكومة أيضاً على نشر كتاب ضخم عن جوبي وآثارها وعن منطقة خاراخوتو التي اكتشفها . ونشر كوزلوف أيضاً كتباً أخرى كلها بالروسية ، ولكنها لم تترجم إلى لغات أخرى فلم يعرف العالم الخارجي عنها كثيراً ، غير أنه نشر منذ أعوام كتاباً بالانكليزية عنوانه « عصافير منغوليا »

وكان الأستاذ كوزلوف عضواً في جمعيات علمية كثيرة . وكان يعيش في منزل منعزل في غابة بالقرب من نوفجرود مدى أعوام طويلة يرتب المواد والآثار التي جمعها ؛ وكان من آن لآخر يحضر إلى لننجراد ليلقي فيها بعض المحاضرات . وقررت له الحكومة البلشفية معاشاً حسناً ، وقد رافقته زوجه في عدة من حملاته الكشفية

عميد الموسيقى الانكليزية

نعت الأنباء الأخيرة السير فردريك كوين المؤلف الموسيقي المشهور وعميد الموسيقى الانكليزية منذ أواخر القرن الماضي . توفي في الثالثة والثمانين من عمره ؛ وكان مولده بجزيرة جاميكا في سنة ١٨٥٢ ، وأخذ إلى انكلترا صغيراً حيث كان أبوه يشغل وظيفة « بمسرح الملكة » . وتلقى كوين دروسه الأولى في الموسيقى وهو طفل على يد هنري رسل ، وكتب أول قطعة موسيقية وهو في الخامسة . ودرس المعزف (البيانو) على بندكت ، والتأليف

على جوس . وفى سنة ١٨٨٥ ذهب إلى لايبزج ودرس هنالك على أقطاب الفن . ثم عاد إلى انكلترا ، وظهر براعته فى التأليف والموسيقى ، وعهد إليه برياسة الحفلات الموسيقية الملكية ؛ ولكنه كان أكثر براعة فى التأليف منه فى العزف . وكانت أولى قطعه الشهيرة « عذراء الورد » ، ظهرت وعزفت فى لندن سنة ١٨٧٠ ؛ وأتبعها بقطعة تسمى « القرصان » . ومن ذلك التاريخ عكف السير كوين على اخراج القطع والاوبرات والأغانى حتى بلغ ما أخرجه منها مئات عدة . وقد انتخب السير كوين مراراً ليكون رئيساً للفرقة الموسيقية التابعة لجمعية الموسيقى الملكية . وفى سنة ١٩١١ ، أنعم عليه بلقب الفارس

وللسير كوين قطع موسيقية راقصة بديعة . ولما بلغ الثمانين من عمره منذ ثلاثة أعوام ، صرح فى حديث له أنه لا يدرى ماذا حدث فى الموسيقى العصرية ، وأنه يلاحظ أن الموسيقى المعاصرة ملأى بالمفارقات والتناقضات مع أن من شرط الموسيقى أن تكون فياضة التناسق

مؤتمر لتاريخ الطب :

عقد أخيراً فى مدريد مؤتمر لمؤرخى الطب ، وهو المؤتمر العاشر من نوعه يعقد كل عام فى عاصمة من عواصم العالم ، وقد شهده جمهرة كبيرة من علماء مختلف الدول ، وعقد تحت رعاية رئيس الجمهورية الاسبانية ، ولم يقتصر أعضاء المؤتمر على المناقشات العلمية والتاريخية المتعلقة بتاريخ الطب والجراحة منذ غابر الأزمان ، ولكن لجنة المؤتمر قامت بتنظيم معرض هام للمخطوطات والوثائق الطبية من أقدم العصور ، وكذلك لعرض الأدوات الطبية والجراحية التى كان يستعملها الأطباء فى العصور القديمة والوسطى ، ومن ذلك صور ونماذج للأدوات الطبية والجراحية العربية نقلت من مخطوطات ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وصور من مخطوطات موسى بن ميمون الطبية والفلسفية وهو الطبيب اليهودى الأندلسى الذى نبغ فى القرن الثانى عشر ويعرف عند الافرنج باسم « ميمونيدس » ومجموعة من آثار اندريس لاجونا طبيب الامبراطور شارلكان ، وأدوات طبية هندية ومصرية ترجع إلى العصور الوسطى ، ونماذج تشريحية وغيرها ، وقد لفت الأنظار بنوع خاص نموذج معروض لحانوت صيدلى مسلم فى قرطبة فى القرن الثالث عشر ، ونموذج لمستشفى « سانتا كروز » القديم فى طليطلة كما كان عليه فى القرن السادس عشر

ملكة التراجيديا

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عنوانه « راشيل الخالدة » للكاتب الانكليزى برنارد فوك ، وهو ترجمة مستفيضة مؤثرة للممثلة الكبيرة راشيل التى سطعت فى النصف الأول من القرن الماضى ، وتركت أثرها الخالد فى المسرح الفرنسى ، وكانت راشيل مثل سان برنهارت وسان سيدون يهودية الأصل ، ولدت سنة ١٨٢١ فى أسرة فقيرة جداً ، وكانت فى طفولتها تغنى وترقص فى شوارع ليون وتجمع الفلوس لتعيش ، ولكنها لم تبلغ السابعة عشرة حتى ظهرت على مسرح « الكوميدى فرانسيز » ولم تمض أسابيع على ظهورها حتى ارتفع صيتها إلى السماكين ، ولم تبلغ العشرين حتى غدت غنية ترتع فى بحبوحة الثراء والترف ، والتف حولها أكثر من أمير وشريف يرغبون فى ودها ، وكانت مثال العبقرية الساطعة ، ولكنها لم تكن مثالاً للأخلاق الرفيعة ، وكانت لها مبادئ وتصرفات خاصة تعدو مجتمعها وعصرها ، وقد خاضت حياة مضطرمة فياضة بالعمل واللهو المنيف ، وتوفيت فتية فى زهرة العمر ، فى الثامنة والثلاثين من عمرها .

ويستعرض المؤلف حياة هذه الممثلة الباهرة فى قوة وصراحة ويكشف لنا كثيراً من خواص الحياة المسرحية فى القرن الماضى ويوضح لنا كيف كانت راشيل من أعظم ممثلات التاريخ ، ومن أعظم كواكب الفن والمسرح

ترشيح النجاشى لجائزة نوبل

من الأنباء الطريفة التى وقفنا عليها فى البريد الأخير أن صحيفة سويدية هى جريدة « سوسيال ديموكراتنى » التى تصدر فى ستوكهلم ترشح الأمبراطور هيلى سلاسى لنيل جائزة نوبل للسلام هذا العام ؛ وتؤيد الجريدة هذا الترشيح بمواقف الامبراطور السلمية المشهورة وأحاديثه التى أفضى بها إلى مختلف المكاتبين الأوربيين ، وترى أنه أجدر من وقف إلى جانب السلام هذا العام بنيل الجائزة الشهيرة . ونذكر أن الذى فاز بهذه الجائزة فى العام الماضى هو المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى وداعية السلام الشهير .

ولا ريب أن ترشيح النجاشى سيقابل بالتأييد والارتياح من جميع أنصار السلام ، والمعروف أن السويد تعطف على النجاشى عطفاً خاصاً ، وأن معظم مستشاريه العسكريين والسياسيين هم من رجال السويد

الكتب

علـــم الدولة

للأستاذ أحمد وفيق

[لمناسبة صدور الجزء الثالث]

بقلم الدكتور محمد توفيق يونس

صدر حديثاً الجزء الثالث من الكتاب الضخم الذى يضعه الكاتب النابه الأستاذ أحمد وفيق فى « علم الدولة » ، وهذا الجزء كسابقيه من حيث طريقة البحث وسياق الحديث ، وإذا كان قد فاتنا أن نتحدث عن الجزأين الأول والثانى حين صدورهما فلا يفوتنا وقد صدر الجزء الثالث أن نتحدث عن الكتاب جملة

***

من العسير بل من المستحيل أن تكون « الدولة » بجميع مظاهرها وتطوراتها موضوعاً لبحث واحد جامع ، إذ أن لها وجوهاً مختلفة يتطلب كل منها بحثاً خاصاً ، فهناك الوجه الدستورى الذى يعنى بهيئات الدولة العليا ، وهناك الوجه الادارى الذى ينظر إلى التفاصيل التنفيذية للحياة العامة ، أو بمعنى آخر إلى مجموع المصالح العامة التى تكفل سير الدولة العملى ، وهناك الوجه المالى الذى يبحث فى إيرادات الدولة ونفقاتها ، ثم هناك دراسة الدولة من ناحية القانون الدولى العام باعتبارها من أشخاصه وبصفتها عضواً فى الأسرة الدولية ، الخ

ولكل دراسة من هاته الدراسات ناحيتان أساسيتان : ناحيتها القانونية وناحيتها السياسية ، وأهمية الاستئناس بالأخيرة فى تحليل المسائل الفقهية لا تحتاج إلى بيان . وإذا أضفنا إلى كل ذلك نصيب التاريخ تبين لنا أى دائرة واسعة من المعارف يمكن أن تدخل تحت هذا الموضوع

ولكن المؤلف الفاضل وإن كان قد سمى كتابه « علم الدولة » لم يقصد إلا دراسة فكرة الدولة أو نظرية الدولة كما أوضح ذلك فى مقدمة الجزء الأول (ص ٤٧ — ٤٩)

لهذا كان أجمل به أن يجعل عنوان الكتاب أكثر تحديداً لما فيه بأن يسميه مثلاً « فكرة الدولة » أو « نظرية الدولة » أو « فى علم الدولة » إذا لم يرد تحديداً دقيقاً

على أن الموضوع الذى فرضه المؤلف على نفسه يبقى بعد هذا التحديد فسيح الأطراف متشعب النواحى متعدد الوجوه الى حد يجعل من الصعب استيعابها جميعاً ودراستها معاً دراسة مستفيضة ، ويضطر المؤلف الى الايجاز وإهمال التفاصيل ، ويُخشى معه ضعف الارتباط وتشتت البحث وتوزع الجهود . والمؤلف نفسه يكتفى فى الواقع « بدراسة عامة إجمالية » (ص ٤٧ من الجزء الأول)

ولقد صبغ المؤلف هذه الدراسة بالصبغة التاريخية فجعل التاريخ العنصر الغالب فى أجزاء كتابه الثلاثة بل قوامها جميعاً .

وموجز بسيط للموضوعات التى تناولها المؤلف تساعد على إدراك ما قدمنا

قسّم المؤلف الجزء الأول من كتابه الى ثلاثة أبواب خصص الباب الأول منها بأصول الدولة ، فتكلم فى الفصل الأول عن ضرورة البحث فى هذا الموضوع ، وقدّم لذلك مثلين هما : فرض الضرائب على الأجانب والنظام الفاشى . ثم انتقل الى الكلام فى الفصول التالية عن مختلف النظريات التى تناولته عارضاً ناقداً محللاً ، فتكلم فى الفصل الثانى عن نظرية الطبيعة ، وفى الثالث عن الأسرة ، وفى الرابع عن العقد الاجتماعى ، وفى الخامس عن القوة ، وفى السادس عن الارادة الفردية ؛ وبعد أن انتهى المؤلف من الكلام على أصول الدولة فى الباب الأول أخذ يتكلم فى البابين الثانى والثالث عن التطور التاريخى لفكرة الدولة ، فتناول فى الباب الثانى الأفكار القديمة من الدولة مستعرضاً إياها فى الهند وفارس والصين ومصر ، وعند اليهود واليونان

والرومان ، وتناول فى الباب الثالث فكرة الدولة فى القرون الوسطى وفى عهدى الأحياء والاصلاح

وفى الجزء الثانى من الكتاب تابع المؤلف بحثه فى التطور التاريخى لفكرة الدولة ؛ فتكلم عنها من عهد الاصلاح الذى ختم به الجزء الأول حتى سقوط نابليون النهائى بعد أن عرج فى طريقه على الدستور البريطانى ، فشرح أطواره منذ نشأته حتى نهاية القرن الثامن عشر

واستمر هذا البحث التاريخى فى الجزء الثالث ، إذ تناول المؤلف أطوار فكرة الدولة ابتداء من سقوط نابليون حتى اليوم - تناولها من ثلاث نواح فى ثلاثة أبواب ؛ خص الباب الأول منها بتطور فكرة الدولة من ناحية سياجها الخارجى ، أو بعبارة أخرى من ناحية القانون الدولى ، وخص الباب الثانى بأهم أطوار العنصر التاريخى للدولة عارضاً لمختلف الحركات الشعبية منذ سنة ١٨١٥ ، أى بعد سقوط نابليون النهائى ، وخص الباب الثالث بأهم أطوار العنصر القانونى للدولة منذ ذلك الحين كذلك واصلاً ما انقطع فى نهاية الجزء الثانى من الكلام عن الحركة الدستورية والنظام البرلمانى فى فرنسا ، خاتماً إياه بكلمة وجيزة عن بعض المبادىء الدستورية الحديثة

والحق أن المؤلف الفاضل — مع ما سبق أن قدمنا — قد عالج هذه الأبواب التى تناولها فى أجزاء كتابه الثلاثة معالجة الملم بموضوعه ، الواسع الاطلاع ، الدقيق الملاحظة ، القوى العبارة ، الجزل الأسلوب

على أننا مع الثناء الخالص على المؤلف والتقدير العظيم للكتاب نأخذ على الأستاذ أنه لم يبين فى صدر الكتاب منهاج بحثه ، وتقسيم عمله ، وتسلسل موضوعه ، البيان الكافى الذى ينير أمام القارئ السبيل إلى الغاية

كذلك نأخذ عليه عدم ذكره المراجع كاملة فى الثبت الذى ذيل به كل جزء من أجزاء كتابه فلم يذكر أمام كل كتاب بعد اسم المؤلف والعنوان الكامل لكتابه الجزء الخاص بالموضوع إذا كان للكتاب عدة أجزاء ، وعدد الطبعة إذا كان له أكثر من طبعة ، والمدينة والسنة التى طُبع فيها . فى هذه البيانات ما يساعد محبى البحث والاستقصاء

كما أنه أهمل هذه البيانات عند ما كان ينقل أو يوجز أقوال بعض العلماء فى صلب الكتاب ، فهو كثيراً ما يكتفى بالاشارة إلى اسم المؤلف ورقم الصفحة دون ذكر لعدد الطبعة ، وقد تكون الطبعة التى يرجع إليها القارئ غير الطبعة التى كانت فى يد الكاتب ، والصفحات تتغير فى مختلف الطبعات ، بل هو أحياناً لايذكر الصفحة التى نقل عنها فيصعب على القارئ الرجوع إلى العبارة المنقولة والتثبت منها

* * *

وجملة الرأى فى الكتاب أنه لم يوجه وجهة علمية صرفة ، بل قُصد منه التثقيف والتهذيب ، وأنه من هذه الناحية ، أى ناحية الثقافة العامة عمل ضخم ثمين ، أدىّ به مؤلفه الكريم إلى قراء العربية خدمة جليلة ، كلّفته جهوداً مضنية من الطاقة والوقت ، فمن حقه أن يقابل بالشكر الوافر والتمضيد الصحيح ؟

محمد توفيق يونس

تحذير

شاب يدعى أحمد تركى يزعم الناس أن له صلة بمكتب اعلانات الرسالة ، والرسالة تعلن أن ليس لهذا الرجل بأى عمل من أعمالها صلة

3me Année, No. 120. | Lundi-21-10-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٣ رجب سنة ١٣٥٤ — ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أحمد شـــوقى

بمناسبة ذكراه الثالثة



اجتمع رأى الناس — ماعدا الشعراء — على أن شوقى طيب الله ذكره ، كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحى الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب ، ويحفظ للبيان العربى قسطه المأنور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة فى الكون ، وأسرار الجمال المضمرة فى الطبيعة ، ومعانى الخير الغامضة فى الحياة ؛ وأن فقده كان فقداً للوجدان الفنى فى الشعب الذى علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضج عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابغة الثرة ؛ فالأعوام تعقب

الأعوام ، والذكرى تخلف الذكرى ، والأسى لا يزال يُرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه وإعواز العوض منه ؛ فسيبقى شوقى كما وضـعه القدر كمالاً فى نقص كان ، وهيهات أن يصير نقصاً فى كمال سيكون ؛ وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر شوقى ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء ما بقى العرب !

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة موئسة من الرسل ، ثم آثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهن الملكات الثلاث التى ترفد القريحة وتمد الطبع ، وعلى تفاوتها فى القوة والضعف يتفاوت الفنان فى السبق والتخلف ؛ ثم زوّدته بالأذن الموسيقية والقريحة السخية والأداة الطيعة ، فشب عبقرياً بالفطرة ، لا شأن للبيئة فى تنشئته ، ولا للمدرسة فى إعداده ، ولا للفرصة فى توجيهه ؛ وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه ، وتعليم المدرسة خاصاً به ، ومواتاة الفرص امتيازاً له ؟ إنما كان مثله فى رسالة الشعر كمثل الأنبياء فى رسـالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأميين ليكون جلاله عليهم أبهر ، ومعجزته فيهم أظهر ، وحجته منهم أبلغ

وشوقى رجل روحه أقوى من فنه ، وشعره أوسع من علمه ، وحكمته أمتن من خلقه ، وقدرته أكبر من استعداده ، فلا يشك قارئه فى أنه وسيط لروح خفية تقوده ، ورسول لقوة الـهية تلهمه ؛ وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق ، وتحصيل المادة ، وتوسيع الخبرة ؛ والذوق فى الفن كالعقل فى العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن ؛ والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ، ولـكنها تبدأ صاحب الذوق

***

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبـه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر ؛ له أذن مرهفة الحس تفطن للايقاع وتطرب للنغم ، وذوق سليم الادراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الـكلم ، ونفس ترى المُثُل الروائع فتحمَى وتتحمس ، ثم يدفعها السمو الفني فيها إلى المنافسة الحرة والمعارضـة النبيلة ؛ وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما ، لا يلبث أن يراها فى دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب وتتلون ، ثم تغـدو ولوداً خصبة ؛ ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الانتاج الناشئ عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة ؛ ثم يدرك فى يسر ما بين المعانى المجردة والمواد المحسَّـة من علاقة ، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك ، بحيث تولد هذه الأفـكار فى الذهن مكسوة بهذه الصور ؛ تتمثل فى خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير والوضع الأجمل فى النظم ، فاذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليـه العواطف معجلة تريد أن تظهر ، مزدحمة تحاول أن تفيض

ذلك هو الشاعر المطبوع ، وذلك هو شوقى ؛ علمناه بالدرس ، وعرفناه بالصحبة ، فما انخزل يوماً فى تحليقه وإسفافه عن مواقف العبقرية . ولئن كان فى شعر شبابه مأسور الفكر ، محصور الخيال ، محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئة ، لقـد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولاً منه عن وجوده ؛ وقديماً كانت صـلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية ، فلما أعتقته الحرب من رق الوظيفة ، وأطلقته انجلترا بالنفى إلى الأندلس ، تيقظ فيـه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فحلق بخياله فى كل جو ، وسطع بعقله فى كل أفُق ، وشدا بالاسلام والعروبة والمصرية شدوا ردده كل لسان واهتز له كل قلب ؛ ثم زاد فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والشعر التمثيلى إلى شعرنا الغنائى ؛ فـكان بذلك وحده الشاعر الـكامل !

***

شوقى كله من صنع الطبيعة ، ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً ؛ فالحـكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه فى مكانه ، ولا يزنه بميزانه . اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر فى أثره حسك ، فاذا وجـدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتمل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فثق أنك بازاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود :

***

إن شوقى سـيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق مادام الشعر العربى للخاصة ، لأن الخواص أكثرهم لاينصفونه ، والعوام كلهم لايفهمونه ، فمتى زالت معرّة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأى شأن

احمد حسن الزيات

٥ ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

قلتُ لها : إن كلمةَ الكفر لا تكون كافرةً إذا أُكره عليها من أُكره وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان ، وكلمةُ الفُجور أهونُ منها وأخفُّ وزناً وشأناً ، ثم لا تكونُ إلا فاجرةً أبداً ، إذ لا إكراهَ على هذه الدِّعارة إكراهاً لا خيارَ فيه . وما أولُ الدِّعارة إلا أن تمُدَّ المرأةُ طرفها من غير حياء ، كما يمدُّ اللصُّ يده من غير أمانة

ومن اضطُرَّ إلى الكفر استطاع أن يخبأ محرابَ المسجد في أعماقه فيصلي ثمَّةَ ، ولكن الفجورَ لا يترك في النفس موضعاً لدين ولا إيمان ، إذ هو دائبٌ في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط ، فيجعلُ المرأة تحيا بعيدةً عن ضميرها ، فيُضعِفُ منها أولَ ما يُضعفُ آثار الآداب والأخلاق ، فيهلك فيها أولَ ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الانسانية وشعورَها بمجد هذا المعنى

فاذا انتهت المرأةُ إلى هذا لم يكن لها مبدأ ولا عقيدةٌ إلا أنَّ على غيرها أن يتحملَ عواقب أعمالها ، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنونَ عقله ؛ أفلا تكون المرأةُ حينئذٍ مجنونة جنون جسمها . . . ؟

* * *

فساءَها ذلك وبان فيها ، ولكنها أمسكتْ على ما في نفسها ؛ والمرأةُ من هؤلاء لا يعنى أمرُها في الناس ولا يتصلُ عيشها إلا إذا كثرت طباعُها كثرةَ ثيابها ، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل ، فينبعث منها الغضبُ وهي في أنعم الرضى ، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ ، وكأن لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحد ولا لنفسها

وتَسارع غضبُها ثم قالت : كان كلامُك أن لك رجاءً إليَّ ، فأنا أحب . . . . أحب أن أعلم

قلت : وأنا كذلك أُحب . . . أحب أن أعلم

فضحكت ومُرِّى عنها ، وثبتت على شفتيها ابتسامةٌ لوجاء ملكٌ من السماء ليضعَ في ثغرها ابتسامةً أجملَ منها لما وجد أجملَ منها

ثم قالت : تُحب أن تعلم ماذا ؟

قلت : أحبُّ أن أعلم منك قصةَ هذه الحياة ما كان أولُها ؟

قالت : لقد قضيت من حكمك فينا ، ولكنك أخطأت ، فلكل ليل مظلم كوكبه ؛ والكوكب الوقاد المعلَّقُ فوق ليل المرأة منا هو إيمانها . نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته ولكنه كإيمان الناس في تعزيته ، والله ربُّنا وربُّكم!

قلت : لو أُطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا . وإنما أنت تصفين الإيمان الأولَ الذى كان عملاً فصار ذكرى ، فصارت الذكرى أملاً ، فظننتِ الأمل هو الإيمان

قالت : ثم إننا جميعاً مكرهاتٌ على هذه الحياة فما نحن إلا صرعى المصادمة بين الارادة الانسانية وبين القدر

قلت : ولكن لم تهتفْ واحدةٌ منكن في غلطتها الأولى وهي مستكرهةٌ على غلطة ؛ بل وهي راغبةٌ في لذة ، أو مبادِرةٌ لشهوة ، أو طالبةٌ لمنفعة

قالت : هذا أحدُ الوجهين ؛ أما الآخر فالتماسُ الرزق وصلاحُ العيش . فالرجلُ مع الرجل رأسُ مالِه قوَّتُه ، وعمله بقوته ؛ ولكن المرأة مع الرجل رأسُ مالها أنوثتها ، وعملُ أنوثتها . وفي الوجهِ الأول وجه اللذة والمنفعة ، تحتال كلمةُ الفجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة ، منها الحبُّ والزواج والسعادة ، فتستسلم المرأةُ مضطرةً ليقع شيء من هذا . وفي الوجه الثاني وجه الرزق والعيش ، تحتال الكلمةُ الخبيثةُ الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلماتٍ رهيبة قاتلة ، منها الجوعُ والفقر والشقاء ، فتسقط المرأة مضطرةً خيفةَ أن يقع شيء من هذا ؛ وفي أحد الوجهين يكون الرجل هو الفاجرَ لفساد آدابه ، وفي الوجه الآخر يكون الفاجرُ هو المجتمع لفساد مبادئه

* * *

قلت : أما لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه الدنية لم تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين ، وآفةُ هذه القوانين أنها لم تُسن لمنع الجريمة أن تقع ، ولكن للعقاب عليها بعد

وقوعها . وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها ، وتركتها القانون الغريزة الوحشيّ في هؤلاء الوحوش الآدميين الذين يأخذهم السُّعارُ من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين : المرأة الجميلة ، والذهب . فما ألجأت امرأةً حاجتُها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً إلا ضربه ذلك السُّعار ، فان استخفّت بنزواته وتعسّرت عليه طردها إلى الموت ومنعها أن تعيش من قِبَله ، وإن صَلُحت له وتيسّرتْ ، آواها هي وطرد شرفها . . .

وذلك بخلاف الدين ، فانه قائم على منع الجريمة ، وإبطال أسبابها ؛ فهو في أمر المرأة يُلزم الرجلَ واجباتٍ ، ويلزم المجتمعَ واجباتٍ غيرَها ، ويلزم الحكومةَ واجباتٍ أخرى . فأما الرجلُ فينبغي له أن يتزوجَ ، ويتحصّن ، ويغارَ على المرأة ، ويعملَ لها ؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدّب ، ويستقيم ، ويُعين الفردَ على واجبات الفضيلة ، ويَتَدامَجَ ، ويَشُدُّ بعضُه بعضاً ؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمى المرأة فتعاقبَ على إسقاطها عقابَ الموت والألم والتشهير ، لتقيم من الثلاثة حرّاساً جبارة ، من لا يَخْشَ اللهَ خشيها . فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضعُ غلطة تسقط فيه المرأة

قال الأستاذ (ح) : صدقت ، فالحقيقة التي لا مِراءَ فيها أن فكرة الفُجور فكرةٌ قانونية . وما دام القانونُ هو أباحها بشروط فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط ، ومن هذا التقرير يُقدِمُ عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان . ومن ثَمّ تأتي الجُرْأةُ على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون ؛ ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطةُ بآخر معانيها وأقبح معانيها

وتقريرُ سيادةِ المرأة في الاجتماع الأوربي وتقديمُها على الرجال والتأدبُ معها ، كل ذلك يجعل جراءةَ السُّفهاء عليها جراءةً متأدبةً حتى كأن المتحكك منهم في امرأة يقول لها : من فضلك كوني ساقطة ... أما هنا فجراءة السفهاء جراءةٌ ووقاحةٌ معاً ، وذلك هو سرُّها

القانون كأنما يقول للرجال : احتالوا على رضى النساء فان رضينَ الجريمَةَ فلا جريمة ، ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها بأساليبَ من المَلَق والرياء والمكر تتركها عاجزةً لا تملك إلا أن تُذْعِنَ وترضى . وبهذا ينصرف كل فاجرٍ إلى إبداع هذه الأساليب التي تُطلق تلك الفطرةَ من حيائها ، وتخرجها من عفتها « تطبيقاً للقانون » . . .

ولا سيادةَ في اجتماعنا للمرأة ، ولكن القانون جعلها سيدةَ نفسها ، وجعلها فوق الآداب كلها ، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضيت ؛ إذا رضيت ماذا . . . ؟

***

قلتُ : فاذا كان القانونُ هنا في مسئلتنا هذه يعدلُ بالظلم ، ويحمى الفضيلة باطلاق حرية الرذيلة ، فهو إنما يفسد الدينَ ؛ ويصرف الناسَ عن خوف الله إلى خوف ما يُخافُ من الحكومة وحدها . وبهذا لا يكون عملُه إلا في تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة ، ويدعُ الباطن يُسِرُّ ما شاء من خبثه وحيلته وفساده ، فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة . فلا جرَمَ كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها ، فاذا أُخذت المرأةُ مُلايَنَةً ورضىً فهذا فجورٌ قانوني ... وإن كانت الملاينةُ هي عملَ الحيلة والتدبير ، وإن كان الرضى هو أثرَ الخداع والمكر ، وإن ضاعت المرأةُ وسقطت وذهب شرفُها باطلاً وألحقه الناسُ بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً . أما إذا أُخِذت مُكارَهَةً وغَصْباً ، فهذه هي الجريمةُ في القانون ؛ ويسميها القانونُ جريمةَ الاعتداء على العِرض ، وهي بأن تُسمى جريمةَ العجز عن إرضاء المرأة أحقُّ وأولى

على أن المسكينةَ لم تؤخذ في الحالتين إلا غَصباً ولكن اختلفت طريقةُ الرجل الغاصب ، فان كلتا الحالتين لم تتأدَّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة هي إخراجُها من شرفها ، وحرمانُها حقوق إنسانيتها في الأسرة ، وطردُها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي ، وتركُها ثَمّةَ مُخَلاةً لمجاري أمورها ، فلا يتيسر لها العيشُ إلا من مثل ذلك الرجل الفاجر ، فلا تكون لها بيئةٌ إلا من أمثاله وأمثالها كما يجتمع في الوضع الواحد أهلُ المصير الواحد على طريقة القطيع في المجزرة . . . .

***

فقالت هي : الحقُّ أن هذه الجريمةَ أولها الحب ؛ وهي لا

تقع إلا من بين نقيضين يجتمعان في المرأة معاً : كِبَرُ حبها إلى ما يفوتُ العقل ، وصِغَرُ عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأةُ تظلُّ هادئةً ساكنةً رزينةً حتى تصادفها اللحاظُ النارية من العين المقدَّرة لها فلا يكون إلا أن تملأها لهبا . ولتكن المرأة من هى كائنةٌ فانها حينئذ كمستودع البارود يهولُ عظمُه وكِبَرُه ، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارةُ المهاجمة

وليست حِراسةُ المرأة شيئاً يُؤْبَهُ له أو يُعتَدُّ به أو يسمَّى حراسة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار ؛ فيستوى فى وسائلها الخوفُ من الشرارة الصغيرة والفزعُ من الحريق الأعظم ، فيُحتاطُ لاثنيهما بوسائلَ واحدةٍ فى قَدْرٍ واحد واعتبار واحد

وإذا تُركت المرأةُ لنفسها تحرسُها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرك لنفسه مستودعُ البارود تحرسُه جدرانُه الأربعةُ القوية . . . .

والرجال يعلمون أن للمرأة مظاهرَ طبيعيةً من الخيلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة ؛ ولكن هؤلاء الرجالَ أنفسَهم يعلمون كذلك أن هذا الظاهر مخلوقٌ مع المرأة بجِلد جسمها الناعم ، وأن تحته أشياءَ غيرَ هذه تعمل عملها وتصنع البارودَ النسائى الذى سينفجر . . . .

***

قلت : إذا كان هذا فقبح الله هذه الحريةَ التى يريدونها للمرأة . هل تعيش المرأةُ إلا فى انتظار الكلمة التى تحكمها بلطف ، وفى انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إن هذا حقٌّ لا ريب فيه ، وأوسعُ النساء حريةً أضيعُهن فى الناس ؛ وهل كالمومس فى حريتها فى نفسها ؟

ولكن يا شُؤْمها على الدنيا . إنها هى بعينها كما قلتَ أنت حريةُ المخلوق الذى يُترك حراً كالشريد لتُجرِّبَ فيه الحياةُ تجاريبها المؤلمة . وماذا فى يد المرأة من حريةٍ هى حريةُ القدر فيها ؟

قلت : ولهذا لا أرجع عن رأيى أبداً ، وهو أنه لا حرية للمرأة فى أمة من الأمم إلا إذا شعر كلُّ رجل فى هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أهينت واحدة ثار الكلُّ فاستقادوا لها ، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت فى هذه الواحدة . يومئذٍ تصبح المرأةُ حرةً ، لا بحريتها هى ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال . . . .

فضحكتْ وقالت : (يومئذٍ) هـــذا اسمُ زمان أو اسمُ مكان . . . . ؟

***

قال الأستاذ (ح) : ولكنا أبعدْنا عن قصة هذه الحياة ، ما كان أولها ؟

قالت : إن الشبانَ والرجالَ علمٌ يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه . ويجب أن تقرَّ فى ذهن كل فتاة أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالمحل الذى تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجةً من العطر فيه إكرامها وخدمتها

وأساسُ الفضيلة فى الأنوثة الحياء . فيجب أن تعلم الفتاةُ أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجَّمتْ ، أى توقَّحتْ ، أى تبذَّلتْ ، استوى عندها أن تذهبَ يميناً أو تذهب شمالاً ، وتهيأت لكلٍّ منهما ولأيهما اتفق . وصاحباتُ اليمين فى كنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة . وصاحباتُ الشمال ماصاحبات الشمال . . . . . . ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياءُ ، الحياءُ لا غيره . فهل هو إلا وسيلةٌ أعانت الطبيعةُ بها المرأةَ لتسموَ على غريزتها متى وجب أن تسموَ فلا تلقى رجلاً إلا وفى دمها حارسٌ لا يغفل . وهل هو إلا سلْبٌ جمته الطبيعةُ إلى ذلك الايجاب الذى لو انطلق وحده فى نفس المرأة لاندفعت فى التبرج والاغراء وعرض أسرار أنوثتها فى المعرض العام . . . . ؟

قالت : ذاك أردتُ ، فكل ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن فى الطرق ، فلا تعُدَّنه من فَرْط الجمال بل من قلة الحياء

واعلم أن المرأة لا تخضع حقَّ الخضوع فى نفسها إلا لشيئين : حيائها وغريزتها

قلت : يا عجبا ! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية : تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثدييها . فان اختصَّتْ المرأة للحياء كفَّت غريزتها

قالت : وجعلها الحياء صادقةً في نفسها وفي ضميرها ، فكانت هي المرأةَ الحقيقيةَ الجديرةَ بالزوج والنسل وتوريثِ الأخلاق الكريمة وحفظِها للانسانية

قلت : ومن هــذا يكون الاسرافُ في الأنوثة والتبرج أمام الرجال كذباً من ضمير المرأة

قالت : ومن أخلاقها أيضاً . ألا ترى أن أشد الاسراف في هذه الأنوثة وفي هذا التبرج لا يكون إلا في المرأة العامة . . . ؟

قلت : والمرأة العامة امرأةٌ تجاريةُ القلب . فكأنَّ المسرفة في أنوثتها وتبرجها ، هذه سبيلُها فهي لا تؤمن على نفسها

قالت : قد تؤمن على نفسها ، ولكنها أبداً مومسُ الفكر في الرجال فيوشكُ ألا تؤْمَن . وهي رَهنٌ بأحوالها وبما يقع لها ، فقــد يتقدم إليها الجرئُ وقد لا يتقدم ، ولكنها بذلك كأنها معلنةٌ عن نفسها أنها « مستعدة ألا تُؤْمَن » . . . .

قال (ح) : لكن يقال إن المرأة قد تتبرج وتتأنَّث لترى نفسها جميلةً فاتنة ، فيعجبها حسنها ، فيسرُّها إعجابها

قالت : هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذى رأيتَه هنا ، يُنظر إلى نفسه كما ينظر رجل إلى راقصة تتأوَّدُ وتهتزُّ وتترجرج . إن هــذا الرقاص فيه الحركة الفنية كما هي حركةٌ ليس غير ؛ فهو كالميزان أو القياس أو أيِّ آلات الضبط . أما فتنةُ الحركة وسحرها ومعناها من المرأة الفاتنة في وهم الرجل المفتون بها ؛ فهذا كلُّه لا يكون منه شيء في أستاذ الرقص وإن كان أستاذَ الرقص

إن أجمل امرأة تبصقُ بفمها على وجهها في المرآة ، إذا مُحِي الرجلُ من ذهنها ، أو لم يُطلَّ بعينيه من وراء عينيها ، أو لم تكن ممتلئة الحواسِّ به ، أو باعجابه ، أو بالرغبة في اعجابه . فمهما يكن من جمال هذه فانها لا ترى وجهها حينئذ إلا كالدنيا إذا خَلَتْ من العدل . . .

***

قالت : ولكنا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ؟ »

قالت : سأفعل ذلك لموضعك عندي . إن قصتي في الفصل الأول منها هي قصةُ جمالي ؛ وفي الفصل الثاني هي قصة مرض العذراء ؛ وفي الفصل الثالث هي قصــة الغفلة والتهاون في الحراسة ؛ وفي الفصل الرابع هي قصة انخداع الطبيعة النِّسوية المبنية على الرقة وايجاد الحب وتلقِّيه والرغبة في تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد ؛ ثم في الفصل الخامس هي قصة لؤم الرجل . كان محباً شريفاً يُقسِمُ بالله جَهْدَ أيمانِه ، فاذا هو كالمزوِّر والمحتال واللص وأمثالِهم ممن لا يُعرفون إلا بعد وقوع الجريمة .

ثم سكتتْ هُنَيهَةً ، فكان سكوتُها يتمُّ كلامها . . .

وقال (ح) : فما هو مرضُ العذراء الذى كان منه الفصل الثاني في الرواية ؟

قالت : كل عذراءَ فهي مريضة إلى أن تتزوج ؛ فيجب أن يُعلمها أهلها أن العلاج قد يكون مسموماً ؛ وينبغي أن يحوطوها بقريب من العناية التي يحاط المريضُ بها ، فلا يُجعل ما حوله إلا ملائماً له ، ويُمنع أشياءَ وإن أحبها ورغب فيها ، ويُكرَهُ على أشياءَ وإن عافها وصَدَفَ عنها

قال (ح) : فيكون القانونُ الاجتماعيُّ تصديقاً للقانون الدينيِّ من أن الذكورةَ هي في نفسها عداوةٌ للانوثة ، وأن كل رجل ليس ذا رَحِمٍ مَحرَمٍ (١) يجب أن يكون مرفوضاً إلا في الحالة الواحدة المشروعة وهي الزواج

قالت : فتكون المشكلةُ الاجتماعيــة هي : من ذا يُرغم الذكورةَ على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضيعَ الأنوثة ؟

قال : ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جناية « الزواج المزوَّر » فما عسى أن يكون سقوطُ بعض المتزوجات ؟

قالت : هو جناية « الزواج المنقَّح » . . . . تريد أنفسُهن الخبيثة تنقيح الزوج ؛ والمومسات أشرفُ منهن إذ لا يعتدين على حق ولا يَخُنَّ أمانة

***

ورفَّ على وجهها في هذه اللحظة شعاعٌ من الشمس كان

---

(١) يقال ذو رحم محرم أي لا يحل للمرأة كأبيها وأخيها الخ

أحلام السـلام

وكيف انهارت فى خمسة عشر عاما ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان حلماً لم يطل أمده أكثر من خمسة عشر عاماً ؛ ذلك هو حلم السلام الذى توهمت أوربا وتوهم العالم أنه سينعم فى ظله حقبة من الزمن تكفى لبرء ما أثخنه من جراح ، وما أصابه من استنفاد وتخريب وتحطيم . وقد لاح للانسانية مدى حين أنها تستقبل عصراً جديداً من السلام والأخاء الدولى والتفاهم الحسن ، واعتقدت الشعوب مدى حين أن قيام عصبة الأمم ، وعقد مواثيق التحكيم ، والتبشير بنزع السلاح ، إنما هى عناصر جديدة فى بناء العالم الجديد ، وأنها الدعائم الأولى لصرح سـلام جديد لا تزعزعه الشهوات القومية والنزعات الحربية ؛ واستمر هذا الحلم يسطع حيناً ويخبو حيناً ، زهاء عشرة أعوام ، وبلغ ذروة قوته وروعته حينما عقد ميثاق تحريم الحرب الأمريكى ، ونص فيه على أن الحرب قد حرمت كأداة للسياسة القومية ، وتعهدت الدول بألا تلجأ فى تسوية منازعاتها لغير التفاهم والتحكيم

ولكن حلم السلام تبدد فجأة ، فرفعت عصبة الأمم قناعها المموه ، وانهار مؤتمر نزع السلاح ، وظهر أن ميثاق تحريم الحرب لم يكن أكثر من قصاصة ورق ، واختفت أصوات الساسة الذين يستظلون بأحاديث السلام ، وعلت كلمة الداعين إلى التسليح ، وإلى تحطيم المعاهدات القديمة ، وإلى الانتصاف القومى ، وإلى تحقيق المطامع الاستعمارية . ولم يكن هذا التحول مفاجأة لأولئك الذين يعرفون سير التاريخ ، ويستشفون طرف الحقيقة من وراء المظاهر الخادعة ، ولكنه كان بالطبع مفاجأة أليمة للشعوب الآمنة التى ما زالت تحتمل على كاهلها كل عبء وكل تضحية فى سبيل الشهوات السياسية والقومية ، والتى ما زالت ترتجف فرقاً لذكريات الحرب الكبرى

كان مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرساى بين مارس ويونيه سنة ١٩١٩ ، أعظم مؤتمر دولى شهده التاريخ ، وكانت معاهدة الصلح التى تمخض عنها هـذا المؤتمر أعظم معاهدة عقدت بين الأمم ، وأوسعها مدى ، وأبعدها أثراً فى سير التاريخ وفى تغيير أوضاع العـالم الحديث ؛ بل كانت معاهدة فرساى فى الواقع دستوراً جديداً للعالم ، تغير كثيراً من معالمه الجغرافية والتاريخية ، وتقرر حدوداً جديدة ، وتنشئ أمماً ودولاً جديدة ، وتقضى على أمم ودول أخرى بالاختفاء من خريطة أوربا . ولم يكن ذلك لأن هذه الدول الجديدة أكثر حقاً فى الحياة من الدول المختفية ، أو لأن قيامها يكون أكثر تحقيقاً للعدالة الدولية وسير التاريخ ، ولكن لأن قيامها يحقق شهوات عسكرية وسياسية للدول الظافرة ، ولأن اختفاء الأمم القديمة يقضى على وحدات سياسية وعسكرية ضخمة كانت تخشاها الدول الظافرة . وقد عرف التاريخ الحديث كثيراً من هـذه المعاهدات والمؤتمرات الدولية الكبرى التى كانت تغير معالم أوربا ، وتفتتح فى تاريخها عصراً جديداً ، فمعاهدة وستفاليا التى اختتمت بها حرب الثلاثين فى سنة ١٦٤٨ ، ومؤتمر فينا الذى عقد فى سنة ١٨١٤ لتسوية المشاكل والتغييرات التى أحدثتها الحروب النابوليونية ، ومؤتمر برلين الذى عقد على

على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كاشراق الياقوت ؛ ورأتنى أتأمله فقالت : أنا مُنتَشِيةٌ بحظى فى هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيق من حياتها .... وهو رجلٌ يتحفظها ؛ فلما أخذته عينُها ابتسمت له ابتساماً من الذلّ لو لم تجعله هى ابتساماً لكان دموعاً . ثم وقفت وما تماسكُ من الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » . ثم سلّمتْ وودّعت . وبعد « واواتٍ » أخرى ... مشتْ ساكنةً ومَرْآها يضجُّ ويبكى

فوداعاً يا أوهامَ الذكاء التى تلمسُ الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها !

ووداعاً يا أحلامَ الفكر التى تضع مع كل شىء شيئاً يغيِّره !

ووداعاً يا حبّها ....؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعى

إلى ا . ص . بأم درمان . لم يقع لى كتابك الأول ، وأشكرك كثيراً وانتظروا إنا معكم منتظرون الرافعى

أثر الحرب التركية الروسية (سنة ١٨٧٨) ، والذى اسفر عن تمزيق الدولة العثمانية القديمة ، وسلخ معظم أملاكها الأوربية ، كلها أمثلة من هذه المؤتمرات الشهيرة الحاسمة ذات الأثر البعيد فى مصاير التاريخ والأمم ؛ ولكن مؤتمر فرساى كان أعظمها جميعاً وأبعدها أثراً

وقد ظن العالم بعد أن شهد مصائب الحرب وويلاتها المروعة مدى أربعة أعوام ، انه يستطيع أن يعتصم من خطر الحرب بدروسها وعبرها الأليمة ، وان مالقيته الأمم من فظائعها وأهوالها فى هذه الفترة السوداء من تاريخ الانسانية ، كفيل بأن يزهدها فى الحرب وخوضها أمداً طويلاً ؛ وقامت عصبة الأمم لتكون أداة صلح وتفاهم بين الدول المتنازعة ، ونظم مؤتمر نزع السلاح ليعمل على تحديد التسليح إلى الحد الذى يتفق مع السلامة القومية ، وعقد ميثاق لوكارنو ليكون دعامة فى صرح التفاهم بين أعداء الأمس ، وليقرب ما بين فرنسا وألمانيا ، وعقدت بين مختلف الدول مواثيق بعدم الاعتداء ، وكللت دعوة السلام بعقد ميثاق تحريم الحرب ، وغمرت صيحة السلام والتفاهم جو السياسة العالمية مدى حين ؛ ولكن هذه المظاهر الخلابة لم تك إلا ستاراً خادعاً تضطرم من ورائه ضرام الأحقاد والمنافسات القومية الخالدة ؛ فقد كانت الأمم الظافرة والمغلوبة معاً تجد فى مضاعفة تسليحها وأهباتها العسكرية ، وكانت المعاهدات والمحالفات السرية تعقد كما كانت تعقد من قبل ، وتؤلف من الدول جماعات وكُتل خصيمة مثلما كانت بالأمس ؛ وكانت عصبة الأمم أثناء ذلك تنحدر شيئاً فشيئاً إلى أداة لينة فى يد الدول الكبرى توجهها لتحقيق مآربها السياسية أو الاستعمارية ؛ وهكذا وقف العالم فجأة على الحقيقة المرة ، وهى أن هذه الخمسة عشر عاماً التى انقضت على خاتمة الحرب الكبرى لم تكن إلا فترة استعداد واستجمام ، تستعيد فيها الدول نشاطها وتنظم اهباتها ومواردها ، تحفزاً لحرب أخرى

وكما أن الحرب الكبرى كانت فورة المطامع والاهواء الاستعمارية والمنافسات التجارية والصناعية ، فكذلك ستكون حرب الغد ؛ وقد ظهرت بوادرها الأولى ، بل لقد اضرمت شرارتها الأولى بذلك الهجوم البربرى الذى نظمته إيطاليا عن عمد وسبق اصرار لغزو الحبشة ؛ وليس فى تاريخ الاستعمار كله اعتداء دبر بمثل هذا الاصرار الآثم والصراحة المثيرة ، وان كان تاريخ الاستعمار كله يقوم على العدوان والجريمة ؛ وهذه الشرارة التى تضرمها إيطاليا الفاشستية تسطع الآن فى ارجاء أوربا ، وقد يندلع لهيبها بين آونة وأخرى ؛ ولكن إيطاليا الفاشستية تتحدى أوربا كلها والعالم كله ، ولن يضيرها أن تضطرم أوربا غداً بنار حرب عامة ؛ ذلك أنها تذهب بعيداً فى الاعتداد بقوتها واستعدادها وما تثيره فكرة الحرب من الذعر والروع ، وقد أخذت بنفس الأحلام القيصرية التى أخذت بها العسكرية البروسية فى الحرب الكبرى . ولقد كانت الفاشستية منذ قيامها بالنسبة للمثل الانسانية العليا عاملاً من عوامل الدمار والهدم ، فقد هدمت صرح الديموقراطية والنظم الحرة والكرامة الفردية ومبادئ العدالة الخالدة ، وجعلت من الشعب كتلة مصفدة مسوقة ، تدفعها ارادة الطغيان المسلح إلى حيث لا تعلم ولا تبغى ؛ والفاشستية تنزع بطبيعتها إلى العنف والعدوان ولا تعتمد إلا على القوة الهمجية ، كما أنها لا تخضع لغير هذه القوة ؛ وهى تجوز الآن فى إيطاليا — وفى ألمانيا أيضاً — ذروة تجاربها ومغامراتها ؛ وسنرى ما إذا كان هذا الاندفاع الدموى الذى تصوره عقلية الفاشستية المنيفة فى صور العظمة والمجد القيصرى ، سيغدو قبراً للفاشستية أم سيحقق شيئاً من مطامعها وأحلامها

وهكذا تطورت فكرة الحرب والسلام بسرعة ، وعادت فكرة الحرب كأداة للسياسة القومية تتخذ مكانتها الخالدة فى تفكير الأمم القوية ؛ ولم تكن فكرة السلام العام سوى حلم وخدعة ، استظلت بها الدول الظافرة حتى تستر نصرها وتفوقها المسلح ، واستظلت بها الدول المغلوبة حتى تستأنف استعدادها وتسلحها ؛ ولم يكن من المعقول أن يبقى الظافر متغلباً إلى الأبد ، ولم يكن من الممكن أن يبقى المغلوب ضعيفاً مهيضاً إلى الأبد ؛ والآن نجد أعداء الأمس — الغالب والمغلوب — وجهاً لوجه ، يلوح كل منهما بقوته واستعداده ، ويفصح عن مطامعه وغاياته التى كان يسترها بالأمس لضعف فى أهبته ؛ نرى ألمانيا بعد أن

استعادت حريتها فى التسليح وأخذت تستأنف أهبتها العسكرية ، تطالب بتعديل حدودها واسترداد مستعمراتها ؛ ونرى فرنسا تعمل بكل ما وسعت لمضاعفة أهبتها وتوطيد الجبهة التى حشدتها ضد ألمانيا ، ونراها لا تحجم فى هذا السبيل عن مناصرة ايطاليا فى مشروعها الدموى لافتراس الحبشة ، لكى تستبقى صداقتها وعونها ضد ألمانيا فى الغد المرتقب ، ونرى حمى الحرب تسرى إلى جميع أرجاء أوربا ، والدول جميعاً تأخذ أهبتها لمعركة عامة لم يبق على نشوبها إلا مسألة زمنية ، وقد تنشب فى أية لحظة فى أسابيع أو أشهر قلائل

والخلاصة أن العالم ، بعد أن تبدد حلم السلام الزائف يجد نفسه فى نفس الحالة النفسية والواقعية التى كانت فى سنة ١٩١٤ ؛ وبعد أن كان حديث الحرب قبل عامين أو ثلاثة يعتبر مسألة بغيضة بعيدة الاحتمال ، إذا بشبح الحرب الأوربية يحلق فى الأفق واضحاً قوى النذير ، وليس من ريب فى أن الفاشستية تحمل كثيراً من تبعة هذا التطور الدولى الخطر ؛ ولقد كان انهيار الديموقراطية فى ايطاليا وألمانيا وغيرها محنة بعيدة الأثر ؛ ذلك أن الديموقراطية أكثر ايماناً بمبادئ السلام والانسانية ؛ وأما الفاشستية وزعامتها الغاشمة فلا تؤمن إلا بالقوة العنيفة ، ولا تؤمن بحق الفرد أو الأمة ، ولا تسيرها سوى العوامل والشهوات الحزبية والمذهبية الضيقة ؛ وقد عملت الفاشستية باستمرار على اذكاء الأحقاد الجنسية والقومية ، وعلى اضرام روح العدوان والحرب ، وإضرام المطامع والمنافسات القديمة التى كانت من أكبر العوامل فى اثارة الحرب الكبرى ، فهى اليوم تحمل أكبر تبعة فى خلق هذه العقلية العسكرية المتحفزة التى تعمل لاشعال نار الحرب بكل ما وسعت من جرأة واستهتار بكل مبادئ الحق والسلام

إن التاريخ يعيد نفسه بصورة واضحة ؛ ولقد كانت القوة وما زالت خلال العصور عماد السياسة القومية ؛ وليس التاريخ كله سوى مراحل متعاقبة من نضال قوى لا تفوّق فيه لغير القوة الغاشمة ، ولم يتقدم العالم خطوة فى هذا المعنى عما كان عليه فى العصور الوسطى ؛ ولقد كان ممكناً أن تكون عصبة الأمم ومبادئها رمزاً للتقدم فى تقدير الحقوق القومية والسلام العالمى ، لو لم تعرض العصبة منذ بدايتها لتأثير نفس الأهواء بوسائل وأسماء أخرى ، ، ولو لم تنابذها دول قوية كاليابان وألمانيا ، لأنها لم تستطع أن تؤثر فى توجيهها ؛ وهاهى ذى عصبة الأمم تواجه قدرها المحتوم ، فاما أن تستطيع بكثير من الشجاعة والجرأة أن تضرب على أيدى أولئك الذين عبثوا بمبادئها واجترأوا على تعكير السلم ، وأن تنفذ ما اتخذته أخيراً من القرارات الحازمة ، وعندئذ تسترد كل ما فقدت من هيبة ، وترد إلى الشعوب الضعيفة شيئاً من الأمل ، وكثيراً من الثقة ؛ وإما أن يخونها التوفيق مرة أخرى ، فينهار آخر حجر فى صرح التفاهم الدولى ، وتنطلق الشهوات القومية من عقالها سريعة لا تلوى على شىء ، وعندئذ يضطرم العالم مرة أخرى بضرام حرب يعلم الله وحده مداها ومبلغ هولها وروعتها ؟

محمد عبد الله عنان

٥ ـ فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمـــة

تخير فريزر أربعة من النظم الاجتماعية ليبين ما للخرافة من أثر فى نشأتها وتكوينها . وهى : الحكومة ، والملكية الفردية ، والزواج ، واحترام الحياة الانسانية . فأثبت فى وضوح أن الخرافة ساعدت على تأييد الحكومة وبسط نفوذها ، وكانت عاملاً قوياً من عوامل الأمن والنظام . وثبتت كذلك دعائم الملكية الشخصية وصيرتها مقدسة بحيث أصبحت فى مأمن من السلب والعدوان ، واستطاع أصحابها أن ينتفعوا بها تمام الانتفاع . وحاربت الزنا والزناة فدفعت الناس إلى الزواج وحببتهم فى الحياة الأسرية . ثم صورت الخرافة أخيراً الموتى والقتلى فى صورة أشباح عظيمة الهول وأرواح تنتقم ممن اعتدى عليها ، فكان فى هذا ما صرف الناس عن سفك الدماء ودفعهم إلى احترام الحياة الانسانية ؛ وهذه النظم الأربعة هى عماد البناء الاجتماعى بأسره ، إذا اضطرب واحد منها اضطربت له الجمعية كلها . فكأن الخرافة لم تؤثر فى بعض النظم الاجتماعية فحسب ، بل أثرت فى عناصر الحضارة والتقدم على اختلافها . هى شر جاء من طريقه خير كثير ، وخطأ فى ذاتها إلا أنها هدت الناس إلى صواب عظيم . وليس يعنى الجمعية أن تكون مدفوعة إلى الخير ببواعث خيرة بقدر ما يعنيها أن تصل إلى هذا الخير من أى طريق كان وكيفما كانت الدوافع . والأفراد أنفسهم لا يخرجون عن هذا القانون ولا يتعدون هذا النظام ، إذ ما دامت أعمالنا طيبة ، فليس يعنى الغير كثيراً أن تكون نوايانا صالحة . ولئن ملأت الخرافة أدمغة الناس بخزعبلات لا حصر لها وقادتهم إلى أخطر الويلات ، لمن الظلم أن ننسى أياديها فى الترفيه عن الانسانية والدفاع عن المجتمع . وكفاها احساناً أنها هيأت للمعجزة ، والضعفاء ، والجهلة ، وناقصى العقول وسيلة من وسائل العمل الصالح وسلكت بهم سبل الخير . فهى كالعود قد ينقذ غريقاً ، أو كالفنار الضئيل الذى ، وإن لم يتجاوز ضوؤه ظله ، يهدى كثيراً من المارة وعابرى السبيل

تابعنا فريزر فى المقالات السابقة ، وسرنا وراءه خطوة خطوة رجاء أن نعرض صورة كاملة من آرائه وأبحاثه . وعلّ القارئ قد تبين فى هذه الصورة غزارة مادة العالم الانجليزى وسعة اطلاعه وتمكنه من موضوعه . فهو لا يكتفى بأن يدرس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لدى قبيلة أو شعب أو طائفة ، وإنما يستقرى الشعوب ويتتبع الجمعيات على اختلافها : فمن زنوج إفريقية إلى هنود أمريكا ، ومن متوحشى استراليا إلى سكان الهند والصين ، ومن القبائل الهمجية إلى الأمم المتحضرة ، ومن العصور القديمة إلى التاريخ المتوسط والحديث . تشهد أمثلته ، فوق غزارتها ، وحسن اختيارها ، بدقة الملاحظة والتعمق فى البحث . هذا إلى خيال رائع ، وأسلوب جذاب ، وأحكام متواضعة لا زهو فيها ولا ادعاء ، ولا مبالغة ، ولا تهويل ، قد أملتها دراسة هادئة ، واستنبطتها عقلية متزنة . ويكفى للبرهنة على ذلك أن نسرد الفقرة التالية التى ختم بها فريزر بحثه إذ يقول : « ها كم ، سيداتى وسادتى ، دفاعى عن الخرافة الذى قد يعرض تخفيفاً عن هذا المتهم الساقط حين يقف بين يدى القضاة ، ومع هذا سيحكم عليه بالاعدام لا محالة ؛ غير أن هذا الحكم لن ينفذ فى جيلنا الحاضر ، وسيبقى موقوف التنفيذ إلى أجل بعيد . وما أنا إلا محام ـ لا خصم ـ يتقدم إليكم الليلة . وقد كانت محكمة أثينا العليا لا تقضى فى الجنايات إلا ليلاً ، لهذا تخيرت الليل للدفاع عن سلطان الظلام . والآن ، ونحن فى ساعة متأخرة ، يجدر بى أن أختفى مع موكلى الأشأم قبل أن يصيح الديك ، ويبدو ضوء الفجر الرمادى فى الأفق(١) »

وفى دراسة فريزر للخرافة ناحية أخرى جديرة بالتقدير ، ذلك أنه أخذ على عاتقه نصرة قضية يتبادر إلى الذهن بطلانها . يكاد يجمع الناس على أن الخرافة مبعث شر ومثار فتنة ؛ ويأبى فريزر إلا أن يخرج على هذا الاجماع معلناً أن فى باطن هذا الشر خيراً عظيماً وأن الخرافة أساس النظم الاجتماعية الهامة . وقد نجح نجاحاً كبيراً فى اثبات دعواه والبرهنة على ما كان يرمى إليه . بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ما يسميه فريزر خرافة هو فى

(1) Frazer, L' avocat du diable, pp. 294 — 95

رأى معتنقيه دين وعقيدة . فالهمجى يخضع للملوك والحكام خضوع الموقن بسلطانهم الخارق للعادة وهيبتهم الصادرة عن السماء ، ويؤمن بأن مال سيده ورئيسه مقدس فلا يمسه بسوء ، ويعتقد أن الزنا مجلبة للصواعق والجدب والقحط فلا يقربه ، ويخشى الأرواح والأشباح خشية الواثق من وجودها فلا يقتل نفساً ولا يسفك دماً . ولو خالجه الشك يوماً فى هذه المعتقدات ما انقاد لها ، ولو جال بخاطره أنها تمت إلى الخرافة بصلة لنبذها نبذ النواة . نعم إن من الديانات ما هو حق ومنها ما هو باطل ؛ ولكن الفكرة ، صواباً كانت أم خطأ ، متى اكتست بكساء الدين أضحت قوة هائلة وأثرت فى المجتمع تأثيراً نافعاً . ولو لم يكن للأديان إلا هذا النفوذ فى قيادة الشعوب والتأثير فى الجماهير لكفى فى نصرتها والاستمساك بها

ونستطيع أن نأخذ على فريزر — فوق هذا — عنايته بالأمثلة وتعلقه بالحوادث الجزئية أكثر من بحثه عن القواعد الشاملة والقوانين العامة . وهذا نقد يصدق على مدرسة الاجتماع الانجليزية الحديثة بأسرها التى قامت أعمالها أولا وبالذات على الرحلة والمشاهدة دون أن تعير النظريات والضوابط اهتماماً كبيراً ، وقد جاراها فريزر فى هذا التيار . انظر أى كتاب من كتب سبنسر أو وسترمرك أو تيلور الاجتماعية مثلاً تجد أنك تنتقل من مشاهدة إلى مشاهدة ومن مثال إلى آخر ، وقل أن تظفر بقضية عامة أو أصل ثابت . نحن لا ننكر أن هذه الطريقة أفادت علم الاجتماع مادة غزيرة وثروة طائلة ، إلا أن هذه المادة لم تهيأ بعد للتغذية ، وهذه الثروة لما تستثمر . هى مادة أولية « خام » ، ان صح هذا التعبير ، فى حاجة إلى من يستخلص منها روحها وما حوت من أسرار . وقد فطن علماء الاجتماع الفرنسيون — وهم أبعد الناس عن السفر وأرغبهم عن الرحلة — إلى هذا النقص فكملوه ، واستغلوا التجارب والمشاهدات الانجليزية استغلالاً حسناً ، وصاغوا المعلومات الاجتماعية فى القوالب العلمية الحق . فاذا كان علم الاجتماع مديناً لرحالة الانجليز والأمريكان بما فيه من مشاهدات جزئية وحوادث واقعية ، فان الفضل فى كثير من نظرياته وقوانينه يرجع إلى المدارس الفرنسية

ومهما يكن فهناك نقطتان هامتان نخرج بهما من أبحاثنا السابقة فى الخرافة ، أولاهما خاصة بمصر والشرق فى جملته ، وتتلخص فى أنه يسود هذه الديار قدر وفير من الخرافات أشرنا إليها سلفاً . فالخرافة متوغلة فى كثير من معتقداتنا وعباداتنا ، فى عاداتنا وتقاليدنا ، فى آرائنا وأفكارنا . وليس معنى هذا أن أوربا خالية من أية خرافة ؛ كلا فللغرب خرافات كما للشرق ، والجميات على اختلافها لا تستطيع أن تتخلى عن مجموعة من الخرافات ترى فيها غذاء لميولها وأحلامها . ولكن مما لا شك فيه أن الخرافة وجدت بين ظهرانينا مرتعاً خصيباً فنمت وترعرعت . وما أجدرنا بأن ندرس خرافاتنا لنعرف أصلها ونشأتها وصلتها بالخرافات العالمية الأخرى ؛ وبذا نستطيع معالجتها أو مطاردتها والتخلص منها . فخرافة « الزار » مثلاً ظاهرة اجتماعية تتطلب دراسة تاريخية مقارنة فيها كثير من بواعث السرور ووسائل التشويق . وما تخيرنا الخرافة بين الأبحاث الاجتماعية الكثيرة إلا لنلفت الأنظار إلى هذه الأرض الخصبة التى لم تستكشف وهذا العمل الذى لم يبدأ فيه بعد

وقد لاحظنا من قبل اجماع بعض القبائل على اعتناق خرافة ما ؛ وفى هذا ما يؤذن أن للانسانية ، وإن تنوعت بتنوع البيئة والوسط ، تراثاً عاماً يأخذه الخلف عن السلف ؛ وأن الانسان المتحضر ليس إلا صورة مهذبة للانسان المتوحش . نحن فى كثير من آرائنا وعاداتنا وتقاليدنا عالة على من كان قبلنا ، بل تكاد تكون شخصيتنا ونظام تفكيرنا من صنع القرون الغابرة . فلندرس إذن النظم الاجتماعية على ضوء التاريخ ان كنا نريد فهمها على وجهها الصحيح ، لاسيما ونحن مخدوعون غالباً بما ألفناه . فكثيراً ما يلبس الشىء فى أعيننا لباس العقل والمنطق فى حين أنه يعتمد على أساس خرافى وأصل ضعيف . وكم من عمل عادى فردى أو جمعى نقوم به اليوم دون أن نعيره أية أهمية فى حين أنه كان بالأمس ذا صلة بعقيدة خاصة أو عبادة محترمة . وقد تنبه علماء الاجتماع المحدثون إلى هذا فشرحوا لنا أموراً ما كنا نفكر فى سردها وتعليلها . وعلى الجملة فالانسانية أشبه ما تكون بشجرة ممتدة الأغصان مترامية الأطراف قد مرت عليها عصور طويلة وأجيال كثيرة ، ولا يمكن فهم طبيعتها وفصيلتها والمؤثرات فى ثمرتها إلا إن بدأنا بجذورها الأولى وعرفنا كيف نمت وتكونت

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

العامية والعربية أيضاً

ألفاظ صحيحة لم لا نستعملها ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لما فتح العرب مصر لم تكن العربية لغة البلاد ، وإنما كانت لغة القوم خليطاً من المصرية القديمة والأغريقية والرومانية وغيرها ، ثم أخذت العربية تحل محل هذا المزيج ، وبدأت مصر بعد رسوخ الاسلام فيها تساهم بحظ فى النشاط الذى كانت بغداد مصدره ، على خلاف الحال فى إفريقية الشمالية ، حيث كان انتشار العربية بطيئاً جداً ، حتى أنه — إلى القرنين التاسع والعاشر — لم تكن ثم دائرة أدبية تستحق الذكر إلا فى القيروان بتونس ، على حين كانت مصر قد صارت فى القرن التاسع مركزاً لمدرسة تاريخ مستقلة فى العالم الاسلامى . ومما ساعد على رسوخ اللغة العربية فى مصر ونجاتها من العوامل التى كانت تحدث أثرها فى هذه اللغة فى آسيا ، دخول الفاطميين وقيام دولتهم فى مصر ، فقد كانوا أنصاراً للعلم والثقافة ، ومن أجل آثارهم هذا الأزهر الذى ظل بعد خراب نظائره فى آسيا أكبر جامعة اسلامية ، ولا يزال كذلك إلى الآن ؛ فلا عجب إذا كانت عامية مصر أصح من عاميات الأمم العربية الأخرى وأقرب إلى الفصيح

وقد سقت أمثلة فى فصل سابق ، وإلى القراء طائفة أخرى من الألفاظ التى يتوهم الكثيرون أنها عامية ، وهى صحيحة لا عيب فيها

فمن ألفاظ الطعام والآكال وما إلى ذلك :

النشا — شيء يعمل به الفالوذج

القطائف — دقيق يعجن قريباً من الميوعة ويخمر ويحشى بالفستق وما اليه ويقلى

المُرَبَّى — معروفة

القَرَاصيا — الثمر المعروف

الزَّلابِيَةُ — حلواء معروفة

البَسيسة — دقيق يُلتُّ بالسمن ويؤكل ولا يطبخ ، أو يطبخ

الكُرُنب ، أو الكَرَنْبُ ، والقُنَّبيط (تلفظه العامة قرنبيط) والخس ، واللفت ، والفجل ، والكراث ، والاسفاناخ ، والفول ، والحمص ، والباذنجان ، والعدس ، والثوم ، والرِّجلة ، والشبث ، والجرجير ، والسلق ، واللوبيا ، والقلقاس ، والكرفس ، والقرفة ، والدّارصينى ، والقرنفل ، والكراويا — وهى جميعاً معروفة

قرّصت العجين — بسطته بالتقطيع لتجمله أرغفة

الفرن — ما ينضج فيه الخبز

الطابون — من طين النار دفنها لئلا تُطفأ ، والموضع الطابون والعامة فى مصر يؤنثون اللفظ

الرُّقاق والكعك — معروفان

قَشْشْتُ الشيء — أخذته بأجمعه

التمطُّق بالشفتين — أن تحدث صوتاً وأنت تضمهما وتفتحهما

الكوز — والجمع كيزان وأكواز

المسعور — الحريص على الأكل

الطبق — ما يؤكل عليه

الرائب — اللبن إذا خثر

الرُّوبة — الخميرة فى اللبن

مَخَضُ اللبن — أخذُك زبده

تَجَبَّن اللبن — صار كالجبن

الحالوم — الجبن الطرى

العُلبة — معروفة

زهمت يدك — صارت فيها رائحة الشحم ، والزُّهومة ، ريح اللحم السمين إذا أخذ يفسد

ومن ألفاظ البيت التى يستعملها العوام وهى صحيحة :

الدهليز — ما بين الباب والغرف

الرُّواق — يستعمل فى مصر للحجرة الكبيرة الواسعة

الصحن — وسط الدار

الرف — معروف

الكنيف — المرحاض

الصفة فى البناء — معروفة

الدكة — للقعود

الاصطبل ــ للدواب

الحارة والشارع والزُّقاق ــ معروفة

المصطبة ــ مكان للجلوس

المِدْماك ــ الصف من اللَّبِن فى البناء

الطيَّان ــ الرجل الذى يصنع الطين للبناء

البلاط ــ الحجارة تفرش بها الأرض

العَتَلة ــ حديدة طويلة تقلع بها الحجارة

الزِّيج ، والامام ، خيط البناء

الرَّزَّة ــ حديدة يدخل فيها القفل

الخوخة ــ الكوة فى الجدار أو فى الباب

العريش ــ الظلة من شجر أو نحوه

الحصير ــ نسيج من القش معروف

النُّخ ــ بساط خشن معروف

المِخدة ــ الوسادة للرأس

المسند ــ الوسادة يُستند عليها

الخُرْجُ ــ جوالق ذو ناحيتين

الدُّرج ــ ما تحفظ فيه الأشياء الصغيرة

القنينة ــ إناء للشرب

الشباك ــ النافذة

***

إن اتخاذ هذه الألفاظ وما إليها ، فى مواضعها ، يمنع التكلف الذى يجعل اللغة غريبة ، وينفى ما تقرر فى النفوس من أن لنا لغتين : واحدة نكتب بها ، والأخرى نستعملها فى الكلام

ويأخذ الطريق على الذين يدعون الى اتخاذ العامية لغة للكتابة ، فان كل حجتهم هى أن العامية هى لغة السواد ، وأن العربية أجنبية ، ومتى ثبت أنهما شىء واحد ، فقد سقطت الحجة

وليس من همى الاستقصاء ، وما أريد إلا أن أنبه الى أن درس العامية واجب ، وأن من العبث والتكلف الذى لا موجب له ، أن نبحث عن ألفاظ وهى على ألسنتنا كما تكلمنا

ابراهيم عبد القادر المازنى

تنبيه : وقع خطأ مطبعى فى المقال السابق ، فظهر كلمة شل (وهى باللام) ومعناها خاط خياطة خفيفة ، بالكاف فوجب التنبيه

النقــــد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثت إليك فى فصل سابق عن البيان اللفظى ومنزلته من الشعر ، وأنه من أهم ما تتفاوت به الشعراء فى مراتبهم ، وتتمايز به درجاتهم ، كما تحدثت عن الاختلاف بين لغة الشعر والكتابة والخطابة ؛ واليوم أتحدث إليك فى المعنى ، فان المعنى هو قِوام الشعر ، والعنصر الأول من عناصره ، بل هو الشعر نفسه ؛ وما حرصنا على تحسين الألفاظ وتجميل العبارات إلا ليظهر المعنى فى صورة فاتنة تجعل القلوب أشد قبولاً له ، وأقوى تأثراً به ، وينطبع فى أذهان الحفَظَة والوعاة ، ويخلد على ألسنة الرواة ؛ فلا ينال منه تعاقب الزمن ، ولا تمحوه عوادى المحن ؛ وتلك هى ميزة الشعر التى اختص بها من دون النثر ، وإلا فقد كان النثر كافياً فى تأدية المعنى وإفهام الغرض ؛ وكما أن الأصوات الغنائية المعروفة الآن بالأدوار لا تعمل عملها فى النفس إذا تليت على الأسماع كما تتلى الرسائل ، وألقيت كما تُلقى الخطب ، بل لابدّ من جريانها على قواعد الفن الموسيقى الجميل ، وأدائها بالصوت العذب الرخيم حتى تبلغ فى النفوس أثرها ، وتفعل فى المشاعر فعلها ، فكذلك المعانى الشعرية لا بد فى تأديتها من حُسْن الألفاظ ، وعذوبة العبارات ، وجزالة التراكيب ، وقوة النَّسْج واطّراده ، وما إلى ذلك مما سأذكره بعد فى هذه الفصول ، ليكون أثرها فى القلوب أبلغ ، وعملها فى النزعات والميول أقوى ؛ وكما أن سوءَ الطبع والتحريف ، وكثرة الخطأ والتصحيف ، وتعمية الخط ، ورداءة الورق فى بعض الكتب قد تذهب بما حوت صفحاتها من علم غزير وفضل كثير وبحوث دقيقة وأفكار عميقة ، فلا غرابة أن يذهب ســـوء التأدية وضعف النسج والابهام فى العبارات ، والاسفاف فى الألفاظ ، بما يريده الشاعر من أغراض سامية ومعان جليلة ؛ بل إن الصلة بين المعانى والألفاظ اشدّ وأقوى من الصلة بين الألفاظ والكتابة ، إذ المعانى لا تؤدّى بدون العبارات ، وقد تؤدّى الألفاظ مشافهة بدون كتابة . وقد غفل أو تغافل أو عجز عن ذلك بعض الشعراء فى عصرنا ، فاعتبروا المعانى كل شىء فى الشعر ، على ما فى معانيهم من الضعف والمسخ

وسوء تناولهم إياها ، وقصور شاعريتهم عن تحويل المعنى الأصلى إلى معنى شعرى ، وقلة خبرتهم بكيفية وصفها فى الشعر ، وما إلى ذلك مما سأحدثك به عند الكلام على المعانى ؛ ولم يعنوا بالألفاظ أقل عناية ، موهمين أنفسهم وغيرهم من قصار النظر أن بيان الألفاظ ، وإشراق العبارات ، ومتانة النسج ، والبلاغة فى الأسلوب ، وإجراء الشعر على سنن الشعر العربى ، أنواع من التزيين والتحلية والزخرف الذى مضى عصره ، وانقضى زمنه ، وذهب به العصر الجديد ، ومحته آية التجديد ؛ فملأوا الصحف والدواوين بشعر لا صلة بينه وبين الشعر العربىّ إلا الصلة العروضية فى الوزن والقافية ؛ على أن بعضهم قد يتركهما مبالغة فى التجديد ، محتجاً بأن ذلك نوعٌ من التقييد ؛ على أنهم بعد أن أطلقوا الألسنة والقرائح من قيودها المزعومة ، لم يأتوا بالمعجب المطرب فى معنى ولا لفظ ، ولم يبتكروا غريباً فى تشبيه ولا خيال ، ولم يخترعوا جديداً فى تصوير عاطفة ولا إحساس ؛ وإنك لتقرأ ديوان أحدهم من ألفه إلى يائه فلا تظفر منه ببيت يعلق بذهنك فتعيده ، ولا معنى يملك لبّك فتستجيده ؛ وسبب ذلك يرجع إلى أنهم لم يقرأوا من الأدب العربىّ القديم ولا من علوم العربية ما يقوّمون به ألسنتهم ، ولم يتعلموا من فحول الشعراء المتقدمين ما يهذبون به معانيهم قبل وضعها فى قالبها الشعرىّ ، ويميزون به بين المعنى الشعرىّ وغيره من معانى الكتابة والخطابة ، فانه مما لا ينازع فيه ذو ذوق فنىّ دقيق أن المعنى الواحد تختلف صوَره باختلاف تأديته فى هذه الصناعات الثلاث ، وأن الشعر والكتابة والخطابة كما تختلف فى ألفاظها وعباراتها تختلف فى تصوير معانيها وأغراضها ، فان الخطيب لا يعمد فى تصوير معانيه إلى خلودها على مرّ العصور ، وبقائها محفوظة فى الصدور ، ولكن يقصد إلى نوع من الاثارة الوقتية يلهب بها حميّة الجمهور إلى ما يريده من الأمور ؛ فاذا فترت همم الجمهور بعد ذلك الموقف لجأ إلى خطبة أخرى وهكذا ، ففن الخطيب فنٌّ وقتىٌّ لا فن خالد ، ولذلك لم ينقل الرُّواة الينا من خطب الأوّلين ومواقفهم فى المخاصمات والمصالحات وفى حضرة الخلفاء والأمراء ما يوازى كلُّه ديواناً واحداً من دواوين الشعراء ، ولا مجموعةً واحدةً من رسائل الكتّاب . أما الشاعر والكاتب فانهما يقصدان فى تصوير معانيهما إلى خلودها وبقائها ؛ والفرق بينهما أن قصدَ الشاعر إلى تخليد أثره أكثر ، وحرصه على بقاء فنّه أقوى ، فهو يضع فى معانيه وألفاظه من جمال التصوير وروعة الفن ما يرى أنه كفيل ببقاء شعره وحياته على الزمن ولذلك كانت رواية الشعر أشيَع ، وما نُقل إلينا منه أكثر

وأيضاً فان الكاتب والخطيب يبالغان فى تقرير المعنى وتأكيده فى الأذهان باكثار الأمثلة وذكر الأشباه والنظائر إلى حدّ الاستقصاء أحياناً ؛ أما الشاعر فيقتصر من ذلك على قدر الحاجة ، فان الشعر ضيّق لا يحتمل ذلك الطول ، بل يراه فى بعض الأحيان نوعاً من الفضول . وثم فرق ثالث هو أن الخطيب يراعى فى تصوير معانيه أن تكون سطحية بسيطة ، قريبة الغور ، سريعة إلى الفهم ، فانه يوجهها إلى عقلية بسيطة هى عقلية الجماعة ؛ وكما أن هذه العقلية سريعة القياد ، فهى سريعة الجموح ، لا يؤمن نِفارُها ؛ وما أقرب انصرافها وإعراضها عن الخطيب إذا رأت فى معانيه ما يكلفها مشقّة الفهم وعناءَ الفكر ، ولذلك يعتمد الخطيب فى خطبته على الصوت والالقاء وملابسات الموقف أكثر من اعتماده على غرابة المعنى وعمق الفكر

أما الكاتب والشاعر فيغربان فى معانيهما ما شاءا ، ويتعمقان فى ذلك ما أرادا ؛ تلك هى بعض الفروق بين المعانى فى الصناعات الثلاث ؛ فاذا رأيت فى إحدى هذه الصناعات بعض الميزات الغريبة عنها فهى مستعارةٌ من غيرها لا أصليّةٌ فيها ؛ ولا غرابة فى أن ترى الشاعر خطيباً أو كاتباً فى قصيدته ، ولا أن ترى الكاتب شاعراً أو خطيباً فى رسالته ، ولا أن ترى الخطيب شاعراً أو كاتباً فى خطبته ؛ وإنك إذا قرأت شعر ابن الرومىّ وجدتَ فيه كثيراً من تقسيمات الكتاب وتعليلاتهم والاستدلالات المنطقية ، والاحتجاجات الملزمة للخصم ، كقوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

وقوله يخاطب صديقاً :

قد حلفنا على الوفاء جميعاً ... واجتهدنا وذاك جهد المطيق
فبأى الأحكام توجب تصديـ ... ـقك حتما ولا ترى تصديقى
وبأى الأحكام قولك برها ... ن وقولى من خُلّبات البروق
ليس فى العدل أن تحكم فى قو ... لك فارجع إلى سواء الطريق
مامن الدعوبين إن ضِقت دعوى ... غير محتاجة إلى تحقيق
ولنا إن رددت ما تدّعيه ... ردُّ ما تدعيه ، ضيقاً بضيق

٥ ـ الشعــــر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم احمد حسن الزيات

شعر الشيعة

ورث علىّ بن أبى طالب بحكم مولده وَمرباه مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ، وبلاغة الوحى ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه ؛ حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين فى هذه العاطفة ، فقد قال فيه الكاتب الانكليزى كارليل : « أما ذلك الفتى علىّ فلا يسعك إلا أن تحبه ؛ ركب الله فى طبعه النبل منذ الحداثة ، وتجلى فى خلاله الكرم طوال عمره ، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس ، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث ، وكل ذلك فى رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية » ثم سار علىّ فى خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق ، فما قارف الأثرة ، ولا حاول الفرقة ، ولا راقب الفرصة ، ولا أثار العصبية ، ولا استخدم المال ؛ وإنما أخلص النية للممرين ، ومحض النصيحة لعثمان ، وأعذر بالحجة لمعاوية ؛ ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد ، ولم تَعُد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية فى الشام ، وثراء الرافدين فى العراق ، فانتشر أمره ، وانصدعت خلافته ، ثم قُتل مظلوماً فى محرابه ؛ فكان محياه ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدة . ثم ورّث بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا الجد العاثر ، فدب الموت للحسن سراً فى كأس مذعوفة ، وقتل الحسين قِتْلة لا يزال يرعد من هولها الدهر

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى ، وافتَنَّتْ المنايا الرواصد فى اختلاج بنى علىّ ، وهم يقابلون هول الفوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس ، وتخللت محبتهم قلوب المسلمين ، ولا سيما الشيعة . فان ندم هؤلاء على خذلانهم إياهم ، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم ، رفعا فى نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة ؛ ثم ظهر ذلك الحب فى صور من العقائد : فقالوا بالوصية ، وجعلوا الامامة من أصول الدين ، وحصروها فى علىّ وبنيه ، وطعنوا فى إمامة الشيخين . ولم يتهيأ لهم السلطان ، ولم تسمفهم القدرة ، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب ، وتصوير الآلام ، وإعلان الفضائل ، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة . على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة فى شعر أوائل الشيعة وضوحها فى شعر الأواخر منهم ، فان تغلغل الفكرة فى أصل العقيدة ، وتنكيل الحاكمين بآل البيت ، واضطهاد الولاة للشيعة ، إنما تدرجت قسوةً وقوة مع الزمن ، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة فى هذا العصر لافساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب ؛ فشعرهم بدأ ولاءً صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وهجاء مراً ، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية . ولعل ذلك

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر حديثاً

وقوله يعاتب صديقاً لم يحفظه فى مغيبه وعاب شعره :

لى صاحب قد كنتُ آمل نفعه ... سبقت صواعقه إلىّ صبيبه

إلى أن قال :

نبئت قوماً عابنى سفهاؤهم ... وشهدت مجلسهم وكنت خطيبه

عابوا وعبتَ بغير حق منطقاً ... لو طال رميك لم تكن لتصيبه

وهب القضاء كاقضيت ، ألم يكن ... فى محض شعرى مايجيز ضريبه

هلا وقد ذُوِّقت دَرَّ قريحتى ... فذممت حازرَه حمدت حليبه

بل هبْه عيباً لا يجوز ، ألم يكن ... من حق خِلك أن تحوط مغيبه

وديوانه مملوء بمثل هذا الشعر الذى هو أقرب إلى رسائل الكتاب منه إلى قصائد الشعراء . أما الكتاب الشعراء فى نثرهم فمنهم المرحوم أحمد شوقى بك فى كتابه أسواق الذهب ، والزمخشرى فى أطواق الذهب ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فى رسائله الكثيرة المملوءة بها كتب الأدب

أحمد الزين

يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة . فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلى :

يقول الأرذلون بنو قشير   طوال الدهر لا تنسى عليًّا !
بنو عمّ النبي وأقربوه   أحبُّ الناس كلهم إليّا
أُحِبهم لحبّ الله حتى   أجئ إذا بُعثت على هَويا
فان يك حبهم رشداً أُصبْهُ   ولست بمخطئ إن كان غيًّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدى :

نهارُكم مكابدة وصوم   وليلكُم صلاةٌ واقتراء
أأجعلكم وأقواماً سواءً   وبينكم وبينهم الهواء ؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم   لِأرْؤُسِهِمْ وأعينهمْ سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر   مغلغلةً من الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ   وترضى أن يقال أبوك زانى ؟
فأشهد إن رحمك من زيادٍ   كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً   وصخر من سُمَيّة غير دانى

وقول عبد الله بن هشام السلولى فى يزيد بن معاوية :

حُشينا الغيظ حتى لو شربنا   دماء بنى أميـة ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم   تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت فى الخلافة :

يقولون لم يورث ولو لا تراثه   لقد شَرِكت فيه بجيل وأرحبُ
ولا انتشلت عضوين منها يُحابرٌ   وكان لعبد القيس عضو مؤرّب
فان هى لم تصلح لحى سواهمُ   إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتّت جمعُه   وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها   وجُدَّ بها من أمة وهى تلعب !

ويكاد الكميت بن زيد الأسدى بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبنى هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أُرجح إلى التّقيّة فى شعره على عادة الشيعة ، فقال من كلمة يمدحه فيها :

فالآن صرتُ إلى أميّـة والأمور إلى المصائر
يا ابن العقائل للعقا   ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا   بر من أمية فالأكابر
لكم الخلافةُ والألا   ف برغم ذى حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فان عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس فى عهد بنى العباس نفثات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات ألم ، فى شعر السيد الحميرى ، ودعبل الخزاعى ، وديك الجن ، ومطيع بن إياس ، وأبى الشيص ، والمكوّك ، وأضرابهم

شعر الخوارج

وأما الخوارج — وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج — فقد قام أمرهم على الصلابة فى الرأى ، والمكابرة فى القول والاشتطاط فى الحكم ، والتشدد فى الدين ، والغلو فى العبادة ، والقسوة فى المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايعوا عليًّا وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حكّمتَ الرجال ولا حكم إلا لله ! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، ونقض ما عاهد معاوية عليه ، فأبى عليهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك فى حنقهم عليه وخلافهم له فائتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، فخطأوا بعضاً وكفّروا بعضاً ؛ ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح فى غير قريش وفى غير العرب ، وأن العمل جزء من الايمان ، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون مواربة ولا تقية ولا هوادة ؛ فكانوا فى الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشارى : « أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ؛ قد أكلت الأرض أطرافهم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ؛ فاذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قُدُماً حتى اختلفت رجلاه فى عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فاذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول : « وعجلت اليك ربّ لترضى »

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم ، فلا يرحمون ضعف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الهرم ، ولا وشائج الرحم ، لأنهم — كما ظنوا — باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماتوا عواطف الدنيا ، وقاتلوا وقُتلوا فى سبيل هذا المذهب

وتلك الغاية . وهم لصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم ، وما تقتضيه دعوتهم من ادمان الحِجاج والمناظرة ، أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتنهم شعراً ؛ ولـكن الشعر كان عندهم فى المحل الثانى من الخطابة ، لقيام أمرهم على الاقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ، وغناء الشعر فى ذلك قليل . فاذا ما صمد الخارجى إلى الخصم ، أوهجم على الموت ، أو وقع فى الأسر ، جاشت نفسه بِتنين الرجز ، أو رصين القصيد ، يضمنه وصفه للحرب ، وولهه للقتال ، وزهده فى الحياة ، واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وظمأه إلى الجنة ، فى لفظ جزل وأسلوب قوى ؛ وقلما يدور شعرهم على غير ذلك . فمن الرجز قول أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنـــه وغسله
ألاَ فتى يحمل عني ثقله !

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئٍ ... شرى نفســه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئٍ منكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فانها ... أقامتكمُ للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القُصيرى دارعا غير أعزلا
فيا رُب جمع قد فللت ، وغارة ... شهدت ، وقِرْنٍ قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم يَنجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده ... له السـعادة من خلاقها البارى

وقوله :

وأمسى شهيداً ثاوياً فى عصابة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تُقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف

وكقول قَطَرِى بن الفجاءة فى يوم دولاب :

فلم أر يوما كان أكثر مَقعصاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم

فلو شهـدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء ، لاعتمادهم فى الجدل على الخطابة ، وفى القراع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم فى الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلـكم بآسِكَ أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولـكن الخوارج مؤمنونا
هى الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان فى هجاء الامام :

لله در المرادى الذى سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق انسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القَعَدة لضعفه عن الحرب لـكبر سنه فجاهد بلسانه

الزيات

من نوادر المخطوطات

أثر أدبي فــــذ !

اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي

للأستاذ علي الطنطاوي

أطلعني على هذه الرسالة صديقي الشاعر الأديب السيد أحمد عبيد ، أحد أصحاب المكتبة العربية العامرة بدمشق الشام ، فرأيتها رسالة عجيبة ، وتحفة أدبيــة غريبة ، ورأيت فيها فناً من فنون الأدب العربي لا يعرفه الناس ودليلا على بعد الغاية التي بلغها أدبنا ، ورأيت فيها جمالا ولذة ، ووجدت فيها نفعاً وفائدة ، فأحببت أن أتحف بها قراء الرسالة ، فتكون لهم أفكوهة وللأدب خدمة ، بتسجيل هذا الأثر الجليل من آثاره الضائعة في الرسالة (السجل الأدبي الخالد)

صلاح الدين ، أبو الصفا ، خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤) أحد أئمة القلم والأدب في عصره ، « مهر في فنّ الأدب ، وكتب الخط المليح ، وقال النظم الرائق ، وألف المؤلفات الفائقة ، وباشر كتابة الانشاء بمصر ودمشق ، ثم ولي كتابة السرّ بحلب ، ثم وكالة بيت المال بالشام ، وتصدّى للافادة بالجامع الأموي ، وحدّث بدمشق وحلب وغيرهما . ذكره شيخه الذهبي في المعجم المختص ، فقال : الامام العالم الأديب البليغ الأكمل ، طلب العلم وشارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمدّه بتوفيقه ، سمع مني وسمعت منه ، وله تآليف وكتب وبلاغة » (١)

قال شيخ الاسلام التاج السبكي (٢) :

(خليل بن أيبك) الشيخ صلاح الدين الصفدي الامام الأديب الناظم الناثر أديب العصر : ولد سنة ٦٩٦ وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين ، وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً ، وعني بالحديث ، ولازم الحافظ فتح الدين بن سيد الناس وبه تمهر في الأدب ، وصنف الكثير في التاريخ والأدب . قال لي : إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً

(١) شذرات الذهب (٦ — ٢٠١)
(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦ — ٩٤)

ومن مؤلفاته الوافي بالوفيات ويكاد يكون أجمع كتب التراجم (١) . ومن مؤلفاته المطبوعة نكت الهميان في نكت العميان ، والغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، وجنان الجناس في الأدب ، ودمعة الباكي ، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (وهي غير الرسالة التهكمية التي شرحها ابن نباته) ووصف الهلال وغيرها (٢)

أما هذه الرسالة التي نتكلم عنها ، فلم أجد من ذكر أنها له ، ولكني لا أشك في أنها إن لم تكن له ، فلن تكون إلا لأديب كبير ، وعالم متمكن ، ولغويّ محقق ، وهي في شرح بيتين من الشعر . . . شرحهما المؤلف شرحاً مستفيضاً ، حلاه بالنكات اللغوية والمسائل النحوية ، والطرائف الأدبية ، والآراء الفلسفية ، وزينه بالحكم الباهرة ، والأمثال السائرة ، واستشهد على كل مسئلة من مسائله بأقوال العرب . . . ولكنه — وتلك ميزة هذا الكتاب — تعمّد ألاّ يأتي إلاّ بما هو خطأ محرّف عن أصله ، معدول به عن جادة الصواب ، ممال به عن سبيل الحق : فلا بيت ينسب إلى صاحبه ، ولا كتاب يعزى إلى مؤلفه ، ولا مسألة تورد على وجهها ، ولا بلدة توضع في موضعها ؛ وقد أورد ذلك كله بحذق ومهارة ، ولباقة وظرف ، حتى أن الرجل ليتلوه فيحسّ لحلاوة ما يقرأ أنه لا يقرأ إلا حقاً وصدقاً ، وما فيه من الحق والصدق شيء

ولا يقدر على الخطأ الذي لا صواب فيه ، إلا من يقدر على الصواب لا خطأ معه . يحتاج كلاهما إلى علم بمواقع الخطأ ووجوه الصواب ، وانتباه وفطنة ، واطلاع ومعرفة ، كيلا يخلط خطأ بصواب ، أو صواباً بخطأ . والرسالة على ما فيها من الهزل والتحريف ، تدلّ على طول باع مؤلفها في علوم اللسان ، وعلوم العقل ، ووقوفه على آراء الفلاسفة ، وآثار الأدباء ، ومباحث العلماء ، ولا تخلو من فوائد

* * *

وهي ناقصة من وسطها وآخرها ، والموجود منها (٥٣) صفحة ، في كل صفحة (١١) سطراً ، مكتوبة بخط قريب من

(١) راجعت بعض التراجم في بعض الأجزاء الفوتوغرافية ، في دار الكتب المصرية العامرة فوجدته قد جمع فأوعى ، ولم يدع بعده مجالا لقائل
(٢) عن الأعلام للزركلي

النسخى ، مضبوط قليل الأخطاء ، يدل على علم ناسخه . وليس في الرسالة تاريخ ، ولكن ورقها من الورق الذى بطل استعماله من ثلاثة قرون ، فكأنها مكتوبة فى القرن التاسع أو العاشر على الصفحة الأولى منها :

كتاب اختراع الخراع
تأليف المولى الأجل الفاضل
العلامة فريد دهره ووحيد
عصره صلاح الدين أبى الصفا
خليل بن أيبك الصفدى
رحمه الله تعالى

للشيخ عبد الجواد :

بدا لابن أيبك فى عصره ... كساد العلوم وخبث الطباع
وأن الأماثل قد أصبحوا ... هباء يطار بهم فى الشعاع
وأن كثيراً كالأُنهم ... دعاوى أحاديثها فى انقطاع
فجرّ بأفعاله رأيهم ... وأتحفهم باختراع الخراع

وعلى الرسالة تعليقات لطيفة ، وتنبيهات شريفة

***

وأول الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو خرافة ، الهدّ القشيرى ، سامحه الله تعالى : حضرت فى بعض أوطان أوطارى ، وأوكار أفكارى ، مع جماعة الخ ..

فابتدر أحد ظرفائهم فأنشدنا بيتين الخ . . . وهما

لو كنت بكنوت امرأة جارية الفضل
وكان أكل الشعير فى البرد مَلْبَسكو
لا بدّ من الطّلوع إلى بئرك فى ... الليل وظلام النهار متضحٍ آ

فأخذ الجماعة فى الاعجاب ، مما اتفق فيهما من اختلال النظم ، واختلال القافية ، وعدم الاعراب ، وخلاف أوضاع اللغة ، وتناقض المعنى وفساده ، والتخبيط فى التاريخ ، وقضوا نهارهم يتعاطى كؤوس العجب من ذلك

فقال أحدهم : الا إنهما محتاجان إلى شرح ينخرط معهما فى سلك الغريب ، ويبرز فى مظهرها العجيب !

فالتزم بمض من حضر الخ ... وصبّحهم وقد أعمل فى الشرح حيلته ... فقال :

حدّثنى نصير الدين أبو الهزايم ثابت [1] ، قال حدثنى من كتابه أصيل الدين أبو المفاخر لقيط القطربى ، وقيل القرطبى ، قال أخبرنى اجازة أسد الدين أبو ثور صقر الفنحكردى من أهل دمشق ، قال : إن افتخار الدين سبكتكين القُسَهتانى صاحب زهر الآداب ، قال : عارض هذين البيتين الأفوه الأودى أبو على ، على ماذكره الحريرى فى الخطب النُباتية [2] فى قوله :

وإذا نظرت إلى الوجود بعينكم ... فجميع مافى الكائنات مليح [3]

وهذا من قصيدته الطردية فى التشبيهات ، وأولها :

وأنت ياغصن النقا ... ما أنت من ذاك النمط [4]

وزعم مؤيد الدولة أبو خاذل أيدكين الجواليق ، صاحب المديح المأمونى ، فى كتاب الصادح والباغم ، فى باب المراثى انهما من باب قول الثعالبى :

لو كنت شاهين جارية الفـ ... ـضل وكان الحريم منزلك
لابدّ الخ ...

وليس بشىء والصحيح الأول [5]

قال الشارح عفا الله عنه : نبدأ أولاً بما فى البيتين من اللغة وثانياً بما فيهما من الاعراب ، وثالثاً بما فيهما من التاريخ وتقدير المعنى ، ورابعاً بما فيهما من البديع ، وخامساً بالكلام على ما يتعلق بعروضهما ، وسادسا بما يتعلق بعلم القافية

القول فى اللغة :

قوله بكنوت : هو علم مركب من اللغة العربية والتركية ، فبك بالعربى وتوت بالتركى ، ومعناها أمير توت مثل دمرطاش ومروان وقراحاً وما أشبه ذلك ، ومن قال إن معنى ذلك بالعربية أمير النيروز فلا يتأتى له ذلك إلا إن كان النيروز فى شهر توت على ماذكره السخاوى فى سمع الكيان [6]

قوله امرأة : المرأة مشتقة من المرآة ، وهى التى يرى الانسان فيها وجهه إذا كانت فى جيبه أعنى السراويل ، وكقول الأخطل :

(١) تأمل فى التناقض بين نصره الدين وكونه أبا الهزايم

(٢) صاحب زهر الآداب أبو اسحاق الحصرى ، والأفوه الأودى من شعراء العرب ، وأبو على القالى صاحب الأمالى ، والخطب لابن نباته ..

(٣) من شعر أرباب الوحدة ... (٤) من شعر البهاء زهير

(٥) الصادح والباغم لابن الهبارية ، وليس فيه مراث ، والثعالبي هو صاحب يتيمة الدهر وغيرها ، والبيتان من شعر ابن الحجاج

(٦) السخاوى معروف ، وسمع الكيان كتاب عارض فيه محمد بن زكريا الرازى الطبيب كتاب أرسطو الطبيعى

ما أخذ المرآة فى كفه ... ينظر فيها للجمال المصون
إلا رأى الشمس وبدر الدجى ... ووجهه فى فلك يسبحون (١)

قوله جارية فيها قولان ، منهم من قال : هى الساقية لأنها تجرى من أسفل إلى فوق ، واستشهد بقول الحطيئة :

نديمتى جارية ساقية ... ونزهتى ساقية جاريه
جارية أعينها جنة ... وجنّة أعينها جاريه (٢)

ومنهم من قال هى فى مقابلة المملوك ، واستشهد بقول العكوّك :

أيا بديع الجمال رقّ لمن ... ستر هواه عليك مهتوك
دموعه فى هواك جارية ... وقلبه فى يديك مملوك (٣)

وهذا باطل ببديهة الانسان

قوله الفضل : هو كل شىء ناقص ، ومنه سمّى عبد الرحيم كاتب مروان بالفاضل لأنه كان قصيراً (٤) ، وفى أمثال بزرجمهر لأمر ما جدع قصير أنفه (٥) . قال التلعفرى :

ضعاف الطير أطولها جسوماً ... ولم تطل البزاة ولا الصقور (٦)

قوله كان : معلوم أنها للاستقبال وسيأتى الكلام عليها فى الاعراب

قوله أكل : هو الحالة المؤدية إلى الجوع لمن هو شبعان الخ ..

قوله الشمير : معروف أنه من فواكه الآدميين ؛ ولا يوجد إلا فى جزرات الهند بالمغرب فى الليل دون النهار صيفاً . قال ابن الساعاتى :

جارية لم تأكل المرققا ... ولم تذق من البقول الفستقا

ومن استشهد فى هذا بقول ابن الفارض يصف رجلاً من الأكراد كوسجاً :

إن تطل لحية عليك وتعرض ... فالمخالى معروفة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلا ... ة ولكنها بغير شعير (٧)

(١) الأخطل معروف ، والبيتان لابن سناء الملك
(٢) الحطيئة معروف ، والشعر لشرف الدين شيخ الشيوخ
(٣) العكوك هو على بن جبلة من شعراء العصر العباسى . والبيتان كأنهما لمحيى الدين بن عبد الظاهر ..
(٤) عبد الرحيم هو القاضى الفاضل كاتب السلطان صلاح الدين وكاتب مروان إنما هو عبد الحميد الكاتب
(٥) بزرجمهر حكيم الفرس والمثل من أمثال قصة الزباء المشهورة ..
(٦) التلعفرى شهاب الدين متأخر ، والشعر للعباس بن مرداس
(٧) ابن الساعاتى بهاء الدين بن رستم من شعراء صلاح الدين ، والبيت من شواهد كتاب سيبويه ، وابن الفارض معروف ، والشعر لابن الرومى ..

فليس من التحقيق فى شىء والمبنى على الأول

قوله البرد : هذا معروف أيضاً عند الأساكفة فى الشام وأظنه نوعاً من الأطلس الحريرى . قال امرؤ القيس فى معلقته الطائيـة :

قالوا حريراً كان وجه حبيبه ... ونرى مسوح الشعر فوق الأطلس
جهلوا معانى حسنه مع علمهم ... أن الحرير كلاه بالقندس (١)

ومن قال إنه نوع من المدينى وأنشد الخ .. فليس بشىء لأن المدينى نوع الخ .. والأطلس إنما هو فلك القمر خلافاً لأبى تمام فانه فى الخطب النباتية زعم أنه الفلك الذى له الحركة القمرية الخ .. وهذا رأى المشائين . والرواقيون خالفوهم والعمدة فى اللغة على أقوالهم (٢) (إلى أن قال) :

لابدّ : البد معلوم ، وهو صنم يعبده اليهود فى النوبة . قال بعض شعراء الجاهلية :

من قال لا بدّ منه ... فمنه لى ألف بدّ

وقال النابغة :

دعوه يبلى فؤادى ... لا خفّف الله عنه
كم لمت قلبى فيه ... فقال : لا بدّ منه (٣)

(البقية فى العدد القادم)

على الطنطاوى

(١) البيتان من شعر المتأخرين
(٢) أبو تمام معروف ، والخطب النباتية تقدم ذكرها ، والفلك الذى له الحركة القمرية محدد الجهات ، وهو الذى يدور من الشرق إلى الغرب فى كل يوم وليلة دورة ، والمشاؤون والرواقيون أصحاب المدرستين المعروفتين فى الفلسفة اليونانية ؛ ولا شأن لهم باللغة ..
(٣) من شعر المتأخرين

من تراثنا الأدبي

٢ ـ أبو العينـاء

بقلم محمود محمود خليل

تحدثت فى مقالى السابق عن إسراف أبى العيناء فى هجاء الناس ، حتى لم يسلم منه أحـد من عظيم أو سوقة ، وقلت إن هناك عوامل أثرت فى حياته ، حتى جعلتـه سليط اللسان وقد آن أن أتحدث عن تلك العوامل :

(١) الوراثة وقد تعرضت لها فيما سبق بحديث مستفيض ، فلا حاجة بى الآن إلى تكرار القول فيها

(٢) نشأته فقيراً ، وطالما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان منبعاً للنبوغ والذكاء ، ونجد فقره هـذا اضطره فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته وهو البصرة إلى بغداد طلباً لعطايا الخلفاء والوزراء ، وكل أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع ، فقد دخل مرة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمه إليـه ، فقال له أنا إلى ضم الكفاية أحوج منى إلى ضم اليدين . وقال له مرة أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبى :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها إنى بما أنا باك منـه محسود

وقال لعبيد الله بن يحيى : مسّنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الحمد والشكر ، وأنت لا يخيب عنده حر

وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء الذى اشتهر به أو من شدة الحاجة كما يقول ، فقد عاش أبو العيناء فى حياته كلها سـواء منها المدة التى قضاها فى البصرة أو المدة التى عاشها فى بغداد فى ضنك من العيش وشدة ، وتلك حياة كثير من الأدباء والكتاب فى عصره ، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سـوء على محترفيه ، اللهم إلا نفراً قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء ، وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون ، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن والفضل بن الربيع وابن الزيات ويحيى بن أكثم وأحمد ابن أبى دؤاد وغيرهم ، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقف على العطايا التى ينفحهم بها أرباب المناصب فى الدولة ؛ وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبل العيش ، وتضطرهم الفاقة إلى الاستكانة والذلة ، ولا سيما إذا راعينا رجلاً كأبى العيناء وهو مكفوف البصر ، رثينا لحاله التى كان فيها ، وانتحلنا له عذراً فى استطالته بلسانه على الكبراء ، فانه لا يملك غيره ، وهو سـيفه الوحيد الذى كان يناضل به فى حياته عن عيش الكفاف الذى كان يبتغيه فى دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان

(٣) وثالث العوامل التى غيرت مجرى حياته فقد بصره ، ولم يحدثنا الرواة أحصل له ذلك الحادث فى حياته البصرية أم فى حياته البغدادية ، وإنى أرجح أن ذلك كان فى حياته البصرية قبل أن ينتقل إلى بغـداد ، فان أحاديثه جميعها التى نقلت عنه وهو ببغداد تنبئنا أنه كان أعمى يقوده غلامه

ويظهر أن هذا الحادث قد أثر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة ، يتناول الناس بقوارص الكلم . قال له المتوكل : لا تكثر الوقيعة فى الناس ، قال : إن لى فى بصرى لشغلاً عن الوقيعة فيهم ، قال ذلك أشد لحيفك فى أهل العافية . فانظر إلى حيفه فى أهل العافية الذى يذكره له المتوكل ، أما كان هذا أثراً من آثار فقد بصره ؟ وشكا مرة إلى صديق له سوء الحال وفقد البصر ، فقال له اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية . قال : أجل ولكن بينهما جوعا يقلق الكبد ، ويفقد الرشد

لم يتخذ أبو العيناء سـخطه على الحياة مذهباً فلسفياً له كما اتخذه شاعر المعرة من بعده ، ولم يؤدّ به هذا السخط إلى الزهد والتقشف كما فعل ذلك أبو العلاء ، وإنما كان سخطه مقصوراً على حزنه العميق الذى خالج فؤاده لفقد بصره

صفاته وأدوار حياته :

إذاً فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت فى حياته : الوراثة والفقر وفقد البصر ، حتى جعلته سليط اللسان حاضر البديهة متوقد

الذكاء ؛ ولقد تزود فى حياته البصرية من آثار الوسط الذى كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومنادمتهم بأحاديث وطرف ونوادر ، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش فى البصرة ؛ ولقد ذمها للمتوكل حينما سأله عنها فقال : من أين أنت ؟ قال من البصرة . قال له : فما تقول فيها ؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ، وتطيب فى الوقت الذى تطيب فيه جهنم

تزود بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب المسكت والمراسلات العجيبة والجواب السريع والطبع الفكه والحجة الداحضة ، والبديهة المتوقدة . فكانت تلك المظاهر معينة له على الحياة التى أقدم عليها ببغداد . فمن ذلك أن بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء ، لومت لرقص الناس طرباً وسروراً ! فقال بديهةً :

أردتَ مذمتى فأجدت مدحى بحمد الله ذلك لا بحمـــدك

فلاثك واتقـــا أبداً بعمد فقد يأتى القضاء بغير عمدك

ثم قال : أجل . الناس قد ذهبوا فلو رآنى الموتى لطربوا لدخول مثلى عليهم ، وحلول عقلى لديهم ، ووصول فضلى إليهم ، فما زال الموتى يغبطونكم ويرحمونني بكم . وخاصم أبو العيناء يوماً علوياً فقال له العلوى : تخاصمني وأنت تقول كل يوم : اللهم صل على محمد وآل محمد ! قال لـكني أقول الطيبين الطاهرين ولست منهم . ووقف عليه يوماً رجل من العامة فلما أحس به قال من هذا ؟ قال رجل من بنى آدم ، فقال مرحباً بك ! أطال الله بقاءك ، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع . ولقيه بعض أصحابه فى السحر فجعل يتعجب من بكوره ، فقال له : أراك تشركنى فى الفعل وتفردنى فى التعجب ! وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك . فقال : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قال إن جماعة من الكتاب يلومونك . فقال : —

إذا رضيت عني كرام عشيرتى فلا زال غضبـاناً على لئامها

وغير هـذه الأحاديث كثير تستطيع أن تقرأها فى كتب الأدب . وتلك البديهة الوقادة والأجوبة المسكتة هى التى جعلت الحصرى صاحب زهر الآداب يقول : كان أبو العيناء أحدَّ الناس خاطراً وأحضرهم نادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

ولقد كان أبو العيناء يجالس فى حياته البغدادية الخلفاء والكبراء فيطرفهم بأحاديثه وفكاهاته ، فكان سلوة لهم فى مجالسهم وزينة فى محاضرهم على ما فيه من حدة اللسان

انتقل أبو العيناء إذاً من البصرة إلى بغـداد بعد أن تمت له الثقافة التى أرادها ، والبلاغة المكاظية التى امتاز بها ، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثيرمن أدباء عصره ، إذ كانت بغداد مركز الخلافة الاسـلامية يرحل إليها الأدباء والعلماء ، ويبتغون فيها صلات الملوك والأمراء ، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخليفة من بيت المال رزقا يجرى عليه . ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك النفر كما تدل عليه أحاديثه ولا سيما إذا لاحظنا أنه من موالى الخلفاء العباسيين ، فكان بلا ريب له دالة عليهم جملته فى مأمن من تلك الحزازات التى كانت فى صدور كثير من الحاشية ، والتى سببها أبو العيناء ببذاءة لسانه ، وتطاوله على أعراض الناس

حياته البغدادية :

يقول الرواة إن أبا العيناء ولد فى آخر المائة الثانية وتوفى سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد وصدر من خلافة المعتضد بالله الذى تولى سنة ٢٧٩ وتوفى سـنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة البغدادية فى عصر أبى العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم على الشراب ، ومساجلات الشعراء فى خلواتهم ، وأحاديث المجان فى طربهم ، وإنى أعتقد أن الخليفة الذى تمتع بملذات الحياة ، وأنال نفسه ما تبتغيها حقاً ، من خلفاء العباسيين هو المتوكل على الله ، فهو أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، فأسرف فى بناء القصور ، وعكف على الشراب ولم يبال باللوم [1] ، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة ، وإن شئت فقل إن الدولة قد بلغت فى أيامه ذروة العظمة ، وكان لا بد لها من بعده أن تضعف حتى تنمحى ، ولـكل شىء إذا ما تم نقصان . ولقد

(١) نعتقد أن الأمين لم يتمتع حقاً للخلاف الذى كان بينه وبين أخيه المأمون

حدثنا التاريخ أنه قتل فى قصره ، وأن الأمور من بعده اضطربت اضطراباً شديداً بسبب المعول الهادم الذى أوجده المعتصم وهو الجنود الأتراك ، ولم يظهر استبدادهم وشرهم حتى بلغت الأمور غايتها ثم ظهر الفساد بعد عصر المتوكل

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديداً ، وسنعلم إلى أى حد أثر فيه هذا الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ، ولكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب ، وجعل يصغى لأحاديثه ، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزح معه فى كثير من مجالسه ، ويرفع الكلفة بينه وبينه

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة فاتصل به وعرف وزيره الحسن بن سهل وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثر ذلك المعروف فى نفسه حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست لفقده الأقلام . وخبر آخر قال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم فقال إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص فهل لك فى الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه ، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم   وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم أكن لى أسباب أعيش بها   ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال لغلامه : أنظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال ، قال فادفع له منها مائة ألف وابعث له بمثلها فى كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيئان لو بكت الدماء عليهما   عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما   فقد الشباب وفرقة الأحباب

(يتبع) محمود محمود خليل

٥٠٤٠

شوقية لم تنشر

مراقب الصحف بالآستانة

للمغفور له أحمد شوقى بك

لنا رقيب كان ما أثقله   الحمد لله الذى رحّله
لو ابتلى الله به عاشقاً   مات به لا بالجوى والوله
لو دام للصحف ودامت له   لم تنج منه الصحف المُنْزله
إذا رأى الباطل غالى به   وإن بدا الحق له أبطله
لو خال « بسم الله » فى مصحف   تغضب « تحسيناً[1] » محا البسمله
وعزة الله بلا « عزت[2] »   لا تنفع القارى ولا خردله
جرائد الترك على عهده   كانت بلا شأن ولا منزله
إن تذكر الخنجر لفظاً تُصِبْ   من شدة الذعر به مقتله
وإن تصف قنبلة لم ينم   من هول ذكرى حادث القنبله
الشر بالشر فيا قوم لا   إثم إذا راقبتمو منزله
فحاصروا الأبواب واستوقفوا   من أخرج الزاد ومن أدخله
إن كان فى السلّة تفاحة   ضعوا له موضعها حنظله
أو جيء « بالشرشر[3] » له فاملأوا   مكانها من علقم جردله
أو اشتهى الأبيض من ملبس   قولوا له الأسود ما أجمله
ذلك يا قوم جزاء امرىء   كم غيّر الحق وكم بدّله

(١) تحسين باشا من ذوى النفوذ
(٢) عزت باشا « « «
(٣) عين معدنية مياهها حلوة صحية

خطـــرات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

— ١ —

اكْدَحْ لدنياكَ اكْدَحِ ... وباللذات افـرحِ
وامرح فما خُلقتَ فى الـ ... أرض لغـير المرح
دع الهمومَ جانبــاً ... وللمسرّات اجنـح
وربما وجدتَهـا ... فى جرعة من قدح
فقد تكون مُنْسِياً ... فى اليوم غير مُصبِح
وإن خُلقتَ شاعراً ... فقـل ولا تمتـدح
كل الذنوب إن صرفـ ... ـتَ النفسَ عنها تمحى

— ٢ —

الناس تحيـا بالمُنى ... فما لها عنهـا غِنَى
لولا المنى ماعشتَ أنـ ... ـتَ هادئاً ولا أنا
لا تدْلهِمُّ أنفسٌ ... لها من المُنى سَنا
ولا يَرى ذو اليأس ما ... أمامَه وإن رنا
اليأس نارٌ تحرق الر ... وح وتُفنى البـدنا
وتجعـل العمرَ قصيـ ... ـراً وتُطيل الشجنا
أمّلْ حيـاةً كلها ... طيبٌ هناك أو هنا

— ٣ —

مَن يعتقـد بنحسه ... فهو عدوُّ نفسه
خير الفتى وشرّه ... كلاهما فى رأسـه
إن الفتى بسؤله ... ينشط لا بيأسـه
وذلُه فى جبنـه ... وعزُه فى بأسـه
وربما عرفت ما ... نسيجُه من لمسه
يرجو الفتى ألا يكو ... ن يومُه كأمسـه
قد درّسته نفسُه ... فليستفد من درسه

— ٤ —

يا نفس لا تنخدعى ... بالزاهـد المنقطع
دنياكِ هـذى تحتوى ... على النعيم أجمع
تنعّمى بخـيرها ... قبل دنوّ المصرع
وبالحياة ما صفت ... تمتـعى تمتّعى
لكل بابٍ تحسبيـ ... ـن الخيرَ خلفه اقرعى
وانتهزى الفرصة قبـ ... ـل فوتها وأسرعى
بالبسمات تبلغيـ ... ـن السؤلَ لا بالأدمع

— ٥ —

مصيبتى فى الهرَم ... فإنه امتصّ دمى
لم يبق منى غير جلـ ... ـدٍ ذابلٍ وأعظُم
وغير نفسٍ قد تربّد ... نى فيا نفسُ اسلمى
وغير ما أقوله ... عنـد الأسى من كَلِم
صعبٌ علىّ السيرُ من ... ضوء الضحى للظلم
إنى أرى الموتَ أما ... مى ماثلا من أَمَم
مَن ضامنٌ ألا يكو ... ن الشيخ بالمنهدم

— ٦ —

انظر إلى الزواهر ... يسبحن فى الدياجر
تلك شموسٌ قد بعدْ ... ن عن عيون الناظر
لا تنسَ ما بين نجو ... م الليل من أواصر
فكلها مؤلَّفٌ ... من كهرباء ثائر
ما أقدم الوجودَ فهْـ ... ـو عنصر العناصر
فما له من أوّل ... ولا له من آخر
بلى لكونٍ فيه نحـ ... ـيا سندٌ من قادر

— ٧ —

أهْدِ إلى الشمس القبَلْ ... فإنها بنتُ الأزَلْ
وحيِّها عنـد شرو ... قها وحَىِّ فى الطفَل
قد عُبِـدت من الأنا ... م فى قرونها الأُوَل
منها الحياة والرخا ... ء والسرور والجذل
والأرض لولاها خلت ... من الحيـاة والعمل
والشمس أمُّ الأرض والـ ... ـخطبُ إذا زالت جلَل
توغلُ فى هـذا الفضا ... ء الرحب من غير وَجَل

بغداد ... جميل صدقى الزهاوى

بعد الأخاء والعداء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

حنوتُ على الود الذى كان بيننا و إن صَدَّ عنه ما جنينا على الود
حنوتُ ولو أنى حنوت وما حنا ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد
ولا أكذِبَنَّ الناس قلبى كقلبه له آنة ميلٌ عن النصف والقصد
كلانا جنى شراً فعاد إخاؤنا محالاً حكى ذكرى الشباب على بُعْدِ
فيا طيب ذكراه وما بُعْد عهده وأين قديم الود من حاضر الصد
مضى حيث يمضى عابر بعد عابر من الأهل والأصحاب والذخر والولْدِ
مضى حيث يمضى كل رأى ومذهب له أجل كالناس ظعن بلا عَوْدِ
إذا أنا أُنسِيتُ الإساءة من أخ ذكرتُ له منى إساءة ذى عمد
وأيقنت لا ينسى عدائى وماجنى عدائى عليه من عناء ومن جهد
أيالتم الصخران فى اليَمِّ بعدما تردد موج اليَمِّ بالصدع والهد
ويتفق الخِلّانِ من بعد ما بدت به بغضة من مين قول ومن نقد
وكنا على ما كان من قرب أنفس كنهرين فى وادى الغضارة والورد
قد اقترنا مجرى وماء وعسجدا من الشمس لألاء كلألاءة الود
حياة شباب عسجدٌ أىَّ عسجد وعهد إخاء لا يغيض ولا يُكْدِى
إلى أن دعا داعى الحياة وإفنها فمال بنا قصد السبيل عن القصد
وغَيَّرَ منا القلبَ والنفسَ والمُنى وزاد طِماحُ النفس بعداً على بعد
هو البغض مثل الحب لحظ فمنطق فنار لها بين الأضالع كالوقد
وإن كنتَ تدرى الحب كيف طروقه ولم تدره أيقنت ما جاء بالحقد
فيا ليت أنى قد غفرت جفاءه ونَبْوَتَهُ حتى يصد عن الصد
ويذكر لى صبرى على الضيم والأذى فيأسى على ما كان منه من الكيد
وَتكسِبنى منه الندامة ألفة وإن كان لى من قبل كالحجر الصلد
أعيش بصفو منه يوماً فإن جنى على إثرِهِ غدراً ذخرت له ودى
وأذْكرُ نفسى منه عند انصرافها شمائل تستدعى المَغيظَ إلى الحمد
أبَعْدَ بلائى العيش أبغى مُبَرّاً وكيف ونفسى لى كما الضد للضد
يروقك حسن الفجر والنجم فى الدجا ومرأى رياضٍ من عرار ومن ورد
وَأحسن منها البشر فى وجه صاحب حليفك منه ما استسر ولم يُبْدِ
فياليت لى دنيا أبيع حطامها بود أخٍ لو يشترى الود بالنقد
إذا الحب لم يخلص من البغض والأذى فكيف خلاص الود من عنت الحقد
وخِلّانُنا مثل الجوارح أيهم فقدنا فبعض النفس فى ذلك الفقد
أَحَقٌّ طِلاَبُ الود من نقص طالب إذاً قَمِنٌ نشدانك الود بالحمد
لتكمل بالخل الذى أنت ناشد كما كَمُلَ النصفان تجمع فى العد
ويا طيب قلب غره الود حقبة كما عظُمَ المخدوع بالفضل والجد
وإنك لا تدرى أقلب مراوغ أمرّ أم القلب المُغَرَّرُ بالود
وإنَّ وداد المرء من بعض غُنْمِهِ ولو أنَّ مخلوف الوفا غاض لم يُجْدِ
تعيش بمخلوف الرجاء وكذبه فطامِنْ فان الود يا قلب لم يُرْدِ
رحيق الحياة الود لو دام صفوه وكالخمر أصفاه المُعَتَّقُ ذو العهد
وأحسنه ما كان من عصرة الصِّبى ولم يَحُلْ بعد الشيب مُسْتَحْدَثُ الود
فمن لى بعود الدهر للود والصِّبَى أليفين ما كانا كما الند للند
يخال الصِّبى ودا وود الصِّبَى صِبىً كيانهما الممزوج كالجوهر الفرد
وإن فقير الناس من خان خِلَّهُ وإن نال حظاً من طريفٍ ومن تلد
أأبغى إخاء لم تَشُبْهُ عداوةً وأنعم عفو الغدر أو غدرة العَمْدِ
كأنى لم أدرِ الأنام وخُلقه ولم أدر أن الضد يولع بالضد
أبَعْدَ فراغى من جنازة ودنا أروم خلود الود من عادم الخلد
متى أرتضى الخلان صحوا وغيمة فأمنحهم غيثى وأمنعهم رعدى
أغالط نفسى فيهمُ وأغرها وإن لاح منهم غدر أعدائى الِلد
وأكتم من آلام نفسىَ عزةً إذا لم يُتَحْ لى ما أزيل به وجدى
فيا ساقِىَ النسيان عاطِ صحابتى وهات لِىَ النسيان رفداً على رفد
وهيهات ما أمر إذا جد جده ليُنْسَى ولو واروه فى مُشْبِهِ اللحد
إذا انفلت السهم الطليق فما له ولو أنه سهم النميرىّ من رد
ويعجز هذا الدهر عن نقض فعله ألا وهو الدهر المصرِّفُ ذو الأيْدِ

عبد الرحمن شكرى

في الأدب الانجليزي

٤ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

وكان من السائد في ذلك العصر أن هذه الطائفة من المخلوقات سرمدية أزلية، فكثيراً ما يطلق شكسبير على الناس لقب الأحياء الفانين بينا هو لا يعرض لهن بشيء من ذلك. وقد يجعلن من الرجل أداة للهزء والسخرية فيلقبنه بألقاب عدة أهمها أنه حي زائل وليس بباق. فالملكة تيتانيا تطلب من بطانتها ووصائفها أن يعاملن بلطف ذلك المخلوق الزائل بوتوم (Bottom). ولهذه المخلوقات زيادة على ذلك خاصية الاختفاء والظهور للبشر، فهي كالفقاعات الهوائية التي لا تظهر للناس حتى تزول ولا يمكن عند ذلك معرفة الجهة التي اختفت فيها أو تمييزها.

وفضلاً عما تقدم كانت لهن صفات أخرى أهمها خاصية التشكل والظهور بصور عدة، وقد صور إيرون لنا نفسه بقوله: « سأكون في وقت ما حصاناً فأصهل، أو كلباً فأنبح، أو قوقعة فأنعق، أو دباً فأقهقع، أو ناراً فأحترق ». وخاصية السرعة والنشاط فهن أسرع من القمر، وفي استطاعتهن الدوران حول الكرة الأرضية في مدة لا تتجاوز الأربعين دقيقة. وقد افتخر رون هود بسرعته وتحدى الآخرين قائلاً « انظروني أذهب بسرعة لا تدانيها سرعة السهم وقد انطلق من قوس التترى »

وأهم ما نراه مشتركا بين الجنيات هو ميلهن إلى الموسيقى وفنه فلا يطربن للسماع فقط بل خلقن وقد لازمهن هذا الفن وهذه الموهبة النادرة ملازمة تامة. وما جزيرة العاصفة الخرافية إلا مكان تسوده الموسيقى والأصوات العذبة مما جعل للمكان روعة ساحرة خلابة. فكثيراً ما كانت تسمع أصوات آلاف الآلات الموسيقية منتشرة في الجو انتشاراً لا يضاهيه انتشار الروائح العطرية المختلفة ولم تقتصر هذه الموهبة على الموسيقى فحسب بل تجاوزتها إلى الرقص، فنرى الملكة تيتانيا تأمر بطانتها وجواريها « أن يخترن من الينابيع وجداول الأنهار وشواطئ البحار أمكنة ليقمن فيها حلقات الرقص والموسيقى »

وآخر هذه الميزات التي اشتهرت بها الجنيات هي ميزة حماية القبور والأضرحة. فكن يقمن بأعمال ما يسمونه الملاك الحارس. ولا تقتصر مهمتهن على تسلية الميت بل تتعداها إلى حفظه سليماً من الحشرات معافى من الجرائم. ونرى هذه الخاصية بوضوح في رواية سمبالين إذ يقول « ستقوم نساء الجنيات بحراسة قبره من الحشرات »

أما وقد انتهينا من هذه الصورة الرائعة التي صورها لنا شكسبير فيجدر بنا أن ننظر أكان موفقاً في تصويره أم غير موفق. قال جبسن يصف هذه المحاولة: « إن صورة الجنيات في روايات شكسبير تمثل لنا المرح والسرور والنية الطاهرة ممتزجاً بعضها ببعض تحددها المحاولات الضئيلة التي يقصد منها ايقاع الضرر بالناس. ولا يقصد الشاعر من هذه الصور إلا تسلية قرائه فقط غير محاول إظهار عقيدته الحقيقية، وما هي إلا مخلوقات هوائية تحلق في الفضاء مرفرفة أمام أعيننا [1] »

لا يسهل علينا أن ننكر قط هذا الجمال الظاهر في هذه الصورة النادرة. فقد نجح شكسبير أيما نجاح في إبرازها إلى حيز الوجود بلباس رائع من المرح والسرور؛ ولقد صدق جبسن في وصفه السابق لهذه الصورة من ناحية واحدة وأخطأ في ناحية أخرى، فلقد حكم أن شكسبير لم يقصد منها إلا تسلية قرائه غير معبر عن أية عقيدة من عقائده. وحسبي أن أقول معارضاً هذا الرأي أنه ليس في استطاعة أي شاعر أو كاتب أن يصف عقيدة من العقائد كهذا الوصف الدقيق المسهب دون أن يكون له أدنى تفكير وإيمان بالعقيدة نفسها. فقد اعتقد شكسبير بوجود الجنيات وسمع ما كان يدور على ألسنة أهل عصره من قصص وأساطير جلاها في رواياته مرتدياً رداء من الخيال الواسع والابتكار البديع

الساحرات Witches :

من الصور الغيبية التي رسمها شكسبير بدقة تأتي صورة الساحرات في الدرجة الثانية؛ فلم يقتصر ذكرهن على رواية واحدة من رواياته؛ بل تعدتها إلى عدد من الروايات لا يقل عن التي تبحث في الجنيات أهمية وعدداً، ولكنه اختص إحدى هذه الروايات ببحث مسهب مستفيض جعلها قاصرة على هذا النوع من المخلوقات الغيبية، وهذه الرواية هي التي يعدها كثير من النقاد والأدباء أحسن ما كتبه الشاعر ألا وهي رواية مكبث

أما ساحرات شكسبير فينقسمن إلى طبقتين مختلفتين:

---

(1) Gibson. Sh. Use of the Supernatural. P. 18

أولاها طبقة الساحرات البشريات اللواتى يوصفن عادة بالذبول .
وثانيتهما طبقة الساحرات العلويات أو الغيبيات اللواتى امتزن عن أخواتهن بميزات أرق وأهم

يذكر شكسبير ساحراته الأرضيات فى كثير من رواياته العديدة حيث يكون لهنّ شأن ضئيل فى مجرى الرواية وهيكلها . فهو يذكر فى رواية هنرى السادس إحدى هؤلاء الساحرات على لسان تالبوت (Talbot) حيث يقول : « إن بوسيل تلك الساحرة الملعونة قد سببت هذه المصيبة وتلك الأكدار التى لم نتخلص منها فى فرنسا إلا بعد لأى » ، وقد ذكرهن فى رواية أخرى هى رواية « نساء وندسور المرحات » (Merry wivesof Windsor) ، حيث تقول السيدة بيج (Page) : « دعنا نلبسه ألبسة تشبه ألبسة ساحرة برانيفورد » . وقد ذكر هذا النوع من الساحرات فى رواية ثالثة هى رواية الملك ريشارد الثالث عند ما يخاطبه كلوسستر (Gloucester) قائلاً : « إن هى إلا امرأة ادورد تلك الساحرة التى نفثت سحرها فى أعمالى فباءت بالفشل »

فى جميع هذه الروايات التى ذكرتها نرى الساحرات البشريات يلعبن دوراً بسيطاً ، بينما الساحرات السماويات تشغل قسماً أكبر من تفكير هذا الشاعر العظيم ؛ فقد اختص رواية مكبث كلها بتحليل شخصياتهنّ ووصفها وصفاً دقيقاً مسهباً . وقد صدق مستر لويد فى كتابته النقدية عن مكبث حين قال : « إن رواية مكبث تشمل الخيال المبدع والمخاوف السحرية ، وكثيراً من الخرافات التى كانت تسود أقسام بريطانيا الشمالية والجزر الغربية منها »

وهؤلاء الساحرات لا أسماء لهنّ فهنّ يدعين أنفسهنّ بالاخوات الذابلات كما يتبين لك فى مواضع عدة من رواية مكبث وقد كان الناس كثيراً ما يشتبهون فيهنّ فيحسبونهنّ رجالاً لما فى ذقونهنّ من لحى كلحى الرجال بينا هنّ فى الحقيقة أناث اكتملت فيهنّ صفات الأنوثة ؛ ويظهر هذا جلياً فى رواية مكبث عند ما يقول مخاطباً آباءهن : « إنكن نساء مع أن لحاكنّ تجعلنى أميل إلى الاعتقاد فى رجولتكن »

إن هذا المظهر الذى كان يجمع بين صفتى الرجولة والأنوثة فى هؤلاء الساحرات كان سبباً قوياً فى ازدياد الشعور نحوهن بالكره والازدراء . وكم كان الناس يودون القضاء عليهنّ لولا أن فى استطاعتهنّ أن يغيرن صورهنّ وأشكالهنّ ، فتارة تراهنّ بصورة قطة من القطط الرقطاء ، وطوراً بشكل فأر قد قطع ذنبه ، وهذا يتجلى لنا بصورة واضحة فى رواية مكبث عند ما تظهر إحداهنّ فى بدء الرواية بصورة هرّة تدعى كرعالكين (Greymalkin) وقد وصفت إحداهنّ نفسها بقولها فى ناحيـة أخرى من الرواية « سأكون بشكل فأرة عارية عن الذنب فأمتطى منخلاً وأسبح فى البحر محاولة تخريب السفن وإغراقها »

وتختلف الساحرات عن الجنيات بكونهن عاملاً من عوامل الشر والدمار فهنّ يحملن فى أنفسهن الكره الشديد لبنى البشر ويسمين بكل طاقتهن لايقاع الضرر بالمجموع البشرى ، وكثيراً ما يستعملن الأعشاب السامة لتنفيذ أغراضهن الشريرة ، وكانت لهن ملكة تدعى هكبت (Hecate) اقتصرت أعمالها على إيقاع الآلام بالناس ، وقد وصفها لوشيانس فى رواية هملت بقوله : « انك لتخلط بين أعشاب الليل وبين الأعشاب الصفراء الذابلة التى جمعتها هكبت لتستعملها فى سحرها وفى ذلك تنتهى الحياة البشرية »

وتمتاز الساحرات بأنهن أقوى أنواع هذه المخلوقات الغيبية ، فهبوب الرياح والسباحة فى البحار كانت من المسائل التى فى استطاعتهن القيام بها بكل سهولة ، وكان الليل أحب الأوقات اليهنّ لأنهن يستطعن الخروج فيه بكل جرأة وحرية ويتعاطين مايشأن فى أثنائه . ولنستمع إلى مكبث مخاطباً إياهن قائلاً : « ماذا تعملن أيتها المخلوقات السرية الليلية »

ولم يقتصر زمن ظهورهن على الليل فقط بل كان بامكانهن التجول أثناء النهار فقد اتفقن فى الفصل الأول من رواية مكبث أن يقابلنه قبل مغيب الشمس . وكان فى استطاعتهنّ أن يختفين أو يظهرن حسب إرادتهنّ . فقد ظهرن لمكبث وبانكو فى الفصل الثالث من الرواية لكنهن ما عتمن أن اختفين بعد أداء مهمتهن التى قصدنها وقد استولت الدهشة على بانكو فصاح قائلاً لما اختفين : « إن للأرض فقاعات كما أن للماء فقاعات ايضاً ، وهذه المخلوقات هى من فقاعات الأرض ، فى أى مكان اختفين ؟ »

حاولت الساحرات إظهار قوتهن وسلطتهن على البشر فصدرت عنهن تلك النبوءات التى تم تحقيقها فى نهاية رواية ومبث ، وكل مافى هذه الرواية من ابتكار وابتداع يرتكز على محور واحد ذلكم هو النبوءات ، فى بدء الرواية يخبرنه عن المستقبل فيتنبأن بصيرورته سيداً على كادور ثم ملكا على اسكتلندا ، وكلتا هاتين النبوءتين يتحقق ، وفى نهاية الرواية يتنبأن بنبوءات جديدة ، فيخبرنه أنه لن يصيبه مكروه من إنسان عادى بل من رجل لم تنجبه امرأة ، وإن هـذا الأمر لن يتحقق إلا إذا انتقلت غابة برنام (Birnam) من مكانها وسارت مسافة

لا تقل عن الخمسين ميلا ، وكل هذه النبوءات تتحقق ويتبين صدقها فى نهاية الرواية

ونظراً لهذه الشرور والآثام التى كان الساحرات يرتكبنها كان الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ينظرون اليهن بعين الكراهية والسخط ، فكانت لهن عادات مستهجنة غريبة كميلهن إلى الأعداد الغريبة وخصوصاً الثلاثة منها ، فلا يخطون إلا ثلاث خطوات عند رقصهن ، والقط لا يموء إلا ثلاث مرات ؛ وقد اعتقد شكسبير أن السبب الذى حدا بهن إلى هذا الميل الغريب هو اعتقادهن أن الأعداد الغريبة تنبيء عن الحظ الحسن والفال الجيد

وكان العقاب الشديد دائماً فى انتظارهن يهدد حياتهن ، فكل امرأة كان يشك فى كونها ساحرة من النوع الخطر كانت تُشد الى قطعة خشبية مصلبة تتوقف بواسطتها الحركة الدموية ، وتتشنج الشرايين فتحدث ألماً شديدا قل أن يحتمله انسان . وقبل أن تتوقف الحركة الدموية بهذه الطريقة كان الساحرات يربطن لمدة لا تقل عن الأربع والعشرين ساعة حتى تعترف بسحرها . وهناك طريقة أخرى كان الساحرات يعذبن بواسطتها ألا وهى طريقة نزيف الدم بقطع أحد الشرايين

وللساحرات فصل معين من فصول السنة لا يظهرن فيه أبدا ، وقد ذكر شكسبير ذلك فى رواية هملت بقوله : « يقول البعض إن الفصل الذى ولد فيه السيد المسيح هو فصل سعادة وحبور ، ففى أثنائه تظل الطيور مغردة على الأفنان ، وتختفى الساحرات والأشباح من عالم البشر » . وكان الناس يخافونهن ويسعون فى مرضاتهن فيستميد المتدينون من الرجال منهن ويبتعدون عن شرورهن وآثامهن

وإنى لأعتقد من جراء هذا الاهتمام الذى ابداه شكسبير بهن ، وهذا التدقيق فى البحث فى مسائلهن وتصويرهن ، أن شكسبير كان يؤمن بوجودهن وقدرتهن الايمان كله ، فقد اعتقد أن لهن من القوة والجبروت ما تستطعن بواسطته اخضاع النوع البشرى لسلطتهن وسيطرتهن ، وهذا ما أظهره جلياً فى كتابته عنهن فى كثير من رواياته .

خيرى حماد

القصص

صور من هوميروس

١٠ – حروب طروادة

معركة بين الآلهة . . .

للأستاذ دريني خشبة

وقفت نَدْمانةُ الآلهة « هيب » اللعوب الهيفاء ، تسقى أربابها خمراً ! وكان الأولمپ يزخر بسادته

فهذا زيوس العظيم مستوياً على عرشه الضخم المرصع بالجوهر والياقوت

وهذا أپوللو سيد الشمس ، وصاحب القوس ، يوقع على قيثارته أشجى ألحانه

وهذا ڤلكان ، الحداد القذر ، قد بدا فى حلة جديدة ذات ألوان صارخة

وذاك مارس الجبار ، إله الحرب ، يلاعب الأسنة ، ويداعب الصَّعْدَةَ المُرنَّة

وذلك هرمز ، عزرائيل هيدز الكريم ، ورسول الآلهة إلى سكان الأرض ، يرسل فى الملأ نظراته الساحرة ، ونكاته المنكرة

وهذه حيرا ، ، مليكة الأولمپ ، تود لو تضرم النار فى قصور مولاها ، إن لم يقض بانتصار الأغريق !

وهذى مينرڤا . . . الحكيمة الراشدة . . . تصمت صمتاً أبلغ من وَحْى الأولمپ كله ، ترى هل تستطيع تسخير هذه العصبة من الأرباب لسحق پاريس وقومه وأحلافه !

ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة . .

وهيب اللعوب تسقى الجميع خمراً !!

وللخمر الأولمبية ، كالخمر هذه الأرض ، نشوة وسورة ، ولها على رؤوس أربابها صولة وسلطان ، وهى مثلها تُرَوِّى حتى تبلغ المُشاش ، وتتغلغل حتى لتمتزج بالدم !

وهيب تروح وتجئ ، حلوة بسامة ... كأنها مدامة !

ورَوِىَ الجميع إلا حيرا !!

وانتشى الجميع إلا مينرڤا !!

لقد كانتا ما تفكران إلا فى هذه الساحة الحمراء ، وما يقع فيها من بلاء !

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهما من پاريس ومن قوم پاريس ؟

ألم تنصح عروس الماء ، إيونونيه ، لپاريس ألا يصيخ لڤينوس ، وأن يعطى التفاحة لمينرڤا ؟

ألم تحذره من التعرض لنقمة الربتين العظيمتين ؟

غير أنه أبى ! !

وآثر الجمال والحب ، ثم الشقاء والحرب ، مع ڤينوس ، على القوة والصولة ، والملك الكبير ، والحكمة والنورانية ، مع حيرا أو مينرڤا !!

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها !

وليس اليوم أروح إلى قلب حيرا ، وأرضى إلى نفس مينرڤا ، من أن تنصرا جحافل الهيلانيين ، وتثبّتا فى ساحة الحرب أقدامهم !

ولكن أخيل منفرد فى معسكره وهو مفئود محزون !

وقد وعدته أمه بالأثار له ، وكلمت فيه زيوس سيد الأولمپ ، ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامهما القديم حتى زلزلت أركانه ، وسلبت جنانه ، وانتزعت منه وعداً قدسياً بأن ينتقم

من أجاممنون ، وجنوده لأخيلها العزيز !

مالكم إذن حيرا ومينرفا

وذا كم زيوس كبير أرباب الأولمب

أما أبوللو ، فهو لا ينسى أن فضحه أجاممنون فى بنت كاهنه ، وهو ما يفتأ يتربص بالقوم ، ويدبر لهم سوء المنقلب !

وأما ڤينوس ، ... ، ... ؟ ...

فتلك أبرّ بباريس وبقوم باريس ، وهى أبداً ستحمى باريس وجند باريس ! ! لأنها ستذكر له أبداً أنه نصرها على حيرا ... وأيدها على مينرفا !!

وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة ، وأضرمت النيران فى قصور الأولمب !

فللآلهة فى جبل (إيدا) معسكران ، كما لبنى الموتى حول طرواده معسكران ! !

***

أوشك منالايوس أن يفتك بباريس ، لولا أن أنقذته ڤينوس ولقيته هيلين عاذلةً مغضبة ، لكنه نَسِى نفسه بين ذراعيها ، واستماحها أن تدع حديث الحرب إلى نشوة الحب ، ... « على أن أعود فأثأر لنفسى من منالايوس المنيــد ، الذى لولا حماية مينرفا وحيرا له لبطشت به وجملته خبراً فى الذاهبين ... »

وكان العهد بين بريام الملك ، وأجاممنون قائد الهيلانيين ، أن يُلقى المغلوب السَّلَم ، فلما فرّ باريس تقدم أجاممنون وطلب أن يسلم الطرواديون هيلين الأرجيفيه ، وأن يقدموا دروع باريس وسيفه ، وفرسه ، وجميع عدته الحربية ، لتكون أثراً خالداً يحتفظ به الأغريق ويتوارثونه رمزاً لمجدهم الحربى ، وتذكاراً لفوزهم وغَلَبهم

بيد أن الطرواديين رفضوا هذا الطلب : « لأن أحداً من المتبارزين لم يظفر بالآخر ، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فتكون شاهد النصر »

وكانت بين الفريق مهادنة

فخشيت حيرا ومينرفا أن يطول أمدها ، واتفقتا على أن تذهب مينرفا هذه المرة أيضاً فتضع حداً لهذا السلام الذى يشمل الساحة ، وأن تثير الحرب من جديد !

وذهبت مينرفا فاندست بين صفوف الطرواديين ؛ وسحرت نفسها فبدت فى عدة (لاودوكوس) البطل الطروادى وهيئته ، ثم وترت قوسها وأرسلت سهماً مراشاً نفذ فى جسم منالايوس إذ هو يبحث عبثاً عن باريس ...

وتجددت الحرب بين الفريقين بسبب هذه السهم ، فكانت حرباً زبوناً ، طاشت من هولها الأحلام ، وبلغت القلوب الحناجر وزاغت الأبصار فما ترى إلا حمياً ...

وعز على ڤينوس أن ينهزم جنـد طروادة ، وهم أولياؤها وصنائعها ، فذكرت أن لها فى أرباب الأولمب عاشقاً هيماناً يترضاها ويلتمس وصلة منها تشفى قلبـه الخفق ، وتداوى هواه الثائر ، وأعصابه التى مزقها الحب ، وأذابها لظى الغرام ، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد ، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر ، أن يقوم من فوره فينفخ من روحـه فى قلوب الطرواديين ، ويؤيد بنصره صفوفهم ...

ذلك هو مارس ، مُسعّر الحروب ومورى لظاها !

وطرب الطرواديون لوجود رب القتال فى صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيجعلها ضراماً ، ويصلصل دروعه فيوقع فى قلوبهم الرعب ، ويثير فى نفوسهم الهلع ، ويروّعهم ترويعاً ...

وكانت إلى جانبه ڤينوس تنفث فيه سحرها ، فكان لا يلاقى فارساً إلا طعنه فيكبه على وجهه ، ثم يشكه فيجفوه [١] من الأرض ، كأنما يتخذ منه هزواً وسخرياً ! !

وهرع أبوللو فأمطر الهيلانيين وابلا من سهامه التى ما مست أحداً إلا أردته ، وما أقصدت صدراً إلا شقته ...

وساء منقلب الهيلانيين !

وعز على حيرا ومينرفا أن ينهزم أصحابهما ، وأن يصلوها من مارس وأبوللو ناراً حامية ، وهزيمة منكرة ، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس اللزاب ، وسهام أبوللو المفوّقة ، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التى سلطها كبير الآلهة عليهم ؛ زيوس ، سيد الأولمب ، الذى أصبح كل همه أن ينتقم لأخيل بن حبيبته

(١) جفاه من الأرض أى رفعه

ذيتيس من هؤلاء الأغريق نا كرى الجميل ! !

وعبست حيرا عبوساً ثقيلاً ، ودعت إليها ميترفا ، وجلستا تفكران ! وبدا لهما أن يذهبا إلى الأولب فيستدعيا رب البحار العظيم ، نبتيون ، فيضع حداً لهذه القسوة التى يبديها مارس وزميله أبوللو . . .

ولكن كيف السبيل إلى غل يد زيوس ، ورد صواعقه التى تنحط على الأغريق من عل ، فلا تبق عليهم ولا تذر ؟

آه ! لا سبيل إلى ذلك إلا بمنطقة ڤينوس السحرية ! سستوس ! تلك المنطقة العجيبة التى تغوى كل من نظر اليها ، وتشعل فى قلبه لظى من الهوى ، وضراماً من الحب . لا بأس إذن من ممالقة ڤينوس حتى تنزل عن منطقتها أياماً لمليكة الأولب وكبيرة رباته ، ثم لتذهب مليكة الأولب بمنطقة ڤينوس لتعبث كثيراً — أو قليلاً — بقلب زيوس ، الذى ما يفتأ يرسل صواعقه على الأغريق من جبل (إيدا) ، وليس شك أن سيصبو زيوس حين يرى منطقة ڤينوس تزين خصر حيرا وتبرز مفاتن صدرها ؛ فاذا عصفت به فورة التشهى ، وحاول قبلة واحدة من آثر زوجاته إليه ، فلا بأس من أن تمنحه إياها ... ولكن ... لتنهز سكرته العميقة وتسلط عليه إله النوم الجبار — الذى هو دائماً فى خدمتها أينما سارت — فيغرقه فى سُبات عميق ، ويظل به يداعب أجفانه ، ويُعسِل أحلامه ، حتى يكون نبتيون قد انكشف لمارس وصاحبه ، وأجنادهما ، فيقذف الرعب فى قلوبهم ، ويزلزل أركانهم ، ويوهى عزائمهم ؛ ويختلط حابلهم بنابلهم فيولون مدبرين لا يلوى أحد على أحد ! . . .

وقد أفلحت خطة حيرا . . .

فهذا مارس ما يكاد يلمح نبتيون حتى يذكر هذه الأيام السوداء التى صب عليه فيها رب البحار سوط عذابه (١) ، فيخفق قلبه ، وترتعد فرائصه ، ويكبو زنده ، وتذهب ريحه وتنحطم شوكته ... ثم يقذفه نبتيون بسهم ، وقل أن تطيش سهام نبتيون ، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة ، وينفتل من الحلبة الحمراء مولياً عقبه ، ساخطاً على ڤينوس ، وما يجر اليه غرام ڤينوس ! ! !

وولى فى إثره أتباعه الطغاة ، آلهة الشرور ، إيريس رب الشغب ، وفوبوس رب الرعب ، وميتوس رب الخوف ، وديموس رب الفزع ، وباللور رب الهلع . . . عصبة الاجرام وشرذمة الآثام ، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب ! !

وأفيق الأغريق مما حل بهم من دوع . . .

ونظروا فرأوا مارس وملأه مولين الأدبار ، والدم يتدفق من جراحهم جميعاً ؛ فأفرخ روعهم ، وأمن سربهم ، ثم لموا شعثهم وهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد ، فأدالوا لأنفسهم ، وثأروا لكبريائهم ، وانصرفوا يتفقدون جرحاهم ، ويحرّقون جثث قتلاهم الشهداء !

يا للهول !

لقد قتل إمبريوس البطل ! قتله تيوسير ، غير راحم شبابه ، ولا مبق على عوده الفينان !

وأمفيا خوس ! ! لقد صرعه هكتور بن بريام ، غير راث لأمه العجوز الهرمة ، ولا آبه بالبا كين حوله والمولين ! !

وديوميد ! ! زين شباب هيلاس ، وآثر فتيانها إلى قلوب الآلهة ! لقد جرحه باريس بسهم أوشك أن يكون قاتلاً ! لولا أن أدركه جنوده فأسعفوه ، وضمدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه !

وأجا ممنون ! لقد برّز فى المعمعة ، ودل على الفروسية التى بهرت الطروادين ، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه ، فارتد على عقبه يصرخ ويتلوى !

وأوليسيز !! أوليسيز العظيم !! لقد أرسل إليه سوكوس ، أمهر رماة طروادة ، بسهم مُفَوّق ، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم ، ويخر إلى الأرض فيتأوّد كمن لدغته أفعى ، ولولا أن أدركه أجا كس ومنالايوس فأسعفاه لكان من الغابرين !

وأجا كس كذلك ! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة ! !

ومخاون ! لقد روعه باريس هو الآخر فشكى وبكى ! !

***

(١) إشارة إلى الأسطورة القديمة التى وقع فيها مارس أسيراً للماردين الجبارين بتدبير نبتيون

أرأيت ؟

لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الهيلانيين ، ولولا أن أغاث هؤلاء نبتيون القاهر ، لكانت ملحمة فاصلة فى هذه الحرب الشعواء !

وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين ، وبرهنت لهم أن أخيل ما دام لا يخوض معهم المعمعة ، فلا نصر لهم ولا غلبة ، ولا محيص من هذه الهزائم المتتالية ، والجروح التى لما تكن قصاصا لولا أن أدركهم نبتيون !

عرف اليونانيون هذا ، وآمنوا بعد هذا الفزع الأكبر أن لو كان أخيل بينهم يوم هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه ، ولأظفرتهم آلهتهم بأعدائهم ، ومارس وملئه ، وأبوللو وجنوده جميعاً . . .

وانطلق نسطور فعرض على أجاممنون مصالحة أخيل وإرضاءه ، وبعد لأى رضى القائد العام أن ينطلق نسطور (١) وأوليسيز وأجاكس وفونيكس إلى معسكر أخيل ، مندوبين عن القائد ، ليعرضوا عليه صلحاً شريفاً ، وموثقاً كريماً ، يرضاه الطرفان ؛ ولكن أخيل يثور لكرامته ، ويأبى إلا . . . بريسيز . . . ثم لا يشترك فى حرب ضد الطرواديين . . .

ويلح أوليسيز على صديقه القديم . . . .

ولكن صديقه القديم ما يزداد إلا شماساً ، وما يزداد إلا أنفة . . .

ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل ، ويكون قد خلبه بيانه ، وبهره حسن منطقه ، وطلاقة لسانه ، وعظيم شجاعته ، فيؤثر البقاء معه ، مخاصماً الهيلانيين جميعاً حتى يرضى أخيل فيتركه أوليسيز وصاحباه ، ويعودون إلى أجاممنون . . . بخفى أخيل ! !

* * *

وهكذا تتم كل هذه الأحداث الجسام . . .

وزيوس يغط فى نومه الهادئ الناعم يوماً بأكمله . . حتى يبطل السحر ، وتذهب الرُّقية ، فيهب الآله الأكبر من سباته حيران أسِفاً . . . لأنه ينظر من ذروة جبل إيدا ، فيرى إلى نبتيون الجبار يصول فى ساحة طروادة ويجول ، ويصرع الابطال ، ويجندل الأقران ، ويرى إلى مارس المتبد ، وجنوده الأقوياء ، يفرون من وجه سيد البحار ، لا يلوون على شىء . . .

ويرى أيضاً إلى أخيل ما يزال منفرداً فى فسطاطه ، قريباً من سفائنه ، والحزن يمضه ، ويوهى جلده ، فيحزن الآله الأكبر ويُنفذ إيريس إلى نبتيون ليزجره ، ويأمره أن يغادر المعمان فى الحال ، وإلا أرسل عليه سيد الأولمب صواعقه ، وهناك لا يكون له حول ولا تكون له قوة . . .

ويغادر نبتيون الموقعة ، ولكن بعد أن دمر الطرواديين تدميراً ! . . .

« لها بقية »

دريني خشبة

(١) فى بعض المصادر أن نسطور لم ينطلق معهم إلى أخيل

رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

شددت رحالى إلى الناحية الغربية من الديار المصرية ، تلك الناحية التي نجهل عن أهلها الشيء الكثير ، فكان أن بدأت بخط ادكو ورشيد ، فمررنا بأراض شبه صحراوية ، بها مزارع متناثرة غير متصلة ، وبخاصة حول أدكو ، وهنا أدهشني نشاط الأهلين فى الكد وراء كسب عيشهم حتى الأطفال ، فتراهم لا يضيعون من وقتهم شيئاً ، يخرجون جماعات لصيد السمك أو الطيور ، ويتجرون فى ذلك كباراً وصغارا ، وأنت ترى جموعهم تتهافت على القطار يعرضون عليك سلعهم هذه ، فان أعوزهم المشترون عكفوا على دورهم يأكلون ما تخلف معهم من سمك كثير وطير وفير ؛ لذلك كنا نلمس فى أجسادهم وفرة التغذية والامتلاء ، ومن السلع المنتشرة هنالك البيض والليمون ، أما غابات النخيل فهى فى كثرة فائقة ، ومنها نستمد البلح الرشـــيدى (الزغلول) ذائع الصيت . ولقد مررنا بتفتيش إدفينا ، وهنا تجلت المجهودات الجبارة التي بذلت فى استثمار تلك الأراضى التى كانت بائرة نزة ، فلقد زودت بالمصارف والمضخات والقنوات ، فأضحت جنة يانعة ، وهى ملك للخاصة ؛ ويا حبذا لو شمل ذلك الاصلاح ما جاورها من متسعات لا يزال أمرها مُغفلاً مهملاً ، وهنالك بعض الشركات الأجنبية تشترى المساحات الشاسعة وتتعهدها بالاصلاح ، فهلا قامت الحكومة بذلك أو ساعدت الأهلين عليه حتى لا تزيد فى ملكية الأجانب وامتيازاتهم فى بلادنا ؟ دخلنا رشيد فكانت بلدا عتيقا ، بيوته بالآجر الأحمر الصغير لا يكسوه ملاط ، وهى تقوم على النيل ، ومن أظهر ما يسترعى نظرك مداخن لا حصر لها هى لمضارب الأرز أنشط جهات العمل فى البلدة ، وعلى مسيرة زهاء خمسة كيلو مترات يلتقى النيل بالبحر فى لسان شبيه بذاك الذى فى رأس البر ، ولقد كان ماء هذا الشهر عذباً (أغسطس) بعد أن ظل مالحاً ستة شهور قبل ذلك من طغيان ماء البحر على النهر ، وسيظل الماء عذباً بقيـة العام ؛ ويجاور البلد عدد من الملاحات ، وترى زوارق الصيد يغص بها النهر والبحر ، ومهنة صيد السمك رئيسية هنالك

عدت إلى الاسكندرية ، وقمت صوب الغرب إلى مطروح مسافة تزيد على ٣٠٠ ك م ، ثلاثة أرباعها بسكة الحديد إلى محطة فوكه وبعدها بالسيارات الكبيرة ، وكان قد أنشأ ذاك الخط سمو الخديو السابق رغبة فى تعمير تلك الناحيه التى كان يمتلك جل أراضيها ويحاول اصلاحها ، لكنه اعتزم أن يبيع الخط للطليان ، فسارعت الحكومة بشرائه منه ، ولقد سار القطار الى جانب مستنقعات بحيرة مريوط وصحرائها المالحة طويلا ، ومر بمحطة (اكنجى مريوط) ، ولعل أكبر البلاد (الحمام) العاصمة التجارية لتلك الناحية ، أما الأهلون فهم قليلون مشتتون فى خيامهم ، ولهم لهجتهم العربية المحرفة ، وقد كنا نقف على المحطة فلا نرى من المساكن شيئاً سوى أبنية عمال المحطة ، فنتساءل أين البلدة ؟ فيقولون : ليس هناك من بلد ، والأهلون متفرقون فى مساحة شاسعة من الأرض حولها ، ويبدو عليهم العوز والجوع ، وبخاصة فى هذا العام الذى تخلف فيه المطر فأجدبت منابت الشعير ، وكنا نرى مساحات الأراضى التى (عزقها) أصحابها وبذروا فيها الشعير كعادتهم وتركوها حتى ينزل عليها مطر الشتاء فيسقيها ، وعند اقتراب نضجها يعودون من جولاتهم الطويلة — التى قد تصل بهم الى داخل مديرية البحيرة — ويحصدونها

وبعد مسير ثمانى ساعات ونصف من الاسكندرية أشرفنا على مرسى مطروح فى خليج هلالى ، تقوم المبانى على جوانبه فى شوارع متعامدة أبعادها تكاد تكون متساوية وهندستها موحدة بسيطة ، جلها شبه مربعات من طابق واحد يكسوه الطلاء الأبيض ، وقل أن تجد بناء يشـذ فى علوه أو لونه وهندسـته ، والشوارع هناك فسيحة ، ويبدو عليها المظهر الصحراوى فى ندرة النبت ، وان حاولت المحافظة استنبات بعض الأشجار القليلة على جوانب الطرق ؛ وهناك بيت المحافظ الانجليزى — ومطروح تعتبر عاصمة محافظة الحدود الغربية —

يشرف على البحر ، ويليه بيت وكيل المحافظ وسائر الموظفين . ومما يذكر للادارة هناك بالفخر ، عنايتهـا بالنظافة التامة ، ورعاية صحة الأهلين والرقابة الخلقية عليهم ؛ ولقد أعدت للموظفين نادياً صغيراً جميلاً على البحر زود بصنوف الحلوى والمرطبات وأدوات اللعب البرىء وبجهاز للراديو يسرى عنهم فى معيشتهم المنعزلة الموحشة ؛ وتضاء الشوارع بالمصابيح الكبيرة التى تقلل من وحشة سكون الليل الرهيب هنالك . وخير ما يتجلى منظر البلدة فى كامل روائه من الاستراحة الحكومية التى أقيمت على النجاد التى أدت بسيارتنا إلى شاطئ خليج مطروح ؛ وفى ناحية نائية من غرب مطروح مسجد أنيق (لسيدى العوام) بطل المنطقة وقد بناه الخديو السابق كما بنى كثيراً من المساجد فى بلدان خط مريوط ، وكانت تقوم حوله طائفة من مساكن الأعراب فعوضتهم عنها الحكومة وأزالتها وأقامت مصيفاً يسمونه الليدو ، فبـدأت بنزل فاخر زودته بكافة وسائل الترف والراحة وجعلت أجر المقام به نصف جنيه فى اليوم ، ثم أقامت حوله بيتين صغيرين أنيقين (فلات) لمن يريد الاستئجار . على أن عزلة المكان وبعده وافتقاره إلى وسائل اللهو قد زهد المصيفين فيـه ، إذ أنى لم أحص فى المصيف كله أكثر من عشرة أشخاص ، فهو عندى خير مصطاف لطلاب الراحة البريئة والسكون الشامل وهؤلاء قليلون ؛ ويخيـل إلى أن تقدير الحكومة الصدقية كان خاطئاً إذ كلفته نيفاً وعشرين ألف جنيـه لن يسد للدولة منها شيئاً . ولقد قال لى بعض الناس من سكان البلد إنها فكرة انجليزية قصد بها أن يقيم على حساب الدولة مستراضاً للمارة من السادة الانجليز فى روحاتهم وغدواتهم على الحدود الغربية

وأهل البلد من الأعراب يسيرون فى ثيابهم الفضفاضة ، وسادتهم يطوقون كواهلهم بأحزمة بيضاء ثقيلة ، ونساؤهم يسرن سافرات فى ثياب حمراء فضفاضة أكأنها هائلة هادلة وهن على جانب كبير من السذاجة . تجلس فى المقهى فترى الواحد منهم يدخل ويقف حولك يحدق فيك ويزوغ ببصره ثم يتسكع حولك ولا يكاد ينصرف حتى ترى غيره ، وأطفالهم عراة جياع حالتهم تستدر العطف وتستنزل الرحمات ويكثر بينهم الزنوج السود وهم من عبيد السنوسية جاءوا بهم معهم بعـد أن حرروهم لما أن طاردهم الطليان وأجلوهم عن ديارهم . ولأبناء السنوسى هناك مقام كبير بين الناس يكاد يبلغ حد التقديس . حدث مرة أن رأيت بيتاً فاخراً طلى باللون الأزرق على خـلاف سائر بيوت البلدة فسألت أحد المارة بيت من هذا ؟ فأجاب : بيت الأسياد . قلت: ومن الأسياد ؟ فثار الرجل وصاح فى نغمة الغاضب المستنكر: الأسياد ! الأسياد ! كيف لا تعرفهم هم آل السنوسى ! ولهؤلاء جل أملاك المنطقة وأبنيتها . وإلى الجنوب الغربى من البلدة أقيم المطار فى متسع هائل واستعداد كبير لاستقبال الطائرات المختلفة ، وقد نزلت به أمامى طائرتان إحداها للشركة الهولندية التى تقوم من هولندة وبتافيا ، وهى طائرة كبيرة من الألمنيوم بها ١٤ مقعداً للمسافرين . أما الثانية فطليانية بين الأسكندرية وبنى غازى وذاك خط حديث بدأ منذ أسبوعين فقط وطائرته صغيرة

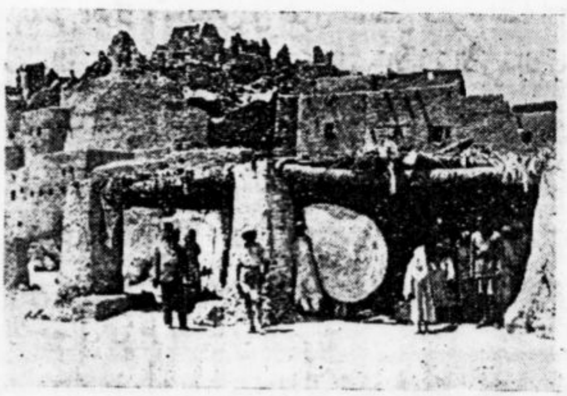
وفى مطروح محطة لاسلكية أساس عملها الاتصال بالطائرات خصوصاً الهولنـدية . أقمت فى مطروح زهاء يومين فى نزل أغريقى ، واليونانيون هناك نشيطون فى التجارة وبيـدهم غالب سيارات النقل وحوانيت البدالة والفنادق ؛ وسـيارات النقل هناك تقوم لثلاث جهات : فوكة وتلك كل يوم ، السلوم ، واحة سيوة مرة أو مرتين فى الأسبوع

الى سيوه :

قمنا مبكرين نستقل سيارات الحدود فأخذنا نسير فى صحراء لانهائية عريت عن النبت حتى الشائك منه وإن كان مظهرها فى الشتاء والربيع أبهى وأجمل إذ يكثر العشب بنواره المختلف الجميل ، ولا يفتأ المسافر يمر ببقاع تنمو بها أعواد الشمير ، والطريق حجرى فى جزئه الأول ، مترب فى الأخير ، ويمر بمجموعة من آبار أذكر من بينها : حجفة جلاز عنـد الكيلو ٧٢ من مطروح — حجفة أى بئر بلغتهم — وحجفة البويب عند الكيلو ١٢٤ على مقربة من الاستراحة التى أقيمت لجلالة الملك يوم أن زار تلك الناحية سنة ١٩٢٨ ، ولذلك يطلقون على تلك البئر أحياناً (بئر جلالة الملك) لأنه شرب منها ، ثم بئر النصف فى منتصف الطريق عند الكيلو ١٥٠ ، والمسافة كلها ٣٠٠ كيلومتر ، وغالب تلك الآبار رومانية الأصل كانوا يحفرونها تجاويف فى الصخر تبطن بالأسمنت أو الآجر ، وتمد بفتحات ضيقة يؤدى اليها ماء المطر

عند سقوطه ليتراكم فيها ، وعلى الفتحة الرئيسية باب وحارس يكاف بحفظها من الأوساخ ومن إسراف الناس فى مائها ، وأنت ترى طائفة كبيرة من السائمة وبخاصة الأبل تحوم حول تلك العيون وتتسكع فى مرعاها عساها تشفى بعض ظمئها من الماء كما مر بالبئر عابر ، وقد كان يبدو على بعض الأبل عند بئر جلاّز ظمأ شديد ، ولم يرغب الحارس فى سقيها ، ولما سألناه عن السبب قال : لكيلا تنتجع تلك الناحيـة وتعتادها كثيراً فتضايقه ، على أنا أجبرناه أن يسقيها هذه المرة اكراماً لنا ورأفة بها

لبثنا نسير فى ذاك الطريق الوعر ثمانى ساعات ونصف الساعة — والسيارات الأخرى الكبيرة تقطعه فى يوم كامل — وقبل دخولنا الواحة أخذنا فى الهبوط تدريجاً ، وظهرت مخاريط متناثرة من الربى ، تمتد إلى الآفاق فى منظر رائع جميل ، ثم بدت الخضرة الشاحبة على بعد أمامنا ، وذاك أول قبس من سيوه التى تنخفض عن سطح البحر بنحو ٢٥ مترا ، ثم أخذت تفاصيل المنظر تبدو فى شـبه غابات من النخيل مغلقة متباعد بعضها عن بعض ؛ بينها ربى أقيمت عليها المبانى بعضها للحكومة والبعض للأهلين



سوق سـيوه يقام من أعراش على عمد من طين
ومن ورائه المساكن وكأنها الأحجار

وقفنا بباب مركز البوليس ، ولقينا حضرة المأمور أحسن لقاء ، وقدم لنا الاستراحة لنأوى اليها ، وأظهر استعداده الجميل لمساعدتنا فى جولتنا العلمية القصيرة هناك ، وكان قد أوصاه بنا خيراً سعادة وكيل المحافظ وبعض اخواننا من مطروح . دخلنا دار الاستراحة وقد أقيمت فوق ربوة شاهقة تشرف على الواحة وقد زودت بالشرفات تغطيها شبابيك من السلك لمنع البعوض ، وقد كانت الواحة مهددة بالملاريا منذ زمان بعيد ولا يزال لها بقية إلى اليوم — ولن أنسى جلستى فى إحدى تلك الشرفات ومشهد الواحة من دونى ساحر وامتداد الصحراء رهيب ، وقد عنى بتلك الاستراحة عناية خاصة ، لأن جلالة الملك قد نزل بها فى زيارته ، وبها دورة للمياه فاخرة ، وفى أسفلها بعض المغارات التى كان يتعبد فيها الشيخ السنوسى الكبير فى زياراته لتلك الواحة قديماً ، وبعد أن طارده الطليان اليها . نزلت أجوب بعض أطراف البلدة فاذا بغالب بيوتها على الربى تقام من الطين المصفر الذى يحكى الطفل ، وترى البيوت وكأنها الأحجار أو المغائر بعضها ركب فوق بعض ، وتشبه مجموعة من حصون قديمة ، وليس لها من النوافذ سوى كوى صغيرة لا تكاد تسمح لضوء الشمس أن يتخللها ، ولهم العذر فى ذلك ، لأن لفح الصيف قاتل وبخاصة فى ابريل ومايو ، وقر الشتاء زمهرير ، وشهور أغسطس وسبتمبر خير مواسم السنة جواً هنالك . ومن أظهر ما يسترعى نظرك وسط تلك الأبنية برج مربع يدق كلما علا ويشبه المدخنة وهو مئذنة لمسجد من مساجدهم القديمة ، أما سوق البلدة ومتاجرها فأقيمت فى متسعات أسفل تلك الربى وزودت بظلل من الطين وجريد النخيل ، ومداخل شوارعها ضيقة مسقفة ، لا تشعر بأنها طرق يباح المرور فيها

(يتبع) محمد ثابت

أين نسكن الأرواح

وهل يأكلون ويشربون ؟ وأين هم . الروح حية لا تموت . كيف تظهر الأرواح ، وما هى حالاتهم . المراسلات أو المناجاة . القيامة والانتقال بالموت إلى الحياة الروحية الموعودين بها . ظهور أهلنا وأعزائنا بهيئة الأرواح الروحانية . فى دور الانتقال من هذه الحياة إلى حياة أبدية خالدة . صحة مناجاة الأرواح برسائل واضحة ثابتة . الخ

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقي سان سيان

احتفلت الدوائر الفنية الفرنسية فى أوائل أكتوبر الحالى بالذكرى المئوية لمولد الموسيقى الشهير شارل كامى سان سيان. ويشغل سان سيان فى عالم الموسيقى مركزا فريدا، فهو حلقة اتصال بين المشرق والمغرب يندر وجودها، وله بالأخص صلة بمصر لا يزال يذكرها من تمتع بسماع عزفه فى هذه البلاد قبل الحرب الكبرى. وقد ولد هذا الموسيقى الشهير فى أكتوبر سنة ١٨٣٥ بباريس ودرس الموسيقى منذ حداثته، ودرس عزف الأرغن على العازف الشهير بنوا، ودرس التأليف الموسيقى على هاليفى فى معهد باريس، وتخصص فى الموسيقى الكنسية. وفى سنة ١٨٥٨ عين عازفاً لكنيسة المادلين، ولم يمض قليل حتى طار صيته كعازف ومؤلف موسيقى، وفى سنة ١٨٦٧ نشر مقطوعته الشهيرة «أعراس روميتيه» فلقيت نجاحاً عظيما، وأتبعها بنشر سلسلة أخرى من المقطوعات القوية الشائقة وأخصها مقطوعة عنوانها «شمشون ودليله» التى عزفت لأول مرة فى فيمار بألمانيا وأكدت صيته وعبقريته كمؤلف لمقطوعات الأوبرا، ومن مقطوعاته الأخرى: «الرقصة المروعة»، «شباب هرقل»، «هنرى الثامن»، «اسكانيو»، «البرابرة»، «هيلين» وغيرها

وقد ساح سان سيان كثيراً فى بلاد المشرق، فزار الجزائر ومصر، وتأثر بمحيطها ومثلها الشرقية. وله مقطوعات شهيرة يلذ سماعها للشرق بنوع خاص، ففيها يتجلى سحر السماء الصافية، وروعة الصحراء، وجمال الليالى الشرقية

ومما يرويه المستر أدوين ايفانس الناقد الموسيقى الشهير، أنه كان يمر ذات مساء بالاسكندرية فى طريق الرمل، إذ سمع عزفاً بديعاً على «المعزف» (البيانو)، فسمره السحر فى مكانه، وسرعان ما علم أن هذا العازف إنما هو سان سيان، وأنه يقضى بمصر أياماً فى خفية وتنكر

وذاع صيت سان سيان فى جميع أوربا، ولا سيما فرنسا وانكلترا والنمسا وألمانيا. وعاش زهاء خمسة وثمانين عاماً. وتوفى بالجزائر فى ديسمبر سنة ١٩٢١

مباحث عن أصل الترك

انشأت حكومة الجمهورية التركية فى استنبول متحفاً لعلم الأجناس البشرية يقصد به بنوع خاص أن يعاون العلماء الباحثين فى أصل الجنس التركى على تحديد خواصه الجنسية وتعيين السلالة الأنسانية التى ينتمى اليها. ولكى يتمكن العلماء من إجراء المباحث العلمية اللازمة أصدرت الحكومة لائحة تبيح فتح قبور العظماء الترك وفحص جماجمهم وإيداعها بالمتحف المذكور عند الحاجة

وقد نفذت هذه اللائحة بالفعل وفتح قبر سنان باشا أعظم مهندسى الترك؛ وقد عاش فى القرن الخامس عشر وانشأ أكثر من مائتى مسجد وقصر ومكتبة كلها من الأبنية الأثرية الشهيرة؛ وفحصت جمجمة المهندس الشهير لجنة من العلماء. وسيجرى أيضاً فحص عدد من جماجم العظماء الترك الآخرين من رجال الحرب والسياسة والتفكير. وتشجع الحكومة هذه المباحث وتعضدها؛ وهى تجرى باشراف عالمين أجنبيين كبيرين احدهما الأستاذ موشيه الاخصائى فى علم الأجناس البشرية

والمعروف أنه يصعب جدا أن تحدد خواص الجنس التركى أو خواص العنصر السائد فيه لأن الترك ليسوا إلا شعبة من جنس أسيوى كبير هو الجنس المغولى على الأرجح؛ وهو جنس متشعب الفصائل، هذا إلى أن الشعب التركى امتزجت به خلال العصور أجناس كثيرة أخرى دخلت الاسلام واعتنقت الحضارة التركية؛ ثم إن الترك درجوا خلال العصور على التسرى، وكان الكبراء منهم يحوزون فى «حريمهم» نساء من مختلف الجنسيات، فمن الصعب بل ربما كان من المستحيل أن يستطيع الترك المعاصرون إرجاع أصلهم إلى جنس بذاته

خطر على المؤلفين

هل يقرأ الناس اليوم أكثر مما كانوا يقرأون ؟ وهل يربح المؤلفون أكثر مما كانوا يربحون ؟ دلت الاحصاءات فى انكلترا وفى أمريكا على أن قراء الكتب الانكليزية قد زادوا فى سنة ١٩٣٤ عنهم فى سنة ١٩٣٣ بمعدل نحو عشرة فى المائة ، وكان المفروض أن ذلك يعني أن المؤلف قد زاد ربحه ، ولكن الواقع أن أخبار المؤلفين لا تسر ، والأدلة متوفرة على أنهم يسيرون من سيء إلى أسوأ ، وقد دل البحث على أن أشد العوامل وطأة على المؤلفين هو نظام المكاتب الدورية المأجورة ؛ ويوجد من هذه المكاتب فى أمريكا نحو خمسين ألف مكتبة ، وهى تنتشر الآن فى انكلترا بسرعة مدهشة ، ونظام هذه المكاتب فى غاية السهولة فهى لا تطلب ضماناً عما تعيره من الكتب ، ولا تتقاضى من القارئ إلا أجراً زهيداً قد لا يتجاوز بضعة ملاليم عن الكتاب الواحد ، على أنها مع ذلك تجني أرباحاً طائلة ، وبهذه الوسيلة يقرأ الكتاب الواحد مئات وربما آلاف من الناس ، ولا يصل المؤلف منهم شيء ، وقد وصفت هذه المكاتب السيارة بأنها « الوباء الأسود » بالنسبة للمؤلفين ؛ فاذا لم يوضع نظام آخر لهذه المكاتب يكفل للمؤلفين نوعاً من المشاركة فى الربح ، فانها تنتهى بتثبيط همم المؤلفين ، ويحجم المؤلفون بذلك عن التأليف ، وعندئذ يكون المشتغلون بهذا النظام قد قتلوا الدجاجة ذات البيضة الذهبية ، وما يقال عن انكلترا وأمريكا يمكن أن يقال عن مصر التى أصبحت فيها عارية الكتب والمجلات والصحف رذيلة ذائعة

معرض للأناجيل

مضت أربعمائة عام كاملة على طبع أول انجيل باللغة الانكليزية . وقد احتفل بهذه الذكرى أخيراً فى انكلترا ؛ وأقامت مكتبة رينالدز الشهيرة فى منشستر معرضاً للأناجيل القديمة . والأنجيل الذى يحتفل بذكراه هو الانجيل الذى ترجمه « كفردبل » ؛ وقد عرضت إلى جانبه أناجيل عديدة بمختلف اللغات تمثل تطور الانجيل منذ نشأة النصرانية حتى القرن الأخير . والمعروف أن أول إنجيل طبع هو إنجيل جوتنبرج الذى طبع فى سنة ١٤٥٦ ، وتوجد منه الآن فى العالم كله أربعون نسخة فقط . وبين هذا الانجيل ، وإنجيل « كفردبل » ثمانون سنة ؛ وقد ظهرت تراجم عديدة أخرى للأنجيل منذ العصور الوسطى منها تراجم إلى العبرية واليونانية والألمانية والفرنسية ؛ وظهرت بالانكليزية تراجم لأجزاء من الأنجيل فى وقت مبكر جداً ؛ من ذلك ترجمة كايدمون فى القرن السابع ، وترجمة الراهب بيد فى القرن الثامن ، ثم ترجمة الفريد الأكبر . وقد عرضت هذه الأناجيل كلها فى صعيد واحد . وعرض معها إنجيل مخطوط كان ملكا للملكة اليصابات

آثار الفيكنج

كشفت المباحث الأثرية فى السويد عن أشياء مدهشة تدل على بعد المدى الذى انتهى اليه « الفيكنج » فى تجوالهم فى طلب السلب والغنيمة ، فى القرنين الثامن والتاسع من الميلاد ، ومن ذلك ما وجد فى جهات متعددة فى أنحاء السويد وحفظ فى متاحفها ، وهو عبارة عن طائفة كبيرة من الآثار واللقط الشرقية ، وبالأخص النقد الشرقى القديم ، فقد وجد منه زهاء عشرين ألف قطعة ، وجد معظمها فى جزيرة جوتلاند ، وتدل بعض الأحجار المنقوشة على أن بعض زعماء الفيكنج سافروا حتى ضفاف بحر الخزر (بحر قزوين) ، وتوفوا هنالك فى تلك القفار النائية ؛ وفى متحف البندقية أسد من المرمر عليه نقوش « فيكية » محى بعضها ؛ وكان هذا الأسد من غنائم الحرب التى حصلتها البندقية من اليونان فى القرن السابع عشر

كيف يشجعون الأدب

قرأنا فى أنباء أمريكا الأخيرة أن الرئيس روزفلت أقر مشروعاً أدبياً ضخماً يعد الأول من نوعه ، وخلاصته أن الحكومة الأمريكية قد اعتمدت نحو سبعة وعشرين مليون ريال (خمسة ملايين جنيه ونصف) لتغذية الحركة الأدبية والفنية فى أمريكا ، وأن هذا المشروع الذى يبدأ فى تنفيذه من سبتمبر الماضى سيؤدى إلى إيجاد أعمال لخمسين ألفاً من الكتاب والموسيقيين والفنانين لمدة ستة شهور

وهذا المشروع بلا ريب من مفاخر الرئيس روزفلت وسياسته ، وإذا كان ثمة بلد نرجو أن يحدث فيها مثل هذا المشروع صداه وأثره ، فهى مصر التى ما زالت تتجاهل الحركة الأدبية والفنية ، وما زالت تتركها لمصيرها وبؤسها . ولقد عنيت الحكومة أخيراً بمسألة التمثيل ، ورصدت لتشجيعه وانهاضه

زهاء ثلاثين ألفاً ، هذا عدا عشرة آلاف أخرى تفرق كل عام على الفرق الأجنبية . وإذا كنا نحمد لوزارة المعارف عنايتها بالتمثيل وهو من عناصر الفن وأركانه ، فاننا لا نستطيع أن نسيغ موقفها إزاء الحركة الأدبية وإزاء المشتغلين بالأدب والكتابة ، فلم نسمع إلى اليوم أن وزارة المعارف قد فكرت فى عهد من العهود أن ترصد أى اعتماد لتشجيع الحركة الأدبية ، ولم نسمع أنها رصدت يوماً أى مبلغ لمكافأة الكتاب البرزين أومؤلفى الكتب الممتازة ، ومنذ أعوام ترصد وزارة المعارف اعتمادات مختلفة لاعانة الممثلين والممثلات ، ولكنها لم تفكر يوما فى أن ترصد مبلغاً لاعانة الكتاب والمؤلفين ، ولسنا نجد مبرراً لمثل هذا الاغفال المؤلم من وزارة المعارف ، فهل لنا أن نؤمل أنها فى عهدها الجديد ، تعنى بهذه المسألة ؟ وهل لنا أن نؤمل أنها كما ذكرت التمثيل والممثلين تذكر الأدب والكتاب ، فتعمل لهؤلاء شيئاً مما تريد أن تعمله لأولئك ؟

آخر كتاب للكولونيل لورنس

من أنباء نيويورك أن شركة للنشر قد أعلنت أنها ستخرج فى الخريف القادم عشر نسخ فقط من آخر كتاب وضعه الكولونيل لورنس بطل الثورة العربية الشهير ، وعنوانه المضرب The Mint . وستطبع هذه النسخ العشر على ورق من الحرير الفاخر وتعرض النسخة الواحدة للبيع بمبلغ خمسمائة ألف دولار (مائة ألف جنيه !) والمقول أن بيع الكتاب بهذا الثمن الخرافى يقصد به حماية حق طبعه وعدم إذاعته . ومما يذكر بهذه المناسبة أنه لما طبع كتاب لورنس الشهير « سبعة أعمدة من الحكمة » فى أمريكا عرضت النسخة للبيع بمبلغ أربعة آلاف جنيه وبيعت كلها وكان المطبوع منه ١٢٠ نسخة فقط

كتاب جديد لدانونزيو

صدر أخيراً كتاب جديد لجبرائيلى دانونزيو شاعر ايطاليا الأكبر بعد صمت طال أمده . وعنوان كتاب الشاعر الجديد طريف مدهش ، فقد سماه « مائة ومائة ومائة ومائة صفحة من الكتاب السرى لجبرائيلى دانونزيو الذى يود الموت» والكتاب مدهش رائع حقاً ؛ فهو يحتوى على طائفة كبيرة من ذكريات دانونزيو ومخاطراته وتجاربه الشخصية وملاحظاته من كل ضرب ، وهو يفيض بالصور البديعة والآراء الغريبة ، والتخيلات المدهشة والاضطرام المتقد فى سبيل المجد والشهرة . وينقسم الكتاب إلى قسمين ، قسم يحتوى على قصص الشباب وأحلامه الوحشية ، وقسم عنوانه « الكتاب السرى »، وفيه يتحدث دانونزيو عن الدور الذى قام به فى الحرب الكبرى ، ومخاطراته وأحلامه وأعماله العبقرية التى جعلت من الشاعر جندياً شهيراً ، وجعلت منه بطلا قومياً لايطاليا

من ضحايا النازى

يعيش فى المنفى رهط كبير من أكابر الكتاب الألمانيين (غير اليهود) وذلك لأنهم من خصوم هتلر وسياسته ؛ ويعانى الكثير منهم شظف العيش وآلام المنفى لأنهم حرموا من أموالهم وأملاكهم التى صادرتها الحكومة الألمانية . وقد توفى أخيراً فى باريس أحد هؤلاء الكتاب ، وهو الدكتور هلمان فون جيرلاخ

وكان فون جيرلاخ قبل قيام الحكم الهتلرى من أقطاب الصحافة الألمانية ، يحرر « جريدة برلين الأسبوعية » B. Z. Am Montag وقد اشتغل فون جيرلاخ بالسياسة منذ بعيد وتقلد النيابة فى الريخستاج مراراً عن سيليزيا العليا موطنه . ولكنه كان ديموقراطى النزعة يدعو إلى السلام والتفاهم مع فرنسا ، وهو الذى أسس شعبة حقوق الانسان الألمانية ، ولما قام الحكم الهتلرى فى ألمانيا ، فر من ألمانيا إلى باريس ، فنزعت الحكومة أملاكه وأمواله ، وجعل فون جيرلاخ جهوده لمقاومة الحكومة النازية ومبادئها حتى توفى فى نحو الخامسة والستين من عمره

منازل الفضل

كان الأستاذ الجليل محمد محمود جلال قد أخذ يكتب تحت هذا العنوان عن الدور القديمة التى كان لها أثر ظاهر فى تاريخ مصر الحديثة ، فنشر فى العدد الثامن والثمانين من (الرسالة) مقالاً نفيساً عن (قصر الوالدة) ، ثم شغلته شواغل الحياة عن موضوعه . وقد جاءنا اليوم كتابان أحدهما من الأديب (على فهمى) بالمنصورة ، والآخر من (فؤاد شاكر) بالقاهرة ، يستنجزان الأستاذ وعده بالمضى فى هذا الموضوع الطريف الذى يجمع بين الفائدة والعظة واللذة ، والأستاذ لا شك فاعل

الكتب

١ — **وحى العصر** — تأليف الأستاذ ابراهيم المصرى

٢ — **قصص الحياة** — تأليف السيدة نور الهدى الحكيم

للأستاذ محمود الخفيف

ترى فى هذين الكتابين مثلين من ألوان الأدب المصرى فى مصر. أما أولهما فمجموعة مقالات تتخللها عدة أقاصيص مترجمة، قسمه المؤلف خمسة أقسام: دراسات أدبية، واجتماعيات وصرخات، ووجوه وأرواح، وقصص. ولذلك كان الكتاب فى بنائه وفى موضوعه لا يخرج كثيراً عن ذلك النوع من الأدب المعروف « بأدب المقالة »، فلقد جمع المؤلف شتيت ما كتب فى مناسبات مختلفة وأطلق عليه اسم وحى العصر، وإن كان هذا الاسم يوحى اليك فكرة متصلة أو دراسة مفصلة للعصر الذى يعيش فيه

تطالع الفصل الأول « وحى البيئة والعصر فى الأدب الحديث » فترى الكاتب يقرر أن الأدب الحى الجدير بالبقاء هو ما جمع بين تأثير البيئة وإيحاء العصر، وتراه من أجل ذلك يعيب على أدبنا المصرى خلوه من هذه الصفة، بينما هو يمتدح الأدب الأوربى ويعجب به، وهو إذ يورد لك الأمثلة فى أدبنا ينسى أن ما يشكو منه إنما هو وليد البيئة، كما جاء فى كلامه عن طريقتنا فى الحب والشعر مثلا؛ والغريب أنه يشير إلى العلة، وهى بعد المرأة عن الرجال! أوليس تأثير البيئة الذى يدعو اليه واضحاً فى هذا؟ وكيف يتسنى لنا أدب آخر مع ما نحن عليه؟

وانك لتنتظر أن يدور الكتاب على تلك القاعدة التى يدعو اليها، فاذا بك لا تكاد تحس أثراً لبيئتنا إلا فى تلك القطعة الجميلة القوية وهى « المرأة المصرية قبل الكفاح الوطنى وبعده » وماعدا هذه فالصبغة كلها غربية، أوربية وأمريكية، فى مقالة « الصدق فى الأدب والحياة » تجده لا يقصر عن اتهام أدبنا فيرمينا بأننا نؤثر اللذة على الألم فى انتاجنا ضعفاً منا وجبناً، ثم هو يعيب علينا كثرة الخيال وضعف قوى العقل، يعيب ذلك علينا فى الشعر والقصة، وهو لا يجهل أن الشعر فى العالم قديمه وحديثه شرقيه وغربيه وليد الخيال، وأن القصة تفقد أهم عناصرها إذا غلب فيها التحليل والدرس على الخيال الشعرى القوى، فاذا طُلب الصدق فعليه أن يطلبه فى الفلسفة، فان الصدق فى الأدب عدو الخيال، ومن ثم فهو عدو الشعر والقصة. على أن الكاتب الفاضل لا يلبث أن ينسى هذه القاعدة أيضاً، فيرى أن الأدباء البرجوازيين يتعامون عن بيئتهم، ويزيغون عنها، ويبتعدون بذلك عن الصدق، وهو مع ذلك يرى فى أدبهم قوة تنجيه من اللوم، ثم تراه حين يتحدث عن « الشعر فى هذا العصر ونهضته فى فرنسا » يدعو مع الداعين من أبناء الغرب إلى السمو الروحانى والخيال الجامح الملئ بالرؤى والأحلام، تراه يدعو إلى « ذلك الشعر الذى يغلب فيه الخيال على العقل، والذى ينطلق كموج الموسيقى، ويتصاعد إلى السماء كالصلاة، ويقصد به الشاعر التغنى بالحياة وتمجيد ظواهرها واستبطان هذه الظواهر بواسطة الأشراق الروحى والاتصال من خلالها بالقوة المطوية الخالدة التى أبدعتها » فأين هذا من انكاره الخيال فى الأدب وخصوصاً فى أدبنا؟! ولعل هذا التناقض نتيجة انعدام الوحدة فى الكتاب كما سبق أن ذكرت

أما باقى موضوعات الكتاب فهى كما أسلفت غربية الروح والعاطفة، فأنت تقرأ الأدب الأمريكى الحديث وترجمة خمسة من أعلامه، وتقرأ أدب السرعة ومظهره فى أوروبا، كل ذلك دون أن تظفر باشارة إلى شاعر من شعرائنا أو كاتب من كتابنا؛ وفى قسم التراجم من هذا الكتاب لن تجد سوى أعلام الغربيين كاميل زولا، وبول بورجيه، ورومان رولان،

وهنرى دى منترلان ، وغيرهم ؛ وفضلاً عن ذلك فلن تحس بشخصية المترجم فى تلك التراجم ، وهى على دقتها واستيفائها لا تخرج فى جلتها عما نطالعه فى المجلات من لمحات بسيطة فى سير هؤلاء الرجال حتى لقد أحسست أن ثقافة المجلات مسيطرة سيطرة قوية على الأديب المؤلف فى هذا الباب

حتى الأقاصيص تجدها معربة تشرح بيئات غير بيئتنا ومجتمعاً غير مجتمعنا ، ومُثلاً غير مثلنا . نعم لا ضير على الأديب أن ينقل الينا ما استحسن من النماذج بين حين وآخر ، ولكن على شرط أن يشمرنا بألحاننا ويرينا من ألوان ثقافتنا وصور حياتنا ما يؤنسنا وسط هذا الضجيج الغربى الذى نخشى أن يعوق تقدمنا ، ويمحو ذاتيتنا ، ويحول بيننا وبين الاصالة والخلق ، ويقطع الصلة بيننا وبين ماضينا الحافل

ولست أشك فى أن الأستاذ ابراهيم المصرى بذكائه ونشاطه واستعداده قمين أن يجول فى أدبنا المصرى الناشىء جولات تعود علينا بالخير ، إن هو وجه إليه بعض عنايته

***

يأتى بعد ذلك الكتاب الثانى « قصص الحياة فى الأسرة والمجتمع » للمربية الفاضلة السيدة نور الهدى الحكيم ، ويقع فى نيف وثلثمائة صفحة ، ذكرت مؤلفته أنه مؤسس على نظريات التربية وعلم النفس والاجتماع . ولقد قرأته فألفيته يدور كله حول المرأة وعلاقتها بالرجل ، وهو يضم إلى مابه من أقاصيص بعض نظرات فى الحياة « كاستفتاء فى حادث خاص » والمجتمع الحديث للأسر المصرية ، وتطور الآراء فى تربية المرأة . وهذا الكتاب يتناول المجتمع المصرى والبيئة المصرية فى الكثير الغالب من موضوعاته ، حتى لتكاد تنعدم فيه الصبغة الغربية ، على الرغم من أن صاحبته عاشت فى أوروبا زمناً ، وهى ظاهرة نحمدها لها ؛ فما أحوجنا إلى من يتناول حياتنا بالشرح والتحليل فى إخلاص وعطف . ولقد أحسست الاخلاص والتحرق إلى الاصلاح فى هذه الأقاصيص الساذجة ، وأعجبتنى تلك الروح الطيبة ؛ فالكاتبة لا تشير إلى عيوبنا إشارة المترفع المستكبر الذى يباهى بمدنية غيره ، ولن يهمه سوى إظهار نقائصنا وعرضها فى شكل فضائح كما يفعل بعض شبابنا ، بل تراها تعرض لها فى رفق وهوادة ، ولن تقتصر على الموقف السلبى منها ، وإنما تذكر أوجه العلاج وتشرحها جهد طاقتها ، وهى كما أذكر طريقة حميدة وروح محمودة . هذا إلى أن الكاتبة الفاضلة قد وفقت إلى أسلوب بسيط مقبول ، تراه وإن لم يرضك كثيراً من ناحية البلاغة ، لن يثقل عليك ولن تمله

غير أنى أرى بناء القصة عندها ضعيفاً ، ولعلها لا تسير فيها على قاعدة ولا تنتهج طريقة ، وإنما يختلج الرأى فى رأسها فتلبسه ثوب القصة فى أى وضع ، جاعلة نصب عينيها إبراز الفكرة وتوضيحها بطريقة سهلة غير طريقة الدفاع والمناقشة . ولعلها لم تفكر قط فى بناء تلك الأقاصيص ؛ والحقيقة أنها أقرب إلى « الحكايات » التى تدور بين جليسين منها إلى القصة فى وضعها الفنى ، فأنت إذا طلبت الاستمتاع الفني عند قراءة هاتيك الأقاصيص لن تظفر به فى معظمها ، أما إذا طلبت الرأى والعاطفة فهى متوفرة لديك

هذا إلى أن الكاتبة النابهة ، أقوى شخصية وأشد تأثيراً وأسمى بياناً فى المقالة عنها فى القصة ، فلقد أعجبت حقاً بمقالها « تطور الآراء فى تعليم المرأة وتربيتها » وتلوته مرتين مستمتعاً بما جاء فيه من آراء صائبة ، وما تجلى فى ثناياه من روح متوثبة

وانى إذ أقدم هذا الكتاب إلى فتياتنا وفتياننا ، أتقدم بالثناء للمربية الفاضلة على ما بذلت من جهد وما توخت من خير

الخفيف

النقـــد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ فى فصلٍ سابقٍ عن المعنى ، وأنّه العنصرُ الأولُ من عناصر الشعر ، بل هو الشعرُ نفسُه ، وقلت : إن الألفاظ ليست إلا ثوباً يحيط به ، ويقدَّر على أجزائه ، وأن حُسنَها وروعَتها ليست إلا وسائل يقصد بها استمالة القلوب النافرة ، واجتذاب الميول الجامحة

ولست أريد بالمعنى أىَّ معنى يخطر بالخاطر ، وأول ما تتحدث به نفس الشاعر ، والحقائق المجرَّدة الأصلية التى تقع فى الفكر لأوّل مرّة قبل أن تتصرف فيها الملكة الفنية ، فان ذلك لا يسمى شعراً وليس منه فى قليل ولا كثير ، لأن هذه المعانى مشتركة بين جميع الأذهان ، ولا فضل للشاعر فيها على غيره ؛ وإنما يقصد بنظمها ضبط الحقائق المتفرقة ، وضم المسائل المنتثرة ليسهل حفظها على من أراده ، لا التأثيرُ فى العاطفة الذى يقصد إليه الشاعر بشعره ، ومن ذلك قول المرحوم حافظ بك ابراهيم :

البرلمان تهيأت أسبابه ... لم يبق من سبب سوى المفتاح

وقوله من قصيدة يودّع بها صاحب الدولة المرحوم سعد زغلول باشا فى بعض أسفاره لمفاوضة الانجليز :

الشعب يدعو الله يا زغلولُ ... أن يستقلَّ على يديك النيل

وقوله فى هذه القصيدة أيضاً :

فزعيمهم شاكى السلاح مدجَّجٌ ... وزعيمنا فى كفـه منديل

وقوله يمدح ثلاثة من الأغنياء قد وقفوا بعض الضياع على إحدى المدارس المصرية :

ثلاثة من سَراة النيل قد وقفوا ... على مدارسنا سبعين فدانا
وخالفوا سنةً فى مصر شائعةً ... جرَّت على العلم والآداب خسرانا
فان عادتهم فى مصر أن يقفوا ... على القبور وإن لم تحو إنسانا

فهل ترى فرقاً بين تلك الأبيات والأخبار التى تقرؤها فى مختلف الصحف إذا نظمت على أجزاء العروض وبحوره ؟

وكذلك قول المرحوم أحمد شوقى بك فى قصيدته التى استقبل بها مصر حين عاد من الأندلس :

وكلُّ مسافرٍ سيؤوب يوماً ... إذا رُزِق السلامة والإيابا

إلا أن ما فى بقية القصيدة من جلال المعانى ، وعلوّ الألفاظ ، ورقة الديباجة قد ستر ما يشعر به الأديب المتذوّق فى هذا البيت من عاديّة المعنى ، وخفته وابتذاله ، وقلة خطره ، واشتراك جميع الأذهان فيه

ومن هذا النوع أيضاً تلك المتون التى ينظمها العلماء فى مختلف الفنون ليسهل حفظها واستذكار العلم بها على الطالب ، كالشاطبية فى القراءات ، وألفيّة النحو ، والبهجة الورديّة فى الفقه ، وعقود الجمان فى البلاغة ، وما إلى ذلك

ومنه أيضاً ما كان يُنظم فى عهد الثورة المصرية من القصائد المسّجلة لحوادثها لا لإثارة العامة ، وتنشرها الصحف إذ ذاك فى كل يوم لأشخاص لا يجيدون قراءة الشعر فضلاً عن قوله ، فلا يلبث أحدهم أن يسمع الحادثة عن بعض الزعماء ، أو يرى طوائف الجنود المدججة بجوب الأحياء ، أو يسمع الخبر ، حتى يجلس جلسة يسيرة يعصر فيها ذهنه ، ويكدّ قريحته ، وينشىء قصيدة طويلة الذيول ، كثيرة الفضول ، لا يذوق الأديب فيها للشعر طعما ، ولا يحسّ له فيها عيناً ولا أثرا ؛ وعفا الله عن الغرابلى باشا ، فكم أمطرنا سحابه الهاطل من هذه القصائد ما يصكّ الأذواق والأسماع ، وإن استهوى قلوب العامة والرعاع ، فهذا الشعر أشبه بالخطب الشعبيّة منه بالقصائد الشعرية

فاذا تصرفت ملكة الشاعر فى تلك المعانى الأصليّة ، وتناولتها بأناملها الرقيقة الصناع ، فأضافت إليها شيئاً من جمال الشعر وروعته ، وسحر الفن وفتنته ، ومزجتها بخيال مستعذب ، أو تعليلٍ مستحسَن ، أو تشبيهٍ رقيق ، أو مجازٍ غريب ، أو تصويرٍ فاتن ، أو وضعٍ حسَن ، أو ترتيبٍ جميل ، أو حرارة تحيى العاطفة وتستثير الشجن ، أو روحٍ فيها تحرّك الحاسّة وتجتذب الشعور ، أو غير ذلك ، تحولت تلك المعانى الأصلية إلى معانٍ شعريةٍ تحسب أن صاحبها قد اخترعها ، ولم تكن معروفةً لأحد قبله ، ووقعَ الشعر من القلوب موقعه ، وأصاب من كل نفسٍ موضعه ؛ وكان كما قلت فى صفة شعر المرحوم اسماعيل صبرى باشا فى القصيدة التى رثيته بها :

متلمَّسٌ من كلِّ نفسٍ سِرَّها ... ومُلامِسٌ من كلِّ قلب موضعا

طبٌّ النفوس بعيد في ميت المنى ... روحاً ويبعث في القنوط المطمعا
شعرٌ إذا يتلى تكاد لحسنه ... تثبُ القلوبُ من الصدور تطلعا
فكأنها في كل بيت تبتغي ... نبأ عن الأحباب فيه أُودعا
فلو أن شعرك كان سجعاً للقطا ... كاد الأراك مع القطا أن يسجعا

ومن المعاني الشعرية ما تراه شائعاً في شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين ومن نهج نهجهم من التحدث إلى مالا يفهم خطاباً ، ولا يحير جواباً ، كمخاطبة الأطلال الدارسة ، والرسوم الطامسة ، ومساءلة الديار الخالية والمغاني المقفرة عن أهلها متى رحلوا ؟ وأين حلوا ؟ والدعاء له بسقيا المطر ، وأن يعود لها ما فقدته من زمان غبر ، كما قال أبو تمام :

دِمنٌ ألم بها فقال سلامُ ... كم حلّ عقدة صبره الالمامُ
لا مرّ يوم واحد إلا وفي ... أحشائه لمحلّتيك غمام
حتى تعمّم صُلع هامات الرُّبى ... من نوره وتأزّر الأهضام
ولقد أراك ، فهل أراك بغبطة ... والعيش غض والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسى طولها ... ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيامُ هجر أردفتْ ... نجوى أسىً فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

وقول مهيار الديلمي :

سلمت وما الديارُ بسالماتٍ ... على عنتِ البلى يا دارَ هندِ
ولا برحتْ مفوّفة النوادي ... تصيب رُباك من خطأ وعمْد
بموقظة الثرى والترب هاد ... ومجدبة الجنى والعام مكدى
على أني متى مطرتكِ عيني ... ففضلٌ ماسقاكِ الغيث بعدي
أميل اليكِ ، يجذبني فؤادي ... وغيرُك — ما استقام السير — قصدي
وأشفق أن تبدّلك المطايا ... بوطأتها كأنّ ثراكِ خدّي

وعلة الجمال في ذلك أن قوّة العاطفة قد ملأتْ قلب الشاعر وضاقت بها نفسه ، وضعف عنها احتماله ، فأفاضها على ماحوله ، وأسبغها على مايشاهده من آثار الديار ، والدّمن القفار ؛ متخيلاً أن لها ماله من قلب وكبد ، وأنها تحس مايحس ، وتجد مايجد ؛ ومن ذلك أيضاً مخاطبة الحمائم على الغصون ، والافضاء اليها بما يكنه الشاعر من لوعة وشجون ، كقول الشاعر :

تذكرني أمّ العلاء حمائمٌ ... تجاوبن أن مالت بهنّ غصون
تملأْ طلا ريشهُن من النّدى ... وتخضرُّ مما حولهن فنون
ألا ياحمامات اللوى عدنَ عودة ... فاني إلى أصواتكن حزينُ
فعُدْن فلما عدْن كِدْن يمتنني ... وكدتُ بأسراري لهن أُبين
فلم تر عيني مثلهن حمائما ... بكين ولم تدمع لهن عيون

وقول أبي كبير الهذلي :

ألا ياحمام الأيك إلفك حاضر ... وغصنُك ميّادٌ ففيم تنوحُ
أفق لاتنُح من غير شيء فإنني ... بكيتُ زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطّت غربةً دار زينب ... فهأنا أبكي والفؤادُ قريح

ولهذا الشعر قصة طريفة لا بأس من روايتها هنا لما اشتملت عليه من المعاني الشعرية التي نحن بصدد شرحها في هذا الفصل

لما وَلِيَ عبد الله بن طاهر خراسان أخذ معه عوف بن محلّم الخزاعي ، فلما كانا (بالرّيّ) جلسا تحت شجرة ، فسمعا صوت عندليب يغرّد ، فقال عبد الله : هل سمعت مثل هذا الصوت ياعوف ؟ قال : لا والله ، ألا قاتل الله أبا كبير الهذليّ حيث يقول : « ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ » الأبيات . فقال عبد الله بن طاهر : لقد كان في هذيل مائة وثلاثون شاعراً وكلهم مُفلِق ، وكان أبو كبير أحسنهم . بالله عليك ياعوف إلا ما أجزت هذه الأبيات ؛ فقال : كبرتْ سني ، وفَني ذهني ، وأنكرتُ ما كنتُ أعرف ؛ فقال عبد الله : أقسمت إلا مافعلتَ ؛ فقال :

أفي كل عام غربةٌ ونزوح ... أما للنوى من ونيةٍ فتريح
لقد طلّح البين المشتُّ ركائبي ... فهل أرينّ البين وهو طليح
وشوّقني (بالرّيّ) نوح حمامة ... فنحت وذو اللّبّ الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تُذْرِ دمعةً ... ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما ... ومن دون أفراخي مَهامه فِيح(1)
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ ... وغصنك مَيّادٌ ففيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى ... فتلقى عصا التّسيار وهي طروح

(1) الفيح : جمع أفيح وفيحاء : أي الواسعة المترامية الأطراف

بعد شوقي (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان يتوجه الظن على شوقي رحمه الله فيزعم الزاعم أن شوقي هو يحيي شعره، وهو يرفع منه، وهو يشيع حوله قوة الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة؛ وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم، بل لأنه أغناهم، ولا من أنه أقواهم قوة، بل لأنه أقواهم حيلة؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحر والساحر، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية، ويؤول هذا الشعر إلى حقيقته، وتتسم الحقيقة بسمتها؛ كأن شوقي كان يعمل لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس

فقد ذهب الرجل إلى ربه، وخلا مكانه، وبطلت كل وسائله، ونام عن شعره نومة الأبدية، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل، وأصبح الشاعر هو وماله وجاهه وشعره في حكم الكلمة التي يقولها الزمن، ولم تمدهذه الكلمة في حكمه؛ فهل أثبته الزمن أو نفاه، وهل سلم له أو كابره، وهل رده في أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته؟

* * *

أول ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدق في الشهادة له، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء، وإن سطعت فيها الكواكب وتوقد منها شيء وتلألأ شيء. فقد دل الزمن على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعر كالشعراء، يقال في وصفه إنه مفتن مجيد مبدع؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوت بلاده وصيحة قومه

كانت تحدث الحادثة، أو يتخالج الناس معنى من الهم الذي يمسهم، أو يستطيرهم فرح من أفراح الوطن، أو يزول عظيم من العظماء فيزيد صفحة في التاريخ، أو ينشأ كون صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر، أو ترتج زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجت، فاذا كل ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي، فيرسل قصيدته الشرود السائرة داوية مجلجلة، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقي حولها الأفكار في العالم العربي كله، فتكون شعرا من أسرى الشعر وأحسنه، ثم تجاوزه فاذا هي صلة من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها، ثم تجاوزها فاذا هي عاطفة تجمع القلوب على معناها، ثم تسمو فوق هذا كله فاذا هي من هذا كله زعامة مصر على الشعر العربي

واليوم يقع مثل ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقاقيع في الطبيعة من أن لحظة وجودها هي لحظة فنائها، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع

ولست أماري في أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة، ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يمهد إليه وأن يخرج له التقليد فهو ينتظر وسينتظر

وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقري الفذ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة والموانع لا هي كلها من قوة العبقري ولا هي كلها من عجز الآخرين

وأعجب من ذا أن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عمل تاريخي متميز من أعمال مصر، غير أنه مسمى باسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التي تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة في الوجودين، من محلها ومن نفس الانسان

وأعجب من هذا وذلك أني لم أر شعراً عربياً يحسن في وصف الآثار المصرية ما يحسن في وصفها شعر شوقي، حتى لأسأل نفسي: هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر

(١) لما توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلا طويلا عنه وعن شعره ومنزلة شعره فلم نعرض لشيء من ذلك هنا

عظمتها ، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُستَجلي حسنها ؟

* * *

وما بانَ شوقى على غيره إلا بأنه رجل أفرغَ فى رأسه الذهنُ الشعريُّ الكبير ، فكان فى رأسه مَصنعٌ عمّاله الأعصاب ، ومادته المعانى ، ومهندسُه الالهام ؛ والدنيا تُرسل اليه وتأخذ منه ؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعرٍ عظيم أن تضعَ دنياه على اسمه شهادتها له . ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كأن اسمهُ فى وزن اسم مملكة . فاذا قلتَ شكسبير وانجلترا ، فهما فى العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبى والعالم العربى ، وكذلك شوقى ومصر

قالوا كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يَخشُبُ (أى يُرسل شعره كما يجىء فلا يتنوَّقُ فيه ولا ينقحه) ؛ وكان خَشْبُ جرير خيرا من تنقيح الفرزدق . ولم يتنبّه أحد إلى السر فى ذلك ؛ وما هو إلا السر الذى كان فى شوقى بعينه ، سرُّ الامتلاء الروحىّ قد أُمِدّ بالطبع ، وأُعين بالذوق ، وأوتى القوةَ على أن يتحول بآثاره فى الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه ، يجىء دائماً قريباً بعضُه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا اتحد به

وقد كان عمرُ بن ذرّ الواعظُ البليغ (١) إذا تكلم فى مجلسه نشر حوله جواً من روحه فيجعل كلَّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقومُ به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدرى أنه بذلك يعرض الغلطةَ على ردّها وصوابها ، فقال بعضُ من جالسه وجالسهم : ما سمعتُ عمر بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخَ فى الصُّور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين ...

فالفرق روحانى طبيعىّ كما ترى ، لاعمل فيه لأحد ولا لصاحبه وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين فى البحر . ففى ناحية يلتجُّ الماء ويثب ويتضرّب ويقصف قصف الرعد ، وفى الأخرى يترجرج ويتزحف ويقشعرُّ ويهمس كوسواس الحلى

(١) هو عمر بن ذر الهمذانى الكوفى المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين

والشأن كل الشأن للكميّة الوجدانية فى النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهى التى تعيّن لهذه النفس عملَها على وجهٍ ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها على دأبها إلى زمن ما ، وتختصها بخصائصها لغرض ما . وإذا أنت حققتَ لم تجد الفروقَ بين النوابغ بعضِهم من بعض ، إلا فروقاً فى هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار . ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشعراء ، فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ فى العلم ثم يكون العلمُ كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه . ولئن عجز النقدُ العلمىُّ أن ينال من الشاعر العبقرىّ لقديماً عجز فى كل أمة

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقى من هو أوسع منه اطلاعاً على آداب الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً شانئاً قد تَقَبَّ فى قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو فى اتساع الكلام وطُغيان العبارة أخو المحب العاشق ، فكلاهما يدور الدمُ فى كبده معانىَ ووساوس ، وكلاهما يجرى كلامه على أصلٍ مما فى سريرته فلا تجد أحدهما إلا عالياً عاليا عن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلا عن يبغض . وكان هذا الناقد شاعراً فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخى الزمن ؛ وهذه كلها مفرقعات نفسية .... بعضها أشدُّ من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ؛ ولكن شوقى كان فى مرتقى لم يبلغه الناقد فانقلب جهدُ هذا عجزاً وأصبح البارود والتراب فى يده بمعنى واحد ....

* * *

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أنى رأيته يقرر للناس صوابَ الحقيقة بزعمه ، فاذا هو يقرر غلطَه وجهله وتعسفه . وهو فى كل ما يكتب عن شوقى يكون كالذى يرى الماءَ العذبَ وعملَه فى إنبات الروض وتَوْشِيَتِه وتلوينه ، فيذهب يعيبُه للناس بأنه ليس هو البنزين .... الذى يحرك السيارات والطيارات

تناول شوقى بعد موته فجرده من الشخصية أى من حاسة الشعر ومن إدراك السر الذى لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لادراكه والكشف عن حقائقه ؛ وكان فيما استدل به على ذلك

أن شوقى لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومى فى قوله:

تجدُ الوحوشُ به كفايتَها والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعْمِ
فظباؤُه تُضحى بمُنْتَطَحٍ وحمامه يضحى بمختَصَمِ

وزعم أن ابن الرومى قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقى ، ولهذه الحاسة اندمج فى الطبيعة فأدرك سر الربيع وأنه غلَيانُ الحياة فى الأحياء ، فالظباءُ تنتطح من الأَشر الخ الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب . . . . لا ناطحة ظباء (١)

أما شوقى الشاعر الضعيف العاجز الذى لم يولد بمثل تلك الحاسة فلو أنه شهد ألفَ ربيع لما أحسَّ هذا الاحساس ولا استطاع أن يجىء بمثل هذا القول المعجز . وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ فى جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومى فى هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحسّ شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع

قال الجاحظ : يقال فى الخصب (أى الربيع) نفَشَت العنز لأختها ؛ وخلَّفتُ أرضاً تطَالَمُ معزاها (أى تتظالم) . قال لأنها تنفش شعرها وتَنتَصِبُ رُوقَيها فى أحد شِقَّيها فتنطح أختها وإنما ذاك من الأَشر . (أى حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسُها)

فأنت ترى أن ابن الرومى لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التى قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى . . . . فاستكره الحمام على أن يختصم فى زمن بعينه وهو يختصم فى كل يوم . وإنما شرط الزيادة فى السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترع

ولعمرى لو كان للطبيعة مائة صورة فى الخيال الشعرى ، ثم قدّم شوقى للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا . إلا الصورة التى لم يقدّمها . . . .

* * *

وكان شعر شوقى فى جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء ، يردُّهم بها عن السفْسفة والتخليط والاضطراب فى اللفظ والتركيب ؛ فكثر الاختلالُ فى الناشئين من بعده وجاءوا بالكلام المخلَّط الذى تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفاً سهلاً ولكن سهولته أقبحُ فى الذوق من جَفْوة الأعراب على كلامهم الوحشىِّ المتروك

والآفة أن أصحابَ هذا المذهب يفرضون مذهبَهم فرضاً على الشعر العربى كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن . وليس فى أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربى فكل منهم عابد الحياة ، مندمج فى وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجارى اللانهاية ، ويَتَغنّى فى اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنّى على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار فكل منهم مجنون لُغوى . . . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجِيَف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدُّ كذلك فى الوجود الأعظم ، بل هى فيه عمل تحليلىٌّ علمىٌّ دقيق . لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هى فسادٌ ونتن وقَذَر فى اعتبار وجودنا الشخصى ، وجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

* * *

وكان حاسدو شوقى يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدُمهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم .... وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةَ ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب فى خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك . . . . وهيهات

(طنطا)

---

(١) لا يحضرنى كلام الكاتب بنصه ولكن هذا بعض معناه وكله تهويل

إلى (حائر) سنجه بالسودان . كان « الفنان الحائر » غير من ظننت ؛ وحيرته من الفن لا من الزندقة ياحضرة مؤلف المقالة الابليسية . . . وقد اذكرنى كتابك رسالتك الأولى فافتقدتها فاذا هى بين عشرين رسالة وردت من مختلف الأقطار أيام مرضى باسكندرية وكنت جمعتها إضبارة (رزم) لأذكرها فنسيتها . فعذرة إليك وإليهم واليهن ، وأنا كثيراً ما أعتمد على كرم الكاتب أو الكاتبة فى العفو عن تقصيرى . أما رسالتك التى أسميها المقالة الابليسية فسأكتب عنها فى يوم كما يشاء الله قريب أو بعيد .

الرافعى

السنيون والشيعة

للأستاذ أحمد أمين

بهذا العنوان كتب الأستاذ « محمد رضا المظفر » من أفاضل علماء النجف مقالاً قيماً في (عدد الرسالة ١١٨ السنة الثالثة) ؛ وقد استهلها الأستاذ بالعجب من أن أكون كاتب « فجر الاسلام وضحاه » ، وكاتب « مقدمة تاريخ القرآن » للأستاذ الزنجاني معاً وأن « النغمة التي ظهرت مني في هـذه المقدمة نغمة متواضعة على وتر من إحساس جـديد » وأنها على عكس ما ظهر مني في فجر الاسلام وضحاه ، وفسر ذلك بأن لي « شخصيتين تباعدتا على قرب العهد بينهما »

والحق — يا أخي — أن النغمتين صدرتا عن نفس واحدة كانت تكره الخلاف بين السنيين والشيعة أشد الكره وأعمقه يوم كتبَتْ فجر الاسلام وضحاه كما كانت تكرهه يوم كتبَتْ مقدمة تاريخ القرآن ، وكما لا تزال تكرهه إلى اليوم

وكل مظاهر الخلاف بين القولين سببه أني بحثت في فجر الاسلام وضحاه مذهب الشيعة كما يبحثه كل عالم ، وحاولت جهدي أن أضع التعصب جانباً ، وأن أتناسى أني سني أكتب عن الشيعة ، وأملأ نفسي عقيدة أني مؤرخ يتطلب الحق حيث هو — ومن أجل ذلك نقدت السنيين كما نقدت الشيعة ، وقلت ما اعتقدته الحق في هؤلاء وهؤلاء ، ووضعت الفرقتين في كفتي ميزان ؛ فاذا قلت إن بعض الشيعة وضعوا بعض الأحاديث قلت إن بعض السنيين وضعوا بعض الحديث أيضاً ، لأني اعتقدت الحق في ذلك ؛ وهكذا سرت على هـذا المنهج دائماً وأنصفت المعتزلة في بعض آرائهم ، والخوارج في بعض آرائهم ، والشيعة في بعض آرائهم . مع أن العادة جرت أن السنيين لا يرضون عن شيء من ذلك ، فأسلوبي في الحالين طلب الحق حيث كان ، وإذا كان ديننا يتطلب منا أن نزن الحق في ذاته من غير أي اعتبار آخر سواء كان مصدره مسيحياً أو يهودياً أو وثنياً ، فبالأحرى نزنه إن كان مصـدره معتزلياً أو خارجياً أو شيعياً ؛ وكل ما في الأمر أن بعض إخواني من الشيعة أخطأوا من ناحيتين : الأولى أنهم دائماً طبقوا ما أقوله عن الشيعة على أنفسهم ، وفهموا أني لا أعني بالشيعة في كل موضع إلا إياهم ، مع أن الشيعة كما يعلمون فرق مختلفة لا حصر لها ، وأن منها الغالي الممعن في غلوه ، ومنها المعتدل القريب من الأنصاف ، وليست الأمامية التي يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة ، بعضها باق إلى اليوم ، وبعضها عفى عليه التاريخ ؛ فخطأ محض أن يظنوا أني كلما قلت « الشيعة » عنيتهم ؛ إنما يكون لهم الحق كل الحق أن يفهموا أني أقصدهم عندما أتكلم على الأمامية أو الاثني عشرية — والمؤرخ يجب عليه أن يؤرخ الماضي كما يؤرخ الحاضر ، وأن يذكر الغلاة كما يذكر المعتدلين ، فاذا عاب الغلاة فليس عيبه إذا فهم قوم منه أنه يعنيهم

والناحية الثانية هي ما دعوت إليه في « مقدمة تاريخ القرآن » من أنه يجب على العلماء من الطائفتين أن يوسعوا صدرهم للنقد النزيه « ويتلقوا النتائج بصـدر رحب » ، فهذه شيمة العلماء حقاً ، فكم أخطأ الشيعة وكم أخطأ السنيون ! فواجب الباحث أن يبحث المسائل حراً طليقاً ، ويتأهب للبحث وهو على الحياد بالنسبة للنتائج ، فسواء خرجت النتيجة صفراء أو سوداء لا يهمه ، لا أن يعتقد أولاً ثم يبحث عن البرهان الذي يؤدي إلى النتيجة التي اعتنقها من قبل ، فذلك ليس شيمة العلماء المخلصين للحق . وكل ما في الأمر أن الواجب أن ينحى العامة وأشباههم عن الدخول في مثل هـــذه المباحث لأنهم لا يستسيغونها ولا هم متهيئون لها ، وليست تنفعهم في دينهم ولا دنياهم

بهذه الروح بحثت ، ولا أدعي العصمة ، فقد أكون أخطأت ؛ وقد وجه بعض اخواني من الشيعة نظري إلى أني حين بحثت عولت على مصادر أهل السنة أكثر مما عولت على مصادر الشيعة ، وكان الواجب ألا يعتمد في كلام خصم على خصم ، وأن ينظر في قول كل فرقة إلى حكاية أصحابها وخصومها معاً ، ثم يمحص الحق من ذلك كله ؛ وقد أصغيت إلى هـذا القول واقتنعت بصحته ، فلما أردت أن أكتب فصل الشيعة في الجزء الثالث من ضحى الاسلام توسعت ما وسعني في قراءة الكتب المعتمدة عنـد الشيعة ، ولا أزال أقلبها ظهراً لبطن وأفكر فيها من وجوهها المختلفة حتى يثلج صدري للحق وأومن بما يقوم عليه البرهان من غير تحزب لناحية — وليس يتطلب مني أكثر من ذلك . وإنما يتطلب من قادة الرأي في الشيعة والسنيين

ألا يضيق صدرهم حرجاً مما يقال متى خلصت نية القائل — وعلى القائل والكاتب أن يعمد إلى الحق والحق وحده ، وأن يقوله في أدب لا في تهاتر وسباب

وليس من الحق ألا يرضى الشيعة عن المؤرخ إلا إذا مجد كل عقائد الشيعة وصوبها ، كما ليس من الحق ألا يرضى السنيون عنه إلا إذا مجد كل عقائدهم وصوبها ، فالمؤرخ قاض عادل لا يهمه من رضى ومن غضب ، وهو لم ينصب للارضاء والاغضاب ، إنما نصب ليتعرف الحق ويجهر به

هذا ما أردت أن أقوله من الناحية العلمية ، وأرمى من وراء ذلك كله إلى القول بأن البحث العلمى شيء والنزاع والخصام شيء آخر ، وأن البحث العلمى لا يمنع التفاهم والوئام ، بل هو إذا نظر اليه النظر الواسع العالى سبب من أسباب الألفة

أما الناحية العملية فى الوفاق فسهلة ميسورة متى أخلص القادة فى ذلك — وهى فى هذا الزمان أيسر وأسهل ؛ وإذا كانت الوطنية قد استطاعت أن توفق فى مصر بين الأقباط والمسلمين ، وفى سوريا بين المسلمين والمسيحيين ، فكيف لا تستطيع المصالح المشتركة القوية الواضحة ألا توحد بين الشيعة والسنيين وهم أهل دين واحد يجمعهم الايمان العميق فى صدورهم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن كل الخلاف بينهم موجات على السطح وفقاقيع فى الظاهر يستغلها أهل الجاه والمال والرياسة فيوهمون أنها كل شيء فى الدين ، وليس ذلك بصحيح إلا إذا كانت فقاقيع الماء كل الماء ، وأمواج البحر هى كل البحر ، وزبد السوائل كل السوائل ، والعمامة الخضراء والحمراء والبيضاء هى كل الاسلام ؛ فالحق أن الاسلام أعمق من ذلك كله ، وما الخلافة والنزاع عليها والفروق الخفيفة فى مظاهر الوضوء والصلاة والزواج والطلاق ونحو ذلك إلا أشياء تافهة كل التفاهة بجانب القواعد الأساسية للدين ، والفرق بينهما كالفرق بين مظهر الانسان وقلبه ، وبين ملبسه ومخبره . ليكن الايمان بالأسس فى القلب ، ثم ليكن المظهر ما يكون ، فالله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم

وليقلل علماء الدين سنيون وشيعة من تمسكهم بالمظهر ومحافظتهم على وجاهتهم فى قومهم وأتباعهم وما يغله ذلك عليهم ، يروا أن الوفاق أقرب ما يكون وأسهل ما يكون ويضحكوا ويبكوا من سخافات السلف والخلف الذين أثاروا النزاع على التافه وتركوا اللباب

أليس من السخف أن يتقاتل طائفتان على خلاف تاريخى أكان علىّ أحق بالخلافة أم أبو بكر وعمر ، وعلى وأبو بكر وعمر فى قبورهم لا يعنون بشيء من ذلك ؟ أم ليس من السخف أن يتعادى طائفتان مسلمتان تقران كل أسس الاسلام من أجل اختلافهما فى جزئيات صغيرة فى أشكال الوضوء وما اليه ؟ أم ليس من السخف ألا يقر الشيعة بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من شيعى ؟ وألا يقر السنيون بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من سنى ؟.. لا لا أيها القوم ! جعفر الصادق رجل عظيم ، وأبو حنيفة رجل عظيم ، فليزر شيعة العراق أبا حنيفة لعظمته ، وليزر سنيو العراق مشهد الحسين لعظمته ؛ والأمهات يلدن النوابغ على السواء ، فلم تضن على الشيعة بنوابغ ولا على السنيين بنوابغ ، كما لم تضن على الأمم الأخرى بنوابغ ، فحصر كل فرقة تعظيمها لرجال فرقتها ضيق فى النظر وفقر فى التفكير

وإذا زال هذا كله وأمثاله — وهى فيما أرى من البديهيات — رأينا الخلاف قد تبخر ولم يعد له أساس ، ولا يبقى إلا عند المؤرخ والباحث ، والمؤرخون والباحثون دائماً متصافون متى كان رائدهم الحق ، وشعارهم الصدق ، ولم تطوح بهم الأغراض والشهوات

ليس من وسيلة تدرأ هذا الخلاف إلا أن يتقدم علماء اليوم من الفريقين فيمحوا الآثار السيئة التى خلفها علماء الأمس

واعل أصلح بقعة لذلك هى العراق ، لأنها أشد البلاد مظهراً لهذا الخلاف ، فيتعاون رؤساء الطائفتين لعقد مؤتمر فى بغداد من رؤساء السنيين والشيعة ، ويبحثوا وجوه الخلاف وكيف تزال فى جو هادئ مخلص ؛ وأسبق الطائفتين إلى هذه الدعوة أفضلهم ، ولا يجعلوا للعامة والغوغاء سلطاناً ، وليحذروا من أصحاب المطامع والشهوات ودسائسهم ، وليجعلوا شعارهم فى كل مجتمع وعند كل خلاف «مسلمون قبل كل شيء» «مسلمون قبل أن نكون شيعة وسنيين»

ولا بأس أن يدعوا قادة الفكر فى مصر والشام والحجاز للاشتراك فى هذا المؤتمر والتشديد فى حصر أغراضه فى ازالة الخلاف بين سني وشيعى ، فلا يمسون أى موضوع آخر ، ثم يرسمون الطريق العملى لازالة هذا النزاع من تزاور الطائفتين ، واتخاذ شعار لهذا الوفاق ، وتبيين يوم يتخذ عيدا يذكر بهذا

الاتحاد ونحو ذلك . إنهم إن فعلوا وأخلصوا خلصوا من أكبر مشكلة يتعرض لها الطائفتان ، وأمكنهم أن يوجهوا هذه القوى — المظيمة التي تذهب هباء في الخلاف — إلى اصلاح شؤونهم الاجتماعية ، واستطاعوا أن يتعاونوا على رفع مستوى قومهم ، وعجبوا بعد قليل — لما يظهر من نتائج باهرة — كيف كانوا جميعاً فى ظلام دامس ، وكيف كانوا هــذا الزمن الطويل يستمسكون بالعرض ، ويضيعون الجوهر ، ويفرطون فى الكتاب ، ويحتفظون بالغلاف

وأقرر من الآن أنى سوف لا أرد على من يتخذ بعض ماجاء فى هذه المقالة وسيلة لاثارة النزاع من جديد ، إلا أن يفتح صاحبها مجالاً للكلام فى مشروع المؤتمر ، أو وسائل الوفاق وبالله التوفيق .... ؟

أحمد أمين

عصبة الأمم وتطبيق العقوبات

تحريم الحـــرب

من الوجهة الدولية

وتشبيه الدولة بالفرد فى قمع الاعتداء

لباحث دبلوماسى كبير

لأول مرة فى التاريخ نشهد قراراً دولياً بأن حرب الاعتداء وسيلة غير مشروعة لتحقيق غايات السياسة القومية ، ولأول مرة فى التاريخ تصدر دول العالم ممثلة فى عصبة الأمم حكمها على دولة أوربية عظمى هى ايطاليا بأنها دولة معتدية ، وأنها بغزو الحبشة ترتكب خرقاً لقانون الأمم ؛ بل نشهد فى الواقع ما هو أعظم من الأحكام النظرية ؛ نشهد عصبة الأمم تقرر باسم دول العالم أن توقع على ايطاليا طائفة من العقوبات الاقتصادية التى نص عليها فى ميثاقها ؛ وهذه أول مرة تتخذ فيها عصبة الأمم مثل هذه القرارات الخطيرة الحاسمة ، وقد كان يبدو دائماً كلما وقعت أزمة دولية خطيرة أن هذه النصوص التى أدمجت فى ميثاق عصبة الأمم وقت حمى السلام ، إنما هى نصوص خيالية لا سبيل إلى تطبيقها بصورة عملية ؛ ولكن يلوح لنا أن عصبة الأمم تسير هذه المرة بعزم واضح إلى تطبيق هذه التجربة الشائكة ، وأنها تزمع أن تصل بتطبيقها إلى نتائج عملية لا شك فى أهميتها من الوجهة الدولية

وهذا الاقدام الذى تبديه العصـبة فى مقاومة الاعتداء الايطالى على الحبشة وعلى السلام العام يثير بلا ريب كثيرا من الاعجاب ، ويرفع بلا ريب هيبة العصبة بعد أن كادت تغيض فى الأعوام الأخيرة ؛ ولكن يجب ألا نبالغ فى فهم الدور الذى تؤديه العصبة فى هذا النضال الدولى الخطير ، أو بعبارة أخرى يجب أن نفرق بين العصبة كشخصية دولية معنوية ، وبين الدول التى تساهم فى تكوينها وتشرف على توجيهها ؛ فمن الواضح أنه لو لم تقف انكلترا وقفتها المعروفة فى التمسك بميثاق العصبة ، ولو لم توفق السياسة البريطانية إلى اقناع الدول الأخرى بوجهة نظرها فى تأييد الميثاق ، بل لو لم تقم انكلترا باتخاذ تلك الأهبات البحرية والعسكرية الخطيرة لتأييد موقفها ، لما استطاعت العصبة أن تقـدم بمثل هــذا العزم على تطبيق الميثاق واتخاذ قرارها الشهير فى الحكم على ايطاليا بالاعتـداء وتوقيع العقوبات الاقتصادية عليها

ومن الواضح أيضاً أن بريطانيا العظمى لم تقف هذا الموقف الحازم من المغامرة الايطالية حباً فى السلام فقط ، أو لأن بريطانيا تريد أن تكون حارسة للسلم ، أو أن تكون على حد تعبيرها « بوليسا » للقارة ، أو بوليسا للعالم . فبريطانيا أزهد ما يكون فى مثل هذه المهمة التى تعرضها لمتاعب ومسئوليات لا نهاية لها ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الحرب الاستعمارية التى تثيرها ايطاليا تعرض مصالح الامبراطورية البريطانية للخطر ، وفوز ايطاليا بافتتاح الحبشة وتحقيق حلمها فى اقامة امبراطورية استعمارية فى شرق أفريقية ، يهدد السيادة البريطانية فى وادى النيل ، وفيما وراء البحار ، ويعرض المواصـلات الامبراطورية البريطانية لأخطار لا شك فيها ، وإذكاء مطامع ايطاليا القيصرية بالفتح يهدد سيادة انكلترا البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، وهى

عماد الطريق الامبراطوري إلى الهنـد وإلى استراليا . فهذه البواعث الخطيرة هي التي تحمل انكلترا قبل كل شيء على اتخاذ موقفها في تحريك ميثاق عصبة الأمم ، وفي المغامرة بالدخول في أية معارك بحرية أو برية يقتضيها تطبيق العقوبات الاقتصادية على ايطاليا

على أنه مهما تكن البواعث التي توجه السياسة البريطانية في الآونة الحاضرة فلا ريب أن بريطانيا العظمى تقف إلى جانب السلم ، ولا ريب أنها بموقفها تؤيد سلام العالم ؛ وإذا كانت الفاشستية الايطالية بعنفها المضطرم ، ووسائلها المثيرة ، وأحلامها الامبراطورية ، وغرورها الأعمى ، تهدد الامبراطورية البريطانية في البحر الأبيض والبحر الأحمر ، فانها تهدد سلام العالم أيضاً ؛ وربما كان من حسن الطالع أن يتحد هذان العاملان معاً ، وأن تجد بريطانيا من بواعث مصالحها الحيوية ما يدفعها إلى العمل في تلك الآونة لتحطيم مشروعات ايطاليا الهمجية . وها نحن أولاء نشهد من اصرار بريطانيا على موقفها ، ومن تمسكها بتطبيق العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا ، ومن أهباتها البحرية والعسكرية ما يفسر خطورة البواعث والعوامل التي تجثم وراء هذا النزاع

وقد كثر الحديث حول العقوبات الاقتصـادية التي تعني بتطبيقها عصبة الأمم ضـد ايطاليا المعتدية ؛ وهي عقوبات لها خطورتها وأثرها في هذا العصر الذي يتوقف كل شيء فيه على المـال ، وتستمد فيه قوى الدول من مواردها المـالية قبل كل شيء ؛ فاذا شلت موارد الدولة من جراء مقاطعة اقتصادية صارمة تنظمها الدول الأخرى ، فلا ريب أن مشاريعها العسكرية تصاب أيضاً بنوع من الشلل يضطرها ازاء هذا الضغط إلى الخضوع . وقد أجملت المـادة ١٦ من ميثاق عصبة الأمم ذكر هذه العقوبات ، ولسنا نرى لشرحها خيراً من إيراد نص هذه المـادة كاملا وهو :

« إذا التجأ عضو من أعضاء العصبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها في المـادتين ١٢ و ١٣ أو المـادة ١٥ فانه يعتبر قد ارتكب عملا حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين ، ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا في الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية ، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التي خرقت الميثاق ، وأن يقطعوا كل الصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى ، سواء كانت عضوا في العصبة أم لا

« وفي هذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوحي إلى الحكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التي يساهم أعضاء العصبة في تقديمها للقوى المسلحة التي تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة

« ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاون بعضهم بعضاً في تطبيق الاجراءات الاقتصادية والمـالية التي تتخذ طبقاً لهذه المـادة والتي يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار ، ويتعهدون أيضاً بالتعاون في مقاومة كل اجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التي خالفت الميثاق ، ويتخذون الاجراءات اللازمة لكي يسهل المرور في أراضيهم لقوات أي عضو من أعضاء العصبة يساهم في العمل المشترك الذي يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق ، ويصدر قرار الفصل بموافقـة أعضاء العصبة الآخرين الممثلين في المجلس »

فهذه العقوبات الدولية يمكن إجمالها في كلمة هي « المقاطعة الاقتصادية » وهذه المقاطعة هي التي تجد في سبيل تنظيمها عصبة الأمم ضد إيطاليا ؛ وتجد إيطاليا من جهة أخرى في سبيل اتقاء عواقبها ؛ وتعلل إيطاليا نفسها بأمل انقسام أعضاء العصبة وانهيار الجبهة التي استطاعت السياسة البريطانية أن تؤلفها ضدها حين البدء في تطبيق العقوبات ، وتعتمد في ذلك بادىء بدء على فرنسا التي تزداد كل يوم تردداً وإحجاماً ؛ وسنرى على أي حال نتيجة هذا الصراع في القريب العاجل ؛ بيد أن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو أن تنفيذ هـذه العقوبات بدقة سيقتضي بلا ريب تنظيم نوع من الحصار المسلح ضد الدولة المعتدية أعني إيطاليا ، وقد يقتضي القيام ببعض الاجراءات والأعمال العنيفة ، وهذا أخطر ما في التجربة ، فان إيطاليا تصرح دائماً بأنها ستقابل مثل هذه الأعمال العنيفة بمثلها ، وعندئذ يكون هذا الصدام الذي لا مفر منه ، بدء حرب ، يستحيل أن تحصر في دائرة معينة ،

ومن المحتوم أن تتحول فى الحال إلى حرب أوربية وربما إلى حرب عالمية

— ٢ —

على أننا نترك هـذه التكهنات جانباً لنبحث ناحية أخرى من الموضوع . ولنفرض أولاً أن عصبة الأمم قد وفقت فى مهمتها ، واستطاعت الدول المتحدة أن ترغم إيطاليا على وقف الحرب الحبشية ، وأن تقنع بتسوية ودية تمنح بها بعض المزايا الاستعمارية ؛ فماذا يمكن أن يترتب على هذه النتيجة من الوجهة الدولية ؟ يمكن أن يترتب عليها تقرير مبدأ فى منتهى الخطورة أو بعبارة أخرى تأييده من الوجهة العملية ، إذ هو موجود بالفعل ، وهذا المبدأ هو تحريم الحرب الاعتدائية ؛ وقد نص على تحريم الحرب كأداة للسياسة القومية بمقتضى ميثاق كلوج ؛ ولـكن هذا الميثاق لم يكن أكثر من وثيقة نظرية ؛ أما اليوم فان تحريم الحرب يقع بصفة عملية ، إذ ترغم دولة قررت عصبة الأمم أنها « معتدية » على وقف الحرب أو تعاقب على فعلتها بالمقاطعة الدوليـة . وهنا نستطيع أن نلمح وجه المقارنة الفقهية بين الدولة « المذنبة » وبين الفرد « المذنب » فى القانون العام ، وفى داخل المجتمع المتمدن يحرم على الفرد أن يرتكب ضد غيره عملاً من أعمال العنف ، ولو وقع عليه اعتداء ما فلا يسمح له أن ينتصف لنفسه ؛ ذلك لأن إقامة العـدالة من حق المجتمع ، والقانون العام ينظم المجتمع ويرتب حقوق الأفراد وواجباتهم ، فاذا اعتدى على شخص فرد ما أو اعتدى على حقوقه ، كان القانون كفيلاً بمعاقبة المعتدى ، وكفيلاً برد الحق المسلوب ، وإذا تقرر ذلك فما الذى يمنع من أن تشـبه الدولة فى جماعة الأمم بالفرد فى المجتمع ؟ وكما أن العنف محرم على الفرد — عدا ماله من حق الدفاع عن النفس أو المال — فـكذلك يمكن أن يحرم العنف على الدولة وتحرم الحرب كأداة لتحقيق غايات السياسة القومية ، وإذ كانت الحرب مازالت تعتبر فى القانون الدولى أداة مشروعة للسياسة القومية ، فانه يمكن بتحريمها أن تغـدو عملا محرماً غير مشروع ، والمقصود هنا دائماً هو الحرب الاعتدائية ، وهذا ماسعى اليه الساسة والفقهاء الذين اشتركوا فى وضع ميثاق تحريم الحرب أو « ميثاق كلوج » ، فاذا تقرر أن الحرب محرمة ، وأنها تعتبر خرقاً لمواثيق السلام وقانون الأمم ، فانه يمكن معاقبة الدولة التى تقدم عليها ، إذا قررت دول العالم ممثلة فى هيئة دولية عليا كعصبة الأمم ، أنها دولة معتدية ، وقررت بذلك أن تطبق عليها نوعاً من العقوبات يكفل ردها إلى صوابها

وهـذا ما نشهده اليوم فى الواقع ، فان عصبة الأمم ، تقرر أن إيطاليا وهى عضو من أعضائها دولة معتدية فيما تقوم به من غزو للأراضى الحبشية ، وتقرر أن تطبق عليها العقوبات الاقتصادية التى نص عليها فى المادة السادسة عشرة من الميثاق ، ولـكنا نـكرر القول بأن عصبة الأمم ما كانت لتجرؤ على اتخاذ مثل هذه الخطوة لو لم تحركها يد السياسة البريطانية القوية ، وإلا فأين كانت عصبة الأمم يوم اعتداء اليابان على منشوريا والاستيلاء عليها تحت سمع العصبة وبصرها ؟ وإذا كانت عصبة الأمم تستطيع كشخصية معنوية تمثل فيها إرادة الأمم أن تحكم على الدولة الممثلة فيها أولها ، فمن الواضح أنه يقتضى لتنفيذ أحكامها قوة دولية أو وسائل ضغط معينة ، وهذه القوة أو الوسائل أشارت اليها المادة السادسة عشرة من الميثاق ، ولـكنها لم تخلق أو توجد بعد ، ولو لم تتقـدم بريطانيا العظمى بأهباتها وقوتها المساحة مدفوعة بما تقدم من البواعث لتنفيذ العقوبات ، لبقى قرار العصبة قراراً نظرياً لاسند له ولا أثر

على أن من الاسراف فى التفاؤل والأمل أن نعتقد أن عصبة الأمم قد غدت محكمة الأمم العليا ، وغدت ملاذ السلم الأعلى ، وأن هذه الخطوة التى تقدم على اتخاذها اليوم ستغدو بالفعل مبدأ دولياً عالمياً يحتكم إليه فى كل الحوادث والظروف المماثلة . انها نظريات السلام والعدالة الدولية وحقوق الأمم تبدو فى الأفق ، وفى ظلها وباسمها تعمل عصـبة الأمم ، ولـكنها القوة فى الواقع تعمل من الوراء ظاهرة غير مستترة ؛ وهى تعمل مسيرة بالبواعث والمصالح الخاصة التى كان من حسن الطالع أنها تتفق مع قضية العدالة الدولية والسلام العالمى ؛ ولـكن هل يمكن أن تجتمع مثل هذه الظروف دائماً إذا ما تعلق الأمر باقامة الحق والعـدالة الدولية ؟ هذا ومن جهة أخرى فانه من المرجح جداً أن تطور الحوادث على هذا النحو الخطر الذى نشهده قد يقضى فى النهاية على كل مظاهر الحق ونظريات السلام والعدالة الدولية ؛ وقد يضطرم العالم من جديد بحرب تودى بعصبة الأمم وكل ما يمثل فيها من النظريات والمثل الدولية العليا

(* * *)

3 me Année, No. 121.

Lundi-28-10-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٢١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ رجب سنة ١٣٥٤ — ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــدد

خيبة المدنيــة

وا أسفاه ! ! أبعْدَ هذه الحِقَب الملايين التى أتت على سليل الطين فسوَّت من خَلقِه ، وراضت من خُلقه ، وصقلت من ذهنه ، وصفَّت من جوهره ، وجعلته على ملكوت الأرض يديره على حكمه ، ويجريه على نظامه — لا يزال كأوابد القفر وضوارى الغاب يسطو القوى على القوى بالختل ، ويعدو القوى على الضعيف بالقتل ، وتضطرب الشهوات والمآرب بين الحيلة والغيلة اضطراب الأثرة بين العجز والقدرة ؟ !

....

أبعد الرسالات المتعاقبة التى بلغَّها رُسُل الله فغمرت العالم بالضياء ، ووصلت الأرض بالسماء ، ونهجت للنقص البشرى سبيل الكمال المطاق — لا يبرح الانسان باسطا عنانه فى الجهل ، يرتكس فى عماية الهوى ، ويرتطم فى حمأة المادة ، ويجعل من الدين غشاء لِنابه ، ومن الأخلاق طلاء لظُفره !

....

أبعد انتشار العلوم التى هتكت أستار الكون ، وكشفت أسرار الطبيعة ، وسبرت أغوار الحياة ، وذللت رَيِّض القوة —

يظل ابن آدم على حيرة من يومه ، وفى غمة من غده ؛ لا يثق وثوق العالم بالحاضر ، ولا يطمئن اطمئنان المؤمن بالمستقبل ؟

....

أبعد ازدهار الآداب التى خلقت للناس أجنحة من الشعر ، وكشفت للعالم أجواء من الخيال ، وأبهجت مشاعر النفس بسحر المجهول ، ودبجت حواشى العيش بألوان الربيع ، ووجهت مطامح العيون إلى رفيع المُثل — يظل الانسان مُسِفًّا إلى حقير الأمل ، مدفوعاً إلى دنىء الغرض ، محصوراً فى حدود المنفعة ؟ !

....

أبعـد هذه المدنية المغرورة التى تزعم أنها حررت الفكر ، وأبطلت الرق ، وضمنت حقوق الانسان ، ووحدت المقاييس بين الألوان ، وحصرت أهواء الدول العاتيـة فى قصر من قصور (جنيف) لتأمن خصامها بالتوفيـق ، وتضمن سلامها بالتعاهد ، وتجعل من جماعتها إلْباً على الطغيان ، وحرباً على العدوان ، ويداً على الأثم — يظل الانسان على عادِ الجاهلية : يتكاثر بالعديد ، ويتعزَّز بالسلاح ، ويرصد الغفلة للغزو ، ويفـترى الحجة للغصب ، ويغذى قوّته على ضعف غيره ؟ !

* * *

من كان يظن بعـد هذا الدهر المتطاول والعمران المستبحر والتقدم العجيب ، أن يظل الناس على ضراوة الفطرة لا يتغير فيهم غير الغشاء ، ولا يتبدل غير الأسماء ، فتصبح البربرية بالعلم مدنية ، والاغتصاب بالمدنية انتداباً ، والاسترقاق بالقانون وصاية !

من كان يظن أن بحر الروم الذى كان بالأمس مسبحاً لغارة القرصان ، ومسرحاً لبغى الرومان ، لا يزال اليوم مجالا لمثل ذلك ؛ فالأساطيل على وجهه ، وفى جوفه ، وفى جوه ، تضطرم بالحديد والنار لا استجابةً لصريخ الحق ، ولا إطاعة لأمر القانون ، ولـكن لأن طاغية من طغاة المدنية المغشوشة ، حشر جنوده فى البر والبحر والهواء ليقتل أمة عزلاء قبـل أن يتفق مع منافسيه على اقتراف الجريمة واقتسام الغنيمة ؟ !

من كان يظن أن هـذا (الفاشىّ) المفتون يقف بمرأى من (الفاتيكان) ، وعلى مسمع من (جنيف) ، فيلغى قانون (العصبة) ، وينقض ميثاق (كيلوج) ، ويتحدى جميع الدول ، لأنه نفخ (زِقاقه السود) بالهواء الحار ، وحوَّل الحذاء الايطالى كله مصانع للذخائر والآلات ، ومعامل للسموم والغازات ، ثم تكبر واختال ، وتخيل ثم خال ، وفـكر فيمن يحرقه بهذا الرصاص ، ويمزقه بهذا الديناميت ، ويخنقه بهذا الغاز ، ويسحقه بهذا الحديد ، فلم يجد كفاء لتالد روما وطريف الفاشيست غير الحبشة المتواضعة المسكينة ! ! ولـكن بأى حجة يبلع (الدونشى) جبال الحبشة ورجال عَدْوَى ؟ بالحجة الأوربية المفحمة : تمدِين الشعوب الهَمَج . والأحباش ولا ريب همجٌ لأنهم لا يأكلون (الاسباجتىّ) ، ولا يشربون (الكيانتى) ، ولا يسترقّون إلا الأفراد فلم يرتقوا بعدُ إلى استرقاق الأمم ! !

* * *

أما بعـد ، فلو كانت أمور النـاس تجرى على سَنَن المنطق لكانت الحبشة أولى بتَمْدين إيطاليا ؛ قضى خمسون دولة بالاجماع على الطليان بالعار والخزى ، فقاطعوهم مقاطعة المجذوم ، وطاردوهم مطاردة الآثم ؛ ووقف الأحباش من المغير موقف الكرامة والنبل ، يقابلون العداوة بالسلم ، ويدافعون السفاهة بالحلم ، حتى ظفروا باعجاب العالم ورُشح النجاشى لجائزة نوبل !! فلما أغار (المتمدنون) من غير إعلان ، وقاتلوا من غير ضمير ، واستعملوا أسلحة بغـير حق ، دافع (الهمجيون) دفاع المستبسل الحر ، وجاهدوا جهاد المستشهد الصابر ، وغالبوا باطل المعتـدين بقوة الحق وعطف الشعوب ومزايا الرجولة ، وكان موقف النجاشى الأسـود من الزعيم الفاشى الأبيض موقف رب الدار من اللص ، وصاحب القانون من المجرم !

* * *

رويدك يا أسْودَ الشعار وممثل دور الجبار ومنذر العالم بيوم القيامة ! إن أرواح الشباب الذين قذفتهم ظلماً فى جحيم الحبشة ، لتخرق أذنيك من خلال اللهيب بهذا الهُتاف الرهيب :

على رِسْلك يا نيرون ! إنك تحرق روما مرة ثانية ! !

احمد حسن الزيات

فان الغِنى يُدنى الفتى من صديقه
وعدمُ الغنى بالمعسرين نَزوح

فبكى عبد الله بن طاهر وحلف ألا يُعمل معه خفاً ولا حافراً إلا بالرجوع إلى أهله ، وأمر له بثياب ودنانير ؛ فقال عوف :

يا ابن الذى دان له المشرقان   طُرّاً وقد دان له المغربان
إنّ الثمانين وبُلِّغتَها   قد أحوجت سمعى إلى ترجمان
وبدّلتنى بالشطاط (١) انحنا   وكنتُ كالصعدة (٢) تحت السنان
وبدّلتنى من زَماع (٣) الفتى   وهمّتى همَّ الجبان الهِدان (٤)
وقاربتْ منّى خُطى لم تكن   مقاربات وثنتْ من عِنان
وأنشأتْ بينى وبين الورى   عَنانةً من غير نَسج العَنان (٥)
ولم تَدَع فىَّ لمستمتعٍ   إلا لسانى وبحسبى لسان
أدعو به الله وأثنى به   على الأمير المُصْعَبىّ الهِجان (٦)
فقرّبانى بأبى أنتما   من وطنى قبل اصفرار البنان
وقبل مَنعاى إلى نسوةٍ   أوطانها حرّانُ والرّقّتان

أما أمثلة المعانى الشعرية من شعر المعاصرين ، فمن ذلك قصيدة (مصاير الأيام) للمرحوم أحمد شوقى بك ، فقد بلغت هذه القصيدة من جمال الفن ، ووفرة هذه المعانى الفاتنة غايةً لم تبلغها قصيدة أخرى من شعر المعاصرين ، وأنا أنصح للأدباء والمتأدبين بحفظها وروايتها فانها تعتبر بحق من معجزات الشعر الحديث لما فيها من دقة فى تصوير الحياة بجميع مراحلها حتى ليخيّل لك أنها حياة كاملة من مبدئها إلى نهايتها يقول فى أولها :

ألا حبّذا صحبةُ المكتبِ   وأحبِبْ بأيامه أحبِبِ !
ويا حبذا صِبيةٌ يمرحون   عِنانُ الحياة عليهم صَبى
كأنهمُ بَسَماتُ الحياة   وأنفاسُ ريحانها الطيّبِ
يُراح ويُغدى بهم كالقطيع   على مشرق الشمس والمغرب
إلى مَرتَعٍ ألِفوا غيرَه   وراعٍ غريبِ العصا أجنبى
ومستقبَلٍ من قيود الحياة   شديدٍ على النفس مستصعَبِ
فراخٍ بأيكٍ فمن ناهضٍ   يروض الجناحَ ومن أزغَبِ
تقاعدهُم من جَناح الزمان   وما علموا خطرَ المركَبِ
عصافيرُ عند تهجّى الدروس   مِهارٌ عرابيدُ فى الملعب
خليّون من تبِعات الحياة   على الأمّ يلقونها والأب
جنونُ الحداثة من حولهم   تضيق به سَعةُ المذهب
عدا فاستبدّ بعقل الصبىّ   وأعدى المؤدِّبَ حتى صبى
لهم جرَسٌ مطربٌ فى السراح   وليس إذا جدّ بالمطرب
توارت به ساعةٌ للزمان   على الناس دائرةُ العقرب
تَشُول بإبرتها للشباب   وتقذف بالسمّ فى الشُّيَّب
يدقّ بمطرقتيها القضاء   وتجرى المقادير فى اللّولب
وتلك الأواعى بأيمانهم   حقائب فيها الغد المختبى
ففيها الذى إن يقم لا يُعَدّ   من الناس أو يَعْضِ لم يُحسب
وفيها اللواء وفيها النار   وفيها التبيع وفيها النبى
وفيها المؤخّر خلف الزحام   وفيها المقدّم فى الموكب

ويقول فى آخرها :

قد انصرفوا بعد علم الكتاب   لبابٍ من العلم لم يكتب
حياةٌ يغامر فيها امرؤٌ   تسلح بالناب والمخلب
وصار إلى الفاقة ابن الغنىّ   ولاقى الغنى ولد المترب
وقد ذهب المتلى صحةً   وصح السقيم فلم يذهب
وكم منجب فى تلقى الدروس   تلقى الحياة فلم ينجب
وغاب الرفاق كأن لم يكن   بهم لك عهدٌ ولم تصحب
إلى أن فنوا ثلةً ثلةً   فناءَ السراب على السبسب

ولنذكر لك مثالاً آخر للمعنى الشعرىّ من شعر شوقى أيضاً موضحين لك معناه الأصلىّ ، وكيف استطاع صاحبه أن يحوّله إلى معنًى شعرىّ بما أدخله عليه من المحسنات التى تلعب بالألباب لعب الشمول ، قال يصف أبا الهول :

أبا الهول طال عليك العصُر   وبلغت فى الدهر أقصى العمُر
فيا لِدَةَ الدهر لا الدهر شاب   ولا أنت جاوزتَ حد الصغر
إلامَ ركوبك متن الرمال   لطىّ الأصيل وجَوب السحر
تسافر منتقلاً فى القرون   فأيان تلقى غبار السفر
أبينك عهدٌ وبين الجبال   تزولان فى الموعد المنتظر
الخ ...

(١) الشطاط : حسن القوام والاعتدال
(٢) الصعدة القناة المستوية
(٣) الزماع المضاء فى الأمر والعزم عليه
(٤) الهدان : الأحمق الجافى الوخم الثقيل فى الحرب
(٥) العنان بفتح العين : السحاب ؛ يريد بهذا البيت ان السن قد أضعفت بصره (٦) الهجان : الكريم

فان المعنى الأصلىّ لهذه الأبيات لا يزيد على أنه يصف أبا الهول بطول البقاء ، وأن العصور المتوالية والأجيال المتعاقبة لم تنل منه منالاً ، ولم تصدِّع له بناء ، فانظر إلى عبقرية شوقى كيف أتت بذلك المعنى اليسير واستخرجت منه تلك المعانى الكثيرة الساحرة ومزجته بتلك المحسنات الفاتنة ؛ أتراه لو أنه اقتصر على نظم المعنى الأول كان يعدّه أصحاب الذوق الشعرىّ قد صنع شيئاً أو أتى بجديد ؟ ولا يفوتنا فى هذا الفصل التنبيه على وفرة هـذه المعانى الشعرية الساحرة ، وقوّة الجمال الفنىّ الرائع فى شعر الرافعىّ ، فانك تحسّ بذلك الجمال فى كل بيت من أبياته ، بل فى كل سطر من نثره ، بل فيه هو إذا جلست إليه وتحدث إليك ، فهو شعر كله ؛ وإنما أنسب الغموض المتوهم فى بعض أبياته إلى قصور ذهن المتوسطين من القراء ، وإلى ضيق الألفاظ المحدودة عن أن تحصر هذا الجمال المعنوىّ الذى لا يحدّ ؛ إلا أننى أرى أن معانيه من صنعة الفكر وابتكار الذهن ، لا من وحى العاطفة وإملاء الاحساس . وإليك بعضاً من شعره ليتبين لك صحة ما ذهبت إليه ؛ قال يصف بائسة حسناء أفقرتها الحرب :

طريدةُ بؤس ملّ من بؤسها الصبرُ
وطالت على الغبراء أيامها الغُبر
وكانت كما شاءت وشاء جمالها   كما اشتهت العليا كما وصف الشعر
تلألأ فى صدر المكارم دُرَّةً   يحيط بها من عِقد أنسابها درّ
ومابرحت ترقى السنين وتمتلى   وكل المعالى فى طفولتها حِجْر
فكانت كزَهر نضَّر الفجرُ حسنَه
ولما علت كالنجم أطفأهــــا الفجر
تقاسمت الحسنَ الالٰهىّ وأنثنى   يقاسمهـا ، فالأمر بينهما أمر
فللشمس منها طلعةُ الحسن مُشرقا
وفيها من الشمس التوقد والجمر
وللزّهر منها نفحةُ الحسن عاطرا   وفيها ذُبولٌ مثلما ذَبل الزهر
وللظبى منها مقلتاها وجيدها   وفيها من الظبى التلفت والذعر
وما قيمة الحســـــناء بقبح حظها
وتذوى بروض الحب أيامها الخُضر
فما الحسن فخر للحسان وإنما   لخـــالقه فيما يريد به سِرّ
ضعيفة أنفاس المنى بعد ما غدت   رقابُ أمانيهـا يغلّلها الفقر
وبين خُطَى أيامها كل عثرة   يزلزل أقدامَ الحياة بها العُمر

وزَجت بها الأحزان فى بحر دمعها   وليس لبحر الدمع فى أرض قرار
إذا استنبئوها أرسلت من دموعها
لآلىءَ حزن كلُّ لؤلؤة فكر
وإن سألوها لجلَجت فكانما   عرا اللفظ لما مرّ من فمها سكر
مشرّدةٌ حيرى تنازَعَ نفسها   فريقان ذلٌّ لم تعوّدْه والكبر

إلى أن قال فى هذه القصيدة يصف ما فى الانسان من شرٍّ وسوء :

رأت كل مخزاة من الشر تلتوى   ويهرب ذعراً من جنايتها المذر
رأت أثراً تدمَى به الأرض والسما
وليس سوى الانسان فى جرحه ظُفْر
أليس يرى الانسانُ فى القرد شِبهَهُ
فهل ذاك إلا من تكبُّره سُخْر
كما عاقب الله الأسود لكبرها   فجاء لنا فى صورة الأسد الهرّ

وهى طويلة

فقد عرفت الآن نوعين من المعانى وعرفت الفرق بين المعانى الأولية والمعانى الشعرية التى هى من مقومات الشعر وأصوله

فينبغى للشاعر إذا أراد أن يكون شعره مخصب المعانى ، متنوع الأغراض ، أن يقصد إلى المعنى قبل ألفاظ البيت وقافيته ، فيمزجه بالمحسّنات التى سبق ذكرها ، ويهذبه تهذيباً يقرّبه من العواطف ليحدث فيها أثره ، ويبعث الحيـاة فيما همَدَ منها . وبعض الشعراء قد تعوزهم من البيت قافيته فيتطلبونها قبل المعنى ، ويتلمّسونها قبل إعداد الغرض ، فاذا ظفروا بالقافية أتوا بالمعنى على مقتضاها ، فيخرج الشعر مكبّلة معانيه ، مظلمة نواحيه ، ضيق المقاصد ، قليل الأغراض ؛ وكثيراً ما ترى ذلك أيضاً فى شعر شعراء البديع الذين لا يقصدون من البيت أو القصيدة إلا إلى ذلك النوع البديعى الذى لا يحرّك نفساً ، ولا يهز حساً . فقد أجهزوا على الشعر بالحرص على هذه المحسّنات اللفظية إجهازاً تاماً ، وصيروا البكاء عليه فى جميع الأقطار عاماً . وإليك أبياتاً من قصيدة لصلاح الدين الصفدى كتب بها إلى صديقه جمال الدين بن نباته المصرىّ ، وقد ضمنها شطرات من معلّقة امرىء القيس التى أولها : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وجعل صدر كل بيت من شعره وعجزه من قصيدة امرىء القيس ، قال :

أفى كل يوم منكَ عَتْبٌ يسوءنى
(كجلمود صخر حطه السيل من عَلِ)

وترمى على طول المــدى متجنباً
(بسهميكَ فى أعشار قلبٍ مقتّل)

فأمسى بليلٍ طال جنح ظلامه
(علىّ بأنواع الهموم ليبتلى)

واغدو كأن القلب من وقدة الجوى
(إذا جاش فيه حَمْيُه غَلْىُ مِرجَل)

تطير شظاياه بصدرى كأنها
(بأرجائه القصوى أنابيشُ عُنصُل)

وسالت دموعى من همومى ولوعتى
(على النحر حتى بلّ دمعىَ محملى)

وهى طويلة ، وقد أجابه ابن نباتة بقصيدة مثلها ضمّنها شعر امرئ القيس أيضاً ، قال :

فَطَمتَ وَلائى ثم أقبلتَ عاتباً
(أفاطمُ مهلاً بعض هذا التدلّل)

بروحىَ ألفاظ تعرّض عتبها
(تعرّضَ أثناء الوشاح المفصّل)

فأحيين وداً كان كالرسم عافياً
(بسِقْط اللوى بين الدّخول فحومل)

تمرّ رياح الغدر منك رقومَه
(لِما نسجتها من جَنوب وشمأل)

نعم قُوِّضت منك المودّة وانقضت
(فيا عجبا من رحلها المتحمّل)

وهى طويلة أيضاً

فهل ترى فى هذا الشعر غير القدرة على الملاءمة بين شعرها وشعر امرئ القيس ، والمهارة فى التوفيق بين المعانى المتباعدة ، والأغراض المتباينة ؟ على أن هذه المقدرة ضائعة القيمة حقيرة الخطر إذا قيست بما جرّه تكلف التضمين على هذه الأبيات من تفاهة وبرود ، وخلوها من روح الشعر . ولنا فى هذه الفصول عودةٌ إلى شعراء البديع وغيرهم ممن يحرصون على إظهار المقدرة اللفظية أكثر من غيرها فى شعرهم

أحمد الزين

معركة عدوى *

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراق

أخذت الجرائد والمجلات فى الآونة الأخيرة تبحث فى معركة عدوى التى انتصر فيها الأحباش على الطليان . وكثيراً ما يذكرها الطاغية موسولينى ، ويحث الشبان الفاشيست على محو وصمة العار التى لحقت بالجيش الطليانى ، ويعلن للملأ أنه عازم على الانتقام من الأحباش

وقعت هذه المعركة فى ١ مارس ١٨٩٦ فى أطراف عدوى بين الجيش الطليانى البالغ عدده زهاء عشرين ألفاً ، والجيش الحبشى البالغ مقداره زهاء ثمانين ألفاً ؛ وبرغم حيازة الجيش الطليانى على الأسلحة الجيدة ، وتنظيمه على أحدث الأساليب ، انتصر الأحباش عليه انتصاراً مبيناً ، وأوقعوا به خسارة فادحة بلغت ٢٤٨ ضابطاً ، و ١٥٤٠٠ جندى ، بين قتيل وجريح وأسير ، ونالوا بذلك صك استقلالهم الذى امتنعت ايطاليا عن الاعتراف به

لم يكن الجيش الحبشى جيشاً منظما على الوجه المطلوب ، بل كان مؤلفاً من أناس مسلحين بأسلحة متنوعة ، كالبندقية والحربة والسيف والترس والقوس وغير ذلك ، وكان يقودهم رؤساؤهم على الطريقة البدوية ، وكانت مدافعه قديمة يبلغ عددها الأربعين ؛ وكان لدى الجيش الطليانى أربعة وستون مدفعاً حديثاً

وقبل البحث فى هذه المعركة رأينا من المفيد أن نذكر باختصار جغرافية الحبشة وتاريخها وعلاقتها بالدول المستعمرة

(*) أصدر الجنرال التركى كاظم قره بكر باشا كتاباً جليلا عن الحبشة ؛ وعنوانه « ايطاليا والحبشة » ، وهذا الجنرال من أشهر قادة الترك الذين برزوا فى الحرب العامة وفى حرب الاستقلال ، وكان يقود الجيش الشرقى المرابط فى شرق الأناضول فى حرب الاستقلال ، وتغلب على الجيش الأرمنى فأضاف إلى تركيا مقاطعتى القرص وأردهان ، وبعد تلك الحرب انتخب مندوباً فى المجلس الوطنى الكبير . وكان معارضاً لالغاء الخلافة فلم ينتخب بعد ذلك ، فاعتزل السياسة وقبع فى داره فى استانبول ، وانكب فى المدة الأخيرة على التأليف فأصدر الكتاب المذكور . والكتاب يقع فى ٤٣٨ صفحة ، وهو مزين بالرسوم والخرائط ، وقد وضعه بعد أن طالع مؤلفات كثيرة وهو شامل كل ما يحتاج اليه القارىء . وقد اقتبست منه أكثر المعلومات الواردة فى هذا المقال

جغرافية الحبشة

تقع الحبشة فى الشمال الشرقى من افريقية ، ويحيط بها من الشرق مستعمرة اريترة الطليانية ، والمستعمرات الصومالية الفرنسية ، والبريطانية والطليانية ؛ ومن الشمال مستعمرة اريترة والسودان المصرى ؛ ومن الغرب والجنوب المستعمرات البريطانية فى وسط افريقية

ولا منفذ للحبشة إلى البحر الأحمر ، وقد سدت دول الاستعمار طريق البحر فى وجهها ، فجعلتها خاضعة لها فى تجارتها واقتصادياتها . وتبلغ مساحتها السطحية زهاء ١٫١٢٠٫٤٠٠ كيلو مترا مربعاً ؛ وتقدر نفوسها باثني عشر مليوناً ؛ وهذه النفوس لا تنتمى إلى قومية واحدة ، ولا تدين بدين واحد ؛ وفيما يلى الشعوب التى يتألف منها سكان الحبشة :

الأمحرة ، الغالا ، السيدامو ، الصومال ، الدناكل ، الزنوج

ودين الدولة الرسمى المسيحية ، والمذهب يعقوبى . وفيما يلى عدد النفوس بالنظر إلى الأديان :

	العدد
مسيحيون (يعاقبة)	٤٫٥٠٠٫٠٠٠
مسلمون	٣٫٠٠٠٫٠٠٠
وثنيون	٣٫٥٠٠٫٠٠٠
يهود	٥٠٫٠٠٠
كاثوليك	٤٠٫٠٠٠
الاتحاد اللاتينى	٥٫٠٠٠

واللغة الرسمية هى اللغة الأمحرية وهى شعبة من اللغات السامية

والعاصمة أديس أبابا ونفوسها زهاء ١٠٠٫٠٠٠ نسمة وهى متصلة بالميناء جيبوتى عاصمة المستعمرة الفرنسية بالسكة الحديدية

وصف البلاد — السهول والجبال

تتألف بلاد الحبشة من جبال وسهول . والأراضى السهلة واقعة بالقرب من الساحل . أما الأراضى الجبلية فهى فى داخل البلاد . وإذا ما أنعمنا النظر فى خريطة الحبشة رأينا أن سلاسل الجبال الواقعة إلى الشرق وإلى الجنوب قد كونت مثلثاً متساوى الأضلاع : الضلع الشرقى منه ضفاف البحر الأحمر وخليج عدن ، والضلع الجنوبى يمتد من رأس عسير المقابل لجزيرة سومطرة إلى الشرق ، والضلع الغربى يمتد من الشمال إلى الجنوب

والأرض الواقعة فى هذا المثلث هى الأرض السهلة المتموجة من بلاد الحبشة والمتاخمة لمستعمرة أريترة الطليانية والصومال الفرنسى والبريطانى . والقسم الشمالى منها صحراء دناكل القاحلة ، وإلى جنوبى الضلع الجنوبى من ذلك المثلث تقع أرض سهلة متموجة أخرى تتألف منها بلاد الغالا وفيها قصبة ولوال التى نشأ الخلاف عليها بين إيطاليا والحبشة

وليست الأرض المتموجة خالية من الجبال ، فالجبال منتشرة فيها هنا وهناك ، إلا أنها أقل وعورة من المناطق الجبلية الواقعة إلى غربى الضلع الغربى من المثلث المذكور . ومع ذلك تقع سفوح الجبال الشرقية إلى شرقى هذا الضلع وهى شديدة الانحدار كثيرة المناعة والوعورة

والجبال فى الحبشة تحيط البلاد الداخلية بسور منيع طالما وقف فى وجه المستعمرين وساعد الأحباش على الاحتفاظ باستقلالهم

ويشبه الوضع الجبلى فى داخل بلاد الحبشة خطوطاً مستحكمة ، فخط منها فى الشرق يمتد من الشمال إلى الجنوب على موازاة الساحل ويسيطر على السهول ويسد طرق الاستيلاء الممتدة من الساحل . وهذا الخط هو السلسلة التى تؤلف ضلع المثلث الغربى

وهناك خط آخر ممتد من رأس عسير فى الصومال البريطانية على موازاة ساحل خليج عدن الجنوبى إلى أن يصل إلى قصبة (هرر) (١) ثم ينعطف نحو الجهة الجنوبية الشرقية ثم الى الجنوب موازياً للبحيرات الواقعة فى جنوبى الحبشة ، وهو السلسلة التى تؤلف الضلع الجنوبى للمثلث . وهذا الخط يعلو ارتفاعاً ويشتد مناعة كلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب ، وكأنه الخط المستحكم الأول الذى يسد طرق الهجوم فى وجه القوات الزاحفة من الصومال الطليانية للتوغل فى صحراء الغالا

(١) لم نتأكد من أسماء الأعلام بالضبط فكتبناها كما وردت فى الكتب الأجنبية

وغير هذين الخطين توجد خطوط أخرى تمر بذرى الجبال الشامخة منفصلة عن الخط الشرقى وممتدة من الشرق إلى الغرب على موازاة حدود أريترة الطليانية الشمالية كأنها خطوط مستحكمة متوازية لصد القوات المتقدمة من الشمال على التعاقب

ومع وقوع الأرض السهلة والأرض المتموجة والحافات الشرقية الوعرة فى شرق الخط الأول الممتد من الشمال إلى الجنوب والمسيطر على صحراء الدناكل تشتد الأرض وعورة وتزداد مناعة فى هذا الخط ذاته وفى غربيه - أى فى الهضبة الحبشية التى تقطعها عدة سلاسـل جبلية ممتدة من الشرق إلى الغرب على ما سبق ذكره ؛ وفى أطراف بحيرة تانا تلتف الجبال بعضها ببعض فتكون المعقل المركزى للحبشة بشكل منحرف ، ضلعاه القصيران فى اتجاهى الشرق والغرب ، وضلعاه الطويلان فى اتجاهى الشمال والجنوب ؛ وتقع العاصمة (أديس أبابا) فى طرف الضلع الشرقى

أما منطقة البحيرات الواقعة فى جنوبى الحبشة فمحاطة من الشرق والغرب بسلسلتين جبليتين ؛ وهما طرفا الخط الأول والخط الثانى الممتدين من الشرق إلى الغرب ، وفى وسط هاتين السلسلتين تعلو البحيرات فتؤلف هضبة مرتفعة

مما تقدم نعلم أن داخل بلاد الحبشة قلعة منيعة ذات عدة خطوط مستحكمة تسيطر على السهول فى الشرق والجنوب ، وهى مؤلفة من عدة معاقل كونتها الهضاب الشامخة بجبالها وغاباتها

وبحيرة (تانا) تمد وادى النيل بالميـاه فى موسم الصيف بواسطة رافده النيل الأزرق ، وهى ذات خطورة خاصـة لمصر والسودان ، ولولاها لما فاض النيل فى كل سـنة فـتى الحقول الواسعة والمزارع الخصبة التى ضرب بها المثل فى فجر التاريخ ؛ وسبب ذلك أن الثلوج المتراكمة فى ذرى الجبال تذوب فتختلط بالأمطار الغزيرة التى تنزل صيفاً فتجرى فى الوديان المتشعبة من الجبال وتنصب جميعاً فى النيل الأزرق فيطفح بالميـاه وبالطين ، وينقل البركة والخير إلى بلاد السودان ومصر

ولنذكر بعد ذلك المرتفعات التى فى أرض الحبشة :

الأرض المتاخمة للساحل فى المستعمرات الطليانية والفرنسية والبريطانية منخفضة وسهلة ، وكلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب أخذت الأرض فى الارتفاع . وفى أريترة (على مسافة تتراوح بين ٥٠ و ٨٠ كيلو متراً من الساحل تتصل هـذه الأرض بالقسم الشمالى من الخط الأول فتصبح شامخة وعرة ، مكسوة بالغابات والأحراج

وفى صحراء دناكل بالقرب من (عصب) تـكون أرضاً متموجة قليلة المياه ، وذات شعاب ووديان ؛ وعلى مسافة (٢٠٠ إلى ٣٠٠) كيلو متر من الساحل تصل إلى حدها الأعلى فى الخط الأول حيث المضايق الوعرة ؛ ويتفاوت ارتفاع الذرى فى هذا الخط من (٢٤٠٠ إلى ٤٣٠٠) متر ، ويبلغ الارتفاع فى ذروة (أبونا يوسف) (٤٢٠٠) متر ، وفى ذروة (كاللو) يبلغ ٤٣٠٠ متر ، وتقع قلعة (مجدلة) على هذا الخط

وفى الجنوب يبدأ السهل من ساحل البحر المحيط الهنـدى ويأخذ فى الارتفاع إلى الغرب ، وعلى مسافة ٢٠٠ إلى ٣٠٠ كيلو متر من الساحل يبلغ من الارتفاع والوعورة مبلغاً يكوّن هضاب « أوجادن » و « بوران »

وتتفاوت الارتفاعات فى هذا القسم من (٣٠٠ إلى ١٠٠٠) متر . وبالقرب من خليج عدن يبلغ الارتفاع فى السلسـلة التى تؤلف الخط الأول ٢٠٠٠ متر فى جنوبى « بربرة »

وفى صحراء « الغالا » نجد الأرض متموجة ، والروابى قليلة الميل ، وهى ترتفع إلى جبال هرر بسهولة وتلتقى بالخط الثانى ، وتتفاوت المرتفعات فى مركز هـذا الخط من (١٠٠٠) إلى (١٥٠٠) متر ، وفيها هضاب شامخة بانحدارات شديدة كأنها جدران يتفاوت ارتفاعها من (٢٠٠٠ إلى ٣٥٠٠) متر وصخورها بركانية

أما الجبال الداخلية التى تؤلف معاقل الحبشة ، فالهضاب فيها ترتفع (٢٠٠٠) متر كأنها قلعة أحاطت بها الجبال من الشمال والشرق والجنوب ، ومع ذلك لا يمكن تسلقها من جهة الغرب حيث يجرى النيل الأزرق إلا بصعوبة

وفى منطقة « غوجام » يبلغ الارتفاع فى رأس « دانجان » (٤٦٢٠) متراً ، وهو أعلى ذروة فى بلاد الحبشة

(يتبع)

طه الهاشمى

من الأشواق الملتهبة

شجرتي الضـــالة

« مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى »

للأستاذ خليل هنـداوى

مقـدمة :

« لى شجرة ضخمة الجذع وارفة الغصن ؟ أحج إليها كل يوم لأنبوأ جذعها الأبتر مقعدا ، حيث لا يطرقنى إلا الطيور النازحة والنسائم الرائحة . شأن هذه الشجرة عجيب ، قد غبرت عليها عصور ، وهى ثابتة تبدل قشوراً بقشور ، لا يمسها نصب ولا فتور . والسالك فى ذلك الطريق الوعر ينجذب بظلها ، فيأوى إليها مخففاً عن نفسه بعض ماناء بها من مشقة الطريق ؛ فيرى الظل والراحة والنعيم ؛ فيتمنى لو أقام أيامه تحت ظلها ؛ أو لو أن حياته القلقة تحتوى على مثل هذا الظل الذى تنحط عليه الشمس من كل مكان لتحرقه وما هو بمحترق ؛ ولكن الانسان ما أشقاه ! ولوع بالسير ولكن إلى أين ؟

هذه الشجرة آثرتها لى مثوى فى أيام صبى ، لأنها تقصينى عن الناس وتدنينى من نفسى ؛ وما آثرته لجسدى منتقلا كيف لا أوثره له يوم تغدو حقيقته ظلا ! . . . . »

« خليل »

المسلك اليك وعر يا شجرتى !

وهأنذا قد سلكته

الطريق محفوف بالشوك

وهأنذا قد طرقته . . .

***

يقولون عنك « ضالة » لأنك آثرت هذه العزلة العميقة ، وهذه الزاوية السحيقة

وينظرون اليك ساخرين لأنك تركتهم وملت إلى الانفراد .

كم يخشى الناس هؤلاء المعتزلين !

يرونهم فيقولون : ربنا لا تجعلنا من الضالين

***

أتضنين على من سلك الوعر اليك . . .

ضالاً عن قرنائه

بهذا الفيء الذى جاهدت جذورك وأوراقك وروحكِ فى حياكته

ولو أردت الظل لنفسك لما تعبت فى مده

والظل الخفيف يغنيك . . .

ولكنك لست كالانسان الذى يقضى العمر كله فى حياكة ظل لنفسه ، ويمضى غير منتهٍ من حياكة ذلك الظل

أما ظلك أنت فقد حُبكته !

وهذا الظل الواسع الممدود على الأرض لمن تحوكينه ؟

أليس — للضالين — أيتها الشجرة الضالة ؟

إلـهى اجعلنا من الضالين !

***

أتضنين على من تحمل النصب من أجلك — وقد تكونين أنتِ فى غنى عنه —

أتضنين عليه باستواء قصير على منكبك العالى

ليشركك فى تأملك العميق

وإن ضلالك ليشرك ضلالى

وظلك الممدود ينادى خيالى

فلا تناقلى من استوائى عليك ، فانني لن أشوش عليك تأملاتك

ولن تعطل طيورك أهازيجها من أجلى

افتحى قلبك لى فانى لاجيء اليك

وأوِمئى بأوراقك فانى ضال مثلك

***

أأنت تلك المحجة التى يسعى اليها الانسان غير حافل بوعورة الطريق ؟

أأنت تلك المحجة التى تناهضها الصخور والوعور والأشواك لتواريها عن العيون ؟

وكم يكلف الوصول إلى هذه المحجة ؟

ارتفعى كثيراً واسمى كثيراً ، حتى تبدو للضالين ذروتك ، واصمدى بأغصانك إلى السماء

وليجذبها شوقك دائماً إلى السماء

***

هل رأيت المحجة بعين الشوق ، فأنبأتُ رفيقاتك فسخرن منك ، لأنهن لا يرين إلا بعيونهن ، فاعتزلتهن ، وانطلقت وحدك وراء المحجة . . .

نورها يسطع للعيون براقاً ، فما أدناه للعين وما أبعد تناوله !

اغمضي عينك فقد جمدت ، وسالي قدمك فقد ارتمشت

والمحجة لا تزال بعيدة كالنور الذى ترنو إليه العين وتقصر عنه اليد

* * *

ألا ان المحجة فى عالم أنفسنا قد سطعت ، فمدى يدك إلى قلبك تلمسيها ، وانظرى بعينك فى نفسك تبصريها

ألا ان المحجة فى أنفسنا . . .

* * *

ستضر منا العاصفة ثم تذرونا الرياح رماداً قبل أن ندرك هذه المحجة

أليست هى فى أنفسنا ؟ ولكن الابعاد الشاسعة بين نجوم الفضاء . . . هذه الأبعاد التى ترتجف لها مقاييسنا حين نعدها بينها ، هذه الأبعاد هى أقرب تناولاً من الأبعاد الشاسعة المنتصبة بيننا وبين أنفسنا

أين أنت أيهذا الذى بلغ نفسه !

بلى ! ستضر منا العاصفة ، وسنحول رماداً قبل أن تنتهى مراحلنا إلى أنفسنا

* * *

كلانا ضال وراء نفسه

كلانا يرهب طريقه الناس ، لأن طريقنا طريق الوحدة ، وطريق الوحدة طريق الضلال

كلانا يمشى وإن لم يكن فى نظر المقاييس شيئاً ، لأن مشينا لا تدركه مقاييس

* * *

ضميني اليك يا شجرتى الضالة فقد أضوانى السير ولفحت وجهى الشمس

ضميني اليك أقرن تأملاتى بتأملاتك ، فنحن فى نظر الحياة شريكان يتمم بعضنا بعضاً

تضيئنا شمس واحدة ، وتنير طريقنا مصابيح واحدة ، وتعانقنا غاية واحدة

مشهدك واحد فى حياتك كلها لا يبرح ناظرك ، ولك منه كل يوم وجه للتأمل جديد

ومشاهدى كثيرة واعتبارى منها قليل

* * *

وواصلى أيتها الطيور أغانيك فوق رأسى فما أنا بالمروع لك !

وغذيني أيتها الشجرة الضالة بفيئك الواسع

وغداً أغذى جذورك بلحمى ودمى

ألستِ ظمأى إلى دم انسان !

محجتنا واحدة وصداقتنا عميقة فوق ظهر الأرض وتحت بطنها

ستمتصني جذورك عصيراً ، وستحملني سراً عميقاً إلى فروعك السامية

إننا لن نقف !

لأن الشمس تبارك أشواقنا وتنير أرواحنا لأننا أحسنا الاستحالة

وبغير هذه الاستحالة كيف يريدون أن تحوك جذورك هذا الظل الوارف الذى يأوى اليه الضالون !

وكيف يريدون أن تعيش هذه الزهور المتفتحة بدون رماد !

ألسنا فى حالى الفناء والوجود قافلة من قوافل الحياة السائرة منذ الأبد حتى الأبد ؟

ألست فى صدرك حياً أيتها الشجرة ؟

ألست أنت حية فى صدر النار التى ستلتهمك ؟

ونحن ألسنا بعد شيئاً ينبض فى قلب الحياة دماً ولحماً ، وماء ونباتاً ، وناراً ورماداً ؟

* * *

ربى أحلنى فى قلب هذه الشجرة ثمرة يبارك بها قلب جائع ، ثم اجعلنا وقوداً لنار يهتدى بها الضالون !

« كفريا » خليل هنداوى

من نوادر المخطوطات

أثر أدبي فذ!

اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي

للأستاذ على الطنطاوى

تتمة

قوله من الطلوع : نعوذ بالله منه ، لأنه مرض بلغمي يحدث في الشعر لمداومة أكل الزنجبيل والأشياء الحارة : كالبطيخ والأسماك ، وغيرها . قال ابن الدمينة رثى شخصاً :

فسّر لى عابر مناماً   فصّل فى قوله وأجمل
وقال لابدّ من طلوع   فكان ذاك الطلوع دمّل

ومن قال إن الطلوع ضد النزول واستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي فى الهجاء :

أيسمدني يا طلعة البدر طالع   ومن شقوتى خطّ بخديك نازل

فقد أخطأ ووهم والصحيح الأول[١]

إلى بترك : لفظ مركب من الأعداد فى التركى ، كقولك فى العربي واحد اثنان ، فبير واحد وإكى اثنان . ومجموع هذا العدد سبعة ونصف ، لأن إكى ناقصة الياء ، ولولا ذلك لكان المجموع ثمانية ، وألفاظ الأتراك لا شاهد عليها من العربية . فلهذا أضربنا عن الاستشهاد لذلك

فى الليل : الليل معروف ، وهو من الزوال إلى أذان العصر فى العرف ، وفى اللغة من طلوع الشمس إلى غروبها ، كما قال دريد بن الصمة فى الغزل :

أمستوفى قليوبَ   إلى كم هكذا تكذب
من الصبح إلى الظهر   إلى العصر إلى المغرب[٢]

(١) ابن الدمينة من شعراء الحماسة ، والبيتان من شعر الحكيم شمس الدين بن دانيال ، وأبو ذؤيب شاعر معروف ، والبيت لشمس الدين محمد بن العفيف ...

(٢) دريد بن الصمة من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، والشعر لشرف الدين الأبوصيرى ...

وقليوب بليدة صغيرة على شاطئ الفرات من أعمال عدن ، وقيل هى إقريطش (كريد) باليمن

قوله : ظلام النهار الخ . . الخ . .

القول فى الإعراب :

لو : حرف يجر الاسم ويكسر الخبر على ما ذكره الرماني في شرح طيبى الشفا . والكسائي فى رموز الكنوز[١] هذا مذهب الكوفيين ؛ والصحيح أنها من الأفعال الناقصة التى لا عمل لها ، إنما قلنا إنها فعل ناقص لأنها كانت فى الأصل لوى فنقصت حرفاً ، وإنما قلنا إنها لا عمل لها لأنها متى نقصت ضعفت عن العمل ، وهذا الذى ذهب إليه إقليدس وارشميدس فى مخارج الحروف وبرهناه مستشهدين على ذلك بقول الشماخ فى رائيته :

أرسل فرعاً ولوى هاجرى   صدغاً فأعيا بهما واصفه[٢]

وقد سقط من الرسالة أوراق لا أدرى كم هى ، ثم يبدأ الموجود منها بقوله)

قال الشارح رحمه الله تعالى :

مافى كلام العرب اسم ممتل الطرف بالألف المقصورة غير كان ، وهذا مع أن دخلت فيها الحركات الثلاث : الجرّ والخفض والكسر فأجريت مجرى الصحيح ، وليس بعجيب . قال أرسطو العبرى :

وربما صحت الأجسام بالعلل[٣]

ومن قال : هذا من شعر أبى مرّة الحلاوى ابن المتنبي فهذا قول من لا يدرى علم الرمل ماهو . .

وبعد هذا فما أدرى بماذا حكم عليها ؟ هل هى صلة وتتمة لابن خلكان وزير بغداد الحنبلى[٤] ، أو هى اسم قائم برأسه ، استغفر الله : قائم برجليه . فان قلنا إنه صلة من ابن خلكان فلا يخلو إما أن يكون العائد على الصلة من باب أسماء الأفعال أو من باب مالا

(١) الشفا لابن سينا فى الحكمة ، ورموز الكنوز لسيف الدين الآمدى ، والكسائى شيخ نحاة الكوفة ، والرمانى من النحاة

(٢) إقليدس وأرشميدس من فلاسفة يونان ، والشماخ معروف ، والشعر للمتأخرين ...

(٣) أرسطو معروف ، والشطر للمتنبي

(٤) ابن خلكان هو قاضى القضاة الشافعي المؤرخ المعروف

ينصرف ، فان كان الأول من القسمين لزم الخ . أكل : فعل مضارع لأن فى أوّله أحد الزوائد الخمسة وهو الهمزة ، إنما قلنا بزيادتها لأنه لا يصح تجريدها ، تقول كلّ شىء . قال لبيد :

كل خطب مالم تكونوا غضابا ۝ يا أهيل الحمى علىّ يسير

وقد جاء فعلاً ماضياً فى قول الخنساء الأخيلية ترثى زوجها :

أكلَ الأمر إذا ماحل بى ۝ للذى قدّره أن يقما (١)

الشمير : الألف واللام أصلية ، وهو نكرة إن قلنا بأنها أداة التعريف ، ومعرفة إن قلنا بأصليتها ، ذكر ذلك المبرّد فى كتاب ديسقوريدوس (٢) فى باب النمت ، وهو هاهنا مرفوع على الحال ؛ وللنحاة هاهنا بحث فى الماضى والمستقبل والحال بينهم وبين الحكماء ، لأن النحاة أنكروا زمن الحال ، وقالوا ثبوته يؤدى إلى القول بالجوهر الفرد وهو ممنوع ، وقول الحكماء أقرب إلى الصحة (٣) قال عبد الله بن عجلان النهدى :

ولو عاين النظام جوهر ثغرها ۝ لما شك فيه أنه الجوهر الفرد (٤)

وما الذى يمنع الخ . . .

فى : اسم لأنه يحسن دخول حرف الجرّ عليه : تقول انتقل من الشمس إلى فىء الظلّ ، ودخول الألف واللام : تقول هذه الدراهم مبلغ ألفى درهم ، والاضافة تقول : أعجبنى حسن فيك ، والتنوين أيضاً تقول : هذا المال فىءٌ للمسلمين ، وعلى الجملة فما للنحاة فى الأسماء كلمة يدخلها سائر خواص الاسم إلا (فى) وهى ممنوعة من الصرف لأنه اجتمع فيها من العلل أكثر مما اجتمع فى أذربيجان ، وذلك أن الفاء بعشرة والياء بثمانين على ما ذكره الزجاج فى الجمل ، فصارت تسعين ، وعلل الصرف المانعة تسعة !

قال شبرمة بن الطفيل فى وصف الزرافة :

ربّ برغوث ليلة بت منه ۝ وفؤادى فى قبضة التسعين

والقبض هو المنع من الصرف (٥) . فلهذا قال النحاة إن (فى) لا تنصرف ، وهذه النكتة غريبة جداً لم أر أحداً ذكرها من النحاة غير الاصطخرى فى كتاب الحيات له (١) ، وهو معرب بالنصب على أنه صفة للفاعل وهو جارية وإن قلنا الخ ..

البرد : منصوب بالألف واللام التى فى آخره على أنه خبر متقدم تأخر عنه المبتدأ فحذف ، وهى مسألة مشهورة فى باب الاستثناء ، ونصّ عليها سيبويه خلافاً لابن الحاجب لما بحث معه فى المسألة الزنبورية بين يدى الوليد بن عبد الملك ، وتقدم الخبر دائر فى الكلام على ألسنة العرب ، قال كثير عزة فى محبوبته بثينة :

والله ما من خبر مرّنى ۝ إلا وذكراك له مبتدا

فقدم الخبر وأخر المبتدا . . . (٢)

(الى أن قال) :

القول على المعنى

قبل الخوض فى الكلام على المعنى نقدم مقدمة تشتمل على ما يتعلق بهذين البيتين من التاريخ منقولاً من المجسطى للاحنف ابن قيس فى تاريخ بغداد ؛ فنقول : بكتوت هذه كانت بعض حظايا النعمان بن المنذر ، شراها من نور الدين الشهيد صاحب القيروان ، وكانت قبل لعنان بنت النابغة ابن أبى سلمى زوج سيف الدولة ابن بويه السلجوقى أول ملوك السامانية الذين أخذوا خراسان من الفاطميين (٣)

أول أملاكهم السفّاح . . .

والسفاح هو أخو العاضد (٤)

وكانت بكتوت الخ .. وما أحسن قول بعض ملوك الأندلس أظنه ابن سكرة الهاشمى :

أبارية القرط التى حسنت هتكى ۝ على أىّ حال كان لابدّ لى منك

---

(١) لبيد معروف ، والشعر لبعض المتأخرين ، والخنساء أخت صخر وليلى الأخيلية صاحبة توبة

(٢) المبرد من أئمة العربية ، وكتاب ديسقوريدوس فى معرفة الأدوية النباتية المفردة

(٣) الأمر على العكس فالنحاة أثبتوه والحكماء أنكروه

(٤) ابن عجلان من شعراء العرب والبيت لابن سناء الملك

(٥) شبرمة من شعراء العرب والبيت للصاحب جمال الدين بن مطروح

---

(١) الامام الاصطخرى من كبار الشافعية وكتاب الحيات لاسحاق ابن عمران الاسرائيلى . .

(٢) سيبويه معروف توفى سنة ١٨٠ وابن الحاجب متأخر معروف والبحث فى المسألة الزنبورية بين سيبويه والكسائى عند يحيى البرمكى ، وكثير معروف ومحبوبته عزة ، والبيت للسراج الوراق ...

(٣) المجسطى لليونان ، والأحنف تابعى كبير معروف ، وتاريخ بغداد للخطيب أبى بكر ، والنعمان ملك الحيرة ، ونور الدين صاحب الشام معروف ، وعنان جارية الناطفى ، وابن أبى سلمى هو زهير ، وسيف الدولة بن حمدان ، وبنو بويه ملوك الديلم ، وبنو سلجوق ملوك الترك ، والسامانية ملوك خراسان ، والفاطميون ملوك مصر والمغرب

(٤) السفاح أخو المنصور أول خلفاء بنى العباس ، والعاضد آخر الفاطميين أصحاب مصر

من صور العباقرة

هانيبـــال

بقلم حسين مؤنس

لنكن على حذر حين نلتمس اخبار هانيبال ، فهذا رجل وكل أمره لأنصاف خصومه ، وترك تراثه فى رعاية أشد الناس عداوة له ، وتولى تقديمه إلى الناس أحفل الناس ببغضه ؛ فهو مظلوم من بوليبيوس ، مغضوب عليه من تيت ليف ، مهضوم الحق عند الكثرة الغالبة من رواة عصره وقضاة زمانه ، ولكنه برغم هذا كله بارز لا تحتاج عظمته إلى البينة ، ظاهر لا يعوز عبقريته البرهان ؛ وان الشهادة له لتبدر من الخصم حين يتخونه الحذر ، وإن فضله على أعدائه لتقوم عليه البينات والحقائق وإن أعوزته الألفاظ والعبارات ؛ وهذا بوليبيوس يتحدث عن آل سيبيو فيطيل الحديث ، ويكون قصارى ما يتأنق فيه من دلائل نبوغهم أنهم أخذوا فنون الحرب عن هانيبال ، وأن أشهرهم المعروف بالأفريقى أخذ عنه وتفطن لأساليبه وحاربه بها فى زاما . ولعل سبب هذه الخصومة هو أن الرجل كان شرقياً ، لا هو رومانى ولا إغريقى ، وإنما هو فينيقى عريق ، وكانت الخصومة مشبوبة فى ذلك العصر بين الشرق والغرب ، وكان الزمان قد استدار وصار اليوم للغرب ، ورفرفت راياته وخفقت بنوده ، حملها الاسكندر وخلفاؤه زماناً ثم تركوها للرومان ، وكان الفينيقيون قد ضاقت بهم الأرض فى المشرق فالتمسوا الرزق فى المغرب ، وأقاموا المراكز والمدن على شواطئ افريقية وأسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا وفرنسا ، فلما نهض الرومان وجدوا الفينيقيين فى طريقهم أينما ساروا ، وكان مركز قيادتهم قد انتقل من صور فى المشرق إلى قرطاجنة فى المغرب ، ومن هنا كانت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، ومن هنا كان تعصب مؤرخى الرومان على هانيبال ، ومن هنا كانت ضيعة قضيته عند القضاة ؛ فلنلتمس أخباره فى حذر .. ولنحاول أن نشهده عن كثب ، وأن نفضى اليه ونصاحبه حياته الحافلة بالأحداث ، الخصبة بالوقائع والبيانات

***

ها هو ذا فى مجلسه على شاطئ الرون ينظر إلى جيشه الكبير يعبر النهر صفاً طويلاً وقد طال به الجلوس وطال به الانصراف إلى هذا المشهد حتى لا يدرى أهذا مطلع النهار أم مقبل الليل ؛ وكيف له التمييز وهذه أيام ثلاثة بلياليها تقضت وهو فى مجلسه هذا شاخصاً إلى أجناده وفرسانه وقبيلته وهى تعبر النهر على مهل ؟ . . وأين له الراحة أو الانصراف عن التفكير وهو يعلم أن الرومان قد علموا بأمره وأنهم ساعون فى أثره مرسلون قوادهم خفافاً للحاق به والقضاء عليه ؟ . وهذه عيونه تنبئه بأن مارسلوس ماض فى الطريق اليه ، وإنه ليخشى ذلك كثيراً ، إذ كيف تكون العاقبة لو لحق به الرومان وهو يعبر النهر ؟ . إذاً لقضوا عليه فى يسر وهينة . ثم هذه عيونه تنهى اليه أن آل سيبيو يثيرون عليه الناقو ويقيمون عليه قيامة الشعب . فاذا متع الضحى فقد أقبل عليه رئيس فرسانه ينبئه بأن الجيش قد فرغ من العبور وأنه لم تبق فى الضفة الأخرى إلا شراذم من المشاة وأشتات من المؤن التى لا يؤذى ضياعها . هنالك ينهض الرجل الذى أجهده الأعياء وثقلت عليه قلة النوم ، ويأوى إلى فسطاطه . . . ويطلب النوم فيسرع اليه النعاس .. ولكنه على رغم ذلك مضطرب مايزال .. وان الذكريات لتسعى اليه فى الحلم فتروعه

هذا هو أبوه هملكار يخطو اليه رهيباً جليلا . . يذكره بمهده الذى قطعه على نفسه وهو ابن سنوات تسع ، وهذا صوت

فاما بذلّ وهو أليق بالهوى وإما بعزّ وهو أليق بالملك (١)

وقد أخطأ من نسبهما إلى ابن الأحمر ، فقد أوردهما صاحب المرقص والمطرب (٢) وهو مصنف موجود قبل ابن الاحمر بألف وخمسمائة سنة . وهذا المعنى من البيتين واضح اتضاح الفسق نصف الليل فى ثمانى وعشرين من الشهر ، وضياء الباطل إذا جاءه الحق ، إن الباطل كان زهوقاً ، ولله در نجم الدين الكامى ديبران حيث قال يخاطب الشريف الرضى :

وليس يصح فى الافهام شيء إذا احتاج النهار الى دليل (٣)

***

هذا مثال من هذه الرسالة العجيبة ، نقف عنده ، لانجاوزه الى القول فى البديع والعروض والقافية لأن المقال قد طال ، ونخشى أن يمل القراء الكرام ؟

على الطنطاوى

---

(١) ابن سكرة شاعر بغدادى ظريف ، والشعر للملك تميم بن المعز

(٢) لأبى سعيد المغربى متأخر

(٣) نجم الدين متأخر عالم بالمقولات والشريف معروف والبيت للمتنبي

الصبي الصغير يتردد على سمعه واضحاً بيناً ، إنه يقسم أن يكون عدوا لدودا لروما إلى الأبد

وها هو ذا يرى نفسه صبياً وفتى يافعاً ، ثم رجلا فى مداخل الرجولة ، إنه ليمضي الوقت فى قفار اسبانيا ووهادها ، لم ينصرف إلى شىء مما ينصرف إليه الشبان ، ولم يترك لنفسه فرصة للراحة أو الدعة ، وإنما اشتد على نفسه عشرين سـنة كاملة حتى أوفى على الثلاثين ... حتى إذا اكتمل الأهبة ، فقد اتخذ سبيله إلى ايطاليا ، وكان الرومان قد أخذوا عليه سبيل البحر بعد أن قضوا على أسطول قرطاجنة ، ولم يبق له إلا أن يمضى فيخترق هذه المجاهل الجافة حتى يصل إلى مهول ايطاليا ؛ ولقد فصل عن قرطاجنة الجديدة وهو فى تسعين ألفا فتهاوى منهم الآلاف فى الطريق تعباً واجهاداً . . . ولولا بقية من أمل معقودة بلواء فرسان نوميديا ، لأدركه اليأس وكر راجعاً إلى بلده ...

هكذا كانت حياته : واقع أشبه بالحلم ، وحلم أشبه بالواقع ! إنه ينام ليحلم بحرب روما ، ويقوم ليمضى لخراب روما . ومضى أمامهم فمضوا من خلفه ، وهم أشد مايكونون رهبة من هذا الذى يمضي بهم اليه ؛ إنهم ليشعرون الرهبة من هذه الجبال السامقة التى تطل عليهم وتنذرهم بالموت .. وأين لأبدانهم المتعبة أن تتوقل هذه النجاد الوعرة ، وأن تنحدر على هذه الصخور القاسية ؟ وأين لجسومهم العزم الذى يخوضون به هذه الركام المثلوجة التى تبهر عيونهم على قنن الجبال ؟.. ولـكنهم لايملـكون لأمر قائدهم دفعاً ... بل هو لا يملك لأمر نفسه دفعاً . وإنه ليمضى ليوفى عهـد أبيه لا يكاد يفطن إلى شىء مما حوله . فها هو ذا فى مقدمة الجيوش يصّعد فى اعياء ويسير فى هينة ، والجنود يتساقطون من حوله اجهادا ، والخيل تنبت من تحته نافقة ، وهو فى طريقه لا ينبس .. حتى ينتهوا إلى السهول فينحدروا اليها سراعاً

هنا ترجع بنا الذاكرة إلى معبد « بعل » فى قرطاجنة . . . تلك هى القديسة تضطرب تحت يد هملـكار الذى يقدمها إلى الآلهة طاعة ونسكا . . وتلك هى روما تضطرب تحت يد ابنه هانيبال الذى يقدمها إلى أبيه قرباناً زكياً . . وهؤلاء هم الرسل مقبلين على مدينة التلال السبعة يرجفون بالأخبار ويزعزعون العزمات من رهبة الوعيد ، ويضطرب الأمر بين الرومان اضطرابا شديدا ، ويقـذفون بجيوشهم إلى هانيبال فى شجاعة واقدام حقيقين بالاعجاب . . والقرطاجنى متربص يفني الجيوش فناء ، ويبتلع القادة ابتلاعاً . وهـذه تريبا تشهد يوم أجبر هانيبال العدو على النزول إلى الميدان فى البكرة القارسة والشمس لا تزال فى خدرها ، وكيف انسابت الـكمائن من فرسان نوميديا على جوانب الجيش الرومانى فأكلته أكلا ... وهذه ترازمين تذكر يومها العبوس من شتاء سنة ٢١٧ .. هذا هانيبال يخبىء جنوده فى باطن الجبل المطل على أمواه البحيرة ، ويترك منهم نفرا يناوش القنصل فلامينيوس ، ويتقدم الروم ثم يندفعون اندفاعاً شديدا .. فاذا انتهوا إلى ساحل البحيرة فقد ألقوا أنفسهم فى وابل من نبال الغال ، ونار من فرسان النوميديين ، وإذا العدو يسد عليه طريق الرجوع ، وإذا الماء يمين عليهم الخصم . . وإذا هزيمة ساحقة لم ينج منها إلا نفر مضى إلى روما يزلزل أهلها بالمصيبة النازلة ، والفاجعة التى لم تذر . . وهؤلاء أهل المدينة مروعين ، قد انتابهم هلع شديد . . إذ ترامى إلى أسماعهم أن الرجل قاصد اليهم .. ثم ها هو ذا على أميال من روما .. ليس من الموت بد ! ولـكن هانيبال لا يتقدم ، إنما يطوى عن المدينة ويتجه إلى الجنوب

ترى ماذا صد هانيبال عن روما ؟ كانت الحصون واهنـة والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء على المدينة إلا أقل الجهد .. ولـكن هانيبال كان يرجو شيئاً آخر . . كان لا يريد أن يقتل الفريسة دفعة واحدة وإنما يقطع أعضاءها عضواً عضواً ، ويمزق أشلاءها شلواً شلواً : ثم يدعها تموت ؛ كان يرجو أن يمزق جسد روما جزءاً جزءاً ويبتر مستعمراتها عنها على مهل ! لم يمزق الرومان أملاك قرطاجنة واحدة فواحـدة لـكي تموت على مهل . هكذا كان يريد أن ينفـذ انتقامه الشديد — ولهذا مضى يثير أنصار روما ويؤلب عليها أحلافها .. إنه ليعلن أنه أقبل ليحارب الرومان لا الايطاليين ، وإنه ليطلق الأسرى الايطاليين دون الرومان ، وإنه ليكسب من هذا كسباً عظيما . . هـذه « كبوا » تسارع اليه بقواتها وأحلافها . . وهذه المدن الأغريقية فى « تارنتم » تعلن ولاءها . . . وهؤلاء هم الرومان يشتد بهم الخوف فيختارون «فابيوس» لهم قنصلاً .. فيختط لمحاربة هانيبال خطة صارت علماً عليه فى التاريخ : هى أن يجنب نفسه وجيوشـه لقاء العدو فى موقعة حاسمة . . بل يناوشه ويتخطف جنوده ، ويقفل طريق الامداد من الشمال . . ويمضى على ذلك حتى يضعف أمره ويفنى جنوده .. ولـكن الرومان لا يطيقون صبراً .. إن هانيبال ليفسد عليهم جيرانهم وأتباعهم . . ويتلف مزارعهم ويهدم حصونهم

ويمضى من بلد الى بلد ، تاركا جنوده يأتون من الأمر ما يحبون ويصيبون من العدو ما تصل إليه أيديهم ، حتى يضيق ذرع اللاتين فيعزلوا فابيوس .ويولوا قنصلا آخر يمضى مسرعاً حتى يلقى هانيبال فى « كانى » على ساحل الأدرياتيك ، وهناك تظهر قدرة الرجل فى الحرب فى أجل آياتها . . . إنه ليصف جنوده صفوفاً طويلة تكاد تخفى جناحى الفرسان . . وإنه ليلاقى العدو وينثنى قلب جيشه حتى يصير الصف نصف دائرة تحتوى الرومان ثم يقبل الفرسان فيقضون على العدو قضاء مبرماً

ندع هانيبال فى سيره إلى جنوب شبه الجزيرة ونخف إلى روما لنشهد اضطراب الشيوخ وهياج الشعب واشتداد الأمر ولنشهد مشهداً من أصدق مشاهد الرجولة القوية والبطولة الخالدة .. إن « آل سيبيو » لا يخفت لهم صوت ولا يضعف لهم أمل . . لقد مات الاخوان فى وعور اسبانيا ، وهما فى طريقهما إلى بلادهما بعد أن استوليا على « قرطاجنة الصغيرة » قاعدة هانيبال فى ايبريا ، وشطرا شبه الجزيرة كلها عن القرطاجنى حتى حصروه حصاراً شديداً .. وهاهوذا أخوه « هازدروبال » أخو هانيبال يجمع له ما تيسر من فلول المرتزقة ويمضى إلى إيطاليا فيلقاه الرومان ويفتكون به ويقتلونه . . ثم يحملون رأسه إلى أخيه ويلقون به بين يديه

ثم ينهض سيبيو الصغير ويقود حملة من أعنف حملات التاريخ ؛ فهذا فتى فى الخامسة والعشرين ولكنه رومانى عزيز . . إنه ليقطع شبه الجزيرة على عجل . . . ثم يركب البحر الى صقلية ثم يخف الى أفريقية وينزل على مقربة من قرطاجنة ثم يبدأ يصنع فى أفريقية ما يصنعه هانيبال فى ايطاليا . !

* * *

هنالك يتأمل هانيبال رأس أخيه الشهيد ويستمع إلى أخبار سيبيو فتأكل الحسرة قلبه ويفزع على مصير قرطاجنة ، ويسرع لنجدتها . . ولا تكاد قدمه تمس ثرى افريقية . . حتى تسرع نحو سيبيو . . فيمضى هذا أمامه . . ولم يكن أخطر على الجيش الرومانى من هذا المضى الذى يباعد ما بينه وبين الشاطئ . . ولكن .. انظر إنه ليثير النوميديين على قرطاجنة ، إنه ليطويهم تحت رايته حلفاءَ أقوياءَ . . ثم يثبت لهانيبال عند « زاما » ويرسل فرسانه فى طرفى مشاته . . ويصف الجنود صفاً طويلاً ، ويباعد بين الجندى والجندى حتى ليدع بينهما طريقاً رحباً . . ثم يقبل هانيبال .. ويدور فرسانه فاذا هم وجهاً لوجه أمام فرسان سيبيو.. فيفسحون لهم الطريق ، فيندفع هؤلاء إلى ماوراء الجيش وهناك ينتظرون . . وتشتد المعركة ، ويثار النقع ، حتى إذا بلغ الأعياء من جيش قرطاجنة أقبل فرسان الرومان فقضوا عليهم قضاء أخيراً . .

أليست هذه أساليب هانيبال ؟ أليست تلك خطته فى كانى ؟ وإنها لبينة واضحة على عبقريته ، وآية باقية على ما خلف للعالم من تراث

* * *

ويخف هانيبال إلى قرطاجنة ، ويأمر بأسوارها أن تقفل ويسودها الهرج والاضطراب ، ويجتمع مجلسها ويتعاقب الخطباء منادين بالحرب والثأر . . ولكن الرجل لا يطيق . . إنه يعرف خصمه جيداً فينهض ويسكت الخطيب . . ويعتذر لمواطنيه عن هذه الجفوة التى لا محيص له عنها بعد ست وثلاثين سنة فى ميادين الحروب .. ثم يوافق على شروط الصلح التى قدمها سيبيو

ثم يبدأ صراع هو أشبه بصراع المائة يوم بين نابليون وخصومه . . ولكنه يطول سبع سنوات ، يصر الشيوخ فى السناتو على القضاء على الرجل .. ويطلبونه ويجدون فى طلبه . . وهو لا يفقد الأمل فى الغلبة عليهم والانتقام منهم . . لقد فشل فى أن يثير عليهم الغرب ، فلم لا يقيم عليهم قيامة الشرق ؟ . . ها هو ذا يخف إلى بلده « صور » ، فاذا هى ترتعد فرقاً من روما وجيوشها فيفصل عنها إلى « إنطاكية » حيث يستقبله ملكها انتيوكس ، إذ كان يعد حملته على روما . . ويدبر معه الأمر . . ويرسم معه مشروعاً خطيراً .. ولا يكادان يشرعان فى العمل حتى يفاجئهما الرومان فيقضوا على أنتيوكس فى داره فيفر إلى بيثينيا حتى يلقاه ملكها مرحباً .. ويأويه ويكرمه

* * *

ولكن الرومان لا يسكتون عنه . . ويطلبونه ويجدّون فى طلبه . . وإنه لجالس ذات يوم فى ملجئه . . إذ أحس اضطراباً وسمع وقع أقدام جنود يقتربون منه . . فنادى بخادمه . . وأمر بالسم فأتى به إليه . . وقال وهو يدنى الكأس من شفتيه : « لكى تستريح روما إذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً فى الستين يموت على مهل »

حسين مؤنس

١٣ – شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وأما عتابه فنذكر منه عتابه لصالح الشهرزورى ، وكان أبو العتاهية صديقاً له ، وآنس الناس به ، فسأله أن يكلم الفضل ابن يحيى البرمكى فى حاجة له ، فقال له صالح : لست أكلمه فى أشباه هذا ، ولكن حملنى ما شئت فى مالى ، فانصرف عنه أبو العتاهية ، وأقام أياماً لا يأتيه ، ثم كتب اليه :

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل إتيانه فتلِجَّ فى هجرانه
إن الصديق يلجُّ فى غشيانه لصديقه فيملُّ من غشيانه
حتى تراه بعد طول مَسَرَّةٍ بمكانه متبرِّماً بمكانه
وأقل ما يلقى الفتى ثِقَلاً على إخوانه ما كفَّ عن اخوانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه رَجُلٌ تنقص واستخف بشانه

فلما قرأ الأبيات قال سبحان الله ! أتهجرنى لمنعى إياك شيئاً تعلم أنى ما ابتذلت نفسى له قط ، وتنسى مودتى وأخوتى ، ومن دون ما بينى وبينك ما أوجب عليك أن تعذرنى ؟ فكتب اليه أبو العتاهية :

أهل التخلق لو يدوم تخلُّقٌ لسكنتُ ظل جناح من يتخلق
ما الناس فى الأمساك إلا واحد فبأيهم إن حصَّلوا أتماق
هذا زمان قد تعود أهله تِيه الملوك وفعل من يتصدق

أى يطلب الصدقة كما قال فى بيت آخر :

هذا زمان ألحَّ الناس فيه على تيه الملوك وأخلاق المساكين

فلما أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى وحدثه بالحديث ، فقال له لا والله ما على الأرض أبغض إلى من اسداء عارفة إلى أبى العتاهية ، لأنه ليس ممن يظهر عليه أثر صنيعة ، وقد قضيت حاجته لك ، فرجع وأرسل إلى أبى العتاهية بقضاء حاجته ، فقال يشكره :

جزى الله عنى صالحاً بوفائه وأضعف أضعافاً له فى جزائه
بلوت رجالاً بعده فى إخائهم فما ازددت إلا رغبة فى إخائه
صديقٌ اذا ما جئت أبغيه حاجة رجعت بما أبغى ووجهى بمائه

ولم يكن أبو العتاهية كما قال الفضل ممن لا يظهر عليه أثر الصنيعة ، ولكنه كان يعاشر هؤلاء العظماء معاشرة الند للند ، لا كما كان يفعل غيره من الشعراء المستجدين عند هؤلاء العظماء ، وإنما كان البرامكة يكرهون من أبى العتاهية إيثاره الفضل ابن الربيع عليهم ، وهو منافسهم السياسى فى دولة الرشيد ، وقد صحبه أبو العتاهية صحبة طويلة ، وما زال الفضل من أميل الناس اليه ، فلما رجع من خراسان بعد موت الرشيد دخل عليه أبو العتاهية ، فاستنشده فأنشد :

أفنيت عمرك ادباراً واقبالاً تبغى البنين وتبغى الأهل والمالا
الموت هولٌ فكن ما شئت ملتمسا من هوله حيلة ان كنت محتالا
ألم تر الملك الأمسىَّ حين مضى هل نال حىٌّ من الدنيا كما نالا
أفناه من لم يزل يُفنى القرون فقد أضحى وأصبح عنه الملك قد زالا
كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم فأصبحوا عبراً فينا وأمثالا

فاستحسنها الفضل ، وطلب اليه أن يعود اليه فى وقت فراغه ليقعد معه ويأنس به ، فلما كان يوم فراغه صار اليه ، فبينما هو مقبل عليه يستنشده ويسأله فيحدثه اذ أنشده :

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذوائبى المشيبُ خِمارا
أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه ، ورأى أبو العتاهية الكراهية فى وجهه ، فما رأى منه خيراً بعد ذلك . وقد حدث أبو العتاهية هذا الحديث الحسن بن سهل فى دولة المأمون فقال له : لئن كان ذلك ضرك عند الفضل بن الربيع لقد نفعك عندنا ؛ ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب ، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم ، فلم يزل يقبلها دارة إلى أن مات . وكان الحسن بن سهل فارسياً مثل البرامكة ، وكان الفضل بن الربيع عربى النزعة ، وقد انتهت تلك العصبية بين الفرس والعرب فى هذه الدولة بضياع أمرها منهما معاً

ومن عتابه أيضاً ما كان منه لأحمد بن يوسف وكان صديقاً له

فلما خدم المأمون وخص به رأى منه جفوة فكتب اليه :

أبا جعفر إن الشريف يشينُه … تَتَايُهُهُ على الأخلاء بالوفر
ألم تر أن الفقر يُرَجى له الغنى … وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
فان نلت تيهاً بالذى نلت من غنى … فان غناىَ فى التجمل والصبر

ومن شعره فى الاستعطاف إلى الرشيد وهو فى سجنه :

يا رشيد الامر أرشِدْنى الى … وجه نُجْحى لاعدمت الرشدا
لا أراك الله ســوءاً أبداً … ما رأتْ مثلَكَ عينٌ أحدا
أعِنِ الخائف وارحم صوته … رافعاً نحوك يدعوك يدا
وابلائى من دعاوى آملٍ … كلما قلت تدانَى بعدا
كم أمنّى بغدٍ بعد غدٍ … ينفَدُ العمر ولم ألق غدا

وأما الزهد والحكمة والمثل فهى الفنون التى استفرغ فيها جهده ، وأربى فيها على غيره ، ونظم فيها ما استفاده من أهل العلم من السنن وسير السلف الصالح ، وأشعاره فى ذلك لا مثيل لها لأنها مأخوذة من كتب الدين والسنة ، وما جرى من الحكم على ألسنة هذه الأمة . ومن بدائعه فى ذلك أرجوزته المزدوجة التى سماها ذات الأمثال ، وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال ان فيها أربعة آلاف مثل ، وهى تجديد عظيم فى الشعر العربى بهذا الطول البالغ فيها هذا المبلغ ، وبهذه القافية التى مكنت له من المضى فيها الى الحد ، وهذا ما ذكره منها صاحب الأغانى :

حسْبُكَ مما تبتغيه القوتُ … ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا … من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذَرْ … إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ
لكل ما يؤذى وإن قل ألمْ … ما أطولَ الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله … وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح … وربّ جد جرّه المزاحُ
من جعل النمّامَ عيْناً هَلَكا … مُبلغكَ الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجِدَهْ … مفسدة للمرء أىُّ مفسده
يغنيك عن كل قبيح تركه … يرتهن الرأىَ الأصيلَ شكه
ما عيش من آفته بقاؤه … نغّص عيشا كُله فناؤه
يارب من أسخطنا بجهده … قد سرّنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب … الا لأمر شأنه عجيب
لكل شىء معدن وجوهر … وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكلٌّ ممتزجْ … وَساوسٌ والصدر منه تعتلج
وكل شىء لاحقٌ بجوهرهْ … أصــغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى … ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج … لذا نِتَاجٌ ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس مَحْضُ … يخبث بعضٌ ويطيب بعض
لكل انسان طبيعتانِ … خير وشر وهما ضدانِ
إنك لو تستنشق الشحيحا … وجدته أنتن شىء ريحا
والخير والشر اذا ما عُدّا … بينهما بَوْنٌ بعيد جدا
عجبت حتى غمنى السكوت … صرت كأنى حائر مبهوت
كذا قَضى الله فكيف أصنع … الصمت إن ضاق الكلام أوسع

قال أبو الفرج وهى طويلة جداً وانما ذكرت هذا القدر منها حسب ما استاق الكلام من صفتها ؟

عبد المتعال الصعيدى

فى وادى الهوى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

شدافوق فرع مورق بابل الوادى فياحبذا الوادى و ياحبذا الشادى
فقلتُ له زدنى بربك اننى إلى نَغَمٍ حُلو تُرجِّعـــه صاد
وما لحياة بهجةٌ وحـلاوة إذا كنتَ فى وادى الهوى غيرغرّاد
أفدنى بأسرار المحبـة خُبرَةً فأنت عليمٌ بالخفىّ و بالبـادى
ضللتُ طريقى فى هوى مَن أحبّه
و إنك فى وادى الهوى وحدك الهادى
فقال أتحمينى من الموت إننى أراه فأخشاه على نبل صيّاد
توسّمتُ فيه الشرّ لمّا رأيتُـــه
يسدّد نحوى السهمَ من عطفة الوادى
فطرتُ بعيداً عنه أهرب واقعاً على فَنَنٍ فى ذروة الدوح ميّاد
ومن هجمات للغراب شـديدة يريدبها عن موطنى النصر إبعادى
يطاردنى فى موطنى متعمداً وما زال فيـه واقفاً لى بمرصاد
ينازعنى فى الشدو حق زعامة توارثتها من والدىّ وأجدادى
فيهدم عشّى وهو ما قد بنيتُه بنفسىَ من نبتٍ يبيس وأعواد
وماذا من الإجرام كنتُ أتيتُـه
فيصبح هذا الأسود النحس جلّادى
برانىَ فى وادى الهوى اللهُ شــاعراً
فأطرَبَ فيه الزهرَ شـعرى وانشادى
وما طال لولا الزهرُ فيه إقامتى وما كنت لولا الزهر بالرائح الغادى
لقـد كنتُ فى الوادى إلى الزهر مُخلِداً
فهل كان يؤذى ذا جناحين إخلادى
سل الطيرَ بى هل كنتُ فى العمر مرّةً
على واحــدٍ منها إلى جانب العادى
و إن أضمرت نفسى على ذى تجاوزى
من الطير أحقاداً تناسيتُ أحقادى
بلانىَ ربى كل يوم بظالم فما القصد من خلقى شقيّاً و إيجادى
ولو كنت ذا ظفرٍ حديدٍ ومنسرٍ تجنبت الغربان بطشى و إرصادى
و إنىَ فى الوادى الذى هو معبدى بروحىَ للزهر الذى يحتوى فاد
فما أجمَلَ الزهرَ الذى هو مشرق كنجم بدا فى آخر الليل وقّاد
وقل لبنى الضاد اجمعوا أمركم فما لقوم كمالىٌ نهضةٌ يا بنى الضاد

جميل صدقى الزهاوى

فى وصف الطباع

وصف شامل للنفس وطباعها

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ما ازدريت الأنام إلا وهان الـ كيد منهم وهان منهم عداء
وتفردت لا أصـول بكيد وتزهدت واســتقام العزاء
ومِنَ الناس مَنْ إذا ما ازدراهم كان منه الإجرام والاعتداء
ولو انى أكبرتهم لم يرونى غافراً واحتوتنىَ البغضــاء
ولو أنى أكبرتهم لم تر الرحـ مة دينى وما بهم رحماء
ودهم مثل بغضهم فيه عدوى مثل عدوى تسعى بها الثؤباء
و يرى المرء أنه كل شىء هو تبرٌ وما عــداه هباء
مركز الـكون حوله دارة الأفـ ق وبهوٌ من فوقه وسماء
ولقـد تحمد الخليل طويلاً ثم يبدو ما كان منه انطواء
فاذا الغــدر شيمة وطباع وإذا الود والوفاء رياء
و إذا النفس جانب مدلهمٌ بالدنايا وجانب وَضّاء
و إذا المرء يحمد الصحب منه جانباً والكريه منه خفاء
ومع الُخبْر بالأنام فقــد يعـ رو الفتى عنـد غدرهم إعياء
كل يوم يخال منـه جديداً وهو رث وما طواه العفاء
قلبـــه الآمل المضلَّل بالو د يقود الأسى اليـه الرجاء
ومع اليأس منهم كرم الصفـ ح إذ الحتم ما جنوا والقضاء
كلهم يشتكى و يشمت بالشا كى وكلٌ كما يسىء يساء
كلهم ينـدب الوفاء وكلٌ يتأذى وطبعـــه الإيذاء

كلهم قانص يرى فى وفاء الـ   بخل صيداً وليس منه وفاء
كلهم لا يود للناس ما يرْ   غب فيه لنفسه ويشاء
ويُسَرُّ الفتى ويُبدى اكتئاباً   إنْ ألَمَّتْ بصاحب بأساء
صادق العطف كان أو كاذب العطـ   ـف ففى نحس خله سراء
وارتياح أنْ لم يُصَبْ مثل خلـ   ـل نزل الحزنُ دارَه والشقاء
وسواء خِبٌّ وغِرٌّ ولا غَرْ   وَ فللغر صولة وعداء
كلهم إن يرقك منه ذكاء   بعد حين يرعْك منه غباء
فكأن الذكاء منه وميض الـ   ـبرق والعقل كله ظلماء
كلهم يبغض النقيصة حقاً   حذر الناس بغضه إخفاء
واكتساباً للحمد والربح يقلا   ها ولولاهما لعيف الرياء
كلهم يُلْبِسُ النقيصةَ منه   حلة الخير وهو منه بَرَاء
يغضب المرء للفضيلة كيما   يحسب الناس أن ذاك نقاء
وسواء نقص وفضل لديه   إنْ تدانت من كسبه النعماء
ومن الناس من يبوح بنقص   وكثيرٌ من قوله إطراء
كالذى قال إنما أفقدته الـ   ـحلم منه صراحة وإباء
يمدح الحلم مغرياً وهو يسطو   مغنم الحب فى الورى الحلماء
وحذاراً للشر يمدح خيراً   ذاك جبن فى طبعه واتقاء
قسم النقص والمحامد بين الـ   ـناس منه الأحقاد والأهواء
فلئيمٌ من كان منه جفاء   وكريمٌ من كان منه إخاء
ذاك ميزانه وما الحق إلا   ما رأى الحق يأسه والرجاء
ويرى الأخرقَ الذى يرحم النا   سَ وإن ود أنهم رحماء
كى يمدوه بالذى ضن عنهم   بجداه وهكذا الأحياء
كل حى يصون منه حياة   ولئن غال ما عداه العفاء
حاطها بالصيال والمكر والقسْـ   ـوِ ولو عم ما سواه الشقاء
وبإنكار كيده وأذاه   وبدعوى الكمال وهو طلاء
يتدنى يبغى العلاء ولا يثـ   ـنيه عما يحط منه إباء
غير من آثروا على أنفس منـ   ـهم نفوسَ الورى وقد قيل داء
وعجيب إنْ كان أطْهَرُ ما فى الـ   ـنفس داء والحرص منه الشفاء
وأشد القساةِ يُنكِرُ لؤم الـ   ـناس كيما يكون منه مضاء

وهو يُطْرِى الحياةَ بُقْيا على الكيـ   ـد وذعراً يكون منه الثناء
بين أمرين يدرج الناس طراً   جوع بطن أو أن يكون امتلاء
ومن الجوع أو حذاراً له أو   خشية الموت كم قسا الأحياء
وامتلاء يصير شهوة جسم   يهتك الطهرَ حفزها والمضاء
هَيِّنٌ بعدها إذا ما الضحايا   نال منها نحس ونال شقاء
خمص بطن ونهمة وحذار   واحتيال وقسوة ورياء
ذلك العيش ثم ما كان من خيـ   ـرٍ بَكِيٍّ لولاه عيف البقاء
وقتالٌ على الحياة دعاه الـ   ـحىُّ فضلاً يبغى به ما يشاء
ذاك فضلٌ إذا أساء ولكن   هو نقص فى الناس حين يُساء
ولو ان السبيل للموت سهل   لم تكن عنه نجوةٌ أو عزاء
فاحمد العيش إن حبك للعيـ   ـش مُلِحٌّ مهما تمادى العناء
إنَّ أقوى الرجاء ما تعرف النفـ   ـسُ وإن قَبَّحَ الحياةَ الذكاء
لم يعفها وإنما شاء أنْ يُبْـ   ـصِرَ قدماً من حسنها ما يشاء
دائب بَصَّرَ الأنام بما جَـ   ـمَّلَ عيشاً ووصفه إغراء
والذى يكلأ الحياة على العلـ   ـم بها لا تروعه الأشياء
يمدح المرء مثل ما حاز من فضـ   ـل فإنْ زاد كان منه هجاء
فقليل ما تصدق النفس قولاً   وكثير من أجل ذاك المِراء
مهجة الحاسدين من سورة الأحـ   ـقاد والبغض مهجة هوجاء
ساء فعلٌ منهم فساءت ظنون   والورى فى طِباعهم شركاء
سوء ظن الأنام طبع ولكن   مقلة الظن مقلة حولاء
كل حى أمامه ما جنى الخصـ   ـم يراه وما جناه وراء
وعجيبٌ أنْ يُحْسَدَ المرء حتى   بعد أنْ لم تَدُم له النعماء
أى نفس من أنفس الناس عافت   حسداً للقلوب منه اكتواء
لا بل الفضل إنْ تضاءل ما فى الـ   ـنفس منه ولم يكن إيذاء
كلهم ذلك الحسود ولكن   هَيِّنٌ ما بدت به الفضلاء
لو ينال الأنام ما حسدوه   حسدوا ضده ولِيمَ القضاء
حسبوا اللؤمَ من ذكاء وعقل   فادَّعاه الطغام والأعلياء
وتباهوا بقدرة اللؤم فيهم   واستشاطوا إنْ قيل هم لؤماء
وقليل ما يندم المرء إن لم   يك جُرْم من بعده الازدراء

فاذا الناس زَيَّنُوا منـه جرماً ... شملته مِنْ مدحهم خيـلاء

ومضى سادراً يرود من الآ ... ثام مرعى ودأبه الكبرياء

يبتغى المرء أن يرى الناس طراً ... حيث يرضى وخلقهم ما يشاء

وهو لا يستطيع تغييراً ما فى ... نفسه كى يكون منهم رضاء

وحقيق بالشك مَنْ رأيه يتـ ... بع ما خولجت به الحوباء

رأيه مثل خلقه وهواه ... حاكم فيه جَوُّهُ والغذاء

فى قنوط ومطمع وانقباض ... وارتياح تناكرت آراء

لو بدا الشر فى النفوس تعادت ... رحم الله فاحتواه كساء

وإذا الشر أعوز المرء عجزاً ... إدَّعى أن عجزه استعلاء

ومُقِرٌّ بالشر كى يُغفَرَ الشـ ... رُّ وكيما يعود منه اعتداء

واعتراف بالجود حرصٌ وكسبٌ ... وهو منه استزادةٌ لا وفاء

ولقد يحقد العشير إذا خَـ ... لاك رزء وكان منه رثاء

يجرأ الفرد بالجميع على الشـ ... ر ولولاه غاله استخذاء

شد من أزر سافل أنَّ شراً ... جُمِعَتْ فى منـاله الجبناء

فجبانٌ يشـد أزر جبان ... وعداء يكون منه عداء

ولقد يفعلون خيراً ليخفى الـ ... شر منهم وذاك منهم رياء

والشقىُّ الجزُوعُ من شر قوم ... جر نفعاً منه اليهم رجاء

مستنيمٌ إلى الولاء ويكوى ... قَلْبَهُ أن يغيض منهم ولاء

جاهل بالأنام يخدعه المُطْـ ... رى نفوساً لهم وحق الهجاء

لَقَّنُوه أنَّ المروءةَ أن يغـ ... ترَّ بالناس وهو منه غباء

لابل الفضل خيره وهو يدرى ... إنْ بلاهم أنْ قد يعز الجزاء

مطمئناً بعد اصطناع جميل ... عندهم إنْ دهاه منهم بلاء

كلهم ظالم وإن كان مظلو ... ماً رأى أنَّ قسوَهُ استشفاء

يشتفى من لواعج الغيظ والذ ... ل بظلم الأذلِّ بئس الدواء

يظلم الصاغر الضعيف كما يظـ ... لمه من له عليه اعتلاء

طبقاتٌ مقدَّرات من الطغـ ... يان ما إن يُخال فيها انتهاء

ومع الشر والأباطيل فى النفـ ... س فللخير آنة سيماء

عبد الرحمن شكرى

القصص

صور من هوميروس

١١ – حروب طروادة

أندروماك

للأستاذ دريني خشبة

استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين

وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار ، وأن يفر في إثره أتباعه آلهة الرَّوْع ، وڤينوس ، أصل البلية التي حاقت باليوم ، لينتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين

وبزغت شمس اليوم التالي على الساحة الملطخة بآثام الانسانية ، المُضرَّجة بأوزار الآلهة ، المصطخبة بأنين الموتى ... لتشهد من جديد صراع الضغائن وتصاوُل الأحقاد ، وأخْذَ السخائم بعضها برقاب بعض ، وهذه الكتل البشرية يفنى بعضها بعضاً

واشتد الهيلانيون في طلب الطرواديين ، واستبسل هؤلاء ، فكانت أمواج الغزاة تتكسر على صخور شجاعتهم ...... ولكنها لا تتلاشى

وعظم الخطب ، ومارت الأرض ، وانعقد رَهَجُ الحرب مما تثير الخيل من هَبَوات ، واشتجرت الهيجاء ، حتى لكأنها قطع من الليل ، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عُواء ذئاب الجن ، واستشرى الشر حتى لا ترى إلا إلى منايا وآجال ، في قتال ونزال . وأحس جنود طروادة بلُغُوب الوغى ، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب ، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحفزهم ويحرضهم ؛ بيد أن الشجاعة لا تغني في موقف الموت شيئاً ، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار ، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يُصْلُون أعداءهم وابلاً من السهام ، تساعدهم الرماة من فوق الأبراج ...

لكن الهيلانيين ما تفتر لهم همة ، ولا يصل إلى حماستهم كلال ؛ فقد صمدوا في مواقفهم ، وثبتو وصابروا ، وأبدوا من ضروب البسالة واليأس ما حير ألباب أعدائهم ، وجعلهم إلْباً عليهم واحداً ! !

وفي عنفوان المعمعة لقي هيلانوس بن بريام الملك ، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد ، ويرغي بين المحاربين الصناديد ويزبد ؛ وكان هيلانوس خير كاشفي الغيب ، وعرَّافي الطرواديين ؛ وكان حبيباً إلى الآلهة ، جميل الطلعة ، بسام الثغر ، حتى في الحرب ؛ وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم ، صارماً شديد البأس ، يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً ؛ فلما رأى هكتور يعبس تلك العبوسة القمطرير لما يحيق بجنوده من أذى ، ذهب اليه قُدماً وقال :

« أي أخي ! أي هكتور العظيم ! »

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس في صدرِه الحنون برداً لحر تلك الجحيم التي لفحت شجعان طروادة بزفيرها ، وصاح به :

« هيلانوس ! أنت هنا ؟ ادع لنا آلهتك يأيها العزيز ! لقد كَؤُد النصر بعد إذ حسبناه في أيدينا أمس .... ادع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة ! ... »

– « هكتور ! إصغ إليَّ ! لن تظفروا بهؤلاء مادامت مينرڤا معهم تؤيدهم ، وتشد أزرهم ، وترد عنهم سهامكم ، فتجعلها في نحوركم ! ! »

« هكتور ! هلم إلى القصر يا أخي ، فالق والدتك المرزَّأة ثمة ، فتوسل اليها أن تذهب من فورها ، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرڤا ، فلتبك عند قدمي تمثالها ، ولتقدم الضحايا ، ولتتقرب القرابين ، ولتحرق البخور المقدس ، الممزوج بالأفاويه والصندل وطيوب الهند ؛ ولتنذر أن تذبح اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار إليوم ، فتتصدق بلحومها ، وتهب الكهنة شحومها ،

إذا وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة ! »

وألحف هيلانوس على هكتور ، فألقى نظرة على المعركة ، وكاد قلبه يتفطر على هذه الأشبال التي تسقط هنا وهناك ، وفي كل صوب وحدب ، لاقيةً حتوفها في سبيل إليوم ، وذرف عبرات تذوب حناناً ورحمة ، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى ، فدخلها وقلبه يتصدع من الهم ، ووقف مرة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد بجنوده جد رحيم . . . .

وانطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات والآكام . .

وهناك . . . عند بوابة القصر ، وتحت البلوطة الكبرى الوارفة ، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات ، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم ، وأمهاتهم كذلك ، ازدحمن حوله يسائلن عن رجالهم ، هل أودى بهم حتف القضاء ؟ وأسقوا ثرى الوطن العزيز من دمائهم ، أم ما يزالون يناضلون الأعداء ، ويردون عن طروادة حمى البلاء ؟ . . . . .

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن ، لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر ، ... وها هو ذا يهرع في أبهائه العظيمة ، ماراً بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن ، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة ، ثم بالجواسق المذهبة ذات الدمى والتماثيل ، حتى يكون عند ردهة الملكة ، فتلمحه أخته الجميلة ذات الفاتن لاؤوديس فتجري اليه ، وتلف ذراعيها حول ساقيه ، فيتخلص منها برفق . . . وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع اليه ، وتهتف به :

« هكتور ! بني ! ما ذا جاء بك هنا ؟ لمن تركت الساحة يا ولدي ! أهكذا تدع أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور ؟ لا . لا . لا أحسبك تتخلى عن جنودك لحظة . ولكن هلم إلي ! إليك هذه الكأس من أشهى ما عصر باخوس ! روِّ ظمأتك منها وعد إلى الميدان . . »

بيد أن هكتور يتجهم تجهمة مغضبة ، ويهتف بها :

« أماه ! حاشاي يا أماه ! حاشاي يا أعز الأمهات ! لن تهرق الخمر باسمي ، وتلك دماء إخواني تهرق باسم الوطن وتراق ! حاشاي يا أماه أن أتذوق قطرة واحدة من تلك الكأس ، وهناك . . . في سعير المعمعة ، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام ! أريقيها على مذبح مينرفا إذن ! هلمي ولتأت معك أزواج القادة والمحاربين جميعاً ، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتلة ، وحبركن الفوفة ، وانطلقن إلى هيكل مينرفا ، فصلين لها ، واحرقن البخور الغالي من الأفاويه والصندل أنفر طيوب الهند ، ثم اركعن عند قدمي تمثالها المعبود ، وابكين بكاء طويلاً ، وسبحن باسم إلهة الحكمة ، واغسلن الأرض عندها بدموعكن ، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها ، واندرن أن تقربن ، لو فعلت ، اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار إليوم ، يتصدق على الفقراء وأبناء السبيل والمعترين بلحومهن ، وعلى كهنة الهيكل بشحومهن . . .

« أماه ! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا . . بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة . . وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء ! . . . »

وصمت هكتور ! واربد وجه هكيوبا !

وانطلق البطل إلى قصر أخيه . . . إلى قصر باريس فوجده يلهو ويلعب ، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التي تصطرع في الميدان ، فأخذته الخنقة ، وصب عليه شواظ غضبه . . « أنت ! أنت باريس بن بريام ! عجباً وزيوس الأكبر ! أنت هنا تلهو وتلعب ، وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار إليوم ، وتذوق الردى بجريرتك ؟ ! . . . »

وأطلق العنان للخيل ، فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوى الطريق إلى الميدان . .

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات (١) ، وذهبن جميعاً إلى هيكل مينرفا . . . وصلين وبكين ، وغسلن بدموعهن قدمي التمثال المعبود ، ونذرن لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن ينذر . . .

ولكن !

لقد أصمت مينرفا أذنيها ! ولم تصخ لهذه التوسلات المكلومة ، ولم ترق لتلك العبارات المسفوحة ، ولم تطمع أبداً في ضحايا وقرابين تكفر عن خطيئات باريس ؛ ذلك الراعي المفتون الذي آثر الجمال الفاني على الحكمة الخالدة ، فقضى في التفاحة لفينوس ، ربة الحسن والحب ، تلك الحية الرقطاء التي لدغت

---

(١) Suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوريبدز إحدى دراماتهما الخالدة

طروادة بأسرها ، فهى إلى اليوم تصرخ من سمها الزعف يسرى فى أرواح أبنائها ، فينكل بهم ، ويكاد يقضى عليهم . . . ولا ذنب لهم ولا جريرة ، إلا لبانات الهوى الآثم ، والغرام الشائن ، والحب المجرم المهين ! !

***

وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد ، وأحس فى صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك ، زوجه العزيزة عليه ، الأثيرة إلى قلبه ، شوقاً يشبه وداع الحياة فى حرارته وأسره ، وشوقاً يشبه الاستمتاعة الأخيرة من مباهج هذه الدنيا . . . فى حزنه الصامت ، ومعناه العميق !

وأحس كذلك بلوعة الى التزود بنظرات من سكمنـدَريوس طفله الحبيب ؛ هذه الهبة السماوية التى توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم ، اذا كان صحيحاً هذا الهاجس الذى وقر فى قلب هكتور ، والذى صور له أنه مقتول اليوم لا محالة . . .

وألح الشوق على قلب البطل ، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية الى قصره الممرد ، ليشفى حاجات الفؤاد المعذب

وذهب من توه إلى مخدع أندروماك ! ولـكنه لم يجدها هنالك ، فبحث عنها فى الغرف والردهات والأبهاء ، ولـكنه عبثاً حاول الوقوف لها على أثر !

وسأل عنها حشم القصر ، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائمـاً من القلق ، وما تتفزع به روحها من الهواجس مادام زوجها يخوض خبار هذه الحرب !

فهل هى من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواطف المشتركة ، أم هى من السماء الصافية التى لا يرتفع إليها نـغَل ، ولا يورى فيها زند عداء ، ولا تشب فيها سخيمة ؟ !

وأخبرنه أنهـا يممت شطر برج طروادة الرفيع ، تشهد منه ما يحدث فى المعركة من أهوال ، وذلك عند ما ترامت الأخبار أن الأغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة ، وأنهم خضدوا شوكتهم ، وفلجوا عليهم ، ونخبوا قلوبهم ، وضعضعوا أركانهم . . . فريعت أندروماك ، وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها ، وسندها فى هذه الحياة السوداء

ونهد هكتور إلى البرج ، فلقيته أندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مغضن ، وصدر ينوء بما فوقه من الهموم

كانت تقف ابنة إيتيون ، الجميلة البارعة ، وعلى ذراعها المرمرى الفاتن طفلها الرضيع الشاحب ، الذى حل بهذه الدنيا الهازلة ليكون عَبرة سخينة من عبرات الحزن القاهر ، ثم ليكون مأساة وحده حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها ، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين ، وإلا هذه المدينة الـكاسـفة التى تعصف بها آلهة الحرب ، من غير ما شفقة ولا مرحمة !

وتعلقت أندروماك بذراعى زوجها ، وشرعت تنظر فى عينيه المبللتين ، وتقول له :

« هكتور ! رَجُلى وذخرى من هذه الحياة ! الى أين أيها الحبيب ؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية ؟ أهكذا قضت الآلهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدى والأسى المقيم ؟ هكتور ألا تفكر فى سلم يرفرف على ربوع الوطن ، ويبقى على هذا الشباب الذى تعصف به ريح الحرب ؟

رَجُلى !

إن آلافا من الهواجس السوداء تضغط على قلبى تحدثه بالعُقبَى الوخيمة ، والأيام الباكية القريبة !

هكتور ؟

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بنى وطنى تحدثنى عن مأساة أبى ، واخوتى السبعة ، والمئين من أهلى ، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين !

لقد هرعوا جميعاً إلى هذه الساحة من سيليسيا ، ملبين نداء الملك ، الملك التاعس ، أبى ، الذى سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر فى ظل أسوارها نومةً غير قريرة ولا هانئة . . .

هكتور !

لقد نام أعز الآباء فى تراب ساحتكم دفاعاً عن مدينتكم ، ولـكن المأساة لم تتم بقتـله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بنى جلدته ، ولـكن المأساة أبت إلا تـكون أمى . . . آه يا أمى العزيزة ! أن تـكون هذه الأم صفحة محلولـكة من صفحاتها التى تفجر الدم فى القلب ، وتضرم النار فى الحشا !

لقـد ساقها أخيل يا هكتور فى جملة السبى ، ولولا القـود

الكبير ، والفدية الغالية التي بذلناها من أجلها ، لكانت إلى اليوم ، لو مد في أجلها ، إحدى خادمات الأعداء الذليلات ، اللواتي لا يملك لهن في هذا الأسار عزة ، ولا يقدر لها أحد شأناً ! لكنها سقطت هناك ، في هامش هذه الساحة الظالمة ، ضحية سهم مراش من قوس الالهة ديان ، فكأنما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها النقي الطاهر . بعد إذ لوثته أجداث الدهر بذل الأسار ! !

هكتور ! !

كل هذه النوازل هدت نفسي ، وحطمت قلبي ، وأناجت مشاعري ، وجعلتني بائسةً تاعسة موهونةً لا حول لي . . . لولا أنك إلى جانبي تأسو جراحي وتؤنس وحشتي ، وتشيع نوراً متلألئاً في ظلمات حياتي . . . ! فأنت لي اليوم أب نعم الأب ؛ وأنت لي في وحدتي بقلبك الحنون أم نعم الأم ، وأنت لي أخ ، بل أنت لي كل شيء في هذه الدنيا !

هكتور !

إبق إلى جانبي فأنا لا أستغني عنك بأب أو أم أو أخ ، أو عملكة يزين مفرق تاجها المشرق ، ولا يشد يميني صولجانها الرنان !

إبق إلى جانبي يا هكتور !

إبق إلى جانبي وارع هذا الطفل ، ولا تسلمه وتسلمني لليتم والشقاء

هكتور !

إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمندريوس ؛ فرده عنه ، وادفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك ، وحبة قلبك ، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم ، ولوعة الأم المفئودة !

. . . . »

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة ، وحبس منطقها كمد ممض ، وحزن أليم ؛ ووقف هكتور مبهوتاً لا يحير ، ينظر اليها مرة ، وإلى ولده أخرى ، ثم يلقي على طروادة نظرات . . .

واستيقظ بطل اليوم من غفوته الصاحية ، وانطلق لسانه من عقاله يقول :

« أندروماك ! أيتها الحبيبة ! إسمي إلى ! »

لا تخالي يا أعز الناس إلى أن قلبي قد تحجر فلم يخفق لكل ما ذكرته من قبل ! لا ! لقد خفق كثيراً بمثل هذه الهواجس ! بل هو قد ذكرك ، وقد تصور أن هكتور مقتول ، وكأنك كما ذكرت عن أمك في جملة السبي ، وأنك تؤوبين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس ! وأن القائد الغليظ قد ضمك الى حريمه ، أو بالغ في الايذاء فجعلك احدى سراريه أو خدمه ، كلما مر بك أحد أشار اليك بالبنان : « مسكينة ! هذه زوجة هكتور فتى طروادة ، وابن ملكها المقدام ، البطل الذى سفك الدماء وسعر الهيجاء ، تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة ، كسيرة القلب ، مهيضة الجناح ، تأتمر بأمر السفلة والأخساء !

لا يا أندروماك ! لقد ذكرت ذلك جميعاً ، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب ، وأنا لهؤلاء الأعداء ! سأحطمهم ! سأدك الأرض من تحتهم ! سأسقط السماء عليهم كسفاً . . . ! من أجلك ! من أجلك يا أندروماك ! لا . . لا . . بل من أجلك يا طروادة . . . ! يا وطني ! يا بلادي ! . . . »

وسكت فتى طروادة قليلاً ، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها ، فتقدم الى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم : ومد يده يريد أن يأخذ سكمندريوس فيداعبه أو يودعه ؛ ولكن الطفل صرخ مروعاً من هذه القبعة النحاسية المذهبة التي تحمي مفرق أبيه ! وابتسم والداه ، برغم حزنهما ، ورفع هكتور القبعة وألقاها على الأرض المعشوشبة ، وتناول الطفل فأرقصه قليلاً حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية ، ولثمه كما تلثم العاصفة فنناً وارفاً فتلافحه ، ودفع به الى حضن أمه

وانطلق يطوى الطريق الى المعمعة ! . . .

(لها بقية)

دريني خشبة

الطالع العام

كتاب الرشد الظريف في طالع الجنس اللطيف يتضمن ٣٥٢٠ جواباً على ٢٢٠ سؤالا عن الماضي والحاضر والمستقبل لجميع الناس مهما كانت أعمارهم ومراكزهم فالى العذارى الغانيات والزوجات الطاهرات والوالدات الحنونات وربات البيوت المدبرات ، والنساء الغاويات والشبان والرجال نقدم هذا الكتاب من قلم الأستاذ حنا أسعد فهمي المحامي من باريس وثمنه ١٢ قرشاً صاغا والبريد قرشان ويطلب من مكتبة العرب الشهيرة بشارع الفجالة رقم ٤٧ بمصر تليفون ٥٦٠٢٥

٢ـ رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح، سيوه، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

أقلتنى سيارة برفقة الأخ النبيل الكريم حسن حشمت، من خيرة الشبان وأكفأ ضباط الحدود، وطفنا بكثير من البساتين والينابيع، وهى عماد موارد الواحة وخير ما يميزها، تنتثر فى أطرافها فى عدد لا حصر له، وحولها تقوم غابات النخيل تتخللها أشجار الفاكهة، أخص بالذكر منها الكروم والزيتون، ثم الرمان والتفاح والبرقوق والموالح، على أن البساتين تفتقر إلى عناية كبيرة من أهلها، فهى مهملة إلى حد كبير، إذ تغص أرضها بالطفيليات، وتزدحم بالأشجار المتجاورة، مما يؤثر ولا شك فى مقدار انتاجها عاماً بعد عام. ويخيل إلىّ أن الناس هناك أميل إلى الكسل، إذ كنا نرى ماء الينابيع المتفجرة يجرى على غير هدى، ويؤدى بعضه إلى مستنقعات فسيحة هائلة بعضها يبدو كالملاحات المديدة. نرى كتل الملح الأبيض الوضاء تكسو جوانبه إلى مد البصر؛ ولقد حاولت وزارة الزراعة إصلاح تلك الأراضى وحث الناس على استغلالها بطريقة أنجع من طريقتهم الحالية فى الحرث وتعهد الأرض، وكذلك فى الاستفادة بذلك الماء الوفير الذى يضيع سدى، ولقد قامت وزارة الزراعة هناك بجهود يشكر فى توزيع أشجار الزيتون والخروب على الناس مجاناً، وفى الاحتفاظ بمياه الينابيع فأقامت حول كل عين أحواضاً كبيرة من البناء تؤدى منها المجارى الصغيرة إلى مختلف النواحى، بحيث تشعر وأنت تجوب أطراف الواحة من كثرة القنوات وتقاطعها وتشعبها أنك وسط قطر زراعى ممتاز، لكن رغم ذلك يضيع جانب كبير من ذلك الماء سدى، ولقد ساعدت تلك القنوات على تجفيف كثير من المستنقعات التى كانت مربى خصيباً لبعوض الملاريا الذى كان يفتك بالناس فتكاً ذريعاً، وهى تبث فى تلك المياه نوعاً من السمك الصغير الذى يعيش على بويضات ذاك البعوض استئصالاً له. ولقد زرنا مصنع وزارة الزراعة الذى أقامته لاستغلال أكبر موردين للناس هناك: البلح والزيتون؛ وهى تبتاع من الأهلين جانباً كبيراً من أجود أنواع البلح، وتخضعه لعملية الغسيل والتطهير والتبخير، ثم الكبس فى صناديق من خشب تبطن بالورق الصقيل، وتصدر منه بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ طن فى العام؛ وفى جانب من المصنع معصرة آلية للزيتون بكامل معداتها، يعصر فيها الزيتون وينقى الزيت بعدة عمليات، ثم يوضع فى صفائح ويصدر؛ وانتاج المصنع آخذ فى الزيادة، ولذلك تفكر الوزارة فى توسيعه باطراد. وللأهلين كثير من المعاصر الخاصة للزيت ومساطح البلح الذى يعدون منه (العجوة) السيوى الشهيرة؛ أما باقى أنواع الفاكهة فلا يكادون يستفيدون منه تجارياً، حتى البيع لأهل الواحة نفسها غير مباح، ذلك لأن المالك يعد بيع الثمار للناس معرة لاتليق بكرامته، ولكل انسان أن يدخل البساتين ويأكل منها ما يشاء بدون مقابل، ولكن ليس له أن يحمل إلى الخارج شيئاً منها إلا فى حالات خاصة، عند ما يريد المالك تقديم الهدايا من ثمار حديقته لبعض ذوى المكانة والجاه من الغرباء أو الأهلين. ولم أدرك من صنوف الثمار شيئاً، اللهم إلا أردأ أنواع البلح هنالك ويسمونه البلح الفراوى، أما البلح الممتاز المسمى الصعيدى، والذى يليه جودة الفريحى فلا يزال فجاً غير ناضج



عين تاجرزت من أكبر ينابيع سيوه

أذكر أنا دخلنا بستاناً وتفيأنا بشجرة؛ وكانت الأرض تحت النخيل يكاد يفرشها ذاك البلح الردئ (الفراوى) فطالب الأخ حشمت إلى الرجل أن يذيقنا أطيب ذاك البلح، فاعتلى

الرجل النخلة وهز عرجونها ، فأمطرتنا وابلاً من رطب أصفر كبير ، فأقبلنا ننتقى منه أطيبه ونغسله فى ماء النبع حولنا ونأكله ، فكان لذيذاً شهياً ، وما كدت أمتدحه حتى سارع الرجل بالاعتذار بأن الأنواع الجيدة لما تنضج بعد ، وأن هذا النوع الذى نأكله غير جدير بنا ، لأنه عندهم طعام الحمير ! وقد علمت أنهم حقاً يقدمونه علفاً للحمير ، والنوى تأكله المعزى

وأكبر عيون الواحة عين قريشت التى تبعد عنها بنحو عشرين ك . م ، ثم عين تاخررت التى تنفجر بقوة هائلة ويتدفق منها ٤٠٠٠ طن يومياً يضيع جله فى متسعات الملاحة بالبحر ؛ ثم عين الشفا ، وتقول خرافة قديمة إنها كانت متصلة بالجن ، خاضعة لعبثهم ، ثم اكتسبت هبة سحرية هى شفاء الأمراض كافة ، لذلك يكاد يغتسل فيها الناس جميعاً كل يوم ، فالنساء يقمن مبكرات ويغسلن أجسادهن دون رءوسهن احتفاظاً بجمال الشعر أنخر آيات تجملهن ، ثم يعقبهن فى ساعة متأخرة الرجال ؛ والعين التى يستقى منها الناس جميعاً عين تابه أمام مركز البوليس ؛ وكم كان يروقنى منظر الناس وبخاصة النساء وهن يردن تلك العين فى بكرة الصباح وعند الأصيل يملأن جرارهن ! هذه سيوية فى نصف سفور ، وقد ارتدت جلباباً فضفاضاً من قماش يغلب على نقوشه التخطيط الأزرق ، وقد ضفرت شعرها فى جدائل متعددة ، بعضها يتدلى إلى جانبى الرأس والبعض أمامها ؛ وتنتهى الجدائل الخلفية بقطع من جلد خشن كان سبباً فى أنهن لا يستطعن النوم على ظهورهن أبدا ، وتزين أذنيها أقراط ثلاثة ، فى أسفل الأذن فى طوق كبير يعلوه فى وسط الأذن واحد أصغر منه ، ثم يعلو هذا ثالث هو دونه حجما ، وتكاد تكسو رقبتها أطواق من الفضة بعضها خارج بعض ، وهؤلاء لا يغسلن رءوسهن إلا فى فترات بعيدة تعد بالأعوام ، وبعضهن لم يغسلنها منذ نشأن ، وذلك خشية افساد زينة الرأس ، وهن كل أسبوع يتعهدن الشعر ببعض الزيوت والأعطار ، ويخيل إلىَّ أن سبب تلك العادة سقوط الشعر من أثر أملاح مياه الينابيع مما نفرهن من غسله فأضحت عادة فيهن

والسيويات جميلات الوجوه بألوانهن الخمرية وتقاطيعهن الدقيقة النحيلة . وإلى جانب السيوية كنت أرى عربية ازينت بجلبابها الأحمر ، وأحاطت خصرها بحزام معوج من الأمام ، وكانت تهولنى أكمامها الكبيرة ، ولقد خبرنى الطبيب بأنه عند الكشف على إحداهن لا تضطر السيدة أن تخلع ثوبها ويكفى أن ترفع ذراعها فيظهر كل جسدها من كمها



سيوية ترد ماء نبع فى سيوه ويشاهد فى وجهها الجمال الغربى

وللقوم لغتهم السيوية الخاصة ، كنت أستمع إليها فى رطانة هى أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وقد حاولت أن أتعقب فى كلماتها شيئاً يمت إلى العربية أو اللاتينية بصلة فلم أهتد إلى كلمة واحدة ؛ وهم يتخاطبون بها دائماً ، لكنهم إذا تحدثوا إلى الغريب تكلموا بالعربية ، وأطفالهم لا يعرفون إلا اللغة السيوية . واليك أمثلة من تلك اللغة : تلحاك أنك (كيف حالك ؟) ، أمقحاط : (أين تذهب ؟) ، سقم أنا سيط : (من أين تجىء ؟) ، أفتك اللون : (افتح الشباك) أفَّن شاشِنَّك أخْنفِنَّك (ألبس الطاقية على رأسك) أفن شخشيرك فى أشكنَّك (البس الجورب فى رجلك) أشوُ (الطعام) الخ . وما إلى تلك الألفاظ التى تمعن فى الغرابة بالنسبة للغتنا ، وحتى أسماؤهم تجد من بينها عجباً مثل : تلشلشت ، زوبَّاى ، بيَّخ . ولهم تدليل خاص لبعض أسمائنا فمثلاً ينادون : أبا بكر باسم كاكال ، ابراهيم باسم بابى ، أحمد باسم حيدة ؛ ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى مازجتها العربية ثم الرومانية . ولا تزال للرومان هنالك بعض الآثار ؛ أشهرها معبد المشترى (جوبتر أمون) ، وكان مقر الكهنة ذرعه ٣٦٠ × ٣٠٠ قدم ، ومن أحجاره ما يبلغ ٣٣ × ٢٦ قدماً ، وقد زاره الاسكندر بعد أن قاسى المتاعب الممضة وبعد أن نضب ماؤه وأشرف على الهلاك لولا أن سقط المطر فأنجاه هو

ورجاله . وكان يقوم في هذا المعبد صنم اسمه سيوح هو الذي أكسب الواحة اسمها ؛ وقد زرت هذا المعبد وألفيته في حال يرثى لها ، فأنت لا تكاد تجد به حجراً قائماً على أصله وذلك من أثر أحد المأمورين الذين رأوا في أحجاره مادة صالحة لإقامة مركز البوليس ، فقام بهدم المعبد ويستخدم أحجاره فيما أراد ، والمفروض أنه من مثقفي القوم ومن الذين يعرفون قيمة الاحتفاظ بمثل تلك الآثار الجليلة ، وهو لا يزال مأموراً إلى اليوم في ناحيــة أخرى من مراكز الحدود ؛ عفا الله عنه وكفر له عن سيئته

ويقال إن تلك الواحة كانت تسمى عند العرب (سنتريه) ، بناها منافيوس مؤسس بلدة أخميم ، أقامها من حجر أبيض وشيد وسطها ملعباً من سبع طبقات وعليه قبة من خشب على عمد من رخام ، وكانت كل طبقة لطائفة من الناس على حسب مكانتهم ؛ على أني لم أجد لـكل هذا أية بقية أو أثر . وقد حاول قمبيز تدميرها وهدم معبد أمون الذي بها فهلك جيشه العظيم في طريقه اليها . ولقد زاد ذلك في قدسيتها لأنهم عزوا ذلك إلى غضب الآلهة ، ولم تدخل تلك الواحة تحت حكم مصر إلا في عهد المغفور له محمد علي باشا حين أرسل اليها حسن بك الشماشرجي ، حاكم البحيرة إذ ذاك ، فأخضعها وتعهد بها عرب أولاد علي إلى زمن سعيد باشا ثم ضمت لمديرية البحيرة ، وهم يؤدون ضريبة النخيل للحكومة ، وكان مجموعها زهاء ٨٠٠ جنيــه وزعت على عدد النخيل الجيد الذي يثمر البلح الصعيدي ، تخص كل نخلة نحو تسعة مليمات ضريبة تدفع للدولة كل عام ؛ ويكاد يكون لهم نظام حكم خاص بهم فالحكومة تـكل أمرهم إلى المشايخ وعددهم ســبعة يتقاضون مرتبات تتراوح بين جنيهين وأربعة كل شهر ، وهؤلاء هم الوسطاء بين الدولة وبين الأهلين ؛ وعند انتخابهم يجتمع أعيان الواحة ممن تزيد ملـكيتهم على مائة نخلة وينتخبون الشيخ ولا تقل أملاكه عن ٢٥٠ نخلة ؛ وغالب منازعاتهم تحل بطريق التحكيم فيختار كل من الخصمين رجلين يوكل اليهما الأمر وقضاؤهما نافذ بعد عرضه على المأمور ، وأساس تشريعهم القواعد التي وضعها لهم عالم اسمه محمد يوسف ، وتكاد تـكون وفق تقاليدهم الخاصة ، إلا في الزواج والميراث فهم خاضعون لقضائنا . وعدد سكان الواحة يقرب من خمسة آلاف ليس بينهم مسيحي واحد ؛ ويقولون إن أربعين رجلاً من العرب والبربر وقبيلة أغورمي وفدوا إلى تلك البقعة وأقاموا لهم معصرة ودونوا أسماءهم في سجلاتهم ، ثم تكاثر نسلهم حتى بلغ هذا العدد ومن لا ينتمي إلى واحد من أولئك الأربعين يعد دخيلاً عليهم

وطبقة العمال هناك يسمون الزجالة أو الزجالين ، يزيد عددهم على الخمسمائة ، وهم الذين يقومون بخدمة الأرض نظير قيام السيد بمؤنتهم الضرورية ، ولـكل خادم جبة من صوف وثوب من قماش كل عام ، وعنــد جمع المحصول يتسلم الواحد ٣٢ صاعا من الحب وأربعين من البلح الصعيدي الجيد . وتلك الطائفة كبيرة العــدد مفتولة السواعد ممتلئة الجسوم ، ممنوع أفرادها من الزواج مخافة أن يزيد نسلهم فتزيد النفقة على سيدهم ، ومن تزوج منهم طرده سيده وتخلص منه ؛ وهذا لا شك من أسباب قلة النسل في الواحة كلها ، وقد أخذ ذلك يهدد السكان بالانقراض ، فضلاً عن أنه ساعد على انتشار الفساد إلى درجة كبيرة

(يتبع) محمد ثابت

البريد الأدبي

وفاة الشيخ محمد بخيت

في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر استأثر الله بالفقيه العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية السابق؛ وهو خاتم طبقة من العلماء المحققين الذين تميزوا في حياة الأزهر بالتبسط في العقائد، والتعمق في الفقه، فانتهت اليه الأمانة فيهما حيناً من الدهر. كان — غفر الله له — من أشد المعارضين لحركة الاصلاح التي قام بها الامام محمد عبده، دفعه إلى تلك المعارضة الثائرة شهوة المنافسة من جهة، وتحريض أولى السلطان من جهة أخرى، وكان في الشيخ ذكاء شاهدة، ودعابة لطيفة؛ وطموح إلى مساماة الامام في منصبه ونفوذه وشهرته حرك فيه الأخذ بنصيب من الأدب والثقافة العامة. ولعله كان أعلم أهل جيله بدقائق الفقه الحنفي، وأبسطهم لساناً في وجوه الخلاف بين أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة

ولد في بلدة المطيعة من أعمال أسيوط في سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٦ م)، ثم دخل الأزهر في سنة ١٢٨٢ هـ وتخرج منه سنة ١٢٩٢ فاشتغل بالتدريس فيه. ثم انتقل سنة ١٢٩٧ إلى القضاء فتقلب في مناصبه حتى تولى قضاء مصر نيابة عن القاضي التركي نسيب افندي. وفي سنة ١٩١٤م عين مفتياً للديار المصرية، وظل في هذا المنصب حتى أحيل على المعاش سنة ١٩٢١ م فقضى بقية أيامه في الاقراء والافتاء حتى قبضه الله إلى رحمته

اختراع الخراع للصفدي

وقع الأستاذ الطنطاوي على نسخة من هذا الكتاب الغريب عند بعض أصدقائه الأدباء، وقد وصفها في العدد الماضي وفي هذا العدد، وقال إنها ناقصة من أولها وآخرها، وقد أخبرنا صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية أن من هذا الكتاب نسخة مخطوطة كاملة في مكتبة المرحوم عبدالله باشا فكري، وهي الآن في حوزة حفيده الأستاذ محمد أمين فكري بك بوزارة المالية؛ فعسى أن يتيح الله لهذا الكتاب الطريف من ينشره

قبر الصفدي

إلى الأخ الأديب الأستاذ علي الطنطاوي

ذكرت يا سيدي أثراً من آثار صلاح الدين الصفدي بعدد «الرسالة» العشرين بعد المائة ودللت على فضل الرجل وعلى أثره في الأدب العربي، فهل تدري يا سيدي أين يرقد هذا الرجل الفذ؟ إن قبره في مدينة صفد (فلسطين) قبر متهدم، في حارة لليهود، في بقعة لا تزيد على خمسين متراً مربعاً... أتريد أن تعلم أكثر من ذلك؟ — إن جيرانه لا يأنفون أن... يقذفوا قبره بزبالة بيوتهم

قبر مندرس، في مكان ضيق قذر، مجهولة قيمة ساكنه، لا يزار ولا يعرفه إلا القليل، وما كان ليعرفه كل من يعرفه الآن لولا زيارة المرحوم شيخ العروبة له قبل عشر سنوات، والتبرع... ببناء جدار حوله!

منذ الحرب حتى يومنا هذا لم يزر قبر «إمام عصره» من الأدباء إلا المرحوم أحمد زكي باشا، فهل هذا هو التقدير لأدبائنا؟ أمة تنشد الحياة والاستقلال وإحياء الماضي العزيز، أيليق بها أن تهمل قبور رجال العلم والأدب فيها لتصبح... مزابل؟! قارن بين وستمنستر والبانطيون و(مقبرة) صلاح الدين تعلم السر في الفرق بين من أدباؤهم السابقون في وستمنستر، ومن قبور أدبائهم كقبر ابن أيبك!

ها قد مر على رقدة صلاح الدين الأخيرة خمسمائة وتسعون سنة كاملة، وبعد عشر سنوات تبلغ الستمائة، فماذا أعددنا لاحياء ذكراه الستمائة؟ في وقت يقيم الغربيون المهرجانات الكبيرة لأحياء ذكر أدبائهم في كل عام! عسىٰ ألا تمر العشر السنوات الباقية لذكرى الستمائة سنة لوفاته وقبره مهمل قذر لا يزار

(صفدي)

نظريات الجنس والسلالة والخصومة السامية

اتخذت نظريات الجنس والسلالة فى العهد الأخير أهمية خاصة ؛ فهى اليوم روح النظام الذى يسود ألمانيا ، وقد أخذت تثير فى بعض الدول الأخرى جدلا لا نهاية له ؛ وقد كان اليهود ضحية هذه الفورة التى اتخذت فى ألمانيا أشكالا من العنف والهمجية تذكرنا بروح العصور الوسطى وأساليبها ؛ على أن نظرية الجنس وتفوق السلالة لم تقف عند اضطهاد اليهود ، ولو وقفت عند هذا الحد لكانت مسألة محلية بالنسبة لألمانيا ، ولكن هتلر ودعاته ذهبوا بعيداً فى صوغ النظرية الجنسية ، فنادوا بتفوق السلالة الجرمانية أو السلالة الشمالية (النورديكية) على جميع أجناس البشر ، ووصموا الأجناس السامية كلها بالانحطاط وعدم الأهلية لانشاء الحضارة ، ونادوا بوجوب اخضاعها وتمدينها واستغلالها بواسطة الشعوب الشمالية . ومن هنا تتخذ الدعاية الهتلرية أهميتها بالنسبة للشعوب الشرقية ، وهى التى وصمت بهذه الوصمة وصدر فى حقها هذا الحكم ؛ وقد كانت ألمانيا وما زالت مهد التعصب الجنسى ، وكانت بالأخص مهد الخصومة السامية ؛ ولم يأت زعيم الدولة الألمانية فى ذلك بجديد فى كتابه « كفاحى » الذى يحدثنا فيه طويلاً عن عناصر الانحطاط والخطر فى اليهودية ، فان الثقافة التى تلقاها لا تسمح له بمناقشة هذه الشؤون العلمية والتاريخية ؛ ولكنه نقل معظم أقواله من الكاتب الألمانى كرستيان لاصن ؛ وقد كان لاصن أول من صاغ من الخصومة السامية نظرية علمية تاريخية ، وأول من تحدث عن انحطاط الأجناس السامية فى كتاب نشره فى منتصف القرن الماضى ؛ ثم تلاه المؤرخ الفرنسى أرنست رينان ؛ واتخذت نظرية الخصومة السامية من ذلك الحين شكلها الجدلى

نكتب ذلك لمناسبة كتاب ظهر أخيرا بالانكليزية عنوانه : « How odd of God » (كيف التباين من الله) بقلم الكاتب الانكليزى لويس براون ؛ وموضوع الكتاب هو الحديث عن مركز اليهود فى المجتمع والانسانية ؛ وقد يبدو لأول وهلة أن المؤلف وهو يهودى يجرى على نغمة الدفاع عن جنسه ؛ ولكن الواقع أنه لا يبدى فى ذلك حماسة خاصة ؛ وإنما لب الكتاب وموضوعه الأول هو تحليل النظريات الجنسية التى ترتبت عليها الخصومة السامية ؛ وشرح الأسباب التى أدت إلى تفاقمها وإلى الصراع بين اليهودية وخصومها ، ويرى الكاتب أن الحركة اليهودية لم تتخذ هذه الأهمية من تلقاء نفسها ، ولكنها نمت واشتد ساعدها بسبب الاضطهاد والمطاردة ؛ ويدلل الكاتب على نظريته بسير الحركات العالمية الكبرى ، فالنصرانية ما كانت لتنمو وتنتشر هذا الانتشار لو لم تطارد فى بدء ظهورها بعنف وقوة ، وكذلك اليهودية ؛ فمنذ غابر العصور كان اليهود موضع الاضطهاد والبغض والزراية ، وكانوا يجلدون ويعذبون وتحرق منازلهم وتصادر أموالهم ، ولكن اليهودية هى اليوم أقوى ما تكون حياة وحيوية ؛ بل هى اليوم فى ازدهار وتقدم ، وقد نتساءل أيكون ذلك رغم الاضطهاد والمطاردة ؛ ويقول الكاتب كلا بل بسبب الاضطهاد والمطاردة . ثم يقول إن اليهود لم يكونوا قط جنساً أو شعباً متحدا ، ومن الخطأ أن نعتقد أن العصبية الدينية هى التى تربطهم وتقوى تضامنهم ؛ ذلك أن اليهودية دين مهل ، يقبل مختلف التطورات والتفسيرات ؛ ولكن اليهود يجتمعون فى مسألة واحدة ما زالت قائمة خلال القرون ، تلك هى أنهم دائماً موضع البغض والزراية من بنى الانسان ؛ وقد أرغموا خلال العصور على أن يناضلوا من أجل حياتهم ، فبث فيهم النضال قوة ؛ واليهودى يشعر أنه ليس كباقى الناس ، ولكنه يحمل دائماً على أن يشعر بأنه يوجد شىء ضده ؛ ومن ثم تعلم الحذر والتحوط إلى درجة يدهش لها الجمهور الرفيع

ويكتب لويس براون بوضوح وسلاسة ويستعرض ما فى بنى جنسه من عيوب وفضائل بروح الاعتدال والانصاف ، ويحلل نظريات الجنس والسلالة بقوة وذكاء ، ويفند ما فيها من تحامل وسفسطة ، ويتساءل عن المعيار الذى يتخذه دعاة النظرية لتفاضل الجنس والسلالة : أهى المظاهر الخلقية المادية كالجمجمة والفك والشفتين واللون وغيرها ، وهذه جميعاً يختلف معيار التفاضل فيها عند مختلف الأجناس والشعوب ، وربما فضل الزنجى الرجل الأشقر فى بعض تقاطيعه أو خواصه ، وربما فضل المغولى الأصفر القصير باقى الأجناس بدقة شفاهه وحمرتها ، وهكذا . ولا يحاول لويس براون بأى حال أن يزعم أن لليهود تفوقاً خاصاً ، ولكنه

يقول فقط إن الجمهور الرفيع لم يترك باباً من أبواب الاضطهاد والمطاردة لسحق اليهود إلا ولجه ، وحينما ترك اليهودى لنفسه لم يزعج نراه نسياً منسياً ، ولكن حيث يواجهه الصراع والمطاردة نراه قوياً يغالب الحوادث

وقد أثار كتاب لويس براون فى الدوائر السياسية والاجتماعية كثيراً من الاهتمام والجدل ؛ وربما كان كتابه أول كتاب من نوعه ، يذكرنا بمؤلفات سلفه ومواطنه الكاتب والفيلسوف اليهودى الأكبر « مكس نردو » الذى لفت أنظار العالم منذ ثلث قرن بقوة جدله فى نقض أصول المدنية الحاضرة وأكاذيبها الاجتماعية والجنسية والسياسية

تمثال لحنه بافلوفا

من أنباء لندن أنه سيقام فى إحدى حدائقها تمثال بديع للراقصة الروسية الشهيرة حنه بافلوفا ، وقد أوصت بصنع هذا التمثال لجنة من محبي الفنون فى لندن حيث عاشت الراقصة الشهيرة حيناً من الدهر ؛ وعهد بصنعه إلى المثال السويدى الكبير كارل ميلس ، وستبلغ نفقاته ثلاثين ألف جنيه ؛ وتقرر أن يقام فى بستان ريجنت فى حديقة الورد ، وهى تقع إلى جانب بركة البجع ، وهو الطير الذى أوحت حركاته إلى بافلوفا بأشهر وأروع رقصاتها المسماة « رقصة البجع » . وتعول اللجنة على جمع المال المطلوب من إيراد « فلم » يمثل حياة بافلوفا فى طائفة من أبدع رقصاتها ومنها « رقصة البجعة المحتضرة » ؛ وقد أخذت هذه المناظر قبل وفاة بافلوفا بقليل واشترك فيها مع الفنانة الشهيرة بعض كبار الراقصين الذين عملوا معها

وتمثل حياة بافلوفا وحدها طوراً من أعظم أطوار الفن الراقص ؛ وقد ولدت هذه الراقصة المبدعة فى بتروجراد فى سنة ١٨٨٥ ، وتعلمت الرقص فى بعض مسارحها ، ولم تبلغ العاشرة من عمرها حتى ذاعت شهرتها وتقدمت فى سبيل المجد والرياسة الفنية بسرعة مدهشة ؛ وكانت فنانة رائعة الابتكار ، وعلى يدها دخلت أوضاع « الباليه » الراقصة فى طور جديد وبلغت ذروتها من الافتنان والروعة . وكان الفن لديها وحياً وسمواً . وقد طافت عواصم العالم الكبرى مثل لندن وبرلين وباريس ونيويورك ولقيت فيها جميعاً فوزاً باهراً . وقدمت إلى مصر سنة ١٩٢٩ ففتنت المجتمع المصرى برائع فنها ولا سيما برقصة « البجعة المحتضرة » وتوفيت سنة ١٩٣١ فى مدينة لاهاى وطويت بوفاتها صفحة من أروع صفحات الفن الحديث

أرض السعداء

يوجد بين جزائر المحيط الهادى التابعة لانكلترا جزيرة صغيرة يصح أن تسمى بالجزيرة السعيدة . وتسمى هذه الجزيرة « جزيرة تونجا » وهى إحدى مجموعة جزائر « الأحباب » التى وقف بها الرحالة الشهير « كابتن كوك » أثناء طوافه فى أواخر القرن الثامن عشر بهذه المياه الخطرة . وأمير هذه الجزيرة زنجى يسمى البرنس « توفا آهو » وهو شاب فى الثامنة عشرة ولكنه طويل القامة جداً ، وهو يدرس الحقوق فى ملبورن ووجه الرضى والسعادة فى « تونجا » هو أنه ليس بها فقير ولا معوز ولا تدفع فيها ضرائب . وكل فرد من سكانها يبلغ السادسة عشرة يعطى أرضاً مساحتها نحو ثمانية فدادين ومسكناً قروياً، أو بعبارة أخرى تهيأ له كل أسباب العيش والرخاء

وقد استبدلت ضريبة الدخل بجعل سنوى قدره جنيهان يدفعه كل ذكر بالغ ؛ ولكنه ليس بضريبة فى الواقع لأنه يخول له مقابله أن يعالج مجاناً هو وأفراد عائلته فى مستشفى الحكومة ؛ ومعظم إيراد الحكومة يجبى من الجمارك وضريبة السيارات . ويكفل التعليم الحر بوجود المدارس الابتدائية وهى كلها مجانية ؛ وهناك كليتان صغيرتان . ومن مفاخر هذه الجزيرة النائية التى لا يجاوز سكانها ثلاثين ألف نفس أن ليس بها أمى واحد

الكتب

رسالة الحج

تأليف الأستاذ ح . ع . (دبلوماسى)

للأستاذ عبد الحميد العبادى

الأستاذ ح . ع . من خيرة رجالنا العاملين فى السلك الدبلوماسى ، مثل مصر ولا يزال يمثلها فى ممالك الشرق العربى ، فأفاد بذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية فى الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب ، وساستهم ، وأدبائهم ، وعلمائهم . وإنى لسعيد بأن أقول إنى اطلعت على ذلك بنفسى فى بعض تجوالى فى ربوع الشرقين الأدنى والأوسط

وقد واتى الحظ الأستاذ ح . ع . وساعفته ظروف عمله الدبلوماسى فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس فى أثنائها على هدى التاريخ وفى ضوء الواقع حال ذلك النظام الاسلامى الجليل المعدود خامس أركان الاسلام . ثم صاغ خلاصة دراسته فى رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الاسلام وبامكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن « الحج » ، ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية فى هذا العام

***

ينعى الأستاذ على المسلمين فى صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد على مر الزمن من الناحية العملية الحكمة التى قصد اليها الشارع من تشريعه . فهو يقول : « أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وحادثت كبارهم وذوى العقول منهم ، ودرست بفكرى وعينى وقلبى ، فكنت أرى وأفكر وأبحث ، وكنت أستلهم كل شىء حكمته ، وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لى أخيراً أن الحج لا يزال مجهولاً فى حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملاً فردياً محضاً ، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر . . . »

***

والرسالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، أولها فى أن الاسلام دين انسانى عام ، وأنه دين المساواة التى تظهر فى شكلها المادى المحسوس فى الحج ، وأن الكعبة من العالم الاسلامى بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه اليها فى الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثانى يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذى دعا اليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفى مزايا نظام الكشافة ويربى عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الاسلامى فى أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمرا عاماً لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة اسلامية على أن تُحج كلَّ عام نفرا من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأى والمشورة ؛ والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم »

على أن الجديد الممتع من هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التى عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التى خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشرى فيها ؛ فالأستاذ يتناولها منسكا منسكا : من الأحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعى بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمى الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدْى ، إلى استلام الحجر الأسود والاهلال بالتلبية ، فاذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير

***

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الاسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجياً الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج

وإن الذى يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين : أن تجد دعوة الأستاذ ح . ع . من أولى الرأى فى العالم الأسلامى آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟

عبد الحميد العبادى

3 me Année, No. 122.

Lundi-4-11-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٤ نوفبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

فى الجمـــال ...

بحث تحليلى نهديه الى الآنسة شرلوت
واصف ملكة الجمال العالمى فى هذا العام

ما هو الجميل ؟ الجميل فى اجماع الناس هو ما ينشئ فى الذهن فكرة سامية عن الشيء فى الطبيعة ، أو عن الموضوع فى الفن ، فيبعث فى نفسك عاطفة الاعجاب به . ولكن ما هى على التحديد الصفات التى تبعث اللذة وتثير الاعجاب فى بدائع الفن أو فى روائع الطبيعة ؟ ذلك ما نحاول شرحه فى شيء من الافاضة

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس ؛ ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما فى ذلك شك . ففى أى الجهات إذن تتعرف النفس والعاطفه والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هى القوة ، والفِرَة [1] ، والذكاء ؛ والمراد بالقوة شدة العمل وحدته ، وبالفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال فى أن الحواس ليست كلها أهلا لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما

---

(١) الفرة : مصدر وفر الشيء اذا كثر واتسع وتم وكمل

الانفعال الذى يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس ، فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ، لأن الطعوم والروائح ، والملوسة والخشونة ، والصلابة واللدونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة قد توقظ فى النفس ذكرى خابية أو عاطفة غافية ، ولكنها لا تنتج واحدة منهما . وإذا كان البصر آلة الجمال الحسى أو المادى ، والسمع آلة الجمال العقلى والخلقى ، فان فى هاتين الحاستين الدليل على خصائص الجمال الثلاث ، ذلك لأن أجمل مايؤثر فى العين والأذن هو مابلغ من القوة والفرة والذكاء أسمى غاية ؛ وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيهما بمقدار مايشتمل عليه من هذه العناصر ؛ وكلما نقص عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته .

ما الذى يجمل لعملى النفس وهما الفكر والارادة هذه الصفة التى تملك اللب فى العبقرية والفضيلة ؟ لا شئ غير القوة والفرة والذكاء ، سواء أكان ماتعجب به براعة الصنع أم مهارة الصانع . إن الطيبة فى ذاتها فضيلة ، ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة ؛ فسقراط فى الحكماء ، وعمر فى الخلفاء ، مثلان سائران فى جمال الخلق ، ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبىء عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة . إذا صنعت المعروف فى صديقك وعدوك كان الفعل كريماً فى الحالين ، ولكنه فى الصديق عادى لأنه بسيط سهل ، وفى العدو ممتاز لأنه عظيم شاق ؛ وفى هذه القوة التى تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرئ القيس فضيلة ، ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية فى جمال الوفاء ؛ وإن تنفيذ بروتوس عقوبة الموت على أحد المجرمين عادة مألوفة ، ولكن تنفيذه إياها على بنيه الذين ائتمروا روما مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبى بكر مع ابن الزبير لا يقلان جمالاً عن ذينك الموقفين . وسر الجمال فى كل ذلك إنما هو تلك القوة الخارقة فى تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة

***

كذلك الحال فى أعمال الذهن ؛ فحل معضلة فى الهندسة ، واكتشاف عظيم فى الطبيعة ، واختراع عجيب فى الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع فى التشريع ، وقطعة قوية التفكير والتصوير فى الأدب ، كلها أعمال جميلة ؛ لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة فى التفكير ؛ وشعور المرء بالجمال فيها ، موقوف على ادراك القوة التى تقتضيها ؛ فالعامى أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لا يجدان فيهما من الجمال مايجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة

أما فى البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والفرة ؛ فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ؛ ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذى يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالاعجاب ، وذلك الاعجاب الذى نحسه هو عاطفة الجمال

***

وشأن الجمال فى المادة لا يختلف عن شأنه فى الفكر والعاطفة ؛ فانك إذا رحت تبحث فى الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة ، أو الفرة ، أو الذكاء . ففى الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففى جمال الأسد القوة ، وفى جمال الطاووس الفرة ، وفى جمال الانسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الانسان فى نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة (١) فى تهيئته وتنقيفه ؛ وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها . فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل فى الزوجين ، وتباين مقياس الجمال فى الجنسين . أرادت من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمى زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضى تلك الارادة : تركيب وثيق محكم تنم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أى صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف فى الانسان مزايا الجمال الذكر ؛ فاذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهى تكونه عرفت ما تفعل ، وفعلت ماتريد

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

(١) نريد بالطبيعة مايقابل الفن ؛ والفن صنع الانسان كما أن الطبيعة صنع الله

فوق الآدميـــة

الاسراء والمعراج

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أعجب ما اتفق لى أنى فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقله فتعسَّرَ علىَّ وصُرِفتُ عنه بألم شديدٍ اعترانى ونالتني منه ثـقْـلةٌ فى الدماغ (١) ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابةَ ، فاذا قلمى ينبعث بهذه الكلمات :

كيف يَستَوْطِيءُ المسلمون العجزَ ، وفى أول دينهم تسخيرُ الطبيعة ؟

كيف يَستَمْهِدون الراحةَ ، وفى صدر تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟

كيف يَركَنُونَ إلى الجهل ، وأولُ أمرهم آخرُ غايات العلم ؟

كيف لا يحملون النورَ للعالَم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانىُّ الأعظم ؟

***

قصة الاسراء والمعراج هى من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا النجم الانسانىُّ العظيم ، وهذا النور المتجسِّد لهداية العالم فى حَيرة ظُلماته النفسية ؛ فان سماءَ الانسان تُظلم وتُضيء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله تعالى قد خلق للعالم الأرضى شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل انسان أن يصنع لنفسه شمسَ قلبه وغمامَها وسحائبها وما تُسفِرُ به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمى القرآن نورا لعمل آدابه فى النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم » ، وكان أثر الايمان والتقوى فى تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله للمؤمنين نورا يمشون به

ولقد حار المفسرون فى حكمة ذكر «الليل» فى آية «الاسراء» من قوله تعالى : « سُبحانَ الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركْنا حوله لنُريه من آياتنا» . فان السُّرى فى لغة العرب لا يكون إلا ليلا ؛ والحكمة هى الاشارة إلى أن القصة قصةُ النجم الانسانى العظيم الذى تحول من انسانيته إلى نوره السماوى فى هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبةَ أن آيات « المعراج » لم تجئْ إلا فى سورة « والنجم »

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارةٌ إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون فى نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية . فاذا قيل إن نجما دار فى السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التى تعجز الحساب ، فهل فى ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظرٌ أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يسبِّح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التى يراها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأنا ما يكاد ينقضى عجبى من قوله تعالى : «لنُريه من آياتنا» مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يخيِّل اليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فانها بهذه العبارة نصٌّ على اشراف النبى صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس مما مرجعُه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ، بخلاف ما لو كانت العبارة (ليرى من آياتنا) فان هذا يجعله لنفسه فى حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ويتطرق اليه الاعتراض ولا تكون ثمَّ معجزة . وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائى من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله مُنزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نجما إنسانياً فى نوره فان يأتى هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة فى الدنيا لمثل حالتها فى الأخرى ؛ فهو فى هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقل الآن : أيُعترضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع فى طيارة . . . ؟

ومن ثمَّ كان الانسان إذا سما درجةً واحدةً فى ثبات قواه الروحية ، سما بها درجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعانى التى تسخِّر غيره من الناس ، ونشأت له نواميسُ أخلاقيةٌ غير النواميس التى تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيءِ من

---

(١) لما اعترانى هذا كتبت للأستاذ الزيات أخبره به ليعلم أن المقال سيتأخر عن موعده

الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه . فالنارُ مثلاً إذا هي تضرّمت أوجدت الاحراق فيا يحترق ، فان وضع فيها مالا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلُها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة ، وبهذا يقال إنها خرقت العادة ؛ ومن النور نورٌ لا يشفُّ له غيرُ الهواء ، ومنه أشعة (رنتجن) التي تشف لها الجدرانُ والحجب ؛ فهذه معجزة في ذاك

* * *

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسانٌ آخر بنواميسَ تجعله أقربَ إلى الملائكة في روحانيتها ؛ وما ينزل إنسانُه الظاهرُ من الانسان الباطن فيه إلا منزلةَ من يتلقى ممن يُعطى . فذاك الباطنُ هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا ، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمالُ في المثل الانساني الأعلى ، ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تغيره ولا تعجزه

فحقيقةُ النبوَّة أنها قوةٌ من الوجود في انسان مختار جاءت تصلح الوجود الانسانيَّ به لتُقرَّ في هذه الحيوانية المهذَّبة مثلها الأعلى ، بدلالتها على طريقها النفسيّ مع طريقها الطبيعي ؛ فيكون مع الانحطاط الرقيّ ، ومع النقص الكمال ، ومع حكم الغريزة التحكم في الغريزة ، ومع الظلمة المادية الاشراقُ الروحاني

وما المعجزات إلا شأنُ تلك القوة الباطنة لا شأنُ إنسانها الظاهر . ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري ؟ وهل ينكر اليوم أحد شأنَ هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب ، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد ؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان ؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة ، فتطغى عليها فتصبح الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها ، وعلى نحو من ذلك يتصلُ الرجل الروحانيُّ بذاته الباطنة ، فيوقع شخصه الظاهر في الاستهواء ، فينكشف له الوجود ويبصر ما يقع على البعد ويرى ما هو آت قبل أن يأتي . وما الكون في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب : قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي

* * *

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها . وكل ذلك أول البرهان الذي سَيُلْزِمُ الفم فيضطره في يوم ما إلى الاقرار بصحة الاسراء والمعراج . .

ونحن قبل أن نبدي رأينا في القصة نُلمُّ بها إلمامةً موجزة ؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير فجاءت فنوناً وأنواعاً من طرق شتّى حتى جمعها بعضهم في جزءين[1] ، وما تحتمل كل ذلك ولا بعضه ؛ ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر ، متى فارت فَوْرَتها استحدثتْ من كل عبارة عبارة أخرى ، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة ، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يُمَدُّ من يمينه ويساره

ولا يرون بذلك بأساً فانهم يَشُدُّون به الرأي ويضاعفون منه اليقين ، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى ، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه فلا حَرَجَ أن يؤيد القولُ بعضُه بعضاً باجتهاد في عبارة ، واستنباط من أخرى ، وزيادة في الثالثة — مما هو بسبيل منها ، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية ؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة ، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف . والقَصصُ الديني في هذه اللغة العربية فنّ كامل قائم بنفسه لا يُبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب

هذا في متن القصة ؛ أما في واقعها فقد اختلفوا اختلافاً آخر ؛ هل كان الاسراء والمعراج يقظةً أو مناماً ، وبالروح وحدها أو بالروح والجسم معاً ؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشيء من ذلك فلم يعيّن لهم وجهاً من هذه الأوجه . والحكمة في ذلك

(١) قال الذهبي : إن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الاسراء في جزءين

أن عقولهم لم تكن تحتمل الادراك العلمى الذى أساسه الكهرباء والأثير . .

والخلاصة التى تتأدّى من القصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً فأتاه جبريل فأخرجه من المسجد فأركبه البُراق فأتى بيت المقدس ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عرج به إلى السموات فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وصعد فى سماء بعد سماء إلى سِدْرة المنتهى ، فغَشِيَها من أمر الله ما غشيها ، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهر الجمال الأزلى ، ثم زُجّ به فى النور فأوحى الله إليه ما أوحى

أما وَشى القصة وطرازُها فبابٌ عجيب من الرموز الفلسفية الانسانية التى يُرمز بها إلى تجسيد الأعمال فى هذه الحياة ، تكون تعباً وتقع فائدة ، أو تُلتمس منفعة وشهوة وتقع مضرّةً وحماقة ، ثم تفنى من هذه وتلك الصُّور الزمنيةُ التى توهّمها أصحابها ، وتخلد الصور الأبدية التى جاءت بها حقائقها

ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاءنى جبريل باناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل أخذت الفِطرة . وإنه مرّ على قوم يزرعون ويحصدون فى كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعَفُ لهم الحسنة سبعمائة ضِعف . ثم أتى على قوم تُرْضَخُ رءوسُهم بالصخر ، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفتَّر عنهم من ذلك شىء . فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيج فى قِدر ، ولحمٌ آخر نِىْءٌ فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيْء الخبيث ويَدَعون النضيج . فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيِّب فيأتى امرأة خبيثة ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتى رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُزمةً عظيمةً لا يستطيع حملَها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم رأى نساءً معلّقاتٍ بثديّهن ، فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتى أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم

* * *

ونحن على الرأى الذى عليه جمهور العلماء من أن الاسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذى سنبينه . ويثبت ذلك قوله تعالى فى سورة (والنجم) : « إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلا يكون البصر يزيغ ويطغى إلا فى الجسم ولا ينتفى عنه ذلك إلا وهو فى الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب فى قوله (وما طغى) ؛ فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شىء ، إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التى لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة ، ولا طغى بكونه مطلق الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أى كان حقيقةً كونيةً فى غير حالتها الأرضية الناقصة

والذين قالوا إن الاسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبى صلى الله عليه وسلم ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس » وقد خلط المفسرون فى هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » وهى التى تكون مناماً ، لنفى تأثير الحواس على الرائى واثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً فليس نائماً كالنائم ولا مستيقظاً كالمستيقظ

وفى أساس القصة جبريل والبراق ؛ وهما القوة الملائكية ، والقوة الطبيعية ، أو الروح الملائكى والروح الطبيعى ، ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً إذ لا يأتى للعرب أن يفهموا ما يراد منه وعندنا أنه سمى البراق من البرق ، وما البرق إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه . فتلك قوة كهربائية متى نَبَضَت جمعت أول العالم بآخره . وهذه هى الحكمة فى أن آية الاسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شىء إذلم يكن محمولاً إلا على الروح الأثير

وما دامت القوةُ الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له صلى الله عليه وسلم فلا معنى لأن يكون ذلك للروح وحدها ، بل اجتماعهما معاً فى القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان فى تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحول فى صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة ، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواس ولا أحكام المادة

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية فى بعض

الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّل طيُّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث في استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ، ومما كان يصنعه « لاهوديني » الأمريكي إذ كانوا يغلّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه في السجون المحصّنة يقوم عليها الحراس وتُمسك فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه في بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة ردٌّ عليه ، ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على البصر

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك في أساس قصة الاسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمي ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

***

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضيء كلما سما الانسان بروحه ، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها ، وهي من ناحية النبي صلى الله عليه وسلم قصةٌ تصفه بمظهره الكوني في عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة في ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هي كالدرس في أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماويٌّ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمالَ الخير ، وتجسُّد الأعمال الانسانية في صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتعقُّد الأخيلة الذي هو أساس البلاء على الروح

ومتى استنار القلبُ كان حياً في صاحبه وكان حياً في الوجود كله . ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياةٌ هي الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هي الرحمةُ والحب ما

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى خ . خ . د : من أجلك وصفت حتى أنا في مقالات (الجمال البائس) وفي السنة الماضية كتبت مقالة (سمو الحب) وهي في الرسالة فارجع اليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه المقالات وتدبرتها فشكه الى أنصفك منه على شرط أن تشكو الى البوليس تلك المرأة التي يظهر لك بوجهها .... كما يؤخذ من كتابك الرافعي

١ - مدينة الزهراء

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين في بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية في اسبانيا تعني بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة في ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً في نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التي غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التي عرفها التاريخ ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم في تاريخ الأندلس بدور ذي شأن ، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه في الوقت الذي أكملت فيه الزهراء في عهد الحكم المستنصر ، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدي في تاريخ الاسلام وتاريخ الحضارة الاسلامية أعظم دور ؛ تلك هي القاهرة المعزية التي أخذت تتفتح عظمتها وبهاؤها في نفس الوقت الذي ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية في الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية اسلامية في الشرق أو في مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبني أمية ، وأنشأ المعتصم سامرّا لتكون منزلاً له ولعقبه من بني العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية ؛ وفي الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بني أمية بالأندلس ضاحية ملوكية في قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطعت كل من هذه القواعد

الملوكية الاسلامية حيناً من الدهر ، ولكنها اختفت جميعاً من صفحة الوجود ، إلا القاهرة فانها استحالت إلى عاصمة الاسلام في مصر ، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة ، تحمل حتى اليوم عمرها الألفي أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن الغراء ضخامة وفخامة وبهاء

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الاسلام في الأندلس ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد ، منافستها في الشرق ، بهاء وفخامة ؛ ولكن قرطبة كانت بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق عما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والرياض الشاسعة ؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه في الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية رائعة ، فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولانشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين فأوحى اليه بانشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته « الزهراء » ؛ وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيرا فأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت اليه « الزهراء » بأن ينشىء بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها [١] . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكى رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ

(١) نفح الطيب للمقرى (مصر) ج ١ ص ٢٤٥

والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هـذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ... ملك محاه حوادث الأزمان

إن البناء إذا تعاظم شأنه ... أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها في سفح جبل يسمى جبل العروس [١] ؛ وكان البـدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر الى ولده وولى عهده الحكم بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة [٢] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية [٣] ، وجلب اليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المريه وريه ، ومن قرطاجنة افريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية [٤] ؛ وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعني مدى خمسة وعشرين وعاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها في عهـد الحكم [٥] وابتنى الناصر في حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً في تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمى بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة [٦] ؛

(١) نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومه) ص ١٩٣ — والمسالك والممالك لابن حوقل (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

وزود الناصر مقامه فى قصر الزهراء وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذى أهدى اليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهى تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها الى الحوض (١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التى تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يبن فى أمم الاسلام مثله فى الروعة والانافة والبهاء (٢)

وأنشأ الناصر فى الزهراء أيضاً مسجداً عظيما تم بناؤه فى ثمانية وأربعين يوماً ، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية فى الفخامة والجمال (٣) ، وانشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلى (٤) ؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الادارة القوية المدنية والعسكرية

وفى إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات الطائلة ما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذى بلغته الدولة الأموية بالأندلس من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا فى ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعنى خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التى لا تحصى ؛ وقيل لنا إن الناصر خلف وقت وفاته فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث ، ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦
(٢) « « ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥
(٣) « « ج ١ ص ٢٦٤
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وثلث يدخر للطوارئ (١) ، ولم يتردد المؤرخ الحديث فى قبول هذه الأرقام حتى أن دوزى ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته فى بيت المال عشرين مليوناً من الذهب (٢) ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادى الذى زار قرطبة والزهراء فى ذلك العصر إن الناصر وبنى حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغنى ملوك العالم فى ذلك العصر (٣) ؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها فى عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع باعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة ؟

واستمر العمل فى منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعنى حتى وفاته فى سنة خمسين وثلثمائة ؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة (٤) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة ، مذ تم بناء القصر والمسجد ؛ وقد كان ذلك فيما يظهر فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ففى شعبان من هذا العام تم بناء المسجد ، وأقيمت به أول جمعة رسمية ؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة ٣٢٧ هـ) ، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الاسلامية بالأندلس

للبحث بقية
(النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧
(٢) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne II p. 173
(٣) ابن حوقل فى المسالك والممالك ص ٧٧
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤

بين المعجزة والعلم

للأستاذ زكى نجيب محمود

أخى س :

. . . . لم أكن أتوقع من صروف الدهر مهما أسرفت فى عبثها ، أن يخرج منك ، وأنت القديس المتبتل فى يفوعك ، زنديقاً يكفر بما كان يؤمن به قلبك ويدين ! ! حتى جاءتنى هذه الرسالة منك ، ففضضتها وأجلت فيها البصر سريعاً ، فاذا بصفاتك تختفى وتتنكر ، وإذا بك تبدو لعين صديقك انساناً غريباً يشك بعد يقين ، وينكر بعد إيمان ! لقد مضيت فى كتابك لى ترفض كل ما يزعمه الناس من المعجزات وخوارق الطبيعة ، وتلوح فى كل سطر بالعلم وقوانين العلم ، وتهتز فى كل سطر بالفلسفة ونتائج الفلسفة ؛ ثم ختمت الرسالة بهذه العبارة أخذتها من كتاب سبينوزا « فى الدين والدولة » : « يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان بوضوح إلا بالحوادث الخارقة التى تناقض الفكرة التى كونوها عن الطبيعة . . . إنهم يظنون أن الله يكون مُعَطَّلاً مادامت الطبيعة تعمل فى نظامها المعهود ، وعكس ذلك صحيح ، أى أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية يبطل عملها ما دام الله فعَّالاً ؛ وهم بذلك يتخيلون قوتين منفصلة إحداها عن الأخرى : قوة الله وقوة الطبيعة ؛ والواقع أن الله وقوانين الطبيعة شىء واحد » . ولقد سألتنى بعد ذلك قائلاً : « ما حاجتك إلى التمسك بالمعجزات وخوارق الطبيعة مادام العلم يفسر لنا كل شىء بقانون ؟ ! »

وإنى لأستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بما انتهى اليه هذا العلم نفسه ، من أن الطبيعة المادية لا تسير وفق قانون صارم كما يذهب بك الظن ، بل إنها قد تغير سلوكها بما لا يمكن التنبؤ به ، كالكائنات الحية سواء بسواء ؛ وإن هنالك بين أساطين العلم من يزعم أنه ليس فى الطبيعة كلها ذرة واحدة تخلو من الحياة أو ما يشبه الحياة ، وكل الفرق بين حياتها وحياة الانسان هو فى الدرجة لا فى النوع ، فكما أننى لا أستطيع أن أتنبأ بما أنت فاعله غداً ، كذلك لا يستطيع العلم أن يقطع جازماً بما ستؤول اليه هذه الذرة أو تلك ، لأنها ياسيدى تتمتع بشىء مما تتمتع به أنت من حركة وإرادة ، وليست مجرد آلة صماء فى يد القانون ! ! ولكن يجب أن أسارع إلى القول بأنه وإن تكن الذرة الفردية على شىء من الحياة التى قد تغير فى سلوكها ، فانها فى مجموعها أقرب ما تكون إلى النظام الدقيق فى سيرها ، كما أن الانسان الفرد حُرٌّ فى تصرفه إلى حد بعيد ، ولكنه فى المجموع يسير وفق أسس وقواعد لا تكاد تعرف الشذوذ

نعم أستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بهذه الحقيقة العلمية التى تعترف للطبيعة بامكان التغير فى بعض جوانبها ، فذلك وحده كفيل بتعليل أى تبديل فى نظام الكون المعهود ، ولكنى سأفرض معك أن قوانين الطبيعة يستحيل عليها الخطأ ، وأن المادة لا تملك لنفسها تغييراً ولا تبديلاً عما رسمه لها قانونها الأعلى ، فمن ذا الذى زعم لك أن المعجزة كسر لقانون الطبيعة ، وإنه لذلك يجب اطراحها ونبذها ؟ نحن نسلم معك أن قانون الجاذبية صارم لا يقبل الشذوذ ، وأن التفاحة إذا انفصلت عن فرعها سقطت من فورها على الأرض بفعل قانون الجاذبية هذا ، ولكن هب يداً امتدت إلى التفاحة أثناء طريقها إلى الأرض فلقفتها فحالت بذلك بينها وبين الأرض ، أيكون ذلك كسراً للقانون ؟ كلا ! القانون لا يزال قوياً سليما ، غير أن إرادة بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل . . . أإذا تركت أقلامك وكتبك مبعثرة فى أرض غرفتك ثم عدت بعد حين فوجدتها صعدت إلى ظهر المكتب صفوفاً منظمة ، أفتقول إن قانون الجاذبية قد انقلب رأساً على عقب لأن الكتب والأقلام قد صعدت إلى أعلى بدل أن تستقر على الأرض منجذبة بها ؟ أم أنت جازم فى مثل هذه الحالة بأن شخصاً بشرياً قد تدخل فى الأمر بارادته وحال بين قانون الجاذبية وبين تنفيذه حيناً ، فأمكن للكتب بذلك أن تفلت من يده ، ولكن القانون لا يزال قائماً لم يخدش ذلك من قوته وشموله ؟ ! لا أحسبك مرتاباً فى صحة هذا القول ، فأنت موافق ولا شك أن الارادة البشرية قد تستطيع أن تتوسط بين القانون وبين تطبيقه فتعطله دون أن تبطله ، نعم إنك موافق على ذلك ،

ولكني لو حورت العبارة قليلاً سائراً بها نحو الأقوم والأصح فستغضب للعلم وكرامة العلم ؛ لو زعمت لك أن لله إرادة حرة كهذه التي للانسان ، يستطيع بها أن يعطل قانون الطبيعة حيناً قد يقصر أو يطول ولكنه يظل قائماً معمولاً به لا يصيبه عطب ولا خسارة ، كان ذلك الزعم مني في رأيك جهلاً وحماقة ، يارعاك الله ! أفتستطيع أن تحدثني بما يبرر عندك أن يكون للانسان ما ليس لله ؟ ! !

معذرة ، ياصديق ، فسأقص عليك حديثاً عن كلبي ، وللحديث صلة بموضوعنا ، فقد وضعت كتاباً بالأمس على مقعد إلى جانبي ، فجاء الكلب يتحسس ويتجسس ويشم الكتاب ، وأظنه قد حسبه قطعة من الجماد لا خير فيها ، فترك الكلبُ الكتاب وانصرف ؛ وإذا فرضنا أن التفاهم مع الكلب ممكن ، ثم جئت تقسم له أن في الكتاب ما ليس يدرك بالشم واللمس ، وأن فيه معني إذا كان لا يدركه هو فليس عجزه دليلاً على عدم وجوده ، نفر وسخر وأكد لك أن حواسه مقياس للحقيقة لا يخطيء . . . وإني لأحسب الكون ياصديقي كتاباً مفتوحاً فيه من المعاني السامية ما يمكن فهمه وإدراكه لذوي البصيرة السليمة . ولكني أؤكد لك أن هنالك طائفة من الناس ستمد أيديها وأنوفها إلى جوانب الطبيعة تتحسسها ، ثم تجزم في يقين لا يعرف الشك ولا التردد بأن هذه الطبيعة جماد في جماد يسيره هذا وهذا من القوانين في طريق مرسومة معلومة لن تشذ فيها خارقة ولا معجزة . . . وأعجب العجب أن تكون هذه الطريقة الكلبية علماً ، وأن يكون كل ماعداها تخريفاً وجهلاً

نشدتك الله إلا حدثتني كيف جاز لك أن تقطع أن ليس في الكون من الحقائق ما تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكه ؟ ولم لا يكون في هذا الكون الفسيح من هو أكبر منا عقلاً وأحد ذكاء فيستطيع أن يقرأ في كتاب الكون ما لا نستطيعه ؟ ترى لو أتانا الله حاسة سادسة وسابعة وثامنة ، فماذا عسانا نعرف بتلك الحواس الزائدة ، أم تظل أبواباً مغلقة لأن العلم قد نفد ؟ !

تعال معي إلى الكون نحتكم إلى ظواهره لنرى هل استطاع العلم أن يعللها جميعاً ، أم أن هناك ألوفاً وألوفاً يقف أمامها العلم مكتوف الأيدي ولا يمكن فهمها إلا أن تكون « خوارق » فوق العلم وقوانينه . أم تُراك فاعلاً كما يفعل ذوو النزعة المادية الضيقة ، فتطأ بقدمك كل الظواهر التي تستعصي على العلم وتنكر وجودها حتى لا ينثلم العلم ولا ينخدش ، أو تطلب الينا أن نصبر وأن ننتظر حتى تتم للعلم قوته وفتوته فيشمل الكون كله بالتفسير والتعليل ؟ وفي الحق أن هذا السلاح الذي يشهره الماديون — سلاح التسويف والوعد بأن العلم سيتمكن في المستقبل مما لم يتمكن منه اليوم — يمكن استخدامه في كل حين ، فليس بيننا وبينهم موعد يبطل بعده التسويف ، ولكنها مماطلة متجددة لا تنقطع ولا تفرغ ؛ فاذا فرضنا أن رجلاً استطاع أن يحز رأسه ويحمله فوق يديه سائراً به في الطريق ، ثم سألت الماديين رأيهم في هذا أجابوك : اصبر فان الزمن كفيل للعلم أن يبرهن على هذه الظواهر وأشباهها ، فليس ذلك على العلم بعزيز . . . ولكن هل يتفق وروح العلم أن نلجأ إلى دليل غير موجود ؟ أم أنه أحجى وأقرب إلى الصواب أن نعلل الظواهر بالأدلة التي بين أيدينا ، حتى ولو تعارض ذلك مع آرائنا ؟ فماذا يمنع أن نفرض أن هنالك قوى غير مادية تفعل فعلها وتؤثر في مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات ؟

ولكن الماديين يركبون رؤوسهم ويحاولون أن يعللوا بقوانين العلم كل شيء ، فان عجزت أمهلونا إلى المستقبل القريب أو البعيد . والعجب أن لهؤلاء الماديين « شطحات » في التفكير تدعو إلى التأمل ، فأنت إذا سألتهم مثلاً كيف نشأت هذه الخلائق ؟ أجابوك : تسلسلت نوعاً عن نوع وجنساً عن جنس ، وأصلها كلها خلية واحدة ... حسن ! وكيف نشأت هذه الخلية الواحدة ؟ إنها تولدت بطريقة تلقائية آلية من الجماد ! فانظر اليهم كيف تجيز لهم عقولهم صدق هذا النبأ مع أنه على فرض أنه صحيح فقد حدث في ماض بعيد سحيق ، ولم يشهده شاهد ولا سجله مسجل ، ولكنهم مع ذلك يقبلونه راضين مختارين ؛ ثم إذا عرضنا عليهم خارقة من خوارق الطبيعة مما يقع على مرأى منا ومسمع ، أنكروها في حمق مع أنها حاضرة بين أيديهم وليست بالماضي البعيد ، وهي مشاهدة ومسجلة فكانت أجدر بالتسليم والقبول من تلك « الخارقة » البعيدة — ونسميها خارقة لأنه ليس من قوانين الطبيعة فيما نظن انبثاث الحياة من الجماد ! ولكن القوم يختارون من الآراء والعقائد ما يتفق مع مذهبهم ، كما يتخير النساء أزياءهن لكي تلائم ألوانهن وأجسامهن

هب يا صديقى جماعة قد ارتطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها ، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم ، فبماذا يعللون هذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين ؟ أظن هذا منطقاً لا صعوبة فيه ولا التواء : لكل أثر مؤثر ، فان رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً فى غير مكاننا . وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التى تسبح بنا فى الفضاء ، ثم ننظر فاذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها فى كل حين ليحدث هذه الآثار

ولست أدرى ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله ، وأن تُرجع إلى القوة التى فوق الطبيعة كلَّ ما تصادف من خوارق ومعجزات ؟ يقول الماديون إن إدخال « الله » فى مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح ، ويزعمون أن الانسان الأول كان يفسر كل شىء بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم ، فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة مّا ، أسقط هذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم ؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت العقيدة فى تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق ، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر « الظواهر » كلها بغير استثناء ؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد : هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقانونها ! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شىء بقوة الآلهة وحدها ، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس ! فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث ؟ كلا ، فكلاهما متعصب محدود الفكر ، ضيق النظر ، ولعمرى إن العالم المادىّ الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن !

لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن نتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد ، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نعدوه ، أعنى أنه لا ينبغى أن نحتم على أنفسنا أن نفسر كل شىء بكذا أو بكذا ؛ وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون فى السماء ويبحثون فى النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم ، فان ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه ! !

أردت يا أخى أن تكون حراً فى البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود ! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل

زكى نجيب محمود

٢ ـ منازل الفضل

دار على مبارك باشا

للأستاذ محمد محمود جلال

من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه فى الأذن ، ومنها ما يعجبك لمعنىً يشير اليه ؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين اعجاباً بشخصية قدّرت فى التاريخ دورها ؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع ، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جميل أردفته بالعرفان

ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل اعرابياً عن معنى « أذغاغ » فقال الاعرابى وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً : « أرى فيه يبساً وصلابة ، ولعله الحجر »

وليس للطفولة أن تسمو إلى شىء من ذلك البحث أو ذاك القياس ، وإنما يسبق فيها الاحساس المعرفة ، فما نظرت إلى شىء من ذلك يوم كان « شارع على مبارك باشا بالحلمية » أحب الشوارع الى سنة ١٩٠٨ ، فكنت أخصه بروحاتى وغدواتى ، وأختص « اليافطة » أول سيرى به بتجربة قدرتى على قراءة اليفط والخط المشبك

سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجماميز حيث مأمورية الأوقاف الآن ، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل ، ولا أجد اليوم تعليلا معقولاً لتفضيلى إلا بالصلة التى توجدها النشأة ، وقد نشأت فى الريف ، ومن أسرة فلاحة ، واسم على ومبارك

كثيرا الشيوع فى الفلاحين ، فلم يكن عجيباً أن يكون هذا الاسم أقرب إلى النفس وأسهل فى الحفظ من أسماء ندر أن نسمع بها « كسنجر الخازن » و « الأمير يوسف » وغيرهما

أجل لم يكن بذلك الشارع بائع (سودانى) ولا شوكولاته ، ولم تكن حوانيت الساندويتش انتشرت بعد ، حتى أرد التفضيل إلى تلك المغريات فى سن الطالب

وفى عام ١٩١١ أهدتنى الجمعية الخيرية الاسلامية مجموعة ثمينة من الكتب لنجاحى من الفرقة الثالثة فى الشهادة الابتدائية ، كان من توفيق الله أن ضمت بين دفتيها « تاريخ على مبارك باشا » ولن أنسى ما حييت غبطتى بهذا الكتاب ، وذكرت على التو شارع على مبارك باشا ، وقلت : إذن فهذا رجل له فى تاريخ البلاد شأن !

عكفت على القراءة مبتدئاً به ، وخفق قلبى حين وقفت فى أوله على نشأة « على مبارك » فصدق ظنى ، فهو فلاح وابن فلاح مثلى ، فلم أترك الكتاب حتى جئت على آخره ، وأعدت قراءته مرات حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب إذ ملئت اعجاباً بالرجل سميت المرحوم محمد شريف باشا حين كتبت عنه « رجل البرنامج » ، وليس اليوم أحق بأن يسمى « رجل الواجب » من المرحوم على مبارك باشا

رأى صديقى المرحوم محمد بك رمضان القاضى السابق بالمحاكم الأهلية حين زار (فينا) عقب الحرب أحد ضحاياها «جول» يزحف وقد بقيت له ساق واحدة وذراع واحدة ، وبيده الوحيدة مكنسة ينظف بها الرصيف ، فسأله عن قصته

قال جان : إنه كان يعمل فى التحاليل الكيميائية ، ويؤدى بذلك واجبه نحو بلاده وأسرته ، وانخرط فى سلك الجندية يؤدى واجبه نحو بلاده وأسرته ، فلما فقد ساقه وجد مجال الواجب فى عنابر الجيش يلف ويرتب بيديه ، ولما فقد إحدى اليدين وكانت الحرب فى نهايتها اشتغل كناساً ، فهو بعد لا يستريح ضميره أن يكون من العاطلين ، ومن بين اخوانه من هو أحق منه بالاعانة والاعاشة ، وليس أحب إلى نفسه من أن يقوم بالواجب ويعيش من أداء الواجب ، فليس فرق عنده بين المعمل والصفوف ، ولا بين العنابر وكنس الرصيف ! ! !

حيّاه صديقى عليه رحمة الله ، وكتب عنه مقالاً كاملاً يذيع نبل نفسه ويضرب به مثلاً لقومه

وكذلك كان على مبارك باشا ، فهو من نوابغ البعوث العلمية فى أول البعوث ، وهو المبرز بين أفراد بعثته ، وبلاده فى حاجة إلى أمثاله ، وفى حاجة أشد الحاحاً اليه ؛ ولكن لا زهو ولا صلف ولا استكانة ! فالحاجة اليه يراها نعمة الله تستوجب الشكر ، والعلم الذى يقدره الناس فيه يراه الثروة التى زكاتها البذل منها فى خير البلاد

ومن لم يجمّل فضله بتواضع يَبِنْ فضله عنه ويعطل من الفخر

كان على مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال يسيطر على أكبر الادارات صلة بحياة البلاد ومرافقها ، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التى طالما أحيت مواتاً ودرت أخلاف الرزق على الملايين وتركت اليباب مزارع وحقولاً ، فى أول عهد البلاد بزراعة منظمة ورى منظم

وبينا هو غارق فيما تمده اليوم أبهة المنصب ، ينقل لسبب أو لغير سبب ، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لاصلاح طابية وهو من خريجى المعاهد الحربية ، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر فى تلك الطابية لا يرى أمامه إلا أن يُعيدها كما يجب أن تمد تقديراً لأمانة العلم وقياماً بالواجب

ولى على مبارك باشا فى وقت ما وزارتين ، وجىء به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدى ليس أكثر من كبير مهندسين ، جاءت خطته وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات فى حسن الوضع والتنفيذ ؛ ولم يكن على مبارك باشا ذو الوزارتين غير على مبارك صاحب عيشة الخيام فى برارى البلاد يوطد أركان الدفاع عنها ، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب ، يضع من قطع الحديد وصلاً لبلاد الريف وقراه وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق ، فهو إنما يعيش لبلاده ، وإنما يخدم بلاده ، وإنما يخدمها حيث يوضع ، ويستثمر كفاءته فى أى مجال . طريقته واحدة ونظرته واحدة ، وهدفه واحد : الواجب

وإنك لترى اليوم من شبابنا من ينقل من وظيفة إلى أخرى دون أن يمس راتبه ودون أن تمس درجته ، فهو لا يكتفى بالشكوى والضجيج والالحاح حتى يسمم عمله الجديد آثار غضبه ويأسه

ولا يعيش إلا بخيال واحد وأمل واحد : أن يتغير العهد ويعود له ما كان فيه ، بينما يقاسى المحكومون ممن تتصل أحوالهم بعمله ألواناً من البطء فى شؤونهم وكثيراً من عنت لا ذنب لهم فيه

هذه الظاهرة وحدها من سيرة « على مبارك باشا » درس قيم فى الأخلاق وتراث زاخر ، وموعظة لهذا الجيل بالغة

* * *

أما عمله فى وزارة المعارف ففى كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر عميق ، كان لا ينى عن زيارة المدارس زيارة لا يسبقها إعلان ولا شىء من جلبة الرسميات ، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية فى معنى الرقابة وما يتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم

لكنها لم تقف عند ذلك الحد ، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب فى كل فرقة وفى أى مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة ، وطالما كان له جولات فى مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة فى الديوان سواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة

هكذا كان على مبارك باشا . فانظر إذن وتخيل ما تكون عليه دار أسعدها الله بسكنى رجل الواجب

كان عهده نادر المقاهى والسوامر والملاهى ؛ وكانت الدور العامرة سواء فى العواصم أو فى الريف تقوم بدورها فى صيانة الأخلاق وتكوين الجيل ، والعلماء وقت ذاك قليل ، وعلى مبارك بين القليل درة لامعة

دار كانت بالوافدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاماً مما ترى اليوم فى جامعة أو فى سينما ، لكل فريق دور ، والأدوار متعددة تنتهى بآخر السهرة من الليل لاختلاف أوقات الفضاء لصاحب الدار أو للوافدين

دار طالما عمرت بصالح الحديث وبعدت بنازليها عن اللغو ، فصفوة العلماء يبحثون ويباحثون ، وللأدباء فيها نصيب كبير ، وللطلاب النصيب الأوفر

تزين الدار مكتبة جامعة ، نصيب الرجل منها كنصيب أى واحد من قاصديه ، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها ، بل عليه أن يختار لكل ما يلائمه ، يبذل من الكتب والمراجع كما يفيض من محفوظه وتجاريبه ؛ وهل يستطيع على مبارك إلا أن يكون واحداً فى كل تصرفاته وفى روحاته وغدواته يقوده الواجب ، وسيرته التماس النفع للبلاد ؟

ولقد أعلم أن المرحوم « مصطفى كامل باشا » الذى ما زالت البلاد تعتز فى ظل ما خلف إلى اليوم ما أحسن المحسن وما أساء المسىء ، كان فى شطر كبير من تكوينه العلمى أكبر حسنات تلك الدار ، كما كان صاحب الدار أكثر الناس إعزازا للنجباء من أبناء البلاد ، فمن نزح إلى أوربا يكمل تعلمه ، لا ينى فى البحث عنه فى العطلة الصيفية وفى عودته إلى الوطن ، ولا تلبث الحلقات أن تعقد من أولئك الأنجاب فى تلك الدار التى ازدهرت وقتاً ما فازدهرت بها حديقة العرفان وكللت جبين البلاد

كانت مهمة الدار فى أفق العلم مهمة الجامعات ، فهى سيطرة رفيقة على تنظيم الثقافة وتوزيعها على قدر المختلفين اليها ، وكانت فيما يمس الذين أكملوا دراستهم واسطة العقد ، ووسيلة التعارف وأداة الوصل ، كما كانت للنازحين فى طلب العلم مرداً إلى عوارف الوطن ، وجميل المدرسة الأولى ، وخير مقرب بين الثقافتين ، وخير قوام على تطبيق المعلومات وتهذيبها وصبغها بما يناسب صبغة البلاد

أين تلك الدار ؟ وأين كعبة العلم ؟ ذهبت بها تصاريف الزمان وعفاها ما يشبه الجحود منا حكومة وشعباً ، ومثلها مثل قصر أم المحسنين فى حى الدوبارة ، قامت أحجاره يسخر منها « قصر العار » وخلا من كل شىء إلا من نسيج العنكبوت

بل إن للعلم عند الله كرامة ! فلئن ذهبت رسوم الدار بين الرياح من جنوب وشمال فقد أكرم الله نازلها وعامرها بهذا العفاء ، فلعلها لو عاشت لظهرت غريبة ولأزرى بها انصراف مؤلم عنها وشماتة من دور قامت على الاساءة للبلاد والسخرية مما ينفع الناس

يبحث إخواننا من أهل العراق عن « المثنى » ويقيمون باسمه نادياً ، فهلا نسمع من شباب الجامعة عزماً على البحث عن مكان الدار وتسمية ناديهم باسم « على مبارك »

إذا كان هذا عزيزاً على أنواء الزمن فهل نسمع فى القريب أنهم زينوا إحدى غرف النادى أو قاعات البحث بالجامعة باسم الراحل الكريم ؟ ! .

أيها الناس أكرموا السلف يكرمكم الخلف ، فكما يدين الفتى يدان ! ! !

الشيخ عطا

محمد محمود جلال
المحامى

فُجور القانون

للأستاذ جمال الزرقاني

أعجبت أشد الاعجاب بسلسلة مقالات « الجمال البائس » للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي وتتبعتها بمجلة (الرسالة) الغراء ؛ وأعجبت منها خاصة بتصويره للقانون في مقاله الأخير ورميه بالفجور وقوله على لسان الأستاذ « ح » : « فالحقيقة التي لا مراء فيها أن فكرة الفُجور فكرة قانونية ، وما دام القانون هو الذي أباحها بشروط ، فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط » . وهذه فكرة كانت ظاهرة خافية معاً ؛ فهي في القانون ولم ينتبه لها أحد ولا من رجال القانون . وقد صار من حق (الرسالة) وقرائها عليّ أن أكشف هذا المعنى كشفه القانوني ليعرف القراء كيف غُرس الفُجور غرساً في قوانيننا المصرية

لا مشاحة في أن قانون العقوبات قد اهتم لعقاب الجريمة بعد وقوعها أكثر من اهتمامه بالاحتياط لها والعمل على منعها قبل حدوثها ؛ فمهمته في الواقع لم تخرج عن بيان الأفعال التي يعتبرها المشرع جرائم ومقدار الجزاء على كل منها ، فهو يتضمن القواعد الموضوعية للقانون Règles de fonds ؛ بينما اهتم قانون تحقيق الجنايات « بالنظم والاجراءات » التي يجب أن تراعى لتنفيذ قانون العقوبات ، أي لمعرفة الجاني إذا ما وقعت الجريمة ، فهو يتضمن القواعد الشكلية Règles de forme ، فكلا القانونين اهتما كما قال الأستاذ الرافعي « لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها » وتركا مسألة الجريمة وبلا احتياط لمنعها قبل حدوثها للقوانين البوليسية وللمقوبات الأدبية ، وبهذا أضافا للخطأ خطأ آخر إذ أغفلا مسألة واقعة وهي أن العقوبة الأدبية قد أضعفتها عوامل المدنية الحاضرة ولم يبق في أكثر النفوس إلا سلطان القانون وحدوده . .

والسبب في تقصير القوانين الجنائية هذا التقصير الفاضح وخاصة في بلاد إسلامية تتخلق بأخلاق الفضيلة ، هو أجنبية هذه القوانين فانها فرنسية الأصل ، فرنسية الوضع ، فرنسية التطبيق ، فرنسية المرجع ، فمن ثمّ لا يؤدى إلا ما تؤديه القوانين الفرنسية في بلادها . أما حالات الشرق الخاصة وتقويم تقاليده وأخلاقه ، فهي عمياء عنه أو تخبط في عمياء ؛ ومن البلاء أن نقل هذه القوانين كان من عمل مشرعين أجانب بعيدين عن المحيط القومي فنقلوا نقلاً ممسوخاً أضاع كل فائدة ترجى وخاصة في صميم المسائل الأخلاقية الشرقية . بل إن القانون وقف من هذه الأخلاق موقف الجامد الغافل أو المشجع المستهتر بالأباحة

ولو أنا عرضنا قانون العقوبات ووضعنا بعض المواد الصماء تحت نظر الفاحص لوضحت فكرتنا ، فمن المعروف قانوناً أن حرية النيابة في « تحريك » الدعوى العمومية وفي استعمالها ليست مطلقة كل الاطلاق ، فهناك أحوال تحد من تلك الحرية ، ومنها ما يستوجب الاذن من صاحب الشأن كالحال في دعوى الزنا .

والزنا في القانون يختلف عنه في اللغة وفي الشريعة ، وبهذا اقتصر القانون على اعتباره كذلك إذا وقع من الزوج أو الزوجة وشريكيهما ، وأحاطه بشروط خاصة ضيقة اشترط فيها قيام الزوجية فعلاً أو حكماً . فالفعل الواقع من الزوج أو الزوجة أثناء الخطبة أو بعد الطلاق البائن لا يعتبر جريمة . وكأن القانون في نقله ذلك عن المواد ٣٣٦ — ٣٣٩ من قانون العقوبات الفرنسي قد أغفل الأخلاق الشرقية وتناساها وترك حبل الشيطان على غاربه ، بل هو قد شجع على ارتكاب هذا العمل من غير الزوج أو الزوجة بالشروط الخاصة بجريمتيهما ، بل أكثر من ذلك أتاح الفرصة للزوج أن يفعل فعلته النكراء في غير منزل الزوجية بلا عقوبة . وبذلك ترك الأسرة تتدهور بتدهور عائلها ووقف موقفاً غريباً في صدد المساعدة على التدهور الأخلاقي ، فجعل الحق في رفع دعوى الزنا للزوج وللزوجة وحدهما ، فاذا رضى أحدهما عن فعلة الآخر وقف القانون مكتوفاً لا يمكنه التحرك إزاء العمل على سقوط الأسر واختلاط الأنساب والقضاء على الأخلاق ، بل إنه يقف حائلاً دون الزوج نفسه في « تحريك الدعوى العمومية » إذا ما وقعت منه يمين الطلاق وهو في جنون غيظه من جريمة زوجته ، وبذلك تتقي الزوجة وشريكها صولة القانون ويكون الطلاق كأنه محا الجريمة قانوناً مع أنه لم يقع إلا بها

ولا دلالة على نقل القانون المصري نقلاً جامداً عن القانون الفرنسي أكثر من وقوفه بالمادة ٢٠١ عقوبات في جانب الزوج الذي يقتل زوجته في حالة التلبس بالجريمة ، معتبراً ذلك ظرفاً قانونياً مخففاً يعاقب فيه بالحبس فقط ، ثم يأبى ذلك على الأب

والأخ اللذين يمتد إليهما عار الجريمة أكثر من الزوج ، فالزوج يتخلص منه بالطلاق ، أما هما فالعار قد لصق بهما . وهذه القاعدة الفرنسية كانت معقولة فى فرنسا فى وقت وضع قانون العقوبات الفرنسى إذ كان الطلاق وفقاً للمذهب الكاثوليكى غير جائز ، وإذ كانت الجريمة من ذلك لاصقة بالزوج أكثر من التصاقها بأسرة الزوجة

ومن التخريجات الغريبة والتطبيقات التى تنشأ عن القانون الجنائى المصرى فى هذا الصدد ، حالة ما إذا فاجأ الزوج زوجته وشريكها ، فحاول قتلهما فقتلته الزوجة أو شريكها ، فلا عقوبة على فعلهما لاعتبار ذلك دفاعاً شرعياً عن النفس ؛ ثم إنه بعد ذلك لا عقوبة على جريمة الزنا التى اقترفاها إذ قد مات الزوج صاحب الحق فى الدعوى ضدهما . ولو حدث أن قتل الزوج زوجته سقط بذلك حقه فى الدعوى ضد شريكها ، لأن حظ الشريك مرتبط بحظ الزوجة الزانية فيستفيد مما كان يفيدها . وقد ماتت فالشريك يعتبر بريئاً إذ لا عقوبة عليه إلا إذا حكم على الزوجة ، وهذا غير متيسر لموتها

وكذلك القانون لا يعاقب على جريمة الفسق ولا على تلك الجريمة النكراء الشنعاء : جريمة اللواط متى توفر الرضا إذا كان سنّ الفتى أو الفتاة أكثر من ست عشرة سنة . فكأن القانون يشجع ذلك بعدم وضع الحظر عليه ، بل أكثر من هذا فانه يقف موقفاً غريباً بالنسبة للقاصر إذا جاوز السادسة عشرة فانه يبيح له أن يجنى ويبيح الجناية عليه . . . . بلا قيد ، بينما لا يبيح له الزواج أو التصرفات المدنية إلا برضا وليه أو وصيه حسب الظروف ، وهذه مسألة من الخطورة بمكان عظيم إذ تترك الشبيبة الناشئة تتلاعب بها الأيدى والأغراض ، وبجرها المفاسد إلى غير مستقر بدون رقيب عليها ، وهى عدة المستقبل وآمال الأمة . فاذا كانت هذه الشبيبة على ما يحوطها من المفاسد ويغريها لا يحميها القانون فياسوءة المستقبل ، ويا ضياع الآمال . ومن الواجب المحتم أن يتنبه المشرع إلى هذا النقص التشريعى فيسارع إلى علاجه قبل استفحاله كيلا يتهم بالمساعدة على التدهور الخلق وعلى إفساد الأمة فى أساسها الحى الذى هو الفتى والفتاة

هذا بعض من كل من الأمثلة الدالة على جُحر القانون والمشجعة لضروب المنكر — قد يقال إن روح القوانين الحديثة أن تتجه نحو الحرص على عدم التعرض بالمقاب للجرائم الأخلاقية إلا فى حدود معينة ، فلم يعاقب على الرذائل والآثام لذاتها ؛ بل لما يترتب عليها من الضرر للأفراد أو للمصلحة العامة . ولكن الرد على هذا سهل يسير وهو : أنه ما من جريمة أخلاقية إلا أصاب الغير ضررها بالذات أو بالواسطة حالاً أو مستقبلاً ، وذلك بانتشار الرذيلة الذى يتبعه تأثر الوسط وفقدانه حيويته ؛ والذى يتبعه حتماً كنتيجة مباشرة انهيارُ البيئة الاجتماعية وتفشى الأمراض الخبيثة بينها وازدياد الأدواء المختلفة الجسمانية والأخلاقية ، وبذا تتأثر المصلحة العامة ؛ فلا حجة فى تلك الحجة

ومع ذلك فان كثيراً من القوانين الحديثة لا تزال تحرم الرذيلة لذاتها ، والقوانين الانكليزية والألمانية والنمسوية والمجرية تعاقب على اللواط ولو وقع بالرضا ، كما تعاقب أيضاً على اتخاذ القيادة حرفة ومرتزقاً ؛ والقانون السويسرى يعاقب على البغاء

وهذه هى قوانين الدول المسيحية ؛ أما الدول الاسلامية فان قوانينها ولا كُفران لله قوانين واسعة سمحة . فياليت الحكومات الاسلامية تعمل بهذه الطريقة المكسية فتضع للشيطان قانوناً على الضدّ من طباعه ، وبذلك يجئ قانون الشيطان مصاحاً لقانون الانسان . . . . .

جمال الزرقانى
ليسانسيه فى القانون

من أيام سورية التاريخية

ذكرى ٢٤ يوليو!

للأستاذين علي الطنطاوي وسليم الزركلي

قال الملك فيصل رحمه الله :

« . . . وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى في ميسلون بعض رفاق في معارك فلسطين ؛ وإني لأحني رأسي احتراماً لجميع هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلاً . . . »

[جريدة الأيام الدمشقية العدد ٨٦٣ من هذا العام]

اخرجْ من دمشق ، وخلِّف وراءك الجسرَ وفيكتوريا ، وهذه البِسِنْيِّة ذات الطبقتين ، التي كانت منذ خمسة عشر عاماً « النادي العربي » مثوى الوطنيـة ، ومثابة الاخلاص ؛ ودَعْ عن شمالك المرجة الخضراء ، التي وقفها نور الدين على سوائم المسلمين ، فرعاها نفر من الأقوياء الحاكمين ، وعاثوا فيها آمنين مطمئنين ؛ وجُزْ بالمِزّة وقلاعها ، لا تلتفت إليهما ، ولا تأبَهْ لها ، واستقبل الربوة لا تحفِل بقرارها وَمعينها ، ولا تعجبْ لأنهارها السبعة ، وقد امتدت بين عَدْوَتي الوادي بعضها فوق بعض ، كعقود اللؤلؤ في جيد الحسناء ، وتناسَ ما قال فيها ياقوت وقد طوّف أنحاء الدنيا ، وجاب أرجاء الأرض ، ثمّ رجع فلم يجد في الدنيا أنزه منها ؛ وعدِّ عن النَّيْرَب لا تذكر عهده ، ولا تَبْكِ أيامَه ، فقد ذهب النَّيْرب ، وغبرت أيامه ، وفارقه وأنشد قول ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون

وماذقت طعم الماء إلا استخفني ... إلى بَرَدى والنيربين حنين

وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف أكون اليوم وهو يقين

فو الله ما فارقتكم قالياً لكم ... ولكن مايقضى فسوف يكون

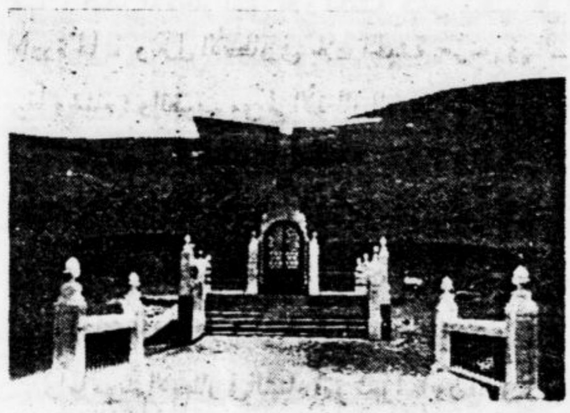
واسلك على وادي الشاذروان ، ولا يقفك عن غايتك أنه وادٍ من أودية الجنة ، هبط إلى الأرض لتذكر فيه النفس أيام الجنـة الأولى ، فتطير إلى سمائها بأجنحة من نشوة الذكرى ، ولا يثنك عن وجهتك هذان الجبلان المتعانقان ، كأنهما عاشقان قد لبسا من النجوم المزهرة ، والأشجار المثمرة ، حلة أبهى من السندس ، ولا « يزيد » الذي يجري في صلب الجبل يزخر بالمياه ، فيطفح بها ، فتهبط الصخر من علو مائة ذراع متكسرة مزبدة ، كأنما هي ذوب اللجين ، حتى تعود إلى أبيها بردى ، وهو يجري في بطن الوادي جياشاً ثائراً ؛ واستقبل دُمّر لا تقف بجنانها ورياضها ، ولا تفتنك قصورها ودورها ، ولا يستبك هذا القصر العجيب ، ذو المعارج الملتوية ، والألوان والنقوش ، والبرك والنوافير : قصر الأمير سعيد ، ولا قصر شمايا تجري من تحته الأنهار !

ودع عن يمينك معمل الأسمنت الفخم ، الذي قام دليلاً على أن الشرق يستطيع أن يعمل ، ويقدر أن يبني . ومركباته التي أبت أن تمشي على الأرض ، فسارت متعلقة بأسلاك في الهواء . . وائت الهامة فدعها عن يمينك لا تنزل إلى السهل ، ولا تفتنك أنهاره وبهجته ، ولا تجذبك فسحته وخضرته ، وامش واضعاً « قادسية » عن شمالك ، ثم دُرْ دورة فاخرج من الوادي ، وامش صُعُداً حتى تدع الوادي من ورائك ، وتستقبل الصحراء الخالية القاحلة ، فاذا أصحرت فدع الديماس وحدائقه وامش قدماً حتى ترى هذه الهضاب المتسلسلة ، والآكام المتتالية ، فاعلُها . . حتى إذا بلغت ذراها ، ولمحت في عرض البادية ، في حضن الجبل ، بناء غريباً كأن سقفه جناحا طيارة ؛ ورأيت من أمامه سلسل ماء ، فاهبط اليه ، ثم قف خاشعاً منحنياً ، فأنت في ميسلون ، وأنت حيال قبر يوسف العظمة . . .

علي الطنطاوي



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة
وزير الحربية في الحكومة العربية



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة

قِفْ عند هذا الضريح واهتف بســكانهْ
هل حـلّ فيكم جريح من أجـل أوطانه
أهوى بكم يستريحْ من برح أحزانه
بنى عليـه الزمان والغاشم الغادرْ
فراح يبنى الأمان فى الفَـلك الدائرْ

أصمته هوج الخطوب ففجرت دمعــهْ
ومرهقات الكروب فأوقرت سمعــهْ
ولم تدعـه الحروب فـكسرت ضلعــه
بكى له النـيّران والكوكب الساهر
فأين هـذا الهوان من مجـده الغابر

الملك رهن الضياعْ إن غيل فى مهدهْ
والسيف ما إن يطاع مادام فى غمــده
واحسرتا للشــجاع يبكى على مجــدهْ
النـذل والخوّان والخاتل الماكرْ
يفوز بالجنان (١) ويطرد الثــائر

تبكى عيون السماءْ على أمانينــا
وفى مجارى الدماء خاضت مواضينا
ما زال رهن الفناء شــتى مرامينا

(١) كذا فى الأصل ، والشطر مكسور (الرسالة)

هل يرجع الفاتحان : الأســد الزائر
للعرش والطيلسان والفاتح الظـافر

جاست ديارى العـداه والدهر يبغينــا
وعاث فينا الطغاه ذلاً وتهــوينا
لم تصف بعــد الحياه حتى تعادينــا
آن أوان الطعان فلينهض العـاثرْ
لا يبلغ المجدَ وان عن نيله قاصر

فاســتصرخى يا قبورْ عزائم الأبرار
ولتحطمنّ الدهورْ صواعق الأحرار
لا عاش من لا يثور ويستسيغ العـارْ
إنا فدى الأوطان من غاصب جائرْ
لا عيش للأنسان فى موطن صاغر

سليم الزركلى

٢ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

وفيما يلى وصف الأرض العام فى بلاد الحبشة : فى الساحل أرض سهلة رملية ، والرطوبة فيها تبلغ درجة عالية فى موسم الأمطار ، وحرها لا يطاق ألبتة ؛ وكلما تقدمنا من الساحل إلى الداخل ارتفعت الأرض واختلفت تربتها وتنوع شكلها ، فتكون ترابية وحصوية فصخرية فكلسية وهلم جرا ، وتأخذ فى التموج ، وهذا التموج يجعل الأرض فى بعض المحلات جبلية ذات غابات وأدغال ، وكلما زاد الارتفاع كثرت الوديان الضيقة المكسوة بالغابات والأحراج الكثيفة . والانحدار فى حافات الجبال شديد يحول دون تسلقها ؛ والطرق فيها مسالك ضيقة تسلكها الدواب بصعوبة . وإذا ما دخلنا الهضاب اشتدت الوعورة ، وازدادت المناعة . فالجبال تعلو فى انحدار شديد ، ويسيطر بعضها على البعض الآخر ، وتكثر فيها المكامن والمضايق والفجوات والوهاد

وقد شق الطليان طريقاً فى مستعمرتهم اريترة يربط الميناء « مصوع » بالعاصمة « أسمرة » ؛ وقد أنفقوا على شقه مبالغ طائلة من جراء انحدار الأرض وكثرة الوديان فيها ؛ وكذلك السكة الحديدية التى تربط «مصوع» «بأسمرة» فانها تعتبر من أرق ما بلغه الفن الهندسى فى مد السكك الحديدية ، لأن السكة تتسلق الجبال ملتفة حولها عابرة على عدة جسور وملتوية الالتواء كله

وتستطيع القوات القادمة من الساحل بفضل وسائط التجهيز والتموين السير فى الأرض السهلة والأرض المتموجة ، وإذا ما وصلت الى السفوح الغربية يتوقف السير لمناعة الأرض وصعوبة سير العجلات والدواب فيها . ومع ذلك نجد أن فقدان المياه فى الأرض السهلة والمتموجة مما يحول دون تسيير قوات كبيرة فيها

الأمطار والبحيرات

والحقيقة أن بلاد الحبشة مدينة لغزارة الأمطار التى تنزل فيها ، فهذه الأمطار تسقى بلاد الحبشة فتدر بركاتها على البلاد المجاورة لها ، وتنزل الأمطار فى بلاد الحبشة مرتين فى السنة ، صيفاً وشتاء ؛ والصيف موسم الأمطار الطويل ، فتبدأ الأمطار فى هذا الموسم فى أوائل ايار إلى نهاية إيلول ، وتقع غالباً بعد الظهر ، وتنزل بغزارة ، وتقلب الأرض السهلة والمتموجة إلى بحيرات وسيول فى مدة قصيرة ، وتجرى هذه المياه بسرعة فى الوديان الجافة إلى البحر ، وبعض الماء تبتلعه الأرض

وأما موسم الأمطار فى الشتاء فهو شهرا كانون الثانى وشباط ، والمطر فيه قليل . وأجل الأنهار شأناً فى بلاد الحبشة هى تلك التى تنبع من السفوح الغربية فى المنطقة الجبلية الداخلية وتصب فى نهر النيل

فنهر « صوباط » مثلا يتكون من فرعين ، ويجرى فى الجهة الجنوبية الغربية ؛ ونهر « اباى » ينبع من بحيرة « تانا » وهو يؤلف القسم الأعلى من نهر النيل الأزرق

وفى الشمال نهر « عطبرة » وهو يتألف من نابعين : نابع (مارب) فى الشمال ، ونابع (نكازة) فى الجنوب ، وبعد أن يسقى مقاطعة « تيجرى » يجرى شمالا ويصب فى نهر النيل فى عطبرة شمالى الخرطوم

ولنهرى اباى وعطبرة تأثير شديد فى اقتصاديات السودان ؛ فالأمطار الصيفية تملأ أحواض هذين النهرين ، فيفيضان بها ويسقيان مزارع السودان الصيفية ويتركان الرسوب الغرينية فى المزارع

وبحيرة « تانا » التى تمثل دورا خطيرا فى تاريخ الحبشة من حيث تأثيرها فى مياه النيل تعلو عن البحر ١٧٠٠ متر ، وتبلغ مساحتها زهاء ٣٠٠٠ كيلو متر ، وتحيط بها الجبال من كل جانب

وفى الجنوب وديان كثيرة تأتى من حافات الجبال ، وأهمها نهر وادى « جبة » وهو الذى ينبع من الحافات الجنوبية للمنطقة الجبلية الداخلية ويجرى فى الأرض المتموجة والسهلة

وتبدأ الوديان من حافات الجبال الشرقية ، وتمتد إلى السهول ، وإذا ما نزلت الأمطار جرت فيها المياه

ومن المياه ما تتكون منه البحيرات الجنوبية فى أرض الحبشة ؛ وهذه البحيرات واقعة على طوار الخط الممتد من الشمال

الشرق إلى الجنوب الغربي، وتنتهي في شمالي بحيرة «فيكتوريا» وأخطر هذه البحيرات بحيرة «رودولف» في الجنوب وبحيرة «استفاني» في الشمال

تقسيم الأحباش البلاد

والأحباش أنفسهم يقسمون بلاد الحبشة إلى ثلاثة أقسام من حيث أوصافها، وإليك بيانها:

القسم الأول: وهو القسم المنخفض، ويتفاوت الارتفاع فيه من (١٠٠٠ إلى ١٨٠٠) متر، وهذا القسم حار وتتفاوت درجة الحرارة فيه من ٣٠ إلى ٤٠ درجة سنتغراد؛ وفي هذا القسم المقاطعات «هرر» و«كانا» و«يديتو» و«سيدامو» و«شافكالة»؛ والحرارة في المحلات المنخفضة، وفي الوديان لا تطاق؛ والزرع فيه هو الذرة. وفي المحلات المرتفعة من هذا القسم يزرع قصب السكر والقطن والزعفران والموز والتمر الهندي والبن والنخيل وغير ذلك

القسم الثاني: وهو القسم المتوسط من حيث ارتفاع الأرض إذ يتفاوت العلو فيه من (١٨٠٠ إلى ٢٤٠٠) متر. وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٤ إلى ١٩ سنتغراد، والهواء فيه جيد، والربيع دائم، وتكثر فيه المياه والغابات

القسم الثالث: وهو القسم المرتفع ويتفاوت الارتفاع فيه من (٢٤٠٠ إلى ٣٤٠٠) متر، ومناخه يشبه مناخ جبال الألب، والشتاء فيه شديد وبرده قارس. وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٠ إلى ١٢ سنتغراد ويجمد الماء في الليل. وبينما نجد القسم الأول جهنم الحبشة نرى القسمين الثاني والثالث جنتها

التقسيمات الإدارية

تنقسم بلاد الحبشة إلى عدة مقاطعات، ويحكم كل مقاطعة رأس، وهو بمنزلة ملك تلك المقاطعة وله سلطة مطلقة عليها نالها ارثاً بحقوق الاقطاع. وكثيراً ما أطلق عاهل الحبشة على نفسه ملك الملوك بعد إخضاعه الرءوس في المقاطعات وتوحيده المملكة

وفيما يلي المقاطعات الخطيرة: —

(ا) مقاطعة «تيجرى» وهي واقعة في الشمال ومتاخمة لأريترة الصومالية والسودان، وفيها العاصمة المقدسة «أكسوم»

(ب) مقاطعة «أمحره»، وهي واقعة إلى جنوبي مقاطعة تيجرى ومتاخمة للسودان

(ح) مقاطعة «غوجام»، واقعة إلى جنوبي مقاطعة أمحرة

(ى) مقاطعة «شوعا»، وهي من أخطر المقاطعات وفيها عاصمة الدولة «أديس أبابا»

(ه) مقاطعة «كانا»، وهي واقعة إلى الجنوب ومتاخمة للسودان ولمستعمرة أوغاندة البريطانية وفيها يزرع البن

(و) مقاطعة «أوجادن»، وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي ومتاخمة للصومال الطلياني

نبذة من التاريخ

يزعم العلماء الضليعون في معرفة الأجناس والشعوب أن الأحباش هاجروا من جزيرة العرب إلى إفريقية عن طريق اليمن، ويعللون انتماء اللغة الحبشية إلى اللغات السامية بتلك الهجرة

والمحقق أن الأحباش احتكوا بالمصريين في قديم الزمان واقتبسوا منهم بعض مظاهر الحضارة؛ ولما امتدت فتوح المصريين إلى بلاد النوبة والسودان اشتدت هذه العلاقة. ويؤيد التاريخ استيلاء الأحباش على مصر العليا وتأسيسهم أسرة حاكمة هناك. ويزعم الأحباش أن الملك منليك الأول هو ابن سليمان من بلقيس ملكة سبأ. وشاعت النصرانية في الحبشة في أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ورسخت فيها بعد ذلك. والمعلوم أن أبرهة قائد القوات الحبشية الذي استولى على بلاد اليمن وتقدم نحو الحجاز كان نصرانياً. والشائع أن الداعي إلى هجوم الأحباش على اليمن هو الانتصار لبني دينهم أهل نجران

وكان الأحباش يدينون بالنصرانية لما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد. وشاعت اليهودية في الحبشة في عهد هذ الملك. وتخليداً لهذه الذكرى أحدث ملك الحبشة في سنة ١٨٧٤ وساماً سماه «وسام خاتم سليمان»

وفي القرن السادس تبع الأحباش الكنيسة المصرية التي اعتقدت أن ليسوع (عيسى) طبيعة واحدة، وانضوى الأحباش من ذلك التاريخ لبطريرك الاسكندرية

وفي القرن السابع استفاد اليهود القاطنون في الحبشة من الانشقاق في العقيدة المسيحية، واتفقوا مع المعارضين والوثنيين

وتغلبوا على الأحباش فأخرجوهم من مقاطعة أكسوم وحكموا البلاد زهاء مائتي سنة . وفى نهاية القرن الثامن قضى (لاليبا) على حكم اليهود ورجع الأحباش يحكمون بلادهم معتنقين الذهب اليعقوبى

المسلمون والأحباش

ولم يتوجه العرب فى عهد فتوحهم نحو بلاد الحبشة بل اكتفوا بالاستيلاء على بلاد مصر والسودان فقط ، وذلك على ما نعتقد لسببين : أولهما بُعد بلاد الحبشة عن طريق الاستيلاء ومناعتها ، وثانيهما ذكرهم للأحباش بخير لأنهم آووا المسلمين الأولين وآمن نجاشيهم برسالة الرسول

وفى القرن الثامن عشر ثارت الحروب بين الأحباش والمسلمين الذين أحاطوا ببلاد الحبشة من كل جانب . وقبل منتصف القرن الخامس عشر احتك البرتغاليون بالأحباش من أجل الحصول على موانئ صالحة فى مغامراتهم فى بحر المحيط الهندى ، وسعوا لتأسيس علاقات ودية بينهم وبين الأحباش ، وعقدوا أول معاهدة فى سنة ١٥١٥ ؛ وكان من نتائج هذه المعاهدة أن المسلمين أخذوا يتوغلون فى بلاد الحبشة لمحاربة الأحباش حلفاء البرتغاليين ، وكلما انتصر المسلمون على البرتغاليين فى البحر الأحمر وفى خليج عدن انتقموا من الأحباش الذين ناصروا البرتغاليين فى حروبهم

وفى سنة ١٥١٧ تحرك جيش كبير من المسلمين من « زيلع » وهجم على بلاد الحبشة واستولى على « أكسوم » العاصمة المقدسة ، و « جوندار » عاصمة المملكة . وبعد أن مد البرتغاليون الأحباش بالمدافع وتولى « كريستوفوس دغاما » قيادة الجيش الحبشى انكسر المسلمون وانسحبوا

ولما استولى العثمانيون على مصر اشتدت علاقة الترك بالأحباش ، وأخذ سلاطين آل عثمان يساعدون المسلمين فى البحر الأحمر على محاربة البرتغاليين والأحباش ، وكان من نتائج ذلك أن استولى العثمانيون على مصوع وبربرة وهما من موانىء الحبشة ، وتوغلوا فى الداخل ، وأخذ المسلمون القاطنون فى السهول يشددون العزائم للهجوم على بلاد الحبشة ويسعون لنشر الدين الاسلامى فيها

(يتبع) طه الهاشمى

من ضحايا الوطنية

شارلوت كورداى

لتوماس كارليل

بقلم الأستاذ حسن عبد الحليم اليمانى

يعى التاريخ مشهداً يذكره وسط الغموض والاضطراب اللذين لفا مدينة « كان » الفرنسية كما لفّا العالم بأسره فى طليعة عهد الثورة الكبرى : أما مكانه فساحة مجلس « كان » النيابى ، وأما أبطاله فرجل وفتاة أوشكا أن يفترقا بعد لقاء – هما النائب باربارو و شارلوت كورداى (« دارمان » كما كانت أسرتها تلقب قبل الثورة التى ألغت رتب النبل وألقابه) كانت فتاة فارعة العود فى عامها الخامس والعشرين ، يتلألأ محياها جمالاً ووداعة ؛ وكانت على أن ترحل إلى باريس فى أمر ما ، ولهذا تقابلت وباربارو فحملها توصية وتقدمة إلى صديقه الباريسى النائب دوبريه ذاكرا فى خطابه « إنها لجمهورية الهوى من قبل أن ينادى بالثورة منادٍ ، وإنها لم تكن فى حاجة أبداً إلى الحماسة ، ففى قلبها منها الكفاية » . « أما الحماسة فى رأيها فهى تلك العاطفة التى تدفع بالمرء إلى بذل روحه طائعاً فى سبيل بلاده »

وقبيل ظهر الثلاثاء التاسع من شهر يولية من العام الرابع للثورة ، اتخذت شارلوت مكانها من عربة بريد « كان » الراحلة إلى باريس مزودة بخطاب باربارو وبقليل من متاعها الخفيف . لم يكن فى وداعها – كسنة السفار – أحد يتمنى لها رحلة طيبة موفقة ، فهى قد بيتت عزيمتها بينها وبين نفسها مخلّفة لأبيها رقعة تُفضى إليه فيها بأنها فى طريقها إلى انجلترا ، وأنها ترجو أول ما ترجو أن يغفر لها فعلتها وأن ينساها إلى الأبد . وزحفت عربة البريد بحملها ، وكأنما لازمها نعاس ملح ، مازال يدفع بها وئيدة مهومة حتى بلغت جسر « نيلى » ، وحتى لامست عجلاتها ثرى باريس فى ضحى يوم الخميس ١١ يولية ، حيث شهدت عينا شارلوت مدينتها المنشودة تطالع السحاب بقبابها العديدة السوداء . وفى فندق البروفدانس بشارع دى فيو أوجستين

« La rne des Vieux Augustines » احتجزت لنفسها غرفة سرعان ما احتواها فراشها، وسرعان ما راحت فى سبات عميق بقية النهار وطيلة الليل، فلم تستفق منه إلا وشمس الجمعة قد علت فى الأفق

غادرت شارلوت فندقها فى ذلك الصباح لمقابلة النائب دوبريه، فلما سلمته رقعة صديقه باربارو علم منها أن لصاحبتها أوراقاً تتعلق بأسرتها، وأن صديقه يرجوه مساعدتها حتى تحصل عليها من وزارة الداخلية. وأمالها دوبريه بغيتها وقضت نشدتها فى اليوم نفسه، وغادرته ولم تشر بطرف إلى رحيل أو بقاء. وفى باريس طالعت نواحى عديدة وصوراً متباينة، ولكنها لم تهتد إلى لقاء « مارا Marat » [1] والتحقق من قسمات وجهه فقد احتبسه المرض إذ ذاك فى منزله

باتت ليلتها فى الفندق، حتى إذا أسفر الصبح غادرته حوالى الساعة الثامنة لتشترى خنجراً، ثم لتأخذ عربة من ميدان الانتصارات « La place des Victoires » ميممة مسكن مارا بشارع مدرسة الطب رقم ٤٤، حتى إذا بلغته حال مرضه دون لقائها، فأهمها أن تفشل فى وسيلة ركزت فيها كل آمالها وأحلامها. يالشارلوت الجميلة المنكودة! ويالمارا القبيح المنكود! أى قدر يسعى بفتاة من (كان) فى أقصى الغرب، وبرجل من نيوشاتل فى أقصى الشرق ليلتقيا؟ وأى شأن يربط بين حظيهما فيجذبهما إلى أن يصطدما؟

وإذ عادت إلى فندقها بعثت اليه بورقة تحمل اسمها واسم بلدتها: « كان مهد الثورة »، وتحمل فوق هذا رجاءها ولهفتها إلى لقائه، حتى تدفع اليه « ما يعينه على أن يسدى لفرنسا يداً » ولكنها لم تتلق عليها جواباً، فخطت اليه أخرى أقوى من سابقتها رجاء وعاطفة، وحملتها بنفسها إلى مسكنه فى مساء اليوم نفسه ١٣ يولية

كان مساء شاحباً، وقد مضى على المساء الذى سقط فيه الباستيل أربعة أعوام كاملة، ذلك المساء الذى وقف فيه مارا على رأس جموع الشعب، طالباً من رجال فرقة الهوسار ـ حرس الباستيل وكانت قلوبهم مع الشعب ـ أن يخلوا أمكنتهم وأن يلقوا بأسلحتهم. وبهذا الحدث ارتفع مارا إلى الذروة — ذروة البطولة والوطنية، وهاقد مضت أربعة أعوام حافلة — فأية طريق اشتقها مارا إلى المجد وأية طريق دفع بنفسه فى شمابها؟

لقد كان فى الآونة التى يممت فيها شارلوت صوب داره، ينتقع فى حوض استحمامه، وقد تجرد من ملابسه إلا قليلاً، وكانت الساعة حوالى منتصف الثامنة مساء، وكان منهوكاً محطماً يحمل فى يده قصاصات من الورق، وأمامه منضدة مثلثة القوائم، يتكئ عليها كلما هم بالكتابة. كان وحيداً فى مسكنه اللهم إلا إذا اعتبرنا خادمه الشوهاء رفيقة تطرد الوحدة وتخفف أثقالها. فهل انتهى به الطريق إلى أن يلقى خاتمته على هذا الوضع وفى تلك الصورة؟

قُرع الباب وتكرر القرع، ونفذ إلى مسمعيه صوت لين حلو، يرفض صاحبه أن يغادر مكانه من الباب أو تقضى حاجته. كانت صاحبته هى المواطنة شارلوت كورداى، تلك التى تريد « أن تعينه حتى يسدى للوطن يداً » ـ عرف (مارا) من كلماتها تلك أنها صاحبة الرقعة الأولى التى وصلته، فنادى خادمه: أن دعيها تدخل؛ ودخلت شارلوت قائلة: « أيها المواطن مارا! إننى من (كان) مهد الثورة، وأريد أن أفضى إليك بأمر »

فرد عليها قائلاً: « اجلسى يا طفلتى! ما وراءك من أخبار كان وأخبار خونتها؟ ومن ترى فيها من النواب الآن؟ »

ولما سمت له شارلوت بعض النواب، زمجر « صديق الشعب » قائلاً: « ستطاح رؤوسهم فى مدى أسبوعين »؛ واجتذب المنضدة إليه ثم أخذ يكتب « باربارو، بتيون ... » واستدار فى الحوض مصاحاً من جلسته « بتيون ... لوفيه و ... »، وفى أسرع من اللمح استلت شارلوت خنجرها من غمده، ثم أهوت به إلى قلبه. لم تمهله حشرجة الموت طويلاً؛ فلم يستطع إلا صرخة واحدة: « إلىّ ياعزيزى ـ الغوث ياعزيزى! » سارعت الخادم إليه فاذا به لقى لا روح فيه، وقد انكفأ على وجهه الذى بدا مغيظاً محنقاً... وهكذا قضى مارا « صديق

(١) هو جان بول مارا ـ ولد فى نيوشاتل إحدى مدن شرق فرنسا سنة ١٧٤٣ ولما شب درس الطب ثم احترفه حيناً فى لندن. وفى احتدام الثورة عاد إلى باريس حيث أصدر صحيفته المعروفة « صديق الشعب » وقاد الشعب بقلمه وخطبه حتى جاء عليه وقت حكم فيه فرنسا مشتركا مع صديقيه روبسبير ودنتون فى حكومة الارهاب الثلاثية.

الشعب » وليس إلى جواره صديق !

إلى هنا تمّ لشارلوت ما دبّرت ، وأنّى لها أن تلق جزاء عاجلاً محتوماً . . . فقد تدفق الجيران على صرخة مارا الأخيرة والتفوا بشارلوت التى قاومت قليلاً ، حتى إذا حضر الشرطة أسلمت نفسها لهم طائعة . واقتيدت لتوها إلى سجن « أباى Abbaye » حيث احتوتها إحدى غرفه هادئة ساكنة ، وقد ماجت باريس حول محبسها ، ودوّت أصوات الشعب فى خليط يتذبذب بين الدهشة والغضب والاعجاب

بعد أيام أربعة ، طالعت الجموع المحتشدة فى قصر العدالة ، حيث تعقد محكمة الثورة ، وجه شارلوت جميلاً هادئاً كعادته ، وما إن دخلت القاعة حتى سرت فيها همهمة ليس من السهل أن نستبين العاطفة التى أوحتها ! — وهنالك وقف تنفيل Tinville ليقيم الدعوى مستعيناً بالشهود وبائع الخنجر الذى حضر المحكمة ليدلى بالواقعة أمامها ، ولكن شارلوت قاطعته قائلة « لا حاجة بكم إلى هذه التفاصيل

« إننى أنا القاتلة »

« وبايحاء من ؟ »

« لم يوح إلى أحد »

« إذاً فما الدافع ؟ »

« جرائمه » ثم زادت فى صوت صاخب مرتفع « لقد قتلت فرداً لأنقذ مئات الألوف ، مجرماً لأنجى أبرياء ، حيواناً مفترساً لأريح بلداً بأسره ! لقـد اعتنقت مبادىء الجمهورية قبـل أن تقوم للثورة قائمة ، ولم أكن أبداً فى حاجة إلى الحماسة أو التشجيع ! »

وهكذا قطعت عليهم كل سبيل إلى الكلام ، وحملق الجمهور مشدوهاً بينما أتم القضاة إجراءاتهم فى صمت وسكون ، وصدر الحكم باعدامها لجريمة القتل فتلقته هادئة ، وفى لهجة رقيقة تشف عن روح نبيلة عالية شكرت محاميها ، كما شكرت القسيس الذى أحضروه لها معتذرة له فى لطف بأنها ليست فى حاجة إلى شىء من بضاعته !

وفى مساء ذلك اليوم نفسه خرج سكان باريس — على بكرة أبيهم — إلى الطرقات والمنافذ ليلقوا على شارلوت نظرة أخيرة ..

وظهرت عربة السجن المشئومة تحمل تلك المخلوقة الصغيرة فى ملابس الاعدام الحمراء ، حلوة وادعة ، غضة الاهاب ريانة الغصن تسعى إلى حتفها وحيدة وسط هـذا العالم الصاخب ! كثير هم أولئك الذين حيوها فى احترام برفع قبعاتهم ، فأى قلب لا يمس هـذا المشهد قرارته ؟ بينما طاوعت بعض الآخرين نفوسهم فزمجروا وهدرت أصواتهم لدى رؤيتها !

وفى « ميدان الثورة » حيث ينتظرها الموت ، لم يتسلل إلى أساريرها الجميلة الهادئة أى شحوب أو فرق ، بل حافظت على ثباتها وحيويتها ؛ ولما تقدم الجلادون لقيـد ساقيها ، احتجت متـذمرة ، وقد حسبت أنهم إنما يفعلون ذلك رأفة بها ، وقد لحظوا فى أنوثتها ضعفاً لا يقوى على مجابهة الموت إلا مكبلاً ! حتى إذا أفهموها أنها إجراءات تتبع فى كل حالة اعتـذرت لهم باسمة وخضعت راضية !

وفى المشهد الأخير عند ما جردوا عنقها من لفائفه وهيأوه لسيف الجلاد ، تمشت فى عنقها ووجهها الجميل حمرة من خجل العذارى ظلت تصبغ خديها النديين حتى بعـد أن رفع الجلاد رأسها المفصول ليراه جمهور النظارة !

فيا للجمال ويا للقبح ممثلين فى شارلوت ومارا ! يصطدمان فيلاشى كلاهما الآخر ! ويا لكما من منكودين أنهلهما العدم كأسـه مترعة ! فلتناما فى أحضان أمكما الأرض ، تلك التى حملتكما معاً !

حسن محمد عبد الحليم اليمانى

في الأدب الانجليزي

٤ـ الـكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأشباح : Ghosts

تشمل الأشباح التي وردت في روايات شكسبير نوعين مختلفين : أشباحاً مرئية وأشباحاً غير مرئية . أما الأشباح المرئية فهي التي في استطاعة كل شخص أن يراها ويبصرها . وأما الأشباح غير المرئية منها فهي التي اختفت عن أعين الجميع إلا عن أعين بطل الرواية

استعمل شكسبير نظرية الأشباح في عدد غير قليـل من رواياته ومؤلفاته ، فهناك شبح في رواية الملك ريشارد الثالث لم يره إلا ريشارد وريشموند ، وهناك شبح آخر في رواية يوليوس قيصر يعجز الخدم عن رؤيته بينما يظهر جلياً لبروتس . وفي رواية سمبالين أشباح متعددة تظهر لبوشيموس في سجنه في حالة لا يراها الحرس والسجانون

وكانت مخاطبة الأشباح تقتصر على نفر قليل ممن كانت لهم قوة التنبؤ والاستنباط ، فكان في استطاعتهم أن يسألوا الأرواح في مهماتهم الخصوصية . وقد ذكرهم شكسبير في كثير من رواياته كرواية سمبالين ورواية يوليوس قيصر بقوله : « قد استطعت التغلب على روحي الخفية بواسطة حيلك السحرية » وفي رواية (All'is Well That Ends Well) بقوله : « هل يوجد هنـاك من مشعوذ يستطيع أن يزيل ما أمام عيني من الشك »

وهذا النوع من الرجال كان ينتظر منه الالمام باللغة اليونانية واللاتينية والاضطلاع الواسع على الآداب القديمة . وتظهر لك هذه الميزة جلياً في رواية هملت عند ما يظهر الشبح ، فيقول مارسيلوس مخاطباً هوراثيو : « إنك متعلم ومطلع على الآداب ، ولذا وجبت عليك مخاطبته يا هوراثيو »

ويصحب ظهور الأشباح عادة تغيير في الأنوار ، فنرى ريشارد الثالث يشعر بتغير في الأضواء قبل ظهور الشبح ؛ وفي رواية يوليوس قيصر نرى نفس الظاهرة بجلاء ووضوح ، فيرى بروتس تغيراً في ضوء الشمعة يسترعي انتباهه ويهتف قائلاً : « ما لهذه الشمعة قد شحب ضوؤها ؟ من القادم ؟ »

وتظهر الأشباح بصورة عادية مرتدية نفس الملابس التي كان أصحابها يرتدونها قبل موتهم . ففي رواية هملت يظهر الشبح بنفس الأردية التي كان يرتديها الملك قبل وفاته ، وهذا ما دعا هوراثيو إلى الهتاف قائلاً : « إنه ليشبه والدك تمام الشبه مرتدياً نفس الملابس والأسلحة التي كان يرتديها قبل وفاته » ؛ وفي رواية مكبث يظهر شبح بانكو بنفس الحلة التي وجد فيها قبل وفاته بساعات قليلة

ولهذه الأشباح طبائع غريبة وأخلاق شاذة ، فهي لا تستطيع احتمال الأسئلة الكثيرة بل تهملها . وفي رواية هنري السادس نرى الشبح وقد ضاق ذرعاً بالأسئلة الكثيرة التي وجهت اليه فأجاب سائله بقوله : « اسأل ما بدا لك ولكني لا أجيب إلا عما أريد الاجابة عنه »

وكانت الأشباح تفضل الصمت على الشغب والضوضاء ، ولذا نرى بروسبيرو يطلب الهدوء التام عند ظهور الأشباح . وتختلف هذه المخلوقات الغيبية عن سابقتها بكونها لا تستطيع الظهور مطلقاً إلا عند سدول الظلام ، فلا يظهر الشبح في رواية هملت إلا بعد غروب الشمس ؛ وعندما يشعر باقتراب النهار يفر مسرعاً إلى عالمه العلوي . فالنهار والضوء عدوان لدودان للأشباح

قال جبسن في ختام بحثه عن الأشباح : « إن المهارة والمقدرة التي أظهرها شكسبير في تصوير الأشباح لما يؤكد لنا اعتقاده الجازم بها [1] » وهذا الحكم الذي يصدره ناقد معروف كجبسن لجدير بالتفكير والبحث . نعم إن شكسبير لم يوفق في بحثه عن الأشباح وتصورها كما وفق في الساحرات والجنيات ؛ فخياله المبدع الذي رأيناه سابقاً لا نشاهده في الصورة الحالية ؛ وقد يكون هذا النقص ناتجاً عن عدم اعتقاده بالأشباح ؛ خصوصاً وأن الرجل لا يحسن ما لا يؤمن به ويعتقد فيه ، فكان بحثه تعوزه المقدرة ، وينقصه الخيال الواسع والفكر العميق

(1) Gibson. Sh's use of The Supernatural ?. 31

العفاريت : Devils

كان من السائد على معتقدات الناس فى ذلك العصر أن العفاريت هم من سلالة الآلهة القُدامى . وما عفاريت شكسبير إلا صور مصغرة من آلهة الرومان واليونان والفلسفة الشمالية ، فهم مصدر شقاء وينبوع آلام . نعم إن مقدرتهم لم تصل الى تلك الدرجة من القوة التى وصلت اليها مقدرة الساحرات ، ولـكنهم رغماً عن ذلك كانت لهم القدرة الـكافية على الاختفاء بالشكل الذى يريدون

وفى رواية تايمون أثينا (Timon of Athens) نرى وصـفاً مسهباً لهذا النوع من العفاريت عند ما يتكلم المهرج قائلاً : « إنها روح شريرة تظهر مرّة بشكل سيد من الأسياد ، وأخرى بشكل محام بارع ، وثالثة بشكل فيلسوف شهير »

وكانت فى بعض الأحيان تتخذ لها وسيطاً من بنى البشر ، فيكون لهن من روحه مكاناً يقمن فيه ، ويعامل هذا الرجل (المسكون) عادة أشد المعاملة وأقساها ، فهو عرضة للشتائم وشتى أنواع العـــذاب والهوان . وفى رواية (مهزلة الأخطاء) (Comedy of Errors) نرى بنسن يخبر خليلته بأن زوجها وخادمه قد أصابهما مس من الجنون ، وأن العفاريت قد اتخذت من روحيهما مسكناً مريحـاً ، فمن الواجب إذن القبض عليهما وايداعهما حجرة مظلمة

وفى حديث غرامى بين روزاليند وعاشقها رولاندز فى رواية (كما تريد (As You Like it)) نرى الفكرة نفسها واضحة جلية ؛ فهى تقول له : « إن الحب جنون ، وما العاشق إلا مجنون يجدر به أن يكون حبيس غرفة مظلمة لا يدخلها الضوء ؛ ولـكن المحب لا ينزل به هذا النوع من العقاب ، لأن الحكام والقضاة قد كانوا فى نفس الحالة يوماً ما ، ولذا كان من الواجب مداواته بالنصيحة والمشورة »

يندر أن تجد عفريتاً من هذه العفاريت يظهر بشكله الحقيقى على مسرح شكسبير ؛ ولا أذكر فى رواياته كلها غير مرة واحدة تراءى العفريت فيها للنظارة ، وهذه المرة تقع فى رواية هنرى السادس عند ما تدخل العفاريت المسرح بعـد إلحاف شديد من الساحر (لابوسيل) ، فيقومون بأعمال كثيرة تعد فى حكم المستغربة الشاذة ، فيدخلون دون أن ينطقوا بأية كلة ، ومن ثم يلقون برؤوسهم الى الأسفل ، ثم يرفعونها مرة ثانية ويغادرون القاعة حيث لا رجعة بعد ذلك

من هذه الأعمال الغريبة التى كان العفاريت يقومون بها نستنتج أن هـذه المخلوقات تعد من أغرب أنواع المغيبات ، وتختلف عن سائر الأنواع الأخرى باختفائها الدائم فى الهواء ؛ وقدختم جبسن بحثه عن العفاريت بقوله : « إن شكسبير لم يهتم بهذه المخلوقات اهتمامه بالأنواع الأخرى المشابهة لها ؛ وإن معاملته الشاذة لها جديرة بالاستهزاء بدل الاجلال والتقدير [1] » وهذا الحـكم على درجة كبيرة من الصحة والصواب ؛ فلا نجد هنالك إلا عددا قليلاً من الأماكن التى يأتى ذكرها فيها ؛ ولو فرضنا جدلاً أن شكسبير ذكرها فى عدة أماكن لرأينا أن ذكره لها لا يتجاوز عـددا من الأسطر ؛ ثم يتركها على ألا يعود اليها ثانية . ومن هـذا يظهر جلياً أن شكسبير كان يحتقر هذا الاعتقاد فى العفاريت فلم يولها جانباً من اهتمامه

(يتبع)

خيرى حماد

(1) Gibson. Sh's Use of the Supernatural P. 33

الدكتور محمد اقبال

فلسـفته

معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب

للسيد أبو النصر أحمد الحسيني

إن أول مَن لَحِظَه التوفيق بين فلاسفة الغرب فى أن يثبت بالدلائل القاطعة والشواهد الصادقة أن الانسان لا يقدر على حل العقد المستغلقة والمعضلات الغامضة فى هذه الكائنات بالعقل المجرد، هو الفيلسوف الألمانى الكبير (كانت). وعلى هذا أثبت كانت عن طريق فلسفى ضرورة وجود الله ولزوم الايمان به، وبرهن فى مصنفه «نقد العقل العملى» على أن قواعد عقل الانسان العملى ودعائم عمله ووطائد اختياره ثلاثة: حرية الارادة، وخلود الروح، والايمان. ووضح أن الانسان لا يمكن أن يكون مسئولا عن أعماله إذا لم يكن فيها بالخيار. لذلك كان (كانت) بكشف هذه الحقائق وأمثالها فى عالم الفلسفة قد قام للانسانية بخدمة عظيمة

ونحن قد أبنا لك فى المقال السابق أنه على حسب فلسفة اقبال أيضاً يكون لكمال الانسان وتقدمه ثلاث دعائم: احراز الغاية القصوى من الحرية والاختيار بنيل الأنانيـة العظمى، ونيل الخلود باتصاف الأنانيـة بحالة الجد المستمر، ثم بلوغ منزلة الخلافة الالـهية التى هى نهاية عليا لذلك الكمال والتقـدم: فعلى هذا يتفق اقبال مع كانت فى التصورات الثلاثة أساسياً، ويختلف عنه فى أن ليس لدى كانت تصور الخلافة الالـهية. وأما تصور (كانت) الثالث وهو الايمان فهو أساس جميع تصورات اقبال، لذلك لم يحتج اقبال إلى اثبات ضرورة وجود الله والايمان به فى فلسفته كما احتاج اليه كانت، ولأن مبدأ فلسفة اقبال الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر. وآخر الجد المستمر الايمان كما هو أوله، لأن الانسان لا يقدم على عمل ويستمر فيه إذا لم يك مؤمناً بنتيجته ونجاحه فيه، وكذلك اقبال لم يحتج إلى اثبات قانون أخلاق خارجى كما احتاج اليه كانت فى بيان نظريته الأخلاقية، لأن قانون الأخلاق عند اقبال ينجم عن ضروريات الأنانية الباطنية، فكل شىء يقوى الأنانية عنده خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح؛ فكأن أنانية الانسان المتصفة بالجد المستمر عنده ضمنية لانتاج ذلك القانون، فلا يحتاج إلى البرهان والدليل

ويختلف إقبال عن كانت فى أن اكتساب الحرية والاختيار ونيل الخلود والدوام فى فلسفته ثمرة الجهد المستمر لا يفوز بها إلا الذى اتصفت أنانيته بتلك الصفة، أى الجد المستمر. فكل من رغب فيها وطمح إليها ينبغى له عنده أن يسعى لذلك بعزم وحزم لا يشوبهما على الزمن خلل ولا وهن، وأما كانت فقد تصدى لفكرة الحرية والاختيار والخلود والدوام فى فلسفته ليقول إن العدل جار فى الكائنات وإنه يوجد فيها المطابقة بين الأعمال ونتائجها، وبين الأمور وعواقبها

إن فلسفة إقبال فلسفة تفاؤل لأنها تخلق فى الانسان الأمانى تترى، وتبعث فيه الهمة القصية المرمى، وتحفزه لبذل الجهد واستفراغ الوسع فى تحقيقها بالمثابرة والمواظبة. فهى لذلك تخالف فلسفة التشاؤم التى كان أكبر أئمتها الفيلسوف الألمانى شوبنهاور.

كان شوبنهاور هذا متأثراً بأفكار البوذية الهندية، فنظر إلى العالم نظرة التشاؤم، وقرر أن حقيقة الكائنات القصوى هى الارادة، لكنها لا تقدر أن تملك لقصدها مشمولاً خاصاً يمكن أن يعرض عملياً فى الذهن، لأن كل مشمول مثل هذا يتعلق بخارجها. فلذلك تملك الارادة الكونية لقصدها نفسها، أى هى تريد لأن تريد. هى تريد لأن تكون حقيقياً، فان كل شىء حقيقى ليس إلا الارادة الممثلة. فبهذا المفهوم سمى شوبنهاور تلك الارادة «إرادة الحياة»، ورأى أنها جوهرياً شر، فانها لا يمكن أن تقنع؛ هى ألم. هى ألم غير القانع؛ وعلى هذا فالحياة حمأة الطموح الذى لا يشبع، وثورة التوقان الذى لا يقنع. لذلك كانت نهاية الانسان دائماً فى الشكوى، ولن يتم له حسن الحظ أبداً. ولكن إقبالا يرى أن سوء الحظ وآلام الحياة أكثر فائدة للانسان إذ بها تربى أنانيته وتدرب، فيطأ بها أعراف الجد، ويتسور شرفات الكمال؛ ثم شوبنهاور ينكر الفردية أى وجود الأشـياء المنفردة أو «الارادات المنفردة» كما يقول، ويرى أنها وهم لأنها تتوقف على الفروق الزمنية والمكانية، بينما أساس فلسفة إقبال هو الفردية

أما من يوجد بين فلسفته وفلسفة إقبال معالم المشابهة وملامح المماثلة أكثر فهو الفيلسوف الألمانى الكبير نيتشه . والمزية الكبرى لنيتشه هذا بين فلاسفة الغرب أن عبقريته صبغت الفلسفة بصبغة الالهام ، ولم تكتف فى المباحث الفلسفية بانتقاد الفن ، بل أتت للعالم بمقياس جديد للحسن والقبح ، والخير والشر . وفلسفته ثمرة مزيج من أفكار كانت ، وشوبنهاور ، وداروين . فقد استنبط من نظرية العلم لكانت أن ليس هناك شيء يقال له علم ، بل كل شيء خيال ووهم ، وذلك لأن الحقيقة لا يكشف عنهـا بل تُخلق ، ولا يبحث عنها بل تُخترع ، وهو أيضاً قد قرر مثل شوبنهاور أن حقيقة الكائنات القصوى هى الارادة ، ولكن ليست « إرادة الحياة » كما رأى شوبنهاور بل « إرادة القوة » ، وهى عنده مصدر كل خير وفلاح كما أن « إرادة الحياة » عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران . وما أحسن قول البعض ان ما رآه شوبنهاور شيطاناً رآه نيتشه إلٰهاً

يرى نيتشه أن « إرادة القوة » هـذه دافع قوىّ غريزىّ سارٍ فى الكائنات ، فهو مركز الحياة الانسانية ، بينما إقبال يرى أن مركز حياتها هى الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر . ولكنهما يتفقان فى أن خوض غمار الآلام ومكابدة المصائب ، ومعاناة النوازل ، مما لا محيص عنه لصعود الانسانية فى معارج الشرف ولبلوغ تقدمها غاية الكمال . ويتفقان أيضاً فى أن هـذا العالم المادى هو ذريعة إلى تلك البغية ووسيلة إلى ذلك المطلب ، وأن الفن[1] يجب أن يكون ملتقى الجمال والقوة كما يتفقان فى أن فلسفة الأخلاق المسيحية غير وافية لضروريات تقدم الانسان وتسنمه ذروة الكمال . غير أن نيتشه قدح فيها قدحاً شديداً وانتقدها انتقاداً لاذعاً وصرح بأن المسيحية تدعو إلى « أخلاق العبيد » فى حين أن إقبالاً اكتفى بالاشارة إلى أنها غير مفيدة للانسانية لأنها لا تقدر على إماطة اللثام عن قواها الخفية ، ولا على الكشف عن استعداداتها المكنونة ، وذلك لأنها تدعو إلى الرهبنة وترك العالم . وبناء عليه فدعوة إقبال خلاف ذلك كما قال فى بيت ترجمته :

غص فى البحر وحارب الأمواج
فان خلود الحياة فى المحاربة

يتفق إقبال ونيتشه فى تصور كمال الانسانية ؛ بيد أن نيتشه يراه ممثلاً فى سوبرمان (أى فوق البشر) وإقبال يراه فى خليفة الله . والفرق الأساسى بين تصوريهما هو أن نيتشه ينكر وجود الله ويقول : « اقتلوا الله ! « Alles ist erlaubt » كل شيء مباح . إن الطبيعة والدوافع الطبيعية ليست شراً . ابعدوا الحياء والكظم ! ابعدوا الأدب والتقيد ! إن أخلاق الرجل الحر ستكون الأخلاق المعبرة عن الذات حقيقة » ، وعلى هذا فسوبرمان نيتشه محصور فى نفسه ومحدود فى ذاته ، ليس لديه غاية يجرى اليها ولا هم يتفرّغ له . وأما الخليفة عند اقبال فخياله الأنانية المظمى ، أى الله ذو الرحمة الواسعة ، وصاحب العطاء المتصل ، فله عنده الدرجات العلى ، يجزى بها بما يسعى ؛ ثم سوبرمان نيتشه عارٍ عن العاطفة جافى الطبع ، شديد الوطأة ، لأن روح أفكار نيتشه أرستقراطية ، فرأى أن حقيقة الكائنات القصوى « إرادة القوة » ؛ وقرر أنها هى الدافع الغريزى الأقوى فى الانسان فعليه أن يطلبها ، ولكن هذا الطلب غير المشروط كان ينجم عنه نظام القِيَم الذى ظلت الحضارة مشتبكة فيه إلى الآن . فهنا أتى نيتشه بفكرة « وراء الحسن والقبح[1] » فارادة القوة عنده لا تعرف حدود الحل والحرمة ، والحسن والقبح ، لأن كل شيء مصدره ونهايته قوة ، عندها حلال وحسن ، وكل شيء مصدره ونهايته ضعف ، عندها حرام وقبح ، والعقائد كذلك ليست عندها متساوية متماثلة ، فالفرق الحقيقى بينها ليس عندها من حيث كونها حقاً وباطلا ، بل من حيث كونها مفيدة وغير مفيدة . وهكذا شعرت أرستوقراطية نيتشه بضرورة « Umwertung aller Werte » ، أى تغيير جميع القِيَم ، فمثل فى آن واحد دور الفيلسوف ، والمصلح الاخلاقى ، والشارع ، وخالق الحضارة الجديدة . وكان فى دور ارتقاء أفكاره الأخير شاعراً بمهمته هذه

فعلى هذا النمط وصل نيتشه إلى تصور كمال الانسانية فى صورة « سوبرمان » بازاء عامة الناس الذين هم موضع قنوطه ويأسه . فانشأ فكرته الجديدة للحضارة بتوزيع الاجتماع

(١) قد بينا رأى الدكتور فى الفنون والملاهى فى مقال تأخر نشره لمرض الأستاذ صاحب الرسالة ، وسينشر بعد فراغنا من فلسفة إقبال

(١) أى « Jenseits von Gut und Böse » ، وهو أيضاً اسم لمصنف نيتشه

الانسانى فى طبقتين متناقضتين : ذات أخلاق السادة وذات أخلاق العبيد . وقرر أن الأولى منشأ سوبرمان ، وأن لأفرادها وهم الأقوياء حق معاملة أفراد الأخرى وهم الضعفاء بالظلم والعدوان ، وإن واجب القوى فى شريعة الارتقاء وتنازع البقاء الولوغ فى دماء الضعيف وفتح جميع أبواب الجور عليه بكل وحشية ، فان السوبرمان أو الانسان القوى الكامل الصالح للحياة لا يظهر إلا بتدمير الضعيف غير الكامل وغير الصالح للحياة . وأما طبقة الضعفاء أو « ذوو أخلاق العبيد » كما يسميهم هو فقد خلقوا لاستعمال الأقوياء فقط ، وهم موضع يأس نيتشه ، لذلك سد عليهم نيتشه جميع أبواب التقدم كما سدت ديانة البراهمة على المنبوذين فى الهند

فلذلك كان تصور الخليفة لدى إقبال خيراً من تصور السوبرمان عند نيتشة ، لأن روح أفكار إقبال الديموقراطية الاسلامية (١) فالخليفة عند إقبال شخصية محبوبة إلى جميع طبقات البشر تسمى لخيرهم ، وتسبغ من خصب طبعها عليهم وتقربهم إلى نفسها ؛ فكلما تتقربوا اليها تتدرج حياتهم فى مدارج الكمال ؛ وهى تمثل اللين كما تمثل الشدة . وهاتان الصفتان لا محيص عنهما لتقدم الاجتماع البشرى . قال إقبال فى بيتين ما ترجمتهما :

اخلق من حفنة ترابك
جسما أوطد من حصن منيع
وليكن فى داخله قلب رقيق
كالنهر فى جنب الجبل الراسى

إن ما حدا بنيتشه إلى هذه التصورات الارستقراطية هو خوضه غمار الأدب اليونانى ، وهو لم يشعر بأن النظام الاجتماعى اليونانى فى هذا الأمر كان ناقصاً . فلو شعر بذلك لم يحسب العبودية كالجزء الضرورى للتمدن . فظهور سوبرمانه فى الحقيقة على حساب تلك العبودية ، وهو يحوز قصب السبق على جهود هؤلاء العبيد ، وعلى هذا فشخصيته عند فلسفة إقبال ليست بأكثر من شخصية مستجدٍ ؟

« للمقال بقية »

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

(١) ليست الديموقراطية الأوربية لأن الدكتور اقبال يفرق بين الديموقراطية الأوربية والديموقراطية الاسلامية ، ونحن قد بينا الفرق فى حاشية مقالنا السابق فراجعه

اعلان

وزارة الأوقاف بصفتها ناظرة على الأوقاف الخيرية والأهلية والحرمين الشريفين تشهر فى المناقصة العامة عملية توريد وتركيب مائة كباس حديد تحت الزيادة والعجز المطلقين حسب الشروط والمواصفات الموجودة بقسم الرى والميكانيكا ، وتقبل العطاءات لغاية ظهر يوم ١٢ نوفمبر سنة ١٩٣٥ داخل مظاريف تقدم باسم معالى الوزير (قسم الإدارة) وكل عطاء لا يكون مصحوباً بتأمين ٢ فى المائة من قيمته لا يلتفت إليه ، والوزارة حرة فى قبول أو رفض أى عطاء بغير بيان الأسباب ، وعند رسو العطاء يكمل التأمين إلى ١٠ فى المائة

ولمقدمى العطاءات الحق فى حضور جلسة فتح المظاريف يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩٣٥ من الساعة الحادية عشر صباحاً بسراى الوزارة

كلمات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

حياةٌ ولـكن الحياة تزول   ودنيا ولـكنَّ البقاء قليل
ودهرٌ طويلٌ ماله من نهـاية   ولـكنَّ فيه العيشَ ليس يطول
وشمسٌ يسرّ الناظرين طلوعُها   ولـكن لها بعـد الطلوع أفول
وفي كل يوم للنهـار إذا أتى   غدوٌّ ومن بعد الغدو أصـيل
ربيعٌ ولـكن لا يطول زمانُهُ   وزهرٌ ولـكن يعتريه ذبول
وإن حيـاة المرء آفةُ نفســـه   فإن لم يغـُله الموت فهي تغول
وفي القبر قد تبقى من الميْت أعظم   ومما بناه أرسمٌ وطلول
وما الموت للانسان إلا ضرورة   فينشأ من جيـل تقاعس جيل

***

يواري الفتى تحت التراب صديقه   ويدفن في الأرض الخليلَ خليل
كأن الأسى جمرٌ له من لهيبه   ذوائب أصلى نارَها وذيول
كأن فؤادي يستحيل بها إلى   دموع ومن عيني الدموع تسيل
أمامي أرى ماءً نميراً وبي صدى   ومالي إلى الماء النمير سبيل
يبيتُ ابن أرض الرافدين على الطوى   ويشبع من خير البلاد دخيـل
وما الأرض بين الرافدين شحيحةٌ   ولا الماء يسقى الرافدين قليـل
تهون فلول السيف في حومة الوغى   إذا لم تصب نفسَ الكماة فلول
أفكر في الماضي فلا هو عائدٌ   إليّ ولا عن ناظريّ يزول
ولو كنتُ ممن يؤثرون نفوسهم   لملتُ مع الأيام حيث تميـل
طريقي طريق الصدق لو كان منجياً   فما ليَ حتى الموت عنه نكول
ولي كبدٌ أخشى عليها من الجوى   إذا ما نأى بالظاعنين رحيـل
وكم مرةٍ واريتُ صحبيَ للثرى   على وجه مَن عزّوا عليّ أهيل
يقولون ما للدهر يقسو بصرفه   عليـك ويبغي غِرّةً ويصول
ومن أنا من دهري فيطلب غِرّتي   ويغريه بي بعد المشيب ذُحول

***

أكوّن رأيي في الحياة مفكراً   ولـكنَّ رأيي في الحياة يفيل
ورب عويصٍ في الحياة أمامه   يظلّ ســواءً عالمٌ وجهول
من الدهر تبغي خَلْقَ ذي عبقرية   ولـكنه بالعبقريّ بخيــل
من الغُرّ أما عقـله فهو راجح   يصيب وأما وجهـه فجميل
ويعرف من نور السهى مابجوفها   على أن ما يأتيه منـه ضئيل
إذا الشمس ذرّت من وراء حجابها   فللأرض منها غرّة وحجول
ألام على نَيْلي من الشعر شهرةً   ومَن ذا يعاف المجدَ وهو أثيل
يجيش بصدري الشعر من سورة الأسى   فأشدو به مســـتعبراً وأقول
ورب يراع جاء في كفّ شاعر   بما لم يجئه السيف وهو صقيل
إذا امتلك الذعرُ النفوسَ فجاءة   فأوّل ما يَلقى الضـياع عقول
وإن حيـاة الشيخ بعد صراعه   وخيبتِه عبءٌ عليـــه ثقيل
لقد حال مني كل شيء عرفته   سوى ذكرياتٍ لا تكاد تحول

الموت

للاستاذ فخري أبو السعود

أيا قادماً تخشى النفوسُ قدُومَه   لأنتَ صـديقٌ في ثياب غريم
قدومُك تحريرُ الأسارى ولو درتْ   لما أنـكرتْك النفسُ يوم قدوم
كما يُنكرُ الطفلُ الطبيبَ وعنده   له بُرْءُ أسقامٍ ودَمْلُ كلوم
بَلَوْتَ نفوسَ الخلقِ من عهد آدم   فأنتَ بهـا يا موت جِدُّ عليم
إذا قسَت الدنيا على مُتعَبٍ بها   بسطتَ له لأْياً جناحَ رحيم
ومن شفَّهُ قيظُ الحياةِ أغثته   بِبَرْدِ نسيمٍ في الأصيل رخيم
فأنت لِنِضْوِ العيش من دون صحبه   ومن دون قُرْباه أبَرُّ حميم
وأنتَ دواءُ الجسم قد خيلَ داؤهُ   تُميط الأذى عن مُوجَعٍ وسقيم
وأنت بلاغُ النفس حَيْرَى مَرُوعةً   بوادي شُكوكٍ جمةٍ وهموم
وفيك ابتعادٌ عن جهالة جاهل   وعن قول مأفونٍ وفعـل لئيم
وعندك نسيانٌ وطول زهادة   لكل مُرادٍ في الحياة عقيم
فأنت ـ وإن غُلّتَ المنى ـ أطْيَبُ المنى   وفيـــك نعيمُ المرءِ أيّ نعيم
لعمرك ما حيٌّ بأرْوَحَ منزلاً   على الأرض من بالٍ بها ورميم
ولو علم الجاني لما جادَ عامداً   على خَصمه بالموت جُودَ كريم

وتمحو يداكَ الحقدَ والخوفَ والأسى
وكلٌّ بلاءٌ فى النفوس قديم
وكلُّ بلاءٍ لم يسِغ طعمَه الفتى عليه طوًى بالأمس كشح كظيم
وأنت تُريح الفكر من كل مُعْضِلٍ يظلُّ لهُ فى حيرةٍ ووجوم
وتطوِى عن الأجفان صفحة عالمٍ مَلِئٍ بأنواع الشرور ذميم
وتطوى كتابَ الأمس طيًّا وما مضى
به من بغيضٍ ذكرُه وأليم
عزاءٌ لبعض الناس أنك قادمٌ وأن شقاء العيش غيرُ مقيم

المادة

للأستاذ محمود غنيم

فتَّشتُ بين الناس عن زاهدٍ فلم تقع عينى على واحدِ
ما أزهدَ المرء إذا لم يجدْ وأبعدَ الزهدَ عن الواجد
لا يُزْهَ إنسانٌ بآدابه أو يفتخرْ بالسلف البائد
المجدُ إما سطوةٌ أو غنًى ما العاجزُ المعدِمُ بالماجد
فقيمةُ الشعب اذا قستها بقيمة الصَّادر والوارد
وقيمةُ الفرد بما يملك الـ غَرْدُ من الطارف والتالد
كم طفلةٍ أوْدعَ من هِرَّةٍ حَوَّلها الجوعُ إلى مارد
قد يُحسدُ المرءُ على رزقهِ ولا أرى للفضل من حاسد
لم يفتتن بالمكرُمات امرؤٌ والغانياتُ فتنةُ العابد
العلمُ والأخلاق ما قُدِّسا إلا لنفعٍ منهما عائدِ
لا يَردَعُ التاجرَ عن غشِّهِ إلا اتقاءُ المتجرِ الكاسد
لم يختَر الناسُ دياناتِهم بل أخذوا بالمذهب السائد
ليس جمالُ الطبع فى غادةٍ مثلَ جمال اليدِ والسَّاعد
يا زاعمَ العفَّةِ فى حبهِ ما تبتغى من كاعبٍ ناهد ؟
لم يتَّقِ اللهَ امرؤٌ للتقى بل لنعيم الجنة الخالد
تيمت الناسكَ حُوريةٌ ذاتُ قوامٍ أهْيَفٍ مائد
تَسقيه كأساً حُلوةَ الطعم من خمرِ الجنانِ السَّيِّغ البارد
لولا جمالُ الحورِ ما لامَستْ أرضَ المُصلِّى جبهةُ الساجد
هل كنتَ تلقى فى الورى ساعياً لو كان يسعى الرِّزقُ للقاعد
سِيَّان مَنْ يسعى إلى قُوتهِ بالسلبِ أو بالورَعِ الزائد
كم لحيةٍ أجْدَى على ربِّها من ألفِ سهمٍ بيدِ الصائد
جُرْحُ يد المرءِ لهُ قائدٌ(١) وما لجُرح العِرْض من قائد
كم مُجرمٍ يقتُل روحاً ولا يُجزَى جزاءَ القاتل العامد
قد يُترَكُ الأولادُ من جهلهم صَرعَى ولا حدَّ على الوالد
صاحِ دَعِ الرُّوحَ ودع قُدْسَها نحن عبيدُ الجسدِ الفاسد

(١) من القود بمعنى القصاص

حمامتى !

للشاعر الانجليزى « كيتس Keats »

بقلم عيسى وهب الله الشمبيرى

أظنها من حزنها قد ذوت ورفرف الموت على وكرها
ويلاه ! ماذا ساءها فانزوت تطفىء بالحزن سنا عمرها ؟

***

كانت على سيقانها الناعمة خيوط خز صنعتها يدى
تزهو بها ، كالوردة الحالمة على غصين مائس أملد

***

جفت وأبلى السقم سيقانها واحسرتا من سكرات السقام !
يا زهرة أذبل عيدانها عصف الردى كيف أتاك الحمام؟

***

قد ضمك الغاب زماناً مضى لم تسعدى فيه بنجوى الحبيب
والآن قلبى وكرك المرتضى فكيف هدت جانبيك الكروب

***

والحص الأبيض كم أشرقت فى ثغرك المحبوب حباته !
والشاعر المحزون كم صفقت فوق لماك العذب قبلاته !

***

فَلِمْ هجرت الدار لم تسعدى بين يدى فيها بعيش مصون ! !
لو كان أمر الموت طوع اليد فديتك اليوم بروحى الحزين !

القصص

صور من هوميروس

١٢ – حروب طروادة
بتروكلوس
للأستاذ دريني خشبة

إن يكن قد أصاب الطرواديين قَرْحٌ فقد أصاب الهيلانيين قَرحٌ مثله

ذلك أنه ما كاد يغادر نپتيوما حومة الوغى ، صادعاً بأمر الإلـه الأكبر ، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم ، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الحومة مارس وزبانيته

أفاق الطرواديون إذن ، وصحا زيوس من رُقْية حيرا ، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئى أخيل ، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذى ملأ جفنيه ، وغلّق سمعيه ، وأطلق أيديهم فى أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان ! !

وما هى إلا أن لم الطرواديون شعثهم ، ورتقوا فتقهم ، حتى استطاعوا أن يعيدوا الزحف ، ويأخذوا أعداءهم المزهوين بنشوة النصر ، على غرة منهم ؛ ويطّلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس ، ثم يسلط عليهم صواعقه ، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع ، ليس له من دونه دافع ، إلا أن يُثأر لابن ذيتيس ، حبيبة القلب ... ومنية النفس !

وفزع أوليسيز إلى رمحه ...

وأجاممنون إلى سيفه ...

وديوميد إلى صَعْدته ...

وأجاكس إلى جُرازه ...

وفزع الجنود الى أسلحتهم يشحذونها ، والى دروعهم يلبسونها ، والى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها .... والى الواقعة فيخوضون خُبارها ، ويثيرون عجاجتها ...

ولكن ! ... بلا جدوى ... !

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر ؛ وضُيّق عليهم حتى نظروا الى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا ؛ ورأوا الى هكتور كالأسد الهصور يزلزل الساحة بزئيره ، ويثير فى قلوب جنوده الحمية باقدامه ، وأينما توجه توجه الموت فى ركابه ، وقطرت المنية من سنان سيفه ، وانقدح الشرر من حوافر خيله ، وتناثر الزبد من أشداقها ، فيكون سُمّاً فى قلوب الهيلانيين

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ ، وشاعت الخيلاء فى أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثراً بجراحه ، وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد ، وديوميد محمولاً الى سفينته كمن يجود بروحه ، وأجاكس العظيم يولى دبره غير متحرّف لقتال .... فأوقدوا مشاعلهم ، وأججوا نيرانهم ، واعتزموا اضرامها فى أساطيل الأعداء ، ليكفوا طروادة شرورهم ، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم ، وليتم نصرهم ...

وهنا ... ... ؟ ! !

انتفض بتروكلوس ! بتركلوس الكبير ، صديق أخيل ، وأعز الناس عليه ، وجذوة الحماسة المتأججة فى ضلوع الميرميدون !

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم الى البحر فتلقى بعتادها فيه ، ثم يسبح منهم من يسبح الى الأسطول الحزين الذى بدا عليه كأنه يرثى لرجاله ، ويبكى على أبطاله ، ثم يغرق منهم خلق كثير ، فيبتلعهم اليم ... الى غير عود ... ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين ... ثم نظر أخيرا فرأى الى حَمَلة المشاعل والنيران يزحفون إلْباً فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية ، لو أعملوا منجنيقهم فى قذفها لأصبح الأمر

غير الأمر ، ولأتوا على آخر قوة لبني قومه ، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم ! ولعاد الميرميدون كاسفي البال يحملون الى هيلاس أنباء مصارع اخوانهم ، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم أقصى ما يكونون حاجة اليهم ؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التي بينه وبين أجاممنون حتى في هذه الساعة العصيبة ، فينهض لنصرة اخوانه اليونانيين ، وليدفع عنهم هذا البلاء الذي حاق بهم ، وليرد عنهم عادية هـذه الكلاب التي تنوشهم وتمزق صفوفهم ... ...

ورأى بتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون الى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين ، يجرون أذيال الخيبة ، ويلملمون أكفان الفشل ، فثارت في قلبه نخوة الجندي الباسل ، واشتعلت في أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التي يملأ بها السهل والجبل ، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التي تتدافع الى البحر ... فكأنها تفر من موت الى موت ، وتنجو من حمام الى حمام ... فذهب من فوره الى أخيل ، واقتحم بابه غير مستأذن ؛ وقال :

« أخيل ! » .

« فتى هيلاس وغَوْثَها في كل رَوْع ! »

« يا سليل الآلهة ، المترفع عن الدنايا ! »

« أرأيت ؟ ! . . . »

« ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة ، فلم ينهض أخيل لنصرتهم ؟ وماذا نحمل إلى هيلاس إذا أبنا غداً غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة ؟ وكيف نلقى الأمهات المولات على أبنائهن ؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذي بدت بوادره ، وأخيل العظيم لا يحرك ساكناً ؟ وكيف نتقي نقمة الشعب الذي ندبنا لهـذا الأمر إذا خُنا أمانتـه ، وبددنا ثقته ، وحطمنا آماله ؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التي أحسبنا خدعنا بطراوة العيش فيها والأحاديث المسولة عنها ؟ »

« أخيل ! »

« بل فكر مني إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة في دمائنا ، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم ، وتحرق سفنه ، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة ، لتثأر لهـذه السنين السوداء التي أذقناهم طوالها رهق الحياة وخبائة العيش ! ! »

« ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة ، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المُراع ، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج ، وتذل لعزته البحار ؟ »

« أخيل ! »

« انظر إلى الميرميدون تكاد تقتلهم الحُنْقَةُ على هـذه البلادة التي أخمدت سورة الحرب في نفوسهم ، وأطفأت جذوة البطولة في قلوبهم ... انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم ، وليلقوا على هكتور درساً في النزال لا ينساه آخر الحياة ! »

« مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل ؟! إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم ، ويدفنون سخائمهم ، ولا يبالون ألف متعسّف أفاقٍ مثل أجاممنون ! إن هذا يوم هو كله للوطن من دون أيام الدهر جميعاً ، فاذا أفلتت فرصته من أيدينا ، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدي الهيلانيين جميعاً ؛ ولن يقال في سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن ، وفي سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن ، وأبناء الوطن ، ومستقبل الوطن ! .. »

« إيه يافتى هيلاس ، وحامي ذمارها إذا اشتد بها الكرب ! »

« مالك تصمت هكذا كأنك تسمع إلى ألف قرن تناديك ، وتضع ثقتها فيك ؟ ! »

« أنا زعيم لك يا فتى هيلاس ، أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرّة عليهم إذا رأوْا خوذتك التي تكسف بلألائها شمس الضحى ، وشاهدوا هـذه الشعرات البيض التي تزين ذؤابتها ! »

« أخيل ! »

رد على أعز الناس عليك ، فالظرف أحرج من المطل ، وأقصر من هذا الصمت ! والساعة مفزعة مروعة ، وإخواننا في الوطن والآلهة يصرخون ويموتون !

« أخيل ! »

إن كان يعز عليك أن تحنث في عزمتك التي عزمت ، فأذن لي أن ألبس خوذتك ، وأمتشق سيفك ، وأحل في دروعك السوابغ ، ثم أسوق الميرميدون باسمك ، فأرد عادية القومِ ، وأجير

إخواننا الهيلانيين ! ... ...

وكان بتروكلوس يكلم أخيل وكأنما كان وحى السماء يتنزل على قلب البطل ، بلاغةً وحرارةً وقوةَ إيمان وثباتَ يقين ، ونفساً تجيش بالحب وأقدس المنى لوطن مصابٍ فى أبطاله ، منقوصٍ فى عزائم بنيه ، يتلفت من خلف البحار ، يرى ماذا يصنع أخيل فى هذا الروع ، وجنوده الميرميدون !!

وهب أخيل من جلسته الخاملة ، وأخذ يدَىْ بتروكلوس فى كلتا يديه ، وطبع على جبينه المرتجف قبلةً مهر بها صك التضحية فى سبيل الوطن الشقى ، وقال لصديقه :

« بتروكلوس ! أخى ! يا أعز جنودى علىّ !

« أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب ، فلا ! ولكنى آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد ، ما دمت تؤثر صالح الوطن ، وتحرص على حقن دماء الهيلانيين »

بتروكلوس ! لا يَدُرْ بخلدك يا صديقى الكريم أننى انتويت أن أغضب غضبةً لا انتهاء لها ؛ ولكننى أُمرت أن أنتظر حكم السماء بينى وبين خصمى الذى لم يتورع أن يهتك أمر السماء ، فيسلبنى ثمرة خلعها رحى على ، وقدمها لى جيش بأمره . . .

هلم يا بتروكلوس فالبس دروعى واسبغ عليك لأمتى ، وشرف خوذتى بجبينك ، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون ، ولتبرهنوا لناكر الجميل أننا سبب مجده وخير جنده ، وذخيرته كلما حزبه كرب ، أو ألم به خطب

« هلم . . . . . هلم . . . . . »

***

وانطلق أخيل فصاح بجنوده ، فهرعوا اليه فى سُفُنِه الخمسين ، الراسية بمعزل من سائر الأسطول الهيلانى . . . . وكم كان رائعاً أن يتحرك أسطول أخيل ، فى أحرج ساعةٍ مرت بهذا الجيش المنير ، الذى وقع فريسة كله فى قبضة الطرواديين ! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل ؛ وكأنها الخلاص من الموت الذى يلاحقهم ، والمنايا التى ترقص فوق هاماتهم ، وهى مع ذلك فيما خُيل لهم تزورّ عنهم ، وتشيح عن نجدتهم ، لأنهم لؤموا مع زعيمها ، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصاً له !

أقلع أسطول أخيل ، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه ، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن ، حين يهبطون إلى الشاطىء من كبسة الصفوف الظافرة ، المشغولة باستئصال شأفة الهيلانيين وما هى إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة ، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه ، وكأنهم كسف من العذاب أرسله نبتيون ، رب البحار ، من أعماق اليم ليقذف بها فى قلوب الطرواديين !

وطفق أخيل يجيشهم ، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم ؛ فكان على رأس الجحفل الأول البطل الحلاحل ، والقائد المناضل ، منستيوس بن سبرخيوس ، ابن السماء وصاحب العزة القعساء . ؟ . وعقد لواء الجحفل الثانى لابن هرمز المقدام ، الفتى يودوروس ، الذى طالما كان جزعاً فى فؤاد الردى ، ووجلاً فى قلوب المنايا !! ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بيزاندر ، ابن ميمالوس ، صفى الآلهة وهبة الأولمب . وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس ، الذى آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس ، يفاوضون فى الصلح من قبل أجاممنون ؛ أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسيز ، الكميدون العظيم ، أخى الغمرات وصاحب الثارات

أما بتروكلوس ! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل ، يجرها جواداه الأشهبان ، إكسانثوس وبليوس ، أعز خيل زفيروس ، وأحب دوابه اليه ، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع فى النفوس : فهذى خوذة أخيل تتألق فوق هامته ، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركاناً يقذف الحمم . وهذى دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين ، كأنها لبدٌ نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء برَوْقيه

وتقدم أخيل فصافحه ، ومنحه شرف القيادة العامة ، وخطب الجنود فقال :

« إيه أيها الميرميدون ! هذا يومكم !

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة ، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض ؛ ولقد كنتم تعذلوننى فتقسون على فى أنى احتجزتكم هنا ووقفت فى سبيلكم دون نصرة إخوانكم ، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم وانقذوا أجاممنون مما حاق به ، ولا يجرمنكم شنآنه ألا تغيثوه ، أغيثوه فنصره عزلكم ؛ شد الآلهة أزركم ، وباركت

الأرباب أسيافكم ، وأحبت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه ؛ سيروا على بركة زيوس ، وفى حمى حيرا ، وعين مينرڤا تكلؤكم »

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم ، ورجف الوادى رجفة أجفل منها السهل والجبل ؛ إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على شىء ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة [1] ، ولا يعوقهم جُرُف ، وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها

وانتظم خميسهم [2] ؛ فبرز القلب تتبعه الميمنة ، تلقاءها الميسرة ؛ وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين

ونفخ فى البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين ، فبدّلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت ، وانطفأ فى أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة ؛ ونظروا فرأوا تلك الخوذة الذهبية التى طال عهدهم بها ، وحسبوا أنهم أصبحوا بنجوة منها : خوذة أخيل التى كانت تكفى وحدها لألقاء الرعب فى قلوب الطرواديين ، وقذف الوجل فى نفس كل منازل أو مناجز

وتصايح بعضهم ببعض : « ياللهول ياصاح ! لقد أقبل أخيل ! النجاء النجاء ! أين كان الطاغية ؟ . . . . » ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضاً : « أيها الطرواديون ! خذوا حذركم ! الفرار الفرار من الداهية الجبار ! لقد قطع الميرميدون رجعتنا ! دعوا الهيلانيين وانشدوا خلاصكم ، إلى البوابة العظمى ! أيها المقاتلون ! لا تزحموا الجسر ! القهقرى القهقرى ! ... ... » إلى آخر هذا النداءات المنزعجة الواجفة . . .

ولكن أين يهرب الطرواديون من پتروكليس ؟ !

لقد كان إكسانثوس وبليوس — الجوادان الكريمان — زوبعتين مُغْضَبتين ، تثيران الرهج وتمقدان المجاجة ، فى جميع أنحاء الميدان : فى القلب ، فى الميسرة ، فى الميمنة ، فى الجناح الأيسر ، فى الجناح الأيمن . . . . بل . . . فى السماء ! !

وكانت الشمس ، شمس طروادة الملتهبة ، تعكس أضواءها على خوذة أخيل ، فتذيب أفئدة الطرواديين !

واختلط نظام القوم ، وتدافعت جموعهم مذعورة موالية نحو الجسر الكبير ، الذى نصبوه فوق الخندق حول اليوم . ولم يحتملهم ، فهوى بالألوف المؤلفة فى جوف الخندق ؛ ولكن المؤخرة ، وكانت غالبية الجيش ، لم تنتبه لما حل بأكثر القدمة وكذلك تدافعت لا تلوى على شىء ، فجاءت من جثث الموتى قنطرة تعبر فوقها إلى . . . طروادة ! !

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها ، ثم جال پتروكلوس جولة هنا وجولة هناك ، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التى كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين ، منذ لحظات ، فلقى منهم پرنوس فصرعه ، ثم نستور فجندله ، ثم اريالوس فأرسل به الى الجحيم ، وعشرات غيرهم من بنى طروادة النجب

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور ؛ فسعى اليه وضيق الحصار عليه ، وأرسل اليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته ، ولكن ، يالهكتور ! ! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة پتروكلوس ، فألهب جياده الضاريات فعدت به وأنقذته من قتلةٍ محققة وموت مبين

ولشد ماشده پتروكلوس إذ رأى الى جانبه فتى هيلاس ، ومحاربها الصنديد أجاكس ، يقود فلول الهيلانيين ، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى ! ؟ غير مبال بجروحه التى يتدفق من أفواهها الدم صبيباً

وكم كان سرور الهيلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأمجاد يذودون عنهم ، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم ! ؟

ونشبت ملاحاة بين پتروكلوس قائد الميرميدون ، وساربيدون [1] البطل الطروادى الكبير ، أدت إلى مبارزة دامية ، وانتهت إلى فجيعة طروادة فى أشجع فتيانها بعد هكتور ! إذ شكه پتروكلوس شكة جرعته غصة الردى ، وقربت اليه ورد الحمام ! ! . . . . . .

وانكشفت غمة الهيلانيين

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر ، ودفعوه غالياً وعزيزا ! ! ياللهول !

لقد قُتِل پتروكلوس ! !

فمن لك بعده يا أخيل ! !

(لها بقية)

دريني خشبة

(١) أرض لابة أى كثيرة الحجارة والنؤى

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق : الميمنة والميسرة ، والجناحان ، والقلب — فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الأغريق ؟

(١) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه الصور لايراد ملاحاة ساربيدون وهى من أروع صور الالياذة (الكتاب السادس عشر)

٣ـ رحلة الى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

وللقوم عادات عجيبة فى الأفراح ، فاذا ماتم الاتفاق على المهر وقدره ستة ريالات (ومن هنا جاءت الأغنية القديمة : بستة ريال بابا جوزنى) تعهد به الزوج على أن يدفع عند حلول أحد الأجلين الموت أو الطلاق ، ثم يقدم قطعاً من القماش ، وفى ليلة الزفاف يدعى الأحباب إلى الطعام ، ويطوف عليهم خلال ذلك كشف بأسمائهم ، فيتبرع كل منهم بما تجود به نفسه ، وقد شهدت فرحاً اكتتب المدعوون فيه بأربعين جنيهاً ، وذلك الاكتتاب يعد ديناً عليه يؤديه كلما دعى فى أفراحهم ؛ وجل تكاليف الفرح تقع على عاتق أهل الزوجة ؛ وفى ليلة (الحنة) تمشط رأس العروس فى حفل كبير يحضره نساء من الفريقين وتلبس حلى ثقيلة من فضة ، تكاد تغطى جسمها كله ، والعجيب أنها مقترضة من الغير فلا يجوز لها أن تلبس حليها الخاصة إلا بعد الزفاف ، وتلك الحلى المقترضة ترد لأصحابها بعد الزفاف بأيام ؛ وفى ليلة الزفاف يقوم بين الفريقين شبه شجار ومشادة يشترك فيها نساء الفريقين ، طائفة تحاول أخذ العروس بالقوة ، والأخرى تحاول منعها ، وعند بزوغ الفجر تخطفها إحدى السيدات وتجرى بها الى بيت الزوج ، وبعد أن يدخل الزوج بها يظل الثلاثة الأيام الأولى نافراً من أهله وصحبه ، يخرج قبيل الشمس ويظل فى الحقول الى المساء لكيلا يراه أحد منهم ، وفى ذلك شىء من التأدب والاحتشام لا بد منه ؛ ثم يعد أهل العروس صحافاً من طعام (الرقاق) أو من العدس والحمص يسمونه (أطقاع) يحمل الى بيت الزوج ، ويحاول أهل الفريقين أن يتخاطفوه فى الطريق ، فان وصل الى الزوج سالماً أكله وإلا التهمه الناس فى الطريق تيمناً . وفى صباح اليوم الأول من الزفاف (الصباحية) يعد أهل الزوج (شجرة العرس) وهى من جمار (لباب) نخلة طيبة تخرط فى شكل أنيق وفى طول العروس ثم تزين بالأعلام وسائر أنواع الفاكهة ، وتعلق عليها الحلى الفضية التى كانت قد اقترضتها الفتاة ، ثم تحمل تلك الشجرة وسط حفل يكاد يحضره كل أهل البلدة ، ويطاف بها فى الطرق إلى أن تصل بيت العروس ، وهناك تقوم وسط البيت أياماً وكأنها عروس قامت تعوضهم عن فتاتهم ، وإذا ما قاربت اليبس قطعت وأكل منها المحبون ، وبخاصة الفتيات اللواتى يرغبن فى الزواج تيمناً وتبركا ؛ وإذا ما رزق الزوجان مولوداً سارع المحبون بتقديم قطع من قماش أبيض إن كان المولود ذكراً أو قماش ملون إن كانت أنثى ، وقد تبلغ تلك القطع بضع مئات تسد حاجة الطفل من الملابس شطراً كبيرا من عمره . وإذا مات الزوج عكفت الأرملة فى معزل من الناس جميعاً لتقضى عدتها وقدرها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وفى صبيحة اليوم الأخير تخرج لزيارة قبر زوجها ، والويل لمن لاقاها فى طريقه إذ ينصب عليه نحسها ، لذلك ينبه الناس بعضهم بعضاً ألا يخرجوا فى الصباح لأن (الغولة) ستكون فى طريقها إلى المقابر ؛ وقد يطوف بالنبأ مناد ينبه الناس ، وبعد عودتها تقصد إحدى العيون (عين طموس) فتغتسل فيها ، فان اتفق أن لاقاها شخص أصابه نحسها كله ، وإلا استأجر أهلها فقيراً يلقاها ليرفع عنها وصمة النحس ، وبعد ذلك تسير حرة ولا ضير على من لاقاها أو تحدث إليها أو رغب فى زواجها . وعادة الندب ولطم الخدود شائعة لديهم ، ومقابرهم متجاورة ، إلا من اشتغل بالذبح (القصابون) ، أو بعصر الزيتون ، فهؤلاء يدفنون فى أماكن نائية ، فكأنهم من المنبوذين

ومن أشهى الأطعمة لديهم (لِمْصَقَّة) وهى مزيج من القرع والطماطم واللحم والزيت ، ثم (إنقطه) وهى فطير بالزيت والعجوة ، وكل غذائهم بالزيت ، ولا يكادون يعرفون (السمن) قط ؛ وأحب المشروبات عندهم (اللقبى) يتخذ من عصارة لباب النخيل ، وذلك بأن يكشف عن لباب النخلة وتجرح وتوضع تحتها آنية يتجمع فيها السائل ، وقد تدر النخلة منه صفيحة كبيرة (٤ جالون) فى اليوم الواحد ، وتظل تعطى النخلة هذا القدر زهاء نصف عام ، ثم تموت ، لذلك تراهم لا يأخذون من النخيل الجيد إلا القليل كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على حال الشجرة فيضنيها . وطعم ذلك الشراب وهو طازج حلو لذيذ ،

لكنه إذا ترك قليلا تخمر فأصبح مسكراً قوياً ، وهم يشربونه متخمراً ، وبعضهم يدمن تناوله

ويدهشني تقاعد الناس هناك عن استغلال موارد تلك الواحة الغنية ، فالأرض المنزرعة محدودة جداً وهم لا يحاولون زيادتها رغم وفرة المياه وسهولة الري فيها ، وحتى البساتين لا تلقى من عنايتهم إلا القليل رغم أن المنطقة جد صالحة لسائر أنواع الفاكهة والزيتون والحبوب ، وقد تمثل الفرق أمامي مجسماً بين الناس هنا وبين أهل (الواحات الخارجة) فهم هناك يستنبتون الحبوب وبخاصة الأرز والقمح والشعير بكثرة هائلة ، وينتجون غلتين في الأرض الواحدة كل عام ، ويعنون بتسميدها ولا يفتأون يوسعون المساحة المنزرعة يوماً بعد يوم وينقبون عن ينابيع جديدة ؛ أما أهل سيوة فتوا كلون قانعون حتى ملاك الأراضي يتركونها لطبقة العمال (الزجالين) ولا يكاد المالك يزور بستانه مرة كل أعوام . وعندي أن الحكومة لو أوفدت طائفة من (الصمايدة) وأقطعتهم مساحات في مجاورة الينابيع في سيوه لكان لتلك الواحة شأن آخر في الانتاج خصوصاً وأن الطرق المعبدة الجيدة تربطها بالسلوم وبمطروح والسيارات تقطعها في أقل من عشر ساعات

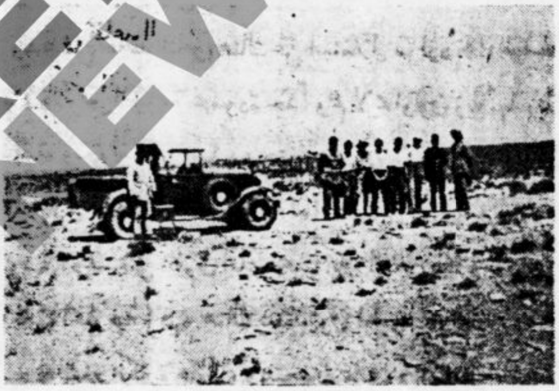
قمنا نودع سيوه عائدين إلى مطروح ، ثم أقلتنا إحدى الطوافات وكانت أجمل البواخر وهي (الأميرة فوزية) إلى السلوم فقضينا يوماً كاملاً ونحن نسير إزاء السواحل المصرية الوطيئة . وفي باكورة الصباح دخلنا خليج السلوم الذي حاكى (الحويصلة) في تقوسه ورسونا على شاطئه الرملي فأشرفت الجبال من ورائه في طوق هائل أظهر لنا متعة الموقع من الناحية العسكرية ؛ وتلك الجبال هي حافة الهضبة الصحراوية الداخلية التي تؤدي إلى الحدود الطليانية وارتفاعها ١٩٠ متراً . وما كادت الباخرة ترسو حتى تهافت أهل البلدة عليها في جوع لا حصر لها من سائر الطبقات ، وكانت تبدو عليهم علائم الفرح والسرور لأنها تحمل اليهم مؤونتهم من الطعام والخضر والفاكهة وحتى الماء لأن موارد ماء الشرب هناك معدومة تقريباً ، فالباخرة تملأ لهم مستودع الماء الذي منه توزع على الوظفين يومياً بمعدل (صفيحة واحدة لكل فرد ، وإن اعوزهم الماء بعد ذلك أتموا حاجتهم من المياه المكثفة من البحر وقد قامت الآلة المكثفة (كندنسر) على حافة الماء . على أن ماءها رغم نقاوته غير صحي لخلوه من المواد اللازمة للجسم التي لا يخلو منها ماء الشرب عادة

ويوم وصول الباخرة عندهم هو يوم (الملوخية) ، لأن الناس جميعاً يطبخونها لأنها أسرع الخضر تعرضاً لليبس والعطب ، ولقد خلقت الباخرة جو عمل وحركة غير عاديين وسط تلك الجهات الساكنة ، فقد تهافتت سيارات النقل والحمالون وبدأت العربات المعلقة الهوائيـة (Cable Cars) تشحن حاجات الجيش المعسكر فوق المرتفعات ، فترى العربات تجري معلقة على الأسلاك إلى قمة الجبل ثم تعود فارغة ، وحتى زوارق صيد الاسفنج تبتاع ماء الشرب لها من الطوافة ؛ والمنطقة غنية جدا بالأسفنج الجيد وأصحاب امتياز صيده طائفة من اليونانيين يفدون من بلادهم في موسم الصيد ومعهم زوارقهم ، وهم لا يفهمون من العربية شيئاً قط . أما أهل السلوم فمن فقراء الأعراب يعيشون عالة على الوظفين او خدماً لهم ، وترى خيامهم القليلة مبعثرة في سفح الجبل ، وهم يحصلون على مائهم العذب بطريقة عجيبة بسيطة ، فهم يحفرون الرمل بجوار البحر الى عمق نصف متر فينز الماء وتملأ الحفرة ماء لا بأس بعذاقه ، وهم في فقر مدقع وبؤس مبيد خصوصاً بعد أن اجدبت منابت الشعير إجداباً تاماً هذا العام . ولقد أثر ذلك في حالتهم الصحية والخلقية تأثيراً سيئاً ؛ وتلك فئة جديرة بعطف ذوي البر ، وقد تبرعت لهم الحكومة ببعض الغلال ويا حبذا لو ضاعفت احسانها لحفظت طائفة من سكان مصر من أن يلقوا بأنفسهم الى أحضان الطليان في حدود طرابلس مستسلمين كأسرى البال ؛ ونساء العرب هناك سافرات لهن جمالهن الخاص في أرديتهن الحمراء ، وعند زواج إحداهن يجتمع الناس لتقدير المهر ويبدأ بنحو خمسين جنيهاً ، ثم لا يفتأ يتدخل شيخ منهم ويقول (وعشان خاطري) فينزل المهر إلى أربعين . ثم إلى ثلاثين ، وهكذا حتى ينزل الى خمسة جنيهات . ويكاد الفرح يقصر على حفلات الرقص ، ولهم حركات في غاية الرشاقة والخفة ، وجل الرقص يوقع وفق تصفيق الجماهير ؛ ويغلب أن تكون الراقصة ويسمونها الحجالة من الأوانس اللاتي يرغبن في الزواج ، وهي ترقص وعلى وجهها قناع ، وليالي الفرح أربع ، وفي ليلة الزفاف تحمل العروس على جمل تحت هودج يسمونه (كرمود) ؛ ويمسك بالخطام الفتيات البكر تفاؤلاً ويقتدنها إلى بيت الزوج . ومن عاداتهم أن الفتاة إن طلبها أحد ذوي قرباها فضل على غيره حتى

ولو لم يكن كفؤاً لها ، وإن حصل ما يخالف ذلك فرضت على المعتدى الدية التى يختلف قدرها باختلاف مكانة الفتاة

حدث مرة أن أجمل فتاة فى قبيلة العابدة هناك طلبها كل فتيان قبيلتها فرفضت لأنها كانت تحب فتى من قبيلة أخرى ، وذات ليلة دبر ذلك الفتى أمر اختطافها ، فكانت الدية ألف جنيه . والعجيب أن سائر رجال القبيلة لابد أن يتعاونوا على جمع تلك الدية ودفعها وإلا لحقهم العار ولزمهم الحق جميعاً ، وأنت إذا مررت على (خيشة) من خيامهم وحييتهم وجب أن تعرج لتشرب الشاى . ولا بد من تقديمه ثلاث مرات : الأولى شايها ثقيل أسود مر لا يوضع به سكر قط ، والثانية أخف منه وأحلى ، والثالثة يقدم شايها وكأنه العسل وعليه النعناع ، ويدور السقى إلى اليمين مهما كان من أمر الجالسين ؛ وهم يدمنون الشاى إدماناً أثر على صحتهم ولو أنه أفاد من ناحية التطهير ضد بعض الأمراض . وإذا اعتدى أحدهم على غيره وأصابه بسوء أرسل المصاب إلى (التَّطَّار) ، وهو يقابل الطبيب الشرعى عندنا لتقدير الدية ، وقوله نافذ على الجميع ، وتلك الدية تسمى (كبارة) ، والقاتل لا يقتل فى عرفهم متى دفع الدية التى يقضى بها المحكمون ، وهى حوالى مائتى جنيه فى العادة ، ويتعاون كل أغنياء القبيلة على دفعها

طفنا ببلدة السلوم فاذا بها قرية شبيهة بمطروح فى نظام بيوتها البيضاء الوطيئة ، على أنها تفوقها وحشة ، إذ يشعر الواحد فيها بأنه فى معزل عن العالم . تسلقنا المرتفعات فى طرق ليانها من الأعاجيب ، وكلما علونا بدا مشهد خليج السلوم رائعاً بديعاً ، وفوق الهضبة زرنا المعسكر وتوابعه فى أبنية بالحجارة ، فاخرة الانشاء ، لم أكد أصدق أنها أقيمت لجنودنا المصريين ، وهنا تعسكر أورطة مصرية بكامل رجالها ومعداتها ، وتشرف على الخليج إلى جانب المعسكر طابية قديمة أسسها عصمت التركى سنة ١٣٢٢ ، وعليها الطغراء العثمانية ، ويشغل القسم الأكبر منها اليوم السجن . ولقد أخذنا نشق تلك الصحارى المجاورة ، ومررنا ببعض الآبار الرومانية القديمة ، ومن أكبرها بئر وعرة نزلناها فاذا بها تجويف فى الصخر الهائل ، له شعاب ممدودة تحت الأرض فاذا ما أمطرت السماء سال الماء إليها خلال فتحات ضيقة وترشحت أوساخه مع الرمال الراسبة واستقى منها الناس . ثم سرنا حتى وصلنا الحدود الطليانية ، وهم يمدون على طولها أسلاكاً شائكة . وزرنا طابية



الأسلاك الشائكة على الحدود بين السلوم وطرابلس

(مساعد) التى كانت لهم وتنازلوا عنها لمصر عند تحديد التخوم بعد أن أخذوا هم جغبوب وما جاورها ، وتركوا لنا تلك الطابية ومسافة قدرها زهاء عشرة كيلو مترات حول السلوم . وعجبت جداً لما لم أجد من الاستعداد لدفع طوارئ الهجوم على تلك الناحية المكشوفة من حدودنا ، فعدد الجنود غير كاف ولم يزودوا من الأسلحة بشىء يدفع عنهم أذى ، وحتى معسكر المدفعية رأيته يضرب خيامه أسفل الخليج بعيداً عن المرتفعات ، لذلك يوجس الناس هناك خيفة هجوم العدو بين يوم وآخر . فهلا اهتمت وزارة حربيتنا بأمر تحصين ذلك الركن الهام من حدودنا فأمنتنا أخطاراً جسيمة وألقت شيئاً من مسئولية الدفاع عنا على عواتق أبنائنا المخلصين

قمت من السلوم عائداً إلى الاسكندرية فى الطوافة ، وكان أجرها زهيداً جداً ، إذ للموظفين جميعاً أن يدفعوا ربع الأجر فقط ، والأجر الكامل للذهاب والاياب خمسة جنيهات فى الدرجة الأولى ، وبتنا فيها ليلتين ، ثم دخلنا الاسكندرية فى باكورة الصباح

محمد ثابت

البريد الأدبي

مشاكل الشرق الأقصى — كتاب طريف عنها

فى العهد الأخير لفتت مسائل الشرق الأقصى أنظار العالم ؛ وأثار توغل اليابان فى الصين فى بعض الدول التى تهتم بمجرى الحوادث فى الشرق الأقصى شكوكاً ومخاوف جديدة ، وأبدت اليابان رغبتها جلية واضحة فى الاستئثار ببسط نفوذها على الصين ومقاومة النفوذ الأوربي ، وما تزال مشكلة الشرق الأقصى جاثمة فى الأفق تثير اهتمام السياسة الأمريكية ، والسياسة الروسية ، والسياسة البريطانية ؛ وقد صدر فى أمريكا أخيراً كتاب عنوانه « سحب الحرب فى آفاق الشرق الأقصى » . بقلم المحامى توم إيرلاند ، تناول فيه المؤلف مسائل الشرق الأقصى بإفاضة ، وذهب فيه إلى رأى جديد لا يبدو أنه متفق مع اتجاه السياسة الأمريكية الحاضرة . وخلاصة هذا الرأى هو أن أمريكا يجب أن تنفض يدها من التدخل فى مسائل الشرق الأقصى ، وأن تترك الصين لمصيرها ؛ ويستند المؤلف فى عرض رأيه إلى ما يأتى :

(١) أن التجارة الأمريكية فى الشرق الأقصى لا تبرر هذا التدخل من حيث أهميتها

(٢) أن أمريكا مضطرة إلى إنشاء أسطول ضخم تكون نسبته للأسطول اليابانى كنسبة ٥ إلى ٣ ، إذا أرادت أن تتدخل لمقاومة اليابان تدخلاً فعلياً ، وهذا يكلفها نفقات باهظة

(٣) وحتى لو سلمنا بأن فى استطاعة أمريكا أن تنشئ مثل هذا الأسطول فانه لا يفيدها كثيراً ، بعد أن فرطت فى جزائر الفيلبين ، وأصبح من المتعذر أن تتخذ منها قاعدة بحرية للعمل فى المحيط الهادى

(٤) أن اليابان سائرة فى طريق التوسع ، ومن حسن الحظ أنها وجدت فى منشوريا (منشوكيو) مجالاً لنشاطها ، وفى ذلك ما يدفع تيار الخطر الأصفر عن أمريكا

وقد أريد بهذا الكتاب أن يصدر قبيل إنعقاد المؤتمر البحرى إذ ينتظر أن تطالب اليابان فيه بزيادة نسبة أسطولها نظراً لما تتطلبه حماية أملاكها الجديدة ، ولأن أمريكا مازالت تطالب فى الصين بسياسة الباب المفتوح ، وهى سياسة عتيقة أضحت لا تبررها الظروف

ويقرن المؤلف عرضه باحصاءات ووثائق اقتصادية كثيرة عن نشاط مختلف الدول ذات المصالح فى الشرق الأقصى ، وإحصاءات عن نفقات الحرب ، وعن القوى البحرية ، وسير المهاجرة ، وسير المواليد ، ويثبت فيه كل المعاهدات التجارية ؛ ويتحدث طويلاً عن سياسة روسيا ونشاطها . والكتاب بموضوعه وتدليله يعتبر وثيقة هامة فى التاريخ السياسى والاقتصادى المعاصر

محنة الصحافة الألمانية فى ظل الارهاب الهتلرى

من أنباء برلين الأخيرة أن جريدة « كرويتس تسيتونج » الشهيرة Kreuz Zeitung (جريدة الصليب) قد احتجبت واختتمت حياتها الصحفية الحافلة . وقد كانت « الكرويتس تسيتونج » من أعظم الصحف الألمانية وأقدمها ، وأعرقها فى الهيبة السياسية ؛ وقد انشئت سنة ١٨٤٨ لتكون لساناً للحزب المحافظ الذى أنشأه البرنس بسمارك عميد السياسة الألمانية فى القرن التاسع عشر ؛ وكان شعارها منذ نشأتها العبارة الشهيرة الآتية : « إلى الأمام مع الله ، فى سبيل الملك والوطن . نحن الألمان نخاف الله ، ولا نخاف شيئاً آخر فى العالم » ؛ وكان هذا الشعار ما يزال يطبع فى صدر الصحيفة حتى أيامها الأخيرة أعنى حتى ٣١ أكتوبر المنصرم وهو آخر أيام حياتها ؛ وكانت عند نشأتها تسمى « نوية برويسشه تسيتونج » أو الجريدة البروسية الجديدة ؛ وقد اختطت لها منذ نشأتها نزعة بروسية محافظة تعبر عن آمال العسكرية والارستقراطية وكبار الملاك ؛ وتظهر صباحا ومساء فى حجم كبير وتفوق فى الانتشار معظم جرائد برلين الكبرى مثل التاجبلات وجرمانيا ، والدويتشه الجمينة وغيرها ؛ وكانت ما تزال حتى العهد الأخير تتمتع بمركز حسن وذيوع لا بأس به ؛ ولكنها كانت تعانى منذ قيام الحكم الهتلرى صعاباً جمة فى التعبير عن آرائها ؛ وكانت من الجرائد القليلة التى لم تقبل أن تخضع لأغلال النازى ونظرياتهم ؛ وقد كان مصيرها الاغلاق والمصادرة منذ بعيد لو لم تكن تتمتع بتأييد نفوذ بعض

الهيئات العسكرية والمحافظة القوية ؛ ولو لم تكن تعتبر أثراً من آثار منشئها بسمارك . بيد أنها رأت أخيراً أنها لا تستطيع المضى فى رسالتها تحت تأثير الضغط والوعيد الذى يفرض على الصحافة الألمانية فى العهد الجديد ، ولهذا آثرت الاحتجاب من تلقاء نفسها . وهكذا تختفى الصحف الألمانية الكبرى واحدة بعد الأخرى وتنحط الصحافة الألمانية تباعاً الى عداد صحف الدعاية الحزبية . وباختفاء « كرويتس تسيتونج » ينهد ركن متين من أركان الصحافة الألمانية العريقة ، وتسجل ضحية صحفية جديدة لحكم الإرهاب السائد فى ألمانيا

مدينة للسينما فى انكلترا

كانت الأفلام الأمريكية قد اكتسحت بلدان العالم ، وكادت الصناعة السينمائية تصبح وقفاً على أمريكا وعلى هوليوود مدينة الكواكب الشهيرة ؛ ولكن كثيرا من الأمم تنبهت الى هذا الخطر الذى يهدد صناعتها وثقافتها المحلية ، فنهضت تنشىء لها صناعة سينمائية خاصة ، وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وايطاليا فى مقدمة هذه الدول ، فشجعت صناعة الأفلام القومية ، ووضعت قيوداً مختلفة على عرض الأفلام الأجنبية . وقد قرأنا فى البريد الأخير أن انكلترا قد بدأت بانشاء مدينة خاصة للصناعة السينمائية على نمط مدينة هوليوود الأمريكية . وموقع هذه الضاحية الفنية فى دنهام من مقاطعة بوكنهام شير حيث تكثر المناظر الطبيعية البديعة ؛ ومساحتها مائة وخمسة وستون فداناً من الأرض ؛ وتبنى فيها الآن أبهاء التصوير (ستوديو) بإشراف المهندس والرسام جاك أوكى ، وستكون أعظم أبهاء من نوعها فى القارة الأوربية ، وهى ثمانية سيكلف صنعها ٤٠٠ ألف من الجنيهات ، وسيكون فى كل منها مسرح مجهز بالألوان لا يضارعه أى مسرح فى أمريكا ، وسيجهز بمولد كهربائى يكفى لانارة مدينة كبيرة

وينتظر أن ينفق نحو مليونى جنيه سنوياً على صناعة الأفلام فى دنهام ، وأن تخرج كل عام ٢٤ فلماً من الأفلام العظيمة ، وستشترك فى العمل فيها شركتان أمريكيتان كبيرتان الى جانب شركات لندن الكبرى ، وينتظر أيضاً أن يهرع اليها عدد كبير من نجوم هوليوود

ولم ينته الى اليوم من المدينة السينمائية العظيمة سوى الهياكل الحديدية ، ولكن المنظور أن تنتهى بعد بضعة أشهر ؛ وتحتوى الأرض المختارة على غابات وأشجار ورياض وأنهار وشواطىء بديعة ؛ وستنشأ بها مكاتب ومطاعم وفنادق وكل ما يجب لتوفير الوقت والرفاهة لساكنيها من نجوم وغيرهم

مجمع اللغة العربية الملكى

تقرر أن يبدأ مجمع اللغة العربية الملكى دورته القادمة فى يوم الأربعاء ٢٠ من شهر شوال سنة ١٣٥٤ الموافق ليوم ١٥ من يناير سنة ١٩٣٦ ، وقد أرسلت سكرتارية المجمع رقاع الدعوة إلى الأعضاء فى مصر وفى الخارج . وقد استأنفت لجانه أعمالها بعد فترة الصيف ؛ وقد انعقدت مساء يوم الجمعة الماضى بدار المجمع لجان الآداب والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ؛ وستوالى جميع اللجان اجتماعاتها لتمد ما سيجرى البحث فيه فى الدورة المقبلة ، وقد استدعت اللجان بعض الخبراء الفنيين للاستعانة بهم فى دراسة المصطلحات العلمية . هذا وستعجل إدارة المجمع باصدار الجزء الثانى من مجلته تمهيداً لاصدار الجزء الثالث منها ، بحيث يكون الجزءان بين أيدى الأعضاء فى مفتتح الدورة المقبلة

ذكريات عن أكابر الكتاب

ظهر فى لندن أخيراً كتاب طريف عنوانه : « الصلات » Contacts بقلم المستر كورتس براون . ومستر براون ليس كاتباً بمهنته ، ولكنه من أكبر « وكلاء الأدب » فى انكلترا ، وله صلات وثيقة بمعظم الكتاب الانكليز ؛ وقد تعاقد مع كثيرين منهم على حقوق كتبه . ويعرف مستر براون جيل الكتاب المنصرم معرفة وثيقة ، ويعرف الكثير عن أحوالهم وعاداتهم ومشاربهم ، وأساليبهم فى التفكير والكتابة ؛ وقد وضع كتابه المشار إليه متضمناً ما يعرفه عن كثيرين من أقطاب الكتابة فى أواخر القرن الماضى مثل توماس هاردى ، وهول كين ، وجورج مور ، والسير كونان دويل ، ولورانس وغيرهم . وكتب أيضاً عن بعض الكتاب الهواة مثل مستر لويد جورج واللايدى اسكويث وغيرها . ونستطيع أن نستخلص من قراءة هذا الكتاب حقيقة مدهشة هى أنه وإن كان هؤلاء الكتاب يشتغلون دائماً بعالم التفكير والخيال ، فان بينهم رجالاً يحسنون فهم الأعمال التجارية والمالية ، ويحرصون على مصالحهم المادية حرصاً عجيباً . بيد أن الكاتب يروى لنا أيضاً أن بعض هؤلاء الكتاب كان يفرط فى حقوقه المادية تفريطاً مدهشاً ، ويضرب لنا مثلا بتوماس هاردى ، ويقول لنا إنه لم يتقاض عن حق تأليف روايته الشهيرة : « تحت شجرة الغابة الخضراء » سوى ثلاثين جنيها !

الكتب

١ — البُحَاثة اللغوية

عن قاعة البحث اللغوى بدار العلوم

٢ — القبس للانشاء العربى

تأليف : محمد رزق الدهشان / عبد الغنى الصاوى } المدرسين بالمدارس الثانوية

للأستاذ محمد سعيد العريان

١ — البحاثة اللغوية

فى دار العلوم اليوم نهضة موفقــة ، يساهم فيها الشباب والشيوخ من أبناء هذه الدار التى قامت على العربية ستين عاماً ، فأحسنت القوامة ، ورعت الأمانة ، وأدت حق العلم وحق اللغة أو فى أداء ، وأثرت تأثيرها المبارك فيما ينتج الشعراء والـكتاب من أدباء هذا الجيل ؛ وهى نهضة حكيمة ، بادية النشاط ، بادية الأناة ، تسير على سننها فى رفق وقوة ، وتمضى إلى غايتها فى حماسة ووقار ؛ فمن ثم لا تحاول أن تنسلخ جملة من ماضى التاريخ ، وهى تأبى كذلك أن تصمّ أذنيها عن دعوة الزمن إلى الابتكار والتجديد

وهـذا أثر جديد ، هو مجْـلًى من مجالى نشاطها الدائب ؛ تحاول به أن تثبت للحاقدين من خصومها ، والعاقّين من بنيها ، أن عندها هى وحدها تلتمس الأسبابُ لحياة هذه اللغة حياةً تـكون بها بين اللغات ما كانت بينها فى تاريخها المجيد

ولقد أنشئت فى دار العلوم منذ أكثر من عام « قاعة البحث اللغوى » لتكون ميـداناً حراً لـكل ذى فـكر جديد ، يتناول شأناً من شؤون اللغة . والعلم اليوم عرض وبحث ومذاكرة ، لا تلقٍّ وحفظٌ واستذكار ؛ من أجل ذلك أنشئت هذه القاعة فى دار العـلوم ، غير مسبوقة بمثال لها تتخذه قدوة وتسير على نهجه ؛ على أنها قد أجدتْ فأجْـدَتْ ، واخترعتْ ففرعتْ ؛ وهذا كتابها الثانى « البحاثة اللغوية » يدل على جهد مشكور ، وعمل له ما وراءه

وهو نهج جديد فى فقه اللغة . وفقهُ اللغـة عند القدماء أبوابٌ موضوعة ، تضم من أشتات اللغة كلَّ معنى إلى مايشاكله ، وكل تعبير إلى ما يضاهيه ، وكل لفظ إلى ما يرادفه ؛ فهو عندهم معجم يرتِّب اللغة على أبواب المعانى لا على أبوب الحروف ؛ وإذْ كانت اللغات تتطوّر ، وحاجات العصر تطالب حقها من كل لغة ، وأن تتعرف اسمها على كل لسان — كان همّ فقهاء اللغة من هذا الجيل أن يحاولوا الربط بين ألفاظ اللغة وحاجات العصر ، وأن يكشفوا عن أوجه المشاكلة بين كل اسم ومسماه وما يتصل به ، فى أبواب يضمونها ، وترتيب يخترعونه ، إلا أنه لا يخرج فى جملته ومعناه عن طريقة القدامى فى الوضع والترتيب

ولـكن فقه اللغة شىءٌ غير الـكلمات الجديدة ، وغير الجمع والترتيب والتبويب ، وغير النحت والاشتقاق والترجمة ــ وإن يكن أولئك هو كل ما نطلبه من فقه اللغـة لنساير بها حاجات العصر ؛ إنما فقه اللغة أن نحاول الـكشف عن أسرار اللغـة ، وتفهم طبيعتها ، وفقه ألفاظها على حقيقتها وفى معناها الذى عناه الواضـع الأول ؛ ثم البحث فى نشأة الـكلمات ، وتاريخها ، واشتقاقها ، وتطورها ، وما استعملت فيه ودلت عليه من المعانى فى مختلف العصور ، وما صارت اليه وعرفت به فى لغة الأحياء ؛ ثم ما يهدى اليه هذا البحث مما تزيد به ثروة اللغة ، ويصحّ به أسلوب الـكلام

وهذا هو ما رآه الأسـتاذ « محمد عبد الجواد » أستاذ فقه اللغة بدار العلوم ، فدعا طلابه إليه ، فهيأ لهم قاعة البحث اللغوى ، فـكان من عملهم هذه البحاثة اللغوية

وهو كتاب دورىّ ، سبقته البحاثة الأولى إلى الظهور باسم : أفانيش لغوية

وهذه البحاثة كما يدلّ عليها اسمها والغرض منها هى خلاصة البحث اللغوى لطلاب دار العلوم فى السنة الدراسية الماضية بتوجيه أستاذهم ؛ ويبلغ الـكتاب ثلثمائة صفحة ، ثلثاها مما اختير من بحوث الطلاب أنفسهم فى «رياضة لغوية فى قراءة القاموس المحيط» ؛ وقد نهج بهم أستاذهم منهجاً حسناً ، هو يصفه فى مقدمته لهذا الباب :

« . . . رأينا أن توزع عليهم أوراق من القاموس المحيط للبحث فيها ، واستخراج كنوزها ودفائنها ، كى يوجه النظر إلى استعمالها ، والانتفاع بها فى حركة التجديد اللغوى . . . وقد طلب إليهم قراءتها بإمعان وتدبر ، ووضع خط بالقلم الرصاصى تحت ما يصح أن يوضع لمسمى لم يعرف له اسم عربى ، أو كلمات يتوهم أنها عامية وهى عربيـة ، أو ما خرج به التحريف أو التصحيف عن عربيته الخ ، أو أية لفظة يرى أنها جديرة بالنشر . وإذا كان لأحدهم مقترح ، أو أراد التوسع فى بحثه ، شفع ما قرأ من الأوراق بتوضيح كتابى . . . »

ولقد كانت رياضة لغوية مثمرة ، تدل على جدوى هذا النهج الجديد فى دراسة فقه اللغة ؛ وإننا لنرى فيها جهد الطلاب ظاهراً قوياً ، وقد وفق الكثير منهم توفيقاً يدعو إلى الاعجاب والرضى ويبعث على كثير من الاطمئنان والأمل ؛ على أنه من التواضع أن يسمى كل هذا الجهد (محاولة) ؛ فما أغلو إذا ادعيت أنه قد أضاف إلى العربية ثروة جديدة ، وكشف عن دفائن تزيدها قوة وغنى

على أن فى الكتاب غير ذلك بحوثاً طريفة ، وأبواباً قيمة ، وطرائف من اللغة تروق الأدباء والمتأدبين . وإذا كان لنا أن نأخذ شيئاً على الكتاب ، فذلك أنه كان فى حاجة إلى العناية بترتيبه وتقسيم فصوله خيراً مما رُتّب وقُسّم ، ليتأتى للمستفيد أن يقع منه على ما يريد من غير عناء ، ولكننا نحب أن نعتذر عنهم من ذلك ، بأنهم أرادوه ليكون أشبه بسجل يصوّر مجهودهم ، أكثر مما أرادوه كتاباً يتناوله القراء للبحث والانتفاع ، وإن كان هو عندنا لأكثر من ذاك

٢ — القبس للانشاء العربى

وهـذا كتاب آخر للانشاء العربى ، متين العبارة ، قوىّ الأسلوب ، جيل التقسيم ، أنشأه مؤلفاه الفاضلان ليستعين به التلاميذ فى دروس الانشاء العربى ، لجاء وافياً بما يريدان من قوة السبك ، وحسن الأداء ، ودقة التقسيم

ولكننا نعود فنسأل عن مدى استفادة التلاميذ مما يسمونه « كتب الانشاء » ؟

ليس من شك فى أن تعليم اللغة تلقين ومحاكاة ، يهيئان التلميذ من بعدُ للخلق والابتكار ، ولكن وسائل التلقين ليست هى هذه الكتب التى توضع بين أيدى التلاميذ لغرض واحد ، هو أن يقرءوها فيحاكوها ، أو ينبشوها فيقتبسوا منها ، والتى لا ينظرون فيها إلا على نية الأخذ عنها ، والاستعانة بها على تجويد العبارة وصقل الكلام ؛ إنما ينبغى أن يلقن التلميذ من حيث لا نشعره أنه يلقن : بأن نحمله على القراءة فى كتب شتى ، ونبعث فيه الشوق الى المطالعة والنظر فى كل كتاب ، ونعوده حسن الاستماع لجيّد الكلام ؛ فما يقبل التلميذ على مثل كتب الانشاء هـذه بقلبه وعقله ، بل بحافظته ؛ فمن ثم لا تراه ينظر فيها إلا ليسرق أو يقلد ، فيؤول ذلك إلى أن تكون كتابته أشبه بطبع الرواسم (الأكلشيهات) : عبارات محفوظة ، وربط سقيم ، وفكر بليد ؛ ثم هى تجعل التلميذ لا يحاول أن يطالع أو أن يقرأ ، إلا إذا طلب اليه أن يكتب أو أن ينشئ ، للمدرس ، أو للامتحان ؛ لأنه لم يتعود أن يقرأ ليلذ نفسه ويرضى عاطفته ، بل ليستعين على أداء تكليف ثقيل . . . !

وهـذه الكتب الكثيرة للانشاء ، أثرٌ من إيحاء مناهج الدراسة ونظم التعليم فى بلادنا ، هذه النظم التى تقيس العلم بعدد الناجحين ونسبة النجاح ، ومن ثم كانت أكثر محاولات المدرسين فى مدارسنا للوصول إلى هذه الغاية ؛ أما تربية الملكات ، وصقل العقل ، وارهاف الحس ، فذلك شئٌ قلما ترى من يحاوله منهم ، ولعل لهم عذراً كبيراً من ذاك . . . !

ولقد يكون من الخير الكثير لو أن المؤلفين الذين يحاولون تأليف الكتب للانشاء اتجهوا فى ذلك اتجاهاً آخر ، فوضعوا هممهم وجهدهم فى تأليف كتب أخرى مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً ، ويشوقهم إلى قراءته غير مجبرين عليه ، مثل : القصص ، والرحلات المشوّقة ، وغيرها ، ثم ليجعلوا فى ثنايا ذلك ما يريدون أن يضيفوه إلى ثروة التلاميذ اللغوية والعلمية . فلعلهم إن فعلوا ذلك يكونون قد أضافوا إلى اللغة ثروة جديدة من أدب الأطفال ، وعوّدوا الأطفال أن يقرءوا التماساً للذة العقلية ومتاع الروح ، بدل أن يقرءوا رغبة فى النجاح وحسب

وما نعني بهذه الكلمة — هـذا الكتاب الجديد وحده ، فلعله من خير ما أُلف فى موضوعه ، وإنما هو رأى نحب أن يسمعه كل القائمين على تعليم الانشاء فى المدارس المصرية ؟

محمد سعيد العريان

---

3 me Année, No. 123.
Lundi-11-11-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

فى الجمـــال ...

— ٢ —

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعى لو تدبرته ؛ وسر الاعجاب فيه هو سر الاعجاب فى جمال الرجل : أعنى الذكاء ؛ والذكاء كما قلت من قبل إبداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها فى نظام دقيق محكم ؛ فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خَلْقها وعلة وجودها من المواءمة التى تسترق الأفئدة وتدق على أفهام البشر

فالعلة الغائية لخلق المرأة هى أن تكون زوجة وأما ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث خُلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويُشبل عليها بالمونة والنجدة ؛ وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهى يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهى زوج تحمل ، أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولأولادها غذاء ولا حماية ؛ فما دام الولد فى حاجة إلى أمه ، فالأم فى حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار فى الرجل ضعيفة ، فلا بد لهذا الوحشى

الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه ؛ والحب وحده هو الذى مكن الطبيعة من هذه البُغية ؛ فبفعل الجاذبية سكن النافر ، وبسحر الجمال ثبت المَزوف . وللحب خصيصتان قويتان : الرغبة والحشمة ؛ ومن ذلك كان جمال المرأة داعىَ الرغبة خافض الجناح حيى الطبع ؛ والرجل مزهوٌّ على المرأة يُدل بحيازته لها ، ويتعزز بقيامه عليها ؛ فهو يريدها « ريحانة لا قهرمانة » ، وحبيبة لا جليبة [1] ، لها سلطان ولكنه رفيق ، وفيها إباء ولكنه رقيق

ومن ذلك كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة ، وخليطاً من الضعف والدلال ، وطباقاً من الهيبة والنبل

......

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره مادامت له روح من العاطفة تشع فى نظراتها ، وتنسم فى بسماتها ، وتشيع فى قسماتها ، وتنشر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل — وهو بطبعه ولوع — فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره ، ويجد فى الضعف الذى يستسلم ويستكين ، الحبَّ الذى يطول ويحكم

....

إن شبهة الخداع والتصنع تمحق كل شىء : لذلك كان فى مخايل الطيبة والنزاهة ، وفى سمات الظرف الغرير يتراءى وهو يختفى ، وفى أسرار الهوى المكتوم تفضحه البسمة الحنون من شفة مطبقة ، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة حيية ، وفى دلائل الملامح المعبرة فى الوجوه والعيون تقول وهى تنصت ، وتريد وهى ترفض : كان فى كل أولئك بلاغة الجمال ؛ فاذا أصيب الحب بالفتور ابتُلى الجمال بالخرَس

....

وسلطان المرأة القوى على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستترّ ترعاه معه وفيه على غير علمه ؛ فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرّة وجهها ، وتشرق على الأخص فى تلك النظرة الوديعة التى تتغلغل فى طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور ، وتبدد ظلام الكآبة ، وتشمل خمود الحب . . . .

......

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذى تصبّاه وسباه ؛ ووسيلته أن يطرد السأم عنه ، ويجدد الشوق فيه ، فيمير العادة المملة ألوان الجدّة ، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع ؛ وذلك هو السر العجيب الذى وضعه الله فى الجمال النسوى ، فيتكرر ولا يُمل ، ويستملن ولا يُفهم ، ويتجدد ولا يتناهى ، ويتنوع ولا يختلف ، ويتولد ولا يبيد ! !

* * *

إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ؛ وإن فى تجميع النهر ، وتكوين الجبل ، وتصريف الريح ، وإثارة البحر — جمالاً رائعاً يجرى فى كل شعور ، ويستولى على كل قلب ، لأنه يعلن القوة الخارقة ؛ والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس ؛ كذلك تجد فى صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعى تهز النفس وتصبى المشاعر ؛ فورقة الزهرة ، وجناح الفراشة ، يمثلان فى قلبك من الاعجاب ما يمثله الطود المتوج بالثلج ، والمحيط الملفف بالعاصفة ؛ ولكن خصيصة الجمال فى الزهرة والفراشة هى فرَة الألوان ، ونصاعة الأصباغ ، وتعدد الصور ؛ وخصيصة الفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق ، وخمودها بالألف والعادة

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً ، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم ، وهذان لا يتيسران فى كل وقت ، ولا لكل شخص ؛ فالبركان والأعصار يروعان القلب بالقوة المجردة ، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده ، وهى الترتيب والمواءمة والانتظام ، خبا أثره فى الناس إلا إذا كان محسوساً شديد الغرابة ! أليس الواقع أن براعة القدرة وسر الابداع سواء فى المظابة والأسد ، وفى القصبة والدوحة ؟ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة ، ولا تكاد تأبه للمظابة والقصبة ، لأن سلطان القوة غالب ، وسحر العظمة عجيب

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضرورى لحصول الجمال الصحيح فى مشاهد الطبيعة وروائع الوجود

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

(١) القهرمانة : الخادم ، والجليبة : الجارية المجلوبة

اللون الأصفر

للأستاذ احمد أمين

لفت نظري — وأنا أدرس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي — ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر في هذا العصر، وحاوله محلاً كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى، وكثرة ما قيل فيه من أدب، فرأيت أن أعرض على قراء «الرسالة» شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر في الشعوب من تحديد درجة الذوق في الرق، وعلاقته بانتشار التهتك والخلاعة، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة

***

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجوه الصفر، وصبغوا ثيابهم بالصفرة، وافتتنوا بالزهور الصفر، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر، ومدحوا الجواهر الصفر، وهكذا

روى الجاحظ من الأمثلة المشهورة قولهم: «أهلك النساءَ الأصفران: الذهب والزعفران»، وهـذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر، وظهور هـذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خـير أنواع المال. وقد ظُلم النساء برميهن وحدهن بحب الذهب، فمن من الرجال كذلك لم يذله الذهب ويسترقه المال ويستعبده الدينار؟ ومن منهم لم يقس أخلاقية العمل بمقياس الذهب؟... لقـد كان الحريري أصدق قولاً إذ يقول:

أكْرِم به أصفرَ راقت صفرتُه ... جوّابَ آفاقٍ ترامت سفْرته

مأثورةٌ سمعتـه وشهرتُه ... قد أودعت سر الغنى أسرّتُه

وقارنت نجحَ المساعى خطْرتُه ... وحُببت إلى الأنام غرّتُه

. . . .

لولا التُّقى لقلت جلت قدرته

وأما الزعفران (وهو نبت له أصل كالبصل وزهر أصفر الى حمرة) فقد كان له سلطان في بغداد أي سلطان حتى لو سميْتَ بغـداد في ذلك العصر مدينة الزعفران لم تُبعد؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا: «إنه إذا كان في بيت لا يدخله سام أبرص)

وإذا حسن في عينهم شيء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز:

شربت على تذكر عيش كسرى ... شراباً لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به؛ قال بديع الزمان في إحدى مقاماته: «ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان، وتأخذ وجوه الزعفران»

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقـدموه بلا تلوين، ويسمون الطعوم غير الملونة «الطعوم المُعتدَّة» تشبيهاً لها بالمرأة في العدة، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة، فـكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالعصفر وهو أصفر أيضاً. قال ابن حمدون:

هاتوا أطايب نورٍ فائق سمناً ... كالفيل قدًّا وإن عدُّوه في البقر

وسكْبجُوها ووفوها توابلها ... وزَعفروُها وصفوها عن الغير

وصبغوا بالزعفران ملابسهم؛ حكى الأغاني أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدي في يوم قائظ فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر

وكتبت جارية على قباء معصفر:

وما البـدر النير إذا تجلى ... هدوا حين ينزل بالعراق

بأحسن من بثينة يوم قامت ... تهادَى في معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر فسموا

التَّخمَّةَ: الثياب المخططة بالصفرة

والرّادعة: القميص لُمع بالزعفران والطيب

والسبنيّة: نسبة إلى سَبَن قرية بنواحي بغداد وهي ثياب من حرير فيها أمثال الأترجّ (الأصفر)

والثياب المحرّضة: وهي المصبوغة بالاحْرِيض وهو العصفر.

والثوب المُمصَّر: قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة

والثوب المورّس: المصبوغ بالوَرْس وهو نبت أصفر يصبغ به.

وأكثر ما كانت العصائب التي تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران وشيت بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب

وقالوا أجمل شيء غلالة معصفرة على جارية

ويروى الوشاء فى كتابه الموشى أنه لا يحسن بالرجال لبس المصبوغ بالزعفران فى مظاهر الجد لأن ذلك من لبس النساء والقيان ؛ وقد يلبسه الرجال فى أوقات الفصد والملاجات وأوقات الشراب ، وربما استعملوا ذلك فى وقت قصفهم وتظرفوا بها فى مجالسهم . . . والظهور بها قبيح من السوقة مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء »

وحكى التنوخى فى نشوار المحاضرة « أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ماتقع عليه عينه فى يوم من أيام شربه أصفر ، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر ، مفروشة بديباج أصفر ، وجعل بين يديه الدستنبو [1] والأترج الأصفر وشراب أصفر فى صوانى ذهب ، ولم يحضر من جواريه إلا الصفر ، عليهم ثياب قصب صفر ، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجرى فيها الماء ، فأمر أن يجعل فى مجارى الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء ، ويجرى من البركة أصفر ، ففعل ذلك وطال شربه فنفد ما كان عندهم من الزعفران ، فاستعملوا العصفر ، ولم يقدروا أنه ينفد قبل سكره فنفد ، فلما لم يبق إلا قليل عرّفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع . . . فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا أمرا عظيما ، وقال إن انقطع هذا تنغص يومى ، فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها فى مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ ... فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التى هلكت فكان خمسين ألف دينار » [2]

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب ، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية

ولإعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر ، فقال ابن وكيع :

فاشرب مُعَصْفَرَةَ القميصِ سُلافَة
من صنعة البَرَدَان أو قُطْرَبُّل

وقال ابن المعتز :

لبسَتْ صفرةً فكم فتنَتْ من | أعينٍ قد رأينَنَهَا وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلا | صبغته بزعفران الأصيل

وقال ابن الرومى فى وصف شواء :

وسميطة صفراء دينارية | ثمنا ولونا زفَّها لك جُؤْذر

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها ، ففى الأغانى أن متيم الهاشمية ، ومحبوبة المتوكلية ، ودنانير البرمكية ، كن صفراوات مولدات ، وسميت دنانير بذلك لصفرتها . وقال بعضهم فى وصف جمال الصفرة :

وعهدى بها صفراء رود كأنها | نضى عرق منها على اللون مجسدا

ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر

فمدحوا الآذَرْيُون وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود ، قال فيه ابن المعتز :

كأن آذَرْيُونَهَا | والشمسُ فيه كاليه
مداهنٌ من ذهب | فيه بقايا غاليه

كما مدحوا « الخِيرِىّ » وهو المنثور الأصفر .

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر :

كأنما الياسمين حين بدا | يشرق من جوانب الكثب
عساكر الروم نازلَتْ بلدا | وكل صُلبانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر :

وتغزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس :

صفراءُ لا تنزل الأحزانُ ساحتَهَا | لو مسها حجرٌ مسته سراء

ويقول آدم بن عبد العزيز :

اسقنى واسق خليلى | فى مدى الليل الطويل
لونها أصفر صاف | وهى كالمسك الفتيل

وبالغوا فى حب الصفرة حتى كانت القينة أحيانا تلبس الثياب المعصفرة أو المزعفرة وتطلى ماظهر من يديها ومن عنقها بالورس روى بعضهم قال : « رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفى عنقها طبل وهى تنشد :

محاسنها مهام للمنايا | مُرَيَّشة بأنواع الخطوب »

وكثيرا ما قرنوا هذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور ، فقد رأينا ولوع القيان بهذا اللون ؛ ورمزوا للخليع بقولهم إنه « يلبس المُوَرَّس » واعتقدوا أن الورس يزيد الميل إلى النساء ؛ وقرر ذلك الفيروزابادى فى القاموس وهو المولع دائما بالنص على ذلك

هذه ظاهرة غريبة رأيتها وهى ظاهرة تستحق الدرس ، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعى ؟

أحمد أمين

(١) هكذا بالأصل ولعله الدستبويه وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل

(٢) نشوار المحاضرة ١ / ١٤٧

المشـــكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالت لى صاحبة « الجمال البائس » فيما قالت : إن المرأة الجميلة تخاطب فى الرجـل الواحد ثلاثة : الرجلَ وشيطانه وحيوانه ؛ فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نـكن معه . . . وأما الحيوانُ فله فى أيدينا مقادةٌ من الغباوة ، ومقادةٌ من الغريزة ، إذا شمَسَ فى واحدة أصحب فى الأخرى وانقاد ؛ ولـكن المشكلة هى الرجل تـكون فيه رجولة

***

نعم إن المشكلة التى أعضلتْ على الفساد هى فى الرجل القوى الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده وشرفَ منزلته ، ولهذا أوجب الاسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت فى اليوم الواحد خارجاً من صلاة

وإنما الرجولةُ فى خلالٍ ثلاث : عمل الرجل على أن يكون فى موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون فى هواه ؛ وقبولِه ذلك الموضعَ بقبول العامل الواثق من أجره العظيم ؛ والثالثةُ . قدرتُه على العمل والقَبول إلى النهاية

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاثٍ أخرى : الادراكِ الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعل ما يحبه الانسانُ وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معانى السرور من معانى الألم فيما أحبّ وكره على السواء

فالرجولةُ على ذلك هى إفراغُ النفس فى أسلوب قوىّ جزْل من الحياة ، مُتساوقٍ فى نمَط الاجتماع ، بليغ بمعانى الدين ، مصقول بجمال الانسانية ، مُسترسـلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية

ولهذه الحـكمة أسقطت الأديانُ من فضائلها مبـدأ إرضاء النفس فى هواها ، فلا معاملة به مع الله إلا فى إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض ، فلا يقوم به إلا الغش والمكرُ والخديعة ، وكلُّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعيـة ، فانما ينزع إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لها وموافقةً لحبها وتوفيةً لحظها ؛ وعمله هذا هو الذى يُلبسه الوصفَ الاجتماعىَّ الساقط ويسميه باسمه فى اللغـة ، كالرجل الذى يرضى نفسه أن يسرق ليغتنى ، فاذا أعطى نفسه لرضاها فهو اللص ، وكالتاجر فى إرضاء طمعه هو الغاش ، وكالجنـدى فى إرضاء جبنه هو الخائن ، وكالشاب فى إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمّ جراً وهلمّ جرجرة . . .

***

وأما بعد ، فالقصة فى هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كسفت باله وفرّقت رأيه وكابد فيها الموتَ الذى ليس بالموت وعاش بالحياة التى ليست بالحياة

قال : فقدتُ أمى وأنا غلام أحوجَ مايكون القلبُ إلى الأم ، نخشى علىّ أبى أن أستكين لذلة فقدها فيكون فى نشأتى الذلُّ والضراعة ، وكبر عليه أن أحسّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحمل فى ضَياعها مثلَ حزنها لوضاع هو منها . فعلمنى هذا الأبُ الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبى لأن له قوة وكبرياء ، وألقى فى روعى أنى رجلٌ مثله ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فـكان رجلاً مثلى الآن . . .

وكان من بعدها إذا دعانى قال : أيها الرجل ، وإذا أعطانى شيئاً قال : خذ يا رجل ، وإذا سألنى عن شأنى قال كيف الرجل ؛ وقلّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً حتى توهمتُ أن منى رجلاً فى عقلى خلقته هذه الـكلمة : وتمامُ الرجـل بشيئين : اللحيةُ فى وجهه ، والزوجة فى داره ، فتجىء الزوجةُ بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تـكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين فى الوجه والحياة . . .

أما اللحيةُ لى أنا أيها الرجلَ الصغيرَ فليس فى يد أبى ولا فى حيلته أن يجىءْ بها ، ولـكن الأخرى فى يده وحيلته ؛ فجاءنى ذاتَ نهار وقال لى : أيها الرجل ! إن فلانة مُتسماةٌ عليك(١)

(١) هـذا هو التعبير العربى الصحيح لقولهم قبل العقد « مخطوبة لفلان »

منذ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها . وفلانة هذه طفلة من ذوات القُربى ، فأفرحني ذلك وأبهجني ؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيها الرجل . . .

وكان هذا الرجلُ الجاثمُ فى عقلى هوغرورى يومئذ وكبريائى ، فكنت أقع فى الخطأ بعد الخطأ وآتى الحماقةَ بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحية طويلة . . .

* * *

ونشأتُ على ذلك صلبَ الرأى ممتدًا بنفسى إذا هممتُ مضيت ، وإذا مضيت لا ألوى ؛ وما هو إلا أن يخطر لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولأنْ تُكسرَ لى يدٌ أو رجل أهونُ على من أن يكسرَ لى رأى أو حكم ؛ وأكسبني ذلك خيالاً أكذبَ خيال وأبعدَه ، يخلط علىَّ الدنيا خلطاً فيدعني كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد ، فيطالعُها اثنى عشر شهرا للسنة . . .

وترامت حريتى بهـذا الخيال فجاوزت حدودُها المعقولة . وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذبتْ على الفكرة والطبيعة

ولست جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكني مع ذلك معتقد أن الخطأ فى المرآة . . . إذ هى لا تظهر الرجل الوضيءَ الجميل الذى فى عقلى ؛ ولست نابغةً ولكن الرجل الذى فى عقلى رجل عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجل متزوج فيجب علىَّ أنا الطفلَ – أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد فى المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأت منى ، فقلت فى نفسى : أيها الرجل ان هـذا نشوزٌ وعصيانٌ لا طاعةٌ وحب . وساءنى ذلك وغمّني وكبر علىّ فأضمرتُ لها الغَدْر ، فثبتت بذلك فى ذهنى صورةُ (الباب المغلق) وكأنه طلاق بيننا لا باب . . .

* * *

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة مافى نفسه كالزوج الذى يترقّبُ زوجته الغائبةَ غيبةً طويلة ؛ كلُّ أيامه ظمأ على ظمأ ، وكل يوم يمرّ به هو زيادةُ سنة فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية وأصبح رجلَ كتب وعلوم وفكر وخيال . فعرضتْ له فتاة كاللواتى يعرضن للطلبة فى المدارس العليا ، مامنهن على صاحبها إلا كالخيبة فى امتحان ... بيد أن (الرجل) لم يعرف من هـذه الفتاة إلا أوائل المرأة ... ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سمّيت على غيره فخطبت فزفَّت ، زُفَّت بعد نصف زوج إلى زوج ...

وعرف الرجل من الفلسفة التى درسها أنه يجب أن يكون حراً بأكثر مما يستطيع وبأكثر من هـذا الأكثر ... فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى

قالها للحرية ، فما أسرعَ ماردت عليه الحرية بفتاة أخرى ...

* * *

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسمة أبواب مغلقة . ولكنها مع ذلك مسماةٌ له يقول أهله وأهلُها (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياءَ والصيانة ؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتظِر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأبِ الذى سمّى الفتاةَ له وحبَسها على اسمه ؛ وليست القُربى إلا شريعةً واجبةَ الحق نافذةَ الحكم

وعند أهل الشرفِ ، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيّد

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معانى الفاحشة

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هى لبناء الأسرة ؛ فان بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطة وحقوقٍ (رسمية) فى الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ولا تقوم إلا على ذلك

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرةَ المخلصةَ الحبَّ لزوجها ، إنما هى معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه فى كرامةٍ أو مَهانة ، وضع نفسَه عند الله فى مثل هذا الموضع

وعند أهل العقل والرأى ، أن كل زوجة فاضلة هى جميلةٌ جمالَ الحق ، فان لم تُوجب الحبّ وجبت لها المودّة والرحمة

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هى انسانيتُه ومروءتُه ؛ فان احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة

أما عنـد الشيطان لعنه الله ، فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهى جمالاً وكما يشتهى فكرى علماً ، كنت أنا المتزوج وحدى وبقى فكرى عَزَبا . . . وقد عرفتُ التى تصلح لى بجمالها وفكرها معاً ، وتبوّأتْ فى قلبى وأقمتُ فى قلبها . ثم داخَلتُ أهلَها فخلطونى بأنفسهم وقالوا شابٌ وعَزَب ... ومتعلم وسرىٌ ... فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) حتى لو شئت أن أصل إلى كريمتهم فى حرامٍ وصلت ، ولكنى رجل يحمل أمانة الرجولة . . .

أما الفتاة فلست أدرى والله أفيها جاذبية نجم أم جاذبية امرأة ! وهل هى أنثى فى جمالها أو هى الجمالُ السماوىُّ أتى ينقح الفنونَ الأرضيةَ لأهل الفن ؟

إذا التقينا قالت لى بعينيها : هأنذى قد أرخيتُ لك الزمام فهل تستطيع فراراً منى ؟ ونلتصق فتقول لى بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل فى المكان مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحصر لى الزمن كله فى كلمة حين تقول : غدا نلتقى

كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه فى الوقت نفسه طريقة من الخلاعـة تلفتك الى فمها الحلو . والحركة على جسمها حركةٌ مستَحِيَةٌ ، ولكنها فى الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسّم فى التمثال العارى

إنها والله قد جملت شيطانى هو عقلى ؛ أما هذا العقل الذى ينصح ويعظ ويقول هذا خير وهذا شر ، فهو الشيطان الذى يجب أن أتبرأ منه . .

* * *

قال : وألمّ الأبُ بقصة فتاه ، وبحسبها نزوةً من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول فى نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى فى الخيال والوهم والمزاج الشعرى ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْنَ فى حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الانسانى ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والمنفعة .

ويقرّر لنفسه أن ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَرٍ ، فـلا ينظر النظرةَ الخياليـةَ التى لاتقنع بامرأة واحـدة بل لاتزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفَاتنَه ، وهى النظرة التى لايقوم بها إلا ابناءُ الشعر دون بنـاء الأسرة ، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولادا لزوجها ، بل المرأة تلد المعانى لشاعرها .

ثم احتاط فى رأيه فقدّر أن ابنـه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحورا ذا بصيرة مدخولة وقلبٍ هواء وعقل مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ويحارب أهله وربّه من أجل امرأة ، بَيْدَ أنه قال إنه هو والده وهو ربّاه وأنشأه فى بيت فيه الدينُ والخُلق والشهامةُ والنّجدة ، وأن محاربة الله بامرأة لاتكون إلا عملا من أعمال البيئة الفاسدة المستهتَرَة حين تجمع كل معانى الفساد والاباحة والاستهتار فى كلمة (الحرية). وقال إن البيئة فى العهد الذى كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرض ، لم يكن فيها شىء من هذا ، ولم يكن الأبناءُ يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجـدرُ أن يكون مُـبرّأ من اختـلاط النظرة ، فيختار للدين والحسب والكمال لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق فى باب من أبواب الأخـلاق ، بل محلّه فى باب الشهوات وحدها .

ثم جزَمَ الأبُ أن الولد الذى يجىء من عاشقين حَرِىٌّ أن يرثَ فى أعصابه جنونَ اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ، ولهذا وقف الشرع فى سبيل الحب قبـل الزواج لوقاية الأمة فى أولها ، ولهذا يكثر الضعفُ العصبى فى هـذه المدنية الأوربية ، وينتشر بها الفساد فلا يأتى جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذى أعقبه

ولم يكد ينتهى الأبُ إلى حيث انتهى الرأىُ به حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيىء للزفاف ويتعجّل لابنه المطيع . . . . نكبةً ستجيء فى احتفال عظيم . . . .

***

قال الشاب : وجن جنونى ؛ وقد كان أبى من احترامى بالموضع الذى لا يلق منه ، فلجأتُ إلى عمى أستدفعُ به النكبة وأتأيّدُ بمكانه عند أبى ، وبثثتُه حزنى وأفضيت اليه بشأنى ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهى بى إلى تلك الفتاة ، أو ينتهى بها إلىّ . وما أُنكر أنها من ذوات القُربى ، وأن فى احتمالى إياها واجباً ورجولة ، وفى سترى لها ثوابا ومروءة ، وخاصةً فى هذا الزمن الكاسد الذى بلغت فيه العذارى سنّ الجدّات ... ولكن القلب العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والثواب والمروءة ، وبالأم والأب ، فهو يملك النعمة ويريد أن يملك التنعم بها ؛ وكل من اعترضه دونها كان كاللص .....

قال : قبح الله حباً يجعل أباك فى قلبك لصاً أو كاللص

قلت : ولكنى حر أختار من أشاء لنفسى .. ...

قال : إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها ؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفى هدم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواج إلا عن .....

فقطع على وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو حوذياً لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يقضى فى قلوبهم كلّ أوقات فراغه ... ...

أما العاملون فى الدنيا ، والمغامرون فى الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ، والطامعون فى الكمال الانسانى ، فهؤلاء جميعاً فى شغل شاغل عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة ، والبكاء على المرأة : ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله فى النساء ، أى انظروا اليهن من جانب تقوى الله فان المرأة تُقدِم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ولاندرى أى ذلك هو حظها ، ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجةً لخربت الدنيا ولفسد الرجال ، والنساء جميعا . وهذه يابنى أوهام وقتها وعمل أسبابها ، وسيمضى الوقت وتتغير الأسباب ، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفّن غدا ، وربما كان الفجُّ هو الناضج بعد !

وهبك لاتحب ذاتَ رَحِمك ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكون عندك أجلُ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكون لها هذا الشعور فى نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يا بنيّ إن لم يكن حبا فيه الشهوة فهو حب إنسانى فيه المجد .

***

ووقعت (المشكلة) وزفّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(طنطا)

(رجاء إلى القراء) هذه القصة واقعة وقد بنى الرجل بامرأته وهو فى الشهر الذى لا اسم له عنده وان كان اسمه عند الناس شهر العسل . فماذا يرى له القارىء من الرأى ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها فى عين الرجل ؟

وسننتظر أسبوعين ثم نكتب تتمة القصة ، ونرجو أن يكون هذا الفاضل عند ظن الخير به ؛ وسنبلغه ما نتلقاه من الآراء ؟ الرافعى

المأساة الفاشستية

بقلم باحث دبلوماسى كبير

فى الثامن والعشرين من اكتوبر احتفلت إيطاليا باختتام العام الثالث عشر لظفر الفاشستية الايطاليـة وقيام النظام الفاشستى ؛ فمنذ ثلاثة عشر عاماً زحف موسولينى وأنصاره من ذوى الأقمصة السود على رومة ، وانتزعوا مقاليد الحـكم ؛ ومنذ ثلاثة عشر عاماً يسيطر موسولينى وحزبه على مصاير إيطاليا ومصاير الشعب الايطالى ؛ ولـكن الفاشستية الايطالية تحتفل بعيدها لأول مرة فى ظروف خاصة ؛ فهى الآن فى مأزق خطر ، بل هى تجوز معركة الحياة والموت ؛ وهى تشعر لأول مرة بمرارة الخيبة وانهيار الآمال ، وترى مشاريعها الاستعمارية العريضة فى ميزان القدر تـكبدها من الخسائر والمشاق الفادحة ما لم تـكن تحلم بتكبده ولا قبل لها باحتماله ، وترى فوق ذلك نفسها تواجه كتلة عاليـة من الأمم الناقمة الساخرة تحيطها بسياج من الحفيظة والبغض ، وتنظم ضدها مقاومة مادية فعالة وتزمع أن تقضى على كل مطامعها وأحلامها

والفاشستية هى التى جنت على نفسها وعلى إيطاليا ، وهى التى زجتها إلى ذلك المأزق الذى تتخبط فيه ولا ترى سبيلاً إلى الخلاص منـه ؛ فهى التى أقدمت عامدة مصرة على غزو الحبشة وانتهاك المعاهدات الدولية ؛ وهى التى لم تخجل أن تصرح فى جرأة منقطعة النظير أنها تغزو الحبشة وتعتدى على اسـتقلالها لأنها فى حاجة إلى التوسع والاستعمار واستغلال الثروات الطبيعية التى تبطنها وهاد الحبشة ؛ وهى التى أثارت بعدوانها وغرورها وخفتها السياسـية اشمئزاز كل الشعوب المتمدنة ؛ وهى الآن فى محنتها ويأسها تحاول أن تتشح بثوب الظافر ، لأن الجيوش الايطالية اسـتولت على بعض الأراضى الحبشية فى الشمال وفى الجنوب ؛ ولـكن العالم يعرف جيداً أن هذا النصر اليسير لم يكن نتيجة معارك حقيقيـة ولا بطولة عسكرية ، وأنه مع ذلك قد كبد إيطاليا أعظم الجهود والخسائر ، وأن المعارك الفاصلة مازالت تنتظر إيطاليا فى الوهاد الحبشية السحيقة التى لن تبلغها إلا بأفدح تضحية من المال والرجال

لقد كان قيام الفاشستية فى إيطاليا أول ضربة حقيقية للديموقراطية والحريات الشعبية بعد الحرب الـكبرى ؛ وكانت الديموقراطية قد اسـتطاعت غداة النصر أن تـكتسح النظم الأمبراطورية فى ألمانيا والنمسا ؛ ولـكن الديموقراطية انساقت فى فورة الظفر إلى ألوان خطرة من التطرف والفوضى ؛ وكانت إيطاليا مسرحاً لهذا التطرف ، ففى غمر الاضطراب العام وثبت الفاشستية تؤيدها العسكرية ، وتؤيدها الصناعات الـكبرى والمالية العليا ، وقبضت على زمام الحـكم بقوة ؛ وظن خصومها فى البدأ أنها فورة الساعة وأن ريحها لن تلبث أن تركد ، ولـكن فورة الفاشستية كانت أشد وأقوى مما تصوروا ، وكانت المعركة قصيرة المدى ، فلم يمض سوى قليل حتى سحقت الفاشستية خصومها ، وسحقت الاشـتراكية والديموقراطية ، وكل النظم البرلمانية الحقيقية ، وأخضعت الصحافة لصولها ، ولم تبق متنفساً للشعب الايطالى سوى طريقها ، ولم تسمح له بأن يفكر إلا برأيها أو أن يرى إلا بعينها ، وامتزجت الدولة بالحزب ، فغـدت الفاشستية هى الحـكومة وهى الدولة ، وهى مصدر السلطات وهى كل شىء فى حياة إيطاليا العامة ، وفى مرافقها ومصايرها

كان ظفر الفاشستية سريعاً ، وكان مطلقاً ، ولـكنها لم تدخر لتحقيق هذا الظفر أية وسيلة مثيرة ؛ ولسنا نقف طويلاً بهذه الوسائل الهمجية التى أصبحت روح النظم الطاغية فى عصرنا ، سواء فى روسيا البلشفية أو تركيا الكمالية أو إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا الهتلرية ، والتى تقوم على القتـــل والسجن والنفى والمصادرة وغيرها من أساليب العنف المنظم ؛ ولـكنا نقول أيضاً فى إنصاف هذه الفاشستية الهمجية أنها لم تـكن شراً مطلقاً ، بل كانت لها آثار داخلية حسنة ، وقد أسفرت جهودها فى سبيل الانشاء والتنظيم عن نتائج مادية ظاهرة الأثر فى تـكوين ايطاليا الحديثة وفى تطورها وتقـدمها ؛ فقد سحقت عوامل التفرق القديم الذى خسرت ايطاليا من جرائه مغانم الحرب فى معاهدة الصلح ، وسحقت عوامل الفوضى التى كادت تشل الحياة الاقتصادية فى ايطاليا ، وبثت فى الشعب الايطالى روحاً جديداً

وعزائم جديدة فى ميادين النشاط والتفكير والعمل ، تخطت الزراعة والصناعة والتجارة إلى الأمام خطوات واسعة ، ونظمت موارد الثروة القومية تنظيما مدهشاً ؛ وبذلت الفاشستية جهوداً محمودة لمعالجة الركود الاقتصادى والعطلة ، وحماية الانتاج القومى ، وقامت بعثات للمشاريع العمرانية النافعة ، ولم تترك وجهاً من وجوه الحياة العامة إلا عملت لاصلاحه وتقويمه ؛ ولم تقف عند العمل فى ميادين النشاط المادى ، بل عملت أيضاً فى النواحى المعنوية ، فطهرت الحياة الاجتماعية من كثير من أدرانها القديمة ، وبثت فى الشعب الايطالى روحاً جديداً من العزيمة والخلال الحسنة ، وقد كان قبل قيام الفاشستية فى حالة يرثى لها من الانحلال الفكرى والأخلاق ، ونظمت الشباب والنشء تنظيما بديعاً ؛ والخلاصة أنها من حيث الوجهة الداخلية ، خلقت ايطاليا خلقا جديداً ، وسارت بها فى سبيل التقدم شوطاً بعيداً . وأما من حيث الوجهة الخارجية فقد عملت الفاشستية أيضاً لتقوية ايطاليا فى البر والبحر والهواء ، ورفعتها من حيث القوة العسكرية والهيبة الدولية إلى مصاف الدول العظمى ذات الرأى المسموع

كل ذلك عملته الفاشستية فى أعوامها الثلاثة عشر ؛ ولكنها عملته فوق أكداس من الجرائم والضحايا ، وعلى انقاض الحريات العامة والكرامة البشرية والاستقلال الروحى والفكرى ؛ والفاشستية مادية مغرقة فى المادية ، والمعنويات فى نظرها وسيلة إلى تحقيق المصالح المادية ؛ ومن ثم جعلت من الجيل الايطالى الجديد ، فى تفكيره وعقليته وتصرفاته قطيعاً من البشر مسلوب الرأى والارادة ، توجهه الزعامة العنيفة أينما شاءت . وكان من أكبر وأخطر جرائم الفاشستية أنها بثت فى الشعب الايطالى روحاً خطرة هى روح الغرور المغرق ؛ ولا بأس من أن يتصف الشعب بالكبرياء القومية وأن يستمد من ماضيه المجيد وعظمته الحاضرة أسباب العزة القومية ، ولكن الفاشستية بثت فى الشعب الايطالى أخطر عوامل الكبرياء والتحدى الفارغة ؛ فالايطالى الجديد يعتبر نفسه اليوم أرق الخليقة ، وأنه خلع بارتداء الفاشستية أثواب أوربا البالية ، وأنه غدا يشرف من ذروة عظمته الجديدة على بؤس القارة القديمة وتدهورها ، وأنه سيقود أوربا الجديدة طبق مبادئه وآرائه ؛ ثم هنالك ما هو أخطر من هذه الأوهام المعنوية ؛ فقد بثت الفاشستية فى الجيل الجديد روح العداء لأوربا القديمة ، وروح التطلع والتحفز والعدوان ، ولقنته نظرية جديدة هى أن ايطاليا الفاشستية خليفة الدولة الرومانية القديمة وقرينتها ؛ وأن موسولينى إن هو إلا قيصر يقودها فى سبيل الفخار والمجد ، وغمرت هذه الروح القيصرية ذلك الشباب المغرور المتحدى ، فأصبح يتصور أنه سيعيد حدود الدولة الرومانية القديمة ، وأنه سيفتح مصر والأناضول وسورية وشمال افريقية ، ويجعل من البحر الأبيض بحيرة رومانية ؛ ومضت ايطاليا الفاشستية تسخر بلسان زعيمها من كل دعوة للسلام ونزع السلاح ، وكل دعوة إلى تفاهم الأمم ، وآثرت نغمة الوعيد والتهديد ، والحرب والانتقام

غير أن ذلك الروح الحربى المضطرم لم يتمخض عن احياء الدولة الرومانية ، ولا استعادة شىء من حدودها أو أملاكها القديمة ، ولكنه تمخض عن مشروع استعمارى مثير وضيع معاً : ذلك هو غزو الحبشة وافتتاحها لاستخلاص ثرواتها الدفينة ، وليكون منها ومن الصومال والأرترية لايطاليا القيصرية امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ وقد كان زعيم الفاشستية يحلم بأن جيوشه ستكتسح الفريسة فى سيل من النصر الباهر يدهش العالم ويروعه معاً . ولكن الفريسة صمدت للمعتدين عليها ، وأفهمتهم أن دون ازهاقها أهوالا وتضحيات فادحة ؛ وقد كانت الفاشستية فى ذلك معتدية أثيمة تنكر أبسط مبادئ الحق والعدالة ، بل تنكر ماضيها وعهودها وتصريحاتها التى أذاعتها لأول عهدها بلسان زعيمها . واليك مبادئ السياسة الخارجية الفاشستية كما أذاعها موسولينى فى أول برلمان فاشستى : « لا نريد استعمارا ، ولا نريد اعتداء ، ولكنا سنتخذ موقفاً يقضى على سياسة الاذلال التى جعلت ايطاليا أقرب إلى وصيفة وخادمة ذليلة للأمم الأخرى ؛ احترام للمعاهدات الدولية مهما كلفنا ذلك ؛ اخلاص وصداقة نحو الأمم التى تقدم لايطاليا أدلة صادقة على مبادلة هذه العواطف ؛ تأييد للتوازن الشرقى الذى يقوم عليه سلام الدول البلقانية ، ومن ثم يقوم عليه سلام أوربا وسلام العالم » ، ولكن الفاشستية وهى حركة عنيفة تقوم على القوة وتعتبر الحق للقوة ، لا يمكن أن ترتبط بعهد أو ذمام ، ولا يمكن

أن تؤمن بالحق لذاته أو العدالة لذاتها ؛ وقد نمت الفاشستية واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت أن تخلق من ايطاليا قوة يخشى بأسها . بيد أنها بدلا من أن تقف هذه القوة لتأييد الهيبة والمصالح القومية المشروعة ، اتخذت منها أداة لتهديد سلام أوربا وسلام العالم ، وجعلتها وقفاً على تحقيق الشهوات الحربية والاستعمارية ، ولم تحجم عن أن تعرض سلام العالم للخطر فى سبيل شهواتها وغاياتها

واليوم وقد انساقت الفاشستية إلى مغامراتها الخطرة ، فانها تشعر لأول مرة فى تاريخها بصدمة حقيقية ؛ وقد كان موسولينى يظن أنه يستطيع افتراس الحبشة بأيسر أمر وعلى مرأى ومسمع من العالم ، وأن صيحات الوعيد المتكرر تكفى لاخماد كل معارضة وتدخل ؛ ولم يكن موسولينى ليقيم وزناً لعصبة الأمم ، وقد سحق مبادئها من قبل يوم احتل جزيرة كورفو ليرغم اليونان على تنفيذ مطالبه لخلاف نشأ بينهما من جراء مقتل بعض الرعايا الايطاليين فى الأراضى اليونانية ؛ وكان موسولينى على حق فى استخفافه بالعصبة وجهودها ؛ ولكن من كان يظن أن عصبة الأمم ستضطرم فجأة بروح جديدة ؟ ومن كان يعتقد أنها ستجرؤ على اتخاذ تلك القرارات التاريخية الشهيرة فتلق تهمة الاعتداء العمد فى وجه إيطاليا وتقضى عليها بالعقوبات الاقتصادية ؟ ولكن عاملاً جديداً لم يكن يتصوره موسولينى قط هو الذى وثب فجأة ووقف للفاشستية ولايطاليا بالمرصاد ، واستطاع أن يقلب جميع الأوضاع الدولية فى أسابيع قلائل : ذلك هو تدخل انكلترا وتحرك الامبراطورية البريطانية . ولقد كانت انكلترا تبغض الفاشستية منذ قيامها ، وتعتبرها خطراً على السلم الأوربى ؛ ولكنها مذ اشتد ساعد الفاشستية وذكا وعيدها وتدفقت جيوشها إلى شرق افريقية ، أدركت أن الفاشستية قد أصبحت بمطامعها ومشاريعها الاستعمارية خطراً داهماً على الامبراطورية البريطانية ، وعلى دولتها الاستعمارية فى وادى النيل وشرق افريقية ، وعلى سيادتها فى البحرين الأبيض والأحمر ؛ ويجب لتأييد سلام الامبراطورية وأمنها ، أن تسحق هذه الفورة الخطرة ؛ وهناك عامل معنوى آخر يقتضى فى نظر انكلترا الحكم على الفاشستية ، هو أنها رمز النظم الطاغية العنيفة التى يمقتها الشعب الانكليزى ، ويراها خطراً على الديموقراطية التى غدت انكلترا ملاذها وحصنها الأخير بعد أن اجتاحت معظم الدول الأوربية ؛ وهكذا تستحيل المعركة اليوم إلى نضال خطير بين الفاشستية وبين الامبراطورية البريطانية مستترة وراء عصبة الأمم ؛ ولقد كان نجاح انكلترا عظيماً فى حشد أمم العالم ضد إيطاليا باسم العصبة ، وفى تنظيم هذه العقوبات الاقتصادية التى ستشل عما قريب كل موارد إيطاليا وقواها المالية والاقتصادية ؛ وهكذا تنهار تدابير الفاشستية فجأة ، وترى نفسها وحيدة فى الميدان ، تواجه سخط العالم وتألبه ، وتواجه الامبراطورية البريطانية ؛ وفى رأينا أنه ليس ثمة شك فى نتيجة هذه المعركة ، فالفاشستية تجوز معركة الحياة والموت ، وهى تسير بلا ريب إلى انحلالها ، وليس فى وسعها أن تثبت طويلاً أمام هذه الصعاب الفادحة التى تواجهها فى الخارج وفى الداخل ؛ وتدل الطوالع على أن الحرب الحبشية التى أريد أن تكلل جبين الفاشستية بهالة من الظفر ستغدو قبراً للفاشستية ؛ ومن المرجح أن يقترن فشل الفاشستية فى مشروعها الاستعمارى بانهيار سلطانها فى الداخل، وعندئذ تختتم تلك المأساة الطويلة بانقلاب حاسم ، وتتحرر إيطاليا من تلك الأغلال الحديدية التى صفدتها مدى ثلاثة عشر عاماً ، ويتنفس العالم سعيداً إذ يرى مصرع تلك الفورة الطاغية الخطرة التى مازالت منذ قيامها تهدد أمنه وسلامه

(***)



كيف كسبت الرهان !

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

(تنبيه — الحادثة ليست شخصية — وليس لى أخت)

غام الزجاج أمامى من كثرة ما سقط عليه من ندى الفجر ، وكنت — كلما قطعنا بضعة فراسخ — أمسحه بمنديل ثم أجلوه بورقة ، وكان ذلك يحوجنى الى الوقوف ثم استئناف السير ، وهذا مضيعة للوقت ، والشقة بعيدة ، والرهان جسيم ؛ فقلت أرفع الزجاج ، فان التعرض للهواء البارد أيسر محملا ، وأهون من النظر من زجاج عليه ضبابة ، وإن كانت رقيقة ؛ وصحيح أن أختى كانت تصف لى الطريق وتسمى لى ما يعترضنا عليه ، وتعين لى مواقع الأشياء ، ولـكن السائق لا يستطيع أن يعتمد على غير عينيه ؛ ثم إن وصفها كثيراً ما كان يحيرنى ويحدث لى اضطراباً ، فقد كانت تقول مثلا : « هذا رجل فى وسط الطريق .. لا لا لا .. إنه أقرب إلى اليسار ... انتظر ... بل هو يمشى يميناً ... امض على بركة الله ... لا خوف »

فأتنهد ، وأمضى على بركة الله ، فما ثم شىء آخر أمضى عليه ؛ وبودى لو تبين لى كيف أستطيع أن أتريث وأنتظر حتى تتثبت هى وتقطع الشك باليقين ؛ ثم إنى لم أكن أومن بأن نظرها أصح وأسلم وأقوى ، وأنه يسعها ما أعيانى من اختراق هذا الضباب — أعنى النظر من خلال الزجاج المتغيم . لذلك توكلت على الله ورفعت الزجاج

وقال زوجها : « لا بأس ! ولم لا ؟ إنه لن يصيبنا شر من الالتهاب الرئوى

فرمت اليه زوجته شيئاً وقالت : « تلفع بهذا »

فرده اليها وهو يقول : « الـكلب لا يعض أذن أخيه ... صدق والله ! »

فثاروا به وشغبوا عليه ، ولما قرت الضجة قلت :

« غط صدرك إذا كنت تخشى الهواء ، وفمك أيضاً — فانى نويت أن أعوض ما خسرت إلى الآن »

وضغطت بقدمى فانطلقت السيارة كالسهم ، وانحنت أختى تنظر إلى العداد ، وجعلت تملن الىّ الرقم كلما تغير ، وتصيح :

« ٤٠..... ٤٣ .... ٤٧ .... ٥٠ .... أوه ! لقد وصل إلى الستين ..... ! السبعين .... »

ثم أمسكت ، فقد كان الهواء قوياً ، ودفعه فى الصدر شديداً ، فلولا أن النظارة على عينى لما وسعنى الصبر عليه ؛ وكان الطريق مستقيما ، والتراب راقداً لـكثرة ما نزل عليه من الطل ؛ وبدت لعينى مركبة فسألت نفسى : ترى على أى ناحية من الطريق هى ؟ ولـكنى جزتها ومرقت كالسهم فى نفس اللحظة التى رأيتها فيها ، فلا جواب لسؤالى ؛ وأحسست أن سيارة مقبلة علينا ، ثم تبينت أنها ماضية فى اتجاهنا فما عتمت أن صارت وراءنا ، وأحسب أن سائقها قد أوسعنى شتما ولعناً ، فما نبهته ولا حذرته ؛ وظهرت ضيعة ، ورأيت بيوتها الواطئة المبنية من الطين ، وأخذت عينى الأشجار المغروسة أمامها — أو خلفها ، لا أدرى — فقد غابت عن عينى بأسرع مما بدت لها ؛ وكنت لا أجرؤ أن أصوب لحظى إلى عداد السرعة ، ولـكنى كنت أحس كل كيلو نقطعه ونضيفه إلى ما فرغنا منه ؛ وزاد ضغط قدمى ، فتجمعت أختى ونظرت ثم قالت :

« ٨٩ ... ٩٠ ... ٩١ ... ٩٢ ... »

ثم رأتنى كالمسمر فى مكانى ، وكأنما أدركها العطف على ، أو قواها اصرارى على الفوز ، فعادت تنظر وتبلغنى ما ترى .

« إلى اليمين شىء ... عربة ... خال ... عربة ... تتحرك ... دراجة إلى يسارك ... سيارة مقبلة ... خال ... لا ... رجل يمشى ... خال ... »

فسألتها : « كم كيلو قطعنا ؟ وكم الساعة الآن ؟ »

وكانت الساعة الرابعة صباحا ، ولا يزال أمامنا مائة وعشرة كيـلومترات إلى دمنهور ، ونحو ثلاثين أخرى إلى القرية ، وثلاث ساعات نقطعها فيها

فجملت أدافع اليأس ؛ ذلك أن الطريق إلى (بنها) واسع ، ولـكنه بعد ذلك يضيق ، إلى قريب من طنطا ، ويزدحم بالجمال والأبقار والأغنام والدواب والسيارات ، فسألت القوم : « هل ورد ذكر لدمنهور فى الرهان ؟ »

فقالت أختى : « أظن ... لا لا ... لم يرد لها ذكر »

وقال زوجها : « أو ورد .... سيان .... »

فقاطعته ابنة عمه ، وكانت معه على المقعد الخلفى وقالت : لا ، على التحقيق ... كل مااشترط هو الوصول إلى القرية الساعة السابعة صباحاً ، والأسبق هو الفائز .... ولـكن لماذا تسأل ؟ »

قلت : لأن هناك طريقاً أخصر .... من طنطا إلى دسوق مباشرة »

قالت : « وما الفرق ؟ »

قلت : «ثلاثون كيلو ... مسافة لا يستهان بها ... والطريق أضيق ولـكنه معبد »

قالت : « وهل تظن أنه يجهل هذا الطريق ؟ »

فهبط قلبي من صدرى إلى حذائى ، ولى العذر ، فان قريبنا هذا ـ ومراهننا ، وصاحب الضيعة وداعينا إليها ـ أبرع منى وأعرف بالسكك المؤدية إلى قريته ، ولا شك أنه أهمل النص على دمنهور فى الرهان عمدا ، لظنه أنى لا أعرف غير سكة دمنهور ، ثم لا أشك أنه تلكأ وراءنا ليغافلنا فى طنطا ، ويميل هو إلى الطريق الأخصر ....

وزاد الطين بلة أنى أحسست ونحن ندخل بنها كأن قدمى قد شكت بمسمار محمى ، فصرخت ، ورفعت رجلى ، واضطررت أن أميل بالسيارة الى الرصيف

وخلعت الحذاء وجعلت أنظر ، وأتحسس قدمى وأفركها ، فقالت أختى :

« ماذا جرى ؟ »

وقال أخوها : « هل أدلـكها لك ؟ كلا ، لا بأس ! إذن لم يبق إلا العلاج بالايحاء . اسمع ! متى قلت : « واحد » فان عليك أن تفرغ رأسك من كل شيء ـ وهذا سهل جداً ولن يكلفك عناء ـ ومتى قلتُ : « اثنين » فاعتقد أن الألم الذى لا تحسه ، ليس إلا وهماً . . . ومتى . . . »

فصحنا به نسكته ، ولما انقطع اللغط قلت :

« طول الضغط فعل هذا ... على كل حال لا أظننى أستطيع أن أسوق السيارة ، فعليك أن تتفضل وتجلس فى مكانى ، وأمرنا إلى الله ، وأرواحنا فى وديعته ، وعوضنا الله خيراً ، فقد ذهب الرهان والأمل فى كسبه »

فصاحت أختى : « ولـكنه لا يحسن القيادة . . . »

قلت : « وما الحيلة ؟ سأجلس الى جانبه ـ وأرشده »

فقالت : بنت عمه : ولـكنه سيقصر عمرنا . . . »

فقلت : « وماذا نصنع غير ذلك ؟ »

وقالت زوجته : « ولـكنى أخاف . . . أعنى . . . إنه . . . »

فقلت : « اطمئنى . . . لا خوف عليه . . . ولا علينا ، إذا كان هذا يعنيك »

فالتفت الينا وقال :

« ان الذى فهمته هو أن هناك اقتراحاً منكم بأن تتمتعوا بقيادتى لهذه السيارة . . . حسن جداً . . . فلتبلغ الصحف ، وليدع الشعراء »

فقلت : « إن المسألة لا تحتمل هذا المزح . . . »

وقالت أختى : لا تحتمله أبداً . . . عدنى ألا تسرع . . . سر ببطء . . . على مهل . . . ولنصل بعد أسبوع . . . ماذا يهم ؟ واحذر أن تسابق شيئاً . . . »

فقال : « لا تخافى يانور عينى . . . إذا صادفت فى طريق سيارة فانى أعدك أن أعطل المحرك ، وأذهب فأختبىء تحت شجرة »

ودخلت بينهما وقلت : « إن وعداً كهذا لا سبيل اليه ، فان علينا أن نصل إلى القرية فى وقت معقول ، إذا لم يكن علينا أن نكسب الرهان ، ثم إنى سأكون إلى جانبه وسأرشده ، وسيكون هو السائق اسما ، فقط ، فلا خوف . »

فالتفت الينا ، بعد أن قعد فى مكانى وقال : ولـكنى أشترط أن يكون الارشاد بلغة مفهومة ، أما أن تصيح بى « الهوا » أو « اكسر » . . . فلا يا صاحبى . . . قل كلاماً مفهوماً أطعك : ولا تقلد ذلك الذى علمنى ، وصاح فجأة : « حش . . . حش » فوثبت عن المقعد ، ولم أدر ماذا أحوش ، ووثب الرجل الذى دعانى معلمى أن أحوش السيارة عنه . . . وعلى ذكر ذلك أقول إنى لم أر فى حياتى أحداً يثب كما وثب ذاك الرجل يومئذ ! »

فصاحت زوجته ، وهى تنزل من السيارة : « إنى لم أكن أعرف هذا الخبر ، ويستحيل أن أدعك تسوق السيارة»

وقعدت على الرصيف

وجعلت أنظر منها اليه ، ومنه إلى بنت عمه ، فى صمت ؛ ومضت دقائق كأنها الدهر طولاً ، مشيت بعـدها إلى مقعد القيادة وقلت :

« انزل من فضلك . . . فانك مطرود » فنزل وهو يقول :

« ولـكن رجلك . . . ثم إن هذا . . . »

قلت : « لا بأس ، سأجرب على الأقل »

فدنت منا بنت عمه ووضعت كفيها على كتفينا وقالت لى « ألا تدعني أسوق ؟ . . . ربما . . . استطعت . . . »

قلت : « حباً وكرامة ، ولـكن كيف يمكن ؟ إنك . . . »

قالت : « لست جاهلة جداً ... وسأحتاج إلى إرشادك ... والطريق خال »

فقال : « نعم خال . . . جداً ، إلا من البقر والجمال . . . »

***

وركبنا جميعاً ، وقلت لها : « الآن ضعى ناقل السرعة فى ... براڤو . . . انقليه برفق . . . براڤو جـداً . . . أظن أنه يحسن التأنى حتى تبعد عنا هذه السيارة »

فقالت : وهى تحول ناقل السرعة إلى المكان الثالث : « كلا أظن أن الأوفق أن نمر به »

ومرقت كالسهم بجانبـه ، فالتفت اليها متعجباً ، فما كنا نعرف أن لها دراية بالسيارات أو خبرة بقيادتها ، ونظرت إلى العـداد فاذا هو يشير إلى الخمسين . . . فالستين ، فرفعت عينى اليها ، فألفيت على ثغرها ابتسامة فاتنـة ، وقالت وهى تخطف بالسيارة :

« أظن أن الأمل فى الرهان لم يذهب . . . على كل حال « عبده » لا يزال وراءنا »

فقالت أختى : « وراءنا ؟ من قال هذا ؟ لقد مرق وأنتم واقفون . . . رأيته بعينى »

فعدنا إلى اليأس بعد أن كاد ينتعش الأمل ، ولـكن الفتاة قالت :

« هذا أحسن . . . خيراً صنع . . . وأنا الآن مطمئنة »

قلت : « ولـكن كيف ؟ أليس قد سبقنا ؟ »

قالت : « سترى . . . معنا الله »

***

وشارفنا طنطا ، ولمحنا سيارة « عبده » ، فتباطأت ، وأبت أن تسبقه كما أشرت عليها ؛ فلما صرنا فى قلب المدينة ، اغتنمت فرصة الزحام ، وتركته يمضى فى طريق ، وضربت هى فى طريق غيره ، وأطلقت للسيارة العنان

وقالت بعد أن خرجت إلى السكة الزراعية : « إنه يعتقد الآن أننا وراءه ، واعتقاده هذا ربح لنا ، وبقى أن يغلط ويأخذ طريق دمنهور »

فسألتها : « ولـكن من أدراك أنه لم يسبقنا ؟ »

قالت : « كلا ... إن طريقى أخصر جداً ... كن واثقاً »

ومضينا على سكة دسوق ، وكنا لا ننفك نلتفت وراءنا لعلنا نرى سيارة « عبده » ، فلما طال ذلك علينا أيقنا أنه أخذ طريق دمنهور ، فقد كان فى وسعه أن يدركنا بسهولة

وسكة دسوق ضيقة كما أسلفت ، وكانت إلى هذا كثيرة الزحاليق ، وكانت السيارة لهذا تتلوى على المواضع البليلة ، كالحية ، ولـكن سائقتنا كانت حاذقة ، فسكن روعنا جميعاً ، ووسعنا أن نضحك ونمزح

وقلت لها — همساً — : « إنى أحس غيرة . . . هنا » وأشرت لها إلى موضع القلب فابتسمت وقالت : « لماذا ؟

قلت : « لأن على جبينك خصلة صغيرة جميلة يداعبها النسيم — أعني يقبلها — علناً وعلى مرأى منا جميعاً — وهذا . . . هذا . . . مخجل . . . فعسى ألا يعدينى بالجرأة »

فتكلفت الجد وقالت : « إذا فعلت ، فسأمضى إلى هذه الترعة . . . مباشرة »

فهمست : « هش . . . لا تمزحى . . . إنها مسائل لا تحتمل المزح . . . ومن يدرى ؟ ؟ فقد تصيبك العدوى . . . ثم إنك لن تحسني التعبيس مادام لك هذا المحيا الواضح الذى يضيئه الجمال ، ويضحك فيه أيضاً »

فلوت مُوَجِّه السيارة بلا كلام فصاح ابن عمها :

« إلى أين بنا يا هذه ؟ »

قالت بابتسام : « الى الترعة . . . إذا لم يسكت »

قال : « إذا كنت تريدين أن تستحمى فان فى البيت الذى نرجو أن نبلغه سالمين حماماً بديعاً ، ولـكن بغير ماء ! على كل حال ، أظن أن جارك مستعد أن يملأ لك الجرار ، ويصبها عليك أيضاً »

قالت : « إذا وعد بأن يكون حسن السلوك . . . »

واستأنفنا السير بسرعة ، ويطول بنا الحديث إذا أردت أن

أسرد ما عانيناه من الغنم والبقر والجمال والسيارات ؛ ولـكن حادثاً واحداً وقع لنا لا أرى بداً من ذكره ، ذلك أنا وقعنا فى وحل عظيم ، ولم يكن لنا مفر ، ولا كان لنا مهرب ، فقد كنا مقبلين بسرعة فاذا أمامنا — وإلى مسافة طويلة — ماء وطين ووحل شـديد فارتطمنا فيه قبل أن ندرك ما حدث ، وصارت العجلات تنزلق دائرة ولا تتقدم . فأوقفت المحرك وقالت :

« هل مع أحد منكم سيجارة ؟ »

وأشعلتها ، ونفخت دخانها ثم قالت :

« هذا أوان الحاجة إلى الرجال . . . فاخرجا ، وابحثا عن قش تلقيانه تحت العجلات ، أو اجرفا الطين أمامها وشـقا لها طريقاً »

فقال ابن عمها : « هذا بديع . . . لقد تركت أظافرى تطول لمثل هذا اليوم . . . قم بنا يا أخى »

ولـكنا فعلنا غير ذلك ، ودعونا أحد الفلاحين إلى معونتنا ، فزعق فاجتمع حولنا نفر من الرجال والنساء ، أعملوا أيديهم فى الطين حتى رفعوه من طريقنا ، فشكرنا لهم مروءتهم ومددنا لهم أيدينا بنقود ، فأبوها كل الاباء ؛ وقال الذى جمعهم : « عيب يا افندى » فألححنا ، فأصر على الاباء ، وعلى أن هذا عيب ، فكررنا له الشكر ، وصافحناه ثم نظرنا فى أيدينا فاذا كلها طين ! فاستحيينا أن نقول شيئاً على مسمع منه

***

بلغنا البيت قبل صاحبه وقبل الموعد المضروب بنحو ربع ساعة ، وكان الفضل لهذه السائقة البارعة التى كنا نجهل أن هذه من مزاياها ؛ ولما أقبل مضيفنا بعد دقائق قال له نسيبى :

« ليكن هذا درساً لك . . . هات الرهان »

قال : « ولـكن من أين جئتم ؟ » » ثم كأنما تذكر فرفع يده إلى جبينه وصاح : « ما أغبانى ! » فقال نسيبى : « تمام . . . اعرف نفسك . . . هكذا قال الحـكماء . . . وهذا هو ربحك اليوم . . . وأولى أن تسأل كيف جئنا . . . حدثه يا هذا ، فان بى كسلاً بعد الذى تجشمته من متاعب القيادة »

فصحنا به منكرين هذا الـكذب . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

حول السنيين والشيعة

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت ما كتبه العلامة الأستاذ أحمد أمين فى الرسالة الغراء (عدد ١٢١) تحت عنوان (السنيون والشيعة) فرأيته يدعو إلى نبذ كلام الطاعنين من الفريقين ، وإلى عقد مؤتمر للوحدة الاسلامية ، يمهد له بالتماس وسائل الوفاق من الآن ؛ ولعمرى أن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم ، وهم المرجوون لوراثة تلك الوحـدة الدينية ، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً ؛ وإن أضر شىء علينا هو هذه العصبية الموروثة ، والعداوة المقوتة ، والتفرق الدينى الذميم ، « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء »

أيها الشيعة الـكرام : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أنتم تحبونها منا وهى تسرنا منكم ، وهى أن نأخذ بأدب سيدنا على وهديه ، ونقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه ، وان لم نتجاوزوا قوله ولا فعله ، فأهل السنة معكم ، وأنتم منهم وهم منكم ، وهاهى ذى أقواله وأعماله نعرض عليكم : لقـد بايع الامام على للأئمة الثلاثة من قبله ، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده ، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين طبقاً لما أخبر جده الصادق الأمين عليه وآله الطاهرين وصحبه الطيبين أفضل الصلاة والتسليم :

فى نهج البلاغة أن علياً عليه السلام سئل عن الخوارج : أكفار هم ؟ قال من الكفر فروا ؛ قيل : أفمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ؛ قيل فما هم ؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم . وفى نهج البلاغة أيضاً أنه عليه السـلام قال وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين : « إنى لأكره أن تكونوا سبابين ، ولـكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر »

أقول ومعلوم من حال أهل السنة أنهم يقصون ماجرى بين

الصحابة (رض) ويصفون أعمالهم ، ويذكرون حالهم ، ويرون أن الحق فى جانب علىّ عليه السلام ، وأن محاربيه هم الفئة الباغية على الامام الحق ، وهم المخطئون فى اجتهادهم ، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً واحتراماً لصحبتهم ، وحفظاً لكرامتهم ، وحسن بلائهم فى نشر الدعوة الاسلامية ، ويقولون : الكل ينشدون مصلحة الاسلام

أيها الاخوان الكرام : أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر بعيد الوحدة الاسلامية على هذا الأساس الدينى ، السُّنى العلَوى هو المطلوب ولا سيما فى هذا الزمن العصيب ؟

فنحن نعزز رأى الأستاذ الجليل أحمد أمين ، ونرجو أن يعقد مؤتمر فى الكنانة أو فى دار السلام تزول به تلك الاحن ، وتحول تلك المشاحنات الى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة ، وتقوية الملة ، وانشاء دور العلم المشتركة ، واحياء ذكرى أئمة آل البيت عليهم السلام بتجديد هديهم واصلاحهم

(دمشق) محمد بهجة البيطار

أثر تشجيع الأمراء

فى الأدبين العربى والانجليزى

للأستاذ فخرى أبو السعود

نالت الآداب العربية من تشجيع الأمراء فى مختلف العهود مالم تكد تظفر به آداب أمة أخرى ؛ ومن الأقوال المتواترة فى كتب الأدب العربى وتاريخه أن ذلك التشجيع كان من أهم أسباب ازدهار الأدب ، ولكن الحقيقة التى يراها المدقق أن ذلك التشجيع لم يكن له ذلك الأثر الطيب المعزوّ إليه ، بل كان له فى الأدب العربى أثر وخيم بعيد المدى

ذلك بأن الأمراء حين شجعوا الشعر وقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم لم يقصدوا إلى تشجيع الفن لذاته أو إكرام أصحابه ، وإنما كانت لهم غاياتهم الشخصية ومآربهم السياسية المعروفة ، فكانوا يريدون من أولئك الشعراء التزكية وإعلاء الصيت ومناضلة أعدائهم والذب عن دعواهم فى الملك والسيادة ، ولذلك لم يطلبوا عندهم سوى فن واحد من فنون الشعر هو المدح ، ولم نعلم عن أمير أجاز شاعراً لنبوغه فى الوصف أو النسيب أو قول الحكمة وضرب الأمثال

فالشعر الذى شجعه الأمراء هو المدح دون غيره ، وليس المدح بخير فنون الشعر ولا هو من الشعر على الاطلاق لمنْ طلب فى الشعر تعبيراً عن شعور صادق قيم ؛ وما كان المدح الذى أنشاه أولئك الأمراء فى الشعر العربى إنشاء لا نظير له يحوى شعوراً صحيحاً ولا تفكيراً مستقيماً

إن أول خصائص الشعر الجيد صدوره عن دافع وجدانى داخلى ، وهذه صفة كانت تنقص شعر المدح الذى كان لا يصدر إلا عن دافع مادى خارجى هو صلة الممدوح ، وإن لم يحسّ الشاعر بحب له ولا إعجاب به ، حتى ولو أضمر له البغض والازدراء . فلا غرو ، وقد فقد شعر المديح هذه الصفة الأساسية أن خالطه الكذب وأسرع إليه التهويل والمبالغة والتهافت والاسفاف والاحالة ، وأغرى معالجيه بسد نقص الشعور بالتلاعب باللفظ واصطناع محسناته ، وأولعهم بالسرقة من متقدميهم وتعاوُر معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً ، حتى لم تَعُدْ غاية قرض الشعر التعبير عن الشعور الصحيح — لأنه لم يكن هناك فى الغالب شعور — بل عادت الغاية إبداء البراعة ومعارضة المتقدمين واستدرار أكبر الصلات

وشعر المديح استتبع ضرباً آخر من الشعر ليس أقل منه حطة فى المرتبة وبعداً عن أغراض الشعر الصحيح ، وهو الهجاء : لأن إرضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه ، ولأن المادح الخيَّب كان ينقلب فى الغالب هاجياً مفحشاً لممدوحه أو للشاعر الذى زاحمه ونال الحظوة دونه ، ولأن بعض الأمراء كان يشجع تراشُق الشعراء ببذىء القول شَغَلاً لأذهان الناس ، وكان من ثمار هذه الخطة مقذعات جرير والفرزدق والأخطل

واستتبع شعرُ المديح ضرباً آخر من النظم بعيداً عن الشعر الصحيح والشعور المستقيم امتلأ أيضاً بأنواع الاغراب والاغراق

والاسفاف ، ذلك هو النسيب الاستهلالى الذى التزمه الشعراء المدّاحون من أهل الحضر تشبها بالمداحين من الجاهليين وإمعاناً فى تقليدهم

وكل هذه الرذائل التى تجمعتْ فى شعر المديح ـ لخلوه من الدافع الوجدانى والشعور الصادق ـ انتقلت إلى ضروب القول الأخرى ففشت فى الشعر كله عيوب التقليد والمبالغة والصناعة اللفظية ومحاولة إبداء البراعة

واسترقّتْ هباتُ الأمراء ـ للأسف الشديد ـ رِقَابَ معظم أقطاب الشعر العربى ، فلم ينزّه شعرَهُ عن طلبها إلا القليل جدا ممن أبت لهم ذلك ظروف خاصة ، كالشريف الرضى وأبى العلاء ، وأُضِيعَ جانبٌ ضخم من عبقريات أبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من الفحول فى نظم الأكاذيب والمفارقات طلباً لجوائز الأمراء ، فكان من أقوال هؤلاء الفحول :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثوا كل

وكشفن عن بَرَدٍ خشيتُ أذيبه

من حر أنفاسى فكنتُ الذائبا

والمتأمل لهذه الأبيات يرى إلى أى حدّ من تفاهة المعانى وكذبها واستحالتها قد خرج المديح بالشعر وبفحول الشعر ؛ بيد أن النُّقّاد انساقوا فى ذلك التيار ، فعدّوا هذا السفساف من غرر أولئك الشعراء وراحوا يقابلون بين هذه الأقوال ويفاضلون بين قائليها ، والأديب الذى يريد من الشعر التعبير الصادق عن الشعور الصحيح لا يرى لأحدٍ من قائليها فضلا بل يحذفها من عداد الشعر جملة

ولو أعرض أولئك الشعراء عن تلك السبيل وقَصَرُوا القول على بيان شعورهم الصحيح وأفكارهم الصادقة وتوفروا على الفن الذى حببهم به الطبيعة جاعليه غاية لنفسه ، إذن لربح الشعر العربى ربحا جزيلا ولَوَسَّعُوا من أغراضه وأوضاعه ورحّبوا من أطرافه وآفاقه

هذا أثر تشجيع الأمراء للشعر وصِلَتِهِم للشعراء : إدخالٌ لفارغ القول وكاذبه وسفسافه ، وإزاغة للنظرة إلى الغرض منه ، وتقييد لأغراضه ومذاهبه ، وقعود بهمم رجاله عن استيفاء غاياته ، وصرفٌ لهم عن جِدّ التفكير ونافعه ؛ ولو أراد الأمراء بالشعر خيراً لكفّوا عن رجاله صِلاتِهم فطاب الشعراء الرزق من أبوابه التى يطلبه الناس منها ، ونَحَّوْا الشعر عن المادة ، وأبقوه كما يجب أن يبقى ترجمانا لمشاعر النفس ووصفا لروائع الكون فجاء الأدب العربى أشد انطباعا بطابع الصدق مما كان

لم يكن للأدب الانجليزى — لحسن حظه — مثل هذا الاتصال الوثيق ببلاط الأمراء ، ولم يتخذ حلية من حلى القصور وآلة من آلات السياسة إلا فترة وجيزة فى أواخر القرن السابع عشر خالطه فيها الضعف والاستهتار والمجون والملاحاة ، ثم كانت للأدباء بالنبلاء فى بعض القرن الثامن عشر صلة ، ولكن شتان بينها وبين صلة من تقدم ذكرهم من الشعراء بالأمراء من العرب : كان الأديب يؤلف فيما عنّ له ونال اهتمامه من موضوع ثم يهدى كتابه عند نشره إلى النبيل الذى يتولاه برعايته ، وليس فى هذا ضرر يقاس بالأضرار التى تقدم ذكرها فى الأدب العربى

وقد نشأ منصب شاعر الملك فى انجلترا منذ زمان ، ولكن الشعراء الذين شغلوه لم يترفروا على الملوك توفر شعراء العربية ، ولم يشغل المنصب من كبار الشعراء إلا القليل ، وكان اختيارهم لمثله تقديراً صحيحاً لسالف جهودهم فى عالم الأدب ، ولم يكن ماقالوه بصفتهم شعراء الملك بخير ما قالوا ، ولم يكن بالكثير ، ولم تزل وظيفة شاعر الملك تتضاءل حتى صار المنصب اسمياً فخريا لا أكثر

وقد جاء الأدب الانجليزى لخلاصه من لوثة تشجيع الأمراء — أو بالأحرى تسخير الأمراء — وزلفى الأدباء اليهم حرّ النزعة طليق الفكرة بعيد المرمى صادق التعبير ، يعبر عن إحساسات الفرد ويترجم عن عواطف الجماعة ، وانفسحت أمامه الآفاق إذ خلا من القيود ، فتعددت أغراضه وتكاثرت أوضاعه ، إذ كانت وجهته دائماً وجهة كل الفنون الرفيعة : التعبير الجميل عن شعور الانسان الصحيح بروائع الحياة ، بعيداً عن ذلك الغرض المادى الدخيل الذى تعثر الأدب العربى فى قيوده طويلا

فخرى أبو السعود

٣ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

ثانياً — الأوربيون والأحباش

وفى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر احتك الفرنسيون بالأحباش على عهد ملكهم « ياسو الأول » الذى أرسل سفيراً حبشياً إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر . وفى سنة ١٧٠٥ أرسل الفرنسيون المسيو رول سفيراً إلى الحبشة وتشجع الرهبان اليسوعيون الفرنسيون على الذهاب إلى بلاد الحبشة وأخذوا يحلون محل الرهبان اليسوعيين البرتغاليين

ولما مات ياسو الأول ثار الأهلون وقتلوا رجال السفارة الفرنسية ، وأراد خلفه أن يحمى اليسوعيين فلم يوفق ؛ وحدثت اضطرابات داخلية فى المملكة استمرت مدة طويلة فاستفاد الصوماليون والغالا المسلمون من ذلك وهجموا بقوات كبيرة على بلاد الحبشة فتوغلوا فيها وأمعنوا فيها قتلاً وتخريباً . والذى زاد الطين بلة أن الرهبان الكاثوليك أرادوا الاستفادة من هذه الاضطرابات وسعوا سعياً حثيثاً لاستمالة الأحباش إلى مذهبهم طالبين منهم أن يتركوا المذهب اليعقوبى . وفى سنة ١٨٣٨ استولى رأس مقاطعة شوعا على العرش فأصبح ملكا على البلاد وعقد معاهدة مع الفرنسيين

ثالثاً — علاقات الدول المستعمرة

فى سنة ١٨٥٥ استولى « عالى » أحد أغنياء الغالا على مملكة شوعا ونصب نفسه ملك ملوك الحبشة . ولم يوطد عالى حكمه فملا فى البلاد فاستفاد صهره من الموقف فأصبح عاهلاً على جميع بلاد الحبشة باسم « تيودوروس الثانى » بعد أن استمال قبائل الغالا والأمحرة والتيجرى إلى جانبه ونقل عاصمته إلى أنكوبار ولبس تاج الملك فى القاعدة الدينية « أكسوم » أعلن ذلك على أوربة وغدا ملك ملوك الحبشة . ولم يكن تيودوروس من سلالة الملوك ؛ وكان الملك الشرعى « هاتيلو ملكوت » ملك شوعا ووالد « ساهلا لا مريام » (منليك الثانى المنتظر) وتغلب تيودوروس على هذا الملك وعامله باحسان

ومن الأمور الاصلاحية التى قام بها الغاء المخصصات التى كان يتمتع بها الرؤوس بالارث فلقى معارضة منهم واستطاع أن يقهرهم . وعاكسه الرهبان فتغلب عليهم ، ولما علم بأن الرؤوس اجتمعوا فى قصر خلسة ليدبروا ثورة عليه ذهب بنفسه إلى القصر المذكور وباغتهم وقتلهم جميعاً ماعدا الأمير الصغير (ساهلا لامريام) الذى استطاع أن ينجو بنفسه فاراً

وفى دور الاضطراب كان ملوك الحبشة قد حرموا على الأجانب دخول بلاد الحبشة ، بيد أن تيودوروس ألغى هذا التحريم زاعماً أن دخول الأجانب الحبشة يفيد أهل البلاد . فأرسل وفوداً إلى ملكة انكلترة فكتوريا وإلى امبراطور فرنسا نابليون الثالث وكلف هذا الأخير بتجديد المعاهدة المعقودة سنة ١٨٤٨

وكان البريطانيون قد أرسلوا قنصلاً إلى الحبشة إلا أنه قتل فى الاضطراب الذى حدث فى سنة ١٨٦٠ . وفى سنة ١٨٦٢ أوفدت ملكة بريطانيا قنصلاً مع الهدايا ، كما أن نابليون الثالث أيضاً أوفد قنصلاً

ولما رأى البريطانيون أن تيودوروس لقى مقاومة فى الداخل وأن جيشه أخذ يضعف بالحروب المدبرة لم يميلوا إلى الاعتماد عليه ، لذلك لما أراد إرسال سفير إلى انكلترة لم يلب طلبه فضلاً عن أن القناصل البريطانيين أخذوا لا يعبأون به

واشترى الفرنسيون جزائر دسس وزولا فى سنة ١٨٥٩ وميناء عبق فى سنة ١٨٦٢ وجعلوها قاعدة لتموين بواخرهم بالفحم ، وأراد تيودوروس أن يرسل سفيراً إلى فرنسا فلم يتلق جواباً من امبراطورها . ولما اطلع على مخابرات القناصل اغتاظ من الأوربيين جميعاً وحبسهم فى قلعة « مجدلة »

فأرسل البريطانيون فى سنة ١٨٦٤ وفداً برآسة السير هرمز رسام[1] ليطلق سراح الأجانب ، إلا أن تيودوروس امتنع وحبس رئيس الوفد أيضاً ؛ فلما رأى البريطانيون ذلك وسطوا الخديو اسماعيل باشا فأرسل كتاباً إلى ملك الحبشة ولكنه لم يتلق جواباً عنه

(١) أحد الموصليين الذين عاونوا البعثات الأثرية الانكليزية فى الحفريات فى العراق

وفى سـنة ١٨٦٦ ترك العثمانيون ميناءى مصوع وسواكن لخديو مصر فأصبحتا بعد ذلك من الممتلكات المصرية ، وأضاف المصريون اليهما منطقة زولا أيضاً

واستفاد البريطانيون من هـذا الحادث فقرروا الحملة على الحبشــة فجهزوا جيشاً فى بمبى بقيادة السير روبرت نابر بقوة (١٦٫٠٠٠) جنـدى وأنزلوها فى زولا . وساعد الخـديو البريطانيين فى هذه الحركة وأمر محافظ مصوع بالمساعدة ، كما أنه كلف أسـطوله فى البحر الأحمر بأن يكون بجانب البريطانيين وأمدهم بالسفن النقلية ، وقوى البريطانيون هـذا الجيش بجنود أهليين وجهزوه بالوسائط النقلية فبلغت قوته (٤٠٫٠٠٠) جندى

ومال بعض رؤوس الأحباش إلى جانب البريطانيين فلم يساعدوا ملكهم على القتال وامتنع رأس شوعا من إرسال الجند . أما رأس تيجرى فاتفق مع البريطانيين الذين طمأنوه قائلين له إنهم لا يقصدون الاستيلاء على الحبشــة وإنما جل ما يريدونه خلع تيودوروس وتنصيب رأس تيجرى بدلاً منـه وأنهم سوف ينسحبون بعد ذلك

وساعد هـذا الاتفاق على حركة الجيش فتقدم من طريق (سـنافة — أدجرات — مكللو — انتالو) ووصل إلى أمام حصون مجدلة ؛ ولما حبطت مساعى تيودوروس لاستمالة الرؤوس إلى جانبه التجأ إلى حصون مجـدلة ولم يكن لديه سوى ٧٠٠٠ جندى وستة وعشرين مدفعاً

وفى ١٣ نيسان سـنة ١٨٥٨ احتل البريطانيون حصون مجدلة واستمر تيودوروس على المقاومة فى آخر حصن ، ولما تيقن من أن المقاومة لا تجدى نفعاً مات منتحراً

فأخذ البريطانيون تاج تيودوروس ومعطفه الملـكى وحفظوها فى المتحف البريطانى فى انكلترا ، وأعادوها إلى الرأس تفرى لما زار انكلترا فى سنة ١٩٢٤ . وانسحب الجيش البريطانى بعد أن أطلق سراح الأسرى الأجانب وأخذ معه ابن تيودوروس رهينة خشية أن ينتقم لأبيه وأرسله إلى انكلترا فمات فيها

وفى الملاقاة التى تمت بين قائد الجيش البريطانى ورأس تيجرى أهدى السير روبرت نابر ٩٠٠ بندقية إلى الرأس مكافأة له على صداقته

بعد أن بقى هذا الأمير فى الأسر سبع سنوات هرب من منفاه ، وكان عمره إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ، ودخل مملكة أبيه شوعا . وبعد حادثة مجدلة أعلن استقلاله فحذا حذوه رأس أمحره ، واستقل الغالا ببلادهم وأخذوا يغيرون على بلاد الحبشة الداخلية جرياً على عادتهم . وهكذا تجزأت المملـكة الحبشية التى استطاع تيودوروس أن يجمع كلمها ويؤلف منها مملكة كبيرة فى مدة قصيرة

أراد رأس تيجرى كاسيا أن يملك البلاد ويوحدها فتحرك على رأس جيشه البالغ ١٢٫٠٠٠ جندى فتغلب فى عدوى على جيش رأس أمحرة البالغ ٨٠٫٠٠٠ بفضل البنادق التى أخذها من البريطانيين

وفى سـنة ١٨٧٢ أعلن نفسه امبراطوراً على الحبشة باسم « يوحانس السادس » وبعد اثنتى عشرة سنة تفاهم مع رأس شوعا وزوج ابنه من ابنته . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح ساهالا مريام حاكماً على مقاطعة شوعا وجميع بلاد غالا ، وذلك ما ساعده بعد ذلك على توحيد المملـكة والقبض عليها بيد من حديد فاعترفت باستقلالها الدول الاستعمارية مرغمة

رابعاً — المصريون والأحباش

وبعد تتويج يوحانس فى أكسوم شرع الخديو اسماعيل باشا فى التأهب للزحف على الحبشة جاعلاً سواكن ومصوع قاعدتين لحركته . ولعله كان يطمع فى ضم مقاطعة هرر التى يكثر فيها المسلمون إلى أملاكه والاستيلاء على منابع النيل الأزرق ، أو أنه فـكر فى أن توسع الحبشة وتقوية جيشها مما يضر بمصالح المصريين ويجعل بلاد السودان معرضة للغارات ، أو أن الدول الطامعة فى بلاد مصر أرادت أن تشغل الجيش المصرى القوى بالفتوح فى الحبشة وتقضى عليه بالتدريج ، ويجوز أن رغبة الخديو الشخصية كانت ترمى إلى التوسع . والظاهر من مجرى الأحوال أن توجيه المصريين أنظارهم إلى الحبشة قربت النكبة التى أصابت المصريين بعد ذلك

ولا شك فى أن تجهيز الجيوش وارسالها على التعاقب مما أحرج الموقف المالى الذى ساء من جراء بذخ اسماعيل باشا

وفى سنة ١٨٧٢ أنزل المصريون جيشهم إلى سواحل الصومال فى زيلع ، وتقدموا نحو مقاطعة هرر ، ودخلوا شوعا ، إلا أن الرأس ساهالا مريام أجلى الجيش المصرى عنها وقضى عليه بالقرب من بحيرة « أوسة »

وفى سنة ١٨٧٤ احتل المصريون هرر وأنزلوا جيشاً بقوة ١٤٫٠٠٠ فى مصوع ، فتقدم نحو عدوى ، فتظاهر رأس تيجرى فى بادىء الأمر بالولاء له ، وفى ليلة ظلماء باغته من كل جهة وقضى عليه ، فلم يفلت منه إلا النزر القليل

وفى سـنة ١٨٧٦ أراد الخديو أن ينتقم من الأحباش ،

جهز جيشاً بقوة ٢٠,٠٠٠ ، وناط قيادته بابنه الأمير حسين باشا وأنزله فى مصوع ؛ ولما تقدم قابله الأحباش بقوة ٢٠٠,٠٠٠ جندى ، وفى المعركة التى نشبت فى جرة انكسر الجيش المصرى بعد أن خسر ١٣,٠٠٠ رجل ، فوقع الأمير حسين باشا فى الأسر مع هيئة أركانه ، ولم يخل الأحباش سبيلهم إلا مقابل فدية من المال

والغريب فى هذه الحركات أن الأجانب كانوا يتولون قيادة الجيش كأن المصريين من أهل البلاد لا يستطيعون القيادة ، بينما التاريخ يشهد لهم ببراعتهم فى ذلك ، فالجيش الأول كان قائده موزنجر باشا ، وكان يقود الجيش الثانى ضابط دنمركى الأصل ، أما رئيس أركان الجيش الثالث وأركانه فكانوا اميركيين

وفى الوقت ذاته كان المسلمون فى السودان بقيادة المهدى يهاجمون الحبشة من الشمال ، فدخلوا جوندار وأحرقوها ، وكان من أمر ذلك أن أرغم يوحانس المسلمين القاطنين فى الحبشة على الخروج منها ، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من المسلمين من الحبشة بعد أن كانوا متنعمين فيها ، فتشتتوا هنا وهناك ؛ أما الذين بقوا فيها فاضطهدهم الأحباش حتى اضطر بعضهم إلى التنصر ، ولو لم ينزل الطليان إلى الساحة الاستعمارية فى بلاد الحبشة لظل المسلمون مضطهدين ، إلا أن محاولة الطليان التوغل فى بلاد الحبشة اضطرت ملوك الحبشة إلى التساهل مع المسلمين تمهيداً لتوحيد المساعى ازاء هذا العدو الجديد

وبعد أن احتل البريطانيون أرض مصر لم يتدخلوا فى الحروب التى وقعت بين السودانيين والأحباش . ولكى ينتقم يوحانس لوقعة جوندار جهز جيشاً كبيراً وتقدم على رأسه نحو قوات المهدى ، وفى المعركة التى وقعت فى متمة ١٣ آذار أواخر (مارس) سنة ١٨٨٩ وقع جريحاً ومات فانكسر جيشه

والحقيقة أن قيام المهدى وبسط نفوذه على السودان وانتصاره على الأحباش جعل البريطانيين يفكرون فى العاقبة ، لأن القوات البريطانية والمصرية وحدها لم تكن كافية للتغلب عليه

ولعل نزول الطليان إلى الساحة كان بتشويق من البريطانيين للتغلب على المهدى من جهة ولمشاغلة الحبشة بقوات جديدة من جهة أخرى لكيلا تسيطر دولة قوية على مياه النيل فتهدد مصالح البريطانيين المتوقعة فى السودان

(يتبع)

طه الهاشمى

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعى *

للأستاذ زكى نجيب محمود

هو ضرب من ضروب الفكر ونحو من أنحاء النظر ، لا يذهب فى بحثه وراء حجب الطبيعة وأستارها ، بل يحصر نفسه فى نطاق الطبيعة وحدها ، يتقصى بالنظر ما شاء من وجوهها ، ثم يقنع بهذا فلا يعدوه قيد أنملة . عنده أن الحقيقة التى لا حقيقة بعدها هى هذه الطبيعة التى تراها بعينك وتلمسها بيديك ، هى هذه الأرض وتلك السماء وما بينهما من أحياء وأشياء ؛ أما أن تبعثك الطُّلَعة فتحاول أن تنفذ ببصرك إلى ما وراء ذلك ، زاعماً أن ما تدركه الحواس عبث باطل ، وأن الحقيقة الخالدة هى شىء مستور وراء هذه الحجب الصفيقة ، فخداع وجهل فى رأى هذا المذهب ، إذ يرى أشياعه أن الطبيعة لا تبطن شيئاً وتظهر شيئاً آخر ، بل ها هى ذى قد عرضت بضاعتها لمن شاء تحت السمع والبصر ، وهى تسير وفقاً لقانون صارم جازم لا يشذ ولا يلين ، فهو يسيطر بقوته على الكون بكل ما يحوى بين دفتيه ؛ ثم ينهانا أتباع هذا المذهب أن نلقى بالا الى ما قد يزعمه الزاعمون أن هنالك فوق الطبيعة حقيقة خالدة يدركها الفكر وتقصر عن إدراكها الحواس ، فهم لا يصدقون أن يكون ثمت غير ما نرى أو أن يكون فى الطبيعة شىء لا يخضع لقانونها خضوع الجماد الصامت ، ولا يستثنون من قاعدتهم الانسان بكل ما فيه من حياة وفكر وخيال لأنه فى رأيهم هباءة فى يد الطبيعة تطوح بها يمنة أو يسرة كيف شاء لها قانونها الجبار ، وإن الانسان ليخدع نفسه حين يوهمها أنها أرفع من الجماد منزلة وأسمى مقاماً ؛ فان اعترضت على رجال المذهب الطبيعى بأن قانون الطبيعة لا يفسر كل شىء ، وأن هنالك آلافاً من الحقائق التى تنتظر الشرح والتعليل أجابوك أن ذلك رهين بالعلم وحده . فلن يفتأ العلم يجد فى كشفها ويسعى ، ولن تزال هى تبدو فى ضوئه واحدة فى إثر واحدة

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن تنبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وبديهى أنها لا تعبر لكاتبها عن رأى خاص

وينقسم المذهب الطبيعى الى شعب تتعدد بتعدد إدراك الانسان لماهية المادة التى تملأ الكون ؛ فان رأيتَ أن قِوام الطبيعة ذرات مادية تتحرك فى المكان ، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا تعدو أن تكون مجموعة متراكمة من تلك الذرات فذلك هو المذهب المادى ؛ وان اعتبرت المادة نفسها ضرباً من ضروب الطاقة والقوة ، فذلك هو المذهب الطاقىّ Energism ؛ وأما إذا غضضت البصر عن أصل المادة الأول ، ونظرت الى الحقائق كما هى ، مرتبطاً بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، فذلك هو ما يسمى بالمذهب الوضعى . . . وكثيراً ما يطلق اسم « المادية » على هذه الشعوب كلها . لأنها مهما اختلفت فهى لم تزد على أن تناولت ظواهر الطبيعة المادية بالشرح والتعليل

وإن هذا المذهب الطبيعى ليبلغ أقصى قوته حينما يقف موقف الانكار والرفض بازاء ما يتعلق به الانسان من صنوف العقائد وضروب الخيال ، فهو لا يتردد فى أن يتناول الأديان بكفه الباردة فيسحقها بين أنامله ، لأنه لا يرضيه أن ينظر الى الأشياء والحقائق نظرة مجردة عارية من كل ما ألبسها الانسان من زخرف العقيدة وطلاء الخيال ، فبقذفة واحدة ألقى فى اليم كل ما أنتج الفكر البشرى من آراء عن عالم الغيب المجهول ، ولعله بذلك قد كفى نفسه مؤونة البحث فى هذا المطلب الشاق العسير

ومادام هذا المذهب الفلسفى قد رفض عالم الغيب رفضاً قاطعاً ، فهو إذن لا يعترف بالله إلا أن يكون ذلك هو الطبيعة نفسها ، أو الانسانية ، أو ماشئت من ظواهر الكون المحسوس ؛ وهو كذلك لا يقر الخلود إلا إذا قُصد به آثار الانسان الخالدة وظهوره فى أعقابه وما إلى ذلك من ضروب البقاء ؛ أما أن يذهب الظن بالانسان أنه باق بعد الحياة بقاء روحانياً فوهم خاطئ فى رأى هذا المذهب ، إذ ما بقاؤه وهذا جسده قد تبدد أشتاتاً فكان منه الشجر والحجر ؟ ستقول إنه باق بروحه دون جسده ، ولكن ما هو ذلك الروح ؟ أهو جزء من الطبيعة أو عنصر شاذ لا يستقيم مع مادتها ولا يخضع لقانونها ؟ اللهم إن كان هذا فلا روح ، لأنه ليس فى الطبيعة إلا الطبيعة نفسها !

وهذه الطبيعة تسير وفق سنن معروفة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فلكل ظاهرة من ظواهرها أسباب لا بد أن تنتج مسبباتها ، دون أن تحول بينها وبين ذلك معجزة أو خارقة ، ودون أن يكون فى مقدور الانسان أن يغير من مجراها بما يزعم لنفسه من إرادة حرة ، فليس الانسان حراً فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آلة مجبرة على السير فى طريق رسمتها له الطبيعة كما رسمتها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر ألوان الجماد . ولكن الانسان المغرور كثيراً ما يلقى فى روع نفسه أنه حر التصرف برغم أنف الطبيعة ، فيقول مثلاً : إنى لم أقرر بعد ماذا أصنع فى كذا وكذا ، ونسى المسكين أن مجموعة الذرات التى تتكون منها مادته قد قررت له مايصنع – جهل بذلك أو علم – ولم تكن فيما قررت بمعزل عن سائر الكون ، بل اشتركت فى تقريره مع العالم كله ، مع الطبيعة بأسرها . فخفف من غلوائك أيها الانسان ، واعلم أنك لا بد فاعل ما أريد لك أن تفعله ، إذ ليس لك عن فعله منصرف ولا محيص

ومن منا لا يلوى شفتيه من الغضب ، كلا ، بل من ذا الذى لا يبتسم ساخراً من هذا المذهب الذى يريد أن ينتزع من الانسان أعز جوانبه وأنفس عناصره ؟ إنه يريد أن يسلبه إرادته فاذا هو صخرة تنحدر من قمة الحياة إلى واديها مدفوعة بقوة القانون ! وليس له أن يقف حيث شاء ولا أن يسلك من السبل ما يشاء ! كيف أكون مكتوف الارادة وهأنذا أحب هذا فأعمله وأكره ذلك فأتركه ؟ فبماذا تسمى هذا إن لم يكن إرادة حرة مطلقة التصرف ؟ ولكن هاك ما يجيبنا به « سبنسر » : نعم إنك تعمل ما تحب وتترك مالا تحب ، ولكن هل علمت أنك لا تحب إلا ما رغبت فيه الطبيعة ؟ إن مولاتك الطبيعة قد حببتك فيما تراه هى صالحاً لسيرها ، ونفَّرتك مما رأته مضراً بها معطلاً لها عن المضى فى سبيلها . فما أحببت أن تعمله إن هو إلا ما أرادتك الطبيعة على حبه : « انك تستطيع أن تعمل كما تحب ، ولكنك لا تستطيع أن تحب كما تحب » . فاختيارك هذا الشىء ورفضك ذاك ، هو الوسيلة التى تتخذها الطبيعة لتنفيذ ارادتها فى سلوك الانسان

وأين المفر من الطبيعة وهى لا تنى تذكرنا بما لها علينا من نفوذ وسلطان ؟ فطر بالخيال إلى حيث شئت ، فأنت مضطر آخر الأمر أن تنزل فى معمعان الحياة لكى تضعك بين مطرقة

الحقائق الواقعة وسندانها ، تنظمك فى سلكها ، ولا تخلى بينك وبين خيالك ! تحدَّ الطبيعة ما استطعت إلى تحديها من سبيل ، وسترى نفسك بعد حين قصير مرغماً على التسليم والخضوع ، وإلا فماذا أنت صانع أمام غائلة الجوع سوى أن تقتات بما يقيم الأود ؟ ثم ماذا أنت صانع إذا أضناك الاجهاد وأعياك العمل إلا أن تسلم بضرورة النعاس ؟ ثم ماذا تجدى ارادتك مهما بلغت قوتها أمام الموت إذا دنا الأجل ؟ فالطعام والشراب والنوم والموت اعتراف متواصل بخضوع الانسان لضرورات الطبيعة مهما يكن طاغياً جباراً

وكأنى بالعلوم جميعها تناصر هذا المذهب وتؤيده ، وتكاد تضطر العقل اضطرارا إلى اليقين بأن ما يقع فى الطبيعة من أحداث مهما اختلف لونها وتباين شكلها خاضع للعلم وقوانينه التى تضرب بنفوذها على أطراف الكون فلا تدع مجالا ينفذ اليه شىء من القوة المزعومة فيما وراء الطبيعة . وإن احتججت على العلم بأنه مبالغ فى شأن نفسه مسرف فى تقدير عمله ، وأنه لا يزال قاصراً عن إدراك الحقائق كلها ، فكيف يحق له أن ينكر شيئاً قد يكون جزءا مما لم يدركه بعد ؟ نقول إن احتججت على العلم بهذا أجابك فى يقين ثابت ، وكله أمل ورجاء : هأنذا أسير وأتقدم ، ويستحيل ألا يؤدى هذا السير المطرد إلى حل ألغاز الكون كلها ، ولا بد لى أن أصل يوماً إلى غاية الطريق ، فان لم يكن ذلك بعد حين قريب فامتداد الزمن كفيل بكل شىء ، وإن العلم ليتمسك بتطبيق قانون «العلة الواحدة» Law of Parsimony الذى صاغه « وليام أوكام » ، والذى مؤداه أن ما أمكن تعليله بعلة ما لا يجوز تعليله بعلة أخرى . وبناء على هذا القانون لا ينبغى أن نضيف إلى الظواهر الطبيعية التى أمكن تعليلها بقوانين العلم عللا أخرى مما وراء الطبيعة ، فان تمكن العلم أن يتتبع حقائق الكون بالتفسير واحدة فواحدة وجب حتماً ألا نتردد فى انكار كل قوة أخرى

ولكن إذا كان أنصار هذا المذهب يريدون أن يحتكموا إلى العلم فى كل شىء ، وأن يفسروا به كل ظاهرة من ظواهر الوجود ، فماذا هم قائلون فى تعليل ظاهرتى الحياة والعقل اللتين تبدوان كأنهما شاذتان نابيتان لا تخضعان لقوانين الطبيعة التى تنتظم الجماد ؟ وأين الجماد من الحياة المتوثبة والعقل المفكر ؟ إنه إن صح مذهبهم للزم أن تكون الحياة قد تفرعت من الجماد الذى لا حياة فيه ، ويستحيل أن يتفرع شىء من أصل لا يحتويه ! إنك تستطيع أن تعلل بالعلم كل ما هو آلى رتيب ، ولكن كيف بالحياة عامة والعقل بنوع خاص ، وبينهما وبين الجماد الآلى من مسافة الخلف ما يكاد يجعلهما ضدين نقيضين ؟

إن للكائنات الحية طابعاً يميزها عن الجماد تميزا واضحاً ، ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع المميز هو كلمة « بنفسها » . فالكائن الحى يبنى نفسه بنفسه ، ويصلح عطبه بنفسه ، ويدبر أمره بنفسه ، ويعمل على حفظ بقائه بنفسه ؛ نعم هنالك آلات تطعم نفسها ولكنها لا تنمو بما تطعم ، وهنالك آلات تكتب من تلقاء نفسها ، وسابحات فى الماء تقود نفسها ، ولكن هذه جميعاً لا تصلح لنفسها ما يصيبها من عطب ، ولا تستطيع أن تلائم بين دخيلة نفسها وبين الظروف الخارجية المحيطة بها كما يفعل الكائن الحى ؛ وليس بين الآلات أو صنوف الجماد ما ينشىء فى باطنه نواة فى مقدورها أن تنمو إلى ما يشبه الأصل الذى تفرعت منه ، ثم يكون فيها بدورها قوة انشاء نواة أخرى تعيد تاريخها وهكذا . . . . وأجدر من هذا كله بالذكر من خصائص الحياة التى تنفرد بها وتتميز عن الجماد هو أن الحياة فى كل فرد من الأحياء لا تحصر عملها فى حدود هذا الفرد الذى هى حالة فيه ، بل يمتد نطاقها حتى يشمل النوع بأسره ، أعنى أن الحياة فى كل فرد لا تكتفى بحفظ بقائها هى ، بل تعمل على حفظ النوع كله

تلك هى خصائص الحياة ؛ أما العقل فطابعه الذى يميزه هو علمه بالنفع والضرر ، وهما ما نسميهما باللذة والألم ؛ فكل الكائنات الشاعرة تعرف ما ينفعها فتقبل عليه وما يضرها فتنفر منه ، هذا فضلا عما لها من قوة التفكير التى تستطيع بها أن تكون آراء عن الأشياء الخارجية ثم اتخاذ تلك الآراء وسيلة إلى فهم حقائق تلك الأشياء والوصول إلى ما يسيرها من قوانين وما تقصد اليه من أغراض

(يتبع) زكى نجيب محمود

الذكرى الرابعة لشاعر البادية

الشيخ محمد عبد المطلب

للأستاذ فايد العمروسى

الذكرى لا تتسع لدراسة أو تحليل ، وحسبها أن تكون للقراء خاطرة وفاء ، ونفحة تقدير ؛ وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثاً ممتازاً يضاف الى تراثى المرحومين « شوقى » و « حافظ » ؛ غير أن هذا الرجل عاش مغبوناً ، ومات مغبوناً ، شأنه شأن « حافظ » بعد موته ، فلم يفز ديواناهما بما كان ينبغى من عناية وتقدير ، اللهم إلا مقالات كتبها كاتب هذه الكلمة فى جريدة البلاغ بعد صدور الديوان فى الجو الأدبى ، وليس هذا بكاف فى تقدير الأدباء للشعر ، وخاصة لأعلامه وفحوله النابغين . والناظر إلى عبد المطلب لا يعرفه فى ديوانه فحسب ، لأنه ديوان ذو روح خاص ، واتجاه صبغته الصنعة فى أكثر مقاصده من فخر وحماسة وشكر ومديح وغزل ونسيب . . الخ وهذه ظواهر ما كان له أن يتخلى عنها وان حاول ، وما كان للفترة التى عاش فيها غير هذه القاصد الشعرية تمشياً مع ميول الحياة التى ترغم الشاعر أن يتلون بلونها ، والتى تكوّن العناصر الأولى لفكره وخياله !

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة ، تنبئ مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز ، فى ضآلة من الجسم ، وقليل من القصر المتزن ، تنطوى هذه الضآلة على قوة الأسد فى عرينه ، تبدو بهما عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزازا ؛ وكان ذا نفس أبيّة ، وضمير حى ، وشعور متقد ، وإحساس صادق ، يهيج لأنفه أسباب الخلاعة أو اللهو ، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة قسوة وايلاماً ؛ وكان رجلاً بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلاً ، رجلاً جم العطف ، وافر الرحمة فياض الحنان . ولقد رأيته — رحمه الله — أكثر من مرة يسكب الدمع من عينيه لأمور لا تهيج عواطف الناس ، ولكنها تهيج ذوى النفوس السامية ، والاحساس المرهف القوى

وشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحناناً ، وتفيض عطفاً ووداعة ؛ وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة التى فتشت فى نواحى المجتمع المصرى فعالجته بأثمن النصائح وأغلى الحِكم ؛ وكم ودَّ تطهير النفوس ، وتهذيب الوجدان ، وصقل الادراك ؛ وكم ودّ الرقى بالانسان إلى درجات العفة والصفاء . وما أشبه الثلاثة بعضهم ببعض : « حافظ والمنفلوطى وعبد المطلب » فى هذا المجهود ! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه ، وذوب من فؤاده ، فى قصيدته العصماء التى استهلها بقوله :

أسألت باكية الدياجى مالها	أرقت فأرقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعا	غلب الأسى عبراتها فأسالها

وفيها يقول :

حتى إذا رقد الأسى بجفونها	وهفا النعاس برأسها فأمالها
خاب الطوى أحشاءها فتفزعت	حيرى تعانى مهدها وملالها

وله وطنيات حارة ، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية ، وله علويته المشهورة التى أنشدها على « جمل » متشبهاً بالشعراء فى « عكاظ »

والشاعر على ما أعتقد ليس انتاجا من قصائد عريضة طويلة ، تطن بالرصانة ، وترن بجودة السبك والايجاد ، وإنما هو نفس قبل كل شىء ، وشعور يصدق فيما يحس أو يشاهد ، شعور يمتزج بالمظاهر فيصير جزءا منها أو تصير هى مزيجاً منه ، لا يتخللهما التفريق ، ولا تحتوى هذه المواهب إلا النفوس الممتازة التى لا تتفتح فى دائرة ضيقة محدودة ، ولا تحيط فى نظرها السطحى من الكائنات . وعبد المطلب كان هذه النفس التى تضيق بما فيها من عوالم تائهة ، فتنبعث على الكون طائفة سابحة ، تستشعر ما فيه من جمال فتطرب ، وتحس ما فيه من آلام فتتألم ؛ نفس خلقت لغيرها فنال منها كل شىء ، وهى لم تنل من شىء أى شىء ؛ وروح قسمته العاطفة ، ومزقته الرحمة ، فراح يوزع فيه كأنه نهب مستباح ، وهو إلى ذلك مطمئن الخاطر هادئ البال ... وإنه شخصية ممتازة فى جوهرها ، قبل أن تكون ممتازة فى شعرها وصنعتها ؛ وكم من قائل إن عبد المطلب قديم فى شعره ، قديم فى عاطفته ، جاهلى فى جميع نواحيه ؛ ولست أدرى كيف تكون العاطفة قديمة ، وهى شعور انسانى لا يتغير فى ذاته وجوهره ، وإن تغير فى اتجاهاته وميوله ،

من تراثنا الأدبى

٣ – أبو العينـــاء

بقلم محمود محمود خليل

لقد مات المأمون ؛ ولقد حزن أبو العيناء حقاً عليه ، حتى بكى بكاء مراً ، وتقرحت عيناه ؛ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنه راعى حق النعمة ، وقام باسداء الشكر لصاحبها ، حتى بكاه بعد وفاته ؛ وسواء أكانت خلة الوفاء موجودة فيه وهو ما لا أظنه ، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصية فاتته ، وخاف من انقطاع الرزق الذى أجراه عليه المأمون من بيت المال ، فان همّ ضمان قوته كان يخالج فؤاده ، ويخشى من يأتى بعده

ولقد تحققت مخاوفه ، فان عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبى العيناء كثيراً ، ويرجع هذا إلى الخصومة التى كانت قائمة بين الوزير فى ذلك العهد محمد بن عبد الملك الزيات ، وبين القاضى أحمد بن أبى دُوَاد ، تلك الخصومة التى اشتدت إلى درجة كبيرة ، حتى جعلت ابن أبى دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول ابن الزيات ، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين فى المجلس ، ولم يرخص فى ذلك لأحد ،

فالشعور الذى يتجه إلى الألم فيستمذبه ، وإلى الدمع فيسكبه ، هو الشعور الذى تطربه المسرات ، ويشمله النعيم ، إلا أن انفعالات الشعور الأول من نوع فاتر حزين ، وانفعالات الشعور الثانى من نوع متفتح مرح ، وكلا الشعورين له قيمته وخطره ؛ فالشعور بالألم يكون معظم عناصر الحياة ، كما أن الشعور بالنعيم يمس طبيعتها الأولى وحقيقتها الواقعة ، وهما شعوران تخلقهما فى النفوس طبيعة الحياة التى تحياها . فليس فى عبد المطلب قديم ، إذ ليس هناك قديم أو جديد فى الأدب ، فهو فن والفن لا يتغير فى قيمته الجوهرية ، وإن تغير فى عوارضه والمظاهر التى تسدلها عليه نوازع الابتكار . وبعد ، فتلك كلمة لذكرى شاعر البادية عبرة للشعراء ، وتذكرة للأدباء الذين هم أحق بهذه الذكرى ، وتلك الخاطرة . . . . . ؟

فايد العمروسى

فاشتد الأمر على القاضى ، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً ، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلصه من ذلك الموقف الحرج ، فوكل بعض غلمانه بمراقبته ، وموافاته بخبر قدومه ، فاذا أقبل نهض يصلى ، فقال ابن الزيات فى ذلك :

صلى الضحى لما استفاد عداوتى ... وأراه ينسك بعدها ويصوم
لا تعدمنّ عداوة موسومة ... تركتك تقعد تارة وتقوم

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة فى الرياسة التى كانت بين هذين الرجلين الفذين

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد ، بل انضم إلى القاضى ابن أبى دؤاد ، فأبعده هذا إلى حدّ ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرهما ابن الزيات ؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين ، حتى رأينا الجاحظ يميل إلى ابن الزيات ويكون من حزبه . ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات ، فكتب الجاحظ الكتاب ، وناوله الرجل ، فسار به إلى أبى العيناء ، وقال له : قد أسعف بالمراد ، قال : فهل قرأته ؟ قال : لا . إنه مختوم . قال : ويحك فضّه لا يكون صحيفة المتلمّس ؛ ففضّه فاذا فيه : موصل كتابى هذا سألنى فيه أبو العيناء ، وقد عرفتَ سفهه وبذوء لسانه ، وما أراه لمعروفك أهلا ، فان أحسنتَ اليه فلا تحسبه على يدا ، وإن لم تحسن اليه لم أعده عليك ذنباً والسلام . فركب أبو العيناء إلى الجاحظ ، وقال له : قد قرأت كتابك يا أبا عثمان ، فخجل الجاحظ وقال : يا أبا العيناء هذه علامتى فيمن أعتنى به ، قال : فاذا بلغك أن صاحبى قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه

وصلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبى العيناء ، وكان هذا أثراً لتشيع الحاشية وانقسامها على نفسها كما سبق ؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضى ابن أبى دؤاد فى تلك المدة ، ويتودد اليه ، ويروى عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً ؛ قال أبو العيناء للقاضى : إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سرّ مَنْ رأى) يداً على ، قال : يد الله فوق أيديهم ، فقلت : إن لهم مكراً ، فقال : ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فقلت : إنهم كثير ، فقال : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، فقلت : لله در القاضى ، فهو كما قالت الصموت الكلابية :

لله درك أى جُـنة خائف   ومتاع دنيـا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال شهامة   وطء الفنيق مدارج القِرْدان
ويكبهم حتى تظـل رءوسهم   مشـجوجة تنحطّ للغربان
ويفرّج الباب الشديد رتاجُه   حتى يصـير كأنه بابان

وقال أبو العيناء : كنا عند القاضى ابن أبى دؤاد فى جماعة من أهل العلم والأدب ، فوفد عليه رسول الحاجب أبى منصور يقرئه السلام ويبلغه ألا يقصد القاضى إلى الحاجب ، لأن ذلك يضر بسمعته عند الوزير ابن الزيات ، فقال القاضى : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ، ونظر بعضنا إلى بعض ، فقال : أما عندكم جواب ؟ قلنا : القاضى أعزه الله أعلم بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرأ عليه السلام ، وقل له ما أتيتك متكثرا بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً اليك كربة ؛ ولـكنك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فان جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه

على أنه لا يغرنا مجالسة أبى العيناء للقاضى ، فانه قد وقعت بين الرجلين خصومة ، فـكان لا يرحمه فيها أبو العيناء ، مما يدلنا على أنه كان من الرجال النفعيين الذين يؤثرون المنفعة الشخصية على تلك الصداقة التى لا تفيده شيئاً من المال الذى يحبه ويفضله على كل عزيز وحميم . ولـكن ينبغى ألا نفهم من هذا أن أبا العيناء انضم إلى حزب ابن الزيات . كلا . بل أبغض الرجلين جميعاً ، وذمهما معاً ، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الأداب وقد آثرت أن آتى بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه فى الـكتابة

قال أبو العيناء : لما حبس الواثق ابراهيم بن رباح ، وكان له صديقا ، صنعت له هذا الخبر راجياً أن ينتهى إلى أمير المؤمنين فينتفع به ؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه ، وقال ما صنع هذا كله إلا أبو العيناء بسبب ابراهيم بن رباح ، وأمر بتخليته . والخبر هو : قال لقيت أعرابياً من بنى كلاب ، فقلت له ماعندك من خبر هذا العسكر ؟ قال قتل أرضا عالمها ؛ قلت فما عندك من خبر الخليفة ؟ قال بخبخ فى عزه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرعف قلم كل كاتب بجنايته ؛ قلت فما عندك فى أحمد بن أبى دؤاد ؟ قال : عضلة من العضل لا تطاق ، وجنـدلة لا ترام ، ينتحى بالمدى لتنحره فيجوز ؛ وتنصب له الحبائل ، حتى تقول الآن ، ثم يطفر طفرة الذئب ، ويخرج خروج الضب ؛ والخليفـة يحنو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه . قلت فما عندك من خبر ابن الزيات ؟ قال ذلك وسـع الورى شره ، وبطن بالأمور خيره ، فله فى كل يوم صريع ، لايظهر فيه أثر ناب ولا مخلب ، إلا بتسديد الرأى . قلت فما عندك من خبر إبراهيم بن رباح ؟ قال ذاك رجل أوبقه كرمه ، وإن بقره للـكرام قدح ، فلا عزّ بهجانه ؛ ومعه دعاء لا يخـذله ، ورب لا يسلمه ، وخليفة لا يظلمه . ثم يأخذ فى الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وهذا لا يعنينا فى شىء لأننا لا ندرس أولئك الرجال الآن ، ثم يقول قلت له : أين نزلت فأؤمك ؟ قال مالى منزل تؤمه ، أنا أستتر فى الليل إذا عسعس ، وأنتشر فى الصبح إذا تنفس

ويلوح لى أن تلك الأحاديث هى التى فتحت باب المقامات ، وأوجـدت الفكرة الرئيسية فيها ، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمذانى والحريرى فيما بعد

قد عادى أبو العيناء ابن أبى دؤاد ، ولـكنه لم يمض فى الخصومة إلى حـد كبير ، بل حفظ له جميـل كرمه وقضاء حوائجه التى كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على وده وصداقته ما دامت تجر عليه المنفعة حينا . قال له المتوكل يوماً : من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبى دؤاد ، فقال المتوكل تأتى إلى رجل رفضـته فتنسبه إلى السخاء . قال إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس فى موضع من المواضع أنفق منه فى مجلسك ، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشـيد ، وسخاء الفضل والحسن ابنى سهل منسوب إلى المأمون ؛ فاذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابنى يحيى بن خاقان إلى السخاء ، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين . قال صدقت

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة وأنها كانت طفيفة ، ويظهر أن سببها كان عدم إجابة طلب لأبى العيناء أو قبوله شفاعة ، أو نحو ذلك من الأشياء التى كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبى دؤاد مدة خلافة المعتصم والواثق حتى تولى المتوكل ، وفى السنة الثانية من خلافته نـكب ابن الزيات وأحرقه فى التنور [1] ، وخلا الجو

(١) ويقول أستاذنا الاسكندرى إنه أدخله فى تنور مملوء بالمسامير وعذبه فيه حتى مات صبراً وهذه الطريقة هى التى كان يقتال بها الناس

بهذا الحزب ابن أبي دواد ، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً ، فاتصل بالمتوكل وحصلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها فى بعض ؛ ويظهر أن أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كى يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات ، ولـكنه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا . قال له المتوكل : بلغنى أنك رافضى ، فقال يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدى البصرة ، ومنشئى فى مسجد جامعها ، وأستاذى الأصمعى ، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا ، فان كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقـديم من أخروا ، وتأخير من قدموا وإن كانوا أرادوا الدنيا ، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين إلا بك ، ولا دنيا إلا معـك . وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضى عليه ، لأن المتوكل كان يكره الرافضة الذين يدينون بحب علىّ بن أبي طالب (ض) ولكنه تخلص بذكائه

ودخل أبو العيناء على المتوكل فى قصره المعروف بالجعفرى فقال له الخليفة ما تقول فى دارنا هذه ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الناس بنوا الدور فى الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا فى دارك . فاستحسن كلامه وقال : كيف شرابك للخمر ؟ قال أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره ؛ فقال له الخليفة دع عنك هذا ونادمنا ، فقال لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بمالى فى هذا المجلس من الشرف ، ولـكنى رجل مكفوف البصر ، وكل من فى مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إلى بعين راض ، وقلبك على غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلـكت ، فأختار العافيـة على التعرض للبلاء . قال صدقت ، ولـكن تلزمنا ، قال لزوم الفرض الواجب اللازم . فوصلني بعشرة آلاف درهم

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكل يتمنى أن ينادمه ، ويود ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فـكه المحاضرة ، عذب الحديث كأبى العيناء فى مجلس شرابه ، وقد كان المتوكل يمزح معه كثيراً قال له مرة : هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط . قال يا أمير المؤمنين أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا ! قال لم تـكن ضريراً فيما تقدم ، وإنما سألتك عما سلف ؛ قال نعم ، رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه . قال المتوكل : تجده كان مؤاجـرا ، وتجدك كنت قوادا عليه ، فقال أبو العيناء : أو فرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتراني أدع موالى على كثرتهم ، وأقود على الغرباء ، قال اسكت يا مأبون ! قال مولى القوم منهم ، قال المتوكل أردت أن أشتفى منهم ، فاشتفى لهم منى

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكل قد عصمه الى أحد ما من القصف والمجون اللذين كان يجرى فى قصر الخلافة ، وإن كنت أعتقد أن شخصاً متوقد الذكاء كأبى العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور ، خوفاً من أن تضيع عقله ، وتغلب على لبه ، فيخرج عن صوابه ، وهو ما كان يأباه على نفسه ، فجوابه إذاً للمتوكل حين سأله عن الشراب بقوله : أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلص من منادمته ، وإنما كان صادقاً فى هذا القول ، وإن كان قد ذهب الى الاستمتاع بملذات الحياة من غير طريق الشراب ، كلما حان له ذلك ، ولـكن ذهابى الى هذا الرأى ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله فى عصمة الأنبياء والصديقين بل ربما يكون قد شرب ونادم وأفرط فى الشراب والقصف وأخذ بحظه من اللهو والمجون مع غير المتوكل ، لـكننى لا أميل الى اتهامه بأنه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الـكؤوس ، كالمتوكل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلاً ، كلا . وإنما كان لا يميل الى تعاطى الـكثير من الخمور لأنها تجره الى الافتضاح كما يقول

(يتبع) الزقازيق محمود محمود خليل

١ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

أصبح الرجل محزوناً كاسف البال ، لم يبرح غرفته بل لم يبرح مكانه ، وإنما هو مقيم حيث تركه ابنه عبد الله أمس ، ساكنا لا يريم ، صامتاً لا ينبس ؛ وقد ارتسمت على وجهه أسارير من الحزن لا تخفى ، وتراءت فى قسماته ملامح من القلق الممض المشجى . . . بل كانت لا تخفى فى عينيه علائم السهر الطويل . . . ومن يدرى فربما انقضت هذه الليلة ولم يغمض له جفن ، وربما أرق ليلة الأمس كذلك ، وربما طواها مسهداً فى هذه الغرفة التى لا يبرحها . . . إنه يفكر تفكيراً طويلاً . . يفكر ويخاطب نفسه ويقلب كفيه ، ويهمهم وإنه لينظر نظر الشجى « استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك . . » والله لقد خلتها يا عثمان . . . ! ثم يعود فيردد : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ! »[١] . . إن الحزن ليشتد بالرجل وإن الدمع ليترقرق فى عينيه وإنه ليحنى رأسه ويصمت صمتاً طويلاً . . وبينا هو فى ذلك إذا يد خفيفة تمر على كتفه فى رفق ، وإذا صوت رقيق يهتف به : « رويدك يا ابن العاص . . » فيلتفت اليه ويقول : « حتى نحن يا سلامة . . »[٢] . فيجيبه : « لقد متع الضحى » فيسترسل الرجل مرة أخرى فى تفكيره ثم يقول : « رحمك الله يا ابن حنتمه . . »[٣] والله لقد كانت فيك على شدتك رقة ، وعلى جفائك وداً . . أما هذا . . أما هذا . . » فيقاطعه سلامة قائلاً : فليغفر له الله . . . « فيرد عليه محتداً . . » لا يا ابن روح . . لا غفر الله له أبداً . . لا غفر الله له أبداً . . لقد وليها عامرة . . ولن يعفيها حتى ينعق عليها البوم . . لقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرضى عنا ، وعملنا لخليفته فأكرمنا . . وعملنا لعمر فانصرف عنا قرير العين ، ثم جاءت أيامك يا ابن عفان . . ! ويصمت الرجلان صمتاً بليغاً ، ويسرع بهما الفكر إلى الجزيرة التى فرا بنفسهما منها . . واطمأنا إلى الراحة فى هذا القصر الذى يملكه عمرو فى فلسطين ، فهذه جزيرة العرب تموج موجاً وتضطرب اضطراباً ، وقد فوقت اليها الفتنة سهاماً صائبات . . واصطلحت عليها من الشر حادثات . . وهذا عثمان فى بيته بالمدينة وحيداً لا يطرق بابه أحد ، فريداً لا يذكره أخ ولا ناصح بعد الذى كان من تقريبه لآل أمية وآل مروان ، وبعد الذى كان من خصومته مع على وازوراره عن طلحة والزبير وعزله الصالحين من ولاة عمر . . وها هى ذى الفتنة تتحرك فى مضاجعها . . . والثائرون يتواصلون ويتابعون الشكوى ويجمع بينهم الظلم . . وهذا أبو ذر الغفارى يطوف ببلاد الاسلام يثير الفتنة ويقلب الأرض على عثمان . . . وهذا على يباعد ما بينه وبين الخليفة مخافة أن يصيبه آل أمية بشر ! وهم الساعة أصحاب الأمر وذوو السلطان على الخليفة الورع اللين الرقيق . . . وهم اليوم لبنى هاشم بالمرصاد ، وإن للبيتين فيما مضى لشأناً . وإن لهما فيما يقبل من الأيام لشأناً أكبر . وقد اسخطته من عثمان أمور ونفرته منه شرور . وما يطيق الرجل صمتاً على ابن أبى سرح والياً على مصر ، مكان ابن العاص القدير . فما زاد عثمان على أن أقام على الناس رجلاً كرهه الرسول ولم يرض عنه الا شفاعة وسماحة . . . ثم سكت طويلاً ثم أخذ يردد هذا الرجز الذى سيكون له فى المحنة المقبلة أى شأن ، والذى ستردده الجموع فى الشام وتهتف به الجحافل فى العراق . . . ويتردد صداه بعد ذلك على مدى الأيام :

أصبحت الأمة فى أمر عجب	والأمر مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب	إن غداً تهلك أعلام العرب !

ثم بدا له فقام من مجلسه . . وأطل من النافذة على فناء « العجلان »[١] فاذا أعرابى يسمى على راحلته وهو يردى بها مسرعاً . فهتف به فوقف ، وسأله كيف عثمان :

فقال الاعرابى : قد تركته محصوراً شديد الحصار
ثم تركه وتولى مسرعاً

وأى هلاك . . ! خليفة الله محصور . إن الأمر ليشتد وإن العاصفة لتنذر وإن المقبى لوخيمة . ترى أعيل صبر العرب فأتوا يقومون الخليفة بالسيوف . هنا أحس عمرو أنه لم يحسن الصنيع حين ترك عثمان وحده فى المدينة ، وأخذ يسائل : ترى ماذا يصنع على وماذا تصنع البقية من الصحابة . إن فيهم لعصمة لابن عفان

(١) من حديث عثمان بن عفان لعمرو بن العاص
(٢) هو سلامة بن روح الجذامى
(٣) هو عمر بن الخطاب

(١) قصر عمرو بن العاص فى فلسطين

مما يراد به . . ولـكن ما عساهم يصنعون وقد أبى عثمان أن يلقى لهم بالاً . فلتنفعه عصبية بنى حرب لو كان فيهم خير . وليعصمه ابن أبى سرح لو كان يستطيع . أما الصحابة فهاهم أولاء يعتزل منهم نفر فيهم سعد بن أبى وقاص ، ويعلن العداء منهم نفر وفيهم أبو ذر الغفارى ، ويشتد منهم نفر ولا يتحرج أن ينقد عثمان النقد الجارح الشديد وفيهم على ، وتنصرف منهم طائفة إلى ذات نفسها تجمع المال وتؤلف الأنصار وتمد المدة لما عسى أن يحدث من الأحداث وفيهم معاوية . ثم نظر فاذا شرذمة من الأعراب على الخيـل والجمال يسمون نحو الشمال . وكان انصراف العرب عن الحجاز قد كثر هذه الأيام ، وإذا بهم يعلنون مقتل عثمان فى شىء من الانـكار والخوف والهلع . فاذا استوقفهم وسألهم فوصفوا له الأمر وصفاً دقيقاً ، ثم تولوا وتولى ، فاذا سـلامة قد ترك المصحف الذى كان يقرأ فيـه ووقع الخبر فى نفسه موقع الصاعقـة . وربمت نفسه ولم يطق على الأمر صبراً . فنهض من مجلسه ونظر إلى عمرو فاذا به شـجى يشرق بالدمع فقال له وإنه ليمانى ألماً بليغاً : « يامعشر قريش ! إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فـكسرتموه ، فما حملـكم على ذلك ؟ » فقال عمرو وإنه لذاهل : « أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس فى الحق شرعاً سواء . »

* * *

وهل أصبح الناس الآن فى الحق شرعاً سواء . . ؟ أجل ! وقد ذهب ولى الأمر وأصبح السيف بين الناس حكما . . وليطالب الأمر من يجد فى نفسه الاقتدار على النهوض به . . ترى من يكون هذا المقتدر الذى سيملك ناصية الأمر ويقدر له الفوز بهذا الغنم العظيم ؟ كذلك كان ابن العاص يسائل نفسه . . وكذلك كان يمضى فى نظر المسألة والتدقيق فيها . . . بدأ يستعرض جوانب القوة واحداً فواحداً ويوازن بين مالديهم من « القدرة » لامن « الحق » موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأى . . . وهـــذا رجل يتقن الحساب ويجيد المساومة . . . ولا يخطىء فى تقدير ربحه من أى النواحى . . ولقد كان هـذا موقفه فى كل أزمة . . وتلك حاله قبيل كل عاصفة . . يقف ساكناً ويفكر طويلاً . . ثم يساوم فى حرص . . وأخـذ يستعرض ما انقضى من أيامه عسى يلقى الماضى على الحاضر ضوءاً ... إنه ليذكر موقفه قبيل إسلامه ... وقد بدأ أمر رسول الله صلى الله عليـه وسلم يظهر شيئاً فشيئاً ... وبدأ الخوف من ناحيته يدب فى قلوب قريش ... وإن طائفة منهم لتشتد فى عداوته شدة جاهلية ... وإن طائفة أخرى لتسرع إلى رايته فتنضوى تحتها ... وإن طائفة ليثقل عليها الأمر فتدع الميدان وتعتزل الحياة ... ولـكن عمراً لا يميل إلى أحد الجانبين ولا يعتزل بل يزن كل ناحية على مهل ... ويقـدر تقديراً طويلاً بل هو يبتعد عن الميدان كله إلى بلاد الحبشة ... وهناك يرقب الأمور فى صبر وحرص كما يرقب التاجر أسعار السوق ... فاذا استبان له رجحان كفة الاسلام ... وإذ رأى كنوز النصر تخفق ... فى بدر وفى الخندق ، فقد أقبـل اقبال الواثق ليتمم الصفقة وليشترى عن ثقة ... ولـكنه بعد ذلك كله يرجو أن يكون كسبه من الأمر أكثر من كسب الآخرين ، إنه ليعود من الحبشة مسرعاً وقد حزم أمره على الدخول فى الاسلام ... ولـكن انظر كيف أقنع نفسه بالبيعة للرسول ، لقد بعثت إليه قريش تسأله ما عقد عليه النية ... فلا يعلن اسلامه إعلان عمر ، ولا يفسر إيمانه تفسير أبى بكر أو عثمان ... وإنما هو يقول للرسول : أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ فيقول الرسول : « بل فارس والروم » فيقول عمرو ... فما ينفعنا فضلنا عليهم فى الهدى إن لم تـكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً ، قد وقع فى نفسى أن مايقول محمد من البعث حق ... هـذا منطق الرجل فى الايمان وهكذا يستوثق لنفسه من أنه لا « خسارة » عليها فى ذلك ، ثم يمضى حتى إذا أقبل على الرسول الـكريم ومد يده فقد قبضها ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « أردت أن أشترط ! » نعم يريد أن يشترط ... يريد أن « يكسب » شيئاً فى هـذه البيعة الجديدة ... فاذا سأله الرسول ما يشترط فقد تريث لحظة ... وبدا له فطوى ما كان يريد أن يقول ... وساعفته بديهته ... فقال « يا رسول الله ... إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ، ولا أذكر ما تأخر » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ياعمرو ! بايع فان الاسلام يجبُّ ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها (١) »... إنه يريد أن يشترط دائماً ... هكذا كان موقفه فى كل أمر

(للبحث بقية)

حسين مؤنس

(١) الطبرى : ج ٣ ، ص ١٠٣ — ١٠٤

تحطمى تحطمى !

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

يا ليــل للنجم اكتم ويانهـار أظـلم
يا أدمعى فيضى ويا نار فؤادى اضطرمى
نفسىَ لى قد آلمت فقـــل لها تألمى
كمثـــل ما حطمتنى تحطّمى تحطمى
مسؤولة يا نفس أنـ ـتِ عن حياتى ودمى
ندمتِ مما جئتيـه ولات حين مندم
بكِ العِـدى تهكمت وأنتِ للتهـــكم
من قال إن لاقيت نا راً تلتظى فاقتحمى
ألم أقـل تريّثى فيما عزمتِ تسـلمى
مشيتِ بى فى مزلق صعبٍ فزلّت قدمى
ما أنتِ من دمى بريـ ـئة فلا تختصـمى
من ذا الذى أغراكِ يا نفسى على التقحّم
قولى ، أجيبى ، بيّنى شيئاً ، أزيلى تُهمى
لا تلبثى ساكتة تكلّمى تكلّمى
يا نفس هذا وقت إن تبكى فلا تبتسمى
يا نفس من نفسكِ قبـ ـل أن تموتى انتقمى
بالكف يا نفسىَ قد صـفعتنى فى الهرم
للشيب فى رأسىَ وا قـذال لم تحترمى
أصبحت من موتى قريـ ـباً فأقيمى مأتمى
أنتِ حقيرة بعيـ ـن الفيلسوف الفهم
وإن ترديتِ ثيا بَ السـيّد المحترم
أخرجتنى من ساحة الـ ـنور لساح الظلم
فصرتُ فى مشيى على وجهى اللطيم أرتمى
هل عائدٌ إلىّ عهـ ـدُ عيشىَ المنصرم
ماذا أقول والأسى قيدُ لسانى وفمى
وإن تكلمتُ فهل تردّ حقى كلِمى
الهمُ فى رأسى كأنـ ـه لظى جهنم
وهو إلى قلبى كجيـ ـشٍ زاحفٍ عرمرم
يحسبه مخيّماً وليس بالمُخيّم
لا أستطيع الخوضَ بعـ ـد الشيب فى الغطمطم
أخاف أن يبلعنى الـ ـتيّارُ بلعَ اللُّقَم

* * *

أأننى فى يقظـة أم اننى فى حُـلُم
المرء بالأفعال لا بالقول والتكلم
لقـد رميتُ أسهماً فارتدّ نحوى أسهمى
جرحن جلدى ثم لحـ ـمى وبلغنَ أعظمى
فياله من حادث للروح منى مؤلم
أنتِ به مسؤولةٌ ما أنا بالمتّهم
فى الموت كلُ راحتى وبالردى مُعتصَمى
إذا هلكتُ فادفنو نى بالمكان الأشأم
قد عششت فيه على الـ أرماس أمّ قشعم

بغداد جميل صدقى الزهاوى

النجـــــاح

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أنت رب الأوشاب والأعلياء   وجماع الجهود والأهواء

تُلْبِسُ المرءَ منك حُلّةَ فضل   يلهج الناس حولها بالثناء

أى فضلٍ للمرء إنْ لم تَحُكْهُ   وذكاء إنْ لم تكن فى الذكاء

فُرَصُ العيش كلها لك جند   والعطايا موائلٌ كالإماء

وصروف الأقدار طراً عبيد   للذى تصطفيـه للآلاء

لا يضير الذى اصطفيت عداء   لا ولا يُزدرى لفرط الغباء

ويود الذكى لو كان غِراً   ثم تكسوه حُلة الأذكياء

أنت سِحْرٌ يكسو القبيح جمالاً   ويُنيلُ الوضيعَ أُفْقَ العلاء

وينيل القَمِيء أجنحة النسـ   ـر فيغــدو لقومه كسماء

يرتجى الناس غيثها وعلاها   بخشـوعٍ وذِلةٍ ورياء

إيهٍ يا مالك القلوب قلوب الـ   ـناس طراً طوع اللُّها والعطاء

رُبّ قلبٍ نَماَ كِسٍ لك فى البيـ   ـع وذاك المِكاس غير الإباء

تنثر التبر مثلما تبعث الشمـ   ـس بأضـوائها على الأرجاء

فوق وغدٍ أو فوق غِرٍّ حَظِىٍّ   أو على ظافر من الفضلاء

لك ثوب يُخفِى العيوبَ ويحبوا الـ   ـفضلَ فضلاً من روقة اللألاء

قَدَرٌ حاكه وليس صَـنَاعٌ   كصناع يدعونه بالقضاء

معدن الخير والفضيلة والحكـ   ـمة من يرتدى بذاك الرداء

أى فضلٍ تعطى القوىَّ قواه   إن عداه النجاح فى الأحياء

أى صيتٍ يُجْدِى الذكىَّ بيانٌ   لم يُصِبْ نهزة من الاصغاء

أى فضلٍ تحبو الحكيمَ نُهَاهُ   وهو لولا الأنصار كالأغبياء

سَرَفٌ أنْ أضاعه الدهر لا يُقْـ   ـمِر دهراً أضاعه من ثراء

أترى التبر لو يظـل دفيناً   كان يجبى أطايب الأشـياء

أترى الحسن كان يُعتدُّ حسناً   وهو فى خفيـة عن البصراء

يغنم الظافر السـعيد وإن كـ   ـذَّب منه النقاد بُطْلَ الطلاء

وهو فى أعين الأنام نضار   وسـواه فى الخلق كالدقعاء

يغفر النـاس شَرَّه وأذاه   ويمـدونه بمحض الولاء

إنما الحق ما رأى الناس حقاً   ثابتاً فى عقيـدة الأهواء

والشريف الذى يرون شريفاً   نال أو لم ينـل مدى الشرفاء

والكريم الذى يرون كريماً   حاز أو لم يحز هوى الخبراء

صاحِ لو يُنْبَذُ المُزَيَّفُ طراً   حَرَبَ الناسَ كلُّ هذا الاباء

ثم باءوا بحيرةٍ وضـلالٍ   فى دعاوى العقول والآراء

وإذا النجح لم يكن منه ميزا   نٌ فكلٌ مُزَيَّفُ الأنباء

كن جديراً به وإنْ لم تنله   إنما الحقـد آلة الأدنياء

ويضـير الأنامَ كَيْدُ حَقُودٍ   صد عن خير مطمح وعلاء

فدع الناس يكلفون بما شا   ءوا وَعِشْ فى حقيقة الأشياء

إنْ تجدها أو لم تجـدها فلله   ىٌّ وللجـد نشوة الصهباء

نشوة النجح نشوة السعى والخا   سر من لم يَفُزْ له بطـلاء

ولعـل الأحقاد ما صَغَّرَ النجـ   ـح وأنحى عليـه بالازراء

ورجاء للنجح خير من النجـ   ـح فعش من طلابه فى رخاء

إنَّ بَعْدَ الرجاء أنْ تبلغ القصـ   ـد ولا قصد بعـد نيل الرجاء

ولقـد ينكب النجاح أُناساً   بالذى فاق نـكبة للشـقاء

والسعيد المحروم من أسلم الأطـ   ـماعَ طُرّاً لصرف حكم القضاء

ويود الذى تود له الأقـ   ـدار يبـغى فيها رخاء الرضاء

ذاك خُبْرٌ يُغرى الحكيم وإنْ شَقْـ   ـقَ فَيُلْفِى رخاءه فى العزاء

ولقد يحبط الطَمُوحُ إذا زحـ   ـزحه الهَمُّ عنـه بالاعياء

وفُرُوضُ الحياة أخلق بالسعـ   ـى وأحجى من اقتعاد السماء

إنَّ أعلى من العـلاء خليقاً   بعـلاء لا حائزاً للعـلاء

والسعيد الحظىُّ من رُزِقَ الجِدْ   دَ وفى الجـد مصرع الثؤباء

هو طب الملال إنْ أعنت العيـ   ـشُ وغالت غوائل البأساء

وسـواء نُجْحٌ وفوتٌ إذا أحـ   ـمدت ما فى مسعاته من دواء

والشقى المحروم من لا يرى فى الـ   ـعيش فرضاً ينأى به عن شقاء

ذاك من مات قلبه وهو حى   وغدت نفسـه كقفر خلاء

خاصمته النعماء فى كل أمر   وبدت فيه وحشـة البيداء

خيبـة المرء أن يمـل مُنَاهُ   لا تمادى الحرمان والابطاء

ولعل الابطاء فى النجح أهنا   وقصارى المبذول للازراء
ويُملُّ العطاء بعد أوان   كمزوفٍ من طول بُعْدِ الغذاء
والذى لا يمل فرضاً مُعاداً   كل يوم مُوَفَّقُ السعداء
لاينال البعيدَ من لا يرى الأد   نى سبيلاً يُدْنِى إلى البعداء
خطوة إثْرَ خطوة هكذا ـ   نة عيشٍ وسنةٌ فى الجراء
وامتناع الطليب أهون من أنْ   يندب المرء خيبة الأهواء
هو خطب أدهى من الفوت وقعاً   وهو داء أشد من ذا الداء
كالذى يستطب بالخطب من خط   ب ويُقْصِى الأدواء بالأدواء
ليس يُدْعَى الرضاء يأساً فكم را   ضٍ وفى سعيه دبيب الرجاء
والذى يستدر نجحاً من الخيـ   ـبة أحجى برفعةٍ وعلاء
فاذا ما نكصت فى العيش فاعْلَمْ   ليس فى العيش موطن للنجاء
يُدْخِلُ المرء نفسه فى الرزايا   كى يُدَاوَى من رعدة الجبناء
مثلما أسمعوا الجيادَ صليلاً   كى يهون الصليل فى الهيجاء
صاحِ ما العيش بالمُخَلَّدِ فى الده   ر فترتد ناكصاً للوراء
وإذا ما ارتخصتَ ما هو مبذو   ل ويا رُبَّ مُرْخَصٍ مِنْ سخاء
فالهواء الحياةُ وهو مُذَالٌ   لو نأى كان مُنْيَةَ الأحياء
لا تَقلْ خيبة الرجاء سموم   فالشقىُّ الشقىُّ بالأسماء
إنَّ بعض السموم منه دواء   كدواء الرمداء بالظلماء
وإذا ما هممتَ بالخير لا تو   لعْ بكسب الاجلال والاطراء
ليس بين الاطراء والذم إلا   كانطباق الجفون فى الاغفاء
واللبيب العليم بالناس لا يغ   تر بالمدح منهمُ والهجاء
غايظوا الراجح السعيد بمَنْ خا   ب ولو فاز كان فى البغضاء
يزعمون الخُيَّابَ أحجى بفوزٍ   قد لواه القضاء ذو الأخطاء
زعموا الدهرَ يظلم الندب إذ يـ   ـمو بشأو اللئام والأدنياء
فاذا الندب نال شأواً أعدُّوا   ما أعدوا له من الايذاء
ولعمرى لو بُيِّنَ النقص والفضـ   ـل لكانوا فى النقص كالشركاء
باتفاقٍ أو باقتدار نجاح   كان أو لم يكن لدى الفضلاء
ولو أنَّ المفضولَ لم يُلْفِ نُجْحاً   ضاعف الفَوْتُ غبنَ صرف القضاء
نابهُ النقص من قضاء فإن خا   ب فغبنٌ مضاعَفٌ فى الجزاء
ليس فوزُ الأباة قدرَ شقاء   هزم الذل نخوةَ الأحياء
لا بل الفوز صحة واقتدار   وببذلٍ للذخر أو للحياء
وبأنْ تَطَّبِى رضاء ذوى الجا   ه وأهل الجدود والأقوياء
وبإحباط من يكيد بكيد   رب فوز مستجلب بالدهاء
وبإطراء من ترى منه نفعاً   وبإرضاء كل دانٍ ونائى
واحتذاء الحياةُ ترضى الذى تر   ضاه من شيمة ومن سيماء
وبأَنْ لا تعاف كسباً ولا خُلْـ   ـقاً يدانى من مَطْلبٍ ورجاء
فاذا عفت كان سعدك فى الخيـ   ـبة والنجح من صنوف الشقاء
رُبَّ فَوْتٍ للمرء منه سقام   وهو فى جسم آخرٍ كالدواء
وكذا النجح منه عِزٌّ ونعما   ء ونجح يُلِمُّ بالبرحاء

عبد الرحمن شكرى

القصص

صور من هوميروس

١٣ – حروب طروادة

مقتل بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتيل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها ، وأشجع مقاتل فى جيش طروادة بعد هكتور ؛ ووقف بتروكلوس على جثته يصليها سخرية وهزوا ، ناسيا أنه إنما يهزأ بابن زيوس سيد الآلهة ، من آثر زوجاته اليه ، أوروبا الجميلة الفتان ، التى وقفت من ذروة جبل إيدا تنظر إلى المعركة الحمراء ، وتشهد مقتل ابنها . . . وتبكى ! !

وتثور ثائرة الأم التاعسة ، وتهيب بالاله الأكبر أن يحمى جثة ولدها ، بعد إذ عجز عن حمايته حياً ، وبعد إذ عجز عن دفع ما قضت به ربات القدر

وينظر زيوس فيرى إلى بتروكلوس واطئاً بقدمه صدر ساربيدون ، عادةَ الجاهلية ، ويسمع إليه يقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء ، غير راث لهذه الروح التى تفيض ، أو معتبر جلال الموت الذى تخشع أمامه القلوب ؛ فيثور الاله ، ويحنق على بتروكلوس وجند بتروكلوس ، ويأمر ولده من لاتونا . . . أبوللو العظيم ... فينطلق من فوره إلى مممعان الحرب ، ويرسل إلهى النوم والموت فيحميان جثمان القتيل ، ويدفعان عنه سباع الميرميدون التى تكاثرت حوله تريد لو تسبى سلاحه ، وتستنقذ دروعه

أما الجثة ، فيحملها الالهان الكريمان إلى ليسيا ؛ وثمة ، يخلطان بها حنوط الخلود ، ويلفانها فى ثوب سماوى من ثياب الرحمة ، ويجممان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها ، وأشجى ما تكن موسيقاها

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة ، بعد ساربيدون ، لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، فيهتف بالأغريق مرة ، وبالميرميدون مرة أخرى ، أن يقاحموا نحو أسوارها ، وأن ينتهزوها فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة

ولا ندرى كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التى غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذى قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم ، ليس هو أخيل العظيم ، وإن يكن يحمل خوذته ، ويقنّع فى دروعه ، ويذرع الساحة بعربته . . فتهدأ أعصابهم ، ويثبت جأشهم ، ويأخذون فى مناهضة الميرميدون والأغريق جميعاً

ولكن بتروكلوس يهجم غير هياب ، ويجندل من حوله الأبطال المذاويد ، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين ، ونفسٍ مذهوب بها ، وقلب حيران متصدع . . .

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمى طروادة الخالدة . . .

ذلك أن بتروكلوس كان كلما بلغ ثمة . . . وجده وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لايدرون سرها ، ولا يعرفون من أين تأتيهم فتتخطفهم ، وتردى جحافلهم ... وهى على قاب قوسين من داخل المدينة . . . أو أدنى !

وفى الهجمة الثالثة ، سمع بتروكلوس إلى صوت إلهى يقول :

« بتروكلوس ! ليس على يديك تفتح هذه المدينة الخالدة ! بل هى لن تفتح على أخيل العظيم الذى هو أقوى منك ، ومن عشرة من أمثالك ! عد من حيث جئت ، واحذر أن تكون آخرتك اليوم ، فى هذا الميدان المضرج بدماء ضحاياك . »

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إلـه الشمس ، أبوللو ، أبوللو بعينه ، رب طروادة العظيم ، واقفاً فوق برجها الباذخ يقلب قوسه فى يديه الجبارتين ، مرسلاً فى عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين ، نظرات تقدح الشرر ، وتورى نيران الكيد والجبروت !

واقشعر جسم بتروكلوس ، وأيقن أن أبوللو هو الذى رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة ، وأنه أيضاً أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الأغريق ، وضد بتروكلوس قبل كل شىء !!

ولكن بتروكلوس محارب ، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن ، ولا يتلجلج لقصف المنايا فى المعركة ، فكيف به يخفق فرقاً إذا رأى الآلهة نفسها تحارب فى صفوف الأعداء !

أقبل يا بتروكلوس وأقدم ، ولا يهولنك أبوللو ، وألف ألف أبوللو ، مادام العمر واحدا ، والساعة آتية ، ولن يفلت أحد مما قدر له !

* * *

وبهت الجمعان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوا إليه يرتفع فى الهواء ، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا ، موطنه الذى يبكى عليه ، فعلموا أن السماء تعمل !

وأحس الليسيُّون هذا الفراغ المفزع الذى خلفه ملكهم المقتول فيهم ، فذهب رئيسهم المغوار ، جلوكوز ، نائب الملك وخير وجوه ليسيا ، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمعة قريباً من البوابة الكبرى ، فوقف تلقاءه محطم القلب ، دامع العين ، موهون القوى ، وقال : « يقف هنا بطل أبطال طروادة العظيم ، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل اليوم ، ويسيلون نفوسهم على ظبى الرقاق البيض التى يرهفها فى وجوههم أعداؤكم ! ولأى شىء !؟ لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الزكية ! هكتور ! لقد قتل ساربيدون ، فهل علمت ! هل علمت هذه النفوس التى يمضها الأسى ، والعيون التى تقرحها الدموع ، ويعصف بها الدم !؟ فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك الميرميدون بنا ما رأيت . هل فكرت فى حماية مولانا الملك ، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز ؟ ! لقد سبوا دروعه وسلاحه ، فأى عار يصمنا فى طويل الأحقاب والآباد ؟ يا لثأرنا .. يا لثأرنا ... ! »

ولم ينبس هكتور !

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطرواديين ، فينالون منهم ويمزقون صفوفهم ، وشاهد البطل الأغريقى المشهور إيجيوس ، يصول بين الجيشين ويجول ، ويجندل الأبطال ويبيد لهاميم الرجال ، فأخذ هكتور حجراً كبيراً وانتهز فرّة من إيجيوس ، وقذف بالحجر فوق رأسه فشجه ، وبرز المخ ، وتدفق الدم ، وتردى البطل فوق الحدور حتى استقر فى بسيط الساحة !

واستشاط بتروكلوس غضباً ! وبود لو كان قريباً من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به الى الجحيم ! ولكنه لم يستطع الا أن يثأر للقتيل بمثل ماصنع هكتور ؛ فقد تناول جلموداً كبيراً ، وقذف به ستينلاس الهائل ، أشجع شجعان طروادة الأحياء ، فأطاح جمجمته ، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله ، بين عجب الطرواديين وشدة تحيرهم ! !

ولكن جلوكوز - رئيس الليسيين - يرى إلى ذلك فيتسخط ، وينقض على البطل الهيلانى الكبير باثيسليز ، فيشكه برمحه شكة تذهب به ، وتتركه يتشحط فى دمه . وتستمر المعركة ...

* * *

أما أبوللو ! فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذى استولى عليه ، وذلك الموقف الجبان الذى يحول بينه وبين الميدان ، وفى الحق ، لقد كان هكتور ينظر الى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر ، بل وقر فى قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلطتهم القادر على الطرواديين يسومونهم الخسف وسوء العذاب !

وتنكر أبوللو ؛ فبدا فى زى محارب فى عنفوان الشباب ، ثم أجرى فى عروقه من دماء بنى الموتى ، وغضّن قليلا من جبينه ، وسوى من ساعديه ، ونثر فوق عدته من ثرى المعمعة ، ولوّح وجهه بملامح (أسيوس) العظيم ، أخى هكيوبا ، وخال هكتور ؛ وسار قُدُما إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور بروع الساحة الهوجاء :

« هكتور ! فيم إحجامك عن لقاء الأعداء يا بنى ؟ هلم ، هلم ! فو أرباب الأولمب لو كان لى شبابك وعنفوانك ، لصاولت هؤلاء الميرميدون الألداء ، ولأخليت منهم تلك الحومة التى ملأتك هلعاً ! أقدم يا هكتور ولا تحجم هكذا ! إلق بتروكلوس فقد تصرعه ، وإنك لصارعه ، وإنك لعاقد إكليلاً من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر ، وحسبك أن أبوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك ، ومضاعفٌ بتأييده ضرباتك ! هلم ، هلم ، وعش عزيزاً يا هكتور ، أو مت كريماً يا بنى ، بين طعن القنا وخفق البنود ! »

وانفتل أبوللو فانخرط فى صفوف المقاتلين ، وطفق يُصرّع أبطال الهيلانيين ليضرب المثل لهكتور ، وليشحذ من همته الخابية ، وليوقظ شبابه النائم

فلما رأى هكتور جلائل هـذه الفعال التى أبداها خاله — وما هو بخاله — انكشفت عنه هذه الغمة التى غمرته ، وأمر سِنبريونيس ، سائق عربته ، أن ينطلق به إلى الحومة . فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس ، حتى إذا كان على مقربة من شباة رمحه ، ترك صاحبه وجهاً لوجه معه . وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة ، فأخذ يناوش بتروكلوس هو الآخر ، فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشم رأسه ، وصدع فقاره ، وطار بروحه إلى هيدز

واقشعر هكتور من هول الضربة ، وعز عليه أن يودى سبريونيس وهو بين يدى مولاه ، فلا يجد له حامياً . ولـكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل ، يذودون الهيلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا ببدنه ، أثراً حربياً خالداً ! !

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق ، وصخبت زوبعة القتال فوقه ، واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما ؛ فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه ، بينا جماعة أخرى تشده من الرأس ، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب ، ويلطخونه بالدم !

ووجد أبوللو فرصته !

أبوللو الخائن ! أبوللو سيد الشمس الذى لا يستحى ! أبوللو الإلـه الذى يفرق أن يلقى بتروكلوس وجهاً لوجه ، فيأتيه من الظهر ! كأجبن الجبناء ! !

يا للآلهة ! ومسكين يا بتروكلوس ! !

لقد تقدم أبوللو ، مستجمعاً كل قوته فى قبضة يمينه الجبارة فأهوى على قفا بتروكلوس بضربة خائنة كضربات اللصوص ، حين ينسلون تحت أستار الليل ، فأطار صواب البطل ، وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة ، وغودر الرأس العظيم مكشوفاً فى متناول كل ظباة وكل سنان !

ولم يدع هكتور فرصته تمضى ، بل سرعان ما أبصر بتروكلوس يتلفت يرى صافعه ، حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر ، إلى الرأس العارى ، فأقصده . . .

وسقط بتروكلوس المسكين . . . مضرجاً بدمه ! !

ووقف هكتور يتشدق ، ويفاخر تلك المفاخرة الـكاذبة :

« بتروكلوس ! أرأيت ؟ لقدا نهيت ! ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد ! بتروكلوس ! أكنت تحلم بأن تُفتح طروادة عليك ، فتسوق بيض خدورها إماء بين يديك إلى بلادك ، وتُقرّن فى الأصفاد أبطالها البهاليل ! ؟ أيها التاعس . لقد ترديت من عربة أخيل التى لم تكن يوماً أهلاً لها ، وبعـد قليل تنوشك سباع الطير ، وتغادرك فوق ثرى طروادة صعيداً جرزاً ورفاتاً سحيقاً ! !

بتروكلوس ! ياأتعس قتيل فى هذه الساحة الحمراء !

كم كنت تحدث نفسك بأن لو كان هكتور ، هكتور الحلاحل ، قاتلك ، وسافح دمك ، هو الذى ينام تلك النومة الساعة بين يديك ! !

وكم كنت تمنى نفسك أن لوعدت بعـدة هكتور وعتاده إلى مولاك ، إلى أخيل الذى أرسلك إلى الحومة ، ولم يجازف بنفسه فيها ، وهو يعلم أن أسدها الهصور لابد قاتله ، فافتدى نفسه بك ، وضحاك فى سبيل خلاصه ، من هـذه الصرعة التى زلزلتك !

بتروكلوس !

أهكذا قد غرر بك أخيل ، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك وتسبح فى دمك ، وتغص بآلامك ؛ وإنه ليسبح الآن فى شهواته ويقارف لذاته ، ولا يدرى مصيرك المحزن ، ولا يعرف ماحل بك من موتة زؤام ! ! . . . . . . »

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه ، ويسمع إلى هـذا الهذر ، ويبكى ! فلما انتهى هكتور تأوه القتيل آهة عميقة ، وقال :

« هكتور !

حق لك أن تفتخر الآن !

أما قبل هذه اللحظة ، فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده ، لأنه طاش من شدة ما عاينت من ضربات الميرميدون ! على أنك لو كنت رجلاً ، لآثرت أن تدفن وجهك فى الرغام ، دون أن تفخر بنصر ليس لك فى أقله يدان !

لست أنت الذى رميت ياهكتور ، بل هو سيد الأولمب ، وولده أپوللو ، هما اللذان رميا ، وهما اللذان كتبا هـذا القضاء ، وأبرما هذا القدر ! !

وإلا ، فوأرباب هيلاس ، لو صاولت عشرين كلباً مثلك ، لما أفلت منهم أحـد أبداً ؛ ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى فى نار جهنم ! !

أجلى هو الذى أعجلنى ياهكتور ، وأپوللو هو الذى فتك بى تلك الفتكة البكر ، أما أنت ، فلم تصنع شيئاً ، أكثر من أن رميت رمية الجبان ! !

على أنى أقولها لك قولةً غير كاذبة

إنك ستشرب بالكأس التى شرب پتروكلوس ، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت ، فانتظر ، فسيأتيك عذاب بشقيك ، وسينتفض أخيل العظيم حين ينتهى إليه نبأ مصرعى ، فيهرع إلى هذه الساحة ، والويل لك من رمحه الظامئ إلى دمك ! »

وكانت هذه المقالة قد أجهدته ، فسكت قليلاً ، ثم أغمض عينيه إغماضة متعبة ، وفتحهما فجأة ، ونظر إلى جنوده ، وقال :

« ميرميدون !

وداعاً ... سلامى ... إلى ... أخيل ! ! »

* * *

وفاض الروح الكبير ، وسكنت الساحة الحزينة كلها ... كأنها تبكى . . . !

وكأنما هزت كلمات پتروكلوس فؤاد هكتور ، وكأنما خشع بطل طروادة لجلال الموت ، فصمت طويلاً . . . وقال ، مخاطباً القتيل :

« پتروكلوس !

من يدرى إذا كان أخيل هو الذى يقتلنى ، أو كنت أنا الذى أقتل أخيل !

هذه آجال يا أخى . . . فالسلام عليك ! ! »

* * *

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل ، ولم يتورع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل . . .

تذكاراً حربياً !

وعتاداً مؤقتاً !

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

مؤتمر الشباب الأخلاقي — نداء لسعادة رئيسه

إلى شباب مصر :

أبنائي الأعزاء ....

كان بودي أن أجمعكم في صعيد واحد لأقص عليكم هذا النبأ السار الذي تلقيته بالغبطة والسرور من شباب رابطة الشباب المصري ... وعهدي بكم سباقين إلى طريق الخير ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وها نحن أولاء نتقدم إليكم بفكرة هي أساس لهذا المعروف الذي جبلتم عليه وتسمون إليه .. .

ما أطيب أن تدعوكم هذه الجماعة الفتية لوضع دستور للشباب يتمخض من بين جموعهم ، فيدعوهم إلى توحيد الصفوف توحيداً يبشر بالنجاح ، وينظم حياتهم الخاصة والعامة تنظيما يهيئ منهم جيلاً صالحاً نحن في أشد الحاجة إليه — ذلك لأن هذا النقص الذي نراه في بعض البيئات منا هو نتيجة لعدم تركيز حياتنا على أسس يجب أن تتوافر فينا جميعاً في هذا العصر وفي جميع العصور ، فتجعل منا رجالاً يشرفون أنفسهم ويشرفون بلادهم ؟ فإذا ما فهم الشباب حقيقة المقصد ونبل الغاية ، فقد قدر لنا أن نحقق رسالتنا على يديه ، ذلك لأنه الروح الدافعة ، والقلب النابض في الأمة

أبنائي : من منكم لا يريد الهداية لهذا الخلق الحائر .... المغمور فيما لا يرضى نفوسكم الطاهرة ، فضموا الصفوف وتعالوا إلى كلمة سواء لتسمعوا آراء كبار مفكريكم في مؤتمر الشباب الأخلاقي ، ثم نتناقش معاً في جو من الحرية ونزاهة القصد حتى يستقر عزمنا على تحقيق ما قمنا من أجله من وضع دستور تهذيبي يهيئ للشباب سبل الرشاد ؛ هدانا الله سواء السبيل ؟

رئيس مؤتمر الشباب الأخلاقي

محمد علي علوبه

الأستاذ ساطع الحصري

قدم القاهرة منذ يومين الأستاذ الجليل ساطع بك الحصري الوكيل الفني لوزارة المعارف العراقية ومدير دار الآثار ببغداد ، ليتصل برجال العلم وقادة الفكر في مصر ، ويقف على نظم التربية وطرق التعليم ومناهج الدراسة في المعارف ، فيقتبس من الأساليب ويختار من الكتب ما يلائم الحال في مدارس العراق ، توثيقاً لرابطة الفكر وتحقيقاً لوحدة الثقافة بين البلدين الأخوين

والأستاذ ساطع أحد الأعلام المعدودين في التربية ؛ وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية ؛ فلما قامت الدولة الفيصلية في دمشق كان وزيراً للمعارف فيها ، حتى إذا ما انتقلت إلى بغداد انتقل معها وتولى إدارة المعارف هناك ، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية بالرغم من ندرة المعلمين ومشاكل الطائفية وعراقيل الانتداب . وأفضل مزايا الرجل أنه صحيح المبدأ ، منطقي الفكر ، صليب الرأي ، حي الضمير ، يتقن العمل الذي يعمله ، ويملأ المنصب الذي يَشغله

له مؤلفات قيمة في التربية ، ولكن أنفع آثاره وأخلدها مجلة التربية والتعليم التي كان يصدرها في بغداد ، فإن مجموعاتها سفر جليل حافل في التربية والأخلاق والأدب ؛ وهو ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق ؛ فأهلاً به ومهلاً

حول قبر الصفدي

إلى الأخ (الصفدي) الفاضل ؛ صاحب الكلمة الطيبة المنشورة في بريد الرسالة الحادية والعشرين بعد المائة . . . .

المعروف يا سيدي أن الصلاح الصفدي جاء إلى دمشق في آخر حياته ، وتولى فيها وكالة بيت المال وكتابة الدست وأقام عليهما إلى أن توفي سنة ٧٦٤ . فلما قرأت كلمتك شككت في ذلك ورجعت إلى ما في خزانتي من مراجع ، فإذا الذي في طبقات

السبكي (٦ : ٩٤) والسبكي معاصره وصديقه ، والشـذرات (٦ : ٢٠١) ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣ : ١٦١) والأعلام لخير الدين (١ : ٢٩٦) أن وفاته في دمشق ، وزاد في الشذرات أنه دفن بالصوفية ، ومقبرة الصوفية قد درست وقام عليها بناء الجامعة السورية والمستشفى الوطني ، ولم يبق منها إلا قبر شيخ الاسلام ابن تيمية قائماً وسط المستشفى ، وهي في أنزه موضع في دمشق معروف بمقبرة البرامكة

فكيف يكون القبر الذي وصفت في صفد قبره ؟ وعلام استند الأستاذ المحقق أحمد زكي باشا رحمه الله في تأييد ذلك ؟ هل وجد نصاً يطمئن اليه الباحث ، ويثق به المنقب ، أم اكتفى بالسماع ، والشائع على ألسنة الناس ؟

هذا وقد وقع لي مرة أني كنت ماراً في الزقاق الذي ينتهي إلى سوق الحميدية ، وفيه دور المَرْدميين ، والذي يسمى زقاق الفخر الرازي ، فلمحت في خربة قذرة قد اتخذها الناس لمثل ما تتخذ له المراحيض ... ... لمحت حجراً أبيض مصقولاً عليه كتابة يبدو طرفه ، وسائره غائص في الطين والأوساخ والتراب ، فعالجته ودعوت من أعانني على استخراجه ، فاذا هو الحجر الذي كان على قبر الامام المصنف العظيم ، علامة المسلمين ، فخر الدين الرازي ، وإذا عليه اسمه ، فحملت الحجر إلى المدرسة التجارية ، وذهبت مغتماً ثائراً ، أقيم الأرض وأقعدها ... ثم بدا لي فرجعت إلى ترجمته ، فاذا من المتفق عليه أنه توفي رحمه الله ببلدة هراة يوم الاثنين في عيد الفطر سنة ٦٠٦ ودفن فيها !

ولعل هذه من تلك ؛ ولعل هذه المزبلة التي في صفد قبر رجل آخر غير الصلاح صاحب الوافي بالوفيات وتلك المصنفات . وإذن فلله الحمد ، وإن كنا من قبل لفي خطأ مبين

والسلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته ؟

علي الطنطاوي

الشيخ عبد العزيز الميمني

قدم القاهرة الأستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ اللغة العربية في جامعة عليكره في الهند ، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو صاحب المصنفات والآثار الممتعة التي تمتاز بالتحقيق المنقطع النظير ، منها :

(١) أبو العلاء وما إليه ، وفي آخره فائت شعره ورسالة الملائكة . (٢) تنكيتات وتعقبات على خزانة الأدب للبغدادي . (٣) اقليد الخزانة ، وهو فهرس لما تضمنته خزانة الأدب من الكتب المنسوبة . (٤) تحقيق (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد) . (٥) تحقيق (أبواب مختارة للأصبهاني في مجازات العرب) . (٦) شرح (ما تلحن فيه العوام للكسائي ومقالة كلا لابن فارس) . (٧) النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف . (٨) ابن رشيق حياته والبيئة التي نشأ فيها . (٩) زيادات ديوان شعر المتنبي . (١٠) تحقيق كتاب الداخَل لأبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب . (١١) تحقيق كتاب جاويزان خِرَد (أي العقل السرمدي) ، كان ترجم أيام المأمون من الفارسية القديمة إلى العربية ، وهو أقدم كتاب في العالم على رأي الفرس إذ ينسبونه إلى حفيد آدم . (١٢) وقد عني في هذه السبع السنوات الأخيرة بكتاب اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري فصححه على نسختين بألمانيا ومكة ، ونقحه بما لا مزيد عليه من العناية ، وخرج كل ما فيه ، وشاطر المؤلف في جميع المباحث ، وذيله باتمام الكلام على ذيل الأمالي بطريقة البكري نفسه . والأستاذ الميمني بعمله هذا قد أتى بفلقة من الفلق في هذه الأزمنة المتأخرة ، ودل على اطلاع واسع في آداب اللغة العربية في زواياها المترامية الأطراف ، وقد سد الفراغات وما بيض له البكري في كثير من الأمكنة التي كانت تحتاج لمزيد بحث وتدقيق

إلى غير ذلك من مباحث مفيدة ومقالات مستفيضة نشرت في مجلتي المجمع العلمي والزهراء . والله نسأل أن يمتع الأدب العربي بطول بقائه

محمد شفيق

سرقة أدبية

نبهنا الأستاذ علي الطنطاوي والأديب محمد يوسف قوره الى أن القصيدة التي نشرت في عدد الرسالة الماضي تحت عنوان : (حمامتي) وفوق إمضاء (عيسى وهب الله الشمبيري) هي للشاعر محمود حسن اسماعيل صاحب (أغاني الكوخ) ترجمها ونشرها في مجلة الأسبوع عدد ٤ أبريل سنة ١٩٣٤ ! وأعجب ما في الأمر أن هذا السارق أرسل إلينا قطعة أخرى ، ويرجو أن نشير إلى أن اسمه (عيسى وهب الله عبد المسيح) لا عيسى وهب الله الشمبيري كما نشر ، فكأنه ساعد الحق على فضيحته ! !

السياسة والتاريخ

أضحى تعليم التاريخ فى عصرنا من أكبر العوامل فى تكوين العقلية والثقافات القومية . وقد لعبت الثقافة التاريخية أكبر دور فى تكوين الجيل الألمانى الذى قام بالحرب الكبرى ، وكانت من أهم العوامل المعنوية فى اذكاء الفكرة الجرمانية . وحينما كانت السياسة تسيطر على سير الثقافة القومية نرى التاريخ يلعب دوراً كبيراً فى تكوين النشء ، ويصور بالألوان التى تلائم غايات الدعاية السياسية ؛ ففى ايطاليا الفاشستية وفى روسيا البلشفية ، وفى ألمانيا الهتلرية ، يدرس التاريخ بالأساليب السياسية ، ويستعمل أداة قوية لصوغ عقول الشباب وتوجيهها نحو الآراء والنقط الحساسة التى تستطيع السياسة متى حان الوقت أن تضرب على أوتارها . ولم ينس الدعاة الهتلريون فى ألمانيا هذه الحقيقة بل عملوا على استغلالها ، وانشأت الحكومة الهتلرية معهداً جديداً للتاريخ أسمته « المعهد القومى لتاريخ ألمانيا الجديدة » وفى أنباء برلين الأخيرة أن هذا المعهد قد افتتح بالفعل فى حفلة رسمية عقدت ببهو جامعة فردريش ولهلم ، وشهدها جمهور كبير من زعماء الحزب النازى ومندوبى الجامعات الألمانية . وتحدث مدير المعهد الجديد الدكتور والتر فرانك عن « الوجهة الاشتراكية الوطنية لفهم التاريخ » وأفاض فى استعراض المناهج السلبية القديمة لدراسة التاريخ وحمل عليها بشدة قائلاً : « ان صراعنا العلمى ممتزج بصراع أمتنا القومى ، ولسنا نستطيع أن نكون فى حياتنا وفى عملنا أكثر من تعبير عقلى عن التطور العظيم والعصر العظيم اللذين اضطلع بهما أدولف هتلر »

وشرح الدكتور والتر مهمة المعهد الجديد فى ميدان الدراسة التاريخية ولخصها فى أربع نقط هى :

أولاً — غزو الأفكار الغربية لألمانيا منذ سنة ١٧٨٩ (أعنى منذ الثورة الفرنسية) إلى سنة ١٨٤٨

ثانياً — الحركة القومية الدينية فى القرن التاسع عشر

ثالثاً — ألمانيا وتطور الفلسفة فى القرن التاسع عشر

رابعاً — المسألة الألمانية اليهودية منذ الثورة الفرنسية إلى الثورة الألمانية الوطنية الاشتراكية

وظاهر من هذا الشرح أن مهمة المعهد الجديد هى توجيه الدراسة التاريخية بما يتفق مع النظريات النازية فى شرح التطورات القومية . فالأفكار الغربية التى غزت ألمانيا ، كما غزت العالم كله ، منذ الثورة الفرنسية هى أفكار خطرة منحلة لأنها تذهب إلى أبعد الحدود فى تصوير الفردية والحقوق والحريات العامة ، بينما تذهب المبادئ الهتلرية فى الحكم وفى تصوير حقوق الفرد إلى أبعد حدود الطغيان وانكار الفردية ؛ والمبادئ النازية تصور بأنها أمثل طرق الحكم وتكوين الفرد . وأما فيما يختص بالتطور الدينى والتطور الفلسفى ، والمسألة اليهودية ، فلا ريب أنها ستصور جميعاً بصور مغرقة تبرر سياسة النازى وتؤيدها ، وتبرر بالأخص نظريات الجنس والتفوق العقلى الجرمانى وغيرها

وسيكون المعهد الجديد مصدر الوحى والالهام لدراسة التاريخ وكتابته فى جميع المعاهد والمدارس الألمانية

كتاب جديد عن لورد بيرون

كانت حياة اللورد بيرون الشاعر الانكليزى الأشهر موضع التأمل والدرس لأكثر من كاتب ومؤرخ ، فصدرت عنها بالانكليزية وباللغات الأخرى كتب لا حصر لها ، ولكن حياة لورد بيرون ما تزال فى عصرنا ، أعنى لأكثر من مائة عام على وفاته مادة شائقة للدرس ؛ وقد صدر أخيراً عن بيرون كتاب جديد عنوانه « بيرون : أعوام الشهرة » Byron : the Years of Fame بقلم الكاتب الانكليزى بيتر كنيل ؛ وهو كتاب ضخم يفيض بالعرض الشائق ويتناول حقبة صغيرة من حياة بيرون هى ما بين سنتى ١٨١٢ و ١٨١٦ ، وهى الفترة التى استقبل بيرون فيها مجده الباذخ وغدا عزيز المجتمع المدلل

وقد ولد بيرون سنة ١٧٨٨ ، من أسرة تشرفت بالنبل ، ولكن عرف أفرادها بسوء الطباع وانحلال الخلق ، ولم يكن بيرون يشذ عن هذه القاعدة ؛ ولكن بيرون كان شاعر الطبيعة العبقرى ؛ بيد أن هذه العبقرية التى تفتحت بسرعة مدهشة ، وغمرت كل ما حولها ، لم تدم سوى فترة قصيرة هى التى اتخذها مستر كنيل موضوعاً لدراسته ؛ ففى هذه الأعوام الأربعة أو الخمسة يبدو بيرون فى ذروة قوته وخلاله ، وقد استعرض المؤلف نفسية الشاعر وخواصه بافاضة وبراعة ، ونوه بنوع خاص بذلك المزيج المؤلم الذى يجثم فى نفسية بيرون وفى صفاته ، والذى يجعل حياته الباهرة قطعة من العذاب المستمر ؛ وذلك التباين المدهش الذى يجمع فى صعيد واحد بين الخليع الصاخب والحيى النقى ، وبين المدنف الشره والقنوع الزاهد

الكتب

(١) المعجم الفلكى — للدكتور أمين المعلوف باشا

(٢) خصائص اللغة العربية — للأستاذ حبيب غزالة بك

(٣) الزراعة العملية الحديثة — للأستاذ الأمير مصطفى الشهابى

(٤) فى أصول الأدب — للأستاذ أحمد حسن الزيات

(٥) تاريخ الأدب العربى — للأستاذ أحمد حسن الزيات

للأستاذ محمد بك كرد على

— ١ —

بعد بحث الأستاذ أمين المعلوف فى الحيوان سنين طويلة ألف كتاب معجم الحيوان، فوقع من نفوس العلماء أجلّ موقع، وهاهو الآن ينشر المعجم الفلكى وهو يشمل الثوابت والكواكب السيارة والصور النجومية وبعض المصطلحات الفلكية. وقد جاءت فيه أسماء كثيرة أخذها الافرنج عن العرب للدلالة على النجوم كانت على الدهر شاهدة بفضلهم فى هذا العلم. وقد حقق الأستاذ المعلوف ألفاظاً لم يسبقه إليها أحد، وعلق شروحاً وحواشى مهمة وهو فى ١٤٠ صفحة طبع فى دار الكتب المصرية

— ٢ —

يكتب الأستاذ حبيب غزالة بين حين وآخر أبحاثاً صغيرة مفيدة، ومنها ما نشره فى جزيرة رودس وتاريخها، ونشر اليوم رسالة فى خصائص اللغة العربية قال فيها ان مما امتازت به اللغة العربيـة من الخصائص المترادفات والتفصيل والتقسيم والأسماء المشتركة والتضاد والاشتقاق والقلب والنحت والتجوز والتعميم والتخصيص والاستعارة والمقصور والممدود والمثنى ومزدوج الكلام والانباع والتكرار والزيادة والتأكيد والتصغير والكناية والكنية والتفاؤل والتمويه والأمثال والجزاء أوالمشاكلة والتزويج والتعويض والادغام والتخفيف والأضمار وجمع الجمع والتناسب بين المعنى والاسم والبديع والاعتراض والاعراب والتصريف والحروف وخصائص الحروف. وأورد لكل ذلك أمثلة. وقد شفع هذا البحث بدرس فى اللغات العربية العامية

— ٣ —

عرف الأمير مصطفى الشهابى فى الأندية العلمية بأبحاثه الزراعية والاقتصادية واللغوية. وقد نشر إلى الآن عدة كتب فى الزراعة ومنها كتاب «الزراعة العملية الحديثة» فى خمسمائة صفحة، طبعه طبعة ثانية منقحاً مزيداً مزيناً بالصور بعبارة سلسة قل أن كتب فى الزراعة مثلها. والمؤلف معجم مفيد فى الألفاظ الزراعية، وضع لكل لفظ من الألفاظ بالافرنجية ما يقابلها بالعربية، ومنها ما كان من وضعه خاصة وهو بضع مئات؛ فحبذا لو صحت عزيمته على طبعه خدمة للعلم

— ٤ —

أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشر محاضرات له ومقالات

ومنذ سنة ١٨١٦ يأخذ نجم بيرون فى الأفول، ولكن شهرته تصمد ردحاً آخر، وتنتهى حياته المضطربة الصاخبة بأن يرغم على مغادرة انكلترا إلى إيطاليا ثم إلى اليونان؛ وقد كان اسم اليونان الطامحة الى حريتها يجذب يومئذ كثيراً من عشاق الحرية، وكان بيرون فى طليعة أولئك الذين جذبهم وسحرهم ماضى تلك الأرض القديمة؛ فغادر ايطاليا الى اليونان فى أوائل سنة ١٨٢٤ حينما علم بأن اللجنـة الثائرة انتخبته عضواً فيها؛ وذهب الى اليونان ليعمل فى سبيلها بقلمه وماله وشخصه؛ ولكن جراثيم الداء الذى قوض حياة الشاعر كانت تعمل عملها، فلم تمض أشهر قلائل حتى توفى، واختتمت تلك الحياة الباهرة الصاخبة بسرعة، ولكن اسم الشاعر ما زال بعد مائة واثنى عشر عاماً من وفاته يفيض حوله أسمى معانى العبقرية والعظمة والخلود

في كتاب خاص ؛ ومن أحق من بلاغة ابن الزيات بالتخليد ؟ وقد درس في هذا الجزء عدة موضوعات ومن أهمها الأدب وحظ العرب من تاريخه والعوامل المؤثرة فيه ، وتاريخ ألف ليلة وليلة ، وبحثه في الروايات المسرحية كالمأساة والملهاة والدرامة والغنائية (الأوبرا) ؛ ولا شك أن الكلام على ألف ليلة وليلة والروايات المسرحية من الأبحاث الممتعة التي وفق الأستاذ إلى وضعها ولم يسبقه أحد إلى تجليتها وتجويدها . وحبذا لو جمع أيضاً في كتاب بعض ما خطته أنامله على صفحات الرسالة من المقالات الممتعة ، فان الكتاب تتناقله الأيدي في كل زمان ومكان على صورة لم يكتب للمجلات حتى الآن مثلها

— ٥ —

قلّ في الكتب حتى المدرسية ماطبع بضع طبعات . وصدور الطبعة السادسة من تاريخ الأدب العربي دليل بيّن على احتياج الطبقات المتأدبة اليه ، وقد زاده المؤلف امتاعا فنقحه وذيله بمعجم فسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب ، حتى لا يحتاج طالب هذا الفن إلى الرجوع إلى كتاب آخر . وحبذا لو صحت عزيمة المؤلف الكبير على البحث في سني ولادات من ترجم لهم من الأدباء والعلماء ، فللولادات كالوفيات دخل كبير في تصور المترجمين ؛ مثال ذلك عبد الله بن المقفع ، فقد ذكر أنه قتل في السادسة والثلاثين ، وعلى هذا جرى كل من ترجموا له ومنهم كاتب هذه الكلمة في « رسائل البلغاء » (طبعت طبعة ثانية في القاهرة سنة ١٩١٣م — ١٣٢٤ هـ) ، وتبين بعد ذلك أن ابن المقفع عاش أكثر من ذلك ، فقد ذكر الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب الذي طبعه في ڤينا السيد موجيك من علماء المشرقيات سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦ أن ابن المقفع كان يكتب لدواوين عمر بن هبيرة على كرمان ؛ وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة ، وقال إنه كتب للمسبّح بن الحوّاري في نيسابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قبيل تقلص الدولة الأموية ، وبهذا يصدق التخمين بأن عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظناً ، ولا يعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة على الأقل ، وإذا حسبنا ذلك كان ابن المقفع يوم قتل ابن ستين أو نحوها ؛ وهذا هو المعقول لأنه كتب أكثر من عشرة كتب ، والعمر الذي قال به من قال لا يتسع لكل هذا

محمد كرد علي

مؤتمر الشباب الأخلاقي

بمناسبة المؤتمر الأخلاقي يرحب المركز العام لرابطة الشباب المصري ١٣ شارع المناخ بمصر بكل اقتراح يصل اليه بصدده ، وقد انتدب المركز العام حضرة مراقب المؤتمر الأديب أحمد ابراهيم خطاب لمقابلة من يريد الاستزادة في المعلومات عن هذا المؤتمر يومياً من الساعة ٤ إلى ٦ مساء ....

وقد استقر الرأي نهائياً على أن يعقد هذا المؤتمر يومي الخميس والجمعة ٢ و ٣ رمضان سنة ١٣٥٤ الموافقين ٢٨ و ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ الساعة السابعة مساء بقاعة محاضرات جمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة نازلي بالقاهرة تحت رئاسة سعادة محمد علي علوبه باشا ؟

سكرتير المؤتمر
ابراهيم الطوخي

3 me Année, No. 124.

Lundi-18-11-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire

Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

على هامش الموضوع

فى الجمـــال ؟ !

حاولت أن أتابع البحث (فى الجمال) فنبا علىّ الفكر، وشرد عنى الخيال، واستبهم أمامىَ المسلك. وكيف يستطيع أن يبحث فى الجمال من يرى القبح الشنيع قد هجم على المشاعر من وراء البحر، فآذى الأحداق، وسمم الأذواق؛ وشوه كل منظر؟ ومَن أقبح من قادر يختل، ومعاهد ينكث، وصديق يروغ، ومتمدن يعالن الناس بسخف الذمة، وذائد عن الحق يتبجح باهتضام الحق، وغارق فى الثراء يتحلب ريقه على كفاف الفقير، وكابوس من الأنس يجثم على صدرك نصف قرن، تريد أن تزحزحه فيثقل، أو تخاطبه فيغبى، أو تغاضبه فيبرد؟

إن فى بعض أعمال اللصوص جمالا إذا تمت جراءتها على القوة، أو دلت حيلتها على الذكاء؛ ولكن أى جمال فى صوت يتحنن بالرياء فى (جنيف)، ويتخشن بالعداء فى (جلد هول)، ثم لا يختلف فى مقامه وقراره عن عواء الذئب فى روما؟ أليس هذا وذاك مظهرين وضيعين قبيحين من ضراوة الحيوانية فى الانسان الضعيف؟

على أن من يسطو وفى يده الخنجر، أدنى إلى الرجولة ممن يسطو وفى يده المسبحة ؛ لذلك كانت قهقهة (الدوتشى) من تصريح (هور) سخرية أليمة ، خنس لها الرياء ، وخجل منها الدهاء ، وفرت أمامها الحجة !

***

الحياة جميلة ؛ ولكن هذا الانسان يلونها بلونه فتقبح ؛ وقد جاهد المرسلون والمصلحون أن يجلوها على صبغة الله فعجزوا أمام بغيه وجشعه !

ماذا يبتغى الانسان من الانسان إذا كان يفسح له فى أرضه ، ويُفضل عليه من رزقه ، ويقول له : هواك هواى ، ورضاك رضاى ، وعدوك عدوى ، ولكن لى وطنى ولك وطنك ، فلينعم كلانا بسلطانه الطبيعى على ما يملك ، وليكن بيننا ما بين الحليف والحليف من تعاهد فى شرف ، وتعاون فى استقلال ، وتعامل فى حرية ؟ هـذا كلام على بساطته وصراحته ووضوحه ما يزال يعجز الأفهام فى أمة تفاخر بالعلم والحكم ، وتباهى بالديمقراطية والعدل ؛ لأن الأنانية المسلحة إذا عصفت فى النفوس غشّت على الحواس فلا تشعر ، ورانت على الأذهان فلا تدرك ، وانبهم فى الخواطر مفهوم الفضيلة فى الانسان ، ومدلول الجمال فى الطبيعة ، فلا تدرك من معنى البحر غير الأسطول ، ولا من دلالة الأرض غير الجيش ، ولا من جمال الموقع غير الاستعمار الوقح

من شذوذ هذه العقلية الغالبـة فى الغرب ما نعانى ويعانى الشرق من أرزاء ومحن !

ومن شذوذ هذه العقلية الطاغية ما تصبَّب أمس من نفوس الشـــباب على أديم الأرض ! فدحتهم تركة الآباء الغارمة ، وأحفظتهم سياسة الأصدقاء الجارمة ، فغضبوا للحق الطعين ، وفزعوا للأمل المخيَّب ، ففاضت أرواح طاهرة ، ودميت وجوه حرة ، وضجت بالأنين مستشفيات ، وجأرت بالشكوى سجون ، وتجاوبت بالحزن بيوت ، وتألف من هذه السطور الحمر صفحة بيضاء من تاريخنا الوطنى الحديث

***

جف اللسان وحفى القـلم من استعداء القانون واستصراخ العدالة ؛ والقانون والعدالة كلمتان لاتعنيان إلا إرادة القوى ومنفعة الغاصب ؛ فاذا لم يكن بجانب الحق قوة تؤيده ، وبإزاء العدل سلطان يقيمه ، كان استمساك الضعيف بهما استمساكا بالهباء المنتثر !

إذا أعوزتك اليوم قوة السلاح فلا تعوزك قوة الخلق ؛ وقوة الخلق ميسورة لك متى أقنعت نفسك بأنك إنسان له إرادة قبل الوظيفة ، وكرامة فوق المال ، وواجب مع الحق ، وتاريخ بعد الموت . وقوة الخلق هى التى تجعل للأمة كلمة لا تتعدد ، وسياسة لا تتردد ، ومهابة فى الصدور تكسر من طرف المحتقر ، وتكف من شرة الطامع ، وتصد من عادية الدَّخيل

جربنا كل شىء فى جهاد العادين فما أغنى عنا جهاد ولا تجربة ، لأن العُدة كانت قوية إلا من ناحية الخلق . وإذا لم يكن الخلق كانت الشهوة والأَثَرة والتحاسد والتخاذل والتواكل والهوى ؛ وهذه الرذائل مجتمعة ومتفرقة كانت فى مدى أعوام الجهاد الستة عشر وباء ذريعاً تسلطه الأقدار من حين إلى حين على جهود الشباب فيفنيها ، وعلى آمال الأمة فيذويها ، ثم يقطع مابيننا وبين الزمن المتقدم فنسقط فى هوة الماضى على الموقف الأول

***

ها نحن أولاء على جلَد الصخرة التى وثبت من فوقها الأمة : وراءنا الهدنة التى قُسمت عليها الأسلاب ووُزعت بينها الغنائم ؛ وأمامنا أطلال من الجهود العافية ، وأنقاض من الأمانى المحطمة ؛ وعن أيماننا وعن شمائلنا آثار أقوام كانوا قبلنا فغبَّروا فى وجوهنا وانطلقوا خفافاً متساندين إلى الأمد البعيد . فهل لسادتنا الذين يتولون استئناف الجهاد أن يجربوا فى قيادتهم قوة الخلق ؟ إنهم إن فعلوا ذلك أمنوا ولا ريب نكسة العلة ، وردَّة الهزيمة ، وضلة الطريق . جاهدوا أنفسكم قبل أن تجاهدوا العدو ، فان من لم ينتصر على نفسه لا ينتصر على غيره ، ومن لم يقد نفسه الواحدة ، لا يستطيع أن يقود النفوس المتعددة

احمد حسن الزيات

٦ – كَلِمَـــة وكُلَيْمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أصوبُ الصوابِ عند المأفون غلطةٌ تجلِبُ له الشهرة

* * *

يرى المغرورُ أنه كالمسجد ، إذا هدمه الناسُ بقيت أطلاله تصلى وتسلم على نفسها . . . .

* * *

عقلُ النمـــلة يصوّرُ لها ظلام الليل جيشاً من النمل قد ملأ العالم . . . .

* * *

تعدُّدُ الأحزاب فى أمة تحتاج إلى الحرية ، كتعدد الأنبياء فى أمة تحتاج إلى العقيدة ؛ إذا وجد فيها نبيان كان اتفاقهما معاً دليلاً على كذبهما معاً ، وكان أقل ما فى اختلافهما أنه دليل على كذب أحدهما

* * *

إنما أضعفَ السياسيين فى الشرق أن ربحهم وخسارتهم من (الوظائف) لا غير

* * *

من مصائب هـذا الشرق أن الخصامَ السياسيَّ فيه لا يدلُّ على سياسة ... تبرّأ متبوعٌ من تابع فاختصما ، فكانا كرجُل وحذائه ؛ يقول الرجل : أنا خلعتُ الحذاء ، ويقول الحذاء : بل أنا خلعت الرجل ...

* * *

إذا كانت المشكلةُ بين الذئب والحَمَل ، فلن يكون حلها إلا من أحد اثنين : إما لحم الخروف ، أو عصا الراعى ...

* * *

كلُّ دجال له أساليبُه التى صار بها دجالا ، وليس للمنخدعين إلا أسلوبٌ واحد فى الغفلة ؛ وشرٌّ من الشرّ تعدُّدُه ...

* * *

إذا اصطنعتَ سفيهاً يُسافِهُ عنك ، فاحذرْه لليوم الذى لا يكون فيه سفيها إلا عليك

* * *

من أحْسَنِ تَملُّق المرأة أحسنَ إخضاعِها لا تَملُّقَها .

* * *

ما رأيت امرأةً حمقاءَ إلا كان حمقُها من سخفه كأنه امرأةٌ أخرى حمقاء ...

* * *

إذا أحببتَ ففكر فى البغض لعله يكون ، وإذا أبغضتَ ففكر فى الحب لعله يعود ؛ بهذا وهذا تكون دائماً محباً وإن أبغضت

* * *

ما أعجبَ تناقُض المرأة ! هى تريد أن تستقلَّ فتخرجَ عن طاعة الرجل ، وهى لا تسعد إلا حين تجد رجلاً تشعر من حبه بوجوب طاعته

* * *

من بلاءِ الحب أنه ينزّه جمالَ المحبوب عن كل عيبٍ وكل نقص ؛ ولـكنه بذلك يدفع طبيعةَ العاشق إلى البحث عن كل نقص وكل عيب فى أعمال المعشوق

* * *

قاعدةُ الرجل مع المرأة التى يحبها أن تنتصر إرادتُه وإن ذلت كبرياؤه ؛ وقاعدة المرأة مع الرجل أن تنتصر كبرياؤها وإن ذلت إرادتُها

* * *

سؤالٌ فيه جوابه : لماذا يكون حقدُ المرأة الخائبةِ فى حبها حقداً شديداً على الرجل الذى أحبته حتى كأنه حقدُ أمٍّ على قاتل أطفالها . . . ؟

* * *

المرأةُ التى لا زوج لها منفيةٌ وإن كانت فى دارها ، لأن وطن قلبها الرجل

* * *

إذا استسلمت المرأةُ لمحبها ظنت الحبَّ قد ابتدأ ، وعلِمَهُ الرجلُ قد ابتدأ ينتهى . . . أذاك فرقُ ما بينهما فى الحب أم فرقُ ما بينهما فى الظلم ؟

* * *

ماأعجبَ هـذا ! أرادت حبيبةٌ ظريفـةٌ أن تكون مرةً سخيفةً عند محبها ، فلم تستطع أن تكون سخيفةً إلا كما يحب

* * *

ماهو السُّلوان فى الحب ؟ هو رجوعُ العقل من سَفَره الخيالىّ فى جسم المحبوب

* * *

٢ – مدينـــة الزهراء

وعبانيها الملوكية الفصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة البحث

وقد انتهت الينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبىء عما كانت عليه من الضخامة والفخامة ، فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفا ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه ؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم فى اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرها [١] . وقد لا نجد فى المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوى أو قصر الڤاتيكان الشهير برومه وما انتهى اليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فان هذا المقام الكنسى الملوكى الفخم يحتوى على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير

(١) نفح الطيب ص ٢٦٥

— ٢ —

ولم تعمر الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية ؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، مذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع فى سلطان بنى أمية ؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد – هشام المؤيد – وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة ؛ وسرعان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبى عامر على مقاليد الحكم بمؤازرة صبح أم المؤيد ووصية العرش ، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبى عامر بكل سلطة ورياسة فى الدولة ؛ وفى سنة ٣٦٨ هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة بجوار قرطبة على نهر الوادى الكبير وأسماها الزاهرة ، وجعلها قاعدة الحكم ، ونقل اليها خزائن الأموال والأسلحة ودوائر الحكومة ، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا فى عهد مؤسسها وخلفه الذى اكمل بناءها . وكان قيام الحاجب المنصور فى الواقع خاتمة لسلطان بنى أميـة ، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم ؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه ، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية ، وروعتها الملوكية

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذى شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . فى سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من المؤيد وواضح الحاجب المتغلب عليه ، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها ، وفتك أنصاره البربر بسكانها ، وعاثوا فى

الرذيلةُ الصريحـــةُ رذيلةٌ واحـدة ، ولـكن الفضيلةَ الكاذبةَ رذيلتان

***

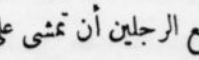
يرى الملحدون أن من حقهم أن يعملوا فى النفس الانسانية كما يعمل أهل الدين ؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشى على البِيـَانة [١] كأصابع اليدين ؟

***

لـكل إنسان عقلٌ تحكمه الغريزة ، وحقيقةُ الدين أن يكون للغريزة عقلٌ يحكمها

***

إذا جئتَ بالنكتة وبالغتَ فيها ، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأه حين أضاء



(طنطا)

(١) هى تعريب (البيانو) وجمعها بيانات بكسر الباء

معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ؛ والظاهر أن الضربة كانت قاضية ، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة سوى أطلال دارسة ، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك فى التاريخ الأندلسى إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ؛ وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد تغزل بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك فى مقطوعات مؤثرة ؛ ومما قاله ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء وروائع ذكرياتها :

خليـــلى لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة
أجلت المعانى فى الأمانى بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح
تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقـاصر ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثـــل قرطيها لى الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخـــلد طيبه
إذا عز أن يصدى الفتى فيه أوبضحا
هناك الحمام الورق تنــدى خفافها
ظلال عهـــدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قدأطار الكرى صبحا (١)

ونقل الينا الشيخ محيى الدين بن العربى (٢) أبياتا قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء فى المدينة الشهيرة وهى :

دیار بأكناف الملاعب تلمع   وما إن بها من ساكن وهى بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب   فيصمت أحيانا وحينا يرجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً   له شجن فى القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى   فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثى الفتح معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء فى تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كشكالى ينحن على خرابها ، وانقراض إطرابها ، والوهى بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث فى آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد . . . » (١)

ويحدثنا الرحالة البغدادى ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم — فيصف موقعها ، ويقول إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة) فى المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها فى عيون كثير من الناس حسن بارع » (٢)

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجرى (القرن الثالث عشر) وقد ذكرها الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى منتصف القرن السادس وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال (٣) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى الذى وضعه فى أوائل القرن السابع الهجرى (٤) . وفى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ، ونكبة الاسلام بسقوط قرطبة فى يد النصارى ، فطويت بذلك أسطع صحف الاسلام وصحف الخلافة فى الأندلس ؛ وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها

---

(١) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها فى ترجمته فى « قلائد العقيان » للفتح ص ٧٢

(٢) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجرى ؛ وقد نقل الينا هذه الرواية والأبيات فى كتابه الشهير محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار

(١) راجع قلائد العقيان فى ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨

(٣) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة — ص ١٩٣

(٤) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١

الخلافية القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة فى يد النصارى عصراً يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت فى ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذى حوله الأسبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى ، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ، بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مزكيتا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب ، فى شمال غربى قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la viesa ؛ ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بني بانقاض قصر الزهراء [1] وقد عنيت الهيئات الأثرية الأسبانية فى العهد الأخير باجراء الحفر فى تلك المنقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية [2]

وقد كان لهذا المصير المحزن الذى انحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الاسلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التى أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط ، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة ، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق فى العظمة والمنزلة السلطانية ، وفى ظروف العصر ، وصروف الأحداث ؟

محمد عبد الله عنان

---

(١) Ency. de l'Islam-Cordoue

(٢) راجع فى تاريخ الزهراء وأخبارها وأوصافها : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ — ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ــ ٢٤٨ والمسالك والممالك لابن حوقل ــ ص ٧٨ و ٧٩ ، وياقوت فى معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضا Dozy : ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172

مذاهب الفلسفة

٢ ـ المذهب الطبيعى (*)

للأستاذ زكى نجيب محمود

إذن فالجامد والحى شيئان مختلفان أشد مايكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هى الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التى يصادفها المذهب الطبيعى هى هذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعى فتنجو به من هذا المأزق العسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل

أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليما وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحى قد تسلسل من كائن حى قبله ، وهذا من كائن حى قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد فى بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أى بين الكائنات السفلى والكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم فى نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعى ، وهى ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

ثم جاء فى أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحجة على أن الحياة إن هى إلا ضرب من ضروب المزيج الكيميائى بين أجزاء المادة ، فاذا كنا نبغى الوصول الى الحلقة التى تصل الحياة بالجماد ، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الكيمياء ! ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم فى عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وبديهى أنها لاتعبر لكاتبها عن رأى خاص

الشقة الفسيحــة التى توهمها الأولون ، فالفرق كل الفرق بينهما اختلاف فى درجة التعقيد والتركيب . أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والـكهرباء والضوء

ولـكن مابالنا نركب رءوسنا فلا يرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من الجماد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر فى أعيننا لغزاً مغلقاً ؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت من الجماد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد ؟ قلب النظر فى جوانب الـكون تر آلافاً من الأشياء التى جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية ؛ خذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء ؟ هو لم يكن فى عناصر الملح الأولى التى من مزيجها نشأ الملح ، وإذن فقد جاء هــذا الطعم الذى نعرفه للملح طارئاً مباغتاً . فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هــذا النحو ، فيكون لهما من الخصائص ماليس لعنصرها الأول : أعنى ماليس فى مادة الطبيعة الجامدة . . . تلك حجة جديدة يؤيد بها أنصار المذهب الطبيعى رأيهم

ولـكن دعك بعــد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً ، وحسبنا أن نأخذه كما هو بين أيدينا . فهل يستطيع المذهب الطبيعى أن يفسر كيف يعمل العقل ؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى ؟ إنه ان استطاع أن يعلل ذلك هان عليه بعد ذلك كل شىء ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال فى ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً ؛ وها هو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضى ينحو فى بحثه نحواً فسيولوجياً ، أى أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل ، فهو لذلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين العلة والمعلول . وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الانسان الروحية والعقلية لا تعدو أن تـكون نتائج كيميائية لبعض افرازات الجسم . وليس بعيداً عن هؤلاء أن يحين الحين الذى يسيطر فيه الانسان على قواه العقلية ، بأن يبتكر طعاماً معيناً يفرز إفرازاً خاصاً يرفع القــدم الوضيع إلى مرتبة الفلاسفة والحـكماء ! !

المذهب الطبيعى والدين :

لما كان أنصار هذا المذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها ، فهم ينكرون أشــد انكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى ، وبعبارة موجزة واضحة : هم ينكرون الدين وكل مايتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب . فان ساءلتهم قائلاً : إن كانت العقائد ضلالاً فى ضلال فما الذى حدا بالانسان بادئ ذى بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روحى ، ومن أين جاءه هذا الاتجاه فى التفكير ؟ أجابوك إنه خطأ بشرى كـكل ما يقع فيه الانسان من أخطاء ، ولـكنه فى رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للانسانية عنه بد فى حياتها الأولى

إنما ينشد الانسان الحقّ فى الرأى لا لشىء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له فى طريق الحياة ؛ إذ الفكرة الصائبة توضح السبيل وتيسر الطريق ، وتعمل على استمرار البقاء واجتناب الخطر ؛ وعلى نقيضها الفكرة الخاطئة ، فهى مضللة للانسان مبعثرة لجهوده فى غير ما طائل ، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدى به إلى الموت . ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الانسان ووشج بينها ، كان لنا أن نقول إنه كلما بعدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إيذاء الانسان والعمل على تدهوره ، ولـكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرها وأذاها إلا إذا مست حياة الانســان العملية فأثرت فيها أثراً مباشراً ، فان لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمته ؛ فلما كان الانسان مثلا فى العصور القديمة لا يتعدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً ، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطئها ، فالخطأ والصواب فى مثل هــذه الحالة سواء ، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للانسان من الرأى الصحيح كأن توهم الشقى على الموت بأنه قوى سليم

وعلى هذا النحو كانت فائدة النظرة الروحية فى مراحل الانسانية الأولى ، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الانسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع . فقد كان أول أمره يهيم مع أوابد القفر وضوارى الغاب ، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة ، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه فى الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء ، مستعينا بما أوتى من عقل وخيال ، رأى أن الوسيلة الأولى هى أن يحطم أغــلال الضرورة مااستطاعت حيلته ، وأن يوسع من

أفق زمانه فينفذ ببصره إلى الغد ، وهنا أخذ يعيش فى جو من أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله ، وسرعان ما ألقى فى روع نفسه أن هنالك - فوق العالم الذى يرى - قوة سامية سترعاه وتأخذ بيده مما يصادفه فى حياته من عسر وإشكال ، وتمكنت من نفسه العقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هادٍ ومرشد فى طريقه نحو الكمال الذى أخذ يرجوه ويبتغيه بعد أن نقض حياته الحيوانية الأولى ، وتحرر من رق الضرورة واستعبادها

تلك كانت نواة العقيدة الدينية التى عملت فيما بعد على تماسك الأفراد وترابطهم فى تكوين المجتمع ، إذ أوحت إلى الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التى هى الأساس الأول فى بناء المجتمع ، كما خلعت على السلطة الدنية مسحة مقدسة زادت من هيبتها واحترامها ؛ وبديهى أنه لا بقاء لمجتمع بغير سلطان محترم مهيب ، وهكذا كان الدين عماداً قوياً فى بناء المجتمع أول الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الانسان وعواطفه ، إذ راضها وصقلها وأجراها فى سبيل صالح مستقيم ، ولعل هذا هو السبب الذى من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت فى ظله الفنون الجميلة على اختلافها إبان طفولتها

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة ، ولكن قد يكون هذا الذى عاون الانسان على السير فى أول الطريق عائقاً يحول اليوم دون تقدمه ، وقد يكون « فرويد » العالم النفسى الكبير مصيباً فى رأيه بأن الدين صالح لتقويم الأخلاق إبان الطفولة حتى إذا ما نضج الانسان كان لزاماً عليه أن يواجه مشكلات الحياة العملية فى صرامتها وجدها ، ولا ينبغى أن نطيل الوقوف عند هذه المرحلة الأولى - مرحلة الأحلام الجميلة والآمال الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات القدر وسهامه ، فلئن كان الدين قد ساهم بقسط وافر فى تطور الحياة البشرية ورقيها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الانسانية اليوم فى مرتبة من رشد الكهولة تجعلها فى غنى عنه

ويقول أوجست كونت فى هذا الصدد إن طريقة تفكير الانسان بازاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم فى مراحل ثلاث : الأولى هى المرحلة اللاهوتية حيث كانت تفسر الأحداث بقوى الآلهة ؛ والثانية ، وهى المرحلة الغيبية حيث كان الانسان يعلل حوادث الكون بمجموعة من القوى ، فيعزو الحياة إلى القوة الحيوية ، والنار إلى الحرارة ، وسقوط الأجسام إلى قوة ثقل الأجسام ؛ والمرحلة الثالثة هى المرحلة الايجابية التى فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث الظاهرة المعينة ، فاذا وقعت العلة جاء فى أثرها المعلول تبعاً لقانون معروف ؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هى أسمى مراحل العقل البشرى ، وهى هى المرحلة التى تجتازها الانسانية اليوم . وهكذا يدعو أصحاب المذهب الطبيعى إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ قدمها فى النفس وتأصل جذورها فى القلوب ، ويهيبون بالناس أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة فى شجاعة وإقدام

* * *

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعى لم يعدم فى كل عصر من عصور الفكر ظهيرا ونصيرا ، فقد وجد بين فلاسفة الاغريق من يقيمه ويؤيده كديمقريطس ؛ ووفق فى مستهل العصر الحديث الى رجل مثل « توماس هوبز » الذى أخذ على نفسه أن يفسر كل شئ فى الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا ، فتناول العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التى تنفذ الينا خلال الحواس الخمس ، ولما كان هذا الاحساس أثراً مباشراً لتحرك الأعصاب ، وهذه نتيجة لازمة لما يقع بين الأشياء المادية من حركة ، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما اليها ضربا من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل - هذا وإن ديكارت الذى يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى بأن الكائن الحى لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير فى حياتها كما تسير الآلة الميكانيكية ، وقال إن جسم الانسان أيضا آلة كسائر صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه عنصر ممتاز . ثم جاء القرن التاسع عشر ، وهو عصر ازدهرت فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايعين ، على رأسهم داروِن وسبنسر وبخنر وهيكل وهكسلى ونيتشه ، فسار المذهب الطبيعى على أيديهم شوطاً فسيحاً فى تدعيم قواعده

(يتبع) زكى نجيب محمود

النقـــد والمثال

الجمال الذاتي في بعض المعاني البسيطة

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في الفصل السابق عن نوعَي المعنى الأصليّ والشعريّ؛ وقلت في المعنى الأول: إنه أول ما يخطر على الخاطر، وتتحدث به نفس الشاعر، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً، وليس من الشعر في قليل ولا كثير، وبينت المعنى الثاني الذي تصرفت فيه الملكة الفنية بإضافة شيء من المحسّنات الشعرية إليه، وقلت: إنه هو الذي يعدّ من مقومات الشعر وعناصره، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر المتقدمين والمحدثين

وأقول في هذا الفصل:

إن بعض هذه المعاني الأصلية التي لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحُسْن فيها أصلياً، والجمال فيها من ذاتها، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً، ولا تتكلف فيها تحسيناً ولا تجميلا، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها، ويشوه من جمالها، ويحجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها، ومباشرة الاحساسات بتأثيرها؛ فهي أشبه بغانيات أبي الطيب اللاتي استغنين بما فيهن من جمال مطبوع، عما يُكسبهن الافتتان في الزينة من جمال مصنوع إذ يقول:

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطريةٍ ... وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

أفدِي ظِباء فلاةٍ ما عرفن بها ... مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلة ... أردافهن صقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست مموهة ... تركتُ لون مشيبي غير مخضوب

وليس على الشاعر في أمثال هذه المعاني إلا ما يتعلق بالصياغة البيانية، من عذوبة العبارة، ورقة النسج، وشرف الألفاظ، واختيار الأسلوب الملائم لغرض الشاعر، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والعبارات، دون المعاني والأغراض، وإنما يكون هذا الجمال الطبعيّ في المعاني البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية في النفس، وتحدرت عن ينبوع صافٍ من الحِسّ، وكانت صُوَراً دقيقة للشعور الصادق في القلب الخافق، فهنالك لا يعد الشاعر إلا لساناً ناطقاً، لا مبتدعاً خالقاً

وترى هذه المعاني الجميلة بطبيعتها مستفيضةً شائعةً في شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين إلى أواسط العصر الأمويّ، وإنما استفاضت هذه البساطة في شعر الأمويين لقرب عهدهم بعيش البساطة في البادية، ومشافَهة الطبيعة في صحراء الجزيرة، فهم رغم تفرقهم في الممالك التي فتحوها وانتشارهم في الأمصار التي مصّروها، ومفارقة الفطرة في بواديهم، لم يزل صوتها يناديهم، فيجيبونها في أشعارهم بالبساطة في معانيهم وأفكارهم

وإنك لتستجلي ذلك في شعر النسيب وما هو بسبيله، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من مِحَن وآلام وذِكر الشباب الزائل، وما كان فيه من لهو وباطل، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذي يُقذي العيون، ويذهب باللهو والفتون، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرؤه أوائل قصائدهم في صفة الديار والأطلال، وما فعلت بها الرياح والأمطار، وما بقي فيها بعد من رحلوا عنها، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التي تتصل بها أو تقرب منها

وترى ذلك أيضاً في شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إسار فيعزّي نفسه عن تقييد ساقيه باطلاق فكره في تذكر أيامه الذاهبة، ولذاته الفائتة؛ وذِكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من الندامى والصحاب، وإقدامه في القتال، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ في الافتخار بقومه وعشيرته ولومِهِم على تركه لأعدائه، وبطئِهِم عن فدائه؛ كلُّ ذلك في حسرة وألم يفريان الضلوع، ويستنزفان الدموع

وأنا أعرض عليك في هذا الفصل أمثلةً يسيرة لما ذكرت مما اخترته من حفظي

أما جمال هذه البساطة في النسيب، فكقول المجنون « وهو

من أصوات الأغاني »

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا
سوى أن يقولوا إنني لكِ عاشقُ

لقد صدق الواشون أنت حبيبةٌ
إليّ وإن لم تصفُ منكِ الخلائق

ووجه الجمال في هذا الشعر مخالفةُ الشاعر غيرَه من المحبّين باحتقاره الوشاة، وعدم استحقاقهم لتكلّف المصانعة والمداراة وهو بذلك يصف حبّه بالنقاء من الريبة، وأنه أسمى من أن يستره بحيلة، وأشرفُ من أن يُعمِل في إخفائه الوسيلة

ثم انظر إلى سحر هذه البساطة في ضد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياع من مقالتهم؛ وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلّة الرسل إليها، وأن الحيل قد أعوزته في لقائها، ثم إشارته بعد ذلك إلى عتابه عليها، وضراعته إليها؛ كل ذلك في بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التي كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصُر عنه ريشةُ الفن بما تزوِّره من أصباغها الحائلة

أريد شعر يزيد بن الطّثرية حيث يقول:

أيا خُلّة النفس التي ليس دونها — لنا من أخلاء الصفاء خليل
أما من مقام أشتكي غربة النوى — وخوف العدا فيه اليك سبيل
فديتكِ، أعدائي كثير، وشقتي — بعيد، وأشياعي لديك قليل
وكنت إذا ماجئت جئت بعلة — فأفنيت علاتي فكيف أقول
فما كلَّ يوم لي بأرضك حاجةٌ — ولا كلَّ يوم لي اليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويتها — ستنشر يوما والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة — فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ومثل هذه البساطة الساحرة ما تراه في شعر عبد الله بن الدُّمينة حيث يقول:

ألا لا أرى وادي المياه يثيب — ولا النفس عن وادي المياه تطيب
أحب هبوط الواديين وإنني — لمشتهر بالواديين غريب
أحقا عباد الله أن لست واردا — ولا صادراً إلا عليّ رقيب
ولا زائرا فردا ولا في جماعة — من الناس إلا قيل أنت مريب
وهل ريبة في أن تحن نجيبة — إلى إلفها أو أن يحن نجيب

أما جمال هذه البساطة في معاني الحنين الى الوطن فمن أحسن ذلك قول بعض الأعراب:

أحب بلاد الله مابين منعج (1) — إلى وسلمى (2) أن يصوب سحابها
بلاد بها حل الشباب تمائمي — وأول أرض مس جلدي ترابها

وقول عبد الله بن نمير:

تمز بصبر لا وجدّك لن ترى — عراص الحمى إحدى الليالي الغوابر
كأن فؤادي من تذكره الحمى — وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وقول الصمة بن عبد الله القشيري:

قفا ودِّعا نجدا ومن حل بالحمى — وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى — وما أحسن المُصطاف والمتربَّعا
وليست عشيّات الحمى برواجع — عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني — على كبدي من خشية أن تصدّعا

فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد في هذا الحنين على ما يتحدث به اليك متحدث نأى عن بلده، وفارق أهله وعشيرته، من الحنين اليهم، والألم لفراقهم، وتذكر ما مضى له من عهود، وزمن لا يعود، وتمنيه العودةَ إلى وطنه تمني اليائس من الأمنية، وتأميله الرجوع الى بلده تأميل من يثق بالخيبة ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده في الدعاء له وتوديعه إياه، وتفديته بالنفس؛ فلم يخترع أحدهم في الحنين معنّى جديداً، ولم يفكر تفكيراً بعيداً، ولم يُغرِب في خيال، ولم يبالغ في تصوير ما يشعر به من ألم الفرقة، ووحشة الغربة، ولم يُثقِل شعرَه بالمجازات والاستعارات، ولا بشيء من تلك الحُلى الظاهرية الزائدة على الحاجة في هذه المعاني وأشباهها

ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبعثاً عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرته لها، ولا نزاع في أن إثقاله بتلك الحلى الظاهرية من الاستعارات والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس، ويباعد بينها وبين الحس، ويجعلها أشبه بالغناء الجميل تسمعه بواسطة (الحاكي)

---

(1) منعج: واد يأخذ بين حفر أبي موسى والنباج
(2) وسلمى: أحد جبلي طيء، والجبل الآخر أجأ

فانه لا ينال من نفسك ما يناله الغناء المشافه

وفى هذه الأمثلة التى رويتها لك فوق البساطة الساحرة فى معانيها من رقة الأسلوب الملائم لمعانى الحنين ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة الألفاظ — وهى كلٌّ عمل الشاعر . فى أمثال هذه المعانى — ما يثير الشجن ويوقظ اللوعة ، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحدا متحد الاحساس ، متفق الشعور ، حتى يخيل للسامع — وهو فى وطنه بين أهله وعشيرته — أنه غريب عنهما ، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق ، فهو يشكو الغربة كما شكاها الشاعر ، ويتمنى العودة كما تمناها ؛ وقد كان بعض علماء الأدب المتقدمين ينشد أبيات الصِّمَّة بن عبد الله السابقة على تلامذته فى مسجد الكوفة ، ثم يبكى حتى تخضل لحيته ، ويقول : ما أصلب أكبادكم ! ألا تبكون عشيات الحمى ؟

وسرّ الجمال فى هذه المعانى مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الانسانية من ناحية الضعف الموجب للمواساة والرحمة ؛ ونفوذها إلى إحساس العطف المشترك بين الأسرة البشرية الباعث على المشاركة فى الألم والمحنة . أما بساطة هذه المعانى فى أشعارهم إذا بكَوا الشباب وعهده ، وذموا المشيب ووفدَه ؛ ووقفوا على الأطلال والديار ، فلا أريد أن أطيل عليك فى هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها ، فان ذلك مستفيض شائع فى كلامهم بل هو جُلُّ شعرهم ، وأكثرُ ما يبدأون به قصائدهم ؛ فلا تكاد تجفّ قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دمعة حارّة يذريها الأسف على شباب ذاهب والارتياع من مشيبٍ طارق ، والوقوف على طلل ماحل ، ورسمٍ حائل ، وذِكر ما قضاه الشاعر فى أفياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجناب ، من أيام عِذاب وليال قصرتها مُتَعُ الصِّبا ولهوُ الفتوّة إلى غير ذلك

ولعلّهم جرَوا على ابتداء قصائدهم بهذه المعانى وتقديمها على الغرض المقصود بالشعر لتحريك القرائح الراكدة ، وإيقاظ الشاعرية الراقدة ، وتنبيه الأذهان التى قد تغفو ، واقتياد الأفكار التى قد تعزب ؛ ولما كانت هذه المعانى معروفة لديهم ، معبدة طرقها لهم ، محفوظا أكثرها عندهم ، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعريتهم فى ميدانها أسهل ، كما يجرّب الجواد باجرائه شوطاً قبل الانتظام فى الحلبة ، وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقعوا على الأوتار مايقاربها من النبرات حتى يَسهُل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة

أما روعة هذه المعانى فى قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر محنةٌ من سجن أو إسار ، فأنا أذكر لك أمثلة منها لقلتها وانتشارها فى كتب الأدب ، وصعوبة الظفر بها فى دواوين العرب ، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمُغيرين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً ، وأصرحُهم عربيّة ؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأصمعى يقول : « إذا أتاك بيت لصّ فاحتفظ عليه » وذلك لاخلادهم إلى سكنى البادية ، وعدم اتصالهم بالحضر

ومن أحسن ذلك شعر عبد يغوث بن وقّاص الحارثى ، وكانت تيم قد أسرته وشدّوا لسانه ، فقال من قصيدة

ألا لاتلومانى كفى اللوم مابيا ... فما لكما فى اللوم خيرٌ ولاليا
أيا راكباً إمّا عرضت فبلّغن ... نداماى من نجرانَ ألاّ تلاقيا
أقول وقد شدّوا لسانى بنسعةٍ (١) ... أمعشر تيمٍ أطلِقوا عن لسانيا
أحقّا عباد الله أن لستُ سامعاً (٢) ... نشيدَ الرِّعاء معزِبين المتاليا
وقد علمت عرسى مُلَيكةُ أننى ... أنا الليث معدوا علىّ وعاديا
وقد كنت نحّار الجزور ومُعمِل ال ... مطىّ وأمضى حيث لاحىّ ماضيا
وأنحر للشَّرب الكرام مطيتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمسها القنا ... لبيقا بتصريف القناة بنانيا
كأنى لم أركب جوادا ولم أقل ... لخيلى كُرّى نفِّسى عن رجاليا
ولم أسبأ (٣) الزِّق الرَّوىّ ولم أقل ... لأيسار (٤) صدق أعظِموا ضوء ناريا

وإنك لتقرأ هذا الشعر بيتا بيتا فلا ترى ملكة الشاعر قد تصرفت فى هذه المعانى البسيطة الفاتنة ببساطتها تصرفا قليلا

(١) النسعة : سير عريض من جلد ينسج على هيئة أعنة النعال
(٢) المتالى من الابل : الأمهات اذا تلاها الأولاد الواحدة متل ومتلية . ومعنى إعزاب الرعاء لها : أنهم يبعدونها فى المرعى
(٣) أسبأ ، أى اشترى
(٤) الايسار : الذين يضربون القداح فى الميسر

ولا كثيرا ، ولا أضافت الى هذا الجمالى الطبعى الرائع بطبيعته من المحسنات الفنيّة ما يزيده روعة وحسنا ؛ ولم يزد الشاعر على أن عرض صوراً دقيقة من حياته الماضية ولذاته المنصرفة ، كما يتحدث به المتحدث ، لا كما يتخيله الشاعر المتكلف ؛ ودَعْني أيها الأديب المتذوق أعتمد على ذوقك فى إدراك الجمال فى هذا الشعر فانى أرى الاطالة فى شرح جمال الشعر والابانة عن وجوه الحسن فيه كما يفعله علماء البلاغة مما يسخفه ويسمّجه ، ويخرجه عن كونه إحساسات نفسية ، إلى جمله قواعد علمية

وسيمر بك أيضاً كثير من أمثلة هـذا الجمال منتثرة فى هذه الفصول (؟)

أحمد الزين

٤ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراقى

علاقة الطليان بالحبشة

نشأت هذه العلاقة من اشتراك إيطاليا فى سياسة الاستعمار . ففى اليوم الذى نال الطليان وحدتهم تامة غير منقوصة بعد حرب ١٨٧٠ أخـذت الجرائد الطليانية تطالب بالمستعمرات الايطالية بحجة أن الطليان فى زيادة مستمرة فى بلادهم فيحتاجون إلى أرض أخرى للسكنى فيها

فاستأجرت فى سنة ١٨٧٠ شركة « روباتينو » أرضاً من الأهلين فى جوار « عصب » لمدة عشر سنوات . وكانت أرض مصوع وما يجاورها ملكاً للعثمانيين ولكنهم تنازلوا عنها لخديو مصر مقابل خراج سنوى . وعند انقضاء مدة هذا الأيجار اشترت الشركة الارض المذكورة . ولما احتل البريطانيون أرض مصر أعلن الطليان أن « عصب » مستعمرة طليانية فأخذت البعثات الطليانية تتجول فى أرض دناكل والحبشة برغم هلاك بعضها بيد سكان البلاد ، وكان البريطانيون فى هذا التاريخ منهمكين فى مقاتلة جماعة المهدى فى السودان . وأراد الطليان أن يقلدوا البريطانيين فى تشكيل القوات فى المستعمرات فأخرجوا قوة طليانية صغيرة إلى « عصب » لحماية الشركة هناك وجعلوا هذه القوة نواة لتشكيلات أهلية أخرى أسوة بالبريطانيين

وعقيب انتصارات المهدى فى السودان اضطر المصريون إلى إخلاء مصوع وهرر وأرض الصومال والانسحاب إلى الشمال . فاستفاد الفرنسيون من ذلك فعقـدوا معاهدة مع سلطان هرر واحتلوا الخليج تاجورة بأجمعه . فارتاب البريطانيون فى ذلك فأسسوا لهم مستعمرة فى الصومال فى جنوبى جيبوتى وجعـلوا قصـبة « زيلع » مركزاً لها وألحقوها بمستعمرة عدن وجعلوا سلطان هرر تحت حمايتهم

ويظهر أن بريطانيا أرادت أن تشرك إيطاليا فى حركاتها على المهدى وتجعل لفرنسا رقيباً فى أرض الصومال فوافقت على أن تحتل إيطاليا مصوع فى ٥ شباط ١٨٨٥ ، فخرجت يومئذ قوة طليانية إلى مصوع ورفعت العلم الطليانى على دار الحـكومة . فلم يحرك خديو مصر ساكناً . بيد أن الفرنسيين لم يرتاحوا إلى ذلك ، وبعد أن رسخت أقدام الطليان فى مصوع وجهوا أنظارهم إلى الداخل للتوغل فى أرض الحبشة ، وكان هناك طريقان تجاريان يربطان مصوع بالداخل : أولهما طريق « مصوع ـ كرن ـ كسـلا ـ الخرطوم » . أما الطريق الثانى فـكان متجهاً إلى الجنوب ويقطع جبال الحبشة من الشمال إلى الجنوب إلى أن يصل إلى شاطىء البحر الأحمر

ولما كان هواء مصوع الحار الرطب غير ملائم للأوربيين فكر الطليان فى الحصول على مركز آخر فى الداخل صالح للسكنى . فارتفاع قصبة كرن حوالى ١٣٤٠ متراً عن سطح البحر . أما كسلا فارتفاعها يبلغ ٥٣٠ متراً ولـكنها محاطة بروابٍ بشكل قلعة ، ولـكى يحصل البريطانيون على مساعدة الطليان فى مقاتلة المهدى فى السودان لوحوا للطليان بالطريق الأول

فقررت الحـكومة الطليانية تجهيز قوة لانزالها فى مصوع تأهباً لاحتلال الحبشة من جهة أخرى وذلك رغم كون القيادة فى مصوع لفتت نظر ساسة الطليان إلى عاقبـة الحركة فى اتجاه كسلا . وكان فى جنوبى مصوع ميناء عرفالى الذى كان الأحباش يعتبرونه من الموانىء الحبشية لأنهم كانوا يجلبون الملح منه ، ولما

رأى النجاشى « يوحانس » أن الطليان احتلوا هذا الميناء احتج على ذلك

والحقيقة أن الحوادث بعد ذلك جعلت الحبشة وايطاليا تقفان وجها لوجه لأن البريطانيين قضوا على حركة المهدى بعد وفاته واحتلوا السودان وثبتوا أقدامهم فيه

لذلك لم يخش الأحباش خطراً من هذا الجانب . أما الطليان فأخذوا يوسعون نفوذهم فى مستعمرة مصوع التى أطلقوا عليها اسم « اريترة » (أى الزنبقة الحمراء) ووسعوا ساحة الساحل باحتلالهم ميناء زولا وخليج « عدولى » ومنعوا الأحباش من أخذ الملح فاحتج النجاشى على ذلك أيضاً فلم يعبأ الطليان باحتجاجه بل سلكوا سبيل تخدير أعصاب الأحباش بارسال البعثات وكانوا قبل ذلك أرسلوا بعثتين من « عصب » فقتلهما الدناكليون . وأرسلوا بعثة أخرى فى سنة ١٨٨٦ فذبحت برمتها فى هرر . وفى سنة ١٨٨٧ أرسلوا بعثة أخرى . ولما وصلت الى ملك تيجرى ألقى الرأس القبض عليها وحبسها . فأرسل الطليان قوة مؤلفة من ٥٠٠ جندى قضى عليها الأحباش فاغتاظ الطليان لذلك فأبلغوا قوتهم فى مستعمرة اريترة الى ١٨٫٠٠٠ جندى وقرروا الحرب

وحشد الأحباش رجالهم فى آذار سنة ١٨٨٨ أمام موضع دفاع الطليان وكان عددهم بالغاً زهاء ١٠٠٫٠٠٠ . فخشى الطليان عاقبة الأمر ومالوا الى المسالمة فانسحب الأحباش لأن المهدى كان يهدد مقاطعة امحرة فهاجمها بجيوشه ودخل عاصمتها جوندار فدمرها ، فظن الطليان أن القتال بين الحبشة والمهدى سوف ينهك الأحباش فيجيبون مطالبهم لذلك أعادوا قواتهم الى ايطاليا وتركوا ٨٠٠٠ جندى فى اريترا

وفى أوائل سنة ١٨٨٩ جهز الأحباش بقيادة النجاشى « يوحانس » جيشاً بقوة ١٨٠٫٠٠٠ كما سبق ذكره وتقدموا نحو المهدى فوقعت معركة فى « متمة » مات فيها النجاشى جريحاً وبعد أن ترك الأحباش ٣٠٫٠٠٠ قتيل فى ميدان المعركة رجعوا الى بلادهم خاسرين

منليك ملك الملوك

كان ملك شوعا أقوى ملوك الحبشة كما نعلم وكان من سلالة الملوك الذين يمتون بنسبهم الى النبى سليمان وزوجته بلقيس ملكة سبأ . فاحتل منليك مدينة هرر فى سنة ١٨٨٧ وبسط حكمه على الغالا كلها ، واستولى على مقاطعة كاتا وما يجاورها فأصبح بذلك ذا نفوذ عظيم ، فأراد الطليان أن يستفيدوا من حرب داخلية بالانحياز الى جانب منليك متألبين على النجاشى « يوحانس » فأعطوه ٥٫٠٠٠ بندقية و٢٠٠٫٠٠٠ طلقة ليبقى على الحياد عند ما يقاتل الطليان النجاشى « يوحانس » ، وكان الكونت « انطونلى » على رأس الوفد الموفد اليه فتذاكر الوفد مع منليك فى الوقت الذى مات « يوحانس » فى معركة متمة . فقبل منليك شروط معاهدة « أوكسالى » فى سنة ١٨٨٩ وكانت خلاصة أحكام المعاهدة مايلى :

« تبادل الممثلين السياسيين ، قبول خط الحدود بصورة عامة ، دفع رسوم جمركية بمقدار ثمانية فى المائة عن الأموال الطليانية التى تدخل أرض الحبشة عن طريق مصوع وضرب النقود الحبشية فى إيطاليا ، وقرض الحبشة أربعة ملايين ليرة ذهباً ، وحرية التجارة على أن ينفذ حكم المعاهدة فى بلاد الحبشة برمتها »

وكانت المادة السابعة عشرة تقضى على الحبشة بان ترضى بتوسيط إيطاليا فى علاقتها بالحكومات الاخرى . وكانت هذه المادة سبب الحرب بين الحبشة وإيطاليا

فاستفاد الطليان فوراً من احكام المعاهدة واحتلوا الأراضى التى تركت لهم بموجب المعاهدة قبل أن يوقع عليها ملك ايطاليا واحتلوا أرضاً فى بلاد الحبشة

ولم يرض ملك تيجرى بأن يتعاهد الطليان مع ملك شوعا وهو الذى ورث الملك عن أبيه يوحانس واعتبر نفسه ملكا للملوك

واحتل الطليان فى حزيران ١٨٨٩ « كرن » وفى آب « أسمرة » واستمالوا أحد رؤساء تيجرى إلى جانبهم . وهكذا استطاعوا أن يدخلوا « عدوى » عاصمة تيجرى بسهولة .

وبهذه الواسطة تقدموا من مصوع مسافة ١٣٠ كيلو متراً فتوغلوا فى ارض الحبشة واعتبروا انفسهم حماة الحبشة بالملحق الذى أضافوه إلى المعاهدة بسهولة حتى أن ملك ايطاليا أضاف إلى القابه لقب « حامى بلاد الحبشة »

ولما ذهب الرأس « ما كونن » ابن عم منليك إلى رومة حاملا

مواد هذا الملحق لنص المعاهدة هلل الطليان فرحاً واستبشاراً . وكان من حقهم ان يهللوا لأنهم حصلوا على صك استعمار الحبشة دون أن يسفكوا دماً ايطاليا

وفى تشرين الثانى سنة ١٨٨٩ وقع الرأس « ما كونين » على الملحق باسم منليك وقدموا إليه مقابل ذلك أربعة ملايين فرنك و ٣٨٠٠٠ بندقية و ٢٨ مدفعاً وعتاداً كثيراً عربوناً لاخلاصه

فاعترفت الدول جيماً بالمعاهدة وملحقها ما عدا روسيا . وفى سنة ١٨٩١ رضى البريطانيون بأن يحتل الطليان قصبة (كسلا) بصورة مؤقتة لأن قضية المهدى لم تكن قد انتهت

أما النجاشى منليك فعني بتوحيد الحبشة وتوقيتها ونقل عاصمة البلاد من « جوندار » بعد أن أحرقها المهديون إلى أديس أبابا . ومنح الفرنسيين امتيازاً بانشاء سكة حديدية تربط العاصمة بالساحل . ومن الطبيعى ان البريطانيين والطليان لم يرتاحوا الى عمل منليك فاحتجوا عليه وحرضوا الرهبان عليه بدعوى أن السكة الحديدية من عمل الشيطان

ولم يستطع الطليان أن يعملوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين فى محاربة المهدى . وكانوا ارسلوا قوة فى اتجاه كسيلا بدعوى حماية الأهلين من ظلم دراويش المهدى واحتلوا « أجوردة » وفى سنة ١٨٩٤ تقدمت قوات طليانية بقيادة الجنرال « باراتيرى » نحو « كسلا » وبعد معركة حامية طردوا أتباع المهدى منها واحتلوها

أما النجاشى منليك فكان يسعى لتوحيد البلاد فاستند فى السياسة الخارجية إلى صداقة فرنسا وأخذ يستميل الرؤساء المخالفين إلى جانبه فى الداخل واتفق مع رأس تيجرى فاعترف هذا بمنليك ملكا لملوك الحبشة وهكذا أصبح النجاشى يحكم فعلاً بلاد الحبشة برمتها

وأول عمل قام به بعد إعلانه ملكا لملوك الحبشة أنه أخذ يذيب كل العملة التى ضرب الطليان عليها رسم ملك إيطاليا ويضع بدلاً من رسم الملك الايطالى رسم النجاشى منليك ويكتب اسمه فيها بالكتابة الحبشية ويضع فى الوجه الثانى للعملة شعار الحبشة الأسد والتاج

(يتبع) طه الهاشمى

شكاة واعتذار

قصـــة معلم

فن كان يرثى قلبه لمعذب
فأجدر شخص بالرثاء المعلم
الرسالة ١١٧ « الأستاذ محمود غنيم »

للأستاذ على الطنطاوى

قلت لصديق لى أديب :

– إنى لأقرأ لك منذ عشر سنوات ، فما رأيتك أسففت إسفافك فى هذه الأيام ، وإنى لأشك أأنت تكتب ما تكتبه ، أم يجرى به قلمك وأنت نائم ، فتأخذه فتضع عليه اسمك ؟ فماذا عراك أيها الصديق فأضاع بلاغتك ومحا آيتك ؟

– قال : دعنى يا فلان دعنى ... فان سراج حياتى يخبو ، وشمعتى تذوب ؛ وما إخالنى إلا ميتاً عما قريب ، أو دائراً فى الأسواق مجنوناً ... إننى انتهيت ... بعت رأسى وقلبى برغيف من الخبز ....

– قلت : أربع عليك أيها الرجل وأخبرنى ما بك ، فلقد والله أرعبتنى ....

– قال : وماذا بى إلا أنى معلم . إنى معلم فى مدرسة ابتدائية .. نهارى نهار المجانين ، وليلى ليل القتلى ، فمتى أفكر ، ومتى أكتب . . . وأنا أروح العشية إلى بيتى مهدود الجسم ، مصدوع الرأس ، جاف الحلق ، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مائة حماقة ، حتى أصحح مائة كراسة ، فأعمى عينى بقراءتها ، والاشارة إلى خطئها ، وبيان صوابها ، وتقدير درجاتها ، فاذا انتهيت من هذا كله — ولا يقرأ تلميذ من كل هذا شيئاً ، ولا ينظر فيه — عمدت إلى دفتر تحضير الدروس ، وهو الموت الأحمر ، والبلاء الأزرق ، الذى صبَّ علينا هذا العام صباً ، فكتبت فيه ماذا أنا فاعل غدا فى الفصل ، دقيقة دقيقة ، ولحظة لحظة ... وماذا أنا قائل من كلمة ، أو مقرر من قاعدة ، أو ضارب من مثل ، حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه ، استنفدت آخر قطرة من ماء حياتى ، فسقطت فى مكانى قتيلا ، فحملت إلى السرير حملا .. فنمت نوماً مضطرباً يملؤه الأحلام المزعجة ، والصور المرعبة ، فأحس كأن أمامى ركام الدفاتر التى سأصححها غدا ، فلا أنجو منها

حتى أبصر المفتش يتكلم من فوق المآذن ، فلا يدع قاعدة من قواعد التربية ، ولا نظرية من نظريات التعليم ، ظهرت فى فرنسا أو انكلترا ، إلا أرادنى على تطبيقها ، فى فصل فيه سبعون تلميذاً قد حشيت بهم المقاعد حشواً ، وصفوا على الشبابيك ، ووضعوا على الرفوف ، مما لا يرضى عنه منهج من مناهج التربية ، ولا قانون من قوانين الصحة ؛ فاذا امحت هذه الصورة ، رأيت كأنى أفهم تلميذاً وهو يصغى إلىّ ولا يفهم ، فأكرر وأعيد فلا يفهم ، فأقوم إليـه أنظر ما يصنع ، فاذا هو منصرف إلى دُبيرة يربط رجلها بخيـط . فاذا شتمته أو أخرجتـه من الفصل ، ذهب يستنجد القانون فينجده القانون الذى حرّم العقوبات كلها ، وكفّ يد المعلم ، وشد لسانه بنسعة . . . ولا أزال فى هذه الأحلام ، تنوء بى ، فأتقلب من جنب إلى جنب ، أحس كأن رأسى من الصداع بثقل أحُد ؛ حتى يصبح الله بالصباح ، فأفيق مذعوراً ، أخشى أن يسبقني الوقت ، فلا أدرى كم ركعت وكم سجدت ، ولا كيف أكلت ولبست ، وأهرول إلى المدرسة لا أستطيع التأخر عنها ولو طحنتني الأوجاع ، أو أحرقتني الحمىّ ، لأن المعلم لا يسمح له القانون أن يمرض فى أيام المدرسة ، وعنده أربعـة أشهر « عطلة الصيف » يستطيع أن يمرض فيها ، فاذا خالف ومرض ، حرم الراتب ومنع العطاء !

أغدو إلى المدرسة ، فأدخل على تلاميذ السنة الثالثة الأولية ، وهؤلاء هم تلاميذى ، لم يجدونى أهلاً لأكبر منهم ... فلا أنفك أقطع من عقلى لأكيل عقولهم ، وأمزّق نفسى لأرقّع نفوسهم ، ثم لا أفلح فى تعليمهم ولا أنجح فى تفهيمهم ، ولا أدرى من أين السبيل إلى مدار كهم ؛ فأنفق ساعة كاملة ، أقلّب أوجه القول ، وأستقرى عبارات اللغة ، لأفهمهم كيف يكون (الاسم هو الكلمة التى تدل على معنى مستقل فى الفهم وليس الزمن جزءاً منه) فلا يفهمون من ذلك شيئاً ، ولا أقدر أن أطرح هذا التعريف السخيف أو أستبدل به ، فأهذئ ساعة وأهرى ثم أقول : من فهم ؟

فيرفع ولد أصبعه . فأحمد الله على أن واحداً قد فهم ، وأقول :

ـ قم يا بنى بارك الله فيك ، فأخبرنى عن معنى هذا التعريف

ـ فيقول : يا أستاذ ! هذا داس على قدمى . فأصيح به ويحك أيها الخبيث ! إنى أسألك عن تعريف الاسم ، فلماذا تضع فيه قدمك ؟ ألم أقل لكم إن هذه الشكاوى ممنوعة أثناء الدرس ؟

ـ فيقول : ولماذا يدوس هو على رجلى ؟ !

ـ فأصيح بالآخر : لم دست على رجله ياشيطان ؟

ـ فيقول : والله لقد كذب ، مادست على رجله ولكن هو الذى عضّنى فى أذنى فأغضب وأصرخ فى وجهه :

ـ وكيف يعضك وأنا قاعد هنا ؟

ـ فيقول : ليس الآن ، ولكنه عضّنى أمس ويتطوع العفاريت الصغار للشهادة للمدعى وللمدعى عليه ، ويزلزل الفصل فأضرب المنصة بالعصا وأسكتهم جميعا مهدداً من يتكلم بأقسى العقوبات ، ولا أدرى أنا ما أقسى العقوبات هذه ؟ ... فيخنسون ويُبْلسون فأعود الى الدرس فاذا هو قد طار من رؤوسهم ، على أنه ما استقر فيها قط !

وينفخ فى الصور ، فتقوم القيامة ، ويخرج الأولاد الى الفرصة ، ثم نرجع الى درس القرآن . فأقول :

ـ من يحفظ سورة الفاتحة ؟

ـ فيتصايحون : أنا ... أنا ... أنا

ـ سكوت ! واحد فقط ... إقرأ أنت

ـ الحمد لله رب العالمين ... إياك نعبِد

ـ فأقول : إياك نعبُد . ـ فيقول : نعبد

ـ ويحك : نَعْ بُ د

ـ فيقول : نعْ بِ د

ـ انتبه يابنى : نعْ بود

فيقولها . حسن . قل نعبُد . فيقول : نعبِد فلا نزال فى نعبُد ونعبِد حتى ينتهى الدرس . ولا يلفظونها إلا بالكسر لأنهم حفظوها من السنة الأولى خطأ

***

ولا أزال فى هذا البلاء بياض نهارى ، ولا يأتى المساء وفىّ بقية من عقل ، أو أثر من قوة ، ثم لا أنا أرضيت الوزارة ، ولا أنا نفعت أبناء المسلمين ، ولا أنا انصرفت الى مطالعاتى وكتابتى

وهـذه مكتبتى لم أدخلها منذ أول العام المدرسىّ ، وهذه مشروعات المقالات والبحوث التى أكتبها ، وهذه مسوّدات الكتاب الجديد الذى أؤلفه مبثوثة فى جوانب الغرفة ، ضائعة مهملة . أفتلومني بعد ، على أنى لا أجوّد فى هذه الأيام ؟ قلت : هذه والله حالى فالست ألومك ؛ فرّج الله عنى وعنك !

دمشق — على الطنطاوى

آيتان من آيات الله

للأستاذ قدرى حافظ طوقان

حدثت منذ أسبوعين حوادث جوية فى نابلس لا عهد لنا بها ، ولا لمن هم أسن منا ، أزعجت الناس وأدخلت خوفاً كثيرا إلى نفوسهم ؛ هالتهم وعظمت عليهم ، أقضت مضاجعهم ونفت الكرى عن عيونهم ؛ أرجعتهم إلى الله يسألونه اللطف بالكهول والأطفال ، وقام المؤذنون من أعلى المآذن يستنجدون بخالق السموات والأرضين أن ينظر بعين الرأفة إلى هذه الأمة التى توالت عليها المحن والمصائب من كل جانب ؛ وكان صوت : « يارب – يالطيف » يدوى فى الأجواء ، ورن فى الآفق ، ترجعه الأصداء إلى الآذان ، فيدخل إلى النفوس خشوعاً أحاطه الخوف ، واستسلاماً أحاطه الايمان والعقيدة ، فاطمأن المؤمنون وقالوا : ليفعل الله ما يشاء ؛ هو العليم وهو الحكيم ، بيده الخير إنه على كل شىء قدير . وقال آخرون : إنها لعلامات تدل على قرب الساعة . وقال غيرهم : إنها لأشارات تنذر بالحروب والكوارث . وكيف لا تشغل هذه الظواهر أفكار الناس ، وكيف لا تصبح حديثهم وموضع تنبؤاتهم وخوفهم وقد شغلت السماء كلها ، عما على الأرض من رياح ومياه وأشجار ومبان ؟ ؟ ..

لاحظ الناس فى مساء يوم الأحد الموافق ٢١ من الشهر الفائت أن الحالة الجوية غير طبيعية قبل غروب اليوم المذكور ، فقد كانت تظهر فى بعض جهات المشرق والجنوب بروق ولمعات فجائية ، دامت إلى ما بعد الغروب ، ثم مالبثت هذه البروق وتلك اللمعات أن استحالت إلى بروق متواصلة متعاقبة الحدوث والظهور فى نواح عديدة إلى أن شملت السماء كلها ، فاذا أضواء شديدة تنبعث من بين الغيوم من شرارات كهربائية كثيرة الشعب والتعاريج ، كانت تظهر للناظرين وقد خيل اليهم أن السماء مفتحة الأبواب ، تخرج منها أنوار تخطف الأبصار ، مصحوبة برعود متعاقبة ، لها قعقعة مختلفة الشدة ، تبعها برد وأمطار غزيرة ورياح هائجة أحارت الناس وأذهلتهم

ومما لا ريب فيه أن هذه الظواهر الجوية لا تحدث عفوا ومن دون أسباب ، بل إن وقوعها لا يكون إلا حسب أنظمة خاصة لا تتعداها ، خاضعة لنواميس طبيعية لا تشذ عنها ، عرف الانسان بعضها ووقف على أسرارها ؛ وقد ثبت أن مدبر هذا الكون سائر بكونه على أساس من القواعد والقوانين متين ، وقد أتبع كل شىء سبباً ، وكلما عرف الانسان شيئاً عن هذا النظام وهذا الناموس وتلك القواعد والقوانين تجلت لنا عظمته تعالى واضحة فى آياته ، وتجلت لنا حكمته فى أفعاله وأعماله ؛ وما البرق والرعد وما اليهما إلا آيات من آيات الله لا تحدث لموت أحد ، ولا تنبئ عن وقوع حروب ، بل هى ظواهر تسير حسب أنظمة تمكن العلماء من اكتشافها ، وثبت لديهم أنها دلائل ساطعة على قدرته تعالى وألوهيته جل وعلا .. ..

لقد حسب كثير من الأقدمين أن هذه الظواهر الجوية من أفعال الشياطين تجرى بموجب قدرة إلهية لتوقع القصاص على الكفار والمذنبين . هذا الرأى كان سائداً فى الغرب وعند كثير من العلماء ؛ ومن الغريب أن العرب لم يأخذوا بهذا الرأى ، وقد استعملوا فى تعليل بعض هذه الظواهر الجوية العقل والفكر فكان رأيهم فى تعليل حدوث البروق والرعود والصواعق ، مع بُعده عن الحقيقة ، يدل على دقة فى الملاحظة ، ويدل أيضاً على أنهم كانوا لا يقبلون الآراء والنظريات المبنية على أوهام وخزعبلات فنجد أحد علمائهم وهو القزوينى يقول فى تعليل البرق والرعد مايلى : « إن الشمس إذا أشرقت على الأرض حللت منها أجزاء أرضية تخالطها أجزاء نارية ويسمى ذلك المجموع دخاناً ، ثم الدخان يمازجه البخار ويرتفعان معاً إلى الطبقة الباردة من الهواء فينعقد البخار سحاباً ويحتبس الدخان فيه ، فان بقى على حرارته قصد الصعود ، وإن صار بارداً قصد النزول ، وأيّما ما كان عزق السحاب تمزيقاً فيحدث منه الرعد ، وربما يشتعل ناراً لشدة المحاكة فيحدث منه البرق إن كان لطيفاً ، والصاعقة إن كان غليظاً كثيراً فتحرق كل شىء أصابته ، وربما تذيب الحديد على الباب ولا تضر بخشبه ، وربما تذيب الذهب فى الخرقة ولا تضر الخرقة ، وقد يقع على الماء فيحرق حيتانه وعلى الجبل فيشقه . . . . . » وقال فى سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد . . . « واعلم أن الرعد والبرق يحدثان

معاً لكن يُرى البرق قبل أن يسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بمراعاة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ، وذلك يتوقف على تموّج الهواء، وذهابُ النظر (أى سير النور) أسرع من وصول الصوت . . . »

ولقد بقى تعليل البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الجوية غامضاً إلى أن جاء فرنكلين الأمريكى فى القرن الثامن عشر للميلاد فأوضح هو وغيره بأن فى الجو كهربائية يمكن الحصول عليها، وقد أثبت وجودها بتجارب عديدة، وبين أيضاً أن هذه الكهربائية موجبة فى غالب الأحيان، وأن كهربائية السحب تكون عادة سالبة، وقد تكون موجبة فى بعض الأحيان، وأن هذا كله يتبع التغيرات الجوية، وعوامل أخرى عديدة بعضها معروف والبعض الآخر غير معروف؛ وقد قدم فرنكلين بنتيجة تجاربه تقريراً إلى الجمعية الملكية بلندن؛ ومع أن أعضاء هذه الجمعية عدوا تجاربه وآراءه خيالاً فى أول الأمر إلا أنهم أقروا أخيراً نظرياته وأخذوا بآرائه ومنحوه نوطا رفيعا الشأن اعترافاً بفضله وانتخبوه عضواً فى جمعيتهم

واختلف العلماء فى منشأ كهربائية الجو والسحب؛ ومن الغريب أن هذا الاختلاف لازال قوياً، إذ لم يستطع أحد البت فى هذا الشأن. يقول بعض العلماء إن سبب وجود الكهربائية فى الجو يرجع الى تبخر الماء المحتوى على مقادير ضئيلة من الأملاح؛ ويقول آخرون إن منشأ الكهربائية الجوية بما فيها السحب هو الاحتكاك بين القطرات المائية الدقيقة بالثلج الموجود فى الطبقات العالية من الجو. وهناك عوامل أخرى لها علاقة بمنشأ هذه الكهربائية لا تزال غامضة وفى حاجة الى الاستقصاء وزيادة البحث . . . ولكن الثابت المحقق أن فى الجو كهربائية، وأنه يوجد سحب كثيرة مشحونة بكهربائية سالبة أو موجبة، فقد يصادف أن تمر سحابة مشحونة فوق سحابة أخرى أو فوق شجرة أو بناية، فتؤثر فيما تمر عليه وتجذب اليها الكهربائية المخالفة لها، وينتج عن ذلك اتحاد نوعى الكهربائية برغم الهواء ومقاومته، ومن هذا الاتحاد تتكون شرارة كهربائية ينبعث منها ضوء شديد نسميه « البرق »؛ وكثيراً ما يكون سير هذه منعرجا، ويرجع العلماء سبب هذا إلى مقاومة الهواء الشديدة عند اتحاد نوعى الكهربائية؛ ويختلف طول الشرارة بحسب مقادير الشحنات الموجودة فى السحب وعلى سطح الأرض فقد يبلغ ميلاً وقد يزيد على ذلك. ويلاحظ أن لون البرق يختلف، فبينما نراه أبيض فى أسفل الجو نراه فى أعلاه ضاربا الى اللون البنفسجى أو مائلاً الى الحمرة، وذلك لتخلخل الهواء فى تلك الجهات المرتفعة

والبرق على أنواع: منها برق كثير التعاريج وقد ظهر جليا فى تلك الليلة التى دفعتنا الى كتابة هذا المقال

وبرق يُرى عند الأفق وهو فى حدوثه كاللمعة الفجائية، وبرق كروى يمتد من السحاب الى الأرض فى بطء ويمكن العين أن تتبعه. وقد اختلف العلماء فى منشئه وفى أسباب حدوثه ولم يستطيعوا أن يصلوا الى نتيجة قاطعة فى ذلك؛ وهناك برق يُرى فى ليالى الصيف برغم صفاء السماء، ويرجع منشأ هذا البرق الى الغيوم الموجودة تحت الأفق، وهذه الغيوم تكون عادة بعيدة، وبعدها هذا من العوامل التى تحول دون سماع أصوات الرعود التى تحدث كنتيجة لهذا البرق. ولقد أثبتت التجارب أن البرقة تتكون من شرارات عديدة يتبع بعضها بعضاً وأن مدة لبث ضوء البرق أقل بكثير من عشر الثانية

أما الرعد فهو الصوت الذى يعقب البرق، وهو يسمع دائما بعد رؤية البرق، والسبب فى ذلك يرجع الى أن سرعة الصوت أقل بكثير من سرعة الضوء، فالصوت يسير فى الثانية الواحدة نحو ربع كيلو متر، بينما الضوء يقطع ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة - فتأمل !! . . .

وسبب حدوث الرعد يرجع الى أنه عند ما يتحد نوعا الكهربائية أى عند التفريغ الكهربائى بين سحابتين، أو بين سحابة والأرض، يتمدد الهواء فى منطقة التفريغ ويحدث ضغطاً على الهواء المجاور ثم يأتى الهواء ثانيا الى تلك المنطقة لتخلخل هوائها، وهكذا تتكرر هذه الحركات وينتج عن تعاقبها صوت نطلق عليه اسم « الرعد »، فاذا كان التفريغ فى منطقة قريبة منا سمعنا صوتاً مزعجاً جداً؛ أما إذا كانت بعيدة فحينئذ يكون للرعد أصوات ليس فيها شدة نسمعها متتابعة آخذة فى الازدياد من أزيز الى قرقرة الى قعقعة؛ وإذا حصل برق ولم يعقبه رعد فمعنى هذا أن التفريغ الكهربائى حدث فى أماكن بعيدة أوفى مناطق مرتفعة

حيث الهواء قليل الـكثافة

وكثيراً ما نسمع بأن صاعقة وقعت على شخص فأفقدته حياته ، وانهالت على بعض مواد قابلة للاشتعال فألهبتها ، وانها أصابت حيوانا فأماتته ، وانها نفذت الى الأرض فأحدثت فيها فوهات عميقة ، وقد تقع على قضبان من الحديد فتمغنطها وتظهر عليها آثار المغناطيسية بصورة ملموسة . فما هي هذه الصاعقة التي تحدث مثل هـذه الأعمال ؟ ما سبب حدوثها ؟ لقد أثبتت التجارب أن الصاعقة ليست إلا تفريغا كهربائيا بين سحابة مشحونة وبين الأرض . فالأرض تشحن بالتأثير بكهربائية مخالفة لـكهربائية السحابة فيحصل اتحاد بين نوعى الكهربائية وينتج عن ذلك شرارة كهربائية وهى ما نسميها بالصاعقة . وهى تتجه فى سيرها فى الطرق الأقل مقاومة لها من الهواء فتمر على المبانى والأشجار وتؤثر فيها ؛ وقد تحدث فيها أضراراً جمة ، فاذا مرت على شخص أو حيوان فقد تفقدها الحياة ، ولهذا لا يستحسن أن يجلس الانسان فى الليالى الـكثيرة البرق فى أماكن مرتفعة (تحت السماء) أو تحت شجرة ، ففى ذلك كله يعرض نفسـه للخطر . وتسلح الأبنية فى البلدان التى يكثر فيها وقوع الصواعق بجهاز خاص يطلق عليه اسم «مانعة الصواعق ، أومترسة الصاعقة» اخترعها فرنكلين لحفظ المبانى والأماكن العامة من الأضرار التى تحدثها الصاعقة : ورغم معارضة رجال الدين لهذا الاختراع الجليل فى بادئ الأمر فقد انتشر انتشارا كبيرا فى أمريكا وأوربا ، وذاع اسم مخترعه (فرنـكلين) وأصبح حديث الحلقات العلمية وموضع اعجاب العلماء ورجال الأعمال . ولا بأس من الاشارة الى أن فرنكلين لم يكن عالما فقط ، بل خدم العلم وقام بقسط كبير فى تقدم الـكهرباء ، واليه يرجع الفضـل فى إنشاء الجمعية الفلسفية الأمريكية وفى تأسيس جامعة بنسلفانيا الشهيرة ، وفوق ذلك فقد كان من كبار سياسيى زمانه الذين جاهدوا كثيراً فى سبيل استقلال بلادهم ، ومات وقد تحقق كثير من غاياته السياسية التى من أجلها ضحى وناضل . وهذا المخترع العالم جدير بأن يكون قدوة صالحة ومثلاً عالياً لعلمائنا الذين يقبعون فى بيوتهم أو فى معاهدهم ولا يبذلون شيئاً من مجهوداتهم وتفكيرهم لخير بلادهم

وليت الأمر يقف عنـد هذا الحد بل يتعداه إلى أنهم لا يسيرون فى ميادينهم العلمية سيراً قومياً ، فلست ترى إلا نادراً من خصص بعضاً من وقته فى ناحية الكشف عن مآثر أمته فى الطب مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الآداب أو الطبيعات أو الفلسفة أو فى أى فرع من فروع المعرفة الأخرى وأثرها (أثر الأمة) فى تقدم المدنية وسير الحضارة ؛ وقد غرب عن بالهم أن علماء الأمم فى هذا الزمان وفى الأزمنة السابقة قد خصصوا (ويخصصون) جانباً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم فى ناحية بعث الثقافة القوميـة وتبيان آثار أممهم فى ميادين العلوم والفنون . نحن لا نقول بألا يواصل علماؤنا بحوثهم وألا يهتموا بالتنقيب ، ولـكننا نقول بأن يخصصوا جانباً من وقتهم للاشتغال فى تحرير بلادهم من النير الأجنبي ولتوجيه بعض بحوثهم توجيهاً قومياً يخلق فى النشء روح الاعتزاز والاعتقاد بالقابلية ، وفى هذا قوى تدفع بالأمة المستعمَرة إلى ما تتمناه من رفعة وسؤدد واستقلال

ولنرجع الآن إلى مانعـة الصواعق فنقول إنها تتركب من ساق وموصل ، فالساق يتركب من قضيب حديدى مدبب فى نهايته العليا لا يقل طوله عن خمسة أمتار ولا تقل مساحة مقطعه عن ٢٥ سنتيمتراً مربعاً يوضع فى أعلى البناء المراد تسليحه ، ويغطى طرفه الأعلى عادة بطبقة من البلاتين لـكى تمنع تراكم الصدأ ، وبذلك يبقى القضيب جيد التوصيل ؛ أما الموصل فهو سلك من حديد أو عدة أسلاك تمتد من نهاية الساق إلى الأرض ، ومن الضرورى ملاحظة هذه النقطة ــ نقطة الاتصال الأرضى ــ إذ يجب أن يكون الاتصال (بالأرض) محكماً ، وإلا لما كان للمانعة فائدة عملية ، ويستحسن أن تـكون نهاية الموصل فى أرض مبللة أو فى بئر ، وإذا لم يمكن ذلك فمن الضرورى عمل حفرة فى الأرض تدخل فيها نهاية الموصل ، ويُراعى فى هذه الحفرة أن تـكون دائماً رطبة وذلك بتسليط مجرى مائى عليها ، أو باستعمال طرق يمكن بواسطتها حفظ رطوبتها ؛ ولـكى يضمن الانسان الفائدة العملية من المـانعة يجب عليه أن يجعل لنهاية الموصل شعبتين أو ثلاثا . . وهناك طرق أخرى اخترعت لحفظ المبانى من الصواعق واضرارها يمكن لمن يريد الاطلاع على تفاصيلها أن يراجع الـكتب الخاصة بذلك

ولمـانعة الصواعق عملان : الأول أنها تمنع تراكم الـكهربائية

على سطح الأرض ؛ والثانى أنها ترجع السحب المكهربة إلى حالة التعادل ؛ وهذان العملان يحولان دون حدوث الصاعقة ويحفظان الأبنية من آثارها ؛ وقد تكون المانعة غير قادرة على منع حدوث الصاعقة ، فحينئذ يحدث التفريغ وينتج عنه البرق ، ولكن يقع التأثير كله وتقع الصدمة كلها على المانعة لأنها جيدة التوصيل ، وبهذه الطريقة يصان البناء ويبقى سالماً

لقد تكلمنا بايجاز عن البرق والرعد والصاعقة ، وعن كيفية حدوثها ، ومن أراد زيادة البحث والاستقصاء فعليه أن يرجع إلى الكتب الموضوعة فى علم الطبيعة وغيرها ، ففيها الكفاية والتفصيل

ويظهر لنا مما مر أن هذه الظواهر كغيرها تسير على قانون ونظام لا تخرج عنهما ، وترتكز على أسس ومبادئ يسعى الانسان للتعرف عليها والوقوف على دقائقها ؛ وإن فى تعرف الانسان عليها ووقوفه على دقائقها لما يقوى فيه روح الاعتقاد بوجود قوة الله المدبرة الحكيمة المنظمة التى تشرف على هذا الكون وتسيطر على حركاته . أليس فى البرق والرعد والصاعقة وفى كيفية حدوثها ، وفى المبادئ الطبيعية التى تسودها ما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته ؟ أليس فى عدم استطاعته اكتشاف كثير من القوانين التى تسود الكون ، وفى عدم وصوله إلى نتائج حاسمة فى الوقوف على أسرار بعض الظواهر الجوية ما يزيد الانسان اعتقادا بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية ؟

أليس فى معرفة شىء عن حقيقة هذه الظواهر الجوية ما يزيد فى وداعة الانسان وفى تواضعه ، ويسمو به إلى عالم أسمى من عالمنا ؟

أليست هذه الظواهر الجوية دلائل قاطعة على عظمة الله المبدعة وقدرته الخارقة ؟

وأخيراً أليست هذه الظواهر من آياته فيها عبرة وعظة للذين يتفكرون فى خلق السموات والأرض وما بينهما ؟

نابلس — قدرى حافظ طوقان

بين الأدب والسياسة

للأديب أحمد الطاهر

نقصد بتاريخ الأدب ـ هنا ـ كل ما يتناول الحياة الأدبية للأمة ، مما يطرأ عليها من القوة أو الضعف ، والصعود أو الهبوط ، وأسباب ذلك ، وما ينتجه أصحاب البيان فى مختلف مناحى القول ، ودراسة حياة أولئك المنتجين ، وأثر ما انتضحت به قرائحهم فى اللغة

ونقصد بالتاريخ السياسى والاجتماعى ـ هنا أيضاً ـ ما يطرأ على الأمة من احداث وتغيير فى نظامها السياسى وعلاقة الحاكم بالمحكوم ونظام الحكم فيها ، وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم ، وكذا حالتها الاقتصادية والمالية ، وعلاقة ذلك بمرافقها

وما سقنا هذا التعريف ـ وهو غير جامع ولا مانع ـ إلا لنحد به موضع البحث فى الصلة بين التاريخين ، وهى صلة وثيقة واشجة . فقل أن يتأثر أحدهما بعامل من العوامل دون أن يبدو لذلك أثر فى الآخر يبدل وجهته ويغير ديباجته ـ ذلك مالا خلاف فيه . أما ما اشتجر فيه الرأى وظهر الخلف : فأيهما يسبق الآخر فيمهد له الطريق ويعبد له المسلك ؟ وأيهما أبلغ أثراً فى الآخر ؟ وفى هذا نسوق الحديث :

فجمهرة الأدباء على أن التاريخ الأدبى يسبق السياسى والاجتماعى : فينهج له السبيل ، ويمهد له المنبت : فينشأ قوياً أو ضعيفاً ، منتجاً أو عقيما ، حسبما تهيأ له

وأغلب الظن أن هذا القول على إطلاقه لا يقصد به أن يكون قاعدة يعتبر ما شذ عنها استثناء ؛ ذلك بأن استقصاء تواريخ الأمم وتقريه يقف بنا فى مراحل عدة نجد فيها التاريخ السياسى والاجتماعى سابقاً للتاريخ الأدبى ، مؤثراً فيه أثراً عليه طابع السياسة وسمتها . بحيث لا يسع مؤرخ الأدب إلا أن يعترف بفعل السياسة فيه ، وأثرها فى أكثر مظاهره ونواحيه ؛ ونزول الأدب على حكم السياسة ، وكثرة هذه المراحل لا تطامن معها إلى القول بأنها استثناء للقاعدة ، ولعل من الخير ألا نقرر قاعدة بعينها فى تحديد هذه العلاقة

فالأمم الحيـة القوية التي نالت حظاً من الحضارة والحرية ، إذا وقع فيها انقلاب سياسي أو اجتماعي ، أو قلبت صفحة جديدة في سجل حياتها السياسية قبل أن يحدث فيها هذا الانقلاب دون أن تسبقه نهضة أدبية تهيئه للوجود ، وتمده للنهوض بما تعمل في الشعب من إيقاظ الشعور حتى الاحساس بضرورة التغيير ، وحفز الهمم حتى تصدق العزائم على المضي إلى الغاية ، وتمحيص الرأي حتى لا يتعثر في درجه مع سيل الحوادث

ذلك فضل الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب ، وموضع الأدب هنا موضع السابق من المسبوق ، والمتبوع من التابع

ولا نغفل هنا أن الأدب لا يكتفي بالسبق ، ولا يقنع بالقيادة : بل إنه ليلقى الانقلاب السياسي في الميدان بعد أن أفسح له الطريق فيدارجه ويرعاه بما يقويه ، ويبعث النشاط في نواحيه ، ويهدي الأمة في جهادها فيه ، ويقف التاريخ السياسي والاجتماعي حيث قدر له أو حيث أراد ، ولكن التاريخ الأدبي لا يقف عند هذه الغاية . بل يسير بعد ذلك ويمتد أثره : فما زال أهل الأدب بعد الحدث السياسي أو الاجتماعي يحبُون الأمة بفضلهم ، ويتعهدونها ببرهم ، ويخرجون لها جميل آثارهم ، ونتاج قرائحهم : يتحدثون عن الماضي وما كان فيـه ، ويذكرون الحاضر ، ويستشرفون بالأمل في المستقبـل ، فتربو ثروة الأدب وتنمو . ويتسع مجال القول ، وتخلد للأمة آثار تبقى ما شاء الله على تطاول الزمن

ولا نُغفل كذلك أن الأدب في هذا الوضع يفضل السياسة من حيث ما تفيد الأمة من كليهما : ذلك بأن الانقلاب السياسي أو الاجتماعي غير مأمون العاقبـة : فالأمة في سبيلها الى الغاية السياسية أو الاجتماعية التي تقصـد اليها يعرض لها ما يعرض للظاعن في طريقه : فقد تعيا فلا تصل الى الغاية ، أو تتكاءدها عقبات تحول دون الفوز بالمقصد ؛ وقد تهب عليها من أية ناحية أعصار وأنواء تصدف بها عن المحجة ، وتلوى بها عن القصد ، وتضلها عن السمت ، فلا تبوء الأمة بعد جهادها الطويل أو القصير إلا بالفشل فيما قصدت اليه ، وخسران الأنفس والأموال فيما سمت له ، بَـلْه جريرة ذلك على حاضرها ومستقبلها

أما النهضـة الأدبية فقاعدتها بقاء الأصلح . وحكمها فناء السقيم : فمتى نهض أهل الأدب وبرزوا للناس بفضل أقلامهم فذلك هو الخير الذي لا سبيل الى التشكك فيه من حيث هو ثروة وعتاد في الأدب . والبقاء مكفول لهذه الثروة ما بقي في الدنيا أدباء ومؤرخون ؛ ولا بقاء للأدب الرخيص فانه يذهب جفاء في اللحظة التي يظهر فيها الوجود . ومهما تكن النتائج السياسية أو الاجتماعية التي مهدت لها النهضة الأدبية أو كانت سببا فيها فهذه النهضة الأدبيـة لها قيمتها في ذاتها وفيها خيرها من ساعة ميلادها : لا يغض من شأنها ، ولا ينقص من قدرها ، ولا تمتد اليها يد غاصب ، ولا تعبث بها يد ظالم . ولا نقصد بقولنا إن الأدب الرخيص أو السقيم لا يقوى على الحياة أن أدب الأمة ما بقي لا يكون إلا قيما ثمينا ، إنما قصدنا الى أن الأدب في فضله وما يتروى الناس منه كالكنز يخرج من بطن الارض له قيمته وقدره ، وقد يكون الـكنز ذهبا أو فضة أو معدنا دون الذهب والفضة ، ومهما يكن من شي فهو ثروة لها قدرها ووزنها

ولـكن هناك شروطا لا بد من وفائها حتى يفيض الأدب فضلا على أمته ، ويبلغ القصد من محجته ، في هذا الوضع الذي بيَّنا : أولها أن تـكون في الأمة حياة أدبيـة تثبت وجودها قبل الأحداث السياسية ، وتستطيع أن تشق طريقها في ظلمات الانقلاب ، وتسلك نهجها تحت عواصف الثورة ، وتقوى على البقاء بعد أن تهدأ العاصفة ؛ وثانيها أن تـكون الأمة موفورة الحق في المتعة بحرية القول والبيان عن جدارة واستحقاق فلا تكمم عن الحق أفواه الخطباء ، ولا تكتم عن الصدق أنفاس الشعراء ، ولا تزم عن الكتابة أنامل الكتاب . وثالثها : أن يكون سواد الأمة مثقفاً ثقافة أدبية ؛ فبغير هذا لا ينبت لأهل الأدب زرع ، ولا يدر لهم ضرع ، ولا يصيخ لهم سمع . وأقرب المثل لهذا الوضع وهذه النتائج الثورة الفرنسـيـة ونهضة الأدباء قبلها وأثناءها وبعدها . وذلك مالا يحتاج الى بيان

* * *

أما الأمم الواهنة المستضعفة فالعلاقة بين تاريخها السياسي والاجتماعي وتاريخها الأدبي مضطربة متبلبلة ، لا تسير على نهج واضح ، وتنقطع حيناً وتتصل حيناً ، وتضعف وتقوى ؛ ذلك بأنها لضعفها واستكانتها وفرط ما كرثتها الحوادث تسلم سجل تاريخها السياسي للقدر ، أو لمن بيده أمرها ؛ يقلب صفحاته كما

يشاء ، ويمحو ويثبت فيه ما يشاء . فلا موضع للقول بأن لأدبائها أو لتاريخها الأدبي أثراً فى خلق انقلاب سياسي فيها ، أو التمهيد له ، أو تقويته ، أو تمهيده . فاذا حدث فيها انقلاب سياسي فهو فى أغلب الأحيان مقطوع الصلة بحالتها الأدبية ؛ على أنه إذا جد الجد ، وقويت حركة الانقلاب السياسي وغالت مراجله حتى تنفست عن ثورة حادة ، أو ما يشبه الثورة الحادة ، فقد يؤثر ذلك فى تاريخ الأمة الأدبي ، فيطلق الألسنة من عقالها ، ويعد القرائح بغذائها ، فتنطلق فى الجو صيحات تكون خافتة فى مبدئها ، وتستسلم بعد ذلك للأقدار ، فاما أن تقوى وتشتد ، واما أن تضعف وترتد

وهنا نرى للأدب فضلا آخر لا يجوز اغفاله : ذلك بأن الأمة التى وصفنا قد تعوزها فى جهادها السياسي وسائله وعدته ، أو يقعد بها ضعفها عن النهوض له فتستخذى وتستسلم لضعفها أو قوة غلبها . أما أهل الأدب فلا ينضب لهم معين ، ولا يقفر بهم منبت ، فهذه الظلمات المحيطة بالأمة ينسجون من خيوطها شعراً ، وهذه صخور الظلم والاستعباد يفتتونها بأسنة الأقلام ويبسطونها للناس نثراً ، ومن هذا وهذا يحاولون احياء شعور أماته الظلم ، وإثارة همم قعد بها الخنوع . وقد يفلحون فيصلون بالأمة إلى غاية سياسية محمودة ، وقد يخفقون ولكن بعد أن يتركوا للأمة ثروة أدبية ؛ ولا تنس أن جهادهم شاق وعسير ، وأن بلاءهم مرهق ومرير

وهنا نجد التاريخ السياسي سابقاً ومتبوعا ، والتاريخ الأدبي لاحقا وتابعا ؛ والأول مؤثر فى الثانى أثرا قويا أوضعيفا ، وقد يبرز الأول فى الميدان فلا يتبعه الثانى ولا يجاريه ، وإن تبعه ففى تؤدة وونى .

على أنه يشترط أيضا فى هذه الحالة أن تكون الأمة مثقفة الى حد معين حتى تستطيع فى وسط هذا المضطرب أن ترى قبس النور ينبعث من قصبات الأقلام فتمشي على هداه ، وأن تسمع صوت الحق من الخطباء فتلبى نداه . ذلك ان أتيح للأديب أن يكتب ، وللخطيب أن يخطب

ولا يتداخلنا العجب من أن يسبق التاريخ السياسي ويتقدم والمثل أمامنا واضحة بينة . فتاريخ الأدب الاسلامي إنما تأثر بما سبقه من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية كان من مظاهرها نشوء الأحزاب السياسية وما فتح الله للمسلمين من بقاع الأرض ؛ ذلك أثر فى العقلية العربية فغير فى أسلوب الشعر والخطابة والكتابة وموضوعاتها تغييرا ظاهرا . وأقرب من هذا المثل تلك الحرب الأوربية التى اندلعت نارها فى الغرب ، وامتد لهيبها إلى الشرق ، فحركت النفوس وحفزت الهمم ، وأثارت المطامع ، وأبرزت فى الشرق طبقة صالحة من الخطباء والكتاب والأدباء ، ما زالوا يعملون وما زال الشرق يرجو من غيثهم خيرا فى الأدب وفى السياسة ؛ أليست هذه نهضة أدبية قامت على أثر حركة سياسية ؟

وليس سبق التاريخ السياسي على الأدبي قاصرا على الأمم الضعيفة أو المستضعفة ، فقد يقع هذا فى الأمم القوية كما يتضح من أثر تلك الحرب فى الغرب ، وأكثر أممه قوية متحررة ، فقد تقدمت الحرب وأحداثها ، ثم تبعها تغيير فى الآداب من حيث الأسلوب ونظام القصة وطريقة التفكير ، وكان تغييراً مستوياً كاملاً قوياً ، بل كان نهضة حادة فتية

أليس من الخير بعد هذا ألا نلتزم قاعدة بعينها نجرى على سننها الأدب والسياسة ونقيد بها موضع أحدهما من الآخر وأثره فيه ؟

ذلك ما أراه فى هذا البحث ، فان رأى أئمة البيان وأهل الأدب غيره وجلوا لى وجه الصواب وبصرونى مساقط الرأى فانني لشاكر وسعيد .

البوزباشى أحمد الطاهر

٢ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

ثم انظر كيف فهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفس عمرو: لقد قال: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» لقد أسلم الناس حبا فى الاسلام وقد دفعتهم عواطفهم وهدتهم طبائعهم، أما عمرو فقد حسب للأمر حسابه، ووزن ربحه وخسارته، حتى إذا اطمأن فقد آمن. وقد أقبل واثقاً. هكذا أصاب الرسول الكريم فى فهم هذا الرجل الجليل. وان الرسول ليعرف أن عمرا كان تاجرا داهية ومساوماً ماهرا... وأنه قد بذل الثمن وينتظر الربح، فهو لا يضن عليه بما يريد فيؤمره على سرية ذات السلاسل، ويؤمره على المدد الذى أرسله اليه وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ونفر من الأنصار والمهاجرين... إن الرسول ليعرف أن هؤلاء كلهم لا ينظرون إلى ولاية أو إمارة... لأنهم لا يلقون جزاءهم عن الايمان إلا عند الله... أما عمرو فيجادل أبا عبيدة على الأمارة... ويقول له: «إنما قدمت على مدد، وأنا الأمير ولا امارة لك...» فينزل له أبو عبيدة عن الامارة وكفاه شرف الجهاد... ثم انظر كيف يفهم أبو بكر نفس عمرو... انه ليفرده بفتح فلسطين... إنه ينقده ثمن ماسيبذل من جهد فى الفتح ومهارة فى القتال... ولو قد طلب اليه أن يكون مكان يزيد بن أبى سفيان مثلاً على جيش دمشق... لربما كره عمر... وربما لم يبد من المهارة ما أبدى فى أجنادين، ولكنه خليفة رسول الله، كان يعرف عمراً خير المعرفة... فنزل له عما يريد. ولم يقصر الفاروق فى هذا فتركه حراً فى فلسطين، لم يعزله كما عزل خالدا... وكان عمر يعرف كذلك أن عمراً مغامر... وأى تاجر لا يغامر؟ وأى رجال المال لا يرتاح الى المضاربة والمغامرة والتعرض للغنم العظيم أو الغرم الذى يقصم الظهر... ولكنه كان يعرف فيه حذق المضاربة... وأنه لا ينزل السوق إلا كاسباً، ولهذا... أقره على فتح مصر ولم يفرغ بعد من فتح الشام... وكان عمرو فى ذلك مساوماً ماهراً ومقنعاً ذا حجة ودهاء... فلم تثبت اعتراضات عمر الثبت الحصيف الدقيق الذى يضن بعلم واحد على أن يجازف به وإنما اقتنع سريعاً... كان عمرو ماهراً لسناً بارعاً حين خلا بابن الخطاب وهما عائدان من فتح فلسطين... وكان امهر حين انساب فى جنح الليل يسعى الى مصر سعياً... لقد خشى أن يعود أمير المؤمنين فيقبض يده... وقد خشى أن يراجع عمر نفسه... أو خشى أن يثنيه أحد عن عزمه... وما أخطأ عمرو فى ذلك... فها هى ساعات لا تنقضى على مسيرة عمرو حتى يقبل عثمان فيعلن اليه عمر نبأ غزاة مصر... فما يكاد عثمان يسمع الأمر حتى يراع ويصيح به: «ياأمير المؤمنين: إن عمراً لمجرؤ وفيه اقدام وحب للأمارة، وأخشى أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا...» فيشفق عمر على المسلمين اشفاقاً شديدا... وتحدثه نفسه أن يستوقف عمراً، ولكن عمراً قد مضى من أيام... ولعله قد دخل حدود مصر، ولعل الرسول لا يبلغه إلا وقد دخلها... وما ينبغى لجيش إسلامى أن يدخل بلادا ثم يبارحها من غير فتح... تلك إذن هزيمة لا تليق بجند الاسلام

... إذن فليسرع بالكتابة اليه، فان أدركه الرسول قبل أن يدخل حدود مصر فليرجع، وما فى ذلك حرج... وإذا كان قد دخلها... فليمض على بركة الله، وليبعث اليه الامداد سراعاً تباعاً... كأنما كان عمرو يقرأ ذلك لكنه من كتاب! وكأنى به وقد قدر أن الخليفة لا بد أن يستدعيه، وأن أحدا لا بد لاقيه فى ذلك الأمر... فها هو ذا يقرأ كتاب الخليفة دون أن يفتحه!... وها هو ذا يحتال حتى يدخل أرض مصر... لا لأنه يعلم أن الخليفة قد قال ذلك... بل لكى يقول للخليفة إذا أمره بالرجوع: «وكيف أنسحب وقد دخلت أرض مصر... فكأنى بالروم تقول: خافتنا العرب...»

إلى هذا الحد بلغ ذكاء هذا الرجل وحسن تقديره ودقة بصره... حتى عمر نفسه على ما عرف عنه من الذكاء الخارق لم يدرك شأو ابن العاص فى فن الحساب والتقدير!... ...

وأى صفقة هذه... لقد ربحها ابن العاص... إنها مصر التربة الغبراء... والشجرة الخضراء... «طولها شهر وعرضها عشر» كما يقول فى وصفه البليغ لعمر... ثم انظر كيف يعرف الرجل سبيل استغلال «هذه اللقمة» السائغة... إنه يقول: «ألا يتأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها... وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها... فاذا تقرر الحال مع العمال فى هذه الأحوال... تضاعف ارتفاع المال [1]...»

(١) أبو المحاسن: ج ١ ص ٢٣

وتلك هى سبيل التاجر الذى يحسب مكسبه وطرق الفائدة منه ... ثم استمع إلى ما يوصى به النـاس غداة الفتح ... إنه لا يقف كثيراً عن حض الناس على الصلاة والصيام ... فتلك أمور بينهم وبين ربهم ... أما هو فحسبه أن يقول « يا معشر الناس ! إياكم وخلالا أربعة فانها تدعو إلى التعب بعد الراحة . وإلى الضيق بعد السعة ... وإلى الذلة بعد العزة ... إياكم وكثرة العيال ... واخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل والقال بعد ذلك فى غير نوال[1] ، ثم يوصى الناس بالخيل ويطيل فى ذلك ... لأنها « رأس مال العربى » فى الفتح والزرع ! ... وهكذا ... كان الرجل يعرف قدر الصفقة التى كسبها من عمر ، ويعرف سبيل الفائدة منها ... واحسان القيامة عليها ، وإلى هنا ويبدأ الخلاف بينه وبين غيره ... حتى عمر نفسه لا يدانى ابن العاص فى مسائل المال والاستثمار ... فها هو ذا يكتب إليه يقول : « أما بعد فانى فـكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً ... وقوة فى بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنـــة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ... فعجبت من ذلك ... وأعجب ماعجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جـدب ! » فيرد عليه عمرو الرد الحـكيم فيقول : « ولعمرى . . للخراج يومئذ (أى أيام الفراعنة) أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم ، أرغب فى عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ... »

هنا نلمس الفرق بين عمرو وغيره من ساسة الاسلام ، إنه يجيد الاستثمار ، ويحسن القيام على المال ... ... وهل كان الولاة الأولون يعرفون من هذه الأمور كثيراً أو قليلا ؟ أترك الجواب على ذلك لابن خلدون فله من ذلك شكوى لا تنقطع ... ! وهنا سر الخلاف بين عمرَ وعمرو ، ومبعث هذه المراسلات التى كانت تشتد وربما وصلت إلى التعريض ... فهذا عمر يقول : « وقد علمت أنى لست أرضى منك إلا بالحق المبين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ! ... » ثم يقول له فى كتاب آخر : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر ! »

إن ابن الخطاب يعرف أساليب عمرو بن العاص ، إنه يخشى أن يدخر المال ... إنه ليبعث اليه محمد بن مسلمة « ليقاسمه ماله » فى ظاهر الأمر ، وليكون عليه رقيباً حسيباً ! ... فى باطنه ؛ كان عمر يعرف فى ابن العاص صفة التاجر المغامر ... فعامله على حذر ، وأفاد منه ولـكن فى حذق . ولـكن عثمان قد عزله عن مصر ... فأى خطأ هذا ... وأى جهل بطبيعته ... لو أنه وجه اليه كلاماً أفعل من كلام عمر لسكت ... لو أنه فعل به أى شىء آخر لما أهاجه ذلك هذا الهياج ... ولـكن « الصفقة » ضاعت من يده ؛ لقد عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد عن إمرة جند الشام فـلم يحزن ولم يبتئس ، ولـكن ابن العاص لا يسكت ... إنه يعرض بعثمان حيث جلس ... إنه يخف إلى المدينـة مسرعا وإن الثورة على عثمان لتضطرب بين جوانحه ... وأى ثورة هى أشد من هذا الحديث البديع الذى رواه لنا الطبرى كاملا :

قال عثمان : يا ابن النابغة ! ... أتطعن على وتأتينى بوجه وتذهب عنى بوجه آخر ؟

عمرو – إن كثيرا مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين فى رعيتك

عثمان – استعملتك على ظلمك وكثرة القالة فيك

عمرو – قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقنى وهو عنى راض

عثمان – لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولـكنى لنت عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً فى الجاهلية ، وقبل أن ألى هذا السلطان

عمرو – دع هذا ، فالحمد لله الذى أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فوالله للعاص أشرف من أبيك

عثمان – ما لنا ولذكر الجاهلية !

هكذا تنتهى المحاورة بين الخليفة وعمرو ... ويخرج هـذا الأخير وقد دبر فى نفسه أمراً ... انه ليثير الناس على الخليفة ويقضى وقته متنقلا من مجلس إلى مجلس يبسط للناس أخطاء عثمان ... ويحرضهم على الثورة عليه ... فاذا وفق إلى اثارة الناس واندرت الفتنة فقـد انحاز إلى قصره « العميلان » بفلسطين ... حيث وجدناه فى أول هذا الحديث ... فاذا بلغه مقتل عثمان فقد طرب لذلك ولم يكتم فرحه به ... وصاح يقول : « أنا عبد الله ... إذا حكـكت قرحة أدميتها ، انى كنت لأحرض عليه ، حتى

(١) رواها أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم

في الأدب الانجليزي

٥ـ الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأحلام : Dreams

إن اهتمام شكسبير بالأحلام ليفوق اكترائه للمفاريت، فقد جعل منها في كثير من الأحيان قسماً من أقسام الرواية الأساسية بحيث تشكل ما نسميه موضوع الرواية . وهناك عدد من الأحلام في رواياته كان له أثر غير قليل في مجرى الرواية وسياقها التمثيلي . فحلم كلوسستر في القسم الثاني من رواية هنري السادس، وحلم كلارنيس في رواية ريشارد الثالث، وحلم كلبورنيا في رواية يوليوس قيصر، وحلم العرّاف في سمبالين، كلها تكون جزءاً غير قليل من هيكل الرواية التي ذكرت فيها

وجميع هذه الأحلام التي ذكرتها عدا حلم العراف سمبالين تنبئ عن الموت والخراب ؛ فكلوسستر يرى في نومه غلاماً قد لدغته أفعى سامة فقتلته على الفور ؛ وكلارنس يحلم أن أخاه قد رمى به في بحر خضم فأغرقه حيث لا رجعة له بعد ذلك ؛ وكلبورنيا أبصرت في نومها زوجها قتيلاً بين أيدي مقتاليه ورأت جسده يسيل الدم من جوانبه وقد اجتمع جميع الرومانيين حوله ليرشفوا من دمائه

وكان الناس على اختلافهم يعتقدون أن الملكة ماب تبعث هذه الأحلام في الصدور ؛ وتتجلى لنا هذه الفكرة من اجابة مركونيو لرفيقه روميو إذ يقول : « وإني لأظن أن الملكة ماب قد لازمتك ليلة البارحة »

لقد تحققت جميع الأحلام التي وردت في روايات شكسبير ؛ ومن هذا يظهر لنا أن الشاعر كان يعتقد اعتقاداً جازماً في الأحلام وتأثيرها على المجتمع البشري، وهذا الاعتقاد هو ما نسميه اليوم بعلم تفسير الأحلام

التنبؤ والتنجيم : Prophecay and Astrology

تحتوي روايات شكسبير على عدد كبير من النبوءات التي تختلف بحسب أهميتها وكونها قسماً رئيسياً من أقسام الرواية . وأهم هذه النبوءات التي يطالعنا بها شكسبير هي نبوءة مرجريت في رواية ريشارد الثالث . فهي تتنبأ للملكة اليصابات بقدوم وقت قريب تحتاج في أثنائه لمعونة كل انسان، وهي تنبئ كلوسستر بقرب ذلك اليوم الذي تقطع فيه الأحزان نياط قلبه ؛ وإن من الغريب أن كلتا هاتين النبوءتين تتحقق في سياق الرواية

وأما النبوءات التي فاهت بها الساحرات في رواية مكبث، فقد تحققت كذلك في نهاية الرواية . وهذه النبوءات كما ذكرنا سالفاً كانت على نوعين : احدهما حدث قبل أن يكون ملكا على اسكتلنده، والآخر بعد رقيه العرش، وقد تحققت هذه النبوءات كما تحققت سالفتها

وفي رواية (ترويلس وكريسيدا Troilus and Cressida) نرى هناك عدداً آخر من النبوءات التي تصدر عن أميرة حمقاء تدعى الكسندره، فقد تنبأت بقتل هكتور ودمار طروادة، وهذا ما حدث حقيقة في نهاية الرواية ؛ ونرى في بعض الروايات عرافين يتكهنون بحدوث الأمور قبل وقوعها ؛ ففي رواية يوليوس قيصر يتكهن العراف بقتل قيصر، وهذا ما يتم فعلا

لأحرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل (١)

والآن ! « قد خرج الحق من خاصرة الباطل، وأصبح الناس في الحق شرعاً سواء ! . مات ولي الأمر وأصبحت دولة الاسلام كلها « صفقة واحدة » تحسن المساومة فيها جملة، ولهذا أرق عمرو وسيأرق طويلا، إنه ليتدبر الأمر تدبراً، وإنه ليقلبه على وجوهه ويحسب مكسبه منه، وخسارته فيه، ثم يمضي على حذر، وسنرى

للبحث بقية حسين مؤنس

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٧ — ١٠٩ ، ٢٢٣

لننتقل الآن قليلا إلى البحث فى التنجيم والفلك ، ونرى هل اهتم شكسبير بهذا النوع من المغيبات . لقد وردت اشارات عدة فى كثير من رواياته إلى التنجيم وقدرته على حل رموز الغيب والمستقبل ؛ فنرى فى كل من هملت ، ويوليوس قيصر ، وكوريولانوس ، والعاصفة ، وهنرى السابع ، ومكبث ، وقصة الشتاء Winter's Tale عددا من الظواهر الطبيعية التى تحدث عادة قبل وقوع أمر جلل

سيطول بنا البحث كثيراً إذا أسهبت فى وصف كل من هذه الظواهر الطبيعية وشرح أسبابها ونتائجها ، ولذلك اقتصرت على ذكرها دون شرح أو تفسير ، فمن هذه الظواهر الكثيرة ظاهرة سقوط المذنبات وارتفاع أمواج البحر وقدوم بعض الطيور وسخط الطبيعة وانتقال بعض أنواع الحيوانات من مكان الى آخر ، كلها كانت أموراً خارقة للعادة تنبىء عن حدث جلل ومصاب عظيم

الملاك الحارس Genius

يعرف جونسون هذا النوع من المغيبات بأنه القوة السماوية التى تحفظ الأنسان من الشرور والآلام ؛ وبولكير فى كتابه « العقائد الانكليزية » يقدم لنا تعريفا أوسع وأكثر شمولا ، فهو يقول : «يكون الملاك الحارس ملاكا خيراً أو شيطاناً مريداً » .

وقد ذكر شكبير هذا النوع من المغيبات فى سبعة مواضع ، وفى كل واحدة منها اتخذها عنواناً للفضيلة ومعنى من معانى الخير والصلاح إلا فى روايته العاصفة عند ما يصف فردناند هذا النوع من المغيبات قائلاً : « إن شيطانى الحارس لن يكون قادراً على إبداع شرفى فى الرغام ، ولن يكون فى استطاعته قط أن يغير معالم السرور التى تحيط بى الآن »

من هذه الفقرة يظهر لنا أن للانسان ملاكاً وشيطاناً حارسين . يؤكد هذه النظرية خطاب فلستاف Falstaff الى بونيز قائلاً : « إن لهذا الغلام ملاكاً حارسا بمثه ، ولكن له فى نفس الوقت شيطانا يعمى بصائره ويقوده الى ما فيه شره ومضرته »

ولا يظهر هذا الملاك الحارس للملأ إلا بعد وفاة صاحبه ، فيظهر فى كل شبح من الأشباح يرتدى نفس الملابس التى كان صاحبها يرتديها قبل وفاته . ولننظر الى حالة الذهول التى تستولى على الناس عند نهاية رواية (مهزلة الغلطات Comedy of Errors) فيرون رجلين متشابهين لا يمكن تمييز أحدهما من الآخر . اسمعهم يهامسون « إن أحد هذين الرجلين ملاك للآخر أو صورة مطابقة له »

وهذ الملاك يلازم صاحبه تمام الملازمة فى غدواته وروحاته وفى نومه ويقظته ، وهنالك لا يحدث نزاع بين رجلين إلا ويصحبه نزاع آخر بين ملاكيهما الحارسين . ولنستمع الى مكبث يقول عن بانكو : « انه الشخص الوحيد الذى أخافه وأرهبه . إن ملاكى الحارس لا يستطيع القيام بأى أمر من الأمور مخافة غضبه وسخطه ، كما كان ملاك أنطونيوس خاضعاً تمام الخضوع لملاك بروتس »

مما تقدم يتجلى لنا أن شكسبير عنى بالملاك الحارس شيئاً غير الروح وغير الشبح . فما الملاك إلا باعث من بواعث الخير وداع من دعاة الفضيلة يقى صاحبه ويحفظه من كل ما يهاجمه ويناوئه

(للبحث بقية)

خيرى حماد

من تراثنا الأدبي

٤ ـ أبو العينــــاء

للأستاذ محمود محمود خليل

تتمــــة

قلت إن أبا العيناء اتسع أمامه الميدان أيام المتوكل ، وظهر نجمه ، وسعدت أيامه ، فلم يقتصر الأمر على اتصاله بالخليفة ، بل اتصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً ؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكل حينما سأله عنه فقال : « نعم العبد لله ولك ، مقسّم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادلَ بصلاح ملكك كل لذة » . وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمداً دابة ، فزعم أنها غير فاره . وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب ، وهو يدل على التلطف في المسألة ، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة ، مما حبب أبا العيناء إليهم ، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته

انقضت دولة المتوكل ووزيريه الفتح وأخيه عبيد الله ، واضطربت الأمور من بعده ، حتى استتب الأمن ، ورجعت المياه إلى مجراها ، وتولى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدى) فاتصل به أبو العيناء وحضر مجالسه ؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حوادثه معه . دخل عليه ذات يوم فقال : اقرب مني يا أبا عبد الله . فقال أعز الله الوزير ! تقريب الأولياء ، وحرمان الأعداء . قال : تقريبك غنم وحرمانك ظلم ، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله . وقال له يوماً : اعذرني فاني مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم تحتج إليك ، وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فانما تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال ياسيدى قد عذرتك ، فانه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك . ودخل عليه يوماً فقال من أين يا أبا عبد الله ؟ قال من مطارح الجفاء . وأقبل يوماً إليه ، فشكا سوء حاله ، فقال له أليس قد كتبنا إلى ابراهيم بن المدبر في أمرك ؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفق سعيي ، وخابت طلبتي . فقال أنت اخترته قال : وما عليّ أعز الله الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فما كان فيهم رجل رشيد ، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً ، واختار علي بن أبي طالب (ض) حكماً له فحكم عليه ؟ ! وإنما قال أبو العيناء ذل الأسر لأن ابراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب

ولما نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان وولى الوزارة صاعد بن مخلد حصل خصام بين هذا الوزير وبين أبي الصقر اسماعيل بن بلبل الكاتب ، فانضم أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذى وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه ، وحضور مجالسه . وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر ، حتى إن الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً ، وكان ابن ثوابة قد سبّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم ، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، خاراً على الذقن ، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر ، وإنما حلم عنك لأنه لم يجد لك عزاً فيذله ، ولا علوا فيضعه ، ولا مجداً فيهدمه ، فعاف لحمك أن يأكله ويهكه ، ودمك أن يسفكه . فقال ابن ثوابة : ما تساب إنسانان إلا غلب ألأمهما . فقال : لهذا غلبت أمس أبا الصقر !

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنه عندما تولى الوزارة خيّره فيما يحبه حتى يفعله به ، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائى تعرفه مكانى ، وتلزمه قضاء حق مثلى من خدمة ، فكتب اليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائى ، فسبب له في مدة شهر واحد مقدار ألف دينار وعشرة أجمل ، فانصرف بجميع ما يحبه . وله أحاديث كثيرة ، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر . ويظهر أن هذا آخر وزير اتصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسية فانه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلا ، وتوفى سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ

مهاترة مع كاتبين فى عصره

على أننا نرى من الواجب علينا أن نأتى بشىء مما جرى بين أبى العيناء وبين كاتبين قديرين فى عصره ، هما محمد بن مكرم ، وأبى على بن جعفر الضرير ؛ أما ابن مكرم فكانت له معه مداعبات ، وكان يهاتره كثيراً ؛ كتب اليه ابن مكرم يوماً : قد ابتعت لك غلاماً من بنى ناشر ثم من بنى ناعظ ثم من بنى نهد . فكتب اليه : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . وولد لأبى العيناء ولد ، فأتى ابن مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحس به فقال : من وضع هذا ؟ فقيل ابن مكرم ، فقال : لعنه الله انما عرض بقول النبى (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : مالك لم تهد الينا هدية ؟ قال : لم آت بشىء ، وإنما قدمت فى خِف ، قال : لو قدمت فى خف لخفت روحك . وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به : كم عدد المكذبين بالبصرة ؟ فقال : مثل عدد البغائين ببغداد !

وأما أخباره مع أبى على الضرير فكثيرة ، وكم أتمنى أن يتيح لى الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين ، فان بينهما شبهاً قوياً ، وقد وجدا فى عصر واحد ، وكانا فى البلاغة نسيج وحدهما ، ولكن كانت بينهما منافسة قوية أدت إلى أن تجرى بينهما مساجلات ومفاخرات كثيرة ، حتى إن فتى من أبناء الكتاب فى بعض الدواوين تعرض لأبى العيناء ، وكان فيه جرأة فقال : كل الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبى على البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عصمتك بيقين لخواك ، ثم ننظر فى شكوك دعواك ، وقد طلقت الناس كلهم سواك ، ذلك أدنى ألا نعول ، وفيك ما يروى الفحول ، ويتجاوز السول . ففضحه بهذا الكلام ولم يجبه

وهذا الحديث يدل على أنه قدكان بين الرجلين تصادم ؛ وإن شئت فسمه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قوياً بالألسن وأنه كثيراً ما يكون الغلب فى جانب أبى على الضرير

أدب أبى العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر ؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعد أبا العيناء شاعراً مكثراً من فحول الشعراء لأننا لم نجد له فى كتب الأدب والتراجم التى بأيدينا شعراً كثيراً ؛ إنما الذى نقدر أن نحكم له به أنه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد ابن يوسف الكاتب والوزير للمأمون فيما بعد ، وقد تقدم له بضعة أبيات مدمجة فى أحاديثه تؤيدنا فى حكمنا هذا

وأما النثر فقد كان أبو العيناء سباقاً فيه ، وتمتاز كتابته بأنها تارة تكون مفرغة فى قالب فكاهى مضحك ، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك ، ولكنه إذا أفرغها فى قالب الجد أتى بالفقر القصيرة حينا والطويلة حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تكون مرسلة ، وقد يقيدها بالسجع . فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون ، ويكفيه فى منزلته من البلاغة تعجب المتوكل منه ، إذ سأله : أ كان أبوك فى البلاغة مثلك ؟ فأجابه بقوله : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له . ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيمة وهو محمد بن مكرم الكاتب قال : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع فقد ظلم . ونحن وإن كنا نعتقد أن فى كلامه غلواً مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما ، إلا أن الحال التى وصف فيها أبا العيناء بالاجادة خليقة بتقدير النقد الأدبى لها . فاننا نرى الرجل يأتى برسائل ممتعة حقاً نعجب كيف صدرت عنه ، ولكننا لو علمنا أن الدافع له إحساسه بالكرم ، أو شروعه فى الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا

وإنى أريد أن أؤيد كلامى بنماذج من رسائله ، ولقد كنت فى غنى عن هذا لما تقدم من أحاديثه وكتاباته ، ولكنى لم أر بداً من الاتيان بنبذ يسيرة منها ، فمن رسائله الفكاهية : ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى اليه ابنه محمد دابة زعم أنها غير فاره :

أعلم الوزير أعزه الله أن أبا على محمدا أراد أن يبرنى فعقنى ، وأن يركبنى فأرجلنى : أمر لى بدابة تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عَجَفا ، وكالعاشق المجهود دنفا ، قد أذكرت الرواة عذرة العذرى ، والمجنون العامرى . يساعد أعلاه لأسفله ... مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجيت ، أو أفرد لتعزيت ، ولكنه يجمعهما فى الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتنادى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول نقِّ له من الشعير ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء فى الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحق

وصـدق ، عن جابر الجعفي ، وعامر الشعبي ، وإنما أتيت به من كاتبه الأعور ، الذي اذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، واذا اختار لغيره أخبث وأنزر . فان رأى الوزير أن يبدلني ويرمحني بمركوب يضحكني كما ضحك مني ، يمحو بحسنه وفراهته ، ما سطره العيب بقبحه ودمامته ، ولست أرد كرامه ، سرجه ولجامه ، لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه ، أو ينقض ما يمضيه .

فوجه اليه الوزير برذونا من براذينه بسرجه ولجامه ؛ ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال الوزير شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وماهذا ثمنه لا يشتكى . فقال أعز الله الوزير لو لم أكذب مستزيدا لم أنصرف مستفيدا ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، فضحك الوزير وقال : حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة .

ومن رسائله الجدية ما كتبه الى عبيد الله بن سليمان بن وهب : أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك ، إن سقيته راع وزكا ، وإن جفوته ذبل وذوى ، وقد مسني منك جفاء بعد بر ، وإغفال بعد تعاهد ، حتى تكلم عدو ، وشمت حاسد ، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعبا ، ولهم مجرسا . ولله در أبي الأسود في قوله : —

لا تهني بعد إكرامك لي … فشديد عادة منتزعه

وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقع في رقعته : أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت ، وميلي اليك كما علمت ، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولا من أخرناه تركناه ، وقد وقعت لك برزق شهرين ، لتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله والسلام

وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكره : أنا أعزك الله طليقك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذت بيدي عند عثرة الدهر ، وكبوة الكبر ، وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال ، والاخوان والأمثال الذين يفهمون في غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غياثا للناس حللت عقدة الخلة ، ورددت إلى بعد النفور النعمة ، فأحسن الله جزاك ، وأعظم حباك ، وقدمني أمامك ، وأعاذني من فقدك ، فقد أنفقت على مما ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي ، والله عز وجل يقول لينفق ذو سعة من سعته ، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية ، والرتبة الشريفة ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسطفيها من عدلك ، وبث فيها من رفدك والسلام ؟

الزقازيق — محمود محمود خليل

ملاحظة : يقول الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر : ان أخبار أبي العيناء قد جمعت في سفر جليل ، ولكني برغم بحثي لم أعثر عليه ، ولعله ضاع كما ضاع غيره من نفائس كتب الأدب التي لم تصل الينا ؟

وداع والد

للأستاذ محمود خيرت

أخوان ما آب المسافر منهما … حتى استطاب أخوه هجران الحمى

فالقلب بينهما الغداة موزع … حيران يخفق نشوة وتألما

ولشد ما يجد المفارق ما انتهى … من جنة اللقيا إليه جهنما

يا أكبر الأبناء خلف بعده … صبرا تقطع حبله وتصرما

لم تدر يوم البين ما فعل الأسى … بأبيك لما أن دنوت وسلما

عقد الذهول عن الكلام لسانه … فتكلم الدمع العصي وترجما

ومشى إليك مشردا متخاذلا … يأبى عليه الهول أن يتقدما

حتى إذا نأت السفين بركبها … وغدوت بالبعد الطويل ملثما

بدت الحقيقة كالخيال فها أنا … إما أراك غدا أراك توهما

والدار تنعى أنسها الماضي وقد … أمسى على ظمأى النفوس محرما

يا من كساها من بشاشته سنى … عكست جوانبها صداه تبسما

للدور أرواح تحن لأهلها … وتطوف من خلل الحواجز حوما

وضاءة بهم الزمان فإن همو … نزحوا تغشاها الظلام وخيما

***

كم كنت ترعاني وتأسو علتي … وتحول دون الداء أن يتحكما

ولكم سهرت علي فيه لياليا … لا عابسا فيها ولا متبرما

وتخذت منك وأنت مني عدة … عند الزمان إذا الزمان تجهما

فالبعد أقسى ما يمر به أب … ثقلت عليه همومه فتهدما

لكن رحلت ونصب عينك غاية … كانت أعز من البقاء وأكرما

وطنت نفسك في أمانيها على … أن تركب الأخطار كي تتعلما

محمود خيرت

سليل الأكابر

بقلم رفيق فاخورى

حَسِبَ الدنَى قيدتْ له   والكونَ مخلوقاً معهْ
يحيا له ويموتُ إذ   تطوى الليالى أجمَعهْ

***

لم يبك من حظٍ يجدٍّ   للفقير على المدَى
بؤساً ويرسم فى محيّا   اه اكتئاباً مرمدا

***

فاذا أصاب الدمعُ فى   عين الشجىِّ مسيلَهُ
رقصتْ بكفيه المنى   فشفى بهنَّ غليلَه

***

ورثَ الجهالة فاستعا   نَ على الجهالة بالغنَى
ويُرَى وضيعاً وهو فى   غُرَف الدراهم فوقنا

***

أبداً تواكبه وفو   دُ السعد أنَّى يمّا
وتصوغ أحلامُ الفرا   غِ له المكارهَ أنعُما

***

يمسى ويصبح سادراً   يأتيه سعياً رزقُهُ
ونظل نطلب ما حَيد   نا والمطالبُ حقُهُ

***

تَفْدِى سلامته بأرْ   واح لنا لا تفتدى
الويلُ للخَوَلِ الأصا   غرِ إن أضاعوا السيدا

***

إنا بنو الفقر ابتنيـ   نا بالمساعى مجدنا
وشروا بماء الوجـ   ه حظاً خاسراً لا يقتنى

***

ليس الغنِى ما أورثَ الـ   آباء أو ما خَلَّفوا
فاشحذْ قواكَ لغَدوةٍ   تُندى الجبينَ وتُرْعِف

***

يا ويحَ للقوم النيا   م على تصاريف الزمن
الوادعينَ الآكليـ   ن جَنَى العبادِ بلا ثمن

***

يغـذو النعيمُ جسومَهم   أبداً فتعتلُّ النُّهَى
لكأنهم إبلٌ هوا   ملُ غفلةً أو دونها

***

جمعوا فما أغناهمُ   مالٌ عصارته الندمْ
إن لم تكن بالنفس ذا   مالِ فأنت أخو العدم

حمص   رفيق فاخورى

اسمى

[مهداة إلى الأستاذ الكبير المازنى]

للأستاذ إلياس قنصل

يروق له اصطدامىَ بالصعابِ   ويعجبُه اتصالىَ بالعذابِ
فيغريني حديثٌ منه خافٍ   يخدِّرُنى بآمالٍ عِذابِ
ويدفعُنى إلى بحر الرزايا   أصارع منه أمواج العباب
إذا سلِمت نفسى من بلاء   أشارَ على سواه باطِّلابى
أريد البعد عن كل اضطرابِ   ويأبى أن أكون بلا اضطرابِ

وقفتُ على كرامته حياتى   وصنتُ علاه من كلِّ ناب
وفضّلتُ الكفاف على ثراء   يلطّخُ عزّه برشاشِ عاب
وشدتُ له بآى الفنّ قصراً   متين الأُسّ مرفوعَ القباب
تذيع قصائدى منه دوياً   ستصحبه إلى يوم الحساب

نصيبىَ ان أهيئ وهو يجنى   وينعم من جهادىَ بالثواب
فان أنشرْ مقالا أو كتاباً   تخايلَ فى مقالى أو كتابى
وإن أسعفْ صديقاً مستجيراً   تبختر بين أفواهِ الصحاب
وإن أبعثْ إلى أحد خطاباً   تخطّر فى الخطاب وفى الجواب
وإن أرحلْ وان البثْ مكانى   تمايل فى المجئ وفى الذهاب
فلستُ حياله إلاّ خيالا   يجدُّ – متى يجدّ – إلى سراب
نكبت بشرِّه وأنا وليد   ورافقنى أذاه فى شبابى
وسوف يظلُّ مرصوداً لرزئى   إلى مابعد درجى فى التراب ..

(عاصمة الأرجنتين)   الياس قنصل

القصص

صور من هوميروس

١٤ – حروب طروادة
أخيل يبكي بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتل بتروكلوس !

وانقلب هذا النصر المؤزر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون ، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة !

وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ما حل بمولاهم ، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة ، وتدوم على رؤوسهم ، تكاد تخطفهم ، كان هكتور وملؤه ينزعون عدة أخيل ، دون أن يلقوا أقل معارضة ! .. ..

ثم أفاق الميرميدون بصيحة من منالايوس العظيم ، اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدماً ، وناضل وحده عن الجثمان العزيز ، الذي كان هكتور يعنى نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله معرضاً هنالك ، يشهد له بالشجاعة المغتصبة ، والجراءة المزورة ، والبطولة التي لم يكن لها بأهل ؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير ، وتغتذي بلحمه المر سباع طروادة وكلابها ! .. .. ..

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منالايوس ، ولكنه انقضاض المهموم المحزون ، وهجمة المرزأ المكدود ؛ فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أنقذوا من بتروكلوس الداهية ، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة من قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم .. ..

واستطاع منالايوس ، بعد لأى شديد وجهد أن يحمل الجثة ، يساعده مريونيس الكبير ، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية ، يحمى ظهورهما أجاكس وجنوده

وذعر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس ، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشتغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم ، والرثاء لما حل بهم من بعده ، والفزع الأكبر للقاء أخيل .. .. لا يتقدمهم اليه قائدهم .. ..

ولجأ منالايوس إلى الحيلة ، وفكر من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل ، عسى أن يقدم فيقود أجناده ، ويتم النصر للهيلانيين ، فأرسل اليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم ، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما لغط به هكتور

ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل ، ما آثر أن ينفذ اليه به ! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر ، وماد الشاطئ ، وتجاوبت لها جنبات الجبال ، ثم بكى ، فاربد أديم السماء واعتكر ، واحتلك الضحى وبسر ، وشاعت في العالم ظلمة أهول من ظلمة القبور !

« بتروكلوس ! .. .. »

أفي الحق يا أعز الأصدقاء أنك أوديت ! وا حرباً ! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمني ، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل ؟ ! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يا بتروكلوس ، حتى ولا بحبي ؟ ! .. .. ..

أإلى حتفك كنت تستأذنني إذن ؟ .. ..

ويلى عليك يا بتروكلوس ! ويلى عليك يا أعز الأحباب ... ولم يطق ، فطفق يحثو التراب على رأسه ، ويشد شعره ، فيكاد ينزعه ، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته الداويات

وانتفض الموج ، وفار الماء ؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد ، واصطخب بما يؤوده من كمد ، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه ، حتى وصلت إلى الأعماق .. .. حيث تأوى ذيتيس إلى زوجها ، رب البحار السفلية ، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة ، وأحست بما يأخذه من ألم ، ويمزق حشاه من عناء ؛ فصرخت ثمة صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر ، وعذارى

الماء ، من حوريات نربوس (١) ، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الشبح ، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الدرى ، ثم انتظمن صفوفاً صفوفاً ، ورحن يتهادين وراء ذيتيس ، مرسلاتٍ فى الأعماق أناشيد الحزَن ، طاوياتٍ ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكة مولاهن ، وبين شطئان إليوم ؛ حتى إذا كُنّ عند الأسطول الهيلانى طفون فوق الماء ، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة ، وارتد البحر بربهن فردوس نعيم ! !

وبرزت ذيتيس فرفّت سفينة ابنها أخيل الباكى الآنّ الحزين ؛ وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون ، وجعلت تُهوّن عليه أمر صاحبه ، وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفّاق أشد الفَرَق ، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة ، كما أنبأتها بها ساحرات الماء ..

وأن أخيل أنة شديدة ، وقال لأمه : « أماه ! هكذا قدر لنا أن نلقى ما حتمه القضاء علينا ، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال ، ولكن خبرينى بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها ، وما دام أعز أحبابى وأودائى ملقى فوق هذه الساحة النكراء ، ذبيحاً بين أشقى الخصوم الألداء ! !

آه يا بتروكلوس ! لقد شفى هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادراً ، وحين انتزع عدتك غادراً ، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً !

وهذه العدة يا أماه ! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الآلهة الى بليوس ، أبى ، رب الأعماق ، وهدية من أبى الى ؟ !

أبداً لن أعود معك الى حيث العار الأبدى ينتظرنى ، مالم أثأر لأوفى أحبّائى بتروكلوس ، من هذا النذل ، هكتور ، ومالم أرو هذه الصعدة الظامئة من دمه النجس ، وأقذف فى وجهه بمفاخراته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم . . .

لا . لا ، لا تتحدثى الى عن أوبة تصمنا بالذل الى الأبد يا أماه ، وإنى لأقسم بالسماء ومن فوقها ، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى صدر هكتور ! »

وصمتت ذيتيس قليلا ، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم . فأخبرته بما تحدثت به العرافات عام وُلد ؛ وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة ، والفجيعة التى لا تكون مثلها فجيعة

(١) النريد هم بنات نربوس أحد أرباب الماء ومنهن طائفة كبيرة تخدم ذيتيس ، أم أخيل

ولكن أخيل تبسم ابتسامة محزونة ، وتحدث الى أمه عن المجد الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر : « واستبشار الهيلانيين بعودتى لمناصرتهم ووضوح الحق وجلائه لأجاممنون إننى روح الجيش وحماسة الجند ، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين ! صه يا أماه ! فلن تزعجنى مخاوفك ، ولن تلقى فى روعى أقل الجزع . . . لأنه إن كان حقا ما تحدثين اليك به ، فأين يهرب أحدنا من القضاء ! ؟ ! »

وبهتت الأم مما صمم عليه ولدها ؛ ولما أيقنت أن لا سبيل لها إلى قلبه الجرئ ، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود اليه من عند ڤلكان ، الإله الحداد ؛ الذى ستذهب هى اليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما اليه ، ليحمياه فى كل يوم روع ! ! وعاهدها أخيل

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانثنين الى مملكة بليوس ، يحملن اليه أنباء ولده . أما هى ، فانطلقت الى ڤلكان . . . هناك . . . هناك فوق ذروة جبل إطنة ، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم ... يصنع الدروع والعُدد . . .

ولقيها الإله الحداد بالترحاب ، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها ، ولم يأبه أن يصنع مثلها حتى للآلهة ! ! . . . « وكيف لا ، وأخيل الحبيب سيدّرع بها وتحميه من أوشاب الطرواديين ، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس ، الذى تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين . لقد فضحنى السافل فضحته المقادير . . . . . . » (١)

ولكن الساحة كانت تضطرب ، وجموع الطرواديين تأخذ الهيلانيين من كل فج ؛ وكانت حيرا ، مليكة الأولمب ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل ؛ وكانت مينرڤا كذلك تهلع عليهم هلعاً شديدا ...

وتشاور الربّتان ، واتفقتا على أن تُنفذا إيريس الى أخيل ، تأمرانه أن يخوض الكريهة فى جانب الهيلانيين . ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول الى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة . . .

بيد أن حيرا أشارت على مينرڤا أن تنفذ الرسول الى أخيل يحمل اليه درعها ، وكان لمينرڤا درع اسمه ايجيس لم يَصنع مثله لأحد من قبلُ ڤلكان ؛ وأن يَنتهى اليه أنهما تأمرانه بالتوجه

(١) نشرنا هذه الأسطورة التى يقصدها هوميروس فى (الرسالة) من قبل وبحسبنا اليوم الاشارة اليها هنا

الى الساحة فيطلع عليها ليراه الطروادون ، فانه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار ! !

وانطلق إيرليس برسالته الى أخيل ؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب ، وشاعت الكبرياء فى أعطافه لأنه سينال شرفا لم ينله أحد من قبل ، وذلك بأنه سيدّرع بقميص مينرفا ، المسرودة من حديد ! !

وعند ما نهض ليلبس الدرع رأى مينرفا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلا وضاءً من الذهب ، ثم تقوده الى الساحة ! !

وهناك ، وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها ، ثم أرسل فى الآفاق صيحةً داوية ، كانت تنفخ فيها مينرفا فتزيدها قوة وعنفوانا ، فزلزل قلوب الطرواديين وجعلها تدق فى صدور ذويها كالنواقيس ! !

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل ، وما كادوا ينظرون الى هذه الآراد المُنشَّرة فوق رأسه ، والاضواء المتلألئة من إكليله ، حتى سُقط فى أيديهم وارتعدت فرائصهم وولوا على أعقابهم مدبرين ! وكانت خيولهم المذعورة تولى هى الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك ، وتسقط فى الخنادق المحيطة بطروادة ، فتلق فيها حتفها بمن عليها ! !

وتوارت الشمس بالحجاب

فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنالايوس وزميله فى الاسراع بجثة بتروكلوس الى مؤخرة الجيش ، حيث الأمان والاطمئنان ؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه ... فبكى ... وبكى ... واجتمع حوله الميرميدون يبكون

ثم رثاه بكلمة دامعة ، ترجمت عن نفس مكلومة ؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير ؛ وأخذوا جميعا فى غسل الجثة المعفرة بالتراب ، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل ، ولفوها فى مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض .

* * *

واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون فى هدأة الليل ، فخطب بعضهم [1] ناصحا بوجوب التحرز داخل الأسوار فى غد ، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه ، لاسيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس ، وهم لا بد مثئرون له ، مهما كلفهم الأثئار من أرواح ودماء !

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم ، وكأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل ، وما قدر له مما سيلقاه من بطشة أخيل ... وهل غد ببعيد !! ؟؟

* * *

وفى هذه اللحظة أيضاً ، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذى أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الآلهة الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء

وكانت حيرا تسمع إليه وهى تطفر فرحاً ! كيف لا ؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها فى الغد ، فيصليهم عذابا ، ويجرعهم غصصاً ما ذاقوا مذ ترك الحلبة أمثالها ! ؟ ولتحزن ڤينوس ! وليحل غضب السماء على باريس ، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم . . .

* * *

وأشرقت شمس الغد

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد فى الأفق الغربى ، تحمل الدرع التى لم يصنع مثلها فلكان

حتى ولا للآلهة أنفسهم !

والويل لك ياهكتور ! !

(لها بقية) دريني خشبة

(١) بوليداماس

غريب

بقلم حبيب الزحلاوى

لم يكن باقياً من سنة ١٩١٣ سوى شهر واحد وبضعة أيام وقتما وصلت مصر قادماً من دمشق هرباً من مطاردة الحكومة إياى

***

الليلة عيد ، وأجراس الكنائس تدق ، والناس بين داخل البيَع بوجوه تملوها سيماء الرضى والايمان ، وبين خارج منها مسرع الخطى إلى الفنادق الكبرى والمنتديات الخاصة تطلعا إلى الاشتراك فى حفلات العيد

كنت مع الماشين إلى النادى الشرقى وكأنى منساق معهم إليه ؛ ولما دخلته حسبت الناس ينظرون إلى نظرات الاستيحاش والاستغراب

أهاجت فرحة الناس نفسى فتذكرت والدتى وأهلى وإخوانى وقد خلفتهم فى غير هذا البلد الذى كل مافيه ينادينى : « غريب »

تركت صحبى ومواطنى هناك ؛ تركت قلباً وذكريات تتأجج نارها كلما طال البعاد ، وما أحراها بالاضطرام ليلة العيد إذ ذهبت وحدى إلى ذلك النادى أقضى ساعات مع أناس يعرفوننى ولا أعرفهم من أبناء الجالية السورية

كان كل مافى النادى فى تلك الليلة ينم عن المرح والحبور ، وكنت الصامت المستوحش الساهم وحدى بين الجمع ، لأنى « غريب »

***

انقضت سنوات عدة كنت خلالها لا أنقطع عن زيارة النادى ، إذ أصبح لى فيه إخوان وأصدقاء لا يقلون حبا لى ولا يقل تعلقى بهم وإخلاصى لهم عن أولئك الأصدقاء والاخوان الذين خلفتهم فى دمشق

زرت النادى فى ليلة الأحد وأنا متأبط ذراع فتاة عرفتها فيه ، وقد صارت لى زوجة ، وصرت لها بكليتى ، وعقدت حظها بحياتى ، ووقفت على إسعادها وجودى ، وأحسب أنى كنت فى تلك الليلة من أسعد الناس ، وأوفرهم غبطة ، وأحرصهم على تكييف كل شىء بالهناء المرفرف على نفسى ؛ وحينما كان يطوف بذهنى خيال والدتى وأنا وحيدها ، وصورة شقيقتى المحبوبة كنت أحاول استهواء ذاتى وإقناعها بأن قد صار لى فى امرأتى حنان كحنان الأم ، وألفة كألفة الأخت ، فوق حب الزوج لزوجه ، بحيث أضحى محالا أن يطوف بخاطرى طيف « الغريب » أو وحشة البعيد عن أهله ووطنه

***

طوتنى مصر كما طوت الآلاف من الناس الذين وفدوا مثلى عليها ، فأقلمتنى بأقليمها ، ونفخت فىّ روحها ، وألهمتنى وحى بيئتها ، فصيرتنى كأحد أبنائها أقوم بالواجب المفروض بمثل ما يقوم به كل مصرى مخلص حرّ ؛ ولما كنت أعود بذاكرتى صوب الشآم ، مسقط رأسى ومهد حداثتى ، كنت أحس بالحرمان يمزقنى ويكبت روحى ، وأشعر بالواقع يسترضينى ويتودد إلىّ . .

حقاً لقد علمتنى مصر أن أرى فيها وطنى وأهلى ، ولقد تعلمت منها كيف أبادلها الجميل بجميل والوفا بوفاء ؛ لقد علمتنى كيف أحبها وكيف أحافظ على حبى مسقط رأسى ومهد ذكرياتى ، وكنت أصيخ بسمعى دائماً إلى أنات قومى وأوجاعهم ، وأسعى جهدى إلى مزجها بأنات إخوانى المصريين الموجعين ؛ وكنت أعمل ، وسأعمل على أن أجمل من تفاعلات تمازج الأنات المؤلمة ما يزيل العلة الموجعة

***

انقضت سنوات أخرى كنت لا أنفك خلالها عن المجئ إلى النادى الشرقى ؛ وحدث فى عصر يوم من أيام الشتاء أن ذهبت اليه ، وكنت متعب الجسم ، مكدود القوى ، موزع الخاطر ، مشرد الفكر ، فرحت تواً إلى صالة الرقص وانتحيت ناحية فيها أرفه عن خاطرى بقدح من الشراب

ما كنت لأعبأ بالراقصات والراقصين رغم مافيهم من رشاقة ودلال جذابين ؛ وما كنت لأحس ضربات « الجازبند » العنيفة المؤذية للنفس لأنى كنت فى شاغل عن كل ذلك

طال بى الجلوس ؛ هممت بالنهوض ؛ رفعت رأسى عفواً وإذا بى ألمح سيدة جالسة قبالتى على قيد أمتار منى ، ما كدت أتبينها حتى نهضت مسرعاً لتحيتها

عرّفتنى السيدة إلى زوجها ، واكتفت بقولها عنى : « صديقنا » وذكرت اسمى ، فكان هذا التعارف على ما فيه من

بساطة واقتضاب كافياً لاستذكار الزوج ، فنهض مسلماً سلام مودة وصـداقة ، داعياً إياى إلى مجالستهما .. .. انطلقت ألسنتنا بالحديث ، تارة عن الحياة الزوجية وسـعادتها القائمة على التضحية ، والتفاهم ، والطمأنينـة ؛ وطوراً على الأبناء وعناء تربيتهم ، وعما يضحى الآباء فى سبيلهم من عواطف زوجيـة يستغرقها الحنان الوالدى . كنا نتكلم عن كل شىء ، وعن كل إنسان نعرفه فى لبنان بسرور ، ولم ننس الغدير وأحراج الصنوبر ، ودير « القرقفة » فى قرية كفر شيما مسقط رأس السيدة حيث عرفتها هناك ، وكنت ألمح من طرف خفى إلى حوادث الشباب ، ولم يصـدنا عن الاسترسال فى التنقل بالـكلام كالأطفال من موضوع إلى آخر إلا دعوة الزوج زوجه إلى الرقص معه ، واعتذارها بلطف اليه بحجة الرغبة فى الرقص معى رقصة « التانجو »

رقصنا .. .. وكنت إبان الرقص كالساهم الغارق فى حلم لذيذ ؛ كنت أنعم بالراحة كلها فى مخاصرة هذه السيدة التى تنبعث منها الطمأنينة إلى أعماق نفسى ؛ لم أ كلمها ؛ لم أحتل محياها ؛ كنت نشوان بها ؛ لم أسمع كلمة منها ، بل شعرت بجسمها اللين البض يسترخى شيئاً فشيئاً بين ذراعى . كنا سوية كنبرة وتر مزدوجة عزفها موسيقى ماهر ، فصدرت كأنها من وتر واحد ، يدفع خطانا وينقلها نقلا ايقاعياً متناسقاً .. .. وقبل الانصراف تواعدنا على اللقاء فى النادى فى الليلة القادمة

***

طافت بى الخواطر ، ثم ألحت علىّ ، فآثرت العودة إلى البيت ماشياً لأطلقها فى أوسع مجالات الفـكر

رجعت بى الذكريات إلى دمشق يوم بارحتها ويوم لذت بلبنان بقرية صغيرة رابضة فوق ربوة تطل على مهول « الشويفات » ثم البحر ، تكتنفها أحراج الصنوبر وقد انتشر منها أرج الأصماغ ؛ ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة أشبه بقلعة شيدت لحماية الخيالات والأحلام ! ! وتراءت لى أطياف سكان القرية وهى تحج اليه متسلقة الربوة بهمة ونشاط ، يتهادون فى ابتسام الفجر الساحر المغبر تحية الصباح

ذكرت إقبال رجال القرية للسلام علىّ ودعواتهم إياى إلى زيارتهم . ذكرت الساعات الطوال التى كنت أقضيها بين الأحراج أفترش الأرض ، وأناجى الشجر ، وأملأ من جمال الطبيعة قلبى وروحى ؛ تراءت أمام عينى صور شيوخ القرية جالسين فى القهوة يدخنون النارجيلة ويحلمون ، والشباب يلعبون الورق أو يشربون ويغنون ؛ كنت أطرب لسماع أغنيتهم المستمدة من وحى روح الطبيعة الساذجة الهادئة ، والمعبرة عن دوافع الغريزة بأبسط الـكلمات والاشارات

ذكرت تلك الفتـاة القروية عائدة من الـكنيسة بثيابها الفضفاضة ، وضفائرها المنسدلة على كتفيها ، ووجهها الخمرى الزاهر بنفحات الربيع ، وصدرها الناهد ، وقدها الممشوق ، وخطواتها المتزنة الحازمة

كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التى اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها ، وهل فـكرت فى صلاتها فى غير أهلها ممن تعرف من الناس ! ؟ لقد حيرها سؤالى فارتبكت وسكتت عن الجواب ؛ وذكرت أيضاً زيارتى لها فى بيت أهلها وكيف اعترفت لها بحبى وعاهدتها على الزواج ، وتلك الأوقات الحلوة التى كنا نقضيها تارة فى النقاش وقراءة الـكتب ، وطوراً فى التطلع إلى المستقبل والتمهيد لبناء عش سعادتنا

تمثلت يوم عودتى إلى دمشق ، والاضطهاد الذى أصابنى من حكومتها ، وفرارى من السجن والتجائى إلى مصر بعد الحـكم علىّ وعلى زملائى بالنفى المؤبد ، لا لشىء إلا لأننا من دعاة الاستقلال الظامئين إلى الحرية

ذكرت كل هذا والطريق يمتد أمامى ؛ كانت ظلمته تبعث فى نفسى رؤيا تلك الأيام التى ودعتها منذ سنين فى أرض الوطن وطويتها بين ضلوعى ، وبدالى كأن ماضى يبعث من جديد وينشر فجأة ؛ تجسمت أمامى الحوادث كأنما لم يمر عليها ساعات ، ذلك العهد الباسم الذى أمضيته وإياها ، خيل إلى أن هذا الماضى الماثل القريب قد ضاع منى كله ، كأن بينى وبينه برزخاً ... فجوة الزمن ، والحنث بالعهد ، تفصل بيننا !!!

ارتدت بى الذكرى فجأة إلى النادى الشرقى ، فاستشعرت تلك الذراع الفضة منبسطة فوق كتفى ، والصدر الملىء ما برح يتموج مختلجاً بين ذراعى ؛ جاشت نفسى بالذكرى ، وعضضت شفتى ندماً وقلت : ليتنى ، ليتنى ما حنثت باليمين .. ..

***

ما كنت أحسبنى أستعيد مرح الصبا ونشوة الرقص ، وقد أرهقنى الزواج البكر بأحمال من الرزانة ، وبأثقال من الوقار ، وبكل ما تفتعله أكاذيب العادات ونفاق التقاليد

لم أكن أنشد فى الرقص ما ينشده شبان ينتقلون كالنحلة من زهرة الى زهرة ، يرتشفون من ندى زهرات الحياة ما يرتشفون . . . لم أكن كعقلاء العزاب أو جهالهم أبحث عن فتاة فيها من أوصاف الجمال الجثمانى ، أو طيش الطباع النزاعة الى العبث واللهو ، أو وفرة المال للزواج ، بل كنت مكبوت النفس بحب قديم لم تقو صروف الزمان ومناسباته ولا تطورات الفكر على خنقه ؛ لا غرابة فى خمود ذلك الحب طوال السنين ، بل الغرابة لو لم يستيقظ ويستنهض فىّ دوافع الميول المستقرة فى أعماق قلبى بكامل ما فيها من قوى الحياة تهليلا للحب البكر البرئ

لقد كنت والسيدة أحرص ما نكون على إخفاء أمارات الحب فى عيوننا ؛ لم يكن فى مظاهرنا ما يلهم غريزة المرأة استشعار الواقع بدليل أن امرأتى لم تدرك شيئاً منه ؛ أما زوجها فقد كان له من أقداح الوسكى وأحاديث البورصة والمضاربات ما يشغله عنا ، فلم يع شيئاً من ذلك أيضاً ؛ وهكذا كانت تنقضى ليالى الاجتماع بمظهرين : مظهر النفس المتأججة بلاعج من حب باطنى ، ومظهر السكوت الدال على الاندماج الكلى فى وحدانية الحب المقدس ، وعلى التجاوب الروحى والتفاهم الجسدى حين المخاصرة

لم يعد طبيعياً أن تطاوعنا عناصر الوجود على استدامة هذه الحال ، فلما همست أخفتَ همسة فى أذن « حبيبتى » أطلب منها لقاء على انفراد ، أومأت بهدب جفنها إيماءة الرضى وأتبعتها بلمحة من بسمة ارتسمت على جانب شفتها ، ونظرت الى نظرة طويلة ... ثم فتحت فاها كأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولكنها أحجمت وأطبقت شفتيها ... ثم عادت فاشترطت أن يكون اللقاء فى الريف على ضفاف النيل ، وألا يرى أحدنا الآخر إلا فى الموعد المضروب ؛ رضيت بهذا الشرط الصارم وحرمانى منها طيلة عشرة أيام

***

هبنا كنت أحاول إخماد حدة الأزمة النفسية التى ساورتنى ففزعت الى « الأقصر » أستمد السكون والهدوء من مشاهدة آثار العصور الخوالى فى وادى الملوك ، ولكن متى كانت صور الفن تصرف الذهن عن الصور الحية ، وكيف يهدأ قلب استفاق من هجمة الحب الأول على صراخ تأنيب الضمير ؟

عجبا ! لم جعلت اللقاء بعد عشرة أيام ودعمته ألا يرى أحدنا الآخر خلالها ؟ هل رمت من وراء هذا التباعد الى إثارة قوى الدفع والجذب التى تكون وليدة الآمال المرتجاة ؟ هل شاءت بباعث من غرائزها التى يعمل عقل الرجل مجتهدا فى حل رموزها أن تمتحن الفوارق بين اللقاء المكظوم فى صالة الرقص وبين اللقاء الموعود فى الريف ؟ هل أرادت أن تستجم للقاء كما يستجم الشاعر لابداع قصيدة ، والعابد لتمتمة صلاة غير مسطورة فى كتاب ، والصوفى للاندماج فى وحدانية الله ؟ وإنما رغبت فى أن يكون لقانا اللقاء الأخير وموقف الوداع قبل السفر ! !

... ... دنا الموعد ، اقتربت ساعة اللقاء ، وقفت أنتظر قدوم سيارتها وأرقب دقائق الساعة بضجر ملحّ ، وأعدّ الثوانى باضطراب . تمضى الثوانى والدقائق والساعات ، بل العمر كله يمضى فى طريق الزمن والزمن لا ينفك منذ الأزل وسيبقى مدى الآباد يسير بنظام محكم الضبط إلا أنا ، أنا الشاذ المضطرب ، الصاخب الهادئ ، المفكر المبلبل ، أنا السعيد الحزين ، والباكى الضاحك ، أنا الذى أعيش فى أرض يلوح لى الآن أنها تدور دورة معكوسة ! ! !

لمحت سيارتها مطلة من بعيد فشعرت بدمى يندفع حاراً فى عروق وسمعت بأذنى وجيب قلبى ... وقفت السيارة ، وإذ فتح بابها رأيت السيدة جالسة والى جانبها صبى صغير ، وكانت مرتدية ثوبا أزرق وقد أمالت رأسها الى جانب من السيارة ، رأيت فى عينيها الحالمتين فتورا ساحراً غريباً ؛ وقفت زهاء نصف دقيقة ذاهلاً مبهوتا لم أستطع النطق حتى بالتحية ؛ خيل الى أنى قد استجمعت فى هذه الفترة كل ماضينا ... والتفت فوقعت عيناى على الصبى ... وانقبض قلبى ؛ غام الضوء فى نظرى وشعرت بحزن طارئ يستولى على ، كبحت جماح عواطفى ، وتمثلت الابتسام ، وكانت قد أفسحت لى مجالا فوثبت الى المقعد ورأيتنى بالقرب منها

لم أدر السبب الذى حدا بى كى أستجيب وأصعد الى السيارة ؛ لقد غمرنى مرأى الصبى باحساس مؤلم قوى لم أكن أتوقعه حتى لقد وددت أن أفر بنفسى

وكأنما قد أشفقت على ، فلم تتكلم ، بل مدت بأطراف الأنامل يدها وتلاقت يدانا فى مصافحة صامتة ، وكانت يدى باردة كالثلج بينما كان الدفء يسرى من كفها . ثم قربت يدها شيئاً فشيئاً حتى احتوتها يدى ، فضغطت عليها ضغطة قوية كأنما أردت

أن أهرب من برودة قارسة الى حرارة الحياة

استأنسنا بالصمت ، ثم تلاقت عينانا ؛ كان فى نظراتى شبه استعتاب لمجيء الصبي معها ، وكأنها فهمت ذلك بالنظرة الخاطفة فتساءت أن تعدل عنها ، وتبسمت واهتزت يدها فى يدى تريد أن تذكرنى بأنى أضغط فى عنف عليها ، وتألق فى عينيها لمعان ... هذا اللمعان الذى أبصرته فى مقلتيها الكستنائيتين أول مرة عرفتها ، لمعان قوى كضوء باهر فى ليلة شتاء يسطع بين السحب ثم يختفى ... أجل ؛ بدا لى أننى أعثر فى تلك السيدة على أشياء ما رأيت قط مثلها فى امرأة من قبل ، وكان هذا محور حياتى معها وتاريخ حبي لها ... فيها أشياء كالنور حينا والحرارة حينا ؛ فيها صمت لا أدرى قراره ... وشممت عطرها القديم الذى طالما ملأت منه رئتى ، فاسترحت

* * *

السيارة ماضية بنا تنهب الطريق الممتد بين حقول القطن تظلله غصون الشجر ، لم أكن لأستطيع فى هذا الحين جمع خواطرى لأنها كانت تتناثر كالشرر ، إنما كنت أحس كأنى انفصلت عن العالم وانقطعت صلتى بالناس ، بالحياة وبالواجب أيضاً

هاهى إلى جانبى ، المرأة التى كنت ركزت عليها آمال الشباب ، هاهى مبعث الحلم البعيد الذى يصطخب فى قرارة تصوراتى ، هاهى الومضة الخاطفة التى بإشعاعاتها تنير أجواء التفاؤل فى حياتى ، لقد حققت بوجودها جميع صور الخيال وأطياف الأحلام ، هاهى بروحها وجسمها إلى جانبى لا يحتجزها عن الالتصاق بى سوى طفلها الجالس فى هدوء كأنه يحلم مثلنا

. . . علام أتجاهل حياتها الواقعة ، بل لم أتغافل عن الأمر الواقع الصارخ ؟ إن قوانين الحياة وتقاليدها البغيضة تسرى علينا سوياً ، فلماذا أحاول أن أبعث فى نفسها أنانية متمردة شرهة كالتى تعج بها نفسى ؟ كلنا أسرى العواطف ، عبيد الشهوات ، أفلا يليق بنا وقد ولجنا عالم الانسانية من أبواب الشعر أن نقيم لسيول الشهوة العمياء سدوداً تحول دون اجترافنا ؟ أجل ، إنى لأنزه الحب عن أن يكون مجرد مادة ، كما انى أتبرم به متى كان حرماناً صرفاً . يسمو الحب على الحقائق ولكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يستهين بها ؛ فلماذا تتألم نفسى من وجود الصبي بيننا ؟

يسمو الحب على الحقائق ، ولكنه متى نما واكتمل وازدهر ، وتسنم ذروته العليا فقد يخضع لهذه الحقائق عن رضى لأن سر عظمته فى اللين والخضوع ! !

لماذا أفزع من وجود الصبي ؟ لقد جاءت به لتفصلنى عنها ، لتضع سداً بيني وبينها ، لتنقذ حبى من التردى فى مهاوى الواقع والفناء فى ظلمة الحقيقة ... إنها تحبنى ، أشعر بهذا من رعشات يدها ، ورجفات جفنيها ، من شفتيها المختلجتين وعينيها المتقدتين شهوة وحسرة ، تحبنى ولكنها لا تريد الاستسلام ، تحبنى وتخشى إن هى استسلمت ثم افترقنا على مضض ، كما يقضى بذلك الواجب ، أن تعذبنى الحسرة وتشقيها اللوعة ، وأن تترك من شخصها فى خيالى صورة بشعة ملوثة تهبط بهذا الحب الرائع القدسي إلى درك الحيوانية الأولى ! !

إنها تريد أن تكون بكليتها لى ، أولا تكون لى أبداً ، وما دامت سترحل فى الغد ، عائدة إلى لبنان ، فهى تؤثر أن تحرمنى كل شيء على أن تسقيني من كأس بدنها الشهى جرعة واحدة لا تنقع غلتى ولا بد أن تسمم فى المستقبل كل حياتى

أواه ! لقد أدركت ما يجول بخاطرى ، هاهى تتفرس فى وتتأملنى وتشفق على منذ الآن ، ويكاد الدمع يطفر من عينيها

لماذا ؟ لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ ! أخذت رأسها بين ذراعى ألاطف شعرها بينما كانت تنتفض ودموعها الحارة تتساقط على يدى

تجاه هذه الدموع لم أجد بداً من الاذعان لها ، أشفقت عليها كما أشفقت على ، سموت بحبى كما أرادت أن تسمو بحبها ، عولت على ألا أعترض القدر ، وأن أنزل ما أستطعت على حكم هذه المرأة التى علمتنى أن فى وسع الانسان أن يعيش بالروح أكثر مما يعيش بالجسد ، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر لا على المادة فقط ، بل على الزمن أيضاً

أرسلت نفساً طويلا فرّج عن صدرى ، وضاعف أعصابى صلابة وقوة ، فتنحيت قليلا ومددت رأسى إلى حيث سائق السيارة وغمغمت بهذه الكلمات : « عد من حيث أتيت »

حدّقت فىّ وأشرق وجهها بغتة ، ثم أطرقت برأسها ولمست يدى ورفعتها برفق إلى شفتيها ، فشعرت بالقبلة الهادئة تجمع بيننا إلى الأبد

عادت بنا السيارة تنهب الأرض ، والأشجار تتعاقب ، والهواء يصفر ، والصبي يضحك ، وأنا أردد فى نفسى هذه الكلمات : غريب ! غريب ! غريب !

حبيب الزحلاوى

البريد الأدبي

أسبوع المتنبي في الجامعة المصرية

اعتزمت كلية الآداب أن تقيم أسبوعاً حافلا للمتنبي بمناسبة انقضاء ألف سنة على وفاته في أوائل العشرة الثانية من شهر رمضان سنة ١٣٥٤ في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، وسيلقى أساتذة الكلية محاضراتهم على الترتيب الآتي :

الدكتور طه حسين	المتنبي في شبابه (من مولده إلى اتصاله بسيف الدولة)
الأستاذ عبد الحميد العبادي	سيف الدولة
الأستاذ أحمد أمين	المتنبي وسيف الدولة
الدكتور حسن ابراهيم	كافور الأخشيدي
الأستاذ أحمد الشايب	المتنبي في مصر
الدكتور عبد الوهاب عزام	المتنبي من لدن خروجه من مصر إلى وفاته
الأستاذ ابراهيم مصطفى	المتنبي والنحاة
الأستاذ عبد الوهاب حموده	أسلوب المتنبي
الأستاذ مصطفى عبد الرازق	فلسفة المتنبي

وسيتخلل هذه المحاضرات إنشاد بعض قصائد المتنبي وغناء قطع من شعره

سيلفان ليفي حجة التاريخ والحضارات الهندية

نعى الينا من باريس العلامة والمؤرخ الفرنسي الكبير الأستاذ سيلفان ليفي أستاذ التاريخ الهندي وحضارات الشرق الأقصى بالكوليج ده فرانس . توفي في الثمانية والسبعين من عمره بعد أن قطع زهاء نصف قرن بدرس الحضارات الهندية والصينية ، وكان مولده سنة ١٨٦٣ من أسرة يهودية ؛ وكان سيلفان ليفي علامة واسع الثقافة ، ولغوياً ضليعاً ، وحجة في شؤون الحضارات الهندية والصينية واليابانية ، وفي حل المخطوطات والرموز الهندية والصينية القديمة . وقد ظهر منذ شبابه بميله إلى هذه الدراسة الفريدة ، فكتب «رسالته» لنيل العالمية عن «المسرح الهندي» وتاريخه وتطوراته وخواصه ، ودرس الديانة البوذية دراسة واسعة ، وكذلك الفلسفة البوذية والبرهمية ووضع عنها رسائل وبحوثاً عديدة ؛ وقام الأستاذ ليفي بعدة رحلات علمية واستكشافية في بلاد الهند والهند الصينية واليابان وجاوه ، وفي بلاد التبت وسيبريا ، وكتب على أثر رحلاته الهندية كتاباً عن بلاد « نيبال » والتبت ، وهو يعتبر من أعظم كتبه إن لم يكن أعظمها . ثم نشر بعد ذلك مؤلفاً ضخما عن « الهند والعالم » شرح فيه الدور الذي قامت به الحضارة الهندية في تكوين الفكر الانساني والحضارة الانسانية

وقد كان سيلفان ليفي أستاذاً في معهد الدراسات العليا ، ثم أستاذاً في الكوليج ده فرانس منذ سنة ١٨٩٤ ؛ ثم تولى رئاسة قسم العلوم الدينية في معهد الدراسات العليا . وكان عضواً عاملا ومراسلا في معظم الجمعيات العلمية الكبرى التي تعنى بالشرقيات ، وكان منذ سنة ١٨٢٨ رئيساً «للجمعية الأسيوية »

ومنذ نحو أربعين عاماً يشغل سيلفان ليفي بين علماء الشرقيات مركزاً فريداً ، فهو الحجة الثقة ، وهو المرجع المفرد في أخص المسائل التاريخية والاجتماعية والأثرية الهندية والصينية ؛ وفي قراءة اللغات الهندية القديمة ولا سيما السنسكريتية التي كان من أعلامها والتي تلقاها على أستاذه بورجيني أشهر علمائها في القرن الماضي

وكان لسيلفان ليفي أكبر الفضل في احياء كثير من اللهجات الأسيوية القديمة ، وكان لمباحثه وجهوده الدراسية والأثرية أكبر الفضل في القاء ضوء كبير على الدور الخطير الذي قام به التفكير الهندي القديم في توجيه التفكير الأوربي وفي تكوين الحضارة الحديثة . وأخيراً كان سيلفان ليفي حجة الشؤون الاستعمارية في الشرق الأقصى ، ترجع اليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس الشؤون الاجتماعية والنفسية لشعوب الهند الصينية ، وفيما تقوم به من المشروعات الاصلاحية والعمرانية

وكان يتمتع بحيوية مدهشة ، فقد لبث حتى أواخر أيامه

منكباً على مباحثه ودراساته ؛ وقد حضر مؤتمر المستشرقين الأخير فى رومه وألقى فيه خطبة باللاتينية كانت موضع التقدير والاعجاب ؛ وكانت وفاته فجأة وفى ذروة القوة والنشاط

حول قبر الصفدى — الى الأستاذ على الطنطاوى

أذكر حين زيارة المرحوم زكى باشا لقبر الصلاح الصفدى فى حارة يهود صفد أن مؤرخ فلسطين الأستاذ عبد الله مخلص ذكّر الباشا أن الصلاح الصفدى ، خليل بن أيبك مرموس فى دمشق ؛ وكأن هذا التذكير لم يرق للباشا الذى يريد أن يزرع كل أقطاب الاسلام فى فلسطين فلعل فيهم سياجاً يدرأ ما ينتابها من المحن — رحمه الله ! ولما لحظ عليه الأستاذ المخلص هذا ساق اليه حديثاً آخر ، وهو أن عالماً دمشقياً قبر فى صفد ، وكان معاصراً لابن أيبك ، وبعد مدة نقل ذووه رفاته إلى دمشق ؛ وأضاف : لعل عادة نقل الرفات كانت أمراً شائعاً فى ذلك الزمان ، ولا يستبعد أن يكون أهل الصلاح نقلوه من دمشق إلى صفد وقبروه فى هذا المنزل الذى كان عامراً بذكر لا إله إلا الله ! ! فضحك الباشا وقال بلهجته المصرية الحلوة : أيوه جبوه ! جبوه ؟ لقد فرجت عنى والله !

وكان من مساعى شيخ العروبة أن بنت جمعية الشبان المسلمين قاعة كبرى فى موقع ممتاز فى البلد لتكون غرفة مطالعة باسم « مكتبة الصلاح الصفدى » ، وعلى أن تضاف اليها غرفة مقببة تنقل اليها رفات هذا القبر المهين ، فتكون مزاراً لعارفى فضل ابن أيبك ولكن « الله يعمرك يا صفد » والسلام

صفدى آخر

نظريات الجنس والسلالة

صدر أخيرا فى انكلترا كتاب تثير قراءته كثيرا من الاهتمام وعنوانه : « نحن الأوربيين » We Europeans وضعه كاتبان عالمان هما جوليان هكسلى و ا . هادون ، وموضوعه استعراض نظرية الجنس والسلالة التى تثير اليوم كثيرا من الجدل . وهو على صغر حجمه يفيض مادة ووضوحا ؛ وقد استعرضت فيه النظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الانسان وما يكتنف تكوين الأمم الأوربية من العوامل ؛ وفيه شرح شائق لنظرية السلالة المزعومة التى اتخذت فى ألمانيا ستارا لأغراض السياسة . ويذهب المؤلفان الى أن البيولوجيا لم تبق بعد داروينية النزعة (نسبة الى داروين) بل غدت مندلية النزعة (نسبة الى مندل صاحب مذهب الوراثة) . والمعروف أن الوراثة البيولوجية تحدث خلال آلاف الوحدات ، ولكن الخواص العقلية والجسمية تتأثر أيضا بمؤثرات المحيط والطبيعة والتربية ، ومن الممكن أن يصقل العقل والخلق بالمران ؛ ويدلل المؤلفان بطريقة بديعة على أن معظم الخواص التى يزعم هتلر ودعاته أنها جنسية ترجع الى فعل السلالة ، إن هى فى الحقيقة إلا خواص ثقافية محضة . فان الانسان له وراثة اجتماعية كما أن له وراثة بيولوجية ، ومن الصعب علينا أن نستخرج الخواص القومية من غيرها ؛ بيد أننا نستطيع أن نعين المؤثرات الاجتماعية بطريقة حاسمة . ويدلل المؤلفان على نظريتهما بأمثلة جنسية وقومية واضحة غير اليهود الذين هم اليوم هدف لمطاعن الجنس والسلالة . ويذهب المؤلفان أيضا الى أنه لا توجد ثمة أجناس نقية ، ذلك أن الانسان يتأثر خلال الأجيال بعثات الأجداد والأسلاف ، ويشتق منهم جميعا ؛ والواقع أن كلمة « الجنس » قد فقدت معناها بالنسبة للجماعات الانسانية . وأما هذه المزاعم الحديثة التى تنسب الى الجنس والسلالة فليست سوى « علم مزعوم » ينظم لتستتر وراءه غايات السياسة

وفاة شاعر روسى

توفى أخيراً فى باريس شاعر روسى فتى هو بوريس بوبلافسكى . وباريس هى كما نعلم مهجر الروس البيض الذين يخاصمون البلشفية وعقيدتها ، وفى باريس يترعرع أدب روسى ناشئ هو أدب المهجر ، يتأثر تأثيراً كبيراً بالأدب الفرنسى ؛ وقد كان بوريس بوبلافسكى من أعلام هذه الحركة الأدبية ومن أقوى ممثليها ، وفد على باريس حدثاً ، وتكون فيها تحت تأثير الأدب الفرنسى ، فنشأ يمثل مزيجاً بديعاً من الأدبين الروسى والفرنسى وظهر بنظمه القوى المؤثر حتى شبهه بعضهم ببعض أكابر الشعر الفرنسى المعاصر مثل رمبو وأبو لنير

وكان بوبلافسكى ينشر قصائده ومقطوعاته فى بعض المجلات التى يصدرها الروس المهاجرون مثل مجلة « الأخبار المعاصرة » ومجلة « تقينو » ومجلة « تسلى » ؛ وكان علما بارزا بين أدباء المهجر على رغم حداثته . وفى سنة ١٩٣١ نشر مجموعة شعرية بالفرنسية عنوانها « الاعلام » Les Drapeaux . وقد ترك عند وفاته مجموعة شعرية أخرى لم تنشر ، وكذلك قصتين . وكان

الكتب

(١) المختار للأستاذ عبد العزيز البشرى

(٢) المرشد العربي للسيد سهيل السيد

للأستاذ محمد بك كرد على

— ١ —

خُصّ الأستاذ البشرى بالاجادة البالغة فى ضروب الكلام . وكتابه « فى المرآة » شاهد بتفوقه فى هذه الصناعة ، وأنه نسيج وحده فى أسلوب الجد فى الهزل والهزل فى الجد ، ساعده على هذا الابداع والامتاع تمكنه من ناصية اللغة ، وقبضه على قياد الآداب ، إلى ما فُطر عليه من ظرف شفاف ، إذا تنادر وإذا تهكم ، وأتى يودع الآن كتابه « المختار » بعض ما أبدع فيه من المقالات والمسامرات والمحاضرات ، فكان له المنّة على أبناء هذه اللغة بما ينوّع لها من أصناف القول ، وبما يحمل إلى مختلف الطبقات من ألفاظ ومعان وتراكيب لا يكادون يقعون عليها إلا فى كلام نبغاء البلغاء

البشرىّ كالجاحظ إذا عرضت له النكتة قالها لا يبالى ، وإذا اقتضته الحال أن يتهكم تهكم ، يدخل السرور على قلب قارئه ويعلمه ولا يشقّ عليه ، وقليل جداً فى فصحاء جيلنا من تهيأت له الذرائع إلى إتقان فنه هذا الاتقان ، وقليل مثله من عرفوا الحياة ولابسوها كما أرادت ثم قابلوها بالضحك والسخرية ، وقليل جداً من خبروا المجتمع المصرى خبرته ، فكتب ما توقع منه نفعاً فى رفع مستواه الأدبى

أحسن الأستاذ خليل بك مطران بقوله فى تقدمة كتاب البشرى إنه متحف حافل بالفاخر ، وإن كل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع فى تدبر وروية وقد كسر كتابه هذا على ثلاثة أبواب « الأدب » و « الوصف » و « التراجم » . فعالج فى الأدب فصولاً فى القصص ، والنقد الأدبى ، والأدب بين القديم والجديد ، والأدب القومى وغير ذلك ، وفى باب الوصف جوّد فى مقالة « الراديو » ، كما يصفه أعرابى قادم من البادية و « فى الطيارة بين ألماظة والدخيلة » وفى غيرها من الفصول . وفى التراجم ترجم لحسين رشدى باشا من رجال السياسة وللشيخ على يوسف من أرباب الصحافة ولمحمد بك الويلحى من أهل الأدب . ترجم لهم بروح جدّ فكانت ترجمته على مثال التراجم المتعارفة . أما يوم ترجم « فى المرآة » مثلا للشيخ أبى الفضل

وبلافسكى أيضا كاتبا مجيداً وباحثا ؛ وكان حركة مضطرمة ، وقد توفى فى أوج قوته وعنفوان شاعريته ، وأحدث موته فزعا كبيراً فى أدب المهجر . وأثار بين مواطنيه فى المهجر أعما حزن وأسى

جائزة نوبل

منحت الجائزة الأولى من جوائز نوبل هذا العام ، وهى جائزة الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) لعالم ألمانى هو الأستاذ هانز شبيمان من أساتذة جامعة فريبورج : ومما يجدر ذكره أن هذه هى المدة الرابعة التى يرشح فيها الأستاذ شبيمان نفسه لنيل هذه الجائزة الشهيرة

والأستاذ شبيمان فى نحو السبعين من عمره ؛ وهو يخصص حياته منذ ثلاثين عاما للعمل فى سبيل التكوينات الميكروسكبية ، وقد نجح أثناء مباحثه فى نقل بعض الأعضاء الحيوية الى « الأجنة » وجعل فيها مخلوقات جديدة ، وهذا ما يسمى فى اللغة العلمية « بالخياليات »

وقد انتهت مباحثه فى هذه « الخياليات » الى نتائج تلفت الأنظار ؛ وكان أن استحق معها جائزة نوبل وقدرها نحو سبعمائة ألف فرنك فرنسى (أعنى نحو عشرة آلاف جنيه) ، وبذلك تنتهى هذه الحياة العلمية الباهرة بحياة رغد وثراء .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن العلماء الألمان والنمسويين هم أكثر العلماء نيلا لجوائز نوبل وخصوصا فى النواحى العلمية المحضة مثل الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضية ؛ ولم يمر عام لم يظفر فيه واحد منهم أو أكثر بجوائز نوبل . أما جوائز نوبل الأدبية فأكثر ما يظفر بها الكتاب الإنكليز أو الأمم اللاتينية

الجيزاوى ولأحمد مظلوم باشا وللدكتور محجوب ثابت فانه أتى بالرقص المطرب، وربما لم يكتب لأحد من المحدثين إن وُفّق الى مثل هذه الاجادة فى تصوير الصفات والحركات بهذه الطريقة

وبعد فان أدب الشيخ البشرى لا يتذوقه كما قال شاعر العرب مطران إلا من يدرسه ويعاود دراسته بروية وتبصر. وصاحبه واحد من بضعة المنشئين فى هذا العصر، يحاولون بأسلوبهم - ولكل واحد منهم أسلوبه على حياله - أن يعيدوا الى العربية رونقها القديم من الجزالة والسلاسة، والبعد عن السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر.

والملهم موفقون الى بلوغ الغرض الذى سددوا سهام أقلامهم اليه.

— ٢ —

أعجبني من هذا الدليل فى القسم الاسرائيلى منه وصف عمال اليهود فى فلسطين و « لعل أرفه حياة يعيشها عامل فى العالم كله هى حياة العامل اليهودى فى فلسطين » بفضل « الهستدروت » أى النقابة العامة لعمال اليهود. وهى جمعية توزع العمل على العمال وتدافع عن حقوقهم وتكره أصحاب الأعمال على التقيد بأنظمتها وتؤمن حياة العمال وتجد لهم عملاً وتوزع العمل بينهم فى الأزمات وعند تكاثر العمال وهبوط الأعمال. وللهستدروت شركات تعاون وقرى يعيش ساكنوها عيشة اشتراكية. قال ان الفلاحين فى القرى الاشتراكية يعيشون حياة غريبة الشكل بالنسبة للشعوب الأخرى. خصوصاً الشعوب العربية. فهم لا يتناولون أجراً ولا يعرفون قيمة الدراهم. بل يعملون فى قراهم بدون أجر، يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتنزهون ويتطببون ويتزوجون ويتناسلون، من غير أن يكلفوا بدفع فلس واحد، لا يعترفون برئيس ولا زعيم، ولا يحملون للاديان السماوية سلطاناً كبيراً عليهم، وكلهم فى نظر اخوانهم يتساوون فى الحقوق والواجبات؛ وقد لاحظ الكاتب أنه يصعب على كل انسان أن يعيش عيشاً اشتراكيا كما يعيش هؤلاء إلا إذا كان على جانب من العلم والثقافة، ويميل بفطرته إلى الحرية المطلقة، على ألا يستعمل هذه الحرية فى خرق الأنظمة والقوانين؛ ومن أهم شركات التعاون شركة المساكن، ولها بنايات ضخمة فى البلدان التى ينزل فيها العمال مثل حيفا وتل أبيب، وتتألف هذه البنايات من ١٥٠ بيتاً، ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بالسعة، وكلها مبنية على طراز واحد استكمل شروط الصحة والفن

ويعيش الأولاد فى القرى الاشتراكية حياة مستقلة تختلف عن حياة الكبار، فلهم بيوت ومطاعم خاصة ومطبخ مستقل ومربيات خصوصيات، قال: والانسان الاشتراكى لا يعيش هنا لنفسه فقط، بل للمجموع، وعليه أن يجدّ لسعادة المجموعة الاشتراكية أوالأخوية الاشتراكية التى يعايشها، ولا يحاول أن يعتلى على زملائه أو يتحكم فيهم، فهو عامل وشريك، ورأس مالى وفقير معدم فى وقت واحد؛ والأغرب أن على هذا الانسان الذى يعيش بدون أمل فى الرفعة والتودد الشخصى أن يجد ويجتهد، ويعمل بهمة ونشاط كما لو كان يعمل لمستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده؛ وإذا لاحظ اخوانه فى الاشتراكية أنه كسول خامل، يعمل أقل مما يقدر على عمله، لا يتوانون عن افهامه بلطف وجوب مغادرتهم، فان تجاهل أفهموه صراحة وحكموا بطرده؛ ومتى زهد فى الحياة الاشتراكية تقدم له الجمعية نفقات سفره إلى المكان الذى يقصده، وإن رغب احد الاشتراكيين فى زيارة أهله نقدوه نفقات سفره ذهاباً واياباً إلى أقصى الأرض ليعود اليهم بعد انقضاء مدة الأذن، ومن كان له فقراء من أهله فى مدن أخرى، تقدم له المجموعة الاشتراكية مبلغاً شهرياً لا يتجاوز الجنيهين، وفى هذا الدليل فوائد كثيرة ينبغى للفلاح المصرى والشامى والعراقى أن يتعلموها، وينسجوا على منوالها بما يلائم طباعهم وعاداتهم

محمد كرد على

Lundi-25-11-1935

3 me Année, No. 125.

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

على هامش الموضوع أيضا

عطف جميل ...

وجَّه الكاتب الفرنسى النابه فكتور مرجريت نداء صارخا إلى « الضمير البشرى والعالَم الحر » ، أهاب فيه بذوى الوجدان من بنى الانسان أن يتعاونوا على دفع الظلم وكف الأذى عن مصر التى كابدت أضرار الرق ، وعالجت آصار الذل ، ثلاثاً وخمسين سنة لم يفتُر لصَرْخاها استغاثة ، ولم يسكن لصرعاها أنين ؛ ثم ناشد أعلام الذكاء الفرنسى أن يظاهروه على هذا النداء ، فأمضاه منهم خمسمائة وثمانية آلاف من العلماء والأدباء والفنانين من بينهم چول رومان ، وأندريه چيد ، ورومان رولان ، وهادامار

عَرَض الكاتب الشكور فى ندائه المحَن التى انفجرت على مصر منذ توقح على ضرب الاسكندرية ذلك الأسطول الذى يتقلب اليوم بين شواطئها ومرافئها تقاب العزيز المقتدر والمختال المملك ؛ ثم عَرَّض بتلك الوعود الفواجر التى جرت على لسان غلادستون وغرنفيل وسالسبورى وأضرابهم من المَذَّاعين الذين بنوا هذا الملك الضخم على مراوغة اللسان ومماطلة الزمان ومغافلة

الناس ؛ ثم ذكر اضطراب مصر فى الأصفاد ، واستشهاد شبابها فى الجهاد ، وذياد الحلفاء وفدَها المختار عن مكانه فى مؤتمر السلام ؛ وعجب أن يتسع انجيل وِلْسُنَ لحرية الحجاز وأرمينية وألبانيا ، ثم يضيق عن تحرير مصر وهى ما هى فى وحدة الأرض وقوة الدولة وتجانس الأمة ، فيذرها معلقة على رغمها بين حق حليم الطبع وباطل سفيه السلاح ؛ ثم أعاد إلى الذاكرة قول الكاتب الخالد أناطول فرانس : « إن ساستنا أنقذوا من يد العدم ، وأنشروا من طوايا القبور ، عشرين أمة ، فانتهت إلى الحرية بولونيا ، وعادت إلى الحياة أرمينية ؛ ولكن العدل الانسانى يأبى أن يبرأ من تناقضه ونقصه ، فكان من نقص هذا العدل ، ومن حمق المدعين للحزم والعقل ، أن صارت مصر وحدها هى الضحية الكبرى لأكذوبة السلام ! »

* * *

غضبة سامية ، وصرخة داوية ، ودعوة كريمة ! وصدورها عن حفدة الذين أعلنوا بأقلامهم حقوق الانسان ، وأطلقوا بأسيافهم حرية العالم ، أمرٌ جارٍ على مألوف الطبع والعادة ؛ ولكن الأستاذ ڤكتور ينادى غير سميع ، ويخاطب غير واع ! لقد هوى ذلك الضمير الانسانى صريعاً أمام الجشع ، وجثت حرية العالم ضارعة الى الحرص ، واستحال الانسان الجديد إلى معدة مسحوتة هائلة لا تكف عن القضم ، ولا تعيا عن الهضم ، ولا ترسل الميول والعواطف إلا فى نواحى المنفعة . أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر حين رجفت باسمه الرجفة الكبرى ، وأصاخت الى صوته الهدنة العظمى ، ثم جلس على اقدار الشعوب لويد جورج وكليمنصو وويلسن ، وأيديهم على منضدة الصلح فوق أعواد الزيتون وأغصان الغار ، يتقاسمون الحقوق الممزقة ، ويتهادون الحريات المسلوبة ، ويقيمون أنفسهم أوصياء على فرائس اقتطعوها ، ثم عجزوا أن يبلعوها ، فقدموها الى الوحى كما تقدم الشاة الى الأفعوان ، يزدردها فى سكون ، ويهتضمها على مهل ؟! أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر حين تجاوبت بالأنين ضحايا السلام فى تركية ومصر وفلسطين وسورية والعراق ، تستغيث بالولاء للحلفاء فلا تغاث ، وتُلوِّح بالوثائق والوعود فلا تبالَى ، وما ذنبها أنها ضعيفة ، ففيهم أضعف منها ، وإنما ذنبها أنها مسلمة ! أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر وصرخات مصر الشهيدة تتعاقب على أسماع المدنية من غير فترة ، فتمزق أغلفة الأذهان بالحجة ، وتلمس لفائف القلوب بالرجاء ، ثم لا ترتد أصداؤها إلا بالخيبة ؟ أين كان ذلك الضمير الانسانى الحر والوعود الستون بالجلاء تتساقط من فوق المنبر الدستورى العريق تساقُط الشهب ، يخطف البصر سناها فى جو السماء ، ثم تكون حجارة باردة على الأرض ؟

هؤلاء أبناؤنا الأعزة يا مسيو ڤكتور كما سمعت هناك ورأى إخوانك هنا : يشترون بأنفسهم الغالية الهتاف للحرية ، لعلهم ينبِّهون العامِهَ فيبصر ، ويرشدون المبطل فيُقصر ، ويُسمعون المخطئ فيصيب . ولكن الطوائر تئز ، والبواخر تصفِر ، والمصانع تضج ، والمناورات الحربية ترعد ، والخطب الخداعة تهدر ، فكيف تجد الأصوات الرقيقة العذبة سُبلها فى هذه الضوضاء العنيفة الى آذان هى بطبيعتها موقورة عن مثل هذا النغم ؟ ولو كان الضمير الانسانى لا يزال حياً لرأى من خلال الحجب ، وسمع من وراء الآفاق ، ثم وخز النفوس وخزته الإلهية ، فيشعر القوى أنه زل ، ويدرك الغوى أنه ضل ، ويفطن الانسان الى أنه إنسان !

* * *

لقد كنت أود يا مسيو ڤكتور أن ينبسط عطفك حتى يشمل إخواناً وجيراناً يعانون من الذكاء الفرنسى مثل ما نعانى من الدهاء الانجليزى ، ولكننا سئمنا الكلام وأنفنا الاسترحام واحتقرنا الحجج

لقد بلد الشعور حتى لا يحس إلا ذبابَ السيف ، وثقل السمع حتى لا يدرك إلا قصفة المدفع ، وكَلَّ الذهن حتى لا يفهم إلا كثافة المادة ؛ فأين يقع من ذلك بيان الأدب ومنطق العلم وخيال الفنان يا مسيو ڤكتور ؟؟

احمد حسن الزيات

المجنـــــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مِشيته ، يَرْجُفُ بين الخُطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعرك أن الأرض مُدركة أنه يمشي فوقها .... ولا ينقلُ قدمَه إذا خطا حتى يَنهضَ برأسه يُحركه إلى أعلى ، فما تدرى أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسه معه .... أم يُخيَّل اليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة ، فهو يهزُّه هزَّ الراية ....

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ وعرضها — فاذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراء يقلِّب عينه في جهاتها متحيِّراً متردِّداً ، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته ....

ورحبتُ به ، وأجلسته إلى جانبي ، فأخذ يَستَعْرِفُ إليَّ بذكر اسمه وجماعته وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً كأنه عنترةُ بني عَبسٍ ، لأرضه من طبيعتها جغرافيا ، ومن اسمه جغرافيا على حدة . فلما رآني لا أُثبِتُه معرفةً قال : إن بك نسياناً

قلت : وكثيراً ما أنسى ، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكر بتاريخ

قال : هذه غلطة الجرائد ... ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذ « نابغة القرن العشرين [(١)] » ....

فسرَّحتُ فيه نظري ، فاذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ أمردَ أهيفَ ، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورهما

وتوسمتُ فاذا وجه ساكن منبسطُ الأسارير ممسوح المعاني ، ينبيء بانقطاع صاحبه مما حوله ، كأن دنياه ليست دنيا الناس ، ولكنها دنيا رأسه

وتأملت فاذا طفولة متبلدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل

وتفرَّستُ فاذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة قتلاها أفكارُ المسكينِ وعواطفُه

وتبيَّنتُ فاذا رجلٌ مُسترخٍ ، مُتفتِّرُ البدن ، خائرُ النفس ، كأنه قائم لتَوِّه من النوم فلا تزال في عينه سِنةٌ ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلم كان يراه ...

وخُيِّل إليَّ من هذا الخُمول في هذا الشاب أن عليه جوّاً من تثاؤبه وأن المكان كله يتثاءبُ ، فتثاءبت

* * *

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال : إن « نابغة القرن العشرين » رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم ؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم ... وحسبُكَ فخراً أن تكون أستاذه وأخاه وثقته ، « فليس على ظهرها اليوم أديبٌ غيري وغيرك ... »

قلتُ في نفسي : إنا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري ، وكأنما ألمَّ بذلك فقال : لستُ مجنوناً ؛ ولكني كنت في البيمارستان ....

قلت : أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا . إن هذا الذي تسميه أنت هو مستشفى المجاذيب ، أما الذي سميتُه أنا فهو مستشفى فقط ...

وذكرتُ عندئذٍ أن من المجانين قوماً ظُرفاء يَدخُلُهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح ، فلا يكون جنونُهم جنوناً إلا من هذا الوجه ، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلبون ، إذا ازْدُهِيَ أحدُهم لم يُطقْهُ الناس من زهوه وكبريائه وتنطُّعه ، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة وكأن بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس في أرق طبقات عقله ، وما جنونُه إلا في هذه الطبقة وحدها

ومثل هذا لا بد له ممن يستجيبُ لهذَيانه كما يحركَ فيه خفتَه وطيشَه وزهوه وليكونَ عنده الشاهدَ على هذا الوجود الخياليّ المُبدَع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل . فاذا هو ظفر بمن يُجاسنُه ، أو يصانعُه ، أو يجاريه حسِبَه مُذعِناً مؤمناً مصدِّقاً ، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق ، ووراء

---

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء وكان قد انتهى الى مدرسة المعلمين الأولية ثم خولط في عقله فتركها ؛ وكل ما يمر في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه

كأنه فى ملكه . . . فيتخذه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق ؛ وقد يزعمه أستاذه ليفهمه من ذلك بحساب عقله . . . . أنه تلميذه

وخشيت أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يسمِّنى أستاذه إلا بحساب من هذا الحساب ، فهو سيعطى الأستاذية حقها ، ولكن كما هو حقها فى لغة جنونه . . . فأصبح فى رأيه تلميذه وصنيعته ، ومحدِّث هذيانه ، وثقته وملجأه ، والمحامى من ورائه ؛ قلت فى نفسى : إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلس مثابته من بعد فلا يعرف له محلاً غيره ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « محله المختار » ، فيتسطر إلىَّ لسبب ولغير سبب ، ويقع فى أوقاتى وقوع السهو لا حساب عليه ويضيع فيه ما يضيع . فأجمعت أن أصرفه راضياً باليأس وقد انتهت نفسه من معرفتى وانتهى عقله إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذ نفسك ، ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه وتكاد لا تفى به الساعات الباقية من الوقت و. .

فقطع علىَّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليل أنى أعطلها فيتعطل الوقت ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمس التى تعيِّن منازل النهار ، فسيمرُّ الظهر ويجىء العصر و . . .

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأى إلا رأيته لك ، ولا صحَّت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتها ، وأنا لا أعتقد أدباً فى مصر إلا ما توافقنا عليه معاً « ولا أسلِّم جدلاً ، ولا جدلاً أسلم أن فى مصر أدباء ينالون منى شيئاً ، فهو أنا وأنا هو » [1] ، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمُنَّ أنهم « وقموا

(١) مابين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا الى ذلك ، والباقى ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله

منى موقع علة على صخرة » . « هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجائر وليس معى ثمنها » . . .

فتهللت واستبشرت ، وقلت له : هذا قرش فهلمَّ فاشتر به دخائنك ، وفى رعاية الله . ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكَّن فى مجلسه . . .

***

وكرهت أن أتغير له وما أشك أنه فى هذا صحيح التمييز ؛ فما أسرع ما قال : إن « نابغة القرن العشرين » فتى قوىُّ الارادة ؛ فاذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور . . . . وإذا لم يثبت لك هذا الأمر عن معاينة . . . . فما أعطيته حقه

فقلت فى نفسى : لقد غرست الرجل من حيث أردت اقتلاعه ، وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آيات من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ النطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن ابراهيم الشيبانى مرَّ به وهو يأكل خبيصاً [1] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلىَّ لآكله لها . . .

وقالوا : إنه مر بسوق البزازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نقب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم

فقالوا . هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه فألطفوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سَنِىٍّ وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقب وقال : هذا عمل اللصوص . . . . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلام بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى وإنه وإنه وإنها وإنها . قلت : فما استحسنت منها ؟ قال : (مقالة السيما) . . .

فقلت : متى كان آخر عهدك برؤية السيما ؟ قال : أمس

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلماً فى مقالة

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) فاقرأ مقالاتك فى الغيب من قبل أن تكتبها . . . .

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن

قلت : إنك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) وهذا يحصر نبوغك فى قرن بعينه ؛ فلو قطعتَ الكلمة وقلت (نابغة القرن) لصحّ أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبلهما وما بعدها

فرأيت به شَدْهَةً كأنه يفكر فى جنونه ، ثم أفاق وقال : لا . لا . وإن هاهنا موضع نظر ، فلو رضيت بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول إلى نابغة قرن خروف . . . .

* * *

فقلت فى نفسى : حمأةٌ مُدَّتْ بماء[1] . وإن هذه الوساوسَ لا تنفك تعرو هذا المسكين ما وجد من يكامه ؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها ، فلأسكت عنه ولأتشاغل عما بين يدى

وسكتُّ وأعرضت عنه لجهل طائفه يعتريه ، وكأن السكوت قد سلّط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصيح غلمانُ الطرق بالمجنون لا يزالون به حتى يُجَرِّدُوه ويفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالة زَمْهَرَتْ فيها عيناه[2] وكلَحَ وجهه حتى خفتُ أن يثور به الجنون ، فأقبلت عليه وتعلّلتُ بسؤاله ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخاً يعذبه ويُوقِعُ به ضرباً ويغلله بالسلاسل ويشدُّه « بأمراس كتّانٍ الى صُمّ جندل » وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم

قلت : فأنت فى حاجة إلى راحة ويحسن بك أن تأوى إلى مكان تتمدد فيه

قال : إنى منصرف وسأجلس فى ندىّ كذا[3] « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن القهوة »

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمناً لها فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك الندىّ فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة .

واستوفزتُ للقيام ؛ ولكنه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه

* * *

ثم قال : أراك الآن مُسْتَبْصِراً أنى (نابغة القرن العشرين) بعينه

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً . . .

قال : لا . لا . إنك نسيت أن العرب تقول فى التوكيد : عينهُ ونفسهُ وذاتهُ . « أى أنا نابغة القرن العشرين بعينهِ ونفسهِ وذاتهِ ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين »

وكادت نفسى تخرج غيظا ولكنى رأيت الحلم على مثل هذا يجرى مجرى الصّدقة ؛ وقلت إن أدباء المجانين كثيرا ما يتفق لهم الابداع الظريف إذا علّلوا شيئاً كذلك القاصّ الذى كان يقصُّ على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذئب الذى لم يأكل يوسف . . .

فقلت للمجنون : فما العلةُ عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرةً فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودراهمهُ . (هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة الى بلدى وهى قرشان)

قلت : هذه هى أجرة السيارة وصَحِبتك السلامة ، ونهضتُ واقفا ؛ ولكنه لم يتحرك

* * *

ثم قال : إنك لم تعرف بعدُ « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قُسُّ بن ساعدة أو أكثم بن صيفى ، وانى صخر لا ينفجر . . . يابس لا ينعصر ، لست كالحجّاج بل كعمر . »

قلت : هذا شئٌ يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها فقد آمنتُ أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والترسُّل

(١) هـذا مثل فى معنى زاد الطين بلة ، والحمأة اذا مدها الماء زادت واتسعت

(٢) أى لمعت غضباً

(٣) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكل معقول ومنقول . وقد انتهينا على ذلك

قال : ولكنك تحسبنى مجنوناً أو ممروراً « كما حسبتنى الجرائد التى زعمت أن اختفائى فى البيمارستان كان لجنونى الفكرىّ أو لذكائى الطبيعى وهو الأصح . . . فبيّن لهذه الجرائد أنى خرجت وأنى سأطبع الأدب بطابع جديد »

قلت : ولكنى لست مراسل جرائد . قال « فاجعلنى رسالةً وراسلها عنى أو أكتب لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقنى بجريدة كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفنى كلها ، وقد تناولتنى من جميع النواحى الأدبية ؛ فضلا عن أنى كاتب فذ ، وخطيب فذ ، وشاعر فذ . وهذا قليل من كثير ، فهل أعوّل عليك فى صلتى بالجرائد أولا ؟ »

قلت : إنك تعرفهم ويعرفونك وقد بَلَوتهم وَبَلَوْا منك فلست فى حاجة الى عندهم .

قال : « إنهم يخشون بأسى وقد حسبونى مجنونا استهوته الشياطين ؛ وماعلموا أن شيطان الشعر هو الذى استهوانى كما أن شيطان الحب هو الذى استهواك ... هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن الغداء ولا أكلفك شيئا ... »

قلت : فهذا قرش للغداء فى مطعم الشعب . وهم الآن يتغدون ويوشك اذا أبطأتَ أن توافقهم وقد استنفدوا الطعام ، وأنت لا تجهل أن القرش فى مطعم الشعب هو قرشان فى القيمة

قال صدقت ؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية . فلابْقِ هذا للعَشاء وسأطوى الى الليل ...

قلت : فمعك الآن ثمن الدخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل) [1] يغني بقيراط ولا يسكت إلا بدانق . هذا من جهة ، ومن جهة نخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف

* * *

فشقّ ذلك عليه وقام مُغْضَباً ، وتنفسّتُ بعده الصعداء الطويلة .... وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقىّ وأخذت فى رياضة التنفس العميق ؛ ثم زاغت عينى إلى الباب فاذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر . . . .

« لها بقية » (طنطا)

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة فى القرن الثالث

الى . ا ج . بدمشق : سنكتب ان شاء الله مقال (المغنية) فمهلا . ولكن دع المرأة وما اختارت . واعلم أن قولهم مغنية ، أو ممثلة ، أو راقصة كلمة لها معنيان : أحدهما هذا الذى فيها ، والآخر أنها ... وأنها ... وأنها لا تصلح زوجة الرافعى

في مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية

ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ريح الثورة الفرنسية الـكبرى تهب على الملوكية الفرنسية ، فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة ، سقطت الملوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطرمة ؛ ولـكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا ، ولم تقف عند سحق الملوكية الفرنسية ، ولم تلبث أن غدت ثورة عالمية ترتجف لها كل العروش والنظم فى أوربا القديمة ، وتتحـد جيوش أوربا القديمة على مقاومتها واخمادها . ولـكن جيوش أوربا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة التى تضطرم بها جيوش الثورة ؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجى ، ولـكنها سحقت فى غمر من المعارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم ، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خانعة ذلول تحملها موجة من الطغيان العسكرى لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التى قامت لسحقها

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالمية ، بل هى من بين الثورات التحريرية الـكبرى أوسعها مدى وأبعدها أثراً فى تاريخ الانسانية ؛ ذلك أنها قامت فى الأصل على حقوق الانسان ، وجعلت غايتها تحرير الحقوق والحريات العـامة من أصفادها ، وسحق كل النظم الطاغية ، وتقديس الفرد وحقوقه ، واعتبار الدولة خادم الأمة فى مجموعها ، وخادم الفرد والأمينـة على حقوقه ومصالحه ؛ ولهذا كان ظفرها عظيما ، وأثرها عميقاً فى بث المبادئ الديموقراطية والتحررية فى أمم أوربا القديمة ؛ ومنذ فاتحة القرن التاسع عشر نجـد معظم الأمم الأوربية التى تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية ، وامبراطورية النمسا والمجر تجيش بفورات تحريرية متوالية ، وتطالب باقامة النظم والدساتير الحرة ، ونجـد الملوكيات القديمة المطلقة تجد بكل ما وسعت فى قمع هذه الحركات التحريرية

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية على أثر سقوط نابوليون وسحق الفورة العسكرية البونابارتية التى شغلت أوربا مدى خمسة عشر عاماً ، وقامت الملوكيات الطاغيـة القديمة تأتمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التى اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربيـة ، واضطرت معظم الحـكومات المطلقة أن تنزل عند ضغطها ووعيدها وأن تبذل بعض المنح الدستورية ؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التى نظمها ودبرها اسكندر الأول قيصر روسيا عند عقد «المحالفة المقدسة» الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سـنة ١٨١٥) ، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية ، وأن يحكم الملوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة ، وأن يقوموا بتأييد السلام ؛ ولـكن كان غرضها الحقيقى أن تتعاون الملوكيات الثـلاث على قمع الحركات التحريرية التى تضطرم بها أمم القارة ، وعلى تأييد الحقوق الملوكية المطلقة ، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقية واخضاعها لهوى العرش وارادته ؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفة الشهيرة ، عدا انكلترا التى كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة

ولـكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شيء ، فلم تنجع حركات القمع إلا قدر ما يؤيدها العنف ؛ وكان العنف كالعادة يغـذى هذه الوثبات الشعبية ويذكيها ؛ فلم تلبث غير بعيد حتى عادت إلى الاضطرام ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠ نرى الثورات الشعبية تنفجر هنا وهنالك فى أوربا . ثم كانت سنة ١٨٤٨ ، التى يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية ، ففيها سقطت الملوكية فى فرنسا أمام ارادة الشعب مرة أخرى ، وقامت الجمهورية الفرنسـية الثانية ؛ وفيها اضطرمت الثورات التحريرية فى ألمانيا ، وفى معظم أنحاء الامبراطورية النمسـوية ، وفى كثير من الدول الايطالية ، واجتاحت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ريح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة ؛ ولم

يلبث أن لاح فجر الديموقراطية الحديثة فى الأفق قويا ساطعا

ــ ٢ ــ

وبلغت الديموقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى ، فانهارت القيصرية الروسية ، وانهارت الأمبراطورية النمسوية ، والأمبراطورية الألمانية ، والسلطنة العثمانية ؛ وقامت جمهوريات فتية ، فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا ، وفى عدة أخر من الدول الجديدة الناشئة التى خلقتها معاهدة الصلح لأغراض عسكرية وسياسية ؛ ثم قامت الجمهورية أخيراً فى اسبانيا بعد أن سقطت ملوكيتها القديمة التالدة أمام الفورة العامة

ولكن هذا الظفر الذى أحرزته الديمقراطية عقب الحرب الكبرى كان خلبا ، ولم يقم على أسس أو روح ديمقراطية حقيقية ، بل استمد من الفوضى العامة التى أحدثتها الحرب ؛ هذا الى أن هذه الديمقراطية الظافرة لم تكن رزينة عاقلة ، بل انساقت غير بعيد الى ألوان خطرة من العنف والتطرف والفوضى . ومن جهة أخرى فقد كانت الديمقراطية قناعا للطغيان المطلق فى روسيا السوفيتية وفى تركيا . وقد أدى تطرف الديمقراطية وتفرق كلمتها ووهن جبهتها غير بعيد الى انهيار صروحها فى ايطاليا حيث قام الطغيان المطلق باسم الفاشستية ، ثم الى انهيار صروحها فى ألمانيا حيث قام الطغيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية ؛ وانهارت الديمقراطية أيضا فى بولونيا وفى النمسا وفى دول أخرى حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة ، وهكذا لقيت الديمقراطية فى بضعة الأعوام الأخيرة من ضروب الفشل والمحن ما لم تلقه قط فى حياتها القصيرة الظافرة ؛ والديمقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها ، ولكنها تناضل فى غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة ومبادئ خصيمة ، وإنما تناضل أيضا قوى عسكرية طاغية هى التى تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة

غير أن الديمقراطية مازالت تحتفظ بميزتها الكبرى ، وهى أنها ما زالت تعتبر قانون الحكم العام ، وما زالت مبادئها هى المبادئ الشعبية الخالدة ، وهى المبادئ التى ترتكز اليها الحقوق والحريات العامة فى كل الأمم المتمدنة ؛ وهذا هو سر بقائها وسر قوتها ، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها

أما هذه النظم الطاغية التى تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم القومية فى دول مثل روسيا وتركيا وايطاليا وألمانيا ، فهى فى الواقع نظم عنف وإرهاب محض ؛ وهى أبعد النظم عن المبادئ الحرة والمبادئ الانسانية : ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية والحزبية قبل كل شئ ، وفى هذه النزعة الفردية الحزبية تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة ؛ وقد قامت البلشفية فى روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة لسيادة الرأسمالية فى الدول الأخرى ؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة للكتلة العامة فى روسيا ، ليست سوى سيادة الحزب البلشفى ، بل هى فى الواقع سيادة عصبة من الزعماء والساسة يحكمون تلك الكتلة الشعبية الهائلة بوسائل العنف والارهاب . نعم تزعم البلشفية أن لها غاية عالية هى بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم الرأسمالية كلها ؛ وتعمل البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها ودعايتها فى معظم أنحاء العالم ، ولكن البلشفية ما زالت وقفا على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية العنيفة وحيث تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين فى مصاير الشعب الروسى وفى عقوله وأرواحه . ولقد نسجت الفاشستية فى ايطاليا على هذا المنوال فى تمكين قبضتها من الشعب الايطالى ، مع فارق فى الأسس التى تقوم عليها فهى تقوم على فكرة السيادة القومية والعسكرية ، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال ، (بل رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش ، ويفرضون ارادتهم على الشعب بوسائل العنف ؛ وليس فى الفاشستية ما يميزها الا أنها من حيث التنظيم السياسى تقوم على الفكرة النقابية . وقد كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) فى ألمانيا أحدث ألوان الطغيان المعاصر ، بيد أنها من أشدها إمعانا فى العنف وسحق الحريات والحقوق العامة ؛ وأهم مميزاتها وقواعدها الفكرة الجنسية أو فكرة السلالة والدم ؛ وهى تذهب فى تطبيق هذه النظرية التى تتخذها ستارا لغايات السياسة مذهب الاغراق المثير ، وتصدر باسمها أغرب القوانين التعسفية ، وترتكب أشنع ألوان الاضطهاد والمطاردة ؛ ومع أنها تتظاهر بأنها تطارد اليهودية فى الواقع وتعمل على سحق نفوذها المنصرى والاجتماعى فى ألمانيا ، فانها فى الحقيقة تذهب بعيدا فى تأكيد النعرة الجنسية وتتخذها مثارا لعاطفة من التعصب الجنسى والقومى الشنيع ، وهى بذلك من أخطر الحركات القومية التى تنذر بالانفجار المسلح ؛ وللاشتراكية الوطنية خاصة أخرى ، هى أنها تمعن فى التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه ، فتسلبه كل ارادة وكل

حق فى التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت فى ذلك أكثر إمعانا من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له فى نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هى كل شئ . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان فى تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد الى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء فى جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالية ، وإن كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها فى بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى فى جميع العالم المتمدين أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك الدعاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التى قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن المحقق أن مصايرها ترتبط بمصاير زعمائها ومصاير القوى العنيفة التى تسندها ، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام . على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذى يسحق شعوبا عريقة بأسرها ، وذلك التطور المدهش فى شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تثب أحط العناصر والطبقات الى أسمى الزعامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصه وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهى وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التى تثيرها أذهان متعصبة منحطة : نقول لا ريب أن هذه الخواص التى تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتى هى ملاذ قوتها وحياتها ، هى فى الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحدارها الى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

الفلســـفة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير فى النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشيء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلسف فلان إذا ظن أنه يمعن فى الغريب ولا يأتى بما ألفه الناس . وقد يُرمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون فى عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدُّ المحدث عنه وحديثه فى عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالعصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش فى عصره ، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالألحاد والزندقة والخروج على الأديان

والفلسفة فى بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس فى شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر فى تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلى والخلقى ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قلَّ أن تُعرض عرضاً مستقيما ، وكأن الفلسفة فى نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهى جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويعترضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفى الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشيء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية فى هذا البلد حمى مباح ، وسلعة تعرض فى مختلف الأسواق ، ومتاع

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره . بل نلاحظ فوق هذا أنه كثيراً ما كتب فى الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة فى موضوع آخر ؛ وبذا انعكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها ، وظهرت الفلسفة فى ثوب مشوه منقوص ؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدعياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المختصين تقصيرهم فى التعريف عن أنفسهم وتهاونهم فى الدفاع عن فنونهم وعلومهم

ليست الفلسفة غريبة بالقدر الذى يدعيه المعرضون عنها ، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها . فللزارع فلسفته فى حقله ، وللصانع فلسفته فى مصنعه ، وللتاجر فلسفته فى متجره ، وللرجل فلسفته مع زوجه ، وللزوجة فلسفتها مع بنيها . لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة فى تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح ؛ وتلك ولاشك فلسفة ذات مغزى عظيم . وما أصدق أرسطو إذ يقول : الانسان حيوان فيلسوف . على أن الفلسفة بمعناها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية ؛ وكل همها أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيراً يرتضيه العقل ويطابق الواقع . فظواهر سرورنا ، وألمنا ، وقواعد سلوكنا ، ومعاملتنا ، وآراؤنا ومعتقداتنا ، هى فى جملتها موضوع الدراسات الفلسفية ، ومن منا يمر عليه يوم – بل ساعة – دون أن يحكم على شىء بأنه خير أو شر ، وعلى آخر بأنه صواب أو خطأ ، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح ؟ وهذه الأحكام الثلاثة هى شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم ، يعنيه أن يدرس ظواهرها ، ويضبط قوانينها ، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح . فالفلسفة إذن من الحياة فى صميمها ، أو إن شئت هى الحياة كلها ؛ وكيف لا وهى دراسة للانسان فى مختلف أحواله الفردية والجمعية ، الفكرية والخلقية

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهملها ؛ أو أن نضعها فى الصف الأخير من أبحاثنا ، وهل حاجتنا إلى تعرف المادة فى تمددها وانكماشها ، والأجسام فى مغناطيسيتها وجذبها ، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا فى ميولها ومشاعرها ، وتنافرها وتآلفها ؟ نعم إن دراسة الانسان عسيرة ودقيقة ، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة ؛ ولا أظنها أقل تشويقاً من أية دراسة أخرى . فعناصر الثقافة العامة التى تشغل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الأقليمية ، والاقتصادية ، والهندسة النظرية والفراغية ، والكيمياء ، والطبيعة وما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير . على أن هذه العلوم نفسها نشأت فى حجر الفلسفة وتربت فى كنفها ؛ فقد كان الأغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها ، وكان العلم والفلسفة متآخيين ومتآزرين ، وكثيراً ما كان الفيلسوف عالماً يقنن القوانين العلمية ويوضحها ، وكثيراً ما اهتدى إلى نظريات علمية على ضوء الدراسات الفلسفية . فطاليس وفيثاغورس الفيلسوفان الأغريقيان كانا رياضيين وعالمين فى الطبيعة ، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته : « لا يدخل هنا أحد ممن لم يلموا بأصول الهندسة » ، وإذا جاوزنا العصور القديمة وجدنا أن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية ، وأن ليبنتز كبير فلاسفة الألمان فى القرن السابع عشر هو مبتكر حساب الجزئيات . ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جميعها مسودة بلهجة وروح فلسفية ، وفلسفة العلوم اليوم هى النقطة الحساسة والرئيسية فى كل مادة من مواد الدراسة الانسانية . فالعلم ينزع ثانية إلى أن يكون فلسفياً وأن يعود أيضاً إلى كنف أم غذته بلبانها من قديم ، والأدب أيضاً يتأثر بالفلسفة فى أسلوبه ومعانيه ، وغاياته ومراميه ، وربما كان السر فى نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التى رق بها شعورهم ، ودق تفكيرهم ، وسمت عباراتهم

فليس ثمة بد من أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ما دامت الحياة تملى علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقى ينهل من حياضها ؛ ومن العار أن نبقى إلى اليوم وليس فى لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجد فيها العامة سلوتهم ، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . إن البحث الفلسفى ، ككل الأبحاث الأخرى ، ضرب من التثقيف لا يصح أن تحرم منه أمة من الأمم ؛ هذا إلى أنه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة ، وأن ينقل الغرب عنا كما ننقل عنه ، وبذا تنتظم دورة الفلك ، ويعود التاريخ إلى مجراه ، وتتصل الفلسفة العربية الحديثة بالفلسفة الاسلامية القديمة ، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية ، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشآمية وعراقية ؟

ابراهيم بيومى مدكور

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

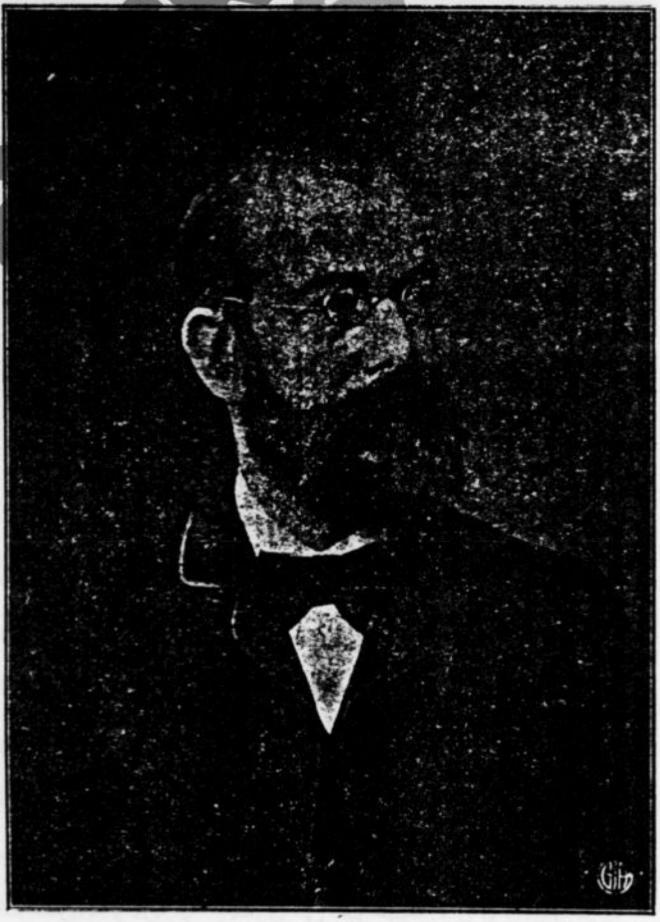
رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

فى السنوات ذات الأحداث العجيبة والمفاجآت الغريبة من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٧٠ ، بينا بستور يخلّص صناعة الخل ويكشف عما دهى دودَ القزّ فيُدهش الملوك ويرضى الأمم ، كان شاب قصير القامة قصير البصر ، تبدو عليه ملامح الجد ، يدرس الطب فى جامعة « جوتنجن » Gottingen بألمانيا . وكان اسم هذا الشاب روبرت كوخ Robert Koch ، وكان طالباً مجتهداً . إلا أنه بينما كان يجرى بمشاريطه فى جثث الموتى فيقطّعها إربا ، كان يحلم بغابات إفريقيا وبصيد الأنعار فيها . وبينا كان يحفظ فى رغبة واجتهاد أسماء المئات من عضلات الانسان وعظامه ، كانت صُفّارات السفن الذاهبة للشرق ترنّ فى أذنه فتذهب من رأسه بكل تلك الأسماء اللاتينية والرّطانات الاغريقية

كان كوخ يود أن يضرب فى الأرض ليكشف عن مجاهلها ، أو أن يكون جراحاً فى الجيش ليكسب الشارات والأوسمة ،



كوخ

أو ينال منصب طبيب فى سفينة تمخر به عباب البحار الواسعة فيذهب فيها إلى حيث لم يذهب قبله إنسان . ولكن القدر خيب آماله ، فانه لم يكد يتم دراسته عام ١٨٦٦ حتى وجد نفسه فى مدينة هامبرج Hamburg فى مستشفى للمجاذيب يتولى فيه منصب طبيب مقيم ؛ وفى هذا المستشفى امتلأ سمعه بصراخ المجانين وأحاديث البلهاء فلم تكد أذنه تسمع أصداءَ بستور ونبوءاته بوجود مكروبات فظيعة تفتك شر فتك بالانسان ؛ وظل ينصت لصفير السفن ، وفى الامساء كان يطلب المشى للرياضة فيصطحب صديقة له كانت تسمى : « إمى فراتس » Emmy Fraatz ، وكان يهبط بها إلى شاطئ البحر حيث السفائن تغدو وتروح ، وسألها الزواجَ منها ، وخال أن يُغريها بالقبول فذكر لها أمله فى طوافه حول الأرض ومسيره إلى الشرق ورؤية البلاد والشعوب ، فقالت له إنها تتزوجه على شريطة أن يصحو عن أحلامه وينسى الشرق ومغامراته ويفتح لنفسه عيادة فى بلد ألمانى فينفع أهله وبلاده

وأنصت كوخ إلى إيمى وإلى صوتها الساحر ساعة، وازدحمت فى خياله صورٌ شتى من سعادة خمسين عاماً يقضيها فى العيش الهنىء معها، فطردت هذه الصور صورَ الفيلة والأنمار من رأسه، واستجاب نداء عروسه فاستقر لممارسة الطب، وفى سبيله أخذ ينتقل من قرية بروسية إلى أخرى على نمط من الحياة لايختلف ـ حياةٍ رتيبة ليس فيها صخبات الحياة وما تتضمنه من متع ولذائذ

وفى هذه الفترة من الزمان، حين كان كوخ يكتب الوصفات للمرضى وينتقل فى سبيل صناعته بين ديارهم المتباعدة على ظهر حصانه، يستقبل وكَفات المطر من فوقه، ويشق لنفسه طريقاً فى الوحل من دونه، ويسهر الليالى فى ديار النُّفساء من أهل الريف، فى هذه الفترة من الزمان كان « لستر » Lister بأسكتلندا آخذاً فى إنقاذ حياة الكثيرات من النساء عند الوضع بدفع غائلة المكروب عنهن، وكان أساتذة الطب وطلابه فى أوروبا آخذين فى الاصغاء إلى ما يقول به بستور من نظريات، وما يعزوه إلى المكروب من أمراض، واختلفوا فى الذى يقول واشتجروا، وقام من بينهم رجال يجرون تجارب أعوزها حذق المجربين وذكاء الباحثين، وكان كوخ بمعزل عن كل هـذا، كان منقطعاً عن بيئة العلم انقطاع « لوفن هوك » عنها قبل ذلك بمائتى عام، عامَ قام لأول مرة فى مدينة دلفت بهولاندا ينحت العدس بيد ماعرفت من قبل للعدس نحتاً: وخيل للناظر إلى « كوخ » أن القـدر قسم له أن يكون طبيباً عادياً متواضعاً يواسى المرضى ويحاول ما استطاع تخليصهم من الموت، وعزّ ذلك مطلباً عليه وعلى أطباء ذلك الزمان، ورضيت إيمى بقسمة القدر، ونخرت بزوجها لما كسب خمسة وعشرين مركا فى يوم كثير العمل وفير المرضى

ولـكن كوخ كان غير راض، وانتقل فى منصبه من قرية بليدة إلى قرية أكثر بلادة، حتى أدى به المطاف إلى قرية فُلِشْتين Wollsteiu فى بروسيا الشرقية، وفى هذه القرية أتم عامه الثامن والعشرين، فأهدت اليه زوجته فى عيد ميلاده مكرسكوباً يلهو به ويتسلى

وكأنى بهـذه المرأة الطيّبة تقول فى نفسها عن اهداء هذا الجهر إياه: « لعل هـذا الجهر يُبعد فكره عن عمله الذى لا يرضاه . . . لعله يروّح عن نفسه قليلا ويُكسبها شيئاً من الرضاء . . . إنه دائم التحديق الى كل شئ بعدسة جيبه الصغيرة العتيقة . . . »

وا بؤسى لهذه المرأة الطيبة الساذجة! لقد أهدت اليه هذا المكرسكوب غير عالمة أنها بهذا الاهداء إنما فتحت له باب مغامرة تتضاءل الى جانبها مغامرات كان يحلم بها فى أقطار الهند وجزائر الاقيانوس السفلى . فتلك الرؤى التى رآها بستور جاءت كوخَ على يأس تتأوّل عند بابه، وفى نفس تلك الغرفة التى استقبل فيها مرضاه، تلك الغرفة المليئة بالدواء، تلك الغرفة التى ضاقت به وضاق بها وبدوائها، تلك الغرفة التى عاف فيها الطبَّ حتى كاد يصبح داء . نعم فى تلك الغرفة استحالت أحلام بستور حقائق ارتآها كوخ فى جثث الأبقار ورِمَم الأغنام من خلال عدسات ذلك الجهر الذى أهدته زوجته إياه للهو والسلوى، كأنى بكوخ يقول لزوجته: « أنا أكره هذه الخدعة التى يُسمونها طبًّا . . . وليس ذلك لأنى أكره تبرئة الأطفال من الدفتيريا . . . ولـكن الأمهات يأتينني صارخات مستغيثات يطلبن النجاة لأبنائهن وبناتهن . . . فما ذا أنا صانعه لهن؟ أتحسس لهن فى الظلماء، وأطمئنهن وارجّيهن حين لا طُمَأنينة ولا رجاء . وكيف لى بعلاج الدفتيريا وأنا أجهل حتى أسبابها، وأكثر أطباء ألمانيا يجهلون أسبابها كذلك » . يَبُثُّ صاحبنا شكواه المرّة لأيمى فتضيق نفساً وتحتار فكرا وتغتاظ من هذا الزوج الذى لا يرضى أبدا، لأنها كانت تعتقد أن واجب الطبيب الشاب يتأدّى وينتهى إذا هو بذل كل ما فى وسعه واستمان بعلمه الكثير الذى حصّله فى مدرسة الطب يوم كان طالبا

وعلى الرغم من هذا فكوخ كان لاشك على حق . فما الذى كانت الأطباء تعلمه من أسباب الأمراض الوبيئة؟ لاشئ . نعم قام بسـتور بتجارب رائعة ولكنها لم تثبت شيئا من سبب اقتباس الانسانِ الوباءَ ولا من كيفية اقتباسه . رفع بسـتور بيمناه مشعلاً وضاء كبيرا وسبق به الى تلك الظلمات، صارخا بالأمل، داعيا للنصر، يحدّث الناس عاليا بانهزام الأوبئة قريبا، ومحو الأمراض من سطح الأرض وشيكا، ولـكن الأوبئة لم تـكن بدأت تتخاذل، والأمراض لم تـكن أخذت تتزابل، والفلاحون فى قرى روسيا التى خرّبتها الجائحات بقوا على أسلوبهم

فى دفعها ، وظلوا على عادتهم يربطون أربعا من أراملهم الى محراث ثم يدورون بهن فى سكون الليل وراء القرية يرسمون حولها أخدودا هو فى حسبانهم خير نطاق يدفعون به شر الوباء . وهل كان لدى الأطباء أسلوب فى دفعه خير من هذا !

كأنى بمدام كوخ تحاول أن تجد لزوجها مخرجا مما هو فيه فتقول : « ولكن يا روبرت إن أساتذة برلين وكبار أطبائها لا بد عالمون أسباب هذه الأدواء التى لا تستطيع أنت علاجها » كان هذا من خمسين عاما أو تزيد ، ولكنى أعود فأقول إن أكبر الأطباء فى هذا الزمان لم يكونوا يدرون عن الوباء أكثر مما درى هؤلاء الريفيون الذين ربطوا الأرامل جهلا الى المحاريث . قام بستور فى باريس يتنبأ بأن البحث لا بد كاشف عن قريب تلك المكروبات التى هى لاشك سبب السلّ وحتف المسلولين فنهض له رجال الطب أجمع يتقدمهم بيدو Pidoux ذو المقام الرفيع والأزرة البارقة الصفراء يدفعون خرف هذا النبىّ المأفون صرخ بيدو كالرعد يقول : « أجرثومة خاصة تحدث السل وتقضى على المسلولين ! خرافةٌ مؤذية وخاطرة مخطرة ! إن السل مفرد وجمع فى آن . غايته موت الأنسجة فى عضو بالعدوى وذلك عن طرقات عدة من واجب الطبيب وخبير الصحة محاولة سدّها » بمثل هذا الهُراء وهذا الكلِم الفارغ الذى لا معنى له كان يدفع الأطباء نبوءات بستور

— ٢ —

أخذ كوخ يقضى أمساءه يلهو بمجهره الجديد ، ويتعرّف كيف يحرك مرآته ليعكس بها على منظوراته من الضياء القدر الذى يريده ، ويتعلم ضرورة تنظيف صفائح الزجاج وتلميعها قبل أن يضع عليها قطرات الدم من أجسام الخراف والأبقار التى قضى عليها مرض الجمرة Anthrax (١)

وكان هذا المرض الخفى الغريب قد أخذ يقلق بال المزارعين فى جميع أقطار أوروبا ، فكان تارة ينزل على المزارع صاحب الألف من الأغنام فيقضى عليها بالهلاك ، وعليه بالخراب ، وقد ينزل على الأرملة الفقيرة وبقرتها الوحيدة فيصبّحها وقد عزّها الرزق وساءت مصيرا . لم يكن لهذا المرض أسباب معروفة أو خطة مرسومة يجرى عليها فى تخيّر ضحاياه . فقد يُصبح الصباح على القطيع من الغنم ، فتأخذ عينك منه شاةً سمينة صحيحة جميلة ، لا تكاد تستقر على أرجلها نشاطا ومرحا ، فلا يأتى عليها المساء حتى تعاف الطعام وتميل برأسها بعض الميل ، ولا تشرق عليها شمس الغد حتى تلقاها باردةً هامدة متصلّبة ، وقد استحال دمها الى دم أسودَ كالليل . ثم يعود فيحدث نفسُ هذا لشاة ثانية ، فثالثة ، فسادسة ، فسابعة ، لا يقف عند عدد ولا ينتهى عند حد . ثم يأتى دور الفلاح ودور الراعى ودور فرّاز الأصواف ودور تاجر الجلود ، فتنفجر جلودهم عن خراجات مؤلمة قبيحة ، أو يلفظون آخر أنفاسهم من التهاب رئوى لا يُمهلهم طويلا

بدأ كوخ ، كما بدأ من قبله لوفن هوك ، بدأ يستخدم مجهره لغير غاية معروفة وبغير قصد محدود . فأخذ ينظر به كل شىء ، ويُحدق من خلاله فى كل ما يلقى ، حتى وقع على دم الأغنام التى قتلها داء الجمرة Anthrax ، وعندئذ أخذ يتجمع فكره على غاية ، ويقف جهده على قصد ، وعندئذ أخذ يتناقص نصيب مرضاه من هم نفسه ، فقد يقصد إلى مريض فيلقى فى طريقه بين الحقول شاة نافقة فينسى المريض وعيادته إياه ، وأخذ يساور الجزارين يسألهم عن الضياع التى بها تقتل الجمرة الشياه . ولم يكن لكوخ من فراغ الوقت مثل الذى كان للوفن هوك ، فكان يتحين الفرص بين تطبيبه لطفل يصرخ من وجع بطنه ، وبين خلعه ضرس قروىّ جاء يفزع اليه من ألمه . فى فترة من تلك الفترات جاء بدم أسود من بقرة ماتت بالجمرة ، فوضع منه قطرات بين رقيقتين من رقاق الزجاج النظيف البارق ، ونظر اليها بمكرسكوبه فوجد بين كُريَات هذا الدم المخضرّة السابحة أشياء أخرى غريبة تراءت كأنها عصىّ صغيرة ، وكانت هذه العصىّ أحياناً قصيرة ، وأحياناً قليلة المدد ، تسبح فى ارتعاد قليل بين كريات الدم . وتراءت له كذلك عصىّ أخرى تعلق بعضها فى أطراف بعض من غير مفصل يجمعها ، وقد يتشابك العدد الكثير منها حتى تصير خيطاً طويلا أرفع ألف مرة من خيط الحرير

« ما هذه العصىّ ؟ ... أهى مكروبات ... أهى حيّة ...

(١) هذا هو المرض الذى نخشاه الى اليوم لاسيما الرجال منا عند الحلاقة وذلك لأن فرشة الحلاقة تصنع من شعر البهائم فاذا لم يطهر هذا الشعر تطهيرا كاملا أصاب المكروب وجه الانسان

إنها لا تتحرك ... أم هو الدم السقيم فى هذه الحيوانات المرزوءة يستحيل إلى هذه العصى والخيوط ؟ » . على هذا النحو دار فكر كوخ فى الذى رآه . وكان رجال العلم قبله قد رأوا ما رآه . فداڤان Davaine ورايار Rayer فى فرنسا أبصروا نفس هذه الأجسام فى دم الأغنام النافقة ، وأعلنا أن هذه العصى بَشِيلاَّت[1] Bacilli ، وأنها مكروبات حيّة ، وأنها لا شك سبب الجمرة anthrax الذى لا مراء فيه – ولكنهما لم يثبتا ذلك بالدليل ولم يصدقهما فيما زعما أحد فى أوربا غير بستور . على أن صاحبنا كوخ لم يكن ينصت كثيراً إلى ما يقوله الناس ، ولم يكن يهتم كثيراً بما يرتئيه البحاث ؛ كان الأطباء من حوله يرتابون فى الذى يراه ، ويضحكون منه فى الذى يأتيه ، فلا يصغى لارتيابهم ولا يهتز لضحكهم ، حتى حماس بستور لم يُغره يوماً بالوثوب إلى نتائج لم ينضجها البحث ويمحصها التجريب ؛ ومن حسن حظ كوخ أنه لم يكن سمع به أحد ، فلم ترتفع إلى ظهره سواعد الأشياع والمريدين تدفعه قُدُماً إلى فتوحات فى عالم المكروب عاجلة غير ناضجة ؛ كان فى خمول ذكره ربّ نفسه ومالك أمرها[2]

حدّث كوخ نفسه قال : « أنا لا أستطيع الآن الاهتداء إلى طريقة أعرف بها أهذه العصىّ والخيوط حيّة أم ميتة ، فلأدع هذا مؤقتاً ولأدرس خواصها الأخرى ... » ولم يلبث أن أوقف دراسته للأغنام المريضة ، واتجه يدرس الأغنام الصحيحة ، فذهب إلى مذابحها ، وزار الجزارين وخالط تجار اللحوم ونادمهم ، ورجع بدم كثير من عشرات البهائم السليمة ، واسترق من زمن مرضاه ليفرغ لمكرسكوبه ، فكان يجلس اليه ساعات متصلة طويلة ينظر منه إلى هذا الدم الكثير الصحيح الذى جمع ، فقلقت زوجه من اهماله عيادته

قال كوخ : « إنى لا أجد فى دم هذه الحيوانات الصحيحة تلك العصى والخيوط أبدا ، وهذا حسن جميل ، ولكنه لا يدلنى أهذه الأجسام بَشِيلاّت أم لا ، لا ينبئنى أهى حية فى استطاعتها النمو والتوالد والتكاثر ، أم هى كبعض الجمادات ؟ »

ولكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك ؟ كيف السبيل إلى إثبات أن هذه العصى حية ؟ أخذ هذا السؤال يملأ نفسه ويملك عليه حسه ، وطلبه المسلولون الذين أعيا الأطباء داؤهم ، وطلبه الأطفال وقد سدت الدفتريا عليهم منافس الهواء ، وطلبته العجائز استشفاء من مرض موهوم غير كائن ، ولكن اشتغال صاحبنا بأمر هذه العصى لم يبق منه غير فضلة قليلة لمرضاه ، حتى لنسى أن يكتب اسمه على وصفاته لهم . وآنست فيه زوجه الهم والغمّ وكسوف البال . ودعا النجّار يوما وسأله أن يقيم فى حجرة العيادة حاجزا خشبيا . وقضى الساعات وراء هذا الحاجز بين مجهره وقطرات الدماء السوداء وفئران بيضاء تمرح وتلعب فى أقفاص أخذ عددها يزيد على الأيام .

وكأنى بك تنظر الى هذا الحاجز الخشبى فتجد على جانب منه مريضة انتظرت طويلا فأخذت تحك الأرض بنعلها سأما وقلقا ، وتجد على الجانب الآخر طبيبنا الفاضل يتمتم لنفسه فيقول : ليس لى من المال ما أشترى به أغناماً وأبقارا لتجاربى . ولو كان لى هذا المال لكان من المتعذر إحضارها إلى هذا المكتب الصغير . أما هذه الفئران فصغيرة رخيصة ، وهى لا تشغل حيزاً كبيراً ، ولعلى أستطيع أن أعطيها مرض الجمرة . . . ولعلى إذن أثبت أن هذه العصى تنمو حقاً فيها . . . »

يتبع

أحمد زكى



---

(١) البشلة لفظة لاتينية معناها العصيّة أى العصى الصغيرة وتطلق على فصيلة من البكتيريا

(٢) هذا يذكرنا بقول الشاعر : وخمول ذكرك فى الحياة سلامة . المترجم

مذاهب الفلسفة

٣ ـ المذهب الطبيعي

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلاً ! فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه دكا ، لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض الدليل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً ، وبطل هذا الهراءُ الذي يهرف به الطبيعيون ، ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلي :

(١) إن ما في الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلا أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتدبير ، فاذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المطردة ، فلا بد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين وأكسبها مالها من قوة وثبات . كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة ، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عُددها وانتثرت أجزاؤها ، أمكنها أن تلتئم من تلقاء نفسها ، وأن تبدأ السير والحركة من جديد !

(٢) إن مجرد وجود فكرة الله في أذهاننا دليل على حقيقة وجودها في الخارج ؛ وذلك لأننا نتصور بعقولنا كمالاً مطلقاً ، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً ، فان لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود ، وفي هذه الحالة ـ أي في حالة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني ـ نناقض أنفسنا ، فنكون كمن يقول : « إني أتصور كمالاً مطلقاً ولكنه ناقص ! » مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان

وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف

وبعد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد فسر لنا شيئاً ؟ إن قضيته باختصار هي أن الكون كله مادة يسيرها القانون ، وأن العقل الانساني كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع في سيرها نفس القوانين التي تسيطر على قطعة من الحجر !

(١) أما إن الكون مادة فقط ، فلا يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر ، لأنه قول لا يعلل شيئاً بعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن الذرة المادية ليست كائناً بسيطاً ، بل إن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركب والتعقد وإنها قادرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول ، كذلك لم يعد الحد الفاصل بين المادة والقوة محددا واضحا كما كان من قبل ، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة ، وأن الواحدة قد تتحول إلى الأخرى وبالعكس ، أي تتحول القوة إلى ذرة أو الذرة إلى قوة ، وإذن فلا يكفي في تعليل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة ، لأن في هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل

(٢) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية ، وأن حقيقة الأحساس كما يقول هوبز إن هي إلا حركة في الجهاز العصبي ، وأن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية ، أي أنه مجموعة حركات متعاقبة ، فيكفي لهدمه أن نطالبهم مثلا بشرح هذه العبارة : « أنا أحب هذه الوردة الجميلة » إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك في وجودها ؛ فهل يقول الماديون إن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين ؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً ، ولكنك لن ترى « حباً » ولو حدقت في مجهرك عاماً كاملا ! ! هذا ، وإن لنا أن نسائل الماديين : لماذا لا تنتج الحركة في كل ظواهر الوجود المادي إلا حركة مثلها ، ثم هي في الانسان تنتج إحساساً وفكرا ؟ وما أحسبنا ظافرين منهم بالجواب ! وإذن فقد عجز المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة العقل كما فشل في شرح المادة نفسها

(٣) وأخيراً ، يقول أنصار هذا المذهب إن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية ، ولكن أي عقل يكفيه هذا التفسير ؟ إني أرى مثلا هذه القطعة من الحديد تتمدد نهارا وتتقلص ليلا ، فلماذا ؟ سيقولون إنه قانون الحرارة المعروف الذي تتمدد المادة على سننه وقواعده ، ولكن لماذا تمدِّدُ الحرارة الأجسام ؟ فان أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشيء عن تصادم الذرات أثناء تحركها ، فسأعود إلى استجابتك : ولماذا يحدث هذا ، حتى تقر معي بأن هنالك آخر الأمر ما يتعذر تعليله بأصول هذا المذهب ، وأن القوانين التي يلجأون اليها لتعليل ظواهر الكون هي بدورها تحتاج الى التعليل

٥٠٥٢

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

لقد لبثت الفلسفة دهرا طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعا . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها – فى الأعم الأغلب – على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحوا جديدا ، فلا يكون من شأنه كنه الشئ ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة ، وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد الى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ ان العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى مممان الحياة العمليـة الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الأسباب .. ولكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على انجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شئ يؤثر فى الحياة أثرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يعول مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فان كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلاً

والواقع أن معظم الناس يتبعون فى حياتهم العملية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التى يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقى الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة فى الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث فى حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم فى الأمل الجميل الذى تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذى لولاه لضقنا ذرعا بفداحة عبئها... فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها فى أداء مهمته ، فسلوكنا العملى هو فى الواقع الذى يوجه أفكارنا . وليست أفكارنا هى التى توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوما إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم فى سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجا

وإن نيتشه ليذهب فى هذا الاتجاه الى أقصاه فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ، فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة الى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية فى رأس الجندى فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود فى سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأى بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية فى حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير .

ولا يقتصر الأمر فى ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التى تعين على المضى فى بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلى على صحة تلك الآراء التى اتخذوها أساسا لأبحاثهم ، فلا يدرى العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ، وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا فى

أندلسيات :

١ ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

تمهيد :

أما وقد خطت « الرسالة » هذه الخطى الرغيبة الموفقـة ، وبلغت المبالغ فى الفخامة والضخامة والطرافة والاحسان ، والحشد والاحتفال ، والعناية بالدراسات الأدبية الممتعة الموفقة ، والترحيب بكل ما يقـدم إليها من الموضوعات القيمة الفائقة ، فلماذا لا ألقى دَلوى أنا الآخر فى الدلاء ، وأنشر فى « الرسالة » من الآن شيئاً مما تنطوى عليه أضابيرى الأندلسية الزاخرة بشتى الموضوعات فى هذا الفردوس الاسلامى المفقود ـ كما كان يسميه فقيد العروبة صديقنا المرحوم أحمد زكى باشا ـ فمن ترجمة أديب إلى قصة شاعر إلى تاريخ فيلسوف إلى حياة عالم إلى طرفة أدبية إلى نبذة فلسفية إلى تحفة علمية إلى شطحة صوفية ، إلى ما شئت مما تهيأ لى أن أعكف على دراسـته منذ نيف وثلاثين عاماً حتى صرتُ أطول له عِشرة ، وأبطنَ به خِبرة . . . ولا تسلنى لماذا تولعت هذا التولع بدراسـة الأندلس وكل ما يمت إلى الأندلس بسبب ، فذلك ما أجهل أنا أيضاً علته . . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف وقضى الله أن أكون ممن شـغفه حباً هذا الفردوس الذى إذا أنت حاولت أن تنزه نفسك بين رياضه النضرة المزهرة المثمرة ، تجتلى أنوارها ، وتجتنى من أَمَمٍ أثمارها ، وتستمع إلى تغريد بلابلها ، وتتروّى من رحيق جداولها ، ألفيت ما ينبعث له عجبك وإعجابك ، وتشتهى مذاقه حتى يسيل له لعابك ، ويتأرج عبيرُه المفغـم فيملأ خياشيمك طيباً ، ويستخفـك تغريده المنغم فتترنح له تطريباً ؛ بيدَ أنك إذا أنت حاولت هـذا الامتاع من طريق الأسفار التى وضعت فى الأندلس قديماً للقيتَ من الألاق ما لقيت مما لا يكاد ينهض به الا الأفراد أوتوا من الشوق ما يجلدُهم على معاناة البحث والتنقيب والارتياض بتذليل كل صعب عسير .

ومن ثم استخلصت لك من نادرة الأسـفار ، ومغرّبة الأخبار ، باقة جمعت مختلف الأزهار ، وسفطاً يحتوى شتى الأثمار ، وحاكياً يسمعك أحسنَ النغم ، وناجوداً تحتسى منه شراباً لا إثم فيه ولا لم أوّه لقد شط القلم ، وسجعت ثم سجعت ، وتلك التى تستك منها المسامع ... ومن عذيرى من الفتح بن خاقان إذا هو أعدانى بسجعه ، وتأثر طبعى بطبعه ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ؟ ولـكن لا تُرَع فسوف أتجنب السجع ما أمكننى تجنبه ، وكذلك لا تتوقع ما دمت بصدد هـذا الفتح أن ستسمع سجعاً أندلسياً كثيراً قد يضجرك ويسلمك إلى السأم والملال . فسوف أشمشع كل أولئك بما يلطفه ويسيغه إن شاء الله . . .

وإذا كنت أقدم بين يدى كلماتى قصة الفتح بن خاقان فليس ذلك عن قصد قاصد ، ولعل الذى وجّه الذهن اليـه الآن هو ما أخذته عينى أخيراً فى بعض التواليف الحديثـة الموضوعة فى بلاغة العرب فى الأندلس لبعض أصدقائنا من أساتيذ الجامعة إذ يقول : إنه لم يترجم للفتح بن خاقان غير ابن خلـكان ، وأن المقّرى لم يترجم له فى نفح الطيب . . . مع أن المقرى ترجم له كما ترجم له غير واحد . . . واليك بعد ذلك قصة هذا الأديب الأندلسى :

الفتح بن خاقان

ظهر أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسى الاشبيلى فى عصر هو من خير العصور ومن شر العصور فى وقت معاً : كان عصراً ذهبياً من ناحية الثقافة ، إذ كان عصراً يفهق بكل أنواع المعارف ، من علم وأدب وفلسفة ، وكان فى الوقت ذاته عصر اضطراب سياسى مزعج . . وبَينا الأندلسيون زمَن ملوك الطوائف متمتعون بحرية لاحد لها ، يتبجحون فيها ما شاء لهم التبجح ، ويلاقى مُسْتَفَفُوهم من ملوكهم أقصى غايات الأريحية

حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا فى كثير ولا قليل أن نعلم ما هى الـكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الكهرباء هو ما نعمله وما تؤديه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المشاكل الفكرية التى أرهقت الفلاسـفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

يتبع زكى نجيب محمود

والا كرام يعيشون فى أذرائهم عيشاً تلين لهم مثانيه ومعاطفه ، وتدنو عليهم مجانيه ومقاطفه ، إذ أن ملوكهم كانوا كذلك أدباء أفاضل ، وعلماء أماثل ، أثرت فيهم الحضارة الأندلسية أثرها ، فرققت من حواشيهم ، وألانت من جوانبهم — بينما هم كذلك ، وجفون الخطوب عنهم نيام ، إذ قلب لهم الدهر الخؤون ظهر المجن ، ولبس لهم جلد النمر ، فكاب عليهم الأسبانيون من الشمال ، وطمع فيهم برابر برّ العُدوة — مراكش — من الجنوب ، فغزاهم المرابطون الخشنون وأزالوا ملكهم ، فاستحالت حال الأندلسيين ولا سيما فى زمن على بن يوسف بن تاشفين ذلك الملك الذى كان إلى أن يعد فى الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد فى الملوك والمتغلبين كما يقول المراكشى صاحب المعرب ، ويقول عنه أيضاً : واشتد إيثاره — أى إيثار على بن يوسف بن تاسفين ملك مراكش والأندلس — لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم . وفى ذلك يقول ابن البنّى — شاعر أندلسى سنترجم له : —

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب
وبأصبغ صبغت لكم فى العالم

« ابن القاسم وأشهب وأصبغ هم من أئمة مذهب الامام مالك الذى كان المذهب الوحيد المعمول به فى المغرب والأندلس »

إلى أن يقول : « ولم يكن يُقرَّبُ من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من عَلِمَ عِلْمَ الفروع أعنى فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها، وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله « صلعم » فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء . ودانَ أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام — التوحيد — وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت الى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه . ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله (١) أمر أمير المسلمين باحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد حتى سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شىء منها . واشتد الأمر فى ذلك ؛ ثم قال : ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم بن الجد ، وأبى بكر محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة ، وأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبد المجيد بن عبدون — صاحب القصيدة المشهورة التى رثى بها بنى الأفطس من ملوك الطوائف والتى مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصوَر

« وسترى تراجم هؤلاء الأفاضل قريباً » فى جماعة يكثر ذكرهم . إلى أن قال : ولم يزل أبو عبد الله بن أبى الخصال وأخوه أبو مروان كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخَّرَ أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن ردمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة فى ذلك وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول : وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله : أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلامَ يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؛ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقاباً (٢) ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم . . . فى أمثال لهذا القول فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبى عبد الله أخيه : كنا فى شك من بغض أبى مروان

(١) يريد كتبه التى فى علم الكلام والمنطق والجدل على طريقة الفلاسفة
(٢) اذ كانوا ملثمين

المرابطين والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة ، ثم قال : واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا فى ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحق بالأمر منه . . . وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه ، وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس .

* * *

. نجم أبو نصر الفتح بن خاقان فى هـذا العصر الذى هو كما أسلفنا من خير العصور الأندلسية من ناحية الثقافة واكتظاظ الأندلس بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء ، وفى الوقت ذاته هو من شر العصور إذ كان عصراً سياسيا سخيفاً كما ترى

ولد الفتح بن خاقان سنة ٤٨٠ هـ ـ ١٠٨٧ م ، أى قبل أن يدال للمرابطين من ملوك الطوائف بسنتين . أما وفاته فقد اضطربت فيها كلمة المؤرخين فحكى ابن خلكان أنها كانت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ـ ١١٤٠ م ـ وقال ابن الأبار القضاعى فى معجم أصحاب الصدفى إنه توفى ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وقال الوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب إن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام ٥٢٩ والفرق بين ما رواه ابن الأبار وبين ما رواه لسان الدين بن الخطيب هو قريب من أربعة أشهر كما ترى . على أن ابن خلكان حكى ما رواه لسان الدين بن الخطيب أيضاً . . . وقال لسان الدين بن الخطيب : وأبو نصر الفتح بن خاقان من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب [1] . ويفهم كلام لسان الدين هـذا إلى قول الحجارى فى المسهب فى حق الفتح : طلع من الأفق الأشبيلى شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ـ يبدو لنا أن قرى يحصب هذه من كورة إشبيلية ، وقد تكون من كورة أخرى من كور الأندلس نزح منها الفتح إلى إشبيلية واتخذها مقاماً له ؛ وقد يريد لسان الدين بن الخطيب أن أصل الفتح من هذه القرية ، أما هو فقد ولد بأشبيلية بعد أن نهد اليها آباؤه الأقربون وأقاموا بها ؛ وأياً كان مسقط رأسه فقد نشأ فى أشبيلية وفيها كما يظهر أخذ الأدب ـ كما يحدثنا لسان الدين بن الخطيب ـ عن أبى بكر بن سليمان بن القصيرة ـ أحد مشهورى الكتاب وسترى ترجمته ـ وابن اللبانة من كبار شعراء الأندلس ، وأبى محمد بن عبدون الشاعر الكاتب صاحب قصيدة : الدهر يفجع بعد العين بالأثر ، وابن دريد الكاتب وأبى جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبى الحسن بن سراج ، وأبى خالد بن تستغير ، وأبى الطيب بن زرقون وأبى عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبى عبد الرحمن بن طاهر ، وأبى عامر بن سرور وأبى الوليد بن حجاج . هكذا سرد مشيخته لسان الدين بن الخطيب

نشأ الفتح بن خاقان نشأة أدبية كما ترى ، ومن ثم غلب عليه الأدب حتى انصرف اليه عن كل ما عداه ولم يؤثر عنه من المعارف سواه ، قال ابن خاتمة : إنه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة ، والشعر ، والآداب [1] . أقول : وقلما ترى أديباً أندلسياً إلا وله مشاركة فى كثير من العلوم الدينية وغير الدينية . على أن قارئ الفتح بن خاقان يرى أنه واسع الاطلاع إلى أقصى حد ، وأنه أديب كل الأديب وأن معارفه العامة وثقافته الشاملة التى لا بد منها للأديب فى تلك العصور متوافرة . وإليك أقوال مترجميه : قال لسان الدين بن الخطيب : كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعانى وثيقها ، لعوباً بأطراف الكلام ، معجزاً فى باب الحلى والصفات . وقال فى موضع آخر : وشعره وسط ، وكتابته فائقة . وقال ابن سعيد فى المغرب : فخر أدباء أشبيلية بل الأندلس ذكره الحِجَارى فى المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده . طلع من الأفق الأشبيلى شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان فى الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ، إلى أن قال : وهو وأبو الحسن على بن بسام الشنتمرى مؤلف الذخيرة فارسا هـذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييدا ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً

(١) قال صاحب القاموس يحصب كيضرب قلعة بالأندلس قال شارحه سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير . ثم ذكر ناسا ينسبون اليها منهم القاضى عياض صاحب الشفاء وهو الذى أقام حد السكر على الفتح كما سيمر بك

(١) هكذا جاء فى نفح الطيب ولعل ابن خاتمة يريد بقوله هذا أنه لم يؤثر عن الفتح إلا الكتابة والشعر وما هو منهما بسبيل

إلى الأُستاذ مصطفى صادق الرافعي

المشـــكلة

للأديب أحمد الطاهر

لا فضل لي فيما أعرض من رأي في هذه المشكلة التي عرضت في « الرسالة » يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان ، بل الفضل لصاحبة « الجمال البائس » فيما أوحت به اليك من رأي في رجولة الرجل

***

فاذا استوت للرجل رجولته فسبيل الحياة له يكون كما أراده الله أن يكون : خيراً ، ويسراً . أما ما يلقى الرجال فيه مما يسمونه بأسماء تضاد الخير واليسر فمرجعه في أكثر الأحوال إلى أن الرجل لم تستو رجولته ولم تكمل . والنقص في الرجولة زيادة في الشقاء ، وإذا لقي الرجل في سبيل الحياة نتوءاً يتعثر فيه ففي رجولته ثغرة قد قدت على قدر هذا النتوء

ونعود إلى صاحب المشكلة – وفقه الله – فنمتحن رجولته فنجدها ناقصة من بعض نواحيها ، سقيمة في بعضها الآخر ؛ ولكن نقصها ليس مما يستعصى على الكمال ، وسقمها ليس مما يحمل على اليأس في أي حال ، فمشكلته ليست عسيرة والحمد لله

شهد الفتى على نفسه فقال : « إن الرجل الجاثم في عقله هو غروره – يومئذ – وكبرياؤه يقع في الخطأ بعد الخطأ ، ويأتي الحماقة بعد الحماقة ؛ ونشأ صلب الرأي ، معتداً بنفسه ، إذا هم مضى ، وإذا مضى لا يلوى ، وما هو إلا أن يخطر له الخاطر فيركب رأسه . . . . »

اللهم غفراً ورحمة لهذا الفتى ! !

إنه قد عرف عيب نفسه ، ومن عرف عيبها وأصحر به فقد نهج السبيل إلى علاجها ، وإنه لواصل إلى غايته عاجلا أو آجلا ، لا ينقصه إلا أن يذيقها مرارة الحق لتشفى بعد أن استساغت حلاوة الباطل فسقمت

البلاء الذي لا يشبهه بلاء ، والسقم الذي لا يرجى منه شفاء ، هو أن يجهل الرجل عيب نفسه ، أو يعلمه علماً ناقصاً يلتمس فيه الأسباب والعلل المبررة

أما صاحبنا فكما نعلم من القصة : رجل فاضل مهذب ذو ميسرة ، وبيته بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة ؛ وبعض هـذا فيما أرى كفيل بتيسير العلاج له برعاية الله التي لا تتخلى عن بيت فيه الدين . فان ضل واحد من أفراد هذا البيت ، ففي قلبه من أثر الدين الذي بسط سلطانه على البيت منذ نشأته بقية صالحة يكشف عنها غطاؤها فتقود هذا القلب إلى الخير في عجلة أو وناء . فلندع رجل المشكلة الآن ولننظر إلى فتاتها

هذه الفتـاة التي سميت للفتى – سامحها الله – لِمَ أغلقت الباب في وجهه ؟ لم يذكر لنا عارض المشكلة سبباً صريحاً لهذه الفعلة ؛ على أن إدراك السبب ليس بعسير ، فلقد نستطيع أن ندركه «بالاستنتاج والمقارنة» ؛ فالفتاة الثانية التي عرفها صاحب المشكلة فأحبها لم تغلق في وجهه الباب لأنها كانت فتاة جذابة « أمسكت باحدى يديها عنانه » فمضى قدما ، فاذا التفت إلى الوراء قرأ في عينيها كلمات : « أتستطيع فرارا مني ؟ » فيقول : « لا » ويمضي . . . « ثم يلتصق بجسمها » فتسرى منها إلى قلبه رســالة يقرؤها بقلبه المريض ، فاذا هي : « الدنيا كلها هنا » . . . . . .

هذا شأنها ، وما أحسب أن من ظالم الأحكام أن نصف الفتاة بأن في حياتها لينا ورخاوة ، ولذا لم تغلق في وجهه الباب وهي لم تصبح زوجا له بعد . ولا أحسب أن الفتاة الأولى قد

في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتعشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله بابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المتولى على الرهان ، وإنما أخلّ به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بذم أولى الأحساب ، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن ماجه فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً . .

نرجىء القول على قتله ولماذا قتل ونمضي الكلام على منزلته الأدبية والمفاضلة بينه وبين معاصره وتوأمه أبي الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقي

أغلقت الباب إلا لأن فى حياتها شدة واستمساكا

* * *

ألا فاعلم ياصاحب المشكلة ، أن حياء المرأة إذا أصيب باللين والرخاوة ثغر فيه الشيطان ثغرة يجلس على بابها ويصيح : « هلموا أيها الفتيان ! » وسرعان ما يستجيب الفتيان لصيحة الشيطان . واعلم وقاك الله أن هذه الفتاة التى فتحت لك الباب إن تزوجتها فستتزوج معها الشيطان الجاثم على ثغرة حيائها وسينضم الى شيطانك فتصبح بين ثلاثة : امرأة وشيطانين ! وأنت واحد ! وستكون بين أمرين احلاهما مر : إما أن يأتمر بك الشيطانان فيوسعا فى ثغرة حيائها حتى يدخل فيها غيرك من الفتيان . وإما أن تضيق أنت بما وسع الشيطانين أن يفعلا فتلجأ الى أبغض الحلال الى الله ــ الطلاق ! وأدعو لك مرة أخرى : وقاك الله . على أن الشيطانين إن أعياهما صبرك أو سعة فى حلمك دارا بوجهيهما الى المرأة فصوراك لها بصورة بشعة قبيحة ، وبذرا فى قلبها حبا مرا أسود ينبت فى القلوب المريضة فيثمر ثمرا مرا أسود يسمى البغضاء ويسمى الكراهية ويسمى المقت : ولا يزال هذا الثمر ينمو ويربو حتى ينضج ويستوى فلا يتسع له قلب المرأة فتحاول أن تجتثه من أصله فلا تستطيع ، فتعمد الى الزوج تحاول أن تجتثه ، فان أفلحت فذلك ما أرادت وتستريح ويشقى الرجل شقاء المحروم من أهله ، وإن لم تصبه أصابت شرفه ويشقى الرجل شقاء المثلوم فى عرضه ؛ أقبل أيها الرجل على تلك التى أغلقت الباب فى وجهك : ــ

أتدرى لم أغلقته ؟

لأنك لم تكن وحدك حين طرقت بابها ! لقد رأت معك شيطانك وما يتسع بابها لدخول إنسان وشيطان . لقد رأت معك الشيطان متمثلا فى « غرورك وشبابك وكبريائك وعنادك » فأشفقت عليك وعلى نفسها من ثالث يدخل بينكما . ولو أفسد الشيطان وأنتما لم تصبحا زوجين بعد فياللشقاء ويا للعار !

إنها أغلقت الباب فى وجهك وأنت خطيبها المسمى لها وأحكمت إغلاقه من الداخل حتى لا تستطيع أنت أن تدخل عليها ، فكان الأجدر برجولتك أن تحكم إغلاقه من الخارج حتى لا يستطيع غيرك أن يدخل اليها

حتى إذا حان موعد الزواج فضضتما الاغلاق فى وقت واحد وفى حضرة نفر من الأهل وذوى القربى ، وعسير على الشيطان يومئذ أن يندس بينكما

* * *

ما عليك أيها الرجل إلا أن تفتح قلبك لهذه المرأة الحيية الخفرة فتصل ما بينها وبينك ، وتغمض عينيك عن كل مايصوره لك غرورك ونزقك وكبرياؤك وصلفك ، ولن تلبث طويلا حتى ترى هذه الفتاة جندا من جنودك يحارب معك أعداء نفسك ويعالج معك أدواءها ، وستصلان الى الحب الزوجى النقى وفيه منك العطف والحنان ، وفيه منها الوفاء والاخلاص

ستجد فى هذا عناء ونصبا ، وسوف تتمثل لك الفتاة التى أحببت بين حين وآخر وأنا أدلك على ما يجب أن تعمل :

أنظر بعقلك الذى تبرأ منك حين صدت عنك الفتاة :

تلك الفتاة التى قد أحببت وضَمَمْتَ جمالها ورقتها وفتنتها وذكاءها فى إناء ولم تحبسه عن الناس ولم تتخذ لصيانته سببا من الأسباب . وهذه الفتاة التى كرهت لقد وضعت عفتها ووفاءها وشرفها وحياءها فى إناء وأغلقت دونه الأبواب . فأيهما أبقى على الزمن ؟ وأيهما أخلص لك ؟ وأيهما لايعبث به نزق الفتيان ؟

وإن كان فى صدرك حرج مما لا تجد فى زوجتك الخفرة من جمال ورقة وفتنة وذكاء وما يتراءى لك فى الفتاة الجذابة فخذ واحدة مما زُيِّنَ لك من صفاتها وضَمَّها الى جوار واحدة مما ترى من صفات زوجتك : خذ الجمال من تلك وضمه الى جوار الشرف من هذه : وانظر فى نصيبك من الاثنين :

ألست ترى جمال الجميلة ملكا لها تجود منه بما تشاء ومتى تشاء ولمن تشاء ؟ وشرف الشريفة لك ولزوجتك تنعمان بفضله مابقى ، وتستظلان بفيئه ما كان ؛ لايستأثر به واحد منكما وحده ، ولا يبخل بخيره أحدكما على الآخر ؟ ألا تجد الجمال متاعا تستهلكه أنوثة المرأة ، والشرف متاعا تستبقيه رجولة الرجل ؟

ثم خذ الذكاء من الحبيبة اليك وضمه الى جوار الحياء من البغيضة اليك وانظر الى حظك من الاثنين :

ألا تجد الذكاء سلاحا فى يد الأولى تحارب به كل الناس وزوجها : والحياء سلاحا فى يد الثانية تحارب به كل الناس إلا زوجها ؟

خذ الفتنة من تلك والوفاء من هذه

ألا ترى الفتانة تنادى بفتنتها : هلموا الى أيها الناس ، وترى الوفية تنادى بوفائها : هلم الىّ أيها الزوج ؟

* * *

وبعد ، فهاتان اثنتان احداهما وقفت بالباب ، والأخرى أغلقت الباب

أما التى وقفت بالباب فانها تستقبل الدنيا وتستدبر الدار ، وأما التى أغلقت على نفسها الباب فانها تستقبل الدار وتستدبر الدنيا . والدنيا للناس جميعاً ، والدار لك وحدك

فانظر أيتهما الصالحة لك ، الجديرة بحبك ، الأمينة على بيتك ، الحفيظة على شرفك

سترى فى زوجتك عيوباً ونقصاً ، وستتجسم هذه العيوب ، لأنك تنظر اليها بغير عين الرضا ؛ وخير لك ألا تفكر فى هذه العيوب حين تبدو لك إلا بمقدار ما تحاول اصلاحها ، وأن تروض نفسك على اليقين بأن المرأة الكاملة لم تخلق بعد ، ولن تخلق بعد ، فلو خلقت الزوجة الكاملة خلُقاً وخلْقاً لتعطل فى الرجل كثير من صفات الرجولة ، ولما شعر الرجل بما مازه الله به على المرأة ، ولخرجت المرأة من انوثتها ، ولتزحزح الرجل عن رجولته ؛ ولما كان الرجال قوامين على النساء

* * *

ولا أجد فى الرد على ما تدعيه لنفسك من الحرية أبلغ مما أجابك به عمك حين قال : «إن كنت حرا كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التى أحببتها» ، وحين يسائلك : «ألا تكون حرا إلا فينا نحن وفى هدم أسرتنا ؟»

وإن كنت تبيح لنفسك تحت ظل هذه الحرية أن تحب غير امرأتك لا لسبب إلا لأنك رأيت فتاة غيرها تفوق زوجتك جمالاً ورقة وعذوبة منطق ، فبم سينتهى بك هذا ؟

ألا تدرى أنك إن وثبت إلى الفتاة تراها فتعجبك فتتخذها زوجة دون زوجتك أو تضمها إليها فما زلت فى الدنيا وما زال فيها من هى أجمل وأذكى وأدعى للفتنة من تلك التى أعجبتك : أتثب إليها أيضاً وتتخذها زوجة ثالثة ، أم تطلق الاثنتين وتتزوج الثالثة ؟ ألا تعلم أن هذا لا ينتهى بك إلى نهاية ، ولا يقف بك عند غاية ، ولو أباح الناس جميعاً لأنفسهم هذه الفعلة لما قامت زوجية صالحة ، ولا نعم الأولاد بالحنان الممتزج من الأبوة والأمومة ، ولأفضى الحال بالناس إلى أن يتواثب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ولفسدت بذلك الأرض ؟

يا أخى : إن المتزوج الذى يشتهى جمالاً أكمل من جمال زوجته أو فضلاً لم يجده فى زوجته فيثب إليه إنما هو رجل قد أسقط مروءته وأهدر رجولته وظلم زوجته أشد الظلم ، وكفر بأنعم الله أشد الكفران ، ودبث شرفه بالصغار . وحسبك لتقدر هذا أن تزن الفعلة وزنها لو انعكس الوضع فأباحت الزوجة لنفسها مايبيح الرجل لنفسه ؛ لا تقل إن الله أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع دون المرأة ، فلذلك حكمة وقيود لا يسقط بها حق المرأة على الرجل وواجب الرجل قبل المرأة

ما أحسبك إلا فهمت هذا وأحسنت تقديره ، وأنت القائل لعمك إنك تقدر الرجولة والثواب والمروءة

* * *

اتق الله فى الزوجة ، وأشعر نفسك قوة الرجولة ، وانظر إلى ضعف الأنوثة ؛ وليكن لك على قلبك السلطان القوى ، وهيئ بالعطف والحنان مهادا للحب الزوجى تجد أن زوجتك أحب الناس اليك ، وأقدرهم على اسعادك .

اليوزباشى

أحمد الطاهر

٣ - عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

والآن ، فيم طول التفكير وبعد التقدير ، وقد صار الأمر لعلى ، واستقامت البيعة له فى الحجاز ، وترامى سلطانه إلى العراق ، وامتدت خلافته فشملت مصر ، وأولئك هم ولاته تَمرْدِى بهم الابل خفافاً إلى ولاياتهم ، وهؤلاء صحابه وأنصاره يبعثون فى النفوس ظلالا من الخوف والرعب بعد الذى كان من قتلهم عثمان ، وإن عمراً ليحس مطالع هذه الخلافة الجديدة فى شىء من الشك وقلة التقدير ، وإنه ليجد انقباض نفسه عن طاعتها ورغبتها عن العمل فى ظلها ... بل إنه ليعمل الفكر ليجد من سلطانها مخرجا ومن طاعتها مهرباً ... ولعله يستوى فى هذا مع أترابه من الصحابة والقادة ... ولعله كان يرجو أن يتصل ببعضهم ليستطلع فكره وليبادله الرأى ... وربما ود لو يتصل بعلى نفسه ، إذن لأقنعه بالتخلى عن هذه الطوائف القلقة التى وصل حباله بحبالها ، والتى تضر بقضيته كل الضرر ... فان فى هذه الطوائف لنفرا لا زال دم عثمان يجرى على أيديهم ، وإن فيهم لأوشابا لا يليق بالخلافة أن تتصل بهم ويكونوا عدتها فى الفتح والجهاد ، وإن فيهم لأحداثا لا يستقيم بهم الأمر ، ولا يحسن أن تكون بأيديهم أمور العباد ؛ وماذا عسى ابن العاص أن يفعل مع هؤلاء وهو يرجو أن يكون سيداً لا مسوداً ، وقائداً لا مقوداً ، ثم هو يريد قبل ذلك « أن يشترط » ، فما ينبغى لمثله أن يخطو دون أن يقدر للخطو موضعه ... أو يمضى دون أن يعلم أين يؤدى به السير ، أو يعمل دون أن يقدر ربحه وخسارته من هذا العمل الذى هو مقبل عليه ... أليس هو القائل : « الكرار فى الحرب ، وإننى الصبور على غير الدهر ، لا أنام عن طلب ؛ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة ؛ ولعمرى لست بالوانى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته ، وإنى ما ضربت إلا فريت ، ولا يخبو ما شبيت ... »

أليس هو الفاتح النابغة ، والسائس الذى لا يشق له غبار ... فما باله يبذل قياده طائعاً ، ويقدم نفسه مختاراً ... كلا ... وليكن له فى الميدان الجديد شأن عظيم ... فما هؤلاء الذين يتولون الأمور إلا أترابه ولداته الذين لا يفضلونه فى ماض ولا فى حسب ولا مقام ... والذين لا يساوونه فى مكر ولا سياسة ولا تدبير ... ففيم يكون ذنباً والرؤوس لا تزيد عليه شيئاً ؟ وفيم يؤمر وهو من طبيعة الآمرين ؟ .. ولو أن علياً بعث اليه يستعين برأيه ويستنير بفكره ؛ إذن لقام إلى جانبه وأخلص له المودة ، وأفاده الفائدة العظيمة ، فانه « شيخ يضر وينفع » كما يقولون فى بعض مايدس عليه من الشعر ؛ ولكن علياً منصرف عنه لا يكاد يذكره ، وهذه شهور تنطوى على خلافته وهو مستقل بنفسه وأصحابه ، ما يلقى إلى أحد من الصحابة بالاً ... بل ها هو ذا يؤدب العصاة منهم وينهض لهم بالسيف ... وهذه الأخبار تترامى عن الهزيمة النكراء التى منيت بها عائشة ، والقتلة القاسية التى صار اليها الصحابيان طلحة والزبير ... وماذا بعد ؟ ... أغلب الظن أن دوره مقبل ولا ريب ، وأنه مخير بين الطاعة أو الحرب عن قريب فماذا تراه فاعلا ؟ ... هنا كان الرجل يحس قلقاً شديداً ... فيقلب فكره ويتأمل حاله ، عله ينتهى إلى رأى يستقر اليه ... ثم خطر بباله فسأل نفسه : ومعاوية ؟ ... كيف ترى حال معاوية ... أغلب الظن أن ابن أبى طالب لن يعفيه ، وهو وال على الشام وما حواليه ... وإنه لمرسل اليه بالطاعة أو عازله ... ثم بدا له خاطر جديد فابتسم ... وهم من مجلسه ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ... إنه يفكر فى معاوية ... ويحسب الأمر حساباً دقيقاً ؛ إن لمعاوية جندا كثيفاً ، ونفرا أقوياء ... وإنه لفى منعة بأهل الشام ومال الشام ... ومن يعرف فضل جند الشام كعمرو الفاتح المجرب الخبير ؟ إن فيهم لخيراً ، وإن عليهم لمعتمدا ... وإنهم ليفضلون جند العراق وجند الجزيرة ... وإنهم ليثبتون فى الحرب ثباتاً عظيما ... فلم لا يعتمد عليهم ويستفيد منهم ؟ ولم لا تكون جبهة قوية من جند الشام وقدرة معاوية وحيلة عمرو ... فما عسى أن يفعل جند العراق وشجاعة على وتهور أنصاره أمام هؤلاء ... فاذا فرغ من ذلك الحساب والتقدير فقد هم يريد ليذهب لمعاوية ليرى رأيه فى ذلك الأمر ، وإنه لكذلك إذا طارق قد أقبل ، وإذا به رسول من معاوية ! ... يحمل إلى عمرو

كتاباً ... ويبتسم ابن العاص ، فقد فهم ما فى الكتاب ؛ وما يقصر مثله عن ذلك وقد قدر الأمر كله كما رأينا ... ثم يتناول الكتاب ، فاذا به يقول : «أما بعد فانه كان من أمر على وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم علىّ جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى ، فأقدم على بركة الله تعالى[1] »

الآن يستطيع ابن العاص أن يمضى عن ثقة ، فقد عرف ابن أبى سفيان قدره واستنجد به ، وفى استطاعته الآن « أن يشترط » ، وأن يطلب ما يريد من أجر وجزاء ... وهل هو يرجو إلا مصر وخيرها وأمنها ... وهل هو واجد فى مناصب الدولة منصباً هو آمن أو أحسن من ولاية مصر الفياضة بالخير والبركات ... بلى وإنها لأجدى على صاحبها من الخلافة نفسها ... فما يغنم الخليفة إلا التعب والجهد فى غير طائل ... وما جزاؤه من ملكه الواسع إلا أن يتوسد الغبراء ، فاذا رق ومال إلى الدنيا كان نصيبه القتل دون رحمة ولا غفران . ثم أى مكان هو أعز من هذا الركن الأمين الذى لا يصله الجند إلا بمشقة ، ولا يقصر فى أمر يطلبه الخلفاء ... الخير الخير إذن فى المبادرة إلى جانب معاوية والانضمام لرايته ، والحزم الحزم فى الاسراع اليه والوقوف فى صفه فما فى هذا خطر ولا خوف ...

وليزود نفسه من رأيه باستشارة ابنيه محمد وعبد الله ... فقد عود نفسه أن يدقق الحساب جدا ... وألا يترك ناحية من نواحى الرأى ولا مذهبا من مذاهب الفكر إلا بحثه ووزنه وزناً دقيقاً ؛ وهاهو ذا يستمع إلى ابنه عبد الله ... إنه ليلومه فى ذلك لوماً شديداً ، ويرده عن هذا الجشع الذى تحدثه نفسه به : « أيها الشيخ ، إن رسول الله قد ذهب وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان ، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية » ... وإن محمدا ليسخر من أخيه ، ويريد لأبيه مكاناً ممتازاً فى عالم السياسة العربية ، ويقول : « بادر الى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً ... »

بلى لقد قال محمد الصدق ، ومس شغاف قلب أبيه . . وماذا أحب الى ابن العاص من أن يكون رأسا فى كل خطوة يقوم بها وألا يأتمر برأى أحد وأن يكون حراً ، فلا تؤذيه مضايقة مثل عمرو ، وإن معاوية لقادره قدره ورافعه فى درجات الرياسة والامارة ، ولا يعدم ابن العاص بفكره أن يتسلط بعد ذلك فيكون صاحب الرأى فى الجماعة دون معاوية . . وما عسى تفعل « الحية فى أصل الشجرة » إلا ذاك . . نعم وليمض على بركة الله

* * *

وكان معاوية فى حيرة من أمره لا يدرى ما يفعل ؛ كان رأيه قد استقر على حرب على ، ولكنه لم يدر كيف يمضى الى ذلك ، وقد بدأت دعوة على تتسرب الى الشام ، وأنشأ المسلمون يتحدثون فى سر سكوت معاوية عن طاعة الخليفة الجديد ، وكان هو نفسه يسكتهم ويهدئهم بما له من المكانة فى نفوسهم والقدر فى أعينهم ، ولكنه كان يحس أن لذلك آخرا وأنهم منفضون من حوله إن لم ينته فى هذا الموقف الى رأى ، وهل هو إلا وال من الولاة عليه أن يطيع ، وقد وصلت دعوة على وتحدث بها البعض ومال اليها البعض الآخر ، وبدأ القلق يساور معاوية ، وانتهى به الأمر الى الاستنجاد بابن العاص ، وكان يعرف فيه ميلا عن بني هاشم وكرها لهم ، وكان يقدر أنه لا بد كاره لأمر على ، فبعث اليه يتعجل حضوره نخف اليه كما رأينا . . وجلس الرجلان يتبادلان الرأى ، وربما أحس عمرو من حديث معاوية أنه أخطأ فى هذه المغامرة التى أقدم عليها ، وأن هذه « الصفقة الجديدة » ربما كان فيها بعض الخطر . . ورأى أن ما كان قدره من الاعتماد على جند الشام كان فيه كثير من الوهم وسوء التقدير . . وكيف يمكن إقناع هؤلاء بمناهضة الخليفة وحربه وهم مسلمون مؤمنون يرون طاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضا واجبا ؟ وكيف يمكن التمويل عليهم ، وهذه طاعة على تكاد تبدو على ألسنتهم ؟ ولكنه اطمأن الى أن لا خطر على مركزه فى هذا الأمر الذى انضم اليه . . فانما هو صاحب الرأى المسموع والكلمة النافذة . . وهاهوذا يستطيع أن يشترط « أخذ مصر كلها أو مصر ومعها غيرها » . وقد تقدم فما ينبغى له أن يتأخر . . وقد ألقى يده فى يد معاوية ولن يخلص له على بعد ذلك أبدا

ثم إنه مضى يفكر فى الأمر تفكيرا طويلا ، وقلبه على وجوهه .. حتى هداه الرأى الى حيلة ربما أفلحت فى إقناع جند الشام بعدالة قضية معاوية .. فان هؤلاء الناس لا بد أن يكون قد

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥

ساءهم مقتل عثمان ، ولا بد أن يكونوا ساخطين على قتلته راغبين فى الثأر والاقتصاص منهم ؛ وقد ترامى الى سمع ابن العاص أن عليا يأوى هؤلاء المجرمين ويعد لهم فى نعمته ويضعهم من حزبه موضع القادة والرؤساء .. فلم لا يقال للشاميين إن معاوية يقبض يده عن على لأن عليا يمين قتلة عثمان ويدعهم أحرارا طلقاء ، بل لم لا يقال لهم إن مقتل عثمان قد صادف من نفس على موقعا طيبا ؟ .. بل لم لا يقال لهم إن عليا نفسه عمل على هذا القتل وعاون عليه لـكى يصير الأمر اليه أخيرا ؟ .. ولم لا تلتمس البراهين على ذلك ، وقد كان على فى المدينة ساعة قتل عثمان ، وكان فى ميسوره أن يمضى لنجدته فلم يمض ... وكان الأمر لا يكلفه إلا مشية من داره الى دار عثمان فتتفرق الجموع ويرتد الناس ... بلى ... ولم لا يؤثر على عواطفهم بتصوير عثمان عطشان يجهده العطش ... وعلى فى داره روىٌ مسرور ... بلى ... وهذا ابن أبى بكر قاتل عثمان بيده مكرم من على ، أثير عنده ، مقام على مصر واليا ... بلى ، والحق أبلج لا تنقصه البينة ولا يعوزه البرهان :

للبحث بقية

حسين مؤنس

في الأدب الانجليزي

٦ ــ الكائنات الغيبية

فى شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيرى حماد

تتمــة البحث

فلسفة الدينية :

إن من الصعب علينا أن نرجع إحـدى رواياته العديدة إلى أصل دينى صريح ، ولـكن هناك عدداً غير قليل من العقائد الدينية أودعها شكسبير ثنايا شعره ومؤلفاته ، وتختلف هـذه العقائد باختلاف الروايات التى ورد ذكرها فيها

ففى رواية الملك هنرى الخامس نرى فكرتين دينيتين أودعهما الشاعر فى روايته . وأولى هذه العقائد هى عقيدته فى أصل خطأ الانسان ، وثانيتهما هى عقيـدته فى المعمودية . أما خطأ الانسان فكان منشؤه تلك الخطيئة العظيمة التى اقترفها آدم أبو البشر . اجترم ذلك الجرم فتلوثت نفسه بتلك الخطيئة وكان جديراً بعد ذلك أن تتطهر نفسه مما لحق بها من الأدران ، فأرسل الله اليه أحد الملائكة وأخرج منه تلك الروح الطائشة ووضع بدلاً منها روحاً طاهرة نقيـة ، وما اقتراف الناس للآثام إلا سير على السنن الذى اختطه والدهم من قبل واحتذاء لحذوه

وهناك عقيدة ثالثة أدرجها شكسبير فى رواية هملت ، فهو يعتقد أن الدعاء والابتهال إلى الله لا يصل إلى السماء إلا إذا كان صادراً عن نفس طاهرة وقلب صادق الاخلاص ، وهذه حقيقة دينية تثبت أن شكسبير كان رجلاً ورعاً تقياً يؤمن بصدق النية وخلوصها من الرياء والنفاق

نظر شكسبير إلى هذا العالم الملىء بالشرور والموبقات نظرة احتقار وازدراء فكان دائم التوق إلى الخلاص منها والانتقال إلى حياة أروع منها وأطهر ، وقد ذكر عقيدته هذه على لسان بطله هملت الذى كان يقصد الترفع عن الأمور التافهة الشريرة والسمو بنفسه فى عالم أرقى ، عالم ماؤه التقى والصلاح والسعى إلى ما فيه خير الناس

وفى رواية الملك يوحنا نرى شكا فى عالم آخر يلاقى الناس فيه أبناءهم وأصدقاءهم ، ذلـكم هو يوم البعث والحساب ، وشكه هذا يظهر على لسان الأميرة كنستانس عندما تخاطب الـكردينال قائلة : « إن كان حقاً ما تقول عن وجود حياة أخرى نجتمع فيها بأصدقائنا فانى لا شك واجدة ولدى الذى فقدته فى المهد صبياً »

أما اعتقاد شكسبير فى وجود الآلـه فكان عقيدة ثابتة لا شك فيها ولا مراء . فهو دائماً يذكر الآلـه فى عدد من رواياته وعند ما يقصد إظهار أمر عظيم يقسم بالآلـه الأعظم الذى تطأطئ له جباه البشر ؛ فهو يقول على لسان بانكو : «إنى لأقسم أمام الآلـه القدير أن أحارب جميع المـكائد التى يقصد منها خراب الأمة والبلاد »

وفى رواية روميو وجوليت تظهر لنا عقيدته فى المعمودية ، فالانسان إذا اقترف أمراً منكراً وجب عليه أن يتعمد مرة أخرى فيصبح كأنه حديث النشأة والولادة ويتخلص بواسـطة ذلك مما لحقه من ذنوب ومعاص

وأهم هذه العقائد الدينية الكثيرة التي ضمنها شكسبير رواياته عقيدتان : أولاها حق الملوك الآلهي ، وثانيتهما عقيدة تناسخ الأرواح ؛ وقد ذكرت العقيدة الأولى في موضعين من روايات شكسبير : أحدهما في رواية الملك ريشارد الثاني عندما يهتف الملك قائلاً : « إن جميع مياه المحيطات لعاجزة عن أن تمحو الزيت القدس عن الملك المنصب من قبل الآلهة » (١) . والآخر في رواية مكبث عند ما يتقدم الطبيب إلى مالكولم Malcolm بقوله واصفاً الملك القديس : « ولمسة من يده التي وضع فيها الآله قدسية وطهارة لم يضعهما في غيره كانت كافية لأن تشفي المرضى والمصابين » (٢)

من هاتين الفقرتين يتبين أن شكسبير كان يؤمن بحق الملوك الآلهي ، وأنهم نفر من الناس اختارهم الله لأدارة شعوبه ، فعليهم طاعتهم وتنفيذ أوامرهم . وليس من العجيب أن يعتقد هذا الاعتقاد وقد وجد في عصر سادت فيه هذه العقيدة وآمن بها الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ، ولم تكن لأفكار الحرّة قد انتشرت بعد ، بل كان الناس يفضلون كل ما هو قديم موجود

وأما العقيدة الثانية كما ذكرنا فهي عقيدة تناسخ الأرواح ، وهذه تؤلف قسما من النظرية المعروفة لدينا بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال بعض الأرواح من أجسادها إلى أجساد أخرى ، فروح الرجل التقي الورع تنتقل إلى جسد كريم تحل فيه وتتخذ منه مكاناً لاقامتها ، وأما روح الرجل الشرير فتحل في جسد أحد الحيوانات الشريرة ؛ وقد ذكر شكسبير هذه العقيدة في (الليلة الثانية عشرة Tweifth Night) وفي تاجر البندقية ، وفي كل من هذين الموضعين ينظر شكسبير الى هــذه العقيدة نظرة استخفاف وازدراء ، فهو يقول على لسان كراشيانو في الرواية الثانية : « إنك لتجعل من عقيدتي موضعاً دائماً للشك فيسهل على حينئذ الاعتقاد بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال أرواح الحيوانات إلى أجساد البشر » (٣)

وفي رواية « الليلة الثانية عشرة » نرى حواراً بين المهرج وبين مالقوليو . واليك نصه :

المهرج : « ما هي نظرية فيثاغورس ؟ »

مالقوليو : « إنها تعني انتقال روح جدتي الى جسد أحد الطيور »

المهرج : « ماذا تعتقد في هذه الفكرة ؟ »

مالقوليو : « إني لأنزّه الروح أن تنزل إلى هذا المستوى ، ولذلك فاني أعتقد بأنها نظرية خاطئة »

المهرج : « وداعاً ياصاح ! لتبق على جهلك ، وستعتقد بهذه النظرية قبل أن أعيد اليك عقلك ، وعندئذ ستتردد في ذبح أحد الطيور مخافة أن تحل روحه محل روح جدتك » (١)

من هــذا الحوار يتبين أن شكسبير كان يستهزىء بهذه العقيــدة وينظر اليها نظرة احتقار وازدراء ؛ فعقائده الدينية لا تسمح له بهذا التفكير ، ولذلك كان جديراً به أن يوليها ظهره وألا يهتم بها اهتماماً جدياً

وقبل أن أختم هذا البحث في فلسفة شكسبير الدينية أورد ما قاله جبسن عنه : « إن الاحترام الزائد الذي أبداه شكسبير في رواياته نحو الديانة المسيحية الأساسية لتجعلنا أميــل الى الاعتقاد في نصرانيته لولا عدم وجود أحد الأدلة لتثبت لنا أنه كان مسيحياً صادقاً » (٢) ولكنه لم يكن يوماً ما معتقداً بجميع الاعتقادات التي آمن بها أهل عصره . نعم لقد عاش مسيحياً ومات مسيحياً ، ولكنه أظهر في بعض الأمور شكا وتساؤلاً عن صحتها وصدقها . نعم كان شديد الاحترام للكنيسة وعقائدها ولكنه خالفها في كثير من المواضع

خاتمة :

لو تتبعنا نظريات شكسبير في الأمور الغيبية التي ذكرناها سابقاً لرأينا الاهتمام الزائد الذي أبداه نحوها ، نعم عاش في عصر سادت فيه الخرافات والأوهام ، ولكنه تطلع بعين ثاقبة فرأى أشياء كثيرة يعجز الرجل العادي عن رؤيتها . كانت له القدرة الكافية على تفهم الأشياء الغيبية ففهمها بطريقة تخالف الطريقة التي فهمها الغير

(1) Richard II . Act III . 2 . 54
(2) Macheth ; IV . 3 . 141
(3) Merchant of' Venice IV 1 .30

(1) Tweifth Night IV . 2 . 54
(2) Gibson . Sh's Use of The Subernatural ? . 47

ولم تكن العقائد الشائعة المصدر الوحيد الذى اعتمده شاعرنا فى أبحاثه عن المغيبات ، بل كانت هناك مصادر أخرى من الفلسفة الرومانية والأغريقية القديمة مضافاً اليها الابتكار الذى أوجده شكسبير دون أن ينقل عن غيره . سمع بأذنه ما يدور بين الناس من هواجس وأوهام فجمعها فى شعره إلى ما نقله عن مخلفات السلف وأخرج منها روائع تعد من أعظم مبتكرات الأدب ، وأخص بالذكر منها رواية (حلم منتصف ليلة من ليالى الصيف)

وأما الشبح فى رواية هملت فيحوى نوعين من الأشباح أحدهما كان من ابتكار الشاعر العبقرى والآخر مما نقله عن سابقيه من الكتاب الذين رووا حادثة الأمير هملت بشكل قصصى

وأما ساحرات مكبث فقد اقتبسها شكسبير عن هولنشد Holinshed ويتبين لنا هذا مما قال فى هو لنشد : « بينما كان مكبث راجعاً إلى العاصمة إذا به يصادف ثلاثاً من النسوة وقد ازتدين ألبسة تشبه ما كان يرتديه النساء فى ذلك العصر » ؛ وأما شبح بانكو فهو ابتكار ابتدعه الشاعر العظيم ؛ وأما رواية العاصفة فيغلب على الظن أنها الأولى من نوعها ، وذلك لعدم وجود من كتب فى موضوعها من الشعراء والكتاب الذين دونت كتبهم فى السجلات وكتب القصص والتاريخ

تقع حياة شكسبير بالنسبة إلى بحثه فى المغيبات فى أربعة أطوار : الطور الأول منها هو طور ظهور روايته (حلم فى منتصف ليلة من ليالى الصيف) فاستعماله للجنيات مبتكر ومحدث . . وهو سلس فى كتابته بعيد كل البعد عما يرهق الذاكرة وعقل القارىء . وقد وصف كلارك كتابه هذا بقوله : « إن استعمال شكسبير المغيبات لأول مرة لما يدل على سروره ومرحه : فكل روايته هذه ملأى بالبهجة والحبور ، ويندر أن نجد هنالك ما يكدرك إلا ما يقع فى الأسطر القليلة التى بحثت فى الأشباح »

وأما الطور الثانى من أطوار تأليفه فهو الدور الذى ظهرت فيه روايته الثانية هملت ؛ وفى هذه الرواية التمثيلية نشعر بالأرواح والأشباح تتصل ببني البشر اتصالاً لا يكاد يكون تاماً ، فان هذه القوى الخفية لا تستطيع أن تؤثر فى مجرى حياة الانسان وتحوله فى الجهة التى تريدها ، ولا يقوم الشبح فى هذه الرواية بأى عمل من الأعمال إلا إذا كان بطريق وسيطه ؛ وكان شكسبير فى هذا الطور قد بلغ الثلاثين من سنه وبدأت نظرته فى الحياة تتحول من تفاؤل إلى تشاؤم ، وأخذت الأفكار والظنون تنتابه فتجعل منه عرضة دائمة للتفكير والتخيل ، فاعتقد أن وراء الانسان قدراً يسيره حسبما يريد ، وما الانسان إلا فريسة لهذا القدر الغاشم

والطور الثالث ينتهى باخراج رواية مكبث . ازدادت قوة هذه المخلوقات المغيبة ولكنها عاجزة عن إيقاع الضرر بالناس مباشرة ودون أية واسطة ، ولم تكن كلمات الساحرات فى الحقيقة إلا صدى يردد ما كان يدور فى خلد بطل الرواية ، وكان شكسبير يشعر بالشرور والموبقات تحيط به من كل جانب فأظلمت أفكاره وتناوبته الهواجس المختلفة ، وأصبح فى خوف مستمر من هذه القوى الخفية التى تقوم بأعمالها تحت ستار من الظلام والخفاء . وهنا يصل إيمانه بالخرافات إلى القمة ويصبح شكسبير مؤمناً مصدقاً لكل ما يقال له عن هذه الأمور المخيفة المرعبة

وفى الطور الرابع أو الأخير نراه يخرج للناس رواية العاصفة وفيها يسترد رباطة جأشه وقوة عقيدته فيرجع إلى أفكاره المرحة الطلقة مرة ثانية . فما الأرواح والقوى الخفية إلا عبيد يستخدمها الانسان فى مهامه وأغراضه ، وليس لها من القوة والسلطة عليه شىء ؛ وفى هذه السنوات الأخيرة يصل خياله الابتداعى إلى أقصى غايته . فيشعر بحقيقة الوجود وطبيعة الأمور دون أى ستار أو غطاء

وقد تخلص شكسبير من هواجسه ومخاوفه وعاد مرة ثانية إلى مرحه وسروره الذى أظهره فى صورته التى صورها للجنيات فانطلقت مخيلته فى الفضاء مجتازة جميع العوائق من عقائد وأفكار رجعية . وسجلت فى روايته الأخيرة نتيجة عبقريته ونبوغه

وفى كل من هذه الأطوار الأربعة رأينا شكسبير يتخذ مواضيعه مما كان يدور فى خلده من المسائل والمشاغل العقلية ، فهو مفكر واسع التفكير ، مصور حسن التصوير ، وشاعر خصب الخيال ؛ تجلى تفكيره فى كل هذه الأمور العقلية التى بحثها ، وظهر تصويره فى هذه الرسوم الرائعة التى رسمها لمخلوقات خيالية بأبدع تكوين وأحسن تصوير

نابلس — فلسطين　　　　**خيرى حماد**

١٤ – شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تتمة

محاسنه ومآخذه: إذا كان لأبى العتاهية ذلك الفضل فى الشعر العربى بطريقته الجديدة التى أحدثها فيه، وتوخيه فيه السهولة التى تجعله قريب النفع، وتجعل منه أداة صالحة لتقويم الشعب، فإنه كان أحياناً يفرط فى هذه السهولة، فينزل فيها إلى اللغة الدارجة، والواجب أن يتوسط فى ذلك ويسلك فى الشعر لغة بين هذه اللغة ولغته القديمة الجافة؛ ومما يؤخذ عليه من ذلك قوله:

ألا يا عُتْبَةُ الساعَهْ   أموتُ الساعَةَ الساعَهْ

وقد قيل لأبى بَرْزَةَ الأعرابى أحد بنى قيس بن ثعلبة: أيعجبك هذا الشعر؟ فقال: لا والله ما يعجبنى، ولكن يعجبنى قول الآخر:

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحَهُ   إن بنى عمك فيهم رماحْ
هل أحدثَ الدهرُ لنا نكبةً   أم هل رَقَتْ أمُّ شقيق سلاح

أى نفثت فيه حتى لا يعمل شيئاً. ولا يفوتنا أن نأخذ على هذا الأعرابى أن هذا الشعر لا يصح أن يذكر مع ذلك الشعر، ولكن يجب أن يذكر معه غزل من نوعه، وفى معنى يمت بسبب إلى معناه، لتكون الموازنة صحيحة بينهما، وتظهر الفروق بين الشعرين تمام الظهور

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى، وكان ممن ينكر على أبى العتاهية: أنكر الرشيد على طعنى على أبى العتاهية فى شعره، فقلت يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس، ولكن ربما تحرف، أى شىء من الشعر قوله:

هُوَ اللهُ هُوَ اللهُ   ولكن يغفر اللهُ

وقال أبو عبيد الله المرزبانى: ومما أنكر على أبى العتاهية من سفساف شعره قوله فى عتبة:

ولهنى حبُّها وصـيرنى   مثل جُحى شهرة ومشخلبَهْ

وقوله:

يا واهَا لذكر الله   يا واهَا وياواهَا
لقد طَيَّبَ ذكر الله   بالتسبيح أفواها
أرى قوماً يتيهونَ   حشوشاً رزقوا جاها
فما أنْتَنَ من حُش   على حُش إذا تاها

وقال على بن أبى المنذر العروضى: لما مات سعيد بن وهب الشاعر حضر أبى جنازته، وحضرها الفضل بن الربيع، وكان قد ظهر أيام المأمون، فلما دفن أثنى عليه الفضل، وأقبل على أبى العتاهية يحدثه أنه أودع القضاة والعدول أموالا فما وفوا له، وأنه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به، فقال أبى لأبى العتاهية: ألا ترثيه؟ قال: بلى، قال أبى: ثم صرت بعد أيام إلى الفضل ابن الربيع فأخرج إلىّ رقعة، فقال: اقرأ مرثية أبى العتاهية لسعيد بن وهب، فإذا فيها:

مات والله سعيدُ بن وهب   رحم الله سعيدَ بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عينى   يا أبا عثمان أوجعت قلبى

فقلت ما أدرى ما أقول؟ فقال الفضل: أبو العتاهية بأن رثى فى حياته أولى من سعيد بعد موته، قال الصولى: وله شبيه بهذا فى محمد بن يزيد المسلمى:

قد مات خِلى وأنسى   محمد بن يزيد
ما الموتُ والله منا   خلافه ببعيد

قال أبو عبيد الله المرزبانى: وقوله فى مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله فى سعيد بن وهب مما ذكره الصولى وهو:

بكت عينى على عيسى بن جعفر   عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر

ويمكن أن يعتذر عن هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله أبو العتاهية فى حديثه السائر ولا يريد به الشعر، وقد روى أبو الفرج رثاءه لسعيد بن وهب بطريق آخر فقال: أخبرنى على بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد، قال: حدثت عن بعض أصحاب أبى العتاهية، قال: جاء رجل إلى أبى العتاهية ونحن عنده فساره فى شىء فبكى أبو العتاهية، فقلنا له: ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً:

قال لى مات سعيد بن وهب   رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتِ عينى   يا أبا عثمان أوجعت قلبى

قال فعجبنا من طبعه ، وأنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً ؟ وإنا نرجح هذه الرواية بورودها عمن شاهد هذا الشعر حين يقال وعاينه بنفسه ، ولعل الفضل غير فيه هذا التغيير ، ثم رواه بذلك الشكل ليزرى به على أبي العتاهية بعد أن فسد ما بينهما على ما ذكرنا

ومما أنكر على أبي العتاهية قوله :

حلاوة عيشك ممزوجة   فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها ، والعبارة غير مرضية ، لأنا لم نر أحداً أكل شهداً بسم ، وأجود من قوله لفظاً ، وأصح معنى ، قول ابن الرومي :

وهل خُلة معسولة الطعم تجتنى
من البيض إلا حيث واش يكيدها
مع الواصل الواشي وهل تجتني يد
جني النحل إلا حيث نحل يذودها

وأنكر عليه أيضاً قوله :

ياذا الذي في الحب يلحى أما   والله لو كُلِّفتَ منه كما
كلفتُ من حبِّ رخيم لما   لمتَ على الحب فذرني وما
ألقى فاني لستُ أدرى بما   بُليتُ إلا أنني بينما
أنا بباب القصر في بعض ما   أطوف في قصرهم إذ رمى
قلبي غزالٌ بسهام فما   أخطأ بها قلبي ولكنما
سهماه عينان له كلما   أراد قتلى بهما سلما

فانه من الشعر المضمن ، والتضمين عندهم عيب شديد في الشعر ، وخير الشعر عندهم ما قام بنفسه ، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض ، مثل قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه   على شعث أي الرجال المهذبُ

فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه ، إن قال « أي الرجال المهذب » كفاه ، وإن قال « ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث » كفاه ، وقد سبق أني لا أرى رأيهم في عيب هذا التضمين ، ولست أدرى لماذا لا نجيز في الأسلوب القصصي هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة ، فيكون لنا من تماسكها وحدة شعرية ملائمة لوحدة قصتها ، كما يكون لنا في الحكم ونحوها أبيات مستقلة ، فيها يقوم كل بيت منها حكمة قائمة برأسها

أما محاسنه وعيون شعره فنذكر منها ما أثر عنهم ، واستحق به التقديم عندهم ، قال موسى بن صالح الشهرزوري : أتيت سلما الخاسر فقلت له أنشدني لنفسك ، قال لا ولكن أنشدك لأشعر الجن والانس ، لأبي العتاهية ، ثم أنشدني قوله :

سكنٌ يبقى له سكنُ   ما بهذا يؤذن الزمنُ
نحن في دار يخبِّرنا   ببلاها ناطق لَسِنُ
في سبيل الله أنفسُنا   كلنا بالموت مرتهنُ
كلُّ نفس عند ميتها   حظُّها من مالها الكفن
إن مالَ المرء ليس له   منه إلا ذكرُهُ الحسن

وقال بشار لأبي العتاهية : أنا والله أستحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول :

كم من صديق لي أسا   رقه البكاءَ من الحياء
فاذا تأمل لامني   فأقول مابي من بكاء
لكن ذهبتُ لأرتدى   فطرفتُ عيني بالرداء

فقال له أبو العتاهية : لا والله يا أبا معاذ مالذت إلا بمعناك ولا اجتنيت إلا من غرسك حيث تقول :

شكوت الى الغواني ما ألاقى   وقلت لهن ما يومى بعيدُ
فقلن بكيتَ قلتُ لهن كلا   وقد يبكي من الشوق الجليدُ
ولكني أصاب سوادَ عيني   عُوَيْدُ قذًى له طرفٌ حديد
فقلن فما لدمعهما سواء   أكلتا مقلتيك أصاب عود

وقال أبو سلمة الباذغيسي : قلت لأبي العتاهية في أي شعر أنت أشعر ؟ قال قولي :

الناسُ في غفلاتهم   ورحا المنية تطحنُ

وقال الفضل بن الربيع لأبي العتاهية : يا أبا إسحاق ما أحسن بيتين لك وأصدقهما ! قال وما هما ؟ قال قولك :

ما الناس إلا للكثير المال أو   لمسلط ما دام في سلطانه
فاذا الزمان رماهما ببلية   كان الثقات هناك من أعوانه

وقال عبد الله بن الحسن بن سهل الكاتب : قلت لأبي العتاهية أنشدني من شعرك ما يستحسن فأنشدني :

ما أسرع الأيام في الشهر   وأسرع الأشهر في العمر
ليس لمن ليست له حيلة   موجودةٌ خير من الصبر
فاخبط مع الدهر إذا ما خبطا   واجر مع الدهر كما يجرى
من سابق الدهر كبا كبوة   لم يستقلها آخر الدهر

وقال أبو تمام الطائى : لأبى العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد ، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهى قوله :

الناسُ فى غَفَلاتِهم ورحا المنية تطحنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى وأن الغنى يخشى عليه من الفقر

وقوله فى موسى الهادى :

ولما استقلوا بأثقالهمْ وقد أزمعوا للذى أزمعوا
قرنتُ التفاتى بآثارهم وأتبعتهم مُقْلةً تدمع

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عفواً أليس مصير ذاك الى زوال

وقال العتبى : رؤى مروان بن أبى حفصة واقفا بباب الجسر كئيبا آسفا ينكت بسوطه فى معرفة دابته ، فقيل له يا أبا السمط ما الذى تراه بك ؟ قال أخبركم بالعجب : مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتى من خطامها الى خفيها ، ووصفت الفيافى من اليمامة الى بابه أرضا أرضا ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر ، جاء ابن بياعة النخاخير – يعنى أبا العتاهية – فأنشده بيتين فضعضع بهما شعرى ، وسواه فى الجائزة بى ، فقيل وما البيتان ؟ فأنشد :

إن المطايا تشتكيك لأنها تطوى اليك سباسباً ورمالا
فاذا رحلن بنا رحلن مخفةً وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وهذا قليل من كثير من عيون شعر أبى العتاهية ، وديوان شعره فى جزأين كبيرين أولها فى الزهد ، وثانيهما فى الأغراض الأخرى ، وقد جمعه أحد القسوس اليسوعيين نقلا عن رواية النمرى وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهانى والمبرد وابن عبد ربه والمسعودى والماوردى والغزالى وغيرهم ، وهو مطبوع فى بيروت سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٦ م

وليس ما فى هذا الديوان كل شعر أبى العتاهية ، لأنه كان أحد ثلاثة لم تمكن الاحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية ، وكان فى هذا أكثرهم شعرا ، ولعلنا بما كتبناه فى حياته وشعره نكون قد قربناه لمن يجهله أو يجحد به ، وقدمنا للأدباء مثلا من الشعر النبيل الذى يجب أن ينسجوا على منواله .

عبد المتعال الصعيدى

الرأى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سأحمل فى الرأى مَضَّ الألم وأصبر للخطب إما ألمّ
وأحمل نفسى على مُرِّها إذا ضامها ما يضيم الكرم
ولا أشترى كل هذا الوجود ولا العيش فيه ببعض الشمم
وأزهد فيما بناه الرياء وأصدع بالرأى مهما هدم
فأهوِنْ علىّ بدنيا النفاق وجاه يُنال ببيع الذمم
هو الرأى روحك فاحرص عليه فما بعد روحك غير العدم
وحكم القلوب بإلهامها وما أصدق القلب فيما حكم
فلا تطلبن وداد الصديق بمدح تزوّره أو بذمّ
فإن اللسان رسول القلوب يحدّث عنها بلا أو نعم
وإن العقيدة عِرضٌ فصنه إذا كنت ممن يصون الحُرَم
سَرت فى فؤادك مسرى الدماء فلا تبذل الدم إلا بدم
أمانة ربك فى خلقه فمن كتم الحق فيها ظلم
وميثاقه قبل خلق الجسوم تلقته أرواحنا فى القِدم
بها رفع الله تلك النفوس وميّزها عن سوام النَّعم
فلا تغبطنّ أخا حظوة فما نالها برخيص القيم
ولكنه باع فيها الضمير وألقى العقيدة تحت القَدم
وساوم بالنفس فعل البغىّ رمت بالحياء ابتغاء اللقم
وكم أسخط الحق فى موطن وكم ألبس النور ثوب الظلم
تكاد مظاهره الخالبات تشف لعينيك عما كتم
ويوشك منظره المجتلى يحدّث عما طوى من تُهَم
فلا تغترر ببهاء الوضيع فكم من حذاء صقيل الأدم
وعش بالعقيدة عيش الكرام ومت رجلاً تحت هذا العلم
ولا تعتدد بالأُولى خالفوك وكن أمّاً إن عصتك الأمم

أحمد الزين

الجبــــل

(ذكرى)

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

جلالك أهدى من ضياء المنائر ومنبرك الأعلى أجل المنابر
لقد كنتَ عرشَ المجد فى الأرض عزة
ومسكن أرباب الدهور الغوابر
فيا معبداً سقف السماء غطاؤه وعمدانه الدوحات ملء النواظر
جلالك يُلْهِى المرءَ عن كل زائل فيخشع مسحور النهى والضمائر
توحدت كالرهبان يارُبَّ راهب رأى عصمةَ الأطواد طهرَ السرائر
تُطِلُّ على السهل الفسيح كأنما تُفَكِّرُ فى عيش القرى والعمائر
ألاَ إنَّ للأهرام مجداً وروعةً ولكنها إنْ لُحْتَ لهوُ الأصاغر
فأنت بناءُ الله لم يبنِ مثله قديرٌ ولم تعبث به يدُ جائر
ومعتصم فى معقل منك مانع كما اعتصم الملاّح بين الجزائر
عَلَوْتَ برأسٍ فى السماء مُبَاعِدٍ أكيما تناجى السحب أم كبرقادر؟
وينساب فيك الماء جذلان لاهياً وآناً له روع كروعة هادر
عليك اعتراكٌ للعواصف رائع وبرقٌ ورعدٌ طىَّ سُحْبٍ مواطر
وأنت وَقُورٌ لم ترُعْ من رعودها ولم تتهيَّبْ دورةَ للدوائر
يُغيِّرُ مَرُّ الدهر حياً وهامداً سواك فهل أوقفت خطو المقادر
فيا مَلِكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ومِنْ فوقه تاج النجوم الزواهر
تشاهد جيلاً بعد جيل كأنما تمر بك الأجيال مَرَّ العساكر
ترى مولد الدولات ثم مماتها وتبصر مجد اليوم بعد الغوابر
خلطتُ بك النفسَ الطَّموحَ إلى العلا
ومرأى جـــلالٍ منك ملءُ الخواطر

عبد الرحمن شكرى

عذراء الهوى

بقلم سليم الزركلى

هـذا الشاعر فى خلوته وانثنى يقرأ أسفار الحياةِ
فتجلّى الشك فى صورتِهِ كوميض البرق بين الظلماتِ
***
زهرة لم تتفتح للهوى كالملاك الطفل فى مهد الدلال
لمست وجنتها بنت الندى فأضاء النور مصباح الخيال
***
بسم النور على أجفانها فتجلى فى معانيها الأمل
وارتمى البشر على أحضانها غارقاً بين أغاريد القبل
***
قبلتها الشمس فى وجنتها فنما فى دِقّها وَرد العفاف
وحنا البــدر على طلعتها فحلا للعين والقلب المطاف
***
يا ملاك الحب فى المهد ويا شعلة الالهام والوحى المصون
يا ضياء النفس فى النفس ويا غاية الحسن وتمثال الفنون
***
منيـة منيتها القلب اللهيف فغدا فى صبره يلقى العذاب
بسمةً واحـدة يهْدَ الوجيف وافتراراً عن ثناياك العِذاب
***
فى حنايا النفس آمال جسام تتلوى كأفاعى الهاجره
أطفئِى غلتها بالابتسام وبإغضاء الجفون الساحره
***
ما لهذا الكون معمور الجناب وفؤادى فى سراه حائر
فاذا ما مزّق الدهر الإهاب ماالهوى؟ ماالعيش؟ جَدٌّ عاثر!
***
عاشق الزهرة فى ميعتها
يحتسى فى الكأس معسول الرُّضاب
إنه يقطف فى صورتها بهجة الدنيا وأحلام الشباب
***
فاذا قبل خدّ الزهَرات وهى سكرى كالعيون الناعسه
سمع القلب شجىّ النغمات فهفا ، وهى تغنى هامسه :
***

« أنت لا تبصرني بعد غدٍ   سوف يجلوني عن الغصن القدر
فتمتع من جمالي وازدد   ولتملني خيالات الفكر

* * *

لا تُضع أيامك الغرّ سدى   واتخذني مثلاً تنشده
يذهب العمر هباءً بدداً   إن تولى عنه من يسعده

* * *

يا نسيم الروض خفف وطأتك   لم أعد أستطيع حمل النغمات
سر على مهل وخفِّف حدتك
أصبحت تؤذى خدودى النسمات

* * *

واحنُ يا طيف على أحلامنا   وابتسم تشرق أزاهير السعود
واسر مراحاً على أيامنا   بنشيد من أناشيد الخلود »

* * *

فانحنى يغمرها بالقبلات   ويوارى فى حناياه دموعهْ
وَدّ لو ينفحها روح الحياة   حانياً فوق أمانيها ضلوعه

* * *

طهِّرى القلب بحب وغرام   ودعى الأيام فى غفلتها
أنت إن أيقظتها جدّ الخصام   وتداعى العمر فى يقظتها

* * *

واغنمى اللذات فى أوقاتها   وارتعى مثل فراشات الربيع
واعطفى القلب على باقاتها   إنها تحنو على الطفل الوديع

دمشق   سليم الزركلى

الزَّوَاجُ

رَأَيْتُ زَوَاجَ الْمَرْءِ أَسْعَدَ حَالَةٍ
مِنَ الْمُكْثِ بَيْنَ النَّاسِ وَهْوَ فَرِيد
شَرِيكُ الْفَتَى فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ زَوْجُهُ
فَكَيْفَ يَعِيشُ الْمَرْءُ وَهْوَ وَحِيدُ
وَلَوْلاَ زَوَاجُ النَّاسِ فى الْكَوْنِ لانقضى
وَلَا كَانَ لِلإِنْسَانِ فِيهِ وُجُودُ
يُخَلِّدُ ذِكْرَ الْمَرْءِ فِي الدَّهْرِ نَسْلُهُ
وَمَا لامْرِئٍ فِيهِ سِوَاهُ خُلُودُ

(بيانه)   عبد الهادى الطويل

الوداع

بقلم الياس قنصل

يا قلبُ لا تجنحْ إلى الشـ   شَكوى فتؤلمك الكِلامْ
ودع الكآبةَ فالشبا   ب إذا انقضى لا يرجع
وتأمّل الدنيا ، فقد   أبدى هناها الابتسامْ
والناس ترفل بالمسرّ   رة والطبيعة تسمعُ
لحناً أثيريّ الجما   ل يعيد أنباض الأملْ
إن كان أحزنك التأهّـ   بُ للوداع فما العمل
والدهر لا يرثى وأحـ   كام القضا ليست تُرَدُّ ؟

* * *

أنا لا ألومك يا فؤا   د إذا عراك الاضطرابْ
فلقد جرعتَ ـ وأنت فى   عهد الصبى ـ كأس النوى
وخبرتَ أدواءَ البعا   دِ وما تجرّ من العذابْ
فاصبر على جور الزما   ن ، ولا تهبْ سهم الجوى
فالصبر ينفث فى الحيا   ة الانشراح والابتهاجْ
لا تيأسنَّ ، فقد يرو   ق البحر من بعد الهياجْ
ولربما انجلت الغيو   م عن السما وبدا القمرْ . . .

(عاصمة الأرجنتين)   إلياس قنصل

القصص

صور من هوميروس

١٥ - حروب طروادة

صلح . . .

للاستاذ دريني خشبة

أشرقت الشمس أو كادت ، وبدت ذيتيس تتهادى فى الأفق الغربى فوق الثبج ، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر ، طلّها الندى ...

وكانت تتأوّد تحت حملها الثقيل ، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المسرودة ، وحتى هب ولدها يحييها بعين شكرى ، ومهجة حرى ، وقلب مُوجع حزين

وكان ما يزال جالساً أمام جثة بتروكلوس يبكيها ، ويكلم فيها الأخاء والوفاء ، ويناجى فى لفائفها الود والولاء ، وكان ما يزداد إلا لوعة ، وكان ما يزداد إلا أنيناً !

وحنت عليه أمه تواسيه ؛ ثم لفتته إلى الدرع والخوذة ، فحدجهما بنظرة قاتمة ، وشكر لها هدية فلكان ، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى به الصديق . . . « ذودى الذباب فلا يمسها يا أماه ، وادفعى عنها أذى أسرابه ، واسقيها من المنتقة الصفراء ، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى بتروكلوس بثاره ... ... »

وانطلق فى غبشة الصبح يطوف بمعسكر الهيلانيين ، داعياً إلى مجلس حربى

وكان يهتف بالجند النائم هُتافاً عالياً ، فينتفض المقاتلون وقد خفقت قلوبهم ، واهتزت جوانحهم ، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل !

وكان أجل ذلك جميعاً أن ينهض أوليسيز متهالكا على نفسه ، وديوميد مترنحا فى عطفه ، ونسطور مرتجفاً كأنه فى يوم حشر ، ... و ... أجممنون ، كأن الحياء والخجل يصبغانه بحمرة الجحيم !! ....

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرّت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش ، وضياع للجهود ، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار !

وانتظم عقد القادة ، ووقف أخيل يتكلم ، فأرهفت الآذان ، وصغت القلوب ، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتلعه :

« ابن أتريوس المعظم »

« أخى فى الوطن »

« يا أمير هذه الجيوش الغازية »

أرأيت ؟ ! أى جدوى عادت علىّ أو عليك من هذه القطيعة التى أججت نارها ، واندلع بينى وبينك أوارها ، وأى غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم بن عظيم ، بل سليل آلهة عظماء ؟ !

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التى أثارت كل تلك العداوة ، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا ! إى وأرباب الأولمپ ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس ، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر ، وما حاق بجحافلنا من خذلان ، لم يكن شىء منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا !

ولكن لا ! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة ، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ؛ ولكننا ، معشر الهيلانيين ، ينبغى أن نذكر أبدا أن لنا ناراً عند هؤلاء الطرواديين ، لا محيص لهم من أن نأخذهم به ، وأن نطلبه عندهم ، فلا نرتد عنهم حتى يُدال لنا منهم ، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم ...

لنكبح جماح نفوسنا إذن ! وليطأ كل من غيظه فى سبيل هيلاس ؛ ولتندمل تلك الجراح التى تفتأ قلوبنا فتكاد تقضى على آمال أمة ؛ وتطيح بأمانى الوطن !

أجاممنون ! بن أتريوس العظيم !

تلك يدى أضمها فى يدك ، عهداً مخفوراً وذمةً وفيةً ، ألا ندع أهواءنا تهدم ما طمحت إليه نفوسنا من قبل ، وأن نكون من الساعة يدا على عدونا ، وإلباً واحداً ... ...

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا ، أو يجازف بنفسه أمامنا ..... هذا رمحى ! وتلك قناتى ! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء ... ... ! »

وتدفقت الدماء فى عروق القادة ، وشمروا كأن السماء رفعتهم اليها فتطهرهم وتزكيهم ، وتعود بهم الى الثرى قوماً آخرين ! .

ونهض أجاممنون من مكانه ، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان الخطابة ، فقال : « أيها الأصدقاء ! يا أبطال هيلاس ! ياوزراء مارس !

لست أدرى ما أقول ردًّا على أخيل العظيم ، بيد أننى سأفتح له قلبى ، وأكشف لكم أمامه عن سريرتى ، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل !

أبداً والله ما كنت سبب هذه المأساة التى أغرت بيننا العداوة ، وأججت نيران هذه البغضاء ! وأبدا والله ما آثرت أن يكون بيننا ، ونحن فى هذا الأمر ما نحن ، شئ من تلك القطيعة التى دفعنا ثمنها غاليا : أرواحا مطهرة ، ودما زكيًا ، وشبابا أنضر الشباب ! !

أبداً والله ما أثرت من ذلك شيئاً قط ؛ ولكنها المقادير ، ومشيئة سيد الأولمب ، وهذه الربات الغاليات « أرينيس »[1] اللائى تحالفن على ، فغشّين بصيرتى ، وأذهلننى عن نفسى ، فأتيت ما أتيت على غير وعى منى ، ولا هدى ولا برهان مبين ! ... ...

ولقد ثاب الى رشدى ، وارتفع الحجاب عن بصيرتى ، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر ، كأشد ما يكون حصار بين موتين ! عندها ، ذكرت أخيل ! وذكرت أننى آثم فى حق أخيل ، وأن أخيل لو كان فى هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده ، وما ملكت رجلاه أن تحملاه ! فزاغت عيناى ، واستبنت ضلالاتى ، واستغفرت الآلهة من

أجل آثامى !

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك ، وسعيت الى خصمك ، ومددت اليه يمينك من أجل الوطن ! مرحبا بك يا أخى ؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن ، ويذهب بالجفوة ، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعاً !

على أنى أرى أن أمهر صلحى وأؤكد محبتى ، باللُّهى الغالية ، والهدايا العالية ، وبكل مذخور ثمين ؛ فهلم ياابن بليوس هلم ؛ هيئ الصفوف وجيش الفرق ، حتى أعود اليك بتذكاراتى ... »

وأبى أخيل أن يلهو أحد فى تلك الساعة ، أو يشتغل إلا بالحرب . والاستعداد ليوم الفصل ؛ فشكر أجاممنون ، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته ؛ ولكن أوليسيز الجريح يتدخل ، ويرجو أن ينطلق أجاممنون فيأتى بالعطايا واللهى ، ... وبالغادة الفتان ، بريسيز ، فتنة الفتن ، ونادرة الجمال ؛ نقية كما هى ، أخيلية كما فصَلت من خِدْر مولاها يوم الخصام الأكبر . وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون »

ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون ، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ؛ ثم يأمر خادمه (تلثبيوس) فينطلق الى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه ... ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه : « بتروكلوس ! » .

ويلح عليه أوليسيز فى أن يأكل : « لأن الحرب شاقة ، ويومها دهر بأكمله ، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان ... » وما يزيد أخيل إلا إباء !

وعاد أجاممنون

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل . ونهض أجاممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس ، ورضاء الضمير ، ثم قدم الهدايا الى ابن بليوس الذى كان يشهدها ويبكى !

وفى الحق ، لقد كانت لُهىً أحسن اللُّهى ، وهدايا على قدر مُهديها !

فهذه صناديق سبعة مقفلة ، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما غلت قيمته من كتان مصر ، وخز الهند ، وحبر الشام... وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيدز) فى هيئة السعلاة ، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن عزقن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب (الفرح من الأستاذ جرير ص ١٣٩)

واحدة، ولوَّنتها الآلهة بألوان واحدة، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها، فكانت تخيل أورورا!

وهذه أيضا عشرون دستاً من النحاس المزركش، حليت سطوحها بالمينا والفُسَيْفِسَاء، وتبارت فى حفرها كل يد صناع وفكر عتيد. وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب، ويذهب سنا برقه بالأبصار!

وهذه بدَرٌ عَشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جلة اللَّهى، كل منهن كأنها ڤينوس حقيقية، تميس كأنها بانة، وتبسم كأنها أقحوانة، وتبدى عن الدر النضيد!!

ثم...

هذه بريسيز! بريسيز الهيفاء، وأصل هذا البلاء؛ الدمية التى أترعت بالمفاتن، وفاضت عيناها بسحر الهوى!

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار، وتتقدم فتذيب القلوب، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر، وشبابها الفينان!

فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح، وتطيح بالأيك، وتهب على اليم النائم فيصطخب، والبحر الوادع فيضطرب... و... على الغدير ذى الخرير فيرقص من رعشة كأن به مسًّا من الخَدَر!!

تلك هى بريسيز حين تبدت للقوم!

لقد هتف أوليسيز هتفةً ضاعت فى انذهال الملأ بما يرى، على ما تعرف من جبروت أوليسيز، وشدة أيْده...... ثم هتف فتلفت الناس، وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها؛ وأخيل مطرق ساهم، لا يكاد يعى مما يقال شيئا!...

واستل أريديس خنجره، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه، وهو فى ذلك كله يصلى لأربابه، ويسبح بحمد السماء، ويشكر لسيد الأولب ما أتم من صلح شريف بين سليلى الآلهة...

ونهض أجا ممنون فقدم بريسيز إلى سيدها، وعقب بكلمة طيبة، ثم أشار أخيل إلى المرميدون فحملوا الهدايا، وانطلقوا إلى أسطولهم بها، ومعهم فتاة مولاهم فى صفوف موسيقية، وفى موكب رهيب!

***

وانصرف القادة إلى زادهم، والجنود إلى ميرتهم، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل، والصلح الذى باركته السماء، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل!

أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها؛ فشدهها أن ترى إلى جثة بتروكلوس فى لفائفها وأكفانها، وإلى هذه الأم البارة، ذيتيس، جالسة عندها تبكى، وتدفع أسراب الذباب، وتـقى القتيل حمراً!!

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب، ولقد تركته ممتلئاً صحة، موفوراً شباباً؛ نضر الصبى، ريَّانَ الأهاب! ثم عادت فكان أشق عليها أن تراه مُسَجًّى هكذا! لا نأمة! لا حركة! لا نفَس! قتيلاً كأدنى من كان يقتل كل يوم روع، طعيناً كأقل من كان يطعن كل يوم نزال!!

ودارت الدنيا بالفتاة، فراحت تملؤها ندبة وبكاء!... واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين...

فما كان أروعه منظراً، وما كان أحره إخلاصاً!!

***

وأقبل فونيكس على أخيل يواسيه

ولكن أخيل ما رقأ له دمع، ولا ينقطع له نحيب...

واطلعت أرباب الأولمب، فشهدت ما يأخذ البطل من رُحَضَاء الحزن، وبُرَحاء الأسى، فأشار زيوس إلى ميترڤا، فهبت إلى أخيل ترعاه، وتخفف عنه من بلواه. فلما كانت قاب قوسين من ابن پليوس، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن، ويوهنه الجزع، والجند مع ذاك قد بوَّءوا مواقف للقتال! فما هى إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه، وليخفف عنه من وطأة الجوع. ويصدع فونيكس، فيتقدم إلى أخيل كاشفاً عن صدره، ويصب السلافة الأولمبية فيشربها الجسم الضاوى، ويسترجع بها ما فقد من قوة... وما يفتأ فونيكس يصب الخمر، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوهاً، حتى يكون فى كل قوته من أثر الخمر، فيصيح صيحة الحرب... التى تهتز لها أبراج طروادة!...

فانظر إليه مُقَنَّعاً فى حديد ڤلكان، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التى لم تصنع مثلها يد الآلهة الحداد، وانظر إليه يداعب حربة شيرون، أستاذه السنتور العظيم؛ ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه الغَضْبَتَيْن، ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشِّعاب...

ويل لك يا هكتور!

(لها بقية)

دريني خشبة

البريد الأدبي

اللغة السيوية بربرية

إلى الرحالة الأستاذ محمد ثابت ، سلام واحترام :

ذكرتم ياسيدى فى العدد ١٢١ من (الرسالة الغراء) أن لأهل سيوة لغة خاصة يتكلمونها فى رطانة هى أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وأنكم تسمعتم اليها فلم تهتدوا إلى كلمة واحدة تمت إلى العربية أو اللاتينية بسبب ؛ وبعد أن ذكرتم أمثلة من هذه اللغة الغريبة الشاذة قلتم : « ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى مازجته العربية ثم الرومانية »

والأمثلة التى ذكرتموها تدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة هى بربرية لا شك فيها ، وهذه الألفاظ التى استغربتموها هى نفسها لا تزال مستعملة فى أفواه البربر فى هذه البلاد إلى الآن

والذى انتهيتُ اليه — بعد البحث الطويل فى أصل هذه اللغة وفى علاقتها بالعربية — هو أنها إن لم تكن لهجة من العربية الأولى بعدت عن أصلها بتراخى الزمن وطول الأمد حتى صارت كأنها لغة مستقلة ، فما لا شك فيه أنها لغة سامية (أنظر بحثنا « هل البربر عرب ؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى ؟ » فى مقتطف يوليو ١٩٣٤)

وأما أن العربية المدوّنة فى القواميس قد مازجت البربرية بعد الفتح الاسلامى لبلاد البربر ، فهذا أمر واقع لا شك فيه ، فكلمة « تَلَشْلَشْتْ » التى قلتم إنها من أسماء الأعلام عند السيويين هى كلمة عربية من « لشْلَشَ » إذ تردد واضطرب « بُرْبَتْ » بادخال علامة التأنيث فى اللغة البربرية عليها وهى التاءان معاً فى أولها وفى آخرها ؛ وترجمة هذه الكلمة « اللشلشة أو اللشلاشة » وكلمة « لشلاش » من أسماء الأعلام هنا فى الجزائر بين العرب

ولقد وجدت وأنا أنظر فى اللغة البربرية أن القاف المعقودة فيها ينطقها بعض البربر جيماً مصرية ، وينطقها بعضهم جيماً عربية ، وينطقها آخرون منهم عربية تارة ومصرية تارة أخرى ، فقلت فى نفسى : من يدرى فلعل الجيم المصرية جاءت من هنا [1].

وبرابرة برقة كما يحدثنا التاريخ أغاروا على مصر وأقاموا بها وأثروا فى لغتها ، وجئتم اليوم أيها الأستاذ الرحالة فرويتم لنا أن نفس اللغة البربرية لا تزال مستعملة كلغة منزلية الى الآن فى بعض زوايا مصر ، ونشرتم صورة فتاة سيوية عليها مسحة من الجمال المغربى ، فأفدتمونا منكم مالم نكن من قبلُ نعلمه ولا ندريه ، فلكم الفضل والشكر على ما أوليتم

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهرى

قصة رائعة وفلم مبتذل

عرض أخيراً فى بعض دور السينما بالقاهرة شريط مصور (فلم) عنوانه « الشيطان امرأة » وقيل فى مديحه والترغيب فى رؤيته أن النجمة الألمانية الشهيرة مرلين ديتريش هى صاحبة الدور الأول فيه ، وهى التى تقوم بتمثيل هذه « المرأة الشيطان » ؛ ولكن الذى لم يقل فى شأن هذا الفلم ولم ينوه به هو أنه مأخوذ من قصة بيير لوئيس الشهيرة المسماة « المرأة وقراقوز » La femme et le Pantin أى الرجل الذى لا إرادة له

وقد أذيع أخيراً أن الحكومة الاسبانية أمرت بمنع عرض هذا الشريط فى جميع أنحاء اسبانيا لأنه يعرض سمعة الضباط الاسبان — وبطله الرجل هو ضابط اسبانى — إلى المهانة والسخرية ويعرض سمعة المرأة الاسبانية — وبطلته هى فتاة اسبانية راقصة — إلى الزراية ، وذلك أنها تبدو فى الفلم فى شخص الفنانة الحسناء امرأة عاهرا مبتذلة تعرض أخطر ضروب الاغراء النسوى وأسفلها بصور مثيرة ملهبة ، تلك هى « كونشيتا » بطلة هذه القصة الشهيرة

(١) الجيم المصرية لغة عربية قديمة ؛ وممن كان يلهج بها بنو ضبة ؛ وبها روى الرجز المشهور : نحن بنى ضبة أصحاب الجمل (الرسالة)

بيد أن الحكومة الاسبانية لم تقف عند هذا المنع المحلي بل تقدمت بمذكرة احتجاج سياسي إلى الحكومة الأمريكية، فتدخلت في الأمر ونصحت إلى شركة بارامونت التي أخرجت الفلم بسحبه من جميع أنحاء العالم؛ فلم يسع الشركة إلا النزول عند هذه الرغبة وتنفيذها، وبذا يختفي أحدث مخرجات مرلين ديتريش عن الأنظار، ولكن تبقى بعد ذلك القصة الأصلية التي تعتبر من أبدع ما كتب بيير لوئيس؛ بل هي في سحر أسلوبها وروائع عرضها لا تقل اضطراماً وحياة عن الشريط المصور ذاته؛ وهكذا يستطيع من حرم مشاهدة هذا الشريط «العاهر المبتذل» أن يقرأ في بيير لوئيس، ما يرفع روحه إلى ذروة الفن والخيال الرائع

وفاة لاوردس برون

قرأنا في البريد الألماني الأخير نعي الكاتب القصصي الدنمركي الشهير لاوردس برون (Laurids Bruun)؛ توفي في الحادية والسبعين من عمره، وكان برون سليل هذه المدرسة القصصية الدنمركية الزاهرة التي اشتهرت بروعة خيالها وسحر أسلوبها وخفة روحها، والتي انجبت هانز آندرسن معبود الطفولة والحداثة، وكان مثل مواطنه وسلفه الكبير آندرسن يكتب للشباب قصصاً رائعاً ممتعاً؛ واشتهر على الأخص بسلسلة من القصص التي تصور الحياة في البحار الجنوبية، واسم بطلها فان سانتن Van Zanten؛ وأخرج منها ثلاثة مجلدات عنوان أولها «فان سانتن في أيام سعده» وعنوان الثاني «جزيرة السعادة لفان سانتن» وعنوان الثالث «الأرمل المحزونة»؛ وتدور القصة كلها حول حياة تاجر ورحالة، وهو فان سانتن، يجوب البحار الجنوبية، وينزل باحدى جزرها، ويتزوج إحدى نسائها وهي ابنة ملك هذه الجزيرة، ويعيش معها سعيداً؛ ويصف برون هذه الحياة وصفاً رائعاً ساحراً؛ وعبرة القصة تذهب إلى عكس ما ذهب اليه دانيل ديفوني في قصته «روبنصن كروزي»، وهي أن الحياة البدوية في هذه البقاع النائية أسعد مما يتصور الناس

وكتب لاوردس برون أيضاً عدة مجموعات من القصص الصغير منها مجموعة: «إلى الوطن»، وأسلوبه بسيط ساحر، ويمتاز بمقدرة فائقة على تصوير الحياة والصور الطبيعية فيما وراء البحار، وذلك في ألوان شعرية بديعة؛ وهو يذهب في كتابته مذهب الدعوة إلى حياة الطبيعة، والطبيعة أحب الأشياء والمناظر إليه، وهي أروع ميادين قلمه وخياله

الأستاذ الزنجاني

من أخبار طهران أن وزارة المعارف الايرانية عينت الأستاذ أبا عبد الله الزنجاني مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) أستاذاً للفلسفة الاسلامية وتفسير القرآن الكريم في جامعة (سبهالار) في طهران

أسبوع المتنبي في دمشق

تألفت في دمشق لجنة من العلماء والأدباء برياسة الأستاذ المغربي رئيس المجمع العلمي العربي لاعداد الأهبة لاقامة مهرجان شعبي عظيم تحت رعاية وزارة المعارف السورية يستمر أسبوعاً بدمشق في فصل الربيع، وسيقام في المعرض الصناعي السوري الذي يفتتح في شهر أبريل سنة ١٩٣٦. وقد أرسلت لجنة المهرجان الدعوة إلى علماء العرب وشعرائهم في مختلف الأقطار، وكذلك إلى أفاضل المستشرقين ليساهموا في هذا المهرجان ببحث ناحية من نواحي أبي الطيب، وستنشر اللجنة كل ما يقال في هذا الاحتفال في كتاب خاص

وفاة فنان كبير، وانتحار كاتب شهير

توفي أخيراً في فينا المؤلف الموسيقي الشهير الأستاذ بيلا لازكي؛ وكان لازكي مدى الثلاثين عاماً الأخيرة من أعلام التأليف الغنائي والموسيقي؛ وهو مجري المولد، ولد سنة ١٨٦٧، وتلقى علومه في فينا عاصمة الفن الزاهر في ظل الامبراطورية القديمة، وعاش فيها منذ شبابه؛ وظهر في التأليف الموسيقي، فوضع مئات الأناشيد والمقطوعات والأغاني الألمانية، وامتاز بالبراعة في نوع خاص منها هو القطع الغرامية والشعبية التي تعزف وتلقى في النوادي الليلية (الكاباريه)؛ وكانت تعاونه في فنه زوجته الفنانة والمغنية الحسناء ميلا مارس التي لبثت مدى حين تخلب ألباب المجتمع النمسوي الرفيع؛ ولكنها توفيت شابة ومضى لازكي يطوى بعد ذلك حياته الفنية وحيداً، ويخرج

كل عام عدداً كبيراً من المقطوعات والأناشيد التى تذاع فى جميع أنحاء العالم ، وفى أواخر أعوامه عرف لازكى متاعب البؤس والمرض ، إذ خسر معظم أمواله فى مضاربات عقيمة ، وداهمته أوصاب الشيخوخة ، فقطع أيامه الأخيرة محزوناً بائساً ، وتوفى فى الثامنة والستين من عمره

ووقفنا فى أنباء فينا الأخيرة أيضاً على حادث محزن هو وفاة الكاتب النمسوى الأشهر الدكتور فكتور درزتى وزوجه البارونة كلاازا ؛ وقد وجدا منتحرين بالغاز فى منزلهما فى شارع بابنز فى ضواحى فينا ؛ ولم تتضح أسباب المأساة تماماً ، ولكن المعتقد أن الحادث يرجع إلى مرض عصبى شديد كانت تعانيه البارونة ؛ وكان الدكتور درزتى من النبلاء ، وكان أديباً وكاتباً كبيرا ، اشتهر بمقالاته الاجتماعية والنقدية ، وله مؤلفات وكتب قصصية ذائعة

شهادة لله (١)

سيدى الأستاذ الفاضل (صاحب الرسالة)

سلام عليك .

ربك العظيم يقول فى كتابه القديم :

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه »

صدق الله العظيم .

وإنى أعيذ نفسى برحمة الله من آثام القلب ، فضلاً عن تأثم القلوب .

سيدى الأستاذ :

هى شهادة لا أبتغى منك عليها جزاء ولا شكوراً

لقد كنت يا أستاذنا الزيات بليغاً دائماً ، بليغاً علم الله فوق ما نسمع ونقرأ من بلاغات سحبان وأكثم بن صيفى وعبد الحميد وإخوانهم من كرام البلغاء الأقدمين

أما فى مقالك الأخير ، فى عدد (الرسالة) الأخير ، المعنون (فى الجمال) « على هامش الموضوع » فلقد كنت أبلغ من نفسك بكثير .

أتدرى لماذا يا سيدى الزيات ؟

لأن موقف اليوم ، الذى أرسل قلمك ، بعد ارساله شجنك ، عقال اليوم ، موقف من أبلغ مواقف التاريخ . لشد ما قال لنا التاريخ والزمن فى أنفسنا قولا بليغاً

وليس للمواقف البليغة فى الأمم والشعوب إلا قلوب البلغاء ، بل إلا القلوب البليغة ، ودعنى لا أقول هنا : ألسنة البلغاء ، فطالما والله أودت ألسنة البلغاء بحقوق وكرامات وأوطان !

ولعل هذا مايثبت فى قلبك البليغ ، فوق تثبيته فى قلمك البليغ ، أنك حقاً قبل أن تحمل فى وطنك أو فى وطن العربية قلماً ، فانك تؤدى فيها (رسالة)

رسالة لا تكذب الناس ، وهى تتسمى الى الناس باسم (الرسالة) ، وكثيرا ما تسمت الأشياء على هذه الأرض بغير أسمائها ، وهى الأرض التى قام عليها يوماً مسيلمة يقول : أنا نبى ! وقام من قبله فرعون من فراعنة مصر يقول :

أنا ربكم الأعلى !

هذه شهادتى إليك . ويسرنى كما يشرفنى ، بل استحلفك بالله أن تجعلها شهادتى الى الناس ، لأنها هى أيضاً شهادتى الى الله ، التى نبها الله فيما ألتى به وجهه (الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) كما دعاه يوماً أعظم مخلوقاته ، لأنه أخلص المخلوقات : محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله

وهذه والله شهادتى ، ولو أنى لا أننى أنزل عندك عتابا قديماً ، لعلك كنت لا تصغى اليه لو أنى كتبته اليك قبل اليوم ، أو بادهتك به وجهاً لوجه ، لأننا لم نتعارف قلوباً ، بيد أنا تعارفنا وجوهاً ، مرة واحدة أو مرتين ، فى يومين فقط من الأيام

فارفع بيدك (رسالتك) يا أستاذ ، فهى من رسالات الله ، لأنها من رسالات الحق والوطن والقوة والجمال

ارفع بيدك هذه (الرسالة) من النور ، تخدم وطنك فوق ما يخدمه كثير من دعاته وأدعيائه البارزين فوق المسرح هنا وهناك

لن تفلح هذه الأمة فى نهضتها الوطنية ، حتى تفلح أولا فى نهضتها الأدبية ، أو قل نهضتها الأخلاقية ، نهضة النفوس والأرواح فى أعماقها لا على سطوحها التى يراها أو يسمع بها الناس . . . . .

ابراهيم ابراهيم على
المحامى بقليوب

(١) ننشر هذه الرسالة الكريمة على غير عادتنا ابراراً بيمين الأستاذ كاتبها ؛ وله الشكر الأوفى على حسن رأيه

الكتب

خيوط العنكبوت

تأليف الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

للأستاذ محمد سعيد العريان

الأستاذ المازنى أديب من أدبائنا المعارف ، يجرى اسمه فى ابتسام عذب على شفتى كل من يتحدث عنه حين يذكر الأدباء ، وقل من لا يتحدث عنه حين يعرض ذكر أدبائنا الذين انشئوا فى الأدب وزادبهم . وإن له فيما يكتب لطابعاً وروحاً يتميز بهما ويعرف ؛ وما الأديب إذا لم يتميز بطابعه وروحه ، ويبرز اسمه وصورته وراء كل سطر مما يكتب ؟

على أن للأستاذ المازنى غير ذلك فناً وحده ، تفرّد به ، واقتصر عليه أو كاد ؛ فما يستطيع أن يجاريه فيه أديب من أدباء العربية ؛ يرسم لك به الصورة الملموسة ، فيضيف اليها فناً من فنه ، ويخلق لك فيها الجديد الذى لم تبصره عيناك ، ولم تتناوله حواسك ؛ على أنك لا تستطيع إلى ذلك أن تنكر أنك ترى شيئاً مما يرى ويحس ، وان أعجزك أن تراه وتحسه كما رآه المازنى وأحسه ، أو كما جلاه عليك فى صورته الفنية المشرقة ؛ وان أعجب ما يروقك من فنه فيما يجلو عليك من صور ، هى هذه النواحى الضاحكة المضمرة وراء ما يبدو لك من عبوس المناظر والصور والأشكال ؛ فهو حين ينظر ، وحين يفكر ، وحين يكتب ، يستطيع أن يريك موضع الابتسامة من كل معنى كئيب ، واشراقة السرور من وراء كل ظل عابس ؛ وله من ذلك فى كل ألم تأخذه عيناه روح من السرور مضمرة مستخفية ، لا تدرى أهو يخلع عليها من فنه فتضحك من عبوس ، وتنبسط من تقطيب ؛ أم أن له عيناً أنفذ بصيرة الى ما وراء المحسوسات ، هى تكشف له عن حقيقتها وسرها ، فما هو إلا أن يجلوها عليك كما رآها ببصيرته واحساسه العميق ؟

وكما تجد للمازنى فنه الخاص به ، تجد له كذلك أسلوبه ولغته ؛ وأحسبه لا يفكر فى اللفظ والعبارة عند ما يهم أن يكتب ، أكثر مما يفكر فى المعنى والموضوع ؛ فهو هنا وهناك لا يكلف نفسه الغوص والتعمق ، واستخراج المعنى من المعنى ، وتوليد الفكرة من الفكرة ؛ بل تراه أسلوباً متساوقاً مطرداً ، وفكراً قريباً من قريب ، وموضوعاً مما يقع عليه الحس وتألفه النفس . وأحسبه أيضاً يلتمس فيما يكتب أن يرضى قراءه ويسرهم ، أكثر مما يلتمس أن يكون إنشاء يخلد به فى الأدب ، واختراعاً يزيد ثروة اللغة معنىً أو موضوعاً أو فكرة . وما حاجة المازنى إلى الخلود وهو لا يراه إلا خرافة ، اخترعها الانسان ليضل بها نفسه ويرضى ناحية من غروره وكبريائه ؟

على أنه – من حيث يريد ، أو من حيث لا يريد – قد كتب لنفسه فى تاريخ الأدب صفحة ، وأثبت صورة ، سيخلدبها ويخلد به

وأنت حين توازن بين ما يكتبه المازنى الآن ، وما كان يكتبه أو يحرره منذ بضع عشرة سنة – لا تجد فرقاً كبيرا ، إلا أن ذلك الأديب الطموح الذى كان يكتب ليقول الناس : « ما أجمل ما كتب ... ! » قد قست عليه الحياة ونالته أحداث الزمن ، حتى عاد يكتب ، لأنه مطلوب منه أن يكتب ؛ ولكنه هو هو المازنى الذى يعجب القراء به ويجتمعون اليه ، وإن لم يعنه هو اجتمعوا أم تفرقوا إلا بمقدار ما يعني صاحب الصحيفة الذى يطلب اليه أن يكتب !

والمازنى حريص على سلامة لغته ، حرصه على أن تكون أسهل على آذان القراء وأطوع لألسنتهم ؛ وهو بسبيل ذلك كثيراً ما يحاول تصحيح الكثير من لغة العامة وأساليبهم ، فيخطئ فى ذلك ويصيب ، وما على المجتهد فى أن يخطئ بأس ؛ وقد يمر القارئ العادى على مايكتب المازنى ، فيراه بعض أولئك الضُّلاَّل الذين يدعون الى العامية ويروجون لها ؛ ويمر الأديب المطلع ، فيرى لغةً إن لم تكن الى لغة القدماء فهى منها ، وان كان فيها من لغة العامة ، فهو الجديد الذى تتقبله العربية ولا يأباه البيان الصحيح ، لأنه يزيدها ثروة الى ثروة ، ويفتح الباب الى الأدب القومى فى لغته التى يتحدث بها أهله ، غير نابية ولا مستكرهة ولا أعجمية

ولكنك إذ ترى المازنى يحرص على هذه الناحية القومية فى اللغة ، قل أن تراه كذلك فى الموضوع الذى يحاوله ؛ وما أكثر ما يشطح خياله الى قصة أو حادثة ، فيصورها بأسلوبه الساحر ، على أنها مصرية وقعت فى مصر ، وجرت فى الجو المصرى ، وتحدثت بها ألسنة مصرية ، وكان حقها أن تكون مما يقع فى لندن ، أو باريس ، أو برلين ! أتكون مطالمات المازنى فى مصر هى بعض الجو المصرى الذى يراه وينقل عنه ... ؟ على أنه أدب جديد فى العربية على كل حال سواء أكان من إيحاء الجو المصرى الى فكر المازنى ، أم من إيحاء جو غريب

وبعد ، فهذا كتاب المازنى الجديد « خيوط العنكبوت » ، فمن لم يكن يعرف المازنى فليعرفه فيه ، ولعله أن يرى هناك ما رأيت وأسلفتُ وصفه . وتبدو لك فكاهة المازنى لأول صفحة من الكتاب ، حيث يهديه الى ولديه : « اعترافا بفضلهما ، وشكرا لمعونتهما . . فلو لا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين ! »

وتقرأ فاتحة الكتاب فلا تدلك أى كتاب هو ، ولكن سِرْ الى نهايتها ثم اقرأ : « وبعد ، فقد لا يكون هذا الكلام أصلح ما يكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص ، ولكن روح الفاتحة من روح الكتاب ، وهذا شفيعها عندى فعسى أن يكون شفيعها عند القراء ... ! »

ولقد قرأت المقدمة ، وقرأت الكتاب ؛ ولكنى لم أستطع أن أفهم قوله « . . . . روح المقدمة من روح الكتاب » أما المقدمة ففصل اجتماعى ما كنت أقدّر أن يكتب المازنى مثله ، لا عجزا منه ، فانه لقدير ؛ ولكنى أعرفه أكثر اعتزازاً بقوميته ، وأفخر بعصريّته ؛ فما كان ينبغى أن يتهكم بمصر ويزدى بها ، كل هذا التهكم وهذه الزراية فى فاتحة الكتاب ! وقد يكون فيما عاب على المصريين وأخذ عليهم محقّا بعض الحق ، وقد يكون بعض ما قاله أو أكثر ما قاله صحيحا بعض الصحة ، ولكن ، أما كان ينبغى أن يستر على قومه ؟ والجمود والبلادة ، والضعف — عيوب طالما رُميتْ بها مصر من أعدائها ، ومن بنيها أنفسهم ، ولكن هذا على ما قد يكون فيه من رغبة الاصلاح ، يؤثر أثره فى القراء ، ويكون أشبه بالايحاء يستقر فى الواعية الباطنة فيعمل عمله ، فلا يكون من ورائه إلا الجمود والبلادة والضعف حقا وصدقا لا تهمة بغير دليل . ويحاول الأستاذ المازنى فى ختام الفاتحة أن يعتذر وأن ينفى التهمة ؛ أفتراه قد بلغ فى اعتذاره بمقدار ما بلغ فى تجريحه ؟

وإن القارئ ليعجب لذاك يصدر عن المازنى المصرى الفخور بقوميته ، ولكن ، أرأيت الى المازنى إذ يكتب فلا يتحرّج أن يسخر من نفسه ، وأهله ، وولده ؟ فها هو ذاك يسخر أيضا من مصر ... !

أما الكتاب ، فكل شئ فيه جميل ، إلا الفاتحة : وهو قسمان : « صور من الامس » ، و « صور من اليوم » هما مجموعة صور وأقاصيص ، لا تجد لها شبيها مما كُتب فى العربية ، جمعت الى الرقة فى الوصف ، حُسْنَ الأداء وسلامة التعبير ، إلا قليلا أحسبه من أثر السرعة التى يكتب بها المازنى . وأنت ترى فيما تقرأ من هذا الكتاب صورة المازنى الطفل ، والمازنى العابث ، والمازنى الأديب الذى يسحر قراءه بسلامة الفكر وحسن الأداء ؛ فخياله منشورة فى كتابه مصوّرة ، على حين يحاول أكثر كتّابنا أن يكون ما يتصل بشخصه أبعد ما يكون عن قرائه . وقد تجد المازنى يجنح أحيانا الى المبالغة فى تصويره وفى عبارته ، وقد تجده يسترسل فى الكلام فيكتب فى القصة ما لا يطلبه موضوع القصة ؛ ولكن هذا وذاك لا يعيبانه ولا ينقصان من مقدرته القصصية وفنه البارع

وبعد ، فمن أراد أن يمتع نفسه ساعات من فراغ ، ويلذ نفسه ، فحسبه أن يقرأ « خيوط العنكبوت » ؛ ولو أن أحدا طلب الىّ أن أدله على خير ما قرأت فى هذا الأسبوع فلذنى وأمتعنى ؛ فليقرأ فيما يقرأ من الكتاب « الراعيان » ، « سيرة من السير » ، « التدخين » ، « الشيخ قفّه » ، « سياسة المرأة » ، فسيجد فيها ما وجدت من متاع ولذة ، ألذّ متاع وأمتعَ لذة .

محمد سعيد العريان